سمط النجوم العوالي

في أنباء الأوائل والتوالي

تأليف

عبد الملك بن حسين بن عبد الملك

الشافعي العاصمي المكي

المتوفى سنة ١١١١هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود — الشيخ علي محمد معوض

الجزء الأول

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2615-6
90000>
9782745126153
http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : baydoun@dm.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى رفع السموات بغير عمد، وزينها بالنجوم والكواكب، وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرًا، وبسط الأرضين ومهدها، وجعلها فيها رواسي شامخات، وجنات وأنهارًا.

والصلاة والسلام على أشرف مخلوقات الله، وأطهر عباده، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد، فإن استرجاع صورة الماضي البعيد، والأحداث السحيقة، وتمثل هذه الأحداث وتحليلها - من الأهمية بمكان بحيث لا تخفى على كل ذي عينين.

وإن أحداث التاريخ تتكرر فما أشبه الليلة بالبارحة، وإن اسلافنا كانوا من الحكمة بمكان لا بد أن نسير عليه، ونسترشد خطاه في ظل ظلمات الحاضر المتلاطم بالأهواء والأفكار المختلطه والمتخلفة في نفس الوقت.

كثيرًا ما تبدو لنا صورة الماضي جميلة، وكثيرًا ما نضع أسلافنا وتراثنا في مكانة مقدسة، وكثيرًا ما تكون هذه الصورة ملجأ وملاذًا للهاربين من أشباع الحاضر، وخوف المستقبل.

إن دراسة التاريخ ليست للتسلية والسرد القصص المكرور، وإنما هي لاستخلاص النظريات العامة، والقوانين الرئيسية التي حركت وكونت خطا البشرية، وجددت مساراتهم، وغيرت أنماط حياتهم، ووجهاتها إلى حيث تريد هذه القوانين.

وإن هذه القوانين التي وجهت البشرية بالأمس وحددت مساراتها إنما توجه خطانا اليوم وتحدد مساراتنا.

لذا فإن لنا من آثار السابقين عبرًا، وفي أحداثهم عظات وحكمًا - ما أجدرنا أن نتمثلها وتسترشد سننها القويم ولما كانت دراسة التاريخ بهذه الأهمية الكبيرة - آثرنا أن نستهل حديثنا بمقدمة عن علم التاريخ وما يتعلق به؛ تعميمًا للفائدة، وإبرازًا لدوره وأهميته.

علم التاريخ

قبل أن نتحدث عن التاريخ أعرفه من الجهة اللغوية والاصطلاحية، ونعرف الطبقات ثم موضوعه، ثم أبين كيف بدء عمل التاريخ، وأوضح السبب الداعى له

وأهميته؛ فأقول ولله الحمد والمنة:

تعريف التاريخ لغة:

قال فى « المصباح »: أرّخت الكتاب - بالتثقيل فى الأشهر، والتخفيف لغة حكاها ابن القطاع -: إذا جعلت له تاريخًا، وهو معرب، وقيل: عربى وهو بيان انتهاء وقته، ويقال: ورخت، على البدل، والتوريخ قليل الاستعمال.

اختلفوا فى لفظ التاريخ هل هو عربى أو معرب:

قال صاحب « نور المقاييس »، وهو مختصر كتاب « مقاييس اللغة » لابن فارس: تأريخ الكتاب، ليس عربيا ولا سمع من فصيح. وقال ابن فارس فى « المجمل »: التواريخ والتاريخ فما تحسبها عربية، وقال غيره: التاريخ لفظ معرب، أصله ماه روز، وسبب تعريبه أن أبا موسى كتب إلى عمر رضى الله تعالى عنهما - إنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ فجمع عمر الصحابة واستشارهم فى ذلك فقال الهرمزان: إن للعجم حِسَابًا يسمونه: ماه روز، ينسبونه إلى ما غلب عليهم من الأكاسرة، فعربوه وقالوا: مؤرخ، وجعلوا مصدره التأريخ، واستعملوه فى وجوه التصريف، ثم بين لهم الهرمزان كيفية استعماله، فقال عمر - رضى الله تعالى عنه-: ضعوا تاريخا تتعاملون عليه.

وقال جماعة: هو عربى مشتق من الأرخ بفتح الهمزة وكسرها، وهو ولد البقرة الوحشية، وقيل: إن الأرخ البقرة التى لم ينزُ عليها الثيران، والعرب تشبه بها النساء الخفرات.

وقال ابن الجواليقى: يقال: إن الأرخ: الوقت، والتأريخ: التوقيت. قال ابن برى: لم يذهب أحد إلى هذا، وإنما قال ابن درستويه: اشتقاق الأرخ من بقر الوحش واشتقاق التأريخ واحد؛ لأن القنا وقت من السن، والتأريخ وقت من الزمن.

وقال ابن برى: وقد أحسن كل الإحسان وجمع الأرخ والتأريخ.

تعريف التاريخ اصطلاحا:

وفى الاصطلاح: التعريف بالوقت الذى تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة، ووفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح، وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم فى ابتدائهم وحالهم واستقبالهم،

ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة، من ظهور ملمة، وتجديد فرض، وخليفة، ووزير، وغزوة، وملحمة، وحرب، وفتح بلد، وانتزاعه من متغلب عليه، وانتقال دولة، وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم الماضية، وأحوال القيامة ومقدماتها أو دونها: كبناء جامع، أو مدرسة، أو قنطرة، أو رصيف، أو نحوها، مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد أو خفى سماوى: كجراد وكسوف وخسوف، أو أرضى كزلزلة وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون وموتان، وغيرها من الآيات العظام والعجائب الجسام.

والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت بل عما كان فى العالم.

تعريف الطبقات

الطبقات: جمع طبقة، وذلك بتصنيف وتوزيع قوم يجمعهم قاسم مشترك على طبقات بعضها فوق بعض مع مراعاة البيئة الزمانية.

والطبقة فى اللغة: القوم المتشابهون.

وفى الاصطلاح: قوم تقاربوا فى السن والإسناد، أو فى الإسناد فقط، بأن يكون شيوخ هذا هم شيوخ الآخر، أو يقاربون شيوخه.

بدء التاريخ وسبب عمله

ونحن بصدد الكلام عن التاريخ وطبقات الرجال يحسن بنا أن نوضح متى بدأ التاريخ الإسلامى؛ فنقول - ولله الحمد والمنة -: روى الحاكم فى « الإكليل » عن ابن شهاب الزهرى - رحمه الله - قال: لما قدم النبى ﷺ المدينة أمر بالتاريخ فكتب فى ربيع الأول. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: هذا معضل.

قلت: ورواه يعقوب بن سفيان بلفظ « التاريخ من يوم قدم النبى ﷺ مهاجرًا ».

قال ابن عساكر والحافظ ابن حجر: وهذا أصوب، والمحفوظ: الآمر بالتاريخ عمر بن الخطاب.

قال الشيخ الجلال السيوطى: ويعضد الأول ما رأيته بخط ابن القماح فى مجموع له، قال ابن الصلاح: وقفت على كتاب فى الشروط لأبى طاهر محمش الزيادى ذكر فيه أن رسول الله ﷺ أرخ بالهجرة حين كتب لنصارى نجران وأمر عليا - رضى الله

عنه - أن يكتب فيه لخمس من الهجرة؛ فالمؤرخ إذن رسول الله ﷺ وعمر تبعه فى ذلك.

والحديث الأول فيه أنه أرخ يوم قدومه المدينة.

وقد يجاب عنه بأنه لا منافاة، فإن الظرف وهو قوله يوم قدم المدينة ليس متعلقًا بالفعل، وهو أمر لا مصدر، وهو التاريخ، أى: أمر أن يؤرخ بذلك اليوم.

وروى البخارى فى تاريخه الصغير عن ابن عباس قال: كان التاريخ فى السنة التى قدم فيها رسول الله ﷺ المدينة.

وروى عبد العزيز قال: أخطأ الناس العدد؛ أى لم يعدوا من مبعث النبى ﷺ ولا من متوفاه، وإنما عدوا من مقدمه المدينة.

قال مصعب الزبيرى: وكان تاريخ قريش من متوفى هاشم بن المغيرة، يعنى آخر تاريخهم.

قوله: « أخطأ الناس العدد » أى أغفلوه وتركوه ثم استدركوا، ولم يرد أن الصواب خلاف ما عملوا، ويحتمل أن يريده، وأنه كان يرى أن البداءة بالمبعث أو الوفاة أولى، وله اتجاه، لكن الراجح خلافه، وقوله: « مقدمه » أى: زمن قدومه ولم يرد شهر قدومه؛ لأن التاريخ وقع من أول السنة.

قال الحافظ - رحمه الله -: وقال عمرو بن دينار: إن أول من أرخ التاريخ يعلى بن أمية، وهو باليمن. رواه الإمام أحمد بسند صحيح، لكن فيه انقطاع بين عمرو ويعلى، والله أعلم بالصواب.

روى أبو نعيم الفضل بن دكين - بضم الدال المهملة، وفتح الكاف، وسكون التحتانية وبالنون - فى تاريخه من طريق الشعبى، أن أبا موسى رضى الله تعالى عنه كتب إلى عمر - رضى الله تعالى عنه - أنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ، فجمع عمر الناس فقال بعضهم: أرخ بالمبعث، وبعضهم: أرخ بالهجرة، فقال عمر: الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخوا بها وذلك سنة سبع عشرة، فلما اتفقوا قال بعضهم: ابدءوا برمضان، فقال بعضهم: بل المحرم، فإنه منصرف الناس من حجهم فاتفقوا عليه.

الثانى: ما رواه الإمام أحمد، والبخارى فى « الأدب » وأبو عروبة فى

« الأوائل » والحاكم من طريق ميمون بن مهران - رحمه الله تعالى - قال: رفع لعمر صك محله شعبان فقال: أى شعبان !! الماضى أو الذى نحن فيه، أو الآتى ؟ ضعوا للناس شيئًا يعرفونه من التاريخ.

وروى ابن عساكر عن سعيد بن المسيب - رحمه الله تعالى - قال: أول من كتب التاريخ عمر لسنتين ونصف من خلافته، فكتب لسنة عشر من المحرم بمشورة على.

وروى ابن أبى خيثمة عن ابن سيرين قال: قدم رجل من اليمن فقال: رأيت شيئًا يسمونه التاريخ، يكتبون من عام كذا وبشهر كذا، فقال عمر: هذا حسن فأرخوا، فلما أجمعوا على ذلك قال قوم: أرخوا للمولد، وقال قائل: للمبعث، وقال قائل: من حين خرج مهاجرًا، وقال قائل: من حين توفى، فقال عمر: أرخوا من خروجه من مكة إلى المدينة.

ثم قال: بأى شهر نبدأ ؟ فقال قوم: بـ« رجب »، وقال قوم: بـ« رمضان »، فقال عثمان: أرخو من « المحرم » فإنه شهر حرام، وهو أول السنة ومنصرف الناس من الحج، فكان ذلك سنة سبع عشرة من الهجرة.

وروى الحاكم عن سعيد بن المسيب - رحمه الله تعالى - لما جمع عمر الناس سألهم: من أى يوم نكتب التاريخ ؟ فقال على - رضى الله تعالى عنه -: من يوم هاجر النبى ﷺ وترك أرض الشرك ففعله عمر.

قال الحافظ - رحمه الله تعالى -: واستفدنا من مجموع هذه الآثار أن الذى أشار بالمحرم عمر وعثمان وعلى رضى الله تعالى عنهم.

وقد أبدى بعضهم للبداءة بالهجرة مناسبة فقال: كانت القضايا التى اتفقت له ويمكن أن يؤرخ بها أربعة: مولده، ومبعثه، وهجرته، ووفاته، فرجح عندهم جعلها من الهجرة؛ لأن المولد والمبعث لا يخلو واحد منهما من النزاع في تعيين السنة، وأما وقت الوفاة فأعرضوا عنه لما يَقَعُ بذكره من الأسف عليه ؛ فانحصر فى الهجرة، وإنما أخروه من ربيع الأول إلى المحرم؛ لأن ابتداء العزم على الهجرة كان فى المحرم إذ البيعة وقعت فى أثناء ذى الحجة وهى مقدمة الهجرة فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال « المحرم »، فناسب أن يجعل مبتدأ.

قال الحافظ ابن حجر: وهو أقوى ما وقفت عليه فى مناسبة الابتداء بالمحرم.

قال الجلال السيوطى - رحمه الله تعالى -: وقفت على نكتة فى جعل « المحرم » أول السنة؛ روى سعيد بن منصور فى « سننه » والبيهقى فى « الشعب » بإسناد حسن عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنه - قال فى قوله: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ [الفجر: ١] قال: الفجر: فجر النهار.

قال الحافظ ابن حجر فى أماليه: بهذا تحصل الجواب عن الحكمة فى تأخير التاريخ من « ربيع الأول » إلى « محرم » بعد أن اتفقوا على جعل التاريخ من الهجرة، وإن كانت فى « ربيع الأول ».

روى البخارى فى تاريخه عن عبيد بن عمير - رحمه الله تعالى - قال: « المحرم » شهر الله، وهو رأس السنة، فيه يؤرخ التاريخ، وفيه يكسى البيت، ويضرب الورق.

من التنبيهات المهمة أن الصحابة - رضى الله تعالى عنهم - أخذوا التاريخ من قول الله عز وجل: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ [التوبة: ١٠٨]؛ لأنه معلوم أنه ليس أول الأيام مطلقا، فتعين أنه أضيف إلى شىء مضمر، وهو أول الزمن الذى عز فيه الإسلام وَعَبَدَ النبى ﷺ ربَّهُ تبارك وتعالى آمنا، وابتدأ بناء المسجد، فوافق رأى الصحابة - رضى الله تعالى عنهم - ابتداء التاريخ من ذلك اليوم وفهمنا من فعلهم أن قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ أنه أول أيام التاريخ.

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى -: كذا قال، والمتبادر أن معنى قوله: ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ أى: دخل فيه النبى ﷺ وأصحابه المدينة.

وإنما يؤرخ بالأشهر الهلالية التى قد تكون ثلاثين، وقد تكون تسعًا وعشرين - كما ثبت فى الحديث - دون الشمسية (الحسبية) التي تبدأ بثلاثين وتزيد عليها.

قال الله سبحانه وتعالى فى قصة أصحاب الكهف: ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ [الكهف: ٢٥].

قال المفسرون: زيادة التسعة باعتبار الهلالية وهى ثلاثمائة فقط هلالية وإنما كان التاريخ بالهلالية للحديث الصحيح: « إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لاَ نَحْسُبُ وَلاَ نَكْتُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا » وللحديث الصحيح: « إِذَا رَأَيْتُمُوه - يَعْنِى الهِلاَلَ - فَصُومُوا، وإذَا

رَأَيتُمُوهُ فأفْطِرُوا، فَإِنْ غُمَّ عَليكُمْ فَأَكْمِلُوا العِدَّةَ ثَلاثِينَ » وآلى النبى ﷺ من نسائه شهرًا، ودخل عليهن فى التاسع والعشرين، فقيل له: لقد آليت تسعًا وعشرين، فقال: الشهر تسع وعشرون. قال الإمام البلقينى فى « التدريب »: كل شهر فى الشرع فالمراد به الهلال، إلا شهر المستحاضة وتخليق الحمل.

التصانيف فى التاريخ

وأما التصانيف فى التاريخ فكثيرة جدًّا، لا تدخل تحت الحصر، بحيث قال الحافظ العلاء مغلطاى الحنفى فى كتاب « إصلاح ابن الصلاح » له: « رأيت من ملك نحوًا من ألف تصنيف فيه ».

قال السخاوى: رأيت بخط الحافظ المؤرخ العمدة أبى عبد الله الذهبى ما نصه: « فنون التواريخ التى تدخل فى تاريخى الكبير المحيط، ولم أنهض له، ولو عملته لجاء فى ستمائة مجلد:

(١) سيرة نبينا ﷺ.

(٢) قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(٣) تاريخ الصحابة، رضى الله عنهم.

(٤) تاريخ الخلفاء من الصحابة، ومن بنى أمية، وبنى العباس، ومعهم المروانية بالأندلس والعبيدية بالمغرب ومصر.

(٥) تاريخ الملوك والدول، والأكاسرة والقياصرة، ومعهم ملوك الإسلام، كابن طولون، والإخشيد، وابن بُويه، وابن سلجوق، ونحوهم. وملوك خوارزم، والشام، وملوك التتار، ومن لقب بالملك.

(٦) تاريخ الوزراء أولهم هارون عليه السلام، وأبو بكر، وعمر، وطائفة. وبعضهم دخل فى الأنبياء، وفى الخلفاء وغير ذلك، وفى الملوك.

(٧) تاريخ الأمراء، والأكابر، ونواب الممالك، وكبار الكتاب. ومنهم خلق من الموقعين، وبعضهم أدباء، وشعراء.

(٨) تاريخ الفقهاء وأصحاب المذاهب، وأئمة الأزمنة والفرضيين، قلت: ويدخل فيه أهل الاجتهاد ممن قلد، وغيرهم.

(٩) تاريخ القراء بالسبع.
(١٠) تاريخ الحفاظ.
(١١) تاريخ مشيخة المحدثين وأئمتهم.
(١٢) تاريخ المؤرخين.
(١٣) تاريخ النحاة، والأدباء، واللغويين، والشعراء، والبلغاء، والعروضيين، والحسّاب.
(١٤) تاريخ العباد، والزهاد، والأولياء، والصوفية، والنساك.
(١٥) تاريخ القضاة، والولاة، ومعهم تاريخ الشهود، والأمناء.
(١٦) تاريخ المعلمين، والوراقين، والقصاص، والطرقية، والغرباء.
(١٧) تاريخ الوعاظ، والخطباء، وقراء الأنغام، والندماء، والمطربين.
(١٨) تاريخ الأشراف، والأجواد، والعقلاء، والأذكياء، والحكماء.
(١٩) تاريخ الأطباء، والفلاسفة، والزنادقة، والمهندسين، ونحو ذلك.
(٢٠) تاريخ المتكلمين، والجهمية، والمعتزلة، والأشعرية، والكرامية، والمجسمة.
(٢١) تاريخ أنواع الشيعة، من الغلاة والرافضة، وغير ذلك.
(٢٢) تاريخ فنون الخوارج، والنواصب، وأنواع المبتدعة، وأهل الأهواء.
(٢٣) تاريخ أهل السنة من علماء الأمة، وصوفيتها، وفقهائها، ومحدثيها.
(٢٤) تاريخ البخلاء، والطفيلية، والثقلاء، والأكلة، وذوى الحمق والخيلاء، والسفهاء.

قلت: ولم يتعرض لضدهم من الكرماء والأجواد، كأنه للاكتفاء بالأجواد فيما تقدم. وقد اجتمع لى منهم جملة.

(٢٥) تاريخ الأضراء، والزمنى، والصم، والخرس، والحدبان.
(٢٦) تاريخ المنجمين، والسحرة، والكيميائيين، والمطالبين، والمشعوذين.
(٢٧) تاريخ النسابين، والإخباريين، والأعراب.
(٢٨) تاريخ الشجعان، والفرسان، والشطار، والسعاة.
(٢٩) تاريخ التجار، وعجائب الأسفار، والبحار، وغرباء البحرية، والمجردين.

(٣٠) تاريخ أولى الصنائع العجيبة، والرشقين فى أشغالهم واقتراحهم، وتوليدهم فنون الأعمال.

(٣١) تاريخ الرهبان، وأولى الصوامع والخلوات والأحوال الفاسدة.

(٣٢) تاريخ الأئمة، والمؤذنين، والموقتين، والمعبرين، والعامة.

(٣٣) تاريخ قطاع الطريق، والغداوية، ولعاب الشطرنج والنرد والقمار، وترك الرمى بالنشاب.

(٣٤) تاريخ الملاح، والعشاق، والمتيمين، والرقاصين، وشربة الخمور، والعُررِ، وأهل الخلاعة، والقيادة، والكذب، والأبنة.

(٣٥) تاريخ أولى الدهاء والحزم والتدبير والرأى والخداع والحيل.

(٣٦) تاريخ المنديين، والمخايلين، والصانعين، والفرشيين، والمخنثين، وأهل المجون، والمزاح، والتجر، والكذب.

(٣٧) تاريخ عقلاء المجانين، والموسوسين، والمتمرين، والمدمغين، والمطعومين.

(٣٨) تاريخ السائلة، والشحاذين، والمتمنين، والحراشفة، والجمرية.

(٣٩) تاريخ قتلى القرآن، والحب، والسماع، والفرع والحال.

(٤٠) تاريخ الكهان وأولى الخوارق والكشف الذى كأنه كرامات، من الفسقة وغيرهم.

قال: فهذه أربعون تاريخًا، إن جمعت فى مصنف واحد جاء فى غاية الطول، يكون وِقْرَ بعير. وإن أفردت فقد أفرد الفضلاء كثيرًا منها، ويتكرر الرجل فى تاريخين وثلاثة فأكثر، وإذا أنت ذاكرت كل إنسان ممن هو مقدم فى فنه من ذلك، وجدت عنده عجائب ونوادر مما يتعلق بذلك، لا تكاد توجد فى تاريخ » انتهى ما قرأته بخط الذهبى.

وقوله: « وقر بعير » ينافى قوله أولا: « ستمائة مجلد »، لأن هذا العدد أكثر من وقر بعيرين. أفاده شيخنا ابن حجر. وقال السخاوى: وقرأت بخط الذهبى أيضا فى أول تاريخ الإسلام له إنه « جمعه، وتعب فيه، واستخرجه من عدة تصانيف، يعرف بها الإنسان ما مضى من التاريخ، من أول تاريخ الإسلام إلى عصرنا هذا، من وفيات

الكبار من الخلفاء، والقراء، والزهاد، والفقهاء، والمحدثين، والعلماء، والسلاطين، والوزراء، والنحاة، والشعراء، ومعرفة طبقاتهم، وأوقاتهم، وشيوخهم، وبعض أخبارهم، بأخصر عبارة، وألخص لفظ، وما تم من الفتوحات المشهورة، والملاحم المذكورة، والعجائب المسطورة، من غير تطويل، ولا إكثار، ولا استيعاب. ولكن أذكر المشهورين ومن يشبههم، وأترك المجهولين ومن يشبههم. وأشير إلى الوقائع الكبار، إذ لو استوعبت التراجم والوقائع لبلغ الكتاب مائة مجلد، بل أكثر؛ لأن فيه مائة نفس يمكننى أن أذكر أحوالهم فى خمسين مجلدًا ».

قال: « وقد طالعت على هذا التأليف من الكتب مصنفات كثيرة، ومادته من « دلائل النبوة » للبيهقى و« السيرة النبوية » لابن إسحاق و« مغازيه » لابن عائذ الكاتب و« الطبقات الكبرى » لابن سعد كاتب الواقدى و« تاريخ البخارى » والبعض من تاريخ أبي بكر أحمد بن أبي خيثمة، ومن تاريخ يعقوب الفسوي، وتاريخ محمد بن مثنى العنزى وهو صغير، وأبى حفص الفلاس، وأبى بكر بن أبى شيبة، والواقدى، والهيثم بن عدى، وخليفة بن خياط، مع « الطبقات » له، وأبى زرعة الدمشقى، و« الفتوح » لسيف بن عمر، و« النسب » للزبير بن بكار، والمسند لأحمد، و« تاريخ » المفضل بن غسان الغلابى، و« الجرح والتعديل » عن ابن معين، ولعبد الرحمن بن أبى حاتم.

وطالعت أيضًا « تهذيب الكمال » لشيخنا المزى، ومن التواريخ التى اختصرتها تاريخ أبى عبد الله الحاكم، وابن يونس، والخطيب و« دمشق » لابن عساكر، وأبى سعد بن السمعانى، مع « الأنساب » له، وتاريخ القاضى الشمس ابن خلكان، والعلامة الشهاب أبى شامة، والشيخ القطب ابن اليونينى الذى ذيل به على « مرآة الزمان » للواعظ الشمس يوسف سبط ابن الجوزى، وهما على الحوادث والسنين، مع كثير من الأصل. وكثيرًا من « تاريخ الطبرى »، وابن الأثير، وابن الفرضى، و« صلته » لابن بشكوال، و« تكملتها » لابن الآبار، و« الكامل » لابن عدى، وكتبًا كثيرة، وأجزاء عديدة.

قال السخاوى: وقد تتبعت تفصيل كثير مما أجمله، وبينت التصانيف التى فيه،

لا على وجه الحصر، لعدم التمكن من ذلك. على أن الكثير لا وجود لتاريخ فيه، ولكن يمكن أخذه من التصانيف فى ذلك العلم أو الوصف، أو نحو ذلك. وفاته أخبار الممتحنين.

١- سيرة الرسول:

فأما السيرة النبوية والمغازى فقد انتدب لجمعها، مع سائر أيامه، مما يرشد لطريقته من فاق كثرة، وراق خبرة.

كموسى بن عقبة الأسدى المدنى أحد التابعين.

ومحمد بن إسحاق المطلبى مولاهم، المدنى، أحد التابعين أيضًا، لرؤيته أنسًا رضى الله عنه.

وأبى عبد الله محمد بن عمر الأسلمى مولاهم، المدنى، القاضى، الواقدى، نسبة لجده واقد. وفى أول « الطبقات الكبرى » لكاتبه أبى عبد الله محمد بن سعد البغدادى سيرة مطولة.

وأبى بكر عبد الرزاق بن همام الحميرى مولاهم، الصنعانى.

وأبى أحمد محمد بن عابد، القُرشى، الدمشقى، الكاتب.

وأبى عثمان سعيد بن يحيى الأموى، البغدادى.

وأبى القاسم التيمى الأصبهانى.

وأولها سيرة موسى بن عقبة، أصحها، كما قاله تلميذه الإمام مالك وغيره.

وأما الثانى وهو القائل فيه الشافعى رضى الله عنه: « من أراد التبحر فى المغازى فهو عيال عليه » فروى المبتدأ والمغازى عنه سلمة بن الفضل الرازى، والمغازى كل من جرير بن حازم ويحيى بن محمد بن عباد بن هانئ، وروى كتابه الشهير جماعة، منهم أبو محمد، وأبو زيد زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائى العامرى، ويونس بن بكير الشيبانى، الكوفيان، وأولهما أوثقهما. وأخذ الإمام أبو محمد عبد الملك بن هشام كتاب ابن إسحاق، بعد أن سمعه من زياد البكائى عنه، فهذبه ونقحه بحيث صار المعول عليه. وكتب عليه أبو القاسم السهيلى « الروض الأنف » الذى اختصره الذهبى وغيره، بل لمغلطاى على كل من « السيرة » و« الروض » و« الزهر الباسم » وللحافظ ابن حجر تخريج الأحاديث المنقطعات فيها، وشرح منها قطعة

كبيرة شيخنا البدر العينى، ورواها عنه جماعة، ثم إنه قد روى ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة بن الزبير « المغازى »، كذا الزهرى عن عروة بن الزبير عن أبيه، وحجاج بن أبى منيع عن الزهرى.

وروى يونس بن يزيد مشاهد النبى ﷺ عن الزهرى والوليد بن مسلم أبو العباس القرشى الدمشقى - الذى قال أبو زرعة الرازى: إنه أعلم بأمر المغازى والسير - عن الأوزاعى. ومحمد بن عبد الأعلى « السير » عن معتمر بن سليمان عن أبيه وعبد الملك بن حبيب والمسيب بن واضح وأبو عمر ومعاوية ابن عمر والسير عن أبى إسحاق الفزارى.

والحسن بن سفيان عن أبى بكر بن أبى شيبة « المغازى » ولكل من أبى بكر ابن أبى خيثمة وأبى القاسم بن عساكر فى « تاريخهما »، وكذا ابن أبى الدم.

وأبى زكريا النووى فى « تهذيب الأسماء واللغات ».

وأبى الحجاج المزى فى « تهذيب الكمال ».

وأبى عبد الله الذهبى فى « تاريخه ».

والعماد بن كثير فى « مقدمة بدايته ».

وأبى الحسن الخزرجى فى مقدمة « تاريخ اليمن ».

والتقى الفاسى فى « تاريخ مكة » فى آخرين.

سيرة مطولة لبعضهم، كابن عساكر. أو مختصرة.

وأفردها:

أبو الشيخ بن حيان، وأبو الحسن بن فارس اللغوى، وأبو عمر بن عبد البر فى « الدرر فى اختصار المغازى والسير »، وأبو محمد بن حزم، والشرف أبو أحمد الدمياطى.

وعبد الغنى المقدسى، وكتب على كتابه القطب الحلبى « المورد الهنى » وهو نافع جدا. وأبو عبد الله الذهبى. وأبو الفتح بن سيد الناس فى « عيون الأثر » وما أحسنه، كتب عليه البرهان الحلبى تعليقا فى مجلدين سماه « نور النبراس » يعنى المصباح، وفى « نور العيون » وهو مختصر، وقال ابن القويع: إنه أوقفه على « العيون » فعلم عليها على أكثر من مائة موضع - أوهام.

وأبو الربيع الكلاعى، وضم إليها سير الثلاثة الخلفاء، وسماه « الاكتفاء ».

وللعلاء على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الخازن صاحب « مقبول المنقول » سيرة مطولة.

وكذا للظهير على بن محمد بن محمود الكازرونى ثم البغدادى، وهو سابق عليه « سيرة ».

والمحب الطبرى.

والقاضى عز الدين بن جماعة، فى تصنيفين.

والشمس البرماوى كذلك. وله على أحدهما حاشية، أفردها مضمومة لأصل التقى بن فهد، سوى سيرة له فى مجلدين.

والعلاء على بن عثمان التركمانى الحنفى.

وأبو أمامة بن النقاش.

والشمس ابن ناصر الدين، فى مؤلف حافل متقن.

والتقى المقريزى فى كتابه « الإمتاع » وفيه الكثير مما ينتقد.

ولعثمان بن عيسى بن درباس المارانى « الفوائد المنيرة فى جوامع السيرة ».

وكذا للشهاب أحمد بن إسماعيل الأبشيطى الشافعى الواعظ المتوفى فى سنة خمس وثلاثين وثمانمائة - كتاب جامع، كتب منه نحو ثلاثين سفرًا، يحتوى على « سيرة ابن إسحاق » مع ما كتبه السهيلى وغيره عليها، وما اشتملت عليه « البداية » لابن كثير، وعلى ما احتوت عليه « المغازى » للواقدى، وغير ذلك ضابطًا للألفاظ الواقعة فيها، وكان زائد اللهج بها.

ونظمها: الفتح بن مسمار، وابن العماد الأقفهسى، والبقاعى، وشرح كل نظمه، وكذا نظمها العز الديرينى، وفتح الدين بن الشهيد فى بضع عشرة ألف بيت، مع زيادات، دلت على سعة باعه فى العلم، والزين العراقى فى ألفيته التى مشى فيها على سيرة مختصرة للعلاء مغلطاى، كتب على هذه المختصرة وفوائد الشمس البرماوى والشرف أبو الفتح المراغى، وجرد ذلك فى تصنيف مفرد التقى ابن فهد.

وشرح النظم ابن رسلان، ومن قبله المحب بن الهائم، الفريد فى الذكاء. وهو مطول وقفت على مجلد منه قرضه له الناظم وغيره. وكذا شرح ابن حجر بعض

أبيات من أوله. قال السخاوي: وتممت عليه وأرجو تحريره وإبرازه.

ونظم سيرة مغلطاى أيضا فى زيادة على ألف بيت، الشمس الباعونى الدمشقى، أخو الأستاذ البرهان. وسمعت بعضه منه، وسماه « منحة اللبيب فى سيرة الحبيب ».

وأفرد مولده بالتأليف غير واحد؛ كأبى القاسم السبتى فى « الدر المنظم فى المولد المعظم » فى مجلدين، استطرد فيه لزوائد على موضوعه، ثم العراقى، وابن الجزرى، وابن ناصر الدين، وأسلافه محمد بن إسحاق المسيبى، وأسماءه أبو الخطاب بن دحية، والقرطبى وغيرهما، نظما ونثرًا، وبلغتها نحو خمسمائة، وهى قابلة للزيادة، وأكثرها أوصاف.

وختانه وأنه ولد مختونا، الكمال بن طلحة ورد عليه فى تصنيف أيضا الكمال أبو القاسم بن أبى جرادة.

ولأبى بكر الخرائطى « هواتف الجان، وعجيب ما يحكى عن الكهان، ممن بشر بالنبى ﷺ بواضح البرهان »، وكذا لابن أبى الدنيا « الهواتف »، ولابن درستويه « حديث قس بن ساعدة »، ولهشام بن عمار « المبعث »، ولأبى الخطاب بن دحية وغيره « المعراج »، وجمع دلائل النبوة كثيرون منهم: أبو زرعة الرازى، وثابت السرقسطى، وأبو القاسم الطبرانى، والتيمى، وأبو عبد الله بن منده، وأبو الشيخ بن حيان، وأبو نعيم الأصبهانى، وأبو بكر بن أبى الدنيا، وأبو أحمد بن العسال، وأبو بكر النقاش المفسر، وأبو العباس المستغفرى، وأبو الأسود عبد الرحمن بن الفيض، وأبو ذر المالكى، وأبو بكر البيهقى، وهو أحفظها، كما بينته فى جزء مفرد فى ختمه.

وكذا جمعها مع غرائب الأحاديث إبراهيم بن الهيثم البلدى، و« أعلام النبوة » أبو محمد بن قتيبة، وأبو داود صاحب « السنن »، وأبو الحسين بن فارس، وأبو الحسن الماوردى الفقيه، وقاضى الجماعة أبو المطرف المغربى، والعلاء مغلطاى.

والشمائل النبوية: أبو عيسى الترمذى، وأبو العباس المستغفرى، وأبو بكر بن طرخان البلخى.

وكتبت من شرح أولها قطعة. ورأيت قطعة من مسودة بخط الجمال بن الظاهر،

كالمستخرج عليها.

والصفة النبوية: أبو البخترى، وأبو على محمد بن هارون.

والأخلاق النبوية: إسماعيل القاضى.

وصفة نعله الشريف أبو اليمن بن عساكر، و« الهدى النبوى » ابن القيم وغيره، ولأبى نعيم والمستغفرى، والضياء المقدسى « الطب النبوى ».

والقاضى عياض « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » وقد شرحت شأنه وبيان من كتب عليه فى مؤلف لى فى ختمه.

ولأبى الربيع سليمان وابن سبع السبتى « شفاء الصدور » فى مجلدات. واختصره بعض الأئمة وفيه مناكير كثيرة ولأبى الفرج بن الجوزى « الوفا بالتعريف بالمصطفى ». ولابن المنير « الاقتفاء ».

ولأبى سعد النيسابورى « شرف المصطفى » فى مجلدات.

ولجعفر الفريابى « المعجزات » و« تكرير الطعام والشراب ». وكذا لغيره « المعجزات ».

ولجماعة: كالماوردى، وابن سبع، والجلال البلقينى: الخصائص.

ولأبى أحمد العسال، وأبى الشيخ ابن حيان: « خطبه ﷺ ».

وأفرد بعضهم خطبة الوداع، وهى فيما قال ابن بشكوال آخر خطبه.

بل لبعضهم كلماته المفردة.

وللطبرانى، وأبى عبد الله بن منده: « نسب النبى »

وكذا لعمارة بن زيد « مكاتباته ﷺ للأشراف والملوك ».

ولغيرهم « الوفاة النبوية ».

وللبيهقى « حياة الأنبياء فى قبورهم ».

ولآخرين « فضل الصلاة على النبى ﷺ »، كإسماعيل القاضى، وأبى بكر بن أبى عاصم.

و« أزواجه » ممن جمعهن الدمياطى.

و« مواليه » و« كتّابه » ممن جمعهم عبد الله بن على بن أحمد بن حديدة وسماه « المصباح المضى فى كتّاب النبى ».

إلى غيرها مما لو حصل التصدى لجمعه كله فى كتاب لكان فى عشرين مجلدا فأكثر.

٢- قصص الأنبياء:

وأما قصص الأنبياء ففى « المبتدأ » لمحمد بن إسحاق بن يسار المطلبى صاحب « السيرة النبوية »، ولأبى حذيفة إسحاق بن بشر البخارى. وأفردها وثيمة بن موسى بن الفرات فى مجلدين.

وكذا أفردها أبو إسحاق الثعالبى، وآخرون؛ كالكسائى أبى الحسن محمد ابن عبد الله.

بل وفى جملة تاريخى ابن جرير الطبرى، وابن عساكر، و« البداية » لابن كثير، والجمال أبى الحسن على بن أبى منصور المالكى صاحب « بدائع البداية ».

٣- تاريخ الصحابة:

وأما الصحابة ففيه تواليف جمة، كعلى بن المدينى فى كتابه « معرفة من نزل من الصحابة سائر البلدان » وهو فى خمسة أجزاء، فيما قاله الخطيب.

وكالبخارى، وقال ابن حجر: « إنه أول من صنف فيه فيما أعلم ».

وكالترمذى، ومطين وأبى بكر بن أبى داود، وعبدان، وأبى على بن السكن فى « الحروف »، وأبى حفص بن شاهين، وأبى منصور الباوردى، وأبى حاتم ابن حبان، وأبى العباس الدغولى، وأبى نعيم، وأبى عبد الله بن منده. والذيل عليه لأبى موسى المدينى.

وكأبى عمر بن عبد البر فى « الاستيعاب »، والذيل عليه لجماعة كأبى إسحاق ابن الأمين وأبى بكر بن فتحون، وهما متعاصران، وثانيهما أحسنهما، واختصر محمد بن يعقوب بن محمد بن أحمد الخليلى « الاستيعاب »، وسماه « إعلام الإصابة بأعلام الصحابة » فى آخرين يعسر حصرهم، كأبى الحسن محمد بن صالح الطبرى، وأبوى القاسم البغوى والعثمانى، وأبى الحسين بن قانع فى « معاجمهم »، وكذا أبو القاسم الطبرانى فى « معجمه الكبير » خاصة.

ثم العز أبو الحسن بن الأثير أخو صاحب « النهاية » فى كتابه « أسد الغابة » جمع فيه بين عدة من الكتب السابقة، كابن منده وأبى نعيم، وابن عبد البر، وذيل أبى موسى وعول عليه من جاء بعده، حتى أن كلا من النووى والكاشغرى اختصره،

واقتصر الذهبى على تجريده، وزاد عليه العراقى عدة أسماء.

وكذا لأبى العباس جعفر بن محمد بن المعتز المستغفرى مؤلف فى « الصحابة ».

ولأبى أحمد العسكرى فيه كتاب رتبه على القبائل.

ولأبى القاسم عبد الصمد بن سعيد الحمصى: من نزل منهم حمص خاصة.

ولمحمد بن الربيع الجيزى من نزل منهم مصر.

وللمحب الطبرى « الرياض النضرة فى مناقب العشرة ».

ولأبى محمد بن الجارود « الآحاد » منهم.

ولأبى زكريا بن منده « أردافه » منهم، وكذا من عاش منهم مائة وعشرين.

ولأبى عبيدة معمر بن المثنى، وزهير بن العلاء العبسي وغيرهما - أزواجه، وسمى المحب الطبرى كتابه فيهن « السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين ».

ولغيرهم « مواليه » وكذا « كتابه ».

وللخطيب « من روى منهم عن التابعين ».

ولأبى الفتح الأزدى « من لم يرو عنه منهم سوى واحد ».

وللحافظ عبد الغنى بن عبد الواحد المقدسى « الإصابة لأوهام حصلت فى معرفة الصحابة لأبى نعيم » فى جزء كبير.

ولخليفة بن خياط، ومحمد بن سعد، ويعقوب بن سفيان، وأبى بكر بن أبى خيثمة وغيرهم. فى كتب لم يخصها بهم بل يضم من بعدهم إليهم.

وكتاب الحافظ ابن حجر المسمى بـ« الإصابة » جامع لما تفرق منها مع تحقيق ولكنه لم يكمل.

٤- تواريخ الخلفاء:

وأما تاريخ الخلفاء، فهم من الصحابة ستة سوى ابن الزبير، ومن بنى أمية إلى مروان أربعة عشر، سوى عثمان، ومن بنى العباس إلى وقتنا هذا بضع وخمسون. ومن المروانيين بالأندلس جماعة.

ومن العبيديين والفاطميين بمصر أحد عشر، سوى ثلاثة بالمغرب، أولهم أبو عبد الله محمد بن الحسين المهدى، بويع له فى سنة ثمان وتسعين ومائتين وكان

خروجه من القيروان، وكان ظهوره إذ ذاك فى خلافة المقتدر بالله العباسى، وهو ببغداد. فأقام بالمغرب دولته، ثم القائم بالله بعده، ثم المنصور ابنه. وأقام باقيهم بمصر فأولهم بها المعز لدين الله أبو تميم المعد ابن المنصور إسماعيل بن محمد المهدوى، بويع له بالخلافة بعد أبيه المنصور بالمهدية سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، ثم خرج إلى مصر فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ٩٦٩م واستولى عليها، وهو الذى بنى القاهرة، وأضيفت إليه، فيقال لها: القاهرة المعزية.

وكان مولده سنة تسع عشرة وثلاثمائة (٩٣١م) وعاش خمسًا وأربعين عاما وتسعة أشهر، ومات على فراشه فى ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة (٩٧٥م)، ودفن بقرافة مصر.

وآخر الفاطميين العاضد لدين الله، مات على فراشه سنة سبع وستين وخمسمائة (١١٧١م) ودفن بالقصر، المكان المعروف بدار الضرب من القاهرة قال السخاوى: كما أشرت لذلك فى كراسة لسنا بصدد تحقيقه هنا.

ولأبى بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابى، وأبى بكر بن أبى الدنيا فى آخرين؛ كأبى بكر محمد بن زكريا الرازى صاحب « المنصورى » وغيره « سير الخلفاء » ومنهم من المتأخرين ناصر بن دقماق.

والتقى المقريزى فى « اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء » وتبعهما بعض المنتدبين للتاريخ.

ولأبى الحسن على بن محمد بن أبى السرور عبد العزيز السروجى « بلغة الظرفاء فى تاريخ الخلفاء ».

ولبيبرس الدوادار « اللطائف فى أخبار الخلائف » فى مجلدات.

ولأبى الفضل أحمد بن أبى طاهر المروزى الكاتب « أخبار الخلفاء ».

وللصولى « الأوراق فى أخبار خلفاء بنى العباس وأشعارهم ». وأفرد غير واحد من العباسيين. قال السخاوي وكنت ممن أشرت إليهم فيما كتبته من مناقب العباس والمأمون منهم وكذا أبو العباس المعتضد فى تصنيفين.

ونظمهم فى أرجوزة أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج، ثم الذهبى فى أبيات.

وكذا نظم الشمس محمد بن أحمد الباعونى الدمشقى « تحفة الظرفاء فى تواريخ الملوك والخلفاء » وقف فيها عند الأشرف برسباى قال فى أولها:

وبعد فالتاريخ علم، سامية شرفه، عالية بين الأنام غرفه، وفيه ما فيه من المنافع، حتى لقد قال الإمام الشافعى فى خبر قد صح عنه نقله: من حفظ التاريخ زاد عقله، وهو كلام ظاهر لا شك فى صحته، وسره غير خفى.

وذيل عليه ابن أخيه البهاء محمد ابن القاضى الجمال يوسف، وأطال فى مآثر سلطان وقتنا وافتتح لها بقوله:

وبعد فالتاريخ والأخبار علم له فى الملة اعتبار
وقد كفى فيه من البرهان ما جاءنا من قصص القرآن

ولابن أبى البقاء أرجوزة فى الخلفاء، فى مجلد.

ولأحمد بن يعقوب المصرى وعبد الله بن الحسين بن سعد الكاتب أخبار العباسيين وغيرهم.

وكذا لمحمد بن صالح بن مهران بن النطاح الأخبارى النسابة « أخبار الدولة العباسية » وغيرها؛ وقيل: إنه أول من صنف فى أخبار الدولة. ولبعضهم تاريخ الخلفاء وأخبار الدولتين بنى أمية وبنى العباس.

ولعلى بن مجاهد، وخالد بن هشام الأموى « أخبار الأمويين » وغيرهم.

وأفرد سيرة عمر بن عبد العزيز غير واحد.

وجمع الجمال محمد بن على العمرانى « الأنباء فى تاريخ الخلفاء » وذيل عليه إلى نهاية المستعصم بالله ظهير الدين الكازرونى، وقد كتب ابن الكازرونى سديد الدين يوسف ظهير الدين على - ذيلا عليه.

وبعضهم خلفاء الفاطميين. وجمع مناقب الخلفاء. وكذا تاريخ نساء الخلفاء، وسيرة الخليفة الناصر أبى طالب على بن أنجب البغدادى الخازن. وللعماد الكاتب « نصرة الفترة وعصرة الفطرة فى أخبار بنى سلجوق ودولتهم ».

وكذا لأبى الحسن على بن أبى المنصور الأزدى المالكى « أخبار الملوك السلجوقية ».

و« تاريخ الدولة اللمتونية » أبو بكر يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى

الغرناطى، أبو إسحاق بن هلال الصابى.

وشيئًا من دولة بنى بويه الديلم التى انتهت فى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة وشرح المقريزى أخبار الدولة الفاطمية.. ودولة السلجوقية وانتهت فى سنة تسعين وخمسمائة.

ولعبد الله بن المعتز « أشعار الخلفاء والملوك ».

٥- تاريخ ملوك الإسلام:

وأما الملوك، فجمع تاريخ الملوك والدول محمد بن عبد الملك الهمدانى.

وللجمال أبى الحسن على بن أبى المنصور الأزدى « الدول المنقطعة » مفيد جدًّا فى بابه سوى مصنفيه « بدائع البداءة » « وأساس البلاغة » بل له « أخبار الملوك السلجوقية » كما تقدم قريبًا « وأخبار الشجعان » كما سيأتى.

ولابن هشام « التيجان فى أخبار ملوك الزمان » وذيل عليه أيضًا. ولمحمد بن الحارث التغلبى « أخلاق الملوك » ألفه للفتح بن خاقان وله غيره.

« وأخبار الدول الإسلامية » لظافر بن حسن الأزدى.

وللغرناطى « الأخبار والأعلام فى دول الإسلام » فى رباط الموفق.

و« أخبار الدولة البويهية » لإبراهيم بن هلال الصابئ الكافر، عمله لعضد الدولة.

و« سيرة ابن طولون » وولده خمارويه، أبو محمد بن زولاق المصرى، فى تأليفين.

وسيرة الإخشيد محمد بن طغج، والصلاح يوسف بن أيوب، غير واحد.

والظاهر بيبرس العز بن شداد، وكاتبه المحيوى بن عبد الظاهر بل لأبى شامة « الروضتين فى أخبار الدولتين ». والظاهر برقوق بن دقماق.

والمؤيد شيخنا العينى وغيره، والظاهر ططر، والأشرف برسباى، والظاهرى جقمق غير واحد ولبعضهم مناقب السلاطين وخصالهم.

ولمحمد بن الهيثم بن شبابه « كتاب الدولة ».

٦- تواريخ الوزراء :

وأما الوزراء، فلأبى بكر الصولى، وفيه غرائب لم تقع لغيره، وأشياء تفرَّدَ بها؛

لأنه شاهدها، ثم ذيل عليه محمد بن عبد الملك الهمدانى.

ولأبى الحسن على بن الحسن ابن الماشطة أيضا « أخبار الوزراء » انتهى فيه إلى آخر أيام الراضى.

ولأبى الحسن على بن الحسن بن الفتَنْح الكاتب، عرف بابن المطوق.

وأبى الحسين هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابى.

وآخرين، منهم إبراهيم بن موسى الواسطى، عارض فيه محمد بن داود بن الجراح منهم بل لابن المطوق أخبار عدة من وزراء المقتدر.

وكذا عمل أبو طالب بن أنجب الخازن « أخبار الوزراء فى دول الأئمة الخلفاء » وهو عند الزينى بن ظهيرة وقال فى أوله « إن الخلفاء العباسيين أول من استوزر الوزراء؛ لأن بنى أمية كانوا يفوضون أمر الأموال وجباياتها وتقسيطها إلى كتاب البلاد من قبل أمرائهم فى النواحى، وكانت دواوين الشام بالرومية، ودواوين مصر بالقبطية، ودواوين العراق بالفارسية، وكانوا نصارى ومجوسًا لا غير. فنقل سليمان بن سعد والقضاة دواوين الشام إلى العربية على عهد عبد الملك بن مروان، وكان بنو أمية لا يستوزرون، بل يتخذون أديبًا من وجوه العرب، ممن يرجع إليه فى الرأى والتدبير » انتهى.

ولأبى القاسم على بن منجب بن الصيرفى، الوزراء بمصر خاصة.

ولبعض المصريين سيرة وزير المستنصر أبى الحسن على بن عبد الرحمن اليازورى.

٧- تاريخ الكتاب:

وأما الكُتَّاب فلابن الأبار « الكُتَّاب »

٨- تاريخ الأمراء:

وأما الأمراء فلأبى عمر الكندى، أمراء مصر خاصة ولبعض من أخذت عنه أخبار الطاغية تيمور.

وللعماد ابن كثير « سيرة منكلى بغا ».

٩- تاريخ الفقهاء:

وأما الفقهاء فصنف فيهم مطلقًا: الشيخ أبو إسحاق الشيرازى، وهو مختصر جدًا.

وكذا للقاضى أبى محمد عبد الوهاب بن محمد الشيرازى « تاريخ الفقهاء ». وللباجى، وآخرين.

ولمحمد بن عبد الملك الهمدانى الشافعى « طبقات الفقهاء ». ومقيدًا بالشافعية خلق: أولهم أبو حفص عمر بن على المطوعى الأديب سماه « المذهب فى ذكر شيوخ المذهب ».

ثم عمل القاضى أبو الطيب مختصرًا فى مولد الشافعى، عد فى آخره جماعة من الأصحاب.

ثم أبو عاصم العبادى، عمل الطبقات فى مؤلف مختصر جدًا، كراريس - مطبوع ومتداول - ثم أبو محمد عبد الله بن يوسف الجرجانى الحافظ.

ثم المحدث أبو الحسن بن أبى القاسم البيهقى، عرف بفندق، وله « وسائل الألمعى فى فضائل الشافعى ».

ثم أبو النجيب السهروردى، له مجموع فى ذلك.

ثم عمل أبو عمرو بن الصلاح كتابًا، ومات قبل إتمامه، فأخذه النووى فاختصره وزاد بعض الأسماء ومات قبل تبييضه أيضا، فبيضه المزى.

ثم ألف العماد بن باطيش كتابا فى ذلك.

ثم العماد بن كثير، فى مجلد ضخم، وذيل عليه العفيف المطرى ولدينا من الأصل نسختان. وعمل الجمال الإسنوى كتابا مستقلا، وذكر فى أول المهمات جملة منهم. ولخاله من قبله سليمان بن جعفر الإسنوى « طبقات الشافعية » مات عنه مسودة.

وللتاج بن السبكى فى ذلك ثلاثة تصانيف: كبير وصغير ومتوسط - والكبير مطبوع ومتداول - والسراج بن الملقن فى كتاب مستقل. بل أفرد من طبقات السبكى ذيلا على الإسنوى.

وأفردها التقى ابن قاضى شهبة - مطبوع ومتداول - وبعض الشاميين. وألحق ابن حجر بهوامش نسخته من الوسطى لابن السبكى زوائد أفردها فى مجلد. وأخذها القطب الخيضرى مضمومة للأصل مع زوائد أفردها بالتأليف.

وجمع طبقات الحنفية المحيوى عبد القادر بن محمد بن محمد بن نصر الله

القرشى الحنفى وسماه « الجواهر المضية فى طبقات الحنفية » سوى الوفيات التى له. واختصر الطبقات المجد اللغوى صاحب « القاموس » وجمعها قبل القرشى المحدث ابن المهندس، وبعده ابن دقماق المؤرخ، ثم البدر العينى، فى آخرين. بل للقرشى « تهذيب الأسماء الواقعة فى الهداية والخلاصة » وأظنه حاكى به النووى رحمه الله تعالى.

وبالمالكية القاضى عياض فى « المدارك » وهو حافل، رتبه على الطبقات، وقال إنه أفرد الرواة عن مالك اقتداء بخلق سماهم، بحيث اشتمل كتابه على أزيد من ألف وثلاثمائة، وأنه فن لم يتقدم فيه تأليف جامع، ولا اختص به تصنيف رائع، يوصل الطالب إلى الغرض، ويقف بالراغب على البغية فيما له عرض، مع شدة حاجة المجتهد والمقلد إليه، وضرورة الفقيه والمتفنن إلى ما انطوى عليه، إلا ما جمع عبد الله بن محمد بن أبى دليم من ذلك ومحمد بن حارث القَرَوى مع تقدم زمانهما وما اقتنصه الشيخ الفيروزآبادى فى موضع ذكرهم فى مختصره، وكلها ما شفت غليلا، ولا تضمنت من الكتب إلا قليلا. على أن ابن أبى دليم اتسع اتساعًا حسنًا فيمن يمكنه من المغاربة من اتباع رواة مالك من المصريين، والأندلسيين، وطائفة من القرويين. واقتصر على ذكر تطبيقهم وأسمائهم، دون شىء من أخبارهم وبيان أحوالهم. ولم يجر لأحد من الحجازيين والمشرقيين ذكر، على جلالة مكانهم، وكثرة أعلامهم، وأن الاعتناء بذلك - كما قال أبو إسحاق البجيرمى - أولى الأشياء بالضبط، لأن أسماء الناس لا مدخل للقياس فيها، وليس قبلها ولا بعدها شىء يدل عليه.

وذكر القاضى عياض فصلا فى نحو هذا، وذكر كثيرًا من الكتب التى طالعها، ومنها كتاب الزبير بن بكار القاضى، وأبى بكر بن حيان، والقاضى وكيع فى القضاة، وكتاب الطبرى، والصولى، وأبى كامل، وكتب أبى عمر الكندى، وابن يونس، وتاريخ أبى عمر الصدفى القرطبى، وكتب أبى عبد الله بن حارث فى القرويين والأندلسيين، ومن كتب أبى العرب التميمى، وأبى إسحاق الرقيق الكاتب، وأبى بكر بن أبى عبد الله المالكى فى القرويين، ومن تواريخ الأندلسيين، ككتاب أبى عبد الملك بن عبد البر و« الاحتفال » لأبى عمر بن عفيف.

« والانتخاب » لأبى القاسم بن مفرح، وكتاب القاضى أبى الوليد بن الفرضى، وتواريخ أبى مروان بن حيان، والرازى، وكتاب أحمد بن عبد الرحمن بن مظاهر فى الطليطليين، وسود جملة.

وقد عول على المدارك كل من بعده. واختصره جماعة منهم تلميذه أبو عبد الله ابن حماد السبتى. ورتبها على الحروف لسهولة الكشف ابن فهد فى نحو كراسين، على قسمين، أحدهما أصحاب مالك، وثانيهما من عداه.

وللقاضى البرهان أبى إسحاق إبراهيم بن على بن محمد بن فرحون « الطراز المذهب » اقتصر فيه على جمع من أعيانهم نحو ستمائة، رتبهم على حروف المعجم.

وعملت لهم كتابًا حافلا فى المسودة، بعد أن رتبت كتاب ابن فرحون ترتيبًا معتبرًا، وجردت من المدارك ما لم يذكر ابن فرحون.

ولأبى محمد عبد الله بن سهل القضاعى جزء فيه جماعة من مشهورى مذهب مالك.

والحنابلة أبو الحسين محمد بن أبى يعلى محمد بن الحسين بن الفراء القاضى ابن القاضى، وأبو على بن البناء، والحافظ أبو الفرج بن الجوزى.

وعمل الحافظ الزين ابن رجب ذيلا على ابن الفراء، وهو كالأصل على الطبقات، وقد رتبهما على الحروف ابن فهد فى تصنيفين.

واعتنى بجمعهم شيخ المذهب العز الكنانى، فجمع للحنابلة كتابًا حافلا لم يكمله تهذيبا وتحريرا.

١٠- تاريخ القراء:

وأما القراء: فلأبى عمرو الدانى، وأبى بكر أحمد بن الفضل بن محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر الباطرقانى.

والذهبى، وهو حافل. وذيل عليه التاج بن مكتوم فى جزء اشتمل على عشرين نفسًا. وأخذ ابن الجزرى كتاب الذهبى وضم إليه زيادات كثيرة فى التراجم وتراجم مستقلة. وكتب عليه ذيلا حافلا. ورتب الذهبى على المعجم، العزى بن فهد، بقية بيتهم، وجمال الحرم.

١١- تاريخ الحفاظ:

وأما الحفاظ: فلابن الجوزى، وأبى الوليد ابن الدباغ.

وكذا لابن دقيق العيد مقتصرًا على الموصوفين فى الأسانيد بذلك.

وعمل الذهبى كتابًا حافلا بالنسبة لمن تقدمه، رتبه على الطبقات. والتقط منه الحافظ ابن حجر من ليس فى « تهذيب الكمال » وذيل على الذهبى الحافظ شمس الدين الحسينى. ثم على الحسينى شيخنا التقى بن فهد المكى. ورتب ذلك مع الأصل على المعجم تجديدا ولده النجم عمر. وللحافظ ابن ناصر الدين فى ذلك منظومة سماها « بديعة البيان فى وفيات الأعيان » وشرحها فى مجلد سماه « التبيان لبديعة البيان » وجملة من زاده على الذهبى ستة وعشرون نفسًا. وذيل عليه ابن حجر بكراسة فيها ثمانية وعشرون نفسًا.

١٢- تاريخ المحدثين:

وأما المحدثون، فلأبى الوليد يوسف بن عبد الله بن الدباغ « طبقات المحدثين » وللذهبى المعجم المختص بهم.

١٣- تاريخ المؤرخين:

وأما المؤرخون فستأتى الإشارة لكثير منهم.

١٤- تاريخ النحاة:

وأما النحاة فلأبى عبد الله محمد بن الحسين بن عمر اليمانى.

وكذا لأبى الحسن على بن يوسف بن إبراهيم القفطى واختصره الذهبى.

وأظن للسيرافى فيهم كتابًا.

ولأبى بكر محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج الزبيدى « طبقات النحاة ».

ولأبى المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر بن محمد المغربى النحوى القاضى « أخبار النحاة من البصريين والكوفيين ».

ولأبى عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزبانى « المقتبس فى أخبار النحاة ».

ولأبى المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود بن أحمد الدمشقى « نور القبس » انتخبه من « القبس » المنتخب من « المقتبس ».

وللتاج بن مكتوم الحنفى « الجمع المثناة فى أخبار اللغويين والنحاة » وهو فى عشرة مجلدات.

١٥- تاريخ الأدباء:

وأما الأدباء فلياقوت الحموى وهو مطبوع ومتداول.

١٦- تاريخ اللغويين:

وأما اللغويون سوى من تقدم، فللمجد اللغوى صاحب « القاموس » جزء لطيف سماه « البلغة فى أئمة اللغة » و« بغية الوعاة » للسيوطى مطبوع ومتداول.

١٧- تاريخ الشعراء:

وأما الشعراء فلأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة مطبوع وأبى بكر محمد بن خلف بن المرزبان.

وللثعالبى « يتيمة الدهر » مطبوع ذكر فيه خلقًا كثيرًا منهم. وذيل عليه أبو الحسن على بن الحسن بن على الباخرزى فى « دمية القصر » وأبو الحسن على ابن زيد البيهقى فى كتابه « وشاح الدمية » أو « العمدة فى كتاب الخريدة ».

وكذا للمبارك بن أبى بكر بن حمدان بن الشعار الموصلى « عقود الجمان فى شعراء الزمان ».

ولأبى المعالى سعد بن على الحضيرى الكتبى « زينة الدهر فى ذكر شعراء العصر ».

وللعماد محمد بن حامد الأصبهانى الكاتب « خريدة القصر فى جريدة شعراء العصر ».

ولأبى عبد الله محمد بن داود بن الجراح أخبار الشعراء المحدثين سماه « الورقة ».

وكذا لعبد الله بن المعتز « طبقات الشعراء المحدثين ».

وللمرزبان « المعجم الصغير للشعراء ».

ولعبد السلام بن يوسف الدمشقى « أنموذج الأعيان والشعراء ممن أدرك بالسماع أو بالعيان ».

ولأبى عبد الله محمد بن سلام بن عبد الله الجمحى مولاهم البصرى الأخبارى، وأبى سعد محمد بن حسين بن على بن عبد الرحمن الوزير « طبقات الشعراء ».

ولأبى طالب على بن أنجب البغدادى الخازن، شعراء زمانه.

وللكمال عبد الرزاق بن الفوطى « الدرر الناصعة فى شعراء المائة السابعة ».

وللسان الدين بن الخطيب « التاج المحلى فى أدباء المائة الثامنة » و« الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر » وهما يشتملان على تراجم الأدباء بالمغرب.

وللعز أبى عمر بن جماعة « نزهة الألباء فى معرفة الأدباء » اقتصر فيه على ترجمة من اتصلت له رواية شعره بالسماع أو الإجازة، فى مجلدات. واختصره فى مجلد.

وللبدر البشتكى فى الشعراء « المطالع البدرية » وهو حافل رتبه على حروف المعجم قال السخاوى: ووقفت على قطعة منه. ولأبى الفرج صاحب الأغانى « أخبار الإماء الشواعر ».

١٨- تاريخ العباد والصوفية:

وأما العباد والصوفية فلأبى عبد الرحمن السلمى، وأبى سعيد محمد بن على ابن عمرو النقاش، وأبى العباس أحمد بن النسوى، وعبد الواحد بن سياه الشيرازى، وأبى سعيد بن الأعرابى، والأستاذ أبى القاسم القشيرى فى كتابه « الرسالة » يشتمل على جل أعيان الصوفية إلى زمانه.

وجمع عبد الغفار القوصى كتابًا فى مجلدين ضاهاه به فى سرد من اجتمع به منهم، سماه « الوحيد فى سلوك أهل التوحيد ».

وكذا لابن أبى المنصور رسالة فى ذلك.

وكذا لأبى نعيم « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » كتاب حافل وهو عمدة كل من جاء بعده. والتقط ابن الجوزى منه ما أودعه، مع زيادات، فى كتابه « صفوة الصفوة » فى أربعة مجلدات وله « أخبار الأخيار » و« أخبار النساء » كل منهما فى مجلد.

وللشريف محمد بن الحسن بن عبد الله الحسنى الدمشقى « مجمع الأحباب » فى ثلاثة مجلدات رتبه ترتيبًا حسنًا.

ولابن الملقن كتاب « الصوفية » فى مجيليد؛ قال: إنه جمع فيه جملة من طبقات العلماء الأعيان وأوتاد الأقطاب فى كل قطر وأوان، ليهتدى بمآثرهم، ويقتفى بآثارهم، رجاء أن يحشر فى سلكهم.

وكذا للشرجى اليمنى « طبقات الصوفية ».

ولأبى منصور معمر بن أحمد بن زياد العارف « طبقات النساك ».

واعتنى صاحبنا الثقة الورع البرهان القادرى بكتاب مخصوص للصوفية الموصوفين بالزهد، وتعب فيه، ولكنه لم يبيضه.

ولأبى بكر عبد الله بن محمد المالكى عباد أهل إفريقية سماه « رياض النفوس ».

وللناصح أبى محمد عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب بن الحنبلى « الاستسعاد بمن لقيه من صالحى العباد فى البلاد ».

ولابن الأثير « المختار فى مناقب الأخيار ».

ولأبى الحسين بن جهضم « بهجة الأسرار ولوامع الأنوار فى حكايات الصالحين العلماء الأخيار والصوفية الحكماء الأبرار ».

ولسعيد بن أسد الأموى « فضائل التابعين وأخلاق الصالحين ».

و« مرشد الزوار إلى قبور الأبرار » للموفق عبد الرحمن بن مكى بن عثمان الشارعى.

و« محجة النور فى زيارة القبور » لأبى عبد الله محمد بن حامد المتوج المارينى.

١٩- تاريخ القضاة:

وأما القضاة فلأبى عبيد الله محمد بن الربيع الجيزى « قضاة مصر »، وكذا لابن ميسر، وأبى عمر الكندى، ولأبى محمد بن زولاق، وهو ذيل على الذى قبله.

وجمع القضاة:

إسماعيل بن على بن إسماعيل بن موسى الحسينى، وسليمان بن على بن عبد السميع، وعبد الغنى بن سعيد الحافظ.

ولأبى العباس أحمد بن بختيار بن على بن المانداى الواسطى القاضى كتاب فى أخبار القضاة والشهود وما أدرى أهو كتابه المسمى « بالحكام » أو غيره.

ولأبى الحسن الموسوى الرضى، والجمال عبد الله البشبشى فى القضاة فقط. وعلى ثانيهما اعتمد ابن حجر فى « رفع الإصر عن قضاة مصر » وذكر القاضى عياض فى خطبة كتابه « المدارك » « تاريخ القضاة » للقاضى أبى بكر ابن حيان وكيع.

ونظم الشمس بن دانيال الموصلى الحكيم فى قضاة مصر أرجوزة سماها « عقود النظام فيمن ولى مصر من الحكام » ثم تمم عليه القاضى عز الدين الكنانى الحنبلى، ثم بعض أصحابنا.

وكذا نظم الشهاب بن اللبودى الدمشقى أرجوزة فى قضاة دمشق وشرحها.

٢٠- تاريخ المغنين:

وأما المغنون فلأبى الفرج على بن الحسين الأصبهانى الكاتب، وكذا له « القيان » فى مجلدين و« أخبار المغنين المماليك » و« الأغانى » وهو حافل متسع فى بابه. واختصره التاج عثمان بن عيسى أبو الفتح، والجمال أبو الفضل محمد ابن مكرم، كما فعل فى غيره من التواريخ الكبار.

وبين أبو الفرج بطلان نسبة الكتاب المنسوب لإسحاق بن إبراهيم الموصلى فى ذلك، وأنه من جمع سِنْدى الوراق لإسحاق.

ولابن الجوزى « الظرفاء » فى مجلد.

٢١- تاريخ الأشراف:

وأما الأشراف فللحسن بن عتيق بن الحسن فى كتاب سماه « الإشراف على مناقب الأشراف » وفى فضائلهم تصانيف. وللسخاوى « ارتقاء الغرف بحب أقرباء الرسول وذوى الشرف ».

٢٢- تاريخ الكرماء:

وأما الكرماء فلعثمان بن عيسى « أخبار الأجواد » وكذا لمحمد بن زكريا الغلابى « الأجواد » ولبعضهم « أخبار البرامكة » فى مجلدين.

٢٣- تاريخ الأذكياء:

وأما الأذكياء فلابن الجوزى، وكذلك له « أخبار المغفلين ».

٢٤- تاريخ العقلاء:

وأما العقلاء فللعباس بن محمد بن عبد الرحمن بن عثمان الأنصارى « عقلاء المجانين ».

٢٥- تاريخ الأطباء:

وأما الأطباء فلابن أبى أصيبعة وهو كتاب حافل، رتبه على المعجم النجم ابن فهد.

٢٦- تاريخ الأشاعرة:

وأما الأشاعرة فلأبى القاسم بن عساكر فى « تبيين كذب المفترى على أبى الحسن

الأشعرى » وأخذه الكمال إمام الكاملية وضم إليه زيادات. وقبله العفيف اليافعى فى كتابه « المرهم ».

٢٧- تاريخ المبتدعة:

وأما المبتدعة فللأهدل « اللمعة المقنعة فى معرفة فرق المبتدعة » فى نحو كراسين.

وللفخر أبى محمد عثمان بن عبد الله بن الحسين العراقى « الفرق المفترقة بين أهل الزيغ والزندقة ».

وللأستاذ أبى منصور عبد القاهر بن طاهر التميمى البغدادى « الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية »، فى آخرين استقلالا، كالفورانى، وابن أبى الدم وله مؤلف فى الفرق الإسلامية وضمنًا كالواقع فى كتب « الملل والنحل » للشهرستانى، وابن حزم، وآخرين وغيرهما، و« المرهم » لليافعى وفى « إرشاد القاصد لأسنى المقاصد » لابن الأكفانى، المنخل لابن عربى وتصانيفه، ولذا أثبت اسمه فيمن جردتهم من معتقديه، بحيث يصلح أن يضم إليه ما يصير به مؤلفًا. ولأبى القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبى البلخى، رأس طائفة من المعتزلة وطبقات المعتزلة وللغزالى « القواصم فى الرد على شبه الباطنية » وللدارمى « الرد على الجهمية » وعلى المعارض بكلام بشر المريسى ولغيرهما « الرد على الزيدية » وللبخارى « خلق أفعال العباد » وتوسعنا بالإشارة لهؤلاء، وإن لم يكن فى أكثره ما هو مما نحن فيه.

٢٨- تاريخ الشيعة:

وأما الشيعة فاعتنى بجمعهم منهم:

الحسن بن على بن فضال بن أنيس التيمى مولاهم الكوفى.

وابنه على، وأبو جعفر بن الحسن بن على الطوسى والد أبى على الحسن، وعلى بن الحكم، وأبو العباس بن عقدة، وأبو الحسن بن بابويه، ويحيى بن أبى طى، ويحيى بن الحسين بن البطريق، والشريف أبو القاسم على بن الحسين بن موسى العلوى المرتضى المتكلم الرافضى المعتزلى، والرشيد سعد بن عبد الله القمى وابن النجاشى، وأبو عمرو الكشى فى آخرين ويحتاج لتحرير فى عدم تداخل بعضهم.

٢٩- تاريخ البخلاء:

وأما البخلاء فللحافظ أبى بكر الخطيب. وكذا له « أخبار الطفيليين » وهما ظريفان.

وكذا لأبى الفرج الأصبهانى « أخبار الطفيليين ».

٣٠- تاريخ الشجعان:

أما الشجعان فلأبى الحسن على بن أبى المنصور الأزدى المالكى - أخبارهم.

وللخليل بن الهيثم « الحيل والمكائد فى الحروب ».

٣١- تاريخ العور والعمش والعميان والحدبان:

وأما العور والعمش والعميان والحدبان، فللصلاح الصفدى فيها تصانيف.

٣٢- تاريخ الرهبان:

وأما أخبار الرهبان، فلأبى القاسم تمام بن محمد الرازى.

وبهذا نكون قد ألقينا الضوء على كتب التاريخ بأنواعها.

فائدة علم التاريخ: يقول السخاوى رحمه الله وأما فائدته فمعرفة الأمور على وجهها، ومن أجل فوائده أنه أحد الطرق التى يعلم بها النسخ فى أحد الخبرين المتعارضين المتعذر الجمع بينهما، إما بالإضافة لوقت متأخر؛ كرأيته قبل أن يموت بعام أو نحوه، أو عن صحابى متأخر، وقد يكون بتصريح الراوى كقوله: كان آخر الأمرين من النبى ﷺ ترك الوضوء مما مست النار.

وقول عائشة : إنه ﷺ كان قبل فتح مكة إذا لم ينزل لم يغتسل ثم اغتسل بعد، وأمر به إلى غيرها.

وكون المروى من طريق بعض المختلطين من قديم حديثه أو ضده، وكون الراوى لم يلق من حدث عنه، إما لكونه كذب أو أرسل، وذلك ينشأ عنه معرفة ما فى السند من انقطاع، أو عضل، أو تدليس، أو إرسال ظاهر أو خفى، للوقوف به على أن الراوى مثلا لم يعاصر من روى عنه، أو عاصره ولكنه لم يلقه لكونهما من بلدين مختلفين ولم يدخل أحدهما بلد الآخر، ولا التقيا فى حج ونحوه مع كونه ليست له منه إجازة أو نحوها.

ولما استشكل بعض الحفاظ رواية يونس بن محمد المؤدب عن الليث لاختلاف

بلديهما وتوهم انقطاعًا بينهما قال المزى:

« لعله لقيه فى الحج » ثم قال: « بل فى بغداد حين دخول الليث لها فى الرسلية ».

ومن الغريب ذكر الخطيب عبد الملك بن حبيب فى الرواة عن مالك، مع كونه لم يرحل إلا بعد موته بنحو من ثلاثين سنة بل إنما ولد بعده.

وكذا خلط ابن النجار ترجمة محمد بن الجهم السوسى بمحمد بن الجهم السامى، وأسند عنه قصة سمعها من المهتدى بالله بن الواثق أنه حضر عند أبيه وهو خليفة قال السخاوى قال شيخنا ابن حجر وهذه غفلة عظيمة، فإن سماع السامى لهذه القصة بعد موت السوسى بنحو ثلاثين سنة، وموت الواثق والد المهتدى كان بعد وفاة السوسى بنحو عشرين سنة.

ووقع لابن السمعانى فى القداحى من أنسابه أن عبد الله بن ميمون القداح ادعى بعد موت إسماعيل بن جعفر الصادق أنه ابنه، فرد عليه ابن الأثير بأن إسماعيل مات فى حياة والده جعفر الصادق، فكيف يمكن القداح ادعاء بنوته مع وجود والده.

ولما خطأ المزى نقل الحافظ عبد الغنى فى « الكمال » أن جابر بن نوح الحمانى مات سنة ثلاث ومائتين وقال: بل سنة ثلاث وثمانين ومائة (٧٩٩- ٨٠٠م) رده شيخنا وقال: إنه من أعجب ما وقع للمزى فى كتابه من الخطأ، وأيده بقول الزهرى، عن أحمد بن حنبل أحد من روى عن الحمانى إنه لم يرحل إلا بعد سنة ست وثمانين (٨٠٢م) وكذلك من الرواة عنه أحمد بن بديل القاضى ومحمد بن طريف البجلى، وهما لم يسمعا إلا بعد التسعين. وبهذا كله يترجح قول صاحب الكمال.

وقد أرخ جماعة وفاة مجمع بن يعقوب بن مجمع بن يزيد بن جارية الأنصارى سنة ستين ومائة، فتوقف الذهبى فى ذلك؛ لأن قتيبة ممن روى عنه، ورحلته إنما كانت بعد السبعين ومائة، ولكن يحتاج إلى تحرير رواية قتيبة عنه.

قال سفيان الثورى: « لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ ».

وعن حسان بن زيد قال: لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ، يقال للشيخ سنة كم ولدت؟ فإذا أقر بمولده مع معرفتنا بوفاة الذى انتمى إليه، عرفنا صدقه من كذبه.

وعن حفص بن غياث القاضى قال: « إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين » بفتح

النون المشددة تثنية سن وهو العمر، يريد احسبوا سنه وسن من كتب عنه.

وسأل إسماعيل بن عياش رجلا اختبارًا أى سنة كتبت عن خالد بن معدان؟ فقال: سنة ثلاث عشرة ومائة فقال: أنت تزعم أنك سمعت منه بعد موته بسبع سنين.

وروى سهيل بن ذكوان أبو السندى عن عائشة وزعم أنه لقيها بواسط، وهكذا يكون الكذب فموت عائشة كان قبل أن يخط الحجاج مدينة واسط بدهر.

ومنه قول ابن المنادى أن الأعمش أخذ بركاب أبى بكرة الثقفى. قال شيخنا: غلط فاحش؛ لأن الأعمش ولد إما فى سنة إحدى وستين أو تسع وخمسين (٦٧٨م)، وأبو بكرة مات سنة إحدى أو اثنتين وخمسين فكيف يتهيأ أن يأخذ بركاب من مات قبل مولده بعشر سنين أو نحوها؟ قال: وكأنه كان والله أعلم أخذ بركاب ابن أبى بكرة، فسقطت « ابن » وثبت الباقى. وتعجب من المزى مع حفظه ونقده كيف خفى عليه هذا.

وفى مقدمة مسلم أن المعلى بن عرفان قال: « حدثنا أبو وائل » قال: خرج علينا ابن مسعود بصفين، فقال أبو نعيم يعنى الفضل بن دكين حاكيه عن المعلى: « أتراه بعث بعد الموت »!، يعنى لأن ابن مسعود توفى سنة اثنتين أو ثلاث وثلاثين قبل انقضاء خلافة عثمان بثلاث سنين وصفين كانت فى خلافة علىّ بعد ذلك بسنتين، فلا يكون ابن مسعود خرج عليهم بصفين.

فى أشباه لهذا كنسبة بعض الحفاظ إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى، جريرى المذهب، لمحمد بن جرير الطبرى، فإن إبراهيم فى طبقة شيوخ ابن جرير، حسبما يعلم ذلك من تاريخ الوفاة والمولد، وإنما هو بالزاى المعجمة والحاء المهملة لحريز بن عثمان.

وكونه أحد الطرق التى يعلم بها الغلط فى المتفقين بإضافة ما لواحد إلى آخر، حيث يكون أحدهما ولد بعد موت الآخر، كأحمد بن نصر بن زياد الهمدانى المتوفى سنة سبع عشرة وثلاثمائة حيث يوهم أنه أحمد بن نصر الداودى المتوفى سنة اثنتين وأربعمائة. ولذلك أمثلة كثيرة.

وطالما كان طريقًا للاطلاع على التزوير فى المكاتيب ونحوها بأن يعلم أن الحاكم الذى نسب إليه الثبوت أو الشاهد أو غيرهما من أسبابه أو نحو ذلك مات قبل تاريخ

المكتوب. ومن ثم لما أظهر بعض اليهود كتابًا وادعى أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادة الصحابة - رضى الله عنهم - وذكروا أن خط على رضى الله عنه فيه، وحمل الكتاب فى سنة سبع وأربعين وأربعمائة إلى رئيس الرؤساء أبى القاسم على وزير القائم، عرضه على الحافظ الحجة أبى بكر الخطيب، فتأمله ثم قال: « هذا مزور » فقيل له: « من أين لك هذا » قال فيه شهادة معاوية، وهو إنما أسلم عام الفتح وفتح خيبر كان فى سنة سبع، وفيه شهادة سعد بن معاذ؛ وهو قد مات يوم بنى قريظة قبل فتح خيبر بسنتين فاستحسن ذلك منه، واعتمده وأمضاه، ولم يجز اليهود على ما فى الكتاب لظهور تزويره.

وفى الرافعى: سئل ابن سريج عما يدعونه يعنى يهود خيبر أن عليا كتب لهم كتابًا بإسقاطها، فقال : لم ينقل ذلك عن أحد من المسلمين انتهى.

ولما حقق لهم الخطيب ما تقدم، صنف رئيس الرؤساء المشار إليه فى إبطاله جزءًا، وكتب عليه الأئمة أبو الطيب الطبرى، وأبو نصر بن الصباغ، ومحمد بن محمد البيضاوى، ومحمد بن على الدامغانى وغيرهم.

وأخرج المعافى بن زكريا النهراونى فى المجلس الرابع والستين من « الجليس » له، من طريق معمر بن شبيب بن شيبة أنه سمع المأمون يقول: « امتحنت الشافعى فى كل شىء فوجدته كاملا، وقد بقيت خصلة وهى أن أسقيه من النبيذ ما يغلب على الرجل الجيد العقل، وأنه استدعاه، وسقاه، فما تغير عقله، ولا زال عن حجته » وقال المعافى عقبها: الله أعلم بصحتها. قال السخاوى: قال شيخنا فى « لسانه »: لا يخفى على من له أدنى معرفة بالتاريخ أنها كذب، وذلك أن الشافعى دخل مصر على رأس المائتين، والمأمون إذ ذاك بخراسان، ثم مات الشافعى بمصر سنة دخل المأمون من خراسان إلى العراق وهى سنة أربع ومائتين فما التقيا قط والمأمون خليفة، وكيف يعتقد أن الشافعى يفعل هذا وهو القائل: لو أن الماء البارد يفسد مروءتى ما شربت إلا ماءً حارًا.

وقد يكون طريقًا للتوصل به لما المتأهل يستحقه، كما اتفق للشيخ شمس الدين بن عمار المالكى حين استقر فى تدريس المالكية بالمدرسة المسلمية بخط السيوريين من مصر، ونوزع بأن شرط الواقف أن يكون المدرس فى حدود الأربعين، فأثبت

محضرًا بأن سنه إذ ذاك خمس وأربعون سنة.

وكذا انتزع البدر بن القطان من زين العابدين بن الشرفى المناوى فى حياة والده وبعد انفصاله عن القضاء فى الأيام الأشرفية الأينالية تدريس الخروبية، لكون شرط الواقف فى مدرسها أن يزيد سنه على الأربعين، وزين العابدين لم يبلغها إذ ذاك، وحينئذ.

فما رويناه - أى السخاوى - فى الجزء الأول من فوائد الحلبى من طريق أبى إسماعيل الترمذى قال: سمعت البويطى يقول: سئل الشافعى رضى الله عنه كم سنك أو مولدك؟ قال: ليس من المروءة أن يخبر الرجل بسنه. ومن طريق أبى إسماعيل أيضًا قال: « سمعت عبد العزيز الأوسى يقول: قال رجل لمالك يا أبا عبد الله كم سنك؟ قال: أقبل على شأنك » يحمل على ما إذا كان عبثًا لم تدع إليه حاجة، خصوصًا من كان مع صغر سنه حصل فضائل لكون ذوى الأسنان الجامدين يحتقرون غالبًا بالصغر.

ولذا لما استشعر يحيى بن أكثم ذلك ممن سأله حين ولى القضاء عن سنه، وهو ابن عشرين أو نحوها، أجابه بقوله: « أنا أكبر من عتاب بن أسيد حين ولاه النبى ﷺ مكة » وكان سن عتاب حينئذ أزيد من عشرين سنة فيما قاله الواقدى، ومن معاذ بن جبل حين وجهه النبى ﷺ إلى اليمن قاضيًا، ومن كعب بن سور حين وجهه عمر رضى الله عنه إلى البصرة قاضيًا قال السخاوى: وكذا اتفق لشيخنا الكمال بن الهمام حين خطبه الأشرف برسباى لمشيخة مدرسته ونبذ عنده بصغر سنه، سأله حين أحضره، لإلباس خلعتها، عن سنه، فقال: أكبر من عتاب ومن فلان أو نحو هذا، ولم يفصح له بمقدار سنه، وإلا فقد أخبر كل منهما بمولده.

بل لما سئل العباس رضى الله عنه أنت أكبر أم النبى ﷺ؟ فقال: أنا أسن منه، وهو أكبر منى، وتبعه فى جوابه شيخنا الزين رضوان حين قيل له: أأنت أكبر أم شيخ الإسلام ابن حجر، رحمهما الله تعالى.

وكون التاريخ أحد الأدلة لضبط الراوى حيث يقول فى المروى: « وهو أول شىء سمعته منه » أو « كان فلان آخر من روى عن فلان » أو « رأيته فى يوم الخميس يفعل كذا » أو « سمعت منه قبل أن يحدث ما أحدث، أو قبل أن يختلط »

وفى المتون من ذلك الكثير؛ كأول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة، وأول ما نزل من القرآن كذا، وأول مسجد وضع قال المسجد الحرام، ثم الأقصى وحدد المدة التى بينهما، وأول مولود فى الإسلام أى: بالمدينة عبد الله بن الزبير. وآخر ما كان كذا كما تقدم، وكقوله عن يوم الاثنين « وذاك يوم ولدت فيه... » الحديث، وكنا نفعل كذا حتى قدمنا الحبشة، ونهى يوم خيبر عن كذا، وما أشبه ذلك، كقوله قبل أن يوحى إليه، بحيث أفرد جماعة من القدماء فمن بعدهم الأوائل، وأبو زكريا بن منده « آخر الصحابة موتًا » وبعض المتأخرين الأواخر مطلقًا ولكثرة ما وقع فى المتون من ذلك أفرده البلقينى بنوع مستقل.

وكان يمكن أن يجعل التاريخ على قسمين: سندى، ومتنى، وقد ذكرنا أمثلة على فوائد التاريخ فى دراسة السند، وهناك أيضًا أحوال يؤثر فيها التاريخ على السند والمتن فى الأحاديث مما قد يشتركان فيه كما فعل فى المضطرب والمقلوب وغيرهما.

ومما وقع فى المتون: « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا » « ومن صام رمضان وأتبعه بست من شوال » و« أفضل الصيام بعد رمضان المحرم وصوم تاسوعاء وعاشوراء » وكون قول ابن عباس: كان تاسوعاء عنده العاشر من المحرم والشهر ثلاثون وتسع وعشرون، « والأمر بصيام الأيام البيض » « والنهى عن صوم يوم العيد والسبت إلا مع يوم قبله أو بعده » ونحو ذلك مما لا ينحصر « كالحج لا يتم إلا بالوقوف فى عرفة » « وخلق الله الأرض يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الاثنين، والظلمة يوم الثلاثاء والنور يوم الأربعاء، والدواب يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة »، وقوله ﷺ فى أواخر عمره: « إن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ».

فكل هذا مرشد إلى الافتقار للتاريخ، أو هو من فوائده ومن ثم قيل كما سيأتى قريبا عن ابن عباس - رضى الله عنهما - إن الله عز وجل ذكره فى كتابه العزيز فقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩] وعن قتادة « جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين، وإفطارهم وحجهم، وعِدَد نسائهم ».

وأما ما لعله يذكر فيه من أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم وسنتهم فهو مع أخبار العلماء ومذاهبهم، والحكماء وكلامهم، والزهاد والنساك ومواعظهم، عظيم الغناء، ظاهر المنفعة، فمما يصلح الإنسان به أمر معاده ودينه وسريرته فى اعتقاداته، وسيرته فى أمور الدين، وما يصلح به أمر معاملاته ومعاشه الدنيوى.

وكذا ما يذكر فيه من أخبار الملوك وسياساتهم، وأسباب مبادئ الدول وإقبالها، ثم سبب انقراضها، وتدبير أصحاب الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الأحوال التى يتكرر مثلها وأشباهها أبدًا فى العالم غزير النفع كثير الفائد بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله وجرب الأمور بأسرها، وباشر تلك الأحوال بنفسه فيغزر عقله ويصير مجربا غير غر ولا غمر ولله الحمد والمنة .

* * *

ترجمة المؤلف[١]

عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي المكي الشهير بالعصامي، الشيخ الفاضل الأديب العالم الفهامة الشاعر الناظم الناثر.

كان مولده بمكة - حرسها الله وشرفها - سنة تسع وأربعين ومائة ألف (١٠٤٩هـ) ونشأ بها واشتغل بفنون العلوم، وبحث عن منطوقها والمفهوم، وله شعر لطيف، منه قوله مادحًا الشريف بركات أمير مكة بقصيدة منها: [من الطويل]

سعددت بيمنك والسعود المقبل ... وانجاب عنها النحس بالحظِّ الجلى
وتتابعت أيدى السرور ترادف الـ ... إقبال بالبشري لكل مؤمِّل
وأطاع أمر الله ما تختاره ... وبذروة فلك السماء المعتلى
لأبي زهير مليكنا بركات را ... عيها مملكها الشريف الأفضل

وهي قصيدة طويلة جدًّا عدد فيها مآثر ممدوحه، وذكر أياديه، وإنعامه، وذلك في لغة كلاسيكية تنقاد للشاعر في يسر وسلاسة يشكلها كيف يشاء في صورة أساليب أخاذة تأخذ بالألباب ومجامع القلوب.

ولقد كان عبد الملك العصاص فاضلاً نبيهًا ذا مشاركة في العلوم ومعرفة بالأدب والشعر وله قصائد كثيرة غير ما سقناه، وكان له علم واجتهاد؛ حيث تصدر للتدريس في المسجد الحرام مدة عمره وكفى بهذا شرفًا وشأوًا عظيمًا.

ومن مصنفاته العلمية التي أورثنا إيهاها « سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالى » وهو الذي نقدمه للقراء محققًا، وله: « قيد الأوابد من الفوائد والعوائد » كتبه بخطه، وله: « الغرر البهية شريح الحزرجيه » وهو كتاب في علم العروض.

وتوفى عبد الملك العصامي في مكة (سنة ١١١١هـ) رحمه الله رحمة واسعة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن مؤلفنا هذا هو حفيد الملاّ عصام عبد الملك بن جمال

---

(١) تنظر ترجمته في: البدر الطالع (٢/ ٤٠٢، ٤٠٣)، إيضاح المكنون (٢/ ٢٨)، الأعلام (٤/ ١٥٧)، سلك الدرر (٣/ ١٣٩)، عنوان المجد (١/ ١٢٠)، والكتبخانة (٥/ ٦٩)، ودار الكتب (٧/ ٧٩)، هدية العارفين (١/ ٦٢٨)، فهرست الخديوية (٥/ ٦٩)، معجم المؤلفين (٦ظ١٨٢).

الدين (٩٧٨هـ - ١٠٣٧هـ)[1]

* * *

(١) هو عبد الملك بن جمال الدين العصامس الأسفرايني، المعروف بالملاعصام من علماء العربيه، له نحو ستين كتابًا منها: « بلوغ الأدب من كلام العرب » و« الكافي الوافي في العروض والقوافي »، و« التسهيل »، وهو رسالة في العروض، وله شرح قطر الندى في النحو وغير ذلك.
ولد بمكة المكرمة، وتوفى بالمدينة المنورة.
تنظر: تجرمة في البدر الطالع (١/ ٤٠٣)، وسلافة العصر (١٢٢)، والكتبخانة (٨/ ١٦١)، وكشف الظنون (٥/ ٦٢٨)، والأعلام (٤/ ١٥٧).

بين يدي الكتاب

كتاب « سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي » كتاب في التاريخ والتراجم والسير لحقبة زمنية كبيرة تمتد من زمن النبوة حتى القرن العاشر الهجري تقريبًا، وهو بهذا الامتداد الزمني يشمل أحداثًا جمة، ووقائع كثيرة متلاحقة ومتعاقبة والكتاب يشتمل على مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة.

أما المقدمة: فقد عرض فيها المؤلف لأهمية التاريخ ومدى الحاجة إلى قراءته قراءة واعية، لما له من دورٍ عظيم الأثر في حياتنا على شتى المستويات المختلفة.

وعرض فيها أيضًا لمنهجه في كتابه وطريقة تأليفه وترتيبه، ومصادره التي استقى منها الأخبار والحوادث المختلفة.

وأما المقصد الأول: فقد أداره المؤلف حول ذكر نسبه ﷺ وتعداد آبائه الكرام، وما يتعلق بذلك من حوادث ووقائع تاريخيه كثيرة.

وأما المقصد الثاني: فقد أداره حول أحواله ﷺ؛ وهو يشتمل على سبعة أبواب تكلمت عن بعض ما يتعلق به ﷺ من أمر ولادته ورضاعه، وهجرته إلى المدينة، وقصة الوحي، وذكر أعمامه وعماته وزوجاته وأولاده وخدمه ومواليه، وما يرتبط بذلك من حوادث ووقائع مختلفة.

وأما المقصد الثالث: فقد أداره حول ذكر الخلفاء الأربعة، وما ارتبط به من حوادث ووقائع مختلفة.

وأما المقصد الرابع: فهو يشتمل على سبعة أبواب دارت حول الدولة الأموية ثم العباسية، ثم الفاطمية، ثم الأيوبية، ثم التركمانية، ثم الشراكة، ثم العثمانية، وما ارتبط بذلك من حوادث ووقائع مختلفة.

وأما الخاتمة: فهي تشتمل على ثلاثة أبواب تتعلق بذكر نسب الطالبيين وأعقابهم، ومن دعا منهم إلى المبايعة، وذكر من ولى مكة المشرفة من آل طالب إلى عصر المؤلف، وما ارتبط بذلك من سرد تاريخي ووقائع وأحداث مختلفة.

وأما مصادر الكتاب: التي استقى منها المؤلف الأخبار والأحداث فهي كثيرة جدًا، وقد كفانا المؤلف مؤنة استقصائها؛ حيث أدرجها كاملة في مقدمة الكتاب.

وبالنسبة للغة المؤلف: فهى لغة ناصعة فصيحة لم تشبها ركاكة أو فظاظة؛ بل هي

شهلة لينة تنقاد له كيف شاء، يضاف إلى ذلك أنها لغة شاعرية تحلق في فضاء الاستعارات والمجازات والتشبيهات البلاغية والمحسنات البديعية.

جدير بالذكر فإنه قد عرضت لنا بعض الهنات التي وقع فيها المؤلف وبخاصه تلك المبالغات الشعرية التي اوردها عن بعض الشعراء حيث يُغْلى فيها من أقدار الممدوحين مما يتنافى والتعاليم الإسلامية، وبخاصه تلك المبالغات التي بنيت على مقارنات أو تشبيهات بين هؤلاء الممدوحين وأنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم الذين اختصَّهم من دون الناس، واصطفاهم، وفضَّلهم على العالمين.

ولا حيلة لنا أن نعتذر عن ذلك إلا بما قيل: إن أجمل الشعر أكذبه، وأن لغة الشعر وعالمه غير لغة وعالم الواقع المحسوس وهناك أيضًا بعض الهنات التي فاتت المؤلف وهي اعتماده في بعض الأحيان على بعض المرويات الضعيفة أو الموضوعة، أو المأخوذة عن الروافض أو الإسرائيليات، غير أن تلك الهنات لا تقلل من القيمة العلمية الكبيرة للكتاب أو لمؤلفه وقد أشرنا في خلال تحقيقنا للكتاب إلى مثل هذه الأمور، وبينا وجه الصواب والخطأ فيها.

* * *

وصف النسخ الخطية

الأولى: المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٣١) تاريخ تيمور برقم ميكروفيلم (٥٠٩٤٧) وعدد أوراقها (١٣٠٢) صفحة وعدد مسطراتها (٣١) سطر .

الثانية: المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٦٦٤) وبأرقام ميكروفيلم (١٤١٧٧، ١٤٢٨٥، ٣٥٩٣٣، ٣٦٦٠٢) ويقع في خمس مجلدات وعدد أوراقها (٤٣٧، ٤٠٥، ٢٨٨، ٣٢٤) ومسطراتها (٢١) سط .

الثالثة: المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٣٦٢) تاريخ، برقم ميكروفيلم (١٠٧٥٤) وعدد أوراقها (٤٠٣) ومسطراتها (٢٨) سطر .

الرابعة : المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٣) تاريخ .

الخامسة: المحفوظة بدار الكتب المصرية عن نسخة توبنخن تحت رقم (٢٧٢٩٢)ح

وقد اعتمدنا على النسخة المطبوعة طعة المكتبة السلفية بالقاهرة. وقد قمنا في الكتاب بالآتي:

١- قراءة النص على الكتب المطبوعة التي نقل منها المصنف، واثبات غالب فروقها في هامش الكتاب .

٢- عزو الأيات القرآنية إلى مواضعها .

٣- تخريج الأحاديث .

٤- توثيق النصوص من مصادرها الأصلية .

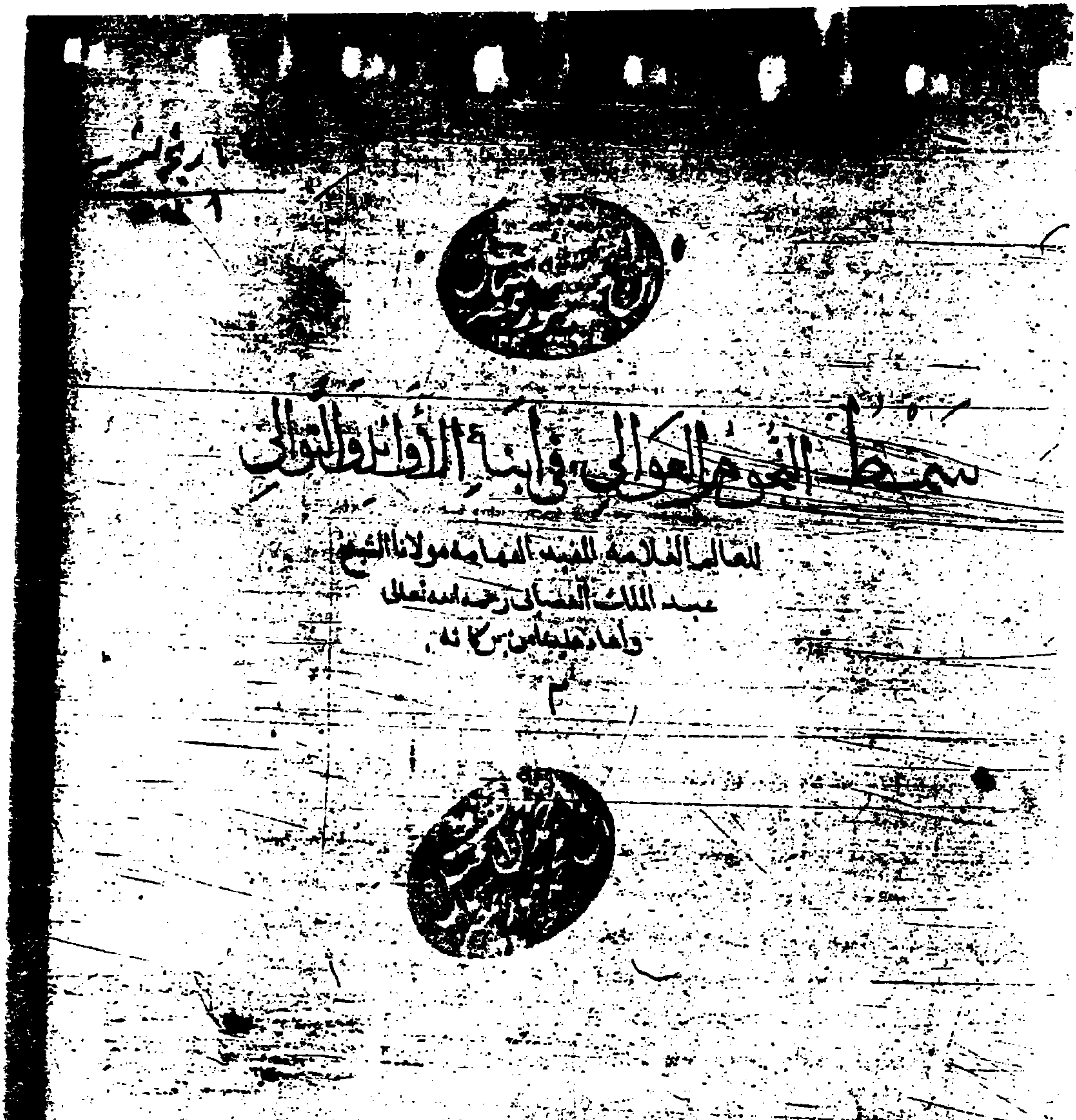
٥- مقابلة نصوص الكتاب على الكتب التي نقل منها المؤلف وإثبات فروقها في هامش الكتاب .

٦- التعليق على بعض غريب النص .

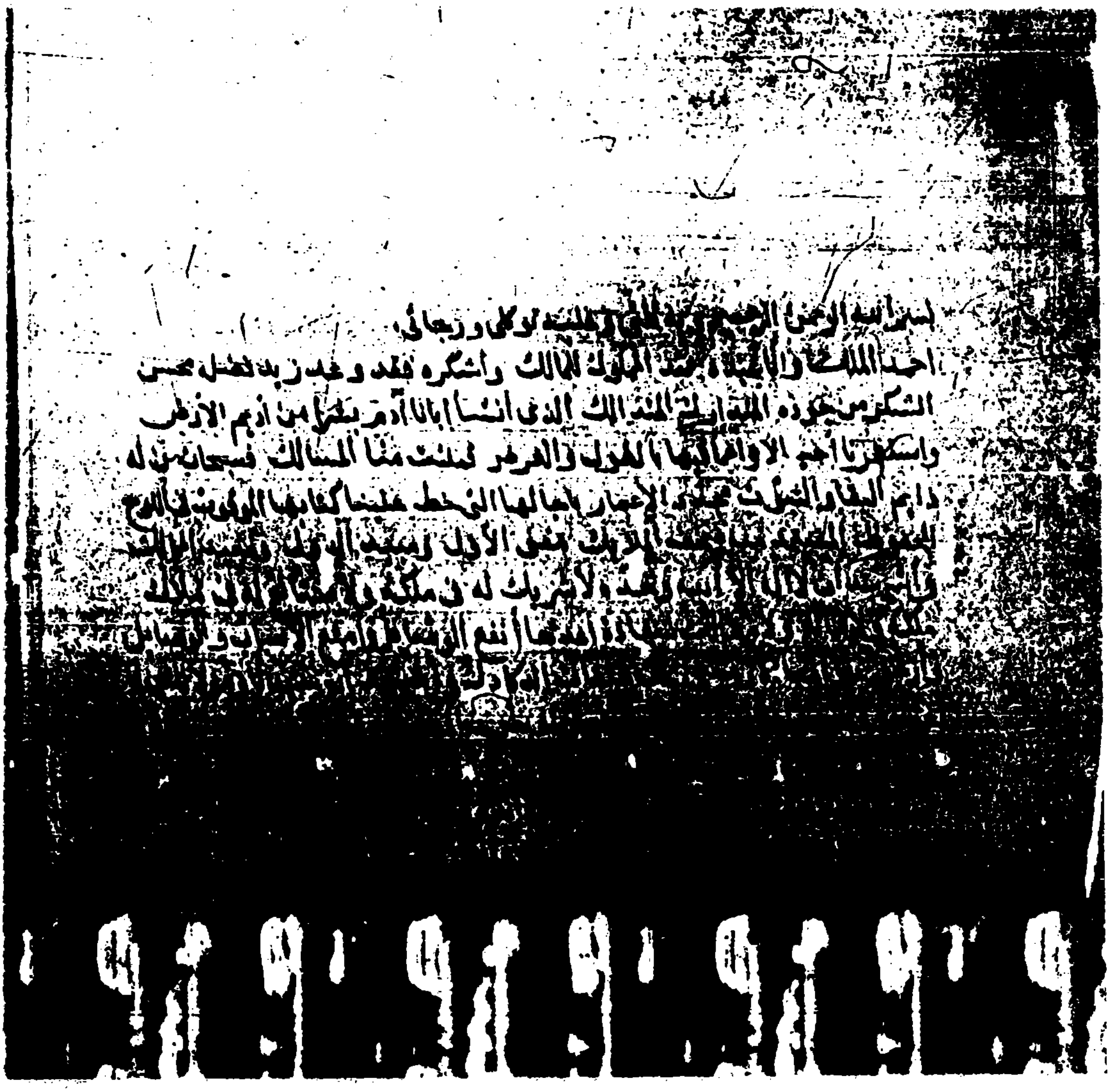
٧- التعليق على بعض المسائل الواردة في الكتاب.

٨- صدرنا التحقيق بمقدمة بسطنا فيها الكلام على علم التاريخ وأهميته، ثم أعقبناها بترجمة للمؤلف.

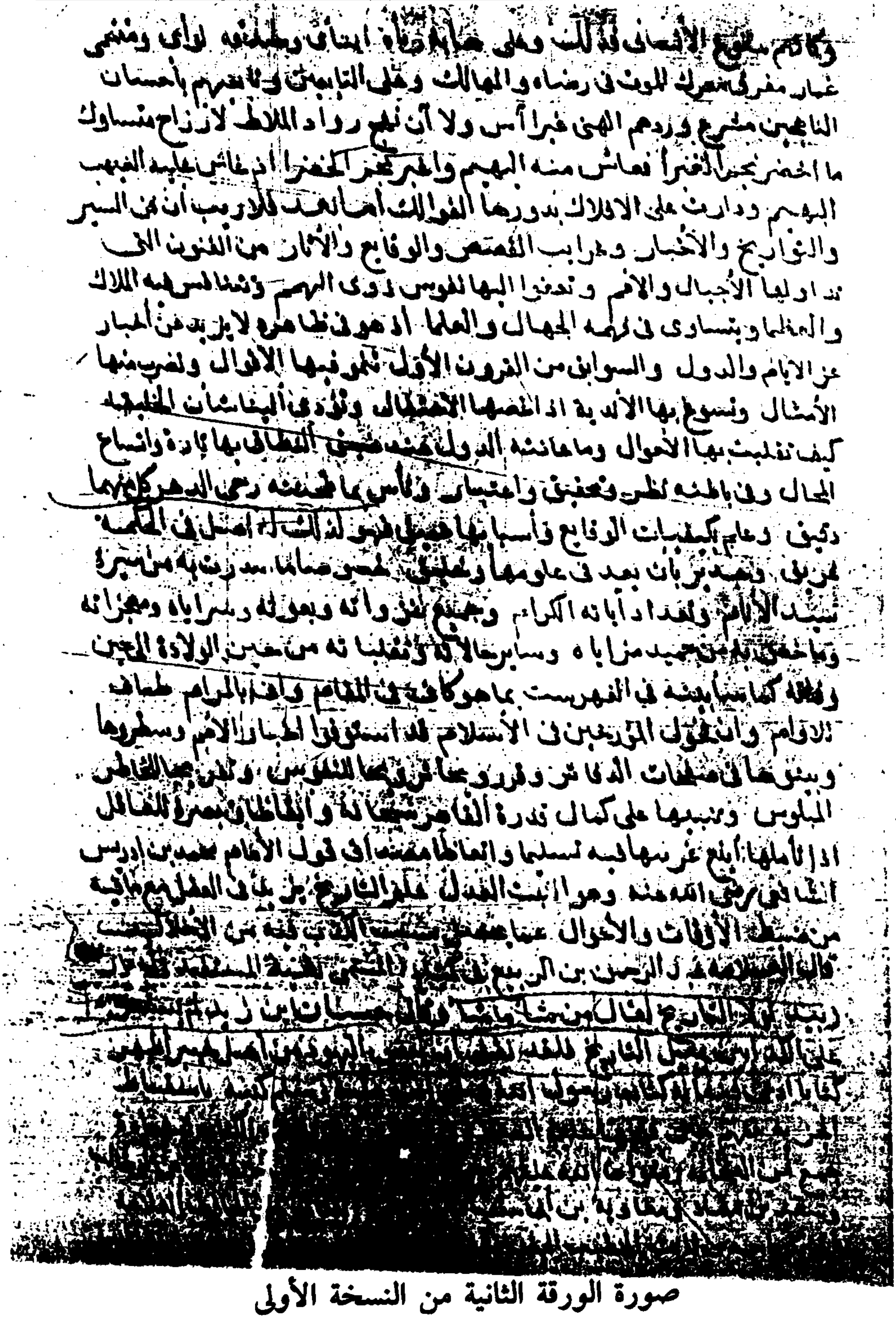
* * *



صورة الغلاف من النسخة الأولى

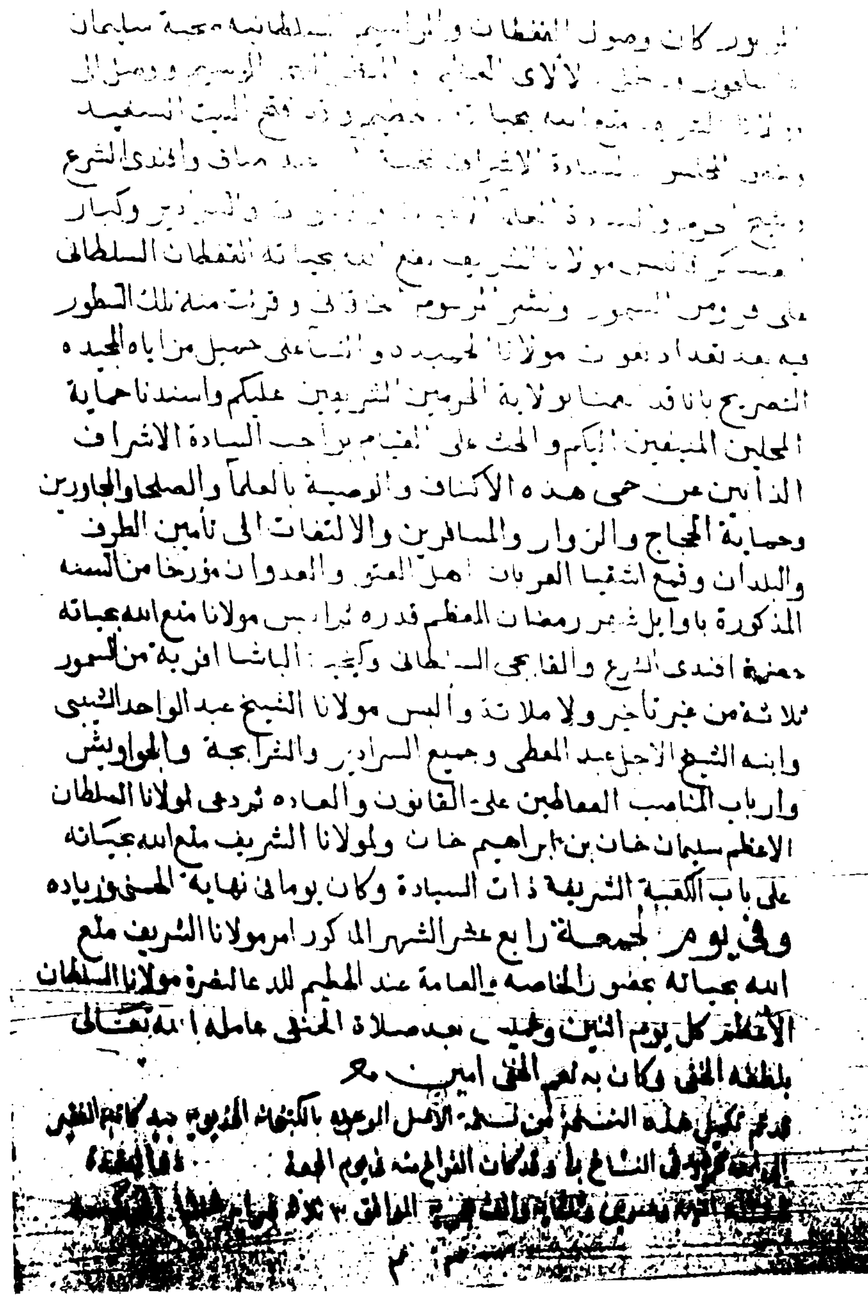


صورة الورقة الأولى من النسخة الأولى



وكانه سلوع الأنسان لذلك وهي غاية [illegible] ابتاف وطلبوه لراى ومنى
غبار مفرق سعرك للموت في رضاه والمهالك وعلى التابعين ولاتعبهم بإحسان
التابعين مشرع وردهم الهنى [illegible] ولا آن [illegible] الملاط لا [illegible]
ما الخمر بحرا اغبرا فعاش منه البهيم [illegible] الخضرا اذ غاشي عليه الغيهب
البهيم ودارت على الافلاك بدورها الفوالك اما بعد فلا ريب ان من السير
والتواريخ والأخبار وغرايب القصص والوقايع والآثار من الفنون التي
تداولها الأجيال والأمم وتدعوا اليها النفوس ذوي الهمم [illegible] الملاك
والعلما ويتساوي في [illegible] الجهال والعلما اذ هو [illegible] لا [illegible] من اخبار
عن الايام والدول والسوابق من القرون الأول [illegible] فيها الاقوال وتضرب منها
الأمثال ويسوغ بها الأدبة اذ [illegible] الاحتفال [illegible]
كيف تقلبت بها الأحوال وما عانته الدول [illegible] بها تارة وانساع
المجال [illegible] وتحقيق واعتبار [illegible] رحى الدهر [illegible]
دقيق وعلم بكيفيات الوقايع وأسبابها [illegible] لذلك اصل في الحكمة
[illegible] بعد في علومها [illegible]
[illegible] الأيام [illegible] الكرام [illegible] وسراياه ومعجزاته
وما خصه به من حميد مزاياه [illegible] من حين الولادة [illegible]
[illegible] في الفهرست بما هو كافٍ في المقام وافٍ بالمرام [illegible]
الاقوام [illegible] المؤرخين في الاسلام لما استوفوا اخبار الأمم وسطروها
[illegible] في صفحات الدفاتر [illegible] النفوس [illegible]
[illegible] وتنبيها على كمال قدرة [illegible] وايقاظا وتبصرة للغافل
اذا تأملها [illegible] قول الإمام محمد بن ادريس
الشافعي رضي الله عنه [illegible] علم التاريخ [illegible]
من [illegible] الأوقات والأحوال [illegible]
[illegible] عبد الرحمن بن الربيع [illegible]
[illegible]

صورة الورقة الثانية من النسخة الأولى

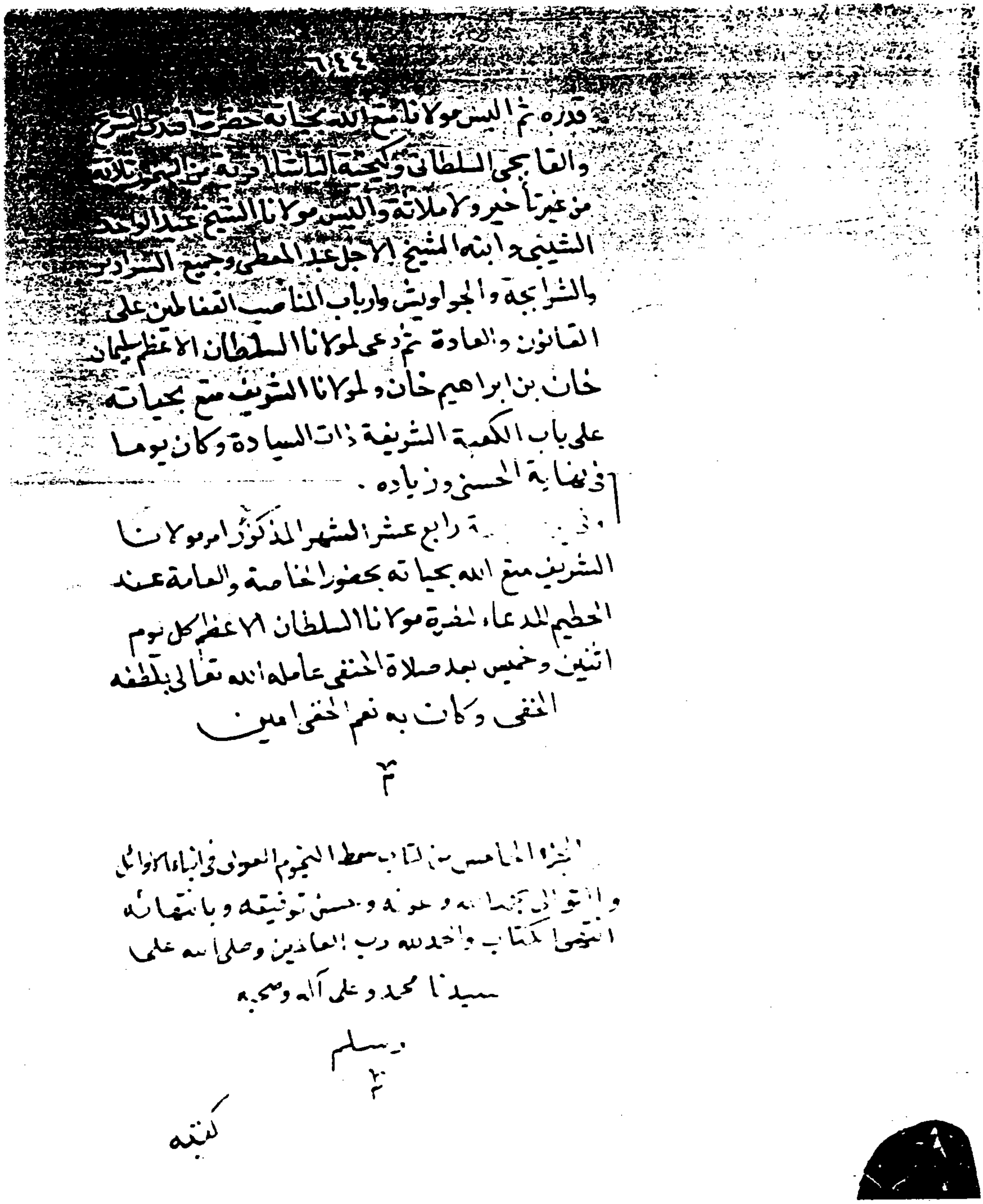


[illegible] كان وصول المقطات و[illegible] السلطانية بعجبة سليمان
[illegible] لالاى [illegible] وصل الى
[illegible] فتح البيت السعيد
[illegible] السادة الاشراف [illegible] واقندى الشرع
[illegible] وكبار
[illegible] مولانا الشريف [illegible] التقطات السلطانى
[illegible] وقرئت منه تلك السطور
[illegible] مولانا [illegible] على جميل مزاياه الحميده
التصريح باننا قد [illegible] بولاية الحرمين الشريفين عليكم واسندنا حماية
المحلين المنيفين اليكم والحث على [illegible] السادة الاشراف
الذاين [illegible] هذه الاكناف والوصية بالعلما والصلحا والجاورين
وحماية الحجاج والزوار والمسافرين والالتفات الى تامين الطرف
والبلدان وقمع [illegible] العربان اهل [illegible] والعدوان مورخا من السنه
المذكورة باوايل شهر رمضان المعظم فدره [illegible] مولانا منع الله بحياته
[illegible] افندى الشرع والقاضى السلطانى وكيخيا الباشا [illegible] من السرور
[illegible] من غير تاخير ولا ملاتة والبس مولانا الشيخ عبد الواحد الشيبى
وابنه الشيخ الاجل عبد المعطى وجميع السرادر والشراجة والجواويش
وارباب المناصب المعاطبن على القانون والعاده [illegible] لمولانا السلطان
الاعظم سليمان خان بن ابراهيم خان ولمولانا الشريف منع الله بحياته
على باب الكعبة الشريفة ذات السيادة وكان يوما فى نهاية الحسن وزياده
وفى يوم الجمعة رابع عشر الشهر المذكور امر مولانا الشريف منع
الله بحياته بحضور الخاصة والعامة عند الحطيم للدعا لحضرة مولانا السلطان
الاعظم كل يوم [illegible] بعد صلاة الحنفى عامله الله تعالى
بلطفه الخفى وكان به لهم الخفى امين [illegible]
[illegible] هذه النسخة من نسخة الاصل [illegible] بالكتبخانة [illegible]
[illegible] الناسخ [illegible] وقد كان الفراغ منه فى يوم الجمعة [illegible]
[illegible]

صورة الورقة الأخيرة من النسخة الأولى


منا الساك فسبحانه من اله دبر الفناء والثبوت
وخلد الاعمار باجالها التي خط لسان اقلامها في رقوق
في اللوح المحفوظ المستمد منه صحف الملائكة معنى
الاول ومبيد الدول ومعيد الممالك واشهد ان لا اله
الا الله وحده لا شريك له في ملكه ولا مشارك في
ملكه ولا ممانع ولا معاند شهادة اعدها انفع
وانفع الاسباب والوسائل وارجو بها اضاءة رمسي
تحت طبقات الدكادك واشهد ان سيدنا ومولانا
محمدا عبده ورسوله الذي تشرفت بسيرته بطون
المهارق وتشنفت المسامع بعذارى شمائله فاجتلى
مستنفات بنات طارق وتعطرت بارج ثنائه
المنابر وبطون الدفاتر المالك صلى الله وسلم عليه
وعلى آله خيرة العوالم وهداة
تسترق منه الخوافي والقوادم فذلك مما خصهم الله
به وكانهم لنوع الانساني فذلك وعلى اصحابه رواة
اثاره وصدقة الرائي ومقتحمي غبار مغرق معترك الموت
في

صورة الورقة الأولى من النسخة الثانية


٦٤٤

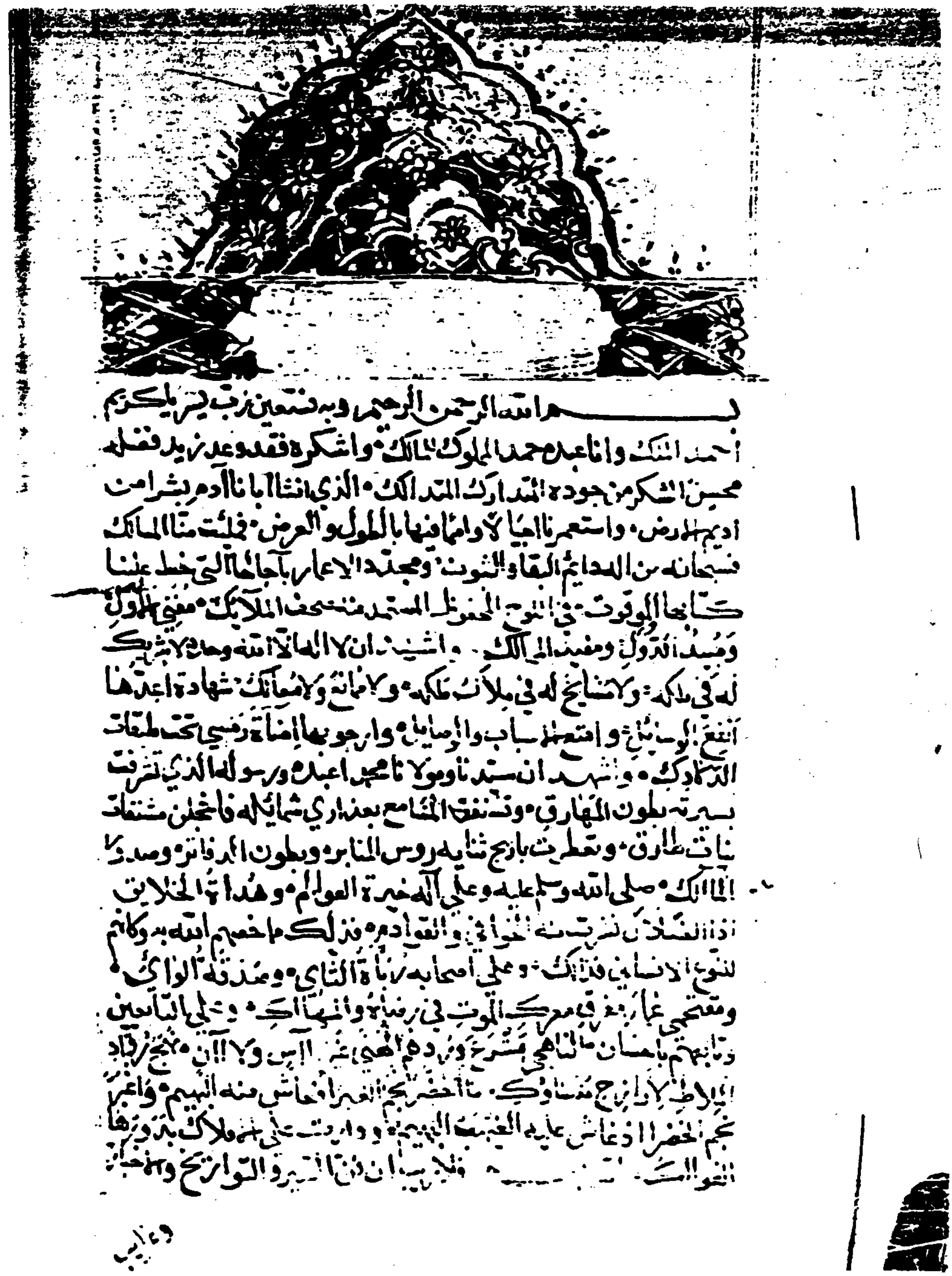
قدره ثم البس مولانا متع الله بحياته حضرة افندي الحرم
والقاضي السلطاني وكيخية الباشا اورته بن الپسورنلانه
من غير تأخير ولا ملاته والبس مولانا الشيخ عبد الواحد
الشيبي وابنه الشيخ الاجل عبد المعطي وجميع السرادير
والشراجه والجاويش وارباب المناصب القاطنين على
القانون والعادة ثم دعى لمولانا السلطان الاعظم سليمان
خان بن ابراهيم خان ولمولانا الشريف متع بحياته
على باب الكعبة الشريفة ذات السيادة وكان يوما
في نهاية الحسن وزياده .
وفي [illegible] رابع عشر الشهر المذكور امر مولانا
الشريف متع الله بحياته بحضور الخاصة والعامة عند
الحطيم للدعاء لحضرة مولانا السلطان الاعظم كل يوم
اثنين وخميس بعد صلاة الحنفي عامله الله تعالى بلطفه
الخفي وكان به نعم الحفي امين

تم

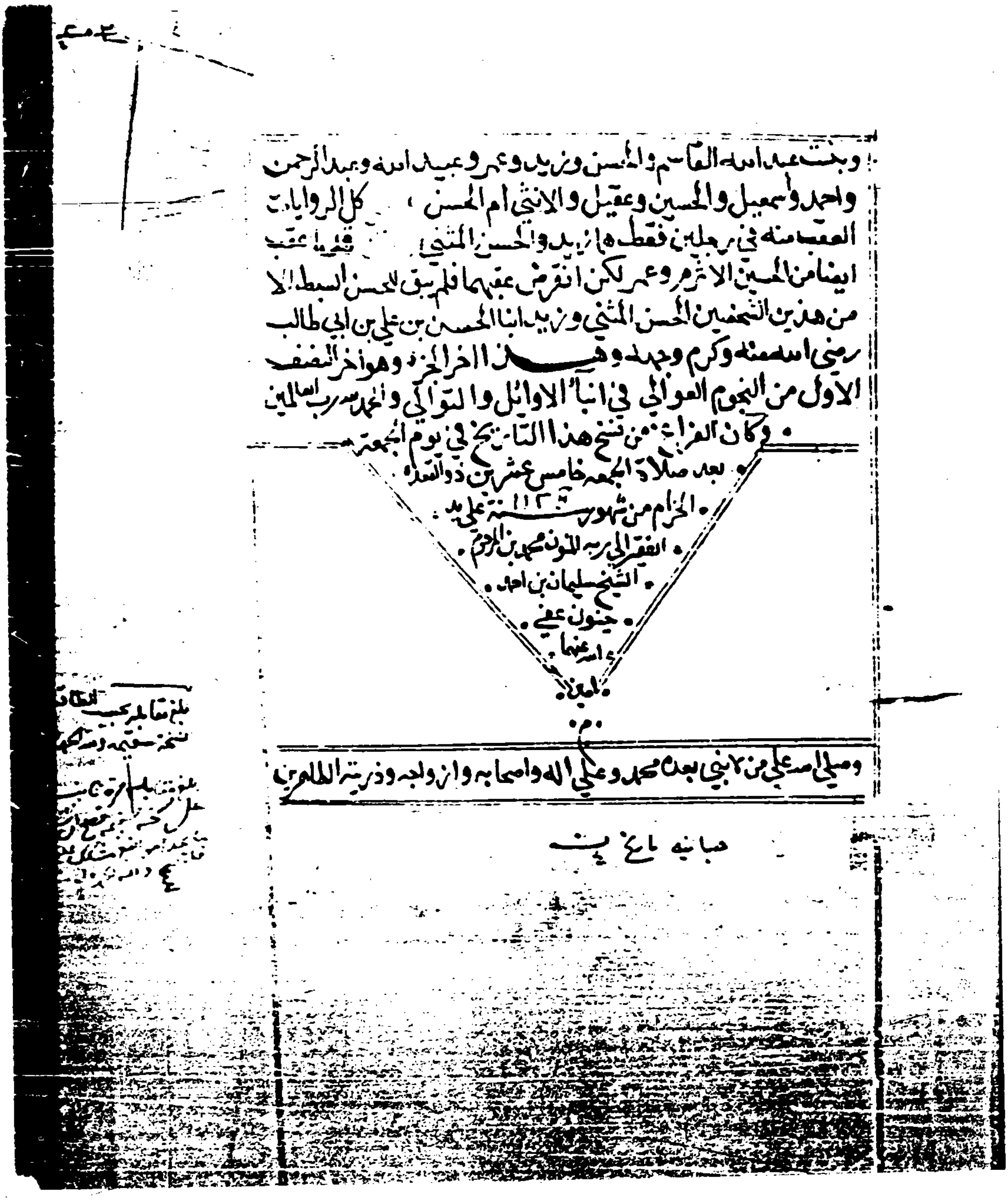
الجزء الخامس من كتاب سمط النجوم العوالي في انباء الاوائل
والتوالي بحمد الله وعونه وحسن توفيقه وبانتهائه
انتهى الكتاب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم
تم

كتبه

صورة الورقة الأخيرة من النسخة الثانية


بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين رب يسر يا كريم
أحمد الله وأنا عبد حمد الملوك المالك واشكره شكر عبد يزيد فضله
محسن الشكر من جودة المدارك المدارك الذي أنشأ آباءنا آدم بشرا من
أديم الأرض واستعمرنا فيها لاوامر فيها بالطول والعرض فملئت منا الممالك
فسبحانه من الدائم البقاء والثبوت ومجدد الأعمار بآجالها التي تخط عنا

صورة الورقة الأولى من النسخة الثالثة


وبنت عبد الله القاسم والحسن وزيد وعمر وعبيد الله وعبد الرحمن
واحمد واسمعيل والحسين وعقيل والانثى ام الحسن ، كل الروايات
العقب منه في رجلين فقط هما زيد والحسن المثنى قيل اعقب
اثنان من الحسين الاثرم وعمر لكن انقرض عقبهما فلم يبق للحسن السبط الا
من هذين الشخصين الحسن المثنى وزيد ابنا الحسن بن علي بن ابي طالب
رضي الله عنه وكرم وجهه وهنا آخر الجزء وهو آخر النصف
الاول من النجوم العوالي في انباء الاوائل والتوالي والحمد لله رب العالمين
وكان الفراغ من نسخ هذا التاريخ في يوم الجمعة
بعد صلاة الجمعة خامس عشر من ذو القعدة
الحرام من شهور سنة ١١٣٦ على يد
الفقير الى ربه المؤذن محمد بن ابراهيم
الشيخ سليمان بن احمد
عفى عنه
واعف عنها
امين
م
وصلى الله على من لا نبي بعده محمد وعلى آله واصحابه وازواجه وذريته الطاهرين

صورة الورقة الأخيرة من النسخة الثالثة

سِمْطُ النُّجُومِ العَوَالِي

فِي أَنْبَاءِ الأَوَائِلِ وَالتَّوَالِي

تأليف

عَبْد المَلك بن حُسَين بن عَبْد المَلك

الشَّافِعِيّ العَاصِمِي المكّي

المتوفى سَنَة ١١١١هـ

الجُزء الأوَّل

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين - رب يسر يا كريم

أحمد الملِكَ وأنا عبده حمدَ المملوك للمالك، وأشكره فقد وعدَ - زِيدَ فضله - محسنَ الشكر من جوده المتدارك المتدالك، الذى أنشأ أبانا آدم بشرًا من أديم الأرض، واستعمرنا أجيالاً وأممًا فيها بالطول والعرض، فملئت منا المسالك؛ فسبحانه من إله دائم البقاء والثبوت، ومجدد الأعمار بآجالها التى خُطَّ علينا كتابها الموقوت، فى اللوح المحفوظ المستمد منه صحف الملائك؛ مُفنى الأوَل، ومبيد الدُّول، ومفيد الممالك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له فى ملكه، ولا مشايح[١] له في ملاك ملكه ولا ممانع ولا معالك[٢]؛ شهادة أعدها أنفع الوسائل، وأمتَع الأسباب والوصائل، وأرجو بها إضاءة رمسى[٣] تحت طبقات الدكادك[٤]، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله، الذى تشرفت بسيرته بطون المَهارق[٥]، وتشنفت المسامع بعذارى شمائله، فأخجلن مشنفات بنات طارق، وتعطرت بأريج ثنائه رءوس المنابر، وبطون الدفاتر، وصدور المآلك[٦]؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله خيرة العوالم، وهُداة الخلائق إذا الضلال نُشرت منه الخوافى والقوادم[٧]، فذلك مما خصهم الله به وكأنهم للنوع الإنسانى فذالك[٨]، وعلى أصحابه رَبَأَة الثأى[٩]، وصدقة الوَأى[١٠]، ومقتحمى غمار مفرق معرك الموت فى

---

(١) مشايح: منازع.
(٢) معالك: لعله من علك الشيء، ويقال: علك نابيه: حرق أحدهما بالآخر فحدث صوت. وهو كناية عن الغيظ. ينظر: ترتيب القاموس (علك).
(٣) الرمس: القبر.
(٤) الدكادك: الأرض التي فيها غلظ، والمقصود هنا القبر. ترتيب القاموس (دكدك).
(٥) المهارق: جمع (مُهرَق)، وهو الصحيفة. (مُعَرَّب): ينظر ترتيب القاموس (هرق).
(٦) المآلك: الرسائل. ترتيب القاموس (ألك).
(٧) الخوافي: ما يخفى من صغار الريش. والقوادم: أربع ريشات أو عشر في مقدم الجناح للطائر والمقصود: انتشار الضلال وظهوره. ترتيب القاموس (قدم).
(٨) فذالك: من قولهم: فذلك الحساب: أنهاه وفرغ منه. والفذلكة: مجمل ما فُصِّل وخلاصته. (مولدة). الوسيط (فذلك).
(٩) ربأة الثأى: مصلحي ما فسد. والثأى: الفتق أو الخرق. ورأبه: سده، وإصلاحه.
(١٠) الوأى: الوعد الذي يوثقه المرء على نفسه. الوسيط (وأى).

رضاه والمهالك، وعلى التابعين وتابعهم بإحسان؛ الناهجى مشرع وردهم الهنئ غير آسنٍ ولا آن[١]، نهجَ رُواد المِلاط[٢] لا رازح متساوك[٣]؛ ما اخضرَّ نجم الغبراء، فعاش منه البهيم، واغبرَّ نجم الخضراء؛ إذ غاس عليه الغيهبُ البهيم[٤]، ودارت على الأفلاك بدورها الفوالك.

أما بعد: فلا ريب أن فن السير والتواريخ والأخبار، وغرائب القصص والوقائع والآثار، من الفنون التى تداولها الأجيال والأمم، وتعنو إليها نفوس ذوى الهمم، وتتنافس فيه الملوك والعظماء، ويتساوى فى فهمه الجهال والعلماء؛ إذ هو - فى ظاهره - لايزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأُوَل، تنمو فيها الأقوال، وتضرب منها الأمثال، وتسوَّغُ بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتُؤدى إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال؛ وما عانته الدول عند ضيق النطاق بها تارة، واتساع المجال.

وفى باطنه: نظر وتحقيق، واعتبار وتأسٍّ بما طحنته رحى الدهر، كل منهما دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق؛ فهو لذلك له أصل فى الحكمة عريق، وجدير بأن يعدَّ فى علومها وخليق، خصوصًا ما صُدرت به من سيرة سيد الأنام، وتعداد آبائه الكرام، وجميع غزواته وبعوثه وسراياه ومعجزاته، وما خُصَّ به من حميد مزاياه، وسائر حالاته وتقلباته، من حين الولادة إلى حين وفاته، كما سأبينه فى الفهرسة بما هو كاف فى المقام، وافٍ بالمرام، طافٍ للأوام.

وإن فحول المؤرخين فى الإسلام قد استوفوا أخبار الأمم: سطروها وبَيَّنُوهَا فى صفحات الدفاتر وقدَّروها؛ ترويحًا للنفوس، وتفريحًا للخاطر الملبوس، وتنبيهًا على كمال قدرة القاهر وإيقاظًا، وتبصرة للعاقل؛ إذا تأملها أينع غرسها فيه تسليمًا واتعاظًا؛ مصداق قول الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وهو الثبت العدل: « علم التاريخ يزيد العقل » مع ما فيه من ضبط الأوقات والأحوال، عما يحصل بسبب الكذب فيه من الاختلال.

---

(١) الآسن: الذي يتغير ريحه. والآن: شديد الحرارة.
(٢) الملاط: عضدا البعير أو كتفاه. الوسيط (ملط)
(٣) رازح: الساقط من هزاله. والمتساوك: الضعيف الهزيل.
(٤) الغيهب البهيم: الليل إذا اشتد سواده.

قال العلامة عبد الرحمن بن الديبَع[1] فى كتابه « بغية المستفيد، فى أخبار زبيد »: لولا التاريخ لقال من شاء ما شاء.

وقال حسان بن زيد: « لم يُستعن على الكذابين بمثل التاريخ »[2]؛ فقد نقل أن بعض اليهود من أهل خيبر، أظهر كتابًا وادَّعى فيه أنه كتاب رسول الله ﷺ، كتبه لهم بإسقاط الجزية عنهم حين فتحها - عليه الصلاة والسلام - وفى ذلك الكتاب شهادة جمع من الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين- منهم: أمير المؤمنين على بن أبى طالب، وسعد بن معاذ، ومعاوية بن أبى سفيان؛ فعرض الكتاب على الحافظ العلامة أبى بكر أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي، فتأمله وقال: هذا مزور على رسول الله ﷺ وأصحابه. فقيل له: من أين لك هذا ؟ قال: لأن فيه شهادة معاوية بن أبى سفيان، وهو إنما أسلم يوم فتح « مكة » سنة ثمان من الهجرة، وفتحُ خيبر إنما كان سنة سبع من الهجرة، وفيه شهادة سعد بن مُعاذ، وكان سعد قد مات يوم بنى قريظة؛ من سهم أصابه يوم الخندق، وذلك سنة خمس من الهجرة، فيكون موته قبل فتح خيبر بسنتين، فظهر تزوير هذا الكتاب[3]. انتهى. فيالها منقبة عظيمة، تتوق إليها الأنفس الكريمة. وقد قال القائل: [من الطويل]

إِذَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ أَخْبَارَ مَنْ مَضَى ... تَوَهَّمْتُهُ قَدْ عَاشَ مِنْ أَوَّلِ الدَّهرِ

(١) هو وجيه الدين أبو محمد عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن يوسف، محدث اليمن ومؤرخها، ولد بمدينة زبيد سنة ست وستين وثمانمائة، وبرع في العلم حتى انتهت إليه رياسة الرحلة في علم الحديث وقصده الطلبة من أركان الأرض وقد وصفه أقرانه بمسند الدنيا أمير المؤمنين في الحديث، وله مصنفات عديدة منها: تيسير الوصول إلى جامع الأصول، وتمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث، وقرة العيون في أخبار اليمن الميمون، وبغية المستفيد في أخبار زبيد، وغيرها. توفي رحمه الله يوم الجمعة السادس والعشرين من رجب سنة أربع وأربعين وتسعمائة. ينظر « النور السافر » (٢١٢-٢٢١)، الكواكب السائرة (٢/ ١٥٨-١٥٩)، شذرات الذهب (٨/ ٢٥٥-٢٥٦)، البدر الطالع (١/ ٣٣٥-٣٣٦)، إيضاح المكنون (١/ ٣٣٢)، هدية العارفين (١/ ٥٤٥).

(٢) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٧/ ٣٥٦-٣٥٧) من طريق أبي حسان الزيادي قال: سمعت حسان بن زيد يقول . . . فذكره، وقال فيه: « نقول للشيخ: سنة كم ولدت، فإذا أقر بمولده عرفنا صدقه من كذبه » وينظر: الإعلان بالتوبيخ (٢٢).

(٣) ينظر: الإعلان بالتوبيخ (٢٥) وفيه أن الكتاب حمل إلى رئيس الرؤساء أبي القاسم على وزير القائم فعرضه على أبي بكر الخطيب فلما أظهر بطلانه استحسن ذلك منه واعتمده وأمضاه، ولم يجز اليهود على ما فيه لتزويره.

وَأَحْسَبُهُ قَدْ عَاشَ آخِرَ عُمْرِهِ مَدَى الدَّهْرِ إِنْ أَبْقَى الجَمِيلَ مِنَ الذِّكْرِ
فَكُنْ عَارِفًا أَخْبَارَ مَنْ مَاتَ وَانْقَضَى وَكُنْ ذَا نَوَالٍ تغتنم أَطْوَلَ العُمْرِ

فهو فن غريز المذهب، عزيز المذهب، جم الفائدة، شريف العائدة؛ إذ هو يوقفنا على أخلاق الأنبياء فى هدى رسالتهم، وأحوال الخلفاء والملوك فى دولهم وسياستهم؛ حتى تتم فائدة الاقتداء بهم فى ذلك لمن يرومها فى أحوال الدين والدنيا، ويطلع طلع حقائق الأمور غنية بالتصريح عن الرموز والكنيا.

وفن التاريخ ما برح بهذه الفوائد كفيلا، ومافتئ يأتى بالأخبار على وجهها جملة وتفصيلًا؛ فهو كالمرآة الصقيلة، من نظر فيها كشفت له عما لايحسن عنده أو يقول باستحسانه، ويصير بمعرفة من تقدَّم بمنزلة من شاهد المغيبات بعيانه، ولولاه لأصبحت المآثر وهن دواثر، ورسوم المكارم ليس لها معالم، ومناهل المحاسن ذات ماء آسن؛ فلم يزل الخلف متطلعين لأخبار من سلف، ومتتبعين لزهرات محاسنهم التى تقتطف؛ لتقتفى آثارهم فيما كان لهم من الأفعال الحميدة، وينشر ما طواه الدهر من مآثر فضائلهم العديدة.

وكنت عند مطالعتى كتب السير والتواريخ، واستجلائى ثمرها من يانع الشماريخ، أحاول جمع كتاب من مجموعها مجموع، حاوٍ طرف أخبار تحسد العينُ أذنَها أنها من مقولة المسموع، فلم يزل الدهر مانعًا من صرف الهمة إلى نحو هذا المبتدا، وكلما نصبتُ نولَ حياكته صيَّر ذلك السَّدَى سُدَى، إلى أن جاورتُ سنة أربع وتسعين وألف بمدينة الرسول؛ فتوجهت إلى الله فى تبليغ المأمول، واستخرتُ الله تعالى عند ذلك، وسألت من كرمه الإعانة على ما هنالك، وفوَّقت السهم إلى ما أردت، فأصاب - بحمد الله - شاكلة الصواب، وأطلع الله الفكر على ما اشتهيت وهيأ لى الأسباب، ولا شك أن لشمس النجح ميقات، ولقضاء الحوائج أوقات؛ فشرعت فيه فى زمان فت فى الأعضاد، وأبطل جانب الثقة والاعتضاد، إن توسل فيه اللبيب ببلاغة الصادين لم يرو غلة صاد، ولم ير إلا خديعة من مداهن أو مضاد، ولو دوخ ما وراء قاف لم يحظ بكاف ما دهاه، ولا لحظته بنظر العطف عينُ راءٍ كما اشتهاه، أو نثر ما يضاهى حلق الدروع تأسيًا لام، إذا له مسبحًا ذيل ملام، لكننى استدمت عليه بجوار رسول الله والقرابة، واستمددت من نواله العذب الجم طاقة

خير، أغلقتُ بفتحها من الشر بابه، فغربلت من بطون السير والمصنفات معناه الدقيق، وغصت من لج التواريخ على دره النسيق، تصان عن الخبط أوراق عليه اشتملت، ويترفع عن السقوط نضيج أثمار أشجاره احتملت؛ فقد تجلى فى عيون الإفادات أشكالاً وصنوفًا، وتحلى من فنون الإجادات أساور وشنوفًا، وحوت أغصانه المائدة، كل خبر طيب الجنى فكأنها مائدة، وقيد من الفوائد كل شاردة؛ فهى فى الحقيقة للألباب صائدة، خزانة كتب جمعت فى كتاب، ومدينة علم منها إلى كل فن باب.

وهذه عدة الكتب التى كان منها استمدادى؛ فقويت بها يدى على حمل آدى:

« سيرة الشامى »، الشيخ محمد بن يوسف.

سيرة شمس الدين البرماوى.

سيرة ابن سيد الناس.

« المواهب اللدنية ».

سيرة مُغلطاى.

سيرة الشيخ محمد الصالحى المسماة: « زاد المعاد »[1].

« الاكتفا » لأبى بكر الكلاعى.

« الشفا » للقاضى عياض.

شرح سيرة ابن هشام، المسمى بـ « الروض الأنف » لأبى القاسم السهيلى.

« ذخائر العقبى، فى مناقب ذوى القربى » للمحب الطبرى.

« العقد الثمين، فى مناقب أمهات المؤمنين » له أيضًا.

تاريخ المسعودى، المسمى: « مروج الذهب ومعادن الجوهر ».

تاريخ العلامة محمد بن عثمان الذهبى، المسمى: « دول الإسلام ».

تاريخ القاضى شمس الدين أحمد بن خلّكان.

« تاريخ الخميس » للعلامة محمد بن حسين الديار بكرى.

تاريخ العلامة عبد الوهاب بن السبكى.

---

(١) كذا في الأصل، وكتاب الشيخ محمد الصالحي (ت٩٤٢هـ) معروف بعنوان: « سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد » وقد حققناه بهذا العنوان.

تاريخ ابن الجوزى، المسمى بـ « المنتظم، فى أخبار الأمم العرب والعجم ».

تاريخ القدس والخليل، المسمى بـ « الأنس الجليل ».

تاريخ العتبي المسمى بـ « اليميني »، جعله ليمين الدولة محمود بن سُبُكتُكين فى غزواته وفتوحاته ومناقبه.

تاريخ الصفدى.

تاريخ الجزيرى.

تاريخ البهوتى.

تاريخ القطبى.

تاريخ رضوان أفندى، المسمى بـ « الجمع الغريب، فيما يسرُّ الكئيب ».

تاريخ محمد بن جار الله، المسمى بـ « الجامع اللطيف ».

تاريخ اليافعى.

تاريخ أحمد بن على المعروف بـ « ابن زنبل ».

تاريخ العلامة التقى الفاسى، المسمى: « شفاء الغرام ».

« تاريخ الخلفاء » للسيوطى.

تاريخ العلامة عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى.

تاريخ الفاكهى.

تاريخ ابن فهد، المسمى: « إتحاف الورَى ».

تاريخ الخزرجى.

« تاريخ خلفاء الزمن » للسمرقندى.

تاريخ الأزرقى.

تاريخ ابن ظَهيرة، المسمى بـ « الأخبار المستفادة، فيمن ولى مكة من آل قتادة ».

تاريخ يوسف بن تغري بردي، المسمى: « مورد اللطافة، فيمن ولي السلطنة والخلافة ».

تاريخ الديبع، المسمى: « بغية المستفيد ».

تاريخ على بن عبد القادر الطبرى، المسمى بـ « الأرج المسكى، بالتاريخ المكى ».

تاريخ الكامى محمد بن مصطفى.

تاريخ المدينة، المسمى بـ « خلاصة الوفا » للسيد السمهودى.

تاريخ ابن عربشاه، المسمى: « عجائب المقدور، فى أخبار تيمور ».

تاريخ الحائنى، المسمى: « حقيبة الأسرار، وجهينة الأخبار ».

تاريخ السيوطى، المسمى: « نظم العقيان، فى أعيان الأعيان ».

تاريخ ابن حجر العسقلانى، المسمى بـ « الدرر الكامنة، فى أخبار أهل المائة الثامنة ».

« ذيل الضوء اللامع، فى أهل القرن التاسع » (معًا) للعلامة السخاوى.

« فتح البارى شرح البخارى » للعلامة ابن حجر العسقلانى.

« التلقيح » لابن الجوزى.

« الفتوحات المكية » للشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى.

« العواصم من القواصم » له(١).

« جواهر العقدين، فى فضل الشرفين » للسيد السمهودى.

« الوشاح » لابن دُرَيد.

« الخطط » للمقريزى.

« كتاب الروضتين » لأبى شامة.

« تذكرة ابن حمدون ».

« تذكرة ابن فهد ».

« طبقات ابن سعد ».

« تذكرة الصفدى ».

« العرائس » للثعلبي(٢).

« علل الشرائع والأحكام » للمسعودى.

« المسامرة » لابن عربى.

---

(١) بل « العواصم من القواصم » للقاضي أبو بكر بن العربي المالكي، صاحب أحكام القرآن وقد أخطأ المؤلف في ذلك، وشتان بين محيى الدين بن عربي، وأبو بكر بن العربي. فتنبه.

(٢) في الأصل: الثعالبي، والمثبت هو الأشهر من لقبه، وهو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي ت ٤٢٧هـ. وكتابه: قصص الأنبياء المسمّى عرائس المجالس وهو مليء بالإسرائيليات.

« الكشاف » للزمخشرى.

« ربيع الأبرار » له.

« روض الأخبار ».

كتاب « الأذكياء » لابن الجوزى.

« مرآة الزمان » لسبطه.

« الكامل » لأبى العباس محمد بن يزيد عرف بالمبرد.

« الكامل » لابن الأثير.

« كتاب المبتدا » للحجرى.

« كتاب الوصية ».

« قلادة النحر » لأبى مخرمة.

« كتاب ألف با » للبلوى.

« سراج الملوك ».

« خريدة العجائب ».

« الرياض النضرة » للمحب الطبرى.

« المدارك » للنسفى.

« المدخل » لابن الحاج المالكى.

« العقد » لابن عبد ربه.

« رحلة ابن جبير ».

« شوق العروس وأنس النفوس » للحسين بن محمد الدامغانى.

« شرح المقامات » للمطرزى.

« حياة الحيوان الكبرى » للدميرى.

« رى العاطش، وأنس الواحش » لمحمد بن عمار.

« درة الغواص » للحريرى.

« البحر العميق » لابن الضياء.

« القاموس » للمجد الفيروزابادى.

« بحر الأنساب ».

« عمدة الطالب ».

« تحفة الطالب » للسمرقندى.

« أنساب قريش » للزبير بن بكار.

« الصواعق » لابن حجر الهيثمى.

« قواعد العقائد » للغزالى.

« المقاصد » للسعد التفتازانى.

« مصباح الظلام فى المستغيثين بسيد الأنام ».

« الإشاعة لأشراط الساعة » للسيد محمد البرزنجي.

« المنار المنيف فى الصحيح من الضعيف » للعلامة شمس الدين بن القيم.

« الروضة الأنيقة » للسيد السمرقندى.

« وسيلة المآل ».

« نشأة السلافة ».

« سلافة العصر من محاسن أهل العصر ».

« حسنة الزمان » لحسين بن ناصر المهلا.

« الإرشاد » لإمام الحرمين عبد الملك بن أبى محمد الجوينى.

« نظم الجواهر والدرر، فى أهل القرن الحادى عشر »، للسيد محمد الشلى.

« كمامة الزهر، فى وقائع الدهر ».

« المحاسن » للبيهقى.

« الريحانة » للشهاب الخفاجى.

كان ابتداء جمعه وتأليفه، وتصريف القلم فى إبداع ترصيفه، يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الآخر من السنة المذكورة؛ أعنى: سنة أربع وتسعين وألف، من هجرة من له الفخر والشرف، إلى أن انتهى تبييضه أواخر شهر صفر الخير من سنة ثمان وتسعين؛ فكانت مدة عنائى به ونظم منثوره من الكتب المذكورة أربعًا من السنين محبورة، فعندها وقف القلم قهرًا، وإن كانت وقائع الوجود مستمرة، وسألحق به ما يتجدد منها قيد حياتى طرة إثر طرة.

ورتبته فى أربعة مقاصد ذوات أبواب، وخاتمة نسأل الله حسنها آخر الكتاب.

المقصد الأول

فى ذكر نسبه عليه الصلاة والسلام، وتعداد آبائه الكرام

من لدن نبى الله آدم أبى البشر، صلى الله على نبينا وعليه وعلى سائر النبيين وسلم، إلى أبيه سيدنا عبد الله بن عبد المطلب، ولمع من أخبارهم، ونوادر آثارهم، ومقادير أعمارهم، وفيه ذكر كيفيه التناسل، وذكر قابيل وهابيل، وقتال أبناء قابيل، وذكر نوح والطوفان والسفينة، وذكر عوج بن عنق، وإلهام الله العربيةَ عدةَ قبائل من أولاد عابر، وهو النبي هود - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - ثم افتراق العرب إلى العدنانية والقحطانية، وذكر طَسْم وجَدِيس وتُبَّع، وذكر العمالقة وقطورًا والسَّميدَع وجُرْهُم وبنى إسماعيل، وخروج عمرو بن عامر مُزيقيا، وتفرق قومه إلى « مكة » وهم خزاعة، وإلى « المدينة » وهم الأوس والخزرج، وإلى « الشام » وهم ملوك غسان، وإلى « العراق »[١] وهم ملوك الحيرة: النعمان بن المنذر وقومه، وإلى غير هؤلاء، وذكر ولاة « مكة » فى الجاهلية وقبلها من زمن الخليل - عليه الصلاة والسلام -، وذكر بناة الكعبة: قُصىّ ثم قريش ثم ابن الزبير ثم الحجاج بعد ذكر من قبلهم، وذكر قريش الأباطح، وقريش الظواهر، وقريش العازبة، وقريش العائدة، ولعقة الدم، وذكر حلف المطيبين، وحلف الفضول، وحلف الأحابيش، وذكر حرب الفِجار الأول، وحرب الفِجار الثانى، وذكر الحُمْس والحلة والطلس من قريش وغيرهم، وذكر النسىء وكيفية الإنساء، وذكر الإجازة من عرفة إلى مِنًى، ومنها إلى مكة ومتولى ذلك، وذكر الحكام من قريش، وذكر طمع عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العُزى بن قصى أن يملك قريشًا ويتملك عليهم من جانب قيصر، وذكر بنى عبد مناف والحجابة والسقاية والرفادة والقيادة، وذكر وِفادة عبد المطلب فى وجوه قومه إلى سيف بن ذى يَزَن مهنئين له بالملك، وذكر زمزم وغيرها مما حفرته قريش بمكة من الآثار، وذكر الفيل وأصحابه وغير ذلك.

---

(١) في الأصل: اليمن، والصواب المثبت.

المقصد الثانى
فى أحواله عليه الصلاة والسلام. وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول: فى الحمل به وولادته ورضاعه، وموت عمه أبى طالب، وزوجته السيدة خديجة، وخروجه إلى الطائف.

الباب الثانى: فى ذكر هجرته إلى المدينة الشريفة، والغار وما حوى، ولحاق سراقة بن مالك، وشعر أبى جهل، وخيمتى أم معبد، وذكر أم عفى، ولقى عبد الله بن مسعود، وكيفية دخول المدينة ومواجهة الأنصار، ونزوله بـ « قباء » وبناء مسجدها، وغير ذلك.

الباب الثالث: فى ذكر أعمامه وعماته، وأبناء أعمامه وأبنائهم، وأبناء عماته وأبنائهن.

الباب الرابع: فى ذكر زوجاته المدخول بهن، وأخبارهن ومناقبهن ووفاتهن، ومن مات فى حياته منهن، ومن توفى عنهن، ومن عقد بهن ولم يدخل، ومن خطبهن ولم يعقد، وسراريه.

الباب الخامس: فى أولاده - عليه الصلاة والسلام - وأولادهم، وتراجم كل واحد منهم.

الباب السادس: فى ذكر مواليه وخدامه وإمائه، وكتابه وأمرائه، ومؤذنيه وخطبائه، وحُدَاته وشعرائه، وخيله وسلاحه، وغنمه ولقاحه، وثيابه وأثاثه، وما يتبع ذلك.

الباب السابع: فى الحوادث من أولى سِنِى الهجرة، المشتمل على غزواته وبعوثه وسراياه ومعجزاته، وما خُصَّ به من حميد مزاياه، وسائر حالاته وتقلباته إلى حين وفاته.

المقصد الثالث
فى ذكر الخلفاء الأربعة، وذكر خلافة الحسن بن على رضى الله تعالى عنهم أجمعين

وفيه: ذكر ما وقع فى سقيفة بنى ساعدة، وتخلف على وبنى هاشم وبعض الصحابة عن المبايعة، ومحاجة فاطمة أبا بكر فى فَدَك والعوالى، ووفاة سعد بن عبادة سيد الخزرج، وإرسال أبى بكر الصديق أبا عبيدة بن الجراح إلى علىّ برسالة،

وجواب على عنها، وتفسير غريبهما، وذكر الأحاديث الدالة على خلافة الصديق، واختلاف الناس فى تأويلاتها، وذكر الاعتراضات عليها وأجوبتها، وذكر أقاويل أكابر أهل البيت فى الثناء على الشيخين والترحم عليهما، وذكر إبطال ما ينسبه أهل الأهواء إليهما، وذكر نسب الصديق وإسلامه وصفته، وقتاله أهل الردة، وقتل خالد بن الوليد مالكَ بن نويرة، واستعداء أخيه متمم بن نويرة على خالد عند الصديق، وقصة الصديق مع دغفل النسَّابة، وما ورد من الآيات والأحاديث فى شأنه خاصة، وذكر أولاده، ووفاته.

ومثل ذلك لكل من الخلفاء الأربعة بعده، وقصة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - مع عمرو بن معدى كرب، وذكر الشورى وما آل إليه أمرها، ووقعة القادسية، وذكر الأمور المنقومة على عثمان وجوابه عنها، وذكر وقعة الجمل، ووقعة صفِّين، وذكر التقاء الحكمين بـ « دومة الجندل »، وذكر مكر معاوية لعمرو بن العاص، ومناظرة ابن عباس للخوارج حين أرسله علىّ إليهم، ووقعة النهروان وقتل ذى الثدية المخرج، ومراسلات معاوية رضى الله عنه إلى على - كرم الله وجهه - وجواب على عنها، ومراسلات معاوية إلى قيس بن سعد بن عبادة، وإلى محمد بن أبى بكر الصديق، وجوابهما إليه، وذكر بعض أقضية على - كرم الله وجهه - وشعره، ومَراثٍ قيلت فيه.

المقصد الرابع
وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول: فى ذكر الدولة الأموية، وفيه: ذكر قصة هند بنت عتبة بن ربيعة والدة معاوية - رضى الله عنه -، وصلح الحسن بن على مع معاوية، ونزوله عن الخلافة له بشروط اشترطها الحسن، وَفَّى لَهُ معاوية بكلها أو جلها، واستلحاق معاوية زياد بن سمية إلى نسب أبى سفيان وما قيل فى ذلك، وقتل زيادٍ حُجْرَ بن عدى وأصحابه من شيعة على - كرم الله وجهه - وموت زياد ابن أبيه، وذكر سياسات معاوية التى ملك بها الجنود، وأحكمت له بها العقود، وذكر عهد معاوية لابنه يزيد بالخلافة، وذكر توجه الحسين إلى الكوفة، واستشهاده بكربلاء على التفصيل، وذكر مناقب الحسين بن على - رضى الله عنهما - وذكر ولاية الوليد بن

عتبة على الحجاز، وعزل عمرو بن سعيد الأشدق، وذكر خلع أهل المدينة يزيد، ووقعة الحرة، وحصار مكة، وذكر بيعة عبد الله بن الزبير، وذكر انتقاض أمر عبيد الله بن زياد، ورجوعه إلى الشام، وذكر مسير الخوارج إلى ابن الزبير، ثم مفارقتهم إياه، وذكر خروج سليمان بن صرَد الخزاعى فى التَّوَّابين من الشيعة للأخذ بثأر الحسين بن على - رضى الله تعالى عنهما -، وذكر المختار بالكوفة وأخباره، وذكر مسير ابن زياد إلى المختار، وخلاف أهل الكوفة عليه وغلبه إياهم، وذكر شأن المختار مع ابن الزبير، وذكر مقتل ابن زياد، وذكر مسير مصعب بن الزبير وقتله إياه، وذكر مسير عبد الملك بن مروان إلى العراق، وقتله مصعبَ بن الزبير، وذكر زُفَرَ بْنِ الحارث الكلابى بـ « قرقيسياء »، وتوجيه عبد الملك بن مروان الحَجَّاجَ إلى مكة لقتل عبد الله بن الزبير، وذكر ولاية المهلب حربَ الأزارقة، وولاية الحجاج على العراق.

وذكر وثوب أهل البصرة على الحجاج، وذكر شبيب بن يزيد الحرورى، وذكر فرسان الجاهلية والإسلام، وذكر وفاة الحجاج، وقصة وَضَّاح اليمنى مع أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك وهى عربية ذكرها ابن حمدون فى « التذكرة » وغيره، وبناء الوليد بن عبد الملك جامع دمشق المعروف بجامع بنى أمية، وغيره ذلك.

الباب الثانى: فى ذكر الدولة العباسية، وفيه ذكر قيام أبى مسلم الخراسانى بالدعوة العباسية، وذكر الشيعة ومبادئ دُوَلهم، وذكر كيفية بناء المنصور مدينة بغداد، وذكر توسيع المسجد الحرام وتربيعه للمهدى العباسى، وإيقاع الرشيد بالبرامكة، واختلاف الناس فى أسباب نكبتهم، وذكر فتح المعتصم عمورية، وظهور القرامطة أيام المكتفى على بن المعتضد العباسى، وظهور النار من الحرَّة الشرقية بالمدينة النبوية، وشرح واقعة التتار، ومبدأ أمرهم، وقتلهم الخليفة الستعصم العباسى آخر خلفاء بغداد، وغير ذلك.

الباب الثالث: فى ذكر الدولة العُبَيدية - المسمين بالفاطميين -، وفيه ذكر الخلاف فى صحة نسبهم، وذكر افتتاح المعز الفاطمى مصر على يد عبده جوهر الرومى الصقلى، وذكر عجارف[1] الحاكم بأمر الله منهم وكيفية مقتله، وفتنة

---

(١) العجارف: الأحداث والصروف. الوسيط (عجرف).

البساسيرى ببغداد، وخطبته بها للمستنصر الفاطمى، وإخراج الخليفة القائم بأمر الله العباسى إلى « حديثة عانة »[(١)]، وإعادة الملك طغرلبك إياه، وذكر الغلاء الشديد والقحط العظيم بديار مصر سنة اثنتين وستين وأربعمائة فى خلافة المستنصر الفاطمى المذكور، وغير ذلك.

الباب الرابع: فى ذكر الدولة الأيوبية الكردية، وفيه ذكر قتل شاور، وذكر العاضد آخر خلفاء العُبَيديين، وذكر نور الدين الشهيد محمود بن زنكى، وذكر القاضى الفاضل، واستكتاب صلاح الدين يوسف بن أيوب إياه، وصلب صلاح الدين عمارة اليمنى وقاضى مصر وجماعة. لتمالئهم على قصد سوء، وذكر الوزير جمال الدين الأصفهانى الجواد المشهور ومدفنه بالمدينة الشريفة، وغير ذلك.

الباب الخامس: فى الدولة التركمانية، ووقائع آثارهم.

الباب السادس: فى ذكر دوله الشراكسة، وبدائع أخبارهم.

الباب السابع: فى ذكر الدولة العثمانية أعدل سلاطين الإسلام، أدام الله دولتهم إلى يوم القيامة. وفيه ركوبُ السلطان سليم خان بن بايزيد على إسماعيل شاه بعد مراسلته، وذكر مراسلة السلطان سليمان خان لإمام اليمن الإمام المطهر، وجواب الإمام إليه، وذكر عمارة سور المدينة الشريفة، وعمارة كريمية وهى أم السلاطين عينَ عرفة، وذكر ابتداء تعمير المسجد الحرام فى دولة السلطان سليم بن سليمان خان، وإتمامه فى دولة السلطان مراد بن سليم خان، وغير ذلك.

وأما الخاتمة
فتشتمل على ثلاثة أبواب

الباب الأول منها: فى ذكر نسب الطالبيين، وذكر المشاهير من أعقابهم، وفيه ذكر الأئمة الاثنى عشر، وتراجم كلٍّ، وذكر بنى حسين أمراء المدينة الشريفة، وواقعة الخوارزميّ مع البديع الهمذانى فى مجلس أبى جعفر محمد بن موسى بن أحمد، من عقب موسى الكاظم، وذكر دخول دِعبل الخزاعى على الإمام موسى الكاظم، وإنشاده قصيدته فى آل البيت التائية المشهورة، وغير ذلك.

---

(١) هي اسم موضع أقام بها القائم الخليفة العباسي. ينظر: مراصد الاطلاع (١/ ٣٨٧)

الباب الثاني منها: في ذكر من دعا منهم إلى المبايعة، وذكر مكان دعائه وزمانه، وما جرى على كل قائم منهم من خليفة زمانه، وتعدادهم، من علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - إلى يومنا هذا، وفيه ذكر اختلاف الشيعة، وانقسام مذاهبهم إلى الزيدية وإلى الرافضة، وانقسام الرافضة إلى اثني عشرية ويخصّون باسم الإمامية، وإلى الإسماعيلية، ومنهم في الاعتقاد القرامطة مع اختلاف بينهم في سياق الإمامة، وذكر الفرقة الكَيْسانية، وذكر مراسلات المنصور العباسي مع محمد النفس الزكية ابن عبد الله المحض ومقتله، وذكر الأئمة القائمين بالدعوة في قطر اليمن، وغير ذلك.

الباب الثالث منها: في ذكر من ولي مَكَّةَ المشرَّفة من آل أبي طالب إلى يومنا هذا، وفيه ذكر آل أبي الطيب وأخبارهم، والهواشم وآثارهم، والقتادات وهم ولاتها إلى هذا الأوان، فلا أخلى الله منهم الزمان والمكان، وذكر بعض تراجم لبعض الأعيان الكرام من أهل الحرمين ومصر والشام، ممن تُوُفِّيَ بعد الألف إلى عام إتمامه. جعله الله مشمولاً بالخير والرضا في بدئه وختامه.

ولما تم تأصيله وترتيبه، وكمل تربيع مقاصده وتبويبه، سميته تسمية مطابقة لوصفه في الواقع، ضابطة لسنة تاريخه، بعد أن حَوَّمَ شاهينُ الفكْرِ حتى ظننته عليها غير واقع، فكانت التسمية تاريخًا له، وذلك من أبدع البدائع وأفضل النيل، لم يتفق ذلك في الزمن الخالي، إلا لأحمد الفضل باكثير في كتابه « وسيلة المآل، في عد مناقب الآل »، فرفع به علم تبجحه منتصبًا وجر الذيل، وهي:

سِمْطُ النُّجُومِ العَوَالِي فى أَنْبَاءِ الأوائِلِ والتَّوَالِي

وقدمته لحضرة سيد الشرفا، وسليل الخلفا، ومفرد آل بيت المصطفى، وجعلته خدمة له برسمه، وتوّجته بلقبه الشريف واسمه، جامع أشتات المكارم والفضائل، حاوي محاسن الأواخر والأوائل، سلالة البيت النبويّ، وزلال الغيث الرويّ، مظهر الملك ومعهده، ومجدد بنائه ومشيده، ومحيي ما أمحل من أرض العفاة بوابل جوده، وحائز إرث النبوة والخلافة عن آبائه وجدوده، من أعطاه الله من صنوف الإعزاز والتمكين ما لم يعطه لغيره، ودانت له الأيام حتى ذَلَّتِ الأسود في حالتي

إقامته وسيره، وخدمته الأيام والليالى، وباهت به من درج فى الحقب الخوالى، ووجدت الناس فى أيامه السعيدة أمانًا من الحوادث، وانطلقت الألسن بالدعاء لجنابه فهو إن شاء الله للأعمار وارث، فأيامه مواسم، وطرق هباته نواسم، وثغور الأيام فرحًا به فى رحابه بواسم، وسعادات تدبيره لأدواء اللأواء حواسم، وربوع الجور والعدوان فى أيامه طوامس، ويقال طواسم.

أمِنَّا به الدهْرَ المخوفَ فكلَّما   لـه قـامَ داعٍ بـالـسـلامـةِ أمـنَّـا

الذى قد رضع ثدى المجد، من زمن حصوله فى المهد، وافترش حجر الفضل، فى حال كونه شابًا وكَهْل. ما ذهب إلى شىء إلا شيَّده وأيد برهانه، ولا انتحَى أمرًا إلا وساعده مساعدُ القضاء وأعانه. له محبة وهيبة فى النفوس، وجلالة وعظمة أُسها فى القلوب مغروس. صاحب اليد الرحيبة فى المكان الضيق، والخصال الشريفة التى تأخذ بمجامع القلوب، فكل ذى لُبٍّ إليها شيق. حَادُّ الذهنِ سريعُ الإدراك، قد خصه الله بالمناقب التى سارت بها الركبان والأفلاك، والأخلاق التى ليس للنسيم لطفُهَا، ولا للرياض نضرتها وظَرْفُهَا. فهو نعمة من الله على المسلمين يجبُ الاعتراف بقدرها، ومنة على العباد لا يقام بشُكْرها، وحجة لا يسع الحاسد لها الجحود، وآية تشهد بأنه زمام هذا الوجود، أصبح به الدهر يميس إعجابًا، والأزمنة بعد هرمها عادت بزمنه شبابًا، منبع السيادة ونبعتها، وصيت المكارم وسمعتها، له خلق لو مزج بماء البحر نفى ملوحته، وأصفى كدورته، ينابيع الجود تتفجَّر من أنامله، وربيع السماح يضحك عن فواضله، قد نشر الله فى الآفاق ذكره، وأطال فى كل المواطن نعته وخبره، ومهَّدَ بحسن سياسته وتدبيره الأقطار الحجازية وعمَّر، وبسط العدل فى رعيته وعمهم ببره وغمر، ومكارمه لم تنلها الغمائم، ومحاسنه تسجع بأوصافها الحمائم، الإمام العالم العادل، والهمام الأعظم الكامل، الوافر فضله، البسيط ظله، الطويل مجده، المديد سعده، ذو القريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة، والكلمات الفاضلة الموجزة، فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع، وظهر على كافور الأيام ومِسْك الليالى نورها الساطع، منشر رفات المجد وناشر آياته، وسابق غايات الفضل وتالى آياته، سلطان الحجاز المدعوّ

له على منابره الشريفة، المستغنى بشهرته عن الإطناب بالإيجاز فى مناقبه المنيفة، حامى حمى الحرمين الشريفين بسمهريه وحُسامه، النامى فى حفظ المحلين المنيفين أجره بشديد قيامه، أجلُّ ملوك هذا البيت، وأعظم من ركب صهوة أدهم وامتطى ظهر كميت، المنتخب من آل عبد مناف ولُؤَىّ- سيدنا ومولانا الشريف أحمد ابن مولانا المرحوم الشريف زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن بن أبى نُمَىّ. لا زال النصر لملكه خادمًا، والعز لأعقابه وزيرًا ملازمًا، وعَلَم رفعته على رءوس الأشهاد قائمًا، وقلم السعد بمنشور مهابته على صحائف الدهر راقمًا، وثغر الزمان بمزيد سروره باسمًا، وكل من القضاء والقدر بدوام سموه حاكمًا، ولسائر أموره على السداد بارمًا، ولا برح النصرُ والسعد مقرونَيْنِ بعذبات عَلَمِه، والآجال والأرزاق فى ماضى سيفه وقلمه، والتوفيقُ مستصحبُ آرائه، ومصائب الحوادث أصدقاء أعدائه، آمين آمين آمين؛ ليكون تحفة لمجلسه العالى، وعندليب أنس على غُصْن انبساطه فى رياض المحضر يصدح بالسجع الحالى. أسأل الله أن يرزقه منه مسحة قبول، بجاه جده الرسول(١)، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وقد آن أوان الشروع فى مقصود الكتاب، فنقول بعون الملك الوهاب.

المقصد الأول

فى ذكر نسبه عليه الصلاة والسلام وتعداد آبائه الكرام

من لدن نبى الله آدم أبى البشر -صلى الله على نبينا وعليه وعلى سائر النبيين وسلم- إلى أبيه سيدنا عبد الله بن عبد المطلب، ولمع من أخبارهم ومقادير أعمارهم

ففى ذلك نقول، متوكِّلين على الله مستمدين من الرسول:

قال صاحب (تاريخ الخميس): لما أراد الله تعالى خلق آدم - عليه الصلاة والسلام - قال للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، فأجابوا بقولهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ [البقرة: ٣٠]،؟ فرد عليهم: ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا

---

(١) هذا التعبير ليس مما يتفق مع عقيدة جمهور المسلمين من السلف الصالح، ولعل من يفعله يتمسك بما يروى إذا سألتم الله فاسألوه بجاهى، وهو حديث مكذوب، وليس في شيء مما يعتمد عليه من كتب الحديث. وانظر في « التوسل والوسيلة » لابن تيمية تفصيل ذلك.

نَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] وفى الآية الأخرى: ﴿ إِنِّي خَٰلِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ الآية [ص: ٧١، ٧٢] فسجد الملائكة، فكان من إبليس ما اقتضى لعنه وبُعده، ونصب العداوة لآدم - عليه السلام - وذريته.

قال فى (بحر العلوم): لما قالت الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ . . .﴾ الآية [البقرة: ٣٠] أراد الله أن يظهر فضل آدم - عليه الصلاة والسلام - عليهم، فعلمه ما لا يعلمون. قال ابن عباس وقتادة والضحاك: علمه اسم كل شيء، حتى القصعة والقصيعة والمغرفة [١].

ثم لما طرد إبليس، وأهبط من الجنة بسبب الامتناع من السجود لآدم، أصرَّ على عداوته، ووقف على باب الجنة، وتعبَّدَ هنالك ثلاثمائة وستين عامًا؛ انتظارًا لأن يخرج منها أحدٌ يأتيه بخبر آدم - عليه السلام - وحواء، فبينما هو كذلك إذ خرج طائر موشًّى مزين يتبختر فى مشيته، فلما رآه إبليس قال: أيها الطائر ما اسمُكَ ؟ قال: اسمى طاوس، قال: من أين أقبلت ؟ قال: من حديقة آدم وبستانه، قال: ما الخبر عن آدم ؟ قال: هو بخير فى أحسن حال وأطيبه، ونحن من خدامه، فقال: وهل تستطيع أن تدخلنى ؟ فقال: لا أقدر، ولكن أدلك على من يقدر، فقال: افعل، فذهب الطاوس إلى الحية، وكانت يومئذ كأعظم البخاتىّ، وكانت أحسن حيوانات الجنة: لها أربع قوائم كالإبل، من زبرجد أخضر، وفيها كل لون، رأسها من الياقوت الأحمر، ولسانها من الكافور، وأسنانها من الدر، وذوائبها كذوائب الجوارى الأبكار، فقال لها الطاوس: إنَّ خَلقًا بباب الجنة يقولُ: عندى نصيحة لآدم، فمن يذهب بى أعلمه ؟ فخرجَتِ الحية إليه، وقالت: إنى أدخلك الجنة، ولكن أخاف من لحوق البلاء، فقال لها إبليس: أنت فى ذمتى وجوارى، لا يلحقك مكروه.

---

(١) أخرجه الطبري في « تفسيره » (١/ ٤٨٤) رقم (٦٥٣) وفي « تاريخه » (١/ ٩٧) وابن أبي حاتم (١/ ١١٥) من طريق عاصم بن كليب عن سعيد بن معبد عن ابن عباس وذكره السيوطي في « الدر المنثور » (١/ ١٠٠) وزاد نسبته إلى ابن المنذر. وأخرجه الطبري في « تفسيره » (١/ ٤٨٤) رقم (٦٥٦)، وفي تاريخه (١/ ٩٨) عن قتادة وذكره السيوطي في « الدر المنثور » (١/ ١٠١) وعزاه إلى عبد بن حميد. وينظر: « البداية والنهاية » (١/ ٧٧-٧٨).

قال النبى ﷺ: « اقتلوا الحية ولو فى الصلاة[(١)] »، وإنما أمر بذلك إبطالاً لذمَّةِ إبليسَ.

فقالت الحية: أنا أخاف أن يصيبنى مثل ما أصابك، فقال لها إبليس: أنا أعطيك جوهرةً أينما تضعينها تكون لك جنة، فأعطاها إبليس، فجعلتها فى فيها، فتخرجها فى الليل، وتضعها حيث شاءت تستضىء بها [(٢)].

وفى (العرائس) [(٣)]: قالت الحية: كيف أدخلك الجنة ورضوان لا يمكننى من ذلك ؟ فقال إبليس: أنا أتحول ريحًا، فاجعلينى بين أنيابك، فتدخلينى وهو لا يعلم، فأطبقت عليه فاها بعد أن تحول ريحًا، فقال لها إبليس: اذهبى بى إلى الشجرة التى نُهِىَ آدم عنها، فلما انتهت الحية إلى تلك الشجرة، تغنى إبليس بمزمار، فلما سمع آدم وحواء صوت المزمار جاءا إليه يسمعان فإذا هو ريح خارج من فم الحية، فأعجبهما الصوت، فتقدما إليه شيئًا فشيئًا حتى وقفا عليه، وهما يظنان أن الحية هى التى تتغنَّى، فقال لهما إبليس. . . [(٤)]، فقالا: نهينا عن قرب هذه الشجرة، فقال: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف: ٢٠]، إلى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢٢]، قَسَمًا كاذبًا فهو - لعنه الله - أول من حلف كاذبًا، وأول من غَشَّ، وأول من حَسَدَ، لعنه الله وأعاذنا منه.

فسبقت حواء إلى الشجرة، فتناولت منها خمس حبات، فأكلَتْ واحدة وخبأت واحدة وأعطت آدم ثلاث حبات، فأعطى حواء منها واحدة وأمسك حبتين.

قيل: لما خبأت حواء إحدى الحبات من زوجها آدم - عليه السلام - صار خبء النساء عن أزواجهنَّ بعض الأشياء عادةً لهنَّ، ولإمساك آدم لنفسه حبتين من الثلاث وإعطاء حواء واحدة منها، شُرِعَ للذكر مثل حظ الأنثيين. فأوحى الله إلى آدم:

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٧٠)، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٧/ ٢٧٢)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٢/ ١٠٠)، (٣/ ٦٢)، بلفظ « اقتلوا الحية والعقرب وإن كنتم في الصلاة ».

(٢) أخرجه الطبري في « تفسيره » (١/ ٥٣٠) رقم (٧٥٠) وفي « تاريخه » (١/ ١٠٧) من طريق ابن إسحاق عن ليث بن أبي سليم عن طاوس عن ابن عباس بنحوه. وذكره السيوطي في « الدر المنثور » (١/ ١٠٨) وعزاه إلى ابن جرير وعبد الرزاق.

(٣) ينظر: العرائس (٢٦، ٢٧).

(٤) كذا بالأصل بياض. وفي عرائس المجالس: « قال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؛ قال: نعم، قال: كل من هذه الشجرة شجرة الحنطة ». ينظر: العرائس (٢٧).

لأدمينَّ حواء فى الشهر مرتَيْنِ، فاعترت آدمَ عليها الرحمةُ، فأوحى إليه: قد علمنا ما لحقك على حواء من الرأفة والشفقة، وقد رفعت عنها وبناتها هَمَّ النفقة.

ولما أكلا من الشجرة، تطاير عنهما لباسهما، وبدَتْ لهما سوآتهما، فطلبا ورقًا من أشجار الجنة، فكلّما طلبا شجرة، تعالت عنهما، إلا شجرة التين، فتدلَّتْ لهما، فأخذا منها وسترا سوأتيهما.

ثم أهبطوا من الجنة، آدم وحواء وإبليس، أهبط آدم بسرنديب، جبل عال يراه البحريون من مسافة أيام، وأثر قدمى آدم - عليه الصلاة والسلام - عليه مغموستان فى البحر.

وحواء بجدة، والحية بأصفهان، وإبليس بأبلة. ويرى على هذا الجبل كل ليلة كهيئة البرق من غير سحاب، ولابد له فى كل يوم من مطر يغسل أثر قدميه - عليه السلام -. ويقال: إن الياقوت الأحمر يؤخذ من ذلك الجبل تحدره السيول والأمطار إلى الحضيض.

وروى أن آدم - عليه السلام - لما أهبط، كانت رجلاه على الأرض، ورأسه فى السماء يسمع دعاء الملائكة وتسبيحهم، فكان يأنس بذلك، فهابته الملائكة، واشتكتْ نفسه إلى الله تعالى، فنقص قامته إلى ستين ذراعًا.

ولما يبس ما كان على آدم من ورق الجنة وتناثر كان هو السبب لوجود الأفاويه ببلاد الهند؛ كالجوز والقرنفل والفلفل والهيل وأشباهها، فكان ذلك المتناثر بذرًا لها؛ فسبحان الحكيم جَلَّ وعلا.

فلما عريا بعد تناثره ولبسه شَكَا آدم - عليه السلام - ذَلك إلى جبريل، فجاءه بأمر الله بشاةٍ عظيمة من الجنة لها صوفٌ عظيم كثير، وقال لآدم: قل لحواء تغزل من هذا الصوف وتنسج، فمنه لباسك ولباسها، فغزلَتْ حواء ذلك الصوف، ونسجت منه لنفسها درعًا وخمارًا، ولآدم قميصًا وإزارًا.

ثم دعا آدم ربه، فقال: يا ربِّ، كنت جارَكَ فى دارك آكُلُ رغدًا منها حيث شئت، فأهبطتَنى إلى الأرض، وكلَّفتنى مشاقَّ الدنيا. فأجابه الله: يا آدم، بمعصيتك كان ذلك، إن لى حرمًا بحيال عرشى، فانطلق؛ فإن لى فيه بيتًا، ثم طف به كما رأيتَ ملائكتى يحفّونَ بعرشى، فهنالك أستجيب لك ولأولادك من كان منهم فى طاعتى،

فقال: يارب، وكيف لى بذلك المكان فأهتدى إليه ؟ فأمر الله جبريل فتوجَّه به إلى الحج، فصارت المسافات تطوى له، وكانت خطوة آدم مسيرة ثلاثة أيام، ولم يزل يسير حتى وصل إلى جُدَّة؛ لأنه شم رائحة ورق الجنة الذى كان على حواء، قال: يا حواء، أترانى أنظر إليك نظرة ؟ فنادته الجبال: تسير فى أثرها تدركها، فسار إلى قرن، فأمره جبريل فأحرم، فأنزل الله البيتَ المعمورَ فأوقفه فى الهواء بحيث يراه فيعرفه حيالَ المهاة البيضاء التى هى موضع البيت ومنها دحيتِ الأرضُ، وهى أم القرى، فأوحى الله إليه أن طف بالبيت وصَلِّ عنده واسأل حاجتك، وأخبره بمكان حواء، فلما رأته، جاءت إليه تبكى، فعرَّفَهَا جبريل بالتوبة والمغفرة، فسجدَتْ لله تعالى شكرًا، وتطهرَتْ وتوضأتْ فأهلَّتْ بعمرة ولبَّت. وأتى بها جبريل إلى جميع مواقفها، وجمع بينهما جبريلُ فى جمع، فسمى بذلك لاجتماعهما.

وقيل: بل تعارفا بعرفات، وبهما سمى ذلك المحلُّ « عرفات »، فبادرت إليه وتعانقا.

ولما أكمل حجه ووقف بـ « منى »، قال له جبريل: تمنَّ على ربك ما شئت؛ فلذلك سمى ذلك المحل « مِنًى »، كما هو أحد الوجوه فى تسميته بذلك. وقرَّب قربانًا، وحلق له جبريل رأسه بياقوتة من الجنة، ثم أمره الله أن يتخذ لحواء منزلاً خارج الحرم إلى أوان الحج، ففعل.

وفى كتاب (المبتدا): أن آدم لم يكن يسأ حواء منذ هَبَطَا إلى الأرض، ولاخطر بقلبه ولا قلبها ذِكْرُهُ حياءً من الله تعالى، فأوحى الله إليه يا آدم، ما هذا الجزع وأنت صفوتى وأبو المصطفى رسولى، فأبشِرْ بنعمتى وكرامتى أنت وزوجُكَ حواء، فَأَلِمَّ بها، فبشَّر حواء، فسجدت شكرًا لله، ثم باشرها، فحملَتْ منه، فولدت ذكرًا وأنثَى فى بطن، فسمت الولد قابيل، والأنثى إقليميا، ثم واقعها فحملَتْ بهابيل وأخته ليوذا، ثم حملت بطنًا ثالثًا فولدت توأمين، وأولادها يكثرون ويمشون بين يديها، والنور لا ينتقلُ من وجه آدم. ولم تزل حواء تلد فى كل تسعة أشهر ولدين ذكرًا وأنثى، فقيل: إن جميع من ولدت مائتا ولد فى مائة بطن فى كل بطن ولدان، إلا شيثًا وعنق، فإنها ولدتهما مفردين كل واحد فى بطن.

وقيل: ولدت له خمسمائة بطن بألف ذكرٍ وأنثى.

وسيأتى حديث شيث قريبًا، وحديث عنق عند ذكر ابنها عوج بن عنق، عند ذكر قتل موسى إياه، عليه الصلاة والسلام.

وفى « روضة الأحباب »: كانت الأرضُ تطوى لآدم فى كل خطوة اثنان وخمسون فرسخًا حتى بلغ مكة فى زمن قليل، فكل موضع أصابه قدمه، صار عمرانًا، ومابين قدميه مفازًا وقفرًا.

وفى قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٣٧] قال ابن بابويه: أخبرنا أبو جعفر محمد، والحسن بن أحمد بن الوليد، عن محمد بن الحسن الصفار، عن أبى نصر، عن أبان بن عثمان، عن محمد بن مسلم، عن أبى جعفر قال: الكلماتُ التى تلقاها آدم من ربه فتاب عليه هى قوله: اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءًا وظلمت نفسى، فاغفر لى إنك أنت التواب الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءًا وظلمت نفسى، فاغفر لى إنك أنت خير الغافرين.

ولما رجع آدم - عليه السلام - من الحج، وجد ولده قابيل قتل ولده هابيل، ولم يدر ما يصنع به، فحمله على عاتقه فى جراب وقد أروح، وأنتن، شدخ رأسه بين حجرين.

قيل: عند عقبة حراء.

وقيل: بعقبة أيلة.

وقيل: بالقدس.

وبسبب قتله: شاكت الأشجار، وتغيرت الأطعمة، وحمضت الفواكه، وتمرر الماء.

فحزن آدم على هابيل حزنًا عظيمًا.

وسبب قتله أن مِنْ شرع آدم - عليه السلام - تزويج أنثى البطن الأول بذكر البطن الثانى، لأن حمل حواء توأم، فولد قابيل وأخته إقليميا، وولد هابيل وأخته ليوذا، وكانت أخت قابيل بديعة جِدًا، فكره قابيل أن يعطيه إياها، وأرادها لنفسه، فقرَّبا إلى الله قربانًا، فمن قبل قربانه أخذ إقليميا، فقال هابيل: أنا راض بكلِّ ما حكمت، قربت أو لا، تُقبل منى أو لا، فقال قابيل: تقرب، فخرجا إلى جبل من جبال مكة، وقيل:

إلى منى، ثم قرب كل منهما قربانه، فكان قربان هابيل من أبكار غنمه وأسمنها بسماحة وطيب نفس، وقربان قابيل قمحًا لم يبلغ وأكثره زيوان.

وعن أبى جعفر محمد الباقر بن على: قرب قابيل من زرعه ما لم ينق، وقام هابيل يدعو الله وقابيل يغنى ويلهو، وإذا رأى هابيل يصلِّى يضحك، وقال: أظن صلاتك لتخدع آدم ليزوجك أختى، لئن تقبلَ قربانك لأقتلنك، فقال هابيل: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧] الآيات، فنزلت نار بيضاء من السماء يسمع لها زجل بالتسبيح، فرفعت قربان هابيل، فوثب إليه قابيل ليبطش به قائلاً: والله لأقتلنك، فتركه هابيل وانصرفَ ليُعْلِمَ أباه، فلحقه قابيل، قيل: بعقبة حراء دون ثبير، وقيل: فى موضع آخر، كما تقدم.

قال الإمام العلامة الحسن بن على الحائنى فى كتابه المسمى: « حقيبة الأسرار، وجهينة الأخبار، فى معرفة الأخيار والأشرار » فذكر فيه زوائد أحببت إيرادها تكملة للفائدة، وإن كان بعضها قد تقدم، قال: روينا عن مشايخنا بسندنا المتقدم - وكان سرد سندًا لا نطول بذكره - عن الشيخ منتجب الدين أبى الحسن على بن عبيد الله ابن الحسن المدعو حسكًا، عن الحسين بن الحسن بن الحسين بن على بن الحسين ابن بابويه، يرفعه إلى جابر، عن أبى جعفر - عليه السلام - قال: سئل أمير المؤمنين، هل كان فى الأرض خَلْقٌ من خلق الله يعبدون الله قبل آدم وذريته ؟ قال نعم، كان فى السموات والأرض خلقٌ من خلق الله يقدِّسون الله ويسبحونه ويعظمونه بالليل والنهار لايفتُرُون؛ فإن الله لما خلق الأرضين، خلقها قبل السموات، ثم خلق الملائكة روحانيين لهم أجنحة يطيرون بها حيث شاء الله، فأسكنهم الله فيما بين أطباق السموات يقدسونه، واصطفى منهم إسرافيل وميكائيل وجبرائيل، ثم خلق فى الأرض الجن روحانيين لهم أجنحة، فخلقهم دون الملائكة، وخفضهم أن يبلغوا مبلغ الملائكة فى الطيران وغيره، وأسكنهم فيما بين أطباق الأرضين السبع وفوقهن يقدسون الله لا يفترون، ثم خلق خلقًا دونهم لهم أبدان وأرواح بغير أجنحة يأكلون ويشربون، نسناس أشباه خلقهم وليسوا بإنس، وأسكنهم أوساطَ الأرضِ على ظهرها مع الجنِّ يقدسون الله لا يفترون، وكان الجن تطير فى السماء، فتلقى الملائكة فيسلمون عليهم ويزورونهم ويستريحون إليهم ويتعلَّمون منهم الخير، ثم إن طائفة

من الجن والنسناس الذين خلقهم الله وأسكنهم أوساط الأرض، تمرَّدوا وبغوا فى الأرض بغير الحق، وعلا بعضهم على بعض من العتوّ وسفكِ الدماء فيما بينهم، وجحدوا الربوبية، وأقامت الطائفة المطيعون على طاعة الله، وباينوا الطائفتين من الجن والنسناس الذين عتوا عن أمر الله، فحطَّ الله أجنحة الطائفة العاتية من الجن، فكانوا لا يقدرون على الطيران إلى السماء لما ارتكبوا من الذنوب.

وكانت الطائفة المطيعة من الجن تطير إلى السماء الليل والنهار على ما كانت عليه، وكان إبليس -واسمه الحارث-، يُظهر للملائكة أنه من الطائفة المطيعة.

ثم خلق الله خلقًا على خلاف خلق الملائكة، وعلى خلاف خلق الجن، وعلى خلاف خلق النسناس، يدبُّونَ كما تدب الهوامُّ فى الأرض، يأكلون ويشربون كما تأكل الأنعام من مراعى الأرض، كلهم ذكران ليس فيهم أنثى، لم يجعل الله فيهم شهوة النساء ولا حُبَّ الأولاد ولا الحرص ولا طول الأمل ولا لذة عيش، لا يلبسهم الليل ولا يغشاهم النهار، ليسوا ببهائم ولا هوامَّ، لباسهم ورق الشجر وشربهم من العيون الغزار والأودية الكبار.

ثم أراد الله أن يفرِّقهم فرقتين، فجعل فرقة خلف مطلع الشمس من وراء البحر، فكوَّن لهم مدينة أنشأها لهم تسمى « جابرسا »، طولها اثنا عشر ألف فرسخ فى اثنى عشر ألف فرسخ، وكَوَّن عليها سورًا من حديد يقطع الأرض إلى السماء، ثم أسكنهم فيها، وأسكن الفرقة الأخرى خلف مغرب الشمس من وراء البحر، وكوَّن لهم مدينة أنشأها لهم تسمى « جابلقا » طولها اثنا عشر ألف فرسخ فى اثنى عشر ألف فرسخ، وكوَّنَ لهم سورًا من حديد يقطع إلى السماء، وأسكن الفرقة الأخرى فيها.

لا يعلم أهل « جابرسا » بموضع أهل « جابلقا »، ولا يعلم أهل « جابلقا » بموضع أهل « جابرسا »، ولا يعلم بهم أهل أوساطِ الأرضِ من الجن والنسناس.

فكانت الشمس تطلع على أهل أوساط الأرض من الجن والنسناس، فينتفعون بحرِّها ويستضيئون بنورها، ثم تغربُ فى عين حمئة؛ فلا يعلم بها أهل « جابلقا » إذا غربَتْ، ولايعلم بها أهل « جابرسا » إذا طلعت؛ لأنها تطلع من دون « جابرسا »، وتغرب من دون « جابلقا »، فقيل: يا أمير المؤمنين، كيف يبصرون

ويحيون، وكيف يأكلون ويشربون، وليس تطلع عليهم ؟! فقال - رضى الله عنه -: إنهم يستضيئون بنور الله، فهم فى أشد ضوء من لون الشمس، ولا يرون الله خلق شمسًا ولا قمرًا ولا نجومًا ولا كواكبَ، لا يعرفون شيئًا غيره، قيل: يا أمير المؤمنين، فأين إبليس عنهم ؟ قال: لايعرفون إبليس، ولايسمعون بذكره، ولايعرفون إلا الله وحده لاشريك له، لم يكتسب أحد منهم قطُّ خطيئة، ولم يقترف إثمًا، لايسقمون ولايهرمون ولا يموتون إلى يوم القيامة، يعبدون الله لايفترون، الليل والنهار عندهم سواء.

قال: وإن الله أحب أن يخلق خلقًا، وذلك بعد ما مضى للجن والنسناس سبعة آلاف سنة، فلما كان من خلق الله أن يخلق آدم للذى أراد من التدبير والتقدير فيما هو مكونه فى السموات والأرضين، كشط عن أطباق السموات، ثم قال للملائكة: انظروا إلى أهل الأرض من خلقى من الجن والنسناس، هل ترضون أعمالهم وطاعتهم ؟! فاطلعوا ورأوا مايعملون من المعاصى وسفك الدماء والفساد فى الأرض بغير الحق، فأعظموا ذلك، وغضبوا لله، وأسفوا على أهل الأرض، ولم يملكوا غضبهم، وقالوا: يا ربنا، أنت العزيز الجبار الظاهر العظيم الشأن، وهؤلاء كلهم خلقك الضعيفُ الذليلُ فى أرضك، كلهم يتقلبون فى قبضتك، ويعيشون برزقك، ويتمتعون بعافيتك، وهم يعصونك بمثل هذه الذنوب العظام، لا تغضب عليهم، ولا تنتقم منهم لنفسك بما تسمعُ منهم وتري، وقد عظم ذلك علينا وأكبرناه فيك، فلما سمع الله تعالى الملائكة، قال: إنى جاعل فى الأرض خليفة؛ فيكون حجتى على خلقى فى أرضي، فقالت الملائكة: سبحانك ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟﴾ [البقرة: ٣٠] فقال الله تعالى: يا ملائكتى ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، إنى أخلق خلقًا بيدى أجعل من ذرياته خلفائى على خلقى فى أرضى، ينهونهم عن معصيتى، وينذرونهم، ويهدونهم إلى طاعتى، ويسلكون بهم طريق سبيلى، أجعلهم حجة لى عذرًا أو نذرًا، وألقى الشياطين من أرضى، وأطهرها منهم، فأسكنهم فى الهواء وأقطار الأرض والفيافى؛ فلا يراهم خلق ولا يرون شخصهم؛ فلا يجالسونهم ولايخالطونهم، ولايواكلونهم ولا يشاربونهم، وأنفر مردة الجن العصاة من نسل بريتى وخلقى وخيرتى،

ولايجاورون خلقى، وأجعل بين خلقى وبين الجان حجابًا فلا يرى خلقى شخصَ الجنّ، ولا يجالسونهم ولا يشاربونهم، ولا يتهجمون بهجمهم، ومن عصانى من نسل خلقى الذى عظمته واصطفيته لنفسى، أسكنهم مساكن العصاة، وأوردهم موردهم ولا أبالى، فقالت الملائكة: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]، فقال للملائكة: ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩]، وكان ذلك من الله تقدمة للملائكة قبل أن يخلقه؛ احتجاجًا منه عليهم، وما كان الله ليغير ما بقوم إلا بعد الحجة عذرًا أو نذرًا. فأمر تبارك وتعالى ملكًا من الملائكة، فاغترف غرفة بيمينه، فصلصلها فى كفه فجمدت، فقال الله عز وجل: منك أخلق.

وفى رواية: « اغترف تبارك وتعالى غرفةً من الماء العذب الفرات، فصلصلها فجمدتْ، فقال لها: منك أخلق النبيين والمرسلين وعبادى الصالحين والأئمة المهديين، والدعاة إلى الجنة وأتباعهم إلى يوم القيامة، لا أسأل عما أفعل وهم يسألون - يعنى: خلقه -، ثم اغترف غرفة من الماء المالح الأجاج ذات الشمال، فصلصلها فجمدتْ، فقال لها: منك أخلق الجبارين والفراعنة وأئمة الكفر الدعاة إلى النار وأتباعهم إلى يوم القيامة، وشرط فى هؤلاء النداء، ولم يشترط فى أصحاب اليمين النداء، ثم خلط الطينتين، ثمَ أكفأهما ثلاثة قدام عرشه.

وروى أنه تعالى فرق الطينتين، ثم رفع لهما نارًا، فقال: ادخلوها بإذنى، فدخلها أصحاب اليمين، وكان أول من دخلها محمد وآل محمد - عليه السلام - ثم اتبعهم أولو العزم وأوصياؤهم وأتباعهم، فكانتْ عليهم بردًا وسلامًا، وأَبَى أصحابُ الشمال أن يدخلوها، فقال للجميع: كونوا طينًا بإذنى، ثم خلق آدم عليه السلام، قال: فمن كان من هؤلاء لا يكون من هؤلاء، ومن كان من هؤلاء لا يكون من هؤلاء.

ثم قال العالم - عليه السلام - للذى حدَّثه من مواليه: فما ترى من ترف أصحابك فمما أصابهم من لطخ أهل الشمال، وما رأيت من حُسن سيما ووقار فى مخالفيك فمما أصابهم من لطخ أصحاب اليمين.

وروى أن جبريل - عليه السلام - أتى الله فأمره بأربع طبقات: بيضاء، وحمراء،

وغبراء، وسوداء من حَزَن الأرض وسهلها، ثم أتاه بأربع مياه: عذب، ومالح، ومر، ونتن، وأمره بأن يفرغ الماء فى الطين، فلم يفضل من الطين شىء يحتاج إلى الماء، ولا من الماء شىء يحتاج إلى الطين، وجعل الماء العذب فى حلقه ليجد لذة المطعم والمشرب، والمالح فى عينيه ولولا ذلك لذابتا، والمر فى أذنيه ولولا ذلك لدخلها الهوامُّ، والمنتن فى أنفه ليجدَ به الإنسان الروائح الطيبة.

وروى فى القبضة التى من الطين الذى خلق منه آدم: أن الله أمر جبريل أن ينزل إلى الأرض؛ يبشرها أن الله يخلق منها خلقًا يكون صفوة له يسبحونه إلى يوم القيامة، ويجعل مستقره ومستقر ولده بين أطباقها يخلقهم منها ويعيدهم إليها. ففعل ذلك جبريل، فاهتزَّتْ وابتهجت وقامت تنتظر أمر الله، فلما أراد الله أن يتم وعده، أرسل جبريل ليقبض منها كما أمره، فلما مد يده إليها، ارتعدَتْ واستعاذَتْ منه، وقالت: أسألك بعزة الله إلا ما أمسكْتَ عنى، فتوقف إجلالاً للقسم، ورجع، وقال: يارب، تعوذتْ بك. فأرسل الله إسرافيل، فقالت له مثل ذلك، فرجع. فأرسل الله ميكائيل، فقالت له مثل ذلك، فرجع. فأرسل إليها عزرائيل فهبط ومعه حربة فركزها فى وَسَطِ الأرضِ ركزةً ارتجَّتْ واهتزَّتْ لها الأرضون وماجت وارتعدت، فمد يده، فقالت له كما قالت لمن قبله، فقال لها: اسكتى؛ فإكراهك أحب إلى من معصية ربى، وأعوذ بالله أن أرجع إليه حتى آخذ منك قبضة. ثم قبض قبضة من كل لون منها.

فعَنْ وهب أنه نودى بعد أربعين يومًا: يا ملك الموت، ما الذى صنعت ؟ فأخبره بما قالت الأرض، فقال: وعزتى وجلالى لأسلطنك على قَبْضِ أرواحهم، فأَعْلِمْها أنك رَادٌّ عليها جميع ما أخذته منها ومعيده إليها. فنزل عزرائيل إلى الأرض فقال: أيتها الأرض، لا تحزنى؛ فإنى رادٌّ عليك الذى أخذته منك بإذن الله تعالى، وجاعله فى طباقك كما أمرنى ربى وسمانى مَلَكَ الموت. فلما جاء ملك الموت بالقبضة أمره الله أن يضعها على باب الجنة، فوضعها على باب جنة الفردوس، وأمر اللهُ خازنَ الجنة أن يعجنها من ماء التسنيم، فعجنها وقد مضَى من يوم الجمعة سبع ساعات؛ لأن قبضته أخذت فى آخر الساعة السادسة وأول السابعة، ثم صارت طينًا على باب الجنة حتى صارت لازبًا، ثم حمأ مسنونًا فى الساعة الثامنة فلما صوره الله تعالى

فأحسن صورته، جعله أجوف جسدًا فخارًا، إلى أن بقى من يوم الجمعة ساعة واحدة من النهار الذى مقداره ألف سنة مما تعدون، تلك الساعة مقدارها من سنى الدنيا ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر.

آدم وحواء

اشتقاقُ آدَمَ، قيل: من الأدمة، وهى نوع سمرة، وقيل: من أديم الأرض، فإذا سمى به ثم نكِّر صُرِفَ، وقيل: اسم الأرض الرابعة أديمٌ، وخلق آدم منها؛ فلذلك قيل: خلق من أديم الأرض، وقيل: أديم الأرض أدنى الأرض الرابعة إلى اعتدال؛ لأنه خلق وسط من الملائكة، وأن الله تعالى خلقه من أنواع متضادة وطبائع مختلفة؛ لأنه من تراب الأرض، فجاء فيه من كل شىء فيها، فعيناه من ملحها، وأذناه من مرها، وشفته ولسانه وفوه من عذبها، ويداه ورجلاه من حزنها، وصدره من سهلها، وبطنه وإبطاه من حمئها، ومفاصله من حرها ولينها، وعروقه وأعضاؤه وعظامه من صخرها.

وكان سكان الأرض قبله الجن، وقيل: الجِنّ والبِنّ، وقيل: الطمّ والرمّ. ولما أهلكهم الله وجعل آدم بدلهم، فقالت الملائكة ماقالت، فقال تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، وعن الجواد: أن الله خلق آدم، وكان جسده طينًا، وبقى أربعين سنة ملقى تمر به الملائكة، وتقول: لِأَمْرٍ ما خلقْتَ. وكان إبليس يدخل من فيه، ويخرج من دبره؛ فلذلك صار مافى جوف ابن آدم منتنًا خبيثًا.

وفى المروج [١] : تركه حتى أنتن وتغير أربعين سنة، وذلك قوله: ﴿ من حمإٍ مسنون ﴾ [الحجر: ٢٨] يقول: منتن.

وصوره ثم تركه بلا روحٍ من صلصال كالفخار حتى أتى عليه مائة وعشرون سنة، وقيل: أربعون سنة، وهى قوله تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ [الإنسان: ١]؛ فكانت الملائكة تمر به فزعين منه، وكان أشدهم فزعًا إبليس، كان يمر به فيضربه[٢] برجله فيظهر له صوت صلصلة كظهوره من الفخار، ويدخل من فيه ويخرج من دبره، ويقول: لأمرٍ مّا خلقْتَ، ثم نفخ فيه الروح يوم

(١) ينظر: مروج الذهب (١/ ٣٠).
(٢) في ط: كان يضرب. والمثبت من مروج الذهب.

الجمعة السادس من نيسان، قال كعب: إن روح آدم ليست كأرواح الملائكة ولاغيرها من الأرواح، فضلها الله تعالى بقوله: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩] فأمر روحه أن يغمسها فى جميع الأنوار، ثم أمرها أن تدخل فى جسد آدم من أنفه، فقالت: مكان ضيق، فنوديت: ادخلى كرهًا واخرجى كرهًا. فدخلت فى منخريه، ثم ارتفعت فى خياشيمه، ووصلت إلى دماغه، وماجت فى رأسه؛ فأبصر وسمع وشم وتنفس، وصار بين عينيه كالغُرَّة البيضاء يتلألأ، فهو نورُ رسول الله ﷺ.

وقيل: دخلت من اليافوخ إلى عينيه، ففتحها، وجعل ينظرُ لنفسه حَيًّا، فرأى فى سرادق العرش مكتوب: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. ولم يقدرْ على الكلام، فصارت الروحُ إلى أذنيه فسمع تسبيح الملائكة. ثم جعلت تمر فى جسده ودماغه والملائكة تنظر إليه، وإن الروح انفتلت نازلة إلى عنقه، ثم إلى صدره وجوفه، وتفرقت فى جميع أعضائه وعصبه وعروقه، فأمرَّ آدم يده على رأسه، ووجهه فعطس.

وقيل: إن الروح لما وصلت إلى الخياشيم عطس.

فلما لحقت اللسان، قال بلغة عربية فصيحة، وهى لغة أهل الجنة: الحمد لله، فناداه الرب: يرحمك الله ربُّك يا أبا محمد؛ لهذا خلقتك، وهذا لك ولولدك، ولكل من قال قولك.

ولم تزلِ الروحُ تجرى في جسده إلى أن وصلت ركبتيه، فاستعجل ليقومَ فسقَطَ، فقال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء: ١١] ولما بلغت الساقين والقدمين، استوى جالسًا وقام على قدميه في يوم الجمعة عند زوال الشمس، فنظرت الملائكة إليه كأنه الفضة البيضاء، فسقطت كلها سجودًا كما أمرهم الله تعالى، إلا إبليس فأبى أن يكون مع الساجدين، فقال الله تعالى: ما منعك أن تسجد لآدم، فعصيتني وكنت لي طائعًا تنكر على الجن العصيان، وأنت تجتهد في عبادتي، وسألتني أرفعك إلى سماواتي، وأبحتك الولوج من سماء إلى سماء، وأنزلتك مع الملائكة إلى الأرض حتى أخلوا الجن الذين أنت منهم، فما منعك ألا تكون مع الساجدين كما أمرتك ؟! وخفتَ أن تكونَ دون آدم فى الفضل؛ فرجعتَ إلى أصلك الأول، وعصيت كقومك، ونقضت عهدى وميثاقى؛ فبعدًا لك وسحقًا، فقال إبليس: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ

خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢] والنار خير من الطين، وأنا كنت أطؤه وهو تراب، وأنا عبدتك قبله، فقال له: ﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ [الحجر: ٣٤] يعنى: من السموات، أو من الرحمة، أو الجنة ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [الحجر: ٣٤].

ولما قام آدم، أمره الله تعالى أن يمضى إلى الملائكة، فيقول لهم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ففعل. وكان من ردِّهم عليه: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقال الله تعالى: هذه تحيتك وتحية ولدك إلى يوم القيامة، وهى تحية أهل الجنة، ثم قال الله تعالى: أنتم قلتم قبل أن أنفخ فيه الروح: لَمْ نر خلقًا أكرم على الله ولا أعلم منا، فأنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، بعد أن كشف عن ملكوته؛ لتنظر الملائكة وآدم إلى ما في السموات والأرض ومابينهما، وأذن لأمم البحر، فطفت فوق الماء، فقالوا: لاعلم لنا إلا ماعلمتنا، فأبان الله فضل آدم على جميع خلقه بما خصه من العلم بمَعَانى الأسماء.

قيل: علمه جميع خلقه.

وقيل: علمه جميع الأسماء والصناعات وعمارة الأرض والأطعمة والأدوية واستخراج المعادن وغرس الأشجار ومنافعها، وجميع مايتعلق بعمارة الدين والدنيا.

وقيل: علمه أسماء الأشياء كلها، ماخلق وما لم يخلق بجميع اللغات التى يتكلَّم بها ولده بعده؛ فأخذ عنه ولده اللغات، فلما تفرقوا، تكلم كل قوم بلسان ألفوه، وتطاول الزمان على ما خالف ذلك، فنسوه.

وسئل الصادق - رضى الله عنه - عن قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] ، فقال: الأرضين والجبال والشعاب والأودية، ثم نظر إلى بساط تحته فقال: وهذا البساط مما علمه.

وقيل: علمه ألقاب الأشياء وخواصّها، وهو أن الفرس يصلح لماذا ؟ والحمار لماذا ؟ إلى غير ذلك وهذا أبلغ؛ لأن معانى الأشياء لاتتغير بتغير الأزمان بخلاف الألقاب.

ثم اختلف فى تعليمه: فقيل: أودع قلبه معرفتها، وفتق لسانه بها، فكان يتكلم بها، وكان ذلك معجزًا له - عليه السلام - ناقضًا للعادة، فقال: يا آدم، أنبئهم بأسمائهم؛ فعن ابن عباس: أنه تكلم بسبعين لسانًا أحسنها العربية. ثم أمر الملائكة

لتحمله على أكتافها؛ ليكون عاليًا عليها، ويقولون: قدوس قدوس، واصطفت الملائكة عشرين ألف صف، وأعطى آدم من الصوتِ مابلغهم، ووضع له منبر الكرامة، وعليه ثياب من السندس الأخضر، وعليه ضفيرتان مرصعتان بالجوهر محشوتان مسكًا وعنبرًا من فرقه إلى قدميه، على رأسه تاج من الذهب له أربعة أركان فى كل ركن دُرَّة يغلب ضوءها الشمس، وفى أصابعه خواتم الكرامة، فانتصب قائمًا وسلم، فأجابته الملائكة، فصار ذلك سنة. ثم خطب فقال: الحمد لله الذى لم يزلْ، فصار سنة أيضًا. ثم ذكر علم السموات والأرضين ومابينهما بعد أن أثنى على الله بما هو أهله، فجعل يخبرهم باسم كل شىء من البر والبحر حتى الذرَّة والبعوضة، فتعجبت الملائكة من علمه وسبحت وقدست، فقال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(١) [البقرة: ٣٣] ثم نزل من منبره وقد زاده الله من نوره أضعافًا؛ وفى ذلك دلالة على ارتفاع قدر آدم عليهم.

وعن أبى عبد الله أنه قال: سجدت الملائكة لآدم، ووضعوا جباههم على الأرض وعنه أنه لما أمر إبليس بالسجود، فقال: يارب، وعزتك، إن أعفيتنى من السجود لآدم لأعبدنك عبادة ماعبدك أحدٌ قطُّ مثلها؛ فقال له الله تعالى: إنى أحب أن أطاع من حيث أريد. وفى المروج (٢): قال: يارب، أنا خير منه، خلقتنى من نار وخلقته من طين، والنار أشرف من الطين، وأنا الذى كنتُ متخلفًا فى الأرض، وأنا الملبس بالريش، والموشح بالنور، والمتوج بالكرامة، وأنا الذى عبدتك فى سمائك وأرضك. فقال له: ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا . . . ﴾ الآية [الأعراف: ١٨] فسأله المهلة إلى يوم يبعثون.

قال بعضهم: فعند ذلك، تغيرت خلقته، ونظرت الملائكة إلى سوء منظره، فوثبت عليه بحرابها يلعنونه ويقولون: رجيم رجيم، ملعون ملعون. فأول من طعنه جبريل ثم الملائكة من جميع النواحى، وهو هارب بين أيديهم حتى ألقوه فى البحر المسجور.

واضطربت الملائكة، وارتجت السموات من جراءات إبليس فى مخالفة أمر الله تعالى، وقد كان السجود لله والطاعة لآدم، ولكن ظن لعنه الله أن التفاضل بالأصول؛ فأخطأ فى القياس. على أن الطين الذى خلق منه آدم أنور من النار،

---

(١) في ط: تحريف ألم أقل لكم إني أعلم ما لا تعلمون.
(٢) ينظر: مروج الذهب (١/ ٣١).

والنار من الشجر، والشجر من الطين، فغضب عليه، فسأله الإنظار، فأجابه.

وسئل العالم عن السبب فى إجابته فقال: إنه لما أهبط إلى الأرض يحكم فيها، فغير وبدل، غضب عليه، فسجد له سجدة أربعة آلاف سنة، فجعل الله تلك السجدة سببًا للإجابة فى النظرة إلى يوم الوقت المعلوم.

ثم إن الله مسح ظهر آدم، فأخرج ذريته كهيئة الذَّرِّ بيضاء وسوداء، ذكورًا وإناثًا، تامًا وناقصا، صحيحًا وسقيمًا على ماهو خالقها. ثم قال له: هذه ذريتك، فقال: يا رب، ألا [1] سويت بينهم وعافيت الجميع؟ فقال: إنى أحب أن أشكر، وأنا أعلم بخلقى، فنظر آدم إلى طائفة من ذريته تتلألأ وجوههم، فقال: يارب، مَنْ هؤلاء الذين علت أنوارهم على غيرهم؟ فقال: هؤلاء الأنبياء من ذريتك، فقال: يارب، كم عددهم؟ قال: مائة ألف نبىّ، وأربعة وعشرون ألف نبى، منهم ثلاثمائة وخمسة عشر مرسلون، أنت أولهم، ومحمد ابنك حبيبى آخرهم، وهو صاحب النور العظيم الذى فى أسارير وجهك، وهو خاتم الأنبياء، وأشرفهم شريعة، وأفضلهم أمة، ولولاه ما خلقتك ولا خلقت جنة ولا نارًا ولا أرضًا ولا سماءً، فأمن آدم، فقال الله تعالى: قد زدتك فضلاً وكرامة وكنيتك به، أنت أبو محمد، فاعرف منزلته منى، وإذا أردت حاجة، فاسألنى بحقه أقضها لك وهو أول من تنشقُّ عنه الأرض، وأول شافع، وأول مشفع، وأول قارع لأبواب الجنة، وأول من يدخلها، وقد شرفتك به، وهو النور الذى فى أسارير وجهك ينتقل منك إلى زوجك حواء، فإذا رأيته انتقل، فاعلم أنى نقلته من ظهرك، وسأنقله من بطن إلى ظهر، ومن ظهر إلى بطن، إلى أن يأتى زمانه، ولا أنقله إلا فى الأصلاب الزكية والأرحام الطاهرة، فإذا رأيته انتقل إلى ولدك، فخذ عليه العهد والميثاق ألا يضعه إلا فى أطهر النسوان، وأنا المتولى لذلك إلى حين مولده. ثم أمر الله ذلك الذرَّ أن يقوموا عن يمين آدم وشماله، فقال الله: اختَرْ إحدى الطائفتين. فاختار اليمينَ، وهم الأنبياء والمرسلون لما رأى من أنوارهم، وأخبره بأسمائهم نبيًا نبيًا ورسولاً رسولاً، وعرَّفه أعمالهم وشرائعهم وما يلقون من المهمِّ، ثم قال الله تعالى: هؤلاء ذريتك آخذُ ميثاقهم أن يعبدونى ولايشركوا بى شيئًا، وعلىَّ أرزاقهم، قال: نعم، فقال الله تعالى: من

(١) في ط: لم. ولعل الأنسب ما أثبتناه.

ربكم ؟ فقالوا إلهامًا: أنت ربنا وخالقنا، فقال الله: يا آدم اشهد، واشهدوا يا ملائكتى، وأشهد أنا وكفى بى شهيدًا؛ لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. ثم ردهم إلى ظهر آدم، وقد أخذ عليهم العهد والميثاق، ثم قال الله تعالى: يا آدم، قد كشف عن بصرك، فأريتك جميع خلقى، ولم يخف عليك شىء، فهل رأيت لك فيهم شبيهًا ؟ فقال: لا يارب، لقد فضلتنى فلك الحمد كثيرًا، فاجعل لى زوجًا منى أسكنُ إليها وآنس بها ونسبحك ونقدسك جميعًا، فقال تعالى: إنى فاعل ذلك، وتنسلان خلقًا خلقته فى ظهرك، ولى فى ذلك تدبير، وأنا على كل شىء قدير.

فعن ابن عباس - رضى الله عنهما -: لما خرج إبليس من الجنة، بقى آدم وحده فاستوحش، فخلقتْ له حواء ليسكنَ إليها؛ وذلك أن الله تعالى ألقى عليه النوم، وذلك فى أول نعسة نعس، فنام، فأخذ منه ضلعًا وخلق منه حواء، وهو أول ضلعه القصير الأيسر مما يلى قلبه، ثم أراه فى منامه بقدرته كيف خلقها وهى أول رؤيا رآها، ثم انتبه فإذا عند رأسه امرأةٌ جالسة أشبه به خلقًا ووجهًا إلا أنه أعظم فى الطول والجسم والحسن والجمال، فقال الله تعالى: هذه مثلك ومن جنسك، وهى زوجك. فأنس بها وسكن إليها.

وفى حديث ابن عباس: فسألها مَنْ أنتِ ؟ قالت: امرأة، قال: لم خلقت ؟ قالت: لتسكنَ إلىَّ، فقالت الملائكة: ما اسمها يا آدم ؟ قال: حواء، قالوا: ولم سميت حواء ؟ قال: لأنها خلقت من حَىّ، فعندها قال الله تعالى: ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥] [1] وسميت امرأة؛ لأنها خلقت من المرء، يعنى: آدم، وسمى النساء نساء؛ لأنه لم يكن لآدم أنيس غير حواء.

وفى كتاب النبوة: خلق الله آدم من الطين، وخلق حواء من آدم، فهمة الرجال الماء والطين وهمة النساء الرجال.

وفى حديث بدء النسل، عن جعفر بن محمد، قيل: فإن أناسًا يقولون: إن حواء خلقت من ضلعه الأيسر ؟ فقال: تعالى الله عن ذلك ألم يكن لله من القدرة مايخلق لآدم زوجةً من غير خلقه، ويبقى لمتكلم أهل الشيعة سبيلاً إلى قوله: إن آدم كان

---

(١) أخرجه الطبري في « تفسيره » (١/ ٥١٣) رقم (٧١٠) من طريق السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ وينظر « البداية والنهاية » (١/ ٨١)، والمنتظم (١/ ٢٠٣-٢٠٤).

ينكح بعضه بعضًا، ثم ذكر نزول نزله ومنزله.

وقيل: : إن معنى كونها أخذت من ضلع آدم: أن المراد الضلع الحسابى؛ فإنها ضلع من أضلاع آدم؛ كما هو مقرر فى علم الأوفاق، قال بعض المغاربة فى كلامه على وفق زُحَل: هذا؛ فإن جملة أعداد حروف الوفق خمسة وأربعون هى مجموع قولك آدم؛ لأن كل ضلع منه، وكل

د	ط	ب
ج	هـ	ز
ح	ا	و

شطر من أشطاره جملته خمسة عشر، وهو جملة اسم حواء، قال: وله مناسبة ظاهرة من حيث إن حواء خلقت من ضلع آدم، وقد ظهر مع هذا اسم حواء فى الوفق فى السطر الثالث، وهو « واح » بتقديم وتأخير.

وسمعت عن بعض علماء عصرنا: أن المراد بكونها أخذت من ضلعه هذا المعنى.

قلت: أذكر فى هذا القول بيتًا فى معناه وهو:

مَنْ كَانَ آدَمُ جُملاً فِى سِنِّهِ هَجَرَتْهُ حَوَّاءُ السِّنِينَ مِنَ الدُّمَا

وهو مما يطارح به الأدباء، ففيه نوع رقة، يدريها من طبعه فيه دقة. انتهى

وعن وهب: أن الله خلق حواء من فضل طينة آدم على صورته.

وفى رواية: أنها كانت فى طول آدم وحسنه، ولها سبعمائة ضفيرة، مرصعة بالياقوت، محشوة بالمسك، وكانت متوجة على صورة آدم، غير أنها أرقُّ منه جلدًا، وأخفَى صوتًا، وأدعجُ عينًا، وأملحُ ثغرًا وألطف بنانًا، وألين كفًّا.

وروى أنه لما ابتدع له خلق حواء، وقد ألقى عليه السبات، جعلها فى موضع النقرة التى بين وركيه؛ لكى تكون المرأة تبعًا للرجل، فأقبلت تتحرك، فانتبه لتحركها، فلما انتبه، نوديت أن تنحى عنه، فلما نظر إليها، نظر إلى خلق حسن يشبه صورته غير أنها أنثى، فكلمها وكلمته بلغته، فقال لها: من أنت ؟ فقالت: أنا خلق خلقنى الله تعالى كما ترى، فقال آدم عند ذلك: ياربِّ، ما هذا الخلق الحسن الذى قد آنسنى قربه والنظرُ إليه ؟ فقال الله تعالى: يا آدم، هذه أمتى حواء، فتحبُّ أن تكون معك فتؤنسك وتحدِّثك، وتكون تابعة لأمرك ؟ فقال: نعم يارب، لك علىَّ

بذلك الحمد والشكر مابقيتُ، قال: فاخطبها إلى؛ فإنها أنثى، وقد تصلح لك زوجةً للشهوة، وألقى الله تعالى عليه الشهوة، وقد علمه قبل ذلك المعرفة لكلِّ شىء، فقال: يارب، إنى أخطبها إليك، فما رضاك لذلك ؟ قال: مرضاتى أن تعلِّمها معالم دينى. قال: ذلك لك يارب إن شئت ذلك لى، فقال: قد شئت ذلك، وقد زوجتكها فضمَّها إليك، فقال لها آدم: إلىَّ فأقبلى، فقالت: بل أنتَ، فأمره الله تعالى أن يقوم إليها، فقام، ولولا ذلك، لكان النساء يقمن إلى الرجال.

وعن جعفر بن محمد: أنه فضل من طينة آدم فضلة، فخلق الله منها النخلة، فلذلك إذا قطع رأسها، لم تنبتْ وتحتاج إلى اللقاح، وهى أول شىء اهتزَّ على وجه الأرض.

وعن ابن عباس: بقى من طينة آدم شىء، فخلقه، فجاء منه الجراد.

وقيل: إن حواء خلقت من قبل أن يدخل آدم الجنة، ثم أدخلا معًا.

فعن كعب: أن الله خلق الميمون لآدم قبل خلقه بألف عام من الكافور والمسك والزعفران. ومزج بماء الحيوان، وله عرفان من المرجان، وناصيته من الياقوت، وحوافره من الزبرجد، بسرج من زبرجد، ولجام من ياقوت، وله أجنحة من ألوان الجوهر، فاستوى على ظهره. وخلق لحواء ناقة استقرت عليها، وسار إلى الجنة وحواء من ورائه، ولم يبق فيها طائر ولاشجرة إلا وتثنى على آدم، وإذا فى وسط الجنة سرير له سبعمائة قائمة، عليه فرش من السندس والإستبرق، وبين الفرش كثبان العنبر والمسك، فجلسا عليه، وكان آدم ينزل عن السرير، فيمشى وحواء خلفه تسحبُ ضفائرها، والملائكة تنثر عليهما من نثار الجنة حتى يرجعان.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن سعيد: وألقى الله فى قلب آدم محبة حواء، والشغف بها، فجعل يرد بصره عنها، وكان لونها كلون اللؤلؤة البيضاء الصافية، رقيقة البشرة، رخيمة الكلام، لينة الأطراف، قد طهرت وقدست وكسيت نورًا وبهجةً وجمالاً ودلالاً وكمالا، وتوجت وقرّطت وسورت ودملجت وكللت غدائرها باللؤلؤ، وكان الله تعالى قد كساها وكسا آدم من قبلها عوضًا من الجلد لباسًا من الظفر الذى بقى فى أطراف الأصابع، أبقاه الله له زينة على أطراف أناملهم يتوارثونه عنه؛ فكان لباسهما حينئذ، وكان له نور ساطع؛ كاللؤلؤ الأبيض لا يتدنس ولا يبلى

وكان آدم أجمل من حواء: طوله ستون ذراعاً، ووجهه كالدر الممازج الياقوت الأحمر، بشعر أسود أجعد على بياضه، وله عينان كحلاوان، وأنف أقنى، وفم أسنانه كالدر المنظوم، وشفتان حمراوتان، وبطن كبطن القباطى، وعرقه يفوحُ كالمسك، ولا يتغيَّر منه ذلك على طول المدة إلى أن مات، وكان كلما ازداد إليها نظراً، ازداد لها محبة، فأوحى الله إليه: إني ما خلقتها منك إلا لك زوجًا وإلفاً، فأزوجكها بعهدي وميثاقي حتى أسكنكما جنتي ودار كرامتي، على أن تطيعاني ولا تخالفا أمري، فقال: يا رب، أنا فاعل ذلك، وممتثل أمرك وما تشرطه علي، فأمر الله جبريل أن يكون الخاطب، ورب العالمين الولي، والملائكة الشهود، فخطب جبريل، وزوَّج الله حواء بآدم، وقال له: هاتِ صداق أمتي، قال: وما هو ؟ قال: سبِّحني ألف تسبيحة على نَفَسٍ واحدٍ. فسبح خمسمائة وانقطع. فقال: هذا معجل الصداق، والخمسمائة مؤجلة؛ فلهذا جعل في المهر المعجَّل والمؤجَّل. فلما زوجه الله بها، أمر رضوان يزخرف الجنة لعرسه، وأن يوضع لآدم منبر من النور، فعلاه آدم وحواء إلى جانبه، وألبسهما من حلل الجنة وتوجهما، وأمر الخزنة أن تنثر عليهما اللؤلؤ والمسك، وأمر الملائكة بالتقاطِ نثار آدم تبركًا به، وأمر رضوان يخرج له فرسًا من خيول الجنة، فأخرج له فرسًا من الكافور له جناحان أخضران، منظومان بالدر والياقوت عليه سرج من الجنة ولجام من النور، فركبه، فلما استوى في ظهره جمح، وكان جمحه تسبيحًا وتقديسًا، فألهم الله آدم أن قال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ١٣]، ثم أخرج لحواء ناقة من نوق الجنة من العنبر الأشهب، عليها هودج من اللؤلؤ، وقبة من الياقوت الأحمر، قد غشيت بالإستبرق، وخطامها وكورها من اللؤلؤ الرطب الأبيض، فلما استوت حواء في وسط القبة، أسبلت عليها الستور، وأمر الملائكة أن يزفوهما إلى الجنة، ويمشوا بين أيديهما ووراءهما وحولهما يهللون ويكبرون، فطافت الملائكة بفرس آدم وناقة حواء، وهما يخترقان صفوف الملائكة في طرق السموات، ولا يمرون بملأ إلا سلَّموا عليهما، ورحبوا بهما، وقالوا: هنيئا لك يا آدم بما أعطاك وزوَّجك حواء، طوبى لك يا آدم وبعدًا لإبليس عدوِّكَ، حتى انتهيا إلى باب الجنة أمر الله تعالى للملائكة أن يوقفوهما حتى يأمره وينهاه ويحذره عدوَّهُ، فأوقفوه، فمما قال: هذه

جنتى أبحتك إياها، وجعلتها مسكنًا لك ولزوجك: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥]، وأمر الله بإبليس، فوقف بين يدى آدم، وقال له: ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ الآية [طه: ١١٧، ١١٨] احفظ وصيتي، وكن باقيًا على عهدي وتركِ معصيتي، وقد أبحتك الجنة كلَّها إلا هذه الشجرة، فإياك أن تقربها فتكون ظالمًا لنفسك، ومتى أكلتها، خالفتَ أمري، وأخرجتك من جواري.

فقال آدم: قد سمعتُ ولا أعصِى لك أمرًا، ولا أقبل من عدوى صرفًا ولا نصرًا. فأي شجرة هي حتى أعرفَهَا وأتجنَّبها ؟ فأمر الله رضوان، فأوقفه عليها، وقال له ولحواء: احذرا أن يغويكما عدوكما، فإنه حريص على إخراجكما من الجنة، فإياكما أن تطيعاه، فإن أكلتما بدت سوءاتكما، وغضب عليكما ربكما، فعرف آدم الشجرة، وعرف موضعها.

واختلف في الشجرة، فقيل: شجرة البطم، وهو القمح، وكانت الحبة منها كالكلوة من البعير أحلى من العسل وألين من الزبد، وهي الفوم بالعبرانية، وكان لون حبها كلون الثلج.

وقيل: إنها التينة.

وقيل: الكرمة.

وقيل: شجرة الخلد التي كانت الملائكة تأكلُ منها.

وقيل: شجرة الكافور.

وعن ابن بابويه [(١)] بإسناده يرفعه إلى عبد السلام بن صالح الهروي [(٢)] قال: قلت للرضا - عليه السلام - أخبرنا عن الشجرة التي أكل منها آدم وحواء - عليهما السلام - ما كانت، فقد اختلف الناس فيها ؟ فقال: يا أبا الصلت، إنما الشجرة

(١) هو: محمد بن على بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي رأس الإمامية صاحب التصانيف السائرة بين الرافضة قال الذهبي: يضرب بحفظه المثل. له مصنفات منها: « دعائم الإسلام »، « الخواتيم »، « الملاهي »، و « غريب حديث الأئمة » وغيرها. ينظر: « تاريخ بغداد » (٣/ ٨٩)، الفهرست (٢٧٧)، فهرست الطوسي (١٥٦-١٥٧)، روضات الجنات (٥٥٧-٥٦٠).

(٢) وهو: أبو الصلت، قال الحافظ في « التقريب » (٤٠٩٨): صدوق له مناكير وكان يتشيع وأفرط العقيلي فقال: كذاب.

بالجنة تحمل أنواعًا، فكانت شجرة الحنطة، وفيها عنب وليست كشجر الدنيا.

وترجَّلَ آدم عن الفرس وحواء عن الناقة، وأقبلا يأكلان من ثمار الجنة، ويشربان من أنهارها ما أحبا لبنا أو ماءً أو خمرًا، والأغصان تميل عليهما ليأخذا منها، فإذا أخذا أنبت الله موضع المأخوذ خيرًا منه، ويأكلان من الطير ما أرادا مشويًّا ومطبوخاً، وكلما أكَلاَ عضوًا، أنبت الله مكانه، فإذا اكتفيا، انتفض الطائر طيرًا كما كان بإذن الله تعالى، فيرفرف بجناحه عليهما، ويقول بصوت مطرب: الحمد لله الذي جعلني طعامًا لأوليائه.

ثم يأتيهما غلمان مخلدون، فيضعون بين أيديهما موائد الدر والياقوت عليها الأطعمة والفواكه، ويحفون مجلسهما بالطيب والرياحين والأشربة فيأكلون ويشربون، والغلمان على رءوسهما بأكواب الذهب وأباريق الفضة وقوارير الياقوت فيها أنواع الأشربة، والدواب والطير وغير ذلك يسلِّمون عليهما ويهنئونهما بالنعيم، ويقولون: فضل الله آدم على جميع خلقه.

وكان الله ألبس آدم خاتمًا من النور، وقال: هذا خاتم العزِّ خلقته لك؛ فلا تنْسَ فيه عهدي، وإن نسيته، خلعته عنك وألبسته من لا ينسى عهدي وأورثه خلافتي، فقال: يا ربِّ، من هذا الذي تورثه خلافتك ؟ فقال له: ولدك سليمان أجعله نبيًا ملكًا على سائر ولدك وعلى سائر الجنِّ، وكان في إصبع آدم له نور عظيم كالشمس، فلما نسى العهد، طار الخاتم من إصبعه حتى استجار بركن من أركان العرش، وقال: يا رب، هذا آدم رفضني، وأنت قد طهرتني، فقال له: استقرَّ فلك الأمان؛ فكان هنالك حتى وهبه الله لسليمان، عليه السلام.

ولم يزل آدم في الجنة وحواء، وإبليس يتجسَّسُ عن أخبارهما، ويسأل كل من خرج من الجنة عنهما، ولا يقدر أن يدخلها؛ لأن خدامها كانت تطرده وتُعلمه أن آدم وزوجته مقيمان في نعيم الجنة، فكان يتقدم إلى باب الجنة فيقف على قدميه مسبلاً جناحيه يسبِّح، ربه ويقدِّسه بصوت شجيٍّ، ودوابُّ الجنة وطيرها ووحشها تأنسُ بصوته، وتقف تسمع منه ويسألونه أن يسألهم حاجة.

وكان الطاوس رئيس طيور الجنة رأسه من درة بيضاء، وعيناه ياقوتتان صفراوان، وجناحاه من جوهر مختلف الألوان، تراصيعه وعنقه من لجين، قد كلل بالياقوت

الأحمر، ورجلاه من جوهر مختلف الألوان فى الصبغ والأنوار، ومنقاره من زبرجد أخضر، وكان إذا نشر ذنبه، وصفّق بجناحيه، وغرَّد بصوته، يطرب كل من سمعه.

وكانت الحية سيدة دواب الجنة لها أربع قوائم سماوية البطن، خضراء الظهر، بيضاء العنق، حمراء الرأس، رقشاء الذوائب، لها بصيص ونور يتلألأ؛ فكانت هى والطاوس أكثر من اغترَّ بإبليس وافتتن بصوته وتسبيحه، وكان يقول لهما: عندى الاسم الأعظم، الذى لا يدعو به أحد إلا أجيب، وإنى خائفٌ عليكما أن تخرجا من داركما هذه، فلو تعلمتماه ودعوتما الله به لأجاب دعاءكما! فقالا: أيها الملك، علمنا إياه لندعو به أن يخلدنا الله فى الجنة، فقال: لا أعلمكما إلا أن تدخلانى الجنة من حيث لايعلم رضوان ولا الخزنة والولدان، فقالا: ومن أين نقدر على ذلك؟ فقال للحية: تدخلينى فى وبرك، ويسترنى الطاوس بجناحه؛ فتدخلانى ولايشعر بكما أحد، وأعلمكما الاسم الأعظم، ففعلا معه ذلك حتى دخلا به، فلما دخلها نكص على عقبيه، وخرج عنهما، فلم يرياه. وقصد إبليس آدم فأغواه، وقد ورد هذا من طريق النبط.

وقيل: إن إبليس كان يسأل دوابَّ الجنة وطيرها أن يدخلوه ليكلِّم آدم؛ فلا يجيبونه، وكانت حواء قد أنست بالحية وأحبتها، وكانت الحية تجىء إليها فى كل يوم تسلِّم عليها وتخرج إلى باب الجنة، فتقف هناك، وإن إبليس - لعنه الله - طلب من الطاوس الدخول، فقال له: لو أن الحية أخذتْكَ فى حنكها وبين وبرها، وأنا أسترك بجناحى، لبلغت مرادك، فهى ممن يأنس إليها آدم وحواء. فقال إبليس: إن فعلت لأشكرنك عمرى كله. فأتى الطاوس إلى الحية، وكلَّمها، فقالت: أخاف أن أطرد من الجنة كما طرد هو وأكُونَ فى سخطِ الله، فقال لها: كلِّميه ليعلم أنى كلمتك، فجاءت مع الطاوس إلى باب الجنة من حيث تنظر إلى إبليس وينظر إليها، فكلَّمها إبليس بتذلل ومسكنة، فرحمته لما رأتْ من بكائه، وقالت: أخاف أن أكون فى سخط الله كأنتَ!! فقال لها: أنتِ لستِ مثلى؛ لأنك لم تؤمرى بشىء فخالفتِ كما خالفتُ أنا أَمْرَه فى السجود.

وإذا أدخلتِنى فى وبر صدرك وَحَنَكِكِ، فأكلم آدم وحواء، وترديني إلى مكانى، فأجابته.

وكان الطاوس يحض الحية على أن تفعل، فأخذته فى وبرها مختفيًا وأوقفته، وانطلقت إليهما وقالت لهما: الطير والوحش والدواب بعثونى إليكُمَا للتبرُّك بكما، فأقبل آدم وحواء نحو باب الجنَّة، فسبقتهما، ووقفت مع الطاوس وأخذتْ إبليس فى صدرها والطاوس إلى جنبها يخفى إبليس، وأقبل آدم ووقف على باب الجنة، وأقبل إبليس يكلِّم آدم من حنك الحية وهما يظنان أنها هى التى تكلمهما، فقال إبليس - لعنه الله -: أليس الله أباح لكما الجنة تأكلان من ثمارها ؟ قالا: بلى، إلا أنه نهانا عن شجرة واحدة، فقال: صدقتما، تلك شجرة الخلد والحياة، ومن أكل منها عرف الخير والشر وعاش أبدًا لم يمتْ وخلد فى الجنة، وما نهاكما إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، فقالا وهما يظنان أنه الحية: أَحَقًّا ما تقولين أيتها الحية ؟ فقال إبليس: حقًّا أقول، وكرر القسم بالله إنه لهما لمن الناصحين فقال آدم: كيف نأكل ما نهانا الله عنه، وأوعدنا إن أكلنا البُعْدَ عن جواره، وقد أباح لنا ما فيه الكفاية؛ فأقبل على حواء، وقد اشتغل آدم عن كلامه بالسَّلَام على الطيور، وجعل إبليس يحلف لها ويقول: أقبلى منى وكلى وأطعمى آدم لتكونا مخلَّدَيْنِ. وهى تظن أنها الحية، فأقبلَتْ على آدم، وسألته أن يأكل، فقال: يا حواء، أنسيتِ عهد الله إليكِ وإلىَّ فى هذه الشجرة ؟ فرجعتْ عن قولها، وكانَتْ كلما ذكرتْ لآدمَ، زجرها فانصرفا، وحواء تودُّ لو أن آدم طاوعها، فتجره إلى الشجرة فيأبى. فقال إبليس للحية: هل لك أن تعاودينى كرةً أخرَى فأكلمهما ؟ ففعلت، فلما دخلت به الجنة وقفَتْ، فصفَّر صفيرًا أطرَبَ به أهلَ الجنة، ويسمع آدم وحواء، فامتلأ سرورًا. فلما علم أنه أطربهما، ناح نياحةً أحزن بها آدم وحواء، فقالا له - وقد نسيا؛ ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ ﴾ [طه: ١١٥] وقد خرج من صدر الحية: مالك بعد أن أطربت عدت إلى الحزن، والجنة لاحزن فيها ولانياحة ؟ فقال: صفرت وأطربت حين سمعت أنكما فى السرور، ثم ذكرت أنكما تخرجان إلى دار الغموم، فنحت حزنًا عليكما. فتنفس آدم - عليه السلام - الصعداء، فقال إبليس: الآن ظفرتُ به، وتركه ومضى، فاتبعته حواء مستوقفة له وقد طمع فيها بانفرادها عن آدم، فقالت: ياعبد الله، هل عندك حيلة فى الخلود فى الجنة ؟ فقال: نعم، فأصغت إليه فقال: إنك ستخرجين إلى دار المذلة والتعب، وعندى لك أمان من ذلك: الشجرة التى

نهيتما عنها، لو أكلتما منها لخلدتما أبدًا، وكانت سمعَتْ منه هذا الكلام وهو فى صدر الحية مرة أخرَى، فقالت: هذا هو الحق، وقد أعلمتنى به الحية، فوافق كلامها كلامك وتمت عليها وسوسته، وصح عندها قوله، وقالت له: قدم نصيحتك إلى آدم كما قدمتها إلى، فقال: أخاف ألا يقبل منى، فقالت: أنا أعينك عليه، فوسوس إليه، أى: ألقى فى قلبه النصيحة، فاستشار آدم حواء، فأشارت عليه بالأكل منها، ففر آدم، فكانت تلحقه وترده ليأكلَ منها، وجعل إبليس يأكل منها ويلتفت إليهما، فتقدم آدم إليه، وأقسم عليه أن يصدقه ماهذه الشجرة ؟ فقال إبليس: لولا ما أقسمت على، لما أعلمتك، هذه شجرة الخلد التى من أكل منها خلد فى الجنة، فذاقا منها بأن تناولا شيئًا قليلاً من ثمرها على خوف شديد.

وقيل: إن حواء جنت وأكلت وأطعمت آدم.

وقيل: قطعت ثلاثة فدميت مواضعها ودمعت، فقيل لها: يا حواء كما أدمعت الشجرة، فكذلك تدمعين على مصائبك ولا تصبرين على البكاء، وكما أدميتيها كذلك تدمين. فعوقبت بالحَيْضِ فى كل شهرٍ.

فقال إبليس للحية: أخرجينى فقد بلغتُ مرادى. فأخرجته كما أدخلته إليها، والطاوس معها وهو يلومها، وإبليس واقفٌ ينظر إليهما، ويسمع مشاجرتهما ويضحك فرحًا بما تَمَّ له على آدم وحواء، وكان الملعون علم أن من أكل منها بَدَتْ عورته ومَنْ بَدَتْ عورته، أخرج من الجنة، فكلما أكلا تقلَّص عنهما لباسهما، وظهر لكل واحد منهما عورة صاحبه، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة حتى صار كالثوب.

وقيل: إن آدم استتر بورق التين، وحواء بورق الموز.

وفى كتاب الوصية استترا بورق الموز؛ فروى أن آدم تناول ورقتين، فضمَّ طرفيهما، واتزر بإحداهما وارتدى بالأخرى، فعورة الرجل مابين السرة والركبة. وخصفت حواء أوراقًا غطت بها جميع بدنها إلا وجهها ويديها؛ فصارت عورة المرأة جميع بدنها إلا الوجه والكفين.

وعن ابن عباس: ماذاق آدمُ من تلك السنابل سنبلةً واحدةً حتى طار التاج عن رأسه وعرى عن لباسه، وكذلك حواء نزعَتْ خواتمها وزينتها وانتفضَتْ ذوائبها من

الجوهر، وصاح آدم صيحة فلم يَبْقَ أحد فى الجنة إلا ناداه: يا عاصى يا عاصى، أهكذا كان العهد بينك وبين ربك ؟! وانفضت عنه الأشجار ونادته: يا عاصى، وآدم ينادي: الأمان الأمان. وحواء تروم ستر نفسها بِشَعْرِهَا فلا تقدر، والنداء عليها: يا عاصية. فقعدَتْ ووضعَتْ رأسها على ركبتيها حتى لا يراها أحد. فأتى جبريلُ فأخذ بناصيته، فقال: أيها الملك ارفق بى، فقال: لا أرفق بعاص، فاضطربَ آدمُ وارتعَدَ حتى ذهب كلامه، ونوديَتْ حواء: من فعل بك هذا ؟ فقالت: غَرَّنى عدوى، وما كنت أظنُّ أحدًا يحلف بك كاذبًا، فقيل لها: اخرجى مغرورة، فقد جعلتك ناقصةَ العَقْلِ والدينِ والميراثِ، وجعلتك أسيرةً أيامَ حياتك، وحرمتُكِ الجمعةَ والجماعةَ والسلامَ والتحيةَ، وقضيتُ عليكِ الطمثَ وجَهْدَ الحَبَلِ والولادة والطَّلْق، ولتكونى أكثر حزنًا وجزعًا وأقلَّ صبرًا. فلما خرجَتْ إلى باب الجنة فإذا هى بآدم، فصاحت صيحة عظيمة: يالها حسرة، وقالت: دعنى ياجبريلُ أنظر إلى الجنة. وجعلتْ تلتفتُ بحسرة واكتئاب. ثم أتى بالطاوس مقطعًا ريشه من طعن الملائكة، وجبريل يقول له: اخرج من الجنة أبدًا، فإنك مشئوم أبدًا. وكذلك الحية وقد صارت ممسوخةً ممنوعة من النطق، مشقوقة اللسان، والملائكة تقول لها: لا رحمكِ الله، ولارحم الله من يرحمك. وبرز آدم إلى السموات، وحجبت حواء عنه فلم يَرَهَا.

وعن الحجر: أن آدم ولى هاربًا حياء من الله وهو يقول: أهلكتِنِى يا حواء وهلكْتِ. فجلستْ حواء إلى الأرض، وتجللت بشعرها، ورفعت رأسها إلى العرش، فتوارث ذلك بناتُهَا منها عند المصائب: يرفعن رءوسهن إلى السماء صارخات، ونكَّسَ آدم رأسه حياءً من ربه هاربًا فى الجنة، فتوارث ذلك منه بنوه إذا أصاب أحدًا مصيبة، نكس رأسه إلى الأرض، وربَّما بحثها بأصبعيه، فأتاه النداء من الجهات: ألستَ فارًا منى يا آدم ؟ فقال: يارب، وأين أفرُّ منك ؟ وإن لم تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين.

ولما مر آدم فى الجنة يعدو، علقَتْ شجرة من الجنة بشعره فأوقفته وكلمته فى رأسه، فلما خرج من الجنة أخرجت تلك الشجرة معه. قيل: إنها شجرة العليق؛ سميت بذلك؛ لأنها تعلقت بآدم؛ فهى لا تنبت إلا فى السباخ، ولم ينتفع منها بشىء.

وهذه الجنة جنة من جنات السماء لا جنة الخلد؛ لأن تلك لاينقطع أكلها، ولا تكليف فيها.

وعن جعفر بن محمد: إن الجنة التى أخرج منها آدم جنة من جنات الدنيا، تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنات الخلد لم يخرج منها أبدًا.

وقيل: هى الأرض، وقوله: ﴿ اَهْبِطُواْ ﴾ [البقرة: ٣٦] لايدل على كونها فى السماء؛ كقوله تعالى: ﴿ اَهْبِطُواْ مِصْـرًا ﴾ [البقرة: ٦١] فقال الله تعالى لآدم وحواء ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ٢٢] قال آدم: يا رب، حواء أطعمتنى، قالت حواء: يارب، الحية قالت: إنها شجرة الخلد، قال الله للحية: لم قلتِ ذلك ؟ قالت: يارب، بل إبليس قال لهما، قال الله تعالى: ﴿ اَهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦] فلهذا العداوة بينهم إلى يوم القيامة، وفرق بين العداوتين؛ فإن عداوة آدم إيمان، وعداوة إبليس عصيان؛ فالعداوة ناشئة بين الذريتين وإبليس خفير الحية، وابن آدم يروم قتلها ليُخفر ذمته، والحية دائبة تريد أن تلسعه، قال رسول الله ﷺ « اقتلوا الحية حيث رأيتموها، وأخفروا ذمة الشيطان ».

ثم قال الله لآدم: يا آدم، ما أسرع مانسيت عهدى، اخرج من جوارى؛ فلا يجاورنى من عصانى، فأَنَّ آدمُ أنة وزفر زفرة كاد أن يموت أسفًا. وأمر الله تعالى جبريل أن يأخذ بعَضُدَى آدم ويسوقه، وحواء خلفه لها زفير وشهيق، فأخذ بيده ليخرجه، فقال: اللهم، بحقِّ محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين تُبْ على، فأوحى الله إليه: اهبط إلى الأرض حتى أتوب عليك فيها. فهبط وأهبط معه من الجنة بذر كل شيء من الثمرات، فلما استوى على الأرض، مد بصره، فرأى إبليس قد سبقه إلى الأرض (١).

وبإسنادنا عن ابن بابويه يرفعه إلى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جده، عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: لما أكل آدمُ من الشجرة، رفع رأسه إلى السماء، فقال: أسألك بحق محمد إلا رحمتنى،

(١) هذا الكلام ساقط لا يحتاج إلى دليل لبيان سقوطه وحسبك أنه محكي في كتب الشيعة والروافض والقصة في توسل آدم بأهل البيت.

فأوحى الله إليه: ومن محمد ؟ فقال: تبارك اسمك، لما خلقتنى رفعت رأسى إلى عرشك، فإذا فيه مكتوب: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فعلمت أنه ليس أحدٌ أعظم عندك قدرًا ممن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى الله إليه: يا آدم، إنه لآخر النبيين من ذريتك، فلولا محمد ما خلقتك(١).

وروى: أن آدم لما أهبط، لم يصعد إلى شجرة إلا صعد إبليس حياله شجرة مثلها، فرفع آدم يده وقال: يارب، إنك تعلم أنى لم أطقه، وأنا فى جوارك، وقد أهبطته إلى الأرض معى، فلا طاقة لى به، فأوحى الله إليه: يا آدم، السيئة منك ومن ولدك سيئة، والحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة، قال: يارب، زدنى، فأوحى الله إليه: لايأتى من ولدك بمثل الجبال من الذنوب تائبًا منها إلا غفرتُ له، قال: يارب، زدنى، فأوحى الله إليه: أغفر الذنوب ولا أبالى، قال: حسبى، قال إبليس: قد حلتَ بينى وبينه ومنعتَنِى منه، فأوحى الله إليه: لايولد له ولد إلا ولد لك ولدان، قال: يارب، زدنى، فأوحى الله إليه: تجرى مجرى الدم، قال: يارب، زدنى، فأوحى الله إليه: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١٢٠] قال: حسبى، فصار ضدًا لآدم ولولده منذ ذلك اليوم، فأخرجهما وابتلاهما بالتكليفِ والمشقَّة وسلبهما ثياب الجنة؛ لأن إنعامه عليهما كان تفضلاً، فله منعه تشديدًا للبلوى والامتحان، كما يفقر بعد الغنى، ويميت بعد الإحياء، ويسقم بعد الصحة، ثم قال الله تعالى للحية: أنت التى خفرك عدوى؛ فإن آدم وبنيه يُخفرون ذمته فيك حيث وجدوك ولاينفعك إبليس شيئًا، ثم مسح قوائمها وقال لها: قد أذهبتُ جمالك وجعلتُ رزقك فى التراب، قالت: لا بل أمشى على بطنى كالحوت فى الماء، فقال الله تعالى: وتتكلمين أيضًا ؟! فشق لسانها وأخرسها عن الكلام فهي تسمع وتبصر ولا تقدر على الكلام، وليس شىء من البهائم والدواب إلا يكلم بعضه بعضًا إلا الحية.

وقال للطاوس: أما أنت فكنت أحسن الطيور، فلأزيلنَّ جمالك، ولأجعلنك

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٦١٥)، والبيهقي في « الدلائل » (٥/ ٤٨٩) من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر وقال الحاكم صحيح الإسناد وتعقبه الذهبي فقال: بل موضوع، وعبد الرحمن واه . . . رواه عبد الله بن مسلم الفهري، ولا أدري من ذا.اهـ. وقد حكم ببطلان هذا الخبر غير واحد كالذهبي كما مر، وابن كثير، وابن حجر، وغيرهم. وينظر: « السلسلة الضعيفة » رقم (٢٥).

لاتطير، فمسح جماله، وأزال إكليله، وشقق رجليه، وأزال حلته، وحسن نغمته، فإذا نظر إلى رجليه يصيح أسفًا.

وأنزل الله تعالى آدم بالهند على جزيرة سرنديب على جبل الرهون، وعليه الورق الذى خصفه فيبس فذرته الريح فى بلاد الهند، فيقال: إن علة الطيب بتلك البلاد من ذلك الورق؛ ولذلك خصت تلك البلاد بالعود والقرنفل وسائر أنواع الطيب، وكذلك الجبل لمعت عليه اليواقيت؛ فكان منه الماس، وفى بحره أنواع الجواهر.

وقيل: أهبط على جبل يقال له: واسم يشرف على واد يقال له: سرنديب.

وعن جعفر بن محمد: أهبط على الصفا، وحواء على المروة [(١)]، وكانت امتشطت حواء فى الجنة، فلما صارت إلى الأرض، حلت ضفيرتها فانتثر منها العطر الذى كانت امتشطت به فى الجنة فطارت به الريح فألقت أكثره فى الهند؛ فلذلك صار العطر بالهند.

وفى العلل: أنها حلت عقيصتها، فأرسل الله على ما كان فيها من الطيب ريحًا تهب به فى المشرق والمغرب.

وفى رواية: أن الصفا سمى بذلك؛ لأن المصطفى هبط عليه، وسميت المروة؛ لأن المرأة هبطت عليه، وهما جبلان عن يمينى الكعبة وشمالها.

وعن وهب: أهبط آدم على جبل فى شرقى أرض الهند يقال له: واسم [(٢)]، وأهبط حواء بجدَّة[(٣)]؛ وإنما سميت جدة، لأن جبريل قال لهما: تفارقتما جِدًّا، وأهبط إبليس بميسان، وأهبطت الحية بأصفهان [(٤)]، والطاوس ببرارى عدن، وجعل

---

(١) وهو قول ابن عمر أيضًا. ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١١١)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٢) هذا القول أيضًا ذكره ابن إسحاق عن أهل التوراة فقال: أهل التوراة يقولون: أهبط بالهند على جبل يقال له: واسم، عند واد يقال له: بهيل، بين الدهنج والمندل؛ بلدين بأرض الهند. وينظر: « المنتظم » (١/ ٢٠٨)، وتاريخ الطبري (١/ ١٢٢).

(٣) ذكر هذا قوم ينظر: المنتظم (١/ ٢٠٨)، وتاريخ الطبري (١/ ١٢٢) قلت: وللطبري كلام رائق حول هذا الكلام فقال: « وهذا مما لا يوصل إلى علم صحته إلا بخبر يجيء مجيء الحجة، ولا يعلم خبر في ذلك ورد كذلك، غير ما ورد من خبر هبوط آدم بأرض الهند؛ فإن ذلك مما لا يدفع صحته علماء الإسلام وأهل التوراة والإنجيل ». اهـ.

(٤) ينظر: المنتظم (١/ ٢٠٨).

بعضهم عدوًا لبعض إلى يوم القيامة.

وعن كعب: أهبط آدم بالهند على جبل يقال له: نود [١]، وحواء بجدة، وإبليس برستاق ميسان، والحية بأصفهان، والطاوس بالبحر، ثم أمره الله تعالى أن يسير إلى مكة، فطوى له الأرض، فصار على كل مفازة يمر بها خطوة، ولم يقع قدمه فى شيء من الأرض إلا صار عمرانًا، وكان جبريل يأتيهما بأرزاقهما من الجنة، ثم احتبس الرزق عنهما فاشتدَّ جوعهما، فنزلا إلى الوادى، فالتقيا وأكلا من ثمر الأراك، وروى: من الحنطة والطحين والعجين والخبز، وأخرج معه - حين خرج من الجنة صرة من الحنطة بعد أن استأذن ربه أن يتزود منها، أى: من الجنة، فقال له: خذ من الشجرة التى أكلتما منها؛ فهى غذاؤكما وغذاء نسلكما إلى يوم القيامة كما عصيتمانى، فأخذ الصرة وثلاثين قضيبًا من الشجر مودعة أصناف الثمار من شجر الجنة منها عشرة لها قشر، وهى: الجوز، واللوز، والبندق، والفستق، والخشخاش، والسايلوط، والنارنج، والموز، والبلوط، والرمان، وعشرة ذات نوى، وهى: الخوخ، والمشمش والإجاص، والرطب، والعبير، أو النبق، والزعرور، والعناب، والمقل، والقراصيا، ومنها عشرة لاقشر لها، وهى: التفاح، والسفرجل، والعنب، والكمثرى، والتين، والتوت، والأترج، والقثاء، والخيار، والبطيخ.

وعن وهب: أول ما علم بهبوط آدم النسر فألفه وبكى معه، وكان على ساحل البحر ينتظر حوتًا ليؤنسه، فلما ظهر الحوت من الماء أخبره النسر أنه رأى خلقًا عظيمًا يقوم ويقعد ويجيء ويذهب، فقال الحوت: إن كان ما تقول حقًّا فقد جاء ما ليس منه مفر، لا فى البر ولا فى البحر.

وفى رواية: أنه قال: يستخرجنى من بحري، ويستخرجك من برك [٢].

فأخرج آدم من الجنة فى آخر الساعة الثانية عشرة من يوم الجمعة، وأنزل إلى الأرض، فى أول ساعة من ليلة السبت، فكان مقامه فى الجنة منذ دخلها إلى أن أخرجه منها ساعة واحدة من ساعات اليوم الذى مقداره ألف سنة، مقدار تلك

---

(١) وهذا مروي أيضًا عن أبي صالح عن ابن عباس، ذكره ابن الجوزي في «المنتظم» (١/ ٢٠٨).

(٢) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» (١/ ٢١٠-٢١١) عن سعيد بن جبير بنحوه. وينظر: «مرآة الزمان» (١/ ٢٠٢-٢٠٣).

الساعة من سنى الدنيا ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، وبقى مصورًا طينًا فخارًا صلصالاً على باب الجنة خمس ساعات إلى أن نفخ فيه الروح، وأهبط على الجبل عند غروب الشمس من يوم الجمعة وأول ساعة من ليلة السبت، وألقى الله السبات على كل حى تلك الليلة إلا الملائكة؛ فإنها لاتنام، فبقى آدم على الجبل حائرًا منفردًا ينظر يمينًا وشمالاً لايرى شيئًا إلا السماء والنجوم وما كان أبصرها، فرأى وحشة وظلامَ الأفق، وكان أول ليلة من نيسان، فبكى بكاء شديدًا حتى أصبح صباح السبت، وجاء نور النهار، فسبح الله وكبره، وكذلك حواء، وقالا: هذا من النور الذى نعرفه فى الجنة إلا أنه ليس بذلك، ولما طلعت الشمس بحرِّها، خَافَا أن يكون عذابًا فازداد بكاؤهما، فأعلمهما جبريل أن هذه الشمس، وأنه لا ضرورة فيها، فسكنا مما كانا فيه، ونظر آدم إلى الجبال والأودية والأشجار والأنهار فبكى، وقال: أين هذا مما كنا فيه من الجنة ؟! ولما طلع النهار، ألقت حواء الطيب والجواهر، ووضعت يديها على رأسها صارخة من الوحشة، فاتخذ ذلك بناتها سنَّة فى المصائب، وإن آدم لولا تأخير أجله لمات خوفًا من الوحشة، فأوحى الله إلى جبريل أن قل له: هذا كله بخطيئتكما؛ إذ لم تطيعا أمرى بعد أن حذرتكما من عدوكما، وسأجمع بينك وبين زوجك، فتب إلىَّ وادعنى واستغفرنى، أستجب لك وأغفر لك وأنا الغفور الرحيم، فأعلمه جبريل، وصعد إلى السماء، فقال: يا جبريل، أتتركنى فريدًا ووحيدًا ؟ فقال له: بذلك أمرنى ربى.

وعن النبى ﷺ أن آدم هبط إلى الأرض مُسْوَدًّا، فضجَّت الملائكة إلى الله تعالى، فأمره الله تعالى أن يصوم الأيام البيض، فلما صام الثالث عشر ذهب ثلث السواد، فلما صام الرابع عشر ذهب ثلثاه، فلما صام الخامس عشر ابيضَّ كله، ثم ناداه مناد: يا آدم، هذه الأيام لك ولولدك، من صامها فى كل شهر فكأنما صام الدهر [(١)].

وروى أن جبريل قال: يا آدم، حياك الله وَبيَّاك، فقال: أما حياك فأعرفه، فما

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢/ ٧٢) من طريق الخطيب في أماليه من حديث عبد الله بن مسعود وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يشك في وضعه؛ وفي إسناده جماعة مجهولون لا يعرفون. وإنما سميت أيام البيض؛ لأن الليل كله يبيض بالقمر. اهـ. وتعقبه السيوطي في « اللآلئ » (١/ ٤٨٣-٤٨٤) بأن للحديث شاهدًا من حديث ابن عباس عزاه للديلمي. قال ابن عرّاق في « تنزيه الشريعة » (٢/ ٥٥): وفي سند الديلمي من لا أعرفه.

بياك ؟ قال: أضحكك، فسجد آدم ورفع رأسه، وقال: رب زدنى جمالاً، فأصبح وله لحية سوداء كالحمم، فضرب بيده إليها وقال: يارب ماهذه ؟ فقال: هذه اللحية زينتك بها وذكران ولدك إلى يوم القيامة.

قال ابن بابويه فى العلل: وهذا الخبر صحيح.

وفى قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ ﴾ [البقرة: ٣٧] قال الحائنى فى الحقيبة: فقد روينا بإسنادنا المتقدم، عن ابن بابويه قال: أخبرنا أبو جعفر محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، عن محمد بن الحسن الصفار، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن أحمد بن محمد بن أبى نصر، عن أبان بن عثمان، وعن محمد بن مسلم، عن أبى جعفر قال: الكلمات التى تلقاهنَّ آدم من ربه، فتاب عليه قال: اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءًا وظلمْتُ نفسى، فاغفر لى إنك أنت خير الغافرين.

ومن كتاب القضايا[١] فى وصية النبى ﷺ لعلى رواية محمد بن زريق، عن سلمة ابن الوضاح الأسوانى، عن محمد بن خلاد الكوفى، عن عطية، عن وهب، عن جعفر بن محمد، عن على، عن أبيه، عن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه- قال: أوصانى رسول الله ﷺ بوصية . . . ومر فيها إلى أن قال: قال علىٌ: أرأيت قول الله فى كتابه: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٣٧] ما تلك الكلمات ؟ قال: ياعلىُّ، إن الله تبارك وتعالى أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، والملعون إبليس بميسان، والحية بأصبهان، ولم يكن فى الجنة شىء أحسن من الحية، وكانت من دواب الجنة، وكان لها خلق كخلق البعير، وقوائم كقوائمه، وعنق كعنقه، فأتى إبليس فقال: أيتها الحية، احمليني على ظهرك حتى تدخليني الجنة، فقالت: إنه لا ينبغي لأحد أن يركبنى إلى يوم القيامة، قال: إنى أتمثل ريحًا فأدخل فى شدقك ولاتحملينى، ففعلت، فلما دخل الجنة، أغوى آدم ونزعه. فغضب الله على الحية، فقطع قوائمها، وجعلها تمشى على بطنها، وجعل رزقها فى التراب، وقال: لا يرحم الله من يرحمك، وغضب على الطاوس، ولم يكنْ فى الجنة أحسن من الحية والطاوس، فقبح الله من الطاوس رجليه؛ لأنه

(١) كذا في ط ولعلها: الوصايا.

هو الذى دل إبليس على الشجرة وأخبره بها، فأقام آدم بالهند مائة سنة واضعًا يده على أم رأسه ينوحُ على نفسه بالعبرانية، فبعث الله جبريلَ فقال له: يا آدم، إن الرب يقرئك السلام، ويقول: أليس أنا الذى خلقتك بيدى، ونفخت فيك من روحى، وأسجدت لك ملائكتى، وأسكنتك جنتى، وزوجتك حواء أمتى، وحذرتك عدوى، فعصيتنى وأطعت عدوى ؟! فما هذا البكاء، وأنا أعلم ما بكيت له ؟ فقال: ياجبريل، كيف لا أبكى وقد أخرجتُ من جوار ربى إلى دار البلاء، ودار السغب والنصب ؟! قال جبريل: يا آدم، قل هذه الكلمات، قال: ياجبريل، ياحبيبى، وما أقول؟ قال: قل: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، وحدك لاشريك لك، عملت سوءًا وظلمت نفسى، فارحمنى، إنك أنت أرحم الراحمين. سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، وحدك لاشريك لك، عملت سوءًا وظلمت نفسى، تب على، إنك أنت التواب الرحيم(١).

وكان آدم بالهند وحواء بجدة على شق البحر قائمة قد تمعَّطَ شعرها، وتلبد على وجهها، وقشفت من الشمس، فرفعت يديها إلى السماء داعية باكية حزينة على ماحَلَّ بها قائلة: إلهى، أمتك حواء متضرعة إليك ضعيفة حيرانة قد أحاطَتْ بها خطيئتها وأوبقها سوء فعلها. إلهى، وقد طالت علىَّ وحشتى، وعظمت مصيبتى، وذلك كان لتفريطى وإضاعتى ما أمرتنى به. وقد أخبرنى بديعُ فطرتِكَ آدم قرينى الذى خلقتنى منه؛ أن النور الذى فى أسارير وجهه نور ولد من أولاده اسمه محمد، وبه كنيته بأبى محمد؛ أنك لا تسأل به إلا أجبْتَ، وأنك من أجله خلقتنى، وخلقت السموات والأرض، وبرأت البرايا، فبحقه عليك وبموضعه منك إلا مارحمْتَ ضعفى ولهفى، وتبت على، وغفرت لى، وجمعت بينى وبين آدم صفيك حتى أراه، وأعلم ماهو فيه؛ فإنك غفور رحيم. اللهم، إنى عملت سوءًا وظلمتُ نفسي، فاغفر لي، وتب على، واعصمنى، إنه لايغفر الذنوب إلا أنت، وأنت التواب الرحيم.

وعن ابن عباس: بكت حواء، فأنبت الله من دموعها القرنفل والأفاويه، وبقيت شاخصة ببصرها إلى السماء، ووضعت يديها على رأسها، فورث بناتها ذلك، وحملت الريح صوت آدم بالكلمات التى علمه إياها جبريل - عليه السلام -

(١) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (١/١١٩)، وعزاه للديلمي في « مسند الفردوس ».

فاستبشرت، وقالت: كلمات لم أسمع بمثلها قد جعلها الله توبة. وارتفع دعاؤهما فى وقت واحد، وخرقت أصواتهما الحجبَ حجابًا حجابًا، وكل ملأ من الملائكة دعا لهما من سماء إلى سماء إلى تحت العرش، فأجاب الله دعاءهما وأوحَى إلى حواء: إنى قد غفرت لك ولآدم خطيئتكما، وتبْتُ عليكما، وأنا التواب الرحيم.

فتقدمى إلى مكة وصومى شهر رمضان كما صام آدم. فصامت، والملائكة فى كل ليلة تأتيها بفطرها من الرطب.

وقيل: إن النخلة عندها فى الحجاز نزلَتْ، ومنها كان يحمل إلى آدم كل ليلة؛ فلهذا الحجاز بلد النخل. ولما تم شهر رمضان، قال آدم: كنت أنظر إلى ملائكتك يطوفون ببيتٍ تحت عرشك، ويسبحون حوله، فآنس بهم، وقد اشتهيت أن لو كان فى الأرض مثله أطوف به وأسجد حوله. فأوحى الله إليه: يا آدم، أنا الذى ألهمتك أن تقول ذلك، لما سبق فى علمى من عمارة بيت فى الأرض لك ولولدك، أظهر مكانه وأعظم ذكره وشأنه، حيال ذلك البيت الذى رأيتَهُ تحتَ عرشى، أبوِّئ مكانه لولد من ولدك يبنيه ويرفع قواعده ويجعله حجًا لولدك إلى يوم القيامة، يأتون إليه من كل فج عميق، يريدونه وقد أثقلتِ الخطايا ظهورهم، فأغفر لهم كل خطيئة، فسر إليه أبوئك مكانه، فيعظم ذكره وشأنه، فمن يلوذ به صادقًا فهو ضيفى، فأنا أكرم الأكرمين.

فتأهب آدم للمسير، وأرسل الله إليه جبريل بعصا من آس الجنة يتوكَّأ عليها فى مسيره، وتكون له عونًا على خطواته، فلما رآها آدم، بكى وقبلها ووضعها على عينيه ووجهه، وقال: يا جبريل، أترى ربى يعيدنى إلى الجنة ؟ فقال: يا آدم، ما تاب عليك إلا وهو رَادكَ إليها، فلا تيأس من رحمة الله، فأخذ العصا بيده وشدَّ عليه ما بقى من الورق، وقد نسفت الريح أكثره بالهند، وناداه الجبل: يا صفوة الله، كنت آنس بك، وأفتخر على جبال الأرض، فإلى أين ترحَلُ عنى ؟ فقال آدم: بأمر ربى هبطت عليك، وبأمره ارتحلت عنك. فبكى الجبل بكاء شديدًا لفراقه، فبارك فيه آدم وشرفه بنباتٍ من أطيب الشجر وأكثرها منفعة.

وسار آدم، وجبريل يهديه الطريق، والعصا بيده يطوى المفاوز والقفار والبحار، فكانت بين الخطوة والخطوة قفرًا سبسبًا لا عمارة فيها، وفى مواضع عصاه بساتين

حول تلك المدينة، وهكذا يكون إلى يوم القيامة. ولم يزل يسير حتى وصل إلى جدة، فوجد أثر حواء؛ لأنه شم رائحة الورق الذى كان عليها، فسميت جدة لذلك. وقال: يا حواء، أترانى أنظر إليك نظرة ؟! فنادته الجبال التى مرت عليها: تسير فى أثرها تدركها، إن شاء الله تعالى. فسار إلى قرن، فأمره جبريل، فأحرم ولبى بلا مخيط تشبيهًا بالورق الذى كان عليه. وأنزل الله البيت المعمور، فأوقفه فى الهواء بحيث يراه فيعرفه حيال المهاة البيضاء التى هى موضع البيت، ومنها دحيت الأرض، وهى أم القرى.

فأوحى الله إليه أن كن محرمًا فطف بالبقعة المباركة، وصلِّ عندها، واسألنى جميع حاجتك، وأنا مجيب الدعاء. فأحرم ولبَّى ودخل الحرم ونظر إلى البيت المعمور فى الهواء، وناداه الله: ائت الربوة الحمراء التى فى وسط المهاة البيضاء، فطف حولها سبعًا، ثم صَلِّ عندها ركعتين؛ فهى بقعة بيتى الحرام. ففعل، وأنبع الله زمزم التى أخرجها بعد ذلك إسماعيل، فشرب وتوضأ وأنبتَ الله له الموز فكان يأكل منه. وأخبره بمكان حواء، فلما رأته جاءت إليه تبكى، فبشرها جبريل بالتوبة والمغفرة، فسجدت شكرًا لله تعالى، وتطهرتْ وتوضأت، فأهلَّتْ بعمرة وأحرمت ولبت وأتى بها جبريل إلى جميع مواقفها، وجمع جبريل بينهما فى جمع فسمِّىَ بذلك لاجتماعهما فيه.

وقيل: بل تعارفا بعرفات، فبادرت إليه وتعانقا وبكيا، ثم أخرجها من الحرم إلى الجبل، وأتى بظبى من البرية فذبحه وسلخه ودبغ جلده وكسا به حواء، فصارت السنة أن تكسو الرجال النساء.

وبقى آدم إلى أن استهل ذو الحجة، وأوقفه جبريل على أعلام الجبل، وعلمه مناسك الحج والوقوف بمنى والدعاء والطواف حول البيت إلى تمام الحجة الحرام، وأنزل الله إليه كبشًا فذبحه فسال دمه واضطرب، ففزع آدم وارتعد؛ لأنه لم يكن أبصر موت شىء، فضمه جبريل إلى صدره، وقال له: اطمئن؛ هذا قربان يقبل الله به نسكك، ويغفر ذنبك، ويكون سنة لبنيك من بعدك.

ثم أمره جبريل فسلخه، وأخرج كرشه، فنفض ما فيه وغسله جميعه، ثم أمره أن يعيد إلى جوف الكرش ما أخرجه منه، وأن يشق الجلد ويبسط على وجه الأرض

والصوف مما يلى الأرض، وأن يضع الكبش المسلوخ على الجلد، وأن يقصر من شعر حواء، ففعل وأمر حواء، فأخذت المدية فحلقت رأسه، وجعل يدعو وحواء خلفه تؤمن على دعائه.

فلما فرغ من دعائه، جاءت نار بيضاء من السماء ليس لها دخان ولا لهب، فأخذت الكرش وجلده وصوفه وما كان فيه، ثم ارتفعت به إلى السماء، فأوحى الله إليه: إنى قد قبلت قربانك وأعطيتك جميع ما سألت، وأنا ذو الفضل العظيم، وكذا أفعل بمن قصد بيتى بعدك فى هذا الشهر، لا أقبل هذا فى غيره؛ ليكون ميقاتًا معلومًا. فتمّم حجه، ورمى الجمار غيظًا لإبليس ورجمًا. فلما فرغ من حجه، أخذ جبريل بيد آدم وحواء وجاء بهما إلى ساحل البحر مما يلى جدة، وقال: إن الله أحل لك جميع ما في هذا البحر صغر ذلك أو كبر، أيها السمك أقبل بإذن الله، فجاءت أصنافًا، فقال له: خذ ما تريد، فأخذ سمكتين عظيمتَيْنِ، وعلمه فجمع حطبًا، وقرع المدية بالحجر، فخرج نار وشواهما. فقال آدم: الحمد لله الذى جعل لنا من هذا طعامًا. ثم انصرفا إلى مكة وودعهما جبريل، وبقى آدم وحواء ليس لهما ثالث، فعادا إلى الحرم فسكناه.

وعن أبى نصر، عن إبراهيم بن محرز، عن أبى حمزة، عن أبى جعفر قال: إن آدم نزل من الهند، فبنى الله تعالى البيت، وأمره أن يأتيه ويطوف به أسبوعًا، وقضى مناسكه كما أمر الله تعالى، فقبل توبته وغفر له، فقال آدم: يا رب، ولذريتى من بعدى، فقال: نعم، من آمن بى وبرسلى.

وفى رواية عبد الحميد بن أبى الديلم، عن جعفر بن محمد: أن آدم اعتزل حواء حتى فرق بينهما، فكان يأتيها نهارًا فيتحدث عندها، فإذا كان الليل خشى أن تغلبه نفسه فرجع، فَمَكَثَ بذلك ما شاء الله، ثم أرسل إليه جبريل فقال: السلام عليك يا آدم الصابر لبليته، إن الله بعثنى إليك؛ لأعلمك المناسك التى يريد الله أن يتوب عليك بها، وأخذ بيده منطلقًا حتى أتى مكان البيت، فنزل غمام من السماء، فقال له جبريل: يا آدم، خط برجلك حيث أظلك الغمام؛ فإنه قبلة لك ولآخر عقب من ذريتك. فخط آدم هناك برجله، فانطلق به إلى منى فأراه مسجد منى، فخط برجله بعد ما خطَّ موضع المسجد الحرام وبعد ماخط البيت.

ثم انطلق إلى عرفات، فأقام على المعرَّف، ثم أمره عند غروب الشمس أن يقول: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف: ٢٣] سبعًا؛ ليكون سنة فى ولده معترفين بذنوبهم هناك.

ثم أمره فأفاض من عرفات، ثم انتهى إلى جمع، فبات ليلته بها، وجمع فيها بين الصلاتين فى وقت العتمة فى ذلك الموضع إلى ثلث الليل، وأمره إذا طلعت الشمس أن يسأل الله التوبة والمغفرة سبع مرات؛ ليكون سنة فى ولده، فمن لم يدرك عرفات، فأدرك جمعًا، فقد أدرك حجه[١] وأفاض من جمع إلى منى ضحوة، فأمره أن يقرب إلى الله قربانًا؛ ليتقبل الله منه، ويكون سنة فى ولده، فقرب قربانًا فتقبل منه قربانه، فأرسل الله نارًا من السماء فقبضته، فقال جبريل: يا آدم ارمه بسبع حصيات، ففعل، فذهب، فقال جبريل: إنك لن تراه بعد مقامك هذا أبدًا. ثم انطلق به إلى البيت، فأمره أن يطوف سبع مرات، ففعل، فقال جبريل: حلت لك زوجتك.

وعن معاوية بن عمار، عن أبى عبد الله قال: لما أفاض آدم من عرفات، تلقته الملائكة، فقالت له: برَّ حجك يا آدم، أما إنا قد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام.

وفى حديث وهب بن منبه اليمانى؛ أن آدم بكى على الجنة مائتى سنة[٢]، فعزَّاهُ الله بخيمة من خيام الجنة، فوضعها له بمكة فى موضع الكعبة، وتلك الخيمة من ياقوتة حمراء لها بابان شرقى وغربى، من ذهب، منظومتان، معلق فيها ثلاثة قناديل من تبر الجنة، تلتهب نورًا، وأنزل الركن وهو ياقوتة بيضاء من ياقوت الجنة، وكان كرسيا لآدم - عليه السلام - يجلس عليه، وإن خيمة آدم لم تزل فى مكانها حتى قبضه الله تعالى، ثم رفعها الله إليه، وبنى بنو آدم موضعها بيتًا من الحجارة والطين، ولم يزل معمورًا، وأعتق من الغرق ولم يغرقه الماء، حتى ابتعث الله إبراهيم.

وذكر وهب أن ابن عباس أخبره: أن جبريل وقف على النبى ﷺ، وعليه عصابة خضراء قد علاها الغبار، فقال رسول الله ﷺ: ماهذا الغبار ؟ قال: إن الملائكة أمرَتْ بزيارة البيت، فازدحمت؛ فهذا الغبار مما تثير الملائكة بأجنحتها.

---

(١) والمعروف أن الحج عرفة، فمن لم يدرك عرفة فقد فاته الحج. قال البغوي في شرح السنة: قال الإمام: اتفقَ أهلُ العلم على أن الحاج إذا فاته الوقوف بعرفة في وقته فقد فاته الحج. ينظر: شرح السنة (٤/ ١٧٦ -بتحقيقنا).

(٢) ينظر: المنتظم (١/ ٢١٢)، وعرائس المجالس ص (٣٠).

وعن عبد الله بن سيابة، عن أبى عبد الله قال: طاف آدم بالبيت مائة عام ما ينظر إلى حواء، ولقد بكى على الجنة حتى صار على خديه مثل النهرين العظيمين من الدموع، ثم أتاه جبريل فقال: حياك الله وبَيَّاكَ. فلما أن قال: حياك، تبلج وجهه فرحًا، ولما قال: بياك، ضحك. ومعنى بياك: أضحكك. قال: ولقد قام على باب الكعبة وثيابه جلودُ الإبلِ والبقرِ.

فقال: اللهم أقلنى عثرتى، وأعدنى إلى الدار التى أخرجتنى منها، فقال الله جل ثناؤه: وقد أقلتك عثرتك، وسأعيدك إلى الدار التى أخرجتك منها.

وعن أبى جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله حين أهبط آدم من الجنة أمره أن يحرث بيده، فيأكل من كدها بعد نعيم الجنة، فجعل يحار ويبكى على الجنة مائتى سنة، ثم إنه سجد لله سجدة، فلم يرفع رأسه ثلاثة أيام بلياليها. فقيل: جاء جبريل بالحَبِّ على قدر بيض النعامة، أبيض من الزبد، وأحلى من العسل وبثورين من ثيران الفردوس وبالحديد، فقال: مالى ولهذه الحبة التى أخرجَتْنِى من الجنة ؟ فقال جبريل: هذا غذاؤك وغذاءُ أولادِكَ فى الدنيا. فعقد النير على أرقابهما، وحرث وبذر، ووقف من التعب، فقال له جبريل: اصبر إلى أوان حصاده، فاجمعه وادرسه وأذرّه وأخرج حقه يوم حصاده، ثم اطحنه واعجنه واخبزه وكُلْه بعد عرق الجبين.

قال كعب: فما زال الحب زاكيًا فى عصر آدم وشيث إلى زمن إدريس، كفر الناس فنقص إلى مقدار بيض الدجاج. وفى زمن عيسى نقص إلى مقدار بيض الحمام؛ لقولهم فيه وفى أمه ما قالوا، فلما قتلوا يحيى، عاد إلى قدر الحمص، ثم صار إلى ما ترى.

وعن ابن أبى عمير، عن هشام بن سالم، عن أبى عبد الله قال: لما بكى آدم على الجنة، وكان رأسه فى باب من أبواب الجنة، كان يتأذى بالشمس فحطَّ من قامته، وقيل: إنه لما أهبط إلى الأرض، وأكل من الطعام، وجد فى بطنه ثقلاً فشكى ذلك إلى جبريل، فقال: يا آدم فتنحّ، فنحاه، فأحدث وخرج منه الثقل.

وفى كتاب المبتدا: أن الله أمر آدم أن يتخذ لحواء منزلاً خارج الحرم، لا تدخله إلى أوان الحج، ففعل، وكان الجن أعوانًا لها رجالاً ونساء، بعد أن نفر آدم منهم؛ لأنهم قبيلة إبليس - لعنه الله - فأمنه الله منهم؛ لأنهم المؤمنون إلى أن حملت حواء

بشيث، وانتقل نور رسول الله ﷺ إليها، فأمر الله بدخولها إلى الحرم كرامة لرسول الله ﷺ، وذلل الله له الحيوان المحلل فيما يحتاج إليه من ركوب وغيره، وأعانه على ذلك الجِنُّ المؤمنون، فكان يشرب من ألبانها، ويكتسى من أصوافها، ويأكل من لحُومها هو وحواء، وأنزل الله له سندانًا ومطرقة وكلبتَيْنِ، وأمره أن يأخذ الحديد من المعادن، فيصنع آلة الحرث والحصاد ومايحتاج إليه، واستعان على ذلك بالجن، وكانت الأرض فى ذلك الزمان أخرجت معادنها من سائر ما فيه منفعة، وأرسل إلى الرياح والسحاب، فارتاع آدم وحواء؛ لأنهما لم يكونا رأيا سحابًا ولا سمعا رعدًا، ولا رأيا برقًا، فخافا غضب اللهِ؛ لأنه حال بينهما وبين السماء والشمس، فأوحى الله إليه: إن هذه سحابة رحمتى؛ لتروى الأرض؛ لتحرث وتبذر فتنبت أضعافًا مضاعفة، فيكون منها غذاؤك أنت وولدك.

فلما نزل المطر، شربا واغتسلا، وأنزل الله إليه جميع أنواع الحبوب المأكولة، وعلَّمه كيف يحرث والجنُّ تعاونه، فأخصبتِ الأرض وأينع الشجر فى شهرٍ واحدٍ، وأقبلا يجنيان ويأكلان، وعلَّمته الجنُّ كيف يدرس ويذرى، فلما صفا حبه ذاقه فلم يجد له لذة، فقال لحواء: يوشك لهذا عمل غير هذا، فقطَّ الجن حجارة، وعلَّموه كيف يطحن ويعجن ويخبز ويؤكل، فأوقد جبريل لهما نارًا فى تنور من الحجارة، وأمره أن يأخذ من ملح الأرض وسمسها(١)، ويخلط فى العجين، فصارت السنَّة فى الطعام البداءة بالملْحِ، فأكلا وشبعا، وقالا: كنا فى الجنة فى راحة من هذا، ما أردناه حضر بين أيدينا.

ثم وجدا فى بطونهما ثقلاً ومغصًا شديدًا فاضطربا حتى بَكَيَا، فأتاهما جبريل، فقال لهما: امشيا إلى سيف البحر، وكان قريبًا. وقال لآدم: اجلس بين حجرين، وأفض بقبلك ودبرك إلى الأرض؛ ليذهب ما تجده، ثم تطهَّرْ بالماء. وتفعل حواء كذلك. وانصرف عنهما. ففعل آدم، فتحرك بطنه وجاش ووجد ألما شديدًا حتى بَكَى، وانفتق قبله ودبره، وخرَجَ البول والغائط، فوجد رائحة كريهة واستراح، وكذلك حواء. ثم تطهرا بالماء وانصرفا؛ فشكرا الله كثيرًا وعجبا مما خَرَجَ منهما.

ولما كان من الغد، جاعا، فتركا الأكل خيفةً، فأوحى الله إلى آدم أنه أبرك الثمر

---

(١) كذا بالأصل. ولعلها: ويشمسها.

وأنفعه وأكثره منفعة [١]، فجمعه وعصره بمعاونة الجنِّ، ثم أكل من الزيتِ، فوجد له لذة، فقال لحواء: إنه لطيب، ولكن بعد التعب والنصب الشديد.

وصنعت له الجن المغرفة والفأس والمنشار والذى لابد منه لبنى آدم، وعملن المرادن [٢] لحواء للغزل، فنسجَتْ لآدم ثوبًا من القطن، وكساء من الصوف، ثم لها مثل ذلك وفرشًا وغطاء ودثارًا من البرد، فمكثا بذلك ما شاء الله، فإذا جاء أوان الحج، حَجَّا، وأنزل الله على آدم الخيمة التى تقدم ذكرها فى حديث وهب، ولم يزل هذا دأبه ما شاء الله تعالى.

وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ التَّنَاسُلِ، فَفِى كِتَابِ المبتدا: أنَّ آدمَ لَمْ يكنْ يطأ حواءَ منذُ هبطَا إِلَى الْأَرْضِ وَلا خَطَرَ بقلبه ولا بقلبها ذكره حياءً من الله تعالى، فأوحى الله إليه: يا آدم، ماهذا الجزع وأنت صفوتى وأبو المصطفى رسولى ومن قبله من الأنبياء، فأبشر بنعمتى وكرامتى أنت وحواء زوجتك أمتى فألِمَّ بها، فبشر حواء، فسجدت شكرًا لله تعالى. وسأل آدم ربه عن دوىٍّ كان يسمعه فى ظهره إذا سبح، وعن لمعان النور الذى فى وجهه، فأخبره الله أن هذا نور ابنك محمد، والدوىُّ الذى تسمعه تسبيحه، وإنى سأنقله من صلبك إلى حواء، وأجعل نوره فى وجهها حتى يخرج فى وجه ولدٍ لكما مبارك أجعل فى ذريته الكتاب والحكمة، وأعطيه البطش والقوة، وأخصه بالشرف والفضيلة بعدك، فإذا انتقل إلى حواء، فلا يخفى عليك، فلا تلم بها عند حملها به حتى تلده طاهرًا مطهرًا، وإنى أحفظه من الشياطين والمَرَدة الملاعين. فإذا انتقل إليها، فمرها بدخول الحرم إجلالاً للنور الذى معها، فإذا وضعته وكبر فأبشر بالخير وسلنى بحقه كُلَّ ما تريد، وزوجه أطهر النسوان، وخذ عليه العهد بحفظ هذا النور، وأن يأخذ على ولده كما أخذتُ أنا عليكَ، وأنا الحافظُ له بعينى التى لاتنام.

وكان آدم بعد هذا العهد لا يقربُ حواء حتى تتطهر وتغتسل هى، وجاءها الحيض سبعة أيام، فإذا كان وقت الصلاة سبحَتْ وكبرَتْ، ولما انقطع اغتسلَتْ، ثم باشر حواء فحملت منه، وبان وثقل عليها وتغيَّر لونها، وانتفخ بطنها وتحرَّك الجنين، وسفران الجن حولها يقلن لها: هكذا الحبل، وستلدين كما ولدنا نحن.

---

(١) يعني: الزيتون.

(٢) المرادن: جمع مُردن، وهو المغزل. ينظر: ترتيب القاموس (ردن).

فلما كان الشهر التاسع، أصابها من شدته ما لم يصب أنثى حتى يبّست يديها ورجليها، ووقعَتْ لا حركة بها، ونساء الجن يبكين رحمةً لها، وآدم يدعو ويقول: يا رب، وعدك وعدك، يا من لا يخلف الميعاد. فأذن الله تعالى بخلاصها، وولدت ولدين ذكرًا وأنثى، وسال لبنها، وأمر الله آدم أن يأمرها بقطع سررها، وسمت الذكر قابيل والأنثى إقليميا، وهما ينشآن فى اليوم كالشهر، وفى الشهر كالسنة، وآدم منعزل عنها فى مدة الرضاع، فأوحى الله إليه: إنى لم أحرم عليك زوجك فى رضاعها؛ فهى حلال لك، وإنما نهيتك عن ذلك عندما ترى نور محمد قد انتقل إليها. أما فى الحمل بغيره، فهى حلال، فلا تنعزل عنها. فبشرها بذلك وأراد الإلمام بها، فقالت: يا صفوة الله، ما تذكر ما قاسيته فى مخاضي ؟! فأوحى الله إليه: إن الذى قاسته أول مرة لا يصيبها مثله ولا عُشر عشره، وإنما وقع ذلك أول مرة لتخفف عنها الذنوب التى تقدمت لها فى معاونتها إبليس على الأكل من الشجرة، ففرحت وطابت بذلك نفسها.

وعن عمارة بن زيد الأنصارى: أن آدم واقعَ حواء، فحملت بأول بطن كان بعد مائة سنة، ثم واقعها فحملت - أيضًا - بهابيل وتوءمته ليوثا، فلم تلق فيهما مالقيت فى أول بطن، فأرضعتهما وفطمتهما، ثم حملت ببطن ثالث، فولدت توءمين، وأولادها يكبرون ويمشون بين يديها، والنور لاينتقل عن وجه آدم، وحواء تلد فى كل تسعة أشهر ولدين ذكرًا وأنثى، فسمى الذكر: قاين، وقيل: قابيل، وسمى الأنثى: ليوذا، ثم عاود الغشيان، فاشتملت على ذكر وأنثى، فسمى الذكر: هابيل، والأنثى إقليميا، فزوج أخت قاين لهابيل، وأخت هابيل لقاين إلى أن كثر النسل، وولدت حواء لآدم خمسمائة بطن بألف ذكر وأنثى.

وبإسنادنا المتقدم، عن ابن بابويه، عن أبيه، عن محمد بن يحيى العطار، عن الحسين بن الحسن بن أبان، عن محمد بن أورمة، عن النوفلى، عن على بن داود اليعقوبى، عن مقاتل بن مقاتل، عمن سمع زرارة يقول: سئل أبو عبد الله عن بدء النسل من آدم كيف كان ؟ فإن ناسًا عندنا يقولون: إن الله تعالى أوحَى إلى آدم أن يزوج بناته من بنيه، وإن هذا الخلق كله أصله من الإخوة والأخوات، فمنع أبو عبد الله عن ذلك، وقال: نبئت أن بعض البهائم نكرت له أخته، فلما نزا عليها

ونزل، ثم علم أنها أخته، عزم على غُرموله بأسنانه حتى قطعه فخر ميتًا.

وفى حديث آخر: تنكرت له أمه، ففعل هذا بعينه، فكيف الإنسان فى فضله وعلمه، غير أن جيلاً من هذه الأمة الذين يرون أنهم رغبوا عن علم أهل بيوتات أنبيائهم، فأخذوه من حيث لم يؤمروا بأخذه؛ فصاروا إلى ما ترون من الضلال. وحقًّا أقول: ما أراد من يقول هذا إلا تقوية لحجج المجوس.

ثم أنشأ يحدثنا كيف كان بدء النسل فقال: إن آدم - صلوات الله عليه - ولد له سبعون بطنًا، فلما قتل قابيل هابيل، جزع جزعًا شديدًا قطعه عن إتيان النساء؛ فبقى لا يستطيع أن يغشى حواء خمسمائة سنة. ثم وهب الله له شيثًا وهو هبة الله، وهو أول وصي أوصى إليه من بنى آدم فى الأرض، ثم وراءه بعده يافث، فلما أدركا وأراد الله أن يبلغ بالنبل ما ترون، أنزل بعد العصر فى يوم خميس حوراوين من الجنة، اسمهما: نزلة، ومنزلة؛ فأمره الله أن يزوجها شيثًا، وأن يزوج منزلة من يافث، فزوجهما منهما، فولدت لشيث غلامًا، وليافث جارية، فأمر الله آدم حين أدركا أن يزوج بنت يافث من ابن شيث، ففعل، فولد للصفوة من النبيين والمرسلين من نسلهما، ومعاذ الله أن يكون ذلك على ما قالوه من الإخوة والأخوات ومناكحتهما، والحديث طويل(١).

وفى علل الشرائع والأحكام، عن الباقر محمد بن على: أن أحد ابنى آدم تزوَّجَ الحوراء، وتزوج الآخر من الجن، فولدتا جميعًا، فما كان فى الناس من جمال وحسن خلق فمن حوراء، وما كان من سوء خلق فمن بنت الجان، وأنكر تزويج بنيه من بناته.

وروى الشيخ أبو عبد الله محمد بن سعيد الحجرى، فى كتاب مبتدا الخلق: أن قابيل أكبر أولاد آدم، وأنه لما مضى من عمره وتوءمته عشرون سنة، ولهابيل وأخته تسع عشرة سنة، فوض أمر الحرث إلى قابيل، وأمر الغنم والرعى إلى هابيل، وكان قابيل مولعًا باللهو واللعب، وهابيل يكثر الشكر والتسبيح، ويأتى إلى إخوته وأبيه بالسمن واللبن والجبن، وكانت أمه وإخوته يحبونه ويقدمونه على قابيل، وكان يحسده لذلك، وأولاد حواء بعضهم مع قابيل فى الحرث، وبعضهم مع هابيل فى

---

(١) في إسناد هذا الحديث مجاهيل ومن لا يعرفون.

الرعى، وأن الله أوحى إلى آدم أن زوج ذكران بنيك بإناثهم، ولا يحلُّ لأحد من بني بنيك أن ينكح أخته، وخالف بين ذكر كل بطن وأنثاه، فأول ما أراد أن يمتثل أمر الله فى ولديه هابيل وقابيل؛ لأنهما أكبر أولاده، فأراد زواج قابيل لتوءمة هابيل ليوذا ولهابيل توءمة قابيل إقليميا، فأبى قابيلُ حسدًا لأخيه، وقال لأبيه: أنا أولى بأختى، وهى أحب إلى من أخت هابيل، وامتنع أن يسلم أخته إلى هابيل، فقال آدم: أخاف عليك إن عصيت ربك أن تقع فيما وقعنا فيه، فأقسم ألا يترك له أخته إلا ببرهان من الله، فقال آدم: اذهبا، فقربا قربانًا إلى الله، وليقف كل واحد وبين يديه قربانه، وليكن أفضلَ ماعندكم وأطهره وأطيبه؛ فإن الله لا يقبل إلا الطيب، فأيكما قبل قربانه فهو أحقُّ بإقليميا. فقال هابيل لأبيه: أنا راضٍ بكل ما حكمت قربت أو لا، تقبل منى أو لا. وقال قابيل: نقرِّب. فخرجا إلى جبل من جبال مكة، وقيل: إلى منى، ثم قرب كل واحد منهما قربانه، فكان قربان هابيل من أبكار غنمه وأسمنها بسماحة نفس، وقربان قابيل قمحًا لم يبلغ وأكثره زيوان.

وفى كتاب الوصية: عمد إلى شر ما كان له من الطعام والعصير فقربه.

وعن أبى جعفر محمد بن على: قرب قابيل من زرعه ما لم ينق، وقام هابيل يدعو الله، وقابيل يغنى ويلهو، وإذا رأى هابيل يصلى يضحك ويقول: أظن صلاتك لتخدعَ آدَمَ ليزوجك بأختى لئن تقبل قربانك لأقتلنك. فتركه هابيل وانصرف؛ ليعلم أباه، فلحقه قابيل قبل عقبة حراء دون جبل ثبير، وقيل: فى موضع آخر غيره.

وفى مروج الذهب(١): يقال: إنه اغتاله فى برية، ويقال: إن ذلك كان بأرض الشام من بلاد دمشق.

فوثب إليه يعضه بفمه طالبًا مَوته؛ فلا يراه يموت، ويضربه بيده. فتمثل إبليس على صورة بعض إخوته، وقد اصطاد ظبيًا، ثم أخذ حبلًا فقمطه به وألقاه على جنبه، وأخذ حجرين فضرب أحدهما بالآخر، فانكسرت من أحدهما شظية لها حرف حد، فأخذها فشحطها على حلق الظبى فذبحه، ثم احتمله ومضى لسبيله، وقابيل يراه. فأخذ حجرًا فشدخ به رأسه، وقيل: كسره وذبحه ببعضه.

فلما قتله وسال دمه ورآه يضطرب لخروج روحه، عقبته الندامة وتبرأ منه

(١) ينظر: مروج الذهب (١/٣٦)، وفيه أنه اغتاله في برية قاع.

الشيطان، ونخر إبليس نخرة أجابته مردته من كل أوب، واتخذ ذلك عيدًا، وهو اليوم الذى اتخذته المجوس عيدًا لهم.

ولما قتله فتحت الأرض فاها؛ لتبتلع دمه فزجرت، وقيل لها: أشربت دمًا سفك بغير حق ظلمًا، لئن عدت لمثل ذلك لَألْعَنَنَّكِ سبع لعنات. فأقسمت ألاَّ تبلع دمًا. وأن قابيل ارتعشت يداه حين قتل أخاه وبقى حائرًا مبهوتًا ينظر إليه ميتًا ملقى على وجه الأرض.

وعن وهب: لما أراد قابيل أن يقتل أخاه هابيل، لم يدر كيف يصنع، فعمد إبليس إلى طائر، فرضخ رأسه بحجر فقتله، فتعلم قابيل، فساعة قتله أرعش جسده ولم يعلم ما يصنع، فأقبل غراب يهوى على الحجر الذى دمغ أخاه فجعل يمسح الدم بمنقاره، وأقبل غراب آخر حتى وقع بين يديه فوثب الأول على الثانى فقتله، ثم هز بمنقاره فواراه، فتعلم قابيل.

وعن الصفار، عن محمد بن أبى الحسين بن أبى الخطاب، عن محمد بن إسماعيل بن جابر، وعبد الكريم بن عمرو بن عبد الحميد بن أبى الديلم، عن أبى عبد الله: أن الله بعث إليه جبريل فأجنه، فقال قابيل: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ ﴾ [المائدة: ٣١] يعنى به: مثل هذا الغراب الذى لا أعرفه جاء ودفن آخر ولم أهتد لذلك.

ويقال: إنه حمله على عاتقه إلى أبيه وأمه، فعلما أنه هو الذى قتله، فقال له آدم: يا ويلك، قتلت أخاك حيث تقبل قربانه، عليك لعنة الله ولعنة الملائكة.

وأقبلت حواء تنوح وتصرخ، فلما رأى قابيل ذلك، توارَى عنهما ينوح على نفسه وسوء فعله، فمن نياحته: ويلى ومن له مثل ويلى استوجبت لقتله سخط ربى، ويلى قتلت هابيل شقيقى وابن أبى وأمى، ومَنْ كان مستقره فى صلب أبي فيا شقوتى وويلى، ومن له مثل ويلى، استوجبت لقتله سخط ربى. فيقال: إنه حمله على عاتقه، وهو يبكى وينوحُ من واد إلى واد، ومن جبل إلى جبل حتى أنتن وجاف وسال عليه صديده، فألقاه إلى الأرض، ووقف ينظر إليه نادمًا. فبعث الله غرابًا كما قال سبحانه.

ويقال: إن إبليس كان رمى أنثاه بحجر فقتلها، فلما رآها الغراب تعب وصاح

ونتف ريشه حزنًا، ثم بحث الأرض برجليه ومنقاره حتى دفنها، ووضع الحجر الذى شدخ به إبليس رأسها على الموضع الذى دفنها فيه، ثم صرخ صرخات، وناح نوحات، وصفق بجناحيه وطار، فقال قابيل: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾[المائدة: ٣١]؛ كما وارى أنثاه ؟! فحفر له حتى واراه فى الحفرة، وطمر عليه التراب، فهو أول ميت دفن فى الأرض.

ثم تركه ورجع ولم يقدر يقع فى عين أبيه، وأبعد عن آدم وعن مكة.

وفى رواية: أنه لما رجع إلى آدم، فقال له: يا قابيل، أين هابيل ؟ قال: ما أدرى، وما بعثتنى راعيًا له، فانطلق فوجد هابيل مقتولاً، فقال: لُعِنت من أرض كما قبلتِ دم هابيل، فبكى آدم على هابيل أربعين ليلة، ثم إن آدم سأل ربه أن يهب له ولدًا، فولد له غلام فسماه هبة الله؛ لأن الله - عز وجل - وهبه له، فأحبه آدم حبًّا شديدًا . . . والحديث طويل.

وروى: أنه لم يوار سوءة أخيه، وانطلق هاربًا حتى أتى واديا من أودية اليمن فى شرقى عدن، فكمن فيه زمانًا، وبلغ آدم ما صنع قابيل بهابيل فوجده قتيلاً. قلت: هذا يخالف ما قبله المنقول عن كتاب العرائس أن قابيل وضع هابيل فى جراب وحمله على عاتقه حتى أروح وأنتن. وفيه وفى إبليس: ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [فصلت: ٢٩] لأن قابيل أول من سن القتل؛ فلا يقتل مقتول إلى يوم القيامة إلا كان شريكه فيه.

وسئل جعفر الصادق بن محمد الباقر عن هذه الآية، فقال: هما هما. وإن آدم حزن على هابيل حزنًا شديدًا، وبكاه ورثاه بهذه الأبيات، وهى أول شعر قيل فى الأرض:

تَغَيَّرَتِ البِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا ... فَوَجْهُ الْأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِى طَعْمٍ وَلَوْنٍ ... وَقَلَّ بَشَاشَةَ الوَجْهُ الصَّبِيحُ
وَبُدِّلَ نَبْتُهَا أَثْلاً وَخَمْطًا ... بِجَنَّاتٍ مِنَ الفِرْدَوْسِ فِيحُ
وجاورنا عَدُو لَيْسَ يُغْنِى ... لَعِينٌ لاَ يَمُوتُ فَنَسْتَرِيحُ
فَيَا هَابِيلُ إِنْ تُقْتَلْ فَإِنِّى ... عَلَيْكَ الْيَومَ مُكْتَئِبٌ قَرِيحُ
بَكَتْ عَيْنِى وَحَقٌّ لَهَا بُكَاهَا ... وَدَمْعُ العَيْنِ مُنْسَكِبٌ يَسِيحُ

فَأَوْرَثَ فِى الضمِيرِ لَهِيبَ نَارٍ ... مُقِيمٌ فِيهِ هَابِيلُ الذَّبِيحُ
رَمَاهُ أَخُوهُ ذُو الفَجَرَاتِ ظُلْمًا ... وَبَغْيًا مِنْهُ قَابِيلُ الشحِيحُ
فَيَلْعَنُهُ الإِلَهُ بِمَا جَنَاهُ ... وَصَعَّر خَدَّهُ ولَهُ القُبُوحُ

فيقال: إن إبليس - لعنه الله - أجابه بقوله: [من الوافر]

تَنَحَّ عَنِ الْبِلَادِ وَسَاكِنِيهَا ... فَفِى الفِرِدَوْسِ ضَاقَ بِكَ الفَسِيحُ
وَكُنتَ بِهَا وَزَوْجَكَ فِى رَخَاءٍ ... مِنَ الدُّنْيَا وَعَيْشُكَ مُستَرِيحُ
فَمَا انفَكَّتْ مُكَايَدَتِى وَمَكْرِى ... إِلَى أَنْ فَاتَكَ الثَّمَنُ الرَبِيحُ
فَلَوْلاَ نِعْمَةُ الْجَبَّارِ أَضْحَى ... بِكَفِّكَ مِنْ جِنَانِ الخُلْدِ رِيحُ
أَهَاجَكَ آدَمُ الدَّهْرُ الكَدُوحُ ... فَدَمْعُكَ هَاطِلٌ هَتِنٌ يَسِيحُ
وَجَاءَتْكَ المَصَائِبُ عَادِيَاتٍ ... وَسَوْفَ عَلَيْكَ تَرْجِعُ أَوْ تَرُوحُ
فَلَا تَبْكِى فَإِنَّكَ غَيْرُ خَالٍ ... مِنَ الأَحْزَانِ مَا صَحِبَتْكَ رُوحُ
وَعِنْدَكَ بُغْيَتِى وَلَدَيْكَ ثَأْرِى ... وَوُلْدُكَ بَعْدَ مَوْتِكَ لاَ أُرِيحُ(١)

قال عمارة بن زيد: لما هرب قابيل، أرسل الله إليه ملكًا فقال له: أين أخوك هابيل ؟ فقال: ما كنت عليه رقيبًا، فقال له الملك: إن الله يقول لك: إن صوت أخيك لينادى من الأرض أنك قتلته، فمن الآن أنت ملعون، وإذا عملت بيدك حرثًا؛ فإن الأرض لا تعطيك شيئًا أبدًا، ولا تزال فزعًا تائهًا فى الأرض أبدًا، وإنه سيقتل خيار ولدك، ويكون موتك أسفًا على من قتل من ذريتك، ثم انصرف الملك عنه، فقال: لقد عظمت مصيبتى، من أين يغفرها لى ربى ؟ ثم إنه سلَّط الله عليه الفزع من كل شىء لو مَرَّ به الذباب، توهم أنه يقتله، وكان طول عمره حزينًا خائفًا، وإبليس معه فى شرقى عدن.

وبقى آدم مائة سنة حزينًا لا يضحك، فأوحى الله إليه: يا آدم، إن الله يعزيك ويأمرك بالصبر؛ ليوجب لك الأجر؛ فلا تكبرنَّ عليك مصيبة قابيل؛ فقد وجبت عليه اللعنة، وهابيل أجعله قائد الشهداء يوم القيامة إلى الجنة، وقابيل قرين إبليس فى

(١) ينظر: تاريخ الطبري (١/ ١٤٥)، ومروج الذهب (١/ ٣٦-٣٧)، والمنتظم (١/ ٢٢٤)، ومرآة الزمان (١/ ٢١٧-٢١٨). وقد أنكر ابن عباس هذا الشعر وقال: من قال إن آدم قال شعرًا فقد كذب على الله ورسوله، ورمى آدم بالمآثم، إن محمدًا ﷺ والأنبياء كلهم في النهي عن الشعر سواء.

النار، فتعزٍّ أنت وحواء، وقولا: إنا لله وإنا إليه راجعون، وأنا واهب لك ولدًا صديقًا نبيًا، في ذريته الملك والنبوة إلى يوم القيامة، وعلامته أن يولد وحده، فإذا ولد فسمه شيئًا هبة الله. فضحك آدم - عليه السلام - وخرج من الحرم، فبشر حواء بذلك.

ثم إن قابيل استحوذ عليه الشيطان، وحمل أخته إقليميا إلى صحارى عدن، فنكحها خلافًا لأبيه وربه، فأتى منها بأولاد انتشروا فى الأرض، ونكح بعضهم بعضًا من أم وأخت وعمة وخالة، وأطاعوا إبليس، فكانوا حزبه، وآدم ينهى بنيه أن يقربوا الأرض التى هم فيها، فكانوا لا يقربونهم ولا يجاورونهم.

وأما وفاة آدم - عليه السلام -: فقد روى الشيخ أبو عبد الله محمد بن سعيد - رحمه الله -: أن الله سبحانه أمر آدم أن يتقدَّم إلى شيث بالوصية، وأخذ العهد عليه والميثاق بأنه خليفته على بنيه، وألا يضع النور الذى فى جبهته إلا فى الطاهرات من النساء. فسجد آدم شكرًا لله تعالى، وأخذ على ولده العهد والميثاق بذلك، وأمره أنه إذا انتقل النور إلى ولده أن يأخذ عليه العهد كذلك. ثم إنه جمع أولاده وأشهدهم على شيث، وأعلمهم أنه وصيه، وأمرهم بطاعته وعدم معصيته، وحذَّرهم بنى قابيل اللعين؛ فإنهم مع إبليس وجنوده عدوّ لى وعدو لكم، ثم قال: وأمكم حواء أشفقوا عليها، وتحننوا على إخوتكم، والطفوا بأولادكم، ولا تؤثروا شيئًا على طاعة ربكم، وحجوا واقضوا مناسككم كما رأيتمونى أقضى، وقرِّبوا القربان؛ لتعلموا رِضَا الله عنكم.

فلما غمره الوجع والملائكة تعوده وتسأل عنه، وقد أحدق به بنوه، وحواء عند رأسه لا ترقأ لها عبرة لفراقه، فلما مات، علمَّ جبريل ابنه شيث غسله وتكفينه والصلاة عليه.

وأما مدفنه: ففيه خلاف بين الأمم، فقال قوم من أهل الكتاب: دفن فى مشارق الفردوس.

وقال على بن أبى طالب: دفن بمكة.

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما -: دفن فى غار بجبل أبى قبيس، يقال له: غار الكنز.

وقيل: بمنى عند منارة مسجد الخيف؛ قاله الذهبى فى تاريخ دول الإسلام، وعمره ألف سنة.

وفى مختصر ربيع الأبرار لابن سلكويه: أن آدم لما احتضر قال لابنه: أوصيك أن تطلى جسدى بدهن ومر ولبان مما أهبط عليه من الجنة؛ فإنه إذا طلى به الميت، لم ينفصلْ شىء من عظامه حتى يبعثه الله تعالى. وأوصيك أن يكون معك دهن ومر حيثما ذهبت؛ فإن الشيطان لايقربك، وأن تجعل جسدى فى تابوت، وتجعلنى فى مفازة فى وسط الأرض.

ومات يوم الجمعة، وصلى عليه فى الساعة التى أخرج فيها من الجنة لستٍّ ليال خلون من نيسان، وعمره تسعمائة وستون سنة أو ألف.

وقيل: إنه مات عن أربعين ألفًا من ولده وولد ولده.

وفى مروج الذهب للمسعودى [١]: توفى عن ألفَىْ ألف من ولده وولد ولده، وناحوا عليه مائة وأربعين يومًا.

وفى كتاب الوصية: ثم حمل نوح جسده زمن الطوفان فى السفينة، وجعله فاصلًا حاجزًا بين الذكور والإناث من كل نوع، كما سيأتى عند ذكر نوح، عليه الصلاة والسلام.

وأما حواء: فعن وهب: أنها لم تعرف بموت آدم حتى سمعت بكاءَ الوحوش والطير، فقامت فزعة وصاحَتْ صيحة شديدة، فأقبل إليها جبريل وصبرها؛ فلم تصبر دون أن لطمت وجهها ودقَّتْ صدرها، فورث ذلك بناتها إلى يوم القيامة. ثم إنها لزمت قبر آدم أربعين يومًا لا تطعم الزاد ولا الرقاد، فأخبرها جبريل باقتراب أجلها. فشهقت شهقة عظيمة ومرضت مرضًا شديدًا، وهبط ملك الموت فسقاها شراب الموت، ففارقت الدنيا.

وفى كتاب المبتدا: أنه لما مات آدم، جزعت عليه حواء جزعًا شديدًا ولم تنم ليلًا ولا نهارًا، ولم تأكلْ إلا ما يسد رمقها، ولم تمس طيبًا ولا توسدتْ بوسادة، وكانت تخرج فى كل ثلاث ساعات إلى قبر آدم فى بناتها تبكيه، فأرسل الله إليها جبريل سلاها وأمرها بالصبر، فسجدت شكرًا لله تعالى، ولم تلبث بعد ذلك إلا قليلا. ذكر أنها عاشت بعده ستة أشهر، وأنها لما حضرتها الوفاة، شدد الله عليها النزاع؛ ليكفر بذلك خطيئتها ويرفع درجتها، ودعت أكبر بناتها وهى فهوائيل،

---

(١) ينظر: مروج الذهب (١/ ٣٨).

وكانت تشبهها فى جمالها وكمالها، وقالت لها: يا بنية، إنى أحس بالموت الذى أخذ أباك، وقد اضطرب جسمى، وطار نومى، وخفق فؤادى. خمرى رأسى، وشدى علىَّ ثيابى، وطهرى بيتى ومصلاى ومحرابى وفراشى وما حولى؛ فيوشك أن يحضرنى رُسُلُ ربى، وربما أغلب من هول ما ينزل بى، فيتغير عقلي، وينكشف بعض بدنى، فلا تغفلى عنى، ولا تفترى عن ذكر الله عند رأسى، فإذا أنا مت، فغمضى عينى، وشدى لحيى إلى رأسى، وسجينى بثوبى، وخمرى رأسى ووجهى، واستقبلى به قبلة ربى، ومددى أعضائى. أى بنية، أحسُّ روحى من كل عرق تجذب، ومن كل عظم تنزع، ونفسى كأنما تخرج من سَمِّ الخياط، وكأنى بين السماء والأرض. وإذا خرجت روحى، فتولى أنت غسلى بالماء والسدر وترًا، وكفنينى فى أطهر أثوابى، وذرى على شيئًا من الطيب الذى لا لون له، وعليك بالدعاء عند موتى، وعليك بحفظ بعلك ورحمة ولدك والتحنن على إخوتك وقلة المخالفة لهم، والله خليفتى عليك.

ثم توجهت إلى القبلة وبكت وقالت: إلهى، أمتك وأم نبيك محمد ﷺ إلا ما هوَّنتَ على أمتك سكراتِ الموت، يا رب، والحياء منك يمنعنى أن أسألك ما سألك آدم عند موته من ريحان الجنة وثمارها. فبكت الملائكة لها، وسألت الله أن يهون عليها الموت، فقال: أنا أرحم بأَمَتى منكم، وأنا أرحم الراحمين. وأوحى الله إلى رضوان أن يخرج من حور الجنة عشرة بريحان وثمار ويبشرنها بالرضا والمغفرة والعود إلى الجنان. فخرجْنَ بأيديهنَّ أطباق الذهب والياقوت مخمرة بمناديل من الإستبرق من ثمار الجنة ورياحينها، ويبشرنها بالجنة، فوضعته على عينها وشمته وبكت، وقالت: أليس ربى راضيًا عنى ؟ فقلنَ: بلى يا حواء، وأنت صائرة إلى الجنة حيث صار آدم، فخفف عن حواء بهذه البشارة، وهبط ملك الموت وأمره الله أن يسهل عليها، فماتت حواء - صلوات الله عليها - فبكين بناتها، وفهوائيل فعلت ما أمرتها، وأنزل الله كفنًا وخيوطًا من الجنة، فكفنتها فيه فهوائيل، وأعلمت إخوتها فصلى عليها ابنها شيث، كما صلى على أبيه آدم، ثم دفنها بالقرب منه.

وكان موتها يوم الجمعة، وبكت عليهما السماء والأرض، وجاء إبليس - لعنه الله - إلى قبريهما وبكى عليهما مليًا وانتحب، ثم قال يرثيهما بهذه الأبيات: [من

مجزوء الكامل]

قَدْ مُتما وَسَبَقْتُمَانِى ... وَحَلَلْتُمَا دَار الأَمَانِ
وبقِيتُ بَعْدَكُمَا عَلَى ... سَنَنِ المَذَلَّةِ وَالْهَوَانِ
مُتَفَرِّدًا بِغَوَايَةِ الـ ... ثقلَينِ مِنْ إِنْسٍ وَجَانِ
وَمَطِيَّتِى مَوْقُوفَةٌ ... بَيْنَ التَّلَهُّبِ والأَمَانِ
إِذْ مَا بَقِيتُ ومتُّمَا ... فَإِلَيْكُمَا أَمَدًا رِهَانِى

وفى إبليس وآدم والحية والطاوس وحواء يقول عدى بن زيد قصيدة يذكر فيها بدء الخلق إلى أن وصل إلى قصة آدم وحواء - عليهما السلام - فقال: [من البسيط]

سَعَى الرَّجِيمُ إِلَى حَوَّا بِوَسْوَسَةٍ ... غَوَتْ بِهَا وَغَوَى مَعْهَا أَبُو البَشَرِ
خَلْقَانِ، مِنْ مَارِجٍ إِنْشَاءُ خِلْقَتِهِ ... وَآخَرٌ مِنْ تُرَابِ الأَرْضِ وَالْمَدَرِ
أَنْشَاهُمَا لِيُطِيعَاهُ فَخَالَفَهُ ... إِبْلِيسُ عَنْ أَمْرِهِ لِلْحَيْنِ وَالْقَدَرِ
فَأَبْلَسَ اللهُ إِبْلِيسًا وَأَسْكَنَهُ ... دَارًا مِنَ الخُلْدِ بَيْنَ الروضِ وَالشَّجَرِ
فَاغْتَاظَ إِبْلِيسُ مِنْ بَغْيٍ وَمِنْ حَسَدٍ ... فَاحْتَالَ لِلْحَيَّةِ الرَّقْطَاءِ وَالطيرِ
فَأَدْخَلاَهُ بِأَيْمَانٍ مُؤَكَّدَةٍ ... أَعْطَاهُمَا بِيَمِينٍ كَاذِبٍ غَدِرِ
هُنَاكَ سَرَّ إِلَى حَوَّا بِوَسْوَسَةٍ ... أَزْدَتْ بِغِرَّتِهَا مَعْهَا أَخَا الْقَدَرِ
فَأُهْبِطُوا بِمَعَاصِيهِمْ وَكُلُّهُمُ ... فَانِى المَحَلِّ فَقِيدُ الْعَيْنِ وَالْأَثَرِ
فَأَهْبَطَ اللهُ إِبْلِيسًا وَأَوْعَدَهُ ... نَارًا تَلَهَّبُ بِالتَّسْعِيرِ وَالشرَرِ
وَأَنْزَلَ اللهُ لِلطَّاوُسِ رَحْمَتَهُ ... مِنْ صَوْتِهِ وَرَمَى رِجْلَيْهِ بِالنُّكرِ
وَأَعْقَبَ الْحَيَّةَ الْحَسْنَاءَ حِينَ عَصَتْ ... مَسْحَ الْقَوَائِمِ بَعْدَ السَّعْيِ كَالْبَقَرِ
وَأَعْقَبَ الله حَوَّا بِالَّذِى فَعَلَتْ ... بِالطَّمْثِ وَالطَّلْقِ وَالْأَحْزَانِ وَالْفِكَرِ

وَلما مَاتَ آدمُ وحواءُ، طمعَ إبليسُ فِى بَنِيهِما، وَجَاءَ إِلى شيث، فسلمَ عليه وكلمَه كلامًا أظهر فيه الندم على فعله بأبيه وأمه ما فعل، وأن يكونَ عونه على أولاد قابيل، فلعنه شيث وطرده وتهدَّده بأنه يدعو عليه وإن كان مُنْظَرًا، فخرجَ إبليسُ مِنْ بينِ يديه خائفًا أن يدعو عليه فيجتمع عليه خزى الدنيا وعذاب الآخرة، فولى آيسًا منه.

وقام شيث فى بنيه وإخوته خطيبًا، وأعلمهم ما أراد إبليس، وحذَّرهم منه ومن أولاد قابيل، قال: فإنهم أعداؤكم فى الدين وحزب إبليس، فجعل بعضهم يحذر

بعضًا من مخالطة بنى قابيل والتحرُّز مما نهاهم الله عنه.

ولما أيس إبليس من شيث، رجع إلى قابيل، وزين له ألاً يمنع ذكرًا من إخوته وبناته ليكثر النسل، وأن يبيحهم الشركة الواحد والاثنين والثلاثة فى الواحدة ولايمنعهم مرادهم، فقبل قابيل قوله، واشترك الجماعة فى الواحدة، وما من ولد إلا وإبليس له فيه شركة. وكان لإبليس أولاد فاختلطوا معهم وتربوا جميعًا.

(تذنيب) عن مقاتل قال: قلتُ لأبى عبد الله: كم كان طول آدم - عليه الصلاة والسلام - حين أهبط إلى الأرض، وحواء كم كان طولها ؟ فقال: وجدنا فى كتاب على - رضى الله عنه - أن الله تعالى لما أهبط آدم وزوجته من الجنة، كانَتْ رجلاه على ثنية الصفا، ورأسه دون أفق السماء، وأنه شكى إلى الله ما يصيبه من حَرِّ الشمس، فصير طوله سبعين ذراعًا بذراعه، وجعل طول حواء خمسًا وثلاثين ذراعًا.

وفى العرائس: كان يمشى بين الجبال والمفاوز، فكل موضع أصاب قدمه صار قرية، وكل موضع استقر فيه صار مدينة، وكل موضع صلى فيه، صار مسجدًا. ولما مضى من الدنيا خمسمائة عام، كثر ولده وولد ولده، فأرسل الله إليه يحكم فيهم بما أنزل الله عليه، وهو خمسون صلاة فى اليوم والليلة، والزكاة والصوم والاغتسال من الجنابة، فحكم بذلك حتى توفاه الله تعالى.

ولما أهبط نزل معه خمسة أشياء:

أحدها: العصا، وهى من آس الجنة، وسبب ذلك أنه كان يأكل الحنطة فبقيت بقية فى أسنانه فأخذ عودًا بعد أن احتاج إلى التخليل، فبقى فى يده يتخلل به فأهبط وهو معه، وتوارثه أبناؤه إلى أن وصل إلى موسى، فصار معجزة له، فهو عصا موسى.

وثانيها: خاتم كان معه، فلما سقطت عنه الحلل، وذهب تاجه عن رأسه، أخذه فجعله فى فيه، فتوارثه الذرية إلى أن وصل إلى سيدنا سليمان بن داود؛ فصار آية ملكه.

وثالثها: الحجر الأسود، وكان من جواهر الجنة، قصده أهل الجنة حين نزل، فأخذه، فتمسك به فصار حجرًا، فأهبط وهو معه، فأمر بجعله ركنًا من أركان الكعبة.

ورابعها: قطعة من عود من شجر لم يبك عليه، فوثب (١) فحرق بالنار، فاعتذر فجعل منه الطيب.

---

(١) كذا بالأصل. ولعلها: فعوقب.

وخامسها: ورق التين وارى هو وحواء به سوءاتهما فلما تناثر ذلك بعد بنيه[١]، وعريا فى الدنيا، شكا آدم إلى جبريل العُرْىَ، فجاءه بشاة من الجنة لها صوف كثير، وقال له: قل لحواء تغزل من هذا الصوف وتنسج، فمنه لباسك ولباسها، فغزلت ونسجت.

ولما كانت حواء سببًا لأكل آدم من القمح وعريه، جعل عليها أن تغزل وتكسوه، ولما ثقل عليها ذلك العمل، جعل نفقتها عليه، ولما ثقل عليه، جعل حظ الزوج فى الميراث ضعف حظ الزوجة. كذا فى المدارك.

قال العلامة ابن الضياء فى البحر العميق: أهبط آدم من باب التوبة، وحواء من باب الرحمة، وإبليس من باب اللعنة، والطاوس من باب الغضب، والحية من باب السخط. وأهبط بين الظهر والعصر من باب من سماء الدنيا، يقال له: باب المبزم، حذاء البيت المعمور، وقيل: من باب المعراج، وكان مكثه في الجنة نصف يوم من أيام الآخرة وخمسمائة عام، على سرنديب اسم جبل بالهند، وقيل: على الجودى، ومكث عليه يبكى مائة عام حتى نبت العشب من دموعه، وكان رأسه يمس السحاب، فصلع فتوارثت الصلع ذريته، وحط قامته إلى ستين ذراعًا بذراعه.

ثم ذكر ما يستدلُّ به على قدر ذراعه المستدلّ به على معرفة طول قامته بذراعه فقال: قدم علينا حاجًا عام ست عشرة رجلٌ شريف دلوالي، وذكر أنه دخل بلاد سرنديب، وأن أهلها كفار [٢]، وأنه صعد جبل سرنديب، وكان صعوده فيه من طلوع الفجر، ووصل أعلاه غروب الشمس، قال: وفوق الجبل جبل آخر على هيئة المنارة وقدرها بل أعلى، يصعد إلى أعلى هذا الجبل بسلاسل من حديد يضع الإنسان فيها رجله، ويتعلق إلى أن يصعد إلى أعلاه، وأنه لا يمكن صعوده إلا على هذه الصفة.

قال: وفوق هذا الجبل - أيضًا - جبل صغير فيه أثر قدم أبينا آدم - عليه السلام - غائصًا فى الحجر على سمت القبلة بحيث إن القائم عليه يستقبل القبلة وله

(١) كذا بالأصل. ولعلها: بعد ذنبه.
(٢) هذا كلام فيه نظر فكيف يهبط آدم إلى جبل سرنديب ويجد أهلها كفارًا وكل من على الأرض من نسله -عليه السلام- ويحتمل أن المقصود بأهلها من الجن فهم وحدهم الذين سبقوا آدم إلي سكني الأرض.

خمس أصابع، وذكر أنه قاس طول قدمه وعرضه وطول إبهامه بمنديل كان معه وعلّم على ذلك علامات.

قال العلامة ابن الضياء المذكور: فرأيت هذا المنديل معه، فقست طول قدمه من رأس الإبهام إلى آخر العقب، فكانت ثلاثة أذرع وثلثى ذراع، وطول إبهامه إلى المفصل شبر وعرض القدم ثلاثة أشبار وأربع أصابع، كل ذلك بذراع الحديد.

وذكر ذلك السيد أنه لم ير إلا قدمًا واحدًا، وأن تحته غديرًا فى صخرة ممتلئًا ماء أحلى من العسل، وله عينان تجريان إحداهما عن يمين القدم، والأخرى عن يساره ينصبّان إلى أسفل الجبل ثم إلى البحر، ومسيل ماء العينين بشم وتراب العين اليمين سيلان، وذكر أن المطر لايزالُ على هذا الجبل فى كل يومٍ من أيام السنة لا ينقطعُ أصلاً، ولكنه فى بعض الأيام رشاش بغير جود. انتهى كلام ابن الضياء فى بحره.

ووجه حصول الفائدة بمقدار طول آدم يؤخذ من معرفتنا لطول قدمه؛ إذ المعلوم أن مقدار القدم شبر، وأن الشبر نصف ذراع صاحبه؛ فشبران منه هما مقدار الذراع منه من المفصل إلى رءوس أصابع اليد ، فيكون طول ذراع آدم - عليه السلام - سبعة أذرع وثلث ذراع بذراع الحديد، فحيث كان طوله ستين ذراعًا بذراع نفسه فيكون أربعمائة وأربعين ذراعًا بذراع الحديد. وهذه فائدة قل أن توجد، فلله الحمد.

(فائدة) فى بيان زمان خلق آدم - عليه السلام - قال فى الفتوحات المكية: انتهى خلق المولدات من الجمادات والنباتات والحيوانات بانتهاء إحدى وسبعين ألفًا.

قال بعض من تكلم على ذلك: مراد الشيخ أن مدة خلق الإنسان من الأفلاك والدنيا والآخرة والجنة والنار كلها فى هذه المدة.

قال: فلما خلق الله الفلك الأول، دار دورة غير معلومة الانتهاء لغير الله تعالى؛ لأنه ليس فوقه شيء محدود من الأجرام يقطع فيه، وإلا كان خلق فى جوفه شيء متميز الحركة؛ فدار أربعة وخمسين ألف سنة من السنين المذكورة، وهى الإحدى والسبعين ألف سنة، فخلق الدنيا على انتهاء أربع وخمسين ألف سنة. ثم بعد ٩٠٠٠ سنة خلق الآخرة، أى: الجنة والنار، فكانت بعد مضى ثلاث وستين ألف سنة من الماضى من ٧١٠٠٠، ثم لما وصل الوقت المعين فى علمه تعالى لإيجاد هذا الخليفة، بعد أن مضى من عمر الدنيا سبعة عشر ألف سنة، ومن الآخرة ثمانية آلاف

سنة - أمر الله بعض ملائكته أن يأتيه بقبضة من كل أجناس تربة الأرض، فأتاه بها إلى آخر الخلق، وهو معلوم. انتهى.

وبالاختصار: فخلق المولدات إحدى وسبعون ألفًا، فالفلك هو الأول، ثم بعد أربع وخمسين ألف سنة خلق الدنيا، ثم بعد ثلاث وستين ألفًا خلق الآخرة، ثم بعد واحد وسبعين ألف سنة، خلق آدم، فخلقه بعد مضىّ إحدى وسبعين ألف سنة من العالم الطبيعى. وهذا ملخَّصُ كلامه فى الفتوحات فى الباب السابع والمائتين منها.

وبالإسناد المتقدم عن ابن بابويه قال: حدثنا أبو الحسن على بن عبد الله بن أحمد الأسوارى، حدثنا محمد، عن محمد بن ميمون، عن الحسن، عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: إن أباكم كان طوالاً كالنخلة السحوق ستين ذراعًا [1].

وفى كتاب نقش الخواتيم: اتخذ آدم خاتمًا مكتوبًا عليه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علىٌّ ولىُّ الله، والجمهور يخالف هذا. وسئل أمير المؤمنين عن خلق الشعير مم ؟ فقال: إن الله أمر آدم أن ازرع مهما اخترْتَ لنفسك، وجاءه جبريل بقبضة من الجنة من الحنطة، فقبض آدم على قبضة، وحواء على قبضة، فقال آدم: لا تزرعى أنتِ. فلم تقبل، فزرع آدم جاء حنطة، وزرع حواء جاء شعيرًا.

(تكميلٌ) فيه تعليلٌ: ذكَرَ الشيخ الجليل عماد الإسلام محيى الدين أبو عبد الله محمد بن على المعروف بابن عربى - قدس الله سره - فى كتاب فصوص الحكم [2]: أن الله أوجد العالم كله وجود شبح مسوى لا روح فيه، وكان كمرآة غير مجلوة، فكان آدم عين جلاء تلك المرآة، وروح تلك الصورة التى هى صورة العالم

---

(١) أخرجه الطبري في « تاريخه » (١/ ١٦٠) من طريق محمد بن إسحاق عن الحسن بن ذكوان عن الحسن عن أبي بن كعب به وأخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (١٠١٩) من طريق محمد ابن إسحاق عن محمد بن ميمون عن الحسن عن أبي، ومحمد بن إسحاق مدلس وقد عنعنه. وله طريق آخر: أخرجه أحمد في الزهد ص(٤٨) وابن أبي حاتم في « تفسيره » كما في « تفسير ابن كثير » (٣/ ١٦٨) من طريق قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب، والحسن لم يسمع من أبي. قال ابن كثير: وهذا منقطع بين الحسن وأبي بن كعب فلم يسمعه منه، وفي رفعه نظر أيضًا.

(٢) كتاب فصوص الحكم لمحيى الدين بن عربي، وقد تعدد فيه القيل والقال، وكثر النزاع والجدال، فالأولى ترك النظر فيه، وعدم الالتفات إليه تأسيًا بقوله ﷺ: « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ». ينظر: « كشف الظنون » (٢/ ١٢٦٤).

المعبَّر عنها فى اصطلاح القوم بالإنسان الكبير، فكانت الملائكة كالقُوَى الروحانية والحسية التى هى النشأة الإنسانية. قال الشارح الإمام عبد الرزاق بن أبى الغنائم الفاسى - رحمه الله تعالى -: فكانت القوى الروحانية النفسانية ملائكة وجود الإنسان؛ لأن قوى العالم اجتمعَتْ فيه بأسرها؛ فالإنسان عالم صغير، والعالم إنسان كبير بوجود الإنسان فيه؛ لأن أحدية جميع الموجود التى ناسب بها العالم الحضرة الإلهية لم توجد فى جميع أجزائه إلا فى الإنسان، وكان الإنسان مختصرًا من الحضرة الإلهية؛ ولهذا قال: إن الله خلق آدم على صورته، ويسمى هذا المذكور إنسانًا وخليفة، فأما الإنسانية فلأن نشأته تحوى الحقائق كلها، وجميع مراتب الوجود العلوية والسفلية بأحدية الجمع الذى ناسب بها حقيقة الحقائق، وهى الجمعية المذكورة؛ إذ لا شىء فى النشأتين إلا وهو موجود فيه، أى: لا مرتبة فى الوجود إلا وشىء منها فيه، فناسب الكل، وأنس به، فسمى إنسانًا؛ لأنه عالم صغير، والعالم يسمى إنسانًا كبيرًا باعتبار آخر، وهو أنه يلحق بمنزلة إنسان العين من العين الذى به يكون النظر، وهو المعبر عنه بالبصر؛ لأن الله تعالى نظر به إلى الخلق فرحمهم؛ فلهذا سمى إنسانًا أيضًا، فتم العالم ووجوده بمظهريته لأسمائه تعالى كلها.

قال الشيخ: فهو من العالم كفصِّ الخاتم من الخاتم، وهو محل النقش والعلامة التى يختم الملك بها خزائنه، وشبه العالم بالخاتم؛ لأنه خلقه، ومن حيث إن الإنسان من جملة أجزاء العالم، انتقش بنقوش العلوم التى فى الحضرة الإلهية، وحمل سرَّ أسمائه وصفاته، وختم به العالم بأسره، فشبهه بالفص من الخاتم، وسماه خليفة؛ لأجل هذا؛ لأن نقش اسمه الأعظم، وهو الذات، مع الأسماء كلها منقوش فى قلبه الذى هو فص الخاتم؛ فيحفظ به خزانة العالم بجميع ما فيه على النظام المعلوم والنسق المضبوط؛ لأنه الحافظ خلقه؛ لأن الإنسان الكامل هو الحافظ خلق الله بالحكمة الأحدية والواحدية لأسمائه البالغة التى هى نقش قلبه، وهى العدالة، أعنى: صورة الوحدة فى عالم الكثرة الذى هو خزانة القوابل والآلات كلّها؛ كما يحفظ الختم الخزائن مادام ختم الملك عليها، لا يجسر أحد على فتحها إلا بإذنه؛ فلا يزال العالم محفوظًا مادام فيه هذا الإنسان الكامل، ولو لم يكن آدم كذلك، لم يكن خليفة؛ لأن الخليفة يجب أن يعلم مراد المتخلف وينفذ أمره، ولو

لم يعلم بجميع صفاته، لم يمكنه إنفاذ أمره، وإن لم يكن فيه جميع ما تطلبه الرعايا من الأسماء التى يرث الحق بها جميع من فى العالم من الناس والدواب والأنعام وغيرها، فليس بخليفة عليهم، فما صحت الخلافة إلا للإنسان الكامل، فاستحقاق آدم الخلافة إنما يكون بالصورتين: إنشاء صورته الظاهرة من حقائق العالم، وصورته الباطنة.

قال الشارح - قدس سره -: حيث جمع فيه الحقائق الكونية؛ فلم يبق فى صور العالم وقواه شىء إلا وفيه نظيره وإنشاء صورته الباطنة على صورته تعالى؛ فإنه سميع بصير عالم؛ فيكون متصفًا بالصفات الإلهية متسميًا بأسمائه؛ ولذلك قال: كنت سمعه وبصره، ما قال: كنت عينه وأذنه، ففرق بين الصورتين صورة العالم وصورة الحق، وكما كان الحق فى آدم ظاهرًا بصورته، كذلك فى كل موجود، لكن ليس لشىء من العالم مجموع ما للخليفة.

فإن قلت: فما معنى قول النبى ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»[(١)] وهذا يقتضى التجسيم:

فالجواب: أن الهاء فى «صورته» راجعة إلى آدم؛ ردًا على من يقول: كان آدم عظيم الجثة طويل القامة رأسه قريب من السماء كما فى بعض الأخبار؛ فكان المعنى أن الله خلقه على الصورة التى قبض عليها لم تتغير بزيادة ولا نقصان. ووجه ثان: وهو أن هذا الكلام خرج على سبب معروف؛ لأن الزهرى روى عن الحسن أنه كان يقول: مر رسول الله ﷺ برجلٍ من الأنصار، وهو يضربُ وجه غلام له، وهو يقول: قبح الله وجهك، ووجهَ من تشبهه، فقال النبى ﷺ: بئسما قلت؛ فإن الله خلق آدم على صورته، يعنى: صورة المضروب. وذكر السيد المرتضى - رضى الله عنه - فى التنزيه جواباتٍ أُخَرَ لا نطول بذكرها، وما أومأ إليه الشيخ - قدس سره - أدقّ طريقة وأحسن معنًى، ومن تأمل غرائب خلقة آدم وما احتوت عليه من إحكام التركيب على ما ذكره المشرِّحُونَ، علم أن بارئه واحدٌ لا ثانيَ له: [من المتقارب]

وَفِى كُلِّ شَىءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٠١٧)، كتاب البر والصلة باب في النهي عن ضرب الوجه حديث (١١٥/٢٦١٢) من حديث أبي هريرة بلفظ: «إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته».

ودفنت حواء إلى جانب آدم، رأسها إلى رأسه ورجلاها عند رجليه.

قلت: كذا ذكر عن وهب، وأكثر الرواة على أنها دفنت بجدة بالمحل المعروف بها.

(قابيل) عليه اللعنة: كان آخر هلاك نسله فى زمن الطوفان، وكانوا أعداء لأولاد شيث - عليه السلام - ولم يبق الطوفان منهم أحدًا. زوجته إقليميا أخته وكان أكبر أولاده شوهل، رزقه الله من الجمال والحسن ما لم يرزق أحدًا من ولد آدم، وكذا توءمته، واسمها نوهة، وكان تسلم جميع أمور أبيه، وذلك أن قابيل لما قتل أخاه، دعا عليه آدم وحواء، فذهل عقله، فكان لا يعى قولاً ولايفقه شيئًا، فتلاعَبَ به إبليس، وقال له: إن أباك آدم وأمك حواء قد ماتا وما بقى من يقوم مقامه، والرأى أن تغزو أخاك ومن معه قبل أن يغزوكم، فلم يبق لك منه مخافة، ولا سيما ومعنا عنق بنت أبيك آدم، وقد علمتَ قوتها وطاعة الجنِّ لها بما معها من السحر، فأرسل قابيل ابنه شوهل، وأمره بطاعة إبليس فيما يشير إليه فى قتال شيث. ثم أرسل إلى عنق فبادرت إليه بالمردة، ولم يكن سلاح إلا السكاكين على مثال التى ذبح بها آدم قربانه، فأخذوها وشدُّوا أزُرهم، وساروا نحو شيث.

وأوحى الله إلى شيث يعلمه، ووعده بالنصر عليهم، فجمع شيث إخوته وبنيه، فأعدُّوا لهم، وأخذوا عصيهم وسكاكينهم، وجلسوا ينتظرون حتى قرب بنو قابيل وإبليس ومردته، وهو الملك على الجن، وعنق المقدمة على المردة والسحرة، فأمر شيث بالخروج إليهم، فشدُّوا عليهم أزُرهم وأخذوا مديهم بأيمانهم وعصيهم، وخرجوا إلى ملتقاهم، وكان أول قتال جرى بين بنى آدم مما يلى الطائف.

وأخرج شيث الصحف، وتوسل إلى الله بها، وإخوته يؤمنون على دعائه، وبرزت بنو قابيل للقتال، وشبت الحرب بينهم وشيث كاره، وأنزل الله عليه النصر، وكلما عملت السحرة شيئًا، أبطله الله تعالى، فلما صار وقت الظهر، توسل شيث إلى الله تعالى بأنوار محمد ﷺ، فأمر الله جبريل أن ينزل ومعه من الملائكة مدد، فلما رأى إبليس ذلك، قال لمردته: اتركوا بنى آدم بعضهم لبعض؛ فلا قدرة لكم على الملائكة. ثم غاص فى الأرض هاربًا وبنوه خلفه، وقتلت الملائكة منهم بحرابها ما لا يحصى، وانهزم ولد قابيل؛ لا نهزام الجن، وقتل منهم المؤمنون خلقًا كثيرًا وهرب الباقون.

وعرض شيث على الأسرى الإيمان، فأبوا، فأمر بقتلهم، ولم يبق منهم أحد، ورد الله كيد إبليس فى نحره وغَلب جندُ الله، ورجع شوهل وقد خلص من القتل إلى أبيه بمن سلم معه، وأعلمه بمن قتل من أولاده، فحزن قابيل ومات أسفًا وحزنًا وحسرةً وندامة كما أعلمه الملك.

فَلَمّا هلكَ قابيل، فرح إبليس بموته، وكان قد اختفَى منه لئلا يوبخه على رأيه ومشورته وهربه، وعلم أنه بموته يتمكن من بنيه، فأظهر الحزن، وقال: لا تدفنوه وأنا أصنعُ لكم تمثالاً من الحجارة، فأدخلوه فيه، واجعلوه فى بيت من بيوتكم، فإذا أراد أحدكم أن يراه فليدخلْ إليه ويسلم عليه فتكونون كأنكم لم تفقدوه؛ حيلة واستدراجًا منه لعبادة الأصنام، فنحت لهم حجرًا من البلور، وصور فيه صورته، وجعله مجوفًا قطعتين تلتصق إحداهما بالأخرى، وأمرهم أن يدخلوه فى ذلك التمثال، وأمر ألاَّ يدخل عليه أحد إلا بأمر شوهل، وأن كل من يدخل إليه يسجد له ثلاث سجدات ويقبِّلُ يده، وجعله عيدًا فى كل سنة مثل اليوم الذى مات فيه، فإذا كان ذلك اليوم يدخلون أفواجًا أفواجًا وقد رفع غشاوه وهو من وراء البلور كأنه حىّ، وإذا خلا به شوهل يخاطبه إبليس على لسان الصنم؛ فيظن شوهل أنه قابيل ولايكلِّم سواه، ووكل إبليس بالصنم ماردًا يسمع حوائج من يدخل إليه فيجىء بها إلى إبليس يومًا بيوم، فإذا كان الليل، أراه فى منامه ما يفعل فى الذى أراد استدراجًا لكفرهم وهم لايشعرون، فبقوا على ذلك مدة، وقد بلغ إبليس منهم مراده.

وقد روينا عن محمد بن موسى المتوكل، عن عبد الله بن جعفر، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محجوب، عن محمد بن النعمان الأحول، عن يزيد بن معاوية، قال: سمعت أبا جعفر يقول فى مسجد النبى ﷺ: إن إبليس اللعين أول ما صور صورة على مثال آدم ليفتن به الناس ويضلهم عن عبادة الله تعالى، وكان وُدّ فى ولد قابيل، وكان خليفة قابيل على ولده وعلى من بحضرتهم فى سفح الجبل يعظمونه ويسودونه، فلما أن مات، جزع عليه إخوته وخلف عليهم ابنًا يقال له سُوَاع، فلم يغن غناء أبيه منهم، فأتاهم إبليس فى صورة شيخ، فقال: قد بلغنى ما أصبتم به من موت ود عظيمكم، فهل لكم أن أصور لكم على مثالِ ودّ صورةً تستريحون إليها وتأنسون بها ؟ فقالوا: افعل، فعمد الخبيث إلى الآنُكِ[1]، فأذابه

(١) الآنك: الرصاص الأسود. ينظر: المعجم الوسيط (أنك).

حتى صار مثل الماء، ثم صور لهم صورة مثل ود فى بيته، فتدافعوا على الصورة يلثمونها ويضعون خدودهم عليها ويسجدون إليها. وأحبَّ سواع أن يكون التعظيمُ والسجودُ له، فوثب على صورة ودّ، فحكها حتى لم يدعْ منها شيئًا، وهموا بقتل سواع فوعظهم، وقال: أنا أقومُ لكم بما كان يقومُ به ود، وأنا ابنه، فإن قتلتمونى لم يكنْ لكم رئيس، فمالوا إلى سواع بالتعظيم والطاعة، ثم لم يلبث سواع أن مات، وخلَفَ ابنًا يقال له: يَغُوث، فجزعوا على سواع، فأتاهم إبليس، وقال: أنا الذى صورت لكم صورة ود، فهل لكم أن أجعل لكم مثال سواع على وجه لا يستطيع أحد أن يغيره ؟ قالوا: فافعل، فعمد إلى عود من شجر الخلاف، فنجره ونصبه لهم فى منزل سواع، وإنما سمى ذلك العود خلافًا؛ لأن إبليس عمل منه صورة سواع على خلاف صورة ود، فسجدوا له وعظموه، وقالوا ليغوث: ما نأمنك على هذا الصنم أن تكيده كما كاد أبوك مثال ود، فوضعوا على البيت حراسًا وحجابًا، ثم كانوا يأتون الصنم فى يوم واحد، ويعظمونه أشد مما كانوا يعظمون سواعًا، فلما رأى ذلك يغوث، قتل الحراس والحجاب ليلاً، وجعل الصنم رميما، فلما بلغهم ذلك أقبلوا ليقتلوه، فتوارى منهم، فطلبوه، ورأسوه، وعظموه ثم مات وخلف ابنًا يقال له: يَعُوق، فأتاهم إبليس فقال: قد بلغنى موت يغوث، وأنا جاعل لكم مثاله فى شىء لا يقدر أحد أن يغيره، قالوا: فافعل، فعمد الخبيث إلى حجر جزع أبيض، فنقره بالحديد حتى صور لهم مثال يغوث، فعظموه أشد مما مضى، وبنوا عليه بيتًا من الحجر، وتبايعوا ألاَّ يفتحوا باب ذلك البيت إلا فى رأس كل سنة وسميت البيعة حينئذٍ؛ لأنهم تبايعوا وتعاقدوا عليه؛ فاشتد ذلك على يعوق، فعمد إلى ريطة وحلفاء، فألقاها فى الحائط بالنار ليلاً فأصبح القوم وقد احترق البيت والصنم والحرس وارفضَّ الصنم ملقى، فجزعوا، وهموا بقتل يعوق، فقال لهم: إن قتلتم رئيسكم، فسدتْ أموركم، فلم يلبثْ أن مات يعوق، وخلف ابنًا يقال له: نسرٌ، فأتاهم إبليس فقال لهم: بلغنى موت عظيمكم، فأنا جاعل لكم مثال يعوق فى شىء لايبلى، فقالوا: افعل، فعمد إلى الذهب وأوقد عليه النار حتى صار كالماء، وعمل مثالاً من الطين على صورة يعوق، ثم أفرغ الذهب فيه، ثم نصبه لهم فى ديرهم، واشتد ذلك على نسر، ولم يقدر على دخول ذلك الدير، فانحاز عنهم فى قرية قريبة من إخوته يعبدون نسرًا والآخرون يعبدون الصنم، حتى مات نسر، وظهرت نبوَّةُ

إدريس - عليه السلام - فبلغه حال القوم، وأنهم يعبدون صنمًا على مثال يعوق، وأن نسرًا كان يعبد من دون الله، فسار إليهم بمن معه حتى نزل مدينة نسر وهم فيها، وهزمهم وقتل من قتل وهرب من هرب، فتفرقوا فى البلاد، وأمر بالصنم فحمل وألقى فى البحر، فاتخذت كل فرقة منهم صنمًا، وسموها بأسمائها، فلم يزالوا بعد ذلك قرنًا بعد قرن لا يعرفون إلا تلك الأسماء.

ثم ظهرت نبوة نوح - عليه السلام - فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك ما كانوا يعبدون من الأصنام، فقال بعضهم: ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣] فعلى هذا كانت - بسبب أولاد قابيل، لعنة الله - عبادة الأصنام.

وفى العلل: أن أصل عبادة النيران قابيل - لعنه الله - فإنه لما لم يتقبل الله منه قربانه، أتاه إبليس، وقال له: إنما قبلت النار قربان أخيك؛ لأنه يعبدها، فقال: وأنا أعبد نارًا أخرى، فبنى بيوت النار، ولم يرثْ منه ولده إلا عبادة النيران. وهو أول من بنى للنار البيوت.

وعن ابن بابويه، عن محمد بن على ماجيلويه، عن محمد بن يحيى العطار، عن الحسين بن الحسن بن أبان، عن ابن أورمة، عن عمر بن عثمان، عن العبقرى، عن أسباط، عن رجل حدثه عن على بن الحسين؛ أن طاوسًا قال فى المسجد الحرام: أول دم وقع على وجه الأرض دم هابيل حين قتله قابيل، وهو يومئذ قتل ربع الناس، فقال زين العابدين: ليس كما قال؛ إن أول دم وقع على الأرض دم حواء حين حاضت يومئذ، فقتل سدس الناس، كان يومئذ آدم وحواء وقابيل وهابيل وأختاهما بنتين كانتا. ثم قال: هل تدرون ما صنع بقابيل ؟ فقال القوم: لا ندرى، فقال: وكل الله به ملكين يطلعانه مع الشمس إذا طلعت، ويغربان به إذا غربت، وينضحانه بالماء الحار فى حر الشمس حتى تقوم الساعة.

وبهذا الإسناد عن ابن أورمة، عن الحسن بن على، عن ابن أبى بكير، عن أبى جعفر: إن بالمدينة لرجلاً أتى المكان الذى فيه ابن آدم، فرآه معقولاً مع عشرة موكلين به يستقبلون بوجهه الشمس، حيث ما دارت فى الصيف، ويوقدون حوله النار، فإذا كان الشتاء، يصبون عليه الماء البارد، وكلما هلك رجل من العشرة،

أخرج أهل القرية رجلًا فقال له: يا عبد الله، ما قصتك ؟ لأى شىء ابتليت بهذا ؟ فقال: لقد سألتنى عن مسألة ما سألنى أحد عنها قبلك، أنت أكيس الناس، وإنك لأحمق الناس.

وبهذا الإسناد عن ابن أورمة، عن عبد الله بن محمد، عن حماد بن عثمان، عن أبى عبد الله قال: كانت الوحوش والطير والسباع وكل شىء خلقه الله مختلطًا بعضه ببعض، فلما قتل ابن آدم أخاه، نفرت وفزعت، فذهب كل شىء إلى شكله.

هابيل: صاحب القربان المقتول زوج أخت قابيل - لعنه الله - وكان آدم - عليه السلام - قسم ماله بينهما؛ فجعل هابيل راعى غنم، وجعل قابيل حراثًا، وكان آدم أمر بتابوت، ثم جعل فيه علمه والأسماء والوصية، ثم دفعه إلى وصية شيث، وقال: إذا حضرتك الوفاة، وأحسسْتَ بذلك من نفسك، فالتمسْ خير ولدك وأكثرهم لك صحبة وأفضلهم، فأوص إليه بما أوصيتُ به إليك.

ولما مات آدم وحواء، طمع إبليس فى بنيهما، وجاء إلى شيث، فسلَّم عليه، وكلَّمه كلامًا أظهر فيه الندم على فعله بأبيه وأمه ما فعل، وأن يكون عونه على أولاد قابيل، فلعنه شيث وطرده وتهدده بأن يدعو عليه، وإن كان مُنْظَرًا، فخرج إبليس آيسًا منه، وقام شيث فى بنيه وإخوته خطيبًا، وأعلمهم ما أراد إبليس وحذَّرهم منه ومن أولاد قابيل، قال: فإنهم أعداؤكم فى الدين، فجعل بعضهم يحذر بعضًا من مخالطة بنى قابيل؛ كما تقدَّم ذكر ذلك.

فلما أيس إبليس من شيث، رجع إلى قابيل، وزين له ألاَّ يمنع ذكرًا من إخوته وبناتِ أخيه ليكثر النسل، وأن يبيح لهم شركة الواحد والاثنين والثلاثة فى الواحدة، ولا يمنعهم مرادهم، فقبل قابيل قوله، واشتركت الجماعة فى الواحدة، وما من ولد إلا وإبليس فيه شركة، وكان لإبليس أولاد فاختلطوا معهم، وتربوا جميعًا، والعياذ بالله تعالى.

وشيث هو الذى بنى الكعبة بالطين والحجارة على محلِّ خيمة آدم التى كانت من الجنة، وأنزل الله عليه خمسين صحيفة لخمس ليال خلون من رمضان، وكان مدة عمره تسعمائة واثنتى عشرة سنة، وكانت تنزل صحيفة بعد صحيفة بالأمر بعد الأمر، وأعلمه أن عند انقضاء نزولها يكونُ انقضاء عمره، وأن آخر صحيفة الوصية لولده

أنوش، فلما استوفاه، علم أن عمره قد نفد.

ولما حضرته الوفاة، أوحَى الله إليه أن يستودع التابوت والاسم الأعظم ابنه أنوش - ومعناه الصادق - ابن نزلة، فأحضره وسلم إليه التابوت وعهود الأنبياء، وأمره بمثل ما كان أمره آدم به من وضع النور المحمدى فى أطهر النساء، وقال: إن أدركت نبوة نوح، فسلم إليه العلم والتابوت، فأقام أنوش بعد شيث بكل ما أمر به أبوه شيث، وتزوج نعم، وكانت من أشبه النساء بحواء، فلما بنى بها، حملت بالنور، ففرح أنوش، وولدت له قينان والنور فى وجهه كالكوكب الدرىِّ، وأولاد قابيل فى تمرُّدهم قد لقى منهم أنوش تعبًا كثيرًا. ثم مات أنوش، وله من العمر تسعمائة وخمسون سنة، وله إخوة وبنات انقرضوا جميعًا، وقينان صاحب النور محفوظٌ من إبليس وجنوده، تزيد أنواره فى كل يومٍ وبركاته على بنى أبيه وأعمامه، وهم فى جهاد مع بنى قابيل أفضى الملك فيهم إلَى ابنه طهمورث.

ثم قام قينان - ومعناه المستولى - فقام مقام أبيه وتزوَّج عيطول، وولد له مهيائيل، ومعناه الممدوح. ولما كبر وعلمه أبوه أنوش الصحف التى لأبيه آدم وشيث وجميع ماعلمه أبوه من قبل، فخرج أفصح أهل زمانه وأشجعهم وأكملهم براعةً وفضلاً، والنور المحمدى فى وجهه يزداد كل يوم إشراقًا حتى صار له خمسون سنة، وظهر ملك عوج بن عنق، فطغَى وأفسد فى الأرض، واشتدَّ الأمر، وتزوج عيطول، فولد له منها مهيائيل بن قينان بن أنوش.

ولما حضرت الوفاة قينان، مات فى تموز، وعمره تسعمائة وعشرون سنة.

فقام بالأمر بعده ابنه مهيائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم - عليه الصلاة والسلام - وتولى النظر فى أمر بنى آدم بعد أبيه، وعاش ثمانمائة سنة وخمسًا وتسعين سنة، وهو أول من بنى المدن، واستخرج المعادن، وبنى مدينة بابل.

ثم ولد لمهيائيل يرد، ويقال: يارد، ومعناه الضابط، فقام مقام أبيه، وفى زمنه عملت الأصنام، ورجع من رجع عن الإسلام من أولاد شيث مع أولاد قابيل.

ثم ولد ليرد أخنوخ، بهمزة وحذفها، والمشهور: أنه بخاءين معجمتين، وقيل: الأولى حاء مهملة، وهو النبى إدريس - عليه السلام - وهو هرمس الهرامس المثلث بالنبوة والحكمة والملك، أمه ادينا بنت ابيال، سمى إدريس؛ لكثرة درسه

صحف آدم وشيث، والجمهور على أنه أول نبى بعث بعد آدم بمائتى سنة، ونزل عليه ثلاثون صحيفة، وهو أول من خاط الثياب ولبسها، وكانوا من قبل يلبسون جلود البقر، فأرسله الله إلى قومه وبنى أبيه وبنى قابيل، وهو أول من خطَّ بالقلم، وهو الذى بنى الأهرام بمصر، وقيل: بناهما دومع بن الزبان، ابن فرعون يوسف، وقيل: سوريد، وقيل غير ذلك.

وعلى ذكر الأهرام قال ابن الجوزى (١): ومن عجائب الهرمين أن سمك كل واحد منهما أربعمائة ذراع، وهما من الرخام والمرمر، مكتوب فيهما: أنا بنيتهما بملكى، فمن يدعى قوة فى ملكه فليهدمهما؛ فإن الهدم أيسر من البناء. وكان المأمون العباسى، لما دخل الديار المصرية، أراد هدمهما؛ فلم يقدر على ذلك، فاجتهد وأنفق أموالاً عظيمةً حتى فتح فى أحدهما طاقة صغيرة، فوجد خلف الطاقة من الأموال قدر الذى أنفقه وكتابًا فيه: قد علمنا أنك تأتى فى عصر كذا، وتروم الهدم، ولاتستطيع أكثر من ذلك، فجعلنا لك ما أنفقت، فلا تتعب؛ فأنشد المأمون فى ذلك: [من الكامل]

أنظُرْ إِلَى الْهرمينِ واسْمَعْ مِنْهُمَا ... مَا يَروِيَانِ عَنِ الزَّمَانِ الْغَابِرِ
لَوْ يَنْطِقَانِ لَخَبَّرَانَا بِالَّذِى ... فَعَلَ الزَّمَانُ بِأَوَّلٍ وَبِآخِرِ

وهى عدة أهرام، إلا أن أكبرها هرمان اثنان، وقد ذكرتهما الشعراء قديمًا وحديثًا فى موارد الوعظ تارة، والغزل أخرى وغيرهما، قال أبو الطيّب: [من الكامل]

أَيْنَ الَّذِى الْهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ ... مَا قَوْمُهُ مَا يَوْمُهُ مَا المَصرع
تَتَخَلَّفُ الْآثَارُ عَنْ سُكَّانِهَا ... حِينًا فَيُدْرِكُهَا الفَنَاءُ فَتَتْبَعُ

وقال آخر: [من الرجز]

مِصْرُ الَّتِى مِنْ حُسْنِهَا ... قَدْ قِيلَ فِيهَا إِرَمُ
لَمَّا جَفَتْ عُشَّاقَهَا ... بَدَا عَلَيْهَا الْهَرَمُ

وقال آخر- وفيه تورية ظريفة-: [من البسيط]

قَالُوا عَلاَ نِيلُ مِصْر فِى زِيَادَتِهِ ... حَتَّى لَقَدْ بَلَغَ الْأَهْرَامَ حِينَ طَمَا

(١) ينظر: المنتظم (١/ ١٦٦) وفيه: « سمك كل واحد منهما أربعمائة ذراع طولاً في أربعمائة ذراع عرضًا، كلما ارتفع البناء دق. وهما من رخام ومرمر مكتوب عليهما طب وسحر، وتحت ذلك مكتوب... إلخ ».

فَقُلْتُ هَذَا عَجِيبٌ فِى دِيَارِكُمُ ... أَنَّ ابْنَ سِتَّةَ عَشْرٍ يَبْلُغُ الْهَرَمَا

وأحسنُ ماسمعت فى وصفهما قول عمارة اليمنى شاعر الدولة العُبَيدية حيث يقول: [من الطويل]

خَلِيلَىَّ مَا تَحْتَ السَّمَاءِ بَنِيَّةٌ ... تُمَاثِلُ فِى إِتْقَانِهَا هَرَمَىْ مِصْرِ

بِنَاءٌ يِخَافُ الدَّهْرُ مِنْهُ وَكُلُّ مَا ... عَلَى ظَاهِرِ الدُّنْيَا يَخَافُ مِنَ الدَّهْرِ

تَنَزَّهَ طَرْفِى فِى بَدِيعِ بِنَائِهَا ... وَلَمْ يَتَنَزَّهْ فِى المُرَادِ بِهَا فِكْرِى

(رجع): وعن جعفر الصادق بن محمد الباقر، إذا دخلت الكوفة فائت مسجد السهلة؛ فصلِّ واسأل الله حاجتك لدينك ودنياك؛ فإن مسجد السهلة بيت إدريس - عليه السلام - الذى كان يخيط فيه ويصلى، ومن دعا فيه بما أحب، قضى الله له حوائجه، وأجير من مكروه الدنيا.

قال فى تاريخ الخميس: وفى لباب التأويل: لما ولد لإدريس ابنه متوشلخ، ومضى من عمره ثلاثمائة وخمس وستون سنة، رفع إلى السماء، قال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٧] كان رفعه إلى السماء الرابعة على ما قاله كعب الأحبار وغيره؛ أنه سار ذات يوم فى حاجة، فأصابه حر الشمس، فقال: يا رب، إنى مشيت يومًا، فكيف من يحملها على خمسمائة عام فى يوم واحد ؟ اللهم، خفف عنه من حرها وثقلها فأصبح الملك ووجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعهد، فسأل الله عن سبب ذلك، فقال تعالى: عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها وثقلها فأجبته، فقال: يا رب، اجمع بينى وبينه، واجعل بينى وبينه خلة. فأذن له حتى أتى إلى إدريس، فقال له: اشفع لى إلى ملك الموت؛ ليؤخِّر أجلى فأزداد شكرًا وعبادة، فقال الملك: لا يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها، وأنا مكلمه، فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثم أتى إلى ملك الموت، فقال له: لى إليك حاجة، صديق لى من بنى آدم يستشفع بى إليك؛ لتؤخر أجله، فقال ملك الموت: ليس ذلك إلىَّ، ولكن إن أحببت أعلمته بأجله فيقدم لنفسه، قال: نعم، فنظر فى ديوانه فقال: إنك كلمتنى فى إنسان ما أراه يموتُ أبدًا، قال: فكيف ذلك ؟ قال: لا

(١) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٤/ ٤٩٤) وعزاه إلى ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سأل كعب الأحبار عن رفع إدريس فذكره بنحوه.

أجده يموت إلا عند مطلع الشمس، قال الملك: أنا أتيتك وتركته هناك، قال: انطلق فما أراك تجده إلا ميتًا، فانطلق الملك فوجده ميتًا [١].

وقال وهب: كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض، فعجب منه الملائكة وحبب إليهم، واشتاق ملك الموت إلى لقياه، فاستأذن ربه، فأذن له، فأتاه زائرًا، فقال له إدريس: يا ملك الموت، أذقنى الموت وردَّ على روحى بعد ذلك لأجتهد فى العبادة، فقال له: لو علمت كرب الموت لما تمنيته، فقال: لأزداد بذلك جِدًّا إلى جِدِّى، فقال له ملك الموت: الموت والحياة بإذن الله، فسل ربك ما تريده، فأوحى الله إليه: نوِّله ما طلب، وهوِّن عليه ذلك، فإذا بلغتْ روحه خياشيمه وعينيه، فلا تنزعها واتركه ساعة واحدة، ثم أعد روحه إلى جسده. فاستقبل نزع روحه فى ساعة واحدة برفق حتى بلغ بها خياشيمه وعينيه، فصار بمنزلة الميت ساعة، فذاق الموت، ثم أطلق روحه إلى جسده وبقى يومه وليلته لا يقدرُ أن يتحرَّك، وولده متوشلخ وجميع قومه يبكون وقد أيسوا منه، ثم أفاق وقد أوهنه ذلك، فلما كان فى بعض الأيام زاره ملك الموت، وكانت الملائكة من زمن آدم - عليه السلام - تجالس مؤمنى بنى آدم، وتخالطهم وتصافحهم وتكلِّمهم إلى زمن نوح؛ لصلاح الزمان وأهله.

وذكر فى كتاب حقيبة الأسرار، وجهينة الأخبار: أن الملك الموكل بالشمس لما استأذن ربه فى زيارة إدريس، فهبط عليه، قال لإدريس: يا نبى الله، هبطت لأكافئك، فسلنى حاجتك، فسأله أن يعرفه الفلك ودورانه ومنازل الشمس والقمر ومطالعها ومغاربها وسيرها ولبثها وحسابها، فقال: سوف أستأذن ربى، فأمره الله أن يعلمه جميع ذلك ويطلعه على سره؛ فلذلك كان إدريس أعلم أهل الأرض بالنجوم وجريان الأفلاك، ووضع كتبًا كتبها بيده، وهو أول من اتخذ الآلات لجريان الأفلاك، وقدر الساعات والدقائق والدرج وما هو أدق من ذلك من الثوانى والثوالث، وإلى الآن من كتبه لمع فى أيدى الناس.

ثم إن إدريس سأل ملك الشمس عن أجله، فقال له الملك: مالى بذلك من علم، فسأل له ملك الموت عن أجله . . . إلى آخر ما تقدم ذكره عن تاريخ الخميس.

فلما أفاق، قال له: يا ملك الموت، أدخلنى النار لأزداد رهبة، ففعل بإذن ربه،

ثم قال: أدخلنى الجنة، ففعل بإذن ربه، ثم قال له: اخرج لتعود إلى مقرك، فتعلق بشجرة، وقال: لا أخرج، فبعث الله إليهما مالكًا حكمًا، فقال له ملك الموت بحضرة مالك: ألا تخرج ؟ قال: لا، قال: ولم ؟ قال لأن الله تعالى قال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقد ذقته، وقال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١] وقد وردتها، وقال تعالى: ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨] فلست بخارج، فأوحى الله إلى ملك الموت: بإذنى دخل وبإذنى لا يخرج. انتهى

(فائدة): أربعة من الأنبياء أحياء؛ اثنان فى السماء إدريس، وعيسى - عليهما الصلاة والسلام - واثنان فى الأرض: الخضر، وإلياس على القول بنبوته.

متوشلخ خلف أباه إدريس بعد رفعه سالكًا طريقه، وعاش ستمائة وستين سنة، وقد تزوج وولد لمك، ولم يزل متوشلخ يدبر أمر الله تعالى، ويستحفظ ما استودع على منهاج آبائه يهدي إلي الحق وإلى صراط مستقيم، ونهى عن صحبة بنى قابيل، فخالفه من قومه جماعة أضاعوا الدين، فلقى منهم تعبًا عظيمًا.

ولما رفع إدريس، طمع إبليس فى المؤمنين فأطاعوه، وتأهب متوشلخ للحج، وتخلف عنه من كان فى قلبه مرض. فلما أخذ فى المناسك، أقبل إبليس إلى بنى قابيل، فقال لهم: إن إدريس مات، ومتوشلخ لا رجال معه إلا قليل، فإن أردتم أخذ الثأر ونصرة آلهتكم، فهذا اليوم الذى كنت أعدكم به. فاجتمعوا إلى ملكهم ماهيل بن جاشم، فقالوا: أيها الملك، قد علمت ما قد أسره أولاد شيث وما قتلوه من آبائنا وإخواننا، وكنا نهابهم لمقام إدريس، والآن ابنه متوشلخ غلامٌ غِرٌّ لا معرفة له بالحروب، وهو غائب عن ديار بنى أبيه فى مكة، ودياره خالية فيها ذراريه وأهله مع من أسر منا، فلو سرت بنا إليهم لأخذ الثأر واستنقذت الأسرى فاستعبدنا ذراريهم كما فعلوا بنا. فسمع ماهيل كلامهم، وأطمعته نفسه فيما قالوا، وتأهبوا للمسير، فجاءهم إبليس فى صورة شيخ كبير السن، فاجتمعوا يسألونه كم له من العمر ؟ فزعم أنه من ولد قابيل تفرد فى بعض الجزائر فعظّموه، وسألهم فعرفوه بعزمهم، فبكى على كبر سنه وقال: فمن يتولى الآن على أمر شيث ؟ فقالوا: غلام لا معرفة له بالحرب، اسمه متوشلخ بن إدريس، قال: سمعت به، فما فعل ؟ قالوا: مات -

يعنى إدريس - وبقى معه طائفة قليلة، والباقون معنا، وقد ساروا ليحجوا وتركوا من سبوا منا فى منازل إدريس، فرأينا أن ننتهز الفرصة ونفعل بهم ما فعلوا بنا، قال لهم: نِعْمَ ما رأيتم، ولكن ما يؤمنكم أن يسمع متوشلخ بذلك؛ فيكر راجعًا ويقاتل عن أهاليه القتال الشديد ؟! وإنى أرى لكم رأيًا إن قبلتم نصحى، فقالوا له: قل نسمع، قال: من الرأى أن تتفرقوا فرقتين، وتجعلوا أبطالكم ومن تتقون به فى الذين يسيرون إلى الحرم؛ فيشغلون متوشلخ عن المجىء إلى أهله، وتسير الفرقة الأخرى لأخذ الذرارى، فليس عندهم من يمنع. فصدقوه، وانتخبوا الأبطال لمكة وملكهم ماهيل فى أوائلهم، وقدم ابنه مخوائيل على الفرقة الأخرى، وأمره بالمسير إلى منازل المؤمنين يسبى ويضرب ولا يطلع أحدًا على أمره، وسار ماهيل إلى مكة وابنه مخوائيل إلى الذرارى، ومتوشلخ لما فرغ من مناسكه، رأى فى منامه كأن الأرض صارت نارًا من حولهم مضرمة، وأنه كلما أراد الخروج منها، لم يجد سبيلاً، غير أنها لا ضرر عليه منها، فأخبر المؤمنين فسألوه تأويلها فقال: سنلقى أمرًا يصدنا فى طريقنا عن قصدنا وتضيق الأرض بنا، إلا أنى أرجو الفرج من الله تعالى، فقالوا: فوضنا أمرنا إلى الله تعالى واستعنا به، فما ساروا إلا قليلاً حتى أشرفوا على ماهيل فى بنى قابيل بجموع عظيمة، فقال متوشلخ: هذا والله تأويلُ رؤياى، فما أنتم فاعلون ؟ قالوا: ليس إلا قتالهم حتى يحكم الله بيننا، فنزلوا بإزائهم ذلك اليوم وباتوا ففىَ الصبح زحف ماهيل بأصحابه إلى متوشلخ، فضعفت أنفس المؤمنين، فقال متوشلخ: لا تنظروا إلى كثرتهم وقلَّتكم؛ فإن الله يخذلهم وينصركم، فقالوا: إنهم جاءونا على أهبة وعدَّة، ونحن حجاج على غير أهبة، فقال: اصبروا، واعلموا أن الله لم يزل ناصركم وناصر آبائكم؛ بذلك وعدكم وهو لا يخلف الميعاد، وابتدرهم بنو قابيل بالقتال، فاقتتلا قتالاً شديدًا إلى الليل، فحال الظلام بينهم، وقتل من أولاد قابيل عالم كثير، ولم يقتل من أصحاب متوشلخ غير رجل واحد، فقال متوشلخ: ألم أخبركم أن الله ناصركم ؟! وألقى الله فى قلب ماهيل وقومه الرعب، وقال بعضهم لبعض: قد علمتم ما كان منا بالأمس مع هذه الشرذمة القليلة العدد والعدَد، ونخاف إن شبت الحرب بيننا أن تكون علينا الدائرة فيفنونا، وإن انهزمنا كان عارًا علينا، ويلحقون بإخواننا فى ديارهم فينالون منهم مرادهم، فقال ماهيل:

ليس لنا إلا القتال إلى أن نعلم أن إخواننا وصلوا إلى مطلوبهم.

وكان شيعمة ملك الجن المؤمن، حَجَّ تلك السنة مع متوشلخ وطائفة من الجن المؤمنين، فلما كان صباح ذلك اليوم إذا هم بابن أخى شيعمة واسمه سهلب جاءه صارخًا وأخبرهم بما جرى من مخوائيل بن ماهيل على الذرارى والأهل، وأنه تركهم فى أضيق حال، فلما سمعه شيعمة، صاح صيحة عظيمة فى بنيه وقومه ومن معه، فاجتمعوا إليه، فقال: يا ويحكم، أعينونى وأعينوا أصحابكم. ثم سار فى قومه إلى منازل المؤمنين مغيثًا، فلما رآه إبليس، خافه وانزوى عنه.

وأما متوشلخ: فإنه لما أعلمه شيعمة بما جرى على قومه، بكى بكاءً شديدًا، وضج بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى مع المؤمنين، وقال: إن الدعاء خير نافع، وقد حيل بيننا وبين قومنا، ولم يبق لنا غير الدعاء إلى الله تعالى، فقال متوشلخ: نِعْمَ ما رأيتم وأشرتم، ثم جمع قومه وتوسل إلى الله تعالى بمحمد ﷺ [(1)]، وساعدهم سائر المخلوقات والملائكة والسموات، كلٌ يسأل فى هلاك أعدائهم بنى قابيل، فهبط جبريل فى ملأ من الملائكة فى أيديهم الحراب، وقد أحاط أصحاب ماهيل بذرارى المؤمنين وإبليس يقول: لا مانع لهم سوى شيعمة، ونحن له، فلما رأى إبليس الملاكة هرب ولحقه بعده جنده، فأمر جبريل بقتل من لحقوه منهم، فصاح جبريل فيهم صيحة عظيمة، وقعوا على وجوههم منها صعقين، فمات منهم الثلث، ومسخ الله الثلث الثانى فيلة؛ فهو أول مسخ وقع فى بنى آدم، والثلث الثالث صعقوا، فلما أفاقوا، نظروا إلى الفيلة، ففزعوا ولم يكونوا رأوها قبل ذلك، فولوا منهزمين إلى ديارهم، فاتبعتهم الفيلة حسدًا لهم؛ إذ مسخوا دونهم، فقتلت أكثر من بقى منهم، ورجع الباقون إلى منازلهم، فلما رآهم الذين تخلفوا منهم، ارتاعوا ولم يعلموا كيف الخبر، فاقتحمت عليهم الفيلة البيوت وكسرت كل ما مرت به، فظنهم المقيمون فى الديار وحوشًا فمانعوهم عن الدخول، فحميتْ صدور الفيلة، فكان الفيل يقتل ولده وأخاه وزوجه وأباه ويعلوهم برجله، ويأخذ الواحد منهم بمشفره

---

(١) تقدم الكلام على التوسل، والصحيح هو التوسل إلى الله سبحانه بالإيمان الصحيح والعمل الصالح، كما في قصة أصحاب الغار الثلاثة وثبت عن النبي ﷺ: يا فاطمة بنت محمد اعملي، فإني لا أملك لك من الله شيئا كما يصح التوسل بدعاء الصالحين في حياتهم، كما حدث في توسل سيدنا عمر بدعاء سيدنا العباس في الاستسقاء، بعد موت النبي ﷺ.

فيرفعه إلى الهواء، ثم يلقيه إلى الأرض، ولم يزالوا كذلك أيامًا حتى وصل إليهم من كانوا شاهدوا مسخهم، فأعلموهم الخبر، وقالوا: نحن بقية الثلث الثالث الذين نجوا من الموت والمسخ، وأكثرنا هلك جوعًا وعطشًا، فصدَّقوهم، وقصد كل فيل منزله، واجتمع أهله حوله يبكون والفيلة تضرب الأرض بأنفسها.

وأما ماهيل: فإنه قلق قلقًا عظيمًا، وطال عليه مصابرته لمتوشلخ ليمسكه عن اللحاق بقومه، وأرسل رجلاً ليأتيه بخبر ابنه مخوائيل الذى أرسله لذرارى المؤمنين فى منازلهم ومتوشلخ لا يعلم بما جرى، وأرسل إليه أولاد شيعمة بما حل بمخوائيل بن ماهيل، فلما جاءه البشير، كبر المؤمنون تكبيرة واحدة، ارتاع منها ماهيل ومن معه ولم يعلموا ما الخبر، فجاءه الرسول، وأخبره بالمسخ والهلاك وانقلاب الباقين إلى الديار بعد أن مات أكثرهم جوعًا وعطشًا، فخافوا أن يحلَّ بهم مثل ذلك؛ فولوا على أعقابهم هاربين، فتبعهم متوشلخ وقتل منهم خلقًا كثيرًا وأخذ أموالهم وسلاحهم، وتقطعوا فى الأرض فهلكوا، ووصل أقلهم إلى أهليهم، فلقيتهم الفيلة فأنكروها، وقالوا: كيف يكونون إخواننا وماهُمْ إلا من وحش البر، جاءوا يريدون ديارنا لما غبنا عنهم، ثم ناوشوهم الحرب، والفيلة تخضع لهم لعلَّهم يراجعون بصائرهم ويعرفون أنهم منهم، فأبوا إلا هلاكهم، فلما رأت الفيلة ذلك، تضافروا عليهم فقتلوا أكثرهم، وأقاموا ثلاثة أيام يقتتلون، قد سلط الله بعضهم على بعض، ولا يقتل فيل واحد حتى يقتل جماعة منهم، حتى تفانوا وقتلت الفيلة عن آخرها.

ولما هلكوا، فرح إبليس بذلك ويلغ منهم مراده، ولم يجسر أن يتعرض للمؤمنين خوفًا أن تحلَّ به نقمة من الله، ولم يكن بعد ذلك بينهم قتال ولا حرب إلى أن جاء الطوفان، فأهلكهم الله بكفرهم.

ورجع متوشلخ بمن معه من المؤمنين إلى ديارهم سالمين منصورين، فرأوا أهاليهم على حال السلامة، فانعزل بمن معه من المؤمنين إلى ديارهم سالمين منصورين إلى جبل، يقال له: راسخ، وكان جبلاً حصينًا كثير الشجر والخيرات، فاتخذوه مسكنًا وتركوا المدن التى كانوا فيها، وأعرضوا عن التعرض لمن بقى من ولد قابيل، وانبث ولد قابيل فى الأرض وانتشروا إلى البحر مما يلى الشمال والجنوب، وعبدوا الأصنام ونكحوا الأمهات والأخوات والبنات، وإبليس يعدهم ويمنيهم وما

يعدهم الشيطان إلا غرورًا. ولم تزل هذه أفعالهم إلى زمن نوح، عليه السلام.

ولما استوطن متوشلخ الجبل، أنفذ وصية أبيه إدريس، وخطب شلجم بنت جندل، وكانت من أولاد شيث، وكانت أجمل النساء وأكملهنّ عقلاً وفضلاً، فدخل عليها وأعلمها بالنور المحمدى، وأقام معها مدة وولد له أولاد كثيرة، والنور لم ينقل من وجهه، فتزوج بعدها صدوقا أختها، فلم ينتقل النور إليها. ولم يزل يتزوج امرأة بعد أخرى إلى خمس عشرة امرأة ما منهن إلا ويرزق أولادًا منها، فأمسك عن التزويج لينظُرَ ما يكون، وكان له ابن عم قد قتل فى قتال إدريس لبنى قابيل، وله ابنة صبية رباها إدريس، وعلمها الكتب وكتبتها، وكفلها بعد إدريس متوشلخ واسمها شملة، فرأته وماهُمْ عليه من الهَمّ لأجْلِ حبس النور، فسألته فأعلمها، فقالت: يا ابن العم، إذا أراد الله نقل النور عنك، اختار له من بنات عمك فلا تغتمّ، فألقى الله فى قلبه أنها هى، فقال لها: يا شملة، هل لك أن تكونى أنتِ التى أرجوها لهذا النور ؟ فخجلَتْ وولَّتْ مستحيية، فأحضر جماعة من وجوه قومه وخطبها وتزوَّجها، فحملت منه من أول ليلة، وأصبحت والنور فى غرتها، فسجد لله شكرًا وبشَّرها بذلك، ففرحت، وتممت أشهرها، فولدَتْ غلامًا والنور فى جبهته، فسماه لمك، ورباه أحسن تربية، وعلمه الكتابة والصحف، وبانت عليه دلائل السؤدد، حتى إذا بلغ من العمر أربعين سنة، حضرت متوشلخ المنية . . . خمسمائة سنة إلا اثنى عشر، فأقعده بين يديه وأوصاه بوصية أبيه، وعهد إليه فى النور، وأخذ عليه الميثاق ألاَّ يضعه إلا فى أطهر النساء من بنى أبيه وأعمامه، فأخذ ذلك لمك بالقبول، وضمن ذلك له من نفسه، ومات متوشلخ، فسلك به لمك مسلك آبائه وأجداده فى التغسيل والتكفين والصلاة عليه ودفنه، سنة من تقدم من آبائه، عليهم الصلاة والسلام.

قال فى بحر الأنساب: لمك بلام مفتوحة وميم ساكنة وكاف، وقيل: اسمه لامك، وكان رجلاً أشقر، قد أعطى قوةً وبطشًا. فتزوج امرأة يقال لها: فيسوس بنت بركائيل، وقيل: إنه خرج يومًا إلى البرية، فإذا بامرأة فى نهاية الجمال ترعى غنمًا، فسألها عن اسمها، فقالت: أنا فيسوس بنت الحيد بن عتويل بن لامك بن قابيل بن آدم - عليه السلام - فقال لها: كم سنك ؟ فقالت: مائة سنة وعشر سنين، وكانت تبلغ المرأة مائتى سنة. فمضى إلى أبيها وتزوج بها، ولما تمت أشهرها،

وضعت غلامًا والنور فى جبهته فسماه نوحًا، وفرح به فرحًا شديدًا، وكان لمك يضرب بيده إلى أعظم شجرة فيقلعها من أصلها. وأقبل بعد دفن أبيه متوشلخ على درس الصحف والعمل بما فيها، ووعظ قومه وهم أقل من مائة، واحتاجوا إلى أولاد قابيل، وكان الرجل منهم ينزل إلى أولاد أبيه، فيعطفون عليه، ويأمرونه بالدخول فى دينهم والنزول من الجبل، فيأبى المؤمنون ويقولون: إن كنتم ترعون الرحم بيننا، فافعلوا ولا تردونا عن دين آبائنا. ولمك ينهاهم عن ذلك فيقولون: إنا جياع، فيقول: لو لم تخضعوا لهؤلاء المرتدين منكم، لرزقكم الله كما يرزق الطير، فاصبروا تؤجروا.

ولما ولد نوح - عليه السلام - رأى إبليسُ ليلة ولادته الملائكة نزلَتْ من السماء ودارت بالجبل؛ فعلم أن نور رسول الله ﷺ انتقل، فسأل فقيل: إن لمك رزق ولدًا والنور انتقل إليه. فطمع أن يصل إليه فلم يقدر، فجعل يعطف على كل من ارتدَّ من ولد أبيه وبنى قابيل كيدًا منه، وكان بنو قابيل قد أنسوا من الجبل حتى لم يَبْقَ بيت من المؤمنين به إلا دخله بنو قابيل، وكلما عرضوا على لمك النزول إلى منازلهم، أبى ونفر خوفًا على ابنه نوح، وكان يخفيه عنهم ولا يظهره، وأدخله إلى مغارة فى الجبل، وأمه معه، والصحف التى لآبائه عندها؛ احتفاظًا بها واحترازًا على ما فيها من إبليس وبنى قابيل، وعلمه أبوه لمك جميع ما علمه أبوه متوشلخ، وأوصاه بوصية آبائه، وأخذ عليه العهد والميثاقَ كما أخذه عليه أبوه.

واجتهد نوح فى العبادة في تلك المغارة، ولا يتركه أبوه يخرج منها ولا أحدًا يدخل عليه. فلما بلغ من العمر خمسًا وثلاثين سنة، مرض أبوه لمك، فلما أحسَّ بالموت جَدَّدَ الوصية، وحذَّره إبليسَ وبنى قابيل، وسلَّمه الاسم الأعظم والتابوت ومواريث الأنبياء، ومات وعمره تسعمائة وتسع وسبعون سنة. وفى مروج الذهب: تسعمائة واثنان وثلاثون سنة.

فقام بالأمر بعده نوح - عليه الصلاة والسلام - وهو أول أولى العزم، وشيخُ المرسلين والأبُ الثانى، وصاحبُ الفُلْكِ، وآدم الثانى؛ لأنه لا عقب إلا منه، وله إخوة درجوا جميعًا والعقب من نوح وحده.

(١) في ط: قبل. والصواب ما أثبت.

ولد - عليه السلام - بعد[١] موت آدم فى الألف الأولى، وبُعث فى الألف الثانية، وهو ابن أربعمائة سنة، ولبث فى قومه: ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ كما فى الآية الشريفة [العنكبوت:١٤] واسمه - قبلُ - عبد الأعلى، وإنما سمى نوحًا؛ لأنه بكى على قومه خمسمائة عام. وفى رواية: اسمه عبد الملك، وفى أخرى: عبد الغفار، وفى أخرى: عبد الجبار.

وهو أول نبى بعد إدريس. وكان نجارًا، ألهمه الله ذلك؛ فعمل أبوابًا؛ لأنه خاف على الصحف من بنى قابيل، فعمل بابًا على المغارة التى هى فيها، وأوثقه وقفل عليه احتفاظًا بها، وكان لا يأخذ على النجارة أجرًا. وكان بنو قابيل يعرفون محله ويعظمونه، وإذا أراد أحدٌ منهم الجلوس عنده انتهره، وإذا جلس إليه أحد من قومه المرتدِّين وعظه. وكان معروفًا بينهم.

وعن وهب: إن نوحًا كان إلى الأدمة ما هو، دقيق الوجه، رأسه طويل، عظيم العينين، دقيق الساقين، كثير لحم الفخذين، ضخم السرة، طويل اللحية، عريضًا طويلاً جسيمًا، فبعثه الله وهو ابن أربعمائة سنة وخمسين سنة، فلبث فيهم المدة المذكورة فى القرآن يدعوهم إلى الله تعالى؛ فلا يزدادون إلا طغيانًا، ومضى ثلاثة قرون من قومه؛ فكان الرجل يأتى بابنه وهو صغيرٌ فيوقفه على رأس نوح - عليه السلام - ويقول له: يا بنى، إن بقيتَ بعدى، فلا تطع هذا. ثم لما دعاهم سِرًا فلم يجيبوه، أيده الله بروح القدس وأمره بإظهار الدعوة، والملك يومئذٍ فى بنى راسب وأهل مملكته وعوج بن عنق، وقيل: كان لهم ملك يقال له: درمسيل بن عوبيل بن لامك بن جنح بن قابيل، وكان جبارًا عاتيًا يعبد هو وقومه الأصنام. قوم إدريس الخمسة: وُدّ، وسُوَاع، ويَغُوث، ويَعُوق ونَسْر، ثم كثروا حتى صار لهم ألف صنم وسبعمائة صنم. فدعاهم نوح علانية؛ فلم يجيبوه؛ فلم يزل يدعوهم تسعمائة سنة وخمسين، كلما مرَّ منهم قرن، اتبعه قرن على مذهب آبائهم، وآمن به بعض ولد شيث، فقالوا له: أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟ يعيرونه بقلة الأموال، وأنهم لا عز لهم ولا سلطان.

ثم إنه نزل إلى بنى قابيل من الجبل فى يوم عيد لهم، وهم عكوفٌ على أصنامهم، فوقَفَ على نشز عال من الأرض يشرف عليهم، ووضع إصبعيه فى أذنيه ورفع صوته -

وكان جَهْوَرِيَّ الصوتِ - فقال: لا إله إلا الله، وحده لاشريك له، ولا معبود سواه، ﴿ اَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ... ﴾ الآية [نوح : ٣، ٤] يا قوم، إنى مرسل إليكم، فإن استقمتم استقام أمركم، وإن أعرضتم أتاكم وعيده حتى لم يَبْقَ أحد منكم على وجه الأرض، ويدخلكم النار وبئس المصير. وما قلت لكم هذا إلا بأمر ربى، فإن تقبلوا ترشدوا، وإن تتولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. فوقعت الأصنام على وجوهها، فآمن كُلُّ من كان مؤمنًا على عهد أبيه لمك. وقيل: أول من آمن امرأة اسمها عمود، فتزوَّجها وأولدها سامًا ويامًا وحامًا. ثم امرأة من قومه اسمها واهلة، فأولدها يافث وكنعان، ثم ارتدَّتْ وعادت إلى دينها الأول. ولما رأوا ما حل بالأصنام وثبوا إليه، وقالوا: إنا لنراك فى ضلال مبين، أما رضيت بالمشاركة حتى تدعى أنك رسول الله إلينا، ونحن نعلم أنك فى الطريقة المحمودة منذ كنتَ صغيرًا، وقد اعتراك جنون. ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ... ﴾ الآيات [المؤمنون: ٢٥] فسبُّوهُ وهمُّوا به، فمنع دونه المؤمنون، وأخذت الحمية أقاربه فى النسب، فخاف الرؤساء أن تقع بينهم فتنة فتركوه، فأوحى الله إليه أن اصبر عليهم، فرجع نوح إلى موضعه وبقى قومه الذين ارتدوا يقولون: ما نعرف نوحًا منذ نشأ إلا صادقًا، وإنا نظنُّ أن الذى جاء به حق، فسحبهم بنو قابيل على وجوههم، وأعلموا الدرمسيل وهو ملكهم بما قالوه، فقال: إن نوحًا من أشرف قومه حسبًا وأكرمهم أمًّا وأبًا، وقومه وإن دخلوا فى دينكم لا يَرضَوْنَ بأذيته، وأخاف أن تتفرَّقَ كلمتكم ويقع بأسُكُمْ بينكم، ونوح لا خوف عليكم منه، فاصبروا عليه وداروا أهله. فأجابوه بالسمع والطاعة.

وكانت شريعته التوحيد، وخلع الأنداد، والفطرة، والصلاة، وصيام شهر رمضان، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر. فأرسل إليه الملك رجلاً اسمه العملّس، وكان فصيحًا فاضلاً فى جماعة من الرؤساء، فقال له: يا نوح، أنا رسول، وناصح لك ألاَّ تتعرض إلى سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، فقد صبروا عليك وحملوك على الجنون، وقد أغريت الضعفاء، وآباؤك كانوا أقوَى منك بأسًا، وكانوا يعدونهم العذاب، فما أصابهم شىء، وماتوا أعزاء، فاتركهم وأنت ودينك، فقال له نوح: أما قومك الذين ماتوا، ولم يصبهم شىء، فإنى لم أدركهم، ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا

عَلَىٰ رَبِّي ﴾ [الشعراء: ١١٣] وأما الذين معى، فـ ﴿ مَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية [الشعراء : ١١٤] ، فقال له: يا نوح، إن كنت قلت هذا لفقرك فنجمع لك مالاً ونقدمك علينا، فقال ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٩] فقالوا: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦] فقال: توكلت على الله ربى وربكم ولست براجع عما دعوتكم إليه ليلا ونهارا، سرًا وجهارًا، حتى يحكم الله بينى وبينكم، وهو خير الحاكمين. ثم تركهم وانصرف، ثم عاد إليهم بعد مدة فى عيد آخر ووقف على نشز عال، وفعل بهم مثل الأول، فقالوا: ﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا . . . ﴾ الآية، إلى: ﴿ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢] وإن أبيت قتلناك. ومازال يدعوهم فيكذبونه ويضربونه إلى أن مات الجيل الأول، ونشأ أبناؤهم على ذلك، وانقرض الجيل الثانى، وجاء الجيل الثالث، ونوح يعذر وينذر، فلما طال الأمر قالوا: يا نوح أما لميعادك من آخر ؟! وجاء رجل منهم وابنه على عاتقه، فقال لابنه: إن عشت بعدى فلا تسمع من هذا المجنون، فقال الصبى: أنزلنى عن عاتقك، فأنزله، فأخذ الصبى حجرًا وضرب به رأسَ نوح - عليه السلام - فشجَّهُ وسال دمه، فصبر واحتسب، وكانوا يعجبون من شدة صبره.

وفى بعض الأيام ضربوه، وداسوا بطنه، فلما أفاق، لم يقدر على النهوض، فشكَا إلى ربه، فأوحى إليه أن يدعو عليهم بعد أن ضربوه أوجَعَ ضرب، وخنقوه حتى غشى عليه وتركوه كالميت، فقال: اللهم، أنتَ العالمُ بما يفعلُ بى عبادك، اللهم، اهدهم وصبرنى عليهم. فأوحى الله إليه: إنه لم يبق فى أصلاب الرجال مؤمن ولا مؤمنة، وإنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، أى: لا تحزن عليهم، فقال: إنما كنت أصبر طمعًا فى إيمانهم، فإذا كان سبق القول بأنهم لن يؤمنوا، ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دَيَّارًا. فلما سمع قومه دعاءه، خافوا إجابة الدعوة، وقالوا: تدعو علينا، وأنت بين أظهرنا، إذا كان هذا منك، فاخرج عنا، ولا تجاورنا لا أنتَ ولا من معك، فقال: إن آمنتم بالله، سألته الرضا عنكم والعفو عما سلف، وإن أبيتم ليس لكم عندى إلا الدعاء، فضَرَبوه حتى كسروا رجله اليمنَى، وضربوا الذين معه حتى وقعوا كالموتَى مصرعين، وجروا بأرجلهم، ولم يزالوا ثلاثة أيام لا يستطيعون حركة.

وفي ربيع الأبرار للزمخشريّ: روى الضحاك، عن ابن عباس: كان نوحٌ يُضرب في قومه ثم يلف في البلد، ثم يلقى في بيته، فيرون أنه مات، فيخرج فيدعوهم إلى الله، فلما قام نوح قال: إنه قد أوحى إليّ أنه ينزل بكم القحط ويعقم نساؤكم، وقد أجل الله لكم أجلاً لا يزيدُ ولا ينقصُ، وإنه بعد أربعين سنة من يومكم هذا يأتيكم الطوفان، ماء يغرقكم ويغرق الأرض كلّها حتى لا يبقى منكم أحد، فلا تلوموا إلا أنفسكم، فقالو: قد سمعنا هذا منك من قديم الزمان، وزدت اليوم زيادة ما سمعها منك آباؤنا وهي ضربُكَ أجلاً أربعين سنة، فإن آمنا بك وأطعنا، وإلا جاءنا طوفان، ماء من السماء، فأغرقنا وجميع من في الأرض إلا من آمن بك، وإنا ننتظرك إلى هذا الأجل، فإذا تمت أربعون سنة، ولم نر شيئًا حل لنا قتلك، فانصرف عنهم، فأمره الله أن يغرس شجرة، فغرسها، فعظمت وذهبَتْ كُلَّ مذهب، ثم أمره أن يقطعها بعد ما غرسها بأربعين سنة، فيتخذ منها سفينة.

روى الشيخ أبو عبد الله محمد بن سعيد بإسناده: أنه غرس الساج.

وعن ابن عباس: قالت الحواريون لعيسى بن مريم: لو أحييت لنا رجلاً شهد السفينة، فحدثنا عنها، فأتى كثيبًا من تراب، فأخذ كفًّا منه، وقال: هذا قبر[1] حام ابن نوح - عليه السلام - فضرب الكثيب بعصاه، وقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه، وقد شاب، فقال له عيسى - عليه السلام -: هكذا هلكتَ؟ قال: لا، مت وأنا شابٌّ، ولكنني ظننت أنها الساعة فشبت، قال: حدثنا عن السفينة، فقال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات: طبقة فيها الدواب والوحوش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير[2]، وعلمه جبريل كيف يديرها، وجعل يقطع الخشب، ويضرب الحديد ويهيئ مدة الفلك من القار وغيره. وأمره أن يطليها بالقار من داخلها وخارجها، وتم عملها في سنتين، وشاركه في عملها سام وحام ويافث ويام، وكان كلما عمل شيئًا أفسده قومه ليلاً، فدعا عليهم، فابتلاهم الله بِالعَشَا فكانوا لايرون شيئًا.

---

(١) في ط: كعب بن. والمثبت من تاريخ الطبري، ولعله الصواب.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ١٨١) من طريق المفضل بن فضالة عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس وعلي بن زيد ضعيف، وكذلك المفضل بن فضالة.

وفى تاريخ الخميس، وحياة الحيوان: قال نوح: يا رب، أمرتنى أن أصنع الفلك، ولى أيام فى صناعتها، كل ما صنعته بالنهار يفسده قومى بالليل، فأوحى الله إليه: يا نوح، خذ كلبًا يحرسها بالليل (١).

وفى الكشاف: لما كان نوح يقطع الخشب، ويضرب الحديد، ويهيئ ما يحتاج إليه الفلك من القير وغيره، جعل قومه يمرون عليه فى عمله، ويقولون: يا نوح، صرت نجارًا بعد النبوة، وكانوا يأتون ليلاً لما يعمله نهارًا فيفسدونه، فيسخرون منه ويقولون: تتخذ بيتًا تسير به على الماء، فأين الماء الذى يحمل هذا البيت ؟! لقد خرف نوح، فيقول: ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . . .﴾ الآية [هود:٣٨] ولم يزل هذا دأبه حتى فرغ، فجاءت على شكل لم ير مثله، وقومه يخرجون إليها أفواجًا أفواجًا يتعجبون، ثم أوحى الله إليه عندما بقى من الأربعين السنة سبعة أيام أن ينادى بالسريانية أن يجتمع إليه جميع الحيوان، فلم يبق حيوان إلا حضر، ماخلا الفأر والسنور فإنهما لم يخلقا بعد، وإنما خلقا فى السفينة كما يذكر على الأثر، فحمل فيها من كل زوجين اثنين، فلما شكا إليه أهل السفينة سرقين الدواب بعد أن ركبوا فيها، مسح جبين الخنزير فعطس فسقط من أنفه زوج فأر، فأتى على السرقين، ثم شكوا إليه أذى الفأر، فمسح بين عينى الأسد، فعطس فسقط من أنفه زوج سِنَّور، فاختفى الفأر.

وفى تفسير الهروى: أنه لم يحمل الحية والعقرب حتى ضمنا أنهما لن يضرًا أحدًا ذكر نوحًا - عليه السلام - فمن قرأ: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٧٩] عند خوف ضررهما، لن يضراه.

ولم يحمل نوح - عليه السلام - إلا ما يتوالد ويبيض، أما ما يتولد من الطين من الحشرات؛ كالبق والبعوض، وما يتولد من العفونات، كالدود والذباب، فلم يحمل منها شيئًا.

وأمر الله الرياح الأربع أن تحشر إلى نوح جميع ما يحمل فى السفينة، فأقبلت المخلوقات أفواجًا أفواجًا حتى وقفت على أمام الفلك، فقال قومه: هذه زيادة فى السحر، وجعل يضرب بيده على الزوجين فتقع يمناه على الذكر ويسراه على الأنثى،

---

(١) ينظر: حياة الحيوان (٢/ ٣٦٠).

حتى أكمل العدد، وانصرف الباقون فى الليل.

هذا فى أول يوم من السبعة الأيام الباقية من الأربعين سنة الموعود بالعذاب بعد مضيها.

وفى اليوم الثانى: حشرت إليه الوحوش، فأخذ من كل زوجين اثنين؛ كالحيوانات فى اليوم الأول، وقومه ينظرون ويتعجبون من تزاحم الوحوش عليه إلى آخر النهار.

وفى اليوم الثالث: أتت البهائم.

وفى اليوم الرابع: أمر بحمل النبات الذى يقتات به بنو آدم، ومن جميع الشجر والحبوب وقوت جميع ما في السفينة، وأمره الله أن يضع تابوتًا من شجر الشمشار؛ فيحمل فيه جسد آدم - عليه السلام - ويجعله حاجزًا فى الفلك بين الرجال والنساء فى الطبقة الأولى، وجعل السباع والدواب فى الطبقة السفلى، وألقى الله الحمى على الأسد، فاشتغل بنفسه عن الدواب، وجعل الطير والوحوش فى الثانية، وأطبق عليها، وجعل العليا لبنى آدم.

وقال فى مروج الذهب : أول ماحمل نوح - عليه السلام - من الطير الدرة، وآخر ماحمل الحمار، فتلكأ ودخل صدره، وتعلق إبليس بذنبه، فجعل نوح - عليه السلام - يقول: ويحك ادخل، فينكص، حتى قال: ادخل ولو كان الشيطان معك تحمله، زلت على لسانه، فلما قال ذلك، خلى الشيطان سبيله، فدخل ودخل معه، فقال نوح: ما أدخلك يا عدوّ الله ؟ فقال: ألم تقل: ادخلْ ولو كان الشيطان معك ؟ فقال: اخرج يا عدو الله عنى، فقال: لابدَّ لك أن تحملنى، فكان على ما يزعمون على ظهر السفينة، ونهى نوح - عليه السلام - أن يقع ذكر على أنثاه، فغشى الكلب الكلبة، فوشى بهما الهر فأنكر، فدعا نوح ربه: إن كان الهر صادقًا أن يمسك ذكر الكلب فى الكلبة ففعل، فأمسكته الكلبة، فشكا الكلب إلى نوح فضيحةَ الهرِّ إياه، فدعا نوح على الهر فافتضح بالصراخ.

قال فى حقيبة الأسرار: ولما كان اليوم السابع آخر الميعاد، أوحى الله إليه أن يركب السفينة، إذا فار التنور بالماء - وهو التنور الذى فى بيت ابنك سام - فجاء نوح إلى بيت ابنه، فقال لزوجة ابنه، واسمها رحمة، وكانت أحب نساء بنيه وهى تخبز خبزًا يرون أن يحملوه فى السفينة: يا رحمة، إن آية الطوفان من هذا التنور،

فإذا رأيت الماء فار منه فأسرعى إلى الفلك. وكان التنور من حجر أسود، ورثه نوح من أبيه وورثه أبوه من جده من لدن آدم - عليه السلام - وكانت حواء تخبز فيه، وكانوا يتوارثونه تبركًا به، وكان من عمل آدم - عليه السلام - وقيل: كان فى دار نوح - عليه السلام - يعنى: ورده من أرض الشام.

ولما أصبح فى اليوم السابع، ولم يبق له شيء يحتاج إليه، وإن رحمة فرغت من خبزها، وهى تخرج آخر رغيف، والنار يضرم جمرها؛ إذ بدرها الماء من تحت الحجر، وبقدرة الله تعالى فار، ولم يُدخل نوح السفينة كل ما أراد، فأخبرته ابنته أن التنور فار، فقام - عليه السلام - إلى الماء فختمه فوقف حتى أدخل السفينة ما أراد، ثم فضَّ الختم، وكشف الطبق، ففار الماء وفاض، فقال نوح - عليه السلام -: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، هلك والله قومى، فأوحى الله إليه: لا تحزن على هلاكهم، فاركب الفلك ومن معك من المؤمنين، وما آمن معه إلا قليل، ثمانون نفسًا، منهم أولاده الثلاثة سام وحام ويافث، والأصح أن أولاده زيادة على الثمانين لما سيأتى.

فأسرع نوح إلى منزل رحمة، فإذا الماء قد ملأ المنزل ويخرج من أبوابه كالنهر، وله غليان ونشيش، ما يمر بشيء إلا أغرقه وأحرقه، فأسرع إلى الفلك ونادى بالمؤمنين: النجاة النجاة، وقومه يتعجبون من استعجاله في الركوب، وإذا الصراخ فى بيوتهم وأسواقهم، واضطربت الناس وارتفعتِ الزمات(١)، والماء يتزايد ويغلى، ونوح على باب الفلك قد شمر عن ساعديه، وأخذ المجذاف(٢) ليدفع به السفينة فى الماء، والمؤمنون يبكون من هول ما عاينوا.

وكان دخول السفينة لعشر مَضَيْنَ من رجب؛ فدخل الفلك وغطاه عليه وعلى من معه، وفتح الله أبواب السماء بالمطر من غير سحاب، فنزل بغير كيل، وطغى على الخزان وأخرجت الأرض ماءها، وانفجرت الجبال كل نقطة من السماء عين فى الأرض، فكان ينبع من تحت أقدامهم وحوانيتهم وبيوتهم، ولا يقع على بيت إلا

---

(١) كذا بالأصل. ولعلها: الزمزمات، جمع الزمزمة، وهي الصوت البعيد له دَوِيٌّ وتَتَابُعُ الصوت. ينظر: ترتيب القاموس (زمم).

(٢) مجذاف السفينة: مجدافها، وهو خشبة في رأسها لوح عريض تدفع به السفينة. الوسيط (جذف، جدف).

هدمه ولا على شيء إلا أحرقه، ولولا أن الله أمره ألاَّ يضر السفينة لأحرقها بحرارته وملوحته. ووقع الصراخ وغدوا إلى نوح، فإذا هو ومن معه فى السفينة والمطر يفتح خنادق، ولا يصيب السفينة، ونوح وأولاده يبكون على قومهم وخوفًا من العذاب، والملائكة تقول لهم: لا تبكوا، بعدًا للقوم الظالمين.

وركب ملكهم واسمه الدرمسيل كما تقدَّم فى عبيده وحشمه نحو السفينة، فأحرق الماء أرجلهم، وقد انقلبت الأرض بالصراخ، ورأى الماء لا يصيب السفينة، فصحَّ عنده أنه أمرُ الله تعالى، وتفرق من كان حوله من الناس وهم ينادونه: أيها الملك، قتل الماء أكثرنا، فنادى: يا نوح، ماهذا ؟ فقال: يا عدو الله - ولم يكن قال له ذلك أبدًا؛ لأنه كان يرفق به ويداريه -: هذا الذى كنت أنذرتكم به، فبينما هو يكلمه إذ نبع الماء من تحت حوافر فرسه، فولى هاربًا ولم يؤمنْ فغرق فى موضعه، وأمهل الله عليهم بقية يومهم، وطفتِ السفينة على وجه الماء فأطبقها وهم ينظرون إليه، فتسنَّموا الجبال والروابى، ولم يكن فيهم صبى إلا واحد كانت أمه تحبه حبًّا شديدًا فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فبلغها الماء، فصعدت إلى ثلثيه، فبلغها الماء، فاستوتْ على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيدها حتى ذهب بهم الماء، فلو رحم الله منهم أحدًا لرحم تلك المرأة، ودعا نوح ابنه كنعان، وقيل: اسمه يام، فأبى وقال: سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء، يعنى به: النجف، جبلاً لم يكن على وجه الأرض أعظم منه ارتفاعًا، فأوحى الله إليه: أيعتصم بك منى ؟ فَتَقَطَّعَ الجبل وصار رملاً دقيقًا، وانخفض مكانه؛ فصار بعد أن نضب الماء بحرًا، فسمى ذلك البحر: نى، ثم جف بعد ذلك، فقيل: نى جف، فخففه الناس نجف. كذا أورده فى العلل صاحب مروج الذهب العلامة المسعودى.

ولما ركب نوح السفينة ومن معه من الكوفة، قال: ﴿ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ ﴾ [هود: ٤١] فقيل: إن الماء ارتفع على أعلى جبل فى الأرض أربعين ذراعًا، ووكل الله بالسفينة سبعين ملكًا يحفظونها، ودوى الماء كالرعد القاصف، والسفينة تشقه شقًّا عنيفًا، ونوح ينادى العفو العفو يا الله، وأظلَمَ الجَوُّ، وأتاه جبريلُ بلؤلؤة تطلع من مشرق السفينة؛ فيعلمون بها الشرق والغرب، والقبلة والشمال، وتمشى فى سقف السفينة طول النهار لمعرفة الساعات، فإذا وصلت إلى

المغرب، طفىء نورها وتصير ليلاً على هيئة القمر فى زيادته ونقصانه أول الشهر هلال، وتزداد حتى تصير بدرًا، ثم تنقص كذلك حتى تصيرَ هلالاً. ولم تزل السفينة تطوف الأرض إلى موضع الكعبة، فطافت أسبوعًا، ثم عادت إلى جدة وطلبت الحبشة، ثم عادت إلى الروم إلى جبال الأرض المقدسة جارية لا تفتر شرق الأرض وغربها إلى مدة ستة أشهر.

روى أن نوحًا - عليه السلام - نام فى السفينة، فهبتْ ريح، فانكشفت عورته، فضحك حام ويافث، فزجرهما سام وستره، فانتبه وسأل سام، فأخبره، فقال: اللهمَ غَيِّرْ ما في صلب حام حتى لا يولد له إلا السودان، وغير ما في صلب يافث، واجعلْ ذريتهما خَوَلاً لذرية سام، فجميع السودان والحبش والهند والسند من حام، وجميع الترك والصين والصقالبة ويأجوج ومأجوج من يافث ابن نوح، وجميع العرب والعجم والروم وفارس من سام بن نوح - عليه السلام(١).

ثم إن الماء بعد ستة أشهر جعل ينقص، فأول ما ظهر جبل أبى قبيس بمكة، فأوحى الله إلى الجبال: إنى مُرْسٍ على أحدكم السفينة، فتطاولت وشمخت، إلا الجودى - جبل بالموصل كان من أكبر الجبال وأعلاها - فتواضع لله، وقال: أنا أقلُّ من أن ترسو السفينة على، فأمر الله الملائكة بوضعها عليه عاشر المحرم، ويقال: إن الجودى من جبال الجنة، ثم إن الأرض بلعَت ماءها، وأراد ماء السماء النزول معه فأبت الأرض فصار بحارًا وأنهارًا وهو المروى عن أهل البيت.

وفى كتاب الوصية: صار بحرًا حول الدنيا، فماء البحر الموجود الآن من بقية ذلك الماء، وهو ماء سخط، ألم تره يُغْرِقُ فيُهلك إلى الآن، والعياذ بالله تعالى.

فأرست على الجودى شهرًا، إلا أنهم لم يعرفوا على أى شىء أرست، وانجاب السحاب وطلعت الشمس، وفتح نوح باب السفينة فدخل الضوء وبان فى السماء قوس قُزَحَ؛ فكان ذلك آية بينه وبين الله تعالى أنه أمان من الغرق.

قيل: كان عليه وتر وسهم، فنزع الوتر والسهم علامة للأمان، فكبر نوح ومن

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري (١/ ٢٠٢-٢٠٣). وفيه: «أن حام رأى عورة أبيه فلم يغطها ورآها سام ويافث فألقيا عليها ثوبًا فواريا عورته» فقال نوح: «ملعون كنعان بن حام عبيدًا يكونون لإخوته». وقال: «يبارك الله ربي في سام، ويكون حام عبد أخويه، ويقرض الله يافث ويحل في مساكن حام ويكون كنعان عبدًا لهم».

معه، وانتفضت الطيور، وتحركت الوحوش، فأرسل نوح - عليه السلام - الغراب لينظر هل بقى من الماء على وجه الأرض شىء، واستنظره سبعة أيام؛ فلم يعد، واشتغل بأكل جيفة دابة غرقَتْ بالطوفان ونسى ما توجه إليه، فلعنه نوح - عليه السلام - وقال: اللهم، قتر رزقه وبغِّضه إلى بنى آدم، وقيده فى مشيه، وحشى لا يستأنس، مبغوض فى بنى آدم.

ثم بعث الحمامة وانتظرها، فلم تجد فى الأرض قرارًا، فوقفت على شجرة الزيتون بأرض سبأ، وحملت ورقة زيتون بمنقارها، ورجعت إليه. ثم بعثها بعد أيام، فأتتْ وادى الحرم، فأول ما نضب الماء عن موضع الكعبة، فخضبت رجليها وتطوقَتْ بطينتها وكانت حمراء، فرجعت فى أسرع وقت، فقالت: يانبى الله، قد نضب الماء عن الأرض. وقيل: إنها انطلقت إلى المشرق والمغرب، وعادَتْ مسرعة، وقالت: يانبى الله، هلكت الأرض. ومن عليها. وأما الماء فلم أر إلا ببلاد الهند، ولم يبق على وجه الأرض إلا الزيتون، فإنه أخضر لم يتغير، فبارك فى شجر الزيتون، ودعا للحمامة: اللهم، اجعلها أبرك الطيور، وأزكاها، وآنسها ببنى آدم، وأكثرها فراخًا، وجملها بطوق عوضًا عن هذا الطين الأحمر، واخضب رجليها. فاستجاب الله دعاءه، وفيها يقول الشاعر من قصيدة: [من الوافر]

فَأَرْسَلَهَا نَبِىُّ اللهِ نُوحٌ ... لِتَنْظُرَ هَلْ عَفَا رَبُّ السَّمَاءِ؟!
فَآبَتْ وَهْىَ قَدْ صُبِغَتْ بِمَاءٍ ... وَفِى أَعْنَاقِهَا طِينُ البَرَاءِ
وَفِى مِنْقَارِهَا وَرَقٌ قَلِيلٌ ... أَقَامَتْهُ عَلَى صِدْقِ الوَفَاءِ
فَأَكْرَمَهَا رَسُولُ اللهِ نُوحٌ ... وَأَكْثَرَ فِى المَقَالَةِ بِالدُّعَاءِ
وَطَوَّقَهَا وَسَرْوَلَهَا إِلَهٌ ... تَعَالَى رَبُّنَا ذُو الْكِبْرِيَاءِ
فَكُنْ للهِ خَالِقِنَا مُطِيعًا ... فَجَنَّةُ رَبِّنَا لِلأَتْقِيَاءِ

ذكرت بقوله« وطوقها وسرولها » قول الشاعر فيها:[من الخفيف]

زَعَمُوا أَنَّ لِلْحَمَامَةِ حُزنا ... فَأَرَاهَا فِى الْحُزنِ لَيسَتْ هُنَالِكْ
خَضَبَتْ كَفَّهَا وَطَوَّقَتِ الْجِيدَ وَغَنَّتْ وَمَا الْحَزِينُ كَذَلِكْ

وأقام نوح - عليه السلام - ينتظر الأمر من ربه ثلاثين يومًا، وقد اخضرَّ الجبل ونبت العشب، فأوحى الله إليه: ﴿ اَهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا . . .﴾ الآية [هود:٤٨] فنزل

من السفينة بمن معه، فرأى العظام قد تفرقت من الماء الحار؛ فهاله ذلك واشتد حزنه، فأوحى الله إليه: هذا أثر دعوتك، أما إنى آليت على نفسى ألاَّ أعذب خلقى بمثل هذا أبدًا. وأمره بأكل العنب الأبيض، فأكله فأذهب الله عنه الحزن، وكان ذلك لخاصية فيه. ونزل نوح فى الأرض ومعه ثمانون نفسًا من ذكر وأنثى غير أولاده الثلاثة سام وحام ويافث، فسمى ذلك المحل: « قرية الثمانين »، وهى قرية من نواحى جزيرة ابن عمر عند الجودى، فهى أول قرية بنيت بعد الطوفان، سميت بعدد الذين خرجوا من السفينة، وإليها ينسب الإمام أبو القاسم عمر بن ثابت الثمانينى النحوى.

قال فى معالم التنزيل: وعقد نوح فى وسط الجامع قبة، فأدخل إليها أهله وولده والمؤمنين، إلى أن مَصَّرَ الأمصار، وأسكن أولاده البلدان، فسميت الكوفة قبة الإسلام بسبب تلك القبة.

ثم إن نوحًا استخلف ابنه يافث، وأخذ سامًا وحَجًّا، وأخذ معه الركن والمقام وأودعاه جبل أبى قبيس. ولما رجع، قسم الأرض بين بنيه الثلاثة: فأعطى حامًا المغرب والسواحل، وأعطى يافث المشرق إلى مطلع الشمس، وأعطى سامًا الشام واليمن.

ولما صار لسام أربعمائة سنة، انتقل النور المحمدى إلى زوجته، فلما كملت أشهرها رزقت أرفخشد، فأحسن تربيته، وأوحى الله إلى نوح: إن نبوتك قد انقضت فاجعل الاسم الأعظم ومواريث الأنبياء عند سام؛ فإنى لا أترك الأرض بغير عالم يكون حجة لى على خلقى، وبشر المؤمنين بأن الله سيفرج عنهم بنبى اسمه هود يهلك من كفر به بالريح، فمن أدركه فليؤمن به، فدعا سامًا وسلم إليه مواريث الأنبياء، وأمره ونهاه.

وروى عن سعد بن عبد الله، عن ابن إبراهيم بن هاشم، عن على بن الحكم، عن بعض أصحاب أهل البيت، عن أبى عبد الله قال: عاش نوح ألفى سنة وخمسمائة عام، ثم جاءه ملك الموت وهو فى الشمس، فقال: السلام عليك، فرد نوح – عليه السلام – وقال: ما جاء بك ؟ قال: جئت لأقبض روحك، قال: فدعنى أدخل من الشمس إلى الظل، فقال له: نعم، فتحول، فقبض روحه، فجهزه ابنه كما أوصاه، وصلى عليه هو وإخوته، ودفنوه فى الموضع الذى مات فيه، قال بعض المؤرخين:

دفن بحضرموت، وقيل: بمكة(١).

وروى: أن قبره بظهر الكوفة.

قال فى الأنس الجليل تاريخ القدس والخليل: إن قبره بكرك(٢) نوح.

وبين نوح وآدم - عليهما الصلاة والسلام - عشرة آباء، ومن السنين ألفا سنة ومائتان واثنان وأربعون، وكان أقل أعمار قوم نوح ثلاثمائة سنة.

قال المسعودى فى المروج(٣): إن عقب من كان مع نوح فى السفينة دثر بالوباء، فنسل الخليقة منه وحده، يعنى: من أبنائه الثلاثة: سام وحام ويافث؛ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧] فهو أبو الأنبياء، وكانت رسالته عامة.

ولما قبض، قام بعده ابنه سام بأمر الله تعالى، وآمن به شيعة نوح - عليه السلام - ولما انقضت أيامه، أوحى الله إليه أن يستودع الاسم الأعظم وميراث الأنبياء ابنه أرفخشد، فدعاه وأوصى إليه بما أوصاه به نوح - عليه السلام - ومات وعمره ستمائة سنة، وله من الأولاد إرم وأرفخشد وفلوج وياشور والأسود وغيرهم.

ومن ذرية سام النبى: صالح - عليه السلام - وهو صالح بن عبيد بن عابر بن إرم ابن سام، ومن ذريته أصبهان بن فلوج بن سام، ومن ذريته فارس ونبط ابنا ياشور بن سام، ومنهم عاص وعبيد ابنا عوص بن إرم بن سام، ومنهم بَوَّان بن إيران بن الأسود بن سام، وهو صاحب الشُّعْبِ شِعْبِ بَوَّان، وهو عدة قرى ومياه متصلة وعليها الأشجار حتى غطت تلك القرى؛ فلا يراها الإنسان حتى يدخلها؛ قال أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى فيه: [من الوافر]

مَغَانِي الشِّعْبِ طِيبًا فِي المَغَانِي ... بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

وقال آخر: [من الرجز]

شِعْبُ بَوَّانَ قَرَارُ الذَّاهِبِ ... فَثَمَّ تُكْفَى رَاحَةُ النَّوَائِبِ

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٣٧) « وأما قبره -عليه السلام- فروى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلاً؛ أن قبر نوح -عليه السلام- بالمسجد الحرام. وهذا أقوى وأثبت من الذي يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بـ « كرك نوح » وهناك جامع قد بني بسبب ذلك فيما ذكر، والله أعلم. اهـ

(٢) ينظر: التعليق السابق.

(٣) ينظر: مروج الذهب (١/ ٤١) ولفظه: « ودثر عقب هؤلاء الثمانين نفسًا (يقصد من كانوا مع نوح في السفينة) وجعل الله نسل الخليقة من نوح من الثلاثة من ولده ».

وقال آخر: [من الطويل]

إِذَا أَشْرَفَ المَكْرُوبُ مِن رَأْسِ تَلْعَةٍ عَلَى شِعْبِ بَوَّانَ اسْتَرَاحَ مِنَ الْكَرْبِ

وهو أحد جنان الدنيا الأربعة: غوطة دمشق، ونهر الأُبُلَّة، وصُغْد سَمَرْقَند، وشِعْب بَوَّان. ومنهم كِرْمَان - بالفتح والكسر - بن فلوج بن سام، ومنهم لقمان الحكيم بن عاد الأخرى ابن شَدَّاد بانى إرم ذات العماد أخى شديد بن عاد الأولى بن عوص بن إرم بن سام.

وأما يافث بن نوح، فله من الأولاد بوبان ويأجوج ومأجوج وناويل والخزر والفرنج والصقالبة وقبرس وقسطنطين وكرم وكرد وتاريس وكادى إلى اثنين وعشرين قبيلة، خرج من هذه القبائل ثمانمائة قبيلة، خرج منها أمم لا تعد ولا تحصى.

استخلفه أبوه نوح على المؤمنين، لما أخذ بيد ابنه سام، وتوجه إلى الكعبة، وختم السفينة وأوصاه بها، وقال له، يا بني، استوص بأخيك حام، ووله بعض أمورك وأحسن إليه، فقال سام: يا أَبَتِ، لا أقطع أمرًا دونه، فشكره نوح - عليه السلام - على ذلك، وجعل له المشرق، ودعا له بأن يكون الملك فى ولده.

وحضرت يافث الوفاة فأوصَى إلى أخيه سام ببنيه، فمات ودفنه سام وحام وحزنا عليه، وكان عمره خمسمائة وخمسين سنة.

وأما حام، فقال وهب بن منبه: كان رجلًا أبيض حسن الصورة والوجه، فغير الله لونه وألوان ذريته بدعوة أبيه نوح - عليه السلام - عليه فمنه جميع السودان من النوبة والبربر والزنج والحبشة والقبط، ومن ذريته مصر بن بيصر بن حام، وهو الذى سميت البلاد المعروفة مصر باسمه، ومن ذريته - أيضًا - الهند والسند ابنا حام.

وكيفية دعاء نوح - عليه السلام - عليه أن قال: ملعون حام، عبيد لإخوته، ثم قال: مبارك سام، ويكثر الله يافثًا فى مسكن سام.

وفى كتاب المبتدا: قال عبد الله بن سلام: إن حامًا لم يطأ زوجته؛ لأن أباه قال فى دعائه: اللهم، غير ما فى صلب حام حتى لا يولد له إلا السودان مدة حياة نوح خوفًا من دعوته حتى مات، فطال ذلك عليه، ثم إنه جامع زوجته، فلما حملت، ولدت له غلامًا أسود ومعه جارية سوداء، فسمى الغلام كوشا، فلما رأى سوادهما، فزع وجاء إخوته، وقال: إنى رأيت خلقًا لم أر مثله، فسألت زوجتى لا يكون قربها

شيطان ؟ فقالت: ما قربنى أحد غيرك، فقالا له: هذه دعوة أبيك نوح، فاغتمَّ لذلك، ثم أمسك عن وطئها دهرًا طويلاً، ثم واقعها فحملت وولدت ولدين أسودين، فهم حام أن يَجُبَّ نفسه، فمنعاه، ثم طال عليه الأمر، ثم واقعها فولدت غلامًا وجارية أسودين، فسمى الغلام كنعان، ثم مات حام وأوصى إلى سام، فدفنه إلى جانب أخيه يافث، وكان عمره حينئذٍ خمسمائة وسبعين سنة، ومن ذرية حام جميع السودان والحبش كما تقدَّم، والهند والسند، وهما ابنا يرقن بن يقضن بن حام.

قال العلامة المسعودى فى المروج: يقال: إن هذا الاسم - يعنى الهند - مأخوذ من التهنيد، وهو لغةً: سَلْبُ العقل من المحبة والعشق والهوى، قد هندته النساء؛ فهو مهندٌ، أى: سلبته عقله؛ ولذلك كثر فى النساء اسم هند. ثم استطرد فقال: ويقال: إن أهل بلد الهند أكثر البلدان جهلاً بالدين، وأصحها عقلاً فى أمور الدنيا؛ مثل الحساب والصنائع، وهم ابتدعوا الجبر والمقابلة، ونصبوا الأحرف التسعة، ومنهم صصه واضع الشطرنج، وقصة تمنيه على الملك فى مقابلة وضعه له بالتضعيف أعجب من وضعه.

قلت: فى ذُكرى ورود حديث فيها هو: الهند بلاد الغفلة عن ذكر الله[١]، أو كما قال ﷺ.

قال المسعودى: ويحكى أن الزِّنَى والفساد ببلد الهند أكثر منه من كل بلد من بلدان الدنيا؛ لقول الفلاسفة: إن شهوة النكاح إنما تكون أكثرها فيما يقطعه الخاتن والخافضة من ذكر الغلام وفرج الجارية، فلما كانت الهند لا تستعمله لا فى الذكر ولا فى الأنثى، كثر عندهم الزِّنَى؛ لكثرة الشبق فى الرجال والنساء؛ للعلَّة المذكورة، وكذلك كل بلد حاله فى ترك الختان حال الهند.

وليس فى الهند شيء من النخل ولا من الكرم، ولا يعرفونهما إلا بالوصف أو يجلب إليها.

ومن جهل أهل الهند: أن أحدهم يبيع رأس نفسه فيقطعه بيده على أن يعود حَيًّا بعد ثلاثة أيام، ومن ذلك: أن أحدهم يطرح نفسه فى النار بحضرة أبيه وأخيه وابنه وأقاربه؛ فلا يمنعه منهم أحد ويغبطونه على ذلك ويحمدونه، وعجائب من مثل هذه

(١) مثل هذا الحديث لا يصح. ولم أجده في كتب الحديث المعتبرة.

الأفعال تأباها البهائم، وتفر إلى الحياة خوفًا من الموت؛ ذكر هذا أبو الفتح أحمد بن المطرف فى كتاب الترتيب.

قلت: ورأيت فى مروج الذهب[(١)] ما نصه: الهند تعذب أنفسها بالنار، وقد تيقنت أن ما ينالها من النعيم فى المستقبل مؤجلًا هو ما أسلفته وعذبتْ به أنفسها فى هذه الدار معجلًا. ومنهم من يسير إلى الملك فيستأذنه فى إحراقه نفسه، ثم يدار به فى الأسواق، وقد أججت له نار عظيمة، وقد وكل بها ناس لإيقادها، فيسير فى الأسواق والشوارع قُدَّامه الطبول والصنوج، وعلى بدنه أنواع من الحرير قد مزقها على جسده، وحوله إخوته وقرابته وأهله، وعلى رأسه إكليل من الريحان، وقد قشر جلدة رأسه العليا، وقد وضع مكانها الجمر، وقد عمل عليه الكبريت والسندروس، فيسير وهامته تحترق وروائح دماغه تفوح، وهو يتبختر ويمضغ التنبل[(٢)] وحب الفُوفل إلى أن ينتهى على تلك الحالة إلى النار، وقد صارت كالتل العظيم.

قال: ولقد حضرت ببلاد من الهند يقال لها: صيمور، فرأيت فتى من فتيانهم وقد طيف به على ما ذكرنا، فلما دنا من النار، أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده، فجذب منها قطعة وهو يتكلم، قم قطعها بالخنجر، ودفعها إلى بعض إخوانه تهاونًا بالموت - ولذة بالنقلة، ثم أهوى بنفسه فى النار، فسبحان مقسم العقول، لا إله غيره.

أقول: ذكرت بقول المسعودى الهند تعذب أنفسها . . . إلى آخر ما ذكره قولَ القاضى ناصح الدين أبى بكر أحمد بن الأرجانى قاضى تستر الشاعر المشهور فى وصف الشمعة حيث يقول: [من البسيط]

صفْرَاءُ هِنْدِيَّةٌ فِى اللوْنِ إنْ نُعِتَتْ ... وَالْقدِّ وَالدِّينِ إنْ أَتْمَمْتَ تَشْبِيهَا
فَالْهِنْدُ تَقْتُلُ بِالنِّيرَانِ أَنْفُسَهَا ... وَعِنْدَهَا أَنَّهَا إذْ ذَاكَ تُحْيِيهَا

وهذان البيتان له من قصيدة يمدح بها قاضى القضاة بفارس طاهر بن محمد، صَدَّرها بوصف الشمعة بما لم يسبق إلى مثله فى سالف الأعصار، ولم يشقَّ له إلى غابر الزمن غبار، وهى طويلة مشهورة.

---

(١) ينظر: مروج الذهب (١/٢٠٩-٢١١).
(٢) التنبل: نبات من الفصيلة الفلفلية يمضغون ورقه وهو اليقطين الهندي. ينظر الوسيط (١/ ٨٩).

قال[١]: ومن قلة عقولهم وسفاهة أحلامهم المغالاة فى اللعب بالشطرنج بما فيه ذهاب المال؛ بل النفس، والأغلب على استعمالهم اتخاذه من العاج يجعلون كل قطعة كالشبر فى عرض ذلك، وإذا لعبوا بها، قام الواحد على قومه، والأغلب عليهم فى اللعب القمار على الثياب والمال والجواهر، وربما نفد ما عند أحدهم؛ فيلعب على قطع عضو من أعضائه، ويجعل إلى جانبه قدرًا صغيرًا من النحاس على نار فحم فيها دهن [لحم] [٢] أحمر؛ فيغلى ذلك الدهن وهو دهن مدمل للجرح ماسك للدم، فإذا قمر وقطعت أعضاؤه واحدًا بعد واحد، غمس يده فى ذلك الدهن فاندمل، ثم عاد إلى اللعب، وربما توجه عليه اللعب فى قطع جميع أصابعه وكفه وذراعه وزَنْده، وكل ذلك يستعمل له الكى بذلك الدهن، وهو دهن أحمر عجيب يعمل من أخلاط وعقاقير بأرض الهند، قال: وما ذكرناه عنهم مستفيض عن فعلهم.

ثم قال: والهند تتخذ الفيلة وتتناتج فى أرضهم[٣]، ولها بها آفة عظيمة من حيوان يعرف بالزبرق، وهو دابة أصغر من الفهد، أحمر [ذو زغب][٤]، له عينان براقتان، عجيب سريع الوثبة، يبلغ فى وثبته الثلاثين والأربعين والخمسين ذراعًا وأكثر، فإذا أشرف على الفيلة، رش عليها بوله بذنبه فيحرقها، وربما لحق الإنسان فقتله، وربما تعلق الخائف من الناس منها بأكبر ما يكون من شجر الساج[٥]، فإذا عجز عنه، لطىء بالأرض ووثب، فإن لم يلحق فى وثبته، رش بوله إلى أعلى الشجرة، فإذا لم يصبه وضع رأسه فى الأرض وصاح صياحًا عجيبًا غيظًا، فيخرج من فيه قطع دم ويموت من ساعته. وأى موضع من الشجرة أصابه شىء من بوله أحرقه، ومرارة هذا الحيوان ومذاكيره سُمّ ساعة، تدخره الملوك وتسقى به السلاح؛ فيقتل من أدنى جراحه من ساعته. ومذاكيره كمذاكير كلابِ الماء التى يخرج منها الجندبادستر.

وكلب الماء هذا - أيضًا - مشهور عند الصيادلة [٦] ببلاد الهند، وهو فارسى

---

(١) ينظر: مروج الذهب (٢/ ٧،٨).
(٢) زيادة من مروج الذهب.
(٣) ينظر: مروج الذهب (٢/ ٨).
(٤) زيادة من مروج الذهب.
(٥) قال المسعودي بعد ذلك معرفًا بشجر الساج: هي أكبر من النخل وأكبر من شجر الجوز.
(٦) في ط: الصياقلة والمثبت من المروج، ولعله الصواب.

معرب، وإنما هو كند، وتفسيره الخصية.

والدابة المتقدم ذكرها - وهى الزبرق - لا تأوى إلى موضع يكون فيه النوشان، وهو الكَرْكَدَنّ، وتهرب منه كما يهرب منها الفيل، سبحان الله، أبدان مسلطة على أبدان، والفيلة تهرب من السِّنَّور ولا تقف لها ألبتة ولو ضربت(١).

وقد أخذت ملوكٌ ملوكًا بتخلية السنانير بين أيدى الفيلة ففروا وكسروا.

والفيلة لا تنتج ولا تتوالد إلا بأرض الزنج والهند، وتتخذ الزنج الدرق من جلده وأذنه، وخرطومه: [أنفه]،(٢) ويوصل به الطعام والشراب إلى جوفه، وهو شىء بين الغضروف واللحم والعصب، وبه يقاتل، ومنه يصيح.

وكل حيوان ذي لسان فأصل لسانه إلى داخل وطرفه إلى خارج، إلا الفيل فبالعكس. والهند تزعم أنه لولا ذلك لتكلم إذا كلم لحدة فطنته(٣).

وقد قيل: أحذق الحيوانات وأفطنها بعد بنى آدم القرد والفيل وقد أهدى للمتوكل العباسى قرد صائغ وفيل خياط. ذكر هذا العلامة السيوطى.

ويظهر من جباه الفيلة ورءوسها عرق كالمسك والطيب، تراعى ذلك الطيب أهل الهند فى القليل من الزمان الذى يكون فيه؛ فتأخذه وتحمل عليه بعض أدهان طيبة؛ فيكون أغلى طيبها والمستظرف عندها الذى يستعمله الملوك والخواصّ لضروب من المنافع: منها طيب الرائحة التى تفوق سائر الروائح الطيبة، ومنها مايؤثر فى الإنسان عند شمه من ظهور الشبَق فى الرجال والنساء، والطرب والنشاط والأريحية، وكثير من فتاك الهند تستعمله عند اللقاء فى الحروب؛ لأنه يشجع القلب ويقوى النفس ويحث على الإقدام، وأكثر مايظهر هذا العرق من الفيلة عند اغتلامها وهيجانها، وإذا كان ذلك منها تهرب سوّاسها ورعاتها عنها، ولا تفرق بين من تعرف وبين غيره من الناس.

وظهور هذا العرق منها فى وقت من السنة لا دائمًا، وإذا واجه الكركدنّ حال هيجانه لايهرب من الكركدن؛ بل يهرب منه الكركدن حينئذ؛ لأن الفيل عند ذلك سكران لا يعقل ولا يميز، وإذا نَدَّ عنه ذلك الفصل، واسترجع، عاد إلى بلده على

(١) ينظر: مروج الذهب (٢/ ٩).
(٢) المثبت من المروج.
(٣) ينظر: مروج الذهب (٢/ ١٣).

مسيرة شهر أو أكثر، وهو فى سكره فيبقى عليلاً نحو مدة هيجانه، ولايكون هذا العرق إلا فى الفحول من الفيلة وذوى الجرأة والإقدام منها.

ثم قال: وأما السند فإنهم جيل معروفون فى بلادهم، يقال: سندَ فلان إلى الجبل إذا ارتفع، سموا بذلك لارتفاع فى أرضهم، والسند كالرابية من الأرض، والجمع: سنود وأسناد. والإسناد: مصدر أسندت الحديثَ إلى فلان، أى: رفعته إليه، ويقال للناقة الموثقة الخلق: سِنَاد، والسناد: عيب من عيوب القوافى.

فرجع: فقام أرفخشد مقام أبيه سام أحسن قيام، وتزوج، فولد له شالغ - بشين معجمة، وألف، ولام مفتوحة، وغين معجمة، ويقال: بالخاء المعجمة - ومعناه: الوكيل، أمه شبروما بنت سيدوك. فاستودعه أبوه أرفخشد النورَ والحكمةَ ومواريث الأنبياء.

ومات أرفخشد - ومعناه: مصباح مضىء - وله من العمر أربعمائة سنة وخمس وستون سنة، فقام بأمر أبيه والمؤمنون معه قليلون؛ لأن إبليس جعل يغوى بنى آدم لما مات أرفخشد بكل طريق، وإذا نزل واحد من بنى سام إلى بنى يافث وحام، ورأى ماهم فيه من اللذات والشراب والزنا وأنواع الطرب، افتتنَ بذلك، فهجروا بلادهم وتتبعوا القوم، وصار الرجل يجذب من بنى أبيه وهم كل يوم ينقصون، وتم لإبليس مراده ولم يبق من شالغ إلا قليل من بنى أبيه لا طاقة لهم ببنى يافث وحام، واشتد كفرهم أكثر مما كان عليه بنو قابيل اللعين، إلا أنهم لا يتقاتلون ولا يغزو بعضهم بعضًا ولا يتعرَّض كافرهم لمؤمنهم. واختطوا الأرض وملئوها عرضًا وطولاً، وشكت الأرض إلى الله منهم. وتزوج شالغ وولد له عابر، وهو هود - عليه السلام - ومعنى شالغ الرسول، وشالغ وبنو أبيه قد سكنوا الموضع الذى نزل فيه نوح؛ لئلا يضايقوا بنى حام ويافث، وقد رضوا منهم بالمتاركة. وكان بنو يافث قَدَّمُوا عليهم رجلاً منهم وملكوه اسمه خامر بن يافث، وكثر بغيهم، وإبليس نكر بعضهم على بعض، ولم يزالوا على ذلك طول عمر شالغ إلى أن حضرته الوفاة، فأمر أن يستودع الاسم الأعظم والحكم والنور ابنه عابر، وهو هود النبى - عليه السلام - فدعاه وأوصى إليه وأخذ عليه العهد فى النور المحمدى، وقبض شالغ وعمره أربعمائة سنة، فسلك به مسلك آبائه، ودفنه إلى جانب أبيه، فاضطربوا بعد

موت شالغ وتباغضوا.

وفى زمنه ملك عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح الذى تنسب إليه القبيلة، كان رجلاً خيارًا شديد الخلق يعبد القمر. رأى من صلبه أربعة آلاف ولد، منهم شديد وشداد وعلوان، وكانت بلاده متصلة باليمن، وهى بلاد الأحقاف وسنجار والدم والدهناء ويبرين إلى عُمان وحضرموت، وكان يقال لعقبة: عاد؛ كما يقال لبنى تميم: تميم، ثم يقال للأولين منهم: عاد الأولى، وإرم، تسمية لهم باسم جدهم، ولمن بعدهم: عاد الأخيرة؛ قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ [النجم: ٥٠] وكانوا أعطوا من الخلق والقوة مالم يعط أحد من بنى آدم قبلهم ولا بعدهم؛ ولذلك تجبروا فسموا جبارين، واحتقروا من سواهم من الخلق من ولد يافث وحام، وهم الذين ملكوا سائر الأقاليم. وكان على أولاد سام ببابل كيومرث بن أميم بن لاوذ بن سام بن نوح، وهو أول ملك ببابل، وقسم عاد الأرض بين ولديه شديد وشداد، فهلك شديد وكان أظلم وأطغى من أبيه عاد، ومات عاد وله من العمر ألف ومائتا سنة، فرجع الملك إلى شداد بن عاد وقوم هذا هم عاد الثانية، وهم الذين قالوا: ﴿ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥] روى أن الرجل منهم كان يحمل الصخرة على الحى فيهلكهم، وكان طول الرجل منهم مائة وعشرين ذراعًا بذراعهم وعرضه ستون ذراعًا، وكان أحدهم يضرب الجبل الصغير فيقطعه، وكانوا يسلخون العمد من الجبال؛ فيجعلون طول العمد مثل طول الجبل الذى يسلخونه من أسفله إلى أعلاه، ثم ينصبون العمد فيبنون فوقها القصور.

وأراد شداد ملك الأرض كلها فوجه إلى بنى يافث وبنى حام وبقية بنى سام من أهل بيته وقومه ثلاثة نفر مع كل واحد منهم عشرة آلاف من الجبابرة من ولد عاد، ووجه إلى أولاد سام الذين ببابل ابن أخيه الضحاك بن علوان بن عاد، وهو الذى تسميه العجم ايراسف. ولما جاءهم، هرب منه ملكهم جمشيد؛ لعلمه أن لا طاقة له بقتال الجبابرة الذين معه، فطلبه الضحاك حتى ظفر به، فامتلخ أمعاءه ونشره بمنشار وملك أرضه ومملكته، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم: الكنعانيون. ووجه إلى ديار حام ابن عمه الوليد بن عمليق، وبه سمى العمالقة، وهو ابن دومع ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وكان على بنى حام ملكة يقال لها بطريا أخت

حوريا التى بنى لها جبير المؤتفكى العملاقى مدينة الإسكندرية، فوصل الوليد بن عمليق إليها واستولى وغلب على ملكها وقتلها وملك مصر وعمر عمرًا طويلاً، وهو الذى بنى الأهرام على أحد الأقوال.

ولما مات ولى مصر ابنه الريان بن الوليد بن عمليق.

ووجه إلى ولد يافث ابن أخيه غانم بن علوان أخا الضحاك بن علوان، وكان ملك يافث قراسيات بن ترك بن يافث بن نوح، فغلبه غانم واستولى على ملكه وأرضه، ولم يزل شداد ملكًا إلى أن بنى المدينة وأخذته الصيحة عند إرادة دخولها، فتولى بعده رجل يقال له: الخلجان بن عتيد آخر عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وانتقلوا من ديارهم إلى الأحقاف من عُمان إلى حضرموت فزعًا مما أصاب قومهم من الصيحة، وقصة بناء المدينة ووصفها مذكور مشهور لا نطول بذكره.

قال ابن بابويه: وجدت فى كتاب المعمر بن عثمان: أنه ذكر عن هشام بن سعيد الرحال قال: وجدنا بالإسكندرية حجرًا مكتوبًا فيه: أنا شَدَّاد بن عاد، وأنا الذِى شيدت العماد، التى لم يخلق مثلها فى البلاد، وجندت الأجناد، وسددت بساعدى السواد، فبنيتها إذ لا شيب ولا موت، وإذا الحجارة مثل الطين فى اللين، وكنزت كنزًا في البحر لم يخرجه أحد حتى تخرجه أمة محمد ﷺ.

ثم تزوج شالخ مرجانة - وقيل: معلب - بنت عويلم، فولدت له عابر - بعين مهملة وباء موحدة مفتوحة - وكان أشبه ولد آدم بآدم، فلما وضعته سمعت النداء والأصوات من كل مكان: هذا نور محمد ﷺ، يكسر كل صنم، ويقتل كل من طغى وكفر. فخرج عابر أكمل قومه جمالاً، وقد أرسل بنبوة خاصَّة. ومن حديثه أنه لما أهلك الله شدادًا وغيبت عنهم المدينة وطلبوها فلم يجدوها، ولوا عليهم أخا عاد، واسمه الخلجان بن عوص بن إرم بن سام بن نوح؛ كما تقدم، وانتقلوا من تلك الديار فزعًا مما أصاب قومهم إلى الأحقاف والأحقاف رمال ما بين عُمان إلى حضرموت، ومضى لهم سنون لا يدينون بدين ولا يعرفون الله، وملكوا الأرض كلها وقهروا أهلها بقوتهم، وبقى الولاة الثلاثة المتقدم ذكرهم مع من معهم بمصر وغيرها كما هم قد ملكوا البلاد بعد شداد.

وقطن هؤلاء بالأحقاف وكانوا إحدى عشرة قبيلة: العتود، والجلود، وصداء،

ودقل، وزمر، وشود، وزمل، وحمد، والصمود، وجاهد، ومناف. فجاءهم إبليس فى صورة شيخ يرتعد، وزعم أنه من أولاد شيث، وأنه كان على سِيفِ البحر مما يلى جُدَّة قد انفرد لعبادة ربه، وسألهم: ما الذى أوقعكم إلى هذه الأحقاف والرمل، وغيرها أخصب وأحسن ؟ فحدثوه حديث هلاك عاد والمدينة. فضحك وقال: هل سمعتم أحدًا فى الأرض لا رَبَّ له ؟ قالوا: لا، قال: لو كان معه رب يعبده ويسجد له ما أصابه شيء كما كان مع آبائه الأولين. وها هو معى يحفظنى ويرعانى، وأخرج لهم صنمًا لطيفًا من الذهب الأحمر عيناه من الياقوت الأزرق، فوضعه وسجد له، وقد وكل ماردًا كلما سجد قال له المارد: ارفع رأسك، وسلنى ما بدا لك، فلما سمعوا ذلك قالوا: هذا هو الحق، ونحن لا إله لنا، وسنشاور ملكنا الخلجان، فنحَتَ لهم إبليس حجرًا وأمرهم أن يبنوا له بيتًا ويمنعوه فيه، ففعلوا، ووكل به ماردًا، وقال لهم: اجعلوا هذا اليوم عيدًا تذبحون عنده وتتقربون إليه بالقرابين، يخاطبكم بجميع ما تريدون، فسجدوا له، فخاطبهم المارد بقوله: يا أهل عاد، لو كان هذا الفعل منكم قديمًا ما كنت أهلكت ملككم شداد، والآن قد عفوت عنكم، فاستقيموا على عبادتى، أؤمنكم من كل سوء وأخصب بلادكم، وسماه لهم: الهناة؛ فصار صنم الخلجان، وهو أول صنم اتخذته عاد، فاتخذت كل قبيلة منهم صنمًا سموه باسم سيد قبيلتهم.

ولم يزالوا كذلك عاكفين على عبادة الأصنام حتى أذن الله فى هلاكهم.

ثم إن الله جعل يتابع لهود المنامات حتى إذا أعلمه فى نومه أنه مرسله إلى قومه، وقد ألهمه عبادته، وشرح صدره لقبول ذلك، وبلغ أربعين سنة، أرسل الله إليه جبريل فقال له: إن الله أرسلنى إليك بأنك الذى ألهمك بين قومك توحيده، واختارك لرسالته، فاشدد حَيازيمك(١)، وانطلق إلى عاد قومك برسالة ربك، فأنذرهم بآياته وخوِّفهم عقابه، فقال هود: السمع والطاعة لأمر ربى، ثم قام فشد وسطه، وأخذ عصا فى يده، وأتى قومه فى ناديهم وأبلغهم رسالته، وأنذرهم عذابه، وأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأن يرفضوا هذه الأصنام التى اتخذوها آلهة،

---

(١) الحيازيم: جمع حيزوم، وهو الصدر أو الوسط، ويقال: اشدد للأمر حيازيمك أي: وطن نفسك عليه. ينظر الوسيط (حزم).

وقال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الآيات [هود: ٥٠-٥٦] قال بعض الأعلام: فكذبوه وقالوا: ﴿ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣٦] ثم إنهم بطشوا به وخنقوه وتركوه كالميت، فبقى يومه وليلته مغشيًا عليه، فلما أفاق قال: رب، قد علمتَ مافعل بى قومى، ثم أعاد عليهم القول فقالوا: ياهود، اترك عنا ما تقول؛ فإن بطشنا بك الثانية نسيت الأولى، فقال: ارجعوا إلى الله وتوبوا إليه، وأوحى الله إليه: يا هود، قد أبلغت به، فارجع عنهم يومك ذلك؛ فإن لهم وقتًا آخذهم فيه أخذ عزيز مقتدر، ثم لما رأى قومه وعظه وتحذيره، آمن رؤساء قبيلته، فَفَتَّ فى أعضاد سائرها، فجعل الله يهديهم بقوله، حتى حصل معه ثلاث قبائل، فأمره الله بمحاربتهم فحاربهم، فكانتِ الحرب بينهم سجالاً. ولما رأو أن لا طاقة لهم بقتاله ومن معه، أجمعوا أن يستغيثوا بعوج بن عنق على هود ومن معه فيكفيهم أمره، فأجابهم وأتى، فأوحى الله إلى هود إنى مخفيك أنت ومن معك عن أعينهم؛ فلا يرونك، وتقاتلهم كما تحب وهم لايصلون إليك؛ فأعلم هود المؤمنين فزادهم إيمانًا.

وإذ انجرَّ الكلام إلى ذكر عوج بن عنق، فلنذكره وأمه، قال فى القاموس: عوج ابن عُنق، ولد فى منزل آدم - عليه السلام - وعاش إلى زمن موسى، ويحكى عن خلقه شناعة. انتهى.

وأمه عنق بنت آدم لصلبه، وقيل: اسمها عناق بألف قبل القاف، وهى أول بغىّ على وجه الأرض من ولد آدم، وعملت السحر وجاهرَتْ بالمعاصى، وخلق الله لها عشرين إصبعًا فى كل يد، طول كل إصبع ذراعان بذراعها، فى كل إصبع ظفران حديدان؛ كالمنجلين العظيمين وكانت مساحة مجلسها من الأرض جريبًا، فلما بَغَتْ، خلق الله لها أسودًا كالفيلة، وذئابًا كالإبل، ونسورًا كالحمر؛ فسلطهم عليها فقتلوها وأكلوها.

وفى كتاب المبتدا: أن حواء حملت بعنق وحدها فى بطن، ولم تحمل ولدًا واحدًا إلا شيث وهذه المشئومة، فرأتْ فى منامها كأن حية لها رأس عظيم خرجت

منها، وكأنها طارت ساعة، ووقعت على الأرض، فشرَّقَتْ وغربت، وأنها لم تقصدْ لوجه من الوجوه إلا اشتعل نارًا ودخانًا وقصت رؤياها على آدم، فقال: أحسبك اشتملْتِ على ولد نسأل الله السلامة من شره فكادت أن تموت حواء فى وضعها، ونظرت إليها على غير صورة بنيها، وذلك أن الله أشنع صورتها وعظم خلقها.

وأصحُ ما جاء فى صفتها: ما روى عن على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - أنه خطب فذكر الجبارين، وذكر عوجًا ابنها فوصفها وهو على المنبر، فقال: إن أول بغىٍّ على وجه الأرض عنق بنت آدم، خلقها الله خلقًا لم يخلقْ أحدًا من بنى آدم مثلها؛ وذلك أنه كان لها فى كل يد عشرون إصبعًا؛ فى كل إصبع ظفران كالمنجلين، ومجلسها من الأرض قدر جريب، وكان ضوء وجهها كلهب النار. وإن الله لما أخرجها إلى الدنيا ورآها آدم وحواء، ارتاع منها، وقال: بئسما ولدت يا حواء، فقالت: يا صفوة الله، هل لى ولك فى قدرة الله اعتراض ؟! وكان لايكفيها لبن حواء، فتحلب لها الإبل والأغنام ولم تكفها، وتشب فى اليوم كغيرها فى الشهر، وفى الشهر كغيرها فى السنة، فما آن فطامها إلا وقد غلظ أمرها وكثر شرها على بنى أبيها. وسمتها حواء عنق، وهى بالعربية المشئومة. وجعلت تؤذى إخوتها، ومتى ما علقت بأحد خرقت ثيابه وأدمته وكسرت كل ما تقع يدها عليه، وزاد شرها، وكانت إذا نهتها حواء عن شيء، لا تعمل غيره، وإذا همت أن تمنعها، خافتها على نفسها لعظم خلقها؛ لأنه ما فى بنى آدم أعظم من خلقها. وجعل إخوتها يهابونها ولا يأوون موضعًا تكون فيه، وآدم يشنؤها. فلما رأت منهم ذلك، كانت تخرج إلى الصحراء وتطلب البر وتحتال على الوحش والطير فتأكلها. ولما رآها إبليس، استحسَنَ صورتها فتصوَّر لها فى صورة تقاربها وجاءها وهى خالية بنفسها، فحياها فأجابته، وقالت له: من أنت ؟ فإنى لم أرك قبل هذا، فقال: صدقت ياعنق، أنا من ولد قابيل أخيكِ الذى هرب من أبيه، فما يمنعك أن تأتينا فى منازلنا؛ فإنَّ أباكِ وأمكِ يشنئونك ولا خير عندهم. فسارت معه إلى عند قابيل وولده، فلم تمنع من جاءها عن نفسها حتى حملَتْ بعوج، وأراد الله أن يجعله حديثًا فى الأرض فولدته أعظم منها، فقال لها إبليس: ياعنق، هل لك أن أجعلك ملكة الجنِّ مثل ما كان أبوكِ ملك الإنس ؟ فقالت: وكيف ذاك ؟ فقال: إن الله أعلم أباكِ الاسم الذى

كان إذا دعى به أجاب، فكتبه لأمك حواء، وهو فى عضدها فى كتاب من الفضة علقته عليها حرزًا منى ومن ولدى، فلا سبيل لنا عليها، فإن قدرت أن تأخذيه وتهربى به إلى عند قابيل، ثم إنك تَدْعين به فيما أردت فإنه يكون، وتملكين الجنَّ، وأول من يطيعك أنا وجندى، وكان الكتاب فى يد حواء لايفارقها، فعادت عنق ورصدتها حتى حاضَتْ وأزالته من يدها فسرقته وخرجَتْ به إلى البر، فقال لها إبليس: قد ملكتِ ما تحبين فاذعى بما شئت، فقالت: اللهم، إنى أسألك بحق هذا الاسم ألاَّ تجعل لأبى وأمى علىَّ سبيلاً، وسخِّرْ لى إبليس وجنوده فيما أحب وأريد، فقال لها إبليس: مرينا بأمرك، فأمرته أن يحملها إلى بنى قابيل، فلما رأوها عجبوا من خلقها وأعلموا قابيل عن حالها فأعلمته وأعلمه إبليس بالاسم الأعظم، فقال له قابيل: هل لكِ من حيلة نأخذه منها، فنحن أحقُّ به، فقال له إبليس: رفقًا لئلا تشعر بذلك فتهلكنا، وكانت أى شىء أرادته يحضره لها إبليس، فأول ماعمل لها الخمر فشربت مع بنى قابيل تدعو لنفسها من استحسنته، وإبليس يجتهد فى تحصيل الاسم الأعظم، ولما أن زنت وحاضت وشربَتْ ولم تفارق الاسم الأعظم فى أيام حيضها بَدَّلَهُ الله بالسحر، فرفع عنها، فكانت إذا أرادت العمل لا يتم لها، فعلم إبليس أن الله رفعه عنها إجلالاً له، وأن الذى بقى معها هو السحر، فسألها فيه فأخرجته إليه ثقة بمودته، فعمل إبليس به، وانتشر السحر فى بنى قابيل، وغلب عليهم إبليس واستعبدهم، وأخرج لهم المزامير والعيدان وجميع الملاهى، وعنق لا تردُّ يَدَ لامِسٍ.

وحملت بعوج ولم تعلم ممن حملت به، فلذلك نسب إليها، فربته حتى عظم وقوى وبقى يطوف الأرض جبلاً جبلاً، ولم يسلطه الله على أحد من خلقه إلى زمن موسى - عليه السلام - فأراد أن يرمى عسكره بالجبل، فجعله الله طوقًا فى عنقه، وقتله موسى - عليه السلام - كما سيأتى قريبًا.

قلت: ومن كانت هذه أمه، فغير عجيبٍ أن يكون عدوًّا للأنبياء، وقد قيل: إنه مازال يفتك بالأنبياء ويقتل إلى أن هلك - لعنه الله تعالى - وأغار على الأنبياء حتى قتل ثمانمائة وأربعة عشر نبيًّا. وروى أنه جاء إلى نوح مستغيثًا؛ ليحمله فى السفينة، فخافه نوح، فقال له عوج: لا بأس عليك يا نوح منى، دعنى أمشى مع سفينتك؛ فإنى أعلم أن سفينتك لاتسعنى ولاتحملنى، فأوحى الله إلى نوح: ذَرْ عوجًا ولا

تخف منه؛ فإنه لاقدرة له عليك، فقال له نوح: ضع يدك على مؤخر السفينة؛ فإن الله قد أمرني بذلك. فبلغ الماء ركبتيه، وفي رواية: مابلغ نصف ساقيه، وكان لا يأوى إلى المدن ولا تسعه إلا الصحارى وكهوف أعدها لنفسه تكنه من الأمطار وحر الشمس.

سئل عوج: ما أعجب ما رأيت؟ قال: كنت أخوضُ البحر دائمًا إلى ساقى أو إلى ركبتى أو إلى حقوى أو إلى صدرى، فبلغت موضعًا وضعت فيه رجلى فلم أبلغ قراره فرجعت هاربًا، فاعترضتنى حية فأخذتها بيدى ورفعتها حتى ظهر بياضُ إبطى ولم يظهر لها رأس ولا ذنب. وعثر على نقباء موسى الاثنى عشر حين أرسلهم إلى أريحا بلد الجبارين عيونًا، فأخذهم فى كمه مع فاكهة كان حملها من بستان، فنثرهم بين يدى الملك فردهم الملك إلى موسى ليعلموه بما عاينوه.

قال فى الأنس الجليل، تاريخ القدس والخليل: كان طول عوج ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثين ذراعًا وثلث ذراع، وكان يحتجز بالسحاب ويشرب منه، وكان يضرب بيده فيأخذ الحوت من قاع البحر، ثم يرفعه إلى السماء فيشويه بعين الشمس فيأكله. انتهى

رجعنا إلى استغاثة قوم هود الكافرين بعوج على هود وقومه المؤمنين، استغاثوا به وضمنوا له إن كفاهم هودًا ومن معه أن يفرضوا له فرضًا يكون عليهم وعلى بنيهم أبدًا، وكان عوج أعظم خلقة من عَادٍ، كان أعظمهم يصل إلى ركبته أو وسطه، وكان إذا جاع قصد إلى مدينة من المدن؛ فيأتيهم بحزمة حطب يضعها على باب المدينة، فتسد بابها وتعلو على السور، فإذا رأو الحطب، علموا أنه جاع؛ لأنه جعل ذلك علامة لجوعه ومنفعة لهم؛ فيكفيهم ذلك الحطب طول سنتهم، فيجمعون له من كل منزل مما يأكلون على أقدارهم؛ فيضعونه له فى الصحراء فيأخذه وينصرف، وهذا كان دأبه.

فلما قدم بالحطب إلى قوم هود الكافرين، شكوا إليه أمر هود وقومه المؤمنين، وسألوه أن يعينهم عليه، فقال لهم: أرونى عسكره أكفِيكُمْ أمره، فوعدوه يومًا بعينه ليقاتلوا فيه هودًا وقومه، حتى إذا كان ذلك اليوم يُدَاهِم هودًا - عليه السلام - بالقتال، وكان هود إذا شاء، ظهر لهم بمَنْ معه فيقاتلهم، وإن شاء يغيب بمن معه فلا يرونه؛ صرفًا من الله لبصرهم عن رؤيته، فأتاهم عوج، فلما أبصره قوم هود ارتاعوا، فقال لهم هود: لا ترتاعوا، وأخبرهم بصرف الله أبصار أعدائه عنهم فلا

يرونهم، فازدادوا إيمانًا كما تقدَّم ذكر ذلك.

ثم اختفى هود بمن معه، فأبصر عوج قوم هود - عليه السلام - الكافرين، فقطع من الجبل قطعة على قدر العسكر على عاتقه فألقاها على العسكر، فقتل كل من وقعت عليه، وكلما انفلت واحد منهم أخذ كفًّا من تراب فدفنه فيه، فلما رأوا ذلك، صاح الباقون: ياعوج، نحن أصحابك، قتلتنا وتركت هودًا، فقال: إنما جئتكم لأهلك لكم عسكرًا، ولم أجد غير هذا، فقالوا: إن هودًا سحر أعيننا فيرونا ونحن لا نراهم، وإنما جئنا بك لتكون عونًا لنا، وإذا كان الأمر كذلك، فانصرف عنا، فتركهم وانصرف، وكذلك أراد أن يعمل بقوم موسى فى التيه؛ فإنه وقف على عسكرهم وهم لايشعرون، وكان فرسخين فى فرسخين، فقطع من الجبل قطعة ليطبقها عليهم، فأرسل الله تعالى هدهدًا فى منقاره حجر مذرب من حجر السامور، فضرب وسط الحجر بالحجر فوقع فى عنقه، وأخبر الله موسى، فخرج بعصاه إليه، وكان طول موسى عشرة أذرع وعصاه مثلها ونزا من الأرض مثلها، وضربه على أسفل كعبه فقتله - ذكر ذلك ابن فضل الله فى إملائه[١] - وعمره ثلاثة آلاف وستمائة سنة[٢].

قلت: قال العلامة شمس الدين بن القيم فى كتابه المسمى بالمنار المنيف فى الصحيح والضعيف كلامًا بين فيه بطلان قصة عوج إلى أن قال: ولاريب أن هذا وأمثاله من وضع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء والسخرية بالرسل وأتباعهم. انتهى

وقال الحافظ عماد الدين بن كثير فى كتابه المسمى بالبداية والنهاية فى قصة عوج ابن عنق: جميع مايحكون عنه هذيان لا أصل له، وهو من مختلقات زناديق أهل الكتاب، ولم يكن قطُّ على عهد نوح، ولم يُسلم من الكفار أحد، انتهى.

وقال العلامة جلال الدين السيوطى - رحمه الله تعالى - فى آخر جواب عن سؤاله عنه: والأقرب فى أمره أنه كان من بقية عاد، وأنه كان له طول فى الجملة مائة ذراع أو شبه ذلك، لا هذا القدر المذكور، وأن موسى - عليه السلام - قتله بعصاه،

---

(١) قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١/ ٣٢٣) يروى هذا عن نوف البكالي، ونقله ابن جرير عن ابن عباس، وفي إسناده إليه نظر، ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل؛ فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم ولا تمييز لهم بين صحتها وباطلها. اهـ.

(٢) وهو قول وهب بن منبه وينظر: العظمة (٥/ ١٥١٩).

هذا القدر الذى يحتمل قبوله، انتهى. يعنى بذلك: ما رواه أبو الشيخ فى كتاب العظمة قال: حدثنا إسحاق بن جميل، حدثنا أبو هشام الرفاعى، حدثنا أبو بكر بن عياش، حدثنا الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس قال: كان أقصر قوم عاد سبعين ذراعًا وأطولهم مائة ذراع[1]. انتهى

ثم إن هودًا دعا على قومه أن يبتليهم الله بالخوف والجوع، فأمسك الله عنهم القطر، فهلكت مواشيهم وجفَّتْ أشجارهم واغبرتْ أرضهم، وكانت بلادَ رمل، فأسرع القحط والجفاف إليها، فلما أحسوا بالهلاك، اجتمعوا وقالوا: قد كان هود يخوِّفنا ونكذِّبه، أترون أن نأتى إليه فنسأله أن يسأل ربه فيسقينا، أو نتركه ونتوجه إلى مكة، فنستسقى كما كان يفعل آباؤنا. فأوفدوا إلى مكة وفدًا يستسقون لهم، وهم: قَيْلُ بن عقير، ونعيم بن هزال، ومَرْثَد بن مسعد بن عفير، كان مرثد مؤمنًا يكتم إيمانه، وجلهم بن الحصين ابن خال معاوية بن بكر، ولقمان بن عاد، وأصحاب النسور، فانطلق كل رجل منهم مع قوم من رهطه حتى بلغ عددهم تسعين رجلًا، فنزلوا بمكة على معاوية بن بكر، وكانوا أخواله وأصهاره، فأكرمهم وأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان، قينتان.

فلما رأى معاوية بن بكر مكثهم، وقد بعثهم القوم يتغوثون لهم، شقَّ عليه ذلك وصعب عليه، واستحيا أن يأمرهم بالخروج فيظنون أنه ثقل عليه مكانهم عنده، فشكا إلى قينتيه، فقالتا: اعمل شعرا تغنيهم به لعله يخرجهم ويذكرهم ماجاءوا له من طلب السقيا، فقال معاوية شعرًا فتغنتا به، وهو قوله: [من الوافر]

ألا يا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ ... لعلَّ الله يُصْبِحُنَا غَمَامَا
فَيَسْقِيَ أرْضَ عَادٍ إنَّ عادًا ... قَدَ امْسَوْا لا يُبِينُونَ الكَلَامَا
وَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمْ بِخَيْرٍ ... فَقَدْ أَمْسَتْ نِسَاؤُهُمْ أَيَامَى
وإنَّ الوَحْشَ يَأْتِيهِمْ جهارًا ... وَلاَ يَخْشى لِعَادِيٍّ سِهَامَا
وأَنْتُمْ ههنا فِيمَا اشْتَهَيْتُمْ ... نَهَارَكُمْ وَلَيْلَكُمْ تَمَامَا

(١) أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » رقم (٩٩٠) وتتمته: « وكان طول موسى -عليه السلام- سبعة أذرع وطول عصاه سبعة أذرع ووثب في السماء سبعة أذرع، فأصاب كعب عوج فقتله » وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ لأجل الكلبي وهو: محمد بن السائب الكلبي، وهو متروك. وينظر: الحاوي للفتاوي (٢/ ٣٤٢) « رسالة الأوج في أخبار عوج » للسيوطي.

فَقُبِّحَ وَفْدُكُمْ مِنْ وَفْدِ قَومٍ وَلا لُقُّوا التَّحِيَّةَ والسَّلامَا

فقال بعضهم: لقد صدقت المغنية؛ إنما بعثكم قومكم تستسقون لهم، فقال لهم مَرْثَدُ المؤمن: والله، لا تُسْقَوْنَ بدعائكم، ولكن بطاعةِ نبيكم هود، وأظهر حينئذ إيمانه، فقالوا: يامرثد، لا تقدمْ معنا؛ فإنك قد اتبعت دين هود، فتخلَّف مرثد ومعه لقمان، فمضوا واستسقوا، فرفعت لهم ثلاث سحائب: حمراء وبيضاء وسوداء، ونادى مناد: يا قيل، اختر لقومك، فقال: اخترت السوداء، فكان فيها كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ٢٤] ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة: ٧] فدخلت بينهم فصرعتهم فهربوا إلى البيوت، فكانت تقلع البيت من أساسه فتضرب به البيت الآخر فتطحنهما معًا، وتحمل الإبل والنساء والرجال وتقلع الشجر من أصولها، فقال سبعة من عاد رأسهم الخلجان، وهو ملكهم وأعظمهم جسمًا: قوموا نقف على شفير الوادى، وكانوا قد زووا أهاليهم فى شِعب ذلك الوادى فترد الريح، فوقفوا وكشفوا عن صدورهم، وقالوا: من أشد منا قوة ؟ فصرعتهم الريح، وتركتهم كما قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧] ولم يبق إلا الخلجان وحده، فتقدم إلى الجبل وهو يبكى، وأخذ بجانب منه فهزه فاهتزَّ فى يده، فعرض هود عليه التوبة فأبى، فجاءته الريح فدخلتْ تحت قدميه، وأمسك الجبل فرفعته هو والجبل فى يده قد شد عليه من أصله إلى الهواء، ثم قلبت الريح على أم رأسه ولم يبق من عاد واحد، واعتزل هود ومن معه من قومه المؤمنين فى حظيرة وما يصيبهم منها إلا مايلين جلودهم، ثم أرسل الله عليهم طيورًا سودًا فنقلتهم كلهم إلى البحر: ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ثم تقدم هود ومن آمن معه من ديارهم التى سخط الله عليهم فيها إلى الشِّحْر، فسكنوا هنالك.

ولما مات هود - عليه السلام - قبر بمكة، وقيل: بحضرموت، وهو الصحيح، عند الكثيب الأحمر، وقبره معروف هنالك(١).

وروى ابن إسحاق أن أبا سفيان صخر بن حرب بن أمية وعبد الله بن زيد أقبلا من

(١) ينظر: « تاريخ الطبري » (١/ ٢١٩-٢٢٠) والمنتظم (١/ ٢٥٢-٢٥٤) و « البداية والنهاية » (١/ ١٤٥-١٤٦).

الشام، فلما وَصَلاَ إلى وادى القرى، لقيهما رجل من عاد فقال: أطعمونى، فجعل يلف كلَّ ماقدم إليه لفًا، ثم قال: احملونى، فضاقوا به ذرعًا وكرهوا صحبته، فأطعمه عبد الله بن زيد وحمله على بعير، فجعل يسحب ركبتيه لطولهما، فلما انتهى إلى وادى العقيق، قال العادىُّ لعبد الله: إنك حملتنى وأطعمتنى، فأحب أن أكافئك، فاتبعنى ولا تلتفت، فتبعه إلى الوادى، فقال: انظر إلى مسقط ظلى فاحفر عنده، فانطلق عبد الله وحفر، فإذا صخرة عظيمة فقال: اقلعها، فلم يطقْ، فرفعها العادى بأصبعه، وانحدر وعبد الله معه إلى سرب فى الأرض، فإذا سراج يزهر، وإذا برجلين من قوم عاد ميتين، فقال له العادى: إن هذين صاحباى، فإذا مت فضمنى إليهما، واحتملْ من المال حاجتك، ثم اخرج وضع الصخرة على السرب ولا تلتفت حتى تخرجَ من الشِّعْب، وعمد العادىّ إلى ريشة قد نتف جانبيها نحوًا من ذراع، فأدخلها فخَّارةً فيها شبه القطران، ثم أخرجها فأدخلها منخره، ثم غمسها الثانية فأدخلها منخره الآخر، ثم صاح صيحة كاد عبد الله يهلك منها، ومات العادى، فضمه عبد الله إلى صاحبيه، واحتمل من المال حاجته، ووضع الصخرة على السرب - بعد جهد جهيد - ومضى، فكان أكثر قريش مالاً. انتهى

قال المسعودى: وقد كان فى ملك النمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح - عليه السلام - هيجان الريح التى أسقطت صرح النمرود وفى إقليم بابل من أرض العراق، فبات الناس ولسانهم سريانى، فلما أصبحوا تفرقت لغاتهم على اثنين وسبعين لسانًا، فسمى الموضع بابل لتبلبل الألسنة به، فصار من كان من ولد سام بن نوح تسعة عشر لسانًا، وفى ولد حام ستة عشر لسانًا، وفى ولد يافث سبعة وثلاثون لسانًا، وكان من تكلم بالعربية يَعْرُب، وجُرْهُم، وعاد، وجَدِيس، وطَسْم، وعبيد، وثمود، وعملاق، ووبَار، وعبد ضخم فسار يعرب بن قحطان بن عابر وهو هود عليه السلام ابن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بمن تبعه من ولده وولد ولده، وهو يقول: [من الرجز]

أَنَا ابْنُ قَحْطَانَ الْهُمَامِ الأَنْبَلِ   يَا قَوْم سِيرُوا فِى الرَّعِيلِ الأَوَّلِ
نَحْوَ يَمِينِ الشَّرْقِ فِى تَمَهُّلِ   أَنَا الْبَدِىُّ بِاللِّسَانِ الْمُنْهَلِ
ذِى الْمَنْطِقِ الْبَيِّنِ غَيْرِ الْمُشْكِلِ

فحل باليمن.

وسار بعده عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه، فحلَّ بالأحقاف من بلاد عُمان إلى حضرموت واليمن، وتفرق هؤلاء في الأرض وانقرضوا، وملكهم جَيرون بن سعيد بن عاد وحل بدمشق فمصر مصرها، وجمع عمد الرخام والمرمر وشيد بنيانها، وهذا الموضع فى وقتنا سوق من أسواقها بباب المسجد يعرف بباب جيرون[١].

وسار بعد عاد ثمود بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ومَنْ تبعه من ولده وغيرهم؛ فنزلوا الحِجْر بين الشام ومكة إلى قُرْح[٢]، وسار طَسْم وجَدِيس بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح؛ فنزلوا اليمامة، وسار عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح فنزلوا أكناف الحرم والتهائم، ومنهم من سار إلى مصر والمغرب. وقد ذكر أن هؤلاء بعض فراعنة مصر، وبعض الناس ألحق العمالقة بعيص بن إسحاق بن إبراهيم، عليه السلام.

ثم سار وبار بن أميم بن لاوذ بن إرم بن سام؛ فنزل أرض وَبَار - الأرض المعروفة برمل عالج - فبغوا فى الأرض فأصابتهم نقمة فهلكوا جميعًا.

قال الشاعر: [من مخلع البسيط]

وَمَـرَّ دهْـرٌ عَـلَـى وَبَـار   فَـهَـلَـكَـتْ جَـهْـرَةً وَبَـارُ

ثم سار عبد ضخم بن إرم بن سام بن نوح، فنزلوا الطائف، فهلكوا ببعض غوائل الدهر ورُثوا، فيهم يقول الأزدى: [من المنسرح]

وَعَبْدُ ضَخْم إِذَا نَسَبْتَهُمُ   أَبْيَضُ وَجْهِ الْحِجَا مَعَ النَّسَبِ
وَابْتَدَعُوا مَنْطِقًا بِخَطِّهِمُ   فَبَيَّنَ الْخَطُّ صِحَّةَ العَرَبِ

وذكر أنهم أول من كتب بالعربية، ووضع الأحرف أ. . . ت ث، وسار جُرهم بن قحطان - واسمه يقطان بن قحطان - وجرهم لقب له، وطافوا البلاد حتى نزلوا بمكة.

---

(١) باب جيرون: هو الباب الشرقي من أبواب مسجد بني أمية بدمشق، يقابل باب البريد وهو الغربي. وينظر: المراصد (١/ ٣٦٦).

(٢) القُرح: سوق وادي القرى وقصبتها. ينظر: مراصد الاطلاع (٣/ ١٠٧٦).

وسار أميم بن لاوذ بن إرم بن سام، فحلَّ بأرض فارس، ونصب كيومرث بن أميم ملكًا عليهم.

وسار عبيل بن عوص بن إرم بن سام بن نوح - عليه السلام - فى ولده ومن تبعه، فنزلوا بالجحفة بين مكة والمدينة، فهلكوا بالسيل فسمى الموضع بالجحفة؛ لإجحافه عليهم.

وكان يثرب بن قامة بن مهلئل بن إرم بن عبيل نزل بالمدينة فسميت باسمه، فهلك أولئك ببعض غوائل الدهر، وأقصدتهم سهامه، فقال بعض ولده ممن رثاهم شعرًا: [من الخفيف]

عَيْنُ جُودِى عَلَى عَبِيلٍ وَهَلْ يَرْ جِعُ مَا فَاتَ فَيْضَهَا بِانْسِجَامِ؟!
عَمَّرُوا يَثْرِبًا وَلَيْسَ بِهَا سَفْـ رٌ وَلاَ سَارِحٌ وَلاَ ذُو سَنَامِ
غَرَسُوا لِينَهَا بِبَحْرٍ مَعِينٍ ثُمَّ حَفُّوا الفَسِيلَ بِالآجَامِ

قال فى حقيبة الأسرار: وكان فى ولد سام بن نوح رجلٌ يقال له: بواط بن لاوذ، كان على دين آبائه لم يشرك، وله أولاد كثير ضَلُّوا، وكان يحبهم ولا يقدر أن يفارقهم، وكان قد أفهمه الله تعالى جميع اللغات، فلما قوى اضطرابهم، خاف أن يقتتلوا ويفتن بعضهم بعضًا، وكانوا قد أهلهم للعربية؛ لأنهم من أولاد سام بن نوح، فقال لهم: اعقدوا لى لواء وراية أرفعها للناس، وأفهم كل طائفة ما أقول لهم، فعقدوا له لواء على رمح طويل، فرفعه بيده، ثم جاء فأركزه فى وسط القوم، وأشار إليهم بيده أن اجتمعوا واسمعوا، فاجتمع القوم حوله وأنصتوا، فجعل يلتفت إلى قوم بعد قوم ويكلمهم كلًّا بلسانه، فلما سمعوا ذلك منه، فرحوا وقالوا: يافلان، ماهذا الذى جرى علينا ؟ وكانوا يعرفون عقله وعلمه. فقال لكل قوم بلسانهم: هذه عقوبة عاقبَكُمُ الله بها بسبب كُفْركم وعصيانكم وترككم طاعة ربكم، كما فعل بمن كان قبلكم من الطوفان حتى لم يبق أحدًا، ولولا أن الله وعد أباكم نوحًا ألاَّ يهلك أحدًا بعد الطوفان بعذاب عامٍّ - لسلَّطَ عليكم عذابًا يهلككم به، ولكن عاقبكم باختلاف ألسنتكم وتغير لغاتكم، وفى ذلك عبرة لكم، فقالوا: صدقت ياشيخنا، فأشر علينا ما نصنع، فألهمه الله تعالى أن قال: تفرقوا فى البلاد، وليأخذ كل رجل منكم طائفته وأهل بيته ومن هو على لسانه وينحاز إلى جهة من الأرض يسكنونها ولا

يدخل عليه أحد غيره، فاستدعى ألوية وعقدها ودفع كل لواء إلى رئيس منهم بلسانه على حدة، فجعل أولاد يافث مع اختلاف لغاتهم فرقة ولهم لواء، وقال: عليكم بمهب الشمال، ولكم من المجرة إلى منتهاها. ودفع لواء إلى بنى حام وقال: أنتم عليكم بمهبِّ الجنوب، ولكم من مطلع سهيل إلى منتهاها وهو المغرب. فافترق هؤلاء من المشرق، وهؤلاء من المغرب، وعقد لواء ثالثًا لبنى سام، وقال: عليكم بمهب الدبور، ولكم من بنات نعش إلى مطلع سهيل، ثم قال: وأما أنا فإنى باق ههنا على هذا اللواء مع فالغ وذويه، ولى ولهم مهب الصبا. فمن أراد منكم أن يقيم معى فليفعل، وانحاز بمن معه إلى فالغ بن عابر، وتفرقت الأمم إلى المواضع المذكورة، وبقى فالغ بن عابر فى موضعه، وكفاه الله شَرَّ الكفار من بنى يافث وحام، وشتَّت الله شملهم.

ولما هدم الله بناء ملكهم، بقى فالغ ومن معه من المؤمنين بقرية الثمانين، ولم يفارق قبور آبائه. وكان قد تزوج عابر فولد له فالغ، وهو عمود النسب المحمدى، وإلى عابر ترجع العرب قيسيها ويمنيها؛ فمن ولده قحطان بن عابر وجُرْهُم بن قحطان، واسمه: يقطان، وجرهم لقبه.

قال العلامة المسعودى فى كتابه المسمى مروج الذهب، ومعادن الجوهر: الصحيح الذى عليه أكثر أهل العلم والقدماء من كهلان وحِمْيَر والعلماء منهم أن قحطان بن عابر - وهو هود - بن شالخ بن أرفخشد بن نوح - عليه السلام - وعليه قول أبى الطيب من قصيدة يمدح بها: [من الطويل]

إِلَى الثَّمَرِ الحُلْوِ الَّذِى طَيِّئٌ لَهُ فُرُوعٌ، وَقَحْطَانُ بْنُ هُودٍ لَهُ أَصْلُ

ولعابر الذى هو هود - عليه السلام - أولاد: منهم فالغ وهو عمود النسب المحمدى، وقحطان وملكان.

وقيل: إن ملكان هو ابن قحطان لا أخوه، وهو - يعنى ملكان - والد الخضر، عليه السلام.

وولد لقحطان أحد وثلاثون ولدًا ذكرًا، فولد قحطانُ يَعْرُبَ بن قحطان، وولد يعربُ يشْجُبَ بن يَعْرُبَ، وولد يشجب عبدَ شمس، ويقال: عبد الملك، وهو سبأ ابن يشجب، وسمى سبأ؛ لأنه أول من سبى السبايا؛ فولد سبأ رجلين: حمير بن سبأ،

وكهلان بن سبأ. فالعقب الباقى من هذين الرجلين.

ولو كنا بصدد ذكر مطلق الأنساب، لذكرنا من فروع أنسابهم وفنون أخبارهم كثيرًا، إلا أنا قصدنا ذكر العدنانية لا القحطانية؛ لمكان نسبه، عليه الصلاة والسلام.

وأم فالغ ميثا، وقيل: عروة بنت صيفن، وكان منه الجبابرة، وانقرضوا جميعًا، ولم يعقب فالغ إلا من ابنه أرغو، وقام بالأمر بعد أبيه عابر، وكان عمره مائتى سنة، فلما حضرته الوفاة أوحى الله إليه أن يستودع النور والاسم الأعظم ابنه أرغو؛ كما سيأتى.

ومن حديث فالغ بن عابر ماذكره صاحب كتاب المبتدا: أن الله تعالى لما أراد أن ينقل النور إلى فالغ، اختار أبوه امرأة من قومه، فلما انتقل النور إليهـا شكر الله تعالى، فلما تم حملها ووضعته رباه أحسَنَ تربية وعلَّمه الصحف، فلما بلغ من عمره ثمانين سنة، مات أبوه فالغ بعد أن أخذ عليه العهد فى النور، فسلك به مسلك آبائه ودفنه إلى جانب أبيه، وقد اضطرب قومه وافترقوا وتباغضوا وما اتفقوا على فالغ ولا أطاعوه، وبنوا لهم مدينة بابل ليسكنوا فيها، وكان طولها عشرة فراسخ فى عرض ستة فراسخ، واجتمع فيها بنو حام وبنو يافث وبنو سام جميعهم، وفالغ ومن معه من المؤمنين قليلون، فلم يسكنوا معهم ولا قربوا موضعًا هم فيه، بل كانوا فى قرية الثمانين التى نزل بها نوح - عليه السلام - وأقام أولئك عليهم ملكًا يجمعهم اسمه جامر بن يافث، وهو أبو فارس الذى سميت به الفرس، فاجتمعوا إليه وقالوا: أيها الملك، لم يبق على وجه الأرض من يخالفك إلا فالغ ومن معه، وهم قليلون، فلو غزوناهم وتركناهم لنا عبيدًا أو يدخلون فى ديننا، فقال: افعلوا مابدا لكم، وأرفدهم من بنى حام ويافث بعسكر عظيم، وولى عليهم رجلاً اسمه شودب بن جرجان بن حام، وأمرهم أن يستأصلوهم، وأن يأتوه بفالغ أسيرًا، وقد كان جامر بن يافث قد بنى له مدينة يسكنها خوفًا من الطوفان أن يعود؛ لأنه كان يحدث بأمر الطوفان، وأنه لم ينج منه أحد، وأن الماء ارتفع فوق الجبال، فأراد أن يعلى البناء أكثر مما كان الطوفان لحقه، حتى إذا عاد سما هو وقومه فى أعاليه، فلما أكمل بناءه، سماه المجدل.

وكان طوله فى الهواء خمسة آلاف ذراع وعرضه ألفًا وخمسمائة ذراع، فلما فرغ منه، عزم على تجهيز العسكر لغزو فالغ، فباتوا تلك الليلة وهم أجمع ما كانوا وملكهم معهم؛ إذ أصبحوا بالغداة وقد تبلبلت ألسنتهم وهدم الله بنيانهم من

القواعد، فخرَّ عليهم السقف من فوقهم وأهلكهم الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ.. ﴾ الآية [النحل: ٢٦] فاشتغلوا بأنفسهم عن فالغ ومن معه، وأصبح كل قوم يتكلمون بلغة لا يعرفها القوم الآخرون، فحاروا واضطربوا ولم تفهم طائفة ماتقول الأخرى، فانحازوا فرقًا كل فرقة تتكلَّم بلسان، فكان الرجل ينحاز وأهل بيته معه يتكلمون بلغة واحدة يفهم بعضهم بعضًا، فإذا خالطهم أحد من غيرهم لايفهمون قوله ولا يفهم قولهم، وانحازت طائفة منهم ألهمها الله العربية، فتكلموا بها، فأولئك الذين يقال لهم العرب، وهم العرباء من خصوص بنى سام بن نوح، فمنهم عاد، وعَبيل، وثَمُود، وجَدِيس، وطَسْم، وعمليق، وأميم، وعبد ضخم، ووبار، ويثرب، وجُرْهُم، كما تقدَّم ذكر ذلك قريبًا؛ فهؤلاء من بنى سام كلهم تكلموا بالعربية بإلهام لهم من الله تعالى، فنزلت بنو سام المجدل سرَّة الأرض، وهو مابين ساتيدما إلى البحر ومابين اليمن إلى الشام، وجعل الله النبوة والكتاب والجمال والأدمة والبياض فيهم، ونزل حام مجرى الجنوب والدبور، ويقال لتلك الناحية: الداروم، وجعل الله فيهم أدمة وبياضًا قليلاً، فعمر بلادهم وسماهم ورفع عنهم الطاعون، وجعل فى أرضهم الأثل والأراك والعشر والمغاث والنخل، وخزن الشمس والقمر فى سمائهم.

ونزل بنو يافث الصفون مجرى الشمال والصبا، وفيهم الحمرة والشقرة، فأخلى الله لهم أرضهم، فاستدبروها وأخلى سماءهم، فليس يجرى فوقهم شىء من النجوم السبعة الجارية؛ لأنهم صاروا تحت بنات نعش والجدى والفرقدين، وابتلوا بالطاعون.

ولحقت عبيل وعتيد بموضع يثرب، والعماليق بصنعاء، ثم انحدر بعضهم إلى يثرب، فأخرجوا منها عتيدًا، فنزلوا بالجحفة.

ولحقت ثمود بالحجر ومايليه فهلكوا.

ثم لحقت طَسْم وجَدِيس باليمامة، فهلكوا.

ولحقت أميم بأرض وبار، فهلكوا بها، وهى بين اليمامة وهجر ولايصل إليها اليوم أحد، غلبت عليها الجنُّ.

وإنما سميت وَبار بوبار بن أميم.

وكانت الشام يقال لها أرض بنى كنعان، ثم جاء بنو إسرائيل فقتلوا بها ونفوا باقيهم عنها. ذكر هذا صاحب كتاب حقيبة الأسرار، وهو فيه قليل مخالفة فى البعض لما ذكره صاحب مروج الذهب، فما فى المروج، أحقُّ إليه بالعروج.

واختلف أهل التاريخ فيمن كان ملكهم بعد فارس بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح صاحب المجدل، فقيل: هو كيومرث بن لاوذ بن أميم بن إرم بن سام بن نوح، ومعنى كيومرث: حى ناطق ميت. وقيل: ولوا عليهم هوشنك بيشداد، ومعناه: الدين الحاكم، فأخذ قومه بعبادة الله وترك الأوثان، وقام فيهم خطيبًا، فحذرهم سخط الله تعالى وما فعل بقوم نوح وصاحب المجدل، وقال: قد بقيتم يا بنى سام فى موضعكم، ونبيكم فالغ صاحب النور، وقد وليتكم الآن، فمن دان بدين فالغ، وقال بشريعته، فأنا منه وهو منى، وله الأمن والمراعاة والإحسان، ومن أبى وجحد الرحمن، قتلته ولو كان أخى أو ابنى، فاستقيموا أستقم لكم، واتقوا الله واعبدوه. فاتبعوه ودانوا بدين الله، وسلكوا شرائع نوح - عليه السلام - وكثر عددهم وأخصبت بلادهم، وفالغ فيهم، وهوشنك يوجه إليه فى كل وقت مايحتاج إليه هو والذين معه، وعمر هوشنك الأرض، وهندس المياه، وأجراها إلى العمائر، وأمر بقتل السباع واستعمال جلودها مدبوغة، وهو أول من ذبح البقر والغنم والوحش وأكل لحومها، وبنى المدائن.

ولما بنى مدينة السوس، سماها بلسانه الشوش، أى: الحسنة، ثم بنى مدينة تستر، سماها بلسانه: شوشتر، أى: هذه أحسن. وهو أول من اتخذ السجون، وسجن الناس فيها، وكان ملكه أربعين سنة، وعمره يوم موته سبعمائة سنة وأشهر.

ثم ملك بعده طهمورث بن هماد؛ فسار سيرته وسلك طريقته، وبنى مرو وآمد وقلعة سارس بأصفهان، وكان ملكه ثلاثين سنة، وعمره يوم مات ستمائة سنة. وفى زمانه ولد لفالغ ابنه أرغو، وإليه انتقل النور، فأخذ به فالغ طريقة آبائه وأجداده من تعليم الصحف ودين الله تعالى، ومات فالغ فى زمن جمشيد وهو أخو طهمورث، ومعناه: السيد الشجاع، وهو الذى جند الأجناد وجعل الناس خمس طبقات: مقاتلة، ونساك وكتاب، وصناع، وخدام. وهو أول من أثار علم الطب، وطبع السيوف، وصبغ الثياب بالألوان المختلفة، واتخذ السراويلات، وبنى إصطخر

وهمذان وطوس، وكان مدة ملكه ستمائة وستة عشر سنة، وهو الذى جاء فى أيامه الضحاك بن علوان بن عاد، أرسله إليه شداد بن عاد، فهرب منه جمشيد، فقتله الضحاك، واستوثق له الأمر، وغير عبادة الله وشرع نوح، وطغى وتجبر، وطلب أرغو بن فالغ صاحب النور المحمدىّ، فمنعه الله منه، واختفى هو ومن معه والضحاك فى طلبه، وكان أرغو يسمى العابد، وهو بهمزة مفتوحة فغين معجمة مضمومة، وكان منه جبابرة تملكوا وانقرضوا، ولاعقب له إلا من ساروغ، عاش أرغو مائتى سنة وثلاثين، وقام بعده ولده ساروغ.

ومن حديث أرغو على ما فى كتاب المبتدا: أن الضحاك بن علوان طلبه، وأنه اختفى منه بمن معه وهو فى طلبه، فقيل: إنه هرب ببنيه والعصابة القليلة التى معه إلى أن دخل إلى ديار بنى يافث، وهناك مات - رحمه الله تعالى - وقد ولد له ساروغ، ونور محمد ﷺ قد انتقل إليه، وهو الذى خرج بعد موت أبيه فالغ إلى ديار يافث؛ وذلك أنه سكن مغارة فى بعض جبال تلك الأرض، وابتنى هناك قبة من الرصاص، وهى باقية إلى الآن؛ وذلك أن الله تعالى دله على معادن تلك الأرض كلها، فاستخرج الرصاص وعمل منه قبة، وأمر ولده أن يدفنوه فيها. وقد وصل إلى هذه القبة رجل من العرب من حِمْيَر فى زمن معاوية بن أبى سفيان فى وقعة كانت بينه وبين الروم، والرجُلُ يعرف بعبد الله بن عمر الحيرانى، وكان عالمًا بأيام العرب ووقائعهم، حافظًا لأشعارهم، فلما وقعت الواقعة بين معاوية وملك الروم، أسرَ مع جملة من المسلمين، فلما جاء عيد الشعانين، جلس الملك للناس، وكان العيد ثلاثة أيام، فأول يوم يطعم أهل بيته ورؤساء الروم، والثانى رؤساء بلده وغيرهم من أصحاب الأموال، والثالث الغرباء والمساكين، وهو فى الثلاثة الأيام جالس على سريره، والأطعمة تنقل بين يديه وبطارقته من حوله وهو ينظر إلى الناس، فإذا فرغ من عيده، قضى الحوائج وأطلق الأسرى وأحسن إلى الفقراء، فلما جاء اليوم الثالث قال: فأُخْرِجْتُ فى الأسرى، لم آكل غير أنى جعلت أتأمَّلُ فى الملك، فرآنى لا آكُلُ، فقال: خذوا هذا المسلم، فاعزلوه فى ذوى الحاجات، ففعلوا. ثم أمر بإصلاح شأنى وتغيير حالى، وأحضرنى وقربنى، وقال: من أنت، فقد أنكرت أمرك يوم الطعام؟ فقلت: أيها الملك، ما رأيته منك أحبُّ إلىَّ من الطعام، فقال: لا شك

أنك مميز عارف عاقل، فكساني وحملني على دابة، فكان كثيرًا ما يسألني عن أيام العرب ووقائعها، فأخبره فيطرب، وكان فصيحًا بالعربية عالمًا باللغة، وكان هو يحدثني بأحاديث بني إسرائيل والفرس والروم، وأمسكني عنده وأحبني، وكان أهل دولته يتوسلون بي في حوائجهم، وكان يخلو بي ويسألني عن الدين والإسلام وصفة النبيّ وأخباره وقصته فأخبره. فقال لي يومًا: أريد السفر إلى موضع أهمَّني وتكون معي، فقلت: إلى أين ؟ قال: إلى قبة من رصاص بنيت في أول الزمان لأنظر إليها، بيننا وبينها مفازة أربعة أشهر، وإن كان لاحيلة فيها؛ لأنها مطبقة لا يعرف لها باب، فسار ومعه بطارقة من جماعته وعبيده نحو مائة في مفازة غير مسكونة ولا معمورة، حتى انتهينا إلى قبة عالية من الرصاص على مقدار نصف جريب، فطفنا بها، فإذا هي قبة لاباب لها، فقال الملك: أرأيت ؟ فقلت: نعم، قال: إنه كان على قلبي منها أمر عظيم، ولم أزل حتى وصلت إليها، فكيف الاستعلام بما في باطنها ؟ فقلت: أيها الملك، إنها من الرصاص، ولو أردتَ حرقها وكسرها لفعلت في أقل مدة، فتبسم، وقال: هذا غير خافٍ عليّ، غير أنه في أم الكتاب الذي قرأتُ فيه حديثها أنه من أرادها بسوء هَلَكَ من ساعته، وقد تعرض لها جماعة فماتوا، فإياك أن تنطق بمثل هذا فتهلك الساعة، فتعجبت من كلامه، ثم ألهمني الله أن قلت للملك: إن أنت أذنْتَ لي أيها الملك أن أستفتح، فأقرأ القرآن الذي أنزل على نبينا محمد ﷺ، فإن يك مانع من الجنّ دونها، فإنه يدحض ويهرب، وإن يك غير ذلك عرفناه، فقال: والله، ماجئت بك لغير هذا، فبدأت القراءة، واستفتحْتُ معلنا صوتي، وأنا أطوف حولها، والملك معي، وكنت قد بدأت بأول القرآن، فلم أزل أقرأ سورة بعد سورة حتى انتهيت إلى سورة الرعد، قرأت هذه الآية: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ. . . ﴾ الآية [الرعد: ٣١] فظهر لنا بابها، فسر الملك بذلك، فدخلت وأنا أقرأ ودخل الملك معي، وإذا في وسطها قبر عظيم عليه رخامة مزبور فيها خطّ؛ فلم أعرف أقرؤه، فنقلته حتى رجعنا، فطلب الملك من يقرؤه، فأتى برجل فقرأه لنا فإذا فيه مكتوب: أنا أرغو بن فالغ ابن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، وتحت هذا مكتوب أبيات شعر وهي: [من الخفيف]

أَنَا أَرْغُو بْنُ فَالِغ الـمُغْتَاصِ   مِنْ ظَلَامِ الْإِشْرَاكِ بِالْإِخْلَاصِ

كُنْتُ بِاللهِ مُؤْمِنًا رَبَّ إِدْرِيـ سَ وَنُوحٍ وَمُؤْمِنًا بِالْقِصَاصِ
قَـائِـلًا لاَ إِلَـهَ إِلاَّ الـلـ ـهُ إِلَهِى وَمَنْ إِلَيْهِ مَنَاصِى
فَأَرَادَ الضَّحَّاكُ ذُو الْكُفْرِ مِنِّى أَنْ أُضَاهِيهِ بِالْعَمَى وَالْحِيَاصِ
فَتَرَكْتُ الْبِلاَدَ طُرًّا وَأَخْلَيْـ تُ لَهُ عَنْ مَجِلَّتِى وَعِرَاصِى
وَسَكَنْتُ الْكُهُوفَ دَهْرًا طَوِيلاً خَائِفًا هَارِبًا مِنَ اهْلِ الْمَعَاصِى
لِأَنَالَ الْخَلاَصَ فِى دَارِ مُلْكٍ يَوْمَ تَعْنُو إِلَى إِلَهِى النَّوَاصِى
وَبَنَيْتُ الَّذِى تَرَوْنَ بِعَوْنَ اللـ ـهِ ذِى الْمَنِّ مِنْ صِفَاحِ الرصَاصِ
وَأَمَرْتُ الْبَنِينَ أَنْ يَقْبُرُونِى جَوْفَهَا فِى مَلَاحِفِى وَقِمَاصِى
سَوْفَ يَأْتِى بَعْدِى بِدَهْرٍ رَسُولٌ مِنْ بَنِى هَاشِمِ الذُّرَى وَالْأَقَاصِى
عَـابِدٌ قَـانِـتٌ رَءُوفٌ رَحِـيـمٌ بِالْيَتَامَى وَالْبَائِسِينَ الْخِمَاصِ
لَـيْـتَـنِـى عُـمِّـرْتُ حَـتَّـى أَرَاهُ لِأَنَالَ الْحِبَا وَفَضْلَ الْخَوَاصِ

وإنما سقنا هذا دليلًا على صحة الرواية فى هرب أرغو بن فالغ صاحب نور رسول الله ﷺ من الضحاك - لعنه الله - وأنه بقى فى ذلك الموضع ماشاء الله تعالى، ومعه جماعة ممن آمن بالله، وزوجته ملكة بنت براكيل، وولد له ساروع بن أرغو هنالك، وعلمه جميع ماعلمه من أب بعد أب من لدن آدم - عليه السلام - ثم مات أرغو ودفن بالقبة المذكورة، وكان قد وصى ولده ساروع أن يدفنه بها ففعل.

ولم يزلْ ساروع هنالك بعد موت أبيه أرغو، حتى هلك الضحاك بن علوان - لعنه الله - أخذه أفريدون، فأوثقه وصيره بجبال دنباوند، والعجم تزعم أنه موثوق بالحديد إلى اليوم يعذب هناك، قد أطال الله عمره.

ولما هلك، رجع ساروع بن أرغو فى زمان أفريدون، وكان فى ديار بكر وما والاها محفوظًا مكرمًا بنور رسول الله ﷺ؛ هكذا قرره صاحب كتاب المبتدا.

وساروع: بسين مفتوحة مهملة وألف بعدها وراء مهملة وعين مهملة، سمى به؛ لأنه كان يسارع للحروب، وكان ملكًا كبيرًا مع النبوة، أمه عروة بنت كوعل، وله أعقاب وعشائر وأولاد وذرية جبابرة، وكلهم هلكوا، وكان عمره مائة وثلاثين سنة.

ولما حضرته الوفاة، أوحى الله إليه أن استودع الاسم الأعظم والنور ابنك ناحور، ففعل، وأوصى إليه.

فقام بعده ناحور وابنه نعمان أولد سارة زوج الخليل إبراهيم وأم إسحاق، وقيل: إنها بنت ناحور - وناحور، بالنون والحاء غير المعجمة، تفسيره: النهار - القائم بأمر الله بعد أبيه.

قال فى كتاب الوصية: فمن آمن به كان مؤمنًا، ومن جحد بولايتهم كان كافرًا، ومن جهل أمرهم كان ضالاً.

ثم أوحى الله إلى ناحور: استودع الاسم الأعظم تارحًا ابنك، ففعل وتوفى ناحور وهو ابن مائة وأربعين سنة.

وقام بعده ولده تارح بتاء مثناة فوق وألف وراء مهملة وحاء كذلك مهملة، وهو آزر فى قول، وقيل: آزر عمه، وهو الملك ابن ناحور بن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، ومن غير عمود النسب هاران، وكان عمره مائتى سنة، وكان حجارًا يصنع أصنام قومه التى كانوا يعبدونها، وهو أبو إبراهيم.

وفى كتاب الوصية عن العالم أنه قال: كان آزر جَدًّا لإبراهيم لأمه، وكان منجمًا للنمرود، وهو ابن طهماسفان.

وفى منهاج الطالبين: كان فى زمن إبراهيم نمرود بن كوش بن كنعان بن شداد، وقيل: نمرود بن كنعان ملك المشارق والمغارب، وهو الذى حَاجَّ إبراهيم فى ربه، وكان فى أرض بابل أخبره منجموه أن مولودًا يولد فى قريتك هذه يفارق دينكم، ويكسر أصنامكم، فى شهر كذا من سنة كذا، فلما دخلت السنة المذكورة، بعث نمرود إلى كل امرأة حبلى فى قريته فحبسها إلا امرأة آزر ازما بنت شمر؛ فإنه لم يعلم بحملها، فكان لا يولد غلام فى ذلك الشهر من تلك السنة إلا أمر بذبحه، فلما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت إلى مغارة كانت قريبًا منها، فولدت فيها إبراهيم، وأصلحت من شأنه ما جرت به العادة، ثم سدت عليه فم المغارة وعادت إلى بيتها، وكانت تطالعه فى المغارة؛ لتنظر مايفعل فتجده حيًّا يمصُّ إبهامه.

وقيل: إنه كان يغتذى من إبهامه.

وقيل: إن الله جعل رزق إبراهيم فى أطرافه، وكان كلما مصَّ من أصابعه جعلَ الله له فيها رزقًا.

وكان آزر سأل أم إبراهيم عن حملها، فقالت: ولدت غلامًا ومات، وصدقها.

وتربى إبراهيم فى المغارة، وكان اليوم على إبراهيم كالشهر والشهر كالسنة على غيره، فلم يلبث إبراهيم فيما ذكر إلا خمسة عشر شهرًا إلا قال لأمه: أخرجينى أنظر، فأخرجته، فتفكَّرَ فى خلق السموات والأرض، ثم نظر فى السماء فرأى كوكبًا؛ كما قال الله تعالى، وسيأتى الكلام على تمام قصة إبراهيم، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

قال الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى فى كتاب العرائس(١): لما نجى الله خليله من نار النمرود ومن آمن به، خرج مهاجرًا إلى ربه، وتزوج ابنة عمه سارة ابنة هاران، وبه سميت البلدة المشهورة التى يقال لها حران بقلب الهاء حاء، فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على نفسه ومن آمن معه، فقدم إلى مصر، وبها فرعون من الفراعنة الأول، وكانت سارة من أحسن النساء، وكانت لا تعصى إبراهيم، وبذلك أكرمها الله تعالى، فأتى إبليس إلى فرعون وقال: إن ههنا رجلًا معه امرأة من أحسن النساء، فأرسل الجبار إلى إبراهيم - عليه السلام - وقال: ماهذه المرأة منك ؟ فقال: هى أختى، وخاف إن قال: امرأتى، أن يقتله، فقال: زينها وأرسلها إلى: فرجع إبراهيم إلى سارة، وقال لها: إن هذا الجبار قد سألنى عنك، فأخبرته أنك أختى، فلا تكذبينى عنده؛ فإنك أختى فى كتاب الله؛ فإنه ليس مسلم فى هذه الأرض غيرى وغيرك، ثم أقبلتْ سارة إلى الجبار، وقام إبراهيم يصلى، وقد رفع الله الحجاب بينه وبين سارة ينظر إليها منذ فارقته إلى أن عادت إكرامًا له وتطييبًا لقلبه.

فلما دخلت سارة على الجبار، ورآها، دهش من حسنها، ولم يملكْ نفسه أن مد يده إليها فيبست يده على صدرها، فلما رأى ذلك، عظم أمره، وقال لها: سلى ربك أن يطلق يدى؛ فإنى والله لا أوذيك، فقالت سارة: اللهم، إن كان صادقًا فيما يقول فأطلق يده، فأطلق الله يده، فوهب لها هاجر، وهى امرأة قبطية جميلة، وَرَدَّهَا إلى إبراهيم، فأقبلت إليه، فلما أحس بها، انفتل من صلاته، فقالت: كفى الله كيد الفاجر، ووهبنى هاجر، وقد وهبتها لك، لعل الله يرزقك منها ولدًا. وكانت سارة قد منعتِ الولد حين أيست، فوقع إبراهيم على هاجر، فحملت بإسماعيل - عليه

(١) ينظر: العرائس (٦٩).

السلام - وأقام إبراهيم بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيليا، وهو يضيف من يأتيه، وقد أوسع الله عليه وبسط له فى الرزق، وكان لوط بن هاران بن تارح ابن أخى إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وفى الكشاف: وكان لوط ابنَ أختِ إبراهيمَ، عليه الصلاة والسلام.

وهو أول من آمن له يوم النار، وكان معه فى هجرته وهو النبى المذكور فى القرآن المبعوث إلى سَدوم وسائر القرى الخمس المؤتفكة، وهى: سَدوم، وعمورا، وحصورا[١]، وصابورا، وفى الكشاف: صيعة، وصبور، وعمواء، ومى، وسدوم، وهى العظمى. وذكر أن سدوم جميع ما أقامت عامرة إحدى وخمسين سنة. قال الزمخشرى: قرى قوم لوط كانت خمسًا أهلك الله أربعًا بأهلها، وبقيت واحدة، وهى بلاد بين تخوم الحجاز مما يلى الأردن، وبلاد فلسطين إلا أن ذلك فى حيز الشام خراب لا أنيس به ولا حسيس.

قال الثعلبى فى العرائس[٢]: وإنما سمى لوط؛ لأن حبه ليط بقلب إبراهيم، أى: تعلق ولصق؛ فكان إبراهيم - عليه السلام - يحبه حبًا شديدًا، وهاجر معه إلى مصر، وعاد إلى الشام، فأرسله الله إلى أهل سَدُوم القرية التى قيل فيها أَجْوَرُ من قاضى سَدوم، وكانوا أهل كفر وفاحشة، فقال لهم لوط أتقطعون السبيل، وتأتون فى ناديكم المنكر ؟! وكان قطعهم السبيل إتيانَ الفاحشة بمن ورد عليهم، إذا مر عليهم المار، أمسكوه وفعلوا به اللواط. وفى ناديهم المنكر: نكاح بعضهم بعضًا.

وعن عائشة: كانوا يتحابقون فى المجالس[٣].

وعن ابن عباس[٤]: المنكر هو الحذف بالحصى، والرمى بالبنادق، والفرقعة

---

(١) وفي المسعودي (١/ ٤٥) سدوم، وعمورا، وأدموتا، وصاعورا وصابورا.

(٢) ينظر: العرائس (٩٠).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٣٦) رقم (٢٧٧٤٢)، والبخاري في « التاريخ الكبير » (٦/ ١٩٦) كلاهما من طريق روح بن غطيف عن عمرو بن مصعب عن عروة عن عائشة في قوله تعالى: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ [ ]قال: الضراط » وذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٥/ ٢٧٧) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن مردويه. قال في « القاموس » مادة (حبق): الحبق -بكسر الباء -، وك « الغراب »: الضراط، وأكثر استعماله في الإبل والغنم. وقد حَبَق يَحْبِق حَبْقًا وحَبِقًا؛ ككتف وغراب. والحَبْقَة: الضرطة.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٢٧٦)، وعزاه لعبد بن حميد.

للأصابع، ومضغ العلك، والسواك بين الناس، وحل الإزار، والسباب والفحش فى المزاح.

وقيل: السخرية بمن مر بهم.

وقيل: المجاهرة فى ناديهم بذلك العمل يرتكبونها معالنين بها لا يستتر بعضهم من بعض خلاعةً ومجانةً وانهماكًا فى المعصية.

وقالوا: لم يثر ذكر على ذكر قبل قوم لوط، فقال لوط: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦] يعنى: وجدكم تختصون بهذه الفاحشة، والعالمون على هذا القول كل ماينكح من الحيوان، قاله فى الكشاف. و« من أزواجكم » يصلح أن يكون بيانًا لما خلق، وأن يكون للتبعيض، ويراد بما خلق العضو المباح منهنَّ وفى قراءة ابن مسعود: « ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم »، وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم، فكذَّبوه، فلم يزدهم وعظه إلا تماديًا، فسأل الله فيهم، فأرسل الله الملائكة بقلب سدوم والمؤتفكات؛ فجعلوا طريقهم على إبراهيم - عليه السلام - فما لبث أن جاء بعجل حنيذ، فلم يأكلوا، فأوجس منهم خيفة، فقالت لهم زوجته سارة: مالكم تمتنعون من طعام نبى الله ؟ فبشروها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وكانت سارة يومئذ ابنة تسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة، فقالت: ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ... ﴾ إلى آخر الآيتين [هود: ٧٢] ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ ﴾ [هود: ٧٤] قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [إبراهيم: ٣٩] وسألهم فيما أتوا ؟ فقالوا أتينا بهلاك قوم لوط، قال إبراهيم: ياجبريل، إن كان فيها خمسون بيتًا من المسلمين، أتهلكهم ؟ فقال: لا، فقال إبراهيم: وأربعون ؟ قال: لا، قال: وثلاثون ؟ قال: لا، قال: وعشرة ؟ قال: لا، قال: وواحد ؟ قال: لا، ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٢] فلما وصلت الملائكة إلى لوط، وهم فى صورة مرد حسان الوجوه، رأوه تحت البلد يسقى زرعًا له وكان زارعًا، فقالوا له: هل من قِرًى عندك الليلة ؟ فقال: إن أهل هذه القرية - لعنهم الله - قوم سوء ينكحون الرجال

ويأخذون الأموال، فما أنتم ؟ قالوا: نحن عبيد، وكان آخر النهار، فتركهم وذهب إلى البلد، وقال لامرأته: إن كَتَمْتِ عَلَيَّ الليلة فى ضيوف عندى عفوْتُ عما مضَى منك. وكانت إذا جاءه ضيفٌ ليلاً توقد فوق السطح، وإن جاءه نهارًا تدخنُ، علامةً بينها وبين قومها، فوعدته الكتمان. فغدا بهم، وقال: لا تمشوا إلا فى ظل الحائط، فقالوا: أمرنا سيدنا ألاَّ نسلك إلا وسط الجادَّة، فلما وصلوا، أوقدت النار على السطح، فجاءوا إليه يهرعون؛ كما حكى الله تعالى عنهم ذلك، وقالوا له: يا لوط ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٠] فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ [هود:٧٨] يعنى: بالتزويج لأكابركم، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود: ٧٨] فكان من جوابهم قولهم: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ... ﴾ إلى آخره [هود:٧٩] فناشدهم الرحم وهم على العناد، فقال له جبريل: افتح لهم، فقال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠] وقال: من أنت ؟ قال: جبريل، قال: بماذا أتيت ؟ قال: بهلاكهم، قال: متى ؟ قال: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ﴾ [هود: ٨١] فاستبطأ لوط ذلك، فقال له جبريل - عليه السلام -: ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١] فضرب جبريل بجناحه فأعمَى كلَّ من فى المدينة، وكان فيهم عابد وعالم؛ فكان العابد يقول لهم: ندعو عليه، والعالم يحذرهم وينهاهم عن مخالفته. فذهبوا إلى العابد ليدعو، فدعا فلم يستجبْ له، فذهبوا إلى العالم، فقال لهم: احفظوا لوطًا؛ فإنه مادام فيكم لم ينزلْ عليكم العذاب، فأحاطوا بداره جميعًا، وكان جبريل أمره أن يطلع ليلاً، فلما جاء عند الصبح رآه باقيًا فى مكانه، فقال: لم لا تطلع ؟ فاعتذر بشدة اجتماعهم على داره، وأنه لا يمكنه ذلك، فضرب جبريل الأرض بقضيب فانفتحَ سرداب فيه قضيب من نور إلى ظاهر البلد، فقال: اتبعه: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ [هود: ٨١] فخرجوا مسرعين، فتبعتهم امرأته، فسمعت من خلفها هدة فالتفتت، فسقطتْ عليها صخرة فأهلكتها.

وفى الكشاف: قيل: إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمر عليهم من الحجارة؛ لكونها راضية ومحرّشة، والراضى بالمعصية فى حكم العاصى.

وأما الأمطار: فعن قتادة: أمطر الله على شِذَادِ القومِ حجارةً من السماء فأهلكتهم[١]. قال الزمخشرى: الحاصب لقومِ لوطٍ، وهى ريح عاصف فيها حصباء، وقيل: ملك كان يرميهم.

قال الشريف أبو محمد هارون المأمونى: لما سمعت الصوت امرأة لوط، قالت: واقوماه، فأدركها حجر فقتلها؛ لأنهم كانوا قد أمطر الله عليهم حجارة من سجيل، فهلكت مع القوم. فلما كان الصبح، اقتلع جبرائيل أرضهم سَدُوم وقراها بمن فيها، وكان فيها أربعة آلاف ألف فرفعها من سبع أرضين حتى بلغ بها السماء، وسمع أهل السماء بنبح كلابهم وصياح ديكتهم، ولم يُكْفَأْ لهم إناء، ولم ينتبه لهم نائم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها، وأمطر الله الحجارة على من لم يكنْ بالقرى فأهلكهم، وكان ذلك بعد مضى تسع وتسعين سنة من عمر إبراهيم، عليه السلام.

وعن أبى جعفر محمد بن على الباقر - رضى الله عنهم - أن قوم لوط كانوا من أفضل قومٍ خلقهم الله تعالى، وكان من فضلهم أنهم إذا خرجوا للعمل، خرجوا بأجمعهم، وبقى النساء خلفهم، فحسدهم إبليس على عبادتهم، فكانوا إذا رجعوا، خرب إبليس مايعملون، فرصدوه فإذا الذى يخرب متاعهم غلام حسن، فاجتمع رأيهم على قتله، وبيتوه عند رجل منهم، فلما كان الليل صاح، فقال له الرجل: مالك ؟ فقال: كان أبى ينومنى على بطنى، فلم يزل بذلك الرجل حتى علمه يعمل بنفسه، فأولاً علمه إبليس، والثانية علمه هو، ثم انسلّ اللعين ففر منهم، فجعل الرجل يحدّث بما فعل الغلام فأعجبهم، فوضعوا أيديهم فيه حتى اكتفى الرجال بالرجال، فجعلوا يرصدون مارَّ الطريق يفعلون به، حتى تنكب الناس مدينتهم، ثم تركوا نساءهم، وأقبلوا على الغلمان، فلما رأى إبليس أنه قد أحكم أمره في الرجال، أتى إلى النساء وصير نفسه امرأة، وقال: إن رجالكم يفعل بعضهم ببعض، قالو: نعم، ولوَّط بعضهم حتى استغنى النساء بالنساء.

فلما كملت عليهم الحجة أرسل الله جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فى زى غلمان

---

(١) أخرجه الطبري في « تفسيره » (١٠/١٣٩) رقم (٢٧٧٦٢)، وذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٥/٢٧٧) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر.

عليهم أقبية، فمروا بلوط وهو يحدث إلى آخر ماتقدم.

وأما قبر لُوطٍ: فهو فى قرية تسمى كفر بريك عند مسجد الخليل - عليه السلام - بنحو فرسخ، ونقل أن فى المغارة الغربية تحت المسجد العتيق ستين نبيًا، منهم عشرون مرسلاً. وهذا المكان مشهورٌ بالفضل، ويزار على فرسخ من حرا، جبل صغير مشرف على بحيرة زُغر، وبموضع قريات لوط مسجد بناه أبو بكر محمد بن إسماعيل الصاحى، فيه مرقد إبراهيم - عليه السلام - قد غاص فى الصخر بنحو ذراع، يقال: إن إبراهيم - عليه السلام - لما رأى قريات قوم لوط فى الهواء، وقف - أو رقد - ثم قال: أشهد أن هذا هو الحق اليقين؛ فلذلك سمى مسجد اليقين.

وكان بناء هذا المسجد فى شهر شعبان سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، وبظاهر المسجد مغارة بها قبر فاطمة بنت الحسن بن على بن أبى طالب - رضى الله عنهم - وعند قبرها رخامة مكتوب عليها بالكوفى: [من البسيط]

أَسْكَنْتُ مَنْ كَانَ بِالْأَحْشَاءِ مَسْكَنُهُ ... بِالرَّغْمِ مِنِّىَ بَيْنَ التُّرْبِ وَالْحَجرِ
أَفْدِيكِ فَاطِمَةٌ مِمَّا رُمِيتِ بِهِ ... بِنْتَ الْأَئِمَّةِ بِنْتَ الْأَنْجُمِ الزُّهُرِ

ولنعد إلى تمام قصة إبراهيم - عليه السلام - إذ قصة لوط وقعتْ فى البين؛ لاتصالها بها اتصال السمع بالعين:

لما أوجس إبراهيم - عليه السلام - من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا ماقدمه لهم، ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ وَٱمْرَأَتُهُۥ ﴾ أى: والحال أن امرأته، أى: إبراهيم ابنة عمه سارة: ﴿ قَآئِمَةٌ ﴾ تخدمهم، ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ [هود: ٧١] تعجبًا أن يكون لها ولد بعد بلوغ تسعين عامًا، فالضحك على حقيقته المعروفة.

وقال مجاهد: ويمكن ضحكتْ: حاضت؛ تقول العرب: ضحكتِ الأرنبُ: إذا حاضت (١).

قال السدّيُّ: فحملت سارة بإسحاق، وكانت هاجر قد وقع عليها إبراهيم - عليه السلام - بعد أن وهبتها له سارة، فحملت بإسماعيل، فوضعتا، فشبَّ الغلامان فتسابقا، فسبق إسماعيل، فأخذه إبراهيم وأجلسه فى حجره وأجلس إسحاق إلى

(١) أخرجه الطبري في « تفسيره » (٧/ ٧٢) رقم (١٨٣٣٤) وذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٢/ ٦١٦) وعزاه لابن جرير.

جانبه، فغضبت سارة، وقالت: عمدت إلى ابن الأمة، فأجلسته إلى حجرك، وعمدت إلى ابنى فأجلسته إلى جانبك، وأخذها ما يأخذ النساء من الغيرة، فحلفت لتقطعنَّ منها ثلاثة أعضاء أو تغيرن خلقتها. ثم ثاب إليها عقلها فتحيرتْ فى يمينها، فقال إبراهيم: اخفضيها واثقُبِى أذنيها، ففعلت وحلَّتْ من يمينها، فصار ذلك سنة فى النساء.

والخِفَاض للنساء كالختان للرجال.

ثم إنه تهارش إسماعيل وإسحاق كما يتهارش الصبيان؛ فغضبت سارة على هاجر، وحلفت ألاَّ تساكنها فى بلد واحد، وطلبت من إبراهيم - على نبينا وعليه السلام وعلى سائر الأنبياء - أن يعزلها عنها، فأوحى إلى إبراهيم أن يأتى بهاجر وابنها إلى مكة، فذهب بها حتى قدم مكة، وهى إذ ذاك عضاه وسلم، وموضع البيت ربوة حمراء، فعمد بها إلى الحِجْر - بكسر الحاء - فأنزلها فيه، وأمرها أن تتخذ فيه عريشًا، ثم انصرف، فتبعته هاجر، فقالت: آلله أمرَكَ بهذا ؟ قال: نعم، قالت إذن لا يضيعنا، فرجعت عنه، وكان معها ماء فى شن فنفد، فعطشت وعطش ابنها، فنظرت إلى الجبل، فلم تر داعيًا ولا مجيبًا، فصعدت على الصفا، ثم هبطت إلى المروة وعينها من ولدها، حتى نزلت فى الوادى، فغابتْ عنه، فهرولَتْ حتى صعدت الجانب الآخر فرأته، فاستمرت إلى أن صعدت المروة، فما رأت أحدًا، فترددت كذلك سبعًا، فعادت إلى ولدها وقد نزل جبريل - عليه السلام - فضرب بجناحه الأرض، فنبع الماء، فرجعت هاجر إليه وحبسته عن السيلان، وهى تقول: « زم زم » تكررها، فسميت: زمزم لذلك. وفى لفظ النبوة: « لولا أنها أعجلت لكانت عينًا معينًا »، فشربتْ وأرضعت ابنها، وقال لها جبريل: لا تخافى الضيعة؛ فإن ههنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه.

وركب إبراهيم منصرفًا من يومه، وكان ذلك بوحى من الله تعالى.

قالوا: ثم مرت رفقة من جرهم تريد الشام، فرأوا طيرًا تحوم على جبل أبى قبيس، فقالوا: إن هذا الطير يحوم على ماء، فتبعوه فأشرفوا على بئر زمزم، فقالوا لهاجر: إن شئت نزلنا معك والماء ماؤك، فأذنتْ لهم فنزلوا معها، فهم أول من سكن مكة على هذه الرواية؛ لكن الأصح أن العمالقة أول من سكنها؛ كما ذكر ذلك

فى ترتيب من بنى البيت عبد اللطيف بن أبى كثير بقوله: [من الطويل]

بَنَى الْكَعْبَةَ الْغَرَّاءَ عَشْرٌ ذَكَرْتُهُمْ وَرَتَّبْتُهُمْ حَسْبَ الَّذِى أَخْبَرَ الثِّقَهْ
مَـلاَئِكَـةُ الـرَّحْـمَـنِ آدَمُ وَابْنُـهُ كَذَاكَ خَلِيلُ اللهِ ثُمَّ الْعَمَالِقَهْ
وَجُرْهُمُ يَتْلُوهُمْ قُصَىٌّ قُرَيْشُهُمْ كَذَا ابْنُ زُبَيْرٍ ثُمَّ حَجَّاجُ لاَحقهْ

وزاد بعضهم فقال: [من الطويل]

وَمِنْ بَعْدِ عَامِ الْأَرْبَعِينَ لَقَدْ بَنَى مُرَادٌ حَمَاهُ اللهُ مِنْ كُلِّ طَارِقَهْ

وقد ذكر الأزرقى من خبر العمالقة ما يقتضى سبقهم فى سكنى مكة لجرهم؛ فإنه روى بسنده إلى سيدنا عبد الله بن العباس - رضى الله عنهما - أنه قال: كان بمكة حى يقال لهم: العماليق، من نسل عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكانوا فى عزٍّ وثروةٍ، كانت لهم خيل وإبل وماشية تسعى حول مكة، وكانت العضاه ملتفة، والأرض مبقلة، وكانوا فى عيش رخىٍّ، فبغوا فى الأرض، وأسرفوا على أنفسهم، وأظهروا الظلم والإلحاد، وتركوا شكْرَ الله تعالى، وكانوا يكرون الظل ويبيعون الماء، فسلبوا النعمة، وأخرجهم الله من مكة بأن سلط الله عليهم النمل حتى خرجوا من الحرم، ثم ساقهم الجدب حتى ألحقهم بمساقط رءوس آبائهم ببلاد اليمن، فتفرقوا وهلكوا. انتهى

ولما نزلوا على زمزم أهدوا إليها عشرًا من الغنم، فيقال: إن جميع أغنام بنى إسماعيل من نسل تلك العشرة. وتوفيت هاجر أم إسماعيل وقبرها فى الحجر، فتزوج إسماعيل من جرهم، فتكلم بلسانهم، فيقال لبنى إسماعيل: « العرب المستعربة »، ويقال لجرهم وقحطان: « العرب العاربة »، ويقال لطَسْم وجَديس وَعِبيل: « العرب البائدة »؛ لأنهم بادوا وهلكوا جميعًا.

قال العلامة المسعودى فى مروجه: بنو نزار تنكر تعلم إسماعيل العربية من جرهم، وتدَّعى أن الله تعالى علمه هذه اللغة، قالوا: ولغة جُرهم غير هذه اللغة؛ ونحن نؤيد ذلك، فقد وجدنا لغة بنى قحطان تخالف لغة بنى نزار، وذلك يقتضى إبطال قول من قال: إن إسماعيل أعرب بلغة جرهم. انتهى ماقاله المسعودى.

قال التقى الفاسى، رحمه الله: قال ابن هشام - بعد أن ذكر أن قبرها وقبر ابنها جعلا فى الحجر عند الكعبة - ما نصه: تقول العرب: هاجر وآجر، فيبدلون الألف

من الهاء؛ كما قالوا فى هراق الماء وأراق الماء. وهاجر من أهل مصر. وقال: حدثنا عبد الله بن وهب، عن عبد الله بن لهيعة، عن عمر مولى غُفرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: « الله الله فى أهل الذمة، أهل الدرة، السود السحم الجعاد؛ فإن لهم نسبًا وصهرًا [١] » قال عمر مولى غفرة: نسبهم؛ لأن أم إسماعيل منهم، وصهرهم أن رسول الله ﷺ تسرَّى فيهم[٢]. قال ابن لهيعة: أم إسماعيل هاجرمن قرية كانت أمام الفَرما من مصر، والفرما: مدينة تنسب إلى صاحبها الذى بناها، وهو الفرما بن فيلفوس. وقيل: ابن فيلبس، ومعناه: محب الفرس[٣]. انتهى

وقال العلامة أبو القاسم السهيلى فى الروض الأُنفِ: كانت هاجر لملك الأردن، واسمه صارون فيما ذكره القتيبيّ، دفعها إلى سارة حين أخذ سارة من إبراهيم إعجابًا منه بجمالها، فصرع مكانه لما أراد الدنو إليها، فقال: ادعى الله أن يطلقنى. الحديث؛ كما تقدَّم ذكر ذلك؛ وهذا الحديث مشهور فى الصحاح، فأرسلها وأخدمها هاجر، فوهبتها سارة لإبراهيم، وكانت هاجر قبل ذلك بنت ملك من ملوك القبط بِمِصْرَ، والقِبْط أولاد قبط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح، عليه السلام.

وذكر من حديث سيف بن عمر؛ أن عمرو بن العاص حين حاصر مصر، قال لأهلها: إن نبينا عليه الصلاة والسلام قد وعدنا بفتحها، وقد أمرنا أن نستوصى بأهلها خيرًا؛ فإن لهم نسبًا وصهرًا، فقالوا: هذا نسب لا يحفظُ حقه إلا نبى؛ لأنه نسب بعيد. وصدق، كانت أمكم امرأة لملك من ملوكنا، فحاربنا أهل عين الشمس[٤]، فكانَتْ لهم علينا دولة، فقتلوا الملك واحتملوها، فمن هنالك تصيرت[٥] إلى أبيكم إبراهيم[٦].

(١) إسناده ضعيف وهو أيضًا مرسل، عبد الله بن لهيعة ضعيف الحديث لكن الراوي عنه هنا ابن وهب ورواية العبادلة عنه أقوى، وعمر مولى غفرة ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهم التهذيب (٧/ ٤٧١)، وقال الحافظ في « التقريب » (٢/ ٥٩): ضعيف وكان كثير الإرسال. وينظر الحديث في « السيرة النبوية » (١/ ٢٠-٢١). والروض الأنف (١/ ١٦).
(٢) ينظر: السيرة النبوية (١/ ٢١).
(٣) ينظر: السيرة النبوية (١/ ٢١)، والروض الأنف (١/ ١٨). وفي الروض: « الفرما بن قيلقوس ويقال فيه: ابن قليس، . ومعناه: محب الفرس ».
(٤) في الروض: « عين شمس ».
(٥) في ط: تسيرت، والمثبت من الروض الأنف.
(٦) ينظر الروض الأنف (١/ ١٦).

قلت: وقول السدى فيما تقدم: إن سبب إخراج إبراهيم هاجر إلى الحرم إنما كان بسبب غضب سارة على هاجر حين تسابق الغلامانِ، وسبَقَ إسماعيل إسحاق، ولإقعاد إبراهيم - عليه السلام - إسماعيل فى حجره، وإقعاد إسحاق إلى جانبه، وقول سارة: عمدتَ إلى ابن الأمة، فأجلسته فى حجرك. . .إلى آخره ليس بصحيح، وكذا قوله: تهارش إسماعيل وإسحاق كما يتهارش الصبيان، فغضبت ليس بصحيح، بل الصحيح: أن سبب إخراجها محض الغيرة؛ كما رأيته فى غالب كتب السير ثم إنه ذكر أن إسماعيل كان طفلاً إذ ذاك لا يهارش ولا يسابق. انتهى

وذكر النووى والسهيلى: أنها ماتَتْ وسنُّ ولدها إسماعيل عشرون سنة. وروى الأزرقى، عن ابن إسحاق؛ أن إبراهيم لما أمر ببناء البيت، أقبل من أرمينية على البراق حتى انتهى إلى مكة، وبها إسماعيل وعمره يومئذ عشرون سنة، وقد توفيت أمه قبل ذلك، وهذا يقتضى أن أمه توفيت وسنه دون عشرين؛ لأنها ماتت قبل قدوم إبراهيم، وقدم إبراهيم وإسماعيل ابن عشرين سنة، ثم إن إبراهيم - عليه السلام - استأذن سارة فى زيارة ابنه وأمه، فأذنت له، واشترطت ألا ينزل عندها، فقدم إبراهيم - عليه السلام - وقد ماتت هاجر، فأتى ببيت إسماعيل، فوجد امرأته، فقال لها: أين صاحبك ؟ فقالت: ذهب يتصيد، وكان إسماعيل يخرج من الحرم إلى الحل، فيصيد ما يتعيش به، فقال لها: هل عندك ضيافة من طعام أو شراب ؟ قالت: ليس عندى شىء، فقال لها: إذا جاء زوجك، فأقرئيه منى السلام، وقولى له: غَيِّرْ عتبَةَ بيتك، وذهب إبراهيم - عليه السلام - فلما جاء إسماعيل - عليه السلام - قالت له: جاءنى رجل شيخ صفته كذا وكذا، أقرأك السلام، وقال: غير عتبة بيتك، فقال لها: الحقى بأهلك، وتزوَّجَ غيرها. فمكث إبراهيم مدة، ثم استأذن فى الزيارة، فجاء إلى مكة، وقدم على منزل إسماعيل، فوجده غائبًا فى الصيد كذلك، فقال لامرأته: أين ذهب صاحبك ؟ قالت: ذهب يتصيد، ورحبَتْ به، وقالت له: اجلس يرحمك الله، وجاءته بلحم ولبن وماء، فأكل وشرب، وقالت له: ياعم، هلم حتى أغسل رأسك وأزيل شعثك، وجاءت بحجر - قيل: هو حجر المقام الذى بنى عليه الكعبة بعد - فجلس عليه فغاصت رجلاه فى الحجر، فغسلت شقه الأيمن ثم الأيسر، ثم أفاضت الماء على رأسه وبدنه إلى أن فرغت. فتوجَّه من

عندها، وقال لها: إذا جاء صاحبك فأقرئيه منى السلام، وقولى له: قد استقامَتْ عتبة بيتك، فالزمها، فلما جاء إسماعيل، وجد رائحة أبيه، فقال لها: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم، جاءنى شيخ من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم ريحًا، فأضفته وسقيته وغسلته، وهذا موضع قدميه، وحين توجه قال لى: أقرئى صاحبك منى السلام، وقال كذا وكذا، قال إسماعيل: نعم، أمرنى أن أثبت معك. وقبل موضع قدمى أبيه من الحجر، وحفظه يتبرَّكُ به إلى أن بنى فيما بعدُ إبراهيمُ - عليه السلام - الكعبة.

ثم بعد ذلك: قدم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إلى مكة، وبنى الكعبة الشريفة، فلما فرغ من بنائها، أمره الله أن يؤذِّنَ فى الناس بالحج، فقال: ياربِّ، وماعسى أن يبلغ مدى صوتى؟ فقال تعالى: عليك النداء، وعلينا البلاغ، فصعد على جبل ثبير - وقيل: فى الحَجُون، وقيل: على ظهر الكعبة - ونادى: يا عباد الله، إن ربكم قد بنى بيتًا، وأمركم أن تحجوه، فحجوا، وأجيبوا داعى الله. فأسمع صوته جميع من فى الدنيا ومَنْ سيولد ممن هو فى أصلاب الرجال وأرحام الأمهات، فأجابه من سبق فى علم الله أنه سيحُجُّ: لبيك لبيك. وكان حج من حج بعدد تلبيته السابقة، إنْ خمسًا فخمس، أو عشرًا فعشر، أو أقل أو أكثر فبحسبه، فسبحان القدير على كل شىء لا إله غيره(١).

قال فى الإعلام: روى كعب الأحبار، عن رجال قالوا: لما رأى إبراهيم فى المنام أن يذبح ابنه، وتحقق أنه أمرُ ربه، قال لابنه: يا بني، خذ المدية والحبل، وانطلق بنا إلى هذا الشِّعْبِ لنحتطبَ لأهلنا، فأخذ المدية والحبل وتبع والده، فتمثل الشيطان رجلاً فأتى أم الغلام فقال: أتدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: ذهب ليحتطبَ لنا من هذا الشعب، فقال لها الشيطان: لا والله، ما ذهب إلا ليذبحه، قالت: كلا، هو أشفق منى عليه وأشدُّ حبًا، قال: إنه يزعم أن الله أمره بذلك، قالت: فإن كان الله أمره بذلك فليطع أمره، فخرج الشيطان حتى أدرك الابْنَ على أثر أبيه، وهو يمشى، فقال: ياغلام، أتدرى أين يذهب بك أبوك؟ قال: نحتطبُ

(١) ورد هذا مسندًا عن ابن عباس أخرجه البخاري (٧/٤٦-٤٨) كتاب أحاديث الأنبياء: باب يزفون النسلان في المشي، حديث (٣٣٦٤) من طريق سعيد بن جبير عنه.

لأهلنا من هذا الشِّعْب، قال: كلا؛ زعم أن الله أمره بذبحك، فقال الغلام: فليفعلْ ما أمر الله به، وسمعًا وطاعةً لأمر الله تعالى، فأقبل الشيطان على إبراهيم، فقال: أين تريد أيها الشيخ بهذا الغلام ؟ قال: أريد هذا الشِّعْبَ لحاجة لى فيه، فقال له: إنى أرى الشيطان خدعك بهذا المنام الذى رأيته، وأنك تذبح ولدك وفلذة كبدك، فتندم بعد حيث لا ينفعك الندم، فعرفه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وقال: إليك عنى يا ملعون، والله لأمضينَّ لأمْرِ ربى، فنكص إبليس على عقبيه بخزيه وغيظه، ولم ينلْ من إبراهيم شيئًا.

ويقال: إن مواضع الجمار الثلاث هى مواقف الشيطان التى رجمه إسماعيل فيها لما اعترضه للغواية، بقى الرجم إليها سُنَّةً فى شرعنا دحضًا للشيطان.

فلما خلا به إبراهيم فى الشعب - ويقال: كان ذلك فى ثبير - قلت: المشهور فى ثبير أنه المطل على مسجد الخيف، والمنحر المشهور فى سفحه. وتصح الرواية؛ فإن المقابل يقال له: ثبير رم نصَّ عليه العلامة الفاسى وغيره، وعدَّها سبعة أثبرة وبيَّنها. انتهى

ولما خلا به فى الشعب، قال له: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ... ﴾ الآية [الصافات: ١٠٢] فحدثت أن إسماعيل قال له عند ذلك: يا أبتاه، إذا أردت ذبحى، فاشدد وثاقى لايصيبك من دمى فينقص أجرى؛ فإن الموت شديد، ولا آمن أن أضطربَ عنده إذا وجدتُ مَسَّهُ، واستحدَّ شفرتك حتى تجهزَ عليَّ، فإن أنتَ أضجعتنى فاكْفِنِي على وجهى، ولاتضجعنى لشقِّى؛ فإنى أخشى إن نظرتَ إلى وجهى أن تدركَكَ الرأفة، فتحول بينك وبين أمر ربك، وأن تردَّ قميصى إلى أمى، فعسى أن يكون إسلاء لها مابقى، فقال له إبراهيم: نعمَ العون أنت يا بني على أمر الله، فيقال: إنه ربطه بالحبل كما أمره فأوثقه، ثم حد شفرته، ثم تلَّه للجبين، أى: صرعه إلى الأرض، واتقى النظر إلى وجهه، ثم أدخل الشفرة حلقه فقلبها جبريل - عليه السلام - فى يده، ثم اجتذبها إليه: ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ... ﴾ الآية [الصافات: ١٠٥] فهذه ذبيحتك فداءً لابنك فاذبحها دونه، وأتاه بكبش من الجنة.

قال الفاكهى: ذكر أهل الكتاب وكثير من العلماء: أن الكبش الذى فدى به

إسماعيل هو الكبش المتقبل من قربان ابنَىْ آدم قابيل وهابيل، حين قَرَّباَ قربانًا، وهو الذى قرّبَهُ هابيل، كما فى الآية الشريفة؛ روى ذلك بسنده عن ابن عباس.

فانظر - رحمك الله - إلى طاعة هذا الوالد لأمر الله تعالى من ذبح قرة عينه وقطعة كبده، وإلى طاعة هذا الولد لأمر والده وانقياده لذلك راضيًا مستسلمًا باذلاً روحه لله تعالى، وانظر إلى هذه الوالدة الشفيقة الرحيمة وإطاعتها لأمر الله تعالى وأمر زوجها. انتهى

ثم ولد لإسماعيل - عليه السلام - من زوجته آسية بنت مضاض بن عمرو الجرهمى اثنا عشر رجلاً، منهم نابت أو نبت، وقيدار، ويطور.

قال ابن هشام فى السيرة: حدثنا زياد بن عبد الله البكائى، عن محمد بن إسحاق المطلبى قال: ولد لإسماعيل بن إبراهيم اثنا عشر رجلاً: نابت، وقيدار، وأدبيل، ومبسام، ومسمع، وماشى، ودوما، وأذر، وتيماء، ويطور، ونبش[(١)]، وقيذما، كلُّهم من آسية، وقيل: رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى، وكان أكبرهم نابت[(٢)].

وقال السهيلى: أكبرهم قيدار.

ورأيت للبكرى ما هو صريح أن دومة الجندل البلد المعروفة بلد أكيدر التى غزاها خالد بن الوليد، عرفت بدوما بن إسماعيل، وكان نزلها. فلعل ذلك مغير منه. وذكر أن الطور سمى بيطور بن إسماعيل النبى - عليه الصلاة والسلام - ولعله محذوف الياء إن كان يصح ما قاله.

وأما الذى قاله أهل التفسير فى الطور، فهو كل جبل ينبت الشجر، فإن لم ينبت شيئًا، فليس بطور.

وفى كتاب التيجان[(٣)]: قال وهب: حدثنى ابن عباس - رضى الله عنهما - أن

(١) في ط: ومبسام. والمثبت من السيرة.
(٢) ينظر السيرة النبوية (١/ ١٩)، وفيه: « ولد إسماعيل اثنى عشر رجلاً: نابتا، وقيدر (وفي الروض: قيذر)، وأذبل ومنشا، ومسمعا، وماشى ودما، وأذر، وطيما، ويطورا، ونبش، وقيذما »، وفسر السهيلي في الروض (١/ ١٥) « قيذما » بأنه: « صاحب الإبل؛ وذلك لأنه كان صاحب إبل إسماعيل ».
(٣) وهو لابن هشام، صاحب السيرة.

إبراهيم الخليل - صلى الله على نبينا وعليه وعلى سائر النبيين وسلم - دخل ذات يوم وعلى عنقه قيدار بن إسماعيل صغيرًا، فجاء إليه يعقوب وعيص ابنا ابنه إسحاق، فأخذهما إلى صدره، فنزلت رجل قيدار اليمنى على رأس يعقوب. ورجله اليسرى على رأس عيص، فغضبت أمهما، فقال لها إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -: لا تغضبى؛ فإن أرجل أولاد هذا الذى على عنقى على رؤوس هؤلاء بمحمد ﷺ. انتهى

وخبر ابن عباس هذا يدل على أن نسب عدنان يرجع إلى قيدار بن إسماعيل، وهو الذى رجحه السهيلى وجماعات، لا إلى نابت بن إسماعيل.

وعاش إسماعيل مائة وثلاثين عامًا، ومات ودفن بالحجر مع أمه. وعمود النسب المحمدىّ قيدار، وكان هو الملك فى زمانه بعد إسماعيل، وكان هو صاحب إبل إسماعيل، وهو معنى قيدار.

ثم ولد لقيدار زيد، وهو الهميسع، ثم ولد للهميسع أدد، ثم ولد لأدد أد، ثم ولد لأد عدنان.

قال العلامة أبو القاسم السهيلى فى شرحه لسيرة ابن هشام المسمى بالروض الأنف: قال القتيبى: وما فوق عدنان إلى إسماعيل من الأسماء مضطربٌ فيه؛ فالذى [صح] (١) عن رسول الله ﷺ أنه انتسب إلى عدنان لم يتجاوزه؛ بل قد روى من طريق ابن عباس؛ أنه لما بلغ عدنان قال: كذب النسابون« مرتين أو ثلاثًا »، وروى عن عمر - رضى الله عنه - أنه قال: إنما ننسب إلى عدنان، وما فوق ذلك لاندرى ما هو.

وأصحُّ شيء يروى فيما فوق عدنان إلى إسماعيل ما ذكره الدولابى أبو بشر، من طريق موسى بن يعقوب عن عبد الله بن وهب بن زَمعة الزمعى، عن عمته، عن أم سلمة زوج النبى ﷺ، عن النبى ﷺ أنه قال: معدُّ بن عدنان بن أدد (٢) بن زند [بالنون] (٣) بن اليرى(٤) بن أعراق الثرى. قالت أم سلمة: فزند هو الهميسع، واليرى هو نبت، وأعراق الثرى هو إسماعيل؛ لأنه ابن إبراهيم، وإبراهيم - عليه

---

(١) المثبت من الروض.
(٢) في ط: « عدنان بن أد بن أدد ».
(٣) المثبت من الروض.
(٤) في ط: يرى.

السلام - لم تأكله النار؛ كما أن النار لا تأكل الثرى[١].

وأصحاب الأخبار لا يختلفون فى بُعد المدة بين عدنان وإسماعيل، ويستحيل فى العادة أن يكون بينهما أربعة آباء أو سبعة؛ كما ذكره ابن إسحاق [٢] أو عشرة أو عشرون؛ فإن المدة أطول من ذلك كله؛ وذلك أن معد بن عدنان كان فى مدة بخت نصر ابن اثنتى عشرة سنة، وذكر أن الله تعالى أوحى فى ذلك الزمان إلى إرميا بن حلقيا؛ أن اذهب إلى بخت نصر، فأعلمه أنى قد سلطته على العرب، واحمل معدًّا على البراق كيلا تصيبه النقمة فيهم؛ فإنى مستخرجٌ من صلبه نبيًّا كريمًا أختم به الرسل ﷺ. فاحتمل معدًّا على البراق إلى أرض الشام، فنشأ فى بنى إسرائيل، وتزوَّج امرأة هناك اسمها معانة بنت جوشن من بنى ريث بن جرهم، ويقال: إن اسمها ناعمة، وبينه وبين إبراهيم فى ذلك النسب نحو من أربعين جدًّا. وقد ذكرهم كلهم أبو الحسن المسعودى [٣] على اضطراب فى الأسماء وتغيير فى الألفاظ؛ ولذلك - والله أعلم - أعرض النبى ﷺ عن رفع نسب عدنان إلى إسماعيل؛ لما فيه من التخليط والتغيير للألفاظ وعواصة تلك الأسماء مع قلة الفائدة فى تحصيلها.

ثم ولد لعدنان ابنان: معدٌّ وهو عمود النسب المحمدى، وعَكّ. وكان رجوع معد إلى أرض الحجاز بعد ما رفع الله بأسه عن العرب، ورجعت بقاياهم التى كانت فى الشواهق إلى محالِّهم ومياههم، بعد أن دوخ بلادهم بخت نصر، وخرب المعمور، واستأصل أهل حضور، وهم الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً...﴾ الآية [الأنبياء: ١١] وذلك لقتلهم شعيب بن ذى مهدم، أرسله الله إليهم وقبره بصبر جبل باليمن، وليس بشعيب الأول صاحب مَدْين. وكذلك أهل عدن قتلوا نبيًّا لهم اسمه حنظلة بن صفوان؛ فكان سطوة الله بالعرب لذلك، نعوذ بالله من غضبه وأليم عقابه.

واشتقاق عدنان: من عَدَنَ بالمكان: إذا أقام به. ولعدنان ابنان آخران: عكك، وعمرو. واشتقاق مَعَدّ فيه ثلاثة أقوال، أقربها: من المَعْد، بسكون العين، وهو القوة.

ثم ولد لمعد نزارٌ، وقُضاعة، وقنص، وإياد؛ لكن المشهور فى قضاعة أنه من

(١) ينظر الروض الأنف (١/ ١١).
(٢) ينظر سيرة ابن هشام (١/ ١٨).
(٣) ينظر مروج الذهب (٢/ ٢٧٢، ٢٧٣).

القحطانية لا العدنانية؛ شاهد ذلك قول الشاعر: [من الرجز]

نَحْنُ بَنُو الشَّيْخِ الْهِجَانِ الأَزْهرِ قُضَاعَة بن مَالِكِ بْن حِمْيَرِ

إلا أن يكون كذلك سمى، ونزار هو عمود النسب المحمدىّ، وهو اسم نقل من النَّزْرِ، وهو القليل، وكان مَعَد حين ولد له نزارٌ، ونظر إلى نور النبوة الذى كان ينتقل فى الأصلاب إلى عبد الله، فرح فرحًا شديدًا، ونحر جزائر كثيرة وأطعم وقال: إن هذا كله نزر لحق هذا المولود. وقيل: سبب التسمية قولُ كسرى الأوَّل حين وفد إليه: أى ابن كسى. فضائل بيسار، وجسم نزار، فالله أعلم أيا كان ذلك.

ثم ولد لنزار أربعة: مضر، وهو عمود النسب المحمدىّ، وربيعة، وإياد، وأنمار، ومضر هو أول من سن للعرب حُدَاءَ الإبل، وكان أحسنَ الناس صوتًا، وفى الحديث: « لاتسبوا مضر ولا ربيعةَ فإنَهما كانا مؤمنَيْنِ »(١) ذكره الزبير بن أبى بكر.

قال صاحب تاريخ الخميس: توفى نزار عن بنيه الأربعة، وهم: مضر، وربيعة، وإياد، وأنمار، تخالفوا فى قسمة مخلفه، وكان قد قال لهم: إن اختلفتم فى ذلك، فعليكم بالأفعى الجرهمىّ، وكان بنجران، فذهبوا إليه، وكان ذا رأى وحنكة، فلما كانوا بأثناء الطريق إذا هم بأثر بعير، فقال مضر: هذا البعيرُ أَزْوَرُ، وقال ربيعة: وأَعْوَرُ، وقال إياد: وأَبْتَرُ، وقال أنمار: وشَرُودٌ. ثم ساروا فوجدوا صاحبَ البعير يطلبه فى الشعابِ والدحال، فقالوا له: بعيرك أزور ؟ فقال: نعم، قالوا: فأبتر ؟ قال: نعم، قالوا: وأعور ؟ قال: نعم، قالوا: وشرود ؟ قال: نعم، فلم يشكَّ الرجل أنهم غرماؤه، فلازمهم إلى أن وصلوا إلى الأفعى الجرهمىّ، فقال صاحب البعير: لا أدعك أيها الشيخ أو تحكم بينى وبين هؤلاء اللصوص: ذهب بعير لى، فالتمسته فإذا وصفه عند هؤلاء الرجال فهم الفعلة، فسألهم الأفعى عن البعير، فأقسموا أنهم لم يروا البعير، ولا علم لهم به وإنما قلنا ماقلناه بالذكاء والفطنة، فقال مضر: أما أنا، فرأيتُ إحدى يديه ثابتة الوطأة، صحيحة الأثر، ورأيت الأخرَى غير ثابتة الوطأة فاسدة الأثر، فعلمت أنه أزور؛ لاعتماده على إحدى يديه بشدة، فأثرت

(١) أخرجه البلاذري في أنساب الأشراف (١/ ٣١) عن الحسن مرسلاً. وأخرجه عن عبيد الله بن خالد بلغه أن رسول الله ﷺ قال: « لا تسبوا مضر فإنه كان مسلمًا ». وقد ورد هذا موصولاً أيضًا ذكره الهندي في « كنز العمال » (١٢/ ٨٩) رقم (٣٤١١٩)، وعزاه للديلمي عن ابن عباس.

فى الأرض تأثيرًا ظاهرًا، والأخرى بخلافها. وقال ربيعة: علمت أنه أعور؛ لأنى رأيت رعيه فى الفلاة لجهة واحدة. وقال إياد: رأيت مبركه، فنظرت إلى روثه مجتمعًا تحت المخرج، فعلمت أنه أبتر، ولو كان ذيالاً لمصع به يمنة ويسرة. وقال أنمار: رأيته بينما هو فى قطعه مخصبة إذ تركها وتجاوزها إلى قطعة أخرى دونها، فعلمت أنه شرود يذكر الطلب فيدَع المرعى الخصيب حذارًا. فقال الأفعى للرجل: التمسْ بعيرك، فليسوا بأصحابه. ثم ذكروا للأفعى مخلف أبيهم نزار، وأخبروه بأمره إياهم بالرضا بقسمته بينهم، فقال: القبة الحمراء، وما أشبهها فهو لمضر، فقيل لأولاده: « مضر الحمراء ». والفرس الخضراء وما أشبهها من سلاح وأثاث فهو لربيعة، فقيل: « ربيعة الفَرس ». والناقة الصفراء وما أشبهها من البقر والغنم لإياد، فقيل لأولاده: « إياد النعم ». وما فضل من نقد وأثاث وسلاح لأنمار، فقيل لأولاده: « أنمار الفَضل » وكان الأفعى قد أضافهم ثلاثة أيام، ذبح لهم الذبائح، وسقاهم الخمر، وقد دس إليهم من يوصل إليه خبرهم غير عالمين به، فمما سمع منهم قول مضر: ما رأيت كاليوم لحمًا قط إلا أنه غذى بلبن كلبة. وقال ربيعة: ما رأيت كاليوم خمرًا قطُّ إلا أن كرمتها نبتت على قبر. وقال إياد: ما رأيت كاليوم خبزًا قطُّ، إلا أن التى عجنته حائض. وقال أنمار: مارأيت كاليوم رجلاً سريًا قطُّ لولا أنه ينسب إلى غير أبيه. فذهب الرجل إليه، فأخبره بقولهم، فكلم خدمه عن الشاة التى ذبحوها لهم فقالوا: كانت تدجن عندنا، فولدت كلبة لنا فارتضعَتْ هذه الشاة منها، فجاءت أسمن الغنم، فاخترناها لفرط سمنها. ثم سأل صاحب حانته عن الخمر فقال: هى من كرمة على قبر أبيك أغذى الكرم عنبًا. ثم سأل العاجنة فوجدها حائضًا. ثم دخل على أمه، فسألها وتهدَّدَهَا على الجَحْدِ، وأمنها على الصدق، فقالت: إن أباك الملك المطاع فى قومه لم يرزق ولدًا فخشيتُ ضياعَ الملكِ، فمكنت الخباز من نفسى، فوقع علىَّ فأتيت بك. فخرج إلى القوم وسألهم: بم علمتم ذلك ؟ فقال مضر: رأيت اللحم فوق الشحم، فعلمت أنه غذى بلبن كلبة؛ فكذلك لحوم الكلاب فوق شحومها، وقال ربيعة: إن الخمر تحدث أنسًا فرأيتُ من هذه حزنًا، فعلمت أنها اكتسبَتْ من ثرى القبر حزنًا. وقال إياد: علمت أن العاجنة حائضٌ؛ لأنى رأيت الخبزة غير مسغسغ باطنها فى الثريد بل ظاهرها. وقال أنمار:

رأيتك قدَّمت لنا الطعام ولم تحضرْ معنا عليه لغيرِ شاغلٍ، فعلمت أن هذا من لؤم الآباء، ومن انتسبتَ إليه كريم لا لئيم، فقضيت بذلك عليك. فقال الأفعى: ارحلوا؛ فما أنتم إلا شياطين. فرجعوا إلى منازلهم. فلما ضوت الرعاة بإبلهم وتعشوا، قام مضر يوصى رعاة الإبل - وفى يد أنمار عظم يتعرّقه، فدحى به فى ظلمة الليل، وهو لا يبصر، فأصاب عين أخيه مضر، ففقأها، وصاح مضر: عينى، عينى، واضعًا يده عليها. وتشاغل به أخواه، فركب أنمار بعيرًا من كرائم الإبل، فلحق بديار اليمن، وولد له بجيلة وخثعم، فكان هذا هو السبب لسكناه اليمن، وتدير بنيه إياها، والمنشأ للاختلاف فى نسبة أنمار وإدخاله فى نسب اليمن، والصحيح ما ذكرنا.

ثم ولد لمضر ابنان: إلياس، وقيس عَيْلَان بالمعجمة، وقيل: بالمهملة، وقيل: إن قيسًا ابنُ إلياس لا أخ له.

وفى اشتقاق إلياس أقوال:

منها: أنه من الألس، وهو اختلاط العقل.

ومنها: أنه من الألس وهو الخديعة.

وثالثها: وهو الأرجح: أنه من قولهم رجل أَلْيَس: إذا كان شجاعًا لا يفتر؛ قال العجاج: [من الرجز]

أَلْـيَـس عَـنْ حَـوْبَـائـهِ سَـخِـىّ

وإلياس عمود النسب المحمدىّ، ثم تزوج بخندف، واسمها ليلى أو سلمى بنت حلوان بن إلحاف بن قضاعة، فولد له منها ثلاثة أولاد: عمرو، وعامر وعمير، فنشئوا وشبوا فى حياة والديهم، فاعترضت ذات يوم أرنب فى إبل إلياس فنفرت، فخرج عمرو وعامر وأبوهما إلياس، فأدرك عمرو الإبل فردَّها، فلقب مُدْرِكة، ولحق عامر الأرنبَ فذبحها وطبخها، فلقب طابخة، وأما عمير، فلم يخرجْ من البيت وانقمع فيه - أى: أقام - فلقب قمعة: فلما أقبل هو وابناه عمرو وعامر إذا بأمهما سلمى تمشى فقال لها: إلى أين تخندفين ؟ فقالت: مازلت أخندف فى أثركم، فلقبت خِنْدِفًا، ثم أطلقوا هذا اللفظ على القبيلة؛ كما هو المعتاد فى إطلاق اسم جد القبيلة عليها نفسها؛ قالت هند ابنة عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد

مناف بن قصى ترثى أباها حين قتل يوم بدر: [من التقارب]

أَيَا عَيْنُ بَكِّى بِدَمْعٍ سرِبْ   عَلَى خَيْرِ خِنْدفَ لَمْ يَنْقَلِبْ
تَدَاعَى لَهُ رَهْطُهُ غُدْوَةً   بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو المُطَّلِبْ
يُذِيقُونَهُ حَدَّ أَسْيَافِهِمْ   يَجُرُّونَهُ عَارِيًا قَدْ سُلِبْ

ذكره ابن هشام فى سيرته(١).

والخندف: مشية فيها تمدد وتعطف بنوع بطر وإسراع.

ثم ولد لمدركة خُزَيْمَة، تصغير واحدة الخَزَم، وهو مثل الدوم يتخذ من سعفه الحبال. وتصنع من أسافله خلايا للنحل، وله ثمر لا يأكله الناس، ولكن تتألفه الغربان وتستطيبه.

ثم ولد لخزيمة كنانة، ثم تزوَّج كنانة بَرَّة بنة مُرٍّ أخت تميم بن مر؛ ذكره ابن قتيبة فى كتاب المعارف(٢)، فأولدها النضر، ثم تزوج النضر هندًا بنت عدوان بن عمرو بن قيس عيلان؛ فأولدها مالكًا، ثم تزوَّج مالك جندلة بنت الحارث الجرهمى، فأولدها فهرًا، وهذا قيل هو لقب له، والفهر من الحجارة الطويلة، وما يملأ الكف، وأما اسمه فقريش، وقيل: بل اسمه فهر، ولقبه قريش.

أقول: قال فى بحر الأنساب: فما فوق فهر إلى النضر لايكون قرشيًا، وما دونه قرشى. وقيل: إن قريشًا لقب للنضر؛ فعلى هذا ما فوق فهر إلى النضر قرشى، وهو الذى رجحه النووى تبعًا لكثيرين.

واشتقاق قريش: من التقرُّش، وهو التكسب؛ لأنهم أرباب تجارة واكتساب، وقيل: من التقريش، وهو التجميع؛ لتجمعهم وتحيزهم بمكة ونواحيها، ويقال: منه اشتقاق القرش؛ للمعاملة المعروفة؛ لأنه قطعة من الفضة مجتمعة، هذا إن كان اللفظ فيه بالقاف، فإن كان بالغين - كما قد يسمع - فلا اشتقاق.

وقيل: من القرش اسم دابة شديدة بالبحر؛ قال أبو أمية الجمحى: [من الخفيف]

وَقُرَيْشٌ هِىَ الَّتِى تَسْكُنُ البَحْـ   ـرَ بِهَا سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشَا
تَأْكُلُ الغَثَّ وَالسَّمِينَ وَلاَ تَتْـ   ـرُكُ [منها] لِذِى الْجَنَاحَيْنِ رِيشَا

---

(١) ينظر سيرة ابن هشام (٢/ ٣٨٢، ٣٨٣)، وفيه اختلاف يسير.
(٢) ينظر المعارف (٦٥).

هَكَذَا فِى الْوُجُودِ حَىُّ قُرَيْشٍ يَأْكُلُونَ الأَنَامَ أَكْلاً كَرِيشَا
سَلَّطَتْ بِالْعُلُوِّ فِى لُجَّةِ البَحـ ـرِ عَلَى سَائِرِ البُحُورِ جُيُوشَا
وَلَهُمْ آخِرَ الزَّمَانِ نَبِىٌّ يُكْثِرُ القَتْلَ فِيهِمُ وَالْخُمُوشَا

ثم ولد لفهر غالب. ثم ولد لغالب لُؤَىّ. قال السهيلى فى روضه: وهو تصغير اللأى وهو الثور؛ [الوحشي] (١) وأنشد: [من الكامل]

يَعْتَادُ أُدْحِيَةً بَقِينَ بِقَفْرَةٍ مَيْثَاءَ يَسْكُنُهَا اللأَى وَالفَرْقَدُ

وقال بعضهم: اللأى: البقرة الوحشية؛ قال: وسمعت أعرابيًّا يقول لآكَ هذه بِكم ؟ وأنشد فى وصف فلاة: [من الطويل]

كَظَهْرِ اللأَى لَوْ تَبْتَغِى رِيَّةً بِهَا نَهَارًا لأَعْيَتْ فِى بُطُونِ الشَّوَاجِنِ

والشواجن: شُعَبُ الجبال، والرية: مقلوب وَرْيَة من ورى الزند، وهى الحراق الذى يشعل به الشرر من الزناد(٢).

ثم ولد للؤى كعب، أمه سلمى بنت محارب؛ وهذا كعب أول من سمى« يوم الجمعة »، وكان يسمى« يوم العروبة »؛ فكانت قريش تجتمع إليه فى هذا اليوم فيخطبهم ويذكرهم بمبعث النبى ﷺ ويعلمهم أنه من ولده، ويأمرهم باتباعه والإيمان به، وينشد قوله: [من البسيط]

يَا لَيتَينِي شَاهِدٌ فَحْوَاءَ دَعْوَتِهِ إِذَا قُرَيْشٌ تُبَغِّى الحَقَّ خِذْلاَنَا (٣)

وقد ذكر الماوردى هذا الخبر، عن كعب فى كتاب الأحكام السلطانية.

وكعب: إما منقول من الكعب الذى هو قطعة من السمن، أو من كعب القدم، وهو عندى أشبه؛ لقولهم فى وصف الشجاع: ثبت ثبوت الكعب، وجاء فى خبر عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - أنه كان يصلى عند الحجر وحجارة المنجنيق تَمُرُّ بين أذنيه، وهو لايلتفت إليها كأنه كعب راتب(٤)، أى: ثابت.

---

(١) المثبت من الروض.
(٢) ينظر الروض (١/ ٩).
(٣) ورد هذا البيت في ط هكذا:
يا ليتني شاهدُ نجوِ آى دعوته إذا قريش تنفي الحق خذلانا
والمثبت من الروض الأنف. وينظر الروض (١/ ٨).
(٤) في ط رابت والمثبت من الروض ومعناه كما فسره المصنف. وينظر الروض (١/ ٨).

ثم ولد لكعب مُرَّة وعَدِىّ، ومُرَّة: عمود النسب، وهو منقول من وصف الحنظلة والعلقمة، وكثيرًا مايسمون حنظلة وعلقمة وعكرمة، وهى شدة ظلمة الليل.

ومرة: قال بعضهم [(١)] أحسبه منقولاً من النبات؛ لأن أبا حنيفة ذكر أن المرة بقلة تقلع فتؤكل بالخل والزيت، يشبه ورقها ورق الهندباء.

أمه: وحشية بنت شيبان بن محارب بن فهر.

ثم ولد لمرة كلاب بن مرة، وتيم بن مرة، ويقظة بن مرة. عمود النسب المحمدىّ كلاب بن مرة، أمه: نعم بنت ثعلبة بن مالك بن كنانة، من أزد الشراة، وهو إما منقول من المصدر الذى هو معنى المكالبة؛ نحو كالبتُ العدو مكالبةً وكلابًا، وإما من الكلاب جمع كلب؛ لأنهم يريدون الكثرة كما سموا سباع وأنمار. وقد قيل لأبى الدقيس الأعرابى: لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء؛ نحو: كلب، وذئب، وسنان، وعبيدكم بأحسن الأسماء؛ نحو: مرزوق، ورباح ؟ فقال: إنا نسمى أبناءنا لعدوِّنا، وعبيدنا لأنفسنا، يريد: أن الأبناء عدة للأعداء، وسهام فى نحورهم، فاختاروا لهم هذه الأسماء.

ثم ولد لكلاب قُصَىّ واسمه زيد وهو تصغير قَصى وهو البعيد لأنه بعد عن قومه كما سيأتى بيانه، وهو وأخوه زهرة بن كلاب من فاطمة بنت عمرو بن سعد بن سبَل الذى يقول فيه الشاعر، وكان أشجع أهل زمانه: [من الرمل]

لاَ أَرَى فِى النَّاسِ شَخْصًا وَاحِدًا فَاعْلَمُوا ذَاكَ كَسَعْدِ بْنِ سَبَلْ
فَارِسٌ أَضْبطُ فِيهِ عُسْرَة فَإِذَا مَا عَايَنَ الْقِرْنَ نَزَلْ
فَارِسٌ يَسْتَدْرِجُ الْخَيْلَ كَمَا يَدْرُجُ الحَرُّ القَطَامِى الْحَجَلْ

قال الأزرقى: وزهرة أكبرهما، فتزوج ربيعة بن حرام أمهما المذكورة، وزهرة رجل بالغ وقصى فطيم أو فى سن الفطيم، فاحتملهما ربيعة إلى بلاده من أرض عذرة من مشارف الشام، وتخلف زهرة فى قومه، فولدت فاطمة لربيعة رَزاح بن ربيعة وكان أخا قصى من أمه، ولربيعة بن حرام من امرأة أخرى ثلاثة بنين: حسن، ومحمود وجُلهمة بنو ربيعة، فبينما قصى بن كلاب فى أرض قضاعة لاينتمى إلا إلى ربيعة بن حرام إذ وقع بينه وبين رجل من قضاعة شىء، وكان قصى قد بلغ. فقال له

(١) ينظر الروض الأنف (١/ ٨).

القضاعى بعد أن عيَّره بالغربة: ألا تلحق بنسبك وقومك ؛ فإنك لست منا. فمضى إلى أمه - وقد وجد فى نفسه مما قال له القضاعى - فسألها عما قال، فقالت له: أنت والله يابنى خير منه وأكرم، أنت ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى، وقومك عند البيت الحرام وماحوله. فأجمع قصىٌ الخروج إلى قومه واللحاق بهم، وكره الغربة فى أرض قضاعة، فقالت له أمه: يابنى، لا تعجلْ بالخروج حتى يدخل علينا الشهر الحرام فتخرج فى حَاجِّ العرب ؛ فإنى أخشى عليك. فأقام قصى حتى دخل الشهر الحرام، وخرج فى حَاجِّ قضاعة، حتى قدم مكة، فعرف قومُه فضله وقدَّمُوهُ وأكرموه، وكانت خزاعة مستولية على البيت وعلى مكة، وقريش حلول وصرم وبيُوتات متفرقة فى قومهم من بنى كنانة، فكانت خزاعة تتوارث ذلك بينهم كابرًا عن كابر، حتى كان آخرهم حليل بن حبشية، فخطب قصى إلى حليل بن حبشية الخزاعى ابنته حبَّى، فعرف حليل نسبه فزوجه، فأتى منها بأربعة بنين: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزَّى، وعبد قصى. فكثر أولاد قصى وأولاد أولاده، وكثرت أموالهم وعظم شرفهم، وكان حليل يلى أمر البيت ومكة، فأقام قصى حتى ولدت له حبَّى عبدَ الدار، وهو أكبر أولاده، وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصى، وكان حليل يفتح البيت، فإذا اعتل، أعطى ابنته حبَّى المفتاح ففتحته، فإذا اعتلت أعطت المفتاح زوجها قصيًا أو بعض أولادها، وكان قصى يعمل فى حيازته إليه، وقطع ذكر خزاعة معه، فلما حضرت حليلاً الوفاة، نظر إلى قصى وإلى ما انتشر له من الولد من ابنته حبَّى، فرأى أن يجعلها فى ولد ابنته، فدعا قصيًا فجعل له ولاية البيت، وسلم إليه المفتاح، وقال: يكون عند حبى، فلما هلك حليل، أبت خزاعة أن تدعه وذاك، وأخذوا المفتاح من حبى، فمشى قصى إلى رجال من قومه من قريش وبنى كنانة، فدعاهم إلى القيام معه فى ذلك وأن ينصروه ويعضدوه، فأجابوه إلى النصرة، وأرسل قصىٌ إلى أخيه لأمه رَزاح بن ربيعة، وهو ببلاد قومه من قضاعة يدعوه إلى نصرته، ويعلمه ماحالت خزاعة بينه وبين ولاية البيت الموصى له من حليل بن حبشية الخزاعى المذكور، ويسأله الخروج. فقام رزاح فى قومه، فأجابوه إلى ذلك، فخرج رزاح بن ربيعة ومعه إخوته من أبيه: حسن ومحمود وجُلهمة بنو ربيعة بن حرام فيمن معهم من قضاعة مجتمعين لنصر قصىٌ والقيام معه.

فلما اجتمع الناس بمكة، خرجوا إلى الحج، فوقفوا بعرفة وبجَمْع مع أخيه رزاح من قضاعة.

فلما كان آخر أيام مِنى أرسلت قضاعة إلى خزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصىّ ماجعله له حليل، وعظموا عليهم القتال فى الحرم، وذكروهم عاقبة الظلم والبغى بمكة، وذكروهم بما كانتْ فيه جرهم، وما آلت إليه. فأبت خزاعة أن يسلموا ذلك، فاقتتلوا بمفضى مأزمَىْ منى من قبليها، فسمى ذلك المكان بالمفجر، لما فجر وسفك فيه من الدماء واقتتلوا قتالاً شديدًا حتى كثرت القتلى بين الفريقين، وفشت فيهم الجراحات، وحاجُّ العرب من مضر واليمن مستكفون ينظرون إلى قتالهم، ثم تداعوا إلى الصلح، فدخلت قبائل العرب بينهم، وعظموا على الفريقين سفك الدماء والفجور فى الحرم، فاصطلحوا على أن يحكموا بينهم عمرو بن عوف بن كعب، وكان رجلاً شريفًا، فقال لهم: موعدكم فِناء الكعبة غدًا، فاجتمع الناس وعدُّوا القتلى، فكانت فى خزاعة أكثر منها فى قريش وكنانة. فلما اجتمع الناس بفناء الكعبة، قام عمرو بن عوف فقال: ألا إنى قد شدختُ مابينكم من دم تحتَ قدمىّ هاتَيْنِ ؛ فلا تباعة لأحد على أحد فى دم، وإنى قد حكمت لقصى بحجابة البيت وولاية أمر مكة دون خزاعة لما كان جعل له حليل، وأن يخلى بينه وبين ذلك وألا تخرج خزاعة من مساكنها من مكة وأطرافها. فسلمت خزاعة لقصى ذلك، ومن ذلك اليوم سمى عمرو الشداخ، وجمع قصى نريشًا بمكة فسمى مجمعًا، قال الشاعر: [من الطويل]

أَبُوكُمْ قُصَىٌّ كَانَ يُدْعَى مُجَمِّعًا ... بِهِ جَمَّعَ اللهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فِهرِ
وَأَنْتُمْ بَنُو زَيْدٍ وَزَيْدٌ أَبُوكُمُ ... بِهِ زِيدَتِ البَطْحَاءُ فَخْرًا عَلَى فَخْرِ
هُمُ نَزَلُوهَا وَالْمِيَاهُ قَلِيلَةٌ ... وَلَيْسَ بِهَا إِلاَّ كُهُولُ بَنِى عَمْرِو

يعنى: كهول خزاعة، واستمرتْ خزاعة مقيمة بمكّة على رباعهم وسكناهم لم يحرِّكوا، ولم يخرجوا منها، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الإسلام، فهم الآن على قريب منها وقال قصى يشكر أخاه رَزاح بن ربيعة: [من الوافر]

أَنَا ابْنُ العَاصِمِينَ بَنِى لُؤَىٍّ ... بِمَكَّةَ مَوْلِدِى، وَبِهَا رُبِيتُ
لِىَ البَطْحَاءُ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ ... وَمَرْوَتُهَا رَضِيتُ بِهَا رَضِيتُ

وَفِيهَا كَانَتِ الآبَاءُ قَبْلِي فَمَا سَوَيْتُ أُخَيَّ وَمَا سَوِيتُ
رَزَاحٌ نَاصِرِي وَبِهِ أُسَامِي فَلَسْتُ أَخَافُ ضَيْمًا مَا حَيِيتُ

وفى قول: إن حُلَيلا أوصى بمفتاح الكعبة لابنته حبى، فقالت: لا أقدر على السدانة، فجعل ذلك إلى ابن غبشان رجل من خزاعة، وكان سكيرًا فأعوزه فى بعض الأيام ما يأخذ به الخمر، فباع مفتاح البيت بزق خمرٍ، فاشتراه قصىٌّ، فصار فى المثل: « أَخْسَرُ مِنْ صَفْقَةِ أبى غبشان »

وقال الشاعر: [من الوافر]

أَبُو غبشَانَ أَظْلَمُ مِنْ قُصَيٍّ وَأَظْلَمُ مِنْ بَنِى فِهْرٍ خُزَاعَهْ
فَلَا تَلْحَوْا قُصَيًّا فِى شِرَاهُ وَلُومُوا شَيْخَكُمْ إِذَ كَانَ بَاعَهْ

وقال الآخر يهجو خزاعة: [من الوافر]

إِذَا افْتَخَرَتْ خُزَاعَةُ مِنْ قَدِيمٍ وَجَدْنَا فَخْرَهَا شُرْبَ الخُمُورِ
وَبَاعَتْ كَعْبَةَ الرَّحْمَنِ جَهْرًا بِزِقٍّ، بِئْسَ مُفْتَخَرُ الفُجُورِ

فلما صار المفتاح إلى قصى، تناكرت له خزاعة، وكثر كلامها عليه، ومنعوا من إمضاء ذلك، فأجمع على حربهم، فحاربهم وأخرجهم من مكة ؛ هكذا فى بعض الروايات ؛ لكن الرواية الأولى أكثر طرقًا وأتقنُ رواةً.

فولى قصى أمر البيت ومكة وجمع قومه، فملكوه على أنفسهم، وكانوا يحترمون أن يسكنوا مكة، ويعظمونها أن يبنوا فيها بيتًا مع بيت الله تعالى، وكانوا يكونون بمكة نهارًا، فإذا أمسوا خرجوا منها إلى الحل، ولا يستحلون الجنابة بمكة، فلما جمع قصى على قومه اليد، بنى الكعبة، ثم أذن لهم أن يبنوا بيوتًا بها وأن يسكنوا، وقال لهم: إن سكنتم الحرم حول البيت، هابتكم العرب، ولم تستحلَّ قتالكم، ولا يستطيع أحد إخراجكم، فقالوا له: أنت سيدنا، ورأينا لرأيك تبع ؛ فجمعهم حول البيت، وفى ذلك يقول القائل: [من الطويل]

أَبُوكُمْ قُصَيٌّ كَانَ يُدْعَى مُجَمِّعًا بِهِ جَمَّعَ اللهُ القَبَائِلَ مِنْ فِهْرِ
وَأَنْتُمْ بَنُو زَيْدٍ وَزَيْدٌ أَبُوكُمْ بِهِ زِيدَتِ البَطْحَاءُ فَخْرًا عَلَى فَخْرِ

وابتدأ هو، فبنى دار الندوة، والندوة فى اللغة: الاجتماع ؛ ومنه النادى للمكان المجتمع فيه، وكانوا يجتمعون فيها للمشورة وغيرها من المهمات ؛ فلا تنكح امرأة

ولايتزوج زوج من قريش إلا فيها، ولا تدرع جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا فى داره ليشقّ عليها فيها درعها ثم تدرعه، فتنطلق إلى أهلها، ويدخلها كل قريش، ومن غير قريش لا يدخلها إلا من بلغ الأربعين فما فوق.

وبنى الكعبة، وقسم جهاتها بين طوائف قريش، فبنوا دورهم حولها من جهاتها الأربع، وتركوا للطواف مقدارًا يقال: إنه المفروش الآن حول البيت بالحجر والرخام المسمى بالمطاف الشريف، وشرعوا أبواب بيوتهم إلى نحو البيت الشريف، وتركوا بين كل بيتين طريقًا ينفذ منها إلى المطاف، إلى أن زاد عمر - رضى الله عنه - فى المسجد، وتبعه عثمان، وتبعهما غيرهما.

ورتب قريشًا على منازلها فى النسب بمكة، فجعل الأبطحىّ من قريش هو من كان من قريش الأباطح، وجعل الظاهرىّ منهم من كان من قريش الظواهر، فقريش البطاح: قبائل بنى عبد مناف: بنو عبد الدار، بنو أسد بن عبد العزى بن قصى، بنو زهرة بن كلاب، بنو مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى، بنو تيم بن مرة، بنو جمح، بنو سهم، بنو عدى بن كعب - وهؤلاء الثلاث القبائل مع بنى مخزوم يسمون لَعَقَةَ الدم - بنو حِسْل بن عامر بن لؤى. فهؤلاء قريش الأباطح أحد عشر قبيلة.

وأما قريش الظواهر: فهم أربع قبائل: بنو محارب بن فهر، بنو الحارث بن فهر، بنو الأدرم بن غالب بن فهر، بنو مُعَيْص بن عامر بن لؤى، وفى ذلك يقول ذكران مولى بنى عبد الدار، مخاطبًا للضحاك بن فهر بن عامر بن قيس الفهرى الظاهرى: [من الطويل]

تَطَاوَلْتُ لِلضَّحَّاكِ حَتَّى رَدَدتُّهُ ... إِلَى حَسَبٍ فِى قَوْمِهِ مُتَقَاصِرِ
فَلَوْ شَهِدَتْنِى مِنْ قُرَيْشٍ عِصَابَةٌ ... قُرَيْشُ البِطَاحِ لاَ قُرَيْشُ الظَّوَاهِرِ
وَلَكِنَّهم غَابُوا وَأَصْبَحتَ شَاهِدًا ... فَقُبِّحْتَ مِنْ حَامِى ذِمَارٍ وَنَاصِرِ
فَرِيقَانِ مِنْهُمْ سَاكِنٌ بَطْنَ يَثْرِبٍ ... وَمِنْهُمْ فَرِيقٌ سَاكِنٌ بِالْمَشَاعِرِ

وأما الأحلاف من قريش، فخمس قبائل: بنو عبد الدار، بنو سهم، بنو جمح، بنو عدى، بنو مخزوم.

وأما المطيّبون الذين تحالفوا، وغمسوا أيديهم فى الطيب، فسمى حلف المطيبين:

بنو عبد مناف، بنو أسد، بنو عبد العزى، بنو تيم، بنو الحارث بن لؤى، خمس قبائل أيضًا ؛ قال عمر بن أبى ربيعة المخزومى من قصيدة: [من الخفيف]

وَلَـهَـا فِـى الـمُـطَـيَّـبِـيـنَ جُـدُودٌ ثُـمَّ نَـالَـتْ ذَوَائِـبَ الْأَحْـلَافِ
إِنَّـهَـا بَـيْـنَ عَـامِـرِ بْـنِ لُـؤَىٍّ حِينَ تُدْعَى وَبَيْنَ عَبْدِ مَنَافِ

وروى الحسن الأثرم، عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى قال: كانت قريش الظواهر يغيرون على بنى كنانة، يغيرهم عمرو بن ود العامرى، إلا أن بنى الحارث بن فهر دخلت بعد ذلك مكة ؛ فهم من البطاح، وهم يد مع المطيبين فى حلفهم الذى كانوا عقدوه.

قال: وأما قريش العازبة: فإنهم ولد سامة بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وقد ذكر الفاكهى سبب تسميتهم بذلك، فقال: حدثنا الزبير بن أبى بكر قال: وأما ولد سامة بن لؤى، وهم قريش العازبة، وإنما سموهم العازبة ؛ لأنهم عزبوا عن قومهم، فنسبوا إلى أمهم ناجية بنت حزم بن زَبَّان، وهو علاف، وكان أول من اتخذ الرحال العلافية فنسبت إليه. واسم ناجية ليلى، وإنما سميت ليلى ناجية ؛ لأنها صارت فى مفازة فعطشت فاستسقت سامة بن لؤى، فقال لها: بين يديك، وهو يريها السراب، حتى جاءت الماء فشربت فنجت، فسميت ناجية.

قال: وأما قريش العائذة: فهم بنو خزيمة بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر، وسبب تسميتهم بذلك ذكرها الزبير - أيضًا - فقال: وإنما قيل لخزيمة بن لُؤى عائذة ؛ لأن عبيد بن خزيمة تزوج عائذة بنت الخِمس بن قحافة بن خثعم، فولدتْ له مالكًا وتيمًا ؛ فسموا عائذة باسم أمهما.

قال الزبير: وكانت العرب تنفس قريشًا وتعير أهل الحرم منها بالمقام بالحرم، فأسموها العصب.

وفى قريش رهط يقال لهم: الأجربان، وهم بنو بغيض بن عامر بن لؤى، وبنو محارب بن فهر، وكان هذان الرهطان متحالفين، وكانا يدعيان الأجربين ؛ لبأسهما وقهرهما من ناوأهما، فهما الأجربان من أهل تهامة.

ومن أهل نجد رهطان كذلك، يقال لهما الأجربان، هما عبس وذبيان.

ولما ذكرتُ بناء قصى الكعبة الشريفة، أحببتُ ذكر بناء قريش وابن الزبير والحجاج إياها متممًا للفائدة، فقلت: ثم بنت قريش الكعبة ؛ قال خاتمة الحفاظ والمحدثين مولانا الشيخ محمد الصالحى فى كتابه المسمى: سبل الرشاد فى سيرة خير العباد[١]: سببه أن امرأة جمرت الكعبة، فعلقتْ شرارة من مجمرها فى ثياب الكعبة، فأحرق الشرار أخشابها، وأحرق قرنى كبش إسماعيل، وكانا معلقين بها ظاهرين، ودخلها سيل عظيم، فصدع جدرانها بعد توهنها بالنار، فأجمعوا على هدمها وبنائها، فلما غدوا على هدمها، خرجت لهم تلك الحية التى كانت تحرس الجبّ، سوداء الظهر، بيضاء البطن، رأسها كرأس الجدى، فمنعتهم، فلما رأو ذلك، اعتزلوا عند مقام الخليل، فقال لهم الوليد بن المغيرة: يا قوم، ألستم تريدون بهدمها الإصلاح ؟ قالوا: بلى، قال: فإن الله لايهلك المصلحين، ولكن لا تُدخِلُوا فى بنائها إلا طيب أموالكم، لا تدخلوا فيه مال ربا ولا ميسر ولا مهر بغىٍّ ؛ فإن الله لا يقبل إلا طيبًا، ففعلوا، ثم وقفوا عند المقام ساعة يدعون، فقالوا: اللهم، إن كان لك فى هدمها رضًا، فاشغلْ عنا هذا الثعبان، فأقبل طائر من جو السماء كهيئة العقاب أسود الظهر أبيض البطن أصفر الرجلين، والحية على الجدار فاغرة فاها، فأخذ برأسها وطار بها إلى أجياد الصغير، فقالوا: نرجوا أن يكون ربنا قد رَضِىَ عملكم، فاهدموا. فهابت قريش الهدم، فقال الوليد: أنا أبدؤكم ؛ فإنى شيخ، فإن أصابنى أمر كان قد دنا أجلى، فعلاه بالعتلة يهدم، فتزعزع تحت رجله حجر، فقال: اللهم لم نرع، إنما أردنا الإصلاح، فهدم يومه أجمع، وقالت قريش: نخاف أن ينزل به إذا أمسى شىء، فلما أمسى لم ير بأسًا، فأصبح غاديًا على عمله، فهدمت قريش معه حتى بلغوا الأساس الذى وضعته الملائكة، وهو ما رفع عليه الخليل القواعد، فأدخل الوليد العتلة، فانفلقت فلقة، فأخذها وهب بن عمير، ففرت من يده وعادت لمحلها، وبرقت من تحتها برقة كادت تخطف الأبصار، ورجفت مكة بأسرها، فعند ذلك أمسكوا، ثم لما عمروا وقلَّتْ عليهم النفقة أجمعوا على أن يقصروا عن القواعد، ويحجروا على ما قصروا من بناء البيت بجدارٍ يطاف من ورائه، وقدر ما أبقوا فيه من البيت ستة أذرع وشبر، وقال: ارفعوا بابها حتى لا

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد (٢/ ١٦٩-١٧٠).

تدخلها السيول، ولا يرقى إليها إلا بسلم، ولا يدخلها إلا من أردتم، فبنوا أربعة أذرع، ثم كسوها وبنوها حتى بلغ ارتفاعها ثمانية عشر ذراعًا، زادوا تسعة أذرع على بناء الخليل، وبنوها مدماكًا من حجر ومدماكًا من خشب، وجعلوا سقفها مسطحًا وأقاموه على ستِّ دعائم فى صفين، وبنوا درجة من بطنها مِنْ خشب فى الركن الشامى. وزوَّقوها وصوَّروا الأنبياء والملائكة والشجر، وجعلوا لها بابا واحدًا وكسوها الحبرات اليمانية.

قال ابن هشام [(١)]: لما اقتسمتْ قريشٌ جوانب البيت للعمارة، كان شق البيت لبنى زهرة وبنى عبد مناف، وما بين الركن الأسود واليمانى لبنى مخزوم، ومن انضم إليهم من قريش، وظهر الكعبة لبنى جمح وبنى سهم، وشق الحجر [لبنى عبد العزَّى وبنى عدى وبنى كعب] [(٢)]، وأحضروا الحجارة وكان رسول الله ﷺ ينقل معهم الحجارة، وهو ابن خمس وثلاثين سنة على الصحيح، حتى انتهى الهدم إلى حجارة خضر كأسنمة الإبل، فضربوها بالمعول، فخرج برق كاد أن يخطف الأبصار، فانتهوا عند ذلك الأساس. ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصم القبائل، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه، وكادوا يقتتلون على ذلك، فقال لهم أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم - وكان شريفًا مطاعًا - : اجعلوا الحكم بينكم لأول من يدخل من باب الصفا، فقبلوا ذلك منه، وكان أول داخل رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالو: هذا الأمين أقبل، وكان يسمى فى الجاهلية « الأمين » ؛ لأمانته وصدقه، فقالوا جميعًا: رضينا بحكمه، ثم قصوا عليه قصتهم، فقال ﷺ: « هَلُمَّ إلىَّ ثوبًا »، فأتى به، فوضع الركن فيه، ثم قال: « لتأخذ كل قبيلة بطرف من هذا الثوب »، فحمله من أربعة أطراف الثوب أربعة من وجوه القبائل وأشرافها وزعمائها، ورفعوه إلى محاذاة موضعه، فتناوله رسول الله ﷺ من الثوب، ووضعه بيده الشريفة فى محله ؛ فكان الأشراف والزعماء خدمًا له ﷺ، وفى ذلك يقول هبيرة بن أبى وهب المخزومى: [من الطويل]

---

(١) ينظر: « السيرة النبوية » (١/ ٢٢١-٢٢٤).

(٢) في السيرة: [لبني عبد الدار بن قصي، ولبني أسد بن عبد العزى بن قصي، ولبني عدي بن كعب بن لؤي وهو الحطيم].

تَشَاجَرَتِ الْأَحْيَاءُ فِى فَصْلِ خُطَّةٍ جَرَتْ طَيْرُهُمْ بِالنَّحْسِ مِنْ بَعْدِ أَسْعدِ
تَرَامَوْا بِهَا بِالْبغض (١) بَعْدَ مَوَدَّةٍ وَأَوْقَدَ نَارًا بَيْنَهُمْ شَرُّ مُوقِدِ
فَلَمَّا رَأَيْنَا الْأَمْرَ قَدْ حَانَ جِدُّهُ(٢) وَلَمْ يَبْقَ شَىْءٌ غَيْرُ سَلِّ الْمُهَنَّدِ
رَضِينَا وَقُلْنَا الْعَدْلُ أَوَّلُ طَالِعٍ يَجِىءُ مِنَ الْبَطْحَاءِ مِنْ غَيْرِ مَوْعِدِ
فَفَاجَأَنَا هَذَا (٣) الْأَمِينُ مُحَمَّدٌ فَقُلْنَا رَضِينَا بِالْأَمِينِ مُحَمَّدِ
بِخَيْرِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا أمر دِيمَة(٤) وَفِى الْيَوْمِ مَعْ مَا يُحْدِثُ اللهُ فِى غَدِ
فَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ أَعَمَّ وَأَرْضَى فِى الْعَوَاقِبِ وَالْبَدِى
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ (٥) الرِّدَاءِ وَكُلُّنَا لَهُ حِصَّةٌ مِنْ رَفْعِهِ قَبْضَةَ الْيَدِ
فَقَالَ ارْفَعُوا حَتَّى إِذَا مَا عَلَتْ بِهِ أَكُفُّهُمْ وَالَى بِهِ خَيْرُ (٦) مُسْنِدِ
وَكُلٌّ رَضِينَا فِعْلَهُ وَصَنِيعَهُ(٧) فَأَعْظِمْ بِهِ مِنْ رَأْيِ هَادٍ وَمُهْتَدِ
وَتِلْكَ يَدٌ مِنْهُ عَلَيْنَا عَظِيمَةٌ يَرُوحُ بِهَا هَذَا الزَّمَانُ (٨) وَيَغْتَدِى(٩)

انتهت.

أقول: طالما بحثت عن أهل الزعامة والرياسة من الأربعة الآخذين بطرف الرداء حتى ظفرت بأسمائهم على التعيين فى مروج الذهب للمسعودى، وهم: عتبة بن ربيعة بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصى، وأبو حذيفة بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب، وقيس بن عدى السهمى (١٠).

وأما بناء عبد الله بن الزبير لها، قال فى المسامرة: روينا من حديث الأزرقى قال:

---

(١) في ط: بالغض. والمثبت من « سبل الهدى والرشاد » وفي السبل: « تلاقوا لها بالبغض ».
(٢) في السبل: جَدَّ جَدُّهُ.
(٣) في السبل: فلم يَفْجَنا إلا.
(٤) في ط: أسو شيمة. والمثبت من سبل الهدى والرشاد.
(٥) في السبل: بأكناف.
(٦) في السبل: أكف إليه فسر في خير.
(٧) في السبل: وكان رضينا ذاك عنه بعينه.
(٨) في السبل: ركب العراق.
(٩) ينظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٢/ ١٧٢).
(١٠) ينظر مروج الذهب (٢/٢٧٩).

جلس رجال من قريش بالمسجد الحرام: حويطب بن عبد العزى، ومخرمة بن نوفل، فتذاكروا بناء قريش الكعبة وماهاجهم إلى ذلك، فذكروا ماتقدم ذكره آنفًا، وذكروا كَيْفَ كانَ بناؤها قبل ذلك، فقالوا: كانتِ الكعبة مبنيَّة برضم يابس ليس بمدر، وكان بابها بالأرض ولم يكن لها سقف، والكسوة إنما تدلى على الجدار من خارج تربط من أعلى الجدار من باطنها بصخور عظام، وكان عن يمين الداخل لها جُبٌّ يوضع فيه ما يهدى إليها من مال وغيره، ولما سرقت جرهم منه، بعث الله تعالى حية تحرسه، فلم تزلْ حارسة لما فيه خمسمائة سنة، حتى أخذها العقاب حين أرادت قريشٌ تجديدها فمنعهم، كما تقدَّم ذكر ذلك.

وذكروا بناء عبد الله بن الزبير، فقالوا: لما أبطأ عبد الله بن الزبير عن بيعة يزيد، وتخلف وخشى منه، لحق بالحرم ليمتنع به وجميع مواليه، وجعل يظهر عيب يزيد وعدم صلاحيته للخلافة؛ لما هو عليه من الفسوق ويثبط الناس عنه، فبلغ يزيد ذلك، فآلى ألا يؤتى به إلا مغلولاً، وأرسل إليه رجلاً من أهل الشام فى خيل يعظِّم عليه الفتنة، فقال له: لا يُستحل الحرم بسببك؛ فإنه غير تاركك ولا تقوى عليه، وقد أقسم ألا يؤتى بك إلا مغلولاً، وقد صنع لك غُلًّا من فضة وتلبس فوقه الثياب وتبر قسم أمير المؤمنين، فالصلح خير عاقبته، وأجمل بك وبه، فاستمهله أيامًا، وشاور أمه أسماء، فأبت أن يذهبَ مغلولاً، وقالت: يابنى، عش كريمًا، أو مت كريمًا، ولا تمكن صبيان بنى أمية فتلعب بك، فالموت أجملُ بك من هذا. فامتنع فى مواليه ومن يألف مِنْ أهل بيته وأهل مكة وغيرهم، فكان يقال لهم: الزبيرية.

فبينما يزيد على تعبئة الجيوش إليه؛ إذ أتى يزيدَ الخبر بما فعل أهل المدينة بعماله وبمن بالمدينة من بنى أمية، وإخراجهم إياهم منها، ماعدا من كان من ولد عثمان بن عفان، فجهز إليهم مسلم بن عقبة المرى، وكان مريضًا فى بطنه الماء الأصفر، فأباح المدينة وفعل ما سيذكر عنه فى وقعة الحرة، ثم سار إلى مكة يريد ابن الزبير فمات بالمشلل، وولى الحصين بن نمير بوصية إليه من يزيد، فوصل إلى مكة وقاتل بها ابن الزبير أيامًا، ونصب المنجنيق على جبل أبى قبيس ومقابله، وجمع ابنُ الزبير من معه وتحصَّن بهم فى المسجد، وضربت خيام يستظلون بها من الشمس، فكان يرميهم بالنفط والمنجنيق؛ فتصيبُ الحجارة الكعبة حتى تخرقَتْ كسوتها عليها، وصارت

كأنها جيوب النساء، وأوهَنَ رمى المنجنيق الكعبةَ، واحترقَتْ من رمى النفط وهى مبنية بناء قريش السابق مدماك حجر وآخر من خشب الساج، وقيل: كان احتراقها من نار أو قدها رجل من جماعة ابن الزبير فى بعض تلك الخيام مما يلى الصفا بين الركن اليمانى والحَجَر الأسود، والمسجد يومئذ ضَيِّقٌ، خصوصًا من تلك الجهة، فطارت شرارة إلى خيمة منها، فاحترقَتْ كسوة الكعبة ثم منها إلى الخشب الذى بين البناء، وكان احتراقها يوم السبت ثالث ربيع الأول من سنة ٦٤، وتصدع الحجر الأسود، فضعفت جدران الكعبة حتى إنها يقع عليها الحمام فتتناثر حجارتها، ففزع لذلك أهل مكة والشام جميعًا، فورد الخبر بنَعْيِ يزيد هلال ربيع الآخر، وأنه توفى لأربع خلت من ربيع الآخر منها، فأرسل ابن الزبير إلى الحصين بن نمير رجالاً من قريش، فكلَّموه وأعظموا عليه ما أصاب الكعبة منهم، وقالوا له: قد توفى أمير المؤمنين، فعلى ماذا تقاتل ؟ ارجع إلى الشام حتى تنظر ماذا يجتمع عليه أمر صاحبك ، يعنون: معاوية بن يزيد. فلم يزالوا به حتى رجع إلى الشام، وكان رجوعه لخمس من ربيع الآخر من السنة المذكورة.

ثم شاور ابن الزبير الناس فى هدم الكعبة، فأشار عليه ناس غير كثير بهدمها، وقال له ابن عباس: دعها على ما أقرَّهَا عليه رسول الله ﷺ؛ فإنى أخشى أن يأتى بعدك من يهدمها؛ فلا تزال كذلك فيتهاون بحرمتها، ولكن ارممها، فقال ابن الزبير: مايرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه، كيف أرقع بيت الله وأنا أنظر إليه على ماترون من الوهن ؟! وكان ممن أشار عليه بالهدم: جابر بن عبد الله الأنصارى، وعبيد بن عمير، وعبد الله بن صفوان بن أمية، وكان يحب أن يكون هو الذى يردُّها؛ كما قال عليه الصلاة والسلام على قواعد إبراهيم.

فلما أراد الهدم، خرج أهل مكة إلى مِنى خوفًا من نزول عذاب، فأمر بالهدم، فما اجترأ على ذلك أحد، فلما رأى خوفهم علاها وأخذ المعول، وجعل يهدمها ويرمى أحجارها، فلما رأو أن لا بأس عليه اجترءُوا فهدموا معه، وأصعد ابن الزبير فوقها عبيدًا من الحبش يهدمون؛ رجاء أن يكون فيهم الجيش الذى قال فيه عليه الصلاة والسلام: « إنه يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة » (١) فهدمها والناس

(١) أخرجه البخاري (٣/٥٣٨) كتاب الحج، باب هدم الكعبة، حديث (١٥٩٦) ومسلم =

معه حتى ألصقها بالأرض من جوانبها الأربعة.

وكان ابتداء الهدم النصف من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، أعنى: سنة أربع وستين من الهجرة، ولم يقرب ابن عباس من حين هدمت حتى فرغ منها، وأرسل لابن الزبير يقول: لا تدع الناس تغير القبلة، انصب لهم حول الكعبة الخشب، واجعل عليه الستر يطوف الناس من ورائه ويصلون إليه، ففعل. وقال ابن الزبير: سمعت عائشة - رضى الله عنها - تقول: قال رسول الله ﷺ لى: « إن قومك استقصروا فى بناء البيت، لما عجزتْ عنهم النفقةُ، فتركوا منها أذرعًا، ولولا حداثة قومك بجاهلية، لهدمْتُ الكعبة وأخذت ماتركوا منها وجعلت لها بابين موضوعين بالأرض شرقيًا يُدْخَل منه، وغربيًّا يخرج منه (١)، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا الباب ؟ قلت: لا، قال: تعززًا؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا؛ فكان الرجل إذا كرهوا أن يدخلها يدعونه يرتقى حتى إذا كاد أن يدخلها دفعوه فسقَطَ، فإن بدا لقومك، فهلمَّ أريك ماتركوا فى الحجر منها » فأراها قريبًا من سبعة أذرع.

ثم نزل بالحفر إلى أن انتهى إلى أساس إبراهيم؛ فوجده داخلاً فى الحجر نحوًا من ستة أذرع وشبر، فإذا أحجاره داخل بعضها فى بعض، فأدخل عبد الله بن مطيع العتلة فى ركن، فتحركت الأركان كلها، ورجفت مكة، وخاف الناس، وندم من أشار بالهدم، فقال ابن الزبير: اشهدوا، وأراد أن يبنيها بالورس، فقيل له: إن الورس يذهب، لكن ابنها بالقصة، فوصفت له قصة صنعاء، فبعث بأربعمائة دينار فأخذت له، وسأل عن محل أخذ قريش الحجارة، فأخبر، فنقل له قدر مايحتاج، ثم وضع البناء على ذلك الأساس، ووضع حذاء باب الكعبة على مدماك على الشاذروان، وجعل الباب الآخر بإزائه فى ظهرها. وكان قد جعل الحجر فى ديباجة وأدخله فى تابوت، وقفل عليه ووضعه عنده فى دار الندوة، وجعل ما كان من حلية فى خزانة الكعبة فى دار شيبة بن عثمان، فلما بلغ البنيان موضع الحجر، نقر فى حجرين من المدماك الأعلى وطوَّقَ بينهما، وأمر ابنه عبادًا وجبير بن شيبة بن عثمان أن يجعلوا الركن في ثوب، وقال: إذا دخلتُ الصلاة، فاحملوه وضعوه فى محله،

= (٤/ ٢٢٣٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث (٥٨/ ٢٩٠٩) من حديث أبي هريرة.

(١) أخرجه البخاري رقم (١٥٨٤)، ومسلم رقم (١٣٣٣)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٦٦- بتحقيقنا).

وأنا أطيل الصلاة، فإذا فرغتم فكبروا حتى أخفف، وكان ذلك فى صلاة الظهر فى حر الشمس، فلما أقيمتِ الصلاة، خَرَجَا به من دار الندوة وشَقَّا الصفوف حتى دخلا به الستر الذى دون البناء، فوضعه عباد بن عبد الله بن الزبير، وأعانه جبير بن شيبة، فلما أقرَّاه موضعه وطوَّقا عليه كَبَّرَا، فخفف الصلاة، وتسامع الناس، فغضبت رجال من قريش فقالوا: قد وقع هذا فى الجاهلية حين فتنت قريش، فحكموا فيه أول من يدخل، فلما بلغ البناء ثمانية عشر، قصر طولها لموجب ما أدخله مما كان فى الحجر، فاستُسْمِجَ ذلك؛ لأنها صارت عريضة لا طول لها، فقال: كان طولها قبل قريش تسعة، فزادت قريش تسعة، فبناها سبعة وعشرين بزيادة تسعةٍ أخرَى، وجعل فيها ثلاث دعائم، وأتى برخام من صنعاء يقال: إنه من الحصن الأبلق، فجعله من الروازن التى فى سقفها للضوء، وجعل لكل باب مصراعين، وكان فى بناء قريش مصراعًا واحدًا، وجعل الميزاب فى الحجر، فلما فرغ منها، خلَّقها أعلاها وأسفلها ظاهرًا وباطنًا، وكساها القباطى، وقال: من كانت لنا عليه طاعة، فليخرج وليأتِ بعمرة من التنعيم، ولينحَرْ ما قدر عليه، ومن لم يقدرْ فليتصدَّقْ بقدرته. ونحر هو مائة بَدَنَةٍ، وخرج ماشيًا والناس مشاة، ولم ير أكثر نحرًا وصدقة من ذلك اليوم، فهذه هى العمرة التى يفعلها الناس يوم السابع والعشرين من رجب المسماة: « عمرة الأَكَمَةِ ».

وأما بناء الحَجَّاج إياها: فكان فى سنة ثلاث وسبعين؛ وذلك أنه لم يزل البيت على حاله إلى أن قتل الحجاج ابن الزبير فى السنة المزبورة، فبعد قتله استأذن عبد الملك بن مروان فيما أحدثه ابن الزبير فى الكعبة، فكتب إليه عبد الملك أن يهدم الجانب الذى يلى الحِجْرَ - بكسر الحاء - خاصَّة، وأن يكبس به البيت، ويرفع الباب الشرقى إلى حده الأول، ويغلق الباب الغربى، ففعل ذلك. ثم بلغ عبدَ الملك أن ما فعله ابن الزبير على حديث عائشة صحيح حدَّث به الحارث بن عبد الله بن ربيعة المخزومى، وأنه سمعه من رسول الله ﷺ، فقال عبد الملك: وددت والله أنى كنت تركتُ ابن الزبير وماعمل، ولو بلغنا هذا ما أمرنا بخلافه.(١) انتهى

قلت: قد ظهر مما ذكر أن الحجاج لم يعمرِ الكعبة جميعها، وإنما هدم الجانب الشمالى، وأخرج ما أخرجته قريش، وكبس بنقضه جوف الكعبة، ورفع الباب

---

(١) ينظر: « سبل الهدى والرشاد » (١/ ١٦٤-١٦٨) فقد ذكر هذا بنحوه.

الشرقى وسَدَّ الغربى، فعدُّه فى بُناة الكعبة تسامُحٌ.

ثم لم يزلِ البيت الشريف قائمًا منذ بناه الحجاج فى رجب سنة ثلاث وسبعين إلى يوم الخميس عشرى شعبان من سنة ١٠٤٩، فكان سقوطه فيه، فعمره السلطان المرحوم مراد بن أحمد خان، وتمت العمارة فى سنة الأربعين بعد الألف، وقدر تلك المدة ألف سنة إلا أربعًا وعشرين سنة، ونرجو ألاَّ ينقضها إلا أشراط الساعة الموعود بها فى الحديث الشريف.

وكان قصى أول من ملك من بنى كعب بن لؤى، أصاب ملكًا فأطاعه قومه. وله كلمات تؤثر عنه، منها: « من أكرم لئيمًا أشركه فى لؤمه، ومن استحسن قبيحًا نزل إلى قبحه، ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان، ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان [1] ».

وكان قد اجتمع لقصى مالم يجتمعْ لغيره من المناصب؛ فكان بيده: الحجابة، والسقاية، والرفادة، واللواء، والقيادة.

فالحجابة: هى سدانة البيت الشريف، أى: تولية مفتاحه، والقيام بخدمته.

وأما السقاية: فإسقاء الحجيج كلهم الماء العذب، وكان عزيزًا بمكة يجلب إليها من خارجها؛ فيسقيه الحجاج، وينبذ لهم فيه التمر والزبيب.

وأما الرفادة: وذلك إطعام الطعام لسائر الحجاج تمد لهم الأسمطة فى أيام الحج.

وكانت السقاية والرفادة مستمرين إلى أيام الخلفاء ومن بعدهم من الملوك والسلاطين.

قال التقى الفاسى، رحمه الله: إن الرفادة كانت فى زمن الجاهلية وصدر الإسلام واستمرت إلى أيامنا.

قال: والطعام يصنع بأمر السلطان كل عام للناس بمنًى حتى ينقضى الحج.

قال العلامة قطب الدين: وأما فى زماننا فلا يفعل شىء من ذلك.

---

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد (١/ ٢٧٦)، وفيه: « ويروى أن قصيًا قال للأكابر من ولده: من عظم لئيّما شركه في لؤمه، ومن استحسن مستقبحا شركه فيه. ومن لم تصلحه كرامتكم فداووه بهوانه، فذاك دواء يحسم الداء. والعي عيان: عي إفحام وعي المنطق بغير سداد. والحسود: العدو الخفي. ومن سأل فوق قدره استحق الحرمان ».

قال فى الأرج المسكى فى التاريخ المكى: وكانت الخلفاء قائمين بالرفادة إلى أن كان زمن معاوية؛ فجعل لها محلاً معينًا بمكة يطبخ فيه الطعام للقادمين علينا جميع السنة.

وأما السقاية: فكانت إلى العهد القريب؛ لكن لا ينبذ فيها إلا نادرًا، ثم انقطعت من قرب لعدم الحاجة إليها؛ لكثرة وجود الماء بمكة، ولله الحمد والمنة.

ولم تزل هذه المناصب فى أيدى أولاد قصىّ إلى أن جاء الله بالإسلام، ودخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح عام ثمان من الهجرة، وقد صارت الحجابة إلى عثمان بن أبى طلحة من بنى عبد الدار، وصارت السقاية إلى العباس بن عبد المطلب، فقبض النبى ﷺ على السقاية والحجابة، فقام العباس فبسط يده، وقال: يارسول الله، بأبى أنت وأمى، اجمع لى الحجابة إلى السقاية، فقال ﷺ: أعطيكم ما ترزءون فيه ولا ترزءون به، فقام بين عضادتى باب الكعبة فقال: ألا إن كل دمٍ أو مال أو مأثرة كانت فى الجاهلية فهى تحت قدمىّ هاتَيْنِ، إلا سقاية الحاج وسدانة الكعبة؛ فإنى قد أمضيتهما لأهلهما على ما كانتا عليه فى الجاهلية.

ثم جلس رسول الله ﷺ فى المسجد، فقام إليه على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ومفتاح الكعبة فى يده، فقال: يارسول الله، اجمع لنا الحجابة والسقاية، صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: أين عثمان بن طلحة ؟ فدُعى له، فقال: هاكَ مفتاحَكَ يا عثمان؛ إن اليوم يوم بر ووفاء، وقد أنزلت تلك الآية المشهورة فى سورة النساء، وهى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨] فقال: خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم ما استقمتم إلا ضال أو ظالم (١).

قال فى الأرج المسكى: كان لمكة ولاة من أهل الجاهلية، وعدة ملوك تفرّقوا فى ممالك متصلة ومنفصلة، فمنهم المسمون بأبى جاد، وهوز، وحطى، وكلمن، وهو الأعظم، وسعفص وقريشات، وهم بنو المحض بن جندل. فأَبْجَدُ: كان ملك مكة

(١) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٢/ ٣١٢) وعزاه إلى ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وله طريق آخر مختصر عن ابن عباس أخرجه الطبراني في « الكبير » « ١١/ ١٢٠) رقم (١١٢٣٤)، وقال الهيثمي في « المجمع » (٣/ ٢٨٨): رواه الطبراني في « الكبير » و « الأوسط » وفيه عبد الله بن المؤمل؛ وثقه ابن حبان وقال: يخطئ، ووثقه ابن معين في رواية، وضعفه جماعة.

وما يليها من الحجاز، وهوز وحطى ملكَيْنِ ببلاد وَجٍّ، وهى أرض الطائف وما اتصل به من أرض نجد، وكَلَمُنْ وسعفَص وقريشات كانوا ملوكًا بمدْيَن، وقيل ببلاد مصْرَ، وكان كلمن وحده على بلاد مَدينَ.

وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وعروة بن الزبير؛ أنهما قالا: أول من وضع الكتاب العربى قوم من الأوائل نزلوا فى عدنان بن أد بن أدد، أسماؤهم: أبجد، وهوز، وحطى، وكلمن، وسعفص، وقرشت، فوضعوا الكتاب العربى على أسمائهم، ووجدوا أحرفًا ليست من أسمائهم، وهى الثاء والخاء والذال والضاد والظاء والغين، فسموها الروادف، يريد: ثخذ ضظغ.

وروى أن هذه الكلمات من أسماء الشياطين.

وروى: أنها أسماء لملوك مدين فقطْ، وأن رئيسهم كَلَمُنْ، وأنهم هلكوا يوم الظلة المذكور فى الكتاب العزيز، وهم قوم شعيب على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام فقالت أخت كلمن ترثيه: [من مجزوء الرمل]

كَـلَـمُـنْ هَـدَّمَ رُكْـنِـى ... هُـلْـكُـهُ وَسْـطَ الـمَـحلَّـهْ
سَـيِّـدُ الْـقَـوْمِ أَتَـاهُ الْـ ... ـحَـتْـفُ نَـارًا وَسْطَ ظُـلَّـهْ

وقال رجل من أهل مدين يرثيهم كذلك: [من الطويل]

أَلاَ يَا شُعَيْبُ قَدْ نَطَقْتَ مَقَالَةً ... سَبَقْتَ بِهَا عَمْرًا وَحَىَّ بَنِى عَمْرِو
مُلُوكَ بَنِى حُطِّى وَهَوَّز مِنْهُمُ ... وَسَعْفَص أَهْلٌ فِى المَكَارِمِ ذِى الغَمْرِ
هُمُ صَبَّحُوا أَهْلَ الْحِجَازِ بِغَارَةٍ ... كَمِثْلِ شُعَاعِ الشَّمْسِ أَوْ مَطْلَعِ الْفَجْرِ

وذكر ابن الجوزى فى المضحكات: أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لقى أعرابيًا فقال له: هل تحسن أن تقرأ القرآن ؟ قال: نعم، قال له: فاقرأ أم القرآن، فقال الأعرابى: والله، ما أحسن البناتِ، فكيف الأم ؟! قال: فضربه، ثم سلّمه إلى معلم، فمكث فيه حينًا، ثم هرب وأنشأ يقول:

[من الوفر]

أَتَيْتُ مُهَاجِرِينَ فَعَلَّمُونِى ... ثَلاَثَةَ أَسْطُرٍ مُتَتَابِعَاتِ
كِتَابَ اللهِ فِى رِقٍّ صَحِيحٍ ... وَآيَاتِ القُرَانِ مُفَصَّلاَتِ
وَخَطُّوا لِى أَبَا جَادٍ بَيَانًا ... وَقَالُوا سَعْفَص وَقُرَيْشَاتِ

وَمَا أَنَا وَالْكِتَابَةَ وَالتَّهَجِّى   وَمَا حَظُّ البَنِينَ مِنَ الْبَنَاتِ

ثم ولى أمر البيت بعدهم الخليل - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - فأقام دعائمه، فكان يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة، ثم وليه ابن ابنه نابث بن إسماعيل، ثم العماليق هم أولاد عمليق أو عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، فضيعوا حرمة البيت، واستحلوا منه أمورًا عظائم، فأخرجهم الله من الحرم: سلط الله عليهم النمل، فخرجوا إلى عدن، وإلى المدينة الشريفة.

ثم وليها بعدهم أبناء جرهم بن قحطان بن عابر - وهو هود النبى؛ كما تقدَّم ذكر ذلك - ابن شالغ بن أرفخشد بن سام بن نوح، عليه السلام.

وقيل: إن جرهمًا ليس هو ابن قحطان؛ بل إنما هو ملك من الملائكة أذنب ذنبًا، فأهبط إلى أرض مكة، فتزوَّج امرأة من العماليق، فولدت له جرهمًا، فلذلك يقول الحارث بن مضاض الجرهمى: [من الرجز]

لاَ هُمَّ إِنَّ جُرْهُمًا عِبَادُكَ   أَلنَّاسُ طِرْفٌ وَهُمُ تِلاَدُكْ
وَهُمْ قَدِيمًا عَمَّرُوا بِلاَدَكْ

قلت: كأن الإشارة بقوله: « تِلادكَ » إلى أن هذا القول دليل لكون أبى جرهم من الملائكة، يستنتجُ ذلك من كون معنى الطريف: المال المستجد، والتلاد: المال القديم المستأصل. ولاشك أن جنسَ الملك أقدمُ وجودًا من جنس بنى آدم، ولكنه كما ترى دليلٌ لا يلمس إلا بالأكف الرخصة الناعمة.

وأول من ملك من جرهم: مُضَاضُ بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هنى بن نبت بن جرهم بن قحطان.

قال الأزرقى[١]: حدثنى جدى قال: حدثنى سعيد بن سالم بن عثمان بن ساج قال: أخبرنى ابن إسحاق، فذكر شيئًا من خبر إسماعيل بن إبراهيم - عليهما وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة والسلام - وشيئًا من خبر بنى إسماعيل، ثم قال: ثم توفى نابت[٢] بن إسماعيل، فولى بعده مضاض بن عمرو الجرهمى وهو جد نابت بن إسماعيل أبو أمه، وضم بنى نابت وبنى إسماعيل إليه، وصاروا إلى

(١) انظر الخبر في شفاء الغرام (١/ ٣٥٩).
(٢) في الشفاء (١/ ٣٥٩) ثابت.

جدهم أبى أمهم مضاض بن عمرو المذكور، ومع أخوالهم من جرهم، وجرهم وقطورا يومئذ أهل مكة، وعلى جرهم مضاض بن عمرو ملكًا عليهم، وعلى قطورا رجل منهم يقال له: السميدع ملكًا عليهم، وكانا حين ظعنا من اليمن أقبلا سيارة، فلما نزلا مكة، رأيا بلدًا طيبًا وآجامًا وشجرًا، فأعجبهما، ونزلا به: فنزل مضاض بن عمرو بمن معه من جرهم أعلى مكة وقُعيقعان، فجاز ذلك، ونزل السميدع يعشِّر من دخل من أسفلها ومن كدى، وكل فى قومه على حاله، لا يدخل واحد منهما على صاحبه فى ملكه.

ثم إن جرهما وقطورا بغى بعضهم على بعض، وتنافسوا الملك بها، فاقتتلوا، وشبت الحرب بينهم على الملك وولاية الأمر مع مضاض وبنى نابت بن إسماعيل وبنى إسماعيل وإليه ولاية البيت دون السميدع؛ فلم يزل البغى حتى سار بعضهم إلى بعض؛ فخرج مضاض بن عمرو من قعيقعان فى كتيبة سائرًا إلى السميدع، ومع كتيبته عدة من الرماح والدرق والسيوف والجعاب، فيقعقع ذلك معه، فسمى ذلك الجبل بقعيقعان لذلك. وخرج السميدع بقطورا من أجياد معه الخيل والرماح؛ فيقال: ما سمى ذلك الموضع أجيادًا إلا بخروج الخيل الجياد مع السميدع منه، حتى التقوا بفاضح، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل السميدع وفضحت قطورًا، فيقال: ما سمى فاضح فاضحًا إلا بذلك.

ثم إن القوم تداعوا إلى الصلح، فساروا حتى نزلوا المطابخ، شِعبًا بأعلى مكة، يقال له: شِعْبُ عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، فأصطلحوا بذلك الشعب، وأسلموا الأمر إلى مضاض بن عمرو، فلما جمع أمر مكة وصار ملكها له دون السميدع، نحر للناس وطبخ فأطعمهم، فيقال: ماسمى المطابخ مطابخ إلا بذلك.

قال: وكان الذى بين مضاض بن عمرو والسميدع أول بغى كان بمكة فيما يزعمون، فقال مضاض بن عمرو الجرهمى فى تلك الحرب يذكر السميدع وفعله وبغيه والتماسه ما ليس له: [من الطويل]

وَنَحْنُ قَتَلْنَا سَيِّدَ الْحَىِّ عَنْوَةً ... فَأَصْبَحَ فِيهَا وَهْوَ حَيْرَانُ مُوجَعُ
وَمَا كَانَ يَبْغِى أَنْ يَكونَ سَوَاؤُنَا ... بِهَا مَلِكًا حَتَّى أَتَانَا السَّمَيْدَعُ
فَذَاقَ وَبَالاً حِينَ حَاوَلَ مُلْكَنَا ... وَعَالَجَ مِنَّا غُصَّةً تُتَجَرَّعُ

فَنَحْنُ عَمَرْنَا الْبَيْتَ كُنَّا وُلاَتَهُ نُدَافِعُ عَنْهُ مَنْ أَتَانَا وَنَدْفَعُ
وَما كان يَبْغِى أَنْ يَلِى ذَاكَ غَيْرُنَا وَلَمْ يَكُ حَىٌّ قَبْلَنَا ثَمَّ يَمْنَعُ
وَكُنَّا مُلُوكًا فِى الدُّهُورِ الَّتِى مَضَتْ وَرِثْنَا مُلُوكًا لاَ تُرَامُ فَتُوضَعُ

قال ابن إسحاق: وقد زعم بعض أهل العلم أنه إنما سميت المطابخ، لما كان تُبَّع نحر بها وأطعم، وكانت منهلًا له.

وذكر المسعودى، رحمه الله: وقدم السميدع على وجه يخالف ما ذكره الأزرقى، وأفاد فى ذلك مابعده، فاقتضى ذلك ذكر ما فيه مما يلائم خبر المشار إليهم مما لابد من ذكره؛ لارتباط الكلام به:

قال المسعودى: ولما أسكن الله إبراهيم وولده مكة مع أمه هاجر ثم قال: وكان من خبر إسماعيل وخبر هاجر ما كان، إلى أن أنبع الله زمزم أقحط الشحرُ واليمن، فتفرقت العماليق وجرهم، ومَنْ هنالك من عاد، فيممت العماليق نحو تهامة يطلبون المرعى المخصبة، وعليهم السميدع بن هوثر بن قيطور بن كركر بن عملاق، فلما أمعنت بنو كركر فى السير وقد عدمت الماء والمرعى واشتدَّ بهم الجهد، أقبل السميدع بن هوثر يرتجز بشعر لهم يحثهم على المسير ويشجعهم فيما نزل بهم: [من الرجز]

سِيرُوا بَنِى كَرْكَر فِى الْبِلَادِ إِنِّى أَرَى ذَا الدَّهْرَ فِى فَسَادِ
قَدْ سَادَ مِنْ قَحْطَانَ ذُو الرَّشَادِ

فأشرف روادهم على وادى مكة، فنظروا إلى الطير ترفع وتخفض، فاستبطنوا الوادى، فنظروا إلى العريش على الربوة الحمراء - يعنى: عريش هاجر الذى صنعته فى موضع البيت الشريف؛ لأنه ذكر أنه كان ربوة حمراء - وفى العريش هاجر وإسماعيل.

ثم قال: فسلم الرواد عليها، واستأذنوها فى نزولهم، وشربهم من الماء، فأنست إليهم، وأذنت لهم فى النزول، فتلقوا من عداهم من أهلهم وأخبروهم خبر الماء، فنزلوا الوادى مطمئنين مستبشرين بالماء، ولِمَا أضاء لهم الوادى من نور النبوة وموضع البيت الحرام.

ثم قال: تسامعت جرهم ببنى كركر، ونزولهم الوادى، وما فيه من الخصب ودرور الضروع، وهم فى حال قَحْطٍ، فساروا نحو مكة وعليهم الحارث بن مُضَاضٍ بن عمرو بن سعد بن رقيب بن ظالم بن نبت بن جرهم، حتى أتوا الوادى ونزلوا

على مكة واستوطنوا الدار مع إسماعيل ومن تقدَّمهم من العماليق من بنى كركر، وقد قيل فى بنى كركر : إنهم من جرهم؛ فإنَّ السهيلى ذكر ما يقتضي أن قطورا الذين منهم السميدع هذا من جرهم، والأشهر أنهم من العماليق، والله أعلم.

وذكر الشيخ فتح الله بن موسى بن حماد الأندلسى - فى كتاب له نظم فيه السيرة لابن إسحاق - خبرًا طويلاً فيه ما يخالف ما ذكره المسعوديُّ والسهيليُّ فى نسب جدهم جرهم، وفيه ما يخالف ما ذكره ابن إسحاق فى سبب تسمية قعيقعان وأجياد وفاضح والمطابخ، فاقتضى ذكره لإفادة ذلك وغيره من الفوائد، وهو: أن إلياس بن مضر قال: سألت عمى إياد بن نزار عن أصل ماله - وكان متمولاً - فذكر أنه مرت عليه سنون، ولم تبق له سوى عشرة أبعر يعود بكراها على أهله، وذكر أنه كان أكبر إخوته الثلاثة: مضر، وربيعة، وأنمار، ثم قال: فخرج إياد إلى الشام بجماله، فلم يجد من يكترى منه، فسمع صوتًا كالرعد ينادى: من يحملنى إلى الحرم، وله وقر جمله درًّا وياقوتًا وعقيانًا ؟ ولا يجيبه أحد. فتتبع الصوت إلى أن وجد رجلاً أعمى كالنخلة السحوق، ولحيته تناطح ركبتيه، فهمه ذلك، فقال: يا شيخ، عندى حاجتك، فدنا منه فقال: أنت إياد بن نزار ؟ فقال: نعم، قال: فمن عرفك باسمى ؟ قال: علم عندى من جدى أن إياد بن نزار يردُّ الحارث بن مضاض إلى مكة من طول غربته، فقال: كم جملاً عندك ؟ قال: عشرة، قال: تكفينى ؟ قلت: هل معك غيرك ؟ قال: لا، ولكنى إنما أركب الجمل يومًا ويختلُّ، فقلت: قد لفظت له بحمله؛ فلا أعود، وبيننا وبين مكة عشر مراحل، فحملته، وكلما خر جمل قطرته إلى آخر وأبدلت غيره، إلى أن عارضنا مكة، فقال: يا بنى، إنى أحس الجمل يجمزنى جمزًا، وأظنه واقعًا حول جبل المطابخ، قلت: نعم، قال: اسمع آخر كلامى، قلت له: نعم، قال: أنا الحارث بن مضاض بن عبد المسيح بن نضلة بن عبد المدان بن حشرم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان بن هود - عليه السلام - كنت ملك مكة وما والاها إلى هجر ومَدْيَنَ وثمود، وكان أخى عمرو بن مضاض ملكًا قبلى، وكنا نعلق التيجان على رءوسنا يومًا، ويومًا نعلقها بباب الحرم، فحضر يهودى بدرٍّ وياقوت، فاشترى منه أخى ما شاء الله، وأنصفه فى الثمن وأوفاه، فباع أفخره على السوقة، فسمع أخى فانتزع جميع ما كان معه، فاغتال اليهوديُّ حارس

التاج بباب الحرم فقتله وحمل التاج، فلم يعرف الخبر إلا من رآه ببيت المقدس، فأرسل أخي إلى ملكهم قاران[١] من سبط بنيامين بن يعقوب بن إبراهيم أن يرده، ويأخذ حق اليهودى، فلم يفعل، فخرج إليهم أخي في مائتي ألف وخمسين ألفًا من أجناده ومن العمالقة وقضاعة، واستنصر قاران ياسيف[٢] هرقل فخرج إلينا في مائتي ألف وجماعة من أهل الشام، فساروا إلينا ونزلوا شرقي هذا الجبل، ونزلنا غربيه، وأوقد كلنا النيران وطبخوا وطبخنا فسمى هذا جبل: المطابخ، ثم نزلنا قعيقعان فتقعقعنا نحن وهم بالحجنِ والسلاح، فسمِّىَ الجبل: قعيقعان، ثم لما اصطففنا، خرج أخي، وقال: أنا الملك عمرو بن مضاض، فابرز إلى ياسيف، فمن ظفره الله كان الملك له، فقتله أخي على ربوة فاضح، فنزل إليه فجره برجله، وفضحه بذلك، فسميت تلك الربوة ربوة فاضح، وامتنع قاران من الوفاء بما التزمه سيف فقاتلناهم، فقتل أخي قاران فانهزموا، وتبعناهم إلى بيت المقدس فأذعنوا للطاعة، فتزوج أخي منهم برة بنت شمعون، ولم يكن في زمانها أجمل منها، فشفعتْ عنده أن يرحل عن قومها، فرحل، فلما بلغ مكة وكان عندها مائة رجل من أعيان بني إسرائيل رهائن على الطاعة، فلما كانوا بأجياد، سمت زوجته، حسكة من حديد وألقتها في فراشه، فلما نام عليه شيك بتلك الحديدة فمات، وهربَتِ الزوجةُ في الرهائنِ المائةِ على نجب أعدوها، فلحقناهم وأحضرناهم، فأمرت بقتلهم، فقال أولهم للسياف: لا تخفض ولا ترفع وانزل بسيفِكَ على الأجياد، فسمى موضع قتلهم: بأجياد، وملكت وتزوجت بعده، وقصدتني بنو إسرائيل بجنود عظيمة ومعهم تابوت آدم - عليه السلام - الذي فيه السكينة والزبور، فهزمتهم وأخذت جرهم التابوت، فدفنته في مزبلة، فنهيتهم، فعصوني، فأخرجته ليلاً ووضعتُ مكانه تابوتًا يشبهه، ونهاهم عنه الهميسع بن نبت بن قيدار بن إسماعيل، فأبوا، فأعطيته التابوت، فسلط الله عليهم -هم والعمالقة- عللاً كثيرة، فماتوا إلا من كره فعلهم، فملكت ابني عمرًا وخرجت أجول في الأرض، فضربت الأمثال بغربتي، ثم سار به إياد إلى شعب الأثل عند غيضة زيتون، فقال: يا بني، قد خلونا وثالثنا الشاهد العالم الواحد، وإذا

(١) في الشفاء (١/ ٣٦٦) فأران.
(٢) في الشفاء (١/ ٣٦٦) سنيف.

أسديت إلى المرء نعمة، وجب عليه شكرها، وقد أسديتَ إلىَّ نعمةً وجب على شكرها، فعلىَّ لك النصيحة أو أقع فى الفضيحة، أنبئك بما ينجيك، والذى به أهديك أحب إلى مما يغنيك. يا بنى، هل ولد فى آل مضر مولود اسمه محمد ؟ قلت: لا، قال: إنه سيولد، ويأتى حينه، ويعلو دينه، ويقبل أوانه، ويشرف زمانه، فإن أدركته، فصدق وحقق، وَقبِّلِ الشامةَ التى بين كتفيه ﷺ، وقل له: يا خير مولود، دعوت إلى خير معبود، فأجب ولا تجب. ثم أتى إلى صخرة مطبقة على صخرة، فقلعها ودخل منها سربًا، إلى أن دخل بيتًا فيه أربعة أَسِرَّة: سرير خال، وثلاثة عليها ثلاثة رجال، وفى البيت كرسىّ درّ وياقوت وعقيان ولجين، فقال لى: خذ وِقْرَ جملك لا غير، وقال لى: هذا الذى على يسار سريرى الخالى مضاض أبى، والذى على يساره ابنه عبد المسيح، والذى على يساره ابنته نفيلة، وعلى رأس نفيلة لوح من رخام فيه مكتوب: أنا نفيلة بنت عبد المدان، عشت خمسمائة سنة فى ظل الملك؛ فلم ينجنى من الموت. وعلى رأس عبد المسيح: أنا عبد المسيح بن مضاض عشت مائة سنة، وركبت مائة فرس، وافتضضت مائة بكر، وقتلت مائة مبارز، وهزمت الروم بالروزب - لعله اسم مكان - ولم يكن لى بُدٌّ من الموت. ثم استوَى على سريره الخالى، وإذا على رأسه لوح مكتوب فيه: أنا الحارث بن مضاض، عشت أربعمائة سنة، ملكت مائة سنة، وطفت فى الأرض ثلاثمائة سنة، متغربًا بعد هلاك قومى جرهم، ثم قال: يا بنى، ناولنى القارورة التى فى تلك الكوة، فناولته إياها فشرب نصفها وادَّهَنَ بنصفها، وقال: إذا أتيت إخوتك وقومك وقالوا لك: من أين هذا المال ؟ قل لهم: إن الشيخ الذى حملته هو الحارث بن مضاض الجرهمى، فهم يكذبونك، فقل لهم: إن آيتى الحجر المدفون بجوار زمزم، وفيه مقام إبراهيم الخليل، وفى الحجر الذى يليه شعر الحارث، وهو قوله:

« كأن لم يَكُنْ . . » الأبيات الآتى ذكرها.

ثم قال: ناولنى القارورة الأخرى، فناولته فشربها، فصاح صيحة، فمات لحينه، فخرجتُ بما معى من المال. انتهى

قال الفاسى بعد ذكره لهذا الخبر الغريب: فانظر إلى ما اشتملت عليه هذه الحكاية من المخالفة لما نقله صاحب السيرة من أن هذا الشعر لعمرو بن الحارث بن

مضاض، وهو هنا لوالده، قال: ويمكن الجمع بأن يكون ولده تمثل بما قاله والده لما فارقوا مكة ثانيًا، والله أعلم بالحقائق.

فأقامت جرهم فى ولاية البيت ثلاثمائة سنة، ثم أخرجهم منها بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة؛ لأنهم رأوا استحلال جرهم لحرمة البيت، حتى إنه فسق رجل منهم بامرأة فى جوف الكعبة فمسخا حجَرين فوضعتهما خزاعة بعد ذلك، أحدهما على الصفا، والآخر على المروة، بعد أن كانا فى جوف الكعبة، وهما إساف ونائلة، فقام فيهم مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو خطيبًا فقال: يا قوم، احذروا البغى، فقد رأيتم من كان قبلكم من العمالقة حين استخفوا بالبيت، فلم يعظموه، أخرجوا، وتفرقوا فى البلاد، وتمزقوا كل ممزق. فلا تستخفوا بحق بيت الله يخرجكم الله تعالى منها فتهلكوا. فلم يطيعوه، ودلاَّهم الشيطان بغرور، وقالوا: من يخرجنا ونحن أعزُّ العرب وأكثرها رجالاً وسلاحًا ؟ فقال لهم: إذا جاء أمر الله، بطل ما تقولون. فلما رأى مضاض بن عمرو ذلك، عمد إلى غزالين من ذهب كانا فى الكعبة فى جُبِّهَا الكائن بجوفها المجعول لحفظ ما يهدى إليها من الأموال والذخائر والنفائس وإلى ما فيه من الأموال والأسياف المهداة للكعبة، فدفنها فى بئر زمزم، وكان قد نضب ماؤها، فحفرها بالليل وأعمق، ودفن فيها الغزالين وتلك الأموال، وطمس البئر إلى أن أخذ جميع ذلك عبد المطلب حين أرشد إلى حفرها فى النوم بعد ذلك وضربها صفائح وجعلها بابًا للكعبة.

واعتزل جرهمًا وأخذ معه بنى إسماعيل وخرج من مكة، فجاءت بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة وغسان بن خزاعة، وأخرجت جرهمًا من البلاد، ووليت بنو بكر أمر البيت وصاروا أهله، وجاءهم بنو إسماعيل، فكانوا قد اعتزلوا الحرب بين جرهم وبين بنى بكر، ولم يدخلوا بينهما، فسأل بنو إسماعيل من بنى بكر السكنَى بمكة؛ فإنهم كانوا قد أخرجوا منها لما كثروا وانتشروا ونموا وضاقت عليهم مكة، وخئولتهم جرهم هم ولاة البيت وإليهم أمره لا تنازعهم بنو إسماعيل فى ذلك؛ لخئولتهم وقرابتهم، فلما ضاقت عليهم مكة، انتشروا فى الآفاق؛ فلا يأتون قومًا ولاينزلون منزلاً ولا يدخلون بلدًا إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم، وهم يومئذ على دين إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - فأذنت بنو بكر لبنى إسماعيل فى السكنى،

واستأذنهم مضاض بن عمرو، وكان قد اعتزل الحرب - أيضًا - بين الفريقين جرهم وبنى بكر بن عبد مناف بن كنانة فأبوا ذلك، وقالوا: من قارب الحرم من جرهم فى السكنَى معهم بمكة، فدمه هدر، فدخلت إبل لمضاض بن عمرو مكة، فأخذتها بنو بكر، وصاروا ينحرون منها ويأكلون، فتبع مضاض بن عمرو أثرَهَا فوجدها دخلَتْ مكة، فسلك الجبال حتى علا على أبى قبيس يبصر إبله ببطن الوادى، فأبصر الإبل تنحر وتؤكل ولا سبيل إلى استنقاذها، ورأى إن هبط الوادى قتل، فولى منصرفًا إلى أهله وقال: [من الطويل]

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحَجُونِ إِلَى الصَّفَا ... أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ
وَلَمْ يَتَرَبَّعْ وَاسِطًا فَجَنُوبَهُ ... إِلَى المُنْحَنَى مِنْ ذِى الأَرَاكَةِ حَاضِرُ
بَلَى نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا ... صُروفُ اللَيَالِى وَالْجُدُودُ العَوَاثِرُ
وَأَبْدَلَنَا عَنهَا الأَسَى دَارَ غُرْبَةٍ ... بِها الذِّئْبُ يَعْوِى وَالْعَدُوُّ مُحَاصِرُ
وَكُنَّا وُلاَةَ البَيْتِ مِنْ عَهْدِ نَابِتٍ ... نَطُوفُ بِهَذَا البَيْتِ وَالْخَيْرُ حَاضِرُ
وَكُنَّا لإِسْمَاعِيلَ صِهْرًا وَجِيرَةً ... وَأَبْنَاؤُهُ مِنَّا وَنَحْنُ الأَصَاهِرُ
فَأَخْرَجَنَا مِنْهَا المَلِيكُ بِقُدْرَةٍ ... كَذَا قَبْلَنَا بِالنَّاسِ تَجْرِى المَقَادِرُ
وَصِرْنَا أَحَادِيثًا وَكُنَّا بِغِبْطَةٍ ... كَذَلِكَ عَضَّتْنَا السِّنُونَ الغَوَابِرُ
وَسَحَّتْ دُمُوعُ العَيْنِ تَجْرِى بِبَلْدَةٍ ... بِهَا حَرَمٌ أَمْنٌ وَفِيهَا المَشَاعِرُ
بِوَادٍ أَنِيسٍ لاَ يُطَارُ حَمَامُهُ ... وَلاَ بَرِحَتْ تَأْوِى إِلَيْهِ العَصَافِرُ
وَفِيهَا وُحُوشٌ لاَ تُرَامُ أَنِيسَةٌ ... إِذَا خَرَجَتْ مِنْهَا فَلَيْسَتْ تُغَادِرُ
فَيَالَيْتَ شِعْرِى هَلْ يُعَمَّرُ بَعْدَنَا ... جِيَادٌ وَمُفْضِى سَيْلِهِ وَالظَّوَاهِرُ
وَهَلْ فَرَجٌ يَأْتِى بِشَىْءٍ نُرِيدُهُ ... وَهَلْ جَزَعٌ يُنْجِيكَ مِمَّا تُحَاذِرُ

وانطلق مضاض بن عمرو ومن تبعه من اليمن، وهم محزونون على مفارقة مكة.

ثم ولى أمرَ مكة والبيت بنو إياد بن نزار، كان أمر البيت إلى رجل منهم يقال له: وكيع بن سلمة بن زهر بن إياد بن نزار، فبنى صرحًا بأسفل مكة عند سوق الخياطين، وجعل فيه محلاً يقال له: الحَزْوَرة، وبها سمى ذلك المحل: حزورة إلى الآن، وجعل فيها سُلَّمًا يرقاه، وكان يزعم أنه يناجى الله تعالى، وكان يقول: ربكم ليجزين بالخير ثوابًا، وبالشر عقابًا، وكان يقول: من فى الأرض عبيد لمن فى

السماء، ولما حضرته الوفاة جمع قومه فقال: اسمعوا وصيتى، الكلام كلمتان، والأمر بعد البيان، من رشد فاتبعوه، ومن غوى فارفضوه، وكل شاة معلقة برجلها، ولما مات رثاه بشر الحجبى فقال: [من المتقارب]

وَنَحْنُ إِيَادُ عِبَادُ الإِلَهِ ... وَرَهْطُ مُنَاجِيهِ فِى السُّلَّمِ
وَنَحْنُ وُلاَةُ حِجَابِ العَتِيقِ ... زَمَانَ النَّخَاعِ عَلَى جُرْهُمِ

ثم ولى مكة مضر، وسبب ولايتهم بها: أن رجلاً من إياد ورجلاً من مضر خرجا يتصيدان، فمرت بهم أرنبٌ، فاكتنفاها يرميانها، فرماها الإيادى، فزل سهمه، فنظم قلب المضرى فقتله، فبلغ الخبر مضر، فاستغاثَتْ بفَهْم وعَدوان يطلبون بهم قَوَدَ صاحبهم، فقالت إياد: إنما أخطأه السهم، فأبت فهم وعَدوان إلا قتله، ورأت إياد من مضر علامة الظفر عليهم، فطلبوا أجل ثلاثة أيام، فوافقهم مضر على ذلك وأجابوهم إليه، فخرجت إياد بعد المدة إلى جهة المشرق، فتبعتهم فهم وعدوان فقالوا: رُدُّوا نساء مضر المتزوجَاتِ فيكم، فقالوا: لا تقطعوا قرابتنا، اعرضوا على النساء فأية امرأة اختارَتْ قومها رددتموها، وإن أحبت الذهاب مع زوجها أعرضتم عنها، قالوا: فكان أول من اختار أهلَهُ امرأة من إياد.

وممن ولى مكة من مضر: أسد بن خزيمة، وضبة، وهو الذى ولى الحجاز واليمن لسليمان بن داود - عليهما الصلاة والسلام - وفيه يقول الشاعر: [من المتقارب]

وَقَدْ كَانَ ضَبَّةُ رَبَّ الْحِجَا ... زِ تُجْبَى إِلَيْهِ إِتَاوَاتُهَا
فَمِنْ كُلِّ ذِى إِبِلٍ نَاقَةٌ ... وَمِنْ كُلِّ ذِى غَنَمٍ شَاتُهَا

وهذا ضبة هو وأخوه أُدّ ابنان لطابخة بن إلياس بن مضر.

ثم ولى أمر البيت ومكة خزاعة، وسبب ولايتهم لها: أنه لما وقع لإياد ماوقع، وكانت إياد اقتلعوا الحجر الأسود ليسافروا به، فحملوه على بعير، فبرك ولم يقم، ثم على بعير آخر فكذلك، فلما رأوا ذلك، دفنوه تحت شجرة، وكانت تراهم امرأة من النساء اللاتى معهم من خزاعة، فلما أن رجعت إلى مضر ورأتهم يجتهدون فى تحصيل الحجر مظهرين من التعب؛ لعدم وجدانه، قالت لقومها: إنى أعلم محله، فخذوا عليهم العهد أن يولوكم حجابة البيت إن دللتموهم عليه، فأخذ خزاعة من مضر ذلك، فدلتهم المرأة عليه، فأخذوه وأعادوه مكانه فصار لهم حكم ولايته بهذا

السبب، وكانت مدة ولايتهم ثلاثمائة سنة.

وسار بعض التبابعة لإرادة هدم البيت وتخريبه، فقامت دونه خزاعة، وقاتلت عليه أشد القتال، وأول من ملك منهم: عمرو بن لُحَيّ بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر بن مزيقيا بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة ابن مازن بن الأزد [(١)] بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجُب ابن يعرب بن قحطان؛ هكذا نسبه ابن هشام [(٢)]، وابن حزم، وابن الكلبى.

وقد اختلف فى سبب ملك خزاعة لمكة: فذكر صاحب الأرج المسكى فيما تقدم قريبًا: أن سبب ذلك دلالة تلك المرأة الخزاعية مضر على موضع الحجر لما دفنته إياد حالَ خروجهم، واشتراط خزاعة على مضر توليتهم حجابة البيت وأخذهم العهد عليهم فى ذلك فولوه.

وذكر الزبير بن بكار، عن أبى عبيدة شيئًا من خبر خزاعة وجرهم؛ فقال: فاجتمعت خزاعة ليحلوا من بقى من جرهم، ورأس خزاعة عمرو بن لحى، واسم لحى ربيعة، فاقتتلوا ووقعت بينهم حروب شديدة طويلة، ثم إن خزاعة غلبت جرهمًا على البيت، وخرجت جرهم حتى نزلت وادى إضم، فجاءهم سيل بالليل فهلكوا جميعًا، قال أمية بن أبى الصلت من شعر له:

وَجُرْهُمٌ دمثوا تِهَامَةَ فِي الد ... دهْرِ فَسَالَتْ بِجَمْعِهِمْ إِضَمُ

وكان عمرو بن لحىّ أول من غير دين إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - فإنه خرج إلى الشام واستخلف على البيت ومكة رجلًا من بنى ضخم، يقال له: آكل المروة، وعمرو بن لحى يومئذ وأهل مكة على دين إبراهيم - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - فلما قدم الشام، نزل بالبلقاء، فوجد قومًا يعبدون أوثانًا فقال: ما هذه الأنصاب التى أراكم تعبدونها ؟ فقالوا: أرباب نتخذها، نستنصر بها على عدونا فننصر، ونستشفى بها من المرض فنشفى، فوقع قولهم فى نفسه، فقال: هَبُوا لى منها واحدًا أتخذه ببلدى؛ فإنى صاحب بيت الله الحرام، وإلىّ وفد العرب من كل أوب، فأعطوه صنمًا يقال له: هُبَل، فحمله حتى نصبه للناس، فتابعته العرب على ذلك.

---

(١) في السيرة: الأسد.
(٢) ينظر: السيرة النبوية (١/ ١٠٩)، وفيه: « عامر بن حارثة بن امرىء القيس ».

وروى الأزرقى خبرًا طويلاً فى ولاية خزاعة بعد جرهم، فتزوج لحى أبو عمرو فهرة ابنة عامر بن عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى ملك جرهم، فولدت له عمرو بن لحى هذا، وبلغ بمكة وفى العرب من الشرف ما لم يبلغه عربى قبله ولا بعده فى الجاهلية، وهو الذى قسم بين العرب - فى حطمة حطموها - عشرة آلاف ناقة، وقد كان أعور عشرين فحلاً، وكان الرجل فى الجاهلية إذا ملك ألف ناقة فقأ عين فحل إبله، فكان قد فقأ عشرين فحلاً، وكان أول من أطعم الحاجَّ بمكة سَدِيف الإبل ولحمها على الثريد، وعم فى تلك السنة جميع حاجِّ العرب بثلاثة أثواب من برود اليمن، وكان قد ذهب شرفه كل مذهب؛ فكان قوله فيهم دينًا متبعًا لا يخالف، وهو الذى بَحَّرَ البَحِيرة، ووَصَلَ الوَصِيلة، وحَمَى الحامىَ، وسَيَّبَ السوائبَ، ونصب الأصنام حول الكعبة، وجاء بهُبَل فنصبَهُ فى جوف الكعبة، فكانت قريش والعرب تستقسمُ عنده بالأزلام، وهو أول من غير الحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - وكان أمره بمكة مطاعًا لا يعصَى، وكان بمكة رجل من جرهم على دين إبراهيم، وكان شاعرًا، فقال لعمرو بن لحى حين غير دين إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -: [من مجزوء الكامل]

يَا عَمْرُو لاَ تَظْلِمْ بِمَكْـ　　ـكَـةَ إِنَّـهَـا بَـلَـدٌ حَـرَامُ
سَـائِـلْ بِـعَـادٍ أَيْـنَ هُـمْ　　وَكَـذَاكَ تُـخْـتَـرَمُ الأَنَـامُ
وَبَـنِـى الـعَـمَـالِـيقِ الَّـذِيـ　　ـنَ لَهُمْ بِهَا كَانَ السَّوَامُ

فلما سمع عمرو بن لحى هذا الشعر، أخرجه من مكة، فنزل بإضم من أعراض مدينة النبى ﷺ نحو الشام، فقال الجرهمى يتشوَّقُ إلى مكة: [من الطويل]

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِى هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً　　وَأَهْلِى مَعًا بِالمَأْزِمَيْنِ حُلُولُ
وَهَلْ أَرَيَنَّ العِيسَ تَنْفُخُ فِى البُرَى　　لَهَا بِمِنًى وَالمَأْزِمَيْنِ زَمِيلُ
مَنَازِلُ كُنَّا أَهْلَهَا لَمْ يَحُلْ بِنَا　　زَمَانٌ بِهَا فيما أَرَاهُ يَحُولُ
مَضَى أَوَّلُونَا قَانِعِينَ بِشَأْنِهِمْ　　جَمِيعًا وَغَالَتْنَا بِمَكَّةَ غُولُ

واستمر ملكهم لها ثلاثمائة سنة، حتى كان آخرهم حليل بن حبشية، وهو القائل: [من الرجز]

وَادٍ حَرَامٌ طَيْرُهُ وَوَحْشُهُ　　نَحْنُ وُلاَتُهُ فَلاَ نَغُشُّهُ

وَابْنُ مُضَاضٍ قَائِمٌ يَهُشُّهُ   يَأْخُذُ مَا يُهْدَى لَهُ يَمُشُّهُ

وحليل هذا هو آخر من ولى البيت من خزاعة.

أقول: ورأيت فى تاريخ الفاسى خمسة أقوال فى سبب خروج جرهم من مكة، منها هذان القولان، وثلاثة لم أذكرها تركًا للتطويل من غير كبير فائدة، والله أعلم أيها كان هو.

ثم ولى أمر مكة: قريش، وهم ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وقيل: ولد النضر بن كنانة، وقد تقدَّم الكلام على هذا.

وأول من ولى منهم: قصى بن كلاب، تقدم ذكر ذلك. ثم تزوج قصىٌّ بعاتكة بنت فالح بن مالك بن ذكوان من بنى سُليم، فأتى منها بعبد مناف، وعبد العزَّى، وعبد الدار، وعبد قصى.

قال السهيلى فى شرح سيرة ابن هشام: عبد مناف اسمه المغيرة، وهو منقول من الوصف، والهاء فيه للمبالغة؛ [أي]: أنه مغيرٌ على الأعداء، أو مغيرٌ من أغار الحبل: إذا أحكمه فتلاً.

وعبد مناف كان يلقب: «قمر البطحاء»؛ كما ذكره المؤرخون. وكانت [أمه] (١) حبَّى بنت حليل قد أخدمته مناة، وهو صنم عظيمٌ كان لهم، فكان يسمَّى به، فكان يقال له: عبد مناة، ثم نظر أبوه قصى، فوجد اسمه يوافق عبد مناة بن كنانة، فحوله إلى عبد مناف؛ ذكره البرقى. (٢) انتهى

قال العلامة التقىُّ الفاسى(٣): روينا عن الزبير بن بَكَّار، حدثنى أبو الحسن الأثرم، عن أبى عبيدة، قال أبو عبيدة: حدثنا خالد بن أبى عثمان قال: كان قصى أول من ثرد الثريد، فأطعم بمكة، وسقى اللبن، بعد نابت بن إسماعيل، فقال قائل ولم يسموه هاشمًا:

أشبعهم زيد قصى لحمًا   ولبنًا محضًا وخبزًا هشيمًا.

وقال الزبير: حدَّثنى عمرو بن أبى بكر الموئلى، عن عبد الحكم بن سفيان بن أبى نمر، قال: لما ولد لقصىٍّ أول ولد سمته أمه عبد الدار، فذكر ما ذكره السهيلى

---

(١) سقط في ط، والمثبت من الروض.
(٢) ينظر: الروض الأنف (١/٧-٨).
(٣) الشفاء (١/ ٧٢).

آنفًا فيه، قال: وإنما سمى عبد الدار؛ لأنه حين هدم الكعبة، وأراد بناءها، حضر الحج قبل بنائها، وهى مهدومة، فأحاط عليها دارًا من خشب، وربطها بالحبال لتدور الناسُ من وراء الدار فولد له إذ ذاك، فسماه عبد الدار.

وأما عبد بن قصى: فإنه إنما سماه فى الأول عبد قصى؛ فكان بذلك يدعى، ثم أمال اسمه، فقيل: عبد بن قصى.

وقال غير الموئلى: قال قصى: ولد لى، فسميت اثنين بإلهىَّ - يعنى: مناة والعزى - وسميت الثالث بدارى، وسميت الرابع بنفسى، يعنى: عبد الدار وعبد قصى. انتهى

وقولى: « ثم تزوج قصى بعاتكة...إلى آخره » هكذا فى المواهب وسيرة اليعمرى ابن سيد الناس وغيرهما: أن أم عبد مناف وإخوته هى عاتكة بنت فالح، وهو مخالف لما ذكره السهيلى والفاسى والأزرقى: أنها حُبّى بنت حليل بن حبشية، ونص عبارة الأزرقى[1]: فأقام قصى معها، وولدت له عبد الدار، وهو أكبر ولده، وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصى، وقد تقدمت، فلعلَّ أن يكون أكبر أولاده عبد الدار من حُبّى، وعبد مناف من عاتكة. لكن عبارته صريحة فى أن الجميع من حبى، فلينظر وجه التوفيق.

وكان عبد مناف قد شرف فى زمان أبيه هو وإخوته. فلما مرض قصىٌ قال لابنه عبد الدار: لألحقنك بالقوم يابنى، وإن كانوا شرفوا عليك. فأعطاه الحجابة وسلَّم إليه المفتاح، وقال: لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنتَ تفتحها له، وأعطاه السقاية واللواء، وقال: لا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك، ولا يَعقد لواء لقريش لحربها إلا أنتَ بيدِكَ، وجعل له الرفادة، وقال: لا يأكلْ أحد من أهل الموسم إلا من طعامك.

والرفادة: خراجٌ تخرجه قريش من أموالها فى كل موسم، فتدفعه إلى قصىٌ فيصنع به طعاماً للحاج، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وكان قصى فرض ذلك على قريش حين جمعهم، وقال لهم: يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته وحرمه، وإن الحاجَّ ضيفُ الله وزُوَّار بيته، وهم أحقُّ الأضياف بالكرامة، فاجعلوا

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١/ ٢٧٤) نحوه.

لهم طعامًا وشرابًا أيام الحجيج حتى يصدروا عنكم.

فجعل قصيٌّ كل ما كان بيده من المناصب إلى ولده عبد الدار بن قصى، وكان قصيٌّ لا يُخَالفُ ولا يُرَدُّ عليه شيء من صنعه، فكان أمره فى قومه من قريش حياته ومماته كالدين المتبع، لا يعمل بغيره، لعظم شأنه ونفوذ سلطانه.

قال ابن إسحاق [(١)]: ثم إن قصيًّا هلك، فقام بهذه المناصب ولده عبد الدار بعده، ثم إن عبد مناف تزوج بعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان من بنى سُلَيْم، فأتى منها بهاشم وعبد شمس والمطلب، ولهم أخ رابع يسمى نوفلاً من امرأة أخرى، يقال لها: واقدة بنت عمرو المازنية، فهو فَذٌّ والثلاثة أشقاء، والأولان من الثلاثة توءمان، يقال: خرجا وجبهة أحدهما متصلة بجبهة الآخر، ففصلا بالحد فتقطر الدم، فقال بعض الكُهَّان: إنه سيقع بين ذريتهما دم إلى آخر الأبد، فأنت ترى ما جرى بين بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وبين بنى هاشم بن عبد مناف من الدماء قديمًا وحديثًا، والأمر لله سبحانه، وقد أشار إلى ذكر الإخوة طالب بن أبى طالب فى قصيدة يرثى بها القتلى من قريش يوم بدر: [من الطويل]

أَلا إِنَّ عَيْنِى أَنْفَدَتْ دَمْعَهَا سَكْبَا ... تُبَكِّى عَلَى كَعْب وَمَا إِنْ تَرَى كَعْبَا
أَلاَ إِنَّ كَعْبًا فِى الحُرُوبِ تَخَاذَلُوا ... وَأَرْدَاهُمُ ذَا الدَّهْر واجْتَرَحُوا ذَنْبَا
وَعَامِرُ تَبْكِى لِلْمُلِمَّاتِ غُدْوَةً ... فَيَالَيْتَ شِعْرِى هَلْ أَرَى لَهُمَا قُرْبَا
هُمَا أَخَوَاىَ لَنْ يُعَدَّا لِغَيَّةٍ ... تُعَدُّ وَلَنْ يُسْتَامَ جَارُهُمَا غَصْبَا
فَيَا أَخَوَيْنَا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلاً ... فِدَى لَكُمَا لاَ تَبْعَثُوا بَيْنَنَا حَرْبَا
وَلاَ تُصْبِحُوا مِنْ بَعْدِ وِدٍّ وَأُلْفَةٍ ... أَحَادِيثَ فِيهَا كُلُّكُمْ يشْتَكِى النَّكْبَا
أَلَمْ تَعْلَمُوا مَا كَانَ فِى حَرْبِ دَاحِسٍ ... وَجَيْشِ أَبِى يَكْسُومَ إِذْ مَلَئُوا الشِّعْبَا
فَلَوْلاَ دِفَاعُ اللهِ لاَ شَىْءَ غَيْرُهُ ... لأَصْبَحْتُمُ لاَ تَمْنَعُونَ لَكُمْ سِرْبَا
فَمَا إِنْ جَنَيْنَا فِى قُرَيْشٍ عَظِيمَةً ... سِوَى أَنْ حَمَيْنَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ التُّرْبَا
أَخَا ثِقَةٍ فِى النَّائِبَاتِ مرزأً ... كَرِيمًا نَثَاهُ[(٢)] لاَ بَخِيلاً وَلاَ ذَرِبَا
يُطِيفُ بِهِ العَافُونَ يَغْشَوْنَ دَارَهُ ... يَؤُمُّونَ نَهْرًا لاَ نَزُورًا وَلاَ صَرِبَا[(٣)]

(١) ينظر: السيرة النبوية (١/ ١٤٩).
(٢) في ط: ثناه. والمثبت من السيرة. والمعنى: كريمًا ذكره.
(٣) الصرب: المنقطع. وينظر: السيرة (٢/ ٣٧٢، ٣٧٣).

ثم إن بنى عبد مناف هؤلاء الأربعة هاشمًا وعبد شمس - وبه كان يكنى عبد مناف، يقال: أبا عبد شمس - والمطلب ونوفلاً-: أجمعوا على أن يأخذوا ما بيدى بنى عبد الدار من الحجابة والسقاية واللواء والرفادة، ورأَوْا أنهم أحقُّ بذلك منهم؛ لشرفهم وفضلهم، وتفرقت قريش بينهم، منهم من يرى أن عبد مناف أحق بهذه المآثر من بنى عبد الدار، ومنهم من يرى إبقاء بنى عبد الدار على ما جعله جدهم قصى لأبيهم عبد الدار، فأجمعوا على الحرب، فتفرقتْ عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف على رأيهم يرون أنهم أحق به من بنى عبد الدار لمكانهم وشرفهم فى قومهم، وكانت طائفة من بنى عبد الدار يرون أنه لا ينزع منهم ما كان قصى جعله إلى أبيهم عبد الدار. وكان صاحب أمر بنى عبد مناف عبد شمس بن عبد مناف بن قصى؛ وذلك أنه كان أسن بنى عبد مناف. وكان صاحب أمر عبد الدار عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى، وكان بنو أسد بن عبد العزى بن قصى، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو تيم بن مرة بن كعب، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر مع بنى عبد مناف، وكان بنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى، وبنو جُمَح بن عمرو بن هصيص، وبنو عدى بن كعب مع بنى عبد الدار.

وخرجت عامر بن لؤى ومحارب بن فهر فلم يكونوا مع أحد من الفريقَين. فعقد كل قوم على أمرهم حلفًا مؤكدًا على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضًا ما أرسى ثبير، وما بلَّ بحرٌ صوفه فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبًا - أخرجتها لهم عاتكة بنت عبد المطلب، وقيل: البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب - فوضعوها فى أحلافهم فى المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة توكيدًا على أنفسهم، فسمى هذا الحلف: « حلف المطيبين »، فتطيب بذلك بنو عبد مناف، وبنو أسد، وبنو زهرة، وبنو تيم، وبنو الحارث بن فهر، فسموا المطيبين. وتعاقد بنوعبد الدار، وبنو سهم، وبنو جُمح، وبنو عدى وبنو مخزوم، ونحروا جزورًا وقالوا: من أدخل يده فى دمها، فلعق منها فهو منا، ففعلوا ذلك، هؤلاء القبائل يسمون: « لَعَقَة الدَّم »، وتحالفوا على التناصر، وألا يسلم بعضهم بعضًا، ما أرسى ثبير، فسموا الأحلافَ لذلك.

ثم سُوئِدَ بين القبائل وألزم بعضهم بعضًا، فعينت بنو عبد مناف لبنى سهم، وعينت بنو أسد لبنى عبد الدار، وعينت بنو زهرة لبنى جمح، وعينت بنو الحارث ابن فهر لبنى عدى بن كعب.

ثم قال: لتكف كل قبيلة ما أسند إليها. فبينما الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب، إذ تداعوا للصلح، فاصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة والقيادة لبنى عبد مناف، واللواء والحجابة ودار الندوة لبنى عبد الدار، فتراضوا على ذلك، وتحاجز الناس عن الحرب، وثبت كل قوم على حلفهم، فلم يزالوا عليه حتى جاء الإسلام [(١)]، فقال - عليه الصلاة والسلام -: « ما كان من حلف فى الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة »[(٢)].

وحيث انجرَّ الكلام إلى ذكر حلف المطيبين، وحلف الفضول، وحلف الأحابيش، وحرب الفِجار الأول والفجار الثانى، روينا فى السيرة لابن إسحاق تهذيب ابن هشام روايته عن زياد البكائى شيئًا من خبره، ونص ذلك على ما فى السيرة[(٣)]:

قال ابن هشام: وأما حلف الفضول: فحدثنى زياد بن عبد الله، عن محمد بن إسحاق قال: تداعت قبائل [من][(٤)] قريش إلى حلف [(٥)]، فاجتمعوا له فى دار عبد الله بن جُدعانَ بنِ عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى؛ لشرفه وسنه، فكان حلفهم عنده، وهم: بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو تيم بن مرة، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألاَّ يجدوا بمكة مظلومًا - من أهلها أو غيرهم ممن دخلها من سائر الناس - إلا قاموا وكانوا على من ظلمه حتى تردَّ عليه مَظلمته، فسمت قريش ذلك: « حلف الفضول ».

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (١/١٤٩-١٥١).

(٢) ورد هذا الحديث عن جبير بن مطعم مرفوعًا بلفظ: « لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة » أخرجه مسلم (٤/ ١٩٦١) كتاب فضائل الصحابة، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه، حديث (٢٠٦/ ٢٥٣٠)، وأبو داود (٣/ ١٢٩) كتاب الفرائض باب في الحلف، حديث (٢٩٢٥)، وأحمد (٤/ ٨٣)، وأبو يعلى (١٣/ ٤٠٣-٤٠٤) رقم (٣٤٠٦)، وابن حبان (٤٣٧١، ٤٣٧٢)، والطحاوي في « مشكل الآثار » (٢/ ٢٣٨)، والطبراني في « الكبير » (١٥٩٧)، والطبري في تفسيره (٥/ ٣٦).

(٣) ينظر « السيرة النبوية » (١/ ١٥٣-١٥٤).

(٤) زيادة من السيرة.

(٥) في ط: حلف الفضول. والمثبت أصوب.

قال ابن هشام: [قال ابن إسحاق] [(١)]: فحدثني محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ[(٢)] التيمي؛ أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري يقول: قال رسول الله ﷺ: « لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت »[(٣)]. انتهى

(١) سقط في ط، وأثبتناه من السيرة.

(٢) في ط: فند، والمثبت من السيرة، وهو الصواب.

(٣) مرسل حسن الإسناد محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ روى له الجماعة سوى البخاري ووثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة وابن حبان ينظر: تهذيب الكمال (٢٥/ ٢٣٢) وطلحة بن عبد الله بن عوف الزهري قال الحافظ في « التقريب » (١/ ٣٧٩): ثقة مكثر فقيه من الثالثة.
والحديث أخرجه البيهقي في « السنن الكبرى » (٦/ ٣٦٧) كتاب قسم الفيء والغنيمة باب إعطاء الفيء على الديوان: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر بن الحسن القاضي قالا: ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق به، وقد جاء هذا الحديث موصولا من طريق طلحة فأخرجه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » (١/ ١٠٣): أخبرنا محمد بن عمر قال: فحدثني محمد بن عبد الله عن الزهري عن طلحة ابن عبد الله بن عوف عن عبد الرحمن بن أزهر عن جبير بن مطعم به مرفوعًا وقال محمد بن عمر: ولا نعلم أحدًا سبق بني هاشم بهذا الحلف. قلت: وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ محمد ابن عمر الواقدي متروك الحديث، وللحديث شواهد مرفوعة من حديث عبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة وابن عباس يرتقي بها مرسل ابن إسحاق إلى الصحة. حديث عبد الرحمن بن عوف: أخرجه أحمد (١/ ١٩٠، ١٩٣)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٥٦٧) والحاكم (٢/ ٢٢٠)، وابن حبان (٢٠٦٢-موارد)، وأبو يعلى (٢/ ١٥٦-١٥٧) رقم (٨٤٤-٨٤٦) والبزار (١٩١٤-كشف)، والطبري في « تفسيره » (٥/ ٣٦) والبيهقي في « السنن الكبرى » (٦/ ٣٦٦) كتاب قسم الفيء باب إعطاء الفيء على الديوان، وفي « دلائل النبوة » (٢/ ٣٧-٣٨)، وابن عدي في « الكامل » (٤/ ٣٠١)، كلهم من طريق عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف مرفوعًا: « شهدت حلف المطيبين فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه ». وقال البزار: لا نعلمه يروى إلا عن عبد الرحمن بن عوف روى عنه من غير وجه وهذا أحسن إسناد يروى في ذلك ولا روى جبير عن عبد الرحمن إلا هذا. وقال ابن عدي: عبد الرحمن بن إسحاق -وهو عباد بن إسحاق المديني- في حديثه بعض ما ينكر ولا يتابع عليه وهو صالح الحديث كما قال ابن حنبل. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وصححه ابن حبان. وعبد الرحمن بن إسحاق الذي مدار الحديث عليه قال أحمد: صالح الحديث. واختلف فيه قول ابن معين فقال: ثقة وقال مرة: صويلح، وقال أخرى: صالح، وقال يعقوب بن سفيان: ليس به بأس وقال يعقوب بن شيبه: صالح وقال أبو داود ثقة وذكره ابن حبان في الثقات، وقال الحافظ في « التقريب » صدوق رمي بالقدر. ينظر: « تهذيب الكمال » (١٦/ ٥٢٢-٥٢٤)، والتقريب (١/ ٤٧٢). وعليه فالإسناد حسن إن شاء الله. والحديث ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ١٧٥) وقال: رواه أحمد =

وقد ذكر الزبير بن بكار سَبَبَ حلف الفضول فقال: سببه أن رجلاً من أهل اليمن قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه رجل من بنى سهم، فلوى الرجلَ بحقه، فسأله بضاعته فأبى عليه، فقام على الجبل فقال: [من البسيط]

يَا آلَ فِهر لِمَظْلُوم بِضَاعَته ... بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِى الدَّارِ وَالنَّفَرِ
وَأَشْعَثٍ مُحْرِمٍ لَمْ تُقْضَ عُمْرَتُهُ ... بَيْنَ الإِلَهِ وَبَيْنَ الحِجْرِ وَالحَجَرِ
هَل مُخْفرٌ لِبَنِى سَهْم لِخَفْرَتِهِمْ ... فَعَادِلٌ أَمْ ضَلاَلٌ مَالُ مُعْتَمِرِ
إِنَّ الحَرَامَ لمَنْ تَمَّتْ حرَامَتُهُ ... وَلاَ حَرَامَ لِثَوْبِ الفَاجِرِ الغَدِرِ

فلما نزل من الجبل، أعظمت ذلك قريش، فتكلموا فيه، فقال المطيبون: والله، لئن قمنا فى هذا لتغضبن الأحلاف. وقال الأحلاف: والله، لئن تكلمنا فى هذه ليغضبن المطيبون، فقال ناس من قريش: تعالوا فلنكنْ حلفًا فضولاً دون المطيبين ودون الأحلاف، فاجتمعوا فى دار عبد الله بن جدعان، وصنع لهم يومئذٍ طعامًا كثيرًا، وكان رسول الله ﷺ معهم قبل أن يوحى إليه، وهو ابن خمس وعشرين سنة، فاجتمعتْ بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة، ثم عمدوا إلى ماء من زمزم، فجعلوه فى جفنة ثم بعثوا به إلى البيت، فغسلت فيه أركانه، ثم أتوا به فشربوه. وكان عتبة بن ربيعة بن أمية بن عبد شمس يقول: لو أن رجلاً وحده خرج من قومه، لخرجْتُ من بنى عبد شمس حتى أدخل فى حلف الفضول، وليست عبد شمس فى حلف الفضول.

وذكر بعض العلماء أن سببه غير ذلك، وهو أن قيس بن شيبة السلمى باع متاعًا

= وأبو يعلي والبزار ورجال حديث عبد الرحمن بن عوف رجال الصحيح. اهـ. قلت: وهو كما قال؛ فعبد الرحمن بن إسحاق روى له مسلم واستشهد به البخاري في صحيحه وروى له في الأدب المفرد. حديث أبي هريرة: أخرجه ابن حبان (٢٠٦٣-موارد) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣٦٦) كتاب قسم الفيء باب إعطاء الفيء على الديوان، وفي «دلائل النبوة» (٢/ ٣٨) من طريق معلى بن مهدي ثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (: ما شهدت من حلف قريش إلا حلف المطيبين وما أحب أن لي حمر النعم وأني كنت نقضته. ومعلى بن مهدي قال أبو حاتم: أدركته ولم أسمع منه، يحدث أحيانًا بالمناكير. وذكره ابن حبان في «الثقات» وقال الذهبي: من العباد الخيرة صدوق في نفسه. ينظر: الجرح والتعديل (٨/ ٣٣٥)، و «الثقات» (٩/ ١٨٢)، و الميزان (٤/ ١٥١). حديث ابن عباس: أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٣٦) وفي سنده المصعب بن المقدام صدوق له أوهام.

من أبيِّ بْنِ خلف فلواه، وذهب بحقه، فاستجار برجل من بنى جمح؛ فلم يقم بجواره، فقال قيس: [من الرجز]

يَا لَقُصَىٍّ كَيْفَ هَذَا فِى الحَرَمْ وحُرْمَةَ البَيْتِ وإِخْلاَف الذِّمَمْ
أُظْلَمُ لاَ يُمْنَعُ عَنِّى مَنْ ظَلَمْ

فبلغ الخبر عباس بن مرداس فقال: [من البسيط]

إِنْ كَانَ جَارُكَ لَمْ تَنفَعْكَ ذِمَّتُهُ وَقَدْ شَرِبْتَ بِكَأْسِ الذُّلِّ أَنْفَاسَا
فَأْتِ الْبُيُوتَ وَكُنْ مِنْ أَهْلِهَا صَدَدًا لاَ يَلْقَ نَادِيُهُمْ فُحْشًا وَلاَ بَاسَا
وَثَمَّ كُنْ بِفِنَاءِ البَيْتِ مُعْتَصِمًا تَلْقَ ابْنَ حَرْبٍ وَتَلْقَ المَرْءَ عَبَّاسَا
سَاقِى الحَجِيجِ وَهَذَا يَاسِرٌ فلجٌ وَالمَجْدُ يُورثُ أَخْمَاسًا وَأَسْدَاسَا

فقام العباس وأبو سفيان حتى رَدَّا إليه حقه؛ فحينئذٍ اجتمعتْ هذه البطون من قريش، وتحالفوا على رد الظلم بمكة وألا يظلم أحد أحدًا إلا منعوه وأخذوا حقه من ظالمه.

وقيل: إن تسميته بذلك قول قوم من قريش: هذا، والله فضلٌ من الحلف، فسمى: حلف الفضول.

وقال آخرون: تحالفوا على مثال حلف تحالف عليه فى الزمان السابق قوم من جرهم، وكانت أسماؤهم الفضل بن سراعة، والفضل بن وداعة، والفضل بن قضاعة، فسمى هذا الحلف بذلك لذلك.

وقدم بعد حلف الفضول رجل من ثمالة فباع سلعة له من أبيِّ بن خلف بن وهب ابن حذافة بن جمح فظلمه، وكان سيئ المخالصة، فأتى الثمالى أهل حلف الفضول، فأخبرهم، فقالوا: اذهب إليه فأخبره أنك قد أتيتنا، فإن أعطاك حقك، وإلا فارجع إلينا، فأتاه فأخبره بما قال له أهل حلف الفضول، وقال: فما تقول ؟ فلم يلبث أن دخل البيت فأخرج إليه حقه فأعطاه، فقال الثمالى: [من الطويل]

أَيُعْجِزُنِى فِى بَطْنِ مَكَّةَ ظَالِمًا أُبَىٌّ وَلاَ قَوْمِى لَدَىَّ وَلاَ صَحْبِى
وَنَادَيْتُ قَوْمِى بَارِقًا لِتُجِيبَنِى وَكَمْ دُونَ قَوْمِى مِنْ فَيَافٍ وَمِنْ شُهْبِ
وَيَأْبَى لَكُمْ حِلْفُ الفُضُولِ ظُلاَمَتِى بَنِى جُمَحٍ وَالحَقُّ يُؤْخَذُ بِالغَصْبِ

وقيل: إن أول من قام به من قريش ودعا إليه بعد نداء الرجل اليمنى صاحب

البضاعة بتلك الأبيات على الجبل يستعدى على السهمى: هو الزبير بن عبد المطلب، فقال: إن هذا الأمر ما ينبغى لنا أن نمسك عنه، فطاف فى بنى هاشم وبنى زهرة وبنى أسد وبنى تيم، فاجتمعوا فى دار عبد الله بن جُدعان، وتحالفوا بالله لنكونن يدًا للمظلوم على الظالم حتى نؤدى إليه حقه ما بلَّ بَحْرٌ صوفه، وما رسا ثَبير وحِراء فى مكانه، وعلى التوادد والتعاقل. فتم ذلك إلى أن جاء الإسلام، وفى ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب: [من الوافر]

حَلَفْتُ لَنَعْقِدَنْ حِلْفًا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنَّا جَمِيعًا أَهْلَ دَارِ
نُسَمِّيهِ الفُضُولَ إِذَا عَقَدْنَا يَعزُّ بِهِ الْغَرِيبُ لَدَى الجِوَارِ
وَيَعْلَمُ مَنْ حَوَالَ البَيْتِ أَنَّا أُبَاةُ الضَّيْمِ نَمْنَعُ كُلَّ عَارِ

وأما حلف الأحابيش مع قريش: فقد قال الزبير بن بكار: حدثنى محمد بن الحسن قال: تحالفت قريش والأحابيش، فصارت الأحابيش حلفًا لقريش دون بنى كنانة، والذين جروا حلفهم لقريش بنو عبد مناف بن قصى، والأحابيش: هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والحياء، والمصطلق بن خزاعة والقارة: بنو الهون بن خزيمة بن مدركة، ومالك، وملكان ابنا كنانة، وهذيل كلهم: يدًا واحدة مع قريش، وكانت خزاعة كلُّها إلا الحياء والمصطلق مع بنى مدلج، وكان تحالف قريش والأحابيش على الركن، يقوم رجل من قريش، والآخر من الأحابيش؛ فيضعان أيديهما على الركن؛ فيحلفان بالله وبحرمة هذا البيت والمقام والركن والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعًا حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وعلى التعاون والتعاقل، وعلى من عاداهم من الناس جميعًا، ما طلعت الشمس من مشرقها وما غربت من مغربها، تدونا ونديكم إلى يوم القيامة.

قلت: ورأيت فى بعض كتب السير: إنما سموا الأحابيش؛ لعقدهم ذلك الحلف عند جبل بأسفل مكة، يقال له: حبشى، فالله تعالى أعلم بالحقائق.

وأما يوم الفِجَار الأول: فقال الفاكهى عند ذكر الفِجَار الأول، وما كان فيه بين قريش وقيس عيلان وسبب ذلك: حدثنا عبد الملك بن محمد، عن زياد بن عبد الله، عن محمد بن إسحاق قال: ثم هاج يوم الفجار الأول بين قريش ومن كان إليها من كنانة كلها وبين قيس عيلان، سببه أن رجلاً من بنى كنانة كان عليه دَيْنٌ لرجل من

بنى نضر بن معاوية بن بكر بن هوازن، فأعدم به الكنانى، فوافاه النضرى بسوق عكاظ بقردٍ معه، فوقف به فى السوق فقال: من يبيعنى مثل هذا بمالى على فلان ابن فلان الكنانى، وإنما أراد بذلك تعيير الكنانى وقومه، فمر به رجلٌ من كنانة، فضرب القرد بالسيف فقتله أنفًا مما يقول النضرى، فصرخ النضرى فى قيس، وصرخ الكنانى فى بنى كنانة، فتجاوز الناس حتى كاد أن يكون بينهم قتال، ثم تداعوا إلى الصلح ويسر الخطب فى أنفسهم، فتراجع الناس وكف بعضهم عن بعض، ولم يكن بينهم إلا ذلك.

ويقال: بل سببه أن فتية من قريش قعدوا إلى امرأة من بنى عامر فى هيئة جميلة، وهى فى درع فضل، وكذلك كُنَّ نساء العرب تفعل، فأعجبهم ما رأوا من حسن هيئتها، فقالوا لها: يا أمة الله، أسفرى لنا عن وجهك ننظر إليك، فأبت عليهم، فقام غلام منهم إلى خلفها فشك درعها إلى ظهرها بشوكة والمرأة لا تدرى، فلما قامت انكشف الدرع عن دبرها، فضحكوا، وقالوا: منعتينا أن ننظر إلى وجهك، فقد نظرنا إلى دبرك، فصاحت المرأة ببنى عامر فضجت، فتجاوز الناس، ثم ترادوا ورأوا أن الأمر دون ذلك.

وقيل فى السبب: إن رجلًا من بنى غفار بن مدركة بن خندف، يقال له: أبو ميسرة كان عارفًا من العراف متعنتًا فى نفسه بسوق عكاظ، فمد رجله وقال: [من الرجز]

أَنَا ابْنُ مُدْرِكَةَ بْنِ خِنْدِفِ ... مَنْ يَطْعَنُوا فِى عَيْنِهِ لَمْ يَطْرُفِ
وَمَنْ تَكُونُوا قَوْمَهُ يُغَطْرِفِ

أنا والله أعز العرب، فمن زعم أنه أكرم منى فليضربنَّهَا بالسيف، فضربها رجل من قيس بالسيف، فخدشها خدشًا غير كبير، فتجاوز الناس عند ذلك، حتى كاد أن يكون بينهم قتال ثم تراجعوا ورأوا أنه لم يكن كبير أمرٍ، فكل هذا الحديث يقال في سبب حرب الفجار الأول، والله أعلم أى ذلك كان هو.

وأما حرب الفِجار الثانى: فقال العلامة التقى الفاسى: قال ابن هشام (١): لما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة - فيما حدثنى أبو عبيدة

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (١/٢٠٨-٢١٠)، الروض الأنف (١/٢٠٩-٢١١)، سبل الهدي والرشاد (٢/١٥٢).

النحوى، عن أبى عمرو بن العلاء قال: هاج حرب الفِجَار بين قريش ومن معها من بنى كنانة وبين قيس عيلان. وكان الذى هاجها أن عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن أجاز لطيمة للنعمان بن المنذر (واللطيمة: البعير يحمل الطيب والجواهر والثياب والتجارة، وإجازتُها إيصالُها سالمةً إلى مقصدها فى خفارته) فقال له البرّاض بن قيس أحد بنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة: أتجيزها يا عروة على كنانة ؟ قال عروة: نعم، وعلى الخلق أجمعين. فخرج فيها عروة الرحال، وخرج البراض، يطلب[1] غفلته حتى إذا كان بـ« تيمن ذى طَلَّال »[2] بالعالية غفل عروة فوثب عليه البراض، فقتله فى الشهر الحرام؛ فلذلك سمى: حرب الفِجار، وقال البَرَّاض فى ذلك: [من الوافر]

وَدَاهِيَةٍ تَهُمُّ النَّاسَ قَبْلِى ... شَدَدتُّ لَهَا بَنِى بَكْرٍ ضُلُوعِى
هَدَمْتُ بِهَا بُيُوتَ بَنِى كِلَابٍ ... وَأَرْضَعْتُ المَوَالِى بِالضُّرُوعِ[3]
رَفَعْتُ لَهَا بِذِى طلَّالٍ[4] كَفِّى ... فَخَرَّ يَمِيدُ كَالْجِذْعِ الصَّرِيعِ

وقال لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب يحث على الطلب بدم عروة الرحال: [من الوافر]

فَبَلِّغْ إِنْ عَرَضْتَ بَنِى كِلَابٍ ... وَعَامِرَ وَالْخُطوبُ لَهَا تَوَالِى[5]
وَأَبْلِغْ إِنْ عَرَضتَ بَنِى نُمَيْرٍ ... وَأَخْوَالَ القَتِيلِ بَنِى هِلَالِ
بِأَنَّ الوَافِدَ الرَّحَّالَ أَمْسَى ... مُقِيمًا عِنْدَ تَيْمَنَ ذِى طَلَالِ[6]

وهذه الأبيات من أبيات له ذكرها ابن هشام. [قال ابن هشام]: فأتى آت قريشًا

---

(١) في ط: فطلب. والمثبت من السيرة والسبل، وهو الصواب. والله أعلم.
(٢) في ط: بذي ظلال. والمثبت من السيرة والسبل و « تيمن »: بكسر الميم وفتحها؛ تفعِل أو تفعَل من اليمن أو اليمين. وينظر: الروض الأنف (١/ ٢١١).
(٣) في ط: بالفروع. والمثبت من السيرة. وفي « الروض »: « وألحقت الموالي بالضروع » وقال: « جمع ضرع، هو في معنى قولهم: لئيم راضع؛ أي ألحقت الموالي بمنزلتهم من اللؤم ورضاع الضروع وأظهرت فسالتهم (أي: رذالتهم) وهتكت بيوت أشراف بني كلاب وصرحائهم » ينظر الروض الأنف (١/ ٢١٠).
(٤) في ط: ظلال. والمثبت من السيرة والروض والسبل. وهو الصواب وهو مشدد اللام؛ لأنه « فعال من الطل؛ كأنه موضع يكثر فيه الطل ». ينظر الروض (١/ ٢١٠).
(٥) في السيرة والروض: « موالي ».
(٦) « طلال » هنا بالتخفيف للضرورة؛ لأنه فعَّال من الطل، كما مر. وفي ط: ظلال.

فقال: إن البَرَّاض قد قتل عروة [وهم] فى الشهر الحرام بعُكَاظَ، فارتحلوا وهوازن لا تشعُر، ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل، ودخلوا الحرم، فأمسكَتْ عنهم هوازن، ثم التقوا بعد هذا اليوم أيامًا، والقوم متنابذون، على كل قبيلة من قريش وكنانة رئيس منهم [وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم] (١)، وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم، أخرجه أعمامه [معهم]، وقال رسول الله ﷺ: « كنت أنبلُ على أعمامى » أى: أرد عنهم (٢) نَبْلَ عدوهم إذا رموهم.

قال ابن إسحاق: وإنما سمى حرب الفجار بما استحل فيه هذان الحَيَّان - كنانة وقيس عيلان - من المحارم بينهم

وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس، فكان أول الأيام بعد يوم نخلة، فالتقوا بعكاظ، وكان يسمى: « يوم شيظمة »؛ فكانت هوازن من وراء السيل، وقريش وبنو كنانة فى بطن الوادى. وقال لهم حرب بن أمية: إن انتحت قريش، فلا تبرحوا مكانكم، وعبأت هوازن وأخذوا مصافَّهم، وعبأت قريش وكان على إحدى المجنبتين عبد الله بن جُدْعَان، وعلى الأخرى كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وحرب بن أمية فى القلب، فكانت الدائرة أول النهار لكنانة على هوازن، حتى إذا كان آخر النهار، وصبرت هوازن، فاستحرَّ القتل فى قريش، فلما رأى ذلك الذين فى بطن الوادى من كنانة، مالو إلى قريش وتركوا مكانهم، فلما فعلوا ذلك، استحرَّ القتل بهم، فقتل تحت رايتهم ثمانون رجلًا، فكان هذا اليوم - وهو يوم شيظمة - لهوازن على كنانة.

ثم كان « يوم العبلاء »، قال: حدثنى الأزدى، قال: حدثنى محمد عن أبى عبيدة قال: وجمع هؤلاء وهؤلاء، فالتقوا يوم العبلاء - وهو الجبل إلى جنب عكاظ - ورؤساؤهم الذين كانوا يوم شيظمة بأعيانهم، فكانت الدائرة لهوازن على كنانة أيضًا.

ثم كانوا يوم سرب، قال: ثم جمع الفريقان، فالتقوا عند قرن الخيول، فاقتتلوا بسرب من عكاظ، وعليهم رؤساؤهم الذين كانوا قبل، ولم يكن يوم أعظم منه يومئذ، وحمل يومئذ ابن جُدعان ألفًا على ألف بعير فالتقوا، وقد كان لهوازن على

(١) المثبت من السيرة.
(٢) في ط: عليهم. والمثبت من السيرة.

كنانة يومان متواليان: يوم شيظمة، ويوم العبلاء، فخشوا مثلهما، وحافظوا يومئذ، وقيدت بنو أمية فيه أنفسهم، وحافظت بنو مخزوم وصبرت، وكذلك صبرت هوازن، وذلك أن عكاظ بلد لهم به نخلٌ وأموال. فلم يعبوا شيئًا فقاتلوا حتى أمسوا وانهزموا (١).

ثم قال: حدثنى محمد بن الضحاك، عن أبيه قال: العنابس: حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان بنو أمية بن عبد شمس، وإنما سموا العنابس؛ لأنهم قيدوا أنفسهم يوم عكاظ، وقاتلوا قتالاً شديدًا فشبهوا بالأسد، والأسد يقال له: العنبس، ولابن الزبعرى فيهم أشعار بليغة، وقد ذكروا أن خويلد بن أسد وهو أبو السيدة خديجة زوج النبى ﷺ كان يوم عكاظ على بنى أسد بن عبد العزى.

ثم كان يوم الجزيرة، حدَّثنى الأزدى قال: حدثنى محمد بن حبيب الهاشمى، عن أبى عبيدة قال: كانت فيه الدائرة لهوازن على كنانة، وهى حرة إلى جنب عكاظ مما يلى مهب جنوبها لمن يقبل، يريد مكة فى مهب صبائها، حتى تنقطع دون قرن، قتل فيه أبو سفيان بن أمية. ومن كنانة ثلاثة رهط، وقتل ورقاء بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن عمرو بن عامر.

فهذه أيام الفجار الخمسة التى تراجفوا فيها فى أربع سنين، أولهنَّ يوم نخلة حين تبعتهم هوازن فكان كفافًا لا ولا، ثم يوم شيظمة، وكان لهوازن على كنانة، ثم يوم عكاظ وهو يوم العبلاء، فكان لهوازن على كنانة أيضًا، ثم يوم سرب، وهو يوم عكاظ الثانى كان لبنى كنانة على هوازن، ولم يكنْ بينهم يوم أعظم منه، ثم يوم الجزيرة وهو آخر أيامهم. قال: ثم كان الرجلُ يلقى الرجل أو الرجلين أو أكثر من ذلك أو أقل فيقتتلون، فربما قتل بعضهم بعضًا، فلقى ابن محمية أخو بنى الدئل بن بكر. أخا خداش بن زهير بالصفاح، فقال زهير: إنى حرام جئت معتمرًا، فقتله، ثم ندم، فقال لهم: إن العامرى المعتمر لم آتِ فيه عذرًا لمعتذر.

ثم إن الناس تداعوا إلى الصلح والسلم على أن يَدِىَ الفضلُ من القتلى الذين فيهم أى الفريقين أفضل على الآخر، فتواعدوا عكاظ وتعاقدوا وتوافقوا على أن يتموا ذلك، وجعلوا بينهما أمدًا يلتقون فيه لذلك، فأبى وهب بن معتب وطف على قومه،

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (٢/ ١٥٢)، وهناك بعض الاختلاف في أسماء الأيام.

وجعل لايرضى بذلك، حتى يدركوا ثأرهم، فقال فى ذلك أمية بن جدعان:
[من الكامل]

أَلْمَرْءُ وَهْبٌ وَهْبُ آلِ مُعَتِّبِ مَلَّ الغُوَاة وَمَنْ يُمَاطِلْ يَمْلَلِ
يَسْعَى لِيُوقِدَهَا بِجَزْلٍ وَقُودِهَا وَإِذَا تَعَايَا صُلْحُ قَوْمِكَ تَأْتَلِى

واندس وهبٌ حتى مكرت هوازن بكنانة، وهم على الصلح، فبعث خيلاً عليها مسلمة بن شعل البكائى، وخالد بن هوذة فى ناس من بنى هلال، ورئيسهم ربيعة بن أبى طيبان، وناس من بنى نصر عليهم مالك بن عوف، فأغاروا على بنى ليث بصفراء الغميم، وهم غارون فقاتلوهم، وجعل مالك بن عوف يرتجز، وهو أمرد يومئذ:
[من الرجز]

أَمْرَدُ يَهْدِى حِلْمُهُ شيبَ اللحَى

قلت: وهذا مالك بن عوف هو الرئيس على هوازن أيام يوم حنين حين قاتلهم رسول الله ﷺ فهزمهم، ثم رجعوا إلى الطائف إلى حصنهم، فحاصرهم رسول الله ﷺ ولم يؤذن له فى فتحه فرجع عنه وقال: « اللهم، اهد ثقيفًا، وائت بهم »[1]، ثم أتوه مسلمين بعد ذلك. انتهى.

وهذا اليوم هو أول يوم ذكر فيه مالك بن عوف، فقتلت بنو مدلج يومئذ عبيد بن عوف البكائى، وسبيع بن أبى المؤمل بن محارب، ثم انهزمت بنو الليث، فاستحرَّ القتل ببنى الملوح بن يعمر، فقتلوا منهم ثلاثين رجلاً سوى النساء وساقوا البهائم، ثم أقبلوا فعرضت لهم خزاعة وطمعوا فيهم، فقاتلوهم، فلما رأوا أنهم لابدَّ لهم منهم قالوا: اعرضونا من غنيمتكم عراضة، قال: فحملوا سريتهم، ثم إن الناس تداعوا إلى الصلح ورهنوا رهانًا بالوفاء، بل مات من كان له الفضل فى القتلى، وتم الصلح، ووضعت الحرب أوزارها.

قال الزبير بن بكار: حدثنى محمد بن الحسن، عن حماد بن موسى، عن عبد الله بن عون بن الزبير، قال: حدثنى حكيم بن حزام قال: لما توافت كنانة وقيس من العام القابل بعكاظ بعد العام الأول الذى كانوا التقوا فيه، ورأس الناس حرب بن

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٤٣)، والترمذي (٥/٧٢٩) كتاب المناقب باب مناقب في ثقيف وبني حنيفة، حديث (٣٩٤٢) من طريق عبد الرحمن بن سابط وأبي الزبير عن جابر. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

أمية، خرج معه عتبة بن ربيعة وهو يومئذ فى حجر حرب، فمنعه حرب أن يخرج وقال: يابنى أنا لك، فاقتاد راحلته وتقدم فى أول الناس؛ فلم يدر به حرب إلا وهو فى العسكر، قال حكيم بن حزام: فنزلنا عكاظ، ونزلت هوازن بجمع كبير، فلما أصبحنا ركب عتبة جملاً ثم صاح فى الناس: يا معشر مضر، علام تتفانون بينكم ؟ هلموا إلى الصلح ؟ فقالت هوازن: وماذا تعرض ؟ قال: أعرض أن أعطى دية من أصيب، قالوا: ومن أنت ؟ قال: أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، قالوا: قد قبلنا، فأصلح الناس ورضوا بما قال عتبة، وأعطوهم أربعين رجلاً من فتيان قريش - وكنت فيهم، يعنى القائل نفسه وهو حكيم بن حزام - قال: فلما رأت بنو عامر أن الرهن قد صار فى أيديهم، رغبوا فى العفو، فأطلقوهم أجمعين.

قال الزبير: وسمعت عبد الله بن عبد الله بن عمر يقول: لم يَسُدْ محلق من قريش إلا عتبة بن ربيعة هذا، وأبو طالب بن عبد المطلب، فإنهما سادا بغير مال. انتهى

قلت: الداء قديم، وهذا عتبة بن ربيعة هو أبو هند بنت عتبة زوج أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية، وهى والدة معاوية بن أبى سفيان، فهو جد معاوية لأمه.

وكلام مغلطاى فى سيرته يقتضى أن أيام الفجار ستة؛ لأنه قال: وأيام الفجار على ما قاله السهيلى، والصواب أنها ستة.

أقول: قد ذكرت فيما تقدم أن الصحيح أنها خمسةٌ، وعددتها بأسمائها وأماكنها لا ستة ولا أربعة، والله أعلم.

وكان حلف الفضول بعد حرب الفجار؛ لأنها كانت فى شعبان، وكان حلف الفضول فى ذى القعدة قبل المبعث بعشر سنين، فكان حلف الفضول أكرم حلف يسمع به وأشرفه فى العرب، وكان فى دار عبد الله بن جدعان؛ كما تقدم، قاله العلامة التقى الفاسى (١). انتهى

ولنذكر شيئًا من خبر عبد الله بن جدعان، هذا الذى كان حلف الفضول فى داره: هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر القرشى التيمى، يكنى: أبا زهير، من رهط أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - كان من رؤساء قريش وأجودهم، وله فى الجود أخبار مشهورة.

---

(١) ينظر: شفاء الغرام (٢/ ١٠٤).

منها: أنه كانت له جفنة للأضياف يُستظل فى ظلها فى الهاجرة؛ لأن فى غريب الحديث لابن قتيبة: أن رسول الله ﷺ قال: « كنت أستظل بظلِّ جفنة عبد الله بن جدعان فى الهاجرة »(١)، قال ابن قتيبة: كانت جفنته يأكل منها الراكب على بعيره، وسقط فيها صبىٌّ فغرق، أى: مات (٢).

ومنها - على ما قاله ابن هشام بن الكلبى -: كان له مناديان ينادى أحدهما بأسفل مكة، والآخر بأعلاها، وكان أحدهما سفيان بن عبد الأسد، والآخر أبا قحافة، وكان أحدهما ينادى: ألا من أراد اللحم والشحم، فليأت دار ابن جدعان، وينادى الآخر: إن من أراد الفالوذج، فليأت دار ابن جدعان، وهو أول من أطعم الفالوذج بمكة؛ ذكر هذا الفاكهى فى أخبار مكة.

ومنها: أن أمية بن أبى الصلت قبل أن يمدح ابن جدعان كان قد أتى [بني](٣) الريان(٤) من بنى الحارث بن كعب؛ فرأى طعام بنى الريان (٥) لباب البرّ والشهد والسمن، وكان طعام ابن جدعان التمر والسويق ويسقى اللبن، فقال أمية: [من الكامل]

وَلَقَدْ رَأَيْتُ الفَاعِلِينَ وَفِعْلَهُمْ ... فَرَأَيْتُ أَكْرَمَهُمْ بَنِى الرَّيَّانِ(٦)
أَلْبُرُّ يُلْبَكُ بِالشِّهادِ طَعَامُهُمْ ... لاَ مَا يُعَلِّلُنَا بَنُو جُدْعَانِ

فبلغ خبر شعره عبد الله بن جدعان، فأرسل ألفى بعير إلى الشام تحمل إليه البر والشهد والسمن، وأمر مناديًا ينادى على الكعبة: ألا هلموا إلى جفنة عبد الله بن جدعان، فقال أمية بن أبى الصلت عند ذلك: [من الوافر]

لَـهُ دَاعٍ بِـمَـكَّـةَ مُـشْـمَـعِـلٌّ ... وَآخَرُ فَوْقَ كَعْبَتِهَا يُنَادِى
إلى رُدُحٍ مِنَ الشِّيزَى عَلَيْهَا ... لُبَابُ البُرِّ يُلْبَكُ بِالشِّهَادِ

وقد كان عبد الله بن جدعان فى بدء أمره صعلوكًا ترب اليدين، وكان مع ذلك

---

(١) ينظر: شفاء الغرام (٢/ ١٠٤)، والروض (١/ ١٥٨).
(٢) ينظر الشفاء (٢/ ١٠٤)، والروض (١/ ١٥٨).
(٣) المثبت من الروض (١/ ١٥٨).
(٤) في الروض: « الدَّيان ».
(٥) في الروض: « المدَان ».
(٦) في الروض: « الديان ».

شريرًا فاتكًا لايزال يجنى الجنايات؛ فيعقل عنه أبوه وقومه، حتى أبغضته عشيرته ونفاه أبوه وحلف أن لا يؤويه أبدًا لما أثقله به من الغرم وحمل الديات، فخرج فى شعاب مكة حائرًا دائرًا (١) يتمنى الموت ينزل به، فرأى شقًّا فى جبل، فظن فيه حية فتعرَّضَ للشق يرجو أن يكون فيه ما يقتله فيستريح، فلم ير شيئًا، فدخل فيه، فإذا فيه ثعبان عظيم له عينان تقدان كالسراجين فحمل عليه الثعبان، فأفرج (٢) له، فانساب عنه مستديرًا بدارة عندها بيتٌ، فخطا خطوة أخرى، فأقبل عليه الثعبان كالسهم (٣) فأفرج عنه، فانساب عنه قدمًا لا ينظر إليه، فوقع فى نفسه أنه مصنوع، فأمسكه بيده فإذا هو مصنوع من ذهب وعيناه ياقوتتان، فكسره وأخذ عينيه، ودخل البيت، فإذا جثث طوال على سرر طوال لم ير مثلهم طولاً وعظمًا، وعند رءوسهم لوح من فضة فيه تاريخهم، وإذا هم رجال من ملوك جرهم، وآخرهم موتًا الحارث بن مضاض صاحب الغربة الطويلة (الذى استأجر من إياد العشرة الأبعرة؛ كما تقدَّم)(٤)، عليهم ثياب لا يمسُّ منها شيئًا إلا انتثر كالهباء من طول الزمن، وشعر مكتوب فى لوح فيه عظات.

وقال ابن هشام: كان اللوح من رخام، وكان فيه: « أنا نفيلة بن عبد المدان بن خشرم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان بن هود النبى -عليه السلام- عشت خمسمائة عام، وقطعت غور الأرض باطنها وظاهرها فى طلب الثروة والمجد والملك، فلما حصلته لم يكنْ ذلك ينجينى من الموت »، وتحته مكتوب: [من الخفيف]

قَدْ قَطَعتُ البِلَادَ فِى طَلَبِ الثَّرْ ... وةِ والمَجْدِ قَالِصَ الأَثْوَابِ
وَسَرَيتُ البِلَادَ قَفْرًا لِقَفْرٍ ... بِشَبَابِى وَقُوَّتِى وَاكْتِسَابِى
فَأَصَابَ الرَّدَى بَنَاتِ فُؤَادِى ... بِسِهَامٍ مِنَ المَنَايَا صِيَابِ
فَانْقَضَتْ شِرَّتِى وَأَقْصَرَ جَهْلِى ... وَاسْتَرَاحَتْ عَوَاذِلِى مِنْ عِتَابِى
وَدَفَعْتُ البَيضَاءَ بِالحِلْمِ لَمَّا ... نَزَلَ الشَّيْبُ فِى مَحَلِّ الشَّبَابِ

(١) في الروض: بائرًا.
(٢) في ط: فأحرج والمثبت من الروض.
(٣) في الروض: فصفر به الثعبان وأقبل عليه كالسهم.
(٤) هذا من كلام المصنف في أثناء كلام « الروض ».

صَاحِ هَلْ رَيْتَ[١] أَوْ سَمِعْتَ بِرَاعٍ رَدَّ فى الضَّرْعِ مَا قَرَى فِى الحِلَابِ

ثم نظر، فإذا فى وسط البيت كوم عظيم من الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، فأخذ منه ما أخذ، ثم علَّم على الشق بعلامة، وأغلق بابه بالحجارة، وأرسل إلى أبيه بالمال الذى خرج به يسترضيه ويستعطفه، ووصل عشيرته بعد ذلك كلّهم فسادهُمْ، وجعل ينفق من ذلك الكنز، ويطعم الناس، ويفعل المعروف[٢].

وفى كتاب رى العاطش وأنس الواحش لأحمد بن عمار: أن ابن جدعان ممن حرم الخمر فى الجاهلية بعد أن كان مغرى بها، وذلك أنه سكر ليلة، فطفح ومد يده إلى القمر، فأخبر بذلك حين صَحَا، فحلف لا يشربها أبدًا. ولما كبر وهرم، أرادت قبيلته بنو تيم أن يمنعوه من تبذير ماله ولاموه فى العطاء، فكان يدعو الرجل، فإذا دنا منه، لطمه لطمة خفيفة، ثم قال: قم فأنشد لطمتك، واطلب ديتها، فإذا فعل ذلك، أعطته بنو تيم من مال ابن جدعان حتى يرضى عن لطمته[٣].

وفى صحيح مسلم: أن عائشة - رضى الله عنها - قالت: يا رسول الله، إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقرى الضيف، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ فقال: « لا؛ لأنه لم يقل يومًا: رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين ».[٤] انتهى

وقد ورد عنه ﷺ لما أمر بأن يستطلع خبر القتلى من قريش يوم بدر، قال: انظروا أبا جهل، فإن فى ساقه أثرًا، كنت تزاحمتُ أنا وهو فى مائدة ابن جدعان فزحمته، فوقع، فخدشت ساقه؛ فذلك الأثر بها، أو كما قال ﷺ.

ثم هلك ابن جدعان.

أقول: ذكر الفاكهى فى وفاة ابن جدعان هذا، خبرًا غريبًا فقال: هلك عبد الله ابن جدعان، فبكته الجن والإنس، فأما بكاء الجن: فحدثنى إبراهيم بن يوسف المكى قال: حدثنا إسماعيل بن زياد، عن ابن جريج؛ أن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - قال: إن النباش بن زرارة أخا حاجب بن زرارة التميمى، وكان حليفًا

---

(١) رَيْت؛ أى: رأيت.

(٢) ينظر: هذا الكلام بطوله في الروض الأنف (١/١٥٨-١٥٩).

(٣) ينظر: الروض الأنف (١/١٥٩-١٦٠).

(٤) أخرجه أحمد (٦/٩٣)، ومسلم (١/١٩٦) كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل، حديث (٣٦٥، ٢١٤).

لقريش، قال: خرجنا تجارًا فى الجاهلية، وعبد الله بن جدعان حىٌّ حين خرجنا، فلما سرنا نحو خمس عشرة ليلة، نزلنا ذات ليلة، واشتهينا أن نصبح بذلك المكان، قال: فنام أصحابى وأصابنى أرقٌ شديد، فإذا هاتف يهتف يقول: [من الطويل]

أَلاَ هَلَكَ البُهْلُولُ غَيْثُ بَنِى فِهرِ ... وَذُو العِزِّ والمجدِ التَّلِيدِ وَذُو الفَخْرِ

فأجبته: [من الطويل]

أَلاَ أَيُّهَا النَّاعِى أَخَا المَجْدِ وَالذِّكْرِ ... مَنِ المَرْءُ تَنْعَاهُ لَنَا مِنْ بَنِى فِهرِ ؟

فأجابنى الهاتف: [من الطويل]

نَعَيْتُ ابْنَ جُدْعَانِ بْنِ عَمْرٍو أَخَا النَّدَى ... وَذَا الحَسَبِ القدْمُوسِ والمَنْصِبِ الفَخْرِ

قال: فأجبته: [من الطويل]

لَعَمْرِى لَقَدْ نَوَّهْتَ بِالسَّيِّدِ الَّذِى ... لَهُ الفَضْلُ مَعْلُومٌ عَلَى وَلَدِ النَّضْرِ

فَأَخبِرْ وَأَخبِرْ إِنْ عَلِمْتَ وَفَاتَهُ ... فَإِنَّكَ قَدْ أَخْبَرْتَ جِلًّا مِنَ الأَمْرِ

فأجابنى الهاتف: [من الطويل]

مَرَرْتُ بِنِسْوَانٍ يُخَمِّشْنَ أَوْجُهَا ... عَلَيْهِ صَبَاحًا بَيْنَ زَمْزَمَ والحِجْرِ

قال: فأجبته فقلت: [من الطويل]

مَتَى قَدْ ثَوَى، عَهْدِى بِهِ مُنْذُ جُمْعَةٍ ... وَسِتَّةِ أَيَّامٍ لِغُرَّةِ ذَا الشَّهْرِ

فقال الجنى: [من الطويل]

ثَوَى مُنْذُ أَيَّامٍ ثَلاَثٍ كَوَامِلٍ ... مَعَ الصُّبْحِ أَوْ فِى الصُّبْحِ مَعْ وَضَحِ الفَجْرِ

قال: فاستيقظت الرفقة، وهى تتراجع بنعى ابن جدعان، وقال: إن كان أحد نعى بعز وشرف، فقد نعى ابن جدعان، فقال الجنى: [من الوافر]

أَرَى الأَيَّامَ لاَ تُبْقِى عَزِيزًا ... لِعِزَّتِهِ وَلاَ تُبْقِى ذَلِيلاَ

فأجبته فقلت: [من الوافر]

وَلاَ تُبْقِى مِنَ الثَّقَلَيْنِ حَيًّا ... وَلاَ تُبْقِى الجِبَالَ وَلاَ السُّهُولاَ

ثم ذكر شيئًا من رثاء الإنس لا نطوّل بذكره(١).

رجع: فلم يزل عبد الدار يلى حجابة البيت وولاية دار الندوة واللواء حتى هلك، فجعل قبل هلكه الحجابة بعده إلى ابنه عثمان بن عبد الدار، وجعل دار الندوة إلى

(١) ينظر شفاء الغرام (٢/١٠٦-١٠٧).

ابنه عبد مناف بن عبد الدار، فكانت قريش إذا أرادت التشاور فى أمرها، فتحتها لهم عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، أو بعض ولده، أو ولد أخيه. وكانت الجارية إذا بلغت، دخلت دار الندوة، ثم شق عليها بعض ولد عبد مناف بن عبد الدار درعها، ثم درعها إياه، وانقلبت إلى أهلها فحجبوها، وذلك كما كان يفعله قصى بن كلاب، ولم يزل بنو عثمان بن عبد الدار يلون الحجابة دون ولد عبد الدار، ثم وليها عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، ثم وليها ولده أبو طلحة عثمان بن طلحة حتى كان فتح مكة، فقبضها رسول الله ﷺ من أيديهم وفتح الكعبة ودخلها، ثم خرج من الكعبة مشتملاً على المفتاح، فقال له العباس بن عبد المطلب: بأبى أنت وأمى، يا رسول الله، أعطنا الحجابة مع السقاية، فقال: أعطيكم ما ترزءون فيه ولا ترزءون به، وأنزل الله الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ [النساء: ٥٨] ثم دعا عثمان بن طلحة، فدفع إليه المفتاح، وقال: « خذوها يابنى طلحة، بأمانة الله سبحانه وتعالى، واعملوا فيها بالمعروف خالدة تالدة، لا ينزعها منكم - ما استقمتم - إلا ضال أو ظالم[١] »، فلما خرج عثمان [بن طلحة] بن أبى طلحة إلى الهجرة مع النبى ﷺ، أقام ابن عمه شيبة بن أبى طلحة، فلم يزل يحجب هو وولد أخيه وهب بن عثمان.

وأما اللواء: فكان فى أيدى بنى عبد الدار جميعهم، يليه منهم ذو السيف والشرف فى الجاهلية، حتى كان يوم أحد، فقتل عليه تسعة منهم، أشار إلى ذلك حسان بن ثابت شاعر النبى ﷺ فيما قاله من الشعر يوم أحد بقصيدة هى هذه:
[من الخفيف]

مَنَعَ النَّوْمَ بِالعِشَاءِ الهُمُومُ ... وَخَيَالٌ إِذَا تَغُورُ النُّجُومُ
مِنْ حَبِيبٍ أَصَابَ[٢] قَلْبَكَ مِنْهُ ... سقَمٌ فَهْوَ دَاخِلٌ مَكْتُومُ
يَالَقَوْمِى هَل يَقْتُلُ المَرْءَ مِثْلِى ... وَاهِنُ البَطْشِ وَالعِظَامِ سَئُومُ
لَوْ يَدُبُّ الحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّرْ ... رِ عَلَيْهَا لَأَنْدَبَتْهَا الْكُلُومُ
شَأْنُهَا العِطْرُ وَالفِرَاشُ وَيَعْلُو ... هَا لُجَيْنٌ وَلُؤْلُؤٌ مَنْظُومُ
لَمْ تَفُتْهَا شَمْسُ النَّهَارِ بِشَىْءٍ ... غَيْرَ أَنَّ الشَّبَابَ لَيْسَ يَدُومُ

(١) تقدم تخريجه.
(٢) في السيرة: أضاف.

إِنَّ خَالِى خَطِيبُ جَابِيَةِ الجوْ لاَنِ عِنْدَ النُّعْمَانِ حِينَ يَقُومُ
وَأَنَا الصَّقْرُ عِنْدَ بَابِ ابْنِ سلْمَى يَوْمَ نُعْمَانُ فِى الكُبُولِ سَقِيمُ
وَأُبَىٌّ وَوَاقِدٌ أُطْلِقَا لِى يَوْمَ رَاحَا وَكَبْلُهُمْ مَخْطُومُ
وَرَهَنْتُ الْيَدَيْنِ عَنهُمْ جَمِيعًا كُلُّ كَفٍّ جُزْءٌ لَهَا مَقْسُومُ
وَسَطَتْ نِسْبَتِى الذَّوَائِبَ مِنهُمْ كُلُّ دَارٍ فِيهَا أَبٌ لِى عَظِيمُ
وَأَبى فِى سميحَة القَائِلُ الفَا صِلُ يَوْمَ التَقَتْ عَلَيْهِ الخُصُومُ
تِلك أَفْعَالُنَا وَفِعْلُ الزِّبعرَى خَامِلٌ فِى صَدِيقِهِ مَذْمُومُ
رُبَّ حِلْمٍ أَضَاعَهُ عَدَمُ المَا لِ وَجَهْلٍ غَطا[1] عَلَيْهِ النَعِيمُ
إِنَّ دَهْرًا يَبُورُ فِيهِ ذَوُو الْعِلْـ مِ لَدَهْرٌ هُو العَتُوُّ الزَّنِيمُ[2]
لاَ تَسُبَّنَّنِى فَلَسْتَ بِسِبِّى إِنَّ سِبى مِنَ الرِّجَالِ الكَرِيمُ
مَا أُبَالِى أَنَبَّ بالحُزْنِ تَيْسٌ أَمْ لَحَانِى بِظَهْرِ غَيْبٍ لَئِيمُ
وَلِىَ البَأْسُ مِنكُمْ إِذْ رَحَلْتُمْ أسرةٌ مِنْ بَنِى قُصَىٍّ صَمِيمُ
تِسْعَةٌ تَحْمِلُ اللوَاءَ وَطَارَتْ فِى رَعَاعٍ مِنَ القَنَا مَخْزُومُ
وَأَقَامُوا حَتَّى أُبِيحُوا جَمِيعًا فِى مَقَامٍ وَكُلُّهُمْ مَذْمُومُ
بِدَمِ عَاتِكٍ[3] وَكَانَ حِفَاظًا أَنْ يُقِيمُوا، إِنَّ الكَرِيمَ كَرِيمُ
وَأَقَامُوا حَتَّى أُزِيرُوا شَعُوبًا وَالْقَنَا فِى نُحُورِهِمْ مَحْطُومُ
وَقُرَيْشٌ تَفِرُّ مِنَّا لِوَاذًا أَنْ يُقِيمُوا وَخَفَّ مِنهَا الْحُلُومُ
لَمْ تُطِقْ حَمْلَهُ العَوَاتِقُ مِنهُمْ إِنَّمَا يَحْمِلُ اللوَاءَ النُّجُومُ[4]

والشاهد فى قوله: « تسعة تحمل اللواء »، وانظر إلى قوله: « إن الكريم كريم » ما ألطفه وأصدقه !!

---

(١) وقع في ط، وفي السيرة: غطّى. وقال في الروض الأنف (٣/ ٢١٩): « غطا بتخفيف الطاء؛ أنشده يونس بن حبيب وهكذا كان في حاشية الشيخ مذكورًا عن يونس ومعناه: ارتفع وعلا. وأنشد القتبي:

ومن تعاجيب خلق الله غاطية ... ...

(٢) الزنيم: اللئيم المعروف بلؤمه أو شره. الوسيط (زنم).
(٣) عاتك: شديد الحمرة. الوسيط (عتك).
(٤) تنظر القصيدة في السيرة (٣/ ١٠٨، ١٠٩). والروض الأنف (٢٠٦-٢٠٧، ٢١٩).

وأما السقاية والرفادة والقيادة: فلم تزل لعبد مناف بن قصى يقوم بها حتى توفى، فولى بعده ابنه هاشم بن عبد مناف، ويطعم الناس فى كل موسم ما يجتمع عنده من ترادف قريش، فلم يزل على ذلك حتى أصاب الناسَ جدبٌ شديدٌ، فخرج هاشم إلى الشام، فاشترى من ماله دقيقًا وكعكًا، فقدم به مكة، فهشم ذلك الكعك، ونحر الجزور، وطبخها وجعلها ثريدًا، وأطعم الناس - وكانوا فى مجاعة شديدة - حتى أشبعهم، فسمى بذلك هاشمًا، ولم يزل هاشم على ذلك حتى توفى.

وكان عبد المطلب يفعل ذلك، فلما توفى، قام بذلك أبو طالب فى كل موسم حتى جاء الإسلام وهو على ذلك.

وكان النبى ﷺ قد أرسل بمال يعمل به ذلك الطعام مع أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - حين حج بالناس سنة تسع، وعمله النبى ﷺ فى حجة الوداع.

ثم أقام أبو بكر فى خلافته، ثم عُمر، ثم عثمان، ثم الخلفاء، وهلمَّ جرا.

وهو طعام الموسم الذى يطعمه الخلفاء فى أيام الحج بمكة ومنى، حتى تنقضى أيام الموسم.

قلت: قد انقطع هذا الطعام أوائل القرن العاشر. انتهى

وأما السقاية: فكانت كذلك فى يد عبد مناف، فكان يسقى الناس مِنْ بئرِ كرادم وبئر خمر على الإِبِلِ فى المزاودِ والقِرَبِ، ثم يسكبُ ذلك الماء فى حياضٍ من أدمٍ بِفنَاءِ الكعبةِ يرده الحاجُّ حتى يتفرقوا، فكان يستعذب ذلك الماء. وكان قصى قد حفر آبارًا بمكة، وكان الماء بمكة عزيزًا، إنما يشرب الناس من آبار خارجة عن الحرم. فأول ما حفر قصى بمكة بئرًا يقال لها: العجول، فكان موضعها فى دار أم هانئ بنت أبى طالب بالحزورة.

قلت: قد ذكرت هذه البئر، وما آلت إليه وما أبدل عنها، فكان العربُ يردونها ويتزاحمون عليها.

وحفر قصى - أيضًا - بئرًا عند الردم عند دار أبان بن عثمان، ثم دثرت، فسلمها جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، ثم حفرها هاشم بن عبد مناف بذرًا، وحفرها - أيضًا سجلة، وهى البئر التى يقال لها: بئر جبير بن مطعم، دخلت فى دار القوارير.

أقول: دار القوارير محلها اليوم المدرسة القايتبائية، ذكرها جار الله وغيرَهَا، وكانت منزلاً للسلاطين إذا وردوا للحج. انتهى

فلم تزل سجلة لولد هاشم حتى وهبها أسد بن هاشم للمطعم بن عدى، حين حَفَرَ عبد المطلب زمزم، فاستغنوا عنها.

ويقال: إنما وهبها له عبد المطلب، وسأله المطعم بن عدى بأن يضع حوضًا من أدم إلى جنب زمزم يسقى فيه من ماء بئره، فأذن له فى ذلك فكان يفعله، فلم يزل هاشم بن عبد مناف يسقى الحاج حتى توفى، فقام بأمر السقاية بعده ولده عبد المطلب بن هاشم، فلم يزل على ذلك حتى حفر زمزم، فكانت لعبد المطلب إبل كثيرة، فإذا كان الموسم، جمعها ثم يسقى لبنها بالعسل فى حياض من أدم عند زمزم، ويشترى الزبيب والتمر فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحاج؛ لأنه يكسر غلظ ماء زمزم، وكانت إذ ذاك غليظة جدًا، وكان الناس إذ ذاك لهم فى بيوتهم أسقية فيها الماء من هذه البئار ينبذون فيها القبضاتِ من الزبيب والتمر؛ لأنه يكسر عنهم غلظ ماء آبار مكة، فلبث عبد المطلب على ذلك حتى توفى، فقام بأمر السقاية بعده العباس بن عبد المطلب؛ فلم تزل فى يده، وكان للعباس كرمٌ بالطائف، فكان يحملُ زبيبه إلى السقاية، وكان يداينُ أهلَ الطائف ويقتضى منهم الزبيبَ، فينبذ ذلك كله، ويسقيه الحاج من أيام الموسم حتى تنقضى، فى الجاهلية وصدر الإسلام، حتى دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح، فقبض السقاية من العباس بن عبد المطلب والحجابة من عثمان بن طلحة، فقام بين عضادتى باب الكعبة، فقال: «ألا إن كل دم أو مأثرة كانت فى الجاهلية، فهى تحت قدمىَّ هاتَيْنِ، وأول دم أهدره دَم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، إلا سقاية الحاجِّ وسدانة الكعبة، فإنى قد أمضيتهما لأهلهما على ما كانتا عليه فى الجاهلية»[1] فقبضها العباس - رضى الله عنه - فكانت فى يده حتى توفى، فوليها بعده ولده عبد الله بن العباس، وكان يفعل فيها كفعله دون بنى عبد المطلب، وكان محمد بن الحنفية كلَّم فيها ابن عباس، فقال له

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١١، ٣٦)، وأبو داود (٤/ ١٨٥-١٨٦) كتاب الديات باب في الخطأ شبه العمد، حديث (٤٥٤٩)، والنسائي (٨/ ٤٢) مختصرا، وابن ماجه (٢/ ٨٧٨) كتاب الديات باب دية شبه العمد مغلظة، حديث (٢٦٢٨)، والحميدي (٧٠٢) من حديث ابن عمر.

ابن عباس: مالك ولها، نحن أولى بها فى الجاهلية والإسلام، وقد كان أبوك عليٌّ تكلَّم فيها، فأقمت البينة - طلحة بن عبيد الله، وعامر بن ربيعة، وأزهر بن عبد عوف، ومخرمة بن نوفل - أن العباس بن عبد المطلب كان يليها فى الجاهلية بعد عبد المطَّلب، وجدك أبو طالب فى إبله فى باديته بعرفة، وإن رسول الله ﷺ أعطاها لعباس يومَ الفتح دون بنى عبد المطلب، فعرف ذلك من حضر. فسكت عنه محمد ابن الحنفية؛ فكانت بيد عبد الله بن العباس، لا ينازعه منازعٌ ولا يتكلَّم فيها متكلِّم، فكانت بيد ولده وولد ولده إلى أن انقرضوا.

وأما القيادة، وهى عبارة عن قيادة الجيوشِ وضَمّ أمرها والمسير بها إلى مغزاها، وأن يكون هو الرئيس المطاع فيها، عن رأيه يصدرون ويردون؛ فوليها من بنى عبد مناف: عبد شمس بن عبد مناف أخو هاشم بن عبد مناف شقيقه، ثم وليها من بعده أمية بن عبد شمس، ثم من بعده ولده حرب بن أمية بن عبد شمس، فقاد الناس يوم عكاظ فى حرب قريش وقيس عيلان، وفى حرب الفجار الأوَّل والثانى، وقاد قبل ذلك فى حرب قريش وبنى بكر بن عبد مناة بن كنانة.

ثم توفى حربٌ، فكان ابنه أبو سفيان بن حرب يقود قريشًا، حتى كان يوم بدر فقاد الناس عتبة بن ربيعة بن أمية بن عبد شمس، وكان أبو سفيان فى العير؛ فخرج عتبة من مكة بالنفير، فلما كان يوم أحد، قاد الناس أبو سفيان بن حرب، ثم قاد الناس لذلك يوم الأحزاب، وكانَتْ هى آخِرَ غزوةٍ غزتها قريشٌ النبىَّ ﷺ؛ كما قال ﷺ: «إنهم لا يغزونا بعدها بل نحنُ نغزوهم»؛ فكان كما قال ﷺ.

فلما هلك عبد مناف، قام هاشم ابنه مقامه بالسقاية والرفادة، وحقيقة اسمه: عمرو، وهو اسم منقولٌ من أحد أربعة أشياء: إما من العُمْرِ الذى هو مدة الحياة، أوئمن العَمْرِ بفتح العين، وهو لحم الأسنان، ومنه الحديث: «أوصانى جبرائيل - عليه السلام - بالسواك، حتى خشيت على عُمُورِى»[1]، أو من العمرى الذى هو طرف الكم، يقال: سجد على عمريه، أى: كميه، أو من العمر الذى هو القرط، قال المعرى: [من البسيط]

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٤٥٣-٤٥٤) رقم (١٢٨٦) من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعًا بلفظ: أمرت بالسواك حتى خفت على أسناني. وعطاء بن السائب قد اختلط.

وَعمْر هِنْدٍ كَأَنَّ اللهَ صَوَّرَهُ عَمْرو بْن هِنْدٍ يَسُومُ النَّاسَ تَغْنِينَا

وزاد أبو حنيفة وجهًا خامسًا فقال: أو من العمر الذى هو اسم لنخل السكر، قال: كان ابن أبى ليلى يستاك بعسيب العمر، ذكر الخمسة السهيلى فى الروض الأنف.

فكان هاشم موسرًا، وهو أولُ من سَنَّ الرحلتين: رحلة الشتاء، ورحلة الصيف، وأول من أطعم الطعام الثريد بمكة، ولقب هاشمًا؛ لأنه وقع غلاء فى بعض السنين بمكة، فأتى بالكعك من الشام وهشمه وثرده وأطعم الناس فى تلك المجاعة، فقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمىّ فى ذلك: [من الكامل]

قُلْ للَّذِى طَلَبَ السَّمَاحَةَ والنَّدَى هَلاَّ مَرَرْتَ بآلِ عَبْدِ مَنَافِ
هَلاَّ مَرَرْتَ بِهِمْ تُرِيدُ قِرَاهُمُ مَنَعُوكَ مِنْ ضُرٍّ وَمِنْ إِلحَافِ
كَانَتْ قريشٌ بيضَةً فتفلَّقَتْ فَالمُحُّ خَالِصُها لِعَبْدِ مَنَافِ
أَلرَّائِشِينَ وَلَيْسَ يُوجَدُ رَائِشٌ وَالقَائِلِينَ هَلُمَّ لِلأَضْيَافِ
والمُلْحِقِينَ فَقِيرَهُمْ بغَنِيِّهِمْ حَتَّى يَعُودَ فقيرُهم كَالْكَافِى
والقَائِلِينَ بِكُلِّ وَعْدٍ صَادِقٍ وَالآمِرِينَ بِرِحْلَةِ الإِيلاَفِ
سَفَرَيْنِ سَنَّهُمَا لَهُ وَلِقَوْمِهِ سَفَرَ الشِّتَاءِ وَرِحْلَةَ الأَصْيَافِ
عَمْرُو الَّذِى هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ قَوْم بِمَكَّةَ مُسنِتين عِجَافِ

ثم تزوج هاشم بسلمَى بنت عمرو من بنى النجار، وكانت قبله تحت أحيحة بن الجُلاح، فولدَتْ له عمرو بن أحيحة، ثم ولدت لهاشم: عبد المطلب بن هاشم، فهو أخو عبد المطلب لأمه، واسمه عامر فى قول ابن قتيبة[١]، وشيبة الحمد فى قول ابن إسحاق[٢]، وهو الصحيح.

قيل: إنما سمى شيبة الحمد؛ لأنه ولد وفى رأسه شيب، وأما غيره من العرب ممن سمى شيبة، فإنهم قصدوا فى أنفسهم بهذا الاسم التفاؤل لهم ببلوغ سِنّ الحنكة والرأى؛ كما سموا: مهرم، وكبير.

وإنما قيل له: عبد المطلب؛ لأن أباه هاشمًا قال لأخيه المطلب، وهو بمكة حين حضرته الوفاة: أدرك عبدك بيثرب؛ لأنه كان بيثرب عند أمه سلمى بنت عمرو

---

(١) ينظر: المعارف (٧٢).
(٢) ينظر: السيرة النبوية (١/ ١٥٩).

النَّجَّارية، فمن ثم قيل له: عبد المطلب، فغلب على اسمه.

وقيل: إن سبب ذلك: أن عمه المطلب بن عبد مناف لما جاء به إلى مكة رديفه، كان بهيئة رثة؛ فكان إذا سئل عنه يقول: هو عبدى، حياءً أن يقول: ابن أخى، فلما أحسن من حاله، وجمله، أظهر أنه ابن أخيه، فغلب عليه عبد المطلب، وهجر اسمه الصريح الخالص.

وهو أول من خضب بالوَسْمَةِ، وعاش مائة وعشرين سنة؛ قاله ابن هشام(١).

وقال فى المواهب: وأربعين سنة، وهو لِدة عَبِيد بن الأبرص - بفتح العين، على صيغة الجمع - إلا أن عبيدًا توفى قبله بعشرين سنة، قتله النعمان بن المنذر التنوخى.

وعبيد هذا هو صاحب أولى المجمهرات فى الشعرِ التى مطلعها: [من مخلع البسيط]

عَيْنَاكَ دَمْعُهُمَا سَرُوبُ كَأَنَّ شَأْنَيْهِمَا شَعِيبُ

وكان عبد المطلب طويلاً جسيمًا عظيمًا فصيحًا جوادًا.

ثم هلك هاشم بغزَّة من أرض الشام تاجرًا، فولى السقاية والرفادة أخوه المطلب ابن عبد مناف، وكان ذا شرف فى قومه، وكان يسمى الفيض؛ لسماحته وفضله، وكان أصغر أبناء عبد شمس وهاشم؛ لأنهما توءمان، ثم توفى بِرَدْمان من أرض اليمن، وتوفى عبد شمس بمكة، وتوفى نوفل بن عبد مناف بالعراق.

قال ابن إسحاق: وكان أول ولد عبد مناف ملكًا هاشم مات بغزة، ثم عبد شمس، ثم المطلب، ثم نوفل، وقال مطرود بن كعب الخزاعى يرثيهم: [من البسيط]

يَا عَيْنُ جُودِى وَأَذْرِى الدَّمْعَ وانْهَمِرِى وَابْكِى عَلَى الشُّمِّ مِنْ كَعْبِ المُغِيرَاتِ(٢)
وَابْكِى عَلَى كُلِّ فَيَّاضٍ أَخِى ثِقَةٍ ضَخْمِ الدَّسِيعَةِ وَهَّابِ الجَزِيلَاتِ(٣)
صَعْبِ البديهةِ(٤) لاَ نِكْسٍ وَلاَ وكِلٍ مَاضِى الْعَزِيمَةِ مِتْلَافِ الْكَرِيمَاتِ

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١/ ٢٦٦).
(٢) بعده في السيرة:

يا عين واسحنفري بالدمع واحتفلي وابكي خبيئة نفسي في الملماتِ

(٣) بعده في السيرة:

محضِ الضريبة عالى الهم مختلقٍ جلد النحيزة نابٍ بالعظيماتِ

(٤) في ط: البديعة. والمثبت من السيرة.

صَقْر تَوَسَّطَ مِنْ كَعْبٍ إِذَا انْتَسَبُوا   بُحْبُوحَةَ المَجْدِ وَالشُّمَّ[١] الرَّفِيعَاتِ
ثُمَّ انْدُبِى الفَيْضَ وَالفَيَّاضَ مطلِبًا   وَاسْتَخْرِطى[٢] بَعْدَ فَيْضَاتٍ بِجَمَّاتِى[٣]
أَمْسَى بِرَدْمَانَ عَنَّا اليَوْمَ مُغْتَرِبًا   يَا لَهْفَ نَفْسِى عَلَيْهِ بَيْنَ أَمْوَاتِ
وَابْكِى لَكِ الوَيْلُ إِمَّا كُنْتِ بَاكِيَةً   لِعَبْدِ شَمْسٍ بِشَرْقِىِّ البَنِيَّاتِ
وَهَاشِم فِى ضَرِيحٍ وَسْط بَلْقَعَةٍ   تسْفى الرِّيَاحُ عَلَيْهِ بَيْنَ غَزَّاتِ
وَنوفَلٌ كَانَ دُونَ القَوْمِ خَالِصَتى   أَمْسَى بِسَلْمَانَ فِى رَدْمِ المَرَمَّاتِ[٤]
لَمْ أَلْقَ مِثْلَهُمُ عُجْمًا وَلاَ عَرَبًا   إِذَا اسْتَقلتْ بِهِمْ أُدْمُ المَطِيَّاتِ
أَمْسَتْ دِيَارُهُمُ مِنْهُمْ مُعَطَّلَةً   وَقَدْ يَكُونُونَ زَيْنًا فِى السَّرِيَّاتِ[٥]
يَا عَيْنَ وَابْكِى أَبَا الشُّعْثِ الشَّجِيَّاتِ[٦]   يَبْكِينَهُ حُسَّرًا مِثْلَ البَلِيَّاتِ
يَبْكِينَ أَكْرَمَ مَنْ يَمْشِى عَلَى قَدَمٍ   يَنْعُونَهُ[٧] بِدُمُوعٍ بَعْدَ عَبْرَاتِ[٨]
يَبْكِينَ عَمْرَو العُلاَ إِذْ حَانَ مَصْرَعُهُ   سَمْحَ السَّجِيَّةِ بَسَّام العَشِيَّاتِ[٩]
مَا فِى القُرُوم لَهُمْ عِدْلٌ وَلاَ خَطَرٌ   وَلاَ لِمَنْ تَرَكُوا شُرْف المَنِيعَاتِ[١٠]

---

(١) في ط: الشيم. والمثبت من السيرة.
(٢) في ط: واستخرجي. والمثبت من السيرة، ومعناه: استكثري.
(٣) الجمات: المجتمع من الماء.
(٤) في السيرة: رمس بموماة. والموماة: القفر. والمرمات: مواضع الرم؛ وهو الثرى.
(٥) بعده في السيرة:

أفناهمُ الدهر أم كَلَّتْ سيوفهم   أم كُلُّ مَنْ عاش أزواد المنيات
أصبحتُ أرضى من الأقوام بعدهمُ   بسط الوجوه وإلقاء التحيات

(٦) في ط: الشيم السجيات. والمثبت من السيرة.
(٧) في السيرة: يعولنه.
(٨) بعده في السيرة:

يبكين شخصا طويل الباع ذا فجر   آبي الهضيمة فرَّاج الجليلات

(٩) بعده في السيرة:

يبكينه مستكينات على حَزَن   يا طول ذلك من حُزن وعولات
يبكين لما جلاهنّ الزمان له   خضر الخدود كأمثال الحميات
محتزمات على أوساطهن لما   جرَّ الزمان مِنَ احداث المصيبات
أَبِيتُ ليلي أُراعي النجمَ مِنْ أَلمٍ   أبكي وتبكي معي شجوى بنياتي

(١٠) في السيرة: شروى بقيات. والقروم: جمع قرم؛ وهو السيد المعظم من الرجال. =

أَبْنَاؤُهُمْ خَيْرُ أَبْنَاءٍ وَأَنْفُسُهُمْ   خَيْرُ النُّفُوسِ لدى جَهْدِ الأَلِيَّاتِ[١]
زَيْنُ الْبُيُوتِ الَّتِي خلوْا مَسَاكِنَهَا   فَأَصْبَحَتْ مِنْهُمُ وحْشًا خَلِيَّاتِ
أَقُولُ - وَالعَيْنُ لاَ تَرْقَا مَدَامِعُهَا-   لاَ يُبْعِدِ اللهُ أَصْحَابَ الرَّزِيَّاتِ[٢]

قال الفاكهى: حدَّثنا عبد الله بن عمرو بن أبى سعيد، قال: حدثنا إسحاق بن البهلول، قال: حدثنى محمد بن عبد الرحمن القرشى، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «عبد مناف: عز قريش، وأسد ركنها، وعضدها، وعبد الدار: رُءوسها، وأوائلها، وعدى: جناحها، ومخزوم: ريحانتها، وأراكتها فى نصرتها، وجمح وسهم: عديدها، وعامر: ليوثها، وفرسانها، والناس تَبَعٌ لقريشٍ، وقريشٌ تبعٌ لولد قصىٍّ»[٣]. انتهى

قلت: وبنو قصىٍّ تبع لبنى هاشم، وقد قال قبلى القائل وهو على طريقة الترقى: [من المتقارب]

قُـرَيْـشٌ خِـيَـارُ بَـنِـى آدَمٍ   وَخَيْرُ قُرَيْشٍ بَنُو هَاشِمِ
وَخَيْرُ بَنِى هَاشِمٍ أَحْمَدٌ   رَسُولُ الإِلَـهِ إِلَى العَالَمِ

ومما يوافق معناه ويخالف مبناه قول الآخر: [من السريع]

مُحَمَّدٌ خَيْرُ بَنِى هَاشِمٍ   فَمَنْ تَمِيمٌ وَبَنُو دَارِمٍ ؟!
وَهَاشِمٌ خَيْرُ قُرَيْشٍ وَمَا   مِثْلُ قُرَيْشٍ فِى بَنِى آدَمِ

قال محمد بن سهل الأزدى: سمعت هشام بن الكلبى يذكر عن أبيه، قال: سئل

= الوسيط (قرم).

(١) بعده في السيرة:

كم وهبوا من طِمِرٍّ سابح أرنٍ   ومن طمرةٍ نهبٍ في طمراتِ
ومن سيوف من الهندي مُخلصَةٍ   ومن رماح كأشطان الركيات
ومن توابعَ مما يفضلون بها   عند المسائل من بذل العطيات
فلو حسبتُ وأحصى الحاسبون معي   لم أقض أفعالهم تلك الهنيات
هم المدلون إن ما معشر فخروا   عند الفخار بأنساب نقيات.

(٢) ينظر السيرة النبوية (١/ ١٦٠-١٦٣).

(٣) ورد هذا الحديث أيضا مرسلاً أخرجه الرامهرمزي في «الأمثال» (١١٣) عن عثمان بن الضحاك مرسلاً. وينظر: «كنز العمال» (٣٤١١٢).

على بن أبى طالب - رضى الله عنه - عن قريش ؟ فقال: أما بنو هاشم، فأصدق قريش فى النوم واليقظة، وأكرمها أحلامًا، وأضربها بالسيف، وأما بنو عبد شمس، فأبعدها هممًا، وأمنعها لما وراء ظهورهم، وأما بنو مخزوم، فريحانة قريش تحبُّ حديثَ رجالها، وتشتهى تزويج نسائها، وسئل عن قوم من قريش ؟ فقال: زعانفة.

وأخبر عبد الله بن عمرو بن أبى سعد، قال: حدثنا محمد بن الحسين الشامى، قال: حدثنا النضر بن عمرو، قال: حدثنى بكر بن عامر العمرى، عن عامر بن عبد الملك المسمعى، قال: دخل دغفل النسابة الشيبانى على معاوية، فقال له معاوية: أخبرنى عن بنى هاشم، فقال: شداد أنجاد، ذوو ألسنة حداد، وهم سادة السياد، قال: فأخبرنى عن بنى أمية، قال: فى الواسطة من القلادة، فى الجاهلية سادة، وفى الإسلام ملوك وقادة، قال: فأخبرنى عن بنى المطلب، قال: نيب مقشعرَّة، أصابتها قرَّة، لاتسمع لها جرَّة، ولا ترى لها درة، قال: فأخبرنى عن بنى نوفل، قال: اسم ولا حسيس، قال: فأخبرنى عن بنى أسد، قال: ذوو شؤم ونكد، وبغى وحسد، قال: فأخبرنى عن بنى زهرة، قال: فاش، وحلم الفراش، قال: فأخبرنى عن تيم بن مرة، قال: كثير أوغادهم، عبيد من سادهم، ولا يرى منهم قائد يقودهم، قال: فأخبرنى عن بنى مخزوم، قال: مِعزَى مَطيرة، أصابتها القشعريرة، إلا بنى المغيرة؛ فإنهم أهل التشدُّق فى الكلام، ومصاهرة الكرام، قال: فأخبرنى عن بنى جمح، قال: كلهم ظلف، إلا بنى خلف، قال: فأخبرنى عن بنى عدى بن كعب، قال: أهل دناءة الأخلاق؛ إن استغنوا شحوا، وإن افتقروا ألحوا.

وأما الحكام من قريش بمكة، فقال الفاكهى: حدثنا محمد بن النجار الصنعانى، قال: حدثنا عبد الرزاق، عن ابن جريج، قال: أخبرنى بشير بن تميم بن عبد الحارث بن عبيد بن عمير بن مخزوم، قال: كان أول من حكم فى الجاهلية بالقسامة والدية عبد المطلب؛ حكم بالقسامة فى رجل، وبمائة من الإبل فى رجل، وكان عقل أهل الجاهلية الغنم(١).

قال العلامة التقى الفاسئ، رحمه الله: حدثنى حسن بن حسين الأزدى، قال: حدثنا محمد أبو جعفر، عن الكلبى فى الحكام من قريش، قال: فمن بنى هاشم:

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٠/٢٧) باب القسامة رقم (١٨٢٥١).

عبد المطلب بن هاشم، والزبير وأبو طالب ابنا عبد المطلب، ومن بنى أمية: حرب ابن أمية، وأبو سفيان بن حرب، ومن بنى زهرة: العلاء بن حارثة الثقفى حليف بنى زهرة، ومن بنى مخزوم: العدل، وهو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ومن بنى سهم: قيس بن عدى بن سعد بن سهم، والعاص بن وائل بن هاشم ابن سُعيد بن سهم، ومن بنى عدى بن كعب: نفيل بن عبد العزى بن رزاح(١) . انتهى

ولم يكن أحد من هؤلاء متملكًا على بقية قريش، وإنما ذلك بتراض من قريش عليه؛ لما فيه من حسم موادِّ الشرِّ، فلما رأى ذلك عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصى، طمع أن يملك قريشًا ويتملك عليهم، قال الزبير بن بكّار: حدثنى على بن صالح، عن عامر بن صالح، عن هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير، قال: خرج عثمان بن الحويرث، وكان من أظرف قريش وأعقلها حتى قَدِمَ على قيصر، وقد رأى موضع حاجتهم إليه ومتجرهم من بلاده، فذكر له مكة ورغبه فيها، وقال: تكون زيادة على ملكك؛ كما ملك كسرى صنعاء، فملكه عليهم، وكتب له إليهم، فلما قدم عثمان إليهم، قال: يا قوم، إن قيصر من قد علمتم أمانكم ببلاده، وما تصيبون من التجارة في كنفه، وقد ملكنى عليكم، وإنما أنا ابن عمكم، وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ، والعكة من السمن والإهاب، فأجمع ذلك ثم أبعث به إليه. وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام؛ فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم منه، فلما قال لهم ذلك، خافوا قيصر، وأخذ بقلوبهم ما ذَكَرَ من متجرهم، فأجمعوا على أن يعقدوا على رأسه التاجَ عشيةً، وفارقوه على ذلك، فلما طافوا عشية، بعث الله إليه ابن عمه أبا زمعة الأسود بن المطلب بن أسد، فصاح على أحفل ما كانت قريش فى الطواف، فقال: عباد الله، ملك بتهامة ؟! فانحاشوا إليه انحياش حمر الوحش، ثم قالوا: صدقت واللات والعزى، ما كان بتهامة ملك قطُّ، فانتقضَتْ قريش عما كانت قالت له، ولحق بقيصر يعلمه.

ثم روى الزبير بسنده: أن قيصر حمل عثمان على بغلة عليها سرج عليه الذهب حين ملكه، قال الزبير: قال عمى: وكان عثمان بن الحويرث حين قدم مكة بكتاب قيصر مختوم فى أسفله بالذهب.

(١) يظر: شفاء الغرام (٢/١٠٨).

وذكر الزبير خبرًا فيما انتهى إليه أمر عثمان بن الحويرث، وملخص ذلك: أنه لما خرج إلى قيصر بالشام بعد امتناع قريش من تمليكه، فسأل تجارُ قريش بالشام عَمْرَو ابن جفنة الغسانى عامل قيصَرَ أن يفسد على عثمان عند قيصر، فسأل عمرو فى ذلك ترجمانَ قيصر، فأخبر الترجمان قيصر عن عثمان، وترجم عليه بأن عثمان يَشْتُمُ الملكَ، فأمر قيصر بإخراج عثمان، ثم تحيل عثمان حتى عرف من أين أُتِىَ، ودخل على قيصر وعرفه ما يقتضى أن الترجمان كذب عليه ومالأ أعداءه، فكتب قيصر إلى عمرو بن جفنة يأمره أن يحبس لعثمان من أراد حبسه من تجار قريش بالشام، ففعل ذلك عمرو، ثم سُمَّ عثمان فمات بالشام(1)، انتهى.

قال: وحدثنا حسن بن حسين الأزدى، قال: حدثنا محمد بن حبيب، قال: كانت الرياسة أيام بنى قصى إلى عبد مناف بن قصى، كان القائم بأمور قريش والمنظور إليه فيها، ثم أفضى ذلك بعده إلى ابنه هاشم بن عبد مناف، فأقام ذلك أحسن قيام، فلم يكنْ له نظير من قريش ولا مساو، ثم سارت الرياسة بعده لعبد المطلب، فى كل قريش رؤساء، غير أنهم كانوا يعرفون لعبد المطلب فضله وتقدمه وشرفه، فلما مات عبد المطلب، صارت الرياسة لحرب بن أمية، فلما مات حرب، تفرقت الرياسة والشرف بين عبد مناف وغيرهم من قريش(2).

وقال الفاكهى: قال لنا الزبير: قال محمد بن الحسن: كان هؤلاء الأربعة من بنى عبد مناف: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل، أول من رفع اللهُ بهم قريشًا، وكانت قريش إنما كانت تتجر بمكة، وتتبضع مع من يخرج من الأعاجم إليها، فركب هاشم، فأخذ له حبلًا، يعنى: عهدًا من قيصر، فاتجروا إلى الشام، وركب عبد المطلب، فأخذ له حبلًا من ملوك اليمن، فتجروا إلى اليمن بذلك الحبل، يعنى: العهد والذمة، وركب نوفل، فأخذ لهم حبلًا من النجاشى، فتجروا بذلك إلى أرض الحبشة(3).

وروى الزبير، عن محمد بن الحسن، عن العلاء بن الحسين، عن أفلح بن

(1) ينظر: شفاء الغرام (٢/ ١٠٨-١٠٩).
(2) ينظر: شفاء الغرام (٢/ ٨٣-٨٤).
(3) ينظر: شفاء الغرام (٢/ ٨٤).

عبد الله بن العلاء، عن أبيه وغيره من أهل العلم، قالوا: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل هم « الزينون »، وبنو هاشم وبنو المطلب يدان، فإن دهمهم غيرهم، صاروا يدًا واحدة، على ذلك كانوا فى الجاهلية دون جميع بنى عبد مناف.

قلت: ولهذا قال ﷺ: « نحن وبنو المطلب هكذا » وشبك بين أصابع يديه، وهما « البصران » يسميان بذلك، وعبد شمس ونوفل يروهما « الأنهران ».

قال: وكانت العرب تسمى هاشمًا والمطلب وعبد شمس ونوفلًا: « أقداح النضار »؛ فإن دهمهم غيرهم اجتمعوا فصاروا يدًا واحدة، وكان يقال لهم جميعهم أيضًا: « المجيرون »؛ قال آدم بن عبد العزَّى بن عمرو بن عبد العزى: [من الرمل]

يَا أَمِينَ اللهِ إِنِّى قَائِلٌ ... قَوْلَ ذِى دِينٍ وبرٍّ وَحَسَبْ
عَبْدُ شَمْسٍ لاَ تُهِنْهَا إِنَّمَا ... عَبْدُ شَمْسٍ عَمُّ عَبْدِ المُطَّلِبْ
عَبْدُ شَمْس كَانَ يَتْلُو هَاشِمًا ... وَهُمَا بَعْدُ لِأُمٍّ وَلِأَبْ(١)

فائدة أحببت إيرادها لمناسبتها، وهى: ذِكْرُ مَنْ وَلِىَ الإجازةَ بالناسِ من عرفة ومزدلفة ومنى من العرب، فى ولاية جرهم وخزاعة وقريش على مكة، والحمس والحلة والطلس والنسىء:

أما الأول ممن ولى الإجازة للناس بالحج من عرفة: فقال ابن إسحاق: كان الغوث بن مر بن أد (٢) بن طابخة بن إلياس بن مضر هو الذى يليها من عرفة وولده من بعده، وكان يقال له ولولده: « صوفة »، وإنما ولى الغوث بن مر ذلك؛ لأن سببه أن أمه كانت امرأة من جرهم وكانت لا تلد، فنذرت لله إن هى ولدت ذكرًا أن تتصدق به على الكعبة عبدًا لها يخدمها ويقوم عليها، فولدت الغوث، فكان يقوم على الكعبة بخدمتها فى الدهر الأول مع أخواله من جرهم، فولى الإجازة بالناس من عرفة؛ لمكانه الذى كان به من الكعبة، فقالت أمه: [من الرجز]

إِنِّى جَعَلْتُ رَبِّ مِنْ بَنِيَّهْ ... رَبِيطَةً بِمَكَّةَ العَلِيَّهْ
فَبَارِكَنَّ لِى بِهَا أَلِيَّهْ(٣) ... وَاجْعَلْهُ لِى مِنْ صَالِحِ البَرِيَّهْ(٤)

---

(١) ينظر: شفاء الغرام (٢/ ٨٤).
(٢) في ط: « ود » والمثبت من السيرة.
(٣) في ط: « عليه » والمثبت من السيرة ولعله الصواب.
(٤) ينظر: السيرة (١/ ١٣٨).

ثم استمر ولده من بعده.

قال ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد قال: كانت صوفة تدفع بالناس من عرفة، وتجيز لهم إذا نفروا من منى، فإذا كان يوم النفر، أتو لرمى الجمار، ورجل من صوفة يومئ للناس لا يرمون، فكان ذوو الحاجات المستعجلون يأتون له، فيقولون له: قم فارم حتى نرمى، فيقول: لا والله، حتى تميل الشمس؛ فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجيل يستعجلونه بذلك، ويرمونه بالحجارة، ويقولون له: ويلك قم فارمِ، فيأبى عليهم، حتى إذا مالت الشمس، قام فرمى، ورمى الناس معه.

قال ابن إسحاق: فإذا فرغوا من رمى الجمار، فأرادوا النفر من منى، أخذت صوفة بجانبى العقبة، فحبسوا الناس، وقالوا: أجيزى صوفة، فلم يجز أحدٌ من الناس حتى يمروا، فإذا نفرت صوفة ومضت، خلى سبيل الناس، فانطلقوا بعدهم، فكانوا كذلك حتى انقرضوا.

فورث ذلك من بعدهم بنو سعد بن زيد مناة بن تميم، فكانت في بنى سعد فى آل صفوان بن الحارث بن شجنة.

قال ابن هشام: صفوان هو ابن الحارث بن شجنة بن عطارد(١) بن عوف بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم، قال: فكان صفوان هو الذى يجيز للناس بالحج من عرفة، ثم بنوه من بعده، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام هو كرب بن صفوان، قال أوس بن مغراء السعدى: [من البسيط]

لا يَبْرَحُ النَّاسُ مَا حَجُّوا مُعَرَّفَهُمْ   حَتَّى يُقَالَ أَجِيزُوا آلَ صَفْوَانَا

وهذا البيت من قصيدة له يفخر فيها(٢).

وأما الإجازة من المزدلفة، فكانت فى عَدْوَان فيما حدث به زياد بن عبد الله، عن محمد بن إسحاق، يتوارثون ذلك كابرًا عن كابر، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام أبو سيارة عُميلة بن الأعزل، ففيه يقول شاعر العرب: [من الرجز]

نَحْنُ دَفَعْنَا عَنْ أَبِي سَيَّارَهْ   وَعَنْ مَوَالِيهِ بَنِى فَزَارَهْ

---

(١) في السيرة: صفوان بن جناب بن شجنة عطارد بن عوف.
(٢) ينظر: السيرة (١/١٣٨-١٤٠).

حَتَّى أَجَازَ سَالِمًا حِمَارَهْ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ يَدْعُو جَارَهْ(١)

وذكر الزبير بن بَكَّار خبر الإجازة من المزدلفة، فأفاد ما لم يفده ابن إسحاق، فاقتضى ذلك ذكرنا له، قال بعد أن ذكر خبر الإجازة من عرفة قال أبو عبيدة: والإجازة الثانية من جمع غداة النحر إلى منى، وكان ذلك إلى بنى زيد بن عدوان بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر، وكان آخر من ولى ذلك منهم أبو سيارة عُمَيْلَة بن الأعزل بن خالد بن سعد الحارث، وكان يجيز على حماره.

قال السهيلى: فكانت له أتان عوراء خطامها من ليف(٢).

وكان يقال فى المثل: « أَصَحُّ من حمار أبى سَيَّارة »، قال أبو الحسن الأثرم: قال أبو عبيدة: أظنه كان سمينًا. وقال محمد بن الحسن: عاش حمار أبى سيارة أربعين سنة لا يصيبه فيها عرض، فقيل: « أصح من عير أبى سيارة ».

قال الزبير بن بكار: حدثنى إبراهيم بن المنذر، عن عبد العزيز بن عمران، قال: أخبرنى عقال بن شيبة قال: فلم تزل الإجازة فى صوفة حتى أخذتها عَدوان، حتى أخذتها قريش(٣).

قلت: هذا صريح فى خلاف ما تقدَّم من أن الإجازة من عرفة فى آل صوفة استمرت إلى آخر الاسلام، وكان آخرهم كرب بن صفوان، وكذلك الإجازة من مزدلفة استمرت فى عَدْوَان حتى كان آخرهم أبا سيارة عُمَيْلة بن الأعزل، فلعلَّ قائل هذا أشار إلى ما وقع لقصىٍّ من أخذ ذلك من صوفة وعدوان، ثم ترك ذلك قصى؛ لأنه كان يراه ذنبًا فتركه.

وذكر القاضى: حدثنى أحمد بن سليمان، قال: حدثنى أبو زيد بن مبارك، قال: حدثنى أبو ثور، عن ابن جريج، قال وقال مولى ابن عباس: كانت الحُمس من عَدوان يقومون بالمزدلفة حتى يدفعوهم ومن يعرّف بعرفة من المزدلفة غداة جمع، وكان يدفع بهم أبو سيارة على حمار له عرى، وكان يقول: « أشرقْ ثَبِير، كيما نُغير »، وكان كرب بن صفوان يأخذ بالطريق، فلا يفيض أحد من عرفات حتى يجيز، وكانوا يقفون ولا يعرفون الوقوف بها فيقيمون ويفتخرون بآبائهم وأفعالهم

(١) ينظر السيرة النبوية (١/ ١٤٠-١٤١).
(٢) ينظر: الروض الأنف (١/ ١٤٦)، وشفاء الغرام (٢/ ٣٣).
(٣) ينظر: شفاء الغرام (٢/ ٣٣).

ويسألون لدنياهم، فأنزل الله: ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ الآية [البقرة: ٢٠٠] فإذا غربت الشمس، سار كرب بن صفوان نحو جمع، ويسيرون خلفه، لكل حى مجيز، حتى يأتوا الحُمْسَ فى جوف الليل بالمزدلفة، فيقفون معهم، وقد أخذ الطريق لايخرج أحد قبل طلوع الشمس، فإذا أصبحوا، قام أبو سيارة عميلة بن الأعزل العَدْوَانى، فقال: « أشرق ثبير، كيما نغير »، قال ذو الأصبع العدوانى، واسمه حرثان بن عمرو: [من الهزج]

عَذير الحىِّ مِنْ عَدْوَا ... نَ كَانُوا حَيَّةَ الأَرْضِ
بَغَى بَعْضُهُمُ ظُلْمًا ... فَلَمْ يَرْعَ عَلَى البَعْضِ
وَمِنْهُمْ كَانَتِ السَّادَا ... تُ وَالمُوفُونَ بِالقَرْضِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيزُ النَّا ... سَ بِالسُّنَّةِ وَالفَرْضِ(١)

وأما سبب تسمية الغوث وبنيه بصوفة - فيما تقدَّم من قوله: وكان يقال له ولبنيه صوفة - فذكر أبو عبد الله؛ أنه حدَّثه أبو الحسن الأثرم، عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى، قال: إنما سمى الغوث بن مرٍّ صوفة؛ لأنه كان لا يعيش لأمه ولد، فنذرت به إن عاش لتعلقنَّ برأسه صوفة، ولتجعلنه ربيطًا للكعبة، ففعلت، فقيل له: صوفة، ولولده من بعده، وهو الربيط، ويقال: سبب التسمية أنها لما ربطته عند البيت أصابه الحرُّ، فمرت به وقد سقط وذوى واسترخَى، فقالت: ما ضار ابنى إلا صوفة(٢). والله أعلم أيهما سبب التسمية، ويحتمل اجتماعهما ويكون سببه للسابق.

وأما الحُمْس والحلة، فذكر خبرهم غير واحد من أهل الأخبار، منهم الزبير بن بكار، فإنه قال: حدثنى إبراهيم بن المنذر بن عبد العزيز بن عمران، قال: الحمس: قريش، وكنانة، وخزاعة، ومن ولدته قريش خاصة من العرب، وإنما سموا الحمس بالكعبة؛ لأنها حمساء حجرها أبيض يضرب إلى السواد.

قال: وكانت لها سيرة، كانوا لا يأقطون أقطًا، ولا يسلون سمنًا، ولا يبيعون دارًا، ولا يقفون إلا بالمزدلفة، ولا يطوفون بالبيت عراة، ولا يسكنون فى بيوت الشعر.

وقال غيره: كانوا يعظمون الشهور الحرم، ويتعاطون الحقوق، ويدحرون عن

---

(١) ينظر: شفاء الغرام (٢/ ٣٢)، والسيرة (١/ ١٤٠).
(٢) ينظر: جمهرة النسب ص(١٨٩). والروض الأنف (١/ ١٤٣، ١٤٤).

الظلم، وينصفون المظلوم.

قال: وحدثنى محمد بن فضالة، عن مبشر بن حفص، عن مجاهد، قال: الحمس: قريش، وبنو عامر بن صعصعة، وثقيف، وخزاعة، ومدلج، وعَدوان، والحارث بن عبد مناة، وعضل أتباع قريش، وسائر العرب حلة.

قال: وحدثنى محمد بن حسن، عن محمد بن طلحة، عن موسى بن محمد، عن أبيه، قال: لم تكن الحمس بحلف، ولكنه دين شرعته قريش وأجمعوا عليه. وكانت الحلة لا تطوف فى حَجِّها إلا فى ثياب جدد، أو ثياب أهل الله سكان الحرم، ويكرهون أن يطوفوا فى ثياب عملتْ فيها المعاصى، فمن لم يجد طافَ عريانًا، ومن طاف من الحلة فى ثيابه، ألقاها، فإذا فرغ فلم ينتفع بها ولا غيره حتى تبلى. وكانت المرأة تطوف عارية، وتضع كفها على هنها، ثم تقول: [من الرجز]

أَلْيَوْمَ يَبْدُو بعضُهُ أَوْ كُلُّهُ ... وما بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّهُ

قال: وكانت الحمس تطوف فى ثيابها، وكانت الحلة تَخْرُجُ إلى عرفات، وتراه موقفًا ومنسكًا، وكان موقفها بالعشىّ دون الأنصاب، ومن آخر الليل مع الناس بقزح من المزدلفة، وكان بعض الحلة لا يرى الصفا والمروة، وبعضهم يراها، وكان الذين يرونها خِنْدِف، وسائر الحلة لا يرونها.

فلما جاء الله بالإسلام، أمر الله الحمس أن يقفوا بعرفة مع الحلة، وأن يفيضوا من حيث أفاضَ الناس منها مع الحلة، وأمر الحلة أن يطوفوا بين الصفا والمروة، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ... ﴾ الآية [البقرة: ١٥٨]؛ وذلك أن ناسًا قالوا: ما كان أهل الجاهلية ممن يطوف بهما يطوف بإساف ونائلة، وكان إساف على الصفا، ونائلة على المروة، فأعلمهم الله عز وجل أنهما مشعر[1]. انتهى

وقيل: سبب تسميتهم بالحمس غير ما ذكر، وهو أنهم إنما سموا حمسًا؛ لشجاعتهم، والحماسة الشجاعة.

وقيل: سبب التسمية بذلك لشدتهم فى دينهم، والأحمس المتشدد فى دينه.

وأما الطلس: فهم طائفة من العرب تطوف بالبيت على صفة تختصُّ بها، ذكرهم السهيلى؛ فقال بعد أن ذكر شيئًا فى خبر الحمس والحلة: وكانوا يأتون من أقصى

(١) ينظر: شفاء الغرام (٢/ ٤٣).

اليمن طلسًا من الغبار، يطوفون بالبيت فى تلك الثياب الطلس، فسموا بذلك، ذكره محمد بن حبيب. انتهى

والطلس - أيضًا - لقب لجماعة من أعيان السلف؛ لكونهم لا شعر فى وجوههم، منهم عبد الله بن الزبير الأسدىّ، وشريح بن الحارث القاضى قاضى الكوفة فوق ستين سنة.

وأما النَّسِيء، قال العلامة التقى الفاسى: قال الأزرقى فيما رويناه عنه بسندنا: حدثنى جدى، قال: حدثنا سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج، عن محمد بن إسحاق، عن الكلبى فيما رواه عن أبى صالح مولى أم هانىء، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وذكر شيئًا من خبر الحلة والحمس - ثم قال ابن إسحاق: قال الكلبى: فكان أول من أنسأ الشهور من مضر مالك بن كنانة؛ وذلك أن مالك بن كنانة نكح إلى معاوية بن ثور الكندى، وهو يومئذ فى كندة، وكانت النسأة قبل ذلك فى كندة؛ لأنهم كانوا قبل ذلك ملوك العرب من ربيعة ومضر، فنسأ ثعلبة بن مَلْك، ثم نسأ بعده الحارث بن مَلْك بن كنانة، وهو القَلَمَّسُ، ثم نسأ بعده سَرِيرُ بن القلمس، ثم كانت النسأة فى بنى فُقَيْم من بنى ثعلبة حتى جاء الإسلام، وكان آخر من نسأ منهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن عبد فقيم، وهو الذى جاء فى زمن عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - إلى الحجر الأسود، فلما رأى الناس يزدحمون عليه، قال: أيها الناس، أنا له جار، فأجيزوا، فخفقه عمر بالدرة، ثم قال: أيها الجلف الجافى، قد ذهب عزك بالإسلام. فكل هؤلاء قد نشأ فى الجاهلية، انتهى(١).

ذكر صفة الإنساء

روى الأزرقى بسنده إلى ابن إسحاق، عن الكلبى فى الخبر الذى فيه ما سبق ذكره فى أول من نسأ الشهور، قال: والذى ينسأ لهم إذا أرادوا ألاَّ يحلوا المحرم، قام بفناء الكعبة يوم الصدر، فقال الذى ينسأ: «أيها الناس، لا تحلوا حرماتكم، وعظموا شعائركم؛ فإنى أجاب ولا أعاب لقول قلته»؛ فهنالك يحرمون المحرم ذلك العام، وكان الجاهلية يسمون المحرم: صفر الأول، وصفر: صفر الآخر، ويقولون: صفران وشهرا ربيع وجماديان ورجب وشعبان وشهر رمضان وشوال وذو

(١) ينظر: شفاء الغرام (٢/ ٤٢-٤٣).

القعدة وذو الحجة؛ فكان ينسأ الإنساء سنة، ويترك سنة، فيحلوا الشهور المحرمة، ويحرموا الشهور التى ليست بمحرمة، وكان ذلك من فعل إبليس - لعنه الله تعالى - ألقاه على ألسنتهم فرأوه حسنًا، فإذا كانت السَّنَة التى ينسأ فيها، يقوم ويخطب بفناء الكعبة، ويجمع الناس إليه يوم الصدر، فيقول: أيها الناس، إنى قد أنسأت العام صفر الأول، يعنى: المحرم، فيطرحونه من الشهور ولا يعتدون به، ويبتدئون العدة بعده، فيقولون لصفر وشهر ربيع الأول: صفران ويقولون لشهر ربيع الآخر وجمادى الأولى: شهرا ربيع، ويقولون لجمادى الأخرى ورجب: جماديان، ويقولون لشعبان: رجب، ولشهر رمضان: شعبان، ويقولون لشوال: شهر رمضان، ولذى الفطرة: شوال، ولذى الحجة: ذو القعدة، ولصفر الأول، وهو المحرم الشهر الذى أنسأه: ذو الحجة، فيحجون تلك السنة فى المحرم، فيبطل من هذه السنة شهرًا ينسأه.

ثم يخطبهم فى السنة الثانية فى وجه الكعبة - أيضًا - فيقول: « أيها الناس، لا تحلوا حرماتكم، وعظموا شعائركم، فإنى أجاب ولا أعاب لقول قلته، اللهم، إنى قد أحللت دماء المحلين طيئ وخثعم فى الأشهر الحرم من بين العرب »، فيغزونهم ويطلبون بثأرهم ولا يقفون عن حرمات الناس فى الأشهر الحرم؛ كما تفعل غيرها من العرب، وكان سائر العرب من الحلة والحمس لا يَعْدُونَ فى الأشهر الحرم على أحد ولو لقى أحدهم قاتل أبيه وأخيه، ولا يستاقون إعظامًا للشهور الحرم، إلا خثعم وطيىء، فإنهم كانوا يعدون فى الأشهر الحرم؛ فهنالك يحرمون من تلك السنة الشهر المحرم، وهو صفر الأول، ثم يعدون الشهور على عدتهم التى عدوها فى العام الأول، فيحجون فى كل سنة حجتين، ثم ينسأ فى السنة الثانية، فينسأ صفر الأول فى عدتهم هذه، وهو صفر الآخر فى العدة المستقيمة حتى تكون حجتهم فى صفر أيضًا، وكذلك الشهور كلها حتى يستدير الحج فى كل أربع وعشرين سنة إلى المحرم الذى ابتدءوا منه الإنساء، يحجون فى الشهور كلها فى كل شهر حجتين، فلما جاء الله بالإسلام، أنزل الله فى كتابه العزيز: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ . . . ﴾ الآية [التوبة: ٣٧](١) انتهى.

---

(١) ينظر: شفاء الغرام (٢/ ٤٠-٤١).

وقال السهيلى: وأما نسؤهم للشهر الحرام، فكان على ضربين:

أحدهما: هذا الذى ذكره ابن إسحاق من تأخير المحرم إلى صفر؛ لحاجتهم إلى شن الغارات، وطلب الثارات.

والثانى: تأخير الحج عن وقته؛ تحريًا منهم للسنة الشمسية؛ فكانوا يؤخرونه فى كل عام أحد عشر يومًا أو أكثر قليلًا، حتى يدور الدور إلى ثلاث وثلاثين سنة؛ فيعود إلى وقته، ولذلك قال ﷺ فى عام حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»[1]؛ فكانت حجة الوداع فى السنة التى عاد فيها الحج إلى وقته الأصلى، ولم يحجَّ رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة غير تلك الحجة، وذلك لإخراج الكفار الحج عن وقته، ولطوافهم بالبيت عراة - والله أعلم - إذ كانت مكة فى حكمهم حتى فتحها الله على نبيه، عليه الصلاة والسلام.[2]

ثم ولى عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة بعد عمه المطلب، فأقام لقومه وللحجاج ما كانت آباؤه تقيمه من قبله، وشرف فى قومه شرفًا لم يبلغه أحد من آبائه، فأحبه قومه وعظم خطره فيهم، وكان أكبر أولاده الحارث، لم يكن أول أمره غيره، وكان يكنى به، فيقال: يا أبا الحارث، فقال له ابن عمه عدى بن نوفل بن عبد مناف: ياعبد المطلب، أتستطيلُ علينا وتتعاظم وأنتَ فَذٌّ لا ولد لك؟ فقال له عبد المطلب: أو بالقِلَّة تعيرونى؟ فو الله نذرٌ عليَّ، لئن آتانى الله عشرة من الولد، لأنحرنَّ أحدهم عند الكعبة. فلما كمل له عشرة من الولد، جمعهم فأخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه، وقالوا له: أوفِ بنذرِكَ، وافعلْ ما شئت، قال: ليأخذْ كل واحد منكم قِدْحًا فليكتب اسمه عليه، ثم ائتونى، ففعلوا، فقال عبد المطلب لصاحب القداح: اضربْ على هؤلاء بقداحهم - والقِدْحُ: سهم لا نصل له ولا ريش - فأعطى كل واحد منهم قدحه، وكان عبد الله هو أصغرهم سنًّا وأحبَّهم إلى والده، ثم ضرب صاحب القداح، فخرج السهم على

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي: باب من قال الأضحى يوم النحر، رقم (٥٥٥٠)، ومسلم في القسامة كتاب تحريم الدماء، رقم (١٦٧٩)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ١٢٧- بتحقيقنا)، رقم (١٩٥٨)، من حديث أبي بكرة في حديث الخطبة يوم النحر بمنى.

(٢) ينظر: الروض الأنف (١/ ٦٤).

عبد الله، فأخذه عبد المطلب بيده، وأخذ الشفرة، ثم أقبل على أساف - وهو صنم على الصفا - ليذبح عنده، فجذب العباس عبد الله من تحت رجل والده حتى أثر في وجهه شجة لم تزلْ ترى في وجه عبد الله إلى أن مات، فقامت قريش عن أنديتها، وقالوا: لئن فعلتَ هذا لايزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه، فما بقاء الناس على هذا ؟! ولكن اعذر فيه إلى ربك، فنفديه بأموالنا، وكان بالحجاز عرافة كاهنة لها تابع من الجنِّ، فانطلقوا حتى قدموا عليها، وقصَّ عليها عبد المطلب قصته وخبر نذره.

ويقال: إن نذره لذلك لم يكنْ سببه تعيير عدى بن نوفل له، فأجابه بقوله: أو بالقلَّة تعيرونى، لئن رزقنى الله عشرة من الولد . . . إلى آخر ما تقدم، بل إنما كان النذر: لما رأى فى المنام زمزم، وأرشد إلى مكانها بعلامة أريها فيه، فقال عند ذلك: لئن رزقنى الله عشرة من الولد حتى يعينونى على حفرها لأنحرنَّ أحدهم.

وعلى كل حال: فالمنذور هو نَحْرُ أحد أولاده العشرة، والاختلاف فى سبب عقد النذر هل هو التعيير له بقلة الولد وهى الرواية الأولى، أو حصول الإرشاد إلى محل زمزم وحفرها، والإعانة على ذلك، وذلك أنه بينما عبد المطلب بن هاشم نائم في الحجر إذ أتي فأمر بحفر زمزم، قال عبد المطلب: إنى لنائم فى الحجر إذ أتانى آت، فقال: احفر طيبة، قال: قلت: وما طيبة ؟ قال: ثم ذهب عنى، فلما كان الغد، جئت إلى مضجعى، فنمت فيه، فجاءنى، فقال: احفر المصونة قلت: وما المصونة ؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر برة، قلت: وما برة؟ ثم ذهب عنى، فلما كان الغد، نمت كذلك فجاءنى، فقال: احفر زمزم، قلت: وما زمزم ؟ قال: لا تنزف أبدًا ولا تذمّ، تسقى الحجيج الأعظم، وهى بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل، وهى شرف لك ولولدك، وكان هناك غراب أعصم لايبرحُ عند الذبائح مكان الفرث والدم.

فلما بين له شأنها، ودل على موضعها، وعرف أن المنام قد صدق، غدا بالمعول، ومعه ابنه الحارث ليس معه يومئذ ولد غيره، فجعل يحفر ثلاثة أيام حتى بدا له الطى، فعرفت قريش أنه أدرك حاجته، فقالوا: ياعبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حَقًّا، فأشركنا معك، قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم، وأعطيته من بينكم، قالوا له: فأنصفنا؛ فإنا غير تاركيك حتى

نخاصمك فيها، قال: فافعلوا، بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بنى سعد بن هذيم، قال: نعم، وكانت بأشراف الشام، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى أمية، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، والأرض إذ ذاك مفازة، قال: فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز، فنى ما كان عند عبد المطلب وأصحابه من الماء، فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش، فأبوا عليهم وقالوا: إنا بمفازة نخشَى على أنفسنا مثل ما أصابكم، فلما رأى عبد المطلب ما صنَعَ القوْمُ وما تخوفوا منه، قال لقومه: ما ترون ؟ قالوا: ما رأينا إلا تبع لرأيك، فمرنا بما شئت، قال: فإنى أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه بما بكم الآن من بقية الرمق والقوة، فكلما مات رجل على شفير حفرته، ألقاه فيها من بقى معه رمق منكم، قالوا: نِعْمَ ما أمرت به، فقعدوا ينتظرون عطشًا، ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله، لنضربنَّ فى الأرض؛ فلعلَّ الله يرزقنا ماء ببعض البلاد، فتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها، فلما انبعثت به، انفجرت عين ماء عذب من تحتِ خفها، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب هو وأصحابه، واستقوا حتى ملئوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل من قريش، فقال: هلموا إلى الماء، فقد سقانا الله، فاشربوا واستقوا، فجاءوا فشربوا واستقوا، ثم قالوا: قد والله قضى الله لكَ علينا ياعبد المطلب، والله لا نخاصمك فى زمزم أبدًا، إن الذى سقاك هذا الماء بهذه المفازة لهو الذى سَقَاكَ، فارجع إلى سقايتك راشدًا، فرجع ورجعوا معه.

ويقال: إن عبد المطلب قام يحفر هنالك، فجاءت قريش فقالوا: لا تحفر فى مسجدنا، فقال: إنى لحافر هذه البئر، ومجاهد من صدنى عنها، فطفق يحفر هو وابنه الحارث، وليس له يومئذ ولد غيره، فسعت إليهما ناس من قريش ونازعوهما، حتى إذا اشتدَّ عليه الأذى، نذر لئن ولد له عشر بنين، ثم بلغوا معه حتى منعوه عمن يريد منعه، وسهل الله عليه حفر زمزم - لينحرن أحدهم عند الكعبة، فلما بلغوا عشرة وأراد ذلك، وقع ما تقدم ذكره. انتهى

وورد أن عبد المطلب كان نائمًا فى الحجر إذ رأى منامًا، فانتبه فرقًا مرعوبًا، وأتى كهنة قريش وقص عليهم [رؤياه، فقالوا: تأويل][1] رؤياك: ليخرجنَّ من

(١) هذه زيادة لم توجد في الأصل، فزدناها ليتسق المعنى.

ظهرك من يؤمنُ به أهل السموات والأرض، وليكوننَّ فى الناس علمًا مبينًا. فتزوَّج ابنة عمرو بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وحملت فى ذلك الوقت بعبد الله الذبيح. وقصة ذبحه سببها نذر أبيه عبد المطلب ذبح أحد أولاده إذا رزقه الله عشرة ذكور؛ كما تقدم آنفًا.

وكانت زمزم مجهولة الموضع، إلى أن رفع عنها الحجاب برؤيا منام رآها عبد المطلب دلته على حفرها بأمارات عليها، وقد كان مضاض بن عمرو الجرهمى، أو عمرو بن الحارث الجرهمى لما أحدث قومَهُ بحرمِ الله الحوادثَ، وقيض الله إيادًا فأخرجوهم من مكة، عمد عمرو هذا إلى ذخائر الكعبة - من الغزالين والأسياف وغير ذلك - وأخرجها من الجب الذى كان بالكعبة معدًّا لوضع ذلك، فأخذ جميع ذلك، وجعله فى زمزم، وطمها وعفى أثرها، وفر إلى اليمن بقومه، فلم تزل زمزم من ذلك العهد مجهولة إلى أن رآها عبد المطلب، فأراد ذبح ولده عبد الله فمنعه أخواله بنو مخزوم، وفى الرواية الأولى منعه العباس فاجتذبه من تحت رجل ولده، ولا مانع من وقوع السببين، ويكون المنع منهم بعد الاجتذاب من العباس، ثم احتفرها وكانت له فخرا وعزًّا.

فذهبوا، فقالت لهم العرافة: ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى، فرجعوا من عندها، ثم عادوا إليها، فقالت لهم: كم الدية فيكم ؟ فقالوا: عشر من الإبل، فقالت لهم: قربوا عن ولدكم عشرًا من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه، واستمروا كذلك إلى أن يخرج السهم عليها فانحروها، فقد رضى ربكم ونجّى ولدكم، فخرجوا حتى قدموا مكة، فقربوا عشرًا من الإبل، وضربوا بالقداح، فخرج السهم على عبد الله، واستمروا في كل مرة يزيدون عشرا فعشرًا حتى بلغت الإبل مائة فخرج السهم عليها، فأعادوها ثانية وثالثة فخرج السهم على الإبل، فنحروها، وتركتْ لا يمنع من لحمها آدمى ولا وحش ولا طير.

قال الزهرى: كان عبد المطلب أول من سن دية النفس مائة من الإبل، فجرت فى قريش، ثم فى العرب، وأقرها رسول الله ﷺ فى الإسلام(١).

---

(١) ينظر قصة حفر عبد المطلب لبئر زمزم في السيرة النبوية (١/ ١٦٣-١٦٩) وسبل الهدى والرشاد (١/ ١٨٧-١٨٩).

وذكر الحافظ النيسابورى بسنده عن سعيد بن عمرو الأنصارى، عن أبيه، عن كعب الأحبار؛ أن نور رسول الله ﷺ لما وصل إلى عبد المطلب ونام فى الحجر، فانتبه مكحولاً مدهونًا قد كسى حلة البهاء والجمال، فبقى متحيرًا لايدرى من فعل به ذلك، فأخذه أبوه هاشم بيده، ثم انطلق به إلى كهنة قريش، فأخبرهم بذلك، فقالوا له: اعلم أن إله السموات قد أذن لهذا الغلام أن يتزوج، فزوجه أبوه قيلة، فولدت له الحارثَ وهو أكبر أولاده، وبه كان يكنى؛ كما تقدَّم ذكر ذلك. ثم ماتتْ فزوجه بعدها هندًا بنت عمرو، وكان عبد المطلب تروح منه رائحة المسك الإذفر، ونور رسول الله ﷺ يضىء فى غرته، وكانت قريش إذا أصابها قحط تأخذ بيده، فتخرج به إلى جبل ثبير، فيتقربون به إلى الله تعالى ويسألونه أن يسقيهم الغيث، فكان يغيثهم ويسقيهم ببركة نورِ محمد ﷺ غيثًا عظيمًا.

وعند الحاكم فى مستدركه: عن معاوية بن أبى سفيان: كنا عند رسول الله ﷺ، فأتاه أعرابى، فقال: يا رسول الله، خلفت البلاد يابسة والماءَ يابسًا، هلك المال وضاع العيال، فعد على مما أفاء الله عليك يا بن الذبيحَيْنِ، فتبسم رسول الله ﷺ، ولم ينكر عليه(١). ويعنى بالذبيحين: عبد الله، وإسماعيل بن إبراهيم، وإن كان قد ذهب بعض العلماء إلى أن الذبيح إسحاق.

قال ابن القيم: ومما يدل على أن الذبيح إسماعيل: أنه لاريب أن الذبح كان بمكة، وكذلك جعلت القرابين يوم النحر كما جعل السعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار تذكيرًا بشأن إسماعيل وأمه وإقامة لذكر الله تعالى، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه.

ثم قال: ولو كان الذبح بالشام - كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقَّى عنهم - لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة(٢)، وروى عن عمر بن عبد العزيز: أنه سأل رجلًا أسلم من علماء اليهود: أىُّ ابنَىْ إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين، إن اليهود ليعلمون أنه إسماعيل، ولكنهم يحسدونكم يا معشر العرب أن يكون أَبًا لكُمْ للفضل الذى ذكره الله تعالى عنه، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٥١) وسكت عنه وتعقبه الذهبيُّ فقال: إسناده وَاهٍ.
(٢) ينظر: زاد المعاد (١/ ٧٤).

إسحاق؛ لأن إسحاق أبوهم؛ كذا فى المواهب اللدنية[(١)].

وقد استشكل أن عبد المطلب نذر نحر أحد بنيه إذا بلغوا عشرة، وقد كان تزويجه هالة أم ابنه حمزة بعد وفائه بنذره، فحمزة والعباس إنما ولدا بعد الوفاء بنذره، وإنما كان أولاده عشرة.

قال السهيلى: ولا إشكال فى هذا؛ فإن جماعة من العلماء قالوا: كان أعمامه - عليه الصلاة والسلام - اثنى عشر؛ [وهو قول الأكثر] [(٢)]. وإن صح قول من قال: إنهم عشرة لا يزيدون، فالولد يقع على البنين وبنيهم حقيقةً لا مجازًا، فكأن عبد المطلب قد اجتمع له من ولده وولد ولده عشرة رجال حين الوفاء بنذره.[(٣)] وقد تقدم أن عبد الله كان أصغر بنى أبيه عبد المطلب، وهو غير معروف، فلعل الرواية أصغر بنى أمه، وإلا فحمزة كان أصغر من عبد الله، والعباس كان أصغر من حمزة، فكيف يستقيم أن يكون عبد الله أصغر أولاد عبد المطلب ؟! وروى عن العباس أنه قال: أذكر مولد رسول الله ﷺ وأنا ابن ثلاثة أعوام ونحوها، فجىء به حتى نظرت إليه، وجعل النساء يقلنَ لى: قَبِّلْ أخاك، فقبلته، فكيف يصح أن يكون عبد الله أصغر أولاد بنيه ؟! لكن يحتمل وجه لصحته أن تكون الرواية أصغر بنى أمه، أو تكون الرواية لذلك أصغر بنى أبيه، ويكون المراد أنه أصغر بنى أبيه حين أريد نحره، ثم ولد له بعد ذلك حمزة والعباس[(٤)]. انتهى

قلت: يعكر على هذا التوجيه الرواية السابقة التى فيها اجتذابُ العباسِ لعبد الله من تحتِ رجلِ عبد المطلب؛ إذ هى مصرحة بوجوده؛ بل ببلوغه حد الرجولية رأيًا وفعلًا؛ فليتأمل ولينظر وجه التوفيق.

وقيل لعبد المطلب فى صفة زمزم: لا تنزف أبدًا ولا تذم، وهذا برهان عظيم؛ لأنها لم تنزف من ذلك الحين إلى اليوم قطُّ، وقد وقع فيها حبشى، فنزحَتْ من أجله، فوجدوا ماءها. يفور من ثلاثة أعين أقواها وأكثرها ماء عين من ناحية الحجر

---

(١) ينظر: شرح المواهب (١/ ٩٧-٩٨).
(٢) في الروض: « وقاله أبو عمر فإن صح فلا إشكال في الخبر ».
(٣) ينظر الروض (١/ ١٨٠).
(٤) ينظر الروض الأنف (١/ ١٧٦).

الأسود، ذكر هذا الحديث الدارقطنى[(١)].

وقوله: « لا تذم » فينظر، فقد كان خالد بن عبد الله القسرى عامل الوليد بن عبد الملك على مكة يذمها ويسميها أم جعلان، واحتفر بئرًا خارج مكة باسم الوليد ابن عبد الملك، وجعل يفضلها على زمزم، ويحمل الناس على التبرك بها دون زمزم جرأةً منه على الله وقلة حياء منه، وهو الذى كان يفصحُ بلعْنِ على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - على المنبر هناك، وإنما ذكرنا هذا ليعلم أنها قد ذمت، لكن [من الرمل]

لاَ يَضُرُّ البَحْرَ أَمْسَى زَاخِرًا أَنْ رَمَى فِيهِ سَفِيهٌ بِحَجَرْ!

وأول من اتخذ للكعبة بابًا من حديد عبد المطلب، ضربه من تلك الأسياف التى وجدها فى زمزم حين احتفرها، وهى التى أودعها مضاض بن عمرو الجرهمى باطن زمزم وطمها، واتخذ حوضًا لزمزم يسقى منه؛ فكانوا يخربونه بالليل حسدًا له، فلما غمه ذلك، قيل له فى المنام: قُلْ: لا أحلها لغسل، وهى لشاربٍ حلٌّ وبِلّ، وقد كفيتَهُمْ. فلما أصبح قال ذلك، فكان بعد ذلك من أرادها بمكروه، رمى بداء فى جسده حتى انتهوا عنه.

فائدة: كانت قريش قبل حفر زمزم، اتخذت أبيارًا بمكة، فذكروا أن قصيًّا كان يسقى الحجيج فى حياض من أدم، فكان ينقل الماء إليها من آبار خارجة عن مكة، منها بئر ميمون الحضرمى، وكان ينبذ لهم الزبيب، ثم احتفر قصىٌ العَجُول فى دار أم هانىء بنت أبى طالب، وهى أول سقاية حفرت بمكة، فلم تزلِ العجول قائمة حياة قصىٌ وبعد موته حتى كبر عبد مناف بن قصىٌ، فسقط فيها رجل من بنى جعيل، فعطلوها واندفنت واحتفرتْ كل قبيلة بئرًا. واحتفرت سجلة. وأما خم: فهى بئر مرة، وهى من خممت البيت: إذا كنسته.

وأما غدير خم الذى عند الجحفة: فسمى بغيضة عنده، يقال لها: خم.

وأما زم: فبئر بنى كلاب بن مرة.

وأما شغية: فبئر بنى أسد.

(١) أخرجه الدارقطني (١/ ٣٣) كتاب الطهارة باب البئر إذا وقع فيها حيوان، حديث (١) من طريق محمد بن سيرين، عن ابن عباس. ومحمد لم يلق ابن عباس، ولا سمع منه.

وأما سنبلة: فبئر بنى جُمح، وهى بئر بنى خلف بن وهب بن جمح.

وأما الغمر: فبئر بنى سهم.

قلت: البئر التى يقال لها: العجول فى دار أم هانىء، قد حفرتْ بعد أن دفنت واستمرت إلى أن دفنها المستنجد العباسى لما وسع المسجد الحرام، وأدخل دار أم هانىء فيه، واحتفر عوضها البئر التى عند باب الحَزْوَرَةِ على يسار الخارج من المسجد المعروفة فى زماننا بالشرشورة يغسل فيها الموتى غالبًا. انتهى. والحديث شجون، يجرالفَنُّ منه إلى فنون.

ولنرجع إلى ما كنا، ونتمُّ ما عنه أبنًا، من ذكر عبد المطلب، فنقول: ولما قدم أبرهة ملك اليمن من قبل النجاشىّ لهدم بيت الله الحرام، وذلك أنه بنى كنيسة، وأراد صرف الحاج إليها، فأصبح ذات يوم وإذا هو بالكنيسة قد تَبَرَّزَ فيها رجل من كنانة، فحلف ليهدمنَّ بيت عز العرب، وهو الكعبة، فسار بجيش كالليل، يسير كالسيل، وبلغ عبد المطلب ذلك، فقال: يا معشر قريش، إنه لا يصلُ إلى هدم البيت؛ لأن للبيت ربًا يحميه.

ثم جاء مقدم خيل لأبرهة، فاستاق إبلاً لقريش فيها أربعمائة ناقة لعبد المطلب، فركب عبد المطلب فى قريش حتى طلع جبل ثَبِير، فاستنارتْ دائرة غرة رسول الله ﷺ على جبينه كالهلال، فانتشر شعاعها على البيت الحرام مثل ضوء السراج. فلما نظر عبد المطلب إلى ذلك قال: يا معشر قريش، ارجعوا، قد كفيتم هذا الأمر، فوالله ما استدار هذا النور منى إلا أن يكون الظفر لنا، فرجعوا متفرقين، ثم قصد عبد المطلب إلى خباء أبرهة، فإذا هو على سرير الذهب، فلما وقع نظر أبرهة على عبد المطلب، أكبره أن يقعده تحته، ولم يرض أن يقعد معه على السرير، فنزل على الأرض وأعظمه وأجلَّه، وسأله ما الذى أتَى بك ؟ فقال: إبل لى استاقها بعض جيشك، فقال أبرهة للترجمان: قل له: لقد عظمتَ أولاً فى عينى، فلما تكلمْتَ انحطَّتْ رتبتك عندى، قال عبد المطلب: ولم ذاك ؟ قال: لأنك قد علمت أنى إنما أتيتُ لهدم هذا البيت، وهو عزكَ وعز آبائكَ، فلم يكن لك هم إلا الإبل ورَدُّهَا عليك، فقال عبد المطلب: أنا ربُّ الإبل، وللبيت ربٌّ يحميه، فشأنك وإياه، ثم أمر بردها عليه.

وروى أنه لما حضر عبد المطلب إلى أبرهة، أمر سائس فيله الأبيض العظيم -

الذى كان لا يسجد لأبرهة كما تسجد الفيلة - أن يحضر بين يديه، فلما نظر الفيل إلى وجه عبد المطلب برك كما يبرك البعيرُ وخَرَّ ساجدًا وأنطقه الله، فقال: السلام على النور الذى فى ظهرك يا عبد المطلب؛ كذا رواه فى المنظوم والمفهوم.

ثم قام عبد المطلب حتى أتى البيت ، وأخذ بحلقتى الباب ، وقال: [من مجزوء الكامل]

لاَهُـمَّ إِنَّ الـمَـرْءَ يَـمْـ ... نَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ حَلاَلَكْ
لاَ يَـغْـلِـبَـنَّ صَـلِـيـبُـهُـمْ ... وَمِحَالُهُمْ أَبَدًا مِحَالَكْ
وَانْصُرْ عَلَى آلِ الصَّلِيـ ... بِ وَعَابِدِيهِ الْيَوْمَ آلَكْ
إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَكَعْـ ... بَتَنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكْ

ولما وصل الجيش ومعهم الفيل، وكان فيلاً عظيمًا لم ير مثله عظمًا اسمه محمود، فلما كان بالمغمَّس، برك، فضربوه فى رأسه بالمعاول ضربًا شديدًا فأبى، فوجهوه إلى جهة اليمن، فقام مسرعًا. ثم أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل من البحر، مع كل طائر ثلاثة أحجار كل حجر زنة طسوج حجر فى منقاره، وحجران فى رجليه كأمثال العدس، هيئة تصيب الفارس فى قنة رأسه، فتقطع أمعاءه، وتخرج من دبره، فخرجوا هاربين يتساقطون بكل طريق، فكان الحجر يغوص فى الأرض من شدة وقعه، وأصيب أبرهة بداء فى جسمه، فتساقطَتْ أنامله أنملة أنملة، وسال منه الصديد والقيح والدم، وما مات حتى اندع قلبه. وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ . . .﴾ السورة [الفيل: ١][(١)] ثم قام عبد المطلب منشدًا لما بدد الله شملهم وهدهم، وخيب أمالهم وصدهم: [من الرمل]

أَيُّهَا الدَّاعِى الَّذِى أَسْمَعْتَنِى ... ثَمَّ مَا بِى عَنْ نِدَاكُمْ مِنْ صَمَمْ
إِنَّ لِلْبَيْتِ لَرَبًّا مَانِعًا ... مَنْ يُرِدْهُ بِأَثَام مُصْطَلَمْ
رَامَهُ تُبَّعُ فِيمَا حَشَدَتْ ... حِمْيَرٌ وَالحىُّ مِنْ آل قدمْ
فانثَنَى عَنْهُ وَفِى أَوْدَاجِهِ ... خارجٌ أَمْسَكَ عنه بالكظَمْ
قلتُ والأَشْرَمُ تَرمِى خيلُه ... إِنَّ ذَا الأَشْرَمَ غِرٌّ بالحَرَمْ

(١) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٦/ ٦٧٢-٦٧٣) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وأبي نعيم في « الدلائل » عن عثمان بن المغيرة بن الأخنس.

نحنُ آلُ اللهِ فيمَا قَدْ مَضَى ... لَمْ يَزَلْ ذَاكَ عَلَى عهدِ ابرَهَمْ
نَحْنُ دَمَّرْنَا ثمودًا عَنْوَةً ... ثُمَّ عَادًا قَبْلَهَا ذَات الإرَمْ
نَعْبُدُ اللهَ وَفِينَا سُنَّةٌ ... صِلَةُ القُرْبَى وَإِيفَاءُ الذِّمَمْ
لَمْ تَزَلْ للهِ فينَا حُجَّةٌ ... يَدْفَعُ اللهُ بِهَا عَنَّا النِّقَمْ

وقال أمية بن أبى الصلت فى ذلك: [من الخفيف]

إنَّ آيَاتِ رَبِّنَا بَيِّنَاتٌ ... لاَ يُمَارِى بِهِنَّ إلاَّ كَفُورُ
حُبِسَ الفِيلُ بِالمُغَمَّسِ حَتَّى ... ظَلَّ يَحْبُو كَأَنَّهُ مَعْقُورُ

وفى تاريخ الخميس: أن الحجر كان أكبر من العدسة، وأصغر من الحمصة. عن ابن عباس: أنه رأى منها عند أم هانئ خرزاتٍ مخططةً كالجذع الظفارى(١).

فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التى جاءوا منها يسألون عن نفيل بن حبيب ليدلّهم على الطريق، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله تعالى بهم من نقمة: [من الرجز]

أَيْنَ المَفَرُّ وَالإلَهُ الطَّالِبُ ... والأشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الغَالِبُ

وقال أيضًا: [من الوافر]

أَلاَ حُيِّيتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا ... نَعِمْنَاكُمْ مَعَ الإِصْبَاحِ عَيْنَا
رُدَيْنَةُ لَوْ رأيتِ وَلاَ تَرَيْهِ ... لَنَا جَنْبَ المُحَصَّبِ مَا رَأَيْنَا
إذَنْ لَعَذَرْتِنِى وَحَمِدتِّ أَمْرِى ... وَلَمْ تَأْسَىْ عَلَى مَا قُلْت مَيْنَا
حَمَدت الله إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْرًا ... وَخِفْتُ حجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا
وَكُلُّ القَوْمِ يَسْأَلُ عَنْ نُفَيْلٍ ... كَأَنَّ عَلَيَّ لِلحُبْشَانِ دَيْنَا

قال العلامة ابن الجوزى: ثم إن عبد المطلب بعث ابنه عبد الله على فرس ينظر إلى القوم، فرجع يركض ويقول: هلك القوم، فخرج عبد المطلب وأصحابه وغنموا أموالهم. انتهى

وفى الكشاف: وَدَوِىَ أبرهة - أى: مرض - فتساقطت أنامله وآرابه عضوًا عضوًا حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، فهلك.

(١) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٦/٦٧٦) وعزاه إلى ابن مردويه وأبي نعيم.

وعن عكرمة: أصابته جدرية، وهو أول جدرى ظهر فى الأرض[1].

قال ابن إسحاق: وحدثنى يعقوب بن عقبة؛ أنه حدثه أنه أول ما رئيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام.

قال مقاتل: إن السبب الذى جر أصحاب الفيل أن فتية من قريش خرجوا تجارًا إلى أرض النجاشىّ، فدنوا من ساحل البحر - وثمة بيعة للنصارى تسميها قريش الهيكل - فنزلوا فأججوا نارا، فاشتووا، فلما ارتحلوا تركوا النار كما هى فى يومٍ عاصفٍ، فهاجت الريح فاضطرم الهيكل نارًا، فانطلق الصريخ إلى النجاشىّ، فأسفَ غضبًا للبيعة، فبعث أبرهة لهدم الكعبة.

وقال فيه - يعنى مقاتل -: إنه كان بمكة يومئذٍ أبو مسعود الثقفى، وكان مكفوف البصر يصيف بالطائف ويشتو بمكة، وكان رجلاً نبيهًا نبيلاً تستقيم الأمور برأيه، وكان خليلاً لعبد المطلب، فقال له عبد المطلب: ماذا عندك ؟ هذا اليوم لا نستغنى عن رأيك، فقال أبو مسعود لعبد المطلب: اعهد إلى مائة من الإبل، فاجعلها لله، وقلِّدها نعلاً، ثم بثها فى الحرم، لعل بعض هذه السود أن يعقر منها فيغضب رب هذا البيت فيأخذهم، ففعل ذلك عبد المطلب، فعهد القوم إلى تلك الإبل، فحملوا عليها وعقروا بعضها، وجعل عبد المطلب يدعو، فقال أبو مسعود: إن لهذا البيتِ ربًّا يمنعه، وقد نزل تبع اليمن صحن هذا البيت، وأراد هدمه، فمنعه الله وابتلاه وأظلم عليه ثلاثة أيام، فلما رأى تبع ذلك، رجع عن نيته وكساه القباطئ البيض وعظمه ونحر له الجزائر فانظر كيف جهته ؟ فنظر عبد المطلب فقال: أرى طيرا بيضًا نشأت من شاطىء البحر، فقال أبو مسعود: ارمقها ببصرك أين قرارها ؟ قال: أراها تدورُ على رءوسنا، قال: هل تعرفها ؟ قال عبد المطلب: لا والله ما أعرفها، فما هى بنجدية ولا تهامية ولا غربية ولا شامية، قال: ما قدرها ؟ قال: أشباه اليعاسيب، فى مناقيرها حصى كأنها حصى الخذف، قد أقبلت كالليل يكسَعُ بعضها بعضًا، أمام كل فرقة طير يقودها، أحمر المنقار، أسود الرأس، طويل العنق. فجاءَتْ حتى إذا حاذتْ معسكر القوم، كرت فوق رءوسهم، فلما توافت الرجال

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٦/ ٦٧٥) وعزاه إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل.

كلها، أهالت ما في مناقيرها وأرجلها على من تحتها، على كل حجر مكتوب اسم صاحبه، ثم إنها انصاعت راجعة من حيث جاءت، فلما أصبحا انحطًا من ذروة الجبل، فمشيا رتوة، فلم يؤنسا أحدًا، ثم دنوا رتوة، فلم يسمعا حسًا، فقالا: بات القوم ساهرين فأصبحوا نيامًا، فلما دنوا من عسكر القوم فإذا هو خامدون، فعمد عبد المطلب فأخذ فأسًا من فئوسهم، فحفر حتى أعمق فى الأرض فملأه من الذهب الأحمر والجوهر، وحفر لصاحبه فملأه، ثم قال له أبو مسعود: اختز لى على نفسك، فقال عبد المطلب: إنى لم آل أجعل أجود المتاع إلا فى حفرتى فهو لك، وجلس كل منهما على حفرته ونادى عبد المطلب فى الناس، فتراجعوا وأصابوا من فضلهما حتى ضاقوا به ذرعًا، وساد عبد المطلب بذلك وبغيره قريشًا وأعطته المقادة.

فلم يزل عبد المطلب وأبو مسعود فى أهليهما فى غِنًى من ذلك المال، ودفع الله عن كعبته.

وفى الكشاف: أن أهل مكة احتووا على أموالهم، وإلى هذه القصة أشار ﷺ بقوله: « إن الله حبس عن أهل مكة الفيل »(١) وسلط الله عليهم رسوله والمؤمنين. قيل: كان أبرهة هذا جد النجاشئ الذى كان فى زمنه ﷺ ومات وصلى عليه.

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: رأيت قائد الفيل وسائسه أعمَيَيْنِ بمكة مقعدين يستطعمان(٢). وروى أن الله أرسل سيلاً فذهَبَ [بهم](٣) موتى إلى البحر(٤).

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٨٧) كتاب اللقطة باب إذا وجد تمرة في الطريق، رقم (٣٤٣٤)، ومسلم (٢/ ٩٨٨) كتاب الحج باب تحريم مكة وصيدها، رقم (٤٤٧-١٣٥٥)، وأبو داود (٢/ ٥١٨) كتاب المناسك باب تحريم حرم مكة، رقم (٢٠١٧)، والدارمي (٢/ ٢٦٥) كتاب البيوع باب في اللقطة، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ١٤٠)، وأحمد (٢/ ٢٣٨)، والدارقطني (٣/ ٩٦، ٩٧) والبيهقي (٦/ ١٩٩)، من حديث أبي هريرة قال: لما فتح الله عز وجل على رسوله ﷺ مكة قام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: « إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين وإنها لم تحل لأحد قبلي وإنها أحلت لي ساعة من نهار وإنها لن تحل لأحد بعدي، فلا ينفر صيدها، ولا يختلى شوكها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد ».

(٢) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٦/ ٦٧٦) وعزاه إلى ابن إسحاق والواقدي وابن مردويه والبيهقي وأبي نعيم.

(٣) زيادة من « الدر المنثور » يقتضيها المعنى.

(٤) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٦/ ٦٧٤) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي نعيم في الدلائل.

فلما هلك أبرهة، ومزق الحبشة كل ممزق، أقفر ما حول هذه الكنيسة، وكثرت السباع حولها والحيات، فلا يستطيع أحد أن يأخذ مما فيها شيئًا إلى زمن السفاح أبى العباس، فذكروا له أمرها، فبعث إليها أبا العباس بن الربيع عامله على اليمن ومعه أهل الحزم والجلادة، فخربوها وحصلوا منها مالاً كثيرًا.

ثم بعد ذلك: عفى رسمها وانقطع خبرها؛ كذا فى حياة الحيوان(١).

وقال فى سيرة ابن هشام(٢): فلما هلك أبرهة، ملك الحبشة ملك بعده ابنه يكسوم بن أبرهة، ثم ملك اليمن من الحبشة أخوه مسروق بن أبرهة، فلما طال البلاء على أهل اليمن، خرج سيف بن ذى يَزَن الحِمَيرِىّ حتى قدم على قيصر ملك الروم، فشكا إليه ماهم فيه، وسأله أن يخرجه عنهم ويليهم هو ويبعث إليهم من شاء من الروم، فلم يشكه، فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر وهو عاملُ كسرىَ على الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكا إليه أمر الحبشة، فبعثه النعمان مع وفده إلى كسرى، فدخل عليه فقال: أيها الملك، غَلبنا على بلادنا الأغربة، قال كسرى: أى الأغربة، الحبشة أم السند ؟ قال: الحبشة، فجئتك لتنصرنى ويكون ملك بلادى لك، قال كسرى: بعدتْ بلادك مع قِلّة خيرها، فلم أكن لأورطَ جيشًا من فارس بأرض العرب، لاحاجة لى بذلك، ثم أجازه بعشرة آلاف درهم وكساه كسوة حسنة، فلما قبض ذلك سيف، خرج فجعل ينثر ذلك الوَرِقَ للناس، فقال: وما أصنع بهذا ؟ ما جبال أرضى التى جئت منها إلا ذهب وفضة، يرغبه فيها، فجمع مرازبته، فقال: ماذا ترون فى أمر هذا الرجل ؟ فقال قائل: أيها الملك، إن فى سجونك رجالاً قد حبستهم للقتل، فلو أنك بعثتهم معه، فإن هلكوا، كان ذلك الذى أردت بهم، وإن ظفروا، كان ملكًا ازددته، فبعث معه كسرى من كان فى سجونه - وكانوا ثمانمائة رجل - واستعمل عليهم وهرِز، وكان ذا سن فيهم وأفضلهم حسبًا وبيتًا. فخرج سيف فى ثمان سفائن، فغرقت سفينتان ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن، فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه، وقال له: رجلى ورجلك حتى نموتَ جميعًا أو نظفر، قال وهرز: أنصفت، وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن

(١) ينظر: حياة الحيوان (٢/ ٢٧٤).
(٢) ينظر: السيرة النبوية (١/ ٧٦).

وجمع إليه جنده، فأرسل إليه وهرز ابنًا له ليقاتلهم، فقتل ابن وهرز، فزاده ذلك حنقًا عليهم، فلما تواقف الناس على مصافهم، قال وهرز: أرونى ملكهم، فقالوا له: أترى رجلاً على الفيل عاقدًا تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء ؟ قال: نعم، قالوا: ذاك ملكهم، قال: اتركوه، فوقف طويلاً، ثم قال: علام هو ؟ قال: على البغلة، قال وهرز: بئست الحمالة، ذل وذل ملكه، إنى سأرميه، فإن رأيتم أصحابه لم يتحرَّكوا، فاثبتوا حتى أوذنكم؛ فإنى قد أخطأت الرجل، وإن رأيتم القوم قد استداروا ولاذوا به؛ فإنى قد أصبته، فاحملوا عليهم، فأمر بحاجبيه فعصبا له، ثم رماه، فشك الياقوتة التى بين عينيه، فتغلغلتِ النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه، ونكس عن دابته، فاستدارت الحبشة ولاذت به، وحملت عليهم الفرس، فانهزموا وقتلوا، وهربوا فى كل وجه. وأقبل وهرز ليدخل صنعاء، حتى إذا أتى بابها قال: لا تدخل رايتى منكسة أبدًا، اهدموا الباب، فهدم ثم دخلها ناصبًا رايته.

قال ابن إسحاق: فأقام وهرز والفرس باليمن، فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناء الذين من اليمن اليوم.

قال ابن هشام: طاوس اليمانى من هؤلاء الأبناء.

ثم مات وهرز، فأُمِّر ابنه المرزبان على اليمن، ثم عزل وأمر باذان، فلم يزلْ عليها حتى بعث النبى ﷺ.

قال: وكان ملك الحبشة لليمن قبل ذلك أرياط، ثم أبرهة، ثم يكسوم، ثم مسروق الذى قتله وهرز.

قال: وسبب ملك الحبشة لليمنِ أن أهل نجران كانوا أهلَ شِرْكٍ يعبدون الأصنام، وكان فى قرية من قراها قريبة من نجران - ونجران القرية العظمى التى إليها جماع تلك البلاد - ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر، فلما نزلها ميمون[(١)] الراهب، ابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى بها الساحر، فجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر، فبعث إليه الثامر[(٢)] ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران، فكان عبد الله إذا مَرَّ بصاحب الخيمة، أعجبه ما يرى من

(١) في السيرة: « فيميون ». والمثبت من تاريخ الطبري.
(٢) في ط: « التامر » وهو تحريف. والمثبت من السيرة.

صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم ووحد الله وعبده، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم، وكان يعلمه فكتمه إياه، وقال: يا بن أخي، إنك إن تحمله أخشى ضعفَكَ عنه. والثامر أبو عبد الله لا يظنُّ إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر؛ كما يختلف إليه الغلمان، فلما رأى عبد الله أن ميمون[1] قد ضن بالاسم الأعظم عليه، وتخوف ضعفه عنه، عمد إلى قِداحه فجمعها ثم لم يبقِ [لله] [2] اسمًا يعلمه إلا كتبه حتى كتبها فى القداح لكلِّ اسم قدح، حتى إذا أحصاها أوقد لها نارًا ثم [جعل] [3] يقذفها [فيها] [4] قدحًا قدحًا حتى إذا مر بالاسم الأعظم، قذف فيها بقدحه، فوثب القدح من النار حتى خرج منها لم تضره النار شيئًا، فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذى كتمه عنه، فقال له: ماهو ؟ قال: هو كذا وكذا، قال: وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع، فقال: أى ابن أخى، قد أصبتَهُ، فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل، فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلقَ أحدًا به ضراء إلا قال: ياعبد الله أتوحِّدُ اللهَ، وتدخل فى دينى، وأدعو الله فيعافيك مما أنتَ فيه من البلاء ؟ فيقول: نعم، فيوحد الله ويسلم ويدعو له [فيشفى] [5]، حتى لم يبق بنجران أحد به ضراء إلا أتاه فاتبعه على أمره فدعا له [فعوفى] [6]، فرفع أمره إلى ملك نجران فقال له: أفسدت عليَّ أهل مدينتى، و[خالفت] [7] دينى ودين آبائى، لأمثلنَّ بك، فقال عبد الله: لاتقدرُ على ذلك، فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح من رأسه فيقع على الأرض ليس به بأس، وجعل يبعث[8] به إلى مياه نجران - بحور لا يقع فيها شيء إلا هلك - فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس، فلما غلبه ذلك، قال له عبد الله بن الثامر: إنك لا تقدر على قتلى حتى توحد الله فتؤمن

---

(١) في السيرة « فيميون ».
(٢) زيادة من السيرة.
(٣) المثبت من السيرة.
(٤) المثبت من السيرة.
(٥) المثبت من السيرة.
(٦) المثبت من السيرة.
(٧) في ط: « خلعت » والمثبت من السيرة.
(٨) في ط: « يذهب » والمثبت من السيرة.

بما آمنتُ به، فإن فعلتَ ذلك استطعتَ ذلك، فسلطتَ على فتقتلنى، قال: فوحد الله ذلك الملك، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر، ثم ضربه بعصًا فى يده، فشجه شجة غير كبيرة، فقتله وهلك الملك مكانه.

واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى - عليه الصلاة والسلام - من الإنجيل وحكمه، ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث، فمن هناك كان أصل النصرانية بنجران. هذا حديث محمد بن كعب القرظى برواية محمد بن إسحاق عنه، والله أعلم(١).

وقال ابن إسحاق: حدثنى بعض أهلَ نجران، (عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم)(٢)؛ أنه حُدِّثَ أنَّ رجلًا من أهل نجران فى زمان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -حفر خربة من خرائب نجران ليقضى(٣) حاجته؛ فوجد عبد الله بن الثامر تحت دفن منها قاعدًا واضعًا يده على ضربة فى رأسه ممسكًا عليها بيده، فإذا تأخرت يداه عنها انبعثَ دمًا، وإذا أرسلت يداه ردهما عليه، فأمسك دمه(٤)، وفى يده خاتم مكتوب فيه: « ربى الله »؛ فكتب إلى عمر - رضى الله عنه - يخبره، فكتب إليهم عمر أن أقروه على حاله، وردُّوا عليه الدفن الذى كان عليه، ففعلوا(٥).

وفى أنوار التنزيل: روى أن ملكًا كان له ساحر، فضم إليه غلامًا ليعلمه السحر، وكان فى طريق الغلام راهب، فسمع الغلام من الراهب، ومال قلبه إليه، فرأى الغلام ذات يوم فى طريقه حية قد حبسَتِ الناس، فأخذ حجرًا، وقال: اللهم، إن كان الراهبُ أحبَّ إليك من الساحر فاقتلها، فقتلها بالحجر، فكان الغلام بعد ذلك يبرئ الأكمه والأبرص، ويشفى من البلاء، وعمى جليسُ الملك، فأبرأه، فسأله الملك عمن أبرأه، فقال: ربى، فغضب فعذبه، فدل الغلام على الراهب، فلم يرجعِ الراهب عن دينه، فقدَّ بالمنشار، وأبى الغلام الرجوعَ عن دينه، فأرسل به إلى جبلَ

---

(١) ينظر: المنتظم (٢/ ١٢٩-١٣٤).
(٢) في ط: « عن عبد الله بن التامر عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن قمر بن حمزة » والمثبت كما في السيرة وهو الصواب إن شاء الله.
(٣) في السيرة: لبعض.
(٤) في السيرة: « فإن أخرت يده عنها تنبعث دما وإذا أرسلت يده ردها عليها فأمسكت دمها ».
(٥) ينظر: السيرة (١/ ٥١).

ليطرحه من ذروته، فرجف بالقوم، فهلكوا ونجا، فأجلسه فى سفينة ليغرق، وقال فى المدرك: فذهب به إلى قرقور، فلججوا به ليغرقوه، فدعا، فانكفأت السفينة بمن معه، فغرقوا ونجا، فقال للملك: لستَ بقاتلى حتَّى تجمع الناس فى صعيد، وتصلبنى على جذع نخلة، وتأخذ سهمًا من كنانتى، وتقول: باسم رب الغلام، ثم ترمينى به، فرماه فوقع السهم فى صدغه، فأمسك بيده عليه فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل للملك: نزلَ بك ما كنت تحذر، فأمر بأخاديدَ أوقدَتْ فيها النيران، فمن لم يرجعْ منهم عن دينه، طرحه فيها، حتى جاءت امرأة معها صبى رضيع، فتقاعست، فقال الصبى: يا أماه، قفى ولا تقاعسى؛ فإنك على الحق. فألقى الصبى وأمه فى النار(١).

وفى سيرة ابن هشام: لما تنصَّر أهل نجران، سار إليهم ذو نواس اليهودى، فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك أو القتل، فاختاروا القتل، فخدَّد لهم الأخدود، فحرق بالنار، وقتل بالسيف، ومثل بهم حتى قتل منهم قريبًا من عشرين ألفًا، ففى ذى نواس وجنوده أنزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . . . ﴾ الآيات [البروج: ٤- ٦](٢).

قلت: سمعت من إملاء شيخنا العلامة، الذى لم يحتجْ لبيان فضله إلى علامة، مولانا الشيخ محمد بن علاء الدين البابلى نظمًا عزاه للعلامة السيوطى فى عد من تكلَّم فى المهد، فبلغ بهم عشرة أنفس هو قوله: [من الطويل]

تَكَلَّمَ فِى المَهْدِ النَّبى مُحَمَّدٌ ... وَيَحْيَى وَعِيسَى وَالخَلِيلُ المُكَرَّمُ
ومُبْرِى جُرَيْجٍ ثُمَّ شَاهِدُ يُوسُفٍ ... وَطِفْلٌ لَدَى الأُخْدُودِ يَرْوِيهِ مُسْلِمُ
وَطِفْلٌ عَلَيْهِ مُرَّ بِالأَمَةِ الَّتِى ... يُقَالُ لَهَا تَزْنِى وَلاَ تَتَكَلَّمُ
وَمَاشِطَةٌ فِى عَهْدِ فِرْعَوْنَ طِفْلُهَا ... وَفِى زَمَنِ الهَادِى المُبَارَكُ يَخْتِمُ

وبعضهم زاد مريم - عليها السلام - ولم يثبت.

وقوله: « المبارك » يريد الصحابى المشهور والد عبد الله بن المبارك التابعى المشهور. انتهى(٣).

(١) ينظر: عرائس المجالس ص (٣٩٣-٣٩٤).
(٢) ينظر: السيرة النبوية (١/ ٥٠).
(٣) ثبت في الصحيحين عند البخاري رقم (٣٤٣٦)، ومسلم رقم (٢٥٥٠)، وغيرهما أن =

قال ابن إسحاق: وأفلت منهم بعد وقوع التحريق رجلٌ يقال له: ذو ثعلبان، على فرس له، فسلك الرميل، فأعجزهم، فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصر، فاستنصره على ذى نواس المحرق لهم صاحب الأخدود وجنوده، وأخبره بما بلغ منهم، فقال له: بعدتْ بلادك، ولكنى أكتب لك إلى ملك الحبشة؛ فإنه على هذا الدين - يعنى النصرانية - وهو أقرب إلى بلادك.

فكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأر قومه، فقدم ذو ثعلبان على النجاشى بكتاب قيصر، فبعث معه سبعين ألفًا من الحبشة، وأمر عليهم رجلًا منهم يقال له: أرياط، ومعه فى جنده أبرهة الأشرم[1] ، فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن، ومعه ذو ثعلبان، وسار ذو نواس الحميرى فى حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن، فلما التقوا، انهزم ذو نواس وأصحابه، فلما رأى ذو نواس وأصحابه ما نزل به وبقومه، وجه فرسه فى البحر، ثم ضربه، فدخل وخاض به ضحضاح البحر حتى أفضى به إلى غمرة، فأدخله فيها، فكان آخر العهد به.

ودخل أرياط اليمن، فملكها، وأقام سنين فى سلطانه ذلك، ثم نازعه فى أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبشى الذى كان من جملة جيشه، فتفرقت الحبشة بينهما، فانحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم، ثم سار أحدهما على الآخر، فلما تقارب الناس، أرسل أبرهة إلى أرياط: إنك لاتصنع إلا أن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئًا بعد شىء، فابرز إلىّ وأبرز إليك، فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده. فأرسل إليه أرياط يقول: أنصفت، فخرج إليه أبرهة، وكان رجلًا حكيمًا قصيرًا - وكان على دين النصرانية - وخرج إليه أرياط، وكان رجلًا جميلًا طويلًا وفى يده حربة له، وخلف أبرهة غلام له يقال له: عيودة يمنع ظهره، فرفع أرياط الحربة، فضرب بها أبرهة يريد يافوخه، فوقعت على جبهة أبرهة، فشرمت حاجبه وأنفه وعينه وشفته ، فلذلك سمى أبرهة الأشرم، وحمل عيودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله، فانصرف جند أرياط إلى أبرهة، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن.

= النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج ... الحديث. وأما الأحاديث التى ورد فيها أكثر من الثلاثة ففيها ضعف. وانظر سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني رقم (٨٨٠).

(١) في ط: والأثرم. وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه.

فلما بلغ ذلك النجاشى غضب غضبًا شديدًا، وقال: عدا على أميرى، فقتله من غير أمرى، ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجزَّ ناصيته، فلما بلغ ذلك أبرهة، حلق رأسه وملأَ جرابًا من تراب اليمن، ثم بعثه إلى النجاشى، وكتب معه: أيها الملك، إنما كان أرياط عبدك، وأنا عبدك، اختلفنا فى أمرك وكل طاعة لك، إلا أنى كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبَطَ لها وأسوَسَ منه، وقد حلقتُ رأسى كله حين بلغنى قسم الملك، وبعثت إليه بجرابٍ من تراب أرضى؛ ليضعه تحت قدميه، فيبر قسمه فىَّ. فلما انتهى ذلك إلى النجاشى، رضى عنه، وكتب إليه أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمرى. فأقام أبرهة باليمن حتى كان ولد ولده أبرهة الذى قصد إلى تخريب الكعبة، فإن أبرهة المذكور جَدُّ أبرهة الآتى لتخريب الكعبة، فأصابه ما أصابه مما تقدم ذكره.

ولما استقرَّ سيف بن ذى يزن الحميرى باليمن بعد أن دخلها صحبة وهرز الذى أنفذه معه كسرَى، وقتل أبرهة المذكور أنه جد أبرهة الآتى لتخريب الكعبة، واستقر فى تخت ملكه، ونزل بقصر غمدان فى صنعاء اليمن - أتته وفود العرب من كل صوب للتهنئة، فكان من أعظمهم عبد المطلب فى جماعة من وجوه قومه، وكان خروج عبد المطلب ومن صحبه إلى سيف ذى يزن فى السنة السادسة من مولده - عليه الصلاة والسلام - قاله ابن الأثير فى نهايته، فبشره بظهور رسول الله ﷺ من نسله.

وذكر العلامة ابن الجوزى فى المنتظم فى أخبار الأمم العرب والعجم، حديث قدوم سيف بني ذى يزن الحميرى فقال: لما ظهر جد سيف على الحبشة، وذلك بعد مولد النبى ﷺ بسنين، أتته وفود العرب ووجوهها وأشرافها وشعراؤها للتهنئة، ثم أتته وفود قريش فيهم عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وقصى بن عبد الدار بن قصى[1]، وسيف فى صنعاء فى رأس قصر له يقال له: غمدان.

وغمدان هو القائل فيه أمية بن أبى الصلت الثقفى يمدح سيف بن ذى يزن المذكور قوله: [من البسيط]

لاَ يَطْلُبُ الثَّأْرَ إلاَّ كَابْنِ ذِى يَزَنِ تَيَمَّمَ البَحْرَ لِلأَعْدَاءِ أَحْوَالاَ

(١) في المنتظم أنهم «كانوا خمسة من عظمائهم: عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس وعبد الله بن جدعان، وخويلد بن أسد، ووهب بن عبد مناف بن زهرة». ينظر المنتظم (٢/ ٢٧٧).

أَتَى هِرَقْلاً وَقَدْ سَاءَتْ إجَابَتُهُ ... فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ النَّصْرَ الذِى سَالاَ
ثُمَّ انْثَنَى عِنْدَ كِسْرَى بَعْدَ تَاسِعَةٍ ... مِنَ السِّنِينَ يُهِينُ النَّفْسَ وَالمالاَ
حَتَّى أَتَى بِبَنِى الأَحْرَارِ يَحْمِلُهُمْ ... تخَالُهُمْ فَوْقَ مَتْنِ الأَرْضِ أَجْبَالاَ
لِـلَّـهِ دَرُّهُـمُ مِـنْ فِـتْـيَـةٍ صُـبُـرٍ ... مَا إِنْ رَأَيْتُ لَهُمْ فِى النَّاسِ أَمْثَالاَ
أَرْسَلْتَ أُسْدًا عَلَى سُودِ الكِلاَبِ فَقَدْ ... أَضْحَى شَدِيدُهُمُ فِى البَأْسِ فَلاَّلاَ
فَاشْرَبْ هَنِيئًا عَلَيْكَ التَّاجُ مُرْتَفِعًا ... فِى رَأْسِ غُمْدَانَ دَارًا مِنْكَ محلالا
فَاشْرَبْ هَنِيئًا فَقَدْ شَالَتْ نَعَامَتُهُمْ ... وَأَسْبِلِ اليَوْمَ فِى بُرْدَيْكَ إِسْبَالاَ
هَذِى المَكَارِمُ لاقعبان مِنْ لَبَنٍ ... شِيبَا بِـمَـاءٍ فَـعَـادَا بَـعْـدُ أَبْـوَالاَ
هَذِى المَكَارِمُ لاَ ثَوْبَانِ مِنْ عَدَنٍ ... خيطَا زَمَانًا فَعَادَا بَعْدُ أَسْمَالاَ

أقول: قوله: « شالت نعامتهم » هو كناية فى كلام العرب عن تفرق القوم وتبددهم وذهابهم قتلاً أو موتًا أو غيرهما، والأصل فيه استعماله لتفرقهم بالارتحالِ خاصَّة عن منهلهم المورود لهم فى محلتهم، فإذا ارتحلوا يقال: شالت نعامتهم، أى: ارتفعت بكرتهم عن النعامة، وهى الخشبة المعترضة على شفير البئر على الزرنوقين، وهما المسميان اليوم قَرْنَى البئرِ ، فما دام الحى مجتمعين تكون نعامتهم تلك على منهلهم يستقون بها الماء، فإذا ارتحلوا، رفعوا النعامة فنقلوها إلى منهل آخر؛ فيكون شولها - أى: ارتفاعها - كناية عن رحيلهم، ثم توسع فيه بما ذكر.

وفى القاموس: « غُمْدَان - كـ« عثمان »- : قصر باليمن بناه يَشْرُخُ[١] بن الحارث بن صيفى بن سبأ بن كهلان جد بلقيس - بأربعة وجوه أحمر وأصفر وأبيض وأخضر، وبنى داخله قصرًا بسبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذراعًا »[٢] انتهى.

فلما [٣] وصلوا إليه إذا هو متضمخ بالعنبر ينطف[٤] وبيص المسك فى مفرق رأسه، وعليه رداءان أخضران متزرٌ بأحدهما مرتد بالآخر، عن يمينه وشماله الملوك

---

(١) كذا في القاموس. ووقع في ط: يشرح؛ بالمهملة.
(٢) ينظر ترتيب القاموس: (٣/ ٤١٥) (غمد).
(٣) عاد إلى النقل عن « المنتظم » (٢/ ٢٧٧-٢٨٠) مع اختلاف في بعض الكلام، تقديمًا وتأخيرًا.
(٤) نطف -كـ« ضرب »-: قطر؛ يقال: نَطف عرقه: قطر. ونطف الماء: صبه. ينظر: الوسيط (نطف) وفي ط: بالعبير.

وأبناء الملوك والأقيال، فأخبر بمكانهم فأذن لهم فدخلوا عليه، فدنا عبد المطلب واستأذنه فى الكلام، فقال له: إن كنت ممن يتكلّم بين أيدى الملوك فتكلم. فقال: « إن الله عز وجل أحلك أيها الملك محلاً رفيعًا، باذخًا شامخًا منيعًا، وأنبتك نباتًا طابت أرومته، وعظمت جرثومته، وثبت أصله وبسق فرعه، فى أطيب موطن، وأكرم معدن، وأنت - أبيت اللعن - ملك العرب وربيعها الذى به تخصب، ورئيسها الذى له تنقاد، وعمودها الذى عليه العماد، ومعقلها الذى يلجأ إليه العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا منه خير خلف، فلن يهلك من أنت خلفه، ولن يخمد ذكر من سلفك سلفه، أقدمَنا الذى أفرحنا، فنحن وفد التهنئة، لا وفد الترزئة [(١)] ».

فقال له الملك: من أنت أيها المتكلم؟ فقال: أنا عبد المطلب بن هاشم، قال: ابن أختنا؟ قال: نعم.

قلت: قول سيف: « ابن أختنا » يشير به إلى أن عبد المطلب أمه سلمى بنت عمرو من بنى النجار، وهم يرجعون إلى حِمْيَرَ.

ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال: « مرحبًا وأهلاً، وناقة ورَحْلاً »، فأرسلها مثلا، وكان أول من تكلم بها: « ومناخًا سَهْلاً، وملكًا رِبَحْلاً[(٢)] ، يعطى عطاءً جزلاً، قد سمع الملك مقالتكم، وعرف مكانتكم، وقبل وسيلتكم، فأنتم أهل الليل والنهار، لكم الكرامة ما أقمتم، والحِبَاء إذا ظعنتم، وانهضوا إلى دار الضيافة والفود »، فنهضوا، وأجرى عليهم الأنزال، فأقاموا كذلك شهرًا لا يَصِلُونَ إليه، ولا يؤذن لهم بالانصراف، ثم إن الملك انتبه لهم انتباهة، فأرسل إلى عبد المطلب، فأدناه، ثم قال له: يا عبد المطلب، إنى مفض إليك من سر علمى أمرًا لو غيرك يكون لم أبحْ له به، ولكن رأيتك موضعه، فأطلعتك طلعه، فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله - عز وجل - فيه إنى أجد فى الكتاب المكنون، والعلم المخزون، الذى أخذناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خبرًا عظيمًا، وخطرًا جسيمًا، فيه شرف الحياة، وفضيلة الممات، للناس كافة، ولرهطك كافة ، ولك خاصة، فقال عبد المطلب: لقد أتيت

---

(١) في ط: المرزئة . والمثبت من المنتظم.

(٢) في المنتظم: « سمحلا ». والرِّبحلُ: العظيم الشان من الناس. ينظر: ترتيب القاموس (ربحل).

بخبر أيها الملك، ما سر بمثله وافد قوم، ولولا هيبة الملك وإجلاله لسألته عن بشارته إياه ما أزداد به سرورا، فقال الملك: هذا حين الذى يولد فيه ولد اسمه محمد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، والله عز وجل باعثه جهارًا، وجاعل له منا أنصارًا، يعز بهم أولياءه، ويذل بهم أعداءه، ويضرب بهم الناس عن عرض، ويستبيح بهم كرائم أهل الأرض، تخمد به النيران، ويعبد به الرحمن، ويدحر به الشيطان، وتكسر به الأوثان، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله، فقال له عبد المطلب: عز جارك، ودام ملكك، وعلا كعبك، فهل الملك مفصح عنه مزيد إفصاح، فقد وضح بعض الاتضاح، فقال له سيف: ارفع رأسك، ثلج صدرك، وعلا كعبك، فهل أحسست بشىء مما ذكرته لك؟ قال: نعم أيها الملك، كان لى ابن وكنتُ به معجبًا، وعليه رفيقًا، وبه شفيقًا، وإنى زوجته كريمة من كرائم قومى آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، فجاءتْ منه بغلام سميته محمدًا، مات أبوه وأمه، وكفلته أنا وعمه، فقال له الملك: إن الذى قلت لك كما قلت، فاحفظ ابنك، واحذر عليه من اليهود؛ فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهْط الذين معك، فإنى لست آمن أن تدخلهم النفاسة فى أن تكون لك الرياسة، فينصبون لك الحبائل، ويبتغون لك الغوائل، وهم فاعلون ذلك وأبناؤهم من غير شك، ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرتُ إليه بخيلى ورَجْلِى حتى أجعل يثربَ دار ملكى؛ فإنى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق: أن يثرب دار استحكام أمره، وأهل نصرته وموضع قبره، ولولا أنى أقيه الآفاتِ وأحذرُ عليه العاهاتِ، لأعليتُ على حداثة سنه أمره، ولأوطأت أسنان العرب كعبه، ولكن صار إليك ذلك ممن معك.

ثم دعا بالقوم فدخلوا، فأمر لكلِ منهم بعشرة أعبد، وعشرة إماء، وحلتين من حلل البرود، وخمسة أرطال من الذهب، وعشرة أرطال من الفضة، وكرش مملوء عنبرًا، ومائة من الإبل، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا جاء الحول، فائتنى بما يكون منه، يعنى النبى ﷺ، فمات سيف قبل أن يحول عليه الحول، هذا حديث مشهور، ومن أولاد سيف بحمص وعقبهم بها. انتهى.

ولما انصرف عبد الله مع أبيه من نحر الإبل، مَرَّ على امرأة من بنى أسد بن عبد

العزى، واسمها قيلة بنت نوفل - وقيل: رقية - وهى أخت ورقة بن نوفل، وذكر البرقى، عن هشام بن الكلبى؛ أن اسمها: فاطمة بنت مُرّ الخثعمية، كانت من أجمل النساء، وكانت قرأت الكتب فرأت النور فى وجهه، وكان عبد الله أحسنَ رَجُلٍ رئى فى قريش، فقالت له: هل لك فى أن تقع عَلَيَّ ولكَ مِثْلُ الإبل التى نُحِرَتْ عنك؟ فقال لها: أنا مع أبى، ولا أستطيع خلافه، ثم قال لها: [من الرجز]

أَمَّا الحَرَامُ فَالمَمَاتُ دُونَهْ وَالحِلُّ لاَ حلَّ فَأَسْتَبِينَهْ
فَكَيْفَ بِالأَمْرِ الَّذِى تَنْوِينَهْ يَحْمِى الكَرِيمُ عِرْضَهُ وَدِينَهْ

ثم مضى به أبوه حتى أتى وهب بن عبد مناف، وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسبًا وشرفًا، فزوجه ابنته آمنة، وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبًا وموضعًا، فزعموا أنه دخل عليها حين ملكها مكانه، فوقع عليها يوم الاثنين من أيام منى فى شِعْبِ أبى طالب، فحملت برسول الله ﷺ، ثم خرج من عندها، فأتى المرأة، فقال لها: هل لك فيما قلت بالأمس حِلًا؟ قالت: كان ذلك بالأمس، وأما اليوم فلا، فقالت: إنى امرأة واللهِ لستُ بصاحبة ريبة، وإنما رأيتُ النورَ الذى كان معك بالأمس، فأردت أن يكون فيَّ، فأبى الله أن يجعله إلا حيث شاء إلا حيث شاء، إلا حيث شاء.

فهو محمدٌ رسولُ اللهِ، ابنُ عبد اللهِ بن عبد المطلب بن هاشمِ بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كِلَابِ بن مُرَّةَ بن كَعْبِ بن لؤيّ بنِ غالبِ بن فهرِ بن مالكِ بن النَّضْرِ بن كنانَةَ ابن خُزَيْمةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بن إلياسَ بن مُضَرَ بن نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بن عدنانَ بن أُدٍّ بن أُدَدَ بْنِ الهميسع بن نَبْت - أو نابت - بن إسماعيلَ بن إبراهيمَ- هذا على قول من قال: إن عمود النسب المحمدى من نبت أو نابت.

وقال غيره: إن عمود النسب المحمدى قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم؛ وهو الذى رجحه السهيلى؛ كما تقدم-: ابن تارح بن ناحور بن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر ابن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بن لمك - أو لامك - ابن متوشلخ بن أخنوخ - أو خنوخ - ابن يرد - أو يارد - ابن مهيائيل - أو مهلائيل - ابن قينان - أو قاين - ابن أنوش بن شيث بن آدم صلوات الله وسلامه عليه.

انتهى المقصد الأول

* * *

المقصد الثانى

فى بيان أحواله - عليه الصلاة والسلام -

وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول: فى الحمل به، وولادته، ورضاعه، وموت عمه أبى طالب، وزوجته السيدة خديجة، وخروجه للطائف.

الباب الثانى: فى ذكر هجرته الشريفة، إلى المدينة الشريفة.

الباب الثالث: فى ذكر أعمامه وعماته.

الباب الرابع: فى ذكر أزواجه.

الباب الخامس: فى ذكر أولاده، عليه الصلاة والسلام.

الباب السادس: فى ذكر مواليه، وخدامه، وإمائه، وكتابه، وأمرائه، ومؤذنيه، وخطبائه، وحداته، وشعرائه، وخيله، وسلاحه، وغنمه، ولقاحه، وما يتبع ذلك.

الباب السابع: فى الحوادث من أول سِنِى الهجرة إلى وفاته، عليه الصلاة والسلام.

فنقول؛ متوكلين على الله مستمدين من الرسول-:

* * *

الباب الأول
من المقصد الثانى
فى الحمل به، وولادته، ورضاعه، وموت خديجة، وأبى طالب، وخروجه إلى الطائف

لما أذن الله تبارك وتعالى للنور المحمدىّ، والشخص الأحمدى، أن ينتقل من عبد الله بن عبد المطلب، إلى آمنة بنت وهب، وقد اندرس فى الوجود أعلام الإيمان والإسلام، وفشا فيه مجاهل الظلم والإظلام، ونبذ الناس الطاعة، وكشفوا بالمحارم عن وجه الحياء قناعه- كان انتقال النور الصمدىّ، بالدرِّ المحمدى؛ فكان الحمل به ليلة الجمعة فى شِعْب أبى طالب.

وفى سيرة اليعمرى: حملت به آمنة فى أيام التشريق عند الجمرة الوسطى.

وكان سن عبد الله إذ ذاك ثلاثين سنة، ولما حملت به، أمر الله تعالى خازن الجِنَان أن يفتح أبوابها تعظيمًا لنور محمد ﷺ، وهبط جبريل بلوائه الأخضر، فنصبه على ظهر الكعبة.

قال فى المواهب: واختلف فى مدة الحمل به؛ فقيل: تسعة أشهر، وقيل: عشرة، وقيل: ثمانية، وقيل سبعة، وقيل: ستة.

ولما تم من حمله شهران - وفى سيرة مغلطاى: قبل ولادته بشهرين - توفى أبوه عبد الله، وقيل: إنما توفى حين كان النبى ﷺ فى المهد؛ قاله الدولابى؛ والأرجح المشهور هو الأول.

وذكر أهل السيرة أن آمنة لم تحملْ حملاً ولا ولدًا غيره، وكذا أبوه عبد الله لم يولَدْ له ولد غيره - عليه الصلاة والسلام - ولذلك لم يكن له أخ ولا أخت؛ لكن كان له ذلك من الرضاعة، وأما قول بنى زهرة: نحن أخوال النبى ﷺ فلكون أمه آمنة منهم.

وفى الصفوة: قال محمد بن كعب: خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام فى تجارة مع جماعة من قريش، فلما رجعوا، مروا بالمدينة، وعبد الله كان مريضًا، فتخلف بالمدينة عند أخوال أبيه بنى عدى بن النجار، فأقام عندهم مريضًا شهرًا، ومضى أصحابه وقدموا مكة وأخبروا عبد المطلب، فبعث إليه ولده الحارث

والزبير - على قول ابن الأثير - فوجدوه قد توفى، ودفن بدار النابغة، وهو رجل من بنى عدى بن النجار، فرجع الحارث، فأخبر أباه، فوجد عليه وجدًا شديدًا، وتوفى وعمره خمس وعشرون سنة(١) .

وقيل غير ذلك؛ إذ قد تقدَّم عن سيرة اليعمرى: أن سنه حال التزوج ثلاثون سنة.

وترك عبد الله أم أيمن جارية حبشية اسمها بركة، فورثها - ﷺ وأعتقها يوم تزوُّجه بخديجة، هاجرتْ فأصابها عطش فى طريقها، فدُليت إليها دلو من السماء، فشربت ورويت ، فما أصابها عطش بعد ذلك، فكانتْ تتعمد الصوم فى أيام شدة الصيف؛ لتظمأ فما تظمأ. وحضرت يوم حنين، فكانت تمشى بين صفوف المسلمين قائلة: « سَبَّتَ الله أقدامكم » تريد الدعاء لهم بتثبيت الأقدام، فقال لها - عليه الصلاة والسلام -: « اسكتى يا أم أيمن، فإنك عسراء اللسان »(٢) ؛ قاله الذهبى زوجها النبى ﷺ زيد بن حارثة، فولدت له أسامة بن زيد، وماتت فى خلافة عثمان.

وخلف - أيضًا - خمسة أجمال، وقطعة من الغنم، وكانت أم أيمن المذكورة محصنة(٣) .

واختلف فى عام ولادته: فالأكثرون: أنها عام الفيل؛ وبه قال ابن عباس(٤) ، ومن العلماء من حكى الاتفاق عليه(٥) :

قال العلامة ابن الجوزى فى التلقيح: اتفقوا على أنه ﷺ ولد يوم الاثنين فى شهر

(١) أخرجه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » (١/ ٧٩): أخبرنا محمد بن عمر بن واقد الأسلمي أخبرنا موسى بن عبيدة الربذي عن محمد بن كعب القرظي به، وهذا إسناد كله علل؛ الواقدي محمد بن عمر متروك وكذبه النسائي وغيره. وموسى بن عبيدة الربذي قال الحافظ في « التقريب » (٧٠٣٨): ضعيف اهـ. ومحمد بن كعب تابعي فالقصة مرسلة وينظر: سبل الهدى والرشاد (١/ ٣٣١).

(٢) أخرجه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » (٨/ ١٨٠): أخبرنا محمد بن عمر عن عائذ بن يحيى عن أبي الحويرث فذكره. وذكره الهندي في كنز العمال (٢٩٢٦) وعزاه إلى ابن سعد وإسناده كسابقه فيه الواقدي وهو مرسل أيضًا.

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى (٨/ ١٧٩-١٨٠) طبقات خليفة (٣٣١)، الإصابة (١١٩٠٢)، الاستيعاب (٣٥٧٩)، أسد الغابة (٧٣٧١).

(٤) أخرجه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » (١/ ٨١) والحاكم (٢/ ٦٠٣) والذهبي في « تاريخ الإسلام » (٢/ ٢٢) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقال الذهبي: صحيح. وينظر: سبل الهدى والرشاد (١/ ٣٣٥).

(٥) وذكره الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » (٢/ ٣٢١) وذكر أن هذا قول الجمهور.

ربيع الأول عام الفيل، واختلفوا فيما مضَى من ذلك الشهر على أربعة أقوال:

أحدها: ولد لاثنى عشر ليلة خلت منه.

والثانى: لليلتين.

والثالث: لثمان، وهو قول المحدِّثين كلهم أو جلهم.

الرابع: لعشر خلون منه.(١)

وفى المواهب: ولد بعد الفيل بخمسين يومًا، وهلك أصحاب الفيل لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم، وكان أول المحرم تلك السنة بالجمعة، وذلك فى عهد كِسْرَى أنوشروان لمضىِّ اثنتين وأربعين سنة من ملكه، وعاش بعد مولده ﷺ سبع سنين، وثمانية أشهر(٢) ؛ فكان ملكه تسعًا وأربعين سنة وثمانية أشهر، وقال فيه - عليه الصلاة والسلام -: « ولدتُ فى زمن الملك العادل كِسْرَى أنوشروان »؛ كذا قاله ابن الأثير فى أسد الغابة(٣) .

واختلف فى مكان ولادته - عليه الصلاة والسلام - فقيل: ولد بمكة فى الدار التى كانت لمحمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج.

وقيل: بالشعب.

وقيل: بالردم.

وقيل: بعسفان.

والمشهور: أنه ولد فى الدار التى تعرف بدار محمد بن يوسف الثقفى، بزقاق معروف: بزقاق المولد فى شِعْبٍ مشهور: بشعب بنى هاشم، من الطرف الشرقى لمكة، تزار ويتبرك بها الآن.

قال الإمام أبو القاسم السهيلى: ذكر ابن مخلد فى تفسيره: أن إبليس - لعنه الله تعالى - رنَّ أربع رنات: حين لُعِن، وحين أُهبط، وحين وُلد النبى ﷺ وحين أنزلت فاتحة الكتاب(٤) .

---

(١) ينظر: « التلقيح » ص (٧).

(٢) ينظر: « البداية والنهاية » (٢/ ٣٢١) وسبل الهدى والرشاد (١/ ٣٣٥)، وصححه المسعودي والسهيلي.

(٣) ينظر: أسد الغابة (١/ ١٢٢).

(٤) وقع في ط رنة مولده ﷺ بعد رنة نزول الفاتحة. والترتيب المثبت أنسب كما في الروض (١/ ١٨١). وينظر: سبل الهدى والرشاد (١/ ٣٥٠).

وفى الكشاف، وأنوار التنزيل: الفترة بين عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - ستمائة أو خمسمائة وتسع وستون سنة، وبينهما أربعة أنبياء: ثلاثة من بنى إسرائيل، وواحد من العرب، وهو خالد بن سنان العبسى، ثم قال: أما خالد بن سنان، فروى أنه كان فى زمن كسرى أنوشروان، وأنه كان يدعو الناس إلى دين عيسى، وكان بأرض بنى عبس، وأطفأ النار التى كانت تخرجُ من بئر هناك، وتحرق من لقيته من عابر السبيل وغيرهم.

قال فى مروج الذهب[١] : ظهرت فى العرب نار، فكادوا بها يفتتنون، وسالت سيلاً، فأخذ خالد هراوته ودخَلَ فيها، وهو يقول: بَدَا بَدَا، كل هذا مؤد إلى الله الأعلى، لأدخلنها وهى نارٌ تلظَّى، ولأخرجَنَّ منها وثيابى تندى، فأطفأها، ولما حضرته الوفاة قال لإخوته: إذا دفنت، فستجيء عانة من حِمْيَر، يقدمها عير أبتر، فيضرب قبرى بحافره، فإذا رأيتم ذلك فانبشوا عنى، فإنى أخرج وأخبركم بجميع مايكون وماهو كائن. فلما مات ودفن، رأواما قال، وأرادوا أن يحفروا عنه، فكره ذلك بعضهم وقالوا: نخاف السبة . وأتت ابنته رسول الله ﷺ فسمعته يقرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] فقالت: كان أبى يقولها[٢] .

[و] جرجيس أدرك بعض حوارى عيسى - عليه السلام - أرسل إلى بعض ملوك الموصل بدعوة فقتله، فأحياه الله، ففعل به ذلك مرارًا، فأمر بنشره أجزاء وإحراقه وإذرائه فى دجلة، فأهلكه الله وجميع أهل مملكته؛ كما وردت به الأخبار عن أهل الكتاب ممن آمن؛ ذكر ذلك وهب بن منبه[٣] .

وفى كتاب الابتداء والسير: وحبيب النجار بأنطاكية من أرض الشام، وبها ملك متجبر يعبد التماثيل والصور، فصار إليه اثنان من تلاميذ عيسى، دَعَوَاهُ، فحبسهما وضربهما، فعزَّزَا بثالثٍ شمعون الصفا؛ كما أخبر عنهم تعالى بقوله: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ... ﴾ الآية [يس: ١٤] [٤]

ومنهم: حنظلة بن صفوان نبى بين عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام -

(١) ينظر: مروج الذهب (٢/ ٢٢٦).
(٢) ينظر: عرائس المجالس (٣٨٦-٣٩٢) والمنتظم (٢/ ١٤٨-١٤٩).
(٣) ينظر: قصة هؤلاء في « عرائس المجالس » ص (٣٦٣-٣٦٦).
(٤) ينظر: مروج الذهب (٢/ ٢٢٥، ٢٢٦)، مع بعض الاختلاف.

أرسل إلى أصحاب الرَّسِّ، قوم ابتلاهم الله تعالى بطيرٍ عظيم لها عنق طويل من أحسن الطيور، كان فيها من كل لون فسميت: « العنقاء »؛ لطول عنقها، ولأنها تغرب بكل ما خطفته، فانقضَّتْ على جارية وضمتها بين جناحين لها صغيرَيْن غير الجناحَيْن الكبيرَين، ثم ذهبت بها، فضربتها العرب مثلاً، فقالوا: « طارت به عنقاء مغرب »، فشكوا ذلك إلى نبيهم حنظلة بن صفوان[1]، فدعا عليها، فأصابتها الصاعقة فأهلكتها.

ثم إنهم قتلوا نبيهم حنظلة، لما قدم يدعوهم إلى الله تعالى، فأوحى الله تعالى إلى نبِّي من الأسباط يأمر بخت نصّر أن يسير إليهم، فأتى عليهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٣- ١٥] .

ومن أصحاب الفترة: أسعد بن كرب الحميرى، كان مؤمنًا بالنبى قبل مبعثه بسبعمائة سنة فقال: [من المتقارب]

شَـهِـدتُ عَـلَـى أَحْـمَـدٍ أَنَّـهُ   رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَارِى النَّسَمْ
فَلَوْ مُدَّ عُمْرِى إِلَى عُمْرِهِ   لَكُنْتُ وَزِيرًا لَهُ وَابْنَ عَم

وهو أول من كسا الكعبة الأنطاع والبرود.

ومنهم: قس بن ساعدة الإيادى، وكان حكيمَ العَرَبِ، قال الأعشى: [من الطويل]

وَأَحْكَمُ مِنْ قُسٍّ وَأَجْرَا مِنَ الَّذِى   لَدَى الْفِيلِ مِنْ خفان أَصْبَحَ جَاذِرَا

قدم على رسول الله ﷺ وفد من إياد، وسألهم عنه، فقالوا: هلك، فقال: « رحمه الله، كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل أحمر، وهو يقول: يأيها الناس، اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ماهو آت آت، أما بعد: فإن فى السماء لخبرًا ، وإن فى الأرض لعبرًا، نجوم[2] تمور، وبحار لا تغور[3] ، وسقف مرفوع، ومهاد موضوع، أقسم بالله قُسُّ بن ساعدة قسمًا [حقا،

(١) في مروج الذهب: خالد بن سنان.
(٢) في ط: بحور . والمثبت من البداية والنهاية (٢/ ٢٩٠).
(٣) في ط: ونحور تغور. والمثبت من البداية والنهاية.

لئن كان في الأمر رضا ليكونن بعده سخط] [١] إن لله دينًا هو أرضَى من دين أنتم عليه، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا، أم نزلوا [٢] فناموا ؟! سبيل مؤتلف، وعمل مختلف. وقال أبياتًا لا أحفظها »، فقال أبو بكر - رضى الله عنه -: أنا أحفظها يا رسول الله، فقال: « هاتها »، فقال: [من مجزوء الكامل]

فِى السَّابِقِينَ الأَوَّلِيـ ... نَ مِنَ القُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا ... لِلْقَوْمِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِى نَحْوَهَا ... يَمْضِى الأَوَائِلُ وَالأَوَاخِرْ [٣]
لاَ يَرْجِعُ المَاضِى وَلاَ ... يَبْقَى مِنَ البَاقِينَ غَابِرْ [٤]
أَيْقَنْتُ أَنِّى لاَ مَحَا ... لَةَ حَيْثُ صَارَ القَوْمُ صَائِرْ [٥]

فقال النبى ﷺ: « يرحم الله قُسًّا، إنى لأرجو أن يبعث أمة وحده [٦]».

ومنهم: أصحاب الأخدود فى مدينة نجران باليمن فى ملك ذى نواس القاتل الذى شاتر، وكان على دين اليهود، فبلغه أن قومًا بنجران على دين المسيح بن مريم، فسار إليهم واحتفروا الأخدود؛ كما ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ [البروج: ٤] وأتى بامرأة معها طفل، فتقهقرت عن النار عند الأخدود، فتكلم طفلها، وقال: يا أماه، قفى ولا تقاعسى؛ فإنك على الحق، وهم على دين النصرانية في ذلك الوقت مؤمنين موحدين، فمضى منهم رجل، يقال له: ذو ثعلبان إلى قيصر يستنجده، فكتب له إلى النجاشي؛ لأنه كان أقرب إليهم دارًا، فكان من أمر الحبشة وعبورهم إلى أرض اليمن وتغلبهم عليها ما كان، إلى أن كان من أمر سيف بن ذي يزن واستنجاده بكسرى وإمداده له بمن كان في حبسه وأميرهم وهرز، وظفر سيف على الحبشة، ما هو مشهور.

ومنهم أمية بن أبي الصلت الثقفي، كان يتجر إلى الشام، فلقى أهل الكتابين

---

(١) المثبت من البداية والنهاية.
(٢) في البداية والنهاية: تُرِكُوا.
(٣) في البداية والنهاية: يسعى الأصاغر والأكابر.
(٤) في البداية والنهاية:

لا يرجع الماضي إلى ... يَّ ولا من الباقين غابر

(٥) تنظر القصيدة بأكثر من رواية في البداية والنهاية (٢/ ٢٨٩، ٢٩٠).
(٦) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٢/ ١٠١) في ذكر حديث قس بن ساعدة الإيادي.

وأخبروه أن نبيًا يبعث فى العرب، فلما بلغه ظهوره - عليه الصلاة والسلام - اغتاظ وتأسف، ثم أتى المدينة يسلم، فرده الحسد، فرجع إلى الطائف، فبينما هو يشرب مع فتية إذ صاح غرابٌ ثلاثة أصوات وطار، فقال: أتدرون ما قال ؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: إن أمية لا يشرب الكأس الثالثة حتى يموت، فقالوا: لتكذبنَّ، وقالوا: احسوا كأسكم، فلما انتهت إليه أغمى عليه فسكت طويلاً، ثم أفاق يقول: لبيكما لبيكما، هأنذا لديكما، ثم أنشأ يقول: [من الخفيف]

إنَّ يَوْمَ الحِسَابِ يَوْمٌ عَظِيمٌ ... شَابَ فِيهِ الصَّغِيرُ يَوْمًا طَوِيلاَ
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَداَ لِي ... فِي رُءُوسِ الجِبَالِ أَرْعَى الوُعُولاَ
كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا ... صَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولاَ

ثم شهق شهقة، فكانت فيها نفسه.

وقد ذكر العلماء بأمثال العرب وأخبار من سلف: أن السبب فى كتابة قريش واستفتاحها بقولهم: « باسمك اللهم » هو أن أمية بن أبى الصلت خرج إلى الشام فى نفر من ثقيف وقريش وغيرهم، فلما قفلوا راجعين، نزلوا منزلاً واجتمعوا لعشائهم؛ إذ أقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم، فحصبها بعضهم فى وجهها، فرجعَتْ عن سفرتهم، وقاموا إلى إبلهم وارتحلوا من منزلهم، فلما برزوا من المنزل، أشرفت عليهم عجوز من كثيب رمل متوكئة على عصا لها، فقالت: مامنعكم أن تطعموا رحيمة الجارية اليتيمة التى جاءتكم عشية ؟ قالوا: وما أنت ؟ قالت: أم العوام، أيمت منذ أعوام، أما ورب العباد لتفرقنَّ فى البلاد، ثم ضربت بعصاها فى الأرض، فأثارت الرمل، ثم قالت: أطيلى إيابهم، ونفرى ركابهم، فنفرت الإبل كأنَّ على كل ذروة بعير شيطانًا، ما نملك منها شيئًا حتى افترقَتْ فى الوادى، فجمعناها من آخر النهار إلى غد ولم نكد، فلما أنخنا لنركب، طلعت العجوز، فعادت بالعصر لفعلها الأول، وعادت لمقالتها: ما منعكم أن تطعموا ؟! إلى آخر ما قالته أولاً، فتفرقت الإبل، فجمعناها من بكرة النهار إلى العشاء ولم نكد، فلما أنخنا لنركب، طلعت وفعلت مثل فعلها الأول والثانى فنفرت الإبل، فأمسينا فى ليلة مقمرة ويئسنا من ظهرنا، فقال بعض القوم لأمية بن أبى الصلت: أين ماكنت تخبرنا به عن نفسك ؟! فتوجه إلى ذلك الكثيب الذى أتتْ منه العجوز حتى هبط من ناحية أخرى، ثم صعد كثيبًا آخر حتى هبط منه، ثم رُفِعَتْ له كنيسة فيها

قناديل، وإذا رجل على بابها معترض أبيض الرأس واللحية، قال أمية: فلما وقفت عليه، قال - بعد أن رفع رأسه إلى -: إنه لمتبوع؟ قلت: أجل، قال: ما حاجتك؟ فحدثته حديث العجوز وفعلها، فقال: صدقتْ وليست بصادقة، هي امرأة يهودية، هلك زوجها منذ أعوام، وإنها لم تزل تصنع بكم ذلك حتى تهلككم إن استطاعت، قال أمية: فما الحيلة؟ قال: أجمعوا ظهركم، فإذا جاءت وفعلت ما كانت تفعله، فقولوا لها سبعًا فوق، وسبعًا أسفل: باسمك اللهم؛ فإنها لن تضركم شيئًا، فرجع أمية إلى أصحابه، فأخبرهم بما قال له، فجاءت ففعلت كما كانت تفعل، فقالوا لها ما قال الرجل، فلم تضرَّهم، فلما رأت الإبل، قالت: عرفت صاحبكم، ليبيضّ أعلاه وليسودّ أسفله، فلما أدركهم الصبح، نظروا إلى أمية قد ابيض فى عذاريه وفى رقبته وصدره، واسودَّ أسفله، فلما قدموا مكة، ذكروا هذا الحديث، فكان أول ما كتب أهل مكة: « باسمك اللهم »، واستمروا كذلك إلى أن جاء الإسلام، فرفع ذلك وكتب: « بسم الله الرحمن الرحيم » انتهى. ذكر ذلك المسعودى فى مروج الذهب.

وفى صحيح البخارى: عن سلمان الفارسى؛ أنه قال: فترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة، ومن إبراهيم إلى نوح ألفا سنة وستمائة وأربعون سنة، ومن نوح إلى آدم ألف سنة[١].

وروى أن رسول الله ﷺ لما صار ابن شهرين، كان يتزحلق مع الصبيان إلى كل جانب، وفى ثلاثة أشهر كان يقوم على قدميه، وفى أربعة أشهر كان يمسكُ الجدار ويمشى، وفى خمسة أشهر حصل له قدرة على المشى، ولما تم له ستة أشهر، كان يسرع فى المشى، وفى سبعة أشهر كان يسعى ويعدو إلى كل جانب، ولما مضَى عليه ثمانية أشهر، كان يتكلم بحيث يفهم كلامه، وفى تسعة أشهر تكلم بكلام فصيح، وفى عشرة أشهر كان يرمى السهام؛ كذا فى شواهد النبوة.

قال فى المواهب: وخرج أبو نعيم، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه كان من دلالة حمل آمنة برسول الله ﷺ أن كل دابة كانت لقريش نطقَتْ تلك الليلة،

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٦٩٧) كتاب مناقب الأنصار باب إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه حديث (٣٩٤٨)، ولفظه: « فترة بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة ».

وقالت: حمل برسول الله ﷺ ورب الكعبة، وهو إمام الدنيا وسراج أهلها، ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوسًا، ومرتْ وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات، وكذلك أهل البحار بشر بعضها بعضًا، وله فى كل شهر من شهور حمله نداء فى الأرض، ونداء فى السماء؛ أن أبشروا فقد آن أن يظهر أبو القاسم - ﷺ ميمونًا مباركًا.

ولما تم من حملها شهران، توفى عبد الله؛ كما تقدم ذكره.

وقالت آمنة ترثى عبد الله والده عليه الصلاة والسلام: [من الطويل]

عَفَى جَانِبُ البَطْحَاءِ مِنْ إِبْنِ[1] هَاشِمِ ... وَجَاوَرَ لَحدًا خَارِجًا فِى الغَمَاغِمِ[2]

دَعَتْهُ المَنَايَا دَعْوَةً فَأَجَابَهَا ... وَمَا تَرَكَتْ فِى النَّاسِ مِثْل ابْن هَاشِمِ

عَشِيَّةَ رَاحُوا يَحْمِلُونَ سَرِيرَهُ ... تَعَاوَرَهُ أَصْحَابُهُ فِى التَّزَاحُمِ

فَإِنْ تَكُ غَالَتْهُ المَنَايَا وَرَيْبُها ... فَقَدْ كَانَ مِعْطَاءً كَثِيرَ التَّرَاحُمِ[3]

ومن شعر عبد الله بن عبد المطلب والد نبينا - عليه الصلاة والسلام - نقله الصفدى فى ترجمته، وذكره خاتمة الحفاظ الجلال السيوطى فى كتابه مسالك الحنفا فى حكم إيمان والدى المصطفى قوله: [من الطويل]

لَقَدْ حَكَمَ السَّارُونَ فِى كُلِّ بَلْدَةٍ ... بِأَنَّ لَنَا فَضْلاً عَلَى سَائِرِ الأَرْضِ

وَأَنَّ أَبِى ذُو المَجْدِ وَالسُّؤْدَدِ الَّذِى ... يُسَارُ بِهِ مَا بَيْنَ نَشْزٍ إِلَى خَفْضِ

وَجَدِّى وَآبَاءً لَهُ أَثَّلُوا العُلاَ ... قَدِيمًا بِطِيبِ العِرضِ وَالحَسَبِ المَحْضِ[4]

قال القطب النهروانى فى بعض تذاكره، ومن خطه نقلت: قد ذيل على هذه الأبيات صاحبنا العلامة الشيخ عبد النافع بن محمد بن عراق بيتين على لسان عبد الله ابن عبد المطلب فقال: [من الطويل]

وَقَدْ جَاءَ مِنْ صُلْبِى نَبِىٌّ مُعَظَّمٌ ... يُشَفِّعُهُ الرَّحْمَنُ فِى مَوْقِفِ الْعَرْضِ

وَمَا لِنَبِىٍّ غَيْرِهِ مِثْلُ فَخْرِهِ ... فَهَلْ مِثْلُ هَذَا المَجْدِ فِى الطُّولِ وَالعرْضِ

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما -: لما توفى عبد الله، قالت الملائكة: إلهنا

---

(١) في ط: آل. والمثبت من الطبقات الكبرى والسبل وهو الصواب إن شاء الله. وقطعت الهمزة للوزن.

(٢) في ط: الغمائم. والمثبت من الطبقات والسبل ومعناها: التصويت عند الفزع.

(٣) ينظر الطبقات الكبرى (١/ ٨٠) وسبل الهدى والرشاد (١/ ٣٣٢).

(٤) ينظر: الحاوي للفتاوي (٢/ ٢٣٣).

وسيدنا ومولانا، بقى نبيك يتيمًا، فقال الله تعالى: أنا حافظ له ونصير، وقيل لجعفر الصادق: لم يتم النبى ﷺ من أبويه ؟ فقال: لئلا يكون عليه حق لمخلوق؛ نقله عنه أبو حيان فى البحر.

وروى أبو نعيم، عن عمرو بن قتيبة؛ قال: سمعت أبى وكان من أوعية العلم، قال: لما حضرتْ ولادة آمنة، قال الله تعالى تلك السنة لنساء الدنيا: ليحملنَ ذكورًا كرامةً لمحمد ﷺ.

وعنه: عن ابن عباس قال: كانت آمنة تحدِّثُ وتقول: أتانى آتٍ حين مرَّ بى من حملى ستة أشهر فى المنام، وقال: يا آمنة، حملت بخير العالمين، فإذا ولدتيه فسميه محمدًا، واكتمى شأنك، ثم لما أخذنى ما يأخذ النساء، ولم يعلم بى أحد، وإنى لوحيدة فى المنزل وعبد المطلب فى طوافه، فسمعتُ وجبة عظيمة، ثم رأيت كأن جناح طائر أبيض قد مسح على فؤادى، فذهب عنى الروع وكل وجع أجده، ثم التفت فإذا بشربة بيضاء فتناولتها فأصابنى نور عال، ثم رأيت نسوة كالنخل طوالاً كأنهنَّ من بنات عبد مناف يحدِّقْنَ بى، فبينما أنا أتعجبُ وأقول: واغوثاه، من أين علمنَ بى ؟ فقلن لى: نحن آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وهؤلاء من الحور العين، فبينما أنا كذلك إذا بديباج أبيض قد مَرَّ بين السماء والأرض، وإذا بقائل يقول: خذاه عن أعين الناس، ورأيت رجالاً وقفوا فى الهواء بأيديهم أباريق من فضة، ثم نظرت فإذا أنا بقطعة من الطير قد أقبلَتْ حتى غطت حجرتى، مناقيرها من الزمرد، وأجنحتها من الياقوت، وكشف الله عن بصرى، فرأيت مشارق الأرض ومغاربها، ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات: علمًا بالمشرق، وعلمًا بالمغرب، وعلمًا على ظهر الكعبة، فأخذنى المخاض، فوضعت محمدًا ﷺ فنظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع إصبعيه إلى السماء كالمتضرع المبتهل، ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلتْ حتى غشيته فغيبته عنى، فسمعت مناديًا: طوفوا به مشارق الأرض ومغاربها، وأدخلوه البحار ليعرفوه باسمه ونعته وصورته، ويعلموا أنه سمى فيها الماحى، لايبقى من الشرك شىء إلا محى فى زمنه.

قال ابن الجوزى فى التلقيح: لا يعرف فى العرب من تسمى بمحمد قبله ﷺ إلا ثلاثة، طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد ﷺ وبقرب زمانه، وأنه يبعث

بالحجاز: أن يكون ولدًا لهم: أحدهم محمد بن سفيان بن مجاشع جدُّ الفرزدقِ الشاعر التميمى، والآخر: محمد بن أحيحة بن الجُلاح بن الجريش بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، والآخر: محمد بن حمران بن ربيعة، كان آباء هؤلاء قد وفدوا علم بعض الملوك، وكان عنده علم بالكتاب الأول، فأخبرهم بمبعث النبى ﷺ باسمه، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملاً، فنذر كل واحد منهم إن ولد له ذكر أن يسميه محمدًا، ففعلوا(١).

فائدة: ذكر الحسين بن محمد الدامغانى فى كتابه: شوق العروس، وأنس النفوس؛ نقلاً عن كعب الأحبار؛ أنه قال: اسم النبى ﷺ عند أهل الجنة: عبد الكريم، وعند أهل النار: عبد الجبار، وعند أهل العرش: عبد الحميد، وعند الملائكة: عبد المجيد، وعند الأنبياء: عبد الوهاب، وعند الشياطين: عبد القهار، وعند الجن: عبد الرحيم، وفى الجبال: عبد الخالق، وفى البر: عبد القادر، وفى البحر: عبد المهيمن، وعند الحيتان: عبد القُدُّوس، وعند الهوام: عبد الغياث، وعند الوحوش: عبد الرزاق، وعند السباع: عبد السلام، وعند البهائم: عبد المؤمن، وعند الطيور: عبد الغفار، وفى التوراة: مودود، وفى الإنجيل: طاب طاب، وفى الصحف: عاقب، وفى الزبور: فاروق، وعند الله: طه ويس، وعند المؤمنين: محمد ﷺ(٢).

روى مخزوم بن هانئ المخزومى، عن أبيه، وكان له مائة وخمسون سنة، قال: لما ولد النبى ﷺ ارتجس إيوان كسرى أنوشروان، فسقطَتْ منه أربع عشرة شرفة، وكانت له اثنتان وعشرون شرفة(٣)، وانشق صدعًا ظاهرًا، وهذه آية، وبناؤه إلى الآن كذلك.

قلت: أخبرنى من رآه فقال: هو - يعنى الشق - مستطيلٌ من أعلى الجدار إلى أسفله فى كتف الإيوان الأيسر، وسعة فتحة الشق مدخل رجل، وعرض جداره فوق

---

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد (١/ ٤٠٩).
(٢) ينظر سبل الهدى والرشاد (١/ ٤٨٧-٤٨٨).
(٣) أخرجه أبو نعيم في « الدلائل » (٨٢)، والبيهقي في « الدلائل أيضًا (١/ ١٢٦-١٢٩) من طريق يعلى بن عمران ثنا مخزوم بن هانئ المخزومي عن أبيه به وأخرجه أيضًا ابن الجوزي في « المنتظم » (٢/ ٢٤٩-٢٥١) وذكره السيوطي في « الخصائص الكبرى » (١/ ٨٧) وعزاه أيضًا للخرائطي في الهواتف وابن عساكر.

خمسة أذرع كذا أخبرني، وقد سألت غيره فطابق قوله. انتهى.

وخمدت نار فارس، وكان لها أكثر من ألف عام لم تخمدْ، وهى التى يعبدونها.

وغاضت بحيرة ساوة، وهى بين هَمَذان وقمّ، وكانت أكثر من ستة فراسخ فى الطول والعرض، وكان يعبر فيها بالسفن، وبقيت كذلك ناشفة يابسة على هؤلاء القوم حتى بنيت موضعها مدينة ساوة الباقية اليوم.

وأرى الموبذان كأن إبلاً صعابًا، تقود خيلاً عرابًا، حتى عبرت دجلة وانتشرت فى بلاد فارس، فلما أصبح، تجلد كسرَى وجلس على سرير ملكه، ولبس تاجه، وأرسل إلى الموبذان فقال: يا موبذان، إنه سقطت من إيوانى أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، فقال الموبذان: وأنا أيها الملك، رأيتُ إبلاً صعابًا، تقود خيلاً عرابًا، حتى عبرت دجلة وانتشرت فى بلاد فارس، قال كسرى: فما ترى ذلك يا موبذان ؟ وكان موبذان أعلمهم، قال: حدثٌ يكونُ من جانب العرب، فكتب حينئذ: من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر، ابعث إليّ رجلاً من العرب يخبرنى عما أسأله عنه، فبعث إليه عبد المسيح بن حيان بن عمرو الغسانى، قيل: كان له من العمر قريب من أربعمائة سنة، فقال له كسرى: ياعبد المسيح، هل عندك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ فقال: يسألنى الملك، فإن كان عندى منه علم أعلمته، وإلا فأعلمه بمن عنده علم، فأخبره برؤيا الموبذان، فقال: علمه عند خال لى يسكنُ مشارف الشام، يقال له: سَطِيح، واسمه: ربيع بن ربيعة بن ماذر بن منصور بن ذئب، كاهن لم يكنْ مثله فى بنى آدم، وكان خلقه عجيبًا؛ عن ابن عباس: إن الله خلق سطيحًا الغسانى كلحم على وضم، ليس له عظم ولا عصب ولا جمجمة والكفين، ولم يتحرك منه إلا لسانه، قيل: لكونه مخلوقًا من ماء امرأتين تساحقتا، ولم يقدرْ على القيام والقعود، إلا أنه كان إذا غضب، نفخه الريح، فيجلس لا غير، وكان وجهه فى صدره، لم يكن له رأس ولا عنق، وقد عمل له سرير من السعف والجريد، فإذا أريد نقله إلى مكان يطوى من رجله إلى ترقوته كما يطوى الثوب، فيوضع على ذلك السرير، فيذهب به إلى حيث يشاء، وإذا أريد تكهنه وإخباره بالمغيبات، يحرك وطب المخيض، فينتفخ ويمتلىء ويعلو النفس فيخبر عن المغيبات، وكان يسكن الجابية، وهى مدينة من مشارف الشام.

وفى حياة الحيوان الكبرى: روى أنه ولد شقيق وسطيح فى الليلة التى ماتَتْ فيها طريفة الكاهنة امرأة عمرو بن عامر مزيقيا الآتى ذكرها - إن شاء الله تعالى - فى المقصد الرابع، ودعت بسطيح قبل أن تموت، فتفلت فى فيه، وأخبرت أنه سيخلفها فى علمها وكهانتها، ودعت بشقيق، ففعلت به مثل ذلك ثم ماتت، وقبرها بالجحفة. انتهى.

هذا سطيح، وأما شِقّ: فهو بكسر الشين، كان شِقّ إنسان، له يد واحدة، ورجل واحدة، وعين واحدة، وذكران، من ولده خالد بن عبد الله القسرى، عامل بنى أمية على مكة.

قيل: كانت ولادة سطيح فى أيام سَيْلِ العَرِمِ، وخرج من مأرب مع رهط من الأزد فى أيام تفرق الناس منها، وعاش إلى زمن ولادته - عليه الصلاة والسلام - فكان له من العمر قريب من ستمائة سنة.

وعن وهب بن منبه: سئل سطيح من أين لك علم الكهانة ؟ قال: إن لى قرينًا من الجن كان قد استمع أخبار السماء فى زمان كلَّم الله موسى فى الطور، فيقول لى من ذاك أشياء، وأنا أقولها للناس. انتهى.

فقال كسرى لعبد المسيح: اذهب إلى سطيح واسأله فأخبر بما يخبرك به، فخرج عبد المسيح حتى قدم على سطيح، وهو مشرفٌ على الموت، فأنشد عبدُ المسيح رجزًا، فلما سمعه سطيح، رفع رأسه إليه، وقال: عبد المسيح، من بلد نزيح، على جمل مسيح، جاء إلى سطيح، وقد وافاه على ضريح، بعثك ملك ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعابًا، تقود خيلاً عرابًا، قد قطعت دجلة، فانتشرت فى بلاد فارس، ياعبد المسيح، إذا ظهرت التلاوة، وبعث صاحب الهراوة، وغاضت بحيرة ساوة، وانقطع وادى سِمَاوة، وخمدت نار فارس، لم تكن بابلُ للفرس مُقامًا، ولا الشام لسطيح شامًا، يملك منهم ملوكٌ وملكات، على عدة تلك الشرفات، ثم تكون هنات وهنات، وكل ماهو آت آت، ثم مات.

وفى معجم ما استعجم: السِّمَاوة - بكسر السين، وتخفيف الميم -: مفازة بين الكوفة والشام، وقيل: بين الموصل والشام، من أرض كلاب. وقال الأصمعى:

السماوة: أرض قليلة العرض، كثيرة الطول، سميت بذلك لعلوها وارتفاعها. انتهى.

فرجع عبد المسيح إلى كسرى، وأخبره بما قال سطيح، فقال كسرى: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكًا كانت أمور، فملك منهم عشرة ملوك فى أربع سنين، وملك الباقون إلى خلافة عثمان، رضى الله عنه.

وروى أن عبد المسيح هذا هو الذى صالح خالد بن الوليد على الحيرة، وكان ذلك المال أول مال ورد على أبى بكر الصديق، رضى الله عنه.

ولنذكر غزوة خالد بن الوليد للحيرة ومصالحة أهلها إياه على المال المذكور؛ إذ الكلامُ يجر بعضه بعضًا، فالمسئول من الناظر التسامح والإغضاء، فنقول.

قال العلامة المسعودى فى تاريخه المسمى بمروج الذهب، ومعادن الجوهر، ومن كتابه نقلت: ذكر جماعة من الإخباريين وذوى العلم بأيام العرب، منهم هشام ابن محمد الكلبى، وأبو مِخْنَف لوط بن يحيى، وشرقى بن القطامى؛ أن خالد بن الوليد المخزومى لما أقبل يريد الحيرة فى سلطان أبى بكر - رضى الله عنه - بعد فتح اليمامة، وقتل مسيلمة الكذاب، فلما رآه أهل الحيرة، تحصَّنوا فى القصر الأبيض، وقصر القادسية، وقصر بنى ثعلبة، وهذه أسماء قصور كانت بها، فلما نظر خالد إلى أهل الحيرة ورآهم تحصنوا، أمر العسكر فنزلوا نحو النجف، وأقبل خالد ومعه ضرار بن الأزور الأسدى، فوقف حيال قَصْرِ بنى ثعلبة، فجعل العباديون يرمونهما بالخذف، فجعل فرسه ينفر، فقال له ضرار: ليس لهم مكيدة أعظم من هذه، ومضى خالد إلى عسكره، فبعث إلى أهل الحيرة أن أرسلوا إلينا رجلاً من عقلائكم وذوى أنسابكم نسأله عن أمركم، فبعثوا إليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس الغسانى هذا، وهو الرسول إلى سطيح لتعبير رؤيا الموبذان، فأقبل عبد المسيح، فنظر إليه خالد بن الوليد، فقال له: من أين قصُّ أثرك أيها الشيخ؟ فقال: من صلب أبى، فقال له خالد: فمن أين جئت؟ قال: من بطن أمى، فقال خالد فعلام أنت ويحك؟ قال: على الأرض، فقال له: ففيم أنت لا كنت؟ فقال: فى ثيابى، فقال خالد: أتعقل لا عقلت؟ قال عبد المسيح: إى والله وأقيد، فقال خالد: ابن كم أنت؟ فقال: ابن رَجُلٍ واحد، فقال خالد: اللهم أخزهم أهل بلدة فما يزيدوننا إلا عماء، أسأله عن الشيء، فيجيب عن غيره، قال: كلا والله ما أجبتُكَ إلا عما سألتنى عنه، فسل عما بدا لك، فقال خالد: أعَرَبٌ أنتم أم نبط؟ فقال عبد المسيح: عربٌ

استنبطنا، ونبط استعربنا، قال خالد: فحربٌ أنتم أم سِلْم ؟ قال: لا بَلْ سِلْم، قال: فما بال هذه الحصون ؟ قال: بنيناها للسفيه نحبسه حتى يأتى الحليم فينهاه، فقال خالد: كم أتَتْ لك من السنين ؟ قال خمسون وثلاثمائة، قال خالد: فما أدركتَ ؟ قال: أدركتُ سُفُنَ البحر ترفأ إلينا فى هذا النجف بمتاع الصين والهند، وأمواج البحر تضرب ما تحت قدميك، وبيننا اليوم وبين البحر ما تعلم، ورأيت المرأة من الحيرة تأخذ مكتلها على رأسها لاتتزوَّدُ إلا رغيفًا واحدًا، فلا تزال تمشى فى قرى متصلة، وعمائر متصلة، وأشجار مثمرة، وأنهار جارية، وغدران غدقة حتى ترد الشام، فوجم خالد لذلك.

قال الراوى: ومع عبد المسيح سم ساعة يقلبه بيده، فقال له خالد: ما هذا معك؟ قال: سم ساعة، قال: ما تصنع به ؟ قال: أتيتك: فإن يكن عندك ما يسرنى ويوافق أهل بلدتى، قبلته وحمدت الله، وإن تكن الأخرى، لم أكنْ أول سائق إلى أهل بلدتى ذلاً وبلاء، فآكل هذا السم وأستريح من الدنيا، فإنما بقى من عمرى اليسير، فقال له خالد: هاته فأخذه ووضعه فى راحلته، ثم قال: بسم الله وبالله، بسم الله ربِّ الأرض والسماء، بسم الله الذى لا يضرُّ مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وهو السميع العليم، ثم اقتحمه فتخللته غشية وضرب بذقنه على صدره، ثم سُرِّىَ عنه، فأفاق كأنما نَشِطَ من عقال، قال: فانصرف الغسانى المذهب - وهم النسطورية من النصارى - إلى قومه فقال: يا قوم، جئتكم من عند شيطان يَأْكُلُ سم ساعة فلا يضره، صالحوه وأخرجوه عنكم، فالقوم مصنوع لهم، وأمرهم مقبل، وأمر بنى ساسان مُدْبِر، وسيكون لهذه الملة شأن يغشى الأرض، قال: فصالحوا خالدًا على مائة ألف ألف درهم وتاج، فرحل عنهم خالد بن الوليد، رضى الله تعالى عنه.

قلت: قال ابن الجوزى: والحيرة بينها وبين الكوفة ثلاثة أميال، ولم يزل عمرانها يتناقص من الوقت المذكور إلى صدر خلافة المعتضد العباسى، فاستولى عليها الخراب، وقد كان السفاح أول خلفاء بنى العباس والمنصور والمهدى والرشيد ينزلونها ويطلبون المقام بها؛ لطيب هوائها، وصفاء جوها، وصحة تربتها، وصلابتها، وقرب الخورنق منها، وقد كان فيها رهبان، فلحقوا بغيرها من البلاد لتداعى خرابها.

قال المسعودي: وأقفرت من أنيس في هذا الوقت - يعني: وقت تصنيف كتابه المروج، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة - وتوحشت إلا من الضب والبوم.

وذكر كثير من أهل الدراية أن سعدها سيعود في المستقبل بالعمران، وكذلك الكوفة، والله تعالى أعلم.

قال الشيخ بدر الدين الزركشي: والصحيح أن ولادته - عليه الصلاة والسلام - كانت نهارًا، قال: وأما ما روى من تدلِّي النجوم، فضعفه ابن دحية؛ لاقتضائه أن الولادة ليلًا، قال: وهذا لا يصلح[١] أن يكون تعليلًا؛ فإن زمان النبوة صالح للخوارق، ويجوز أن تسقط [النجوم][٢] نهارًا[٣].

فإن قلت: إذا قلنا بأنه ولد ليلًا فأيما أفضل: ليلة القدر، أو ليلة مولده - عليه الصلاة والسلام - أفضل من ليلة القدر ؟

أجيب: بأن ليلة مولده - عليه الصلاة والسلام - أفضل من ليلة القدر من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن ليلة المولد ليلة ظهوره، وليلة القدر معطاة له، وما شرف بظهورِ ذاتِ المشرف من أجله أفضلُ مما شرف بسبب ما أعطيه، ولا نزاعَ في ذلك؛ فكانت ليلة المولد بهذا الاعتبار أفضلَ.

الثاني: أن ليلة القدر شرفتْ بنزول الملائكة فيها، وليلة المولد شرفت بظهوره ﷺ فيها، ومن شرفتْ به ليلة المولد أفضلُ ممن شرفت به ليلة القدر على الأصح المرتضَى؛ فتكون ليلة المولد أفضل.

الثالث: أن ليلة القدر وقع التفضيل فيها على أمة محمد ﷺ وليلة المولد الشريف وقع التفضيل فيها على سائر الموجودات؛ فهو الذي بعثه الله رحمة للعالمين، فعمت به النعمة على جميع الخلائق؛ فكانت ليلة المولد أعم نفعًا؛ فكانت أفضل.

قال في الجمع الغريب، فيما يسر الكئيب: قال أهل السير: أرضعتْ رسولَ الله ﷺ أمه آمنة ثلاثة أيام، وقيل: سبعة أيام[٤].

---

(١) في ط: يصح. والمثبت من السبل.
(٢) المثبت من السبل.
(٣) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١/ ٣٣٣-٣٣٤).
(٤) ذكر ذلك جماعة منهم صاحب المورد والغرر وينظر سبل الهدى والرشاد (١/ ٣٧٥).

ثم أرضعته ثويبة جارية عمه أبى لهب، وهى التى بشرته بولادته، فأعتقها فرحًا بابن أخيه، ثم بدت عداوته له - عليه الصلاة والسلام - فأثابه الله على ذلك بأن سقاه ليلة كل اثنين فى مثل نقرة الإبهام بلبان أمه، وقد رأى العباس أبا لهب بعد موته فى النوم، فقال له: ما حالك ؟ فقال له: فى النار، إلا أنه خفف عنى كل ليلة اثنين وأمصنِى من بين إصبعى هاتين ماءً باردًا، وأشار له إلى إصبعيه، وأن ذلك بإعتاقه ثويبة فرحًا عندما بشرته بولادة ابن أخيه وإرضاعها له، وكانت قد أرضعت قبله عمه حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا عبد الله سلمة بن عبد الأسد المخزومى، وهو ابن عمته بلبن ابنها مسروح الذى تزوج بزوجته بعد وفاته النبى ﷺ وهى المعروفة بأم سلمة، وأرضعت ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

ثم أرضعته حليمة بنت عبد الله السعدية بلبن ابنها عبد الله من زوجها الحارث بن عبد العزى، جاء بعد البعثة وأسلم، وظهر له - عليه الصلاة والسلام - عند حليمة آيات كثيرة، وعندها شق صدره، وملىء إيمانًا وحكمه.

قيل: وأرضعته خولة بنت المنذر، وأم أيمن دايته وحاضنته بعد موت أمه، وله حين حضنته أربع سنين.

وردته حليمة إلى أمه بعد سنتين؛ فكان عند أمه آمنة إلى أن بلغ ست سنين، فخرجت به إلى أخوال أبيه بنى عدى بن النجار تزورُهُمْ، ومعها أُمُّ أيمن تحضنه، فأقامت به عندهم شهرًا، ثم رجعت به إلى مكة، فلما كانت بالأبواء، توفيت وقبرها هنالك[(١)].

روى أبو نعيم من طريق الزهرىِّ عن أم سماعة بنت رهم، عن أمها، قالت: شهدت آمنة فى علتها التى ماتَتْ بها ومحمد ﷺ غلام له خمس سنين، فنظرتْ إلى وجهه، ثم قالت: [من الرجز]

بَارَكَ فِيكَ اللهُ مِنْ غُلَامِ ... يَابْنَ الَّذِى مِنْ حَوْمَةِ الحِمَامِ[(٢)]
نَجَا بِعَوْنِ المَلِكِ العَلَّامِ ... فُودِى غَدَاةَ الضَّرْبِ بِالسِّهَامِ
بِمِائَةٍ مِنْ إِبِلٍ سَوَامِ ... إِنْ صَحَّ مَا أَبْصَرْتُ فِى المَنَامِ

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١/ ٣٧٥-٣٧٨).
(٢) في ط: حرمة الحرام. والمثبت من السبل والخصائص الكبرى وهو الصواب.

فَأَنْتَ مَبْعُوثٌ إِلَى الأَنَامِ   مِنْ عِنْدِ ذِى الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ
تُبْعَثُ فِى الحِلِّ وَفِى الْحَرَامِ   تُبْعَثُ بِالتَّحْقِيقِ وَالإِسْلاَمِ
دِينِ أَبِيكَ البَرِّ إِبْرَاهَامِ   فَاللهُ يَنْهَاكَ عَنِ الأَصْنَامِ
أَنْ لاَ تُوَالِيهَا مَعَ الأَقْوَامِ

ثم قالت: كل حى ميت، وكل جديد بال، وكل كبير يفنى، وأنا ميتة وذكرى باق، ولقد تركت خيرًا، وولدت طهرًا، ثم ماتت، فسمع من نَوْحِ الجنِّ عليها قولهم: [من الرجز]

نَبْكِى الْفَتَاةَ البَرَّةَ الأَمِينَهْ   ذَاتَ الْحَيَا وَ الْعِفَّةِ الرَّزِينَهْ
زَوْجَةَ عَبْدِ اللهِ وَالْقَرِينَهْ   أُمَّ نَبِىِّ اللهِ ذِى السَّكِينَهْ
وَصَاحِبِ المِنْبَرِ بِالْمَدِينَهْ   صَارَتْ لَدَى حُفْرَتِهَا رَهِينَهْ(١)

روى إسحاق بن راهويه، وأبو يعلى، والطبرانى، والبيهقى، وأبو نُعيم، عن حليمة، قالت: قدمت مكة فى نسوة من بنى سعد بن بكر نلتمسُ الرضعاء فى سنة شهباء، فقدمت على أتان لى ومعى صبى لنا وشارف والله ماتبضُّ بقطرة وما ننام ليلنا ذلك أجمع، صبينا لا يجد فى ثديى ما يغنيه ولا شارفنا ما يغذيه، فقدمنا مكة، فو الله ما علمتُ امرأة منا إلا أخذت رضيعًا غيرى. فلما لم أجدْ غيره، قلت لزوجى: والله، إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع، لأنطلقنَّ إلى ذلك اليتيم، فلآخذنه(٢)، فذهبت فإذا هو مدرج فى ثوب صوف أبيض من اللبن، يفوحُ

(١) ذكره الصالحي في « سبل الهدى والرشاد » (٢/ ١٢١) وعزاه إلى أبي نعيم. وينظر: الخصائص الكبرى (١/ ١٣٥-١٣٦). وزاد بعد هذه الأبيات في « السبل »:

لو فُودِيَتْ لفُودِيَتْ ثَمينهْ   وللمنايا شَفرة سَنينَهْ
لم تبق ظعَّانًا ولا ظعينَهْ   إلا أتت وقطّعت وَتينَهْ
إمَّا هلكت أيها الحزينَهْ   عنِ الذي ذو العرش يُعْلي دينَهْ
فكلُّنا والهةٌ حزينَهْ   نبكيك للعطلة أو للزينَهْ
وللضعيفاتِ وللمسكينَهْ

(٢) في السيرة: أنه قال لها: « لا عليك أن تفعلي؛ عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة » وفيه: « قالت: فذهبت إليه فأخذته وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. فلما أخذته رجعت به إلى رحلي فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن » ينظر: السيرة (١/ ١٨٨).

منه المسك وتحته حريرة خضراء راقدٌ على قفاه يغطّ، فأشفقتُ أن أيقظه من نومه لحسنه وجماله، فدنوت منه رويدًا، فوضعت يدى على صدره، فتبسم ضاحكًا، وفتح عينيه لينظر إلى، فخرج من عينيه نور وصل عَنَانَ السماء وأنا أنظر، فقبلته بين عينيه، وأعطيته ثديى الأيمن، فأقبل عليه ما شاء من لبن، فحولته إلى الأيسر فأبى، وكانت تلك حاله بعد.

قال أهل العلم: أعلمه الله أن له شريكًا فألهمه العدل.

قالت: فروى وروى أخوه، ثَمَّ أخذته فما هو إلا أن جئت به رَحْلى، فقام صاحبى - تعنى زوجها - إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل، فشرب وشربتُ حتى روينا وبتنا بخير ليلة، فقال صاحبى: يا حليمة، والله إنى لأراك قد أخذت خيرًا، وفى رواية ذكرها فى المنطق المفهوم: فلما نظر صاحبى إلى هذا، قال: اسكتى واكتمى أمرك، فمن ليلة ولد هذا المولود أصبحتِ الأحبارُ قوامًا على أقدامها لايهنأ لها عيش النهار ولا نوم الليل، قالت حليمة: فودع الناس بعضهم بعضًا، وودعت أنا أم النبى ﷺ ثم ركبت أتانى وأخذت محمدًا ﷺ بين يدى.

قالت: فنظرت إلى الأتان، وقد سجَدَتْ نحو الكعبة ثلاث سجدات، ورفعتْ رأسها إلى السماء، ثم مشت حتى سبقَتْ دواب الناس التى كانت معى، وصار الناس يتعجبون منى ويقلْنَ النساء لى وهُنَّ ورائى: يابنت أبى ذؤيب، أهذه أتانك التى كنت عليها، وأنت جائية معنا تخفضك تارة، وترفعك أخرى ؟! فأقول: تالله إنها هى، فيتعجبْنَ منها ويقلْنَ: إن لها لشأنًا عظيمًا[1]، قالت: فكانت أتانى تنطق، وتقول: والله، إن لى لشأنًا، ثم شأنًا، بعثنى بعد موتى، ورد سمنى بعد هزلى، ويحكُنَّ يانساء بنى سعد، إنكن لفى غفلة، أتدرينَ مَنْ على ظهرى ؟! على ظهرى خير النبيين، وسيد المرسلين، وخير الأولين والآخرين، وحبيب رب العالمين.

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في « السيرة » (١/ ١٨٧-١٩٠) ومن طريقه أبو يعلى (٧١٦٣) وابن حبان (٢٠٩٤)، وأبو نعيم في « الدلائل » (٩٤)، والبيهقي في الدلائل (١/ ١٣٢-١٣٦)، والطبراني في « الكبير » (٢٤/ ٢١٢-٢١٥) رقم (٥٤٥) من طريق جهم بن أبي جهم عن عبد الله بن جعفر عن حليمة به وجهم بن أبي جهم مجهول وأيضًا لم يدرك عبد الله بن جعفر وعبد الله بن جعفر لم يدرك حليمة والحديث ذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٤/ ١٦٧) رقم (٤٢٥٢) وعزاه إلى إسحاق بن راهويه وأبي يعلى. وهو أيضًا عند ابن عساكر (١/ ٧٤-٧٩).

قالت حليمة فيما ذكره ابن إسحاق[١] وغيره: ثم قدمنا منازل بنى سعد، فلا أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمى تروح شباعًا لبنا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضرون[٢] من قومنا يقولون لرعيانهم: اسرحوا حيث يسرح راعى غنم بنت أبى ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ماتبض بقطرة، وتروح أغنامنا شباعًا لبنًا. فلله درها من بركة!.

وأخرج البيهقى، وابن عساكر، عن ابن عباس قال: كانت حليمة تحدث أنها أول ما فطمت رسول الله ﷺ فقال: الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً، فلما ترعرع، كان يخرج ينظر إلى الصبيان يلعبون فيجتنبهم[٣].

وقد روى ابن سعد، وأبو نعيم، وابن عساكر، عنه: [كانت حليمة لا تدعه يذهب مكانا بعيدا، فغفلت عنه]؛[٤] فخرج مع أخته الشيماء إلى البهم، فخرجت حليمة تطلبه حتى تجده، فوجدته مع أخته، فقالت: فى هذا الحر ؟ فقالت أخته: يا أمه، ما وجدنا حَرًّا، رأيت غمامة تظل عليه، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت معه حتى انتهى إلى هذا الموضع[٥] .

قال أهل السير: كانت سنة العرب فى المولود إذا ولد فى استقبال الليل كفئوا عليه قدرًا حتى يصبح، ففعلوا ذلك بالنبى ﷺ فأصبحوا وقد انشق عنه القدر، وهو شاخص ببصره إلى السماء.

وفى المنتقى: أن أمه لما ولدته ﷺ أرسلت إلى جده عبد المطلب، فجاءه البشير وهو جالسٌ فى الحجر معه ولده ورجال من قومه، فقام هو ومن كان معه، ودخل عليها، فأخبرته بما كانت رأته مما تقدَّم ذكره، وما قيل لها، وما أمرت به، فأخذه عبد المطلب، فأدخله جوف الكعبة، وقام عندها يدعو الله تبارك وتعالى له، ويشكره

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (١/ ١٨٩) بنحوه.
(٢) في ط: الخاص. والمثبت من السيرة.
(٣) أخرجه البيهقي في « الدلائل » (١/ ١٣٩-١٤٥) ومن طريقه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١/ ٣٨٤-٣٨٨) وينظر: الخصائص الكبرى (١/ ٩٣-٩٥). وقال ابن عساكر: هذا حديث غريب جدًا وفيه ألفاظ ركيكة لا تشبه الصواب.
(٤) المثبت من الخصائص الكبرى (١/ ١٠٠).
(٥) ذكره السيوطي في « الخصائص الكبرى » (١/ ١٠٠) وعزاه إلى ابن سعد وأبي نعيم وابن عساكر وابن الطراح في كتاب الشواعر.

على ما أعطاه، وأمر بالجزائر، فنحرت ودعا رجالاً من قريش، فحضروا وطعموا.

وفى بعض الكتب: كان ذلك يوم سابعه، يعنى عقيقته.

فلما فرغوا من الأكل، قالوا: ما سميته ؟ قال: سميته محمدًا. قالوا: رغبت عن أسماء آبائه ؟ قال: أردت أن يكون محمودًا فى السماء لله، وفى الأرض لخلقه، فحقق الله رجاءه.

ولما ولدته أمه آمنة، أرضعته ثلاثة أيام، ثم أرضعته ثويبة الأسلمية جارية عمه أبى لهب أيامًا قبل قدوم حليمة من قبيلتها، ثم أرضعته حليمة كما تقدَّم.

روى أنه أرضعتِ النبيَّ ﷺ ثمان نسوة غير أمه: ثويبة، وحليمة، وخولة بنت المنذر، وأم أيمن، وامرأة سعدية غير حليمة، وثلاث نسوة من سليم اسم كلّ واحدة عاتكة، وهو المراد من قوله ﷺ: « أنا ابن العواتك من سليم »؛ كذا قاله الإمام السهيلى ناقلاً له عن بعض العلماء؛ لكن المشهور: أن العواتك المشار إليهنَّ فى الحديث المذكور: عاتكة بنت هلال بن فالح بن ذكوان السلمية، وهى أم عبد مناف جده، والثانية: عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان السلمية - أيضًا - وهى أم هاشم بن عبد مناف، والثالثة: عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان، وهى أم وهب أبى أمه آمنة؛ فهى جدته أم أبى آمنة. فالأولى عمته، والثانية والثالثة عمته، وبنو سليم يفتخرون بهذه الولادة.

وكانت أخته من الرضاعة تحضنه وترقِّصه فتقول: [من الرجز]

هَـذَا أَخٌ لِـى لَـمْ تَـلِـدْهُ أُمِّـى   وَلَـيْـسَ مِـنْ نَـسْـلِ أَبِـى وَعَـمِّـى
فَـدَيْـتُـهُ مِـنْ مُـخْـوَل مُـعَـمِّ   فَـأَنْـمِـهِ الـلـهُـمَّ فِـيـمَـا تُـنْـمِـى

وأخرج البيهقى، والخطيب البغدادى، وابن عساكر، عن العباس بن عبد المطلب، قال: قلت: يارسول الله، دعانى للدخول فى دينك أمارة لنبوتك؛ رأيتك فى المهد تناغى القمر، وتشير إليه بإصبعك، فحيث أشرت إليه مال، فقال ﷺ: « إنى كنت أحدِّثه ويحدِّثنى، ويلهينى عن البكاء، وأسمع وجبته حين يسجد تحت العرش »[1].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢/ ٣٥٩) وذكره السيوطي في « الخصائص » (١/ ٩١) وعزاه أيضًا للبيهقي والخطيب والصابوني في المأتين قال البيهقي: تفرد به أحمد بن إبراهيم الحلبي وهو مجهول وقال الصابوني: غريب الإسناد والمتن وينظر « كنز العمال » (٣١٨٢٨).

وفى سيرة الواقدى: أنه ﷺ تكلم فى أوائل ما ولد، وذكر ابن سبع فى الخصائص أن مهده ﷺ كان يتحرَّك بتحريك الملائكة له[١] .

قال فى المواهب: قالت حليمة: ومن العجائب أنى ما رأيت له بولاً، ولا غسلْتُ له وضوءًا قطُّ، وكانت له طهارة ونظافة، وكان له فى كل يوم وقت وَاحدٌ يتوضأ فيه ولا يعود حتى يأتى وقته الآخر من الغد، ولم يكن شىء أبغض إليه من أن يرى جسده مكشوفًا، فكنت إذا كشفت عن جسده يصيح حتى أستره عليه، وكان لا يبكى قطُّ، ولا يسىء خلقه.

وروى عن ابن عباس: كانت حليمة تحدث أنها أول ما فطمته - عليه الصلاة والسلام - تكلم، فقال: الله أكبر كبيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلاً[٢] .

وفى تاريخ الخميس، عن المنتقى: قالت حليمة: انتبهت ليلة من الليالى، فسمعته يتكلم بكلام لم أسمعْ كلامًا قطُّ أحسنَ منه، فقال: لا إله إلا الله قدوسًا قدوسًا، نامت العيون والرحمن لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو أول ماتكلم، فكنت أتعجب من ذلك، فلما بلغ المنطق، لم يمس شيئًا إلا قال: بسم الله، ولم يتناول شيئًا بيساره بل بيمينه، وكنت قد اجتنبت الزوج إلا إن اغتسلْتُ منه هيبة لرسول الله ﷺ حتى تمت له سنتان كاملتان، فبينما هو قاعد فى حجرى ذات يوم إذ مرَّتْ به غنيمات، فأقبلتْ شاة من الغنم حتى سجَدتْ له، وقبلَتْ رأسه، ثم رجعت إلى صواحباتها. وكان ينزل عليه كل يوم نور كنور الشمس فيغشاه ثم ينجلى عنه.

قال العلامة القسطلانى: ولما ترعرع ﷺ كان يخرج إلى الصبيان، وهم يلعبون فيجتنبهم.

وفى المنتقى: كان أخواه من الرضاع يخرجان فيمران بالغلمان فيلعبان معهم، فإذا رآهم النبى ﷺ، اجتنبهم، وأخذ بيد أخويه، وقال لهما: إنا لم نخلق لهذا.

ولما مضت له سنتان من مولده، قالت حليمة: فصلته، وقدمنا به على أمه، ونحن أحرص شىء على مكثه فينا لما نرى من بركته. وكلمنا أمه، وقلنا: لو تركتيه عندنا حتى يغلظ، فإنا نخشى عليه وباء مكة، ولم نزل بها حتى ردته معنا فرجعنا به،

---

(١) ينظر: الخصائص الكبرى (١/ ٩١)، وسبل الهدى والرشاد (١/ ٣٤٩) وفيهما بعده: « وأن أول ماتكلم به: الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا » وقد تقدم.

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

فوالله إنه لبعد مقدمنا بشهرين أو بثلاثة أشهر مع أخيه من الرضاع خلف بيوتنا؛ إذ أتانا أخوه يشتد فقال: يا أماه، ذلك أخي القرشي قد جاء رجلان عليهما ثيابٌ بيض فأضجعاه وشقًّا بطنه. قالت حليمة: فخرجت أنا وأخوه وأبوه نشتدُّ نحوه فوجدناه قائمًا منتقعًا لونه، فاعتنقه أبوه، وقال: أي بني، ما شأنك ؟

قلت: هذه هي المرة الأولى من مرات شق صدره الشريف؛ كما سيأتي.

فقال - عليه الصلاة والسلام - جاءني رجلان عليهما ثيابٌ بيض فأضجعاني، ثم شقا بطني، ثم استخرجا منه شيئًا، فطرحاه ثم رداه كما كان، فرجعنا به، فقال أبوه: يا حليمة، لقد خشيت أن يكون ابني هذا قد أصيبَ، فانطلقي نرده إلى أهله قبل أن يظهر به مايتخوف، قالت حليمة: فاحتملناه حتى قدمنا به على أمه، فقالت: ما لكما رددتماه، وقد كنتما حريصين عليه ؟ قالا: نخشى الأحداث عليه، فقالت أمه آمنة: ما ذاك بكما، فاصدقاني ما شأنكما ؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره، فقالت: خشيتما عليه الشيطان، كلا والله، ما للشيطان عليه سبيل؛ فإنه لكائن لابْنِي هذا شأن، فدعاه عنكما.

وقد وقع شق صدره الشريف مرة أخرى عند مجيء جبريل بالوحي في غار حراء، وهذه هي المرة الثانية، ومرة أخرى عند الإسراء وهي المرة الثالثة.

وعن حليمة أنها قالت: لما تم له سنتان، قال لي: يا أماه، مالي لا أرى أخويَّ ؟ أي: بالنهار، قالت: يابني، إنهما يرعيان غنيمات لنا، قال: فما لي لا أخرج معهما ؟ قالت: أتحب ذلك ؟ قال: نعم، فلما أصبح، دهنته وكحلته وعلقت في عنقه خيطًا فيه جزع يمان، فنزعه ثم قال لي: مهلاً يا أماه؛ فإن معي من يحفظني، قالت: ثم دعوت بابنيَّ، فقلت لهما: أوصيكما بمحمدٍ خيرًا، لا تفارقاه، وليكنْ نصب أعينكما، فخرج مع أخويه في الغنم، فبينما هو قائم معهما، إذ أتاه الرجلان المذكوران وهما جبرائيل وميكائيل، ومعهما طَسْتٌ من ذهب فيه ماء بثلج، فاستخرجاه من الغنم والصبية، فشقا بطنه، وشرحَا صدره، واستخرجا منه نكتة سوداء، وغسلاه بذلك الماء والثلج وحشى إيمانًا وحكمة، ومسحا عليه، وعاد كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته فوزن، فرجح بهم، ثم قال: زنه بمائة فوزن فرجح، ثم قال: زنه بألف فوزن فرجح، ثم قال: دعه عنك فلو وزنته بأمته كلِّها لوزنها.

وفى رواية: ثم قال أحدهما لصاحبه: اغسل بطنه غسل الإناء، واغسل قلبه غسل الملاء، ثم قال: خط بطنه، فخاطه، وجعل الخاتم بين كتفيه؛ كما هو الآن.

وفى الحديث: إن خاتم النبوة لم يكنْ قبل ذلك، قالت حليمة: فحملناه إلى مخيم لنا، فقال الناس: اذهبوا به إلى كاهن ينظر إليه ويداويه، فقال ﷺ: مابى شىء مما تكرهونه، وإنى أرى نفسى سليمة وفؤادى صحيحًا بحمد الله تعالى، قال الناس: أصابه لمم أو طائفٌ من الجنّ، قالت حليمة: فغلبونى على رأيى حتى انطلقتُ به إلى الكاهن، فقصصت عليه قصته من أولها إلى آخرها، فقال الكاهن: دعينى أسمع من الغلام؛ فإنه أبصر بأمره منكم؛ تكلم ياغلام، قالت: فقصَّ ابنى محمد قصته من أولها إلى آخرها عليه، فوثب الكاهن على قدميه، وضمه إلى صدره، ونادى بأعلى صوته: يا للعرب، من شر قد اقترب، اقتلوا هذا الغلام، واقتلونى معه؛ فإنكم إن تركتموه، وبلغ مبلغ الرجال، ليسفُهَنَّ أحلامكم، وليبدلَنَّ أديانكم إلى رب لا تعرفونه، ودين تنكرونه، قالت حليمة: فلما سمعت مقالته، انتزعته من يده، وقلت: أنت أعته وأجن من ابنى، ولو علمت أن هذا يكون منك ما أتيتك به، اطلب لنفسك من يقتلك فإنا لا نقتل ابنى محمدًا ﷺ فاحتملت به وأتيت به منزلى، فما بقى يومئذ بيت فى بنى سعد إلا وجد منه ريح المسك، وكان ينقضُّ عليه فى كل يوم طيران أبيضان يغيبان فى ثيابه ولا يظهران، فلما رأى أبوه ذلك، قال لى: يا حليمة، إنا لا نأمنُ على هذا الغلام، وخشيتُ عليه من أتباع الكهنة، فألحقيه بأهله قبل أن يصيبه عندنا شىء، قالت حليمة: فلما عزمت على ذلك، سمعتُ صوتًا فى جوف الليل ينادى: ذهب ربيع الخير، وأمان بنى سعد، هنيئًا لبطحاء مكة إذ كان مثلك فيها، فالآن قد أمنتْ أن تخرب أو يصيبها بؤس بدخولك إليها ياخير البشر، قالت: فلما أصبحتُ ركبت أتانى، ووضعت النبى ﷺ بين يدى، فلم أكنْ أقدر مما كنت أنادى يمنة ويسرة، حتى انتهيت به إلى الباب الأعظم من أبواب مكة وعليه جماعة مجتمعون، فنزلتُ لأقضى حاجة، وأنزلت النبى ﷺ فغشينى كالسحابة البيضاء، وسمعت صوتًا شديدًا، ففزعت وجعلتُ ألتفت يمنة ويسرة، ونظرت، فلم أر النبىّ ﷺ فصختُ: يامعشر قريش الغلام الغلام، قالوا: وما الغلام ؟ قلت: محمد بن آمنة، فجعلت أبكى وأنادى: وامحمداه، فبينما أنا كذلك إذ أنا بشيخ كبير

قد استقبلنى، فقال: ما لكِ أيتها السعدية ؟ قلت: إن لى قصة عظيمة، محمد بن آمنة أرضعته ثلاث سنين لا أفارقه ليله ولا نهاره، فعيشنى الله به وأنضر وجهى، وجئتُ لأؤدى لأمه الأمانة؛ ليخرج من عهدى وأمانتى، فاختُلِسَ منى اختلاسًا قبل أن تمسَّ قدمه الأرض، فقال الشيخ: لا تبكى أيتها السعدية، ادخلى على هبل فتضرعى إليه، فلعله يرده عليك؛ فإنه القوى على ذلك، العالم بأمره، فقلت: أيها الشيخ، كأنك لم تشهد ولادة محمد ليلة ولد ما نزل باللات والعزى، فقال: أيتها السعدية، إنى أراك جزعة، وأنا أدخل على هبل، وأذكر أمرك له، فقد قطعتِ أكبادنا ببكائك، ما لأحد من الناس على هذا صبر، قالت: فقعدت مكانى متحيرة، ودخل الشيخ على هبل، وعيناه تذرفان بالدموع، فسجد طويلاً، وطاف به أسبوعًا، ثم نادى: ياعظيم المنة، يا قويًا فى الأمور، إن منتك على قريش كثير، وهذه السعدية مرضعة محمد تبكى، قد قطع بكاؤها الأنياط، فإن رأيت أن ترده عليها إن شئت، فارتجَّ والله الصنم، وتنكَّس ومشى على رأسه، وسمعت منه صوتًا يقول: أيها الشيخ، أنت فى غرور، مالى ولمحمد ؟! وإنما يكون هلاكُنَا على يديه، وإن رب محمد لم يكنْ ليضيعه، بل يحفظه، أبلغ عبدة الأوثان أن معه الذبح الأكبر إلا أن يدخلوا فى دينه.

قال: فخرج الشيخ فزعًا مرعوبًا يُسمع لسنه قعقعة، ولركبه اصطكاك، فقال لى: يا حليمة، ما رأيتُ من هبل مثل هذا، فاطلبى ابنك إنى لأرى لهذا الغلام شأنًا عظيمًا، قالت: فقلت لنفسى: كم تكتمى أمره عن جده عبد المطلب، أبلغيه الخبر قبل أن يأتيه من غيرك، قالت: فدخلت على جده عبد المطلب، فلما نظر إلىَّ قال: يا حليمة، مالى أراك جزعة باكية، ولا أرى معك محمدًا ؟ فقلت: يا أبا الحارث، جئت بمحمد أَسَرَّ ما كان، فلما صرت على الباب الأعظم من أبواب مكة، نزلت لأقضى حاجتى، فاختلس منى اختلاسًا قبل أن تمس قدمه الأرض، فقال لى: اقعدى ياحليمة، ثم علا الصفا فنادى: يا آل غالب، فاجتمعت إليه الرجال، فقالوا له: نعم، يا أبا الحارث، فقد أجبناك، فقال لهم: إن ابنى محمدًا فقد، فقالوا له: اركبْ يا أبا الحارث حتى نركب معك، قالت: فركب عبد المطلب، وركب الناس معه، فأخذ بأعلى مكة، فانحدر بأسفلها، فلم ير شيئًا، فلما لم ير شيئًا، ترك

الناس، فاتزر بثوب وارتدى بآخر، وأقبل إلى البيت الشريف فطاف به أسبوعًا، وأنشأ يقول: [من الرجز]

يَـارَبِّ رُدَّ رَاكِـبِـي مُـحَـمَّـدَا رُدَّ إلَـيَّ وَاتَّـخِذْ عِـنْدِي يَدَا[1]

أَنْتَ الَّذِي جَعَلْتَهُ لِي عَضُدَا [لاَ يُبْعد الدَّهْرُ بِهِ فَيَبْعدَا][2]

يَاَ ربِّ إِنْ مُحَمَّدٌ لَمْ يُوجَدَا فـجـمعُ قـومـي كـلّـهـم تـبَـدَّدَا

قالت: فسمعنا مناديًا ينادى من جو الهواء: معاشر الناس، لا تضجوا؛ فإن لمحمد ربًّا لا يضيعه ولا يخذله، قال عبد المطلب: يأيها الهاتف، من لنا به وأين هو ؟ قال: بوادى تهامة، فأقبل عبد المطلب راكبًا متسلحًا، فلما صار فى بعض الطريق، تلقاه ورقه بن نوفل، فسارا جميعًا فبينما هما كذلك؛ إذ النبى ﷺ تحت شجرة، وفى رواية: بينما أبو مسعود الثقفى وعمرو بن نوفل يدوران على رواحلهما إذا هما برسول الله ﷺ قائمًا عند شجرة الطلحة، وهى الموز يتناول من ورقها، فأقبل عليه عمرو، وهو لا يعرفه، فقال له: من أنت ياغلام ؟ فقال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، فاحتمله بين يديه على الراحلة حتى عبد المطلب[3].

روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال: لما رد الله محمدًا ﷺ على عبد المطلب، تصدَّق بألف ناقة كوماء، وخمسين رطلاً من الذهب، ثم جهز حليمة بأفضل جهاز.

قال فى تاريخ الخميس: روى نافع بن جبير: أنه كان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بعد رد حليمة إياه لها، فلما توفيتْ، ضمه وكفله جده عبد المطلب، ورَقَّ عليه رقة لم يرقها على ولده، وكان يقربه منه ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام، وكان يجلس على فراشه، وكان أولاده لا يجلسون عليه[4].

---

(١) في السبل:

... ... ازْدُدْهُ لي ثم اتخذ عندي يدا

(٢) المثبت من السبل.

(٣) ينظر سبل الهدى والرشاد (١/ ٣٨٦-٣٩٠).

(٤) أخرجه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » (١/ ٩٤-٩٥) عن نافع بن جبير. وينظر سبل الهدى والرشاد (٢/ ١٢٩).

قال ابن إسحاق: حدثنى العباس بن عبد الله بن معبد[١]، عن بعض أهله قال: كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة، وكان لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، وكان رسول الله ﷺ يأتى حتى يجلس عليه، فيذهب أعمامه ليؤخروه عنه؛ فيقول عبد المطلب: دعوا ابنى، ويمسح على ظهره، ويقول: إن لابنى هذا شأنًا؛ كذا قاله ابن الأثير فى أسد الغابة[٢] .

وقال قوم من بنى مدلج - وهم مشهورون بالقيافة -: يا عبد المطلب، احتفظ به؛ فإنا لم نر قدمًا أشبه بالقدم الذى فى مقام إبراهيم منه، فقال عبد المطلب لأبى طالب: اسمع ما يقول هؤلاء فى ابن أخيك، وقال عبد المطلب لأم أيمن وكانت تحضنه: لا تغفلى عن ابنى؛ فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبى هذه الأمة، وكان عبد المطلب لا يأكل طعامًا إلا قال: علىَّ بابنى، فيؤتى به إليه، فلما حضرت عبد المطلب الوفاة، أوصى به أبا طالب[٣].

وروى أن رسول الله ﷺ أصابه رمد شديدٌ، فعولج بمكة، فلم يُغْنِ عنه، فقيل لعبد المطلب: إن فى ناحية عكاظ كاهنًا يعالج الأعين، فركب إليه عبد المطلب فناداه، ودير الراهب مغلق عليه لا يجيبه، فتزلزل به ديره حتى خاف أن يسقط عليه، فخرج مبادرًا، فقال: يا عبد المطلب، إن هذا الغلام نبى هذه الأمة، ولو لم أخرج إليك، لخرَّ ديرى، فارجعْ به واحفظه لا يغتاله بعض أهل الكتاب، ثم عالجه.

وروى عن رقيقة بنت صيفى بن هاشم؛ أنها قالت: تتابعتْ على قريش سنون، حتى يبستِ الضروع، ودقت العظام، فبينما أنا راقدة إذ أنا بهاتف يصرخ بصوت صحل[٤] يقول: يا معشر قريش، إن هذا النبى المبعوث منكم، هذا إبان نجومه، أى: هذا وقت ظهوره، فحيهَلا بالحيا والخصب، ألا فانظروا منكم رجلاً طوالاً

(١) في ط: عن معبد. والمثبت من أسد الغابة والسيرة.
(٢) ينظر السيرة النبوية (١/ ١٩٤) وأسد الغابة (١/ ١٢٣). وسبل الهدى والرشاد (٢/ ١٢٩).
(٣) ينظر سبل الهدى والرشاد (٢/ ١٢٩) أما قصة الطعام فقد ذكرها الصالحي في السبل (٢/ ١٢٩-١٣٠) فقال: « وروى البلاذري عن الزهري ومحمد بن السائب أن عبد المطلب كان إذا أتي بالطعام أجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه وربما أقعده على فخذه فيؤثره بأطيب طعامه وكان رقيقا عليه برًا به فربما أتى بالطعام وليس رسول الله ﷺ حاضرا فلا يمس شيئا منه حتى يؤتى به ».
(٤) صحل الرجل - بالكسر - وصحل صوته يصحل صحلا فهو أصحل وصحيل: بح. ويقال في صوته صحل؛ أي: بحوحة. ينظر: اللسان (صحل).

عظامًا أبيض بضًّا أشمَّ العرنين سهل الخدين له فخر يكظم عليه [وسنة تهدي إليه][١]. ويروى: رجلًا وسيطًا عظامًا جسامًا أوطف الأهداب ألا فليخلص[٢] هو وولده، وليدلف إليه من كل بطن رجل، ألا فليشنُّوا الماء وليمسوا من الطيب وليطوفوا بالبيت سبعًا وفيهم المطيب الطاهر لذاته، ألا فليستسق الرجل وليؤمن القوم ألا فغثتم ما شئتم.

قالت: فأصبحت مذعورة قد وقف جلدى وذهل عقلى واقتصصت رؤياى [ونمت في شعاب مكة][٣] [فوالحرمة والحرم][٤] إن بقى [بها] أبطحى إلا قال: هذا شيبة الحمد عبد المطلب، والتأمت عنده قريش وانقض إليه رجل من كل بطن، فشنوا الماء، ومسوا الطيب، وطافوا بالبيت سبعًا، ورفع عبد المطلب ابنه محمدًا ﷺ على عاتقه، وهو يومئذٍ ابن سبع سنين، وارتقوا أبا قبيس، فدعا واستسقى[٥] وأمن القوم، قالت: فما وصلوا البيت حتى انفجرت السماء بمائها وامتلأ الوادى، قالت: وسمعت شيوخ العرب يقولون لعبد المطلب: هنيئًا لك يا أبا البطحاء، وفى ذلك يقول قائلهم[٦]: [من البسيط]

بِشَيْبَةِ الحمْدِ أَسْقَى اللهُ بَلْدَتَنَا ... لَمَّا فَقَدْنَا الحَيَا وَاجْلَوَّذَ المَطَرُ
فَجَادَ بِالْمَاءِ جونى[٧] لَهُ سَبَلٌ ... سَحًّا فَعَاشَتْ بِهِ الأنْعَامُ وَالشَّجَرُ[٨]

---

(١) المثبت من أسد الغابة ودلائل البيهقي.
(٢) في ط: «فليخصه» والمثبت من الأسد والدلائل.
(٣) المثبت من «الأسد».
(٤) في ط: «في الحرم والحرام» والمثبت من الأسد والدلائل للبيهقي.
(٥) قال عبد المطلب في دعائه: «اللهم سادَّ الخلة، وكاشف الكربة، أنت معلَّم غير معلَّم ومسئول غير مبخَّل وهذه عبداؤك وإماؤك بعذرات حرمك يشكون إليك سنتهم التي أذهبت الخف والظلف اللهم فأمطر غيثا مغدقا مريعا». ينظر: أسد الغابة (٧/ ١١٣)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٨).
(٦) القائل هو رقيقة بنت صيفي بن هاشم بن عبد مناف؛ كما في دلائل النبوة وأسد الغابة. وترجمتها في الأسد (٧/ ١١٢-١١٤).
(٧) في ط: فجاء بالماء جوى. والمثبت من سبل الهدى والرشاد والطبقات الكبرى ودلائل النبوة للبيهقي وأسد الغابة. والجوني: السحاب الأسود . والسبل: المطر الهاطل. وفي الطبقات والدلائل: «سَبَل. . دانٍ» بدل قوله: «سبل. .سحًا» وما شرحه المصنف وعزاه لابن الأثير لم أجده في النهاية. وما أثبتناه فى أسد الغابة، له.
(٨) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١٥-١٧) وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٧٢-٧٣)، والبلاذري في «أنساب الأشراف» (١/ ٩٠-٩١) والطبراني في «الكبير» =

واجلوذ المطر: امتد وقت تأخره. والجوية: هى الحفيرة المستديرة الواسعة الوسط، وكل منفتق جوىّ؛ كذا فى نهاية ابن الأثير.

ولما بلغ رسول الله ﷺ من العمر ثمان سنين وشهرًا وعشرة أيام، مات جده عبد المطلب، وسئل رسول الله ﷺ: أتذكر موت عبد المطلب ؟ قال: نعم، وأنا يومئذٍ ابن ثمان سنين، وقيل: كان ابن تسع سنين، وقيل: عشر، وقيل: ست، وقيل: ثلاث.

وقد تقدم ذكر عمر عبد المطلب، وأنه عاش مائة وعشرين، وفى المواهب: مائة وأربعين سنة، وقد عمى قبل موته، ودفن على ما ذكره ابن عساكر بالحَجُون؛ كذا فى شفاء الغرام للعلامة التقى الفاسى.

ولما توفى عبد المطلب، كفله عمه أبو طالب، فضمه إليه، وكان يحبه حبًّا شديدًا لا يحب أولاده كذلك، ولا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج معه متى يخرج.

قالت أم أيمن: رأيت رسول الله ﷺ يبكى خلف جنازة عبد المطلب. انتهى.

وقد كانت أم أيمن بركة دايته وحاضنته بعد موت أمه، فكان - عليه الصلاة والسلام - يقول لها: «أنت أمى بعد أمى»،فشب ﷺ مطهرًا من دنس الجاهلية مبرَّأً من العيب، وأعطى كل خلق جميل حتى لم يكن يعرف إلا بالأمين، فلما بلغ اثنتى عشرة وشهرين وعشرة أيام، خرج مع عمه أبى طالب إلى الشام، فرأى ببُصْرَى بَحِيرَا الراهبَ، فعرفه بصفته، فأخذ بيده فقال: هذا رسول رب العالمين، قيل: وما علمك بذلك ؟ قال: لم يبق حين أقبل حجر ولا شجر إلا خرَّ ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبيٍّ، وإنا نجده فى كتبنا، وقال لأبى طالب: لئن قدمت به إلى الشام، لتقتلنه اليهود؛ فَرَدَّه خوفًا عليه.

ثم خرج رسول الله ﷺ مرة ثانية إلى الشام مع ميسرة غلام خديجة فى تجارة لها، وعمره خمس وعشرون إلا أربعة عشر يومًا بقين من ذى الحجة، فلما قدم الشام، باع تجارته بسوق بُصْرَى، ونزل تحت شجرة قريبًا من صومعة نسطور، فقال:

= (٢٤/ ٦٦١)، وفي الأحاديث الطوال (٢٦). وأخرجه أيضا ابن أبي الدنيا وينظر: سبل الهدى والرشاد (٢/ ١٣١) وأسد الغابة (٧/ ١١٢-١١٣) وورد بعد هذين البيتين في «الطبقات» و«السبل» و«الدلائل» و«الأسد» هذان البيتان:

مَنَّا سَيْلٌ من الله بالميمون طائره ... وخير من بشرت يوما به مضر

مبارك الأمر يستسقي الغمام به ... ما في الأنام له عِدل ولا خطرُ

ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبيٌّ، وكان ميسرة يرى فى الهاجرة ملكين يظلانه من الشمس، فلما رجع، تزوج بخديجة بنت خويلد بن أسد بعد ذلك بشهرين وخمسة وعشرين يومًا، زوَّجها منه عمها عمرو بن أسد، أصدقها اثنتى عشرة أوقية ونَشًّا.

ولما بلغ خمسة وثلاثين، خافت قريش أن تنهدم الكعبة من السيول، فأمروا بأقومَ النجار أن يبنيها، وشهد - عليه الصلاة والسلام - بنيانها، وهو الذى وضع الحجر الأسود بيده حين تنازع القبائل فيمن يضعه حتى كادوا يقتتلون، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً فى المقصد الأول.

ولما بلغ أربعين سنة، اختصه الله تعالى وبعثه برسالته؛ ففى الصحيحين عن عائشة - رضى الله تعالى عنها -: أول ما بدئ به من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءَتْ مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه، أى: يتعبد، حتى جاءه الحق وهو فى الجبل، يوم الاثنين سابع عشر رمضان، فقال له جبريل: أبشر يا محمد، إنك رسول هذه الأمة، وقال: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ [العلق: ١] فقال - عليه الصلاة والسلام -: « ما أنا بقارئ »، فغطه ثم أرسله، وتكرر ذلك، فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] إلى: ﴿ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٥] وذكر أبو نعيم أن جبريل وميكائيل شَقًّا صدره وغسلاه، ثم قالا: اقرأ. انتهى

وأنبع له جبريل عين ماء، فتوضأ وصلى ركعتين، فجاء إلى خديجة وعلمها الوضوء وصلى بها كما فعل جبريل، فقال مقاتل: فكان فرض الصلاة ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشى، حتى فرضتْ خمس صلوات ليلة الإسراء.

وكانت خديجة ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل شيخ كبير، ترك الأوثان، ورجع إلى النصرانية، يكتب بالعربية من الإنجيل المكتوب بالعبرانى، وصار يعرف ما فيه، فقالت له وقد عمى: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك ما يقول، فذكر له ما رآه، فقال له: أبشر، فإنك نبى مرسل، وهذا الناموس الذى أنزل على موسى، يا ليتنى كنتَ حَيًّا إذ يخرجك قومك، فقال: أو مخرجى هم؟ قال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزّرًا[1]، ثم لم يلبث ورقة أن توفى.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٣٢-٣٣) كتاب بدء الوحي حديث (٣)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٢) كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ حديث (٢٥٢/ ١٦٠) من حديث عائشة.

فآمن بالنبيِّ حينئذٍ أبو بكر، ثم على، وقيل: على فأبو بكر، ثم زيد بن حارثة، ثم عثمان، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وغيرهم أرسالاً.

وأمره الله تعالى أن يصدع بما أمر به، فعاداه قومه وآذوه ومن آمن به وتبعه، فأذن لهم فى الهجرة إلى الحبشة فى رجب سنة خمس من النبوَّة، فهاجر اثنا عشر رجلاً وأربع نسوة، أولهم عثمان وزوجته رُقيَّة ابنته - عليه الصلاة والسلام - وأبو حذيفة وزوجته سُهَيْلة، وأبو سلمة، والزُّبَيْر، ومصعب، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان ابن مظعون، وعامر بن ربيعة بن كُرَيْز العبشمى وزوجته ليلى، وأبو سبرة بن أبى رهم: وحاطب بن عمرو، وسهيل بن وهب، وعبد الله بن مسعود الهذلى.

قيل: وأميرهم عثمان بن مظعون، وأنكره الزهرى، وقال: لم يكن لهم أمير، وخرجوا مشاة إلى البحر، فاستأجروا سفينة بنصْفِ دينار، وكان أول من خرج إلى الهجرة عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وزوجته رقية.

وأخرج يعقوب بن سفيان بسندٍ موصول إلى أنس قال: أبطأ على رسول الله ﷺ خبرهما، فقالت امرأة: قد رأيتهما وقد حمل عثمانُ امرأته على حمار، فقال: « إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط » [1]. فوفدوا على ملكها النجاشى، واسمه أَصْحَمَةُ بن مجرى، فأكرمهم، فلما رأت قريش استقرارهم فى الحبشة وأمنهم، أرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة بهدايا وتُحَفٍ من بلادهم إلى النجاشى، وكان معهم عمارة بن الوليد ليردَّهُمْ إلى قومهم، فأبى ذلك وردَّهُمَا خائبَيْنِ.

قال فى تاريخ الخميس: قال محمد بن إسحاق: كان من لحق من المسلمين بأرض الحبشة ثلاثة وثلاثين رجلاً، ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وتسع عربيات، فلما سمعوا بمهاجر النبى ﷺ إلى المدينة، رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً وثمان نسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحبس سبعة، وشهد بدرًا منهم أربعة وعشرون.

وفى ذخائر العقبى للمُحِبِّ الطبرى: إن أم سلمة زوج النبى ﷺ قالت: لما فتن

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » (٢/ ٥٩٦) من حديث أنس بن مالك. وأخرجه أيضًا الفسوي في « المعرفة والتاريخ » (٣/ ٢٥٥)، وينظر تاريخ الإسلام (٢/ ١٨٣).

أصحاب النبى ﷺ بمكَّة، أشار عليهم أن يلحقوا بأرض الحبشة، وقال: إن بها ملكًا لا تظلم الناس ببلاده، فاخرجوا إليه، فخرجوا أرسالاً.

قالت: فلما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار من النجاشى، فأمنا على ديننا، وعبدنا ربنا لا نؤذى، فلما بلغ قريشًا ذلك، بعثوا إلى النجاشى رجلَين جَلْدَيْنِ من قريش بهدايا إلى النجاشى مستطرفة من متاع مكة من الأدم وغيره، كان الأدم يعجب النجاشى أن يهدى إليه، فجمعوا له هدية عظيمة فيها أدم كثير، ولم يتركوا بطْرِيقًا من بطارقته إلا أهدوا إليه هدية، ثم بعثوا الرجلين عمرو بن العاص وعبد الله ابن أبى ربيعة المخزومى، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلِّما النجاشى، ثم قدما إلى النجاشى هديته واسألاه أن يسلِّمهم إليكما. فلما قدما، دفعا هدية البطارقة إليهم، ثم دفعا هدية النجاشى إليه، وقالا: إِنَّهُ قد صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دين الملك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لنردهم إليهم، فقال بطارقته: صدقوا أيها الملك، فارددهم إليهم، فغضب النجاشى، ثم قال: لا والله لا أردُّ إليكما قومًا جاورونى، فنزلوا بلادى، وجاءوا إلىَّ، واختارونى على من سواى حتى أدعوهم، فأسألهم ما يقول هذان فى أمرهم، فإن كانوا كما يقولان، سلمتهم إليهما، وإن كانوا غير ذلك، منعتهم منهما، وأحسنتُ جوارهم ما جاورونى، فأرسل إليهم فدعاهم، فلما أن جاءهم رسوله، اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قال: نقول: والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ. وأرسل النجاشى، فجمع بطارقته وأساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، فلما دخلوا عليه، قال لهم: إن هؤلاء يزعمون أنكم فارقتم دينهم، فأخبرونى ماهذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا فى دينى ولا في دين آخر ؟ فتكلَّم جعفر بن أبى طالب فقال له: أيها الملك، كنا أهل جاهلية لا نعرفُ الله ولا رسوله، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، يأكل القويُّ منا الضعيفَ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله عز وجل لنوحِّده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة، وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر، وأمرنا

بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام والصدقة، وكُل ما يعرف من الأخلاق الحسنة، ونهانا عن الزنى والفواحش وقول الزور وقذف المحصنات وكل ما يعرف من السيئات، وتلا فِينَا تنزيلاً لا يشبهه شيء، فصدَّقناه وآمنا به وعرفنا أنَّ ما جاء به هو الحق من عند الله، فعبدنا الله وحده لا شريك له، وحرمنا ما حرم علينا، وفعلنا ما أحلَّ لنا، ففارقنا عند ذلك قومنا فآذونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان وأن نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا وبلغوا منا ما نكره ولم نقدرْ على الامتناع، أمرنا نبينا ﷺ أن نخرج إلى بلادك اختيارًا لك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألاَّ نظلم عندك أيها الملك، فقال له النجاشى: هل معكم مما جاءكم به عن الله عز وجل ؟ فقال له جعفر: نعم، قال: فاقرأه على، فقرأ عليه جعفر صدرًا من « كهيعص »؛ فبكى والله النجاشى حتى اخضلَّتْ لحيته، وبكت أساقفتهم حتى اخضلَّتْ لحاهم ومصاحفهم، ثم قال النجاشى: والله، إنَّ هذا الكلام والكلام الذى جاء به موسَى ليخرجان من مشكاة واحدة، ثم قال النجاشى لعمرو بن العاص ورفيقه: أعبيد لكم هم ؟ قالا: لا، قال: فلكم عليهم دَيْنٌ ؟ قالا: لا، قال: فخلوا سبيلهم، قالت أم سلمة: فلما خرجنا، قال عمرو بن العاص: لآتينه غَدًا فأتهمهم بما أستأصِلُ به خضراهم، فقال له عبد الله ابن أبى ربيعة، وهو أتقى الرجلين: فإن لهم رحمًا، وفى رواية: فإن للقوم رحمًا، وإن كانوا قد خالفوا، فما نحبُّ أن نبلغ ذلك منهم، فقال عمرو: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عَبْدٌ، فلما كان الغد، غدا إليه عمرو، فدخل فقال: أيها الملك، إنهم يخالفونك ويقولون فى عيسى بن مريم قولاً عظيمًا، إنهم يقولون: إنه عبد، فأرسل إليهم فاسألهم، قال النجاشى: إن لم يقولوا فى عيسى مثل قولى، أخرجتهم من أرضى، فأرسل النجاشى إلى القوم، قالت أم سلمة: فكانت الدعوة الثانية أشدَّ علينا من الأولى، فاجتمعوا، فقال بعضهم لبعض: قد عرفتم أن عيسى إلهه الذى يعبده، وقد عرفتم أن نبيكم ﷺ جاءكم بأنه عبد، وأنَّ ما يقولون هو الباطل، فماذا تقولون ؟ قال جعفر: نقول والله فيه ما قال عز وجل وما جاء به نبينا ﷺ كائن فى ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم ؟ فقال جعفر: نقول فيه ما جاء به نبينا ﷺ؛ أنه عبد الله ورسوله وكلمتُهُ

ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فضرب النجاشى بيده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا فقال: ما عدا عيسى بن مريم ما تقولون مثل هذا العود، فنخرت أساقفته نخرة، أى: تكلمت بلغتهم، فقال لهم النجاشى: وإن نخرتم، ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتمْ سيوم بأرضى - والسيوم: الآمنون - ما أحب أن آذى منكم رجلًا وإن لى دبرًا من ذهب، والدبر بلسانهم: الجبل، ثم قال: ردوا عليهما هداياهما؛ فلا حاجة لى بها، فو الله، ما أخذ الله منى رشوة حين رد علىَّ ملكى، وما أطاع فى الناس فأطيعهم فيه، فردوا عليهما هداياهما، فعادا خائبين، ثم قال: مرحبًا بكم وبمن جئتم من عنده، وأنا أشهد أنه رسول الله، وأنه الذى بَشَّرَ به عيسى، ولولا ما أنا فيه من الملك، لأتيته حتى أُقَبِّلَ نعله، ثم دعا النجاشى فلانًا القسَّ، وفلانًا الراهب، فأتاه أناس منهم فقال: ما تقولون فى عيسى بن مريم ؟ قالوا: أنت أعلم بما نقول، فقال النجاشى: وأخذ العود، فقال ما تقدم... ثم قال للمسلمين: أيؤذيكم أحدٌ ؟ قالوا: نعم، فأمر مناديًا ينادى: من آذى واحدًا منهم فأغرموه أربعة دراهم، ثم قال: أيكفيكم هذا ؟ قالوا لا، قال: فأضعفوها.

فلما هاجر رسول الله ﷺ، وخرج إلى المدينة، وظهر بها، أتاه المسلمون فقالوا: أيها الملك، إن نبينا قد خرج إلى المدينة، فظهر بها وقُتِلَ الذين كنا حدَّثناك عنهم، وقد أردنا الرحيل، فزودنا، فزودهم وحملهم، ثم قال: يا جعفر، أخبر صاحبك بما صنعتُ إليكم، وهذا صاحبى معكم، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنه محمد رسول الله، وقل له يستغفر لى(١).

قال السهيلى: روى أن وقعة بدر حين انتهَى خبرها إلى النجاشى - رحمه الله تعالى - علم بها قبل من عنده من المسلمين، فأرسل إليهم، فلما دخلوا عليه إذ هو قد لبس مسحًا وقعد على التراب والرماد، فقالوا: ما هذا أيها الملك ؟ فقال: إنا نجد فى الإنجيل أن الله سبحانه إذا أحدث بعبده نعمة، وجب على العبد أن يحدث لله تواضعًا، وإن الله قد أحدث إلينا وإليكم نعمة عظيمة، وهو أن محمدًا ﷺ بلغنى أنه التقى هو وأعداؤُهُ بوادٍ يقال له: بَدْرٌ كثيرُ الأراكِ، كنت أرعَى فيه الغنم على سيدى، وهو

(١) ينظر الهجرة الأولي للحبشة في المصادر التالية: السيرة النبوية (١/ ٣٤٩-٣٦٦) تاريخ الطبري (٢/ ٣٣١)، الطبقات الكبرى (١/ ١٥٩-١٦٢) دلائل النبوة (٢/ ٢٨٥-٣٠٧) تاريخ الإسلام (٢/ ١٨٣-١٩٦)، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٣٦٣-٣٦٩) البداية والنهاية (٣/ ٨٤-١٠٥).

من بنى ضمرة، وأن الله قد هزم أعداءه فيه ونصر دينه. انتهى

وقد دل هذا الخبر على طول مكثه فى بلاد العرب، فمن هنا - والله أعلم - تكلم بلسان العرب، وتعلم ما فهم به سورة مريم حين قرأها عليه جعفر بن أبى طالب حتى بكى واخضلَّتْ لحيته بالدمع؛ كما تقدم.

وروى أنه قال: إنا نجد فى الإنجيل: أن اللعنة تقع فى الأرض إذا كانت إمارة الصبيان. وكانت وفاة النجاشى فى رجب سنة تسع من الهجرة، ونعاه رسول الله ﷺ فى اليوم الذى مات فيه، وصلى عليه بالبقيع، رُفع إليه سريره بأرض الحبشة حتى رآه، وهو بالمدينة، فصلى عليه، وتكلم المنافقون فقالوا: صلى على هذا العِلْج، فأنزل الله: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ... ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩] .

وفى رواية يونس، عن ابن إسحاق؛ أن أبا نيزر مولى على بن أبى طالب - رضى الله عنه -: كان ابنًا للنجاشى نفسه، وأن عليًا - رضى الله عنه - وجده عند تاجر بمكة فاشتراه منه، وأعتقه مكافأة لما صنع أبوه مع المسلمين.

وذكر أن الحبشة عَرَّجَ إليه أمرها بعد موت النجاشى، وأنهم أرسلوا وفدًا منهم إلى نيزر، وهو مع على ليملِّكوه ويتوِّجوه، فأبى، وقال: ما كنت لأطلب الملك بعد أن منَّ على بالإسلام، قال: وكان نيزر من أطول الناس قامة وأحسنهم وجهًا، ولم يكن لونهِ كألوان الحبشة، ولكن إذا رأيته قلت: رجل من العرب.

قال جعفر: فخرجنا حتى أتينا المدينة، فتلقانى رسول الله ﷺ فاعتنقنى، ثم قال: أنا أسر بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر ؟ ووافق ذلك فتح خيبر، فقام رسول النجاشى، فقال: هذا جعفر، فاسأله ما صنع به صاحبنا ؟ فقال جعفر: فعل كذا وكذا، وزودنا وحملنا وشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وقال: قل له يستغفر لى، فقام رسول الله ﷺ فتوضأ ثم دعا ثلاثَ مراتٍ: اللهم اغفر للنجاشى، فقال المسلمون: آمين، قال جعفر: فقلت لرسول النجاشى: فأخبر صاحبك بما رأيت من النبى ﷺ.

ومعنى قول النجاشى: « ما أخذ الله منى رشوةً حين رد على ملكى ... إلى آخره » أنه لم يكن لأبيه غيره، وكان أبوه ملك قومه، وكان للنجاشى عم، له من صلبه اثنا عشر رجلًا، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة، فقالت الحبشة فيما بينها: لو

قتلنا أبا النجاشى، ثم ملكنا أخاه، فتوارث ملكه بنوه؛ فإنهم اثنا عشر رجلاً يمكث فيهم الملك زمانًا، فعدوا على أبى النجاشى، فقتلوه، ثم ملكوا أخاه، ونشأ مع عمه وكان لبيبًا حاذقًا، فغلب على أمر عمه، ونزل منه كل منزل، فلما رأت الحبشة مكانه منه، قالت الحبشة: والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه، وإنا لنتخوف أن يملكه علينا فيقتلنا أجمعين، لقد عرف أنا قتلنا أباه، فمشوا إلى عمه، فقالوا: إنا قتلنا أبا هذا الغلام، وقد عرف أنا قتلناه، وملكناك علينا، فإنا نتخوف على أنفسنا منه، فاقتله أو أخرجه من بلادك، فقال: ويحكم قتلتم أباه بالأمسِ وأقتله اليوم ؟ اذهبوا فأخرجوه من بلادكم فبيعوه فى هذا السوق، فأخرجوه إلى السوق وأقاموا فيه، فجاء تاجر، فاشتراه بستمائة درهم، فأخذه فى سفينة، فانطلق به حتى إذا كان العشئ من ذلك اليوم، هاجت سحابة من سحائب الحريق فخرج عمه يستمطرُ، فأصابته صاعقة فأحرقته، فرجعوا إلى بنيه، فإذا هم ليس فيهم خير، فقالت الحبشة بعضهم لبعض: هلك والله ملككم، تعلمون أن ملككم الذى بعتموه، فإن كان لكم فى ملككم حاجة، فأدركوه، فخرجوا فى طلبه، فأدركوا التاجر وأخذوه منه، ثم جاءوا به فعقدوا عليه التاج وأقعدوه على سرير الملك، فملَّكوه، فجاءهم التاجر فقال: أعطونى دراهمى كما أخذتم غلامى، قالوا: لا والله لا نفعلُ، قال: والله لأشكونكم إلى الملك، فجاء إلى مجلس الملك، فقال: أيها الملك، إنى ابتعتُ غلامًا، ثم أتانى باعته، فانتزعوه منى، فسألتهم مالى، فأبوا أن يعطونى، فنظر النجاشى إليه، فقال: والله لتعطنه ماله، أو ليضعنَّ يده فى يد عبده، فيذهب به حيث يشاء، فقالوا: بلى نعطيه ماله، فكان هذا من النجاشى أول ما اختبر من صلابته فى دينه وعدله فى ملكه. انتهى.

والكلام يجرُّ بعضه بعضا، فالمسئول من الناظر التسامح والإغضاء:

وكان عمرو بن العاص سافر بامرأته، فلما ركبوا البحر، كان عمارة قد هوى امرأة عمرو وهويته؛ لأنه كان جميلاً وسيمًا عزيزًا فى قريش.

قلت: وهو الذى قالتْ قريش عنه لأبى طالب: خذ عمارة بن الوليد وتبناه بدلاً عن محمد ﷺ وادفعْ إلينا محمدًا نقتله، فقال لهم أبو طالب: تعطونى ولدكم أغذوه لكم، وأدفع لكم ابنى تقتلونه ! بئسما سفهتْ به أحلامكم. وهو أيضًا أحد الرجلين

اللذين حكى الله تعالى عنهما قولَ قريش: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] أرادوا بالقريتين: مكة، والطائف، وبعظيم مكة هذا: عمارة بن الوليد بن المغيرة، وبعظيم الطائف: عروة بن مسعود الثقفى. انتهى

فلما هويها وهويته عزما على دفع عمرو فى البحر، فدفعا عمرًا فسقط فى البحر، فسبح عمرو ونادَى أصحاب السفينة فأخذوه، فرفعوه إلى السفينة، فأضمرها عمرو فى نفسه، ولم يبدها لعمارة، بل قال لامرأته: قتلنى ابن عمك عمارة لتطيبَ بذلك نفسه، فلما انتهيا إلى أرض الحبشة مكر عمرو بعمارة، فقال له: إنى كتبت إلى قومى بنى سهم ليبرءوا من دمى لك، فاكتب أنت لبنى مخزوم قومك ليبرءوا من دمك لى؛ حتى تعلم قريش أنا قد تصافينا، فكتب عمارة لبنى مخزوم وتبرءوا من دمه لبنى سهم، فقال شيخ من قريش: قتل والله عمارة، وعلم أنه مكر به عمرو، ثم أخذ عمرو يحرِّض عمارة على التعرض لامرأة النجاشى، وقال له: أنت امرؤ جميل، وهنَّ النساءُ يحببْنَ الجمال من الرجال، فلعلها أن تشفع لنا عند الملك فى قضاء حاجتنا، ففعل عمارة، فلما رأى عمرو ذلك، وتكرر عمارة على امرأة الملك، ورأى إنابتها إليه، أتى الملك مستنصحًا، وجاءه بأمارةٍ عرفها الملك من امرأته، كان عمارة أطلع عمرًا عليها، وهى قليل بياض فوق ركبها اسم الفرج، فلما أخبره بذلك، أدركته غيرة الملوك، وقال: لولا أنه جارى لقتلته، ولكن سأفعلُ به ما هو شرٌّ من القتل. ثم دعا بالسواحر فأمرهنَّ أن يسحرنه، فنفخْنَ فى إحليله نفخة طارَ منها هائمًا على وجهه حتى لحق بالوحوش فى الجبال، فكان يُرى آدميا فتوحش، فكان ذلك آخر العهد به إلى زمن عمر - رضى الله عنه - فجاء ابن عمه عبد الله بن ربيعة إلى عمر، واستأذنه أن يذهب إليه لعله يجده فأذن له عمر فى ذلك، فسار عبد الله بن ربيعة إلى أرض الحبشة، ولم يزلْ فى الفحص عن أمره حتى أخبر أنه فى جبل يرد مع الوحوش إذا وردَتْ ويصدر معها إذا صدرَتْ، فسار إليه حتى كمن له فى طريقه إلى الماء، فإذا هو قد غطاه شعره، وطالت أظفاره حتى كأنه شيطان، فقبض عليه عبد الله، وجعل يذكره بالرحم ويستعطفه، وهو ينتفض منه ويقول: أرسلنى يا بجير، أرسلنى يا بجير، وكان اسم عبد الله بن ربيعة المذكور بجيرًا، فسماه النبى ﷺ: عبد الله، فأبى عبد الله أن يرسله حتى مات عمارة بين يديه، وهذا خبر مشهور

اختصره بعض من ألف السير كما ذكرنا، وطوَّله أبو الفرج الأصبهانى، وهذا حاصله. انتهى[(١)]

ثم بلغهم بأرض الحبشة: أن أهل مكة قد سجدوا مع النبى ﷺ وأسلموا، وذلك حين صلى النبى ﷺ، فقرأ سورة «النجم» حتى بلغ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، ألقى الشيطان فى أمنيته، أى: فى تلاوته هاتين الجملتين: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى. فلما ختم السورة سجد وسجد معه المشركون؛ لتوهمهم أنه ذكر آلهتهم بخير، فمشى ذلك فى الناس، وأظهره الشيطان حتى بلغ أرض الحبشة ومَنْ بها من المسلمين، وتحدَّثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلُّهم وصلَّوْا معه ﷺ، وقد أمن المسلمون بمكة، فأقبلوا سراعًا من الحبشة. والغرانيق: جمع غرنوق، وغرنيق، وهى فى الأصل: الذكور من طيور الماء، سميت بذلك؛ لبياضها. وقيل: هو الكركى. والغرنوق - أيضًا - هو الشاب الأبيض الناعم، وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله وتشفع لهم، فشبهتْ بالطيور التى تعلُو فى السماء وترتفع.

قلتُ: وهذه القصة قد وهن أصلها وادعى وضعها جماعات من العلماء؛ منهم القاضى عياض، والفخر الرازى، والبيهقى، وقال البيهقى: رواة هذه القصة مطعونون، وأيضًا: فقد روى البخارى فى صحيحه قراءة سورة النجم وسجود المسلمين معه ﷺ والمشركين والإنس والجن وليس فيه حديث الغرانيق، ثم قال: وقيل: إنها من وضع الزنادقة ولا أصل لها. انتهى

وصححها جماعة؛ منهم ابن أبى حاتم، والطبرانى، وابن المنذر وأخرجها من طرق، وكذا ابن مردويه، والبزار، وابن إسحاق فى السيرة، وموسى بن عقبة فى المغازى، وأبو معشر فى السيرة؛ كما نبه عليه الحافظ عماد الدين بن كثير وغيره، لكن قال: إن طرقها كلها مرسلة، وإنه لم يرها مسندة من وجه صحيح[(٢)].

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٨٩-٩٠) بنحوه وعزاه إلى أبي نعيم في الدلائل.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٥٣) رقم (١٢٤٥٠) والبزار في مسنده كما في تخريج الكشاف (٢/ ٣٩١)، وابن مردويه كلهم من طريق يوسف بن حماد ثنا أمية بن خالد ثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . . . فذكر القصة. وقال البزار: هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا بهذا الإسناد ولا نعلم أحدًا =

....

= أسند هذا الحديث عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد عن ابن عباس إلا أمية ولم نسمعه نحن إلا من يوسف بن حماد وكان ثقة، وغير أمية يحدث به عن أبي بشر عن سعيد بن جبير مرسلاً، وإنما يعرف هذا الحديث عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وأمية ثقة مشهور اهـ. وقد مشى الهيثمي على ظاهر السند فقال في «المجمع» (٧/ ١١٨): رواه البزار والطبراني ورجالهما رجال الصحيحين. وهذا الطريق فيه اضطراب فقد رواه بعضهم عن أبي بشر عن سعيد مرسلاً، وقد أشار إلى ذلك البزار رحمه الله. وهذا الطريق أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٧٦) رقم (٢٥٣٣١) من طريق محمد بن جعفر ثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير مرسلاً وقد رويت هذه القصة عن محمد بن كعب القرظي وعن قتادة وعن أبي العالية مرسلة: أما مرسل محمد بن كعب فأخرجه الطبري (٩/ ١٧٥-١٧٦) رقم (٢٥٣٢٨) وذكر السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٦٦٢) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور. ومرسل قتادة أخرجه الطبري وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٦٦٣) وعزاه لابن أبي حاتم أما مرسل أبي العالية فأخرجه الطبري (٩/ ١٧٦) رقم (٢٥٣٣٠) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٦٦٣) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وللحديث طريق موصول عن ابن عباس أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٧٦) رقم (٢٥٣٣٣) حدثني محمد بن سعد قال: ثنى أبي قال: ثنى عمي قال ثنى أبي عن أبيه عن ابن عباس به قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٣٩٢): ولكن فيه عدة مجاهيل عينا وحالا اهـ وقال العلامة أبو شهبة: وقد طعن فيها كثير من المحققين والمحدثين، قال البيهقي وهو من كبار رجال السنة: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل. وقال القاضي عياض في: «الشفاء» إن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون، والمولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم، ومن حكيت عنه هذه المقالة من المفسرين والتابعين، لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية، والمرفوع منها حديث شعبة عن أبي البشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب (الشك في وصل الحديث): أن النبي كان بمكة... وذكر القصة. قال أبو بكر البزار: هذا الحديث لا نعرفه يروى عن النبي بإسناد متصل، إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي خالد عن ابن عباس اهـ. فقد بين أبو بكر أنه لا يعرف عن طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه، مع وقوع الشك فيه، الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه، وأما حديث الكلبي: فمما لا يجوز الرواية منه، ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه وكذا أنكر القصة القاضي أبو بكر بن العربي وطعن فيها من جهة النقل، وسئل محمد بن إسحاق بن خزيمة، عن هذه القصة، فقال: هذا من وضع الزنادقة. وصنف في ذلك كتاباً، وذهب إلى وضعها الإمام أبو منصور الماتريدي، في كتاب «حصص الأتقياء» حيث قال: الصواب أن قوله: «تلك الغرانيق العلا» من جملة إيحاءِ الشياطين إلى أوليائه من الزنادقة، حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاءِ الدين، ليرتابوا في صحة الدين، والرسالة بريئة من مثل هذه الرواية. فها نحن نرى أن من أنكرها وقضى بوضعها أكثر ممن صححها اعتمادًا على روايات مرسلة. ومما يقلل الثقة بالحديث: اضطراب الروايات اضطرابًا فاحشًا. =

. . . .

= فقائل يقول: إنه كان في الصلاة، وقائل يقول: قالها في نادي قومه، وثالث يقول: قالها وقد أصابته سِنَة، ورابع يقول: بل حدث نفسه فيها، ومن قائل: إن الشيطان قالها على لسانه، وإن النبي لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرأتك؟ وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان: أن النبي قرأها كما رويت: « تلك الغرانيق العلا » على أنحاء مختلفة، وكل هذا الاضطراب مما يوهن الرواية، ويقلل الثقة بها. والحق أبلج والباطل لجلج. وقد حكمت الصنعة والقواعد الاصطلاحية على الحافظ ابن حجر، فصحح القصة، وجعل لها أصلاً، قال في « الفتح » في تفسير سورة الحج، بعد ما ساق الطرق الكثيرة: وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإما منقطع لكن كثرة الطرق تدل على أن لها أصلاً، مع أن لها طريقين مرسلين آخرين، رجالهما على شرط الصحيح: أحدها: ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فذكر نحوه. والثاني: ما أخرجه أيضًا من طريق المعتمد بن سليمان، وحماد بن سلمة، فرقهما عن داود بن أبي هند، عن أبي العالية. وبعد أن ذكر كلام القاضي أبي بكر بن العربي، وعياض قال: وجميع ذلك لا يتمشى مع القواعد، فإن الطرق إذا كثرت وتبينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلاً. وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل، يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج لاعتضاد بعضها ببعض، وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما فيها مما يستنكر وهو قوله: « ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلا » فإنه لا يجوز حمله على ظاهره، لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمدًا ما ليس منه، وكذا سهوًا إن كان مغايرًا، لما جاء به من التوحيد، لمكان عصمته، وقد سلك العلماءُ في ذلك مسالك. وبعد أن ذكر الكثير منها، ولم يرتضه، ارتضى لتصحيح القصة هذا التأويل، وهو أن النبي ﷺ كان يرتل القرآن ترتيلاً، فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمة محاكيًا نغمته، بحيث سمعها من دنا، فظنه من قوله، وأشاعها بين الناس، قال: وهو الذي ارتضاه القاضي عياض وأبو بكر بن العربي اهـ. والقاضيان عياض وأبو بكر رأيهما البطلان نقلاً وعقلاً ولكنهما ارتضيا ذلك تنزلاً على تسليم الصحة.

والذي أجيب به على ما ذكره الحافظ:

١- أن جمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل، وجعلوه من قسم الضعيف؛ لاحتمال أن يكون المحذوف غير صحابي، وحينئذ: يحتمل أن يكون ثقة أو غير ثقة. وعلى الثاني: فلا يؤمن أن يكون كذابًا، والإمام مسلم قال في مقدمة كتابه: والمرسل في أصل قولنا وقول أهل العلم بالإخبار ليس بحجة. وقال ابن الصلاح في مقدمته: « وذكرنا من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه: هو الذي استقر عليه آراء جماهير حفاظ الحديث، وتداولوه في تصانيفهم » والاحتجاج به مذهب مالك، وأبي حنيفة والشافعي، بشروط ذكرها في رسالته. ونقلها العراقي في شرح ألفيته، وقد قالوا في مراسيل أبي العالية: إنها كالريح، كما في « التدريب »، وإني لأذكر الحافظ بما ذكره من البلاء في الاحتجاج بالمراسيل في مقدمة كتابه لسان الميزان.

٢- الاحتجاج بالمرسل إنما هو في الفرعيات التي يكفي فيها الظن، أما الاحتجاج به على إثبات شيءٍ يصادم العقيدة وينافي دليل العصمة فغير مسلم. وقد قال علماءُ التوحيد: إن خبر الواحد =

وإذا تقرر ذلك، تعين تأويلُ ما وقع فيها مما يستنكر، وهو قوله: « تلك الغرانيق. . . إلى آخره » فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره؛ لأنه يستحيل عليه - عليه الصلاة والسلام - أن يزيد فى القرآن عمدًا ما ليس منه، وكذا سهوًا إذا كان مغايرًا لما جاء به من التوحيد؛ لمكان عصمته؛ وقد سلك العلماء فى ذلك مسالك:

فقيل: جرى ذلك على لسانه حين أصابته سنة وهو لا يشعر، فلما علم بذلك، أحكم الله آياته؛ وهذا أخرجه الطبرى، عن قتادة، ورده عياض بأنه لا يصحُّ؛ لكونه لا يجوز على النبى ﷺ ذلك، ولا ولاية للشيطان عليه: لا فى اليقظة ولا فى النوم.

وقيل: إن الشيطان ألجأه إلى قول ذلك، فقال بغير اختياره؛ ورده ابن العربى بقوله تعالى؛ حكاية عن الشيطان: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] قال: فلو كان للشيطان قوة على ذلك، لما بقى لأحد قوة على طاعة.

وقيل: لعله قال ذلك توبيخًا للكفار؛ قال عياض: وهذا جائز إذا كان هناك قرينة تدلُّ على المراد، ولا سيما وقد كان الكلام فى ذلك الوقت جائزًا فى الصلاة؛ وإلى هذا نحا الباقلانى.

وقيل: إنه لما وصل إلى قوله: ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٠] خشى المشركون أن يأتي بعدها شيء بذم آلهتهم، فبادروا إلى ذلك الكلام، فخلطوا فى تلاوته عليه الصلاة والسلام - على عادتهم فى قولهم: ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ [فصلت: ٢٦] ونسب ذلك إلى الشيطان؛ لكونه الحامل لهم على ذلك، والمراد: شيطان الإنسان.

= لو كان صحيحًا لا يؤخذ به في العقائد، لأنه لا يكتفى فيها إلا باليقين، فما بالك بالضعيف.
٣- هذا التأويل الذي ارتضاه ما أضعفه عند النظر والتأمل، فهو يوقع متأوله فيما فر منه، وهو تسلط الشيطان على النبي، فالتسلط عليه بالمحاكاة، كالتسلط عليه بالإجراءِ على لسانه، كلاهما لا يجوز، وفتح هذا الباب خطر على الرسالات، وإذا سلمنا أن الشيطان هو الذي نطق في أثناءِ سكوت الرسول، فكيف لا يسمع ما حكاه الشيطان؟ وإذا سمعها، فكيف لا يبادر إلى إنكارها؟ والبيان في مثل هذا وجب على الفور، وإذا لم يسمع النبي، ألم يسمع أصحابه؟ وإذا سمعوا، فكيف يسكتون؟ وإذا لم يسمعوا فهل بلغ من تسلط الشيطان أن يحول بينهم وبين السماع؟ ومثل هذا ما ذكره موسى بن عقبة في مغازيه من أن المسلمين ما سمعوها، وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين، فهل كان الشيطان يسر في آذان المشركين دون المؤمنين؟ ثم كيف يتفق هذا وما روى من أن النبي حزن حزنًا شديدًا، وأن جبريل قال له: ما جئتك بهذا الحق!! والحق أن نسج القصة مهما تأول فيه المتأولون فهو مهلهل متداع لا يثبت أمام البحث.
ينظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص ٢٤٢ وما بعدها بتصرف.

وقيل: كان النبى ﷺ يرتِّلُ القرآن، فارتصده الشيطان فى سكتة من السكتات، ونطق بتلك الكلمات محاكيًا نغمة النبى ﷺ بحيْثُ يسمعه من دنا إليه، فظنها من قوله وأشاعها.

قال: وهذا الأخير أحسن وجوه التأويل فى هذه القصة؛ ويؤيده ما ورد عن ابن عباس من تفسير ﴿ تَمَنَّىٰٓ ﴾ [الحج: ٥٢] تلا، وكذا استحسن ابن العربى هذا التأويل، وقال: معنى ﴿ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ [الحج: ٥٢] أى: فى تلاوته؛ فأخبر الله تعالى فى هذه الآية أن سنة الله فى رسله إذا قالوا قولاً زاد الشيطان فيه من قبل نفسه؛ فهذا نَصٌّ فى أن الشيطان زاد فى قول النبى ﷺ لا أن النبى ﷺ قاله. انتهى

ولما رجعوا سراعًا من الحبشة، ثم تحققوا قبل دخول مكة بساعة خلافَ ذلك، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوار أو مستخفيًا، وكذلك لما تبين للمشركين عدم مدح النبى آلهتهم رجعوا إلى أشد ما كانوا عليه.

فلما اشتدَّ إيذاء المشركين للمسلمين، أذن لهم ﷺ فى الهجرة الثانية، فهاجر ثلاثة وثمانون رجلاً وثمان عشرة امرأة، فيهم جعفر بن أبى طالب، وأم سلمة، وغيرهما، فأقاموا فى الحبشة على أحسن حال حتى رجعوا إليه - عليه الصلاة والسلام - كما تقدم ذكر ذلك.

ولما رأت قريش عزَّة النبى ﷺ بمن معه، وعزة أصحابه بالحبشة، وفشوَّ الإسلام فى القبائل، اجتمعوا وأجمعوا على أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم، فكتبه منصور بن عكرمة، أو بغيض بن عامر، فشَلَّتْ يده، وعلقوا الصحيفة فى جوف الكعبة هلال المحرم سنة سبع من البعثة، فانحاز الهاشميون غير أبى لهب والمطلبيون إلى أبى طالب فى شِعبه سنتين أو ثلاثًا حتى جهدوا، وكان لا يصلُ إليهم القوت إلا خفية، حتى قام رجال خمسة فى نقض الصحيفة، وهم، هشام بن الحارث بن حبيب بن خزيمة بن مالك بن حسل ابن عامر بن لؤى العامرى، وزمْعة بن الأسْوَد بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، وزهير ابن أبى أمية بن المغيرة، وهو ابن عمة النبى ﷺ عاتكة ابنة عبد المطلب، والمطعم بن عدى، وأبو البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد الأسدى؛ وذلك أن بنى هاشم والمطلب جهدوا ولم يصلْ إليهم شىء إلا سِرًا حتى إن حكيم بن حزام بن خويلد حَمَّلَ غلامه قمحًا يريد عمته خديجة ابنة خويلد - رضى الله عنها - فلقيه

أبو جهل؛ فتعلَّق به، وأراد أن يفضحه، فانتصر له أبو البخترى بن هشام، وقال: خل سبيله، فأبى أبو جهل، فأخذ له لحى جمل فضربه به فشجه ووطئه وطئًا شديدًا، فلما مضت تلك المدة، قام أولئك النفر الخمسة فى نقض الصحيفة، وكان رأسهم هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث لعزته بعمه لأمه الذى هو أخو عبد المطلب؛ ومن ثم كان واصلاً لبنى هاشم؛ فكان يأتيهم بالبعير عليه الطعام إلى فم الشعب، فيخلع خطامه ويضربه حتى يدخل.

فمشى هشام هذا إلى زهير بن أمية المخزومى، وهو ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال له: يا زهير، أرضيت بأن تأكل الطعام، وتشرب الماء، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث ماعلمت ؟! وشدد عليه حتى قال: أبغنا ثالثًا، قال: قد وجدت المطعم بن عدى، قال: أبغنا رابعًا، فذهب إلى أبى البخترى، واستنخاه أيضًا، فقال: وهل من معين ؟ فذكر له أولئك فقال: أبغنا خامسًا، فذهب إلى زمعة ابن الأسود، واستنخاه فقال: هل من أحد ؟ فذكر له القوم، فاجتمعوا بالحَجُونِ، وأجمعوا على نقضها، فقال لهم زهير: وأنا أول من يتكلم، فلما أصبحوا، غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير فطاف سبعًا، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، إنا نأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبايعون ولا يبتاع منهم، والله لا أقعدُ حتى تشقَّ هذه الصحيفة الظالمة القاطعة، فقال أبو جهل: كذبت والله ما تشق، فقال زمعة لأبى جهل: أنت واللهِ أكذبُ، ما رضينا كتابتها حين كتبت، وقال أبو البخترى: صدق زمعة، ما نرضَى ماكتب فيها ولا نقرُّ به، فقال المطعم: صدقتما وكَذَبَ من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها، فقال أبو جهل: هذا أمرُ بيت بليل، اشتور فيه بغير هذا المكان، وأبو طالب جالس، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلاَّ: « باسمك اللهم ».

ولا يعارض ذلك أن رسول الله ﷺ قبل ذلك أخبر أبا طالب أن الله سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسمًا هو لله إلا أثبتته، ومحت منها الظلم والقطيعة والبهتان، فقال له أبو طالب : أربك أخبرك بهذا ؟ قال: نعم، فأخبرهم بذلك فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا، فهلمَّ صحيفتكمْ، فإن صدق فانتهوا عن قطيعتنا، وإلا دفعته إليكم، فنظروها، فإذا هى كما قال - عليه الصلاة

والسلام - فازدادوا أشرًا.

ووجه عدم المعارضة: أنه لا مانع من أنهم لما نظروا ذلك، وازدادوا أشرًا، قام أولئك الخمسة المذكورون فى إزالتها من أصلها، فسعوا فى نقضها وبذلوا جهدهم فيه.

قال الشارح الجوجرى: ويحتمل أن أبا طالب إنما أخبرهم بعد سعيهم فى نقضها. انتهى

قال العلامة ابن حجر الهيتمى: ويبعده أن الإخبار حينئذ ليس له كبير جدوى.

قلت: إن كان الإخبار بعد الاطلاع عليها، فلا ريبَ فى عدم أصل الجدوى فضلًا عن كبيرها، وإن كان الإخبار قبل تنزيلها بعد السعْيِ فى نقضها؛ كما هو ظاهر فحواه، فجدواه جدواه، فلا بُعد فى احتماله بعد[1]. انتهى

ولما مزقت الصحيفة، وبطل ما فيها، قال أبو طالب - فيما كان من أولئك النفر الذين قاموا فى تمزيقها يمدحهم فى فعلهم - هذه القصيدة: [من الطويل]

أَلاَ هَلْ أَتَى بَحْرِيِّنَا فِعْلُ رَبِّنَا ... عَلَى نَأْيِهِمْ وَاللهُ بِالنَّاسِ أَرْوَدُ
فَيُخْبِرَهُمْ أَنَّ الصَّحِيفَةَ مُزِّقَتْ ... وَأَنْ كُلُّ مَا لَمْ يَرْضَهُ اللهُ مُفْسدُ
تَراوَحَهَا إِفْكٌ وَسِحْرٌ مُجَمَّعٌ ... وَلَمْ يُلْفَ سِحْرٌ آخِرَ الدَّهْرِ يَصْعَدُ
جَزَى اللهُ رَهْطًا بالحَجُونِ تَبَايَعوا ... عَلَى مَلإٍ يَهْدِى لِحَزْمٍ وَيُرْشِدُ
قُعُودًا لَدَى خَطْمِ الحَجُونِ كَأَنَّهُمْ ... مُقَاوِلَةٌ بَلْ هُمْ أَعَزُّ وَأَمْجَدُ
أَعَانَ عَلَيْهَا كُلُّ صَقْرٍ كَأَنَّهُ ... إِذَا مَا مَشَى فِى رَفْرَفِ الدِّرْعِ أَجْرَدُ
جَرِيءٌ عَلَى جُلِّ الْخُطُوبِ كَأَنَّهُ ... شِهَابٌ بِكَفَّىْ قَابِسٍ يَتَوَقَّدُ
مِنَ الأَكْرَمِينَ مِنْ لُؤَىِّ بْنِ غَالبٍ ... إِذَا سِيمَ خَسْفًا وَجْهُهُ يَتَرَبَّدُ
طَوِيلُ النِّجَادِ خَارِجٌ نِصف سَاقِهِ ... عَلَى وَجْهِهِ يُسْقَى الْغَمَامَ وَيُسْعدُ
عَظِيمُ الرَّمَادِ سَيِّدٌ وَابْنُ سَيِّدٍ ... يَحُضُّ عَلَى مقْرَى الضُّيُوفِ وَيَحْشُدُ

(١) لخبر الصحيفة ونقضها ينظر المصادر الآتية: الطبقات الكبرى (١/ ١٦٢-١٦٤)، المغازي لعروة (١١٤)، دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٣١١-٣١٦)، دلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ٣٥٧)، تاريخ الطبري (٢/ ٣٣٦)، أنساب الأشراف (١/ ٢٦٥-٢٧٥)، السيرة النبوية (٢/ ٥-٨)، المنتظم (٣/ ٥)، السيرة الحلبية (١/ ٣٦٦)، عيون الأثر (١/ ١٢٦)، تاريخ الخميس (١/ ٢٩٧)، البداية والنهاية (٣/ ١١٩-١٢٣)، الكامل في التاريخ (٢/ ٨٧)، تاريخ الإسلام (٢/ ٢٢١-٢٢٤).

وَيَبْنِى لِأَبْنَاءِ الْعَشِيرَةِ صَالِحًا ... إِذَا نَحْنُ طُفْنَا فِى الْبِلَادِ وَيَمْهَدُ
أَلَظَّ بِهَذَا الصُّلْحِ كُلُّ مُبَرَّإٍ ... عَظِيم اللواءِ أَمْرُهُ ثَمَّ يُحْمَدُ
قَضَوا مَا قَضَوا فِى لَيْلِهِمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا ... عَلَى مَهَلٍ وَسَائِرُ النَّاسِ رُقَّدُ
هُمْ رَجَعُوا سَهْلَ بْنَ بَيْضَاءَ رَاضِيًا ... وَسُرَّ أَبُو بَكْرٍ بِهَا وَمُحَمَّدُ
مَتَى شرك الْأَقْوَام فِى جُلِّ أَمْرِنَا ... وَكُنَّا قَدِيمًا قَبْلَهَا نَتَوَدَّدُ
وَكُنَّا قَدِيمًا لاَ نُقِرُّ ظُلاَمَةً ... وَنُدْرِكُ مَا شِئْنَا وَلاَ نَتَشَدَّدُ
فَيَالَقُصَىٍّ هَلْ لَكُمْ فِى نُفُوسِكُمْ ... وَهَلْ لَكُمْ فِيمَا يَجِىءُ بِهِ غَدُ
فَإِنِّى وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ قَائِلٌ ... لَدَيْكَ الْبَيَانُ لَوْ تَكَلَّمْتَ أَسْوَدُ(١)

أسود: جبل كان قد قتل فيه قتيل ولم يعرف قاتله، فقال أولياء المقتول هذه المقالة يعنون بها أن هذا الجبل لو تكلم لأبان عن القاتل ولعرف بالجانى، ولكنه لا يتكلم، فذهبت مقالتهم مثلاً، وقد أشار صاحب الهمزية إلى ذلك بقوله: [من الخفيف]

فِتْيَةٌ بَيَّتوا عَلَى فِعْلِ خَيْرٍ ... حَمِدَ الصُّبْحُ أَمْرَهُمْ وَالْمَسَاءُ
يَالأَمْرٍ أَتَاهُ بَعْدَ هِشَامٍ ... زَمْعَةٌ إِنَّهُ الْفَتَى الأَتَّاءُ
وَزُهَيْرٌ وَالْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ ... وَأَبُو البَخْتَرِىِّ مِنْ حَيْثُ شَاءُوا
نَقَضُوا مُبْرَم الصحِيفَةِ إذ شَذْ ... دَتْ عَلَيْهِمْ مِن الْعِدَا الأَنْدَاءُ
أَذْكَرَتْنَا بِأَكْلِهَا أَكْلَ منسَا ... ةِ سُلَيْمَانَ الارْضَةُ الْخَرْسَاءُ
وَبِهَا أَخْبَرَ النَّبِىُّ وَكَمْ أَخْ ... رَجَ خَبْئًا لَهُ الْغُيُوبُ خِبَاءُ

وكان ذلك فى السنة العاشرة من البعثة.

ثم بعد ذلك بثمانية أشهر وأحد وعشرين يومًا، مات عمه أبو طالب، ثم خديجة بعده بثلاثة أيام على الصحيح فى رمضان(٢)، وكان - عليه الصلاة والسلام - يسمى ذلك العام: عام الحزن، وكانت مدة إقامتها معه - عليه الصلاة والسلام - خمسًا

---

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤١٤-٤١٥)، والسيرة النبوية (٢/ ٣٠-٣١) مع خلاف في بعض الألفاظ.

(٢) قال ابن كثير: المشهور أنه مات قبل موت خديجة وكان موتهما في عام واحد قبل مهاجرة رسول الله ﷺ بثلاث سنين وقال صاعد في كتاب «الفصوص»: بعد ثمانية وعشرين يومًا من خروجهم من الشعب وقال ابن حزم: توفي أبو طالب في شوال في النصف منه وينظر سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٢٨)، وينظر أيضًا تاريخ الطبري (٢/ ٣٤٣) الكامل في التاريخ (٢/ ٩٠)، عيون الأثر (١/ ١٢٩) تاريخ الإسلام (٢/ ٢٢٩).

وعشرين سنة على الصحيح.

وبعد أيام من موتها: تزوج بسودة بنت زمعة، ثم خرج إلى الطائف بعد موت خديجة بثلاثة أشهر فى ليال بقين من شوال سنة عشر من النبوة، وهى سنة خمسين من مولده، لما ناله من قريش بعد موت أبى طالب، وكان معه زيد بن حارثة، فأقام شهرًا يدعو أشراف ثقيف إلى الله تعالى، فلم يجيبوه وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم وصبيانهم يسبونه(١).

قال موسى بن عقبة: ورجموا عراقيبه بالحجارة حتى اختضَبَ نعلاه بالدماء، وكان إذا أذلقته الحجارة، قعد على الأرض؛ فيقيمونه بعضديه؛ فإذا مشى، رجموه وهم يضحكون، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شجَّ فى رأسه مرارًا.(٢)

وفى البخارى من حديث عائشة - رضى الله عنها -: « فانطلقتُ عنهم وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا سحابة قد أظلتنى فإذا فيها جبريل » (٣).

وذلك بعد أن دعا ﷺ فى طريقه بالدعاء المشهور، وهو: « اللهم، إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، أنت أرحم الراحمين، وأنت رب المستضعفين، إلى من تكلنى ؟! إلى بعيد يتجهمنى، أم إلى صديق قريب كلفته أمرى ؟! إن لم تكن غضبانًا علىَّ فلا أبالى، غير أن عافيتك أوسَعُ لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بى غضبك، أو تحل بى سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك » أورده ابن إسحاق، ورواه الطبرانى فى كتاب الدعاء: « فنادانى فقال: إن الله قد سمع قومك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، فقال ملك الجبال: إن شئت، أن أطبق عليهم الأخشبين ؟! قال النبى ﷺ: بل أرجو أن

(١) ينظر خروج النبي ﷺ إلى الطائف في المصادر الآتية: السيرة النبوية (٢/ ٦٧-٧٠)، المغازي لعروة (١١٧-١١٩)، الدرر في اختصار المغازي والسير (٦٥)، وتاريخ الإسلام (٢/ ٢٨٣).

(٢) ينظر المصادر السابقة.

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٣١٢-٣١٣) كتاب بدء الخلق باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء حديث (٣٢٣١)، ومسلم (٣/ ١٤٢٠)، كتاب الجهاد والسير باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين حديث (١١١).

يخرج الله من أصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئًا » [(١)].

ولما بلغ - عليه الصلاة والسلام - خمسين سنة، قدم عليه جن نصيبين، ولم يعلم بهم حتى نزلت؛ ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الأحقاف : ٢٩] فأسلموا وكانوا سبعة، قيل: وكانوا يهودًا، ولذا قالوا: ﴿ أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾[(٢)] [الأحقاف: ٣٠] وفى الترمذى: قرأ عليهم سورة الرحمن، كلما قرأ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ١٣] قالوا: لا بشىء من نعمائك ربنا نكذب[(٣)].

وبعد إحدى وخمسين وتسعة أشهر: أسرى به إلى بيت المقدس، وشق وغسل قلبه وملئ إيمانًا وحكمة، وهى المرة الرابعة.

ثم أتى بالبراق، فركبه وعرج به إلى السموات السبع، فسلم على من بهنّ من الأنبياء والملائكة، حتى بلغ سدرة المنتهى، وفرض عليه وعلى أمته خمسون صلاة فى اليوم والليلة، فلم يزل يراجع ربه فيسقط عنه عشرًا عشرًا إلى الخمس، حتى قال تعالى: « هن خمس وهن خمسون لا يبدل القول لدى »، ولما رجع أخبر قومه، فكذبوه إلا من وقاه الله، وارتدَّ جمع بعد الإسلام، وسألوه أمارة، فأخبرهم بقدوم العير يوم الأربعاء، ثم لم تقدم حتى كادت الشمس أن تغرب، فدعا الله عز وجل، فحبس له الشمس حتى قدمت كما وصف، وسألوه عما فى المسجد الأقصى، فجلاه الله له فصار ينظر إليه ويجيبهم عن كل ما يسألونه عنه، ووضع له جنب بيت

---

(١) هو مشهور كما قال المؤلف لكن شهرته لا تعني صحته وهو حديث مرسل أو معضل. أخرجه ابن إسحاق (٢/ ٦٧-٦٨) حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي به. وينظر « تاريخ الإسلام » (٢/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٢) ينظر: قصة إسلام الجن في المصادر التالية: السيرة النبوية (٢/ ٦٩-٧٠)، دلائل النبوة (٢/ ١٢)، عيون الأثر (١/ ٨٣٧)، تاريخ الطبري (٢/ ٣٤٦-٣٤٧)، تاريخ الخميس (١/ ٣٤٣-٣٤٤)، تاريخ الإسلام (٢/ ١٩٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٩٩) كتاب التفسير باب ومن سورة الرحمن حديث (٣٢٩١)، والحاكم (٢/ ٤٧٣) من طريق الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد عن محمد بن المنكدر عن جابر به وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير ابن محمد، قال أحمد بن حنبل: كأن زهير بن محمد الذي وقع بالشام ليس هو الذي يروى عنه بالعراق كأنه رجل آخر فقلبوا اسمه يعني لما يروون عنه من المناكير. وسمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: أهل الشام يروون عن زهير بن محمد مناكير وأهل العراق يروون عنه أحاديث مقاربة.

عقيل أو عقال[١].

وكان ﷺ يوافى الموسم كل عام، ويبلغ الحاج فى منازلهم، وفى أسواقهم: عكاظ، ومجنة، وذى المجاز.

أما ذو المجاز: فهو سوق عند عرفة كانت العرب إذا حجَّتْ، أقامت بسوق عكاظ شهر شوال، ثم تنتقل عنه إلى سوق مجنة؛ فتقيم فيه عشرين يومًا من ذى القعدة، ثم تنتقل إلى سوق ذى المجاز، فتقيم به أيام الحج.

وكانوا فى سوق عكاظ يتفاخرُونَ ويتناشدون الأشعار المشعرة بفَخْرِ كل قبيلة؛ يقال: عكظ الرجل صاحبه: إذا فاخره وغلبه بالمفاخرة، فسمى عكاظ بذلك لذلك.

وعكاظ هو المسمَّى الآن بأرض نخلة، ويسمى بالمضيق، وبه الآن عيون ونخيل وزروع ومساكن؛ كذا ذكره السهيلى، رحمه الله.

وأما سوق مجنة: فهو بأسفل مكة على بريد منها؛ فلم يجد من ينصره حتى جاءت الأنصار وهم الأوس والخزرج، فأسلم منهم ستة نفر؛ كما هو المشهور، وقيل: اثنان؛ كما ذكره الشمس البرماوى؛ كما سيأتى بيانه فى الباب الثانى من المقصد الثانى على الأثر.

ثم أذن الله لنبيه بالهجرة إلى المدينة الشريفة؛ قاله ابن عباس بقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ...﴾ الآية [الإسراء: ٨٠] أخرجه الترمذى، وصححه الحاكم[٢].

* * *

(١) هذا جزء من حديث الإسراء من رواية أنس بن مالك ذكره السيوطي في « الدرالمنثور » (٤/ ٢٦١-٢٦٢) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٠٤) كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل [الإسراء] رقم (٣١٣٩)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٣) كتاب الهجرة. وقال الترمذي: حسن صحيح.

الباب الثانى
من المقصد الثانى
فى ذكر هجرته إلى المدينة الشريفة

قال أهل السير: لما وقعت البيعة الأولى بالعقبة، وكان المبايع له فيها ستة أنفار من الأنصار، وقيل: اثنان: أسعد بن زرارة، وذكوان بن عبد القيس، ثم الثانية فلقيه فيها اثنا عشر رجلًا فيهم خمسة من الستة الأولين، وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن عفراء، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابى، ولم يكن فيهم جابر بن عبد الله بن رئاب؛ فلم يحضرها.

وأما السبعة تمام الاثنى عشر، وهم: معاذ بن الحارث بن رفاعة، وهو ابن عفراء أخو عوف المذكور، وذكوان بن عبد القيس الزرقى، وقيل: إنه دخل إلى رسول الله ﷺ إلى مكة، فسكنها معه، فهو مهاجرى أنصارى قتل يوم أحد، وعبادة بن الصامت بن قيس، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة البلوى، والعباس بن عبادة بن نضلة، وهؤلاء من الخزرج.

ومن الأوس رجلان: أبو الهيثم بن التيهان من بنى عبد الأشهل، وعويم بن ساعدة، فأسلموا وبايعوا[١].

ثم لما وقعت فى ذى الحجة من السنة الثالثة عشرة من النبوة قبل الهجرة بثلاثة أشهر بيعة العقبة الكبرى الثالثة، قدم مكة فى موسم الحج قريب من خمسمائة نفر.

وفى رواية: ثلاثمائة نفر من الأوس والخزرج.

وخرج معهم مصعب بن عمير إلى مكة، اتفق منهم سبعون رجلًا، قال ابن إسحاق: ثلاثة وسبعون نفسًا[٢] لاقوا رسول الله ﷺ، فوعدهم أن يحضروا العقبة فى الليلة الثانية من ليالى التشريق؛ فكانت تلك الليلة هى ليلة العقبة الكبرى الثالثة، وهى معروفة مبينة[٣].

---

(١) ينظر المغازي لعروة (١٢١)، السيرة النبوية (٢/ ٧٩)، الطبقات الكبرى (١/ ١٧٠)، أنساب الأشراف (١/ ٢٩٣)، الكامل في التاريخ (٢/ ٩٥)، تاريخ الإسلام (٢/ ٢٩١)، عيون الأثر (١/ ١٥٥)، الروض الأنف (٢/ ١٩٥)، وسبل الهدى والرشاد (٣/ ١٩٤-١٩٥).

(٢) في السيرة: كانوا ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين.

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٩٩).

قال فى الوفا: لما أبرم عقد المبايعة بين النبى ﷺ وبين أهل المدينة، ولم يقدر أصحابه أن يقيموا بمكة من أذى المشركين، ولم يصبروا على جفوتهم رخص لهم فى الهجرة إلى المدينة، فتوجه مصعب بن عمير إلى المدينة ليفقه من أسلم من الأنصار، ثم توالى خروجهم بعد العقبة الأخيرة هذه، فخرجوا أرسالاً، منهم: عمر ابن الخطاب، وأخوه زيد بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، وصهيب، وحمزة، وزيد بن حارثة، وعبيدة بن الحارث، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وغيرهم، ولم يبق معه ﷺ إلا أبو بكر الصديقُ، وعلى بن أبى طالب، ذكره ابن إسحاق وغيره.

وفى صحيح البخارى: تجهز أبو بكر الصديق قبلَ المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: « على رِسْلكَ؛ فإنى أرجو أن يؤذن لى »، فقال له أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبى أنت وأمى ؟ قال: « نعم »، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده، ودق السمر - وهو الخبط - أربعة أشهر ليسمنا وينتظره ﷺ متى يؤمر بالهجرة إلى المدينة.

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابوا منعةً وأصحابًا بغير ديارهم، ووجدوا مُهاجَرا قريبا يهاجرون إليه، عرفوا أنه قد عزم أن يلحق بهم وسيحميه المدنيون، فخافوا خروجه إليهم وحذروا تفاقم أمره، فاجتمعوا بدار الندوة للمشاورة. وقال ابن دريد فى « الوشاح »: إنهم كانوا خمسة عشر رجلاً. وقال ابن دحية: كانوا مائة.

ولما قعدوا للتشاور تبدى لهم إبليس فى صورة شيخ نجدى؛ لأنهم قالوا: لا يدخلن عليكم أحد من تهامة؛ لأن أهواءهم مع محمد، فلذلك تمثل اللعين فى صورة شيخ نجدى، فدخل، فقالوا له: من أدخلك خلوتنا بغير إذننا ؟ قال: أنا شيخ من قبيلة نجد، وجدت وجوهكم مليحة ورائحتكم طيبة، أردت أن أسمع كلامكم وأقتبس منه شيئًا، ولقد أعرف مقصودكم، وإن كنتم تكرهون جلوسى عندكم خرجت. فقالت قريش: رجل نجدى لا يضركم حضوره.

فقال بعضهم لبعض: إن محمدًا قد كان من أمره ما علمتم، وإنا والله لا نأمن منه الوثوب علينا بمن اتبعوه، فأجمعوا فيه رأيًا. فقال أبو البخترى بن هشام: أرى أن

تحبسوه وتشدوا وثاقه فى بيت ما لبابه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها، وتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك الشعراء من قبله كزهير والنابغة، فصرخَ الشيخُ وقالَ: بئس الرأى رأيتم، والله لو حبستموه لخرج أمره من وراء الباب إلى أصحابه؛ فوثبوا وانتزعوه من أيديكم. قالوا: صدق الشيخ. وقال هشام بن عمرو: أرى أن تحملوه على جمل، وتخرجوه من بين أظهركم، فلا يضركم ما صنع واسترحتم منه. فقال الشيخ النجدى: والله ما هذا لكم برأى، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما أتى به ؟ فو الله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن ينزل على حى من أحياء العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يبايعوه، ثم يسير بهم حتى يطأكم. فقالوا: صدق والله الشيخ.

فقال أبو جهل لعنه الله: والله إن لى فيه لرأيًا لا أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا وما هو يا أبا الحكم ؟ قال: رأيى أن تأخذوا من كل قبيلة شابًا جلدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطى كل فتى سيفًا صارمًا، ثم يعمدون إليه فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه؛ فإنكم إن فعلتم ذلك تفرق دمه فى القبائل كلها، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فإن رضوا منا بالعقل عقلناه لهم.

فقال الشيخ النجدى: القول ما قال هذا الرجل، هو أجودكم رأيًا، لا أرى لكم غيره. قال ابن إسحاق: وكان فيما أنزل الله فى ذلك قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقوله عز وجل: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾(١) [الطور: ٣٠] قال ابن هشام: «المنون»: الموت، وريبها ما يريب ويعرض منها. قال أبو ذؤيب الهذلى فى مرثيته لبنيه الثمانية التى مطلعها: [من الكامل]

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَفَجَّعُ ... وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ(٢)

---

(١) ينظر في ذلك المصادر الآتية: السيرة النبوية (٢/ ١٢١-١٢٥)، والطبقات الكبرى (١/ ١٧٥-١٧٨)، أنساب الأشراف (١/ ٣٠٣-٣٠٨)، مروج الذهب (٢/ ٢٨٥) الكامل في التاريخ (٢/ ١٠١)، نهاية الأرب (١٦/ ٣٣٠)، عيون الأثر (١/ ١٧٣)، المختصر في أخبار البشر (١/ ١٢٣)، عيون التواريخ (١/ ٩٧)، تاريخ الإسلام (٢/ ٣١٨)، سبل الهدى والرشاد (٣/ ٢٣١-٢٣٣).

(٢) ينظر البيت في السيرة النبوية (٢/ ١٢٥).

ولما استقر رأى قريش على قتل النبى ﷺ بعد المشاورة، جاءه جبريل وأخبره بذلك، وقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك. وأذن الله له عند ذلك بالخروج. ولما أمره بذلك سأل عمن يهاجر معه، فقال: أبو بكر الصديق.

وعن ابن عباس: أن الله لما أذن لنبيه بالهجرة خاطبه بهذه الآية ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠] الآية. أخرجه الترمذى وصححه هو والحاكم[1] كذا فى « الوفاء » و « المواهب » وفى « العمدة »: أمر أن يقول ذلك عند الهجرة، وكان أبو بكر حين استأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة قال له: « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا »، فطمع أبو بكر أن رسول الله إنما يعنى نفسه، فابتاع راحلتين فحبسهما يعلفهما كما تقدم ذكر ذلك.

وعن عروة عن عائشة أم المؤمنين: كان النبى ﷺ لا يخطئ أن يأتى بيت أبى بكر طرفى النهار إما بكرة أو عشية، حتى إذا كان يوم أذن له فى الهجرة أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة، فى ساعة كان لا يأتى فيها.

قلت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء به عليه الصلاة والسلام فى هذه الساعة إلا لأمر حدث. فلما حضر تأخر له أبو بكرعن سريره، فجلس عليه الصلاة والسلام، وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء. فقال عليه الصلاة والسلام « أخرج عنى من عندك ». فقال: إنما هما ابنتاى، وفى رواية: إنما فى البيت أهلك وأختها؛ لأنها كانت معقودًا عليها منه ﷺ، فقال: « إن الله قد أذن لى فى الهجرة ». فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله. قال: « نعم » قالت عائشة: رأيت أبى يبكى من الفرح، وما كنت أظن أحدًا يبكى من الفرح. فقال أبو بكر: فخذ إحدى راحلتىَّ هاتين. فقال رسول الله ﷺ: « لا، إلا بالثمن ». فقال أبو بكر: بالثمن، وكان ثمنها ثمانمائة درهم[2]. قال ابن سعد: وعاشت إلى زمن خلافة أبى بكر، وكانت مرسلة ترعى بالبقيع، وهى الجدعاء. قاله ابن إسحاق. وقال: إنها من نعم بنى الجريش.

قالت عائشة: فجهزناهما أحب الجهاز، ووضعنا لهما سفرة فى جراب، فقطعت

---

(١) تقدم تخريجه قريبا.

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٦٣٦-٦٣٨) كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة حديث (٣٩٠٥)، من طريق الزهري عن عروة عن عائشة.

أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت بها فم الجراب، وبالقطعة الأخرى فم السقاء، فلذلك سميت « ذات النطاقين »[(١)] رواه البخارى.

قال ابن إسحاق: واستأجر أبو بكر من بنى الديل هاديًا خرِّيتًا يقال له: عبد الله بن الأريقط وكان مشركًا - أو قال على دين الكفار - فأمنه ودفع إليه الراحلتين وواعده غار ثور بعد ثلاث، وأمر أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة - وكان راعيًا لأغنام حول جبل ثور - أن يخرج عليها الغنم بعد هزيع من الليل، وأمر ابنه عبد الله بن أبى بكر أن يستمع ما يقول الناس فيهما نهارًا، ويأتيهما بذلك إذا أمسى ليلاً فيخبرهما بما كان فى ذلك اليوم من الخبر، وكان يفعل ذلك[(٢)].

وفى « أنوار التنزيل »: الغار: ثقب فى أعلى ثور، وثور: جبل. قال فى « القاموس »: يقال « ثور »؛ نسبة إلى ثور بن عبد مناة، نسب الجبل إليه. قال ابن جبير فى رحلته: جبل ثور من مكة على ثلاثة أميال. وفى بعض كتب اللغة: ثور: أبو قبيلة من مضر، وهو ثور بن عبد مناة بن أد بن طابخة، وهم رهط سفيان الثورى رضى الله عنه، نسب إليه الجبل، وفيه الغار المذكور فى القرآن العظيم الذى دخله النبى ﷺ مع أبى بكر، ويقال له: ثور أطحل، وقال بعضهم: اسم الجبل: أطحل، والبحر يرى من أعلى هذا الجبل، وفيه من كل نبات الحجاز، وفيه ألبان، وفيه شجرة من حمل منها شيئًا لم تلدغه الهامة.

ولما كانت العتمة من تلك الليلة اجتمع المشركون بمكة على باب النبى ﷺ، ثم ترصدوه حتى ينام فيثبون عليه فيقتلونه. وفى « الوفا »: اجتمعت قريش إلى باب الدار، فقال أبو جهل: لا تقتلوه حتى يجتمعوا - يعنى الخمسة من الخمس القبائل - وجعل يقول لهم: هذا محمد يزعم: إن بايعتموه غلبتم العرب والعجم، ويكون لكم فى الآخرة جنات تأكلون منها، وإن لم تبايعوه يكون لكم ذبح فى الدنيا، ويوم القيامة نار تحرقون فيها. فقال رسول الله ﷺ: « نعم، كذا أقول وكذا يكون، وأنت أحدهم ».

فلما رأى رسول الله ﷺ اجتماعهم ومكانهم قال لعلى: « نم على فراشى،

---

(١) ينظر: الحديث السابق.

(٢) ينظر: « السيرة النبوية » (٢/ ١٢٦-١٢٧).

واتشح بردائى الحضرمى الأخضر؛ فإنه لا يخلص إليك شىء تكرهه منهم، فرد هذه الودائع إلى أهلها ». وكانت الودائع تودع عنده ﷺ لصدقه وأمانته. فبات علىّ كرم الله وجهه على فراشه ﷺ وخرج رسول الله ﷺ إلى الغار، ولما خرج قام على رءوسهم، وقد ضرب الله على أبصارهم، ونزل تلك الليلة أول سورة يس، فأخذ قبضة من تراب، وجعل ينثر على رءوس القوم وهو يقرأ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٨، ٩] وتلا ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾.[الإسراء : ٤٥]

ثم أتى منزل أبى بكر. ثم خرجا من خوخة كانت له فى ظهر البيت وعمد إلى غار ثور، ولم يعلم بخروجهما إلا على وآل أبى بكر، وأقام المشركون ساعة فجعلوا يتحدثون فأتاهم آتٍ فقال: ما تنتظرون ؟ قالوا: أن نصبح فنقتل محمدًا. قال: قبحكم الله وخيبكم، أو ليس قد خرج عليكم، وجعل على رءوسكم التراب ! قال أبو جهل: أو ليس هو ذاك مسجى ببرده، الآن كلمنا[1].

وذكر أهل السيرة: أن السبب المانع لهم من التقحم عليه فى الدار مع قصر الدار، وأنهم إنما جاءوا لقتله- هو أنهم لما هموا بالولوج عليه صاحت امرأة من الدار، فقال بعضهم لبعض: والله إنها لسبة فى العرب أن يتحدث عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا ستر حرمتنا، فهذا الذى أقامهم حتى أصبحوا ينتظرون خروجه، ثم طمست أبصارهم عند خروجه. فلما أصبحوا قام علىٌ من الفراش، فلما رآه أبو جهل قال: صدقَنا ذلك المخبر.

فاجتمعت قريش وأخذت الطرق، وجعلت الجعائل لمن جاء به، وانصرفت عيونهم فلم يجدوا شيئًا. وفى رواية: لما قام علىّ من الفراش قالوا له: أين صاحبك؟ فقال: لا علم لى. قيل: إنهم ضربوا عليًا وحبسوه ساعة ثم تركوه، واقتصوا أثر النبى ﷺ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم. روى أنه لم يبق أحد من الذين وضع على رءوسهم التراب إلا قتل يوم بدر.

---

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (٣/ ٢٣٢-٢٣٣).

وأنشأ على - رضى الله عنه - يقول هذه الأبيات: [من الطويل]

وَقَيْتُ بِنَفْسِى خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى فَنَجَّاهُ ذُو الطَّوْلِ الإِلَهُ مِنَ المَكْرِ
وَقَيْتُ بِنَفْسِى خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى وَمَنْ طَافَ بِالبَيْتِ العَتِيقِ وَبِالْحِجْرِ
رَسُولَ إِلَهٍ خَافَ أَنْ يَمْكُرُوا بِهِ فَنَجَّاهُ ذُو الطَّوْلِ الْإِلَهُ مِنَ المَكْرِ
وَبَاتَ رَسُولُ اللهِ فِى الغَارِ آمِنًا مُوَقًّى وَفِى حِفْظِ الْإِلَهِ وَفِى سِتْرِ
وَبِتُّ أُرَاعِيهِمْ وَمَا يُثْبِتُونَنِى وَقَدْ وَطَنْتُ نَفْسِى عَلَى الْقَتْلِ وَالأَسْرِ(١)

قال الفقير إلى الله تعالى: وقد سمعت بأبيات أربعة فى مثل معنى هذه الأبيات الأربعة وزيادة لبعض الفضلاء وهى: [من الكامل]

أَمُجَادلى فِيمَنْ رَوَيْتُ صِفَاتِهِ عَنْ ﴿ هَلْ أَتَى ﴾ وَشَرُفْنَ مِنْ أَوْصَافِ
أَتَظُنُّ تَأْخِيرَ الإِمَام نَقِيصَةً وَالنَّقْصُ فِى الأَطْرَافِ لا الأَشْرَافِ
زَوْجُ البَتولِ وَوَالِدُ السِّبْطَيْنِ وَالْـ فَادِى النَّبِى وَنَجْلُ عَبْدِ مَنَافِ
أَوَ مَا تَرَى أَنَّ الْكَوَاكِبَ سَبْعَةٌ وَالشَّمْسُ رَابِعَةٌ بِغَيْرِ خِلَافِ

وقوله فى البيت الأول « هل أتى » أراد به ما روى الترمذى أنه رضى الله عنه كان عنده ستة أرغفة يريد بها العشاء مع زوجته وولديه وخادمه، فوقف عليه سائل، وكان رضى الله عنه ومن ذكر طاوين يومًا وليلة ويومًا، فورد عليه سائل فقال: مِسكين مسكين، فدفع إليه كرم الله وجهه الستة الأرغفة وطوى ومن معه. ثم وجد مثلها فجاء عند الليل سائل فوقف قائلاً: يتيم منقطع يتيم، فأعطاه إياها وطوى ومن معه. ثم وجد مثلها فجاءه عند الليل سائل فوقف قائلاً: أسير أسير، فأعطاه إياها. فأنزل الله فى شأنه الآيات فى سورة ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١] إلى قوله ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان : ٨] أخرج هذه القصة غير واحد من المحدثين، وإن ضعفها بعض النقاد(٢). انتهى

قال الغزالى فى « الإحياء »: إن ليلة بات على بن أبى طالب على فراش النبى

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٤) عن على بن الحسين قال: إن أول من شرى نفسه ابتغاء رضوان الله على ثم ذكر الأبيات وسكت عنه هو والذهبي، وينظر أيضا: سبل الهدى (٢/ ٢٣٣).

(٢) عزاه المصنف للترمذي ولم أجده عنده ولا في الدر المنثور، وسورة الإنسان مكية، وعلي تزوج من فاطمة بالمدينة فكيف تنزل فيه هذه الآية، فالحديث بهذا اللفظ أيضا متنه منكر جدًا ولعله من وضع جهلة الشيعة.

ﷺ أوحى الله إلى جبريل وميكائيل: إنى قد آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختار كل منهما الحياة، فأوحى الله إليهما: أفلا كنتما مثل على بن أبى طالب؛ آخيت بينه وبين محمد، فبات على فراشه؛ يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة؟ اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه. فكان جبريل عند رأسه، وميكائيل عند رجليه ينادى: بخ بخ، من مثلك يابن أبى طالب؛ يباهى بك الله ملائكته؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ولما سار النبى ﷺ ومعه أبو بكر إلى الغار جعل أبو بكر يمشى ساعة بين يدى رسول الله ﷺ وساعة خلفه، فقال رسول الله ﷺ: ما بالك يا أبا بكر تفعل ذلك؟ فقال: أذكر الطلب فأمشى خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشى أمامك. وروى عن أبى بكر أنه قال لعائشة: لو رأيتنى ورسول الله ﷺ إذ صعدنا الجبل، فأما قدما رسول الله ﷺ فقطرتا دمًا، وأما قدماى فعادتا كأنهما صفوان. فقالت عائشة: إن رسول الله ﷺ لم يتعود الحفاء.

وفى « معالم التنزيل » لما وصل إلى فم الغار قال أبو بكر: يا رسول الله، مكانك حتى أستبرئ لك الغار. وكان الغار مشهورًا بكونه سكن الهوام. قال: ادخل. فدخل فرأى غارًا مظلمًا، فجلس وجعل يلمس بيده، كلما وجد جُحْرا شق ثوبه فألقمه إياه، حتى فعل ذلك بثوبه كله، فبقى جحر ألقمه عقبه.

وفى « الرياض النضرة »: فجعل الأفاعى والحيات يضربنه. وعلى كلا التقديرين لدغته الحية تلك الليلة. قال أبو بكر: قد كانت اللدغة أحب إلىَّ من أن يلدغ رسول الله ﷺ، ثم قال أبو بكر: ادخل يا رسول الله؛ فإنى قد بوأت لك مكانًا. فدخل فاضطجع. وأما أبو بكر فكان متألمًا من لدغة الحية، فلما أصبحا رأى النبى ﷺ على أبى بكر أثر الورم، فسأله عنه فقال: من لدغة الحية، فقال: « هلا أخبرتنى »؟ فقال: كرهت أن أوقظك. فمسحه النبى ﷺ؛ فذهب ما به من الورم والألم، ثم قال: « فأين ثوبك »؟ فأخبره بما فعل، فعند ذلك رفع النبى ﷺ يديه وقال: « اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى يوم القيامة »(١).

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٣/ ٢٤٢) عن أنس وعزاه لابن مردويه.

قلت: نظرت إلى بعض غلاة الروافض، فإذا هو لابس طاقية لبادٍ وقد خاط عليها مما يلى ناصيته التعيسة خرقة زرقاء فى طول وعرض الخنصر، فأُخبرت أن فرقة منهم تعمل ذلك حبًّا للحية وشكرًا لها لما فعلت فى الصدِّيق رضى الله تعالى عنه، يعتقد ذلك عملاً صالحًا يثاب عليه ! أخزاه الله فى دنياه وأخراه.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان أبو بكر مع النبى ﷺ فى الغار، فعطش عطشًا شديدًا، فشكا ذلك إلى النبى ﷺ، فقال له النبى ﷺ: « اذهب إلى صدر الغار فاشرب ». قال أبو بكر: فانطلقت إلى صدر الغار، فشربت ماء أحلى من العسل، وأبيض من اللبن، وأذكى رائحة من المسك، ثم عدت إلى النبى ﷺ فقال: « شربت ؟ » قلت: نعم. قال: « ألا أبشرك يا أبا بكر »؟ قلت: بلى يا رسول الله. فقال: « إن الله تبارك وتعالى أمر الملك الموكل بأنهار الجنة أن اخرق نهرًا من جنة الفردوس إلى صدر الغار، ليشرب أبو بكر » فقلت: يا رسول الله، ولى عند الله هذه المنزلة ؟ فقال النبى ﷺ: نعم، وأفضل؛ والذى بعثنى بالحق لا يدخل الجنة مبغضك ولو كان له عمل سبعين نبيا »(١). أخرجه الملا فى سيرته. كذا فى « الرياض النضرة » للمحب الطبرى.

قال السهيلى فى « الروض الأنف »(٢): ورد فى الصحيح عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال أبو بكر لرسول الله ﷺ وهما فى الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا. فقال رسول الله ﷺ: « يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »(٣) وروى أيضًا أنهم لما انتهوا إلى باب الغار وقد أنبت الله عليه شجرة الراء - كما سيأتى - رأى أبو بكر القافة فاشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال: إن قتلتُ فإنما أنا رجل من قريش، وإن قتلتَ أنت هلكت الأمة. فعندها قال له رسول الله ﷺ ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] ألا ترى كيف قال: « لا تحزن » ولم يقل: « لا تخف » لأن حزنه على رسول الله ﷺ شغله عن خوفه على نفسه، ولأنه -

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٣/ ٢٤٢-٢٤٣) وعزاه لابن عساكر. وقال السيوطي بسند واه.

(٢) ينظر: الروض الأنف (٢/ ٢٣٢-٢٣٣).

(٣) أخرجه البخاري (٩/ ٢٢٢) كتاب التفسير باب قوله: ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ... ﴾ [التوبة: ٤٠] حديث (٤٦٦٣) من طريق ثابت عن أنس.

أيضًا - رأى ما نزل برسول الله ﷺ من النصب، وكونه فى ضيق من الغار مع فرقة الأهل ووحشة الغربة، وكان أرقَّ الناس على رسول الله وأشفقهم؛ [عليه][1] فحزن.

وقول الله تعالى ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ ﴾ [التوبة: ٤٠] قال أكثر أهل التفسير: يريد: على أبى بكر، فالضمير له. وأما الرسول ﷺ فكانت السكينة عليه، وقوله ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا ﴾ [التوبة: ٤٠] الهاء فيه راجعة إلى النبى ﷺ، والجنود: الملائكة، أنزلهم عليه الغار فبشروه بالنصر على أعدائه، فأيده ذلك وقواه على الصبر، وقيل: أيده بجنود لم تروها، يعنى يوم بدر وحنين وغيرهما من مشاهده. وقد قيل: الهاء راجعة على النبى ﷺ فى الموضعين « عليه، وأيده » جميعًا، وأبو بكر تبع له، فدخل فى حكم السكينة بالمعنى، وكان فى مصحف حفصة: « فأنزل الله سكينته عليهما »، وقيل: إن حزن أبى بكر عندما رأى بعض الكفار يبول عند باب الغار كما سيأتى ذكره قريبًا؛ فأشفق أبو بكر أن يكونوا قد رأوهما، فقال له النبى ﷺ: لا تحزن؛ فإنهم لو رأونا لم يستقبلونا بفروجهم عند البول، إن لقريش نخوة، ولما تشاغلوا بشىء عن أخذنا.

فائدة: زعمت الرافضة أن فى قوله عليه الصلاة والسلام لأبى - بكر رضى الله عنه - غضا منه وذمًا له؛ فإن فى حزنه ذلك إن كان طاعة فالنبى ﷺ لا ينهى عن الطاعة، فلم يبق إلا أنه معصية. فيقال لهم على طريقة الجدل: قد قال تعالى لرسوله محمد ﷺ ﴿ فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ ﴾ [يس: ٧٩] وقال تعالى ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقال لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡ ﴾ [طه: ٢١] وقالت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ ﴾ [العنكبوت: ٣٣] فإن زعمتم أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - حين قيل لهم هذا كانوا فى معصية - فقد كفرتم، ونقضتم أصلكم فى وجوب العصمة للإمام المعصوم فى زعمكم وهو من غير الأنبياء، فكيف بهم ؟ وإنما قوله عليه الصلاة والسلام: « لا تحزن » وقوله تعالى لأنبيائه، مثل هذا تسكين لإيحاشهم وتيسير لهم وتأنيس، لا على جهة النهى الذى زعموا، ولكن كما قال تعالى ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ

(١) المثبت من الروض.

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] وهذا القول إنما يقال لهم عند المعاينة، وليس - إذ ذاك - أمر بطاعة ولا نهى عن معصية. فانتبه للصواب أيها العبد الموفق، المأمور بتدبر كتاب الله تعالى، لقوله ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] كيف كان معهما بالمعنى وباللفظ؛ أما المعنى فكان معهما بالنصر والإرشاد والهداية، وأما اللفظ فإن اسم الله تعالى كان يذكر إذا ذكر رسوله وإذا دعى فقيل: يا رسول الله، أو فعل رسول الله، ثم كان لصاحبه أبى بكر كذلك يقال: يا خليفة رسول الله، وفعل خليفة رسول الله، فكان يذكر مع ذكرهما بالرسالة وبالخلافة، ثم ارتفع ذلك فلم يكن لأحد من الخلفاء ولا يكون. انتهى ما قاله السهيلى فى الروض(١).

قلت: قوله: « ثم ارتفع ذلك » صحيح؛ لأنه لما ولى عمر- رضى الله عنه - استثقل دعاؤه بـ« يا خليفة خليفة رسول الله » حتى جاء أعرابى فقال: يا أمير المؤمنين، فاستمرت تلك عليه وعلى الخلفاء بعده إلى آخر الدهر. وأما قوله: « ولا يكون » فيه نظر؛ إذ كان يصح فى عمر وعثمان وعلى ذلك المعنى لو قيل، لكنه ترك لما ذكر من الاستثقال والاكتفاء بأمير المؤمنين. والله أعلم.

وحكى الواقدى: أن رسول الله ﷺ لما دخل الغار دعا شجرة كانت أمام الغار، فأقبلت حتى وقفت عند فم الغار؛ فحجبت أعين الكفار. قال السهيلى: وذكر قاسم ابن ثابت فى « الدلائل » فيما شرح من الحديث: أن رسول الله ﷺ لما دخل الغار أنبت الله على بابه الراء. قال عاصم: قال ابن ثابت: وهى شجرة معروفة من أعلاث الشجر، تكون مثل قامة الإنسان، ولها خيطان وزهر أبيض، تحشى منه المخادُّ فيكون كالريش لخفته ولينه.(٢) وأخرج البزار: أن الله أمر العنكبوت فنسجت على وجه الراء، وأرسل حمامتين فوقفتا وباضتا فى أسفل النقب، وإن ذلك مما صد المشركين، وأن حمام الحرم من نسل تينك الحمامتين(٣). وفى « المواهب اللدنية »: أخرج أبو نعيم فى الحديث، عن عطاء بن ميسرة، قال: نسجت العنكبوت

---

(١) ينظر: الروض الأنف (٢/ ٢٣٢-٢٣٣).
(٢) ينظر: الروض الأنف (٢/ ٢٣١-٢٣٢).
(٣) ذكره السهيلي في « الروض الأنف » (٢/ ٢٣٢) وعزاه إلى البزار.

مرتين: على داود حين كان يطلبه طالوت، ومرة هذه على النبى ﷺ[١]. انتهى.

قلت: وكذا نسجت على الغار الذى دخله عبد الله بن أنيس لما بعثه النبى ﷺ لقتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى بـ « عرنة » فقتله ثم احتمل رأسه، ودخل في الغار فنسجت عليه العنكبوت، وجاء الطلب فلم يجدوا شيئًا فانصرفوا راجعين.

وفى تاريخ ابن عساكر: أن العنكبوت نسجت - أيضًا - على عورة زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب لما صلب عريانًا فى سنة إحدى وعشرين ومائة فى دولة هشام بن عبد الملك؛ فإنه قتل بالكوفة في المصاف، وكان قد خرج وبايعه خلق كثير، فحاربه نائب العراق يوسف بن عمر، وظفر به فقتله وصلبه عريانًا، وبقى جسده مصلوبًا أربع سنين.

روى أن المشركين كانوا يعلمون محبة رسول الله ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه، فذهبوا لطلبه على باب أبى بكر وفيهم أبو جهل، فخرجت إليهم أسماء بنت أبى بكر فقالوا لها: أين أبوك ؟ فقالت: لا أدرى. فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا - فلطم خدها لطمة خرج منها قرطها وسقط، ثم انصرفوا فوقعوا فى طلبهما.

وفى « الاكتفاء »: فقدت قريش رسول الله ﷺ فلم يجدوه بمكة أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافة يتبعون أثره فى كل جهة، فوجد الذى ذهب جهة ثور أثره هناك، فلم يزل يتبعه حتى انقطع لما انتهى إلى ثور، وشق على قريش خروجه عليه الصلاة والسلام، وجزعوا لذلك؛ فطفقوا يطلبونه بأنفسهم فيما قرب منهم، ويرسلون من يطلبه فيما بعد عنهم، وجعلوا مائة بعير لمن رده عليهم. ولما انتهوا إلى فم الغار - وقد كانت العنكبوت ضربت على بابه - قال قائل منهم: ادخلوا الغار، فقال أمية بن خلف: ما أربكم فى الغار ؟ إن عليه لعنكبوتًا أبعد من ميلاد محمد، قيل: فلذلك نهى رسول الله ﷺ عن قتل العنكبوت وقال: إنها جند من جنود الله[٢].

وفى رواية: أقبل فتيان من مشركى قريش، ومعهم قائف من قافة بنى مدلج وهم

(١) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٣/ ٢٤٠) وعزاه لأبي نعيم في « الحلية ». وهو في الحلية (٥/ ١٩٧).

(٢) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٣/ ٢٤٠) وعزاه لأبي نعيم عن محمد بن إبراهيم التيمي.

المشهورون بالقيافة بين العرب، فالتمسوا أثرهما فقصوه إلى أن دنوا من فم الغار، قال القائف: والله ما جاز مطلوبكم هذا الغار، فعند ذلك حزن أبو بكر، فقال له رسول الله ﷺ: « لا تحزن إن الله معنا » قال: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآنا. ثم دنا بعضهم فبال فى أسفل النقب، فقال النبى ﷺ: « إن لقريش نخوة، وإنه لو رآك لما كشف سوءته قبلك ». وقال له النبى ﷺ: « ما بالك باثنين الله ثالثهما ».

وفى « معالم التنزيل »: لم يكن حزن أبى بكر جزعًا من الموت، وإنما اشفاقًا على رسول الله ﷺ. قال: إن أقتل فأنا رجل من قريش، وإن قتلتَ هلكت الأمة ولم يعبد الله. فجعلوا يضربون حول الغار يمنة ويسرة ويقولون: لو دخل الغار لانكسر بيض الحمام، وتفسخ نسج العنكبوت. فلما سمع ذلك النبى ﷺ علم أن الله تعالى قد حمى حماهما بالحمام، وصرف عنهما كيدهم بالعنكبوت، أشار إلى ذلك البوصيرى رحمه الله تعالى: [من البسيط]

ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا العَنْكَبُوتَ عَلَى ... خَيْرِ البَرِيَّةِ لَمْ تَنْسِجْ ولَمْ تَحُمِ
وِقَايَةُ اللهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةٍ ... مِنَ الدُّروعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الأُطُمِ

وقال فى همزيته: [من الخفيف]

وَكَفَتْهُ بِنَسْجِهَا عَنْكَبُوتٌ ... مَا كَفَتْهُ الْحَمَامَةُ الحَصْدَاءُ(١)

ولله در القائل: [من الوافر]

ودودُ القَزِّ إنْ نَسَجَتْ حَرِيرًا ... يُجَمِّلُ لُبْسُهُ فِى كُلِّ زِيِّ
فَإن العنكَبُوتَ أَجَلُّ مِنْهَا ... بِمَا نَسَجَتْ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ

وقد تقدم أن عامر بن فهيرة اتبع أثره حتى يعفى عليه بأظلاف الغنم، فخرج معهما رديف أبى بكر يخدمهما. وعامر بن فهيرة أسلم وكان حسن الإسلام، عذب فى الله فاشتراه أبو بكر فأعتقه، وشهد بدرًا وأحدًا، وقتل يوم بئر معونة، وهو ابن أربعين سنة قتله عامر بن الطفيل. وهو من مولدى الأزد، أسود اللون، ذكر ذلك كله موسى ابن عقبة عن ابن شهاب. وأقاما فى الغار ثلاثة أيام - الجمعة والسبت والأحد - وركبا ليلة الاثنين، ومعهما دليلهما عبد الله بن أريقط، وكان ماهرًا خرِّيتًا، فسلك

---

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (٣/ ٢٤٢) وفيه زيادة عمَّا هنا.

بهما أسفل مكة ثم مضى بهما إلى ساحل من عسفان، ثم سلك بهما على أسفل أمج، ثم نزل على قُدَيد حيث خيام أم معبد، عاتكة بنت خالد الخزاعية، من بنى كعب، وكانت بـ « قديد » وفى « معجم ما استعجم »: من قديد إلى المسلك ثلاثة أميال، بينهما خيمة أم معبد، امرأةً برزة جلدة تحتبى بِفناء الخيمة، ومعنى برزة تخرج للناس.

وفى « خلاصة الوفا »: قُديد، كزُبير: قرية جامعة بطريق مكة كثيرة المياه. فنزلوا عندها فسألوها لحمًا وتمرًا ليشتروا منها، فلم يصيبوا عندها شيئًا من ذلك، وكان القوم مرملين مسنتين، فقالت: والله لو كان عندى شاة ما أعوزَكم القرى، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ فقالت: خلَّفها الجهد عن الغنم. قال: هل بها من لبن ؟ قالت: هى أجهد من ذلك. فقال لها: أتأذنين لى أن أحلبها ؟ فقالت: بأبى أنت وأمى، إن رأيت بها حلبًا فاحلبها، فدعا بالشاة فاعتقلها، ومسح ضرعها فتفاجت ودرّت، ودعا بإناء يُربض الرهط - أى: يشبع الجماعة - حتى يَربضوا فحلب فيه ثَجًّا حتى علاه البهاء وسقى القوم حتى رووا ثم شرب آخرهم، ثم حلب فيه مرة أخرى، ثم غادره عندها وذهبوا، فقلما لبث حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزًا عجافًا، وكن هزالاً مخهن قليل. واسم أبى معبد قال السهيلى(١): لا يعرف، وقال العسكرى: اسمه أكثم بن أبى الجون. فلما رأى اللبن قال: ما هذا يا أم معبد ؟ أنّى لك هذا ؟ والشاء عازب حيال ؟ ولا حلوبة بالبيت ؟ فقالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك. فقال: صفيه يا أم معبد. فقالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه نُجْلة، ولم تزرِ به صعلة، وسيم قسيم، فى عينيه دعج، وفى أشفاره وطف، وفى صوته صحل، أحور أكحل، أزجّ أقرن، شديد سواد الشعر، وفى عنقه سطع، وفى لحيته كثاثة، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما به وعلاه البهاء، أكمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأعلاهم من قريب، حلو المنطق فصل، لا نزر ولاهذر، كأن منطقه خرزات نظم ينحدرن. ربعة لا تشنؤه عين من طول، ولا تشنؤه من قصر، غصن بين غصنين، وهو أنضر الثلاثة منظرًا وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحفون به؛ إذا قال

(١) ينظر الروض الأنف (٢/ ٢٣٥).

أنصتوا، وإن أمر تبادروا لأمره. محفود محشود، لا عابس ولا مفند.

قال أبو معبد: هذا - والله - صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلًا. فخرج أبو معبد فى أثرهم ليسلم، فيقال أدركهم ببطن « دلم » فبايعه وانصرف. وفى « الصفوة »: بلغنا أن أم معبد هاجرت إلى النبى ﷺ وأسلمت.

قال رزين: أقامت قريش أيامًا لا يدرون أين توجه رسول الله ﷺ، وأى طريق سلك، حتى سمعوا بعد ذهابهما بأيام هاتفًا أقبل من أسفل مكة بأبيات يغنى بها غناء العرب عاليا بين السماء والأرض، والناس يسمعون الصوت ويبتغونه ولا يرون صاحبه، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول: [من الطويل]

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... رَفِيقَيْنِ حَلَّا خَيْمَتَىْ أُمِّ مَعْبَدِ

هُمَا نَزَلاَ بِالبرِّ ثُمَّ تَرَحَّلاَ[1] ... فَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ

فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا ... أَبَرَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ

فَيَالَقُصَىٍّ مَا زَوَى اللهُ عَنْكُمُ ... بِهِ مِنْ فِعَالٍ لاَ تُجارَى وَسُؤْدَدِ

لِيَهْنِ بَنِى كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِمْ ... وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ

سَلُوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا ... فَإِنْ أَنْتُمُ تَسْتَشْهِدُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ[2]

دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ ... لَهُ بِصَرِيحٍ ضَرَّةُ الشَّاةِ مُزْبِدِ

فَغَادَرَهَا رَهْنًا لَدَيْهَا لِحَالِبٍ ... يُرَدِّدُهَا فِى مَصْدَرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ[3]

وقيل: كان الهاتف القائل هذه الأبيات يسمع صوته الجهورى على « أبى قبيس ». ولما سمع هذه الأبيات حسان بن ثابت قال هذه الأبيات: [من الطويل]

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالَ[4] عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ ... وَقَدْ سُرَّ مَنْ يَسْرِى إِلَيْهِمْ وَيَغْتَدِي

تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَزَالَتْ[5] عُقُولُهُمْ ... وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدَّدِ

---

(١) في السبل: وارتحلا به.

(٢) في الروض والسبل: فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد.

(٣) تنظر الأبيات في الروض الأنف (٢/ ٢٣٤)، سبل الهدى والرشاد (٣/ ٢٤٦)، ديوان حسان (٥٩).

(٤) في الروض والسبل: غاب.

(٥) في الروض والسبل: فضلت .

هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ رَبُّهُمْ وَأَرْشَدَهُمْ، مَنْ يَتْبَعِ الحَقَّ يَرْشُدِ
وَهَلْ يَسْتَوِى ضُلَّالُ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا عَمًى وَهُدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدِي
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبٍ رِكَابُ هُدًى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعُدِ
نَبِيٌّ يَرَى مَا لاَ يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَتْلُو كِتَابَ اللهِ فِى كُلِّ مَشْهَدِ(١)
وَإِنْ قَالَ فِى يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبٍ فَتَصْدِيقُهَا فِى الْيَوْمِ أَوْ فِى ضُحَى الغَدِ
لِيَهْنِ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةُ جَدِّهِ بِصُحْبَتِهِ؛ مَنْ يُسْعِدِ اللهُ يَسْعَدِ(٢)

ومما يسئل عنه فى هذه القصة أن يقال: هل استمرت هذه البركة فى شاة أم معبد بعد ذلك اليوم، أم عادت إلى حالها الأول ؟ ففى الخبر عن هشام بن حبيش الكعبى أنه قال: أنا رأيت تلك الشاة وإنها لتؤدم أم معبد وجميع صرمها، أى أهل ذلك الماء(٣). فقد ظهر أنها استمرت.

ومر ﷺ على تَعْهِن صخرة. وروى: أن امرأة تسكن « تعهن » يقال لها: « أم عقى » فحين مر بها النبى ﷺ استسقاها فلم تسقه، فدعا عليها فمسخت صخرة، فهى تلك الصخرة. ثم مر بعبد يرعى غنمًا فاستسقاه اللبن فقال: ما عندى شاة تحلب، غير أن ههنا عَنَاقًا حملت أول، وما بقى لها لبن، فقال: ادع بها، فاعتقلها ﷺ ومسح ضرعها، ودعا حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجن فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعى، ثم حلب فشرب، فقال الراعى: من أنت ؟ فوالله ما رأيت مثلك. قال: أو تكتم علىّ حتى أخبرك ؟ قال: نعم. قال: فإنى محمد رسول الله ﷺ فقال: أنت الذى تزعم قريش أنه صابئ. فقال: إنهم ليقولون ذلك. قال: أشهد أنك نبىٌّ، وأن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبى، وأنا متبعك. قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أنى قد ظهرت فأتنا.

قال أبو بكر رضى الله عنه: ثم قلت أنى الرحيل - يعنى من المكان الذى نحن به عند الراعى المذكور - فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم إلا سراقة بن مالك المدلجى، فقلت: يا رسول الله، هذا الطلب قد لحقنا. قال: لا تحزن، إن

(١) في السبل: مسجد.
(٢) تنظر الأبيات في المصادر السابقة.
(٣) ذكره الصالحي في « سبل الهدى والرشاد » (٣/ ٢٤٥) وعزاه لابن سعد وأبي نعيم.

الله معنا. حتى إذا دنا منّا، وكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة: قلت: يا رسول الله، هذا الطلب قد لحقنا، فدعا رسول الله ﷺ فقال: الله اكفنا بما شئت فساخت قوائم فرسه إلى صدرها فى أرض صلد، فوثب عنها وقال: يا محمد، قد علمتُ أن هذا عملك، فادع الله أن ينجينى مما أنا فيه، فوالله لأعمين على من ورائى من الطلب، وهذه كنانتى فخذ منها سهمًا: فإنك ستمر بإبلى وغنمى فى موضع كذا وكذا فخذ منها حاجتك. فقال رسول الله ﷺ: لا حاجة لى فيها. فأطلق، فرجع إلى أصحابه وجعل لا يلقى أحدًا إلا قال: كفيتم، ما ههنا. فلا يلقى أحدًا إلا رده. وإن أبا جهل - لعنه الله - لما سمع قصة سراقة أنشأ هذين البيتين: [من الطويل]

بَنى مُدْلجٍ إِنِّى أَخَافُ سَفِيهَكُمْ ... سُرَاقَةَ يَسْتَغْوِى بِنَصْرِ مُحَمَّدِ
عَلَيْكُمْ بِهِ أَلاَّ يُفَرِّقَ جَمْعَكُمْ ... فَيُصْبِحَ شَتَّى بَعْدَ عِزٍّ وَسُؤْدَدِ

ولما سمع سراقة شعر أبى جهل قال: [من الطويل]

أَبَا حَكَمٍ وَاللهِ لَوْ كُنْتَ شَاهِدًا ... لِأَمْرِ جَوَادِى إِذْ تَسُوخُ قَوائِمُهْ
عَلِمْتَ وَلَمْ تَشْكُكْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا ... رَسُول بِبُرْهَانٍ فَمَنْ ذَا يُقَاوِمُهْ
عَلَيْكَ بِكَفِّ القَوْمِ(١) عَنْهُ فَإِنَّنِى ... أَرَى أَمْرَهُ يَوْمًا سَتَبْدُو مَعَالِمُهْ
بِأَمْرٍ يَوَدُّ النَّاسُ فِيهِ بِأَسْرِهِمْ ... بِأَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ طُرًّا يُسَالِمُهْ(٢)

قال الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس فى سيرته: سراقة بن مالك بن جُعشم الكنانى يكنى أبا سفيان. روى سفيان بن عيينة عن أبى موسى عن الحسن: أن رسول الله ﷺ قال لسراقة هذا بعد إسلامه وهو بالمدينة: كيف بك إذا لبستَ سوارى كسرى! فلما أتى عمر - رضى الله عنه - بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه فى وقعة القادسية، وظفر جنده رضى الله عنه بالغنيمة فأتى بذلك مع ما أتى به إليه، دعا سراقة ابن مالك هذا فألبسه السوارين(٣).

وكان سراقة رجلا أزبَّ الذراعين كثير شعرهما، وقال له: ارفع يديك وقل: الله

---

(١) في الدلائل: الناس.

(٢) وجاء هذا البيت في الدلائل هكذا:

بأمرٍ يود النصر فيه بإلبها ... لو انَّ جميع الناس طُرًّا تسالمه

ينظر دلائل النبوة (٢/ ٤٨٩).

(٣) ينظر « الشفاء » (١/ ٦٧٤)، وإتحاف السادة المتقين (٧/ ١٨).

أكبر، الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز الذى كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابيًا من بنى مدلج. فرفع صوته وقال ذلك. وكان سراقة شاعرًا مجيدًا، وهو الذى قال لأبى جهل: أبا حكم والله لو كنت شاهدًا. . . الأبيات التى ذكرناها.

روى عنه من الصحابة ابن عباس وجابر، وروى عنه سعيد بن المسيب، وابنه محمد بن سراقة، وروى لسراقة البخارى والأربعة، وجاء سراقة إلى النبى ﷺ وقال: يا رسول الله، أرأيت الضالة ترد على حوض إبلى ألى أجرٌ إن سقيتها ؟ فقال ﷺ « فى الكبد الحرَّى أجر »(١) وهو السائل عن متعة الحج ألِلأبد هى(٢)؟ توفى سنة أربع وعشرين فى خلافة عثمان رضى الله عنهما، وقيل: فى خلافة على رضى الله عنه وكرم وجهه. انتهى.

وذكر ابن إسحاق: أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال فى دخوله الغار مع النبى ﷺ، وسيرهم وطلب سراقة إياهم هذه الأبيات: [من البسيط]

قَالَ النَّبِىُّ وَلَمْ يَجْزَعْ يُوَقِّرُنِى ... وَنَحْنُ فِى سُدْفَةٍ(٣) مِنْ ظُلْمَةِ الْغَارِ
لاَ تَخْشَ شَيْئًا فَإِنَّ الله ثَالِثُنَا ... وَقَدْ تَكَفَّلَ لِى مِنْهُ بِإِظْهَارِ
وَإِنَّمَا كَيْدُ مَنْ تخْشَى بَوَادِرَه ... كَيْدُ الشَّيَاطِينِ كَادَتْهُ لِكُفَّارِ
وَاللهُ مُهْلِكُهُمْ طُرًّا بِمَا كَسَبُوا ... وَجَاعِلُ المُنْتَهَى مِنهُمْ إِلَى النَّارِ
وَأَنْتَ مُرْتَحِلٌ عَنْهُمْ وَتَارِكُهُمْ ... إِمَّا غُدُوًّا(٤) وَإِمَّا مُدْلِجٌ سَارِى
وَهَاجِرٌ أَرْضَهُمْ حَتَّى يَكُونَ لَنَا ... قَوْمٌ عَلَيْهِمْ ذَوُو عِزٍّ وَأَنْصَارِ
حَتَّى إِذَا اللَيْلُ وَارَانَا جَوَانِبُهُ ... وَسُدَّ مِنْ دُونِ مَا يُخْشَى بِأَسْتَارِ
سَارَ الأُرَيْقِطُ يَهْدِينَا وَأَيْنُقُهُ ... يَنْعَبْنَ بِالقَوْمِ نَعْبًا(٥) تَحْتَ أَكْوَارِ(٦)

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٧٥)، وابن ماجه (٣٦٨٦)، والحميدي (٩٠٢)، قال في الزوائد: في إسناده محمد بن إسحاق، وهو مدلس.
(٢) أخرجه النسائي (٥/ ١٧٩)، وابن ماجه (٢٩٧٧).
(٣) سدفة: طائفة من الليل. ترتيب القاموس (سدف).
(٤) في ط: عدو والمثبت من السبل.
(٥) فى ط: يبعثن .. بعثا . والمثبت من السبل؛ ومعناه: تمد أعناقها.
(٦) وبعده في السبل:

يعسفن عُرْضَ الثنايا بعد أَطْوَلها ... وكل سهب رقاق الترب مَوّار

حَتَّى إِذَا قُلْتُ قَدْ أَنجذنَ عَارضنا ... مِنْ مُدلج فَارِسٌ فِى مَنْصِبٍ وَارِى[(١)]
فَقَالَ كُرُّوا فَقُلْنَا إِنَّ كَرَّتَنَا ... مِنْ دُونِ ذَلِكَ نَصْرُ الخَالِقِ البَارِى
إِنْ يَخْسِفِ اللهُ[(٢)] بِالأَحْوَى وَفَارِسِهِ ... فَانظُرْ إِلَى أَرْبعٍ فِى الأَرْضِ غُوَّارِ
فَهِيلَ لَمَّا رَأَى أَرْسَاغَ مُهْرَتِهِ ... يَرْسُخْنَ فِى الأَرْضِ لَمْ تُحْفَرْ بِمِحْفَارِ
فَقَالَ هَلْ لَكُمْ أَنْ تُطْلِقُوا فَرَسِى ... وَتَأْخُذُوا مَوْثِقًا مِن[(٣)] نُصْحِ إِسْرَارِى[(٤)]
فَادْعُو الَّذِى كَفَّ عَنْكُمْ أَمْرَ غدوَتِنَا ... يُطْلِقْ جَوَادِى فَأَنْتُمْ خَيْرُ أَبْرَارِ
فَقَالَ قَوْلاً رَسُولُ اللهِ مُبْتَهِلاً ... يَارَبِّ إِنْ كَانَ يَنْوِى غَيْرَ إخفار[(٥)]
فَنَجِّهِ سَالِمًا مِنْ شَرِّ دَعْوَتِنَا ... وَمُهْره مطلق مِنْ كُلِّ آسَارِ
فَأَظْهَرَ اللهُ إِذْ يَدْعُو حَوَافِرَهُ ... وَفَازَ فَارِسُهُ مِنْ هَوْلِ أخطار[(٦)]

قلت: أنكر بعض العلماء نسبة هذا الشعر إلى الصديق رضى الله عنه، وهو كذلك، وأنا أنكره أيضًا؛ لما فيه من الركة والسماجة التى مالها حاجة. قال العارف بالله تعالى محمد بن موسى بن النعمان فى كتابه المسمى: « مصباح الظلام، فى المستغيثين بسيد الأنام، فى اليقظة والمنام »: روينا أن رسول الله ﷺ قال لحسان بن ثابت: أقلت فى أبى بكر شيئًا؟ قال: نعم. قال: قل فأسمع. فقال: [من البسيط]

إِذَا تَذَكَّرْتَ شَجْوًا مِنْ أَخِى ثِقَةٍ ... أُذْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلاَ
خَيْرَ البَرِيَّةِ أَتْقَاهَا وَأَعْدَلَهَا ... بَعْدَ النَّبِىِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلاَ
والثانِىَ التَّالِىَ المَحْمُود مَشْهَدُهُ ... وَأَوَّلَ النَّاسِ حَقًّا صَدَّقَ الرُّسُلاَ
وَثَانِى اثْنَيْنِ فِى الغَارِ المُنِيفِ وَقَدْ ... طَافَ العَدُوُّ بِهِ إِذْ صَعَّدَ الجَبَلاَ
وَكَانَ حِبَّ رَسُولِ اللهِ قَدْ عَلِمُوا ... مِنَ البَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلاَ

---

(١) وبعده في السبل:
يردي به مشرف الأقطار معتزم ... كالسِّيد ذي اللبدة المستأسد الضاري
(٢) في السبل: إن يخسف الأرض.
(٣) في السبل: في.
(٤) وبعده في السبل:
وأصرف الحيَّ عنكم إن لقيتهم ... وأن أُعوِّر منهم عين عُوَّار
(٥) في ط: إجمار. والمثبت من السبل.
(٦) ينظر الروض الأنف (٢/ ٢٣٤)، وسبل الهدى والرشاد (٣/ ٢٤٩-٢٥٠).

وخرج بهم على الساحل، ثم أجاز عسفان، ثم عارض الطريق بعد إلى أن أجاز قُديدًا، ثم سلك « الحرار »، ثم أجاز على تثنية « المرة »، ثم سلك مدلجة « لقف »، ثم استبطن مدلجة « مجلح »، ثم بطن « مرجح » من « ذى العصوين »، ثم أجاز « القاحة »، ثم هبط « العرج »، ثم أجاز فى ثنية « العائر » عن يمين ركوبه، ثم هبط « رِئم »، ثم قدم « قباء » من قبل « العالية ».

قال الذهبى: روى البخارى فى صحيحه من حديث الزهرى، عن عروة، عن عائشة، رضى الله عنها قالت: إن المسلمين بالمدينة لما سمعوا بمخرج النبى ﷺ كانوا يغدون إلى « الحرة » ينتظرونه حتى يردهم حرُّ الشمس، فركب بريدة بن الخصيب فى سبعين من بنى أسلم، وقال الزهرى: أخبرنى عروة أن الزبير كان فى ركب تجار بالشام، فقفلوا إلى مكة فعارضوا رسول الله ﷺ وأبا بكر بثياب بياض، فتلقوا رسول الله ﷺ ليلاً فقال له: من أنت ؟ قال: بريدة، فالتفت إلى أبى بكر وقال: برد أمرنا وصلح، ثم قال له: وممن ؟ قال: من أسلم، قال لأبى بكر: سلمنا. ثم قال: ممن ؟ قال من بنى سهم، قال: خرج سهمك؛ فأسلم بريدة والذين معه جميعًا.

فلما أصبحوا قال بريدة للنبى ﷺ: لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، فحل عمامته ثم شدها فى رمح، ثم مشى بين يدى النبى ﷺ، وقال: يا نبى الله، تنزل على مَن ؟ فقال: أنزل على بنى النجار، أخوال جَدِّي عبد المطلب؛ لأكرمهم بذلك، فلما أصبح غدا حيث أمر، فلما كان يوم دخوله جلسوا كما كانوا يجلسون، حتى إذا رجعنا وحميت القائلة، إذا رجل من اليهود أشرف من أطم، فرأى النبى ﷺ، فلم يملك أن صاح: يا بنى قيلة، هذا جدكم قد أقبل، أى: حظكم وسعدكم.

فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوه بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل فى بنى عمرو بن عوف على كلثوم بن الهدم، وكان شيخًا صالحًا عابدًا، يوم الاثنين من ربيع الأول، فطفق من لم يعرف النبى ﷺ يسلم على أبى بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر يظله بردائه، فعرف الناس عند ذلك رسول الله ﷺ. فلبث فى بنى عمرو بن عوف أربعين ليلة، وأسس مسجدهم. أقبل النبى ﷺ مردفًا أبا بكر وهو شيخ، يعنى فيه مبادئ الشمط، والنبى شابٌّ لا يعرف. فيلقى

الرجل أبا بكر فيقول: من هذا بين يديك ؟ فيقول: رجل يهدينى الطريق(١)، وإنما يعنى طريق الخير.

وفى « الوفاء » للعلامة السيد السمهودى رحمه الله: روى رزين عن أنس بن مالك قال: كنت إذ قدم رسول الله ﷺ المدينة ابن تسع سنين، فأسمع الغلمان والولائد يقولون: جاء رسول الله ﷺ وأبو بكر، فمكثا فى حرث فى طرف المدينة.

وفى رواية: فنزلا جانب الحرة. فأرسلا رجلاً من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار، فاستقبلهما زهاء خمسمائة رجل من الأنصار، حتى انتهوا إليهما، فنزل فى بنى عمرو بن عوف بقباء على كلثوم بن الهدم. ولرزين: نزل فى ظل نخلة، ثم انتقل إلى دار كلثوم، وفى رواية: على سعد بن خيثمة. ووجه الجمع بين الروايتين أن أول نزوله كان على كلثوم بن الهدم. ولكن عينوا له مسكنا فى دار سعد بن حيثمة يكون الناس فيه، وذلك لأن سعدًا كان عزبًا لا أهل له، ويسمى منزله منزل الغرباء.

قال المطرزى: وبيت سعد بن خيثمة أحد الدور التى قبلى مسجد قباء، وهى التى تلى المسجد فى قبلته، يدخلها الناس إذا رأوا مسجد قباء ويصلون فيها. وهناك أيضا دار كلثوم بن الهدم. وفى تلك العرصة كان رسول الله ﷺ نازلاً قبل خروجه إلى المدينة، وكذلك أهله عليه الصلاة والسلام، وأهل أبى بكر حين قدموا بعد خروج رسول الله ﷺ من مكة، وهن سودة وعائشة وأمها أم رومان، وأختها أسماء، وهى حامل بعبد الله بن الزبير، فولدت بقباء قبل نزولهم المدينة.

ونزل أبو بكر بالسنح على خبيب بن يساف، أحد بنى الحارث بن الخزرج، وقيل على خارجة بن زيد بن رهم. وعن سعد بن عبد الرحمن بن أبى رقيش عن عبد الرحمن بن زيد بن حارثة قال: نزل رسول الله ﷺ بظهر حرتنا هو وأبو بكر، ثم ركبا فأناخ على عذق عند بئر « غرس » قبل أن تبزغ الشمس. وقوله « عند بئر غرس »: الظاهر أنه تصحيف، ولعله « بئر عذق »؛ لبعد بئر غرس عن منزله ﷺ بقباء بخلاف بئر عذق.

ولما نزل النبى ﷺ وأبو بكر وعامر بن فهيرة على كلثوم قال كلثوم لمولى له: يا نجيح، أطعمنا رطبًا. فلما سمع رسول الله ﷺ بنجيح التفت إلى أبى بكر فقال:

(١) تاريخ الإسلام ص (٣٣٣- السيرة)، وأخرجه البخاري (٣٩١١) نحوه.

أنجحنا. فأتوا بقنو من أم جودان فيه رطب منصف وزهو، فقال: هذا عذق أم جودان. فقال ﷺ: « اللهم بارك فى أم جودان ». وكان لكلثوم بن الهدم مربد، وهو الموضع الذى يبسط فيه التمر لييبس، فأخذ منه ﷺ فأسسه مسجدًا. كذا فى رواية ابن زبالة وغيره.

وفى الصحيح عن عروة(١): أقام فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس مسجده الذى أسس على التقوى. وقد اختلف فى المراد بقوله تعالى ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ [التوبة: ١٠٨] فالجمهور على أن المراد به مسجد قباء، ولا ينافيه قوله ﷺ فى مسجد المدينة: « هو مسجدكم هذا »؛ إذ كل منهما أسس على التقوى.

وعن جابر بن سمرة قال: لما سأل أهل قباء النبى ﷺ أن يبنى لهم مسجدًا قال رسول الله ﷺ: « ليقم بعضكم فليركب الناقة »، فقام أبو بكر فركبها، فحركها فلم تنبعث، فرجع فقعد. فقام عمر فركبها فلم تنبعث، فرجع فقعد. فقال رسول الله ﷺ: « ليقم بعضكم فيركب الناقة » فقام على، فلما وضع رجليه فى غرز الركاب وثبت به، فقال رسول الله ﷺ « أرخ زمامها » فسارت حتى وقفت حيث المسجد اليوم، فقال: « ابتنوا على مدارها فإنها مأمورة »، ثم قال: « يا أهل قباء، ائتونى بأحجار من الحرة ». فجمعت عنده أحجار كثيرة، فخط قبلتهم، فأخذ حجرًا فوضعه، ثم قال: « يا أبا بكر، خذ حجرًا فضعه إلى جنب حجرى »، ثم قال: « يا عمر، خذ حجرًا فضعه إلى جنب حجر أبى بكر » ثم قال: « يا عثمان، خذ حجرًا فضعه إلى جنب حجر عمر »(٢).

وفى الصحيحين عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يأتى قباء راكبًا أو ماشيا(٣).

وعنه أيضًا: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من صلى فيه كان كعدل

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٦).

(٢) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٤/ ١٤) وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه يحيى بن يعلى الأسلمي وهو ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٦٩)، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة باب من أتى مسجد قباء كل سبت حديث (١١٩٣)، وباب إتيان مسجد قباء ماشيًا وراكبًا حديث (١١٩٤)، ومسلم (٢/ ١٠١٦-١٠١٧) كتاب الحج: باب فضل مسجد قباء حديث (٥١٦/ ١٣٩٩)، ومالك (١/ ١٦٧) كتاب قصر الصلاة في السفر باب العمل في جامع الصلاة حديث (٧١).

عمرة »[١]، وروى ابن زبالة أن النبى ﷺ صلى إلى الأسطوانة الثالثة فى مسجد قباء التى فى الرحبة. وعن سعيد بن عبد الرحمن قال: كان فى موضع الأسطوانة المخلقة الخارجة فى رحبة المسجد. قال ابن رقيشى: حدثنى نافع: أن عمر كان إذا جاء مسجد قباء صلى إلى الأسطوانة المخلقة. يقصد بذلك مسجد النبى ﷺ الأول. وروى ابن زبالة عن عبد الملك بن بكير عن أبى ليلى عن أبيه: أن رسول الله ﷺ صلى فى مسجد قباء إلى الأسطوانة الثالثة فى الرحبة إذا دخلت من الباب الذى بِفناء دار سعد بن خيثمة.

قال السيد السمهودى رحمه الله: الباب المذكور هو المشدود اليوم بظهر رسمه من خارج المسجد من جهة المغرب، وكان شارعًا فى الرواق الذى يلى الرحبة من السقف القبلى، فالأسطوانة الثالثة فى الرحبة هى التى عندها اليوم محراب فى رحبة المسجد؛ لانطباق الوصف المذكور عليها، فهى المرادة بقول الواقدى: كان المسجد فى موضع الأسطوانة المخلقة الخارجة فى رحبة المسجد، وهى التى كان ابن عمر يصلى إليها.

وأقام ﷺ بقباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، ثم أرسل إلى بنى النجار أخوال جده عبد المطلب، فجاءوا متقلدين سيوفهم فسلموا على النبى ﷺ وأبى بكر وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركبا يوم الجمعة، واجتمعت بنو عمرو بن عوف وقالوا: أخرجتَ ملالاً لنا، أم تريد دارًا خيرًا من دارنا ؟ قال: إنى أمرت بقرية تأكل القرى، فخلوها - أى ناقته - فإنها مأمورة. فسار حتى أدركته الجمعة فى بنى سالم، فصلاها بمن معه فى بطن الوادى وادي « ذى صلت » - وفى سيرة ابن هشام: وادى « رانوناء »، وكانوا أربعين رجلاً وقيل: مائة، وكانت هذه أول جمعة جمعها فى الإسلام حين قدم المدينة. وقيل: إنه كان يصلى الجمعة فى مسجد قباء فى إقامته هناك، على قول من قال: إنها كانت أربعين يومًا، وخطب يومئذ خطبة

---

(١) أخرجه الترمذي (٢/ ١٤٥-١٤٦) كتاب الصلاة باب ماجاء في الصلاة في مسجد قباء حديث (٣٢٤) من حديث أسيد بن ظهير الأنصاري وقال الترمذي: حديث حسن غريب ولا نعرف لأسيد بن ظهير شيئًا يصح غير هذا الحديث، وأخرجه أيضًا الحاكم (١/ ٤٨٧)، والبغوي في « شرح السنة » (٢/ ١٠٩)، وينظر كلام الشيخ أحمد شاكر حول هذا الحديث في سنن الترمذي (٢/ ١٤٦).

بليغة - يعنى فى بنى سالم - وهى أول خطبة خطبها عليه السلام فى الإسلام[١].

وروى عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحى أنه بلغه عن خطبة رسول الله ﷺ فى أول جمعة صليت فى المدينة فى بنى سالم بن عوف أنها هى هذه: « الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادى من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسل بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى وفرط، وضل ضلالا بعيدًا.

أوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم أخاه أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك ذكر، وإن تقوى الله - لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربه - عون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمره فى السر والعلانية - لا ينوى بذلك إلا وجه الله - يكن له ذخرًا فى عاجل أمره، وذخرًا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى مايقدم. وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد، والذى صدق قوله وأنجز وعده ولا خلف لذلك؛ فإنه يقول: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩] فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله فى السر والعلانية؛ فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا، ومن يتق الله فقد فاز فوزًا عظيمًا. وإن تقوى الله تُوَقِّى مقته وعقوبته وسخطه، وتبيض الوجوه، وترضى الرب، وترفع الدرجة.

خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله؛ فقد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله؛ ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا فى الله حق جهاده، وهو اجتباكم وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة، ولا قوة إلا بالله. وأكثروا ذكر الله. ثم اعلموا أنه خير من الدنيا وما فيها، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه ما بينه وبين الناس، وذلك بأن الله يقضى الحق على الناس ولا يقضون

(١) ينظر السيرة النبوية (٢/ ١٣٦)، وسبل الهدى والرشاد (٣/ ٣٣١).

عليه، ويملك من الناس ولا يملكون عليه، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم »[١].

ثم ركب ﷺ ناقته « القصوى »، والناس عن يمينه وشماله وخلفه، منهم الراكب ومنهم الماشى، فاعترضه الأنصار فلا يمر بدار إلا قالوا: هلمَّ إلى العز والمنعة والثروة. فيقول لهم خيرًا ويدعو لهم ويقول: إنها مأمورة خلوا سبيلها، فمر ببني سالم فقام إليه عتبان بن مالك ونوفل بن عبد الله بن مالك والعجلان، وهو آخذ بزمام راحلته يقول: يا رسول الله، انزل فينا فإن فينا العدة والعدد والحلقة - يعنى السلاح- ونحن أصحاب الفضاء والحدائق والدرك يا رسول الله. كان الرجل من العرب يدخل هذه البحرة خائفًا فيلجأ إلينا فنقول: توقل[٢] حيث شئت. فجعل عليه الصلاة والسلام يبتسم ويقول: خلوا سبيلها؛ فإنها مأمورة[٣].

وقام إليه عبادة بن الصامت ونضلة بن العجلان فجعلا يقولان: يا رسول الله، انزل فينا. فيقول: إنها مأمورة. ثم أخذ عن يمين الطريق حتى جاء بنى « الحبلى » وأراد أن ينزل على عبد الله بن أبىّ بن سلول. فلما رآه وهو عند مزاحم - اسم لأطم- محتبيًا قال عبد الله بن أبىّ: اذهب إلى الذين دعوك فانزل عليهم. فقال سعد ابن عبادة: يا رسول الله، لا تجد فى نفسك من قوله، فقد قدمتَ علينا والخزرج تريد أن تملكه علينا، وإنهم لينظمون له الودع ليتوجوه.

قلت: وهذا عبد الله وهو رأس المنافقين، ورأس أهل الإفك المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١] مات على كفره ونفاقه لعنه الله تعالى. ثم قال سعد بن عبادة: ولكن هذه دارى. فمر ببنى ساعدة فقال له المنذر بن عمرو وأبو دجانة: يا رسول الله، إلى العدد والثروة والقوة والجلد، وسعد ابن عبادة يقول: ليس فى قومى أكثر عذقًا ولا أوسع فم بئر مع الثروة والعدد والحلقة. فيقول عليه الصلاة والسلام: بارك الله عليكم. ويقول: يا أبا ثابت، خل سبيلها؛ فإنها مأمورة.

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٢٥٥)، وذكره الصالحي في سبل الهدى والرشاد (٣/ ٣٣١-٣٣٢).

(٢) توقَّل: يقال توقل في الجبل: صعد فيه، ويقال: توقل في مصاعد الشرف. ينظر: الوسيط (وقل).

(٣) تقدم تخريجه.

ثم مر ببنى عدى بن النجار أخوال جده عبد المطلب، فقام إليه أبو سليط وصرمة ابن أبى أنيس فقالا: يا رسول الله، نحن أخوالك، هلم إلى العدد والمنعة والقوة مع القرابة، لا تجاوزنا إلى غيرنا، ليس أحد من قومنا أولى بك منا لقرابتنا لك. فقال: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة. فسارت حتى استناخت فى موضع المسجد، فلم ينزل عن ظهرها، فقامت ومشت قليلاً وهو ﷺ لا يهيجها. ثم التفتت فكرت راجعة إلى مكانها الأول وبركت به ووضعت جرانها على الأرض، فنزل عنها، فأخذ أبو أيوب الأنصارى رحلها فحمله إلى داره، ونزل النبى ﷺ فى بيت من دار أبى أيوب، ثم دعته الأنصار إلى النزول عليهم فقال ﷺ: « المرء حيث رحله »، فمضت كلمته عليه الصلاة والسلام مثلاً(١).

ولما بركت الناقة خرجن جوارى بنى النجار يضربن الدفوف ويقلن: [من الرجز]

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِى النَّجَارِ   يَا حَبَّذَا مُحَمَّد مِنْ جَارِ

قلت: أبو أيوب اسمه خالد بن يزيد - أو زيد - هو من بنى النجار، أخوال جده عبد المطلب. فقال لهن النبى ﷺ: أتحببنني ؟ قلن: نعم يا رسول الله. قال: والله وأنا أحبكن. قالها ثلاثًا(٢).

وعن أفلح مولى أبى أيوب: أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه، نزل أسفل وأبو أيوب فى العلو، فانتبه أبو أيوب فبات ليله لم ينم فقال: نمشى فوق رسول الله ﷺ! فتحوّل هو وأهله فى جانب. فلما أصبح ذكر ذلك للنبى ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: « الأسفل أرفق بى »، فقال أبو أيوب: لا أعلو سقيفة أنت تحتها. فتحول أبو أيوب إلى السفل والنبى ﷺ إلى العلو(٣)، وأقام ﷺ فى دار أبى أيوب سبعة أشهر بتقديم السين.

قال فى « الروض الأنف »: منزل أبى أيوب الذى نزل فيه رسول الله ﷺ تصير بعده إلى أفلح مولى أبى أيوب، فاشتراه منه - بعد ما خرب وتثلمت حيطانه -

---

(١) ينظر « السيرة النبوية » (٢/ ١٣٦-١٣٨).

(٢) ذكره الصالحي في سبل الهدى والرشاد (٣/ ٢٧٤)، وعزاه للحاكم وأبي سعد النيسابوري. وينظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٠٠).

(٣) أخرجه ابن إسحاق في « السيرة » (٢/ ١٤٠-١٤١) حدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني عن أبي رهم السماعي عن أبي أيوب به.

المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار بحيلة احتالها عليه المغيرة، ثم أصلح المغيرة ما وهى من البيت، وتصدق [به] على أهل بيت من فقراء المدينة، فكان بعد ذلك أفلح يقول للمغيرة: خدعتنى، فيقول له المغيرة: لا أفلح من ندم(١). انتهى.

وهى فى شرقى المسجد المقدس. ثم بيعت فاشتراها الملك المظفر لشهاب الدين غازى، ابن الملك العادل، سيف الدين بن أبى بكر بن شادى مع عرصة الدار، وبناها مدرسة للمذاهب الأربعة تعرف اليوم بـ « مدرسة الشهابية ». ومن إيوان قاعتها الصغرى خزانة صغيرة جدًا، مما يلى القبلة فيها محراب يقال إنه مبرك ناقته ﷺ، وذلك على رواية أنها بركت عند دار أبى أيوب رضى الله عنه.

قال ابن إسحاق: إن هذا البيت بناه تُبّع الأول لما مر بالمدينة للنبى ﷺ ينزله إذا قدم المدينة، فتداول البيت الملاك إلى أن صار إلى أبى أيوب، وهو من ذرية الحبر الذى أسلمه تبع كتابه للنبى ﷺ، فلم يزل ساكنًا عند أبى أيوب حتى بنى مسجده وحجرة فى المربد(٢).

قال فى « المواهب »: لما أراد النبى ﷺ بناء المسجد الشريف قال: يا بنى النجار، ثامنونى بحائطكم. قالوا: لا نطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى، فأبى ذلك وابتاعه بعشرة دنانير أداها من مال أبى بكر. قال أنس: وكان فى مواضع نخل وخرب ومقابر مشركين، فأمر بالقبور فنبشت وأخرج منها العظام، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطعت، ثم أمر باتخاذ اللبن فاتخذه وبنى المسجد، وسقفه بالجريد، وجعلت عمده خشب النخل، صف النخل، فنصب فى قبلة المسجد، أى: جعله سوارى فى جهة القبلة ليسقف عليها، وجعل عضادتيه حجارة، وجعل قبلة المسجد المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب: بابًا فى آخره يقال له: باب الرحمة، والباب الذى يدخل منه، وجعل طوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وفى الجانبين مثل ذلك أو دونه، وجعل أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع، وبنى بيوتًا إلى جانبه باللبن، وسقفها بجذوع النخل والجريد. فلما فرغ من بنائه بنى لعائشة فى البيت

(١) ينظر الروض الأنف (٢/ ٢٤٩).
(٢) ينظر السيرة النبوية (٢/ ١٤٠).

الذى يليه شارعًا إلى المسجد، وجعل سودة بنة زمعة فى البيت الآخر الذى يليه، أى: الباب الذى يلى آل عثمان. ثم تحول من دار أبى أيوب إلى مساكنه التى بناها.

قال البلاذرى: نزل رسول الله ﷺ عند أبى أيوب، ووهبت له الأنصار كل فضل كان فى خططها، وقالوا: خذ منا منازلنا. فقال لهم خيرًا. وكان أبو أمامة أسعد بن زرارة يجمع بمن يليه فى مسجد له، فكان عليه الصلاة والسلام يصلى بهم فيه، ثم إنه سأل أسعد أن يبيعه أرضًا متصلة بذلك المسجد، وهى مربد التمر، كانت فى يده ليتيمين فى حجره يقال لهما: سهل وسهيل، ابنى رافع بن عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، وكان مسجد أسعد الذى بناه جدارًا مجدرًا ليس عليه سقف، وقبلته إلى القدس(١).

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت: بنى رسول الله ﷺ مسجده فضرب اللبن وعجن الطين وقرب ما يحتاجون إليه، فقام عليه الصلاة والسلام فوضع رداءه، فلما رأى ذلك المهاجرون والأنصار وضعوا أرديتهم وجعلوا يرتجزون فيقولون: [من الرجز]

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِىُّ يَعْمَلُ ... ذَاكَ إِذَنْ لَعَمَلٌ مُضَلَّلُ(٢)

قال فى المواهب: وروينا أنه ﷺ كان ينقل معهم اللبن فى ثيابه ويقول وهو ينقل: [من الوسيط]

هَذَا الحِمَالُ لاَ حِمَالُ خَيْبَرْ ... هَـذَا أَبَـر ربـنَـا وأَطْـهَـرْ

اللهمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ ... فَـارْحَـمِ الأَنْصَـارَ وَالـمُـهَـاجِرَهْ

قال: قال ابن شهاب: ولم يبلغنا أن رسول الله ﷺ تكلم ببيت شعر غير هذا. وقيل: إن الممتنع عليه إنشاء الشعر لا إنشاده. ولا دليل على منع إنشاده متمثلاً. وقوله « هذا الحمال » هو بالحاء المهملة، أى: المحمول من اللبن، أبر عند الله من حمال خيبر، أى الذى يحمل منها من التمر والزبيب ونحو ذلك. وفى رواية المستملى بالجيم. انتهى.

وعن الزهرى: وكان عثمان بن مظعون رجلاً متنظفًا، فكان يحمل اللبنة فى ثوبه، فإذا وضعها نفض كمه ونظر إلى ثوبه، فإن أصابه شىء من التراب نفضه، فنظر إليه

---

(١) ينظر أنساب الأشراف (١/٢٦٦، ٢٧٦) بمعناه.

(٢) ذكره الصالحي في سبل الهدى والرشاد (٣/٣٣٦) وعزاه لمحمد بن الحسن المخزومي.

على بن أبى طالب فأنشأ يقول: [من الرجز]

لاَ يَسْتَوِى مَنْ يَعْمُرُ المَسَاجِدَا يَدْأَبُ فِيهَا قَائِمًا وَقَاعِدَا
وَمَنْ يُرَى عَنِ التُّرَابِ حَائِدَا

فسمعها عمار بن ياسر فجعل يرتجز بها وهو لا يدرى من يعنى بها، فمر بعثمان ابن مظعون، فقال له: يابن سمية بمن تعرّض وتشتمه، لتكفن أو لأعترضن بها وجهك - لحديدة كانت بيده - فسمعه النبى ﷺ وهو جالس فى ظل بيت أم سلمة فغضب، ثم قال الصحابة لعمار: إن النبى ﷺ قد غضب فيك، ونخاف أن ينزل فينا قرآن، فقال: أنا أرضيه كما غضب. فقال: يا رسول الله، مالى ولأصحابك، قال: مالك ولهم ؟ قال: يريدون قتلى؛ يحملون لبنة لبنة ويحملون علىَّ اللبنتين والثلاث. فأخذ بيده فطاف به فى المسجد، وجعل يمسح وفرته بيده من التراب ويقول: يابن سمية لا يقتلك أصحابى، ولكن تقتلك الفئة الباغية(١) وقال ابن إسحاق: وسألت غير واحد من أهل العلم بما يشعر عن هذا الرجز، يعنى قوله « لا يستوى . . . إلى آخره .

فقالوا: بلغنا أن على بن أبى طالب ارتجز به، فلا ندرى أهو قائله أم غيره(٢)، وإنما قال علىّ ذلك مطايبة ومباسطة كما هى عادة الجماعة إذا اجتمعوا على عمل، وليس ذلك طعنًا منه على عثمان بن مظعون.

وفى الصحيح: كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين، فقال عليه الصلاة والسلام: « ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » فيقول عمار: أعوذ بالله من الفتن(٣). فقتل عمار فى حرب معاوية بصفين تحت راية على، رضى الله عنه وكرم وجهه.

وعن أسامة عن أبيه قال: كان الذين أسسوا المسجد جعلوا طوله مائة ذراع والعرض مثله أو دونه(٤) كما تقدم ذكر ذلك. وروى رزين عن جعفر بن محمد عن

---

(١) ينظر سبل الهدي والرشاد (٣/ ٣٣٦)، والسيرة النبوية (٢/ ١٣٩).
(٢) ينظر السيرة النبوية (٢/ ١٣٩).
(٣) أخرجه البيهقي في « الدلائل » (٢/ ٥٤٦) وأصله عند مسلم رقم (٢٩١٥)، والترمذي (٣٨٠٠).
(٤) ذكره الصالحي في سبل الهدى وعزاه إلى يحيى بن الحسن، وينظر سبل الهدى والرشاد (٣/ ٣٣٨).

أبيه، قال: بناء مسجده عليه الصلاة والسلام لبنة لبنة ثم بالسعيدة لبنة ونصف أخرى، ثم كثروا فقالوا: يا رسول الله، لو زيد فيه، ففعل، فبنى بالذكر والأنثى، وهما لبنتان مختلفتان. وقال: رفعوا أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع بالحجارة ولم يسطح، فشكوا الحر، فجعلوا خشبه وسواريه جذوعًا، وظللوه بالجريد ثم بالخصف، فلما وكف عليهم المطر طينوا عليه بالطين. وكان جداره قبل أن يظلل قامة وشيئًا، وجعل وسطه رحبة. وبنى بيتين لزوجتيه عائشة وسودة على نعت بناء المسجد من لبن وجريد، وكان باب عائشة مواجه الشام، وكان بمصراع واحد من عرعر أو ساج.

ولما تزوج عليه الصلاة والسلام أزواجه بنى لهن حجرًا وهن تسعة أبيات. قال أهل السير: ضرب عليه الصلاة والسلام بيوتهن ما بين بيت عائشة وبين القبلة والشرق إلى الشام، ولم يضربها فى غربيه، وكانت خارجة من المسجد مديرة به، إلا من المغرب فكانت أبوابها شارعة فى المسجد. وعن محمد بن هلال: أدركت بيوت أزواجه عليه الصلاة والسلام من جريد، مستورة بمسوح الشعر، مستطيرة إلى القبلة والشرق والشام، ليس فى غربى المسجد منها شىء.

وفى « دلائل النبوة »: قال محمد بن عمر: كانت لحارثة بن النعمان منازل قرب المسجد وحوله، فلما أحدث عليه الصلاة والسلام أهلاً تحول له حارثة عن منزله، حتى صارت كلها لرسول الله ﷺ. وكان فى المسجد موضع مظلل تأوى إليه المساكين يسمى « الصُّفَّة »، وكان عليه الصلاة والسلام يدعوهم بالليل فيفرقهم على أصحابه، وتتعشى طائفة منهم معه عليه الصلاة والسلام.

قال الحافظ الذهبى: إن القبلة - قبل أن يحول استقبال بيت المقدس إلى الكعبة- كانت فى شمالى المسجد، فلما حولت القبلة إلى الكعبة بقى حائط المسجد الأول مكان أهل الصفة. وقال الحافظ ابن حجر: الصُّفَّةُ مكانٌ مؤخَرَ المسجد، مظلل، أعد لنزول الغرباء ومن لا مأوى له، فكانوا يكثرون فيه تارة ويقلون أخرى، بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر.

وقد سرد أسماءهم أبو نُعيم فى كتابه المسمى بـ « الحلية » فزادوا على المائة.

وكان المسجد على هذه الهيئة فى عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر، فزاد فيه عمر بن

الخطاب مائتى ذراع من جهة الشام فقط سنة ١٧ فوسعه، ولم يغير شيئًا؛ بل بناه على ما بنى فى عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد، ثم وسعه عثمان، ثم وسعه عمر ابن عبد العزيز بأمر الوليد سنة ٩٣، ثم زاد فيه المهدى مائة ذراع من جهة الشام فقط سنة ١٦١، ثم جدده المأمون وزاد فيه وذلك سنة. . . .، ثم الملك الأشرف قايتباى عمارة لا غير سنة ٨٨٨، وإلى يومنا هذا بناؤه، كما سيأتى إن شاء الله تعالى.

ويقال: إنه ﷺ لم يقم فى قباء إلا أربعة عشر يومًا وقيل: ثمانية عشر، ولحقه بها بعد ثلاث علىّ بن أبى طالب، وكان قد تخلف عنه بمكة لرد ودائع وأمانات كانت للناس عند رسول الله ﷺ، وفاطمة بنت أسد والدته، وفاطمة ابنة عمه حمزة، رضوان الله عليهم أجمعين.

* * *

الباب الثالث
من المقصد الثانى
فى ذكر أعمامه - عليه الصلاة والسلام - وأولادهم، وعماته وأولادهن.

قال العلامة ابن الجوزى فى « التلقيح »[(١)]: كان عليه الصلاة والسلام له اثنا عشر عمًّا بنو عبد المطلب، أبوه عبد الله ثالث عشرهم: عبد الله، أبو طالب، الزبير، حمزة، حَجْل، المقوَّم، العوام، ضِرار، العباس، الحارث، قُثم، أبو لهب، مصعب. وقيل: نوفل الملقب بالغيداق. وقال العلامة شمس الدين عبد الدائم بن شرف الدين موسى العسقلانى البرماوى رحمه الله: اثنا عشر فعدهم: الحارث أول أولاد عبد المطلب وبه كان يكنى فيقال: يا أبا الحارث، وأبو طالب، والزبير، وعبد الكعبة، والمقوم، وحَجْل - واسمه المغيرة - والغيداق، وقُثم مات صغيرًا، وضِرار، وأبو لهب - واسمه عبد العزى - وحمزة، والعباس، وهما اللذان أسلما من أعمامه.

وقال العلامة الطبرى فى كتابه « ذخائر العقبى، فى مناقب ذوى القربى »: أولاد عبد المطلب ثلاثة عشر: عبد الله والد رسول الله ﷺ، والحارث، وأبو طالب واسمه عبد مناف، والزبير، وحمزة، وأبو لهب واسمه عبد العزى، والغيداق، والمقوم، وضرار، والعباس، وقثم، وعبد الكعبة، وجحل بتقديم الجيم وهو السقاء الضخم. وقال الدارقطنى: بتقديم الحاء مكسورة قبل الجيم الساكنة، وهو القيد والخلخال، ويسمى المغيرة. وقيل: كانوا اثنى عشر فأسقط المقوم، وقيل: هو لقب عبد الكعبة. وقيل: كانوا أحد عشر فأسقط الغيداق وحجل، وقيل: عشرة، وقيل: تسعة، كلهم ماتوا قبل البعثة إلا أربعة: أبو طالب وأبو لهب والحمزة والعباس، أسلم الأخيران بلا خلاف واختلف فى إسلام أول الأولين. وست عمات: البيضاء بنت عبد المطلب تكنى بأم حكيم، ودرة، وعاتكة، وأروَى، وأمية، وصفية. وسيأتى ذكرهن وذكر من ولدن، بعد ذكر الذكور من أبنائه وأبنائهم قريبًا[(٢)].

---

(١) ينظر: تلقيح فهوم أهل الأثر (١٥-١٧). وفي عبارة ابن الجوزي اختلاف، وينظر: زاد المعاد (١/ ١٠٤).

(٢) وينظر التلقيح (١٨)، وزاد المعاد (١/ ١٠٤-١٠٥).

ولنذكر أعمامه جميعًا، ونبدأ بتقديم حمزة والعباس على غيرهما، وإن كان أكبر كالحارث بن عبد المطلب، فإنه - كما تقدم - أكبر أولاد عبد المطلب، لأن الإسلام قدمهما فنقول: أما حمزة فأمه هالة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، أسلم فى السنة الثانية من البعث بعد دخوله عليه الصلاة والسلام دار الأرقم، وقبل إسلام عمر رضى الله عنه بثلاثة أيام، وكان أعز فتى فى قريش وأشده شكيمة، فعزَّ به رسول الله ﷺ، وكفت عنه قريش قليلًا من أذاها، فقال حين أسلم هذه الأبيات: [من الوافر]

حَمِدتُ اللهَ حينَ هَدَى فُؤَادِي ... إلَى الْإِسْلَامِ وَالدِّينِ الْحَنِيفِ
لِدِينٍ جَاءَ مِنْ رَبٍّ عَزِيزٍ ... خَبِيرٍ بِالْعِبَادِ بِهِمْ لَطِيفِ
إِذَا تُلِيَتْ رَسَائِلُهُ عَلَيْنَا ... تَحَدَّرَ دَمْعُ ذِى اللبِّ الْحَصِيفِ
رَسَائِلُ جَاءَ أَحْمَدُ منْ هدَاهَا ... بِآيَاتٍ مُبَيَّنَةِ الحُرُوفِ
وَأَحْمَدُ مُصْطَفًى فِينَا مُطَاعٌ ... فَلَا تَغْشُوهُ بِالْقَلْبِ الْعَنِيفِ(١)
فَلَا واللهِ نُسْلِمُهُ لِقَوْمٍ ... وَلَمَّا نَقْضِ فِيهِمْ بِالسُّيُوفِ(٢)

وشهد بدرًا وقتل بها شيبة بن ربيعة مبارزة. وأول راية عقدها النبى ﷺ كانت لحمزة فى أول سرية بعثها؛ أرسله يعترض عيرًا لقريش فيها أبو جهل بن هشام، فلما تصافُّوا حجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى، كما سيأتى ذكر ذلك فى باب: الحوادث من سنة هجرته إلى وفاته ﷺ. وقال عليه الصلاة والسلام: « خير أعمامى حمزة » رواه الحافظ الدمشقى.

وقصة سبب إسلامه ذكرها صاحب « تاريخ الخميس » وغيره، وهى أنه ﷺ كان جالسًا عند الصفا، فمر به أبو جهل - لعنه الله - فشتمه وآذاه، وقال فيه ما يكره من

(١) في السبل: فلا تغسوه بالقول الضعيف. وتغشوه: يقال: غشيه بالسوط، أي: ضربه، ولعل المعنى: لا تؤذوه. ترتيب القاموس (غشو).
(٢) ينظر الشعر في سبل الهدى والرشاد (٢/ ٣٣٣)، والروض الأنف (٢/ ٤٩، ٥٠). وزاد بعد هذه الأبيات في السبل (٢/ ٣٣٣):

ونترك منهم قتلى بقاع ... عليها الطير كالورد العُكُوف
وقد خُبِّرْتَ ما صنعت ثقيف ... به فجزى القبائل من ثقيف
إله الناس شرَّ جزاءِ قومٍ ... ولا أسقاهُمُ صوب الخريف

العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، ومولاة لعبد الله بن جُدعان القرشى التيمى فى مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف أبو جهل عنه فعمد إلى نادى قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحًا قوسه راجعًا من قنصه، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لا يمر على نادٍ من أندية قريش إلا وقف وسلم. فلما مر بالمولاة - وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته - قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت اليوم ما لقى ابن أخيك من أبى الحكم بن هشام؛ وجده فآذاه وسبه، وبلغ به ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد. فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله تعالى به من كرامته، فخرج يسعى لم يقف على أحد مُغذًا لأبى جهل أن يوقع به فعلًا.

فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا فى القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة عظيمة فقال: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فاردد علىَّ ذلك إن استطعت، فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنى والله سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا. وتم حمزة على إسلامه ومتابعة النبى ﷺ. فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه ﷺ، وأنشد حمزة تلك الأبيات السابقة(١).

وكان إسلام حمزة يوم ضُرب أبو بكر، وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ لما اجتمعوا فى دار الأرقم وكانوا تسعة وثلاثين رجلًا، ألحَّ أبو بكر على رسول الله ﷺ فى الظهور، فقال: يا أبا بكر، إنا قليل، فلم يزل يلحُّ عليه حتى ظهر رسول الله ﷺ فى نواحى المسجد، وقام أبو بكر فى الناس خطيبًا ورسول الله ﷺ جالس، وكان أول خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله، فثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين يضربونهم فى نواحى المسجد ضربًا شديدًا ووُطىء أبو بكر وضرب ضربًا شديدًا، ودنا منه عتبة بن ربيعة وأدخل إصبعه فى عينه، وجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما بوجهه، وأثر ذلك على وجه أبى بكر رضى الله عنه حتى صار لا يعرف.

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (١/ ٣٢١-٣٢٢)، شرح المواهب (١/ ٢٥٥)، تاريخ الإسلام (٢/ ١٧٠)، عيون الأثر (١/ ١٠٤)، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٣٣٢-٣٣٣).

وجاءت بنو تيم تتعادى، فأجلوا المشركين عن أبى بكر، وحمل أبو بكر فى ثوب حتى أدخلوه بيته ولا يشكون فى موته، فرجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن قتل أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، ورجعوا إلى أبى بكر، وجعل أبوه أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجابهم آخر النهار فقال: ما فعل برسول الله ﷺ؟ فقالوا لأم الخير: انظرى تطعمينه شيئًا أو تسقينه إياه. فلما خلت به وألحت عليه جعل يقول: ما فعل برسول الله ﷺ ؟ قالت: والله مالى علم بصاحبك. قال: فاذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت إلى أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسأل عن محمد ﷺ، قالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمدًا، وإن تحبى أن أمضى معك إلى ابنك. فقالت: نعم. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دنفًا، فرنت أم جميل وأعلنت بالصياح، وقالت: إن قومًا نالوا منك هذا لأهل فسق، وإنى لأرجو أن ينقم الله لك.

قال: ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قالت: هو صالح سالم. قال: فأنى هو ؟ قالت: فى دار الأرقم. قال: فإن لله على ألا أذوق طعامًا ولا شرابًا أو آتى رسول الله ﷺ. فأمهلنا حتى هدأت الرجل، وسكن الناس، خرجنا به يتكىء حتى أدخلناه على النبى ﷺ. فأكب عليه فقبله وأكب عليه المسلمون، ورقَّ رسول الله ﷺ عليه رقة شديدة. فقال أبو بكر رضى الله عنه: بأبى أنت وأمى، ليس بى إلا ما نال الفاسق من وجهى، وهذه امرأة برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله تعالى، وادع لها عسى أن يستنقذها الله بك من النار، فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله عز وجل فأسلمت.

وأقاموا على رسول الله ﷺ شهرًا وهم تسعة وثلاثون رجلًا، فأسلم حمزة ذلك اليوم ورجع[1]، وكان له من الولد ذكران وأنثى: عمارة وبه يكنى، ويَعلى. وكان - أيضًا - يكنى به قليلًا ولم يعقبا، والأنثى: فاطمة، تزوجها عمرو بن سلمة المخزومى، ربيبه عليه الصلاة والسلام، ابن أم سلمة زوجته عليه الصلاة والسلام، وأمها زينب بنت عميس، أخت أسماء بنت عميس واستشهد حمزة رضى الله عنه فى

(١) ذكر هذه القصة بطولها الصالحي في « سبل الهدي والرشاد » (٢/ ٣١٩-٣٢٠) وعزاه إلى أبي الحسن سليمان بن خيثمة الأطرابلسي عن عائشة.

وقعة أحد؛ قتله وحشى، غلام لجبير بن مطعم بن عدى، وعده العتق على قتله حمزة عم النبى ﷺ بعمه طعمة بن عدى، فقتله غيلة لا مبارزة.

وعن سعيد بن المسيب كان يقول: « كنت أعجب لقاتل حمزة؛ كيف ينجو حتى أنه مات غريقًا فى الخمر » رواه الدارقطنى على شرط الشيخين. وقال ابن هشام: بلغنى أن وحشيًّا لم يزل يُحد فى الخمر حتى خلع من الديوان. وكان عمر يقول لقد علمت أن الله لم يكن ليدع قاتل حمزة(١). ولما رأى ﷺ حمزة قتيلاً بكى، فلما رأى ما مثل به شهق. وذلك أن هند ابنة عتبة بن ربيعة لما قتل أباها وعمها وأخاها: أبو عبيدة بن الحارث وحمزة وعلى مبارزة لم تزل هى والنسوة اللاتى كن معها يوم أحد يجدعن آناف القتلى وآذانهم، ونظمت من ذلك أساور ومخانق وخلاخل، وأعطت أساورها ومخانقها وخلاخلها لوحشى، ثم عمدت إلى بطن حمزة فشقتها وأخرجت كبده فلاكتها، فلم تستطع سيغها فلفظتها، ثم علت على صخرة مشرفة ثم أنشدت: [من الرجز]

نَحْنُ جَزَيْنَاكُمْ بِيَوْمِ بَدْرِ وَالحَرْبُ بَعْدَ الحَرْبِ ذَاتُ سُعْرِ
مَا كَانَ عَنْ عُتْبَةَ لِى مِنْ صَبْرِ وَلاَ أَخِى وَعَمِّهِ وَبِكْرِى
[شَفَيت نَفْسِى وَقضيت نَذْرى](٢) شَفَيْتَ وَحْشِيُّ غَلِيلَ صَدْرِى
فَشُكْر وَحْشِيٍّ عَلَيَّ عمري حَتَّى ترمَّ أَعظُمِي فى قَبْرِى

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب فقالت: [من الرجز]

خُزِيتِ فِى بَدْرٍ وبعد(٣) بَدْرِ يَا ابْنَةَ وَقَّاعٍ عَظِيمِ الْكُفْرِ
صَبَّحكِ اللهُ غَدَاةَ الْفَجْرِ فِى الهاشِمِّيينَ الطِّوالِ الغُرِّ
بِكُلِّ قَطَّاعٍ حُسَامٍ يَفْرِى حَمْزَةُ لَيْثِى وَعَلِىٌّ صَقْرِى
إِذْ رَامَ شَيْبٌ وَأَبُوكِ غَدْرِى فَخَضَّبَا مِنْهُ ضَوَاحِى النَّحْرِ
وَنَذْرُكِ السُّوءُ فَشَرُّ نَذْرِ

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٣/ ٣٦). ينظر: السيرة النبوية (٣/ ٥٣-٥٤)، وأسد الغابة (٥/ ٥٥٩)، والاستيعاب (٤/ ٤٢٢)، ونهاية الأرب (١٧/ ١٠١)، والروض الأنف (٣/ ١٦٩).
(٢) المثبت من الروض.
(٣) في ط: ويوم. والمثبت من الروض.

وقد ذكرها ﷺ بذلك حين أسلمت وبايعت يوم فتح مكة فقال: أنت هند ؟ فبايعته بيعة النساء المشار إليها فى الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الممتحنة : ١٢] إلى آخر الآية كما تقدم ذكر جميع ذلك. وعن أبى هريرة: وقف عليه الصلاة والسلام على حمزة وقد قتل ومثل به، فلم ينظر منظرًا كان أوجع لقلبه منه. رواه أبو عمرو وصاحب الصفوة(١).

وعن ابن شاذان من حديث ابن مسعود: ما رأينا رسول الله ﷺ باكيًا قط أشد من بكائه على عمه حمزة بن عبد المطلب، وضعه فى القبلة ثم وقف على جنازته، وانتحب حتى نشغ من البكاء يقول: يا حمزة، يا عم رسول الله وأسد رسول الله، يا حمزة يا فاعل الخيرات، يا حمزة يا كاشف الكربات، يا ذابًّا عن وجه رسول الله- والنشغ: الشهيق - حتى بلغ به الغشى. ثم قال: لئن أمكننى الله تعالى لأمثلن بسبعين من قريش. فأنزل الله تعالى عليه آخر سورة النحل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦] إلى آخر السورة. فقال ﷺ: اللهم إنى أصبر وأحتسب عندك مصيبتى.

وقوله تعالى فى الآية ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل : ٧٠] قيل: لاتحزن على هؤلاء القتلى؛ فإنهم شهداء الدارين، أو: لا تحزن على عدم إيمان قريش؛ فيكون الضمير لهم، قيل: وهو الأولى؛ لأنه هو الذى يقتضيه ما بعده وهو ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل : ٧٠] لعدم تفرق الضميرين على الثانى دون الأول. قاله بعض محشى البيضاوى.

وصلى عليه فكبر سبعين تكبيرة، رواه البغوى فى معجمه. وقد روى أنس بن مالك: أن شهداء أحد لم يغسلوا، ودفنوا بدمائهم، ولم يصل عليهم(٢)، أخرجه

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٩)، والبزار (٢/ ٣٢٦-٣٢٧) رقم (١٧٩٥)، والحاكم (٣/ ١٩٧)، والبيهقي في « الدلائل » (٣/ ٢٨٨) عن أبي هريرة. وقال الهيثمي في « المجمع » (٦/ ١٢٢): رواه البزار والطبراني وفيه صالح بن بشير المري وهو ضعيف. وذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٤/ ٢٥٥) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن مردويه. وعزاه الحافظ أيضا في الإصابة (٢/ ١٠٦) إلى الغيلانيات.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨)، وعبد بن حميد (١١٦٤)، وأبو داود (٣١٣٦)، والترمذي (١٠١٦) من طريق الزهري عن أنس مطولاً، وأخرجه أبو داود (٣١٣٥) من نفس الطريق مختصرًا.

أحمد وأبو داود، فيحمل أمر حمزة على التخصيص.

وكان سن حمزة يوم قتل تسعًا وخمسين سنة، ودفن هو وابن أخته عبد الله بن جحش فى قبر واحد فى سفح أحد حيث الوقعة، رضى الله عنه، وكان له من الولد عمارة، أمه خولة بنت قيس بن فهر النجارى، ويعلى. قال مصعب: لم يعقب واحد منهما، ولم يحفظ عن أحد منهما رواية. وولد ليعلى خمسة رجال وماتوا عن غير عقب. وابنة اسمها فاطمة - وقيل اسمها أمامة - من زينب بنت عميس الخثعمية، تزوجها عمر بن أبى سلمة، عبد الله بن عبد الأسد المخزومى، ربيب رسول الله ﷺ، ابن زوجته أم سلمة، وهى التى اختصم فى حضانتها على وجعفر وزيد: فقال على: ابنة عمى، وقال جعفر: ابنة عمى كذلك، وقال زيد: ابنة أخى، فقضى بها رسول الله ﷺ لخالتها وقال: الخالة بمنزلة الأم[1]، وفيه دلالة على أن من نكحت

---

(١) حديث البراء بن عازب أخرجه البخاري (٥/ ٣٥٧)كتاب الصلح باب كيف يكتب: «هذا ما صالح فلان بن فلان...» (٢٦٩٩). وأطرافه في البخاري (١٧٨١، ١٨٤٤، ٢٦٩٨، ٢٧٠٠، ٣١٨٤، ٤٢٥١)، والبيهقي (٨/ ٥)كتاب النفقات باب الخالة أحق بالحضانة من العصبة، وقال: رواه البخاري في الصحيح عن عبيد الله بن موسى هكذا عن عبيد الله بن موسى عن إسرائيل مدرجًا. وقد ورد الحديث عن على بن أبي طالب وأبي مسعود البدري وأبي هريرة ومحمد بن علي بن الحسين بن على وابن شهاب مرسلاً. أما حديث على بن أبي طالب فقد رواه أحمد (١/ ٩٨-٩٩) حدثنا يحيى بن آدم ثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن هانئ بن هانئ وهبيرة بن يريم عن علي رضي الله عنه قال: لما خرجنا... فذكر الحديث بطوله. وعزاه الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٢٦٧) لإسحاق ابن راهويه في مسنده بالإسناد المذكور عند أحمد، وأبو داود في السنن (١/ ٦٩٤) كتاب الطلاق باب من أحق بالولد (٢٢٨٠)، والترمذي والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ١٤٠)، وعزاه الألباني في الإرواء (٧/ ٢٤٧) للطحاوي في المشكل (٤/ ١٧٣-١٧٤)، والحاكم (٢/ ١٢٠) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، ورواه في موضع آخر مختصرًا (٤/ ٣٤٤) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي والبيهقي (٨/ ٦) كتاب النفقات باب الخالة أحق بالحضانة من العصبة، وأما حديث أبي مسعود قال الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٢٦٧) رواه الطبراني في «معجمه» حدثنا أبو الشيخ محمد بن الحسن الأصبهاني وأحمد بن زهير التستري قالا: ثنا محمد بن حرب النسائي ثنا يحيى بن عباد ثنا قيس بن الربيع عن أبي حصين عن خالد بن سعد عن أبي مسعود قال: قال رسول الله «(الخالة والدة» قال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٣٢٣) «وفيه قيس ابن الربيع، وثقه شعبة والثوري وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات» أمّا حديث أبي هريرة فأخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٤٧٢) في ترجمة السمتي قال: حدثنا أبو هريرة المدني عن مجاهد عن أبي هريرة قال رسول الله (: «الخالة والدة» وأعله بيوسف هذا ووصفه =

لا يسقط حقها من الحضانة. وعن على: قلت لرسول الله ﷺ: ألا تتزوج ابنة حمزة؛ فإنها أحسن فتاة فى قريش ؟ فقال: « أليس قد علمتَ أنها ابنة أخى من الرضاعة، وأن الله عز وجل قد حرم بالرضاعة ما حرم من النسب »(١) أخرجه البغوى فى معجمه. انتهى

وأما العباس بن عبد المطلب وكنيته أبو الفضل، فأمه نثلة ويقال نثيلة بنت جنَّاب ابن كلب بفتح الجيم وتشديد النون بن النمر بن قاسط، ويقال: إنها أول عربية كست البيت بالديباج. وسبب الكسوة أن العباس ضل وهو صبى، فنذرت إن وجدته لتكسون البيت. وكان العباس جميلاً وسيمًا أبيض، له ضفيرتان، معتدلاً، وقيل: كان طوالاً.

ولد قبل الفيل بثلاث سنين، وكان أسنّ من النبى ﷺ بسنتين أو ثلاث، وكان رئيسًا فى قومه، وإليه عمارة المسجد الحرام. وكان مع النبى ﷺ يوم العقبة يعقد له البيعة على الأنصار، وكان عليه الصلاة والسلام يثق به فى أمره كله، ولما شدوا وثاقه فى أسرى بدر سهر ﷺ فى تلك الليلة، فقيل ما يسهرك يا رسول الله ؟ قال: أنين العباس. فقام رجل فأرخى من وثاقه، وفعل ذلك بالأسارى كلهم(٢)، ذكره أبو عمر وصاحب الصفوة.

وقيل: كان يكتم إسلامه، وخرج مع المشركين يوم بدر فقال عليه الصلاة والسلام: من لقى منكم العباس فلا يقتله، فإنه خرج مستكرهًا(٣). فأسره كعب بن

= بالكذب وقال: لا يتابع عليه أمَّا حديث جعفر بن محمد بن على بن الحسين عن أبيه مرسلاً فأخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٣٥-٣٦) قال الألباني في الإرواء: « إسناده مرسل صحيح » أما حديث الزهري بلاغًا أن رسول الله ﷺ قال: العم أب إذا لم يكن دونه أب والخالة والدة إذا لم يكن دونها أم » قال الزيلعي في « نصب الراية » (٣/ ٢٦٨) رواه ابن المبارك في « البر والصلة » بسنده عن الزهري وقال الألباني في الإرواء (٦/ ١٤٤) « وقد رأيته في كتاب الجامع لعبد الله بن وهب شيخ الإمام أحمد عن ابن شهاب بلاغًا ». اهـ. وهو ضعيف.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٤٥، ٥١٠٠)، ومسلم (١١/ ١٤٤٦).

(٢) ينظر: الاستيعاب (١٣٨٦)، وأسد الغابة (٢٧٩٩)، والإصابة (٤٥٢٥).

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٢٣) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه قلت: وفيه محمد بن إسحاق ولم يحتج به مسلم إنما روى له في الشواهد والمتابعات ثم هو مدلس ولم يصرح بالتحديث والله أعلم.

عمرو، ففادى نفسه ورجع إلى مكة. وروى من حديث أبي اليسر: أنه أسر العباس. وقيل للعباس - وكان جسيمًا - كيف أسرك وهو دميم الخلقة، ولو شئت لجعلته فى كفك؟ فقال: ما هو إلا أن لقينى فظهر فى عينى كالخندمة[(١)]. انتهى. قلت: الخندمة، بالخاء المعجمة: جبل من جبال مكة معروف، قاله فى القاموس[(٢)].

وأخرج ابن إسحاق من حديث ابن عباس أنه ﷺ قال: يا عباس، افد نفسك وابنى أخيك - عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث - وحليفك عقبة بن عمرو. وقال: إني كنت مسلمًا ولكن القوم استكرهونى. قال ﷺ: الله أعلم بما تقول، إن يك ما تقول حقًّا فإن الله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا[(٣)]. وذكر موسى ابن عقبة: أن فداءهم كان أربعين أوقية ذهبًا[(٤)]. وفى رواية من حديث ابن عباس: أنه جعل على العباس مائة أوقية[(٥)]، وعلى عقيل ثمانين. فقال العباس: القرابة صنعت هذا. فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠] فقال العباس بعد ذلك: وددت لو كنت أخذ منى أضعافها لقوله تعالى ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾.

وكان العباس - فيما قاله أهل العلم بالتاريخ - قد أسلم قديمًا وكان يكتم إسلامه. وقيل: إنه أسلم يوم بدر. وسبب إسلامه أنه خرج لبدر بعشرين أوقية من ذهب ليطعم بها المشركين، فأخذت منه فى الحرب، فكلم النبى ﷺ أن يحسب العشرين أوقية من فدائه، فأبى عليه الصلاة والسلام وقال: أما شىء خرجت تعين به علينا فلا نتركه كذلك. فقال العباس: تركتنى فقيرًا أتكفَّفُ الناس. وفى رواية: قريشًا. فقال عليه الصلاة والسلام: فأين الذهب الذى دفنته أنت وأم الفضل تحت رجل السرير وقت خروجك من مكة؟ فقال العباس: وما يدريك؟ قال: أخبرنى

---

(١) أخرجه البزار (٢/ ٣٢٠) رقم (١٧٨٠) من طريق على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس به، وقال الهيثمي في « المجمع » (٦/ ٨٨): رواه الطبراني والبزار وفيه على ابن زيد وهو سيئ الحفظ وبقية رجاله وثقوا.

(٢) ينظر ترتيب القاموس (خندم) (٢/ ١١٦).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٥٣)، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٧/ ٣٢-تهذيب) من طريق محمد بن إسحاق، وينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/ ٩).

(٤) ينظر: دلائل النبوة (٣/ ١٤٢).

(٥) ينظر: دلائل النبوة (٣/ ١٤١).

ربى. فقال العباس: أشهد أنك صادق؛ فإن هذا لم يطلع عليه إلا الله، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ثم أقبل إلى المدينة مهاجرًا، فاستقبل النبىَّ ﷺ يوم الفتح بالأبواء، وكان أبو اليسر معه فى فتح مكة وبه ختمت الهجرة(١).

وقال عمرو: أسلم قبل فتح خيبر، وكان يكتم إسلامه ويسرُّه ما يفتح الله به على المسلمين، وأظهر إسلامه يوم فتح مكة، وشهد حنينا والطائف وتبوك. ويقال - أيضًا -: إن إسلامه كان قبل بدر أيضًا، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون يثقون به، وكان يحب القدوم على رسول الله ﷺ، فكتب إليه ﷺ: إن مقامك بمكة خير لك. وذكر السهيلى فى «الفضائل»: أن أبا رافع لما بشر النبى ﷺ بإسلام العباس أعتقه(٢).

خبر أبى رافع: اسمه أسلم. وقال ابن معين: اسمه إبراهيم. وقيل هرمز. كان عبدًا قبطيًا فوهب للنبى ﷺ، فأعتقه لما بشره بإسلام العباس، فكان مولى رسول الله ﷺ. ولما قدم أبو سفيان بن الحارث من بدر إلى مكة سأله أبو لهب - وكان قد تخلف عن الخروج إلى الحرابة فلم يشهد بدرًا - عن خبر قريش فقال له أبو سفيان: ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا. وايم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضًا على خيلٍ بلقٍ بين السماء والأرض، والله لا يقوم لها شيء. قيل: وكان جلوسهما للمحادثة بهذا الأمر عند خباء العباس جنب زمزم. قال: فلما سمع ذلك أبو رافع وكان فى الخباء ينحت أقداحًا له، قال: وكان الإسلام قد دخلنا، فرفعت طرف الخباء فقلت: والله تلك الملائكة. فرفع أبو لهب يده فضربنى فى وجهى، ثم احتملنى فضرب بى الأرض. فقامت أم الفضل إلى عمود فضربت به رأس أبى لهب، وقالت: استنقصته أن غاب عنه سيده : ! فقام منكسرًا، فوالله ما عاش سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة، وهى قرحة كانت العرب تتشاءم بها، وأنها تعدى أشد العدوى؛ فتباعد عنه بنوه حتى قتله الله بها، وبقى بعد موته ثلاثًا لا تقرب جنازته ولا تدفن. فلما خافوا السبة فى تركه حفروا له ثم دفعوه بعود فى حفرته، ثم قذفوا عليه بالحجارة من بعيد، كذا. ورواه

(١) روى هذا بنحوه عن عائشة -رضي الله عنها- ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٦٩)، وعزاه للحاكم والبيهقي.
(٢) ينظر: الروض الأنف (٣/ ٦٦).

كذا في « الروض الأنف » [١]. قلت: في حفظي عن كبار مشايخي أن محل الحفرة التي ألقي فيها أبو لهب هي الآن محطة العجم من سوق « المعلاة ». والله أعلم.

وكان عليه الصلاة والسلام يكرم العباس بعد إسلامه ويعظمه، ووصفه ﷺ فقال: أجود الناس وأحناهم عليهم. رواه الفضائلي. في معجم البغوي: « العباس عمي، وصنو أبي، من آذاه فقد آذاني »[٢]. وذكر السهيلي في « الفضائل »: أن العباس أتى النبي ﷺ، فلما رآه قام إليه وقبل بين عينيه ثم قال: « هذا عمي، فمن شاء فَلْيُبَاهِ بعمه » فقال العباس: نعم القول يا رسول الله قلت. قال « ولم لا أقول هذا وأنت عمي، وصنو أبي وبقية آبائي، ووارثي خير من أخلف من أهلي »[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: يا عم، لا ترم منزلك أنت وبنوك غدًا حتى آتيكم فإن لي فيكم حاجة. فلما أتاهم اشتمل عليهم بملاءة ثم قال: يا رب، هذا عمي وصنو أبي، وهؤلاء أهل بيتي، فاسترهم من الناس كستري إياهم بملاءتي هذه قال: فأمَّنت أسكفة الباب وحوائط البيت. رواه ابن غيلان والسهمي، ورواه ابن السري، ورواه الترمذي من حديث ابن عباس بلفظ: فألبسنا كساء ثم قال: « اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنبا. اللهم احفظه وولده »[٤] وقال: حسن غريب.

وعن ابن عبد الباقي من حديث أبي هريرة: « اللهم اغفر للعباس وولد العباس ولمن أحبهم »[٥]. وروى البغوي أنه ﷺ قال: « لك ياعم من الله حتى ترضى »[٦]

(١) أخرجه ابن إسحاق في « السيرة النبوية » (٢/ ٢٨٨) حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس عن عكرمة مولى ابن عباس به وينظر: الروض الأنف (٣/ ٦٦-٦٧)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٦٢)، وعيون الأثر (١/ ٢٦٦ - ٢٦٧).

(٢) ذكره بهذا اللفظ الهندي في « كنز العمال » (٣٣٤٠٢) وعزاه لابن عساكر عن عطاء الخراساني مرسلاً.

(٣) ذكره الهندي في « كنز العمال » (٣٣٣٨٦) وعزاه إلى ابن عساكر عن علي.

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٦٥٣) كتاب المناقب باب مناقب العباس بن عبد المطلب -رضي الله عنه- حديث (٣٧٦٢)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٥) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٠/ ٣٩) وابن عساكر (٧/ ٢٣٩-تهذيب) من حديث أبي هريرة وذكره الهندي في « كنز العمال » (٣٣٤٤٦) وعزاه إليهما.

(٦) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٢٥) وصححه وتعقبه الذهبي وأخرجه ابن عساكر (٧/ ٢٤٣-تهذيب) من طريق محمد بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده. وذكره الهندي في « كنز العمال » (٣٣٤٤٥) وعزاه لابن عدي وابن عساكر عن سعيد بن المسيب مرسلاً ولابن عساكر عن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده.

وروى السهمى فى « الفضائل »: أنه ﷺ قال: يا عباس، إن الله عز وجل غير معذبك ولا أحدًا من ولدك[(١)] !

وفى المناقب للإمام أحمد - رضى الله عنه - أن العباس قال: كنت عند النبى ﷺ ذات ليلة قال: هل ترى فى السماء ؟ قلت: نعم، قلت: الثريا. قال: أما إنه يلى هذه الأمة بعددها من صلبك[(٢)]. وروى السهمى من حديث ابن عباس أنه ﷺ قال: ألا أبشرك يا عم ؟ قلت: بلى، بأبى أنت وأمى. فقال عليه الصلاة والسلام: إن من ذريتك الأصفياء، ومن عترتك الخلفاء[(٣)].

ومن حديث أبى هريرة: « فيكم النبوة والمملكة»[(٤)] ومن حديث ابن عباس أنه ﷺ قال: « يا أبا بكر، هذا العباس قد أقبل وعليه ثياب بيض، وسيلبس ولده من بعده السواد »[(٥)] وعن جابر بن عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ليكونن من ولد العباس ملوك يكونون أمراء أمتى يعز الله بهم الدين »[(٦)]. قال الحافظ

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وعند المتقي الهندي في كنز العمال (٣٣٤٤١) نحوه، ولفظه: « اللهم استر العباس وولد العباس من النار ».

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٢٦) من طريق يحيى بن معين ثنا عبيد بن أبي قرة ثنا الليث بن سعد عن أبي قبيل عن أبي ميسرة مولى العباس عن العباس به، وقال الحاكم: تفرد به عبيد بن أبي قرة عن الليث وإمامنا أبو زكريا رحمه الله لو لم يرضه لما حدث عنه بمثل هذا الحديث. وتعقبه الذهبي فقال: لم يصح هذا. وزاد نسبته المتقي الهندي في « الكنز » (٣٣٤٢٩) لأحمد والطبراني وابن عساكر.

(٣) ذكره الهندي في « كنز العمال » (٣٣٤٢٠) وعزاه إلى الرافعي عن ابن عباس، نحوه. والعترة: نسل الرجل ورهطه وعشيرته. ينظر: الوسيط (عتر).

(٤) ذكره الهندي في « كنز العمال » (٣٣٤٣٣) وعزاه إلى ابن عساكر عن أبي هريرة بلفظ: الخلافة فيكم والنبوة. وأخرجه ابن الجوزي في « العلل المتناهية » (٤٦٨) من حديث أبي هريرة وقال: تفرد به ابن شبيب، قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به وكان فضلك الرازي يحل ضرب عنقه، وقد تعقبه الحافظ في « اللسان » (٣/ ٣٠٠) بأن ابن شبيب لم ينفرد به.

(٥) لم أجده بهذا اللفظ، وانظر الأحاديث التي تقدمت في معناه.

(٦) أخرجه الدارقطني في « الأفراد » كما في « الجامع الصغير » (٢/ ١٣٨)، ومن طريقه ابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١/ ٢٨٨-٢٨٩) رقم (٤٦٧) من طريق عمر بن راشد ثنا عبد الله بن محمد بن صالح مولى التوءمة عن أبيه عن عمرو بن دينار عن جابر. قال الدارقطني: تفرد به عبد الله بن محمد ولم يرو عنه إلا عمر وقال ابن الجوزي: وأما محمد ابن صالح فقال ابن حبان: يروي المناكير عن المشاهير لا يجوز الاحتجاج بأفراده. وأما عمر بن راشد، فقال أحمد بن حنبل: لا يساوي حديثه شيئاً. وقال ابن حبان: لا يحل ذكره إلا على سبيل القدح يضع الحديث.

أبو الحسن الدارقطنى: هذا حديث غريب من حديث عمرو بن دينار عن جابر خرجه الأصفهانى.

وتوفى رضى الله عنه فى خلافة عثمان قبل مقتله بسنتين بالمدينة الشريفة يوم الجمعة لاثنتى عشرة - وقيل: لأربع عشرة - ليلة خلت من رجب، وقيل: من رمضان سنة اثنتين، وقيل: ثلاث وثلاثين من الهجرة، بعد أن كف بصره وهو ابن ثمان وثمانين سنة، أدرك منها فى الإسلام اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع، ودخل قبره ابنه عبد الله بن العباس، رضى الله عنهما.

وفى البخارى: لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك فدنا من المدينة الشريفة قال: « إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم، حبسهم العذر»[1] وهذا يؤيد معنى ما روى: « نية المرء خير من عمله »[2] فإن نية هؤلاء أبلغ من أعمالهم؛ فإنها بلغت بهم مبلغ أولئك العاملين بأبدانهم، وهم على فرشهم فى بيوتهم، فالمسابقة إلى الله وإلى الدرجات العلى بالنيات والهمم لا بمجرد الأعمال. ولما أشرف عليه الصلاة والسلام على المدينة قال: هذه طابة، وهذا أحد، جبلٌ يحبنا ونحبه[3].

ولما دخل قال العباس: يا رسول الله قد امتدحتك فائذن لى. قال: قل لا يفضض الله فاك. فقال: [من المنسرح]

مِنْ قَبْلِهَا طِبْتَ فِى الظِّلَالِ وَفِى ... مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الوَرَقُ
ثُمَّ هَبَطْتَ البِلَادَ لاَ بَشَرٌ ... أَنْتَ وَلاَ مُضْغَةٌ وَلاَ عَلَقُ
بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينَ وَقَدْ ... أَلْجَمَ نَسْرًا وَأَهْلَهُ الغَرَقُ
تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِمٍ ... إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥١٨) كتاب الإمارة باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر حديث (١٥٩/ ١٩١١)، وأحمد (٣/ ٣٠٠، ٣٤١)، وابن ماجه (٢٧٦٥)، وعبد بن حميد (١٠٢٧، ١٠٥٧) من حديث جابر بن عبد الله. وأخرجه البخاري (٤٤٢١) من حديث أنس.

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢٢٨) رقم (٥٩٤٢) من حديث سهل بن سعد. وقال الهيثمي في « المجمع » (١/ ٦٤): رجاله موثقون إلا حاتم بن عبادة بن دينار لم أر من ذكر له ترجمة.

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٤٦٨-٤٦٩) كتاب المغازي باب (٨٢) حديث (٤٤٢٢) من حديث أبي حميد.

حَتَّى احْتَوَى بَيْتَكَ الْمُهَيْمِن مِنْ ... خِنْدِف عَلْيَاءَ دُونَهَا النُّطُقُ
وَرَدت نَارَ الْخَلِيلِ مُكْتَتِمًا ... فِى صُلْبِهِ أَنْتَ كَيْفَ يَحْتَرِقُ
وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَّ أَشْرَقَت الْـ ... أَرْضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ[1] الْأُفُقُ
فَنَحْنُ فِى ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِى النـ ... ـنور وَسُبْلِ الرَّشَادِ نَخْتَرِقُ
وَعَالِيًا قَدْرُكَ الرَّفِيعُ وَفِى ... مَغْنَاكَ حَسْنَا يُمِيلُهَا النَّسَقُ
قَدًّا تَثَنِّيكَ والْقَوَام إِذَا ... غُصْنًا رَطِيبًا قَوَامُكَ الرَّشِقُ
وَوَجْهُكَ الْبَدْرُ إِذْ يُضِيءُ وَمِنْ ... شَعْرٍ لَكَ اللَّيْل يحلكُ الْغَسَقُ
أَضَاءَ مِنْكَ الْوُجُودُ نُورَ سَنًا ... وَفَاحَ مِسْكًا نَسِيمُكَ الْعَبِقُ[2]

قوله « من قبلها » إضمار قبل الذكر لظهور المعنى، وهو وارد فى كلامهم كثيرًا، والمراد بها الدنيا أو الأرض، أى: كنت طيبًا فى صلب آدم حيث كان فى الجنة. وقوله: « تركب السفين » يريد به: حال كونه فى صلب أبيه نوح؛ فإنه الراكب السفين. وقوله « ألجم نسرًا » يريد به: الذى كان يعبده قوم نوح. و« النُّطُق »: جمع نطاق، وهى أعراض من جبال بعضها فوق بعض، أى: نواحى وأوساط منها، شبهت بالنطق التى تشد فى الأوساط، ضربه مثلاً فى ارتفاعه وتوسطه فى عشيرته، وجعلهم تحته بمنزلة أوساط الجبال. قوله « حتى احتوى بيتك » أراد به: شرفه ومجده ﷺ الشاهد على فضله، أى: احتوى أعلى مكان من نسب خندف؛ إشارة إلى القبيلة. وهذا الاسم - أعنى خِندِف - لزوجة إلياس بن مضر، واسمها سلمى بنت عمران بن الحاف بن قضاعة، وله قصة تقدمت، سميت القبيلة بها فقيل « خندف » ومنها ما هنا. انتهى.

وكان له من الذكور تسعة، وقيل: عشرة، ومن الإناث ثلاث: الفضل وبه كان يكنى، وعبد الله، وعبيد الله، وعبد الرحمن، وقُثَم، ومَعبد، وأم حبيب. والثانية والثالثة: صفية، وأمينة من أمَةٍ. وأم هؤلاء - ماعدا صفية وأمينة - لبابة الكبرى،

---

(١) في ط: بنورها. والمثبت من المستدرك، ولعله الأصوب.
(٢) أخرجه الحاكم (٣/٣٢٦-٣٢٧)، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ٣٦٤) من حديث خريم بن أوس بن حارثة، وقال الحاكم: هذا حديث تفرد به رواته الأعراب عن آبائهم وأمثالهم من الرواة لا يضعون، ووافقه الذهبي.

الهلالية، أخت ميمونة زوج النبى ﷺ، روى أنها أول امرأة أسلمت بعد خديجة[(١)]. وكثير وتمام شقيقان أمهما أم ولد، والحارث بمفرده من أم هذلية، وعون هو العاشر على الرواية الثانية. وروى صبيح ومسهر ولم يتابع عليهما ابن الكلبى قُتِلَ هذا الحارث سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وقيل: مات فى طاعون « عمواس »، وهو أول طاعون فى الإسلام بالشام سنة ثمان عشرة فى خلافة عمر، وقيل: قتل يوم اليرموك فى خلافة أبى بكر، رضى الله عنه.

أما الفضل بن العباس فكان أكبر أولاد العباس وبه كان يكنى، لم يزل اسمه جاهليةً وإسلامًا، وكان أجمل الناس وجها. ولما دفع عليه الصلاة والسلام من مزدلفة إلى منى أردفه فمر ظعن يجرين، فجعل الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر، فحول النبى ﷺ يده إلى الشق الآخر[(٢)]. أخرجه مسلم. وفى رواية غيره: قال العباس: لويتَ عنق ابن عمك يا رسول الله. قال: رأيت شابًا وشابة فلم آمن الشيطان عليهما[(٣)].

شهد الفضل فتح مكة، وغزا حنينًا وثبت يومئذ، وشهد حجة الوداع. وهو الذى كان يصب الماء فى غسل رسول الله ﷺ فى رواية، وعلى يغسله[(٤)]. استشهد بـ« أجنادين »، بلد من نواحى دمشق، فى وقعة بين المسلمين والروم، أميرها عمرو ابن العاص وأبو عبيدة ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة، كل منهم على طائفة. وقيل: بطاعون عمواس. ولم يخلف غير ابنة تزوجها بعد الحسن بن على أبو موسى الأشعرى فولدت له موسى، ومات عنها فتزوجها عمر بن طلحة بن عبيد الله. ويقال: خلفت أيضًا ابنًا اسمه عبد الله، ولم يثبت ذلك. انتهى.

وأما عبد الله فهو الحبر، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، وحنكه رسول الله ﷺ

---

(١) وهو قول ابن سعد، وينظر الاستيعاب (٣٦٥٤)، وأسد الغابة (٧٥٦٦)، والإصابة (١٢٢٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٨٨٦-٨٩٢) كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ حديث (١٤٧/ ١٢١٨) من حديث جابر.

(٣) أخرجه الترمذي (٣/ ٢٢٣-٢٢٤) كتاب الحج باب ماجاء أن عرفة كلها موقف حديث (٨٨٥) من حديث على بن أبي طالب. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) ينظر: تلخيص الحبير (٢/ ٢١٥-٢١٦)، وعزاه الحافظ ابن حجر لأحمد، من حديث ابن عباس، وقال: وفي إسناده حسين بن عبد الله وهو ضعيف.

بريقه، ودعا له: « اللهم بارك فيه وانشر منه - أو أكثر - وعلمه الحكمة »[١] وسماه « ترجمان القرآن »[٢]. وروى أنه قال: توفى رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين، وقيل: وأنا ابن خمس عشرة. وكان طويلاً، أبيض مشربًا بالشقرة، جسيمًا وسيمًا صبيح الوجه[٣]، شهد مع على الجمل وصفين والنهروان، وقالت أمه: لما وضعته أتيت به النبى ﷺ، فأذَّن فى أذنه اليمنى، وأقام فى أذنه اليسرى، وحنكه من ريقه، وسماه عبد الله. ثم ناولنيه فقال: اذهبى بأبى الخلفاء[٤]. رواه ابن حبان وغيره.

وقد ملأ عقبه الأرض، حتى قيل: إنهم بلغوا فى زمن المأمون ستمائة ألف واستبعد. كذا فى « المواهب ».

توفى - رضى الله عنه - بالطائف سنة ثمان وستين - أيام ابن الزبير - وهو ابن أربع وسبعين سنة، وقيل: سبعين، وقيل: إحدى وسبعين. وصلى عليه محمد بن الحنفية وقال: اليوم مات ربانى هذه الأمة، وضرب على قبره فسطاطًا[٥].

قال العلامة جمال الدين محمد الشامى فى سيرته: أخرج الطبرانى عن حسان بن ثابت رضى الله عنه قال: بدت لنا معشر الأنصار حاجة إلى الوالى - وكان الذى طلبنا إليه أمرًا صعبًا - فمشينا إليه برجال من قريش وغيرهم فكلموه، وذكروا له وصية رسول الله ﷺ بنا، فذكر لهم صعوبة الأمر، فعذره القوم، وألحَّ ابن عباس عليه، فوالله ما وجد الوالى بدًا من قضاء حاجته. فخرجنا فإذا القوم أندية. قال حسان: فضحكت وأنا أسمعهم، إنه والله كان أولاكم بها، إنه والله صبابة النبوة، ووراثة أحمد، وتهذيب أعراقه، وأسرع شبه طباعه. فقال القوم: أجمل بها حسان، فقال ابن عباس: صدقوا فأجمل. فأنشأ حسان يمدح ابن عباس رضى الله عنهم:

---

(١) ذكره الحافظ في « الإصابة » (٤/ ١٢٥) وعزاه إلى الزبير بن بكار، من طريق داود عن زيد بن أسلم عن ابن عمر.

(٢) الذي سماه ترجمان القرآن عبد الله بن مسعود وقد روى ذلك بسند حسن عنه. وينظر: الإصابة (٤/ ١٢٦-١٢٧).

(٣) قاله ابن منده. وينظر: الإصابة (٤/ ١٢٣).

(٤) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٣٤٣٢، ٣٣٥٨٧) وعزاه للخطيب عن أمه أم الفضل. وأخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٧/ ٢٤٧-تهذيب).

(٥) ذكره الحافظ في « الإصابة » (٤/ ١٣٠) وعزاه للزبير بن بكار.

[من الطويل]

إِذَا مَا ابْنُ عَبَّاسٍ بَدَا لَكَ وَجْهُهُ ... رَأَيْتَ لَهُ فِي كُلِّ مَعْمَعَةٍ فَضْلاً

إِذَا قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالاً لِقَائِلٍ ... بِمُلْتَقَطَاتٍ لاَ تَرَى بَيْنَهَا فَضْلاَ

كَفَى وَشَفَى مَا فِي النُّفُوسِ[1] فَلَمْ يَدَعْ ... لِذِي إِرْبَةٍ فِي القَوْلِ جِدًّا وَلاَ هَزْلاَ

سَمَوتَ إِلَى العَلْيَا بِغَيْرِ مَشَقَّةٍ ... وَنِلْتَ ذُرَاهَا لاَ دَنِيًّا وَلاَ وَغْلاَ

خُلِقْتَ طبيعا لِلْمُرُوءَةِ وَالنَّدَى ... مَلِيحًا وَلَمْ تُخْلَقْ كَهَامًا وَلاَ جَبْلاَ[2]

فقال الوالى: ما أراد بالكهام غيرى، والله بينى وبينه[3]. انتهى

مروياته رضى الله عنه ألف وستمائة وستون حديثًا.

وكان له من الولد سبعة: خمسة ذكور، والسادس والسابع أنثيان: العباس، وعلى، والفضل، ومحمد، وعبيد الله، ولبابة، وأسماء. وأما عبيد الله فقيل: إنه رأى النبى ﷺ وسمع منه، استعمله على بن أبى طالب على اليمن، وأمره على الموسم فحج بالناس سنة ست وثلاثين، فلما كان سنة ثمان وأربعين بعثه أيضًا على الموسم، وبعث معاويةُ ذلك العام يزيد بن شجرة الرُّهاوى ليقيم الحج. فلما اجتمعا سأل كل منهما صاحبه أن يسلم له فأبى، واصطلحا على أن يصلى بالناس شيبة بن عثمان الحجبى.

وروى أن معاوية بعث بسر بن أرطأة العامرى إلى اليمن وعليها عبيد الله بن العباس هذا من قبل على، فتنحى عبيد الله، واستولى بسر عليه، فبعث على - رضى الله عنه - جارية بن قدامة السعدى؛ فهرب بسر، ورجع عبيد الله بن عباس فلم يزل عليها حتى قتل على. وكان عبيد الله هذا أحد الأجواد المشهورين، كان يقال: من أراد الجمال والعفة والسخاء فليأت ولد العباس: الجمال للفضل، والعفة لعبد الله، والسخاء لعبيد الله. مات عبيد الله بالمدينة سنة ثمان وخمسين.

وأما عبد الرحمن بن عباس ومعبد فولدا على عهده ﷺ، وقتلا شهيدين بإفريقية فى خلافة عثمان مع عبد الله بن أبى سرح سنة خمس وثلاثين، واستعمل الثانى

(١) في الإصابة: الصدور.

(٢) جَبْلا؛ أي: بخيلا.

(٣) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٤/ ٤٢-٤٣) رقم (٣٥٩٣)، وذكره الحافظ في الإصابة (٤/ ١٢٢-١٢٣) بتقديم وتأخير.

منهما على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه على مكة. ويقال: ما من إخوة أشد تباعدَ قبورٍ من بنى العباس: الفضل بدمشق، وعبد الله بالطائف، وعبيد الله بالمدينة، وعبد الرحمن ومعبد بإفريقية، وقثم بسمرقند.

وأما قُثَم فهو أحد السبعة المشبهين برسول الله ﷺ. وهو لدة الحسن بن على ورضيعه. وعن ابن عباس: أنه كان له ابن يقال له: قثم، يضعه على صدره وهو يقول: [من الرجز]

خَـيْـر الـبَـنِـيـنِ ذَا قُـثَـمْ شَـبِـيـه ذِى الْأَنْـفِ الْأَشَـمّ
نَـبِـىّ ربِ ذِى نِـعَـمْ بِـرَغْـمِ أَنْـفِ مَـنْ رَغِـمْ

وقثم هذا آخر الناس عهدًا برسول الله ﷺ؛ لأنه آخر من خرج من قبره ممن نزل فيه[١]. وقيل: إن المغيرة بن شعبة آخر من خرج من قبره عليه الصلاة والسلام ممن نزل فيه؛ لأنه ترك خاتمه فى القبر فلما خرج قال: نسيت خاتمى، فنزل ثانيًا فكان آخر الناس عهدًا به عليه الصلاة والسلام[٢]. وأنكر كونه آخرًا ابنُ عباس فقال: آخر الناس عهدًا برسول الله ﷺ أخى قثم بن العباس. وولاه على بن أبى طالب رضى الله عنه مكة زمن معاوية وأبى قتادة الأنصارى فلم يزل عليها حتى قتل على رضى الله عنه وكرم وجهه، ثم خرج إلى سمرقند مع سعيد بن عثمان زمن معاوية - فاستشهد بها وقبره فى قبة عالية تعرف بـ « مزار شاه زنده » يعنى السلطان الحى - خارج سور سمرقند.

وأما كثير بن عباس: فأمه أم ولد، رومية اسمها « سبا »، وقيل: حميرية. ولد قبل وفاته - عليه الصلاة والسلام - بأشهر، وكان فقيهًا فاضلاً ذكيًا، روى عنه الأعرج وابن شهاب الزهرى.

وأما تمام: فأمه وأم أخيه قبله واحدة وهى سبا الرومية أو الحميرية. روى عنه عليه الصلاة والسلام: « لا تدخلوا علىَّ قُلْحًا، استاكوا، فلولا أن أشق على أمتى

---

(١) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٧/ ٢٥٧). وينظر « السيرة النبوية » (٤/ ٢٧٢)، وسبل الهدى والرشاد (١٢/ ٣٣٨).

(٢) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٧/ ٢٥٨)، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة وينظر المغازي للواقدي (٣/ ١١٢١)، وأخرجه ابن سعد (٢/ ٢٣١) عن أبي عسيب وعروة بن الزبير. وينظر: سبل الهدى (١٢/ ٣٣٨-بتحقيقنا) ففيه روايات أخرى عن المغيرة وغيره.

لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة »[١] ولأه على رضى الله عنه المدينة، وكان قد استخلف قبله سهيل بن حنيف حين توجه إلى العراق، ثم عزله واستجلبه لنفسه، وولى تمّامًا ثم عزله، وولى أبا أيوب الأنصارى ثم أشخص أبا أيوب الأنصارى واستخلفه، فلم يزل تمام واليًا فيها إلى أن قتل على. وكان تمام أشد الناس بطشًا، وله عقب.

قال أيوب بن بكار: كان للعباس عشرة بنين ستة منهم من أم الفضل، لبابة الهلالية، فيهم يقول يزيد الهلالى: [من الرجز]

مَا وَلَدَتْ نَجِيبَةٌ مِنْ فَحْلِ كَسِتَّةٍ مِنْ بَطْنِ أُمِّ الفَضْلِ
أَكْرِمْ بِهَا مِنْ كَهْلَةٍ وَكَهْلِ

وهم: الفضل، وعبد الله، وعبيد الله، وقثم، ومعبد، وعبد الرحمن. وقد تقدم أنهم أشقاءٌ، وهم ستة سابعتهم أم حبيبة شقيقتهم.

وأما عون: فقال ابن عمرو: لم أقف على اسم أمه، وأصغرهم سنًّا تمام. وكان العباس أبوه يحمله ويقول: [من الرجز]

تَمُّوا بِتَمَّامٍ فَصَارُوا عَشَرَهْ يَا رَبِّ فَاجْعَلْهُمْ كِرَامًا بَرَرَهْ
وَاجْعَلْ لَهُمْ ذِكْرًا وَأَنْمِ الشَّجَرَهْ

وأما الإناث من أولاد العباس فثلاث: أم حبيب، وقد روى من حديث أمها أم الفضل أن النبى ﷺ قال: « لو بلغت أم حبيب بنت العباس وأنا حى لتزوجتها »[٢] فتوفى ﷺ قبل أن تبلغ، فتزوجها الأسود بن عبد الأسد، أخو أبى سلمة بن عبد الأسد، فولدت له رزق بن الأسود. ولبابة وصفية وأمينة، تزوج أمينة عباس بن عيينة بن أبى لهب؛ فولدت له الفضل الشاعر، ولا رواية لها ولا لصفية، وهى الثالثة من بنات العباس.

---

(١) بهذا اللفظ أخرجه أحمد (١/ ٢١٤)، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٦٤) رقم (١٣٠١، ١٣٠٢، ١٣٠٣)، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٢/ ١٠٠) وقال: رواه البزار والطبراني في « الكبير » وأبو يعلى بنحوه، وفيه أبو على الصيقل، قال ابن السكن وغيره مجهول. والقلح: تغير السن بصفرة وخضرة تعلوها. والحديث أصله في الصحيحين عن أبي هريرة عند البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٣٨) من حديث أم الفضل. وينظر: الإصابة (٧/ ٣٧٣).

وروى الطبرى فى « ذخائر العقبى » ابنة رابعة للعباس تسمى أم كلثوم، وروى عنها وعن أختها أم حبيب محمدُ بن إبراهيم التيمى.

وأما أبو طالب فاسمه عبد مناف. ولما مات جده عبد المطلب كافله، كان له عليه الصلاة والسلام من العمر ثمان سنين، كفله عمه أبو طالب بوصية من عبد المطلب؛ لكونه شقيق والده عبد الله. وقد أخرج ابن عساكر عن جُلهمة عن عطرفة قال: قدمتُ مكة وهم فى قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب، أقحط الوادى وأجدب العيال، فهلم فاستسق. فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن تجلت عنه سحابة قتماء، وحوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب وألصق ظهره بالكعبة، ولاذ الغلام بأصبعه - وما فى السماء قزعة - فأقبل السحاب من ههنا وههنا، وأغدق وانفجر له الوادى، وأخصب البادى والنادي وفى ذلك يقول أبو طالب: [من الطويل]

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ(١)

وهو من قصيدة نحو ثمانين بيتًا، قالها لما تولت عنه وتمالأت عليه قريش، ونفروا عنه عليه الصلاة والسلام. وأولها: [من الطويل]

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ لاَ وُدَّ عِنْدَهُمْ ... وَقَدْ قَطَّعُوا كُلَّ الْعُرَى وَالْوَسَائِلِ
وَقَدْ جَاهَرُونَا بِالْعَدَاوَةِ وَالأَذَى ... وَقَدْ طَاوَعُوا أَمْرَ الْعَدُوِّ الْمُزَايِلِ(٢)
صَبَرْتُ لَهُمْ نَفْسِى بِسَمْرَاءَ سَمْحَةٍ ... وَأَبْيَضَ عَضْبٍ مِنْ تُرَاثِ الْمَقَاوِلِ
وَأَحْضَرْتُ عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِى وَإِخْوَتِى ... وَأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِهِ بِالْوَصَائِلِ
أَعَبْدَ مَنَافٍ أَنْتُمُ خَيْرُ قَوْمِكُمْ ... فَلاَ تُشْرِكُوا فِى أَمْرِنَا كُلَّ وَاغِلِ
فَقَدْ خِفْتُ إِنْ لَمْ يُصْلِحِ اللهُ أَمْرَكُمْ ... تَكُونُوا كَمَا كَانَتْ أَحَادِيثُ وَائِلِ
أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ ... عَلَيْنَا بِسُوءٍ أَوْ مُلِحٍّ بِبَاطِلِ
وَثَوْرٍ وَمَنْ أَرْسَى ثَبِيرًا مَكَانَهُ ... وَرَاقٍ لِيَرْقَى فِى حِرَاءٍ وَنَازِلِ
وَبِالْبَيْتِ حَقًّا حَلَّ فِى بَطْنِ مَكَّةٍ ... وَبِاللهِ إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِغَافِلِ
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لاَ مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلاَ يُعْنَى بِعَوْرَاءَ بَاطِلِ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ نُبْزِي مُحَمَّدًا ... وَلَمَّا نُطَاعِنْ عِنْدَهُ وَنُنَاضِلِ

---

(١) ذكره الصالحي في « سبل الهدى والرشاد » (٢/ ١٣٧) وعزاه لابن عساكر.
(٢) المزايل: المفارق. الوسيط (زيل).

وَنُسْلِمُهُ حَتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ وَنَذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَائِلِ
وَيَنْهَضَ قَوْمٌ فِى الْحَدِيدِ إِلَيْكُمُ نُهُوضَ الرَّوَايَا[(١)] تَحْتَ ذَاتِ الصَّلَاصِلِ
وَيَنْهَضَ قَوْمٌ نَحْوَكُمْ غَيْر عُزَّلٍ بِبِيضٍ حَدِيثٍ عَهْدُهَا بِالصَّيَاقِلِ[(٢)]
وَأَبْيَض يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَال الْيَتَامَى عِصمَة لِلْأَرَامِلِ
يَلُوذُ بِهِ الهُلَّاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهُمْ عِنْدَهُ فِى رَحْمَةٍ وَفَوَاضِلِ
لَعَمْرِى لَقَدْ كُلِّفْتُ وَجْدًا بِأَحْمَدٍ وَإِخْوَتِهِ دَأْبَ المُحِبِّ المُوَاصِلِ
فَمَنْ مِثْلُهُ فِى النَّاسِ أَىُّ مُؤَمَّلٍ إِذَا قَاسَهُ الحُكَّامُ عِنْدَ التَّفَاضُلِ
حَلِيمٌ رَشِيدٌ عَادِلٌ غَيْرُ طَائِشٍ يُوَالِى إِلَهًا لَيْسَ عَنْهُ بِغَافِلِ
وَمِيزَانُ حَقٍّ مَا يَعُولُ شَعِيرَةً وَوَزَّانُ حَقٍّ وَزْنُهُ غَيْرُ عَائِلِ[(٣)]
فَوَاللهِ لَوْلَا أَنْ أَجِىءَ بِسُبَّةٍ تجرُّ عَلَى أَشْيَاخِنا فِى المَحَافِلِ
لَكُنَّا اتَّبَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ مِنَ الدَّهْرِ جِدًّا غَيْرَ قَوْلِ التَّهَازُلِ
فَأَصْبَحَ فِينَا أَحْمَدٌ ذَا أَرُومَةٍ تَقَصَّرُ عَنْهَا سَورة المُتَطَاوِلِ
حَدِبْت بِنَفْسِى دُونَهُ وَحَمَيْتُهُ وَدَافَعْتُ عَنْهُ بِالذُّرَا وَالْكَلَاكِلِ
جَزَى اللهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلاً عُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلِ

قلت: لم أظفر من هذه القصيدة إلا بنحو السبعة والثمانية الأبيات فى غالب كتب السير، ولم أزل أطلبها حتى ظفرت بغالبها من تاريخ العلامة الحافظ محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبى المسمى « دول الإسلام » فنقلتها منه ولله الحمد.

وقوله: « ذات الصَّلاصل »: رأيت فى تاريخ التقى الفاسى رحمه الله ما نصه: بئر صلاصل فى الجانب الذى يكون على يمين الصاعد إلى منى، ولعل ذلك نسبتها إلى صلصل بن أوس بن مجاسر[(٤)] بن معاوية بن شرف[(٥)] من بنى عمرو بن تميم؛ لأن الفاكهى روى بسنده عن هشام بن الكلبى، عن أبيه، قال: كانت العرب فى أشهر الحج على ثلاثة أهواء: منهم من يفعل المنكر، وهم المحلّون الذين يحلون

(١) الروايا: جمع راوية؛ وهي الدابة التي يُستقى عليها الماء .
(٢) صقل السيف: جلاه، فهو صَقَّال وصَيْقَل والجمع: صياقل. الوسيط (صقل).
(٣) عال الميزان عولاً: لم يستو طرفاه، وعال فلانٌ في الميزان؛ أى: خان. الوسيط (عول).
(٤) في ط: مخاشن. والمثبت من شفاء الغرام.
(٥) في شفاء الغرام: شريف.

الأشهر الحرم فيغتالون فيها ويسرقون، ومنهم من كان يكف عن ذلك، ومنهم أهل هوى شرعه لهم صلصل بن أوس بن مجاسر المذكور، في[١] قتال المحلين. ثم قال بعد أن ذكر المحرمين: وكانوا يسمونهم « الصلاصل »؛ لأن صلصل شرع ذلك لهم، وكانوا ينزلون على بئر قرب منى ثم يتفرقون على[٢] الناس منها، وكانت البئر تسمى بئر صلصل[٣]، انتهى.

قلت: قول أبى طالب « تحت ذات صلاصل » يعنيها؛ كأنه يريد تشبيه القوم الثائرين للمدافعة عن النبى ﷺ بأولئك القوم النازلين عند البئر، ويكون وجه الشبه الجرأة والإقدام إن كانت الرواية بالزاى المعجمة فى الزوايا جمع زوية للجماعات الكامنين هناك. وإن كانت الرواية بالراء المهملة فيها فيكون وجه التشبيه الثقل بالحديد والسلاح كثقل الروايا بالماء القراح. وهذه البئر هى المسماة الآن عند العامة « بئر صراصر »، براءين مهملتين، وهى معروفة، انتهى. ومعنى نناضل هنا: نناظر ونجادل ونخاصم. ونبزى، بضم النون والباء ساكنة، أى: نقهره ونغلب عليه.

وأنشأ أبو طالب أبياتًا منها قوله [من الطويل]

وَشَقَّ لَهُ مِنْ إِسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ

فقال حسان وضمن ذلك: [من الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَ عَبْدَهُ ... بِآيَاتِهِ وَاللهُ أَعْلَى وَأَمْجَدُ
أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ ... مِنَ اللهِ مَشْهُورٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ
وَضَمَّ الإِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ ... إِذَا قَالَ فِي الخَمْسِ المُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ إِسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ
نَبِيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفَتْرَةٍ ... مِنَ الدِّينِ وَالأَوْثَانُ فِي الأَرْضِ تُعْبَدُ
وَأَرْسَلَهُ ضَوْءًا مُنِيرًا وَهَادِيًا ... يَلُوحُ كَمَا لاَحَ الصَّقِيلُ المُهَنَّدُ

قال العلامة ابن التين: فى شعر أبى طالب دلالة على أنه كان يعرف نبوة النبى ﷺ قبل أن يبعث، لما أخبره بَحِيرا الراهب وغيره من شأنه. وتعقبه الحافظ ابن حجر بأن

---

(١) في ط: منه. والمثبت من شفاء الغرام.
(٢) في شفاء الغرام: في.
(٣) ينظر شفاء الغرام (١/ ٣٤٤).

ابن إسحاق ذكر أن إنشاء أبى طالب لهذا الشعر كان بعد البعث، ومعرفة أبى طالب بنبوته عليه الصلاة والسلام جاءت فى كثير من الأخبار.

قال الذهبى[١]: قال محمد بن إسحاق: أتت قريش إلى أبى طالب فقالوا: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أعز فتى فى قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصرته واتخذه لك ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك؛ فقد أفسد أحلامنا وعاب آلهتنا، وخالف دينك ودين آبائك نقتله، فإنما رجل كرجل. فقال: والله بئسما تأمروننى، أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبدًا. فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف: والله يا أبا طالب، لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا. فقال: والله ما أنصفوا، ولكنك قد أجمعت على خلافى ومظاهرة القوم على، فاصنع ما بدا لك. فحقب[٢] الأمر وحميت الحرب وتنابذ القوم. فقال أبو طالب: [من الطويل]

أَلاَ قُلْ لِعَمْرٍو وَالْوَلِيدِ وَمُطْعِمٍ ... أَلاَ لَيْتَ حَظِّى مِنْ حِيَاطَتِكُمْ بَكْرُ
مِنَ الخَوْرِ صَخَّابٌ كَثِيرٌ رُغَاؤُهُ ... يُرَشُّ عَلَى السَّاقَيْنِ مِنْ بَوْلِهِ قَطْرُ
أَرَى أَخَوَيْنَا مِنْ أَبِينَا وَأُمِّنَا ... إِذَا سُئِلاَ قَالاَ: إِلَى غَيْرِنَا الأَمْرُ
أَخُصُّ خُصُوصًا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوفَلاً ... هُمَا نَبَذَانَا مِثْلَ مَا تُنْبَذُ الْخَمْرُ[٣]

وفى « حياة الحيوان »: مات أبو طالب فى نصف شوال من السنة العاشرة من البعثة، وكان النبى ﷺ ابن سبع وأربعين سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يومًا، وأبو طالب ابن بضع وثمانين سنة. وقال ابن الجوزى: قبل هجرته بثلاث سنين.

روى سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أخاه العباس وعبد الله بن أمية وأبا جهل بن هشام، فقال: يا عم، قل « لا إله إلا الله »، كلمة أشهد لك بها عند الله. فقال أبو جهل: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه. ويقول له أبو جهل: أترغب .... إلى آخره، فلما رأى حرص النبى ﷺ قال: يا ابن أخى،

(١) ينظر تاريخ الإسلام (٢/ ١٥٢-١٥٣)، وقال الذهبي: هذا لا يصح ولو كان سمعه العباس يقولها لما سأل النبي ﷺ، وقال: هل نفعت عمك بشيء.
(٢) في ط: فحق الأمر. والمثبت من تاريخ الإسلام ومن الروض.
(٣) ينظر: السيرة النبوية (١/ ٢٩٩-٣٠١).

والله لولا مخافة قريش أن تقول إنى إنما قلتها جزعًا من الموت لقلتها. فلما تقارب من أبى طالب الموت نظر العباس إليه يحرّك شفتيه فأصغى إليه بأذنيه فسمعه، فقال: يا ابن أخى، والله لقد قال أخى الكلمة التى أمرته بها. فقال ﷺ: لم أسمعه. كذا فى رواية ابن إسحاق أنه أسلم عند الموت[(١)].

ورواه البيهقى فى الدلائل من طريق يونس بن بكير، لكن قال: إنه منقطع[(٢)]. والحديث أثبت لأبى طالب الوفاة على الكفر والشرك، كما روينا فى الصحيح من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه حتى قال: آخر ما كلمهم به أبو طالب قوله: « على ملة عبد المطلب »، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. ثم قال رسول الله ﷺ: « لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك. فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ ﴾ [التوبة: ١١٣] وأنزل الله فى أبى طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[(٣)] [القصص: ٥٦] وفى مسند الإمام أحمد من حديث يحيى بن سلمة بن كهيل، عن أبيه، عن حبة العُرَنى، قال: رأيت على بن أبى طالب ضحك على المنبر حتى بدت نواجذه. ثم سُئل بعد فقال: ظهر علينا أبو طالب وأنا مع رسول الله ﷺ نصلى ببطن نخلة فقال: ماذا تصنعان يا ابن أخى؟ فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فقال: ما بالذى تصنعان من بأس، ولكن والله لا تعلونى استى أبدًا. فذكرت ذلك فضحكت تعجبًا من قول أبى[(٤)]. انتهى. ذكره الذهبى فى تاريخه[(٥)] وفى الصحيح: إن ابن عباس سأل رسول الله ﷺ فقال: إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك؟ قال: « نعم، وجدته فى غمرات النار فأخرجته إلى ضحضاح منها ». وروى البخارى حديث

---

(١) ليس هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية سعيد بن المسيب عن أبيه لكنه ورد من حديث ابن عباس أخرجه ابن إسحاق (٢/ ٦٥-٦٦) حدثني العباس بن عبد الله بن معبد بن عباس عن بعض أهله عن ابن عباس به. وينظر: تاريخ الإسلام (٢/ ٢٣٢).

(٢) أخرجه البيهقي في « الدلائل » (٢/ ٣٤٦) من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق به.

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٥٨٦-٥٨٧) كتاب الجنائز باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله حديث (١٣٦٠)، ومسلم (١/ ٥٤) كتاب الإيمان باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت حديث (٣٩/ ٢٤).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٩٩).

(٥) ينظر « تاريخ الإسلام » (٢/ ٢٣١-٢٣٢).

الضحضاح، ولفظه: ما أغنيت عن عمك؛ فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال: « نعم هو فى ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار »(١) وعن أبى سعيد الخدرى: أن رسول الله ﷺ قال: « أهون أهل النار عذابًا أبو طالب، فى ضحضاح من نار، منعل نعلين من حديد يغلى منهما دماغه »(٢). قيل: إن النبى ﷺ مسح أبا طالب بعد موته بيده الشريفة وأنسى باطن قدميه فلم يمسحهما، فكان مس العذاب لهما وذلك أنه لما ثبت قدماه ثبوتًا معنويًا على الشرك كان العقاب عليهما(٣). قال ابن عباس رضى الله عنهما: عارض رسول الله ﷺ فقال « وصلتك رحم وجزاك الله خيرًا يا عم »(٤).

وفى « معالم التنزيل »: الكفر أربعة أنواع: كفر الإنكار، وكفر الجحود، وكفر النفاق، وكفر العناد. أما كفر الإنكار فهو ألا يعرف الله بالقلب ولا يعترف باللسان. وأما كفر الجحود فهو أن يعرف الله بقلبه، ولكن لا يقر بلسانه ككفر إبليس، وكفر اليهود بمحمد ﷺ من هذا القبيل. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٨٩] أى: جحدوا وأما كفر النفاق فهو أن يقر باللسان ولا يعتقد

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٥٩٠) كتاب مناقب الأنصار باب قصة أبي طالب حديث (٣٨٨٣) ومسلم (١/ ١٩٤-١٩٥) كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب حديث (٣٥٧/ ٢٠٩) من حديث العباس وليس من حديث ابن عباس كما ذكر المصنف.

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٥٩١) كتاب مناقب الأنصار باب قصة أبي طالب حديث (٣٨٨٥)، ومسلم (١/ ١٩٥) كتاب الإيمان باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب حديث (٣٦٠/ ٢١٠).

(٣) قال السهيلي: الحكمة في كون أبي طالب منتعلاً بنعلين من نار أن أبا طالب كان مع النبي ﷺ بجملته إلا أنه كان مثبتا لقدميه على ملة عبد المطلب حتى قال عند الموت: هو على ملة عبد المطلب فسلِّط العذاب على قدميه خاصة لتثبيته إياهما على ملة آبائه. انظر الروض الأنف (٢/ ١٧٠) ونقله عنه الصالحي في سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٣١) بتحقيقنا.

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٤٩) من طريق ابن عدي، وهو في الكامل له (١/ ٢٦٠)، وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٣/ ١٩٦)، ونقل الخبر ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٥٤)، وعزاه صاحب كنز العمال لتمام الرازي في الفوائد وابن عساكر في « التاريخ »، وهو في العلل المتناهية لابن الجوزي (٢/ ٤٢٢). قال البيهقي عقب الحديث: إبراهيم بن عبد الرحمن هذا هو الخوارزمي تكلموا فيه. وقال ابن كثير بعد أن نقل كلام البيهقي: « قلت: قد روى عنه غير واحد منهم الفضل بن موسى السيناني، ومحمد بن سلام البيكندي، ومع هذا قال ابن عدي: ليس بمعروف وأحاديثه عن كل من روى عنه ليست بمستقيمة ». وقد ذكر الذهبي الخبر في ميزان الاعتدال (١/ ١٦٦) في ترجمة الخوارزمي، وقال عقبه وهذا خبرٌ منكر.

بالقلب. وأما كفر العناد فهو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه، ولكن لا يدين به ولا يكون منقادًا مطيعًا، ككفر أبى طالب؛ فإنه قال فى شعر له: [من الكامل]

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلاَ الْمَلاَمَةُ أَوْ حَذارى سُبَّةٍ لَوَجَدتَّنِى سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا
وَدَعَوْتَنِى وَعَلِمْتُ أَنَّكَ نَاصِحِى[1] وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينَا
وَاللهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ حَتَّى أُوَسَّدَ فِى التُّرَابِ دَفِينَا
فاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ وَاجْهَرْ وَقَرَّ بِذَاكَ مِنْكَ عُيُونَا[2]

وجميع الأنواع الأربعة سواء فى أن الله تعالى لا يغفر لأصحابها إذا ماتوا عليها، نعوذ بالله منها.

وحكى عن هشام بن السائب الكلبى - أو أبيه - أنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال: يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه، وإنى أوصيكم بمحمد خيرًا فإنه الأمين فى قريش، والصديق فى العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به. وقد جاء بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان، مخافة الشنآن. وايم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل الوبر، والأطراف، والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره؛ فخاض بهم غمرات الموت؛ فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابًا، ودورها خرابًا، وضعفاؤها أربابًا، فإذا أعظمهم إليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده. قد محضته العرب ودادها، وأصفت له فؤادها، وأعطت له قيادها. يا معشر قريش، كونوا له ولاة، ولحرمه حماة، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد. ولو كان لنفسى مدة، ولأجلى تأخير، لكففت عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهى ثم هلك، ودفن بصدر الشعب أعلى الحَجون.

وجملة أولاده أربعة ذكور وأنثيان، أكبرهم طالب وبه كان يكنى، ثم ولد له بعد عشر سنين عقيل، ثم بعد عشر سنين جعفر، ثم بعد عشر سنين على. والأنثيان هند أو فاختة، وتكنى بأم هانىء؛ بابنٍ كان لها اسمه هانئ، والأخرى جمانة.

---

(١) في السبل: وعلمت أنك صادق.
(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٣١، ٤٣٢) واقتصر على ذكر البيت الثالث من هذه الأبيات.

وأما طالب فهو القائل: [من الرجز]

لَاهُمَّ إِمَّا يَغْزُوَنَّ طَالِبْ فِى عُصْبَةٍ مُخَالِفٌ مُحَارِبْ
فِى مِقنَبٍ مِنْ تِلْكُمُ المَقَانِبْ فَلْيَكُنِ المَسْلُوبَ غَيْرَ السَّالِبْ
وَلْيَكُنِ المَغْلُوبَ غَيْرَ الغَالِبْ(١)

قال هذا الشعر عند خروج قريش لمنع العير فى وقعة بدر، ومحاربة النبى ﷺ، وهى وقعة بدر الكبرى. وكان بين طالب فى القوم وبين بعض قريش محاورة فقالوا: والله لقد عرفنا يا بنى هاشم - وإن خرجتم معنا - أن هواكم مع محمد ﷺ. فرجع طالب إلى مكة فقال هذه الأبيات.

قلت: لم أفهم معنى هذه الأبيات، وهى كما تراها، نقلتها من نسخة قديمة من سيرة ابن هشام، تاريخ كتبها سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، مصححة مقروءة، فلا غلط فى اللفظ ولا تصحيف، إلا أن المعنى يحتاج إلى تبيين وتوقيف، إذ المغلوب غير الغالب، والمسلوب غير السالب، ولم يظهر لى وجه فى صحة المعنى. إلا أن تكون لفظة « غير » مصحفة من لفظة « عين »؛ فيكون هكذا: فليكن المسلوب عين السالب بنصب المسلوب على أنه خبر كان متوسطًا واسمها عين، فيكون دعاء منه على قريش بالسلب لهم والغلبة عليهم انتهى.

قال المحب الطبرى فى « الرياض النضرة، فى مناقب العشرة »: عن أبى الحجاج مجاهد بن جبير قال: كان من نعم الله تعالى على علىّ بن أبى طالب، ومما أراد الله به من الخير، أن قريشًا أصابتهم شدة ومجاعة، وكان أبو طالب فى مبدأ أمره مقلا ذا عيال كثير، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه: يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله، فآخذ من بنيه رجلًا، وتأخذ رجلًا فنكفيهما عنه. قال العباس: نعم، فانطلقا

---

(١) ويروى هذا الرجز هكذا:

إمـا يـخـرجـن طـالـب بـمـقـنـب من هـذه المقانـب
فـي نـفـر مـقـاتـل مـحـارب فليكن المسلوب غير السالب
والـراجـع المـغـلـوب غـيـر الـغـالـب

ينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٠٥)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٢)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٣٩).

حتى أتيا أبا طالب فقالا لا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه. فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لى عقيلاً فاصنعا ما شئتما. وفى رواية: وطالبًا. فأخذ رسول الله ﷺ عليًا رضى الله عنه فضمه إليه، فلم يزل علىّ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله رسولاً؛ فآمن به علىٌ وصدقه، وأخذ العباس جعفرًا، ولم يزل جعفر عند العباس انتهى. ولكل من على وجعفر وعقيل عقب، وأكثرهم عقبًا على رضى الله عنه، وسيأتى ذكرهم عند ذكر خلافته رضى الله تعالى عنه.

وأما عقيل بن أبى طالب فلم يزل اسمه جاهلية وإسلامًا «عقيلاً»، ويكنى أبا يزيد، وكان قد خرج مع كفار قريش مُكْرَهًا يوم بدر، فأسر ففداه عمه العباس، ثم أتى النبى ﷺ مسلمًا قبل الحديبية، وشهد غزوة مؤتة. روى أنه عليه الصلاة والسلام قال له: يا أبا يزيد، إنى أحبك حبين: حبًا لقرابتك، وحبًا لما كنت أعلم من حب عمى إياك(١). وكان أعلم قريش بأنسابها وأعرفهم بأيامها، وكان مُبَغَّضًا إليهم؛ لأنه كان يعد مساويهم، وكانت له قطيفة تفرش فى مسجد رسول الله ﷺ يصلى عليها، ويُجتمع عليه فى علم النسب وأيام العرب. وكان أسرع الناس جوابًا، وأحضرهم مراجعة فى القول وأبلغهم فى ذلك.

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه: أن عقيلاً جاء إلى على بالعراق فسأله، فقال له على رضى الله عنه: إن أحببت أن أكتب لك إلى مالى بـ «ينبع»(٢) فأعطيك منه. فقال له عقيل: لأذهبن إلى رجل أوصل لى منك. فذهب إلى معاوية. وقال أبو عمرو: غاضب عقيل عليًا وخرج إلى معاوية وأقام عنده، فزعموا أن معاوية قال يومًا بحضرة عقيل: هذا أبو يزيد، لولا علمه بأنى خير له من أخيه ما أقام عندى وتركه. فقال عقيل: أخى خير لى فى دينى، وأنت خير لى فى دنياى، وقد آثرت دنياى، وأسأل الله خاتمة خير.

وتوفى عقيل فى خلافة معاوية. يروى أن الوليد بن عقبة بن أبى مُعيط قال له: غلبك أبو تراب على الثروة والعدد. فقال عقيل: نعم وسبقنى وإياك إلى الجنة. فقال

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ١٩١) رقم (٥١٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٧٦)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٧٣)، وعزاه للطبراني مرسلاً وقال: رجاله ثقات.

(٢) يَنْبُع: حصن وقرية غنّاء على يمين رضوى على ليلة منه. وهي لبني حسن بن علي بن أبي طالب، وفيها عيون عذاب. ينظر: المراصد (٣/ ١٤٨٥).

الوليد: أما والله إن شدقيك لمتوضمتان من دم عثمان. فقال له عقيل: مالك ولقريش ؟ إنْ أنت فيهم إلا كمنيح الميسر. فقال الوليد: والله إنى لأرى أهل الأرض لو أشركوا فى قتله لوردوا صعودًا. فقال له عقيل: كلَّا، أما ترغب لهم عن صحبة أبيك. وذكر أنه حضر ومعه كبش له إلى مجلس على - كرم الله وجهه - فقال علىٌ يمازحه بعد أن استقر بهما المجلس: أحد الثلاثة أحمق. فقال عقيل: أما أنا وكبشى فلا. فتضاحكا طويلاً. كذا فى « دول الإسلام » للعلامة الذهبى.

ومن أولاد عقيل: مسلم بن عقيل، الذى قتله أهل الكوفة حين سيره الحسين بن على رضى الله عنهم أجمعين إليهم برسالة قبله، وجميعهم من فاطمة بنت أسد بن هاشم.

وأما جعفر بن أبى طالب فيكنى أبا عبد الله، أسلم قديمًا، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ومعه زوجته أسماء بنت عميس، وولدت له ثمة ابنيه عبد الله ومحمدًا، فحصلت له الهجرتان، وقد تقدم ذكر جواره بأرض الحبشة، وما جرى له هو وأصحابه مع النجاشى؛ بسبب ما قاله عمرو بن العاص للنجاشى، وقراءة جعفر سورة الكهف بين يدى النجاشى.

وأما أم هانىء فتزوجها هبيرة بن أبى وهب المخزومى، وولدت له أولادًا، وهرب إلى نجران ومات بها مشركًا، وهو القائل يوم أحد يذكر قومه ويفتخر: [من البسيط]

مَا بَالُ هَمٍّ عَمِيدٍ بَاتَ يَطْرُقُنِى ... بِالْوُد مِنْ هِنْدَ إِذْ تَغْدُو عَوَادِيهَا
بَاتَتْ تُعَاتِبُنِى هِنْدٌ وَتَعْذِلُنِى ... وَالحَرْبُ قَدْ شَغَلَتْ عَنِّى مَوَالِيهَا
مَهْلاً فَلاَ تَعْذِلِينِى إِنَّ مِنْ خُلُقِى ... مَا قَدْ عِلَمْتِ وَمَا إِنْ لَسْتُ أُخْفِيهَا
مُسَاعِفٌ لِبَنِى كَعْب بِمَا كُلِفُوا ... حَمَّالُ عِبْءٍ وَأَثْقَال أُعَانِيهَا
وَقَدْ حَمَلْتُ سِلاَحِى فَوْقَ مُشْتَرف ... سَاطٍ سَبُوحٍ إِذَا يَجْرِى يُبَارِيهَا
كَأَنَّهُ إِذْ جَرَى عيرٌ بِفَدْفَدَةٍ ... مُكَدَّمٌ لاَحِقٌ بِالْعَوْنِ يَحْمِيهَا
مِنْ آلِ أَعْوَجَ يَرْتَاحُ النَّدِىُّ لَهُ ... كَجِذْعِ شَعْرَاءَ[1] مُسْتَعْلٍ مَرَاقِيهَا
أَعْدَدْتُهُ وَرِقَاقَ الحَدِّ مُنْتَخِلاً ... وَمَا رَنَا لِخُطُوبٍ قَدْ أُلاَقِيهَا
هَذَا وَبَيْضَاءُ مِثْلُ النهى مُحْكَمَةٌ ... لَظَّتْ عَلَىَّ فَمَا تَبْدُو مَسَاوِيهَا

(١) شَعْراء: نخلة كثيرة الأغصان، والشجرة من الحمض. ينظر: ترتيب القاموس (شعر).

سُقْنَا كِنَانَةَ مِنْ أَطْرَافِ ذِى يَمَنٍ ... عُرْضَ الْبِلَادِ عَلَى مَا كَانَ يُزْجِيهَا
قَالَتْ كِنَانَةُ أَنَّى تَذْهَبُونَ بِنَا ... قُلْنَا النَّخِيلُ فَأَمُّوهَا وَمَنْ فِيهَا
نَحْنُ الفَوَارِسُ يَوْمَ الجرِّ مِنْ أُحُدٍ ... هَابَتْ مَعَدٌّ فَقُلْنَا نَحْنُ نَأْتِيهَا
هَابُوا ضرابًا وَطَعْنًا صَارِمًا خَذِمًا ... مِمَّا يَرَوْنَ وَقَدْ ضُمَّتْ قَوَاصِيهَا
ثُمَّتَ رُحْنَا كَأَنَّا عَارِضٌ بَرِد ... وَقَامَ هَامُ بَنِى النَّجَّارِ يَبْكِيهَا
كَأَنَّ هَامَهُمُ عِنْدَ الوَغَى فِلَقٌ ... مِنْ قَيْضِ رَبْدٍ نَفَتْهُ عَنْ أَدَاحِيهَا
أَوْ حَنْظَلٌ زَعْزَعَتْهُ الرِّيحُ فِي غُصُنٍ ... بَالٍ تَعَاوَرَهُ مِنْهَا سَوَافِيهَا
قَدْ نَبْذُلُ المَالَ سَحًّا لاَ حِسَابَ لَهُ ... وَنَطْعَنُ الخَيْلَ شَزْرًا فِى مَآقِيهَا
وَلَيْلَةٍ يَصْطَلِى بِالفَرْثِ جَازِرُهَا ... يَخْتَصُّ بِالنَّقَرِ المُثْرِينَ دَاعِيهَا
فِى لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أَنْدِيَةٍ ... جربا[١] جُمَادِيَّةٍ قَدْ بِتُّ أَسريهَا
لاَ يَنْبَحُ الكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ ... مِنَ القَرِيسِ[٢] وَلاَ تَسْرِى أَفَاعِيهَا
أَوْقَدتُ فِيهَا لذي الضَّرَّاءِ جَاحِمَةً[٣] ... كَالْبَرْقِ ذَاكِيَةَ الأَرْكَانِ أَحْمِيهَا
أَوْرَثَنِى ذَاكُمُ عَمْرٌو وَوَالِدُهُ ... مِنْ قَبْلِهِ كَانَ بِالمَثْنَى يُغَالِيهَا
كَانُوا يُبَارُونَ أَنْوَاءَ النُّجُومِ فَمَا ... دَنَتْ عَنِ السُّورَةِ العُلْيَا مَعَالِيهَا

فأجابه حسان بن ثابت - رضى الله عنه - فقال: [من البسيط]

سُقْتُمْ كِنَانَةَ جَهْلاً مِنْ سَفَاهَتِكُمْ ... إِلَى الرسُولِ فَجُنْدُ الله مُخْزِيهَا
أَوردتموهَا حِيَاضَ المَوْتِ ضَاحِيَةً ... فَالنَّارُ مَوْعِدُهَا وَالقَتْلُ لاَقِيهَا
جَمَّعْتُمُوهُمْ أَحَابِيشًا بِلاَ حَسَبٍ ... أَئِمَّةُ الكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَاغِيهَا
أَلاَ اعتبَرْتُمْ بِخَيْلِ اللهِ إِذْ قَتَلَتْ ... أَهْلَ الْقَلِيبِ وَمَنْ أَلْقَيْنَهُ فِيهَا
كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَكْنَاهُ بِلاَ ثَمَنٍ ... وَجَزِّ نَاصِيَةٍ كُنَّا مَوَالِيهَا[٤]

وإنما أوردتها وجوابها لاشتمالها على المبانى الراسخة والمعانى الشامخة.

وأم هانئ هذه هى التى صلى - عليه الصلاة والسلام - فى بيتها يوم الفتح صلاة الضحى ثمان ركعات فى ثوب واحد مخالفا بين طرفيه، فروت ذلك، وقالت: وكان

---

(١) جربا: أي: جَرْبَاء؛ وهى الأرض المقحوطة. وجمادية: نسبة إلى جمادٍ.
(٢) القريس: الجامد من البرد. الوسيط (قرس).
(٣) جاحمة: ملتهبة. ترتيب القاموس (جحم).
(٤) ينظر السيرة النبوية (٣/ ٩٤)، والبداية والنهاية (٣/ ١٠٥، ١٠٦).

قد التجأ إليها بعض أصهارها من بنى مخزوم - قيل: هو الحارث بن هشام وآخر معه - فقالت: « يا رسول الله، إن أخى عليًا لا تأخذه فى الله لومة لائم، وإنى أخاف أن يعلم بمن لجأ إلىّ فيقتله، فاجعل من دخل دار أم هانىء آمنًا حتى يسمع كلام الله ». وفى رواية: « إن أخى أراد قتلهما، وإنى قد أجرتهما ». فقال ﷺ: « قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ »(١). ثم قال: « هل عندك من طعام نأكله؟ فقالت: ليس عندى إلا كسر يابسة، وإنى لأستحى أن أقدمهن إليك. قال: هلمى بهن. فكسرهن فى ماء وملح فقال: هل من إدام؟ فقالت: ما عندى يا رسول الله إلا شيء من خل. فقال: هلميه. فصبه على طعامه فأكله، ثم حمد الله تعالى، ثم قال: « نعم الإدام الخل يا أم هانئ، لا يفقر بيت فيه خل »(٢). أخرجه الطبرانى بهذا السياق.

---

(١) أخرجه مالك (١/ ١٥٢) كتاب قصر الصلاة في السفر باب صلاة الضحى حديث (٢٨) وأحمد (٦/ ٣٤٣)، والبخاري (١/ ٤٦٩) كتاب الصلاة باب الصلاة في الثوب الواحد ملتحفًا به حديث (٣٥٧) ومسلم (١/ ٤٩٨) كتاب الصلاة باب استحباب صلاة الضحى حديث (٨٢/ ٧١٩)، وأبو عوانة (١/ ٢٨٢-٢٨٣)، وأبو داود (٢/ ٩٣) كتاب الجهاد باب في أمان المرأة حديث (٢٧٦٣)، والنسائي (١/ ١٢٦) كتاب الطهارة باب ذكر الاستتار عند الاغتسال، والترمذي (٥/ ٧٣-٧٤) كتاب الاستئذان باب ما جاء في (مرحبا) حديث (٢٧٣٤)، وابن ماجه (١/ ٤٣٩) كتاب الصلاة باب ماجاء في صلاة الضحى حديث (١٣٧٩)، والدارمي (٢/ ٢٣٤-٢٣٥) كتاب الجهاد باب يجير على المسلمين أدناهم، وأحمد (٦/ ٣٤١)، وعبد الرزاق (٩٤٣٩)، وابن الجارود رقم (١٠٥٥)، والحميدي (١/ ١٥٨-١٥٩) رقم (٣٣١)، وسعيد بن منصور (٢٦٢١)، وابن خزيمة (٢/ ٢٣٤-٢٣٥) وابن حبان (٢٥٢٨-الإحسان)، والدولابي في « الكنى والأسماء » (٢/ ٨٢)، والحاكم (٣/ ٢٧٧)، والبيهقي (٩/ ٩٥)، وفي دلائل النبوة (٥/ ٨٠-٨١)، وابن سعد في « الطبقات الكبرى » (٢/ ١١٠)، والطحاوي في « شرح معاني الآثار » (٣/ ٢٢٣-٢٢٤)، والطبراني في « الصغير » (٢/ ٦٧)، والبغوي في « شرح السنة » (٢/ ٥١٧-بتحقيقنا) من طرق مطولاً ومختصرًا عن أم هانئ بنت أبي طالب.

(٢) لم أجده عند الطبراني بهذا السياق، بل بهذا السياق أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٤)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٣١٠)، عن أم هانئ. والحديث له طرق أخرى: فأخرجه مسلم (٣/ ١٦٢٢) كتاب الأشربة باب فضيلة الخل والتأدم به حديث (١٦٦/ ٢٠٥٢) وأبو داود (٢/ ٣٨٧) كتاب الأطعمة باب في الخل حديث (٣٨٢١)، النسائي (٧/ ١٤) كتاب الأيمان باب إذا حلف ألا يأتدم فأكل خبزًا بخل، وأحمد (٣/ ٤٠٠)، والطيالسي (١/ ٣٣٠-منحة) رقم (١٦٦٨)، والدارمي (٢/ ١٠١) كتاب الأطعمة باب أي الإدام كان أحب إلى رسول الله (، وأبو يعلى (٢٢١١، ٢٢١٨)، والبيهقي (١٠/ ٦٣) كتاب الأيمان باب من حلف أن لا يأكل خبزًا بإدام فأكله، والبغوي في « شرح السنة » (٦/ ٨٤-بتحقيقنا) =

ومن أولادها من هبيرة جعدة بن هبيرة[(١)]، وقد استعمله على رضى الله عنه حين أفضت إليه الخلافة، وهو القائل: [من الطويل]

أَنَا مِنْ بَنِى مَخْزُومَ إِنْ كُنتَ سَائِلًا ... وَمِنْ هَاشِمٍ أُمِّى لَخَيْرُ قَبِيل
فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْأَى عَلَّى بِخَالِهِ ... وَخَالِى عَلِىٌّ ذُو النَّدَى وَعَقِيلُ

قلت: لعل قبيلاً مضاف إلى ياء المتكلم تخلصًا من الوقوع فى الضرورة أو ورطة عيب الإقواء. والله أعلم.

وأما جمانة بنت أبى طالب[(٢)] فتزوجها ابن عمها أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وولدت له، ولم يسند عنها شيء، ذكر ذلك الدارقطنى. وأما أبو عمرو فلم يذكرها؛ فلعله لم يثبت إسلامها عنده؛ لأنه لا يذكر إلا من أسلم، فلم يذكرها لذلك، وذكرها ابن قتيبة وأبو سعد فى « شرف النبوة » فى جملة أولاد أبى طالب.

وأما الحارث فهو كما سبق أكبر أولاد عبد المطلب وبه كان يكنى. مات قبل البعثة. وله من الأولاد خمسة ذكور: أبو سفيان، ونوفل، وربيعة، والمغيرة، وعبد شمس. وأنثى واحدة وهى أروَى. أما أبو سفيان بن الحارث، وهو الأول من أولاد الحارث ذكرًا، وأخو رسول الله ﷺ من الرضاعة؛ أرضعتهما حليمة السعدية، وكان تِرب رسول الله ﷺ يألفه إلفًا شديدًا قبل النبوة، فلما بعث عليه الصلاة والسلام عاداه وهجاه وهجا أصحابه، وكان شاعرًا. قال الذهبى: وعن محمد بن

= كلهم من طريق أبي سفيان عن جابر به وأخرجه أبو داود (٢/ ٣٨٧) كتاب الأطعمة باب في الخل حديث (٣٨٢٠)، والترمذي (٤/ ٢٧٨) كتاب الأطعمة باب ماجاء في الخل حديث (١٨٣٩)، وفي « الشمائل » رقم (١٥٤)، وابن ماجه (٢/ ١١٠٢) كتاب الأطعمة باب الائتدام بالخل حديث (٣٣١٧)، وأبو يعلى (١٩٨١)، والبغوي في « شرح السنة » (٦/ ٨٣-بتحقيقنا) من طريق محارب بن دثار عن جابر به. وأخرجه الترمذي (٤/ ٢٧٨) كتاب الأطعمة باب ماجاء في الخل حديث (١٨٣٩) من طريق مبارك بن سعيد عن سفيان عن أبي الزبير عن جابر به وأخرجه الطبراني في « الكبير » (٢/ ١٨٤) رقم (١٧٤٩) من طريق إسماعيل بن مسلم عن عطاء عن جابر به. وأخرجه مسلم (٣/ ١٦٢٢) كتاب الأشربة باب فضيلة الخل والتأدم به حديث (٢٠٥١)، والترمذي (٤/ ٢٧٨) كتاب الأطعمة باب ما جاء في الخل حديث (١٨٤٠)، والدارمي (٢/ ١٠١) كتاب الأطعمة باب أي الإدام كان أحب، من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعًا.

(١) له ذكر في طبقات ابن سعد (١/ ٣٠)، وروى هناك حديثًا في اسم الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام.

(٢) ينظر ترجمتها في الإصابة (٨/ ٦٣)، وأسد الغابة (ت ٦٨٠٨)، والاستيعاب (ت٣٣١٨).

إبراهيم، عن أبي سلمة، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: « اهجوا قريشًا؛ فإنه أشد عليهم من رشق النبل ». وأرسل إلى عبد الله بن رَواحة فقال: اهجهم، فهجاهم، فلم يرضه عليه الصلاة والسلام هجوه، فأرسل إلى كعب بن مالك كذلك فهجاهم فلم يرضه، ثم أرسل إلى حسان فلما دخل قال: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه، ثم قال: والذى بعثك بالحق لأفرينهم به فرىَ الأديم. فقال عليه الصلاة والسلام: « لا تعجل؛ فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لى فيهم نسبًا، فأته حتى يخلص لك نسبى » فأتاه حسان ابن ثابت، ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد أخلص لى نسبك، والذى بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين[1]. فقال: [من الطويل]

لَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ أَنَّ ابْنَ هَاشِمٍ ... هُوَ الغُصْنُ ذُو الأَفْنَانِ لاَ الْوَاحِدُ الوَغْدُ
وَأَنَّ سَنَامَ المَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... بَنُو بِنْتِ مَخْزُومٍ وَوَالِدُكَ العَبْدُ
وَمَنْ ولدت أبناء زَهْرَةَ مِنهُمُ ... كِرَام وَلَمْ يَلْحَقْ عَجَائِزَكَ المَجْدُ
وَلَسْتَ كَعَبَّاسٍ وَلاَ كَابْنِ أُمِّهِ ... وَلَكِنْ لَئِيمٌ لاَ يَقُومُ لَهُ زَنْدُ
وَما لَكَ فِيهِمْ مَحتِدٌ غير ملصق ... فدونك فالصق مثل ما لصق القُرْدُ
وَإِنَّ امْرَأً كَانَتْ غَزِيَّة أُمهُ ... وَسَمْرَاء مغمور إِذَا بُلِغَ الجَهْدُ
وَأَنْتَ زَنِيمٌ لِيطَ فِى آلِ هَاشِمٍ ... كَمَا لِيطَ[2] خَلْفَ الرَّاكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ

وقال حسان: عدمتُ بنيتى - تصغير بنت - ورأيت فى نسخة: ثنيتى، وفى أخرى: نشيتى، وكلها يقع به القسم بينهم، وفى رواية: عدمنا خيلنا: [من الوافر]

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَطْلَعُهَا كَدَاءُ
يُبَارِينَ الأَعِنَّةَ مُسْرَجَاتٍ ... تُلَطِّمُهُنَّ بِالخُمُرِ النِّسَاءُ[3]
فَإِمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا ... وَكَانَ الفَتْحُ وَانْكَشَفَ الغِطَاءُ
وَإِلاَّ فَاصْبِرُوا لِجِلَادِ يَوْمٍ ... يُعِزُّ اللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَقَالَ اللهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا ... يَقُولُ الحَقَّ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ

---

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي كتاب المغازي ص (٥٤٣).

(٢) ليط فيهم: ألحق بهم، ونُسب إليهم. وفى ط فى الموضعين: « نيط ». وتنظر الأبيات في ديوان حسان (٩٩).

(٣) رواية البيت في الديوان واللسان:

يبارين الأعنة مصعرات ... على أكتافها الأسل الظماء

وَقَالَ اللهُ قَدْ سَيَّرْتُ جُنْدًا ... هُمُ الأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ
لَنَا فِى كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ
وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللهِ فِينَا ... وَرُوحُ اللهِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

وصرح بخطاب أبى سفيان خاصة فقال:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللهِ فِى ذَاكَ الْجَزَاءُ
هَجَوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا ... رَسُول اللهِ شِيمَتُهُ الوَفَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُره سَوَاءُ
فَإِنَّ أَبِى وَوَالِدَهُ وَعِرْضِى ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ
لِسَانِى صَارِمٌ لاَ فَلَّ فِيهِ ... وَبَحْرِى لاَ تُكَدِّرُهُ الدِّلاَءُ[1]

فقال رسول الله ﷺ: « يا حسان، إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله ».

قالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « هجاهم حسان فشفى وأشفى »[2]. وقد قال حسان بن ثابت رضى الله عنه غير هذه الأبيات الهمزية قبل فتح مكة.

وفى مغازى ابن عقبة[3]: أن رسول الله ﷺ أمر خالدًا أن يدخل من أسفل مكة، ونهاه عن القتال، فلما دخل من أسفلها قاتل، فقال له النبى ﷺ: « لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال؟» قال خالد: هم بدءونا بالقتال، ووضعوا فينا السلاح وأشعرونا بالنبل، وقد كففت يدى ما استطعت. فقال عليه الصلاة والسلام: « ما قضى الله خير ». ويقال: قال أبو بكر يومئذ: يا رسول الله، إنى أرانى فى المنام وأراك دنونا من مكة، فخرجت إلينا كلبة تهر، فقال عليه الصلاة والسلام: « ذهب كلبهم وأقبل

(١) ينظر الشعر في ديوان حسان ص (٤-١٠) مع اختلاف في ألفاظه، وشفاء الغرام (٢/ ٢٢١)، وسيرة ابن هشام (٤/ ١٠٦، ١٠٧)، والبداية والنهاية (٤/ ٣١٠).
(٢) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٣٥) كتاب فضائل الصحابة باب فضائل حسان بن ثابت (٢٤٩٠) من حديث أبي سلمة عن عائشة -رضي الله عنها - وأخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٥٠).
(٣) وينظر السيرة النبوية (٤/ ٧١)، وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص (٥٤٢)، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٢١).

درهم». ثم التفت إلى أبى بكر مبتسمًا حين رأى الخيل يلطمن بالخمر، أى: ينفضن الغبار عن الخيل، فاستنشده هذه الأبيات لحسان، فأنشده إياها[1].

أقول تحتاج هذه السبعة الأبيات الدالية إلى تفسير مبناها وتفصيل معناها. أما قوله « بنو بنت مخزوم » فأراد بهم عبد الله بن عبد المطلب والد النبى ﷺ، والزبير بن عبد المطلب، وأبا طالب بن عبد المطلب، والبيضاء بنت عبد المطلب، ومرة، وعاتكة، وأروَى، وأميمة؛ فهؤلاء الثلاثة الذكور والخمس الإناث أشقَّاء؛ أمهم جميعًا فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم، وهى المرادة بقوله « بنو بنت مخزوم ».

وأما قوله « ومن ولدت أبناء زهرة منهم » فيريد بذلك حمزة، والمقوم، وحجل، وصفية؛ فهم أشقاء أيضًا؛ أمهم هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة.

وأما قوله « ولست كعباس ولا كابن أمه » يعنى أخاه ضرارًا، وهما شقيقان أيضًا أمهما نثلة بنت جناب بن كلب بن النمر بن قاسط. وأما الحارث بن عبد المطلب فهو مفرد، وأمه سمراء بنت جندب بن هجير بن عامر بن صعصعة، وابنه أبو سفيان هذا المقصود بالهجاء كذلك مفرد لا شقيق له، وأمه غزية بنت قريش بن طريف من ولد فهر بن مالك، وقيل له شقيق يسمى قثم بن الحارث مات صغيرًا.

والمعنى أن حسانًا جعل تفرُّد أبى سفيان من غزية أمه تفرد أبيه من سمراء أمه غَمْزًا فى نسبه مضمرًا، ثم أفصح بإخراجه أصالة من النسب فى قوله فى البيت الأخير: « وأنت زنيم . . . » إلى آخره، كما أفحش فى قوله فى البيت الثانى « ووالدك العبد » لعله أراد معنى العبودية لله، وروى عنه بالمعنى الذى يقتضيه هجاؤه. وعلى الجملة فلله در حسان فيما أتى به فى هجاء هذا السيد الكريم ذى النسب الصريح اللباب الصميم؛ إذ هو من أكبر أولاد عبد المطلب ومن به كان يكنى فيقال: يا أبا الحارث، كما تقدم ذكر ذلك، لكن يستحق العزيز المذلة بتطاوله على الأعز، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين. ولكنه ولله الحمد أسلم؛ فإنه لما كان عام الفتح ألقى الله فى قلبه الإسلام، فخرج متنكرًا فتصدى لرسول الله ﷺ فأعرض عنه، فتحول إلى

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٦٦) من حديث نافع عن عبد الله بن عمر والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٩٦) وعزاه في كنز العمال (٣٠١٨٠) لابن جرير، ونقله ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٣٣٦)، وينظر: تاريخ الإسلام (المغازي) ص (٥٤٢).

الجانب الآخر فأعرض عنه، قال أبو سفيان: فقلت: أنا مقتول قبل أن أصل إليه، وذلك بطريق الأبواء مقبل النبى ﷺ إلى فتح مكة، فأسلم وحسن إسلامه.

ويقال: إنه ما رفع رأسه إلى النبى ﷺ حياء منه، وأسلم معه ابنه جعفر فأسلما قبل دخول مكة. وقيل: بل لقيه هو وابنه بين السقيا والعرج فأعرض رسول الله ﷺ عنهما، فقالت له أم سلمة زوج النبى ﷺ: يا رسول الله، لا يكن ابن عمك أشقى الناس بك. وقال له على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه: يا أبا سفيان، ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٩١] فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولاً منه، ففعل ذلك أبو سفيان رضى الله عنه، فقال عليه الصلاة والسلام ﴿ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾(١) [يوسف: ٩٢].

قال أبو سفيان: وسرت معه حتى شهدت فتح مكة وحنينًا، فلما لقينا العدو بحنين اقتحمت فرسى وبيدى السيف صلتا، والله يعلم أنى أريد الموت دونه وهو ينظر إلى، فقال له العباس: يا رسول الله، أخوك وابن عمك أبو سفيان فارض عنه. فقال: قد فعلت فغفر الله كل عداوة عادانيها. ثم التفت إلىَّ فقال: أخى لعمرى. فقبلت رجله فى الركاب(٢).

وكان أبو سفيان ممن ثبت مع رسول الله ﷺ ولم يفر، ولم تفارق يده لجام بغلة رسول الله ﷺ(٣).

وكان الذين يشبهون رسول الله ﷺ سبعة: جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٣) بنحوه كتاب المغازي، وانظر تاريخ الإسلام (المغازي) (٥٤٦).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٥٤) كتاب فضائل الصحابة باب ذكر مناقب أبي سفيان.

(٣) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب قول الله تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ (٥/ ٩٨)، ومسلم (٣/ ١٤٠٠) كتاب الجهاد والسير باب غزوة حنين رقم (١٧٧٦)، والترمذي في كتاب الجهاد باب ما جاء في الثبات عند القتال رقم (١٧٣٨)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٩، ٣٠٤) عن البراء -رضي الله عنه- أن رجلًا قال له: يا أبا عُمارة، أفررتم عن رسول الله (يوم حنين؟ قال لكن رسول الله لم يفر إن هوازن كانوا رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلوا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته، والنبي ﷺ يقول: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ».

والحسن بن على رضى الله عنه، وعبد الله بن عامر ابن عمته البيضاء المكناة أم حليمة، وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهما، وأبو سفيان بن الحارث هذا رضى الله عنه.

وكان ﷺ يحب أبا سفيان بن الحارث وشهد له بالجنة، فقال: « أبو سفيان بن الحارث من شبان الجنة »(١)، وقال: « أبو سفيان خير أهلى »(٢) أو: « من خير أهلى ».

ولما حضرت أبا سفيان الوفاة قال لأهله: لا تبكوا على، فإنى لم ألمم بخطيئة منذ أسلمت. ومات رضى الله عنه بالمدينة بعد استخلاف عمر سنة عشرين من الهجرة، وصلى عليه عمر رضى الله عنه، ودفن قيل: بالبقيع، وقيل: بدار عقيل بن أبى طالب، وحفر قبر نفسه قبل أن يموت بثلاثة أيام، فكان له من الأولاد جعفر الذى أسلم معه وشهد حنينًا مع النبى ﷺ، وتوفى فى خلافة معاوية، وعبد الله رأى النبى ﷺ وروى عنه، وأبو الهياج قيل: اسمه عبد الله أو على، فهم ثلاثة وابنة رابعة واسمها عاتكة تزوجها معتب بن أبى لهب، وولدت له.

وأما نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وهو الثانى من أولاد الحارث ذكرًا - وكان أسن من إخوته ومن جميع من أسلم من بنى هاشم، فأسر يوم بدر؛ ففداه العباس، أو هو فدى نفسه، وذلك أنه لما أسر قال رسول الله ﷺ: « افد نفسك برماحك التى بجدة »، قال: والله ما علم أحد أن لى بجدة رماحًا بعد الله، أشهد أنك رسول الله. وفدى نفسه بها وكانت ألف رمح(٣). ثم شهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنينًا والطائف، وكان ممن ثبت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فقال رسول الله ﷺ: « كأنى أرى رماحك تقصف أصلاب المشركين(٤)». وآخى رسول الله ﷺ بينه

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٥٥) كتاب معرفة الصحابة باب ذكر مناقب أبي سفيان بن الحارث بلفظ: سيد فتيان الجنة أبو سفيان بن الحارث وسكت عليه الذهبي في التلخيص.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٥٥) كتاب معرفة الصحابة باب ذكر مناقب أبي سفيان ولفظه: « أبو سفيان بن الحارث خير أهلي »، وقال عقبه: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/ ٣٤) قال أخبرنا على بن عيسى النوفلي عن أبيه عن عمه إسحاق بن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن الحارث بن نوفل به.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٤٦) كتاب معرفة الصحابة؛ ذكر مناقب نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب، وذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/ ٣٥) في ترجمة نوفل بن الحارث.

وبين العباس بن عبد المطلب، وكانا شريكين فى الجاهلية متفاوضين فى المال متحابين، توفى بالمدينة فى خلافة عمر، وصلى عليه وشيعه للبقيع، ووقف على قبره حتى دفن.

وكان له من الولد: الحارث، وعبد الله، وعبيد الله، والمغيرة، وسعيد، وعبد الرحمن، وربيعة؛ فهم سبعة؛ فأما الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب فهو الذى يقال له: « ببَّة »؛ لأن أمه هند ابنة أبى سفيان بن حرب بن أمية كانت ترقصه وهو طفل فتقول: [من الرجز]

لَأُنْكِحَنَّ بَبَّهْ جَارِيَةً خِدَبَّهْ
مُكْرَمَةً مُحَبَّهْ تُجِبُّ أَهْلَ الْكَعْبَهْ

والخِدَبَّةُ: العظيمة السمينة، والخِدَبُّ: العظيم السمين الجافى.

وكان الحارث هذا قد اصطلح عليه أهل البصرة حين توفى يزيد بن معاوية، وخرج ابن الأشعث، فلما هزم هرب إلى همذان فمات بها.

وقال الواقدى: كان الحارث بن نوفل على عهده عليه الصلاة والسلام، ولد له عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فأتى به رسول الله ﷺ فحنكه ودعا له. وكانت تحت الحارث هذا درة بنت أبى لهب بن عبد المطلب، واستعمله عليه الصلاة والسلام على بعض أعماله بمكة، واستعمله أبو بكر أيضًا، وقيل: إنه مات بالبصرة بعد أن اختطها دارًا فى ولاية عبد الله بن عامر بن كريز، فمات بها آخر خلافة عثمان رضى الله عنهما.

وأما المغيرة بن نوفل بن الحارث فيكنى أبا يحيى، بابن له من أمامة بنت الربيع التى أمها زينب بنت رسول الله ﷺ، كان المغيرة تزوجها بعد على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه، شهد صفين مع على، وولاه القضاء عثمان بن عفان. ولد المغيرة المذكور بمكة قبل الهجرة وقيل: بعدها، ولم يدرك من حياته عليه الصلاة والسلام غير ست سنين، وهو الذى تلقى عبد الرحمن بن ملجم - لعنه الله حين ضرب عليًا، فلما علم الناس به حمل عليهم بسيفه فأفرجوا له، فتلقاه المغيرة هذا بقطيفة فرماها عليه، واحتمله وضرب به الأرض، وقعد على صدره، وانتزع السيف من يده، وكان أسدًا وافرًا.

وأما عبد الله بن نوفل فكان جميلاً يشبه رسول الله ﷺ، ولى القضاء بالمدينة لمعاوية وهو أول قاضٍ له بها.

وأما عبيد الله بن نوفل، وسعيد بن نوفل، فقد روى عنهما العلم.

وأما عبد الرحمن بن نوفل، وربيعة بن نوفل، فذكر الدارقطنى: أن لا لُقْيا لهما ولا رواية.

وأما ربيعة بن الحارث، وهو الثالث من أولاد الحارث بن عبد المطلب ذكرًا، ويكنى أبا أروى، فكانت له صحبة، وهو الذى قال فيه عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة: « ألا إن كل مأثرة كانت فى الجاهلية فهى تحت قدمى هاتين، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أنا واضعه دم آدم بن ربيعة بن الحارث »(١)، وذلك أنه كان قتل لربيعة بن الحارث المذكور ابن سمى آدم، وقيل: تمام، وأبطل عليه الصلاة والسلام الطلب به فى الإسلام، ولم يجعل لربيعة فى ذلك تبعة، وأطعمه عليه الصلاة والسلام مائة وسق من خيبر كل عام، وكان أسن من العباس بنحو سنة، وكان شريك عثمان فى التجارة، توفى فى آخر خلافة عمر رضى الله عنه. وله من الولد العباس بن ربيعة وعبد المطلب بن ربيعة وعبد الله بن ربيعة، وشهد العباس وعبد الله صفين مع على، وللعباس واقعة غريبة سأذكرها فى وقعة صفين إن شاء الله تعالى.

والحارث بن ربيعة وأمية بن ربيعة وعبد شمس بن ربيعة، ذكر هؤلاء الثلاثة الدارقطنى، وآدم بن ربيعة - وكان هذا ذا قدر عظيم - أقطعه عثمان دارًا بالبصرة، وأعطاه مائة ألف درهم، وله أولاد من أم فراس بنت حسان بن ثابت، وكذلك عدة بنات لم تذكر أسماؤهن، منهن: أروَى بنت ربيعة، وهند تزوجها حيان بن منقذ الأنصارى النجارى، فولدت له يحيى بن حيان. قال المحب الطبرى: ولم أظفر بأسمائهن ولا بعددهن، وإنما ذكرن على سبيل الإجمال.

وأما المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب - وهو الرابع من أولاد الحارث الستة - فله

---

(١) هو جزء من خطبته (يوم فتح مكة، وهو حديثٌ طويل أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١١)، والحميدي (٧٠٢)، وأبو داود (٤٥٤٧) كتاب الديات باب في دية الخطأ شبه العمد، والنسائي (٨/ ٤٢) كتاب القسامة، وابن ماجه (٢٦٢٨) كتاب الديات باب دية شبه العمد المغلظة، كلهم من حديث عبد الله بن عمر. وانظر: سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٤٢)، والروض الأنف (٤/ ١١٥).

صحبة، قيل: إن المغيرة اسم لأبى سفيان فهو عينه، والصحيح أنه أخوه فهو غيره.

وأما عبد شمس بن الحارث بن عبد المطلب، فهو الخامس من أولاد الحارث بن عبد المطلب، سماه عليه الصلاة والسلام عبد الله، ومات بالصفراء فى حياته عليه الصلاة والسلام فكفنه فى قميصه، وقال سعيد: أدركته السعادة، وله عقب بالشام يقال لهم المنازرة لقلتهم، لا يكادون يزيدون على ثلاثة أشخاص. وفى معجم البغوى: لا عقب له.

وأما أبو لهب بن عبد المطلب، واسمه عبد العزى، فقد كناه أبوه بذلك لحسنه وإشراق وجهه، وله من الأولاد ثلاثة ذكور وأنثيان: عتبة، وعتيبة، ومعتب، ودرة، وسبيعة - إن كانت غير درة - وإلا فالأربعة، أسلم الأول والثالث من الذكور - وهما من أم جميل حمالة الحطب ابنة حرب بن أمية أخت أبى سفيان بن حرب - أسلما يوم الفتح، وكانا قد هربا من النبى ﷺ، ولما قدم مكة عليه الصلاة والسلام قال: يا عباس، أين ابنا أخيك عتبة ومعتب لا أراهما ؟ قال العباس: فقلت: يا رسول الله، تنحيا فيمن تنحى من مشيخة قريش. فقال: اذهب إليهما فائتنى بهما. قال العباس: فركبت إليهما بعرفة فقلت: إن رسول الله ﷺ يدعوكما. فركبا معى فقدما على رسول الله ﷺ، فدعاهما إلى الإسلام، فأسلما وبايعهما، وسر بإسلامهما(١)، وشهدا معه حنينًا والطائف. وفقئت عين معتب بحنين، وكان فيمن ثبت ولم ينهزم. ولم يخرجا بعد من مكة، ولم يأتيا المدينة، ولهما عقب.

وروى الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه: ! قالوا: من هذا الذى يهتف ؟ قيل: محمد. فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج من خلف هذا الجبل، أكنتم مصدقىَّ ؟

(١) انظر قصة إسلامهما في طبقات ابن سعد (٤/ ٤٢) (٦/ ١١)، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٥٠)، وتكملة الأثر قال العباس: ثم قام رسول الله (فأخذ بأيديهما وانطلق بهما حتى أتى الملتزم، فدعا ساعة ثم انصرف والسرور يرى في وجهه، فقلت: يا رسول الله سرك الله، إني أرى السرور في وجهك فقال: « إني استوهبت ابني عمي هذين من ربي فوهبهما لي ». والأثر ذكره صاحب كنز العمال برقم (٣٣٦٠٥) وعزاه لابن سعد وهو في طبقاته (٤/ ٤٢). وذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة في ترجمة عتبة رقم (٥٤٢٩) من طريق ابن سعد وقال إسناده ضعيف.

قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبًا لك. ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[1] [المسد: ١] كذا فى صحيح مسلم.

وروى ابن عيينة عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما: لما نزلت سورة « تبت » أقبلت أم جميل بنت حرب زوجة أبى لهب ولها ولولة وبيدها فهر وهى تقول: [من الرجز]

مُذَمَّمًا قَلَيْنَا وَدِينَهُ أَبَيْنَا وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا

والنبى ﷺ بالمسجد وأبو بكر معه، فقال: يا رسول الله، قد أقبلت هذه، وإنها امرأة بذيئة، فلو قمت. فقال النبى ﷺ: إنها لن ترانى. فجاءت فلم تره، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك ؟ فقد أخبرت أنه هجانى، فو الله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، والله إنى لشاعرة. فقال لها أبو بكر رضى الله عنه: لا ورب البيت ما هجاك، وإنه لا يقول الشعر. فقالت: أنت عندى مصدق. فانصرفت وهى تقول: لقد علمت قريش أنى ابنة سيدها. فقال أبو بكر للنبى ﷺ: إنها لم ترك يا رسول الله. فقال عليه الصلاة والسلام: لم يزل عندى ملك يسترنى منها بجناحه[2].

قال أبو الزناد: عن الأعرج، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: « انظروا قريشًا كيف يصرف الله عنى شتمهم ولعنهم، يشتمون مذممًا ويلعنون مذمما، وأنا محمد النبى ﷺ »[3] كذا فى « التلقيح » للعلامة ابن الجوزى رحمه الله.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الإيمان (١/ ١٩٣) باب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] حديث رقم (٣٥٥)، والحديث عند البخاري كتاب التفسير حديث رقم (٤٨٠١) والمناقب (٣٥٢٥)، والترمذي في التفسير (٣٣٦٣)، والنسائي في التفسير (٧٣٤)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ١٨١)، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور (٦/ ٤٠٨) لسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم.

(٢) أخرجه الحميدي رقم (٣٢٣) من طريق سفيان قال حدثنا الوليد بن كثير، عن ابن تدرس، عن أسماء . . . ومن طريق الحميدي أخرجه الحاكم (٢/ ٣٦١)، ومن طريق الحاكم أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٩٥). وذكره ابن كثير في التفسير (٧/ ٤٠١)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وذكره السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ١٢٧)، وقال: أخرجه أبو يعلى، وابن أبي حاتم، والبيهقي، وأبو نعيم، عن أسماء بنت أبي بكر .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٣٣) باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ وأحمد (٢/ ٢٤٤)، وابن حبان في الصحيح رقم (٦٤٦٩)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٥٢) باب من قال: لا حد =

ولما نزلت سورة « تبت » قال أبو لهب لولديه عتبة وعتيبة: رأسى من رأسكما حرام إن لم تفارقا ابنتى محمد. وكانتا تحتهما: رقية تحت عتبة، وأم كلثوم تحت عتيبة، ففارقاهما ولم يكونا دخلا بهما، فصانهما الله تعالى عنهما. ولما فارقاهما جاء عتيبة إلى النبى ﷺ فقال: كفرتُ بدينك وفارقت ابنتك، لا تحبنى ولا أحبك. ثم سطا عليه وشق قميصه وهو خارج نحو الشام تاجرًا، فقال عليه الصلاة والسلام: « اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك ». وأبو طالب حاضر، فوجم لها. فقال له: ما كان أغناك عن دعوة ابن أخى. فخرج فى تجر من قريش حتى نزلوا مكانًا بالشام يقال له: « البلقاء » ليلاً، فأطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: يا ويل أمى، هو والله آكلى كما دعا على محمد، أقاتلى ابن أبى كبشة وهو بمكة وأنا بالشام؟ روى أنهم جمعوا متاعهم وقصدوه وناموا حوله وعليه، فجاء الأسد فجعل يشم وجوههم، ثم ألقى ذنبه فضربه ضربة واحدة فخدشه، فقال: قتلنى. ومات. وفى رواية: أن الأسد أقبل يتخطاهم حتى أخذ برأس عتيبة ففدغه(١). ذكره الدولابى. كذا فى « الذخائر ».

قلت: قول عتيبة « أقاتلى ابن أبى كبشة » يعنى النبى ﷺ، هو كقول أبى سفيان بن حرب، وهو عند ملك الروم لما جاءه كتاب النبى ﷺ وسأل أبا سفيان عن نسب النبى ﷺ وغيره، ورأى أبو سفيان ما رأى من خوف هرقل-: لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبى كبشة حين أصبح يخافه ملكُ بنى الأصفر(٢). وكقول غيره من كفار قريش: قال ابن أبى كبشة، وفعل ابن أبى كبشة.

ونسبة النبى ﷺ إليه فيها أقوال؛ قيل: إنها كنية أبيه لأمه وهب بن عبد مناف،

= إلا في القذف الصريح. وفي دلائل النبوة (١/ ١٥٢) من طريق سفيان حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج عن أبي هريرة، به وأخرجه أحمد (٢/ ٣٤٠)، والنسائي في الطلاق (٦/ ١٥٩) باب الإبانة والإفصاح بالكلمة من طريقين عن أبي الزناد، بالإسناد السابق.

(١) فدغه: شدخه وكسره. والحديث بطوله أخرجه الطبراني في الكبير، كما ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢١-٢٢)، وقال: « رواه الطبراني هكذا مرسلاً وفيه زهير بن العلاء وهو ضعيف ». وكذا ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٧٠٢) باختصار، وعزاه للطبراني فقط.

(٢) قصة أبي سفيان مع هرقل أخرجها البخاري في صحيحه في عدة مواضع (١/ ٤٨- الفتح) كتاب بدء الوحي رقم (٧)، وأطرافه (٥١، ٢٦٨١، ٢٩٤١، ٥٩٨٠، ٦٢٦٠، ٧١٩٦، ٧٥٤١)، ومعنى أَمِر: عظم، كما في الفتح (١/ ٥٨).

وقيل: كنية أبيه من الرضاعة الحارث بن عبد العزى، وقيل: إن سلمى أم عبد المطلب كان أبوها عمرو بن لبيد يكنى أبا كبشة، والأشهر من هذه الأقوال كلها عند الناس أنهم شبهوه برجل كان يعبد الشعرى وحده دون العرب، فشبهوه بخروجه عن دين قومه كخروج المشبه به، ونسبوه إليه بسبب هذه المشابهة. وذكر الدارقطنى اسم أبى كبشة هذا فى « المؤتلف والمختلف »[(١)] فقال: اسمه وخز بن غالب، وهو خزاعى. انتهى. كذا فى « الروض الأنف » للعلامة السهيلى.

وأما درة بنت أبى لهب فأسلمت، تزوجها نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فولدت له أبا سلمة والوليد وعقبة، وروت عن أبى هريرة أن أختها سبيعة بنت أبى لهب شكت إليه عليه الصلاة والسلام أذى الناس لها بقولهم لها بنت حطب النار: وقيل: إن سبيعة لقب لـ « درة » فهى عينها لا غيرها، وزيد عليهما فروى: خالدة، ولا رواية لهما. قاله الدارقطنى.

وأما الزبير بن عبد المطلب فله ثلاثة أولاد: ذكر واحد وهو عبد الله، وابنتان: أم حكيم، وضباعة أم عبد الله بن الزبير، فأمه عاتكة بنت أبى وهب، أخت هبيرة بن أبى وهب زوج أم هانىء بنت أبى طالب، أدرك الإسلام وثبت معه عليه الصلاة والسلام يوم حنين، شهد أجنادين فى خلافة أبى بكر، واستشهد بها، بعد أن قتل جماعة من الروم وجدوا حوله قتلى، ثم أثخنته الجراحة فمات. وذكر الواقدى فقال: كان أول قتيل من الروم بطريقٌ معلم برز ودعا إلى البراز، فبرز إليه عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب هذا فقتله عبد الله ولم يتعرض لسلبه، ثم برز آخر يدعو إلى البراز فبرز إليه أيضًا عبد الله فاقتتلا بالرمحين ثم صارا إلى السيفين، فضربه عبد الله على عاتقه وهو يقول: خذها وأنا ابن عبد المطلب، فقطع سيفه وأسرع فى منكبه. ثم ولى الرومى منهزمًا، فعزم عليه عمرو بن العاص ألا يبارز، فقال عبد الله: إنى والله ما أجد أنى أصبر، فلما التحمت السيوف وأخذ بعضها بعضًا وجد فى ربضة من الروم عشرة حوله قتلى وهو بينهم قتيل، وكانت سنُّه نحوًا من ثلاثين سنة ولم يعقب.

وأما ضباعة بنت الزبير، وهى التى أمرها عليه الصلاة والسلام بالاشتراط فى

---

(١) انظر المؤتلف والمختلف (٤/ ١٩٧٣)، والإكمال لابن ماكولا (١٥٧)، وتوضيح المشتبه لابن ناصر الدين (٧/ ٢٧٢).

الحج[1] - يعنى اشتراط التحلل بوقوع المرض - فكانت تحت المقداد بن الأسود الكندى، وأما أم حكيم فكانت تحت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، قاله ابن قتيبة.

وأما الغيداق، والمقوَّم، وحجل، وضرار، والعوام، وقثم - على العدة المصدرة التى عدها ابن الجوزى - فلم يذكر القسطلانى وابن هشام لهم عقبًا.

والحاصل أن جملة بنى أعمامه ﷺ خمسة وعشرون: اثنان منهم لم يسلما: طالب بن أبى طالب، وعتيبة بن أبى لهب أكيل السبع، والباقون أسلموا ولهم صحبة، وأما أولاد أبى طالب: فعقيل وجعفر وعلى. وأما بنو العباس فعشرة: الفضل، وعبد الله، وعبيد الله، وعبد الرحيم، وقثم، ومعبد، وكثير، والحارث، وعون، وتمام. وأما بنو الحارث بن عبد المطلب فخمسة: أبو سفيان، ونوفل، وربيعة، والمغيرة، وعبد شمس. كذا عدهم صاحب « تاريخ الخميس ».

قلت: وليس منهم عبيدة بن الحارث بن المطلب كما توهم بعضهم فعدهم به ستة؛ إذ الكلام فى بنى الحارث بن عبد المطلب، لا فى أبناء المطلب؛ فهو ابن ابن عم أبيهم لا أخوهم، وعبارته فى ترجمة عبيدة بن الحارث هى: عبيدة بن الحارث ابن المطلب، كان أسن من رسول الله ﷺ بعشر سنين، وأسلم قبل دخوله دار الأرقم، ثم شهد بدرًا وجرح بها، وتأخرت وفاته حتى وصل وادى الصفراء فدفن بها وهو ابن ثلاث وستين سنة. انتهى

قلت: وهو المبارز لعتبة بن ربيعة يوم بدر؛ فإنه صرع عتبة، وعتبة ضربه فى نصف ساقه فقطعها، فذلك هو الجرح الذى مات به. وأما بنو أبى لهب فثلاثة عتبة وعتيبة ومعتب. وأما بنو حمزة فعمارة ويعلى. وأما بنو الزبير بن عبد المطلب فواحد: عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب. فهؤلاء خمسة وعشرون رجلاً. وإن جملة بنات أعمامه ﷺ عشر: اثنتان لأبى طالب: أم هانىء وجمانة، وثلاث

(١) نص الحديث: « أن رسول الله (دخل على ضُباعة بنت الزبير فقال لها: لعلك أردت الحج فقالت: والله ما أجدني إلا وجعة فقال لها: حجي، واشترطي وقولي: اللهم إن محلي حيث حبستني » أخرجه البخاري (٣/ ٤١٧) كتاب الحج. ومسلم (٤/ ٢٦) كتاب الحج باب جواز اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض ونحوه حديث رقم (١٠٥) والنسائي (٥/ ١٨٣) كتاب مناسك الحج باب كيف يقول إذا اشترط، وابن حبان (٩٧٣)، وابن الجارود (٤٢٠)، والدارقطني (٢٦٢)، والبيهقي (٥/ ٢٢١) كلهم من طريق عروة عن عائشة وله ألفاظ أخرى عن غير عائشة.

للعباس: أم حبيبة وصفية وأمينة. وواحدة لأبى لهب اسمها درة، وواحدة لحمزة اسمها فاطمة.

وأما عماته وأولادهن: فعماته ست: البيضاء، وعاتكة، وأروَى، وبَرَّة، وأُميمة، وصفية. أما البيضاء، وتكنى أم حكيم، فهى توأم عبد الله، والد النبى ﷺ، تزوجها كريز بن ربيعة بن عبد شمس فولدت له عامرًا، وهذا عامر هو الذى ينسب إليه الشعب بمكة المعروف بشعب عامر، كذا رأيته فى « شفاء الغرام » للعلامة الفاسى، وهو والد عبد الله بن عامر الذى تفل فى فمه النبى ﷺ وهو طفل فتسوّغها وازدردها، فقال النبى ﷺ: « إنه لمسقى »(١)، وهو أحد السبعة المشابهين له ﷺ فى الخلقة، وقد تقدم ذكرهم، وهو الذى شق نهر البصرة حين كان عاملاً عليها لعثمان رضى الله عنه، ولي العراق وخراسان وهو ابن أربع وعشرين سنة، وقال فيه النبى ﷺ: « يا بنى عبد شمس، هو من صلبكم، وهو بنا أشبه منه بكم ». ثم ولدت البيضاء المذكورة لكريز بعد عامر أختًا له اسمها أروى، وهى أم عثمان بن عفان رضى الله عنه، فعامر خال عثمان، وابنه عبد الله بن عامر ابن خاله، وعثمان ابن عمة عبد الله بن عامر المذكور.

وأما عاتكة ابنة عبد المطلب، فتزوجها أبو أمية المخزومى، فأنجب منها عبد الله وزهيرًا. فأما عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى فأسلم، وكان قبل إسلامه شديد العداوة له - عليه الصلاة والسلام - وللمسلمين، وهو الذى قال: « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا » ثم إنه خرج مهاجرًا إلى النبى ﷺ فلقيه فى الطريق بين السقيا والعرج مريدًا مكة عام الفتح فتلقاه، فأعرض عنه عليه الصلاة والسلام، ثم تلقاه فأعرض عنه مرة أخرى، حتى دخل على أخته لأمه، أم سلمة، وسألها أن تشفع له، فشفعها فيه رسول الله ﷺ، فأسلم وحسن إسلامه(٢)، وشهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة مسلمًا وحنينًا والطائف، فرمى يوم الطائف بسهم فقتل فمات

---

(١) الحديث ذكره ابن حجر في الإصابة (٥/ ١٤) في ترجمة عبد الله بن عامر ولفظه: « ولد على عهد النبي ﷺ وأتي به إليه وهو صغير، فقال: « هذا شبيهنا » وجعل يتفل عليه، ويعوذه، فجعل يبتلع ريق النبي ﷺ؛ فقال النبي ﷺ: « إنه لمسقي » وكان لا يعالج أرضًا إلا ظهر له الماء »، وعزاه لابن عبد البر وهو عنده في أسد الغابة (٣/ ٢٨٩) بغير إسناد.

(٢) ينظر: الإصابة (٤/ ١٢) ونقل الأثر عن الزبير بن بكار في ترجمة عبد الله بن أبي أمية.

شهيدًا، وهو الذى قال له المخنث فى بيت أم سلمة: يا عبد الله، إذا فتح الله عليكم الطائف غدًا فإنى أدلك على بادية بنت غيلان؛ فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، إن مشت تثنت، وإن قعدت تبنت، وإن تحدثت تغنت، وإن لبين فخذيها لكالعقب المكفى. قال: فدخل عليه الصلاة والسلام على أم سلمة حينئذ فسمعه يتكلم بهذا الكلام، فقال: اخرج فقد غلغلت النظر يا عدو الله[١].

وفى رواية من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: كان يدخل على أزواج رسول الله ﷺ مخنث. قالت: وكانوا يعدونه من غير أولى الإربة. ثم قال ﷺ: « لا يدخل عليكم هذا بعد اليوم »[٢]، فحجبوه. وقوله تقبل بأربع . . . إلى آخر ما قال سيأتى بيانه فى المقصد الرابع قبل الخاتمة إن شاء الله تعالى، فالأليق تأخيره عن ذكره فى معرض ذكر أعمامه وعماته عليه الصلاة والسلام.

وأما زهير بن أمية فأسلم وعد من المؤلفة قلوبهم، وهو أحد القائمين فى نقض الصحيفة القاطعة المتقدم ذكرها، والإشارة إليها فى قول الإمام أبى سعيد البوصيرى وزهير والمطعم بن عدى. . . إلى آخره. وأبو أمية هذا هو والد أم سلمة زوج النبى ﷺ مشيرة الحديبية بالحلق[٣]، التى كانت زوجة أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى، تزوجها النبى ﷺ بعد وفاته.

وعاتكة هذه هى صاحبة الرؤيا فى قصة بدر[٤]. قال ابن هشام: لما سمع رسول

---

(١) أخرجه الحميدي (٢٩٧)، وأحمد (٦/ ٢٩٠)، ومسلم (٤/ ١٧١٥) كتاب السلام باب منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب رقم (٢١٨٠). وأبو داود (٤٩٢٩) كتاب الأدب باب الحكم في المخنثين. وابن ماجه (٢٦١٤) كتاب الحدود باب المخنثين.

(٢) رواية عائشة أخرجها مسلم (٤/ ١٧١٦) كتاب السلام باب منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب، وأخرجه أبو داود رقم (٤١٠٧) (٢١٨١).

(٣) أي في عمرة الحديبية حيث كتب ﷺ صلح الحديبية فقال لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا فوالله ما قام منهم رجلٌ واحد حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقُم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا رسول الله: أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تُكلم أحدًا منهم كلمةً حتى تَنحر بُدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج، فلم يُكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنَهُ ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يَحلقُ بعضًا » أخرج قصة الحديبية البخاري (٢٧٣١) كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وسيأتي في فضائل أم سلمة وانظر زاد المعاد لابن القيم (٣/ ٢٩٥)، وتاريخ الإسلام للذهبي: المغازي ص(٣٧٢).

(٤) رؤيا عاتكة أخرجها ابن إسحاق قال: أخبرني من لا أتهم عن عكرمة عن ابن عباس، ويزيد=

الله ﷺ بأبى سفيان مقبلًا من الشام بتجارات لقريش قال: هذه عير قريش فيها تجارتهم وأموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها. فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا، وكان أبو سفيان فى العير، وكان حين دنا من الحجاز يتحسس[١] الأخبار، ويسأل من لقى من الركبان والرجلان عن أمر الناس، حتى أصاب خبرًا من بعض الركبان أن محمدًا قد استفز[٢] أصحابه لك ولعيرك، فَحَذِرَ عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتى قريشًا ويستنفرهم[٣] إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمدًا قد عرض لها فى أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعًا إلى مكة.

قال ابن إسحاق: فحدثنى من لا أتهم، عن عكرمة، عن ابن عباس، ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير، قالا: وقد رأت عاتكة ابنة عبد المطلب قبل قدوم ضمضم بثلاثٍ رؤيا أفزعتها، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له: والله يا أخى، لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتنى، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم عنى ما أحدثك. فقال لها: مارأيت ؟ قالت: رأيت الليلة راكبًا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث. فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت[٤]، فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار منها إلا دخلها فلقة من تلك الصخرة.

= ابن رومان عن عروة بن الزبير، قالا: فلابن إسحاق في هذه القصة طريقان أما طريق ابن عباس ففيها جهالة شيخ ابن إسحاق، وأما طريق عروة، فهي مرسلة. وانظر سيرة ابن هشام (٢/ ٢٥٠)، تاريخ الإسلام للذهبي - المغازي ص (٧٥).

(١) فى ط: يتجسس، والمثبت من السيرة، والفرق بينهما أن التجسس يكون عن طريق الغير، والتحسس يكون بالنفس، ولعل الأخير هو المراد هنا. ينظر: اللسان (جسس، حسس).

(٢) في السيرة: استنفر.

(٣) في السيرة: فيستنفرهم.

(٤) ارفضّتْ: تفتتت.

قال العباس: والله إنها لرؤيا، وأنت فاكتميها ولا تذكريها لأحد. ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة، وكان له صديقًا فذكرها له واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لابنه عتبة، ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش فى أنديتها. قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام فى رهط من قريش، يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآنى أبو جهل قال: يا أبا الفضل، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا. فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال لى أبو جهل: يابنى عبد المطلب، متى حدثتْ فيكم هذه النبية ؟ قلت: وما ذاك ؟ قال: تلك الرؤيا التى رأت عاتكة. فقلت: وما رأت ؟ فقال أبو جهل: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟ قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال: انفروا فى ثلاثٍ، فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقًّا ما تقول فسيكون وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شىء نكتب عليكم كتابًا أنكم أكذب أهل بيت فى العرب.

قال العباس: فو الله ماكان منى إليه كبير إلا أنى جحدت ذلك، وأنكرت أن تكون رأت شيئًا. قال: ثم تفرقنا. فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتنى فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ثم لم يكن عندك غيرة لشىء ! قال: قلت: قد والله فعلت، ما كان منى إليه كبير أمر، وايم الله لأتعرضن له، فإن عاد لأكفيكنَّه. قال: فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب، أرى أن قد فاتنى منه أمر أحب أن أدركه منه، قال: فدخلت المسجد فرأيته، فو الله إنى لأمشى نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به، وكان رجلاً خفيفًا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر.

قال: إذ خرج نحو باب المسجد يشتد، قال: قلت فى نفسى: ماله - لعنة الله عليه - أكل هذا فرقًا من أن أشاتمه؟ قال: فإذا هو قد سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمرو الغفارى، وهو يصرخ ببطن الوادى واقفًا على بعيره قد جدع بعيره، وحول رحله، وشق قميصه، وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أدرى أن تدركوها، الغوث الغوث ! قال: فشغله عنى، وشغلنى عنه ما جاء من الأمر، فتجهز الناس سراعًا فخرجوا إلى بدر، وكانت القتلة فى أشرافهم ورءوسهم وصناديدهم، وأعز الله الإسلام

وأهله. فهذه رؤيا عاتكة المشار إليها بقوله: وهى صاحبة الرؤيا فى قصة بدر[١].

وأما أروَى ابنة عبد المطلب فكانت تحت عمير بن وهب بن عبد بن قصى بن كلاب، أسلم رضى الله عنه، ولإسلامه قصة، هى أنه لما كانت وقعة بدر وقتل من قتل من أشرافهم وصناديدهم، منعت قريش النياحة على من قتل إظهارًا للجد والثبات، فاجتمع صفوان بن أمية وعمير ابن وهب وكان هذا عمير فى الجاهلية شيطانًا من الشياطين، وهو الذى حزر لقريش النبىَّ ﷺ وأصحابه يوم بدر، فضرب بفرسه بطن الوادى ثم قال: القوم ثلاثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون. وهم كذلك كانوا فى الحقيقة ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. ثم رجع واستبطن الوادى وقال: توهمت أن للقوم كمينًا، فلم أجد، ولكنى - يا معشر قريش - رأيت المنايا على البلايا، نواضح يثرب تحمل السم الناقع، لا ملجأ لهم ولا منعة إلا سيوفهم، والله لئن أصابوا منا كما نصيب منهم لَبطن الأرض خير من ظهرها. فاجتمع هو وصفوان بعد وقعة بدر، فقال عمير: لولا أن لى صبية وأهلاً لذهبت حتى أغتال محمدًا، أصِل إليه بالمدينة فى طلب ابنى. وكان له ابن أسر يوم بدر، فضمن له صفوان كفاية أولاده وأهله، وأن يجعلهم أسوة أهله، ويقوم عليهم بما يحتاجون، فاتفقا على ذلك وأن يعطيه ما يعطيه، فخرج عمير حتى قدم المدينة المشرفة وأناخ بباب المسجد، فأقبل عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فأخذ بمجامع ثوبه فى صدره وحمائل سيفه، ودخل به إلى النبى ﷺ. فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً كذلك قال: « أرسله يا عمر ؟ ادنُ يا عمير ». فدنا إليه، فقال له عليه الصلاة والسلام: « ما الذى أقدمك؟ » قال: لهذا الأسير الذى فى أيديكم. فقال له عليه الصلاة والسلام: « فما بال هذا السيف معك ؟ » فقال عمير: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنَّا يوم بدر شيئًا ؟ ثم قال له: إنما أتيتُ من أجل فداء ابنى. قال عليه الصلاة والسلام: « ألم تجلس أنت وصفوان بن أمية بالحجر فتذاكرتما مصاب قريش، فقلت ماقلت، وشكوت خوف ضيعة صبيتك وأهلك فضمن لك صفوان القيام بالنفقة عليهم والكفاية لهم ؟ » قال: من أخبرك بهذا ؟ فلم يكن أحد معنا. قال: « أخبرنى الله

---

(١) تقدم الكلام على رؤيا عاتكة. وسيأتي تخريج ألفاظها في غزوة بدر في حوادث السنة الثانية وانظر السيرة (٢/ ٢٥٠-٢٥٣).

عز وجل ». قال: صدق الله وصدقتَ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله[١].

هذا وصفوان بعد ذهاب عمير كان يقول: سيأتيكم يا أهل مكة أمر يسرُّ كل ذى حزن. فلما طالت المدة، وجاء الخبر بإسلام عمير غضب صفوان، ومنع النفقة على أولاد عمير وأهله، فهذا سبب إسلامه رضى الله عنه.

فولدت له طُلَيْبَ بن عمير، أسلم طليب[٢] وهاجر إلى الحبشة، وشهد بدرًا وقتل بأجنادين، وكان سببًا فى إسلام أمه كما ذكره الواقدى. ثم خلف عليها بعد موت عمير كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى، أمها غزية بنت جندب أم الحارث ابن عبد المطلب؛ فهى شقيقته، وكأن حسانًا لما جعله فذًا فى السبعة الأبيات المتقدم ذكرها لم يعتبرها شقيقة له للأنوثة التى ليست موضعًا للفخر، فنبذ ابنه أبا سفيان بانفراده من سمراء، وبتره بانفراده من غزية.

وكيفية سببيته فى إسلام أمه أروَى هى أنه لما أسلم طُليب فى دار الأرقم ثم خرج، دخل على أمه أروى بنت عبد المطلب فقال لها: تبعتُ محمدًا وأسلمت لله عز وجل. فقالت: إن أحق من وادت وعضدت ابن خالك، والله لو قدرنا على ما تقدر عليه الرجال لمنعناه وذببنا عنه. فقال لها طليب: ما يمنعك أن تسلمى وتتبعيه؟ فقد أسلم أخوك حمزة. قالت: أنظر مايصنع أخواتى، ثم أكون إحداهن. قال: فقلت: إنى أسألك بالله إلا أتيته فسلمت عليه وصدقتيه، وشهدت أن لا إله إلا الله. قال: فأتت النبى ﷺ وقالت: إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. ثم

(١) قصة إسلام عُمير بن وهب ذكرها الحافظ في الإصابة (٤/ ٦٠٣) في ترجمة عمير وذكرها من طريق موسى بن عقبة ثم قال عقبها: « هكذا ذكره أبو الأسود عن عروة مرسلاً، وأورده ابن إسحاق في المغازي عن محمد بن جعفر بن الزبير مرسلاً أيضًا. وجاء من وجهٍ آخر موصولاً، أخرجه ابن منده من طريق أبي الأزهر، عن عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان، عن أبي عمران الجوني عن أنس وغيره. وقال ابن منده: غريب لا نعرفه عن أبي عمران إلا من هذا الوجه. وأخرجه الطبراني من طريق محمد بن سهل بن عسكر عن عبد الرزاق بسنده، فقال: لا أعلمه إلا عن أنس بن مالك. اهـ. وانظر سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠٢) وتاريخ الإسلام (المغازي ص٧١).

(٢) قصة إسلام طليب وأمه أروى أخرجها الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٣٩) من طريق موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن فذكرها وقال عقبها الحاكم: صحيح على شرط البخاري وتعقبه ابن حجر في الإصابة (٣/ ٤٤٠) في ترجمة طليب فقال: « قلت: وليس كما قال؛ فإن موسى ضعيف، ورواية أبي سلمة عنه مرسلة ».

كانت تعضد النبى ﷺ بلسانها، وتحض على نصرته والقيام بأمره.

وقال الزبير بن بكار: كان طليب من المهاجرين الأولين، وقتل بأجنادين شهيدًا ولا عقب له، وقيل: قتل يوم اليرموك. والله أعلم.

وأما بَرَّة بنت عبد المطلب فكانت عند أبى رُهم بن عبد العزى العامرى، فولدت له أبا سبرة بن أبى رهم، ثم خلف عليها عبد الأسد بن هلال المخزومى، فولدت له أبا سلمة بن عبد الأسد الذى كان زوج أم سلمة قبل النبى ﷺ، واسم أبى سلمة عبد الله، أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين، وهو أول من هاجر إلى المدينة، وهو أيضًا أول من هاجر إليها، وكانت هجرته قبل بيعة العقبة، لما آذته قريش حين قدم من الحبشة، وقد بلغه إسلام من أسلم من الأنصار، فخرج مهاجرًا إليها، وشهد بدرًا، وجرح جرحًا اندمل، ثم انتقض عليه فمات منه.

وتزوج عليه الصلاة والسلام زوجته أم سلمة بعده، قالت أم سلمة: دخل على أبى سلمة وقد شق بصره فأغمضه، وقال: « إن الروح إذا قبض تبعه البصر »، فصاح ناس من أهله، فقال: « لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير؛ فإن الملائكة تؤمن على ما تقولون. ثم قال: اللهم اغفر لأبى سلمة وارفع درجته فى المقربين. اللهم افسح له فى قبره ونوره له »(١). أخرجه البخارى ومسلم. ثم قال لها: « قولى اللهم إنى أحتسب عندك مصيبتى واخلف علىّ خيرًا منه ». فقالت: وهل خير من أبى سلمة؟ فأخلف الله علىّ منه النبى ﷺ؛ فكان هو خيرًا. أو كما قال ﷺ(٢).

وأما أميمة بنت عبد المطلب فكانت تحت جحش بن رئاب، فولدت له عبد الله، وعبيد الله، والبصير الملقب أبا أحمد، وزينب، وأم حبيبة، وحمنة. أما عبد الله بن جحش فهو ابن أخت حمزة، مثل به كما مثل بحمزة، وعبد الله هذا يعرف بالمجدع فى الله؛ جدع أنفه وأذناه يومئذ.

(١) الحديث أخرجه مسلم (٢/ ٦٣٤) كتاب الجنائز باب إغماض الميت والدعاء له إذا حضر وأبو داود (٣/ ١٩٠) كتاب الجنائز باب تغميض الميت (٣١١٨) وابن ماجه (١/ ٤٦٧) كتاب الجنائز باب ما جاء في تغميض الميت رقم (١٤٥٤)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٧٧) كتاب المناقب حديث رقم (٨٢٨٥). والحديث ليس في البخاري انظر تحفة الأشراف (١٣/ ٢٧) حديث رقم (١٨٢٠٥) حيث عزاه لمسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٣٢١) من طريق عبد العزيز ابن ابنة أم سلمة به وأخرج نحوه مالك في الموطأ (١٦٣) من طريق ربيعة بن عبد الرحمن عن أم سلمة بنحوه.

وكان سعد بن أبى وقاص يحدِّث أنه لقيه يوم أحد أول النهار فخلا به وقال له عبد الله: ياسعد، هلم فلندعُ الله، وليذكر كل منا حاجته وليؤمِّن الآخر. قال سعد: فدعوت الله أن ألقى فارسًا شديدًا جريئًا من المشركين فأقتله فآخذ سلبه. فقال عبد الله: آمين. ثم استقبل عبد الله القبلة وقال: اللهم لقنى اليوم فارسًا شديدًا بأسه شديدًا جرده فيقتلنى ويجدع أنفى وأذنى، فإذا لقيتك غدًا تقول لى: يا عبد الله، فيم جدع أنفك ؟ فأقول: فيك يارب وفى رسولك فتقول لى: صدقت. قل يا سعد: آمين، فقلتها. ثم مررت به آخر النهار قتيلاً مجدع الأنف والأذنين، وإن أنفه وأذنيه معلقتان فى خيط، ولقيت أنا فلانًا من المشركين فقتلته وأخذت سلبه(١).

وذكر الزبير بن بكار: أن سيف عبد الله بن جحش انقطع يوم أحد فأعطاه رسول الله ﷺ عرجونًا فعاد فى يده سيفًا صقيلاً فقاتل به، وكان ذلك السيف يسمى العرجون، ولم يزل حتى بيع من بُغا التركى بمائة دينار(٢)، والذى قتل عبد الله بن جحش هو الأخنس بن شُريق، وكان عبد الله حين قتل ابن بضع وأربعين سنة، ودفن مع حمزة رضى الله عنهما.

وأما عبيد الله بن جحش فأسلم وهاجر بزوجته رملة بنت أبى سفيان إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، ثم تنَّصر وارتد عن الإسلام والعياذ بالله تعالى، ومات هناك، وسيأتى ذكر زينب فى زوجاته عليه الصلاة والسلام.

وأما حمنة فكانت تحت مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، فلم يولد له منها، ثم تزوجها طلحة بن عبيد الله التيمى فولدت له محمدًا وعمران، وهى التى استحيضت وسألت النبى ﷺ، وحديثها فى باب الاستحاضة مشهور(٣).

وأما أم حبيبة - ويقال: أم حبيب - فكانت تحت عبد الرحمن بن عوف، وكانت تستحاض أيضًا، وأهل السير يقولون: المستحاضة حمنة، والصحيح أنها

---

(١) ذكر القصة ابن حجر في الإصابة (٤/ ٣٢) في ترجمة عبد الله بن جحش، وعزاه للبغوي، قال: « وأخرجه ابن شاهين من وجهٍ آخر، عن سعيد بن المسيب أن رجلاً سمع عبد الله بن جحش، فذكر نحوه، وأخرجه ابن المبارك في الجهاد مرسلاً ». اهـ

(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة (٤/ ٣٢) وعزاه للزبير بن بكار.

(٣) أخرجه أبو داود (١/ ٧٦) كتاب الطهارة باب من قال إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة، رقم (٢٨٧)، والترمذي (١/ ٢٢١) أبواب الطهارة باب ماجاء في المستحاضة أنها تجمع بين الصلاتين بغسلٍ واحد رقم (١٢٨) وقال عقبه: « حسنٌ صحيح ».

استحيضت[١]، وقد قيل: إن زينب أيضًا كانت استحاضت[٢].

وأما أبو أحمد الملقب بالبصير، فكان سِلفًا لرسول الله ﷺ؛ كانت تحته الفارعة بنت أبي سفيان، مات بعد وفاة أخته زينب في سنة عشرين.

وكان عبد الله بن جحش أول من سن الخُمس في الغنيمة للنبي ﷺ قبل أن يفرض، ثم افترض بعد ذلك. واستشاره وأبا بكر النبي ﷺ في أسارى بدر فأشارا بالفداء، وأشار عمر بالقتل. وكان أول لواء عقد له، وقيل: لحمزة، وقيل: لعبيدة ابن الحارث.

وأما صفية ابنة عبد المطلب، فأمها هالة بنت وهب بن عبد مناف، وشهدت الخندق، وقتلت رجلاً من اليهود، وضرب لها عليه الصلاة والسلام بسهم، وروت عنه حديثًا رواه عنها الزبير. وقتلُها لليهودي هو أنه لما كانت في النساء والذراري رأت يهوديًا يدور حول الحصن يريد اغتيالاً، فقالت لحسان بن ثابت - وكان مع النساء والذراري فيه - ألا تتسوَّر له تقتله ؟ فقال: ما لي وله يا ابنة عبد المطلب ؟ ثم إنها احتزمت وأخذت بيدها عمودًا فضربت به اليهودي فقتلته، ثم قالت: يا حسان، انزل إليه فاسلبه؛ فإني امرأة وهو رجل، فقال حسان: مالي ولسلبه يا بنة عبد المطلب[٣] ؟ قال السهيلي عند ذكر حسان حين جعل في الآطام مع النساء والذراري ما نصه: قيل إن حسانًا كان جبانًا شديد الجبن؛ وقد دفع هذا بعض العلماء وقال: إنه حديث منقطع الإسناد، وقال: لو صح هذا لهجي به حسان؛ فإنه كان يهاجي فحول الشعراء كضرار وابن الزبعرى وغيرهما، وكانوا يناقشونه ويردون عليه، فما

---

(١) أخرجه مسلم (٦٣-٣٣٤)، وأبو داود (٢٨٨)، والترمذي (١٢٩)، وغيرهم.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة (٨/ ٨٨) في ترجمه حمنة: « روى عاصم الأحول، عن عكرمة، عن حمنة أنها استحيضت، وخالفه أبو إسحاق الشيباني، وأبو بشر، عن عكرمة قال: « كانت أم حبيبة تُستحاض » فجمع بعضهم الاختلاف بأن كلًّا منهما كانت تستحاض، وكانت أم حبيبة أو أم حبيب تحت عبد الرحمن بن عوف. وقد قيل: إن زينب أيضًا كانت من المستحيضات حتى قيل: إن بنات جَحش كلهن كن ابتلين بذلك وأنكر الواقدي أن تكون حمنة استحيضت أصلاً، والعلم عند الله تعالى ». اهـ.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٢٧) وعزاه ابن حجر في الإصابة (٨/ ٢١٤) لابن خَيْثَمَةَ وابن منده من رواية أم عروة بنت جعفر بن الزبير، عن أبيها، عن جدتها صفية، قال: وذكره ابن إسحاق في رواية يونس بن بكير عن أبيه عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: كانت صفية. . . القصة.

عيَّره أحد منهم بجبن ولا وصمه به؛ فدل ذلك على ضعف حديث ابن إسحاق، وإن صح فلعل حسانًا كان معتلاً فى ذلك اليوم بعلة منعته من شهود القتال. انتهى ما قاله السهيلى(١).

قلت: ورأيت فى كتب السير: إن حسانًا أصابته علة أحدثت فيه الجبن، ولم يكن أول أمره جبانا وإلا لعير به كما قاله السهيلى، وقد سألت بعض حذاق الأطباء عن هذا فقال: نعم، ذلك مذكور عندنا. والله أعلم.

وكانت فى الجاهلية تحت الحارث بن حرب بن أمية، فولدت له صيفى بن الحارث، ثم هلك عنها فخلف عليها العوَّام بن خويلد أخو خديجة، فولدت له الزبير والسائب وعبد الكعبة. فأما الزبير فأسلم قديمًا وهو ابن ثمان سنين أو ست عشرة سنة، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين، ولم يتخلف عنه ﷺ فى غزاة، وقتل يوم الجمل غيلة، وسيأتى ذكره عند ذكر وقعته. وأما عبد الكعبة فهو مذكور من أولاد صفية.

توفيت بالمدينة فى خلافة عمر رضى الله عنه سنة عشرين من الهجرة ولها ثلاث وسبعون سنة، ودفنت بالبقيع.

فهؤلاء عماته ﷺ وأولادهن، أسلم منهن صفية بيقين، واختلف فى إسلام عاتكة وأروَى. والأشقاء من أولاد عبد المطلب: عبد الله والزبير وأبو طالب، والخمس الإناث ماعدا صفية؛ كلهم من فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمر بن مخزوم.

---

(١) الروض الأنف (٣/ ٢٨١) وزيادة على ما ذكره السهيلي في تضعيف هذا الأثر، فقد أخرج الحاكم القصة بإسنادين أما الأول فمن طريق أم فروة بنت جعفر بن الزبير عن أبيها عن جدها الزبير عن أمه صفية بها. وقال عقبه: « هذا حديث كبير غريب بهذا الإسناد وقد روي بإسنادٍ صحيح ». اهـ. قلت: الإسناد فيه أم عروة، وهي لا تعرف وأبوها جعفر ذكره ابن أبي حاتم: (٢/ ٤٧٨) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً. ثم رواها بإسنادٍ آخر من طريق يونس بن بكير عن هشام بن عروة عن أبيه عن صفية قال عروة، وسمعتها تقول... وقال الحاكم: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ». وقال الذهبي في التلخيص: « عروة لم يدرك صفية ». والمرسل من أقسام الضعيف ولا حجة فيه، ومن هنا يتبين أن قول الحاكم: « وقد روي بإسنادٍ صحيح » فيه ما فيه. وأورده الهيثمي في المجمع (٦/ ١٣٤)، وقال: « رواه الطبراني ورجاله إلى عروة، رجال الصحيح ولكنه مرسل ». ورواه ابن إسحاق من طريق يحيى بن عباد عن أبيه، وهو مرسلٌ أيضًا. وانظر سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨). وتاريخ الطبري (٢/ ٥٧٧).

وحمزة وحجل والمقوم وصفية أشقاء أمهم هالة بنت وهب، وكذلك بقيتهم أشقاء كالعباس وضرار وقثم؛ فإنهم من نثلة بنت جناب، ماعدا أكبر أولاد عبد المطلب وهو الحارث؛ فإنه فذٌّ أمه سمراء بنت جندب كما تقدم عند ذكر أبيات حسان بن ثابت رضى الله عنه فى أبى سفيان.

وأما أولاد عماته ﷺ فأحد عشر رجلاً وثلاث بنات عرفن، أما الرجال: فعامر بن البيضاء بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس، وعبد الله وزهير ابنا عاتكة بن أبى أمية المخزومى، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى، وعبد الله وعبيد الله والبصير الملقب أبا أحمد - بنو أميمة بنت عبد المطلب من جحش بن رئاب، وطليب بن أروَى من عمير بن وهب المخزومى، والزبير والسائب وعبد الكعبة بنو صفية من العوام بن خويلد، كلهم أسلموا وثبتوا على الإسلام إلا عبيد الله بن جحش، كما تقدم؛ فإنه ارتد وتنصر بالحبشة ومات بها.

وأما الإناث فزينب وأم حبيبة وحمنة بنات أميمة من جحش، وذكر للبيضاء بنات ولم يذكر عددهن ولا أساميهن سوى أروَى من كريز المذكور، وهى أم عثمان بن عفان، فهن بها أربع. وذكر لبرة ابن من أبى رُهم فيكون ثانى عشر أبناء العمات.

وأما جداته عليه الصلاة والسلام من جهة أبيه؛ فأم أبيه عبد الله بن عبد المطلب - فاطمة بنت عمر بن عائذ بن عمرو بن مخزوم، وأم عبد المطلب سلمى بنت عمرو النجارية، وكانت قبل هاشم تحت أُحَيْحة بن الجُلاح، فولدت له عمرو بن أحيحة، فهو أخو عبد المطلب لأمه، وله - أو لأبيه - القصيدة المرثية البليغة التى يستشهد أهل المعانى منها بقوله: [من المنسرح]

أَلْأَلْمَعِيُّ الَّذِى يَظُنُّ بِكَ الظْ ... ظَنَّ كَأَنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

وقبله قوله:

إِنَّ الَّذِى جَمَعَ السَّمَاحَةَ وَالسْ ... سُؤْدَدَ وَالْمَجْدَ وَالتُّقَى جَمَعَا

وهى طويلة. مطلعها:

أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلِى جَزَعَا ... إِنَّ الَّذِى تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

ولعلى أن أظفر إن شاء الله تعالى بها فألحقها بما هنا.

وأم هاشم هى عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان من بنى سُليم، وأم عبد

مناف عاتكة البيضاء بنت فالح بن مالك بن ذكوان من بنى سليم، وأم قصى فاطمة بنت سعد بن سبل من أزد السراة، وأم كلاب نُعم بنت سرير بن ثعلبة بن مالك بن كنانة، وأم مرة وحشية بنت شيبان بن محارب بن فهم، وأم كعب سلمى بنت فهر - أو فهم - وأم لؤى وحشية بنت مدلج بن مرة بن عبد مناف بن كنانة، وأم غالب سلمى بنت سعد بن هُذيل، وأم فهر جذلة ابنة الحارث الجرهمى، وأم مالك هند بنت عَدوان بن عمرو بن قيس عيلان، وأم النضر بَرَّة أخت تميم بن مر، ذكره ابن قتيبة فى كتاب « المعارف ». فالجدة الأولى مخزومية، والثانية نجارية، والثالثة سُلَمية، والرابعة سلمية أيضًا، والخامسة أزدية، والسادسة كنانية، والسابعة فهمية، والثامنة فهرية أو فهمية؛ لإيهام الخط فيها، والتاسعة كنانية، والعاشرة هُذَلية، والحادية عشرة جُرْهمية، والثانية عشرة قيسية من قيس عيلان، والثالثة عشرة مرية.

وأما جداته من جهة أمه فأم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب - بَرَّة بنت عبد العزى بن قصى بن كلاب، وأم أبيها وهب عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان من سبى سُليم، وأم مرة أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب، وأم أم حبيب بَرَّة بنت عوف بن عبيد بن عدى بن كعب بن لؤى، وأم بَرَّة قلابة بنت الحارث بن صعصعة بن عائذ بن لحيان بن هذيل، وأم قلابة هند بنت يربوع من ثقيف؛ فالجدة الأولى والثانية والثالثة من أمهات أمه عليه الصلاة والسلام قرشيات، والرابعة لحيانية هذلية، والخامسة ثقفية، ففى كل قبيلة من قبائل العرب له عليه الصلاة والسلام علقة نسب.

وأما إخوته من الرضاعة فحمزة عمه، وأبو سلمة بن عبد الأسد؛ أرضعتهما معه ثويبة جارية عمه أبى لهب بلبن ابنها مسروح بن ثويبة، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أرضعته مع رسول الله ﷺ حليمة السعدية، وعبد الله وأنيسة وحذافة وتعرف بالشيماء، الثلاثة أولاد حليمة. وقد روى أن خيلاً له عليه الصلاة والسلام أغارت على هوازن فأخذوا هذه الشيماء فى جملة السبى، فقالت: أنا أخت نبيكم - أو صاحبكم - فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالت له: يا محمد، أنا أختك، فرحب بها وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، ودمعت عيناه وقال لها: إن أحببتِ أقيمى عندى مكرَّمة محببة، وإن أحببت أن ترجعى إلى قومك وصلتك. قالت: بل أرجع

إلى قومى؛ فأسلمت وأعطاها ﷺ ثلاثة أعبد وجارية ونعمًا وشيئًا ذكره ابن قتيبة. ويقال: إنه عليه الصلاة والسلام قال لها حين قالت: أنا أختك: ما آية ذلك ؟ قالت: عضة فى ظهرى منك خفيفة إذ كنا نروح فى البهم[1]. والله تعالى أعلم. وإلى هذا الإشارة فى قول البوصيرى رحمه الله تعالى: [من الخفيف]

وأتى السَّبْىُ فِيهِ أُخْتُ رَضَاعٍ   وَضَعَ الكُفرُ قَدْرَهَا والسِّبَاءُ
بَسَطَ المُصْطَفَى لَهَا مِن رِدَاءٍ   أَىُّ فَضْلٍ حَوَاهُ ذَاكَ الرِّدَاءُ

* * *

(١) الأثر ذكره ابن حجر في الإصابة بلفظ آخر (٨/ ٢٠٥) في ترجمة الشيماء وقال: « أخرجه المستغفري من طريق سلمة بن الفضل، عن ابن إسحاق ». اهـ.قلت: وسلمة بن الفضل هذا هو سلمة بن الفضل الأبرش روى عن محمد بن إسحاق، قال الحافظ في التقريب: صدوق كثير الخطأ، وقال البخاري. عنده مناكير، وقال أبو حاتم: محله الصدق، في حديثه إنكار، لا يمكن أن أطلق لساني فيه أكثر من هذا: يُكتبُ حديثه ولا يُحتج به. تهذيب الكمال (١١/ ٣٠٥). وأخرجه ابن إسحاق عن أبي وجزة السعدي قال إن الشيماء لما انتهت إلى رسول الله (قالت . . . انظر الإصابة (٨/ ٢٠٥).

الباب الرابع
من المقصد الثانى
فى ذكر أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، وسراريه

لا خلاف بين أهل السير والعلم بالأثر أن أزواجه عليه الصلاة والسلام اللاتى دخل بهن إحدى عشرة امرأة: ست من قريش، وأربع عربيات، وواحدة من بنى إسرائيل من سبط هارون بن عمران، وهى صفية بنت حيى بن أخطب. وكونهن أمهات المؤمنين إنما هو فى تحريم نكاحهن، ووجوب احترامهن، لا فى جواز النظر إليهن والخلوة بهن، لا يقال بناتهن أخوات المؤمنين، ولا آباؤهن ولا أمهاتهن أجداد وجدات المؤمنين، ولا إخوتهن وأخواتهن أخوال وخالات المؤمنين.

قال البغوى: هن أمهات المؤمنين من الرجال دون النساء، روى ذلك عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت فى قضية: أنا أم رجالكم لا أم نسائكم[1]، وهو جار على الصحيح عند أصحابنا وغيرهم من أهل الأصول: أن النساء لا يدخلن فى خطاب الرجال. وقال: وكان ﷺ أبا للرجال والنساء، ويجوز أن يقال: أبو المؤمنين فى الحرمة، وفضلت زوجاته عليه الصلاة والسلام على النساء، وثوابهن وعقابهن مضاعف، ولا يحل سؤالهن إلا من وراء الحجاب، وأفضلهن خديجة وعائشة، ويأتى تحقيق ذلك قريبًا. انتهى

ولنذكرهن على ترتيب تزوجه بهن عليه الصلاة والسلام:

فأولهن خديجة، ثم سودة بنت زمعة، ثم عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، ثم حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، ثم زينب بنت خزيمة، ثم أم سلمة، ثم زينب بنت جحش، ثم جويرية بنت الحارث، ثم أم حبيبة رملة بنت

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٤٤) من طريق الواقدي قال حدثنا الثوري عن فراس عن الشعبي عن مسروق عن عائشة به. والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٧٠) من طريق أبي عوانة عن فراس به. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٥١) وعزاه لهما وزاد نسبته لابن المنذر. قلت: فراس هو فراس بن يحيى الهمداني الخارفي يروي عن الشعبي وإبراهيم التيمي وغيرهما قال ابن حجر في التقريب: صدوق ربما وهم. اهـ. انظر التقريب (٥٤١٦) وتهذيب الكمال (٢٣/ ١٥٢). وأخرج ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٤٤) عن أم سلمة قالت: «أنا أم الرجال منكم والنساء».

أبى سفيان بن حرب، ثم صفية بنت حُيى، ثم ميمونة بنت الحارث العامرية.

أما أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها فهى بنت خُوَيلد بن أسد بن عبد العزَّى بن قصى، كانت تدعى فى الجاهلية « الطاهرة »، وكانت قد ذكرت وهى بكر لورقة بن نوفل فلم يقض بينهما نكاح. وفى « السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين » قال ابن شهاب: تزوجتْ خديجة قبله عليه الصلاة والسلام رجلين: الأول منهما: عتيق ابن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، فولدت له جارية اسمها هند فأسلمت وتزوجت. وفى سيرة مغلطاى: ولدت له عبد الله، وقيل: عبد مناف، ثم خلف عليها بعده أبو هالة النباش بن زرارة التميمى، أخو حاجب بن زرارة، ويقال له: هند، فولدت له رجلاً يقال له: هند، وامرأة يقال لها: هالة، ويكنى بها. وفى روايةٍ: المتزوج لها أولا أبو هالة، ثم بعده عتيق، ولم يذكر ابن قتيبة غير الأول، فأما هند بن أبى هالة المسمى هندًا - أيضًا - فهو ربيب النبى ﷺ، عاش مسلمًا إلى أن قتل مع على يوم الجمل، وقيل: بالبصرة فى الطاعون، فازدحم الناس على جنازته وتركوا جنائزهم وقالوا: ربيب رسول الله ﷺ. وكان فصيحًا بليغًا وصَّافًا؛ وصف رسول الله ﷺ فأحسن وأتقن.

قلت: وعلى نعته غالب أحاديث الكتاب المسمى بالشمائل وروايته، وكان يقول: أنا أكرم الناس أمًا وأبًا وأخًا وأختًا، أبى رسول الله ﷺ، وأمى خديجة، وأخى القاسم بن محمد، وأختى فاطمة بنت محمد ﷺ ورضى الله عنهم. وأما الجاريتان - وهما هند التى من عتيق وهالة التى من النباش بن زرارة - فقال ابن قتيبة وأبو سعيد وأبو عمرو: لم نظفر من أخبارهما بشىء.

روى أن رسول الله ﷺ لما بلغ خمسًا وعشرين سنة قال له عمه أبو طالب: أنا رجل معيل لا مال لى، وقد اشتد الزمان، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك فى تجارتها، فلو ذهبتَ إليها وقلت لها فى ذلك لعلها تقبل، وبلغ خديجة ذلك فأرسلت إلى النبى ﷺ فى ذلك وقالت: أعطيك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك(١). وفى رواية: أتى إليها

(١) قال الذهبي في تاريخ الإسلام (السيرة-٦٤): روى قصة خروجه ﷺ إلى الشام تاجرًا، المحاملي عن عبد الله بن شبيب وهو واهٍ . . . وهو حديثٌ منكر. وهو في طبقات =

أبو طالب فقال لها: هل لك أن تستأجرى محمدًا ؟ فقد بلغنا أنك استأجرت ببكرين ولسنا نرضى لمحمد دون أربع بكرات، فقالت خديجة: لو سألتَ ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألت لحبيب قريب ؟! فقال أبو طالب للنبى ﷺ: هذا رزق ساقه الله إليك. فخرج عليه الصلاة والسلام مع غلامها ميسرة، ووقعت له القصة مع نسطور الراهب . . . إلى آخر ما هو مذكور فى محله من كتب السير المفردة لذلك.

ولما رجع عليه الصلاة والسلام بالتجارة من الشام، وربحت التجارة الدرهم أربعة دراهم؛ قالت نفيسة بنت منية: أرسلتنى خديجة دسيسًا إلى محمد ﷺ فقلتُ: يامحمد، ما يمنعك أن تتزوج ؟ فقال: ما بيدى ما أتزوج به. قلت: فإن كفيت ذلك ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال عليه الصلاة والسلام: فمن هى ؟ قلت: خديجة. قال: وكيف لى بذلك ؟ قلت: علىَّ، فأنا أفعل. فذهبتُ إلى خديجة فأخبرتها، فأرسلت إلى النبى ﷺ أن ائتِ ساعة كذا وكذا. وصنعتْ طعامًا وشرابًا ودعت أباها[1] - والصحيح أنه عمها وهو عمرو أخو خويلد، والعرب تسمى العم والدًا؛ فإن أباها خويلد مات قبل حرب الفجار[2]، وحرب الفجار كانت وسنه عليه الصلاة والسلام عشرون عامًا كما تقدم ذكره - ونفرًا من قريش فطعموا وشربوا، فقالت خديجة: إن محمد بن عبد الله يخطبنى، فزوجها منه عليه الصلاة والسلام، فخلقته وألبسته حلة، وكذلك كانوا يصنعون إذا زوجوا نساءهم، والضمير فى خلقته ورديفه إلى عمها المزوج لها عمرو بن خويلد المذكور

= ابن سعد (١/ ١٢٣) من طريق الواقدي قال أخبرنا موسى بن شيبة عن عميرة بنت عُبيد الله ابن كعب بن مالك عن أم سعد بنت سعد عن نفيسة بنت منية أخت يعلى بن منية قالت. . . وهو في الدلائل لأبي نعيم (١/ ٥٤) وانظر سيرة ابن هشام (١/ ٢١٢)، وتاريخ الطبري (٢/ ٢٨٠)، وسبل الهدى والرشاد (٢/ ١٥٨)، وقد ذكر القصة وعزاها لابن سعد وابن السكن وأبو نُعيم.

(١) أخرج القصة الإمام أحمد في المسند (١/ ٣١٢) من طريق عمار بن أبي عمار عن ابن عباس وانظر تاريخ الإسلام (السيرة-٦٥) وذكرها الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢٤) من حديث ابن عباس وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد والطبراني رجال الصحيح ». اهـ

(٢) قال الصالحي في سبل الهدى: « ما تقدم من أن عمها هو الذي زوجها رسول الله (ذكره أكثر علماء أهل السير، قال السهيلي: وهو الصحيح لما رواه الطبري عن جُبير ابن مُطعم وابن عباس وعائشة كلهم قال: إن عمرو بن أسد هو الذي أنكح خديجة رسول الله ﷺ، وإن خويلد كان قد هلك قبل الفجار ورجحه الواقدي وغلط من قال بخلافه » انظر سبل الهدى (٢/ ١٦٥).

لا إليه عليه الصلاة والسلام.

قال فى « السمط الثمين » للمحب الطبرى: وحضر أبو طالب ورؤساء مضر، فخطب أبو طالب فقال: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضِئضىء مَعَد، وعنصر مضر، وجعلنا سَدَنَة بيته، وسوَّاس حرمه، وجعل لنا بيتًا محجوجًا وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به رجل إلا رجح به؛ فإن كان فى المال قِلٌّ فإن المال ظل مائل وأمر حائل، ومحمد قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله من مالى كذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل جسيم.

فلما أتم أبو طالب خطبته تكلم ورقة بن نوفل فقال: الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا علىَّ معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار. ثم سكت ورقة. فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها عمرو بن خويلد: اشهدوا علىَّ يا معشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد. وشهد على ذلك صناديد قريش[(١)].

وفى « السمط الثمين »: أصدقها عشرين بكرة. وفى « المواهب » عن الدولابى: أصدقها اثنتى عشرة أوقية ذهبًا ونَشًّا. قالوا: وكل أوقية أربعون درهمًا والنَّش: نصف أوقية. ولا منافاة بين هذا وبين من قال أصدقها أبو طالب لقوله فى الخطبة من مالى كذا؛ لجواز كون أبى طالب أصدقها، وزاد عليه الصلاة والسلام فى صداقها، فكان الكل صداقًا[(٢)].

وذكر المُلا فى سيرته: لما تزوج عليه الصلاة والسلام خديجة ذهب ليخرج، فقالت له خديجة: إلى أين يا محمد ؟ اذهب فانحر جَزورًا أو جزورين وأطعم

(١) خطبة أبي طالب وغيره في قصة نكاحه ﷺ في الروض الأنف (١/ ٢١٣) وانظر سبل الهدى (٢/ ١٦٥)، والذي في سيرة ابن هشام (١/ ٢١٥) أنه حمزة بن عبد المطلب.

(٢) قال الصالحي: « قال ابن هشام: أصدقها عشرين بكرة، وقال البلاذري والدمياطي: اثنتي عشرة أُوقية ونَشا، قال المحب الطبري: ذَهبا » سبل الهدى (٢/ ١٦٥).

الناس، ففعل ذلك رسول الله ﷺ، وهى أول وليمة أولمها رسول الله ﷺ. وفى رواية: أمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف، وقالت: يا محمد، مر عمك أبا طالب أن ينحر بكرًا من بكارك، وأطعم الناس على الباب، وهلم فقِل مع أهلك. فأطعم الناس ودخل، فقال مع أهله خديجة، فأقر الله عينه. وفرح أبو طالب بذلك فرحًا شديدًا وقال: الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب، ودفع عنا الهموم.

وأم خديجة فاطمة بنت زائدة بن الأصم، تزوج ﷺ خديجة ولها من العمر أربعون سنة وبعض أخرى، وله خمس وعشرون سنة، وقيل: إحدى وعشرونْ سنة، والأول عليه الأكثرون. وكانت مدة إقامتها معه عليه الصلاة والسلام أربعًا وعشرين سنة وخمسة أشهر وثمانية أيام، خمس عشر سنة منها قبل الوحى والباقيات بعده، إلى أن توفيت وهى ابنة خمس وستين سنة، ولم يكن يومئذ يصلى على الجنائز.

ولا خلاف فى أنها أول امرأة تزوج بها عليه الصلاة والسلام، ولم يتزوج قبلها ولا عليها. وكانت وفاتها قبل الهجرة بثلاث سنين، ودفنت بالحَجون، وولدت له عليه الصلاة والسلام أولاده كلهم، ما عدا إبراهيم؛ فإنه من مارية القبطية، وسيأتى ذكرها آخر الباب. قال حكيم بن حزام بن خويلد: توفيت عمتى خديجة بنت خويلد فخرجنا بها من منزلها حتى دفناها بالحجون، ونزل ﷺ فى قبرها. وفى « المواهب اللدنية »: وكانت خديجة أول من آمن من الناس. وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه: أن جبريل قال للنبى ﷺ: « إن خديجة قد أتتك بإناء فيه طعام وإدام وشراب، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب »[1]. والمراد بالقصب: اللؤلؤ المجوف.

قال ابن إسحاق: كان عليه الصلاة والسلام لا يَسْمَعُ شيئًا مِنْ رَدٍّ عليه وتكذيبٍ له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بخديجة إذا رجع إليها؛ تثبته وتخفف عنه، وتصدِّقه وتهوِّن عليه أمر الناس حتى ماتت. وعن عبد الرحمن بن يزيد: قال آدم عليه الصلاة والسلام: إنى لسيد البشر يوم القيامة، إلا رجلاً من ذريتى نبيًا من الأنبياء يقال له:

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٠)، والبخاري (٧/ ٥١٢-فتح) كتاب مناقب الأنصار باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها -رضي الله عنها- حديث رقم (٣٨٢٠). ومسلم (٤/ ١٨٨٧) كتاب فضائل الصحابة باب فضائل خديجة أم المؤمنين حديث رقم (٢٤٣٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٤) كتاب المناقب باب مناقب خديجة بنت خويلد حديث رقم (٨٣٥٨).

أحمد؛ فُضِّلَ عليّ باثنتين: زوجته عاونته فكانت له عونًا وكانت زوجتي عونًا عليّ، وأعانه الله على شيطانه فأسلم وكفر شيطاني. أخرجه الدولابي كما ذكره الطبري. وخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أنه ﷺ قال: أفضل نساء الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنة عمران، وآسية امرأة فرعون(١).

قال الشيخ ولي الدين العراقي: خديجة أفضل أمهات المؤمنين على الصحيح المختار، وقيل: عائشة. وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرح بهجة الحاوي المسمى بـ « الغرر البهية، في شرح البهجة الوردية »: أفضلهن خديجة وعائشة، وفي أفضليتهما خلاف، صحح ابن العماد تفضيل خديجة لما ثبت أنه ﷺ قال لعائشة حين قالت له: لا تزال تلهج بذكر خديجة، إن هي إلا عجوز من عجائز قريش، كأني أنظر إلى حمرة شدقيها ودردرها، وقد رزقك الله خيرًا منها. فقال عليه الصلاة والسلام: لا والله ما رزقني خيرًا منها، آمنتْ بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس(٢). وسئل ابن داود: أيهما أفضل؟ فقال: عائشة أقرأها النبي ﷺ السلام عن جبريل(٣)، وخديجة

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، وعبد بن حميد (٥٩٧)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٤) كتاب المناقب باب مناقب خديجة بنت خويلد حديث رقم (٨٣٦٤) ثلاثتهم من حديث ابن عباس. وفي الصحيحين وغيرهما من حديث علي قال: سمعتُ رسول الله (يقول: خَير نسائها خديجة بنت خويلد وخير نسائها مريم بنت عمران. أخرجه البخاري (٧/ ٥١١) كتاب مناقب الأنصار باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رقم (٣٨١٥). ومسلم (٤/ ١٨٨٦) كتاب فضائل الصحابة باب فضائل خديجة أم المؤمنين حديث (٢٤٣٠).

(٢) أصل الحديث إلى قول عائشة: « قد أبدلك الله خيرًا منها » أخرجه البخاري (٧/ ٥١٢-فتح) كتاب مناقب الأنصار باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها حديث رقم (٣٨٢١) من حديث عائشة، وبقيته أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١١٧) والطبراني في الكبير كما في المجمع (٩/ ٢٢٧) وقال الهيثمي: « رواه الطبراني وأسانيده حسنة » من حديث عائشة، وذكر بعده رواية أحمد وقال: رواه أحمد وإسناده حسن ينظر: المجمع (٦/ ١١٧).

(٣) يشير إلى قوله ﷺ: يا عائشة هذا جبريل يُقرئك السلام أخرجه أحمد (٦/ ٥٥) والبخاري كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب فضل عائشة حديث رقم (٣٧٦٨) ومسلم (٤/ ١٨٩٦) كتاب فضائل الصحابه باب فضل عائشة - رضي الله عنها - الحديث (٢٤٤٧) وأبو داود (٢/ ٧٨٠) كتاب الأدب باب في الرجل يقول: فلان يقرئك السلام حديث رقم (٥٢٣٢)، والترمذي (٥/ ٥٥) كتاب الاستئذان باب ما جاء في تبليغ السلام حديث رقم (٢٦٩٣)، وابن ماجه (٢/ ١٢١٨) كتاب الأدب باب رد السلام حديث رقم (٣٦٩٥) كلهم من طرق عن عائشة رضي الله عنها.

أقرأها السلام جبريل من ربها على لسان محمد ﷺ، فهى أفضل(١).

وقيل له: فمن أفضل خديجة أم فاطمة ؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: فاطمة بضعة منى(٢) فلا أعدل ببضعة رسول الله ﷺ أحدًا. ويشهد له قوله ﷺ: أما ترضين أن تكونى سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنة عمران(٣). واحتج من فضل عائشة بما احتجت به هى من أنها فى الآخرة مع النبى ﷺ فى الدرجة، وفاطمة مع على فيها.

وسئل العلامة السبكى عن ذلك فقال: الذى نختاره وندين الله به أن فاطمة بنت محمد ﷺ أفضل من أمها خديجة، ثم أمها خديجة، ثم عائشة(٤). ثم استدل لذلك بما تقدم بعضه. وأما خبر الطبرانى: « خير نساء العالمين مريم بنة عمران، ثم خديجة بنت خويلد، ثم فاطمة بنت محمد ﷺ، ثم آسية امرأة فرعون »(٥) فأجاب

---

(١) يشير إلى ما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قَصب، لا صخبَ فيه ولا نصب أخرجه البخاري (٧/ ٥١٢) كتاب مناقب الأنصار باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها -رضي الله عنها- حديث رقم (٣٨٢٠). ومسلم (٤/ ١٨٨٧) كتاب فضائل الصحابة باب فضائل خديجة أم المؤمنين. حديث رقم (٢٤٣٢) وأخرج الجزء الأخير منه من قوله بشرها ببيتٍ في الجنة غير واحد عن عبد الله بن أبي أوفى.

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٤٧٦- فتح) كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب مناقب فاطمة - رضي الله عنها- حديث رقم (٣٧٦٧) ومسلم (٤/ ١٩٠٢) كتاب فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة حديث رقم (٢٤٤٩). وأبو داود (١/ ٦٣٢) كتاب النكاح باب ما يكره أن يجمع بينهن من النساء، حديث رقم (٢٠٧١). والترمذي (٥/ ٦٩٨) كتاب المناقب باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ. وابن ماجه (١/ ٦٤٣) كتاب النكاح باب الغيرة حديث رقم (١٩٩٨، ١٩٩٩). كلهم من طرق عن المِسْوَر بن مَخْرَمَةَ بألفاظٍ متقاربة.

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٨٥، ٦٢٨٦)، ومسلم (٩٨/ ٢٤٥٠)، وابن ماجه (١٦٢١).

(٤) نقل كلام السبكي الحافظ في الفتح (٧/ ٥١٩).

(٥) أخرج الطبراني عن ابن عباس قال قال رسول الله (: « سيدات نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة بنت محمد ثم خديجة ». وأورده الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢٦) وقال عقبه: « رواه الطبراني وفيه محمد بن الحسن بن زبَالَة وهو متروك ». اهـ. قلت: ابن زَبَالَةَ: قال أبو داود: كذاب، وقال النسائي والأزدي: متروك، وقال أبو حاتم: واهي الحديث، وقال الدارقطني وغيره منكر الحديث. اهـ من ميزان الاعتدال (٦/ ١٠٨)، وقال الحافظ في التقريب (٥٨٥٢): محمد بن الحسن بن زَبَالَةَ - بفتح الزاي وتخفيف الموحدة، المخزومي- كذبوه . اهـ. وأخرج عن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط فقال: أتدرون ما هذا؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: أفضل نساء أهل =

عنه ابن العماد بأن خديجة إنما فضلت فاطمة باعتبار الأمومه لا باعتبار السيادة، واختار السبكى أن مريم أفضل من خديجة لهذا الخبر للاختلاف فى نبوتها.

وقال ابن النقاش: إن سبق خديجة وتأثيرها فى أول الإسلام ومؤازرتها ونصرتها وقيامها فى الدين لله بمالها ونفسها لم يشركها فيه أحد لا عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين، وتأثير عائشة فى آخر الإسلام فى حمل الدين وتبليغه إلى الأمة وإدراكها من الأمر ما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها مما تميز به عن غيرها. وفى سيرة الشامى: روى الطبرانى برجال الصحيح عن الزهرى، قال: لم يتزوج رسول الله ﷺ على خديجة حتى ماتت بعد أن مكثت عنده ﷺ أربعًا وعشرين سنة وأشهرًا(١).

وروى الطبرانى بسند فيه مَنْ لا يُعْرَفُ، عن عائشة رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ أطعم خديجة من عنب الجنة(٢). وعن أنس رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بالشىء يقول: « اذهبوا به إلى بيت فلانة؛ فإنها كانت صديقة لخديجة » رواه ابن حبان والدولابى. وفى رواية: فإنها كانت تحب خديجة، وفى رواية: جاءت عجوز إليه ﷺ فقال لها من أنت ؟ فقالت: جثامة المزنية. فقال: كيف أنتم، كيف حالكم، كيف كنتم بعدنا ؟ قالت: بخير بأبى أنت وأمى يا رسول الله(٣).

= الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة ابنة محمد ﷺ، ومريم ابنة عمران، وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون ». وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢٦) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ورجالهم رجال الصحيح. وهو عند الحاكم (٢/ ٥٩٤)، والطحاوي في المشكل (١٤٨) وانظر فتح الباري (٧/ ٥١٢).

(١) أورده الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢٣) وقال: رجاله رجال الصحيح. اهـ. قلتُ: والحديث عند مسلم (٤/ ١٨٨٩) كتاب فضائل الصحابة باب فضل خديجة أم المؤمنين رقم (٢٤٣٦) فعزوه للطبراني فقط قصورٌ من المؤلف.

(٢) أورده الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢٨) وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه من لم أعرفه.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٣٢) وابن حبان حديث رقم (٧٠٠٧)، والطبراني (٢٣/ ٢٠) والحاكم (٤/ ١٧٥) وقال الحاكم: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ». اهـ. ووافقه الذهبي- كلهم من طرق عن المبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس به. قلت: وفي إسناده المبارك بن فضالة - بفتح الفاء وتخفيف المعجمة - قال ابن حجر في التقريب: « صدوق يدلس ويسوي » التقريب (٦٥٠٦)، قلت: وقد عنعن ونقل الذهبي في الميزان (٦/ ١٥): قال ابن معين: صالح، وقال أبو داود: شديد التدليس، فإذا قال حدثنا، فهو ثبت، وقال أبو زرعة: يدلس كثيرًا، فإذا قال حدثنا فهو ثقة، وكان عفان يوثقه ». اهـ. وله شاهد من حديث عائشة -رضي الله عنها- أخرجه مسلم (٤/ ١٨٨٨) كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين حديث رقم (٢٤٣٥).

وعن عائشة رضى الله عنها: كانت عجوز تأتى النبى ﷺ فيبش لها ويكرمها. وفى لفظ: كانت تأتى النبى ﷺ امرأة فقلت: يا رسول الله، من هذه ؟ وفى لفظ: بأبى أنت وأمى؛ إنك لتصنع بهذه العجوز ما لم تصنع بأحد، وفى لفظ: فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟! فقال: يا عائشة، إنها كانت تأتينا زمان خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان. وفى لفظ: فإن كرم العهد من الإيمان[1]. انتهى

وأما أم المؤمنين سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية، فأمها الشموس بنت قيس بن زيد بن لبيد ابن أخى سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد أم عبد المطلب، فأسلمت قديمًا وبايعت، وكانت تحت ابن عم لها يقال له: السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن عامر بن لؤى أخى سهيل بن عمرو وسهل بن عمرو وسليط وحاطب، أسلم السكران زوجها معها قديمًا وهاجرا جميعًا إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، فلما قدما مكة مات زوجها، وقيل: إنه مات بالحبشة، وولدت له ابنًا اسمه عبد الرحمن، قتل فى حرب « جلولاء » - اسم قرية من قرى فارس، وقعت تلك الحرب فيها - وتزوجها ﷺ بمكة بعد موت خديجة بأيام فى السنة العاشرة من النبوة قبل أن يعقد على عائشة، وهذا قول قتادة وأبى عبيدة، ولم يذكر ابن قتيبة غيره. وقال عبد الله بن محمد بن عقيل: تزوجها بعد عائشة، روى القولان عن ابن شهاب. ويجمع بين القولين بأنه ﷺ عقد على عائشة قبل سودة، ودخل بسودة قبل عائشة، والتزويج يطلق على كل من العقد والدخول، وإن كان المتبادر إلى الفهم الأول.

وللبخارى: توفيت خديجة قبل مخرج النبى ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين، فلبث سنتين، أو قريبًا من ذلك، ونكح عائشة وهى بنت ست سنين، ثم بنى بها بالمدينة

---

(١) الروايتان أخرجهما الحاكم في المستدرك (١/ ١٥) كتاب الإيمان، وابن الأعرابي في معجمه، وعنه القضاعي في مسند الشهاب (٧٩٢) وقال الحاكم: « حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد اتفقا على الاحتجاج برواته في أحاديث كثيرة، وليس له علة ». اهـ. ووافقه الذهبي. وقد ذكر الحافظ ابن حجر الحديث في الفتح (١٠/ ٣٦٥) من هذا الوجه، من رواية الحاكم والبيهقي في الشعب ثم قال: وأخرجه البيهقي أيضا من طريق مسلم بن جنادة عن حفص بن غياث عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مثله، بمعنى القصة، وقال: غريب. ومن طريق أبي سلمة عن عائشة نحوه، وإسناده ضعيف.

وهى بنت تسع سنين[١] بتقديم التاء. قال فى « السيرة الشامية »[٢]: قال ابن كثير: والصحيح أن عائشة عقد عليها قبل سودة، ولم يدخل بعائشة إلا فى السنة الثانية من الهجرة. وأما سودة فإنه دخل بها بمكة. وسبقه إلى ذلك[٣] أبو نعيم، وجزم به الجمهور [و] منهم قتادة وأبو عبيدة معمر بن المثنى والزهرى.

قال فى « تاريخ الخميس »: روى أنه لما ماتت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة مظعون فقالت: يا رسول الله، ألا تتزوج ؟ قال: من ؟ قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا. قال: فمن البكر ؟ قالت: ابنة أحب الخلق إليك أبى بكر. قال: ومن الثيب ؟ قالت سودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك على ما تقول. قال: فاذهبى فاذكريهما على. فدخلت بيت أبى بكر وقالت: يا أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ قالت: وما ذاك ؟ قالت: أرسلنى رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قالت: انتظرى أبا بكر حتى يأتى. فجاء أبو بكر فقالت له: ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ قال: وما ذاك ؟ قالت: أرسلنى رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قال: وهل تصلح له؛ إنما هى ابنة أخيه!. فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك قال ارجعى إليه فقولى له: أنا أخوك وأنت أخى فى الإسلام، وابنتك تصلح لى. فرجعت فذكرت ذلك له. قال: انظرى.

قالت أم رومان: إن مطعم بن عدى قد كان ذكرها على ابنه، فوالله ما وعد وعدًا قط فأخلفه - تعنى: أبا بكر - فدخل أبو بكر على مطعم بن عدى وعنده امرأته أم الفتى فقالت: يا ابن أبى قحافة لعلك تصبى صاحبنا، تدخله فى دينك الذى أنت عليه إن تزوج إليك. قال أبو بكر لمطعم بن عدى: أَقَوْلَ هذه تقول ؟ قال: إنها تقول ذلك. فخرج أبو بكر من عنده وقد أذهب الله ما فى نفسه من عدته التي وعده بها، فخرج فقال لخولة: ادعى لى رسول الله ﷺ. فدعته فزوجه إياها، وعائشة يومئذ بنت ست سنين كما مر. ثم خرجت خولة حتى دخلت على سودة بنت زمعة فقالت: ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ قالت: وما ذاك ؟ قالت: أرسلنى

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٦٢٨-الفتح) كتاب مناقب الأنصار باب تزويج النبي ﷺ رقم (٣٨٩٦).
(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٩٨).
(٣) في ط: على هذا. والمثبت من السبل.

رسول الله ﷺ أخطبك عليه. قالت: وددت ذلك، ادخلى على أبى واذكرى له ذلك، وكان شيخًا كبيرًا قد أدركته السن، وقد تخلف عن الحج، فدخلت عليه فذكرت له، فقال: كفؤ كريم. فدعا رسول الله ﷺ فزوّجه إياها، فجاء أخوها عبد الله بن زمعة، فجعل يحثو التراب على رأسه أن تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة. فلما أسلم قال: إنى لسفيه يوم أحثو التراب على رأسى أن تزوج رسول الله ﷺ أختى[(١)]. رواه الطبرانى برجال ثقات، والإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها بسند جيد.

قال العلامة محمد الشامى: روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كانت سودة بنت زمعة تحت السكران بن عمرو أخى سهيل بن عمرو العامرى، فرأت فى المنام كأن النبى ﷺ أقبل يمشى حتى وضع رجله على رقبتها، فأخبرت زوجها بذلك فقال: لئن صدقت رؤياك لأموتن وليتزوجنك محمد، ثم رأت فى المنام ليلة أخرى أن قمرًا انقض عليها وهى مضطجعة، فأخبرت زوجها فقال: لئن صدقت رؤياك لم ألبث إلا يسيرًا حتى أموت، وتتزوجين من بعدى. فاشتكى السكران من يومه، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات، وتزوجها عليه الصلاة والسلام[(٢)].

وروى أبو عمر عن عائشة رضى الله عنها قالت: لما أَسَنَّتْ سودةُ عند رسول الله

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ((٨/ ٤٥) وذكره الحافظ في الإصابة (٨/ ١٩٦) في ترجمة سودة بنت زمعة وقال: أخرجه ابن سعد بسند مرسل رجاله ثقات. وأخرجه ابن أبي عاصم موصولاً، وسيأتي فى ترجمة عائشة. اهـ. وذكره في ترجمة عائشة (٨/ ٢٣٢) من طريق ابن أبي عاصم قال: « أخرج ابن أبي عاصم، من طريق يحيى القطان، عن محمد بن عمرو، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن عائشة. . . به. ورواه أحمد في المسند (٦/ ٢١٠) من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب وأبي سلمة قالا: لما هلكت خديجة. . . إلخ. وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢٨) وقال عقبه: « رواه أحمد . بعضه صرح فيه بالاتصال عن عائشة وأكثره مرسل، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة، وثقه غير واحد، وبقية رجاله رجال الصحيح ». اهـ. ورواه الطبراني كما في المجمع (٩/ ٢٢٨) عن عائشة قالت: لما توفيت خديجة قالت خولة بنت حكيم . . .» وقال الهيثمي: « رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث ». اهـ. ومحمد بن عمرو بن علقمة قال فيه الحافظ في التقريب (٦٢٢٨) صدوق له أوهام. وقد ذكر القصة الذهبي في تاريخ الإسلام المغازى (ص٢٨٠) من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب به وحسن إسنادها.

(٢) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٩٨، ١٩٩)، وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٤٥).

ﷺ همَّ بطلاقها فقالت: لا تطلقنى وأنت فى حل منى، فأنا أريد أن أحشر فى أزواجك، وإنى قد وهبت يومى لعائشة، وإنى لا أريد ما تريد النساء. فأمسكها رسول الله ﷺ حتى مات عنها مع سائر من توفى عنهن من أزواجه ﷺ ورضى عنهن[١].

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال لنسائه عام حجة الوداع: هذه ثم ظهور الحصر. قال: فكن كلهن[٢] يحججن إلا زينب وسودة هذه، فكانتا تقولان: والله لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من رسول الله ﷺ[٣]. ماتت بالمدينة فى خلافة عمر رضى الله عنه. هذا هو المشهور فى وفاتها. ونقل ابن سعد عن الواقدى: أنها توفيت سنة أربع وخمسين فى خلافة معاوية[٤]. أصدقها عليه الصلاة والسلام أربعمائة دينار، قال هذا الشمس البرماوى فى مختصر سيرته.

وأما أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق، القرشية، التيمية، فأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر، روى أبو بكر بن خيثمة، عن على بن زيد، عن القاسم بن محمد: أن أم رومان، زوج أبى بكر، أم عائشة، لما دليت فى قبرها قال رسول الله ﷺ: « من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان »[٥]، ولدت عائشة بعد البعثة بأربع سنين أو خمس.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٤٣) من طرق عن عائشة -رضي الله عنها- وينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٩٩).

(٢) في ط: قال فكلكن. والمثبت من المسند لأحمد.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٤٤٦) من طريق ابن أبي ذئب قال حدثني صالح مولى التوءمة عن أبي هريرة... به، وابن سعد في الطبقات (٨/ ٤٤) من طريق صالح بن كيسان عن ابن أبي ذئب وكذا البزار (٢/ ٥) حديث رقم (١٠٧٨). وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٢١٧) وقال: « رواه أحمد وأبو يعلى ... والبزار... وفيه صالح مولى التوءمة، ولكنه من رواية ابن أبي ذئب عنه، وابن أبي ذئب سمع منه قبل اختلاطه، وهو حديث صحيح ». اهـ. وينظر: سبل الهدي والرشاد (١١/ ٢٠٠).

(٤) ينظر طبقات ابن سعد (٨/ ٤٦).

(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢١٦) قال أخبرنا يزيد بن هارون وعفان بن مسلم قالا حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن القاسم بن محمد قال... وأخرجه البخاري في تاريخه وكذا ابن منده وأبو نعيم كما في الإصابة (٨/ ٣٩٢) كلهم من طريق حماد بن سلمة به. وقال البخاري عقب تخريجه : فيه نظر. وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٦٤).

وروى ابن الجوزى فى الصفوة عنها رضى الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أتكنينى ؟ قال: تكنى بابنك. يعنى عبد الله بن الزبير ابن أختها أسماء بنت أبى بكر.[(١)]

وروى ابن حبان عنها قالت: لما ولد عبد الله بن الزبير - ابن أختها أسماء - أتيت به رسول الله ﷺ فتفل فى فيه، فكان أول شىء دخل جوفه ريقه عليه الصلاة والسلام، وقال: هو عبد الله وأنت أم عبد الله[(٢)]. وقيل: إنها ولدت من رسول الله ﷺ ولدًا مات طفلاً. وهذا غير ثابت[(٣)]، والصحيح الأول.

وروى الإمام أحمد والشيخان عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال لى رسول الله ﷺ: « أريتك فى المنام قبل أن أتزوجك مرتين، وفى لفظ: ثلاث ليال، جاءنى بك الملك فى سرقة من حرير فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك فإذا هى أنت، فأقول: إن يكن من عند الله يمضه »[(٤)]. وروى الترمذى وحسنه ابن عساكر عنها عن

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٥٠)، وأحمد في المسند (٦/ ١٨٦)، وابن ماجه (٢/ ١٢٣١) كتاب الأدب باب الرجل يكنى قبل أن يولد له، حديث رقم (٣٧٣٩)، وأبو داود (٢/ ٧١١) كتاب الأدب باب في المرأة تكنى حديث رقم (٤٩٧٠)، والطبراني (٢٣/ ٣٦)، كلهم عن عائشة بألفاظ متفاوتة.

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٦٦٠) كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة حديث رقم (٣٩١٠). وعبد الرزاق (١٩٨٥٨). وأحمد (٦/ ١٠٧)، وأبو داود (٢/ ٧١١) كتاب الأدب، باب في المرأة تكنى حديث رقم (٤٩٧٠). وابن حبان (١٦/ ٥٤) كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة باب ذكر السبب الذي من أجله كانت عائشة تُكنى بأم عبد الله والطبراني (٢٣/ ٣٤) كلهم من طرق عن عائشة.

(٣) ذكر ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٩) من طريق داود بن المحبّر حدثنا محمد بن عروة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: « أسقطت من النبي ﷺ سقطًا فسماه عبد الله وكنّاني أم عبد الله ». ثم قال عقبه: هذا حديث موضوع، قال أبو حاتم بن حبان: « محمد ابن عروة يروي عن جده هشام ما ليس من حديثه حتى يسبق إلى القلب أنه كان المتعمد لذلك لا يجوز الاحتجاج به. قال داود بن المحبّر: يضع الحديث على الثقات ويروي عن المجاهيل المقلوبات، كان أحمد يقول: هو كذاب. وأما كنية عائشة فإن رسول الله ﷺ كناها بابن أختها عبد الله بن الزبير، وما ولدت قط، ولا أسقطت ». اهـ.

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ١٦١)، والبخاري (٧/ ١٧٥) كتاب مناقب الأنصار باب تزويج النبي ﷺ عائشة رقم (٣٨٩٥)، ومسلم (٢٤٣٨) كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة. وابن سعد في الطبقات (٨/ ٦٤)، وأبو يعلى (٤٤٩٨)، والطبراني (٢٣/ ٤١)، والبيهقي (٧/ ٨٥)، كلهم من طرق عن عائشة -رضي الله عنها- وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٦٥).

رسول الله ﷺ قال: جاءنى بك جبريل فى خرقة خضراء فقال: هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة(١).

وروى الطبرانى برجال ثقات، والإمام أحمد فى « المناقب »و « المسند »، والبيهقى بإسناد حسن، عن أبى سلمة بن عبد الله بن حاطب، عن عائشة قالت: لما ماتت خديجة جاءت خولة بنت حكيم، امرأة عثمان بن مظعون - فذكر الحديث المتقدم فى خطبة سودة - وتمامه: فقالت لخولة: قولى لرسول الله ﷺ فليأت، فجاء رسول الله ﷺ فملكها. قالت عائشة: فتزوجنى، ثم لبثت سنتين، فلما قدمنا المدينة نزلنا بالسنح فى دار بنى الحارث بن الخزرج، قالت: فإنى لأترجح بين عذقين وأنا ابنة تسع، فجاءت بى أمى من الأرجوحة ولى جميمة، ثم أقبلت تقودنى حتى وقفت عند الباب وأنا أنهج، فمسحت وجهى بشىء من ماء، وفرقت جميمتى، ودخلت بى على رسول الله ﷺ، وفى البيت رجال ونساء، فأجلستنى فى حجرة، ثم قالت: هؤلاء أهلك يا رسول الله، فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك. قالت: فقام الرجال والنساء، فبنى بى رسول الله ﷺ، ولا والله ما نحرت على من جزور، ولا ذبحت من شاة، ولكن جفنة كان يبعث بها سعد بن عبادة رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ (٢).

وروى ابن حبان زيادة بعد قولها: « وأنا أنهج » فقلت: هَهْ هَهْ حتى ذهب نفسى، فأخذت شيئًا من ماء فمسحت به وجهى، ثم دخلت بى الدار، فإذا نسوة من الأنصار فى البيت فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتنى إليهن فأصلحوا شأنى، فلم يرعنى إلا رسول الله ﷺ جالس على سرير فى بيتنا، فأسلمتنى إليه، وبنى بى رسول الله ﷺ فى بيتنا. ثم ذكرت قولها: فما نحرت(٣) . . . إلى آخر الحديث.

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٧٠٤) كتاب المناقب باب فضل عائشة -رضي الله عنها- حديث رقم (٣٨٨٠)، وقال: « هذا حديثٌ حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمرو بن علقمة ». اهـ. وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٦٥).

(٢) تقدم تخريجه ، وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٦٥، ١٦٦).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٦/ ٩) كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة حديث رقم (٧٠٩٧). والبيهقي (٧/ ٢٥٣) وأصله عند البخاري (٢٨٩٦) كتاب مناقب الصحابة باب تزويج النبي ﷺ. ومسلم (١٤٢٢) كتاب النكاح، باب تزويج الأب البكر الصغيرة وأبو داود (٤/ ٢٨٤) كتاب الأدب باب في الأرجوحة حديث رقم (٤٩٣٦) وأبو يعلى (٤٨٩٧)، والبيهقي =

وروى مسلم والنسائى عنها قالت: تزوجنى رسول الله ﷺ وأنا ابنة ست، وبنى بى وأنا ابنة تسع، وكنت ألعب بالبنات، وكن جوارٍ يأتيننى، فإذا رَأَيْنَ رسول الله ﷺ يتقنعن منه، وكان ﷺ يُسَرِّبُهُنَّ إلى(١).

وروى ابن سعد عنها قالت: دخل علىَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب بالبنات فقال: ما هذا يا عائشة ؟ فقلت: خيل سليمان. فضحك عليه الصلاة والسلام(٢).

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن أسماء بنت عميس رضى الله عنها قالت: كنت صاحبة عائشة رضى الله عنها التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله ﷺ ومعى نسوة، فوالله ما وجدنا عندها قِرًى إلا قدحًا من لبن، قالت: فشرب منه ﷺ ثم ناوله عائشة فاستحيت الجارية. فقلت: لا تردّن يد رسول الله ﷺ. فأخذته على حياء فشربت منه، ثم قال: ناولى صواحبك. فقلن: لا نشتهيه. فقال: لا تجمعن جوعًا وكذبًا. فقلت: يا رسول الله، إنا إذا قلنا لشىء نشتهيه « لا نشتهيه » يعدُّ ذلك كذبا ؟ قال: إن الكذب يكتب كذبًا حتى تكتب الكذيبة كذيبة(٣).

= (٧/ ١١٤)، والطيالسي (١٤٥٤)، والطبراني (٢٣/ ٤١).

(١) رَكَّبَ المصنف هنا حديثين فجعلهما حديثًا واحدًا: أما الأول فقول عائشة -رضي الله عنها-: « تزوجني رسول الله ﷺ وأنا ابنة ست، وبنى بي وأنا ابنة تسع » أخرجه مسلم (٢/ ١٠٣٨) كتاب النكاح باب تزويج الأب البكر الصغيرة حديث رقم (١٤٢٢)، والنسائي (٦/ ٣٩٠) كتاب النكاح باب إنكاح الرجل ابنته الصغيرة حديث رقم (٣٢٥٥). وابن حبان (١٦/ ٩) كتاب مناقب الصحابة باب ذكر وصف زفاف عائشة (٧٠٩٧). وأما الثاني: فقول عائشة: « كنتُ أَلعبُ بالبنات تعني اللعب وكن جوارٍ يأتينني، فإذا رَأَيْنَ رسول الله ﷺ يتقنعن منه، وكان ﷺ يسر بهن إليَّ » أخرجه البخاري (١٢/ ١٥٨) كتاب الأدب باب الانبساط إلى الناس حديث رقم (٦١٣٠). ومسلم (٤/ ١٨٩٠) كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة حديث رقم (٢٤٤٠). وأبو داود (٤/ ٢٨٣) كتاب الأدب باب في اللعب بالبنات حديث رقم (٤٩٣١) وابن ماجه (١٩٨٢) كتاب النكاح باب حسن معاشرة النساء، والطبراني (٢٣/ ٢٧٥)، والبيهقي (١٠/ ٢١٩)، وابن سعد (٨/ ٦٢). وانظر السبل (١١/ ١٦٧) وفي ط: يسيرهن إليَّ، والمثبت لفظ البخاري، قال الحافظ في الفتح (١٢/ ١٥٨) يسربهن أى: يرسلهن.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن سعد في الطبقات (٨/ ٦٢) وأخرجه أبو داود (٢/ ٧٠١) كتاب الأدب باب في اللعب بالبنات حديث رقم (٤٩٣٢). والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٠٦) كتاب عشرة النساء حديث رقم (٨٩٤٧) (٨٩٤٩) والبيهقي (١٠/ ٢١٩) كتاب الشهادات باب ماجاء في اللعب بالبنات. وانظر السبل (١١/ ١٦٧).

(٣) أخرجه أحمد ف المسند (٦/ ٤٣٨) من طريق مجاهد عن أسماء وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ١٤٧) وقال: رواه أحمد والطبراني في الكبير. . . وفي إسناده أبو شداد عن مجاهد، =

وروى الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه عنها قالت: تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال، وبنى بى فى شوال، فأى نسائه كان أحظى عنده منى[(١)]؟ قال أبو عبيدة، معمر بن المثنى: تزوجها عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة بسنتين[(٢)]- قلت: يعنى عقد عليها، كما تقدم التنبيه عليه - فى شوال وهى ابنة ست سنين، فكانت تستحب أن يبتنى بنسائها فى شوال. قال أبو عاصم: إنما كره الناس أن تدخل النساء فى شوال لطاعون وقع فى شوال فى الزمن الأول. وروى أبو بكر ابن أبى خيثمة عن الزهرى قال: لم يتزوج رسول الله ﷺ بكرًا غير عائشة. وروى ابن حبان وأبو بكر عنها: تزوجنى عليه الصلاة والسلام وأنا ابنة ست، ودخلتُ عليه وأنا ابنة تسع. ومكث عندها تسع سنين، ومات عنها وهى ابنة ثمان عشرة سنة[(٣)].

وروى الترمذى وصححه عن عبد الله بن زياد الأسدى قال: سمعت عمارًا يقول: هى زوجته فى الدنيا والآخرة[(٤)]. قال أبو الحسن [الخلِعيُّ] عنها قالت: قال رسول

= قال في الميزان: « لم يرو عنه سوى ابن جريج، قلت: أي الهيثمي قد روى عنه يونس بن يزيد الأيلي في هذا الحديث في المسند فارتفعت الجهالة ». قلت: انظر الميزان (٧/ ٣٨٠)، وذكره الحافظ في تعجيل المنفعة (٢/ ٤٧٨) وقال: « أبو شداد عن مجاهد، وعنه يونس بن يزيد الأيلي، وابن جريج، قال الذهبي في الميزان: « ماروى عنه سوى ابن جريج ». ورواية يونس هذه ترد عليه . . . ». أهـ قلت رواية يونس وابن جريج ترفع عنه جهالة العين، أما جهالة الحال فهي لازمةٌ له، فلم نقف على توثيق معتبر له وفي الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٩/ ٣٨٩) « أبو شداد روى عن مجاهد وروى عنه ابن جريج ويونس بن يزيد، سمعتُ أبي يقول ذلك، قال أبو زرعة: لا أعرف اسمه ». وانظر السبل (١١/ ١٦٧، ١٦٨).

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٥٤)، وعبد بن حميد (١٥٠٨) والدارمي (٢/ ١٤٥) كتاب النكاح باب بناء الرجل بأهله في شوال. ومسلم (٢/ ١٠٣٩) كتاب النكاح باب استحباب التزويج والتزوج في شوال واستحباب الدخول فيه حديث رقم (١٤٢٣) والترمذي (٣/ ٣٩٣) كتاب النكاح باب ماجاء في الأوقات التي يستحب فيها النكاح حديث رقم (١٠٩٣). والنسائي (٥/ ٣٧٨) كتاب النكاح باب التزويج في شوال حديث رقم (٣٢٣٦) وابن ماجه (١/ ٦٤١) كتاب النكاح باب متى يستحب البناء بالنساء حديث رقم (١٩٩٠). وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٦٨).

(٢) ينظر السبل (١١/ ١٦٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٣٩) كتاب النكاح باب تزويج الأب البكر الصغيرة رقم (١٤٢٢)، والنسائي (٦/ ٣٩٠) كتاب النكاح باب إنكاح الرجل ابنته الصغيرة حديث رقم (٣٢٥٨).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٧٠٧) كتاب المناقب باب فضل عائشة -رضي الله عنها- حديث رقم (٣٨٨٩). وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٦٩).

الله ﷺ: « ياعائشة، إنها ليهوّن على الموت أنى قد رأيتك زوجتى فى الجنة »[١]. وروى ابن عساكر بلفظ: « ما أبالى الموت منذ علمت أنك زوجتى فى الجنة »[٢]. وروى الطبرانى بإسناد حسن عن عمرو بن العاص، قال: قيل: يا رسول الله، أى الناس أحب إليك ؟ قال: عائشة. قيل: فمن الرجال ؟ قال: أبوها[٣].

وروى أبو يعلى والبزار بسند حسن عن عائشة قالت: دخل علىَّ رسول الله ﷺ وأنا أبكى فقال: ما يبكيك ؟ قلت: سبَّتنى فاطمة. فقال: يا فاطمة أسببت عائشة ؟ قالت: نعم. قال: أليس تحبين من أحبُّ ؟ قالت: بلى. وتبغضين من أبغضُ ؟ قالت: بلى. قال: فإنى أحب عائشة فأحبيها. قالت فاطمة: لا أقول لعائشة شيئًا يؤذيها أبدًا[٤]. وروى النسائى عنها: ماعلمت حتى دخلت علىَّ زينب [بغير إذن] وهى

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في العلل (٢/ ٣٧٥) من طريق المعلى بن عبد الرحمن عن عبد الحميد ابن جعفر عن الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أبيه عن عائشة قالت قال رسول الله (في مرضه: « إنه ليهون على الموت . . . » إلخ ثم قال: سمعتُ أبي يقول هذا حديث موضوع بهذا الإسناد والمعلى متروك الحديث ». أهـ وفي الميزان في ترجمة المعلى بن عبد الرحمن (٦/ ٤٧٤): « قال أبو حاتم: « متروك الحديث »، وذهب ابن المديني إلى أنه كان يضع الحديث، وقال الدارقطني: « ضعيفٌ كذاب ». وعند الإمام أحمد في المسند (٦/ ١٣٨) من طريق مصعب بن إسحاق بن طلحة، عن عائشة عن النبي ﷺ قال: « إنه ليهون علي أني رَأيتُ بياضَ كف عَائشة في الجنة ». وعزاه المتقي الهندي في كنز العمال (١٢/ ١٣٥) للطبراني في « الكبير »، وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٦٩).

(٢) أورده الشيخ محمد الصالحي في سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٦٩)، وعزاه لابن عساكر كذلك.

(٣) عزو المصنف الحديث للطبراني فقط قصورٌ بَيِّن؛ فالحديث: أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٣) وعبد ابن حميد (٢٩٥) والبخاري (٧/ ٣٦٧) كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذًا خليلًا، رقم (٣٦٦٢)، ومسلم (٤/ ١٨٥٦) كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي بكر حديث رقم (٢٣٨٤) والترمذي (٥/ ٧٠٦) كتاب المناقب باب فضل عائشة حديث رقم (٣٨٨٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٩) كتاب المناقب باب فضل أبي بكر وعمر حديث رقم (٨١١٧). والحاكم (٤/ ١٢) كتاب معرفة الصحابة باب تسمية أزواج رسول الله ﷺ. والبيهقي (١٠/ ٢٣٣) كتاب الشهادات باب شهادة أهل العصبية والبغوي في شرح السنة (٧/ ١٧٩-بتحقيقنا) كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي بكر. والطبراني في الكبير (٢٣/ ٤٣) كلهم من طرق عن عمرو بن العاص.

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٨/ ٣٦٥) وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٤١)، وقال: « رواه أبو يعلى، والبزار باختصار، وفيه مجالد بن سعيد وهو حسن الحديث، وبقية رجاله =

غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: أحسبك إذا قلبت لك بنت أبى بكر ذُرَيِّعَتَيْهَا[(١)] ثم أقبلت عليَّ فأعرضت عنها. حتى قال لى ﷺ: دونك فانتصرى. فأقبلتُ عليها حتى رأيتها قد يبست ريقتها فى فمها ما ترد على شيئًا، فرأيته ﷺ يتهلل وجهه[(٢)].

وروى البخارى فى « الأدب » عن عائشة رضى الله عنها قالت: أرسل أزواج النبى ﷺ فاطمةَ إلى النبى ﷺ فاستأذنت، والنبىُّ ﷺ مع عائشة فى مرطها، فأذن لها فدخلت فقالت: إن أزواجك أرسلننى يسألنك العدل فى بنت أبى قحافة. قال: أى بنية أتحبين ما أحب ؟ قالت بلى. قال: فأحبى هذه. فقامت فخرجت فحدثتهن. فقلن: ما أغنيتِ عنا شيئًا، فارجعى إليه. فقالت: والله لا أكلمه فيها أبدًا[(٣)].

وروى ابن أبى خيثمة أن النساء قلن لأم سلمة: قولى لرسول الله ﷺ: إن الناس تأتيك هداياهم يوم عائشة، فقل للناس يهدوا إليك حيث ما كنت، فإنا نحب الخير كما تحبه عائشة. فلما جاءها رسول الله ﷺ قالت له ذلك، فأعرض عنها. فلما ذهب جاء النساء إلى أم سلمة يقلن: ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ قالت: قد قلت له، فأعرض عنى. فقلن لها: عودى فقولى له أيضًا. فلما دار إليها قالت له مثل ذلك،

= رجال الصحيح ». وذكره الحافظ في « المطالب العالية » (٤/ ١٢٧) برقم (٤١٣٤) وعزاه لأبي يعلى، وقال البوصيري في زوائده: « إسناده ضعيف لضعف مجالد بن سعيد » أهـ. قلت: ومجالد بن سعيد قال فيه ابن معين: لا يحتج به وقال الدارقطني: ضعيف وقال النسائي: لا يُحتج به انظر ترجمته في ميزان الاعتدال (٦/ ٢٣).

(١) « ذُرَيِّعَتَيْهَا »: قال ابن الأثير (٢/ ١٥٨) (ذرع): الذُرَيِّعة تصغير الذراع، ولحوق الهاء فيها لكونها مؤنثة، ثم ثنتها مصغرة، وأرادت به ساعديها وفى ط: درسها .

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٢٩٠) كتاب عشرة النساء باب الانتصار حديث رقم (٨٩١٤)، وأحمد في المسند (٦/ ٩٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٧)، مختصرًا باب من انتصر ممن ظلمه. وابن ماجه (١/ ٦٣٧) كتاب النكاح باب حسن معاشرة النساء حديث رقم (١٩٨١) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: إسناده صحيح ورجاله ثقات وزكريا بن أبي زائدة كان يدلس. أهـ قلت: قال الحافظ في التقريب (٢٠٣٣): « ثقة وكان يدلس ».

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٦٤) حديث رقم (٥٥٨). وأخرجه في صحيحه « تعليقًا » كتاب الهبة باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه دون بعض حديث رقم (٢٥٨١). وأخرجه مسلم (٤/ ١٨٩١) كتاب فضائل الصحابة باب في فضل عائشة -رضي الله تعالى عنها- حديث رقم (٢٤٤٢)، والنسائي في الصغرى (٨/ ٧٥) كتاب عشرة النساء باب حب الرجل بعض نسائه أكثر من بعض حديث رقم (٣٩٥٤)، وفي الكبرى (٥/ ٢٨١) كتاب عشرة النساء باب حب الرجل بعض نسائه أكثر من بعض حديث رقم (٨٨٩٢)، وأحمد في المسند (٦/ ٨٨).

فقال لها: يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة، فو الله ما منكن امرأة ينزل على الوحي في ثوبها إلا عائشة(١).

وروى أبو عمرو بن السماك أن عائشة قالت: إني لأفخر على أزواج النبي ﷺ بأربع: ابتكرني ولم يبتكر امرأة غيري، ولم ينزل عليه القرآن منذ دخل على إلا في بيتي، ونزل في عذري قرآن يتلى، وأتاه جبريل بصورتي مرتين قبل أن يملك عقدي(٢).

وروى الطبراني والبزار برجال ثقات، وابن حبان عنها، قالت: رأيت رسول الله ﷺ طيب النفس، فقلت: يا رسول الله، ادعُ لي. فقال: اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر، وما أسرَّت وما أعلنت. فضحكت عائشة حتى سقط رأسها في حجرها من الضحك، فقال رسول الله ﷺ. أسرَّك دعائي ؟ فقالت: ما لي لا يسرني دعاؤك ؟ فقال: فو الله إنها لدعوتي لأمي في كل صلاتي(٣). وروى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقبلها وهو صائم ويمصُّ لسانها(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٥١٩) كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها باب من أهدى إلى صاحبه، وتحرى بعض نسائه دون بعض حديث رقم (٢٥٨١)، والترمذي (٥/ ٧٠٣) كتاب المناقب باب فضل عائشة رضي الله عنها حديث رقم (٣٨٧٩)، والنسائي (٧/ ٧٩) كتاب عشرة النساء باب حب الرجل بعض نسائه أكثر من بعض حديث رقم (٣٩٦٠). من طرق عن عائشة رضي الله عنها. وأخرجه أحمد (٦/ ٢٩٣) والنسائي (٧/ ٦٨) كتاب عشرة النساء باب حب الرجل بعض نسائه أكثر من بعض والطبراني في الكبير (٢٣/ ٨٥٠). والحاكم (٤/ ٩) كتاب معرفة الصحابة باب تسمية أزواج رسول الله ﷺ من طرق عن أم سلمة. وانظر السبل (١١/ ١٧٢).

(٢) ذكره الشيخ الصالحي في سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٧٢)، وعزاه لأبي عمرو بن السماك عن عائشة به.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١١) كتاب معرفة الصحابة باب ذكر الصحابيات من أزواج النبي ﷺ وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٤٨) كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة باب ذكر مغفرة الله جل وعلا ذنوب عائشة ما تقدم منها وما تأخر. وأخرجه البزار (٢٦٥٨) وقال: لا نعلم رواه إلا عائشة، ولا روى عنها إلا بهذا الإسناد، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٢٤٣)، وقال: « رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن منصور الرمادي، وهو ثقة اهـ. وقال الذهبي في « مختصر المستدرك » متعقبًا على الحاكم: « منكر على جودة إسناده » اهـ. قلت: في إسناده أبو بكر بن حفص واسمه عبد الله بن حفص بن عمر لا تُعرف له رواية عن عائشة. انظر: تهذيب الكمال (١٤/ ٤٣٣)، وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٧٢).

(٤) أخرجه أبو داود (١/ ٧٢٦) كتاب الصيام باب الصائم يبلع الريق حديث رقم (٢٣٨٦) من طريق مصدع أبي يحيى، عن عائشة أن النبي ﷺ كان يُقبلها وهو صائم ويمص لسانها. قال ابن الأعرابي: بلغني عن أبي داود أنه قال: هذا الإسناد ليس بصحيح. وأخرجه أحمد =

وروى ابن عساكر عنها: أنه كان بينها وبين رسول الله ﷺ كلام، فقال لها: من ترضين بيني وبينك، أترضين بعمر بن الخطاب ؟ قالت: لا، عمر فظٌ غليظٌ. قال عليه الصلاة والسلام: أترضين بأبيك بيني وبينك ؟ قالت: نعم. فبعث إليه رسول الله ﷺ فقال: إن هذه من أمرها كذا ومن أمرها كذا. قالت فقلت: اتق الله ولا تقل إلا حقًّا. قالت: فرفع أبو بكر يده فرثم(١) أنفي وقال: أنت لا أم لكِ يا ابنة أم رومان، تقولين الحق أنت وأبوك ولا يقوله ﷺ ؟ فابتدرني منخراي كأنهما عزلاوان(٢)، فقال رسول الله ﷺ: إنا لم ندعُك لهذا. قالت: ثم قام إلى جريدة في البيت، وجعل يضربني بها، فوليت هاربة منه، فلزقت برسول الله ﷺ فقال: أقسمت عليك لما خرجت، فإنا لم ندعك لهذا. فلما خرج قمت فتنحيت عن رسول الله ﷺ فقال: ادني مِنِّي. فأبيت أن أفعل، فتبسم رسول الله ﷺ وقال لها: لقد كنتِ [من قبل] شديدة اللصوق لي بظهري(٣).

وروى مسلم والنسائي والدارقطني عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: إني لأعلم إذا كنتِ عليَّ راضية وإذا كنت على غضبى. قالت: فقلت: بم تعلم ذلك يا رسول الله ؟ قال: إذا كنت راضية قلت: لا وربِّ محمد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم. قلتُ: صدقتَ يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك(٤).

= (٦/ ٢٣). وأخرجه ابن خزيمة (٣/ ٢٤٦) كتاب الصوم باب الرخصة في مص الصائم لسان المرأة حديث رقم (٢٠٠٣) من طريق مصدع أبي يحيى وقال: « مصدع أبي يحيى لا أعرفه بعدالة ولا جرح ». وانظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٧٢) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٤/ ٦٥٦) بعد أن ذكر الحديث من طريق « مصدع » عند أبي داود قال: « إسناده ضعيف » أهـ. قلت: ولذلك صدر المصنف الحديث بقوله: « روي » وهي صيغة تمريض تدل على التضعيف. و « مصدع » هذا قال فيه الحافظ في التقريب (٦٧٢٨): « مقبول ». وقال الذهبي في الميزان (٦/ ٤٣٣): « صدوق، قد تُكلم فيه قال السعدي: زائغ جائر عن الطريق ». قلت: وقد صح تقبيله ﷺ لعائشة وهو صائم عند البخاري وغيره، أما مص لسانها فمداره على « مصدع » هذا وقد ذكرنا ما فيه من كلام.

(١) رثم أنفي: أدماها من شدة الضرب. وينظر الوسيط (رثم).

(٢) ابتدرت: أي سالت. والعزلاوان: المزادتان. ولعل المعنى: أن الدم قد سال من أنفها متدفقًا كالماء الذي يسيل من فم المزادة.

(٣) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٧٣).

(٤) أخرجه البخاري (٩/ ٢٣٧) كتاب النكاح باب غيرة النساء ووجدهن حديث رقم (٥٢٢٨). ومسلم (٤/ ١٨٩٠) كتاب فضائل الصحابة باب في فضل عائشة -رضي الله عنها- حديث =

وروى الترمذى والنسائى وابن عدى والإسماعيلى عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ جالسًا، فسمعنا لغطًا وصوت صبيان، فقام رسول الله ﷺ، فإذا الحبشة يزفنون ويلعبون بحرابهم فى المسجد والصبيان حولهم، فقال: ياعائشة، تعالى فانظرى. وفى رواية النسائى: ياحُمَيْرَاءُ، أتحبين أن تنظرى إليهم ؟ فقلت: نعم، فوضعتُ خدى على منكب رسول الله ﷺ، وهو يسترنى بردائه، فجعلت أنظر بين المنكب إلى رأسه، فجعل يقول يا عائشة، أما شبعت، أما شبعت ؟ وفى رواية: حسبك. قلت: يا رسول الله، لا تعجل. فقام ثم قال: حسبك. قلت: لاتعجل يا رسول الله، إنى أحب النظر إليهم. تقول عائشة: قد بلغت القصد من النظر إليهم، ولكن أحببت أن يبلغ النساءَ مقامه لى ومكانى منه. وفى لفظ: فأقول: لا؛ لأنظر منزلتى عنده. ولقد رأيته يزاوج بين قدميه، إذ طلع عمر فارفَضَّ الناس عنهم والصبيان، فقال رسول الله ﷺ: إنى لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر(١).

وروى البرقانى عنها قالت: دخل علىَّ رسول الله ﷺ، وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحوَّل وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرنى، وقال: مزمارة الشيطان عند رسول الله ﷺ ! فأقبل عليه - عليه الصلاة والسلام - فقال: دعها. فلما غفل غمزتهما فخرجتا. وقالت: كان يوم عيد تلعب السودان بالدف والحراب(٢)... إلى آخر الحديث الأول.

= رقم (٢٤٣٩). والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٦٥) كتاب عشرة النساء باب غضب المرأة على زوجها حديث رقم (٩١٥٦). والطبراني في الكبير (٢٣/ ١١٩). والبيهقي (١٠/ ٢٧) كتاب الأيمان باب الحلف بالله عز وجل أو باسم من أسماء الله عز وجل. والبغوي في شرح السنة (٥/ ١٢٤) كتاب النكاح باب حسن العشرة معهن حديث رقم (٢٣٣١). كلهم من طرق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وانظر السبل (١١/ ١٧٣).

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٦٢١) كتاب المناقب باب في مناقب عمر -رضي الله عنه- حديث رقم (٣٦٩١) وقال عقبه: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه». والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٠٨) كتاب عشرة النساء باب إباحة الرجل لزوجته النظر إلى اللعب حديث رقم (٨٩٥١) وابن عدي في الكامل (٣/ ٥١) في ترجمة خارجة بن عبد الله الأنصاري. وانظر السبل (١١/ ١٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٣). والبخاري (٣/ ١١٢) كتاب العيدين باب الحراب والدرق يوم العيد حديث رقم (٩٤٩). ومسلم (٢/ ٦٠٧) كتاب العيدين باب الرخصة في اللعب الذي =

وروى النسائى عن عائشة رضى الله عنها، قالت: زارتنا سودة يومًا، فجلس عليه الصلاة والسلام بينى وبينها، إحدى رجليه فى حجرى والأخرى فى حجرها، فحملتُ له حريرة - أو قالت خزيرة - فقلت: كلى، فأبت، فقلت: كلى أو لألطخن وجهك، فأبت، فأخذت من القصعة شيئًا فلطخت به وجهها، فضحك رسول الله ﷺ، ورفع رجله عن حجرها لتبعد منى، وقال: الطخى وجهها. فأخذتْ من القصعة شيئًا ولطختْ به وجهى، ورسول الله ﷺ يضحك(١).

وروى ابن أبى شيبة عن قيس بن وهب، قال: قلت لعائشة: أخبرينى عن خُلق رسول الله ﷺ. قالت: أو ما تقرأ القرآن ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [نون: ٤]. قالت: جاءنى عليه الصلاة والسلام مع أصحابه فصنعت لهم طعامًا وصنعتْ له حفصة طعامًا، فسبقتنى حفصة، فقلت للجارية: انطلقى فاكفئى قصعتها. فلحقتها وقد هوت أن تضع بين يديه عليه الصلاة والسلام فكفأتها، فانكسرت القصعة وانتثر الطعام، فجمعها رسول الله ﷺ ومافيها من الطعام على الأرض، وبعث بقصعتى فدفعها إلى حفصة فقال: ظرفا مكان ظرف. قالت: فما رأيت فى وجهه تغيرًا(٢).

وروى النسائى عن أم سلمة: أنها أتت بطعام فى صحفة لها(٣).

وروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها: أن الله عز وجل أنزل الخيار، فبدأ بعائشة وقال: إنى أذكر لك أمرًا ما أحب أن تعجلى فيه حتى يأتى أبو بكر. قالت: ماهو ؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا.... ﴾ [الأحزاب: ٢٨] إلى آخر الآية، فقالت: أفيك أستأمر أبى ؟! بل أختار الله ورسوله(٤).

= لا معصية فيه (٨٩٢)، والنسائي (٣/ ٢١٨) كتاب العيدين باب الرخصة في الاستماع إلى الغناء وضرب الدف يوم العيد حديث رقم (١٥٩٦) وابن حبان (١٣/ ٥٨٦٨) كتاب الحظر والإباحة باب اللعب واللهو حديث رقم (٥٨٦٨).

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٢٩١) كتاب عشرة النساء باب الانتصار حديث رقم (٨٩١٧).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١١١) من طريق شريك عن قيس بن وهب وابن ماجه (٢/ ٧٨٢) كتاب الأحكام باب الحكم فيمن كسر شيئًا. حديث رقم (٢٣٣٣) من طريق شريك به. وقال البوصيري في زوائد ابن ماجه « إسناده ضعيف للجهالة بالتابعي ».

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٢٨٥، ٢٨٦) كتاب عشرة النساء باب الغيرة رقم (٨٩٠٤).

(٤) أخرجه البخاري (٩/ ٤٧٣) كتاب التفسير باب « قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا =

وروى أبو طاهر عن الشعبى والطبرانى بإسناد حسن، عن عمرو بن الحارث بن المصطلق، قال: بعث زياد بن أمية مع عمرو بن الحارث بهدايا وأموال إلى أمهات المؤمنين، ففضل عائشة عليهن، فجعل رسوله يعتذر إلى أم سلمة وصفية، فقلن: يعتذر إلينا زياد، فقد كان يفضلها من كان أعظم علينا تفضيلاً من زياد: رسول الله ﷺ(١).

وروى ابن سعد عن عائشة رضى الله عنها قالت: فضلت على نساء النبى ﷺ بخصال عشر. قيل: وماهن يا أم المؤمنين؟ قالت: لم ينكح بكرًا غيرى، ولم ينكح امرأة أبوها مهاجر غيرى، وأنزل الله براءتى من السماء، وجاءه جبريل بصورتى من السماء فى حريرة وقال: تزوجها فإنها امرأتك، وكنت أغتسل أنا وهو من إناء واحد، ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه، وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه، وكان ينزل عليه الوحى وهو معى، ولم يكن ينزل عليه وهو مع أحد من نسائه، وقبضه الله وهو بين سحرى ونحرى(٢)، ودفن فى بيتى، ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه(٣).

= وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلاً » حديث رقم (٤٧٨٥). ومسلم (٢/ ١١٠٣) كتاب الطلاق باب بيان أن تخيير امرأته لايكون طلاقًا إلا بنية (١٤٧٥). والترمذي (٢/ ٤٧٤) كتاب تفسير القرآن، باب سورة الأحزاب وحديث رقم (١١٧٩)، والنسائي (٥/ ٣٦٣) كتاب النكاح باب ما افترض الله عز وجل على رسوله عليه السلام وحرمه على خلقه ليزيده إن شاء الله قربه إليه حديث رقم (٣٢٠١). وابن ماجه (١/ ٦٦٢) كتاب الطلاق باب الرجل يخير امرأته حديث رقم (٢٠٥٣).

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ١١٤) حديث رقم (٢٦٥١) وقال عقبه: « لم يرو هذا الحديث عن مغيرة إلا قيس، ولا عن قيس إلا يحيى، تفرد به الوكيعي » أهـ وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٤٥) وقال: « إسناده حسن ». وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٧٦).

(٢) السَّحْر: الرئة، وقيل: ما لصق بالحلقوم من أعلى البطن. والنَّحر: أعلى الصدر. ينظر النهاية (٢/ ٣٤٦)، والوسيط (نحر).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٥٠) من طريق عيسى بن ميمون عن القاسم بن محمد عن عائشة به. قلت: في إسناده عيسى بن ميمون مولى القاسم بن محمد قال فيه الحافظ في التقريب (٥٣٧٠): (ضعيف ». وقال الذهبي في « المغني في الضعفاء » (٢/ ٥٠١) عيسى بن ميمون القرشي المدني، مولى القاسم، عن مولاه. قال عبد الرحمن بن مهدي: « استعديت عليه وقلت ماهذه الأحاديث التي تروي عن القاسم عن عائشة؟! فقال: لا أعود » قال البخاري: منكر الحديث ». أهـ وذكر عقبه ترجمة سميه: عيسى بن ميمون الخواص المديني، عن القاسم أيضًا والسُّدي، تركوه. كذا فرق بينه وبين الذي قبله ابن حبان، وأظنهما واحدا ». أهـ وفي الميزان (٥/ ٣٩٢) في ترجمة الأول قال ابن حبان: يروي =

وروى الترمذي وصححه وابن أبي خيثمة عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال: ما أشكل علينا - أصحاب رسول الله ﷺ - حديث قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا(١). وروى الطبراني عن الزهري: أن رسول الله ﷺ قال: «لو جمع نساء هذه الأمة فيهن أزواج النبي ﷺ كان علم عائشة أكثر من علمهن»(٢). وروى الحاكم بسند حسن عن مسروق أنه كان يحلف بالله لقد رأيت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يسألون عائشة عن الفرائض(٣). وروى الطبراني عن موسى بن طلحة: مارأيت أحدًا كان أفصح من عائشة(٤). وروى أبو عمر وابن عساكر عن عروة بن الزبير قال: ما رأيت أحدًا أعرف بالقرآن، ولا بفريضة، ولا بحلال ولا بحرام، ولا بفقه، ولا بطب، ولا بحديث العرب، ولا بنسب من عائشة(٥).

وروى عن عروة - وقد قيل له: ما أرواك - وكان أروى الناس للشعر - فقال: ماروايتي في رواية عائشة؟ ماكان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا(٦). وروى

= أحاديث كلها موضوعات، وقال الفلاس: متروك ». اهـ وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٧٨).

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٧٠٥) كتاب المناقب باب فضل عائشة -رضي الله عنها- حديث رقم (٣٨٨٣). وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٧٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٤٦) وقال عقبه: « رواه الطبراني مرسلًا، ورجاله ثقات ». أهـ، والحاكم (٤/ ١١) كتاب معرفة الصحابة باب ذكر الصديقة بنت الصديق. وانظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٧٩).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١١) كتاب معرفة الصحابة باب ذكر الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر -رضي الله عنهما- والطبراني في الكبير كما في المجمع (٩/ ٢٤٥) وقال الهيثمي: « رجاله رجال الصحيح ». وانظر السبل (١١/ ١٧٩).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٦) وقال الهيثمي: « رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ». وكذا أخرجه الحاكم (٤/ ١١) كتاب معرفة الصحابة باب ذكر الصديقة بنت الصديق. وانظر السبل (١١/ ١٧٩).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١١) كتاب معرفة الصحابة باب ذكر الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر -رضي الله عنهما- والطبراني في الكبير كما في المجمع (٩/ ٢٤٥) وقال الهيثمي: « إسناده حسن » أهـ وانظر السبل (١١/ ١٧٩).

(٦) انظر السبل (١١/ ١٧٩).

الإمام أحمد عن عروة - أيضًا - أنه كان يقول لعائشة: يا أماه، لا أعجب من فقهك؛ أقول: زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبى بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس؛ أقول: ابنة أبى بكر وكان أعلم - أو من أعلم - الناس بأيام العرب وأنسابها، ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو وأين هو ؟ فضربت على منكبه وقالت: أى عُرَيَّة - تصغير عروة - إن رسول الله ﷺ كان يسقم - وفى لفظ: كثرت أسقامه - آخر عمره، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه، فكانت تنعت له الألعاق، وكنت أعالجها، فمن ثَمَّ(١).

وروى الحاكم وأبو عمر وابن الجوزى، عن الزهرى، قال: لو جمع علم الناس كلهم، ثم علم أزواج رسول الله ﷺ، لكانت عائشة أوسعهم علمًا(٢).

وروى الإمام أحمد فى « الزهد » والحاكم عن الأحنف بن قيس، قال: سمعت خطبة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى والخلفاء وهلم جرًّا، فما سمعت لكلام مخلوق منهم أفخم ولا أحسن من فِي عائشة(٣).

وروى ابن أبى خيثمة عن سفيان بن عيينة قال: قال معاوية بن أبى سفيان: يازياد، أيُّ الناس أعلم ؟ قال: أنت يا أمير المؤمنين. قال: أعزم عليك. قال: أما إذا عزمت عليَّ فعائشة(٤). وروى البلاذرى عن القاسم بن محمد، قال: كانت عائشة قد استقلت بالفتوى زمن أبى بكر وعمر وعثمان، وهلم جرًّا إلى أن ماتت(٥).

وعنها رضى الله عنها قالت: كنت أدخل البيت الذى دفن فيه رسول الله ﷺ وأبى، واضعة ثوبى عنى وأقول: إنما هما زوجى وأبى، فلما دفن عمر والله ما دخلته

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٦/ ٦٧) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٤٥) رواه البزار... وأحمد بنحوه ... والطبراني في الأوسط والكبير، وفيه عبد الله بن معاوية الزبيري، قال أبو حاتم مستقيم الحديث وفيه ضعف، وبقية رجال أحمد والطبراني في الكبير ثقات ...». وانظر أسد الغابة (٧/ ١٨٩). وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٥٠، ٨٦، ٨٧)، وذكره الصالحي في سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٨٠).

(٢) تقدم تخريجه وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٨٠).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١١) كتاب معرفة الصحابة باب ذكر الصديقة بنت الصديق، وعزاه لأحمد في « الزهد » الصالحي في سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٨٠).

(٤) ينظر: السبل (١١/ ١٨٠).

(٥) ينظر: السبل (١١/ ١٨٠)

إلا مشدودة عليَّ ثيابي حياء من عمر[١].

وروى أبو يعلى وأبو الشيخ ابن حيان - وسنده حسن - عن عائشة قالت: كان متاعي فيه خفة، وكان على جمل قارح[٢]، وكان متاع صفية فيه ثقل، وكان على جمل ثَفال بطيء، فقال رسول الله ﷺ: حولوا متاع عائشة على جمل صفية، وحولوا متاع صفية على جمل عائشة. فلما رأيت ذلك قلت: يا لعباد الله، غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: يا أم عبد الله، إن متاعك فيه خف، ومتاع صفية فيه ثقل، فأبطأ بالركب، فحولنا متاعها على بعيرك، وحولنا متاعك على بعيرها. فقالت عائشة: ألستَ تزعم أنك رسول الله ؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أو فيَّ شك ؟ فقلت: ألست تزعم أنك رسول الله، فهلا عدلت ؟ فسمعني أبو بكر وكان فيه غرب - أي حدة - فأقبل عليَّ ولطم وجهي، فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا أبا بكر. فقال: يا رسول الله، أما سمعت ما قالت ؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الغيرة لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه[٣].

وروى ابن أبي خيثمة عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت له: إذا أنا مت فادفني مع صواحبي بالبقيع[٤] وكانت وفاتها في رمضان ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت منه على الصحيح عند الأكثرين، سنة ثمان وخمسين من الهجرة، وصلى عليها أبو هريرة خليفة مروان بالمدينة.

رُوي لها عن رسول الله ﷺ ألف ومائتا حديث وعشرة أحاديث، اتفق البخاري

---

(١) ينظر: السبل (١١/ ١٨١، ١٨٢).

(٢) قال ابن الأثير: القارح من الخيل هو الذي دخل في السنة الخامسة ينظر: النهاية (٥/ ٣٦) (قرح).

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده رقم (٤٦٧٠)، وأورده الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٢٢): وقال « رواه أبو يعلى، وفيه محمد بن إسحاق وهو مدلس، وسلمة بن الفضل، وقد وثقه جماعة: ابن معين وابن حبان وأبو حاتم وضعفه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح. وقد رواه أبو الشيخ بن حيان في كتاب الأمثال، وليس فيه غير أسامة بن زيد الليثي، وهو من رجال الصحيح وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات ». وأورده الحافظ ابن حجر في « المطالب العالية » (٢/ ١٩) برقم (١٥٤٠) وعزاه إلى أبي يعلى، وكذا أورده في (٢/ ١٥٧)، برقم (١٩٢٧) وعزاه إلى ابي يعلى، ونقل الأعظمي في الحاشية عن البوصيري تضعيفه، لتدليس ابن إسحاق ». وانظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٨٢).

(٤) ينظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٥٩)، والإصابة (٨/ ٢٣٥)، وسبل الهدى والرشاد (١١/ ١٨٢).

ومسلم منها على مائة وأربعة وسبعين حديثًا، وانفرد الأول بأربعة وخمسين حديثًا والثانى بمائة وسبعين. ورَوى عنها خلق كثير من الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين(١).

وأما أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - فأمها زينب بنت مظعون، أسلمت وهاجرت، وكانت قبل رسول الله ﷺ تحت خنيس بن حذافة السهمى، هاجرت معه ومات عنها بعد غزوة بدر، فلما تأيمت ذكرها عمر على أبى بكر وعثمان فلم يجبه واحد منهما إلى زواجها، فخطبها رسول الله ﷺ فأنكحه إياها فى شوال سنة ثلاث من الهجرة، وطلقها رسول الله ﷺ تطليقة واحدة ثم راجعها؛ نزل عليه الوحى « راجع حفصة؛ فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك فى الجنة »(٢) روى عنها جماعة من الصحابة والتابعين.

وفى « تاريخ الخميس »: توفى عنها زوجها خنيس - أو حبيش - بن حذافة بالمدينة بعد شهوده بدرًا معه عليه الصلاة والسلام، فعرضها عمر أبوها على أبى بكر فلم يجبه بشىء، ثم عرضها على عثمان فلم يجبه بشىء، فشكا عمرُ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله عرضت على عثمان حفصة فأعرض عنى. فقال رسول الله ﷺ: « هل لك فى خير من ذلك ؟ أتزوج أنا حفصة وأزوج عثمان أم كلثوم »(٣) أخرجه أبو عمر وقال: حديث صحيح.

وعن ربعى بن حراش عن عثمان أنه خطب إلى عمر ابنته فرده، فبلغ ذلك النبى ﷺ. فلما راح إليه عمر قال له: أدلك على خير لك من عثمان، وأدل عثمان على خير له منك، قال: نعم يا نبى الله. قال: تزوجنى ابنتك، وأزوج عثمان ابنتى.

(١) ينظر: السبل (١١/ ١٨٠).

(٢) أخرجه الطبراني كما في المجمع (٩/ ٢٤٨) وقال الهيثمي في المجمع: « رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ». من حديث قيس بن يزيد وورد من طريق غيره كأنس وعمار بن ياسر، وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٨٥).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٢) وعبد الرزاق في المصنف (٦/ ٨٣)، والبخاري كتاب المغازي رقم (٤٠٠٥)، وفي النكاح باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير حديث رقم (٥١٢٢) وأخرجه النسائي (٦/ ٧٨)، كتاب النكاح باب عرض الرجل ابنته على من يرضى. وفي الكبرى (٣/ ٢٧٧) كتاب النكاح باب عرض الرجل ابنته على من يرضى حديث رقم (٥٣٦٣). وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ت (٣٣٣٣)، والصالحي في « السبل » (١١/ ١٨٤).

أخرجه الخجندى. قلت: ماروواه الخجندى يخالف ما تقدم عن «تاريخ الخميس»؛ فإنه ذكر فيه أن عمر رضى الله عنه عرض ابنته على عثمان وأعرض عثمان عنه، وما رواه الخجندى خطب عثمان إلى عمر ابنته فردّه، فلينظر وجه الوفاق. والله اعلم.

وتزوج عثمان أم كلثوم بعد رقية، وتزوج عليه الصلاة والسلام حفصة، ثم إنه عليه الصلاة والسلام طلقها، فأتاها خالاها قدامة بن مظعون وعثمان بن مظعون، فبكت وقالت: والله ما طلقنى رسول الله ﷺ عن شبع[(١)]. روى أنه لما بلغ خبر طلاقها أباها عمر حثا على رأسه التراب وقال: مايعبأ الله بعمر وابنته بعد هذا. فنزل جبريل من الغد وقال للنبى ﷺ: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر، فجاء رسول الله ﷺ فقال: إن جبريل أتانى فقال لى: راجع حفصة فإنها صَوّامة قوامة، وإنها زوجتك فى الجنة[(٢)].

وفى رواية: همَّ بطلاقها ولم يطلق[(٣)]. وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال: لما تزوجها رسول الله ﷺ قلت لأبى بكر: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فمن ذلك سكتُّ عنك وأعرضت، فكانت عند النبى ﷺ قريبًا من ثمان سنين[(٤)].

قال العلامة الشامى: كان زوجها خنيس - بالخاء المعجمة بعدها نون ثم ياء وسين - ممن شهد بدرًا، فعاد إلى المدينة فمات بها من جراحات أصابته يوم بدر[(٥)].

توفيت حفصة فى شعبان سنة خمس وأربعين بالمدينة فى خلافة معاوية، وبكى

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث قيس بن يزيد وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٤٨): وقال عقبه: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح». أهـ وانظر السبل (١١/ ١٨٥).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث عقبة بن عامر الجهني، وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٤٧) وعزاه له ثم قال: «وفيه عمرو بن صالح الحضرمي ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات». أهـ وانظر السبل (١١/ ١٨٥).

(٣) أخرجه البزار، والطبراني من حديث عمار بن ياسر كما في مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٧) وقال الهيثمي: «وفي إسناديهما الحسن بن أبي جعفر، وهو ضعيف». قلت: الحسن ضعفه يحيى بن سعيد، وأحمد، والنسائي وغيرهم وقال فيه البخاري: منكر الحديث» انظر تهذيب الكمال (٦/ ٧٦).

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٦٦) وأصله في الصحيح وقد تقدم تخريجه.

(٥) انظر السبل (١١/ ١٨٤)، وفيه: وقيل بل أحد، ورجح كُلًّا مرجحون، والأول أشهر -يعني ببدر.

عليها مروان بن الحكم أمير المدينة، وحمل سريرها بعض الطريق، ثم حمل أبو هريرة إلى قبرها، فنزل فى قبرها عبد الله وعاصم ابنا عمر رضى الله عنهم، وسالم وعبد الله وحمزة أبناء عبد الله بن عمر، وقد بلغت ستين سنة. وقيل: ماتت سنة ثنتين وأربعين، وأوصت إلى عبد الله أخيها بما أوصى إليها أبوها عمر، وتصدقت بمال لها وقفته بالغابة(١).

مروياتها سبعون حديثًا، اتفق البخارى ومسلم منها على أربعة، وانفرد مسلم بستة، والباقية فى سائر الكتب.

وأما أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف ابن هلال الهلالية، فتزوجها عليه الصلاة والسلام فى رمضان من السنة الثالثة من الهجرة، تكنى « أم المساكين » لإطعامها إياهم، كانت تحت عبد الله بن جحش فى قول الزهرى، قتل عنها يوم أحد فتزوجها عليه الصلاة والسلام، ولم تلبث عنده عليه الصلاة والسلام إلا شهرين أو ثلاثة أشهر.

توفيت فى حياته ﷺ، وقيل: مكثت عنده ثمانية أشهر، ذكره الفضائلى. قال الشامى فى سيرته: قال قتادة بن دعامة: كانت قبل رسول الله ﷺ عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب، ولما خطبها عليه الصلاة والسلام جعلت أمرها إليه فتزوجها، وأشهد وأصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشًا. روى الطبرانى برجال الصحيح عن ابن إسحاق: تزوج النبى ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين، كانت قبله عند الحصين - أو عند الطفيل - بن الحارث بالمدينة وهى أول نسائه موتًا(٢).

قال ابن الكلبى: كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها، فتزوجها أخوه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فقتل عنها يوم بدر شهيدًا، ثم خلف عليها رسول الله ﷺ قبل أن يتزوج أختها لأمها ميمونة. قال ابن أبى خيثمة: كانت تسمى « أم المساكين » فى الجاهلية، وأرادت أن تعتق جارية لها سوداء فقال لها رسول الله ﷺ: ألا تفدين بها بني أخيك أو بني أختك(٣) من رعاية الغنم(٤).

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٨٦)، والإصابة (٨/ ٧٦).
(٢) سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٠٥).
(٣) في ط وفي السبل: ألا تفدين أخاك أو أختك. والمثبت من « الطبقات ».
(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٩٢) من حديث: إسماعيل بن عبد الله بن أبي =

وأما أم المؤمنين أم سلمة هند - وقيل: رملة والأول أصح - بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم بن نقطة بن مرة بن كعب بن لؤى، واسم أبى أمية سهيل، ويقال له: « زاد الراكب » وقال أبو عمرو: تزوجها رسول الله ﷺ سنة أربع فى شوال، كذا فى « السمط الثمين ». قال فى « المواهب »: تزوجها فى ليال بقين من شوال من السنة التى مات فيها أبو سلمة، ومات أبو سلمة سنة أربع وقيل سنة ثلاث، وكانت أم سلمة سمعت منه - عليه الصلاة والسلام - يقول: « مامن مسلم تصيبه مصيبة فيقول: اللهم آجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها »[1] قال: فلما مات أبو سلمة قلت: أى المسلمين خير من أبى سلمة ؟ ثم إنى قلتها، فأخلف الله لى رسول الله ﷺ، فأرسل إلىَّ حاطب بن أبى بلتعة يخطبنى له، وكانت قبله - عليه الصلاة والسلام - تحت أبى سلمة، عبد الله بن عبد الأسد المخزومى، وكانت هى وزوجها المذكور أول من هاجر إلى أرض الحبشة، فولدت له بها زينب، وولدت له بعد ذلك سلمة وعمر ودرة.

وقيل: هى أول ظعينة دخلت المدينة مهاجرة. ولما مات زوجها أبو سلمة خطبها عمر رضى الله عنه فأبت ، فأرسل إليها رسول الله ﷺ فقالت: مرحبًا برسول الله ﷺ، إن فىَّ خلالاً ثلاثًا: أنا امرأة شديدة الغيرة، وأنا امرأة مصبية، وأنا امرأة ليس هنا أحد من أوليائى فيزوجنى. فغضب عمر رضى الله عنه لرسول الله ﷺ أشد مما غضب لنفسه حين ردّته، فأتاها رسول الله ﷺ فقال: « أما ما ذكرتِ من غيرتك فإنى أدعو الله أن يذهبها عنك، وأما ماذكرتِ من صبيتك فإن الله سيكفيهم، وأما ماذكرتِ من أوليائك، فما أحد منهم يكرهنى » فقالت لابنها عمر: زوجنى عليه[2]. قلت:

= أويس، حدثني عبد العزيز بن محمد عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن عطاء بن يسار عن الهلالية التي كانت عند رسول الله (به. وانظر السبل (١١/ ٢٠٥). قلت: أما إسماعيل بن أبي أويس فقد قال فيه الحافظ في التقريب (٤٦٤): « صدوق أخطأ في أحاديث من حفظه ». أهـ وضعفه النسائي وغيره، انظر تهذيب الكمال (٣/ ١٢٨)، وعبد العزيز بن محمد هو الدراوردي قال في التقريب (٤١٤٧) صدوق كان يحدث من كتب غيره فيخطئ. أهـ

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٣١، ٦٣٢) رقم (٩١٨) وأبو داود (٢٣٠٥) كتاب الطلاق باب فيما تجتنبه المعتدة في عدتها. والنسائي (٦/ ٥١٥) كتاب الطلاق باب الرخصة للحادة أن تمتشط بالسدر. وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٨٨).

(٢) أصل القصة عند أبي داود والنسائي وقد تقدم تخريجها وهي بهذا السياق عند ابن سعد في الطبقات (٨/ ٧١).

لعل هذا من خصوصياته عليه الصلاة والسلام؛ إذ قواعد مذهبنا أن الابن لايزوج أمه إلا إن كان ابن ابن عم لها، والله سبحانه أعلم، فيزوج بجهة العصوبة حينئذٍ لا بجهة البنوة. انتهى

قال صاحب « السمط الثمين »: رواه بهذا السياق هدبة بن خالد وصاحب « الصفوة ». وخرج أحمد والنسائى طرفًا منه، ومعناه فى الصحيح، وفيه دلالة على أن الابن يلى العقد على أمه، وعندنا أنه إنما زوجها بالعصوبة لأنه ابن ابن عمها، لأن أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله، وأم سلمة هند بنت سهل ابن المغيرة بن عبد الله، ولم يكن من عصبتها أحد حاضرًا غيره.

وكانت أم سلمة من أجلِّ الناس، روى عن عائشة أنها قالت: لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة حزنتُ حزنًا شديدًا لما ذكروا لى من جمالها، فاطلعت حتى رأيتها - والله - أضعافَ ما ذُكرتْ لى فى الحسن، فذكرتُ ذلك لحفصة - وكانتا يدًا واحدة- فقالت: لا والله إن هذا إلا لغيرة، ماهى كما يقولون. فتلطفتْ بها حفصة حتى رأتها فقالت: رأيتها، لا والله، ماهى كما يقولون ولا قريبًا منه وإنها لجميلة. قالت عائشة فرأيتها بعد، فكانت كما قالت حفصة، ولكنى كنت غيراء[1].

وفى « السمط الثمين، فى مناقب أمهات المؤمنين »: أرسل إليها رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة يخطبها، فقال لها رسول الله ﷺ: أما إنى لم أنقصك عما أعطيت فلانة، يعنى زينب بنت خزيمة، وكانت قد ماتت زينب قبلها، قيل لأم سلمة: ما أعطى فلانة ؟ قالت: أعطاها جرَّتين تضع فيهما حبها ورحى ووسادة من أدم حشوها ليف. ثم انصرف حاطب، فأقبل رسول الله ﷺ يأتيها، فلما رأته وضعت زينب أصغر ولدها فى حجرها، فرجع عليه الصلاة والسلام، ثم عاد مرة ثانية ففعلت ذلك أيضًا، ففطن عمار[2] فأقبل مسرعًا بين يدى رسول الله ﷺ - وكان أخاها لأمها - وانتزعها من حجرها، وقال: هاتى هذه المقبوحة المشقوحة التى

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٧٥) من طريق الواقدي محمد بن عمر، وهو « متروك » وأمره مشهور، وقد تقدم مرارًا، وانظر تقريب التهذيب (٦٢١٥)، وتهذيب الكمال (٢٦/ ١٨٠)، وميزان الاعتدال (٣/ ترجمة ٥١٥٦) وانظر الإصابة ترجمة أم سلمة (٨/ ٤٠٦).

(٢) في ط: عمارة، والمثبت من الطبقات.

منعت رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ فلم يرها فى حجرها فقال: أين زنابُ؟ قالت: أخذها عمار. فدخل رسول الله ﷺ إلى أهله، فكانت أم سلمة فى النساء كأنها لم تكن منهن، ولاتجد مايجدن من الغيرة(١).

قلت: هذا لا يخالف ما تقدم من قولها له عليه الصلاة والسلام فى ابتداء الخطبة: أنا امرأة شديدة الغيرة؛ لأنها كانت كذلك قبل الدعوة بإذهاب غيرتها، وما هنا بعدها. انتهى. قال أنس: إن النبى ﷺ تزوج أم سلمة على متاع قيمته عشرة دراهم. وروى أنه لما تزوجها نقلها إلى بيت زينب بنت خزيمة بعد موتها، فدخلت فرأت جرة فيها شعير ورحى وبرمة فطحنته ثم عجنته ثم عصدته فى البرمة فأَدَمته بإهالة، وروى عن هند بنت الحارث الفراسية قالت: قال رسول الله ﷺ: « إن لعائشة منى شعبة مانزلها منى أحد » فلما تزوج أم سلمة قيل: يا رسول الله ما فعلت تلك الشعبة؟ فسكت، فيوجب أن أم سلمة نزلتها(٢).

قال فى « السيرة الشامية »: مات زوجها أبو سلمة سنة أربع، شهد بدرًا وأحدًا، ورمى به بسهم فى عضده فمكث شهرًا يداويه ثم برأ الجرح. بعثه - عليه الصلاة والسلام - هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهرًا من مهاجره، وبعث معه مائة وخمسين رجلاً إلى « قطن » جبل بنجد، فغاب تسعًا وعشرين ليلة، ثم رجع إلى المدينة فانتقض جرحه فمات منه لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة أربع، فاعتدَّت أم سلمة وحلت لعشر بقين من شوال من السنة المذكورة، فتزوجها عليه الصلاة والسلام فى ليال بقين من شوال المذكور. ولو لم يكن من فضلها إلا مشورتها على رسول الله ﷺ بالحلق فى قصة الحديبية لمَّا امتنع منه أكثر أصحابه - لكفاها(٣).

وروى أبو الحسين الخلعي عن عمرو بن شعيب: أنه دخل على زينب بنت أبى

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٧١)، مطولاً وأصله في مسند أحمد (٦/ ٣١٣)، والنسائي: (٦/ ٣٨٩) كتاب النكاح باب إنكاح الابن أمه حديث رقم (٣٢٥٤).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٧٥) من طريق محمد بن عمر الواقدي وهو متروك أضف إلى ذلك أن الحديث مرسل إذ هو من رواية هند بنت الحارث الفِراسِية بكسر الفاء وتخفيف الراء بعدها مهملة، ويقال القرشية، قال الحافظ في التقريب (٨٧٩٣): « ثقة من الثالثة ». أهـ فهي تابعية وحديثها مرسل.

(٣) ينظر: « السبل » (١١/ ١٨٧).

سلمة فحدثته أن رسول الله ﷺ كان عند أم سلمة فجعل حسنًا من شق، وحسينًا من شق، وفاطمة فى حجره، وقال: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٣]، وأنا وأمى أم سلمة جالسان، فبكت أم سلمة، فقال رسول الله ﷺ: « إنك من أهل البيت »(١).

وروى عمر الملا عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر دخل على نسائه واحدة واحدة، يبدأ بأم سلمة؛ لأنها أكبرهن، ويختم بعائشة(٢).

وروى الإمام أحمد عن موسى بن عقبة عن أمه عن أم كلثوم قالت: لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة قال: يا أم سلمة، إنى قد أهديت إلى النجاشى حلة وأواقى مسك، ولا أرى النجاشى إلا قد مات، ولا أرى هديتى إلا مردودة فهى لك، فكان كما قال ﷺ، وردت إليه هديته، فأعطى كل واحدة منهن أوقية، وأعطى أم سلمة المسك والحلة(٣).

وروى عنها قالت: « يا رسول الله، إنى امرأة أشد ضفر رأسى، فأنقضه لغسل الجنابة ؟ فقال رسول الله ﷺ: لا، إنما يكفيك أن تحثى على رأسك ثلاث حثيات، ثم تفيضى عليك الماء فتطهرى »(٤).

وروى الإمام أحمد والشيخان عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: إن

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٧١) وقال: « رواه الطبراني في الأوسط وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف ». اهـ وانظر السبل (١١/ ١٩٠).

(٢) ذكره الصالحي في سبل الهدى (١١/ ١٩٠) وعزاه لعمر الملا.

(٣) رواه الإمام أحمد (٦/ ٤٠٤) وابن سعد في الطبقات (٨/ ٩٥) والبيهقي (٦/ ٢٦) كتاب البيوع باب المسك طاهر يحل بيعه وشراؤه والسلف فيه وابن حبان (١١/ ٥١٥) حديث رقم (٥١١٤). والطبراني في الكبير (٢٣/ ٣٥٢، ٣٥٣). كلهم من طريق مسلم بن خالد عن موسى بن عقبة عن أمه عن أم كلثوم. وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ١٥٠) وقال عقبه: « رواه أحمد والطبراني، وفيه مسلم بن خالد الزنجي، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه جماعة. وأم موسى بن عقبة لم أعرفها، وبقية رجاله رجال الصحيح ». اهـ وانظر « السبل » (١١/ ١٩٠).

(٤) أخرجه الحميدي (٢٩٤)، وأحمد في المسند (٦/ ٢٨٩)، ومسلم (١/ ٢٥٩) كتاب الحيض باب حكم ضفائر المغتسلة رقم (٣٣٠) وأبو داود (١/ ١١٥) كتاب الطهارة باب في المرأة هل تنقض شعرها عند الغسل حديث رقم (٢٥١) والترمذي (١/ ١٧٥) كتاب الطهارة باب هل تنقض المرأة شعرها عند الغُسل حديث رقم (١٠٥) والنسائي (١/ ١٣١) كتاب ما =

رسول الله ﷺ صالح أهل مكة، وكتب كتاب الصلح بينه وبينهم، فلما فرغ قال للناس: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فو الله ما قام منهم رجل، حتى قالها ثلاثًا، فلما فرغ قالت أم سلمة: يا رسول الله، لا ترى أحدًا منهم يفعل ذلك حتى تنحر بُدنك، وتدعو الحلاق فيحلقك، فخرج ففعل، فلما رأوا ذلك قاموا ونحروا حتى كادوا يقتتلوا على الحلاق، وجعل بعضهم يحلق بعضًا[١].

توفيت أم سلمة فى خلافة يزيد بن معاوية سنة إحدى وستين على الصحيح - واستخلف يزيد سنة ستين - بعد ما جاءها الخبر بقتل الحسين بن على رضى الله عنه، ولها من العمر أربع وثمانون سنة على الصواب[٢].

وروى الطبرانى بسند رجاله ثقات عن الهيثم بن عدى قال: أول من مات من أزواجه عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش، وآخرهن موتًا أم سلمة هذه[٣].

وكان لها ثلاثة أولاد: سلمة أكبرهم وعمر وزينب أصغرهم، ربوا فى حجر النبى ﷺ.

واختلف فيمن زَوَّجها [من النبي ﷺ][٤]؛ فقيل: ولدها عمر كما تقدم، وقيل: غيره، وعليه الأكثرون. وزوَّج سلمةَ هذا النبيُّ ﷺ أمامة، وقيل: فاطمة بنة حمزة بن عبد المطلب. وعاش سلمة إلى خلافة عبد الملك بن مروان ولم تحفظ له

= يوجب الغسل وما لا يوجبه باب ذكر ترك المرأة نقض ضفر رأسها حديث رقم (٢٤١)، وابن ماجه (١/ ١٩٨) كتاب الطهارة باب ما جاء في غسل النساء من الجنابة (٦٠٣) وابن خزيمة (١/ ١٢٢) كتاب الوضوء باب الرخصة في ترك المرأة نقض ضفائر رأسها في الغسل من الجنابة حديث رقم (٢٤٦). والدارمي (١/ ٢٦٣) كتاب الصلاة باب اغتسال الحائض إذا وجب الغسل عليها قبل أن تحيض. وانظر السبل (١١/ ١٩٠).

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٣)، والبخاري (٣/ ١٨٢) كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وأبو داود (١/ ٥٤٦) كتاب المناسك باب في الإشعار حديث رقم (١٧٥٤)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦٣) باب توجيه عين واحدة حديث رقم (٨٨٤٠) وغيره من المواضع كلهم عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة والحديث لم يخرجه مسلم كما ذكر المصنف، ولم يعزه المزي في تحفة الأشراف، انظر تحفة الأشراف (٨/ ٣٧١، ٣٨٣ وانظر السبل (١١/ ١٩١)، وقد تقدم في غزوة الحديبية.

(٢) ينظر السبل (١١/ ١٩١).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٤٨) وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٤٨) وقال عقبه: « رجاله ثقات ». وانظر السبل (١١/ ١٩١).

(٤) زيادة من السبل مناسبة للمعنى.

رواية. وأما أخوه عمر بن أبى سلمة فله رواية، وتوفى رسول الله ﷺ وله تسع سنين، ومولده كان بالحبشة، واستعمله على رضى الله عنه على فارس والبحرين، وتوفى بالمدينة سنة ثلاثة وثمانين فى خلافة عبد الملك.

وأما زينب بنت أبى سلمة فولدت بأرض الحبشة وكان اسمها برة فسماها رسول الله ﷺ زينب، دخلت على رسول الله ﷺ وهو يغتسل؛ فنضح فى وجهها شيئًا من الماء؛ فلم يزل ماء الشباب فى وجهها حتى كبرت وعجزت(١). قال العطاف: قالت أمى: رأيت وجه زينب وهى عجوز كبيرة مانقص من وجهها شىء، تزوجها عبد الله بن زمعة بن الأسود الأسدي وولدت له، وكانت من أفقه أهل زمانها رضى الله عنها.

ولما ماتت أم سلمة دفنت بالبقيع، وصلى عليها أبو هريرة، وقيل: سعيد بن زيد، وكان عمرها أربعًا وثمانين سنة.

وأما أم المؤمنين زينب بنت جحش، وأمها أمية بنت عبد المطلب بن هاشم، فكان رسول الله ﷺ زوَّجها من زيد بن حارثة، فمكثت عنده مدة ثم طلقها، فلما انقضت عدتها منه قال ﷺ لزيد بن حارثة: اذهب فاذكرنى لها، فقال زيد: فذهبت فجعلت ظهرى إلى الباب فقلت: يازينب، بعث رسول الله ﷺ يذكرك، فقالت: ما كنت لأحدث شيئًا حتى أؤامر ربى عز وجل. فقامت إلى مسجد لها فأنزل الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ [الأحزاب٣٧] فجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن(٢)، أخرجه مسلم. وقال المنافقون: حرَّم محمد نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » كما ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٦٢) وعزاه للطبراني وقال عقبه: « وأم عطاف لم أعرفها ». اهـ. وكذا أخرجه ابن الأثير في أسد الغابة (٧/ ١٣٣) بإسناده. وذكره الحافظ في الإصابة (٨/ ١٥٩) في ترجمة زينب بنت أبي سلمة، وعزاه للقطعيات. كلاهما إسناد ابن الأثير والإسناد الذي ذكره الحافظ ابن حجر من طريق عطاف ابن خالد عن أمه به. وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٩١).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٥) وعبد بن حميد (١٢٠٦)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ٨٢). ومسلم (٢/ ١٠٤٨) كتاب النكاح باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس حديث رقم (٨٩/ ١٤٢٨)، والنسائي (٦/ ٣٨٧) كتاب النكاح باب صلاة المرأة إذا خطبت واستخارتها ربها، حديث رقم (٣٢٥١)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ٧٨) حديث رقم (٥٧٧)، والبغوي في شرح السنة رقم (٢٣١٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٨٢) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وابن مردويه.

[الأحزاب: ٤٠] الآية. فكانت زينب تفتخر على أزواج النبى ﷺ فتقول: زوَّجكن آباؤكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات(١)، رواه الترمذى وصححه. وكان اسمها برة فسماها عليه الصلاة والسلام زينب.

وعن أنس: لما تزوج ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو ﷺ كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، وقام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبى ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس. ثم إنهم قاموا، فانطلقتُ فجئت فأخبرت النبى ﷺ أنهم انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت لأدخل فألقى الحجاب بينى وبينه فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية(٢). تزوجها ﷺ هلال ذى القعدة سنة أربع من الهجرة وهى بنت خمس وثلاثين سنة يومئذ، كذا فى « مختصر سيرة البرماوى ». وقال فى المواهب: سنة خمس، وقيل: سنة ثلاث، وهى أول من مات من أزواجه بعده.

وروى ابن أبى شيبة وابن منيع بسند صحيح عن أنس قال: أولم رسول الله ﷺ على زينب فأشبع المسلمين خبزًا ولحمًا، ثم خرج فصنع كما كان يصنع إذا تزوج، فأتى أمهات المؤمنين فسلم عليهن وسلمن عليه ودعا لهن، ثم رجع وأنا معه(٣).

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: كانت زينب هى التى تساميني من

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٦)، والبخاري (١٥/ ٣٦١) كتاب التوحيد باب ﴿وكان عرشه على الماء﴾ حديث رقم (٧٤٢٠)، والترمذي (٥/ ٣٥٤) كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الأحزاب حديث رقم (٣٢١٣)، والنسائي (٦/ ٣٨٨) كتاب النكاح باب صلاة المرأة إذا خطبت واستخارتها ربها حديث رقم (٣٢٥٢)، وفي الكبرى (٣/ ٢٨٧) كتاب النكاح باب صلاة المرأة إذا خطبت واستخارتها ربها حديث رقم (٥٤٠٠)، و (٥٤٠١)، وأخرجه في مواضع أخرى منها (٤/ ٤١٨)، (٥/ ٢٩١)، (٦/ ٤٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٩/ ٤٨٣)، رقم (٤٧٩١) (١٢/ ٢٨٥) كتاب الاستئذان باب آية الحجاب حديث رقم (٦٢٣٩) وأطرافه أيضًا: (٥١٥٤، ٥١٦٣، ٥١٧٠، ٦٢٧١، ٧٤٢١)، ومسلم (٢/ ١٠٥٠) كتاب النكاح باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب حديث رقم (١٤٢٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٥) كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾،كلهم من طريق لاحق بن حميد. أبي مجلز السدوسي البصري به. وانظر السبل (١١/ ٢٠١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٥٦١)، وأحمد في المسند (٣/ ١٠٥)، والبخاري (١٠/ ٢٧٧-فتح) كتاب النكاح باب (٥٦) حديث رقم (٥١٥٤)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٧٢). وانظر السبل (١١/ ٢٠٢). ولفظ البخاري: « أولم النبي ﷺ بزينب فأوسع =

أزواج النبى ﷺ فى [حُسْنِ][(١)] المنزلة عنده - عليه الصلاة والسلام - وما رأيت امرأة قط خيرًا من زينب وأتقى لله وأصدق حديثًا وأوصل للرحم وأعظم صدقة[(٢)].

وروى أبو يعلى بسند حسن عن أبى برزة رضى الله عنه قال: كان لرسول الله ﷺ تسع من النساء، فقال يومًا: « خيركن أطولكن يدًا » فقامت كل واحدة تضع يدها على الجدار، فقال: « لست أعنى هذا، أصنعكن يدين »[(٣)]. وروى الشيخان عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « أولكن لحاقًا بى أطولكن يدًا » قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدًا، قالت: وكانت أطولنا يدًا زينب؛ أنها كانت تعمل بيدها وتتصدق. وفى لفظ البخارى: فكنا إذا اجتمعنا فى بيت إحدانا بعد وفاته عليه الصلاة والسلام نمد أيدينا فى الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش. وكانت امرأة قصيرة ولم تكن بأطولنا، فعرفنا حينئذٍ أن النبى ﷺ إنما أراد طول اليد بالصدقة[(٤)].

وروى الطبرانى عن راشد بن سعد قال: دخل رسول الله ﷺ منزله ومعه عمر بن الخطاب، فإذا هو بزينب تصلى وهى تدعو فى صلاتها، فقال النبى ﷺ: إنها لأوَّاهة[(٥)]. وقالت عائشة: لقد ذهبت زينب حميدة فقيدة مفزعًا لليتامى

= المسلمين خيرًا، فخرج كما يصنع إذا تزوج، فأتى حجر أمهات المؤمنين، يدعو ويدعون له، ثم انصرف فرأى رجلين فرجع، لا أدري أخبرته أو أخبر بخروجهما ».

(١) زيادة من السبل يستقيم بها المعنى.

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٩١) كتاب فضائل الصحابة باب في فضل عائشة -رضي الله عنها- حديث رقم (٢٤٤٢)، وأحمد في المسند (٦/ ١٥١). وانظر السبل (١١/ ٢٠٢، ٢٠٣).

(٣) أخرجه أبو يعلى (١٣/ ٤٢٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٨) وقال: « رواه أبو يعلى، وإسناده حسن، لأنه يعتضد بما يأتي ». ثم ذكر حديث ميمونة بمثله، وقال: « رواه الطبراني في الأوسط، وفيه مسلمة بن علي، وهو ضعيف ». اهـ. وانظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٠٣).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ١٢١)، والبخاري (٤/ ٣٥) كتاب الزكاة باب أي الصدقة أفضل وصدقة الشحيح الصحيح حديث رقم (١٤٢٠)، ومسلم (٤/ ١٩٠٧) كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل زينب أم المؤمنين حديث رقم (٢٤٥٢)، والنسائي (٥/ ٧٠) كتاب الزكاة باب فضل الصدقة حديث رقم (٢٥٤٠). كلهم من حديث عائشة، رضي الله عنها.

(٥) رواه الطبراني في الكبير كما في المجمع (٩/ ٢٥٠) وقال الهيثمي: « إسناده منقطع وفيه يحيى بن عبد الله البابلي وهو ضعيف ». اهـ. وانظر السبل (١١/ ٢٠٣).

والأرامل[١]. وروى ابن الجوزى عن عبد الله بن رافع، عن برزة بنت رافع، قالت: لما جاءنا العطاء بعث عمر إلى زينب بنت جحش بالذى لها، فلما أدخل عليها قالت: غفر الله لعمر، غيرى من أخواتى أقدر منى على قسم هذا. قالوا: هذا كله لك. قالت: سبحان الله، واستترت منه بثوب وقالت: صُبُّوه واطرحوا عليه ثوبًا، ثم قالت: أدخلى يدك، فاقبضى منه قبضة فاذهبى بها إلى بنى فلان وبنى فلان - من أهل رحمها وأيتامها - فغرفته حتى مابقى منه بقية تحت الثوب، فقالت لها برزة بنت رافع: غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا فى هذا حق، قالت: لكم ما تحت الثوب، فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهمًا، ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت: اللهم لايدركنى عطاء عمر بعد عامى هذا. فماتت قبله[٢].

قال فى الروض الأنف: زينب بنت جحش كان اسمها بُرَة بضم الباء وتخفيف الراء فسماها عليه الصلاة والسلام زينب[٣] اسم أبيها جحش بن رياب فقالت: يا رسول الله، لو غيرت اسم أبى، وإن البُرَة ضفيرة. فقال لها: لو كان أبوك مسلمًا سميته باسم من أسمائنا أهل البيت، ولكن قد سمى جحشًا، والجحش أكبر من البرة. ذكر هذا الحديث مسندًا فى كتاب «المؤتلف والمختلف» أبو الحسن الدارقطنى. قلت: أصل البرة حلقة تجعل فى أنف البعير ليذل بها فينقاد، تكون من فضة أو حديد، وقد تجعل للذلول لقصد الزينة كما كانت فى جمل أبى لهب الذى غنمه عليه الصلاة والسلام، فأهداه إلى الكعبة عام الحديبية ليغيظ المشركين حين يرونه[٤]. والله أعلم.

توفيت سنة ستة وعشرين، وصلى عليها عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، وعاشت ثلاثًا وخمسين سنة.

وأما أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار، بكسر الضاد المعجمة

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٨٧) من طريق عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة وفي إسناده الواقدي وهو متروك. وانظر السبل (١١/ ٢٠٣).
(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٨٦) و (٣/ ٢٢٨) أيضًا.
(٣) ينظر: «السبل» (١١/ ٢٠١)، ولم أجده في الروض الأنف. وانظر الروض (٤/ ٢٦٨).
(٤) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي-٣٩٣) وفيه: أن الجمل كان لأبي جهل.

وتخفيف الراء، المصطلقية - فكانت تحت سافع بن مسافع، بالسين المهملة والفاء، ابن صفوان المصطلقى؛ كانت وقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى فى غزوة المريسيع - وهى غزوة بنى المصطلق - سنة خمس، وقيل: ست، وكاتبت ثابتًا على نفسها، ثم جاءت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث، وكان من أمرى ما لا يخفى عليك، ووقعتُ فى سهم ثابت بن قيس، وإنى كاتبت على نفسى فجئت أسألك فى كتابتى. فقال لها رسول الله ﷺ: هل لك فيما هو خير لك ؟ قالت: وماهو يا رسول الله ؟ قال: أوفى عنك كتابتك وأتزوجك. قالت: قد فعلت.

وتسامع الناس أن رسول الله ﷺ تزوج جويرية فأرسلوا ما بأيديهم من السبى فأعتقوهم وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ. قالت عائشة: فما رأيت امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها. أعتق بسببها مائة أهل بيت من بنى المصطلق(١)، أخرجه أبو داود من حديث عائشة. وقال ابن هشام ومقاتل: اشتراها عليه الصلاة والسلام من ثابت وأعتقها وتزوجها، وأصدقها أربعمائة درهم(٢). وعن ابن شهاب: سباها ﷺ يوم المريسيع فحجبها وقسم لها وكانت ابنة عشرين سنة(٣)، وكان اسمها برة فحوَّله ﷺ وسماها جويرية(٤)، كما تقدم فى زينب بنت جحش.

وروى ابن سعد عن أبى قلابة قال: جاء أبو جويرية فقال: لايسبى مثلها فخلِّ سبيلها. فقال عليه الصلاة والسلام: بل أخيرها. قال: قد أحسنت، فأتى أبوها إليها فقال: إن هذا الرجل قد خيرك فلا تفضحينا. قالت: إنى أختار الله ورسوله(٥).

---

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة (٣/ ٢٤٠) عن ابن إسحاق، ومن طريقه أحمد في المسند (٦/ ٢٧٧). وإسناده حسن؛ فقد صرح ابن إسحاق بالتحديث.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٤١٥) كتاب العتق باب في بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة حديث رقم (٣٩٣١) ولم يصرح ابن إسحاق عنده بالتحديث، وأخرجه أحمد (٦/ ٢٧٧)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ٩٢) من غير طريق ابن إسحاق ولكن في إسناده الواقدي وهو متروك. وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٤٠)، والسبل (١١/ ٢١٠).

(٣) انظر سيرة ابن هشام (٣/ ٢٤١)، وينظر السبل (١١/ ٢١٠).

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٩٤) وفي إسناده الواقدي. وأخرجه مسلم (٣/ ١٦٨٧) كتاب الآداب باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى الحسن، وتغيير اسم برة إلى زينب وجويرية ونحوهما حديث رقم (٢١٤٠)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ٩٤)، وأحمد في المسند (٦/ ٤٢٩). وانظر السبل (١١/ ٢١٠).

(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٩٣) وهو مرسل صحيح الإسناد، كما في الإصابة =

وروى الطبرانى مرسلاً برجال الصحيح عن الشعبى، قال: كانت جويرية ملك النبى ﷺ، فأعتقها وجعل عتقها صداقها، وأعتق كل أسير من بنى المصطلق(١).

وروى الطبرانى برجال الصحيح عن مجاهد، قال: قالت جويرية لرسول الله ﷺ: إن أزواجك يفخرن علىَّ ويقلن: لم يتزوجكِ رسول الله ﷺ. فقال: ألم أعظم صداقك ؟ ألم أعتق أربعين من قومك(٢)؟

توفيت فى ربيع الأول سنة خمسين، وقيل: ست وخمسين، وصلى عليها مروان ابن الحكم وهو أمير المدينة، وقد بلغت من السن سبعين سنة(٣).

وأما أم المؤمنين، أم حبيبة، رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، وقيل: اسمها هند، والأول أصح - فأمها صفية بنت أبى العاص، وكانت تحت عبيد الله بن جحش، وهاجر بها إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، ثم تنصر وارتد عن الإسلام - والعياذ بالله تعالى - فمات على النصرانية، وكان يقول للمسلمين: صأصأتم وأبصرنا، وثبتت زوجته أم حبيبة هذه على الإسلام(٤).

واختلف فى نكاح رسول الله ﷺ إياها وموضع العقد، فقيل: إنه عقد عليها بأرض الحبشة سنة ست، روى أنه عليه الصلاة والسلام بعث عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ليخطبها عليه، فزوجه إياها، وأصدقها النجاشى عنه - عليه الصلاة والسلام - أربعمائة دينار، وبعث بها إليه مع شرحبيل بن حسنة(٥). وروى أن النجاشى أرسل إليها جارية أبرهة فقالت لها: إن الملك يقول لك: إن رسول الله ﷺ

= (٨/ ٧٤). وانظر السبل (١١/ ٢١١).

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٣١١٨)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ٩٣)، وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٥٠) وقال: « رواه الطبراني مرسلاً ، ورجاله رجال الصحيح ». وانظر السبل (١١/ ٢١١).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٩٣)، وعبد الرزاق في المصنف (١٣١١٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٥٣) وعزاه للطبراني وقال عقبه: « رواه الطبراني مرسلاً ورجاله رجال الصحيح ». اهـ. وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢١١).

(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٩٥)، وانظر تاريخ خليفة (٢٢٤)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٣)، والإصابة (٨/ ٧٤)، والسبل (١١/ ٢١١).

(٤) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٧٦)، والإصابة (٨/ ١٤٠).

(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٧٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٢) كلاهما من طريق الواقدي. وانظر السبل (١١/ ١٩٣). وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٧٨)، وأحمد في المسند (٦/ ٤٢٧)، وأبو داود (١/ ٦٤١) كتاب النكاح باب الصداق حديث رقم (٢١٠٧)، =

كتب إليَّ أن أزوجك منه، فأرسلتْ أم حبيبة إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته، وأعطت جارية أبرهة سوارين وخواتم من فضة سرورًا بما بشرتها به، فلما كان العشى أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا، فخطب النجاشى فقال: الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. أما بعد فقد أجبت مادعا إليه رسول الله ﷺ وقد أصدقتها أربعمائة دينار ذهبًا، ثم سكب الدنانير بين يدى القوم.

فتكلم خالد بن سعيد بن العاص فقال: الحمد لله، أحمده وأستعينه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. أما بعد فقد أجبت إلى مادعا به رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان، فبارك الله لرسول الله ﷺ. ودفعت الدنانير إلى خالد فقبضها، ثم أرادوا أن يقوموا، فقال النجاشى: اجلسوا، فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج. فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا[(١)].

وكان ذلك فى المحرم سنة سبع، على ما قاله الشمس البرماوى. وقد قيل إن عقد النكاح عليها بالمدينة بعد رجوعها من الحبشة، والمشهور الأول. وكان أبوها أبو سفيان حال نكاحها بمكة مشركًا محاربًا لرسول الله ﷺ، فقال لما بلغه تزوجه ﷺ بها: مثل ذلك الفحل لا يقرع أنفه[(٢)] توفيت سنة أربع وأربعين.

وأما أم المؤمنين صفية بنتُ حيى بن أخطب بن سَعْيَة، بفتح السين وسكون العين المهملة وبالمثناة تحت، ابن ثعلبة بن عبيد من بنى إسرائيل من سبط هارون بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأمها ضَرة، بفتح الضاد المعجمة وتشديد الراء، ابنة السموأل، فكانت تحت كنانة بن أبى الحُقَيق، بضم الحاء وفتح القاف وسكون

= والنسائي (٦/ ١١٩) كتاب النكاح باب القسط في الأصدقة حديث رقم (٣٣٥٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٢) من طريق الزهري عن عروة عن أم حبيبة.

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٧٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٠) كلاهما من طريق الواقدي.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٧٩)، وذكره صاحب سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٩٤) وعزاه لابن أبي خيثمة في التاريخ.

المثناة التحتية، فقتل يوم خيبر فى المحرم سنة سبع من الهجرة. قال أنس: لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر وجمع السبى جاءه دحية بن خليفة الكلبى فقال: يا رسول الله، أعطنى جارية. فقال: اذهب فخذ جارية. فأخذ صفية بنت حيى، فجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أعطيت دحية صفية بنت حيى سيدة قريظة والنضير ماتصلح إلا لك. قال: ادعوه بها، فجاء بها، فلما نظر إليها النبى ﷺ قال: خذ جارية من السبى غيرها. قال فأعتقها وتزوجها. فقال له ثابت: يا أبا حمزة - يعنى أنس بن مالك؛ فإنه كان يكنى بأبى حمزة، وهو الراوى - ما أصدقها؟ قال: نفسها؛ أعتقها وتزوجها. ثم نادى: من كان عنده شىء فليجىء به. قال فبسط نِطْعًا فجعل الرجل يجىء بالأقط، وجعل الرجل يجىء بالتمر، وجعل الرجل يجىء بالسمن، فحاسوا حيسًا، فكانت وليمة رسول الله ﷺ.

وفى رواية: فقال الناس: لا ندرى أتزوجها أم اتخذها أم ولد؟ قالوا: إن حجبها فهى امرأة، وإن لم يحجبها فهى أم ولد. فلما أراد أن يركب حجبها. ورجعنا إلى المدينة فرأيته عليه الصلاة والسلام يحوى لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيرها فيضع ركبته، وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب، ثم انطلقت حتى إذا رأينا جدر المدينة هششنا إليه فرفعنا مطايانا، ورفع رسول الله ﷺ مطيته، قال: وصفية خلفه قد أردفها، قال: فعثرت مطية رسول الله ﷺ فصرع وصرعت، قال: فليس أحد من الناس ينظر إليه وإليها حتى قام رسول الله ﷺ فسترها. قال فدخلنا المدينة، فخرجن جوارى نسائه يتراءينها ويشمتن بصرعتها(١) رواه الشيخان. وهذا لفظ مسلم.

وروى جابر أنه ﷺ أتى بصفية يوم خيبر وأنه قتل أباها وأخاها، وأن بلالاً مر بهما بين المقتولين، وأنه ﷺ خيرها بين أن يعتقها فترجع إلى من بقى من أهلها أو تسلم فيتخذها لنفسه، فقالت: أختار الله ورسوله(٢). أخرجه فى «الصفوة». وأخرج تمام فى فوائده من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال لها: هل لك فيَّ؟

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٢٣)، والبخاري (٨/ ٢٤٥) كتاب المغازي باب غزوة خيبر حديث رقم (٤٢٠١)، ومسلم (٢/ ١٠٤٣) كتاب النكاح باب فضيلة إعتاقه أمته ثم يتزوجها حديث رقم (١٣٦٥)، وأبو داود (٢/ ١٦٨) كتاب الخراج باب ما جاء في سهم الصفي حديث رقم (٢٩٩٧)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ٩٥). وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢١٣).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٩٥) و (٨/ ٩٧).

قالت: يا رسول الله، لقد كنت أتمنى ذلك فى الشرك، فكيف إذ أمكننى الله منه فى الإسلام. وأخرج أبو نعيم من حديث ابن عمر: رأى رسول الله ﷺ بعين صفية خضرة فقال: ماهذه الخضرة ؟ فقالت: كان رأسى فى حجر أبى الحُقيق وأنا نائمة فرأيت قمرًا وقع فى حجرى، فأخبرته بذلك فلطمنى وقال: تمنين ملك يثرب(١).

وبنى بها ﷺ لما بلغ سد الصهباء، فصنع حيسًا فى نطع. قال أنس: وأمرنى فدعوت له من حوله فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ(٢). وروى عن صفية رضى الله تعالى عنها قالت: دخل علىَّ رسول الله ﷺ وأنا أبكى، فقال: يا ابنة حُيى ما يبكيك ؟ قالت: بلغنى أن حفصة وعائشة ينالان منى ويقولان: إنا نحن خير منها، نحن بنات عم رسول الله ﷺ وأزواجه. قال: ألا قلت لهن: كيف تكنَّ خيرًا منى وأبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد ﷺ(٣).

---

(١) أخرجه ابن حبان كتاب المغازي باب ما جاء في خيبر حديث رقم (١٦٩٧)، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٢٣١)، والطبراني كما في المجمع (٩/ ٢٥١)، وقال الهيثمي « رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح ». اهـ. وانظر السبل (١١/ ٢١٤،٢١٥). وأصل الحديث عند البخاري (٢٣٢٩)، (٢٣٣١)، (٢٧٣٠)، ومسلم (١٥٥١). وليس عندهم اللفظة التي ذكرها المصنف.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٥/ ٣٨٨) حديث رقم (٣٠٥٠)، والحديث عند أحمد (٣/ ١٧٠)، والطيالسي (١/ ٣٠٧)، والبخاري (١٠/ ١٦١) كتاب النكاح باب من جعل عتق الأمة صداقها حديث رقم (٥٠٨٦)، ومسلم كتاب النكاح باب فضيلة إعتاقه أمته ثم يتزوجها حديث رقم (١٣٦٥)، وأبو داود (١/ ٦٢٦) كتاب النكاح باب في الرجل يعتق أمته ثم يتزوجها حديث رقم (٢٠٥٤)، والنسائي (٦/ ١١٤) كتاب النكاح باب التزويج على العتق، والترمذي (٣/ ٤١٤) كتاب النكاح باب ما جاء في الرجل يعتق الأمة ويتزوجها، والدارمي (٢/ ١٥٤) كتاب النكاح باب في الأمة يجعل عتقها صداقها، والبغوي في شرح السنة رقم (٢٢٧٣). وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢١٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٧٠٨) كتاب المناقب باب فضل أزواج النبي ﷺ حديث رقم (٣٨٩٢)، والحاكم (٤/ ٢٩) وإسناده ضعيف لضعف هاشم بن سعيد الكوفي وقد قال الترمذي عقبه: « وهذا حديثٌ غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من حديث هاشم الكوفي، وليس إسناده بذلك القوي ». قلت: هاشم بن سعيد الكوفي قال الحافظ في التقريب (٧٣٠٣): ضعيف. لكن يشهد له حديث أنس عند أحمد (٣/ ١٣٥)، والترمذي (٣٨٩٤) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ثابت عن أنس قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: قالت لي حفصة إني بنت يهودي، فقال النبي ﷺ: إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك؟! ». وإسناده صحيح.

وروى أبو يعلى بأسانيد رجال الصحيح عن صفية رضى الله عنها قالت: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وما من الناس أحد أكره إلى منه، قتل أبى وزوجى، فما زال يعتذر إليَّ ويقول: يا صفية إن أباك ألَّبَ علىَّ العرب، وفعل وفعل، حتى ذهب ذلك من نفسى، فما قمت من مقعدى ومن الناس أحد أحب إلى منه(١).

قلت: حديث أبى يعلى هذا يشكل على الحديث الذى أخرجه تمام؛ إذ صريح حديثه تمنيها النبى ﷺ لمحبتها إياه، ومفهوم هذا صريح الكراهة وتبيين سببها، والله أعلم، فلينظر وجه التوفيق بينهما. وفى رواية عنها قالت: ما رأيت أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ، رأيته ركب بى من خيبر على عجز ناقته ليلاً، فجعلت أنعس فضرب رأسى مؤخرة الرحل، فيقول يا هذه مهلاً يا بنت حيى، حتى إذا جاء سدَّ الصهباء قال: أما إنى أعتذر يا صفية مما صنعت بقومك، إنهم قالوا لى كذا وكذا(٢).

وروى أبو عمر الملا فى سيرته عنها قالت: حج رسول الله ﷺ بنسائه. فلما كان ببعض الطريق برك جملى، وكنت من أحسنهن ظهرًا فبكيت، فجاء عليه الصلاة والسلام فجعل يمسح دموعى بردائه وبيده، وجعلت لا أزداد إلا بكاء، وهو ﷺ ينهانى، فلما أكثرت زبرني(٣).

(١) أخرجه أبو يعلى (١٣/ ٣٣) حديث رقم (٧١١٤) من حديث سليمان بن المغيرة قال حدثنا حميد بن هلال أن صفية قالت. . . ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٥٢) وقال: «رواه أبو يعلى بأسانيد ورجال الطريق الأولى رجال الصحيح، إلا أن حميد بن هلال لم يدرك صفية وفي رجال هذه ربيع ابن أخي صفية ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات». اهـ. وانظر السبل (١١/ ٢١٥).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (٩/ ١٨). وأبو يعلى في مسنده (١٣/ ٣٦) حديث رقم (٧١١٩) من حديث إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع قال: حدثني عثمان بن كعب عن رجل يقال له ربيع، عن صفية به. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٨) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط وأبو يعلى باختصار ورجالهما ثقات إلا أن الربيع ابن أخي صفية بنت حيي لم أعرفه». اهـ. قلت: زيادة على جهالة الربيع ففي الإسناد إبراهيم ابن إسماعيل بن مجمع، ضعفه النسائي، وقال ابن معين ليس بشيء وقال أبو حاتم: كثير الوهم ليس بالقوي، وقال البخاري كثير الوهم. اهـ. من الميزان للذهبي (١/ ١٣٥). وانظر السبل (١١/ ٢١٥).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٣٣٧) من طريق ثابت البناني عن سمية عن صفية، وأخرجه أبو داود (٤/ ٦١٠) كتاب السنة باب ترك السلام على أهل الأهواء حديث رقم (٤٦٠٢)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ١٠٠)، كلاهما من طريق ثابت عن سمية عن عائشة. وقد ذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٢٤) وقال: «رواه أحمد وفيه سمية روى لها أبو داود وغيره ولم =

وروى أبو عمر أن جارية لصفية قالت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: إن صفية تحب السبت وتصل اليهود، فبعث إليها عمر فسألها، فقالت: أما السبت فإنى لا أحبه منذ أبدلنى الله يوم الجمعة، وأما اليهود فإن لى فيهم رحمًا فأنا أصلها. ثم قالت للجارية: ماحملك على ماصنعت؟ قالت: الشيطان. قالت: اذهبى فأنت حرة(١).

توفيت رضى الله عنها فى رمضان سنة خمس وخمسين، وقيل: سنة اثنتين وخمسين، ودفنت بالبقيع مع صواحباتها من أزواج النبى ﷺ قال ابن أبى خيثمة: بلغنى أنها ماتت زمن معاوية، وورّثت مائة ألف درهم بقيمة أرض وعرض، وأوصت لابن أخيها بالثلث، وكان يهوديًا(٢).

وأما أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية، وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث من ولد حماطة بن حمير، فتزوجها عليه الصلاة والسلام لما كان بمكة معتمرًا سنة سبع بعد غزوة خيبر، وكانت أختها الثانية أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث تحت العباس بن عبد المطلب، وأختها لأمها الثالثة أسماء بنت عميس تحت جعفر، وسلمى أختها الرابعة بنت عميس تحت حمزة، وكانت جعلت أمرها إلى العباس زوج أختها فأنكحها النبى ﷺ وهو محرم، فلما رجع بنى بها بسرف حلالاً(٣). ذكره أبو عمر.

وفى الصحيح من أفراد مسلم عنها: أنه عليه الصلاة والسلام تزوجها وهو

= يضعفها أحد، وبقية رجاله ثقات ». اهـ. وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢١٥، ٢١٦).
قلت: سمية هذه التي يروي عنها ثابت في اسمها خلاف فيقال سمية، ويقال شميسة، وسمينة، وقد روت عن عائشة أم المؤمنين، وروى عنها ثابت البناني، وأخرج لها أبو داود والنسائي وابن ماجه. وذكرها الذهبي في ميزان الاعتدال (٧/ ٤٧٠) ترجمة رقم (١٠٩٧٥)، في فصل النسوة المجهولات وقال: « تفرد عنها ثابت البناني ». اهـ. انظر تهذيب الكمال (٣٥/ ١٩٨)، وميزان الاعتدال (٧/ ٤٧٠).

(١) انظر الاستيعاب لابن عبد البر (٣/ ٦٥) حيث قال: روينا أن جارية لها أتت عمر... إلخ ونقله ابن حجر في الإصابة (٨/ ٢١١) عن ابن عبد البر، وانظر « سبل الهدى والرشاد » (١١/ ٢١٧).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٠٢) من طريق الواقدي ونصه: « ورثت صفية مائة ألف درهم بقيمة أرض وعرض، فأوصت لابن أختها وهو يهودي، بثلثها ». وانظر السبل (١١/ ٢١٧).

(٣) ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ٤٦٩) قال: « وذكر سُنيد عن زيد بن الحباب عن ابن أبي معشر عن شرحبيل بن سعد ...». إلخ.

حلال[١]. زاد البرقانى بعد قوله تزوجها: وبنى بها حلالاً. فيحمل قوله « وهو محرم » على أنه داخل فى الحرم، ويكون العقد وقع بعد انقضاء العمرة[٢]، ثم خرج منه إلى سرف وابتنى فيه وهو على عشرة أميال من مكة. قلت: وهو محل على يمين الداخل إلى مكة، كان داثرًا فعمره الشيخ العلامة المرحوم محمد بن سليمان المغربى فيما عمر من المآثر، رحمه الله تعالى.

كانت ميمونة قبله عليه الصلاة والسلام تحت أبى رهم بن عبد العزّى، وقيل: بل تحت أخيه عبد الله، وقيل: بل تحت حويطب بن عبد العزى[٣]، ويقال: إنها وهبت نفسها للنبى ﷺ، وذلك أن خطبته عليه الصلاة والسلام جاءتها وهى على بعيرها فقالت: البعير وماعليه لله ولرسوله[٤]. وقيل: الواهبة نفسها غيرها[٥]. وكان اسمها برة فسماها النبى ﷺ ميمونة[٦]، وهى خالة ابن عباس وخالد بن الوليد.

وأخواتها أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب أم ابن عباس، ولبابة الصغرى بنت الحارث، كانت تحت أبىّ بن خلف الجُمَحى

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٣٢)، والدارمي (١٨٣١)، ومسلم (٢/ ١٠٣٢) كتاب النكاح باب تحريم نكاح المحرم وكراهة خطبته حديث رقم (١٤١١)، وأبو داود (١/ ٥٧١) كتاب المناسك باب المحرم يتزوج حديث رقم (١٨٤٣)، والترمذي (٣/ ١٩٤) كتاب الحج باب ما جاء في الرخصة في زواج المحرم حديث رقم (٨٤٥)، وابن ماجه (١/ ٦٣٢) كتاب النكاح باب المحرم يتزوج حديث رقم (١٩٦٤)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٣٦) كتاب الصيام حديث رقم (٣٢٣٢).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في ترجمة ميمونة في الإصابة (٨/ ٣٢٢): « وقد انتشر الاختلاف في هذا الحكم بين الفقهاء، ومنهم من جمع بأنه عقد عليها، وهو محرم، وبنى بها بعد أن أحل من عمرته بالتنعيم وهو حلال في الحل . . . وقيل: عقد له عليها قبل أن يحرم، وانتشر أمرُ تزويجها بعد أن أحرم فاشتبه الأمرُ ». اهـ.

(٣) رواه ابن أبي خيثمة في تاريخه عن أبي عبيدة معمر بن المثنى كما في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٠٨-بتحقيقنا). وانظر الإصابة (٨/ ٣٢٢).

(٤) أخرج ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٠٨) عن عكرمة: أن ميمونة بنت الحارث وهبت نفسها لرسول الله (وروى ذلك ابن أبي خيثمة في تاريخه عن قتادة كما في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٠٧). ورواه أيضًا ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب وعمر بن الحكم وعبد الله بن عبيدة، كما ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٩٤). وكذا الطبراني في الكبير عن الزهري كما في مجمع الزوائد (٩/ ٢٥٢) وقال الهيثمي رجاله ثقات.

(٥) انظر ما روي في ذلك في الدر المنثور (٥/ ٣٩٤) والخلاف فيه.

(٦) رواه ابن أبي خيثمة عن مجاهد بسندٍ صحيح كما في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٠٧).

فولدت له عليًا بن أبيّ، وعزَّة بنت الحارث، كانت تحت زياد بن عبد الله بن مالك الهلالى، فهؤلاء إخوتها لأبيها وأمها.

ولها أخوات من أمها، الأولى: أسماء بنت عميس كانت تحت جعفر بن أبى طالب فولدت له عبد الله ومحمدًا وعونًا، ثم لما قتل فى غزوة مؤتة - اسم لمكان - خلف عليها أبو بكر الصديق رضى الله عنه، فولدت له محمد بن أبى بكر، ثم خلف عليها على بن أبى طالب رضى الله عنه فولدت له يحيى. الثانية: سلمى بنت عميس، وكانت تحت حمزة بن عبد المطلب، فولدت له أمة الله بنت حمزة، وقيل: أمامة بنت حمزة، ثم خلف عليها شداد بن أسامة بن الهادى الليثى، فولدت له عبد الله وعبد الرحمن. الثالثة: سلامة بنت عميس، كانت تحت عبد الله بن كعب ابن منبه الخثعمى. الرابعة: زينب بنت خزيمة، كانت تحت عبد الله بن جحش، فقتل عنها يوم أحد فتزوجها ﷺ، وهى المسماة أم المساكين كما تقدم ذكر ذلك فى ترجمتها، وكان يقال: أكرم أصهار عجوز فى الأرض هند بنت عوف بن زهير بن الحارث أم ميمونة المذكورة، وأم أخواتها أصهارها العباس وحمزة ابنا عبد المطلب، الأول: على لبابة الكبرى بنت الحارث منها، والثانى: على سلمى بنت عميس منها، وجعفر وعلى ابنا أبى طالب كلاهما على أسماء بنت عميس الأول قبل أبى بكر والثاني بعد أبي بكر، وشداد بن أسامة بن الهادى الليثى على سلمى بنت عميس منها بعد وفاة حمزة بن عبد المطلب، ورسول الله ﷺ على بنتها زينب بنت خزيمة، كذا فى « السمط الثمين، فى مناقب أمهات المؤمنين » بتصرف حسن يسير.

زوَّج النبيَّ ﷺ ميمونة عمه العباس بن عبد المطلب - كما تقدم ذكره - وأصدقها عنه أربعمائة درهم(١). قال ابن إسحاق: كان صداق نسائه عليه الصلاة والسلام أربعمائة درهم(٢)، وروى مسلم عن عائشة قالت: كان صداق رسول الله ﷺ لأكثر نسائه اثنى عشر أوقية ونشًا. قالت: أتدرى ما النَّشُّ ؟ قلت: لا. قالت: نصف أوقية. فذلك خمسمائة درهم، فذلك صداق رسول الله ﷺ(٣). قال فى « تاريخ

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٩٤).
(٢) انظر: السير والمغازي (٢٦٣)، وسيرة ابن هشام (٤/ ٢٩٤).
(٣) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٤٢) كتاب النكاح باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد، وغير ذلك من قليل وكثير، واستحباب كونه خمسمائة درهم لمن لا يجحف به حديث رقم (١٤٢٦).

الخميس »: وهذا أولى بالصحة؛ لأنه متفق على صحته، ولأن راويه معه زيادة علم، كذا فى « السمط الثمين ».

وروى ابن أبى خيثمة: أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة بنت الحارث فى عمرة القضاء، وأقام بمكة ثلاثًا، وكان قد شرطت عليه قريش حين صدوه أن يأتى معتمرًا فى العام القابل السيوف فى القرب، وألا يعتمر غير ثلاث، فلما جاء خطب ميمونة وأقام بمكة ثلاثًا. وأتاه حويطب بن عبد العزى فى نفر من قريش فى اليوم الثالث فقالوا: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا، فقال عليه الصلاة والسلام: لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم فصنعت لكم طعامًا فحضرتموه، فقالوا: لا حاجة لنا بطعامك فاخرج، فخرج بميمونة بنت الحارث حتى أعرس بها بـ « سرف »(١)

ماتت رضى الله عنها بـ « سرف » أيضًا - وهو الموضع الذى بنى بها رسول الله ﷺ فيه - ودفنت فى موضع قبتها التى ضربها لها رسول الله ﷺ حين البناء بها، وذلك سنة إحدى وستين، وروى الطبرانى برجال ثقات عن محمد بن إسحاق قال: ماتت ميمونة بنت الحارث زوج النبى ﷺ عام الحرة سنة ثلاث وستين، وصلى عليها ابن عباس، ودخل فى قبرها رضى الله عنهما وعنهن أجمعين(٢).

فهؤلاء أزواجه اللاتى دخل بهن، لا خلاف فى ذلك بين أهل السير والعلم بالأثر وماتت خديجة وزينب بنت خزيمة منهن فى حياته عليه الصلاة والسلام، وتوفى عن التسع البواقى بلا خلاف، وعن أم ولد هى مارية بنت شمعون القبطية، أم ابنه إبراهيم.

وقد ذكر أنه عليه الصلاة والسلام عقد على نسوة لم يدخل بهن، وخطب نسوة ولم يعقد عليهن. أما اللاتى عقد عليهن ولم يدخل بهن، فذكر فى « تاريخ الخميس »، « والمواهب »، « وذخائر العقبى » أن عدتهن اثنتا عشرة امرأة:

الأولى: الواهبة نفسها له ﷺ، واختلف من هى، فقيل: أم شريك القرشية العامرية، اسمها غُزَيَة - بضم الغين وفتح الزاى وشد الياء - بنت دودان، وقيل: بنت جابر بن عون، وكان ذلك بمكة، وكانت قبله عليه الصلاة والسلام تحت أبى

---

(١) نقله عن أبن أبي خيثمة صاحب سبل الهدى والرشاد (١١/٢٠٨).

(٢) رواه الطبراني في الكبير كما ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٥٢) وقال عقبه: « رجاله ثقات ». وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٠٩).

العسكر بن تميم بن الحارث الأزدى، فولدت له شريكًا. وذكر ابن قتيبة فى « المعارف » عن أبى اليقظان: أن الواهبة نفسها خولة بنت حكيم السلمى، ويجوز أن تكونا وهبتا نفسيهما من غير تضاد، وعن عروة بن الزبير قال: كانت خولة بنت حكيم من اللائى وهبن أنفسهن للنبى ﷺ، فقالت عائشة: أما تستحى المرأة أن تهب نفسها للرجل ؟ فلما نزلت ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [الأحزاب: ٥١] قالت عائشة: يارسول الله، ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك(١). رواه الشيخان.

وهذه خولة هى زوج عثمان بن مظعون، ويجوز أن يكون ذلك منها قبل عثمان، ولذلك قال الفضائلى: فلما أرجأها تزوجها عثمان. ويجوز أن يكون ذلك وقع منهما بعد وفاته. وفى « الكشاف » وغيره من التفاسير: واختلف فى أنه هل اتفق أن تهب امرأة نفسها للنبى ﷺ ولم تطلب مهرًا أم لا ؟ فعن ابن عباس: لم يكن عنده أحد منهن، وآية ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٠] بيان حكم فى المستقبل، والقائل باتفاق ذلك ذكر أربعًا: ميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية، وأم شريك المذكورة، وخولة بنت حكيم.

الثانية: خولة بنت الهذيل بن هبيرة، تزوجها عليه الصلاة والسلام، فيما ذكره الجرجانى فى نسائه، وهلكت فى الطريق قبل وصولها إليه، ذكره أبو عمرو وأبو سعيد.

الثالثة: عمرة بنت يزيد بن الجون الكلابية، تزوّجها رسول الله ﷺ، يعنى عقد بها؛ إذ الباب معقود لمن عقد عليها ولم يدخل، وهو معنى التزوج فى جميع هذا الباب، فتعوذت منه، فقال لها: لقد عذت بمعاذ؛ فطلقها، وأمر أسامة بن زيد فمتعها ثلاثة أثواب. وقال أبو عمر: هكذا روى عن عائشة(٢). وقال قتادة: كان

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٤٨٠) كتاب التفسير باب قوله: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ [الأحزاب: ٥١] . حديث رقم (٤٧٨٨). ومسلم (٢/ ١٠٨٥) كتاب الرضاع باب جواز هبتها نوبتها لضرتها حديث رقم (١٤٦٤). والنسائي (٦/ ٣٦١) كتاب النكاح باب ذكر أمر رسول الله ﷺ في النكاح وأزواجه وما أباح الله عز وجل لنبيه ﷺ وحظره على خلقه زيادة في كرامته وتنبيهًا لفضيلته حديث رقم (٣١٩٩). والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٦١) كتاب الطلاق باب ما يقع به الطلاق من الكلام حديث رقم (٢٠٥٠) وأحمد في المسند (٣/ ٤٩٨) وابن سعد في الطبقات (٨/ ١٠٤)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٦٢)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٤٢) وقال: « رواه الطبراني باختصار ورواه كله أحمد ورجاله رجال الصحيح ». أهـ وانظر الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ٤٤٢).

ذلك فى امرأة من سُليم، وقال أبو عبيدة: إنما كان ذلك فى امرأة يقال لها: أسماء بنت النعمان بن الجون، ويقال فى عمرة هذه: إن أباها وصفها للنبى ﷺ إلى أن قال فى وصفها: وأزيدك أنها لم تمرض قط، فقال رسول الله ﷺ ما لهذه عند الله من خير، ثم طلقها(١).

الرابعة: بنت النعمان بن الجون - بفتح الجيم - بن شراحيل، أجمعوا على أن رسول الله ﷺ تزوجها، واختلفوا فى سبب فراقه لها، فقال قتادة وأبو عبيدة: سببه أنه لما دعاها قالت له: أنت تعال، وأبت أن تجيبه. وقيل: قالت: أعوذ بالله منك؛ فقال ﷺ: لقد عذت بمعاذ، وقد أعاذك الله منى. وفى رواية: قد أعذتك؛ الحقى بأهلك. قيل: إن نساءه ﷺ علّمنها ذلك؛ فإنها كانت من أجمل النساء فخفن أن تغلبهن عليه؛ فقلن لها: إنه يحب إذا دنا منك أن تقولى له أعوذ بالله منك. وقيل: قلن لها: إذا أردت أن تحظى عنده تعوّذى بالله منه. فلما دنا منها قالت ذلك، فقال لها ما قال؛ فطلقها ثم سرحها إلى أهلها(٢)، فكانت تسمى نفسها « الشقية »، فخلف عليها المهاجر بن أبى أمية المخزومى، فأراد عمر أن يحده فقالت: لم يدخل بى، وأقامت البينة على ذلك(٣). وقيل المتعوذة غيرها. قال أبو عبيدة: ويجوز أن تكونا تعوذتا. وقال آخرون: وجد بها وضحًا، فقال: الحقى بأهلك. وقيل فى اسمها: أميمة، وقيل: أمامة(٤).

الخامسة: مليكة بنت كعب الليثية، وقال بعضهم: هى المستعيذة، وقيل: دخل بها، والأول أصح، أى: إنه لم يدخل بها. ومنهم من ينكر تزويجها منه أصلاً، عليه الصلاة والسلام(٥).

---

(١) انظرطبقات ابن سعد (٨/ ١١٤)، وسبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٢١).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١١٣) من طريق الواقدي وأحمد في المسند (٣/ ٤٩٨)، والطبراني في الكبير وذكره الهيثمي في المجمع وقال: رجاله رجال الصحيح. اهـ وانظر السبل (١١/ ٢٢٣).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١١٦) عن ابن عباس، وفي إسناده هشام بن محمد بن السائب هو الكلبي قال فيه الدارقطني وغيره: متروك، وقال ابن عساكر: رافضي ليس بثقة. انظر ميزان الاعتدال (٧/ ٨٨)

(٤) انظر السبل (١١/ ٢٢٣).

(٥) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ١١٧).

السادسة: فاطمة بنت الضحاك بن سفيان الكلابى، تزوج بها بعد وفاة ابنته زينب، وخيرها حين نزلت آية التخيير فاختارت الدنيا، ففارقها. فكانت بعد ذلك تلتقط البعر وتقول: أنا الشقية، اخترت الدنيا(١). هكذا رواه ابن إسحاق، لكن قال أبو عمر: هذا عندنا غير صحيح؛ لأن ابن شهاب يروى عن عروة عن عائشة أنه ﷺ حين خير أزواجه بدأ بها، فاختارت الله ورسوله، وتابع أزواج النبى ﷺ على ذلك. وقال قتادة وعكرمة: كان عنده ﷺ عند التخيير تسع نسوة وهن اللاتى توفى عنهن. وقيل: إنه عليه الصلاة والسلام تزوجها سنة ثمان، وقيل: إن أباها قال: إنها لم تصدع قط، فقال عليه الصلاة والسلام: لا حاجة لى بها(٢). قلت: وقد تقدم نظير هذا القول فى شأن المرأة الثالثة من هذا الصنف، وهى عمرة بنت يزيد، فلعل الأصح الأولى أو التالية أو كلتاهما.

السابعة: العالية - بعين مهملة - بنت ظَبيان - بظاء مشالة فموحدة فتحتية - ابن عمرو بن عوف، تزوجها عليه الصلاة والسلام، وكانت عنده ماشاء الله، ثم طلقها، وقلَّ من ذكرها. قال أبو عمر: ومقتضى ذلك أن تكون ممن دخل بهن. وقال أبو سعد: طلقها حين دخلت عليه ﷺ وروى أبو القاسم الطبرانى، عن الزهرى، عن أبى أمامة بن حنيف، فذكر حديثًا طويلاً وفيه: طلق رسول الله ﷺ العالية بنت ظبيان، وفارق أخت بنى عمرو بن الجون الكندية من أجل بياض كان بهما. قال الزهرى: وبلغنا أنها تزوجت قبل أن يَحْرُم [على الناس نكاح أزواجه](٣) عليه الصلاة والسلام، ونكحت ابن عم لها من قومها وولدت فيهم(٤).

الثامنة: قتيلة - بضم القاف وفتح المثناة الفوقية وسكون الياء التحتية - بنت

---

(١) ذكره أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ٤٥٣) وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١١٢) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وفي إسناده الواقدي. وانظر السبل (١١/ ٢٢٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث سهل بن حنيف وذكره الهيثمي في المجمع وقال: رواه الطبراني عن شيخه القاسم بن عبد الله الإخميمي وهو ضعيف وقد وثق، وبقية رجاله ثقات. اهـ المجمع (٩/ ٢٥٦) وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره وأبو نعيم من طرق عن الزهري كما في الإصابة (٨/ ٢٣١).

(٣) المثبت من الإصابة، ولعله الأصوب.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير عن معمر عن الزهري كما في الإصابة (٨/ ٢٣١).

قيس، أخت الأشعث بن قيس الكندى، زوَّجها منه أخوها فى سنة عشر من الهجرة، ثم انصرف إلى حضرموت فحملها، فقبض عليه الصلاة والسلام سنة إحدى عشرة قبل وصولها إليه[(١)]. وقيل: تزوجها قبل وفاته بشهرين. وقال قائلون: إن رسول الله ﷺ أوصى بأن تخير، فإن شاءت ضرب عليها الحجاب وكانت من أمهات المؤمنين، وإن شاءت الفراق فلتنكح من شاءت، فاختارت النكاح فتزوجها عكرمة ابن أبى لهب بحضرموت، فبلغ ذلك أبا بكر فقال: هممت أن أحرق عليها بيتها. فقال له عمر رضى الله عنه: ما هى من أمهات المؤمنين، ما دخل عليها ﷺ ولا ضرب عليها الحجاب. وقال بعضهم: لم يوص فيها - عليه الصلاة والسلام - بشىء، ولكنها ارتدت حين ارتد أخوها الأشعث بن قيس. وبذلك احتج عمر على أبى بكر - رضى الله عنهما - بأنها ليست من أمهات المؤمنين بارتدادها، لا بسبب عدم دخوله عليه الصلاة والسلام[(٢)].

التاسعة: سبأ بنت أبى الصلت السلمية، تزوجها عليه الصلاة والسلام ومات قبل أن يدخل بها. وقال ابن إسحاق: طلقها قبل أن يدخل بها[(٣)].

العاشرة: شَراف - بفتح الشين المعجمة وتخفيف الراء وبالفاء[(٤)] - بنت خليفة الكلبية، أخت دحية بن خليفة الكلبى، تزوجها ﷺ فماتت قبل دخوله عليه الصلاة والسلام بها.

الحادية عشرة: ليلى بنت الخطيم - بفتح الخاء المعجمة وكسر الطاء - ابن عدى ابن عمرو بن سوار بن ظفر - بالظاء المشالة والفاء - الأنصارية، أخت قيس بن

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١١٦) عن ابن عباس وفي إسناده هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وهو متروك وقد تقدم الكلام عليه. وانظر السبل (١١/ ٢٢٩).

(٢) انظر الكلام في ذلك والأقوال الواردة في نكاحها من النبي ﷺ في طبقات ابن سعد (٨/ ١١٦) والاستيعاب (٤/ ٤٥٧) والإصابة (٨/ ٢٩٢)؛ وسبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٣) انظر قول ابن إسحاق في الاستيعاب (٤/ ٤٢٠) وانظر مزيداً من أخبارها في الإصابة (٨/ ١٩٠) وقد اختلف في اسمها فقيل سبأ وقيل سناء انظر تفصيل ذلك في الإصابة لابن حجر وقد فرق بينهما الصالحي في سبل الهدى (١١/ ٢٢٤)

(٤) كذا ذكرها ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ٤٢٣)، وابن حجر في الإصابة (٨/ ٢٠٠) بالفاء الموحدة الفوقية وذكرها الصالحي في سبل الهدى (١١/ ٢٢٥) وسماها شراق وضبطها بفتح الشين المعجمة وتخفيف الراء، وبالقاف.

الخطيم. روى ابن أبى خيثمة وأبو سعد من طريق هشام بن محمد بن السائب، عن أبيه، عن أبى صالح، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أقبلت ليلى بنت الخطيم إلى رسول الله ﷺ وهو مولٍ ظهره إلى الشمس، فضربت على منكبيه، فقال: من هذا؟ أكله الأسود - وكان كثيرًا ما يقولها - فقالت: أنا بنت مطعم الطير ومبارى الريح، أنا ليلى بنت الخطيم، جئتك لأعرض عليك نفسى فتزوجنى. قال: قد فعلت. فرجعت إلى قومها فقالت: قد تزوجنى رسول الله ﷺ. فقالوا: بئسما فعلت؛ أنت امرأة غيرى والنبى ﷺ صاحب نساء تغاين عليه؛ فيدعو الله عليك، فاستقيليه نفسك. فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، أقلنى. قال: قد أقلتك فتزوجها مسعود بن أوس بن سواد بن ظفر، فولدت له، فبينما هى فى حائط من حيطان المدينة تغتسل إذ وثب عليها الذئب، لقول رسول الله ﷺ أكله الأسود، فأكل بعضها فأدركت فماتت(١).

الثانية عشرة: امرأة من غفار تزوجها رسول الله ﷺ فأمرها فنزعت ثيابها فرأى بكشحها بياضًا فقال: الحقى بأهلك، ولم يأخذ مما آتاها شيئًا(٢). أخرجه الإمام أحمد وروى ابن عساكر عن قتادة: أنها لما دخلت عليه وجردها رأى بها وضحًا فردها، وأوجب لها المهر، وحرمت على من بعده(٣).

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ١١٩) وابن أبي خيثمة في تاريخه كما في الإصابة (٨/ ٣٠٤) وسبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٣٠)، والإسناد فيه هشام بن محمد بن السائب الكلبي وهو متروك، قال فيه أحمد بن حنبل: إنما كان صاحب سمر ونسب ما ظننت أن أحدًا يحدث عنه. وقال الدارقطني وغيره: متروك. وقال ابن عساكر: رافضي ليس بثقة. انظر ميزان الاعتدال (٧/ ٨٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٩٣) عن جَميل بن زيد قال صَحبتُ شَيخًا من الأنصار، ذكر أنه كانت له صحبة يقال له: كعب بن زيد، أو زيد بن كعب، فحدثني أن رسول الله ﷺ تَزوج امرأة من بنى غفار... إلخ. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٠٣) وقال: رواه أحمد وجميل ضعيف. قلت: قال فيه أبو حاتم ضعيف الحديث، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال ابن حبان: واه، وقال البغوي في معجمه: ضعيف الحديث جدًا والاضطراب في حديث الغفارية منه. أهـ من لسان الميزان (٢/ ١٦٨).

(٣) انظر كلام قتادة في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٢٦) قال: وروى ابن عساكر من طريق سيف ابن التميمي والفضل بن غسان العلائي في تاريخه من طريق عثمان بن مقسم عن قتادة. قلت: أما طريق ابن عساكر ففيها سيف بن التميمي وهو سيف بن عمر التميمي صاحب كتاب الردة قال فيه أبو حاتم: متروك الحديث يشبه حديثه حديث الواقدي وقال أبو داود: =

قلت: زاد العلامة محمد الشامى فى عدتهن، فذكر أنهن ست وعشرون، فذكر الاثنتى عشرة المذكورة[١]، ثم زاد فذكر أم حرام، كذا فى حديث سهل بن حنيف - رضى الله عنه - عند الطبرانى[٢].

وذكر سلمى بنت نجدة - بالنون والجيم - كما فى الإشارة والزهرى بخط مغلطاى، وقال فى « المورد »: بنت بحيرة بن الحارث الليثية. ونقل عن أبى سعد عبد الملك النيسابورى فى كتاب « شرف المصطفى » أنه قال: إن رسول الله ﷺ نكحها فتوفى عنها، وأبت أن تتزوج بعده[٣].

وذكر سبأ بنت سفيان بن عوف بن كعب بن أبى بكر بن كلاب فقال: ذكرها ابن سعد عن نافع عن ابن عمر[٤]، وهى بالموحدة بعد السين المهملة.

وذكر سناء - بفتح السين المهملة - بنت أسماء بن الصلت بن حبيب بن جابر بن حارثة بن هلال بن حرام بن سماك بن عوف بن امرئ القيس، من بنى حرام بن

= ليس بشيء، وقال النسائي والدارقطني: ضعيف. وقال ابن عدي: بعض أحاديثه مشهورة وعامتها منكرة لم يتابع عليها وهو إلى الضعف أقرب منه إلى الصدق. انظر تهذيب الكمال (١٢/ ٣٢٦) أما إسناد الفضل بن غسان في تاريخه ففيه عثمان بن مقسم، تركه يحيى بن معين، وابن المبارك وقال أحمد: حديثه منكر، وقال الجوزجاني: كذاب وقال النسائي والدارقطني متروك. وقال ابن عدي: عامة حديثه مما لا يتابع عليه إسنادًا ومتنًا، وهو ممن يغلط كثيرًا، ونسبه قوم إلى الصدق وضعفوه للغلط الكثير انظر ميزان الاعتدال (٥/ ٧٤).

(١) انظر سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي (١١/ ٢٢١-٢٢٤) وقد قال الصالحي: « الباب الرابع عشر في ذكر من عقد عليها ولم يدخل بها ﷺ، على خلاف في بعضهن، هل هي ممن عقد عليها أم لا؟ والكلام في ذلك طويل الذيل والخلاف فيه منتشر ». أهـ وقال ابن القيم في زاد المعاد، بعد أن ذكر زوجاته ﷺ: « فهؤلاء نساؤه المعروفات اللاتي دخل بهن، وأما من خطبها ولم يتزوجها أو من وهبت نفسها له، ولم يتزوجها، فنحو أربع أو خمس، وقال بعضهم: هن ثلاثون امرأة، وأهل العلم بسيرته وأحواله ﷺ لا يعرفون هذا، بل ينكرونه، والمعروف عندهم أنه بعث إلى الجونية ليتزوجها، فدخل عليها ليخطبها، فاستعاذت منه، فأعاذها ولم يتزوجها، وكذلك الكلبية، وكذلك التي رأى بكشحها بياضًا، فلم يدخل بها، والتي وهبت نفسها له فزوجها غيره على سور من القرآن، هذا هو المحفوظ والله أعلم ». أهـ زاد المعاد (١/ ١١٤).

(٢) يشير إلى حديث طويل لسهل بن حنيف ذكر فيه زوجاته ﷺ رواه الطبراني في الكبير، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٥٦) وقال عقبه: « رواه الطبراني عن شيخه القاسم بن عبد الله الإخميمي وهو ضعيف وقد وثق، وبقية رجاله ثقات ». أهـ

(٣) انظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٢٤).

(٤) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ١١٨) وقال ابن حجر في الإصابة (٨/ ١٧١): « سبا بنت =

سليم، السلمية، ذكرها أبو جيدة فيما رواه ابن أبى خيثمة عنه، وابن حبيب فيمن تزوجها رسول الله ﷺ وطلقها قبل أن يدخل بها. وحكى الوشاطى عن بعضهم أن سبب موتها أنه لما بلغها أن رسول الله ﷺ تزوجها سُرَّت بذلك حتى ماتت من الفرح(١).

ثم ذكر الشاة بنت رفاعة. ثم ذكر الشنباء - بشين معجمة فنون فموحدة - بنت عمر الغفارى. روى ابن عساكر من طريق سيف بن عمر التميمى، والمتفضل بن غسان القلابى، فى تاريخه من طريق عثمان، ابن مقسم، عن قتادة: لما دخلت عليه - عليه الصلاة والسلام - لم تكن إلا مدة يسيرة، ومات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ على بقية من ذلك فقالت: لو كان نبيًا لما مات أحب الناس إليه وأعزهم عليه، فطلقها وأوجب لها المهر، وحرمت على الأزواج(٢)، ذكر هذا ابن رشد فى السيرة النبوية. ثم ذكر ليلى بنت حكيم الأنصارية الأوسية(٣)، ثم ذكر مليكة بنت كعب الكنانية.

روى ابن سعد عن محمد بن عمر، وعن أبى معشر: أن النبى ﷺ تزوجها وكانت تذكر بجمال بارع، فدخلت عليها عائشة فقالت لها: أما تستحين أن تنكحى قاتل أبيك؟ وكان أبوها قتل يوم فتح مكة، قتله خالد بن الوليد، فاستعاذت من رسول الله ﷺ فطلقها، فجاء قومها فقالوا: يارسول الله، إنها صغيرة، وإنها لا رأى لها، وإنها خدعت، فارتجعها. فأبى رسول الله ﷺ، فاستأذنوه أن يزوجوها قريبًا لها من بنى عذرة فأذن لهم(٤). قال محمد بن عمر: وأصحابنا ينكرون ذلك، ويقولون: لم

= سفيان، ويقال بنت الصلت الكلابية » أهـ.

(١) انظر سبل الهدى (١١/ ٢٢٤)، والإصابة (٨/ ١٩١).

(٢) كلام قتادة تقدم الكلام عليه وبينا أن في الإسناد إليه عثمان بن مقسم وهو متروك. وقد قال الصالحي في سبل الهدى (١١/ ٢٢٥) بعد أن ذكر أثر قتادة: « وظاهر كلام قتادة أن هذه بنى بها رسول الله ﷺ ولم أقف لها على ذكر فيما وقفت عليه من كتب الصحابة حتى ولا في الإصابة لشيخ الإسلام ابن حجر مع سعة اطلاعه وعثمان بن مقسم متروك ».أهـ

(٣) ذكرها الصالحي في سبل الهدى (١١/ ٢٣٠) وقال: « قال أبو عمر: ذكرها أحمد بن صالح المصري في أزواج النبي ﷺ ولم يذكرها غيره، وجوز ابن الأثير أن تكون هي التي قبلها لأن الخطيم يشبه الحكيم، وأقره في التجريد والإصابة ». أهـ وانظر الاستيعاب ت (٣٥٣٥)، والإصابة (٨/ ٣٠٣).

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ١١٧) وفي إسناده الواقدي وهو متروك وقد تقدم الكلام فيه.

يتزوج رسول الله ﷺ كنانية قط[١].

ثم ذكر آخرهن هند بنت يزيد المعروفة بـ « ابنة البرصاء » سماها أبو عبيدة معمر ابن المثنى فى أزواجه عليه الصلاة والسلام. وقال أحمد بن صالح: هى عمرة بنت يزيد المتقدمة[٢].

تنبيه: قد تقدم أن المراد بعدم الدخول عليها الوطء؛ فإن من هؤلاء من مات قبل الدخول، وهى أخت دحية بن خليفة الكلبى باتفاق، واختلف فى مليكة وسناء: أماتتا أو طلقهما، مع الاتفاق على عدم دخوله بهما. وفارق عليه الصلاة والسلام بعد الدخول بالاتفاق بنت الضحاك وبنت ظبيان، وقبله باتفاق عمرة وأسماء والغفارية واختلف فى أم شريك: هل دخل بها مع الاتفاق على الفرقة. والمستقيلة التى جهل حالها. والمفارقات باتفاق سبع، واثنتان على خلف، والميتات فى حياته أربع: خديجة بنت خويلد، وزينب بنت خزيمة بعد الدخول، وأخت دحية، وبنت الهذيل قبله باتفاق. ومات عليه الصلاة والسلام عن عشر: واحدة لم يدخل بها. فهن ثلاث وعشرون امرأة[٣].

قلت: يشكل قوله: فارق عليه الصلاة والسلام بعد الدخول باتفاق بنت الضحاك وبنت ظبيان على إيرادهما فى هذا الباب المعقود لمن عقد عليها ولم يدخل بها، وإن قلنا في التوجيه: لعله على رواية فى ذلك منع من ذلك قوله بالاتفاق، فليتأمل.

وذكر فى « شرف النبوة » أن جملة أزواجه عليه الصلاة والسلام إحدى وعشرون امرأة، طلق منهن ستًّا، ومات عنده منهن خمس، وتوفى عن عشر: واحدة لم يدخل بها.

وكان يقسم لتسع، فى الصحيحين عن ابن عباس أنه عليه الصلاة والسلام كان يقسم لثمان ولا يقسم لواحدة[٤]. قال عطاء بن أبى رباح: هى صفية بنت حيى بن أخطب. قلت: هذا على رواية من روى أنه لم يعقد عليها ولم يحجبها المتقدم

---

(١) انظر الطبقات الكبرى (٨/ ١١٧)، والإصابة (٨/ ٣٢٠).
(٢) انظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٣١).
(٣) انظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٤٠١).
(٤) أخرجه البخاري (١٠/ ١٤٠) كتاب النكاح باب كثرة النساء رقم (٥٠٦٧)، ومسلم (٢/ ١٠٨٦) كتاب الرضاع باب جواز هبتها نوبتها لضرتها رقم (٥١/ ١٤٦٥).

خلافها وعدُّها فى أمهات المؤمنين انتهى. ولقوله تعالى ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [الأحزاب: ٥١] ترجى، بالهمز وتركه: تؤخر. وتؤوى، بضم، يعنى: تترك مضاجعة من تشاء منهن وتضاجع من تشاء منهن. روى أنه أرجأ منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة، وكان يقسم لهن ماشاء كما شاء. وآوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب بنت جحش. أرجأ خمسًا وآوى أربعًا(١). كذا ذكره المنذرى.

وأما اللاتى خطبهن ولم يعقد عليهن فعدة نسوة:

الأولى منهن: امرأة من بنى عمرو بن عوف بن سعد بن دينار، قال أبو اليقظان: خطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها فقال: إن بها برصًا - وهو كاذب - فرجع فوجدها برصاء، ويقال: إن ابنها هو المسمى شبيب بن البرصاء بن الحارث بن عوف المزنى، ذكره ابن قتيبة. وقال ابن الأثير جازمًا: هى أم شبيب بن البرصاء الشاعر(٢).

الثانية: امرأة قرشية يقال لها: سودة، خطبها عليه الصلاة والسلام، وكانت مصبية فقالت: إن لى صبية أكره أن يتضاغوا عند رأسك بكرة وعشية. فقال عليه الصلاة والسلام: « خير نساء ركبن الإبل نساء قريش؛ أحناهن على ولد فى صغره، وأرعاهن لبعل فى ذات يده »(٣) وأصل هذا الحديث فى صحيح مسلم، فدعا لها ﷺ وتركها(٤).

---

(١) أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي رزين قال: هم رسول الله ﷺ أن يطلق من نسائه، فلما رأين ذلك أتينه فقلن: لا تخل سبيلنا وأنت في حل فيما بيننا وبينك افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت، فأنزل الله: ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ يقول: تعزل من تشاء فأرجأ منهن نسوة وآوى نسوة، وكان ممن أرجأ ميمونة وجويرية وأم حبيبة، وصفية، وسودة وكان يقسم بينهن من نفسه وماله ما شاء وكان ممن آوى عائشة وحفصة، وأم سلمة وزينب، فكانت قسمته من نفسه وماله بينهن سواء ». كذا ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٩٨) وانظر الطبقات لابن سعد (٨/ ١٥٨) نحوه.

(٢) ينظر المعارف لابن قتيبة (١٤٠)، وسبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٣٣).

(٣) ذكره الصالحي في سبل الهدى (١١/ ٢٣٤) وعزاه إلى ابن منده عن ابن عباس ووردت هذه القصة أيضا في حق أم هانىء أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٥١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١/ ١٩٨-١٩٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٠١/ ٢٥٢٧)، وأحمد (٢/ ٢٦٩، ٢٧٥) وعبد الرزاق (٢٠٦٠٣)، وابن حبان (٦٢٦٨)، من حديث أبي هريرة.

الثالثة: امرأة تدعى صفية بنت بشامة، كان عليه الصلاة والسلام أصابها فى السبى فخيرها بين نفسه الكريمة وبين زوجها فاختارت زوجها[١].

الرابعة: امرأة لم يذكر اسمها، قيل: إنه عليه الصلاة والسلام خطبها فقالت: أستأمر أبى. فلقيت أباها وأذن لها، فعادت إلى النبى ﷺ فقال لها: قد التحفنا غيرك[٢].

الخامسة: أم هانئ بنت أبى طالب، خطبها عليه الصلاة والسلام فقالت: إنى امرأة مصبية، واعتذرت إليه فعذرها. عن أبى صالح عن أم هانئ بنت أبى طالب قالت: خطبنى رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرنى[٣]. قال العلامة الشامى: خطبها رسول الله ﷺ إلى عمه أبى طالب، وخطبها هبيرة المخزومى، فزوجها أبو طالب هبيرة، فعاتبه رسول الله ﷺ فقال أبو طالب: يا بن أخى إنا قد صاهرنا إليهم، والكريم يكافئ الكريم. ثم فرق الإسلام بين أم هانئ وهبيرة، فخطبها عليه الصلاة والسلام فقالت: كنت أختك فى الجاهلية فكيف فى الإسلام، وإنى امرأة مصبية[٤].

وروى الطبرانى برجال ثقات قالت: خطبنى رسول الله ﷺ فقلت: ما لى عنك رغبة يا رسول الله، ولكن ما أحب أن أتزوج وبنى صغار، فقال رسول الله ﷺ: «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش...»[٥] إلى آخر ما تقدم فى شأن سودة القرشية. وفى رواية عن أبى صالح عن أم هانئ، قالت قبل نزول هذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠] الآية: أراد أن يتزوجنى فخطبنى فنهى عنى أنى لم أهاجر. وفى رواية الترمذى: فلم أكن أحل له لأنى لم أكن من المهاجرات، كنت من المطلقات يعنى كان إسلامها بعد فتح مكة[٦].

---

(١) ينظر الطبقات الكبرى (٨/ ١٢٢)، وسبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٣٤).
(٢) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٣٦).
(٣) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٥١) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ١٩٨-١٩٩) من طريق أبي صالح عن ابن عباس.
(٤) ينظر الحديث السابق وينظر أيضًا سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٣٦).
(٥) أخرجه الترمذي (٣٢١٤) والحاكم (٤/ ٥٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٤٠٥-٤٠٦) رقم (٩٨٥) من طريق السدي عن أبي صالح عن أم هانئ وقال الترمذي: حديث حسن وينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٣٦).
(٦) ينظر الحديث السابق.

السادسة: الجندعية امرأة من جندع، وهى ابنة جندب بن ضمرة، وأنكرها بعض الرواة.

السابعة: ضباعة - بالضاد المعجمة وتخفيف الموحدة والعين المهملة - بنت مام ابن قَرط - بفتح القاف والطاء المهملة - ابن سلمة، خطبها عليه الصلاة والسلام من ابنها سلمة بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، أسلمت قديمًا وهاجرت، ذكرها ابن الجوزى وابن عساكر فى هذا الباب، وكانت من أجمل نساء العرب وأعظمهن خلقًا، وكانت إذا جلست أخذت من الأرض شيئًا كثيرًا، وكانت تغطى جسدها مع عظمه بشعرها، وكانت تحت هوذة - بفتح الهاء وسكون الواو والذال المعجمة - ابن على الحنفى، فمات عنها، فتزوجها عبد الله بن جُدعان، فلم يلق بخاطرها فسألته طلاقها ففعل، فتزوجها هشام بن المغيرة فولدت له سلمة، وكان من خيار عباد الله، فلما هاجرت خطبها رسول الله ﷺ إلى ابنها سلمة فقال: يا رسول الله، ما عنك مَدْفع. قال: فاستأمرها. قال: نعم، فأتاها فأخبرها فقالت: إنا لله، أفى رسول الله تستأمرنى ؟ ارجع إليه فقل له: نعم. وقيل لرسول الله ﷺ فى ذهاب ابنها: إن ضباعة ليست كما تعهد، قد كثرت غضون وجهها، وسقطت أسنانها من فيها. فلما رجع ابنها سلمة وأخبر رسول الله ﷺ بما قالت سكت عنه[1].

الثامنة: نعامة، لم يذكر اسم أبيها، وهى من سبى بنى العنبر، فكانت جميلة، عرض رسول الله ﷺ أن يتزوجها فلم يلبث أن جاء زوجها[2]، ذكره فى « ذيل الاستيعاب ».

وعرض عليه ﷺ امرأتان فردهما لمانع شرعى: الأولى: أمامة، وقيل: فاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب، فقال ﷺ: هى ابنة أخى من الرضاع، والثانية: عزة - بفتح العين المهملة والزاى المشددة - بنت أبى سفيان بن حرب، فقال ﷺ: لا تحل لى لمكان أختها أم حبيبة المسماة رملة بنت أبى سفيان[3]، وحديثهما فى الصحيح.

وأما سراريه فروى ابن أبى خيثمة عن أبى عبيدة معمر بن المثنى قال: كان لرسول

---

(١) ينظر تلقيح فهوم أهل الأثر (٢٦-٢٧)، وتاريخ دمشق (١/ ٢٠٠) وفي التلقيح: « خطبها إلى أبيها سلمة بن هشام ...» إلخ، والصواب ما أثبتناه.

(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٣٤-٢٣٥).

(٣) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٣٦) وحديثهما قد تقدم تخريجه.

الله ﷺ أربع ولائد: مارية، وريحانة، وجميلة، ونفيسة[١].

أما مارية القبطية فهى بنت شمعون - بفتح الشين المعجمة - أم ولده إبراهيم، أهداها له المقوقس القبطى: صاحب مصر والإسكندرية سنة سبع من الهجرة، وبعث معها أختها سيرين بنت شمعون وخصيًا يقال له: مأبور، وألف مثقال ذهب، وعشرين ثوبًا من قباطى مصر، وبغلة شهباء وحمارًا أشهب، وهو الذى يقال له: يعفور، وعسلاً من عسل « بِنها » - بباء مكسورة فنون ساكنة - قرية من قرى مصر بارك النبى ﷺ فى عسلها لما أعجبه[٢]، والناس اليوم يفتحون الباء. فأسلمت وأسلمت أختها، وكانت مارية بيضاء جميلة أنزلها رسول الله ﷺ بالعالية، وكان يختلف إليها إلى أن ماتت فى المحرم سنة عشر.

وروى البزار والضياء المقدسى فى صحيحه عن على رضى الله عنه، قال: كثر على مارية أم إبراهيم فى قبطى ابن عم لها، هو مأبور المذكور، كان يزورها فيختلف إليها، فقال لى رسول الله ﷺ: خذ هذا السيف فانطلق به، فإن وجدته عندها فاقتله. قال قلت: يارسول الله، أكون فى أمرك إذا أرسلتنى كالسكة المحماة لا يسبقنى شىء حتى أمضى لما أمرتنى به، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ؟ قال: فافعل. فأقبلت متوشحًا السيف ووجدته عندها فاخترطت السيف، فلما رآنى أقبلت نحوه عرف أنى أريده، فأتى نخلة فرقاها ثم رمى بنفسه. قال قتادة: ثم شغر برجله فإذا هو أجبُّ أمسح ما له قليل ولا كثير. فغمدت السيف، ثم أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: الحمد لله الذى يصرف عنا أهل البيت[٣].

---

(١) ينظر: تلقيح فهوم أهل الأثر (٢٨).

(٢) أخرجه الدوري في « التاريخ والعلل » (٥٢٧٣) عن الزهري به وقال الألباني في الضعيفة (١٢٥٨): منكر وفى ط: « بنيا »

(٣) أخرجه البزار (٢/١٨٨-١٨٩) رقم (١٤٩١) وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/١٧٧-١٧٨) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١/١٩٣) والضياء المقدسي في « المختارة » رقم (٧٣٥) من طريق ابن إسحاق عن إبراهيم بن محمد بن على بن أبي طالب عن أبيه عن جده مرفوعًا قال البزار: لا نعلمه عن النبي ﷺ من وجه متصل إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد، وقال أبو نعيم: هذا غريب لا يعرف مسندًا بهذا السياق إلا من حديث محمد بن إسحاق وذكره الهيثمي في « المجمع (٤/ ٣٣٢) وعزاه للبزار وقال: وفيه محمد بن إسحاق وهو مدلس لكنه ثقة وبقية رجاله ثقات وقد أخرجه الضياء في أحاديثه المختارة على الصحيح. أهـ قلت: ابن إسحاق قد صرح بالتحديث فقد أخرج هذا الحديث مختصرًا البخاري في =

وروى البزار بسند جيد عن أنس قال: لما ولد إبراهيم ابن رسول الله ﷺ من مارية جاريته وقع فى نفس النبى ﷺ منه شىء حتى أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فقال: السلام عليك أبا ابراهيم[(١)].

ووهب عليه الصلاة والسلام أختها سيرين بنت شمعون لحسان بن ثابت فهى أم ولده عبد الرحمن بن حسان كذا فى « سيرة الشامى »[(٢)]، إلا قوله « وهب » ففى « المواهب ». وقال فى الروض الأنف: أعطى عليه الصلاة والسلام حسان جاريته سيرين بضرب صفوان بن المعطل له. قلت: كان السبب فى ضرب صفوان بن المعطل حسانًا بالسيف فى وجهه ما كان من حسان من الخوض فى حديث الإفك؛ لأنه المرمى به عائشة. وفى ذُكْرِى أن حسانًا عمى آخر عمره، وكان سببه تلك الضربة من صفوان. فأعطاه عليه الصلاة والسلام سيرين أخت مارية هذه، وهى أم عبد الرحمن بن حسان الشاعر، وكان عبد الرحمن يفخر بأنه ابن خالة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ. وقد روت سيرين عن النبى ﷺ حديثًا قالت: رأى رسول الله ﷺ خللاً فى قبر ابنه إبراهيم فأصلحه وقال: « إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه »[(٣)].

وأما ريحانة فهى بنت شمعون أيضًا، من سبى بنى قريظة، وقيل: من سبى بنى النضير، والأول أظهر، وكانت متزوجة فيهم رجلاً يقال له: الحكم، وكانت جميلة

= « التاريخ الكبير » (١/ ١٧٧) وصرح أيضًا بالتحديث عند ابن منده كما في « الصحيحة » (٤/ ٥٢٩) وقال الألباني: هذا إسناد متصل جيد.

(١) أخرجه البزار (٢/ ١٨٩-كشف) رقم (١٤٩٢) من طريق ابن لهيعة ثنا يزيد بن أبي حبيب وعقيل عن الزهري عن أنس بن مالك به وقال البزار: لا نعلم رواه عن الزهري عن أنس إلا عقيل وذكره الهيثمي في « المجمع » (٤/ ٢٣٢) وقال: رواه البزار وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقيه رجاله رجال الصحيح أهـ. قلت: ابن لهيعة ضعيف الحديث وقد ضعفه الهيثمي في مواضع لا تحصى من كتابه وهو المعتمد.

(٢) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٤١٣).

(٣) ينظر الروض الأنف (٤/ ٢٤) والإصابة (٨/ ١٩٧-١٩٨) أما الحديث الذي روته سيرين فأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ١٧٣) أخبرنا محمد بن عمر الواقدي ثنا أسامة بن زيد عن المنذر بن عبيد عن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عن أمه سيرين به والواقدي متروك. وذكره ابن الأثير في « أسد الغابة » (٧/ ٦٠) وقال: أخرجه الثلاثة أى ابن عبد البر وابن منده وأبو نعيم.

وسيمة، وقعت فى سبى بنى قريظة، فكانت صفى رسول الله ﷺ فخيرها بين الإسلام ودينها فاختارت الإسلام، فأعتقها وتزوجها وأصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشًا، وأعرس بها فى المحرم سنة ست فى بيت سلمى بنت قيس النجارية بعد أن حاضت حيضة، وضرب عليها الحجاب، فغارت عليه غيرة شديدة فطلقها تطليقة فأكثرت البكاء، فدخل عليها وهى على تلك الحال فراجعها، ولم تزل عنده حتى ماتت مَرْجِعَهُ من حجة الوداع سنة عشر، ودفنت بالبقيع، وقيل: كانت موطوءة له بملك اليمين، وهذا جزم به خلائق[١]. قال فى «المواهب»: وكان ﷺ يطؤها بملك اليمين، وقيل: أعتقها وتزوجها.

وأما جميلة فأصابها من السبى، فأكدنها نساؤه وخفن أن تغلب عليه.

وأما نفيسة فوهبتها له زينب بنت جحش، وكان هجرها - يعنى زينب - فى صفية بنت حيى ذا الحجة والمحرم وصفر، فلما كان فى شهر ربيع الأول الذى قبض فيه النبى ﷺ رضى عن زينب ودخل عليها فقالت: ما أدرى ما أجزيك به، فوهبتها له. كذا ذكره الشامى ناقلاً لكلام أبى عبيدة معمر بن المثنى[٢]. انتهى.

* * *

(١) ينظر الطبقات الكبرى (٨/ ١٠٢-١٠٤) المغازي للواقدي (٢/ ٥٢٠) وتاريخ دمشق (١/ ١٩٥-١٩٨)، وسبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٢٠) وأسد الغابة (٦٩٤٢)، والإصابة (١١٢٠٣).

(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢١٩).

الباب الخامس
من المقصد الثاني
فى أولاده عليه الصلاة والسلام، وما اتفق عليه منهم، وما اختلف فيه

جملة ما اتفق عليه ستة: ذكران: القاسم، وإبراهيم. وأربع بنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، رضى الله عنهم. وكلهن أدركهن الإسلام، وهاجرن معه ﷺ واختلف فيما سواهن. فقيل: لم يكن له عليه الصلاة والسلام سواهم، والمشهور خلافه. قال ابن إسحاق: كان له الطيب، والطاهر أيضًا. فيكون على هذا جملتهم ثمانية: أربعة ذكور، وأربع إناث[١]. وقال الزبير بن بكار فيما رواه الطبرانى برجال ثقات: كان لرسول الله ﷺ - غير إبراهيم والقاسم عبد الله، وهو قول أكثر أهل النسب[٢]. وقال الدارقطنى: وهو لا يثبت. وصححه الحافظ عبد الغنى المقدسى. وسمى عبد الله بالطيب والطاهر؛ لأنه ولد بعد النبوة، فتكون على هذا جملتهم سبعة، ثلاثة ذكور وأربع إناث. وقيل: كان له عليه الصلاة والسلام الطيب والمطيب ولدا فى بطن، والمطهر والطاهر ولدا فى بطن. فيكون على هذا جملتهم أحد عشر[٣].

قال ابن إسحاق: ولد أولاده كلهم - غير إبراهيم - قبل الإسلام، ومات البنون قبل الإسلام وهم يرضعون. وهو مأخوذ من قول غيره: إن عبد الله ولد بعد النبوة، ولذلك يسمى بالطيب الطاهر. والأصح قول الجمهور إنهم ثلاثة ذكور القاسم، وعبد الله، وإبراهيم. والبنات المتفق عليهن كلهن من خديجة بنت خويلد الأسدية، إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية[٤].

(١) ذكره الصالحي في سبل الهدى (١١/ ١٦) عن ابن إسحاق قلت: أخرج ابن عساكر في «تاريخه» (١/ ١٠٩) بسنده عن أبي بكر بن البرقي قال: ويقال: إن الطاهر هو الطيب وهو عبد الله والله أعلم ويقال: إن الطيب والمطيب ولدا في بطن والطاهر والمطهر في بطن. أهـ وينظر: تلقيح فهوم أهل الأثر (٣٠).

(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٦).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٦) تلقيح فهوم أهل الأثر (٣٠-٣١) وانظر السيرة النبوية (١/ ٢١٥، ٢١٦).

قال محمد بن عمر: كانت سلمى، مولاة صفية بنت عبد المطلب، هى قابلة خديجة فى أولادها، وكانت خديجة تعقُّ عن كل غلام بشاتين، وعن الجارية بشاة. وكان بين كل ولدين لها سنة. وكانت تسترضع وتُعِد - بضم التاء وكسر العين - ذلك قبل ولادها(١).

وأكبر بناته ﷺ زينب، كما ذكره الجمهور. وقال الزبير بن بكار وغيره: أكبر بناته رقية، والأول أصح. وقال الزبير فيما نقله أبو عمرو عنه: ولد له ﷺ القاسم وهو أكبر ولده، ثم زينب، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية. هكذا الأول فالأول(٢). وقيل: رقية أكبر من أم كلثوم وهو الأشبه؛ لأن عثمان رضى الله عنه تزوجها أولاً فى أول إسلامه، وهاجرت معه، وماتت ورسول الله ﷺ فى عزوة بدر، وجاء بشيره إلى المدينة بالنصر وقد نفضوا أيديهم من دفنها. وبسبب تمريضها تخلف عثمان عن شهود وقعة بدر، ثم أم كلثوم بعدها بعد وقعة بدر.

والظاهر أن الكبيرة تزوج أولاً وإن جاز خلافه، والأكثر على أن فاطمة أصغرهن سنًا، ولا خلاف أن أكبرهن سنًا زينب، قاله فى « الخميس ». ثم مات القاسم بمكة وهو أول ميت مات من ولد رسول الله ﷺ، ثم مات عبد الله أيضًا بمكة(٣). وقال ابن إسحاق: ولدت خديجة رضى الله عنها زينب ثم رقية ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم القاسم ثم الطاهر ثم الطيب. فأما القاسم والطيب والطاهر فماتوا فى الجاهلية. وأما بناته فأدركهن الإسلام كلهن وهاجرن معه(٤).

قال أبو عمرو وقال على بن عبد العزيز الجرجانى: أولاد رسول الله ﷺ: القاسم وهو أكبر أولاده، ثم زينب. وقال ابن الكلبى: زينب، ثم القاسم، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، ثم عبد الله. هكذا ذكره على سبيل الإجمال، وسيأتى ذكرهن على التفصيل(٥). والمتحصل من مجموع الأقوال الأصح منها أنهم سبعة، ثلاثة ذكور:

(١) ينظر الطبقات الكبرى (١/١٠٧)، سبل الهدى والرشاد (١١/١٦).
(٢) ينظر المصدرين السابقين. وانظر السيرة النبوية (١/٢١٦).
(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١/١٠٨) بسنده عن الزبير بن بكار وينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/١٦).
(٤) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١/١١٨) بسنده عن ابن إسحاق وينظر سبل الهدى والرشاد (١١/١٧) وانظر السيرة النبوية (١/ ٢١٥، ٢١٦).
(٥) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/١٧).

القاسم وإبراهيم وعبد الله المسمى بالطيب والطاهر، وأربع بنات متفق عليهن، وكلهم من خديجة بنت خويلد، إلا إبراهيم كما تقدم.

روى الهيثم بن عدى عن هشام بن عروة عن أبيه قال: ولدت خديجة للنبى ﷺ عبد العزى وعبد مناف[١]. قال الذهبى فى « الميزان » والحافظ فى « اللسان »: هذا من افتراء الهيثم على هشام[٢]. وقال أبو الفرج بن الجوزى: الهيثم كذاب لا يلتفت إلى قوله. قال شيخنا ابن ناصر: لم يسم عليه الصلاة والسلام عبد مناف ولا عبد العزى قط، والهيثم كذّبه البخارى وأبو داود والعجلى والساجى. وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به، ولا الرواية عنه إلا على سبيل الاعتبار. وقال فى « المورد »: ولا يجوز لأحد أن يقول: إن هذه التسمية وقعت من رسول الله ﷺ، ولئن قيل: إن هذه التسمية وقعت - يعنى على فرض صحة رواية الهيثم - فيكون من غيره ﷺ، ويحتمل أن يكون ولد هذا المولود والنبى ﷺ مشتغل بعبادة ربه أو بغير ذلك من شئونه، وسماه بعض أهل خديجة بذلك، ولم يسمعه عليه الصلاة والسلام ولم يره، أو يكون أحد من شياطين الإنس والجن اختلق ذلك لما ولد أحد أولاده المذكورين؛ ليدخل فى ذلك لبسًا فى قلب ضعيف الإيمان، ويكون النبى ﷺ لما بلغه ذلك غيَّره، أو يكون غير ذلك مما الله تعالى عالمه. وأورد الطحاوى فى « مشكل الحديث »، والبيهقى فى السنن، وأبو سعد النقاش، والجوزقانى فى « الموضوعات »، وغيرهم - مانقله الهيثم عن هشام بن عروة، ولم ينقل أحد من الثقات ما نقله الهيثم عن هشام. كذا فى سيرة الشامى[٣].

قال الإمام العلامة، شيخ الأطباء، علاء الدين بن نفيس - رحمه الله: لما كان مزاجه ﷺ شديد الاعتدال لم يكن أولاده إناثًا فقط؛ لأن ذلك إنما يكون لحرارة المزاج، ولما كان مزاج النبى ﷺ معتدلاً فيجب أن يكون له بنون وبنات، وبنوه

---

(١) هذا الحديث أخرجه بسنده المتصل الحافظ ابن حجر في « اللسان » (٦/ ٢٧٥-٢٧٦) وهو حديث موضوع كما سيأتي تحقيقه.
(٢) هذا الحديث لم يورده الذهبي في ميزانه ولم يتكلم عليه إنما أورده الحافظ في « اللسان » (٦/ ٢٧٥-٢٧٦) وتكلم عليه ومنشأ هذا الوهم أن المصنف تبع الشامي في السيرة حيث ادعى أن الذهبي قد تكلم على هذا الحديث وينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٧).
(٣) ينظر: تلقيح فهوم أهل الأثر (٣١) وسبل الهدى والرشاد (١١/ ١٨).

يجب ألا تطول أعمارهم، وإذا طالت بلغوا إلى سن النبوة، وحينئذ فلا يخلو إما أن يكونوا أنبياء أو لا يكونوا كذلك، ولا جائز أن يكونوا أنبياء، وإلا لما كان هو خاتم النبيين، ولا يجوز أن يكونوا غير أنبياء وإلا كان نقصًا فى حقه وانحطاطًا عن درجة كثير من الأنبياء؛ فإن كثيرًا من الأنبياء كان أولادهم أنبياء أيضًا. وأما بنات هذا النبى ﷺ فيجوز أن تطول أعمارهن؛ لأن النساء لسن بأهل للنبوة[(١)]. انتهى.

أما سيدنا القاسم ابن سيدنا رسول الله ﷺ فكان أكبر أولاده عليه الصلاة والسلام كما تقدم، وبه كان يكنى، وهو أول من مات منهم بمكة قبل النبوة، مات صغيرًا، عاش حتى مشى، وقيل: عاش سنتين، وقيل: عاش سبع ليال: قاله مجاهد، وخطأه الملا وقال: الصواب أنه عاش سبعة عشر شهرًا[(٢)]. وقال ابن فارس: بلغ أن يركب الدابة وأن يسير على النجيب. وقال السهيلى: بلغ المشى، غير أن رضاعته لم تكمل[(٣)]. وروى يونس بن بكير عن أبى عبد الله الجعفى عن محمد بن على بن الحسين رضى الله عنهم قال: كان القاسم بلغ أن يركب الدابة ويسير على النجيب، فلما قبض قال العاص بن وائل: لقد أصبح محمد أبتر، فنزلت ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر: ١] أى: عن مصيبتك يا محمد[(٤)]. قال العلامة محمد الشامى: فهذا يدل على أن القاسم مات بعد البعثة، خلاف ما تقدم أنهم ماتوا قبلها، يعنى البنين الثلاثة.

وروى الطيالسى وابن ماجه والحربى عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها رضى الله عنهما، قالت: لما هلك القاسم قالت خديجة: يا رسول الله، درَّت لُبينة القاسم،

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٨).

(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٩) وقد أخرج قول مجاهد الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ١٠٩) من طريق المفضل بن غسان الغلابي أخبرنا أبي نا أحمد بن حنبل نا عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن مجاهد به. قال ابن المفضل: وهذا خطأ والصواب أنه عاش سبعة عشر شهرًا ثم توفي. اهـ والخبر في «مصنف عبد الرزاق» (٧/ ٤٩٤) رقم (١٤٠١٢) دون ذكر قول المفضل.

(٣) ينظر: الروض الأنف (١/ ٢١٤) وسبل الهدى والرشاد (١١/ ١٩).

(٤) أخرجه يونس بن بكير في «زيادات المغازي» كما في «سبل الهدى» (١١/ ١٩) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٩٠) وعزاه للبيهقي في الدلائل وفيه أن الذي عاير النبي هو عمرو بن العاص. وقال البيهقي: هكذا روى بهذا الإسناد وهو ضعيف والمشهور أنها نزلت في العاص بن وائل.

فلو كان الله أبقاه حتى يتم رضاعه، قال عليه الصلاة والسلام : إن تمام رضاعه فى الجنة. زاد ابن ماجه فقالت لو أعلم ذلك لهون على. قال: إن شئت دعوت الله فأسمعك صوته. فقالت: بل أصدق الله ورسوله(١). قال الحافظ الذهبى: وهذا ظاهر جدًا فى أنه مات فى الإسلام بعد البعثة، لكن فى السند ضعف(٢). وروى البخارى فى تاريخه الأوسط من طريق سليمان بن بلال، عن هشام بن عروة: أن القاسم مات قبل الإسلام(٣)، وهذا يؤيد الأول السابق أنهم درجوا صغارًا قبل البعثة.

وأما سيدنا عبد الله ابن سيدنا رسول الله ﷺ، فمات صغيرًا بمكة كما تقدم، ويقال له: الطيب والطاهر، ثلاثة أسماء، وهو قول أكثر أهل السير والعلم، قاله أبو عمرو. وقال الدارقطنى: هو الأثبت، ويسمى عبد الله بالطيب والطاهر؛ لأنه ولد بعد النبوة، أى: على خلاف فى ذلك كما تقدم ذكره، فبه كانت جملتهم سبعة: ثلاثة ذكور وأربع إناث كما تقدم(٤).

وأما سيدنا إبراهيم ابن سيدنا رسول الله ﷺ فهو من مارية القبطية، وقد تقدم ذكرها فى سراريه عليه الصلاة والسلام. ولد فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة بالعالية، قاله مصعب بن الزبير(٥). وروى ابن سعد عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة قال: كان رسول الله ﷺ معجبًا بمارية القبطية وكانت بيضاء جميلة، فأنزلها عليه الصلاة والسلام على أم سليم بنت ملحان، وعرض عليها الإسلام فأسلمت، فوطئها بالملك، وحولها إلى مال له بالعالية، وكان من أموال بنى النضير، وكانت فيه فى الصيف وفى خرافة النخل، فكان يأتيها هناك، وكانت حسنة

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٨٤) كتاب الجنائز باب ما جاء في الصلاة على ابن رسول الله ﷺ حديث (١٥١٢) من طريق أبي داود ثنا هشام بن أبي الوليد عن أمه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها به. قال البوصيري في الزوائد (١/ ٤٩٤): هذا إسناد ضعيف لضعف هشام بن أبي الوليد. أهـ والحديث ذكره السهيلي في «الروض الأنف» (١/ ٢١٤) وعزاه للفريابي في مسنده.

(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٩) والقول الذي نسبه المصنف للذهبي ليس له إنما هو قول الحافظ ابن حجر في الإصابة (٥/ ٣٨٩) وعزاه إليه الصالحي في سبل الهدى.

(٣) أخرجه البخاري في «التاريخ الصغير» (١/ ٣٠) بلفظ: ولد لرسول الله ﷺ من خديجة بمكة عبد العزى والقاسم وماتا قبل الإسلام. وهذا إسناد معضل لا حجة فيه وينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٩)، والإصابة (٥/ ٣٩٠).

(٤) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ١٦) وقد تقدم الكلام على هذه الأسماء.

(٥) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢١).

الدين، وولدت له عليه الصلاة والسلام غلامًا فسماه إبراهيم، وعقَّ عنه بشاة يوم سابعه، وحلق رأسه وتصدق بزنة شعره فضة على المساكين، وأمر بشعره فدفن فى الأرض. وكانت قابلتها سلمى مولاة رسول الله ﷺ، فخرجت إلى زوجها أبى رافع فأخبرته بأن مارية قد ولدت غلامًا، فجاء أبو رافع إليه عليه الصلاة والسلام فبشره فوهب له عبدًا. وغار نساء رسول الله ﷺ منها، واشتد عليهن حين رزق منها الولد[(١)]، كذا فى سيرة الشامى. قلت: سلمى هى مولاة صفية بنت عبد المطلب، وقد تقدم أنها قابلة خديجة على أولادها منه ﷺ، ووصفها هنا بمولاة رسول الله ﷺ لا شىء فيه؛ إذ مولاة عمة الشخص مولاته[(٢)].

وروى ابن سعد والزبير بن بكار، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة، قال: لما ولد إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، تنافس فيه نساء الأنصار؛ أيتهن ترضعه، وأحببن أن يفرغن مارية لرسول الله ﷺ لما يعلمن من ميله إليها، فدفعه عليه الصلاة والسلام إلى أم بردة بنت المنذر بن زيد بن لبيد بن النجار وزوجها البراء بن أوس بن خالد بن الجعد بن النجار، وكانت ترضعه، فكان يكون عند أبويه فى بنى النجار ويأتى رسول الله ﷺ أم بردة فيغتسل عندها ويؤتى بإبراهيم، وأعطى رسول الله ﷺ أم بردة قطعة نخل[(٣)].

وروى الشيخان عن أنس رضى الله عنه: أنه عليه الصلاة والسلام دفع إبراهيم إلى أم سيف وهو قين، أى: حداد بالمدينة يقال له: أبو سيف، فانطلق رسول الله ﷺ وتبعته حتى انتهينا إلى أبى سيف وهو ينفخ بكيره، وقد امتلأ البيت دخانًا، فأسرعت فى المشى بين يدى رسول الله ﷺ حتى انتهيت فى المشى إلى أبي سيف، فقلت: يا أبا سيف، أمسك؛ جاء رسول الله ﷺ. فأمسك، ودعا رسول الله ﷺ بالصبى

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/١٠٧) أخبرنا محمد بن عمر أخبرنا يعقوب بن أبي صعصعة عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة به ومن طريق ابن سعد أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١/ ١٩٢-١٩٣) وفي إسناده الواقدي وهو كذاب وينظر تاريخ الخميس (٢/ ١١٨) وسبل الهدى (١١/ ٢١).

(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢١)، وقد تقدم هذا قريبًا.

(٣) أخرجه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » (١/ ١٠٨) بالإسناد السابق وذكره الصالحي في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢١) وعزاه أيضًا للزبير بن بكار.

فضمه إليه، وقال ماشاء الله أن يقول(١).

وروى - أيضًا - عن أنس رضى الله عنه: ما رأيت أحدًا أرحم بعياله من رسول الله ﷺ، كان ابنه إبراهيم مسترضعًا فى عوالى المدينة(٢)، فكان يأتيه ونحن معه فيدخل البيت، وإنه ليدخن، وكان ظئره قينًا فيأخذه فيقبله(٣).

مات إبراهيم سنة عشر من الهجرة، قاله الواقدى جازمًا به وقال: يوم الثلاثاء لعشر خلون من ربيع الأول(٤).

وكسفت الشمس يوم موته فقالوا: كسفت لموته، فقام خطيبًا عليه الصلاة والسلام فقال فيها: « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن يخوّف الله بهما عباده. فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة والدعاء والاستغفار »(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٥٢٤) كتاب الجنائز باب قول النبي ﷺ إنا بك لمحزونون حديث (١٣٠٣) من طريق قريش بن حيان عن ثابت عن أنس وأخرجه مسلم (٤/ ١٨٠٧-١٨٠٨) كتاب الفضائل باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال حديث (٦٢/ ٢٣١٥) من طريق ثابت البناني عن أنس. وانظر السبل (١١/ ٢٢).

(٢) عوالي المدينة: القرى التي عند المدينة.

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٠٨) كتاب الفضائل: باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال حديث (٦٣/ ٢٣١٦)، وأحمد (٣/ ١١٢)، وابن حبان (٦٩٥٠)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (٦٥) من طريق عمرو بن سعيد عن أنس بن مالك به وأخرجه أيضًا ابن سعد (١/ ١٠٩). وينظر: السبل (١١/ ٢٢).

(٤) ينظر الطبقات الكبرى (١/ ١١٥)، وفتح الباري (٣/ ٥٢٦-٥٢٧)، وسبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٢).

(٥) أخرجه البخاري (٢/ ٥٤٧) كتاب الكسوف باب الصلاة في كسوف القمر، الحديث (١٠٦٣)، والنسائي (٣/ ١٤٦)كتاب الكسوف باب نوع من صلاة الكسوف، والطيالسي (١/ ١٤٨) كتاب الصلاة باب صلاة الكسوف ركعتان، الحديث (٧١٦)، والطحاوي في « شرح معاني الآثار) (١/ ٣٣٠) كتاب الصلاة باب صلاة الكسوف، والدارقطني (٢/ ٦٤) كتاب العيدين باب صفة صلاة الخسوف، الحديث (٨)، والحاكم (١/ ٣٣٤-٣٣٥) كتاب الكسوف باب في كل ركعة خمس ركوعات والبيهقي (٣/ ٣٣٢) كتاب الخسوف باب من صلى بالخسوف ركعتين من رواية الحسن عنه، قال: انكسفت الشمس، وفي لفظ « خسفت الشمس على عهد النبي ﷺ فخرج يجر رداءه حتى انتهى إلى المسجد، وثاب الناس إليه، فصلى بهم ركعتين فانجلت الشمس، فقال: « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنما لا يخسفان لموت أحد، وإذا كان ذلك فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم ». والحاكم (١/ ٣٣٤-٣٣٥)، من طريق خالد بن الحارث، عن الحسن، عن أبي بكرة؛ أن رسول الله ﷺ =

وفى صحيح البخارى: عاش سبعة عشر شهرًا أو ثمانية عشر(١). عن أنس رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ أخذ بيد عبد الرحمن بن عوف فانطلق به إلى النخل الذى فيه إبراهيم، فدخل وإبراهيم يجود فى نفسه، فوضعه عليه الصلاة والسلام فى حجره، فلما مات دمعت عينا رسول الله ﷺ، فقال عبد الرحمن بن عوف: تبكى يا رسول الله، أو لم تنه عن البكاء؟ قال: «إنما نهيت عن النوح، وعن صوتين أخنعين فاجرين: صوت عند نغمة لهو ولعب ومزامير الشيطان، وصوت عند مصيبة، خمش وجه وشق جيب ورنة الشيطان»(٢). وفى رواية «إنما نهيت عن النياحة، وأن ينعت الميت بما ليس فيه»(٣) ثم قال: «وإنما هذه رحمة، ومن لا يَرحم لا يُرحم، يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، ويوم جامع - وفى رواية - لولا أنه أجل محدود، ووقت صادق - لحزنًا عليك حزنًا أشد من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون، تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب»(٤). وروى ابن ماجه والحكيم الترمذى عن أنس: لما قبض إبراهيم ابن النبى ﷺ قال لهم: لا تدرجوه فى أكفانه حتى أنظر إليه. فأتاه فانكب عليه وبكى(٥).

= صلى ركعتين مثل صلاتكم هذه. وذكر كسوف الشمس، وقال الحاكم: على شرطهما ولم يخرجاه. وقال الذهبي: إسناد حسن، وما هو على شرط واحد منهما.

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٢)، وعند البخاري (٦١٩٤): مات صغيرًا، ولو قضى أن يكون بعد محمد ﷺ نبيٌّ عاش ابنه ولكن لا نبي بعده.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١١٠) والبزار (١/ ٣٨٠-٣٨١) رقم (٨٠٥) من طريق ابن أبي ليلى عن عطاء عن جابر عن عبد الرحمن بن عوف به وقال البزار: لا نعلمه عن عبد الرحمن إلا بهذا الإسناد وروي عنه بعضه بإسناد آخر. والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٠) وقال: رواه أبو يعلى والبزار وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وفيه كلام. وينظر: السبل (١١/ ٢٢، ٢٣).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ١١٠) عن مكحول مرسلاً. وذكره الصالحي في «سبل الهدى» (١١/ ٢٣) بهذا اللفظ وعزاه أيضًا لابن سعد عن مكحول.

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١١٠) عن عطاء مرسلاً وروى بعضه أيضًا من حديث عبد الرحمن بن عوف وقد تقدم تخريجه. وينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٢).

(٥) أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٧٣) كتاب الجنائز باب ماجاء في النظر إلى الميت إذا أدرج في أكفانه حديث (١٤٧٥) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ١١٥) كلاهما من طريق أبي شيبة عن أنس بن مالك مرفوعًا. وقال البوصيري في «الزوائد» (١/ ٤٨٠): هذا إسناد ضعيف. أبو شيبة اسمه يوسف بن إبراهيم، قال ابن حبان: روى عن أنس بن مالك ما ليس من حديثه لا تحل الرواية عنه، وقال البخاري: صاحب عجائب، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث =

واختلف هل صلى عليه، فروى الإمام أحمد وابن سعد من طريق جابر الجعفى وهو ضعيف عن البراء(١)، والبيهقى عن جعفر بن محمد عن أبيه(٢)، وأبو داود والبيهقى عن عطاء بن أبى رباح مرسلاً أنه عليه الصلاة والسلام صلى على ابنه إبراهيم(٣)، زاد البيهقى: فى القاعة وهو موضع الجنائز، زاد أنس وكبر عليه أربعًا(٤)، وهذه الطرق يقوى بعضها بعضًا(٥).

وعن مكحول: أن رسول الله ﷺ كان على شفير قبر ابنه إبراهيم فرأى فرجة فى اللحد فناول الحفار مدرة، وقال: إنها لا تضر ولا تنفع، ولكنها تقر عين الحى، وجعل رسول الله ﷺ يسوى بأصبعه ويقول: « إذا عمل أحدكم عملاً فليتقنه »(٦).

قلت: هو معنى الحديث المتقدم الذى روته سيرين أخت مارية، وقد ذكرته فى ذكرها عند ذكر أختها. وروى ابن سعد عن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، عن أمه سيرين أخت مارية، قالت: حضرت موت إبراهيم فرأيته - عليه الصلاة والسلام - كلما صحت أنا وأختى مارية ما ينهانا، فلما مات نهانا عن الصياح وغسله الفضل بن عباس ورسول الله، والعباس جالس إلى جنبه، ونزل فى حفرته الفضل بن عباس

= منكر الحديث عنده عجائب. أهـ وينظر: السبل (١١/ ٢٣).

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٣، ٢٨٩) وابن سعد في « الطبقات » (١/ ١١٢) من طريق جابر الجعفي عن الشعبي عن البراء بن عازب قال: صلى رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم. . . الحديث وجابر بن يزيد الجعفي ضعيف أخرجه أيضًا البيهقي في « السنن الكبرى » (٤/ ٩).

(٢) أخرجه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » (١/ ١١٢) والبيهقي في « السنن الكبرى » (٤/ ٩) من طريق سليمان بن بلال عن جعفر بن محمد عن أبيه أن رسول الله ﷺ صلى على ابنه إبراهيم حين مات.

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٢٠٧) كتاب الجنائز: باب في الصلاة على الطفل حديث (٣١٨٨)، والبيهقي (٤/ ٩) عن عطاء مرسلاً.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١١٢) من طريق عطاء بن عجلان عن أنس ابن مالك أن النبي ﷺ كبر على ابنه أربعًا. وذكره الهيثمي في « المجمع » (٣/ ٣٨) وقال: رواه أبو يعلى وفيه محمد بن عبيد الله العرزمي وهو ضعيف أ. هـ وطريق ابن سعد ليس فيه العرزمي.

(٥) قال الإمام البيهقي في « السنن الكبرى » (٤/ ٩) عقب أثر جعفر بن محمد عن أبيه: فهذه الآثار وإن كانت مراسيل فهي تشد الموصول قبله أى حديث البراء وبعضها يشد بعضا وقد أثبتوا صلاة رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم وذلك أولى من رواية من روى أنه لم يصل عليه. أهـ.

(٦) أخرجه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » (١/ ١١٣) عن عطاء ومكحول مرسلاً. وانظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٤)، وعنده زيادة: فإنه مما يسلي بنفس المصاب، وهذه الزيادة في الطبقات أيضًا.

وأسامة بن زيد. ولما دفن إبراهيم رش عليٍ قبره وأعلم بعلامة، قال: وهو أول قبر رش[(١)].

وروى ابن سعد عن رجل من آل على بن أبى طالب رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ حين دفن إبراهيم قال: « هل من أحد يأتى بقربة ؟ فأتى رجل من الأنصار بقربة ماء، فقال عليه الصلاة والسلام: رشها على قبر إبراهيم »[(٢)].

وروى ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما مات إبراهيم قال رسول الله ﷺ: « إن له مرضعة فى الجنة، ولو عاش لكان صديقًا نبيًّا، ولو عاش لتعتقت أخواله القبط وما استرق قبطى قط »[(٣)].

وروى العلامة محمد بن يوسف الشامى فى سيرته: اشتهر على الألسنة أنه عليه الصلاة والسلام لقن ابنه إبراهيم بعد الدفن قال: « قل الله ربى، ورسولى أبى ». وهذا شىء لم يوجد فى كتب الحديث، وإنما ذكره المتولى فى تتمته بلفظ: روى أن النبى ﷺ لما دفن إبراهيم قال: قل: الله ربى، ورسولى أبى، والإسلام دينى، فقيل: يا رسول الله، أنت تلقنه، فمن يلقننا ؟ فأنزل الله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] الآية. - والأستاذ أبو بكر بن فورك فى كتابه المسمى بـ « النظامى »[(٤)]. وروى ابن سعد عن الزهرى مرسلاً: أن رسول الله ﷺ قال: « إذا ملكتم القبط فأحسنوا إليهم؛ فإن لهم ذمة وإن لهم رحمًا »[(٥)]. وعن ابن

---

(١) أخرجه ابن سعد (١/ ١١٤-١١٥) وفي إسناده محمد بن عمر الواقدي متروك وينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٤).
(٢) أخرجه ابن سعد (١/ ١١٣)، وينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٤).
(٣) أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٨٤) كتاب الجنائز باب الصلاة على ابن رسول الله ﷺ وذكر وفاته حديث (١٥١١) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١/ ١١٢) من طريق إبراهيم بن عثمان ثنا الحكم بن عتيبة عن مقسم عن ابن عباس به. وقال البوصيرى في « الزوائد » (١/ ٤٩٣) هذا إسناد ضعيف لضعف إبراهيم بن عثمان أبو شيبة.
(٤) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٥) وفيه نص ابن فورك .
(٥) أخرجه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » (١/ ٤٢) أخبرنا محمد بن حميد عن معمر عن الزهري به مرسلاً ومراسيل الزهري شديدة الضعف. وعبد الرزاق (٦/ ٥٨) رقم (٩٩٩٦) عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك به. وأخرجه الطبري في الكبير (١٩/ ٦١) رقم (١١١) من طريق الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه وبرقم (١١٢) من طريق الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن كعب، وبرقم (١١٣) من طريق الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه.

كعب بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: « استوصوا بالقبط خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا »[١] وروى الطبرانى عن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: الله الله فى قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم فيكونوا لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله[٢].

وأما السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ فلا خلاف أنها أكبر بناته ﷺ، إنما الخلاف فيها وفى القاسم: أيهما ولد أولاً ؟ قال ابن إسحاق: سمعت عبد الله بن محمد بن سليمان الهاشمى يقول: ولدت زينب بنت رسول الله ﷺ فى سنة ثلاثين من مولده عليه الصلاة والسلام، وأدركت الإسلام وهاجرت، وكان رسول الله ﷺ محبًا فيها، وتزوجها ابن خالتها أبو العاص - واسمه لقيط - على الأكثر، وقيل: هشيم، وقيل: مهشم - بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف، أمه هالة بنت خويلد، فلذا كان ابن خالة زينب[٣].

روى عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالاً وتجارة وأمانة، فقالت خديجة لرسول الله ﷺ: زوِّجه، وكان عليه الصلاة والسلام لا يخالفها، وذلك قبل أن ينزل عليه، فزوجه زينب رضى الله عنها. فلما أكرم الله نبيه بنبوته آمنت خديجة وبناتها فلما نادى رسول الله ﷺ قريشًا بأمر الله تعالى ودينه أتوا أبا العاص بن الربيع هذا فقالوا: فارق صاحبتك ونحن نزوجك بأى امرأة شئت، فقال: لا والله لا أفارق صاحبتى، وما يسرنى أنَّ لي بها أفضل امرأة من قريش[٤].

وفى « الخميس »: عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: كان الإسلام فرق بين زينب وبين أبى العاص، إلا أن رسول الله ﷺ لايقدر أن يفرق بينهما، وكان مغلوبًا عليه بمكة، قال أبو محمد، عبد الملك بن هشام فى سيرته بعد أن ذكر مثل ما تقدم فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه حتى هاجر رسول الله ﷺ، فلما سارت

---

(١) ينظر تخريج الحديث السابق.
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٦٦) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وذكره الهندي في « كنز العمال » (٣٤٠٢٣) وعزاه للطبراني عن أم سلمة.
(٣) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٩).
(٤) ينظر السيرة النبوية (٢/ ٢٩٣-٢٩٤) تاريخ الطبري (٢/ ٤٦٧) الكامل في التاريخ (٢/ ١٣٤) سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٩).

قريش إلى بدر سار فيهم أبو العاص بن الربيع فأصيب فى الأسارى يوم بدر، فكان بالمدينة عند رسول الله ﷺ[١].

قال ابن إسحاق: وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، عن عائشة، قالت: لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء زوجها أبى العاص بمال، وبعثت فيه[٢] بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى بها. قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها[٣] فافعلوا. قالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوه، وردوا عليها الذى كان لها[٤].

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه العهد - أو هو وعد رسول الله ﷺ - يوم ذلك أن يخلى سبيل زينب إليه، أو كان شرط ذلك عليه فى إطلاقه، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله ﷺ فيعلم[٥] ماهو، إلا أنه لما خرج أبو العاص إلى مكة وخلى سبيله بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلًا من الأنصار فقال: كونا ببطن يأجج[٦] حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيانى بها. فخرجا إلى مكانهما ذلك بعد بدر بشهر[أو شَيْعِه][٧]، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها، فخرجت تجهز[٨].

قال: قال ابن إسحاق: فحدثنى عبد الله بن أبى بكر قال: حدثت عن زينب أنها قالت: بينا أنا أتجهز بمكة للحوق بأبى لقيتنى هند بنت عتبة بن ربيعة، زوجة أبى

---

(١) ينظر السيرة النبوية (٢/ ٢٩٤).
(٢) في ط معه. والمثبت من السيرة.
(٣) في السيرة : مالها.
(٤) أخرجه أبو داود (٣/ ٦٢) كتاب الجهاد باب في فداء الأسير بالمال حديث (٢٦٩٢)، وأحمد (٦/ ٢٧٦)، والحاكم (٣/ ٣٢٤) من طريق محمد بن إسحاق به وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وهذا من أوهامهما فإن مسلما لم يخرج لابن إسحاق احتجاجًا إنما روى له في المتابعات وينظر السيرة النبوية (٢/ ٢٩٤-٢٩٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٦٨)، والكامل في التاريخ (٢/ ١٣٤).
(٥) في ط: ليعلم. والمثبت من السيرة.
(٦) في ط: باجح. والمثبت من السيرة.
(٧) زيادة من السيرة. والمعنى: أو نحوه.
(٨) ينظر تاريخ الطبري (٢/ ٤٦٨) السيرة النبوية (٢/ ٢٩٥) الكامل في التاريخ (٢/ ١٣٤).

سفيان بن حرب فقالت: يا بنة محمد، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟ قالت: فقلت: ما أردت ذلك. قالت هند: أى ابنة عم، لا تفعلى، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفرك أو بما تصلين به إلى أبيك، فإن عندى حاجتك فلا تضطني[١] منى؛ فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال. قالت: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل. قالت: ولكنى خفتها، فأنكرت أن أكون أريد ذلك وتجهزت.

فلما فرغتْ من جهازها قدم لها حموها، كنانة بن الربيع، أخو زوجها لقيط بن الربيع، المكنى أبا العاص - بعيرًا فركبته، وأخذ قوسه وكنانته ثم خرج بها نهارًا يقود بها وهي[٢] فى هودج لها. وتحدث بذلك رجال من قريش، فأخذوا[٣] فى طلبها حتى أدركوها بذى طوى، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى الفهرى، فروَّعها بالرمح وهى فى هودجها، وقيل: نخس بعيرها، فقمص بها فسقطت على صخرة، وكانت المرأة حاملاً فيما يزعمون، فلما ريعت طرحت ما فى بطنها[٤]، وبرك حموها على ركبتيه، ونثر كنانته ثم قال: والله لا يدنو منها رجل إلا وضعت فيه سهمًا، فتكركر الناس عنه، وأتى أبو سفيان فى جلة من قريش فقال: أيها الرجل، كف عنا نبلك حتى نكلمك [فكفَّ][٥] فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال: إنك لم تصب، خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا بما دخل علينا[٦] من محمد؛ فيظن الناس، إذ أخرجت بنته علانية على رءوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك على ذل أصحابنا من مصيبتنا التى كانت، وأن ذلك بنا ضعف ووهن، ولعمرى ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا فى ذلك من ثورة. ولكن ارجع بالمرأة، حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدثت الناس أَنْ قد رددناها، فسلَّها سرًّا وألحقها بأبيها.

فرجع بها كنانة. فاستخبر فيها بنو هاشم وبنو أمية، فقالت بنو أمية: نحن أحق بها

(١) في ط: فلا تقنطي. والمثبت من السيرة، والمعنى: لا تستحي.
(٢) في ط: يقودها. والمثبت من السيرة.
(٣) في السيرة: فخرجوا.
(٤) في السيرة: ذا بطنها.
(٥) المثبت من السيرة.
(٦) في السيرة: وما دخل علينا.

- لكونها تحت ابن عمهم أبى العاص - فكانت عند هند بنت عتبة بن الربيع، فكانت هند تقول لها: هذا فى سبب أبيك. قال: فأقامت ليالى حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدما بها على رسول الله ﷺ[(١)]. وكان رسول الله ﷺ لما أرسل زيد بن حارثة وصاحبه قال لزيد: خذ خاتمي فأعطها. فانطلق زيد فلم يزل يتلطف حتى لقى راعيًا فقال: لمن ترعى ؟ قال: لأبى العاص. فقال: لمن هذه الغنم ؟ قال: لزينب بنت محمد، فسار معه شيئًا ثم قال: هل لك إن أعطيتك شيئًا فتعطيها إياه ولا تذكره لأحد ؟ قال: نعم. فأعطاه الخاتم. فانطلق الراعى فأدخل الغنم وأعطاها الخاتم، فعرفته فقالت: من أعطاك هذا ؟ قال: رجل. قالت: فأين تركته ؟ قال: بمكان كذا. فسكتت حتى إذا جاء الليل أخبرت زوجها، فتجهزت، فأخرج بها أخاه كنانة بن الربيع حتى أسلمها إلى زيد وصاحبه كما تقدم.

فلما جاءته قال لها زيد: اركبى بين يدى على بعيرى، فقالت: لا، ولكن اركب أنت بين يدى، فركب وركبت خلفه حتى أتت المدينة قال عروة: فكان رسول الله ﷺ يقول: « هى أفضل بناتى، أصيبت فِيَّ ». فبلغ ذلك على بن الحسين فانطلق إلى عروة فقال: ما حديث بلغنى عنك تحدثه تنقص به حق فاطمة ؟ قال عروة: ما أحب أن لى بين المشرق والمغرب وأنى أنتقص فاطمة حقًّا هو لها، وإنما بعد فلك عليَّ ألا أحدث به. أخرجه الدولابى[(٢)].

قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: فقال أبو خيثمة أخو بنى سالم بن عوف فى الذى كان من أمر زينب: [من الطويل]

أَتَانِى الَّذِى لا تَقْدِرُ النَّاسُ قَدْرَهُ ... لِزَيْنَبَ فِيهِمْ مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْثَمِ
وَإِخْراجهَا لَمْ يُخْزَ فيهِ محمَّدٌ ... عَلَى مَأْقِط[(٣)] وَبَيْنَنَا عِطْرُ مَنْشَمِ
وأَمْسَى أَبُو سُفْيَانَ مِنْ حِلْفِ ضَمْضَمٍ ... وَمِنْ حَرْبِنَا فِى رُغْمِ أَنْفٍ وَمَنْدَمِ

---

(١) ينظر السيرة النبوية (٢/ ٢٩٥-٢٩٦)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٦٩-٤٧٠).
(٢) أخرجه البخاري في « التاريخ الصغير » (١/ ٧-٨)، والطحاوي في « مشكل الآثار » (١/ ٤٥)، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١/ ١٢٢-١٢٣) من طريق عمر بن عبد الله بن عروة بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عائشة به.
(٣) المأقط: موضع القتال. ترتيب القاموس (أقط)

قَرَنَّا ابْنَهُ عَمْرًا وَمَوْلَى يَمِينِهِ بِذِى حلَقٍ جَلْدِ الصَّلاصِلِ مُحْكَمِ
فَأَقْسَمْتُ لاَ تَنفَكُّ مِنا كَتَائِبٌ سَرَاةَ خَمِيسٍ فِى لَهَامٍ مُسَوَّمِ
نَرُوعُ قُرَيْشَ الكُفْرِ حَتَّى نُعِلَّهَا بِخَاطِمَةٍ فَوْقَ الأُنُوفِ بِمِيْسَمِ
نُنَزِّلُهُمْ أَكْنَافَ نَجْدٍ وَنَخْلَةٍ وَإِنْ يُتْهِمُوا بِالْخَيْلِ وَالرَّجْلِ نُتْهِمِ
مَدَى الدَّهْرِ حَتَّى لاَ يَعُوجَ سِرْبُنَا وَنُلْحِقُهُمْ آثَارَ عَادٍ وَجُرْهُمِ
وَيَنْدَم قَوْمٌ لَمْ يُطِيعُوا مُحمَّدًا عَلَى أَمْرِهِ وَأَىَّ حِينِ تَنَدُّمِ
فَأَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ إِمَّا لَقِيتَهُ لَئِنْ أَنْتَ لَم تُخْلِصْ سُجُودًا وَتُسْلِمِ
فَأَبشِرْ بِخِزْيٍ فِى الحَيَاةِ مُعَجَّلٍ وَسِرْبَالِ نَارٍ خَالِدًا فِى جَهَنَّمِ[(١)]

وقوله « قرنا ابنه عمرًا ومولى يمينه » يريد به عقبة بن عبد الحارث بن الحضرمى؛ لأنه أسر يوم بدر هو وعمرو بن أبى سفيان بن حرب؛ لأن حلف الحضرمى وذويه كان إلى حرب بن أمية ومن بعده إلى أبى سفيان بن حرب.

ولما انصرف الذين خرجوا إلى زينب ليردوها إلى مكة عند خروجها أول مرة مع كنانة بن الربيع، لقيتهم هند بنت عتبة بن ربيعة فقالت لهم: [من الطويل]

أَفِى السِّلْمِ أَعْيَارًا جَفَاءً وَغِلْظَةً وفِى الحَرْبِ أَشْبَاهَ النِّسَاءِ العَوَارِكِ[(٢)]

وقال كنانة بن الربيع المذكور فى أمر زينب: [من الطويل]

عَجِبْتُ لِهَبَّارٍ وَأَوْبَاشِ قَوْمِهِ يُرِيدُونَ إِخْفَارِى بِبِنْتِ مُحَمَّدِ
وَلَسْتُ أُبَالِى مَا حَيِيتُ فَدِيدَهُمْ [(٣)] وَمَا اسْتَجْمَعَتْ قَبْضًا يَدِى بِالمُهَنَّدِ[(٤)]

قال ابن إسحاق: حدثنى يزيد بن أبى حبيب، عن بكير بن عبد الله بن الأشج، عن سليمان بن يسار، عن أبى إسحاق الدوسى، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية أنا فيها فقال لنا: « إن ظفرتم بهبار بن الأسود والرجل الذى سبق معه إلى زينب - قال ابن هشام: وقد سمى ابن إسحاق الرجل بعينه فقال: هو نافع بن عبد قيس - فحرقوهما بالنار ». قال: فلما كان الغد بعث إلينا رسول الله ﷺ

(١) ينظر السيرة النبوية (٢/ ٢٩٦-٢٩٧)
(٢) العوارك: الحيَّض.
(٣) في السيرة: عديدهم والفديد: رفع الصوت
(٤) ينظر السيرة النبوية (٢/ ٢٩٨).

فقال: « إني كنت أمرتكم بتحريق [هذين][(١)] الرجلين إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذِّب بالنار إلا الله، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما »[(٢)].

قال ابن إسحاق: فأقام أبو العاص بمكة وأقامت زينب [عند رسول الله ﷺ حتى فرق بينهما الإسلام] [(٣)] بالمدينة، حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجرًا إلى الشام - وكان رجلاً مأمونًا - بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه، فلما خرج من تجارته وأقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله ﷺ فأصابوا ما معه وأعجزهم هربًا، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ زوجته فاستجار بها فأجارته، وجاء فى طلب ماله، فلما خرج عليه الصلاة والسلام إلى صلاة الصبح - كما حدثنى به يزيد ابن رومان - فكبَّر وكبَّر الناس معه صرخت زينب من صف النساء: أيها الناس، إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع. قال: فلما سلم عليه الصلاة والسلام من الصلاة أقبل فقال: « أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت » قالوا: نعم. قال: « أما والله الذى نفسى بيده ما علمت بشىء حتى سمعت ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم ».

ثم انصرف عليه الصلاة والسلام فدخل على ابنته فقال: أى بنية، أكرمى مثواه، ولا يخلص إليك؛ فإنك لا تحلين له[(٤)]. قال ابن إسحاق: وحدثنى عبد الله بن أبى بكر أن رسول الله ﷺ بعث إلى السرية التى أصابت مال أبى العاص فقال لهم: إن هذا الرجل منا حيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء لكم فأنتم أحق به. قالوا: يا رسول الله [بل] نرده عليه. قال: فردوه عليه. حتى إن الرجل ليأتى بالدلو، ويأتى الآخر بالشنة والإداوة[(٥)]، حتى إن أحدهم ليأتى بالشظاظ[(٦)]، حتى ردوا عليه ماله بأسره

(١) زيادة من السيرة.
(٢) أخرجه الدارمي (٢/ ٢٢٢) كتاب السير: باب في النهي عن التعذيب بعذاب الله، من طريق ابن إسحاق وصرح ابن إسحاق بالتحديث في « السيرة » (٢/ ٢٩٨).
(٣) المثبت من السيرة.
(٤) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٩٨-٢٩٩)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٧٠-٤٧١).
(٥) الشنة: القربة الخَلَقُ الصغيرة، يكون الماء فيها أبرد من غيرها. والإداوة: الإناء الصغير يحمل فيه الماء. الوسيط (شنن) (أدو).
(٦) الشظاظ: خشبة عقفاء تجعل في عروتي الجوالق، أي الكيس. ترتيب القاموس (شظظ).

لا يفقد منه شيئًا. ثم احتمل إلى مكة فأدى إلى كل ذى مال من قريش ماله وما[١] كان أبضع معه. ثم قال: يا معشر قريش، هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًا كريمًا. قال إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوفى أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله سبحانه إليكم وفرغت منها أسلمت.

ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ[٢].

قال ابن إسحاق: فحدثنى داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: رد النبى ﷺ إليه زينب على النكاح الأول لم يحدث شيئًا[٣] [بعد ست سنين][٤].

قال ابن هشام: وحدثنى أبو عبيدة أن أبا العاص بن الربيع لما قدم من الشام ومعه أموال المشركين قيل له: هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال؛ فإنما هى أموال المشركين ؟ فقال أبو العاص: بئسما أبدأ به إسلامى أن أخون أمانتى[٥].

قال فى المواهب: ردها له عليه الصلاة والسلام بالنكاح الأول بعد سنتين[٦]، وقيل: بعد ست سنين، وقيل: قبل انقضاء العدة فيما ذكره ابن عقبة، وفى حديث

---

(١) في السيرة: ومن.

(٢) ينظر السيرة النبوية (٢/ ٢٩٩)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٧١).

(٣) أخرجه أبو داود (٢/ ٢٧٢) كتاب النكاح باب إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها حديث (٢٢٤٠)، والترمذي (٣/ ٤٣٩)، كتاب النكاح باب ماجاء في الزوجين المشركين يسلم أحدهما حديث (١١٤٣)، وابن ماجه (١/ ٦٤٧)، كتاب النكاح باب الزوجين يسلم أحدهما قبل الآخر حديث (٢٠٠٩) والطحاوي في « شرح معاني الآثار » (٢/ ١٤٩) وابن سعد في الطبقات (٨/ ٢١) والحاكم (٢/ ٢٠٠) (٣/ ٢٣٧، ٦٣٨-٦٣٩) والبيهقي (٧/ ١٨٧) كلهم من طريق محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس به. وقال الترمذي: هذا حديث ليس بإسناده بأس ولكن لا نعرف وجه هذا الحديث ولعله قد جاء هذا من قبل داود بن حصين من قبل حفظه وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) المثبت من السيرة.

(٥) ينظر السيرة النبوية (٢/ ٣٠٠).

(٦) هذا القول ضعيف وهو قول ابن منده كما في « أسد الغابة » (٦/ ١٨٣) وقد تعقب هذا القول ابن الأثير فقال: قول ابن منده: فإن النبي ﷺ رد زينب بعد سنتين ليس بشيء فإن أبا العاص أرسلها بعد بدر وكانت بدر في السنة الثانية وأسلم أبو العاص قبيل الفتح أول السنة الثامنة فيكون نحو ست سنين، فقوله « سنتين » ليس بشيء. أهـ

عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: ردها له بنكاح جديد سنة سبع من الهجرة[١].

ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ فى أول سنة ثمان من الهجرة فغسلتها أم أيمن وسودة بنت زمعة وأم سلمة، وصلى عليها عليه الصلاة والسلام، ونزل فى قبرها ومعه أبو العاص وجعل لها نعشًا، فكانت أول من اتخذ لها ذلك[٢].

وعن أبى عمر: لما دفن عليه الصلاة والسلام ابنته زينب جلس عند القبر، فتربد وجهه ثم سرِّى عنه، فسئل عن ذلك، فقال: ذكرت ابنتى زينب وضعفها وعذاب القبر؛ فدعوت الله ففرج عنها. وايم الله لقد ضمت ضمة سمعها ما بين الخافقين. أخرجه سعيد بن منصور فى سننه[٣]. وروى الطبرانى عن رجال الصحيح عن عروة ابن الزبير: أن زينب لم تزل وجعة مما وقع من الإسقاط بسبب فعل هبار بن الأسود حتى ماتت، فكانوا يرون أنها شهيدة[٤].

وَلدت زينب من أبى العاص غلامًا يقال له: علي، توفى وقد ناهز الحلم، وكان رديف رسول الله ﷺ على ناقته يوم الفتح، ومات فى حياته عليه الصلاة والسلام. وولدت له جارية يقال لها: أمامة، أخت على المذكور، تزوجها على بن أبى طالب بعد موت السيدة فاطمة بوصية منها، ولم تلد له، وقيل: ولدت له محمدًا وعليه كثيرون، وقتل عنها[٥].

وكان عليه الصلاة والسلام يحب أمامة هذه، وكان يحملها على عاتقه فى

---

(١) أخرجه الترمذي (٣/ ٤٣٨-٤٣٩) كتاب النكاح باب ماجاء في الزوجين المشركين يسلم أحدهما حديث (١١٤٢) وابن ماجه (١/ ٦٤٧) كتاب النكاح: باب الزوجين يسلم أحدهما قبل الآخر حديث (٢٠١٠)، وأحمد (٢/ ٢٠٧-٢٠٨)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ١٥٠) والحاكم (٣/ ٦٣٩) وابن سعد (٨/ ٢١)، والبيهقي (٧/ ١٨٨) كلهم من طريق الحجاج بن أرطأة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به. وقال الترمذي: هذا حديث في إسناده مقال.

(٢) ينظر: الاستيعاب (٣٣٩٤) وأسد الغابة (٦٩٦٤)، والإصابة (١١٢٣٨)، وسبل الهدي (١١/ ٣١)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢١٥-٢١٦).

(٣) ينظر: الاستيعاب (٣٤٠٦).

(٤) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢١٩) وقال: رواه الطبراني وهو مرسل ورجاله رجال الصحيح.

(٥) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣١). أما ما يتعلق بعلي بن أبي العاص فقد ذكره الزبير بن بكار عن عمر بن أبي بكر الموصلي وذكره الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢١٥) وقال: رواه الطبراني وعمر بن أبي بكر متروك.

الصلاة، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رأسه من السجود أعادها(١).

وروى الإمام أحمد وأبو يعلى والطبرانى، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: وأهدى لرسول الله ﷺ قلادة من جَزع معلمات بالذهب، ونساؤه مجتمعات فى بيت كلهن، وأمامة بنت أبى العاص جارية تلعب فى جانب البيت بالتراب، فقال رسول الله ﷺ: كيف ترين هذه ؟ فنظرنا إليها فقلنا: يا رسول الله، ما رأينا أحسن من هذه قط ولا أعجب. فقال: اردديها إلىَّ، فو الله لأضعنها فى رقبة أحبّ أهل البيت إلىَّ. قالت عائشة: فأظلمت علىَّ الأرض بينى وبينه؛ خشية أن يضعها فى رقبة غيرى منهن، ولا أراهن إلا أصابهن مثل الذى أصابنى، ووجمنا جميعًا سكوتًا، فأقبل بها حتى وضعها فى رقبة أمامة بنت أبى العاص، فسرّى عنا(٢).

وكان تزوجها على بن أبى طالب - كما تقدم - من الزبير بن العوام؛ لأنه كان أبوها أبو العاص أوصى بها إلى الزبير، فكان وصيه عليها، فزوجها بعلى رضى الله عنهما. فلما قتل على رضى الله عنه وكرم وجهه تزوجها المغيرة بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب، وكان علىّ قد أمره بذلك بعده؛ لأنه خاف أن يتزوجها معاوية. وولدت له يحيى وبه كان يكنى، وقيل لم تلد فلا عقب لزينب، وماتت عنده سنة خمسين من الهجرة. روى أن عليًا رضى الله عنه قال لها حين حضرته الوفاة: إنى لا

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٧٠٣) كتاب الصلاة باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة حديث (٥١٦)، ومسلم (٣/ ٣٥-نووي) كتاب المساجد باب جواز حمل الصبيان في الصلاة وأن ثيابهم محمولة على الطهارة حديث (٤١/ ٥٤٣)، ومالك في « الموطأ » (١/ ١٧٠) كتاب قصر الصلاة في السفر حديث (٨١)، وأبو داود (١/ ٣٠٤)كتاب الصلاة باب العمل في الصلاة حديث (٩١٧) والنسائي (٢/ ٤٥-٤٦) كتاب المساجد باب إدخال الصبيان المساجد حديث (٧١١)، (٢/ ٩٥-٩٦) كتاب الإمامة باب ما يجوز للإمام من العمل في الصلاة حديث (٨٢٧)، والدارمي (١/ ٣١٦) كتاب الصلاة باب العمل في الصلاة والحميدي في « مسنده » (١/ ٢٠٣) رقم (٤٢٢)، وأبو عوانه (٢/ ١٥٤) وأحمد (٥/ ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣١٠، ٣١١)، وابن خزيمة (٢/ ٤١) رقم (٨٦٨)، والبيهقي (٢/ ١٦٢-١٦٣) والبغوي في « شرح السنة » (٢/ ٣٢٢-بتحقيقنا) كلهم من طريق عمرو بن سليم الزرقي عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ لأبي العاص بن الربيع بن عبد شمس فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٠١)، وابن عبد البر في « الاستيعاب » (٤/ ٣٥١)، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٢٥٧) وقال: رواه الطبراني واللفظ له وأحمد باختصار وأبو يعلى وإسناد أحمد وأبي يعلى حسن.

آمن أن يخطبك معاوية؛ فإن كان لك في الرجال حاجة فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل عشيرًا.

فلما انقضت عدتها كتب معاوية إلى مروان يأمره أن يخطبها ويبذل لها مائة ألف دينار، فلما خطبها أرسلت إلى المغيرة بن نوفل: إن هذا - تعنى معاوية - أرسل يخطبنى؛ فإن كان لك بنا حاجة فأقبل. وخطبها إلى الحسن بن على فزوجها منه[١]. خرج ذلك أبو عمر. وذكر الدولابي: أن عليًا لما أصيب وأرسل معاوية إلى مروان يخطبها له، قال لها المغيرة: اجعلى أمرك إلىَّ فأنا خير لك منه، ففعلت، فدعا رجالاً فقال: اشهدوا أنى قد تزوجتها وأصدقتها كذا وكذا[٢]. وعاش بعد زينب زوجها أبو العاص وتزوج بنت سعيد بن العاص إلى أن هلك بالمدينة فى خلافة عثمان، وأوصى إلى الزبير بن العوام كما تقدم. رضى الله عنهم أجمعين.

ذكر السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ: ولدت لرسول الله ﷺ وعمره ثلاث وثلاثون سنة، وسماها رقية، وأسلمت حين أسلمت أمها خديجة، وبايعته حين بايعه النساء[٣].

قال قتادة بن دعامة ومصعب بن الزبير فيما رواه ابن أبى خيثمة عنهما: كانت رقية تحت عتبة بن أبى لهب، وأم كلثوم تحت عتيبة، فلما نزلت سورة « تبت » قال لهما أبوهما: رأسى من رأسكما حرام إن لم تفارقا ابنتى محمد، ففارقاهما ولم يكونا [قد] دخلا بهما؛ كرامة من الله لهما وهوانًا لابنى أبى لهب. فتزوج رقية عثمان بن عفان، وهاجر بها الهجرتين إلى الحبشة والمدينة، وتوفيت عنده. وكان زواجه بها فى الجاهلية. قاله الدولابى. والذى ذكره غيره أنه كان بعد إسلامه[٤].

وعن عائشة رضى الله عنها: أتت قريش عتبة بن أبى لهب فقالوا: طلق ابنة محمد، ونحن نزوجك أى امرأة شئت، فقال: إن زوجتمونى ابنة أبان بن سعيد بن العاص فارقتها. فزوجوه ففارقها[٥]. وقد تقدم فى ذكر الأعمام كيفية هجرتها مع زوجها عثمان

---

(١) ينظر الاستيعاب (٤/ ٣٥١-٣٥٢)، والإصابة (١٠٨٢٨)، وسبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٢).
(٢) ينظر: المصادر السابقة.
(٣) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٣)
(٤) ينظر: الاستيعاب (٤/ ٣٩٩)، وأسد الغابة (٧/ ١١٥)، والإصابة (٨/ ١٣٨)، وسبل الهدى (١١/ ٣٣).
(٥) تقدم تخريجه.

إلى الحبشة، وسؤال النبي ﷺ عنها المرأة من قريش كيف رأتها، وقوله عليه الصلاة والسلام: صحبهما الله، إن كان عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط[(١)].

وكانت رقية ذات جمال رائع فكان يقال: أحسن زوج رآه إنسان مع زوجها. قال محمد بن قدامة: روينا أن فتيان أهل الحبشة كانوا يعرضون لرقية ينظرون إليها ويتعجبون من جمالها، فآذاها ذلك، فدعت عليهم فهلكوا جميعًا[(٢)].

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله أوحى إليَّ أن أزوج كريمتي عثمان بن عفان ». خرجه الطبراني في معجمه[(٣)].

قال مصعب الزبيري: توفيت رقية عند عثمان بالمدينة، والنبي ﷺ في غزوة بدر الكبرى، وتخلف عثمان بسبب مرضها عن غزوة بدر فلم يشهدها، وكان تخلفه بأمر رسول الله ﷺ، وضرب له بسهمه وأجره[(٤)]. عن ابن شهاب: أن مرضها هو أنه أصابتها الحصبة فمرضت، وماتت بالمدينة سنة اثنتين من الهجرة، وجاء بشيره ﷺ إلى المدينة بنصرة بدر - وهو زيد بن حارثة - وعثمان قائم على قبر رقية قد نفض هو ومن معه أيديهم من دفنها[(٥)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لما عُزِّي عليه الصلاة والسلام برقية قال: « الحمد لله، دفنُ البنات من المكرمات »[(٦)].

ولدت رقية لعثمان ولدًا بالحبشة سماه عبد الله. قال مصعب: بلغ ست سنين، وقيل: سنتين، فنقره في عينه ديك فورم وجهه ومرض فمات، وصلى عليه رسول الله ﷺ، ونزل أبوه عثمان في حفرته. وقيل: إنه مات وهو رضيع. وقال قتادة: لم

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٣-٣٤).
(٣) أخرجه الطبراني في « الصغير » (١/ ١٤٨) وفي الأوسط (٣٥٠١)، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ٧٠) من طريق عمير بن عمران الحنفي ثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وقال الطبراني: لم يروه عن ابن جريج إلا عمير تفرد به محمد بن حرب وذكره الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٨٦) وقال: رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عمير بن عمران الحنفي وهو ضعيف بهذا الحديث وغيره.
(٤) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٤).
(٥) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/ ٢٢٠) وقال: رواه الطبراني وهو مرسل ورجاله ثقات وينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٤-٣٥).
(٦) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٣٧٦) وفي الأوسط (٢٢٦٣) وفي « مسند الشاميين » =

تلد رقية لعثمان شيئًا، وغلطوه، والأول أصح كما تقدم، رضى الله عنهما[(١)].

ذكر السيدة أم كلثوم رضى الله عنها: هى أكبر من فاطمة، سماها - عليه الصلاة والسلام - أم كلثوم ولم يعرف لها اسم؛ إنما تعرف بكنيتها. أسلمت حين أسلم أخواتها، وبايعت معهن، وهاجرت حين هاجر رسول الله ﷺ. فلما توفيت رقية تزوجها عثمان بن عفان فى ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة، وبنى بها فى جمادى الآخرة[(٢)].

وروى ابن عساكر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أتانى جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تزوج عثمان أم كلثوم على مثل صداق رقية وعلى مثل صحبتها.

وقد تقدم قبل هذا أنها كانت تحت عتيبة بن أبى لهب، ثم فارقها قبل دخوله بها فخلف عليها عثمان بن عفان بعد موت أختها رقية[(٣)].

وعن قتادة أن عتيبة فارق أم كلثوم، ثم جاء إلى النبى ﷺ فقال: كفرت بدينك وفارقت ابنتك، لا تحبنى ولا أحبك. ثم سطا عليه وشق قميصه وتفل، فرجع التفل فى وجه التافل فاحترق مكانه فى وجهه، وكان خارجًا إلى الشام تاجرًا فقال عليه الصلاة والسلام: اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك. فأكله السبع[(٤)]. والقصة قد

= (٢٤٠٨) والبزار (٧٩٠) وابن عبد البر في « الاستيعاب » (٤/ ٤٠١) والخطيب في « تاريخه » (٥/ ٥٧)، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٢٥٠) من طريق عراك بن خالد عن عثمان بن عطاء عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس. وقال الطبراني: لا يروي عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد والحديث أورده ابن الجوزي في « الموضوعات » (٣/ ٢٣٦-٢٣٧) وينظر « الضعيفة » (١٨٥، ١٨٦).

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٥). وأسد الغابة (٧/ ١١٥).

(٢) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٦).

(٣) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١/ ١٢٧) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٤٣٥) رقم (١٠٦٠)، والبيهقي في « الدلائل » (٢/ ٣٣٨-٣٣٩) عن قتادة مرسلاً وذكره الهيثمي في « المجمع » (٦/ ٢٢) وقال: رواه الطبراني هكذا مرسلاً وفيه زهير بن العلاء وهو ضعيف وله طرق أخرى عن قتادة أخرجه عبد الرزاق في « تفسيره » (٣/ ٢٥٠)، والطبري في « تفسيره » (٢٧/ ٤٠-٤١)، وأبو نعيم في الدلائل (٣٠٥) من طرق عن قتادة به. وللحديث شاهد موصول أخرجه الحاكم (٢/ ٥٣٩)، والبيهقي في « الدلائل » (٢/ ٣٣٨) من طريق عباس بن الفضل الأزرق ثنا الأسود بن شيبان ثنا أبو نوفل بن أبي عقرب عن أبيه به وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وضعفه =

تقدمت فى ذكر أعمامه عليه الصلاة والسلام بما أغنى عن الإعادة هنا.

قال فى الخميس: روي عن سعيد بن المسيب قال: آم عثمان بن عفان رضى الله عنه من رقية بنت رسول الله ﷺ، وآمت حفصة بنت عمر من زوجها خنيس بن حذافة السهمى، فمر عثمان بعمر رضي الله عنهما، فقال عمر له: هل لك فى حفصة؟ فلم يجب. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ: هل أدلك على خير من ذلك؟ أتزوج أنا حفصة، وأزوج عثمان خيرًا منها أم كلثوم. خرجه أبو عمر، ثم قال: حديث صحيح(١).

وإنما كان امتناع عثمان رضى الله عنه؛ لأنه سمع أنه عليه الصلاة والسلام يذكر حفصة.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت. كان رسول الله ﷺ يقول: أتانى جبريل فأمرنى أن أزوج عثمان ابنتى. وقالت عائشة فى ذلك: كُنْ لما لا ترجو، أرجى منك لما ترجو؛ فإن موسى عليه الصلاة والسلام خرج يلتمس نارًا، فرجع بالنبوة. خرجه إلى الحسن أبو نعيم البصرى. قلت: عقد هذا الأثر عن عائشة بعض الأدباء شعرًا فى أبيات أربعة هي قوله: [من الخفيف]

كُنْ لِمَا لا يُرْجَى مِنَ الأَمْرِ أَرْجَى مِنْكَ يَوْمًا لِمَا لَهُ أَنْتَ رَاجِى
إِنَّ مُوسَى مَضَى لِيَقْبِسَ نَارًا مِنْ شِهَابٍ يَلُوحُ وَاللَيْلُ دَاجِى
فَانْثَنَى رَاجِعًا وَقَدْ كَلَّمَ اللـ ـهَ وَنَاجَاهُ، وَهْوَ خَيْرُ مُنَاجِى
وَكَذَا الْكَرْبُ حِينَ يَشْتَدُّ بِالمَرْ ءِ فَـأَدْنَـى لِـسُـرْعَـةِ الإِنْـفِـرَاجِ

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال عثمان: لما ماتت امرأتى، رقية بنت رسول الله ﷺ بكيت بكاء شديدًا، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما يبكيك؟ قلت: أبكى على انقطاع صهرى منك. قال: فهذا جبريل يأمرنى بأمر الله أن أزوجك أختها. والذى نفسى بيده، لو أن عندى مائة بنت يمتن واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى حتى لا يبقى بعد المائة شىء. هذا جبريل أخبرنى أن الله يأمرنى أن أزوجك أختها، وأن أجعل صداقها مثل صداق أختها». أخرجه الفضائلى الرازى(٢).

= البيهقي والعباس بن الفضل كذاب وينظر سؤالات ابن الجنيد (٢٠٩).
(١) ينظر الاستيعاب (٤/ ٣٧٣)، وقد تقدم في أزواج النبي ﷺ.
(٢) ذكره الهندي في «كنز العمال» (٣٦٢٠٦)، وعزاه إلى ابن عساكر.

ماتت أم كلثوم سنة تسع من الهجرة، وصلى عليها أبوها ﷺ، وغسلتها أسماء بنت عميس وصفية بنت عبد المطلب، وشهدت أم عطية غسلها، فروت قوله عليه الصلاة والسلام: « اغسليها ثلاثًا أو خمسًا أو سبعًا أو أكثر من ذلك - إن رأيتن ذلك - بماء وسدر، واجعلن فى الآخرة كافورًا أو شيئًا من كافور، فإذا فرغتن آذنني ». فلما فرغنا آذناه، فألقى إلينا حقوه وقال: أشعرنها إياه. قالت: ومشطناها ثلاثة قرون، وألقيناها خلفها. وعنها: أنه ﷺ قال: « ابدأن بميامنها ومواضع السجود منها » (١).

وعن ليلى بنت قائف الثقفية قالت: كنت ممن غسل أم كلثوم، فكان أول ما أعطانا عليه الصلاة والسلام الحقو، ثم الدرع، ثم الخمار، ثم الملحفة، ثم أدرجت فى الثوب الآخر قالت: ورسول الله ﷺ جالس على الباب معه كفنها، فناولنا ثوبًا ثوبًا (٢). خرجه الدولابى.

وعن أنس: شهدنا مدفن بنت رسول الله ﷺ أم كلثوم ورسول الله ﷺ جالس على شفير القبر، فرأيت عينيه تدمعان، فقال: هل فيكم من أحد لم يقارف الليلة أهله ؟ فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله. فقال: « انزل فى قبرها ». فنزل (٣). خرجه

---

(١) أخرجه مالك (١/ ٢٢٢) كتاب الجنائز باب غسل الميت، الحديث (٢) والشافعي في المسند (١/ ٢٠٣) كتاب الصلاة باب في صلاة الجنائز، الحديث (٥٦٠)، وأحمد (٦/ ٤٠٧)، والبخاري (٣/ ١٢٥) كتاب الجنائز باب غسل الميت، الحديث (١٢٥٣)، ومسلم (٢/ ٦٤٦) كتاب الجنائز باب غسل الميت، الحديث (٣٦/ ٩٣٩)، وأبو داود (٣/ ٥٠٣) كتاب الجنائز باب كيف غسل الميت، الحديث (٣١٤٢)، والترمذي (٣/ ٣١٥) كتاب الجنائز باب ماجاء في غسل الميت، الحديث (٩٩٠)، والنسائي (٤/ ٢٨) كتاب الجنائز باب غسل الميت بالماء والسدر، وابن ماجه (١/ ٤٦٨) كتاب الجنائز باب ماجاء في غسل الميت، الحديث (١٤٥٨)، والحميدي (١/ ١٧٤) رقم (٣٦٠) والبيهقي (٤/ ٤)، والبغوي في « شرح السنة » (٣/ ٢٢١) عن أم عطية به وقال الترمذي: حديث أم عطية حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ٥٠٩-٥١٠) كتاب الجنائز باب في كفن المرأة، الحديث (٣١٥٧)، وأحمد (٦/ ٣٨٠) وقال المنذرى في مختصر سنن أبي داود (٤/ ٣٠٤) الصحيح أن هذه القصة في زينب لأن أم كلثوم توفيت ورسول الله ﷺ غائب ببدر.

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٤٩٦) كتاب الجنائز باب قول النبي ﷺ: « يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه » حديث (١٢٨٥)، وأحمد (٣/ ١٢٦، ٢٢٨)، والترمذي في « الشمائل المحمدية » رقم (٣٢٨)، والطيالسي (٢١١٦)، والطحاوي في « مشكل الآثار » =

البخارى. وروى أنه نزل فى حفرتها على والفضل بن عباس وأسامة بن زيد، وأن أبا طلحة استأذنه عليه الصلاة والسلام فى النزول معهم فأذن له[١]، ذكره أبو عمر. ولا تضاد بين هذا وما قبله المخرج فى البخارى؛ إذ يجوز أن يكون استأذن أولا فقال عليه الصلاة والسلام ذلك ليثبت لأبى طلحة موجب اختصاصه بالنزول. وقد رويت هذه القصة فى رقية وهو وهم؛ فإن النبى ﷺ لم يكن حال دفن رقية حاضرًا، بل كان فى غزوة بدر كما تقدم، وإنما كان حاضرًا فى وفاة هذه أم كلثوم ودفنها.

قال السهيلى فى شرح سيرة ابن هشام[٢]: ما الحكمة فى قول النبى ﷺ لما دفن ابنته أم كلثوم: أيكم لم يقارف الليلة أهله ؟ فقال أبو طلحة: أنا، وقد كان عثمان أحق بذلك منه؛ لأنه كان بعلها ؟ قال ابن بطال: أراد النبى ﷺ أن يحرم عثمان النزول فى قبرها، وقد كان أحق الناس بذلك لأنه كان بعلها [وفقد منهم علقاً لا عوض له][٣]؛ لأنه حين قال النبى ﷺ أيكم لم يقارف الليلة أهله سكت عثمان ولم يقل أنا؛ لأنه كان قد قارف ليلة ماتت بعض نسائه، ولم يشغله الهم بالمصيبة وانقطاع صهره من النبى ﷺ عن المقارفة؛ فحرم بذلك ما كان حقًّا له، وكان أولى به من أبى طلحة وغيره، وهذا بين فى معنى الحديث، ولعله عليه الصلاة والسلام قد كان علم ذلك بالوحى فلم يقل له شيئًا؛ لأنه فعل فعلاً حلالاً، غير أن المصيبة لم تبلغ منه مبلغًا يشغله حتى حرم ما حرم من ذلك بتعريض غير تصريح، ولم يكن لعثمان رضى الله عنه من أم كلثوم شىء من الولد رضى الله عنها[٤].

ذكر السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ: قال فى «الصفوة»: ولدت فاطمة وقريش تبنى الكعبة قبل النبوة بخمس سنين، وهى أصغر بناته ﷺ، وولدت الحسن ولها إحدى وعشرون سنة، بعد الهجرة بثلاث سنين[٥]، وقال أبو عمر

= (٣/ ٢٠٤)، والحاكم (٤/ ٤٧)، والبيهقي (٤/ ٥٣) من طريق هلال بن على عن أنس وأحمد (٣/ ٢٢٩، ٢٧٠)، والطحاوي في «المشكل» (٣/ ٢٠٢) من طريق حماد عن ثابت عن أنس. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(١) ينظر الاستيعاب (٤/ ٥٠٧)، والإصابة (٨/ ٤٦٠).

(٢) ينظر الروض الأنف (٣/ ١٢٧-١٢٨).

(٣) المثبت من الروض الأنف.

(٤) ينظر الإصابة (٨/ ٤٦٠).

(٥) هذا قول الواقدي أيضًا وبه جزم المدائني وينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٧).

ولدت فاطمة سنة إحدى وأربعين من مولده عليه الصلاة والسلام[١]. وهو مغاير لما تقدم من رواية ابن إسحاق من أن أولاده عليه الصلاة والسلام كلهم ولدوا قبل النبوة إلا إبراهيم بالاتفاق، وإلا عبد الله على قول ادعى قائله أن ذلك سبب تلقيبه بالطيب الطاهر[٢].

روى مرفوعًا: إنما سميت فاطمة لأن الله تعالى قد فطمها وذريتها من النار[٣]. أخرجه الحافظ الدمشقي. وروى النسائي: لأن الله فطمها ومحبيها من النار[٤]. وسميت بتولاً _ والبتل: القطع - لانقطاعها عن نساء زمانها فضلاً ودينًا وحسنًا، وقيل: لانقطاعها عن الدنيا إلى الله سبحانه وتعالى، وكذا قاله ابن الأثير[٥].

وعن أبي جعفر قال: دخل العباس على عليٍّ وفاطمة رضى الله عنهم، وأحدهما يقول للآخر أينا أكبر؟ فقال العباس: ولدتَ أنت ياعلى قبل بناءِ قريشٍ البيتَ بسنوات، وولدتِ أنت يا فاطمة وقريش تبنى البيت، ورسول الله ﷺ ابن خمس وثلاثين سنة، قبل النبوة بخمس سنين[٦]. أخرجه الدولابي.

وكان عليه الصلاة والسلام يحب فاطمة حبًا شديدًا، فتزوجت بعلى رضى الله عنه فى السنة الثالثة من الهجرة، وقيل: بعد أحد[٧]، وقيل: بعد بنائه عليه الصلاة

(١) ينظر الاستيعاب (٤/ ٤٤٨).
(٢) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٧).
(٣) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٢/ ٣٣١) ومن طريقه ابن الجوزي في « الموضوعات » (١/ ٤٢١) من حديث ابن عباس وقال الخطيب: في إسناد هذا الحديث من المجهولين غير واحد وليس بثابت وينظر: اللالئ المصنوعة (١/ ٤٠٠)، وتنزيه الشريعة (١/ ٤١٢-٤١٣).
(٤) أخرجه ابن الجوزي في « الموضوعات » (١/ ٤٢١) وقال: هذا عمل الغلابي وقد ذكرنا عن الدارقطني أنه كان يضع الحديث وينظر: اللالئ المصنوعة (١/ ٤٠٠) وقال ابن عراق في « التنزيه » (١/ ٤١٣) وفيه أيضًا بشر بن إبراهيم الأنصاري. قلت: قال ابن حبان وغيره: كان يضع الحديث وهذا الحديث لم أره عند النسائي.
(٥) ينظر: النهاية في غريب الحديث (١/ ٩٤) (بتل).
(٦) أخرجه الواقدي من طريق أبي جعفر الباقر والدولابي في « الذرية الطاهرة » أيضا وجزم بذلك المدائني وينظر: الإصابة (٨/ ٢٦٣).
(٧) وهذا القول مستبعد فقد قال الحافظ في « الإصابة » (٨/ ٢٦٤): وفي الصحيح عن على قصة الشارفين لما ذبحهما حمزة وكان عليّ أراد أن يبني بفاطمة فهذا يدفع قول من زعم أن تزويجه بها كان بعد أحد، فإن حمزة قتل بأحد.

والسلام بعائشة بأربعة أشهر ونصف[١]، وكان العقد فى رجب، وقيل: فى رمضان، وقيل: تزوج بها فى صفر من السنة الثانية من الهجرة وبنى بها فى ذى الحجة من السنة المذكورة، وكان سنها حال تزويجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف، وسن على رضى الله عنه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر، وقيل غير ذلك. ولم يتزوج عليها رضى الله عنها حتى ماتت[٢].

عن أنس رضى الله عنه قال: جاء أبو بكر ثم عمر يخطبان فاطمة إلى النبى ﷺ، فسكت ولم يرجع إليهما شيئًا. فانطلقا إلى علىّ يأمرانه بطلب ذلك، قال على: فنبهانى لأمر، فقمت أجر ردائى[٣]. كذا فى المواهب. وفى سيرة الشامى[٤]: روى الطبرانى وابن أبى خيثمة وابن حبان فى صحيحه من طريق يحيى بن يعلى الأسلمى، والبزار من طريق محمد بن ثابت بن أسلم - وهما ضعيفان - عن أنس بن مالك، وابن أبى خيثمة والطبراني عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال ابن ثابت: إن عمر ابن الخطاب أتى أبا بكر فقال: ما يمنعك أن تتزوج فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ؟ قال: لا يزوجنى، قال: إذا لم يزوجك فمن يزوج ؟ إنك من أكرم الناس عليه وأقدمهم فى الإسلام. قال: فانطلق أبو بكر إلى بيت عائشة فقال: يا عائشة، إذا رأيت من رسول الله ﷺ طيب نفس وإقبالاً عليك فاذكرى له أنى ذكرت فاطمة فلعل الله عز وجل أن ييسرها لى. قال فجاء رسول الله ﷺ فرأت منه طيب نفس وإقبالاً فقالت: يا رسول الله، إن أبا بكر ذكر فاطمة وأمرنى أن أذكرها، فقال ﷺ: حتى ينزل القضاء. فرجع إليها أبو بكر فقالت: يا أبتاه، وددت أنى لم أذكر له الذى ذكرت.

وقال يحيى: إن أبا بكر رضى الله عنه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، لقد عرفت مني[٥] صحبتى وتقدمى فى الإسلام، وأنى وأنى، فقال عليه الصلاة والسلام: وما ذاك ؟ قال: تزوجنى فاطمة. فسكت عنه أو قال فأعرض عنه. فرجع أبو بكر إلى عمر فقال: هلكت وأهلكت. قال عمر رضى الله عنه: وما ذاك ؟ قال

---

(١) ينظر: الاستيعاب (٤/٤٤٨)، والإصابة (٨/٢٦٣)، وسبل الهدى والرشاد (١١/٣٧).
(٢) ينظر: المصادر السابقة.
(٣) ينظر: تخريج الحديث الآتي.
(٤) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/٣٩).
(٥) في ط: من.

أبو بكر: خطبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ فأعرض عنى. [وقال ابن ثابت] (١) فانطلق عمر إلى حفصة ابنته فقال لها: إذا رأيت من رسول الله ﷺ إقبالاً عليك فاذكرى [له] أنى ذكرت فاطمة، لعل الله أن ييسرها [إليّ]. فلما جاء رسول الله ﷺ إلى حفصة [قالت حفصة](٢): وجدت منه إقبالاً وطيب نفس، فذكرت له أن عمر يذكر فاطمة رضى الله عنها. فقال: حتى ينزل القضاء. وقال ابن ثابت: فأتى عمر رسول الله ﷺ فقعد بين يديه فقال: يارسول الله، قد علمت [منِّي] صحبتي وقدمي فى الإسلام وأني وأني. قال: وما ذاك ؟ قال: تزوجنى فاطمة. فأعرض عنه. فرجع [عمر] (٣) إلى أبى بكر فقال له أبو بكر: إنه ينتظر أمر الله تعالى فيها

فانطلق عمر إلى على رضى الله عنه. وقال يحيى بن يعلى: إن أبا بكر وعمر قالا: انطلق بنا إلى على حتى نأمره أن يطلب منه مثل الذى طلبنا. فقال على: فأتيانى وأنا فى سبيل، فقالا: ابنة عمك تخطب. فنبهانى لأمر، فقمت أجرُّ ردائى، طرف على عاتقى وطرف آخر فى الأرض، حتى أتيت رسول الله ﷺ. وقال بن ثابت: ولم يكن لعلي مثل عائشة ولا مثل حفصة، فلقى رسول الله ﷺ. [فقال: إني أريد أن أتزوج فاطمة، قال: « فافعل ». قال: ما عندي إلا دِرْعي الخطمية... الحديث](٤).

وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما عند الطبراني من طريق يحيى بن العلاء

---

(١) في ط: قال. والمثبت من السبل.
(٢) سقط في ط. والمثبت من السبل.
(٣) سقط في ط، والمثبت من السبل.
(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/٤٠٨-٤١٠)، وابن حبان (٢٢٢٥-موارد) من طريق يحيى بن يعلى الأسلمي عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس به وهذا إسناد ضعيف لضعف يحيى بن يعلى الأسلمي قال أبو حاتم: كوفي ليس بالقوي ضعيف الحديث وقال البخاري: مضطرب الحديث. وقال ابن حبان: يروى عن الثقات الأشياء المقلوبات وقال الحافظ: أخرج له ابن حبان في صحيحه حديثًا طويلاً في تزويج فاطمة فيه نكارة ينظر: الجرح والتعديل (٩/١٩٦)، الضعفاء الكبير (٤/٤٣٥)، وتهذيب التهذيب (١١/٣٠٤).
وأخرجه البزار (٢/١٥٣-١٥٥) رقم (١٤٠٩) من طريق بشار بن محمد ثنا محمد بن ثابت عن أبيه عن أنس. وقال البزار: لا نعلم رواه عن ثابت عن أنس إلا محمد بن ثابت ولا عنه إلا بشار. وذكره الهيثمي في « المجمع » (٩/٢٠٩-٢١٠) وقال: رواه البزار وفيه محمد بن ثابت بن أسلم وهو ضعيف، والمثبت من السبل.

قال: كانت فاطمة لرسول الله ﷺ فلا يذكرها أحد إلا صُدَّ عنها حتى يئسوا منها، فلقى سعد بن معاذ عليا رضى الله عنه فقال له: إنى والله ما أرى رسول الله ﷺ يحبسها إلا عليك، فقال له على: هل ترى ذلك ؟ ما أنا بأحد الرجلين، ما أنا بصاحب دنيا يلتمس ماعندى، وقد علم مالى بيضاء ولا صفراء، وما أنا بالكافر الذى يترفق بها عن دينه، يعنى يتألفه. إنى لأول من أسلم. فقال له سعد بن معاذ: إنى أعزم عليك لتقر بها عينى فإن لى فى ذلك فرحًا. قال على رضى الله عنه: أقول ماذا ؟ قال سعد تقول: جئت خاطبًا إلى الله ورسوله فاطمة بنت محمد. فانطلق على رضى الله عنه فعرض للنبى ﷺ وهو ثقيل حضر، فقال له رسول الله ﷺ: كان لك حاجة ياعلى ؟ قال: أجل جئت خاطبًا إلى الله تعالى وإلى رسوله بنت محمد. فقال له: مرحبًا. كلمة ضعيفة. فرجع علىٌ إلى سعد فقال له: قد فعلت الذى أمرتنى به فلم يزد على أن مرحب بى كلمة ضعيفة. فقال سعد: أنكحك رسول الله ﷺ(١).

وفى حديث بريدة عند البزار والطبرانى برجال ثقات غالبهم رجال الصحيح، والنسائى والدولابى: أن نفرًا من الأنصار قالوا لعلى: لو خطبت فاطمة بنت رسول الله ﷺ. وفى لفظ: لو كانت عندك فاطمة. فدخل عليٌّ على النبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: ما حاجة ابن أبى طالب ؟ فقال: يا رسول الله، ذكرت فاطمة. فقال رسول الله ﷺ مرحبًا وسهلاً. لم يزده عليهما. فخرج على أولئك الرهط من الأنصار وهم ينتظرونه فقالوا: ما وراءك ؟ قال: لا أدرى غير أنه قال لى: مرحبًا وأهلاً. قالوا: يكفيك من رسول الله ﷺ إحداهما، أعطاك الأهل والرحب(٢).

وفى حديث ابن عباس: فقال سعد: أنكحك والذى بعثه بالحق، إنه لا خلف ولا كذب عنده. أعزم عليك لتأتينه غدًا فتقول: يارسول الله، متى تبنينى بأهلي ؟

---

(١) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/ ٢١٠-٢١٢) وقال: رواه الطبراني وفيه يحيى بن العلاء وهو متروك.

(٢) أخرجه البزار (٢/ ١٥٢-كشف) رقم (١٤٠٧) والنسائي في « السنن الكبرى » (٦/ ٧٢-٧٣) كتاب عمل اليوم والليلة باب ما يقول إذا خطب امرأة وما يقال له حديث (١٠٠٨٨) وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٥٢٩)، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٢٠) رقم (١١٥٣) كلهم من طريق عبد الكريم بن سليط عن ابن بريدة عن أبيه. وذكره الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٢١٢) وقال: رواه الطبراني والبزار ورجالهما رجال الصحيح غير عبد الكريم بن سليط ووثقه ابن حبان.

فقال على: هذه أشد من الأولى، أَوَلاَ أقول: يارسول الله، حاجتى؟ قال سعد: قل كما أمرتك. فانطلق على فقال: يارسول الله، متى تبنينى بأهلى ؟ قال: الليلة إذا شاء الله(١).

قال فى « التنقيح »: روى عن علي نفسه أنه قال: قالت لي مولاتي: هل علمت أن فاطمة خطبت إلى رسول الله ﷺ ؟ قلت: لا. قالت: خطبت، فما يمنعك أن تأتى رسول الله ﷺ فيزوجك. قلت: ماعندى شيء أتزوج به. قالت: فإنك إن جئته يزوجك فما زالت ترغبنى حتى دخلت عليه - عليه الصلاة والسلام - وكانت له - عليه الصلاة والسلام - جلالة وهيبة، فلما قعدت بين يديه أفحمت، فوالله ما قدرت أتكلم فقال: « ماجاء بك ؟ ألك حاجة ؟ فسكت، فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة. قلت: نعم. قال: فهل عندك شيء تستحلها به ؟ فقلت: لا والله. فقال: ما فعلت بالدرع التى أسلحتكها ؟ فقلت: عندى والذى نفسى بيده، إنها الحطمة، ماثمنها إلا أربعمائة درهم. قال: قد زوجتك بها، فابعث إلينا بها فإن كانت لصداق بنت رسول الله ﷺ (٢) . أخرجه ابن إسحاق.

وعن على رضى الله تعالى عنه، قال: كان مما أصبت يوم بدر شارفًا(٣)، وأعطانى رسول الله ﷺ شارفًا أخرى، فكنت آتى عليهما بالآجر فأبيعه وأجمعه لأدفع ما يتحصل من ثمن ذلك فى مهر فاطمة رضى الله عنها، فكانتا معقلتين بالفناء. وكان حمزة رضى الله عنه فى حجرة قريبًا منهما فى شَرب من الأنصار يشربون الخمر قبل تحريمها، وقينتان تغنيانهم، فقالتا فى غنائهما هذه الأبيات:
[من الوافر]

أَلاَ يَا حمزُ للشُّرُفِ النّوَاءِ(٤)   وَهُنَّ مُعَقَّلاَتٌ بِالفِنَاءِ

---

(١) تقدم تخريج حديث ابن عباس وينظر الحديث قبل السابق.
(٢) أخرجه ابن الأثير في « أسد الغابة » (٧/٢١٦-٢١٧) من طريق ابن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن على.
(٣) الشارف من الدواب: المسن. الوسيط (شرف).
(٤) الشرف: جمع شارف وهو المُسِنُّ من النوق، ولا يقال للذكر عند الأكثر، وقيل غير ذلك. النِّواء -بكسر النون والمد مخففًا- جمع ناوية وهى النَّاقة السمينة. وفي هذا البيت كلام للحافظ ابن حجر فليرجع إليه. الفتح (٦/٣١٨،٣١٩ وما بعدهما).

ضَعِ السكِّينَ فِى اللباتِ مِنْهَا وَخَضِبْهُنَّ حَمْزَةُ بِالدِّمَاءِ
وَعَجِّلْ مِنْ أَطَايِبِهَا لِشَرْبٍ قَدِيدًا مِنْ طَبِيخٍ أَوْ شِوَاءِ[١]

فلما سمع حمزة اخترط سيفه وخرج إلى الشارفين فشق بطنهما وأخرج من أكبادهما، ثم اجتب أسنمتهما وأتى بذلك علي رضى الله عنه، فأتاني الخبر فأتيت، فلما رأيتهما لم أملك عينى، فدخلت إلى النبى ﷺ وعنده رجال من المهاجرين والأنصار فأخبرته، فقام يجر رداءه وقاموا معه، حتى دخل على حمزة وهو ثمل وعيناه جمرتان، فوقف على رأسه وقال: ماهذا الذى فعلته ياحمزة ؟ فصعَّد حمزة النظر فى النبى ﷺ وصوَّبه ثم قال: إن أنتم يابنى عبد المطلب إلا عبيد أبى، فرجع عنه ﷺ، ومشى القهقرى حتى خرج[٢].

قلت: لم يكن بكاء على رضى الله تعالى عنه حرصًا منه على الدنيا، حاشاه من ذلك، وإنما هو حزن لتوهم فوات ماهما وسيلة فى تحصيله من تزوجه بفاطمة رضى الله تعالى عنها، ولذا قال رضى الله عنه للنبى ﷺ حين قال: هل عندك شىء تستحلها به ؟ قال: لا والله. هذا والشُّرُف جمع شارف، وهى الناقة الشابة، والنِّواء - بكسر النون مشددة - جمع ناوية، وهى السمينة الممتلئة شحمًا، والنَّىْ بالفتح: الشحم. قال أبو الطيب فى وصفها: [من الكامل]

فتبيت تُسْئِدُ مُسْئِدًا فِى نَيِّهَا إِسْآدَهَا فِى المَهْمَهِ الإِنْضَاءُ[٣]

وهذا البيت مما تدور فيه أفهام الرواة، ولا يشفى داء معناه إلا أطباء النحاة. والله أعلم.

وقال يحيى بن يعلى: فقال رسول الله ﷺ: ماعندك يا على ؟ فقال: فرسى وبدني، ودرعي، يعنى الحطمة. فقال عليه الصلاة والسلام: أما فرسك فلابد لك منه، وأما بدنك فبعها. فبعتها بأربعمائة وثمانين درهمًا. فأتيت بها رسول الله ﷺ، فوضعها فى حجره فقبض منها قبضة فقال: أى بلال، ابتع لنا بها طيبًا، والباقى ادفعه

(١) ينظر: البداية والنهاية (٣/ ٤١٧)، الفتح (٦/ ٣١٩)وما بعدها.
(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٤٢)، والبخاري (٦/ ٣١٥) كتاب فرض الخمس باب فرض الخمس حديث (٣٠٩١)، ومسلم (٣/ ١٥٦٨-١٥٧٠) كتاب الأشربة باب تحريم الخمر حديث (١، ٢/ ١٩٧٩)، وأبو داود (٢/ ١٦٤-١٦٦) كتاب الخراج والفىء والإمارة حديث (٢٩٨٦) وابن حبان (٤٥٣٦) والبيهقي في « السنن الكبرى (٦/ ١٥٣، ٣٤١-٣٤٢).
(٣) تسئد: تسير ليلا بلا تعريس والني: الشحم والإنضاء: الإجهاد.

إلى أم أيمن. وقال: يكون فيما يصلح المرأة، وزوَّجها رسول الله ﷺ[١].

قال العلامة ابن الجوزى فى تلقيحه: قال أنس بن مالك، خادم رسول الله ﷺ: ثم دعانى النبى ﷺ فقال لى: يا أنس، اخرج فادعُ لى أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة، والزبير، وعدة من الأنصار. قال أنس: فدعوتهم، فلما اجتمعوا عنده وأخذوا مجالسهم - وكان علىٌّ غائبًا فى حاجة للنبى ﷺ - فقال النبى ﷺ خاطبًا خطبة العقد: الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع سلطانه، المرهوب من عذابه وسطوته، النافذ أمره فى سمائه وأرضه، الذى خلق الخلق بقدرته، وميزهم بأحكامه، وأعزهم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ. إن الله سبحانه، وتبارك اسمه، وتعالت عظمته، جعل المصاهرة نسبًا لاحقًا، وأمدًا مفترضًا، أوشج به الأرحام، وألزم الأنام، فقال عز من قائل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤] فأمرُ الله تعالى يجرى إلى قضائه، وقضاؤه إلى قدره، ولكل قضاء قدر، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [الرعد: ٣٩] إن الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة بنت خديجة من على ابن أبى طالب، فاشهدوا أنى قد زوجته على أربعمائة مثقال فضة إن رضى على بذلك. ثم دعا عليه الصلاة والسلام بطبق من بسر فوضع بين أيدينا ثم قال: انتهبوا. فانتهبنا. فبينا نحن ننتهب إذ دخل على رضى الله عنه، فتبسم رسول الله ﷺ فى وجهه ثم قال: إن الله أمرنى أن أزوجك فاطمة بنت محمد على أربعمائة مثقال فضة إن رضيت. فقال على: قد رضيت بذلك يارسول الله[٢].

قال فى « المواهب »: والعقد لعلى وهو غائب محمول على أنه كان له وكيل حاضر، أو على أنه لم يرد به العقد بل إظهار ذلك، ثم عقد معه لما حضر، أو على تخصيصه بذلك، جمعًا بينه وبين ماورد مما يدل على اشتراط القبول على الفور. **قلت**: لا حاجة إلى هذا الحمل؛ إذ قد صرح فى الحديث بأن النبى ﷺ أعاد

(١) تقدم تخريجه من حديث أنس من طريقين عنه.
(٢) أخرجه ابن الجوزي في « الموضوعات » (١/٤١٧-٤١٨) وقال: هذا حديث موضوع وضعه محمد بن زكريا.

الإيجاب عند حضور على رضى الله عنه بقوله: إن الله زوجك فاطمة بنت محمد إلى آخره، ووقع القبول من علىّ على الفور، وهو ما ذكره صاحب المواهب فى الحمل الثانى. والله أعلم.

ثم أمرهم أن يجهزوها، فجعل لها شريط مشرط، ووسادة من أدم حشوها ليف. وروى الإمام أحمد فى « المناقب » عن على رضى الله عنه، قال: جهز رسول الله ﷺ فاطمة فى خميلة وقربة ووسادة من أدم حشوها ليف(١). وروى أبو بكر بن فارس، عن جابر بن عبد الله الأنصارى، قال: وكان فراش على وفاطمة ليلة عرسهما إهاب كبش(٢).

وروى الطبرانى من طريق مسلم بن خالد الزنجى [حدثني جعفر بن محمد عن أبيه] عن جابر رضى الله عنه، قال: حضرنا عرس على بن أبى طالب على فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فما رأينا عرسًا أحسن منه، هيأ لنا رسول الله ﷺ زبيبًا وتمرًا فأكلنا(٣). وروى عن أسماء بنت عميس - بسند ضعيف - قالت: دخلت فاطمة بنت رسول الله ﷺ على درع ممشق بمغرة(٤) ونصف قطيفة بيضاء وقدح، وإن كانت تستر بكم درعها ومالها خمار، رضى الله عنها. وقالت - يعنى أسماء - أعطانى رسول الله ﷺ آصعًا من تمر ومن شعير فقال: إذا دخلن عليك نساء الأنصار فأطعميهن منه(٥).

وروى الطبرانى من طريق عون بن محمد ابن الحنفية عن أسماء بنت عميس أيضًا قالت: أهديت جدتك فاطمة إلى جدك على رضى الله عنه، فما كان حشو فراشهما

---

(١) أخرجه أحمد في « المناقب » كما في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٤١). والخميلة: القطيفة. ينظر الوسيط (خمل).

(٢) ذكره الصالحي في « سبل الهدى والرشاد » (١١/ ٤١).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٤٤١) من طريق ميمون بن كلاب ثنا مسلم بن خالد الزنجي حدثني جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر به وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن جعفر ابن محمد إلا مسلم بن خالد الزنجي وعبد الله بن ميمون القداح تفرد به عن مسلم بن خالد ميمون بن كليب وقال الهيثمي في « المجمع » (٤/ ٥٣) رواه الطبراني في الأوسط وفيه مسلم بن خالد الزنجي وهو ضعيف وقد وثق.

(٤) المشق: المغرة، وهي الطين الأحمر. الوسيط (مشق).

(٥) ذكره الصالحي في « سبل الهدى والرشاد » (١١/ ٤١-٤٢) وعزاه لأحمد بن منيع.

وسادتهما إلا ليف. ولقد أولم[١] عليها فما كانت وليمة فى ذلك الزمان أفضل من وليمته، رهن درعه عند يهودي بشطر من شعير. ورواه الدولابى عن أسماء بنت عميس: كان وليمتها آصعًا من شعير وتمر وحيس[٢]. وفى حديث ابن عباس: فدعا رسول الله ﷺ بلالاً فقال: يا بلال، إنى قد زوجت ابنتى ابن عمى، وأنا أحب أن يكون من سنَّة أمتى إطعام الطعام عند النكاح، فخذ شاة وأربعة أمداد أو خمسة، فاجعل لى قصعة لعلى أدعو عليها المهاجرين والأنصار، فإذا فرغت منها فآذنى بها. فانطلق ففعل لما أمره به، ثم أتاه بالقصعة فوضعها بين يديه، فطعن رسول الله ﷺ فى رأسها ثم قال: أدخل على الناس دفعة دفعة، فجعل الناس يردون، كلما فرغت دفعة وردت أخرى حتى فرغ الناس، ثم مد رسول الله ﷺ يده إلى ما فضل منها فتفل فيه وبرَّك وقال: يا بلال، احملها إلى أمهاتك وقل لهن يأكلن منها ويطعمن من يعتريهن[٣].

وعند الطبرانى برجال الصحيح فى حديث أسماء بنت عميس، قالت: « لما أهديت فاطمة إلى على - رضى الله عنهما - لم تجد فى بيته إلا رملاً مبسوطًا، أى سعفًا، مرمولاً منسوجًا، ووسادة حشوها ليف وجرة وكوزًا، فجاءت السيدة فاطمة مع أم أيمن، وقعدت فى جانب البيت، وأم أيمن فى جانب، وأرسل عليه الصلاة والسلام لعلى: لا تقرب أهلك حتى آتيك، فجاء عليه الصلاة والسلام فقال: ههنا أخى ؟ فقالت أم أيمن: أخوك وقد زوجته ابنتك ! قال: إنه أخى. فدخل رسول الله ﷺ البيت فقال لفاطمة: ائتنى بماء، فقامت إلى قعب فى البيت فأتت فيه بماء، فأخذه رسول الله ﷺ ومج فيه، ثم قال لها: تقدمى، فتقدمت فنضح بين ثدييها ورأسها وقال: اللهم إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. ثم قال رسول الله ﷺ: ائتونى بماء، فعلمت الذى يريد، فملأت القعب ماء فأخذه ومج فيه، وصنع بعلى مثل ماصنع بفاطمة، ثم قال: اللهم بارك فيهما وبارك لهما فى أبنائهما. وفى

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٤/ ١٤٥-١٤٦) رقم (٣٨٣) وذكره الهيثمي في « المجمع » (٤/ ٥٣) وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه عون بن محمد بن الحنفية ولم أجد من ترجمه.

(٢) ذكره الصالحي في « سبل الهدى والرشاد » (١١/ ٤٢) وعزاه للدولابي.

(٣) تقدم تخريجه حديث ابن عباس قريبًا.

لفظ: بارك لهما فى نسلهما. ثم قال: ادخل بأهلك، فباسم الله والبركة ». وفى رواية: فدعا بإناء فسمى، ثم قال فيه ماشاء الله أن يقول، ثم مسح صدر على ووجهه به، ثم دعا فاطمة فقامت إليه تعثر فى مرطها من الحياء، فنضح عليها من ذلك الماء ثم قال لها: أما إنى لم آل أن أنكحتك أحب أهلى إلى. ثم قال: اللهم بارك. . . إلى آخر ما تقدم(١).

وأورد الضياء المقدسى فى صحيحه قال: قالت أسماء بنت عميس: رأى رسول الله ﷺ سوادًا من وراء الستر أو من وراء الباب فقال: من هذا ؟ قلت: أسماء. قال: أسماء بنت عميس ؟ قلت: نعم [يا رسول الله، جئت كرامة لرسول الله ﷺ](٢) إن الفتاة يبنى بها الليلة ولا بد لها من امرأة تكون قريبًا منها إن عرضت لها حاجة أفضت بها إليها. قالت أسماء: فدعا لي بدعاء، إنه لأوثق عملى عندى، ثم قال لعلى: دونك أهلك. ثم خرج، فما زال يدعو لهما حتى توارى فى حجره(٣).

تنبيه: تقدم أن عليًا رضى الله عنه أصدقها درعًا وأنه باع الدرع وأصدقها أربعمائة درهم، قال أبو جعفر: يشبه أن يكون العقد وقع على الدرع كما دل عليه حديث على رضى الله عنه، وبعث بها على ثم ردها رسول الله ﷺ ليبيعها، فباعها وأتاه بثمنها من غير أن يكون بين الحديثين تضاد. وقد ذهب إلى مدلول كل واحد من الحديثين قائل، فقال بعضهم: كان مهرها رضى الله عنها الدرع، ولم يكن هناك بيضاء ولا صفراء، وقال بعضهم: كان مهرها رضى الله عنها أربعمائة وثمانين درهمًا أو مثقالاً من فضة.

تنبيه آخر: قد تضمن حديث ابن عباس، وحديث على رضى الله عنهما، وحديث أنس - أن الذى حثه على تزويج فاطمة متضاد ولا تضاد بينها؛ لاحتمال أن تكون مولاته حَثَّته أولا، ثم أبو بكر وعمر أو بالعكس، ثم خرج لذلك فلقيه الأنصار فحثوه

(١) أخرجه عبد الرزاق (٩٧٨١) ومن طريقه الطبراني في « الكبير » (٢٤/ ١٣٧-١٣٨) رقم (٣٦٥) وذكره الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٢١٣) وقال: ورجاله رجال الصحيح وله طريق آخر بنحوه أخرجه الحاكم (٣/ ١٥٩) والطبراني (٢٤/ ١٣٦/ ١٣٧) رقم (٣٦٤) من طريق أبي يزيد المديني عن أسماء وأبو يزيد المديني: مجهول.

(٢) المثبت من السبل.

(٣) ذكره الصالحي في « سبل الهدى والرشاد » (١١/ ٤٣) وعزاه إلى الضياء المقدسي في المختارة.

على ذلك من غير أن يكون أحدهم علم بالآخر.

تنبيه آخر: يحتمل أن تريد أسماء بما روته فى حديثها عن وليمته رضى الله عنه - ما قام به هو نفسه غير ما جاء به الأنصار من الحيس والتمر؛ جمعًا بين الحديثين، وأن يكون رسول الله ﷺ دفع لها مع ذلك الآصُع من التمر والشعير، وأن يكون ما جاء به الأنصار وليمة الرجال، وما دفعه لها وليمة النساء كما دل عليه حديثها. والله أعلم.

روى الطبرانى برجال الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ بيت فاطمة وعلىّ عندها وهما يضحكان، فلما رأياه سكتا فقال لهما رسول الله ﷺ ما لكما كنتما تضحكان فلما رأيتمانى سكتما ؟ فبادرت فاطمة فقالت: بأبى أنت يارسول الله، قال هذا: أنا أحب إلى رسول الله منك، فقلت: بل أنا أحب إلى رسول الله منك. فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أنت ابنتى ولك رقة الولد، وعلىٌّ أعز على منك[1]. وفى رواية أبى داود الطيالسى والطبرانى والحاكم والترمذى والبغوى، عن أسامة بن زيد: أن رسول الله ﷺ قال: « أحب أهلى إلى فاطمة »[2].

وروى الطبرانى عن أبى هريرة: أن على بن أبى طالب قال: يا رسول الله، أينا أحب إليك أنا أم فاطمة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: « فاطمة أحب إلى منك، وأنت أعز على منها »[3]. وروى الطبرانى وابن السنى وأبو سعد النيسابورى فى

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٦٦) رقم (١١٠٦٣) وذكره الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٢٠٥) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي (٢/ ١٢٩-منحة) رقم (٢٤٨٤) والترمذي (٥/ ٦٧٨) كتاب المناقب: باب مناقب أسامة بن زيد حديث (٣٨١٩)، والحاكم (٢/ ٤١٧)، والطبراني في « الكبير » (١/ ١٥٨) رقم (٣٦٩) من طريق عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أسامة بن زيد وقال الترمذي: حسن صحيح وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي فقال عمر ضعيف قلت: وعمر، قال الحافظ في « التقريب » صدوق يخطىء.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٦٧٥) من طريق الحسن بن كثير عن سلمى بن عقبة الحنفي اليمامي ثنا عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة به وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن يحيى بن أبي كثير إلا عكرمة بن عمار ولا رواه عن عكرمة إلا سلمى بن عقبة تفرد به الحسن بن كثير قال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٧٦) وفيه سلمى بن عقبة ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات. أهـ قلت: الحسن بن كثير ضعيف، وعكرمة ابن عمار روايته عن يحيى فيها اضطراب.

« شرف النبوة »، عن على رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة: « إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك »[(١)].

وروى الطبرانى عن أسماء بنت عميس - رضى الله عنها - قالت: خطبنى على - رضى الله عنه - فبلغ ذلك فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أسماء متزوجة على بن أبى طالب. فقال: « ما كان لها أن تؤذى الله ورسوله »[(٢)].

وعن ابن عباس والمسور بن مخرمة رضى الله عنهم: أن على بن أبى طالب خطب بنت أبى جهل وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فلما سمعت ذلك أتت النبى ﷺ فقالت: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علىّ ناكح ابنة أبى جهل. فصعد ﷺ المنبر وقال: « أما بعد فإنى لست أحرّم حلالاً ولا أحلل حرامًا، ولكن إن كنتَ متزوجها فردَّ علينا بنتنا، والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدًا ». زاد المسور فى روايته: « إن بني هاشم وبنى المغيرة استأذنوني فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب، فلا آذن لهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى ويتزوج ابنتهم، فإنما ابنتى بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها »[(٣)]. أخرجه الشيخان والترمذى. وابنة أبى جهل هذه اسمها جويرية، أسلمت وبايعت، تزوجها عتاب بن أسيد، ثم أبان بن سعيد بن العاص.

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١/ ١٠٨) رقم (١٨٢)، والحاكم (٣/ ١٥٣-١٥٤) من طريق عبد الله بن محمد بن سالم ثنا حسين بن زيد بن على عن علي بن عمر بن علي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين عن الحسين بن علي عن علي وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي فقال: بل حسين منكر الحديث لا يحل أن يحتج به وذكره الصالحي في « سبل الهدى » (١١/ ٤٤).

(٢) أخرجه الطبراني (٢٤/ ١٥٢-١٥٣) رقم (٣٩٢) وذكره الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٢٠٦) وقال: وفي إسناده من لا أعرفه وذكره الحافظ في: المطالب العالية (٣٩٧٩) وعزاه لأبي بكر بن أبي شيبة.

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٣٠، ٥٢٧٨)، ومسلم (٢٤٤٩/ ٩٣)، وأحمد (٤/ ٣٢٨)، وفي الفضائل (١٣٢٨)، وأبو داود (٢٠٧١)، والترمذي (٣٨٦٧)، وابن ماجه (١٩٩٨)، وابن حبان (٦٩٥٥)، والبيهقي (٧/ ٣٠٨) من طريق الليث بن سعد عن ابن أبي مليكة عن المسور وقال الترمذي: حسن صحيح وأخرجه البخاري (٣١١٠)، ومسلم (٢٤٤٩/ ٩٥) وأبو داود (٢٠٦٩)، وابن حبان (٦٩٥٦) من طريق الزهري عن علي بن الحسين عن المسور بن مخرمة، به.

قلت: أخبرني الثقة أنه حضر مجلس الإمام المرحوم المقدس، السيد الشريف الإمام الحق، والقائم الصدق، أمير المؤمنين، المتوكل على الله، إسماعيل بن القاسم، الإمام الداعي بقطر اليمن كأسلافه الطاهرين، نور الله ضريحه، وجعل الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه، وكان يقرىء من حديث رسول الله ﷺ صحيح البخارى، والمجلس غاصٌّ بالسادة العلماء، والقادة الفضلاء، وكان إلى جنبه العَلَّامةُ، المستغنى عن التعريف، والعَلاَمَةِ، مجمع بحرى المعقول والمنقول، منبع نهرى الفروع والأصول، مولانا وشيخنا، الفقيه، صالح ابن المرحوم المهدى، عرف بالمقبلى - فقرأ القارىء قطعة من هذا الحديث كما هو شأن البخارى فى اقتطاعه بعض الحديث شواهد لأبواب يترجم لها هى قوله: « فاطمة بضعة منى . . . » إلى آخره، فبين له المرحوم الإمام المعنى من ذلك، فإذا بشخص من الحاضرين هو القارئ عينه قال: يا مولانا، أين عمر بن الخطاب عن هذا الحديث وقد أغضبها وآذاها ؟ فقال الإمام رحمه الله: ما أغضبها ولا آذاها عمر، ولكن هذا والله وأشباهه من أكاذيب الروافض على عمر رضى الله عنه. ثم التفت الإمام إلى الفقيه صالح وقال: ما تقولون ؟ فقال الفقيه: هذا الحديث له أول، وهو وارد عنه عليه الصلاة والسلام بسبب وقصة. وأورد الحديث وقصته هذه المذكورة. فرحم الله من سلف، وأبقى لنا الفقيه فهو خير خلف. انتهى.

وروى الإمام أحمد، والبيهقى فى « الشعب » عن ثوبان رضى الله تعالى عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر: آخر عهده إتيان فاطمة، وأول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة(١). وروى أبو عمر عن أبى ثعلبة: كان عليه الصلاة والسلام إذا قدم من سفر أو غزو بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، ثم أتى فاطمة رضى الله عنها، ثم أتى أزواجه(٢). وروى أبو داود، والترمذى وحسنه، والنسائى، عن عائشة رضى الله تعالى عنها، قالت: ما رأيت أحدًا أشبه سمتًا ولا هديًا ولا حديثًا برسول الله ﷺ فى قيامها وقعودها من فاطمة(٣). وروى ابن حبان عنها أيضًا: ما رأيت أحدًا أشبه كلامًا

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٥) من حديث ثوبان.
(٢) أخرجه ابن عبد البر في « الاستيعاب » (٤/ ٤٤٩) من حديث أبي ثعلبة الخشني.
(٣) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٩٤٧، ٩٧١) وأبو داود (٤/ ٣٥٥) كتاب الأدب: باب ما جاء في القيام حديث (٥٢١٧)، والترمذي (٥/ ٧٠٠) كتاب المناقب: باب فضائل =

برسول الله ﷺ من فاطمة رضى الله عنها، إذا دخل ﷺ عليها قامت إليه فقبلته، وأخذت بيده وأجلسته مكانها. فدخلت عليه فى مرضه الذى توفى فيه فأسرَّ إليها فبكت، ثم أسر إليها فضحكت. فقلت: كنت أحسب أن هذه المرأة فضلى على النساء، فإذا هى امرأة منهن، بينا هى تبكى إذا هى تضحك. فلما توفى رسول الله ﷺ سألتها عن ذلك فقالت: أسرَّ إلى أنه ميت فبكيت، ثم أسر إلى أنى أول أهله لحوقًا به فضحكت[١]. وروى الطبرانى برجال الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « إن ملكًا فى السماء لم يكن زارنى فاستأذن ربه فى زيارتى، فبشرنى وأخبرنى أن فاطمة سيدة نساء أمتى »[٢]. وروى عن عائشة رضى الله عنها: ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها[٣]. وروى أبو يعلى برجال الصحيح عن[٤] عائشة أيضًا قالت: ما رأيت أحدًا كان أصدق لهجة من فاطمة رضى الله عنها إلا أن يكون والدها.

وروى أبو يعلى برجال الصحيح، وابن أبى شيبة عن على رضى الله عنه قال: قلت لأمى فاطمة بنت أسد: أكفى فاطمة بنت محمد سقاية الماء والذهاب فى الحاجة، وتكفيك خدمة الداخل، الطحن والعجن[٥]. وروى الطبرانى عن عمران ابن الحصين رضى الله عنه قال: إنى جالس عند رسول الله ﷺ إذ أقبلت فاطمة فقامت بحذاء النبى ﷺ فقال لها رسول الله ﷺ: ادني يا فاطمة. فدنت دنوة. ثم قال: ادني يا فاطمة. فدنت دنوة. ثم قال: ادني يا فاطمة. فدنت حتى قامت بين

= فاطمة بنت محمد ﷺ حديث (٣٨٧٢)، والنسائي في « فضائل الصحابة » (٢٦٤) من طريق عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(١) هو جزء من الحديث السابق.

(٢) ذكره الهندي في « كنز العمال » (٣٤٢٧٤) وعزاه للطبراني وابن النجار عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٧٢١) من طريق روح بن القاسم عن عمرو بن دينار قال: قالت عائشة فذكرته وقال الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٢٠٤): رجاله رجال الصحيح قلت: عمرو بن دينار لم يسمع من عائشة.

(٤) أخرجه أبو يعلى (٨/ ١٥٣) رقم (٤٧٠٠) وذكره الحافظ في المطالب (٣٩٨٦) وعزاه لأبي يعلى.

(٥) ذكره الصالحي في « سبل الهدى والرشاد » (١١/ ٤٧) وعزاه إلى أبي يعلى وابن أبي شيبة وذكره أيضًا الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٢٥٩) وقال: ورجاله رجال الصحيح.

يديه. قال عمران: فرأيت صفرة قد ظهرت على وجهها وذهب الدم، فبسط رسول الله ﷺ بين أصابعه، ثم وضع كفه بين ترائبها ورفع رأسه فقال: اللهم مشبع الجوعة، وقاضى الحاجة، ورافع الضيقة، لا تجع فاطمة بنت محمد. قال عمران: فرأيت صفرة الجوع قد ذهبت عن وجهها وظهر الدم، ثم سألتها بعد ذلك فقالت: ما جعت بعد ذلك(١).

وروى الإمام أحمد بسند جيد عن على رضى الله عنه: أنه قال لفاطمة رضى الله عنها ذات يوم: لقد سنوتُ حتى اشتكيت صدرى، وقد جاء أباك سبى، فاذهبى فاستخدميه. فقالت: وأنا والله لقد طحنت حتى مجلت يدى. فأتت رسول الله ﷺ فقال: ما جاء بك، أى بنية ؟ قالت: جئت لأسلم عليك. فاستحيتْ أن تسأله ورجعت. فقال لها على: ما فعلت ؟ قالت: استحييت أن أسأله. فأتيا جميعًا رسول الله ﷺ فقال على: يارسول الله، لقد سنوت حتى اشتكيت صدرى، وقالت فاطمة: يارسول الله، لقد طحنت حتى مجلت يدى، وقد جاءك الله بسبى وسعة، فأخدمنا. فقال: والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم، فرجعا، فأتاهما رسول الله ﷺ وقد دخلا فى قطيفتهما إذا غطيت رءوسهما تكشف أقدامهما، وإذا غطيت أقدامهما تكشف رءوسهما، فقال: مكانكما. ثم قال: ألا أخبركما بخير مما سألتما ؟ قالا: بلى. قال: « كلمات علمنيهن جبريل قال: تسبحان دبر كل صلاة عشرًا وتحمدان عشرا وتكبران عشرًا، فإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثا وثلاثين واحمدا ثلاثًا وثلاثين وكبرا أربعًا وثلاثين »(٢).

وروى الطبرانى بسند حسن عن فاطمة رضى الله تعالى عنها: أن رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٩٩٩) من طريق مسهر بن عبد الملك قال: نا عتبة أبو معاذ البصري عن عكرمة عن عمران بن حصين به وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن عكرمة إلا عتبة أبو معاذ تفرد به مسهر بن عبد الملك ولا يروى عن عمران بن حصين إلا بهذا الإسناد. أهـ وقال الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٢٠٦-٢٠٧): وفيه عتبة بن حميد وثقه ابن حبان وغيره وضعفه جماعة وبقية رجاله وثقوا. وينظر مجمع البحرين (٣٨١٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٧٩، ٨٤، ٩٣، ١٠٨)، والحميدي (٤٤)، والنسائي (٦/ ١٣٥) مختصرًا، وكذا ابن ماجه (٤١٥٢) من طريق عطاء بن السائب عن أبيه عن علي وجوّد إسناده الصالحي في « سبل الهدى الرشاد » (١١/ ٤٨).

أتاها فقال: أين ابناى ؟ يعنى حسنًا وحسينًا. قالت: أصبحنا وليس فى بيتنا شىء يذوقه ذائق. فقال على: أذهب بهما فإنى أخاف أن يبكيا عليك وليس عندك شىء، فأخذهما فذهب بهما إلى فلان اليهودى. فتوجه إليه رسول الله ﷺ فوجدهما فى مربدٍ بين أيديهما فضل من تمر، فقال رسول الله ﷺ: ألا تقلب ابنى قبل أن يشتد الحر ؟ قال على: أصبحنا وليس فى بيتنا شىء، فلو جلستَ يارسول حتى أجمع لفاطمة تمرًا. فكان يجمع لها بعمله فى كل دلو يمتحه تمرة. فجلس رسول الله ﷺ حتى اجتمع لفاطمة شىء من التمر، فجعله علىّ فى حجزته. ثم أقبل فحمل النبىُ - ﷺ أحدهما، وحمل علىٌ الآخر حتى أقبلا بهما[1].

وروى الإمام أحمد عن أنس رضى الله عنه: أن بلالاً - رضى الله عنه - أبطأ عن صلاة الصبح، فقال له رسول الله ﷺ: ما حبسك ؟ قال: مررت بفاطمة وهى تطحن والصبى يبكى فقلت: إن شئت كفيتك الرحى وكفيتنى الصبى، وإن شئت كفيتك الصبى وكفيتنى الرحى. فقالت: أنا أرفق بابنى منك، فذاك الذى حبسنى[2].

وروى البزار، وتمام في فوائده، والطبراني، وابن عدى، والعقيلي، والحاكم، عن ابن مسعود، وابن شاهين، وابن عساكر من طريق آخر عنه[3]، والطبرانى فى « الكبير » بسند رجاله ثقات، عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: « فاطمة أحصنت فرجها فحرمها الله عزَّ وجل وذريتها على النار »[4] زاد

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٤٢٢) رقم (١٠٤٠) وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٣١٩) وقال: وإسناده حسنٌ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٠-١٥١) من حديث أنس بن مالك.

(٣) أخرجه البزار والطبراني كما في « المجمع » (٩/ ٢٠٥)، والعقيلي في « الضعفاء الكبير » (٣/ ١٨٤)، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ١٧١٤)، والحاكم (٣/ ١٥٢)، وابن حبان في « المجروحين » (٢/ ٨٨) وابن الجوزي في « الموضوعات » (٧٨١، ٧٨٢) كلهم من طريق عمر بن غياث عن عاصم عن زر عن عبد الله، به. وقال الهيثمي في « المجمع »: وفيه عمر ابن غياث وهو ضعيف وحكم عليه ابن الجوزي بالوضع وصححه الحاكم فتعقبه الذهبي فقال: بل ضعيف وقد توبع عمر على هذا الحديث تابعه تليد بن سليمان أخرجه ابن شاهين وابن عساكر كما في « تنزيه الشريعة » (١/ ٤١٧) وهو ضعيف رافضى.

(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٦٣) رقم (١١٦٨٥) بلفظ: إن الله غير معذبك ولا ولدك وقال الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٢٠٥): رواه الطبراني ورجاله ثقات. وتعقبه الألباني في « الضعيفة » (٤٥٧).

العقيلى: قال أبو كريب: « هذا للحسن والحسين ولمن أطاع الله منهم »[١] وفى لفظ: « إن الله عز وجل غير معذبك ولا ولدك »[٢]. وروى الخطيب البغدادى أن الإمام على بن موسى الرضا سئل عن هذا الحديث فقال: هذا خاص بالحسن والحسين. قال العلامة محمد الشامى: الصواب أن هذا الحديث سنده قريب من الحسن، والحكم عليه بالوضع غلط[٣]. وروى تمام والحاكم والطبرانى عن على رضى الله عنه[٤]، وأبو بكر الشافعى عن أبى هريرة[٥]، وتمام عن أبى أيوب[٦]، وأبو الحسين بن بشران والخطيب عن عائشة[٧] والأزدى عن أبى سعيد[٨] رضى الله تعالى عنهم بأسانيد ضعيفة إذا انضم بعضها إلى بعض أفاد قوة: أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) ينظر: الضعفاء الكبير (٣/ ١٨٤).

(٢) هذا لفظ حديث ابن عباس وقد تقدم تخريجه في فضائل العباس.

(٣) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٥٠).

(٤) أخرجه تمام الرازي في « فوائده » (١٤٩١-الروض البسام) والحاكم (٣/ ١٥٣) كلاهما من طريق العباس بن الوليد بن بكار عن خالد الواسطي عن بيان عن الشعبي عن أبي جحيفة عن علي وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي فقال: لا والله بل موضوع والعباس قال الدارقطني كذاب وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٢٩) من هذا الطريق وقال: قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به، وقال الدارقطني: كذاب. وقد توبع العباس على هذا الحديث تابعه عبد الحميد بن بحر أخرجه الحاكم (٣/ ١٦١)، والطبراني في الأوسط (٢٣٨٦). وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قلت: عبد الحميد بن بحر، ضعفه الدارقطني، وقال ابن حبان وابن عدي: يسرق الحديث، اللسان (٣/ ٣٩٥). وقال الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٢١٥) وفيه عبد الحميد بن بحر وهو ضعيف.

(٥) أخرجه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » كما في اللآلئ (١/ ٤٠٣) وفي إسناده عمرو بن زياد الشوباني قال ابن عدي: يسرق الحديث ويحدث بالبواطيل وكذبه أبو زرعة وقال الدارقطني: يضع الحديث وهذا الحديث ذكره الذهبي في « الميزان » (٥/ ٣١٦) وقال: فواضعه عمرو وتبعه الحافظ في اللسان (٤/ ٤١٨).

(٦) أخرجه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » كما في اللآلئ (١/ ٤٠٣) حدثنا محمد بن يونس ثنا حسين الأشقر ثنا قيس بن الربيع عن سعد بن طريف عن الأصبغ بن نباتة عن أبي أيوب به وقال السيوطي: محمد بن يونس هو الكديمي وهو والثلاثة فوقه متروكون.

(٧) أخرجه الخطيب في « تاريخه » (٨/ ١٤١) وابن بشران في فوائده كما في اللآلئ (١/ ٤٠٣) وفي إسناده الحسين بن معاذ بن حرب وقد اضطرب في إسناده وينظر اللسان(٢/ ٣٥٨-٣٥٩).

(٨) أخرجه الأزدي في الضعفاء كما في « اللآلئ » (١/ ٤٠٤) من طريق داود بن إبراهيم العقيلي عن خالد بن عبد الله الطحان عن الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال السيوطي: قال الأزدي داود مجهول.

« إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من بطنان العرش: يأيها الناس - وفى لفظ: يأهل الجمع - غضوا أبصاركم ونكسوا رءوسكم حتى تجوز فاطمة بنت محمد ﷺ إلى الجنة ». وفى لفظ: « حتى تمر على الصراط، فتمر وعليها ريطتان خضراوتان »(١).

ذكر أولادها رضى الله تعالى عنها وعنهم: قال الليث بن سعد رحمه الله تعالى: تزوج على

فاطمة رضى الله تعالى عنهما فولدت له حسنًا وحسينًا ومحسِّنا - بميم مضمومة فحاء مهملة فسين مشددة مكسورة - وزينب وأم كلثوم ورقية وقال: ماتت صغيرة دون البلوغ(٢).

وسيأتى ذكر الحسن فى خلافته، وذكر الحسين فى خلافة يزيد بن معاوية إن شاء الله تعالى. وأما محسِّن فمات صغيرًا. وكلهم ولدوا قبل وفاته عليه الصلاة والسلام.

وتزوجت زينب بنت فاطمة ابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وماتت عنده، وقد ولدت له عليًا وعونًا وجعفرا وعباسًا وأم كلثوم. قال الشامى فى سيرته: أولاد زينب المذكورة من عبد الله بن جعفر موجودون بكثرة، العقب منه فى على وأخته أم كلثوم، ابنى عبد الله بن جعفر، ويقال لمن ينسب لهؤلاء: جعفرى.

ولا ريب أن لهؤلاء شرفًا، وتكلم عليهم من عشرة أوجه: الأول: أنهم من آل النبى وأهل بيته بالإجماع، لأن آله هم المؤمنون من بنى هاشم والمطلب. الثانى: أنهم من ولده وذريته بالإجماع. الثالث: أنهم يشاركون الحسن والحسين وينسبون إلى النبى ﷺ وفرق بين من يسمى ولد النبى وبين من ينسب إليه.

الرابع: هل يطلق عليهم أشراف ؟ والجواب الشرف على اصطلاح أهل مصر يطلق على أنواع: عام لجميع أهل البيت وخاص بالذرية، فيدخل فى الأول الزينبيون، والثانى وهو أخص منه شرف النسبة، وهو مختص بالحسن والحسين.

الخامس: تحرم عليهم الصدقة بالإجماع لأن بنى جعفر من الآل. السادس: يستحقون سهم ذوى القربى بالإجماع.

---

(١) هذا لفظ الحاكم وقد تقدم تخريجه.

(٢) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٥٠-٥١).

السابع: يستحقون من وقف بركة الحبش بالإجماع لأن نصفها وقف على الأشراف، وهم أولاد الحسن والحسين، ونصفها على الطالبيين، وهم ذرية على بن أبى طالب: محمد ابن الحنفية وإخوته جعفر بن أبى طالب وذرية عقيل بن أبى طالب، وثبت هذا الوقف على هذا الوجه عند قاضى القضاة بدر الدين بن يوسف السنجارى ثانى عشر ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة، ثم اتصل ثبوته عند شيخ الإسلام العز بن عبد السلام فى تاسع عشر ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم اتصل ثبوته عند قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة، ذكر ذلك ابن المتوج فى كتابه « إيقاظ المتأمل ».

الثامن: هل يلبسون العلامة الخضراء ؟ الجواب: لا يمنع منها من أرادها من شريف أو غيره، يعنى من المذكورين، ولا يؤمر بها من تركها من شريف أو غيره؛ لأنها إنما حدثت سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بأمر الملك الأشرف شعبان بن حسن ابن محمد بن قلاوون ملك مصر، أقصى ما يكون أنه أحدث التميز بها لهؤلاء من ذرية الحسن والحسين عن غيرهم، وقد يستأنس لاختصاصها بهم بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب: ٥٩] فقد استدل بها بعض العلماء على تخصيص أهل العلم بلباس يختصون به من تطويل وإدارة طيلسان ونحو ذلك ليعرفوا فيجلوا تكريمًا للعلم ويسألوا ويمتثل قولهم؛ إذ عظم الهيئة له دخل أى دخل، وهذا وجه حسن والله أعلم.

التاسع: هل يدخلون فى الوصية على الأشراف أم لا ؟ .

العاشر: هل يدخلون في الوقف على الأشراف أم لا ؟ الجواب: إن وجد من الموصى والواقف نصٌ يقتضى دخولهم أو خروجهم اتبع، وإلا فقاعدة الفقه أن الوصية والوقف ينزلان على عرف البلد، وعرف مصر - من عهد الخلفاء الفاطميين إلى الآن - أن الأشراف لقب لكل حسنى وحسينى فلا يدخلون على مقتضى هذا العرف، وإنما دخلوا فى وقف بركة الحبش لأن واقفها نصَّ على أن نصفها على الأشراف ونصفها على الطالبيين(١).

ولم يكن لرسول الله ﷺ عقب إلا من ابنته فاطمة رضى الله عنها، فانتشر نسله الشريف منها من جهة السبطين الحسن والحسين فقط، ويقال للمنسوب لأولهما

---

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٥١-٥٢).

حسنى ولثانيهما حسينى، وقد يضم للحسينى من يكون من ذرية إسحاق بن جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب الإسحاقى، فيقال: الحسينى الإسحاقى، وإن إسحاق هذا هو زوج السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على، ويقال: بنت زيد بن الحسن، فالحسن أخوها لا أبوها والأكثرون على الأول، ولد له منها القاسم وأم كلثوم ولم يعقب.

وأما الجعافرة المنسوبون إلى عبد الله بن جعفر، فلهم - أيضًا - شرف لكنه يتفاوت، فمن كان منهم من زينب بنت فاطمة الزهراء رضى الله عنها فهو الشرف، ومن كان من ولده من غيرها، مع كون من كان من زينب لا يوازون شرف المنسوبين للحسن والحسين لمزيد شرفهما. وكذا يوصف العباسيون بالشرف لشرف بنى هاشم. قال الحافظ ابن حجر فى « الألقاب »: وقد لقب به - يعنى الشرف - كل عباسى ببغداد وعلوى بمصر. وفى شيوخ ابن الرفعة شخص يقال له: الشريف العباسى.

وأما أم كلثوم فتزوجها عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكانت صغيرة دون البلوغ حال خطبتها، روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه جاء إلى على - رضى الله عنه وكرم وجهه - فى عدة من المهاجرين والأنصار يخطب ابنته أم كلثوم فقال: أما والله ما بى من توقٍ إلى شهوة، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « كل نسب وسبب وصهر منقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى وصهرى »؛ فأحببت أن آخذ بمصاهرة رسول الله ﷺ فقال له على رضى الله عنه: إنها صغيرة. فقال: قد قبلت. فزوجه بها. فأرسلها على رضى الله عنه ذات يوم إلى عمر رضى الله عنه بقطيفة فقالت له: يقول لك أبى انظر إلى هذه القطيفة. فلما أقبلت إلى عمر وأخبرته بما قال لها أبوها وأرته القطيفة، قال عمر: قولى لأبيك قد رأينا وقبلنا. ثم إنه لمس ساقها فنهرته، وأتت إلى أبيها غضبى وقالت: أرسلتنى إلى شيخ مجنون لمس ساقى، والله لولا أنه أمير المؤمنين لهشمت أنفه. فقال لها: إنه زوجك، فقد زوجتك إياه. وأرسل لها عمر أربعين ألفًا مهرًا وبنى بها رضى الله عنه، وقتل عنها بعد أن ولدت له زيدًا الأكبر ورقية[1]. فأما زيد الأكبر فعاش إلى أن ارتحل، فرمى فى حنين بحجر مات به،

---

(١) أخرجه ابن عدي في « الكامل » (١/ ٢٧٢) مختصرًا دون ذكر القصة، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/ ١٨٢) من طريق إبراهيم بن رستم ثنا الليث بن سعد حدثني موسى بن علي =

أصابه به خالد بن أسلم مولى أبيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطأ، ولم يترك عقبًا. كذا فى « الجمع الغريب »(١).

وأما رقية فتزوجها إبراهيم بن نعيم النحام وماتت عنده وليس لها عقب. قال فى « وسيلة المآل » قال ابن إسحاق: حدثنى والدى إسحاق، حدثنى بشار، عن الحسن المثنى ابن الحسن السبط قال: لما تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخل عليها أخواها الحسن والحسين فقالا لها: أنت كما عرفت بنت سيدة نساء العالمين، وإنك والله إن أمكنت عليًا لينكحنك بعض أبنائه، وإن أردت أن تصيبى بنفسك مالاً عظيمًا لتصيبينه. فوالله ما قاما حتى دخل على رضى الله عنه على فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر منزلتهم من رسول الله ﷺ فقالوا: صدقت رحمك الله وجزاك عنا خيرًا. ثم قال: أى بنية، إن الله قد جعل أمرك بيدك، فأنا أحب أن تجعليه بيدى. فقالت: أى أبت، إنى والله امرأة أرغب فيما ترغب فيه النساء، وأحب أن أصيب ما تصيب النساء من الدنيا، وإنى أريد أن أنظر فى أمر نفسى. فقال: لا والله يا بنتى ما هذا من رأيك، ما هو إلا رأى هذين. ثم قام فقال: والله لا أكلم أحدًا منهما أو تفعلين. فأخذا بثيابه وقالا: اجلس يا أبت، فوالله ما على هجرتك من صبر، اجعلى أمرك بيده. فقالت: قد جعلت. فقال: قد زوجتك من عون بن جعفر - يعنى ابن أخيه - وإنه لغلام. ثم رجع على رضى الله عنه إلى بيته وبعث إليها بأربعة آلاف درهم، وبعث إلى ابن أخيه عون فأدخلها عليه(٢). قال راويه الحسن بن الحسن: فوالله ماسمعت بمثل عشق منها له منذ خلقنى الله عز وجل، فهلك عنها، فزوجها والدها على رضى الله عنه من أخى عون بن جعفر، محمد بن جعفر، فولدت له جارية ماتت صغيرة ثم هلك عنها، ثم زوجها من أخيهما عبد الله بن جعفر، فماتت عنده ولم تلد له شيئًا فلا عقب لها.

= ا بن رياح عن أبيه عن عقبة بن عامر به وقال ابن عدي: إبراهيم ليس بمعروف منكر الحديث عن الثقات وللحديث شواهد وطرق كثيرة أتى عليها الشيخ الألباني وينظر الصحيحة (٢٠٣٦).

(١) ينظر الاستيعاب (٤/ ٥١٠)، وأسد الغابة (٧/ ٣٧٨)، والإصابة (٨/ ٤٦٤-٤٦٦).

(٢) أخرجه ابن الأثير في « أسد الغابة » (٧/ ٣٧٨)، وأبو بشر الدولابي في « الذرية الطاهرة » كما في الإصابة (٨/ ٤٦٥) من طريق ابن إسحاق.

وكان موتها هى وولدها من عمر المسمى زيدًا الأكبر، المقتول خطأ بيد خالد بن أسلم مولى زوجها عمر - رضى الله عنه - فى وقت واحد، وصلى عليهما ابن عمر، قدَّمه الحسن بن على، وكان فيهما سنّتان: إحداهما عدم توريث أحدهما من الآخر، والأخرى تقديم زيد على أمه مما يلى الإمام، حكاه أبو عمر(١). قلت: لا يشكل على قوله « صلى عليهما » ما تقدم من أن زيدًا رمى فى حنين خطأ؛ لجواز تأخر موته به إلى وقت موت أمه. والله أعلم.

رأيت فى « تاريخ ابن السبكى » فى حوادث سنة ست وخمسين وثلاثمائة قال: استهلت والخليفة المطيع لله العباسى والسلطان معز الدولة أحمد بن بويه الديلمى، وعملت الروافض فى يوم عاشوراء بدعتهم الشنعاء وداهيتهم الصلعاء، من تغليق الدكاكين، وتعليق المسوح السود، ونشر النتن فى الأسواق والجيف، وخروج النساء حاسرات عن وجوههن وصدورهن ينحن على الحسين. ولما كان ثالث عشر ربيع الأول توفى معز الدولة بعلة الذرب، وصار لايثبت فى معدته شىء بالكلية، ولما أحس بالموت أظهر التوبة عن سب الشيخين، وأناب إلى الله عز وجل، وردَّ كثيرًا من المظالم، وتصدق بكثير من أمواله وأعتق خلقًا كثيرًا من مماليكه، وعهد إلى ابنه بختيار عز الدولة بن معز الدولة، وسببه أنه كان قد اجتمع ببعض العلماء فكلمه فى السنّة والترضى، وأخبره أن عليًا زَوَّجَ ابنته أم كلثوم من عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال: والله ما سمعت بهذا قط ! ورجع إلى السنّة والترضى ومتابعة الأمة بذلك.

ذكر وفاة فاطمة رضى الله عنها: روى بأسانيد رجالُ أحدها رجال الصحيح، عن عائشة رضى الله تعالى عنها، قالت: توفيت فاطمة بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة، ودفنها على بن أبى طالب ليلاً(٢). وروى الطبرانى برجال الصحيح - إلا أن جعفرًا لم يدرك القصة ففيه انقطاع - عن جعفر بن محمد بن على - رضى الله عنهم - قال: مكثت فاطمة بعد رسول الله ﷺ ثلاثة أشهر، وما رؤيت ضاحكة بعد رسول الله ﷺ إلا أنهم

(١) ينظر: الاستيعاب (٤/ ٥١٠).
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٩٨-٣٩٩) رقم (٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤) وذكره الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٢١٤) وقال: رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدهما رجال الصحيح.

امتروا فى طرف نابها[(١)]. وروى الطبرانى عن عبد الله بن محمد بن عقيل منقطعًا - لأن عبد الله لم يدرك القصة - أن فاطمة رضى الله تعالى عنها لما حضرتها الوفاة أمرت عليًا فوضع لها، فاغتسلت وتطهرت، ودعت بثياب أكفانها ثياب غلاظ خشن، فلبستها ومست من حنوط، ثم أمرت عليًا ألاَّ تكشف إذا قبضت، وأن تدرج كما هى[(٢)]. وروى الإمام أحمد بسند فيه من لا يعرف عن أم سلمة قالت: اشتكت فاطمة بنت رسول الله ﷺ شكواها التى قبضت فيها فكنت أمرِّضها، فأصبحت يومًا كأمثل ما رأيتها فى شكواها، قالت: وخرج على لبعض حاجة فقالت: يا أمه، اسكبى لى غسلاً فسكبت لها غسلاً فاغتسلت كأحسن ما رأيتها تغتسل. ثم قالت: يا أمه، أعطينى ثيابى الجدد فأعطيتها فلبست. ثم قالت: يا أمه، قدمى فرشى وسط البيت ففعلت، فاضطجعت واستقبلت القبلة وجعلت يدها تحت خدها ثم قالت: يا أمه، إنى مقبوضة الآن وقد تطهرت فلا يكشفنى أحد. فقبضت مكانها. فجاء علىٌّ فأخبرته بالذى قالت وبالذى أمرتنى، فقال على رضى الله تعالى عنه: والله لا يكشفها أحد، فاحتملها فدفنها بغسلها ذلك ولم يكشفها ولا غسلها أحد[(٣)].

وروى أبو نعيم عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ: أنها قالت لأسماء بنت عميس: يا أسماء، إنى قد استقبحت هذا الذى يصنع بالنساء، يطرح على المرأة الثوب فيصفها. قالت أسماء: يابنة رسول الله، ألا أريك شيئًا رأيته بالحبشة ؟ فدعت بجريد رطب فحنته[(٤)] ثم ألقت عليه ثوبًا فقالت فاطمة: ما أحسن هذا [وأجمله][(٥)]؛ تعرف به المرأة من الرجل، فإذا أنا مت فغسلينى أنت وعلى، ولا يدخل علىَّ أحد، ثم اصنعى بى هكذا. فلما توفيت صنع بها ما أمرت به بعد أن غسلتها أسماء وعلي[(٦)].

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٣٩٩) رقم (٩٩٥) من طريق عبد الرزاق عن ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي جعفر.

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٣٩٩) رقم (٩٩٦)، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/ ٢١٤) وقال: وعبد الله بن محمد لم يدرك القصة فالإسناد منقطع.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٤٦١-٤٦٢) وذكره الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٢١٣-٢١٤) وقال رواه أحمد وفيه من لم أعرفه.

(٤) في السبل: بجرائد رطبة فحنتها.

(٥) المثبت من السبل.

(٦) ذكره الصالحي في « سبل الهدى والرشاد » (١١/ ٤٩-٥٠) وعزاه لأبي نعيم في الحلية.

وروى أنها لما توفيت - رضى الله عنها - جاءت عائشة - رضى الله عنها - تريد أن تدخل على غسلها فقالت لها أسماء: لا تدخلى. فرجعت إلى أبيها أبى بكر فشكت إليه وقالت: إن هذه الخثعمية - تعنى أسماء بنت عميس - تحول بينى وبين بنت رسول الله ﷺ وتمنع النساء أن يدخلن على بنت رسول الله ﷺ وجعلت لها مثل هودج العروس، فقالت أسماء: أمرتنى ألاَّ يدخل عليها أحد، وأريتها هذا الذى صنعته وهى حية فأمرتنى أن أصنع ذلك لها. فقال أبو بكر رضى الله عنه: اصنعى ما أمرتك به. ثم انصرف. قلت: حديث أسماء هذا مضاد لحديث أم سلمة وفيه من لا يعرف كما ذكره الأئمة النقاد. والله أعلم.

وتوفيت وسنها ثمان وعشرون سنة، كذا فى « الصفوة ». وفى « ذخائر العقبى »: تسع وعشرون سنة. وقال عبد الله بن حسن بن على بن أبى طالب: ابنة ثلاثين سنة. وقال الكلبى: ابنة خمس وثلاثين سنة. ومنشأ هذا الاختلاف الاختلافُ فى مولدها: هل كان قبل النبوة أو بعدها ؟ وقد علمت أن الأصح من مولدها أنه كان قبل النبوة بخمس سنين حال بناء قريش الكعبة وسنه عليه الصلاة والسلام إذ ذاك خمس وثلاثون سنة، وماتت سنة إحدى عشرة من الهجرة فى رمضان كما تقدم، فتكون سنها حين ذلك تسعًا وعشرين على ماذكره صاحب « ذخائر العقبى ».

وعن مالك، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده على بن الحسين قال: ماتت فاطمة بين المغرب والعشاء فحضرها أبو بكر وعمر وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف، فلما وضعت ليصلى عليها قال على: تقدم يا أبا بكر، قال أبو بكر: وأنت شاهد يا أبا الحسن ؟ قال: نعم تقدم، فوالله لا يصلى عليها غيرك. فصلى عليها أبو بكر، ودفنت ليلاً. أخرجه البصرى، وابن السمان فى « الموافقة »(١).

وهذا مغاير لما جاء فى الصحيح أن عليا لم يبايع أبا بكر حتى ماتت فاطمة(٢)، وجريان هذا مع عدم المبايعة يبعد فى الظاهر والغالب. وإن جاز أن يكونوا لما سمعوا بموتها حضروها، فاتفق ذلك ثم بايع بعده، كذا فى « الرياض النضرة ».

(١) قد رواه عن مالك بعض المتروكين كما قال الحافظ في الإصابة (٨/ ٢٦٧). وقال: ووهاه الدارقطني وابن عدي.
(٢) أخرجه مسلم رقم (١٧٥٩).

وأما موضع قبرها رضى الله عنها فذكره الحافظ أبو عمر بن عبد البر: أن الحسن لما توفى دفن إلى جانب أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ [١]، وقبر الحسن معروف بجنب قبر العباس. ويذكر لفاطمة ثمة قبر، فتكون على هذا مع الحسن فى قبة العباس، فينبغى أن يسلم عليها هنالك. وروى أن أبا العباس المرسى كان إذا زار البقيع وقف أمام قبة العباس، وسلم على فاطمة رضى الله عنها. ويذكر أنه كشف له عن قبرها ثمة. وعن عبد الرحمن بن جعفر بن محمد أنه كان يقول: قبر فاطمة بيتها الذى أدخله عمر بن عبد العزيز فى المسجد[٢].

مروياتها فى كتب الأحاديث ثمانية عشر حديثًا، المتفق عليه منها واحد، والباقى فى سائر الكتب. رضى الله تعالى عنها

* * *

(١) ينظر الاستيعاب (١/ ٤٤٢).
(٢) وفي تحديد مكان قبرها -رضي الله عنها- أقوال أخرى وينظر الإصابة (٨/ ٢٦٨).

فهرس موضوعات الجزء الأول

* * *

سمط النجوم العوالي
في أنباء الأوائل والتوالي

تأليف
عبد الملك بن حسين بن عبد الملك
الشافعي العاصمي المكي
المتوفى سنة ١١١١هـ

تحقيق وتعليق
الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
الشيخ علي محمد معوض

الجزء الثاني

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2615-6

90000>

9 782745 126153

http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : baydoun@dm.net.lb

الباب السادس
من المقصد الثانى
فى ذكر مواليه وخدامه وكتابه وأمرائه ومؤذنيه وخطبائه وجداته وشعرائه وخيله وسلاحه وغنمه ولقاحه وما يتبع ذلك

أما مواليه ﷺ فمنهم: أسامة، حِبُّ رسول الله ﷺ، ابن زيد، وأبوه زيد بن حارثة، أعتقه عليه الصلاة والسلام وزوجه مولاته أم أيمن، واسمها بركة، فولدت له أسامة، وكان زيد قد أسر فى الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فاستوهبه عليه الصلاة والسلام منها. ذكر قصته محمد بن إسحاق فى السيرة(١)، وأن أباه وعمه أتيا مكة فوجداه، فطلبا أن يفدياه، فخيره النبى ﷺ بين أن يدفع لهما أو يبقى عنده، فاختار أن يبقى عنده عليه الصلاة والسلام. وفى رواية الترمذى قال: يارسول الله، لا أختار عليك أحدًا أبدًا. واستشهد فى غزوة مؤتة، رضى الله عنه.

ومات ابنه أسامة هذا بالمدينة - أو بوادى القرى - سنة أربع وخمسين(٢).

ومنهم: ثوبان، لازم رسول الله ﷺ، ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة أربع وخمسين(٣).

وأبو كبشة أوس - ويقال: سليم - من مولدى مكة، شهد بدرًا(٤).

ومنهم: شُقران - بضم الشين - واسمه صالح الحبشى، ويقال: فارسى، شهد بدرًا، وهو مملوك ثم عتق، قاله الحافظ ابن حجر. قال: وأظنه مات فى خلافة عثمان(٥).

---

(١) ينظر السيرة النبوية (١/ ٢٨٣) تاريخ الطبري (٢/ ٣١٤) نهاية الأرب (١٦/ ١٨٢) عيون الأثر (١/ ٩٤).

(٢) ينظر ترجمته في الاستيعاب (٢١) أسد الغابة (٨٤)، الإصابة (٨٩)، تهذيب التهذيب (١/ ٢٠٨)، الطبقات الكبرى (٤/ ٦١)، المعارف لابن قتيبة (١٤٤، ١٤٥، ١٦٤، ١٦٦).

(٣) ينظر: الثقات (١/ ٤٨)، تجريد أسماء الصحابة (١/ ٧٠)، تهذيب الكمال (١/ ١٧٦)، (٤/ ٤١٣)، حلية الأولياء (١/ ٣٥٠)، الجرح والتعديل (٢/ ٤٦٩)، مشاهير علماء الأنصار (٣٢٤).

(٤) ينظر: الاستيعاب (٣١٨٤)، أسد الغابة (٦١٩٥)، تلقيح فهوم أهل الأثر (٣٥)، تاريخ دمشق (٢/ ٣٠٥)، الإصابة (١٠٤٤٩).

(٥) ينظر: أسد الغابة ت (٢٤٤٦)، الاستيعاب ت (١٢٠٥)، الثقات (٣/ ١٨٩)، التقريب (١/ ٣٥٤)، تهذيب الكمال (٢/ ٥٨٧)، تجريد أسماء الصحابة (١/ ٢٥٩).

ومنهم: رباح - بفتح الراء وبالموحدة - الأسود، وكان يأذن عليه أحيانًا إذا انفرد، وهو الذى أذن لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى المشربة(١).

ويسار الراعى، وهو الذى قتله العرنيون(٢).

ومنهم: زيد، أبو يسار - وليس زيد بن حارثة والد أسامة - ذكره ابن الأثير(٣).

ومنهم: مِدعَم - بكسر الميم وفتح العين - عبد أسود كان لرفاعة بن زيد الضُّبَيبى - بضم الضاد - المعجمة وبالباء المفتوحة على صيغة التصغير - فأهداه رفاعة إلى رسول الله ﷺ(٤).

ومنهم: أبو رافع واسمه أسلم القبطى، وكان للعباس فوهبه للنبى ﷺ. فلما بشر النبى ﷺ بإسلام عمه العباس أعتقه. توفى قبل عثمان بيسير(٥).

ومنهم: ابن زيد الجذامى(٦).

ومنهم: سفينة بوزن كبيرة. واختلف فى اسمه فقيل: طهمان، وقيل: كيسان، وقيل: مهران. سماه رسول الله ﷺ سفينة لأنهم كانوا حملوه شيئًا كثيرًا فى السفر(٧).

ومنهم: مأبور القبطى، أخو مارية القبطية الذى أهدى إليه معها(٨).

ومنهم: واقد أو أبو واقد(٩).

ومنهم: سلمان الفارسى أبو عبد الله، ويقال له: سلمان الخير، أصله من

---

(١) ينظر: أسد الغابة ت (١٦٠٧)، الاستيعاب ت (٧٤٨) (٣/ ١٢٨)، تجريد أسماء الصحابة (١/ ١٧٥)، التحفة اللطيفة (٢/ ٥٤)، الطبقات الكبرى (٩/ ٦٦).

(٢) ينظر: تاريخ دمشق (٢/ ٢٩٧)، التلقيح (٣٥)، الإصابة (٩٣٦١).

(٣) ينظر: أسد الغابة (١٨٨٠)، والإصابة (٢٩٦٠).

(٤) ينظر: الاستيعاب (٢٥٦٧)، وأسد الغابة (٤٨١٣)، والإصابة (٧٨٧٣).

(٥) ينظر: تجريد أسماء الصحابة (١٦٤٢)، والاستيعاب (٢٩٨٩)، أسد الغابة (٥٨٧٤)، والإصابة (٩٨٨٨).

(٦) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٤٠٧).

(٧) ينظر: أسد الغابة ت (٢١٣١)، الاستيعاب (١١٤٠)، أنساب الأشراف (١/ ٤٩٠)، حلية الأولياء (١/ ٣٦٨)، تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٢٥). أما سبب تسميته بذلك فأخرجه أحمد (٥/ ٢٢٠، ٢٢١).

(٨) ينظر: أسد الغابة (٤٥٥٠)، تاريخ دمشق (٢/ ٢٩٠)، والإصابة (٧٥٩٧).

(٩) ينظر: الاستيعاب (٢٧٥٣) وأسد الغابة (٥٤٨٣)، وتجريد أسماء الصحابة (٢/ ١٢٦)، تاريخ دمشق (٢/ ٢٩٥)، والإصابة (٩١١٨).

« أصفهان »، وقيل: من « رامهرمز »، أول مشاهده الخندق، وهو المشير بعمله على رسول الله ﷺ مات سنة أربع وثلاثين، يقال: بلغ من العمر ثلاثمائة سنة(١).

ومنهم: سمعون بن زيد، قال ابن حجر: حليف الأنصار، ويقال: مولى رسول الله ﷺ. شهد فتح دمشق، وقدم مصر، وسكن بيت المقدس(٢).

ومنهم: أبو بكرة، نفيع بن الحارث(٣)، سمى بذلك لأنه تدلى ببكرة من حصن الطائف إلى النبى ﷺ بعد قوله ﷺ: « من نزل إلينا فهو حر »(٤).

ومن النساء: أم أيمن الحبشية(٥)، وسلمى أم رافع(٦)، ومارية(٧)، وريحانة(٨)، وسيرين أخت مارية(٩)، وغير ذلك.

قال ابن الجوزى: مواليه ثلاثة وأربعون، وإماؤه إحدى عشرة(١٠).

وأما خدامه ﷺ فمنهم: أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد، الأنصارى، الخزرجى، يكنى أبا حمزة(١١)، خدم النبى ﷺ تسع أو عشر سنين، ودعا له ﷺ

---

(١) ينظر: أسد الغابة ت (٢١٥٠)، الاستيعاب ت (١٠١٩)، الطبقات الكبرى (٤/ ٥٤)، طبقات خليفة (٧/ ١٨٩)، الجرح والتعديل (٤/ ٢٩٦، ٢٩٧)، تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٢٦-٢٢٨)، دول الإسلام (١/ ٣١، ٣٤٤).

(٢) ينظر: أسد الغابة ت (٢٤٥٠)، الاستيعاب ت (١٢٠٩)، الثقات (٣/ ١٨٩)، تهذيب الكمال (٢/ ٥٨٨)، تجريد أسماء الصحابة (١/ ٢٥٩)، الطبقات الكبرى (١/ ٥٣).

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى (٧/ ١٥)، التاريخ الكبير (٨/ ١١٢)، طبقات خليفة (٥٤)، الثقات لابن حبان (٣/ ٤١١)، أنساب الأشراف (١/ ٤٩٠)، البداية والنهاية (٨/ ٥٧).

(٤) سيأتي في غزوة الطائف.

(٥) ينظر: أسد الغابة ت (٧٣٧١)، الاستيعاب ت (٣٥٧٩)، تجريد أسماء الصحابة (٢/ ٣١٣)، الكاشف (٣/ ٤٨٥)، تهذيب الكمال (٣/ ١٧٠٠)، الجرح والتعديل (٩/ ٤٦١)، العبر (١/ ١٣).

(٦) ينظر: أسد الغابة ت (٧٠٠٥)، تاريخ دمشق (٢/ ٣١٢)، الإصابة (١١٣٣١).

(٧) ينظر: الاستيعاب (٣٥٤٣)، أسد الغابة (٧٢٧٦)، الإصابة (٧٢٧٦).

(٨) ينظر: الاستيعاب (٣٣٩٦)، أسد الغابة (٦٩٤٢)، الإصابة (١١٢٠٣).

(٩) ينظر: الثقات (٣/ ١٨٥)، أعلام النساء (٢/ ٢٧٨)، تجريد أسماء الصحابة (٢/ ٢٨٠)، الاستيعاب (٣٤٤٣)، أسد الغابة (٧٠٤٠)، الإصابة (١١٣٦٦).

(١٠) ينظر: تلقيح فهوم أهل الأثر (٣٤-٣٥).

(١١) ينظر: الطبقات الكبرى (٧/ ١٧)، المعرفة والتاريخ (١/ ٥٠٦)، الأخبار الطوال (١١٨)، الثقات (٣/ ٤)، رجال صحيح البخاري (١/ ٨٦)، رجال صحيح مسلم (١/ ٦٥)، مروج الذهب (١٧٥٦)، عيون الأخبار (١/ ٢٤٦).

فقال: « اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة »[1]. فقيل: بلغت أولاده المائة. قال أبو هريرة: ما رأيت أحدًا أشبه صلاة برسول الله ﷺ منه. توفى سنة ثلاث وتسعين - وقيل: اثنتين، وقيل: إحدى - وقد جاوز مائة سنة.

ومنهم: ربيعة بن كعب الأسلمى، صاحب وضوئه عليه الصلاة والسلام، توفى سنة ثلاث وستين[2].

ومنهم: أيمن بن أم أيمن، صاحب مطهرته ﷺ استشهد يوم حنين[3].

ومنهم: عبد الله بن مسعود بن غافل - بالغين والفاء - ابن حبيب الهذلى، أحد السابقين الأولين شهد بدرًا والمشاهد كلها، كان صاحب وسادة رسول الله ﷺ وسواكه ونعليه وطهوره، كان يلى ذلك كله، وكان إذا قام النبى ﷺ ألبسه نعليه، وإذا جلس جعلهما فى ذراعه حتى يقوم. وكان قصيرًا طوله ذراع، توفى بالمدينة، وقيل: بالكوفة سنة اثنتين وثلاثين، وقيل: سنة ثلاث[4].

ومنهم: عقبة بن عامر بن قيس بن عمرو الجهنى، وكان صاحب بغلته، يقودها به فى الأسفار[5]، روينا عنه أنه قال: بينما أنا أقود برسول الله ﷺ فى نقب من تلك النقاب، إذ قال لى: يا عقبة اركب، فأجللت رسول الله ﷺ أن أركب مركبه، ثم أشفقت أن يكون معصية. قال: فركبت هنية ثم نزلت، ثم ركب النبى ﷺ وقدت، ثم قال لى: يا عقبة، ألا أعلمك من خير سورتين قرأهما الناس ؟ فقلت: بلى، بأبى أنت وأمى يارسول الله. فقال ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١] ، و ﴿ قُلْ

(١) أخرجه مسلم (٢٤٨١/١٤٣)، وأحمد (٣/ ١٩٤، ٢٤٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٥٣)، وأبو يعلى (٣٣٢٨، ٤٢٣٦، ٤٢٢١)، وابن حبان (٧١٧٧)، والبيهقي (٣/ ٥٣-٥٤) من طرق عن أنس وأخرجه البخاري (٦٣٧٨، ٦٣٧٩)، ومسلم (٢٤٨٠)، والترمذي (٣٨٢٩) من حديث أم سليم.

(٢) ينظر: أسد الغابة ت(١٦٦٠)، الاستيعاب ت(٧٦٧)، الثقات (٣/ ١٢٨)، تجريد أسماء الصحابة (١/ ١٨١)، الكاشف (١/ ٣٠٧)، الطبقات الكبرى (٤/ ٣١٣)، (٩/ ٦٧).

(٣) ينظر: الاستيعاب ت(١٣١)، معرفة الصحابة (٢/ ٣٧٢)، تجريد أسماء الصحابة (٢/ ٣٧٢).

(٤) ينظر: الاستيعاب ت(١٦٧٧)، أسد الغابة ت(٣١٨٢)، الثقات (٣/ ٢٠٨)، الجرح والتعديل (٥/ ١٤٩).

(٥) ينظر: أسد الغابة ت(٣٧١١)، الاستيعاب ت(١٨٤٣)، الطبقات الكبرى (٤/ ٣٤٣، ٣٤٤)، الجرح والتعديل (٦/ ٣١٣)، الإصابة ت(٥٦١٧).

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] الحديث[١]. رواه أحمد وأبو داود والنسائي. وكان عقبة عالمًا بكتاب الله والفرائض، فصيحًا شاعرًا مفوهًا، ولاه معاوية مصر سنة أربع وأربعين، ثم صرفه عنها بمسلمة بن مخلد، وتوفى سنة ثمان وخمسين.

ومنهم: أسلع بن شريك صاحب راحلته ﷺ [٢]، في الطبراني.

ومنهم سعد مولى أبي بكر، وقيل سعيد، ولم يثبت[٣]. وروى عنه ابن ماجه.

ومنهم: أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، أسلم قديمًا، وتوفى بالربذة، وستأتى قصته مع عثمان رضى الله عنه فى خلافته، توفى سنة إحدى وثلاثين[٤]، وصلى عليه ابن مسعود، ثم مات ابن مسعود بعده فى ذلك اليوم، قال ابن الأثير وابن حجر: سنة اثنتين وثلاثين.

ومنهم: مهاجر مولى أم سلمة[٥].

ومنهم: حنين والد عبد الله مولى ابن عباس، وكان يخدمه - عليه الصلاة والسلام - ثم وهبه لعمه العباس.

ومنهم: نعيم بن ربيعة الأسلمي.

ومنهم: أبو الحمراء، مولاه ﷺ وخادمه، واسمه هلال بن الحارث وابن ظفر. توفى بحمص، رضى الله عنه.

ومنهم: أبو السمح، خادمه عليه الصلاة والسلام، واسمه إياد.

ومن النساء: بركة، أم أيمن الحبشية، وهى والدة أسامة بن زيد كما تقدم.

ومنهن: خولة، جدة حفص.

ومنهن: سلمى، أم رافع، زوج أبى رافع.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٤، ١٤٩، ٥٣)، وأبو داود (١٤٦٢)، والنسائي (٨/ ٢٥٢)، وابن خزيمة (٥٣٤، ٥٣٥) من طريق القاسم مولى معاوية عن عقبة بن عامر، به.

(٢) ينظر تجريد أسماء الصحابة (١/ ١٥) الوافي بالوفيات (١/ ٤٩) وحديثه عن الطبراني في الكبير (٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧)، وينظر: المجمع (١/ ٢٦٥).

(٣) ينظر: الثقات (٣/ ١٥٤)، الإصابة ت(٣٢٢٨)، تجريد أسماء الصحابة (١/ ٢١٢)، تهذيب الكمال (١/ ٤٧٥)، الكاشف (١/ ٣٥٤).

(٤) ينظر: الاستيعاب (٢٩٨٥)، أسد الغابة (٥٨٦٩)، والإصابة (٩٨٧٧).

(٥) ينظر: الاستيعاب (٢٥٣٤)، أسد الغابة (٥١٣٧)، الجرح والتعديل (٨/ ٢٥٩)، تجريد أسماء الصحابة (٢/ ٩٧)، الإصابة (٨٢٧٥).

ومنهن: ميمونة بنت سعد.

ومنهن: أم عياش، مولاة رقية بنته ﷺ.

وأما كتّابه: فالخلفاء الأربعة رضى الله تعالى عنهم[١].

وأول من كتب له بمكة عبد الله بن سعد بن أبى سرح القرشى العامرى[٢]، أحد بنى عامر بن لؤى، أسلم وكتب الوحى لرسول الله ﷺ ثم ارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين بمكة، فلما فتحها رسول الله ﷺ أهدر دمه فيما أهدر من الدماء، فجاء إلى عثمان فغيبه ثم أتى به إلى النبى ﷺ بعد أن اطمأن أهل مكة، واستأمن له رسولَ الله ﷺ فصمت عليه الصلاة والسلام طويلاً ثم قال: نعم. فلما انصرف عثمان قال النبى ﷺ: ماصمت إلا لتقتلوه. فقال رجل: هلاَّ أومأت إلينا يارسول الله ؟ فقال: ماكان لنبى أن تكون له خائنة الأعين، ثم أسلم ذلك اليوم وحسن إسلامه، ولم يظهر منه بعد ذلك ما ينكر.

وهو أحد الفضلاء الكرماء من قريش، عرف فضله وجهاده. وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح مصر، ولاه عثمان رضى الله عنه مصر سنة خمس وعشرين ففتح الله على يده إفريقية، وكان فتحًا عظيمًا بلغ سهم الفارس فيه ثلاثة آلاف مثقال، وكان معه عبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير. وغزا بعد إفريقية السوادَ من أرض النوبة سنة إحدى وثلاثين، وغزوة السوارى فى بحر الروم، واعتزل الفتنة حين قتل عثمان، فأقام بعسقلان وقيل: بالرملة، ودعا الله عز وجل أن يقبضه ويعجل وفاته وختم عمره بالصلاة، فسلم من صلاة الصبح التسليمة الأولى، ثم هم بالتسليمة الثانية فتوفى سنة ست وثلاثين وهو الصحيح، وقيل: سنة سبع، وقيل: سنة تسع وخمسين. قال خليفة بن خياط: ووهم من عدَّ والده أبا سرح فى كتابه.

ومنهم: طلحة بن عبيد الله[٣]، أحد العشرة، استشهد يوم الجمل سنة ست وثلاثين وهو ابن ثلاث وستين سنة.

ومنهم: الزبير بن العوام بن خويلد[٤]، أحد العشرة - أيضًا - قتل كذلك سنة

---

(١) ستأتي تراجمهم بتوسع في مواضعها.
(٢) تنظر ترجمته في أسد الغابة ت(٢٩٧٦)، والاستيعاب ت(١٥٧١)، والإصابة ت(٤٧٢٩).
(٣) تنظر ترجمته في أسد الغابة ت(٢٦٢٧)، الاستيعاب ت(١٢٨٧)، الإصابة ت(٤٢٨٥).
(٤) تنظر ترجمته في أسد الغابة ت(١٧٣٢)، والاستيعاب ت(٨١١)، الإصابة ت(٢٧٩٦).

ست وثلاثين يوم الجمل.

ومنهم: أبى بن كعب - [١] بضم الهمزة وفتح الباء - هو أبى بن كعب بن المنذر ابن قيس، الخزرجى، الأنصارى، أبو المنذر، أو أبو الطفيل، سيد القراء. شهد العقبة الثانية وبدرًا وما بعدها، وهو أحد فقهاء الصحابة وأقرؤهم لكتاب الله عز وجل، وقال له رسول الله ﷺ: إن الله أمرنى أن أقرأ عليك ﴿ لَمْ يَكُنِ ﴾ [البينة : ١] لأن فيها ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾[٢] [البينة: ٢، ٣] روى ابن أبى شيبة وخيثمة ذلك. وهو أول من كتب الوحى بن يدى رسول الله ﷺ بالمدينة، كناه رسول الله ﷺ أبا المنذر، وكناه عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا الطفيل بولده الطفيل بن أبى. مات أبى سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين، وقيل: اثنتين وعشرين، وقيل سنة ثلاثين فى خلافة عثمان رضى الله عنه.

ومنهم الأرقم بن أبى الأرقم، عبد مناف بن أسد بن جندب المخزومى، كان من السابقين إلى الإسلام، هاجر وشهد بدرًا وما بعدها، ثم توفى وله خمس وثلاثون سنة.

ومنهم: ثابت بن قيس رضى الله تعالى عنه، وهو ثابت بن قيس بن شماس بن مالك، الأنصارى، الخزرجى، أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد، خطيب رسول الله ﷺ وشهد له بالجنة. شهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، قتل يوم اليمامة شهيدًا فى أيام أبى بكر سنة إحدى عشرة، وكان خرج مع خالد بن الوليد إلى قتال مسيلمة بها، فلما التقوا انكشفوا، فقال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ. ثم حفر كل واحد منهما لنفسه حفرة وثبتا وقاتلا حتى قتلا، وعلى ثابت درع له نفيسة فمر به رجل من المسلمين فأخذها، فبينا رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت فى منامه فقال له: إنى أوصيك، فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعها، إنى لما قتلت أمسِ مر بى رجل من المسلمين فأخذ درعى، ومنزله فى أقصى الناس، وعند خبائه فرس يستنُّ فى طوله، وقد كفأ على الدرع برمة. فائت خالدًا فمره أن يأخذها، فإذا قدمت على أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ فقل له : إن علىَّ من الدَّين

---

(١) ينظر: الاستيعاب ت(٦)، تاريخ خليفة (١٦٧)، التاريخ الكبير (٢/ ٣٩ - ٤٠)، والجرح والتعديل (٢/ ٢٩٠)، تاريخ الإسلام (٢/ ٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٠٨، ٤٩٥٩)، ومسلم (٧٩٩/ ٢٤٦)، والترمذي (٣٨٩٢)، والنسائي في التفسير (٧١١) من حديث أنس.

كذا وكذا، وفلان من رقيقى عتيق. فأتى الرجل خالدًا فأخبره، فبعث إلى الدرع فأتى بها. وحدَّث أبا بكر فأجاز وصيته، ولا يُعلم أحد أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت هذا.

ومنهم: خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن سعيد، القرشى، الأموى، أسلم قديمًا، وقيل: إنه أول من كتب « بسم الله الرحمن الرحيم » قيل: إنه أسلم بعد أبى بكر فكان ثلث الإسلام، وقيل غير ذلك. هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وأقام بها بضع عشر سنين، وأهدى لرسول الله ﷺ خاتمه الذى نقش عليه « محمد رسول الله » ﷺ ، الذى وقع فى بئر أريس.

ومنهم: زيد بن ثابت - رضى الله عنه - وهو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصارى النجارى، كان هو ومعاوية ألزمهم لذلك. وروى البخارى أن رسول الله ﷺ أمره أن يتعلم كتاب يهود ليقرأه على النبى ﷺ إذا كتبوا إليه، فتعلمه فى خمسة عشر يومًا[(١)] وروى ابن أبى هاشم عنه قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ، فإنى لواضع القلم على أذنى فأمر بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ماينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بك يارسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾[(٢)] [النور: ٦١]. قدم على رسول الله ﷺ المدينة وهو ابن إحدى عشرة سنة، شهد أحدًا وما بعدها، وقيل أول مشاهده الخندق، وهو أحد فقهاء الصحابة والذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ ، وكان أفكه الناس إذا خلا فى منزله وأزمهم إذا جلس مع القوم. مات سنة ست وخمسين. وروى الإمام أحمد وأبو داود عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: لما قدم عليه الصلاة والسلام المدينة ذهبت إليه فأعجب بى، فقيل: يا رسول الله هذا غلام من بنى النجار، ومعه مما أنزل عليك بضع عشرة سورة. فأعجب ذلك رسول الله ﷺ فقال: يا زيد، تعلم كتاب يهود، فإنى والله ما آمن يهود على كتابى. فما مر بى نصف شهر حتى نقلته وحذقته، فكنت أكتب إليهم وأقرأ له كتبهم[(٣)]. كان يكتب للنبي ﷺ الوحى ويكتب له أيضًا المراسلات. وكان يكتب

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٦)، والبخاري (٧١٩٥)، وأبو داود (٣٦٤٥)، والترمذي (٢٧١٥).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٧)، وعزاه للطبراني، وقال: إسناده حسن.

(٣) تقدم تخريجه قريبًا.

لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى خلافتهما، وقد قال فيه ﷺ « أفرضكم زيد »[١]. وكان عمر رضى الله عنه يستخلفه إذا حج، وكان معه حين قدم الشام، وهو الذى تولى قسم غنائم اليرموك. وكان عثمان أيضًا يستخلفه إذا حج، وكان على بيت المال لعثمان. توفى بالمدينة سنة أربع وقيل سنة ست وقيل إحدى وقيل ثلاث وقيل خمس وخمسين وقيل سنة أربعين وقيل إحدى وقيل ثلاث وأربعين. رضى الله تعالى عنه.

ومنهم السجل رضى الله عنه. روى أبو داود والنسائى عن أبى الجوزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يقول فى هذه الآية ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] قال: السجل كاتب للنبى ﷺ[٢]. وروى ابن مردويه وابن منده من طريق حمدان بن سعيد عن ابن نمير عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: كان للنبى ﷺ كاتب يقال له السجل، فأنزل الله تعالى ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ...﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، والسجل هو الرجل بالحبشية[٣]، ورواه أبو نعيم لكن قال: حمدان بن على، ووهم ابن منده فى قوله ابن سعيد. قال ابن منده: تفرد به حمدان. قال الحافظ: فإن كان هو ابن على فهو ثقة وهو معروف، واسمه محمد بن على مهران من أصحاب أحمد، ولكن رواه الخطيب فى ترجمة حمدان بن سعيد فترجحت رواية ابن منده. ونقل الخطيب عن البرقانى أن الأزدى قال: تفرد به ابن نمير من كبار الثقات. فهذا الحديث صحيح بهذه الطرق، وغفل من زعم أنه موضوع. نعم إنه ورد ما يخالفه، فروى الربعى والعوفى عن ابن عباس قال فى هذه الآية: كطى الصحيفة على الكتاب. وكذلك قال مجاهد وغيره[٤]. قال الحافظ ابن كثير: وعرضت هذا الحديث - أى حديث ابن عباس السابق - على الحافظ المزى فأنكره جدًا، وأخبرته أن ابن تيمية كان يقول:

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٨٤)، والترمذي (٣٧٩١)، والنسائي في فضائل الصحابة (١٣٨، ١٨٢)، وابن ماجه (١٥٤، ١٥٥) من طريق أبي قلابة عن أنس به وأخرجه الترمذي (٣٧٩٠) من طريق قتادة عن أنس.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٩٣٥)، والنسائي كما في تحفة الأشراف (٥٣٦٥) من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس.

(٣) ذكره الحافظ في الإصابة (٣/ ٢٨) وعزاه لابن مردويه وابن منده.

(٤) ينظر الإصابة (٣/٢٨-٢٩).

إنه حديث موضوع وإن كان فى سنن أبى داود، قال المزى: وأنا أقوله. انتهى. قال الحافظ: وهذه مكابرة.

ومنهم معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية القرشى الأموى العبشمي(١)، ولى لعمر رضى الله عنه الشام، وأقره عثمان. قال ابن إسحاق: وكان أميرًا عشرين سنة وخليفة عشرين سنة. وروى فى مسند الإمام أحمد من طريق العرباض بن سارية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « اللهم علِّم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب »(٢). وهو مشهور بكتابة الوحى. وروى الإمام أحمد ووصله أبو يعلى فقال عن معاوية، والطبرانى، ورجال الأولين رجال الصحيح عن سعيد بن عمر بن سعد ابن أبى وقاص أن أبا هريرة اشتكى، وأن معاوية أخذ الإداوة، فبينما هو يوضئ رسول الله ﷺ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ فقال: يا معاوية إن وليت أمرًا فاتق واعدل(٣). ولفظ الصغير للطبرانى برجال وثقوا وفيهم خلاف وفى سنده انقطاع عن مسلمة بن مخلد أن رسول الله ﷺ قال لمعاوية « اللهم علمه الكتاب والحساب، وقه العذاب، ومكن له فى البلاد »(٤). مات فى رجب سنة ستين وقد قارب الثمانين.

ومنهم شرحبيل - بضم الشين المعجمة وفتح الراء [وسكون الحاء المهملة] بعدها باء مكسورة فتحتية ساكنة - ابن حَسنة وهى أمه.

ومنهم خالد بن الوليد(٥) سيف الله، أسلم بين الحديبية والفتح، مات سنة إحدى أو اثنتين وعشرين.

---

(١) ينظر ترجمته في أسد الغابة ت(٤٩٨٤)، الاستيعاب ت(٢٤٦٤)، والإصابة ت(٨٠٨٧) ومعرفة الرجال (٢/ ١٧٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧)

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٠١)، وأبو يعلى (٧٣٨٠) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٥٨-٣٥٩): رواه أحمد واللفظ له وهو مرسل ورواه أبو يعلى فوصله فقال فيه عن معاوية... ورواه الطبراني في الأوسط والكبير ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح.

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٥٩-٣٦٠) وقال: رواه الطبراني من طريق جبلة بن عطية عن مسلمة بن مخلد وجبلة لم يسمع من مسلمة فهو مرسل ورجاله وثقوا وفيهم خلاف.

(٥) ينظر: الجرح والتعديل (٣/ ٣٥٦)، مشاهير علماء الأمصار ت(١٥٧)، تهذيب الأسماء واللغات (١٠/ ١٧٢-١٧٤)، شذرات الذهب (١/ ٢٣٢)، أسد الغابة ت(١٣٩٩)، الاستيعاب ت(٦٢١).

ومنهم عمرو بن العاص[(١)]، أسلم عام الحديبية، ولى إمرة مصر مرتين وهو الفاتح لها، ومات بها سنة نيف وأربعين وقيل بعد الخمسين.

ومنهم المغيرة بن شعبة الثقفي، أسلم قبل الحديبية، ولى إمرة البصرة ثم الكوفة. مات سنة خمسين على الصحيح.

وأما أمراؤه عليه الصلاة والسلام فمنهم: باذان بن ساسان من ولد بهرام، أمره ﷺ على اليمن، وهو أول أمير فى الإسلام، وأول من أسلم من ملوك العجم. وأمر ﷺ على صنعاء خالد بن سعيد بن العاص، وولى زياد بن لبيد الأنصارى حضرموت، وولى أبا موسى الأشعرى زبيد وعدن، وولى معاذ بن جبل الجند، وولى أبا سفيان بن حرب نجران، وولى ابنه يزيد تيماء، وولى عَتّاب بن أسيد - بفتح العين المهملة وتشديد المثناة فوق وفتح الهمزة وكسر السين المهملة - مكة وإقامة الموسم والحج بالمسلمين سنة ثمان من الهجرة وهو عام فتحها، وولى على ابن أبى طالب القضاء باليمن، وولى عمرو بن العاص عُمان.

وأما مؤذنوه عليه الصلاة والسلام فأربعة: اثنان بالمدينة: بلال وسعد بن عائذ أو ابن عبد الرحمن المعروف بسعد القرظ أو القرظى، واثنان بمكة عمرو بن أم مكتوم وأبو محذورة.

أما بلال فهو ابن رباح وأمه حمامة، مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنه. وهو أول من أذن لرسول الله ﷺ ولم يؤذن بعده لأحد من الخلفاء، إلا أن عمر رضى الله عنه لما قدم الشام حين فتحها أذن بلال فتذكر الناس النبى ﷺ قال أسلم مولى عمر رضى الله عنه: فلم أر أكثر باكيا من يومئ. وتوفى بلال سنة سبع عشرة أو عشرين بـ « داريا » ودفن بباب كيسان وله بضع وستون سنة، وقيل دفن بحلب، وقيل بدمشق.

وأما سعد بن عائذ أو ابن عبد الرحمن القرظى مولى عمار فأذَّن له عليه الصلاة والسلام بقباء. وبقى إلى ولاية الحجاج على الحجاز وذلك سنة أربع وسبعين من الهجرة.

---

(١) ينظر: أسد الغابة ت(٣٩٧١)، الإصابة ت(٥٨٩٧)، الطبقات الكبرى (٤/ ٢٥٤)، (٧/ ٤٩٣)، تاريخ البخاري (٦/ ٣٠٣)، تاريخ الطبري (٤/ ٥٥٨)، الكامل (٣/ ٢٧٤)، شذرات الذهب (١/ ٥٣).

وأما عمرو بن أم مكتوم القرشى الأعمى فأسلم وأذن له عليه الصلاة والسلام وهاجر إلى المدينة.

وأما أبو محذورة بالحاء المهملة والذال المعجمة واسمه أوس الجمحى المكى أبو معير- بكسر الميم وسكون العين وتحريك التحتية - مات بمكة سنة تسع وخمسين وقيل تأخر إلى بعد ذلك قال فى الروض الأنف: وأبو محذورة الجمحى واسمه سلمة بن معير وقيل سمرة -: فإنه لما سمع الأذان وهو مع فتية من قريش خارج مكة أقبلوا يستهزئون ويحكون صوت المؤذن غيظا، فكان أبو محذورة هذا من أحسنهم صوتًا فرفع صوته مستهزئا بالأذان، فسمعه رسول الله ﷺ فأمر به فمثل بين يديه وهو يظن أنه مقتول، فمسح رسول الله ﷺ ناصيته وصدره بيده الشريفة، قال: فامتلأ قلبي والله إيمانا ويقينا، وعلمت أنه رسول الله ﷺ، فألقى عليه رسول الله ﷺ الأذان وعلمه إياه، فأمره أن يؤذن لأهل مكة وهو ابن ست عشرة سنة، فكان مؤذنهم حتى مات، ثم عقبه بعده يتوارثون الأذان(١).

وكان هؤلاء المؤذنون المذكورون منهم من يرجِّع الأذان ويثنى الإقامة، وبلال لايرجع ويفرد الإقامة، فأخذ الشافعى بإقامة بلال، وأهل مكة أخذوا بأذان أبى محذورة وإقامة بلال، وأخذ أبو حنيفة وأهل العراق بأذان بلال وإقامة أبى محذورة، وأخذ أحمد بأذان بلال وإقامته، وخالفهم مالك فى الموضعين إعادة التكبير وتثنية لفظ الإقامة.

وكان خطيبه عليه الصلاة والسلام ثابت بن قيس بن شماس- بمعجمة وميم مشدّدة وآخره سين مهملة، وهو خزرجى، شهد له النبى ﷺ بالجنة، وكان خطيبه وخطيب الأنصار، واستشهد يوم اليمامة سنة اثنتى عشرة، وقد تقدم ذكره.

وأما **شعراؤه** ﷺ فمدحه بالشعر جماعة من رجال الصحابة ونسائهم، جمعهم الحافظ أبو الفتح ابن سيد الناس فى قصيدة ثم شرحها فى مجلدة سماها « فتح المدح » ورتبهم على حروف المعجم قارب بهم المائتين.

وأما **شعراؤه** الذين كانوا بسبب المناضلة عنه والهجاء لكفار قريش - فإنهم ثلاثة: حسان بن ثابت بن المنذر بن عمرو بن حرام الأنصارى، وكان يقبل بالهجو

(١) ينظر: الروض الأنف (٤/ ١١٤).

على أنسابهم، دعا له عليه الصلاة والسلام فقال « اللهم أيده بروح القدس »[١] فيقال إنه أعانه جبريل عليه السلام بسبعين بيتا. وفى الحديث « إن جبريل مع حسان ما نافح »[٢] أى دافع، والمراد هجاء المشركين ومجاوبتهم على أشعارهم. ولما جاءه عليه الصلاة والسلام بنو تميم وشاعرهم الأقرع بن حابس - فنادوه: يامحمد اخرج إلينا نفاخرك ونشاعرك، فإن مدحنا زين وذمنا شين - فلم يزد عليه الصلاة والسلام على أن قال: ذلك الله إذا مدح زان وإذا ذم شان، إنى لم أبعث بالشعر ولم أؤمر بالهجر، ولكن هاتوا. فأمر عليه الصلاة والسلام ثابت بن قيس خطيبه أن يجيب على خطبتهم، فخطب ثابت فغلبه، فقام شاعرهم الأقرع بن حابس فقال: [من الطويل]

أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْرِفَ النَّاسُ فَضْلَنَا ... إِذَا خَالَفُونَا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
وَأَنَّا رُءُوسُ النَّاسِ فِى كُلِّ مَعْشَرٍ ... وَأَنْ لَيْسَ فِى أَرْضِ الْحِجَازِ كَدَارِمِ

فأمر - عليه الصلاة والسلام - حسانًا أن يجيبه فقال: [من الطويل]

بَنِى دَارِمٍ لاَ تَفْخَرُوا إِنَّ فَخْرَكُمْ ... يَعُودُ وَبَالاً عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
هَبَلْتُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمُ ... لَنَا خَوَلٌ مَا بَيْنَ ظِئْرٍ وَخَادِمِ[٣]

وكان أول من أسلم شاعرهم، عاش حسان مائة وعشرين سنة: ستين منها فى الجاهلية وستين فى الإسلام. وكذا عاش أبوه ثابت وجده المنذر وجد أبيه حرام، كل واحد منهم مائة وعشرين سنة. وتوفى حسان سنة أربع وخمسين من الهجرة. قلت: وهؤلاء الوفد الذين أنزل فى شأنهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ ... ﴾ [الحجرات: ٥٤] الآية والله أعلم.

وعبد الله بن رَواحة، وكان يعير قريشا بالكفر.

وكعب بن مالك، وكان يخوفهم بالحرب. وكانوا لا يبالون قبل الإسلام بأهاجى ابن رواحة ويألمون من أهاجى حسان. فلما دخل من دخل منهم الإسلام وجد أهاجى ابن رواحة أشد وأشق. قال فى زاد المعاد: وكان أشدهم على الكفار حسان

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢١٢)، ومسلم (٢٤٨٥)، والنسائي (٢/ ٤٨)، وأحمد (٥/ ٢٢٢)، والحميدي (١١٠٥)، وابن خزيمة (١٣٠٧)، وابن حبان (١٦٥٣) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩٠) وابن حبان (٧١٤٧) والبيهقي من حديث عائشة.
(٣) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ٢٠٩).

ابن ثابت وكعب بن مالك يعيرهم بالشرك والكفر.

وأما حُداته فأربعة: أنجشة - بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الجيم وبالشين المعجمة - كان عبدًا أسود حسن الحداء يحدو بالنساء، فحدا بأمهات المؤمنين فى حجة الوداع فأسرعت الإبل، فقال عليه الصلاة والسلام: «رويدك يا أنجشة، رفقا بالقوارير»[١]. رواه الشيخان. وفى صحيح مسلم: وكان لرسول الله ﷺ حاد حسن الصوت فقال له رسول الله ﷺ: «رويدك يا أنجشة لا تكسر القوارير» يعنى ضعفة النساء[٢]. وفى المواهب: كان يحدو وينشد القريض والرجز، فقال عليه الصلاة والسلام له ذلك القول، يشبههن بالقوارير من الزجاج؛ لأنه يسرع إليهن الكسر، فلم يأمن عليهن أن يصيبهن أو يقع فى قلوبهن حداؤه فأمره بالكف، وفى المثل: الغناء رقية الزنا. وقيل أراد أن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت فى المشى واشتدت فأزعجت الراكب وأتعبته، فنهاه عن ذلك بقوله: «رفقا بالقوارير» لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة. هذه عبارته. قلت: لا ريب أن هذا هو المراد من الحديث، والعلة

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ٥٩٧) كتاب الأدب باب من دعا صاحبه فنقص من اسمه حرفان رقم (٦٢٠٢)، ومسلم (٤/ ١٨١١) كتاب الفضائل باب رحمة النبي للنساء رقم (٧٠، ٧١/ ٢٣٢٣)، وابن حبان (١٣/ ١١٨) كتاب الحظر والإباحة باب ذكر الإباحة للمرء استعمال الكناية في كلامه. . . » رقم (٥٨٠٠)، (١٣/ ١١٩) رقم (٥٨٠٢)، وأحمد (٣/ ١١٧)، والبيهقي (١٠/ ١٩٩، ٢٠٠) كتاب الشهادات باب من سمى المرأة قارورة. . . »، والدارمي (٢/ ٢٩٥، ٢٩٦) كتاب الاستئذان باب «في المزاح».

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ٦٠٩) في الأدب باب المعاريض مندوحة عن الكذب (٦٢١١)، ومسلم (٤/ ١٨١٢) في الفضائل باب رحمة النبي للنساء (٧٣/ ٢٣٢٣)، وأحمد ٣/ ٢٥٢) من طرق عن همام، به. وأخرجه مسلم (٧٣/ ٢٣٢٣)، والبغوي في شرح السنة (٦/ ٥٢٩) برقم (٣٤٧١) بتحقيقنا من طريقين عن هشام بن عبد الله عن قتادة، به. وأخرجه البخاري (٦٢٠٩، ٦٢١٠)، باب ما جاء في قول الرجل «ويلك» (٦١٦١)، ومسلم (٢٣٢٣)، وأحمد (٣/ ١٧٢، ١٨٧، ٢٠٢، ٢٢٧، ٢٥٤)، والبيهقي (١٠/ ١٩٩-٢٠٠)، والبغوي (٣٤٧٢، ٣٤٧٣) من طريقين عن ثابت عن أنس. وأخرجه البخاري (١٠/ ٥٥٤) في الأدب باب ما يجوز من الشعر والرجز (٦١٤٩)، وباب ما جاء في قول الرجل ويلك (٦١٦١)، وباب المعاريض مندوحة عن الكذب (٦٢١٠)، ومسلم (٧٠-٧١/ ٢٣٢٣)، وأحمد (٣/ ٢٢٧) وأبو يعلى (٢٨٠٩) من طرق عن أيوب عن أبي قلابة عن أنس. وأخرجه مسلم (٧٢-٢٣٢٣)، وأحمد (٣/ ١١١، ١١٧، ١٧٦)، والحميدي برقم (١٢٠٩) من طرق عن سليمان التيمي أنه سمع أنسا. . وأخرجه أحمد (٣/ ١٠٧) من طريق ابن أبي عدي عن حميد عن أنس.

فى النهى لا سواه. يؤيده ما رواه ابن سعد عن مجاهد عن طاوس قال: كان رسول الله ﷺ فى سفر، فبينا هو يسير بالليل ومعه رجل يسايره إذ سمع حاديا يحدو وقوم أمامه، فقال لصاحبه: «لو أتينا حادى القوم». فقربنا حتى غشينا القوم، فقال رسول الله ﷺ «ممن القوم؟» فقالوا: من مضر. فقال عليه الصلاة والسلام: «وأنا من مضر. دنا حادينا يسمع حاديكم فسمعنا حاديكم فأتيناكم». زاد طاوس: «نسمع حداءه». فقالوا: يا رسول الله، أما إن أول من حدا منا رجل فى سفر، ضرب غلاما له على يده بعصا فانكسرت يده فجعل الغلام يقول وهو يشير: يا يداه يا يداه. فسارت الإبل على صوته وقطعت أودية بسرعة[1]. ويؤيده أيضًا قول الشاعر: [من مجزوء الكامل]

إِنْ كُنْتَ تُنْكِرُ أَنَّ فِى الْـ ... أَلْحَانِ تَأْثِيرًا وَنَفْعَا
فَانْظُرْ إِلَى الْإِبِلِ الَّتِى ... لاَ شَكَّ أَغْلَظُ مِنْكَ طَبْعَا
تُصْغِى إِلَى صَوْتِ الْحُدَا ... ةِ فَتَقْطَعُ الْفَلَوَاتِ قَطْعَا

والعجب من صاحب المواهب كيف جعل المعنى الأول هو المراد من الحديث فجعل علة النهى خوف أن يصيبهن أو يقع فى قلوبهن حداؤه. وأردفه بإيراد المثل الذى أورده فليته لم يورده، وهو معنى غير لائق التعليل به فى آحاد حرائر نساء المسلمين، فكيف يعلل به فى المحدوِّ بهن فى الواقع وهن أمهات المؤمنين. على أن تشبيه النساء بالقوارير من الزجاج فى الضعف وسرعة الكسر إليها إنما يلائم المعنى الثانى الذى حكاه بصيغة التمريض، فما مرَّضه هو الصحيح، وما صححه فقدمه هو المريض، إذ لا تمكن صحته إلا بضرب من المجاز، مع أنك أيها المنصف لو نظرت إليه فى جادة الشرع وجدته قريبًا من عدم الجواز. والله أعلم.

وعامر بن الأكوع - بفتح الهمزة وسكون الكاف وفتح الواو وبالعين المهملة - هو عم سلمة بن الأكوع. وفي البخارى من حديث سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع النبى ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلا. فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر، ألا تسمعنا من هنيّاتك ؟ وكان عامر رجلا شاعرا، فنزل يحدو بالقوم: [من الرجز]

تَاللهِ لَوْلاَ اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٩).
أخرجه البخاري (٤١٩٦)، وأحمد (٤/ ٤٧، ٤٨، ٥٠) من حديث سلمة بن الأكوع.

فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا أَتَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا
وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا
وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

وفى رواية فى هذا الرجز زيادة:

إِنَّ الَّذِينَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا
وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَغْنَيْنَا

فقال عليه الصلاة والسلام: من هذا السائق ؟ قالوا: عامر بن الأكوع. قال: يرحمه الله. فقال رجل من القوم: وجبت يارسول الله، لو أمتعتنا به. وفى رواية أحمد: فجعل عامر يرتجز ويسوق الركاب. وهذه كانت عادتهم إذا أرادوا تنشيط الإبل من السير ينزل بعضهم فيسوقها ويحدو فى تلك الحال. وقوله عليه الصلاة والسلام: من هذا السائق ؟ فقالوا: عامر بن الأكوع، فقال: يرحمه الله، فقال رجل من القوم: وجبت. أى ثبتت له الشهادة، وستقع قريبًا. وكان معلومًا عندهم أن من دعا له ﷺ بهذا الدعاء فى مثل هذا الموطن استشهد، فلذلك قالوا: هلاّ أمتعتنا به ؟ أى وددنا أنك أخرت الدعاء له بهذا إلى وقت آخر؛ لنتمتع بمصاحبته ورؤيته مدة. واستشهد رضى الله عنه يوم خيبر.

وعبد الله بن رَواحة كان يحدو بين يديه عليه الصلاة والسلام فى السفر، روى الترمذى فى الشمائل من حديث أنس أنه ﷺ دخل مكة فى عمرة القضاء وابن رواحة آخذ بزمام راحلته يرتجز فيقول: [من الرجز]

خَلُّوا بَنِى الكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِى تَنْزِيلِهِ
بِأَنَّ خَيْرَ القَتْلِ فِى سَبِيلِهِ أَلْيَوْمَ نَضْرِبْكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ
يَارَبِّ إِنِّى مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ إِنِّى رَأَيْتُ الْحَقَّ فِى قَبُولِهِ[١]

والبراء بن مالك: قال أنس: كان البراء بن مالك يحدو بالرجال، وأنجشة يحدو بالنساء.

ومن حراسه أبو قتادة الأنصارى حارس رسول الله ﷺ وفى اسمه أقوال: أشهرها

(١) ينظر السيرة النبوية (٤/٧).

الحارث بن ربعى. شهد أحدا والمشاهد كلها. وروى عن رسول الله ﷺ مائة وسبعين حديثا. قيل إنه شهد بدرًا ولم يصح.

ومنهم أبو ريحانة رجل من الأنصار، روى الإمام أحمد برجال ثقات، والطبرانى عنه رضى الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى غزاة، فأتينا ذات ليلة على شرف فبتنا عليه، فأصابنا عليه برد شديد، حتى رأيت من يحفر فى الأرض حفرة فيدخل فيها ويلقى عليه جحفته يعنى الترس. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك بالناس قال: من يحرسنى الليلة وأدعو الله دعاء يكون فيه فضلا ؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يارسول الله. ففتح عليه الصلاة والسلام بالدعاء فأكثر منه. قال أبو ريحانة: فلما سمعت ما دعا به رسول الله ﷺ قلت: أنا رجل آخر. فقال: ادنه فدنوت. فقال: من أنت ؟ فقلت: أنا أبو ريحانة. فدعا لى بدعاء دون دعائه للأنصارى(1).

ومنهم سعد بن معاذ يوم بدر حين نام فى العريش، ذكره ابن عبد قيس.

ومنهم المغيرة بن شعبة حين وقف على رأسه بالسيف يوم الحديبية وعروة بن مسعود الثقفى يكلمه عليه الصلاة والسلام ويلمس لحيته، فضرب المغيرة يده بنعل السيف وقال: اكفف يدك عن لحية رسول الله ﷺ. وكان إذ ذاك عروة لم يسلم.

ومنهم محمد بن مسلمة، حرسه يوم أحد.

ومنهم الزبير بن العوام يوم الخندق.

ومنهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى بوادى القرى. ذكره ذكوان بن عبد قيس.

ومنهم أبو أيوب الأنصارى وقت دخوله بصفية بخيبر أو ببعض الطرق، فدعا له عليه الصلاة والسلام فقال له: حرسك الله يا أبا أيوب كما بت تحرس نبيه. قال السهيلى فى الروض الأنف: فحرس الله أبا أيوب بهذه الدعوة، حتى أن الروم لتحرس قبره ويستسقون به، وذلك أنه غزا مع يزيد بن معاوية سنة خمسين من الهجرة، فلما بلغوا القسطنطينية توفى أبو أيوب هناك شهيدًا. وكان قد أوصى إلى يزيد أن يدفنه فى أقرب موضع من مدينة الروم، فركب المسلمون ومشوا به حتى إذا لم يجدوا مساغا دفنوه، فسألتهم الروم عن شأنهم فأخبروهم أنه كبير من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ فقالت الروم ليزيد بن معاوية: ما أحمقك وأحمق من

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٤)، والدارمي (٢/ ٢٠٣)، والنسائي (٦/ ١٥) من حديث أبي ريحانة.

أرسلك، أأمنت أن ننبشه بعدك فنحرق عظامه ؟ فأقسم لهم يزيد لئن فعلوا ذلك ليهدمن كل كنيسة لهم بأرض العرب، وينبش قبورهم. فحينئذ حلفوا له بدينهم ليكرمن قبره وليحرسنه ما استطاعوا، فذلك أثر دعوته عليه الصلاة والسلام(١).

ومنهم سعد بن أبى وقاص بوادى القرى، روى أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز اللغوى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: بات رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال: ليت رجلا صالحًا يحرسنى. قالت: إذ سمعت: السلام عليكم. فقال: « من هذا؟ » قال: أنا سعد بن أبى وقاص، أنا أحرسك يارسول الله. قالت: فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه(٢).

ومنهم عباد بن بشر، وهو الذى كان على حرسه، فلما نزلت آية ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ [المائدة: ٦٧] خرج عليه الصلاة والسلام فأخبرهم وصرف الحرس.

وأما خيله عليه الصلاة والسلام: فالسكب - بفتح السين وسكون الكاف - يقال فرس سكب أى كثير الجرى كأنما يصب جريه صبا، وأصله من سكب الماء يسكبه. وهو أول فرس ملكه، اشتراه عليه الصلاة والسلام بعشر أواق، وكان أغر محجلا طلق اليمنى كميتا. وقال ابن الأثير: كان أدهم(٣).

والمرتجز: سمى به لحسن صهيله، مأخوذ من الرجز الذى هو ضرب من الشعر. وكان أبيض، وهو الذى شهد فيه خزيمة بن ثابت فجعل عليه الصلاة والسلام شهادته بشهادة رجلين وقال: من شهد له خزيمة كفى. أو كما قال ﷺ.

والظرب - بالظاء المعجمة آخره موحدة -: واحد الظراب للجبل الصغير، سمى به لكبره وسمنه، وقيل: لقوته وصلابة رجليه، أهداه له فروة بن عمرو الجذامى(٤).

واللحيف - بالمهملة والفاء-: أهداه له ربيعة بن أبى البراء. سمى لسمنه وكبره، كأنه يلحف الأرض أى يغطيها بذيله لطوله، فعيل بمعنى فاعل، يقال لحفت الرجل باللحاف طرحته عليه. ويروى بالجيم وبالخاء المعجمة، رواه البخارى ولم يتحققه،

---

(١) ينظر الروض الأنف (٤/ ٦٥).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٨٨٥)، ومسلم (٣٩/ ٢٤١٠)، والترمذي (٣٧٥٦)، وأحمد (٦/ ١٤١).
(٣) ينظر: أسد الغابة (١/ ١٤٠)، تلقيح فهوم أهل الأثر (٣٩).
(٤) ينظر أسد الغابة (١/ ١٤٠) تلقيح فهوم أهل الأثر (٣٩).

والمعروف بالحاء المهملة قاله ابن الأثير فى النهاية.

واللزاز سمى به لتلزنه واجتماع خَلقه، لز به الشىء لزق به كأنه يلزق بالمطلوب لسرعته، وهذا أهداه له المقوقس.

والورد: قال ابن سعد: أهداه له تميمْ الدارى رضى الله تعالى عنه، فأعطاه عمر فحمل عليه فى سبيل الله، ثم وجده يباع برخص فاشتراه.

وسبحة- بالضم والموحدة؛ من قولهم فرس سابح إذا كان حسن مد اليدين فى الجرى-: قال ابن التين: هى فرس شقراء اشتراها من أعرابى من جهينة بعشر من الإبل.

فهذه سبعة متفق عليها. وذكر ابن بنين فيما حكاه الحافظ الدمياطى: البحر فى خيله عليه الصلاة والسلام، قال: وكان اشتراه من تجر قدموا من اليمن فسبق عليه مرات، فجثا عليه الصلاة والسلام على ركبتيه ومسح وجهه وقال: ما أنت إلا بحر، فسمى بحرا. قال ابن الأثير: وكان لونه كميتا.

والسجل - بكسر السين المهملة وسكون الجيم- ذكره على بن محمد بن الحسين ابن عبدوس الكوفى، ولعله مأخوذ من قولهم سجلت الماء فانسجل إذا صببته فانصب.

وذو لملة - بكسر اللام وشد الميم - ذكره ابن حبيب.

وذو العُقّار- بضم العين وشد القاف - وحكى بعضهم تخفيفها.

والسرحان - بكسر السين المهملة وسكون الراء - ذكره ابن خالويه.

والطرف - بكسر الطاء وسكون الراء بعدها - ذكره ابن قتيبة فى المعارف، وذكر أن فى رواية أنه هو الذى اشتراه عليه الصلاة والسلام من الأعرابى وشهد له خزيمة ابن ثابت فيه.

والمرتجل - بكسر الجيم - ذكره ابن خالويه، من قولهم ارتجل الفرس ارتجالاً إذا خلط العَنَق بشىء من الهملجة.

والمرواح - بكسر الميم - من أبنية المبالغة كالمطعام، مشتق من الريح لسرعته، أو من الرواح لتوسعه فى الجرى، أهداه له قوم من مذحج، ذكره ابن سعد.

وملاوح - بضم الميم وكسر الواو - ذكره ابن خالويه.

والمندوب: ذكره بعضهم فى خيله ﷺ وكان دفتا سرجه من ليف.

وأما سلاحه عليه الصلاة والسلام فكان له تسعة أسياف:

مأبور: وهو أول سيف ملكه عليه الصلاة والسلام، وهو الذى يقال: إنه قدم به إلى المدينة فى الهجرة.

العضب - بعين مهملة وضاد معجمة - ومعناه القاطع، أرسله إليه سعد بن عبادة حين سار إلى غزوة بدر.

ذو الفقار: لأنه كان وسطه مثل فقار الظهر، ويجوز فى فائه الفتح والكسر، وصار إليه يوم بدر، وكان للعاصى بن منبه بن الحجاج الجمحى، فكان هذا السيف لا يفارقه عليه الصلاة والسلام يكون معه فى كل حرب يشهدها، وكانت قائمته وقبيعته وحلقته وذؤابته وبكراته ونعله من فضة، وهو الذى صار إلى الإمام علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقيل: لاسيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي.

القلعى - بضم القاف وفتح اللام - وهو الذى أصابه من قلع؛ موضع بالبادية.

البتار أي: القاطع.

الحتف: وهو الموت.

المخذم: وهو القاطع.

الرسوب، أى: الذى يمضى فى الضربة ويغيب فيها، وهو فعول من رسب يرسب إذا ذهب إلى أسفل، وإذا ثبت أصاب عليه الصلاة والسلام المخذم. والرسوب من الفلس بضم الفاء وسكون اللام اسم صنم كان لطيء.

وكان له سيف اسمه. . .(١)

وأرماحه عليه الصلاة والسلام: المثوى، قال ابن الأثير: سمى بذلك لأنه يثوى المطعون به من الثوى وهو الإقامة. والمثنى، ورمحان آخران.

وكان له عليه الصلاة والسلام حربة كبيرة اسمها البيضاء، وحربة صغيرة دون الرمح شبه العكازة يقال لها العنزة، وكانت تركز أمامه ويصلى إليها فى السفر، وبذلك اغتر بعض العنزيين فقال: صلى النبى ﷺ إلينا، ظنا منه أنها القبيلة التى هو منها، وإنما هى العكازة كما رأيت.

وأما أدراعه عليه الصلاة والسلام فسبع: ذات الفضول بالضاد المعجمة لطولها، أرسلها إليه سعد بن عبادة حين سار إلى بدر، وهى التى رهنها عليه الصلاة والسلام

(١) بياض بالأصل.

عند أبى الشحم اليهودى على ثلاثين صاعًا من شعير، وكان الدَّين إلى سنة. وذات الوشاح، وذات الحواشى، والسغدية - بالسين المهملة والغين المعجمة - وهى درع عكبراء لقينقاعى، قيل: وهى درع داود عليه الصلاة والسلام التى لبسها حين قتل جالوت. وفضة وكان أصابها من بنى قينقاع، والبتراء لقصرها، والخرنق باسم ولد الأرنب، وكان عليه - عليه الصلاة والسلام - يوم أحد درعان: ذات الفضول وفضة. وكان عليه يوم خيبر درعان: ذات الفضول والسغدية.

وأما أقواسه عليه الصلاة والسلام فكانت ستة: الأولى الزوراء، وثلاث من سلاح بنى قينقاع: الروحاء والصفراء وشوحط. والكتوم كسرت يوم أحد فأخذها قتادة. والسداد.

وكانت له جعبة تسمى الكافور.

وكانت له منطقة من أديم فيها ثلاث حلق من فضة والإبزيم من فضة والطرف من فضة وأما أتراسه فكان له عليه الصلاة والسلام ترس اسمه الزلوق، يزلق عنه السلاح وترس يقال له العتق.

وترس أهدى إليه فيه صورة عقاب أو كبش، فوضع يده عليه فأذهب الله تلك الصورة.

وأما غنمه ولقاحه فكانت له مائة شاة. وكانت له سبع أعنز ترعاهن أم أيمن جاريته الحبشية. وكانت له من اللقاح: القصوى وهى التى هاجر عليها إلى المدينة. والعضباء، والجدعاء ولم يكن بهما عضب ولا جدع وإنما سميتا بذلك. وقيل: كان بأذنها عضب. وقيل العضباء والجدعاء واحدة. والعضباء هى التى كانت لا تسبق، فجاء أعرابى على قعود له فسبقها فشق ذلك على المسلمين، فقال عليه الصلاة والسلام: إن حقا على الله ألاً يرفع شيئًا من هذه الدنيا إلا وضعه(١). وغنم عليه الصلاة والسلام يوم بدر جملا لأبى جهل فى أنفه بُرة من فضة فأهداه إلى الكعبة يوم

(١) أخرجه البخاري (٦/ ١٦٥-الفتح) كتاب الجهاد والسير باب ناقة الرسول ﷺ رقم (٢٨٧٢)، والنسائي (٦/ ٢٢٧)، وأبو داود (٤٨٠٣)، وأحمد (٣/ ١٠٣)، والبيهقي (١٠/ ١٧)، من حديث أنس - رضي الله عنه - قال: كان للنبي ﷺ ناقة تسمى (العضباء) لا تُسْبَق قال حميد (الراوي عن أنس): أو لا تكاد تُسبق، فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين، حتى عرفه، فقال: حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه، وهذا لفظ البخاري.

الحديبية ليغيظ بذلك المشركين. وكانت له خمسة وأربعون لقحة أرسل بها إليه سعد ابن عبادة. وكان له عليه الصلاة والسلام من البغال خمس: الأولى شهباء أهداها له المقوقس مع مارية وأختها فيما أهداه إليه عليه الصلاة والسلام. والثانية فضة أهداها له فروة بن عمرو الجذامى. والثالثة أهداها له ابن العكماء صاحب أيلة. الرابعة: من دومة الجندل. الخامسة أهداها له النجاشى. وقيل إنهن ست والسادسة أهداها له كسرى. قال فى المواهب: وفيه نظر. وكان له عليه الصلاة والسلام من الحمير عفير أهداه له المقوقس. وكان له آخر يسمى يعفور. أخرج ابن عساكر عن أبى منظور قال: لما فتح رسول الله ﷺ خيبر أصاب حمارا أسود، فكلم رسول الله ﷺ الحمار فكلمه الحمار، فقال له رسول الله ﷺ: ما اسمك؟ فقال يزيد بن شهاب، أخرج الله من نسل جدى ستين حمارًا كلهم لا يركبهم إلا نبى، وقد كنت أتوقعك أن تركبنى لم يبق من نسل جدى غيرى ولا من الأنبياء غيرك، قد كنت قبلك لرجل يهودى وكنت أتعثر به عمدًا فكان يجيع بطنى ويضرب ظهرى. فقال له عليه الصلاة والسلام: فأنت يعفور، فكان رسول الله ﷺ يبعثه إلى باب الرجل فيأتى الباب فيقرعه برأسه فإذا خرج إليه صاحب الدار أومأ إليه أن أجب رسول الله ﷺ فلما قبض رسول الله ﷺ جاء إلى بئر كانت لأبى الهيثم بن التيهان الأنصارى فتردى فيها جزعًا على رسول الله ﷺ فمات[1]، رواه أبو نعيم بنحوه من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه.

وكان له عليه الصلاة والسلام فسطاط يسمى الكن وكان له محجن قدر ذراع أو أكثر يمشى ويركب به يعلقه بين يديه على بعير. وكانت له مخصرة تسمى العرجون، وكان له قضيب من الشوحط يسمى الممشوق. وكان له قدح يسمى الريان، وآخر يسمى مغيثا، وآخر مضبب بسلسلة من فضة فى ثلاثة مواضع منه، وآخر من عيدان بفتح العين اسم شجرة معروفة، وآخر من زجاج، وتور من حجارة بالتاء المثناة فوق يسمى المخضب، وركوة تسمى الصادرة، ومخضب من نحاس، ومغتسل من صفر، ومدهن، وربعة إسكندرية تجعل فيها المرآة، ومشط من عاج وهو الذبل، ومكحلة يكتحل منها عند النوم. وكان فى الربعة أيضًا المقراض والسواك. وهذه الربعة أهداها له المقوقس صاحب إسكندرية مع مارية وما معها

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٤٢٠) مختصرا.

وكانت له قصعة تسمى الغراء بأربع حلق، وكان له صاع ومد وقطيفة وسرير قوائمه من ساج وفراش من أدم حشوه ليف، وخاتم من فضة ملوى بفصه، وخاتم فضة فصه منه يجعله فى يمينه، وقيل كان أولا فى يمينه ثم حوله إلى يساره منقوش عليه « محمد رسول الله »[١] ثلاثة أسطر. قال الإمام الإسنوى: فى حفظى أن أول الأسطر قرأت « محمد »، ثم فوقه « رسول »، ثم فوقه « الله ». فسطر اسم الله الأعلى.

وأهدى له النجاشى خفين سادجين فلبسهما.

وكان له عليه الصلاة والسلام ثلاث جبات يلبسهن في الحرب، وجبة سندس أخضر وجبة ممالسة، وعمامة يقال لها السحاب وأخرى سوداء. صلوات الله وسلامه عليه.

* * *

(١) أخرجه أبو داود (١٩)، والترمذي (١٧٤٦)، وابن ماجه (٣٠٣)، والبيهقي (١/ ٩٥)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٨٦-بتحقيقنا)، من حديث أنس قال: كان نقش خاتم رسول الله ﷺ : محمد رسول الله، فكان إذا دخل الخلاء وضعه.

الباب السابع
من المقصد الثاني

في الحوادث، من أول سنى هجرته إلى وفاته، عليه الصلاة والسلام.

لما دخل- عليه الصلاة والسلام- «المدينة» الشريفة، أقام بها عشر سنين، وقبض في الحادية عشرة؛ تتجدد له في كل سنة أمور وشرائع لا تنحصر؛ فلنذكر شيئا من ذلك على الترتيب، نبدأ بما في كل سنة من غزوة، ثم من سرية، ثم من غيرهما .

حوادث السنة الأولى من الهجرة

لما استقر- عليه الصلاة والسلام بـ«المدينة» واجتمع عليه أصحابه وقاموا بنصره، وصارت «المدينة» لهم دار إسلام، ومعقلا وملجأ يلجئون إليه- شرع الله تعالى جهادَ الأعداء؛ فبعث البعوث والسرايا، وغزا وقاتل هو وأصحابه؛ حتى دخل الناسُ في دين الله أفواجا أفواجا، وكان عدد مغازيه التى خرج فيها بنفسه: سبعا وعشرين، قاتل في تسع منها بنفسه: بدر، وأحد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف؛ وهذا على قول من قال: إن مَكَّةَ فتحت عنوة. وكانت سراياه التى بعث بها: سبعًا وأربعين سرية، وقيل: إنه قاتل في بني النضير.

قال في «فتح الباري»[١]: السرية- بفتح السين، وكسر الراء، وتشديد التحتية-: هى التى تخرج بالليل، والسارية: هى التى تخرج بالنهار. وقيل: سميت بذلك؛ لأنها تخفي ذهابها، وهذا يقتضى أنها أُخذت من «السر»، ولا يصح؛ لاختلاف المادة.

وهى قطعةٌ من الجيش تخرج منه وتعود إليه، وهى من مائة إلى خمسمائة، فما زاد على خمسمائة، يقال له: «منسر» بالنون ثم السين المهملة، فإن زاد على الثمانمائة سمى: جيشا[٢]، فإن زاد على أربعة آلاف سمى: جحفلا[٣]، والخميس: الجيش العظيم، وما افترق من السرية يسمى: بَعْثًا، والكتيبة: ما اجتمع ولم ينتشر.

---

(١) ينظر الفتح (٨/ ٣٨٠) مع اختلاف في السياق.

(٢) زاد في الفتح: وما بينهما يسمى هبطة.

(٣) زاد في الفتح: فإن زاد فجيش جرار.

وكان أولَ بعوثه - عليه الصلاة والسلام - على رأس سبعة أشهر في رمضان، بعثُ حمزة بن عبد المطلب، مرة على ثلاثين رجلا من المهاجرين، وقيل: من الأنصار، وفيه نظر؛ لأنه لم يبعث أحدًا من الأنصار حتى غزا بهم بدرا [١].

خرج حمزة- رضى الله عنه- ومن معه يعترضون عيرا لقريش، فيهم أبو جهل اللعين، فلقيه في ثلاثمائة راكب، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص، فلما تصافُّوا حجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى، وكان- عليه الصلاة والسلام- قد عقد له لواءً أبيض.

واللواء: هو العلم الذي يحمل في الحرب؛ يعرف به موضع صاحب الجيش، وقد يحمله أمير الجيش نفسه، وقد يدفعه لمقدم العسكر، وقد صرح جماعة من أئمة اللغة بترادف اللواء والراية؛ لكن روى أحمد والترمذي، عن ابن عباس: «كانَتْ رَايَةُ رسول الله ﷺ سوداءَ ولواؤُه أبيضَ» [٢] ومثله عند الطبراني عن بريدة [٣]، وعند ابن عدي عن أبي هريرة، وزاد فيه: مكتوبٌ: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» [٤]، وهو ظاهر في التغاير؛ فلعل التفرقة بينهما عرفية.

وذكر ابن إسحاق وكذا أبو الأسود عن عروة، أن أول ما حدثت الرايات يوم خيبر، وما كانوا يعرفون قبل ذلك إلا الألوية [٥]، انتهى.

ثم فيها سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب إلى «بطن رابغ» في شوال في ستين رجلا، وعقد له- عليه الصلاة والسلام- لواءً أبيض، حمله مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فلقى أبا سفيان بن حرب وكان على المشركين- وقيل: مكرز بن

(١) وهذه السرية هي سرية سيف البحر. وينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٣٧-٢٣٨)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٠٤)، المغازي للواقدي (١/ ٩)، الكامل في التاريخ (٢/ ١١٢)، البداية والنهاية (٣/ ٢٨٦)، تاريخ الإسلام (٤٥-جزء المغازي). وفي سيرة ابن هشام: وليس فيهم من الأنصار أحد.

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٨١)، وابن ماجه (٢٨١٨) من طريق لاحق بن حميد عن ابن عباس به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ٢٢) رقم (١١٦١) من طريق حيان بن عبيد الله ثنا ابن بريدة عن أبيه، وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ٣٢٤) وقال: رواه أبو يعلى والطبراني وفيه حيان ابن عبيد الله، قال الذهبي بيض له ابن أبي حاتم وهو مجهول وبقية رجال أبي يعلى ثقات.

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل (٢/ ٦٥٨) وضعفه ابن عدي. وله طريق آخر عنده أيضًا (٣/ ٩٠١)، وفيه خالد بن عمرو القرشي وهو متروك.

(٥) ينظر: سبل الهدى والرشاد (٥/ ١٢٠).

حفص، وقيل: عكرمة بن أبي جهل- في مائتين من المشركين، ولم يكن بينهم قتال؛ إلا أن سعد بن أبي وقاص رَمَى بسهم؛ فكان أولَ سهم رمى به في سبيل الله في الإسلام (١).

قال ابن إسحاق: وكانت رايةُ عبيدة أولَ راية عقدت في الإسلام (٢)، وقد تقدم أن أول راية عقدت لحمزة؛ وإنما أشكل أمرهما؛ لأنه ﷺ بعثهما معا فاشتبه ذلك على الناس.

وهذا يشكل بقولهم: إن بعث حمزة كان على رأس سبعة أشهر؛ لكن يحتمل أن يكون- عليه الصلاة والسلام- عقد رايتهما معًا، ثم تأخر خروج أبي عبيدة إلى رأس الثمانية؛ لأمرٍ اقتضاه.

ثم فيها سرية سعد بن أبي وقاص إلى «الخرار» (٣)- بخاء معجمة فراءين مهملتين- وهو: وادٍ يصب بـ«الحجاز» في «الجحفة»، كان ذلك في ذي القعدة على رأس تسعة أشهر، وعقد له لواء أبيض، حمله المقداد بن الأسود (٤)، في عشرين رجلا، يعترض عيرًا لقريش، فخرجوا على أقدامهم فصبحوا صبح خامسة، فوجدوا العير قد مرت بالأمس (٥).

ثم فيها- غير ما سبق قريبًا من بناء المسجد والمساكن- دعاؤه ﷺ بنقل وباء «المدينة» إلى مهيعة برية مسبعة، وهى «الجحفة»؛ وسبب ذلك وَعْكُ أبى بكر- رضي الله عنه- وغيره من الصحابة، وذلك أنه روى أن هواء «المدينة» كان عَفِنًا وخمًا يكون فيه الوباء، وكانت مشهورة بالوباء في الجاهلية؛ فإذا دخلها غريب نهق نهيق الحمار؛ يسمونه: التعشير، يقال له: إذا أردت أن تسلم من الوعك والوباء،

---

(١) ينظر الطبقات الكبرى (٢/ ٤)، والمغازي للواقدي (١/ ٢،١٠)، الروض الأنف (٣/ ٢٥- ٢٦)، الكامل في التاريخ (٢/ ١١١)، تاريخ الخميس (١/ ٤٠٢)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٠٤)، البداية والنهاية (٣/ ٢٨٧)، تاريخ الإسلام (٤٦-المغازي).

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٣٧).

(٣) موضع بالحجاز يقال: هو قرب الجحفة، وقيل واد من الأودية، وقيل ماء بالمدينة. ينظر: معجم البلدان (٢/ ٣٥٠).

(٤) في الطبقات: المقداد بن عمرو البهراني، وهو المقداد بن الأسود، وهذا اسم أبيه.

(٥) ينظر تاريخ الطبري (٢/ ٤٠٦)، الطبقات الكبرى (٢/ ٤،٥)، الكامل في التاريخ (٢/ ١١٢) المغازي للواقدي (١/ ١١)، البداية والنهاية (٣/ ٢٨٧)، تاريخ الإسلام (٤٨-المغازي).

فانهق نهيق الحمار، فإذا فعل سلم؛ فاستوخم المهاجرون هواء «المدينة» ولم يوافق أمزجتَهُمْ، فمرض كثيرٌ منهم، وضعفوا حتى لم يقدروا على الصلاة قيامًا.

وفي «سنن النسائي» و«سيرة ابن هشام»: أن الصدّيق لما قدم «المدينة» أخذته الحمّى وعامرَ بنَ فهيرةَ وبلالاً، قالت عائشة: فدخلتُ عليهم وهم في بيتٍ واحد، قبل أن يضرب علينا الحجاب، فقلت: يا أبت، كيف أصبحت؟ فقال: [من الرجز]

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

فقلت: إنا لله، إن أبي ليهذى! فقلت لعامر بن فهيرة: كيف تجدك؟ فقال: [من الرجز]

لَقَدْ وَجَدْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ وَالْمَرْءُ يَأْتِي مَوْتُهُ مِنْ فَوْقِهِ
كُلُّ امْرِئٍ مُجَاهِدٌ بِطَوْقِهِ كَالثَّوْرِ يَحْمِي أَنْفَهُ بِرَوْقِهِ[١]

قالت فقلت: هذا- والله- لا يدري ما يقول!. ثم قلت لبلال: كيف أصبحت؟ وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمّى يرفع عقيرته، ويقول: [من الطويل]

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِفَخٍّ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ؟![٢]
وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ وَيَبْدُو لِعَيْنِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ؟![٣]

ثم يقول: اللهم العن عتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف؛ كما أخرجونا إلى أرض الوباء.

قالت عائشة: فدخلت على رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: اللهم حبب إلينا «المدينة» كحبنا «مكة» أو أشد حبا، وصحّحها، وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها إلى مهيعة[٤]، فأجاب الله دعاءه، فجعل هواءها صحيحا موافقا لأمزجة الغرباء، ونقل وباءها وحماها وعفونة هوائها إلى «الجحفة» وهي- يومئذ- كانت دارَ اليهود ولم يكن بها مسلم؛ يقال: كانت لا يدخلها الطير إلا حمّ.

عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «رأيت امرأة ثائرة

---

(١) الرَّوْقُ: قرن الدابة. ويضرب هذا الشطر مثلاً. المعجم الوسيط (روق).
(٢) الجليل: الثمام، وهو نبت ضعيف يحشى به خصاص البيوت. لسان العرب (جلل).
(٣) شامة وطفيل: جبلان. وقيل: عينان. والأول أكثر. ومجنة: موضع قريب من مكة كانت تقام به سوق في الجاهلية. انظر: اللسان (شيم).
(٤) أخرجه البخاري (١٨٨٩، ٣٩٢٦، ٥٦٥٤، ٥٦٧٧، ٦٣٧٢)، وفي الأدب المفرد (٥٢٥)، ومسلم (١٣٧٦/٤٨٠) مختصرا، وأحمد (٥٦/٦، ٨٢، ٢٣٩، ٢٦٠)، والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف (١٧١٥٨/١٢) من حديث عائشة، ورواياته مطولة ومختصرة.

الرأس خرجت من«المدينة» حتى نزلت «مهيعة» (١).

قال صاحب «الخميس» نقلا عن «الصفوة»: مَهِيعة- كـ«معيشة» كلتاهما بالمثناة - التحتية- : اسم للجحفة.

قلت: المشهور: أنها بسكون الهاء وفتح الياء التحتية؛ بوزن «مَسْبعة» كما تقدم.

وفي «تشويق الساجد إلى أشرف المساجد»: الجحفة- بضم الجيم، وسكون الحاءِ- قريةٌ تسمى «مهيعة» على خمس مراحلَ من «مكة»، وهى ميقاتُ أهل «مصر» و«المغرب»، وهى بقرب «رابغ» محاذية له على يسار الذاهب إلى «مكة»، بينها وبين البحر ستة أميال.

و«غدير خم» على ثلاثة أميال من «الجحفة» يُسرة عن الطريق، وهذا الغدير تصبّ فيه عين، وحوله شجر كثير ملتف، وهى الغيضة التى تسمى«خم »،وبهذا الغدير قال- عليه الصلاة والسلام- فى خطبته هنالك: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم والِ من والاه. . .» إلى آخره، وذلك مُنْصَرَفَهُ من حجة الوداع، يوم ثامن من ذي الحجة الحرام.

وفيها وَاخَى بعد مقدمه إلى «المدينة» بخمسة أشهر، بين المهاجرين والأنصار- وكانوا تسعين؛ كل طائفة خمسة وأربعون- على الحق والمساعدة والتوارث، وكانوا كذلك؛ حتى نزل بعد بدر قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وكتب كتابًا بين المهاجرين والأنصار.

وفيها وادع اليهود، وأقرهم، واشترط عليهم ولهم.

ذكر السبب في كون اليهود بـ«المدينة»:

قال السهيلي في «روضه»: السبب فى ذلك - مع أن «المدينة» وسط أرض العرب، واليهود أصلهم من أرض «كنعان» - هو أن بني إسرائيل كانت تغير عليهم العماليق من أرض «الحجاز»، وكانت منازلهم: «يثرب» و«الجحفة» إلى «مكة»، فشكَتْ بنو إسرائيل ذلك إلى موسى- عليه وعلى نبينا وسائر النَّبِيِّينَ أفضل الصلاة والسلام- فوجه إِلَيْهِمْ جيشا، وأمرهم أن يقتلوهم ولا يبقوا منهم أحدا، ففعلوا،

(١) أخرجه البخاري (٧٠٣٨،٧٠٣٩،٧٠٤٠)، وأحمد (٢/١٠٧، ١١٧، ١٣٧)، والترمذي (٢٢٩٠)، وابن ماجه (٣٩٢٤) من طريق موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه.

وتركوا منهم ابن ملك لهم كان غلامًا حسنا؛ فرقوا له، يقال للملك: الأرقم بن أبي الأرقم- فيما ذكره الزبير بن بكار- ثم رجعوا إلى «الشام» وموسى قد مات، فقالت لهم بنو إسرائيل: قد عصيتم وخالفتم؛ فلا نؤويكم، فقالوا: نرجع إلى البلاد التى غلبنا عليها فنكون بها، فرجعوا إلى «يثرب» فاستوطنوها وتناسلوا بها، إلى أن نزلت عليهم الأوس والخزرج ابنا ثعلبة بن قيس، بعد سيل العَرِم وتفرقهم من بلاد «اليمن» به؛ ذكر ذلك أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني».

والذي قاله غيره: أن طائفة من بني إسرائيل لحقت بأرض «الحجاز» حين دَوّخ بخت نصر البابلى بلادَهُم، وجاس هو وقومُه خلال ديارهم؛ فحينئذ لحق من لحق منهم بـ«الحجار» كـ«قريظة» و«النضير»، وسكنوا «خيبر» و«المدينة».

وأما «يثرب» فاسم رجل من العماليق، أول من نزل بها، وقد تقدم ذكر هذا في المقصد الأول من هذا الكتاب[1].

وفيها أُرِىَ عبدُ الله بن زيد بن عبد ربه الأذانَ، ووافقه جَمْعٌ في رؤياه[2].

وبعد شهر من مقدمه زِيدَ في صلاة الحضر؛ على قول من قال: أول ما فرضت ركعتين، وهو الذي صح من حديث عائشة[3]، والأكثر على: أنها فرضت تامة، ثم خففت بالقصر في السفر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: ١٠١] الآية.

فيؤوّل حديث عائشة: إما بأن المعنى: أول ما فرضت ركعتين بعدهما تشهد وسلام، أى: وقبل ذلك كانت الأربع بلا تشهد أول، ويكون معنى قولها: «أقرت في السفر» أى: من غير زيادة ركعتين أخريين، وقيل: في التأويل- أيضا- غير ذلك.

وفيها بعد دخوله- عليه الصلاة والسلام- «المدينة» أسلم عبد الله بن سلام، وكان

---

(١) ينظر: الروض الأنف (٢/ ٢٥٠-٢٥١).

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ١٤٩)، الطبقات الكبرى (١/ ٢٤٦-٢٤٨)، نهاية الأرب (١٦/ ٣٩٩)، البداية والنهاية (٣/ ٢٨٤-٢٨٦)، المنتظم (٣/ ٧٧-٨٠).

(٣) أخرجه مالك (١/ ١٤٦) كتاب قصر الصلاة في السفر باب قصر الصلاة الحديث (٨)، والبخاري (٧/ ٢٦٧) كتاب المناقب الحديث (٣٩٣٥)، ومسلم (١/ ٤٧٨) كتاب صلاة المسافرين باب صلاة المسافرين الحديث (١/ ٦٨٥)، وأبو داود (٢/ ٥) كتاب الصلاة باب صلاة المسافرالحديث (١١٩٨)، والنسائي (١/ ٢٢٥-٢٢٦) كتاب الصلاة باب كيف فرضت الصلاة، والبيهقي (١/ ٣٦٢-٣٦٣) كتاب الصلاة باب عدد ركعات الصلوات.

اسمه: الحصين، فسماه- عليه الصلاة والسلام- عبد الله، وهو من ولد يوسف الصديق بن يعقوب، عليهما السلام [(١)].

وفيها كان ابتداء خدمة أنس للنبي ﷺ. وفيها أسلم سلمان الفارسي [(٢)].

وفيها ولد عبد الله بن الزبير، جاءت أمه أسماء بنت أبي بكر حاملا به بعد الهجرة، فنفِسَتْ به في «قباء»، في شوال من السنة المذكورة وهى الأولى [(٣)]، وقال الذهبي: في السنة الثانية من الهجرة [(٤)]؛ وفي «المواهب» و«تاريخ اليافعى» و«أسد الغابة»: ولد بـ«المدينة» على رأس عشرين شهرا من الهجرة [(٥)]، وقيل: في السنة الأولى [(٦)]. وقال الحافظ ابن حجر: المعتمد أنه ولد في السنة الأولى؛ للحديث المتفق عليه [(٧)].

ومحل بسط أحوال هذه الحوادث كتب السير المدوّنة لذلك؛ المتناولة المشهورة المسالك؛ لكنا أردنا التبرك بنفح عبيرها، والتكفف بيسيرها عن تيسيرها.

---

(١) وقصة إسلام عبد الله بن سلام عند البخاري (٣٩٣٨) من حديث أنس. وينظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٣٥٢-٣٥٣)، صفة الصفوة (١/ ٣٠١-٣٠٢)، تاريخ الإسلام (٣٢-المغازي).

(٢) قصة إسلام سلمان الفارسي ينظر لها تاريخ أبي زرعة الدمشقي (١/ ٦٤٨-٦٤٩)، حلية الأولياء (١/ ١٨٥-٢٠٨)، أخبار أصبهان (١/ ٤٨-٥٧)، تاريخ الطبري (١/ ٩٣)، تاريخ بغداد (١/ ١٦٣-١٧١)، الكامل في التاريخ (٣/ ٢٨٧)، الروض الأنف (١/ ٢٥٠-٢٥١)، صفة الصفوة رقم (٥٩)، أسد الغابة (٢/ ٤١٧)، تاريخ الإسلام (٩٥-جزء السيرة)، سير أعلام النبلاء (١/ ٥٠٥-٥٥٨)، السيرة النبوية (١/ ٢٤١-٢٤٩).

(٣) قال العلامة ابن كثير: وممن ولد في هذه السنة المباركة -وهي الأولى من الهجرة- عبد الله بن الزبير فكان أول مولود ولد في الإسلام بعد الهجرة كما رواه البخاري عن أمه أسماء وخالته عائشة أم المؤمنين ابنتي الصديق - رضي الله عنهما -، ومن الناس من يقول: ولد النعمان بن بشير قبله بستة أشهر، فعلى هذا يكون ابن الزبير أول مولود ولد بعد الهجرة من المهاجرين، ومن الناس من يقول إنهما ولدا في السنة الثانية من الهجرة، والظاهر الأول كما قدمنا بيانه ولله الحمد والمنة. البداية والنهاية (٣/ ٢٨٨). وينظر الاستيعاب (١٥٥٣)، أسد الغابة (٣/ ٢١٢)، الإصابة (٤٧٠٠)، الحلية(١/ ٣٢٩-٣٣٧)، تجريد أسماء الصحابة (١/ ٣١١)، تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٦٦)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٣)، تاريخ الخلفاء (٢١١).

(٤) تاريخ الإسلام (١٢٧-المغازي)، السير (٣/ ٣٦٣).

(٥) ينظر: أسد الغابة (٢٩٤٩).

(٦) ينظر: الفتح (٧/ ٦٦١).

(٧) أخرج البخاري (٣٩٠٩)، ومسلم (٢٦/ ٢١٤٦)، وأحمد (٦/ ٣٤٧) عن أسماء أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة قالت: فخرجت وأنا متم فأتيت المدينة فنزلت بقباء فولدته بقباء. . .» الحديث.

حَوَادِثُ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ

فيها كانت غزوة «الأبواء»؛ خرج- عليه الصلاة والسلام- في صفر، وهى أول مغازيه؛ كما ذكره ابن إسحاق (١). وهى من «ودان» على ستة أميال أو ثمانية مما يلى «المدينة»؛ ولتقاربهما أطلق عليها غزوة «ودان» أيضا.

و«ودان»: قرية من أمهات القرى، وقيل: واد في الطريق، يقطعه المصعدون من حجاج «المدينة».

روى أنه- عليه الصلاة والسلام- استخلف على «المدينة» سعد بن عبادة؛ فيما قاله ابن هشام (٢)، وخرج في صفر في ستين رجلا من أصحابه؛ يعترض عير قريش وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فلما بلغ «الأبواء» تلقى سيد بنى ضمرة مخشى بن عمرو الضمري، فصالحه على مَا سيذكر؛ فانصرف- عليه الصلاة والسلام- إلى «المدينة» بعد ما وادع مخشى بن عمرو وصالحه، وكانت الموادعةُ والمصالحة على أن بني ضمرة لا يغزونه، ولا يكثرون عليه جمعا، ولا يعينون عدوا، ولم يلق كيدًا، أى: حربا (٣).

وفيها غزوة «بواط» اسم جبل لجهينة، على أربعة برد من «المدينة» في ربيع الأول من السنة المذكورة؛ يعترض عيرًا لقريش فيها أمية بن خلف، فرجع ولم يلق كيدا (٤).

«بواط»: بفتح الباء والواو، والطاء المهملة.

وفى «الخلاصة»: «رَضْوَى» كـ «سكرى» جبلٌ على يوم من «ينبع» وأربعة أيام من «المدينة» ذو شعاب وأودية، وبه مياه وأشجار، وهذا هو المعروف، ومنه تقطع

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٣٣)، الطبقات الكبرى (٢/ ٨)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٧٠)، الروض الأنف (٣/ ٢٥)، الكامل في التاريخ (٢/ ١١١)، المغازي للواقدي (١/ ٢، ١١-١٢)، تاريخ الإسلام (٤٥-المغازي).

(٢) ينظر السيرة النبوية (٢/ ٢٣٣)، المنتظم (٣/ ٨٨-٨٩)، تاريخ الإسلام (٤٥-المغازي).

(٣) ينظر: المصادر السابق ذكرها في التعليق السابق وقبل السابق.

(٤) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٤٠)، الطبقات الكبرى (٢/ ٨-٩)، تاريخ خليفة (٥٧)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٠٧)، المغازي للواقدي (١/ ١٢)، الكامل في التاريخ (٢/ ١١٢)، المنتظم (٣/ ٨٩)، تاريخ الإسلام (٤٧-المغازي)، البداية والنهاية (٣/ ٣٠١)، تلقيح فهوم أهل الأثر (٤٩)، الروض الأنف (٣/ ٢٧).

حجارة المسانِّ، وهو أول «تِهَامة»، وهو مما وقع بـ «المدينة» من الجبل الذى تجلى الله- سبحانه وتعالى- فصار لهيبته جبلا [(١)]، و«رضوى»: من جبال الجنة، وفي رواية: «من الجبال التى بنى منها البيت»، وفي الحديث: «رضوى رضى الله عنه، وقدس قدسه الله، وأحد جبل يحبنا ونحبه».

وتزعم الكيسانية المنسوبون إلى كيسان- وهو لقب للمختار بن أبي عبيد الثقفي- داعية محمد بن الحنفية، أنه مقيمٌ بـ«رضوى» حَيٌّ يرزق، وينشدون لذلك أبياتا لدعبل فيه، سيأتي ذكرها عند ذكره، رضي الله عنه.

خرج- عليه الصلاة والسلام- في هذه الغزوة في مائتي رجل من قريش، وكان في العير ألفان وخمسمائة بعير، فسار فلم يلق كيدا فرجع إلى «المدينة».

وفيها غزوة بدر الأولى في ربيع الأول؛ لطلب كرز بن جابر الفهرى؛ لمّا أغار على سرح «المدينة» بـ«شغر» بلغ سفوان فلم يلحق كرزا، وتسمى بدرا الأولى[(٢)]؛ لقرب سفوان المذكور من بدر؛ هكذا ذكرها الشمس البرماوي قبل غزوة العشيرة، وذكرها صاحب «المواهب» و«الخميس» مؤخرة عن غزوة العشيرة، مؤرخة بعدها بعشرة أيام [(٣)].

قال ابن هشام: واستعمل على «المدينة» زيد بن حارثة، وحمل اللواء على بن أبي طالب [(٤)].

وفيها غزوة العشيرة؛ بالشين المعجمة، والتصغير، آخرها هاء؛ لم يختلف أهل المغازي في ذلك [(٥)].

---

(١) أخذ المصنف هذا الكلام من حديث موضوع، أخرجه ابن الأعرابي في المعجم (١٦٨٢) عن أنس مرفوعاً: لما تجلى الله للجبل طارت لعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة فوقع بالمدينة أحد ورَضْوَى وورقان، ووقع بمكة ثبير وحراء وثور. وقال الألباني في الضعيفة (١/ ١٩٣): موضوع.

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٤٣)، الطبقات الكبرى (٢/ ٩)، المغازي للواقدي (١/ ١٢)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٠٧)، الكامل في التاريخ (٢/ ١١٢)، المنتظم (٣/ ٨٩-٩٠)، أنساب الأشراف (١/ ٢٨٧)، تاريخ الإسلام (٤٨-المغازي)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٣) وهكذا ذكرها ابن إسحاق بعد غزوة العشيرة وكذا الذهبي، وذكرها ابن الجوزي في المنتظم (٣/ ٨٩-٩٠) قبل غزوة العشيرة.

(٤) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٤٣،٢٥٥).

(٥) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٤٠-٢٤١)، الطبقات الكبرى (٢/ ١٠٠٩)، تاريخ الطبري =

وفي البخاري: العشير، والعسيرة[١] بالتصغير، والأولى بالمعجمة بلا هاء، والثانية بالمهملة وبالهاء.

وأما غزوة العسرة- بالمهملة من غير تصغير- فهى غزوة تبوك، وستأتى.

ونسبت هذه الغزوة إلى المكان الذي وصلوا إليه، وهو موضع لبني مدلج بـ«ينبع».

قلت: أفادني بعض مشايخى من أهل «مصر» أن محلها هو محطة الحاج المصري الآن بـ«ينبع» جائيًا وذاهبًا.

خرج إليها ﷺ في جمادى الأولى، وقيل: الأخرى، في مائة وخمسين رجلا، وقيل: في مائتين، ومعهم ثلاثون بعيرًا يعتقبونها، وحمل اللواء حمزة بن عبد المطلب؛ خرج يريد قريشا حالَ صدورها من «مكة» إلى «الشام» بالتجارة، فخرج إليها ليغنمها، فوجدها قد مضت.

ووادع بني مدلج من كنانة، وكانت نسخة الموادعة فيما ذكره غير ابن إسحاق: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتابٌ من محمد رسول الله لبني مدلج؛ فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم، على ألا يحاربوا في دين الله ما بلَّ بحر صوفة، وأن النبى ﷺ إذا دعاهم لنصره أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله».

واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى [٢].

وقال ابن إسحاق- يعنى: على مقتضى رواية من قدم غزوة العشيرة على بدر الأولى-: لما رجع ﷺ من غزوة العشيرة، لم يقم بـ«المدينة» إلا ليالى قلائل لا تبلغ العشر، وبلَّغهَا صاحب «المواهب» فقال: عشر ليال، حتى أغار كرز بن جابر الفهري على سرح «المدينة» [٣].

= (٢/ ٤٨٠)، المغازي للواقدي (١/ ١٢)، الكامل في التاريخ (٢/ ٢١٢)، البداية والنهاية (٣/ ٣٠٢)، المنتظم (٣/ ٩٠)، تاريخ الإسلام (٤٧-المغازي).

(١) ينظر: الفتح (٨/ ٣) كتاب المغازي.

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٤٠)، المغازي (١/ ١٢)، البداية والنهاية (٣/ ٣٠٢)، تاريخ الإسلام (٤٧-المغازي).

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٤٣).

و«شغر» كـ«زفر»: جبل بأصل جمّاء أم خالد، وسفوان- بفتحات-: وادٍ من ناحية بدر، وبه سميت هذه الغزوة بدرًا الأولى.

وفيها في رجب- كما في «المواهب» و«الخميس»- كانت سرية عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي، إلى «بطن نخلة»، على ليلة من «مكة» [1].

ونخلة- بلفظ مفردة النخل-: موضعٌ على يوم وليلة من «مكة»، وهى التى ينسب إليها «بطن نخلة»، الوارد فيها حديث استماع جنّ «نصيبين» لقراءته ﷺ في صلاة الصبح بها سورةَ الجن، المعنيين بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الأحقاف: ٢٩] سبعة أو ثمانية: شاصر، وماص، ومنشي، وناشي، والأحقب، وعمر بن جابر، وزوبعة، وسُرّق؛ والأصح أنهم سبعة وأن الأحقب صفة لأحدهم [2].

وهما نخلتان: شامية ويمانية، فالشامية: تنصب من «الغمير»، واليمانية من بطن «قرن المنازل»، وهو طريق «اليمن» إلى «مكة»، فإذا اجتمعا فكانا واحدا فهو السد، ثم يضمهما «بطن مَرّ».

بعثه- عليه الصلاة والسلام- في ثمانية من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد وقيل: اثنا عشر رجلا-: سعد بن أبي وقاص الزهري، وعكاشة بن محصن الأسدي، وعتبة بن غزوان بن جابر السلمي، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة العبشمي، وسهيل بن بيضاء الحارثي، وعامر بن ربيعة الوائلى العنزي، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف التميمي، وخالد بن البكير الليثي؛ كل اثنين منهم يعتقبان بعيرا.

وكتب له- عليه الصلاة والسلام- كتابًا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره أحدا من أصحابه على المسير معه؛ فلما سار عبد الله يومين فتح الكتاب؛ فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل «نخلة» بين «مكة» و«الطائف»، فترصد بها قريشا، وتعلم لنا من أخبارهم» وفي رواية: فإذا فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فسر على بركة الله بمن تبعك

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٤٣)، الطبقات الكبرى (٢/ ١٠-١١)، تاريخ الطبري (٢/ ٤١٠)، المغازي (١/ ١٣)، الكامل في التاريخ (٢/ ١١٣-١١٥)، المنتظم (٣/ ٩١)، البداية والنهاية (٢/ ٣٠٤)، تاريخ الخميس (١/ ٤٠٢)، تاريخ الإسلام (٤٨-المغازي).

(٢) اختلف في عددهم وأسمائهم على أقوال. وينظر: الدر المنثور (٦/ ١٦-١٧).

من أصحابك؛ حتى تنزل بطن «نخلة» فترصد بها عير قريش؛ لعلك أن تأتي لنا بخبر».

فلما نظر في الكتاب قال: سمعا وطاعة، ثم قال لأصحابه: «قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى «نخلة»؛ لنرصد بها قريشا؛ حتى آتى إليه بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحدا منكم؛ فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، وأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ».

فمضى ومضى معه أصحابه؛ لم يتخلف منهم أحد، وسلك على «المجاز» حتى إذا كان فوق الفرع بمحل يقال له «بحران» أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا؛ فتخلفا في طلبه، وحبسهما ابتغاؤه، ومضى عبد الله بن جحش في بقية أصحابه.

وفي «الوفاء»: مضى العشرة حتى نزلوا «نخلة»، فمرت بهم عير قريش تحمل زبيبًا وأدما وتجارة لقريش، فمنهم عمرو بن الحضرمى- واسم الحضرمي: عبد الله- والحكم بن كيسان، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبًا منهم، فقال عبد الله: إن القوم قد رعبوا منكم، فاحلقوا رأس رجل منكم فليتعرض لهم، فحلقوا رأس عكاشة فأشرف عليهم، فلما رأوه أمنوا، وقالوا: قوم عمار لا بأس عليكم منهم، وتشاور القوم فيهم- وذلك آخر يوم من رجب- فقالوا: لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، وليمتنعن عليكم به؛ ولئن قتلتموهم لنقتلنهم في الشهر الحرام [١].

وفي «الكشاف» [٢]: كان ذلك اليوم أول يوم من رجب، وهم يظنونه من جمادى الأخرى، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم؛ فرمى واقد بن عبد الله الليثى عمرو ابنَ الحضرمى بسهم فقتله، واستأسروا عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأعجزهم الباقون هربًا.

وأقبل عبد الله بن جحش بالعير والأسيرين، وقد عزل عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ خُمُس تلك الغنيمة، وقسم باقيها بين أصحابه، وذلك قبل أن يفرض الله

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٥).

(٢) ينظر: الكشاف (١/ ٢٥٨).

الخمس من الغنائم لرسول الله ﷺ، فلما أحل الله الفىء بعد ذلك، فأمر بقسمه، وفرض الخمس فيه- وقع على ما كان صنعه عبد الله بن جحش في تلك العير.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ، قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام»، فوقفَ العيرَ والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، سُقِطَ في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوتهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدماء، وأخذوا الأموال، وأسروا الرجال، وعَيَّر بذلك أهلُ «مكة» مَنْ فيها من المسلمين، وقالوا: يا معشر الصَّبَأة، قد استحللتم الشهر الحرام، وقاتلتم فيه، وكتبوا في ذلك تشنيعا وتعييرا.

قال ابن إسحاق: فقال منْ يرد عليهم من المسلمين ممن كان بـ«مكة»: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان (١).

قلت: قول ابن إسحاق هذا، يرد قول «الكشاف» السابق قريبا، أن ذلك اليوم أول يوم من رجب، ويرده أيضا قولُ أصحاب عبد الله بن جحش: «لئن تركتم القوم... إلى آخره»؛ إذ تمحيض تعليلهم عدمَ تركهم إلى غد، بتخوفِ امتناعهم بدخول الحرم قاضٍ بما قاله ابن إسحاق حملا لكلام فرسان الكلام على التقسيم الصرف الغير المتداخل، ولا يستقيم إلا إذا كان ذلك اليوم آخر يوم من رجب، لا أول يوم [من شعبان]، وإن جاز خلافه، والله أعلم.

وقالت اليهود: نتفاءل على رسول الله: عمرو بن الحضرمي قتله واقد؛ عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد: وقدت الحرب؛ فجعل الله ذلك عليهم لا لهم؛ فلما كثر الناس في ذلك؛ أنزل الله تعالى على رسوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧] أي: إن أنكرتموه في الشهر الحرام، فقد كان صدودُكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجُكم أهْلَه- أكبرَ عند الله من قَتْل من قُتِل منكم، والفتنة أكبر من القتل، وكانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه؛ فذلك

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٤٥).

أكبر عند الله من القتل.

فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما هم فيه من المشاق قبض- عليه الصلاة والسلام- العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فك عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، فقال- عليه الصلاة والسلام-: لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان؛ فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم، فقدم سعد وعتبة فأفداهما رسول الله ﷺ منهم، فأما الحكم بن كيسان: فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عنده- عليه الصلاة والسلام- حتى قتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأما ابن عبد الله: فلحق بـ«مكة» فمات كافرا.

فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه؛ حين نزل القرآن- طمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:٢١٨] فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء [(١)].

قال ابن هشام: وهى أول غنيمة غنمها المسلمون.

قال: وقال عبد الله بن جحش في ذلك: [من الطويل]

تعُدُّونَ قَتْلِى فِي الحَرامِ عَظيمَةً ... وَأَعظَمُ مِنْهُ لَوْ يَرَى الرُّشْدَ رَاشِدُ
صُدُودُكُمْ عَمَّا يَقُولُ مُحَمَّدٌ ... وَكُفْرٌ بِهِ، وَاللهُ رَاءٍ وَشَاهِدُ
وَإِخْرَاجُكُمْ مِنْ مَسْجِدِ الله أَهْلَهُ ... لِئَلَّا يُرَى لله فِي البَيْتِ سَاجِدُ
فَإِنَّا وَإِنْ عَيَّرْتُمُونا بِقَتْلِهِ ... وَأَرْجَفَ بِالإِسْلَامِ بَاغٍ وَحَاسِدُ
سَقَيْنَا مِنِ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ رِمَاحَنَا ... بِنَخْلَةَ لَمَّا أَوْقَدَ الْحَرْبَ وَاقِدُ
وَسَارَ[(٢)] ابْنُ عَبْدِ الله عُثْمانُ بَيْنَنَا ... يُنَازِعُهُ غُلٌّ مِنَ القِدِّ عَانِدُ[(٣)]

وفيها في نصف شعبان- وقيل: في نصف رجب- يوم الاثنين، وقيل: في جمادى الآخرة يوم الثلاثاء بعد ستة عشر شهرًا من مقدمه «المدينة»، وقيل: سبعة

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/٢٤٦-٢٤٧).
(٢) في ط: دما. والمثبت من السيرة، والبداية والنهاية، وهو أصوب.
(٣) ينظر السيرة النبوية (٢/٢٤٧)، والبداية والنهاية (٣/٣٠٨)، وفي البداية والنهاية: غل من القيد عاند. والقد: شرك من جلد.

عشر، وقيل: ثمانية عشر- حولت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة[١].

وقال الحربي: قدم- عليه الصلاة والسلام- «المدينة» في ربيع الأول فصلى إلى بيت المقدس إلى تمام السنة، وصلى في سنة اثنتين من الهجرة ستة أشهر، ثم حولت القبلة.

روي أنه ﷺ زار أم بشر، أم البراء بن معرور، في بني سلمة فصنعت له طعامًا، فتغدى هو وأصحابه، وجاءت صلاةُ الظهر، فصلى بأصحابه في مسجد القبلتين ركعتين من الظهر نحو الشام، ثم أُمِرَ أن يستقبل الكعبة وهو راكع في الركعة الثالثة، فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب، ودارت الصفوف خلفه، ثم أتم الصلاة؛ فسمي: مسجد القبلتين [٢].

قال ابن سعد: قال الواقدي: هذا أثبت من قول من قال: إنها في مسجده، عليه الصلاة والسلام [٣].

وقيل: إن الصلاة كانت صلاة العصر؛ يشهد له حديث البراء في البخاري [٤].

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٤٨)، البدء والتاريخ (٤/ ١٨٤)، تاريخ الطبري (٢/ ٤١٥)، الكامل في التاريخ (٢/ ١١٥)، المنتظم (٣/ ٩٣)، نهاية الأرب (١٦/ ٣٩٧)، المعرفة والتاريخ (٣/ ٢٧٥)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٠٨-٣١١)، تاريخ الإسلام (٥٠-المغازي).

(٢) ينظر: المنتظم (٣/ ٩٣).

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ١٨٦).

(٤) أخرجه البخاري (١/ ٥٩٨)، كتاب الصلاة: باب التوجه نحو القبلة حيث كان حديث (٣٩٩)، (٨/ ٢٤) كتاب التفسير باب ولكل وجهة هو موليها حديث (٤٤٩٢)، (١٣/ ٢٤٥)، كتاب أخبار الآحاد باب ما جاء في إجازة خبر الواحد حديث (٧٢٥٢)، ومسلم (١/ ٣٧٣)، كتاب المساجد باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة حديث (١٢/ ٥٢٥)، والترمذي (٥/ ١٩١)، كتاب التفسير باب سورة البقرة حديث (٢٩٦٢)، والنسائي (١/ ٢٤٢-٢٤٣)، كتاب الصلاة باب فرض القبلة حديث (٤٨٨)، وابن ماجه (١/ ٣٢٢-٣٢٣) كتاب الصلاة باب القبلة حديث (١٠١٠)، وأبو عوانة (٢/ ٨١-٨٢)، وأحمد (٤/ ٢٨٣، ٢٨٨-٢٨٩، ٣٠٤)، وأبو داود الطيالسي (٧١٩)، وابن الجارود في المنتقى (١٦٥)، وابن خزيمة (١/ ٢٢٢، ٢٢٦)، وابن حبان (١٧١٦)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٣٤)، وابن سعد (١/ ٢٤٢-٢٤٣)، والدارقطني (١/ ٢٧٣-٢٧٤)، والبيهقي (٢/ ٢-٣) كتاب الصلاة والبغوي في شرح السنة (٢/ ٩٥-بتحقيقنا) من طرق كثيرة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب به وفيه: فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأما أهل قباء: فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني كما في الصحيحين [١]؛ وهذا دليلٌ على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به وإن تقدم نزوله؛ لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم.

وفيها كان فرض صيام رمضان، بعد تحويل القبلة بشهر، في شعبان؛ على رواية من روى أن تحويل القبلة كان في رجب [٢].

وفيها فرضت زكاة الفطر قبل العيد بيومين، وذلك قبل أن تفرض زكاة الأموال، وقيل: إن الزكاة فرضت فيها، وقيل: قبل الهجرة، والله أعلم [٣].

وفيها غزوة بدر الكبرى، وتسمى: العظمى، والثانية، وبدر القتال [٤].

وهي قريةٌ مشهورة، نسبت إلى بدر بن مخلد بن النضر بن كنانة أول من نزلها، وقيل: نسبت لبدر بن الحارث حافر بئرها، وقيل: بَدْرٌ: اسم للبئر التي بها سميت بدرا؛ لاستدارتها ولصفائها ورؤية البدر فيها [٥].

قال ابن كثير: وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ووضع فيه الشرك وخرب محله؛ هذا مع قلة عدد المسلمين، وكثرة العدو مع ما كانوا عليه: من سوابغ الحديد، والعدة الكاملة، والخيول المسومة، والخُيَلاء الزائد، فأعز الله رسولَه، وأظهر وحيه وتنزيلَه، وبيض وجه النبي وقبيلَه، وأخزى الشيطان وجيلَه؛ ولهذا قال ممتنًا على عباده المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] أي: قليل عددكم؛ لتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثر العَدَدِ والعُدَدِ، فقد كانت هذه الغزوةُ أعظَم الغزوات في الإسلام [٦].

---

(١) ينظر السابق.
(٢) ينظر المنتظم (٣/ ٩٥)، تاريخ الطبري (٢/ ٤١٧)، الطبقات الكبرى (١/ ١٩١-١٩٢)، البداية والنهاية (٣/ ٣١١-٣١٢).
(٣) ينظر المصادر السابقة.
(٤) ينظر السيرة النبوية (٢/ ٢٤٩)، المغازي (١/ ١٩-١٧٢)، المغازي لعروة (١٣١-١٦٠)، الطبقات الكبرى (٢/ ١١-٢٧)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٢١-٤٧٩)، البدء والتاريخ (٤/ ١٨٥-١٩٥)، الكامل في التاريخ (٢/ ١١٦)، المنتظم (٣/ ٩٧)، جوامع السيرة (١٠٧)، تاريخ الإسلام (٥٠-المغازي)، البداية والنهاية (٣/ ٣١٣)، عيون التواريخ (١/ ١١١-١٤٠).
(٥) ينظر: الطبقات الكبرى (٢/ ١١-٢٧)، والمنتظم (٣/ ٩٧).
(٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٠٠).

وحكى الواقدي- بعد أن ذكر الأقوال في سبب تسميتها بدرا- إنكار ذلك كله عن غير واحد من شيوخ بنى غفار؛ قالوا: إنما هى مأوانا ومنازلنا، وما ملكها أحد قط يقال له: بدر، وإنما هى عَلم عليها كغيرها من البلاد، وهى على ثمانية وعشرين فرسخًا من «المدينة» [(١)].

قال ابن هشام في «السيرة»: إن رسول الله ﷺ لما سمع بأبي سفيان صخر بن حرب، مقبلا من «الشام» في عير لقريش عظيمة، فيها أموال لهم وتجارة من تجاراتهم، وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون، منهم: أبو سفيان بن حرب، ومخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة، وعمرو بن العاص بن وائل، وهى العير التى كان خرج إليها- عليه الصلاة والسلام- فوصل إلى العشيرة حال إقبالها من «مكة» فلم يدركها، فرجع إلى «المدينة»، فأخبره جبريل بقفول العير من الشام، فأخبر النبيُّ ﷺ أصحابه المسلمين، فقال: «هذه عير قريش قد أقبلت، فيها أموالهم؛ فاخرجوا إليها؛ لعل الله أن ينفلكموها» فانتدب المسلمون، فخف بعضهم، وثقل بعضهم؛ وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا، وكانت العير زهاء ألف، وفى أحمالها: من التمر والشعير والبر والزبيب، وغير ذلك.

وكان أبو سفيان بن حرب، حين دنا من الحجاز، يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان؛ تخوفا عن أمر الناس، حتى أصاب خبرًا من بعض الركبان: أن محمدًا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى «مكة»، وأمره أن يأتي قريشا؛ فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمدًا قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم، فقبل وصول ضمضم إلى مكة بثلاثٍ، رأت عاتكةُ بنت عبد المطلب رؤيا أفزعتها، وهى الرؤيا التى تقدم ذِكْرُنَاهَا في ذكر أعمامه وعماته- عليه الصلاة والسلام- بما أغنى عن إعادتها هنا [(٢)].

وكان خروج النبي ﷺ والمسلمين من «المدينة» لاثنتى عشرة ليلة مضت من رمضان؛ كذا في «المواهب».

وقال ابن هشام: لثمان ليال [(٣)]، وكان القتال يوم الجمعة صبيحة السابع عشر من

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٢٠)، والمنتظم (٢/ ٩٧).
(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٤٩-٢٥٠).
(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥٥).

رمضان، وقيل: التاسع عشر منه؛ والأول أصح.

ولما وصل ضمضم إلى «مكة» وفعل ما فعل، وحثهم على الخروج فقال: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمةَ! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوثَ الغوثَ! طلع أبو جهل على ظهر الكعبة فنادى: النجاءَ النجاء !، على كل صعب وذلول، عيركم وأموالكم؛ إن أصابها محمد لن تفلحوا إذن أبدًا. فتجهز الناس سراعًا، وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟! كلا والله، ليعلمن غير ذلك!.

وقولهم: «كعير ابن الحضرمى»، يشيرون بذلك إلى العير التى غنمها عبد الله بن جحش في سريته إلى بطن «نخلة» المتقدم ذكرها فى حوادث السنة الأولى قبل هذه السنة (١).

فكانوا بين رجلين: إما خارج، أو باعث مكانه، وأوعبت قريش، ولم يتخلف من أشرافها أحد، إلا أَنَّ أبا لهب بن عبد المطلب تخلف، وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة؛ كانت له عليه أربعة آلاف درهم أفلس بها، فاستأجره بها على أن يجزى عنه (٢).

قال ابن إسحاق: وحدثنى عبد الله بن أبي نجيح، أن أمية بن خلف كان قد أجمع القعود، وكان شيخا جليلا جسيمًا، فأتاه عقبة بن أبي معيط، وهو جالس في المسجد بين ظهراني قومه، بمجمرة يحملها فيها نار، حتى وضعها تحت ثوبه، ثم قال له: يا أبا صفوان، استجمر؛ فإنما أنت من النساء. فقال: قبحك الله وقبح ما جئت به! ثم تجهز وخرج مع الناس.

ولما فرغوا من جهازهم وأجمعوا على المسير، ذكروا ما بينهم وبين بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب والعداوة، وقالوا: نخشى أن يأتونا من خلفنا؛ وكاد ذلك أن يثبطهم ويثنيهم، فتمثل لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم- وكان من أشراف كنانة- وقال لهم: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم

---

(١) ينظر: سرية عبد الله بن جحش في حوادث السنة الأولى.

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥٢-٢٥٣)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٢٨-٤٢٩)، ودلائل النبوة (٣/ ٢٩-٣٠).

بشيء تكرهونه، فساروا [(١)].

وفي «الاكتفا» لأبي بكر الكلاعى: أنهم كانوا يرونه في كل منزل على صورة سراقة لا ينكرونه، حتى كان يوم بدر والتقى الجمعان، وكان في صف المشركين آخذا بيد الحارث بن هشام، أو بيد أخيه أبي جهل بن هشام، ورأى الملائكة نزلت من السماء، ورأى جبريلَ معتجرا ببرد يمشى بين يديه عليه الصلاة والسلام وبيده اللجام يقود الفرس، وما ركب بعد، وعلم أنه لا طاقةَ له بهم نكص على عقبيه موليًا هاربا، فقال له الحارث: إلى أين، أفِرَارًا من غير قتال، أتخذلنا في هذه الحالة؟! فقال: إنى أرى ما لا ترون، ودفع في صدر الحارث فانطلق؛ فانهزم الناس.

ولما قدموا «مكة» قالوا: هزمَ الناسَ سراقةُ، فبلغ ذلك سراقة فقال: بلغنى أنكم تقولون: إنى هزمت الناس، فوالله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتُكم! فقالوا: أما أتيتنا يوم كذا وكذا؟! فحلف لهم، فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان! [(٢)].

وروى عن السدى والكلبى أنهما قالا: كان المشركون حين خرجوا من «مكة» أخذوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أهدى الفئتين، وأعلى الجندين، وأكرم الحزبين، وأفضل الدينين؛ ففيه نزلت: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ [الأنفال: ١٩] [(٣)].

وكان عدة المسلمين: ثلاثمائة وثلاثة عشر، وفي «البخاري» [(٤)] و«الكشاف» [(٥)]: ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا.

وفي الحديث: قال- عليه الصلاة والسلام- لأصحابه يوم بدر: «أنتم اليوم كعدد المرسلين، وأصحاب طالوت يوم عبروا النهر» [(٦)]: سبعة وسبعون منهم من

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥٣-٢٥٤)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٣٠)، والبداية والنهاية (٣/ ٣١٥).

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٣١)، والبداية والنهاية (٣/ ٣١٨).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥٨٥٤) عن السدي. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣١٩) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) ينظر: الفتح (٨/ ١٧) وسيأتي حديث البراء بن عازب في ذلك.

(٥) ينظر: الكشاف (١/ ٤١١).

(٦) أخرجه البخاري (٣٩٥٧، ٣٩٥٨، ٣٩٥٩)، وأحمد (٤/ ٢٩٠)، والترمذي (١٥٩٨)، =

المهاجرين، ومائتان وستة وثلاثون من الأنصار، معهم ثلاثة أفراس: فرس المقداد ابن الأسود- والأسود، تبناه، واسم أبيه الحقيقى: عمرو- وفرس الزبير بن العوام، واسمه: اليعبوب، وفرس مَرْثد بن أبي مرثد الغنوي. وكان معهم من الدروع: تسعة، وفي رواية: ستة، ومن السيوف: ثمانية أسياف، ومن الظهر: سبعون بعيرا.

وثمانية من المسلمين لم يشهدوها لعذر؛ إنما ضرب لهم- عليه الصلاة والسلام- بأجرهم وسهمهم، فكانوا كمن حضرها:

ثلاثة من المهاجرين: عثمان بن عفان: تخلف؛ لتمريض رقية زوجته- رضي الله عنه- بنته- عليه الصلاة والسلام- في مرضها الذي ماتت فيه في غيبته- عليه الصلاة والسلام- في هذه الغزوة.

والثاني والثالث: طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد؛ بعثهما- عليه الصلاة والسلام- عينين يتجسسان خبر العير، فسارا حتى بلغا «الخرار» فكمنا هناك فمرت بهما العير، فبلغه- عليه الصلاة والسلام- الخبر فخرج من «المدينة»، ورجعا إلى «المدينة» ولم يعلما بخروجه- عليه الصلاة والسلام- فقدماها بخبر العير فلم يجداه، وفي رواية: كان قدومهما «المدينة» في اليوم الذي كانت فيه الوقعة، فرجعا إليه فلقياه منصرفا من بدر، فضرب لهما بسهمهما وأجرهما؛ فكانا كمن حضر.

وخمسة من الأنصار.

أبو لبابة: رده من الطريق إلى «المدينة» بخلافة «المدينة».

وعاصم بن عدي العجلاني: استعمله على أهل العوالي، وحارثة بن حاطب: بعثه من «الروحاء» إلى بنى عمرو بن عوف.

والرابع والخامس: الحارث بن الصمة، وخوات بن جبير؛ سقطا من البعير فأصابهما بعض كسر؛ فردهما من الطريق.

وأما عدد المشركين: فكانوا ألفا، وقيل: تسعمائة وخمسون رجلا، معهم من الخيل: مائة، ومن الظهر: سبعمائة، ومعهم القيان والدفوف.

= وابن ماجه (٢٨٢٨) من طريق أبي إسحاق عن البراء وقال: حديث حسن صحيح ولفظه مختلف، واللفظ الذي أورده المصنف قريب منه عند سعيد بن منصور في سننه رقم (٢٨٧٤).

ولما نظر- عليه الصلاة والسلام- إلى أصحابه، ورأى قلة عَددهم وعُددهم، قال: «اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسُهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم، اللهم إنهم عالة فأغنهم» (١)؛ فاستجيبت دعوته- عليه الصلاة والسلام- ففتح الله عليه؛ فما منهم رجل إلا رجع بخير، وجمل أو جملين، واكتسوا وشبعوا.

ودفع- عليه الصلاة والسلام- اللواء- وكان أبيض- إلى مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وكان أمامه- عليه الصلاة والسلام- رايتان سوداوان: إحداهما مع على بن أبى طالب يقال لها: العقاب، والأخرى مع بعض الأنصار.

وكانوا يعتقبون السبعين البعير؛ فكان رسول الله ﷺ، وعلى بن أبي طالب، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي- يعتقبون بعيرا (٢).

وفي «الكشاف» يعتقب النفر منهم البعير الواحد (٣)، وفي الحديث: «إذا كان عقبة النبي ﷺ يقولان له: اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك، فيقول لهما: «ما أنتما بأقوى على المسير منى، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما» (٤).

قال ابن إسحاق: فسلك طريقَهُ من «المدينة» إلى «مكة» على نقب «المدينة» ثم على «العقيق» ثم على «ذى الحليفة» ثم على «أولات الجيش»- قال ابن هشام: «ذات الجيش»- ثم مر على «تربان» ثم على «ملل» ثم على «عميس الحمام» [ثم] على «صخيرات اليمام» ثم على «السيالة» ثم على «فج الروحاء» ثم على «شوكة» وهى على الطريق المعتدلة.

حتى إذا كان بـ«عرق الظبية» لقوا رجلا من الأعراب، فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبرا، فقال له الناس: سَلِّم على رسول الله ﷺ فقال: أَوَ فيكم رسول الله؟!

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٤٧) من طريق عبد الله بن وهب ثنا حيي عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو.

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥١).

(٣) ينظر الكشاف (١/ ٤١١).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٤١١، ٤١٨، ٤٢٢، ٤٢٤)، وابن حبان (٤٧٣٣)، والبزار (١٧٥٩- كشف)، والحاكم (٣/ ٢٠)، والبيهقي (٥/ ٢٥٨) من طريق عاصم بن أبي النجود عن زر عن عبد الله بن مسعود. وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٦٨-٦٩): رواه أحمد والبزار وفيه عاصم بن بهدلة وحديثه حسن وبقية رجاله رجال الصحيح.

فقالوا: نعم، فسلم عليه، ثم قال: إن كنتَ رسولَ الله فأخبرني عما في بطن ناقتي هذه؛ فقال له سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري: لا تسأل رسول الله ﷺ وأقبل إليَّ أنا أخبرك عن ذلك: نزوتَ عليها؛ ففى بطنها سخلة؛ فقال له- عليه الصلاة والسلام-: «أفحشت على الرجل». ثم أعرض عن سلمة. ثم نزل «سجسج» وهى بئر «الروحاء».

وأخذ عليه الصلاة والسلام بـ«الروحاء» عينا له من جهينة حليفا للأنصار، يدعى: ابن الأريقط، فأتاه بخبر القوم، وسبقت العير رسول الله ﷺ.

ثم ارتحل من الروحاء حتى إذا كان بـ«المنصرف» ترك طريق «مكة» بيسار، وسلك ذات اليمين على «النازية» يريد بدرًا، فسلك في ناحية منها حتى جزع واديا يقال له: «صفان» بين «النازية» وبين «مضيق الصفراء» ثم على المضيق ثم انصب به، حتى إذا كان قريبا من «الصفراء» بعث بسبس بن عمرو الجهني حليفَ بني ساعدة، وعدي بن أبي الزغباء الجهني إلى بدر؛ يتجسسان له الأخبار عن أبي سفيان وعيره، فمضى العينان حتى نزلا بدرا فأناخا إلى تلّ قريب من الماء، ثم أخذا شنًّا لهما فاستقيا فيه، ومجدي بن عمرو الجهني على الماء، فسمعا جاريتين من جواري الحاضرة يتلازمان على الماء، والملزومة تقول للازمة: إنما ترد العير غدا أو بعد غد، فأعمل لهم، ثم أقضيك الذي لك. فقال مجدي بن عمرو صدقت، ثم خلص بينهما. فلما سمع عدي وبسبس ذلك، جلسا على بعير لهما ثم انطلقا؛ حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه، ثم تقدم أبو سفيان العير حذرا، حتى ورد الماء، فقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست أحدا؟ قال: ما رأيت أحدا؛ إلا أن راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شن لهما، ثم انطلقا. فأتى أبو سفيان مناخَهُمَا فأخذ من أبعار بعيرهما ففتته؛ فإذا فيه كسرات النوى، فقال: هذه والله علائفُ «يثرب»، فرجع إلى أصحابه سريعًا، فصرف وجه عيره عن الطريق، فساحل بها وترك «بدرا» بيسار، وانطلق حتى أسرع [(١)].

قال ابن إسحاق: ثم ارتحل رسول الله ﷺ وقد قدم العينان، فلما استقبل «الصفراء»- وهى قرية بين جبلين- سأل عن اسم جبليهما؛ فقالوا: اسم أحدهما: مسلح، والآخر: مخرى، وسأل عن أهلها؟ فقيل له: يسمون: بني النار، وبني

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥١-٢٥٣).

حراق، بطنان من غفار، فكرههما والمرورَ بينهما، فتركهما و«الصفراء» بيسار، وسلك ذات اليمين على وادٍ يقال له «ذفران» (١).

وفي «خلاصة الوفا»: ذفران: واد معروف، قبل «الصفراء» بيسير يصب سيله فيها من المغرب، يسلكه الحاج المصرى فى رجوعه إلى «ينبع»، فيأخذ ذات اليمين كما فعله- عليه الصلاة والسلام- في ذهابه إلى غزوة بدر، وبه مسجد يتبرك به على يسار السالك إلى «ينبع»، وأظنه مسجد «ذفران».

وفي «القاموس» (٢): ذفران- بكسر الفاء-: واد قرب «الصفراء».

قال: ولما نزل «ذفران» أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش (٣).

وفي «الكشاف»: لما كان رسول الله ﷺ بـ«ذفران» نزل عليه جبريل فقال: «يا محمد، إن الله وعدك إحدى الطائفتين: إما العير وإما قريش؛ فحينئذ استشار أصحابه فقال: «ما تقولون؟ إن القوم قد خرجوا من «مكة» على كل صعب وذلول، فالعير أحب إليكم أم النفير؟» قالوا: العير أحب إلينا من لقاء النفير، فتغير وجهه- عليه الصلاة والسلام- ثم رد عليهم فقال: «إن العير قد مضت من ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل». قالوا: يا رسول الله، عليك بالعير ودع العدو. فقام عند غضب النبي ﷺ أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر وأحسن، ثم قام سعد بن عبادة فقال: انظر أمرك وامض لما أمرت؛ فوالله! لو سرت إلى «عدن أبين» (٤) ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قام المقداد بن الأسود فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله؛ فنحن معك، والله! ما نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، ما دامت منا عين تطرف، نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك، فو الذي بعثك بالحق! لو سرت بنا إلى «برك الغماد»(٥)

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥٣).
(٢) ينظر: ترتيب القاموس (٢/ ٢٦٠) (ذفر).
(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥٣).
(٤) عَدَن أَبْين: مدينة مشهورة على ساحل بحر اليمن. مراصد الاطلاع (٢/ ٩٢٣).
(٥) برك الغِماد: بكسر الغين المعجمة هو الأشهر وابن دريد يضمها، وهو موضع وراء =

لجالدنا معك دونه حتى تبلغه.

فضحك رسول الله ﷺ وقال له خيرا، ثم قال- عليه الصلاة والسلام-: «أشيروا عليّ»، وإنما يريد الأنصار؛ وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا؛ نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا؛ فكان- عليه الصلاة والسلام- يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه بـ«المدينة» من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو بعيد عن بلادهم؛ فلما قال ذلك قال له سعد بن معاذ: كأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل». قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك مواثيقنا على السمع والطاعة؛ فامض- يا رسول الله- لما أردت؛ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق! لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا؛ وإنا لصُبُر في الحرب، صُدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك؛ فسر بنا على بركة الله. فقال: «سيروا وأبشروا؛ فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله! لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم!» [1].

ثم ارتحل- عليه الصلاة والسلام- من «ذفران» فسلك على ثنايا يقال لها: «الأصافر»، ثم انحط منها إلى بلد يقال له: «الدَّبة» بفتح الدال المهملة، وتشديد الباء الموحدة؛ وفي «القاموس»: «الدبة»: موضعٌ قرب «بدر».

قال ابن إسحاق: وترك «الحنان» بيمين، وهو: كثيب عظيم كالجبل؛ ثم نزل قريبا من «بدر» فركب هو ورجل من أصحابه[2] (قال ابن هشام: الرجل: هو أبو بكر الصديق)[3] وسار حتى نزل على شيخ من العرب، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه، فقال لهما الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما، فقال رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك». قال: وذاك بذاك؟ قال: «نعم» قال الشيخ: فإنه بلغني

= مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن، وهو أقصى حجر باليمن. مراصد الاطلاع (١/ ١٨٧).

(١) ينظر: الكشاف (٢/ ١٩٨).

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥٤)، والبداية والنهاية (٣/ ٣١٩-٣٢١).

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥٤).

أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فَإن كان صدقني الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا- للمكان الذي به [رسول الله ﷺ - وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرنى صدقنى، فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى فيه][١] قريش. فلما فرغ من خبره، قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماء»، ثم انصرفا عنه. قال: يقول الشيخ: ما «من ماء»؟ من «ماء العراق»؟ أراد- عليه الصلاة والسلام- أن يوهمه أنه من العراق، وكان «العراق» يسمى: ماءً؛ لكثرة الماء فيه، وإنما أراد- عليه الصلاة والسلام- أنه خلق من نطفة من ماء.

ثم رجع- عليه الصلاة والسلام- إلى أصحابه، فلما أمسى بعث على بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص- في نفر من أصحابه- إلى ماء بدر، يلتمسون الخبر، فأصابوا راوية لقريش، فيها غلام أسود لبني الحجاج، اسمه: أسلم، وغلام لبني العاص بن سعيد عريض بن يسار، وفر الباقون وكانوا كثيرا، وأول من بلغ قريشا من الفرار: رجل اسمه عجير، فبلغهم خبر رسول الله ﷺ وقال: يا آل غالب، هذا ابن أبي كبشة مع أصحابه، قد أخذوا راويتكم مع غلامين منا أيها الورّاد، فوقع في جيشهم انزعاج واضطراب وخوف، فلما أتوا رسول الله ﷺ بالغلامين سألوهما، وهو- عليه الصلاة والسلام- يُصلى، فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان صاحبِ العير، فضربوهما، فلما أذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما، وسلم- عليه الصلاة والسلام- من صلاته فقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله! إنهما لقريش، أخبراني عن قريش» قالا: هم والله وراء هذا الكثيب العقنقل[٢]، فقال لهما: «كم القوم؟» فقالا: كثير. قال: «كم عدتهم؟» قالا: ما ندري. قال: «كم ينحرون كل يوم من الإبل؟» قالا: يومًا تسعا، ويوما عشرا. فقال- عليه الصلاة والسلام-: القوم بين التسعمائة والألف». ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن

(١) سقط فى ط. والمثبت من السيرة.
(٢) الكثيب العقنقل: الوادي العظيم المتسع، المتداخل الرمل. الوسيط (عقنقل).

نوفل، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية ابن خلف، ونُبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو بن عبد ود العامري؛ فأقبل- عليه الصلاة والسلام- على الناس قائلا: «هذه- والله- «مكة» قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»(١).

قال ابن إسحاق ولما أقبلت قريش ونزلوا «الجحفة» رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف رؤيا؛ فقال: إني أرى فيما يرى النائم وإنى لبين النائم واليقظان؛ إذ نظرت إلى رجل أقبل على فرس، حتى وقف ومعه بعير له، ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وفلان، وفلان فعد رجالا ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش- ثم رأيته ضرب في لبة بعيره، ثم أرسله في العسكر، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح من دمه، فبلغتْ هذه الرؤيا أبا جهل، فقال: وهذا- أيضا- نبي من بني المطلب، سيعلم غدا من المقتول؛ إن نحن التقينا! (٢).

قال ابن هشام: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: «إنكم إنما خرجتم؛ لتمنعوا رجالكم وأموالكم وعيركم، فارجعوا. فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا وكانت بدر موسما من مواسم العرب، يجتمع لهم بها سوق في كل عام- فنقيم عليها ثلاثا، فننحر الجزر ونطعم الطعام، ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان بالدفوف، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا؛ فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها، فامضوا. فوافوها فَسُقوا كئوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان! .

وقال أبي بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي- وكان حليفا لبني زهرة-: يا بني زهرة، قد نجى الله لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخرمةَ بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا عليَّ عارها وارجعوا؛ فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في ضيعة، لا تسمعوا ما يقول هذا- يعني: أبا جهل- فرجعوا فلم يشهدها زُهْرى (٣).

وقيل: إن سبب رجوعه بهم: أنه خلا بأبي جهل حين تراءى الجمعان، فقال:

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥٥-٢٥٦)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٣٦)، ودلائل النبوة (٣/ ٤٢-٤٣)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٢٣-٣٢٤).

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥٧).

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥٨).

يا أبا الحكم، أترى أن محمدا يكذب؟ فقال أبو جهل: كيف يكذب على الله، وقد كنا نسميه الأمين؛ لأنه ما كذب قط، ولكن إذا اجتمعت في بني عبد مناف: السقاية، والرفادة، والحجابة، والمشورة، ثم تكون فيهم النبوة، فأي شيء بقي لنا؟! فحينئذ انخنس أبيّ ببني زهرة- وكانوا ثلاثمائة رجل- فسمي الأخنس من ذاك؛ لذلك فلم يشهد بدرا زهرى، فأطاعوه وكان فيهم مطاعا؛ كذا في «الروض الأنف»[(١)].

ولم يبق بطن من قريش إلا وقد نفر منه ناس؛ إلا بني عدي بن كعب لم يخرج منهم أحد؛ فلم يشهد بدرا من هاتين القبيلتين: بنى زهرة وبني عدي- أحد.

وروى أن أبا سفيان لقى بنى زهرة، فقال: يابني زهرة لا في العير ولا في النفير؟! وهو أول من قالها؛ قالوا: أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع.

ولما بلغ أبا سفيان قولُ أبى جهل: والله، لا نرجع... إلى آخر ما قاله- قال: واقوماه!، هذا عَمَل عمرو بن هشام، يعني: أبا جهل.

ولما بلَّغ أبو سفيان العيرَ إلى مَكة لحق بقريش، فمضى معهم وشهد بدرا، وجرح- يومئذ- جراحاتٍ، وأفلت هاربا ولحق بـ«مكة» راجلا.

قال ابن إسحاق: ومضى القوم، وكانت بين طالب بن أبي طالب- وكان في القوم- وبين بعض قريش محاورة، فقالوا: والله، لقد عرفنا يا بني هاشم- وإن خرجتم معنا- أَنَّ هواكم لَمَعَ محمدٍ ﷺ، فرجع طالب إلى «مكة» مع من رجع، وقال تلك الأبيات المتقدم ذكرها:

لاهم إما يغزون طالب... إلى آخره.

ومضت قريش حتى نزلوا بـ«العدوة القصوى» من الوادي خلف «العقنقل»، ونزل- عليه الصلاة والسلام- بطن الوادي، وهو «يليل» بين «بدر» وبين «العقنقل» الذي خلفه قريش في «العدوة الدنيا» أى: القربى إلى «المدينة» من بطن «يليل»، وبعث الله السماءَ وكان الوادي دهسا، فأصاب رسولَ الله ﷺ وأصحابه، ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم المسير، وأصاب قريشًا منها ما لم يقدروا معه أن يرتحلوا، فخرج- عليه الصلاة والسلام- يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء بـ«بدر» فنزل به[(٢)].

(١) ينظر: الروض الأنف (٣/ ٨٢).
(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥٩)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٣٧-٤٣٨)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٢٤-٣٢٥).

روى أنه في الليلة السابقة على يوم الحرب، غلب النوم والأمنة على المسلمين؛ بحيث لم يقدروا أن يكونوا أيقاظا، روى عن الزبير أنه قال: سلط علىّ النوم، بحيث كلما أردت أن أجلس يلقينى النوم على الأرض، وكذا كان النبى ﷺ وأصحابه.

قال سعد بن أبي وقاص: رأيتني تقع ذقني بين ثديى، فلما أنتبه أسقط على جنبى.

وكان مشركو قريش بقرب منهم، وقد غلبهم الخوف، فبعث- عليه الصلاة والسلام- عمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود إليهم، فرجعا وقالا: يا رسول الله، غلب على المشركين الخوفُ؛ حتى إذا صهلت خيلهم، ضربوا وجوهها من شدة الخوف.

وروى أن المسلمين قاموا، فاحتلم أكثرهم وأجنبوا، وقد غلب المشركون على الماء، فتمثل لهم الشيطان فوسوس إليهم، وقال: كيف تُنصرون وقد غُلبتم على الماء، وأنتم تظلون محدثين مجنبين (والحال أن آية التيمم لم تنزل بعد) وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله؟! فأشفقوا، فأرسل الله عليهم السماء حتى سال الوادي، فاتخذوا الحياض، وشربوا وسقوا الركاب، واغتسلوا وتوضئوا، وملئوا الأسقية، وانطفأ الغبار، وتلبدت لهم الأرض؛ حتى ثبتت عليها الأقدام ولم يمنع السير، وزالت عنهم الوسوسة وطابت النفوس؛ كما قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ... ﴾ الآية [الأنفال: ١١].

ولما كانت «العدوة القصوى» مناخ قريش أرضا سهلة لينة، لم تبلغ أن تكون رملا، وليس هو بتراب- أصابهم ما لم يقدروا أن يرتحلوا معه؛ فبادر- عليه الصلاة والسلام- حتى نزل على ماء من بدر، فقال له الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أهذا منزل أنزلكه الله؛ ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟! فقال- عليه الصلاة والسلام-: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

قال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل؛ فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبنى لك حوضا فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم؛ فنشرب ولا يشربون. فقال- عليه الصلاة والسلام-: «لقد أشرت بالرأي».

فنهض- عليه الصلاة والسلام- بالناس حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبنى حوضا على القليب الذي نزل عليه، فملئ ماء، ثم قذفوا

فيه الآنية [١].

وكان نزوله عشاء ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان؛ كما مر.

ولما نزل، قام مع جماعة من أصحابه يسير في عرصة بدر، ويضع يده على الأرض، ويقول: «هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان»؛ يرى أصحابه مصارع صناديد قريش، فوالله ما تجاوز أحدٌ منهم الموضعَ الذي عين له.

وقال سعد بن معاذ: «يا رسول الله، ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانتِ الأخرى قعدت على ركائبك؛ فلحقت بمن وراءنا من قومنا؛ فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبًا لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك».

فأثنى عليه رسول الله ﷺ ودعا له بخير، ثم بَنَى لرسول الله ﷺ عريشا فكان فيه [٢].

وفي «الخلاصة» للسيد السمهودي: «مسجد بدر» مكان العريش الذي بني لرسول الله ﷺ يوم بدر عنده، وهو معروف عند النخيل، والعين قريب منه، وبقربه في جهة القبلة مسجدٌ آخر تسميه العامة: «مسجد النصر» لم أقف فيه على شيء.

قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت، فلما رآها- عليه الصلاة والسلام- تصوب من الكثيب إلى الوادي، قال: «اللهم، هذه قريش قد أقبلت بخيَلائها وفخرها وحديدها؛ تحادّك وتكذّب رسولك؛ اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة».

ثم قال- وقد رأى عتبة بن ربيعة في القوم على جمل أحمر-: «إن يكنْ في أحدٍ من القوم خير، ففي راكب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا».

وكان رجلٌ من غفار يدعى: خفاف بن رحضة، بعث إلى قريش- حين مروا به- ابنا له بجزائر أهداها عليهم، وقال: إن أحببتم أمدكم بسلاح ورجال، فأرسلوا إليه: أن وصلتك رحم؛ فقد قضيت الذي عليك، ولعمري! إن كنا إنما نقاتل الناس ما بنا ضعف عنهم، ولئن كنا إنما نقاتل الله، كما يزعم محمد وأصحابه؛ فما لأحد بالله من قِبَل.

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥٩-٢٦٠)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٤٠)، ودلائل النبوة (٣/ ٣٥)، وأسد الغابة (١/ ٦٦٥)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٦٠)، وسبل الهدى والرشاد (٤/ ٣٠).

فلما نزل الناس أقبل ناس من قريش حتى وردوا حوضه- عليه الصلاة والسلام- فيهم حكيم بن حزام، فقال- عليه الصلاة والسلام-: «دعوهم». فما شرب أحد منه إلا قتل يومه، ما عدا حكيم بن حزام؛ فإنه لم يقتل، ثم أسلم بَعْدُ، فحسن إسلامه، فكان إذا حلف واجتهد في يمينه قال: والله الذي نجاني من ماء بدر [(١)].

ولما اطمأنَّ القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحى، فقالوا: احزر لنا أصحاب محمد، فدار بفرسه حول العسكر، ثم رجع فقال: ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلا أو ينقصونه؛ ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد؟ فضرب في بطن الوادي، حتى أبعد فلم ير شيئًا، فرجع فقال: ما رأيت شيئا؛ ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل السم الناقع، قومٌ لا منعة لهم ولا ملجأ إلا سيوفهم! والله، ما أرى أن يُقْتل منهم رجلٌ حتى يُقتلَ منكم رجل؛ فإن أصابوا أعدادهم منكم، فلا خير في العيش بعد ذلك؛ فَرَوْا رأيكم.

ولما سمع حكيم بن حزام كلام عمير، مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها المطاع؛ هل لك في التي لا تزال تذكر منها بخير إلى آخر الدهر؟! قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي، قال عتبة: قد فعلت، أنت على بذلك؛ إنما هو حليفي فعلي عقله، وما أصيب من ماله، فائت ابن الحنظلية- يعنى: أبا جهل، واسم أمه: أسماء بنت مخرمة إحدى بني نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة- فإني لا أخشى أن يُشجر أمر الناس غيره؛ ثم قام عتبة خطيبا فقال: يا معشر قريش، إنكم- والله- ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا، والله! لئن أصبتموهم لا يزال الرجل ينظر في وجه رجلٍ يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك كفاكم ولم تتعرضوا لما يكره.

قلت: وهذا مصداق قوله- عليه الصلاة والسلام-: «إن يكن في أحد من القوم خير، ففي راكب الجمل الأحمر؛ إن يطيعوه يرشدوا» [(٢)].

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٦٠-٢٦١)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٤٠-٤٤١)، ودلائل النبوة (٣/ ١١١٢)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٢٧-٣٢٨)، وسبل الهدى والرشاد (٤/ ٣١).

(٢) تقدم تخريج هذه الرواية.

قال حكيم بن حزام: فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل درعًا له من جرابها فهو يهيئها، فقلت: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا- للذي قاله عتبة- فقال أبو جهل: انتفخ- والله- سحر عتبة، حين رأى محمدًا وأصحابه، كلا- والله- لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ذاك؛ ولكنه قد رأى محمدًا وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه؛ فقد تخوفكم عليه؛ يعني: أبا حذيفة ابن عتبة، وكان قد أسلم قبل، وكان في أصحاب النبي ﷺ يومئذ [1].

وفي رواية عن حكيم: فجئته فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن ورائه، وإذا ابن الحضرمي واقفٌ على رأسه، وهو يقول: قد فسخت عقدي من بني عبد شمس، وعقدي إلى بني مخزوم. قال حكيم: فجئت إلى عتبة وهو متكىء على خفاف بن رحضة الغفاري- المُهْدي الجزرَ السابق ذكرها- فأخبرته بمقالة أبي جهل، فقال عتبة: سيعلم مصفر استه من انتفخ سحره أنا أم هو؟!.

وانتفاخ السحر: تقوله العرب للجبان؛ كناية عن الفزع.

و«مصفر استه»: إنما قاله عتبة؛ لأن أبا جهل كان به بعض بَرَص في أليته، فكان يردعه بالزعفران.

فغضب أبو جهل وطلع في وجهه الشر؛ فسلَّ سيفه وضرب به متن فرسه، فقال له خفاف بن رحضة: بئس الفأل تفاءلت به.

ثم بعث أبو جهل إلى ابن الحضرمي فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأْرَكَ بعينك؛ فقم وانشد خفرتك ومقتل أخيك.

فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صاح: واعمراه! واعمراه! فحميت الحرب، وحقب أمر الناس، واستوسقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد أبو جهل على الناس الرأى، الذي دعاهم إليه عتبة بن ربيعة.

وخرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي- وكان رجلاً شرسًا سيئ الخلق- فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه أو لأموتن دونه؛ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة، فأطنّ قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض؛ فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٦٢-٢٦٣).

يريد برّ يمينه، فأتبعه حمزة فضربه؛ حتى قتله في الحوض.

ثم التمس عتبة بن ربيعة بيضةً ليدخلها في رأسه، فما وجد في الجيش بيضة تسعه؛ لعظم هامته أو انتفاخها، فلما رأى ذلك اعتجر ببرد له على رأسه، ثم خرج بين أخيه شيبة ابن ربيعة وولده الوليد بن عتبة بن ربيعة، حتى إذا نصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه ثلاثة من الأنصار: عوف ومعوّذ ابنا الحارث، وعبد الله بن رواحة، فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجة [١].

وقال ابن إسحاق: إن عتبة قال للثلاثة من الأنصار حين انتسبوا له: أَكْفَاء كرام؛ إنما نريد من قومنا [٢]، ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرجْ لنا أَكْفَاءنا من قومنا؛ فقال- عليه الصلاة والسلام-: «قم يا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، قم يا حمزة بن عبد المطلب، قم يا علي بن أبي طالب» فلما دنوا منهم قالوا: من أنتم؟ قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي، قالوا: نعم، أَكْفَاءٌ كرام، فبارز عبيدة وكان أسن القوم- عتبة بن ربيعة، وبارز حمزةُ شيبة، وبارز عليٌّ الوليد بن عتبة.

فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدةُ وعتبةُ بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكر حمزة وعليٌّ على عتبة فذففا عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه.

قال ابن إسحاق: ثم تزاحف الناس، ودنا بعضهم من بعض، وقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: «إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل». ورسول الله ﷺ في العريش، معه أبو بكر الصديق- رضي الله عنه[٣]- فكانت وقعة بدر يوم الجمعة، صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان [٤]؛ كما تقدم.

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٦٣-٢٦٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٤٢)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٦٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٤٦).

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٦٦)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٤٦)، ولفظ. «إذا اكتنفكم القوم . . .» قد ورد موصولاً من حديث حمزة بن أبي أسيد عن أبيه، أخرجه البخاري (٢٩٠٠)، وأبو داود (٢٦٦٣)، والحاكم (٢/ ٩٦)، والطبراني (١٩/ ٢٦٢) رقم (٥٨١، ٥٨٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٧٠)، وفي السنن (٩/ ١٥٥)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٥٨٣).

(٤) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٦٦)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٤٦).

قال ابن إسحاق: وحدثني حبان بن واسع بن حبان، عن أشياخ من قومه؛ أن رسول الله ﷺ عدّل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قِدْح يعدل به القوم، فمرّ بسواد بن غزية حليف بني عدي بن النجار، قال ابن هشام [(١)]: وهو مستنصل من الصف، فطعن في بطنه بالقدح وقال: «استو يا سواد». فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل؛ فأقدني. قال: فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: «استقد». قال: فاعتنقه وقبل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سواد؟» قال: يا رسول الله، حضر ما ترى فأردتُ أن يكون آخر العهد بك، أن يمس جلدي جلدك؛ فدعا له رسول الله ﷺ بخير [(٢)].

قال ابن إسحاق: ثم عدَّل رسول الله ﷺ الصفوف، ورجع إلى العريش، فدخله ومعه فيه أبو بكر، ليس معه فيه غيره، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر؛ يقول- فيما يقول: «اللهم، إن تَهْلِكْ هذه العصابةُ اليوم لا تُعْبَدْ»؛ وأبو بكر يقول: يا نبي الله، بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك ! [(٣)].

وقد خفق رسول الله خفقة وهو في العريش، ثم انتبه فقال: «أبشر يا أبا بكر، أتاك

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٦٦).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢/ ٤٤٦-٤٤٧)، وابن الأثير في أسد الغابة (٢/ ٥٩٠) ترجمة سواد رقم (٢٣٣٣)، وابن حجر في الإصابة (٣/ ١٨١) ترجمة رقم (٣٥٩٥) كلهم من طريق ابن إسحاق به، وقال الحافظ في الإصابة: «روى عبد الرزاق عن ابن جريج عن جعفر بن محمد عن أبيه أن النبي ﷺ « كان يتخطى بعرجون فأصاب به سواد بن غزية الأنصاري . . .» فذكر القصة. اهـ.

(٣) أخرجه مسلم (٦/ ٣٢٧-نووي) كتاب الجهاد والسير باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر الحديث (١٧٦٣)، وأبو داود (٣/ ٦١) كتاب الجهاد، باب في فداء الأسير الحديث (٢٦٩٠)، والترمذي (٥/ ٢٦٩) كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الأنفال الحديث (٣٠٨١)، والبغوي في شرح السنة (٧/ ١١٩) الحديث رقم (٣٦٧١)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٣٧)، والطبري في تاريخه (٢/ ٤٤٧) كلهم من طريق عكرمة بن عمار حدثني سماك الحنفي حدثني عبد الله بن عباس حدثنا عمر بن الخطاب قال: نظر نبي الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه وجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض. . .»، ورواه البخاري نحوه (٩/ ٦٠٣) كتاب التفسير باب قوله: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ الحديث (٤٨٧٥)، وأحمد في المسند (١/ ٣٢٩) وغيرهما من حديث عكرمة عن ابن عباس نحو حديث عمر.

نصر الله؛ هذا جبريل آخذٌ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع !» (١).

قال ابن إسحاق: وقد رُمي مهجع، مولى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- بسهم فقُتل؛ فكان أول قتيل من المسلمين، ثم رمي حارثة بن سراقة أحد بني عدي ابن النجار، وهو يشرب من الحوض، فأصاب نحره فقتل (٢).

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرضهم، وقال: «والذي نفس محمد بيده ! لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر؛ إلا أدخله الله الجنة» قال: فقام عمير بن الحُمام أخو بني سلمة، وفي يده تمرات يأكلهن، فقال: بخ بخ، فما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ! قال: فقذف التمرات من يده، وأخذ السيف بيده فقاتل القوم حتى قتل (٣).

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، أن عوف بن الحارث وهو ابن عفراء قال: يا رسول الله، ما يضحك الربَّ من عبده؟ قال: «غمسُه يَدَهُ في العدو حاسرًا». قال: فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم، حتى قتل (٤).

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٤٤٨) وأورده ابن كثير نقلاً عن ابن إسحاق، وروى ابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٤): حدثنا الثقفي عن خالد عن عكرمة أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر« هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»، وروى البيهقي في الدلائل (٣/ ٥٤) من حديث عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرس عليه أداة الحرب». اهـ.

(٢) أخرجه الطبرى في تاريخه (٢/ ٤٤٨) بسنده إلى ابن إسحاق، وانظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٢)، وأسد الغابة (٥/ ٢٦٨) ترجمة (٥١٤٠)، والإصابة للحافظ ابن حجر (٦/ ١٨٢) ترجمة مهجع (٨٢٧٨)، والاستيعاب رقم (٢٦١١) (ثلاثتهم بتحقيقنا) وقد روى ابن أبي شيبة بسنده عن سعيد بن المسيب قال: «قتل يوم بدر خمسة رجال من المهاجرين من قريش: مهجع مولى عمر يحمل يقول: أنا مهجع، وإلى ربي أرجع، وقتل ذو الشمالين وابن بيضاء وعبيدة بن الحارث وعامر بن أبي وقاص». أهـ.

(٣) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٤٤٨) بسنده إلى ابن إسحاق وذكره ابن الأثير في أسد الغابة (٤/ ٢٧٨) ترجمة (٤٠٧٢)، وابن حجر في الإصابة (٤/ ٥٩٣) رقم (٦٠٤٥-بتحقيقنا. وانظر: الاستيعاب (ت٢٠٠٤)، والطبقات لابن سعد (٢/ ١٢)، وأورده ابن كثير أيضًا في البداية والنهاية (٣/ ٣٣٧). كلهم نقلاً عن ابن إسحاق. وله شاهد من حديث أنس أخرجه مسلم في صحيحه (٧/ ٥٢) كتاب الإمارة باب ثبوت الجنة للشهيد الحديث (١٩٠١)، وأحمد في المسند (٣/ ١٣٦-١٣٧)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٤٢٦)، والبيهقي في سننه (٩/ ٩٩) كتاب السير باب جواز انفراد الرجل والرجال بالغزو في بلاد العدو، ورواه أبو داود (٣/ ٣٨-٣٩) كتاب الجهاد باب بعث العيون الحديث (٢٦١٨) مختصرًا.

(٤) أخرجه ابن جرير في تاريخه (٢/ ٤٤٨-٤٤٩) بسنده إلى ابن إسحاق، ورواه أيضًا البيهقي =

قال ابن إسحاق: وقد حدثني محمد بن مسلم الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير العذري، حليف بني زهرة، أنه حدثه لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض، قال أبو جهل: «اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة» فكان هو المستفتح على نفسه (١).

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء، فاستقبل بها قريشًا، ثم قال: «شاهت الوجوه». ثم نفحهم بها، فأمر أصحابه فقال: «شدوا» فكانت الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم.

فلما وضع القومُ أيديهم يأسرون، ورسولُ الله ﷺ في العريش، وسعد بن معاذ قائمٌ على باب العريش الذي فيه رسول الله ﷺ، متوشح بالسيف، في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ، يخافون عليه كرة العدو- رأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له رسول الله ﷺ: «والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟!» فقال: «أجل يا رسول الله، كانت أولَ وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخانُ في القتل أحبَّ إليّ من الاستبقاء للرجال» (٢).

= في سننه (٩/ ٩٩-١٠٠) بسنده إلى ابن إسحاق بهذا الإسناد وهو مرسل، وقد تقدم الكلام على هذا الإسناد مرارًا. وانظر: أسد الغابة (٤/ ٢٩٩-٣٠٠) ترجمة (٤١٢٨).

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣١)، والطبري في تفسيره (٦/ ٢٠٦) رقم (١٥٨٥٢)، والنسائي في تفسيره (١/ ٥١٨) رقم (٢٢١)، والحاكم في مستدركه (٢/ ٣٢٨)، وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي والواحدي في أسباب النزول ص(٢٣٧) رقم (٤٧٤)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٧٤)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٥) (٣٦٦٧٤)، ونسبه السيوطي في الدر (٣/ ٣١٨) لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن منده وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٤٤٩) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٨١) نقلًا عن ابن إسحاق، وانظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٤٧)، وأخرج الطبراني في الكبير (٣/ ٢٢٧) رقم (٣١٢٨) عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر أمر رسول الله ﷺ فأخذ كفًا من الحصباء فاستقبلنا به فرمانا بها وقال: «شاهت الوجوه» فانهزمنا وأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٨٤) إسناده حسن، ورواه الطبراني (٣/ ٢٢٧) رقم (٣١٢٧)، وابن جرير في التفسير بلفظ عن حكيم بن حزام قال «سمعنا صوت حصاة في طست ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصاة فانهزمنا» وحسن الهيثمي إسناده أيضًا في المجمع (٦/ ٨٤)، وروى الطبراني أيضًا في معجمه (١١/ ٢٨٥) رقم (١١٧٥٠) عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال لعلي: «ناولني كفًا من حصباء» فناوله فرمى به وجوه القوم فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء فنزلت الآية، قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٨٤): «ورجاله رجال الصحيح». اهـ.

قال ابن إسحاق: وحدثني العباس بن عبد الله بن معبد، عن بعض أهله، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يومئذ: «إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم، قد أُخرجوا كرهًا لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقى منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقى أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله؛ فإنه إنما خرج مستكرهًا». قال فقال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا، ونترك العباس؛ والله ! إن لقيته لألحمنه بالسيف» قال ابن هشام: ويقال لألجمنه.

قال ابن إسحاق: فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب- رضي الله عنه-: «يا أبا حفص (فقال عمر: والله، إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص) أيضرب وجه عم رسول الله؟!» فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه بالسيف؛ فوالله لقد نافق.

قال: فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفًا، إلا أن تكفرها عني الشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيدًا [1].

قال ابن إسحاق: وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري بن هشام؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بـ «مكة» فكان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وبني المطلب، فلقيه المجذر بن ذياد البلوي حليف الأنصار من بني سالم بن عوف، فقال المجذر لأبي البختري: إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك- ومع أبي البختري زميلٌ له قد خرج معه من «مكة»، وهو: جنادة بن مليحة بن زهير بن الحارث بن أسد، وجنادة: من بني ليث واسم أبي البختري: العاصي قال: وزميلي؟ فقال له المجذر: لا والله، ما نحن بتاركي زميلك؛ وما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك. قال: لا والله إذن لأموتن أنا وهو جميعًا؛ لا تحدِّث عني نساء «مكة» أني تركت زميلي حرصًا على الحياة. فقال أبو البختري- حين نازله المجذر وأَبى إلا القتال-

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٧)، والطبري في تاريخه (٢/ ٤٤٩-٤٥٠)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٤٠-١٤١) كلهم من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد، ورواه الحاكم (٣/ ٢٢٣) في المستدرك عن العباس بن معبد عن أبيه عن ابن عباس. وانظر البداية والنهاية (٣/ ٣٤٧-٣٤٨)، والسيرة (٢/ ٢٧٠).

يرتجز:

لَنْ يُسْلِمَ ابْنُ حُرَّةٍ زَمِيلَهْ حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يَرَى سَبِيلَهْ

فاقتتلا، فقتله المجذر بن ذياد، وقال المجذر في قتله أبا البختري:

إِمَّا جَهِلْتَ أَوْ نَسِيتَ نَسَبِي فَأَثْبِتِ النِّسْبَةَ أَنِّي مِنْ بَلِي

أَلطَّاعِنِينَ بِرِمَاحِ الْيَزَنِي وَالضَّارِبِينَ الْكَبْشَ حَتَّى يَنْحَنِي

بَشِّرْ بِيُتْم مِنْ أَبِيهِ الْبَخْتَرِي أَوْ بَشِّرَنْ بِمِثْلِهَا مِنِّي بَنِي

أَنَا الَّذِي يُقَالُ: أَصْلِي مِنْ بَلِي أَطْعُنُ بِالصَّعْدَةِ[1] حَتَّى تَنْثَنِي

وَأَعْبِطُ الْقِرْنَ بِعَضْبٍ مَشْرَفِي أُرْزِمُ لِلْمَوْتِ كَإِرْزَامِ الْمَرِي[2]

فَلَا تَرَى مُجَذَّرًا يَفْرِي فَرِي[3]

المري: الناقة التي يستنزل لبنها على عسر.

قال ابن إسحاق: ثم أتى المجذر رسول الله ﷺ فقال: «والذي بعثك بالحق، لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به، فأبى إلا أن يقاتلني، فقاتلته فقتلته»[4].

قال: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، وحدثنيه أيضًا عبد الله بن أبي بكر وغيرهما، عن عبد الرحمن بن عوف، قال: كان أمية بن خلف صديقًا لي بـ «مكة» وكان اسمي: عبد عمرو، فسميت حين أسلمت: عبد الرحمن، فكان يلقاني فيقول: يا عبد عمرو، أرغبت عن اسم سماكه أبوك؟! فأقول: نعم فيقول: إني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئًا أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول؛ وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف، قال: فكان إذا دعاني: يا عبد عمرو، لم أجبه. قال: فقلت له: يا أبا علي، اجعل ما شئت. قال: فأنت عبد الإله. قال، فقلت: نعم. قال: فكنت إذا مررت به فيقول: يا عبد الإله فأجيبه، فأتحدث معه؛ حتى إذا كان يوم بدر، مررت به وهو واقف مع ابنه عليّ بن

---

(١) الصعدة: الرمح المستوي. ينظر: الوسيط (صعد).

(٢) أعبط: أرمى، الوسيط (عبط). والقرن: الشجاع المقاوم الشديد في الحرب، الوسيط (قرن). والعضب: السيف القاطع، اللسان (عضب). وأرزم: أَحِنُّ، الوسيط (رزم).

(٣) مجذرا: هو المجذر بن ذياد. يفري فريّ: يعمل عملي. يقال: فلان يفرى الفريّ: إذا أجاد عمله وأتى فيه بالعجب الوسيط (فرى).

(٤) أخرجه ابن جرير (٢/ ٤٥٠-٤٥١)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٤١) من طريق ابن إسحاق. وانظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٤٨-٣٤٩)، والسيرة (٢/ ٢٧١).

أمية آخذ بيده، ومعي أدراع قد استلبتها، فلما رآني قال: يا عبد عمرو، فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم. فقال: هل لك في، فأنا خير لك من هذه الأدراع. قلت: نعم، ها الله إذن! فطرحت الأدراع وأخذت بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن(١)؟! قال ابن هشام: أراد باللبن: أن من أسرني افتديت منه بالإبل الكثيرة اللبن (٢).

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الواحد بن أبي عون، عن سعيد بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف، قال: قال لي أمية بن خلف- وأنا بينه وبين ابنه آخذٌ بأيديهما-: يا عبد الإله، من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب. قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل. قال عبد الرحمن: فوالله، إني لأقودهما إذ رآه بلالٌ معي، وكان هو الذي يعذب بلالاً بـ «مكة» على ترك الإسلام، فيخرجه إلى رمضاء «مكة» إذا حميت، فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد، فيقول بلال: «أحد أحد». فلما رآه بلال قال: «رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا». قال: فأحاطوا بنا حتي جعلونا في مثل المسكة وأنا أَذُب عنه.

قال: فأخلف رجل السيف فضرب رِجْل ابنِهِ فوقع، قال: وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط، قال: فقلت له: انج بنفسك ولا نجاء بك، فوالله ما أغني عنك شيئًا. قال: فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما.

قال: فكان عبد الرحمن بن عوف يقول: «يرحم الله بلالاً، ذهبت أدراعي، وفجعني بأسيري» (٣).

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر، أنه حدث عن ابن عباس، قال: حدثني رجل من بني غفار، قال: أقبلت أنا وابن عم لي، حتى أصعدنا في جبل

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٤٥١-٤٥٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٩١) بسنديهما إلى ابن إسحاق به. وانظر البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٣٤٩)، وقد أخرج البخاري (٥/ ٢٤٧) كتاب الوكالة، باب إذا وكل المسلم حربيًا في دار الحرب الحديث (٢٣٠١)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٩٠)، والحاكم (٣/ ٣٠٧) مختصرًا.

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٧٢).

(٣) ينظر: التعليق قبل السابق. وينظر أيضًا السيرة النبوية (٢/ ٢٧٢-٢٧٣).

يشرف على بدر، ونحن مشركان؛ ننتظر الوقعة: على من تكون الدائرة؛ فننتهب مع من ينتهب، قال: فبينا نحن في الجبل، إذ دنت منا سحابة، فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلاً يقول: «أقدم حيزوم». فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه؛ فمات مكانه، وأما أنا فكدت أَهْلِك، ثم تماسكت (١). وحيزوم: اسم فرس جبريل.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر، عن بعض بني ساعدة، عن أبي أسيد مالك بن ربيعة- وكان قد شهد بدرًا- قال بعد أن ذهب بصره. لو كنت اليوم ببدر ومعي بصري، لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك فيه ولا أتمارى (٢).

قال: وحدثني أبي، إسحاقُ بن يسار، عن رجال من بني مازن بن النجار، عن أبي داود المازني- وكان شهد بدرًا- قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر؛ لأضربه، إذ وقع رأسهُ قبل أن يصل إليه، سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري (٣).

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم، عن مقسم مولى عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن عباس، قال: كانت سيما الملائكة يوم بدر، عمائمَ بيضاء قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين: عمائم حمراء (٤).

قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم أن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه-

---

(١) أخرجه ابن جرير في تاريخه (٢/ ٤٥٣) بسنده إلى ابن إسحاق به. وفيه عبد الله بن أبي بكر ابن حزم لم يذكر أحد أنه روى عن ابن عباس انظر التهذيب (١٤/ ٣٤٩) (ت٣١٩٠). وانظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٤١)، والسيرة النبوية (٢/ ٢٧٤).

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ٨١) بسنده إلى ابن إسحاق به، ورواه ابن الأثير في أسد الغابة (٥/ ٢١) ترجمة رقم (٤٥٩٣)، وانظر السيرة النبوية (٢/ ٢٧٤، ٢٧٥)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٤١، ٣٤٢).

(٣) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٤٥٣)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٥٦) بسنديهما إلى ابن إسحاق به وفيه جهالة شيوخ إسحاق بن يسار، وروى البيهقي في الدلائل أيضًا من طريق أبي بكر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة قال حدثني أبو أمامة بن سهل قال: قال لي أبي: «يا بني لقد رأيتنا يوم بدر وإنَّ أحدنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه». اهـ. ورواه الطبري (٢/ ٤٥٤) في تاريخه. انظر البداية والنهاية (٣/ ٣٤٣)، والسيرة النبوية (٢/ ٢٧٤).

(٤) أخرجه ابن جرير في تاريخه (٢/ ٤٥٤)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٥٧) بسنديهما إلى ابن إسحاق قال: حدثني الحسن بن عمارة عن الحكم بن عتيبة عن مقسم مولى عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن عباس. والحسن بن عمارة قال الحافظ في التقريب (١/ ١٦٩): =

قال: العمائم: تيجان العرب، وكان سيما الملائكة يوم بدر: عمائم بيضاء قد أرخوها على ظهورهم، إلا جبرئيل، فإنه كانت عليه عمامة صفراء [(١)].

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم، عن مقسم، عن ابن عباس: ولم تقاتل الملائكة في يوم من الأيام سوى يوم بدر، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عددًا ومددًا لا يضربون.

قال ابن إسحاق: وأقبل أبو جهل يومئذ يرتجز؛ يقاتل وهو يقول:

ما تَنْقِمُ الْحَرْبُ الْعَوَانُ مِنِّي بَازِلُ عَامَيْنِ حَدِيث سِنِّي [(٢)]
لِمِثْلِ هَذَا وَلَدَتْنِي أُمِّي

قال ابن هشام: وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر: «أحد أحد» [(٣)].

قال ابن إسحاق: فلما فرغ رسول الله ﷺ من عدوه، أمر بأبي جهل بن هشام أن يلتمس في القتلى، وكان أولُ من لقى أبا جهل، كما حدثني ثور بن زيد عن عكرمة عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن أبي بكر أيضًا قد حدثني ذلك قالا: قال معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني سلمة: سمعت القوم، وأبو جهل في مثل الحرجة (قال ابن هشام [(٤)]: الحرجة: الشجر الملتف؛ وفي الحديث: عن عمر بن الخطاب، أنه سأل أعرابيًّا عن الحرجة؟ فقال: هي شجرة بين الأشجار لا يصل راع إليها) وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، قال: فلما سمعتها جعلتها من شأني، فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملتُ عليه، فضربته ضربة أطنت قدمه من نصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت؛ إلا بالنواة تطيح من تحت مِرضَخةِ [(٥)] النوى حين يضرب بها.

قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي

= متروك. وانظر ترجمته في الميزان (٢/ ٢٦٥) رقم (١٩٢١)، وانظر الحديث في البداية والنهاية (٣/ ٣٤٣)، والسيرة النبوية (٢/ ٢٧٤).

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٧٤).

(٢) الحرب العوان: التي قوتل فيها مرة بعد مرة انظر: اللسان (عون) وفي البداية والنهاية: (الحرب الشموس). بازل: يقال: بزل الرجل: كملت تجربته فهو بازل، وأصله: من بزل البعير إذا طلع نابه وذلك في السنة الثامنة أو التاسعة فهو (بازل). ينظر: الوسيط (بزل).

(٣) ينظر السيرة النبوية (٢/ ٢٧٤-٢٧٥)، وانظر الشعر أيضًا في البداية والنهاية (٣/ ٣٤٦).

(٤) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٧٥).

(٥) المرضخة أو المرضاخ: حجر يرضخ به النوى، أي: يرض ويكسر. الوسيط (رضخ).

وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلتُ عامة يومي وإني لأسحبها خلْفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي، ثم وطئت بها عليها، حتى طرحتها.

قال ابن إسحاق [(١)]: ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمان عثمان.

ثم مر بأبي جهل- وهو عقير- معوذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته، فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قتل. فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل، حين أمر به رسول الله ﷺ أن يلتمس في القتلى، وقد قال لهم رسول الله ﷺ- فيما بلغني- «انظروا- إن خفى عليكم في القتلى- إلى أثر جرح في ركبته، إني ازدحمت أنا وهو يومًا على مائدة لعبد الله بن جُدعان ونحن غلامان، فكنت أسنَّ منه بيسير، فدفعته فوقع على ركبتيه؛ فجحشت إحداهما جحشًا لم يزل أثره به.

قال عبد الله بن مسعود: فوجدته بآخر رمق فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه، قال: وقد كان ضبث بي مرة بـ «مكة» فآذاني ولكزني، ثم قلت له: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبما أخزاني، أعمد من رجل قتلتموه- وفي رواية: أعظم من رجل قتله قومه- أخبرني لمن الدبرة اليوم (والدبرة: الغلبة والظفر) قال: قلت: لله ولرسوله [(٢)].

قال ابن إسحاق: فزعم رجلٌ من بني مخزوم أن ابن مسعود كان يقول: قال لي: لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعبًا، قال: ثم احتززت رأسه، ثم جئت به رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل بن هشام. قال: فقال رسول الله ﷺ: «آلله الذي لا إله غيره؟» قال: وكانت يمين رسول الله. قال: قلت: نعم، والله الذي لا إله غيره، ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله ﷺ؛ فحمد الله [(٣)].

---

(١) القول لابن هشام وليس لابن إسحاق.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢/ ٤٥٤-٤٥٥)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٨٤-٨٥) بسنديهما إلى ابن إسحاق قال: حدثني ثور بن زيد مولى بني الدِّيل عن عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس. وانظر البداية والنهاية (٣/ ٣٥٠-٣٥١)، والسيرة النبوية (٢/ ٢٧٦). ورواه البيهقي من طريق ابن إسحاق أيضًا حدثني عبد الله بن أبي بكر به مرسلاً.

(٣) أخرجه الطبري (٢/ ٤٥٥)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٨٦). وانظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٥١)، والسيرة (٢/ ٢٧٧)، وأخرج البخاري (٨/ ٢١) كتاب المغازي باب قتل أبي جهل الحديث (٣٩٦٢) وأطرافه في (٣٩٦٣، ٤٠٢٠)، ومسلم (٦/ ٤٠٠) كتاب الجهاد والسير باب قتل أبي جهل الحديث (١٨٠٠) وغيرهما من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: =

قال ابن هشام: وحدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازي، أن عمر بن الخطاب قال لسعيد بن العاص- ومر به-: إني أراك كأن في نفسك شيئًا، أراك تظن أني قتلت أباك؛ إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة، فأما أبوك فإني مررت به، وهو يبحث بحث الثور بروقه، فحدتُّ عنه، وقصد له ابنُ عمه عليٌّ فقتله (١).

قال ابن إسحاق: وقاتل عكاشةُ بن محصن بن حرثان الأسدي حليفُ بني عبد شمس ابن عبد مناف، يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جزلاً من حطب، فقال: «قاتل بهذا يا عكاشة». فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه؛ فعاد سيفًا في يده طويل القامة شديد المتن أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله به على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى: العون، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ، حتى قتل يوم الردة وهو عنده؛ قتله طلحة بن خويلد الأسدي (٢).

قال ابن هشام: ونادى أبو بكر الصديق ابنه عبد الرحمن- وهو يومئذ مع المشركين-: أين مالي يا خبيث؟ فقال عبد الرحمن: [من السريع]

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ شِكَّةٍ وَيَعْبُوبْ وَصَارِمٍ يَقْتُلُ ضُلَّالَ الشِّيبْ(٣)

= «من ينظر لنا ما صنع أبو جهل؟» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برك، قال: فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل؟! فقال: وهل فوق رجل قتلتموه (أو قال: قتله قومه)، وروى أحمد (١/ ٤٤٤)، والطبراني في الكبير (٩/ ٨١) رقم (٨٤٦٩، ٨٤٧٠، ٨٤٧١، ٨٤٧٢، ٨٤٧٣)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٦٢) من طرق عن أبي عميرة عن ابن مسعود. وأصل الحديث عن ابن مسعود رواه البخاري (٨/ ٢١) كتاب المغازي باب قتل أبي جهل الحديث (٣٩٦١) عن ابن مسعود -رضي الله عنه - أنه أتى أبا جهل وبه رمق يوم بدر فقال أبو جهل: «هل أعمد من رجل قتلتموه». اهـ.

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٧٧)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٥٤).

(٢) ذكره البيهقي في الدلائل (٣/ ٩٨) نقلاً عن ابن إسحاق وابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٣٥٤-٣٥٥)، وانظر السيرة النبوية (٢/ ٢٧٨). وروى البيهقي في الدلائل (٣/ ٩٩) بسنده إلى الواقدي قال: حدثني عمر بن عثمان الجحش عن أبيه عن عمته قالت: قال عكاشة بن محصن: «انقطع سيفي يوم بدر فأعطاني رسول الله ﷺ عودًا فإذا هو سيف أبيض طويل، وقاتلت حتى هزم الله المشركين» فلم يزل عنده حتى هلك. وهو في المغازي للواقدي (١/ ٩٣) والواقدي متروك كما تقدم مرارًا، وانظر أسد الغابة (٤/ ٦٥) ترجمة (٣٧٣٨)، والسير (١/ ٣٠٨)، والإصابة ترجمة (٥٦٤٨) بتحقيقنا، والاستيعاب (ت١٨٥٦).

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٧٩)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٥٦). والشكة: ما يحمل أو يلبس من السلاح. الوسيط (شكك). اليَعْبُوب: الفرس السريع الطويل. ترتيب القاموس (يعبب).

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: لما أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب، طرحوا فيه؛ إلا ما كان من أمية بن خلف، فإنه انتفخ في درعه فذهبوا ليحركوه فتزايل، فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة. فلما ألقوهم في القليب، وقف عليهم رسول الله ﷺ فقال: «يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقًّا». قال فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتكلم قومًا موتى؟! فقال لهم: «لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق». قالت عائشة: والناس يقولون: لقد سمعوا ما قلت لهم؛ فإنما قال رسول الله ﷺ: «لقد علموا» (١).

قال ابن إسحاق: وحدثني حميد الطويل، عن أنس بن مالك؛ قال: سمع أصحاب رسول الله ﷺ رسول الله ﷺ من جوف الليل، وهو يقول: «يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام (فعدد من كان منهم في القليب) هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟! فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا». فقال المسلمون: يا رسول الله، أتنادي أقوامًا قد جيفوا؟! فقال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم؛ ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا» (٢).

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال- يوم قال هذه المقالة-: «يا أهل القليب، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ! كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس». ثم قال: «هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟» للمقالة التي قالها (٣).

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢/ ٤٥٦) في تاريخه من طريق ابن إسحاق به، ورواه البخاري (٨/ ٣١) كتاب المغازي باب قتل أبي جهل الحديث (٣٩٧٨،٣٩٧٩)، ومسلم (٩٣٢)، والنسائي (٤/ ١١٠) كتاب الجنائز باب أرواح المؤمنين وغيرهم، والحاكم (٣/ ٢٢٤) من طريق آخر عن عائشة، رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم (٩/ ٢٢٢-٢٢٣) كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار الحديث (٢٨٧٣)، والنسائي (٤/ ١٠٩) كتاب الجنائز، باب أرواح المؤمنين وغيرهم، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٢٥) كلهم من حديث أنس، ورواه الطبري في تاريخه (٢/ ٤٥٦)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٤٨) بسنديهما إلى ابن إسحاق به.

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٨٠).

قال ابن إسحاق: وقال حسان بن ثابت: [من الوافر]

عَرفْتُ دِيَارَ زَيْنبَ بِالْكَثِيبِ كَخَطِّ الْوَحْيِ فِي الْوَرقِ الْقَشِيبِ[١]
تَدَاوَلَهَا الرِّيَاحُ وَكُلُّ جَوْنٍ مِنَ الْوَسْمِيِّ مُنهمِرٍ سَكُوبِ[٢]
فَأَمْسَى رَسْمُهَا خلقًا وَأَمْسَتْ يَبابًا بَعْدَ سَاكِنهَا الْحَبِيبِ[٣]
فَدَعْ عَنْكَ التَّذَكُّرَ كُلَّ يَوْمٍ وَرُدَّ حَرَارَةَ الصَّدْرِ الْكَئِيبِ
وَخَبِّرْ بِالَّذِي لا عَيْبَ فِيهِ بِصِدْقٍ غَيْرِ إِخْبَارِ الْكَذُوبِ
بِمَا صَنعَ الْمَلِيكُ غَدَاةَ بَدْرٍ لَنَا فِي الْمُشْرِكينَ مِنَ النَّصيب
غَدَاةَ كَأَنَّ جَمْعَهُمُ حِرَاءٌ بَدَتْ أَرْكَانُهُ جُنْحَ الْغُرُوب
فَلاقَيْنَاهُمُ مِنَّا بِجَمْعٍ كَأُسْدِ الْغَابِ مُرْدَانٍ وَشِيبِ
أَمَامَ مُحَمَّدٍ قَدْ وَازرُوهُ عَلَى الأَعْدَاء فِي لَفْحِ الْحُرُوبِ
بِأَيْدِيهِمْ صَوَارمُ مُرْهَفَاتٌ وكلُّ مجرَّبٍ خاظي[٤] الْكُعُوبِ
بَنُو الأَوْسِ الْغَطَارِفُ[٥] وازرتها بَنُو النَّجَّار فِي الدِّين الصَّلِيبِ
فَغَادَرْنَا أَبَا جَهْلٍ صَرِيعًا وَعُتْبَةَ قَدْ تَرَكْنَا بِالْجُبُوبِ
وَشَيْبَةَ قَدْ تَرَكْنَا فِي رِجَالٍ ذَوِي حَسَبٍ إِذَا نُسِبُوا حَسِيبِ
يُنَادِيهِم رَسُولُ الله لَمَّا قَذَفْنَاهُمْ كَبَاكِبَ[٦] فِي الْقَلِيبِ
أَلَمْ تجدُوا كَلَامِيَ كَانَ حَقًّا وَأَمْرُ الله يَأْخُذُ بِالْقُلُوبِ
فَمَا نَطَقُوا؛ وَلَوْ نَطَقُوا لَقَالُوا: صَدَقْتَ، وَكُنْتَ ذَا رَأْيٍ مُصيبِ[٧]

(١) الكثيب: التل من الرمل وهو موضع بساحل بحر اليمن، ترتيب القاموس (كثب). والوحي: الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة، ترتيب القاموس (وحي). والقشيب: الجديد والأبيض والنظيف. ترتيب القاموس (قشب) قال السهيلي: أراد حسان بالقشيب هنا: الذي خالطه ما يفسده إما من دنس وإما من قدم.

(٢) الجَوْن: النبات يضرب إلى السواد من خضرته، ترتيب القاموس: (جون). وهو من الأضداد وهو يطلق على السواد والبياض . ينظر لسان العرب (١٣/ ١٠١) والوَسْمِيُّ: مطر الربيع الأول، ترتيب القاموس (وسم).

(٣) الرَسْم: الأثر الباقي من الدار بعد أن عفت. الوسيط (رسم). واليباب: الخراب والخالي لا شيء فيه. الوسيط (يبب).

(٤) الخاظي: الغليظ الصلب. اللسان (خظا).

(٥) الغطريف: السيد الشريف، والجمع: غطارفة. ترتيب القاموس (غطرف).

(٦) كباكب: جماعات.

(٧) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٨٠-٢٨٢)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٥٩).

قال ابن إسحاق: ولما أمر رسول الله ﷺ بهم أن يلقوا في القليب، أخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب، فنظر رسول الله ﷺ- فيما بلغني- إلى وجه ابنه أبي حذيفة بن عتبة، فإذا هو كئيب قد تغير، فقال: «يا أبا حذيفة، لعلك قد داخلك من شأن أبيك شيء» أو كما قال ﷺ. فقال: لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبي رأيًا وحلمًا وفضلاً؛ وكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنت أرجوه له؛ أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيرًا (١).

وكان الفتيةُ الذين قتلوا ببدر، ونزل فيهم من القرآن- فيما ذكر لنا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧] فتيةً مسمَّيْن: من بني أسد بن عبد العزى بن قصي: الحارث بن زمعة؛ ومن بني مخزوم: أبو قيس ابن الفاكه، وقيس بن الوليد بن المغيرة؛ ومن بني جمح: علي بن أمية بن خلف، ومن بني سهم: العاص بن منبه؛ وذلك أنهم كانوا أسلموا ورسول الله ﷺ بـ «مكة»، فلما هاجر إلى «المدينة» حبسهم آباؤهم وعشائرهم بـ«مكة» وفتنوهم، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر، فأصيبوا به جميعًا.

ثم إن رسول الله ﷺ أمر بما في العسكر مما جمع الناس، فجمع، فاختلف فيه المسلمون: فقال من جمعه: هو لنا، وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه: والله لولا نحن ما أصبتموه، ولنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم! وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ؛ مخافة أن يخلص إليه العدو. والله ما أنتم بأحق به منا، لقد رأينا أن نقاتل العدو إذ منحنا الله أكتافهم، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، ولكن خفنا على رسول الله ﷺ كرةَ العدو فقمنا دونه؛ فما أنتم بأحق به منا (٢).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٢٤)، والطبري في تاريخه (٢/ ٤٥٧) بسنديهما إلى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة. وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وانظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٨٣)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٥٩).

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٨٣، ٢٨٤)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٥٧، ٤٥٨)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٦٠).

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الرحمن بن الحارث وغيره، عن سليمان بن موسى، عن مكحول، عن أبي أمامة الباهلي- واسمه: صدي بن عجلان- قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال؟ فقال: فينا - أصحاب بدر - نزلت، حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقُنا، فنزعه [الله] من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء؛ يقول: على سواء (١).

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر، قال: حدثني بعض بني ساعدة، عن أبي أسيد مالك بن ربيعة، قال: أصبت سيف بني عائذ المخزوميين [الذي يسمى:] المرزبان يوم بدر، فلما أمر رسول الله ﷺ أن يردوا ما في أيديهم من النفل، أقبلت حتى ألقيته في النفل، قال: فكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئًا يسأله فعرفه الأرقم بن أبي الأرقم، فسألَهُ رسول الله ﷺ فأعطاه إياه (٢).

قال ابن إسحاق: ثم بعث رسول الله ﷺ عند الفتح عبد الله بن رواحة، بشيرًا إلى أهل العالية بما فتح الله على رسوله وعلى المؤمنين، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة، قال أسامة بن زيد: فأتانا الخبر- حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ، التي كانت عند عثمان بن عفان، كان رسول الله ﷺ خلفني عليها مع عثمان بن عفان- أنَّ زيد بن حارثة قد قدم، قال: فجئته وهو واقفٌ بالمصلى قد غشيه الناس، وهو يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام،

(١) أخرجه ابن جرير في تاريخه (٢/ ٤٥٨)، وفي تفسيره (٦/ ١٧٢) رقم (١٥٦٦٧)، والبيهقي في سننه (٦/ ٢٩٢) كتاب قسم الفيء، باب بيان مصرف الغنيمة في ابتداء الإسلام ورواه في (٦/ ٣١٥) (٩/ ٥٧)، والحاكم (٢/ ٣٢٦) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، ورواه أحمد في المسند (٥/ ٣١٩) والدارمي في سننه (٢/ ٢٢٨، ٢٢٩) كتاب السير باب في أن ينفل في البدأة الربع وفي الرجعة الثلث، وعزاه في الدر (٣/ ٢٩٢) إلى عبد بن حميد وأبي الشيخ وابن مردويه، وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه أبو داود (٣/ ٧٧) كتاب الجهاد باب في النفل الحديث (٢٧٣٧، ٢٧٣٨)، والنسائي في التفسير (١/ ٥١٥) رقم (٢١٧)، وابن حبان في صحيحه رقم (١٧٤٣-موارد)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٣١-١٣٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٣٥-١٣٦)، وابن جرير في تفسيره (٦/ ١٧٢) رقم (١٥٦٦٤)، وعزاه السيوطي في الدر (٣/ ٢٩٣) إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه. وانظر السيرة النبوية (٢/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه ابن جرير (٦/ ١٧٣) في تفسيره رقم (١٥٦٧٢) ورقم (١٥٦٧٤)، وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٨٣)، وانظر السيرة النبوية (٢/ ٢٨٤).

وزمعة بن الأسود، وأبو البختري العاص بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، قال قلت: يا أبت، أحق هذا؟ قال: نعم، والله يا بني [١].

ثم أقبل رسول الله ﷺ قافلاً إلى «المدينة» ومعه الأسارى من المشركين، وفيهم: عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث بن كلدة، واحتمل رسولُ الله ﷺ معه النفل الذي أصيب من المشركين، وجعل على النفل عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف ابن مبذول بن عمرو بن غنم بن مالك بن النجار، فقال راجز من المسلمين- قال ابن هشام: يقال: هو عدي بن أبي الزغباء: [من الرجز]

أَقِمْ لَهَا صُدُورَها يَا بَسْبَسُ ... لَيس بِذِي الطَّلْح لَهَا مُعَرَّسُ [٢]
وَلاَ بِصَحْرَاءِ عُمَيْرٍ مَحْبِسُ ... إِنَّ مَطَايَا الْقَوْمِ لاَ تُحَبَسُ
فَحَمْلُهَا عَلَى الطَّرِيقِ أَكْيَسُ ... قَدْ نَصَرَ اللَّهُ وَفَرَّ الأَخْنَسُ

ثم أقبل رسول الله ﷺ، حتى إذا خرج من «مضيق الصفراء» نزل على الكثيب بين المضيق وبين «النازية» يقال له «سَيَر» إلى سرحة به، فقسم هنالك النفل الذي أفاء الله على المسلمين من المشركين، على السواء.

ثم ارتحل رسول الله ﷺ حتى إذا كان بـ «الروحاء» لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين، فقال لهم سلمة بن سلامة- كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، ويزيد بن رومان-: ما الذي تهنئوننا به؟! فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعًا كالبدن المعلقة، فنحرناها، فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «أي ابن أخي، أولئك الملأ» [٣].

قال ابن هشام: يريد بالملأ: الأشراف والرؤساء [٤].

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٤٥٨) بسنده إلى ابن إسحاق به، ورواه الحاكم (٣/ ٢١٧-٢١٨) بسنده إلى ابن إسحاق قال حدثني عبد الله بن أبي بكر وصالح بن أبي أمامة عن أبيه، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وروى البيهقي في الدلائل (٣/ ١٣٠-١٣١) عن أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم خلف عثمان بن عفان وأسامة بن زيد على رقية بنت رسول الله ﷺ أيام بدر فجاء زيد بن حارثة على العضباء ناقة رسول الله بالبشارة. . . الحديث. وانظر السيرة النبوية (٢/ ٢٨٥).

(٢) المُعَرِّس: الذي يسير نهاره ويعرس - أي: ينزل - أول الليل. اللسان (عرس).

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٨٥-٢٨٦)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٥٨-٤٥٩)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٧١-٣٧٢).

(٤) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٨٦).

قال ابن إسحاق: حتى إذا كان رسول الله ﷺ بـ «الصفراء» قتل النضر بن الحارث صبرًا، قتله عليّ بن أبي طالب؛ كما أخبرني بعض أهل العلم من أهل «مكة».

قال ابن إسحاق: ثم خرج حتى إذا كان بـ «عرق الظبية» قتل عقبة بن أبي معيط.

قال ابن إسحاق: والذي أسر عقبةَ عبدُ الله بن سلمة أحدُ بني العجلان، فقال عقبة- حين أمر رسول الله ﷺ بقتله-: فمن للصبية يا محمد؟! قال: «النار». فقتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري، أخو بني عمرو بن عوف؛ كما حدثني أبو عبيدة بن عمار بن ياسر [1].

قال ابن هشام: ويقال قتله علي بن أبي طالب، فيما ذكره ابن شهاب الزهري وغيره [2].

ولقى رسول الله ﷺ بذلك الموضع أبو هند مولى فروة بن عمرو البياضي.

قال ابن هشام: وقد كان تخلف عن بدر، ثم شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان حجام رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «إنما أبو هند امرؤ من الأنصار، فأنكحوه وانكحوا إليه»[3] ففعلوا.

قال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله ﷺ حتى قدم «المدينة» قبل الأسارى بيوم [4].

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر، أن يحيى بن عبد الله بن

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢/ ٤٥٩) في تاريخه، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٣٢٣) كتاب قسم الفيء والغنيمة باب ما جاء في قتل من رأى الإمام منهم، وانظر البداية والنهاية (٣/ ٣٧٢)، والسيرة (٢/ ٢٨٧). وروى البيهقي في الكبرى (٩/ ٦٤-٦٥) كتاب السير بسند فيه محمد ابن عمر الواقدي وهو متروك -كما تقدم- من حديث سهل بن أبي حثمة، وروى عبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٢٠٦) رقم (٩٣٩٤) من حديث ابن عباس، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٨٩): رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات، وروى أبو داود (٣/ ٦٠) كتاب الجهاده، باب في قتل الأسير صبرًا الحديث (٢٦٨٦)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٢٣) كتاب قسم الفيء، باب ماجاء في قتل من رأى الإمام منهم، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٨٩): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات. اهـ.

(٢) ينظر: السيرة (٢/ ٢٨٧).

(٣) ينظر: السيرة (٢/ ٢٨٦، ٢٨٧)، وأخرجه ابن جرير (٢/ ٤٦٠) في تاريخه عن ابن إسحاق، وانظر أسد الغابة (٦/ ٣١٦) ترجمة (٦٣٢٩-بتحقيقنا)، والإصابة (٧/ ٣٦٣) ترجمة (١٠٦٨٣) بتحقيقنا، وانظر أيضًا الاستيعاب ترجمة رقم (٣٢٥٣)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٧٣).

(٤) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٨٧).

عبد الرحمن بن سعد بن زرارة قال: قدم بالأسارى، حين قدم بهم، وسودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء في مناخهم على عوف ومعوذ ابني عفراء، قال: وذلك قبل أن يضرب عَلَيْهِنَّ الحجاب

قال: تقول سودة: والله إني لعندهم، إذ أُتينا فقيل: هؤلاء الأسارى قد أتى بهم، قالت: فرجعت إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه، وإذا أبو يزيد سهيلُ بن عمرو في ناحية من الحجرة، مجموعةً يداه إلى عنقه، قالت: فلا والله ما ملكت نفسي، حين رأيت أبا يزيد كذلك، أن قلت: أي أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم، ألا متم كرامًا؟! فوالله ما أنبهني إلا قول رسول الله ﷺ من البيت: «يا سودة، أعلى الله وعلى رسوله تحرضين؟!» قالت: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، ما ملكت نفسي، حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه، أن قلت ما قلت (١).

قال ابن إسحاق: وحدثني نبيه بن وهب، أخو بني عبد الدار؛ أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى، فرقهم بين أصحابه، وقال: استوصوا بالأسارى خيرًا. قال: فكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم، أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه، في الأسارى، فقال أبو عزيز: مرَّ بي أخي مصعبُ بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شُدَّ يديك به؛ فإن أمه ذات متاع؛ لعلها تفديه منك. قال: وكنت في رهط من الأنصار، حتى أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم، خصوني بالخبز وأكلوا التمر؛ لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، فما تقع في يد رجل كسرة من الخبز إلا نفحني بها. قال: فأستحيي فأردها عليه، فيردها عليَّ ما يمسها (٢).

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٤٦٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٢٢)، وانظر السيرة النبوية (٢/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٤٦٠) بسنده إلى ابن إسحاق، وانظر السيرة النبوية (٢/ ٢٨٨)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٧٣)، وأخرج الطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٩٣) رقم (٩٧٧) من طريق ابن إسحاق: حدثني نبيه بن وهب عن أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير قال: كنت في الأسارى يوم بدر فقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالأسارى خيرًا» وكنت في نفر من الأنصار، وكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني الخبز بوصية رسول الله ﷺ إياهم. قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٨٩) «رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن». اهـ. قلت: بل فيه انقطاع بين نبيه بن وهب وأبي عزيز بن عمير، وقال الحافظ في الإصابة (٧/ ٢٢٩) ترجمة رقم (١٠٢٥٢): «فقال ابن منده، لما ترجم له في الصحابة: روى عنه نبيه بن وهب ولا يعرف له سند..».

قال ابن إسحاق: وكان أبو عزيز صاحبَ لواء المشركين بعد النضر بن الحارث.

قال ابن إسحاق: فلما قال أخوه مصعب لأبي اليسر- وهو الذي أسره- ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي، هذه وصاتك بي؟! فقال أخوه مصعب: إنه أخي دونك، قال فسألت أُمَّه عن أغلى ما فدى به قرشي؟ فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها [(١)].

قال ابن إسحاق: وكان أول من قدم «مكة» بمصاب قريش، الحيسمان بن عبد الله الخزاعي، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم ابن هشام، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأبو البختري بن هشام. فلما جعل يعدد أشراف قريش، قال صفوان بن أمية- وهو قاعد في الحجر-: والله، إن يعقل هذا فاسألوه عني، فقالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟ قال: هو ذاك جالسًا في الحجر، وقد- والله- رأيت أباه وأخاه حين قتلا [(٢)].

قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، قال: ناحت قريش على قتلاها، ثم قالوا: لا تفعلوا فيبلغ محمدا وأصحابه؛ فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنوا بهم؛ لا يأرب عليكم محمد وأصحابه في الفداء.

وكان الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده: زمعة بن الأسود، وعقيل ابن الأسود، والحارث بن زمعة بن الأسود، وكان يحب أن يبكي على بنيه، قال: فبينما هو كذلك، إذ سمع نائحة من الليل، فقال لغلام له- وقد ذهب بصره:- انظر هل أُحلّ النحبُ؟! هل بكت قريش على قتلاها؟! لعلى أبكي على أبي حكيمة! (يعني: زمعة) فإن جوفي قد احترق. قال: فلما رجع إليه الغلام قال: إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته.

قال: فذاك حين يقول الأسود: [من الوافر]

أَتَبْكِي أَنْ يَضِلَّ لَهَا بَعِيرٌ ... وَيَمنعها مِنَ النَّوْمِ السُّهُودُ؟!
فَلا تَبْكِي عَلَى بَكْرٍ، وَلكنْ ... عَلَى بَدْرٍ تَقَاصَرَت الجُدُودُ
عَلَى بَدْرٍ سَرَاةِ بَنِى هُصَيْصٍ ... وَمَخْزُومٍ وَرَهْطِ أَبِي الْوَلِيدِ
وَبَكِّي إِنْ بَكَيْتِ عَلَى عَقِيلٍ ... وَبَكِّي حَارِثًا أَسَدَ الأُسُودِ

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٨٨-٢٨٩).
(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٨٩)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٦١)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٧٥).

وَبَكِّيهِمْ وَلاَ تَسمِي[(١)] جَمِيعًا ... وَمَا لأَبِي حَكِيمَةَ مِنْ نَدِيدِ
أَلاَ قَدْ سَادَ بَعْدَهُمُ رِجَالٌ ... وَلَوْلا يَوْمُ بَذْرٍ لَمْ يَسُودُوا[(٢)]

قال ابن إسحاق: وكان في الأسارى: أبو وداعة بن ضبيرة السهمي، فقال رسول الله ﷺ: «إن له بـ «مكة» ابنا كيسا تاجرًا ذا مال، وكأنكم به قد جاء في طلب فداء أبيه». فلما قالت قريش: «لا تعجلوا في فداء أسراكم؛ لا يأرب عليكم محمد وأصحابه» قال المطلب بن أبي وداعة- وهو الذي كان رسول الله ﷺ عني-: صدقتم لا تعجلوا، وانسلَّ من الليل فقدم «المدينة» فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم فانطلق به، ثم بعثت قريش في فداء الأسارى، فقدم مكرز بن حفص بن الأخيف في فداء سهيل بن عمرو، وكان الذي أسره مالك بن الدخشم، أخو بني سالم بن عوف، فقال: [من المتقارب]

أَسَرْتُ سُهَيْلاً فَلاَ أَبْتَغِي ... أَسِيرًا بِهِ مِنْ جَمِيعِ الأُمَمْ
وَخِنْدِفُ تَعْلَمُ أَنَّ الْفَتَى ... فَتَاهَا سُهَيلٌ إِذَا يُظَّلَمْ
ضَرَبْتُ بِذِي الشَّفْرِ حَتَّى انْثَنَى ... وَأَكرَهْتُ نَفْسي عَلَى ذِي العَلَمْ[(٣)]

وكان سهيل أعلم؛ وهو المشقوق من الشفة العليا.

قال ابن هشام: وبعض أهل العلم بالشعر ينكر هذا الشعر لمالك بن الدخشم [(٤)].

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن عمرو بن عطاء، أخو بني عامر بن لؤي، أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، انزع ثنيتي سهيل بن عمرو؛ يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبًا في موضع أبدًا.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «لا أمثل به؛ فيمثل الله بي؛ وإن كنت نبيًّا».

قال ابن إسحاق: وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال لعمر- في هذا الحديث: «إنه عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه»[(٥)]. وقد ذكر هذا المقام ابن هشام.

---

(١) أراد: لا تَسْأَمي؛ فنقل حركة الهمزة إلى السين.
(٢) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٤٦٣-٤٦٤)، والسيرة النبوية (٢/ ٢٩١، ٢٩٢)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٧٧).
(٣) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٤٦٤-٤٦٥)، والسيرة النبوية (٢/ ٢٩٣)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٧٨).
(٤) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٩٣).
(٥) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٤٦٥) بسنده إلى ابن إسحاق. وانظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٩٣)، والبداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٣٧٨) وقال ابن كثير: هذا حديث مرسل بل معضل =

قال ابن إسحاق: فلما قاولهم فيه مكرز، وانتهى إلى رضاهم، قال: هات الذي لنا. قال: اجعلوا رجلي مكان رجله، وخلوا سبيله؛ حتى يبعث إليكم بفدائه. فخلوا سبيل سهيل، وحبسوا مكرزًا عندهم، فقال مكرز: [من الطويل]

فديتُ بأذوادٍ ثَمَانٍ سِبَا فَتًى   يَنَالُ الصَّمِيمَ غُرْمُهَا لاَ المواليَا
رَهَنْتُ يَدِي والمالُ أَيْسَرُ مِنْ يَدِي   عَلَيَّ وَلَكِنِّي خَشيتُ المخَازِيَا
وقلتُ سُهيلٌ خَيْرُنَا فاذهَبُوا بِهِ   لأَبْنَائِنَا حتَّى نُدِيرَ الأَمَانِيَا(١)

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر، قال: كان عمرو بن أبي سفيان بن حرب (قال ابن هشام: أم عمرو بنت أبي عمرو: أخت أبي معيط بن أبي عمرو)- أسيرًا في يدي رسول الله ﷺ من أسارى بدر.

قال ابن هشام: أسره علي بن أبي طالب، رضي الله عنه (٢).

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر، قال: قيل لأبي سفيان: افد عمرا ابنك، فقال: أيجمع عليَّ دمي ومالي؟! قتلوا حنظلة وأفدى عمرًا؛ دعوه في أيديهم يمسكونه ما بدا لهم. قال: فبينا هو كذلك محبوس بـ «المدينة» عند رسول الله ﷺ، إذ خرج سعد بن النعمان بن أكال، أخو بني عمرو بن عوف، ثم أحد بني معاوية- معتمرًا ومعه مرية له، وكان شيخًا مسلمًا في غنم له بالبقيع، فخرج من هنالك معتمرًا ولا يخشى الذي صنع به، لم يظن أنه يحبس بـ «مكة» إنما جاء معتمرًا، وقد كان عهد قريش لا يعرضون لأحد جاء حاجًا أو معتمرًا إلا بخير، فعدا عليه أبو سفيان ابن حرب فحبسه بابنه عمرو، ثم قال أبو سفيان: [من الطويل]

أرَهْط ابْنِ أكَّال أَجِيبُوا دُعاءهُ   تَعَاقدتمُ لاَ تُسْلِمُوا السَّيِّد الْكَهْلاَ
فَإنَّ بني عَمْرو لِئَامٌ أَذِلَّة   لَئِنْ لَمْ يَفُكوا عَنْ أَسِيرِهِمُ الْكَبْلاَ

فأجابه حسان بن ثابت: [من الطويل]

لَوْ كَانَ سَعْدٌ يَوْمَ مَكَّةَ مُطلَقًا   لأَكْثَر فِيكمْ قَبْل أنْ يُؤسَرَ القَتلاَ

= ورواه الحاكم (٣/ ٢٨٢)، وعنه البيهقي في الدلائل (٦/ ٣٦٧) من طريق سفيان عن عمر عن الحسن بن محمد قال: قال عمر ... فذكره. وانظر: الإصابة للحافظ (٣/ ١٧٧- ١٧٨) ترجمة (٣٥٨٦).

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٤٦٥)، والسيرة (٢/ ٢٩٤)، وابن كثير في البداية (٣/ ٣٧٨) نقلًا عن ابن إسحاق.

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٩٤).

بِعضْبِ حُسامٍ أَوْ بِصَفْرَاءَ نَبْعَةٍ ... تَحِنُّ إِذَا مَا أُنْبضَتْ تحفز النَّبْلاَ

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ فأخبروه خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان؛ يفكوا به صاحبهم، ففعل رسول الله ﷺ، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل سعد (١).

قال ابن إسحاق: وأبو عزة عمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب بن حذافة بن جمح، وكان محتاجًا ذا بنات، فكلم رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، لقد عرفت ما لي من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال، فامنن عليّ، فمن عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه ألاّ يظاهر عليه أحدًا أبدًا، فقال أبو عزة في ذلك؛ يمدح رسول الله ﷺ ويذكر فضله في قومه: [من الطويل]

مَنْ مُبْلغٌ عَنِّي الرَّسُول مُحَمَّدًا ... بِأَنَّكَ حَقٌّ والمليكُ حَمِيدُ
وَأَنْتَ امْرؤ يَدْعُو إِلى الحَقِّ والهدَى ... عَلَيْكَ مِن الله العظيم شَهِيدُ
وأَنْتَ امْرؤٌ بُوِّئْتَ فِينَا مباءَةً ... لَهَا دَرَجَاتٌ سَهْلَةٌ وصعُودُ
فَإِنَّكَ مَنْ حَارَبْتَهُ لَمحَارَبٌ ... شَقيٌّ وَمنْ سالمْتَهُ لسعِيدُ
وَلكن إذَا ذُكِّرْتُ بَدْرًا وَأَهْلَهُ ... تَأَوَّبَ مَا بي حَسْرَةٌ وَقُعُودُ(٢)

قال ابن هشام: وكان فداء المشركين يومئذ أربعة آلاف درهم؛ إلا من لا شيء له فمنّ عليه رسول الله ﷺ (٣).

حدثنا أبو محمد عبد الملك بن هشام، قال: حدثنا زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق المطلبي، قال: فلما انقضى أمر بدر، أنزل الله- عز وجل- فيه من القرآن «الأنفال» بأسرها، وكان مما أنزل فيها من اختلافهم في النفل، حين اختلفوا فيه: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١] فكان عبادة بن الصامت- فيما بلغني- إذا سئل عن «الأنفال» قال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا

(١) ينظر تاريخ الطبري (٢/ ٤٦٦-٤٦٧)، والسيرة النبوية (٢/ ٢٩٥)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٧٨-٣٧٩).

(٢) في ط: حرة وتعود. وينظر السيرة النبوية (٢/ ٣٠٥-٣٠٦)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٨٠-٣٨١).

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٠٦).

في النفل يوم بدر، فانتزعه الله من أيدينا حين ساءت فيه أخلاقنا، فرده على رسول الله ﷺ، فقسمه بيننا عن بواء (يقول: على السواء) وفي ذلك تقوى الله وطاعته، وطاعة رسوله، وصلاح ذات البين[١]. ثم ذكر القوم ومسيرهم مع رسول الله ﷺ حين عرف القوم أن قريشًا ساروا إليهم، وإنما خرجوا يريدون العير طمعًا في الغنيمة، فقال: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٥، ٦] أي: كراهيةً للقاء القوم، وإنكارًا لمسير قريش حين ذكروا لهم ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٧] أي: الغنيمة دون الحرب ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٧] أي: بالوقعة التي أوقع بصناديد قريش وقادتهم يومئذ؛ تأييدا لدين الحق، دين رسول الله ﷺ[٢].

قال ابن إسحاق: وهذه تسمية من شهد «بدرًا» من المسلمين، ثم من قريش، ثم من بني هاشم بن عبد مناف، وبني المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة: محمد رسول الله ﷺ ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وحمزة بن عبد المطلب بن هاشم أسد الله وأسد رسوله عم رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، وزيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي[٣]، أنعم الله عليه ورسوله عليه السلام.

قال ابن إسحاق: وأَنَسَة مولى رسول الله ﷺ، وأبو كبشة مولى رسول الله ﷺ، وأبو مرثد كناز بن حصين بن يربوع، وابنه مرثد بن أبي مرثد حليفا حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وأخواه طفيل والحصين ابنا الحارث، ومسطح واسمه: عوف بن أثاثة بن عباد بن المطلب.

ومن عبد شمس: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، تخلف على امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه، قال: وأجرى

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ١٧٢) رقم (١٥٦٦٧)، والسيرة النبوية (٢/ ٣١٣).
(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣١٢-٣٢٤).
(٣) قال ابن هشام: شراحيل.

يا رسول الله؟! قال: «وأجرك»، وأبو حذيفة بن [ربيعة بن عبد شمس][1]، وسالم مولى أبي حذيفة، واسم أبي حذيفة هذا: مهشم. وسالم: سائبة لثبيتة بنت يعار بن زيد، سيبته فانقطع إلى أبي حذيفة فتبناه.

قال ابن إسحاق: وزعموا أن صبيحًا مولى أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، تجهز للخروج مع رسول الله ﷺ، ثم مرض فحمل على بعيره أبا سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ثم شهد صبيح بعد ذلك المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

وشهد بدرًا من حلفاء بني عبد شمس، ثم من بنى أسد بن خزيمة: عبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد، وعكاشة بن محصن، وشجاع بن وهب بن ربيعة، وأخوه عقبة بن وهب، ويزيد بن رقيش بن رئاب، وأبو سنان بن محصن، وابنه سنان بن أبي سنان، ومحرز بن نضلة ابن عبد الله، وربيعة بن أكثم أخي عكاشة بن محصن بن سخبرة بن عمرو بن لكيز ابن عامر بن غنم بن دودان بن أسد.

ومن حلفاء بني كبير بن غنم بن دودان بن أسد: ثقف بن عمرو، وأخواه: مالك ابن عمرو، ومدلج.

قال ابن هشام: مدلاج بن عمرو، وهم من بني حجر آل بني سليم.

وأبو مخشي حليف لهم. قال ابن هشام: أبو مخشي: طائي، واسمه: سويد بن مخشي.

ومن بني نوفل بن عبد مناف: عتبة بن غزوان بن جابر من بني قيس بن عيلان، وخباب مولى عتبة بن غزوان.

ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي: الزبير بن العوام، وحاطب بن أبي بلتعة، وسعد مولى حاطب.

قال ابن هشام: حاطب بن أبي بلتعة لخمي، وسعد مولاه كلبي.

ومن بني عبد الدار بن قصي: مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وسويبط بن سعد بن حريملة.

---

(١) في ط: عتبة. والمثبت من السيرة، والبداية والنهاية.

ومن بني زهرة بن كلاب: عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث ابن زهرة، وسعد بن أبي وقاص، وأخوه عمير بن أبي وقاص.

ومن حلفائهم: المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن قضاعة.

قال ابن إسحاق: وعبد الله بن مسعود من هذيل، ومسعود بن ربيعة من القارة.

قال ابن هشام: القارة: لقب لهم يقال: قد أنصف القارة من راماها، وكانوا رماة.

وذو الشمالين بن عبد عمرو بن نضلة من خزاعة، وإنما قيل له: ذو الشمالين؛ لأنه كان أعسر، واسمه: عمير. وخباب بن الأرت من بني تميم، ويقال: من خزاعة.

ومن بني تيم من مرة: أبو بكر الصديق- رضي الله تعالى عنه- واسمه: عتيق، وقيل: عبد الله، ولقب بعتيق، لحسن وجهه وعتقه؛ وبلال بن رباح مولى أبي بكر، مولد من مولدي بني جمح، لا عقب له. وعامر بن فهيرة، مولى أبي بكر- رضي الله عنه- مولد من مولدي الأسد، لا عقب له. وصهيب بن سنان من النمر بن قاسط، ويقال: مولى عبد الله بن جُدعان، ويقال: إنه رومي، وقيل: كان أسيرًا في الروم فاشترى منهم، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «صهيب سابق الروم»(١). وطلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، كان بـ «الشام» قدم بعد رجوع رسول الله ﷺ من «بدر» فكلمه فضرب له بسهمه، فقال: وأجري يا رسول الله؟ قال: «وأجرك» (٢).

ومن بني مخزوم بن يقظة: أبو سلمة بن عبد الأسد، وشماس بن عثمان بن الشريد، والأرقم بن أبي الأرقم عبد مناف بن أسد، وعمار بن ياسر (قال ابن هشام: عنسي من مذحج) ومعتب بن عوف بن عامر من خزاعة، حليف لهم، وهو الذي

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٠٨) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «السباق أربعة: أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم ...» الحديث. وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عمارة بن زاذان وهو ثقة وفيه خلاف. وروي هذا أيضًا من حديث أبي أمامة ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٠٨) وقال: رواه الطبراني وإسناده حسن.

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٢٩)، وأسد الغابة (٣/ ٨٥)، والاستيعاب (١٢٨٧)، والإصابة (٣/ ٤٣٠).

يقال له: معتب بن حمراء.

ومن بني عدي بن كعب: عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزي، وأخوه زيد ابن الخطاب، ومهجع مولى عمر- رضي الله عنه- من أهل «اليمن» أول من قتل بين الصفين رمى بسهم (قال ابن هشام: مهجع من عك) وعمرو بن سراقة، وأخوه عبد الله بن سراقة، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين [(١)] بن ثعلبة بن يربوع ابن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم حليف لهم، وخولى بن أبي خولى، ومالك ابن أبي خولى؛ حليفان لهم، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب من عنز بن وائل، وعامر بن البكير بن عبد ياليل، وعاقل بن البكير، وخالد بن البكير، وإياس بن البكير حلفاء بني عدي بن كعب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: قدم بعد «بدر» فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه، قال: وأجرى يا رسول الله؟ قال: «وأجرك».

ومن بني جمح: عثمان بن مظعون، وابنه السائب، وأخواه: قدامة بن مظعون، وعبد الله بن مظعون، ومعمر بن الحارث بن معمر[(٢)].

ومن بني سهم: خنيس بن حذافة بن قيس.

ومن بني عامر بن لؤي، ثم من بني مالك بن حسل بن عامر: أبو سبرة بن أبي رهم، وعبد الله بن مخرمة بن عبد العزى، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، خرج مع أبيه سهيل بن عمرو، فلما نزل الناس «بدرًا» فر إلى رسول الله ﷺ فشهدها معه، وعمير بن عوف مولى سهيل بن عمرو، وسعد بن خولة حليف لهم.

قال ابن هشام: سعد بن خولة من «اليمن».

ومن بني الحارث بن فهر: أبو عبيدة، وهو: عامر بن عبد الله بن الجراح، وسهيل بن وهب بن ربيعة، وأخوه صفوان بن وهب، وهما ابنا بيضاء، وعمرو بن أبي سرح بن ربيعة، وعمرو بن الحارث بن زهير؛ الخمسة من هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث.

فجميع من شهد بدرًا من المهاجرين، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره- ثلاثة وثمانون رجلاً.

---

(١) في السيرة: عمر.
(٢) في السيرة: معمر بن حبيب بن وهب. والمثبت موافق لما في البداية والنهاية.

قال ابن هشام: وكثير من أهل العلم- غير ابن إسحاق- يذكرون في المهاجرين بـ«بدر» من قريش، ثم من بني هاشم: العباس بن عبد المطلب عمه- عليه الصلاة والسلام- وفي بني عامر بن لؤي: وهب بن سعد بن أبي سرح، وحاطب بن عمرو، وفي بني الحارث بن فهر: عياض بن أبي زهير.

قال ابن إسحاق: وشهد «بدرًا» مع رسول الله ﷺ من المسلمين من الأنصار، ثم من الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، ثم من بني عبد الأشهل بن جشم ابن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس-: سعد بن معاذ بن النعمان ابن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، وعمرو بن معاذ بن النعمان، [والحارث ابن أوس بن معاذ بن النعمان][1] والحارث بن أنس بن رافع بن امرئ القيس.

ومن بني عبيد بن كعب بن عبد الأشهل: سعد بن زيد بن مالك بن عبيد، ومن بني زاعوراء بن عبد الأشهل (ويقال: زعوراء، فيما قاله ابن هشام): سلمة بن سلامة ابن وقش بن زغبة بن زاعوراء، وعباد بن بشر بن وقش بن زغبة بن زاعوراء، وسلمة ابن ثابت بن وقش، ورافع بن يزيد بن كرز بن سكن بن زاعوراء، والحارث بن خزمة ابن عدي، ويقال: خزيمة بن عدي، حليف لهم من بني عوف بن الخزرج، ومحمد ابن مسلمة بن خالد، حليف لهم من بني حارثة؛ وسلمة بن أسلم بن حريش، حليف لهم من بني حارثة.

قال ابن إسحاق: وأبو الهيثم بن التيهان، وعبيد بن التيهان.

قال ابن هشام: ويقال: عتيك بن التيهان.

قال ابن إسحاق: وعبد الله بن سهل.

قال ابن هشام: عبد الله بن سهل: أخو بني زعوراء، ويقال: من غسان.

قال ابن إسحاق: ومن بني ظفر، ثم من بني سواد بن كعب (قال ابن هشام: ظفر ابن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس): قتادة بن النعمان ابن زيد بن عامر بن سواد، وعبيد بن أوس بن مالك بن سواد، وهو الذي يقال له: مقرن؛ لأنه قرن أربعة أسرى في يوم بدر، وهو الذي أسر عقيل بن أبي طالب يومئذ.

---

(١) المثبت من السيرة، والبداية والنهاية.

قال ابن إسحاق: ومن بني عبد بن رزاح بن كعب: نصر بن الحارث بن عبد، ومعتب بن عبيد [١]، ومن حلفائهم من بليّ عبد الله بن طارق ثلاثة نفر، ومن بني حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس: مسعود بن سعد بن عامر بن عدي بن جشم بن مجدعة بن حارثة (قال ابن هشام: ويقال: مسعود بن عبد سعد) وأبو عبس بن جبر بن عمرو بن زيد بن جشم، ومن حلفائهم من بلي: أبو بردة بن نيار من بني عمرو بن الحاف بن قضاعة.

ومن بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، ثم من بني ضبيعة: عاصم بن ثابت بن قيس، وقيس أبو الأقلح بن عصمة بن مالك، ومعتب بن قشير بن مليل بن زيد بن العطاف بن ضبيعة، وأبو مليل بن الأزعر بن زيد بن العطاف بن ضبيعة، وعمرو بن معبد بن الأزعر بن زيد بن العطاف بن ضبيعة (قال ابن هشام: عمير بن معبد) وسهل بن حنيف بن واهب بن العكيم من بني عمرو، الذي يقال له: بحزج ابن حنش [٢] بن عوف.

ومن بني أمية بن زيد بن مالك: مبشر بن عبد المنذر بن زنبر بن زيد بن أمية، ورفاعة بن عبد المنذر، وسعد بن عبيد بن النعمان، وعويم بن ساعدة، ورافع ابن عنجدة- وعنجدة: أمه- وعبيد بن أبي عبيد، وثعلبة بن حاطب. وزعموا أن أبا لبابة ابن عبد المنذر، والحارث بن حاطب خرجا مع رسول الله ﷺ فرجعهما، وأمَّر أبا لبابة على «المدينة» فضرب لهما بسهمين مع أصحاب «بدر».

قال ابن هشام: ردهما من الروحاء؛ قال ابن هشام: وحاطب بن عمرو بن عبيد ابن أمية، واسم أبي لبابة: بشير.

قال ابن إسحاق: ومن بني عبيد بن زيد بن مالك: أنيس بن قتادة بن ربيعة بن خالد بن الحارث بن عبيد، ومن حلفائهم من بلي: معن بن عدي بن الجد بن العجلان بن ضبيعة، وثابت بن أقرم بن ثعلبة، وعبد الله بن سلمة بن مالك، وزيد بن أسلم بن ثعلبة، وربعي بن رافع بن زيد، وخرج عاصم بن عدي بن الجد بن عجلان، فرده رسول الله ﷺ وضرب له بسهمه مع أصحاب «بدر».

---

(١) في السيرة: عبد. والمثبت موافق لما في البداية والنهاية.
(٢) في السيرة: حنس.

ومن بني ثعلبة بن عمرو بن عوف: عبد الله بن جبير بن النعمان، وعاصم بن قيس بن ثابت.

قال ابن إسحاق: وسالم بن عمير بن ثابت، وأبو ضياح بن ثابت بن النعمان، والحارث بن النعمان بن أمية، وخوات بن جبير بن النعمان: ضرب له رسول الله ﷺ بسهم مع أهل «بدر».

ومن بني جحجبى بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف: منذر بن محمد بن عقبة ابن أحيحة بن الجلاح.

ومن حلفائهم من بني أنيف: أبو عقيل بن عبد الله بن ثعلبة.

قال ابن إسحاق: ومن بني غنم بن السلم بن امرئ القيس بن مالك بن الأوس: سعد بن خيثمة بن الحارث، ومنذر بن قدامة، ومالك بن قدامة بن عرفجة.

قال ابن إسحاق: والحارث بن عرفجة.

قال ابن هشام: عرفجة بن كعب بن النحاط بن كعب بن حارثة بن غنم.

قال ابن إسحاق: وتميم مولى بني غنم.

ومن بني معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف: جبر بن عتيك بن الحارث بن قيس بن هيشة بن الحارث بن أمية بن معاوية، ومالك بن نميلة حليف لهم من مزينة، والنعمان بن عصر حليف لهم من بلى.

فجميع من شهد «بدرًا» من الأوس مع رسول الله ﷺ، ومن ضرب له بسهمه وأجره - أحد وستون رجلاً.

قال ابن إسحاق: وشهد «بدرًا» مع رسول الله ﷺ من المسلمين، ثم من الأنصار، ثم من الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، ثم من بني الحارث ابن الخزرج، ثم من بني امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج-: خارجة بن زيد بن أبي زهير، وسعد بن ربيع بن عمرو بن أبي زهير، وعبد الله بن رواحة بن امرئ القيس، وخلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو ابن حارثة بن امرئ القيس.

ومن بني زيد بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج: بشير بن سعد بن ثعلبة بن خلاس بن زيد، وأخوه سماك بن سعد؛ قال ابن هشام

ويقال: جلاس ، وهو عندنا خطأ.

ومن بني عدي بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج: سبيع بن قيس بن عيشة بن أمية بن مالك بن عامر بن عدي، وعباد بن قيس بن عيشة أخوه. قال ابن إسحاق: وعبد الله بن عبس.

ومن بني أحمر بن حارثة بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج: يزيد بن الحارث بن قيس بن مالك بن أحمر.

ومن بني جشم بن الحارث بن الخزرج، وزيد بن الحارث بن الخزرج، وهما التوءمان-: خبيب بن أساف بن عتبة بن عمرو بن خديج بن عامر بن جشم، وعبد الله ابن زيد بن ثعلبة، وأخوه حريث بن زيد بن ثعلبة، زعموا، وسفيان بن بشر.

قال ابن هشام: سفيان بن نسر بن عمرو بن الحارث بن كعب بن زيد.

قال ابن إسحاق: ومن بني جدارة بن عوف بن الحارث بن الخزرج: تميم بن يعار بن قيس بن عدي بن أمية بن جدارة، وعبد الله بن عمير بن عدي بن أمية بن جدارة، وزيد بن المزين بن قيس، وعبد الله بن عرفطة بن عدي بن أمية بن جدارة.

ومن بني الأبجر، وهم بنو خُدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج: عبد الله بن ربيع بن قيس بن عمرو بن عباد بن الأبجر.

ومن بني عوف بن الخزرج، ثم من بني عبيد بن مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج، وهم بنو الحبلى (قال ابن هشام: الحبلى سالم بن غنم؛ سمى به لعظم بطنه)-: عبد الله بن عبد الله بن أبىّ بن مالك بن الحارث بن عبيد، وسلول أم أبىّ، وأوس بن خولي بن عبد الله بن الحارث بن عبيد.

ومن بني جزء بن عدي بن مالك بن سالم: زيد بن وديعة بن عمرو بن قيس بن جزء، وعقبة بن وهب بن كلدة، حليف لهم من بني عبد الله بن غطفان، ورفاعة بن عمرو بن زيد، وعامر بن سلمة بن عامر، حليف لهم من «اليمن» وأبو خميصة معبد ابن عباد [(١)] بن قشير بن المقدم [(٢)] بن سالم بن غنم، وعامر بن البكير حليف لهم.

ومن بني سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، ثم من بني العجلان بن

(١) في السيرة: أبو حميضة معبد بن عبادة.
(٢) في البداية والنهاية: الفدم.

زيد بن غنم بن سالم: نوفل بن عبد الله بن نضلة بن مالك بن العجلان.

ومن بني أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف: عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم، وأخوه أوس بن الصامت.

ومن بني دعد بن فهر بن ثعلبة بن غنم: النعمان بن مالك بن ثعلبة بن دعد، والنعمان الذي يقال له: قوقل.

ومن بني قربوش [١] بن غنم بن أمية بن لوذان بن سالم: ثابت بن هزال بن عمرو ابن قربوش، ويقال: قربوس بالمهملة.

ومن بني مرضخة بن غنم: مالك بن الدخشم قال ابن إسحاق: ومن بني لوذان ابن غنم بن سالم: ربيع بن إياس بن عمرو بن غنم بن أمية بن لوذان، وأخوه ورقة ابن إياس، وعمرو بن إياس حليف لهم من أهل «اليمن».

قال ابن هشام: ويقال عمرو أخو ربيع وورقة.

قال ابن إسحاق: ومن حلفائهم من بلى، ثم من بني غصينة (وغصينة: أمهم؛ كما قال ابن هشام، وأبوهم: عمرو بن عمارة): المجذر بن ذياد، واسم المجذر: عبد الله بن عمرو بن زمزمة، وعباد، ويقال: عبادة بن الخشخاش بن عمرو بن زمزمة، ونحاب بن ثعلبة بن خزمة، ويقال: نحاث [٢] بن ثعلبة، وعبد الله بن ثعلبة ابن خزمة بن أصرم.

قال ابن هشام: وزعموا أن عتبة بن ربيعة بن خالد بن معاوية حليف لهم من «بهراء» قد شهد «بدرًا».

قال ابن هشام: عتبة بن بهز من بني سليم.

ومن بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، ثم من بني ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة: أبو دجانة سماك بن أوس بن خرشة بن لوذان، والمنذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة ابن لوذان.

ومن بني البدى بن عامر بن عوف بن حارثة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة: أبو أسيد مالك بن ربيعة بن البدى، ومالك بن مسعود وهو إلى البدى.

---

(١) في السيرة: قريوش.
(٢) في البداية والنهاية: بحاث.

ومن بني طريف بن الخزرج بن ساعدة: عبد ربه بن حق بن أوس بن وقش بن ثعلبة بن طريف، ومن حلفائهم من جهينة: كعب بن حمار بن ثعلبة (قال ابن هشام: ويقال: كعب بن جماز) وهو من غبشان وضمرة وزياد وبسبس بنو عمرو، ويقال: ضمرة وزياد ابنا بشر، وعبد الله بن عامر من بلي.

ومن بني جشم بن الخزرج، ثم من بني سلمة بن سعد، ثم من بني حرام بن كعب بن غنم: خراش بن الصمة بن عمرو بن الجموح، والحباب بن المنذر بن الجموح، وعمير بن الحمام بن الجموح، وتميم مولى خراش بن الصمة، وعبد الله بن عمرو بن حرام، ومعاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوذ بن عمرو بن الجموح، وخلاد بن عمرو بن الجموح، وعقبة بن عامر بن نابي، وخبيب بن الأسود مولى لهم، وثابت بن ثعلبة بن زيد بن الحارث بن حرام، وثعلبة الذي يقال له: الجذع، وعمير بن الحارث بن ثعلبة.

قال ابن هشام: وكل ما كان- هاههنا- الجموح، فهو: الجموح بن زيد بن حرام، إلا ما كان من جد الصمة؛ فإنه الجموح بن حرام.

قال ابن إسحاق: ومن بني عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة، ثم من بني خنساء بن سنان بن عبيد: بشر بن البراء بن معرور بن صخر بن خنساء، والطفيل بن مالك بن خنساء، والطفيل بن النعمان بن خنساء، وعبد الله بن الجد بن قيس بن صخر بن خنساء، وسنان بن صيفي بن صخر بن خنساء، وعتبة بن عبد الله بن صخر ابن خنساء، وجبار بن صخر، وخارجة بن حمير، وعبد الله بن حمير حليفان لهم من أشجع، من بني دهمان.

قال ابن هشام: ويقال: جبار بن صخر بن أمية بن خناس.

قال ابن إسحاق: تسعة نفر.

ومن بني خناس بن سنان بن عبيد: يزيد بن المنذر بن سرح بن خناس، ومعقل ابن المنذر بن سرح، وعبد الله بن النعمان بن بلدمة، والضحاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة بن عبيد، وسواد بن زريق بن ثعلبة بن عبيد (قال ابن هشام: ويقال: سواد بن رزن بن زيد بن ثعلبة) ومعبد بن قيس بن صخر بن حرام، وعبد الله بن قيس بن صخر بن حرام.

ومن بني النعمان بن سنان بن عبيد: عبد الله بن عبد مناف بن النعمان، وجابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان، وخليدة بن قيس بن النعمان، والنعمان بن سنان مولى لهم.

ومن بني سواد بن غنم بن كعب بن سلمة، ثم من بني حديدة بن عمرو بن غنم ابن سواد: أبو المنذر، وهو يزيد بن عامر بن حديدة، وسليم بن عمرو بن حديدة، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعنترة مولى سليم بن عمرو.

قال ابن هشام: عنترة: من بني سليم بن منصور ثم من بني ذكوان.

ومن بني عدي بن نابي بن عمرو بن سواد بن غنم: عبس بن عامر بن عدي، وثعلبة بن غنمة بن عدي، وأبو اليسر، وهو: كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو بن غنم بن سواد، وسهل بن قيس بن أبي كعب بن القين بن كعب بن سواد، وعمرو بن طلق بن زيد بن أمية بن سنان بن كعب بن غنم، ومعاذ بن جبل بن عمرو.

قال ابن هشام: إنما نسب ابن إسحاق معاذ بن جبل في بني سواد، وليس منهم؛ لأنه فيهم.

قال ابن إسحاق: والذين كسروا آلهة بني سلمة: معاذ بن جبل، وعبد الله بن أنيس، وثعلبة بن غنمة، وهم في بني سواد بن غنم.

قال ابن إسحاق: ومن بني زريق بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج، ثم من بني مخلد بن عامر بن زريق، ويقال: عامر بن الأزرق: قيس بن محصن بن خالد بن مخلد، وأبو خالد، وهو: الحارث بن قيس ابن خالد بن مخلد، وجبير بن إياس بن خالد بن مخلد، وأبو عبادة، وهو: سعد بن عثمان بن خلدة بن مخلد، وأخوه عقبة بن عثمان بن خلدة بن مخلد، وذكوان بن عبد قيس بن خلدة بن مخلد، ومسعود بن خلدة بن عامر بن مخلد.

ومن بني خلدة[١] بن عامر بن زريق: أسعد بن يزيد بن الفاكه بن زيد بن خلدة، والفاكه بن بشر بن الفاكه بن زيد بن خلدة.

قال ابن هشام: بسر بن الفاكه، ومعاذ بن ماعص بن قيس بن خلدة، وأخوه عائذ ابن ماعص بن قيس بن خلدة، ومسعود بن سعد بن قيس بن خلدة.

(١) في السيرة: خالدة.

ومن بني العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق: رفاعة بن رافع بن مالك بن العجلان، وأخوه خلاد بن رافع بن مالك بن العجلان، وعبيد بن زيد بن عامر بن العجلان.

ومن بني بياضة بن عامر بن زريق: زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر بن عدي بن أمية بن بياضة، وفروة بن عمرو بن وذفة بن عبيد بن عامر بن بياضة، ورجيلة- بالمعجمة- وعطية بن نويرة بن عامر بن عطية بن عامر بن بياضة، وخليفة ابن عدي بن عمرو بن مالك بن عامر بن فهيرة بن بياضة. قال ابن هشام: ويقال: عليفة.

ومن بني حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج: رافع بن المعلى بن لوذان بن حارثة بن عدي بن زيد بن ثعلبة بن زيد مناة بن حبيب.

ومن بني النجار، وهو: تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج، ثم من بني غنم ابن مالك بن النجار، ثم من بني ثعلبة بن عبد عوف بن غنم: أبو أيوب خالد بن زيد ابن كليب بن ثعلبة.

ومن بني عسيرة بن عبد عوف بن غنم: ثابت بن خالد بن النعمان بن خنساء بن عسيرة. قال ابن هشام: ويقال: عشيرة.

قال ابن إسحاق: ومن بني عمرو بن عبد بن عوف بن غنم: عمارة بن حزم بن زيد بن لوذان بن عمرو، وسراقة بن كعب بن عبد العزى بن غزية بن عمرو.

ومن بني عبيد بن ثعلبة بن غنم: حارثة بن النعمان بن زيد بن عبيد، وسليم بن قيس بن قهد، واسمه: خالد بن قيس بن عبيد.

ومن بني عائذ بن ثعلبة بن غنم، ويقال: عابد، بالموحدة والمهملة-: سهيل بن رافع بن أبي عمرو بن عائذ، وعدي بن أبي الزغباء، حليف لهم من جهينة.

ومن بني زيد بن ثعلبة بن غنم: مسعود بن أوس بن زيد، وأبو خزيمة بن أوس بن زيد بن أصرم بن زيد، ورافع بن الحارث بن سواد بن زيد.

ومن بني سواد بن مالك بن غنم: عوف ومعوذ ومعاذ، بنو الحارث بن رفاعة بن سواد؛ بنو عفراء، والنعمان بن عمرو بن رفاعة بن سواد (ويقال: نعيمان؛ فيما قال ابن هشام). وعامر بن مخلد بن الحارث بن سواد، وعبد الله بن قيس بن خالد بن

خلدة بن الحارث بن سواد، وعصيمة حليف لهم من أشجع، ووديعة بن عمرو حليف لهم من جهينة، وثابت بن عمرو بن زيد بن عدي بن سواد، وزعموا أن أبا الحمراء مولى الحارث بن عفراء شهد «بدرًا».

ومن بني عامر بن مالك بن النجار، وعامر مبذول، ثم من بني عتيك بن عمرو بن مبذول: ثعلبة بن عمرو بن محصن بن عمرو العتكي، وسهل بن عتيك بن عمرو (١) ابن النعمان، والحارث بن الصمة بن عمرو بن عتيك، كسر به في الروحاء، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره.

ومن بني عمرو بن مالك بن النجار، وهم: بنو حديلة، ثم من بني قيس بن عبيد ابن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار: أبي بن كعب بن قيس، وأنس بن معاذ بن أنس بن قيس.

ومن بني عدي بن عمرو بن مالك بن النجار: أوس بن ثابت بن المنذر بن حرام ابن عمرو بن زيد مناة بن عدي، وأبو شيخ بن أبي ثابت بن المنذر بن حرام؛ أخو حسان بن ثابت، وأبو طلحة، وهو زيد بن سهل بن الأسود بن حرام.

ومن بني عدي بن النجار، ثم من بني عدي بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار: حارثة بن سراقة بن الحارث بن عدي بن مالك بن عدي بن عامر، وعمرو بن ثعلبة ابن وهب بن عدي، وهو أبو حكيم، وأبو سليط: وهو أسيرة بن قيس بن عمرو، وعمرو أبو خارجة بن قيس بن مالك بن عدي بن عامر، وثابت بن خنساء بن عمرو ابن مالك بن عدي بن عامر، وعامر بن أمية بن زيد بن الحسحاس بن مالك بن عدي ابن عامر، ومحرز بن عامر بن مالك بن عدي، وسواد بن غزية بن أهيب، حليف لهم من بلي، ويقال: سواد.

قال ابن إسحاق: ومن بني حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار: أبو زيد قيس بن سكن بن قيس بن زعوراء بن حرام، وأبو الأعور بن الحارث بن ظالم بن عبس بن حرام، وسليم بن ملحان، وحرام بن ملحان.

ومن بني مازن بن النجار، ثم من بني عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن ابن النجار: قيس بن أبي صعصعة، واسم أبي صعصعة: عمرو بن زيد بن عوف،

---

(١) في ط: عمرو بن عتيك. والمثبت من السيرة والبداية والنهاية.

وعبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف، وعصيمة حليف لهم من بني أسد بن خزيمة.

ومن بني خنساء بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن: أبو داود عمير بن عامر بن مالك بن خنساء، وسراقة بن عمرو بن عطية بن خنساء.

ومن بني ثعلبة بن مازن بن النجار: قيس بن مخلد بن ثعلبة بن صخر بن حبيب ابن الحارث بن ثعلبة.

ومن بني دينار بن النجار، ثم من بني مسعود بن عبد الأشهل بن حارثة بن دينار ابن النجار: النعمان بن عبد عمرو بن مسعود، والضحاك بن عبد عمرو بن مسعود، وسليم بن الحارث بن ثعلبة بن كعب بن حارثة بن دينار، وهو أخو الضحاك، والنعمان ابنى عبد عمرو، لأمهما؛ وجابر بن خالد بن عبد الأشهل بن حارثة، وسعد بن سهيل بن عبد الأشهل.

ومن بنى قيس بن مالك بن كعب بن حارثة بن دينار بن النجار: كعب بن زيد بن قيس، وبجير بن أبى بجير، حليف لهم من عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان، ثم من بني جذيمة بن رواحة.

قال ابن إسحاق: فجميع من شهد «بدرا» من الخزرج: مائة وسبعون رجلا.

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم يذكر فى الخزرج بـ«بدر» فى بنى العجلان بن زيد ابن غنم: عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان، ومليل بن وبرة بن خالد بن العجلان، وعصمة بن الحصين بن وبرة بن خالد بن العجلان.

وفى بني حبيب بن عبد: حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج، وهم من بني زريق، وهلال بن المعلى بن لوذان بن حارثة بن عدي بن زيد بن ثعلبة بن مالك بن زيد مناة بن حبيب.

قال ابن إسحاق: فجميع من شهد «بدرا» من المسلمين من المهاجرين والأنصار، ومن ضرب له بسهمه وأجره ثلاثمائة رجل وأربعة عشر رجلا؛ ثلاثة وثمانون من المهاجرين، ومن الأوس واحد وستون، ومن الخزرج مائة وسبعون رجلا.

واستشهد من المسلمين يوم «بدر» مع رسول الله ﷺ:

من قريش، ثم من بني المطلب بن عبد مناف: عبيدة بن الحارث بن المطلب: قتله عتبة بن ربيعة، قطع رجله فمات بـ«الصفراء».

ومن بني زهرة بن كلاب: عمير بن أبي وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة؛ أخو سعد بن أبي وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة، وذو الشمالين بن عبد عمرو بن نضلة، حليف لهم من خزاعة.

ومن بني عدي بن كعب بن لؤي: عاقل بن البكير؛ حليف لهم من بني سعد بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

ومن بني الحارث بن فهر: صفوان بن بيضاء.

ومن الأنصار، ثم من [بني] عمرو بن عوف: سعد بن خيثمة، ومبشر بن عبد المنذر ابن زنبر، ويقال: مرة بن زنبر.

ومن بني الحارث بن الخزرج: يزيد بن الحارث، وهو الذي يقال له: ابن فسحم.

ومن بني سلمة، ثم من بني حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة: عمير بن الحمام.

ومن بني حبيب بن عبد حارثة: رافع بن المعلى، ومن بني النجار: حارثة بن سراقة بن الحارث، ومن بني غنم بن مالك بن النجار: عوف ومعوذ ابنا الحارث بن رفاعة بن سواد، وهما ابنا عفراء (١).

نقل صاحب «تاريخ الخميس» العلامة حسين بن محمد الديار بكرى، عن الجلال الدواني، عن كبار مشايخه- أن الدعاء مستجابٌ عند ذكر أصحاب بدر، رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم.

تسميةُ من قتل من المشركين يوم بدر (٢):

من قريش، ثم من بني عبد شمس بن عبد مناف: حنظلة بن أبي سفيان بن حرب

(١) ينظر تسمية أصحاب بدر في المصادر الآتية: السيرة النبوية (٢/ ٣٢٤-٣٥٤)، المغازي للواقدي (١/ ١٥٢-١٧٢)، المغازي لعروة (١٤٧-١٥٩)، جوامع السيرة (١١٤-١٤٦)، تلقيح فهوم أهل الأثر (٤٢٤-٤٣٧)، مجمع الزوائد (٦/ ٩٧-١٠٢)، فتح الباري (٨/ ٦٣-٦٧)، الدرر في اختصار المغازي والسير (١١٧-١٣٣)، البداية والنهاية (٣/ ٣٨٣)، تاريخ الإسلام (١٢٢-المغازي)، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٩١-١٢٤).

(٢) ينظر السيرة النبوية (٢/ ٣٥٥-٣٦٤)، المغازي للواقدي (١/ ١٤٧-١٥٢)، أنساب الأشراف (١/ ٢٩٦-٣٠١)، الدرر (١١٣-١١٤)، الطبقات الكبرى (٢/ ١٨)، تاريخ الإسلام (١٢٥-المغازي)، عيون الأثر (١/ ٢٨٥).

ابن أمية بن عبد شمس: قتله زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، ويقال: اشترك فيه حمزة، وعلى، وزيد؛ قاله ابن هشام. وعتبة بن ربيعة بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة. والحارث وعامر ابنا الحضرمي حليفان لهم: قتل عامرا عمارُ بن ياسر، وقتل الحارث النعمان بن عصر، حليف الأوس؛ فيما قال ابن هشام.

وعمير بن أبي عمير وابنه موليان لهم: قتل عميرا سالم مولى أبي حذيفة.

قال ابن إسحاق: وعبيدة بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس: قتله الزبير ابن العوام، والعاص بن سعيد بن العاص بن أمية: قتله علي بن أبي طالب، وعقبة بن أبي معيط: قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، أخو بني عمرو بن عوف- صبرا.

قال ابن هشام: ويقال: علي بن أبي طالب.

قال ابن إسحاق: وعتبة بن ربيعة: قتله عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب.

قال ابن هشام: اشترك فيه هو وحمزة وعلي.

قال ابن إسحاق: وشيبة بن ربيعة: قتله حمزة بن عبد المطلب. والوليد بن عتبة ابن ربيعة: قتله علي بن أبي طالب. وعامر بن عبد الله، حليف لهم من بني أنمار ابن بغيض: قتله علي بن أبي طالب.

ومن بني نوفل بن عبد مناف: الحارث بن عامر بن نوفل: قتله- فيما يذكرون- خبيب بن أساف، أخو بني الحارث بن الخزرج. وطعيمة بن عدي بن نوفل: قتله علي بن أبي طالب، ويقال: حمزة بن عبد المطلب.

ومن بني أسد بن عبد العزي: زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، قال ابن هشام: قتله ثابت بن الجذع، أخو بني حرام، ويقال: اشترك فيه علي وحمزة وثابت.

قال ابن إسحاق: والحارث بن زمعة: قتله عمار بن ياسر؛ فيما قال ابن هشام.

وعقيل بن الأسود بن المطلب: قتله حمزة وعلي. وأبو البختري العاصي بن هشام: قتله المجذر بن ذياد البلوي. ونوفل بن خويلد بن أسد، وهو ابن العدوية عدي خزاعة، أخو خديجة- رضي الله عنها- وكان من شياطين قريش، وهو الذي قرن أبا بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله، حين أسلما؛ فكانا يسميان: القرينين

لذلك، قتله علي بن أبي طالب.

ومن بني عبد الدار بن قصي: النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف ابن عبد الدار: قتله علي بن أبي طالب صبرا، عند عود رسول الله ﷺ ب«الصفراء» فيما يذكرون (قال ابن هشام: ويقال: النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة) وزيد بن مليص، مولي عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار: قتله بلال بن رباح مولى أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- وقيل قتله المقداد بن عمرو.

قال ابن إسحاق: ومن تيم بن مرة: عمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم: قتله علي بن أبي طالب، ويقال: قتله عبد الرحمن بن عوف. وعثمان بن مالك بن عبيد الله بن عثمان بن كعب: قتله صهيب بن سنان.

ومن بني مخزوم بن يقظة بن مرة: أبو جهل بن هشام، واسمه: عمرو بن هشام ابن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ضربه معاذ بن عمرو بن الجموح، فقطع رجله، وضربَ ابنُه [عكرمة] [1] يد معاذ فطرحها، ثم ضربه معوذ بن عفراء؛ حتى أثبته وتركه وبه رمق، ثم ذفف عليه عبد الله بن مسعود، واحتز رأسه حين أمر رسول الله ﷺ به أن يلتمس في القتلى.

والعاصي بن هشام بن المغيرة: قتله عمر بن الخطاب.

ويزيد بن عبد الله حليف لهم من بني تميم. (قال ابن هشام: ثم أحد بني عمرو ابن تميم)، وكان شجاعا قتله عمار بن ياسر. قال ابن إسحاق: وأبو مسافع الأشعرى حليف لهم؛ قتله أبو دجانة الساعدى. وحرملة بن عمر حليف لهم: قتله خارجة بن زيد بن أبي زهير، أخو بني الحارث بن الخزرج، ويقال: قتله علي بن أبي طالب؛ قالهما ابن هشام.

وحرملة من بني الأسد، ومسعود بن أبي أمية بن المغيرة: قتله علي بن أبي طالب، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة: قتله عمار بن ياسر، ويقال: علي بن أبي طالب؛ ورفاعة بن أبي رفاعة بن عائذ [2] بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم: قتله سعد ابن الربيع، أخو بلحارث بن الخزرج، فيما قال ابن هشام.

---

(١) المثبت من السيرة النبوية.
(٢) في السيرة : عابد

والمنذر بن أبي رفاعة بن عائذ: قتله معن بن عدي بن الجد بن العجلان حليف لهم. وعبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة بن عائذ: قتله على بن أبي طالب، والسائب ابن أبي السائب بن عائذ.

قال ابن هشام: والسائب بن أبي السائب: شريك رسول الله ﷺ الذي جاء فى الحديث فيه، عن رسول الله ﷺ: «نعم الشريكُ السائبُ؛ لا يشارى ولا يمارى» (١) وكان أسلم فحسن إسلامه فيما بلغنا.

قال: وذكر ابن شهاب الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس: أن السائب بن أبي السائب بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ممن بايع رسول الله ﷺ من قريش، وأعطاه يوم «الجعرانة» من غنائم «حنين»، وذكر غير ابن إسحاق أن الذي قتله: الزبير بن العوام.

قال ابن إسحاق: والأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم: قتله حمزة بن عبد المطلب. وحاجب بن السائب قتله على بن أبى طالب. وعويمر بن السائب بن عويمر: قتله النعمان بن مالك القوقلى مبارزة، (فيما قال ابن هشام) وعمرو بن سفيان وجابر بن سفيان، حليفان لهم من طيئ: قتل عمرا يزيد بن رقيش، وقتل جابرا أبو بردة بن نيار.

ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى: منبه بن الحجاج بن عامر ابن حذيفة بن سعد بن سهم، قتله أبو اليسر أخو بني سلمة، وابنه العاصي بن منبه بن الحجاج: قتله علي بن أبي طالب. ونبيه بن الحجاج: قتله حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن أبي وقاص؛ اشتركا فيه (فيما قاله ابن هشام) وأبو العاص بن قيس بن عدي ابن سعيد بن سهم: قتله علي بن أبي طالب، ويقال: النعمان بن مالك القوقلي، ويقال: أبو دجانة. وعاصم بن أبي عوف بن صبيرة (٢) بن سعيد بن سعد بن سهم: قتله أبو اليسر أخو بني سلمة.

ومن بني جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى: أمية بن خلف بن وهب

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ٧٦٨) رقم (٢٢٨٧)، وأحمد (٣/ ٤٢٥)، والطبراني في الكبير (٧/ ١٦٥) رقم (٦٦١٨، ٦٦١٩)، ولفظ ابن ماجه والطبراني: عن قائد السائب عن السائب قال للنبي ﷺ: كنت شريكي في الجاهلية فكنت خير شريك؛ كنت لا تداريني ولا تماريني.

(٢) في السيرة: عاصم بن عوف بن ضبيرة.

ابن حذافة بن جمح: قتله رجل من الأنصار من بني مازن، وقيل: قتله معاذ بن عفراء، وخارجة بن زيد، وخبيب بن أساف؛ اشتركوا فيه. وابنه علي بن أمية بن خلف: قتله عمار بن ياسر. وأوس بن معير بن لوذان بن سعد بن جمح: قتله علي ابن أبي طالب، ويقال: قتله الحصين بن الحارث بن المطلب، وعثمان بن مظعون؛ اشتركا فيه، فيما قاله ابن هشام.

ومن بني عامر بن لؤي: معاوية بن عامر، حليف لهم من عبد القيس: قتله علي ابن أبي طالب، ويقال: عكاشة بن محصن. ومعبد بن وهب، حليف لهم من بني كلب بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث: قتله خالد وإياس ابنا البكير، ويقال: أبو دجانة.

قال ابن إسحاق: فجميع من أحصى لنا من قتلى قريش يوم «بدر»: خمسون رجلا.

قال ابن هشام: حدثنى أبو عبيدة معمر بن المثنى، عن أبي عمرو؛ أن قتلى «بدر» من المشركين كانوا سبعين رجلا، والأسرى كذلك، وهو قول ابن عباس وسعيد بن المسيب، وفي كتاب- الله عز وجل: ﴿ أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا ﴾ [آل عمران: ١٦٥] يقول لأصحاب «أحد» وكان من استشهد منهم سبعين رجلا، يقول: قد أصبتم يوم «بدر» مثليْ من استشهد منكم بـ«أحد» سبعين قتيلا وسبعين أسيرا.

قال: وأنشدنى أبو زيد الأنصاري لكعب بن مالك: [من الكامل]

فأَقَامَ بِالْعَطَنِ الْمُعَطَّنِ مِنهُمُ سَبْعُونَ عُتْبَةُ مِنهُمُ وَالأَسْوَدُ

قال ابن هشام: يعنى قتلى «بدر». وهذا البيت في قصيدة له في حديث يوم «أحد»، سأذكرها في موضعها؛ إن شاء الله تعالى.

وممن لم يذكر ابن إسحاق من هؤلاء السبعين القتلى من بنى عبد شمس بن عبد مناف: وهب بن الحارث من بني أنمار بن بغيض حليف لهم، وعامر بن زيد حليف لهم من «اليمن».

ومن بني أسد بن عبد العزى: عقبة بن زيد حليف لهم من «اليمن»، وعمير مولى لهم.

ومن بني عبد الدار بن قصي: نبيه بن زيد بن مليص، وعبيد بن سليط، حليف لهم من قيس.

ومن بني تيم بن مرة: مالك بن عبيد الله بن عثمان، أسر فمات في الأسارى فعد في القتلى، ويقال: وعمرو بن عبد الله بن جُدعان.

ومن بني مخزوم بن يقظة: حذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة؛ قتله سعد بن أبي وقاص، وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة: قتله صهيب بن سنان، وزهير بن أبي رفاعة: قتله أبو أسيد مالك بن ربيعة، والسائب بن أبي رفاعة: قتله عبد الرحمن بن عوف، وعائذ بن السائب بن عويمر: أسر ثم افتدى، فمات في الطريق من جراحة جرحه إياها حمزة بن عبد المطلب، وعمير حليف لهم من طيئ وخيار حليف لهم من القارة.

ومن بني جمح بن عمرو: سبرة بن مالك حليف لهم.

ومن بني سهم بن عمرو: الحارث بن منبه بن الحجاج: قتله صهيب بن سنان، وعامر بن أبي عوف بن صبيرة، أخو عاصم: قتله عبد الله بن سلمة العجلاني، ويقال: أبو دجانة [1].

تسمية من أسر من المشركين يوم «بدر»:

قال ابن إسحاق: وأسر من المشركين من قريش يوم بدر، ثم من بني هاشم بن عبد مناف: عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب.

ومن بني المطلب بن عبد مناف: السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، ونعمان بن عمرو بن علقمة بن المطلب.

ومن بني عبد شمس بن عبد مناف: عمرو بن أبي سفيان بن حرب، والحارث بن أبي وجرة [2] بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، ويقال: ابن أبي وحرة - بالحاء المهملة - وأبو العاص بن نوفل بن عبد شمس، وأبو العاص بن الربيع بن عبد العزى ابن عبد شمس؛ ومن حلفائهم: أبو ريشة بن أبي عمرو، وعمرو بن الأزرق، وعقبة ابن عبد الرحمن [3] بن الحضرمي.

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٥٥-٣٦٤).
(٢) في السيرة: وجزة.
(٣) في السيرة عبد الحارث.

ومن بني نوفل بن عبد مناف: عدي بن الخيار بن عدي بن نوفل، وعثمان بن عبد شمس ابن أخي غزوان بن جابر، حليف لهم من بني مازن بن منصور؛ وأبو ثور حليف لهم.

ومن بني عبد الدار بن قصي: أبو عزيز بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، والأسود بن عامر حليف لهم، ويقولون: نحن بنو الأسود بن عامر بن عمرو بن الحارث بن السباق.

ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي: السائب بن أبي حبيش بن المطلب بن أسد، والحويرث بن عباد بن عثمان بن أسد.

قال ابن إسحاق: وسالم بن شماخ حليف لهم.

ومن بني مخزوم بن يقظة بن مرة: خالد بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وصيفي ابن أبي رفاعة بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وأبو المنذر بن أبي رفاعة بن عائذ، وأمية بن أبي حذيفة بن المغيرة، وأبو عطاء عبد الله بن أبي السائب بن عائذ، والمطلب بن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم، وخالد بن الأعلم حليف لهم، وهو- فيما يذكر- كان أول من ولى فارًّا منهزما، وهو الذى يقول: [من الطويل]

لَسْنَا عَلَى الأَدْبارِ تَدْمَى كُلُومُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا يَقْطُرُ الدَّمُ

قال ابن هشام ويروى: ولسنا على الأعقاب. وخالد بن الأعلم: من خزاعة، ويقال: عقيلى.

قال ابن إسحاق: ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب: أبو وداعة بن صبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم، كان أول أسير افتدى من أسارى بدر، افتداه ابنه المطلب بن أبي وداعة. وفروة بن قيس بن عدى بن حذافة بن سعد بن سهم، وحنظلة بن قبيصة بن حذافة، والحجاج بن الحارث بن قيس بن عدى بن سعيد.

ومن بني جمح بن عمرو بن هصيص: عبد الله بن أبي خلف بن وهب بن حذافة ابن جمح، وأبو عزة عمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب بن حذافة بن جمح، والفاكه مولى أمية بن خلف، وهو يزعم أنه من بني الشماخ بن محارب بن فهر،

ووهب بن عمير بن وهب، وربيعة بن دراج بن العنبس بن أهبان بن وهب.

ومن بني عامر بن لؤى: سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسان [١] بن عامر أسره مالك بن الدخشم، أخو بني سالم بن عوف.

وعبد بن زمعة بن قيس بن عبد شمس.

ومن بني الحارث بن فهر: الطفيل بن أبي قنيع، وعتبة بن عمرو بن جحدم.

فجميع من حفظ لنا من الأسارى بـ«بدر» ثلاثة وأربعون رجلا.

قال ابن هشام: وبقى [٢] من جملة العدد رجلٌ لم أذكر اسمه، وممن لم يذكر ابن إسحاق من الأسرى:

من بني هاشم بن عبد مناف: عتبة حليف لهم من بني فهر، ومن بني المطلب بن عبد مناف: عقيل بن عمرو، حليف لهم، وأخوه تميم بن عمرو وابنه.

ومن بني عبد شمس بن عبد مناف: خالد بن أسيد بن أبي العيص، وأبو العريض يسار مولى العاص بن أمية.

ومن بني نوفل بن عبد مناف: نبهان مولى لهم.

ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصى: عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث.

ومن بني عبد الدار: عقيل حليف لهم من اليمن.

ومن بني تيم بن مرة: مسافع بن عياض بن صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم، وجابر بن الزبير حليف لهم.

ومن بني مخزوم: قيس بن السائب.

ومن بني جمح بن عمرو: عمرو بن أبي بن خلف، وأبو رهم بن عبد الله، حليف لهم؛ وحليف لهم آخر ذهب عنى اسمه، ومولیان لأمية بن خلف، أحدهما: نسطاس، وأبو رافع غلام أمية بن خلف.

ومن بني سهم بن عمرو: أسلم [٣] مولى نبيه بن الحجاج.

ومن بني عامر بن لؤى حبيب بن جابر، والسائب بن مالك.

---

(١) في السيرة: حسل.
(٢) في السيرة: وقع.
(٣) في ط: أسمر. والمثبت من السيرة.

قال ابن إسحاق: ومن بني الحارث بن فهر: شافع وشفيع حليفان لهم من اليمن[١].

قلت: العجب من ابن هشام أنه لم يذكر العباس بن عبد المطلب في جملة الأسرى، وقد ذكره غيره ويدل له الحديث الشريف: «إنى لم أبت من أنين العباس فاحللوا من وثاقه» أو كما قال ﷺ![٢].

وكان مما قيل في «بدر» من الشعر، وترادّ به القوم بينهم لما كان فيه، قول حمزة ابن عبد المطلب- يرحمه الله- قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها ونقيضتها: [من الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَمْرًا كَانَ مِنْ عَجَبِ الدَّهْرِ ... وَلِلْحَيْنِ أَسْبَابٌ مُبَيَّنَةُ الْأَمْرِ
وَمَا ذَاكَ إِلاَّ أَنَّ قَوْمًا أَفَادَهُمْ ... فَخَانُوا تَوَاصَوْا بِالْعُقُوقِ وَبِالْكُفْرِ[٣]
عَشِيَّةَ رَاحُوا نَحْوَ بَدْرٍ بِجَمْعِهِمْ ... فَكَانُوا رُهُونًا لِلرَّكِيَّةِ مِنْ بَدْرِ
وَكُنَّا طَلَبْنَا الْعِيرَ لَمْ نَبْغِ غَيْرَهَا ... فَسَارُوا إِلَيْنَا فالتقينا عَلَى قَدْرِ
فَلَمَّا الْتَقَيْنَا لَمْ تَكُنْ مَثْنَوِيَّةٌ ... لَنَا غَيْرَ طَعْنٍ بِالمثقَّفَةِ السُّمْرِ
وَضَرْبٍ بِبِيضٍ يَخْتَلِي الْهَامَ حَدُّهَا ... مُشَهَّرَةِ الْأَلْوَانِ بَيِّنَةِ الْأَثْرِ
وَنَحْنُ تَرَكْنَا عُتْبَةَ الْغَيِّ ثَاوِيًا ... وَشَيْبَةَ فِي قَتْلَى تَجَرْجَمَ فِي الْجَفْرِ[٤]
وَعَمْرٌو ثَوَى فِيمَنْ ثَوَى مِن حُمَاتِهِمْ ... فَشُقَّتْ جُيُوبُ النَّائِحَاتِ عَلَى عَمْرِو
جُيُوبُ نِسَاءٍ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ ... كِرَامٍ تَفَرَّعْنَ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرِ
أُولئِكَ قَوْمٌ قُتِّلُوا فِي ضَلاَلِهِمْ ... وَخَلَّوْا لِوَاءً غَيْرَ مُحْتَضَرِ النَّصْرِ
لِوَاءَ ضَلاَلٍ قَادَ إِبْلِيسُ أَهْلَهُ ... فَخَاسَ بِهِمْ إِنَّ الْخَبِيثَ إِلَى غَدرِ
وَقَالَ لَهُمْ إِذْ عَايَنَ الأَمْرَ وَاضِحًا: ... بَرِئْتُ إِلَيْكُمْ مَا بِيَ الْيَوْمَ مِنْ صَبْرِ
فَإِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ وَإِنَّنِي ... أَخَافُ عِقَابَ الله، وَالله ذُو قَسْرِ

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٦٤،٣٦٧)، المغازي للواقدي (١/ ١٣٨-١٤٤)، أنساب الأشراف (١/ ٣٠١-٣٠٤)، عيون الأثر (١/ ٢٨٦-٢٨٧)، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٧٧-٧٨)، تاريخ الإسلام (١١٤، ١٢٢-المغازي).

(٢) تقدم تخريجه في فضائل العباس.

(٣) في البداية والنهاية:

... ... فخافوا تواص ...

(٤) تجرجم: سقط، والجفر: البئر الواسعة. الوسيط (جرجم)، (جفر) وفى ط: تجرجر. والمثبت من السيرة.

فَقَدَّمَهُمْ لِلْحَيْنِ حَتَّى تَوَرَّطُوا   وَكَانَ بِمَا لَمْ يَخْبُرِ الْقَوْمُ ذَا خُبْرِ
فَكَانُوا غَدَاةَ الْبِئْرِ أَلْفًا وَجَمْعُنَا   ثَلاثَ مِئِينِ كالمُسَدَّمَةِ الزُّهْرِ
وَفِينَا جُنُودُ اللهِ حِينَ يُمِدُّنَا   بِهِمْ فِي مَقَامٍ ثَمَّ مُسْتَوْضِحِ الذِّكْرِ
فَشَدَّ بِهِمْ جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا   لَدَى مَأْزِقٍ فِيهِ مَنَايَاهُمُ تَجْرِي(١)

فأجابه الحارث بن هشام بن المغيرة، فقال [من الطويل]:

أَلاَ يَالَقَوْمِي لِلصَّبَابَةِ وَالْهَجْرِ   وَلِلْحُزْنِ مِنِّي وَالْحَرَارَةِ فِي الصَّدْرِ
وَلِلدَّمْعِ مِنْ عَيْنَيَّ جودًا كَأَنَّهُ   فَرِيدٌ هَوى مِنْ سِلْك نَاظِمِهِ يَجْرِي
عَلَى الْبَطَلِ الْحُلْوِ الشَّمَائِلِ إِذْ ثَوَى   رَهِينَ مقَام لِلرَّكِيَّةِ مِنْ بَدْرِ
فَلاَ تَبْعَدَنْ يَا عَمْرُو مِنْ ذِي قَرَابَةٍ   وَمِنْ ذِي نِدَامٍ كَانَ ذَا خُلُقٍ غَمْرِ
فَإِنْ يَكُ قَوْمٌ صَادَفُوا مِنْكَ دَوْلَةً   فَلاَ بُدَّ لِلأَيَّامِ مِنْ دول الدَّهْرِ
فَقَدْ كُنْتَ فِي صَرْفِ الزَّمَانِ الَّذِي مَضَى   تُرِيهِمْ هَوَانًا مِنْكَ ذَا سُبُلٍ وَعْرِ
فَإِنْ لاَ أَمُتْ يَا عَمْرُو أَتْرُكْكَ ثَائِرًا   وَلا أُبْقِ بُقْيا فِي إِخَاءٍ وَلاَ صِهْرِ
وأَقْطَعُ ظَهْرًا مِنْ رِجَالٍ بِمَعْشَرٍ   كِرَامٍ عَلَيْهِمْ مِثْلَ مَا قَطَعُوا ظَهْرِي
أَغَرَّهُمُ مَا جَمَّعُوا مِنْ وَشِيظَةٍ   وَنَحْنُ الصَّمِيمُ فِي الْقَبَائِلِ مِنْ فِهْرِ؟!
فَيَالَ لُؤَيٍّ ذَبِّبُوا عَنْ حَرِيمِكُمْ   وَآلِهَةٍ لاَ تَتْرُكُوهَا لِذِي الْفَخْرِ
تَوَارَثَهَا آبَاؤُكُمْ وَوَرِثْتُمُ   أَوَاسِيَّهَا والْبَيْتَ ذَا السَّقْفِ وَالسِّتْرِ
فَمَا لحليم قَدْ أَرَادَ هَلاَكَكُمْ-   فَلاَ تَعْذِرُوهُ آلَ غَالِبَ- مِنْ عُذْرِ
وَجِدُّوا لِمَنْ عَادَيْتُمُ وَتَوَازَرُوا   وَكُونُوا جَمِيعًا فِي التَّأَسِّي وَفِي الصَّبْرِ
لَعَلَّكُمُ أَنْ تَثْأَرُوا بِأَخِيكُمُ   وَلاَ شَيْءٍ إِنْ لَمْ تَثْأَرُوا بِذَوِي عَمْرِو
بِمُطَّرِدَاتٍ فِي الأَكُفِّ كَأَنَّهَا   وَمِيضٌ تُطِيرُ الْهَامَ بَيِّنَة الأَثْرِ
كَأَنَّ مَدبَّ الذَّرِّ فَوْقَ مُتُونِهَا   إِذَا جُرِّدَتْ يَوْمًا لِأَعْدَائِهَا الْخُزْرِ(٢)

قال ابن هشام: أبدلنا في هذه القصيدة كلمتين مِمَّا رَوَى ابن إسحاق، وهما «الفَخْر» فى آخر البيت [العاشر]، و«فَمَا لِحَلِيم» في أول البيت [الثانى عشر]؛ لأنه نال فيهما من النبي ﷺ.

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٦٨-٣٧٠)، والبداية والنهاية (٣/ ٤٠٣-٤٠٤)، وسبل الهدى والرشاد (٤/ ١٢٥).
(٢) ينظر: السيرة النبوية (٣/ ٣٧٠-٣٧٢)، البداية والنهاية (٣/ ٤٠٤).

قال ابن هشام: ولم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها ولا نقيضتها، وإنما كتبناها؛ لأنه يقال: إن عمرو بن عبد الله بن جدعان قتل يوم «بدر»، ولم يذكره ابن إسحاق فى القتلى، وذكره في هذا الشعر [١].

قال ابن إسحاق: وقال على بن أبي طالب: [من الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَبْلَى رَسُولَهُ ... بَلَاءَ عَزِيزٍ ذِي اقْتِدَارٍ وذِي فَضْلِ؟!
بِمَا أَنْزَلَ الْكُفَّارَ دَارَ مَذَلَّةٍ ... فَلاقَوْا هَوَانًا مِنْ إِسَارٍ وَمِنْ قَتْلِ
فَأَمْسَى رَسُولُ اللهِ قَدْ عَزَّ نَصْرُهُ ... وَكَانَ رَسُولُ اللهِ أُرْسِلَ بِالْعَدْلِ
فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ مِنَ اللهِ مُنْزَلٍ ... مُبَيَّنَةٍ آيَاتُهُ لِذَوِي الْعَقْلِ
فَآمَنَ أَقْوَامٌ بِذَاكَ وَأَيْقَنُوا ... فَأَمْسَوْا بِحَمْدِ اللهِ مُجْتَمِعِي الشَّمْلِ
وَأَنْكَرَ أَقْوَامٌ فَزَاغَتْ قُلُوبُهُمْ ... فَزَادَهُمْ ذُو الْعَرْشِ خَبْلًا عَلَى خَبْلِ
وَأَمْكَنَ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ رَسُولَهُ ... وَقَوْمًا غِضَابًا فِعْلُهُمْ أَحْسَنُ الْفِعْلِ
بِأَيْدِيهِمْ بِيضٌ خِفَافٌ عَصَوْا بِهَا ... وقَدْ حَادَثُوهَا بِالجلَاءِ وَبِالصَّقْلِ
فَكَمْ تَرَكُوا مِنْ نَاشِئٍ ذِي حَمِيَّةٍ ... صَرِيعًا وَمِنْ ذِي نَجْدَةٍ مِنْهُمْ كَهْلِ
تَبِيتُ عُيُونُ النَّائِحَاتِ عَلَيْهِمُ ... تَجُودُ بِإِسْبَالِ الرَّشَاشِ وَبِالْوَبْلِ
نَوَائِح تَنْعَى عُتْبَةَ الْغَيِّ وَابْنَهُ ... وَشَيْبَةَ تَنْعَاهُ وَتَنْعَى أَبَا جَهْلِ
وَذَا الرِّجْلِ تَنْعَى وَابْنَ جُدْعَانَ فِيهِمُ ... مُسَلَّبَة حَرَّى مُبَيَّنَةَ الثُّكْلِ
ثَوَى مِنْهُمُ فِي بِئْرِ بَدْرٍ عِصَابَةٌ ... ذَوُو نَجَدَاتٍ فِي الْحُرُوبِ وَفِي الْمَحْلِ[٢]
دَعَا الْغَيُّ مِنْهُمْ مَنْ دَعَا فَأَجَابَهُ ... وَلِلْغَيِّ أَسْبَابٌ مُرَمَّقَةٌ[٣] الْوَصْلِ
فَأَضْحَوْا لَدَى دَارِ الْجَحِيمِ بمعزِلٍ ... عَنِ الشغْبِ وَالعُدْوَانِ في أَشْغَلِ الشُّغْلِ[٤]

فأجابه الحارث بن هشام بن المغيرة، فقال [من الطويل]:

عَجِبْتُ لِأَقْوَامٍ تَغَنَّى سَفِيهُهُمْ ... بِأَمْرِ سَفَاهٍ ذِى اعْتِرَاضٍ وَذِي بُطْلِ
تَغَنَّى بِقَتْلَى يَوْمِ بَدْرٍ تَتَابَعُوا ... كِرَام الْمَسَاعِي مِنْ غُلَامٍ وَمِنْ كَهْلِ

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٧٣).
(٢) المَحْلُ: الشدة. الوسيط (محل).
(٣) مُرَمَّقَة: ضعيفة. قال في الوسيط: ارمَقَّ: ضعف وفسد.
(٤) في البداية والنهاية: (في أسفل السفل).

مَصَالِيتُ بِيضٌ مِنْ ذُؤَابَةِ غَالِبٍ مَطَاعِينُ فِي الْهَيْجَا مَطَاعِيمُ فِي الْمَحْلِ
أُصِيبُوا كِرَامًا لَمْ يَبِيعُوا عَشِيرَةً بِقَوْمٍ سِوَاهُمْ نَازِحِي الدَّارِ وَالأَصْلِ
كَمَا أَصْبَحَتْ غَسَّانُ فِيكُمْ بِطَانَةً لَكُمْ بَدَلاً مِنَّا فَيَا لَكَ مِنْ فِعْلِ
عُقُوقًا وَإِثْمًا بَيِّنًا وَقَطِيعَةً يَرَى جَوْرَكُمْ فِيهَا ذَوُو الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ
فَإِنْ يَكُ قَوْمٌ قَدْ مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ وَخَيْرُ الْمَنَايَا مَا يَكُونُ مِنَ الْقَتْلِ
فَلاَ تَفْرَحُوا أَنْ تَقْتُلُوهُمْ فَقَتْلُهُمْ لَكُمْ كَائِنٌ خَبْلاً مُقِيمًا عَلَى خَبْلِ
فَإِنَّكُمْ لَنْ تَبْرَحُوا بَعْدَ قَتْلِهِمْ شَتِيتًا هَوَاكُمْ غَيْرَ مُجْتَمِعِي الشَّمْلِ
بِفَقْدِ ابْنِ جُدْعَانَ الْحَمِيدِ فَعَالُهُ وَعُتْبَةَ وَالْمَدْعُوِّ فِيكُمْ أَبَا جَهْلِ
وَشَيْبَةُ فِيهِمْ وَالْوَلِيدُ وفِيهِمُ أُمَيَّةُ مَأْوَى الْمُقْتِرِينَ وَذُو الرَّجْلِ
أُولَئِكَ فَابْكِ ثُمَّ لاَ تَبْكِ غَيْرَهُمْ نَوَائِحُ تَدْعُو بِالرَّزِيَّةِ وَالثُّكْلِ
وَقُولُوا لِأَهْلِ الْمَكَّتَيْنِ تَحَاشَدُوا وَسِيرُوا إِلَى آطَامِ يَثْرِبَ ذِي النَّخْلِ
جَمِيعًا وَحَامُوا آلَ كَعْبٍ وَذَبِّبُوا بِخَالِصَةِ الأَلْوَانِ مُحْدَثَةِ الصَّقْلِ
وَإِلاَّ فَبِيتُوا خَائِفِينَ وَأَصْبِحُوا أَذَلَّ لِوَطْءِ الْوَاطِئِينَ مِنَ النَّعْلِ
عَلَى أَنَّنِي، وَاللاتِ، يَا قَوْمِ فَاعلَمُوا بِكُمْ وَاثِقٌ أَلاَّ تقِيمُوا عَلَى تَبْلِ
سِوَى جَمْعِكُمْ لِلسَّابِغَاتِ وَلِلْقَنَا وَلِلْبِيضِ والْبِيضِ الْقَوَاطِعِ وَالنَّبْلِ(١)

وقال ضرار بن الخطاب بن مرداس، أخو بني محارب بن فهر: [من الطويل]

عَجِبْتُ لِفَخْرِ الأَوْسِ، وَالْحَيْنُ دَائِرٌ عَلَيْهِمْ غَدًا، وَالدَّهْرُ فِيهِ بَصَائِرُ
وفَخْرِ بَنِي النَّجَّارِ أَنْ كَانَ مَعْشَرٌ أُصِيبُوا بِبَدْرٍ كُلُّهُمْ ثَمَّ صَابِرُ
فَإِنْ تَكُ قَتْلَى غُودِرَتْ مِنْ رِجَالِنَا فَإِنَّا رِجَالاً بَعْدَهُمْ سَنُغَادِرُ
وَتَرْدِي بِنَا الْجُرْدُ الْعَنَاجِيجُ(٢) وَسْطَكُمْ بَنِي الأَوْسِ حَتَّى يَشْفِيَ النَّفْسَ ثَائِرُ
وَوَسْطَ بَنِي النَّجَّارِ سَوْفَ نَكُرُّهَا لَهَا بِالْقَنَا وَالدَّارِعِينَ زَوَافِرُ
فَنَتْرُكُ صَرْعَى تَعْصِبُ الطيرُ حَوْلَهُمْ وَلَيْسَ لَهُمْ إِلاَّ الأَمَانِيَّ نَاصِرُ

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٧٣-٣٧٦)، البداية والنهاية (٣/ ٤٠٤)، سبل الهدى والرشاد (٤/ ١٢٥-١٢٦).

(٢) تَرْدِي: ردي الفرس رديًا ورديانًا: رجمت الأرض بحوافرها أو هو بين العَدو والمشي، ترتيب القاموس (ردي). الجرد: فرس أجرد قصير الشعر رقيقه، ترتيب القاموس (جرد). العناجيج: جمع: العُنْجُوج؛ وهو الرائع من الخيل، وقيل: الجَوَادُ. اللسان (عنج).

وَتَبْكِيهِمُ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ نِسْوَةٌ لَهُنَّ بِهَا لَيْلٌ عَنِ النَّوْمِ سَاهِرُ
وَذَلِكَ أَنَّا لاَ تَزَالُ سُيُوفُنَا بِهِنَّ دَمٌ مِمَّا يُحَارِبْنَ مَائِرُ(١)
فَإِنْ تَظْفَرُوا فِي يَوْم بَدْرٍ فَإِنَّمَا بِأَحْمَدَ أَمْسَى جَدُّكُمْ وَهْوَ ظَاهِرُ
وَبالنَّفَرِ الأَخْيَارِ هُمْ أَوْلِيَاؤُهُ يُحَامُونَ فِي اللأْوَاءِ وَالمَوْتُ حَاضِرُ
يُعَدُّ أَبُو بَكْرٍ وَحَمْزَةُ فِيهِمُ ويُدْعَى عَلِيٌّ وَسْطَ من أَنتَ ذَاكِرُ(٢)
أُولئِكَ لاَ مَنْ نَتَّجَتْ فِي دِيَارِهَا بَنُو الأَوْسِ وَالنَّجَّارِ حِينَ تُفَاخِرُ
وَلَكِنْ أَبُوهُمْ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ إِذَا عُدَّتِ الأَنْسَابُ كَعْبٌ وعَامِرُ
هُمُ الطَّاعِنُونَ الْخَيْلَ فِي كُلِّ مَعْرَكٍ غَدَاةَ الْهِيَاجِ الأَطْيَبُونَ الأَكَابِرُ(٣)

فأجابه كعب بن مالك، أخو بني سلمة؛ فقال: [من الطويل]

عَجِبْتُ لِأَمْرِ الله، وَالله قَادِرُ عَلَى مَا أَرَادَ لَيْسَ لله قاهِرُ
قَضَى يَوْمَ بَدْرٍ أَنْ نُلاَقِيَ مَعْشَرًا بَغَوْا، وَسَبِيلُ الْبَغْيِ بِالنَّاسِ جَائِرُ
وَقَدْ حَشَدُوا وَاسْتَنْفَرُوا مَنْ يَلِيهِمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى جَمْعُهُمْ مُتَكَاثِرُ
وَسَارَتْ إِلَيْنَا لاَ تُحَاوِلُ غَيْرَنَا بِأَجْمَعِهَا كَعْبٌ جَمِيعًا وَعَامِرُ
وَفِينَا رَسُولُ الله، وَالأَوْسُ حَوْلَهُ لَهُ مَعْقِلٌ مِنْهُمْ عَزِيزٌ وَنَاصِرُ
وَجَمْعُ بَنِي النَّجَّارِ تَحْتَ لِوَائِهِ يَمِيسُونَ فِي الْمَاذِيِّ(٤) وَالنَّقْعُ ثَائِرُ
فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ، وَكُلٌّ مُجَاهِدٌ لِأَصْحَابِهِ مُسْتَبْسِلُ النَّفْسِ صَابِرُ
شَهِدْنَا بِأَنَّ الله لاَ رَبَّ غَيْرُهُ وأَنَّ رَسُولَ الله بِالْحَقِّ ظَاهِرُ
وَقَدْ عُرِّيَتْ بِيضٌ خِفَافٌ كَأَنَّهَا مَقَابِيسُ يُزْهِيهَا لِعَيْنَيْكَ شَاهِرُ
بِهِنَّ أَبَدْنَا جَمْعَهُمْ فَتَبَدَّدوا وَكَانَ يُلاَقِي الْحَينَ مَنْ هُوَ فَاجِرُ
فَكَبَّ أَبُو جَهْلٍ صَرِيعًا لِوَجْهِهِ وَعُتْبَةُ قَدْ غَادَرْنَهُ وَهوَ عَاثِرُ
وشَيْبَةَ وَالتَّيْمِيَّ غَادَرْنَ فِي الْوَغَى وَمَا مِنْهُمُ إلاَّ بِذِي الْعَرْشِ كافِرُ

---

(١) مائر: سائل؛ مار الدمع والدم: سال. ينظر: اللسان (مور).
(٢) ويروى بعده في ابن هشام:
ويُدْعى أبو حفص وعثمان منهم وسَعدٌ إذا ما كان في الحرب حاضر
(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٧٧ - ٣٧٨).
(٤) في السيرة وفي البداية والنهاية: يمشون. والماذي: الدروع البيض اللينة السهلة، وقد تطلق على السلاح كله.

فَأَمْسَوْا وَقُودَ النَّارِ فِي مُسْتَقَرِّهَا ... وَكُلُّ كَفُورٍ فِي جَهَنَّمَ صَائِرُ
تَلَظَّى عَلَيْهِمْ وَهِيَ قَدْ شُبَّ حَمْيُهَا ... بِزُبْرِ الْحَدِيدِ وَالْحِجَارَةِ سَاجِرُ
وَكَانَ رَسُولُ اللهِ قَدْ قَالَ: أَقْبِلُوا ... فَوَلَّوْا، وَقَالُوا: إِنَّمَا أَنْتَ سَاحِرُ
لِأَمْرٍ أَرَادَ اللهُ أَن يَهْلِكُوا بِهِ ... وَلَيْسَ لِأَمْرٍ حَمَّهُ اللهُ زَاجِرُ(١)

وقال عبد الله بن الزبعرى السهمي؛ يبكي قتلى بدر- قال ابن هشام: وتروى للأعشى بن زرارة بن النباش، أحد بني أسيد بن عمرو بن تميم، حليف بني نوفل بن عبد مناف؛ قال ابن إسحاق: حليف بني عبد الدار-: [من الكامل]

مَاذَا عَلَى بَدْرٍ وَمَاذَا حَوْلَهُ ... مِنْ فِتْيَةٍ بِيضِ الْوُجُوهِ كِرَامِ
تَرَكُوا نُبَيْهًا خَلْفَهُمْ ومُنَبِّهًا ... وَابْنَيْ رَبِيعَةَ خَيْرَ خَصْمٍ فِئَامِ
والْحَارِثَ الْفَيَّاضَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ ... كَالْبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ الْإِظْلَامِ
وَالْعَاصِيَ بْنَ مُنَبِّهٍ ذَا مِرَّةٍ ... رُمْحًا تَمِيمًا غَيرَ ذِي أَوْصَامِ(٢)
تَنْمِي بِهِ أَعْرَاقُهُ وَجُدُودُهُ ... وَمَآثِرُ الْأَخْوَالِ وَالْأَعْمَامِ
وَإِذَا بَكَى بَاكٍ فَأَعْوَلَ شَجْوَهُ ... فَعَلَى الرَّئِيسِ الْمَاجِدِ ابْنِ هِشَامِ
حَيَّا الْإِلَهُ أَبَا الْوَلِيدِ وَرَهْطَهُ ... رَبُّ الْأَنَامِ وَخَصَّهُ بِسَلَامِ(٣)

فأجابه حسان بن ثابت الأنصاري فقال: [من الكامل]

إِبْكِ بَكَتْ عَيْنَاكَ ثُمَّ تَبَادَرَتْ ... بِدَمٍ يَعُلُّ غُرُوبَهَا سَجَّامِ
مَاذَا بَكَيْتَ بِهِ الَّذِينَ تَتَابَعُوا؟! ... هَلَّا ذَكَرْتَ مَكَارِمَ الْأَقْوَامِ!
وَذَكَرْتَ مِنَّا مَاجِدًا ذَا هِمَّةٍ ... سَمْحَ الْخَلَائِقِ صادق الْإِقْدَامِ
أَعْنِي النَّبِيَّ أَخَا الْمَكَارِمِ وَالنَّدَى ... وَأَبَرَّ مَنْ يُولِي عَلَى الْأَقْسَامِ
فَلِمِثْلِهِ وَلِمِثْلِ ما يَدْعُو لَهُ ... كَانَ الممدَّحَ ثُمَّ غَيْرَ كَهَامِ

وقال حسان بن ثابت - أيضًا -: [من الكامل]

تَبَلَتْ فُؤَادَكَ فِي الْمَنَامِ خَرِيدَةٌ ... تَشْفِي الضَّجِيعَ بِبَارِدٍ بَسَّامِ

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٧٨-٣٨٠)، البداية والنهاية (٣/ ٤٠٤-٤٠٥)، سبل الهدى والرشاد (٤/ ١٢٦).
(٢) ذا مرة: صاحب قوة. والتميم: الشديد. والأوصام: العيوب.
(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٨٠-٣٨١).

كَالْمِسْكِ تَخْلِطُهُ بِمَاءِ سَحَابَةٍ أَوْ عَاتِقٍ كَدَمِ الذَّبِيحِ مُدَامِ
نُفُجُ الْحَقِيبَةِ بَوصُهَا مُتَنَضِّدٌ بَلْهَاءُ غَيْرُ وَشِيكَةِ الْأَقْسَامِ
بُنِيَتْ عَلَى قَطَنٍ أَجَمَّ كَأَنَّهُ فُضُلًا إِذَا قَعَدَتْ مَدَاكُ رُخَامِ
وَتَكَادُ تَكْسَلُ أَنْ تَجِيءَ فِرَاشَهَا فِي جِسْمِ خَرْعَبَةٍ وَحُسْنِ قَوَامِ
أَمَّا النَّهَارَ فَلَا أُفَتِّرُ ذِكْرَهَا وَاللَّيْلِ تُوزِعُنِي بِهَا أَحْلَامِي
أَقْسَمْتُ أَنْسَاهَا وَأَتْرُكُ ذِكْرَهَا حَتَّى تُغَيَّبَ فِي الضَّرِيحِ عِظَامِي
يَا مَنْ لِعَاذِلَةٍ تَلُومُ سَفَاهَةً وَلَقَدْ عَصَيْتُ عَلَى الْهَوَى لُوَّامِي
بَكَرَتْ عَلَى بِسُحْرَةٍ بَعْدَ الْكَرَى وَتَقَارُبٍ مِنْ حَادِثِ الْأَيَّامِ
زَعَمَتْ بِأَنَّ الْمَرْءَ يُكْرِبُ عُمْرَهُ عَدَمٌ لِمُعْتَكِرٍ مِنَ الْأَصْرَامِ
إِنْ كُنْتِ كَاذِبَةَ الَّذِي حَدَّثْتِنِي فَنَجَوْتِ مَنْجَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامِ
تَرَكَ الْأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمِرَّةٍ وَلِجَامِ
يَذَرُ الْعَنَاجِيجَ الْجِيَادَ بِقَفْرَةٍ مَرَّ الدَّمُوكِ بِمُحْصَدٍ وَرِجَامِ
مَلَأَتْ بِهِ الْفَرْجَيْنِ فَارْمَدَّتْ بِهِ وَثَوَى أَحِبَّتُهُ بِشَرِّ مُقَامِ
وبَنُو أَبِيهِ وَرَهْطُهُ فِي مَعْرَكٍ نَصَرَ الْإِلَهُ بِهِ ذَوِي الْإِسْلَامِ
طَحَنَتْهُمُ، والله يُنْفِذُ أَمْرَهُ حَرْبٌ يُشَبُّ سَعِيرُهَا بِضِرَامِ
لَوْلَا الْإِلَهُ وَجَرْيُهَا لَتَرَكْنَهُ جَزَرَ السِّبَاعِ وَدُسْنَهُ بِحَوَامِ
مِنْ بَيْنِ مَأْسُورٍ يُشَدُّ وَثَاقُهُ صَقْرٍ إِذَا لَاقَى الْأَسِنَّةَ حَامِي
وَمُجَدَّلٍ لَا يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَةٍ حَتَّى تَزُولَ شَوَامِخُ الْأَعْلَامِ
بِالْعَارِ وَالذُّلِّ الْمُبَيَّنِ إِذْ رَأَى بِيضَ السُّيُوفِ تَسُوقُ كُلَّ هُمَامِ
بِيَدَيْ أَغَرَّ إِذَا انْتَمَى لَمْ يُخْزِهِ نَسَبُ الْقِصَارِ سَمَيْدَعٍ مِقْدَامِ
بِيضٌ إِذَا لَاقَتْ حَدِيدًا صَمَّمَتْ كَالْبَرْقِ تَحْتَ ظِلَامِ كُلِّ غَمَامِ(١)

فأجابه الحارث بن هشام- فيما ذكر ابن هشام- فقال: [من الكامل]

الله أَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى حَبَوْا مُهْرِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٨١-٣٨٥)، البداية والنهاية (٣/ ٤٠٧-٤٠٨)، سبل الهدى والرشاد (٤/ ١٢٦-١٢٧).

وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أُقَاتِلْ وَاحِدًا أُقْتَلْ وَلاَ يُنْكِي عَدُوِّي مَشْهَدِي
فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَالْأَحِبَّةُ فِيهِمُ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ

قال ابن إسحاق: قالها الحارث؛ يعتذر من فراره يوم بدر وتركهِ أخاه أبا جهل بن هشام[1].

قلت: رأيت في كتاب «ألف با» للبلوي نقلاً عن الأصمعي وجماعات: أحسن ما قيل في الاعتذار عن الفرار: قول الحارث بن هشام هذه الثلاثة الأبيات. وخالفه من أئمة اللغة والأدب خلف الأحمر ومن تبعه، فقال: أحسن ما قيل في الاعتذار عن ذلك: قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي، زوج أم هانئ بنت أبي طالب؛ حيث يقول [من الطويل]:

لَعَمْرُكَ مَا وَلَّيْتُ ظَهْرِي مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ جُبْنًا وَلاَ خِيفَةَ الْقَتْلِ
وَلَكِنَّنِي قَلَّبْتُ طَرْفِي فَلَمْ أَجِدْ لِسَيْفِي مَصَالاً إِنْ ضَرَبْتُ وَلاَ نَبْلِي
وَقَفْتُ فَلَمَّا خِفْتُ ضَيْعَةَ مَوْقِفِي فَرَرْتُ لِعَوْدٍ كَالهِزَبْرِ إِلَى الشِّبْلِ

ولعمري! كلتا القطعتين غايتان في المعنى المراد؛ ما لبليغ إلى أفضل منهما منتجع ولا مراد؛ إلا أن الذي يحدوني إليه فكري وذوقي؛ ويجذبني بِردني وطوقي: هو ما ذهب إليه الأصمعي؛ فهل أنت أيها الناظر معي؛ فإن معي على ذلك شهودًا معدله؛ تثبت لعبد الملك الفخر له[2].

قال ابن إسحاق: وقال حسان بن ثابت- أيضا-: [من الوافر]

لَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَدَاةَ الْأَسْرِ وَالْقَتْلِ الشَّدِيدِ
بِأَنَّا حِينَ تَشْتَجِرُ الْعَوَالِي حُمَاةُ الْحَرْبِ يَوْمَ أَبِي الْوَلِيدِ
قَتَلْنَا ابْنَيْ رَبِيعَةَ يَوْمَ سَارَا إِلَيْنَا فِي مُضَاعَفَةِ الْحَدِيدِ
وَفَرَّ بِهَا حَكِيمٌ يَوْمَ جَالَتْ بَنُو النَّجَّارِ تَخْطِرُ كَالأُسُودِ
وَوَلَّتْ عِنْدَ ذَاكَ جُمُوعُ فِهْرٍ وَأَسْلَمَهَا الْحُوَيْرِثُ مِنْ بَعِيدِ
لَقَدْ لاَقَيْتُمُ ذُلاًّ وَقَتْلاً جَهِيزًا نَافِذًا تَحْتَ الْوَرِيدِ
وَكُلُّ الْقَوْمِ قَدْ وَلَّوْا جَمِيعًا وَلَمْ يَلْوُوا عَلَى الْحَسَبِ التَّلِيدِ[3]

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٨٥)، وسبل الهدى والرشاد (٤/ ١٢٧).
(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (٤/ ١٢٧-١٢٨).
(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٨٥)، والبداية والنهاية (٣/ ٤٠٩).

وقال طالب بن أبي طالب؛ يمدح رسول الله ﷺ، ويبكي أصحاب القليب: [من الطويل]

أَلاَ إِنَّ عَيْنِي أَنْفَدَتْ دَمْعَهَا سَكْبَا ... تُبَكِّي عَلَى كَعْبٍ وَمَا إِنْ تَرَى كَعْبَا
أَلاَ إِنَّ كَعْبًا فِي الْحُرُوبِ تَخَاذَلُوا ... وَأَرْدَاهُمُ ذَا الدَّهْرُ وَاجْتَرَحُوا ذَنْبَا
وَعَامِرُ تَبْكِي لِلْمُلِمَّاتِ غُدْوَةً ... فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَى لَهُمَا قُرْبَا؟!
هُمَا أَخَوَايَ لَنْ يُعَدَّا لِغَيَّةٍ ... تُعَدُّ وَلَنْ يُسْتَامَ جَارُهُمَا غَصْبَا
فَيَا أَخَوَيْنَا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلاً ... فِدًى لَكُمَا لاَ تَبْعَثُوا بَيْنَنَا حَرْبَا
وَلاَ تُصْبِحُوا مِنْ بَعْدِ وُدٍّ وَأُلْفَةٍ ... أَحَادِيثَ فِيهَا كُلُّكُمْ يَشْتَكِي النَّكْبَا
أَلَمْ تَعْلَمُوا مَا كَانَ فِي حَرْبِ دَاحِسٍ ... وَجَيْشِ أَبِي يَكْسُومَ إِذْ مَلَئُوا الشِّعْبَا
فَلَوْلاَ دِفَاعُ الله لا شيء غَيْرُهُ ... لَأَصْبَحْتُمُ لاَ تَمْنَعُونَ لَكُمْ سِرْبَا
فَمَا إِنْ جَنَيْنَا فِي قُرَيْشٍ عَظِيمَةً ... سِوَى أَنْ حَمَيْنَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ التُّرْبَا
أَخَا ثِقَةٍ فِي النَّائِبَاتِ مُرَزَّأً ... كَرِيمًا نَثَاهُ لاَ بَخِيلاً وَلاَ ذَرْبَا
يُطِيفُ بِهِ الْعَافُونَ يَغْشَوْنَ بَابَهُ ... يَؤُمُّونَ نَهْرًا لاَ نَزُورًا وَلاَ صَرْبَا
فَوَالله لاَ تَنْفَكُّ نَفْسِي حَزِينَةً ... تَمَلْمَلُ حَتَّى تَصْدُقُوا الْخَزْرَجَ الضَّرْبَا(١)

وقال ضرار بن الخطاب الفهري؛ يرثي أبا جهل: [من الطويل]

أَلا مَنْ لِعَينٍ بَاتَتِ اللَّيْلَ لَمْ تَنَمْ ... تُرَاقِبُ نَجْمًا فِي سَوَادٍ مِنَ الظُّلَمْ
كَأَنَّ قَذًى فِيهَا وَلَيْسَ بِهَا قَذًى ... سِوَى عَبْرَةٍ مِنْ جَائِلِ الدَّمْعِ تَنْسَجِمْ
فَبَلِّغْ قُرَيشًا أَنَّ خَيْرَ نَدِيِّهَا ... وَأَكْرَمَ مَنْ يَمْشِي بِسَاقٍ عَلَى قَدَمْ
ثَوَى يَوْمَ بَدْرٍ رَهْنَ خَوصاءَ رَهْنُهَا ... كَرِيمُ المَسَاعِي غَيْرُ وَغْدٍ وَلاَ بَرَمْ
فَآلَيْتُ لاَ تَنْهَلُّ عَيْنِي بِعَبْرَةٍ ... عَلَى هَالِكٍ بَعْدَ الرَّئِيسِ أَبِى الحَكَمْ
عَلَى هَالِكٍ أَشْجَى لُؤَيَّ بْنَ غَالِبٍ ... أَتَتْهُ المَنَايَا يَوْمَ بَدْرٍ فَلَمْ يرِمْ
تَرَى كِسَرَ الخَطِّيِّ فِي نحر مُهْرِهِ ... لدَى بَائِنٍ مِنْ لحمِهِ بَيْنَهَا خِذَمْ
وَمَا كَانَ لَيْثٌ سَاكِنٌ بَطْنَ بيشَة ... لَدَى غَلَلٍ يَجْرِي بِبَطْحَاءَ في أَجَمْ
بِأَجْرَأَ مِنْهُ حِينَ تَخْتَلِفُ الْقَنَا ... وتُدْعَى نَزَالِ في الْقُمَاقِمَةِ البُهَمْ
فَلاَ تَجزَعُوا آلَ المغيرَةِ واصبِروا ... عَلَيْهِ، وَمَنْ يَجْزَعْ عَلَيْهِ فَلَمْ يُلَمْ

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٩٦-٣٩٧)، والبداية والنهاية (٣/ ٤١١).

وَجِدُّوا؛ فإِنَّ الْمَوْتَ مَكْرُمَةٌ لَكُمْ   وَمَا بَعْدَهُ فِي آخِرِ الْعَيْشِ مِنْ نَدَمْ
وَقَدْ قُلْتُ: إِنَّ الرِّيحَ طَيِّبَةٌ لَكُمْ   وَعِزَّ الْمقام غَيْرَ شَكٍّ لِذِي فَهَمْ[1]

قال ابن إسحاق: وقال أمية بن أبي الصلت؛ يرثى من أصيب من قريش يوم بدر:

[من مجزوء الكامل]

أَلاَّ بَكَيْتَ عَلَى الْكِرَا   مِ بَنِي الْكِرَام أُولِي المَمَادِحْ
كَبُكَا الحَمَامِ عَلَى فُرو   عِ الأَيْكِ في الْغُصنِ الجَوانِحْ
يَبْكِينَ حَرَّى مُسْتَكِيـ   ـنَاتٍ يَرُحْنَ مَعَ الرَّوَائِحْ
أَمْثَالُهُنَّ البَاكِيَا   تُ المُعْولاَتُ مِنَ النَّوَائِحْ
مَنْ يَبْكِهِمْ يَبْكِي عَلَى   حُزْنٍ وَيَصْدُقُ كُلُّ مَادِحْ
مَاذَا بِبَدْرٍ والْعَقَنْـ   ـقَلِ مِنْ مَرَازِبَةٍ جَحَاجِحْ
فَمَدَافِعِ البَرْقِين فَالْـ   ـحَنَّانِ مِنْ طَرَفِ الأَوَاشِحْ
شُمْطٍ و شُبَّانٍ بَهَا   لِيلٍ مَغَاوِيرٍ وَحَاوِحْ
أَلاَّ تَرَوْنَ لِمَا أَرَى   وَلَقَدْ أَبَانَ لِكُلِّ لاَمِحْ
أن قَدْ تَغَيَّرَ بَطْنُ مَكْ   كَةَ فَهْيَ مُوحِشَةُ الأَبَاطِحْ
مِنْ كُلِّ بِطْرِيقٍ لِبِطْـ   ـرِيقٍ نَقِيِّ اللَّوْنِ وَاضِحْ
دُعْمُوصِ أَبْوَابِ المُلُو   كِ وَجَائِبٍ لِلْخَرْقِ فَاتِحْ
مِنَ السَّرَاطِمَةِ الخلاَ   جِمَةِ المَلاَوِثَةِ المنَاجِحْ
القَائِلِينَ الفَاعِلِيـ   ـنَ الآمِرِينَ بِكُلِّ صَالِحْ
أَلْمُطْعِمِينَ الشَّحْمَ فَوْ   قَ الخُبْزِ شَحْمًا كالأَنَافِحْ
نُقُلِ الجِفَانِ مَعَ الجِفَا   نِ إِلى جِفَانٍ كالمَنَاضِحْ
لَيْسَتْ بِأَصْفَارٍ لِمَنْ   يَعْفُو وَلاَ رُحٍّ رَحَارِحْ[2]
لِلضَّيْفِ ثُمَّ الضَّيْفِ بَعْـ   ـدَ الضَّيْفِ والْبُسْطِ السَّلاَطِحْ[3]
وهُبِ المِئِينَ مِنَ المِئِيـ   ـنَ إِلَى المِئِينَ مِنَ اللَّوَاقِحْ

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٩٧-٣٩٩)
(٢) الأصفار: الآنية. ورح رحارح: أي واسعة من غير عمق.
(٣) السلاطح: الطوال العراض.

سَوقَ المُؤبَّلِ لِلمؤبِـ ... بَلِ صَادِرَاتٍ عَنْ بَلادِحْ(١)
لِكرامِهِمْ فَوقَ الكِرَا ... مِ مَزِيَّةٌ وَزْنَ الرَّوَاجِحْ
كَتَثَاقُلِ الأرْطَالِ بِالْـ ... قِسْطَاسِ في الأَيْدِي المَوَائِحْ(٢)
خَذَلَتْهُمُ فِئَةٌ وَهُمْ ... يَحْمُونَ عَوْرَاتِ الفَضَائِحْ
الضَّارِبِينَ التَّقْدُمِيـ ... يَةَ بِالمُهَنَّدَةِ الصَّفَائِحْ
وَلَقَدْ عَنَانِي صَوْتُهُمْ ... مِنْ بَيْنِ مُسْتَسْقٍ وَصَائِحْ
لِلَّهِ دَرُّ بَنِي عَلِـ ... ـيٍّ أَيِّمٍ مِنْهُمْ وَنَاكِحْ
إنْ لَمْ يُغِيرُوا غَارَةً ... شَعْوَاءَ تُجْحِرُ كُلَّ نَابِحْ
بِالمُقْرَبَاتِ المُبْعِدَا ... تِ الطَّامِحَاتِ مَعَ الطَّوَامِحْ
مُرْدًا عَلَى جُرْدٍ إِلَى ... أُسُدٍ مُكَالِبَةٍ كَوَالِحْ
وَيُلاقِ قِرْنٌ قِرْنَهُ ... مَشْيَ المُصَافِحِ لِلْمُصَافِحْ
بِزُهَاءِ أَلْفٍ ثُمَّ أَلْـ ... فٍ بَيْنَ ذِي بَدَنٍ وَرَامِحْ(٣)

وقال أمية بن أبي الصلت؛ يبكي زمعة بن الأسود، وقتلى بني أسدة: [من الخفيف]

عَينُ بَكِّي بِالمُسْبِلاتِ أَبَا الحَا ... رِثِ لاَ تَذْخَرِي عَلَى زَمْعَهْ
إِبْكِي عَقِيلَ بْنَ أَسْوَدٍ أَسَدَ البَأْ ... سِ لِيَوْمِ الهِيَاجِ وَالدَّفْعَهْ
فَعَلَى مِثْلِ هُلْكِهِم خَوَتِ الجَوْ ... زَاءُ لاَ خَانَةٌ وَلاَ خَدَعَهْ
وَهُمُ الأُسْرَةُ الوَسِيطَةُ مِنْ كَعْ ... بٍ وَفِيهِمْ كَذِرْوَةِ القَمَعَهْ
أَنْبَتُوا مِنْ مَعَاشِرٍ شَعَرَ الرَّأْ ... سِ وَهُمْ أَلْحَقُوهُمُ المَنَعَهْ
فَبَنُو عَمِّهِمْ إِذَا حَضَرُوا البَأْ ... س عَلَيْهِمْ أَكْبَادُهُمْ وَجِعَهْ
وَهُمُ المُطْعِمُونَ إِنْ قَحَطَ القَطْ ... رُ وَحَالَتْ فَلاَ تَرَى قَزَعَهْ(٤)

قال ابن إسحاق: وقال أبو أسامة معاوية بن زهير بن قيس بن الحارث بن سعد بن ضبيعة بن مازن بن عدي بن جشم بن معاوية، حليف بني مخزوم. قال ابن هشام: وكان مشركًا، وكان مر بهبيرة بن أبي رهم، وهم منهزمون يوم بدر وقد أعيي هبيرة،

(١) المؤبل: الإبل الكثيرة. وبلادح: اسم موضع.
(٢) الموائح: المتمايلة لثقل ما ترفعه.
(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤٠١-٤٠٥)، والبداية والنهاية (٣/ ٤١٣-٤١٤).
(٤) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤٠٦-٤٠٧).

فقام وألقى عنه درعه وحمله ومضى به، قال ابن هشام: وهذه أصح أشعار أهل بدر : [من الوافر]

وَلَمَّا أَنْ رَأَيْتُ القَومَ خفُّوا ... وَقَدْ شَالَتْ نَعَامَتُهُمْ لِنَفْرِ
وأَنْ تُرِكَتْ سَرَاةُ القَوْمِ صَرْعَى ... كَأَنَّ خيارهم أَذْبَاحُ عِتْرِ
وَكَانَتْ جمة وَافَتْ حمامًا ... وَلُقِّينَا المنَايَا يَوْمَ بَدْرِ
نَصُدُّ عَنِ الطَّرِيقِ وأَدْرَكُونَا ... كَأَنَّ زُهَاءَهُمْ غطيَانُ بَحْرِ
وَقَالَ القَائِلُونَ: مَنِ ابْنُ قَيْسٍ؟ ... فقُلْتُ: أَبُو أُسَامَةَ غَيْرَ فَخْرِ
أَنَا الجُشَمِيُّ كَيْمَا يَعْرِفُونى ... أُبَيِّنُ نِسْبتى نَقْرًا بِنَقْرِ
فإِنْ تَكُ فِي الغَلاَصِمِ[1] مِنْ قُرَيْشٍ ... فَإِنِّي مِنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ
فَأَبْلِغْ مَالِكًا لَمَّا غَشِينَا ... وَعِنْدَكَ- مالِ- إِنْ نَبَّأْتَ خُبْرِي
وأَبْلِغْ إِنْ عَرَضْتَ القَوْمَ عَنَّا ... هُبَيْرَةَ وَهْوَ ذُو عِلْمٍ وَقَدْرِ
بِأَنِّي إن دعيتُ إِلى أُفَيْدِ ... كَرَرْتُ وَلَمْ يَضِقْ بِالكَرِّ صَدْري
عَشِيَّةَ لا يُكَرُّ عَلَى مُضَافٍ ... وَلاَ ذِي هِمَّةٍ مِنْهُمْ وَصِهرِ
فَدُونَكُمُ بَنِي لأى[2] أَخَاكُمْ ... وَدُونَكِ مَالِكًا يَا أُمَّ عَمْرِو
فَلَوْلاَ مَشْهَدِى قَامَتْ عَلَيْهِ ... مُوقَّفَةُ القَوَائِمِ أُمُّ أَجْرِ[3]
دَفُوعٌ لِلقُبُورِ بِمَنْكِبَيْهَا ... كَأَنَّ بِوَجْهِهَا تَحْمِيمَ قِدْرِ
فَأُقْسِمُ بِالذِي قَدْ كان رَبِّي ... وأَنْصَابٍ لَدَى الجَمَرَاتِ مُغْرِ
لَسَوفَ تَرَوْنَ مَا حَسَبِي إِذَا مَا ... تَبَدَّلَتِ الجلودُ جُلُودَ نَمْرِ
فَمَا إِنْ خَادِرٌ مِنْ أُسْد تَرْجٍ ... مُدِلٌّ عَنبسٌ في الغيل مجرى[4]
فَقَدْ أَحْمَى الأَبَاءة من كُلافٍ[5] ... فَمَا يَدْنُو لَهُ أَحَدٌ بِنفرِ
بِخَلٍّ تعجز الحُلَفَاء عَنْهُ ... يَوَاثِبُ كُلَّ هجهَجَةٍ[6] وَزَجْرِ

---

(١) الغلاصم: الأعالي.
(٢) بنى لأى: هم بنى لؤي.
(٣) أجر: جمع جرو؛ وهو ولد الكلب.
(٤) الخادر: الأسد في خدره. وترج: جبل بالحجاز. والعنبس: العابس الوجه. والغيل: الشجر الملتف والمجرى: ذو جراء، أي؛ ذو أشبال.
(٥) الأباءة: أجمة الأسد. وكلاف: وادٍ من أعمال المدينة. مراصد الاطلاع (٣/ ١١٧٤).
(٦) الخلّ: الطريق في الرمل. والهجهجة: زجر الأسد بأن يقال له: هج هج.

بِأَوْشَكَ سَوْرَةً مِنِّي إذَا مَا ... حَبَوْتُ لَهُ بِقَرْقَرَةٍ وَهَدْرِ[١]
ببيض كالأَسِنَّة مُرْهَفاتٍ ... كَأَنَّ ظُبَاتِهِنَّ[٢] جحيمُ جَمْرِ
وأكلفَ[٣] مجنإٍ من جلدِ ثَوْرِ ... وَصَفْراءِ البُرَايَةِ ذَاتِ أَزْرِ
وأَبْيَضَ كالغَدِيرِ ثَوَى عَلَيْهِ ... عُمَيْرٌ بالمداوِسِ نصْفَ شَهْرِ
أُرَفِّلُ في حَمَائِلِهِ وأمشي ... كَمِشْيَةِ خَادِرٍ لَيْثٍ سِبَطْرِ[٤]
يَقُولُ لِيَ الفَتَى سَعْدٌ هَدِيًّا ... فَقُلْتُ: لعله تقريب غدر
وَقُلْتُ: أَبَا عَدِيٍّ لاَ تَطُرْهُمْ ... وَذَلِكَ إنْ أَطَعْتَ الْيَوْمَ أَمْرِي
كَدَأْبِهِمُ بِفَرْوَةَ إِذْ أَتَاهُمْ ... فَظَلَّ يُقَادُ مَكْتوفًا بضفرِ[٥]

وقالت هند بنت عتبة بن ربيعة، ترثي أباها يوم بدر: [من المتقارب]

أَعَيْنَيَّ جُودَا بِدَمْعٍ سَرِبْ ... عَلَى خَيْرِ خِنْدِفَ[٦] لَمْ يَنْقَلِبْ
تَدَاعَى لَهُ رَهْطُهُ غُدْوَةً ... بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو المُطَّلِبْ
يُذيقُونَهُ حَدَّ أَسْيَافِهِمْ ... يَعُلُّونَهُ بَعْدَ ما قَدْ عَطِبْ
يَجُرُّونَهُ وَعَفِيرُ التُّرَابِ ... عَلَي وَجْهِهِ عَارِيًا قَدْ سُلِبْ
وَكَانَ لَنَا جَبَلاً رَاسِيًا ... جَمِيلَ المَرَاةِ كَثِيرَ العُشُبْ
فَأَمَّا بُرِيٌّ فَلَمْ أُعْنِه ... فَأوتِيَ مِنْ خَيْرِ مَا يَحْتَسِبْ[٧]

وقالت هند- أيضًا-: [من الطويل]

يَرِيبُ عَلَيْنَا دَهْرُنَا فَيَسُوءُنَا ... وَيَأْبَى فَمَا نَأْتِي بِشيء يغالبهْ
أَبَعْدَ قَتِيلٍ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ ... يُرَاعُ امْرُؤٌ إنْ مَاتَ أَوْ مَاتَ صَاحِبُهْ؟!

---

(١) السورة: الحِدة. والقرقرة والهدر: من أصوات فحول الإبل.
(٢) الظباة: جمع ظبة، وهي حد السيف والسنان والخنجر، وما أشبهها. الوسيط (٢/ ٥٨١).
(٣) الأكلف: الترس. والمجنأ: الترس لا حديد فيه
(٤) السبطر: الطويل. والأسد السبطر: الذي يمتد عند الوثبة. الوسيط (سبطر) (١/ ٤١٥).
(٥) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤٠٨-٤١٢).
(٦) خندف: نسب إلى قبيلة، يقال: إنه اسم امرأة إلياس بن مضر بن نزار، واسمها: ليلى، وإليها ينسب كل ولد إلياس، وهي أمهم. وسميت بذلك؛ لأنها خندفت (أسرعت) في أثر زوجها، فقال لها: أنت خندف، فذهب لها اسمًا ولولدها نسبا، وسميت بها القبيلة. ينظر: اللسان (خندف).
(٧) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤١٤-٤١٥).

أَلاَ رُبَّ يَوْمٍ قَدْ رزِئْتُ مُرَزَّأً ... تَرُوح وتَغْدُو بِالجزِيلِ مَوَاهِبُهْ
فَأَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنى مَأْلُكًا ... فَإِنْ أَلقهُ يومًا فَسَوفَ أُعَاتِبُهْ
فَقَدْ كَانَ حَرْبٌ يَسْعَرُ الحَرْبَ(١)؛ إِنَّهُ ... لِكُلِّ امْرِئٍ في النَّاس مَوْلى يُطَالِبُهْ

قال ابن إسحاق: وقالت- أيضًا-: [من مجزوء الكامل]

لِلَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَى ... هُلْكًا كَهُلْكِ رِجَالِيَهْ
يَا رُبَّ بَاكٍ لِي غَدًا ... فِي النَّائِبَاتِ وَبَاكِيَهْ
كَمْ غَادَرُوا يَومَ الْقَلِيـ ... ـبِ غَدَاةَ تلك الوَاعِيَهْ
مِنْ كُلِّ غَيْثٍ فِي السِّنِيـ ... ـنَ إِذَا الْكَوَاكِبُ خَاوِيَهْ
قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ مَا أَرَى ... فَاليومَ حقٌّ حِذَارِيَهْ
قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ مَا أَرَى ... فَأَنَا الغَدَاةَ مُوَامِيَهْ
بل رُبَّ قائلةٍ غَدًا: ... يا وَيْحَ أُمِّ مُعَاوِيَهْ(٢)

وقالت أيضًا: [من الرجز]

يَا عَيْنُ بَكي عُتبَهْ ... شَيْخًا شَديد الرَّقَبَهْ
يُطعِمُ يومَ المسْغَبَهْ ... يَدْفعُ يومَ المغلبهْ
إِني عليه حَرِبَهْ ... مَلْهُوفَةٌ مستلبهْ
لَنَهبطنَّ يثربَهْ ... بغارة منشعبَهْ
فيها الخيول مقربهْ ... كل جواد سلهبهْ(٣)

وقالت صفية بنت مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس؛ تبكي أهل القليب الذين أصيبوا يوم بدر من قريش-: [من البسيط]

يَا مَنْ لِعين قَذَاهَا عَائِرُ الرَّمَدِ ... حَدَّ النَّهَارِ وَقرنُ الشَّمْسِ لَمْ يَقد
أُخْبِرْتُ أَنَّ سَرَاةَ الأَكْرَمِينَ مَعًا ... قَدْ أَحْرَزَتْهُمْ مَنَايَاهُمْ إِلَى أَمَدِ
وَفَرَّ بالقَوْمِ أَصْحَابُ الرِّكَابِ وَلَمْ ... تَعْطِفْ غَدَاتَئِذٍ أُمٌّ عَلَى وَلَدِ
قومي صَفِيَّ وَلاَ تَنْسَىْ قَرَابَتَهُمْ ... وَإِنْ بَكَيْتِ فَمَا تَبْكِينَ مِنْ بُعُدِ

---

(١) «حرب» الأول هو والد أبى سفيان. سعر الحرب يسعرها: هيجها، وأثارها. الوسيط (سعر).
(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤١٦).
(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٣٨٤).

كَانُوا سُقُوبَ سَمَاءِ البيت فَانقصفتْ فَأَصْبَحَ السقف(١) مِنْهَا غَيْرَ ذِي عُمُدِ

وقالت صفية- أيضًا-: [من الهزج]

أَلاَ يَا مَنْ لعينٍ لِلتْـ تَبكِّي دَمْعها فانْ
كَغَرْبَيْ دالِجٍ يَسْقِي خِلالَ الغَيثِ الدَّانْ
وَمَا لَيْثُ غَرِيفٍ ذُو أَظَافِيرَ وَأَسْنَانْ
أَبُو شِبْلَين وَثَّابٌ شَديدُ البَطْش غرثانْ(٢)
كَحِبِّي إذْ تَوَلَّى وَ وُجُوهُ القَوْمِ أَلْوَانْ
وَبالكَفِّ حُسَامٌ صَا رِمٌ أَبْيَضُ ذُكْرَانْ
وَأَنْتَ الطَّاعِنُ النَّجْلاَ ءَ مِنْهَا مُزْبِدٌ آنْ(٣)

قال ابن إسحاق: وقالت هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب، ترثي عبيدة بن الحارث بن المطلب: [من الطويل]

لَقَدْ ضُمِّنَ الصَّفْراءُ(٤) مجْدًا وَسُؤْدَدًا وَحِلْمًا أصيلاً وَافِرَ اللُّبِّ وَالعقلِ
عُبيدةَ فابْكِيهِ لأَضيافِ غُرْبَةٍ وَأَرملةٍ تهْوي لأشعثَ كالجذلِ
وَبكِّيه للأَقوام فِي كُلِّ شَتْوَةٍ إِذَا احْمَرَّ آفاقُ السَّمَاءِ مِنَ المحلِ
وَبكِّيه للأَيْتَام، وَالرِّيحُ زفزفٌ وَتَشْبِيبِ قدْرٍ طالما أزبَدَتْ تَغْلِي(٥)
فَإِنْ تُصبح النيرانُ قد مَاتَ ضَوْءُهَا فقد كانَ يذكيهنَّ بِالحطَبِ الجَزْلِ
لِطَارِقِ ليْلٍ أوْ لمُلتَمِس القرى وَمُستنبحٍ أَضحى لديه على رسلِ(٦)

وقالت قتيلة بنت الحارث، أخت النضر بن الحارث: [من الكامل]

يا راكبا إن الأثيل مظنةٌ مِنْ صبح خامسةٍ وأنت موفقُ
أَبلغ بها ميتًا بأنَّ تحيَّةً مَا إنْ تَزَالُ بِهَا النَّجَائِبُ تخفقُ
مِنِّي إلَيْكَ وَعَبرة مسفوحةً جَادَتْ بوَاكِفِها وأُخرَى تخنُقُ

---

(١) في السيرة: السَّمْك.
(٢) غرثان: جوعان.
(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤١٧، ٤١٨).
(٤) الصفراء: اسم موضع.
(٥) في السيرة: والريح زفرة، وهي الشديدة. والزفزف: السريعة. والتشبيب: إيقاد النار تحت القدر. وفى ط: تشتيت. وأزبدت: رمت بالزبد وهو الرغوة.
(٦) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤١٨-٤١٩).

هل يسمعنّي النَّضرُ إنْ نَادَيْتُهُ ... أَمْ كَيْفَ يسمعُ ميِّت لا ينطق؟!
أَمُحَمَّدٌ يَا خَيْرَ ضنء كَرِيمَةٍ ... فِي قومها، والفحل فحل مُعْرِقُ
مَا كَانَ ضرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَربَّمَا ... مَنَّ الفتى، وهُوَ المغيظُ المحنقُ
أَوْ كُنْتَ قَابِلَ فِدْيَةٍ فَلْيُنْفَقَنْ ... بِأَعَزِّ مَا يغلو بِهِ ما يُنفقُ
فالنَّضرُ أقرب مَنْ أَسرْتَ قَرَابَةً ... وَأَحقُّهُمْ إنْ كان عِتْق يعتقُ
ظَلَّتْ سُيُوفُ بني أَبِيهِ تنوشُهُ ... لله أَرْحَامٌ هُنَاكَ تُشَقَّقُ
صَبْرًا يُقَادُ إلى المنيَّةِ مُتْعبًا ... رَسْفَ المُقيَّدِ وهو عَانٍ مُوثَقُ

قال ابن هشام: فيقال- والله أعلم-: إن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر، قال: «لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه»(١).

قال ابن إسحاق: وكان فراغ رسول الله ﷺ من بدر عقب شهر رمضان، فلما قدم المدينة لم يقم بها إلا سبع ليال، حتى غزا بنفسه يريد بني سُليم(٢).

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري أو ابن أم مكتوم(٣).

قال ابن إسحاق فبلغ ماء من مياههم، يقال له: الكدر، فأقام عليه ثلاث ليال، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدًا، فأقام بها شوال وذا القعدة، وأفدى في إقامته تلك جل الأسارى من قريش (٤).

* * *

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤١٩-٤٢١)، وسبل الهدى والرشاد (٤/ ٨٧) ونقل الصالحي عن أبي عمر قوله: ليس معنى هذا الندم لأنه ﷺ لا يقول ولا يفعل إلا حقا ولكن معناه لو شفعت عندي بهذا القول لقبلت شفاعتها.

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤٢١) المغازي للواقدي (١/ ١٨٢) تاريخ الطبري (٢/ ٤٨٢-٤٨٣)، الكامل في التاريخ (٢/ ١٣٩)، الروض الأنف (٣/ ١٤٢)، البداية والنهاية (٣/ ٤١٥)، عيون التواريخ (١/ ١٤٢)، البدء والتاريخ (٤/ ١٩٦)، تاريخ الإسلام (١٣٧- المغازي)، سبل الهدى والرشاد (٤/ ١٧٢).

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤٢١).

(٤) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤٢١-٤٢٢) والدرر (١٤٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٨٢-٤٨٣)، ودلائل النبوة (٣/ ١٦٣)، والبداية والنهاية (٣/ ٤١٥).

أمر بني قينقاع(١)

قينقاع- بضم النون في الأشهر، ويجوز فتحها وكسرها-: بطن من اليهود لهم شجاعة وصبر.

خرج ﷺ يوم السبت نصف شوال، على رأس عشرين شهرًا من الهجرة، حاصرهم خمس عشرة ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب؛ فنزلوا على حكمه ﷺ، وعلى أن له أموالهم، ولهم النساء والذرية، فلحقوا بـ «أذرعات». وأخذ من حصنهم سلاحًا كثيرًا.

وقد كانت الكفار- بعد الهجرة- مع النبي ﷺ على ثلاثة أقسام:

قسم: وادعهم- عليه السلام- على ألا يحاربوه ولا يؤلبوا عليه عدوًّا، وهم طوائف اليهود الثلاث: قريظة، والنضير، وبنو قينقاع.

وقسم: حاربوه ونصبوا له العداوة؛ كقريش.

وقسم: تركوه وانتظروا ما يئول إليه أمره؛ كطوائف من العرب: فمنهم من كان يحب ظهوره في الباطن كخزاعة، وبالعكس كبني بكر، ومنهم من كان معه ظاهرًا ومع عدوه باطنًا، وهم المنافقون.

وكان أولَ من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع، فحاربهم- عليه الصلاة والسلام- فى شوال بعد وقعة بدر.

قال الواقدى: بشهر(٢)، وأغرب الحاكم؛ فزعم أن إجلاء بنى قينقاع وبنى النضير، كان فى زمن واحد، ولم يوافَقْ على ذلك؛ لأن إجلاء بنى النضير كان بعد بدر بستة أشهر- على قول عروة- أو بعد ذلك بمدة طويلة؛ على قول ابن إسحاق(٣).

وكان من أمر بنى قينقاع: أن امرأة من العرب جلست إلى صائغ يهودى، فراودها

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤٢٦)، المغازي للواقدي (١/ ١٧٦-١٨٠) تاريخ الطبري (٢/ ٤٧٩-٤٨١) البدء والتاريخ (٤/ ١٩٥-١٩٦)، الكامل في التاريخ (٢/ ١٣٧-١٣٩)، نهاية الأرب (١٧/ ٦٧-٧٠) الروض الأنف (٣/ ١٤٣)، عيون التواريخ (١/ ١٤٠-١٤١)، البداية والنهاية (٤/ ٤)، تاريخ الإسلام (١٤٥-المغازي).

(٢) ينظر: المغازي (١/ ١٧٦)، وتاريخ الإسلام (١٤٥-المغازي).

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤٢٦).

على كشف وجهها فأبت؛ فعمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءَتها فضحكوا منها؛ فصاحت؛ فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله؛ فشدت اليهود على المسلم فقتلوه؛ ووقع الشر بين المسلمين وبين بنى قينقاع، فسار إليهم النبى ﷺ بعد أن استخلف أبا لبابة بن عبد المنذر، فحاصرهم أشد الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذى القعدة، وكان اللواءُ بيد حمزة بن عبد المطلب، وكان أبيض، فقذف الله فى قلوبهم الرعب، ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ على أن له أموالهم، ولهم النساء والذرية؛ فأمر- عليه الصلاة والسلام- المنذر بن قدامة بتكتيفهم، وكلم عبدُ الله بن أبى ابن سلول رسول الله ﷺ فيهم، وألح عليه من أجلهم؛ فأمر- عليه الصلاة والسلام- أن يجلوا وتركهم من القتل، وأمر بأن يجلوا من «المدينة» فلحقوا بـ«أذرعات»، فما كان أقل بقاءَهم فيها!. وأخذ من حصنهم سلاحا وآلة كثيرة.

وكانت بنو قينقاع حلفاءَ لعبد الله ابن سلول وعبادة بن الصامت، فتبرأ عبادة بن الصامت من حلفهم، فقال: «يا رسول الله، أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم، ففيهم وفى عبد الله أنزل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ... ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾(1) [المائدة: ٥١-٥٦].

ثم غزوة السويق: سميت بذلك؛ لأنه كان أكثرَ زاد المشركين، وتسمى أيضا: «غزوة الكُدْر» بضم الكاف وسكون الدال المهملة؛ اسمٌ لماء هناك.

وهم مائتا راكب فيهم أبو سفيان، خرج ﷺ لهم يوم الأحد، خامس ذى الحجة، على رأس اثنين وعشرين شهرا من الهجرة (٢).

وقال ابن إسحاق: فى صفر فى مائتى رجل من المهاجرين والأنصار، وقيل: فى ثمانين راكبا.

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٤٨٠)، والسيرة النبوية (٢/ ٤٢٧-٤٢٩)، والدلائل (٣/ ١٧٤)، والبداية والنهاية (٤/ ٥).

(٢) ينظر المغازي (١/ ١٨١-١٨٢)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٨٣-٤٨٥)، دلائل النبوة (٢/ ٤٣٣)، الكامل في التاريخ (٢/ ١٣٩-١٤٠)، نهاية الأرب (١٧/ ٧٠-٧١)، عيون التواريخ (١/ ١٤٢-١٤٣)، المغازي لعروة (١٦١)، الدرر (١٤٧)، البدء والتاريخ (٤/ ١٩٦)، البداية والنهاية (٣/ ٤١٥-٤١٦)، تاريخ الإسلام (١٣٨-المغازي).

وكان سبب هذه الغزوة: أن أبا سفيان حين رجع بالعير من بدر إلى مكة، نذر ألا يمس النساء والدهن، حتى يغزو محمدًا- عليه الصلاة والسلام- فخرج فى مائتى راكب من قريش؛ ليبرّ يمينه، حتى أتوا «العريض» ناحية من «المدينة» على ثلاثة أميال، فحرقوا نخلا وقتلوا رجلا من الأنصار، فرأى أبو سفيان أن قد انحلتْ يمينه، فانصرف بقومه راجعين، وخرج- عليه الصلاة والسلام- فى طلبهم فى مائتين من المهاجرين والأنصار، وجعل أبو سفيان وأصحابه يلقون جرب السويق- وهى عامة أزوادهم- يتخففون للهرب؛ فيأخذها المسلمون، فلم يلحقهم- عليه الصلاة والسلام- فرجع إلى «المدينة»، وكانت غيبته خمسة أيام (١).

وفى ذى الحجة صلى رسول الله ﷺ العيد، وأمر بالأضحية (٢).

وفيه مات عثمان بن مظعون (٣).

وفى هذه السنة تزوج على بفاطمة، رضى الله عنهما (٤).

حوادث السنة الثالثة

فيها غزوة غَطَفان، وهى «غزوة ذى أمر» بفتح الهمزة والميم (٥)، وسماها الحاكم: غزوة أنمار، وهى بناحية نجد، وكانت لثنتى عشرة مضت من ربيع الأول، على رأس خمسة وعشرين شهرا من الهجرة.

وسببها: أن جمعا من ثعلبة ومحارب، تجمعوا يريدون الإغارة، جمعهم دعثور ابن الحارث المحاربى- وسماه الخطيب: غورث، وغيره غورك- وكان شجاعا؛ فندب ﷺ المسلمين، وخرج فى أربعمائة وخمسين فارسا، واستخلف على المدينة

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤٢٢-٤٢٤)، وتاريخ الإسلام (١٤٠-المغازي).
(٢) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٤١٨)، والمنتظم (٣/ ٩٦).
(٣) قال الطبري في تاريخه (٢/ ٤٨٥) ومات في هذه السنة أعني اثنتين من الهجرة في ذي الحجة عثمان بن مظعون فدفنه رسول الله ﷺ بالبقيع وجعل عند رأسه حجرًا علامة لقبره.
(٤) ينظر: تاريخ خليفة (٦٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٨٥-٤٨٦)، وتاريخ الإسلام (١٤١-المغازي).
(٥) ينظر السيرة النبوية (٢/ ٤٢٥)، المغازي للواقدي (١/ ١٩٣-١٩٦)، تاريخ خليفة (٦٥)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٨٧)، الطبقات الكبرى (٢/ ٣٤-٣٥)، نهاية الأرب (١٧/ ٧٧-٧٩)، الدرر (١٤٨)، الدلائل (٣/ ١٦٧)، عيون التواريخ (١/ ١٤٧-١٤٨) البدء والتاريخ (٤/ ١٩٧-١٩٨)، المنتظم (٣/ ١٥٧)، البداية والنهاية (٤/ ٣-٤)، تاريخ الإسلام (١٤٣-المغازي)، سبل الهدى والرشاد (٤/ ١٧٦).

عثمان بن عفان فلما سمعوا بمهبطه ﷺ هربوا فى رءوس الجبال، فأصابوا رجلًا منهم من بنى ثَعْلَبة، فأُدخل على رسول الله ﷺ، فدعاه إلى الإسلام وضمه إلى بلال.

وأصاب النبيَّ ﷺ مطرٌ؛ فنزع ثوبيه ونشرهما على شجرة؛ ليجفًا، واضطجع تحتها وهم ينظرون، فقالوا لدعثور: قد انفرد محمد فعليك به، فأقبل ومعه سيف، حتى قام على رأسه ﷺ فقال: من يمنعك منى اليوم؟ فقال ﷺ: «الله». فدفع جبريل فى صدره فوقع السيف من يده، فأخذه النبى ﷺ فقال: «من يمنعك منى؟» قال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. ثم أتى قومه فدعاهم إلى الإسلام، وأنزل الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ . . . ﴾ [المائدة: ١١] الآية [١].

ويقال: كان ذلك فى ذات الرقاع، ثم رجع ﷺ ولم يلق كيدا، وكانت غيبته إحدى عشرة ليلة.

وفيها غزوة نجران، وتسمى: «غزوة بنى سُليم»[٢] من ناحية الفرَع: بفتح الفاء والراء؛ كما قيده السهيلى [٣]، وقال فى «القاموس» [٤]: ونجران وتضم: موضع بناحية الفرع، كما رأيته بخطه، بضم الفاء لا غير.

وسببها: أنه بلغه- عليه الصلاة والسلام- أن بها جمعا كثيرا من بنى سُليم، فخرج فى ثلاثمائة رجل من أصحابه، فوجدوهم قد تفرقوا فى مياههم، فرجعوا ولم يلق كيدا، وكان قد استعمل على المدينة ابن أم مكتوم؛ كما قاله ابن هشام، وكانت غيبته عشر ليال [٥].

وفيها سرية زيد بن حارثة إلى القَرْدة بفتح القاف وسكون الراء؛ كما ضبطه ابن الفرات، اسم ماءٍ من مياه نجد [٦].

(١) سيأتي الكلام على هذه القصة في موضعه عند الكلام على غزوة ذات الرقاع.
(٢) ينظر: المغازي (١/ ١٩٦)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٨٧).
(٣) ينظر: الروض الأنف (٣/ ١٤٢-١٤٣).
(٤) ينظر: ترتيب القاموس (نجر).
(٥) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤٢٥-٤٢٦)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٨٧)، الدرر (١٤٩)، والدلائل (٣/ ٦٧)، والبداية والنهاية (٤/ ٤).
(٦) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤٢٩-٤٣٠)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٩٢-٤٩٣)، والطبقات الكبرى (٢/ ٢٧)، والمغازي (١/ ١٩٧-١٩٨)، دلائل النبوة (٣/ ١٧٠-١٧١)، تاريخ الإسلام (١٥٤-المغازي) البداية والنهاية (٤/ ٥-٦).

وسببها- كما قال ابن إسحاق-: أن قريشا خافوا من طرقهم التى يسلكون منها إلى الشام، حين كان من وقعة بدر ما كان؛ فسلكوا طريق العراق، فخرج معهم تجار منهم أبو سفيان بن حرب، ومعهم فضة كثيرة [(١)].

وعند ابن سعد بعثه ﷺ لهلال جمادى الآخرة على رأس ثمانية وعشرين شهرا من الهجرة، فى مائة راكب؛ يعترض عيرا لقريش فيها صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى، ومعهم مال كثير وآنية، فأصابوها وقدموا بالعير على رسول الله ﷺ، وخمسها، فبلغ الخمس قيمة عشرين ألف درهم [(٢)]. وعند مغلطاى: خمسة وعشرين ألف درهم، وذكرها ابن إسحاق قبل قتل ابن الأشرف.

ومن حوادثها: سرية محمد بن مَسْلمة وأربعة معه إلى كعب بن الأشرف اليهودى، لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، على رأس خمسة وعشرين شهرا من الهجرة [(٣)].

روى أبو داود والترمذى، من طريق الزهرى، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه، أن كعب بن الأشرف كان شاعرا يهجو رسول الله ﷺ بالشعر، فلما أَبَى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذاه، أمر رسول الله ﷺ سعدَ بن معاذ أن يبعث رهطا ليقتلوه. وفى رواية قال- عليه الصلاة والسلام-: «من لنا بابن الأشرف؟» (وفى أخرى: «من لكعب بن الأشرف؟» أى: من ينتدب لقتله)؛ فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا، وقد خرج إلى قريش، وجمعهم إلى قتالنا، وقد أخبرنى الله بذلك». ثم قرأ على المسلمين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [(٤)] [النساء: ٥١، ٥٢] وفى «الإكليل»: فقد آذانا بشعره وقوى المشركين.

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤٢٩-٤٣٠)، البداية والنهاية (٤/ ٥-٦).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٢٧-٢٨).

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤٣٠-٤٣٧)، المغازي للواقدي (١/ ١٨٤)، المغازي لعروة (١٦٢-١٦٣)، الطبقات الكبرى (٢/ ٣١-٣٤)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٨٩-٤٩٠)، البدء والتاريخ (٤/ ١٩٧)، الكامل في التاريخ (٢/ ١٤٣-١٤٤)، الدلائل (٣/ ١٨٧-١٩٠)، البداية والنهاية (٤/ ٦-٨)، تاريخ الإسلام (١٥٧-المغازي).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٠٠٠) من طريق الزهري به والحديث لم يخرجه الترمذي كما زعم المصنف. ينظر: تحفة الأشراف (١١١٥٢) والحديث في الصحيحين عند البخاري (٣٠٣١)، ومسلم (١١٩/ ١٨٠١)، من حديث جابر.

وفى رواية ابن إسحاق: فقال محمد بن مسلمة أخو بنى عبد الأشهل: أنا له يا رسول الله، أنا أقتله، قال: فافعل إن قدرت على ذلك، قال: يا رسول الله، إنه لا بدَّ لنا أن نقول، قال: قولوا ما بدا لكم، فأنتم فى حل من ذلك، فاجتمع فى قتله محمد بن مسلمة، وأبو نائلة- بنون وبعد الألفِ تحتانية- سلكان بن سلامة، وكان أخا كعب من الرضاعة، وعبادة بن بشر، والحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عبس بن جبر، وهؤلاء الخمسة من الأوس (١).

وفى رواية ابن سعد: فلما قتلوه وبلغوا بقيع الغرقد كَبَّروا، وقد قام عليه السلام تلك الليلة يصلِّى، فلما سمع تكبيرهم، كبر وعرف أنهم قد قتلوه، ثم انتهوا إليه فقال: أفلحت الوجوه، قالوا: وجهك يا رسول الله، ورموا برأسه بين يديه، فحمد الله على قتله (٢).

وفي كتاب «شرف المصطفى»: إن الذين قتلوا كعبًا حملوا رأسه فى مخلاة إلى المدينة، فقيل: إنه أول رأس حمل فى الإسلام (٣).

وأصاب ذباب السيف الحارث بن أوس، فجرح ونزفه الدم، فتفل عليه الصلاة والسلام على جرحه، فلم يؤذه بعد (٤).

وفيها غزوة أحد يوم السبت تاسع شوال (٥)، حين جمعت قريش لقتاله ثلاثة

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٤٣٦-٤٣٧)، ودلائل النبوة (٣/ ١٩٩)؛ والبداية والنهاية (٤/ ٨).

(٢) ينظر الطبقات الكبرى (٢/ ٢٤-٢٦).

(٣) ينظر تاريخ الطبري (٢/ ٤٩١).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦)، والحاكم (٢/ ٩٨)، وإسحاق بن راهويه في مسنده كما في المطالب العالية رقم (٤٣١١)، والطبراني في الكبير (١١/ ٢٢١)، رقم (١١٥٥٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٩٦): وفيه ابن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله رجال الصحيح. قلت: وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث وهو في السيرة (٢/ ٤٣٨-٤٣٩) حدثني ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس، به.

(٥) ينظر: المغازي لعروة(١٦٨-١٧٣)، وللواقدي (١/ ١٩٩-٣٠٠)، الطبقات الكبرى (٢/ ٢٨-٣٧)، تاريخ خليفة (٦٧-٦٨)، تاريخ الطبري (٢/ ٤٩٩-٥٣٣)، المعرفة والتاريخ (٣/ ٢٥٧-٢٥٨)، الدرر في اختصار المغازي والسير (١٥٣)، جوامع السيرة (١٥١٦)، الكامل في التاريخ (٢/ ١٤٨- ١٦٣)، نهاية الأرب (١٧/ ٨١-١٢٥)، البدء والتاريخ (٤/ ١٩٨-٢٠٨)، عيون التواريخ (١/ ١٥٣-١٦٧) الروض الأنف (٣/ ١٥٨-١٨٠)، المنتظم (٣/ ١٦١-١٧٢)، البداية والنهاية (٤/ ١١-٥٥)، تاريخ الإسلام (١٦٥-المغازي)، سبل الهدى والرشاد (٤/ ١٨٢-٢٣١).

آلاف، فيهم سبعمائة دارع، ومائتا فارس، وثلاثة آلاف بعير، وخمس عشرة امرأة، والمسلمون ألف رجل، وقال ﷺ لِلرُّماة: لا تتغيروا، فلما تغيروا انهزموا، وقتل من المسلمين سبعون، ومنهم حمزة، وشج جبينه ﷺ، وكسرت رَبَاعيته، ودخل فى وجنته حلقتان من المغفر، وشقت شفته، وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون، وثبت ﷺ ومعه أربعة عشَرَ رجلًا، ونصره الله عليهم، فرجع من يومه آخر النهار (١).

وكان سببها؛ كما ذكره ابن إسحاق، عن شيوخه، وموسى بن عقبة، عن ابن شهاب، وأبو الأسود، عن عروة وابن سعد، قالوا: ومن قال منهم ما حاصله: إن قريشًا لما رجعوا من بدر إلى مكة، وقد أصيب أصحاب القليب، ورجع أبو سفيان بِعيره، قال عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وجماعة ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم وأبناؤهم يوم بدر: يا معشر قريش، إن محمدًا قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه- يعنون عير أبي سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة- لعلنا أن ندرك منه ثأرًا، فأجابوه لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينار، وفيهم- كما قال ابن إسحاق وغيره- أنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

واجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ، وكتب العباس بن عبد المطلب كتابًا يخبر رسول الله ﷺ بخبرهم، وسار بهم أبو سفيان حتى نزل بهم ببطن الوادى من قبل أحد مقابل المدينة، وكان رجال من المسلمين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر، ورأى ﷺ ليلة الجمعة رؤيا، فلما أصبح قال: والله، لقد رأيت خيرًا، رأيت بقرًا تذبحُ، ورأيت فى ذباب سيفى ثلمًا، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة، فأما البقر: فناس من أصحابى يقتلون، وأما الثلم الذى رأيت في سيفى: فهو رجل من أهل بيتى يقتل (٢).

وقال ابن عقبة: ويقول رجال: كان الذي بسيفه ما قد أصاب وجهه؛ فإن العدو

---

(١) ينظر هذا الإجمال في المصادر السابق ذكرها.

(٢) قوله: رأيت بقرة تذبح أصله في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري أخرجه البخاري (٤٠٨٠)، ومسلم (٢٢٧٢)، وابن ماجه (٣٩٢١)، والبغوي في شرح السنة (٦/ ٣٢٢)، من حديث أبي موسى.

أصابوا وجهه الشريف يومئذ، وكسروا رَباعيته، وجرحوا شفته [١].

وفى رواية قال- عليه الصلاة والسلام-: «وأولت الدرع الحصينة بالمدينة، فامكثوا فإن دخل القوم الأزقة قاتلناهم، ورُمُوا من فوق البيوت» فقال أولئك القوم: يا رسول الله، كنا نتمنى هذا اليوم، اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا عنهم، فصلى عليه الصلاة والسلام بالناس الجمعة، ثم وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ففرح الناس بذلك، ثم صلى بالناس العصر، وقد حشدوا، وحضر أهل العوالى، ثم دخل- عليه الصلاة والسلام- بيته ومعه صاحباه أبو بكر وعمر- فعمماه وألبساه، وصف الناس ينتظرون خروجه- عليه الصلاة والسلام- فقال لهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج، فردوا الأمر إليه، فخرج رسول الله ﷺ وقد لبس لأمته- وهى بالهمز، وقد يترك تخفيفًا، الدرع- وتقلد سيفه، فندموا جميعًا على ما صنعوا، فقالوا: ما كان لنا أن نخالفك فاصنَعْ ما شئت، فقال: ما ينبغى لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه [٢].

وفي حديث ابن عباس عند أحمد والنسائي والطبراني وصححه الحاكم نحو حديث ابن إسحاق، وفيه إشارة النبي ﷺ ألاَّ يبرحوا من المدينة، وإيثارهم بالخروج لطلب الشهادة، ولبسه اللأمة وندامتهم على ذلك، وقوله ﷺ: «لا ينبغى لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»، وفيه: «إني رأيت أنى في درع حصينة. . .» الحديث [٣].

وعقد- عليه الصلاة والسلام- ثلاثة ألوية؛ لواء للأوس بيد أسيد بن الحضير، ولواء للمهاجرين بيد على بن أبى طالب، وقيل: بيد مصعب بن عمير، ولواء للخزرج بيد الحباب بن المنذر، وقيل: بيد سعد بن عبادة، وفي المسلمين مائة

---

(١) ينظر: دلائل النبوة (٣/ ٢٠٤)، رواية موسى بن عقبة، والبداية والنهاية (٤/ ١٤-١٥).

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٣/ ٧-٨).

(٣) أخرجه من طريق ابن عباس الحاكم (٢/ ١٢٩)، (٣/ ٣٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣٠٤)، (٧/ ٤١)، ومن طريق جابر أخرجه أحمد (٣/ ٣٥١)، والدارمي (٢/ ١٧٣)، وعلقه البخاري (١٥/ ٢٨٣-الفتح) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، عند رقم (٧٣٦٩). وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١٣)، والحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ٢٧٣)، رقم (١٥٤٨)، واللأمة: الدرع.

دارع، وخرج السعدان أمامه يعدوان، سعد بن معاذ وسعد بن عبادة دارعين، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وعلى الحرس تلك الليلة محمد بن مَسلمة، وأدلج- عليه الصلاة والسلام- فى السحر، وكان قد رد جماعة من المسلمين لصغرهم، منهم أسامة، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، والنعمان ابن بشير [١]، قال مغلطاي: وفيه نظر.

وكان المسلمونَ ألف رجل، ويقال: تسعمائة، والمشركون ثلاثة آلاف رجل، فيهم سبعمائة دارع، ومائتا فرس، وثلاثة آلاف بعير، وخمس عشرة امرأة، ونزل- عليه السلام- بأحد، ورجع عنه عبد الله بن أبيٍّ في ثلاثمائة ممن تبعه من قومه من أهل النفاق. ويقال: إن النبي ﷺ أمرهم بالانصراف لكفرهم، بمكانٍ يقال له الشوطُ، ويقال: بأحد، ثم صف المسلمون بأصل أحد، وصف المشركون بالسبخة [٢].

قال ابن عقبة: وكان على ميمنة خيل المشركين خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل [٣]، وجعل ﷺ على الرماة- وهم خمسون رجلًا- عبد الله بن جبير، وقال: لو رأيتمونا يتخطَّفنا الطير؛ فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزَمْنَا القومَ ووطئناهم؛ فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم؛ كذا فى البخاري من حديث البراء [٤].

وفي حديث ابن عباس عند أحمد والطبراني والحاكم؛ أنه ﷺ أقامهم في موضع، ثم قال: احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نُقْتَلُ فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا، فلا تشركونا [٥].

وقال ابن إسحاق: وقال رسول الله ﷺ من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه

---

(١) رد سيدنا عبد الله بن عمر ورد في حديث عند البخاري برقم (٢٦٦٤)، ومسلم برقم (١٨٦٨)، وأبو داود (٢٩٥٧)، والترمذي (١٧١١)، والنسائي (٦/ ١٥٥)، وابن ماجه (٢٥٤٣)، وأما رد الباقين، فينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٥٠٥)، وزاد هناك في الذين ردهم رسول الله ﷺ عرابة بن أوس.

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٣/ ٨)، والبداية والنهاية (٤/ ١٥-١٦).

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٣/ ١١).

(٤) أخرجه البخاري (٤٠٤٣)، وأبو داود (٢٦٦٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٦٧-٢٦٩).

(٥) تقدم تخريجه من حديث ابن عباس.

رجال فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة سماك، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به في وجه العدو حتى ينحنى، قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه، وكان رجلاً شجاعًا يختال عند الحرب، فلما رآه- عليه الصلاة والسلام- يتبختر قال: إنها لمشية يبغضها الله إلا فى هذا الموطن (١)، قال الزبير بن العوام- فيما قال ابن هشام-: فقلت: والله، لأنظرنَّ ما يصنع أبو دجانة، فاتبعته، فأخذ عصابة حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج عصابة الموت، فخرج وهو يقول: [من الرجز]

أَنَا الذِى عاهدَنِي خليلِى ونحْنُ بالسَّفْحِ لدى النَّخِيلِ
ألاَّ أقومَ الدَّهْرَ فى الكَيُّولِ أَضْرِبْ بسيفِ الله والرَّسولِ

فجعل لا يلقى أحدًا من المشركين إلا قتله (٢).

وقوله: «الكَيُّول»- بفتح الكاف، وتشديد المثناة التحتية-: مؤخر الصفوف، وهو فيعول من كالَ الزند يكيلُ كيلاً: إذا كبا، ولم يخرج نارًا، فشبه مؤخر الصف به؛ لأن من كان فيه لا يقاتل. قال أبو عبيدة: ولم يسمع إلا في هذا الحديث.

وقتل شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف، والتقى حنظلة الغسيل وأبو سفيان،

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٥١١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٣٣-٢٣٤) من طريق محمد بن إسحاق قال: حدثني جعفر بن عبد الله بن أسلم مولى عمر بن الخطاب عن رجل من الأنصار من بني سلمة قال: قال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبختر . . . فذكره. وقصة من يأخذ هذا السيف بحقه وردت من حديث أنس وقد أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٦٢) كتاب فضائل الصحابة (٤٤) باب من فضائل أبي دجانة سماك بن خرشة (٢٥) (٢٤٧٠)، وأحمد في مسنده (٣/ ١٢٣)، والحاكم في مستدركه (٣/ ٢٣٠) والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٣٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٣٦٩) رقم (٣٦٧٧٢) كلهم من طريق حماد بن سلمة حدثنا ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أحد فقال «من يأخذ مني هذا . . .» الحديث.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٥١٠)، والحاكم في مستدركه (٣/ ٢٣٠-٢٣١)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٣٢-٢٣٣)كلهم من طريق عمرو بن عاصم الكلابي قال حدثنا عبيد الله بن الوازع عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قال الزبير: عرض رسول الله ﷺ سيفًا في يده وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي قلت: وفي ذلك نظر فإن عمرو بن عاصم الكلابي وهو أبو عثمان البصري صدوق في حفظه شيء كما في التقريب (٢/ ٧٢) (٦١٣) والعلة ليست فيه وإنما في جده عبيد الله بن الوازع الكلابي، قال الذهبي في الميزان (٥/ ٢٢) (٥٤٠٩): ما علمت له راويًا غير حفيده وقال الحافظ في التقريب (١/ ٥٤٠) (١٥١٧): مجهول.

فضربه شداد بن أوس فقتله، فقال ﷺ: «إن حنظلة لتغسله الملائكة»، فسألوا امرأته جميلة أخت عبد الله بن أبيٍّ، فقالت: خرج وهو جُنُبٌ. فقال:- عليه الصلاة والسلام-: «لذلك غسلته الملائكةُ[1]» وبذلك تمسك من قال من العلماء: بأن الشهيد يغسل إذا كان جنبًا.

---

(١) ورد هذا الحديث عن جماعة من الصحابة منهم عبد الله بن الزبير، وابن عباس حديث عبد الله بن الزبير أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ٢٠٤-٢٠٥)، وعنه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٥) كتاب الجنائز باب الجنب يستشهد في المعركة. وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٤٩٥-٤٩٦) (٧٠٢٥) كلهم من طريق ابن إسحاق حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه عن جده قال سمعت رسول الله ﷺ يقول . . . فذكر القصة وفيه «إن صاحبكم حنظلة تغسله الملائكة فسلوا صاحبته. . .) وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم وسكت عنه الذهبي. قلت: وهذا مرسل صحابي، فإن عبد الله بن الزبير لم يشهد هذه القصة، ولكن مراسيل الصحابة حجة كما قرر ذلك أهل العلم، وسنده حسن فإن ابن إسحاق صدوق. حديث عبد الله بن عباس أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٣٩١) (١٢٠٩٤) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٦) إسناده حسن وله طريق آخر عنده (١١/ ٣٩٥) (١٢١٠٨) وأخرجه البيهقي أيضًا (٤/ ١٥) كلاهما من طريق أبي شيبة عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال: أبصر رسول الله ﷺ حنظلة بن الراهب وحمزة تغسلهما الملائكة. وقال البيهقي وأبو شيبة ضعيف قلت: أبو شيبة وهو إبراهيم بن عثمان العبسي ليس ضعيفًا فحسب وإنما هو متروك فقال فيه البخاري في تاريخه الكبير (١/ ١/ ٣١٠) سكتوا عنه. وقال أبو داود: ضعيف الحديث، وقال الترمذي: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك وقال أبو حاتم في الجرح والتعديل (١/ ١/ ١١٥) ضعيف الحديث، سكتوا عنه وتركوا حديثه وقال الحافظ في التقريب (١/ ٣٩) (٢٤١) متروك الحديث وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٤٦) وفي السنن الكبرى (٤/ ١٥) من طريق ابن إسحاق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله ﷺ قال «إن صاحبكم لتغسله. . .» قلت: وهذا مرسل، ووصله أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٥٧) ترجمة حنظلة بن أبي عامر من طريق عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد أن حنظلة بن أبي عامر أخى بني عمرو بن عوف التقى هو وأبو سفيان . . . فذكر الحديث وفيه «إن صاحبكم - يعني حنظلة - لتغسله الملائكة. . .» ووقع في المطبوع من الحلية «محمود بن لبيد عن حنظلة بن أبي عامر . . .» والصحيح ما أثبتناه قلت: ومحمود بن لبيد ولد في حياة النبي ﷺ وذكره ابن حبان في الصحابة، وقال: له صحبة مات سنة ثلاث وتسعين، وأكثر ما يروى سمعه من أصحاب رسول الله ﷺ، وقال الحافظ في التقريب (٢/ ٢٣٣): صحابي صغير، وجل روايته عن الصحابة. قلت: فحديثه من مراسيل الصحابة وهي حجة كما تقدم. وفي الباب مراسيل عن عروة والزهري أخرجها الطبراني في المعجم الكبير (٤/ ١٠) (٣٤٨٦-٣٤٨٧)، وينظر تلخيص الحبير لابن حجر (٢/ ٢٣٩) (٧٦١) وله شاهد من حديث أنس بن مالك ذكره الشيخ الألباني في الصحيحة (١/ ٥٨١) (٣٢٦) وعزاه لابن عساكر.

وقتل علي طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين، ثم حمل لواءهم عثمان ابن أبي طلحة، فحمل عليه حمزة، فقطع يده وكتفه، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فحسوا الكفار بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة، فولى الكفار لا يلوون على شيء، ونساؤهم يدعون بالويل، وتبعهم المسلمون حتى أجهضوهم ووقعوا ينهبون العسكر، ويأخذون ما فيه من الغنائم.

وفي البخاري: قال البراء: فقال أصحاب عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟! قالوا: والله لنأتينَّ الناسَ فلنصيبن من الغنائم، فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين (١).

وفي حديث عائشة عند البخاري- أيضًا-: لما كان يوم أحد، هزم المشركون هزيمة بينة، فصاح إبليس: عباد الله أخراكم، فرجعت أولاهم فاجتلدت مع أخراهم (٢).

وعند أحمد والحاكم، من حديث ابن عباس: أنهم لما رجعوا، اختلطوا بالمشركين، والتبس العسكران، فلم يتميزا، فوقع القتل في المسلمين بعضهم من بعض (٣).

وفي رواية غيرهما: ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله، فكَرَّ بالخيل، وتبعه عكرمة بن أبي جهل، فحملوا على من بقى من النفر الرماة، فقتلوهم وأميرهم عبد الله بن جبير.

وفي البخاري: أنهم لما اصطفوا للقتال، خرج سباع، فقال: هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فشد عليه فكان كأمس الذاهب، وكان وحشى كامنًا تحت الصخرة، فلما دنا منه رماه بحربته حتى خرجَتْ من بين وركيه، فكان آخر العهد به (٤) انتهى.

وكان مصعب بن عمير قاتل دون رسول الله ﷺ، وكان الذي قتله ابن قمئة، وهو

---

(١) تقدم تخريجه من حديث البراء.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٦٥) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) قصة قتل حمزة - رضي الله عنه - أخرجها البخاري في صحيحه (٨/ ١١٤-١١٥) كتاب المغازي (٦٤) باب قتل حمزة بن عبد المطلب -رضي الله عنه- (٤٠٧٢)، وأحمد في مسنده (٣/ ٥٠٠-٥٠١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٤١-٢٤٢)، كلهم من طريق حجين بن المثنى ثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة عن عبد الله بن الفضل عن =

يظنه أنه رسول الله ﷺ، فصاح ابن قمئة: إن محمدًا قتل، ويقال: كان ذاك أزب العقبة (١)، ويقال: بل إبليس لعنه الله، تصوَّر فى صورة جعال، وقال: أىْ عباد الله، أخراكم! أى: احترزوا من جهة أخراكم، فعطف المسلمون وقتل بعضهم بعضًا، وهم لا يشعرون، وانهزم طائفة منهم إلى جهة المدينة، وتفرق سائرهم، ووقع القتل فيهم.

وقال ابن عقبة: ولما فقد- عليه الصلاة والسلام- قال رجل منهم: إن رسول الله ﷺ قد قتل، فارجعوا إلى قومكم ليؤمنوكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم؛ فإنهم داخلو البيت، وقال رجل منهم: إن كان رسول الله ﷺ قتل، أفلا تقاتلون على دينكم، وعلى ما كان عليه نبيكم، حتى تلقوا الله عز وجل شهداء، منهم أنس بن مالك بن النضر، شهد له بها عند رسول الله ﷺ سعد بن معاذ، قال في «عيون الأثر»: كذا وقع في هذا الخبر أنس بن مالك، وإنما هو أنس بن النضر عم أنس بن مالك بن النضر. انتهى.

وثبت رسول الله ﷺ حين انكَشفُوا عنه، وثبت معه من أصحابه أربعة عشر رجلاً من المهاجرين، فيهم أبو بكر الصديق وسبعة من الأنصار.

وفي البخاري: لم يبق معه- عليه الصلاة والسلام- إلا اثنا عشر رجلاً، فأصابوا منا سبعين. وكان- عليه الصلاة والسلام- وأصحابه أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيرًا وسبعينَ قتيلاً، فقال أبو سفيان: أفى القوم محمد؟ ثلاث مرات، فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء، فقد قتلوا، فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبتَ يا عدُوَّ الله، إنَّ الذين عددتَّ لأحياء كلهم، وقد بقى لك ما يسوءك فقال: يوم بيوم (٢).

وتوجه ﷺ يلتمس أصحابه، فاستقبله المشركون، فرموا وجهه، فأدموه وكسروا رباعيته، والذي جرح وجهه عبد الله بن قمئة، وعتبة بن أبي وقاص أخو سعد هو

= سليمان بن يسار عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري . . . فذكره وفيه قصة والقصة ذكرها أيضًا الطبري في تاريخه (٢/ ٥١٦-٥١٧)، وابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٢٠).

(١) ينظر: السيرة النبوية (٣/ ١٨).

(٢) تقدم تخريجه وهو جزء من حديث البراء بن عازب.

الذي كسر رباعيته؛ ومن ثم لم يولد له ولد من نسله فيبلغ الحنث، إلا وهو أبخَرُ أو أهشَمُ، أي: مكسور الثنايا من أصلها يعرف ذلك في عقبه.

وقال ابن هشام، في حديث أبي سعيد الخدري: إن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله ﷺ يومئذ، فكسر رباعيته اليمنى السفلَى، وجرح شفته السفلى، وإن عبد الله بن هشام الزهري شجه في جبهته، وإن ابن قمئة جرح وجنته، فدخلَتْ حلقتان من المغفر في وجنته، ووقع ﷺ في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها للمسلمين.

وفي رواية: وهشموا البيضة على رأسه- أي: كسروا الخوذة- ورموه بالحجارة حتى سقَطَ في حفرة من الحفر التي حفرها أبو عامر، فأخذه عليٌ بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائمًا، ونشبتْ حلقتا المغفر في وجنته، وامتصَّ مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته، ثم ازدرده، فقال- عليه الصلاة والسلام- من أصاب دمي دمه، لم تصبه النار[(١)]؛ وسيأتي إن شاء الله تعالى حكم دمه، عليه السلام.

وفي الطبراني من حديث أبي أمامة قال: رمى عبد الله بن أبي قمئة رسول الله ﷺ يوم أحد، فشج وجهه وكسر رباعيته، فقال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال رسول الله ﷺ: أقمأك الله- وهو يمسح الدم عن وجهه- فسلَّط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة[(٢)].

وروى ابن إسحاق، عن حميد الطويل، عن أنس قال: كسرتْ رباعيته ﷺ يوم أحد، وشج وجهه، فجعل الدم يسيل على وجه، وجعل يمسحه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟! فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨] ورواه أحمد والترمذي والنسائي من طريق حميد[(٣)].

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٧).

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٢٠) وقال: رواه الطبراني وفيه حفص بن عمر العبدري وهو ضعيف.

(٣) ذكره البخاري تعليقًا في صحيحه (٨/ ١٢٢) كتاب المغازي (٦٤) باب (٢٢) وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٢٦) كتاب تفسير القرآن (٤٨) باب «ومن سورة آل عمران» حديث رقم =

وعند ابن عائذ من طريق الأوزاعي: بلغنا أنه لما جرح ﷺ يوم أحد، أخذ شيئًا ينشف دمه وقال: لو وقع منه شيء على الأرض، لنزل عليهم العذاب من السماء، ثم قال: اللهم، اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون (١).

وروى عبد الرزَّاق، عن معمر، عن الزهري قال: ضُرِبَ وجهُ النبيِّ ﷺ يومئذ بالسيف سبعين ضربة، ووقاه الله شرَّها كلها، قال في فتح الباري: وهذا مرسل قوي، ويحتمل أن يكون أراد بالسبعين حقيقتها أو المبالغة. انتهى (٢).

وقاتلتْ أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد فيما قاله ابن هشام (٣)، فخرجت أول النهار حتى انتهت إلى رسول الله ﷺ، قالت: فقمت أباشر القتال، وأذبُّ عنه بالسيف، وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراحة، إلى أن أصابني ابن قمئة- أقمأه الله! - لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ، أقبل يقول: دلوني على محمد، فلا نجوتُ إن نجا. قالت: فاعترضْتُ له فضربني هذه الضربة، ولكن

= (٣٠٠٢،٣٠٠٣) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٦) كتاب الفتن (٣٦) باب (٢٣) حديث (٤٠٢٧)، وأحمد في مسنده (٣/ ٩٩، ١٧٨، ١٧٩، ٢٠١، ٢٠٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٤) كتاب التفسير باب (٦٧) حديث (١١٠٧٧)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ٣٩١) (٣٧٣٨)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٥٣٦)(٦٥٧٤) والبغوي في شرح السنة (٧/ ٩٣-٩٤) (٣٦٤٢). والطبري في تاريخه (٢/ ٥١٥)، وفي تفسيره (٣/ ٤٣١) (٧٨٠٤، ٧٨٠٥،٧٨٠٦، ٧٨٠٧) والواحدي في أسباب النزول ص(١٢٣) رقم(٢٤٢) كلهم من طرق عن حميد عن أنس قال... قلت: وحميد الطويل مدلس وقد عنعن. وقال أبو عبيدة عن شعبة: لم يسمع حميد من أنس إلا أربعة وعشرين حديثًا، والباقي سمعها من ثابت أو ثبته فيها ثابت ينظر تهذيب الكمال (٧/ ٣٦٠) (١٥٢٥) قلت: ولذا قال الحافظ العلائي في جامع التحصيل ص١٦٨ترجمة ١٤٤ فعلى تقدير أن يكون مراسيل قد تبين الواسطة فيها وهو ثقة محتج به وقد جاء الحديث من طريق ثابت عن أنس ذكره البخاري في صحيحه معلقًا (٨/ ١١٢) كتاب المغازي (٦٤) باب (٢٢) وأخرجه مسلم في صحيحه (٦/ ٣٨٩) كتاب الجهاد والسير (٣٢) باب غزوة أحد (٣٧) (١٧٩١)، وأحمد(٣/ ٢٥٣،٢٨٨)، وأبو يعلى (٦/ ٥٥-٥٦) (٣٣٠١)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٥٣٧) (٦٥٧٥)، وعبد ابن حميد ص٣٦٢ (١٢٠٤)، وأبو عوانة (٤/ ٣٠٩)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٦٢)، والبغوي في شرح السنة (٧/ ٩٤)، والواحدي في أسباب النزول (١٢٥/ ٢٤٤) من طرق عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس به، وللحديث شواهد بدون ذكر الآية.

(١) ذكره الحافظ في الفتح (٨/ ١٢٣) وعزاه لابن عائذ عن الأوزاعي.

(٢) ينظر: الفتح (٨/ ١٢٢).

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٣/ ٢٩).

ضربته ضرباتٍ على ذلك، ولكن عدو الله عليه درعان، قالت أم سعد بن الربيع: فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور [(١)].

وتَرَّسَ دون رسول الله ﷺ - فيما قاله ابن إسحاق- أبو دجانة بنفسه، يقع النبل في ظهره وهو ينحني عليه حتى كثر عليه النبل وهو لا يتحرك [(٢)].

ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ، قال سعد: فلقد رأيته يناولنى النبل، ويقول: ارم سعد، فداك أبي وأمي، حتى إنه يناولنى السهم ما له نصل، فيقول: ارم به، فيعود منصلاً [(٣)].

وأصيبت عين قتادة بن النعمان حتى وقعتْ على وجنته، فأتى بها إلى رسول الله ﷺ، فأخذها رسول الله ﷺ بيده وردها إلى موضعها، وقال: اللهم، اكسه جمالاً، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما نظرًا. ورواه الدارقطنى بنحوه [(٤)].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٣٠٣) من طريق محمد بن عمر حدثنا يعقوب بن محمد عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة قال: قالت أم عمارة . . . فذكره قلت: ومحمد بن عمر - هو الواقدي - متروك. والخبر ذكره الذهبي في السير (٢/ ٢٧٩)، وابن حجر في الإصابة (٨/ ٤٤٢) ت(١٢١٨٢).

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٣/ ٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ١٠٣-١٠٤) كتاب المغازي باب ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ حديث (٤٠٥٥-٤٠٥٧- ٤٠٥٩)، ومسلم (٨/ ١٩٧-النووي) كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حديث (٤١/ ٢٤١١).

(٤) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده (٣/ ١٢٠) (١٥٤٩) وعنه ابن الأثير في أسد الغابة (٤/ ٣٧١)، من طريق يحيى بن عبد الحميد الحماني ثنا عبد الرحمن بن سليمان بن غسيل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه يعني عن قتادة بن النعمان أنه أصيبت عينه يوم بدر، فسالت حدقته. قلت: ويحيى بن عبد الحميد، قال البخاري: كان أحمد وعلى يتكلمان في يحيى الحماني وقال في موضع آخر رماه أحمد بن حنبل وابن نمير. التاريخ الكبير (٨/ ٣٥٣٧)، والصغير (٢/ ٣٥٧) وعن ابن نمير في رواية أنه قال: ثقة. وعن ابن معين: صدوق ثقة. وقال النسائي في الضعفاء ت(٦٢٥) ضعيف، وقال ابن عدي: ليحيى الحماني مسند صالح، ولم أر في مسنده وأحاديثه أحاديث مناكير، وأرجو أنه لا بأس به. تهذيب الكمال (٣١/ ٤٣٣) ت(٦٨٦٨)، وقال الحافظ في التقريب (٢/ ٣٥٢) حافظ إلا أنهم اتهموه بسرقة الحديث قلت: ووجدت متابعًا ليحيى أخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ٢٥١-٢٥٢) من طريق مالك بن إسماعيل قال: حدثنا ابن الغسيل به ومالك بن إسماعيل النهدي أبو غسان ثقة متقن صحيح الكتاب كما في التقريب (٢/ ٢٢٣) لكن ابن الغسيل واسمه عبد الرحمن بن سليمان أبو سليمان الداراني صدوق يخطئ (١/ ٤٨٢) ووقع هنا أن ذلك كان في غزوة =

ورمى أبو رهم الغفارى كلثوم بن الحصين بسهم، فوقع في نحره، فبصق عليه ﷺ فبرئ.

وانقطع سيف عبد الله بن جحش، فأعطاه ﷺ عرجونًا، فعاد في يده سيفا فقاتل به ، وكان ذلك السيف يُسَمَّى العرجون [١]، ولم يزل يتوارثُ حتى بيع من بُغا التركيّ من أمراء المعتصم بالله في بغداد بمائتى دينار. وهذا نحو حديث عكاشة السابق في غزوة بدر، إلا أن سيف عكاشة كان يسمى العَوْن.

واشتغَلَ المشركون بقتلى المسلمين يمثِّلون بهم، ويقطعون الآذان والأنوف والفروج، ويبقرون البطون، وهم يظنون أنهم أصابوا رسول الله ﷺ وأشراف أصحابه، وكان أول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك، قال: عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتى: يا معشر المسلمين، هذا رسول الله ﷺ، فلما عرفوه، نهضوا ونهض معهم نحو الشعب معه أبو بكر وعمر وعلى ورهط

= بدر ولكن سيأتي روايات أخرى تثبت أن ذلك وقع يوم أحد. قلت: أخرجه أيضًا الطبراني في الكبير (١٩/ ٨/ ١٢) وعنه أبو نعيم في الدلائل (٢/ ٤٨٤) رقم (٤١٧) من حديث قتادة ابن النعمان قال: أهدى إلى رسول الله ﷺ قوس فدفعها يوم أحد. وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١١٦) فيه من لا أعرفه وأخرجه أيضًا ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٤٦)، والطبرى في تاريخه (٢/ ٥١٦)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٥١)، وابن الأثير في أسد الغابة (٤/ ٣٧١) كلهم من طريق ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله ﷺ رمى. . . قلت: وهذا إسناد ضعيف لإرساله وعنعنة ابن إسحاق وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٣٧)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٣٨) من طريق مالك بن أنس عن محمد بن عبد الله بن أبي صعصعة عن أبيه عن أبي سعيد عن أخيه قتادة ابن النعمان قال أصيبت عيناي يوم بدر. . . وقال أبو نعيم: غريب من حديث مالك تفرد به محمد بن أبي عثمان، وإنما يعرف من حديث ابن إسحاق وابن الغسيل عن عاصم ابن عمر بن قتادة عن أبيه وقال ابن إسحاق: يوم أحد اهـ. وأخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ٢٥٣) من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة يحدث عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن أبي سعيد به قلت: وإسحاق بن عبد الله بن أبي فروة متروك كما في التقريب (١/ ٥٩) (ت٤١٥) وله شاهد آخر من حديث عبد الرحمن بن الحارث بن عبيد عن جده. أخرجه ابن الأثير في أسد الغابة (٤/ ٣٧١) وفي سنده: عبد العزيز بن عمران قال الحافظ في التقريب (١/ ٥١١) (١٢٤٢) متروك وفي الباب حديث عن جابر بن عبد الله أن قتادة بن النعمان أصيبت عينه. . ذكره ابن كثير في البداية (٤/ ٣٨) ولم أقف عليه، والقصة ذكرها الحاكم أيضًا في مستدركه بدون إسناد (٣/ ٢٩٥). قلت: فالقصة بهذه الطرق التي أوردناها حسنة إن شاء الله لا سيما وأن الطريق الأول إسناده حسن.

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣٠٧-٣٠٨) وفي الدلائل (٣/ ٢٥٠).

من المسلمين، فلما أسند رسول الله ﷺ في الشعب، أدركه أبيٌّ بن خلف وهو يقول: أين محمد؟! لا نجوت إن نجا، فقالوا: يا رسول الله، يعطف عليه رجل منا؟! فقال ﷺ: دعوه، فلما دنا، تناول- عليه الصلاة والسلام- الحربة من الحارث بن الصِّمَّة، فلما أخذها- عليه الصلاة والسلام- انتفض بها انتفاضَةً تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله- عليه الصلاة والسلام- فطعنه طعنة وقع بها عن فرسه، ولم يخرج له دم، فكسر ضلعًا من أضلاعه، فلما رجع إلى قريش قال: قتلني محمد والله، قالوا: ليس عليك يا أبا علي من بأس، فقال: أليس كان قد قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله، لو بصق علي لقتلني.

قلت: نعم قد كان أبيٌّ هذا يلاقي النبي ﷺ بمكة، فيقول له: إن معي فرسًا أعلفه كل يوم فرقًا من ذرة أقتلك عليه، فيقول- عليه الصلاة والسلام- له: بل أنا أقتلك عليه، فذلك قول أبيٍّ: أليس قد قال لي... إلى آخره. فمات عدو الله بسرف وهم قافلون به إلى مكة. رواه البيهقي وأبو نعيم، ولم يذكر: فكسر ضلعًا من أضلاعه[1].

قال الواقدي: وكان ابن عمر يقول: مات أبيٌّ بن خلف ببطن رابغ؛ فإني لأسير ببطن رابغ بعد هويٍّ من الليل إذ نار تأجج لي فهبتها، وإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذبها يصيح: العطش! وإذا رجل يقول: لا تسقه؛ فإن هذا قتيل رسول الله ﷺ؛ هذا أبيٌّ بن خلف. ورواه البيهقي[2].

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى فم الشعب، ملأ علي بن أبي طالب درقته من المهراس- وهو صخرة منقورة تسع كثيرا من الماء. فجاء به إلى رسول الله ﷺ، وغسل عن وجهه الدم، وصب على رأسه وهو يقول: اشتدَّ غضب الله على من أدمى وجه نبيه [3]، وصلى النبي- عليه الصلاة والسلام- يومئذ الظهر قاعدًا من الجراح

---

(١) ينظر: الدلائل (٣/ ٢٥٨-٢٥٩)، وسبل الهدى والرشاد (٤/ ٢٠٨).

(٢) ينظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٥٠) ودلائل النبوة (٣/ ٢٥٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٢٢) كتاب المغازي (٦٤) باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد رقم (٤٠٧٤، ٤٠٧٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٦٢) من طريق عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال: اشتد غضب.. . وأخرجه أحمد (١/ ٢٨٨)، والحاكم (٢/ ٢٩٦-٢٩٧)، وصححه ووافقه الذهبي، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٣٦٥) (١٠٧٣١) من طريق عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن عبيد الله بن =

التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعودًا.

قال ابن إسحاق: ووقعت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها يمثِّلْنَ بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ، يخلعْنَ الآذان والأنوف، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها، فلم تستطعْ أن تسيغها فلفظتها [(١)].

ولما أراد أبو سفيان الانصرافَ، أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: أنعمت فعال؛ إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر، اعْلُ هبل، اعْلُ هبل، وكان أبو سفيان حين أراد الخروج إلى أحد، كتب على سهم: « نعم »، وعلى الآخر: « لا »، وأجالهما عند هبل، فخرج سهم، « نعم »، فخرج إلى أحد، ولما قال: اعل هبل، أي: زد علوًا، قال رسول الله ﷺ لعمر: « أجبه »، فقال: الله أعلى وأجل، لا سواء؛ قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار، فقال: إن لنا عُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال- عليه الصلاة والسلام-: « قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم ».

ولما انصرف أبو سفيان وأصحابه، نادى أبو سفيان بأعلى صوته: إن موعدكم بدر العام القابل، فقال:- عليه الصلاة والسلام- لرجل من أصحابه: قل له: نعم، هو بيننا وبينكم موعد [(٢)].

وذكر الطبراني: أنه لما انصرف المشركون، خرج النساء إلى الصحابة يعنَّهم، فكانت فاطمة فيمن خرج، فلما لقيت النبي ﷺ، اعتنقته وجعلت تغسل جراحاته بالماء فيزداد الدم، فلما رأت ذلك، أخذت شيئًا من حصير، فأحرقته بالنار، وكمدته به حتى لصق بالجرح، فاستمسك الدم، ثم أرسل- عليه الصلاة والسلام- محمد بن مَسْلمة- كما ذكره الواقدي- فنادى في القتلى: يا سعد بن الربيع- مرة بعد أخرى- فلم يجبه، حتى قال: إن رسول الله ﷺ أرسلني أنظر ما صنعت؟ فأجاب بصوتٍ

= عبد الله عن ابن عباس فذكره وفيه قصة طويلة وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١١٤) رواه أحمد وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد وقد وثق على ضعفه وقال ابن كثير في التفسير (١/ ٤١٢) هذا حديث غريب وسياق عجيب وهو من مرسلات ابن عباس فإنه لم يشهد أحدًا ولا أبوه. . ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها. اهـ. قلت: وله شاهد من حديث الزبير بن العوام، أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥/ ٤٣٦) (٦٩٧٩) وعزاه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٤/ ٢٢٠) (٤٣١٦) لإسحاق بن راهويه. وصحح سنده البوصيري.

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/ ٤١).

(٢) هذا جزء من حديث البراء بن عازب وقد تقدم تخريجه وينظر السيرة النبوية (٣/ ٤٥).

ضعيفٍ، فوجدته جريحًا في القتلى وبه رمق، فقال سعد: أبلغ رسول الله ﷺ مني السلامَ وقل له: يقول لك: جزاك الله عنا خَيْرَ ما جزى نبيًّا عن أمته، وأبلغْ قومك عني السلام، وقل لهم: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف، ثم مات (١).

وقتل أبو جابر، فما عرف إلا ببنانه، أي: أصابعه، وقيل: أطرافها، واحدها بنانة.

وخرج رسول الله ﷺ يلتمسُ حمزة، فوجده ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده، ومثِّلَ به، فجدع أنفه وأذناه، فنظر- عليه الصلاة والسلام- إلى شيء لم ينظر إلى شيء أوجع لقلبه منه، فقال: رحمة الله عليك، لقد كنت فعولاً للخير، وصولاً للرحم، أما والله، لأمثلن بسبعين منهم مكانك، قال: فنزلت عليه خواتيم سورة النحل: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ . . . .﴾ إلى آخر الآية [النحل:١٢٦] فصبر، وكفَّر

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/٥٢٨)، والحاكم في مستدركه (٣/ ٢٠١) وعنه البيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٥)، وذكره الذهبي في السير (١/ ٣١٨) وابن حجر في الإصابة (٣/ ٤٩) ت (٣١٦٠)، وابن كثير في البداية (٤/ ٤٤) كلهم من طريق محمد بن إسحاق أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة المازني به وسكت عنه الحاكم، وقال الذهبي مرسل وقال الحافظ في الإصابة: وفي الصحيح من حديث أنس ما يشهد لبعضه. وله شاهد من حديث زيد بن ثابت: أخرجه الحاكم (٣/ ٢٠١) من طريق مخرمة بن بكير عن أبيه عن أبي حازم عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لطلب سعد بن الربيع ومخرمة بن بكير: قال النسائي: ليس به بأس، وضعفه يحيى بن معين وقال حديثه عن أبيه كتاب ولم يسمعه منه، وقال أحمد بن حنبل: هو ثقة ولم يسمع من أبيه شيئاً إنما يروى من كتاب أبيه. تهذيب الكمال (٢٧/ ٣٢٤) ت (٥٨٢٩) وقال الحافظ في التقريب (٢/ ٢٣٤) (٩٧٢) صدوق، وروايته عن أبيه وجادة من كتابه. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . وفيه نظر. فالحديث بإسناده السابق حسن فحسب. وله شاهد مرسل: أخرجه مالك (٢/ ٢١) الجهاد باب الترغيب في الجهاد، عن يحيى ابن سعيد، ومن طريق مالك أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٩٦) وابن الأثير في أسد الغابة (٢/ ٤٣٢ - ٤٣٣)، وهو في الاستيعاب (٤/ ١٤٥ ، ١٤٦) وقال ابن عبد البر: هكذا ذكر مالك هذا الخبر، ولم يسم الرجل الذي ذهب ليأتي بخبر سعد بن الربيع وهو أبي بن كعب . . . وقال: ولا أعرفه مسنداً وهو محفوظ عند أهل السير. وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٤٤): كان الرجل الذي التمس سعداً في القتلى محمد بن سلمة فيما ذكره محمد بن عمر الواقدي . . . وقال الشيخ أبو عمر في الاستيعاب: كان الرجل الذي التمس سعداً أبي بن كعب. فالله أعلم.

عن يمينه، وأمسك عما أراد (١) .

ومن مثل به كما مثل بحمزة: عبد الله بن جحش ابن أخت حمزة، ولذا يعرف بالمجدَّع في الله، وكان حين قتل ابن بضع وأربعين سنة، ودفن مع حمزة في قبر واحد .

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٥٢٩) وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٤٤ ، ٤٥) من طريق ابن إسحاق قال: أخبرني بريدة بن سفيان به قلت: وهذا إسناد ضعيف، فإن بريدة بن سفيان: قال البخاري: فيه نظر. وقال النسائي، ليس بالقوى في الحديث، وقال أبو حاتم الرازي: ضعيف الحديث، وقال الدارقطني متروك، تهذيب الكمال (٤/ ٥٥ - ٥٦) (٦٦٢) وللحديث طرق أخرى عن ابن عباس: أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٦٢) (١١٠٥١)، قال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٢٣) وفيه أحمد بن أيوب بن راشد وهو ضعيف وأخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٨) وفيه يحيى بن عبد الحميد متهم بسرقة الحديث. وللحديث شاهد من حديث أبي بن كعب: أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٩) كتاب تفسير القرآن (٤٨) باب (١٧) رقم (٣١٢٩)، وقال: حديث حسن غريب، وأحمد (٥/ ١٣٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٦) كتاب التفسير سورة النحل (١١٢٧٩) وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٣٩) (٤٨٧)، والحاكم في مستدركه (٢/ ٣٥٩) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٩) والطبراني في الكبير (٣/ ١٥٧) (٢٩٣٧) كلهم من طريق الربيع بن أنس حدثني أبو العالية عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد، أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً . . . وزاد نسبته في الدر المنثور (٤/ ٢٥٥) لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه. وأبو العالية هو رفيع بن مهران ثقة كما في التقريب (١/ ٢٥٢) (١٠٥)، والربيع بن أنس البكري، قال العجلي صدوق، وقال النسائي: ليس به بأس، وقال أبو حاتم صدوق تهذيب الكمال (٩/ ٦١) ت (١٨٥٣) وقال الحافظ في التقريب (١/ ٢٤٣) صدوق له أوهام. قلت: فمثل هذا حديثه حسن إن شاء الله لاسيما وللحديث شواهد تقويه تقدمت ومنها أيضاً حديث أبي هريرة أخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٨)، والواحدي في الوسيط (٣/ ٩١) وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٢٢) للبزار والطبراني وقال: وفيه صالح بن بشير المري وهو ضعيف. ا. هـ ووقع تصحيف في المجمع " صالح بن بشير المزني" والصحيح ما أثبتناه قلت: وبعد ثبوت صحة حديث أبي بن كعب وما سقناه من الشواهد، يعلم أن قول ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٤٥) هذه الآية مكية؛ أي قوله تعالى: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ ﴾ وقصة أحد بعد الهجرة بثلاث سنين فكيف يلتئم ذلك - فيه نظر - فلينتبه وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٠١): أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية نزلت في شأن التمثيل بحمزة يوم أحد وقال الواحدي في الوسيط (٣/ ٩١): نزلت لما نظر النبي - صلى الله عليه وسلم إلى حمزة يوم أحد، وقد مثل به فقال والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل والنبي - صلى الله عليه وسلم - واقف بعد، بخواتيم سورة النحل فصبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمسك عما أراد، وهذا قول عامة المفسرين. ا. هـ.

ولما أشرف- عليه الصلاة والسلام- على القتلى قال: أنا شهيد على هؤلاء، ما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون الدم، والريح ريح المسك [١].

وفي رواية عبد الله بن ثعلبة: قال- عليه الصلاة والسلام- لقتلى أحد: زملوهم بجراحهم [٢].

وروى أبو بكر بن مردويه: أن رسولَ الله ﷺ قال: يا جابرُ، ألا أخبرك؟ ما كلم الله أحدًا قطُّ إلا من وراء حجاب، وإنه كلَّم أباك كفاحًا فقال: سلني أعطك، قال: أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية، فقال الرب عزَّ وجلَّ: إنه سبق مني أنهم لا يرجعون إلى الدنيا، قال: أي رب، فأبلغ من ورائي، فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ .... ﴾ [٣] الآية [آل عمران: ١٦٩].

وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخوانَنا يعلمون ما صنع الله بنا؛ لئلاَّ يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، قال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله- عز وجل- هذه الآيات: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟... ﴾ [آل عمران: ١٦٩] رواه أحمد [٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣١) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٩٠) من طريق ابن إسحاق حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْر، به. قلت: وهذا إسناد حسن وابن إسحاق صرح بالتحديث وعبد الله بن ثعلبة ويكنى أبا محمد وهو حليف بني زهرة صحابي جليل ولدقبل الهجرة بأربع سنوات. ينظر ترجمته في الإصابة ت (٤٥٩٤)، والاستيعاب ت (١٤٩٦) وأسد الغابة لابن الأثير ت (٢٨٤٩). والحديث عن أبي هريرة عند مسلم في الإمارة رقم (١٠٥/ ١٨٧٦).

(٢) ينظر السابق.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠١٠) وابن ماجه (١٩٠، ٢٨٠٠) وابن أبي عاصم في السنة رقم (٦٠٢) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٩٨ - ٢٩٩) من حديث جابر وقال الترمذي: حسن غريب وحسنه أيضا الألباني.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦) وأبو داود (٢٥٢٠) من طريق محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد عن أبي الزبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، به وأخرجه أحمد (١/ ٢٦٥) وعبد بن حميد (٦٧٩) من طريق محمد بن إسحاق عن إسماعيل عن أبي الزبير عن ابن عباس ليس فيه ذكر لسعيد بن جبير.

قال بعض من تكلم على هذا الحديث: قوله ثَمَّ: «تأوي إلى قناديل» مصداقه قوله: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٩] وإنما تأوي إلى تلك القناديل ليلاً، وتسرح نهارًا، وبعد دخول الجنة في الآخرة لا تأوى إلى تلك القناديل، وإنما ذلك في البرزخ.

وقال مجاهد: الشهداء يأكلون من ثمار الجنة. وقد ورد هذا القول؛ ويشهد له: ما وقع في مسند ابن أبي شيبة وغيره؛ أن رسول الله ﷺ قال: الشهداء بنهر- أو على نهر- يقال له: بارق، عند باب الجنة في قباب خضر، يأتيهم رزقهم منها بكرةً وعشيًا (١).

قال الحافظ عماد الدين بن كثير: الشهداء أقسام، منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر، فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح.

قال: وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثًا فيه بشرى لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة- أيضًا- وتسرح فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة. قال: وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه غير واحد من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتسعة؛ فإن الإمام أحمد رواه عن الشافعي، عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك، عن أبيه يرفعه: «نسمة المؤمن طائر تعلقُ في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» (٢)، وقوله «تعلق» أى: تأكل؛ وفي هذا الحديث أن روح المؤمن تكون على شكل طائرٍ في الجنة. وأما أرواح الشهداء ففي حواصل طير خضر، فهى كالراكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها؛ فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦) وابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٩٠) والطبراني (١٠/ ٤٠٥) رقم (١٠٨٢٥) والحاكم (٢/ ٧٤) وابن حبان (١٦١١ - موارد) من طريق محمد بن إسحاق حدثنا الحارث بن فضيل الأنصاري عن محمود بن لبيد عن ابن عباس وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي ومحمد بن إسحاق لم يحتج به مسلم وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٩٨): رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات.

(٢) أخرجه مالك (١/ ٢٤٠) رقم (٤٩) وأحمد (٣/ ٤٥٦) والنسائي (٤/ ١٠٨) وابن ماجه (٤٢٧١) وابن حبان (٧٣٤) من حديث كعب بن مالك وهو حديث صحيح.

وقد استشهد يوم أحد من المسلمين سبعون؛ فيما قاله مغلطاى وغيره، وقيل: خمسة وستون أربعة من المهاجرين، وروى ابن منده من حديث أبي بن كعب قال: استشهد من الأنصار يوم أحد أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة، وصححه ابن حبان من هذا الوجه (١).

وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون رجلًا، وقَتل- عليه السلام- بيده أبيَّ بن خلف، وحضرت المَلائكة يومئذ، ففي حديث سعد بن أبي وقاص عند مسلم في صحيحه: أنه رأَى عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض، قال: ما رأيتهما قبل ولا بعد- يعني جبريل وميكائيل- يقاتلان كأشد القتال (٢)، وفيه كما قدمناه في غزوة بدر أن قتال الملائكة معه ﷺ لا يختصُّ بيوم بدر؛ خلافًا لمن زعمه؛ كما نص عليه النووي في شرح مسلم (٣) كما قدمته، والله أعلم.

ولما بكى المسلمون على قتلاهم سُرَّ المنافقون وظهر فسق اليهود.

تنبيه: ذكر القاضي عياض في الشفاء، عن القاضي أبي عبد الله بن المرابط من المالكية؛ أنه قال: من قال: «إن النبيَّ ﷺ هزم» يستتاب، فإن تاب وإلا قتل لأنه تنقصه؛ إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصَّته؛ إذ هو على بصيرة من أمره ويقين عصمته انتهى. وهذا موافق لمذهبنا، لكن قال العلامة البساطى من المالكية: هذا القائل إن كان يخالف في أصل المسألة- أعني: حكم التائب- فله وجه، وإن وافق على أن التائب لا تقبل توبته، فمشكل. انتهى (٤).

وقد كان في قصة أحد: وما أصيب به المسلمون من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة: منها تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، وشؤْمَ ارتكاب المنهى؛ لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ ألاَّ يبرحوا منه.

ومنها عادة الرسل أن تبتلى وتكون لهم العاقبة، والحكمة أن لو انتصروا دائما،

---

(١) تقدم تخريجه قريبا.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٥٤) ومسلم (٤٦، ٤٧/ ٢٣٠٦) وأحمد (١/ ١٧١) من حديث سعد بن أبي وقاص .

(٣) ينظر صحيح مسلم بشرح النووي (٨/ ٧٣ - ٧٤) .

(٤) ينظر الشفا (١/ ٩٤٣) نحوه.

لدخل في المسلمين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائما لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين؛ ليتميز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفيًا عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة، وأظهر أهل النفاق ما أظهروا من الفعل والقول، عاد التلويح تصريحًا، وعرف المسلمون أن لهم عدوًا في دورهم، واستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

ومنها: أن في تأخير النصر في بعض المواطن هَضْمًا للنفس وكسرًا لشماختها، فلما ابتلى المسلمون، صَبَرُوا وجزع المنافقون.

ومنها: أن الله تعالى هيأ لعباده المؤمنين منازلَ في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسبابَ الابتلاءِ والمحنِ ليصلوا إليها.

ومنها: أنه أراد هلاك أعدائه، فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كُفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحص ذنوب المؤمنين ومحق بذلك الكافرين.

وكان مما قيل من الشعر في يوم أحد قول هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ ابن [عبد بن عمران] (١) بن مخزوم، قال ابن هشام: عائذ بن [عمران](٢) بن مخزوم: [من البسيط]

مَا بَالُ هَمٍّ عَمِيدٍ بَاتَ يَطْرُقُنِي ... بِالْوُدِّ مِنْ هِنْدَ إِذْ تَغْدُو عَوَادِيهَا
بَاتَتْ تُعَاتِبُنِي هِنْدٌ وَتَعْذِلُنِي ... وَالْحَرْبُ قَدْ شُغِلَتْ عَنِّي مَوَالِيهَا
مَهْلاً فَلاَ تَعْذِلِينِي؛ إِنَّ مِنْ خُلُقِي ... مَا قَدْ عَلِمْتِ، وَمَا إِنْ لَسْتُ أُخْفِيهَا
مُسَاعِفٌ لِبَنِي كَعْبٍ بِمَا كَلِفُوا ... حَمَّالُ عِبْءٍ وأَثْقَالٍ أُعَانِيهَا
وَقَدْ حَمَلْتُ سِلاَحِي فَوْقَ مُشْتَرِفٍ ... سَاطٍ سَبُوحٍ إِذَا يَجْرِي يُبَارِيهَا
كَأَنَّهُ إِذْ جَرَى عَيْرٌ بِفَدْفَدَةٍ ... مُكَدَّمٌ لاَحِقٌ بِالْعُونِ يَحْمِيهَا
مِنْ آلِ أَعْوَجَ يَرْتَاحُ النَّدِيُّ لَهُ ... كَجِذْعِ شَعْرَاءَ مُسْتَعْلٍ مَرَاقِيهَا
أَعْدَدْتُهُ وَرُقَاقَ الْحَدِّ مُنْتَخَلاً ... وَمَارِنًا لِخُطُوبٍ قَدْ أُلاَقِيهَا

(١) في ط: عبد الرحمن بن عمرو والمثبت من السيرة.
(٢) في ط: عمرو. والمثبت من السيرة وهو الصواب. وينظر نسب قريش لأبي مصعب (٣٩، ٣٤٤).

هَذَا وَبَيْضَاءَ مِثْلَ النِّهْى مُحْكَمَةً لُطَّتْ[١] عَلَيَّ فَمَا تَبْدُو مَسَاوِيهَا
سُقْنَا كِنَانَةَ مِنْ أَطْرَافِ ذِي يَمَنٍ عُرْضَ الْبِلاَدِ عَلَى مَا كَانَ يُزْجِيهَا
قالَتْ كِنَانَةُ: أَنَّى تَذْهَبُونَ بِنَا؟ قُلْنَا: النَّخِيلَ؛ فَأَمُّوهَا وَمَنْ فِيهَا
نَحْنُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ الْجَرِّ مِنْ أُحُدٍ هَابَتْ مَعَدٌّ، فَقُلْنَا: نَحْنُ نَأْتِيهَا
هَابُوا ضِرَابًا وَطَعْنًا صَادِقًا خَذِمًا مِمَّا يَرَوْنَ وَقَدْ ضُمَّتْ قَوَاصِيهَا
ثُمَّتَ رُحْنَا كَأَنَّا عَارِضٌ بَرِدٌ وَقَامَ هَامُ بَنِي النَّجَّارِ يَبْكِيهَا
كَأَنَّ هَامَهُمُ عِنْدَ الْوَغَى فِلَقٌ مِنْ قَيْضِ رُبْدٍ نَفَتْهُ عَنْ أَدَاحِيهَا
أَوْ حَنْظَلٌ زَعْزَعَتْهُ الرِّيحُ فِي غُصُنٍ بَالٍ تَعَاوَرُهُ مِنْهَا سَوَافِيهَا
قَدْ نَبْذُلُ الْمَالَ سَحًّا لاَ حِسَابَ لَهُ وَنَطْعُنُ الْخَيْلَ شَزْرًا فِي مَآقِيهَا
وَلَيْلَةٍ يَصْطَلِي بِالْفَرْثِ جَازِرُهَا يَخْتَصُّ بِالنَّقَرَى الْمُثْرِينَ دَاعِيهَا
وَلَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أَنْدِيَةٍ جَرْبَا جُمَادِيَّةٍ قَدْ بِتُّ أَسْرِيهَا
لاَ يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ مِنَ الْقَرِيسِ وَلاَ تَسْرِي أَفَاعِيهَا
أَوْقَدْتُ فِيهَا لِذِي الضَّرَّاءِ جاحمة كَالْبَرْقِ ذَاكِيَةَ الأَرْكَانِ أَحْمِيهَا
أَوْرَثَنِي ذَاكُمُ عَمْرٌو وَوَالِدُهُ مِنْ قَبْلِهِ كَانَ بِالْمَثْنَى يُغَالِيهَا
كَانُوا يُبَارُونَ أَنْوَاءَ النُّجُومِ فَمَا دَنَّتْ عَنِ السُّورَةِ الْعلْيَا مَسَاعِيهَا[٢]

فأجابه حسان بن ثابت فقال: [من البسيط]

سُقْتُمْ كِنَانَةَ جَهْلاً مِنْ سَفَاهَتِكُمْ إِلَى الرَّسُولِ فَجُنْدُ الله مُخْزِيهَا
أَوْرَدْتُمُوهَا حِيَاضَ الْمَوْتِ ضَاحِيَةً فَالنَّارُ مَوْعِدُهَا وَالْقَتْلُ لاَقِيهَا
جَمَعْتُمُوهُمْ أَحَابِيشًا بِلاَ حَسَبٍ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَاغِيهَا
أَلاَّ اعْتَبَرْتُمْ بِخَيْلِ الله إِذْ قَتَلَتْ أَهْلَ الْقَلِيبِ وَمَنْ أَلْقَيْنَهُ فِيهَا؟!
كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَكْنَاهُ بِلاَ ثَمَنٍ وَجَزِّ نَاصِيَةٍ كُنَّا مَوَالِيهَا[٣]

قال ابن هشام: أنشدنيها أبو زيد الأنصارى لكعب بن مالك، قال: وبيت هبيرة ابن أبي وهب وهو: [من البسيط]

---

(١) في السيرة: نيطت عَلَيَّ.
(٢) ينظر السيرة النبوية (٣/ ٨٣ - ٨٧) والبداية والنهاية (٤/ ٦٠ - ٦١).
(٣) ينظر السيرة النبوية (٣/ ٨٧ - ٨٨) والبداية والنهاية (٤/ ٦١) وسبل الهدى والرشاد (٤/ ٢٣٢).

وَلَيْلَةٍ يَصْطَلِي بِالْفَرْثِ جَازِرُهَا ... يَخْتَصُّ بِالنَّقَرَى الْمُثْرِينَ دَاعِيهَا

يروى لجنوب أخت عمرو ذي الكلب الهذلي في أبيات لها في غير يوم أحد (١).

قال ابن إسحاق: وقال كعب بن مالك، يجيب هبيرة بن أبي وهب: [من الطويل]

أَلاَ هَلْ أَتَى غَسَّانَ عَنَّا وَدُونَهُمْ ... مِنَ الأَرْضِ خَرْقٌ سَيْرُهُ مُتَنَعْنِعُ؟

صَحَارٍ وَأَعْلاَمٌ كَأَنَّ قَتَامَهَا ... مِنَ الْبُعْدِ نَقْعٌ هَامِدٌ مُتَقَطِّعُ

تَظَلُّ بِهِ الْبُزْلُ الْعَرَامِيسُ رُزَّحًا ... وَيَخْلُو بِهِ غَيْثُ السِّنِينَ فَيُمْرِعُ

بِهِ جِيَفُ الْحَسْرَى يَلُوحُ صَلِيبُهَا ... كَمَا لاَحَ كَتَّانُ التِّجَارِ الْمُوَضَّعُ

بِهِ الْعِينُ وَالآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً ... وَبِيضُ نَعَامٍ قَيْضُهُ يَتَفَلَّعُ

مَجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا كُلُّ فَخْمَةٍ ... مُذَرَّبَةٍ فِيهَا الْقَوَانِسُ تَلْمَعُ

وَكُلُّ صَمُوتٍ فِي الصِّوَانِ كَأَنَّهَا ... إِذَا لُبِسَتْ نَهْيٌ مِنَ الْمَاءِ مُتْرَعُ

وَلَكِنْ بِبَدْرٍ سَائِلُوا مَنْ لَقِيتُمُ ... مِنَ النَّاسِ، وَالأَنْبَاءُ بِالْغَيْبِ تَنْفَعُ

وَإِنَّا بِأَرْضِ الْخَوْفِ لَوْ كَانَ أَهْلُهَا ... سِوَانَا لَقَدْ أَجْلَوْا بِلَيْلٍ فَأَقْشَعُوا

إِذَا جَاءَ مِنَّا رَاكِبٌ كَانَ قَوْلُهُ ... أَعِدُّوا لِمَا يُزْجِي ابْنُ حَرْبٍ وَيَجْمَعُ

فَمَهْمَا يُهِمُّ النَّاسَ مِمَّا يَكِيدُنَا ... فَنَحْنُ لَهُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ أَوْسَعُ

فَلَوْ غَيْرُنَا كَانَتْ جَمِيعًا تَكِيدُهُ الْـ ... ـبَرِيَّةُ قَدْ أَعْطَوْا يَدًا وَتَوَرَّعُوا

نُجَالِدُ لاَ تَبْغِي عَلَيْنَا قَبِيلَةٌ ... مِنَ النَّاسِ إِلاَّ أَنْ يُهَانُوا وَيُفْظَعُوا

وَلَمَّا ابْتَنَوْا بِالْعِرْضِ قَالَ سَرَاتُنَا ... عَلاَمَ إِذَا لَمْ نَمْنَعِ الْعِرْضَ نَزْرَعُ؟!

وفِينَا رَسُولُ اللهِ نَتْبَعُ أَمْرَهُ ... إِذَا قَالَ فِينَا الْقَوْلَ لاَ نَتَظَلَّعُ

تَدَلَّى عَلَيْهِ الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ ... يُنَزَّلُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ وَيُرْفَعُ

نُشَاوِرُهُ فِيمَا نُرِيدُ وَقَصْرُنَا ... إِذَا مَا اشْتَهَى أَنَّا نُطِيعُ وَنَسْمَعُ

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ لَمَّا بَدَوْا لَنَا: ... ذَرُوا عَنْكُمُ هَوْلَ الْمَنِيَّاتِ وَاطْمَعُوا

وَكُونُوا كَمَنْ يَشْرِي الْحَيَاةَ تَقَرُّبًا ... إِلَى مَلِكٍ يُحْيَا لَدَيْهِ وَيُرْجَعُ

وَلَكِنْ خُذُوا مِيثَاقَكُمْ وَتَوَكَّلُوا ... عَلَى اللهِ؛ إِنَّ الأَمْرَ للهِ أَجْمَعُ

فَسِرْنَا إِلَيْهِمْ جَهْرَةً فِي رِحَالِهِمْ ... ضُحَيًّا عَلَيْنَا الْبِيضُ لاَ نَتَخَشَّعُ

---

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/ ٨٨).

بِمَلْمُومَةٍ فِيهَا السَّنَوَّرُ وَالْقَنَا ... إِذَا ضَرَبُوا أَقْدَامَهَا لاَ تُوَرَّعُ
فَجِئنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسْطَهُ ... أَحَابِيش مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمُقَنَّعُ
ثَلاَثَةُ آلاَفٍ وَنَحْنُ نصِيَّةٌ(١) ... ثَلاَثُ مِئِينَ إِنْ كَثُرْنَا فَأَرْبَعُ
نُغَاوِرُهُمْ تَجْرِي الْمَنِيَّةُ بَيْنَنَا ... نُشَارِعُهُمْ حَوْضَ المَنَايَا وَنَشْرَعُ
تَهَادَى قِسِيُّ النَّبْعِ فِينَا وَفِيهِمُ ... وَمَا هُوَ إلاَّ الْيَثْرِبِيُّ المَقْطَّعُ
وَمَنْجُوفَةٌ حِرْمِيَّةٌ صَاعِدِيَّةٌ ... يُذَرُّ عَلَيْهَا السَّمُّ سَاعَةَ تُصْنَعُ
تَصُوبُ بِأَبْدَانِ الرِّجَالِ وَتَارَةً ... تَمُرُّ بِأَعْرَاضِ الْبِصَارِ تَقَعْقَعُ
وَخَيْلٌ تَرَاهَا بِالْفَضَاءِ كَأَنَّهَا ... جَرَادُ صَبًا فِي قَرَّةٍ يَتَرَيَّعُ
فَلَمَّا تَلاَقَيْنَا وَدَارَتْ بِنَا الرَّحَا ... وَلَيْسَ لأَمْرٍ حَمَّهُ الله مَدْفَعُ
ضَرَبْنَاهُمُ حَتَّى تَرَكْنَا سَرَاتَهُمْ ... كَأَنَّهُمُ بِالْقَاعِ خُشْبٌ مُصَرَّعُ
لَدُنْ غُدْوَةً حَتَّى اسْتَفَقْنَا عشيةً ... كَأَنَّ ذَكَانَا حَرُّ نَارٍ تَلَفَّعُ
وَرَاحُوا سِرَاعًا مُوجَعِينَ كَأَنَّهُمْ ... جَهَامٌ هَرَاقَتْ مَاءَهُ الرِّيحُ مُقْلِعُ
وَرُحْنَا وَأُخْرَانَا بِطَاءٌ كَأَنَّنَا ... أُسُودٌ عَلَى لَحْمٍ بِبِيشَةَ ضُلَّعُ
فَنِلْنَا وَنَالَ الْقَوْمُ مِنَّا وَرُبَّمَا ... فَعَلْنَا وَلكِنْ ما لَدَى الله أَوْسَعُ
وَدَارَتْ رَحَانَا وَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمُ ... وَقَدْ جَعَلُوا كُلٌّ مِنَ الشَّرِّ يَشْبَعُ
وَنَحْنُ أُنَاسٌ لاَ نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً ... عَلَى كُلِّ مَنْ يَحْمِي الذِّمَارَ وَيَمْنَعُ
جِلاَدٌ عَلَى رَيْبِ الْحَوَادِثِ لاَ نَرَى ... عَلَى هَالِكٍ عَيْنًا لَنَا الدَّهْرَ تَدْمَعُ
بَنُو الْحَرْبِ لاَ نَعْيَا بِشَيْءٍ نَقُولُهُ ... وَلاَ نَحْنُ مِمَّا جَرَّتِ الْحَرْبُ نَجْزَعُ
بَنُو الْحَرْبِ إِنْ نَظْفَرْ فَلَسْنَا بِفُحَّشٍ ... وَلاَ نَحْنُ مِنْ أَظْفَارِهَا نَتَوَجَّعُ
وَكُنَّا شِهَابًا يَتَّقِي النَّاسُ حَرَّهُ ... وَيفْرُجُ عَنْهُ مَنْ يَلِيهِ وَيسْفَعُ
فَخَرْتَ عَلَيَّ ابْنَ الزِّبَعْرَى وَقَدْ سَرَى ... لَكُمْ طَلَبٌ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ مُتْبِعُ
فَسَلْ عَنْكَ فِي عَلْيَا مَعَدٍّ وَغَيْرِهَا ... مِنَ النَّاسِ: مَنْ أَخْزَى مَقَامًا وَأَشْنَعُ؟!
ومَنْ هُوَ لَمْ تَتْرُكْ لَهُ الْحَرْبُ مَفْخَرًا؟! ... وَمَنْ خَدُّهُ يَوْمَ الْكَرِيهةِ أَضْرَعُ؟!
شَدَدْنَا بِحَوْلِ الله وَالنَّصْرِ شَدَّةً ... عَلَيْكُمْ، وَأَطْرَافُ الأَسِنَّةِ شُرَّعُ

---

(١) في ط: عصابة. والمثبت من السيرة، والبداية والنهاية. ونصية: خيار القوم.

فَكُرُ الْقَنَا فِيكُمْ كَأَنَّ فُرُوعَهَا عَزَالَى مَزَادٍ مَاؤُهَا يَتَهَزَّعُ
عَمَدْنَا إِلَى أَهْلِ اللِّوَاءِ وَمَنْ يَطِرْ بِذِكْرِ اللِّوَاءِ فَهْوَ فِي الْحَمْدِ أَسْرَعُ
فَخَانُوا وَقَدْ أَعْطَوْا يَدًا وَتَخَاذَلُوا أَبَى الله إلاَّ أَمْرَهُ وَهْوَ أَصْنَعُ[١]

قال ابن هشام: وكان كعب قد قال: «مجالدنا عن جذمنا كل فخمة»[٢]، فقال رسول الله ﷺ: «أيصلح أن تقول: مجالدنا عن ديننا؟» فقال كعب: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «فهو أحسن» فقال كعب: «مجالدنا عن ديننا»[٣].

قال ابن إسحاق: وقال عبد الله بن الزبعرى فى يوم أحد: [من الرمل]

يَا غُرَابَ الْبَيْنِ أَسْمَعْتَ فَقُلْ إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئًا قَدْ فُعِلْ
إِنَّ لِلْخَيْرِ وَلِلشَّرِّ مَدًى وَكِلاَ ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبَلْ
والْعَطِيَّاتُ خِسَاسٌ بَيْنَنَا[٤] وَسَوَاءٌ قَبْرُ مُثْرٍ وَمُقِلْ
كُلُّ عَيْشٍ وَنَعِيمٍ زَائِلٌ وَبَنَاتُ الدَّهْرِ يَلْعَبْنَ بِكُلّ
أَبْلِغَا حَسَّانَ عَنِّي آيَةً فَقَرِيضُ الشِّعْرِ يَشْفِي ذَا الْغُلَلْ
كَمْ تَرَى بالْجَرِّ مِنْ جُمْجُمَةٍ وَأَكُفٌّ قَدْ أُتِرَّتْ وَرِجِلْ
وَسَرَابِيلَ حِسَانٍ عَرِيَتْ عَنْ كُمَاةٍ أُهْلِكُوا فِي الْمُنْتَزَلْ
كَمْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدٍ مَاجِدِ الجَدَّيْنِ مِقْدَامٍ بَطَلْ
صَادِقِ النَّجْدَةِ قَرْمٍ بَارِعٍ غَيْرِ مُلْتَاثٍ لَدَى وَقْعِ الأَسَلْ
فَسَلِ الْمِهْرَاسَ مَا سَاكِنُهُ بَيْنَ أَقْحَافٍ وَهَامٍ كَالْحَجَلْ
لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأَسَلْ
حِينَ حَكَّتْ بِقُبَاءٍ بَرْكَهَا واسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِي عَبْدِ الأَشَلْ
ثُمَّ خَفُّوا عِنْدَ ذَاكُمْ رُقَّصًا رَقَصَ الْحَفَّانِ يَعْلُو فِي الْجَبَلْ
فَقَتَلْنَا الضِّعْفَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَاعْتَدَلْ
لاَ أَلُومُ النَّفْسَ إلاَّ أَنَّنَا لَوْ كَرَرْنَا لَفَعَلْنَا الْمُفْتَعَلْ

---

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/ ٨٨ - ٩٥) والبداية (٤/ ٦١ - ٦٣) وسبل الهدى والرشاد (٤/ ٢٣٢)
(٢) جذمنا: أصلنا. والفخمة: الكتيبة الضخمة.
(٣) ينظر السيرة النبوية (٣/ ٩٥ - ٩٦) وسبل الهدى والرشاد (٤/ ٢٣٣).
(٤) في البداية والنهاية: بينهم.

بِسُيُوفِ الْهِنْدِ تَعْلُو هَامَهُمْ عَلَلًا تَعْلُوهُمُ بَعْدَ نَهَلْ[١]

فأجابه حسان بن ثابت: [من الرمل]

ذَهَبَتْ يَابْنَ الزِّبَعْرَى وَقْعَةٌ كَانَ مِنَّا الْفَضْلُ فِيهَا لَوْ عَدَلْ
وَلَقَدْ نِلْتُمْ وَنِلْنَا مِنْكُمْ وَكَذَاكَ الْحَرْبُ أَحْيَانًا دُوَلْ
نَضَعُ الأَسْيَافَ فِي أَكْتَافِكُمْ حَيْثُ نَهْوَى عَلَلًا بَعْدَ نَهَلْ
نُخْرِجُ الأَصْبَحَ مِنْ أَسْتَاهِكُمْ كَسُلَاحِ النيبِ يَأْكُلْنَ الْعَصَلْ
إِذْ تُوَلُّونَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ هَرَبًا فِي الشِّعْبِ أَشْبَاهَ الرَّسَلْ
إِذْ شَدَدْنَا شَدَّةً صَادِقَةً فَأَجَأْنَاكُمْ إِلَى سَفْحِ الْجَبَلْ
بِخَنَاطِيلَ كَأَشْدَافِ[٢] الْمَلَا مَنْ يُلَاقُوهُ مِنَ النَّاسِ يُهَلْ
ضَاقَ عَنَّا الشِّعْبُ إِذْ نَجْزَعُهُ وَمَلَأْنَا الْفُرْطَ مِنْهُ وَالرِّجَلْ
بِرِجَالٍ لَسْتُمُ أَمْثَالَهُمْ أُيِّدُوا جِبْرِيلَ نَصْرًا فَنَزَلْ
وَعَلَوْنَا يَوْمَ بَدْرٍ بِالتُّقَى طَاعَةَ اللهِ وَتَصْدِيقِ الرُّسُلْ
وَقَتَلْنَا كُلَّ رَأْسٍ مِنْهُمُ وَقَتَلْنَا كُلَّ جَحْجَاحٍ رفل
وَتَرَكْنَا فِي قُرَيْشٍ عَوْرَةً يَوْمَ بَدْرٍ وَأَحَادِيثَ الْمَثَلْ
وَرَسُولُ اللَّهِ حَقًّا شَاهِدٌ يَوْمَ بَدْرٍ وَالتَّنَابِيلُ الْهُبَلْ
في قريش مِنْ جُمُوعٍ جَمَّعُوا مِثْلَ ما يُجْمَعُ في الخِصْبِ الهَمَلْ
نَحْنُ لا أَمْثَالُكُمْ وِلْدَ اسْتِهَا نَحْضُرُ البَأْسَ إِذَا البَأْسُ نَزَلْ[٣]

قال ابن هشام: وأنشدني أبو زيد الأنصاري: «وأحاديث المثل»، والبيت الذي قبله. وقوله: «في قريش من جموع جمعوا» عن غير ابن إسحاق[٤].

قال ابن إسحاق: وقال كعب بن مالك يبكي حمزة بن عبد المطلب وقتلى أحد

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٣/٩٦، ٩٧)، والبداية والنهاية (٤/٦٣ - ٦٤).
(٢) فى ط، والبداية: أشداق. والمثبت كما في السيرة. ويروى: كأمذاق. والخناطيل: الجماعات. والأمذاق: أخلاط الناس. والأشدفي الفرس العظيم. والملا: ما اتسع من الأرض.
(٣) ينظر السيرة النبوية (٣/٩٨ - ١٠٠) والبداية والنهاية (٤/٦٤ - ٩٥) وسبل الهدى والرشاد (٤/٢٣٤ - ٢٣٥).
(٤) ينظر السيرة النبوية (٣/١٠٠).

من المسلمين: [من المتقارب]

نَشَجْتَ وَهَلْ لَكَ مِنْ مَنْشَجِ ... وَكُنْتَ مَتَى تَذَّكِرْ تَلْجَجِ
تَذَكُّرَ قَوْمٍ أَتَانِي لَهُمْ ... أَحَادِيثُ فِي الزَّمَنِ الأَعْوَجِ
فَقَلْبُكَ مِنْ ذِكْرِهِمْ خَافِقٌ ... مِنَ الشَّوْقِ والحُزْنِ المُنْضَجِ
وَقَتْلاَهُمُ فِي جِنَانِ النَّعِيمِ ... كِرَامُ المَدَاخِلِ والمخرَجِ
بِمَا صَبَرُوا تَحْتَ ظِلِّ اللِّوَاءِ ... لواءِ الرَّسُولِ بِذِي الأَضْوُجِ
غَدَاةَ أَجَابَتْ بِأَسْيَافِهَا ... جميعًا بَنُو الأَوْسِ والخزرجِ
وأشياع أحْمَدَ إذْ شايعوا ... عَلَى الحق ذِي النُّورِ والمنْهج
فَمَا بَرِحُوا يَضْرِبُونَ الكُمَاةَ ... وَيَمْضُونَ في القَسْطَلِ المُرْهَجِ
كَذَلِكَ حَتَّى دَعَاهُمْ مَلِيكٌ ... إِلَى جَنَّةٍ دَوْحَةِ المَوْلِجِ
فَكُلُّهُمُ مَاتَ حُرَّ البَلاَءِ ... عَلَى مِلَّةِ اللهِ لَمْ يَحْرَجِ
كَحَمْزَةَ لَمَّا وَفَى صَادِقًا ... بِذِي هَبَّةٍ صَارِمٍ سَلْجَجِ
فَلاَقَاهُ عَبْدُ بَنِي نَوْفَلٍ ... يُبَرْبِرُ كَالجَمَلِ الأَدْعَجِ
فَأَوْجَرَهُ حَرْبَةً كَالشِّهَابِ ... تَلَهَّبُ في اللهَبِ المُوهَجِ
وَنُعمانُ أوْفى بِميثَاقِهِ ... وَحَنْظَلَةُ الخيرِ لم يُحْنَجِ
عن الحَقِّ حَتَّى غَدَتْ رُوحُهُ ... إِلَى مَنْزِلٍ فَاخِرِ الزِّبْرِجِ
أولئكَ لاَ مَنْ ثوى مِنْكُمُ ... مِنَ النَّارِ في الدَّرْكِ المُرْتَجِ(١)

فأجابه ضرار بن الخطاب الفهري: [من المتقارب]

أَيَجْزَعُ كَعْبٌ لأشياعِهِ ... ويبكي من الزمن الأعوجِ؟!
عَجِيجَ المُذَكِّي رَأَى إِلْفَهُ ... تَرَوَّحَ فِي صَادِرٍ مُحْنَجِ
فَرَاحَ الرَّوَايَا وَغَادَرْنَهُ ... يُعَجْعِجُ قَسْرًا وَلَمْ يُحْدَجِ
فَقُولاَ لِكَعْبٍ: يُثَنِّ البُكَا ... وَلِلنِّيءِ مِنْ لَحْمِهِ يَنْضَجِ
لِمَصْرَعِ إِخْوَانِهِ فِي مَكَرٍّ ... مِنَ الخيل ذِي قَسْطَلٍ مُرْهِجِ
فَيَا لَيْتَ عَمْرًا وَأَشْيَاعَهُ ... وَعُتْبَةَ فِي جَمْعِنَا السَّوْرَجِ
فَيَشْفُوا النُّفُوسَ بِأَوْتَارِهَا ... بِقَتْلَى أُصِيبَتْ مِنَ الخَزْرَجِ

---

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٠٠ - ١٠٢) والبداية والنهاية (٤/ ٦٥ - ٦٦).

وَقَتْلَى من الأوْسِ في مَعْرَكٍ أُصيبوا جميعًا بِذِي الأضْوَجِ
وَمَقْتلِ حَمْزَةَ تَحْتَ اللِّوَاءِ بِمُطَّرِدٍ مَارِنٍ مُخْلَجِ
وَحَيْثُ انَثَنى مُصْعَبٌ ثَاوِيًا بِضَرْبَةِ ذِي هَبَّةٍ سَلْجَجِ
بِأُحْدٍ، وأَسْيَافُنَا فِيهِمُ تَلَهَّبُ كَاللَّهَبِ المُوهِجِ
غَدَاةَ لقينَاكُمُ في الحَدِيدِ كَأُسْدِ البَرَاحِ فَلَمْ نُعْنَجِ
بِكُلِّ مُجَلَّحَةٍ كَالعُقَابِ وَأَجْرَدَ ذِي مَيْعَةٍ مُسْرَجِ
فَدُسْنَاهُمُ ثَمَّ حَتَّى انثَنَوْا سِوَى زَاهِقِ النَّفْسِ أَوْ مُحْرَجِ(١)

قال ابن هشام: وبعض أهل العلم بالشعر ينكرُ هذا لضرار، وقول كعب: «ذي النور والمنهج» عن أبي زيد الأنصاري.

قال ابن إسحاق: وقال عبد الله بن الزبعرى في يوم أحد: [من الطويل]

أَلاَ ذَرَفَتْ مِنْ مقلَتَيْكَ دُمُوعُ وَقَدْ بَانَ مِنْ حَبْلِ الشَّبَابِ قُطُوعُ؟!
وشَطَّ بِمَنْ تَهْوَى المزَارُ وَفَرَّقَتْ نَوَى الحيِّ دَارٌ بِالحَبِيبِ فَجُوعُ
وَلَيْسَ لِمَا وَلَّى عَلَى ذي حَرَارَةٍ وَإِنْ طَالَ تَذْرَافُ الدُّمُوعِ رُجُوعُ
فَذَرْ ذَا، وَلَكِنْ هَلْ أَتَى أُمَّ مَالِكٍ أَحَادِيثُ قَوْمِي، والحدِيثُ يشيعُ
وَمَجْنَبُنَا جُرْدًا إِلَى أَهْلِ يثْرِبٍ عَنَاجِيجَ مِنْهَا مُتْلَدٌ وَنَزِيعُ
عَشيَّةَ سِرْنَا فِي لهام يَقُودنا ضَرُورُ الأَعَادِي للصدِيقِ نَفُوعُ
نَشُدُّ عَلَيْنَا كُلَّ زَغْفٍ كَأَنَّهَا غَدِيرٌ بِضَوْجِ الوَادِيَيْنِ نَقِيعُ
فَلَمَّا رَأَوْنَا خَالَطَتْهُمْ مَهَابَةٌ وَعَايَنَهُمْ أَمْرٌ هُنَاكَ فَظِيعُ
وَوَدُّوا لَو انَّ الأَرْضَ يَنْشَقُّ ظَهْرُهَا بِهِمْ وَصَبُورُ القَوْمِ ثَمَّ جَزُوعُ
وَقَدْ عُرِّيَتْ بِيضٌ كَأَنَّ وَمِيضَهَا حَرِيقٌ تَرَقَّى فِي الأَبَاءِ سَرِيعُ
بِأَيْمَانِنَا نَعْلُو بِهَا كُلَّ هَامَةٍ وَمِنْهَا سِمَامٌ لِلْعَدُوِّ ذَرِيعُ
فَغَادَرْنَ قَتْلَى الأَوْسِ عَاصِبَةً بِهِمْ ضِبَاعٌ وَطَيْرٌ يَعْتَفِينَ وقُوعُ
وَجَمْعُ بَنِي النَّجَّارِ فِي كُلِّ تَلْعَةٍ بِأَبْدَانِهِمْ مِنْ وَقْعِهِنَّ نَجِيعُ
وَلَوْلاَ عُلُوُّ الشِّعْبِ غَادَرْنَ أَحْمَدًا وَلَكِنْ عَلاَ، والسَّمْهَرِيُّ شَرُوعُ
كَمَا غَادَرَتْ في الكرِّ حَمْزَةَ ثَاوِيًا وفِي صَدْرِهِ مَاضِي الشَّبَاةِ وَقِيعُ

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٠٢ - ١٠٤).

وَنُعْمَانَ قَدْ غَادرْنَ تَحْتَ لِوَائِهِ ... عَلَى لَحْمِهِ طَيْرٌ يَجِفْنَ وُقُوعُ
بِأُحْدٍ وَأَرْمَاحُ الكُمَاةِ يَرُدْنَهُمْ ... كَمَا غَالَ أَشْطَانَ الدِّلاَءِ نُزُوعُ(١)

فأجابه حسان بن ثابت فقال: [من الطويل]

أَشَاقَكَ مِنْ أُمِّ الوليدِ ربُوعُ ... بلاَقِعُ مَا مِنْ أَهْلِهِنَّ جَمِيعُ؟
عَفَاهُنَّ صَيْفِيُّ الرِّيَاحِ وَوَاكِفٌ ... مِنَ الدَّلْوِ رَجَّافُ السَّحَابِ هَمُوعُ
فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ مَوْقِدُ النَارِ حَوْلَهُ ... رَوَاكِدُ أَمثَالُ الحمام كنوعُ
فَدَعْ ذِكْرَ دَارٍ بددتْ بَيْنَ أَهْلِهَا ... نَوًى لِمَتينَاتِ الحبَالِ قَطُوعُ
وَقُلْ إنْ يَكُنْ يَوْمٌ بأُحْدٍ يَعُدُّهُ ... سَفِيهٌ فَإِنَّ الحَقَّ سَوْفَ يَشيعُ
فَقَدْ صَابَرَتْ فِيهِ بَنُو الأَوْسِ كُلُّهُمْ ... وَكَانَ لَهُمْ ذِكْرٌ هُنَاكَ رَفِيعُ
وَحَامى بَنُو النَّجَّارِ فِيهِ وَصَابرُوا ... وَمَا كَانَ مِنْهُمْ في اللقَاءِ جزوعُ
أمام رسُولِ اللهِ لا يخذلُونه ... لَهُمْ نَاصِرٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَشَفِيعُ
وَفَوْا إذْ كَفَرْتُمْ- يا سَخِينَ- بِرَبِّكُمْ ... وَلاَ يَسْتَوِي عَبْدٌ وَفَى وَمُضِيعُ
بِأَيْدِيهِمُ بيضٌ إذَا حَمِشَ الوَغَى ... فَلاَ بُدَّ أنْ يَرْدَى لَهُنَّ صَرِيعُ
كَمَا غَادَرَتْ في النَّقْعِ عُتْبَةَ ثَاوِيًا ... وسَعْدًا صَرِيعًا، والوشِيجُ شُروعُ
وَقَدْ غَادَرَتْ تَحْتَ العَجَاجَةِ مُسْنَدًا ... أُبيًّا وَقَدْ بَلَّ القَمِيصَ نَجِيعُ
بِكَفِّ رَسُولِ الله حَيْثُ تَنَصَّبَتْ ... عَلَى القَوم مِمَّا قَدْ يُثِرْنَ نُقُوعُ
أُولئِكَ قَوْمٌ سَادَةٌ مِنْ فُرُوعِكُمْ ... وَفِي كُلِّ قَوْم سَادَةٌ وَفُرُوعُ
بِهِنَّ نُعِزُّ الله حَتَّى يُعِزَّنَا ... وَإِنْ كَانَ أَمْرٌ- يَا سَخِينَ- فظيعُ
فَلاَ تَذْكُرُوا قَتْلَى وَحَمْزَةُ فِيهِمُ ... قَتِيلٌ ثَوَى لِلَّهِ وَهْوَ مُطِيعُ
فَإِنَّ جِنَانَ الخُلْدِ مَنْزِلَةٌ لَهُ ... وَأَمْرُ الَّذِي يَقْضِي الأُمُورَ سَرِيعُ
وَقَتْلاَكُمُ فِي النَّارِ أَفْضَلُ رِزْقِهِمْ ... حَمِيمٌ مَعًا في جَوْفِهَا وضَرِيعُ(٢)

قال ابن إسحاق: وقال عمرو بن العاص في يوم أحد: [من الطويل]

خَرَجْنَا مِنَ الفيفا عليهم كأنَّنَا ... مَعَ الصُّبْحِ مِنْ رَضْوَى الحبيكُ المنطقُ
تَمَنَّتْ بَنُو النَّجَّارِ جَهْلاً لِقَاءنَا ... لَدَى جَنْبِ سَلْعٍ، وَالأَمَانِيُّ تَصْدُقُ

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٠٤ - ١٠٧).
(٢) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٠٧ - ١١٠).

فَمَا رَاعَهُمْ بِالشَّرِّ إِلاَّ فُجَاءَةً ... كَرَادِيسُ خَيْلٍ فِي الأَزِقَّةِ تَمْرُقُ
أَرَادُوا لِكَيْمَا يَسْتَبِيحُوا قِبَابَنَا ... وَدُونَ القِبَابِ اليَوْمَ ضَرْبٌ مُحَرِّقُ
وكانَتْ قِبَابًا أومنَتْ قبْلَ مَا تَرَى ... إِذَا رَامَهَا قَوْم أُبِيحُوا وأُحْنِقُوا
كأن رءوس الخزرجيين غُدْوَةً ... وَأَيمَانَهُمْ بِالمشرفِيَّةِ بَرْوَقُ(١)

فأجابه كعب بن مالك فيما ذكر ابن هشام فقال: [من الطويل]

ألا أبلغا فهرًا عَلَى نَأْيِ دَارِهَا ... وعنْدَهُمْ مِنْ عِلْمنَا اليَوْمَ مَصْدَقُ
بِأَنَّا غَدَاةَ السَّفحِ مِنْ بَطْنِ يَثْرِبٍ ... صَبَرْنَا، وَرَايَاتُ المَنيَّةِ تَخْفِقُ
صَبَرْنَا لَهُمْ والصَّبْرِ مِنَّا سَجِيَّةٌ ... إِذَا طَارَتِ الأَبْرَامُ نَسْمُو وَنَرْتُقُ
عَلَى عَادَةٍ تِلْكُمْ جَرَيْنَا بِصَبْرِنَا ... وَقِدْمًا لَدى الغَايَاتِ نَجْرِي فَنَسْبِقُ
لَنَا حَوْمَةٌ لاَ تُسْتَطَاعُ يَقُودُهَا ... نَبِيٌّ أَتَى بِالحَقِّ عَفٌّ مُصَدَّقُ
أَلاَ هَلْ أَتَى أَفْنَاءَ فِهْرِ بْن مَالِكٍ ... مُقَطَّعُ أَطْرَافٍ وَهَامٌ مُفَلَّقُ؟!(٢)

وقال عمرو بن العاص: [من مجزوء الكامل]

لَمَّا رَأَيْتُ الحربَ يَنْـ ... ـزُو شَرّهَا بِالرَّضْفِ نَزْوَا
وَتَنَازَلَتْ(٣) شَهْبَاءُ تَلْـ ... ـحُو النَّاسَ بِالضَّرَّاءِ لَحْوَا
أَيْقَنْتُ أَنَّ الموتَ حَقْـ ... ـقٌ، وَالحياةُ تَكُونُ لَغْوَا
حَمَّلْتُ أَثْوَابِي عَلَى ... عَتَدٍ يَبُذُّ الخيْلَ رَهْوَا
رَبِذٍ كَيَعْفُورِ الصَّرِيـ ... ـمةِ رَاعَهُ الرَّامُونَ دَحْوَا
شَنِجٍ نَسَاهُ ضَابِطٍ ... لِلْخَيْلِ إرْخَاءً وَعَدْوَا
فَفِدًى لَهُمْ أُمِّي غَدَا ... ةَ الرَّوْعِ إِذْ يَمْشُونَ قَطْوَا
سَيْرًا إِلَى كَبْشِ الْكَتيـ ... ـبَةِ إِذْ جَلَتْهُ الشَّمْسُ جَلْوَا(٤)

قال ابن إسحاق: فأجابه كعب بن مالك فقال: [من البسيط]

أَبْلِغْ قُرَيْشًا وَخَيْرُ القوْلِ أَصْدَقُهُ ... وَالصِّدْقُ عِنْدَ ذَوِي الأَلْبَابِ مَقْبُولُ
أنْ قَدْ قَتَلْنَا بِقَتْلاَنَا سَرَاتَكُمُ ... أَهْلَ اللِّوَاءِ فَفِيمَا يَكْثُرُ القِيلُ

---

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١١٠ - ١١١).
(٢) ينظر المصدر السابق (٣/ ١١١ - ١١٢).
(٣) في السيرة: وتناولت.
(٤) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١١٦، ١١٧).

وَيَوْمَ بَدْرٍ لقينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ فِيهِ مَعَ النَّصْرِ مِيكَالٌ وَجِبْرِيلُ
إِنْ تَقْتُلُونَا فَدِينُ الحقِّ فِطْرَتُنَا والقتْلُ فى الحقِّ عِنْدَ اللَّهِ تَفْضِيلُ
وَإِنْ تَرَوْا أَمْرَنَا فِي رَأْيِكُمْ سفَهًا فَرَأْىُ مَنْ خَالَفَ الإِسْلَامَ تَضْلِيلُ
فَلَا تَمَنَّوْا لِقَاحَ الحربِ واقْتَعِدُوا إِنَّ أَخَا الحربِ أَصْدى اللَّوْنِ مَشْغُولُ
إِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا ضَرْبًا تُرَاحُ لَهُ عُرْجُ الضِّبَاعِ لَهُ خَذْمٌ رَعَابِيلُ
إِنَّا بَنُو الحرْبِ نَمْرِيهَا وَنَنْتُجُهَا وَعِنْدَنَا لِذوِى الأَضْغَانِ تَنْكِيلُ
إِنْ يَنجُ مِنْهَا ابْنُ حَرْبٍ بَعْدَ مَا بَلَغَتْ مِنْهُ التَّرَاقِي وَأَمْرُ اللهِ مَفْعُولُ
فَقَدْ أَفَادَتْ لَهُ حِلْمًا وَموعظَةً لِمَنْ يكُونُ لَهُ لُبٌّ وَمَعْقُولُ
وَلَوْ هَبَطْتُمْ بِبَطْنِ السَّيْلِ كَافَحَكُمْ ضَرْبٌ بِشَاكِلَةِ البَطْحَاءِ تَرعِيلُ
تَلْقَاكُمُ عُصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ مِمَّا يُعِدّونَ لِلْهَيْجَا سَرَابِيلُ
مِنْ جِذْمِ غَسَّانَ مُسْتَرْخٍ حَمَائِلُهُمْ لاَ جُبَنَاءُ وَلاَ مِيلٌ مَعَازِيلُ
يَمْشُونَ تَحْتَ عَمَايَاتِ القِتَالِ كَمَا تَمْشِي المصَاعِبَةُ الأُدْمُ المَرَاسِيلُ
أَوْ مِثْلِ مشي أُسود الطلِّ أَلْثَقَهَا يَوْمُ رَذَاذٍ مِنَ الجَوْزَاءِ مَشْمُولُ
فِي كُلِّ سَابِغَةٍ كَالنِّهْيِ مُحْكَمَةٍ قِيَامُهَا فَلَجٌ كَالسَّيْفِ بُهْلُولُ
تَرُدُّ حَدَّ قِرَانِ النَّبْلِ خَاسِئَةً وَيَرْجِعُ السَّيْفُ عَنْهَا وَهْوَ مَفْلُولُ
وَلَوْ قَذَفتمْ بِسَلْعٍ عَنْ ظُهُورِكُمُ وَلِلْحَيَاةِ وَدَفْعِ المَوْتِ تَأْجِيلُ
مَا زَالَ فِي القَوْمِ وَتْرٌ مِنْكُمُ أَبَدًا تَعْفُو السلاَمُ عَلَيْهِ وَهْوَ مَطْلُولُ
عَبْدٌ وَحُرٌّ كَرِيمٌ مُوثَقٌ قَنَصًا شَطْرَ المَدِينَةِ مَأْسُورٌ وَمَقْتُولُ
كُنَّا نُؤَمِّلُ أُخْرَاكُمْ فَأَعْجَلَكُمْ مِنَّا فَوَارِسُ لاَ عُزْلٌ وَلاَ مِيلُ
إِذَا جَنَى فِيهِمُ الجَانِي فَقَدْ عَلِمُوا حَقًّا بِأَنَّ الَّذِي قَدْ جَرَّ مَحْمُولُ
مَا يَجْنِ لاَ يَجْنِ[١] مِنْ إِثْمٍ مُجَاهَرَةً وَلاَ مَلُومٌ وَلاَ فِي الغُرْمِ مَخْذُولُ[٢]

وقال حسان بن ثابت يذكر عدة أصحاب اللواء يوم أحد [من الخفيف]:

مَنَعَ النَّوْمَ بِالعشَاءِ الهُمُومُ وَخَيَالٌ إِذَا تَغُورُ النُّجُومُ
مِنْ حَبِيبٍ أَصَابَ[٣] قَلْبَكَ مِنْهُ سَقَمٌ فَهْوَ دَاخِلٌ مَكْتُومُ

(١) في ط: ما نحن لا نحن والمثبت كما في السيرة.
(٢) ينظر السيرة النبوية (٣/١١٧ - ١٢١).
(٣) في السيرة: أضاف.

يَالَقَوْمِي هَلْ يَقْتُلُ المرءَ مِثْلِي وَاهِنُ البَطْشِ والعِظَام سَئُومُ؟
لَوْ يَدِبُّ الحولِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّرْ رِعَلَيْهَا لأَنْدَبَتْهَا الكُلُومُ
شَأْنُهَا العِطْرُ والفِراشُ وَيَعْلُو هَا لجينٌ وَلُؤلُؤٌ مَنْظُومُ
لَمْ تَفُتْهَا شَمْسُ النَّهارِ بشيءٍ غَيْرَ أَنَّ الشَّبَابَ لَيْسَ يَدُومُ
إنَّ خَالِي خَطِيبُ جَابِيَةِ الجو لاَنِ [عِنْدَ النُّعْمَانِ حِينَ يَقُومُ
وأَنَا الصَّقْرُ عِنْدَ بَابِ ابْنِ سَلْمَى يَوْمَ نُعْمَانُ فى الكُبُولِ سَقِيمُ](١)
فَأَبِى وَوَاقِدٌ أُطْلِقَا لِي يَوْمَ رَاحَا وَكَبْلُهُ مَحْطُومُ
وَرَهَنْت اليَدَين عَنْهُم جميعًا كُلُّ كَفّ جُزءٌ لَهَا مَقْسُومُ
وَسَطَتْ نِسْبَتِي الذَّوَائِبَ مِنْهُمْ كُلُّ دَارٍ فِيهَا أَبٌ لِي عَظِيمُ
وَأَبِي فِي سُمَيْحَة القَائِلُ الْفَا صِلُ يَوْمَ الْتَقَتْ عَلَيْهِ الْخُصُومُ
تِلْكَ أَفْعَالُنَا وَفِعْلُ الزِّبَعْرَى خَامِلٌ فِي صَدِيقِهِ مَذْمُومُ
رُبَّ حِلْمٍ أَضَاعَهُ عَدَمُ المَا لِ، وَجَهْلٍ غَطَّى عَلَيْهِ النَّعِيمُ!
إنَّ دَهْرًا يَبُورُ فِيهِ ذَوُو الْعِلْـ ـمِ لَدَهْرٌ هُوَ الْعَتُوُّ الزَّنِيمُ
لاَ تَسُبَّنَّنِي فَلَسْتَ بِسِبِّي إِنَّ سِبِّي مِنَ الرِّجَالِ الْكَرِيم
مَا أُبَالِي أَنَبَّ بِالْحَزْنِ تَيْسٌ أَمْ لَحَانِي بِظَهْرِ غَيْبٍ لَئِيمُ
وَلِيَ الْبَأْسُ مِنْكُمُ إِذْ رَحَلْتُمْ أُسْرَةٌ مِنْ بَنِي قُصَيٍّ صَمِيمُ
تِسْعَةٌ تَحْمِلُ اللِّوَاءَ وَطَارَتْ فِي رِعَاعٍ مِنَ الْقَنَا مَخْزُومُ
وَأَقَامُوا حَتَّى أُبِيحُوا جَمِيعًا فِي مَقَامٍ وَكُلُّهُمْ مَذْمُومُ
بِدَمٍ عَانِكٍ وَكَانَ حِفَاظًا أَنْ يُقِيمُواْ إِنَّ الْكَرِيمَ كَرِيمُ
وَأَقَامُوا حَتَّى أُزِيرُوا شَعُوبًا وَالْقَنَا فِي نُحُورِهِمْ مَحْطُومُ
وَقُرَيْشٌ تَفِرُّ مِنَّا لِوَاذًا أَنْ يُقِيمُوا وَخَفَّ مِنْهَا الْحُلُومُ
لَمْ تطِقْ حَمْلَهُ الْعَوَاتِقُ مِنْهُمْ إِنَّمَا يَحْمِلُ اللوَاءَ النُّجُومُ(٢)

قال ابن هشام: وأنشدني أبو عبيدة للحجاج بن علاط السلمي يمدح على بن أبي طالب - رضي الله عنه - ويذكر قتله طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار صاحب لواء المشركين يوم أحد: [من الكامل]

(١) المثبت من السيرة .
(٢) ينظر: السيرة النبوية (٣/ ١٢١ - ١٢٥).

لـلـه أَيُّ مُـذَبِّـبٍ عَـنْ حُـرْمَـةٍ	أَعْنِي ابْنَ فَاطِمَةَ الْمُعِمَّ الْمُخْوِلاَ
سَبَقَتْ يَدَاكَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ	تَرَكتْ طُلَيْحَةَ لِلْجَبِينِ مُجَدَّلاَ
وَشَدَدْتَ شَدَّةَ بَاسِلٍ فَهَزَمْتَهُمْ [(١)]	بِالْجَرِّ إِذْ يَهْوُونَ أَخْوَلَ أَخْوَلاَ [(٢)]

قال ابن إسحاق: وقال حسان بن ثابت يبكى حمزة بن عبد المطلب، ومن أصيب من أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد [من مجزوء الكامل]:

يَـامَـيُّ قُـومِـي فَـانْـدُبِـن	نَّ بِسُحْرَةٍ شَجْوَ النَّوَائِحْ
كَالْحَامِلاَتِ الْوَقْرَ بِالثْـ	ـثِقْلِ الْمُلحَّاتِ الدَّوَالِحْ
أَلْـمُـعْـولاَتِ الْـخَـامِـشَـا	تِ وُجُوهَ حُرَّاتٍ صَحَائِحْ
وَكَأَنَّ سَيْلَ دُمُوعِهَا الْـ	أَنْصَابُ تُخْضَبُ بِالذَّبَائِحْ
يَـنْـقُـضْـنَ أَشْـعَـارًا لَـهُـنْ	نَ هُنَاكَ بَادِيَةَ الْمَسَائِحْ
وَكَـأَنَّـهَـا أَذْنَـابُ خَـيْـ	ـلٍ بالضُّحَى شُمْسٍ رَوَامِحْ
مِنْ بَيْنِ مَشْرُورٍ ومَجْـ	ـزُورٍ يُـذَعْـذَعُ بِـالْـبَـوَارِحْ
يَـبْـكِـيـنَ شَـجْـوَ مُـسَلَّـبَـا	تٍ كَـدَّحَـتْـهُـنَّ الـكَـوَادِحْ
وَلَـقَـدْ أَصَـابَ قُـلُـوبَـهَـا	مَجْلٌ لَهُ جُلَبٌ قَوَارِحْ
إِذْ أَقْـصَـدَ الْـحِـدْثَـانُ مَـنْ	كُنَّا نُرَجِّي إِذْ نُشَايِحْ [(٣)]
أَصْـحَـابَ أُحْـدٍ غَـالَـهُـمْ	دَهْـرٌ أَلَـمَّ لَـهُ جَـوَارِحْ
مَـنْ كَـانَ فَـارِسَـنَـا وَحَـا	مِينَا إِذَا بُعِثَ الْمَسَالِحْ
يَـا حَـمْـزَ، لاَ وَالـلـه لاَ	أَنْسَاكَ مَا صُرَّ اللقَائِحْ
لِـمُـنَـاخِ أَيْـتَـامٍ وَأَضْـ	ـيَافٍ وَأَرْمَـلَـةٍ تُـلاَمِـحْ
وَلِـمَـا يَـنُـوبُ الـدَّهْـرُ فِـي	حَرْبٍ لحَرْبٍ وَهْيَ لاَقِحْ
يَـا فَـارِسًـا يَـا مِـدْرَهًـا	يَا حَمْزَ قَدْ كُنْتَ الْمُصَامِحْ
عَـنَّـا شَـدِيـدَاتِ الْـخُـطُـو	بِ إِذَا يَنُوبُ لَهُنَّ فَادِحْ
ذَكَّـرْتَـنِـي أَسَـدَ الـرَّسُـو	لِ وَذَاكَ مِدْرَهُنَا الْمُنَافِحْ
عَـنَّـا وَكَـانَ يُـعَـدُّ إِذْ	عُدَّ الشَّرِيفُونَ الْجَحَاجِحْ

(١) في السيرة: فكشفتهم.
(٢) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٢٥).
(٣) نشايح: نحذر.

يَعْلُو الْقَمَاقِمَ جَهْرَةً سَبْطَ الْيَدَيْنِ أَغَرَّ وَاضِحْ
لاَ طَائِشٌ رَعِشٌ وَلاَ ذُو عِلَّةٍ بِالْحَمْلِ آنِحْ
بَحْرٌ فَلَيْسَ يُغِبُّ جَا رًا مِنْهُ سَيْبٌ أَوْ مَنَادِحْ
أَوْدَى شَبَابُ أُولِي الْحَفَا ئِظِ وَالثَّقِيلُونَ الْمَراجِحْ
أَلْمُطْعِمُونَ إِذَا الْمَشَا تِي مَا يُصَفِّقُهُنَّ نَاضِحْ
لَحْمَ الْجِلاَدِ وَفَوْقَهُ مِنْ شَحْمِهِ شُطَبٌ شَرَائِحْ
لِيُدَافِعُوا عَنْ جَارِهِمْ مَا رَامَ ذُو الضِّغْنِ الْمُكَاشِحْ
لَهْفِي لِشُبَّانٍ رُزِئْـ ـنَاهُم كَأَنَّهُم الْمَصَابِحْ
شُمٌّ بَطَارِقَةٍ غَطَا رِفَةٍ خَضَارِمَةٍ مَسَامِحْ
أَلْمُشْتَرُونَ الْحَمْدَ بِالْـ أَمْوَالِ إِنَّ الْحَمْدَ رَابِحْ
وَالْجَامِزُونَ بِلُجْمِهِمْ يَوْمًا إِذَا مَا صَاحَ صَائِحْ
مَنْ كَانَ يُرْمَى بِالنَّوَا قِرِ مِنْ زَمَانٍ غَيْرِ صَالِحْ
مَا إِنْ تَزَالُ رِكَابُهُ يَرْسِمنْ فِي غُبْرٍ صَحَاصِحْ
رَاحَتْ تَبَارَى وَهْوَ فِي رَكْبٍ صُدُورُهُمُ رَوَاشِحْ
حَتَّى تَئُوبَ لَهُ الْمَعَا لِي لَيْسَ مِنْ فَوْزِ السَّفَائِحْ
يَاحَمْزَ، قَدْ أَوْحَدْتَنِي كَالْعُودِ شَذَّبَهُ الْكَوَافِحْ
أَشْكُو إِلَيْكَ وَفَوْقَكَ التُّـ ـرْبُ الْمُكَوَّرُ وَالصَّفَائِحْ
مِنْ جَنْدَلٍ يُلْقِيهِ فَوْ قَكَ إِذْ أَجَادَ الضَّرْحَ ضَارِحْ
فِي وَاسِعٍ يَحْشُونَهُ بِالتُّرْبِ سَوَّتْهُ الْمَمَاسِحْ
فَعَزَاؤُنَا أَنَّا نَقُو لُ وَقَوْلُنَا بَرْحٌ بَوَارِحْ:
مَنْ كَانَ أَمْسَى وَهْوَ عَمْـ ـمَا أَوْقَعَ الْحِدْثَانُ جَانِحْ
فَلْيَأْتِنَا فَلْتَبْكِ عَيْـ ـنَاهُ لِهَلْكَانَا النَّوَافِحْ
أَلْقَائِلِينَ الْفَاعِلِيـ ـنَ ذَوِي السَّمَاحَةِ وَالْمَمَادِحْ
مَنْ لاَ يَزَالُ نَدَى يَدَيْـ ـهِ لَهُ طِوَالَ الدَّهْرِ مَائِحْ

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان، وبيته: «المطمعون إذا المشاتى»، وبيته: «والجامزون بلحمهم»، وبيته: «من كان يرمى بالنواقر» عن غير

ابن إسحاق [١].

قال ابن إسحاق: وقال حسان بن ثابت - أيضًا - يبكي حمزة بن عبد المطلب:

[من السريع]

أَتَعْرِفُ الدَّارَ عَفَا رَسْمَهَا ... بَعْدَكَ صَوْبُ الْمُسْبِلِ الْهَاطِلِ
بَيْنَ السَّرَادِيحِ فَأُدْمَانَةٍ ... فَمَدْفَعِ الرَّوْحَاءِ فِي حَائِلِ
سَأَلْتُهَا عَنْ ذَاكَ فَاسْتَعْجَمَتْ ... لَمْ تَدْرِ مَا مَرْجُوعَةُ السَّائِلِ
دَعْ عَنْكَ دَارًا قَدْ عَفَا رَسْمُهَا ... وَابْكِ عَلَى حَمْزَةَ ذِي النَّائِلِ
أَلْمَالِئِ الشِّيزَى إِذَا أَعْصَفَتْ ... غَبْرَاءُ فِي ذِي الشَّبِمِ الْمَاحِلِ
والتَّارِكِ الْقِرْنَ لَدَى لِبْدَةٍ ... يَعْثُرُ فِي ذِي الْخُرُصِ الذَّابِلِ
وَاللاَّبِسِ الْخَيْلَ إِذَا أَحْجَمَتْ ... كَاللَّيْثِ فِي غَابَتِهِ الْبَاسِلِ
أَبْيَضُ فِي الذِّرْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ ... لَمْ يَمْرِ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ
مَالَ شَهِيدًا بَيْنَ أَسْيَافِكُمْ ... شَلَّتْ يَدَا وَحْشِيٍّ مِنْ قَاتِلِ
أَيَّ امْرِئٍ غَادَرَ فِي أَلَّةٍ ... مَطْرُورَةٍ مَارِنَةِ الْعَامِلِ
أَظْلَمَتِ الأَرْضُ لِفِقْدَانِهِ ... وَاسْوَدَّ نُورُ الْقَمَرِ النَّاصِلِ
صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ فِي جَنَّةٍ ... عَالِيَةٍ مُكْرَمَةِ الدَّاخِلِ
كُنَّا نَرَى حَمْزَةَ حِرْزًا لَنَا ... فِي كُلِّ أَمْرٍ نَابَنَا نَازِلِ
وَكَانَ فِي الإِسْلاَمِ ذَا تُدْرَإٍ ... يَكْفِيكَ فَقْدَ الْقَاعِدِ الْخَاذِلِ
لاَ تَفْرَحِي يَا هِنْدُ وَاسْتَحْلِبِي ... دَمْعًا وَأَذْرِي عَبْرَةَ الثَّاكِلِ
وَابْكِي عَلَى عُتْبَةَ إِذْ قَطَّهُ ... بِالسَّيْفِ تَحْتَ الرَّهَجِ الْجَائِلِ
إِذْ خَرَّ فِي مَشْيَخَةٍ مِنْكُمُ ... مِنْ كُلِّ عَاتٍ قَلْبُهُ جَاهِلِ
أَرْدَاهُمُ حَمْزَةُ فِي أُسْرَةٍ ... يَمْشُونَ تَحتَ الْحَلَقِ الْفَاضِلِ
غَدَاةَ جِبْرِيلُ وَزِيرٌ لَهُ ... نِعْمَ وَزِيرُ الْفَارِسِ الْحَامِلِ [٢]

وقال كعب بن مالك يبكي حمزة بن عبد المطلب: [من الكامل]

طَرَقَتْ هُمُومُكَ فَالرُّقَادُ مُسَهَّدُ ... وَجَزِعْتَ أَنْ سُلِخَ الشَّبَابُ الأَغْيَدُ

---

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٢٦ - ١٣٢).

(٢) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٣٢ - ١٣٥). وسبل الهدى والرشاد (٤/ ٢٣٨).

وَدَعَتْ فُؤَادَكَ لِلْهَوَى ضَمْرِيَّةٌ فَهَوَاكَ غَوْرِيٌّ وَصَحْبُكَ مُنْجِدُ
فَدَعِ التَّمَادِي فِي الْغَوَايَةِ سَادِرًا قَدْ كُنْتَ فِي طَلَبِ الْغَوَايَةِ تُفْنَدُ
وَلَقَدْ أَنَى لَكَ أَنْ تَنَاهَى طَائِعًا أَوْ تَسْتَفِيقَ إِذَا نَهَاكَ الْمُرْشِدُ
وَلَقَدْ هُدِدْتُ لِفَقْدِ حَمْزَةَ هَدَّةً ظَلَّتْ بَنَاتُ الْجَوْفِ مِنْهَا تُرْعَدُ
وَلَوَ انَّهُ فُجِعَتْ حِرَاءُ بِمِثْلِهِ لَرَأَيْتَ رَاسِيَ صَخْرِهَا يَتَبَدَّدُ
قِرْمٌ تَمَكَّنَ فِي ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ حَيْثُ النُّبُوَّةُ وَالنَّدَى وَالسُّؤْدَدُ
وَالْعَاقِرُ الْكُومِ الْجِلَادِ إِذَا غَدَتْ رِيحٌ يَكَادُ الْمَاءُ مِنْهَا يَجْمُدُ
وَالتَّارِكُ الْقِرْنَ الْكَمِيَّ مُجَدَّلاً يَوْمَ الْكَرِيهَةِ وَالْقَنَا يَتَقَصَّدُ
وَتَرَاهُ يَرْفُلُ فِي الْحَدِيدِ كَأَنَّهُ ذُو لِبْدَةٍ شَثْنُ الْبَرَاثِنِ أَرْبَدُ
عَمُّ النَّبِي مُحَمَّدٍ وَصَفِيُّهُ وَرَدَ الْحِمَامَ فَطَابَ ذَاكَ الْمَوْرِدُ
وَأَتَى الْمَنِيَّةَ مُعْلَمًا فِي أُسْرَةٍ نَصَرُوا النَّبِيَّ وَمِنْهُمُ الْمُسْتَشْهِدُ
وَلَقَدْ إِخَالُ بِذَاكَ هِنْدًا بُشِّرَتْ لِتُمِيتَ دَاخِلَ غُصَّةٍ لاَ تَبْرُدُ
مِمَّا صَبَحْنَا بِالْعَقَنْقَلِ قَوْمَهَا يَوْمًا تَغَيَّبَ فِيهِ عَنْهَا الأَسْعَدُ
وَبِبِئْرِ بَدْرٍ إِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ
حَتَّى رَأَيْتُ لَدَى النَّبِيِّ سَرَاتَهُمْ قِسْمَيْنِ: نَقْتُلُ مَنْ نَشَاءُ وَنَطْرُدُ
فَأَقَامَ بِالْعَطَنِ الْمُعَطَّنِ مِنْهُمُ سَبْعُونَ عُتْبَةُ مِنْهُمُ وَالأَسْوَدُ
وَابْنَ الْمُغِيرَةِ قَدْ ضَرَبْنَا ضَرْبَةً فَوْقَ الْوَرِيدِ لَهَا رَشَاشٌ مُزْبِدُ
وَأُمَيَّةُ الْجُمَحِيُّ قَوَّمَ مَيْلَهُ عَضْبٌ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ مُهَنَّدُ
فَأَتَاكَ فَلُّ الْمُشْرِكِينَ كَأَنَّهُمْ - وَالْخَيْلُ تَثْفِنُهُمْ - نَعَامٌ شُرَّدُ
شَتَّانَ مَنْ هُوَ فِي جَهَنَّمَ ثَاوِيًا أَبَدًا وَمَنْ هُوَ فِي الْجِنَانِ مُخَلَّدُ(١)

وقال كعب - أيضا - يبكى حمزة بن عبد المطلب: [من المتقارب]

صَفِيَّةُ قُومِي وَلاَ تَعْجِزِي وَبَكِّي النِّسَاءَ عَلَى حَمْزَةِ
وَلاَ تَسْأَمِي أَنْ تُطِيلِي الْبُكَا عَلَى أَسَدِ الله فِي الْهِزَّةِ
فَقَدْ كَانَ عِزًّا لأَيْتَامِنَا وَلَيْثَ الْمَلَاحِمِ فِي الْبِزَّةِ

---

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/١٣٦-١٣٩) وسبل الهدى والرشاد (٤/٢٣٨-٢٣٩).

يُـرِيـدُ بِـذَاكَ رِضَـا أَحْـمَـدِ وَرِضْوَانَ ذِي الْعَرْشِ وَالْعِزَّةِ[١]

وقال كعب - أيضًا - فى يوم أحد: [من المتقارب]

إِنَّـكِ عَـمْـرَ أَبِـيـكِ الْـكَـرِيـ ـم إِنْ تَسْأَلِي عَنْكِ مَنْ يَجْتَدِينَا
فَإِنْ تَسْأَلِي ثُمَّ لاَ تُكْذَبِي يُخَبِّرْكِ مَنْ قَدْ سَأَلْتِ الْيَقِينَا
بِـأَنَّـا لَـيَـالِـىَ ذَاتِ الْـعِـظَـا م كُنَّا ثِمَالاً لِمَنْ يَعْتَرِينَا
تَـلُـوذُ الـنُّـجُـودُ بِـأَذْرَائِـنَـا مِنَ الضُّرِّ فِي أَزَمَاتِ السِّنِينَا
بِجَدْوَى فُضُولِ أُولِي وُجْدِنَا وَبِالصَّبْرِ وَالْبَذْلِ فِي الْمُعْدِمِينَا
وَأَبْقَتْ لَنَا جَلَمَاتُ الْحُرُو بِ مما نُوَازِي لَدُنْ أَنْ بُرِينَا
مَعَاطِنَ تَهْوِي إِلَيْهَا الْحُقُو قُ يَحْسَبُهَا مَنْ رَآهَا الْفَتِينَا
تُخَيَّسُ فِيهَا عِتَاقُ الْجِمَا لِ صُحْمًا دَوَاجِنَ حُمْرًا وَجُونَا
وَدُفَّاعَ رَجْلٍ كَمَوْجِ الْفُرَا تِ يَقْدُمُ جَأْوَاءَ جُولاً طَحُونَا
تَرَى لَوْنَهَا مِثْلَ لَوْنِ النُّجُو م رَجْرَاجَةً تُبْرِقُ النَّاظِرِينَا
فَإِنْ كُنْتَ عَنْ شَأْنِنَا جَاهِلاً فَسَلْ عَنْهُ ذَا الْعِلْمِ مِمَّنْ يَلِينَا
بِنَا كَيْفَ نَفْعَلُ إِنْ قَلَّصَتْ عَوَانًا ضَرُوسًا عَضُوضًا حَجُونَا
أَلَسْنَا نَشُدُّ عَلَيْهَا الْعِصَا بَ حَتَّى تَدِرَّ وَحَتَّى تَلِينَا؟!
وَيَـوْمٍ لَـهُ رَهَـجٌ دَائِـمٌ شَدِيدِ التَّهَاوُلِ حَامِي الْإِرِينَا
طَوِيلٍ شَدِيدِ أُوَارِ الْقِتَا لِ تَنْفِي قَوَاحِزُهُ الْمُقْرِفِينَا
تَخَالُ الْكُمَاةَ بِأَعْرَاضِهِ ثِمَالاً عَلَى لَذَّةٍ مُتْرَفِينَا
تَعَاوَرُ أَيْمَانُهُمْ بَيْنَهُمْ كُئُوسَ الْمَنَايَا بِحَدِّ الظُّبِينَا
شَهِدْنَا فَكُنَّا أُولِي بَأْسِهِ وَتَحْتَ الْعَمَايَةِ وَالْمُعْلَمِينَا
بِخُرْسِ الْحَسِيسِ حِسَانٍ رِوَاءٍ وَبُصْرِيَّةٍ قَدْ أَجَمْنَ الْجُفُونَا
فَمَا يَنْفَلِلْنَ وَمَا يَنْحَنِينَ وَمَا يَنْتَهِينَ إِذَا مَا نُهِينَا
كَبَرْقِ الْخَرِيفِ بِأَيْدِي الْكُمَاةِ يُفَجِّعْنَ بِالظِّلِّ هَامًا سُكُونَا
وَعَلَّمَنَا الضَّرْبَ آبَاؤُنَا وَسَوْفَ نُعَلِّمُ أَيْضًا بَنِينَا
جِلاَدَ الْكُمَاةِ وَبَذْلَ التِّلاَ دِ عَنْ جُلِّ أَحْسَابِنَا مَا بَقِينَا

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٣٩ - ١٤٠).

إِذَا مَرَّ قِرْنٌ كَفَى نَسْلُهُ ... وَأَوْرَثَهُ بَعْدَهُ آخَرِينَا
نَشِبُّ وَتَهْلِكُ آبَاؤُنَا ... وَبَيْنَا نُرَبِّي بَنِينَا فَنِينَا
سَأَلْتُ بِكَ ابْنَ الزِّبَعْرَى فَلَمْ ... أُنَبَّأْكَ فِي الْقَوْمِ إِلاَّ هَجِينَا
خَبِيثًا تُطِيفُ بِكَ الْمُنْدِيَاتُ ... مُقِيمًا عَلَى اللؤْمِ حِينًا فَحِينَا
تَبَجَّسْتَ تَهْجُو رَسُولَ الْمَلِيـ ... ـكِ قَاتَلَكَ الله جِلْفًا لَعِينَا
تَقُولُ الْخَنَا ثُمَّ تَرْمِي بِهِ ... نَقِيَّ الثِّيَابِ تَقِيًّا أَمِينَا

قال ابن هشام: أنشدنى بيته: «بنا كيف نفعل»، والبيت الذي يليه، والبيت الثالث منه، وصدر الرابع منه، وقوله: «نشب وتهلك آباؤنا»، والبيت الذى يليه، والثالث منه - أبو زيد الأنصارى (١).

قال ابن إسحاق: وقال كعب بن مالك - أيضًا - في يوم أحد [من البسيط]:

سَائِلْ قُرَيْشًا غَدَاةَ السَّفْحِ من أُحُدِ ... مَاذَا لَقِينَا وَمَا لاَقَوْا مِنَ الْهَرَبِ؟!
كُنَّا الأُسُودَ وَكَانُوا النُّمْرَ إِذْ زَحَفُوا ... ما إِنْ نُرَاقِبُ مِنْ إِلٍّ وَلاَ نَسَبِ
فَكَمْ تَرَكْنَا بِهَا مِنْ سَيد بَطَلٍ ... حَامِي الذِّمَارِ كَرِيمِ الْجَدِّ وَالْحَسَبِ
فِينَا الرَّسُولُ شِهَابٌ ثَمَّ نَتْبَعُهُ ... نُورٌ مُضِيءٌ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الشُّهُبِ
أَلْحَقُّ مَنْطِقُهُ وَالْعَدْلُ سِيرَتُهُ ... فَمَنْ يُجِبْهُ إِلَيْهِ يَنْجُ مِنْ تَبَبِ
نَجْدُ الْمُقَدَّمِ مَاضِي الْهَمِّ مُعْتَزِمٌ ... حِينَ الْقُلُوبُ عَلَى رَجْفٍ مِنَ الرُّعُبِ
يَمْضِي وَيَذْمُرُنَا مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ... كَأَنَّهُ الْبَدْرُ لَمْ يُطْبَعْ عَلَى الْكَذِبِ
بَدَا لَنَا فَاتَّبَعْنَاهُ نُصَدِّقُهُ ... وَكَذَّبُوهُ فَكُنَّا أَسْعَدَ الْعَرَبِ
جَالُوا وَجُلْنَا فَمَا فَاءُوا ولا رَجَعُوا ... وَنَحْنُ نَثْفِنُهُمْ لَمْ نَأْلُ فِي الطَّلَبِ
لَيْسَا سَوَاءً وَشَتَّى بَيْنَ أَمْرِهِمَا ... حِزْبُ الإِلَهِ وَأَهْلُ الشِّرْكِ وَالنُّصُبِ

قال ابن هشام: أنشدني من قوله: «نمضي ويذمرنا» إلى آخرها - أبو زيد (٢).

قال ابن إسحاق: وقال عبد الله بن رَواحة يبكى حمزة بن عبد المطلب- قال ابن هشام: أنشدنيها أبو زيد الأنصاريُّ لكعب بن مالك-: [من الوافر]

بَكَتْ عَيْنِي وحقَّ لَهَا بُكَاهَا ... وَمَا يُغْنِي الْبُكَاءُ وَلاَ العَوِيلُ

---

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٤٠ - ١٤٦).
(٢) ينظر :السيرة النبوية (٣/ ١٤٦ - ١٤٧).

عَلَى أَسَدِ الإِلَهِ غَدَاةَ قَالُوا أَحَمْزَةُ ذَاكُمُ الرَّجُلُ الْقَتِيلُ؟!
أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ جَمِيعًا هُنَاكَ وَقَدْ أُصِيبَ بِهِ الرَّسُولُ
أَبَا يَعْلَى لَكَ الأَرْكَانُ هُدَّتْ وَأَنْتَ الْمَاجِدُ الْبَرُّ الْوَصُولُ
عَلَيْكَ سَلاَمُ رَبِّكَ فِي جِنَانٍ مُخَالِطُهَا نَعِيمٌ لاَ يَزُولُ
أَلاَ يَا هَاشِمَ الأَخْيَارُ صَبْرًا فَكُلُّ فِعَالِكُمْ حَسَنٌ جَمِيلُ
رَسُولُ الله مُصْطَبِرٌ كَرِيمٌ بِأَمْرِ الله يَنْطِقُ إِذْ يَقُولُ:
أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي لُؤَيًّا فَبَعْدَ الْيَوْمِ دَائِلَةٌ تَدُولُ
وَقَبْلَ الْيَوْمِ مَا عَرَفُوا وَذَاقُوا وَقَائِعَنَا بِهَا يُشْفَى الْغَلِيلُ
نَسِيتُمْ ضَرْبَنَا بِقَلِيبِ بَدْرٍ غَدَاةَ أَتَاكُمُ الْمَوْتُ الْعَجِيلُ
غَدَاةَ ثَوَى أَبُو جَهْلٍ صَرِيعًا عَلَيْهِ الطَّيْرُ حَائِمَةً تَجُولُ
وَعُتْبَةُ وَابْنُهُ خَرَّا جَمِيعًا وَشَيْبَةُ عَضَّهُ السَّيْفُ الصَّقِيلُ
وَمَتْرَكُنَا أُمَيَّةَ مُجْلَعِبًّا وَفِي حَيْزُومِهِ لَدْنٌ نَبِيلُ
وَهَامَ بَنِي رَبِيعَةَ سَائِلُوهَا فَفِي أَسْيَافِنَا مِنْهَا فُلُولُ
أَلاَ يَا هِنْدُ لاَ تُبْدِي شَمَاتًا بِحَمْزَةَ إِنَّ عِزَّكُمْ ذَلِيلُ
أَلاَ يَا هِنْدُ فَابْكِي لاَ تَمَلِّي فَأَنْتِ الْوَالِهُ الْعَبْرَى الْهَبُولُ(١)

قال ابن إسحاق: وقال كعب أيضًا [من المتقارب]:

أَبْلِغْ قُرَيْشًا عَلَى نَأْيِهَا أَتَفْخَرُ مِنَّا بِمَا لَمْ تَلِ؟!
فَخَرْتُمْ بِقَتْلَى أَصَابَتْهُمُ فَوَاضِلُ مِنْ نِعَمِ الْمُفْضِلِ
فَحَلُّوا جِنَانًا وَأَبْقَوْا لَكُمْ أُسُودًا تُحَامِي عَنِ الأَشْبُلِ
تُقَاتِلُ عَنْ دِينِهَا وَسْطَهَا نَبِيٌّ عَنِ الْحَقِّ لَمْ يَنْكُلِ
رَمَتْهُ مَعَدٌّ بِعُورِ الْكَلاَمِ وَنَبْلِ الْعَدَاوَةِ لاَ تَأْتَلِي(٢)

قال ابن إسحاق: وقال ضرار بن الخطاب في يوم أحد: [من البسيط]

مَا بَالُ عينك قَدْ أَزْرَى بِهَا السُّهُدُ كَأَنَّمَا جَالَ فِي أَجْفَانِهَا الرَّمَدُ
أَمِنْ فِرَاقِ حَبِيبٍ كُنْتَ تَأْلَفُهُ قَدْ حَالَ مِنْ دُونِهِ الأَعْدَاءُ والْبُعُدُ؟!

---

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/١٤٨ - ١٤٩) والبداية والنهاية (٤/٦٨).
(٢) ينظر السيرة النبوية (٣/١٤٩).

أَمْ ذَاكَ مِنْ شَغْبِ قَوْمٍ لاَ جَدَاءَ بِهِمْ ... إِذَا الْحرُوبُ تَلَظَّتْ نَارُهَا تَقِدُ؟!
مَا يَنْتَهُونَ عَنِ الْغَيِّ الَّذِي رَكِبُوا ... وَمَا لَهُمْ مِنْ لُؤَيٍّ وَيْحَهُمْ عَضُدُ
وَقَدْ نَشَدْنَاهُمُ بِاللهِ قَاطِبَةً ... فَمَا تَرُدُّهُمُ الأَرْحَامُ وَالنُّشُدُ
حَتَّى إِذَا مَا أَبَوْا إِلاَّ مُحَارَبَةً ... وَاسْتَحْصَدَتْ بَيْنَنَا الأَضْغَانُ والْحِقَدُ
سِرْنَا إِلَيْهِمْ بِجَيْشٍ فِي جَوَانِبِهِ ... قَوَانِسُ الْبِيضِ وَالْمَحْبُوكَةُ السُّردُ
وَالْجُرْدُ تَرْفُلُ بِالأَبْطَالِ شَازِبَةً ... كَأَنَّهَا حِدَأٌ فِي سَيْرِهَا تُؤَدُ
جَيْشٌ يَقُودُهُمُ صَخْرٌ وَيَرْأَسُهُمْ ... كَأَنَّهُ لَيْثُ غَابٍ هَاصِرٌ حَرِدُ
فَأَبْرَزَ الْحَيْنُ قَوْمًا مِنْ مَنَازِلِهِمْ ... فَكَانَ مِنَّا وَمِنْهُمْ مُلْتَقًى أُحُدُ
فَغُودِرَتْ مِنْهُمُ قَتْلَى مُجَدَّلَةً ... كَالْمَعْزِ أَصْرَدَهُ بِالصَّرْدَحِ الْبَرَدُ
قَتْلَى كِرَامٌ بَنُو النَّجَّارِ وَسْطَهُمُ ... وَمُصْعَبٌ مِنْ قَنَانَا حَوْلَهُ قِصَدُ
وَحَمْزَةُ الْقَرْمُ مَصْرُوعٌ تُطِيفُ بِهِ ... ثَكْلَى وَقَدْ حُزَّ مِنْهُ الأَنْفُ وَالْكَبِدُ
كَأَنَّهُ حِينَ يَكْبُو فِي جَدِيَّتِهِ ... تَحْتَ الْعَجَاجِ وَفِيهِ ثَعْلَبٌ جَسِدُ
حُوَارُ نَابٍ وَقَدْ وَلَّى صَحَابَتُهُ ... كَمَا تَوَلَّى النَّعَامُ الْهَارِبُ الشُّرُدُ
مُجَلِّحِينَ وَلاَ يَلْوُونَ قَدْ مُلِئُوا ... رُعْبًا فَنَجَّتْهُمُ الْعَوْصَاءُ والْكُؤُدُ
تَبْكِي عَلَيْهِمْ نِسَاءٌ لاَ بُعُولَ لَهَا ... مِنْ كُلِّ سَالِبَةٍ أَثْوَابُهَا قِدَدُ
وَقَدْ تَرَكْنَاهُمُ لِلطَّيْرِ مَلْحَمَةً ... وَلِلضِّبَاعِ إِلَى أَجْسَادِهِمْ تَفِدُ[(١)]

وقالت صفية بنت عبد المطلب تبكي أخاها حمزة بن عبد المطلب [من الطويل]:

أَسَائِلَةٌ أَصْحَابَ أُحْدٍ مَخَافَةً ... بَنَاتُ أَبِي مِنْ أَعْجَمٍ وَخَبِيرِ
فَقَالَ الْخَبِيرُ: إِنَّ حَمْزَةَ قَدْ ثَوَى ... وَزِيرُ رَسُولِ اللهِ خَيْرُ وَزِيرِ
دَعَاهُ إِلَهُ الْحَقِّ ذُو الْعَرْشِ دَعْوَةً ... إِلَى جَنَّةٍ يَحْيَا بِهَا وَسُرُورِ
فَذَلِكَ مَا كُنَّا نُرَجِّي وَنَرْتَجِي ... لِحَمْزَةَ يَوْمَ الْحَشْرِ خَيْرَ مَصِيرِ
فَوَاللهِ لاَ أَنْسَاكَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا ... بُكَاءً وَحُزْنًا مَحْضَرِي ومَسِيرِي
عَلَى أَسَدِ اللهِ الَّذِي كَانَ مِدْرَهًا ... يَذُودُ عَنِ الإِسْلاَمِ كُلَّ كَفُورِ
فَيَا لَيْتَ شِلْوِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَعْظُمِي ... لَدَى أَضْبُعٍ تَعْتَادُنِي وَنُسُورِ
أَقُولُ وَقَدْ أَعْلَى النَّعِيَّ عَشِيرَتِي: ... جَزَى اللهُ خَيْرًا مِنْ أَخٍ وَنَصِيرِ

---

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٥٠ - ١٥٣).

قال ابن هشام: أنشدني بعض أهل العلم بالشعر قولها: «بكاء وحزنا محضري ومسيرى» (١).

وقالت نعم امرأة شماس بن عثمان تبكي شماسًا، وأصيب يوم أحد، فقالت [من البسيط]:

يَا عَيْنُ جُودِي بِفَيْضٍ غَيْرِ إِبْسَاسِ عَلَى كَرِيمٍ مِنَ الْفِتْيَانِ لَبَّاسِ (٢)
صَعْبِ الْبَدِيهَةِ مَيْمُونٍ نَقِيبَتُهُ حَمَّالِ أَلْوِيَةٍ رَكَّابِ أَفْرَاسِ
أَقُولُ لَمَّا أَتَى النَّاعِي لَهُ جَزَعًا: أَوْدَى الْجَوَادُ وَأَوْدَى الْمُطْعِمُ الْكَاسِي
وَقُلْتُ لَمَّا خَلَتْ مِنْهُ مَجَالِسُهُ: لاَ يُبْعِدُ اللهُ عَنَّا قُرْبَ شَمَّاسِ

فأجابها أخوها وهو أبو الحكم بن سعيد بن يربوع يعزيها فقال: [من البسيط]

إِقْنَىْ حَيَاءَكِ فِي سِتْرٍ وَفِي كَرَمٍ فَإِنَّمَا كَانَ شَمَّاسٌ مِنَ النَّاسِ
لاَ تَقْتُلِي النَّفْسَ إِذْ حَانَتْ مَنِيَّتُهُ فِي طَاعَةِ اللهِ يَوْمَ الرَّوْعِ وَالْبَاسِ
قَدْ كَانَ حَمْزَةُ لَيْثَ اللهِ فَاصْطَبِرِي فَذَاقَ يَوْمَئِذٍ مِنْ كَأْسِ شَمَّاسِ

وقالت هند بنت عتبة حين انصرف المشركون عن أحد: [من الطويل]

رَجَعْتُ وَفِي نَفْسِي بَلاَبِلُ جَمَّةٌ وَقَدْ فَاتَنِي بَعْضُ الَّذِي كَانَ مَطْلَبِي
مِنَ اصْحَابِ بَدْرٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ بَنِي هَاشِمٍ مِنْهُمْ وَمِنْ أَهْلِ يَثْرِبِ
وَلَكِنَّنِي قَدْ نِلْتُ شَيْئًا وَلَمْ يَكُنْ كَمَا كُنْتُ أَرْجُو فِي مَسِيرِي ومَرْكَبِي (٣)

قال ابن هشام: أنشدني بعض أهل العلم بالشعر قولها: «وقد فاتني بعض الذي كان مطلبي» وبعضهم ينكرها لهند (٤).

* * *

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/١٥٦– ١٥٧) وسبل الهدى والرشاد (٤/٢٣٩) والبداية والنهاية (٤/ ٦٨ - ٦٩).
(٢) صيغة مبالغة من « اللبس » تريد أنه يلبس أداة الحرب .
(٣) تنظر السيرة النبوية (٣/١٥٨ - ١٥٩) والبداية والنهاية (٤/٦٩).
(٤) ينظر السيرة النبوية (٣/١٥٩).

ومنها: غزوة (حمراء الأسد)(١)

أقام بها يطلب العدو الاثنين والثلاثاء، ورجع بعد خمس للمدينة، وهى على ثمانية أميال عن المدينة عن يسار الطريق إذا أردت الحليفة، وكانت صبيحة يوم أحد لست عشرة مضت، أو لثمان خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرًا من الهجرة؛ لطلب عدوهم بالأمس، ونادى مؤذن رسول الله ﷺ ألاَّ يخرج معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، أى: من شهد أحدًا. وإنما خرج - عليه السلام - مرهبًا للعدو؛ ليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوَّةً، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم، وظفر - عليه الصلاة والسلام - في مخرجه ذلك بمعاوية بن المغيرة بن أبي العاص، فأمر بضرب عنقه صبرًا (٢).

قال الحافظ مغلطاى: وحرمت الخمر في شوال، ويقال: سنة أربع. انتهى.

قال أبو هريرة، فيما رواه أحمد: حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما؟ فأنزل الله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ . . . ﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ٢١٩]، فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال فيهما إثم كبير، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يومًا من الأيام، صلى رجل من المهاجرين أمَّ أصحابه فى المغرب، فخلط في قراءته، فأنزل الله آية أغلَظَ منها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣]، وكان الناس يشربون، ثم نزلت آية أغلظ من ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ . . . . . ﴾ إلى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠]، قالوا: انتهينا ربنا (٣). والميسر: القمار وغيره.

---

(١) ينظر: المغازي للواقدي (١/ ٣٣٤ - ٣٤٠) تاريخ الطبري (٢/ ٥٣٤ - ٥٣٦) المغازي لعروة (١٧٤) الطبقات الكبرى (٢/ ٣٧) الدرر (١٦٧) جوامع السيرة (١٧٥) الكامل في التاريخ (٢/ ١٦٤ - ١٦٥) نهاية الأرب (١٧/ ١٢٦ - ١٢٧) البدء والتاريخ (٤/ ٢٠٥) الروض الأنف (٣/ ١٨٠) المنتظم (٣/ ١٧٢) تاريخ الإسلام (٢٢٣ - المغازي) سبل الهدى والرشاد (٤/ ٣٠٨ - ٣١٦).

(٢) ينظر السيرة النبوية (٣/ ٥٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥١) قال: حدثنا سريج بن النعمان ثنا أبو معشر عن أبي وهب مولى أبي هريرة عن أبي هريرة به وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٥٤): رواه أحمد وأبو وهب مولى أبي هريرة لم يجرحه أحد ولم يوثقه أحد وأبو نجيح ضعيف لسوء حفظه وقد وثقه غير =

وولد الحسن بن على في هذه السنة[١] .

ومنها: سرية محمد بن مَسْلمة في أربعة إلى كعب بن الأشرف اليهودى الشاعر رابعَ عَشَرَ ربيع، فقتله الله في داره ليلاً [٢].

وسرية زيد بن حارثة هلال جمادى الآخرة في مائة راكب إلى القَردة؛ يعترض عيرًا لقريش، فيها صفوان بن أمية، فأصابوها، فبلغ خمسها عشرين ألف درهم [٣].

* * *

= واحد، وسريج ثقة.

(١) ينظر تاريخ الطبري (٢/ ٥٣٧).

(٢) تقدم الكلام على قتل كعب بن الأشرف.

(٣) تقدم الكلام على هذه الغزوة في حوادث السنة الثالثة.

حوادث السنة الرابعة

فيها غزوة بني النَّضير - بفتح النون، وكسر الضاد المعجمة المبسوطة -: قبيلة كبيرة من اليهود، في ربيع الأول سنة أربع، وذكرها ابن إسحاق في الثالثة (١).

قال السهيلي: وكان ينبغى أن يذكرها بعد بدر؛ لما روى عقيل بن خالد وغيره، عن الزهري قال: كانت غزوة بني النضير بعد بئر معونة، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٢٦] (٢)، قال الحافظ أبو الفضل بن حجر: وهو استدلالٌ واهٍ؛ فإن الآية نزلت في شأن بني قريظة؛ فإنهم الذين ظاهروا الأحزاب، وأما بنو النضير، فلم يكن لهم في الأحزاب ذِكْر، بل كان من أعظم الأسباب في جمع الأحزاب ما ذكر من إجلائهم؛ فإنه كان من رءوسهم حُيَيُّ بن أخطب، وهو الذي حَسَّنَ لبني قريظة الغدر وموافقة الأحزاب، حتى كان من هلاكهم ما كان؛ فكيف يصير السابقُ لاحقًا؟! انتهى (٣).

وقد تقدم أن عامر بن الطفيل أعتَقَ عمرو بن أمية، لما قتل أهل بئر معونة، عن رقبة عن أمه، فخرج عمرو إلى المدينة، فصادف رجلين من بني عامر معهما عَقْدٌ وعهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به عمرو، فقال لهما عمرو: من أنتما؟ فذكرا له أنهما من بني عامر، فتركهما حتى ناما، فقتلهما عمرو، وظَنَّ أنه ظفر ببعض ثأر أصحابه، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: لقد قتلتَ قتيلين [لأَدِيَنَّهُمَا] (٤).

قال ابن إسحاق: وخرج - عليه الصلاة والسلام - إلى بني النضير يستعين بهم في دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية للجوار الذي كان ﷺ عقده لهما، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم - عليه السلام - يستعينهم في ديتهما، قالوا: يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببْتَ مما استعنْتَ بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنَّكُمْ لن تجدوه على مثل هذا الحال - وكان رسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم - قالوا: مَن رجل يعلو هذا البيتَ، فيلقي هذه الصخرة عليه، فيقتله ويريحنا منه؟! فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب،

---

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٩١).
(٢) ينظر الروض الأنف (٣/ ٢٥٠).
(٣) ينظر الفتح (٨/ ٦٨ - ٦٩).
(٤) ذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٣٢) وعزاه للطبراني وقال: رجاله ثقات.

فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقى عليه الصخرة - ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى - رضي الله عنهم [(١)] - قال ابن سعد: فقال سلام بن مشكم لليهود لا تفعلوا، والله ليُخْبَرَنَّ بما هممتم، وإنه لنقضٌ للعهد الذي بيننا وبينه [(٢)].

قال ابن إسحاق: وأتى رسولَ الله ﷺ الخَبَرُ من السماء بما أراد القوم، فقام - عليه الصلاة والسلام - مظهرًا أنه يقضي حاجة، وترك أصحابه في مجلسهم، ورجع مسرعًا إلى المدينة. واستبطأ النبيَّ ﷺ أصحابه، فقاموا في طلبه حتى انتهوا إليه، فأخبرهم بما أرادت اليهود من الغدر به [(٣)].

قال ابن عقبة: ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ .... ﴾ الآية [المائدة: ١١] [(٤)].

قال ابن إسحاق: فأمر - عليه الصلاة والسلام - بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم، قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، ثم سار بالناس حتى نزل بهم، فحاصرهم ست ليال.

قال ابن إسحاق: فتحصنوا منه بالحصون، فقطع النخل وحرقها وخرب، فنادوه: يا محمد، قد كنت تنهَى عن الفساد، وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتخريبها؟! [(٥)].

قال السهيلى: قال أهل التأويل: وقع في نفوس بعض المسلمين من هذا الكلام شيء، حتى أنزل الله: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ... ﴾ الآية [الحشر: ٥]، واللينة أَلْوَانُ التمر ما عدا العجوة والبرنيّ؛ ففي هذه الآية: أنه ﷺ لم يقطع من نخلهم إلا ما ليس بقوت للناس، وكانوا يقتاتون العجوة، وفي الحديث: «العجوة من الجنة، وتمرها يغذو أحسن غذاء» [(٦)]، والبرنيُّ - أيضًا - كذلك؛ ففي قوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٩١).
(٢) ينظر الطبقات الكبرى (٢/ ٤٢).
(٣) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٩١ - ١٩٢) المغازي للواقدي (١/ ٣٥٣) تاريخ الطبري (٢/ ٥٥٠- ٥٥٥) البداية والنهاية (٤/ ٨٥ - ٨٧).
(٤) ينظر دلائل النبوة (٣/ ١٧٦ ، ٣٥٤ - ٣٥٥).
(٥) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٩٢).
(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٤٨٨) والترمذي (٢٠٦٨) وابن ماجه (٣٤٥٥) من حديث أبي هريرة.

لِّينَةٍ . . . ﴾ [الحشر: ٥] - ولم يقل: «من نخلة» على العموم -: تنبيهٌ على كراهة قطع ما يقتات، ويغذو من شجر العدو إذا رجى أن يصل إلى المسلمين [(١)].

قال ابن إسحاق: وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج، منهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا؛ فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم، خرجنا معكم، فتربصوا، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فلم ينصروهم، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم عن أرضهم، ويكف عن دمائهم [(٢)].

وعن ابن سعد: أنهم حين همُّوا بغدره ﷺ، وأعلمه الله بذلك بعث إليهم محمد ابن مَسلمة أن اخرجوا من بلدي، فلا تساكنوني بها وقد هممتم بما هممتم من الغدر، وقد أجلتكم عشرًا، فمن رئى منكم بعد ذلك، ضربت عنقه، فمكثوا على ذلك أيامًا يتجهزون، وتكاروا من الناس إبلاً، فأرسل إليهم عبد الله بن أبي أن لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم؛ فإن معي ألَفين من قومي من العرب يدخلون حصنكم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان. فطمع حُيَيٌّ بما قال ابن أبي، فأرسل إلى رسول الله ﷺ: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك. فأظهر ﷺ التكبير وكَبَّر المسلمون بتكبيره، وسار إليهم - عليه الصلاة والسلام - في أصحابه، فصلى العصر بفِناء بني النضير، وعليٌّ يحمل رايته. فلما رأوا رسول الله ﷺ، قاموا على حصونهم معهم النبل والحجارة، واعتزلهم ابن أبي ولم يعنهم، وكذا حلفاؤهم من غطفان، فيئسوا من نصرهم، فحاصرهم ﷺ وقطع نخلهم، وقال لهم - عليه السلام-: « اخرجوا منها، ولكم دماؤكم وما حملَتِ الإبلُ إلا الحلْقَةَ » وهى بإسكان اللام، قال فى القاموس: الدرع. فنزلت اليهود على ذلك.

وكان حاصرهم خمسة عشر يومًا، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم، ثم أجلاهم عن المدينة.

قال محمد بن مسلمة: وحملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ستمائة بعير، فلحقوا بخيبر، وحزن المنافقون عليهم حزنًا شديدًا، وقبض ﷺ الأموال، ووجد من الحلقة خمسين درعا وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفًا، وكانت بنو النضير

(١) ينظر الروض الأنف (٣/ ٢٥٠).
(٢) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٩٢).

صفيًا لرسول الله ﷺ حبسًا لنوائبه، ولم يسهمْ منها لأحد من المسلمين؛ لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب، وإنما قذف الله في قلوبهم الرعب، وجلوا من منازلهم إلى خيبر، ولم يكن ذلك عن قتال من المسلمين لهم، فقسمها - عليه الصلاة والسلام - بين المهاجرين؛ ليرفع بذلك مؤنتهم عن الأنصار؛ إذ كانوا قد قاسموهم الأموال والديار، غير أنه أعطَى أبا دجانة، وسهل بن حنيف لحاجتهما(١)، وفي الإكليل: وأعطى سعد بن معاذ سيفَ ابن أبي الحقيق، وكان سيفًا له ذِكْرٌ عندهم.

غزوة بدر الأخيرة(٢)

وهي الصغرى، وتسمى: بدر الموعد، وكانت في شعبان بعد ذات الرقاع؛ كذا فى المواهب.

قال الحافظ شرف الدين البرماوى: هلال ذى القعدة؛ وذلك أن أبا سفيان قال يوم أحد: الموعدُ بيننا وبينكم رأس الحول، فقال النبي ﷺ: نعم، فخرج، ومعه ألف وخمسمائة، فأقاموا بها ثلاثة أيام، وباعوا ما معهم من التجارة، فربحوا الدرهم درهمَيْنِ، وخرج أبو سفيان إلى مَرِّ الظهران، فرجع؛ لأنه كان عام جدب، فنزل في حق المؤمنين: ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ . . . ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٤].

قال ابن إسحاق (٣): لما قدم رسول الله ﷺ المدينة من غزوة ذات الرقاع، أقام بها جمادى الأولى إلى آخر رجب، ثم رجع في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان، ويقال: كانت في هلال ذي القعدة، فخرج - عليه السلام - ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه، وعشرة أفراس، واستخلف على المدينة عبد الله بن رَواحة، وأقاموا على بدر ينتظرون أبا سفيان، وخرج أبو سفيان حتى نزل مَجَنَّة من ناحية مر

---

(١) ينظر الطبقات الكبرى (٢/ ٤٤ - ٤٥).

(٢) ينظر المغازي لعروة (١٨٣) وللواقدي (١/ ٣٨٤ - ٣٩١) والدرر (١٧٧) جوامع السيرة (١٨٤) تاريخ الطبري (٢/ ٥٥٩) البدء والتاريخ (٤/ ٢١٣ - ٢١٤) الكامل في التاريخ (٢/ ١٧٥) نهاية الأرب (١٧/ ١٥٤ - ١٥٧) تاريخ الإسلام (٢٤٩ - المغازي) البداية والنهاية (٤/ ١٠٠ - ١٠٢) سبل الهدى والرشاد (٤/ ٣٣٧).

(٣) ينظر السيرة النبوية (٣/ ٢٢١ - ٢٢٢).

الظهران، ويقال: عسفان، ثم بدا له الرجوع، فقال: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عامٌ خصبٌ ترعونَ فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عامُ جدب، وإني راجع فارجعوا، فرجع الناس فسماهم أهل مكة جيش السويق، يقولون: إنما خرجتهم تشربون السويق، وأقام - عليه الصلاة والسلام - ببدرٍ ثمانية أيام، وباعوا ما معهم من التجارة، فربحوا الدرهم درهمين، وأنزل الله في المؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ. . .﴾ إلى قوله: ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ. . .﴾ الآية [آل عمران: ١٧٢: ١٧٤]، والصحيحُ أن هذه الآية نزلت في حمراء الأسد؛ كما نصَّ عليه العماد بن كثير (١).

وفيها غزوة ذات الرقاع عاشر المحرم (٢)؛ لما بلغه ﷺ أن أنمار جمعوا الجموع، فخرج في أربعمائة، فوجدوا أعرابًا هربوا في الجبال، وغاب خمسة عشر يومًا، وصلى بها صلاة الخوف.

واختلف فيها متى كانَتْ؟ فعند ابن إسحاق: بعد بني النضير، سنة أربع، في شهر ربيع وبعض جمادى (٣)، وعند ابن سعد وابن حبان في المحرَّم سنة خمس (٤)، وجزم أبو معشر بأنها بعد بني قريظة في ذي القعدة سنة خمس، فتكونُ ذات الرقاع في آخر السنة وأول التي تليها.

وقد جنح البخاري (٥) إلى أنها كانت بعد خيبر؛ واستدلَّ لذلك بأمور، ومع ذلك ذكرها قبل خيبر؛ فلا أدرى هل تعمد ذلك؛ تسليمًا لأصحاب المغازي أنها كانت قبلها، أو أن ذلك من الرواة عنه، وأشار إلى احتمال أن تكون ذات الرقاع اسمًا لغزوتَيْن مختلفتين؛ كما أشار البيهقي إليه (٦).

---

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٣٠).
(٢) ينظر المغازي للواقدي (١/ ٣٩٥ - ٤٠٢) تاريخ الطبري (٢/ ٥٥٥ - ٥٥٩) الطبقات الكبرى (٢/ ٤٦ - ٤٧) البدء والتاريخ (٤/ ٢١٣) الكامل في التاريخ (٢/ ١٧٤ - ١٧٥) نهاية الأرب (١٧/ ١٥٨ - ١٥٩) الروض الأنف (٣/ ٢٥٣ - ٢٥٨) وتاريخ الإسلام (٢٤٦ - المغازي).
(٣) ينظر السيرة النبوية (٣/ ٢١٤).
(٤) ينظر الطبقات الكبرى (٢/ ٤٦ - ٤٧).
(٥) ينظر الفتح (٨/ ١٧٩).
(٦) ينظر دلائل النبوة (٣/ ٣٦٩ - ٣٧٢).

على أن أصحاب المغازي مع جزمهم بأنها كانَتْ قبل خيبر مختلفون في زمانها. انتهى.

والذي جزم به ابن عقبة تقدمها، لكن تردد في وقتها، فقال: لا ندري كانت قبل بدر أو بعدها، أو قبل أحد أو بعدها. وهذا التردد لا حاصل له، بل الذي ينبغي الجزم به أنها بعد غزوة بني قريظة؛ إذ صلاة الخوف في غزوة الخندق لم تكن شرعت، وقد ثبت وقوع صلاة الخوف في ذات الرقاع؛ فدل على تأخيرها بعد الخندق.

ثم قال عند قول البخاري: وهي بعد خيبر؛ لأن أبا موسى جاء بعد خيبر، وإذا كان كذلك وثبت أن أبا موسى شهد غزوة ذات الرقاع، لزم أنها كانت بعد خيبر، قال: وعجيبٌ من ابن سيد الناس كيف قال: جعل البخاري حديث أبي موسى هذا حجة في أن غزوة ذات الرقاع متأخرة عن خيبر، قال: وليس في خبر أبي موسى ما يدل على شيء من ذلك. انتهى كلام ابن سيد الناس (١).

قال: وهذا النفي مردود، والدلالة من ذلك واضحة.

قال: وأما الدمياطي، فادعى غلط الحديث الصحيح، وأن جميع أهل السير على خلافه، وقد تقدم أنهم مختلفون في زمانها، فالأولى الاعتماد على ما ثبت في الحديث الصحيح.

وأما قول الغزالي: إنها آخر الغزوات، فهو غلطٌ واضحٌ، وقد بالغ ابن الصلاح في إنكاره، وقال بعض من انتصر للغزالي: لعلَّه أراد آخر غزوة صليت فيها صلاة الخوف، وإنما أسلم أبو بكرة بعد غزوة الطائف بالاتفاق. انتهى.

وأما تسميتها بذات الرقاع: فلأنهم رقعوا فيها راياتهم؛ قاله ابن هشام (٢).

وقيل: الشجرة في ذلك الموضع، يقال لها: ذات الرقاع (٣).

وقيل: الأرض التي نزلوا بها فيها بقع سود وبقع بيض؛ كأنها مرقعة برقاعٍ مختلفةٍ، فسميتْ ذات الرقاع لذلك، وقيل: إن خيلهم كان بها سوادٌ وبياضٌ؛ قاله ابن حبان (٤).

---

(١) ينظر عيون الأثر (٢/ ٧٢).
(٢) ينظر السيرة النبوية (٣/ ٢١٤).
(٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) ينظر الفتح (٨/ ١٨١).

وقال الواقدي: سميت بجبل هناك فيه بقع [١].

قال الحافظ ابن حجر: وهذا لعله مستند ابن حبان، ويكون قد تصحف عليه بخيل. قال: وأغرب الداودى، فقال: سميت ذات الرقاع؛ لوقوع صلاة الخوف فيها؛ فسميت بذلك لترقيع الصلاة فيها. انتهى [٢].

قال السهيلي [٣]: وأصحُّ من هذه الأقوال كلها ما رواه البخارى عن أبي موسى الأشعرى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، ونحن ستة نفر، بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماى، وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع؛ لما نعصب من الخرق على أرجلنا [٤].

وكان من خبر هذه الغزوة - كما قاله ابن إسحاق - أنه ﷺ غزا نجدًا، يريد: بني محارب وبني ثعلبة - بالمثلثة - من غطفان بفتح الغين المعجمة والطاء المهملة؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - بلغه أنهم جمعوا الجموع، فخرج في أربعمائة من أصحابه، وقيل: سبعمائة، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان، وقيل: أبا ذر الغفاري، حتى نزلَ نخلًا - بالخاء المعجمة، موضعًا من نجد من أراضي غطفان[٥]- قال ابن سعد: فلم يجد في محالِّهم إلا نسوة فأخذهنَّ [٦]. وقال ابن إسحاق: فلقي جمعا منهم، فتقارب الناس، ولم يكن بينهم حرب، وقد أخاف الناس [٧] بعضهم بعضًا حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف، ثم انصرف الناس.

قال ابن سعد: وكان ذلك أول ما صلاها، وقد رويت صلاة الخوف من طرق كثيرة - وسيأتي الكلام، إن شاء الله تعالى، على ما تيسر منها - وكانت غيبته ﷺ في هذه الغزوة خمس عشرة ليلة [٨].

(١) ينظر المغازي للواقدي (١/ ٣٩٥).
(٢) ينظر الفتح (٨/ ١٨١ - ١٨٢).
(٣) ينظر الروض الأنف (٣/ ٢٥٣).
(٤) أخرجه البخاري (٨/ ١٧٩) كتاب المغازي: باب غزوة ذات الرقاع حديث (٤١٢٨).
(٥) ينظر السيرة النبوية (٣/ ٢١٤).
(٦) ينظر الطبقات الكبرى (٢/ ٤٧).
(٧) ينظر السيرة النبوية (٣/ ١٥٥).
(٨) ينظر الطبقات الكبرى (٢/ ٤٧).

وفي البخاري: عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة، تركناها للنبي ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ معلَّقٌ بالشجرة، فاخترطه - يعنى: سَلَّهُ من غمده - فقال: تخافنى؟ قال: لا، قال: من يمنعك منى؟ قال: الله، وفي رواية أبي اليمان عند البخاري في الجهاد قال: من يمنعك مني؟ ثلاث مرات، وهو استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لا يمنعك مني أحد، وكان الأعرابي قائمًا على رأسه والسيف في يده والنبيُّ ﷺ جالس لا سيف معه [1].

ويؤخذ من مراجعة الأعرابي له في الكلام: أن الله سبحانه منع نبيه، وإلا فما الذي أحوجه إلى مراجعته مع احتياجه إلى الحظوة عند قومه بقتله. وفي قوله ﷺ: «الله يمنعني منك» إشارة إلى ذلك؛ ولذلك لما أعادها الأعرابي، لم يزده على ذلك الجواب. وفي ذلك غاية التَّهَكُّم وعدم المبالاة به.

وذكر الواقدي [2] في نحو هذه القصة: أنه أسلم، ورجع إلى قومه، فاهتدى به خلق كثير. وقال فيه: إنه رمي بالزُّلَّخَة حين همَّ بقتله ﷺ، فندر السيف من يده، وسقط إلى الأرض. والزُّلَّخَة - بضم الزاى المشددة، وتشديد اللام، والخاء المعجمة -: وجع يأخذ في الصلب.

وقال البخاري: قال مسدد، عن أبي عوانة، عن أبي بشر: اسم الرجل غورث بن الحارث [3]، أي: على وزن جعفر. وحكى الخطابى فيه «غويرث» بالتصغير، وقد تقدم في غزوة غطفان، وهى غزوة ذى أمر بناحية نجد مثل هذه القصة لرجلٍ اسمه دعثور، وأنه قام على رأسه ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ فقال - عليه الصلاة والسلام -: الله. ودفع جبريل صدره، فوقع السيف من يده، وأنه أسلم.

قال في عيون الأثر: والظاهر أن الخبرين واحدٌ. وقال غيره من المحققين: والصواب أنهما قصتان في غزوتين.

وفي هذه القصة فرط شجاعته، وقوة يقينه، وصبره على الأذى، وحلمه على

---

(١) تقدم تخريجه، وهو عند البخاري (٤١٣٦).
(٢) ينظر المغازي (١/ ١٩٤ - ١٩٥).
(٣) علقه البخاري بعد رقم (٤١٣٦) وعزاه الحافظ في الفتح (٨/ ١٩٣) إلى الحربي في غريب الحديث.

الجهال[(١)].

وفي انصرافه ﷺ من هذه الغزوة أبطأ جمل جابر بن عبد الله، فنخسه - عليه الصلاة والسلام - فانطلق متقدمًا بين يدي الركاب، ثم قال: أتبيعنيه؟ فابتاعه منه، وقال: لك ظهره إلى المدينة، فلما وصلها، أعطاه الثمن وأرجح، ووهب له الجمل. والحديث أصله في البخاري [(٢)]؛ ولا حجة فيه لجواز بيع وشرط؛ لما وقع فيه من الاضطراب، وقيل غير ذلك مما يطول ذكره.

وفيها غزوة دومة الجندل لخمس بقين من ربيع الأول [(٣)]؛ لما بلغه أن بها جمعًا كثيرًا يظلمون الناس، فلم يجدوا بها إلا نعمًا وشاءً، فأصاب من ذلك وأقام أيامًا. وهى بضم الدال، مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال، وبُعدها من المدينة خمس عشرة، أو ست عشرة ليلة.

قال أبو عبيدة والبكرى: سُمِّيَتْ بدوم بن إسماعيل كان نزلها [(٤)]، وكانت على رأس تسعة وأربعين شهرًا من الهجرة.

وكان سببها أنه بلغه ﷺ أن بها جمعًا كثيرًا يظلمون من مرَّ بهم، فخرج - عليه الصلاة والسلام - لخمس ليال بقين من ربيع، في ألف من أصحابه؛ فكان يسير الليل، ويكمن النهار، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة، فلما دنا منهم لم يجد إلا النعم والشاء، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب في كل وجه، وجاء الخبر أهل دُومة، فتفرَّقوا. ونزل - عليه الصلاة والسلام - بساحتهم، فلم يلق بها أحدًا، فأقام بها أيامًا وبثَّ السرايا وفرَّقها، فرجعوا

(١) ينظر الفتح (٨/ ١٩٣)، وما بين المعكوفين من الفتح ووقع في ط: غزوتان في قصتين، والمثبت من الفتح أنسب وأصوب.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٤٥) كتاب البيوع، باب شراء الإمام الحوائج بنفسه، الحديث (٢٠٩٧) من طريق وهب بن كيسان عن جابر قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة فأبطأ بي جملي وأعيا ... الحديث ومن هذه الطريق أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٠٨٩) رقم (٥٧/ ١٤٦٦) وأحمد في المسند (٣/ ٣٧٥) والحديث ورد من طرق عن جابر بعضها مطول وبعضها مختصر.

(٣) ينظر عن الغزوة: الطبقات الكبرى (٢/ ٦٢ - ٦٣)، مغازي الواقدي (١/ ٤٠٢ - ٤٠٤) تاريخ الطبري (٢/ ٥٦٤)، الكامل في التاريخ (٢/ ١٧٧)، وعيون التواريخ (١/ ١٩٤)، والبداية والنهاية (٤/ ١٠٥).

(٤) ينظر: الروض الأنف (٣/ ٢٧٦).

ولم يصبْ منهم أحد.

ودخل المدينة في العشرين من ربيع الآخر.

وفيها سرية أبي سلمة هلال المحرم إلى قطن [١]، في مائة وخمسين، يطلب طليحة، وسلمة ابني خويلد، فلم يجدوهما ووجدوا إبلاً وشاء، فأصابوا منها، ولم يلق كيدًا.

وعبد الله بن أنيس وجهه إلى سفيان بن خالد الهذلي بعرنة [٢]، وهو وادي عرفة، خامس المحرم؛ لما بلغه ﷺ أنه يجمع لحربه، فقال له عبد الله: جئتك لأكون معك. ثم اغترهُ فقتله.

والمنذر بن عمرو إلى بئر معونة في صفر [٣]، ومعه القراء، وهم سبعون، فقتلهم رِعْلٌ وذكوان وعُصَيَّة فقنت ﷺ يدعو عليهم شَهْرًا [٤]

ومرثد بن أبي مرثد الغنوى إلى الرجيع بين مكة وعسفان في صفر في عشر أو ستة على الخلاف، لما سأله عضل والقارة أن يرسل معهم من يعلمهم شرائع الإسلام، فأرسل مرثدًا، وعاصم بن ثابت، وخبيب ابن عدي، وزيد بن الدثنة، وخالد بن أبي البكير، وعبد الله بن طارق، وأخاه لأمه مغيث بن عبيد، فغدروا بهم فقتلوهم، إلا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة، فأسروهما وباعوهما في مكة، فقتلوهما، وصلى خبيبٌ قبل أن يقتل ركعتين، فهو أول من سن ذلك.

وفيها رجم اليهودي واليهودية اللذين زنيا [٥].

---

(١) ينظر: مغازي الواقدي (١/ ٣٤٠)، والطبقات (٢/ ٣٨).

(٢) ينظر الطبقات الكبرى (٢/ ٣٩)، ودلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٤٠) والبداية والنهاية (٤/ ١٦٠).

(٣) ينظر طبقات ابن سعد (٢/ ٣٩ - ٤٠)، مغازي الواقدي (١/ ٣٤٦) تاريخ الطبري (٢/ ٥٤٥ - ٥٥٠)، ودلائل النبوة (٣/ ٣٣٨) والمنتظم (٣/ ١٩٨) وعيون التواريخ (١/ ١٨٤) وتاريخ الإسلام (ص ٢٣٥ - مغازي) والبداية والنهاية (٤/ ٨١ ، وما بعدها).

(٤) أخرجه أبو داود (١٤٤٣)، وأحمد (١/ ٣٠١ - ٣٠٢)، من حديث ابن عباس وعند مسلم نحوه من حديث أنس برقم (٣٠٤ / ٦٧٧).

(٥) أخرجه مالك (٢/ ٨١٩) كتاب الحدود: باب ما جاء في الرجم حديث (١) والبخاري (٦/ ٦٣١) كتاب المناقب: باب قول الله تعالى: ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . . .﴾ حديث (٣٦٣٥) ومسلم (٣/ ١٣٢٦) كتاب الحدود: باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى حديث (٢٦/ ١٦٩٩) وأبو داود (٢/ ٥٥٨) كتاب الحدود: باب في رجم اليهوديين حديث (٤٤٤٦) والترمذي (٤/ ٤٣) كتاب الحدود: باب ما جاء في رجم أهل الكتاب حديث (١٤٣٦) =

وقصرت الصلاة إن قلنا: كان فرضها أربعًا.

وفرض التيمم: لكن نصَّ الشافعيُّ في «الأم» أنه في المصطلق، وذلك إما في الخامسة أو السادسة أو الرابعة.

وخسف القمر، وزلزلت المدينة، وسابق بين الخيل [1].

* * *

= وابن ماجه (٢/ ٨٥٤) كتاب الحدود: باب رجم اليهودي واليهودية حديث (٢٥٥٦) والدارمي (٢/ ١٧٨ - ١٧٩) كتاب الحدود: باب في الحكم بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إلى حكام المسلمين، والشافعي (٢/ ٨١) كتاب الحدود: باب الزنا حديث (٢٦٤) وأحمد (٢/ ٥، ٧، ١٧، ٦٢، ٦٣، ٧٦، ١٢٦) وعبد الرزاق في المصنف (٧/ ٣١٨) رقم (١٣٣٣١، ١٣٣٣٢) وابن الجارود في المنتقى رقم (٨٢٢) وأبو داود الطيالسي (١/ ٣٠١ - منحة) رقم (١٥٣٠) والحميدي (٢/ ٣٠٦) رقم (٦٩٦) والبيهقي (٨/ ٢٤٦) كتاب الحدود: باب ما جاء في حد الذميين، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٤٦٢ - بتحقيقنا) كلهم من طريق نافع عن ابن عمر قال: إن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ قالوا: نفضحهم ويجلدون قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها لآية الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال عبد الله بن سلام ارفع يدك فإذا فيها آية الرجم فقال: صدقت يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما قال عبد الله بن عمر: فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقيها الحجارة قال الترمذي حسن صحيح.

(١) ذكر ابن الجوزي في المنتظم (٣/ ٢٤٠) في حوادث سنة خمسة في حوادث شهر ذي الحجة من هذه السنة قال: وفي هذا الشهر: رجفت المدينة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله مستعتبكم فأعتبوا».

حوادث السنة الخامسة

فيها غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق [١]، ثاني شعبان، خرج ﷺ ومعه كثير بشر، وثلاثون فرسًا، فحملوا على القوم حملة واحدة، فما انفلت منهم إنسان، بل قتل عشرة وأسر سائرهم، وغاب ثمانية وعشرين يومًا. وكان فيها قصة الإفك، والنهي عن العزل.

قال في المواهب: والمُصْطَلِق: بضم الميم، وسكون الصاد المهملة، وفتح الطاء المشالة المهملة، وكسر اللام بعدها قاف، وهو لقب، واسمه جذيمة بن سعد ابن عمرو بطن من خزاعة. وكانت يوم الاثنين، لليلتين خلتا من شعبان سنة خمس. وفي البخاري: قال ابن إسحاق: سنة ست. وقال موسى بن عقبة: سنة أربع [٢]. انتهى.

وسببها: أنه بلغه - عليه الصلاة والسلام - أن رئيسهم الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب، فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ، فأجابوه وتهيَّئوا للمسير، فبعث - عليه الصلاة والسلام - بريدة بن الخصيب الأسلمي يعلم علم ذلك، فأتاهم، ولقي الحارث بن أبي ضرار، فكلَّمه ورجع إلى رسول الله ﷺ. وخرج - عليه الصلاة والسلام - مسرعًا في بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قَطُّ مثلها، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة، وقادوا الخيل، وكانت ثلاثين فرسًا، وخرجت عائشة وأم سلمة. وبلغ الحارث ومن معه مسيره - عليه الصلاة والسلام - فسيء بذلك هو ومن معه، وخافوا خوفًا شديدًا، وتفرَّقَ عنهم من كان معهم من العرب، وبلغ - عليه الصلاة والسلام - المريسيع، وصفَّ أصحابه، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة، وتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر - عليه الصلاة والسلام - فحملوا حملة رجل واحد، وقتلوا عشرة، وأسروا سائرهم، وسبوا النساء والرجال والذرية، والنعم والشاء، ولم يقتل من

---

(١) ينظر: مغازي الواقدي (١/ ٤٠٤)، طبقات ابن سعد (٢/ ٤٨) وسيرة ابن هشام (٣/ ٢٣٥) وتاريخ الطبري (٢/ ٦٠٤) والكامل في التاريخ (٢/ ١٩٥- ١٩٩) وتاريخ الإسلام للذهبي (ص ٣٤٩ - مغازي) والمنتظم (٣/ ٢١٨) والبداية والنهاية (٤/ ١٧٨).

(٢) ينظر صحيح البخاري مع فتح الباري (٨/ ١٩٤).

المسلمين إلا رجل واحد. كذا ذكره ابن إسحاق [(١)].

والذي في صحيح البخاري، من حديث ابن عمر: يدل على أنه أغار عليهم على حين غفلة منهم، فأوقع بهم؛ ولفظه: أغار على بني المصطلق، وهم غارون، وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلهم، وسبى ذراريهم وهم على الماء [(٢)]، فيحتملُ أن يكون حين الإيقاع بهم سبوا قليلاً، فلما كثر عليهم القتال، انهزموا بأن يكون لما دهمهم وهم على الماء، وتصافوا، ووقع القتال بين الطائفتين، ثم بعد ذلك وقعت الغلبة عليهم.

قيل: وفي هذه الغزوة نزلت آية التَّيَمُّمِ، قال في «فتح الباري» قوله: «في بعض أسفاره»، قال ابن عبد البر في «التمهيد»: يقال: إنه كان في غزوة بني المصطلق، وجزم بذلك في «الاستذكار»، وسبقه إلى ذلك ابن سعد وابن حبان.

وغزوة المصطلق هي غزوة المريسيع، وفيها كانت قصة الإفك لعائشة، وكان ابتداء ذلك بسبب وقوع عقْدها أيضًا، فإن كان ما جزموا به ثابتًا، حمل على أنه سقط منها في تلك السفرة مرتين؛ لاختلاف القصتين؛ كما هو بين في سياقهما.

قال: واستبعد بعض شيوخنا ذلك؛ لأن المريسيع من ناحية مكة بين قُديد والسَّاحِلِ؛ وهذه القصة كانت من ناحية خيبر؛ لقولها في الحديث: «حتى إذا كنا في البيداء، أو بذات الجيش» [(٣)]، وهما بين المدينة[(٤)] وخيبر؛ كما جزم به النووي.

---

(١) ينظر سيرة ابن هشام (٣/ ٢٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ١٧٠) كتاب العتق باب من ملك من العرب رقيقاً حديث (٢٥٤١) ومسلم (٣/ ١٣٥٦): كتاب الجهاد والسير باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة حديث (١/ ١٧٣٠) من حديث ابن عمر قال أغار رسول الله صلى الله عليه وسلم على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقى على الماء فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث، وأخرجه مالك (٢/ ٤٦٨): كتاب الجهاد باب ما جاء في الخيل والمسابقة حديث (٤٨) وأحمد (٣/ ١٦٣ - ١٦٤) والبخاري (٦/ ١١١) كتاب الجهاد باب دعاء النبي الناس إلى الإسلام حديث (٢٩٤٥) ومسلم (٣/ ١٤٢٧): كتاب الجهاد باب غزوة خيبر حديث (١٢١/ ١٣٦٥) من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج إلى خيبر، أتاها ليلاً وكان إذا أتى قوما بليل لم يغر حتى يصبح. فلما أصبح خرجت يهود بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوه قالوا: محمد والله محمد والخميس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٤)، ومسلم (١٠٨/ ٣٦٧).

(٤) في ط: مكة. والمثبت من الفتح، وهو الصواب.

قال: وما جزم به مخالفٌ لما جزم به ابن التين؛ فإنه قال: «البيداء هو ذو الحليفة بالقرب من المدينة من طريق مكة، وذات الجيش وراء ذي الحليفة». وقال أبو عبيد البكري في «معجمه»: أدنى إلى مكة من ذي الحليفة، ثم ساق حديث عائشة هذا، ثم قال: وذات الجيش من المدينة على بريد، قال: وبينها وبين العقيق سبعة أميال، والعقيق من طريق مكة لا من طريق خيبر، فاستقام ما قاله ابن التين(١).

وقد قال قوم بتعدُّد ضياع العقد، ومنهم: محمد بن حبيب الإخباري، فقال: سقط عقد عائشة في غزوة ذات الرقاع، وفي غزوة بني المصطلق.

واختلف أهل المغازي في أي هاتين الغزوتين كانت أولاً، قال الداودي: كانت قصة التيمم في غزاة الفتح. ثم تردَّد في ذلك. وروى ابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت آية التيمم لم أدرِ كيف أصنعُ؛ فهذا يدلُّ على تأخرها عن غزوة بني المصطلق؛ لأن إسلام أبي هريرة كان في السنة السابعة وهي بعدها بلا خلاف، وكان البخاري يرى أن غزوة ذات الرقاع كانت بعد قدوم أبي موسى، وقدومه كان وقت إسلام أبي هريرة. ومما يدلُّ على تأخر القصة - أيضًا - عن قصة الإفك: ما رواه الطبراني، من طريق يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة قالت: لما كان من أمر عقدي ما كان، وقال أهل الإفك ما قالوا، خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة أخرى، فسقط عقدي حتى حبس الناس على التماسه، فقال لي أبو بكر: يا بنية، في كل سفرة تكونين عناءً وبلاءً على الناس؟! فأنزل الله الرخصة في التيمم، فقال أبو بكر: إنك لمباركة(٢). وفي إسناده محمد بن حميد الرازي، وفيه مقال.

وفي سياقه من الفوائد بيان عتاب أبي بكر الذي أبهم في حديث الصحيح، والتصريح بأن ضياع العقد كان مرتين في غزوتين. انتهى.

---

(١) ينظر فتح الباري (١/ ٥٧٤ - ٥٧٥).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣/ ١٢١ - ١٢٢) رقم (١٥٩) حدثنا القاسم بن عباد الخطابي ثنا محمد بن حميد الرازي ثنا سلمة بن الفضل وإبراهيم بن المختار عن محمد بن إسحاق عن يحيى بن عبَّاد به كما حكاه المصنف، ومحمد بن حميد الرازي فيه كلام كثير قال الحافظ (٥٨٧١) حافظ ضعيف وكان ابن معين حسن الرأي فيه، قال الذهبي في الميزان (٦/ ١٢٦): من بحور العلم وهو ضعيف.

وفي هذه الغزوة قال ابن أبيٍّ: لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجنَّ الأعز منها الأذلَّ، فسمعه زيد بن أرقم ذو الأذن الواعية، فحدث رسول الله ﷺ بذلك، فأرسل إلى ابن أبيّ وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ. . . ﴾ [المنافقون: ١] فقال له رسول الله ﷺ: إن الله صدقك يا زيد (١)، رواه البخاري.

وكانت غيبته في هذه الغزوة ثمانية وعشرين يومًا. ثم قال حسان بن ثابت يعتذر من الذي كان قال في شأن عائشة - رضي الله عنها -: [من الطويل]

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ
عَقِيلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ ... كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللهُ خِيمَهَا ... وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلِ
فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمُ ... فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَامِلِي
وَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَيِيتُ وَنُصْرَتِي ... لِآلِ رَسُولِ اللهِ زَيْنِ المحافِلِ
لَهُ رَتَبٌ عَالٍ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ ... تَقَاصَر عَنْهُ سَوْرَةُ الْمُتَطَاوِلِ
فَإِنَّ الَّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلَائِطٍ ... وَلَكِنَّهُ قَوْلُ امْرِئٍ بِيَ مَاحِلِ

قال ابن هشام: بيته «عقيلة حي»، والبيت الذي بعده، وبيته: «له رتب عال» عن أبي زيد الأنصاري.

وحدثني أبو عبيدة: أن امرأة مدحت بنت - أو ببيت - حسان بن ثابت عند عائشة، فقالت: [من الطويل]

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لحُومِ الغَوَافِلِ

فقالت عائشة: لكن أبوها (٢).

فمن روى « ببيت حسان » يقول: « أبوها »، أي: أبوا هذه الصفة أن يقولوها

---

(١) ذكره البخاري في صحيحه تعليقاً بعد حديث (٤٩٠٢) ووصله في كتاب التفسير (٤٩٠٢)، (٤٩٠٣) ومسلم في صحيحه (٢٧٧٢) والترمذي (٣٣١٢، ٣٣١٣، ٣٣١٤) والنسائي في التفسير (٦١٤) وأحمد في مسنده (٤/٣٧٣، ٣٦٨، ٣٧٠) وعبد بن حميد (٢٦٢ - منتخب) والطبراني في الكبير (٤٩٧٩) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣٣٥) وزاد نسبته إلى ابن سعد وابن جرير الطبري وابن المنذر وابن مردويه.

(٢) ينظر سيرة ابن هشام (٣/ ٣٥٢ - ٣٥٣) والبداية والنهاية (٤/ ١٨٧).

حينئذ، ومن روى « بنت حسان » فمعنى « أبوها » أنه ليس مثلها.

قال ابن إسحاق: وقال قائل من المسلمين في ضرب حسان وأصحابه في فريتهم على عائشة: [من الطويل]

لَقَدْ ذَاقَ حَسَّانُ الَّذِي كَانَ أَهْلَهُ وَحَمْنَةُ إِذْ قَالُوا هَجِيرًا وَمِسْطَحُ
تَعَاطَوْا بِرَجْمِ الْغَيْبِ زَوْجَ نَبِيِّهِمْ وَسَخْطَةَ ذِي الْعَرْشِ الْكَرِيمِ فَأُبْرِحُوا
وَآذَوْا رَسُولَ اللهِ فِيهَا فَجُلِّلُوا مَخَازِيَ تَبْقَى عَمَّمُوهَا وَفُضِّحُوا
وَصُبَّتْ عَلَيْهِمْ مُحْصَدَاتٌ كَأَنَّهَا شَآبِيبُ قَطْرٍ مِنْ ذُرَى الْمُزْنِ تَسْفَحُ (١)

وفيها **غزوة الخندق** وهي الأحزاب في ذي القعدة (٢). كان المسلمون ثلاثة آلاف، والمشركون عشرة آلاف مع أبي سفيان، فحفر ﷺ وأصحابه الخندق بإشارة سلمان الفارسي على عادة بلاده، وتداعوا للبراز نحو أربعة عشر يومًا، فأرسل الله ريحًا هزمت الكفار.

فلما انصرف، جاءه جبريل، فقال: إن الملائكة ما وضعت السلاح بعدُ، وإن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، فمضى فحاصرهم خمسة عشر يومًا، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ، وكان ضعيفًا، فحكم بقتل الرجال وسبي الذراري والنساء، فقال ﷺ: حكمت فيهم بحكم الله. وفرغ من ذلك خامس ذي الحجة.

وفيها فرض الحج، أو في السادسة، ورجح أو في الثامنة، أو التاسعة، أو العاشرة، أو قبل الهجرة، أو غير ذلك: أقوال.

وفيها نزلت آية الحجاب.

قال في المواهب: هي الأحزاب، جمع حزب، أي طائفة، فأما تسميتها بالخندق، فلأجل الخندق الذي حفر حول المدينة بأمره - عليه الصلاة والسلام - ولم يكن اتخاذ الخندق من شأن العرب، ولكنه من مكايد الفرس، وكان الذي أشار

---

(١) ينظر الأبيات في سيرة ابن هشام (٣/ ٢٥٣) ونقلها أيضا ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١٨٦).

(٢) ينظر عن الغزوة: مغازي الواقدي (٢/ ٤٤٠ - ٤٩٦)، والطبقات الكبرى (٢/ ٥٠ وما بعدها) وسيرة ابن هشام (٣/ ١٦٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٩٢ وما بعدها)، والمنتظم (٣/ ٢٦٧)، وتاريخ الإسلام للذهبي (ص ٢٨٣ - مغازي)، والبداية والنهاية (٤/ ١٠٦)، وعيون التواريخ (١/ ١٩٤).

بذلك سلمان الفارسي، فقال: يا رسول الله، إنا كنا بفارس إذا حُصِرْنَا خندقنا علينا، فأمر النبي ﷺ بحفره، وعمل فيه بنفسه ترغيبًا للمسلمين.

فأما تسميتها بالأحزاب، فلاجتماع طوائف المشركين على حرب المسلمين، وهم قريش وغطفان واليهود ومن معهم، وقد أنزل الله فيه هذه القصة صدرًا من سورة الأحزاب.

واختلف في تاريخها، فقال موسى بن عقبة: كانت في شوال سنة أربع [(١)]، وقال ابن إسحاق: في شوال سنة خمس [(٢)]، وبذلك صرح غيره من أهل المغازي، ومال البخاري إلى قول موسى بن عقبة، وقواه بقول ابن عمر: إن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد، وهو ابن أربع عشرة؛ فلم يجزه، وعرضه يوم الخندق، وهو ابن خمس عشرة، فأجازه [(٣)]؛ فيكون بينهما سنة واحدة. وأُحدٌ كانت سنة ثلاث؛ فيكون الخندق سنة أربع، ولا حجة فيه إذا ثبت لنا أنها كانت سنة خمس؛ لاحتمال أن يكون ابن عمر في أحد كان أول ما طعن في الرابعة عشرة، وكان في الأحزاب استكمل الخمس عشرة؛ وبهذا أجاب البيهقي[(٤)]، وقال الشيخ ولي الدين بن العراقي: والمشهور أنها في السنة الرابعة.

وكان من حديث هذه الغزوة: أن نفرًا من يهود خرجوا حتى قدموا على قريش مكة، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله. فاجتمعوا لذلك، واستعدوا له،

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٩٣).

(٢) سيرة ابن هشام (٣/ ١٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ٣٩٢) كتاب المغازي: باب غزوة الخندق حديث (٤٠٩٧) ومسلم (٣/ ١٤٩٠) كتاب الإمارة: باب بيان سن البلوغ حديث (٩١/ ١٨٦٨) وأبو داود (٤/ ٥٦١) كتاب الحدود باب الغلام يصيب الحد حديث (٤٤٠٦) والترمذي (٤/ ٢١١) كتاب الجهاد: باب حد بلوغ الرجل حديث (١٧١١) وابن ماجه (٢/ ٨٥٠) كتاب الحدود: باب من لا يجب عليه الحد حديث (٢٥٤٣) وأحمد (٢/ ١٧) من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة فلم يجزه وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه.

(٤) قال البيهقي في الدلائل (٣/ ٣٩٦): «فيحتمل أن ابن عمر كان قد طعن في الرابعة عشر يوم أحد فلم يجزه في القتال حين عرض عليه وكان قد استكمل خمس عشرة سنة وزاد عليها عام الخندق فأجازه حين عرض عليه إلا أنه نقل الخمس عشرة لتعلق الحكم بها دون الزيادة...» اهـ.

ثم خرج أولئك اليهود حتى جاءوا غَطَفَانَ من قيس عيلان، فدعوهم إلى حربه - عليه الصلاة والسلام - وخبروهم أنهم سيكونون معهم عليهم، وأن قريشًا قد بايعوهم على ذلك، واجتمعوا معهم، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عُيينة بن حصن في فَزَارَةَ، والحارث بن عوف المريّ في مرة، وكانت عدتُهُم فيما ذكره ابن إسحاق عشرة آلاف، والمسلمون ثلاثة آلاف [١]، وقيل غير ذلك.

وذكر ابن سعد: أنه كان مع المسلمين ست وثلاثون فرسًا.

ولما سمع رسول الله ﷺ بالأحزاب، وبما أجمعوا عليه من الأمر، ضرب على المسلمين الخندق، فعمل فيه - عليه الصلاة والسلام - ترغيبًا للأجر، وعمل معه المسلمون، فدأب ودأبوا، وأَبطَأَ على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين في عملهم ذلك ناسٌ من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعف عن العمل.

وفي البخاري: عن سهل بن سعد قال: كنا مع النبي ﷺ في الخندق، وهم يحفرون، ونحن ننقل التراب على أكتادنا، فقال رسول الله ﷺ:

اللهُمَّ لاَ عَيْشَ إلاَّ عَيشُ الآخِرَهْ ... فَاغْفِر للأنْصَارِ والمهَاجِرَهْ

والأكتاد - بالمثناة الفوقية -: جمع كَتِد، بفتح أوله وكسر المثناة، وهو ما بين الكاهل إلى الظهر، وفي بعض نسخ البخاري: أكبادنا بموحدة، وهو موجه على أن يكون المراد به ما يلي الكبد من الجنب [٢].

وفي البخاري - أيضًا - عن أنس: فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهُمَّ لاَ عَيْشَ إلاَّ عَيشُ الآخِرَهْ ... فَاغْفِر للأنْصَارِ والمهَاجِرَهْ

فقالوا مجيبين له: [من الرجز]

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدا ... عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أبَدا [٣]

---

(١) ينظر سيرة ابن هشام (٣/ ١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧٩٧)، (٣٠٩٨)، (٦٤١٤) ومسلم في صحيحه (١٨٠٤) والنسائي في فضائل الصحابة رقم (٢٠٧) وأحمد (٥/ ٣٣٢) من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد . . . به.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٣٤) وأطرافه في (٢٨٣٥، ٢٩٦١، ٣٧٩٥، ٤٠٩٩، ٤١٠٠، ٦٤١٣، ٧٢٠١) ومسلم (١٨٠٥) والترمذي (٣٨٥٧) والنسائي في فضائل الصحابة=

قال ابن بطال: وقوله: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» هو من قول ابن رَوَاحَةَ تمثل به - عليه الصلاة والسلام - وعند الحارث بن أبي أسامة من مرسل طاوس زيادة في آخر الرجز: [من الرجز]

وَالْعَنْ إِلَهِي عُضَلًا والقَارهْ ... هُمْ كَلَّفُونَا ثِقَلَ الحِجَارَهْ

وفي البخاري من حديث البراء قال: لما كان يوم الأحزاب، وخندق ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشَّعْرِ، فسمعته يرتجز بشعر ابن رَواحة وهو ينقل التراب ويقول: [من الرجز]

اللهم لَوْلاَ أَنتَ مَا اهْتَدَيْنَا
وَلاَ تَصَدَّقْنَا ولاَ صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا
وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

قال: يمد بها صوته. وفي رواية له أيضًا:

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوا عَلَيْنَا
إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا(١)

وفي حديث سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، أنه ﷺ حين ضرب في الخندق، قال:

بِسْمِ الإِلَهِ وَبِهِ بَدِينَا
وَلَوْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ شَقِينَا
حَبَّذَا رَبًّا وَحَبَّذَا دِينَا(٢)

قال فى « النهاية »: يقال: بَدِيت بالشيء - بكسر الدال - أى: ابتدأتُ به، فلما

= (٢٠٩ - ٢١٣) وأحمد في مسنده (٣/ ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٨٧ ، ٢٠٥ ، ١٦ ، ٢٧٦، ٢٨٨) من طرق عن أنس به بألفاظ متقاربة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٣٧) وأطرافه في (٢٨٣٦ ، ٣٠٣٤، ٤١٠٤، ٤١٠٦، ٦٦٢٠، ٧٢٣٦) ومسلم (١٨٠٣) والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف (١٨٧٥) وفي عمل اليوم والليلة (٥٣٣) وأحمد (٤/ ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٩١) .

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤١٤) من طريق زياد بن زياد عن أبي عثمان عن سلمان أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب في الخندق وقال: باسم الله وبه هدينا ولو عبدنا غيره شقينا. فأحب ربا وأحب دينا).

خففت الهمزة كُسِرَت الدال فانقلبت الهمزة ياءً، وليست من بنات الياء[١]، انتهى.

وقد وقع فى حفر الخندق آياتٌ من أعلام نبوته - عليه الصلاة والسلام -.

منها: ما فى الصحيح عن جابر، قال: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة - وهى بضم الكاف وتقديم الدال المهملة على التحتانية، وهى: القطعة الصلبة - فجاءوا إلى النبى ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت فى الخندق، فقام وبطنُه مشدود بحجر، ولنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبى ﷺ المعول فضرب، فعاد كثيبًا أهيل، أو: أهيم؛ كذا بالشك من الراوى[٢].

وفى رواية الإسماعيلى باللام من غير شك[٣].

والمعنى: أنه صار رملاً يسيل فلا يتماسك، وأهيم: بمعنى أهيل، وقد قيل فى قوله: ﴿ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ [الواقعه: ٥٥] المراد: الرمال التى لا يرويها الماء.

وقد وقع عند أحمد والنسائى، فى هذه القصة، زيادة بإسناد حسن، من حديث البراء قال: لما أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، عرضت لنا فى بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ، فجاء فأخذ المعول فقال: «باسم الله»، فضرب ضربة فنثر ثلثها، وقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح الشام، والله إنى لأبصر قصورها الحمر الساعة!» ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر، فقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح فارس، وإنى والله لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن» ثم ضرب الثالثة فقال: «باسم الله»، فقطع بقية الحجر فقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى الساعة!»[٤].

ومن أعلام نبوته ﷺ: ما ثبت فى الصحيح فى حديث جابر، من تكثير الطعام القليل يوم حفر الخندق؛ كما سيأتى، إن شاء الله تعالى.

وقد وقع عند موسى بن عقبة، أنهم أقاموا فى عمل الخندق قريبًا من عشرين

---

(١) النهاية لابن الأثير (١/ ١٠٩).
(٢) أخرجه البخاري (٤١٠١).
(٣) ينظر فتح الباري (٨/ ١٥٣).
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٠٣) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦٩ - ٢٧٠) رقم (٨٨٥٨) من طرق عن عوف عن ميمون عن البراء بن عازب به وحسن الحافظ إسناده في فتح الباري (٨/ ١٥٤).

ليلة، وعند الواقدى: أربعًا وعشرين، وفى «الروضة» للنووى: خمسة عشر يومًا، وفى «الهدى النبوى» لابن القيم: أقاموا شهرا.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بمجمع السيول، فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بنى كنانة وتهامة، ونزل عيينة بن حصن فى غَطَفان، ومن تبعهم من أهل نجد إلى جانب أحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، وكانوا ثلاثة آلاف رجل، وضرب هنالك عسكره، والخندقُ بينه وبين القوم؛ وكان لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة، ولواء الأنصار بيد سعد بن عبادة؛ وكان ﷺ يبعث الحرس إلى «المدينة» خوفًا على الذرارى من بنى قريظة.

قال ابن إسحاق: وخرج عدو الله حُيى بن أخطب، حتى أتى كعبَ بن أسد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم، وكان وَادَعَ رسولَ الله ﷺ على قومه وعاقده، فأغلق كعب دونه باب حصنه، وأبى أن يفتح له، وقال: ويحك يا حيى، إنك امرؤ مشئوم، وإنى قد عاهدتُ محمدًا؛ فلستُ بناقض ما بينى وبينه؛ فإنى لم أر منه إلا وفاء وصدقًا. فقال: ويلك افتح! فلم يزل به حتى فتح له، فقال: يا كعب، جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال، ومن دونهم غطفان، وقد عاهدونى على ألاَّ يبرحوا؛ حتى يستأصلوا محمدا ومن معه. فلم يزل به حتى نقض عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ[(١)].

وعن عبد الله بن الزبير، قال: كنتُ يوم الأحزاب أنا وعمرو بن أبى سلمة، مع النساء فى أطم حسان، فنظرتُ فإذا الزبير على فرسه يختلف إلى بنى قريظة مرتين أو ثلاثًا، فلما رجعت قلت: يا أبت رأيتك تختلف. قال: رأيتنى يا بنى؟ قلت: نعم. قال: كان رسول الله ﷺ قال: «من يأتى بنى قريظة فيأتينى بخبرهم»، فانطلقتُ، فلما رجعتُ جمع لى رسول الله ﷺ أبويه فقال: «فداك أبى وأمى». أخرجه الشيخان[(٢)]، وقال الترمذى: حديث حسن.

(١) ينظر: سيرة ابن هشام مختصرا (٣/ ١٧٢) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧٢٠) ومسلم (٢٤١٦) والترمذي (٣٧٤٣) وابن ماجه (١٢٣) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١) وفي فضائل الصحابة (١٠٩، ١١٠).

وفى رواية أصحاب المغازى: فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ بعث سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، ومعهما ابن رواحة وخوّات بن جبير؛ ليعرفوا الخبر، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم: نالوا من رسول الله ﷺ وتبرءُوا من عقده وعهده، ثم أقبل السعدان، ومن معهما على رسول الله ﷺ وقالوا: عضل والقارة، أى: كغدرهما بأصحاب الرجيع، فعظم عند ذلك البلاءُ واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم؛ حتى ظن المؤمنون كلَّ ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين، وأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢] الآيات، وقال رجال ممن معه: ﴿ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ [الأحزاب: ١٣]، وقال أوس بن قيظى: إن بيوتنا عورة من العدو؛ فَأْذَنْ لنا نرجع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة(١).

قال ابن عائذ: وأقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومى على فرس له؛ ليوثبه الخندق، فوقع فى الخندق فقتله الله، وكَبُر ذلك على المشركين، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: إنا نعطيكم الدية على أن تدفعوه إلينا فندفنه، فرد إليهم ﷺ: «إنه خبيث الدية فلعنه الله ولعن ديته ولا نمنعكم أن تدفنوه، ولا أَرَبَ لنا فى ديته»(٢).

وأقام - عليه الصلاة والسلام - والمسلمون، وعدوهم يحاصرهم، ولم يكن بينهم قتال؛ إلا مراماة بالنبل؛ لكن كان عمرو بن عبد ود العامرى اقتحم هو ونفر معه، بخيولهم من ناحية ضيقة من الخندق، حتى صاروا بالسبخة، فبارزه علىٌّ فقتله، وبرز نوفل بن عبد الله بن المغيرة فقتله الزبير، وقيل: قتله على(٣)، ورجعت بقية الخيول منهزمةً، ورُمى سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل وهو - بفتح الهمزة والمهملة، بينهما كاف ساكنة -: عِرْقٌ فى وسط الذراع؛ قال الخليل: هو عرق الحياة، يقال: إن فى كل عضو منه شعبة، فهو فى اليد: الأكحل، وفى الظهر: الأبهر، وفى الفخذ: النسا؛ إذا قطع لم يرقأ الدم. وكان الذى رَمَى سعدًا ابنُ العرقة

---

(١) ينظر سيرة ابن هشام (٣/ ١٧٣) وتاريخ الإسلام للذهبي (ص ٢٨٨ - ٢٨٩ - مغازي) وينظر أيضاً دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٤٣٠).

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ٤٣٧) ونقله ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١٢٣).

(٣) راجع مقتل عمرو بن عبد ود في سيرة ابن هشام (٣/ ١٧٦)، ودلائل النبوة (٣/ ٤٣٧-٤٣٩)، وتاريخ الإسلام للذهبي (ص٢٩٠ - مغازي) والبداية والنهاية (٤/ ١٢١ -١٢٢).

أحد بنى عامر بن لؤى، قال: خذها وأنا ابن العرقة، فقال له سعد: عرق الله وجهك فى النار. ثم قال سعد: اللهم إن كنت أبقيتَ من حربِ قريشٍ فأبقنى لها؛ فإنى لا قَوْمَ أحب إلىَّ أن أجاهد، من قومٍ آذوا رسولك وكذبوه [وأخرجوه][١].

وأقام - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه بضع عشرة ليلة، فمشى نعيم بن مسعود الأشجعى وهو مخف إسلامه، فثبط قومًا عن قوم، وأوقع بينهم شرًّا؛ لقوله له - عليه الصلاة والسلام -: «الحرب خدعة» فاختلفت كلمتهم.

وروى الحاكم عن حذيفة، قال: لقد رأيتنا - ليلة الأحزاب - وأبو سفيان ومن معه من قومنا وقريظة أسفل منا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلةٌ أشد ظلمة ولا ريحا منها، فجعل المنافقون يستأذنون، ويقولون: بيوتنا عورة؛ فمر بى النبى ﷺ وأنا جاثٍ على ركبتى، ولم يبق معه إلا ثلاثمائة فقال: «اذهب فَأْتِنى بخبر القوم». قال: فدعا لى؛ فأذهبَ الله عنى القر والفزع، فدخلت عسكرهم، فإذا الريح فيه تجاوز شبرا، فلما رجعت رأيت فوارسَ فى طريقى، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم.

وفى رواية: أن حذيفة لما أرسله - عليه الصلاة والسلام - ليأتيه بالخبر، سمع أبا سفيان يقول: يا معشر قريش، إنكم - والله - ما أصبحتم بدار مقام، ولقد هلك الخف والكُراع، واختلفنا وبنو قريظة، ولقينا من هذه الريح ما ترون؛ فارتحلوا فإنى مرتحلٌ، ووثب على جمله، فما حل عقال يده إلاً وهو قائم[٢].

---

(١) روى ابن إسحاق قصة مقتل سعد كما في سيرة ابن هشام (٣/ ١٧٧) حدثني أبو ليلى عبد الله ابن سهل بن عبد الرحمن بن سهل الأنصاري أخو بني حارثة: أن عائشة أم المؤمنين كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق وكان من أحرز حصون المدينة قال: وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن، فقالت عائشة وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب: فمر سعد وعليه درع له مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها وفي يده حربته يرفل بها ويقول:

لبِّث قليلاً يشهد الهيجا جمل لا بأس بالموت إذا حان الأجلْ

قال: فقالت له أمه: الحق أي بني فقد والله أخرت . . . القصة وعنه نقلها الذهبي في تاريخ الإسلام (ص٢٩١ - مغازي)، وابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١٢٣ - ١٢٤). والزيادة من السيرة، والبداية والنهاية.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٥١ - ٤٥٢) عن الحاكم به ولم أقف عليه في المستدرك بهذا اللفظ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١٣١) وعزاه إلى الحاكم والبيهقي في الدلائل ورواه ابن إسحاق في السيرة (٣/ ١٨٢) حدثني يزيد بن زياد عن محمد =

ووقع فى البخارى: أنه - عليه الصلاة والسلام - قال يوم الأحزاب: «من يأتينا بخبر القوم» فقال الزبير: أنا. ثم قال: «من يأتينا بخبر القوم ؟» فقال الزبير: أنا؛ قالها ثلاثًا(١).

وقد أشكل ذكر الزبير فى هذه، فقال ابن الملقن: وقع هنا أن الزبير هو الذى ذهب، والمشهور: أنه حذيفة بن اليمان.

قال الحافظ ابن حجر: هذا الحصر مردود؛ فإن القصة التى ذهب [الزبير] لكشفها، غير القصة التى ذهب حذيفة لكشفها؛ فقصة الزبير كانت لكشف بنى قريظة، هل نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين، ووافقوا قريشًا على محاربة المسلمين؟ وقصة حذيفة كانت لما اشتد الحصار على المسلمين بالخندق، وتمالأت عليه الطوائف، ثم وقع بين الأحزاب الاختلاف، وحذرت كل طائفة من الأخرى، وأرسل الله عليهم الريح واشتد البرد تلك الليلة فانتدب - عليه الصلاة والسلام - من يأتيه بخبر قريش؛ فانتدب له حذيفة بعد تكراره طلبَ ذلك، وقصته فى ذلك مشهورة، لما دخل بين قريش فى الليل وعرف قصتهم(٢).

وفى البخارى، من حديث عبد الله بن أبى أوفى، قال: دعا رسولُ الله ﷺ على الأحزاب، فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريعَ الحساب، اهزِم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»(٣).

وروى أحمد عن أبى سعيد، قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء تقوله؛ فقد بلغت القلوبُ منا الحناجر ؟ قال: نعم «اللهم استر عوراتنا، وآمن

= بن كعب القرظي قال: قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان ... فذكره، ومن طريق ابن إسحاق رواه الطبري في تاريخه (٢/ ٥٧٩ - ٥٨٠)، ونقله أيضا الذهبي في تاريخ الإسلام (ص٢٩٥ - مغازي) عن ابن إسحاق وقصة حذيفة هذه رواها أيضاً الحاكم (٣/ ٣١) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٤٥٠ - ٤٥١) من طريق بلال العبسي عن حذيفة به .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤١١٣).

(٢) ينظر فتح الباري (٨/ ١٦٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٩٣٣)، (٢٩٦٥)، (٣٠٢٥)، (٤١١٥)، (٦٣٩٢)، (٧٤٨٩) ومسلم (٢١، ٢٢/ ١٧٤٢)، والترمذي (١٦٧٨)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٠٢) وابن ماجه (٢٧٩٦) وابن خزيمة (٢٧٧٥) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله بن أبي أوفى به .

روعاتنا» قال: وضرب الله وجوهَ أعدائنا بالريح(١).

وفى «ينبوع الحياة» لابن ظفر: قيل: إنه ﷺ دعا فقال: «يا صريخَ المكروبين، يا مجيبَ المضطرين، اكشف هَمِّى وغمى وكربى، فإنك ترى ما نزل بى وبأصحابى». فأتاه جبريل فبشره بأن الله يرسل عليهم ريحًا وجنودًا، فأعلم أصحابه ورفع يديه قائلاً: «شكرًا شكرًا». وهبت ريح الصبا ليلا، فقلعت الأوتاد، وألقت عليهم الأبنية، وكفأت القدور، وسفت عليهم التراب، ورمتهم بالحصباء، وسمعوا فى أرجاء عسكرهم التكبير وقعقعة السلاح؛ فارتحلوا هربًا فى ليلتهم، وتركوا ما استثقلوه من متاعهم؛ قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا . . .﴾ [الأحزاب: ٩].

وفى البخارى: عن على، أن رسول الله ﷺ قال يوم الخندق: «ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا؛ كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس»(٢) ومقتضى هذا: أنه استمر اشتغاله بقتال المشركين حتى غابت الشمس.

ويعارضه ما فى «صحيح مسلم» عن ابن مسعود، أنه قال: حبس المشركون

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٣) حدثنا أبو عامر حدثنا الزبير بن عبد الله حدثني ربيح بن أبي سعيد عن أبيه به قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٩): رواه أحمد والبزار وإسناد البزار متصل ورجاله ثقات وكذلك رجال أحمد إلا أن في نسختي من المسند عن ربيح بن أبي سعيد عن أبيه وهو في البزار عن أبيه عن جده اهـ.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ١٢٤) في الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٩٣١)، (٧/ ٤٦٧) في المغازي، باب غزوة الخندق (٤١١١)، (٨/ ٤٣) في التفسير، باب ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ (٤٥٣٣)، (١١/ ١٩٧) في الدعوات، باب الدعاء على المشركين (٦٣٩٦) ومسلم في المساجد، باب التغليظ في تفويت صلاة العصر (٦٢٧)، وأبو داود (١/ ١٦٥) في الصلاة، باب في وقت صلاة العصر (٤٠٩)، والدارمي (١/ ٢٨٠) في الصلاة، باب في الصلاة الوسطى، وأبو يعلى (٣٨٥) عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة عن علي أن رسول الله ﷺ قال يوم الخندق: «شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا» وكذا أخرجه أحمد (١/ ١٢٢، ١٤٤). وأخرجه مسلم في المساجد، باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (٢٠٣/ ٦٢٧)، والترمذي (٥/ ٢٠٢) في التفسير، باب «ومن سورة البقرة» (٢٩٨٤)، والنسائي (١/ ٢٣٦) في الصلاة، باب المحافظة على صلاة العصر، وأحمد (١/ ٧٩، ١٣٥، ١٣٧، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤)، وأبو يعلى (٣٨٤) عن قتادة عن أبي حسان الأعرج عن عبيدة السلماني عن علي. . وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

رسول الله ﷺ عن صلاة العصر، حتى احمرت الشمس أو اصفرت، فقال رسول الله ﷺ: «شغلونا عن الصلاة الوسطى....»(١) الحديث. ومقتضى هذا: أنه لم يخرج الوقت بالكلية.

قال الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد - مشيرا إلى الجمع بين ما فى «البخارى» وما فى «مسلم»-: فلا تعارض، الحبس انتهى ذلك الوقت إلى الحمرة ولم تقع الصلاة إلا بعد المغرب، انتهى.

وفى البخارى: عن عمر بن الخطاب، أنه جاء يوم الخندق بعدما [غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، وقال: ما كدتُ أصلى العصر حتى] كادت الشمس تغرب، فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها». فنزلنا مع النبى ﷺ بطحان، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب(٢)، وقد يكون ذلك للاشتغال بأسباب الصلاة وغيرها.

ومقتضى هذه الرواية المشهورة: أنه لم يفت غير العصر، وفى «الموطأ»: الظهر والعصر، وفى «الترمذى» عن ابن مسعود: أن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق، وقال: ليس بإسناده بأس؛ إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من عبد الله(٣)، فمال ابن العربى إلى الترجيح وقال: الصحيح أن التى اشتغل عنها ﷺ

(١) أخرجه مسلم (١/ ٤٣٧) كتاب المساجد باب التغليظ في تفويت صلاة العصر (٦٢٨)، والترمذي (١/ ٣٤٠) في أبواب الصلاة، باب ما جاء في صلاة الوسطى أنها العصر (١٨١)، وفي التفسير (٢/ ٢٠٣) باب «ومن سورة البقرة» (٢٩٨٥)، وابن ماجة (٦٨٦)، وأحمد (١/ ٣٩٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٥٦)، والطيالسي (١/ ٧١) برقم (٢٨٠)، وأبو يعلى (٥٠٤٤)، والبيهقي (٩/ ٤٦٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٧٥)، وابن حبان (١٧٣٧) عن محمد بن طلحة عن زبيد عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: حبس المشركون رسول الله ﷺ عن صلاة العصر حتى اصفرت الشمس -أو احمرت- فقال: «شغلونا عن صلاة الوسطى ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا، أو حشا الله أجوافهم وقبورهم نارًا» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وله طريق آخر عن ابن مسعود عند الخطيب في تاريخ بغداد (١٤/ ٦٦).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٤١١٢).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٥)، والترمذي (١/ ١١٥) كتاب الصلاة، باب الرجل تفوته الصلوات، الحديث (١٧٩)، (٢/ ١٧)، كتاب الأذان، باب الاجتزاء للفائت من الصلوات بأذان واحد، والبيهقي (١/ ٤٠٣)، كتاب الصلاة، باب الأذان والإقامة للجمع بين الصلوات الفائتات، من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق حتى ذهب من الليل ما شاء، فأمر بلالا فأذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم =

واحدة، وهى العصر.

وقال النووى: طريق الجمع بين هذه الروايات: أن وقعة الخندق بقيت أيامًا، فكان هذا فى بعض الأيام وهذا فى بعضها.

قال: وأما تأخيره - عليه الصلاة والسلام - صلاة العصر حتى غربت الشمس، فكان قبل نزول صلاة الخوف.

قال العلماء: يحتمل أنه أخرها نسيانًا لا عمدًا؛ وكان السبب فى النسيان الاشتغال بأمر العدو. ويحتمل أنه أخرها عمدًا للاشتغال بالعدو؛ فكان هذا عذرًا فى تأخير الصلاة قبل نزول صلاة الخوف، وأما اليوم فلا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها بسبب العدو والقتال؛ بل يصلى صلاة الخوف على حسب الحال.

وقد اختلف فى المراد بالصلاة الوسطى، وجمع الحافظ الدمياطى فى ذلك مؤلفًا مفردًا سماه «كشف المغطى، عن الصلاة الوسطى» فبلغ تسعة عشر قولاً، وهى: الصبح، والظهر، والعصر، والمغرب، أو جميع الصلوات - وهو يتناول الفرائض والنوافل، واختاره ابن عبد البر - والجمعة - وصححه القاضى حسين فى صلاة الخوف من تعليقته - والظهر فى الأيام والجمعة يوم الجمعة، والعشاء؛ لأنها بين صلاتين لا تقصران، والصبح والعشاء، أو الصبح والعصر؛ لقوة الأدلة: فظاهر القرآن: الصُّبْح، ونص السنة: العصر، وصلاة الجماعة، أو الوتر وصلاة الخوف، أو صلاة عيد الأضحى، أو الفطر، أو صلاة الضحى، أو واحدة من الخمس غير معينة، أو الصبح أو العصر على الترديد، وهو غير القول السابق، أو التوفيق، انتهى.

= أقام فصلى العصر ثم أقام فصلى المغرب ثم أقام فصلى العشاء. وقال الترمذي: حديث عبد الله ليس بإسناده بأس إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من عبد الله. اهـ. وللحديث طريق آخر عن ابن مسعود أيضًا أخرجه أبو يعلى (٥/ ٣٩) رقم (٢٦٢٨) من طريق يحيى بن أبي أنيسة عن زبيد الأيامي عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عبد الله بن مسعود قال: شغل المشركون رسول الله ﷺ عن الصلوات: الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى ذهب ساعة من الليل ثم أمر رسول الله ﷺ بلالا فأذن وأقام ثم صلى الظهر ثم أمره فأذن وأقام فصلى العصر ثم أمره فأذن وأقام فصلى المغرب ثم أمره فأذن وأقام فصلى العشاء. والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٧) وقال: رواه أبو يعلى وفيه يحيى بن أبي أنيسة وهو ضعيف عند أهل الحديث إلا أن ابن عدي قال: وهو مع ضعفه يكتب حديثه. اهـ. ويحيى روى له الترمذي وقال الحافظ في «التقريب» (٢/ ٣٤٣): ضعيف.

وانصرف ﷺ من غزوة الخندق، يوم الأربعاء، لسبع ليال بقين من ذى القعدة، وكان قد أقام بالخندق خمسة عشر يومًا، وقيل: أربعة وعشرين يومًا، وقال - عليه الصلاة والسلام -: «لن تغزوكم قريشٌ بعد عامكم هذا» وفى ذلك علمٌ من أعلام النبوة؛ فإنه - عليه الصلاة والسلام - اعتمر فى السنة السادسة فصدته قريش عن البيت، ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها، وكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال - عليه الصلاة والسلام - وسيأتى ذلك، إن شاء الله تعالى.

وقد أخرج البزار من حديث جابر، بإسناد حسن، شاهدًا لهذا، ولفظه: «أن النبى ﷺ قال يوم الأحزاب - وقد جمعوا له جموعًا كثيرة -: «لا يغزونكم بعدها أبدًا، ولكن أنتم تغزونهم»[(١)].

ولما دخل ﷺ «المدينة» يوم الأربعاء هو وأصحابه، ووضعوا السلاح، جاءه جبريل - عليه السلام - معتجرًا بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها قطيفة ديباج، وفى البخارى، من حديث عائشة: أنه لما رجع ﷺ ووضع السلاح، اغتسل، وأتاه جبريل، فقال: «قد وضعت السلاح؟! والله ما وضعناه؛ اخرج إليهم» وأشار إلى بنى قريظة[(٢)].

وعند ابن إسحاق: «إن الله يأمرك، يا محمد، بالمسير إلى بنى قريظة، فإنى عامد إليهم فمزلزلٌ بهم»، فأمر رسول الله ﷺ مؤذنًا فأذّن فى الناس: من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة[(٣)].

وعند ابن عائذ: «قم فشد عليك سلاحك؛ فوالله لأدقنهم دق البيض على الصفا». وبعث يومئذ مناديا ينادى: يا خيل الله، اركبى.

---

(١) أخرجه البزار في مسنده كما في كشف الأستار (١٨١٠) حدثنا محمد بن عمر بن هياج ثنا يحيى بن عبد الرحمن الأرحبي ثنا عبيدة بن الأسود عن مجالد عن عامر عن جابر بن عبد الله به قال البزار: قد اختلفوا في إسناده فرواه زكريا بن أبي زائدة عن الشعبي عن الحارث بن البرصاء وقال: مجالد عن الشعبي عن جابر ولا نعلم أحدًا رواه عن جابر إلاَّ عبيدة والحديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٤٢) وقال: «رواه البزار ورجاله ثقات». اهـ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤١١٧) (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩)، وأبو داود (٣١٠١)، والنسائي (٢/ ٤٥)، وأحمد في مسنده (٦/ ٥٦، ١٣١، ٢٨٠)، وعبد بن حميد (١٤٨٨).

(٣) ينظر سيرة ابن هشام (٣/ ١٨٣-١٨٤)، ورواه ابن جرير الطبري في تاريخه (٢/ ٥٨١) بإسناده إلى ابن إسحاق وقد نقله ابن كثير -رحمه الله- في البداية والنهاية (٤/ ١٣٣-١٣٤).

وعند الحاكم والبيهقى: وبعث عليا على المقدمة، وخرج ﷺ فى أثره[١].

وعند ابن سعد[٢]: ثم سار إليهم فى المسلمين، وهم ثلاثة آلاف، والخيل ستة وثلاثون فرسًا. قال: وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة، واستعمل على «المدينة» ابن أم مكتوم، على ما قاله ابن هشام، ونزل - عليه الصلاة والسلام - على بئر من آبار بنى قريظة، وتلاحق به الناس، فأتى رجالٌ بعد العشاء الآخرة، ولم يصلوا العصر؛ لقوله ﷺ: «لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة»[٣] فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة، فما عابهم الله تعالى بذلك ولا عنفهم به رسول الله ﷺ.

وفى البخارى، عن ابن عمر: أدرك بعضهم العصر فى الطريق، فقال بعضهم: «لا نصلى حتى نأتيها»، وقال بعضهم: «بل نصلى، لم يرد منا ذلك». فذكر ذلك للنبى ﷺ فلم يعنف واحدًا منهم.

كذا وقع فى جميع النسخ من البخارى أَنَّهَا العَصْرُ، واتَّفقَ جميع أهل المغازى، ووقع في مسلم أَنَّهَا الظُّهْرُ، مع اتِّفَاقِ البخاري ومسلم على روايته عن شيخٍ واحد بإسناد واحد؛ ووافق مسلمًا أبو يعلى وآخرون[٤].

وجمع بين الروايتين: باحتمال أن يكون بعضهم - قبل الأمر - كان صلى الظهر

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ١٤) عن الحاكم به وفيه «. . . فرجع رسول الله ﷺ فلبس لأمته وأذن بالخروج وأمرهم أن يأخذوا السلاح ففزع الناس للحرب فبعث على بن أبي طالب -رضي الله عنه- على المقدمة ودفع إليه اللواء وأمره أن ينطلق حتى يقف بهم إلى حصن بني قريظة ففعل وخرج رسول الله ﷺ على آثارهم . . .» وقد أشار إليه ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١٣٧).

(٢) ينظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٥٠٦) في الخوف باب صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماء (٩٤٦)، (٧/ ٤٧١) في المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب (٤١١٩)، ومسلم (٣/ ١٣٩١) في الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو (٦٩/ ١٧٧٠)، والبيهقي في السنن (١٠/ ١١٩)، وفي الدلائل (٤/ ٧)، والبغوي (٧/ ١٣٤) برقم (٣٦٩٢) عن عبد الله بن محمد بن أسماء نا جويرية بن أسماء عن نافع عن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها وقال بعضهم: بل نصلي؛لم يرد منا ذلك. فذكر للنبي ﷺ فلم يعنف واحدًا منهم. واللفظ للبخاري أما عند الآخرين: أن لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة.

(٤) ينظر: الفتح (٧/ ٤٧١-٤٧٢).

وبعضهم لم يصلها، فقيل لمن لم يصلها: لا يصلين أحد الظّهر، ولمن صلاها: لا يصلين أحد العصر.

وجمع بعضهم: باحتمال أن تكون طائفةٌ منهم راحت بعد طائفة، فقيل للطائفة الأولى: الظهر وللطائفة التى بعدها: العصر، والله أعلم.

قال ابن إسحاق: وحاصرهم - عليه الصلاة والسلام - خمسًا وعشرين ليلة، حتى أجهدهم الحصار[١] وعند ابن سعد: خمس عشرة[٢]، وعند ابن عقبة: بضع عشرة ليلة[٣]- وقذف الله فى قلوبهم الرعب، فعرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد أن يؤمنوا، فقال لهم: «يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنى أعرض إليكم خلالاً ثلاثًا؛ فخذوا أيها شئتم»، قالوا: «وما هى؟» قال: «نبايع هذا الرجل ونصدقه؛ فوالله لقد تبين أنه نبى مرسل، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم، فتأمنون به على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم» فأبوا.

قال: «فإذا أبيتم علىَّ هذه، فَهَلُمَّ نقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف، لم نترك وراءنا ثقلاً؛ حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلِكْ نهلك ولم نترك وراءنا ما نخشى عليه». فقالوا: «أى عيش لنا بعد أبنائنا ونسائنا؟!».

قال: «فإن أبيتم علىَّ هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب [من] محمد وأصحابه غرة». قالوا: «نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا، إلا من علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ؟!» .

وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: «أن ابعث إلينا أبا لبابة - وهو رفاعة بن عبد المنذر - نستشره فى أمرنا»؛ فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه، فرقَّ لهم وقالوا: «يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟» قال: «نعم». وأشار بيده أنه الذبح.

---

(١) ينظر: السيرة (٣/ ١٨٦).

(٢) ينظر: الطبقات (٢/ ٥٧).

(٣) نقل ذلك عنه البيهقي في الدلائل (٤/ ١٣).

قال أبو لبابة: فوالله «ما زالت قدماى من مكانهما، حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله !».

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، فلم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عمده، وقال: «لا أبرح من مكانى هذا، حتى يتوب الله علىَّ مما صنعت». وعاهد الله: «ألاَّ يطأ بنى قريظة أبدًا، ولا أرى فى بلد خنتُ الله ورسوله فيه أبدًا».

فلما بلغ رسول الله ﷺ خبرُه - وكان قد استبطأه - قال: «أما لو جاءنى لاستغفرتُ له، وأما إذ فعل ما فعل، فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه». قال: وأقام أبو لبابة[1].

وقال أبو عمر: وروى وهب، عن مالك، عن عبد الله بن أبى بكر: أن أبا لبابة ارتبط بسلسلة ثقيلة بضع عشرة ليلة، حتى ذهب سمعه فكاد لا يسمع، وكاد يذهب بصره، وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة، أو أراد أن يذهب لحاله؛ فإذا فرغ أعادته.

وعن عبد الله بن قسط أن توبة أبى لبابة نزلتْ على رسول الله ﷺ وهو فى بيت أم سلمة، قالت أم سلمة: فسمعتُ رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك، قالت: فقلت: «ممَّ تضحك، أضحك الله سنك؟!» قال: «تيب على أبى لبابة». قالت: «أفلا أبشره، يا رسول الله!» قال: «بلى، إن شئت». قال: فقامت على باب حجرتها - وذلك قبل أن يضرب الحجاب - فقالت: «يا أبا لبابة، أبشر! فقد تاب الله عليك». قالت: «فثار الناس إليه ليطلقوه» فقال: «لا والله، حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده». فلما مر عليه خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه[2].

وروى البيهقى فى دلائله، بسنده عن مجاهد، فى قوله تعالى: ﴿ ٱعۡتَرَفُواْ

---

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٨٦-١٨٧)، والبداية والنهاية (٤/ ١٣٨).

(٢) رواه ابن إسحاق في السيرة (٣/ ١٨٧-١٨٨) حدثني يزيد بن عبد الله بن قسيط به ومن طريقه أخرجه ابن جرير الطبري في تاريخه (٢/ ٥٨٥) والبيهقي في الدلائل (٤/ ١٧) وعن ابن إسحاق نقله أيضًا الذهبي في تاريخ الإسلام (٣١٣-مغازي) وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١٣٨)، ونقله أيضا الصالحي في سبل الهدى (٥/ ٩-بتحقيقنا) وينظر الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ٣٠٤).

بِذُنُوبِهِمْ ...﴾ [التوبة: ١٠٢] قال: هو أبو لبابة؛ إذ قال لقريظة ما قال، وأشار إلى حلقه بأن محمدًا يذبح إن نزلتم على حكمه.

وقد روينا عن ابن عباس، ما دل على أن ارتباطه بسارية المسجد، كان بتخلفه عن غزوة تبوك - كما قال ابن المسيب - قال: وفى ذلك نزلت هذه الآية[(١)].

ولما اشتد الحصار ببنى قريظة أذعنوا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فحكَّم فيهم سعد بن معاذ، وكان قد جعله فى خيمةٍ فى المسجد الشريف لامرأة من أسلم، يقال لها: رفيدة، وكانت تداوى الجرحى، فلما حكَّمه أتاه قومُه فحملوه على حمارة وقد وطئوا له بوسادة من أدم، وكان رجلاً جسيمًا، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ، فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين قال - عليه الصلاة والسلام - «قوموا إلى سيدكم». فأما المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار، وأما الأنصار فيقولون: عم بها رسول الله ﷺ المسلمين، فقالوا: إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. فقال سعد: «فإنى أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذرارى والنساء»؛ فقال - عليه الصلاة والسلام -: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[(٢)]. والرقيع: السماء، سميت بذلك؛ لأنها رُقعت بالنجوم.

ووقع فى البخارى قال: «قضيتَ فيهم بحكم الله». وربما قال: «بحكم الملِكِ» بكسر اللام.

وفى رواية محمد بن صالح: «لقد حكمت اليوم فيهم بحكم الله الذى حكم به من فوق سبع سموات».

وفى حديث جابر، عن ابن عائذ فقال: «احكم فيهم يا سعد». فقال: «الله

---

(١) ينظر: البيهقي في الدلائل (٥/ ٢٧١)، وينظر أيضًا الاستيعاب (٤/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ١٩١)، كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل، رقم (٣٠٤٣)، ومسلم (٣/ ١٣٨٩)، كتاب: الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم رقم (١٧٦٨)، وأحمد (٣/ ٢٢-٧١)، وأبو داود في السنن (٢/ ٧٧٦) كتاب: الأدب، باب ما جاء في القيام رقم (٥٢١٥-٥٢١٦)، وابن حبان (١٥/ ٤٩٦) كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة باب ذكر سعد بن معاذ الأنصاري رقم (٧٠٢٦).

ورسوله أحق بالحكم». قال: «قد أمرك الله أن تحكم فيهم»(١).

وفى هذه القصة جواز الاجتهاد فى زمنه ﷺ، وهى مسألة اختلف فيها أهل أصول الفقه، والمختار: الجواز، سواء كان فى حضرته أم لا؛ وإنما استبعد المانعُ وقوعَ الاعتماد على الظن مع إمكان القطع، ولا يضر ذلك؛ لأنه بالتقرير يصير قطعيًا؛ وقد ثبت وقوع ذلك بحضرته ﷺ؛ كما فى هذه القصة وغيرها.

وانصرف ﷺ يوم الخميس لسبع ليال - كما قاله الدمياطى أو لخمس، كما قاله مغلطاى - خلون من ذى الحجة.

وأمر - عليه الصلاة والسلام - ببنى قريظة فأدخلوا «المدينة»، وحفر لهم أخدود فى السوق، وجلس - ﷺ - ومعه أصحابه، وأُخرجوا إليه فضربت أعناقهم، فكانوا ما بين ستمائة إلى سبعمائة.

وقال السهيلى: المكثر يقول: إنهم ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة(٢).

وفى حديث جابر، عند الترمذى والنسائى وابن حبان، بإسناد صحيح: إنهم كانوا أربعمائة مقاتل، فيحتمل - فى طريق الجمع - أن يقال: إن الباقين كانوا أتباعًا، واصطفى ﷺ لنفسه الكريمة ريحانة فتزوجها، وقيل: كان يطؤها بملك اليمين، وأمر بالغنائم فجمعت، فأخرج الخمس من المتاع والسبى، ثم أمر بالباقى فبيع ممن يريده، وقسمه بين المسلمين؛ فكانت على ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهمًا، للفرس سهمان، ولصاحبه سهم، وصار الخمس إلى محمية بن جزء الزبيدى، فكان النبى ﷺ يعتق منه ويهب ويُخدم منه من أراد، وكذلك بما صار إليه من الرثة، وهو: السقط من المتاع.

وانفجر جرحُ سعد بن معاذ، فمات شهيدا. وفى البخارى: أنه دعا: «اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلىَّ أن أجاهدهم فيك، من قوم كذبوا رسولك، اللهم إِنى

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٦٣)، كتاب المناقب، باب مناقب سعد بن معاذ حديث (٨٢٢٣)، والبيهقي (٩/ ٦٣) كتاب السير: باب ما يفعله بذراري من ظهر عليه، من طريق محمد بن صالح التمار عن سعد بن إبراهيم عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أن سعد ابن معاذ حكم على بني قريظة أن يقتل منهم كل من جرى عليه المواسى وأن تقسم أموالهم وذراريهم فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لقد حكم اليوم فيهم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع سموات».

(٢) ينظر: الروض الأنف (٣/ ٢٧٠)، وهناك القول لابن إسحاق في السيرة.

أظن أنك قد وضعتَ الحرب، فافجرها واجعل موتى فيها، فانفجرت من ليلته، فلم يرعهم إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: «يا أهل الخيمة، ما هذا الذى يأتينا من قبلكم ؟ فإذا جرح سعد يغذو - أى: يسيل، يقال غذا الجرح: إذا سال ما فيه دما - فمات منها[(١)].

وقد كان ظنُّ سعد مصيبا، ودعاؤه فى هذه القصة مجابا؛ وذلك أنه لم يقع بين المسلمين وبين قريش - من بعد وقعة الخندق حربٌ يكون ابتداء القصد فيها من المشركين؛ فإنَّهُ ﷺ تجهز إلى العمرة فصدوه عن دخول «مكة»، وكاد الحرب أن يقع بينهم، فلم يقع؛ كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح: ٢٤]. ثم وقعت الهدنة واعتمر - عليه الصلاة والسلام - من قابل، واستمر ذلك إلى أن نقضوا العهد، فتوجه إليهم غازيا ففتحت «مكة» فعلى هذا فالمراد بقوله: «أظن أنك قد وضعت الحرب» أى: لن يقصدونا محاربين، وهو كقوله - عليه الصلاة والسلام -: «تغزونهم ولا يغزونكم» كما تقدم.

وقد بين سبب انفجار جرح سعد، فى مرسل حميد بن هلال عند ابن سعد، ولفظه: أنه مرت به عنز وهو مضطجع، فأصاب ظلفُها موضعَ النحر، فانفجرت حتى مات[(٢)]. وحضر جنازته سبعون ألف ملك، واهتز لموته عرش الرحمن؛ رواه الشيخان[(٣)].

قال النووى: اختلف العلماء فى تأويله، فقالت طائفة: هو على ظاهره، واهتزاز العرش: تحركه فرحًا بقدوم روح سعد، وجعل الله تعالى فى العرش تمييزًا حصل به هذا، ولا مانع منه؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٤]، وهذا القول هو ظاهر الحديث، وهو المختار.

قال المازرى[(٤)]: قال بعضهم: وهو على حقيقته وإن العرش تحرك لموته؛ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤١٢٢)، ومسلم في صحيحه رقم (٦٧/ ١٧٦٩).
(٢) تنظر وفاة سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٣٢٥-٣٢٦).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦)، وابن ماجه (١٥٨)، وأحمد (٣/ ٣١٦) من حديث جابر.
(٤) فى ط: الماوردى، وهو تصحيف، والمثبت من شرح النووى على مسلم

وهذا لا ينكر من جهة العقل؛ لأن العرش جسم من الأجسام؛ يقبل الحركة والسكون، قال: لكن لا تحصل فضيلة سعد بذلك؛ إلا أن يقال: إن الله تعالى جعل حركته علامة للملائكة على موته.

وقال آخرون: المراد بالاهتزاز: الاستبشار والقبول، ومِنْهُ قول العرب: فلان يهتز للمكارم، لا يريدون: اضطرابَ جسمه وحركته، وإنما يريدون: ارتياحه إليها وإقباله عليه.

قال الحربى: وهو كنايةٌ عن تعظيم شأنِ وفاته، والعرب تنسبُ الشىء المعظم إلى أعظم الأشياء، فيقولون: أظلمتْ لموت فلان الأرض، وقامت له القيامة.

وقال جماعة: المراد: اهتزاز سرير الجنازة، وهو النعش، وهذا القول باطلٌ يرده صريح الروايات التى ذكرها مسلم، والله أعلم، انتهى[(١)].

وقيل: المراد باهتزاز العرش: اهتزاز حَمَلة العرش، وصحح الترمذيُّ من حديث أنس، قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ، قال المنافقون: ما أخف جنازته، فقال النبى ﷺ: «إن الملائكةَ كانت تحمله»[(٢)].

وعن البراء قال: أهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير، فجعل أصحابه يمسونها ويعجبون من لينها، فقال ﷺ: «أتعجبون من لين هذه ؟ لمَنَاديلُ سعد بن معاذ فى الجنة خير منها وألين»[(٣)]. هذا لفظ رواية أبى نعيم فى مستخرجه على مسلم.

والمناديل: جمع منديل - بكسر الميم فى المفرد - وهو معروف.

قال العلماء: هذه إشارة إلى عظم منزلة سعد فى الجنة، وأن أدنى ثيابه فيها خير من هذه؛ لأن المنديل أدنى الثياب؛ لأنه معدٌّ للوسخ والامتهان، فغيره أفضل منه، انتهى.

وأخرج ابن سعد وأبو نعيم، من طريق محمد بن المنكدر، عن محمد بن شرحبيل بن حسنة، قال: قبض إنسان يومئذ من تراب قبره قبضة، فذهب بها، ثم

---

(١) ينظر شرح النووي (٨/ ٢٦١)، والروض الأنف (٣/ ٢٨٥، ٢٨٦)

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٤٩)، وعبد بن حميد (منتخب ١١٩٥) من طريق عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس به.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٨٠٢)، ومسلم (٢٤٦٨)، والترمذي (٣٨٤٧)، والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف (١٨٥٠)، وأحمد (٤/ ٢٨٩، ٢٩٤، ٣٠١، ٣٠٢) من طرق عن أبي إسحاق به.

نظر إليها بعد ذلك فإذا هى مسك. قال: فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! سبحان الله!» حتى عُرِفَ ذلك فى وجهه. فقال: «الحمد لله! لو كان أحد ناجيًا من ضمة القبر لنجا منها، ضُم ضَمَّة ثم فرج الله عنه»[١].

وأخرج ابن سعد عن أبى سعيد، قال: كنت فيمن حفر لسعد قبره، فكان يفوح علينا المسك كلما حفرنا[٢].

قال الحافظ مغلطاى، وغيره: فى هذه السنة فُرِضَ الحج. وقيل: سنة ست، وصححه غير واحد، وهو قول الجمهور. وقيل: سنة سبع. وقيل: سنة ثمان، ورجحه جماعة من العلماء، وسيأتى البحث فى ذلك، إن شاء الله تعالى.

* * *

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٢٩) موقوفًا على محمد بن شرحبيل أن رجلًا أخذ قبضة من تراب قبر سعد يوم دفن ففتحها بعد فإذا هى مسك ولم أجد الحديث عند أبي نعيم في الحلية فلعله في غيرها من مصنفات أبي نعيم -رحمه الله- وينظر البداية والنهاية (٤/ ١٤٧).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٢٩) أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني سعيد بن محمد ابن أبي زيد عن ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه عن جده قال: كنت أنا ممن حفر لسعد قبره بالبقيع وكان يفوح علينا المسك كلما حفرنا قترة من تراب حتى انتهينا إلى اللحد. وربيح بن عبد الرحمن مقبول كما قال الحافظ في التقريب (١٨٩١) وأبوه ثقة كما في التقريب (٣٨٩٩)، لكن شيخ ابن سعد في هذا الإسناد هو الواقدي وهو متروك عند المحدثين.

حَوَادِثُ السَّنَةِ السَّادِسَةِ

فيها غزوة بنى لحيان فى ربيع الأول[١]، انتهى فيها ﷺ إلى غرّان - وادٍ عند عسفان - فى مائتى رجل فهربوا، فأقام يوما أو يومين، يبعث السرايا لكل ناحية فلم يجدوا أحدا، فرجع للمدينة بعد تسعة عشر يومًا قائلا: «آيبون تائبون لربنا حامدون».

وفى «المواهب»: لحيان؛ بكسر اللام وفتحها؛ لغتان - فى ربيع الأول سنة ست من الهجرة. وذكرها ابن إسحاق فى جمادى الأولى فى رأس ستة أشهر من قريظة.

قال ابن حزم: الصحيح أنها فى الخامسة.

قالوا وَجَدَ رسول الله ﷺ على عاصم بن ثابت وأصحابه وَجْدا شديدا، فأظهر أنه يريد «الشام»، وعسكر فى مائتى رجل، ومعهم عشرون فرسا، واستخلف على «المدينة» عبد الله بن أم مكتوم، ثم أسرع المسير؛ حتى انتهى إلى «بطن غران» - واد بين «أمج» و«عسفان» - وبينها وبين «عسفان» خمسة أميال، حيث مصاب أصحاب الرجيع الذين قتلوا بـ«بئر معونة»، فترحَّم عليهم ودعا لهم، فسمعتْ به بنو لحيان، فهربوا فى رءوس الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يومًا أو يومين يبعث السَّرَايَا فى كل ناحيةٍ، ثم خرج؛ حتى أتى «عسفان»، فبعث أبا بكر فى عشرة فوارس؛ لتسمع به قريش فيذعرهم، فأتوا «كراع الغميم»، ثم رجعوا، ولم يلقوا أحدًا، وانصرف ﷺ ولم يلق كيدًا؛ وهو يقول: «آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون».

وغاب عن «المدينة» أربع عشرة ليلة.

وقيل: سبع عشرة ليلة.

وفيها غزوة «الغابة»[٢]؛ وهى غزوة «[ذى] قَرَدٍ» فى ربيع الأول فى خمسمائة؛

---

(١) ينظر عن الغزوة: مغازي الواقدي (٢/ ٥٣٥-٥٣٧)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٦٠) وابن هشام في السيرة (٣/ ٢٢٥) وابن جرير في تاريخه (٢/ ٥٩٥)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣٦٤)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢٤٥-مغازي) والروض الأنف (٣/ ٣٠٥)، وعيون التواريخ (١/ ٢٢٣-٢٢٤) وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٠)، والبداية والنهاية (٤/ ١٧٠).

(٢) ينظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٣٧-٥٤٩)، والطبقات الكبرى (٢/ ٦١-٦٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ٥٩٦-٦٠٤)، وسيرة ابن هشام (٣/ ٢٢٧)، والكامل في التاريخ (٢/ ١٨٨-١٩١)، وعيون التواريخ (١/ ٢٢٤-٢٢٧) وتاريخ الإسلام للذهبي (٣٣٣-٣٤٠)، وابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١٧٠)، والروض الأنف (٤/ ١٤-١٧).

غاب خمس ليال، وصلَّى صلاة الخوف أيضًا.

وقَرَد بفتح القاف والراء، وبالدال المهملة، وهو ماء على بَرِيدٍ من «المدينة»، قبل «الحديبية».

وعند البخارى: أنها كانت قبل «خيبر» بثلاثة أيام، وفى مسلم نحوه(١).

قال مغلطاى: وفى ذلك نظر؛ لإجماع أهل السير على خلافها. انتهى.

قال القرطبى شارح مسلم: لا يختلف أهل السير؛ أن غزوة «ذى قرد» كانت قبل «الحديبية».

وقال الحافظ ابن حجر: ما فى الصحيح من التاريخ لغزوة «ذى قرد» أصح مما ذكره أهل السِّير. انتهى(٢).

وسببها: أنه كان لرسول الله ﷺ عشرون لقحة؛ وهى ذوات اللبن القريبة العهد بالولادة؛ ترعى بالغابة، وكان ابن أبى ذَرٍّ فيها، فأغار عليهم عيينة بن حصن الفِزَارى ليلة الأربعاء فى أربعين فارسًا، فاستاقوها، وقتلوا ابن أبى ذر.

وقال ابن إسحاق: كان فيهم رجلٌ من غفار وامرأة، فقتلوا الرجل، وسبوا المرأة، فركبت ناقة ليلاً حين غفلتهم؛ تريد النبى ﷺ، ونذرت؛ لئن نجت، لتنحرنها، فلما قدمت على النبى ﷺ أخبرته بذلك، فقال: «لا نذر فى معصية، ولا لأحد فيما لا يملك»(٣).

ونودى: يا خيل الله اركبى، وكان أول ما نودى بها.

وركب رسول الله ﷺ فى خمسمائة، وقيل: سبعمائة، واستخلف على «المدينة»

---

(١) ينظر صحيح البخاري مع الفتح (٨/ ٢٣٣) قال البخاري: «وهى الغزوة التي أغاروا على لقاح النبي ﷺ قبل خيبر بثلاث » ولم أجد مثل هذا في صحيح مسلم والإمام مسلم رحمه الله لم يضع تراجم لأبواب كتابه.

(٢) ينظر: فتح الباري (٨/ ٢٣٤).

(٣) ينظر: السيرة (٣/ ٢٢٧). والحديث أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٠، ٤٣٣، ٤٣٤)، ومسلم (٦/ ١١١-نووي) كتاب النذر، باب لا وفاء لنذر في معصية الله حديث (٨/ ١٦٤١). وأبو داود (٣/ ٢٣٩) كتاب الأيمان والنذور، باب في النذر فيما لا يملك حديث (٣٣١٦)، والشافعي (٢/ ١٢١-١٢٢) في كتاب الجهاد. والحميدي (٢/ ٣٦٥-٣٦٦) برقم (٨٢٩)، وابن الجارود برقم (٩٣٣). وسعيد بن منصور (٢/ ٣٩٦-٣٩٧) برقم (٢٩٦٧)، والبيهقي (١٠/ ٧٥) كتاب النذور باب ما يوفى به من النذر وما لا يوفى.

ابن أم مكتوم، وخلف سعد بن عبادة فى ثلاثمائة يحرسون «المدينة»، وقد كان عقد للمقداد بن عمرو لواء فى رمحه، وقال له: «امض؛ حتى تلحقك الخيول، وأنا على أثرك»، فأدرك أخريات العدو، وقتل أبو قتادة مسعدة[1] فأعطاه رسول الله ﷺ فرسه وسلاحه، وقتل عكاشة بن محصن أبان بن عمرو، وقتل من المسلمين محرز بن نضلة قتله مسعدة.

وأدرك سلمة بن الأكوع القوم؛ وهو على رجليه، فجعل يرميهم بالنبل، ويقول: [من الرجز]

خذها وانا ابن الأكوع   واليوم يوم الرضع

يعنى: يوم هلاك اللئام،

من قولهم: لئيم راضع؛ أى: رضع اللؤم فى بطن أمه.

وقيل: معناه: اليوم يعرف من أرضعته الحرب من صغره، وتدرب بها، ويعرف غيره.

ولحق رسول الله ﷺ الناس والخيول عشاء.

قال سلمة: فقلت: يا رسول الله؛ إن القوم عطاش، فلو بعثتنى فى مائة رجل؛ استنقذتُ ما فى أيديهم من السرح، وأخذت بأعناق القوم، فقال ﷺ: «ملكتَ فأسجح»؛ وهى بهمزة قطع، ثم سين مهملة، ثم جيم مكسورة، ثم حاء مهملة؛ أى: فارفق وأحسن، والسَّجَاحة السهولة؛ أى: لا تأخذ بالشدة، بل ارفق، فقد حصلت النكاية فى العدو، ولله الحمد. ثم قال: «إنهم الآن ليقرون فى غطفان».

وذهب الصريخ إلى بنى عمرو بن عوف، فجاءت الأمداد، فلم تزل الخيل تأتى، والرجال على أقدامهم، وعلى الإبل؛ حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ بـ«ذى قرد»، فاستنقذوا عشر لقاح، وأفلت القوم بما بقى؛ وهى عشر، وصلَّى رسول الله ﷺ بـ«ذى قرد» صلاة الخوف، وأقام يومًا وليلة، ورجع وقد غاب خمس ليال، وقسم فى كل مائة من أصحابه جَزورًا ينحرونها[2].

---

(١) في ط: سعد. والصواب ما أثبت وينظر سبل الهدى والرشاد (٥/ ١٠١).

(٢) ينظر القصة في صحيح مسلم رقم (١٣١/ ١٨٠٦)، والسبل (٥/ ٩٨، ٩٩)، والبداية والنهاية (٤/ ١٧٢-١٧٣).

وفيها غزوة «الحديبية»[١]؛ هلال ذى القعدة فى ألف وأربعمائة، وبايع «بيعة الرضوان» تحت الشجرة على الموت؛ حين أرسل عثمان، فحبسوه فى «مكة» ثلاثة أيام، ثم جاء سهيل بن عمرو فى الصلح، فواعدهم ﷺ عشر سنين، فأقام بضعة عشر يومًا هناك؛ وهو معتمر، فتحلَّل من عمرته ورجع، فنزلت عليه في الطريق سورة «الفتح».

وفى «المواهب»: «الحديبية» - بتخفيف الياء، وتشديدها -: بئر سمى المكان بها.

وقيل: شجرة وقال المحبُّ الطبرى: قرية قريبة من «مكة» أكثرها فى الحرم، وهى على تسعة أميال من «مكة»، خرج - عليه السلام - من «المدينة» يوم الاثنين هلال ذى القعدة سنة ست من الهجرة للعمرة، وأخرج معه زوجته أم سلمة، فى ألف وأربعمائة، ويقال: وخمسمائة، وقيل: ألف وثلاثمائة، والجمع بين هذه الأقوال أنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة، فمن قال: ألف وخمسمائة، جبر الكسر، ومن قال: وأربعمائة، ألغاه، ويؤيده رواية البراء: «ألف وأربعمائة أو أكثر»، واعتمد على هذا الجمع النووى[٢].

وأما رواية: «ألف وثلاثمائة»؛ فيمكن حَمْلُها على ما اطلع عليه، واطلع غيره على زيادة مائتين؛ لم يطلع هو عليهم، والزيادة من الثقة مقبولةٌ.

وأما قول ابن إسحاق: «إنهم كانوا سبعمائة»؛ فلم يوافقه أحدٌ عليه؛ قاله استنباطًا من قول جابر: «نحرنا البدنة عن عشرة، وكانوا نحروا سبعين بدنة»؛ وهذا لا يدل على أنهم لم ينحروا غير البدن، مع أن بعضهم لم يكن أحرم أصلاً.

وجزم موسى بن عقبة؛ أنهم كانوا ألفًا وستمائة[٣].

وعند ابن أبى شيبة من حديث سلمة بن الأكوع: «ألف وسبعمائة»[٤].

---

(١) ينظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٧١-٦٣٣)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٧٢ وما بعدها) وسيرة ابن هشام (٣/ ٢٥٥وما بعدها)، وفتح الباري (٨/ ٢٠٦). وتاريخ الطبري (٢/ ٦٢٠-٦٣٩)، والكامل (٢/ ٢٠٠-٢٠٦) وعيون التواريخ (١/ ٢٣٨-٢٤٧)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣٦٣-٣٩٣) والبداية والنهاية (٤/ ١٨٨-٢٠٢)، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٣-٦٩).

(٢) ينظر: السبل (٥/ ٦٩).

(٣) ينظر: سبل الهدى والرشاد (٥/ ٧١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٣٨٤) (٣٦٨٤٦) من طريق إياس بن سلمة عن أبيه =

وحكى ابن سعد ألفًا وخمسمائة وخمسة وعشرين[(١)]. واستخلف على «المدينة» ابن أم مكتوم، ولم يخرج معه بسلاحٍ، إلا سلاح المسافر؛ السيوف فى القرب.

وفى «البخارى» فى «المغازى»: عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم قال: خرج رسول الله ﷺ عام «الحديبية» فى بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما كان بـ«ذى الحليفة» قلد الهدى وأشعر، وأحرم منها.

وفى رواية: «أحرم منها بعمرة، وبعث عينًا له من خزاعة»، وسار النبى ﷺ حتى إذا كان بغدير «الأشطاط» أتاه عينه، فقال: إن قريشًا جمعوا لك جموعًا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك، وصادُّوك عن البيت ومانعوك. فقال: «أشيروا علىَّ أيها الناس؛ أترون أن أميل إِلى عيالهم، وذرارى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ؟»[(٢)] فقال أبو بكر: يا رسول الله؛ خرجت عامدًا لهذا البيت؛ لا تريد قتال أحد، ولا حرب أحد، فتوجَّه له، فمن صدنا عنه، قاتلناه. قال: «امضوا على اسم الله»[(٣)].

وروى أحمد: كان أبو هريرة يقول: ما رأيت أحدًا قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ.

وفى رواية للبخارى: حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبى ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين»[(٤)]. فوالله ما شعر بهم خالد؛ حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيرًا لقريش، وسار النبى ﷺ حتى إذا كان بالثَّنية التى يهبط عليهم منها، بركت راحلته، فقال الناس: حل حل. فألحت، يعنى: تمادتْ على عدم القيام، فقالوا: خلأت القصوى، خلأت القصوى. فقال النبى ﷺ: «ما خلأت القصوى[(٥)]، وما ذاك لها بخلق، ولكن

= قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية فنحر مائة بدنة ونحن سبع عشرة مائة ومعهم عدة السلاح والرجال والخيل. . . » الحديث.

(١) ينظر الطبقات (٢/ ٧٣)، وانظر السبل (٥/ ٧١).

(٢) بعدها في البخاري: «فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عينا من المشركين وإلا تركناهم محرومين . . .».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١٦٩٤، ١٦٩٥)، (١٨١١) (٢٧١١، ٢٧١٢)، (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، (٤١٥٧، ٤١٥٨)، (٤١٧٩، ٤١٨٠، ٤١٨١).

(٤) في البخاري: ذات الغميم.

(٥) في البخاري: القصواء.

حبسها حابس الفيل»؛ أى: حبسها الله عن دخول «مكة»؛ كما حبس الفيل عن دخولها[١].

ومناسبة ذلك: أن الصحابة لو دخلوا «مكة» على تلك الصورة، وصدهم قريش - لوقع بينهم القتال المفضى إلى سفك الدماء، ونهب الأموال؛ كما لو قدر دخول الفيل، لكن سبق فى علم الله؛ أنه سيدخل فى الإسلام منهم خَلْقٌ كثير، وسيخرج من أصلابهم ناسٌ يسلمون ويجاهدون.

ثم قال ﷺ: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إيَّاهَا». ثم زجرها، فوثبت.

قال: فعدل عنهم؛ حتى نزل بأقصى «الحديبية» على ثمد قليل الماء - يعنى: حفرة فيها ماء قليل - يتبرضه الناس تبرضًا؛ أى: يأخذونه قليلاً قليلاً، فلم يلبث الناس؛ حتى نزحوه، وشُكِيَ إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش بالرى؛ حتى صدروا عنه.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نَفَرٍ من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ من أهل «تهامة»، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى، وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه «الحديبية» معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت. والعُوذ - بالذال المعجمة -: جمع عائذ؛ وهى الناقة ذات اللبن، والمطافيل: الأمهات التى معها أطفالُهَا؛ يريد: أنهم خرجوا لهم بذوات الألبان من الإبل؛ ليرووا بألبانها، ولا يرجعوا؛ حتى يمنعوه، أو كنى بذلك عن النساء معهن الأطفال، والمراد: أنهم خرجوا بنسائهم وأولادهم؛ لإرادة طول المقام؛ ليكون أدعى إلى عدم الفرار، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نأت لقتال أحدٍ، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب، فأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة، ويخلُّوا بينى وبين الناس، فإن أظهر؛ فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس، فعلوا، وإلا فقد جموا - يعنى: استراحوا - وإن أبوا، فوالذى نفسى بيده؛ لأقاتلنهم على أمرى؛ حتى تنفرد سالفتى - أى: صفحة العنق؛ كنى بذلك عن القتل - أو لينفذن الله أمره». فقال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق؛ حتى أتى

---

(١) ينظر الحديث قبل السابق.

قريشًا، فقال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً؛ فإن شئتم أن نعرضه عليكم، فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشىء. وقال ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته. فقال: سمعته يقول كذا وكذا. فحدثهم بما قال النبى ﷺ.

فقام عروة بن مسعود، فقال: أى قوم، ألستم بالوالد ؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد ؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونى ؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون؛ أنى استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علىَّ - أى: تمنعوا من الإجابة - جئتكم بأهلى وولدى، ومن أطاعنى. قالوا: بلى. قال: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد - أى: خصلة خير وصلاح - اقبلوها، ودعونى آته. فأتاه؛ فجعل يكلم النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ نحوًا من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أى محمد؛ أرأيت إن استأصلتَ قومك، هل سمعتَ بأحدٍ من العرب اجتاح أصله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى، فإنى والله لا أرى وجوهًا، وإنى لأرى أشوابًا - يعنى: أخلاطًا - من الناس خليقًا أن يفرُّوا ويدَعوك. فقال له أبو بكر - رضى الله عنه -: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه، أو ندعه ؟ قال العلماء: وهذا مبالغةٌ من أبى بكر فى سَبِّ عروة، فإنه أقام معبود عروة؛ وهو صنمه مقام أمه، وحمله على ذلك ما أغضبه به من نِسْبته الفرار إليهم.

والبَظْر - بالموحدة المفتوحة، والظاء المعجمة الساكنة -: قطعة تبقى بعد الختان فى فرج المرأة، واللات: اسم صنم؛ والعرب تطلق هذا اللفظ فى معرض الذم. انتهى.

فقال عروة: من هذا ؟ فقالوا: أبو بكر. فقال: أما والذى نفسى بيده، لولا يد كانت لك عندى؛ لم أجزك بها، لأجبتك. قال: وجعل يكلِّم النبى ﷺ، فكلما تكلَّم، أخذ بلحيته ﷺ - والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبى، ومعه السيف، وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: اكفف يدك عن لحية النبى ﷺ.

قال العلماء: وقد كانت عادةُ العرب؛ أن يتناول الرجل لحية من يكلمه، لاسيما عند الملاطفة، وفى الغالب إنما يصنع ذلك النظير بالنظير، فكان النبى ﷺ يفضى

لعروة؛ استمالةً وتأليفًا، والمغيرة يمنعه؛ إجلالاً للنبى ﷺ وتعظيمًا.

قال: فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا ؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أى غُدَر، ألست أسعى فى غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قومًا فى الجاهلية، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم. فقال النبى ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه فى شيء». ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبى ﷺ بعينه؛ فيرى أنهم ما تنخَّم رسول الله ﷺ نخامة، إلا وقعتْ فى يد رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإِذا أمرهم أمرًا، ابتدروا لأمره، وإِذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون إِليه النظر تعظيمًا له.

قال فى «فتح البارى»: فيه إشارةٌ إلى الرد على ما خشيه من فرارهم؛ فكأنهم قالوا بلسان الحال: من يحبه هذه المحبة، ويعظمه هذا التعظيم؛ كيف يظن به أنه يفر عنه، ويسلمه لعدوه، بل هم أشد اغتباطًا به وبدينه ونصره. من هذه القبائل التى تداعى بعضها لمجرد الرحم. والله أعلم. انتهى.

قال: فرجع عُروة إِلى أصحابه، فقال: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى، والله إنْ رأيتُ ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمدًا، والله إن يتنخم نخامة، إلا وقعتْ فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإِذا أمرهم، ابتدروا أمره، وإذا توضَّأ، كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلَّم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون إِليه النظر تعظيمًا له، وإِنه قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها.

فقال رجل من بنى كنانة: دعونى آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف على النبى ﷺ قال رسول الله ﷺ: هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُدْنَ، فابعثوها له. فبعثوها له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد أعلمت، وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت.

فقام رجل منهم يقال له: مِكْرَزُ بن حفص - بكسر الميم، وسكون الكاف، وفتح الراء بعدها زاى - فقال: دعونى آته. فلما أشرف عليهم، قال النبى ﷺ: «هذا مكرز، وهو رجل فاجر». فجعل يكلم النبى ﷺ، فبينما هو يكلمه؛ إذ جاء سهيلُ

ابن عمرو، قال معمر: فأخبرنى أيوب عن عكرمة؛ أنه لما جاء سهيل قال النبى ﷺ: «إنه قد سهل من أمركم ما صعب»[١].

وفى رواية ابن إسحاق: فأرسلت قريش سهيل بن عمرو، فقالت: اذهب إلى هذا الرجل، فصالحه. فقال النبى ﷺ: قد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا. فلما انتهى إلى النبى ﷺ جرى بينهما القول؛ حتى وقع بينهما الصلحُ على أن توضع الحربُ بينهم عشر سنين، وأن يأمن بعضهم بعضًا، وأن يرجع عنهم عامهم هذا[٢].

وقال معمر: قال الزهرى فى حديثه: فجاء سهيل بن عمرو، فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتابًا. فدعا النبى ﷺ عليًا، وقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل: أما الرحمن الرحيم؛ فوالله ما أدرى ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم؛ كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبى ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله[٣].

وفى حديث عبد الله بن مغفل عند الحاكم: فكتب: هذا ما صالح محمد رسولُ الله أهل «مكة». . . الحديث[٤].

فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسولُ الله ما صددناك، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبيُّ ﷺ: والله إنى لرسول الله، وإن كذّبتمونى.

وفى رواية له - يعنى: البخارى ولمسلم: فقال النبى ﷺ لعليٍّ: «امحه»، فقال: ما أنا بالذى أمحاه[٥]؛ وهى لغة فى «أمحوه».

قال العلماء: وهذا الذى فعل عليٌّ من باب الأدب والمستحب؛ لأنه لم يفهم من النبى ﷺ تحتم محو عليٍّ نفسه، ولهذا لم ينكر عليه، ولو حتم محوه لنفسه، لم يجز لعلى تركه. انتهى. ثم قال ﷺ: «أرنى مكانها». فأراه مكانها، فمحاها،

---

(١) تقدمت القصة عند البخاري، وانظر البداية والنهاية (٤/ ١٩٧-٢٠٠).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٦٣).

(٣) راجع تخريج حديث المسور ومروان وهذه الرواية فى البخارى (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٤) ينظر المستدرك (٢/ ٤٦٠-٤٦١)، والحديث أخرجه أحمد (٤/ ٨٧)، والبيهقي (٦/ ٣١٩)، وانظر سبل الهدى والرشاد (٥/ ٥٤).

(٥) هو نفس حديث المسور ومروان السابق.

وكتب: «ابن عبد الله».

وفى رواية البخارى فى «المغازى»: فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن أن يكتب، فكتب مكان رسول الله ﷺ : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله[1].

قال فى «فتح البارى»: وقد تَمسك بظاهر هذه الرواية أبو الوليد الباجيُّ، وادعى أنَّ النبيَّ ﷺ كتب بيده بعد أن لم يكن يُحسن أن يكتب، فشنع عليه علماء «الأندلس» فى زمانه، ورموه بالزندقة، وأن الذى قاله يخالف القرآن؛ حتى قال قائلهم شعرًا: [من البسيط]

بَرِئْتُ مِمَّنْ شَرَى دُنْيَا بِآخِرَةٍ وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ قَدْ كَتَبَا

فجمعهم الأمير، فاستظهر الباجيّ عليهم بما لديه من المعرفة، وقال: هذا لا ينافى القرآن، بل يؤخذ من مفهوم القرآن؛ أنه قيد النفى بما قبل ورود القرآن. قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وبعد أن تحققت أمنيته، وتقررت بذلك معجزته، وأمن الارتياب فى ذلك - لا مانع من أن يعرف الكتابة بعد ذلك من غير تعليم؛ فتكون معجزة أخرى.

وذكر ابن دحية: أن جماعة من العلماء وافقوا الباجى على ذلك؛ منهم شيخه: أبو ذر الهروى، وأبو الفتح النيسابورى، وآخرون من علماء «إفريقية».

واحتج بعضهم لذلك بما أخرجه ابن أبى شيبة من طريق مُجَالد، عن عون بن عبد الله: ما مات رسول الله ﷺ حتى كتب، وقرأ.

قال مجاهد: فذكرته للشعبى، فقال: صدق، قد سمعت من يذكر ذلك.

وقال القاضى عياض: وردت آثارٌ تدل على معرفته حروف الخط، وحسن تصورها؛ كقوله لكاتبه: «تضع القلم على أذنك، فإنه أذكر لك، وقوله لمعاوية: «ألق الدواة، وحرف القلم، وفرق السين ولا تعور الميم» إلى غير ذلك.

قال: وهذا وإن لم يثبت أنه كتب، فلا يبعد أن يرزق علم وضع الكتابة، فإنه أوتى علم كل شىء.

وأجاب الجمهور بضعف هذه الأحاديث، وعن قصة الحديبية بأن القصة واحدةٌ،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٦٩٨)، ومسلم (١٧٨٣)، وأبو داود (١٨٣٢)، من حديث البراء بن عازب به.

والكاتب فيها هو على بن أبى طالب، وقد صرح فى حديث المسور بن مخرمة؛ بأن عليًا هو الذى كتب؛ فيحمل على أن النكتة فى قوله: «فأخذ الكتاب، وليس يحسن أن يكتب»؛ لبيان أن قوله: «أرنى إياها» أنه إنما احتاج إلى أن يريه موضع الكلمة التى امتنع عليٌّ من محوها؛ لكونه كان لا يحسن الكتابة، وعلى أن قوله بعد ذلك: «فكتب» فيه حذف تقديره: فمحاها فأعادها لعليٍّ فكتب، أو أطلق «كتب» بمعنى: أمر بالكتابة؛ وهو كثير؛ كقوله: كتب إِلى كسرى وقيصر.

وعلى تقدير حمله على ظاهره، فلا يلزم من كتابة اسمه الشريف فى ذلك اليوم؛ وهو لا يحسن الكتابة؛ أن يصير عالمًا بالكتابة، ويخرج عن كونه أميًا؛ ككثير من الملوك.

ويحتمل أن يكون جرب يده بالكتابة حينئذ، وهو لا يحسن، فخرج المكتوب على وفقِ المراد؛ فيكون معجزة أخرى فى ذلك الوقت خاصًا، ولا يخرج بذلك عن كونه أميا.

وبهذا أجاب أبو جعفر السمنانى أحد أئمة الأصول من الأشاعرة، وتبعه ابن الجوزى، وتعقب ذلك السهيلى وغيره؛ بأن هذا وإن كان ممكنًا، ويكون آية أخرى، لكنه يناقض كونه أميًا لا يكتب، وهى الآية التى قامت بها الحجة، وأفحم الجاحد، وانحسمت الشبهة، فلو جاز أن يصير يكتب بعد ذلك، لعادت الشبهة.

وقال المعاند: كان يحسن يكتب، لكنه كان يكتم ذلك، [قال السهيلي](١): والمعجزات يستحيلُ أن يدفع بعضها بعضًا، والحق أن معنى قوله: «فكتب»: أمر عليًا أن يكتب. انتهى.

قال: وفى دعوى أن كتابة اسمه الشريف فقط على هذه الصورة يستلزم مناقضة المعجزة، ويثبت كونه غير أمى - نظر كبير. والله أعلم. انتهى(٢).

وأما قوله: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، وقوله: «أما الرحمن الرحيم، فوالله ما أدرى ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم... إلى آخره - فقال العلماء: وافقهم - عليه الصلاة والسلام - فى ترك كتابة: بسم الله الرحمن الرحيم، وكتب: باسمك اللهم، وكذا وافقهم فى: محمد بن عبد الله، وترك كتابة: رسول الله؛

---

(١) المثبت من الفتح.
(٢) هذا الكلام نقله من الفتح (٨/ ٢٩٠) بطوله.

للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح؛ مع أنه لا مفسدة فى هذه الأمور، أما البسملة، وباسمك اللهم فمعناهما واحدٌ، وكذا قوله: محمد بن عبد الله هو أيضًا رسوله، وليس فى ترك وصف الله - تعالى - فى هذا الموضع بالرحمن الرحيم ما ينفى ذلك، ولا فى ترك وصفه ﷺ هنا بالرسالة ما ينفيها، فلا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحل من تعظيم آلهتهم، ونحو ذلك. انتهى.

قال فى رواية البخارى: فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. فقال ﷺ: على أن يخلوا بيننا وبين البيت؛ فنطوف به، فقال سهيلٌ: والله لا تتحدَّث العرب؛ أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب. فقال سهيلٌ: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل؛ وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا[1]؟ الضُّغطة - بالضم - قال فى «القاموس»: الضيق والإكراه. انتهى.

فإن قلت: ما الحكمة فى كونه - عليه الصلاة والسلام - وافق سهيلاً؛ على أنه لا يأتيه منهم رجل؛ وإن كان على دين الإسلام، إلا يرده إلى المشركين ؟.

فالجواب: أن المصلحة المترتبة على هذا الصلح ما ظهر من ثمراته الباهرة، وفوائده الظاهرة التى كانت عاقبتها فتح «مكة»، وإسلام أهلها كلهم، ودخول الناس فى دين الله أفواجًا، وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين، ولا تتظاهر عندهم أمور النبى ﷺ كما هى، ولا يخلون بمن يعلمهم بها مفصَّلة، فلما حصل صلح «الحديبية»، اختلطوا بالمسلمين، وجاءوا إلى «المدينة»، وذهب المسلمون إلى «مكة»، وخلوا بأهليهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه، وسمعوا منهم أحوال النبى ﷺ ومعجزاته الظاهرة، وأعلام نبوته المتظاهرة، وحسن سيرته، وجميل طريقته، وعاينوا بأنفسهم كثيرًا من ذلك، فمالت نفوسُهم إلى الإيمان؛ حتى بادر خلقٌ كثير منهم إلى الإسلام قبل فتح «مكة»؛ فأسلموا بين صلح «الحديبية» وفتح «مكة»، وازداد الآخرون ميلاً إلى الإسلام، فلما كان يوم الفتح، أسلموا كلهم، لما كان قد تمهد لهم من الميل، وكانت العرب غير قريش فى

(١) جزء من حديث المسور ومروان السابق.

البوادى؛ قال الله - تعالى -: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴾ [النصر: ١، ٢]، فالله ورسوله أعلم. انتهى.

قال فى رواية البخارى: فبينماهم كذلك؛ إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده؛ قد خرج من أسفل «مكة»؛ حتى رمى بنفسه: بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إِلىَّ، فقال ﷺ: «إنا لم نمض الكتاب بعد»، قال: فوالله إِذن لا أصالحك على شيء أبدًا. قال النبيُّ ﷺ: فأجزه إِلى، قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: بلى فافعل. قال: ما أنا بفاعلٍ. قال مكرز: بلى، قد أجزنا ذلك.

قال أبو جندل: أى معشر المسلمين [أُرَدُّ] إِلى المشركين، وقد جئت مسلمًا؛ ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان عُذِّبَ فى الله عذابًا شديدًا.

زاد ابن إسحاق: فقال النبى ﷺ: يا أبا جندل، اصبر، واحتسب؛ فإِنا لا نغدر، وإِن الله جاعلٌ لك فرجًا ومخرجًا. ووثب عمر يمشى إِلى جنبه، ويقرب منه قائم السيف، ويقول: اصبر؛ فإِنما هم المشركون، وإِن دم أحدهم كدم الكلب. يعرِّض له بقتل أبيه، فلما لم يفعل، قال عمر: ضنَّ الرجل بأبيه(١).

قال الخطَّابى: تأوَّل العلماءُ ما وقع فى قصة أبى جندل على وجهين:

أحدهما: أن الله قد أباح التقية للمسلم؛ إذا خاف الهلاك، ورخَّص له أن يتكلَّم بالكفر مع إضمار الإِيمان، إن لم يمكنه التورية، فلم يكن رده إِليهم إسلامًا لأبى جندل إِلى الهلاك مع وجود السبيل إِلى الخلاص من الموت بالتقية.

والوجه الثانى: أنه إنما رده إِلى أبيه، والغالب أن أباه لم يبلغ به إِلى الهلاك، وإِن عذبه، أو سجنه، فله مندوحة بالتقية أيضًا.

وأما مايخاف عليه من الفتنة: فإِن ذلك امتحان من الله يبتلى به صبر عباده المؤمنين(٢).

واختلف العلماء: هل يجوز الصلح مع المشركين؛ على أن يرد إِليهم من جاء مسلمًا من عندهم أم لا ؟

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٣/ ٢٦٥)، والبداية والنهاية (٤/ ١٩٨-٢٠٠)، وتقدمت عند البخاري.
(٢) ينظر معالم السنن (٢/ ٣٣١)، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٧٧).

فقيل: نعم على ما دلَّت عليه قصة أبى جندل، وأبى بصير.

وقيل: لا وأن الذى وقع فى القصة منسوخ، وأن ناسخه حديث: «أنا برىء من مسلم بين المشركين»(١)؛ وهو قول الحنفية.

والشافعية تفصل بين العاقل، والمجنون والصبى؛ فلا يُرَدَّان.

وقال بعض الشافعية: مناط جواز الرد أن يكون المسلم؛ بحيث لا تجب عليه الهجرة من دار الحرب. والله أعلم(٢).

قال فى «فتح البارى»: قال فى رِواية البخارى: فقال عمر بن الخطَّاب: فأتيت النبى ﷺ فقلت: ألستَ نبى الله حقًّا ؟ قال: بلى. قلت: ألستَ على الحق، وعدونا على الباطل ؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدَّنية فى ديننا إذن ؟ قال: إنى رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصرى. قلت: أو لست كنت تحدثنا؛ أنا نأتى البيت، فنطوف به ؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به. قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبيَّ الله حقًّا ؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل ؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذن ؟ قال: أيها الرجل؛ إنه رسول الله ﷺ وليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه؛ فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا؛ أنا سنأتى البيت، فنطوف به ؟ قال: بلى، أفأخبرك أنا نأتيه العام ؟ قلت: لا. قال: إنك آتيه فمطوف به(٣).

قال العلماء: لم يكن سؤال عمر - رضى الله عنه - وكلامه المذكور شَكًّا، بل طلبًا لكشف ما خفى عليه، وحثًّا على إِذلال الكفار، وإظهار الإِسلام؛ كما عرف فى خلقه، وقوته فى نصرته الدين، وإِذلال المبطلين. وأما جواب أبى بكر لعمر - رضى الله عنهما - بمثل جواب النبى ﷺ فهو من الدلائل الظاهرة على عظم فضله،

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤)، وابن ماجه كما في تلخيص الحبير (٤/ ٢١٨) من حديث جرير وفيه قصة قال الحافظ في التلخيص: «وصحح البخاري وأبو حاتم وأبو داود والترمذي والدارقطني إرساله إلى قيس بن أبي حازم ورواه الطبراني ... موصولاً» قلت هو في الكبير للطبراني (٢/ ٣٠٣-٣٠٤) رقم (٢٢٦٤، ٢٢٦٥).

(٢) ينظر سبل الهدى والرشاد (٥/ ٧٨).

(٣) جزء من حديث المسور ومروان المتقدم.

وبارع علمه، وزيادة عرفانه ورسوخه وزيادته فى كل ذلك على غيره.

وكان الصلح بينهم مدة عشر سنين؛ كما فى «السير»، وأخرجه أبو داود من حديث ابن عمر[١].

ولأبى نعيم فى مسند عبد الله بن دينار: كانت أربع سنين؛ وكذا أخرجه الحاكم فى البيع من «المستدرك»، والأول أشهر.

وكان الصلح على وضع الحرب؛ بحيث يأمن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وألا يدخل البيت إلا العام القابل ثلاثة أيام، ولا يدخلوها إلا بجلبان السلاح؛ وهو القراب بما فيه. والجلبان - بضم الجيم، وسكون اللام -: شبه الجراب؛ من الأدم؛ يوضع فيه السيف مغمودًا.

ورواه القتيبى: بضم الجيم واللام وتشديد الباء، وقال: هى أوعية السلاح بما فيها. وفى بعض الروايات: إلا بجلبان السلاح: السيف، والقوس وإنما اشترطوا ذلك؛ ليكون علمًا وأمارة السلم؛ إذ كان دخولهم صلحًا[٢].

وقال مكّى بن أبى طالب القيروانى فى «تفسيره»: وبعث - عليه الصلاة والسلام - بالكتاب إليهم مع عثمان بن عفان، وأمسك سهيل بن عمرو عنده، فأمسك المشركون عثمان، فغضب المسلمون.

وقال مغلطاى: فاحتبسته قريش عندها، فبلغ النبى ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا الناس إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة على الموت.

وقيل: على ألاَّ يفروا. انتهى.

ووضع النبى ﷺ شماله فى يمينه، وقال: هذه عن عثمان.

وفى البخارى: فقال ﷺ بيده اليمنى: «هذه بيعة عثمان»؛ فضرب بها على يده... الحديث[٣].

---

(١) أخرج أبو داود عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، أنهم اصطلحوا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيهن الناس وعلى أن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال.

(٢) انظر النهاية (١/ ٢٨٢) لابن الأثير.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٦٩٩) من حديث ابن عمر ولفظه فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان» فضرب بها على يده فقال: «هذه لعثمان» والحديث رواه أيضًا الترمذي (٣٧٠٦)، وأحمد (٢/ ١٠١، ١٠٨، ١٢٠).

ولما سمع المشركون بهذه، خافوا فبعثوا بعثمان وجماعة من المسلمين. وفى هذه البيعة نزل قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠] وقوله - تعالى -: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية [الفتح: ١٨].

وحلق الناس مع النبى ﷺ ونحروا هداياهم بـ«الحديبية».

قال مغلطاى: وأرسل الله ريحًا، فحملت شعورهم، فألقتها فى الحرم، وأقام ﷺ بـ«الحديبية» بضعة عشر يومًا، وقيل: عشرين يومًا، ثم قفل، وفى نفوس بعضهم شيء؛ فأنزل الله - تعالى - سورة الفتح يسليهم بها، ويذكرهم نعمة الله، فقال - تعالى -: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: ١]، قال ابن عباس، وأنس، والبراء بن عازب: الفتح هنا فتح «الحديبية»(١)، ووقوع الصلح بعد أن كان المنافقون يظنون أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا؛ أى: حسبوا ألا يرجعوا، بل يقتلون كلهم.

وأما قوله - تعالى -: ﴿ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨]، فالمراد فتح «خيبر»؛ على الصحيح؛ فإنها وقعت فيها المغانم الكثيرة للمسلمين.

وقد روى أحمد، وأبو داود، والحاكم، عن مجمع بن حارثة؛ قال: شهدنا «الحديبية»، فلما انصرفنا، وجدنا رسول الله ﷺ واقفًا عند كراع الغميم، وقد جمع الناس قرأ عليهم: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: ١] «الحديبية»، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وتبايعوا بيعة الرضوان، وأطعموا نخيل «خيبر»، وظهرت الروم على فارس، وفرح المسلمون بنصر الله.

وأما قوله - تعالى -: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ [النصر: ١] وقوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح» ففتح «مكة» بالاتفاق(٢).

---

(١) روى البخاري (٤٨٣٤) عن أنس -رضي الله عنه-: ﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا﴾ قال: الحديبية. وروى البخاري أيضًا (٤١٥٠) عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحًا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية... الحديث.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٣٦)، (٣٠١٥)، وأحمد (٣/ ٤٢٠)، والحاكم (٢/ ٤٥٩)، والبيهقي في الدلائل (٤/ ١٥٦)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٧-٥٨) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه.

قال الحافظ ابن حجر: فبهذا يرتفع الإِشكال، وتجتمع الأقوال، والله أعلم. ثم رجع ﷺ إلى «المدينة»(١).

وفى هذه السَّنة: كسفت الشمس، وظَاهَرَ أوس بن الصامت من امرأته خَوْلَة.

وفيها: استسقى فى رمضان، ومطر الناس، فقال النبى ﷺ: «أصبح من الناس: مؤمن بالله، وكافر بالكواكب»(٢) قاله مغلطاى.

وجزم الدمياطى فى «سيرته»؛ بأن تحريم الخمر كان فى سنة «الحديبية»، وذكر ابن إسحاق أنه كان فى وقعة بنى النضير، وهى بعد «أحد»؛ وذلك سنة أربع؛ على الراجح(٣).

وفيه نظر؛ لأن أنسًا كان الساقى يوم حرمت، وأنه لما سمع المنادى بتحريمها، بادر فأراقها، ولو كان سنة أربع، لكان أنس يصغر عن ذلك.

وأخرج النسائى والبيهقى بسندٍ صحيحٍ، عن ابن عباس: إنما نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من الأنصار شربوا، فلما ثمل القوم، عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا، جعل الرجل يرى فى وجهه ورأسه الأثر، فيقول: صنع هذا أخى فلان؛ وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن فيقول: والله لو كان بى رحيمًا ما صنع بى هذا؛ حتى وقعت فى قلوبهم الضغائن؛ فأنزل الله - تعالى - هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ ﴾ إلى ﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]، فقال ناسٌ من المتكلفين: هى رجس؛ وهى فى بطن فلان وفلان، وقد قتل يوم «أحد»؛ فأنزل الله: ﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ إلى ﴿ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾(٤) [المائدة: ٩٣]، وآية تحريم الخمر نزلت فى عام الفتح قبل الفتح. والله أعلم.

---

(١) انظر: فتح الباري (٨/ ٢٠٩-٢١٠).
(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٩٢) من حديث زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل... الحديث ومن طريق مالك أخرجه البخاري (٨٤٦)، (١٠٣٨)، ومسلم (٧١)، وأبو داود (٣٩٠٦)، وأبو عوانة (١/ ٢٦)، والبغوي (١١٦٩)، وأخرجه البخاري (٤١٤٧)، (٧٥٠٣)، والنسائي (٣/ ١٦٥)، وأبو عوانة (١/ ٢٧)، من غير طريق مالك به.
(٣) ينظر وقعة بني النضير فيما تقدم.
(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٧) رقم (١١١٥١)، والبيهقي (٨/ ٢٨٥).

وفيها: سرية محمد بن مَسْلمة[١] فى ثلاثين راكبًا إلى القرطاء من بنى بكر بن كلاب بـ«ضرية»، وهى على سبع ليال من «المدينة»، عاشر المحرم، فلما أغاروا عليهم، هربوا فغنم، وجاء آخر المحرم، ومعه ثمامة بن أثال أسيرًا.

وعكاشة بن محصن الأسدى فى ربيع الأول إلى ماء لبنى أسد[٢]؛ يقال له: عمرة مرزوق ،فى أربعين، فغنم، ولم يلق كيدًا.

ومحمد بن مسلمة أيضًا إلى ذى القصَّة[٣] فى ربيع الأول معه عشرة إلى بنى ثعلبة، وهم مائة فقتلوا، إلا ابن مسلمة. فبعث إليهم أبا عبيدة فى ربيع الآخر بأربعين رجلًا، فغنموا نعمًا وشاءً، وأسروا رجلًا فأسلم.

وزيد بن حارثة فى ربيع الآخر إلى بنى سليم بـ«الجموع»[٤]، فغنموا نعمًا وشاء.

ثم إلى العيص[٥] فى جمادى الأولى، ومعه مائة وسبعون راكبًا يعترض عيرًا لصفوان بن أمية، فأسر منهم ناسا، منهم أبو العاص بن الربيع، فأجارته زوجته: زينب ابنة رسول الله ﷺ.

ثم إلى الطَّرَف، ماء على ستة وثلاثين ميلًا من «المدينة» فى جمادى الآخرة بخمسة عشر لبنى ثعلبة، فأصاب نعمًا وشاء.

ثم إلى «حسمى»[٦] وراء «وادى القرى» فى جمادى الآخرة إلى قوم من جذام، قطعوا الطريق على دحية، فقتل منهم قتلًا ذريعا، وأصاب مغانم كثيرة، ثم ردها عليهم ﷺ جميعها لما جاءه زيد بن رفاعة، وسأله فى ذلك، وأسلم.

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٦٠)، ودلائل النبوة (٤/ ٧٨)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣٥٠-مغازي).

(٢) ينظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٥٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٨٢-٨٣)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣٥٢-مغازي)، والبداية والنهاية (٤/ ٢٠٢).

(٣) انظر مغازي الواقدي (٢/ ٥٥١-٥٥٢)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٦٥)، وتاريخ الإسلام (٣٥٣-مغازي).

(٤) ينظر البداية والنهاية (٤/ ٢٠٣).

(٥) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٥٣)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٦٦)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣٥٤-مغازي)، وعيون التواريخ (١/ ٢٤٨)، والبداية والنهاية (٤/ ٢٠٣).

(٦) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٦٧)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣٥٤-مغازي)، تاريخ الطبري (٢/ ٦٤١-٦٤٢)، عيون التواريخ (١/ ٢٤٩).

ثم إلى وادى القرى فى رجب(١)، فقتل من المسلمين قتلى، وارتث زيد.

ثم إلى أم قرفة فاطمة بنت ربيعة الفزارية بناحية وادى القرى، فربطها بين بعيرين حتى ماتت.

وفى مسلم: أن أمير هذه السرية أبو بكر.

وعبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فى شعبان(٢) يدعو أهلها إلى الإسلام، فأسلم كثير بن الأصبغ بن عمر الكلبى، وكان نصرانيًّا، فتزوج عبد الرحمن ابنته تماضر، فولدت له أبا سلمة بن عبد الرحمن. وضرب الجزية على من لم يسلم.

وعلى بن أبى طالب إلى بنى سعد بفدك(٣)، فغنم نعمًا وشاءً.

وعبد الله بن عتيك لقتال أبى رافع عبد الله - أو سلام - ابن أبى الحقيق(٤)، على الخلاف فيه، فى رمضان، ومعه أربعة نفر، فقتلوه فى داره بخيبر.

وعبد الله بن رَواحة فى ثلاثين رجلًا إلى أسير بن رزام اليهوديّ بخيبر(٥)، فقتل، وقتل معه نحو الثلاثين.

وكرز بن جابر فى عشرين رجلًا إلى العرنيين الذين اجتووا المدينة، فأمر النبى ﷺ أن يشربوا من لقاحه ويتداووا، فلما أصبحوا، قتلوا راعِىَ النبيِّ ﷺ يسارًا النوبى، واستاقوا اللقاح، فأتى بهم فقطع أيديهم وسمل أعينهم وكانوا ثمانية، ونزل: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . . ﴾ الآية(٦) [المائدة: ٣٣].

وعمرو بن أمية الضمرى، انظر ومعه سلمة بن أسلم؛ ليصادفا غرة من أبى سفيان

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٦٢)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٦٨)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٥٥)، تاريخ الإسلام (٣٥٥-مغازي)، والبداية والنهاية (٤/ ٢٠٣).

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٦٠)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٦٨)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٥٨)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣٥٦-مغازي).

(٣) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٦٢)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٦٩)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٥٤).

(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ٧٠) وانظر تفاصيل قتله في تاريخ الإسلام للذهبي (٣٤١-مغازي).

(٥) انظر مغازي الواقدي (٢/ ٥٦٦) وطبقات ابن سعد (٢/ ٧٠)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٥٥)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣٦١-٣٦٢-مغازي).

(٦) انظر مغازي الواقدي (٢/ ٥٦٨)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٧١)، وصحيح البخاري (٨/ ٢٣٠) كتاب المغازي، باب قصة عكل وعرينة، وعيون التواريخ (١/ ٢٥٣)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣٥٦-مغازي).

بن حرب، فيقتلاه، ففطن لذلك وهرب[١].

وسبب ذلك: أن أبا سفيان أرسل إلى النبى ﷺ من يقتله غدرًا، فأقبل الرسول[٢] ومعه خنجر ليغتاله[٣]، فلما رآه النبى ﷺ قال: إن هذا ليريدُ غدرًا، فجذبه أسيد بن الحضير بداخلة إزاره، فإذا بالخنجر فسقط فى يده، فقال ﷺ: اصدقنى ما أنت ؟ قال: وأنا آمن ؟ قال: نعم، فأخبره بخبره، فخلى عنه ﷺ.

وبعث عمرو بن أمية، ومعه سلمة بن أسلم، ويقال: جبار بن صخر إلى أبى سفيان، وقال: إن أصبتما منه غرة فاقتلاه.

ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلاً، فرآه معاوية بن أبى سفيان، فأخبر قريشًا بمكانه، فخافوا وطلبوه، وكان فاتكًا فى الجاهلية، فحشد له أهل مكة وتجمَّعوا، فهرب عمرو وسلمة، فلقى عمرو عبيد الله بن مالك التميمى فقتله وقتل آخر، ولقى رسولَيْنِ لقريش بعثا يتجسَّسان الخبر، فقتلَ أحدهما وأسر الآخر، فقدم به المدينة، فجعل عمرو يخبر رسول الله ﷺ، وهو - عليه الصلاة والسلام - يضحك.

* * *

(١) انظر طبقات ابن سعد (٢/ ٧٢).
(٢) المقصود به رسول أبي سفيان.
(٣) ليغتاله: أي يغتال النبي ﷺ .

حوادث السنة السابعة

فيها غزوة خيبر فى جمادى الأولى[١]، وقاتل بها ﷺ أشد القتال، وقتل من أصحابه خمسة، ومن اليهود ثلاثة وتسعون، وفتحها الله عليه حصنًا حصنًا.

وفيها حرم لحوم الحمر الأهلية، ونهى عن أكل كل ذى ناب من السباع، وعن بيع المغانم حتى تقسم، وألاّ توطأ جارية حتى تستبرأ، وعن متعة النساء. ووضعت له السم فى الشاة زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم، فأخبرته الذراع بذلك.

وفتح وادى القرى فى جمادى الآخرة بعد ما حاصرهم أربعًا أو أكثر، وصالحه أهل تيماء على الجزية.

قال فى المواهب: هى مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام.

قال ابن إسحاق: خرج ﷺ فى بقية المحرم سنة سبع، فأقام يحاصرها بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها[٢].

وقيل: كانت فى آخر سنة ست، وهو منقول عن مالك، وبه جزم ابن حزم.

قال الحافظ ابن حجر[٣]: والراجح ما ذكره ابن إسحاق.

ويمكن الجمع: بأن من أطلق سنة ست، بناه على أن ابتداء السنة من شهر الهجرة الحقيقى، وهو ربيع الأول.

وأغرب ابن سعد وابن أبى شيبة، فرويا من حديث أبى سعيد الخدرى: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر لثمان عشرة من رمضان[٤]، وإسناده حسن؛ لكنه خطأ، ولعلها كانت إلى حنين فتصحفت.

---

(١) انظر مغازي الواقدي (٢/ ٦٣٣)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٨١)، وتاريخ الطبري (٣/ ٩-١٦)، والكامل في التاريخ (٢/ ٢١٦-٢٢٤)، والروض الأنف (٤/ ٥٩-٦٦) وعيون التواريخ (١/ ٢٦٤-٢٧٠)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٤٠٣-مغازي).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٧٥).

(٣) انظر فتح الباري (٨/ ٢٣٩).

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٨٣) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٩٤) رقم (٣٦٨٨٠) والذي عند ابن أبي شيبة «خرجنا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى خيبر في ثنتي عشرة بقيت من رمضان ...» وذكره الحافظ في الفتح (٨/ ٢٣٩).

وتوجيهه: بأن غزوة خيبر كانت ناشئة عن غزوة الفتح، وغزوة الفتح خرج ﷺ فيها فى رمضان جزمًا.

قال: وذكر الشيخ أبو حامد فى التعليقة أنها كانت سنة خمس، وهو وهم، ولعله انتقال من الخندق إلى خيبر(١).

وكان معه - عليه الصلاة والسلام - ألف وأربعمائة راجل، ومائتا فارس، ومعه أم سلمة زوجته.

وفى البخارى: من حديث سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع النبى ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر، هل تسمعنا من هنيهاتك ؟ وكان عامرٌ رجلاً شاعرًا، فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا أبقينَا ... وَثَبِّت الأقدامَ إِنْ لاَقَيْنَا
وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا
وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

وفى رواية إياس بن أبى سلمة، عن أبيه، عن أحمد فى هذا الرجز زيادة:

إِنّ الذِينَ قَدْ بَغُوا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا
وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَغْنَيْنَا

فقال رسول الله ﷺ كما فى رواية البخارى: من هذا السائق ؟ قالوا: عامر بن الأكوع، قال: يرحمه الله، قال رجل من القوم: وجبت يا نبىَّ الله، لولا أمتعتنا به... الحديث(٢).

وفى رواية أحمد: فجعل عامر يرتجز ويسوقُ الركابَ، وهذه كانت عادتهم إذا أرادوا تنشيط الإبل فى السير، ينزل بعضهم فيسوقها ويحدو فى تلك الحال(٣).

وقوله: «اللهم لولا أنت ما اهتدينا» كذا الرواية، قالوا: وصوابه فى الوزن «لاهُمَّ»، أو «تَاللهِ» كما فى الحديث الآخر.

---

(١) فتح الباري (٨/ ٢٣٩).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤١٩٦)، ومسلم (١٢٣/ ١٨٠٢).
(٣) الحديث أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٤٧، ٤٨، ٥٠).

وقوله: «فداء لك» قال المازنى: هذه اللفظة مشكلة؛ فإنه لا يقال للبارى سبحانه: فديتك؛ لأن ذلك إنما يستعمل فى مكروه يتوقَّع حلوله بالشخص؛ فيختار شخص آخر أن يحل ذلك به ويفديه منه.

قال: ولعل هذا وقع من غير قصد إلى حقيقة معناه؛ كما يقال: قاتله الله، ولا يريد بذلك حقيقة الدعاء عليه، وكقوله - عليه الصلاة والسلام -: تربتْ يداك، وتربتْ يمينُكَ. وفيه كله ضرب من الاستعارة؛ لأن المفادِيَ مبالغ فى طلب رضا المفادَى حين بذل نفسه عن نفسه للمكروه؛ فكأن مراد الشاعر: إنى أبذل نفسى فى رضاك. وعلى كل حالٍ فإن المعنى وإن أمكن صرفه إلى جهة صحيحة - فإطلاق اللفظ واستعارته والتجوز فيه يفتقر إلى ورود الشرع بالإذن فيه.

قال: وقد يكون المراد بقوله: «فداء لكَ» رجلًا يخاطبه، وفصل بين الكلام بذلك، ثم عاد إلى تمام الأول، فقال: ما أبقينا.

قال: وهذا تأويلٌ يصحُّ معه اللفظ والمعنى، لولا أن فيه تعسفًا اضطررنا إليه لتصحيح الكلام • انتهى.

فقيل: إنه يخاطب بهذا الشعر النبيَّ ﷺ، والمعنى لا تؤاخذنا بتقصيرنا فى حقك ونصرك؛ وعلى هذا فقوله: «اللهم» لم يقصدْ بها الدعاء، وإنما افتتح بها الكلام، والمخاطب بقول الشاعر: «لولا أنت» النبى ﷺ، لكن يعكرُ عليه بعد ذلك:

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

فإنه دعاء لله تعالى، ويحتمل أن يكون: فاسأل ربك أن ينزل ويثبت، والله أعلم.

وقوله: «إذا صيح بنا أتينا» أى: إذا صيح بنا للقتال ونحوه من المكاره، وفى رواية: «أبينا» بالموحدة بدل المثناة، أى: أبينا الفرار.

وقوله: «وبالصياح عولوا علينا» أى: استغاثوا بنا، واستفزعونا للقتال، وقيل: هو من التعويل على الشىء، وهو الاعتماد عليه، وقيل: هو من العويل، وهو الصوت.

وقوله: «من هذا السائق ؟ قالوا: عامر، قال: يرحمه الله، قال رجل من القوم: وجبَتْ» أى: ثبتت له الشهادة، وستقع قريبًا، وكان معلومًا عندهم أن من دعا له النبيُّ ﷺ هذا الدعاء فى هذا الموطن استشهدَ، فقالوا: هلا أمتعتنا به ؟ أى: وددنا

أنك أخرت الدعاء له بهذا إلى وقت آخر لتتمتع بمصاحبته ورؤيته مدة[(١)].

وفى البخارى من حديث أنس: أنه ﷺ أتى خيبر ليلاً، وكان إذا أتى قومًا بليل لم يغزهم[(٢)] حتى يصبح، فلما أصبح، خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: محمد، واللهِ محمد والخميسُ، فقال النبى ﷺ: خربت خيبرُ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذَرِينَ[(٣)]. وفى رواية: «فرفع يده، وقال: الله أكبر، خربت خيبر». والخميس: الجيش، سمى به، لأنه مقسومٌ بخمسة أقسام: المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب، ومحمد: خبر مبتدأ، أى: هذا محمد.

قال السهيلى: ويؤخذ من هذا الحديث التفاؤُلُ؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - لما رأى آلة الهدم، تفاءل أن مدينتهم ستخرب[(٤)]. انتهى.

ويحتمل كما قاله فى «فتح البارى»: أن يكون قال: «خربت خيبر» بطريق الوحى؛ ويؤيده قوله بعد ذلك: «إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذَرين. وفى رواية: أنه ﷺ صلى الصبح قريبًا من خيبر بغلس، ثم قال: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين»[(٥)].

وقال مغلطاى وغيره: وفرق - عليه الصلاة والسلام - الرايات، ولم تكنِ الراياتُ إلا بخيبر، وإنما كانت الألوية.

وقال الدمياطى: وكانت راية النبى ﷺ السوداء من برد لعائشة.

وفى البخاريّ وكان على بن أبى طالب تخلَّفَ عن النبى ﷺ، وكان رمدًا فلحق، فلما بتنا الليلة، قال: «لأعطينَّ الراية غدًا - أو ليأخذن الراية غدًا - رجلاً يحبُّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله عليه». فلما أصبح الناس، غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين على بن أبى طالب؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكى عينيه، فأرسل إليه[(٦)]، فأتى به، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه، ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكنْ به وجع، فأعطاه الراية، فقال على: يا رسول

---

(١) هذا الكلام للحافظ في الفتح (٨/ ٢٣٩-٢٤٠) بتصرف في شرح الحديث (٤١٩٦).
(٢) لفظ البخاري: لم يقربهم.
(٣) أخرجه البخاري (٤١٩٧)، ومسلم (١٢٠/ ١٣٦٥).
(٤) الروض الأنف (٤/ ٥٨).
(٥) الفتح (٨/ ٢٤٤).
(٦) لفظ البخاري: فأرسلوا إليه.

الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال: اتئذ[١] على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله، لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم. . . الحديث[٢].

ولما أن تصافَّ القوم، كان سيف عامر قصيرًا، فتناول ساق يهوديٍّ ليضربه، فرجع ذباب سيفه، فأصاب عين ركبة عامر، فمات منه، فلما قفلوا، قال سلمة: قلت: يا رسول الله، فداك أبى وأمى، زعموا أن عامرا حبطَ عمله عليه، قال ﷺ: كذب من قال، وإن له أجرين - وجمع بين إصبعيه - إنه لجاهد مجاهد. رواه البخارى أيضًا[٣].

وعن يزيد بن أبى عبيدة قال: رأيت ضربة بساق سلمة، فقلت: ما هذه الضربة ؟ قال: هذه ضربة أصابنيها يوم خيبر، فأتيت النبى ﷺ، فنفث فيها ثلاث نفثات، فما اشتكيتها حتى الساعة. أخرجه البخارى[٤].

وعنده - أيضًا - عن أبى هريرة: شهدنا خيبر، فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدَّعِى الإسلام: هذا من أهل النار، فلما حضر القتال، قاتل الرجل أشد القتال حتى كثرت فيه الجراحة، فكاد بعض الناس يرتاب، فوجد الرجل ألم الجراحة، فأهوى بيده إلى كنانته، فاستخرج منها سهمًا، فنحر نفسه، فاشتدَّ رجالٌ من المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، صدَّقَ الله حديثك، انتحر فلان فقتل نفسه، فقال: قُمْ يا فلان فأذن: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر[٥].

وفى رواية: فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة»[٦].

---

(١) لفظ البخاري: انفذ على رسلك.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٤٢٠٩، ٤٢١٠) في المغازي وأخرجه أيضًا في فضائل عليٍّ رقم (٣٧٠٢) من حديث سلمة.

(٣) نفس حديث سلمة السابق وهو في البخاري بهذا اللفظ رقم (٤١٩٦).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٤٢٠٦).

(٥) أخرجه البخاري رقم (٤٢٠٤).

(٦) انظر السابق.

وقاتل النبى ﷺ أهل خيبر، وقاتلوه أشدَّ القتال، واستشهد من المسلمين خمسة عشر، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون، وفتحها الله عليه حصنًا حصنًا، وهى النطاة، وحصن الصعب، وحصن ناعم، وحصن قلعة الزبير، والشق، وحصن أبى، وحصن البراء، والقموص، والوطيح، والسلالم، وهو حصن بنى الحقيق الذى كان لهم به كنز فى مسك الحمار، وكانوا قد غيبوه فى خربة؛ فدل الله رسوله عليه فاستخرجه، وقلع علىٌّ باب خيبر، ولم يحركه سبعون رجلاً إلا بعد جهد.

وفى رواية ابن إسحاق سبعة، وأخرجه من طريقه البيهقى فى «الدلائل»[(١)]، ورواه الحاكم وعنه البيهقى من جهة ليث بن أبى سليم، عن أبى جعفر محمد بن على بن حسين، عن جابر؛ أن عليًا حمل الباب يوم خيبر، وأنه جرب بعد ذلك، ولم يحمله أربعون رجلاً[(٢)]، وليث ضعيف.

وفى رواية البيهقى: أن عليًا لما انتهى إلى الحصن، اجتبذ أحد أبوابه فألقاه فى الأرض، فاجتمع عليه بعده منا سبعون رجلاً، وكان جهدًا أن أعادوا الباب مكانه[(٣)].

قال شيخنا: وكلها واهية، ولذا أنكره بعض العلماء. انتهى.

وفى البخارى: وتزوج - عليه الصلاة والسلام - بصفية بنت حُيَيِّ بْنِ أخطب، وكان قد قتل زوجها كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، وكانت عروسًا، فذكر له جمالها فاصطفاها لنفسه، فخرج بها حتى إذا بلغت سد الصهباء، حلت له، يعنى: طهرت من الحيض، فبنى بها - عليه الصلاة والسلام - فصنع حيسًا فى نطع صغير، ثم قال لأنس: آذن من حولك؛ فكانت وليمته على صفية.

قال: ثم خرجنا إلى المدينة، فرأيت النبى ﷺ يحوى لها، وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبتيه حتى تركب[(٤)]، وفى رواية: فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين، أو ما ملكَتْ يمينه ؟ قالوا: إن حجبها، فهى إحدى أمهات المؤمنين، وإن لم يحجبها، فهى ما ملكت يمينه، فلما

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٣/ ٢٨٤)، ومن طريقه البيهقي في الدلائل (٤/ ٢١٢).
(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٤/ ٢١٢) عن الحاكم به.
(٣) ينظر: الفتح (٨/ ٢٥٧).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢١١).

ارتحل، وطأ لها ومد الحجاب[١].

وفى رواية: أنه ﷺ قتل المقاتلة، وسبى الذرية، وكان فى السبى صفية، فصارت إلى دحية الكلبى، ثم صارت إلى النبى ﷺ، فجعل عتقها صداقها، وفى رواية: فأعتقها، وفى رواية: قال ﷺ لدحية: خذ جارية من السبى غيرها[٢]. وفى رواية لمسلم: أنه ﷺ اشترَى صفية منه بسبعة أرؤس، وإطلاق الشراء على ذلك على سبيل المجاز، وليس فى قوله: «بسبعة أرؤس»[٣] ما ينافى قوله فى رواية البخارى: «خذ جارية من السبى غيرها»؛ إذ ليس هنا دلالة على نفى الزيادة. والله أعلم.

وإنما أخذ ﷺ صفية؛ لأنها بنت ملك من ملوكهم، وليست ممن توهب لدحية؛ لكثرة من كان من الصحابة مثل دحية وفوقه، وقلة من كان فى السبى مثل صفية فى نفاستها، فلو خصه بها، لأمكن تغير خاطر بعضهم؛ فكان من المصلحة العامة ارتجاعها منه، واختصاصُهُ - عليه الصلاة والسلام - بها، فإنَّ فى ذلك رضَا الجميع، وليس ذلك من الرجوع فى الهبة فى شيء. انتهى.

وقال مغلطاى وغيره: كانت صفية قبل، رأتْ أن القمَرَ سقَطَ فى حجرها؛ فتؤول بذلك.

قال الحاكم: وكذا جرى لجويرية[٤].

وفيها حرم ﷺ لحوم الحمر الأهلية كما فى البخاريِّ: ولفظه: فلما أمسى الناس مساء اليوم الذى فتحت عليهم - يعنى: خيبر - أوقدوا نيرانًا كثيرة، فقال ﷺ: ما هذه النيران، على أى شيء توقدون ؟ قالوا: على لحم، قال: على أى لحم ؟ قالوا: لحم الحمر الأنسية، فقال النبى ﷺ: أهريقوها واكسروها، فقال رجل: يا رسول الله، أو نهريقها ونغسلها ؟ قال: أو ذاك[٥]؛ والمشهور فى الإنسية: كسر

---

(١) البخاري (٤٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧١)، ومسلم (٨٤-١٣٦٥)، وأبو داود (٢٩٩٨)، والنسائي (٦/ ١٣٢، ١٣٣).

(٣) أخرجه مسلم رقم (٨٧/ ١٣٦٥).

(٤) تقدم ذلك في أزواج النبي ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري (٤١٩٦) من حديث سلمة بن الأكوع.

الهمزة، منسوبة إلى الإنس، وهم بنو آدم، وحكى ضم الهمزة ضد الوحشية، ويجوز فتحها والنون - أيضًا - مصدر: أنست به آنس أنسًا وأنسة.

وفى رواية: «نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية، ورخص فى الخيل»، قال ابن أبى أوفى: فتحدثنا أنه إنما نهى عنها؛ لأنها لم تخمس(١).

وقال بعضهم: نهى عنها ألبتة؛ لأنها كانت تأكل العذرة(٢).

قال العلماء: وإنما أمر بإراقتها؛ لأنها نجسة محرمة، وقيل: إنما نهى عنها للحاجة إليها، وقيل: لأخذها قبل القسمة.

وهذان التأويلان للقائلين بإباحة لحومها، والصواب ما قدمنا.

وأما قوله ﷺ: «اكسروها» فقال رجل: أو نهريقها ونغسلها؟ قال: أو ذاك. فهذا محمول على أنه ﷺ اجتهد فى ذلك فرأى كسرها، ثم تغير اجتهاده، وأوحى إليه بغسلها.

وأما لحوم الخيل: فاختلف العلماء فى إباحتها:

فمذهب الشافعى والجمهور من السلف والخلف: أنه مباح لا كراهة فيه؛ وبه قال عبد الله بن الزبير، وأنس بن مالك، وأسماء بنت أبى بكر.

وفى صحيح مسلم عنها: «نحرنا فرسًا على عهد رسول الله ﷺ، فأكلناه ونحن بالمدينة»(٣).

وفى رواية الدارقطنى: «فأكلناه نحن وأهل بيت النبى ﷺ»(٤).

قال فى فتح البارى: ويستفاد من قولها: «ونحن بالمدينة» أن ذلك بعد فرض الجهاد فيرد على من استدل فى منع أكلها لعلة أنها من آلة الجهاد. وقولها: «وأهل بيت النبى ﷺ» رد على من زعم أنه ليس فيه أن النبى ﷺ اطلع على ذلك، مع أن ذلك لو لم يرد لم يظنَّ بآل أبى بكر أنهم يقدمون على فعل شيء فى زمنه ﷺ إلا وعندهم العلم بجوازه؛ لشدة اختلاطهم به - عليه الصلاة والسلام - وعدم

---

(١) حديث النهي هذا أخرجه البخاري (٣١٥٥)، (٤٢٢٠)، (٤٢٢٢)، (٤٢٢٤)، (٥٥٢٦) وعبارة ابن أبي أوفى بعد رقم (٣١٥٥) في كتاب فرض الخمس.

(٢) انظر صحيح البخاري الحديث (٤٢٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٥١١)، ومسلم في صحيحه (١٩٤٢).

(٤) أخرجه الدارقطني في سننه (٤/ ٢٩٠) رقم (٧٧).

مفارقتهم له، وهذا مع توفر داعية الصحابة إلى سؤاله - عليه الصلاة والسلام - عن الأحكام؛ ومن ثم: كان الراجح أن الصحابى إذا قال: «كنا نفعل كذا على عهد رسول الله ﷺ» كان له حكم الرفع؛ لأن الظاهر اطلاعه ﷺ على ذلك وتقريره، وإذا كان ذلك فى مطلق الصحابى، فكيف بآل أبى بكر؟![١].

وقال الطحاوى: ذهب أبو حنيفة: إلى كراهة أكل الخيل، وخالفه صاحباه وغيرهما، واحتجوا بالأخبار المتواترة فى حلها. انتهى[٢].

وقد نقل بعض التابعين الحل عن الصحابة مطلقًا من غير استثناء أحد؛ فأخرج ابن أبى شيبة، بسند صحيح على شرط الشيخين، عن عطاء، قال: «لم يزلْ سلفك يأكلونها»، قال ابن جريج: قلت: أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم.

وأما ما نقل فى ذلك عن ابن عباس - من كراهتها - فأخرجه ابن أبى شيبة، وعبد الرزاق، بسندين ضعيفين.

وقال أبو حنيفة فى الجامع الصغير: أكره لحوم الخيل؛ فحمله أبو بكر الرازى على التنزيه، وقال: لم يطلق أبو حنيفة فيه التحريم، وليس هو عنده كالحمار الأهلى. وصحَّح أصحاب «المحيط» و«الهداية» و«الذخيرة» عنه التحريم، وهو قول أكثرهم.

وقال القرطبى فى شرح مسلم: مذهب مالك الكراهة، وقال [الفاكهى][٣]: المشهور عند المالكية الكراهة. والصحيح عندَ المحققين منهم التحريم.

وقال [الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة][٤]: الدليل على الجواز مطلقًا واضحٌ؛ لكن سبب كراهة مالك لأكلها كونها تستعمل غالبًا فى الجهاد، فلو انتفت الكراهة لكثر استعمالها، ولو كثر لأفضى إلى فنائها، فيئول إلى النقص من إرهاب العدو الذى وقع الأمر به فى قوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فعلى هذا: فالكراهة لسبب خارج وليس البحث فيه؛ فإن الحيوان المتفق على

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ٨٢).
(٢) نقل ذلك عنه الحافظ في فتح الباري (١١/ ٨٢، ٨٣).
(٣) في ط: الفاكهاني. والمثبت من فتح الباري.
(٤) في ط: ابن حمزة. والمثبت من فتح الباري، وهو الصواب.

إباحته لو حدث أمر يقتضى أن لو ذبح لأفضى إلى ارتكاب محذور، لامتنع، ولا يلزم من ذلك القول بتحريمه انتهى.

وأما قول بعض المانعين: لو كانت حلالاً، لجازت الأضحية بها فمنتقض بحيوان البر؛ فإنه مأكول ولم تشرع الأضحية به.

وأما حديث خالد بن الوليد، عند أبى داود والنسائى: «نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الخيل والبغال والحمير»(١) فإنه ضعيف، ولو سلم لا ينهض معارضًا لحديث جابر الدالِّ على الجواز، وقد وافقه حديث أسماء، وقد ضعف حديث خالد بن الوليد أحمد، والبخارى، والدارقطنى، والخطابى، وابن عبد البر، وعبد الحق، وآخرون.

وزعم بعضهم: أن حديث جابر دالٌّ على التحريم لقوله: «رخص»(٢)؛ لأن الرخصة استباحة المحظور مع قيام المانع؛ فدل على أنه رخص. لهم بسبب المخمصة التى أصابتهم بخيبر؛ فلا يدل ذلك على الحل المطلق.

وأجيب بأن أكثر الروايات جاء بلفظ الإذن، كما رواه مسلم، وفى رواية له: «أكلنا زمن خيبر الخيل وحمر الوحش، ونهانا النبى ﷺ عن الحمر الأهلية وأمر بلحوم الخيل»؛ فدلَّ على أن المراد بقوله: «رخص» أذن.

ونوقض - أيضًا - بالإذن فى أكل الخيل، ولو كانت رخصة لأجل المخمصة، لكانت الحمر الأهلية أولى بذلك؛ لكثرتها وعزة الخيل حينئذ؛ فدلَّ على أن الإذن فى كل الخيل إنما كان للإباحة لا لخصوص الضرورة.

وقد نقل عن مالك وغيره من القائلين بالتحريم: أنهم احتجوا للمنع بقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ ﴾ [النحل: ٨] وقرروا ذلك بأوجه:

أحدها: أن اللام للتعليل؛ فدل على أنها لم تخلق لغير ذلك؛ لأن العلة

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ١٥١) كتاب الأطعمة: باب في أكل لحوم الخيل، رقم (٣٧٩٠)، والنسائي (٧/ ٢٠٢)، وابن ماجه رقم (٣١٩٨)، والدارقطني (٤/ ٢٨٧)، وأحمد (٤/ ٨٩)، والبغوي في شرح السنة (٦/ ٤٧)، من حديث خالد بن الوليد قال البغوي: وإسناده ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٥٢٠)، ومسلم رقم (٣٦/ ١٩٤١)، والبغوي في شرح السنة (٦/ ٤٧ -بتحقيقنا)، من حديث جابر بلفظ: نهى النبي ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر، ورخص في لحوم الخيل.

المنصوصة تفيد الحصر، فإباحة أكلها تقتضى خلاف ظاهر الآية.

ثانيها: عطف البغال والحمير؛ فدل على اشتراكها معهما فى حكم التحريم؛ فيحتاج من أفرد حكم ما عطف عليها إلى دليل.

ثالثها: أن الآية سيقت مساق الامتنان؛ فلو كان ينتفع بها فى الأكل لكان الامتنان به أعظم، والحكيم لا يمتنُّ بأدنى النعم وبترك أعلاها، لا سيما وقد وقع الامتنان بالأكل فى المذكورات قبلها.

رابعها: لو أبيح أكلها، لفاتت المنفعة بها فيما وقع به الامتنان من الركوب والزينة:

وأجيب: بأن آية النحل مكية اتفاقًا، والإذن فى أكل الخيل كان بعد الهجرة من مكة بأكثر من ست سنين، فلو فهم النبى ﷺ من الآية المنع، لما أذن فى الأكل.

وأيضًا: فآية النحل ليست نصًا فى منع الأكل، والحديث صريح فى جوازه.

وأيضًا : فلو سلمنا أن اللام للتعليل، لم نسلم إفادة الحصر فى الركوب والزينة؛ فإنه ينتفع بالخيل فى غيرها وفى الأكل اتفاقًا، وإنما ذكر الركوب والزينة؛ لكونهما أغلب ما تطلب له الخيل، ونظيره حديث البقرة المذكور فى الصحيحين، خاطبت راكبها، فقالت: «لم أخلق لهذا، وإنما خلقت للحرث»؛ فإنه مع كونه أصرح فى الحصر ما يقصد به إلا الأغلب، وإلا فهى تؤكل وينتفع بها فى أشياء غير الحرث اتفاقًا.

وقال البيضاوى: واستدلّ بها - أى بآية النحل - على حرمة لحومها، ولا دليل فيها؛ إذ لا يلزم من تعليل العقل بما يقصد منه غالبًا ألاَّ يقصد منه غيره أيضًا. انتهى.

وأيضًا: فلو سلم الاستدلال، للزم منع حمل الأثقال على الخيل والبغال والحمير، ولا قائل به.

وأما عطف البغال والحمير: فدلالة العطف إنما هى وضعية، وهى ضعيفة.

وأما أنها سيقت مساق الامتنان: فالامتنان إنما قصد به غالب ما يقع به انتفاعهم بالخيل، فخوطبوا بما ألفوا وعرفوا، ولم يكونوا يعرفون أكل الخيل لعزتها فى بلادهم؛ بخلاف الأنعام فإن أكثر انتفاعهم بها كان بحمل الأثقال والأكل؛ فاقتصر فى كل من الصنفين على الامتنان بأغلب ما ينتفع به، فلو لزم من ذلك الحصر فى هذا الشق لأضرَّ.

وأما قولهم: «لو أبيح أكلها؛ لفاتت المنفعة بها. . .» إلى آخره. فأجيب عنه: بأنه لو لزم من الإذن فى أكلها أن تفنى، للزم مثله فى البقر وغيرها مما أبيح أكله ووقع الامتنان به.

وإنما أطلت فى ذلك لأمر اقتضاه، والله أعلم(١).

وفيها - أيضًا - نهى [النبى] ﷺ عن أكل كل ذى ناب من السباع(٢)، وعن بيع المغانم حتى تقسم(٣)، وألاَّ توطأ جارية حتى تستبرأ(٤).

(١) الكلام السابق كله نقله المصنف بتصرف من فتح الباري (١١/ ٨٢-٨٦).

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٤٣)، كتاب الصيد والذبائح باب تحريم أكل كل ذي ناب حديث (١٦/ ١٩٣٤)، وأبو داود (٢/ ٣٨٣) كتاب الأطعمة، باب النهي عن أكل السباع حديث (٣٨٠٣)، والدارمي (٢/ ٨٥) كتاب الأضاحي، باب ما لا يؤكل من السباع، وأحمد (١/ ٢٤٤، ٢٨٩، ٣٠٢، ٣٧٣)، وابن الجارود (٨٩٢)، وابن حبان (٥٢٥٦-الإحسان)، والطحاوي في«شرح معاني الآثار» (٤/ ١٩٠)، والبيهقي (٩/ ٣١٥) كتاب الضحايا، باب ما يحرم من جهة ما لا تأكل العرب، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٥)، والبغوي في شرح السنة (٦/ ٣٢- بتحقيقنا) من طريق أبي بشر والحكم عند بعضهم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس به. وقد رواه ميمون بن مهران عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أخرجه أبو داود (٢/ ٣٨٣) كتاب الأطعمة، باب النهي عن أكل السباع حديث (٣٨٠٥)، والنسائي (٧/ ٢٠٦)، كتاب الصيد والذبائح، باب إباحة أكل لحوم الدجاج، وابن ماجه (٢/ ١٠٧٧) كتاب الصيد، باب أكل كل ذي ناب من السباع حديث (٣٢٣٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٩٠)، وأحمد (١/ ٣٣٩)، والبيهقي (٩/ ٣١٥) كتاب الضحايا، باب ما يحرم من جهة ما لا تأكل العرب، وابن الجارود (٨٩٣) من طريق علي بن الحكم عن ميمون بن مهران عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وفي الباب عن جماعة من الصحابة منهم: أبو هريرة، وأبو ثعلبة الخشني، وخالد بن الوليد، وغيرهم.

(٣) أخرجه أبو داود رقم (٣٣٦٩)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٨٧)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٤٣٤).

(٤) ورد ذلك من حديث أبي سعيد الخدري، وابن عباس وأبي هريرة والعرباض بن سارية، وعلى بن أبي طالب، ورويفع بن ثابت وأبي أمامة وابن عمر ورجل ثقة. حديث أبي سعيد الخدري: أخرجه أحمد (٣/ ٨٧)، وأبو داود (٢/ ٦١٤) كتاب النكاح باب في وطء السبايا حديث (٢١٥٧)، والحاكم (٢/ ١٩٥)، كتاب النكاح، والبيهقي (٩/ ١٢٤) كتاب السير باب المرأة تسبى مع زوجها وفي (٧/ ٤٤٩) كتاب العدد، باب استبراء من ملك الأمة، عنه أن النبي ﷺ قال في سبي أوطاس: «لا توطأ حامل حتى تضع ولا غير حامل حتى تحيض حيضة» وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. وحديث ابن عباس أخرجه ابن الجارود (٢٤٤) كتاب النكاح، الحديث (٧٣٢) وأبو يعلى (٤/ ٣٧٣-٣٧٤) رقم (٢٤٩١) من طريق الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر وعن كل ذي ناب من السباع وأن توطأ السبايا حتى يضعن». وأخرجه النسائي (٧/ ٣٠١) =

وفيها: سمت النبى ﷺ زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم؛ كما فى البخارى من حديث أبى هريرة، ولفظه: «لما فتحت خيبر، أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا لى من كان هاهنا من اليهود، فجمعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: إنى سائلكم عن شيء، فهل أنت صادقونى عنه؟

= والدارقطني (٣/ ٦٩) كتاب البيوع حديث (٢٦٠)، وأبو يعلى (٤/ ٣٠٤) رقم (٢٤١٤)، والحاكم (٢/ ١٣٧) من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس به وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وأخرجه الدارقطني (٣/ ٢٥٧) كتاب النكاح، باب المهر (٥٠) من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن مسلم الجندي عن عكرمة عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ أن توطأ حامل حتى تضع أو حائل حتى تحيض. وذكره الهيثمي بهذا اللفظ في «المجمع» (٥/ ٧) وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات. وذكره الهيثمي أيضًا بلفظ آخر عنه قال: نهى رسول الله ﷺ يوم حنين عن بيع الخمس حتى يقسم وعن أن توطأ النساء حتى يضعن ما في بطونهن إن كن حبالى. وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وفيه عصمة بن المتوكل وهو ضعيف. حديث أبي هريرة أخرجه الطبراني في الصغير (١/ ٩٥) من طريق بقية بن الوليد عن إسماعيل بن عياش عن الحجاج ابن أرطأة عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أنه نهى في وقعة أوطاس أن يقع الرجل على حامل حتى تضع» وقال الهيثمي (٥/ ٧): رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه بقية والحجاج وكلاهما مدلس. حديث العرباض بن سارية أخرجه الترمذي (٤/ ١٣٣) كتاب السير، باب ما جاء في كراهية وطء الحبالى من السبايا حديث (١٥٦٤) من طريق أبي عاصم النبيل عن وهب بن خالد عن أم حبيبة بنت العرباض بن سارية أن أباها أخبرها: «أن رسول الله ﷺ نهى أن توطأ السبايا حتى يضعن ما في بطونهن» ثم قال الترمذي: «غريب» حديث رويفع بن ثابت أخرجه أحمد (٤/ ١٠٨-١٠٩) وأبو داود (٢/ ٦١٥-٦١٦) كتاب النكاح، باب في وطء السبايا الحديث (٢١٥٨)، والترمذي (٣/ ٤٣٧) كتاب النكاح باب ما جاء في الرجل يشتري الجارية وهي حامل الحديث (١١٣١)، وابن الجارود ص (٢٤٤) كتاب النكاح الحديث (٧٣١)، والبيهقي (٩/ ١٢٤) كتاب السير، باب المرأة تسبى مع زوجها وفي (٧/ ٤٤٩) كتاب العدد باب استبراء من ملك الأمة عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم حنين: «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها» بلفظ أبي داود. وقال الترمذي: حديث حسن وقد روى من غير وجه عن رويفع بن ثابت. وحديث أبي أمامة رواه الطبراني كما في المجمع (٤/ ٣٠٣) عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر أن توطأ الحبالى حتى يضعن» وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح. وحديث ابن عمر رواه الطبراني كما في المجمع (٤/ ٣٠٣) ولفظه «كل جارية بها حبل حرام على صاحبها حتى تضع ما في بطنها» وقال الهيثمي: وفيه يحيى بن عبد الله البابلتي وهو ضعيف. حديث الثقة: أخرجه أبو يعلى كما في المطالب العالية (٢/ ٧٢) حديث (١٦٨٣) من حديث يحيى بن سعد بن دينار مولى آل الزبير قال: أخبرني الثقة أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر أن يوقع على الحبالى وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٠٣) رواه أبو يعلى ويحيى لا أعرفه.

فقالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان، فقال لهم رسول الله ﷺ: كذبتم، بل أبوكم فلان، فقالوا: صدقت وبررت، قال: هل أنتم صادقونى عن شيء إن سألتكم؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته فى أبينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفوننا فيها، فقال رسول الله ﷺ: اخسئوا فيها، والله، لا نخلفكم فيها أبدًا، ثم قال: هل أنتم صادقونى عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم، فقال: هل جعلتم فى هذه الشاة سُمًّا؟ فقالوا: نعم، فقال: ما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كذابًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرَّكَ(١).

وفى حديث جابر عند أبى داود: أن يهوديةً من أهل خيبر سمت شاة مصلية، ثم أهدتها إلى رسول الله ﷺ، فأخذها رسول الله ﷺ يأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، فقال رسول الله ﷺ: ارفعوا أيديكم، وأرسل إلى اليهودية فقال: سممت هذه الشاة؟ فقالت: من أخبرك؟ قال: أخبرتنى هذه فى يدى - للذراع - قالت: نعم، قلت: إن كان نبيًّا فلم يضره، وإن لم يكن نبيًّا استرحنا منه، فعفا عنها ﷺ ولم يعاقبها، وتوفى أصحابه الذين أكلوا من الشاة.

واحتجم رسول الله ﷺ على كاهله من أجل الذى أكل من الشاة(٢). وفى رواية: «جعلت زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم تسأل: أى الشاة أحب إلى محمد؟ فيقولون الذراع، فعمدت إلى عنز لها فذبحتها وصلتها، ثم عمدت إلى سم لا يطنى، يعنى: لا يلبث أن يقتل من ساعته، وقد شاورت يهود فى سموم، فاجتمعوا لها على هذا السم بعينه، فسمَّت الشاة وأكثرت فى الذراعين والكتف، فوضعت بين يديه ومن حضر من أصحابه، وفيهم بشر بن البراء، وتناول ﷺ الذراع، وانتهش منها، وتناول بشر بن البراء عظمًا آخر، فلما ازدرد ﷺ لقمته ازدرد بشر بن البراء ما فى فيه وأكل القوم، فقال ﷺ: ارفعوا أيديكم؛ فإن هذا الذراع تخبرنى أنها مسمومة، وفيه أن بشر بن البراء مات، وفيه: أنه ﷺ دفعها إلى أولياء بشر بن البراء،

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٩)، (٤٢٤٩)، (٥٧٧٧) مع اختلاف في بعض الألفاظ، وأبو داود (٤٥١٢).

(٢) سنن أبي داود (٤٥١٠) وهو جزء من الحديث السابق.

فقتلوها[(١)]. رواه الدمياطي.

وقد اختلف، هل عاقبها ﷺ؟ فعند البيهقي، من حديث أبي هريرة: فما عرض لها[(٢)]، ومن طريق أبي نضرة، عن جابر: نحوه، قال: فلم يعاقبها[(٣)]، وفيه قول صاحب الهمزية: [من الخفيف]

وبخلْقٍ من النَّبيِّ كريم لم تُقَاصَصْ بِجُرْحِهَا العَجْمَاءُ

وقال الزهري: أسلمت فتركها. قالَ البيهقي: يحتمل أنه تركها أولاً، ثم لما مات بشر بن البراء من الأكلة قتلها[(٤)]. وبذلك أجاب السهيلي، وزاد: أنه تركها؛ لأنه كان لا ينتقم لنفسه، ثم قتلها ببشر قصاصًا.

ويحتمل أن يكون تركها؛ لكونها أسلمت، وإنما أخر قتلها حتى مات بشر؛ لأن بموته يتحقق وجوب القصاص بشرطه.

وفي مغازي سليمان التيمي: أنها قالت: إن كنت كاذبًا أرحت الناس منك، وقد استبان لي الآن أنك صادق، وأنا أشهدك ومن حضر أني على دينك، وأن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. قال: فانصرف عنها حين أسلمت، وفيه موافقة الزهري على إسلامها. فالله أعلم.

وفيها - أيضًا - نام ﷺ عن صلاة الفجر لما وكل به بلالاً؛ كما في حديث أبي هريرة عند مسلم؛ أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر، سار ليله حتى إذا أدركه الكرى عرَّس، وقال لبلال: اكلأ لنا الليل، فصلى بلال ما قدر له، ونام ﷺ وأصحابه، فلما قارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر، فغلبت بلالاً عيناه، وهو مستند إلى راحلته، فلم يستقيظْ ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتَّى ضربتهم الشمس، فكان ﷺ أولهم استيقاظًا فقال: أي بلال، فقال بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، بأبي أنت وأمي يا رسول الله! قال: اقتادوا، فاقتادوا رواحلهم شيئًا، ثم توضأ ﷺ، وأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى بهم الفجر، فلما

---

(١) ينظر السيرة النبوية (٣/ ٢٨٧)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٥)، والبداية والنهاية (٤/ ٢٤٠)، والسبل (٥/ ١٣٣-١٣٤).

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٤/ ٢٦٠).

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل (٤/ ٢٦٠).

(٤) انظر دلائل النبوة (٤/ ٢٦٢).

قضى الصلاة قال: من نسى الصلاة، فليصلها إذا ذكرها. فإن الله تعالى قال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١٤][(١)].

وفيها قدم جعفر ومن معه من الحبشة.

واختلف فى فتح خيبر، هل كان عنوة أو صلحًا؟ وفى حديث عبد العزيز بن صهيب، عن أنس: التصريحُ بأنه كان عنوة، وبه جزم ابن عبد البر[(٢)]، ورد على من قال: فتحت صلحًا، قال: وإنما دخلت الشبهة على من قال: فتحت صلحًا

(١) أخرجه مسلم (١/ ٤٧١) كتاب المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة (٣٠٩/ ٦٨٠)، وأبو داود (١/ ١٧٢) كتاب الصلاة، باب من نام عن صلاة أو نسيها (٤٣٥) والنسائي (١/ ٢٩٦) كتاب المواقيت، باب إعادة من نام عن الصلاة لوقتها من الغد وابن ماجه (١/ ٢٢٧-٢٢٨) كتاب الصلاة، باب من نام عن الصلاة أو نسيها (٦٩٧)، وأبو عوانة (٢/ ٢٥٣)، والبيهقي (٢/ ٢١٧) من طرق عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى قال: أقم الصلاة لذكري». وفي الباب عن جماعة من الصحابة منهم: أنس وعبد الرحمن بن سمرة، وأبي بكرة: فحديث أنس أخرجه البخاري (٢/ ٧٠) كتاب المواقيت، باب من نسي صلاة ... (٥٩٧)، ومسلم (١/ ٤٧٧) كتاب المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة (٣١٤/ ٦٨٤)، وأبو داود (١/ ١٧٤) كتاب الصلاة، باب من نام عن صلاة أو نسيها (٤٤٢)، والترمذي (١/ ٣٣٥-٣٣٦) كتاب الصلاة، باب ما جاء في الرجل ينسى الصلاة (١٧٨)، والنسائي (١/ ٢٩٣) كتاب المواقيت، باب فيمن نسي الصلاة (٦١٣)، وابن ماجه (١/ ٢٢٧) كتاب الصلاة، باب من نام عن الصلاة أو نسيها (٦٩٥-٦٩٦)، والدارمي (١/ ٢٨٠) كتاب الصلاة، باب من نام عن صلاة أو نسيها، وأبو عوانة (٢/ ٢٦٠-٢٦١)، وابن أبي شيبة (١/ ١٨٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/ ٢٣٠)، وأحمد (٣/ ٢١٦، ٢٤٣، ٢٦٧، ٢٨٢)، والبيهقي (٢/ ٢١٨)، وابن خزيمة (٢/ ٩٧) رقم (٩٩٣) من طرق عن قتادة عن أنس مرفوعًا ولفظ مسلم «من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها» ولفظ البخاري: «من نسي صلاة فليصل إذا ذكر لا كفارة لها إلا ذلك» وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وحديث عبد الرحمن بن سمرة أخرجه أحمد (٥/ ٢٢) من طريق بشر بن حرب عن سمرة قال بشر: أحسبه مرفوعًا «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها» وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٢٦) وقال: وبشر بن حرب ضعفه ابن المديني وجماعة ووثقه ابن عدي وقال لم أر له حديثا منكرًا. اهـ وقال الحافظ في «التقريب» (١/ ٩٨): بشر بن حرب الأزدي أبو عمرو الندبي: صدوق فيه لين. وحديث أبي بكرة أخرجه البزار (١/ ١٩٩-كشف) رقم (٣٩٤) من طريق إسماعيل بن علية عن عيينة عن أبيه عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها». قال البزار: لا نعلمه عن أبي بكرة إلا من هذا الوجه ولم يحدث به عن ابن علية إلا أحمد بن المقدام وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٢٧) وقال: رواه البزار ورجاله موثقون.

(٢) ينظر: الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر (٢١٤)، في غزوة خيبر.

بالحصنين اللذين أسلمهما أهلهما؛ لتحقن دماؤهم، وهو ضرب من الصلح؛ لكن لم يقع ذلك إلا بحصار وقتال.

وفيها سرية أبى بكر إلى بنى كلاب(١)، فسبى منهم وقتل.

وبشير بن سعد إلى بنى مرة بفدك(٢)، فى شعبان، فى ثلاثين فقتلوا، وارتثَّ بشير.

وأيضًا إلى يمن وجبار فى شوال(٣)، ومعه ثلاثمائة فهربوا، وغنم منهم، وأسر رجلين فأسلما.

والأخرم بن أبى العوجاء السلمى إلى بنى سليم فى ذى الحجة(٤)، ومعه خمسون رجلاً، فأحدق بهم الكفار فقتلوهم.

وخرج ابن أبى العوجاء، وغالب بن عبد الله الليثى إلى الميفعة ناحية نجد فى رمضان، فقتل أسامة نهيك بن مرداس بعد قوله: لا إله إلا الله(٥)، وقيل: إنما كان ذلك سنة ثمان، استاقوا نعمًا وشاء إلى المدينة.

وفيها **عمرة القضية**، ويقال: القضاء والقصاص(٦) هلال ذى الحجة، ومعه ﷺ ألفان، وأقام بمكة ثلاثة أيام، وبنى بميمونة بسرف.

قال فى المواهب: وتسمى عمرة القضاء؛ لأنه قاضى فيها قريشًا، لا لأنها قضاء عن العمرة التى صد عنها؛ لأنها لم تكن فسدت حتى يجب قضاؤها، بل كانت عمرة

---

(١) انظر مغازي الواقدي (٢/ ٧٢٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٩٠) تاريخ الإسلام للذهبي (ص٤٤٦- مغازي).

(٢) انظر مغازي الواقدي (٢/ ٧٢٣)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٩١)، وتاريخ الطبري (٣/ ٢٢)، عيون التواريخ (١/ ٢٧١) وتاريخ الإسلام للذهبي (ص٤٤٨ - مغازي).

(٣) انظر سرية بشير بن سعد في: مغازي الواقدي (٢/ ٧٢٧)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٩١) وتاريخ الطبري (٣/ ٢٣).

(٤) انظر مغازي الواقدي (٢/ ٧٤١)، والطبقات الكبرى (٢/ ٩٤) وتاريخ الطبري (٣/ ٢٦)، وتاريخ الإسلام (ص ٤٦٩ - مغازي).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٦٩)، (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٧) وأحمد (٥/ ٢٠٠)، أبو داود (٢٦٤٣) من حديث أسامة بن زيد وفيه أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله.

(٦) مغازي الواقدي (٢/ ٧٣١ - ٧٤١) والطبقات الكبرى (٢/ ٩٢) وسيرة ابن هشام (٤/ ٥)، وتاريخ الطبري (٣/ ٢٣-٢٦) والكامل في التاريخ (٢/ ٢٢٧ - ٢٢٨) وعيون التواريخ (١/ ٢٧٢) وتاريخ الإسلام (ص ٤٥٩ - مغازي).

تامة، ولهذا عدوا عمر النبى ﷺ كما سيأتى، إن شاء الله تعالى.

وقال آخرون: بل كانت قضاء عن العمرة الأولى، وعدوا عمرة الحديبية فى العمر؛ لثبوت الأجر فيها، لا لأنها كملت.

وهذا الخلاف مبنى على الاختلاف فى وجوب القضاء على من اعتمر فصدَّ عن البيت.

فقال الجمهور: يجب عليه الهدى ولا قضاء عليه.

وعن أبى حنيفة عكسه. وعن أحمد: رواية أنه لا يلزمه هدى ولا قضاء، وأخرى: يلزمه القضاء والهدى.

فحجة الجمهور: قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ [البقرة: ١٩٦] وحجة أبى حنيفة: أن العمرة تلزم بالشروع، فإذا حصر صار له تأخيرها، فإذا زال الحصر أتى بها، ولا يلزم من التحلل بين الإحرامين سقوط القضاء.

وحجة من أوجبها ما وقع للصحابة؛ فإنهم نحروا الهدى حيث صدوا، فاعتمروا من قابل وساقوا الهدى، وحجة من لم يوجبها: أن تحللهم بالحصر لم يتوقف على نحر الهدى، بل أمر من معه هدى أن ينحره، ومن ليس معه هدى أن يحلوا. انتهى.

قال الحاكم فى الإكليل: تواترت الأخبار أنه ﷺ لما أهل ذو القعدة - يعنى سنة سبع - أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التى صدهم المشركون عنها بالحديبية، وألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف منهم إلا رجال استشهدوا بخيبر ورجال ماتوا.

وخرج معه ﷺ من المسلمين ألفان، واستخلف على المدينة أبا رهم الغفارى، وساق - عليه الصلاة والسلام - ستين بدنة، وحمل السلاح والبيض والدروع والرماح، وقاد مائة فرس، فلما انتهى إلى ذى الحليفة، قدم الخيل أمامه عليها محمد ابن مسلمة، وقدم السلاح، واستعمل عليه بشر بعد، وأحرم ﷺ، ولبى [و] المسلمون يلبون معه، ومضى محمد بن مسلمة فى الخيل إلى مر الظهران، فوجد بها نفرًا من قريش، فسألوه فقالوا: هذا رسول الله ﷺ يصبحُ هذا المنزل غدا - إن شاء الله تعالى - فأتوا قريشًا فأخبروهم ففزعوا. ونزل رسول الله ﷺ بمر الظهران، وقدم السلاح إلى بطن ياجج كيسمع وينصر ويضرب موضع بمكة، حيث ينظر إلى

أنصاب الحرم، وخلف عليه أوس بن خولى الأنصارى فى مائتى رجل، وخرجت قريش من مكة إلى رءوس الجبال، وقدم رسول الله ﷺ الهدى أمامه، فحبس بذى طوى، وخرج ﷺ على راحلته القصوى، والمسلمون متوشحون السيوف، محدقون برسول الله ﷺ يلبون، فدخل من الثنية التى تطلعه على الحجون. وابن رواحة آخذ بزمام راحلته[١]. وفى رواية الترمذى، من حديث أنس أنه ﷺ دخل مكة فى عمرة القضاء، وابن رواحة يمشى بين يديه وهو يقول: [من الرجز]

خَلُّوا بَنِى الكُفَّار عَنْ سَبِيلِهِ
أليَوْمَ نَضْرِبْكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَربًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ
ويُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فقال له عمر: يا بن رواحة، بين يدى رسول الله ﷺ [وفي حرم الله][٢] تقول شعرًا؟! فقال ﷺ: خَلِّ عنه يا عمر، فلهى أسرع فيهم من نضح النبل[٣]. ورواه عبد الرزاق من حديث أنس - أيضًا - من وجهين بلفظ: [من الرجز]

خَلُّوا بَنِى الكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ
قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فى تَنْزِيلِهِ
بِأَنَّ خَيْرَ الْقَتْلِ فِى سَبِيلِهِ
نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تنْزِيلِهِ
ضَربًا يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ
ويُذْهِلُ الخَلِيلَ عن خَلِيلِهِ
يَا رب إِنِّى مُؤمِنٌ بِقِيلِهِ

وعند ابن عقبة فى المغازى بعد قوله:

قَدْ أنزَلَ الرَّحمنُ فِى تَنْزِيلِهِ

---

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد (٥/ ١٨٩ - ١٩١).
(٢) الزيادة من الترمذي .
(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٢٨٤٧) ورواه أيضاً في الشمائل (٢٤٦) والنسائي (٥/ ٢٠٢،٢١١) وابن خزيمة (٢٦٨٠) ، وانظر سبل الهدى والرشاد (٥/ ١٩١، ١٩٢).

فِى صُحُفٍ تُتْلَىٰ عَلَى رَسُولِهِ[١]

وزاد ابن إسحاق بعد قوله: [من الرجز]

يَـا رَبِّ إِنِّـى مُـؤْمِـنٌ بِـقِـيـلِـهِ
إِنِّـى رَأَيْـتُ الـحَـقَّ فِـى قَـبُـولِـهِ[٢]

وقال ابن هشام : إن قوله: «نحن ضربناكم على تنزيله» إلى آخر الشعر من قول عمار بن ياسر؛ قاله يوم حنين[٣].

قالوا ولم يزل رسول الله ﷺ يلبى حتى استلم الركن بمحجنه مضطبعًا بثوبه، وطاف على راحلته، والمسلمون يطوفون معه، وقد اضطبعوا بثيابهم.

وفى البخارى، عن ابن عباس: قال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا بين الركنين، ولم يمنعه أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم[٤].

وفى رواية قال: ارملوا؛ ليرى المشركون قوتكم. والمشركون من قبل قعيقعان. ومعنى قوله: الإبقاء عليهم» أى: لم يمنعه من أمرهم بالرمل فى جميع الأوقات إلا

---

(١) ينظر هذا الشعر في السيرة النبوية (٤/٧) ، والبداية والنهاية (٤/ ٢٥٨) ، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ١٩١).

(٢) في السيرة، والبداية والنهاية: أعرف حق الله في قبوله.

(٣) انظر سيرة ابن هشام (٤/ ٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢/ ٩٢١، ٩٢٢): كتاب الحج: باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة، وفي الطواف الأول من الحج، حديث (٢٣٧/ ١٢٦٤) ، وأبو داود (٢/ ٤٤٤): كتاب المناسك (الحج) باب في الرمل، حديث (١٨٨٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٨٤): كتاب المناسك: باب الرمل حول البيت. حديث (٢٩٥٣)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/ ١٨٠): كتاب مناسك الحج: باب الرمل في الطواف، والبيهقي (٥/ ١٠٠): كتاب الحج: باب الطواف راكبا، والطيالسي (١/ ٢٠٧): كتاب الحج والعمرة: باب حديث أبي الطفيل عن ابن عباس المتضمن أسرار الحج، حديث (٩٩٢). وأحمد (١/ ٢٢٩)، من طرق عن أبي الطفيل، قال : قلت لابن عباس: زعم قومك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رمل بالبيت وأنها سنة. قال: صدقوا وكذبوا. قد رمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالبيت ، وليس بسنة، ولكن قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة والمشركون من قِبَل قعيقعان، وبلغه أنهم يقولون: إن به وبأصحابه هزالاً، فقال لأصحابه: ارملوا، أروهم أن بكم قوة، فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرمل من الحجر الأسود إلى الركن اليماني، فإذا توارى عنهم مشى. وقعيقعان جبل مشهور بمكة.

الرفق بهم والإشفاق عليهم.

ثم طاف رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته، فلما كان الطواف السابع عند فراغه، وقد وقف الهدى عند المروة، قال: هذا المنحر[١]، وكل فجاج مكة منحر، فنحر عند المروة وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون.

وأمر رسول الله ﷺ ناسًا منهم إلى أصحابهم ببطن ياجج، فيقيموا على السلاح، ويأتى الآخرون، فيقضوا نسكهم، ففعلوا، فأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثًا.

وفى البخارى، من حديث البراء: فلما دخلها - يعنى مكة - ومضى الأجل، أتوا عليًا، وقالوا: قل لصاحبك يخرج عنا، فقد مضى الأجل. فخرج النبى ﷺ، فتبعته ابنة حمزة تنادى: يا عم يا عم، فتناولها على، فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك بنت عمك، فحملتها فاختصم فيها على وزيد وجعفر، قال على: أنا أخذتها وهى ابنة عمى، وقال جعفر: ابنة عمى وخالتها تحتى، وقال زيد: بنت أخى، فقضى بها النبى ﷺ لخالتها، وقال الخالة بمنزلة الأم[٢]. الحديث.

وإنما أقرهم النبى ﷺ على أخذها مع اشتراط المشركين ألاَّ يخرج بأحد من أهلها أراد الخروج؛ لأنهم لم يطلبوها.

وقوله: «الخالة بمنزلة الأم» أى: فى هذا الحكم الخاص؛ لأنها تقرب منها فى الحنية والشفقة والاهتداء إلى ما يصلح الولد.

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٨٨٦، ٨٩٢) كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، حديث (١٤٧/ ١٢١٨)، وغيره من حديث جابر في حديثه الطويل في صفة حج النبي ﷺ المعروف من رواية محمد بن علي عن جابر وورد ذلك في حديث آخر له أيضًا من رواية عطاء عنه: أخرجه أبو داود (٢/ ٤٧٨، ٤٧٩) كتاب المناسك (الحج)، باب الصلاة بجمع، حديث (١٩٣٧)، وأحمد (٣/ ٣٢٦)، والدارمي (٢/ ٥٦، ٥٧) كتاب المناسك، باب عرفة كلها موقف، والبيهقي (٥/ ١٢٢) كتاب الحج، باب حيثما وقف من المزدلفة أجزأه، ولفظه أن رسول الله ﷺ قال: «كل عرفة موقف، وكل مزدلفة موقف، ومنى كلها منحر، وكل فجاج مكة طريق ومنحر» وورد أيضا من حديث علي أخرجه أبو داود (٢/ ٤٧٨)، كتاب المناسك (الحج)، باب الصلاة بجمع (١٩٣٥)، والترمذي (٣/ ٢٣٢)، كتاب الحج، باب ما جاء أن عرفة كلها موقف حديث (٨٨٥)، وابن ماجه (٢/ ١٠٠١) كتاب المناسك، باب الموقف بعرفات، حديث (٣٠١٠)، والبيهقي (٥/ ١٢٢)، كتاب الحج، باب حيثما وقف من المزدلفة أجزأه، وأحمد (١/ ٧٦). وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) تقدم تخريجه في الجزء الأول.

ويؤخذ منه: أن الخالة فى الحضانة مقدَّمة على العمة؛ لأن صفية بنت عبد المطلب كانت موجودة حينئذ، وإذا قدمت على العمة مع كونها أقرب من العصبات من النساء، فهى مقدمة على غيرها.

ويؤخذ منه: تقديم أقارب الأم على أقارب الأب. انتهى.

قال ابن عباس: وتزوج ﷺ ميمونة وهو محرم، وبنى بها وهو حلال[١]. وقد استدرك ذلك على ابن عباس، وعُدَّ من وهمه، قال سعيد بن المسيب: وَهِلَ ابن عباس، وإن كانت خالته، ما تزوَّجها ﷺ إلا بعد ما حل. ذكره البخاري. وَهِلَ - بكسر الهاء - أي غلط. وقال يزيد بن الأصم، عن ميمونة: تزوجنى رسول الله ﷺ ونحن حلالان بسرف[٢]. رواه مسلم.

وسيأتى فى الخصائص: أن له ﷺ النكاحَ فى حالِ الإحرام؛ على أصحِّ الوجهين عند الشافعية.

وفى هذه السنة: قدم حاطب من عند المقوقس ملك مصر جريج بن مينا، ومعه الهدايا[٣].

وفيها: رد رسول الله ﷺ ابنته زينب على زوجها أبى العاص بن الربيع[٤]، وأخرج عمارة - أو فاطمة أو غير ذلك على الخلاف فى اسمها - بنت حمزة من عند المشركين - أو علىٌ بإذنه، فاختصم فيها زيد وجعفر وعلى فى الحديث المشهور[٥]. وأرسل الرسل إلى الملوك أول المحرم، وقيل: آخر سنة ست: عبد الله ابن حذافة السهمى إلى كسرى، فمزق كتابه فدعا عليه بتمزيق ملكه، فملكهم لا يزال ممزقًا، وعمرو بن العاص إلى ملكَىْ عُمَان عبد وجيفر ابنى الجلندى، فأسلما، وسليط بن عمرو إلى هوذة بن على باليمامة، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك البلقاء، والعلاء الحضرمى إلى المنذر بن ساوى بالبحرين فأسلم، وأبا موسى الأشعرى ومعاذاً إلى اليمن، وعمرًا الضمرى إلى مسيلمة،

(١) تقدم تخريجه في باب أزواج النبي.
(٢) أخرجه مسلم رقم (٤٨/ ١٤١١)، وأبو داود (١٨٤٣)، والترمذي (٨٤٥)، وابن ماجه (١٩٦٤).
(٣) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٢١).
(٤) تقدم في باب ذكر أولاده عليه الصلاة والسلام عند ذكر زينب.
(٥) تقدم قريبًا.

وعياش بن الربيعة إلى الحارث، ومسروح ونعيم بن عبد كلال، ودحية الكلبى بكتابه إلى هرقل ليدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى هرقل، وحديثه الصحيح مشهور، إلى جماعة كثيرة[١].

وفيها: لبس الخاتم[٢]، أو فى آخر السادسة.

* * *

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي (٥٠١-مغازي).

(٢) رواه البخاري (٦٥) من حديث أنس قال: كتب النبي ﷺ كتابًا -أو أراد أن يكتب- فقيل له: إنهم لا يقرءون كتابًا إلا مختومًا فاتخذ خاتمًا من فضة نقشه محمد رسول الله كأني أنظر إلى بياضه في يده وأطرافه في (٢٩٣٨)، (٥٨٧٠)، (٥٨٧٢)، (٥٨٧٤)، (٥٨٧٧)، (٧١٦٢). ورواه مسلم (٢٠٩٤)، وأبو داود (٤٢١٤، ٤٢١٥)، والترمذي (٢٧١٨)، والنسائي (٨/ ١٧٤).

حوادث السنة الثامنة

فيها: **غزوة مُؤْتَة**[١]، بضم الميم وسكون الواو، بغير همز لأكثر الرواة، وبه جزم المبرد، وجزم ثعلب والجوهرى وابن فارس بالهمز، وحكى غيرهم الوجهين، وهى من عمل البلقاء بالشام، فى جمادى الأولى، وهى سرية أمر فيها ﷺ زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف رجل، وقال: إن قتل فجعفر، فإن قتل فعبد الله بن رَواحة، فإن قتل فليرتض المسلمون برجل منهم. فقتلوا كذلك، فأخذ الراية ثابت بن أقرم العجلانى إلى أن اصطلحوا على خالد، ففتح الله به،وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذ غنيمة كثيرة؛ وذلك أن رسول الله ﷺ كان أرسل الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى ملك بصرى، فلما نزل مؤتة، عرض له شرحبيل الغسانى، فقتله، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فأمر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف، وقال: إن قتل. . . إلى آخر ما تقدم.

وفى حديث عبد الله بن جعفر: عند أحمد والنسائى بإسناد صحيح: إن قتل زيد فأميركم جعفر. . . الحديث[٢].

قالوا: وعقد لهم ﷺ لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم. وخرج مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف فودعهم، فلما ساروا، نادى والمسلمون: دفع الله عنكم، وردكم سالمين غانمين، فقال ابن رواحة:[من البسيط]

لَكـنَّنِى أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً ... وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا

فلما فصلوا من المدينة، سمع العدو بمسيرهم فجمعوا لهم، وقام فيهم شرحبيل ابن عمرو، فجمع أكثر من مائة ألف، وقدم الطلائع أمامه، وقد نزل المسلمون مَعَان - بفتح الميم - موضع من أرض الشام، وبلغ الناس كثرة العدو وتجمعهم،

---

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٧٥٥-٧٦٩)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٩٧)، وسيرة ابن هشام (٤/ ١١)، وتاريخ الطبري (٣/ ٣٦-٤٢)، والكامل في التاريخ (٢/ ٢٣٤-٢٣٨)، وتاريخ الإسلام (٤٧٩-مغازي)، والبداية والنهاية (٤/ ٢٧٥)، وعيون التواريخ (١/ ٢٧٩-٢٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٤)، والنسائي (٨/ ١٨٢) من حديث الحسن بن سعد عن عبد الله بن جعفر.

وأن هرقل نزل بأرض البلقاء فى مائة ألف من المشركين، فأقاموا ليلتين لينظروا فى أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضئ، فمضوا إلى مؤتة، ووافاهم المشركون فجاء منهم ما لا قِبَلَ لأحد به من العدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب.

والتقى المسلمون والمشركون، فقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم، فأخذ اللواء زيد بن حارثة، فقاتل وقاتل المسلمون معه على صفوفهم حتى قتل طعنًا بالرماح، ثم أخذ الراية جعفر بن أبى طالب، فنزل عن فرس له شقراء، وقاتل حتى قتل، ضربه رجل من الروم فقطعه نصفين، فوجد فى أحد نصفيه بضعة وثمانون جرحًا، وفيما أقبل من بدنه اثنتان وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح، قال فى رواية البخارى: ووجدنا فى جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية[(١)]، وفى رواية: أن ابن عمر وَقَفَ على جعفر يومئذ وهو قتيل، قال: فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، ليس فيها شيء فى دبره[(٢)].

وذكر ابن إسحاق بإسناد حسن، وهو عند أبى داود من طريقه، عن رجل من مرة قال: والله، لكأنى أنظر إلى جعفر بن أبى طالب حين اقتحم عن فرس له شقراء، فعقرها ثم تقدَّم، فقاتل حتى قتل[(٣)].

قالوا: ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة، فقاتل حتى قتل، فأخذ اللواء ابن أقرم العجلانى، إلى أن اصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ اللواء وانكشف الناس فكانت الهزيمة، فتبعهم المشركون فقتل من قتل من المسلمين.

وقال الحاكم: قاتلهم خالد بن الوليد، فقتل منهم مقتلة عظيمة وأصاب غنيمة.

وقال ابن سعد: إنما انهزم بالمسلمين[(٤)].

وقال ابن إسحاق: انحازت كل طائفة من غير هزيمة[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٦١) من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) البخاري في صحيحه (٤٢٦٠).

(٣) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٤/ ١٦) وهو عند أبي داود في سننه (٢٥٧٣)، والطبراني في الكبير (١٤٦٢)، والطبري في تاريخه (٣/ ٣٩).

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٩٨).

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٩).

ورفعت الأرض لرسول الله ﷺ حتى نظر إلى معترك القوم.

وعن عبد الله بن الزبير قال: حدثنى أبى الذى أرضعنى - وكان أحد بنى مرة - قال: شهدت مؤتة مع جعفر بن أبى طالب وأصحابه، فرأيت جعفرًا حين التحم القتال، اقتحم عن فرس له شقراء، ثم عقرها، وقاتل القوم حتى قتل[١]. خرجه البغوى فى معجمه، وقطعت فى تلك الوقعة يداه جميعًا، ثم قتل، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء» خرجه أبو عمرو[٢].

وفى البخارى، عن عائشة - رضى الله عنها -: لما جاء قتل ابن رواحة وابن حارثة وجعفر بن أبى طالب، جلس رسول الله ﷺ يعرف منه الحزن... الحديث[٣]. وأخرج الطبرانى بإسناد حسن، عن عبد الله بن جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: «هنيئًا لك أبوك يطير مع الملائكة فى السماء»[٤]. وعن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت جعفر بن أبى طالب يطير مع الملائكة»[٥] أخرجه الترمذى والحاكم، وفى إسناده ضعف؛ لكن له شاهد من حديث على عند ابن سعد[٦].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أيضا، عن النبي ﷺ قال. " مرّ بى جعفر الليلة فى ملأ من الملائكة. وهو مخضب الجناحين بالدم»[٧] أخرجه الترمذى والحاكم بإسناده على شرطه.

وأخرج - أيضًا - هو والطبرانى، عن ابن عباس مرفوعًا: «دخلت البارحة الجنة، فرأيت فيها جعفر بن أبى طالب يطير مع الملائكة[٨]. وفى طريق أخرى عنه:

---

(١) تقدم قريبًا.
(٢) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (١/ ٣١٣-بتحقيقنا).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٦٣).
(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٧٦)، وقال: «رواه الطبراني وإسناده حسن». اهـ
(٥) أخرجه الترمذي (٣٧٦٣)، والحاكم (٣/ ٢٠٩)، وصححه الحاكم لكن تعقبه الذهبي بقوله: المديني واه قلت: يعني عبد الله بن جعفر المديني أبو الإمام الحافظ علي بن المديني ضعفه الحافظ في التقريب (٣٢٧٢).
(٦) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٩).
(٧) أخرجه الحاكم (٣/ ٢١٢) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، ولم أجده عند الترمذي بهذا اللفظ لكن باللفظ الذي تقدم قبل حديث وإن كان الحافظ قد عزاه له في الفتح (٦/ ٤٤١).
(٨) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٠٩)، والطبراني في الكبير (١٤٦٦).

أن جعفرًا يطير مع جبريل وميكائيل له جناحان عوضه الله من يديه. وإسناد هذا جيد. فقد عوَّضه الله عن قطع يديه فى هذه الوقعة حيث أخذ اللواء بيمينه فقطعت، ثم أخذه بشماله فقطعت، ثم احتضنه فقتل.

قال السهيلى: «له جناحان» ليس كما يسبق إلى الفهم كجناحى الطير وريشه؛ لأن الصورة الآدمية أشرف الصور كلها، فالمراد بالجناحين: صفة ملكية وقوة روحانية. وقال العلماء فى أجنحة الملائكة: إنها صفات ملكية لا تفهم إلا بالمعاينة. فقد ثبت أن لجبريل ستمائة جناح ولا يعهد للطير ثلاثة أجنحة فضلاً عن أكثر من ذلك، وإذا لم يثبت خبر فى بيان كيفيتها، فنؤمنُ بها من غير بحث عن حقيقتها(١).

قال الحافظ ابن حجر: وهذا الذى جزم به فى مقام المنع، والذى حكاه عن العلماء ليس صريحًا فى الدلالة على ما ادعاه، ولا مانع من الحمل على الظاهر إلا من جهة ما ذكره من المعهود، وهو قياس الغائب على الشاهد، وهو ضعيفٌ، وكون الصور البشرية أشرف الصور لا يمنعُ من حَمْلِ الخبر على ظاهره؛ لأن الصور باقية. وقد روى البيهقى فى الدلائل من مرسل عاصم بن عمر بن قتادة؛ أن جناحى جعفر من ياقوت، وجاء فى جناحى جبريل أنهما من لؤلؤ. أخرجه ابن منده فى ترجمة ورقة(٢).

وذكر موسى بن عقبة فى المغازى: أن يعلى بن أمية قدم بخبر أهل مؤتة، فقال له رسول الله ﷺ: إن شئتَ فأخبرنى، وإن شئتَ فأخبرتك، قال: أخبرنى فأخبره خبرهم، فقال: والذى بعثك بالحق، ما تركْتَ من حديثهم حرفًا لم تذكره. وعند الطبرانى من حديث أبى اليسر الأنصارى؛ أن أبا عامر الأشعرى هو الذى أخبر النبى ﷺ بمصابهم(٣).

وفيها: (**فتح مكة**) فى رمضان(٤)، لنقض قريش العهد؛ فخرج ﷺ ومعه عشرة

---

(١) ينظر الروض الأنف (٤/ ٨٠).

(٢) انظر فتح الباري (٨/ ٣٠٦).

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٦٤) وقال: «رواه الطبراني وفيه ثابت بن دينار أبو حمزة وهو ضعيف». اهـ

(٤) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٧٠-٨٧١)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٠٢-١١٠)، تاريخ الطبري (٣/ ٤٢-٦٥)، والكامل في التاريخ (٢/ ٢٣٩-٢٥٥)، وعيون التواريخ (١/ ٢٨٨-٣١٣)، والروض الأنف (٤/ ٩٥ - ١٢١) والبداية والنهاية (٤/ ٣١٧)، وتاريخ الإسلام (٥٢١-مغازي).

آلاف، يوم الأربعاء بعد العصر لعشر مضين من رمضان، ففتحها صلحًا أو عنوة على الخلاف.

وخرج سادس شوال إلى (حنين)[١]، فهزمهم وقتل من المشركين أكثر من سبعين واستشهد من المسلمين أربعة، ونادى مناديه: من قتل قتيلاً فله سلبه. وأخذ منها غنائم فقسمها بالجعرانة.

وهو كما قال فى زاد المعاد: الفتح الأعظم المبين، الذى أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحرمه[٢] الأمين، واستنقذ به بلده[٣] وبيته الذى جعله هدى للعالمين، من أيدى الكفار والمشركين، وهو الفتح الذى استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس [به] فى دين الله أفواجًا، وأشرَقَ به وجه الأرض[٤] ضياءً وابتهاجًا. خرج له ﷺ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن، لنقض قريش العهد الذى وقع بالحديبية؛ لأنه كان قد وقع الشرط أن من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله ﷺ وعهده فعل، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فعل. فدخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ وعهده، وكان بين بنى بكر وخزاعة حروب وقتلى فى الجاهلية، فتشاغلوا عن ذلك لما ظهر الإسلام. فلما كانت الهدنة، خرج نوفل بن معاوية الديلى، من بنى بكر، فى بنى الديل، حتى بيَّتَ خزاعة، وهم على ماء لهم يقال له: الوتير، فأصاب منهم رجلاً يقال له منبه، واستيقظت لهم خزاعة، فاقتتلوا إلى أن دخلوا الحرم، ولم يتركوا القتال. وأمدت قريش بنى بكر بالسلاح، وقاتل بعضهم معهم ليلاً فى خفية. وخرج عامر الخزاعى فى أربعين راكبًا من خزاعة، فقدموا على رسول الله ﷺ يخبرونه بالذى أصابهم ويستنصرونه، فقام وهو يجرُّ رداءه ويقول: لا نصرت إن لم أنصركم بما أنصر به نفسى[٥].

(١) مغازي الواقدي (٢/ ٨٨٥)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١١٤)، وسيرة ابن هشام (٤/ ٨١)، والكامل في التاريخ (٢/ ١٨٧)، وتاريخ الطبري (٣/ ٧٠) وتاريخ الإسلام (٥٧١-مغازي)، والروض الأنف (٤/ ١٣٨).
(٢) في زاد المعاد: وحزبه.
(٣) في ط: نبيه. والمثبت من زاد المعاد.
(٤) في ط: الدهر. والمثبت من زاد المعاد.
(٥) ينظر: زاد المعاد (٣/ ٣٩٤-٣٩٥) بتصرف.

وفى المعجم الصغير للطبرانى[(١)]، من حديث ميمونة: أنها سمعته ﷺ يقول فى متوضئه ليلاً: لبيك لبيك (ثلاثًا)، نصرت نصرت (ثلاثًا)، فقالت: كأنك تكلِّم إنسانًا، فهل كان معك أحد ؟ فقال ﷺ: هذا راجز بنى كعب يستصرخنى، ويزعم أن قريشًا أعانَتْ عليهم بنى بكر.

ثم خرج - عليه الصلاة والسلام - فأمر عائشة أن تجهزه ولا تُعْلِم أحدًا. قالت: فدخل عليها أبو بكر فقال: يا بنية، ما هذا الجهاز ؟ فقالت: ما أدرى، فقال: والله، ما هذا زمان غزو بنى الأصفر، فأين يريد رسول الله ﷺ ؟ قالت: والله لا علم لى، قالت: فأقمنا ثلاثًا، ثم صلى [الصبح] بالناس، فسمعت الراجز ينشد [من الرجز]:

يَا رَبِّ إِنِّى نَاشِدٌ مُحَمَّدَا
حِلْفَ أَبِينَا وَأبِيهِ الأَتْلَدَا
إِنَّا وَلَدْنَاكَ فَكُنْتَ الوَلَدَا
ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِع يَدَا
إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا
وزعَمُوا أنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا
فَانْصُرْ هَدَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَيِّدَا
وادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا[(٢)] مَدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا
أَبْيَضَ كَالْبَدْرِ تَنَمَّىٰ صُعُدَا
إِن سِيمَ خَسْفًا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا

قال فى القاموس: وتربد بالراء تغير. انتهى.

وزاد ابن إسحاق:

هُمْ بَيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّدَا

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٦٦-١٦٧) وقال: رواه الطبراني في الصغير والكبير وفيه يحيى بن سليمان بن نضلة وهو ضعيف. اهـ

(٢) في مجمع الزوائد: تدعوا.

وقَــتَّــلُــونَــا رُكَّــعًــا وسُــجَّــدا
وَزَعَــمُــوا أَنْ لَــسْــتَ تَــدْعُــو أَحَــدَا
وَهُــمْ أَذَلُّ وَأَقَــلُّ عَــدَدَا[١]

فقال له رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم، فكان ذلك ما هاج فتح مكة. وقد ذكر البزار من حديث أبى هريرة بعض الأبيات.

وقدم أبو سفيان بن حرب على رسول الله ﷺ المدينة يسأله أن يجدد العهد ويزيد فى المدة، فدخل على ابنته رملة زوج النبى ﷺ، فذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ، فقالت: مكانك، فطوته عنه، وقالت: إنك رجس، فقال لها: لقد أصابك بعدى شَرٌّ يا بنية، فلما أتى رسول الله ﷺ، سأله فيما جاء لصدده، فأبى عليه ولم يجبه، فكلم أبا بكر، ثم عمر، ثم عليًا، فلم يجبه أحد منهم، فدخل بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فقال لها: يابنة محمد، إنى داخل على ابنك الحسن أن يجير بين الناس، فقالت: ما بلغ ابنى أن يجير بين الناس، فقال لعلى: إنك أمسُّ القوم بى رحمًا فما تشير به علىّ ؟ فقال له على: إنك سيد كنانة، وما أرى لك إلا أن تقوم فتجير بين الناس، وما أراه مجديًا شيئًا. فغدا على الناس فى المسجد، فقال: أيها الناس، إنى قد أجرت بين الناس، ثم ركب ناقته فعاد إلى مكة، فقالوا: ماذا صنعت ؟ فأخبرهم بما كان، فقالوا: أفأجاز ذلك محمد وأبو بكر وعمر ؟ فقال: لا، فقالوا: ما زدت على أن لعب بك ابن أبى طالب.

وتجَّهزَ رسولُ الله ﷺ من غير إعلام أحد بذلك، فكتب حاطب كتابًا، وأرسله إلى مكة يخبر بذلك، فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال - عليه الصلاة والسلام - لعلى بن أبى طالب والزبير والمقداد: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ: فإن بها ظعينةً معها كتاب فخذوه منها، قال: فانطلقنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجى الكتاب، قالت: ما معى كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقينَّ الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال: يا حاطب، ما هذا ؟ قال: يا رسول الله، لا تعجَلْ علىّ، إنى كنت امرأً ملصقًا فى

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٤/ ٣٥)، مع تقديم وتأخير.

قريش - يقول: كنت حليفًا، ولم أكن من أنفسها - وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتى، ولم أفعله ارتدادًا عن دينى ولا رِضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقكم، فقال عمر: يا رسول الله، دعنى أضرب عنق هذا المنافق، فقال: إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنه: ١]، قال فى فتح البارى: وإنما قال عمر - رضى الله عنه -: دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، مع تصديق رسول الله ﷺ لحاطب فيما اعتذر به، لما كان عند عمر من القوة فى الدين وبغض المنافقين، فظنَّ أنَّ من خالف ما أمر به النبى ﷺ استحق القتلَ، لكنه لم يجزم بذلك فلذلك استأذن فى قتله، وأطلق عليه منافقًا؛ لكونه أبطن خلاف ما أظهر. وعذر حاطب ما ذكره؛ فإنه صنع ذلك متأولاً أن لا ضرر فيه.

وعند الطبرى، من طريق الحارث، عن على فى هذه القصة: فقال: أليس قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأرشد إلى علة ترك قتله(١).

وعند الطبرى - أيضًا - عن عروة: فإنى غافر لكم؛ وهذا يدل على أن المراد بقوله: «غفرت»: أغفر على طريق التعبير عن الآتى بالواقع مبالغةً فى تحققه. قال: والذى يظهر أن هذا الخطاب خطاب إكرام وتشريف، تضمن أن هؤلاء حصلت لهم حالة غفرت بها ذنوبهم السالفة، وتأهلوا أن يغفر لهم ما يستأنف من الذنوب اللاحقة، وقد أظهر الله صدق رسوله فى كل ما أخبر عنه بشيء من ذلك؛ فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة إلى أن فارقوا الدنيا، ولو قدر صدور شيء من أحدهم، لبادر إلى التوبة ولازم الطريقة المثلى؛ يعلم ذلك من أحوالهم بالقطع من اطلع على سيرهم؛ قاله القرطبى.

---

(١) قصة حاطب بن أبي بلتعة عند البخاري برقم (٤٢٧٤)، وانظر هذه الآثار في الفتح (٨/ ٣١١،٣١٢)، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٠٩-٢١١).

وذكر بعض أهل المغازى - وهو فى تفسير يحيى بن سلام - أن لفظ الكتاب الذى كتبه حاطب: أما بعد، يا معشر قريش، فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده، لنصره الله وأنجز له، فانظروا لأنفسكم. كذا حكاه السهيلى[١].

وروى الواقدى بسند مرسل؛ أن حاطبًا كتب إلى سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة؛ أن رسول الله ﷺ أَذَّنَ فى الناس بالغزو، لا أراه يريد غيركم، فأحببت أن تكون لى عندكم يد. انتهى[٢].

وبعث رسول الله ﷺ إلى من حوله من العرب فجلبهم: أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم؛ فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق؛ فكان المسلمون فى غزوة الفتح عشرة آلاف، وفى الإكليل وشرف المصطفى: اثنا عشر ألفًا، ويجمع بينهما بأن العشرة آلاف خرج بها من نفس المدينة ثم تلاحق به الألفان.

واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وقيل: أبا رهم الغفارى.

وخرج - عليه الصلاة والسلام - يوم الأربعاء، لعشر خلون من رمضان، بعد العصر، فى ثمان من الهجرة. قاله الواقدى[٣].

وعند أحمد بإسناد صحيح، عن أبى سعيد قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الفتح، لليلتين خلتا من شهر رمضان[٤]. فما قاله ليس بقوى لمخالفته ما هو أصحُّ.

وفى تعيين هذا التاريخ أقوال أخر، منها عند مسلم: لست عشرة، ولأحمد: ثمانى عشرة، وفى أخرى: لثنتى عشرة، والذى فى المغازى لابن عقبة لتسع عشرة مَضَتْ، وهو محمول على الاختلاف فى أول الشهر. ووقع فى أخرى: تسع عشرة، أو سبع عشرة على الشك.

ولما بلغ ﷺ الكدِيد - بفتح الكاف - الماء الذى بين قديد وعسفان، أفطر، فلم

---

(١) انظر: الروض الأنف (٤/ ٩٧).
(٢) انظر: المغازي (٢/ ٧٩٨).
(٣) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٧٩٩).
(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٨٧) وأصل الحديث رواه أحمد (٣/ ٢٩)، والترمذي (١٦٨٤)، وابن خزيمة (٢٠٣٨) من حديث قزعة بن يحيى عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا.

يزل مفطرًا حتى انسلخ الشهر. رواه البخارى[(١)]. وفى أخرى له: أفطر وأفطروا. . . الحديث.

وكان العباس قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا، فلقى رسول الله ﷺ بالجحفة، وكان قبل ذلك مقيمًا بمكة على سقايته، ورسولُ الله ﷺ عنه راض، وكان ممن لقيه بالطريق أبو سفيان بن الحارث ابن عمه - عليه الصلاة والسلام - وأخوه من إرضاع حليمة السعدية، ومعه ولده جعفر بن أبى سفيان، وكان أبو سفيان يألفُ رسول الله ﷺ، فلما بعث، عاداه وهجاه، وكان لقاؤهما له - عليه الصلاة والسلام - بالأبواء، وأسلما قبل دخول مكة، وقيل: بل لقيه هو وعبد الله بن أبى أمية ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب بين السقيا والعرج، فأعرض ﷺ عنهما؛ لما كان يلقى منهما من شدة الأذَى والهَجْوِ، فقالت له أم سلمة: لا يكنِ ابن عمك وابن عمتك أشقى الناسِ بك، وقال على لأبى سفيان فيما حكاه ابن عمرو وصاحب ذخائر العقبى: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٩١]، فإنه لا يرضى أن يكون أَحَدٌ أحسنَ منه قولاً، ففعل ذلك أبو سفيان، فقال ﷺ: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢]، ويقال: إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم؛ حياء منه.

قالوا: ثم سار رسول الله ﷺ، فلما كان بقديد، عقد الألوية والرايات، ودفعها إلى القبائل، ثم نزل مر الظهران عشاء، فأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار. ولم يبلغ قريشًا مسيره، وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم، فبعثوا أبا سفيان بن حرب، وقالوا: إن لقيت محمدًا، فخذ لنا منه أمانًا. فخرج أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، حتى أتوا مر الظهران، فلما رأوا العسكر أفزعهم، قال البخارى: فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان: ما هذه؛ كأنها نيران عرفة ؟! فقال بديل بن ورقاء: نيران بنى عمرو، فقال أبو سفيان: بنو عمرو أَقَلُّ من ذلك، فرآهم ناس من حَرَسِ رسول الله ﷺ، فأدركوهم فأخذوهم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٤٤)، (١٩٤٨)، (٢٩٥٣)، (٤٢٧٥)، (٤٢٧٦)، (٤٢٧٧)، (٤٢٧٨)، (٤٢٧٩).

فأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ، فأسلم أبو سفيان، فلما سار، قال للعباس: احبس أبا سفيان عند حطم الخيل حتى ينظر إلى المسلمين، فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمر مع النبى ﷺ كتيبة كتيبة على أبى سفيان، فمرت كتيبة فقال: يا عباس، من هذه ؟ قال: هذه غفار، قال: ما لى ولغفار، ثم مرت جهينة، فقال مثل ذلك، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، قال: من هذه ؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلُّ الحرمة، فقال أبو سفيان: يا عباس، حبذا يوم الذِّمَار. بالمعجمة المكسورة، أى: الهلاك:

قال الخطابى: تمنى أبو سفيان أن يكون له يد فيحمى قومه ويدفع عنهم.

وقيل: هذا يوم الغضب للحريم والأهل والانتصار لهم ممن قدر عليه.

وقيل: هذا يوم يلزمك فيه حفظى وحمايتى من أن ينالنى مكروه.

وقال ابن إسحاق: زعم بعض أهل العلم أن سعدًا قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلُّ الحرمة، فسمعها رجل من المهاجرين، فقال: يا رسول الله، ما آمنُ أن يكون لسعد فى قريش صولة، فقال لعلى: أدركه، فخذ الراية منه، فكنْ أنْتَ الذي تدخلُ بها[(١)].

وقد روى الأموى فى المغازى: أن أبا سفيان قال للنبى ﷺ لما حاذاه: أمرتَ بقتل قومك ؟ قال: لا، فذكر له ما قال سعد بن عبادة، ثم ناشده الله والرَّحِمَ، فقال: يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم يوم يعز الله قريشًا. وأرسل إلى سعد، فأخذ الراية منه فدفعها إلى ابنه قيس.

وعند ابن عساكر، من طريق أبى الزبير، عن جابر قال: لما قال سعد بن عبادة ذلك، عارضت امرأة من قريش رسول الله ﷺ، فقالت: [من الخفيف]

يا نبيَّ الهُدَى إليك لَجَا   حَيّ قُرَيشٍ، وَلاتَ حِينَ لجاءِ
حِينَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ سَعَةُ الأرْ   ضِ وَعَادَاهُمْ إلهُ السَّمَاءِ
التقَتْ حَلْقَتَا البِطَانِ عَلَى القَوْ   مِ ونُودُوا بالصَّيْلَمِ الصَّلْعَاءِ
إنَّ سَعْدًا يُرِيدُ قاصمة الظَّهْـ   ـرِ بأهْلِ الحجُونِ والبطحاءِ

(١) انظر: السيرة النبوية (٤/٤٨)، وتاريخ الطبري (٣/٥٦).

خَزْرَجِيٌّ لَوْ يَسْتَطِيعُ مِنَ الغَيْـ	ظِ رَمَانَا بِالنَّسْرِ والعَوَّاءِ
وَغِرُ الصَّدْرِ لا يَهِمُّ بِشَيءٍ	غَيْرِ سَفْكِ الدما وسَبْيِ النِّسَاءِ
قد تلظَّى عَلَى البِطَاحِ وجاءَتْ	عِنْدَ هِنْدٍ بِالسَّوْأَةِ السَّوْدَاءِ
إِذْ يُنَادِي بِذُلِّ حَيِّ قُرَيْشٍ	وابْنُ حَرْبٍ بِذَا مِنَ الشُّهَدَاءِ
فَلَئِنْ أَقْحَمَ اللوَاء ونَادَى	يا حمَاةَ اللِّواءِ[1] أَهْلَ اللِّواءِ
ثم ثابَتْ إِليه مَنْ بهِمُ الخَزْ	رجُ والأوسُ أَنْجُمُ الهَيْجَاءِ
لتَكُونن بالبِطَاحِ قُرَيْشٌ	فقعة القَاعِ فِى أَكُفِّ الإِمَاءِ
فَانْهَيَنْهُ فإِنهُ أَسَدُ الأُسْـ	ـد لَدَى الغَابِ والغَا في الدِّمَاءِ
إِنَّهُ مُطْرِقٌ يُدِيرُ لَنَا الأمْـ	ـرَ سكونًا كالحيَّةِ الصَّمَّاءِ[2]

قلت: وفى سيرة ابن سيد الناس عزوا هذا الشعر لضرار بن الخطاب الفهرى.

فلما سمع هذا الشعر، دخلته رأفة لهم ورحمة، فأمر بالراية، فأخذَتْ من سعد، ودفعت إلى ابنه قيس.

وعند أبى يعلى، من حديث الزبير: أن النبيَّ ﷺ دفعها إليه، فدخل مكة بلواءين[3]، وإسناده ضعيف جدًا.

لكنْ جزم موسى بن عقبة فى المغازى، عن الزهرى: أنه دفعها إلى الزبير بن العوام[4].

فهذه ثلاثة أقوال فيمن دفعت إليه الراية التى نزعت من سعد.

والذى يظهر فى الجمع: أن عليًا أرسل بها لينزعها ويدخل بها، ثم خشى تغير خاطر سعد، فأمر بدفعها إلى ابنه قيس، ثم إن سعدًا خشى أن يقع من ابنه شئ ينكره ﷺ، فسأل النبى ﷺ أن يأخذها منه، فأخذها الزبير حينئذ.

---

(١) في السبل: الأدبار.

(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٢٢)، والبيت الأخير فيه:

إنه مطرق يريد لنا الأمـ ر سكوتًا كالحيَّة الصمَّاء

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦٨٤) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٦٩) وقال: «رواه أبو يعلى وفيه محمد بن الحسن بن زبالة وهو ضعيف جدا». اهـ وأورده الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» برقم (٤٣٥٧) ونسبه إلى أبي يعلى وقال: «فيه ضعيف جدا».

(٤) ينظر: سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٢٢).

قال فى رواية البخارى: ثم جاءَتْ كتيبة فيها رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية النبى ﷺ مع الزبير، فلما مر رسول الله ﷺ بأبى سفيان، قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟ قال: ما قال ؟ قال: قال كذا وكذا، فقال: كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة، قال: وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون، قال: وقال عروة: وأخبرنى نافع بن جبير بن مطعم، قال: سمعت العباس يقول للزبير بن العوام: يا أبا عبد الله، ها هنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركز الراية ؟ قال: نعم، وأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كَدَاء بالفتح والمد، ودخل النبى ﷺ من كُدَى بالضم والقصر، فقتل من خيل خالد يومئذ رجلان: حبيش بن الأشقر، وكرز بن جابر الفهرى(١). قال الحافظ ابن حجر: وهذا مخالف للأحاديث الصحيحة الآتية أن خالدًا دخل من أسفل مكة، والنبى ﷺ من أعلاها(٢)، يعنى: حديث ابن عمر أنه ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفًا أسامة بن زيد(٣)، وحديث عائشة أنه ﷺ دخل عام الفتح من كداء التى بأعلى مكة(٤)، وغيرهما قال: وقد ساق ذلك موسى بن عقبة سياقًا واضحا فقال: وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم، وأمرهنَّ يدخلْنَ من كداء من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه. وبعث خالد بن الوليد فى قبائل قضاعة وسُلَيم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة فى كتيبة الأنصار فى مقدمة رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم عن القتال، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم واندفع خالد بن الوليد حتى دخل من أسفل مكة، وقد تجمع بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناف وناس من هذيل ومن الأحابيش، الذين استنصرت بهم قريش فقاتلوا خالدًا، فقاتلهم فانهزموا، وقتل من بنى بكر نحو من عشرين رجلًا، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة، حتى انتهى بهم القتل إلى الحزورة إلى باب المسجد حتى دخلوا الدور، فارتفعت طائفة منهم على الجبال، وصاح أبو سفيان: من دخل دار

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٨٠).
(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ٣٢٢).
(٣) أخرجه البخاري (٤٢٨٩).
(٤) أخرجه البخاري (٤٢٩٠).

أبى سفيان فهو آمن، فقالت له زوجته هند بنت عتبة وأخذت بشاربه: اقتلوا الحميت الدسم الأحمش، قُبِّحتَ من طليعة قوم، وما تغنى دارك ؟ ثم قال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه وكف يده فهو آمن. قال: ونظر رسول الله ﷺ إلى البارقة، فقال: ما هذا، وقد نهيت عن القتال ؟ فقالوا: نظن أن خالدًا قوتل وبدئ بالقتال، فلم يكن له بد من أن يقاتلهم، قال: وقال رسول الله ﷺ - بعد أن اطمأن - لخالد بن الوليد: لم قاتلتَ، وقد نهيتك عن القتال ؟ فقال: هم بدءونا بالقتال، وقد كففت يدى ما استطعتُ، فقال: قضاء الله خير[(١)].

وعند ابن إسحاق: فلما نزل ﷺ مر الظهران، رقت نفس العباس لأهل مكة، فخرج ليلاً راكبًا بغلة النبى ﷺ لكى يجد أحدًا؛ فيعلم أهل مكة بمجئ النبى ﷺ فيستأمنوه - فلما بلغ الأراك، سمع صوت أبى سفيان بن حرب وحكيم بن حزام يتناجيان، فقال العباس: أبا حنظلة ؟ فقال أبو سفيان: أبا الفضل ؟ فتلاقيا، فقال أبو سفيان: واصباح قريش، إن دخلها عليهم عنوة، فأردف أبا سفيان خلفه، وأتى به النبى ﷺ وانصرف الآخران؛ ليعلما أهل مكة.

روى أن عمر بن الخطاب لما رأى أبا سفيان رديف العباس، قال: أبو سفيان عدو الله ؟ الحمد لله الذى أمكن منك من غير عقد ولا عهد. قال العباس: ثم عدا، فركضتُ البغلة، فسبقته بما تسبق البغلة الرجل البطئ، فدخل به على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى قد أجرته، فقال ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فَأْتِنى به، فذهب فلما أصبح، غدا به على رسول الله ﷺ، فوقف عمر بن الخطاب على رأسه، وقال: دعنى يا رسول الله أضرب عنقه، فقال العباس: أما إنه لو كان من آل الخطاب لما قُلْتَ هذا، فقال له رسول الله ﷺ: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟! فقال: بأبى أنت وأمى ما أحلمَكَ وأكرمك وأوصَلَكَ، قال: ويحك، يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ فقال: بأبى أنت وأمى ما أحلمَكَ وأكرمَكَ وأوصَلَكَ، أما هذه ففى النفس منها شىء، فقال له العباس: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضربَ عنقك. فأسلم وشهد شهادة الحق، وفى رواية: أن أبا سفيان قال للنبى ﷺ

(١) رواه البيهقي في الدلائل (٥/٣٩-٤٨) بسنده إلى موسى بن عقبة مطولاً.

حينئذ: فما أصنع بالعُزَّى ؟ فقال له عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -: تخرأ عليها، فقال له أبو سفيان: إنك يا بن الخطاب رجلٌ فاحشٌ، ولم أخاطبك، إنما أخاطب ابن عمى، فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا، قال: نعم، وأمر ﷺ فنادى مناديه: من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن(١)، إلا المستثنين، وهم كما قاله مغلطاى وغيره: عبد الله بن سعد بن أبى سرح أسلم، وابن خَطَلٍ قتله أبو برزة، وقينتاه، وهما: فَرْتَنا، بالفاء المفتوحة والراء الساكنة والمثناة الفوقية والنون، وقُلَيْبَة، بالقاف والموحدة مصغرًا، أسلمت إحداهما، وقتلت الأخرى، وسَارَة مولاة لبنى المطلب، ويقال: كانت مولاة عمر بن ضبع بن هشام، وأَرْنَب علم امرأة، وقرينة قتلت، وعكرمة بن أبى جهل أسلم، والحارث بن نفيل قتله على، ومقيس بن صُبَابة، بمهملة مضمومة وموحدتين، الأولى خفيفة، قتله نميلة الليثى، وهبار بن الأسود أسلم، وهو الذى عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بعيرها حتى سقطَتْ على صخرة، وأسقطت جنينها، وكعب بن زهير أسلم، وهند بنت عتبة أسلمت، ووحشى بن حرب أسلم. انتهى.

وابن خَطَلٍ: بفتح الخاء المعجمة والطاء المهملة، وابن نُقَيْدٍ: بضم النون وفتح القاف وسكون المثناة التحتية آخره دال مهملة.

وقد جمع الواقدى عن شيوخه أسماء من لم يؤمنْ يوم الفتح، وأمر بقتل عشرة أنفس: ستة رجال، وأربع نسوة. روى أحمد ومسلم والنسائى، عن أبى هريرة، قال: أقبل رسول الله ﷺ وقد بعث على إحدى المجنبتين خالد بن الوليد، وبعث الزبير على الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الحُسَّر - بضم المهملة وتشديد السين المهملة - أى: الذين بغير سلاح، فقال لى: يا أبا هريرة، اهتف لى بالأنصار، فهتفتُ بهم، فجاءوا فطافوا به، فقال لهم: ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم، فقال - بإحدى يديه على الأخرى - احصدوهم حصدًا حتى توافونى بالصفا، قال أبو هريرة: فانطلقنا فما نشاء أن نقتل أحدًا منهم إلا قتلناه، فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله، أُبيحت خضراء قريش، لا قريشَ بعد اليومِ، فقال ﷺ: من أغلق بابه

(١) نقلًا عن سيرة ابن إسحاق (٤/ ٤٢-٤٤) بتصرف.

فهو آمن[(١)].

قال فى فتح البارى: وقد تمسك به من قال: إن مكة فتحت عنوة، وهو قول الأكثر.

وعن الشافعى - وهو رواية عن أحمد - إنها فتحت صلحًا؛ لما وقع من هذا التأمين، ولإضافة الدور إلى أهلها؛ لأنها لم تقسم، ولأن الغانمين لم يملكوا دورها، وإلا لجاز إخراج أهل الدور منها.

وحجة الأولين ما وقع التصريح به من الأمر بالقتال، ووقوعه بخالد بن الوليد، وبتصريحه - عليه الصلاة والسلام - بأنها أحلَّتْ له ساعة من نهار، ونهيه عن التأسى به فى ذلك، وأجابوا عن ترك القسمة: بأنها لا تستلزم عدم القسمة، وقد تفتح البلد عنوة ويمنُّ على أهلها وتترك لهم دورهم. قال: وأما قول النووى: واحتج الشافعئ بالأحاديث المشهورة أن النبيَّ ﷺ صالحهم على مر الظهران قبل دخول مكة، ففيه نظر؛ لأن الذى أشار إليه إن كان مراده ما وقع من قوله ﷺ: من دخل دار أبى سفيان فهو آمن؛ كما تقدم، وكذا من دخل المسجد؛ كما عند ابن إسحاق؛ فإن ذلك لا يسمى صلحًا إلا إذا التزم من أشار إليه بذلك الكف عن القتال، والذى ورد فى الأحاديث الصحيحة ظاهر فى أن قريشًا لم يلتزموا ذلك؛ لأنهم استعدوا للحرب. وإن كان مراده بالصلح وقوعَ عقده، فهذا لم ينقل، وما أظنه عنى إلا الاحتمال الأول، وفيه ما ذكرته. انتهى[(٢)].

ثم دخل ﷺ فى كتيبته الخضراء، وهو على ناقته القصواء بين أبى بكر وأسيد بن حضير، فرأى أبو سفيان ما لا قبل له به، فقال للعباس: يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا، فقال العباس: ويحك، إنه ليس بملكٍ، ولكنها النبوة، قال: نعم.

روى أنه ﷺ وضع رأسه تواضعًا لله، لما رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن رأسه ليكاد يمسُّ مقدم رحله، شكرًا وخضوعًا لعظمته؛ إذ أحل له بلده، ولم يحله

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٨٠)، وأبو داود (١٨٧١)، (١٨٧٢)، (٣٠٢٤)، والنسائي في الكبرى كما في التحفة (١٣٥٦١)، وابن خزيمة (٢٧٥٨)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٩٢، ٥٣٨).

(٢) انظر فتح الباري (٨/ ٣٢٤-٣٢٥) بتصرف.

لأحد قبله ولا لأحد بعده.

وفى البخارى، من حديث أنس: أن النبيَّ ﷺ دخل مكة يوم الفتح، وعلى رأسه المِغْفَرُ[(١)]- بكسر الميم وسكون الغين المعجمة وفتح الفاء - زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس. وفى المحكم: هو ما يجعل من فضل درع الحديد على الرأس مثل القلنسوة.

فلما نزعه، جاءه رجل، فقال: ابن خطل متعلِّق بأستار الكعبة، فقال: اقتله، وفى حديث سعيد بن يربوع عند الدارقطنى والحاكم: أن رسول الله ﷺ قال: أربعة لا نؤمنهم لا فى حل ولا فى حرم: الحويرث بن نُقيد، وهلال بن خطل، ومقيس بن صُبَابة، وعبد الله بن أبى سرح، قال: فأما هلال بن خطل فقتله الزبير. . . الحديث[(٢)]، وحديث سعد بن أبى وقاص عند البزار والحاكم والبيهقى فى الدلائل نحوه، قال: أربعة نفر وامرأتان، وقال: اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، فذكره. لكن قال: عبد الله بن خطل، بدل هلال، وقال: عكرمة، بدل الحويرث، ولم يسم المرأتين، وقال فأما عبد الله بن خطل، فأدرك وهو متعلِّق بأستار الكعبة، فاستبق إليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر، فسبق سعيدٌ عمارًا، وكان أشبَّ الرجلين فقتله، الحديث[(٣)]، وروى ابن أبى شيبة من طريق أبى عثمان النهدى؛ أن أبا برزة الأسلمى قتل ابن خطل، وهو متعلِّق بأستار الكعبة[(٤)]، وإسناده صحيح مع إرساله. ورواه أحمد من وجه آخر، وهو أصحُّ ما ورد فى تعيين قاتله، وبه جزم البلاذرى وغيره[(٥)] من أهل الأخبار، وتحمل بقية الروايات على أنهم ابتدروا قتله، وكان المباشر له منهم أبو برزة، ويحتمل أن يكون غيره شاركه فيه، فقد جزم ابن هشام فى السيرة: بأن سعيد بن حريث

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨٦)، (١٨٤٦)، (٣٠٤٤)، (٥٨٠٨)، ومسلم (١٣٥٧)، وأبو داود (٢٦٨٥)، والترمذي (١٦٩٣)، وفي الشمائل (١١٢)، والنسائي (٥/ ٢٠٠)، وابن ماجه (٢٨٠٥)، وأحمد (٣/ ١٠٩، ١٦٤، ١٨٠) من طريق الزهري عن أنس به.

(٢) أخرجه الدارقطني في سننه (٢/ ٣٠١)، والحديث أخرجه أيضًا أبو داود في سننه (٢٦٨٤).

(٣) أخرجه البزار (كشف-١٨٢١)، والحاكم (٢/ ٥٤)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٥٩) من حديث مصعب بن سعد عن أبيه قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٦٨): «رواه أبو داود وغيره باختصار. رواه أبو يعلى والبزار. . . ورجالهما ثقات». اهـ

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٠٥) (٣٦٩١٥) حدثنا معتمر بن سليمان التيمي عن أبي عثمان أن أبا برزة قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة.

(٥) انظر: أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٣٦٠) رقم (٧٤٩).

وأبا برزة الأسلمى اشتركا فيه[(١)].

وإنما أمر بقتل ابن خطل؛ لأنه كان مسلمًا، فبعثه ﷺ مصدِّقًا - يعنى لأخذ الصدقات - وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه مولى يخدمه وكان مسلمًا ونزل منزلاً، فأمر المولى أن يذبح تيسًا ويصنع له طعامًا ونام، فاستيقظ ولم يصنعْ له شيئًا، فعدا عليه فقتله ثم ارتدَّ مشركًا، وكانت له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ.

وأما الجمع بين الأقوال فى اسمه: أنه كان يسمى عبد العزى، فلما أسلم سمى عبد الله، وأما من قال: هلال، فألبس عليه بأخ له اسمه هلال. وفى رواية أبى داود من حديث مصعب: لما كان يوم الفتح، أمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر، فذكرهم.

ثم قال: وأما ابن أبى سرح، فاختبأ عند عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، جاء به حتى أوقفه على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبى الله، بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثًا، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث. ثم أقبل على أصحابه، فقال: أما كان رجل رشيد يقوم إلى هذا حين كففت عن بيعته يقتله؟ فقالوا: يا رسول الله، ما ندرى ما فى نفسك ألا أومأت إلينا؟ قال: إنه لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين... الحديث[(٢)].

قال مالك - كما فى رواية البخارى -: ولم يكن رسول الله ﷺ فيما نرى يومئذ محرمًا[(٣)]. انتهى.

وقول مالك هذا رواه عبد الرحمن بن مهدى، عن مالك جازمًا به. أخرجه الدارقطنى فى الغريب؛ ويشهد له ما رواه مسلم من حديث جابر: دخل ﷺ يوم فتح مكة وعليه عمامةٌ سوداءُ بغير إحرامٍ[(٤)].

وروى ابن أبى شيبة بإسناد صحيح، عن طاوس، قال: لم يدخل النبى ﷺ مكة إلا محرمًا، إلا يوم فتح مكة[(٥)].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٥٢-٥٣).
(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣) من حديث مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه.
(٣) هو عند البخاري عقب الحديث (٤٢٨٦).
(٤) أخرجه مسلم (١٣٥٨)، ورواه أيضًا أبو داود (٤٠٧٦)، والترمذي (١٦٧٩)، (١٧٣٥)، وابن ماجه (٢٨٢٢، ٣٥٨٥) وغيرهم.
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ١٢٠)، رقم (١٣٥٢٣).

وقد اختلف العلماء هل يجبُ على من دخل مكة الإحرام أم لا ؟.

فالمشهور من مذهب الشافعى: أن من قصدها لغير النسك لا يجبُ عليه الإحرام مطلقًا. وفى قول: يجب إن لم يتكرر دخوله؛ كحطاب وحشاش وصياد.

والمشهور عن الأئمة الثلاثة: الوجوب. وفى رواية عن كل منهم: لا يجب، وجزم به الحنابلة باستثناء ذوى الحاجات المتكررة، واستثنى الحنفية من كان داخل الميقات. والله أعلم.

وقد زعم الحاكم فى الإكليل: أن بين حديث أنس فى المغفر، وبين حديث جابر فى العمامة السوداء مُعَارضة.

وتعقبوه باحتمال أن يكون أول دخوله كان على رأسه المغفر، ثم أزاله ولبس العمامة بعد ذلك، فحكى كل منهما ما رآه؛ ويؤيده: أن فى حديث عمرو بن حريث: أنه خطب الناس، وعليه عمامة سوداء(١). أخرجه مسلم أيضًا. وكانت الخطبة عند باب الكعبة، وذلك بعد تمام الدخول؛ وهذا الجمع للقاضى عياض.

وقال غيره: يجمع: بأن العمامة السوداء كانت ملفوفة فوق المغفر، وكانت تحت المغفر وقاية لرأسه الشريف من صدأ الحديد، فأراد أنس بذكر المغفر كونه دخل متأهبًا للحرب، وأراد جابر بذكر العمامة كونه دخل غير محرم.

وفى البخارى: عن أسامة بن زيد، أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله، أين تنزل بنا غدًا؟ قال ﷺ: وهل ترك لنا عَقِيلٌ من منزل ؟! وفى رواية: هل ترك لنا عَقِيلٌ من رباع أو دور؟! وكان عقيلٌ ورث أبا طالب وطالبًا، ولم يرثْ على ولا جعفر شيئًا؛ لأنهما كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرينِ إذ ذاك، فكان عمر بن الخطاب يقول: لا يرث الكافر المؤمن، ولا المؤمن الكافر(٢).

وفى رواية أخرى له قال - عليه الصلاة والسلام -: منزلنا إن شاء الله - إذا فتح

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٥٩)، ورواه أيضًا الحميدي (٥٦٦)، وأحمد (٤/٣٠٧)، وأبو داود (٤٠٧٧)، والنسائي (٨/ ٢١١)، والترمذي في الشمائل (١١٥)، (١١٦) من طريق جعفر ابن عمرو بن حريث عن أبيه.

(٢) أخرجه البخاري (١٥٨٨)، (٣٠٥٨)، (٤٢٨٢)، (٦٧٦٤)، ومسلم (١٣٥١)، وابن ماجه (٢٧٣٠)، والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف (١١٤) من حديث عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد.

الله الخيف حيث تقاسموا على الكفر، يعنى به: المحصب؛ وذلك أن قريشًا وكنانة تحالفت على بنى هاشم والمطلب - ألاَّ يناكحوهم، ولا يبايعوهم، حتى يسلموا إليهم النبى ﷺ - كما تقدم.

وفى رواية أخرى له: أن يوم فتح مكة، اغتسل فى بيت أم هانئ ثم صلى الضحى ثمانى ركعات، قالت: لم أره صلى صلاة أخف منها غير أنه يتمُّ الركوع والسجود. وأجارَتْ أم هانئ حموين لها، فقال النبى ﷺ: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ. والرجلان الحارث بن هشام، وزهير بن أمية بن المغيرة؛ كما قال ابن هشام. وقد كان أخوها على بن أبى طالب أراد أن يقتلهما، فأغلقتْ عليهما باب بيتها، وذهبت إلى النبى ﷺ(١).

ولما كان الغد من يوم الفتح، قام - عليه الصلاة والسلام - خطيبًا فى الناس، فحمد الله وأثنى عليه ومجده بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرضَ، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا أو يَعْضُدَ بها شجرة، فإن أحد ترخص فيها لقتال، فقولوا: إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم، وإنما أحلَّتْ لى ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب(٢)، ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، أى: الذين أطلقوا؛ فلم يسترقوا ولم يؤسروا، والطليق: الأسير إذا أطلق.

والمراد بالساعة التى أحلَّتْ له - عليه الصلاة والسلام -: ما بين أول النهار ودخول العصر؛ كذا قاله فى فتح البارى(٣).

قال فى المواهب: ولقد أجاد العلامة أبو محمد السرقسطى حيث يقول فى قصيدته المشهورة: [من البسيط]

ويوم مكَّة إذْ أشرفْتَ فى أممٍ   يضيقُ عنها فِجَاجُ الوَعْثِ والسهلِ

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٤/ ٥٣) وهذه القصة مشهورة أخرجها البخاري وغيره.

(٢) حديث أبي شريح العدوي أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٩٥). وانظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٥٧-٥٨).

(٣) فتح الباري (١/ ٢٦٨) كتاب العلم، باب: ليبلغ العلم الشاهد الغائب.

خوافقٌ ضَاقَ ذَرْعُ الخافقَيْنِ بهَا ... فى قائم من عَجَاجِ الخَيلِ والإبلِ
وَجَحْفَلٍ قَذَفَ الأرْجَاءَ ذِى لَجَبٍ ... عَرَمْرَمٍ كَزُهَاءِ الليلِ مُنسَحِلِ
وأنتَ صلّى عليكَ الله تقدمُهُمْ ... فى بَهْوِ إشراقِ نورٍ منك مُكْتَمِلِ
تنيرُ فوقَ أغرِّ الوجهِ منتجبٍ ... متوَّجٍ بعزيزِ النَّصْرِ مُقْتَبلِ
تسمو أمَامَ جنودِ الله مُرْتديًا ... ثوبَ الوَقَارِ لأمرِ اللهِ ممتثلِ
خَشَعْتَ تحتَ بهاء العزِّ حين سمَتْ ... بكَ المهابةُ فعلَ الخائفِ الوَجِلِ
وقد تباشرْنَ أملاكُ السماءِ بما ... مَلَكْتَ إذ نلْتَ منه غايةَ الأملِ
والأرضُ تَرْجُفُ من زَهْوٍ ومن فَرَقٍ ... والجوُّ يُزْهِرُ إشراقًا من الجَذَلِ
والخيلُ تَخْتَالُ زهوًا فى أعِنَّتها ... والعيشُ يَنْثَالُ زَهْوًا فى ثنى الجدلِ
لولا الذى خطَّتِ الأقلامُ من قدرٍ ... وسابقٍ مِنْ قضاءٍ غيرِ ذى حولِ
أهلَّ ثهلانُ بالتهليلِ من طربٍ ... وذابَ يذبلُ تهليلاً من الذبلِ
المُلكُ للهِ، هذا عزّ من عقدَتْ ... له النبوَّةُ فوقَ العرشِ فى الأزلِ
شعبتَ صدْعَ قريشٍ بعد ما قذفَتْ ... بهمْ شعوبٌ شعابَ السهلِ والقللِ
قالوا محمدُ قد زارَتْ كتائبهُ ... كالأسْدِ تزأرُ فى أنيابِهِ العصلِ
فويلَ مكّةَ من آثارِ وطأتِهِ ... وويلَ أم قريشٍ من جوى الهبلِ
فجدت عفوًا بفضلِ العفوِ منكَ ولمْ ... تلممْ ولا بأليمِ اللومِ والعذلِ
ضربْتَ بالصفحِ صفحًا عن غوائِلهِمْ ... طولاً أطالَ مقيلَ النومِ فى المقلِ
رحمتَ واشجَ أرحامٍ أتيحَ لها ... تحتَ الوشيجِ نسيجِ الروعِ والوجلِ
عاذوا بظلِّ كريمِ العفوِ ذى لطفٍ ... مباركِ الوجْهِ بالتوفيقِ مشتملِ
أزكى الخليقةِ أخلاقًا وأظْهرها ... وأكْرَمِ الناسِ صفحًا عن ذوى الزللِ
وطفْت بالبيت محبورًا وطافَ به ... مَنْ كانَ عنه قبيلَ الفتحِ فى شغلِ[١]

والجحفل: الجيش العظيم، قذف الأرجاء، أى: متباعدها، واللجب - بالجيم - الضجة من كثرة الأصوات، والعرمرم: الضخم الكثير العدد، وقوله: «كزهاء الليل» شبهه بالليل فى سده الأفق، واسوداده بالسلاح، والمنسحل - بالحاء المهملة -: الماضى فى سيره يتبع بعضه بعضًا. قوله: «فى بهو إشراق نور» شبه

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٦٤-٢٦٥).

الذى يغشاه - عليه الصلاة والسلام - ببهو أحاط به، والبهو: البناء العالى كالإيوان ونحوه، والمنتجب: المتخير من أصل نجيب كريم، المقتبل: المستقبل، ترجف: تهتزُّ، والزهو: الخفة من الطرب، يعنى: أن الأرض اهتزت فرحًا بهذا الجيش، وفرقًا من صولته، أى: كادت تهتز؛ قال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب: ١٠]، أى: كادت تبلغ، الجدل: جمع جديل، وهو الزمام المضفور، وثنى الجدل ما انثنى على أعناق الإبل، أى: انعطف. وثهلان: جبل معروف، وأَهَلَّ: رفع صوته. ويذبلُ: جبل أيضًا، والذبل: الرماح الذوابل، وهى التى لم تقطع من منابتها حتى ذبلت، أى: جفت ويبست، وتهليلاً، أى: جبنًا وفزعًا، يعنى: لولا ما سبق من تقدير الله أن الجبال لا تنطق، لرفع ثهلان صوته، وهلل من الطرب، ولذاب يذبل من الجزع والفرق.

وقوله: «شعبت» أى: جمعت وأصلحت. وقذفت، أى: فرقت بهم مخافة شعوب، وشعوب: اسم للمنية؛ لأنها تفرق الجماعات؛ من شعبت، أى: فرقت، وهو من الأضداد. والشعاب الطرق فى الجبال. والسهل: خلاف الجبل، والقلل: رءوس الجبال. يعنى أنه ﷺ، عفا عنهم بعدما تصدعوا أي: تفرقوا، وهربوا من خوفه إلى كل سهل وجبل.

وقوله: «كالأسد تزأر فى أنيابها العصل» أى: المعوجة. والله أعلم.

ولما فتح الله مكة على رسوله ﷺ، قال الأنصار فيما بينهم: أَتَرَوْنَ أن رسول الله ﷺ إذْ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيمُ بها ؟ وكان - عليه الصلاة والسلام - يدعو على الصفا، رافعًا يديه، فلما فرغ من دعائه، قال: ماذا قلتم ؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزلْ بهم حتى أخبروه، فقال ﷺ: معاذ الله، المحيا محياكم، والمماتُ مماتكم[1]. وهَمَّ فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله ﷺ وهو

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤/٥٨-٥٩) وفي حديث عبد الله بن رباح عن أبي هريرة المتقدم قريبًا قال للأنصار: «قلتم أمَّا الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته ورغبة في قريته ألا فما اسمي إذن (ثلاث مرات) أنا محمد عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم فالمحيا محياكم والممات مماتكم» قالوا: والله ما قلنا إلا ضنًا بالله ورسوله قال: «فإن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم» وهذا لفظ مسلم رقم (٨٦/ ١٧٨٠).

يطوف بالبيت، فلما دنا منه، قال له رسول الله ﷺ: أفضالة ؟! قال: نَعَمْ يا رسول الله، قال: ماذا كنت تحدِّثُ به نفسك ؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله، ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئًا أحبَّ إلىَّ منه(١).

وطاف ﷺ بالبيت يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان.

وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنمًا، فكلَّما مر بصنم، أشار إليه بقضيبه، وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا؛ فيقع الصنم لوجهه. رواه البيهقى(٢).

وفى رواية أبى نعيم: قد ألزقها الشياطين بالرصاص والنحاس.

وفى تفسير العلامة ابن النقيب المقدسى: أن الله تعالى لما أعلمه بأنه قد أنجز له وعده بالنصر على أعدائه، وفتحه مكة، وإعلائه كلمة دينه، أمره إذا دخل مكة أن يقول: «وقل جاء الحق وزهق الباطل»؛ فصار ﷺ يطعن الأصنام التى حول الكعبة بمحجنه، ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، فيخر الصنم ساقطًا، مع أنها كانت كلها مثبتة بالحديد والرصاص، وكانت ثلاثمائة وستين صنمًا بعدد أيام السنة.

قال: وفى معنى الحق والباطل لعلماء التفسير أقوال:

قال قتادة: جاء الحق: القرآن، وذهب الشيطان(٣).

وقال ابن جريج: جاء الجهاد، وذهب الشرك(٤).

وقال مقاتل: جاءت عبادة الله، وذهبت عبادة الشيطان.

وقال ابن عباس: وجد رسول الله ﷺ يوم الفتح حول البيت ثلاثمائة وستين صنما، كانت لقبائل العرب يحجون إليها وينحرون لها، فشكا البيت إلى الله تعالى، فقال: أىْ ربِّ، حتى متى تعبد هذه الأصنام حولى دونك ؟! فأوحى الله إليه إنى

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٥٩-٦٠).

(٢) رواه البيهقي في الدلائل (٥/ ٧١-٧٢) من حديث ابن عباس وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٧٦)، وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات ورواه البزار باختصار.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ١٣٨) رقم (٢٢٦٦٠، ٢٢٦٦١)، وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٣٦٠) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ١٣٨) رقم (٢٢٦٦٢).

سأحدث لك نوبةً جديدةً يدفُّونَ إليك دفوف النسور ويحنُّون إليك حنين الطير إلى بيضها، لهم عجيج حولك بالتلبية، قال: ولما نزلت الآية يوم الفتح، قال جبريل - عليه الصلاة والسلام - لرسول الله ﷺ: خذ مخصرتك ثم ألقها. فجعل يأتى الصنم، فيطعن فى عينه أو بطنه بمخصرته، ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، فينكبُّ الصنم لوجهه، حتى ألقاها جميعًا، وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة، وكان من قوارير صفر، فقال: يا على، ارم به، فحمله على حتى صعد ورمَى به وكسره، فجعل أهل مكة يتعجَّبون منه(١). انتهى.

وعن ابن عباس قال: لما قدم ﷺ، أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجَتْ، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما الأزلام - يعنى: القداح التى كانوا يستقسمون بها - فقال رسول الله ﷺ: قاتلهم الله، أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قطُّ. فدخل البيت وكبر فى نواحيه ولم يصل، رواه الترمذى(٢).

وعن ابن عمر قال: أقبل رسول الله ﷺ عام الفتح على ناقته القَصْوَاء، وهو مردفٌ أسامة حتى أناخ بفناء الكعبة، ثم دعا عثمان بن طلحة فقال: ائتنى بالمفتاح، فذهب إلى أمه، فأبت أن تعطيه، فقال: لتعطينه أو ليخرجنَّ هذا السيف من صلبى، فأعطته إياه، فجاء به إلى النبى ﷺ فدفعه إليه، ففتح الباب(٣). رواه مسلم.

وروى الفاكهئ من طريق ضعيفة، عن ابن عمر أيضًا قال: كان بنو طلحة يزعمون أنه لا يستطيع أحد فتح الكعبة غيرهم، فأخذ رسول الله ﷺ المفتاح ففتحها بيده(٤).

وعثمان المذكور هو: عثمان بن طلحة بن أبى طلحة بن عبد العزى، ويقال له: الحَجَبى بفتح المهملة والجيم، وبنوه يعرفون الآن بالشيبيين نسبة إلى شيبة بن عثمان ابن أبى طلحة، وهو ابن عم عثمان، وعثمان هذا لا وَلَدَ له، وله صحبة ورواية، واسم أم عثمان: سُلَافَة، بضم السين المهملة، وتخفيف الفاء.

---

(١) تقدم قريبًا.
(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٦٠١) ورواه أيضًا أبو داود (٢٠٢٧)، وأحمد (١/ ٣٣٤، ٣٦٥) من طريق عكرمة عن ابن عباس به ولم أجده عند الترمذي بهذا السياق.
(٣) أخرجه مسلم (٣٩٠/ ١٣٢٩)، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٣٦، ٢٣٧).
(٤) ينظر سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٣٧).

وفى الطبقات لابن سعد: عن عثمان بن طلحة قال: كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الإثنين والخميس، فأقبل النبى ﷺ يومًا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فأغلظتُ له ونلت منه، فحلم على، ثم قال: يا عثمان، لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدى أضعه حيث شئتُ، فقلت: لقد هلكَتْ قريش يومئذ وذلَّتْ، قال: بل عمرت وعزت يومئذ، ودخل الكعبة، فوَقعت كلمته منى موقعًا ظننت أن الأمر يومئذ سيصير إلى ما قال، فلما كان يوم الفتح قال: يا عثمان، ائتنى بالمفتاح، فأتيته به، فأخذه منى ثم دفعه إليَّ وقال: خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف، فلما وليت نادانى، فرجعت إليه فقال: ألم يكن الذى قلت لك ؟ قال: فذكرت قوله لى بمكة قبيل الهجرة: «لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدى أضعه حيث شئت» قلت: بلى، أشهد أنك رسول الله[1].

وفى التفسير: أن هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]، نزلت فى عثمان بن طلحة الحجبى، أمره - عليه الصلاة والسلام - أن يأتيه بمفتاح الكعبة، فأبى عليه وأغلق باب البيت وصعد إلى السطح، وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه. فلوى عليٌّ يده، وأخذ منه المفتاح، وفتح الباب.

قلت: يتعين أن يكون المراد بالبيت فى: «وأغلق باب البيت» بيتَ نفسِهِ؛ إذ لو كان المراد بالبيت الكعبة لا يمكن عليًا - كرم الله وجهه - لَيُّ يده. وأما فى بيت نفسه، فيمكن ذلك بنحو قلع الباب أو كسره، والله أعلم.

فدخل ﷺ البيت، فلما خرج، سأله العباس أن يعطيه المفتاح، ويجمع له بين السقاية والسدانة، فأنزل الله الآية. وأمر ﷺ عليًا أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه، ففعل ذلك عليٌّ فقال: أكرهت وآذيت، ثم جئت ترفق، فقال عليٌّ: لقد أنزل الله فى شأنك . . . وقرأ عليه الآية، فقال عثمان: أشهد أن محمدًا رسول الله، فجاء جبريل فقال: ما دام هذا البيت أو لبنة من لبناته قائمة، فإن المفتاح والسدانة فى أولاد عثمان، فكان المفتاح معه، فلما مات دفعه إلى شيبة، فالمفتاح والسدانة فى

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٤٤)، والبداية والنهاية (٤/ ٣٠١) وأصله في البخاري رقم (٤٢٨٩).

أولادهم إلى يوم القيامة(١).

قال ابن ظفر فى ينبوع الحياة: قوله: «ولو أعلم أنه رسول الله لم أمنعه»، هذا وهم؛ لأنه كان ممن أسلم، فلو قال هذا كان مرتدًا. وعن الكلبى: لما طلب - عليه الصلاة والسلام - المفتاح من عثمان، مدَّ به يده إليه، فقال العباس: يا رسول الله، اجعلها مع السقاية، فقبض عثمان يده بالمفتاح، فقال له ﷺ: إن كنت يا عثمان تؤمن بالله واليوم الآخر فهاته. فقال: هاكه بالأمانة، فأعطاه إياه، ونزلت الآية. قال ابن ظفر: وهذا أولى بالقبول.

وفى رواية لمسلم: دخل رسول الله ﷺ هو وأسامة بن زيد، وبلال وعثمان بن طلحة الحجبى، فأغلقوا عليهم الباب، قال ابن عمر: فلما فتحوا، كنت أول من ولج، فلقيت بلالاً فسألته: هل صلى فيه رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم، بين العمودين اليمانيين، وذهب عنى أن أسأله كم صلى(٢). وفى روايات البخارى: جعل عمودًا عن يساره، وعمودًا عن يمينه، وثلاثة أعمدة وراءه. وليس بين الروايتين مخالفة؛ لكن قوله فى الرواية الأخرى: «وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة» كأنه يشعر بكون ما عن يمينه أو يساره كان اثنين، ولهذا أعقبه البخارى برواية إسماعيل بن أبى أويس التى قال فيها عمودين عن يمينه.

ويمكن الجمع بين الروايتين: بأنه حيث ثَنَّى، أشار إلى ما كان عليه البيت فى زمنه ﷺ، وحيث أفرد، أشار إلى ما صار إليه بعد ذلك، ويرشد إليه قوله: «وكان البيت يومئذ...»؛ لأن فيه إشعارًا بأنه تغير عن هيئته الأولى.

ويحتمل أن يقال: لم تكن الأعمدة الثلاثة على سمت واحد، بل اثنان على سمت، والثالث على غير سمتهما. ولفظ المتقدمين فى إحدى روايات البخارى مشعر بذلك.

وفى رواية لمسلم: «جعل عمودين عن يساره وعمودًا عن يمينه» عكس رواية إسماعيل. وكذلك قال الشافعى وبشر بن عمرو فى إحدى الروايتين عنهما.

وجمع بعض المتأخرين بين هاتين الروايتين: باحتمال تعدد الواقعة، وهو بعيد؛

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣١٢)، وانظر سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٤٤-٢٤٥).
(٢) تقدم تخريجه.

لاتحاد مخرج الحديث.

وقد جزم البيهقى بترجيح رواية إسماعيل، ووافقه عليه ابن العربى، والقعنبى، وأبو مصعب، ومحمد بن الحسن، وأبو حذافة؛ وكذلك الشافعى وابن مهدى فى إحدى الروايتين عنهما. انتهى ملخصًا من فتح البارى(١).

وقد بين موسى بن عقبة فى روايته، عن نافع؛ أن بين موقفه ﷺ وبين الجدار الذى استقبله قريب من ثلاثة أذرع، وجزم برفع هذه الزيادة مالك، عن نافع فيما أخرجه الدارقطنى فى الغزو، ولفظه: «وصلى بينه وبين القبلة ثلاثة أذرع». وفى كتاب مكة للفاكهى والأزرقى: أن معاوية سأل ابن عمر: أين صلى رسول الله ﷺ ؟ فقال: اجعل بينك وبين الجدار ذراعين أو ثلاثة؛ فعلى هذا: ينبغى لمن أراد الاتباع فى ذلك أن يجعل بينه وبين الجدار ثلاثة أذرع؛ فإنه تقع قدماه فى مكان قدميه ﷺ إن كان ثلاثة سواء، وتقع ركبتاه أو يداه أو وجهه فى محلهما إن كان أقلَّ من ثلاثة أذرع. والله أعلم.

وفى رواية، عن ابن عباس قال: أخبرنى أسامة أنه - عليه الصلاة والسلام - لما دخل البَيْتَ، دعا فى نواحيه كلها، ولم يصلِّ فيه حتى خرج، فلما خرج، ركع قبل البيت ركعتين، فقال: هذه القبلة. رواه مسلم(٢). والجمع بينه وبين حديث ابن عمر: أن أسامة أخبره أن النبى ﷺ صلى فى الكعبة؛ كما رواه أحمد والطبرانى بأن أسامة حيث أثبتها اعتمد فى ذلك على غيره، وحيث نفاها أراد ما فى علمه؛ لكونه لم يره حين صلى، وبكون ابن عمر ابتدأ بلالاً بالسؤال، ثم أراد زيادة الاستثبات فى مكان الصلاة، فسأل أسامة أيضًا.

وقال النووى: قد أجمع أهل الحديث على الأخذ برواية بلال؛ لأنه مثبت، فمعه زيادة علم؛ فوجب ترجيحه.

قال: وأما نفى أسامة: فيشبه(٣) أنهم لما دخلوا الكعبة، أغلقوا الباب، واشتغلوا بالدعاء، فرأى أسامة النبى ﷺ يدعو، ثم اشتغل أسامة فى ناحية من نواحى البيت،

---

(١) ينظر فتح الباري (٤/ ٢٦٣-٢٦٥).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٩٥/ ١٣٣٠).
(٣) في شرح النووي: فسببه.

والنبيُّ ﷺ في ناحية أخرى، وبلال قريبٌ منه، ثم صلى النبيُّ ﷺ فرآه بلال لقربه منه، ولم يره أسامة لبعده واشتغاله، وكانت صلاته - عليه الصلاة والسلام - خفيفة؛ فلم يرها أسامة؛ لإغلاق الباب مع بعده واشتغاله بالدعاء، وجاز له نفيها عملاً بظنه. وأما بلال: فتحققها وأخبر بها. انتهى[(١)].

وتعقَّبوه بما يطول ذكره، وأقرب ما قيل في الجمع: أنه ﷺ صلى في الكعبة لما غاب عنه أسامة من الكعبة؛ لأمر ندبه إليه، وهو أن يأتي بماء يمحو به الصور التي كانت في الكعبة؛ فأثبت الصلاة بلال؛ لرؤيته لها، ونفاها أسامة؛ لعدم رؤيته.

ويؤيده: ما رواه أبو داود والطيالسي، عن أسامة بن زيد، قال: دخلت على رسول الله ﷺ في الكعبة، ورأى صورة، فدعا بدلو من ماء، فأتيته به، فجعل ﷺ يمحوها، ويقول: «قاتل الله قومًا يصوِّرُونَ ما لا يخلقون»[(٢)] ورجاله ثقات. وأفاد الأزرقي في تاريخ مكة: أن خالد بن الوليد كان على باب الكعبة يذبُّ عنه ﷺ الناس.

وفي البخاري: أنه ﷺ أقام خمس عشرة ليلة، وفي رواية: تسع عشرة[(٣)]، وفي رواية أبي داود: سبع عشرة[(٤)]، وعند الترمذي: ثماني عشرة[(٥)]، وفي الإكليل: أصحها بضع عشرة يقصر الصلاة.

وقال الفاسي في تاريخ مكة: كان فتح مكة لعشر ليال بقين من شهر رمضان، وكان مما قيل من الشعر في ذلك قول حسان بن ثابت الأنصاري: [من الوافر]

عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجِوَاءُ ... إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلَاءُ
دِيَارٌ مِنْ بَنِي الْحَسْحَاسِ قَفْرٌ ... تُعَفِّيهَا الرَّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ
وَكَانَتْ لاَ يَزَالُ بِهَا أَنِيسٌ ... خِلَالَ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ
فَدَعْ هَذَا وَلَكِنْ مَنْ لِطَيْفٍ ... يُؤَرِّقُنِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَاءُ
لِشَعْثَاءَ الَّتِي قد تَيَّمَتْهُ ... فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ
كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ ... يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ

---

(١) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ٩٦).
(٢) أخرجه الطيالسي في مسنده (١٨٥٢-منحة).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٩٨، ٤٢٩٩)، وأبو داود (١٢٣١)، من حديث ابن عباس.
(٤) أخرجه أبو داود (١٢٣٢).
(٥) أخرجه الترمذي رقم (٥٥٠)، من حديث البراء بن عازب قال: صحبت رسول الله ﷺ ثمانية عشر سفرًا، فما رأيته ترك الركعتين إذا زاغت الشمس قبل الظهر.

عَلَى أنيابها أو طعم غضّ من التفاحِ هصَّره الجناء
إِذَا مَا الأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ يَوْمًا فَهُنَّ لِطَيِّبِ الرَّاحِ الْفِدَاءُ
نولِّيهَا الْمَلاَمَةَ إِنْ أَلَمْنَا إِذَا مَا كَانَ مَغْثٌ أَوْ لِحاءُ
وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكنَا مُلُوكًا وَأُسْدًا مَا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ
عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ
يُنَازِعْنَ الأَعِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ يُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ
فَإِمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ
وَإِلاَّ فَاصْبِرُوا لِجِلاَدِ يَوْمٍ يُعِزُّ اللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللهِ فِينَا وَرُوحُ الْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
وَقَالَ اللهُ: قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا يَقُولُ الْحَقَّ إِنْ نَفَعَ الْبَلاَءُ
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدِّقُوهُ فَقُلْتُمْ: لاَ نَقُومُ وَلاَ نَشَاءُ
وَقَالَ اللهُ: قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا هُمُ الأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ
لَنَا فِى كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ
فَنُحْكِمُ بِالْقَوَافِى مَنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ
أَلاَ بَلِّغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي مُغَلْغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ
بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْدًا وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الإِمَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللهِ فِى ذَاكَ الْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ؟! فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ
هَجَوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا أَمِينَ اللهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ
أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ؟!
فَإِنَّ أَبِى وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ
لِسَانِى صَارِمٌ لاَ عَيْبَ فِيهِ وَبَحْرِى لا تُكَدِّرُهُ الدِّلاَءُ

قال ابن هشام: قالها حسان قبل الفتح، وبلغنى عن الزهرى: أن رسول الله ﷺ لما رأى النساء يلطمْنَ الخيل بالخمر تبسم إلى أبى بكر الصديق[1].

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٦٦)، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٦٢-٢٦٣).

قال ابن إسحاق [١]: وقال أنس بن زنيم الديلى يعتذر إلى رسول الله ﷺ مما كان قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعى [من الطويل]

أأنتَ الَّذِى تُهْدَى مَعَدٌّ بِأَمْرِهِ   بَلِ اللهُ يَهْدِيهِمْ وَقَالَ لَكَ اشْهَدِ
وَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا   أَبَرَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ
أَحَثَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغَ نَائِلاً   إِذَا رَاحَ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ الْمُهَنَّدِ
وَأَكْسَى لِبُرْدِ الْخَالِ قَبْلَ ابْتِذَالِهِ   وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِقِ الْمُتجَرِّدِ
تَعَلَّمْ رَسُولَ اللهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي   وَأَنَّ وَعِيدًا مِنْكَ كَالأَخْذِ بِالْيَدِ
تَعَلَّمْ رَسُولَ اللهِ أَنَّكَ قَادِرٌ   عَلَى كُلِّ صِرْمٍ مُتْهِمِينَ وَمُنْجِدِ
تَعَلَّمْ بِأَنَّ الرَّكْبَ رَكْبَ عُوَيْمِرٍ   هُمُ الْكَاذِبُونَ الْمُخْلِفُو كُلِّ مَوْعِدِ
وَنَبَّوْا رَسُولَ اللهِ أَنِّى هَجَوْتُهُ   فَلاَ حَمَلَتْ سَوطِى إِلَيَّ إِذَنْ يَدِى
سِوَى أَنَّنِى قَدْ قُلْتُ وَيْلُ امِّ فِتْيَةٍ   أُصِيبُوا بِنَحْسٍ لاَ بِطَلْقٍ وَأَسْعُدِ
أَصَابَهُمُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِدِمَائِهِمْ   كِفَاءً فَعَزَّتْ عَبْرَتِى وَتَبَلُّدِى
فَإِنَّكَ قَدْ أَخْفَرْتَ إِنْ كُنْتَ سَاعِيًا   بِعَبْدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ وَابْنَةِ مَهْوَدِ
ذُوَيْبٌ وَكُلْثُومٌ وَسَلْمَى تَتَابَعُوا   جَمِيعًا فَإِلاَّ تَدْمَعِ الْعَيْنُ أَكْمَدِ
وَسَلمَى وَسَلْمَى لَيْسَ حَيٌّ كَمِثْلِهِ   وَإِخْوتُهُ وَهَلْ مُلُوكٌ كَأَعْبُدِ ؟!
فَإِنِّى لاَ دِينًا فَتَقْتُ وَلاَ دَمًا   هَرَقْتُ تَبَيَّنْ عَالِمَ الْحَقِّ وَاقْصِدِ

فأجابه بُدَيل بن عبد مناف بن أم أصرم، فقال [من الطويل]

بَكَى أَنَسٌ رَزْنًا فَأَعْوَزَهُ الْبُكَا   فَأَلاَّ عَدِيًّا إِذْ تُطَلُّ وَتُبْعَدُ
بَكَيْتَ أَبَا عَبْسٍ لِقُرْبِ دِمَائِهَا   فَتُعْذِرَ إِذْ لا يُوقِدُ الْحَرْبَ مُوقِدُ
أَصَابَهُمُ يَوْمَ الْخَنَادِمِ فِتْيَةٌ   كِرَامٌ فَسَلْ، مِنْهُمْ نُفَيْلٌ وَمَعْبَدُ
هُنَالِكَ إِنْ تُسْفَحْ دُمُوعُكَ لاَ تُلَمْ   عَلَيْهِمْ وإن لَمْ تَدْمَعِ الْعَيْنُ فَاكْمَدُوا

قال ابن هشام: وهذه الأبيات فى قصيدة له[٢].

قال ابن إسحاق: وقال بُجَيْرُ بن زهير بن أبى سلمى فى يوم الفتح : [من الوافر]

نَفَى أَهْلَ الْحَبلَّقِ[٣] كُلَّ فَجٍّ   مُزَيْنَةُ غُدْوَةً وَبَنُو خُفَافِ

(١) انظر المصدر السابق.
(٢) انظر سيرة ابن هشام (٤/٦٧)، وسبل الهدى والرشاد (٥/٢٦٣-٢٦٤).
(٣) الحبلق: أرض يسكنها قبائل من مزينة وقيس، وهو أيضًا: الغنم الصغار.

ضَرَبْنَاهُمْ بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتْحِ النَّـ ... نَبِيِّ الْخَيْرِ بِالْبِيضِ الْخِفَافِ
صَبحنَاهُمْ بِسَبْعٍ مِنْ سُلَيْمٍ ... وَأَلْفٍ مِنْ بَنِي عُثْمَانَ وَافِي
نَطَا أَكْتَافَهُمْ ضَرْبًا وَطَعْنًا ... وَرَشْقًا بِالْمُرَيَّشَةِ اللِّطَافِ
تَرَى بَيْنَ الصُّفُوفِ لَهَا حَفِيفًا ... كَمَا انْصَاعَ الْفُوَاقُ مِنَ الرِّصَافِ
فَرُحْنَا وَالْجِيَادُ تَجُولُ فِيهِمْ ... بِأَرْمَاحٍ مُقَوَّمَةِ الثِّقَافِ
فَأُبْنَا غَانِمِينَ بِمَا اشْتَهَيْنَا ... وَآبُوا نَادِمِينَ عَلَى الْخِلَافِ
وَأَعْطَيْنَا رَسُولَ اللهِ مِنَّا ... مَوَاثِقَنَا عَلَى حُسْنِ التَّصَافِي
وَقَدْ سَمِعُوا مَقَالَتَنَا فَهَمُّوا ... غَدَاةَ الرَّوْعِ مِنَّا بِانْصِرَافِ[١]

وفيها: (**غزوة حُنَيْنٍ**)[٢] بالتصغير، وهو واد فوق ذى المجاز، وقيل: بينه وبين مكة ثلاث ليال قرب الطائف، وتسمى: (غزوة هوازن)؛ وذلك أن النبيَّ ﷺ لما فرغ من فتح مكة وتمهيدها، وأسلم عامة أهلها، مشت أشراف هوازن وثقيف بعضهم إلى بعض، وحشدوا، وقصدوا محاربة المسلمين، وكان رئيسهم مالك بن عوف النصرى، فخرج إليهم رسول الله ﷺ من مكة يوم السبت لست ليال خلون من شوال فى اثنى عشر ألفًا من المسلمين: عشرة آلاف من أهل المدينة، وألفان ممن أسلم من أهل مكة، وهم الطلقاء: يعنى: الذين خلى عنهم يوم فتح مكة، وأطلقهم فلم يسترقَّهم، واحدهم: طليق، فعيل: بمعنى مفعول، وهو الأسير إذا أطلق سبيله كما تقدم.

واستعمل ﷺ على مكة عتاب بن أسيد، وخرج معه ﷺ ثمانون من المشركين، منهم صفوان بن أمية، وكان ﷺ استعار منه مائة درع بأداتها، فوصل إلى حنين ليلة الثلاثاء لعشر ليال خلون من شوال، فبعث مالك بن عوف ثلاثة نفر يأتونه بخبر أصحاب رسول الله ﷺ، فرجعوا إليه وقد تفرقَتْ أوصالهم من الرعب.

ووجَّه رسول الله ﷺ عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى، فدخل عسكرهم، فطاف به، وجاء بخبرهم.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٦٧-٦٨).

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٣/ ٨٨٥)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١١٤) وسيرة ابن هشام (٤/ ٨١)، وتاريخ الطبري (٣/ ٧٠)، وعيون التواريخ (١/ ٣٢١)، والروض الأنف (٤/ ١٣٨).

وفي حديث سهل بن الحنظلية عند أبي داود، بإسناد حسن: أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ فأطنبوا السير، فجاء رجل فقال: انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشياههم، اجتمعوا إلى حنين، فتبسم ﷺ وقال: تلك غنيمة المسلمين إن شاء الله تعالى[1].

وقوله: «عن بكرة أبيهم» كلمة للعرب يريدون بها الكثرة وتوفر العدد، وليس هناك بكرة في الحقيقة، وهي التي يستقى عليها الماء، فاستعيرَتْ هنا.

وقوله: «بظعنهم» أي: بنسائهم، واحدتها: ظعينة، وأصل الظعينة: الراحلة التي ترحل ويظعن عليها، أي: يسار، وقيل للمرأة: ظعينة؛ لأنها تظعن مع زوجها حيث ما ظعن، أو لأنها تحمل على الراحلة إذا ظعنت.

وقيل: الظعينة المرأة في الهودج، ثم قيل للمرأة بلا هودج، وللهودج بلا امرأة: ظعينة. انتهى.

روى يونس بن بكير في زيادة المغازي، عن الربيع قال: قال رجل يوم حنين: «لن نُغلبَ اليوم من قِلَّة»، فشقَّ ذلك على النبي ﷺ، ثم ركبَ ﷺ بغلته البيضاء الدلدل، ولبس درعين والمغفر والبيضة، فاستقبلهم من هوازن ما لم يروا مثله قَطُّ من السواد والكثرة، وذلك في غبش الصبح، وخرجت الكتائب من مضيق الوادي، فحملوا حملة واحدة، فانكشفت خيل بني سليم مولية، وتبعهم أهل مكة والناس، فقال أخو صفوان بن أمية: غلبت هوازن، لا يرد هاربهم إلا البحر. فقال له صفوان أخوه: بفيكَ الكِثْكِثُ، لأَنْ يَرُبَّني رجل من قريش خير لي من أن يربني رجل من هوازن رئيسهم مالك بن عوف، ولم يثبت معه ﷺ يومئذ إلا العباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو بكر، وعمر، وأسامة بن زيد في أناس من أهل بيته وأصحابه.

قال العباس: وأنا آخذ لجام بغلته أَكُفُّها مخافة أن تصل إلى العدو؛ لأنه ﷺ كان يتقدم في نحر العدو، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بركابه، وجعل - عليه الصلاة والسلام - يقول للعباس: ناد يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرَةِ، يعني: شجرة بيعة الرضوان التي بايعوه تحتها ألاَّ يفروا عنه، فجعل ينادي تارة: يأهل السمرة،

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٠١) مطولاً.

وتارة: يا أصحاب سورة البقرة، وكان العباس رجلاً صيتًا، فلما سمع المسلمون نداء العباس، أقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت على أولادها يقولون: يا لبيك يا لبيك، فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع، انحدر عنه وأرسله، فرجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم - عليه الصلاة والسلام - أن يصدقوا الحملة، فاقتتلوا مع الكفار، فأشرف رسول الله ﷺ فنظر إلى قتالهم، فقال: الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ، وهو التنُّورُ، ولم تسمع من أحد قبل النبى ﷺ. وتناول ﷺ حصيات من الأرض، ثم قال: شاهت الوجوه، أى: قبحت، ورمى بها فى وجه المشركين، فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينيه من تلك القبضة. وفى رواية مسلم: قبضة من تراب من الأرض(١).

فيحتمل أنه رمى بذا مرة، وبالأخرى أخرى، ويحتمل أن يكون أخذ قبضةً واحدةً مخلوطة من حصى وتراب.

ولأحمد وأبى داود والدارمى، من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى، فى قصة حنين: فولى المسلمون مدبرين؛ كما قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥]، فقال رسول الله ﷺ: أنا عبد الله، أنا عبد الله ورسوله. ثم اقتحَمَ عن فرسه، وأخذ كَفًّا من تراب، قال: فأخبرنى الذى كان أدنى إليه منى أنه ضرب وجوههم، وقال: شاهت الوجوه، فهزمهم الله تعالى(٢).

قال يعلى بن عطاء، راويه عن أبى همام، عن أبى عبد الرحمن الفهرى، فحدثنى أبناؤهم عن آبائهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأتْ عيناه وفمه ترابًا، وسمعنا صلصلةً من السماء كإمرار الحديد على الطست الجديد - بالجيم(٣)- قال فى النهاية: وصف الطست وهى مؤنثة بالجديد، وهو مذكر: إما لأن تأنيثها غير حقيقى، فأوله على الإناء والظرف، أو لأن فعيلاً يوصف به المؤنث بلا علامة تأنيث؛ كما يوصف به المذكر، نحو امرأة قتيل. انتهى.

ولأحمد والحاكم، من حديث ابن مسعود: فحادَتْ به ﷺ بغلته، فمال السرج،

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٧/٨١)، وانظر السيرة النبوية (٨٦/٤)، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٨٦/٥)، وأبو داود (٥٢٣٣)، والدارمي رقم (٢٤٥٦-ط هاشمي).

(٣) انظر السابق.

فقلت: ارتفعْ رفعَكَ الله، فقال: ناولنى كَفًّا من تراب، فضرب وجوههم، وامتلأت أعينهم ترابًا، وجاء المهاجرون والأنصار سيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب، فولى المشركون الأدبار(١).

وروى أبو جعفر بن جرير، بسنده عن عبد الرحمن مولى [أم برثن]، عن رجل كان فى المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين، لم يقوموا لنا حلب شاة، فلما لقيناهم، جعلنا نسوقهم فى آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ، قال: فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان، فقالوا لنا: شاهت الوجوه، ارجعوا، قال: فانهزمنا وركبوا أكتافنا(٢).

وفى سيرة الدمياطى: كان سيما الملائكة يوم حنين عمائم حمراء أَرْخَوْهَا بين أكتافهم.

وفى البخارى، عن البراء سأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله ﷺ؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفرَّ، كان هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم، فاستقبلنا بالسهام، ولقد رأيت النبى ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بزمامها يوكلها فيدفعها فى نحر العدو، وهو يقول:

[من مجزوء الرجز]

أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ(٣)

وهذا إشارة إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب، فكأنه قال: أنا النبيُّ والنبيُّ لا يكذب، فلستُ بكاذب فيما أقول حتى انهزموا، بل أنا متيقِّنٌ أن الذى وعدنى الله به من النصر حق؛ فلا يجوز علىَّ الفرار.

وأما ما فى رواية مسلم، عن سلمة بن الأكوع من قوله: فارجع منهزمًا، إلى قوله: مررت على رسول الله ﷺ منهزمًا، فقال: لقد رأى ابن الأكوع فزعًا(٤) فقال

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١١٧) وصححه لكن تعقبه الذهبي بقوله: «الحارث وعبد الله ذوا مناكير هذا منها ثم فيه إرسال». اهـ

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٦/ ٣٤٣) رقم (١٦٥٩٦، ١٦٦٠١)، والمثبت بين المعكوفين من التفسير وقال: مولى أم برثن أو أم برثمة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٣١٥، ٤٣١٦، ٤٣١٧)، ومسلم (٧٩/ ١٧٧٦)، وانظر تفسير ابن جرير (٦/ ٣٤٢-٣٤٣)، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٢٩).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٧) مطولاً.

العلماء: قوله: «منهزمًا» حال من ابن الأكوع؛ كما صرح أولاً بانهزامه، ولم يرد أن النبى ﷺ انهزَمَ. وقد قالت الصحابة كلهم: إنه - عليه الصلاة والسلام - ما انهزم، ولم ينقل أحد قط: أنه انهزم فى موطن من المواطن. وقد نقلوا إجماع المسلمين على أنه لا يجوز أن يُعتقد انهزامه ﷺ، ولا يجوز ذلك عليه، بل كان العباس وأبو سفيان بن الحارث آخذين ببغلته يَكُفَّانها عن إسراع التقدم إلى العدو[١].

وقد تقدم فى غزوة أحد ما نسب لابن المرابط من المالكية مما حكاه القاضى عياض فى الشفاء؛ أن من قال: إن النبى ﷺ هزم - يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وإن العلامة البساطى تعقبه بما لفظه: هذا القائل إن كان يخالف فى أصل المسألة - يعنى حكم السابِّ - فله وجه، وإن وافق على أن الساب لا تقبل توبته، فمشكل. انتهى.

قال بعضهم: وقد كان ركوبه - عليه الصلاة والسلام - البغلة فى هذ المحل الذى هو موضع الحرب والطعن والضرب - تحقيقًا لنبوته؛ لما كان الله تعالى خصه به من مزيد الشجاعة وتمام القوة؛ وإلا فالبغال عادة من مراكب الطمأنينة ولا يصلح لموطن الحرب فى العادة إلا الخيل؛ فبين - عليه الصلاة والسلام - أن الحرب عنده كالسلم قوةَ قلب، وشجاعة نَفسٍ، وثقةً وتوكلًا على الله تعالى. وقد ركبت الملائكة فى الحرب معه - عليه الصلاة والسلام - على الخيل لا غير؛ لأنها بصدد ذلك عرفًا دون غيرها من المركوبات، ولهذا لا يُسْهَمُ فى الحرب إلا للخيل، والسر فى ذلك أنها المخلوقة للكر والفر بخلاف البغال والإبل. انتهى[٢].

وعند ابن أبى شيبة، من مرسل الحكم بن عتيبة: لم يبق معه - عليه الصلاة والسلام - إلا أربعة نفر، ثلاثة من بنى هاشم، ورجلا من غيرهم: على، والعباس بين يديه، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بالركاب، وابن مسعود من الجانب الآخر، وليس يقبل نحوه أحد إلا قتل[٣].

وفى الترمذى بإسناد حسن من حديث ابن عمر: لقد رأيتنا يوم حنين وإن الناس لمولون وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل[٤].

---

(١) نقل ذلك المصنف عن النووي في شرح مسلم (٦/ ٣٦٤) بتصرف يسير.

(٢) انظر كلامًا نحو هذا في شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٣٦٠)، والفتح (٨/ ٣٤٧).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤١٧-٤١٨) رقم (٣٦٩٩٤).

(٤) أخرجه الترمذي (١٦٨٩) بلفظ: «لقد رأيتنا يوم حنين وإن الفئتين لموليتين وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل».

وفى شرح مسلم للنووى: إنه ثبت معه - عليه الصلاة والسلام - اثنا عشر رجلاً، وكأنه أخذه من قول ابن إسحاق[١]. ووقع فى شعر العباس بن عبد المطلب: أن الذين ثبتوا معه كانوا عشرة فقط، وذلك لقوله: [من الطويل]

نَصَرْنَا رَسُولَ اللهِ فِى الْحَرْبِ تِسْعَةً ... وَقَدْ فَرَّ مَنْ قَدْ فَرَّ عَنْهُ فَأَقْشَعُوا
وَعَاشِرُنَا لاَقَى الحِمَامَ بِنَفْسِهِ ... لِمَا مَسَّهُ فِى اللهِ لاَ يَتَوَجَّعُ

وقد قال الطبرانى: الانهزام المنهيُّ عنه هو ما وقع على غير نية العود، وأما الاستطراد للكرة فهو كالتحيز إلى فئة.

وأما قوله - عليه الصلاة والسلام -: [من مجزوء الرجز]

أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ

فقال العلماء: إنه ليس بشعر؛ لأن الشاعرإنما سمى شاعرًا؛ لوجوه: منها: أنه شعر المقول وقصده واهتدى إليه وأتى به كلامًا موزونًا على طريقة العرب مقفًّى، فإن خلا من هذه الأوصاف أو بعضها لم يكن شعرًا ولم يكن قائله شاعرًا، والنبى ﷺ لم يقصدْ بكلامه ذلك الشعر ولا أراده، فلا يعد شعرًا وإن كان موزونًا.

وأما قوله - عليه الصلاة والسلام -: «أنا ابن عبد المطلب، ولم يقل: أنا ابن عبد الله: فأجيب بأن شهرته بجده كانت أكثر من شهرته بأبيه؛ لأن أباه توفى فى حياة أبيه عبد المطلب قبل مولده - عليه الصلاة والسلام - وكان عبد المطلب مشهورًا شهرة ظاهرة شائعة، وكان سيد قريش، وكان كثير من الناس يدعون النبى ﷺ ابن عبد المطلب، ينسبونه إلى جده لشهرته، ومنه حديث ضمام بن ثعلبة فى قوله: أيكم ابن عبد المطلب ؟ وقيل غير هذا.

وأمر ﷺ أن يقتل من قدر عليه، وأفضى المسلمون فى القتل إلى الذرية، فنهاهم - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك، وقال: «من قتل قتيلاً له عليه بينة، فله سلبه[٢]»، واستلبَ طلحة وحده ذلك اليومَ عشرينَ رجلاَ[٣].

---

(١) انظر السيرة النبوية (٤/ ٨٦، ٨٧) ولم أجده في شرح النووي وانظر شرحه لصحيح مسلم (٦/ ٣٥٩-٣٦٤). وانظر سبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٢) السَّلب: مايأخذه أحد القرنين من الآخرفى الحرب من سلاح وثياب ودابة ونحوه قاله فى النهاية ٢/ ٣٨٧

(٣) انظر شرح مسلم للنووي (٦/ ٣٦٢-٣٦٣)، وفتح الباري (٨/ ٣٤٨).

قال ابن القيم فى الهدى النبوى: كان الله تعالى وعد رسوله إذا فتح مكة، دخل الناس فى دين الله أفواجًا، ودانت له العرب بأسرها. فلما تم الفتح المبين، اقتضت حكمتة أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام وأن يتجمعوا ويتألبوا لحربه - عليه الصلاة والسلام - ليظهر أمره تعالى وتمام إعزازه لرسوله ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكرانًا لأهل الفتح، وليظهر الله تعالى رسوله وعباده، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التى لم يلق المسلمون قبلها مثلها، ولا يقاومهم بعدُ أَحَدٌ من العرب، فاقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عَدَدِهم وعددِهم وقوة شوكتهم ليطامن رءوسًا رفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمه كما دخل - عليه الصلاة والسلام - واضعًا رأسه منحنيًا على مركوبه؛ تواضعًا لربه وخضوعًا لعظمته؛ أن أحل له بلده ولم يحله لأحد قبله ولا لأحد بعده؛ ليبينَ سبحانه لمن قال: «لن نُغلب اليوم من قلة»: أن النصر إنما هو من عند الله تعالى، وأنه من ينصره فلا غالبَ له، ومن يخذله فلا ناصر له، وأنه سبحانه هو الذى تولَّى نصر رسوله ودينه، لا كثرتكم التى أعجبتكم، فإنها لن تغنى عنكم شيئًا، فوليتم مُدبرين. فلما انكسرَتْ قلوبهم، أرسلت خلع الجبر من بريد: ﴿ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة: ٢٦]، وقد اقتضت حكمته تعالى أنَّ خِلَعَ النصرِ وجوائزه إنما تفاض على أهل الانكسار: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥].

قال: وبهاتين الغزاتين - أعنى حنينا وبدرًا - قاتلت الملائكة بأنفسها مع المسلمين ورمى رسول الله ﷺ وجه المشركين فيهما - انتهى[(١)].

وأمر ﷺ بطلب العدو، فانتهى بعضهم إلى الطائف نحو نخلة، وقوم منهم إلى أوطاس اسم مكان، وقتل من المشركين [أكثر] من سبعين قتيلاً.

ومما قيل من الشعر فى غزوة حنين قول العباس بن مرداس، يذكر قارب بن الأسود وفراره من بنى أبيه، وذا الخمار وحبسه قومه للموت [من الوافر]

أَلاَ مَنْ مُبْلِغ غَيْلاَنَ عَنِّي ... وَسَوْفَ إِخَالُ يَأْتِيهِ الْخَبِيرُ
وَعُرْوَةَ إِنَّمَا أُهْدِى جَوَابًا ... وقَوْلاً غَيْرَ قَوْلِكُمَا يَسِيرُ

(١) انظر زاد المعاد (٣/ ٤٧٧-٤٧٩).

بِـأَنَّ مُـحَـمَّـدًا عَـبْـدٌ رَسُـولٌ ... لِـرَبٍّ لاَ يَـضِـلُّ وَلاَ يَـجُـورُ
وَجَـدْنَـاهُ نَـبِـيًّـا مِـثْـلَ مُـوسـى ... فَـكُـلُّ فَـتًـى يُـخَـايِـرُهُ مَـخِـيـرُ
وَبِـئْـسَ الأَمْـرُ أَمْـرُ بَـنِـي قَـسِـيٍّ ... بِـوَجٍّ إِذْ تُـقُـسِّـمَـتِ الأُمُـورُ
أَضَـاعُـوا أَمْـرَهُـمْ وَلِـكُـلِّ قَـوْمٍ ... أَمِـيـرٌ وَالـدَّوَائِـرُ قَـدْ تَـدُورُ
فَـجِـئْـنَـا أُسْـدَ غَـابَـاتٍ إِلَـيْـهِـمْ ... جُـنُـودُ اللهِ ضَـاحِـيَـةً تَـسِـيـرُ
نَؤُمُّ الْجَمْعَ جَمْعَ بَنِى قَسِيٍّ ... عَلَى حَنَقٍ نَكَادُ لَهُ نَطِيرُ
وَأُقْسِمُ لَوْ هُمُو مَكَثُوا لَسِرْنَا ... إِلَيْهِمْ بِالْجُنُودِ ولَمْ يَغُورُوا
فَكُنَّا أُسْدَ لِيَّةَ ثَمَّ حَتَّى ... أَبَحْنَاهَا وأُسْلِمتِ النُّصُورُ
وَيَوْمٌ كَانَ قَبْلُ لَدَى حُنَيْنٍ ... فَأَقْلَعَ وَالدِّمَاءُ بِهِ تَمُورُ
مِنَ الأَيَّامِ لَمْ تَسْمَعْ كَيَوْمٍ ... وَلَمْ يَسْمَعْ بِهِ قَوْمٌ ذُكُورُ
قَتَلْنَا فِى الْغُبَارِ بَنِى حُطَيْطٍ ... عَلَى رَايَاتِهَا وَالْخَيْلُ زُورُ
وَلَمْ يَكُ ذُو الْخِمَارِ رَئِيسَ قَوْمٍ ... لَهُمْ عَقْلٌ يُعَاتِبُ أَوْ نَكِيرُ(١)
أَقَامَ بِهِمْ عَلَى سَنَنِ الْمَنَايَا ... وَقَدْ بَانَتْ لمبْصِرِهَا الأُمُورُ
فَأَفْلَتَ مَنْ نَجَا مِنْهُمْ جَرِيضًا ... وَقُتِّلَ مِنْهُمُ بَشَرٌ كَثِيرُ
وَلاَ يُغْنِى الأُمُور أَخُو التَّوَانِي ... وَلاَ الْغَلِقُ الصُّرَيِّرَةُ الْحَصُورُ
أَحَانَهُمُ وَحَانَ وَمَلَّكُوهُ ... أُمُورَهُمُ وَأَفْلَتَتِ الصُّقُورُ
بَنُو عَوْفٍ تَمِيحُ بِهِم جِيَادٌ ... أُهِينَ لهَا الْفَصَافِصُ وَالشَّعِيرُ
فَلَوْلاَ قَارِبٌ وَبَنُو أَبِيهِ ... تُقُسِّمَتِ الْمَزَارِعُ وَالْقُصُورُ
وَلَكِنَّ الرِّيَاسَةَ عُمِّمُوهَا ... عَلَى يُمْنٍ أَشَارَ بِهِ الْمُشِيرُ
أَطَاعُوا قَارِبًا وَلَهُمْ جُدُودٌ ... وَأَحْلاَمٌ إِلَى عِزٍّ تَصِيرُ
فَإِنْ يُهْدَوْا إِلَى الإِسْلاَمِ يُلْفَوْا ... أُنُوفَ النَّاسِ مَا سَمَرَ السَّمِيرُ
وَإِنْ لَمْ يُسْلِمُوا فَهُمُ أَذَانٌ ... بِحَرْبِ اللهِ لَيْسَ لَهُمْ نَصِيرُ
كَمَا حَكَّتْ بَنِى سَعْدٍ وَحَرْبٌ ... بِرهْطِ بَنِى غَزِيَّةَ عَنْقَفِيرُ
كَأَنَّ بَنِى مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرٍ ... إِلَى الإِسْلاَمِ ضَائِنَةٌ تَخُورُ
فَقُلْنَا: أَسْلِمُوا إِنَّا أَخُوكُمْ ... وَقَدْ بَرِئَتْ مِنَ الإِحَنِ الصدُورُ

---

(١) في السيرة: يعاقب أو مكير. وفي السبل: يعاقب أو نكير.

كَـأَنَّ الْـقَـومَ إِذْ جَـاءُوا إِلَـيْـنَـا مِنَ الْبَغْضَاءِ بَعْدَ السِّلْمِ عُورُ(١)

قال ابن هشام: غيلان: غيلان بن سلمة الثقفى، وعروة: عروة بن مسعود الثقفى.

قال ابن إسحاق(٢): ولما انهزم المشركون، أتوا الطائف، ومعهم مالك بن عوف وعسكر بعضهم بأوطاس، وتوجه بعضهم نحو نخلة، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بنو غيرة من ثقيف، وتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك فى نخلة من الناس، ولم تتبع من سلك الثنايا، فأدرك ربيعةُ بن رفيع بن أهبان بن ثعلبة بن ربيعة ابن يربوع بن سماك بن عوف بن امرئ القيس - وكان يقال له ابن الدغنة، وهى أمه، فغلبت على اسمه، ويقال: ابن لذغة فيما قاله ابن هشام - دُرَيْد بْن الصمةِ، فأخذ بخطام جمله، وهو يظن أنه امرأة، وذلك أنه فى شجار له فإذا هو برجل، فأناخ به فإذا شيخ كبير، فإذا هو دريد بن الصمة، فتعرفه الغلام، فقال له دريد: ماذا تريد بى؟ قال: أقتلك، قال: ومن أنت؟ قال: أنا ربيعة بن رفيع السلمى، ثم ضربه بسيفه، فلم يُغْنِ فيه شيئًا، فقال: بئسما سلحتك أمك، خذ سيفى هذا من مؤخر الرحل، ثم اضرب به، وارفع عن العظام، واخفض عن الدماغ؛ فإنى كذلك كنت أضرب الرجال. ثم إذا أتيت أمك، فأخبرها أنك قد قتلت دريد بن الصمة، فَرُبَّ يوم قد منعت فيه نساءك. فزعم بنو سليم أن ربيعة قال: لما ضربته فوقع تكشف فإذا عجانه وبطون فخذيه مثل القرطاس من ركوب الخيل إعراء. فلما رجع ربيعة إلى أمه، أخبرها بقتله إياه، فقالت: أما واللهِ لقد أعتَقَ أمهاتٍ لكَ ثلاثًا.

وقالت عمرة بنت دريد فى قتل ربيعة دريدًا(٣): [من الوافر]

لَعَمْرُكَ مَا خَشِيتُ عَلَى دُرَيْدٍ بِبَطْنِ سُمَيْرَةٍ جَيْشَ الْعَنَاقِ
جَزَى عنه الْإِلهُ بَنِى سُلَيم وَعَقَّتْهُمْ بِمَا فَعَلُوا عَقَاقِ
وَأَسْقَانَا إِذَا قُدْنَا إِلَيْهِمْ دِمَاءَ خِيَارِهِمْ عِنْدَ التَّلَاقِي
فَرُبَّ عَظِيمَةٍ دَافَعْتَ عَنْهُمْ وَقَدْ بَلَغَتْ نُفُوسُهُمُ التراقِي
وَرُبَّ كَرِيمَةٍ أَعْتَقْتَ مِنهُمْ وَأُخْرَى قَدْ فَكَكْتَ مِنْ الْوَثَاقِ

---

(١) انظر الشعر وقول ابن هشام في السيرة (٤/ ٩٤-٩٦)، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٤١-٣٤٢).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٩٦).

(٣) انظر: السيرة (٤/ ٩٦-٩٧).

وَرُبَّ مُنَوِّهٍ بِكَ مِنْ سُلَيْمٍ أَجَبْتَ وَقَدْ دَعَاكَ بِلاَ رِمَاقِ
فَكَانَ جَزَاؤُنَا مِنهُمْ عُقُوقًا وَهَمًّا مَاعَ مِنْهُ مُخُّ سَاقِي
عَفَتْ آثَارُ خَيلِكَ بَعْدَ أَيْنٍ بِذِى بَقَرٍ إِلَى فَيْفِ النُّهَاقِ

وقال عباس بن مرداس(١): [من الطويل]

تَقَطَّعَ بَاقِى وَصْلِ أُمِّ مُؤَمَّلٍ بِعَاقِبَةٍ وَاسْتَبْدَلَتْ نِيَّةً خُلْفَا
وَقَدْ حَلَفَتْ بِاللهِ لاَ تَقْطَعُ الْقُوَى فَمَا صَدَقَتْ فِيهِ وَلاَ بَرَّتِ الْحَلْفَا
خُفَافِيَّةٌ بَطْنُ الْعَقِيقِ مَصِيفُهَا وَتَحْتَلُّ فِى الْبَادِينَ وَجْرَةَ فَالْعُرْفَا
فَإِنْ تَتْبَعِ الْكُفَّارَ أُمُّ مُؤَمَّلٍ فَقَدْ زَوَّدَتْ قَلْبِى عَلَى نَأْيِهَا شَغْفَا
وَسَوْفَ يُنَبِّيهَا الْخَبِيرُ بِأَنَّنَا أَبَيْنَا وَلَمْ نَطْلُبْ سِوَى رَبِّنَا حِلْفَا
وَأَنَّا مَعَ الْهَادِى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَفَيْنَا وَلَمْ يَسْتَوْفِهَا مَعْشَرٌ أَلْفَا
بِفِتْيَانِ صِدْقٍ مِنْ سُلَيْمٍ أَعِزَّةٍ أَطَاعُوا فمَا يَعْصُونَ مِنْ أَمْرِهِ حَرْفَا
خُفَافٌ وَذَكْوَانٌ وَعَوْفٌ تَخَالُهُمْ مَصَاعِبَ زَافَتْ فِى طَرُوقَتِهَا كُلْفَا
كَأَنَّ النَّسِيجَ الشُّهْبَ وَالْبِيضَ مُلْبَسٌ أُسُودًا تَلاَقَتْ فِى مَرَاصِدِهَا غُضْفَا
بِنَا عَزَّ دِينُ اللهِ غَيْرَ تَنَحُّلٍ وَزِدْنَا عَلَى الْحَيِّ الَّذِى مَعَهُ ضِعْفَا
بِمَكَّةَ إِذْ جِئْنَا كَأَنَّ لِوَاءَنَا عُقَابٌ أَرَادَتْ بَعْدَ تَحْلِيقِهَا خَطْفَا
عَلَى شُخَّصِ الأَبْصَارِ تَحْسِبُ بَيْنَهَا إِذَا هِىَ جَالَتْ فِى مَرَاوِدِهَا عَزْفَا
غَدَاةَ وَطِئْنَا الْمُشْرِكِينَ وَلَمْ نَجِدْ لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ عَدْلاً وَلاَ صِرْفَا
بِمُعْتَرَكٍ لاَ يَسْمَعُ الْقَوْمُ وَسْطَهُ لَنَا زَجمَةً(٢) إِلاَّ التَّذَامُرَ والنَّقْفَا
بِبِيضٍ نُطِيرُ الْهَامَ عَنْ مُسْتَقَرِّهَا وَنَقْطِفُ أَعْنَاقَ الْكُمَاةِ بِهَا قَطْفَا
وَكَائِنْ تَرَكْنَا مِنْ قَتِيلٍ مُلَحَّبٍ وَأَرْمَلَةٍ تَدْعُو عَلَى بَعْلِهَا: لَهْفَا
رِضَا اللهِ نَنْوِى لاَ رِضَا النَّاسِ نَبْتَغِي وَللهِ مَا يَبْدُو جَمِيعًا وَمَا يَخْفَى

وقال مالك بن عوف يعتذر من فراره يومئذ(٣) [من الكامل]

مَنَعَ الرُّقَادَ فَمَا أُغَمِّضُ سَاعَةً نَعَمٌ بِأَجْزَاعِ الطَّرِيقِ مُخَضْرَمُ

---

(١) انظر شعر العباس هذا في السيرة (٤/١٠٦-١٠٧).
(٢) الزجمة: الصوت.
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٤/١١٣).

سَائِلْ هَوَازِنَ هَلْ أَضُرُّ عَدُوَّهَا ... وَأُعِينُ غَارِمَهَا إذَا ما يَغْرَمُ ؟
وَكَتِيبَةٍ لَبَّسْتُهَا بِكَتِيبَةٍ ... فِئَتَيْنِ مِنْهَا حَاسِرٌ وَمُلأَّمُ
وَمُقَدَّمٍ تَعْيَا النُّفُوسُ لِضِيقِهِ ... قَدَّمْتُهُ وَشُهُودُ قَوْمِى أَعْلَمُ
فَوَرَدْتُهُ وَتَرَكْتُ إِخْوَانًا لَهُ ... يَرِدُونَ غَمْرَتَهُ وغَمْرَتُهُ الدَّمُ
فَإِذَا انْجَلَتْ غَمَرَاتُهُ أَوْرَثْنَنِي ... مَجْدَ الْحَيَاةِ وَمَجْدَ غُنْمٍ يُقْسَمُ
كَلَّفْتُمُونِى ذَنْبَ آلِ مُحَمَّدٍ ... وَالله أَعْلَمُ مَنْ أَعَقُّ وَأَظْلَمُ
وَخَذَلْتُمُونِى إِذْ أُقَاتِلُ وَاحِدًا ... وَخَذَلْتُمُونِى إِذْ تُقَاتِلُ خَثْعَمُ
وَإِذَا بَنَيْتُ الْمَجْدَ يَهْدِمُ بَعْضُكُمْ ... لاَ يَسْتَوِى بَانٍ وَآخَرُ يَهْدِمُ
وَأَقَبَّ مِخْمَاصِ الشِّتَاءِ مُسَارعٍ ... فِى الْمَجْدِ يُنْمَى لِلْعُلاَ مُتَكَرِّمِ
أَكْرَهْتُ فِيهِ أَلَّةً يَزَنِيَّةً ... سَحْمَاءَ يَقْدُمُهَا سِنَانٌ سَلْجَمُ
وَتَرَكْتُ حَنَّتَهُ تَرُدُّ وَلِيَّهُ ... وَتَقُولُ: لَيْسَ عَلَى فُلاَنَهَ مُقْدَمُ
وَنَصَبْتُ نَفْسِى لِلرِّمَاحِ مُدَجَّجًا ... مِثْلَ الدريئَةِ تُسْتَحَلُّ وَتُشْرَمُ

وفيها: (**غزوة الطائف**)[1]، خرج ﷺ فى شوال فحاصرهم ثمانية عشر يومًا أو ثلاثين، بل فى مسلم عن أنس: حاصرهم أربعين ليلة، ونصب عليهم المنجنيق، واستشهد من المسلمين اثنا عشر، وقاتل بنفسه، ولم يؤذن له فى فتحه، فرجع إلى المدينة بعد غيبة شهرين وستة عشر يومًا، فقدم عليه بَعْدُ وفْدُهُمْ، فأسلموا.

ولما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى الطائف حين فرغ من حنين، قال كعب بن مالك: [من الوافر]

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كُلَّ رَيْبٍ ... وَخَيْبَرَ ثُمَّ أَجْمَمْنَا السُّيُوفَا
نُخَبِّرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ ... قَوَاطِعُهُنَّ دَوْسًا أَوْ ثَقِيفَا
فَلَسْتُ لِحَاضِنٍ إِنْ لَم تَرَوْهَا ... بِسَاحَةِ دارِكُمْ مِنَّا أُلوفَا
وَنَنْتَزِعُ الْعُرُوشَ بِبَطْنِ وَجٍّ ... وَتُصْبِحُ دُورُكُمْ مِنْكُمْ خُلُوفَا
وَيَأْتِيكُمْ لَنَا سَرَعَانُ خَيْلٍ ... يُغَادِرُ خَلْفَهُ جَمْعًا كَثِيفَا
إِذَا نَزَلُوا بِسَاحَتِكُمْ سَمِعْتُمْ ... لَهَا مِمَّا أَنَاخَ بِهَا رَجِيفَا

(١) انظر: مغازي الواقدي (٣/ ٩٢٢) وطبقات ابن سعد (٢/ ١٢٠)، وسيرة ابن هشام (٤/ ١١٧)، وتاريخ الطبري (٣/ ٨٢)، وتاريخ الإسلام (٥٩١-مغازي)، والكامل في التاريخ (٢/ ٢٦٦) وعيون التواريخ (١/ ٣٣٣).

بِأَيْدِيهِمْ قَوَاضِبُ مُرْهَفَاتٌ ... يُزِرْنَ الْمُسْطَلِينَ بِهَا الْحُتُوفَا
كَأَمْثَالِ الْعَقَائِقِ أَخْلَصَتْهَا ... قُيُونُ الْهِنْدِ لَمْ تُضْرَبْ كَتِيفَا
تَخَالُ جَدِيَّةَ الأَبْطَالِ فِيهَا[1] ... غَدَاةَ الزَّحْفِ جَادِيًّا مَدُوفَا
أَجَدَّهُمُ أَلَيْسَ لَهُمْ نَصِيحٌ ... مِنَ الأَقْوَامِ كَانَ بِنَا عَرِيفَا
يُخَبِّرُهُمْ بِأَنَّا قَدْ جَمَعْنَا ... عِتَاقَ الْخَيْلِ وَالنُّجُبَ الطُّرُوفَا
وَأَنَّا قَدْ أَتَيْنَاهُمْ بِزَحْفٍ ... يُحِيطُ بِسُورِ حِصْنِهِمُ صُفُوفَا
رَئِيسُهُمُ النَّبِيُّ وَكَانَ صُلْبًا ... نَقِيَّ الْقَلْبِ مُصْطَبِرًا عَزُوفَا
رَشِيدَ الأَمْرِ ذَا حُكْمٍ وَعِلْمٍ ... وَحِلْمٍ لَمْ يَكُنْ نَزِقًا خَفِيفَا
نُطِيعُ نَبِيَّنَا وَنُطِيعُ رَبًّا ... هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بِنَا رَءُوفَا
فَإِنْ تُلْقُوا إِلَيْنَا السِّلْمَ نَقْبَلْ ... وَنَجْعَلْكُمْ لَنَا عَضُدًا وَرِيفَا
وَإِنْ تَأْبَوْا نُجَاهِدْكُمْ وَنَصْبِرْ ... وَلاَ يَكُ أَمْرُنَا رَعِشًا ضَعِيفَا
نُجَالِدُ مَا بَقِينَا أَوْ تُنِيبُوا ... إِلَى الإِسْلاَمِ إِذْعَانًا مُضِيفَا
نُجَاهِدُ ما نُبَالِى مَنْ لَقِينَا ... أَأَهْلَكْنَا التِّلاَدَ أَمِ الطَّرِيفَا
وَكَمْ مِنْ مَعْشَرٍ أَلَبُوا عَلَيْنَا ... صَمِيمَ الْجِذْمِ مِنْهُمْ وَالْحَلِيفَا
أَتَوْنَا لاَ يَرَوْنَ لَهُمْ كِفَاءً ... فَجَدَّعْنَا الْمَسَامِعَ وَالأُنُوفَا
بِكُلِّ مُهَنَّدٍ لَيْنٍ صَقِيلٍ ... نَسُوقُهُمُ بِهَا سَوْقًا عَنِيفَا
لِأَمْرِ اللهِ وَالإِسْلاَمِ حَتَّى ... يَقُومَ الدِّينُ مُعْتَدِلاً حَنِيفَا
وَتُنْسَى[2] اللاتُ وَالْعُزَّى وَوَدٌّ ... وَنَسْلُبُهَا الْقَلاَئِدَ وَالشُّنُوفَا
فَأَمْسَوْا قَدْ أَقَرُّوا وَاطْمَأَنُّوا ... وَمَنْ لاَ يَمْتَنِعْ يَقْبَلْ خُسُوفَا[3]

قال فى «المواهب» بعد ذكر أن الطائف على ثلاث مراحل أو اثنتين من مكة من جهة المشرق كثير الأعناب والفواكه، قيل: إن أصلها أن جبريل اقتلع الجنة التى كانت لأصحاب الصريم، فسار بها إلى مكة، فطاف بها حول البيت، ثم أنزلها هناك فسمى الموضع بها، وكانت أولاً بنواحى صنعاء. واسم الأرض «وجٌّ» بتشديد الجيم.

---

(١) في السيرة: فيهم.
(٢) في السبل: ونفنى.
(٣) انظر سيرة ابن هشام (٤/١١٨-١١٩)، وسبل الهدى والرشاد (٥/٤٠٧-٤٠٨).

وسار إليها النبى ﷺ فى شوال سنة ثمان، حين خرج من حنين، وحبس الغنائم بالجعرَّانة، وقدَّم خالد بن الوليد على مقدمته، وكانت ثقيف لما انهزموا من أوطاس؛ دخلوا حصنهم بالطائف، وأغلقوه عليهم؛ بعد أن أدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة وتهيئوا للقتال.

ولما سار ﷺ مرَّ فى طريقه بقبر أبى رغال، وهو أبو ثقيف فيما يقال، فاستخرج منه غصنا من ذهب، ونزل قريبا من الحصن وعسْكَرَ هناك، فرموا المسلمين بالنبل رميًا شديدًا كأنه رَجل جراد؛ حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقتل منهم اثنا عشر رجلا، فيهم عبد الله بن أبى أمية، ورمى عبد الله بن أبى بكر الصديق يومئذ بجرح، فاندمل، ثم نقض عليه بعد ذلك؛ فمات منه فى خلافة أبيه.

وارتفع ﷺ إلى موضع مسجد الطائف اليوم، وكان معه من نسائه أم سلمة، وزينب، فضرب لهما قبتين، وكان يصلى بين القبتين حصار الطائف كله، فحاصرهم ثمانية عشر يوما، ويقال خمسة عشر يومًا، ونصب عليهم المنجنيق، وهو أول منجنيق رمى به فى الإسلام، وكان قدم به الطفيل الدوسى معه لما رجع من سرية ذى الكفين، ووضع المسلمون الرايات بأصل الحصن، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد المحماة وهى أخشاب متسعة الأجواف، تدفع فى جدار الحصون، فيدخلها الرجال؛ لنقب جدارها - فرمتهم ثقيف بالنبل؛ فقتل منهم رجال، فأمر ﷺ بقطع أعناقهم وتحريقها، فقطعها المسلمون قطعًا ذريعًا، ثم سألوه أن يدعها لله وللرَّحم، فقال - عليه الصلاة والسلام -: إنى أدعها؛ لله وللرحم، ثم نادى مناديه - عليه الصلاة والسلام -: أيُّما عبد نزل من الحصن، وخرج إلينا، فهو حر، قال الدمياطى: فخرج منهم بضعة عشر رجلًا، منهم أبو بكرة، وعند مغلطاى: ثلاثة وعشرون عبدًا.

وفى «البخارى» عن عثمان النهدى قال: سمعت سعدًا، وأبا بكرة، عن النبى ﷺ. قال عاصم: «لقد شهد عندى رجلان: أما أحدهما: فأول من رمى بسهم فى سبيل الله، وأما الآخر: فنزل إلى النبى ﷺ ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف...» الحديث[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٣٢٦، ٤٣٢٧).

وأعتق ﷺ من نزل منهم، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه؛ فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة ولم يؤذن له ﷺ فى فتح الطائف، وأمر عمر بن الخطاب؛ فأذَّن فى الناس بالرحيل؛ فضج الناس من ذلك وقالوا: نرحل ولم تفتح علينا الطائف ؟! فقال ﷺ: فاغدوا على القتال؛ فغدوا فأصاب المسلمين جراحات، فقال ﷺ: إنا قافلون غدا - إن شاء الله - فسروا بذلك، وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك(١).

قال النووى: قصد ﷺ الشفقة عليهم، والرفق بالرحيل عن الطائف؛ لصعوبة أمره، وشدة الكفار الذين فيه، وتقويهم بحصنهم، مع أنه ﷺ علم أو رجا أنه سيفتحه بعد هذا بلا مشقة، فلما حرص الصحابة على المقام، والجهاد أقام وجدّ فى القتال، فلما أصابتهم الجراح رجع إلى ما كان قصده أولا من الرفق، وفرحوا بذلك لما رأوا من المشقة الظاهرة، ووافقوا على الرحيل، فضحك ﷺ؛ تعجبا من تغير رأيهم(٢)، وفقئت عين أبى سفيان صخر بن حرب يومئذ، فذكر ابن سعد: أن النبى ﷺ قال له - وهى فى يده -:

أيهما أحب إليك: عين فى الجنة، أو أدعو الله أن يردها عليك ؟ فقال: بل عين فى الجنة، فرمى بها، وشهد اليرموك فقاتل، وفقئت عينه الأخرى يومئذ. ذكره الحافظ زين الدين العراقى فى «شرح التقريب».

وقال ﷺ للصحابة: قولوا لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فلما ارتحلوا قال: قولوا آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده(٣).

فانظر كيف كان ﷺ إذا خرج للجهاد يعتد لذلك بجمع الصحابة، واتخاذ الخيل، والسلاح، وما يحتاج إليه من آلات الجهاد، والسفر، ثم إذا رجع - عليه الصلاة والسلام - يتعرى من ذلك، ويرد الأمر كله لمولاه - عز وجل - لا لغيره؛ لقوله: آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٨).
(٢) هنا انتهى كلام النووي انظر شرح مسلم له (٦/ ٣٦٥).
(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٢١) بهذا اللفظ.

وانظر إلى قوله - عليه الصلاة والسلام -: «وهزم الأحزاب وحده» فنفى ﷺ ما تقدم ذكره، وهذا هو معنى الحقيقة؛ لأن الإنسان وفعله خلق لربه - عز وجل - فهو لله - سبحانه وتعالى - الذى خلق، ودبر، وأعان، وأجرى الأمور على يد من شاء، ومن اختار من خلقه، فكل منه وإليه، ولو شاء الله أن يبيد أهل الكفر من غير قتال - لفعل، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد: ٤] ليثبت الصابرين ويجزى الثواب للشاكرين، قال - تعالى -: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] فعلى المكلف الامتثال فى الحالتين، أى امتثال تعاطى الأسباب؛ تأدبا مع الربوبية، كما فعل ذلك ﷺ أولاً؛ تأدبا مع الربوبية، وتشريعا لأمته، ثم يظهر الله ما يشاء من قدرته الغامضة التى ادخرها له - عليه الصلاة والسلام - قاله ابن الحاج فى «المدخل».

ولما قيل له: يا رسول الله، ادع على ثقيف، قال: «اللهم اهد ثقيفا وائت بهم»[(١)].

وكان - عليه الصلاة والسلام - قد أمر أن يجمع السبى، والغنائم مما أفاء الله على رسوله يوم حنين، فجمع ذلك كله إلى الجعرَّانة، فكان بها إلى أن انصرف - عليه الصلاة والسلام - من الطائف، وكان السبى ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، واستأنى ﷺ بـ«هوازن» أى انتظر - وتربص أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة، ثم بدأ يقسم الأموال.

وفى البخارى: وطفق ﷺ يعطى رجالاً المائة من الإبل، منهم: أبو سفيان، وعيينة بن حصن الفزارى، والأقرع بن حابس التميمى، وأعطى العباس بن مرداس السلمى ستين، فسخطها، ثم أتى إليه - عليه الصلاة والسلام - فأنشد: [من المتقارب]

أَتجْعَلُ نَهْبِى ونَهْبَ العَبِيـ ـدِ بيـن عُـيَـيْـنَـةَ والأَقْـرَعِ
فَمَا كَانَ حِصْنٌ ولاَ حَابِسٌ يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِى مَجْمَعِ[(٢)]

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٤٢)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٤٣) من حديث عبد الرحمن بن سابط وأبي الزبير عن جابر به.

(٢) في صحيح مسلم: المجمع.

وَمَا كُنْتُ دُون امرِئٍ مِنهُمَا   وَمَنْ تَضَعِ[١] اليَوْمَ لاَ يُرْفَعِ

فقال - عليه الصلاة والسلام -: لعلى «اقطع لسانه عنى»؛ فأكمل له مائة؛ فقال ناس من الأنصار: يغفر الله لرسول الله، يعطى قريشًا، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، قال أنس: فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أدم، ثم قال لهم: أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، والشاء، والبعير، وتذهبون بالنبى إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، قالوا: يا رسول الله قد رضينا[٢].

وعن جبير بن مطعم قال: بينما أنا مع النبى ﷺ ومعه الناس مقفلون من حنين، علقت برسول الله ﷺ الأعراب حتى اضطرته إلى سمرة، فخطفت رداءه، فوقف ﷺ فقال: أعطونى ردائى، فلو كان لى عدد العضاه نعمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدونى: بخيلاً، ولا كذوبًا، ولا جبانًا. رواه ابن جرير فى تهذيبه.

وذكر محمد بن سعد - كاتب الواقدى - عن ابن عباس أنه لما قدم رسول الله ﷺ من الطائف نزل الجعرانة، فقسم الغنائم، ثم اعتمر منها وذلك لليلتين بقيتا من شوال[٣]، قال ابن سيد الناس: وهذا ضعيف.

والمعروف عند أهل السير أن النبى ﷺ انتهى إلى الجعرانة ليلة الخميس لخمس ليال خلون من ذى القعدة، فأقام بها ثلاث عشرة ليلة، فلما أراد الانصراف إلى المدينة خرج ليلة الأربعاء، لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة ليلاً، فأحرم بعمرة، ودخل مكة. وفى «تاريخ الأزرقى» عن مجاهد أنه - عليه الصلاة والسلام - أحرم من وراء الوادى حيث الحجارة المنصوبة. وعند «الواقدى» من المسجد الأقصى، الذى تحت الوادى بالعدوة القصوى من الجعرانة، فكانت صلاته - عليه الصلاة والسلام - إذا كان بالجعرانة به، والجعرَّانةُ موضعٌ بينه وبين مكة بريد - يعنى اثنى عشر ميلاً - كما قاله الفاكهى، وقال الباجى: ثمانية عشر ميلاً، وسمى بامرأة تلقب بالجعرانة، كما ذكره السهيلى، أخذها السيل، فوصل بها

---

(١) في صحيح مسلم: تخفض.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٤٣٣١) من حديث أنس بن مالك ولم يذكر الشعر لكن روى مسلم (١٠٦٠) نحوه من حديث رافع بن خديج وذكر فيه الشعر.

(٣) انظر سبل الهدى والرشاد (٥/٤٠٦-٤٠٧).

إلى هذا المحل، فوجدت ثمة، فسمى المحل بها.

قالوا: وقدم ﷺ المدينة، وقد غاب عنها شهرين وستة عشر يومًا.

قال ابن هشام[(١)]: ولما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى فى قريش، وقبائل العرب، ولم يعط الأنصار شيئًا، قال حسان بن ثابت، يعاتبه فى ذلك: [من البسيط]

زار الهُمُومُ[(٢)] فماءُ العَيْن مُنْحَدِرُ ... سَحًا إذا حَفَلَتْهُ عَبْرةٌ دررُ
وجدًا بِشَيماءَ إذْ شَيماءُ بَهْكَنَةٌ ... هَيْفَاءُ لاَ دَنَسٌ فِيهَا ولا خَوَرُ
دَعْ عَنْكَ شيماء إذْ كَانَتْ مَوَدَّتُهَا ... نَزْرًا وَشَرُّ وِصَالِ الوَاصِلِ النَّزرُ
وائتِ الرَّسُولَ فَقُلْ يَا خَيْرَ مُؤْتَمن ... للمُؤْمنينَ إذَا مَا عُدِّدَ البَشَرُ
عَلامَ تُدْعَىٰ سُلَيْمٌ وَهْىَ نَازِحَةٌ ... قُدَّامَ قَوْمٍ هَمُ آووا وَهُم نَصَرُوا ؟!
سمَّاهُمُ اللَّهُ أَنْصَارًا بِنَصْرِهِمُ ... دِينَ الهُدَىٰ وعَوَانُ الحَرْبِ تَسْتَعِرُ
وَسَارَعُوا فى سَبيلِ اللَّه واعْتَرفُوا ... للنَّائباتِ ومَا خَامُوا ومَا ضَجرُوا
والناسُ إلْبٌ علينَا فيكَ لَيْسَ لَنَا ... إلاَّ السيُوف وأطْرَافُ القَنَا وزرُ
نجالد النَّاسَ لا نُبقِي عَلَىٰ أَحَدِ ... وَلا نُضَيِّعُ مَا تُوحِي بِهِ السُّوَرُ
وَلا تهرُّ جُنَاةُ الحرْبِ نادينَا ... ونحْنُ حينَ تلظَّىٰ نَارُهَا سعر
كَمَا رَدَدْنَا ببدرٍ دَونَ مَا طَلَبُوا ... أَهْلَ النِّفَاقِ وَفينَا يَنْزِلُ الظَّفَرُ
ونَحنُ جُنْدُكَ يوم النَّعْفِ من أُحُدٍ ... إذ حَزَّبَتْ بَطَرًا أَحْزَابَهَا مُضَرُ
فَمَا وَنَيْنَا ومَا خمْنَا وما خبرُوا ... منَّا عثَارًا وكل النَّاسِ قَدْ عَثَرُوا[(٣)]

* * *

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٤/ ١٣٧).

(٢) في السيرة: زادت هموم - وفي البداية والنهاية: ذر.

(٣) ينظر: الشعر في السيرة النبوية (٤/ ١٣٧)، والبداية والنهاية (٤/ ٤١٥).

حوادث السنة التاسعة

فيها (**غزوة تبوك**)[١]- وهى العسرة والفاضحة - فى رجب، لما بلغه أن الروم تجمعت فى الشام مع هرقل، وقد اشتملت على أمور للمنافقين فضحوا بها؛ وفيها تاب الله على الثلاثة الذين خُلفوا: كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وأقام ﷺ بضع عشرة ليلة وانصرف ولم يلق كيدا.

قال فى «المواهب»: وكانت يوم الخميس، فى رجب، سنة تسع من الهجرة بلا خلاف، وذكرُ البخارى لها بعد حجة الوداع[٢] لعله خطأ من النساخ. وكان يومئذ حر شديد وجدب؛ فلذلك لم يُوَرِّ عنها كعادته فى سائر الغزوات. وفى تفسير عبد الرزاق عن معمر قال: خرجوا فى قلة من الظهر، وفى حر شديد حتى كانوا ينحرون البعير، فيشربون ما فى كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة فى الماء، وفى الظهر، والنفقة[٣]، فسميت (غزوة العسرة).

وسببها أنه بلغه ﷺ من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة - أن الروم تجمعت بالشام مع هرقل، فندب ﷺ الناس إلى الخروج، وأعلمهم بالمكان الذى يريد ليتأهبوا لذلك[٤]، وروى الطبرانى من حديث عمران بن الحصين قال: كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذى خرج يدعى النبوة قد أصابتهم سنون، فهلكت أموالهم. فبعث رجلاً من عظمائهم، وجهز معه أربعين ألفًا، فبلغ ذلك النبى ﷺ، ولم يكن للناس قوة، وكان عثمان قد عير إلى الشام فقال: يا رسول الله، هذه مائتا بعير بأقتابها، وأحلاسها، ومائتا أوقية، قال فسمعته يقول: لا يضر عثمان ما عمل بعدها[٥]. وروى عن قتادة أنه قال: حمل عثمان فى

(١) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ١٦٩)، والمغازي للواقدي (٣/ ٩٨٩)، تاريخ خليفة (٩٢)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٢٥)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٠٠)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٦٢٧-المغازي).

(٢) الحديث (٤٤١٥) وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٤٤٩) وهو خطأ، وما أظن ذلك إلا من النساخ، فإن غزوة تبوك كانت في شهر رجب من سنة تسع قبل حجة الوداع بلا خلاف.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٩٠)، وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٢٦) من طريق معمر.

(٤) ينظر: مغازي الواقدي (٣/ ٩٩١)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٢٥).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (١٨/ ٢٣١-٢٣٢) رقم (٥٧٧). قال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٩٤): فيه الفضل بن العباس الأنصاري، وهو ضعيف.

جيش العسرة على ألف بعير، وسبعين فرسًا[١]. وعن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان بن عفان بألف دينار فى كمه حين جهز جيش العسرة فنثرها فى حجره ﷺ، فرأيته ﷺ يقلبها فى حجره، ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم. أخرجه الترمذى[٢] وقال: حسن غريب. وعند الفضائلى، والملا فى سيرته كما ذكره الطبرى فى الرياض النضرة من حديث حذيفة: بعث عثمان - يعنى فى جيش العسرة - بعشرة آلاف دينار إلى رسول الله ﷺ [فكان ﷺ] يقول بيده ويقلبها ظهرا ببطن ويقول: غفر الله لك يا عثمان، ما أسررت، وما أعلنت، وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالى ما عمل بعدها[٣].

ولما تأهب ﷺ للخروج، قال قوم من المنافقين: لا تنفروا فى الحرِّ، فنزل قوله - تعالى - ﴿ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١] وأرسل - عليه الصلاة والسلام - إلى مكة، وقبائل العرب، يستنفرهم، وجاء البكاءون يستحملونه، فقال - عليه الصلاة والسلام -: لا أجد ما أحملكم عليه، وهم: سالم بن عمير، وعلبة بن زيد، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب المازنى، والعرباض بن سارية، وهرم بن عبد الله، وعمرو بن عتمة، وعبد الله ابن مغفل، وعبد الله بن عمرو المزنى، وعمرو بن الحمام، ومغفل المزنى، وحضرمى بن مازن، والنعمان، وسويد، ومعقل وعقيل، وسنان، وعبد الرحمن، وهند، بنو مقرن، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢] قاله مغلطاى[٤].

وفى البخارى عن أبى موسى قال: «أرسلنى أصحابى إلى رسول الله ﷺ أسأله الحملان لهم، فقلت: يا نبى الله إن أصحابى أرسلونى إليك؛ لتحملهم، فقال: والله لا أحملكم على شيء، فرجعت حزينا من منع النبى ﷺ ومن مخافة أن يكون النبى

---

(١) ذكر الطبري في تاريخه (٣/ ١٠٢) أن عثمان بن عفان أنفق في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد أعظم من نفقته.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٠١)، والحاكم (٣/ ١٠٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢١٥).
(٣) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٦١٨٩) وعزاه لابن عدي والدارقطني وأبي نعيم في فضائل الصحابة، وابن عساكر، وانظر الرياض النضرة للطبري (٣/ ١٧).
(٤) أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٢١٨) من طريق ابن إسحاق.

ﷺ وجد فى نفسه على، فرجعت إلى أصحابى فأخبرتهم الذى قال النبى ﷺ، فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادى: أين عبد الله بن قيس؟ فأجبته، فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك، فلما أتيته قال: خذ هاتين القرينتين ، وهاتين القرينتين - لستة أبعرة ابتاعها حينئذ من سعد - فانطلق بهما إلى أصحابك، فقل: إن الله وإن رسول الله يحملكم على هؤلاء فاركبوهن. . .» الحديث[١]. وقام علبة بن زيد، فصلى من الليل، وبكى وقال: اللهم إنك أمرت بالجهاد، ورغَّبْتَ فيه، ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به مع رسولك، ولم تجعل فى يد رسولك ﷺ ما يحملنى عليه، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فى مال أو جسد أو عرض، ثم أصبح مع الناس، فقال النبى ﷺ: أين المتصدق فليقم، فأقوم إليه فأخبره، فقال ﷺ: أبشر، فوالذى نفس محمد بيده لقد كتبت فى الزكاة المتقبلة. رواه يونس كما ذكره السهيلى فى الروض والبيهقى فى الدلائل[٢].

وجاء المعذرون من الأعراب، ليؤذن لهم فى التخلف، فأذن لهم، وهم اثنان وثمانون رجلاً، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة[٣]. قال الدمياطى: وهو عندنا أثبت ممن قال غيره انتهى.

وقال الحافظ زين الدين العراقى - فى ترجمة على بن أبى طالب من شرح التقريب -: لم يتخلف عن المشاهد إلا فى تبوك، فإن النبى ﷺ خلَّفه على المدينة، وعلى عياله، وقال له يومئذ: أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى[٤]، وهو فى الصحيحين من حديث سعد بن أبى وقاص[٥]، ورجَّحه ابن عبد البر، وقيل: استخلف سباع بن عرفطة[٦].

وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب، منهم كعب بن مالك، ومرارة ابن الربيع، وهلال بن أمية، وفيهم نزل ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ [التوبة: ١١٨]

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٥)، ومسلم (٨-١٦٤٩) مع اختلاف في اللفظ.
(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٢١٨-٢١٩) من طريق ابن إسحاق. وينظر ترجمة علبة بن زيد في الإصابة (٤/ ٤٤٩-٤٥١).
(٣) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ١٥٩).
(٤) شرح التقريب (١/ ٨٥-٨٦).
(٥) أخرجه البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٣٠، ٣١، ٣٢-٢٤٠٤).
(٦) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ١٥٩)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٠٣).

وأبو ذر، وأبو خيثمة، ثم لحقاه بعد ذلك. ولما رأى - عليه الصلاة والسلام - أبا ذر الغفارى وكان - عليه الصلاة والسلام - نزل فى بعض الطريق، قال: يمشى وحده، ويعيش وحده، ويموت وحده، فكان كذلك[١]، وأمر ﷺ لكل بطن من الأنصار والقبائل من العرب أن يتخذوا لواء وراية، وكان معه - عليه الصلاة والسلام - ثلاثون ألفًا، وعند أبى زرعة سبعون ألفا، وفى رواية عنه - أيضًا - أربعون ألفا، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس.

ولما مر - عليه الصلاة والسلام - بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - بديار ثمود قال: لا تشربوا من مائها شيئًا، ولا يخرجن أحد منكم إلا ومعه صاحب له، ففعل الناس، إلا أن رجلين من بنى ساعدة خرج أحدهما لحاجة، وخرج الآخر لطلب بعيره، فأما الذى خرج لحاجته، فخنق على مذهبه، وأما الذى خرج لطلب بعيره، فاحتملته الريح حتى طرحته بجبل «طيئ»، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقال: ألم أنهكم ؟! ثم دعا للذى خنق على مذهبه، فشفى، وأما الآخر فأهدته «طيئ» لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة[٢].

وفى صحيح مسلم من حديث أبى حميد: انطلقت حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ: تهبُّ الليلة عليكم ريح شديدة، فلا يقم أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد رحله، فهبت ريح شديدة، فقام رجل، فحملته الريح حتى ألقته بجبل «طيئ»[٣].

وروى الزهرى: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر سَجَّى ثوبه على وجهه، واستحثَّ راحلته، ثم قال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون، خوفًا أن يصيبكم ما أصابهم. رواه الشيخان[٤].

ولما كان ﷺ ببعض الطريق ضلت ناقته، فقال زيد بن لصيب[٥]، وكان منافقًا: أليس محمد يزعم أنه نبى، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدرى أين ناقته؟! فقال رسول الله ﷺ: إن رجلاً يقول مقالة، وإنى والله لا أعلم إلا ما علمنى الله،

(١) أخرج قصة أبي ذر الحاكم (٣/ ٥٠-٥١)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٢١-٢٢٢).
(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٢٤٠).
(٣) أخرجه مسلم (١١-١٣٩٢).
(٤) أخرجه البخاري (٢٩٨٠)، ومسلم (٣٩/ ٢٩٨٠). من حديث ابن عمر.
(٥) في السيرة النبوية : زيد بن اللُّصَيْت. قال ابن هشام: ويقال: ابن لُصَيْب بالباء.

وقد دلنى الله عليها وهى فى هذا الوادى فى شعب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتونى بها، فانطلقوا فجاءوا بها. رواه البيهقى وأبو نعيم[(١)].

وفى صحيح مسلم من حديث معاذ بن جبل «أنهم وردوا عين تبوك، وهى تبض بشيء من ماء، وأنهم غرفوا منها قليلاً قليلاً حتى اجتمع فى شيء، ثم غسل ﷺ وجهه، ويديه، ثم أعاده فيها، فجرت بماء كثير فاستقى الناس...» الحديث[(٢)].

ولما انتهى ﷺ إلى تبوك أتاه صاحب «أيلة» فصالحه، وأعطاه الجزية، وأتاه أهل «جربا» بالجيم «وأذرح» بالذال المعجمة، والراء والحاء المهملة - بلدين بالشام بينهما ثلاثة أيام - فأعطوه الجزية وكتب لهم ﷺ كتابًا، ووجد هرقل بحمص فأرسل خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك النصرانى وكان ملكًا عظيمًا بـ «دومة الجندل» فى أربعمائة وعشرين فارسًا فى رجب سرية، وقال له - عليه الصلاة والسلام -: إنك ستجده ليلا يصيد البقر، فانتهى إليه خالد، وقد خرج من حصنه فى ليلة مقمرة إلى بقر يطاردها هو وأخوه حسان، فشدت عليه خيل خالد فاستأسر أكيدر، وقتل أخوه حسان، وهرب من كان معهما فدخل الحصن، ثم أجار خالد أكيدر من القتل؛ حتى يأتى به رسول الله ﷺ على أن يفتح له «دومة الجندل»، ففعل، وصالحه على ألفى بعير، وثمانمائة فرس، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح[(٣)].

وفى هذه كتب ﷺ كتابًا فى تبوك إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، فقارب الإجابة ولم يجب، رواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أنس[(٤)]. وفى مسند أحمد: أن هرقل كتب من تبوك إلى النبى ﷺ [إني مسلم][(٥)]، فقال النبى ﷺ: كذب، هو على نصرانيته[(٦)]. وفى كتاب الأموال لأبى عبيدة بسند صحيح من مرسل بكر بن

(١) ذكره ابن إسحاق (٤/ ١٦٣) ومن طريقه البيهقي في الدلائل (٥/ ٢٣٢). وينظر تاريخ الطبري (٣/ ١٠٦)، ومغازي الواقدي (٣/ ١٠١٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٠-٧٠٦) كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ.

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٢٥٠)، وفي السنن (٩/ ١٨٧) من حديث يزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر وانظر السيرة النبوية (٤/ ١٦٥-١٦٧)، والبداية والنهاية (٥/ ٢١).

(٤) هو حديث متفق عليه أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (٧٤-١٧٧٣) وهو عند ابن حبان (٦٥٥٥).

(٥) زيادة من الفتح (١/ ٥٥).

(٦) ينظر: الفتح (١/ ٥٥).

عبد الله نحوه ولفظه: فقال كذب عدو الله، ليس بمسلم[١].

ثم انصرف ﷺ من تبوك بعد أن أقام بضع عشرة ليلة، وقال الدمياطى - ومن قبله ابن سعد[٢]- عشرين ليلة، يصلى بها ركعتين، ولم يلق بها كيدا، وبنى فى طريقه مساجد. وأقبل - عليه الصلاة والسلام - حتى إذا نزل بـ «ذى أوان» بفتح الهمزة بلفظ الأوان للحين، وبينها وبين المدينة ساعة جاءه خبر مسجد الضرار من السماء، فدعا مالك بن الدخشم، ومعن بن عدى العجلانى، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه، وحرقاه، فخرجا فحرقاه وهدماه، وذلك بعد أن أنزل الله فيه ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ﴾ [التوبة: ١٠٧] الآية[٣].

قال الواحدى قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وعامة أهل التفسير: إن الذين اتخذوا مسجد الضرار قالوا: نقيل فيه فلا نحضر خلف محمد، قال المفسرون: ولما بنوا ذلك؛ لأغراضهم الفاسدة عند ذهاب رسول الله ﷺ إلى تبوك: قالوا: يا رسول الله بنينا مسجدًا، لذى العلة، والليلة المطيرة، ونحن نحب أن تصلى فيه، وتدعو لنا بالبركة فقال - عليه الصلاة والسلام - إنى على جناح سفر، وإذا قدمنا إن شاء الله - تعالى - صلينا فيه - فلما قفل من غزوة تبوك، سألوه إتيان المسجد فنزلت هذه الآية[٤].

ولما دنا ﷺ خرج الناس لتلقيه، وخرج النساء، والصبيان، والولائد يقلن: [من مجزوء الرمل]

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاع
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا ... مَا دَعَا لِلَّهِ دَاع[٥]

وقد وهم بعض الرواة - كما قدمته - إذ قال: إنما كان هذا عند مقدمه المدينة، وهو وهم ظاهر؛ لأن ثنيات الوداع إنما هى من ناحية الشام، لا يراها القادم من مكة

---

(١) أخرجه أبو عبيد في كتاب الأموال الحديث (٦٢٨).
(٢) الطبقات (٢/ ١٢٧).
(٣) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ١٧١)، ودلائل النبوة (٥/ ٢٥٩).
(٤) ينظر أسباب النزول للواحدي (٢٦٥) والدر المنثور (٣/ ٤٩٤-٤٩٥).
(٥) ينظر: الدلائل (٥/ ٢٦٦)، والبداية والنهاية (٥/ ٢٨-٢٩) وسبل الهدى والرشاد، (٥/ ٤٦٩).

إلى المدينة ولا يراها إلا إذا توجه إلى الشام.

وفى «البخارى» لما رجع ﷺ من غزوة تبوك، فدنا من المدينة قال: إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم، حبسهم العذر[(١)]، وهو يؤيد معنى ما روى «نية المرء خير من عمله»[(٢)] فإن نية هؤلاء أبلغ من عملهم، فإنها بلغت بهم مبلغ أولئك العاملين بأبدانهم، وهم على فرشهم فى بيوتهم، والمسابقة إلى الله - تعالى - إلى الدرجات العلا بالنيات، والهمم، لا بمجرد الأعمال.

ولما أشرف ﷺ على المدينة، قال: هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا، ونحبه[(٣)].

ولما دخل قال العباس: يا رسول الله، ائذن لى أمتدحك، قال: «قل لا يفضض الله فاك»[(٤)]. وقد تقدم ذكرها، وتبيين غريب ألفاظها، ومعانيها.

وجاءه ﷺ من كان تخلف عنه، فعذرهم، واستغفر لهم، وأرجأ أمر كعب، وصاحبيه حتى نزلت توبتهم فى قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ إلى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨] والثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن ربيعة[(٥)].

وعند البيهقى فى الدلائل من مرسل سعيد بن المسيب، «أن أبا لبابة لما أشار لبنى قريظة بيده إلى حلقه، أنه الذبح فأخبر عنه رسول الله ﷺ بذلك، فقال له ﷺ: أحسبت أن الله غفل عن يدك حيث تشير إليهم بها إلى حلقك. فلبث حينا، ورسول الله عاتب عليه، ثم غزا تبوكا، فتخلف عنه أبو لبابة فيمن تخلف، فلما قفل رسول الله ﷺ منها جاء أبو لبابة يسلم عليه، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ففزع أبو لبابة فارتبط

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٣٩) من حديث أنس.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦٨٥٩) عن أنس وقال: هذا إسناد ضعيف. وقد تقدم تخريجه في الجزء الأول وأخرجه الطبراني في الكبير (٥٩٤٢) ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٥٥) وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٢٣٧) من طريق آخر من حديث سهل بن سعد.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٢٢) من حديث أبي حميد الساعدي، ومسلم في الحج (٥٠٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٦٦)، وفي السنن (٦/ ٣٧٢)، وانظر السبل (٥/ ٤٦٩).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٦٤)، والحاكم (٣/ ٣٢٦-٣٢٧)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٦٧) من حديث خريم بن أوس بن حارثة بن لام. وانظر سبل الهدى والرشاد (٥/ ٤٦٩).

(٥) أخرجه مطولاً البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٥٣-٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك.

بسارية التوبة سبعًا، وقال: لا يزال هذا مكانى حتى أفارق الدنيا، أو يتوب الله على...» الحديث[١]. وعنده - أيضًا - من حديث ابن عباس من قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ [التوبة: ١٠٢] قال: «كانوا عشرة تخلفوا عن النبى ﷺ فى غزوة تبوك، فلما رجع ﷺ، أوثق سبعةٌ منهم أنفسهم بسوارى المسجد، وكان ممر النبى ﷺ إذا رجع فى المسجد عليهم، فقال: من هؤلاء؟ قالوا أبو لبابة، وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله حتى تطلقهم، وتعذرهم، قال: أقسم بالله لا أطلقهم، ولا أعذرهم حتى يكون الله الذى يطلقهم، رغبوا عنى، وتخلفوا عن الغزو، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٢] فلما نزلت أرسل إليهم النبى ﷺ فأطلقوا، وعذروا...» الحديث[٢].

قالوا: ولما قدم عليه الصلاة والسلام من تبوك وجد عويمر العجلانى امرأته حبلى؛ فلاعن عليه الصلاة والسلام بينهما[٣].

وكانت تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ. وقال حسان بن ثابت، يعدد أيام الأنصار مع رسول الله ﷺ، ويذكر مواطنهم معه فى أيام غزوه: [من البسيط]

أَلَسْتَ خَيْرَ مَعَدٍّ كلِّهَا نفرًا ... ومَعْشَرًا إنْ هُم عُمُّوا وإنْ حُصِلُوا
قَومٌ هُمُ شَهِدُوا بَدْرًا بأَجْمَعِهِمْ ... مَعَ الرَّسُولِ فَمَا أَلَوْا وَمَا خَذَلُوا
وَبَايَعُوهُ فَلَمْ يَنْكُثْ بِهِ أَحَدٌ ... منهُمْ وَلَمْ يَكُ فِى إِيمَانِهِمْ دَخَلُ
ويومَ صَبَّحَهُمْ فِى الشِّعْبِ مِنْ أُحُدٍ ... ضَرْبٌ رَصِينٌ كَحَرِّ النَّارِ مُشْتَعِلُ
ويوم ذِى قَرَدٍ يومَ استَثَارَ بهِمْ ... عَلَى الجِيادِ فَمَا خَامُوا وما نَكَلُوا
وذَا العُشَيرةِ جاسُوها بخَيْلِهِمُ ... مَعَ الرسولِ عليهَا البيضُ والأَسَلُ
ويومَ ودَّانَ أَجْلَوا أهلَهُ رَقَصًا ... بالخَيْلِ حتَّى نَهَانا الحزنُ والجبلُ
وليلَةً طلَبُوا فيها عدُوَّهُمُ ... للَّه واللهُ يجْزِيهِمْ بِمَا عَمِلُوا
وغزوةً يَومَ نَجْدٍ ثم كانَ لَهُمْ ... مَعَ الرَّسُولِ بهَا الأَسْلابُ والنَّفَلُ

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٢٧٠-٢٧١).
(٢) أخرجه الطبري (٦/ ٤٦٠) رقم (١٧١٥٢)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٧٢)، وابن أبي حاتم، وابن مردويه كما في الدر المنثور (٣/ ٤٨٨).
(٣) حديث الملاعنة متفق عليه أخرجه البخاري (٥٢٥٩)، ومسلم (١-١٤٩٢).

وليلةَ بحنينٍ جَالدُوا معهُ … فيها يعلهم بالحربِ إذْ نهَلُوا
وغَزْوةَ القَاعِ فرقْنَا العدوَّ بهِ … كَمَا تَفرَّق دون المشربِ الرَّسَلُ
ويومَ بُويعَ كانُوا أَهْلَ بيعَتِهِ … عَلى الجِلاَدِ فآسَوْهُ ومَا عَدَلُوا
وَغزوةَ الفتْحِ كانُوا في سريَّتِهِ … مُرَابطِينَ فَمَا طاشُوا ومَا عَجِلُوا
ويومَ خَيْبرَ كانُوا فِى كَتيبَتِهِ … يَمْشُونَ كلُّهُمُ مستبسِلٌ بَطَلُ
بالبيضِ تُرعَشُ فى الأيمَانِ عَارِيَةً … تعوجُ فى الضَّربِ أحيانًا وتعتَدلُ
ويومَ سارَ رَسولُ اللَّهِ محتَسِبًا … إلى تبوكَ وهمْ راياتُه الأولُ
وسَاسَةُ الحربِ إنْ حربٌ بدَتْ لهمُ … حتَّىٰ بَدَا لهُمُ الإقْبَالُ والقَفَلُ
أولئكَ القومُ أنصَارُ النبىِّ وهم … قَوْمِى أَصِيرُ إليهم حينَ أَتَّصِلُ
ماتُوا كِرامًا ولمْ تُنكَثْ عهودُهمُ … وقَتْلُهم فى سبيل اللَّه إذْ قتلُوا(١)

وقال حسان بن ثابت أيضًا: [من الطويل]

وكنَّا ملوكَ الناسِ قبلَ محمَّدٍ … فلمَّا أَتىٰ الإسْلامُ كانَ لنَا الفضْلُ
وأكرمنَا اللَّهُ الذى ليسَ غيرُه … إله بأيامِ مَضتْ مَا لها شَكْلُ
بنصرِ الإلَـهِ والرَّسولِ ودينِهِ … وألبسنَاهُ اسمًا مَضى مَا له مثْلُ
أولئك قومِى خيرُ قَومٍ بأسرِهم … فَمَا عُدَّ من خَيْرٍ فقومِى لهُ أهلُ
يَرُبُّونَ بالمعروفِ معروفَ من مَضَىٰ … وليسَ عليهم دُونَ معروفِهم قفلُ
إذا اختُبطُوا لمْ يفحِشُوا في نديِّهم … وليسَ عَلَى سُؤالهم عِنْدهم بخلُ
وإنْ حَارَبُوا أَوْ سَالموا لَمْ يشبهُوا … فحربُهُمُ حتْفٌ وسَلْمُهُمُ سَهْلُ
وَجَارهُمُ موفٍ بعلْيَاء بَيْتُهُ … لَهُ ما ثوىٰ فينَا الكَرامةُ والبَذْلُ
وحامِلُهم موفٍ بكلِّ حَمَالةٍ … تحمَّل لا غرمٌ عليه ولا خَذْلُ
وقائلُهم بالحقِّ إن قَال قَائِلٌ … وحِلْمُهُمُ عَوْدٌ وحكْمُهُمُ عَدْلُ
ومنَّا أمينُ المسلِمينَ حياتَهُ … وَمنْ غسلتْهُ مِنْ جَنَابَتِهِ الرّسْلُ(٢)

وقال أيضًا: [من المتقارب]

قَومى أولئكَ إنْ تَسْألِى … كرامٌ إذا الضَّيفُ يومًا أَلَم

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ١٩٩-٢٠٠)، والبداية والنهاية (٥/ ٤٣-٤٤).
(٢) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ٢٠٠).

عِظَامُ القُدُورِ لأيْسَارِهِم   يكبُونَ فيها السَّمينَ السَّنِمْ(١)
يُواسُونَ جَارهُمُ فِى الغِنَىٰ   ويَحْمُونَ مَوْلاَهُمُ إن ظُلِمْ
فكَانُوا مُلُوكًا بَأرضيهِمُ   ينادونَ غُضبًا بِأمْرٍ غشمْ
مُلوكًا عَلَىٰ النَّاسِ لَمْ يُملَكُوا   مِنَ الدَّهْرِ يَوْمًا كحِلِّ القَسَمْ
فَأنْبَوْا بِعَادٍ وأَشْيَاعِها   ثَمُود وبعض بَقَايَا إرَمْ
بيثْربَ قَدْ شيدُوا في النَّخِيل   حُصونًا ودُجنَ فيها النَّعَمْ
نَواضِحَ قَدْ علَّمَتْهَا اليهو   دُ علّ(٢) إليكَ وَقَوْلاً هَلمّ
وفيها اشْتَهوا مِنْ عصِير القِطَافِ   وعيش رخى(٣) عَلَىٰ غيرِهِمْ
فَسِرْنَا إِلَيْهِم بأثْقَالِنَا   عَلَىٰ كلِّ فَحْلٍ هِجَانٍ قِطمْ
جَنَبْنَا بهن جِيَادَ الخيو   لِ والزحفُ مِنْ خَلْفِهم قَدْ دهَمْ(٤)
فَطَارُوا سَراعًا وقَدْ أُفزِعُوا   وجِئْنَا إلَيْهِمْ كَأُسْدِ الأَجَمْ
عَلَى كُلِّ سَلْهَبَةٍ فى الصِّيَا   نِ(٥) لاَ تَسْتَكِينَ لطُولِ السَّأَمْ(٦)
وكل كميت مُطَارِ الفُؤَاد   أمينِ الفُصوصِ كمِثْلِ الزُّلَمْ
عَلَيْهَا فوارسُ قَدْ عوِّدُوا   قِرَاعَ الكمَاةِ وضرْبَ البُهَمْ
ملوكٌ إذَا غَشَمُوا فى البِلاَ   دِ لاَ يَنْكُلُونَ ولكِنْ قُدُمْ
فأُبْنَا بِسَادَاتِهم والنِّسَاء   وَأولادُهم فيهمُ تقْتَسمْ
ورِثنا مسَاكنهُم بعدَهُم   وكنَّا ملوكًا بِهَا لم نرِمْ
فلمَّا أتانَا الرسولُ الرشيـ   دُ بالحقّ والنُّور بعْدَ الظُّلَمْ
فَقُلْنَا صَدَقْتَ رَسُولَ المليكِ   هلُم إلينا وفينَا أقِمْ

---

(١) في السيرة: المُسِنَ. والسنم: عظيم السنام.
(٢) علّ: كلمة تزجر بها الإبل.
(٣) في السيرة النبوية: والعيش رخوًا.
(٤) في السيرة النبوية: قد جللوها جلال الأدم. وجللوها: غطوها. وفيها بعد هذا البيت:

فلما أناخوا بجنبي صدار   وشدوا السروج بلى الحزم
فما راعهم غير معج الخيو   ل والزحف من خلفهم قد دهم.

(٥) في السيرة: الصبان. والسلهبة: الفرس السريعة.
(٦) في السيرة: تشتكين نحول السأم.

فَنَشْهَدُ أنَّكَ عبدُ الإلـ ه أُرْسِلتَ نورًا بدِينٍ قيِمْ
فَإنَّا وَأولادنا جُنَّةٌ نَقِيكَ وفى مَالِنَا فاحْتَكِمْ
فَنَحْنُ ولاتكَ[1] إنْ كذبُوك فناد نِدَاء ولا تَحتشِمْ
ونادِ بمَا كنتَ أخفَيْتَهُ نداءً جهارًا ولا تَكتتِمْ
فَسَار الغواةُ بأسيَافِهم إليه يظنُّونَ أن يخْتَرمْ
فقُمْنَا إليهم بأسْيَافِنا نجالدُ عنه بُغَاةَ الأمَمْ
بكلِّ صقيلٍ لهُ مَيْعَةٌ رقيق الذُّبابِ عَضُوضٍ خَذِمْ
إذا مَا يصادفُ صمَّ العظَا م لَمْ ينبُ عَنْهَا ولم ينثَلِمْ
فَذلك مَا ورَّثَتْنَا القرو مُ مَجْدًا تليدًا وعزًّا أشم
إذا مرَّ نَسْلٌ كَفَى نسلَهُ وغَادَرَ نَسْلًا إذا مَا انفصمْ
فَمَا إنْ من النَّاسِ إلا لَنَا عليه وإنْ خَاسَ فضل النعَمْ[2]

وفيها بنى ﷺ فى طريقه مساجد حين رجع من تبوك[3]، وقدم فى رمضان، وأمر بمسجد الضرار أن يحرق، واشترى ﷺ جمل جابر مرجعه، فلما قدموا إلى المدينة أعطاه الجمل والثمن، كما تقدم ذكر ذلك.

وفيها بعث المصدقين لأخذ الصدقات: عيينة بن حصن إلى بنى تميم كغيرهم، والوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق؛ ليأخذ الصدقة، فخرجوا بالسلاح، فرحا به، فولّى راجعًا، وأخبر بمنعهم فهم ﷺ أن يبعث لهم جيشا، فنزل ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ٦].

وفيها سرية عبد الله بن عوسجة إلى بني حارثة، مستهل صفر يدعوهم إلى الإسلام فرقعوا بالصحيفة أسفل دلوهم، وأبوا الإجابة، فدعا ﷺ عليهم بذهاب عقلهم فهم إلى اليوم فى رعدة، وعجلة، واختلاط كلام.

وقطبة بن عامر إلى خثعم بناحية بيشة من مخاليف «مكة» فى صفر فى عشرين رجلاً، فقتلوا منهم، وغنموا.

---

(١) في السيرة: أولئك.
(٢) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ٢٠٠-٢٠٢).
(٣) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ١٧٢).

وعلقمة بن محرز المدلجى إلى الحبشة فى ثلاثمائة، لما تراءى أهل جدة ناسًا من الحبشة، فخاض إليهم فهربوا، فلما رجعوا، وكان أمره على من تعجل فى الرجوع - ومعه عبد الله بن حذافة السهمى، أو هو الأمير كما فى بعض الروايات، فأجج نارًا وأرادهم على الوثوب، ثم كف عن ذلك، فبلغه ﷺ ذلك فقال: من أمركم بمعصية فلا تطيعوه.

وعليا إلى القلس صنم لطيئ فى مائة وخمسين، أو مائتين، فهدمه، وغنم غنائم من آل حاتم، ثم لما ظفروا بهدمه هرب عدى بن حاتم إلى الشام ، وكلم النبيّ ﷺ أخت عدى سفانة بنت حاتم أن يمن عليه فمن عليه، ثم قدم وأسلم.

وعكاشة بن محصن إلى الحباب أرض عذرة، وبلي، وغطفان، أو فزارة، وكلب، ولعذرة فيها شركة.

وأبا سفيان، والمغيرة؛ لهدم الطاغية، وغيرها، فهدماها وأخذا مالها.

وفيها قدم وفد بنى أسد فقالوا: جئنا قبل أن ترسل إلينا فنزل ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ [الحجرات:١٧] الآية. وتتابعت الوفود: تميم، وعبس، وفزارة، وغيرهم مما لا ينحصر[(١)].

وفيها حج أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - بالناس فى ثلاثمائة رجل، ومعه عشرون بدنة. وبعث عليا خلفه بسورة براءة، لينبذ إلى كل ذى عهد عهده، وألاّ يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فأدركه عليٌّ بالعرج مبلغًا لا أميرًا[(٢)]، وكان حجهم فى ذلك العام فى ذى القعدة.

وفيها مات النجاشى، فخرج ﷺ إلى المصلى، والناس معه، فصلوا عليه[(٣)]، ومات عبد الله بن أبى، المنافق، فصلى عليه فنزل ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ [التوبه: ٨٤]، وآلى من نسائه شهرًا. ولاعن بين عويمر العجلانى، أو هلال ابن أمية، وامرأته خولة بنت عاصم، أو بنت قيس، أو غير ذلك - على الاختلاف - لما رماها بشريك بن السحماء فى شعبان عند قدومه من تبوك فوجدها حبلى ونزلت

---

(١) ينظر: مغازي الواقدي (٣/ ١٠٧٦)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٢٢).

(٢) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ١٨٩)، ودلائل النبوة (٥/ ٢٩٥).

(٣) ينظر: تاريخ الطبري (٣/ ١٢٢)، والبداية والنهاية (٥/ ٤٧).

حينئذ آية اللعان.

قال فى المواهب: حجة أبى بكر الصديق سنة تسع فى ذى القعدة، كما ذكره ابن سعد[(١)]، وغيره بسند صحيح عن مجاهد، ووافقه عكرمة بن خالد فيما أخرجه الحاكم فى الإكليل، وقال قوم: فى ذى الحجة، وبه قال الداودى والثعلبى والماوردى؛ ويؤيده أن ابن إسحاق صرح بأن النبى ﷺ أقام بعدما رجع من تبوك رمضان، وشوالاً، وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميرًا على الحج، فهو ظاهر فى أن بعث أبى بكر كان بعد انسلاخ ذى القعدة، فيكون حجه فى ذى الحجة على هذا، والله أعلم.

وكان مع أبى بكر ثلاثمائة رجل من المدينة، وعشرون بدنة.

وفى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن أبا بكر بعث فى الحجة التى أمره رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع فى رهط يؤذن فى الناس يوم النحر ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ثم أردف النبى ﷺ بعلى بن أبى طالب وأمره أن يؤذن ببراءة، فأذَّن معلنًا فى أهل منى ببراءة، وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، قال فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام، فلم يحج فى العام القابل الذى حج فيه رسول الله ﷺ حجة الوداع - مشرك، فأنزل الله تعالى فى العام الذى نبذ فيه أبو بكر إلى المشركين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ ﴾ [التوبة: ٢٨] الآية[(٢)]. وقد دلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك يعنى نجاسة اعتقاده، وأما نجاسة بدنه: فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن، والذات، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وهذا ضعيف؛ لأن أعيانهم لو كانت نجسة كالكلب والخنزير لما طهرهم الإسلام، ولاستوى فى النهى عن دخول المشركين المسجدُ الحرام، وغيره من المساجد، فالمراد نجاسة الخبث لما فيهم من خبث الظاهر بالكفر، وخبث الباطن بالعداوة، قاله مقاتل.

---

(١) في المطبوع من طبقات ابن سعد (٢/ ١٢٧): في ذي الحجة سنة تسع من مهاجر رسول الله ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٥٥، ٤٦٥٦)، ومسلم (٤٣٥-١٣٤٧) وهذا لفظ البخاري.

وروى النسائى عن جابر أن النبى ﷺ لما رجع من عمرة الجعرانة بعث أبا بكر على الحج، فأقبلنا معه حتى إذا كنا بالعرج، ثوّب بالصبح، فلما استوى للتكبير، سمع الرغوة وراء ظهره، فوقف عن التكبير فقال: هذه رغوة ناقة رسول الله ﷺ الجدعاء، لقد بدا لرسول الله ﷺ فى الحج، فلعله أن يكون رسول الله ﷺ فنصلى معه، فإذا علىٌّ عليها، فقال له أبو بكر: أمير أم رسول؟ قال: رسول، أرسلنى رسول الله ﷺ ببراءة، أقرأها على الناس فى مواقف الحج. فقدمنا مكة، فلما كان قبل التروية بيوم، قام أبو بكر، فخطب الناس، فحدثهم عن مناسكهم حتى إذا فرغ، قام على، فقرأ على الناس براءة حتى ختمها. ثم إذا كان يوم النحر، فأفضنا، قام أبو بكر، فخطب الناس، فحدثهم عن إفاضتهم، وعن نحرهم، وعن مناسكهم، فلما فرغ قام على، فقرأ على الناس براءة حتى ختمها. فلما كان يوم النفر، فأفضنا، قام أبو بكر، فخطب الناس، فحدثهم كيف ينفرون، وكيف يرمون، ويعلمهم مناسكهم، فلما فرغ قام على، فقرأ على الناس براءة حتى ختمها(١). وهذا السياق فيه غرابة من جهة أن أمير الحج سنة الجعرانة إنما هو عتاب بن أسيد، فأما أبو بكر - رضى الله عنه - فإنما كان سنة تسع، واستدل بهذه القصة على أن فرض الحج كان قبل حجة الوداع، والأحاديث فى ذلك شهيرة كثيرة. وذهب جماعة إلى أن حج أبى بكر هذا لم يسقط عنه الفرض، بل كان تطوعًا قبل فرض الحج، ولا يخفى ضعفه.

وفى هذه السنة مات عبد الله بن أبىّ ابن سلول، فجاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلى عليه، فقام عمر - رضى الله عنه - فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تصلى عليه، وقد نهاك ربك أن تصلى عليه؟! فقال ﷺ إنما خيرنى الله عز وجل قال: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ [التوبه: ٨٠] وسأزيد على السبعين، قال: إنه منافق، فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبه: ٨٤] رواه الشيخان(٢).

(١) أخرجه النسائي (٥/ ٢٤٧-٢٤٨) وضعفه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٧٠)، ومسلم (٣/ ٢٧٧٤)، والنسائي (٤/ ٣٦)، والترمذي (٣٠٩٨)، وابن ماجه (١٥٢٣)، وأحمد (٢/ ١٨) من حديث ابن عمر.

وفيها آلى من نسائه ﷺ شهرًا.

وجحش شقه أى خدش، وجلس فى مشربة له لها درج من جذوع، فأتاه أصحابه؛ يعودونه، فصلى بهم جالسًا وهم قيام، فلما سلم قال: إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا صلى قائمًا؛ فصلوا قيامًا، وإن صلى قاعدًا؛ فصلوا قعودًا، ولا تركعوا حتى يركع، ولا ترفعوا حتى يرفع.

ونزل لتسع وعشرين، فقالوا: يا رسول الله إنك آليت شهرًا فقال: إن الشهر يكون تسعًا وعشرين[١].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٣٧٨)، من حديث حميد الطويل عن أنس بن مالك، دون تحديد السنة وأطرافه (٦٨٩، ٧٣٢، ٨٠٥، ١١١٤، ١٩١١، ٥٢٠١، ٦٦٨٤) وقال الحافظ في الفتح (٢/ ٤٠): وآلى من نسائه، أي: حلف لا يدخل عليهن شهرًا. وليس المراد الإيلاء المتعارف بين الفقهاء.

حوادث السنة العاشرة

فيها سرية خالد فى ربيع الأول إلى بنى عبد المدان بنجران، فأسلموا[١]، وجرير ابن عبد الله البجلى فى رمضان فى مائة وخمسين إلى ذى الخلصة - بيت أصنام لدوس، وخثعم، وبجيلة، ومن ببلادهم - وحديثه فى البخارى، قال جرير: فكسرناه، وقتلنا من وجدناه عنده، فدعا ﷺ لنا، ولأحمس[٢].

وفيها **حجة الوداع**[٣]، وتسمى: حجة البلاغ، وحجة الإسلام، خرج يوم الخميس لست بقين - أو يوم الجمعة، أو يوم السبت لخمس بقين - من ذى القعدة، ومعه ﷺ تسعون ألفا أو مائة وأربعة عشر ألفا، ووقف فيها يوم الجمعة، ونزل ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] الآية.

ورجع من حجة الوداع لثلاث بقين من ذى الحجة، وفيها نزل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النور: ٥٨] الآية، وكانوا لا يفعلونه قبل ذلك.

وقدم وفد نجران فى اثنى عشر راكبًا، أميرهم العاقب عبد المسيح، والسيد إمامهم، واسمه الأيهم، وأبو حارثة أسقفهم، صالحوه عن أهل نجران.

قال فى المواهب: وكره ابن عباس أن يقال: حجة الوداع[٤].

وكان ﷺ قد أقام بالمدينة يضحى كل عام، ويغزو المغازى، فلما كان فى ذى القعدة سنة عشر من الهجرة - أجمع الخروج إلى الحج. قال ابن سعد: ولم يحج غيرها منذ تنبأ إلى أن توفاه الله تعالى[٥].

وفى البخارى عن زيد بن أرقم أن النبى ﷺ حج بعد ما هاجر حجة واحدة لم يحج بعدها، وهى حجة الوداع[٦]. قال ابن إسحاق: وبمكة أخرى، قيل: حج

(١) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ٢٣٥)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٢٦)، والبداية والنهاية لابن كثير (٥/ ١١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥٥)، ومسلم (١٣٦-٢٤٧٦).

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ٢٤٥)، والمغازي للواقدي (٣/ ١٠٨٨)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٣٠)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٥٩)، والبداية والنهاية لابن كثير (٥/ ١٢٧).

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٤٤)، وفيه قال: فقلت حجة الإسلام؟ قال: نعم حجة الإسلام.

(٥) طبقات ابن سعد (٢/ ١٣١).

(٦) أخرجه البخاري (٤٤٠٤)، ومسلم (٢١٨-١٢٥٤).

بمكة حجتين، هذا بعد النبوة، وقبلها لا يعلمه إلا الله[١]. فخرج ﷺ من المدينة يوم السبت لخمس ليال بقين من ذى القعدة، وجزم ابن حزم بأن خروجه كان يوم الخميس، وفيه نظر؛ لأن أول ذى الحجة كان يوم الخميس قطعًا، لما ثبت، وتواتر أن وقوفه بعرفة كان يوم الجمعة[٢]. لكن ثبت فى الصحيحين عن أنس: صلينا مع النبى ﷺ الظهر بالمدينة أربعًا، والعصر بذى الحليفة ركعتين[٣]، فدل على أن خروجهم لم يكن يوم الجمعة. ويحمل قول من قال لخمس بقين، أى: إن كان الشهر ثلاثين، فاتفق أن جاء تسعًا وعشرين، فيكون يوم الخميس أول ذى الحجة بعد مضى أربع ليال، لا خمس، وبها الأخبار.

هكذا جمع الحافظ عماد الدين بن كثير الروايات[٤]، وقوى هذا الجمع بقول جابر: إنه خرج لخمس بقين من ذى القعدة، أو أربع[٥]، وصرح به الواقدى: بأن خروجه - عليه الصلاة والسلام - كان يوم السبت لخمس بقين من ذى القعدة، وكان خروجه من المدينة بين الظهر[٦]، والعصر، وكان دخوله مكة صبح رابعه، كما ثبت فى حديث عائشة[٧]، وذلك يوم الأحد، وهذا يؤيد أن خروجه من المدينة كان يوم السبت، كما تقدم، فيكون مكث فى الطريق ثمان ليال، وهى المسافة

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٤٤٥) في شرحه لحديث زيد: بل الذي لا أرتاب فيه أنه لم يترك الحج وهو بمكة قط، لأن قريشًا في الجاهلية لم يكونوا يتركون الحج، وإنما يتأخر منهم عنه من لم يكن بمكة أو عاقه ضعف.

(٢) أخرج البخاري (٤٥)، ومسلم (٥-٣٠١٥) عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب أن رجلًا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرءونها لو أنزلت علينا معشر اليهود، لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا. قال: أيُّ آية؟ قال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم جمعة.

(٣) أخرجه البخاري (١٥٥١)، ومسلم (١٠-٦٩٠) وهذا لفظ البخاري.

(٤) ينظر: البداية والنهاية (٥/١٢٨-١٢٩).

(٥) أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٤٣٢)، وهذا الحديث أصله في مسلم (١٤٧-١٢١٨).

(٦) ينظر: مغازي الواقدي (٣/ ١٠٨٩).

(٧) أخرج البخاري (١٧٠٩)، ومسلم (١٢٥-١٢١١) من طريق عمرة عن عائشة قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ لخمس بقين من ذي القعدة...» الحديث. وأخرج مسلم (١٣٠-١٢١١) عن ذكوان مولى عائشة عن عائشة قالت: «قدم رسول الله ﷺ لأربع مضين من ذي الحجة أو خمس...» الحديث.

الوسطى، وخرج معه - عليه الصلاة والسلام - تسعون ألفًا، ويقال: مائة ألف وأربعة عشر ألفا، ويقال : أكثر من ذلك، كما حكاه البيهقى، ورجع - عليه الصلاة والسلام - من حجة الوداع لثلاث بقين من ذى الحجة.

* * *

حوادث السنة الحادية عشرة من الهجرة

فيها سرية أسامة بن زيد إلى أهل أُبنى بالسراة ناحية البلقاء[١]، يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر؛ لغزو الروم، مكان قتل أبيه زيد، ومعه أبو بكر، وعمر، وغيرهما. فمرض ﷺ، فعوقهم ذلك، وثقل ﷺ، فجعل يقول: أنفذوا بعث أسامة، ودخل عليه أسامة يوم الاثنين، وقد أصبح مفيقًا، فقال له: اغد على بركة الله، فودَّعه، وخرج، ثم تأخر حتى توفى رسول الله ﷺ، فخرج حتى وصل إلى أهل أبنى فى عشرين ليلة، فشن عليهم الغارة، وكان شعارهم: يا منصور أمت. فقتل، وحرق، وغنم[٢].

وقبل وفاته - عليه الصلاة والسلام - بسبع ليال، أو ثلاث ليال، أو ثلاث ساعات، أو بأحد وثمانين يومًا، أو عشرين، أو غير ذلك على الخلاف - نزل قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١] فهى آخر آية نزلت[٣]. وفى البخارى عن ابن عباس: إن آية الربا آخر آية نزلت[٤]. والجمع ممكن[٥]، وفى آخر ما نزل أقوال غير ذلك[٦]. وأما أول ما نزل ف﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] الآيات الخمس. قال القشيرى: ثم نون والقلم، ثم المزمل، ثم المدثر، ثم تبت، ثم كذا إلى آخر ما ذكر من الترتيب، ولبسط ذلك، وتمييز المدنى من المكى تآليف مخصوصة لسنا بصددها.

فصل فى صفاته الحسية ﷺ

كان ربعة، بعيد ما بين المنكبين، أبيض اللون، مشربا بحمرة، رجل الشعر

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ٢٥٣)، ومغازي الواقدي (٣/ ١١١٧) وطبقات ابن سعد (٢/ ١٤٥)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٨٤).

(٢) ينظر الخبر بطوله في مغازي الواقدي (٣/ ١١١٧-١١٢٤)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٤٥-١٤٧).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٧) رقم (١١٠٥٨)، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٧١) رقم (١٢٠٤٠)، والطبري (٣/ ١١٥) رقم (٦٣٠٨)، والبيهقي في الدلائل (٧/ ١٣٧) من حديث ابن عباس. وقال الهيثمي (٦/ ٣٢٧): رواه الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما ثقات.

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٤٤).

(٥) ينظر في ذلك فتح الباري (٩/ ٦٦).

(٦) ينظر: دلائل النبوة (٧/ ١٣٦-١٣٩).

أسوده، يبلغ شحمة أذنيه إذا طال، ونصف ذلك إذا قصر، لم يبلغ الشيب فى رأسه، ولحيته عشرين شعرة، واسع الجبين، أزجّ الحواجب، فى غير قرن، أدعج العينين، أقنى العرنين، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب، مفلج الأسنان، حلو المنطق، يتلألأ وجهه كالقمر ليلة البدر، حسن الخلق معتدله، عريض الصدر، موصول ما بين لبته وسرته بشعر يجرى كالخط، أشعر الذراعين، والمنكبين، وأعالى الصدر، عالى اليدين، والبطن فيما سوى ذلك، أجلّ الناس، وأبهاه من بعيد، وأحسنه، وأحلاه من قريب، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما، وعلاه البهاء، بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة، لونه لون جسده عليه خيلان، روى أنه مكتوب فى باطنه: الله وحده لا شريك له، وفى ظاهره: توجه حيث شئت، فإنك منصور. ويروى - أيضًا - أن المكتوب فيه: محمد رسول الله، وقيل: غير ذلك. يقول واصفه ﷺ: لم أر قبله مثله، ولا بعده مثله[١].

فصل فى صفاته المعنوية وأخلاقه ﷺ

قالت عائشة: كان خلقه القرآن[٢]؛ يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه.

وكان أحلم الناس، قيل له: ألا تدعو على المشركين؟ قال: إنما بعثت رحمة، ولم أبعث عذابًا[٣].

وكان أشجع الناس، قال على: كنا إذا حمى[٤] البأس، والتقى القوم - اتقينا برسول الله ﷺ[٥].

وأعدل الناس، القريب والبعيد، والقوى والضعيف عنده سواء.

---

(١) ينظر: دلائل النبوة (١/ ٢٦٨)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٧٩)، والبداية والنهاية (٦/ ٤، ١٣-٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٩-٧٤٦)، وأبو داود (١٣٤٢)، والنسائي (٣/ ١٩٩).

(٣) أخرجه مسلم (٨٧-٢٥٩٩) عن أبي هريرة به ولفظه «إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة».

(٤) في شرح السنة وفي صحيح مسلم (احمرّ) والمعنى: اشتد الحرب. وانظر شرح السنة (٧/ ٤٧).

(٥) ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام (٤٦٢-السيرة) وأبو الشيخ في أخلاق النبي (٥٨)، والبغوي في شرح السنة (٧/ ٤٧-بتحقيقنا) وله شاهد من حديث البراء عند مسلم (٧٩/ ١٧٧٦)، وأبو الشيخ في الأخلاق (٥٨)، ولفظه: «إذا احمرّ البأس».

وأعف الناس، وأسخاهم، لا يسأل شيئًا إلا أعطاه، لا يبيت عنده دينار، ولا درهم، فإن فضل، ولم يجد من يعطيه، وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يبرأ منه إلى من يحتاج إليه، لا يأخذ مما أعطاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد، ويضع سائر ذلك فى سبيل الله، ثم يعود على قوت عامه، فيؤثر منه.

وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها، لا يثبت نظره فى وجه أحد، غاض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظ، وأكثر تواضعًا: يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويفليه - قلت: معنى يفليه ليس من القمل كما هو المتبادر؛ لأن القمل لا يلحق جسده الشريف، وإنما المراد بالتفلية: التنقية من نحو قشة، أو غبار، وما أشبهها - ويخيطه، ويخدم فى مهنة أهله ، ويقطع اللحم معهن، ويجيب دعوة الحرّ، والعبد، ويقبل الهدية وإن قلت، ويكافىء عليها، ويأكلها، ولا يأكل الصدقة.

تستتبعه الأمة والمسكين فيتبعهما حيث دعواه، ويجيب الفقراء، والمساكين، ويجالسهم، ويواكلهم، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، وأرحمهم، يصغى الإناء للهرة فما يرفعه حتى تروى؛ رحمة لها. وأشدهم إكرامًا لأصحابه، لا يمد رجله بينهم، ويوسع عليهم إذا ضاق المجلس، ويتفقدهم ويسأل عنهم: من مرض عاده، ومن غاب دعا له، ومن مات استرجع، وأتبع ذلك بالدعاء له، ومن تخوف أنه وجد فى نفسه انطلق حتى يأتيه فى منزله.

ويقبل معذرة المعتذر، ويخرج إلى بساتين أصحابه، ويأكل من ضيافتهم، ولا يطوى بشره عن أحد، ولا يدع أحدًا يمشى خلفه، ويقول: خلوا ظهرى للملائكة، ولا يدع أحد يمشى معه، وهو راكب حتى يحمله، فإن أبى قال: تقدمنى، إلى المكان الذى تريد.

وأمر فى سفره بإصلاح شاة فقال رجل: عليّ ذبحها، وآخر عليّ سلخها، وآخر عليّ طبخها، فقال ﷺ: وعليّ جمع الحطب، فقالوا: نحن نكفيك، قال: قد علمت، ولكن أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبد أن يراه متميزًا بين أصحابه، وقام بجمع الحطب.

يخدم مَنْ خدمه، ما ضرب قط خادمه، ولا امرأة، ولا شيئًا إلا فى جهاد، ولا

يترفع على عبيده وإمائه فى مأكل، ولا ملبس. قال أنس: خدمته عشر سنين، فما قال لى قط أف، ولا لِمَ فعلت، ولا ألا فعلت[(١)].

أكثر الناس تبسمًا، وأحسنهم بشرًا، لا يهوله شيء من أمور الدنيا، لا يحقر فقيرًا لفقره، ولا يهاب ملكًا لملكه ، يلبس ما وجد من مباح، ويركب ما تيسر من فرس، أو بعير، أو بغلة، أو حمار، ويردف خلفه عبده، أو غيره، وقد روى فيمن أردفه أكثر من ثلاثين، يمسح وجه فرسه بطرف كمه أو طرف ردائه، يحب الفأل، ويكره الطيرة. إن جاء ما يحب قال: الحمد لله رب العالمين، أو ما يكره قال: الحمد لله على كل حال. يحب الطيب، ويكره الريح الرديئة، يمزح، ولا يقول إلا حقًّا، يبدأ من لقيه بالسلام، لا يجلس، ولا يقوم إلا على ذكر، يجلس حيث انتهى به المجلس، ويأمر بذلك، ولا يقوم عمن يجالسه حتى يقوم إلا أن يتعجله، أو يستأذنه. ولا يقابل أحدًا بما يكره، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. لا يذم شيئا قط، وما عاب طعاما قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه، يحفظ جاره، ويكرم ضيفه، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما أو قطيعة رحم؛ فيكون أبعد الناس منه.

أكثر جلوسه للقبلة، آتاه الله مفاتيح خزائن الأرض فلم يقبل، واختار الآخرة.

يعصب الحجر على بطنه من الجوع، يبيت هو وأهله الليالى طاوين، ولم يشبع من خبز بر ثلاثا تباعًا، ولا من خبز الشعير حتى لقى الله - عز وجل - إيثارا على نفسه لا فقرا، ولا بخلا. يأتى على أهله الشهر والشهران لا يوقد فى بيت من بيوته نار، ولا يأكل متكئا، ولا على خوان. فراشه من أدم حشوه ليف. يلبس الصوف، وينتعل المخصوف. أحب اللباس إليه الحبرة من برود اليمن فيها حمرة وبياض، يلبس الإزار الواحد ليس عليه غيره، يعقد طرفيه بين كتفيه، ويلبس يوم الجمعة برده الأحمر، ويعتم، وكان يلبس خاتما فضة، نقش فصه «محمد رسول الله» فى خنصره الأيمن، وربما لبسه فى الأيسر، ويكثر دهن رأسه، ولحيته، ويتبخر بالعود، والكافور، ويكتحل بالإثمد، ويتطيب بالغالية، والمسك أو بالمسك وحده.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩)، والبغوي في شرح السنة (٧/ ٣٢-بتحقيقنا).

فصل فى خصائصه ﷺ

فمن الواجبات: المشاورة فى الأمور، وتخيير نسائه بين أن يبقين فى عصمته أو لا، ومصابرة العدو الكثير، وتغيير المنكر من غير قيد عدم الخوف، وقضاء دين الميت المعسر المسلم، وليس منها وجوب الضحى، ولا الأضحى، ولا الوتر، ولا السواك، ولا التهجد، ونحو ذلك خلافا لمن زعمه.

ومن المحرمات: أخذ الصدقة واجبة كانت أو تطوعًا، والشعر، والخط والأكل متكئًا، وأكل ذى ريح كريه فى رأى قوى، ونزع لأمته إذا لبسها حتى يلقى العدو، ومدّ عينيه لما متع به الناس، وخائنة الأعين؛ بأن يومئ إلى مباح على خلاف ما يظهر، والمن ليستكثر، وإمساك من كرهت نكاحه.

ومن المباحات: مواصلة الصوم، واصطفاء ما يختار من الغنيمة كأخذه صفية، وسيفه ذا الفقار، وكان له خمس الخمس من الفيء، والغنيمة، وأربعة أخماس من الفيء، ودخول مكة بلا إحرام، وإن اختلف فى غيره، وأبيح له القتال بها ساعة يوم الفتح، وكانت من ضحوة إلى بعد العصر، ويقضى بعلمه قطعا، ولنفسه ولو كره، ويشهد أيضا لنفسه وولده، ويقبل من يشهد لهما، ويحيى الموات لنفسه، ويأخذ الطعام، والشراب من المالك المحتاج لهما، ويمكث بالمسجد جنبا، ومن يختاره معه فى ذلك كما أشركه معه فىَ ذلك، ولا ينتقض وضوؤه بنومه: [من البسيط]

... ... فالعين نائمة والقلب يقظان

وله أن يزوج من نفسه، وممن شاء بلا إذن، ويتولى الطرفين، ويزيد على أربع زوجات، بل وعلى تسع اللاتى اتفق اجتماعهن وهو العدد الذى مات عنه - أيضا - وينكح بلا ولى، ولا شهود، وفى حالة إحرامه، وبلفظ الهبة من المرأة، وبلا مهر لا حالا ولا مآلا. وأكثر المباح له لم يقع منه ﷺ.

ومن الفضائل والكرامات: تحريم أزواجه اللاتى دخل بهن، وفارقهن بموت، أو غيره على من سواه، وإنما هن أمهات المؤمنين فى ذلك، وفى احترامهن لا فى نحو نظر وخلوة، وتحريم بناتهن، وأخواتهن، وكذا من لم يدخل بهن على ما نص عليه الشافعى؛ لظاهر القرآن. ونساؤه أفضل النساء، وأفضلهن خديجة وعائشة.

وأمته خير الأمم، ولا تجتمع على ضلالة، وصفوفهم كصفوف الملائكة.

وأصحابه خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

وشرعه مؤبد ناسخ لما خالفه من الشرائع، وكتابه معجز يحفظ من التحريف والتبديل، مستمر بعد نبوته، ومعجزات غيره من الأنبياء انقرضت، ونصر بالرعب مسيرة شهر، وجعلت له الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت له الغنائم، وأعطى الشفاعة، والمقام المحمود، وله خمس شفاعات، وأكثر منها: فله الشفاعة العظمى فى فصل الموقف، وهى الأولى، فيفزع الكل إليه بعد دلالة الرسل عليه، ولو بتوسط الدلالة على من دل عليه إظهارًا لعلو مقامه، وانفراده بتمامه؛ والشفاعة فى قوم يدخلون النار؛ فلا يدخلونها، وهى الثالثة؛ وفى ناس دخلوها، فيخرجون منها، وهى الرابعة، وفى رفع الدرجات فى الجنة وهى الخامسة.

وله غيرهن شفاعته لمن مات بالمدينة، وفى جمع من صلحاء المؤمنين أن يتجاوز عنهم ما لعلهم قصروا فيه، وفى تخفيف العذاب عن بعض أهل النار كما فى عمه أبى طالب، وفى تخفيف عذاب القبر كما فى حديث غرز الجريدتين فى القبرين[1]؛ وفى فتح باب الجنة والجواز على الصراط وغير ذلك.

وأرسل إلى الناس كافة، وهو سيد ولد آدم، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وأول مشفع، وأول من يقرع باب الجنة، وأكثر الناس تبعا، وأعطى جوامع الكلم. وكان لا ينام قلبه، ويرى من وراء ظهره كما يرى من قدامه، وتطوعه بالصلاة قاعدا كتطوعه قائما وإن لم يكن له عذر. ولا يحل لأحد رفع صوته فوق صوته، ولا نداؤه من وراء الحجرة، ولا باسمه، بل يا نبى الله، يا رسول الله، ونحو ذلك، ومخاطبة المصلى بالسلام عليك أيها النبى، ولو خاطب غيره، بطلت، ويجب على المصلى إجابته إذا دعاه، ولا تبطل صلاته، وتحل له الهدية دون غيره من الحكام، ولا يجوز عليه، ولا على غيره من الأنبياء جنون، ولا احتلام. ومن استهان بأحد منهم كفر.

ولا يورث أحد منهم، بل ماله ﷺ صدقة على المسلمين، وأولاد بناته ينسبون إليه، ويجب بذل المهج لسلامة مهجته، فالنبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ومن رغب فيها وهى مزوجة، وجب على زوجها طلاقها.

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٦).

وفاته ركعتان بعد الظهر فقضاهما بعد العصر ثم واظب عليهما، وقال: تسموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى[(١)]، فقال الشافعى: ليس لأحد أن يكنى بأبى القاسم، وحمل نصه على حال حياته ﷺ. ومن رآه فى المنام فقد رآه حقا؛ فإن الشيطان لا يتمثل فى صورته، والأرض لا تأكل لحمه، ولا لحم أحد من الأنبياء. وكل نسب وسبب وصهر منقطع يوم القيامة إلا نسبه، وسببه، وصهره، وله غير ذلك مما لا ينحصر.

فصل فى معجزاته ﷺ

منها - وهو أعظمها - القرآن العظيم، الذى عجز الجن والإنس أن يأتوا بمثله، بل بعشر سور منه، بل بسورة، بل بحديث مثله، وانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه؛ فشرب منه أهل العسكر، وتوضئوا، كل ذلك من قدح، ولا ماء فيه؛ فجاش بالماء حتى شرب الجيش، ورووا وهم ألوف وفاضت إلى اليوم، وبالحديبية مرة بالبئر فأروتهم، وهم ألف وأربعمائة أو أكثر، وأطعم جيش الخندق، وهم ثلاثة آلاف من تمرٍ أتت به ابنة بشير بن سعد إلى أبيها وخالها لم يملأ كفيه، فأكلوا منه حتى شبعوا، وفضلت فضلة.

ورمى يوم حنين جيش الكفار بقبضة من تراب فعميت عيونهم، وحن إليه الجذع الذى كان يخطب إليه حين عمل له المنبر، وكلمه الذراع المسموم بالشاة، كما سبق، وكان يخبر بالغيوب كقوله: إن عمارا تقتله الفئة الباغية[(٢)]؛ وإن عثمان تصيبه بلوى تكون بعدها الجنة[(٣)]؛ وإن الحسن بن على سيّد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين[(٤)]، فكان كذلك؛ وكان إخباره بقتل الأسود العنسى الكذاب، وهو بصنعاء وبمن قتله؛ وبموت النجاشى بالحبشة؛ وبترتيب المقتولين فى غزوة مؤتة كما مضى؛ وإخباره بقتل ابن خلف، ومصارع صناديد قريش، فكان كما قال.

وخرج وعلى بابه قوم ينتظرونه؛ ليؤذوه، فوضع التراب على رءوسهم، فلم يروه، ودعا شجرتين فأتتاه، فاجتمعتا، ثم أمرهما؛ فافترقتا، وزويت له الأرض

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٨٨)، ومسلم (٨-٢١٣٤) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه مسلم (٧٢-٢٩١٦) من حديث أم سلمة.
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٩٥)، ومسلم (٢٨-٢٤٠٣) من حديث أبي موسى الأشعري.
(٤) أخرجه البخاري (٣٧٤٦).

فرأى مشارقها ومغاربها، وأخبر ببلوغ ملك أمته ما زوى له منها، فكان كذلك، فبلغ ملكهم من أول المشرق إلى آخر المغرب، ولم يتسعوا فى الجنوب، والشمال كما أخبر سواء بسواء، ومسح ضرع شاة لم ينز عليها الفحل؛ فدرت، وندرت عين قتادة فسقطت، فردها بيده الكريمة؛ فكانت أصح عينيه، وأحسنهما، وأحدّهما، وكانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه، والحصى بيديه، وسلم عليه الحجر والشجر ليالى بعث وغيرهما.

وكلمته الحيوانات: البعير، وغيره فى حاجاتها. ومنها إنبات النخلة فى سنام البعير، وإدراك ثمرها فى الحال، ففرقه على الحاضرين، فمن علم الله أن سيؤمن - كانت التمرة فى فمه تمرة كما هى؛ ومن علم عدم إيمانه - عادت التمرة فى فيه حجرًا، ذكر ذلك البيهقى، وغيره من أئمة الحديث، وغير ذلك مما لا يحصى.

وقد بلغ بمعجزاته - عليه الصلاة والسلام - بعض الأئمة ثلاثة آلاف وزيادة، غير القرآن العظيم؛ إذ كل حرف منه معجز، فمعجزاته ﷺ لا يدرك حصرها.

قال ابن إسحاق: فلما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء، فحدثنى عبد الله بن أبى بكر، وحسين بن عبد الله، وغيرهما من أصحابنا أن على بن أبى طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد وشقران، مولى رسول الله ﷺ هم الذين تولوا غسله؛ وأن أوس بن خولى أحد بنى عوف بن الخزرج قال لعلى بن أبى طالب: أنشدك الله يا على، وحظنا من رسول الله ﷺ، وكان أوس من أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بدر، قال: ادخل، فدخل وجلس، وحضر غسل رسول الله ﷺ، فأسنده على بن أبى طالب إلى صدره، وكان العباس، والفضل، وقثم يقلبونه معه، وكان أسامة بن زيد، وشقران مولياه اللذان يصبان الماء عليه، وعلى يغسله قد أسنده إلى صدره، وعليه قميص يدلكه به من ورائه، ولا يفضى بيده إلى رسول الله ﷺ وعلى يقول: بأبى أنت وأمى ما أطيبك حيا وميتا. ولم يُر من رسول الله ﷺ شيء مما يرى من الميت(١).

---

(١) ينظر السيرة النبوية (٤/ ٣١٣)، وتاريخ الطبري (٣/ ٢١١، ٢٩٢)، وينظر طبقات ابن سعد (٢/ ٢١٣، ٢١٤)، والبداية والنهاية (٥/ ٢٨٠).

قال ابن إسحاق: وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، عن عائشة قالت: لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ - اختلفوا فيه فقالوا: والله ما ندرى أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه؟ قالت: فلما اختلفوا؛ ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم من رجل إلا ذقنه فى صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أن غسلوا النبى ﷺ وعليه ثيابه. قالت: فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص، ويدلكونه، والقميص دون أيديهم(١).

قال: فلما فرغ من غسل رسول الله ﷺ كفن فى ثلاثة أثواب: ثوبين صحاريين، وبردة حبرة أدرج فيه إدراجا كما حدثنى جعفر بن محمد بن على بن حسين(٢)، وحدثنى حسين بن عبد الله، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ - وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح كحفر أهل مكة، وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذى كان يحفر لأهل المدينة، وكان يلحد - فدعا العباس رجلين، فقال لأحدهما: اذهب إلى أبى عبيدة بن الجراح، وقال للآخر اذهب إلى أبى طلحة، اللهم خره لرسول الله ﷺ(٣).

فلما فرغ من جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء، وضع على سريره فى بيته، وقد كان المسلمون اختلفوا فى دفنه، فقال قائل: ندفنه فى مسجده، وقال قائل: بل ندفنه مع أصحابه، فقال أبو بكر: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما قبض نبى إلا دفن حيث قبض، فرفع فراش رسول الله ﷺ الذى توفى عليه، فحفر له تحته، ثم دخل الناس على رسول الله ﷺ؛ يصلون عليه أرسالا: فدخل الرجال حتى إذا فرغوا،

---

(١) أخرجه ابن إسحاق (٤/ ٣١٣-السيرة النبوية)، ومن طريقه أبو داود (٣١٤١)، وابن ماجه (١٤٦٤)، وأحمد (٦/ ٢٦٧)، والحاكم (٣/ ٥٩)، والبيهقي في الدلائل (٧/ ٢٤٢) وقال الذهبي: صحيح. ينظر تاريخ الإسلام (٥٧٥-السيرة النبوية).

(٢) أخرجه ابن إسحاق (٤/ ٣١٤-السيرة النبوية)، ومن طريقه الطبري (٣/ ٢١٢).

(٣) أخرجه ابن إسحاق (٤/ ٣١٤-السيرة النبوية،) ومن طريقه الطبري في التاريخ (٣/ ٢١٣) والبيهقي في الدلائل (٧/ ٢٥٢). قلت: فيه الحسين بن عبد الله وهو ضعيف كما في التقريب وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٢٨) من طريق الواقدي عن إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة عن داود بن الحصين عن عكرمة به قلت: الواقدي متروك، وإبراهيم ضعيف، وداود ثقة إلا في عكرمة كما في التقريب.

دخل النساء، حتى إذا فرغن، دخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد؛ ثم دفن رسول الله ﷺ من وسط الليل ليلة الأربعاء(١).

قال ابن إسحاق: وحدثنى عبد الله بن أبى بكر، عن امرأته فاطمة بنت عمارة، عن عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، عن عائشة قالت: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحى من جوف الليل ليلة الأربعاء(٢).

قال محمد بن إسحاق: وكان الذين نزلوا فى قبر رسول الله ﷺ - على بن أبى طالب، والفضل بن عباس، وقثم بن عباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ، وقد قال أوس بن خولى لعلى بن أبى طالب: أنشدك بالله، وحظنا من رسول الله ﷺ، فقال له: انزل، فنزل مع القوم. وقد كان شقران حين وضع رسول الله ﷺ فى حفرته، وبنى عليه قد أخذ قطيفة قد كان رسول الله ﷺ يلبسها، ويفترشها، فدفنها فى القبر، وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبدا. فدفنت مع رسول الله ﷺ(٣).

وسيأتى ذكر بدء مرضه - عليه الصلاة والسلام - فى أول خلافة الصديق - رضى الله تعالى عنه - .

ومما قيل من الرثاء لرسول الله ﷺ قول أبى بكر رضى الله تعالى عنه: [من الوافر]

أجدكَ ما لعينِكَ لا تنامُ … كأنَّ جفونَهَا فيها كلامُ
بوقْعِ مصيبةٍ عظُمَتْ وجلَّتْ … فدمعُ العينِ أهونُهُ انسجامُ
فُجعنا بالنبيِّ وكان فينا … مقدَّمنا وسيدنا الإمامُ
وكان قوامنا والرأس فينا … فنحنُ اليومَ ليس لنا قوامُ
ننوحُ ونشتكِى ما قد لَقِينا … ويشكُو فقدَهُ البلدُ الحرامُ
كأنَّ أنوفنا لاقينَ جدعًا … لفقدِ محمدٍ فيها اصطلامُ
لفقدِ أغرَّ أبيضَ هاشميٍّ … إمام نبوَّةٍ وبه الختامُ

(١) أخرجه ابن إسحاق (٤/ ٣١٤-السيرة النبوية) ومن طريقه ابن ماجه (١٦٢٨)، والطبري (٣/ ٢١٣)، وأبو يعلى (٢٢، ٢٣)، والبيهقي في السنن (٣/ ٤٠٧)، وفي الدلائل (٧/ ٢٦٠)، قلت: هذا إسناد ضعيف، لضعف حسين بن عبد الله.

(٢) أخرجه الطبري (٣/ ٢١٣) من طريق ابن إسحاق. وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٣٢) من طريق الواقدي. وينظر البداية والنهاية (٥/ ٢٩١)، وتاريخ الإسلام (٥٨٢-السيرة).

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ٣١٥)، وتاريخ الطبري (٣/ ٢١٣، ٢١٤)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٢٣٠-٢٣١).

أمينٌ مصطفًى للخيرِ يدعو كضوءِ البدرِ زايله الظلامُ
سأتبعُ هديهُ ما دمْتُ حيًّا طوالَ الدهرِ ما سجع الحمامُ
كأنَّ الأرضَ بعدك طارَ فيها فَأَشْعَلَهَا لساكنها ضرامُ
وفقد الوَحْى إذ وليت عنا وودعنا مِنَ اللهِ الكلامُ
سوَى أن قد تَركْت لنا سراجا تواريه القراطيسُ الكرامُ
لقد ورثتنا مِرآةَ صدقٍ عليكَ به التحيةُ والسلامُ
من الرحمنِ فى أعلَى جنانٍ من الفردوسِ طابَ بها المقامُ
رفيق أبيكَ إبراهيمَ فيه وما فى مِثْلِ صحبتِهِ ندامُ
وإسحاق وإسماعيل فيه بما صَلَّوْا لربهمُ وصاموا(١)

وقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يرثى رسول الله ﷺ: [من الكامل]

ما زلتُ مذ وضع الفِرَاشَ لجنبه وَثوَى مريضًا خائفًا أتوقَّعُ
شفقًا عليه أن يزولَ مكانه عنَّا فنبقَى بعْدَهُ نتوجَّعُ
وإذا تحدّثنا الحوادثُ منْ لَنَا بالوحْي من ربٍّ رحيم يسمعُ
ليتَ السماءَ تفطَّرَتْ أكنافُهَا وتناثَرَتْ فيها النجومُ الطلعُ
لما رأيتُ الناسَ هدَّ جمعيهم صوتٌ ينادى بالنَّعِيِّ فيسمعُ
وسمعْتُ صوتًا قبلَ ذلك هدَّني عباس ينعاه بصوتٍ يقطعُ
فليبكِهِ أهلُ المدائنِ كلّها والمسلمونَ بكُلِّ أرضٍ تجدعُ

وقال على بن أبى طالب - كرم الله وجهه -: [من الطويل]

ألا طرق الناعِى بلَيْلٍ فراعَنِي وأرَّقنى لما استقلَّ مناديا
فقلتُ له لما رأيتُ الذى أتى أغَيْرَ رسولِ اللهِ إنْ كنتَ(٢) نَاعِيا
فحققْت ما أشفقْتُ منهُ ولم ينلْ وكان خليلى عدَّةً وجماليَا(٣)
فواللهِ ما أنساكَ أحمَدُ ما مَشَتْ بِيَ العيسُ فى أرضٍ وجاوزْتَ واديَا

---

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١٢/ ٢٧٦، ٢٧٧).
(٢) في السبل: أصبحت.
(٣) ويروى هذا البيت في السبل هكذا:
فَحُقق ما أشفيت منه ولم يُبَل وكان خليلي عدتي وجماليا

وكنتُ متى أهبطْ من الأرضِ بقعةً أرَى أثرًا منه جديدًا وعافيًا(١)
مِنَ الأسدِ قد أخفى العرين مخافةً تهادى سباعُ الطيرِ مِنْهُ تَعاديا(٢)
شديد حوىّ الصَّدْرِ مِنهُمْ مشددٌ هو المَوْتُ معديًا عليه وَعَادِيا(٣)

وقال حسان بن ثابت - رضى الله عنه -: [من الطويل]

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمُدُ
وَلاَ تَنْمَحى الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حرْمَةٍ بِهَا مِنْبَرُ الْهَادِى الَّذِى كَانَ يَصْعَد
وَوَاضِحُ آثَارٍ وَبَاقِى مَعَالِمٍ وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلًّى وَمَسْجِدُ
بِهَا حُجُرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسْطَهَا مِنَ اللهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ
مَشَاهِدُ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى الْعَهْدِ آيُهَا أتَاهَا الْبِلَى فَالْآىُ مِنْهَا تَجَدَّدُ
عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وَعَهْدَهُ وَقَبْرًا بِهَا وَارَاهُ فِى التُّرْبِ مُلْحِدُ
ظَلِلْتُ بِهَا أَبْكِى الرَّسُولَ فَأَسْعَدَتْ عُيُونٌ وَمِثْلَاهَا مِنَ الْجَفْنِ تُسْعِدُ
يُذَكِّرْنَ آلاَءَ الرَّسُولِ وَمَا أرَى لَهَا مُحْصِيًا نَفْسِى فَنَفْسِى تَبَلَّدُ
مُفَجَّعَةٌ قَدْ شَفَّهَا فَقْدُ أحْمَدٍ فَظَلَّتْ لِآلاَءِ الرَّسُولِ تُعَدِّدُ
وَمَا بَلَغَتْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عشيرهُ وَلكِنْ لِنَفْسِى بَعْدُ مَا قَدْ تَوَجَّدُ
أَطَالَتْ وُقُوفًا تَذْرِفُ الْعَيْنَ جَهْدَهَا عَلَى طَلَلِ الْقَبْرِ الَّذِى فِيهِ أحْمَدُ
فَبُورِكْتَ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكَتْ بِلاَدٌ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ
وَبُورِكَ لحدٌ مِنْكَ ضُمِّنَ طَيِّبًا عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِن صَفِيحٍ مُنَضَّدُ
تَهِيلُ عَلَيْهِ التُّرْبَ أَيْدٍ وَأعْيِن عَلَيْهِ وَقَدْ غَارَتْ بِذَلِكَ أَسْعُدُ
لَقَدْ غَيَّبُوا حِلمًا وَعِلْمًا وَحِكْمَةً عَشِيَّةَ عَلَّوْهُ الثَّرَى لاَ يُوَسَّدُ

---

(١) البيت في السبل:
وكنت متى أهبط من الأرض تلعة أجد أثرًا منه جديدًا وعافيا
وبعده في السبل:
جواد تشظى الخيل عنه كأنما يرين به ليثًا عليهن ضاريا
(٢) البيت في السبل:
من الأسد قد أحمى العرين مهابة تفادي سباع الأرض منه تفاديا
(٣) ويروى هذا البيت في السبل هكذا:
شديد جريُّ النفسِ نَهْدٌ مُصَدَّر هو الموت مغدوٌّ عليه وغاديا

وَرَاحُوا بِحُزْنٍ لَيسَ فِيهِمْ نَبِيُّهُمْ ... وَقَدْ وَهَنَتْ مِنهمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ
يُبَكُّونَ مَنْ تَبْكِي السَّموات يَوْمَهُ ... وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الْأَرْضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ
وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيَّةُ هَالِكٍ ... رَزِيَّةَ يَوْم مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدُ؟!
تَقَطَّعَ فِيهِ منزلُ الْوَحْيِ عَنْهُمُ ... وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ وَيُنْجِدُ
يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمنِ مَنْ يَقْتَدِى بِهِ ... وَيُنْقِذُ مِنْ هَوْلِ الْخَزَايَا وَيُرْشِدُ
إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقَّ جَاهِدًا ... مُعَلِّمُ صِدْقٍ إِنْ يُطِيعُوهُ يَسْعَدُوا
عَفُوٌّ عنِ الزَّلاَّتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ ... وَإِنْ يُحْسِنُوا فَاللهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ
وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمْلِهِ ... فَمِنْ عِنْدِهِ تَيسِيرُ مَا يَتَشَدَّدُ
فَبَيْنَا هُمُ فِى نِعْمَةِ اللهِ بَيْنَهُمْ ... دَلِيلٌ بِهِ نَهْجُ الطَّرِيقَةِ يُقْصَدُ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَزِيغُوا عَنِ الْهُدَى ... حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وِيَهْتَدُوا
عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ لاَ يُثَنِّى جَنَاحَهُ ... إِلَى كَنَفٍ يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَمْهَدُ
فَبَيْنَا هُمُ فِى ذَلِكَ النُّورِ إِذْ غَدَا ... إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الْمَوْتِ مُقْصِدُ
فَأَصْبَحَ مَحْمُودًا إِلَى اللهِ رَاجِعًا ... يُبَكِّيهِ جَفْنُ(١) الْمُرْسَلاَتِ وَيَحْمَدُ
وَأَمْسَتْ بِلاَدُ الحُرْمِ وَحْشًا بِقَاعُهَا ... لِغَيْبَةِ مَا كَانَتْ مِنَ الْوَحيِ تعْهَدُ
قِفَارًا سِوَى مَعْمُورَةِ اللحْدِ ضَافَهَا ... فَقِيدٌ يُبَكِّيهِ بَلاَطٌ وَغَرْقَدُ
وَمَسْجِدُهُ فَالْمُوحِشَاتُ لِفَقْدِهِ ... خَلاَءٌ لَهُ فِيهِ مَقَامٌ وَمَقْعَدُ
وَبِالْجَمْرَةِ الْكُبْرَى لَهُ ثَمَّ أَوْحَشَتْ ... دِيَارٌ وَعَرَصَاتٌ وَرَبْعٌ وَمَوْلِدُ
فَبَكِّى رَسُولَ اللهِ يَا عَيْنِ عَبْرَةً ... وَلاَ أَعْرِفَنْكِ الدَّهْرَ دَمْعُكِ يَجْمُدُ
وَمَالَكِ لاَ تَبْكِينَ ذَا النِّعْمَةِ الَّتِي ... عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَتَغَمَّدُ
فَجُودِى عَلَيْهِ بِالدُّمُوعِ وَأَعْوِلِي ... لِفَقْدِ الَّذِى لاَ مِثْلُهُ الدَّهْرَ يُوجَدُ
وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ ... وَلاَ مِثْلُهُ حَتَّى الْقِيامَة يُفْقَدُ
أَعَفَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً بَعْد ذِمَّة ... وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلاً لاَ يُنَكَّدُ
وَأَبْذَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدٍ ... إِذَا ضَنَّ مِعْطَاءٌ بِمَا كَانَ يُتْلِدُ
وَأَكْرَمَ صِيتًا فِى الْبُيُوتِ إِذَا انْتَمَى ... وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يُسَوَّدُ
وَأَمْنَعَ ذِرْوَاتٍ وَأَثْبَتَ فِى الْعُلاَ ... دَعَائِمَ عِزٍّ شَامِخَاتٍ تُشَيَّدُ

(١) في السيرة: حتى. وفي السبل: حق.

وَأَثْبَتَ فَرْعًا فِى الْفُرُوعِ وَمَنْبِتًا وَعُودًا غَذَاهُ الْمُزْنُ فَالْعُودُ أَغْيَدُ
رَبَاهُ وَلِيدًا فَاسْتَتَمَّ تَمَامُهُ عَلَى أَكْرَمِ الْخَيْرَاتِ رَبٌّ مُمَجَّدُ
تَنَاهَتْ وَصَاةُ الْمُسْلِمِينَ بِكَفِّهِ فَلَا الْعِلْمُ مَحبُوسٌ وَلا الرَّأْىُ يُفْنَدُ
أَقُولُ وَلاَ يلْفَى لِقَوْلِيَ عَائِبٌ مِنَ النَّاسِ إلاَّ عَازِبُ الْعَقْلِ مُبْعَدُ
وَلَيْسَ هَوَاى نَازِعًا عَنْ ثَنَائِهِ لَعَلِّى بِهِ فِى جَنَّةِ الْخُلْدِ أَخْلُدُ
مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَاكَ جِوَارَهُ وَفِى نَيْلِ ذَاكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وأَجْهَدُ[(١)]

وقالت السيدة فاطمة - رضى الله عنها -: [من الكامل]

ماذا علَى مَنْ شمَّ تُرْبَةَ أحْمَدٍ أَلاَّ يشَمَّ من الزَّمَانِ غَوَالِيَا
صُبَّتْ عليَّ مَصَائبٌ لو أنَّهَا صُبَّتْ عَلَىٰ الأَيَّامِ عُدْنَ ليالِيَا

وقالت عاتكة بنت عبد المطلب - رضى الله عنها -: [من البسيط]

عينيَّ جُودَا طوالَ الدَّهْرِ وانهمِرَا سَكبًا وسَحًّا بدمْعٍ غيرِ تَقْديرِ[(٢)]
يا عينُ واستَخسِرِى[(٣)] بالدمعِ واحتَفِلِي حتَّى المماتِ بسَجْلٍ غيرِ مَنْزورِ
يا عين وانهملِي بالدمعِ واجْتهِدِي للمصطفَى دونَ خَلْقِ اللهِ بِالنُّورِ
بمستهلٍّ من الشؤْبُوبِ ذى سَبَلٍ فقدْ رُزِئْت نبيَّ العدلِ والخيرِ
وكنتُ من حَذَرٍ للموتِ مشفقةً وللذى خُطَّ مِن تلكَ المقاديرِ
من فَقْدِ أزهَرَ ذى خلْقٍ وذى فخرٍ صافٍ من العَيْبِ والعاهاتِ والزورِ
فاذهَبْ حَمِيدًا جزَاكَ الله مَغْفِرةً يومَ القيامةِ عِنْدَ النَّفْخِ فِى الصُّورِ

وقالت أروى - أختها - بنت عبد المطلب - رضى الله عنها -: [من الوافر]

ألا يَا عينُ ويحَكِ أسْعِدِينِي بدمْعٍ[(٤)] ما بقيتُ وطَاوِعِينِي
ألا يا عَين ويحكِ واستَهِلِّى على غيْثٍ[(٥)] البلادِ وأسعِدِينِي
فَإِن عَذَلَتْكِ عَاذِلَةٌ فقولِي عَلامَ وفيمَ ويحَكِ تعذلينِي

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ٣١٧-٣٢٠)، والبداية والنهاية (٥/ ٣٠١) وسبل الهدى والرشاد (١٢/ ٢٧٩-٢٨١).
(٢) في السبل: تعذير.
(٣) في السبل: فاسحنفري.
(٤) في السبل: بدمعك.
(٥) في السبل: نور.

عَلى نُور البِلادَ معًا جميعًا رَسُولِ اللهِ أحمَد فاتْرُكِينِي
وَإنْ لاَ تَقْصرِى بالعَذلْ عنِّي فَلُومى ما بَدَا لَكِ أو دَعِينِي
لأمرٍ هَدَّنِى وأدَكَّ[1] رُكْنِي وشَيَّبَ بَعْدَ جِدَّتها قُرُونِي[2]

وقالت صفية بنت عبد المطلب - رضى الله عنها -: [من الخفيف]

لهفَ قَلْبِى وبتُّ كالمسلوبِ أرق اللَّيلُ مُقْلَةَ المحرُوبِ[3]
مِنْ همومٍ وحَسْرةٍ وَقَذَتْنِي ليتَ أنِّى سبقْتُهَا لِشَعُوبِ[4]
حينَ قالوا إنَّ الرسُولَ قد امْسَى وافَقَتْهُ مَنِيَّةُ المكتوبِ
إذْ رأينا أنَّ النبيَّ صَرِيعٌ فأشَابَ القَذَالَ أىّ مَشِيبِ
إذْ رأينا بيوتَهُ مُوحِشَاتٍ ليس فيهنَّ بعد عَيْش حبيبِ
أورَثَ القلبَ ذاكَ حزنًا طويلا خالَطَ القلبَ فَهْوَ كالمرعُوبِ
ليتَ شِعْرِى وكيفَ أُمسى[5] صحيحًا بعد أنْ بِينَ بالرَّسُولِ القريبِ
أعظم الناسِ فى البريَّةِ حَقًّا سيِّدُ الناسِ حبه فِى القُلُوبِ
فَإلى اللهِ ذاكَ أشكُو وحَسْبِى الـ لَّهُ مولى وحَوْبتِى ونَجِيبِى[6]

وقالت - أيضًا -: [من المتقارب]

أفاطمُ فابْكِى ولا تَسْأَمِي بصَحْبِكِ ما طَلَعَ الكوكَبُ
هو المرءُ يبكى بحقٍّ[7] البكا هو الماجِدُ السيِّدُ الطيبُ
فأوحشَتِ الأرضُ من فقْدِهِ وإنَّ البرِيةَ لا تنكبُ
فَمَا لىَ بَعْدَكَ حتى المما ت إلا الجَوَى الدَّاخِلِ المُنْصِبُ

(١) في السبل: وأذل.
(٢) ينظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٢٤٧-٢٤٨)، وسبل الهدى والرشاد (١٢/ ٢٧٩-٢٨٤).
(٣) البيت في السبل:
لهف نفسي وبت كالمسلوب آرق الليل فعلة المحروب
(٤) البيت في السبل:
من هموم وحسرة ردفتني ليت أني سُقيتها بشعوب
(٥) في ط: يمسي. والمثبت من السبل.
(٦) ينظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٢٤٩)، والسبل (٢/ ٢٨٥)، ورواية البيت الأخير في السبل:
يعلم الله حويثي ونحيبي.
(٧) في السبل: وحق.

فَبَكَّى الرسولَ وحقَّتْ له شُهُودُ المدينةِ والغُيَّبُ
لِتَبْكِكَ شَمْطاءُ مَضرورةٌ إذا حُجِبَ الناسُ لا تحجَبُ
ليبكِكَ شيخٌ أبو ولدةٍ يطوفُ بعقوتِهِ أشْهَبُ
ويبكك رَكْبٌ إذا أرمَلُوا فلم يكْفِ ما طلبِ المطلبُ
وتبكى الأباطحُ مِنْ فقدِهِ وتبكيه مَكَّةُ والأَخْشَبُ
وتبكى وُعَيْرَةُ مِنْ فَقْدِهِ بُحزْنٍ ويُسْعِدُهَا المِثيبُ(١)
أَعْيَنىَّ ما لَكِ لا تَدْمَعِين وحقَّ لدمْعِكِ ما يَسْكُبُ(٢)

صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه إلى يوم الدين، وسلم.

وقال أبو الفتح: فيا له - فى مثل ذلك - خطب جل عن الخطوب؛ ومصاب عَلم دمع العين كيف يصوب؛ ورزء غربت له النيرات، ولا تعلل بشروقها بعد الغروب.

وجاءت هجمة الموت؛ فلا نجاء منه لهارب، ولا فرار منه لمطلوب، ولا صباح له؛ فيجلو غياهبه الملمة ودياجيه المدلهمة، ولكل ليل إذا دجى صباح يئوب. ومن سر أهل الأرض، ثم بكى، سأبكى بعيون سرها، وقلوب.

فإنا لله، وإنا إليه راجعون من نار طويت عليها الأضالع، لا تخبو ولا تخمد، ومصيبة تستك منها المسامع، فلا يبلى على مر الجديدين حزنها المجدد.

* * *

---

(١) في ط:

وتبكيه عذراء من فقدها بحزن ويسعدها الثيب

والمثبت كما في الطبقات، وسبل الهدى والرشاد. ووعيرة، والمثيب: مواضع. ينظر اللسان (وثب) و(وعر).

(٢) ينظر طبقات ابن سعد (٢/ ٢٥٠)، والسبل (٢/ ٢٨٥، ٢٨٦) والبيت الأخير في الطبقات: وحق لدمعك يستسكب. وكذا في السبل.

المقصد الثالث
فى ذكر الخلفاء الأربعة
وذكر خلافة الحسن بن على رضى الله عنهم أجمعين
خلافة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

قال ابن إسحاق: ابتدئ رسول الله ﷺ بشكواه التى قبضه الله - تعالى - فيها إلى ما أراد به من كرامته ورحمته، فى ليال بقين من صفر، أو فى أول شهر ربيع الأول، فكان أول ما ابتدأ به رسول الله ﷺ من ذلك - فيما ذكر لى -: أنه خرج إلى بقيع الغرقد من جوف الليل، فاستغفر لهم، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح - ابتدئ بوجعه من يومه ذلك(١).

قال ابن إسحاق: وحدثنى عبد الله بن عمر، عن عبيد الله بن جبير مولى الحكم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن أبى مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال: بعث إلىَّ رسول الله ﷺ من جوف الليل، فقال: يا أبا مويهبة، إنى قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معى؛ فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم، قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه؛ أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، تتبع أخراها أولاها، الآخرة شر من الأولى؛ ثم أقبل علىّ فقال: يا أبا مويهة، إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا، والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة. قال أبو مويهة: فقلت بأبى أنت وأمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا، والخلد فيها، ثم الجنة. قال: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربى، والجنة؛ ثم استغفر لأهل البقيع، وانصرف؛ فبدأ به فى صبيحة ذلك اليوم وجعه الذى قبضه الله فيه(٢).

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: لما رجع - عليه الصلاة والسلام - من البقيع وجدنى وأنا أجد صداعًا فى رأسى، وأنا أقول: وارأساه. فقال: بل أنا والله

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ٢٨٩)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٨٨)، والبداية والنهاية (٥/ ٢٤٣).
(٢) أخرجه ابن إسحاق (٤/ ٢٨٩-السيرة النبوية) ومن طريقه أحمد (٣/ ٤٨٩)، والبزار (٨٦٣-كشف الأستار)، والحاكم (٣/ ٥٥-٥٦)، والبيهقي في الدلائل (٧/ ١٦٢) وقال الهيثمي (٣/ ٦٢) وإسناد أحمد والبزار كلاهما ضعيف. وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٥٧)، من طريق الواقدي.

وارأساه يا عائشة، ثم قال لى: وما ضرك لو متّ قبلى، فقمت عليك، وكفنتك، وصليت عليك، ودفنتك. قالت: فقلت: والله لكأنى بك لو قد فعلتَ ذلك لقد رجعتَ إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك. قالت: فتبسم رسول الله ﷺ.

وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه حتى استعزَّ به مرضه - يعنى اشتد - وهو فى بيت ميمونة؛ فدعا نساءه فاستأذنهن فى أن يمرّض فى بيتى، فأذنّ له، فخرج - عليه الصلاة والسلام - بين رجلين من أهله، أحدهما: الفضل بن العباس، ورجل آخر هو على بن أبى طالب عاصبًا رأسه، تخط قدماه حتى دخل بيتى[1].

ولما غمره الوجع قال: أريقوا علىّ من سبع قرب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم. قالت: فأقعدناه فى مخضب[2] لحفصة بنت عمر، فصببنا عليه الماء حتى طفق يقول حسبكم، حسبكم[3].

وقال الزهرى: حدثنى أيوب بن بشر: أنه - عليه الصلاة والسلام - خرج عاصبًا رأسه حتى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به: أن صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم، وأكثر الصلاة عليهم، وقال: إن عبدًا خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله. قال: ففهمها أبو بكر - رضى الله عنه - وعرف أنه يريد نفسه؛ فبكى، وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا، وأبنائنا. فقال: على رسلك يا أبا بكر، ثم قال: انظروا هذه الأبواب اللافظة فى المسجد فسدّوها إلا باب أبى بكر[4]. ثم استبطأ الناس فى بعث أسامة، فقال: أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية (٤/ ٢٩٠) لابن هشام، ومن طريقه أخرجه أحمد (٦/ ٢٢٨)، وابن ماجه (١٤٦٥)، والدارمي (١/ ٣٧-٣٨)، والدارقطني (٢/ ٧٤) وابن حبان (٦٥٨٦)، والبيهقي في السنن (٣/ ٣٩٦)، وفي الدلائل (٧/ ١٦٩) عن يعقوب بن عتبة، عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن عائشة. وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث في رواية ابن هشام وفي رواية البيهقي في الدلائل، فالحديث حسن.

(٢) المخضب: إناء يغتسل فيه.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٨)، وأطرافه (٦٦٤)، (٦٦٥)، (٦٨٣)، (٧١٣)، (٢٥٨٨)، (٣٣٨٤)، (٤٤٤٢). ومسلم (٩٢-٤١٨) من حديث عائشة بنحوه وهذا لفظ ابن إسحاق كما رواه ابن هشام (٤/ ٢٩٨).

(٤) أخرجه الطبري (٣/ ١٩٠)، والبيهقي في الدلائل (٧/ ١٧٧-١٧٨) من طريق ابن إسحاق وقال ابن كثير في البداية (٥/ ٢٤٩): هذا مرسل له شواهد كثيرة. وأصله في الصحيحين: أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢/ ٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري.

بن زيد، فلعمرى، إن قلتم فى إمارته، لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله - وكان قد سمع قول الناس فى إمارة أسامة: أمَّر غلامًا حدثًا على جلة المهاجرين، والأنصار - وإنه لخليق بالإمارة، وإن كان أبوه لخليقا بها. ثم نزل عن المنبر، وانكمش الناس فى جهازهم، واستُعزَّ - أى اشتد - برسول الله ﷺ وجعه، فخرج أسامة، وخرج جيشه معه حتى نزلوا الجرف من المدينة على فرسخ، فضرب به عسكره، وتتام الناس، وثقل رسول الله ﷺ؛ فأقام أسامة والناس ينتظرون ما الله قاض فى رسوله(١).

ثم اجتمع إلى رسول الله ﷺ من نسائه أم سلمة، وميمونة، ونساء من نساء المسلمين، منهن: أسماء بنت عميس، وعنده العباس عمه، فأجمعوا أن يلدُّوه - واللد: رفع اللسان، وإدخال المسعط فى الحلق من وسط الفم، فإن كان من أحد الشقين فهو الإيجار، وأما اللدود، فهو الدواء نفسه - فلما أفاق - عليه الصلاة والسلام - قال: من وضع هذا بى ؟ قالوا: يا رسول الله، عمك. قال: هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض، وأشار نحو أرض الحبشة. قال: ولم فعلتم ذلك ؟ قال عمه: خشينا يا رسول الله، أن يكون بك داء الجنب. فقال: - عليه الصلاة والسلام -: إن ذلك لداء ما كان الله ليقذفنى به، أو ليعذبنى، وفى رواية إنها لم تسلط علىّ، لا يبقى أحد فى البيت إلا لدّ، إلا عَمِّى. فلقد لدت ميمونة، وإنها لصائمة، لقسم رسول الله ﷺ؛ عقوبة لهم بما صنعوا(٢).

ولما كان يوم الاثنين، الذى قبض فيه رسول الله ﷺ، خرج عاصبا رأسه إلى الصبح، وأبو بكر يصلى بالناس، فلما خرج تفرج الناس، فعرف أبو بكر أنه رسول الله ﷺ، فنكص عن مصلاه، فدفع - عليه الصلاة والسلام - فى ظهر أبى بكر، وقال: صل بالناس، وجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه، فصلى قاعدًا عن يمين أبى بكر.

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٤/ ٢٩٨)، وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٩١) عن عروة، وينظر مغازي الواقدي (٣/ ١١١٧).

(٢) أخرجه الطبري في التاريخ (٣/ ١٩٥) من طريق ابن إسحاق من حديث عائشة، وأخرجه البخاري (٤٤٥٨) من حديثها. وأخرجه عبد الرزاق (٩٧٥٤) من حديث أسماء بنت عميس به وأخرجه من طريق عبد الرزاق أحمد (٦/ ٤٣٨)، والحاكم (٤/ ٢٠٢)، وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٤٩٧) إسناده صحيح.

فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس، فكلمهم رافعًا صوته حتى خرج صوته من باب المسجد، يقول: أيها الناس، سعرت النار، وأقبلت الفتن كالليل المظلم، إنى والله ما تمسكون على بشيء، وإنى لم أحل إلا ما أحل القرآن، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن. فلما فرغ رسول الله ﷺ من كلامه، قال له أبو بكر: يا رسول الله، إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله، وفضل كما تحب، واليوم يوم بنت خارجة - يعنى زوجته - أفآتيها ؟ قال: نعم. ثم دخل رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر إلى أهله بالسنح - بالسين المهملة المضمومة، والحاء المهملة آخر الحروف -: اسم مكان بالعالية(١).

قال: وخرج على بن أبى طالب يومئذ على الناس من عند رسول الله ﷺ، فقال له الناس: يا أبا الحسن كيف رسول الله ﷺ ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئا. قال فأخذ العباس بيد على ثم قال له: أنت والله عبد العصا بعد ثلاث، أحلف بالله، لقد رأيت(٢) الموت فى وجه رسول الله ﷺ كما كنت أعرفه فى وجوه بنى عبد المطلب، فانطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه، وإن كان فى غيرنا أمرناه، فأوصى بنا الناس. فقال له على: إنى والله لا أفعل ذلك، والله [لئن منعناها لا يؤتيناها](٣) أحد بعده.

فتوفى رسول الله ﷺ حين اشتد الضحى من ذلك اليوم(٤).

وروى الزهرى، عن عروة، قال: قالت عائشة لما رجع - عليه الصلاة والسلام - ذلك اليوم من المسجد -: دخل إلىّ، فاضطجع فى حجرى، فدخل علىّ رجل من آل أبى بكر وفى يده سواك أخضر، فنظر رسول الله ﷺ إليه نظرا عرفت أنه يريده، فقلت: أتحب أن أعطيك هذا السواك ؟ قال: نعم. قالت: فأخذته، فمضغته حتى لينته، ثم أعطيته إياه، فاستن كأشد ما رأيته استن بسواك قط، ثم وضعه. ووجدته - عليه الصلاة والسلام - يثقل فى حجرى فذهبت أنظر

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ٣٠٤)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٩٨)، ودلائل النبوة (٧/ ٢٠١).
(٢) في سيرة ابن هشام: عرفت.
(٣) في السيرة: لئن منعناه لا يؤتيناه.
(٤) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ٣٠٥)، ودلائل النبوة (٧/ ٢٢٤)، وأصل الحديث في الصحيح أخرجه البخاري (٤٤٤٧).

فى وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنة[١].

قال ابن إسحاق: وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه قال: سمعت عائشة - رضى الله عنها - تقول: مات رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى، وفى دولتى لم أظلم فيه أحدًا، فمن سفهى وحداثة سنى أن رسول الله ﷺ قبض وهو فى حجرى، ثم وضعت رأسه على وسادة، ثم قمت مع النساء: ألتدم، وأضرب وجهى[٢].

وعن سالم بن عبيد الأشجعى قال: لما مات رسول الله ﷺ صار عثمان يضرب على وجهه كالنساء، وأقعد على - رضى الله عنهما -، وأخذ عمر - رضى الله عنه - بقائم سيفه وقال: لا أسمع أحدا يقول: مات رسول الله ﷺ إلا ضربت عنقه بسيفى، ويقول: إنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى - عليه الصلاة والسلام - فلبث عن قومه أربعين ليلة، والله، إنى لأرجو أن يقطع أيدى رجال، وأرجلهم. فقال الناس: يا سالم، اطلب صاحب رسول الله ﷺ. قال: فخرجت من المسجد فإذا بأبى بكر، فلما رأيته أجهشت بالبكاء - فقال: مالك يا سالم، أمات رسول الله ﷺ؟! فقلت: إن هذا عمر بن الخطاب يقول: لا أسمع أحدًا يقول: مات رسول الله ﷺ إلا ضربت عنقه بسيفى هذا، فأقبل أبو بكر حتى دخل، فلما رآه الناس سعوا إليه، فدخل على النبى ﷺ، وهو مسجى ببردة، فرفع البردة عن وجهه، ووضع فاه على فيه فقبله، فاستنشأ الريح، ثم سجاه. ثم صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: إن كان محمد إلهكم الذى تعبدونه، فإن إلهكم قد مات، وإن كان إلهكم الذى فى السماء، فإن إلهكم حى لا يموت. ثم تلا ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ إلى ﴿ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال الزهرى: فأخبرنى سعيد بن المسيب: أن عمر بن الخطاب قال: والله ما هو إلا أن تلاها أبو بكر حتى عقرت، وأنا قائم، وخررت إلى الأرض، وأثبتُّ حينئذ أن رسول الله ﷺ قد مات. قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى

---

(١) ينظر: السيرة (٤/٣٠٦) والحديث أخرجه البخاري (٤٤٤٩) من طريق آخر عن عائشة.

(٢) أخرجه أحمد (٦/٢٧٤)، والطبري في التاريخ (٣/١٩٩) من طريق ابن إسحاق وقد صرح بالتحديث؛ فالحديث حسن.

تلاها أبو بكر - رضى الله عنه - يومئذ، فأخذها الناس عن أبى بكر، فإنما هى فى أفواههم[(١)].

وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر حدثه قال: أقبل أبو بكر من السنح منزله بالعالية - حين بلغه الخبر إلى بيت عائشة - رضى الله عنها - فأذنت له، فدخل، فكشف عن وجه رسول الله ﷺ، فجعل يقبله، ويبكى، ويقول: توفى والذى نفسى بيده، صلوات الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حيًا وميتا.

وفى رواية عن عائشة فوضع فاه بين عينيه، ووضع يديه على صدغيه، وقال: وانبياه، واخليلاه، واصفياه. أخرجه ابن عرفة العبدى. ثم خرج إلى المسجد فوجد عمر يكلم الناس، ويقول - وهو شاهر سيفه -: من قال: « إن محمدًا قد مات. . . » إلى آخره، فقال له: على رسلك يا عمر، أنصت، فأبى عمر إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت، جاء إلى المنبر، فقام عليه، ونادى: أيها الناس اجلسوا وأنصتوا، فجلسوا، وأنصتوا فتشهد شهادة الحق، ثم قال: إن الله - تعالى - نعى إليكم نبيكم، وهو حى بين أظهركم، ونعى لكم أنفسكم، وهو الموت حتى لا يبقى أحدا. ألا إن الله - تعالى - يقول: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ إلى قوله ﴿ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران - ١٤٤] وقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] وقال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران - ١٨٥] وقال: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] وقال: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦، ٢٧]؛ ثم قال: إن الله - عز وجل عمّر محمدا، وأبقاه حتى أقام دين الله، وأظهر أمر الله، وبلغ رسالة الله، وجاهد أعداء الله حتى توفاه الله على ذلك، وترككم على الطريقة، فلا يهلك هالك إلا بعد التنبه، والشفاء، والنور، فمن كان الله ربه، فإن الله حى لا يموت؛ فليعبده، ومن كان يعبد محمدًا، أو يراه إلهًا، فقد هلك إلهه. فأقبلوا أيها الناس، واعتصموا بدينكم، وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم، وكلمته باقية، وإن الله ناصر دينه، ومعز أهله، وإن كتاب الله بين أظهركم، وهو النور والشفاء، وبه هدى الله محمدا ﷺ، وفيه حلال الله وحرامه،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (١٢٤١، ١٢٤٢)، (٤٤٥٢ ، ٤٤٥٤) من حديث عائشة.

ولا والله ما نبالى من أجلب علينا من خلق الله، إن سيوفنا مسلولة ما وضعناها بعد، ونجاهد من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ، فلا يقين أحد إلا على نفسه(١).

قال ابن إسحاق: لما قبض - عليه الصلاة والسلام - انحاز هذا الحى من الأنصار بأجمعهم إلى سقيفة بنى ساعدة منزل سعد بن عبادة، واعتزل على بن أبى طالب، وبنو هاشم، والزبير، وطلحة بن عبيد الله وخالد بن سعيد بن العاص، وعمار بن ياسر، والمقداد بن عمرو البهرانى، وأبو سعيد الخدرى، وجماعة آخرون فى بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وانحاز المهاجرون ما عدا أولئك إلى أبى بكر الصديق، وانحاز معهم أسيد بن حضير فى بنى عبد الأشهل من الأنصار فانحازت إلى أبى بكر وعمر، فقال: إن هذا الحى من الأنصار مع سعد بن عبادة قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة، فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم الأمر، ورسول الله ﷺ فى بيته لم يفرغ عن أمره، وقد أغلق دونه الباب أهله. قال عمر: فقلت لأبى بكر: انطلق بنا إلى إخواننا حتى ننظر ما هم عليه، فانطلقنا نؤمهم حتى لقيَنا رجلان صالحان، فذكرا لنا الذى صنع القوم، وقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ فقلت: نريد إخواننا من الأنصار، فقالا: لا عليكم أن تقربوهم، واقضوا أمركم يامعشر المهاجرين، فقلت: والله لنأتينهم.

فانطلقنا حتى جئناهم فى سقيفة بنى ساعدة، فإذا هم مجتمعون، وإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل، فقلت: ما هذا ؟! قالوا سعد بن عبادة، فقلت ما له ؟! قالوا وجع. فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله، وقال: أما بعد فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام. وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفت دافة منكم - أى دبّ قوم منكم بالاستعلاء، والترفع - علينا تريدون أن تختزلونا من أصلنا، وتحضنونا من الأمر - أى تنحونا عنه - وتستبدوا به دوننا.

فلما سكت أردت أن أتكلم، وقد كنت زوّرت مقالة أعجبتنى، أردت أن أقولها بين يدى أبى بكر، فقال لى أبو بكر: على رسلك، فكرهت أن أعصيه، وكان أعلم منى، ثم تكلم، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتنى فى تزويرى إلا قالها فى بديهته، وأفضل.

---

(١) ينظر: دلائل النبوة (٧/ ٢١٧-٢١٨)، وسبل الهدى والرشاد (١٢/ ٣٠٠).

قال: أما بعد فما ذكرتم من خير فإنكم أهله، ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش، هم أوسط العرب نسبا ودارا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، أيهما شئتم - وأخذ بيدى، ويد أبى عبيدة - فلم أكره مما قال غيرها، وكان والله أن أقدَّم فتضرب عنقى - لا يقربنى ذلك من إثم - أحبَّ إلى من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر.

فقال الحباب بن المنذر - من الأنصار -: أنا جُذيلها المحكَّك، وعُذَيقها المرجب، وقام يحجل بهذه الكلمة: منا أمير، ومنكم أمير يا معشر قريش، وقام رجل آخر منهم، فقال: إن رسول الله ﷺ كان إذا استعمل الرجل منكم يقرن معه رجلا منا، فنرى أن يلى هذا الأمر رجلان: منكم، ومنا. وتتابعت خطباؤهم على ذلك، وكثر اللغط، وارتفعت الأصوات حتى خشيت الاختلاف.

فقام زيد بن ثابت، فقال: يا معشر الأنصار، تعلمون أن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، وخليفته من المهاجرين، ونحن كنا أنصار الله فنكون أنصار خليفته، ثم أخذ بيد أبى بكر، فقال: هذا صاحبكم، فبايعه عمر، ثم بايعه المهاجرون، والأنصار، فقال قائل: قتلتم سعدا. فقال عمر: قتل الله سعدا[1].

قال عطاء بن السائب: لما استخلف أبو بكر أصبح وعلى رقبته أثواب يتجر فيها، فلقيه عمر، وأبو عبيدة، فكلماه، فقال: من أين أطعم عيالى ؟! قالا: انطلق حتى نفرض لك، قال ففرضوا له كل يوم شطر شاة، وماكسوه فى الرأس، والبطن[2].

قال فى الرياض: قال ابن قتيبة: بويع أبو بكر الصديق بالخلافة يوم قبض عليه الصلاة والسلام فى سقيفة بنى ساعدة، وبويع بيعة العامة على المنبر فى الغد، يوم الثلاثاء.

قال أبو عمر: وتخلف عن بيعته: سعد بن عبادة، وطائفة من قومه الخزرج، وطائفة من قريش، ثم بايعوه بعد، غير سعد بن عبادة فإنه لم يبايعه[3]، ولم يبايع بعده عمر إلى أن مات بحوران فى خلافة عمر، رضى الله عنهما.

---

(١) ينظر: السيرة النبوية (٤/٣٠٨-٣١١)، وأخرجه بنحوه البخاري (٦٨٣٠).
(٢) ينظر: طبقات ابن سعد (٣/ ١٣٧).
(٣) ينظر: الرياض النضرة (١/ ٢٣١)، في ذكر بيعة أبي بكر.

قال ابن شهاب - وهو الزهرى -: وغضب رجال من المهاجرين فى بيعة أبى بكر، منهم: على، والزبير، فدخلا فى بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ ومعهما السلاح، فجاء عمر بن الخطاب فى عصابة من المسلمين، منهم: أسيد بن حضير، وسلمة بن وقش، وثابت بن قيس بن شماس الخزرجى، ومحمد بن مَسْلمة - ويقال كان فيهم عبد الرحمن بن عوف - فكلموهما، فأخذ أحدهم سيف الزبير، فضرب به الحجر حتى كسره، والضارب بسيف الزبير هو: محمد بن مسلمة، أخرجه موسى بن عقبة(١).

قال فى الرياض: وهو محمول - على تقدير صحته - على تسكين نار الفتنة، وإغماد سيفها لا على قصد إهانة الزبير. قلت: بل التحريك فى هذا التسكين.

تخلف عن بيعة أبى بكر يومئذ - سعد بن عبادة، وطائفة من الخزرج، وعلى بن أبى طالب، وابناه، والزبير، والعباس عم رسول الله ﷺ، وبنوه من بنى هاشم، وطلحة، وسلمان، وعمار، وأبو ذر، والمقداد، وغيرهم، وخالد بن سعيد بن العاص، ثم إنهم بايعوا كلهم، فمنهم من أسرع ببيعته، ومنهم من تأخر حينا، إلا ما روى عن سعد بن عبادة فإنه لم يبايع أبا بكر ولا عمر إلى أن مات كما تقدم آنفا.

وقال ابن سعد: أنبأنا محمد بن عمر: حدثنى محمد بن صالح، عن الزبير بن المنذر بن أبى أسيد الساعدى: أن أبا بكر بعث إلى سعد بن عبادة أن أقبل، فبايع، فقد بايع الناس، فقال: لا، والله لا أبايع حتى أراميكم بما فى كنانتى، وأقاتلكم بمن معى.

قال، فقال بشير بن سعد: يا خليفة رسول الله إنه أبى ولجّ، وليس بمبايعكم، أو يقتل، ولن يقتل حتى يقتل معه ولده وعشيرته، ولن يقتلوا حتى تقتل الخزرج؛ فلا تحركوه، فقد استقام لكم الأمر، وليس بضارّكم، وإنما هو رجل واحد ما تُرك. فقبل أبو بكر نصيحة بشير.

قال: فلما ولى عمر لقيه ذات يوم فقال: إيه يا سعد، فقال: إيه يا عمر، فقال عمر: أنت صاحب ما أنت صاحبه ؟ قال: نعم، وقد أفضى إليك هذا الأمر، وقد كان والله صاحبك أحب إلينا منك، وقد والله أصبحت كارها لجوارك، فقال عمر: إنه من كره جوار جاره تحوّل عنه، قال أما إنى غير مستسر بذلك، وأنا متحول إلى

(١) ينظر: البداية والنهاية (٦/ ٣٣٣-٣٣٤).

جوار من هو خير منك. فلم يلبث أن خرج مهاجرا إلى الشام، فمات بحوران لستتين ونصف من خلافة عمر، سنة خمس عشرة من الهجرة[(١)].

وقال محمد بن عمر: حدثنا يحيى بن عبد العزيز بن سعد بن عبادة عن أبيه قال: ما علم بموت سعد حتى سمع بالمدينة غلمان فى بئر ممية أو بئر سكنهم، يقتحمون نصف النهار قائلا من البئر: [من الهزج]

قَتَلْنَا سَيِّدَ الخَزْرَ ... جِ سَعْدَ بْنَ عُبَادَهْ

رَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ ... فَلَمْ نُخْطِئْ فُؤَادَهْ

فذعر الغلمان، فحفظ ذلك اليوم، فوجدوه اليوم الذى مات فيه. وإنما جلس يبول فى ثقب فقتل ساعته، ووجدوه قد اخضرّ جلده - رضى الله عنه - قال: وكان سعد لا يصلى بصلاتهم، ولا يصوم بصومهم، وإذا حج لم يفض بإفاضتهم.

عن محمد [بن سيرين]: لما بويع أبو بكر، وتخلف على - كرم الله وجهه - عن مبايعته، وجلس فى بيته بعث إليه أبو بكر: ما أبطأ بك عنى ؟! أكرهت إمارتى ؟! قال على: ما كرهت إمارتك، ولكنى آليت ألا أرتدى بردائى إلى الصلاة حتى أجمع القرآن. قال ابن سيرين: فبلغنى أنه كتبه علىّ على تنزيله، ولو أصيب ذلك الكتاب لوجد فيه علم كثير[(٢)].

وعن عائشة - رضى الله عنها - أن عليا مكث ستة أشهر حتى توفيت فاطمة - رضى الله تعالى عنها -، ثم بايع أبا بكر، ولم يبايع أحد من بنى هاشم حتى بايع على، رضى الله عنه وكرم وجهه[(٣)].

وفى البخارى من حديث عائشة أن فاطمة أرسلت إلى أبى بكر؛ تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ[(٤)]، قال الذهبى: قال الزهرى، عن عروة، عن عائشة: إن فاطمة سألت أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ: أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه من المدينة، وفَدَك، وسهمه من خيبر، فقال لها: إن رسول الله

(١) ينظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٤٦٣)، والرياض النضرة (١/ ٢٤١).
(٢) ينظر: الرياض النضرة (١/ ٢٤٢).
(٣) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ٣٣٤): وأما ما يأتي من مبايعته إياه بعد موت فاطمة، وقد ماتت بعد أبيها عليه السلام بستة أشهر، فذلك محمول على أنها بيعة ثانية أزالت ما كان قد وقع من وحشة بسبب الكلام في الميراث.
(٤) تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين-٢١).

ﷺ قال: « لا نورث ما تركناه صدقة » فغضبت، وهجرت أبا بكر فلم تكلمه حتى توفيت، ودفنها على ليلا ولم يؤذِن بها أبا بكر[(١)]، وأرسل أزواج النبى ﷺ إلى أبى بكر، يسألنه ميراثهن مما أفاء الله على رسوله حتى كنت أنا رددتهن، فقلت لهن: ألا تتقين الله، ألم تسمعن من رسول الله ﷺ يقول « لا نورث، ما تركناه صدقة » وإنما يأكل آل محمد فى هذا المال كفافا »[(٢)].

وقال أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة يرفعه: أن رسول الله ﷺ قال: « لا يقتسم ورثتى دينارا، ولا درهما، ما تركت بعد نفقة نسائى، ومؤنة عيالى فهو صدقة »[(٣)].

وعن أبى صالح مولى أم هانئ: أن فاطمة دخلت على أبى بكر فقالت: يا أبا بكر أرأيت لو متَّ اليوم، من كان يرثك ؟ قال: أهلى، وولدى، فقالت: مالك ترث رسول الله ﷺ دون أهله، وولده ؟ قال: ما فعلت، يا بنة رسول الله، قالت: بلى، قد عمدت إلى فدك، وقد كانت صافية لرسول الله، فأخذت، وعمدت إلى ما أنزل الله من السماء، فرفعته منا! فقال: لم أفعل، حدثنى رسول الله ﷺ: أن الله يطعم النبى الطعمة ما كان حيًا، فإذا قبض رفعها. قالت أنت ورسول الله أعلم، ما أنا بسائلتك بعد مجلسى هذا[(٤)].

وعن أبى الطفيل: لما قبض النبى ﷺ أرسلت فاطمة إلى أبى بكر: أنت ورثتَ رسول الله ﷺ، أم أهله ؟! قال: لا، بل أهله! قالت: فأين سهمه ؟ قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ، يقول: « إن الله إذا أطعم نبيا طعمة، ثم قبضه جعلها للذى يقوم من بعده »، فرأيت أن أرده على المسلمين. قالت: أنت، وما سمعت من رسول الله - أعلم - رواه أحمد فى مسنده[(٥)].

وعن أنس - رضى الله عنه - أن فاطمة أتت أبا بكر، فقالت: قد علمنا الذى

(١) أخرجه البخاري (٤٢٤٠،٤٢٤١)، ومسلم (٥٢-١٧٥٩).
(٢) أخرجه البخاري (٤٠٣٤)، ومسلم (٥١-١٧٥٨) من حديث عائشة.
(٣) أخرجه البخاري (٣٠٩٦)، ومسلم (٥٥-١٧٦٠).
(٤) ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين-٢٢) من طريق محمد بن السائب عن أبي صالح به وقال الذهبي: محمد بن السائب متروك.
(٥) أخرجه أحمد (١/ ٤)، وأبو داود (٢٩٧٣). وقال الذهبي: منكر، وأنكر ما فيه قوله: «لا، بل أهله».

خلفنا عنه من الصدقات أهل البيت، ثم قرأت عليه: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الانفال : ٤١] إلى آخر الآية، فقال لها بأبى، وأمى أنت، ووالدك، وعلى السمع، والبصر كتاب الله وحق رسول الله، وحق قرابته، أنا أقرأ من كتاب الله مثل الذى تقرئين، ولا يبلغ علمى فيه أن لذى قرابة رسول الله ﷺ هذا السهم كله من الخمس يجرى بجملته عليهم قالت: أفلك هو، ولقرابتك ؟! قال: لا، وأنت عندى أمينة مصدقة، فإن كان رسول الله ﷺ عهد إليك فى ذلك عهدًا، أو وعدك موعدًا أوجبه لكم حقًّا صدقتك، وسلمته إليك. قالت: لا، إلا أن رسول الله ﷺ حين أنزل عليه ذلك، قال: أبشروا آل محمد؛ فقد جاءكم الغنى - قال أبو بكر: صدقت فلك الغنى، ولم يبلغ علمى فيه، ولا لهذه الآية سهم أن يسلم هذا السهم كله كاملا، ولكن لكم الغنى الذى يغنيكم، ويفضل عنكم، فانظرى هل يوافقك على ذلك أحد منهم ؟ فانصرفت إلى عمر، فذكرت له كما ذكرت لأبى بكر، فقال لها مثل الذى راجعها به أبو بكر؛ فعجبت، فظنت أنهما قد تذاكرا ذلك، واجتمعا عليه[1].

قال أبو حمزة العسكرى، عن ابن أبى خالد، عن الشعبى قال: لما مرضت فاطمة - رضى الله عنها - أتاها أبو بكر، فاستأذن، فقال على: يا فاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليك، فقالت: أتحب أن آذن له ؟ قال: نعم، فأذنت له، فدخل عليها يترضاها، فقال: والله ما تركتُ الدار، والمال، والأهل، والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله، ورسوله، ومرضاتكم أهل البيت. ثم ترضاها حتى رضيت، رضى الله تعالى عنها[2].

وعن الزهرى قال: حدثنى من سمع من ابن عباس يقول: كان عمر عرض علينا أن يعطينا من الفىء ما يرى أنه لنا من الحق، فرغبنا عن ذلك وقلنا له: ما سمى الله من حق ذى القربى، وهو خمس الخمس، فقال عمر: ليس لكم ما تدعون لكم حق، إنما جعل الله الخمس لأصناف سماهم، أسعدهم فيه حظا أشدهم فاقة، وأكثرهم

---

(١) ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام عهد الخلفاء الراشدين (٢٤).
(٢) ذكره الذهبي (عهد الخلفاء-٤٧) وذكره ابن كثير في البداية (٦/٣٦٦) وعزاه للبيهقي ونقل قوله: هذا مرسل حسن بإسناد صحيح.

عيالا. قال: فكان عمر يعطى من قبل منا من الخمس والفئ ما يرى أنه لنا، فأخذ منا ناس، وترك ناس(١).

وذكر أن مالك بن أوس بن الحدثان النضرى، قال: كنت عند عمر - رضى الله عنه - فأتاه حاجبه يرفأ، فقال: هل لك فى: عثمان، والزبير، وعبد الرحمن، وسعد يستأذنون؟ قال: نعم، فدخلوا، وسلموا، وجلسوا، ثم لبث يرفأ قليلا، ثم قال لعمر: هل لك فى على، والعباس؟ قال: نعم، فلما دخلا سلما، فجلسا. فقال العباس: يا أمير المؤمنين اقض بينى وبين هذا الظالم الفاجر الغادر الخائن - قلت: العلم أمانة، ولولا أن هذه الألفاظ مذكورة فى فتح البارى وغيره لما ذكرتها، رضى الله تعالى عنهما وأرضاهما - فاستبّا، فقال عثمان، وغيره: يا أمير المؤمنين، اقض بينهما، وأرح أحدهما من الآخر، فقال: أنشدكما بالله، هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال: لا نورث ما تركناه صدقة؟ قالا: قد قال ذلك. قال فإنى أحدثكم عن هذا الأمر، إن الله كان قد خص رسوله فى هذا الفىء بشىء لم يعطه غيره، فقال - تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحشر: ٦] فكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ، وايمُ الله ما اختارها دونكم، ولا استأثر بها عليكم، لقد أعطاكموها، وبثها فيكم حتى بقى منها هذا المال، فكان رسول الله ﷺ ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال، ثم يجعل ما بقى مجعل مال الله، أنشدكما بالله، هل تعلمان ذلك؟ قالا: نعم. قال: ثم توفى الله نبيه، فقال أبو بكر: أنا ولى رسول الله ﷺ، وخليفته، فقبضها، وعمل فيها بما عمل به رسول الله ﷺ، وأنتما تزعمان أن أبا بكر فيها كاذب، فاجر، غادر، والله يعلم إنه فيها لصادق، بار، راشد، ثم توفاه الله، فقلت: أنا ولى رسول الله ﷺ، وولى أبى بكر، فقبضتها سنتين من إمارتى، أعمل فيها بعمله، وأنتما حينئذ - وأقبل على على والعباس - تزعمان أنى فيها كاذب، فاجر، غادر، والله يعلم أنى فيها لصادق، بار، راشد تابع للحق، ثم جئتمانى وكلمتكما واحدة، وأمركما جميع، فجئتنى تسألنى عن نصيبك يا عباس، من ابن أخيك، وجاءنى هذا - يشير إلى على - يسألنى عن نصيب امرأته من أبيها،

(١) ذكره الذهبي (عهد الخلفاء -٢٤).

فقلت لكما: إن رسول الله ﷺ قال « لا نورث، ما تركناه صدقة » فلما بدا لى أن أدفعها إليكما قلت: إذا شئت دفعتها إليكما على أن عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل فيها رسول الله ﷺ، وبما عمل فيها أبو بكر، وإلا فلا تكلمانى، فقلتما: ادفعها إلينا بذلك؛ فدفعتها إليكما. أنشدكما بالله، هل دفعتها إليكما بذلك ؟ قالا: نعم. قال: أفتلتمسان منى قضاء غير ذلك ؟! فوالذى بإذنه تقوم السماء والأرض، لا أقضى فيها غير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها؛ فادفعاها إلىّ أكفيكماها[١]. فانصرفا. فكانت هذه الصدقة بيد على، غلب عليها العباس، ثم كانت بيد الحسين، ثم بيد على بن الحسين، والحسن المثنى ابن الحسن السبط، يتداولانها، ثم بيد زيد، وهى صدقة رسول الله ﷺ حقًّا[٢].

قال العلامة السيوطى - رحمه الله تعالى - لما توفى رسول الله ﷺ اشرأب النفاق، وارتدت العرب، وانحازت الأنصار، واختلفوا أين يدفن رسول الله ﷺ، فما وجد عند أحد من ذلك علم، فقال أبو بكر - رضى الله عنه -: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من نبى يقبض إلا دفن تحت مضجعه الذى مات فيه »[٣]، واختلفوا فى ميراثه، فما وجدوا عند أحد علمًا من ذلك، فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة »[٤].

قال بعض العلماء: هذا أول اختلاف وقع بين الصحابة.

ولما اشتهرت وفاته - عليه الصلاة والسلام - بالنواحى وارتدت طوائف من العرب، ومنعوا الزكاة؛ نهض أبو بكر الصديق إلى قتالهم، فقال عمر: فتر عن قتالهم، فقال أبو بكر: والله لو منعونى عقالاً - أو عناقًا - كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر: كيف نقاتلهم، وقد قال - عليه الصلاة والسلام -: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها، وحسابه على الله ؟! فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، وقد قال: « إلا

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (٤٩-١٧٥٧).
(٢) ذكره الذهبي (عهد الخلفاء الراشدين -٢٧).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم قريبًا.

بحقها »، قال عمر: فوالله ما هو، إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر - رضى الله عنه - للقتال؛ فعرفت أنه الحق[١].

وذكر جماعة من المؤرخين، وغيرهم: أن رسول الله ﷺ كان وجه أسامة بن زيد - رضى الله عنهما - فى سبعمائة رجل إلى الشام، فلما نزل بذى خُشب قبض رسول الله ﷺ، وارتدت العرب، فاجتمعت الصحابة - رضى الله عنهم - وقالوا للصديق: ردّ هؤلاء - يعنى أسامة وأصحابه - فقال: والله الذى لا إله إلا هو، لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبى ﷺ ما رددت جيشًا جهزه رسول الله ﷺ، ولا حللت لواء عقده رسول الله ﷺ، وأمر أسامة أن يمضى لوجهه، وقال أبو بكر: أرأيت أن تأذن لعمر - رضى الله عنه - بالمقام عندى، أستأنس به، وأستعين برأيه؟ فقال أسامة - رضى الله عنه - قد فعلت.

وسار أسامة، فجعل لا يمر بقبيلة تريد الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هذا الجيش من عندهم، فلقوا الروم، فقاتلوهم، وهزموهم، ورجعوا سالمين[٢].

وكان لعلى من الناس وجه حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر عليّ وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبى بكر، ولم يكن بايع تلك الأشهر، فأرسل ابنه الحسن إلى أبى بكر: أن ائتنا، ولا يأتنا أحد معك، وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدته، فقال عمر: والله لا تدخل عليهم وحدك. فقال أبو بكر: والله لآتينهم وحدى، وما عسى أن يصنعوا بى ؟! فانطلق أبو بكر حتى دخل على عليّ وقد جمع بنى هاشم عنده، فقام عليّ، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد فإنه لم يمنعنا أن نبايعك إنكار لفضيلتك، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقًا، فاستبديتم به علينا، ثم ذكر قرابته منه - عليه الصلاة والسلام - وحقه، فلم يزل على يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر.

فلما صمت على - رضى الله عنه - تشهد أبو بكر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فوالله، لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصلهم من قرابتى، والله

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٩، ١٤٠٠)، ومسلم (٣٢-٢٠) من حديث أبي هريرة.
(٢) ينظر البداية والنهاية (٦/ ٣٣٦).

ما آلوكم فى هذه الأحوال التى كانت بينى وبينكم من الخير، ولكنى سمعت من رسول الله ﷺ يقول: « لا نورث، ما تركناه صدقة، وإنما يأكل آل محمد من هذا المال. . . » إلى آخر ما تقدم.

وفى رواية: « أما بعد فوالله ما فعلت ذلك إلا أنى خشيت الفتنة. . . » إلى آخر ما تقدم من قوله لفاطمة فى السابق - « وإنى والله لا أذكر صنيعه فيه إلا صنعته »، إن شاء الله تعالى.

ثم قال عليّ: موعدك العشية للبيعة. فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس، ثم عذر عليًّا ببعض ما اعتذر به له، ثم قام عليّ، فعظم من حق أبى بكر، فذكر فضيلته وسابقته، ثم مضى إلى أبى بكر، فبايعه، وأقبل الناس على عليّ، فقالوا: أصبت، وأحسنت. هذا حديث صحيح، متفق عليه[1].

قال فى الرياض: قوله: « استبديتم » أو « استبددتم » أى انفردتم به دوننا. وقوله: « كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقًّا » المراد بالأمر: الخلافة، ويؤيده: أن عليًّا بعث إلى أبى بكر؛ ليبايعه، فقدم العذر فى تخلفه أولاً، فقال: لم نمتنع نفاسة عليك، ولا كذا، ولا كذا ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقًّا، فعلم بالضرورة أن الأمر المشار إليه بلام العهد هو: ما تضمنه الكلام الأول، فالمراد به حق فى الخلافة إما بمعنى الأحقية أى: كنا نظن أنا أحق منكم بهذا الأمر بقرابتنا من رسول الله ﷺ مضافًا إلى ما اجتمع فينا من أهلية الإمامة مما ساوينا فيه غيرنا، وإما بمعنى أنى أستحق استحقاقًا مساويا لاستحقاقكم على تقدير انضمام القرابة إليه إذ القرابة معنى تحصل به الراجحية وإنه ليس بأحق، ولا يلزم من تخلفه تلك المدة عدم صحة خلافة أبى بكر، ولا من سكوته عن الإنكار الإقرار على الباطل؛ لأنا نقول: إن تخلفه لرؤيته الأحقية له كان أول وهلة، وغاب عنه إذ ذاك ما كان يعلمه من حق أبى بكر[2]، وفيه من قول رسول الله ﷺ مما سيذكر فى فضائله من الأربعة عشر الحديث الدالة على خلافته ظاهرًا، بل وصريحًا إن صحت زيادة قوله فى الحديث: « وهو الخليفة من بعدى »[3]، فلما اجتمع الجم الغفير على ولاية أبى بكر - اتهم

(١) أخرجه البخاري (٤٢٤٠، ٤٢٤١)، ومسلم (٥٢-١٧٥٩)، وانظر الرياض النضرة (١/ ٢٤٣).
(٢) انظر في ذلك الرياض النضرة (١/ ٢٤٣- ٢٤٤).
(٣) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٢/ ٤٧) من حديث ابن عباس في فضل على بن أبي طالب، =

نظره فى حق نفسه، ثم إنه لم ير المبادرة إلى إظهاره والمطالبة بمقتضاه حتى بذل جهده فى التنقير والنظر وإمحاص الفكر، فإن ذلك من الوقائع العظيمة فى الدين، وفيه تفريق كلمة من أجمع من المسلمين، فلم يقنع فيه بتبادر النظر، خشية استمالة الهوى الجبلى، وحب الرياسة الطبيعى، ولا رأى الموافقة لما استقر فى ذهنه من رؤية أحقيته فيما يستحق به الإمامة، وتعين وجوب القيام بالأمر عليه لكونه أحق، وكان ذلك فى بادى النظر قبل الإمعان فيه، فتخلف عن الأمرين؛ سالكًا فى ذلك الطريق الورع والاحتياط فيما عنده، باذلاً جهده فى الاجتهاد والنظر تلك المدة مجتهدًا، فلما تبين له أحقية أبى بكر وفضيلته، بتذكر مقتضيات الأفضلية، ووافق ذلك موت فاطمة - رضى الله عنها - أرسل إلى أبى بكر، واعتذر إليه: بأنه استبان أحقيته، وسياق هذا اللفظ مشعر: بأن تلك الرؤية قد زالت، ولم يكن ذكره القرابة إقامة للحجة على أبى بكر، فإنه يعتذر، ولا تليق المحاجة بالمعتذر، وإنما كان إظهارًا لمستند تخلفه، وبيانًا لمعتمد تمسكه، لكيلا يظن فيه أن تخلفه كان لهوى متبع بغير هدى من الله تعالى لا عن اجتهاد ونظر، وإن لم يكن صحيحًا، إذ المجتهد معذور، وإن أخطأ، ولذلك كان له أجر.

وهذا التأويل مما يجب اعتقاده، وينبغى المصير إليه.

وما قاله بعضهم من أنه - رضى الله عنه - إما أن يعتقد صحة خلافة أبى بكر مع أحقيته فيكون تخلفه عن البيعة، ومفارقة الجماعة، ونزع ربقة الطاعة - عدولاً عن الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال، وهو مبرأ عن ذلك، ومنزه عنه، أو لا يعتقد صحتها؛ فيكون قد أقر على الباطل؛ لأنه - رضى الله عنه - قد أقر الطير على مكانها، ولم يظهر منه نكير على فعلهم لا بقول ولا بفعل مع قوة إيمانه، وشدة بأسه، وكثر ناصره، وكفى بفاطمة، والعباس عمه، وبنى هاشم بأجمعهم ومن معه من الصحابة ظهيرًا ونصيرًا مع ما أسس له - عليه الصلاة والسلام - من القواعد فى العقائد، وأن موالاته ومحبته، من محبته والدعاء لمن والاه وعلى من عاداه، ومع ذلك كله لم يظهر منه ما يقتضيه حال مثله من إنكار الباطل بحسب طاقته، فلو كان

= وفيه: وهو بابي الذي أوتى به، وهو خليفتي من بعدي. قلت: فيه داهر بن يحيى الرازي؛ قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢١١): قال يحيى بن معين: داهر ليس بشيء يكتب عنه إنسان فيه خير.

باطلاً لزم تقريره الباطل، واللازم باطل كذلك، فالملزوم كذلك، فقد تقدم الجواب عنه آنفًا. والقول الذى تدعيه الروافض ومن نحا نحوهم: أن سكوته كان تقية، باطل غريق فى البطلان، فإن مقتضى ذلك: إما ضعف فى الدين، أو فى الحال.

فالأول: باطل اجماعًا، والثانى - أيضًا -: باطل لما قررنا آنفًا، ويؤيده قوله - عليه الصلاة والسلام - فى الحديث الذى رواه الحسن البصرى المتضمن نفى العهد إليه بالخلافة وفيه: « لو كان عندى عهد من النبى ﷺ فى ذلك ما تركت أخا [بنى] تيم بن مرة، وعمر بن الخطاب، يقومان على منبره، ولقاتلتهما [بيدى] ولو لم أجد إلا بردتى هذه » الحديث.

وهذا أدل دليل على أنه لم يسكت تقية، إذ لو علم بطلان ذلك وأنه المتصف بها دونه لتعين عليه القيام، وكان كالعهد إليه. وقد أخبر - رضى الله عنه - أنه لو تعين عليه بالعهد إليه لقاتل، ولقد أحسن الحسن بن الحسن بن على - رضى الله تعالى عنهم - حيث قال لبعض الروافض: « لو كان الأمر كما تقولون: أن النبى ﷺ اختار عليًا لهذا الأمر والقيام على الناس بعده - كان عليّ أعظم الناس جرمًا وخطيئة إذ ترك أمر رسول الله ﷺ أن يقوم به، ويُعذر إلى الناس ». فقال له الروافض: ألم يقل - عليه الصلاة والسلام -: « من كنت مولاه، فعليّ مولاه »(1) فقال الحسن: أما والله لو يعنى بها [رسول الله ﷺ] الأمر والسلطان لأفصح به كما أفصح بالصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ولقال: أيها الناس إنه الولى بعدى فاسمعوا له وأطيعوا. أخرجه ابن السمان فى الموافقة(2).

فإن قيل: ألا يجوز أن يكون المراد بالأمر فى قول عليّ الميراث، وبالحق حق الميراث، فيكون تقدير الكلام: كنا نظن أن لنا قسمًا خلفه رسول الله ﷺ حقًا، وأنك منعتنا إياه، وأصررت على المنع؛ فلم تصح لذلك خلافتك؛ فلذلك تخلفنا عن البيعة، ويدل على هذا جواب أبى بكر بنفى الميراث على الرواية الأولى، وإلا

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٠)، وفي الفضائل (١١٦٧)، والنسائي في الخصائص (٩٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١٣٦٧)، وابن حبان (٦٩٣١) من حديث علي وزيد بن أرقم، وأخرجه الترمذي (٣٧١٣) من طريق شعبة عن سلمة بن كهيل قال سمعت أبا الطفيل يحدث عن أبي سريحة أو زيد بن أرقم شك شعبة عن النبي ﷺ قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٥٠).

(٢) ينظر: كلام صاحب الرياض بطوله في الرياض النضرة (١/ ٢٤٦-٢٤٧).

لما كان جوابًا، فوجب المصير إلى هذا المعنى صونًا لكلام هذا الفصيح عن الزلل، وهو من أفصح العرب وأعرفهم بما يقول ؟ قلنا: صورة الحال وسياق المقال يشهدان بخلافه، ويتبرآن منه. فإن اعتذار على - رضى الله عنه - إنما كان عن تخلفه عن البيعة، فقال: « لم يمنعنا أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك، ولا نفاسة لخير ساقه الله إليك . . . » إلى آخره، ولم يجر فى حديثه ذكر الميراث، والمبادر منه إلى الفهم عند سماع هذا اللفظ ليس إلا الخلافة.

وجواب أبى بكر - رضى الله عنه - محمول على تقدم كلام آخر تركه الراوى ويكون لما فرغ على - رضى الله عنه - من قوله: كنا نظن أن لنا فى هذا الأمر حقًا تعرض لذكر الميراث، ثم اعتذر عن المبايعة فأغنى أبا بكر عن الجواب عن قوله: كنا نرى، إذ يقتضى أن تكون تلك الرؤية سابقة، ثم انقطعت، وأن رؤيته الآن غير تلك. هذا هو المفهوم من سياق لفظه - كرم الله وجهه - فما عسى أن يقول له أبو بكر وقد دل كلامه على تغير نظره، والإجابة على مبايعته ورؤية الحق فى ذلك، فاستغنى أبو بكر عن جواب فصل البيعة، وعدل إلى جواب فصل الميراث. أو نقول: لم يجر للميراث فى هذا المجلس ذكر إلا أنه كان قد ذكر قبل ذلك، وجرى فى حديث فاطمة - رضى الله تعالى عنها - حين جاءت إلى أبى بكر، فطلبت الميراث، فلما كان ذلك المجلس المعقود لإزالة صورة الوحشة الظاهرة، والدخول فيما دخلت فيه الجماعة، واعتذر عليّ بما اعتذر به، وقبل أبو بكر عذره، ثم أنشأ أبو بكر ذكر الميراث معتذرًا مما توهم فيه أولاً نافياً له حالفًا على الاتصاف بخلافه، محتجًا بالحديث الذى ذكره، وقصد بذلك إزالة بقايا الوحشة إن كانت حتى لا يبقى لها أثر.

وأما منع أبى بكر فاطمة عن الإرث، فادعت الرافضة أن فى ذلك منه احتجاجًا بخبر الواحد مع معارضته لآية المواريث التى استدلت بها فاطمة - رضى الله عنها - وليس ادعاؤهم صحيحًا، إذ هو - رضى الله تعالى عنه - لم يحكم بخبر الواحد الذى هو محل الخلاف، وإنما حكم بما سمعه من رسول الله ﷺ، وهو عنده قطعى، فيساوى آية المواريث فى قطعية المتن.

وأما حمله على ما فهم منه فلانتفاء الاحتمالات التى يمكن تطرقها إليه بقرينة

الحال، فصار عنده دليلاً قطعيًا مخصصًا لعموم تلك الآيات، مع أن أبا بكر - رضى الله تعالى عنه - لم ينفرد برواية هذا الحديث، فقد رواه: أمهات المؤمنين، وعليّ نفسه، والعباس، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وسعد، كلهم كانوا يعلمون ذلك، وإنما انفرد أبو بكر - رضى الله تعالى عنه - باستحضاره أولاً ثم استحضره الباقون، وعلموا أنهم سمعوه منه ﷺ.

فالصحابة فى موافقتهم أبا بكر على حكمه لم يعملوا برواية أبى بكر وحدها، وإن كانت كافية أي كافية فى ذلك، وإنما عملوا بها وبما انضم إليها من علم أفاضلهم الذين ذكرناهم.

وأما عذر فاطمة - رضى الله عنها - فى طلبها مع روايته لها الحديث، فيحتمل أنه لكونها رأت أن خبر الواحد لا يخصص القرآن كما قيل به فاتضح عذره فى المنع وعذرها فى الطلب، فلا يشكل عليك ذلك. قاله العلامة ابن حجر. قلت: قد تقدم فيما نقله الذهبى، عن الزهرى برواية صالح مولى أم هانئ أن فاطمة قالت لأبى بكر بعد روايته الحديث لها: أنت ورسول الله أعلم، ما أنا بسائلتك بعد مجلسى هذا، فهجرته فلم تكلمه حتى ماتت، صريح كما ترى فى أنها لم تسأله بعد روايته الحديث، فلا حاجة إلى الاعتذار عنه بما ذكره. والله أعلم.

فعلم بما ذكرناه إجماع الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - على حقيقة خلافة الصديق، وأنه أهل لها، وذلك كاف، ولم يرد نص عليها بل الإجماع أقوى من النصوص التى لم تتواتر؛ لأن مفاده قطعى، ومفادها ظنى.

وحكى النووى بأسانيد صحيحة عن سفيان الثورى: من قال: إن عليًا كان أحق بالولاية من أبى بكر، فقد خطأ أبا بكر، وعمر، والمهاجرين، والأنصار، وما أراه يرتفع له مع هذا عمل إلى السماء.

وأخرج الدارقطنى عن عمار بن ياسر نحوه.

فإن قيل: الحديث الأول: يدل على أن سبب التخلف الألية على أنه لا يرتدى رداءه إلا إلى الصلاة حتى يجمع القرآن، وحديث الحسن فى دعائه أبا بكر يدل على أن التخلف كان لما رآه من أن له حقًا، فكيف يجمع بينهما ؟ أم كيف تكون الألية - يعنى القسم - عذرًا فى التخلف عن الأمر الواجب المتعين، والحنث لأجله واجب

كنظيره فى التخلف عن الصلاة الواجبة، قلنا: الجمع يمكن بأن يكون سبب الامتناع عن البيعة وتخلفه أولاً: ما ذكره من قوله كنا نظن، ثم خطر له - كرم الله وجهه - جمع القرآن، وهو فى مهلة النظر المتقدم ذكره فآلى تلك الألية، ثم أرسل إلى أبى بكر، ثم لقيه عمر، فقال له: تخلفت عن بيعة أبى بكر، فقال: « إنى آليت . . . » إلى آخره، ووافى ذلك ظهور أحقية أبى بكر عنده، فأرسل إليه معتذرًا فى التخلف، واقتضى نظره له إذ ذاك أن هذا القدر كاف فى الطواعية، والانقياد، والدخول فيما دخل فيه الجماعة، فلم ير الحنث مع البيعة؛ خشية أن ينقل عنه وينقسم نظره عند ملابسة الناس ومخالطتهم، فأقام إظهار عذره مقام حضوره إلا أنه رأى اليمين عذرًا؛ ولا أنه بقى على ما كان عليه من رؤية أحقيته. كذا فى الرياض[1].

رسالة أبى بكر الصديق - رضى الله تعالى عنه -، واتباع سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - إلى سيدنا على - كرم الله وجهه - مع سيدنا أبى عبيدة عامر بن الجراح - رضى الله تعالى عنه -، وجواب سيدنا على - كرم الله وجهه - عن ذلك، ومبايعته لأبى بكر - رضى الله تعالى عنهم أجمعين - عن أبى حيان على بن محمد التوحيدى البغدادى قال: سمرنا ليلة عند القاضى أبى حامد أحمد بن بشر المروروزى العامرى فى دار أبى حبشان فى شارع المازبان، فتصرف إلى الحديث كل متصرف، وكان أبو حامد - والله مفنًا، مِخْلطًا، مزيلاً، معنيا، غزير الرواية، لطيف الدراية، له فى كل جو متنفس، ومن كل نار مقتبس، فجرى حديث السقيفة وشأن الخلافة، فركب كل منا متنا، وقال قولاً، وعرض بشيء، ونزع إلى فن، فقال: هل فيكم من يحفظ رسالة سيدنا أبى بكر الصديق إلى سيدنا على، رضى الله تعالى عنهما، وجواب على له ومبايعته إياه عقب تلك المناظرة. فقالت الجماعة التى بين يديه: لا والله. قال: هى من بنات الحقاق ومخبآت الصناديق فى الخزائن، ومذ حفظتها ما رويتها إلا للمهلبى أبى محمد فى وزارته، وكتبها عنى بعده فى خلوة، وقال: لا أعرف على وجه الأرض رسالة أعقل منها ولا أبين، وإنها لتدل على حكم: وعلم، وفصاحة، وفقاهة، ودهاء، ودين، وبعد غور، وشدة غوص. فقال له أبو بكر العبادانى: أيها القاضى، لو أتممت المنة

(١) فى ط: الروض . وينظر: الرياض النضرة (١/ ٢٥٠-٢٥١).

بروايتها سمعناها، ونحن أوعى لها عنك من المهلبى، وأوجب ذمامًا عليك، فاندفع فقال: حدثنا الخزاعى بمكة: حدثنا ابن أبى ميسرة قال: حدثنا محمد بن فليح، أنبأنا عيسى بن دأب، أنبأنا صالح بن كيسان، ويزيد بن رومان - وكان معلم عبد الملك بن مروان - قال: أنبأنا هشام بن عروة قال: أنبأنى أبو النفاخ مولى أبى عبيدة ابن الجراح، وروى هذا الحديث، وكان له عليه جراءة ظاهرة وكان من محفوظاته القديمة، فلما كان بعد ذلك بدهر - ذاكرنا بأحرف من هذه الرسالة ابن هارون، وكان نسيج وحده: حفظًا، وبيانًا، واتباعًا، فعرفناه أن الحديث عندنا من جهة أبى حامد، فزعم أن أستاذه ابن شجرة أحمد بن كامل القاضى سرده ولم يكن فيه صالح بن كيسان، وذكر مولى أبى عبيدة أبا النفاخ بالنون والفاء وخالف فى أحرف، وأنا أكرر عليه الرسالة والحديث بعد ذكرهما، وأسمى حرفًا حرفًا مما وقع فيه الخلاف على جهة التصحيف، أو على جهة التحريف. على أننى ما سمعت بحديث فى طوله وغرابته بأحسن سلامة منه؛ وإنما ذلك لأنه صار إلينا من رواية هذين الشيخين العلامتين، وكان سماعنا من أبى حامد سنة ستين، ومن أبى منصور سنة خمس وسبعين.

قال أبو حامد: قال أبو النفاخ سمعت أبا عبيدة بن الجراح يقول: لما استقرت الخلافة لأبى بكر الصديق - رضى الله تعالى عنه - بين المهاجرين والأنصار، ولحظ بعين الهيبة والوقار، وإن كان لم يزل كذلك بعد هنية كاد الشيطان بها، فدفع الله شرها، ورحض عرها، ويسر خيرها، وأزاح ضيرها، ورد كيدها، وقصم ظهر النفاق والفسوق من أهلها؛ بلغ سيدنا أبا بكر الصديق عن سيدنا على بن أبى طالب تلكؤ وشماس، وتهمهم ونفاس، وكره أن يتمادى الحال، وتبدو العداوة، وتنفرج ذات البين ويصير ذلك دريئة لجاهل مغرور أو، عاقل ذى وهن، أو صاحب سلامة ضعيف القلب خوار العنان، دعانى، فحضرته وعنده سيدنا عمر بن الخطاب وحده، وكان يُدمن أرضه بالسرجين، وكان عمر قباله ظهيرًا معه يقتبس برأيه ويستملى على لسانه، فقال لى أبو بكر الصديق: يا أبا عبيدة ما أيمن ناصيتك، وأبين الخير بين [عينيك و] عارضيك، ولقد كنت من رسول الله ﷺ بالمكان المحوط والمحل المغبوط، ولقد قال فيك فى يوم مشهود « أبو عبيدة أمين هذه الأمة »[1]، وطال

(١) أخرجه البخاري (٣٧٤٤)، ومسلم (٥٣-٢٤١٩) من حديث أنس بن مالك.

ما أعز الله بك الإسلام، وأصلح فساده على يديك، ولم تزل: للدين ملجأ، وللمؤمنين دوحًا، ولأهلك ركنا، ولاخوانك ردءًا؛ قد أردتك لأمر له ما بعده، خطره مخوف، وصلاحه معروف؛ وإن لم يندمل جرحه بمسبرك، ولم تستجب حيته لرقيتك - فقد وقع اليأس، وأعضل البأس، واحتيج بعد ذلك إلى ما هو أمر من ذلك وأعلق، وأعسر منه وأغلق؛ والله أسأل تمامه بك، ونظامه على يديك؛ فتأت له يا أبا عبيدة، وتلطف فيه، وانصح لله تعالى ولرسوله ﷺ ولهذه العصابة غير آل جهدًا، ولا قال جدًّا، والله كالئك وناصرك، وهاديك ومبصرك، وبه الحول والتوفيق امض إلى عليٍّ ، واخفض جناحك له، واغضض من صوتك عنده، واعلم أنه سلالة أبى طالب ومكانه ممن فقدناه بالأمس ﷺ مكانه، وقل له: البحر مغرقه، والبر مفرقه، والجو أكلف، والليل أغلف، والسماء جلواء، والأرض صلعاء، والصعود متعذر، والهبوط متعسر، والحق رءوف عطوف، والباطل شنوف عنوف، والضغن رائد البوار، والتعريض شجار الفتنة، القعة ثقوب العداوة، وهذا الشيطان متكىء على شماله، متحبل بيمينه، نافج حضنيه لأهله ينتظر بهم الشتات والفرقة، ويدبّ بين الأمة بالشحناء والعداوة، عنادًا لله - عز وجل - ولرسوله ﷺ ولدينه، ناكبًا يوسوس بالفجور، ويُدلى بالغرور، ويمنى أهل الشرور، ويزجى إلى أوليائه بالباطل، دأبًا له مذ كان على عهد أبينا آدم عليه الصلاة والسلام، وعادة منه منذ أهانه الله - عز وجل - فى سالف الدهر، لا ينجى منه إلا عض الناجذين على الحق، وغض الطرف عن الباطل والعاجل ووطء هامة عدوّ الله وعدوّ الدين بالأشد فالأشد والأحدّ فالأحدّ، وإسلام النفس لله - عز وجل - فيما حاز رضاه وجنب سخطه، ولابد الآن من قول ينفع إذا ضر السكوت وخيف غبّه، ولقد أرشدك من أفاد ضالتك، وصادقك من أحيا مودته لك بعتابك، وأراد الخير بك من آثر البقاء معك، ما هذا الذى تسول لك نفسك، ويدوى به قلبك، ويلتوى به عليك رأيك، ويتخاوص دونه طرفك، ويسرى فيه ظعنك، ويتراد معه نفسك، وتكثر معه صعداؤك، ولا يفيض به لسانك، أعجمة بعد إفصاح، أم تلبيس بعد إيضاح ؟! أدين غير دين الله - عز وجهه- أخُلق غير خُلق القرآن ؟! أهدى غير هدى النبى ﷺ ؟! أمثلى يمشى إليه الضراء، أو تدب إليه الخمراء ؟!! أم مثلك ينقبض عليه الفضاء،

أو تكسف فى عينه القمراء ؟! ما هذه القعقعة بالشنان، وما هذه الوعوعة بالشنآن؛ إنك جد عارف باستجابتنا لله - عز وجل - ولرسوله، وخروجنا عن: أوطاننا، وأموالنا، وأولادنا، وأحبتنا؛ هجرة إلى الله تعالى ذكره؛ ولنصرة نبيه ﷺ، فى زمان أنت فيه فى كن الصبا وخدر الغرارة، غافل عما يشبب ويربب، لا تعى ما يراد ويشاد، ولا تحصل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جار عليه إلى غايتك التى إليها عدى بك، وعندها حط رحلك، غير مجهول القدر، ولا مجحود الفضل، ونحن فى أثناء ذلك نعانى أحوالاً تزيل الرواسى، ونقاسى أهوالا تشيب النواصى، خائضين غمارها، راكبين تيارها، نتجرع صابها، ونشرح عيابها، ونكرع عبابها، ونحكم أساسها، ونبرم أمراسها، والعيون تحدج بالجد، والأنوف تعطس بالنكد، والصدور تستعر بالغيظ، والأعناق تتطاول بالفخر، والشفار تشحذ بالمكر، والأرض تميدُ بالخوف، ولا ننتظر عند المساء صباحًا، ولا عند الصباح مساء. ولا ندفع فى نحر أمر إلا أن نحسو الموت دونه، ولا نبلغ إلى شيء إلا بعد جرع الغصص معه، ولا نقوِّم منآدًا إلا بعد اليأس من الحياة عنده؛ فادين فى كل ذلك لرسول الله ﷺ بالأب والأم، والخال والعم، والنشب والسبد واللبد، والهلة والبلة، والأهل والولد، بطيب نفس، وقرور عين، ورحب أعطان، وثبات عزائم، وصحة عقول، وطلاقة وجه، وذلاقة ألسن. هذا إلى خفيات أسرار ومكنونات أخبار، كنت عنها غافلاً، ولولا حداثة سنك لم تكن عن شيء منها ناكلاً، كيف وفؤادك مشهوم، وعودك معجوم، وغيبك مخبور، والقول فيك كثير، والآن قد بلغ الله بك، وأرهص الخير لك، وجعل لك مرادك بين يديك، وعقلك بين عينيك، وعن علم أقول ما تسمع، فارتقب زمانك، وقلص إليه أردانك، ودع التعبيس والتحبيس بمن لا يظلع لك إذا خطا، ولا يتزحزح عنك إذا عطا، والأمر غض، والنفوس فيها مض.

وإنك أديم هذه الأمة، فلا تحلم لجاجًا؛ وسيفها العضب، فلا تنبو اعوجاجًا؛ وماؤها العذب، فلا تحل أجاجا.

والله لقد سألت رسول الله ﷺ عن هذا الأمر، فقال لى: يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه، لا لمن يرغب فيه، ويجاحش عليه؛ ولمن يتضاءل له، لا لمن ينتفجُ إليه، ولمن يقال له هو لك، لا لمن يقول هو لى.

والله لقد شاورنى رسول الله ﷺ فى الصهر، فذكر فتيانا من قريش، فقلت له: أين أنت من على؟ فقال إنى لأكره لفاطمة ضيق شبابه، وحداثة سنه، فقلت له: متى كنفته يدك، ورعته عينك، حفت بهما البركة، وأسبغت عليهما النعمة، مع كلام كثير خطبت به عنك، ورغبت فيك، وما كنت عرفت منك فى ذلك حوجاء ولا لوجاء، فقلت ما قلت وأنا أرى مكان غيرك، وأجد رائحة سواك، وكنت لك إذ ذاك خيرًا منك الآن لى، ولئن كان عرَّض بك رسول الله ﷺ، فقد كنى عن غيرك، وإن كان قال فيك، فما سكت عن سواك، وإن يختلج فى نفسك شيء فهلم، فالحكم مرضي، والصواب مسموع، والحق مطاع.

ولقد نُقل رسول الله ﷺ إلى ما عند الله - عز وجل - وهو عن هذه العصابة راض، وعليها حَدِبٌ، يسره ما يسرها، ويكيده ما يكيدها، ويرضيه ما يرضيها، ويسخطه ما أسخطها، ألم تعلم أنه لم يدع أحدًا من: أصحابه، وخلطائه، وأقاربه، وشجرائه، إلا أبانه بفضيلة، وخصه بمكرمة، وأفرده بجلالة، لو أصفقت الأمة عليه لكان عنده: إيالتها، وكفالتها، وكرامتها، وغزارتها، أتظن أنه ﷺ ترك الأمة نشرًا سدى، بيد عدا، عباهل سباهل، طلاحى مباهل، مفتونة بالباطل، مغبونة عن الحق، لا رائد ولا ذائد، ولا سائق، ولا قائد، ولا حائط ولا واقى، ولا هادى ولا حادى؟! كلا، والله ما اشتاق إلى ربه، ولا سأله المصير إلى رضوانه، حتى ضرب الصوى، وأوضح الهدى، وأمن المهالك والمطاوح، وسهل المبارك والمهايع، وإلا بعد أن شدخ يا فوخ الشرك بإذن الله - عز وجل - وشرم أنف النفاق لوجه الله تعالى جدُّه، وجدع أنف الفتنة فى ذات الله تبارك اسمه، وتفل فى وجه الشيطان بعون الله جل ذكره، وصدع بملء فيه ويده أمر الله عز وجل.

وبعد، فهؤلاء الأنصار والمهاجرون، عندك ومعك، فى دار واحدة، وبقعة جامعة، إن استقاموا بى لك، وأشاروا عندى بك، فأنا أول واضع يدى فى يدك، وصاير إلى رأيهم فيك، وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العون على مصالحهم، والفاتح لمغالقهم، والمرشد لضالهم، والرادع لغاويهم، فقد أمر الله - عز وجل - بالتعاون على البر، وأهاب إلى التناصر على الحق، ودعنا نقضى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل، ونلقى الله - عز وجل - بقلوب

سليمة من الضغن.

وبعد، فالناس ثمامة، فارفق بهم، واحن عليهم، ولن لهم، ولا تشق نفسك بنا خاصة فيهم، واترك ناجم الحقد حصيدًا، وطائر الشر واقعًا، وباب الفتنة غلقًا، فلا قال ولا قيل، ولا لوم ولا تبيع، والله عز وجل على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عبيدة - رضى الله عنه -: فلما تهيأت للنهوض، قال لى عمر - رضى الله تعالى عنه -: كن لدى الباب هُنيهة، فلى معك ذوق من القول، فوقفت ولا أدرى ما كان بعدى، إلا أنه لحقنى ووجهه يبدو متهللاً، وقال: قل لعلى: الرقاد محلمة، واللجاج ملحمة، والهوى مقحمة، وما منا إلا له مقام معلوم، وحق مشاع أو مقسوم، ونبأ ظاهر أو مكتوم، وإن أكيس الكيس، من منح الشارد تألفًا، وقارب البعيد تلطفًا، ووزن كل امرئ بميزانه، ولم يخلط خبره بعيانه، ولم يجعل فتره مكان شبره، ولا خيره مكان شره، ولا خير فى معرفة مشوبة بنكرة، ولا علم معتل فى جهل: [من المتقارب]

وَلَسْنَا كَجِلْدَةِ رفع الْبَعِيـ ـرِ بَيْنَ الْعِجَانِ وَبَيْنَ الذَّنَبْ

وكل صال فبناره، وكل سيل فإلى قراره، وما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه الغاية لِعى ولا سى، ولا كلامها اليوم لفتق ولا رتق، ولا فرق ولا رهق، قد جدع الله لمحمد ﷺ أنف كل ذى كبر، وقصم ظهر كل جبار، وقطع لسان كل كذوب، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ما هذه الخنزوانة التى فى فراش رأسك، وما هذا الشجى المعترض فى مدارج أنفاسك، وما هذه الوحرة التى أكلت شراسيفك، والقذاة التى أعشت ناظريك، وما هذا الدحس والداسُ اللذان يدلان على ضيق الباع، وخور الطباع، وما هذا الذى لبست بسببه جلد النمر، واشتملت عليه بالشحناء والنكر، شذ ما استسعيت إليها، وسريت سرى ابن أنقد إليها.

إن العوان لا تعلم الخمرة، وإن الحصان لا تكلم لخبرة، ما أحوج الصلعاء إلى خال، وما أحوج الفرعاء إلى فال.

لقد خرج رسول الله ﷺ والأمر معبد محبس، ليس لأحد فيه ملمس ولا مأنس، لم يسير فيك قولاً، ولم يستنزل فيك قرآنًا، ولا عرف فى شأنك حكمًا. ولسنا فى كسروية كسرى، ولا قيصرية قيصر، ولا أخدان فارس، وأبناء الأصفر، قومًا جعلهم

الله جزرًا لسيوفنا وأرماحنا، ومزعًا لطعاننا، وتبعًا لسلطاننا، بل نحن فى نور نبوة، وضياء رسالة، وثمرة حكمة، وأثر رحمة، وعنوان نعمة، وظل عصمة، بين أمة مهدية بالحق والصدق، مأمونة على الفتق والرتق، لها من الله - عز وجل - قلب أبىّ، وساعد قوى، ويد ناصرة، وعين باصرة.

أتظن ظنًا أن أبا بكر الصديق وثب على هذا الأمر، مفتئتا على الأمة خادعًا لها، متسلطًا عليها ؟! أتراه امتلخ أحلامها، وأزاغ أبصارها، وحل عقدها ، وأحال عقولها، واستلب من صدورها حميتها، وانتزع من أكبادها عصبيتها، وانتكث رشاها، وانتضب ماءها، وأضلها عن هُداها، وساقها إلى رداها، وجعل نهارها ليلاً، ووزنها كيلاً، ويقظتها رقادًا، وصلاحها فسادًا.

إن كان هكذا إن سحره لمبين، وإن كيده لمتين؛ كلا والله بأى خيل ورجل؛ وبأى سنان ونصل، وبأى قوة ومنة، وبأى ذخر، وبأى أيد وشدة، وبأى عشيرة وأسرة، وبأى تدرع وبسطة.

لقد أصبح عندك؛ بما وسمته منيع الرقبة، رفيع العتبة. لا والله ولكن سلا عنها، فولهت به، وتطامن لها؛ فلصقت به، ومال عنها، فمالت إليه، واشتمل دونها؛ فاشتملت عليه. حبوة حباه الله بها، وعاقبة بلغه الله إياها، ونعمة سربله الله جمالها، ويد أوجب الله عليه شكرها، وأمة نظر الله به إليها، ولطالما حلقت فوقه فى أيام رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت لفتها، ولا يرتصد وقتها، والله أعلم بخلقه ، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخيرة.

وإنك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوة، ومعدن الرسالة، وكهف الحكمة، ولا يجحد حقك فيما أتاك ربك، ولكن لك من يزاحمك بمنكب أضخم من منكبك، وقربى أمس من قرابتك، وسن أعلى من سنك، وشيبة أروع من شيبتك، وسيادة بها عرق من الجاهلية، وفرع من الإسلام والشريعة، ومواقف ليس لك فيها من جمل ولا ناقة، ولا تذكر منها فى مقدمة ولا ساقة، ولا تضرب فيها بذراع ولا إصبع، ولا تخرج منها ببازل ولا هُبع.

فإن عذرت نفسك فيما تهدر به شقشقتك من صاغيتك، فاعذرنا فيما تسمع منا فى لين وسكوت، مما لا تبعده منه، ولا تناضله عليه، ولئن حدبت بهذا نفسك،

لينتحين عليك ما ينسيك الأولى، ويلهيك عن الآخرة، ولو علم من ضننا به ما فى أنفسنا له وعليه؛ لما سكت ، ولا اتخذت أنت وليجة إلى بعض الأرب، فأما أبو بكر الصديق، فلم يزل حبة سويداء قلب رسول الله ﷺ، وعلاقة همه، وعيبة سره، ومثوى حربه، ومفزع رأيه ومشورته، وراحة كفه، ومرمق طرفه، وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار، شهرته مغنية عن الدلالة عليه.

ولعمرى إنك أقرب إلى رسول الله ﷺ قرابة، لكنه أقرب قربة، والقرابة لحم ودم، والقربة روح ونفس، وهذا فرق وقد عرفه المؤمنون؛ ولذلك صاروا أجمعين، ومهما شككت فيه، فلا تشك أن يد الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطاعة، فادخل فيما هو خير لك اليوم، وأنفع لك غدا، والفظ من فيك ما تعلق بلهاتك، وانفث سخيمة صدرك عن ثفاتك، فإن يك فى الأمد طول، وفى الأجل فسحة فستأكله مريئا، أو غير مرىء، وستشربه هنيئًا، أو غير هنىء، حين لا راد لقولك إلا من كان منك، ولا تابع لك إلا من كان طامعًا فيك، يمض إهابك، ويفرى قادمتك، ويزرى على هديك.

هناك تقرع السن من ندم، وتجرع الماء ممزوجًا بدم، وحينئذ تيأس على ما مضى من عمرك، ودارج قومك، فتود أن لو سقيت بالكأس التى أبيتها، ورددت إلى الحال التى استبريتها، ولله تعالى فينا أمر هو بالغه، وغيب هو شاهده، وعاقبة هو المرجو لضرائِها، وهو الولى الحميد، الغفور الودود.

قال أبو عبيدة - رضى الله عنه -: فمشيت متزملا أتوجأ كأنما أخطو على أم رأسى؛ فرقا من الفرقة، وشفقا على الأمة، حتى وصلت إلى على - رضى الله تعالى عنه - فى خلاء، فأبثثته الكلام كله، وبرئت إليه منه، ورفقت به، فلما سمعها ووعاها، وسرت فى أوصاله حمياها.

قال: حلت معلوطة، وولت مخروطة، حل لا حليت التعبيس، أدنى لها من قول لعا.

إِحْدَى لَيَالِيكَ فَهيسِى هيسي   لا تَنْعَمِى بالنومِ والتَّعْرِيسِ

نعم يا أبا عبيدة أكل هذا فى أنفس القوم، يجتمعون إليه ويصطفقون.

قال أبو عبيدة فقلت لا جواب لك عندى إلا السكوت، إنما أنا قاض حق الدين،

وراتق فتق الإسلام، وساد ثلمة الأمة، يعلم الله ذلك من خلجان قلبى، وقرارة نفسى. قال على - رضى الله عنه -: والله ما كان قعودى فى كسر هذا البيت؛ قصدا للخلافة، ولا إنكارا للمعرفة، ولا زراية على مسلم، بل لما وقذنى به رسول الله ﷺ بفراقه، وأودعنى من الحزن بفقده، وذلك أنى لم أشهد بعده مشهدًا إلا جدد لى حزنا، وذكرنى شجوا، وإن الشوق إلى اللحاق به كاف عن الطمع فى غيره، فقد عكفت على عهد الله أنظر فيه، وأجمع ما تفرق منه، رجاء ثواب معد لمن أخلص عمله ونيته لربه.

على أنى ما علمت أن التظاهر علىّ واقع، ولا لى عن الحق الذى سيق إلىّ دافع، وإذا كان قد أفعم الوادى لى، وحشد النادى من أجلى، فلا مرحبًا بما ساء أحدا من المسلمين، وفى النفس كلام لولا سابق قول، وسالف عهد، لشفيت غيظى بخنصرى وبنصرى، وخضت لجتى بأخمصى ومفرقى، لكنى ملجم إلى أن ألقى ربى عز وجل، وعنده أحتسب ما نزل بى، وأنا عادل إلى جماعتكم، ومبايع لصاحبكم، وصابر على ما ساءنى، وسركم؛ ليقضى الله أمرًا كان مفعولا، وكان الله على كل شىء شهيدا.

قال أبو عبيدة - رضى الله تعالى عنه -: فعدت إلى أبى بكر وعمر - رضى الله تعالى عنهما - فقصصت القول على غره، ولم اختزل شيئًا من حلوه ومره. فلما كان صباح يومئذ وافى على - رضى الله عنه -، فخرق إلى أبى بكر الصفوف، وبايعه، وقال خيرًا، ووصف جميلا، وجلس زمنا، واستأذن فى القيام، ونهض، فتبعه عمر؛ تكرمة له، واستثارا لما عنده، فقال له على: ما قعدت عن صاحبكم؛ كارها له، ولا أتيته؛ فرقا منه، وإنما أقول ما أقول تعلة، وإنى لأعرف مسمى طرفى، ومخطى قدمى، ومنزع قوسى، وموقع سهمى، ولكنى قد أزمت على فاسى؛ ثقة بالله فى الأدالة فى الدنيا والآخرة. فقال عمر - رضى الله عنه -: كفكف غربك، واستوقف سربك، ودع العصا بلحائها، والدلاء برشائها، فإنا من خلفها؛ وورائها، إن قدحنا أورينا، وإن متحنا أروينا، وإن جرحنا أدمينا، وإن نصحنا أربينا، ولقد سمعت أمانيك التي لغوت بها عن صدر مقصور بالجوى، ولو شئت لقلت على مقالتك، ما إذا سمعته ندمت على ما قلته.

زعمت أنك قعدت فى كسر بيتك؛ لما وقذك به رسول الله ﷺ بفراقه، أفراق رسول الله ﷺ وقذك وحدك، ولم يقذ سواك، بل مصابه أعظم وأعز من ذلك، فإن من حق مصابه ألا يصدع شمل الجماعة بكلمة لا عصام لها، ولا يزرى على اختيارها، بما لا يؤمن كيد الشيطان فى عقباها.

هذه العرب حولنا والله لو تداعت علينا فى مصبح يوم؛ لم نلتق فى ممساه، وزعمت أن الشوق بك إلى اللحاق به كاف عن الطمع فى غيره، فمن الشوق إليه نصرة دينه، ومؤازرة أولياء الله تعالى جده، ومعاونتهم فيه؛ وزعمت أنك عكفت على عهد الله؛ تجمع ما تبدد منه، فمن العكوف على عهده: النصيحة لعباده، والرأفة على خلقه، وبذل ما يصلحون به، ويرشدون إليه. وزعمت أنك لم تعلم أن التظاهر عليك واقع، [ولك عن الحق الذى سبق إليك دافع!! فأى تظاهر وقع عليك، وأى حق لك ليطردونك]، قد علمت ما قالت الأنصار لك بالأمس سرًا وجهرًا، وما تقلبت عليه بطنا وظهرا، فهل ذكرتك، أو أشارت بك، أووجدنا رضاها عندك ؟! هؤلاء المهاجرون، من الذى قال منهم بلسانه تصلح لهذا الأمر، أو أومأ بعينه، أو همهم فى نفسه ؟! أتظن أن الناس قد ضلوا من أجلك، وعادوا كفارا زهدًا فيك، وباعوا الله عز وجل ورسوله ﷺ؛ تحاملا عليك ؟! لا والله، ولكنك اعتزلت تنتظر الوحى، وتتوكف مناجاة الملك لك، ذاك أمر طواه الله - عز وجل - بعد نبينا محمد ﷺ.

أكان الأمر معقودا بأنشوطة، أو مسدودا بأطراف ليطة ؟! كلا والله، إن العناية لمحلقة، وإن الشجرة لمورقة، ولا عجماء بحمد الله إلا وقد أفصحت، ولا عجفاء إلا وقد سمنت، ولا شوكاء إلا وقد لقحت.

ومن أعجب شأنك قولك لولا سابق قول، وسالف عهد؛ لشفيت غيظى، وهل ترك الدين لأحد من أهله أن يشفى غيظه بيده ولسانه، تلك جاهلية قد استأصل الله شأفتها، ودفع عن الناس آفتها، واقتلع جرثومتها، وهور ليلها، وغور سيلها، وأبدل منها الروح والريحان، والهدى والبرهان.

وزعمت أنك ملجم، فلعمرى إن مَنْ اتقى الله عز وجل، وآثر رضاه، وطلب ما عنده، أمسك لسانه، وأطبق فاه، وجعل سعيه لما وراءه.

فقال على - رضى الله تعالى عنه وأرضاه -: والله ما بذلت ما بذلت وأنا أريد نكثه، ولا أقررت بما أقررت وأنا أبغى حولاً عنه، وإن أخسر الناس صفقة عند الله من آثر النفاق، واحتضن الشقاق، وبالله سلوة من كل كارث، وعليه التوكل فى جميع الحوادث. ارجع إلى منزلك يا أبا حفص، ناقع القلب، مبرود الغليل، فسيح البال، فليس وراء ما سمعته، وقلته إلا ما شد الأزر، ويضع الإصر والوزر، ويجمع الألفة، ويرفع الكلفة، ويوقع الزلفة، بمعونة الله عز وجل، وحسن توفيقه.

قال أبو عبيدة - رضى الله عنه -: فانصرف عمر - رضى الله عنه - وهذا أصعب ما مر بناصيتى بعد فراق رسول الله ﷺ.

قال أبو حيان: وروى لنا هذا كله أبو حامد، ثم أخرج لنا أصله، فقابلناه به فما كان غادر منه إلا ما لا بال له، فأما ما رواه أبو منصور الكاتب، فإنه خالف فى أحرف فى حواشى الكتاب كل حرف بإزاء نظيره الذى هو مبدل منه، وقد كان أبو منصور بلغة العرب أبصر، وفى غرائبها أنفذ، وإنما قدمت رواية أبى حامد؛ لأنه بشأن الشريعة أعلم، ولأعاجيبها أحفظ، وفيما أشكل منها أفقه، فكان إسناد الحديث من جهته.

وقال لنا أبو منصور الكاتب فى حديثه: ولما حضر على إلى أبى بكر - رضى الله تعالى عنهما - قال له أبو بكر - رضى الله عنه -: إن عصابة أنت فيها لمعصومة، وإن أمة أنت فيها لمرحومة، ولقد أصبحت عزيزا علينا، كريما لدينا، نخاف الله إذا سخطت، ونرجوه إذا رضيت، ولولا أنى شدهت لما أجبت لما دعيت إليه، ولقد حطَّ الله عن ظهرك ما أثقل به كاهلى، وما أسعد من نظر الله إليه بالكفاية، وإنا إليك محتاجون، وبفضلك عالمون، وإلى الله - عز وجل - بك فى جميع الأحوال راغبون.

شرح ما وقع فى هذه الرسالة من الغريب

المفن: الذى يتصرف فى كل فن. المخلط: الذى يخلط بعض الأمور ببعض. المزيل: الذى يفصل بعضها عن بعض. المعنى: الذى يتصرف فى المعانى. الجوى: الهوى. الجواء: الناحية. المتنفس: الاستراحة، والاتساع. السقيفة: سقيفة بنى ساعدة، التى اجتمع فيها الأنصار عند موت النبى ﷺ. الفن: النوع،

يجمع على فنون. المتن، فى الحديث: نصه على وجهه، وهو من كل شىء ظهره. الحقاق: جمع حقة، وهو وعاء يجعل فيه الطيب والأعلاق، والغوص: الدخول فى الشيء الغامض. نسيج وحده: أى فريد ما له نظير، وأصله فى الثوب الرفيع الذى لا مثال له يصنع له منسج وحده، لا ينسج عليه غيره، فاستعير ذلك للرجل الذى لا نظير له فى فنه. سرد الحديث: نصه، ووصل إسناده. الهنة: اللطيف من كل شيء. رحض عرها: أزال مكروهها، وأصله من العرّ، وهو: داء يأخذ الإبل، فيكوى غير المصاب به؛ فيشفى. قال الشاعر: [من الطويل]

... ... : كَذِي العرِّ يكْوى غَيْره وَهْوَ رَاتِعُ

التلكؤ: التأخر. الشماس: النفار. التهمهم، والهمهمة: كلام لا يصرح به. النفاس: المنافسة والحسد. ذات البين: الحال المتصلة، من قوله تعالى: ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام:٩٤] الظهير: المعين الذى يشد به الظهر. يُدمن أرضه بالسرجين أى: يصلحها به. مثاءة، والثأى: الفساد، وأصله فى الخرز، وهو: أن يثقب الخرزة؛ فيصير الاثنتين واحدة، يقال: أثأت الخرز؛ فهو مُثْأى. المغبوط: الذى يتنافس فيه. خوار العنان، يقال: فرس خوّار العنان، إذا كان راكبه يصرفه حيثما أراد؛ فضرب مثلا. الدوح: الشجر العظيم. الردء: العون. يندمل: يبرأ. السبر: إدخال فتيل فى الجرح؛ ليرى قدر عمقه. غير آل: أى مقصر، من الألو، وهو: التقصير. الجهد- بالضم -: الطاقة، وبالفتح: الغاية، وقد يسوى بينهما. القالى: المبغض الكاره. الجد: التشمير والاجتهاد. مغرقة: أى يغرق فيه. مفرقة: من الفرق، وهو: الفزع والروع، يقول: يفزع من السير فيه. الجوّ: الهواء. أكلف: أغبر. أغلف: شديد الظلمة. جلواء: ظاهرة النجوم. صلعاء: لا نبات فيها. الصعود: المرتفع، وبضم الصاد: المصدر، وكذلك الهبوط بالفتح: المكان المنحدر، وبالضم: المصدر. الشنوف: المبغض. العنوف: الشديد. الثالب: الطاعن. الضغن: العداوة. رائد البوار: قائد الهلاك. شجار الفتنة: الشجار: خشب الهودج، ضربه مثلا. يدلى بالغرور: الإدلاء: الإدخال فى الأمر، وأصله إدخال الدلو فى البئر. القعة: التأخر، والقعود عن الأمر، وهو مأخوذ من قولهم: وقع الرجل، فهو وقع؛ إذا اشتكى لحم قدميه، ولم يقدر على المشى. الثقوب: الناقة

الغزيرة اللبن، قال: والصواب ثقوب العداوة، والثقوب: الحطب، وما يهيج به النار. يزجى: يسير. الناجذ: آخر الأضراس. أقاد ضالتك: ردها. الحوص بالحاء المهملة: ضيق فى العين، وبالمعجمة غور فيها. الصعداء: النفس العالى، والغضب، والهم. ولا يغيص: أى ما يبين، ولا يفهم. الهدى الطريق المستقيم. الضراء من الشجر، وكذلك الخمر: يقال يمشى فلان لفلان الضراء، إذا كان يخفى له العداوة حتى يجد فرصة، قال الشاعر:

يـمـشـى الـضـراء ويـتـقـى

وأصله أن يستتر الصائد من الصيد حتى يرميه. ينقبض: أى يضيق. الفضاء: المتسع من الأرض. الشنان: جمع شنة، وهى القربة البالية اليابسة. القعقعة: صوتها إذا حركت للبعير الشارد سكن، يضرب مثلا لمن يهدد بما لا حقيقة له. الوعوعة: صوت الذئب. الشنآن: العداوة. يربب، ويشبب، وأصله من شب النار، إذا أوقدها. الغمار: الماء الكثير، وهو: جمع غمرة؛ لغمره من يدخل فيه. الأمراس: الحبال التى يستسقى بها. الصاب: الصبر. نكرع: نشرب. العُباب: الموج. العِياب، جمع عيبة: وعاء كبير. تحدج: تنظر. تشحذ: تحد. النشب: الضياع. السبد: الوبر، يعنى الإبل. اللبد: الصوف، يعنى الغنى، تقول العرب: ما له سبد، ولا لبد. الهلة: الفرحُ، وما يسر به الرجل. البلة: أصلها الرطوبة، ثم استعمل بمعنى الصلة. الرحب: السعة. الذلاقة: الفصاحة. المكنونات: المستورات. الأعطان: مبارك الإبل بعد الورد عند الماء. المخبور: المجرب. أرهص: قدم. وأصل قلص شمر. الأردان: الأكمام. يظلع: يعرج. عطا: تناول. المض، والمضض، والمضاضة: الحرقة، واللجاجة فى الأمر. الأجاج: ضد العذب. ولا تحلم: يقال: حلم الأديم إذا وقع فيه السوس. والعضب: القاطع. نبا ينبو: إذا ضرب؛ فلم يقطع. يجاحش: يدافع، يتضاءل، يتصاغر. ينتفج: أى يتفرشح. الحوجاء: الحاجة. اللوجاء: إتباع، وتداخل فى الأمر. التعريض: ضد التصريح، الكناية كذلك. يختلج: يضطرب. العصابة: الجماعة. حدب: مشفق، الشجراء: جمع شجير، وهو الصديق. أصفقت: اجتمعت. الإيالة: السياسة. نشرا: النشر: أن تنتشر الغنم فى المرعى؛ فتعدو عليها الذئاب. السدى: الشيء

المهمل. العدا: الأعداء. العرى: العريان. العباهل: الإبل التى لا حافظ لها. الطلاحى: التى كلت؛ فلم تقدر على النهوض. المباهل: الإبل التى لا تمنع أخلافها؛ فيحلبها كل من أراد. صدع بملء فيه: أظهر بكلامه، ودفاعه بيده أى: الذائد الدافع. الحائط: الحافظ الذى يحوط، وكذلك الواقى. الهادى الذى يمشى إلى الأمر الأسدّ. الحادى: الذى يمشى وراء الإبل. اليافوخ: أصل الدماغ. الصوى: علامة تجعل فى الطريق؛ يهتدى بها: أوضح: بين. الرادع: القامع. الغاوى: الضال المفسد. الضغن: العداوة. الغل: البغض. الثمام: شجر ضعيف. هنيهة: أى ساعة. ذوق من القول: أى طرف. المحلمة: أن يحلم فى أشياء لا حقيقة لها. الملحمة: موضع القتال. المقحمة: دخول الإنسان فيما لا ينبغى. التأليف: التعطيف، والتسكين. الفتر: ما بين السبابة والإبهام. مشوبة: أى ممزوجة. معتل: أى مستضعف. الرفغ: أصل الفخذ. الصالى: المتسخن بالنار. القرار: المكان الذى يستقر به الماء. لعىّ وسى: السى: إتباع العى، كقولهم حسن بسن، وشيطان ليطان، وجائع بائع. الرتق: ضد الفتق. الرهق: فساد الشيء. الخنزوانة: التكبر. الفراش: عظام رقاق. الشجا: ما يغص به من عود، وعظم، وشبهه. الوحرة: الحقد. الشراسيف: أطراف الضلوع. الدحس: ورم يصيب الدابة فى حافرها، شبه به الانتفاخ من الغضب. الداس البحث عن الأخبار، والتجسس. الخور: الضعف. لبست بسببه جلد النمر: يقال: لبس فلان لفلان جلد النمر، إذا تنكر، وتهيأ لحربه. الشحناء: العداوه. السرى: سير الليل. ابن أنقد - بالدال المهملة -: القنفذ. العوان: التى كان لها زوج. الخمرة: شد الخمار على الرأس. الحَصان: المرأة العفيفة. الخبرة: الاختبار. الفرعاء: الكثيرة الشعر. الخال: الحديدة التى يفرق بها الشعر. محتبس: مقيد. معبد: مذلل. ملمس، أي: ما يلمس. مانس: أى تأثير. المزع: القطع. الأثرة: أى ما يؤثر به الرجل دون غيره: أى يخص. مأمونة على الرتق، والفتق: يعنى الإصلاح، والفساد. مفتتنا: يعنى بغير اختيارهم. الحمية: الأنفة. انتكث رشاها نقض حبلها. انتضب ماؤها: يقال نضب الماء، إذا جف، وأنضبته أنا، وانتضبته. الأيد: القوة. بأى تدرع: من الدرع. ولهت: أى حنت. تطامن: انخفض. الحبوة: العطية سربله: ألبسه سربالها. قربى

أمسّ: أى ألصق. العرق: الأصل. البازل: الجمل المسن. الهبع: الصغير من أولاد الإبل، وهو الذى يولد فى آخر زمن النتاج، فإن ولد فى أوله، فهو رُبع. تهدر به شقشقتك: يقال هدر البعير، إذا صاح، والشقشقة: ما يخرج من حلقه عند هديره. الصاغية: القرابة. المناضلة: المراماة بالسهام. حدبت: أى أنفت، وقيل: خضعت، وهو لا معنى له هنا، والصواب الأول. الفظ: اطرح. السخيمة: العداوة. النفاث: ما ينفث به. يمض إهابك: أى يشق جلدك. ويفرى قادمتك: أى يقطع، والقادمة: ريش مقدم الجناح، جمعها قوادم. استبرأتها: أى تخليت منها. التزمل: الالتفاف. أتوجى: أتعارج. حلت معلوطة: أى نزلت، والمعلوطة: الناقة وسم عنقها بالنار، واسم تلك السمة العلاط. مخروطة: أى دقيقة المؤخر، وهو مكروه فى الإبل، ويقال للناقة إذا زجرت. حل حل: يقال حلحلت بالإبل، إذا قلت لها: حل حل، فإذا لم تزدجر يقال: حل لا حليت: أى لا ظفرت، ولا فزت. فهيسى هيسى: يضرب مثلا لمن وقع فى داهية، وأمر عظيم يحتاج إلى الانزعاج وترك الإخلاد إلى الراحة، وفى القاموس هيسى هيسى على الكسر: يضرب للتمكن من الأمر، والإغراء به انتهى. والهيس: السير الشديد، وأصل هذا المثل أن طسمًا أوقعت بجديس، وأبادتها بسبب قصة - أمرها يطول - جرت بينهما، فقال فى ذلك بعض الرجال هذا المثل الذى ضرب عليّ - رضى الله تعالى عنه - فى هذه الرسالة. لعًا: هذه كلمة تقال عند العرب للعاثر إذا عثر؛ دعاء له معناها: انتعش، وقم. على غره: يقال: طويت الثوب على غره - بفتح الغين المعجمة، وبالراء المهملة، والهاء -: أى على طيه الأول، يضرب مثلا للأمر الذى لم يغير عما كان عليه. مخطى قدمى: حيث تخطو قدمى. أزمت على فاسى: فاس اللجام: ما يدخل منه فى فم الفرس، يقال: أزم الفرس على فاس اللجام، إذا عض عليه استعارة للسكوت. الأدالة: هى انقلاب الأمور. الغرب: الحد. اللحاء: القشر. الرشاء: الحبل. أورينا: من أورى الزند، إذا ظهر منه النار. الماتح - في قوله: « وإن متحنا »: الذى يخرج الدلو، ومن أمثالهم: « أعرف من الماتح باست المائح ». مقصور: مقروح. الجوى: داء يعترى فى الجوف. العصام: حبل القربة، يضرب به مثلا. المؤازرة: المعاونة. تداعت: أى دعا بعضها بعضا.

العهد - هنا-: القرآن. الهمهمة: كلام لا يصرح به. الأنشوطة: العقدة التى تجبذ بطرفها؛ فتنحل. الليطة: قشر البيضة. الغيابة: ما أظل الإنسان فوق رأسه، كالسحابة أو الغبرة. محلقة: أى مستديرة. استأصلها: انتزعها من أصلها. الشأفة: قرحة تخرج فى القدم؛ فتكوى، يضرب بها مثلا. الجرثومة - بضم الجيم والثاء المثلثة الأصل، وجرثومة كل شيء: أصله، والجرثومة: ما يجتمع فى أصل الشجر. هوَّر ليلها: أصله من هور الرجل البنيان، إذا هدمه، فيريد أذهب ليلها. النكث: النقض. حولا: أى تحولا. احتضن: أى تأبط، والحضن: الإبط. الشقاق: الخلاف. ناقع القلب: أى يرتوى. مبرود الغليل: الغليل: حرقة العطش. الفسيح: الواسع. اللبان: الصدر. الأزر: القوة. الوزر: الثقل، وأراد هنا الإثم. الإصر: الثقل. شدهت: أى تحيرت. الكاهل: أعلى المنكبين.

انتهت الرسالة، وقد نقلتها من كتاب المسامرة للشيخ الأكبر العارف بربه: سيدى محيى الدين بن عربى، وقد بالغت فى تصحيحها وضبطها، وبذلت فى ذلك وسعى وجهدى، وقابلتها بنسخة أخرى؛ فصحت إن شاء الله تعالى، ولله الحمد والمنة.

قلت: هذه الرسالة وإن أوردها الإمام المذكور فى كتابه المزبور، فعندى فى صحة اتصالها لمن رويت عنه - وهو أبو النفاخ مولى أبى عبيدة، عن أبى عبيدة، رضى الله عنه - وَهمٌ بلا شك؛ إذ فيها ألفاظ نسبت إلى عمر - رضى الله عنه - تحيل العادة نطقه بها فى حق مثل على - رضى الله تعالى عنهما - خصوصًا قوله: ما هذه الخنزوانة التى فى فراش رأسك، وما هذا الشجا، وما هذه الوحرة، وما هذا الدحس والدلس، وما هذا الذى لبست؛ وقوله: يمض إهابك، ويفرى قادمتك؛ وقوله: تقرع السن من ندم، وتشرب الماء ممزوجا بدم، إلى غير ذلك من الألفاظ الفاضحة، والكلمات الجارحة، فحمى الله - تعالى - عمر أن يقول مثل هذه الألفاظ فى حق مثل عليّ الذى يقول هو فيه: لولا عليّ لهلك عمر، إذ مثل هذه الألفاظ ما صدرت من بعضهم لبعض فى زمن الجاهلية الجهلاء، فكيف بعد الإسلام، وامتلاء قلوبهم وأسماعهم بأنوار النبوة وأخبار السماء.

وكذلك ما فيها من قول على - رضى الله تعالى عنه -: « حلت معلوطة . . . » إلى آخر ما رواه عن على مما يشعر، بل يصرح بعدم رضاه بالبيعة لأبى بكر وسكوته،

وتمثيله بقوله: أزمت على فاسى، والتصريح بأن التظاهر واقع عليه، وأنه إنما ترك شفاء غيظه؛ لسابق قول وسالف عهد - يعنى من النبى ﷺ - بالوصية له بترك القتال كما تدعيه الروافض، وقوله: وإنى عادل إلى جماعتكم ومبايع لصاحبكم، وصابر على ما ساءنى وسركم، وغير ذلك من الألفاظ التى نسبت إليه مما تدل تعريضا وتصريحا على عدم رضاه بالبيعة لأبى بكر، وأنه مقهور عليها، مضطهد فيها، معدول عنه بها، مخذول فى أمرها كما هو عقدة عقيدة الروافض، فإنهم اعتقدوا ذلك، ولم يفطنوا لما يلزم على ذلك من نسبة القبائح والرذائل إلى الإمام المعصوم فى زعمهم التى لا تضاف إلى من له أدنى شهامة، ولا يرضى بها كريم ولا ذو كرامة: من اتصافه بالجبن والذلة، مع اتصافه بضدهما عند كل أهل ملة، بل وجميع بنى هاشم، ومن يليهم من جملة المهاجرين، ومن السكوت عن الحق، والإقرار على الظلم والعق، ومن تواطؤ الصحابة جميعهم على الحيف والظلم والجهالة: المنفى ذلك عنهم بشهادة: لا تجتمع أمتى على ضلاله.

فلا تغتر بما حوته هذه الرسالة المجهولة رجال الإسناد؛ فتعدل إليها عما تقدم مما روته أئمة الحديث الخبراء النقاد، وكان الصواب ألا تثبت فى إصدار ولا إيراد، ولكن جرى قلم التقدير بما أراد.

وقد اطلعت على قصيدة فى تفصيل ما يلزم من قال بعدم أهلية أبى بكر للخلافة، وأن عليًّا منع عنها قهرًا؛ فسكت عجزا، وبايع قسرا، وهى للعلامة الفهامة الشيخ عبد الحى الشامى، نظمها فى ذيل كتاب صنفه الإمام عبد الله بن أسعد اليافعي، نفع الله به في هذا المعنى، فاستكتب الشيخ المذكور الكتاب المذكور رجل من السادة الأشراف؛ فكتب له، وكتب هذه القصيدة فى ذيله من نظمه، وهى: [من الرجز]

مـحـاسـنٌ لـنَـشْـرهـا أَشَـمُّ ... فى طَيِّها طَوْدُ العُلَى الأشَمُّ
مـعـارجٌ لـيسَ إلـى سَـنَـامِـهَـا ... إلاَّ قَـوِىُّ الـعـزمَـاتِ يَـسْـمُـو
أُقْعِدَ عَنْهَا قصرًا أمثالُنَا ... ونَـالَـهَـا حـرُّ الأديـم شَـهْـمُ
صَاحِبَهُ التوفيقُ فى سُلُوكِهِ ... فَـهَـمُّـهُ الأهـمُّ فَـالأهـمُّ
ونحنُ لا هذا ولا تِلْكَ ولا ... لنا بِمَا تَحْتَ النقابِ عِلْمُ
كأنما المقصودُ مِنْ وجودنا ... نـفـسٌ تـطـاعُ وهـوًى يـؤمُّ

نقرأ آثارَ الألَى بهم عَلاَ ... عنِ الحضيضِ فى الحظوظِ عَزْمُ
فنتمنَّى أن نفوزَ فوزَهُمْ ... بأنفسٍ بالفوزِ لا تهمُّ
تلكَ الأمانِى المصْدرات أَهْلها ... بالغُرْم مِنْ حيثُ يرجَّى الغُنْمُ
سبحانَكَ اللهُمَّ يا أولى بنا ... هَبْنَا لكَ اللهُمَّ يعفو الْجُرمُ
لا حولَ إلا بكَ أيّ مَهْرَبٍ ... للعبْدِ عن حكمٍ قضاه حَتْمُ
رُحْمَاكَ يا ذا الطولِ نرجو أبدًا ... فى كُلِّ ما يخُصُّ أو يعمُّ
فلا تَكلنَا للقوَى واسلُكْ بنا ... مَسْلَكَ قومٍ لرضاكَ أَمُّوا
ألقومُ خيرُ القومِ لا يشقى بهمْ ... جليسُهُمْ ولا يهيه هَمُّ
ألسادةُ الطهرُ مصابيحُ الدجَى ... بلِ الهدَى والجَهْل مُذْلهمُّ
ألتائبونَ العابدونَ الحامِدُو ... ن الراكعونَ الساجدُونَ الرحْمُ
ألعارفونَ بالإلَهِ العارفو ... نَ من عطاهُ الخائفونُ الكتْمُ
هُمُ الغياثُ للعبادِ وبهمْ ... تحيا البلادُ ويزولُ الغَمُّ
وهم محلُّ نظرِ الإله مِنْ ... عبادِهِ هم الرُّقى والسَّمُّ
طوبَى لِمَنْ صفَتْ له قلوبُهُمْ ... وويحَ مَنْ له بسوءٍ هَمُّوا
إذ هُمْ على بينةٍ مِنْ ربِّهِمْ ... وَمَنْ عداهُمْ هَمجٌ وبَهْمُ
سارَتْ بهم نجائبُ القصْدِ على ... منهجِ صدقٍ ما نحاه فدْمُ(١)
فمنهمُ أهلُ القبابِ والألَى ... خاضو العبابَ حيْثُ ضَلَّ الفهْمُ
ومنهمُ الأفرادُ لم يعرِّجُوا ... على سوى التفريدِ مذ أَلَمُّوا
ومنهُمُ أهلُ الخفاءِ والفنا ... ومنهُمْ مَنْ بالظهورِ يَنْمُو
وَمِنْهُمُ أهلُ السطا مظاهرًا ... جلالَ عدلٍ يقتضيه الحكمُ
ومنهمُ مظاهرُ الرحمةِ والـ ... جمالِ فضلاً عَمَّ فيه الحلْمُ
كُلًّا نمدُّ هؤلا وهَؤُلاَ ... ءِ مِنْ عطاهُ وعطاهُ الجَمُّ
وكُلُّهُمْ على افتراقِ حالِهِمْ ... يجمعُهُمْ مِنَ التصوُّفِ اسْمُ
فليتَ شعرى ما الذى ينكرُهُ ... مِنْ أمرِهِمْ قومٌ عَمُوا وصَمُّوا
أينكرونَ رفضَهُمْ لذاتِهِمْ ... فِى اللهِ حتى ما بها مُلِمٌّ ؟!

(١) الفَدْم: الغليظ الجافي الأحمق. ترتيب القاموس (فدم).

أم قَطْعَهُمْ مألوفَهُمْ أم زهدهُمْ   فى الجاهِ والرتبةِ مهما تَسمو
أم دَفْنَهُمْ وجودَهُمْ فى تربةِ الـ   خُمُولِ عافٍ اسمُهُمْ والرسْمُ
أم صَبْرهم على الأذى أم صفحهُمْ   مع اقتدارٍ إنْ رُمُوا أن يُضْمُوا
أم كونَهُمْ مذ بايَعُوا الله على   نفوسِهِمْ بشأنها ما اهتَمُّوا
قد استوَى عندهُم فى جَنْبِ مَرْ   ضاة الإلـهِ مَـدْحُـهُـمْ والـذَّمُّ
تراهُمُ كالأرضِ يُلْقَى فوقها الْـ   قُبْحُ فيبدى الحسنَ منها الكتْمُ(١)
مـآثـرٌ حـبـاهُـم الله بـهـا   مِنْ دونِ عليا مستماها النجْمُ
ماذا عسَى يحصى المديح مِنْ ثنا   قوْمٍ لهم فى الذكْرِ ذكْرٌ ضَخْمُ
أَعَزَّهُمْ ذو العِزِّ أن يعرفَهُمْ   مَنْ لا له مِنَ اليقينِ سَهْمُ
فهُمْ خبايا فى زوايا غَيْرَةِ الـ   لَّـهِ وفِى طرزِ الوجودِ رَقْمُ
حيـاهُـمُ الله وأحيـانـا بِـهِـمْ   لَـعَـلَّـنـا إلـيـهـمْ نُـضَـمُّ
وقَــدِّسِ الــلَّــهُــمَّ رُو   حَ اليافعيِّ إنه بمثلِهِ يُؤْتَمُّ
جـزاه مـولانـا الـرِّضَـا فـإنـه   مُصَنِّفٌ بحر حجى خِضَمُّ
قد قامَ بالله وقالَ الحق في   تـألـيـفِـهِ والـحـقُّ لا يـغـمُّ
فهو كتابٌ قد حوَى مباحثًا   يُلْقَمُ أحجارًا لديها الخصْمُ
ومـن يـكُـنْ قـيـامـه لله لا   لـنـفْـسِـهِ فَـدَسْـتُـهُ الأتَـمُّ
حبرته برسْمِ مولَى أصلُهُ   أزكَى الأصولِ فهو عنه يَسْمُو
فَرْعُ الذينَ هُمْ أئمة الورَى   وهُمْ معاقلُ الهُدَى والعصْمُ
بيتُ النبيِّ والذين حُبُّهُمْ   دِينِى وإيمانى به يتمُّ
كُلُّ كمالٍ فى الورَى فإنما   هم روحُهُ والعالمونَ جسْمُ
تَوارَثُوا ملكَ المعالِى خلفًا   عنْ سلفٍ كل أتاه قسمُ
ما نال مِنْ قربِ الإلهِ نائلٌ   إلا بهمْ وما مقالِى زَعْمُ
مدينةُ العلْم عليٌّ بابُهَا   نص به لدى الجدالِ حسْمُ
يَأَهْلَ بيتٍ لاَ يضامُ جارُهُمْ   إني بكُمْ يا قومُ مستذمُّ
وليسَ إلا أنتُمُ وَسِيلَتِي   يَوْمَ عَنِ الرضيعِ تسلو الأمُّ

(١) الكتَمُ: نبت يخلط بالحِنَّاء ويخضب به الشعر فيبقى لونه. ترتيب القاموس (كتم).

أنـتُـمْ لـخـيـرِ عـدةٍ وعـدة إذا نبا السيفُ وطاش السهْمُ
أعظِمْ بكُمْ غوثًا إذا عظيمةٌ توهـن الـجِلْد لـهـا والـعـظْـمُ
أنتمْ ضياءُ الكونِ كلَّ زمنٍ تـنـيـرُهُ مـنـكـم بُـدُور تِـمٌّ
كيفَ وشمسُ الفلواتِ جدكمْ لكُمْ تسامى عربها والعُجْمُ
لا والـذى أعلى به أقدارَكُمْ لأنتُمُ الأعلَوْنَ حقًّا فاسموا
هذا هو الفخر الذى لا يُدَّعَى حسْبُ الدَّعِيِّ خزيُهُ والإثْمُ
وما جرَى مِنَ العظائِمِ التى من كَيْدِهَا على القلوبِ وسْمُ
تـلـكَ بـأمْـرِ اللهِ واللهُ لـه مـشيـئةٌ فى خلقِهِ وحُكْمُ
ما كانَ فى أمِّ الكتابِ مبرمًا فـمـسـتـحـيـلٌ حَـلُّـهُ والـبـرمُ
ومَنْ بهذا الفضْلِ أولَى منكُمْ والأمـثـلُـونَ لـلأشـدِّ سـمُّـوا
عـلـى لـسـانِ صادقٍ مُـنَـبأ بالغيْبِ وحيًا ليس فيه رَجْمُ
هذا على أنِّيَ كنتُ لم أطِق سماعَ مجرى الطَّفِّ[1] أو أصمُّ
كأنَّ وقْعَ ذكرِهِ فى مسمعِي وقْعُ الحسامِ بالحشا يحمُّ
حتَّى أريتُ ما به من حُكْم عـن رُتَـبٍ لأهـلـهـا تـتـمُّ
سـعـادة قَـعْـسَـاء دُونَ بـعـضـهـا يَـهُـونُ كُـلُّ كـارثٍ يـهـمُّ
نـالَ بـهـا جَـهْدَ الشقاءِ أهلُهُ وفَازَ بالزلفَى ذووها العظْمُ
وهـذه الـدنـيـا أقَـلُّ خـطـرًا مِنْ أن تكونَ للحَبيبِ قسْمُ
وأنتمُ الأحبابُ والحبُّ وما لـلـفـضْـلِ غَـيْـر بيتكُمْ ملمُّ
بحبِّكُمْ قُدِّمَ من قدَّمه الـ لَّه على الأمَّةِ فهو القدْمُ
بـرغْـمِ أنـفِ رافضيٍّ مُـفْـرِطٍ مـفـرِّطٍ فـيـمـا عـلـيـه الـجَـمُّ
عجبْتُ من عصبة إفْكٍ أبغضوا حبيبَ مَنْ إلى هواه انضمُّوا
وهو أحبُّ صاحبٍ إلى الإما مِ حسبما دَلَّ عليه العِلْمُ
قد نسبوا إلى علىٍّ نسبةً يـجـلُّ عـنـهـا قـدرُهُ وَيَـسْـمُـو
إذ يزعمونَ غَضْبَ قومٍ حقَّهُ وهْوَ كما علمْتُ ذاك القرْمُ

(١) الطف: ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق، وبمعنى الجانب، والشاطئ، وسفح الجبل، وفناء الدار، والجمع (طفوف).

فأيُّ وجهٍ لسكوتِ مثلِهِ | عَنْ مِثْلِها إن صَحَّ هذا الزعْمُ
كيفَ نقول يا غلاة الأمْر فِي | قَضيَّةٍ ما جَاءَ فيها حُكْمُ ؟!
أجاهلًا كانَ عليٌّ أن ما | قَدْ تَمَّ بَغْيٌ ولديْكُمْ علْمُ ؟!
حاشا جنابَ باب حصْنِ العلم أنْ | يجهَلَ أمرًا ضرُّهُ أَعَمُّ
أو قيلَ أغضَى عالمًا يلزمَكُمْ | إقرارُهُ الظالمُ وهو ظُلْمُ
وهذه أدهَى من الألى استَحوا | مِنَ الإمامِ ويَحكُمْ وزمُّوا(١)
أعاجزًا كان عنِ الدفاعِ أمْ | خافَ المماتَ وهو ذاكَ الشهْمُ ؟!
رأتْ بنو هاشِمَ حقًّا دونه | حيلَ وعَنْ صاحِبِهِمْ لم يَحْمُوا
جُبْنٌ بهم أم بالسيوفِ فللٌ | أم بالرقَى قد حُلَّ منهم عَزْمُ ؟!
أم أجْمَعَ الكلُّ على الباطِلِ مِنْ | أَجْلِ أبى بكْرٍ؟! لبئسَ الزعْمُ
أهكذا مَنْ حَبَّ قومًا ينتحِى | تنقيصَهُمْ أينَ الذكا والفهْمُ ؟!
كيف يقالُ فى الصحابةِ الكِرا | مِ إنهُمْ بغَيْرِ حقٍّ هَمُّوا
وهُمْ أجَلُّ رتبةً مما إلى | جنابِهِمْ فى ضِمْنِ ذا ينضمُّ
حاشا قلوبًا أرضعَتْ ثدْى الهُدَى | فى مهْدِ قربِ الوحْيِ مما نمُّوا
لو علموا حَقِّيَّةَ الأمْرِ لَمَا | خِيفَ لديهمْ فى الإله خَصْمُ
بل عصبَةُ الجهلِ بحمْقِ رأيهِمْ | قد حاولوا أن يَمْدَحُوا فذمُّوا
عَزَوْا إلى الكاملِ فى مِدْحتهِمْ | نقائصًا سماعُهَا يُصِمُّ
نبرأ مما هُمْ عليه جملةً | إلى الذى إلَيْه فيه الحُكْمُ
ونرتجى منه هِدايَةً إلى | مناهِجِ الحقِّ لها نَؤُمُّ
وبالرسولِ والذينَ مَعَهُ | لقدْ تشفَّعْنَا لما يهمُّ
أوفِرْ لنا اللهُمَّ من حُبهِمُ | حظًّا بهمْ لِشَمْلنِا يَلُمُّ
واجعلْ لنا هذا الكتابَ حُجَّةً | ومشرعًا له رضَاكَ خَتْمُ
وارحَمْ به مؤلفًا وكاتبًا | وقارئًا وسامعًا يأتمُّ
واجزِ الجزاءَ الأوفر الأوفَى لِمَنْ | بكتبه استَخْدَمَنَا لتَسْمُو
السَّيِّد ابْن السَّيِّد ابن سيدِ | عقْد فخارٍ لم يشنهُ فَصْمُ

(١) زمُّوا: زَمَّ البعير: خطمه، وهو زجرٌ لهم عن التمادي في أمرهم.

عبد الكريم ابْن الكَرِيم صِنوه فَـخُـلُـقٌ ومَـخـتِـدٌ[١] وإسْـمُ
بِـسَـجَـدِهِ وجِـدِّهِ وجُـودِهِ لُذْ واعتصِمْ واغْنَ عَدَاكَ العُدْمُ
خدمْتُ علياه به ممتثلاً لأمْـرِهِ وهْـوَ عـلـيٌّ حَـتْـمُ
أعملْتُ أقلامى به قامَتْ على أُمِّ الـرءوسِ طـاعَـة تَـؤُمُّ
لا بِدْعَ أن طابَتْ فمن تاريخِهِ « مـحـاسـنٌ لـنَـشْـرِهـا أَشَـمُّ »
مَعَ اعترافِى بالقصُورِ راجيًا منه الذى عَـوَّدنِيـهِ الحِلْـمُ
حسْبُ الطروسِ[٢] مفخرًا أن نالها بسَعْيِها فى راحَتَيْكُمْ لَثْمُ
أو قصر المَدْح ففى تاريخِهِ « مـحـامـدٌ لُـحـسْـنِـهِ تَـتِـمُّ »

والحاصل أنه وردت الأحاديث فى شأن خلافة أبى بكر الصديق، وهى الأحاديث الأربعة عشر الآتية المستدل على حقية خلافته، وأحقيته بها المصدر بها الأحاديث الآتية، فإنها تنبيه سابق منه - عليه الصلاة والسلام - وتقرير لاحق من الصحابة، وشهادة منهم بصحة خلافته، وأنها لم تكن إلا بحق، إذ بعضها مصرح بخلافته على الترتيب الواقع منه - عليه الصلاة والسلام - تارة من فهم الصحابة، خصوصًا أحاديث مرائيه ﷺ فإنها أحاديث متفق على صحتها[٣]، وكذلك حديث الأمر بالاقتداء بأبى بكر[٤] وفهم الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - من ذلك التنبيه على الخلافة، وحديث استخلافه - عليه الصلاة والسلام - لما ذهب ﷺ؛ ليصلح بين بنى عمرو بن عوف بقباء[٥]، وحديث استخلافه عليها - أيضا - فى مرض

---

(١) المحْتِدُ: الأصْل والطبع. ترتيب القاموس (حتد).

(٢) واحدها طرس، والطرس: الصحيفة، أو التي مُحِيَتْ ثم كتبت. ترتيب القاموس (طرس).

(٣) منها حديث ابن عمر عند البخاري (٧٠٢٠)، ومسلم (١٩-٢٣٩٣)، وحديث أبي هريرة عند البخاري (٧٠٢١)، ومسلم (١٧، ١٨-٢٣٩٢). وقال الحافظ في الفتح (١٤/ ٤٥٠): وفي الحديثين أنه من رأى أنه يستخرج من بئر ماء أنه يلي ولاية جليلة، وتكون مدته بحسب ما استخرج قلة وكثرة. اهـ

(٤) أخرجه الترمذي (٣٦٦٣)، وابن ماجه (٩٧)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٩٩)، وفي فضائل الصحابة (٤٧٩)، والحميدي (٤٤٩)، وابن حبان (٦٩٠٢) من حديث حذيفة قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فقال: «إني لا أدري ما بقائي فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدي،» وأشار إلى أبي بكر وعمر.

(٥) أخرجه البخاري (٦٨٤)، ومسلم (١٠٢-٤٢١) من حديث سهل بن سعد الساعدي، وليس فيه أن النبيّ ﷺ استخلفه.

وفاته[١]، وهو من أوضح الأدلة، وعليه اعتمد عمر وعلى وغيرهما من الصحابة فى الاستدلال على خلافته، وعلى أحقيته بها، ووجهه أنه كان - عليه الصلاة والسلام - قد تأهب للنقلة إلى ربه، فعين أبا بكر - رضي الله تعالى عنه - للإمامة، ثم عورض بعرض غيره عليه لذلك؛ فمنع منه ثم لما تقدم غيره - كره ذلك، وصرح بالمنع، ثم أكده بتكرار المنع، فقال: لا، لا، لا، ثم أردف ذلك بما فيه تعريض بالخلافة بل تصريح بقوله: « يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر »[٢] فذكر ذلك بتكرار.

كل ذلك مع علمه ﷺ بأن ذلك مظنة الخلافة، فإنه كان - عليه الصلاة والسلام - إمامهم فى الصلاة والحاكم عليهم، فلمّا أقام أبا بكر ذلك المقام مع توفر هذه القرائن الحالية، والمقالية علم أنه أراد ذلك.

وفى قوله: « يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » إشارة، بل أفصح عبارة، ولولا اعتماده ﷺ على تلك الإشارة المصرحة بإرادة الخلافة؛ لما أهمل أمرها، وأشار إلى أن العدول عن أبى بكر إلى غيره من الوقائع العظيمة فى الدين بقوله: « يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » وإنما كان عدم التصريح بها منه ﷺ اكتفاء بنصبه إماما عند إرادة الانتقال عنهم وإحالته على فهم ذلك عنه، ولم يصرح بالتنصيص عليها لأنه ممتثل لما يوحى إليه، لا ينفذ شيئا إلا بأمر ربه بالتنصيص؛ لينفذ قضاؤه وقدره سبحانه فى ابتلاء قوم عميت أبصارهم بما ابتلاهم به، وليس فضل من انقاد للحق بزمام الإشارة، ودله نور بصيرته عليه كغيره، فإن من لم يعتقد ذلك بعد بلوغ هذه الأحاديث، والعلم بتلك القرائن الحالية والمقالية، فالظاهر عناده ورده للحق بعد تبيّنه.

ومنها حديث الحوالة - يعنى المرأة التى تعنى الموت - فقال: ائتى أبا بكر[٣]، وهو من أدل الأدلة وأوضحها، وحديثها من أصح الأحاديث، وإن صحت الزيادة على ما رواه مسلم، وهى قوله - عليه الصلاة والسلام -: « فإنه الخليفة بعدى »[٤]

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧)، ومسلم (٩-٤١٨) من حديث عائشة.
(٢) أخرجه مسلم (١١-٢٣٨٧)، وأحمد (٦/ ١٤٤) من حديث عروة عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «ادعي لي أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتابًا، فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٥٩)، ومسلم (١٠-٢٣٨٦) من حديث جبير بن مطعم. وفيه: «إن لم تجديني فأتي أبا بكر».
(٤) هذه الزيادة ليست عند مسلم، ولم أقف عليها، وانظر فتح الباري (٧/ ٣٧٣) وشرح النووي=

كان ذلك نصًا فى الباب.

وكحديث إرادة كتب العهد، وقوله ﷺ « فإنى أخاف أن يتمنى متمنّ، أو يقول قائل أنا أولى »، وفى رواية: « كيلا يطمع فى الأمر طامع، أو يتمنى متمن »، ثم قال: « ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر »، وفى رواية: « أبى الله والمؤمنون أن يختلف عليه »(1) وهذا صريح فى الباب أنه نص على إمامته بتوليه من جهته ﷺ، وأنه لم يكتب بل عرف بأنه يكون الخليفة بعده، فجعل الله سبحانه ذلك بإجماع المسلمين، فعلم بما تقرر إجماع الصحابة ومن بعدهم على حقية خلافة الصديق، وأنه أهل لها، وذلك كاف لو لم يرد نص عليها، بل الإجماع أقوى من النصوص التى لم تتواتر لأن مفاده قطعى ومفادها ظنى، وحكى بأسانيد صحيحة عن سفيان الثورى: من قال إن عليًا كان أحق بالولاية من أبى بكر فقد خطَّأ المهاجرين والأنصار، وما أراه يرتفع له مع هذا عمل إلى السماء.

وأخرج الدارقطنى، عن عمار بن ياسر نحوه.

كيف والنصوص القرآنية والسنية ظاهرة، أما نصوص السنة الدالة على خلافته الواردة عنه ﷺ فقد ذكرنا بعضها هنا إجمالا، وسيأتى باقيها فى ذكر الأحاديث التى فى شأن أبى بكر، وهى الأربعة عشر حديثا التى فى أولها المستدل بها عليها.

وأما النصوص القرآنية فمنها قوله - تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤] وذلك أنه لما ارتدت العرب بعد موته - عليه الصلاة والسلام - جاهدهم أبو بكر والصحابة حتى ردهم إلى الإسلام، كما سيأتى شرح ذلك قريبًا، ومنها قوله - تعالى -: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ إلى ﴿ أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٦]

= لمسلم (٨/ ١٦٩).

(١) تقدم تخريج رواية مسلم وأخرجه أحمد (٦/ ٤٧)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ١٣٤)، من طريق ابن أبي مليكة عن عائشة قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ دعا عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: «ائتني بكتفٍ حتى أكتب لأبي بكر كتابًا لا يختلف عليه» فذهب عبد الرحمن ليقوم، فقال: «اجلس، أبى الله والمؤمنون أن يختلف على أبي بكر». وأخرجه البخاري (٥٦٦٦) عن القاسم بن محمد عن عائشة بلفظ: «لقد هممت - أو أردت - أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد أن يقول القائلون أو يتمنى المتمنون ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون أو يدفع الله ويأبى المؤمنون».

أخرج ابن أبى حاتم عن جويرية أن هؤلاء القوم هم بنو حنيفة، ومن ثم قال ابن أبى حاتم، وابن قتيبة، وغيرهما: هذه الآية حجة على خلافة الصديق؛ لأنه الذى دعا إلى قتالهم.

وقال الشيخ أبو الحسن الأشعرى سمعت الإمام أبا العباس بن سريج يقول: خلافة الصديق فى القرآن فى هذه الآية، قال: لأن أهل العلم أجمعوا على أنه لم يكن بعد نزولها قتال دعوا إليه إلا دعاء أبى بكر لهم وللناس إلى قتال أهل الردة، ومن منع الزكاة، قال: فدل ذلك على وجوب خلافة أبى بكر الصديق، وافتراض طاعته؛ إذ أخبر الله أن المتولى عن ذلك يعذبه عذابًا أليمًا.

قال ابن كثير: ومن فسر القوم بأنهم فارس والروم، فالصديق هو الذى جهز الجيوش إليهم وتمام أمرهم كان على عهد عمر، وعثمان وهما فرعا الصديق - رضى الله تعالى عنهم - فإن قلت يمكن أن يراد بالداعى فى الآية النبى ﷺ أو على، رضى الله تعالى عنه قلت: لا يمكن ذلك مع قوله لن تتبعونا، ومن ثم لم يدعوا إلى محاربة لأولئك فى حياته ﷺ إجماعًا، وأما على فلم يتفق له فى خلافته قتال لطلب الإسلام أصلا بل لطلب الإمامة ورعاية حقوقها، وأما من بعده فهم عندنا ظلمة، وعند غيرنا كفار؛ فتعين أن ذلك الداعى الذى يجب باتباعه الأجر الحسن الموعود به فى الآية، وبعصيانه العذاب الأليم الموعود به فيها أيضا - أحد الخلفاء الثلاثة، وحينئذ فيلزم عليه خلافة أبى بكر على كل تقدير؛ لأن حقية خلافة الأخيرين فرع عن حقيّة خلافته؛ إذ هما فرعاها الناشئان عنها، المترتبان عليها.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله ﴿ لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٥٥] قال العلامة ابن كثير: هذه الآية منطبقة على خلافة الصديق، رضى الله تعالى عنه.

وأخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره عن عبد الرحمن بن عبد الحميد المهرى قال: إن خلافة أبى بكر، وعمر، فى كتاب الله بقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾(١) [النور: ٥٥] الآية.

ومنها قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾

(١) ينظر: الدر المنثور (٥/ ١٠٠) وزاد نسبته لعبد بن حميد عن أبي العالية بنحوه.

[الحشر: ٨]، وجه الدلالة تسمية الله إياهم صادقين، ومن شهد له الله سبحانه بالصدق لا يكذب، فعلم أن ما أطبقوا عليه من قولهم لأبى بكر يا خليفة رسول الله، هم صادقون، فحينئذ كانت الآية شاهدة على خلافته، أخرجه الخطيب البغدادى عن الإمام أبى بكر بن عياش.

ومنها قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحه: ٦، ٧] قال الفخر الرازى: هذه الآية تدل على خلافة أبى بكر؛ لأن تقدير الآية اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم، والله تعالى بيّن فى الآية الأخرى الذين أنعم عليهم بقوله: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩] ولا شك أن رأس الصديقين ورئيسهم - أبو بكر رضى الله تعالى عنه، فكان معنى الآية أن الله أمر أن نطلب الهداية التى كان عليها أبو بكر، وسائر الصديقين، ولو كان أبو بكر ظالمًا؛ لما جاز الاقتداء به، فثبت بما ذكرناه دلالة الآية على إمامة أبى بكر وحقيتها.

واعلم أنه ﷺ لم ينص بالخلافة على أحد بعينه عند الموت، وإنما وردت منه ظواهر تدل على أنه علم بإعلام الله - تعالى - له أنها لأبى بكر، فأخبر بتلك الظواهر، ولم يؤمر بالتنصيص على أحد بعينه، وقد مرت الإشارة إلى هذا المعنى فيما تقدم قريبًا، ولو وجب على الأمة مبايعة غير أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - لبالغ - عليه الصلاة والسلام - فى تبليغ ذلك الواجب إليهم، بأن ينص عليه نصًا جليا بنقل شهير حتى يبلغ الأمة ما لزمهم، فلما لم ينقل ذلك - مع توفر الدواعى إلى نقله - دل على أنه لا نص.

وتوهم أن عدم تبليغه للأمة؛ لعلمه بأنهم لا يأتمرون بأمره، فلا فائدة فى التبليغ باطل، فإن ذلك غير مسقط عنه وجوب التبليغ عليه الصلاة والسلام، ألا ترى أنه بلغ سائر التكاليف للآحاد الذين علم منهم أنهم لا يأتمرون، فلم يسقط العلم بعدم ائتمارهم التبليغ عنه، واحتمال أنه بلغ أمر الإمامة سرا للواحد والاثنين، وأنه نقل كذلك لا يفيد؛ لأن سبيل مثل هذه الشهرة؛ لصيرورته بتعدد التبليغ وكثرة المبلغين أمرًا مشهورا، إذ هو من أهمّ الأمور لما يتعلق به من مصالح الدين والدنيا، مع ما فيه من دفع ما قد يتوهم فيه من إثارة الفتنة، واحتمال أنه بلغ ذلك مشتهرًا، ولم ينقل،

أو نقل ولم يشتهر فيما بعد عصره باطل أيضا، إذ لو اشتهر لكان سبيله أن ينقل نقل الفرائض؛ لتوفر الدواعى على نقل مهمات الدين، فالشهرة هنا لازمة لوجود النص، فحيث لا شهرة لا نص بالمعنى المتقدم - يعنى على التعيين - لواحد بعينه لا لعلى، ولا لغيره؛ فلزم من ذلك بطلان ما تنقله الروافض وغيرهم من الأكاذيب، يسوّدون به أوراقهم من نحو أنت الخليفة من بعدى مخاطبا به عليا كرم الله تعالى وجهه، ومن خبر سلموا على عليّ بإمرة المؤمنين مما لا وجود له فضلا عن اشتهاره، كيف وما نقلوه من هذين الحديثين وما شابههما مما يرونه حديثا من قوله ﷺ لعلى أنت قاضى دِينى[1] بكسر الدال، وما يرونه حديثا - أيضا - من قوله ﷺ عليٌ خير البشر؛ فمن أبى فقد كفر[2]، فهذه الأحاديث كذب، باطلة، موضوعة مفتراة عليه ﷺ، ألا لعنة الله على الكاذبين!! .

ولم ينقل أحد من أئمة الحديث أن شيئًا من هذه الأحاديث بلغ مبلغ الآحاد المطعون فيها، بل كلهم مجمعون على أنها افتراء، وكذب محض، وبناءٌ مرفض من أبناء رفض، فإن زعم هؤلاء الجهلة الكذبة على الله، ورسوله، وعلى أئمة الإسلام، ومصابيح الظلام أن هذه الأحاديث صحت عندهم - قلنا لهم: هذا محال؛ إذ كيف تنفردون بصحة تلك الأخبار مع أنكم لم تتصفوا قط برواية، ولا بصحبة محدث، ويجهل تلك الأحاديث مهرة الحديث، وسُياقه الذين أفنوا أعمارهم فى الرحلات والأسفار البعيدة، وبذلوا جهدهم فى طلبه وفى السعى إلى كل من ظنوا عنده قليلا منه، حتى جمعوا الأحاديث، ونقبوا عنها، وعلموا صحيحها من سقيمها، ودونوها فى كتبهم على غاية من الاستيعاب ونهاية من التحرير!! .

وكيف لا والأحاديث الموضوعات جاوزت مئات الألوف، وهم مع ذلك يعرفون واضع كل حديث منها، وسبب وضعه، والحامل لواضعه على الكذب، والافتراء

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٥) ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أنس بن مالك مرفوعًا: «إن أخي ووزيري وخليفتي من أهلي وخير من أترك بعدي، يقضي ديني وينجز موعدي علي بن أبي طالب». وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع، وأقره السيوطي في اللآلئ (١/ ٣٢٦)، وابن عراق في التنزيه (١/ ٣٥٣)، والذهبي في الميزان (٦/ ٤٤٤)، والشوكاني في الفوائد (٣٤٦).

(٢) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات عن علي وابن مسعود وجابر وأبي سعيد. وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ .

على رسول الله ﷺ، فجزاهم الله خير الجزاء، إذ لولا حسن صنعهم؛ لاستولى المبطلون والمتمردة المفسدون على الدين، وغيروا معالمه، وخلطوا الحق بكذبهم حتى لا يتميز عنه؛ فضلوا، وأضلوا ضلالا مبينا، لكن لما حفظ الله تعالى على نبيه شريعته من الزيغ والتبديل، وجعلوا من أكابر علماء أمته فى كل عصر طائفة على الحق لا يضرهم مَن خذلهم؛ لم يبال الدين بهؤلاء الكذبة المبطلين الجهلة؛ فلذلك قطعت العادة المطردة القطعية بكذبهم واختلاقهم فيما زعموه من نصّ على عليّ صح عندهم دون غيرهم، إن هذا إلا اختلاق، نعوذ بالله من مثله.

وأما قول عمر - رضى الله تعالى عنه - كانت بيعة أبى بكر فلتة، لكن وقى الله شرها فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه(١)، فهذه اللفظة مما تشبث به الروافض، وقالوا: إنها قادحة فى حقية خلافة أبى بكر - رضى الله تعالى عنه -؛ وذلك من غباوتهم وجهالاتهم؛ إذ لا دلالة فى ذلك لما زعموه؛ لأن معناه أن الإقدام على مثل ذلك من غير مشورة الغير، ومن غير حصول الاتفاق عليه مظنة للفتنة، فلا يقدمن أحد على مثل ذلك، على أنى أقدمت عليه، فسلمت على خلاف العادة ببركة صحة النية، وخوف الفتنة لو حصل توان فى هذا الأمر.

لا أنها فلتة بمعنى على غير الحق والصواب، فهذا شيء عجاب، وهذا أحد متعلقاتهم التى يعتمدونها، وعقائدهم التى يعتقدونها، وسيأتى بيانها قريبًا إن شاء الله تعالى.

فإن قيل ما ذكرتموه مما أوردتموه فى حق أبى بكر، واستدللتم به على أنه الخليفة بعد رسول الله ﷺ معارض بما جاء فى حق عليّ رضى الله عنه، فقد وردت أحاديث تدل على أنه الخليفة بعد رسول الله ﷺ، فمنها حديث سعد بن أبى وقاص، وابن عباس « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى » قال له ذلك، وقد استخلفه لما ذهب إلى غزوة تبوك. أخرجه الشيخان، وأحمد فى مسنده(٢)، والحافظ أبو القاسم الدمشقى فى الموافقات، وغيرهم؛ وجه الدلالة أن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٣١-٢٤٠٤)، وأحمد (١/ ١٨٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٢٣) رقم (٨٤٤١) من طريق مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه به، وللحديث طرق أخرى في الصحيحين وغيرهما وأما حديث ابن عباس فرواه البزار والطبراني كما في =

موسى استخلف هارون عند ذهابه إلى ربه، فمقتضى التنظير بينهما أن يكون خليفته عند ذهابه إلى ربه كما كان هارون من موسى، وذلك ظاهر جلي.

ومنها حديث يوم غدير خُم « مَن كنت مولاه فعليّ مولاه. . .» إلى آخر الحديث. أخرجه أحمد، وأبو حاتم، والترمذى، والبغوى، وفى بعض طرقه « ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا بلى يا رسول الله. قال من كنت مولاه فإن هذا - يعنى عليًا - مولاه »[(١)] وجه الدلالة أن المولى فى اللغة: العتيق، والمعتق، وابن العم، والعصبة، ومنه: ﴿ خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى ﴾ [مريم: ٥] وسموا بذلك؛ لأنهم يلونه فى النسب من الولى، وهو القرب. ويطلق على الحليف، والجار، والناصر، ومنه قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١]، وفى قول ابن عرفة والولى، ومنه الآية، قال بعضهم: أى وليُّهم والقائم بأمرهم، وأما الكافر، فقد خذله، وعاداه ومنه أيضًا قوله ﷺ « أى امرأة نكحت بغير إذن مولاها فنكاحها باطل »[(٢)].

فهذه ثمانية أوجه لا يصح الحمل على شيء من الأربعة الأول منها؛ إذ لا معنى له فى الحديث، وكذا لا يصح على المعنى الخامس إلا على وجه بعيد، فإنه يراد بالحليف الناصر والمتبادر إلى الذهن خلافه، إذ الحليف من وجدت منه صورة المحالفة حقيقة، والمجاز خلاف الظاهر، وكذا لا يصح الحمل على المعنى السادس، وهو الجار إلا أن يريد به المجير - بمعنى الناصر - ومنه: « وإنى جار لكم »: أى مجير فرجع إلى معنى الناصر، فتعين أحد المعنيين الناصر والمولى بمعنى المتولى، وأيا ما كان أفاد المقصود، إذ معناه من كنت متولى أمره، والناظر فى مصلحته، والحاكم عليه - فعليّ فى حقه كذلك.

ويقابل هذا المعنى بقوله « ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم »

= مجمع الزوائد (٩/ ١١٢).

(١) تقدم قريبًا.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٨٣)، والترمذي (١١٠٢)، وابن ماجه (١٨٧٩)، وعبد الرزاق (١٠٤٧٢)، وأحمد (٦/ ٤٧، ١٦٥-١٦٦)، والدارمي (٢/ ١٣٧)، وابن حبان (٤٠٧٤)، وابن الجارود (٧٠٠)، والدارقطني (٣/ ٢٢١، ٢٢٥-٢٢٦)، والحاكم (٢/ ١٦٨)، والبيهقي (٧/ ١٠٥، ١١٣، ١٢٤-١٢٥)، والبغوي في شرح السنة (٢٢٥٥) من حديث عائشة وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم على شرط الشيخين.

وما ذاك إلا لما ذكرناه من النظر فيما يصلحهم وفى الأحكام عليهم، أو يكون معناه من كنت ناصره، ومنصفه ممن ظلمه، والآخذ له بحقه وبثأره - فعليّ من حقه كذلك، وقد تعذر وصفه بذلك فى حياة النبى ﷺ، فتعين أن يكون المراد به بعد وفاته.

ومنها وهو أقواها سندًا ومتنًا حديث عمران بن حصين « إن عليًا منى، وأنا منه، وهو وليّ كل مؤمن بعدى ». أخرجه أحمد، والترمذى، وأبو حاتم[(١)]. وحديث بريدة « لا تقع فى عليّ؛ فإنه منى، وأنا منه، وهو وليكم بعدى » أخرجه أحمد[(٢)]. وحديثه الآخر « من كنت وليه فعلى وليُّه »[(٣)] وجه الدلالة أن الولى فى اللغة المولى، قاله الفراء، والمتولى، ومنه ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ [يوسف: ١٠١] أى متولى أمرى فيهما، وضد العدو - يعنى - المحب والناصر. ولا يتجه حمله على المحب، ولا على المتولى؛ إذ لا يكون لتقييده بالبعدية معنى فى الحديثين الأولين، فإنه - رضى الله عنه تعالى - كان محبًا متوليا للمؤمنين حياة المصطفى ﷺ، وبعد وفاته، والحديث الثالث محمول على الأولين فى إرادة البعدية حملاً للمطلق على المقيد، فتعين أحد المعانى الثلاثة، وأيًا ما كان أفاد المقصود.

أما بمعنى الناصر، فقد تقدم توجيهه فى الحديث قبله.

وأما معنى الأول - فإن حمل المولى على معنى المحب، فلا تصح إرادته بمعنى المتولى فظاهر فى المقصود بل صريح، والله أعلم.

قلنا: الجواب من وجهين: أما الأول: فإن الأحاديث المعتمد عليها فى خلافة أبى بكر - رضى الله عنه - متفق على صحتها، وهذه الأحاديث غايتها أن تكون حسنة، وإن صح منها شيء عند بعضهم، فلا يصلح معارضًا، لما اتفق عليه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٤٣٧-٤٣٨)، وفي الفضائل (١٠٣٥)، والترمذي (٣٧١٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٣٢) رقم (٨٤٧٤)، وابن حبان (٦٩٢٩)، والحاكم (٣/ ١١٠-١١١) من حديث عمران بن حصين.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٦) وفيه قصة وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٣١): رواه أحمد والبزار باختصار، وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره وضعفه جماعة وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٥) رقم (٨١٤٤)، (٥/ ١٣٠) رقم (٨٤٦٥)، والبزار (٢٥٣٥)، وابن حبان (٦٩٣٠)، والحاكم (٢/ ١٣٠) وصححه الحاكم على شرط مسلم وأقره الذهبي وقد تقدم بلفظ أقرب لهذا اللفظ.

ومن عجيب أمر هؤلاء الجهلة أنا إذا استدللنا عليهم بالأحاديث الصحيحة الدالة صريحًا على خلافة أبى بكر - رضى الله تعالى عنه - كخبر: « اقتدوا باللذين من بعدى »(١)، وغيره من الأخبار الناصة على خلافته، قالوا: هذا خبر واحد، ولا يغنى فيما يطلب فيه اليقين. وإذا أرادوا أن يستدلوا على ما زعموه من النص على خلافة عليّ - أتوا بأخبار لا تدل على زعمهم، كخبر: « من كنت مولاه »(٢)، وخبر: « أنت منى بمنزلة هارون من موسى »(٣) مع أنها آحاد، وإما بأخبار باطلة كاذبة متيقنة البطلان واضحة الوضع والبهتان، لا تصل إلى درجة الأحاديث الضعيفة التى هى أدنى مراتب الآحاد، كخبر: « أنت الخليفة من بعدى »(٤)، وما بعده، مما تقدم ذكره آنفًا. فتأمل هذا التناقض الصريح والجهل القبيح.

لكنهم؛ لفرط جهلهم وعنادهم وميلهم عن الحق، يزعمون التواتر فيما يوافق مذهبهم الفاسد، وإن أجمع أهل الحديث والأثر على أنه كذب موضوع مختلق، ويزعمون فيما يخالف مذهبهم أنه آحاد بل وباطل - وإن اتفق أولئك على صحته وتواتر روايته - تحكما منهم وعنادًا، أو زيغًا عن الحق، فقوتلوا، وبكل شر قوبلوا.

الوجه الثانى: من وجهى الجواب تسليم صحتها، مع بيان أن لا دليل لهم فيها.

أما قوله فى الحديث الأول: « إن موسى استخلف هارون عند ذهابه إلى ربه. . . » إلى آخر ما قيل. قلنا: الجواب من وجهين: الأول - نقول: هذا عدول عما نطق به لسان الحال والمقال، فإنه عليه الصلاة والسلام - قال لعلى تلك المقالة حين استخلفه لما توجه إلى غزوة تبوك، وذلك استخلاف حال الحياة، فلما رأى تألمه، بسبب التخلف - إما أسفا منه على الجهاد، أو بسبب ما عرض له من أذى المنافقين على ما سنبينه إن شاء الله تعالى قريبًا - قال له تلك المقالة؛ إيذانا له بعلو مكانته منه إلى إقامته مقام نفسه، فالتنظير بينه وبين هارون إنما كان من استخلاف موسى له منضما إلى الأخوة، وشد الأزر، والعضدية، وكان ذلك كله حال الحياة مع قيام موسى فيما استخلفه بعد، يشهد بذلك صورة الحال، فليكن الحكم فى على

(١) تقدم.
(٢) تقدم.
(٣) تقدم.
(٤) تقدم.

كذلك منضمًا إلى ما ثبت له من أخوة النبى ﷺ، وشد أزره وعضده به، غير أنه لا يشاركه فى النبوة كما شارك هارون موسى، فلذلك قال ﷺ: « إلا أنه لا نبيّ بعدى »، أو بعد بعثتى، على سبيل التنظير، ولا إشعار فى ذلك بما بعد الوفاة، لا بنفى، ولا بإثبات، بل نقول: ولو حمل على ما بعد الوفاة لم يصح تنزيل عليّ من النبى ﷺ منزلة هارون من موسى لانتفاء ذلك فى هارون فإنه لم يكن الخليفة بعد موسى هارون، وإنما كان الخليفة بعده يوشع بن نون، وأما هارون فقد مات فى حياة موسى، فعلم قطعًا أن المراد به الاستخلاف حال الحياة؛ لمكان التشابه، ولا يوجد إلا فى حال الحياة؛ لا يقال: عدم استخلاف موسى هارون بعد وفاته؛ إنما كان لفقد هارون حينئذ، ولو كان هارون حيًا لاستخلفه، ولم يستخلف غيره؛ بخلاف على مع النبى ﷺ؛ وإنما يتم دليلكم أن لو كان هارون حيًا بعد وفاته، واستخلف غيره – لأنا نقول: الكلام معكم فى تبيين أن المراد بهذا القول: الاستخلاف فى حال الحياة؛ لمكان التنزيل منزلة هارون من موسى، ومنزلة هارون من موسى فى الاستخلاف لم تتحقق إلا فى حال الحياة؛ فثبت أن المراد به ما تحقق، لا أمر آخر وراء ذلك. وإنما يتم متعلقكم منه أن لو حصل استخلاف هارون بعد وفاة موسى(١).

ثم نقول: هب أن المراد: الاستخلاف عند الذهاب إلى الرب، فلم قلتم: إن ذلك بالموت، وإنما يكون ذلك كذلك أن لو لم يكن إلا به، وهو ممنوع؛ إذ الذهاب المراد إلى الرب – سبحانه – فى الحياة أيضًا، وهل كان ذهابُ موسى إلى ربه إلا فى حال حياته ؟! والصلاة: مناجاة، والدعاء كذلك، والحجاج والعمار وفدُ الله تعالى؛ فهل الذهاب إلى شيء من ذلك إلا ذهابًا إلى الربّ حقيقة، ومطابقتها أوقع من مطابقة الذهاب بالموت؛ فكلٌّ ذاهب إلى طاعة ربه ذاهبٌ إلى ربه؛ لأنه متوجه إليه بها، وإن كان فى بعض التوجه أوقع منه فى غيره، وهذه كالأنواع منه؛

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٤٣٨): واستدل بحديث الباب – أي حديث «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟» – على استحقاق علي للخلافة دون غيره من الصحابة، فإن هارون كان خليفة موسى. وأجيب بأن هارون لم يكن خليفة موسى إلا في حياته لا بعد موته، لأنه مات قبل موسى باتفاق. أشار إلى ذلك الخطابي، وقال الطيبي: معنى الحديث أنه متصل بي نازل مني منزلة هارون من موسى، وفيه تشبيه مبهم بينه بقوله: «إلا أنه لا نبي بعدي» فعرف أن الاتصال المذكور بينهما ليس من جهة النبوة، بل من تخصيص خلافة عليّ للنبي بحياته، والله أعلم.

فيكون النبى ﷺ استخلف عليًا وهو ذاهب إلى ربه، بالخروج إلى طاعته فى الجهاد؛ كما استخلف موسى هارون فى حال حياته ذاهبًا إلى ربه سبحانه، والله أعلم.

الوجه الثاني: أن سياق هذا القول خبر، ولو كان المراد به: ما بعد الوفاة، لوقع - لا محالة - كما وقع كل ما أخبر بوقوعه؛ فإن خبره ﷺ حق وصدق؛ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤] ولما لم يقع عُلِم قطعًا أنه لم يرد ذلك، وقوله - عليه الصلاة والسلام - « إنه لا ينبغى أن أذهب إلا وأنت خليفتى على أهلى »[1] فإنه ﷺ لم يستخلفه إلا عليهم، والقرابةُ مناسبة لذلك. وأما على المدينة فالمستخلف: محمد بن مسلمة، وقيل: سباع بن عرفطة، وذكره ابن إسحاق فقال: خَلَّفَ رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك عليًا على أهله وأمره بالإقامة فيهم، فأرجفَ المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً. قال: فأخذ عليٌّ سلاحه وخرج، حتى لحق برسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف، فقال: يا نبى الله، زعم المنافقون أنك ما خلفتنى إلا أنك استثقلتنى، فتخففت منى[2]، فقال - عليه الصلاة والسلام -: « كذبوا، ولكنى خلفتك لما تركت ورائى؛ فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك؛ ألا ترضى - يا على - أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى »[3].

أو يكون المعنى: إلا وأنت خليفتى فى أهلى فى هذه القضية، على تقدير عموم استخلافه فى المدينة؛ إن صح ذلك. ويكون ذلك لمعنى اقتضاه فى تلك المدة عَلِمَهُ رسول الله ﷺ وجهله غيره؛ يدل عليه: أنه ﷺ استخلف غيره - رضى الله تعالى عنه - فى قضايا كثيرة، ومرات عديدة.

أو يكون المعنى: الذى يقتضيه حالك وأمرك: ألا أذهب فى جهةٍ إلا وأنت خليفتى؛ لأنك منى بمنزلة هارون من موسى؛ لمكان قربك وأخذك عنى، لكن قد يكون شخوصُكَ معى فى وقتٍ أنفع لى من استخلافك، أو يكونُ الحال يقتضى أن

(١) أخرجه مطولاً أحمد (١/ ٣٣٠-٣٣١)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١١٢) رقم (٨٤٠٩)، والطبراني في الكبير (١٢٥٩٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٣٢-١٣٤) من حديث ابن عباس نحوه. قال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٢٣): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط باختصار، ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي بلج وهو ثقة وفيه لين.

(٢) في ط: بي.

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٤/ ١٥٩). وتاريخ الطبري (٣/ ١٠٣)، ودلائل النبوة (٥/ ٢٢٠)، والبداية والنهاية (٥/ ١١)، وقد تقدم تخريج الحديث.

المصلحةَ فى استخلافِ غيرك؛ فيتخلف حكم الاستخلاف عن مقتضاه، بمعارض أقوى منه يقتضى خلافه؛ وليس فى شيءٍ من هذا كلّه دليلٌ على أنه الخليفةُ بعد موته ﷺ.

وأما الحديث الثانى: فقوله فيه: « فتعين أحد معنيين: إما الناصر، وإما المولى بمعنى المتولى »، فنحن نقول بموجبه، لا بالتقدير الذى قدروه، والمعنى الذى عليه نزلوه؛ لا بل يكون التقدير: من كنتُ ناصرَهُ فعليٌّ ناصرهُ؛ لأن عليًّا جلَّى من الكروب فى الحروب ما لم يجله غيره، وفتح الله على يديه فى زمنه ﷺ ما لم يفتح على يد غيره؛ وشهرةُ ذلك تغنى عن الاستدلال عليه. والتطويل فيه. وإذا كان بهذه المثابة كان ناصرًا من كان النبى ﷺ ناصره؛ لما أشاد الله به من دعائم الإسلام المثبتة لربّها منه فى عنق الخاص والعام، بنصرة المسلمين وإشادة منار الدين؛ ويكون المعنى: من كنت ناصرَهُ فعلى ناصره، وإن كان ذلك واجبًا على كل أحد من الصحابة - بل من الأمة - لكن أثبت بذلك لعليٍّ نوع اختصاصٍ؛ لأنه أقربهم إليه، وأولاهم بالانتصار لمن نصره.

وهذا أولى من حمل الناصر على المعنى الذى ذكروه؛ لما يستلزم ذلك من المفسدة العظيمة والوصمة الفظيعة، فى جلة أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، على ما سنقرره فى الجواب عن الحديث الثالث، الذى أخرجه أحمد والترمذى، عن عمران بن حصين، مما يدل على أنه لا يجوز حمله، على معنى الاستخلاف بعده - عليه الصلاة والسلام - ولا على معنى المتولى؛ ليكون التقدير: فعليٌّ وليه، أى: متولى أمره بعدى، فلا يصح ذلك؛ إذ الإجماع منعقد على أنه لم يرد ﷺ ذلك فى الحالة الراهنة؛ فيكون هذا الحديث الثانى كالحديث الثالث، الذى سيأتى الكلام عليه مستوفى قريبًا.

على أنا نقول: لم لا يجوز أن يكون المراد: الولى المنعم؛ استعارة من مولى العتق، التفاتا إلى المعنى المتقدم آنفًا فى معنى الناصر؛ فيكون التقدير: من أنعم الله عليه بالهداية على يدى نبيه إلى الإسلام والإيمان، حتى اتصف النبيُّ ﷺ بأنه مولاه - فقد أنعم الله عليه - أيضًا - باستقامة أمر دينه، وأمانه من أعداء الدين وخذلانهم، وقوة الإسلام، وإشادة دعائمه - على يد عليٍّ بن أبى طالب، بما

اختصَّ به من دون غيره، مما تقدم بيانه، مما يصحح الاتصاف بأنه مولًى له أيضًا.

وقد حكى الهروى، عن أبى العباس: أن معنى الحديث: من أحبنى وتولانى، فليحب عليًّا وليتولَّهُ.

قال فى « الرياض النضرة »: وفى هذا عندى بُعْدٌ - يعنى: ما حكاه الهروى - إذ كان قياسهُ على هذا التقدير أن يقول: من كان مولاى، فهو مولى على، ويكون المولى: بمعنى الولى، ضد العدو، فلما كان الإسناد إلى اللفظ على العكس من ذلك، بطل هذا المعنى. ولو [قال] (١) معناه: من كنت أتولاه وأحبه، فعلى يتولاه ويحبه؛ كان أنسبَ للفظ الحديث، وهو ظاهرٌ لمن تأمله.

نعم: يتجه ما ذكره الهروى من وجه آخر. بتقدير حذفٍ فى الكلام، على وجه الاختصار، تقديره: من كنت مولاه، فسبيلُ المولى - يعنى: وحقه - أن يحب ويتولى، فعلى - أيضًا - مولاه؛ لقربه منى ومكانته من تأييد الإسلام، فيحبه وليتوله كذلك.

وأما الحديث الثالث: فقولهم: « فيتعين حمل الولى على الناصر، أو المتولى... » إلى آخر ما قالوه. قلنا: الجواب عنه من وجهين - أيضًا -:

الأول: القول بالموجب على المعنيين، مع البيان بأنه لا دليل لكم فيه.

أما على معنى الناصر: فلما بيناه فى الحديث قبله.

وأما بمعنى المتولى: فقد كان ذلك؛ إذ قد تولى على - رضى الله عنه - أمر الأمة بالخلافة، وإن كان بَعْدَ من كان بعده؛ فقد صدق عليه - رضى الله تعالى عنه - أنه تولى الأمة بعده - عليه الصلاة والسلام - حقيقةً. ومثل هذا قد ورد، وسيأتى فى مناقب عثمان - رضى الله تعالى عنه - أنه ﷺ رأى فى منامه حوريةً فقال لها: لمن أنت ؟ فقالت: للخليفة من بعدك، عُثْمَانُ؛ وحينئذ فتكون فائدةُ ذكرِه ﷺ ذلك؛ للتنبيه على فضيلة عليٍّ - رضى الله تعالى عنه - والتمرنِ على محبته؛ فإنه سيلى [عليكم](٢) ويتولى أمركم، ومن تتوقع إمرته فالأولى أن يمرن القلبُ على مودته ومحبته ومجانبة بغضه؛ ليكون أدعى إلى الانقياد، وأسرع للطواعية، وأبعد

---

(١) في ط: كان. والمثبت من الرياض النضرة.

(٢) المثبت من الرياض النضرة.

عن الخلف[١].

ويشهد لهذا المعنى وغيره. حثُّه ﷺ فى هذه الخطبة على أهل بيته عمومًا، وعلى عليٍّ خصوصًا. ويرشد إليه - أيضًا - ما ابتدأ به ﷺ هذا الحديث، ولفظه - عند الطبرانى، بسند صحيح -: « أنه ﷺ خطب بغدير خم، ثامن عشر ذى الحجة، مرجعه من حجة الوداع، تحت شجرات بُرّح له ما تحتها بعد صلاة الظهر، فقال: « أيها الناس، إنه قد نبأنى اللطيفُ الخبير: أنه لم يُعَمر نبي إلا نصف عمر الذى يليه من قبله؛ وإنى لأظن أنى يوشك أن أُدعى فأجيب، وإن مسئول وإنكم مسئولون، فماذا أنتم قائلون ؟ » قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وجهدت، ونصحت؛ فجزاك الله خيرًا. فقال: « ألستم[٢] تشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن جنته حق، وناره حق، وأن الموت حق، وأن البعث بعد الموت حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور ؟! » قالوا: بلى نشهد بذلك. قال: « اللهم، اشهد! ». ثم قال: « أيها الناس، إن الله مولاى، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم » وفى رواية « ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ » قالوا: بلى. قال: « فمن كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وَالِ من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقَّ معه أينما دار ». ثم قال: « أيها الناس، إنى فَرَطُكم، وإنكم واردون على الحوض، حوضًا عرضه كما بين بُصرى إلى صنعاء، فيه عدد نجوم السماء قِدْحانٌ من فضة، وإنى سائلكم حين تردون عليَّ، وإنى تارك فيكم الثقلين، فانظروا كيف تخلفونى فيهما: الثقل الأكبر: كتاب الله - عز وجل - سببٌ طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فاستمسكوا به لا تضلوا ولا تبدلوا، وعترتى أهل بيتى؛ فإنه قد نبأنى اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض »[٣].

ويشهد له - أيضًا - أن سبَب ذلك - كما نقله الحافظ شمس الدين بن الجوزى،

(١) ينظر الرياض النضرة (١/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٢) في الطبراني: أليس.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٠٥٢) من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري بنحوه. وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٦٨): فيه زيد بن الحسن الأنماطي قال أبو حاتم: منكر الحديث، ووثقه ابن حبان، وبقية رجال أحد الإسنادين ثقات. وحديث الحوض عند البخاري (٤٠٤٢، ٦٤٢٦)، ومسلم (٢٢٩٦).

عن ابن إسحاق: أن عليًا - رضى الله تعالى عنه - تكلم فيه بعضُ من كان معه فى اليمن، فلما قضى ﷺ حجه، خطب هذه الخطبة؛ تنبيها على قدره، وردا على من تكلم فيه؛ كبريدة بن الحصيب؛ كما فى البخارى[١]: أنه كان يبغضه. وسبب ذلك: ما صححه الذهبى، أنه خرج معه إلى اليمن فرأى منه جفوةً فنقصه للنبى، فجعل وجه النبى ﷺ يتغير، فقال: « يا بريده! لا تقع فى عليّ؛ فإن عليا منى وأنا منه، وهو وليكم بعدى »[٢].

ولا يجوز حمله على أنه المولى عقبَ وفاته ﷺ فى الأحاديث كلها؛ لوجوه:

الأول: أن لفظ الحديث لفظ الخبر، ممن لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى، ولو كان المراد به كذلك، لوقع لا محالة كما وقع كل ما أخبر عنه؛ فلما لم يقع ذلك دَلَّ على أن المراد به غيره.

لا يقال: لم لا يجوز أن يكون المراد بلفظ الخبر: الأمر ؟ لأنا نقول: يلزم على ذلك محذوران:

الأول: صرف اللفظ عن ظاهره، وذلك مرجوح، والظاهر راجح؛ فوجب العمل به.

الثانى: أن ذلك - يعنى: أمر الخلافة - أمرٌ عظيم مهم فى الدين، تتوفر عليه دواعى المسلمين، ومثل ذلك لا يكتفى فيه بالألفاظ المجملة؛ بل يجب فيه التصريح بنص الظاهر.

الوجه الثانى: لزوم مفسدة عظيمة فى الحمل على ذلك، هى: نسبةُ الأمة إلى الاجتماع على الضلالة، واعتقادُ خطأ جميع الصحابة باجتماعهم على تولية أبى بكر - رضى الله تعالى عنهم - وذلك منفيٌّ بقوله ﷺ: « لا تجتمع أمتى على ضلالة »[٣]. وما ذكرناه: فى المصير إليه دفعٌ لهذا المحذور، ونفى للظلم والخطأ

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥٠) وفيه قول النبي ﷺ لبريدة: لا تبغضه فإن له في الخمس أكثر من ذلك.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه الترمذي (٢١٦٧) من حديث ابن عمر مرفوعاً إن الله لا يجمع أمتي. أو قال أمة محمد، على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ إلى النار. وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه وله طرق عند الحاكم (١/ ١١٥ - ١١٦)، وأخرجه ابن ماجة (٣٩٥٠) من حديث أنس وقد ورد عن جماعة من الصحابة. ينظر المقاصد الحسنة (١٢٨٨)، وكشف الخفاء (٢/ ٤٨٨).

عن الجم الغفير، المشهود لهم بأنهم كالنجوم: من اقتدى بأيهم اهتدى؛ خصوصًا من أَمَرَ ﷺ بالاقتداء به من بعده وشهد بالرشد لمن أطاعه.

وما تدعيه الرافضة: من أن عليًا ومن تابعه فى ترك المبادرة إلى بيعة أبى بكر؛ إنما بايعوه بعد ذلك تقية؛ فلا إجماع على بيعة أبى بكر فى نفس الأمر - فهذا غايةُ الفساد؛ لما يلزم عليه من نسبة القبائح والرذائل. وقد قدمنا بيان ذلك وكيفية مبايعته؛ من إرسال ابنه الحسن إلى أبى بكر، وخطبة عليّ - كرم الله وجهه - واعتذاره بالعذر الحسن الجميل؛ فانظره فى أول خلافة الصديق، رضى الله تعالى عنه.

الثالث: أن الأحاديث الواردة فى أبى بكر، دلت على أنه الخليفةُ عقيب وفاته ﷺ، وقد بين وجه دلالتها - كما ستراها قريبًا - على خلافته، مصدرًا بها الأحاديث الواردة فى شأنه. وأحاديث عليّ - رضى الله تعالى عنه - مترددةٌ بين احتمالين، فى الحمل على أحدِهما توفيقٌ بين الأحاديث كلها، ونفى للمحذور اللازم فى حق الصحابة كما قررناه؛ وفى الحمل على الثانى إلغاء لبعضها وتقريرٌ لذلك المحذور؛ فكان الحمل على ما يحصل به التوفيق، وينفى به المحذور - أولى؛ عملاً بالأحاديث كلها، وكيف يتطرق خلافُ ذلك إلى الوهم، وقد روى عن على وغيره من الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - ما يشهد بصحته، وتتبادر الأفهام عند سماعه إلى أنه مانعٌ من تطرق تلك الأوهام » ؟! أم كيف يحل اعتقاد غير ذلك، والإجماعُ على خلافه؛ فالإجماع على خلافة أبى بكر قاضٍ بالقطع بحقيتها؛ لأن مفَادَ الإجماع القطعُ، ومفاد خبر الواحد ظنى؛ ولا تعارض بين قطعى وظنى؛ بل يعمل بالقطعى ويلغى الظنى، على أن الظنى لا عبرةَ به، جملةٌ كافية عند الشيعة.

فإن قيل: أى إجماعٍ انعقد، مع تخلف مثل: على، وطلحة، والزبير، وبنى هاشم أجمع، والمقداد، وخالد بن سعيد بن العاص، وابن عباس، وأبى ذر، وعمار بن ياسر، وهؤلاء من جِلَّةِ أهل العقد والحل ؟!.

قلنا: كان تأخرهُم: إما لتأثر خواطرهم بترك المشاورة فى أمر البيعة والاستبداد بها دونهم؛ فإن الزبير وطلحة قد أفصحا بذلك، وبادرا بالبيعة فى اليوم الثانى. وإما للتروى اجتهادًا منهم، فلما ظهر لهم الأمر بايعوا، والله أعلم بالحقائق سبحانه.

الوجه الثالث - من أوجه الجواب عن الحديث الثالث: لم لا يجوز أن يكون الولى هنا بمعنى: المحبُّ الموالى، ضد العدو ؟! والتقدير: وهو متوليكم ومحبكم بعدى، ويكون المراد بالبعدية هنا: البعدية فى الرتبة، لا بعدية وفاته ﷺ، أى: المتقدم فى تولى المسلمين ومحبتهم: [أنا]، ثم على فى الدرجة الثانية؛ لمكانته منى وقربه ومناسبته؛ فهو أولى بمحبة من أحبه، وتولى من أتولاه، ونصرة من أنصره، وإجارة من أجيره[1].

والحاصل: أن هذا الحديث - يعنى: حديث: « من كنت مولاه » - ليس نصًّا على إمامة على - كرم الله وجهه - وكيف يكون نصًّا ولم يحتج به هو، ولا العباس - رضى الله تعالى عنهما - ولا غيرهما وقت الحاجة إلى الاحتجاج؛ وإنما احتج به عليٌّ فى خلافته؛ يقول راوى ذلك، أبو الطفيل - كما عند أحمد والبزار: جمع عليٌّ الناس بالرحبة - يعنى: بالعراق - لما آلتْ إليه الخلافةُ، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال لهم: أُشهد الله من شهد يوم غدير خم إلا قام، ولا يقوم رجلٌ يقول: نبئت وبلغنى، إلا رجل سمعتْ أذناه ووعى قلبه؛ فقام سبعةَ عشرَ صحابيا - وفى رواية: - ثلاثون - فقال: هاتوا ما سمعتم، فذكروا الحديث المتقدم، ومن جملته: « من كنت مولاه فعلى مولاه »، فقال: صدقتم، وأنا عَلَى ذلك من الشاهدين[2]. فلو كان نصًّا لاحتج به ومنع غيره، كما منع أبو بكرٍ الأنصار بخبر: « الأئمة من قريش »[3] فأطاعوه، مع كونه خبرَ واحدٍ، وتركوا الإمامة وادعاءها

(١) ينظر الرياض النضرة (١/ ٢٢٩ - ٢٣٠).

(٢) أخرجه أحمد بنحوه (٦/ ٣٧٠) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٠٧). رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير فطر بن خليفة، وهو ثقة.

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي (٢/ ١٦٣- منحة) رقم (٢٥٩٦) والبزار (٣/ ٢٢٨ - كشف) رقم (١٥٧٨) وأبو يعلى (٦/ ٣٢١) رقم (٣٦٤٤) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٧١) والبيهقي (٨/ ١٤٤) كتاب قتال أهل البغي: باب الأئمة من قريش، كلهم من طريق إبراهيم بن سعد عن أبيه عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الأئمة من قريش إذا حكموا فعدلوا وإذا عاهدوا فوفوا وإذا استرحموا فرحموا وقال أبو نعيم: هذا حديث مشهور ثابت من حديث أنس وقال الحافظ في تخريج أحاديث المختصر (١/ ٤٧٤): هذا حديث حسن ا.هـ
وللحديث طرق أخرى عن أنس فأخرجه أحمد (٣/ ١٨٣) وابن أبي عاصم في السنة (١١٢٠) من طريق الأعمش عن سهل أبي الأسد عن بكير بن وهب الجزري عن أنس، به.
وأخرجه أحمد (٣/ ١٢٩) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٦٧ - ٤٦٨) كتاب القضاء: =

لأجله؛ فكيف - حينئذ - يتصور وجود نصٍّ جلى يقينى لعلى، وهو بين قوم لا يعصون خبرَ الواحد فى أمر الإمامة، وهم من الصلابة فى الدين بالمحل الأرفع؛ بشهادة بذلهِمُ الأنفسَ والأموالَ ومهاجرتهم الأهل والأوطانَ وقتلهم الأولاد والآباءَ فى نصرةِ الدين، ولم يحتج عليٌّ عليهم بذلك النص الجلى، بل ولا قال أحد منهم - عند طلع النزاع فى أمر الإمامة -: لم يتنازعون فيها، والنص الجلى قد عين فلانًا لها. فإن زعم زاعم أن عليًا قال لهم ذلك، فلم يطيعوه - كان جاهلاً ضالا مفتريًا منكرًا للضروريات؛ فلا يلتفت إليه؛ فإنه لم يقله - كرم الله وجهه - إلا عندما آلت إليه الخلافة؛ بشهادة راويه أبى الطفيل، ولم يحتجَّ به عند وفاته ﷺ، فسكوتُه عن الاحتجاج به إلى أيام خلافته، قاض على من عنده أدنى فهم وعقل - بأنه عَلِمَ منه أنه لا نص فيه على خلافته عقيب وفاته ﷺ(١).

= باب الأئمة من قريش حديث (٥٩٤٢) من طريق شعبة عن علي أبي الأسد ثنا بكير بن وهب الجزري عن أنس به وقد اختلف في اسم أبي الأسد وقد رجح أبو حاتم الرازي أن اسمه سهل فقال ولده في العلل (٢/ ٤٣٠-٤٣١): سألت أبي عن حديث رواه أبو الجواب الأحوص بن جواب عن عمار بن رزيق عن الأعمش عن سهل بن بكير الجزري عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الأئمة من قريش ....» فسمعت أبي يقول: إنما هو الأعمش عن سهل أبي الأسد عن بكير الجزري عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم. ا. هـ وأخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٢٥٢) رقم (٧٢٥) من طريق ابن جريج عن حبيب بن أبي ثابت عن أنس بن مالك به وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٨) من طريق حماد بن أحمد بن حماد بن أبي رجاء المروزي قال: وجدت في كتاب جدي حماد بن أبي رجاء السلمي بخطه عن أبي حمزة السكري عن محمد ابن سوقة عن أنس، به. قال أبو نعيم: غريب من حديث محمد تفرد به حماد موجوداً في كتاب جده. وأخرجه الحاكم (٤/ ٥٠١) من طريق الصعق بن حزن ثنا على ابن الحكم عن أنس مرفوعاً بلفظ: الأمراء من قريش وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وأخرجه البزار (١٥٧٩) من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن أنس بلفظ: الملك في قريش. والحديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٩٥) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الأوسط أتم منهما والبزار إلا أنه قال: الملك في قريش ورجال أحمد ثقات، وفي الباب عن علي وأبي برزة.

(١) قال البيهقي في الاعتقاد (ص٢٠٣): وأما حديث الموالاة فليس فيه - إن صح إسناده - نص على ولاية بعده، فقد ذكر من طرقه في كتاب الفضائل - ما دل على مقصود النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك. وهو أنه لما بعثه إلى اليمن كثرت الشكاة عنه، وأظهروا بغضه. فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر اختصاصه به ومحبته إياه ويحثهم بذلك على محبته وموالاته وترك معاداته، فقال: من كنت وليه فعليّ وليه»... والمراد به ولاء الإسلام ومودته. وعلى المسلمين أن يوالي بعضهم بعضا، ولا يعادي بعضهم بعضًا ا هـ.

على أن عليًا نفسَهُ صرح بأنه ﷺ لم ينص عليه، ولا على غيره؛ كما سيأتى عنه.

وفى البخارى وغيره، حديث خروج على والعباس من عند النبى ﷺ، وقول العباس - وقد أخذ بيد على -: « إنك بعد ثلاث عبدُ العصا، والله لأرى أن رسول الله ﷺ متوفًّى فى وجعه هذا، وإنى لأعرف الموت، فى وجوه بنى عبد المطلب؛ فلنذهب إلى رسول الله ﷺ نسأله: فيمن يكون هذا الأمر؛ فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان فى غيرنا أمرناه فأوصى بنا ». فقال على: « والله! إن سألناها رسول ﷺ فَمَنَعَنَاهَا، لا يعطيناها الناسُ أبدا »[1] فهذا صريح فيما ذكرناه، من أنه ﷺ لم ينص على أحد عند موته، وكل عاقل يجزم بأن حديث: « من كنت مولاه » ليس نصًّا فى إمامة على؛ وإلا لَمْ يَحْتَجْ هو والعباس إلى مراجعته ﷺ المذكورة فى حديث البخارى، مع قرب العهد جدا بيومئذ بينهما نحو الشهرين، وتجويز النسيان على سائر الصحابة السامعين لخبر يوم الغدير، مع قرب العهد - وهم مَنْ هم فى الحفظ والذكاء والفطنة، وعدم التفريط والغفلة فيما سمعوه منه ﷺ - محالٌ عادى، يجزم العاقل بأدنى بديهة أنهم لم يقع منهم نسيان ولا تفريط، وبأنهم حالَ بيعتهم لأبى بكر، كانوا ذاكرين لذلك الحديث عالمين به وبمعناه؛ فزعم الشيعة والرافضة: أن الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - علموا هذا النص ولم ينقادوا له؛ عنادًا أو مكابرة بالباطل، وقولهم: « إنما تركها عليّ - رضوان الله عليه - تقية » كذب وافتراء أيضا؛ لما قدمناه فيما مرّ، ومنه: إنما كان فى منعةٍ من قومه وعشيرته، مع كثرتهم وشجاعتهم، وأنه احتج أبو بكر - رضى الله تعالى عنه - على الأنصار لمَّا قالوا: « منا أمير ومنكم أمير » بخبر: « الأئمة من قريش » فكيف سلموا له هذا الاستدلال، ولأى شيء لم يقولوا: ورد النص على إمامة عليّ، فكيف تحتج أنت بمثل هذا العموم ؟!.

وقد أخرج البيهقى عن أبى حنيفة النعمان بن ثابت - رضى الله تعالى عنه - أنه قال: « أصل عقيدة الشيعة: تضليل الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم ». وإنما نبه على الشيعة؛ لأنهم أقل فحشا فى عقائدهم من الرافضة؛ وذلك لأن الرافضة يقولون بتكفير الصحابة؛ لأنهم عاندوا بترك النص على إمامة على - رضى الله تعالى عنه -

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٤٧)، وقد تقدم تخريج ذلك.

بل زاد أبو كامل، وهو من رءوسهم المتقدمين، فكفر عليا؛ زاعما أنه أعان الكفارَ على كفرهم، وأيدهم على كتمان ذلك، وعلى ستر ما لا يتم الدين إلا به؛ لأنه لم يرو عن على - كرم الله وجهه - أنه احتج بالنص على إمامته؛ بل تواتر عنه: « إن أفضلَ الأمةِ: أبو بكر وعمر »[(1)] فإنه قبل من عمر إدخاله إياه فى الشورى.

وقد اتخذ الملحدون كلام هؤلاء السِّفلة الكَذَبة ذريعةً لطعنهم فى الدين والقرآن، وقد تصدى بعض الأئمة للرد عليهم، ومن جملة ما قاله أولئك الملحدون: كيف يقول الله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقد ارتدوا بعد وفاة نبيهم، إلا نحو ستة أنفس منهم؛ لامتناعهم من تقديم أبى بكر وعدم رضاهم ببيعته ؟! فانظر إلى حجة الملحد تجدُها عينَ حجة الرافضة، قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون! بل هم أشد ضررا على الدين من اليهود والنصارى، وسائر فرق الضلال! كما صرح به على - رضى الله عنه - بقوله: « تفترق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، شرها: من ينتحل حبنا ويفارق أمرنا »[(2)] ووجهه: ما اشتملوا عليه من افترائهم قبائحَ البدع وغاياتِ العناد والكذبَ، حتى تسلطت الملاحدةُ بسبب ذلك على الطعن فى الدين وأئمة المسلمين؛ بل قال القاضى أبو بكر الباقلانى: إن فيما ذهبت إليه الرافضةُ مما ذكر، إبطالاً للإسلام؛ لأنه إذا أمكن اجتماعُ الصحابة على الكتم للنصوص، أمكن فيهم الكذبُ والتواطؤ عليه لغرض؛ فيمكن أن سائر ما نقلوه من الأحاديث زور، ويمكن أن القرآن عُورضَ بما هو أفصح منه - كما تدعيه اليهود والنصارى فكتمته الصحابة؛ وكذا ما نقله سائر الأمم عن جميع الرسل: يجوز

(١) أخرج البخاري (٣٦٧١)، وأبو داود (٤٦٢٩). وابن أبي عاصم في السنة (١٢٠٦) عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أبو بكر، قلت: ثم من ؟ قال: ثم عمر. وخشيت أن يقول عثمان، قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين. وينظر باب ما روي عن علي رضي الله عنه من تفضيله أبا بكر وعمر، وإيمائه إلى عثمان بن عفان ثالثهم في الفضل من كتاب السنة لابن أبي عاصم الأحاديث (١٢٠٠ - ١٢٢١).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٩٩٥) عن علي بلفظ: تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وأنتم على ثلاث وسبعين، وإن من أضلها وأخبثها من يتشيع أو الشيعة والحديث فيه ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف أخرجه الذهبي في تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين - ٦٣٧ - ٦٤٢)، بطوله.

الكذب فيه والزور والبهتان؛ لأنهم أقروا ذلك فى هذه الأمة التى قد جاء القرآن بأنها خير أمة أخرجت للناس؛ فادعاؤهم إياه فى باقى الأمم أحرى وأولى. فتأمل المفاسد التى ترتبت على ما أَصَّلَهُ هؤلاء!.

وقد أخرج البيهقى عن الشافعى - رضى الله عنه - ما من أهل الأهواء أشد زورًا من الرافضة!.

وكان إذا ذكرهم عابهم بالرذالة والسقاطة، وأنهم لا يتوجه معهم خطاب، ولا يرجعون إلى رشد ولا إلى صواب.

وعن الحسن بن أبى الحسن البصرى، قال: لما قدم [على] - رضى الله عنه - البصرة فى أثر طلحة والزبير، يريد قتالهم؛ قال له ابن الكواء وقيس بن عباد: يا أمير المؤمنين، ألا تخبرنا عن مسيرك هذا الذى سرت فيه، ستتولى على الأمة وتضرب الناس بعضهم ببعض، أَعَهْدٌ من رسول الله ﷺ إليك، فحدثنا به؛ فأنت الموثوق به المأمون على ما سمعت ؟! قال: « أمَّا أن يكون عندى من رسول الله ﷺ عهد، فلا والله، لَئِنْ كنت أولَ من صدق به لا أكونُ أول مَنْ كذب عليه، ولو كان عندى من النبى ﷺ عهدٌ بذلك، ما تركت أخوى تيم وعدى يقومان على منبره، ولقاتلتهما لو لم أجد إلا بردى؛ ولكن رسول الله ﷺ لم يُقتل قتلاً ولم يمت فجأة، مكث فى مرضه أياما وليالى، يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة، فيأمر أبا بكر فيصلى بالناس وهو يرى مكانى، ولقد أرادتِ امرأة من نسائه صرفَهُ عن أبى بكر، فأبى وغضب، وقال: « أنتن صواحبُ يوسف! يظهرن خلاف ما يبدين؛ مروا أبا بكر فليصل بالناس » فلما قبض الله نبيه ﷺ وقعنا فى أمورنا، ثم اخترنا لدنيانا من رضِيَهُ رسولُ الله ﷺ لديننا، وكانت الصلاةُ أعظمَ أركان الإسلام وقواعِد الدين؛ فبايَعْنا أبا بكر فكان لذلك أهلا، لم يختلف عليه منا اثنان، فأديتُ إلى أبى بكر حقه، وعرفتُ له طاعته، وغزوتُ معه فى جنوده، وكنتُ آخذ إذا أعطانى وأغزو إذا أغزانى، وأضرب بين يديه الحدودَ بسوطى.

فلما قُبِضَ ولأَّها عمر، فأخذ بسنّة صاحبه وما يعرف من أمره، فبايعناه ولم يختلف عليه منا اثنان، فأديتُ إلى عمر حقه، وعرفت له طاعته، وغزوتُ معه فى جنوده، وكنت آخذ إذا أعطانى، وأغزو إذا أغزانى وأضرب بين يديه الحدودَ بسوطى.

فلما قبض تذكرتُ فى نفس قرابتى وسابقتى وفضلى، وأنا أظن أن لا يعدل بى،

ولكن خَشِيَ أَلاَّ يعملَ الخليفةُ بعده ذنبًا إلا لحقه فى قبره؛ فأخرج منها نفسه وولده، ولو كانتْ محاباة منه لآثر ولده، ولكن برئ منها إلى ستةِ نفر من قريش أنا أحدهم.

فلما اجتمع الرهطُ تذكرتُ فى نفسى قرابتى وسابقتى، وأنا أظن أن لن يعدلوا بى، فأخذ عبدُ الرحمن بن عوف مواثيقَ على أن نسمع ونطيع لِمَنْ ولاه الله - عز وجل - أمرنا، ثم أخذ بيدِ عثمان فضربَ يده على يده، فنظرت فى أمرى فَإِذا طاعتى قد سبقت بيعتى، وإذا ميثاقى قد أُخِذَ لغيرى، فبايعنا عثمان، فأديتُ له حقَّهُ، وعرفتُ له طاعته، وغزوتُ معه فى جنوده، وكنتُ آخذ إذا أعطانى، وأغزو إذا أغزانى، وأضربُ بين يديه بسوطى.

فلما أصيب عثمان نظرتُ فى أمرى، فإذا الخليفتان اللذان أخذاها بعهد رسول الله ﷺ إليهما فى الصلاة قد مضيا، وهذا الذى أخذ له ميثاق قد أصيبَ، فبايعنى أهلُ الحرمين وأهلُ هذين المصرين ».

أخرجه أبو أحمد حمزة بن الحارث، وأبو الفضل ابن خيرون، والدارقطنى، وابن عساكر، والذهبى، وغيرهم، وابن السمان فى « الموافقة »، وزاد بعد قوله: « وأهل هذين المصرين » قوله: « ثم إن معاوية بن أبى سفيان جاء يضربنى بأهل الشام، فكنت - والله - أحق بها منه، والله لو أن أبا بكر حين بويع نازعوه لقاتل؛ ولو أن عمر نوزع حين بويع لقاتل » فقالا: صدقت، يا أبا الحسن، وبررت واحتججت، وكنت أحق بها منه. وفى رواية عبدة أنهما قالا له: أخبرنا عن قتالك هذين الرجلين - يعنيان: طلحة والزبير - وهما صاحباك فى الهجرة، وفى بيعة الرضوان، وفى الشورى، قال: « بايعانى بالمدينة، وخلعانى بالبصرة، ولو أن رجلا بايع أبا بكر ثم خلعه، قاتلناه؛ أَلاَ ولو أن رجلا بايع عمر ثم خلعه، قاتلناه »[(1)].

قلت: كأنى أنظر وأسمع رافضيَّ الاعتقاد ينكر هذه الروايةَ ويبطل إسنادها، وينقض مبناها، ويقوّض عمادها؛ إلا قوله فيها: « وأنا أظن أن لا يعدلوا بى... » إلى قوله: « فبايعنا عثمان » فإنه يتخذ ذلك شبهةَ دليلٍ وبرهانٍ؛ لما يعتقده من الكذب والباطل والبهتان، عليه من الله ما يستحق!.

قلت: ومن جملة زعم الرافضة: أن عليًا إنما سكت عن النزاع والثيار فى أمر

(١) ينظر السابق (٦٤٢).

الخلافة وطلبها؛ لأن النبى ﷺ أوصاه ألا يوقع بعده فتنة ولا يسل سيفا. وسمعت من بعض غُلاَتِهِمْ: أن عليًا كان يتحدث مع فاطمة فى شأن الخلافة، وكأنها تلومه فى سكوته، فأذن المؤذن حينئذ، فقال لها عليّ - رضى الله عنه -: « لولا خوفى انقطاع هذا الصوت أو الذكر - مشيرًا إلى الأذان - لجعلتُ أرضها سماءها » فإن صح كلام هذا الغالى، فقد اختلفت العلتان عليهم: الوصية فى الأول، والخوف فى الثانى، وكلا العلتين معلولٌ بأنه افتراء وكذب وضلالة، وحمق وغباوة وجهالة عما يترتب على ذلك؛ إذ كيف يعقل مع هذا الذى زعموه أنه جعله إماما واليا على الأمة بعده، ومنعه من سل السيف على من امتنع من قبول الحق ولو كان ما زعموه صحيحا، لما سل - كرم الله وجهه - السيفَ فى حرب صفين وغيرها، وقاتل بنفسه وأهل بيته وشيعته، وبارز الألوفَ منهم وحده؛ أعاذه الله من مخالفة وصية رسول الله ﷺ!.

وأيضا، فكيف يتعقلون أنه ﷺ يوصيه بعدم سل السيف على مَنْ يزعمون فيهم أنهم مجاهرون بأقبح أنواع الكفر؛ من مخالفة أمره ﷺ، ودفع مَنْ نَصَّ على أنها له، والتمالؤِ والاجتماعِ على إعطائها لغير من هى له، ومنع فاطمة - رضى الله عنها - إرثها بغير دليل، فهما ومن نحا نحوهما عندهم مرتدون؛ حماهم الله من ذلك ورضى الله عنهم! فجهادُ مثل هؤلاء حتمٌ على الأمة عموما، وعلى الخليفة خصوصًا.

قال بعض أئمة أهل البيت النبوى من العترة الطاهرة: وقد تأملتُ كلماتِهم - يعنى الرافضة - فرأيت قومًا أَعْمَى اللهُ بصائرهم؛ فلم يبالوا بما يترتب على مقالتهم من المفاسد؛ ألا ترى إلى قولهم: إن عمر - رضى الله عنه - قاد عليًا بحمائل سيفه، وحصر فاطمة فهابت، فأسقطت ولدا اسمه المحسن، فقصدوا بهذه الفرية القبيحة، والغباوة التى أورثتهم العار والبوار والفضيحة؛ إيغارَ الصدور على عمر - رضى الله تعالى عنه - ولم يبالوا بما يترتب ويلزم على ذلك؛ من نسبةِ عليٍّ إلى الذلة والعجز والخَوَر؛ بل نسبة جميع بنى هاشم، وهم أهل النجدة والنخوة والأنفة، إلى ذلك العار الذى لا أقبحَ منه عليهم؛ بل نسبة جميع الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم-! إلى ذلك مع ما استفاض وتواتر عنهم من غيرتهم لنبيهم ودينهم، وشدة غضبهم عند

انتهاك حرماته، حتى قاتلوا فقتلوا الآباءَ والأبناءَ؛ فى طلبهم مرضاة الله تعالى، ومرضاة رسوله! لا يُتَوَهَّمُ إلحاقُ أدنى نقصٍ، أو السكوت على باطل من هؤلاء العصابة الكمل، الذين طهرهم الله من كل رجس ودنس ونقص، على لسان نبيه فى الكتاب والسنة، كما تقدم - بواسطة صحبتهم له ﷺ، وموته وهو راض عنهم، وبسبب صدقهم فى محبته واتباعه؛ إلا عبدٌ أضله الله وخذله؛ فباء منه تعالى بعظيم الخسار والبوار؛ وأحله نار جهنم وبئس القرار؛ نسأل الله السلامة من الموبقات، فى الحياة وبعد الممات! آمين!.

ولهذه الطائفةِ الرذلة شبهٌ، لا حاجةَ لنا إلى إيرادها؛ وتسويد الطِّرْس بسوادها، فقد ردها الأئمة المتقدمون والمتأخرون فى غير ما كتاب؛ وأماطوا عن مشوهاتها الخمار والنقاب.

وقد رَوَتْ أقاويلَ الأئمة المعتبرين من أهل البيت، فى الترضى عن الشيخين وتوليهما، والثناء عليهما - الأئمةُ الحفاظُ الذين عليهم المعوّل فى معرفة الحديث والآثار، وتمييز صحيحها من سقيمها بأسانيدهم المتصلة.

فمنها: ما أخرجه أبو نعيم عن الإمام الحسن المثنى ابن الحسن السبط، أنه لما قيل له ذلك - أى: أن خبر: « من كنت مولاه فعلى مولاه »(١) نصٌّ فى إمامة عليٍّ قال: أما والله، لو يعنى بذلك الإمارة والسلطان، لأفصح لهم به؛ فإن رسولَ الله ﷺ كان أنصحَ للمسلمين، ولقال لهم: يأيها الناس، هذا ولى أمرى، والقائم عليكم بعدى، فاسمعوا له وأطيعوا. ما كان من هذا شيء، فوالله! لئن كانَ الله ورسولهُ اختارَا عليًّا لهذا الأمر والقيام به للمسلمين من بعده، ثم تَرَكَ عليٌّ أمر الله ورسوله أَنْ يقومَ به، أو يعذر فيه إلى المسلمين - إنْ كانَ أعظم الناس خطيئةً لَعَليٌّ؛ إذ ترك أمر الله ورسوله، وحاشاه من ذلك!.

وفى رواية عنه: ولو كان هذا الأمر كما تقول، وأن الله اختار عليا للقيام على الناس؛ لكان أعظم الناس خطيئةً؛ أَنْ ترك أمرَ رسول الله ﷺ ولم يقم به، فقال الرجل: ألم يقل رسول الله ﷺ: « من كنت مولاه » فقال الحسن ما تقدم ذكره.

وأخرج الدارقطنى عن الإمام أبى حنيفة - رضى الله تعالى عنه - أنه لما قدم

---

(١) تقدم.

المدينة سألَ أبا جعفر محمد الباقر عن أبى بكر وعمر، فترحم عليهما، فقال له أبو حنيفة: إنهم يقولون عندنا بالعراق: إنك تتبرأ منهما، فقال: معاذ الله! كذبوا ورب الكعبة. ثم ذكر لأبى حنيفة تزويجَ عليٍّ ابنتَه أمَّ كلثوم بنت فاطمة من عمر - رضى الله تعالى عنه - وأنه لو لم يكن لها أهلا لما زوجه إياها، فقال له أبو حنيفة: لو كتبت إليهم! فقال: لا يطيعوننى بالكتب. وتزويج عليٍّ أمَّ كلثوم لعمر - رضى الله عنه - يقطع ببطلان ما زعمته الرافضة فيه.

قلت: وجه القطع: ما يلزم أن عليًا زوج ابنته أمّ كلثوم من كافرٍ - على زعمهم الفاسد - معلومٍ كفرُه وسببُ كفره؛ فيبطلوا أصلَهم فى اعتقاد العصمةِ لواجبها؛ إذ تزويج الكافر بالمسلمة حرامٌ بنصّ: ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾[الممتحنة : ١٠] وهذه الرواية عن الحسن وأشباهُها من الروايات زورٌ عندهم وافتراء، وكذب صراح لا شبهة فيه ولا مراء؛ لأنها تَفُتُّ فى أعضادهم وتنكث قواهم، وتبت قوتهم وتحل عراهم.

ومنها: ما أخرجه الدارقطنى، عن عبد الله المحض بن الحسن المتقدم ذكره، لقب بالمحض؛ لأنه أول من جمع ولادةَ الحسن والحسين؛ لأن أمه فاطمة بنت الحسين - رضى الله تعالى عنهم - وكان شيخَ بنى هاشم ورئيسهم -: أنه سئل: أتمسح على الخفين ؟ فقال: أمسح عليهما؛ قد مسح عمر - رضى الله تعالى عنه - فقال له السائل: إنما أسألك أنتَ، أتمسح عليهما ؟ قال: ذلك أعجزُ لك، أخبر عن عمر وتسألنى عن رأيى ؟! فعمر خيرٌ منى وملء الأرض من مثلى، فقيل له: هذا تقية ؟ فقال: نحن بين القبر والمنبر، اللهم هذا قولى فى السر والعلانية، فلا يسمع قولى أحدٌ بعدى. ثم قال: مَنْ هذا الذى يزعم أن عليًا كان مقهورا، وأن النبى ﷺ أمره بأمر، فلم ينفذه ؟! فكفى بهذا إزراء ومنقصة.

ومنها: ما أخرجه الدارقطنى، عن ولد عبد الله المحض، وهو السيد محمد الملقب بالنفس الزكية؛ أنه قال - لما سئل عن الشيخين -: لَهُمَا عندى أفضلُ من على.

ومنها: ما أخرجه، عن محمد الباقر، أنه قال: أجمع بنو فاطمة على أن نقول فى الشيخين أحسنَ ما يكون من القول.

ومنها: ما أخرجه - أيضا - عن جعفر الصادق، عن أبيه محمد الباقر؛ أن رجلاً جاء إلى أبيه زين العابدين على بن الحسين - رضى الله تعالى عنهم - فقال له: أخبرنى عن أبى بكر، فقال: عن الصديق ؟ فقال الرجل: وتسميه الصديق ؟! فقال له: ثكلتك أمك! وقد سماه صديقا رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار؛ ومن لم يسمه صديقًا، فلا صدق الله قولَهُ فى الدنيا ولا فى الآخرة، فأحب أبا بكر وعمر.

ومنها: ما أخرجه - أيضًا - عن عروة عن عبد الله: سألت أبا جعفر محمدًا الباقر، عن حلية السيف ؟ فقال: لا بأس بها، قد حلى أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - سيفه، قال: قلت: وتقول: الصديق ؟! قال: نعم الصديق، نعم الصديق، فمن لم يقل: الصديق، فلا صدق الله قولَهُ فى الدنيا والآخرة. وأخرجه ابن الجوزى « فى صفة الصفوة » وزاد: فوثب وثبةً واستقبل، فقال: نعم الصديق، نعم الصديق.

ومنها: ما أخرجه - أيضًا - عن جعفر الصادق، أنه قال: ما أرجو من شفاعة عليّ شيئًا؛ إلا وأنا أرجو من شفاعة أبى بكر مثله، ولقد ولدنى مرتين.

ومنها: ما أخرجه عن زيد بن على، أنه قال لمن تبرأ منهما: اعلم - والله - أن البراءةَ من الشيخين- البراءةُ من على؛ فتقدم أو تأخر.

ومنها: ما أخرجه الحافظ عمر بن شبة، أن زيدًا هذا قيل له: إن أبا بكر انتزع من فاطمةَ فَدَكَ، فقال: إنه كان رحيمًا، وكان يكره أن يغير شيئًا تركه رسول الله ﷺ، فأتته فاطمة - رضى الله تعالى عنها - فقالت له: إن رسول الله ﷺ أعطانى فدك، فقال: هل لك بينة ؟ فشهد لها على وأم أيمن، فقال لها: فبرجل وامرأة تستحقينها ؟! ثم قال زيد: والله، لو رجع الأمرُ فيها إلىّ لقضيتُ بقضاء أبى بكر، رضى الله تعالى عنه.

ومنها: ما أخرجه عنه - أيضًا - قال: انطلقتِ الخوارجُ فبرئتْ ممن دون أبى بكر وعمر، ولم يستطيعوا أن يقولوا فيهما شيئًا، وانطلقتم أنتم فطفرتم - أى: وثبتم - فوق ذلك؛ فبرئتم منهما، فمن بقى ؟! فوالله! ما بقى أحد إلا برئتم منه. يخاطب بذلك الرافضة لما قالوا له: ابرأ من الشيخين ونحن نبايعك، فأبى. فَقَالوا: إنا نرفضك. فقال: اذهبوا، فأنتم الرافضة. فمن حينئذ سموا الرافضة، وسميت

شيعتهُ بالزيدية.

ومنها: ما أخرجه ابن عساكر، عن سالم بن أبى الجعد، قلت لمحمد ابن الحنفية: هل كان أبو بكر أولَ القوم إسلامًا ؟ قال: لا. قلت: فبم علا أبو بكر وسبق، حتى لا يذكر أحد غير أبى بكر ؟ قال: لأنه كان أفضلَهم إسلاما حين أسلم، حتى لحق بربه.

ومنها: ما أخرجه الدارقطنى، عن سالم بن أبى حفصة - وهو شيعى؛ لكنه ثقة - قال: سألت أبا جعفر محمد بن على وجعفر بن محمد، عن الشيخين؛ فقالا: يا سالم، تولهما وابرأ من عدوّهما؛ فإنهما كانا إمامَىْ هدًى(١).

ومنها: ما أخرجه - أيضًا - عنه، قال: دخلت على أبى جعفر فقال: وأراه قال ذلك من أجلى -: اللهم، إنى أتولى أبا بكر وعمر وأحبهما، اللهم إن كان فى نفسى غير هذا، فلا نالتنى شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة.

ومنها: ما أخرجه -أيضًا- عنه: دخلتُ على جعفر بن محمد، وهو مريض، فقال: اللهم إنى أحب أبا بكر وعمر وأتولاهما، اللهم إن كان فى نفسى غير هذا، فلا نالتنى شفاعة محمد ﷺ.

ومنها: ما أخرجه عنه - أيضا - قال: قال لى: يا سالم، أيسُبُّ الرجل جَدَّهُ ؟! أبو بكرٍ جدى، لا نالتنى شفاعة محمد إن لم أكن أتولاهما وأبرأ من عدوهما(٢).

ومنها: ما أخرجه عن جعفر الصادق، أنه قيل له: إن فلانا يزعم أنك تتبرأ من أبى بكر وعمر، فقال: برئ الله من فلان، إنى لأرجو أن ينفعنى الله بقرابتى من أبى بكر، ولقد مرضت فأوصيت إلى خالى عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر، رضى الله تعالى عنهم.

ومنها: ما أخرجه هو والحافظ عمر بن شبة، عن كثير، قلت لأبى جعفر محمد ابن على: أخبرنى، أَظَلَمَكُم أبو بكر وعمر من حقكم شيئًا ؟ فقال: ومُنزلِ القرآنِ على عبده ليكون للعالمين نذيرا، ما ظلمنا من حقنا ما يزن حبة خردل. قال: قلت: أفأتولاهما، جعلنى الله فداك ؟! قال: نعم يا كثير، تولهما فى الدنيا والآخرة. قال:

---

(١) أخرجه البيهقي في الاعتقاد ص (٢٠٧).
(٢) أخرجه البيهقي في الاعتقاد ص (٢٠٧).

وجعل يصك عنق نفسه، ويقول: ما أصابكَ فبعنقى، ثم قال: برئ الله ورسولهُ من المغيرة بن سعيد وأبى زينب؛ فإنهما كذبا علينا أهلَ البيت.

ومنها: ما أخرجه - أيضًا - عن بسام الصيرفى، قلت لأبى جعفر: ما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ فقال: والله، إنى لأتولاهما وأستغفر لهما، وما أدركت أحدا من أهل بيتى إلا وهو يتولاهما.

ومنها: ما أخرجه - أيضًا - عن إمام المذهب محمد بن إدريس الشافعى - رضى الله تعالى عنه - عن جعفر بن أبى طالب، قال: وَلِيَنا أبو بكر خيرُ خليفة، وأرحَمُه لنا وأحنَاهُ علينا. وفى رواية: فما وَلِيَنا أحدٌ من الناس مثله. وفى أخرى: فما رأينا قط مَنْ كان خيرًا منه.

ومنها: ما أخرجه - يعنى: الدارقطنى - أيضًا، عن أبى جعفر محمد الباقر، أنه قيل له: إن فلانا حدثنى أن على بن الحسين قال: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الحجر : ٤٧]، نزلت فى أبى بكر وعمر وعلى، قال: والله فيهم نزلت؛ ففيمن نزلت إلا فيهم ؟! قيل: فأى غلّ هو ؟ قال: غل الجاهلية؛ إن بنى تيم وبنى عدى وبنى هاشم، كان بينهم شىء فى الجاهلية، فلما أسلم هَؤلاءِ القومُ تحابوا، فأخذتْ أبَا بكر الخاصرةُ، فجعل علىّ يسخن يده ويكمد بها خاصرةَ أبى بكر، فنزلت هذه الآية فيهم.

ومنها: ما أخرجه - أيضا - عن على أن هذه الآية نزلت فى هذه البطون الثلاثة: تيم، وعدى، وبنى هاشم، وقال: منهم أنا وأبو بكر وعمر.

ومنها: ما أخرجه - أيضًا - عن محمد الباقر، أنه قيل له: هل كان أحد من أهل البيت يسبّ أبا بكر وعمر ؟ قال: معاذ الله! بل يتولونهما ويستغفرون لهما ويترحمون عليهما.

ومنها: ما أخرجه - أيضًا - عن أبى جعفر - أيضًا - عن أبيه على بن الحسين - رضى الله تعالى عنهم - أنه قال لجماعة خاضوا فى أبى بكر وعمر ثم فى عثمان -: ألا تخبرونى، أنتم المهاجرون الأولون: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ ؟! [الحشر : ٨]، قالوا: لا . قال: فأنتم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا

يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ . . .﴾ إلى ﴿ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾؟ [الحشر : ٩]، قالوا: لا. قال: أما أنتم فقد برئتم أن تكونوا فى أحد هذين الفريقين، وأنا أشهد أنكم لستم منَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ إلى ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . . .﴾ [الحشر : ١٠].

ومنها: ما أخرجه - أيضا - عن فضيل بن مرزوق، سمعت إبراهيم بن الحسن ابن الحسن أخا عبد الله بن الحسن، يقول: والله! قد مَرَقَتْ علينا الرافضة كما مرقت الحرورية عَلَى عَلِيٍّ.

ومنها: ما أخرجه عنه - أيضا - سمعت الحسن بن الحسن، يقول لرجل من الرافضة: لئن أمكن الله منكم، لنقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولا نقبل منكم توبة.

ومنها: ما أخرجه - أيضًا - عن محمد بن حاطب، قال: ذكر عثمان عند الحسن والحسين، فقال: هذا أمير المؤمنين - أى: علي- أتاكم الآن يخبركم عنه، إذ جاء عليّ (قال الزهرى: ما أدرى: أسمعهم يذكرون عثمان، أم سألوه عنه) فقال على - رضى الله تعالى عنه -: عثمان من الذين ﴿ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣].

ومنها: ما أخرجه - أيضًا - عن محمد بن حاطب، من طرق؛ قال: دخلتُ عَلَى عليّ - رضى الله عنه - فقلت: يا أمير المؤمنين، إنى أردتُ الحجاز، وإن الناس يسألونى، فما تقول فى قتل عثمان ؟ وكان عليّ متكئا فجلس، فقال: يا بن حاطب، والله! إنى لأرجو أن أكونَ أنا وهو كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الحجر: ٤٧]، الآية.

ومنها: ما أخرجه الدارقطنى - أيضا - عن سالم بن أبى الجعد، قال: كنت جالسًا عند محمد ابن الحنفية فذكروا عثمان، فنهانا محمد وقال: كفوا. فغدونا يومًا آخر، فنلنا منه أكثر مما كان قبل، فقال: ألم أنهكم عن هذا الرجل ؟! قال: وابن عباس جالس عنده، فقال: يابن عباس، أتذكر عشية الجمل وأنا عن يمين على، وفى يدى الراية، وأنت عن يساره إذ سمع هدَّة فى المربد، فأرسل رسولا، فجاء الرسول، فقال: هذه عائشة تلعن قتلةَ عثمان فى المربد، فرفع عليٌّ يديه حتى بلغ

بهما وجهه مرتين أو ثلاثًا، وقال: أنا ألعن قتلة عثمان، لعنهم الله فى السهل والجبل!. قال: فصدقه ابن عباس. ثم أقبل علينا، فقال: فيّ وفى هذا لَكُم شاهدُ عدل.

وأخرج عن مروان بن الحكم، أنه قال: ما كان أحدٌ أَدْفعَ عن عثمان من على؛ قيل له: فما بالكم تسبونه على المنابر ؟ قال: إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك.

ومنها: ما أخرجه - أيضًا - عن الحسن بن محمد ابن الحنفية، قال: يأهل الكوفة، اتقوا الله - عز وجل - ولا تقولوا فى أبى بكر وعمر ما ليسا له بأهل.

وأخرج - أيضًا - عن جندب الأسدى، أن محمد بن عبد الله بن الحسن أَتَاهُ قومٌ من أهل الكوفة والجزيرة، فسألوه عن أبى بكر وعمر، فالتفت إليَّ وقال: انظر إلى أهل بلدك يسألونى؛ لَهُما عندى أفضل من عليّ!.

وأخرج آدم عن عبد الله بن الحسن، أنه قال: والله! لا يَقْبَلُ الله توبةَ عبد تبرأ منهما، وإنهما ليعرضان على قلبى فأدعو الله - عز وجل - لهما أتقرب به إلى الله، عز وجل.

ومنها: ما أخرجه - أيضًا - عن عبد الجبار الهمدانى، أن جعفرًا الصادقَ أتاهم، وهم يريدون أن يرتحلوا من المدينة، فقال: إنكم - إن شاء الله - من صالحى مصركم، فأبلغوهم عنى: من زعم أنى إمامٌ مفترَضُ الطاعة، فإنى منه برىء؛ ومن زعم أنى برىء من أبى بكر وعمر، فأنا منه برىء.

ومنها: ما أخرجه - أيضًا - عنه - رضى الله عنه - أنه قال: إن الخبثاء من أهل العراق يزعمون أنا نقع فى أبى بكر وعمر، وهما والداى؛ أى: لأن أمه: أم فروة، ابنةُ القاسم الفقيه ابن محمد بن أبى بكر، وأمها: أسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر؛ ومن ثم سبق له قوله: « ولدنى أبو بكر مرتين ».

ومنها: ما أخرجه - أيضًا - عن أبى جعفر محمد الباقر، قال: مَنْ لم يعرف فضلَ أبى بكر وعمر، فقد جهل بالسنة. قال بعض الأئمة: صدق والله، إنما نشأ من الشيعة والرافضة وغيرهما، ما نشأ من البدع والضلالات؛ من جهلهم بالسنة.

وفى الطيوريات بسنده إلى جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: قال رجل لعلى - رضى الله عنه -: نسمعك تقول فى الخطبة: اللهم أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الراشدين المهديين، فمَنْ هم ؟ فاغرورقت عيناه، فقال: هما حبيبا نبيِّى، أبو بكر

وعمر، إماما الهدى وشيخا الإسلام، ورَجُلَا قريش، المقتدَى بهما بعد رسول الله ﷺ، مَنِ اقتدى بهما عُصِم، ومن اتبع آثارهما هُدِىَ الصراطَ المستقيم، ومن تمسك بهما فَهُوَ من حزب الله.

قلت: ومنها: ما رأيته فى « شرح المقاصد » للعلامة السعد التفتازانى - رحمه الله - ونصه: نعم.. ما قال المأمون العباسى: وجدت أربعة فى أربعة: الزهد فى المعتزلة، والكذب فى الرافضة، والمروءة فى أصحاب الحديث، وحب الرياسة فى أصحاب الرأى. ثم قال: أولاد الوَصِيِّ الموسومون بالدراية؛ المعتصمون بالرواية، لم تكن معهم هذه التعصبات والأحقاد؛ ولا هذه البواطن الخبيثة فى سوء الاعتقاد، ولم يذكروا عن الصحابة إلا الكمالات؛ والترضى عنهم والترحم عليهم فى سائر الحالات، ولم يسلكوا مع رؤساء المذاهب من علماء الإسلام؛ إلا طريق الإجلال والإعظام؛ وها هو الإمام على الرضى ابن الإمام موسى الكاظم، مع جلالة قدره؛ ونباهة ذكره، وكمال علمه وهداه؛ وورعه وتقاه، قد كتب على ظهر كتاب عهد المأمون له بالخلافة، ما ينبئ عن قبول عهده؛ ووفور شكره وحمده، والتزام ما شرط عليه، فكتب فى أثناء سطور العهد تحت قول المأمون: « وسميته الرضى »: « رضى الله تعالى عنك وأرضاك » وتحت قوله: « وتكون له الإمرة الكبرى بعدى »: « بل جُعلتُ فداك » وفى موضع آخر « وصَلَتك رَحِم، وجزيت خيرًا » قال: وهذا العهد بخطهما موجود إلى الآن؛ فى المشهد الرضوى بخراسان؛ وآحادُ الشيعةِ فى هذا الزمان لا يسمحون بالترضى عن كبار الصحابة؛ فضلا عن بنى العباس؛ فقد رضوا منهم رأسًا برأس.

ومن البين الواضح - فيما أوردنا هذه الروايات فى شأنه - ما كتبه أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب: « قد جعلتُ هكذا لآل بنى كاكلة على كافة بيت مال المسلمين، كل عام مائتى مثقال ذهبا عينا إبريزا. كتبه عمر بن الخطاب ».

فكتب أمير المؤمنين على - رضى الله عنه -: ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الروم : ٤]. أنا أول من اتبع أمرَ من أعز الإسلام، ونصر الدين والأحكام، ورسمتُ بمثل ما رسم لآل بنى كاكلة فى كل عام، مائتى مثقال ذهبا عينا إبريزا، واتبعت أثره وجعلت لهم مثل ما رسم عمر؛ إذ

وجب عليّ وعلى جميع المسلمين اتباع ذلك. كتبه على بن أبى طالب ».

وهذا بخطهما موجودٌ الآن فى ديار العراق.

فهذه أقاويل الأئمة المعتبرين من أهل البيت، رواها عنهم الأئمة الحفاظ الذين عليهم المعول فى معرفة الحديث والآثار، وتمييز صحيحها من سقيمها، بأسانيدهم المتصلة؛ فكيف يسع المتمسكَ بحبل أهل البيت الزاعمَ حبهم، أن يعدل عما قالوه؛ من تعظيم أبى بكر وعمر، واعتقادهم خلافتهما، وما كانا عليه، وقد صرحوا بتكذيب من نقل عنهم خلافه، ومع ذلك ينسب إليهم ما تبرءوا منه ورأوه ذمّا فى حقهم، حتى قال الإمام زين العابدين بن على بن الحسين - رضى الله عنهم - يأيها الناس، أحبونا حب الإسلام، فوالله! ما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارًا. وفى رواية: حتى بغضتمونا إلى الناس؛ أى: بسبب ما نسبوه إليهم مما هم براء منه، فلعن الله مَنْ كَذَبَ على هؤلاء الأئمة، ورماهم بالزور والبهتان!.

أَفْضَلِيَّةُ أَبِى بَكْرِ الصِّدِّيق، رضى الله عنه

اعلم: أن الذي أطبق عليه علماء الأمة، وأجمع عليه عظماء الأئمة: أن أفضل هذه الأمة: أبو بكر الصديق، ثم عمر. ثم اختلفوا:

فالأكثرون على أن الأفضل: عثمان، ثم على؛ وهو المشهور عن الإمام مالك، رضى الله تعالى عنه.

وجزم الكوفيون، ومنهم. سفيان الثورى، بتفضيل عليّ على عثمان.

وقيل بالوقف عند التفاضل بينهما، وهو رواية عن مالك؛ فقد حكى أبو عبد الله المازنى عن « المدونة » أن مالكًا سئل: أى الناس أفضل بعد نبيهم ؟ فقال: أبو بكر ثم عمر. ثم قال: أو فى ذلك شك ؟! فقيل: وعلى وعثمان ؟ فقال: ما أدركت أحدًا. ممَّنْ يُقْتدى به يفضل أحدهما على الآخر.

ومال إلى الوقف إمامُ الحرمين عبد الملك بن أبى محمد الجوينى، فقال فى كتابه المسمى بـ« الإرشاد » ما نصه: لم يقم عندنا دليلٌ قاطع على تفضيل بعض الأئمة على بعض؛ إذ العقل لا يشهد على ذلك، والأخبار الواردة فى فضائلهم متعارضة، ولا يمكن تَلَقِّى التفضيل مِنْ مَنْع إمامةِ المفضولِ، ولكنَّ الغالبَ على الظن: أن أبا بكر أفضلُ الخلائق بعد رسول الله ﷺ، ثم عمر أفضلهم بعده، وتتعارض الظنون

فى عثمان وعلى، انتهى.

ونقل الوقفَ ابنُ عبد البر عن جماعة من السلف، ويحيى القطان، وابن معين.

وأما حكاية أبى منصور الإجماعَ على أفضلية عثمان عَلَى عَلِيٍّ، فمدخولة، وإن نقل ذلك عنه بعضُ الحفاظ؛ لما بيناه من الخلاف.

ثم الذى مال إليه أبو الحسن الأشعرى إمام الأشاعرة: أن تفضيلَ أبى بكر على من بعده قطعى؛ وخالفه القاضى أبو بكر الباقلانى، فقال: إنه ظنى، وهو الذى اختاره إمام الحرمين فى « إرشاده » وجزم به صاحب « المفهم فى شرح مسلم »، ويؤيده قول ابن عبد البر فى « الاستيعاب »: ذكر عبد الرزاق عن معمر، قال: لو أن رجلا قال: على عندى أفضل من أبى بكر وعمر، لم أعنفه؛ إذا ذكر فضل الشيخين وأحبهما وأثنى عليهما بما هما له أهل، فذكرتُ ذلك لوكيع فأعجبه واشتهاه، انتهى.

وليس ملحظُ عدمِ تعنيفِهِ قائل ذلك، إلا أنَّ التفضيلَ المذكورَ ظنىٌ لا قطعى.

فإن قلت: قد نقل ابن عبد البر أن السلف اختلفوا فى تفضيل أبى بكر على عَلِيٍّ؛ فقد روى عن سلمان، وأبى ذر، والمقداد بن عمرو، وخباب بن الأرت، وجابر بن عبد الله الأنصارى، وأبى سعيد الخدرى، وزيد بن أرقم، وعمار بن ياسر - أن عليًا أول من أسلم، وفضله هؤلاء على غيره؛ فكيف يصح الإجماع مع خلاف هؤلاء، وهم من أعيان الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ؟!.

قيل - فى جواب ذلك -:

أما عن الأول، وهو قوله: « إن السلف اختلفوا. . . » - فبأن الأئمة إنما أعرضوا عن هذه المقالة - يعنى قوله: « اختلفوا » لشذوذها؛ ذهابا إلى أن شذوذ المخالف لا يقدح فيه، أو رأوا أنها حادثة بعد انعقاد الإجماع؛ فكانت تلك المقالةُ فى حيز الطرح والرد.

وأما عن الثانى: فلا يقتضى من تفضيلهم عليا، أنهم قائلون بأفضليته على أبى بكر مطلقًا؛ بل إما من حيث تقدمه عليه إسلاما؛ بناء على القول بذلك، أو مرادهم بتفضيل علىّ عَلَى غيره: مَنْ عدا الشيخين؛ لقيام الأدلة الصريحة الصحيحة على أفضليتهما على من عداهما.

فإن قلت: ما مستند الإجماع على أفضلية أبى بكر عَلَى علىّ ؟ فإن كانت من أدلة

الكتاب أو السنة، فقد قال الإمام أحمد بن حنبل - وناهيك به علمًا وزهدا وورعًا ودينا! -: لم يرد فى حق أحدٍ من الآيات والآحاديث، ما ورد فى حق على - رضى الله تعالى عنه[(١)]- وإن كانت من غيرهما من الأشياء التى يستحق بها أصحاب رسول الله ﷺ الفضل، فقد قال الإمام أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى؛ مبينا لذلك؛ بقوله: الأشياء التى يستحق بها أصحاب رسول الله ﷺ الفضل هى: السبق إلى الإيمان، والهجرة، والنصرة لرسول الله ﷺ، والقربى منه، والقناعة، وبذل النفس له، والعلم بالكتاب والتنزيل، والجهاد فى سبيل الله، والورع، والزهد، والقضاء، والحلم، والفقه، والعلم؛ وكل ذلك فلعليٍّ منه النصيب الأكبر والحظ الأوفر، إلى ما انفرد به من قوله: أنت أخى[(٢)]، وهو ﷺ لا ضد له ولا ند، وقوله: « أنت منى بمنزلة هارون من موسى »[(٣)] وقوله: « من كنت مولاه فعلى مولاه »[(٤)] وقوله - فى حديث الطائر: « اللهم أدخل إلى أحب خلقك إليك يأكل معى من هذا الطائر » فدخل عليّ - رضى الله تعالى عنه[(٥)]- فهذا وغيره من فضائله وما اشتمل عليه من الخصال مما تفرق فى غيره.

قلت: قد صرحوا بأن الإجماع حجة على كل أحد، وإن لم يعرف مستنده؛ لأن الله عصم هذه الأمة من أن تجتمع على ضلالة؛ ويدل على ذلك؛ بل يصرح به قولهُ تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

على أنا نقول: كثرة ورود الآيات والأحاديث لا يستلزم أفضليةَ من وردت فى حقه، على من ورد دونها فى حقه؛ إذ قد تكون الآية الواحدة والحديث الواحد

---

(١) نقله الحافظ في "الفتح" (٧/ ٤٣٨): عنه بلفظ: ما بلغنا عن أحد من الصحابة ما بلغنا عن علي بن أبي طالب. وقال الحافظ: وأوعب من جمع مناقبه من الأحاديث الجياد النسائي في كتاب الخصائص.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٢٠)، والحاكم (٣/ ١٤) من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي: « أنت أخي في الدنيا والآخرة » وحسنه الترمذي.

(٣) تقدم.

(٤) تقدم.

(٥) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٢٨ - ٢٣٧) عن ابن عباس وأنس، وأعل جميع طرقه، ونقل أنه موضوع.

يدلان على مجامعِ فضائلَ ومزايا مناقبَ، لا تدل عليها آياتٌ كثيرة، وأحاديث كذلك؛ فلا شاهد لكم فى قول الإمام أحمد، - رضى الله تعالى عنه - وحديث: « ما فضلكم أبو بكر بصلاة ولا ولا إنما فضلكم بشىء وقر فى صدره »[1] وأمثال هذا الحديث، يرد تنميقاتِ المسعودى وتصنيفاته. والحق: أن فى كون الإجماع حجةً قطعيةً، خلافًا.

فالذى عليه الأكثرون: أنه حجة قطعية مطلقا؛ فيقدم على الآحاد كلها، ولا يعارضه دليلٌ أصلا، ويكفر أو يبدعُ ويضلَّل مخالفُه.

وقال الإمام الرازى، والآمدى: إنه ظنى مطلقا.

والحق فى ذلك التفصيل: فما اتفق عليه المعتبرون حجة قطعية، وما اختلفوا فيه: كالإجماع السكوتى، والإجماع الذى ندر مخالفه، فهو ظنى. وقد علمت - بما قررته لك - أن لهذا الإجماع مخالفًا نادرًا، وهم الجماعة المذكورون: سلمان، ومن بعده، فهو وإن لم يعتد به فى الإجماع؛ لكنه يورثه انحطاطًا عن الإجماع الذى لا مخالف له؛ فالأول ظنى وهذا قطعى، وكان الأشعرى من الأكثرين القائلين بأنه قطعى مطلقًا، كما تقدم ذلك عنه.

ومما يؤيد أنه ظنى: أن المجمعينَ أنفسهم لم يقطعوا بالأفضلية المذكورة، وإنما ظنوها فقط، كما هو المفهوم من عباراتهم وإشاراتهم؛ وسبب ذلك: أن المسألة اجتهادية، وقد وردت فى أبى بكر وعليٍّ نصوصٌ ظاهرة فى تفضيل كلٍّ، وهى لا تفيد القطع؛ لأن غالبها فى المحلين آحادٌ، والآحاد ظنية الدلالة، فكيف تفيد القطع ؟! وليس الاختصاصُ بكثرةِ أسباب الثواب، موجبًا الزيادةَ المستلزمةَ للأفضلية: قطعا، بل ظنا؛ لأنه تفضُّلٌ من الله تعالى.

وثبوتُ الإمامة لأبى بكر وحقيتها - وإن كان قطعيا؛ للإجماع عليها - لا يفيد القطع بأفضليته على عليّ، بل غايته الظن، كيف ولا قاطع على بطلان إمامة المفضولِ مع وجود الفاضل ؟! بل صحتها هو مذهب الإمام الشافعى - رضى الله عنه - لكننا وجدنا السلف فضلوهما على من عداهما، وحسن ظننا بهم قاضٍ بأنهم

(١) قال في المقاصد (٩٧٠) ذكره الغزالي، وقال العراقي: لم أجده مرفوعاً وهو عند الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من قول بكر بن عبد الله المزني.

لو لم يطلعوا على دليل فى ذلك، لما أطبقوا عليه؛ فلزمنا اتباعهم فيه ظنا، وتفويض ما هو الحق فيه يقينا إلى الله تعالى. بل وجدنا أنه ورد عن على نفسه، أن أبا بكر أفضل الأمة.

قال العلامة الذهبى(١): وقد تواتر عنه ذلك: فى خلافته، وكرسى مملكته، وبين الجم الغفير، ثم بسط الأسانيد الصحيحة فى ذلك. قال: ورواه عن عَلِيٍّ نيفٌ وثمانون نفسا، وعَدَّدَ منهم جماعة، ثم قال: فقبح الله الرافضة ما أجهلهم!.

وأخرج الدارقطنى عنه - رضى الله تعالى عنه - قال: لا أجد أحدًا فضلنى على أبى بكر وعمر؛ إلا حددته حدَّ المفترى.

وصح عن مالك، عن جعفر الصادق، عن أبيه الباقر؛ أن عليا وقف على عمر بن الخطاب، وهو مسجى بعد موته، فقال: ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء، أحدًا أحبَّ إليَّ أن ألقى الله بصحيفتِه، مِنْ هذا المسجى!، ثم قال: صلى الله عليك يا عمر، ودعا له(٢).

وأخرج الدارقطنى، أن أبا جحيفة كان يرى أن عليًا أفضل الأمة، فسمع أقوامًا يخالفونه، فحزن حزنا شديدًا، فقال له عليٌّ - بعد أن أخذ بيده -: ما أحزنك، يا أبا جحيفة ؟ فذكر له الخبر، فقال له: ألا أخبرك بخير الأمة ؟! خيرها: أبو بكر وعمر. قال أبو جحيفة: فأعطيتُ الله عهدًا ألاَّ أكتم هذا الحديثَ بعد أن شافهنى به عليّ ما بقيت.

وقول الشيعة والرافضة: إنما ذكر ذلك عَلِيٌّ تِقَيَّة، كذبٌ وافتراء على الله؛ إذ كيف يَتَوهَّم ذلك مَنْ له أدنى عقل أو فهم، مع ذكره له فى زمن خلافته على منبر الكوفة، وهو لم يدخلها إلا بعد فراغه من حرب أهل البصرة، وذلك أقوى ما كان أمرًا وأنفذ أحكامًا، وذلك بعد مدة مديدة من موت أبى بكر وعمر؛ فكيف يتعقل وقوع مثل

(١) ينظر تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين - ١١٥).
(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد (١/ ١٠٩) من طريق أبي معشر نجيح المديني مولى بني هاشم عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال: وضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين المنبر والقبر، فجاء علي رضي الله عنه حتى قام بين يدي الصفوف فقال هو هذا ثلاث مرات ثم قال: رحمة الله عليك ما من خلق أحب إلى من أن ألقاه بصحيفته بعد صحيفة النبي صلى الله عليه وسلم من هذا المسجى عليه ثوبه وأخرجه بنحوه من طريق أبي جحيفة.

هذه التقية المشئومة عليهم، التى أفسدوا بها غالب عقائد أهل البيت النبوى؛ لإظهارهم لهم كمالَ المحبة والتعظيم، فمالوا إلى تقليدهم، حتى قال بعضهم: من أعز الأشياء فى الدنيا شريفٌ سنى. فلقد عظمت مصيبة أهل البيت بهؤلاء الفَسَدَة الأراذل، وما أحسن ما أبطل به الباقر هذه التقية المشئومة لما سئل عن الشيخين ؟ فقال: إنى أتولاهما، فقيل له: إنهم يزعمون أن ذلك منك تقية ؟ فقال: إنما نخاف الأحياء، لا نخاف الأموات، فعل الله بهشام بن عبد الملك كذا وكذا، أخرجه الدارقطنى وغيره.

فانظر ما أبين هذا الاحتجاج وأوضحه! فقد صرح لهم ببطلان تلك التقية المشئومة عليهم، واستدل لهم على ذلك بأن اتقاء الشيخين بعد موتهما لا وجه له؛ إذ لا سطوةَ لهما حينئذ، ثم بين لهم - بدعائه على هشام بن عبد الملك، الذى هو والى زمنه، وشوكتُه قائمة - أنه إذ لم يتقه، مع أنه يُخَاف ويُخْشَى؛ لسطوته وملكه وقوته وقهره - فكيف مع ذلك يتقى الأمواتَ الذين لا شوكة لهم ولا سطوة ؟!

وإذا كان هذا حالُ الباقر، فما ظنك بحال عليٍّ الذى هو أعظم إقداما وشجاعة، وشدةَ بأس، وكثرة عَدَدٍ وعُدَدٍ، وأنه لا يخاف فى الله لومة لائم، مع ذلك فقد صح؛ بل تواتر عنه، ما مرّ من مدح الشيخين والثناء عليهما، وأنهما أفضل الأمة، ومر - أيضًا - الأثرُ الصحيحُ عن مالك عن جعفر الصادق عن أبيه الباقر، أن عليًا وقف على عمر، وهو مسجى بثوبه، فقال ما تقدم؛ فما أحوج عليا أن يقول ذلك تقية!، وما أحوج الباقر أن يرويه لابنه الصادق تقية! وما أحوج الصادق أن يرويه لمالك تقية!! فكيف يَسَعُ العاقلَ أن يترك مثلَ هذا الإسناد الصحيح، ويحمله على التقية المنقوضِ أساسُها، المنكوث أمراسُها ؟! وما أحسن ما سلكه بعض الشيعة المنصفين كعبد الرزاق؛ فإنه قال: أفضّل الشيخين بتفضيل عليٍّ إياهما على نفسه، وإلا لما فضلتهما عليه، كفى بى زورا أن أحبه ثم أخالفه!.

ومما يكذبهم فى دعوى التقية المشئومة عليهم: ما أخرجه الدارقطنى، أن أبا سفيان بن حرب قال لعليّ بأعلى صوته - لما بايع الناس أبا بكر -: غلبكم على هذا الأمر أذلُّ بيت فى قريش - يعنى: قبيلة أبى بكر، وهى تيم، فإنها أضعف قبيلة فى قريش؛ وإنما عزّت بكون أبى بكر وطلحة منها - أما والله لأَملأنّها عليه خيلا

ورَجِلاً إن شئت. فقال له على: لا يا عدو الإسلام وأهله، فما ضر ذلك الإسلامَ وأهلَهُ.

إذا تقرر هذا فالواجب على كل مؤمن بالله ورسوله عموما، وعلى أهل البيت النبوى خصوصًا-: اتباع سلفهم فى ذلك، والإعراض عما يرشد إليه الروافض؛ من قبيح الجهل والعناد، والخطأ الذى يكون لهم أوخمُ زاد يوم المعاد، فالحذرَ الحذرَ! مما يُلقونه؛ مِنْ أنَّ مَنِ اعتقد تفضيل أَبى بكر على عليّ - رضى الله تعالى عنهما - كان كافرا؛ لأن مرادهم بذلك: أن يقرروا - عند من يلقون إليه - تكفيرَ الأمة من الصحابة والتابعين، ومَنْ بعدهم من أئمة الدين وعلماء الشريعة وعوامهم، وأنه لا مؤمنَ غيرهم. وهذا - والعياذ بالله! - يؤدى إلى هدم قواعد الشريعة من أصلها، وإلغاء العمل بكتب السنة، وبما جاء عن النبى ﷺ وعن أهل بيته وصحابته؛ إذِ الرواى لجميع آثاره وأخباره بأسرها، بل والناقلُ للقرآن فى كل عصر من عصر النبى ﷺ وهلم جرا الصحابةُ والتابعون وعلماء الدين؛ إذ ليس لنحوِ الرافضى رواية، ولا دراية يدورن بها فروع الشريعة، وإنما غاية أمرهم: أن يقع فى خلال بعض الأسانيد مَنْ هو رافضى، والكلام فى قبوله معروف عند أئمة الأثر ونقاد الحديث؛ فإذا قدحوا فيهم قدحوا فى الكتاب والسنة، وأبطلوا الشريعة رأسًا، وصار الأمر كما فى الجاهلية الجهلاء؛ فلعنة الله وأليمُ عقابِهِ وعظيمُ نقمته، عَلَى من يفترى على الله وعلى نبيه، بما يؤدى إلى إبطال ملته وهدم شريعته!.

وكيف يسع العاقل أن يعتقد كفرَ السواد الأعظم من أمة محمد ﷺ، من غير موجب للتكفير، مع إقرارهم بالشهادتين وقبولهم لشريعة نبيهم ؟! وهب أن عليًا أفضلُ من أبى بكر فى نفس الأمر، أليس القائلون بأفضلية أبى بكر معذورين؛ لأنهم إنما قالوا ذلك؛ لأدلة صرحت به، وهم مجتهدون؛ والمجتهد إذا أخطأ فله أجر؛ فكيف يقال - حينئذ - بالتكفير ؟! وهو لا يكون إلا بإنكار مجمعٍ عليه معلومٍ من الدين بالضرورة عنادا؛ كالصوم والصلاة. وأما ما يحتاج إلى نظرٍ واستدلال، فلا كفر بإنكاره.

وانظر إلى إنصافنا معشر - أهل السنة - فإننا لم نكفر القائلين بأفضلية عليٍّ عَلَى أبى بكر، وإن كان ذلك عندنا خلافَ ما أجمعنا عليه فى كل عصر منا إلى النبى

ﷺ ؛ بل أقمنا لهم العذر المانع من التكفير؛ ومَنْ كفرهم؛ فلأمور أخر من قبائحهم انضمت إلى ذلك.

فالحذر الحذر! من اعتقاد كفر من قلبه مملوء بالإيمان بغير مقتضٍ؛ تقليدا للجهال الضلال الغلاة الغواة، وتأملْ ما صح وثبت عن على وأهل بيته؛ من تصريحهم بتفضيل الشيخين عَلَى عليّ؛ خلافا لهؤلاء الطائفة الحمقاء، وإن حمل على التقية الباطلة المشئومة عليهم، فلا أقل من أن يكون عذرًا لأهل السنة فى اتباعهم لعليّ وأهل بيته فيما نقل عنهم؛ فإنهم لم يكشفوا عن قلب على حتى يعلموا أن ذلك منه تقية؛ بل قرائنُ أحوالِه، وما كان عليه من الشجاعة والإقدام، وأنه لا يهاب أحدًا، ولا يخشى فى الله لومة لائم؛ إذ قد استفاض عن على - رضى الله تعالى عنه - أنه كان لا يبالى بأحدٍ حتى قيل للشافعى - رضى الله تعالى عنه - ما نفر الناس عن على إلا أنه كان لا يبالى بأحد. فقال الإمام الشافعى - رضى الله تعالى عنه -: إنه كان زاهدا، والزاهد لا يبالى بالدنيا وأهلها؛ وكان عالمًا، والعالمُ لا يبالى بأحد؛ شجاعا، والشجاع لا يبالى بأحد؛ وشريفا، والشريف لا يبالى بأحد. أخرجه البيهقى -: وهي أدلة قاطعة بعدم التقية؛ فلا أقل أن يجعلوا ذلك منه شبهةً لأهل السنة مانعةً من اعتقادهم كفرَهم؛ سبحانك هذا بهتان عظيم!.

قلت: هاهنا واقعة عجيبة، وآية باهرة، وكائنة غريبة، وكرامة ظاهرة؛ ذكرها الشيخ الأستاذ الإمام العارف، قدوة المحققين، أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان الأنصارى، فى كتابه المسمى « مصباح الظلام فى المستغيث بسيد الأنام فى اليقظة والمنام » قال: أخبرنا الشيخان الإمامان: الحافظ زكى الدين، أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى، إذنا؛ ورشيد الدين أبو الحسين يحيى بن على القرشى، سماعا؛ قالا: أنبأنا القاضى الفقيه المكين، جمال الدين، أبو طالب أحمد ابن القاضى المكين، أبى الفضل عبد الله بن أبى على الحسين بن حديد الكنانى، سماعا؛ أنبأنا الحافظ، أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفى؛ أنبأنا الشيخ أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار، بانتحالى عليه؛ أنبأنا عبد العزيز؛ أنبأنا أبو بكر المفيد، حدثنا أحمد بن عبد الأعلى الأجيادى، حدثنى صالح بن عبد الله القرشى، حدثنى عبيد الله بن سليمان، عن شهر بن حوشب، قال: كنت أخرج إلى

الجبانة. وأصلى على الجنائز، إلى أن أيأس من مجيء الجنائز فأدخل، فخرجت ذاتَ يوم فلقيتُ رجلين قد تواثبا، وعليهما ثياب صوف، وقد أدمى أحدهما صاحبه، فدخلت لأفرق بينهما، وقلت: أرى ثيابكما ثيابَ الأخيار، وفعالكما فعال الأشرار، فقال لى الذى أدمى صاحبه: دعنى ما تدرى ما يقول. قلت: ما يقول؟ قال: يقول: خير الناس بعد رسول الله ﷺ على بن أبى طالب، وإن أبا بكر وعمر كفرا بعد إسلامهما، فارتدا عن الإسلام وقاتلا المسلمين، ويكذبُ القدر، ويرى رأىَ الخوارج، ويبتدع فى الدين. فقلت له: هكذا تقول؟! قال: نعم. فقلت لصاحبه: دعه، فإن لك وله رَبًّا بالمرصاد. فقال: لا أدعه، أو يحكمَ اللهُ بينى وبينه. فقلت: بماذا؟ وقد مات النبى ﷺ وانقطع الوحى. فنظر إلى أتون بحذائه، وقد أوقده صاحبه، ويريد أن يطبق عليه، فقال لى: ندخل جميعا إلى هذا الأتون؛ فمن كان منا على حق نجا، ومن كان على باطل احترق. فقلت للآخر: أتفعل ذلك؟ قال: نعم. فتقدما إلى صاحب الأتون متلببين، وقالا: لا تطبق الباب فإنا نريد أن ندخله، فمنعهما. فقالا: لابد لنا أن ندخله. فقال: ما شأنكما؟ وما الذى حملكما على هذا؟ فحدثاه بالقصة، فناشدهما الله ألاً يفعلا، فأبيا، فقال السنى للبدعى: أتتقدم أو أتقدم؟ فقال له البدعى: بل تقدم أنت. فتقدم السنى فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وقال: اللهم! إنك تعلم أن دينى واعتقادى أن خير الناس بعد رسولك أبو بكر الصديق، الذى نصر رسولك وواساه بنفسه وماله، حيث كان أول من أسلم، ووازره على أمره، وآمن به وبما جاء به؛ حيث ليس أحد غيره ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾[التوبة : ٤٠]، فذكر من فضائله - ثم عمر بن الخطاب الذى أعززت به الإسلام، وفرقت به بين الحق والباطل، ثم عثمان بن عفان زوج ابنتى رسولك ﷺ، الذى جهز جيش العسرة، وقام بأمر النبى ﷺ فى نوائبه - وذكر فضائله - ثم على بن أبى طالب ابن عم رسولك، وزوج ابنته فاطمة الزهراء أعز الخلق، وأبو ولديه الحسن والحسين، وكاشف الكروب عن وجه رسولك - وذكر فضائله - وإنى أؤمن بالقدر خيره وشره، وبما آمن به رسولك، وما نهى عنه، ولا أرى رأى الخوارج، وأؤمن بالبعث والنشور، وأنك الحق المبين، ليس كمثلك شيء، وإنك تبعث من فى القبور، وأتبع ولا أبتدع. ثم قال: اللهم هذا دينى واعتقادى، فإن كنتُ على الحق فبرد عليّ

هذه النار كما بردتها على إبراهيم، واصرف عنى حرها ولهبها وأذاها بحولك وقوتك؛ فإنى إنما أفعل هذا غيرةً لدينك. وما جاء به رسولك، وأؤمن بالله. ثم دخل الأتون. وتقدم البدعى فحمد الله مثل حمده، ثم قال: الذى أدين به أن خير الناس بعد رسول الله ﷺ على بن أبى طالب، ثم ذكر من فضائله مثل ما ذكر السنى، ولا أعرف لأحد غيره حقًّا؛ لأن أبا بكر كفر بعد إسلامه، وقاتل المسلمين وارتد عن الدين، وكذلك عمر. ثم ذكر ما يذهب إليه من البدعة ويكذب به ثم قال: اللهم هذا دينى واعتقادى. وقال كما قال صاحبه ودخل، فأطبق صاحب الأتون عليهما، وانصرف على أنهما محترقان قد جنيا على أنفسهما، وبقيتُ وحدى لا أريد الانصرافَ؛ حتى يتبين لى أمرهما، فلم أزل أنتقل من فىء إلى فىء، وعينى إلى الأتون حتى زالت الشمس، فسقط الطابق وَخَرَجَ عليٌّ السنى وجبينه يعرق، فقمت إليه وقبلت وجهه، وقلت له: كيف كنت ؟! فقال: بخير، أدخلت إلى مجلس مفروش بأنواع الفرش، وفيه أنواع الرياحين والخدم، فنوّمت على الفراش إلى الساعة، ثم جاءنى جاءٍ فقال: قم فقد حان لك أن تخرج من هاهنا، وقت الصلاة قم فصل، فخرجت. قال: فسألته عن غريمه، فقال: ما أعلم حاله. ووجهنا خلف صاحب الأتون، فجاء ومعه حديدة، فلم يزل يطلبه بها، حتى وقعت فى موضع من بدنه فجره، وأخرجه وقد صار حممة إلا جبهته، فإنها بلونها الأصلى عليها سطران مكتوبان يقرؤهما الصادر والوارد: هذا عبد طغى وبغى، وكفر بأبى بكر وعمر، آيس من رحمة الله فأغلق الناس دكاكينهم ثلاثة أيام لم يفتحوها؛ يتناوبونه فينظرون إليه، ويسمعون من السنى حديثه، وتاب من كان يشتم أبا بكر وعمر هنالك، وكانوا نحو أربعة آلاف نفس، انتهى. اللهم ارض عنهم وعنا بهم، ولا تجعل لأحد منهم فى عنقنا ظلامة بجودك وكرمك!!.

تنبيه: حكى الخطابى عن بعض مشايخه أنه كان يقول: أبو بكر خير من على، وعلى أفضل من أبى بكر. فقال بعض العلماء: إن هذا تهافت من القول؛ لأنه لا معنى للخيرية إلا الأفضلية، فإن أريد أن خيرية أبى بكر من وجه وأفضلية على من وجه لم يكن ذلك من محل الخلاف، ولم يكن الأمر فى ذلك خاصًا بأبى بكر وعلى بل أبو بكر وأبو عبيدة مثلا يقال فيهما ذلك، فإن الأمانة التى فى أبى عبيدة خصه

رسول الله ﷺ بها بقوله: « أبو عبيدة أمين هذه الأمة »(١) ولم يخص أبا بكر بمثلها، فيكون أبو عبيدة خيرًا من أبى بكر فيها فحسب ومن جهتها فقط لما تقرر فى الأصول أن المفضول قد توجد فيه مزايا لا توجد فى الفاضل، فلا يكون وجودها مقتضيا لتفضيله على الفاضل عليه بل ولا مساواته، فإن أراد شيخ الخطابى أن أبا بكر أفضل مطلقا إلا أن عليًا وجدت فيه مزايا لم توجد فى أبى بكر مثل قوله - عليه الصلاة والسلام - أقضاكم عليّ(٢) فكلامه صحيح، وإلا فكلامه فى غاية التهافت والسقوط، خلافًا لمن انتصر له ووجهه بما لا يجدى بل لا يفهم. وقد سئل شيخ الإسلام الإمام أبو زرعة العراقى عمن اعتقد فى الخلفاء الأربعة على الترتيب المعلوم ولكنه أحب أحدهم أكثر هل يأثم أم لا ؟ فأجاب بأن المحبة قد تكون لأمر دينى وقد تكون لأمر دنيوى فالمحبة الدينية لازمة للأفضلية فمن كان أفضل كانت محبتنا الدينية له أكثر، فمتى اعتقدنا فى واحد منهم أنه أفضل ثم أحببنا غيره من جهة الدين أكثر كان ذلك تناقضًا. نعم إن أحببنا غيرالأفضل أكثر من محبة الأفضل لأمر دنيوى كقرابة أو إحسان أو نحوهما فلا تناقض فى ذلك ولا امتناع فلا إثم، فمن اعترف بأن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على، لكنه أحب عليًا أكثر من أبى بكر مثلاً، فإن كان يدعى محبها أنها المحبة الدينية فلا معنى لذلك إذ المحبة الدينية اعتقادها لازم لاعتقاد الأفضلية كما تقدم فهذا المحب لعلى أكثر محبة دينية على دعواه مع اعتقاده أفضلية أبى بكر عليه لم يعتقد أفضلية أبى بكر حقيقة وإنما هو معترف بها بلسانه فقط وأما بالقلب فلا إذ هو مفضل لعلى بقلبه لزومًا لكونه أحبه محبة دينية زائدة على محبة أبى بكر وهذا لا يجوز. أما إذا كانت محبة

---

(١) تقدم.

(٢) أخرج البخاري (٤٤٨١) عن ابن عباس قال: قال عمر رضي الله عنه: (أقرؤنا أبي وأقضانا علي...) قال الحافظ في الفتح (١٩/٨) قوله قال عمر: (أقرؤنا أُبَيٌّ وأقضانا عليّ) كذا أخرجه موقوفاً، ... وأما قوله: (وأقضانا علي) فورد في حديث مرفوع عن أنس رفعه: (أقضى أمتي علي بن أبي طالب) أخرجه البغوي. وعن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن النبي مرسلاً أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأقضاهم عليٌّ. الحديث. ورويناه موصولاً في « فوائد أبي بكر محمد بن العباس بن نجيح » من حديث أبي سعيد الخدري مثله، وروى البزار من حديث ابن مسعود قال: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب رضي الله عنه» ا هـ وينظر كشف الخفاء (١١٧/١ - ١١٩، ١٨٤ - ١٨٥).

المحب أكثر محبة دنيوية لكونه من ذرية على أو لإحسان من على أو من بنيه إليه أو لغير ذلك من المعانى فلا امتناع فى ذلك. انتهى.

قلت: لا يظهر صحة دعوى التلازم فعلى مدعيها بيان الملازمة ليعتمد فيعتقد ودونه خرط القتاد. وأما قوله وهذا لا يجوز أقول فيه هذا لا يجوز، إذ قد صرح علماؤنا بأن من اعترف للشيخين بحقهما وفضلهما ثم أحب عليًا أكثر لاتصال نسبه به ﷺ وقربه منه القرب الذى لا يشابه وكشف الكروب عن وجهه فى المضايق ونحوهما كان ذلك الحب قربة إلى الله مثابًا صاحبه مأجورًا لا آثمًا مأزورا ولو لم يكن له بعلى نسبة اتصال ولا إحسان ولا نحوهما مما جعله مسوغًا لجواز ذلك، هذا هو مذهب الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه فى هذه المسألة فالعجب من هذا المجيب فيما أجاب، وأعجب منه إقرار العلامة ابن حجر عليه.

فى الكتاب فى تاريخ ابن الجوزى المسمى بالمنتظم فى أخبار الأمم والعرب والعجم قصيدة للإمام العلامة يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد أبو الفضل الحصنكى - نسبة إلى حصن كيفا - أحببت إيراد شيء منها قال: [من الرجز]

تقاسمُوا يومَ الوداعِ كَبِدِى ... فَليْسَ لى منذ تَوَلَّوْا كَبِدُ
على الجفونِ رَحَلُوا وفى الحشا ... ءِ قَيَّلوا وماءَ عينى وَرَدُوا
وأدمُعى مسفوحةٌ وَكبِدِي ... مقروحةٌ وغلَّتى ما تبردُ
وصَبْوَتِى دائمةٌ ومُقْلَتى ... دامِيَةٌ ونَوْمهُا مشرَّدُ
تيمنى منهُمْ غزالٌ أغيدُ ... يا حَبَّذَا ذاكَ الغزَالُ الأغيَدُ
حُسَامُهُ مجرَّدٌ وصرحُهُ ... ممرَّدٌ وخدُّهُ مورَّدُ
وصُدْغُهُ فوْقَ احمرارِ خَدِّهِ ... مبلبلٌ مُعَقْربٌ مجعَّدُ
كأنما نكْهتُهُ وريقُهُ ... مِسْكٌ وخَمْرٌ والثنايا بَرَدُ
يقعدُهُ عند القيامِ ردفُهُ ... وفى الحشا مِنْهُ المقيمُ المقعدُ
له قوامٌ كقضيبِ بانةٍ ... يهتزُّ قصدًا ليس فِيهِ أَودُ

قال: وهى طويلة جدًا. ثم خرج من التغزل إلى مدح أهل البيت، وذكر الأئمة الاثنى عشر - رحمهم الله تعالى - فقال:

يا سائِلى عَنْ حُبِّ أهل البيتِ هَلْ ... أقرّ إيمانًا به أم أجْحَدُ
هيهاتَ ممزوجٌ بلحمى ودَمِي ... حُبُّهُمُ وهْوَ الهدَى والرَّشَدُ

حيدَرَةٌ والحَسَنانِ بعدَهُ ثمَّ عليٌّ وابنُهُ محمَّدُ
وجعفَرُ الصادقُ وابْنُ جعفرِ موسَى ويتلُوه عليُّ السَّيدُ
أعنى الرضا ثمَّ ابنُهُ محمَّدٌ ثمَّ عليٌّ وابنُهُ المسَددُ
والحسنُ الثانى ويتلُو تلوهُ محمَّدُ بن الحسَنِ المنتقدُ
فإنهُمْ أئمتى وسَادَتِى وإنْ لحانى معشَر وقيَّدُوا
أئِمَّةٌ أكرِم بهم أئمةً أسماؤُهُمْ مسرودَةٌ تَطَّرِدُ
هم حُجَجُ اللهِ على عبادِهِ وهُمْ إليه منهجٌ ومقصدُ
قومٌ لهم فضلٌ ومجدٌ باذخٌ يعرفُهُ المشركُ والموحِّدُ
قومٌ لهم فى كلِّ أرضٍ مشهدٌ لا بَلْ لهم فى كلِّ قَلْبٍ مشهَدُ
قومٌ مِنًى والمشعرانِ لَهُمُ والمروتَانِ لهم والمسجِدُ
قومٌ لهم مكَّةُ والأبطَحُ والـ ـخيفُ وجَمْعٌ والبقيعُ الغرقَدُ

ثم ذكر مقتل الحسين إلى أن قال:

ولستُ أهواكُمْ ببغْضِ غيركم إنِّى إذن أشْقى بكُمْ لا أسعَدُ
فلا يظنُّ رافضيٌّ أننى وافَقْتُهُ أو خارجيٌّ مفسدُ
محمدٌ والخلفاءُ بعدَهُ أفضَلُ خَلقِ اللهِ فيما أَجدُ
هُمْ أسَّسُوا قواعد الدين لنا وهُمْ بَنَوا أركانَهُ وشَيَّدوا
ومَنْ يخُنْ أحمَدَ فى أصحابِهِ فخصْمُهُ يومَ المعادِ أحمَدُ
هذا اعتقادى فالزمُوه تفلحُوا هذا طريقى فاسلُكوهُ تَهْتَدُوا
والشافِعِيُّ مذهبى مذهَبُهُ لأنه فى قَوْلِهِ مؤيَّدُ
إنى بإذْنِ الله ناجٍ سابقٌ إذا أتَى الظالمُ والمفَنِّدُ

نسب أبى بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه

هو أبو بكر الصديق ابن أبى قُحافة، عثمان بن عمرو بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، القرشى التيمى[(١)]،

---

(١) ينظر السيرة النبوية (١/ ٢٨٥) وطبقات ابن سعد (٣/ ١٢٥)، وتاريخ الطبري (٨/ ٤٢٤)، وفتح الباري (٧/ ٣٥٥)، والإصابة (٣/ ١٤٤)، ومستدرك الحاكم (٣/ ٦١)، وأسد الغابة =

يلتقى معه - عليه الصلاة والسلام - فى مرة، وبينه وبين مرة كما بينه - عليه الصلاة والسلام - وبين مرة؛ ستة آباء؛ فهذه موافقة اتفقت بينهما فى النسب؛ كما اتفقت فى العمر، على أصح الأقوال.

أمه: أم الخير - لفظًا ومعنى ! - سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم، بنت عم أبيه؛ هكذا ذكره جمهور أهل النسب، ومن شذ فقال: بنت صخر بن عامر [بن عمر بن كعب](١)، فجعلها ابنةَ عمه - فليس بصحيح.

أسلم أبوه أبو قحافة، عثمان بن عمرو بن كعب، يوم الفتح، وبايع رسول الله ﷺ وعاش مدة حياته ﷺ ومدة خلافة ولده، ومات فى خلافة عمر، رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

عن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله تعالى عنهما - قالت: لما وقف رسول الله ﷺ بذى طوى، حال دخوله مكة عام الفتح، قال أبو قحافة لابنةٍ له من أصغر ولده: أى بنية، اظهرى بى على أبى قبيس. قالت: والحال أنه قد كف بصره،قالت: فأشرفت به عليه، فقال: أى بُنية، ماذا ترين ؟ قالت: أرى سوادًا مجتمعًا. قال: تلك الخيل. قالت: وأرى رجلاً يسعى بين يدى السواد(٢)، مقبلاً ومدبرًا. قال: أى بنية، ذاك الوازع الذى يؤم الخيل ويتقدم إليها. ثم قالت: قد - والله ! - انتشر بالوادى(٣). فقال: والله لقد دفعت الخيل، فأسرعى بى إلى بيتى، فانحطت به وتلقته الخيل قبل أن يصل إلى بيته - وفى عنق الجارية طوق من فضة(٤)، فتلقاها رجل فاقتلعه من عنقها.

قالت: فلما دخل رسول الله ﷺ مكة [ودخل](٥) والمسجد، أتاه أبو بكر - رضى الله تعالى عنه - بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: « هلا تركت الشيخَ

= ت (٣٠٦٦)، والرياض المستطابة (١٤٠)، والرياض النضرة (١/ ٧٣)، وصفة الصفوة (١/ ٢٣٥ - ٢٦٣).

(١) المثبت من الرياض النضرة. وينظر الرياض (١/ ٧٣، ٧٤).

(٢) في الرياض النضرة: ذلك السواد.

(٣) في الرياض النضرة: السواد.

(٤) في الرياض: من ورق.

(٥) المثبت من الرياض.

فى بيته؛ حتى أكون أنا آتيه ؟ » فقال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يأتى[١] إليك من أن تأتى[٢] إليه. قال فأجلسه رسول الله ﷺ بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: « أسلم » فأسلم. وكان رأسه كالثَّغامة، فقال - عليه الصلاة والسلام : « غيروا هذا عن شعره ». ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال: أنشد الله والإسلامَ طوق أختى ! فقال: يا أختى احتسبى طوقك، فوالله إن الأمانة اليومَ فى الناس لقليل. أخرجه أحمد، وأبو حاتم، وابن إسحاق[٣].

وفى رواية بعد قوله - عليه الصلاة والسلام -: « هلا تركت الشيخ حتى أكون أنا آتيه »: فقال أبو بكر: أردت يا رسول الله، أن يأجره الله - عز وجل - فوالذى بعثك بالحق نبيًا، لأنا كنت أشد فرحًا بإسلام أبى طالب، منى بإسلام أبى؛ ألتمس بذلك قرة عينك، قال عليه - الصلاة والسلام -: « صدقت »[٤].

وقوله: « الوازع »: هو الذى يتقدم الصف، فيصلحه، ويقدم، ويؤخر فى الجيش، ومنه قول الحسن: « لابد للناس من وازع »، أى سلطان يكف بعضهم عن بعض.

والثغامة: واحدة الثغام، نبت أبيض يشبه الشيب به.

وأسلمت أمه - رضى الله تعالى عنها - أم الخير سلمى بنت صخر قديمًا فى دار الأرقم بن أبى الأرقم، وبايعت النبى ﷺ. ذكره الحافظ الدمشقى، وصاحب الصفوة[٥].

ولد - رضى الله تعالى عنه - بعد مولده - عليه الصلاة والسلام - بسنتين وأشهر بمكة[٦]، وكان منشأه بمكة، لا يخرج منها إلا لتجارة، وكان ذا مال جزيل فى

---

(١) في الرياض: يمشي.

(٢) في الرياض: تمشي.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٤٩ - ٣٥٠)، والطبراني في الكبير (٢٤/ رقمي ٢٣٦، ٢٣٧). وابن سعد في الطبقات (٦/ ٨)، والحاكم (٣/ ٤٦) والبيهقي في الدلائل (٥/ ٩٥ - ٩٦) من طريق ابن إسحاق حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن أسماء، به. وقال الحافظ في الإصابة (٤/ ٣٧٥): إسناده صحيح. وانظر الرياض النضرة (١/ ٧٤).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٣٢٣) والبزار كما في المجمع (٦/ ١٧٧) من حديث ابن عمر وقال الهيثمي: فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف.

(٥) ينظر الإصابة (٨/ ٣٨٦)، والرياض النضرة (١/ ٧٥).

(٦) في الإصابة (٤/ ١٤٥): ولد بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر.

قومه، وثروة تامة، وإحسان، وتفضل فيهم، وكان من رؤساء قريش فى الجاهلية، وأهل مشورتهم، ومحببًا فيهم.

ولما جاء الإسلام أكره على ما سواه، ولم يفعل، ودخل فى الإسلام أكمل دخول.

وكان من أعف الناس فى الجاهلية، وقالت عائشة - رضى الله تعالى عنها -: لقد ترك هو وعثمان شرب الخمر فى الجاهلية(١). رواه ابن عساكر بسند صحيح.

صفته رضى الله تعالى عنه

كان نحيفًا، أبيض، حسن القامة، خفيف العارضين، أجنأ لا يستمسك إزاره فى حقويه، معروق الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة، عارى الأشاجع. رواه ابن سعد، عن عائشة، رضى الله تعالى عنها(٢). وقوله: « أجنأ » بالجيم والهمز -: أى منحنيًا، يقال منه: جنأ يجنو - بالقصر - جنوءًا، ومنه يسمى الترس مجنأً لانحنائه، ويقال: أحنا - بالحاء غير مهموز - بمعناه، والأشاجع: جمع أشجع بوزن إصبع، هى أصول الأصابع التى تتصل بأصول ظاهر الكف.

كان - رضى الله عنه - يلقب بالصديق فى الجاهلية، لما عرف منه الصدق.

قال ابن إسحاق عن الحسن البصرى وقتادة: وأول ما اشتهر به صبيحة ليلة الإسراء(٣).

وروى الحاكم قال حماد عنه عن النزال بن سبرة قال قلنا لعلى - رضى الله تعالى عنه - يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن أبى بكر. قال: ذاك امرؤ سماه الله الصديق على لسان جبريل وعلى لسان محمد ﷺ، خليفة رسول الله ﷺ على الصلاة، رضيه لديننا، فنرضاه لدنيانا(٤). وسمى بعتيق؛ لأن أبا قحافة كان له ثلاثة أولاد عتيقا ومعتقا ومعيتقا(٥)، وروى عن ابن منده وابن عساكر، عن موسى بن طلحة، قلت

---

(١) ينظر الرياض النضرة (١/ ٢٠١).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ١٤٠)، وينظر الإصابة (٤/ ١٤٦)، والرياض النضرة (١/ ٨٢).

(٣) ينظر السيرة النبوية (٢/ ٥٠)، والرياض النضرة (١/ ٨١).

(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٢) بنحوه دون قوله «خليفةرسول الله صلى الله عليه وسلم على الصلاة. . . .» وعزاه صاحب الرياض النضرة (١/ ٨١)، للخلعي وابن السمان في الموافقة.

(٥) أخرجه ابن منده كما في الإصابة (٤/ ١٤٦) وقال الحافظ: وفي السند ابن لهيعة وانظر =

لأبى طلحة: لم سمى أبو بكر عتيقًا ؟ قال كانت أمّه لا يعيش لها ولد، فلما ولدته استقبلت به البيت الشريف، ثم قالت: اللهم إن هذا عتيق البيت فهبه له(١).

وروى ابن عساكر عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: اسم أبى بكر الذى سماه أهله به عبد الله، ولكن غلب عليه اسم عتيق(٢). وفى لفظ ولكن النبى ﷺ سماه عتيقا.

واختلف فى أى وقت لقب عتيقا فروى أبو يعلى فى مسنده، وابن سعد، والحاكم وصححه عن عائشة - رضى الله تعالى عنها - قالت: والله إنى لفى بيتى ذات يوم ورسول الله فى الفناء، والستر بينى وبينه إذ أقبل أبو بكر، فقال - عليه الصلاة والسلام -: من سره أن ينظر إلى عتيق من النار؛ فلينظر إلى أبى بكر: وإن اسمه الذى سماه أهله لعبد الله فغلب عليه اسم عتيق(٣).

وروى الترمذى والحاكم عنها أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ، فقال له: أنت عتيق الله من النار، فيومئذ سمى عتيقا(٤).

وروى الطبرى والبزار بسند جيد عن عبد الله بن الزبير، قال: كان اسم أبى بكر عبد الله، فقال له رسول الله ﷺ: أنت عتيق الله من النار. قال فى الرياض النضرة: ولا تضاد بين هذه الأحاديث كلها، إذ يصح أن يكون أحد الأبوين لقبه بذلك ثم تابعه الآخر عليه، أو لمعنى آخر، ثم استعملته قريش وأقرته عليه ثم أقر عليه بعد ذلك، وما روى عن عائشة من قولها « فمن يومئذ سمى عتيقا » فمعناه والله أعلم

= الرياض النضرة (١/ ٧٨).

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٦١)، والدولابي في الكنى، وابن مندة كما في الإصابة (٤/ ١٤٧).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٢٧)، وذكره الحافظ في الإصابة (٤/ ١٤٦)، وانظر الرياض النضرة (١/ ٧٨).

(٣) أخرجه أبو يعلى (٤٨٩٩)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ١٢٧)، والحاكم (٣/ ٦١-٦٢) من طريق صالح بن موسى الطلحي عن معاوية بن إسحاق عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين، به. وصححه الحاكم. وتعقبه الذهبي بقوله: صالح ضعفوه، والسند مظلم.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٦٧٩)، والطبراني (٩) والحاكم (٢/ ٤١٥)، وفي سنده إسحاق بن يحيى بن طلحة. وصححه الحاكم. وتعقبه الذهبي بقوله: بل إسحاق متروك. قاله أحمد وله شاهد من حديث عبد الله بن الزبير، أخرجه ابن حبان (٦٨٦٤) والطبراني (٧)، والبزار (٢٤٨٣) قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٤٣): ورجالهما ثقات. وانظر الرياض النضرة (١/ ٧٨).

فمن ذلك اليوم اشتهر به حتى لا يعرف له اسم سواه[١].

الآيات فى شأن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل :١٧، ١٨] إلى آخر السورة. قال ابن الجوزى: أجمعوا أنها نزلت فى أبى بكر[٢]، ففيها التصريح بأنه أتقى من سائر الأمة، والأتقى هو الأكرم عند الله، بدليل: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] والأكرم عند الله هو الأفضل. وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى: أن أبا بكر أعتق سبعة كلهم يعذب فى الله؛ فأنزل الله قوله ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾[٣] [الليل : ١٧].

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ [الليل : ١ :٤] أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود أن أبا بكر اشترى بلالاً من أمية بن خلف وأبى بن خلف ببردة وعشرة أواق، فأعتقه لله تعالى؛ فأنزل الله هذه الآية[٤]؛ إشارة إلى أن سعى أبى بكر وأمية وأبى مفترق فرقانًا عظيمًا، فشتان بينهما.

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ إلى قوله ﴿ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة: ٤٠] أجمع المسلمون على أن المراد بالصاحب هنا أبو بكر، ومن ثم من أنكر صحبته كفر إجماعًا. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود[٥] أن الضمير فى ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة: ٤٠] لأبى بكر[٦] أى: ولا ينافيه ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ ﴾ [التوبة: ٤٠] إرجاعًا للضمير فى كل بما يليق به، وجلالة ابن مسعود قاضية بأنه لولا علم فى ذلك نصًا لما حمل الآية عليه مع مخالفة ظاهرها له.

الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣]. أخرج البزار وابن عساكر أن عليًا - رضى الله تعالى عنه - قال فى

---

(١) ينظر: الرياض النضرة (١/ ٧٨).
(٢) هذا قول ابن عباس أيضاً ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٠٧) وعزاه لابن مردويه.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٠٧) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٠٥) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر.
(٥) في الدلائل (٢/ ٤٨٢) والدر المنثور (٣/ ٤٣٩): ابن عباس.
(٦) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٤٨٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٣٩) وزاد نسبته =

تفسيرها: الذى جاء بالحق هو محمد ﷺ، وصدق به هو أبو بكر[(١)]. قال ابن عساكر. هكذا الرواية « بالحق »، ولعلها قراءة لعلى، رضى الله تعالى عنه.

الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦]. أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شوذب: أنها نزلت فى أبى بكر[(٢)].

الآية السادسة قوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩]. أخرج الحاكم عن ابن عباس أنها نزلت فى أبى بكر وعمر[(٣)]، ويؤيده الخبر الآتى فى الأحاديث « إن الله أمرنى أن أستشير أبا بكر وعمر »[(٤)].

الآية السابعة قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التحريم : ٤]. أخرج الطبرانى عن ابن عمر وابن عباس - رضى الله تعالى عنهما -: أنها نزلت فيهما[(٥)].

الآية الثامنة قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا ﴾ إلى قوله: ﴿يُوعَدُونَ ﴾[الأحقاف : ١٥، ١٦]. أخرج ابن عساكر عن ابن عباس- رضى الله تعالى عنهما - أن ذلك جميعه نزل فى أبى بكر- رضى الله تعالى عنه [(٦)]- ومن تأمّل ذلك وجد فيه من عظيم المنقبة له والمنة عليه، ما لم يوجد لأحد من الصحابة،

= إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

(١) أخرجه الطبري (٣٠١٤٤) والبزار كما في المجمع (٩/ ٥٠) والضياء في المختارة (٣٩٧-٣٩٩) من طريق عمر بن إبراهيم عن عبد الملك بن عمير عن أسيد بن صفوان عن علي، به. وقال الهيثمي: وفيه عمر بن إبراهيم الهاشمي وهو كذاب قلت: وعمر ذكره الذهبي في الميزان (٥/ ٢١٧) وساق له هذا الحديث وعزاه للهيثم بن كليب وقال: ليشهد القلب بوضع ذلك، وأسيد مجهول قلت: وهذا من أضعف ما أخرج الضياء في مختارته وذكر الحديث السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٦١٥) وعزاه إلى ابن جرير والباوردي في معرفة الصحابة وابن عساكر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٠١) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٧٠) من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٤) يأتي تخريجه في موضعه.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣٧٣) وعزاه إلى الطبراني في الأوسط وابن مردويه. وعزاه لابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وعزاه له أيضًا من حديث بريدة وله شواهد أخرى ينظر لها الدر المنثور (٦/ ٣٧٣).

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٨) وعزاه إلى ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس والكلبي محمد بن السائب كذاب.

رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

الآية التاسعة قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ إلى قوله ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢] نزلت فى أبى بكر - رضى الله تعالى عنه، كما فى البخارى وغيره - لما حلف لا ينفق على مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن هاشم؛ لكونه كان من جملة من رمى عائشة بالإفك، الذى تولى سبحانه براءتها منه بالآيات العشر التى أنزلها سبحانه فى شأنها أول سورة النور، ولما نزلت قال أبو بكر: بلى، والله يا ربنا، إنا لنحب أن تغفر لنا، وأعاد لمسطح ما كان ينفقه عليه[١]. وفى رواية للبخارى عن عائشة - رضى الله تعالى عنها - فى حديث الإفك الطويل: فلما أنزل الله هذا فى براءتى، قال أبو بكر الصديق - وكان ينفق على « مسطح بن أثاثة، لقرابته منه وفقره - والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذى قال لعائشة ما قال، فأنزل الله قوله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ ﴾ [النور: ٢٢] وذكر الآية السابقة. ثم قالت: قال أبو بكر: بلى، والله إنى لأحب أن يغفر الله لى. فرجع إلى « مسطح النفقة التى كان ينفقها عليه، وقال: والله لا أنزعها أبدًا[٢].

تنبيه: علم من حديث الإفك المشار إليه أن من نسب عائشة - رضى الله تعالى عنها إلى الزنا كان كافرًا، وهو ما قد صرح به أئمتنا وغيرهم؛ لأن فى ذلك تكذيب النصوص القرآنية، ومكذبها كافر بإجماع المسلمين. وبه يُعلم القطع بكفر كثيرين من غلاة الروافض؛ لأنهم ينسبونها إلى ذلك، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

الآية العاشرة قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ الآية [الأحزاب: ٤٣]. أخرج عبد بن حميد عن مجاهد: لما نزلت ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ . . . ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قال أبو بكر: يا رسول الله، ما أنزل الله عليك خير إلا أشركنا فيه، فنزلت: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ . . . ﴾ الآية[٣].

---

(١) حديث الإفك: أخرجه مطولاً البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠) ومسلم (٢٧٧٠/٥٦) وأحمد (٦/ ١٩٧) والنسائي في عشرة النساء (٤٥) وأبو يعلى (٤٩٢٧) وابن حبان (٤٢١٢) والبيهقي (٧/ ٣٠٢) من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله عن عائشة.

(٢) ينظر الحديث السابق.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٨٩) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر.

الآية الحادية عشرة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ [الاحقاف: ١٣]. عن ابن عباس: نزلت في أبى بكر، رضي الله تعالى عنه . ذكره الإمام الواحدى المفسر المشهور.

الآية الثانية عشرة : قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [فصلت: ٤٠] عن ابن عباس: هذا أبو جهل، وهذا أبو بكر. حكاه الإمام الثعالبى(١).

الآية الثالثة عشرة قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ إلى ﴿ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥] عن ابن عباس نزلت فى أبى بكر فاستجاب الله له فأسلم والده وأولاده كلهم. رواه عقيل بن خالد الأربلى(٢).

الآية الرابعة عشرة قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ﴾ [الحديد: ١٠]. قال الكلبى: نزلت فى أبى بكر. ذكره الواحدى(٣).

الآية الخامسة عشرة قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ . . . ﴾ [المجادلة: ٢٢] عن ابن جريج أن أبا قحافة سب النبى ﷺ، فصكه [أبو بكر](٤) صكة شديدة؛ فسقط منها، ثم ذكر للنبى ﷺ. قال: « أو فعلته ؟! » قال: نعم، فقال – عليه الصلاة والسلام –: « فلا تعد إليه ». فقال أبو بكر: والله لو كان السيف قريبًا منى لقتلته، فنزلت هذه الآية. أخرجه الواحدى والإمام أبو الفرج(٥).

الآية السادسة عشرة قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ الآية [التوبة: ٤٠]. أخرج ابن عساكر عن سفيان بن عيينة، قال: عاتب الله المسلمين كلهم فى رسول الله ﷺ، إلا أبا بكر وحده فإنه خرج من المعاتبة، ثم قرأ ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ الآية(٦).

* * *

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٦٨٨) وعزاه إلى ابن مردويه .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٠) وعزاه إلى ابن مردويه عن ابن عباس.
(٣) ينظر أسباب النزول للواحدي ص (٤٢٥) .
(٤) المثبت من أسباب النزول .
(٥) ينظر أسباب النزول للواحدي ص (٤٣٤) .
(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٣٤) وعزاه إلى ابن عساكر عن سفيان بن عيينة .

الأحاديث فى شأن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

منها صافية الدلالة على خلافته، وهى أربعة عشر حديثًا:

الحديث الأول - أخرج الشيخان عن جبير بن مطعم، قال: أتت امرأة إلى النبى ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، فقالت أرأيت إن جئت، ولم أجدك؟ كأنها تقول الموت. قال: إن لم تجدينى، فأتى أبا بكر[(١)]. وأخرج ابن عساكر، عن ابن عباس قال: جاءت امرأة إلى النبى ﷺ تسأله شيئًا، فقال لها تعودين، فقالت: يا رسول الله، إن عدت فلم أجدك؟ تعرِّض بالموت. فقال: إن جئتنى، ولم تجدينى؛ فأتى أبا بكر، فإنه الخليفة بعدى[(٢)].

الحديث الثانى - أخرج أبو القاسم البغوى بسند حسن، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يكون خلفى اثنا عشر خليفة، أبو بكر لا يلبث إلا قليلاً »[(٣)] قال الأئمة: هذا صدر حديث مجمع على صحته، وارد من طرق عدة. أخرجه الشيخان وغيرهما. فمن تلك الطرق: « لا يزال هذا الأمر عزيزًا ينصرون على من ناوأهم عليه إلى اثنى عشر خليفة كلهم من قريش »[(٤)]. رواه عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل، بسند صحيح. ومنها: « لا يزال هذا الأمر صالحًا »[(٥)]. ومنها « لا يزال ماضيًا ما وليهم اثنا عشر رجلاً »[(٦)]. ومنها « لا يزال

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٩، ٧٢٢٠، ٧٣٦٠) ومسلم (٢٣٨٦) والترمذي (٣٦٧٦) وأحمد (٤/ ٨٢) والشافعي في مسنده (٢/ ٤٠٤) وابن حبان (٦٦٥٦) والبيهقي (٨/ ١٥٣) من حديث جبير بن مطعم وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) يشهد له حديث جبير بن مطعم وهو الحديث السابق.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٧٤٩) وفي الكبير (١٢) وابن عدي في الكامل (٤/ ٢٠٨)، وابن حبان في المجروحين (٢/ ٤٢) من طريق عبد الله بن صالح كاتب الليث عن الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن ربيعة بن سيف عن شفي بن ماتع عن عبد الله بن عمرو به وقال الطبراني: لا يروي هذا الحديث عن عبد الله بن عمرو إلا بهذا الإسناد تفرد به الليث.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٩٠، ١٠٠، ١٠٦) وعبد الله في زوائده (٥/ ٩٩)، ومسلم (٧/ ١٨٢١)، والترمذي (٢٢٢٣)، والطيالسي (١٢٧٨)، وابن حبان (٦٦٦٢)، والطبراني (١٩٦٤)، وأبو القاسم البغوي في الجعديات (٢٧٥٤) من حديث جابر بن سمرة.

(٥) ذكره الحافظ في الفتح (١٥/ ١٢٦) بهذا اللفظ وعزاه للبزار والطبراني من حديث أبي جحيفة والذي عند البزار (١٥٨٤) «لا يزال أمر أمتي قائمًا حتى يمضي اثنا عشر خليفة . . . » الحديث.

(٦) تقدم تخريجه من حديث جابر بن سمرة وأشار الحافظ في الفتح (١٥/ ١٢٦) إلى هذه الرواية.

أمرأمتى قائمًا حتى يمضى اثنا عشر خليفة كلهم من قريش »، زاد أبو داود « فلما رجع إلى منزله أتته قريش، فقالوا ثم يكون ماذا ؟ قال ثم يكون الهرج »(١)، وعن ابن مسعود بسند حسن: أنه سئل كم يملك هذه الأمة من خليفة ؟ فقال: سألنا عنها رسول الله ﷺ، فقال: « اثنا عشر كعدة نقباء بنى إسرائيل »(٢). قال القاضى عياض: لعل المراد بالاثنى عشر فى هذه الأحاديث: أنهم يكونون فى مدة عزة الخلافة، وقوة الإسلام، واستقامة أموره، والاجتماع على من يقوم بالخلافة، وقد وجد هذا فيمن اجتمع عليه الناس إلى أن اضطرب أمر بنى أمية، ووقعت بينهم الفتن زمن الوليد بن يزيد، فاتصلت تلك الفتن إلى أن قامت الدولة العباسية، فاستأصلوا أمرهم(٣).

قال العلامة ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى فى شرح البخارى: كلام القاضى عياض هذا أحسن ما قيل فى هذا الحديث، فرجحه لتأيده بقوله فى بعض طرقه الصحيحة: « كلهم يجتمع عليه الناس » والمراد باجتماعهم: انقيادهم لبيعته، والذى اجتمعوا عليه الخلفاء الثلاثة ثم على عليّ - رضى الله عنه - إلى أن وقع أمر الحكمين فى صفين، وتسمى معاوية يومئذ بالخلافة، ثم اجتمعوا على معاوية عند صلح الحسن، ونزوله عن الخلافة ثم على ابنه يزيد، ولم ينتظم للحسين - رضى الله عنه - أمر بل قتل، ثم لما مات يزيد اجتمعوا على عبد الملك بن مروان بعد قتل عبد الله بن الزبير، ثم على أولاده الأربعة الوليد، فسليمان، فيزيد، فهشام، وتخلل بين سليمان ويزيد: عمر بن عبد العزيز، فهؤلاء سبعة بعد الخلفاء الراشدين الأربعة، فجملتهم أحد عشر والثانى عشر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فاجتمعوا عليه لما مات عمه هشام، فولى نحو أربع سنين، ثم قاموا عليه؛ فقتلوه، وانتشرت

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٩٢)، وأبو داود (٤٢٨١)، وأبو القاسم البغوي في الجعديات (٢٧٥٦)، وابن حبان (٦٦٦١)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٥٢٠)، والطبراني في الكبير (٢٠٥٩) من حديث جابر بن سمرة.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٨،٤٠٦)، والبزار (١٥٨٦، ١٥٨٧) من طريق مجالد عن الشعبي عن مسروق عن عبد الله بن مسعود ومجالد هو ابن سعيد وهو ضعيف وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ١٩٣) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وفيه مجالد بن سعيد وثقه النسائي وضعفه الجمهور وبقية رجاله ثقات.

(٣) ينظر: الفتح (١٥/ ١٢٦).

الفتن، وتغيرت الأحوال من يومئذ، ولم يتفق أن تجتمع الناس على خليفة بعد ذلك؛ لوقوع الفتن بين من بقى من بنى أمية، ولخروج المغرب عن العباسيين باستيلاء عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الملك الملقب بالداخل عليه، وانفرط الأمر إلى أن لم يبق من الخلافة إلا الاسم، بعد أن كان يخطب لعبد الملك فى جميع أقطار الأرض شرقًا وغربًا، يمينا وشمالا، مما غلب عليه المسلمون، ولا يتولى أحد فى بلدة إمارة فى شيء إلا بأمر الخليفة.

وقيل: اثنا عشر خليفة فى مدة الإسلام إلى القيامة، يعملون بالحق وإن لم يتوالوا، ويؤيده قول أبى الجلد: كلهم يعمل بالهدى ودين الحق، منهم رجلان من أهل بيت محمد ﷺ، فعليه المراد بالهرج الفتن الكبار كالدجال وما بعده.

وقيل: المراد بالاثنى عشر: الخلفاء الأربعة، والحسن ومعاوية، وابن الزبير، وعمر بن عبد العزيز فى الأمويين. قيل: ويحتمل أن يضم إليهم المهتدى العباسى؛ لأنه فى العباسيين كعمر بن عبد العزيز فى الأمويين، والظاهر العباسى أيضا لما أوتيه فى العدل، ويبقى الاثنان المنتظران، أحدهما: المهدى من آل بيت محمد[(١)].

قلت: لعل هذا القول الثانى أقرب إلى المراد من كلام سيد العباد.

الحديث الثالث: أخرج أحمد، والترمذى وحسنه، وابن ماجه، والحاكم وصححه عن حذيفة[(٢)]، وأخرج الطبرانى من حديث أبى الدرداء[(٣)]، والحاكم من حديث ابن مسعود[(٤)]، وروى أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وابن حبان فى

---

(١) ينظر: الفتح (١٥/ ١٢٨-١٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٢، ٣٨٥، ٣٩٩، ٤٠٢) وفي الفضائل (٤٧٨)، والترمذي (٣٦٦٣)، وابن ماجة (٩٧)، والحميدي (٤٤٩)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ٣٣٤)، وابن حبان (٦٩٠٢)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٤٨٠)، والطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ٨٣-٨٤) وابن أبي عاصم في السنة (١١٤٨، ١١٤٩) والحاكم (٣/ ٧٥)، وأبو نعيم (٩/ ١٠٩)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ٢٠) من حديث حذيفة.

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٥٦) وقال: رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم.

(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ٧٥-٧٦) وصحح إسناده وتعقبه الذهبي فقال: سنده واه. والحديث أخرجه أيضًا الترمذي (٣٨٩٣) وعبد الله بن أحمد في «زوائد الفضائل» (٢٩٤) وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٦٥٤) وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود لا نعرفه من حديث يحيى بن سلمة بن كهيل ويحيى بن سلمة يضعف في الحديث.

صحيحه عن حذيفة: « إنى لا أدرى ما قدر بقائى فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر، وتمسكوا بهدى عمار، وما حدثكم به ابن مسعود فصدقوه »(١)، والترمذى عن ابن مسعود(٢)، والرويانى عن حذيفة(٣)، وابن عدى عن أنس: « اقتدوا باللذين من بعدى من أصحاب أبى بكر وعمر، واقتدوا بهدى عمار، وتمسكوا بعهد ابن مسعود »(٤).

الحديث الرابع : أخرج الشيخان، عن أبى سعيد الخدرى قال: خطب رسول الله ﷺ الناس، فقال: « إن الله تعالى خيّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله » فبكى أبو بكر، وقال: بل نفديك بأبائنا وأمهاتنا، فعجبنا لبكائه أن أخبر رسول الله ﷺ بذلك، فكان رسول الله ﷺ هو المخبر عنه، وكان أبو بكر أعلمنا، فقال رسول الله ﷺ: « إن من أمنّ الناس علىّ فى صحبته وماله - أبا بكر، ولو كنت متخذا خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين باب إلا سُد إلا باب أبى بكر »، وفى لفظ للبخارى ومسلم: « لا يبقين فى المسجد خوخة إلا خوخة أبى بكر »(٥). قال العلامة ابن حجر الهيتمى: فى هذه الأحاديث إشارة إلى خلافة الصديق - رضى الله تعالى عنه وكرم وجهه -؛ لأن الخليفة يحتاج إلى القرب من المسجد؛ لشدة احتياج الناس إلى ملازمته له للصلاة وغيرها(٦).

الحديث الخامس - أخرج الحاكم وصححه، عن أنس - رضى الله تعالى عنه - قال: بعثنى بنو المصطلق إلى رسول الله ﷺ أن سله إلى من ندفع صدقاتنا بعدك ؟

---

(١) تقدم تخريجه قبل حديثين.
(٢) ينظر: الحديث قبل السابق.
(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في المجمع (٩/ ٢٩٨) وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وفيه يحيى بن عبد الحميد الحِمَّاني وهو ضعيف.
(٤) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٦٦٦) من طريق حماد بن دليل المدائني عن عمر بن نافع عن عمرو بن هرم عن أنس. وقال ابن عدي: لايروي هذا الإسناد غير حماد هذا. اهـ وحماد بن دليل ضعفه الأزدي وغيره وينظر: الميزان (٢/ ٣٥٩).
(٥) أخرجه أحمد (٣/ ١٨)، والبخاري (٣٦٥٤)، ومسلم (٢/ ٢٣٨٢)، والترمذي (٣٦٦٠)، والنسائي في فضائل الصحابة (٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٢٢٧)، وابن حبان (٦٥٩٤)، وابن سعد (٢/ ٢٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري.
(٦) وهو قول الخطابي وابن بطال وغيرهما وينظر الفتح (٧/ ٣٦٢).

فأتيته، فسألته، فقال: إلى أبى بكر[(١)]. قال ابن حجر: ومن لازم دفع الصدقات إليه كونه هو الخليفة، إذ هو متولى قبض الصدقات.

الحديث السادس : أخرج مسلم، عن عائشة - رضى الله تعالى عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ فى مرضه الذى مات فيه: « ادعى لى أباك وأخاك؛ حتى أكتب كتابا فإنى أخاف أن يتمنى متمنّ، أو يقول قائل أنا أولى، ويأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر ». أخرجه أحمد وغيره من طرق عنها، وفى بعضها: قال لى رسول الله ﷺ فى مرضه الذى مات فيه: « ادعى لى عبد الرحمن بن أبى بكر أكتب لأبى بكر كتابا لا يختلف عليه أحد »، ثم قال: « دعيه، مَعاذ الله أن يختلف المؤمنون فى أبى بكر ». وفى رواية عبد الله بن أحمد: « أبى الله والمؤمنون أن يختلف عليك يا أبا بكر »[(٢)].

الحديث السابع : أخرج الشيخان، عن أبى موسى الأشعرى قال: مرض النبى ﷺ، فاشتد مرضه، فقال: « مُروا أبا بكر فليصل بالناس ». قالت عائشة: يا رسول الله، إنه رجل رقيق، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلى بالناس، فقال: « مروا أبا بكر فليصل بالناس »، فعادت فقال: « مروا أبا بكر فليصل بالناس، فإنكنّ صواحب يوسف »، فأتاه الرسول، فصلى بالناس فى حياة رسول الله ﷺ. وفى رواية أنها لما راجعته فلم يرجع لها، قالت لحفصة: قولى له: يأمر عمر، فقالت له، فأبى حتى غضب، فقال: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤] أنتن - أو إنكن لأنتن - صواحب يوسف يظهرن خلاف ما يخفين »[(٣)].

قال العلامة ابن حجر - رحمه الله تعالى -: واعلم أن هذا الحديث متواتر؛ فإنه ورد فى حديث عائشة وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وعبد الله بن زمعة وأبى سعيد الخدرى وعلى بن أبى طالب وحفصة، وفى بعض طرقه عن عائشة: قد

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٧٧) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٤٤)، ومسلم (٢٣٨٧)، وابن حبان من طريق صالح بن كيسان عن الزهري عن عروة عن عائشة وأخرجه أحمد (٦/ ٥٠،١٠٦) من طريق ابن أبي مليكة عن عائشة وأخرجه البخاري (٥٦٦٦، ٧٢١٧) من طريق القاسم بن محمد عن عائشة.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٢،٤١٣)، والبخاري (٦٧٨)، ومسلم (١٠١/ ٤٢٠) من طريق عبد الملك بن عمير عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبي موسى الأشعري، به.

راجعت رسول الله ﷺ فى ذلك يوما، حملنى على كثرة مراجعته؛ أنه لم يقع فى قلبى أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا، وكنت أرى أنه لن يقوم مقامه أحد إلا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل بذلك رسول الله ﷺ عن أبى بكر، - رضى الله تعالى عنه -[١] وفى حديث ابن زمعة: أن رسول الله ﷺ أمرهم بالصلاة، وكان أبو بكر غائبا، فتقدم عمر فصلى فقال رسول الله ﷺ: « لاَ، لاَ، يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر »[٢]، وفى رواية عنه أنه ﷺ قال له: « اخرج، وقل لأبى بكر: يصلى بالناس »، فخرج فلم يجد على الباب إلا عمر فى جماعة ليس فيهم أبو بكر، فقال: يا عمر صل بالناس، فلما كبر - وكان صيتا - سمع رسول الله ﷺ صوته، قال: « يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر، يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر، يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر »[٣].

قال العلامة ابن حجر: قال العلماء: فى هذا أوضح دلالة على أن الصديق أفضل الصحابة على الإطلاق، وأحقهم بالخلافة وأولاهم.

قال الأشعرى: قد علم بالضرورة أن رسول الله ﷺ أمر الصديق أن يصلى بالناس مع حضور المهاجرين والأنصار، ومع قوله: « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله »[٤]،

(١) أخرجه البخاري (٤٤٤٥) من حديث عائشة.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٦١) من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن زمعة به؛ وقد تقدم.
(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٢٢)، وأبو داود (٤٦٦٠) من طريق الزهري عن عبد الملك بن أبي بكر ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أبيه عن عبد الله بن زمعة، به.
(٤) أخرجه مسلم (١/ ٤٦٥) كتاب المساجد، باب من أحق بالإمامة (٢٩٠/ ٦٧٣)، وأحمد (٤/ ١١٨)، وأبو داود (١/ ٣٩٠) كتاب الصلاة، باب من أحق بالإمامة، الحديث (٥٨٢)، والترمذي (١/ ١٤٩) كتاب الصلاة، باب من أحق بالإمامة، الحديث (٢٣٥)، والنسائي (٢/ ٧٦) كتاب الإمامة، باب من أحق بالإمامة، وابن ماجة (١/ ٣١٣) كتاب إقامة الصلاة، باب من أحق بالإمام بالإمامة، الحديث (٩٨٠)، وأبو عوانة (٢/ ٣٥، ٣٦)، وابن الجارود (٣٠٨)، والدارقطني (١/ ٢٠٨)، والبيهقي (٣/ ١١٩، ١٢٥)، وابن خزيمة (٣/ ٤) رقم (١٠٥٧)، والحميدي رقم (٤٥٧)، وعبد الرزاق (٣٨٠٨، ٣٨٠٩)، وابن حبان (٣/ ٤٤٦- الإحسان)، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١١٣-١١٤)، والحاكم (١/ ٢٤٣)، والبغوي في « شرح السنة » (٢/ ٣٩٧- بتحقيقنا) كلهم من طريق إسماعيل بن رجاء الزبيدي قال: سمعت أوس بن ضمعج يحدث عن أبي مسعود فذكره وقال الترمذي : حديث حسن صحيح. وأخرجه الحاكم بزيادة فقال: قد أخرج مسلم حديث إسماعيل بن رجاء هذا =

فدل على أنه أقرؤهم: أى أعلمهم بالقرآن. انتهى(١).

وقد استدل الصحابة أنفسهم به على أنه أحق بالخلافة منهم، منهم عمر، وقد مرّ كلامه فى المبايعة، ومنهم على فقد أخرج ابن عساكر عنه قال: لقد أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يصلى بالناس، وإنى لشاهد وما أنا بغائب وما بى مرض، فرضينا لدنيانا من رضيه النبى ﷺ لديننا، قال العلماء: وكان معروفا بأهلية الإمامة فى زمان النبى ﷺ.

وأخرج أحمد وأبو داود وغيرهما، عن سهل بن سعد قال: كان قتال بين بنى عمرو بن عوف، فبلغ النبى ﷺ، فأتاهم بعد الظهر؛ ليصلح بينهم - قلت: بنو عمرو بن عوف: هم أهل قباء من الأنصار - فقال - عليه الصلاة والسلام - لبلال: « يا بلال إن حضرت الصلاة، ولم آتِ فمر أبا بكر فليصل بالناس »، فلما حضرت صلاة العصر أقام بلال الصلاة، ثم أمر أبا بكر، فصلى(٢). ووجه ما تقرر أن الأمر بتقدمته للصلاة - كما ذكر - فيه الإشارة أو التصريح بأحقيته للخلافة؛ إذ القصد الذاتى من نصب الإمام إقامة شعائر الدين على الوجه المأمور به من أداء الواجبات، وترك المحرمات، وإحياء السنن، وإماتة البدع، وأما الأمور الدنيوية وتدبيرها: كاستيفاء الأموال من وجوهها، وإيصالها لمستحقيها، ودفع الظلم، ونحو ذلك - فليس مقصودًا بالذات، بل ليتفرغ الناس لأمور دينهم؛ إذ لا يتم تفرغهم له إلا إذا انتظمت أمور معايشهم بنحو الأمن على الأنفس والأموال، ووصول كل ذى حق إلى حقه، فلذلك رضى ﷺ لأمر الدين - وهى الإمامة العظمى - أبا بكر الصديق بتقديمه للإمامة فى الصلاة كما ذكر، ومن ثم اجتمعوا على ذلك كما مرّ(٣).

= ولم يذكر فيه أفقههم فقها وهذه لفظة غريبة عزيزة بهذا الإسناد الصحيح.

(١) ينظر: الفتح (٢/ ٣٩٤، ٣٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣٧)، والبخاري (٦٨٤)، ومسلم (٤٢١/ ١٠٢)، ومالك (١/ ١٦٣-١٦٤)، وأبو داود (٩٤٠، ٩٤١)، والنسائي (٢/ ٧٧-٧٩)، وابن ماجة (١٠٣٥)، والشافعي في المسند (١/ ١١٧-١١٨)، وعبد الرزاق (٤٠٧٢)، والدارمي (١/ ٣١٧)، وابن الجارود (٢١١) وابن خزيمة (٨٥٣، ٨٥٤)، وابن حبان (٢٢٦٠، ٢٢٦١)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٤٤٧)، والبيهقي (٢/ ٢٤٦) من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد مطولاً ومختصرًا.

(٣) ينظر: الفتح (٢/ ٣٩٤-٣٩٥).

وأخرج ابن عدى، عن أبى بكر بن عياش قال: قال لى الرشيد: يا أبا بكر كيف اختار الناس أبا بكر الصديق ؟ قلت: يا أمير المؤمنين، سكت الله، وسكت رسوله، وسكت المؤمنون. قال الرشيد: والله ما زدتنى إلا عماء. قال: يا أمير المؤمنين، مرض النبى ﷺ ثمانية أيام، فدخل عليه بلال فقال: يا رسول الله، من يصلى بالناس ؟ قال: « مروا أبا بكر يصلى بالناس »، فصلى أبو بكر بالناس ثمانية أيام، والوحى ينزل على النبى ﷺ، فسكت رسول الله ﷺ لسكوت الله عز وجل، وسكت المؤمنون؛ لسكوت رسول الله ﷺ، فأعجبه، وقال: بارك الله فيك(١).

الحديث الثامن : أخرج ابن حبان، عن سفينة: لما بنى رسول الله ﷺ المسجد وضع فى أسّ البناء حجرًا، وقال لأبى بكر: ضع حجرك إلى جنب حجرى، ثم قال لعمر: ضع حجرك إلى جنب حجر أبى بكر، ثم قال لعثمان: ضع حجرك إلى جنب حجر عمر، ثم قال: هؤلاء الخلفاء بعدى. قال أبو زرعة: إسناده لا بأس به، وقد أخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه، والبيهقى فى الدلائل، وغيرهما(٢).

الحديث التاسع - أخرج الشيخان، عن ابن عمر - رضى الله تعالى عنهما - أن النبى ﷺ قال: « رأيت كأنى أنزع بدلو بَكْرة - بسكون الكاف - على قليب، فجاء أبو بكر، فنزع ذَنوبا ممتلئة ماء أو قريبة من ممتلئة أو ذنوبين نزعًا ضعيفًا، والله يغفر له. ثم جاء عمر، فاستقى، فاستحالت غربًا - أى دلوا عظيمًا - فلم أر عبقريا يفرى فَريَهُ - أى رجلاً قويًّا شديدًا يعمل عمله - حتى روى الناس، وضربوا بعطن »(٣).
والعطن: مناخ الإبل إذا رويت.

قال بعض العلماء: هذا المنام [مثال لما](٤) جرى للخليفتين من ظهور آثارهما الصالحة وانتفاع المسلمين بهما، وكل ذلك مأخوذ من النبى ﷺ لأنه صاحب

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ٢٥).
(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان في المجروحين (١/ ٢٧٠)، وابن أبي عاصم (٢/ ٥٥٠)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (١/ ٢٩٧)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥٥٣)، وابن الجوزي في العلل (٣٣١) عن سفينة، وضعفه العقيلي وابن الجوزي وله لفظ آخر سيأتي تخريجه.
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧، ٣٩، ٨٩، ١٠٤)، والبخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (١٩/ ٢٣٩٣)، والترمذي (٢٢٨٩)، والنسائي في «الكبرى» كما في تحفة الأشراف (٧٠٢٢) من طريق سالم عن أبيه.
(٤) في ط: مثل ما، والمثبت من الفتح.

الأمر، فقام بذلك أكمل قيام، وقرر قواعد الدين، ثم خلفه أبو بكر، فقاتل أهل الردة، وقطع دابرهم. ثم خلفه عمر، فامتنع الإسلام فى زمنه، وكثرت الفتوحات، فشبه أمر المسلمين بقليب فيه الماء الذى فيه حياتهم وصلاحهم، وشبه أميرهم بالمستقى لهم منها، وليس فى قوله - عليه الصلاة والسلام -: « ويغفر الله له » نقص ولا إشارة إلى أنه وقع منه ذنب، وإنما هى كلمة كانت العرب تقولها عند الاعتناء بالأمر(١).

الحديث العاشر - أخرج أبو بكر الشافعى فى الغيلانيات، وابن عساكر عن حفصة: أنها قالت لرسول الله ﷺ: إذا أنت اعتللت قدمتَ أبا بكر، قال: « لست أنا أقدمه، ولكن الله قدمه »(٢).

الحديث الحادى عشر - أخرج أحمد، عن سفينة، وأخرجه - أيضًا - صاحب السنن، وصححه ابن حبان وغيره، قال: سمعت النبى ﷺ يقول: « الخلافة بعدى ثلاثون عامًا ثم تكون ملكا عضوضا »(٣) قال العلماء: لم يكن فى الثلاثين بعده إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن. ووجه الدلالة منه أنه حكم بحقية الخلافة عنه فى أمر الدين هذه المدة دون ما بعدها، وحينئذ فيكون هذا دليلاً واضحًا فى حقية خلافة كل من الخلفاء الأربعة، وقيل لسعيد بن جمهان: أن بنى أمية يزعمون أن الخلافة فيهم، فقال: كذب بنو الزرقاء، بل هم ملوك من شر الملوك.

فإن قلت: ينافى هذا خبر الاثنى عشر خليفة السابق.

قلت: لا ينافيه لأن هذا للكمال، فيكون المراد بهذا: الخلافة الكاملة ثلاثون سنة، وهى منحصرة فى الخلفاء الأربعة والحسن؛ لأن مدته هى المكملة للثلاثين، والمراد فيما تقدم: مطلق الخلافة التى فيها كمال وغيرها؛ لما مرّ أن من جملتهم

---

(١) ينظر الفتح (١٤/ ٤٤٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٨٤٨) وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٨٤): رواه الطبراني في الأوسط وفيه من لم أعرفه.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٠، ٢٢١)، وأبو داود (٤٦٤٦، ٤٦٤٧)، والترمذي (٢٢٢٦)، والنسائي في الفضائل (٥٢)، والطيالسي (١١٠٧)، وابن حبان (٦٦٥٧)، والحاكم (٣/ ١٤٥)، والطبراني في الكبير (٦٤٤٢)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٣٤١) من حديث سفينة وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

نحو يزيد بن معاوية على القول الثانى السابق فليس الخلفاء المذكورون على هذا القول حاوين من الكمال ما حواه الخمسة المذكورة هنا.

الحديث الثانى عشر - أخرج الدارقطنى والخطيب، وابن عساكر عن على - رضى الله تعالى عنه - قال: قال لى رسول الله ﷺ: « سألت الله أن يقدمك ثلاثًا فأبى إلا تقديم أبى بكر »(١).

الحديث الثالث عشر - أخرج ابن سعد، عن الحسن قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، ما أزالُ أرانى أطأ فى غدران الناس. قال: لتكونن من الناس بسبيل. قال: ورأيت فى صدرى كالرقمتين. قال: سنتين(٢).

الحديث الرابع عشر - أخرج البزار - بسند حسن - عن أبى عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أول دينكم بدأ نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكا وجبرية »(٣). وجه الدلالة منه أنه أثبت لخلافة أبى بكر أنها خلافة؛ إذ هى التى وليت مدة النبوة والرحمة، وحينئذ فيلزم حقيتها، ويلزم من حقيّتها حقية خلافة بقية الخلفاء الراشدين.

وأخرج ابن عساكر عن محمد بن الزبير قال: أرسلنى عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصرى أسأله عن أشياء، فجئته، فقلت له: اشفنى فيما اختلف فيه الناس، هل كان رسول الله ﷺ استخلف أبا بكر؟ فقال: أو فى هذا شك؟! إى والله الذى لا إله إلا هو لقد استخلفه، ولهو كان أعلم به، وأتقى له، وأشد له مخافة من أن يثبت عليها لو لم يأمره.

فهذه الأحاديث التى استدل بها على حقية خلافته - رضى الله تعالى عنه -.

الحديث الخامس عشر - روى الديلمى عن على - رضى الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: « أتانى جبريل، فقلت: يا جبريل، من يهاجر معى؟ قال: أبو بكر،

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/ ٢١٣) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢٩١) من طريق علي بن الحسن الكلبي عن يحيى بن الضريس ثنا مالك بن مغول عن ابن أبي جحيفة عن أبيه عن على به وقال ابن الجوزي: هذا لا يصح عن رسول الله ﷺ على ويحيى مجهولان. وينظر: الفوائد المجموعة ص (٣٤٦).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ١٣٢) عن الحسن مرسلاً.

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٩٢)، وعزاه لأبي يعلى والبزار عن أبي عبيدة.

وهو يلى أمر أمتك من بعدك »[١].

الحديث السادس عشر - روى تمام عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « أتانى جبريل فقال: يا محمد، إن الله - تبارك وتعالى - أمرك أن تستشير أبا بكر »[٢].

الحديث السابع عشر - روى الإمام أحمد برجال الصحيح، عن أبى البخترى قال: قال عمر لأبى عبيدة: أمسك يدك حتى أبايعك؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنت أمين هذه الأمة فقال أبو عبيدة: ما كنت لأتقدم بين يدى رجل أمره رسول الله ﷺ أن يؤمنا، فأمنا حتى مات[٣].

الحديث الثامن عشر - روى ابن سعد، عن موهب مولى أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: « قلت لجبريل ليلة أسرى بى: إن قومى لا يصدقوننى، فقال: يصدقك أبو بكر، وهو الصديق »[٤].

الحديث التاسع عشر - روى الديلمى، عن أم هانئ - رضى الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: « إن الله بعثنى إلَيْكم، فقلتم: كذبت، فقال أبو بكر: صدقت، وواسانى بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لى صاحبى ؟ »[٥].

الحديث العشرون - روى الخطيب والديلمي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ، قال: « دعوا لي صاحبي فإني بعثت إلى الناس كافة، فلم يبق أحد إلا قال: كذبت، إلا أبو بكر الصديق، فإنه قال: صدقت، صدقت »[٦].

الحديث الحادى والعشرون - روى أبو نعيم، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: « ما كلمت فى الإسلام أحدًا إلا أبى علىّ، وراجعنى فى الكلام، إلا ابن أبى قحافة »[٧].

الحديث الثانى والعشرون - روى عبد الله ابن الإمام أحمد وابن مردويه

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٥٨٨) وعزاه للديلمي عن علي.
(٢) ذكره الذهبي في الميزان (٦/ ٢٣٦)، وأعله بمحمد بن عبد الرحمن بن غزوان وقال: قال الدارقطني وغيره: كان يضع الحديث.
(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٥).
(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ١٢٧).
(٥) له شاهد بهذا اللفظ من حديث أبي الدرداء أخرجه البخاري (٣٦٦١).
(٦) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ٣٧٨) من حديث أبي سعيد الخدري وسنده ضعيف.
(٧) أخرجه أبو نعيم في أخبار أصفهان (٢/ ٣٢٥) عن ابن عباس وينظر: كنز العمال (٣٢٦١٣).

والديلمى، عن ابن عباس[١]، والطبرانى عن أبى أمامة[٢]، والبخارى والترمذى عن أبى سعيد الخدرى[٣]، والطبرانى فى الكبير عن كعب بن مالك[٤]، وأبو نعيم فى فضائل الصحابة عن ابن مسعود[٥]، وابن عساكر عن جابر[٦]، والإمام أحمد والبخارى عن ابن الزبير[٧]، والبخارى عن ابن عباس[٨]، والشيرازى فى الألقاب عن سعد[٩]، ومسلم عن ابن مسعود[١٠]، والطبرانى فى الكبير عن أبى واقد [١١]- رضى الله تعالى عنهم -: أن رسول الله ﷺ قال: « أبو بكر صاحبى، ومؤنسى فى الغار، فاعرفوا له قدره ». وفى لفظ ؟ « ما من أحد أمنّ عليَّ فى بدء صحبته، وذات يده من أبى بكر: زوجنى ابنته، وخرج معى إلى دار الهجرة » وفى لفظ: « ما لأحد علينا يد إلا وقد كافأناه عليها ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدًا يكافئه الله - تعالى - بها يوم القيامة ».

الحديث الثالث والعشرون - روى الشيخان عن عمرو بن العاص، والترمذى

---

(١) ذكره السيوطي في الجامع الكبير برقم (١٢٧/ ١٩٩) وعزاه لعبد الله بن أحمد وابن مردويه والديلمي بلفظ: « أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار فاعرفوا ذلك له ». وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٠٣-٣٠٤) من طريق مالك بن مغول عن طلحة بن مصرف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به وقال أبو نعيم: غريب من حديث سعيد وطلحة ومالك لم نكتبه إلا من حديث أبي عبيدة. والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٤٥) وقال: رواه عبد الله ورجاله ثقات.

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٤٨) وقال: رواه الطبراني وفيه على بن يزيد الألهاني وهو ضعيف.

(٣) تقدم تخريجه وينظر الحديث الرابع.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ٤١) رقم (٨٩) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٤٨): وفيه على بن يزيد الألهاني وهو ضعيف.

(٥) ذكره الهندي في «الكنز» (٣٢٥٩٩) وعزاه لأبي نعيم في فضائل الصحابة.

(٦) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٦٠٢) وعزاه لابن عساكر عن جابر.

(٧) أخرجه أحمد (٤/ ٤، ٥)، والبخاري (٣٦٥٨) بلفظ: « لو كنت متخذًا من هذه الأمة خليلاً لاتخذته أنزله أبا يعني أبا بكر ».

(٨) أخرجه البخاري (٤٦٧، ٣٦٥٦، ٣٦٥٧، ٦٧٣٨)، وأحمد (١/ ٢٧٠)، وأبو يعلى (٢٥٨٤)، وابن حبان (٦٨٦٠)، والنسائي في فضائل الصحابة رقم (١)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٢٨)، والطبراني (١١٩٣٨، ١١٩٧٤).

(٩) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٦٠١) وعزاه للشيرازي في الألقاب عن سعد.

(١٠) أخرجه مسلم (٣/ ٢٣٨٣).

(١١) ذكره الهيثمي المجمع (٩/ ٤٨) وقال: رواه الطبراني وفيه يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف.

وقال حسن صحيح غريب، وابن ماجه عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: « أحب الناس إليَّ عائشة، ومن الرجال أبوها »[(١)].

الحديث الرابع والعشرون - روى أبو داود وأبو نعيم والحاكم عن أبى هريرة - رضى الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: « أتانى جبريل، فأخذ بيدى، فأرانى باب الجنة الذى تدخل منه أمتى، قال أبو بكر: وددت أنى كنت معك حتى أنظر إليه. قال: أما إنك - يا أبا بكر - أول من يدخل الجنة من أمتى »[(٢)].

الحديث الخامس والعشرون - روى ابن عساكر عن أبى المقداد - رضى الله تعالى عنه -: أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يمشى أمام أبى بكر، فقال: « أتمشى أمام من هو خير منك ؟! إن أبا بكر خير من طلعت عليه الشمس وغربت »[(٣)].

الحديث السادس والعشرون - روى أبو نعيم فى فضائل الصحابة: أن رسول الله ﷺ قال: « أتمشى أمام من هو خير منك ؟! ألم تعلم أن الشمس لم تشرق على أحد، أو تغرب خير من أبى بكر إلا النبيين والمرسلين ؟! »[(٤)].

الحديث السابع والعشرون - روى الديلمى عن عرفجة بن صريح: أن رسول الله ﷺ قال: « أنا سيف الإسلام، وأبو بكر سيف الردة »[(٥)].

الحديث الثامن والعشرون - روى أبو نعيم فى الحلية عن أنس - رضى الله تعالى عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: « اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى يوم القيامة »[(٦)].

الحديث التاسع والعشرون - روى الخطيب فى المتفق والمفترق بسنده عن عائشة - رضى الله عنها -: أن رسول الله ﷺ قال: « إن الناس كلهم يحاسبون إلا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤)، والترمذي (٣٨٨٦)، والنسائي في فضائل الصحابة (٥)، وأحمد (٤/ ٢٠٣)، وابن حبان (٤٥٤٠)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٣) من حديث عمرو بن العاص. وأخرجه الترمذي (٣٨٩٠)، وابن ماجة (١٠١) من حديث أنس.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٥٢)، وذكره السيوطي في الجامع الكبير وعزاه إلى أبي داود والحاكم وأبي نعيم في معرفة الصحابة.

(٣) ذكره الهندي في «كنز العمال» (٣٢٦٢٠) وعزاه إلى ابن عساكر.

(٤) ذكره الهندي في «كنز العمال» (٣٢٦٢١) وعزاه لأبي نعيم في فضائل الصحابة.

(٥) ذكره الهندي في «كنز العمال» (٣٢٦٣٤) وعزاه للديلمي.

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٣) وينظر: الكنز (٣٤٦٢٥).

أبا بكر »[١].

الحديث الثلاثون - روى الديلمى عن جابر - رضى الله تعالى عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: « تأتى الملائكة بأبى بكر مع النبيين والصديقين، تزفه إلى الجنة زفا »[٢].

الحديث الحادى والثلاثون - روى الإمام أحمد وابن ماجه والنسائى عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « ما نفعنى مال قط إلا مال أبى بكر »[٣].

الحديث الثانى والثلاثون - روى عبدان المروزى وابن قانع، عن بهزاد قال: قال رسول الله ﷺ: « يأيها الناس، احفظونى فى أبى بكر؛ فإنه لم يسؤنى منذ صحبنى »[٤].

الحديث الثالث والثلاثون - روى ابن مردويه وأبو نعيم والخطيب وابن عساكر: أن رسول الله ﷺ قال للعباس: « يا عم رسول الله، إن الله جعل أبا بكر خليفتى على دين الله ووحيه؛ فاسمعوا له تفلحوا، وأطيعوا ترشدوا »[٥].

الحديث الرابع والثلاثون - روى ابن مردويه عن أنس والحاكم عن جابر - رضى الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « يا أبا بكر، إن الله أعطاك الرضوان الأكبر. قال أبو بكر: وما رضوانه الأكْبَرُ ؟ قال: إن الله سيتجلى للخلق عامة، ويتجلى لَكَ خاصةً »[٦].

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٦٣٥، ٣٢٦٣٦) وعزاه للخطيب في «المتفق والمفترق» وأبي نعيم في فضائل الصحابة.

(٢) ذكره الهندي في «كنز العمال» (٣٢٦٢٧)، وعزاه للديلمي عن جابر.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٣) وفي فضائل الصحابة (٢٥)، والنسائي في فضائل الصحابة (٩) وابن ماجة (٩٤) وابن أبي عاصم (١٢٢٩) وابن حبان (٦٨٥٨).

(٤) أخرجه ابن قانع في «معجم الصحابة» (١١٢) وقال الذهبي في «التجريد» (٥٣٥): واهي الإسناد منكر المتن رواه عبدان وابن قانع.

(٥) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٢٩٤) وأبو نعيم في فضائل الصحابة وابن مردويه كما في اللآلئ (١/ ٢٩٤)، وابن الجوزي في الموضوعات (٥٨٤، ٥٨٥) من حديث العباس وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح ومدار الطريقين على عمر بن إبراهيم وهو الكردي، قال الدارقطني: كان كذابًا يضع الحديث. وينظر الفوائد المجموعة (٣٣٢).

(٦) حديث أنس أخرجه الخطيب في تاريخه (٢/ ٣٨٨) ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات =

الحديث الخامس والثلاثون - عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال: قال رسول ﷺ: « عرج بى إلى السماء، فما مررت بسماء إلا وجدت فيها اسمى مكتوبًا محمد رسول الله، وأبو بكر الصديق خلفى ». أخرجه ابن عرفة العبدى والثقفى والأصفهانى(١).

الحديث السادس والثلاثون - أخرج صاحب الصفوة عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: « ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى بكر، من سره أن ينظر إلى مثل عيسى فى الزهد؛ فلينظر إليه »(٢).

الحديث السابع والثلاثون - أخرج الملا فى سيرته، وأبو نعيم فى فضائله، عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال: هبط جبريل إلى النبى ﷺ، فوقف مليّا يناجيه، فمر أبو بكر الصديق - رضى الله تعالى عنه -، فقال جبريل - عليه السلام -: يا محمد هذا ابن أبى قحافة. فقال: يا جبريل، أو تعرفونه فى السماء ؟! فقال: والذى بعثك بالحق لهو فى السماء أشهر منه فى الأرض، وإن اسمه فى السماء الحليم(٣).

= (٥٦٤) وفيه محمد بن عبد، قال الخطيب: هذا حديث لا أصل له عند ذوي المعرفة فيما نعلمه وقد وضعه محمد بن عبد إسنادًا ومتنًا وأقره ابن الجوزي وله طرق أخرى عن أنس عند ابن الجوزي في الموضوعات (٥٦٥،٥٦٦) وهما موضوعان أيضًا أما حديث جابر فأخرجه الحاكم (٣/ ٧٨)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١١-١٢) وابن الجوزي في الموضوعات (٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١) وطرقه أيضًا موضوعة وينظر اللآلئ (١/ ٢٨٦- ٢٨٨)، والمنار المنيف (٢٩٣)، والشوكاني في الفوائد (٣٣٠).

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ١٥٠٧) ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (٥٩٠) من طريق عبد الله بن إبراهيم الغفاري عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة به وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح، قال ابن حبان: الغفاري يضع الحديث، وأما عبد الرحمن فاتفقوا على تضعيفه. وله شواهد ذكره السيوطي في اللآلئ (١/ ٢٩٦-٢٩٨) « لا تسمن ولا تغني من جوع ».

(٢) ذكره صاحب الرياض النضرة (١/ ٨٢)، ولم أجده في صفة الصفوة وانظر فضائله ومناقبه فيها (١/ ١٢٦-١٣٢).

(٣) أخرجه ابن حبان في المجروحين (١/ ١٣٠-١٣١) ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (٥٨٦) وفي إسناده إسماعيل بن محمد بن يوسف قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج بـ«إسماعيل بن محمد» فإنه يقلب الأسانيد ويسرق الأحاديث وقال محمد بن طاهر: هو كذاب وينظر: اللآلئ (١/ ٢٩٥).

الحديث الثامن والثلاثون - أخرج ابن السمان - فى الموافقة - عن ابن عباس قال: جاء أبو بكر وعليّ - رضى الله تعالى عنهما - يزوران قبر النبى ﷺ بعد وفاته بستة أيام، فقال على لأبى بكر: تقدم يا خليفة رسول الله، فقال أبو بكر ما كنت لأتقدم رجلا سمعت رسول الله ﷺ يقول فيه: عليّ منى بمنزلتى من ربى، فقال على: ما كنت لأتقدم رجلا سمعت النبى ﷺ يقول فيه: « ما منكم من أحد إلا وقد كذبنى غير أبى بكر، وما منكم من أحد يصبح إلا على بابه ظلمة إلا باب أبى بكر ». فقال أبو بكر: سمعتَ النبى ﷺ يقوله ؟! قال: نعم. فأخذ أبو بكر بيد على، فدخلا جميعًا.

الحديث التاسع والثلاثون - أخرج المهرى فى مشيخته عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: « اليوم الرهان، وغدا السباق، والغاية الجنة، والهالك فى النار حل النار، وأنا الأول، وأبو بكر المصلى، وعمر الثالث، والناس بعدُ على السَّنن، الأول فالأول »[١].

الحديث الأربعون - أخرج الحافظ أبو الحسن على بن عمر الحربى [السكرى][٢] من حديث أبى بن كعب، أنه قال: إن أحدث عهدى بنبيكم ﷺ قبل وفاته بخمس ليال، دخلت عليه وهو يقلب يديه، ويقول: « إنه لم يكن من نبى إلا وقد اتخذ من أمته خليلا، وإن خليلى من أمتى أبو بكر بن أبى قحافة، ألا وإن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا »[٣].

قال فى الرياض النضرة: والأحاديث النافية للخلة أصح وأثبت فإنه قد ورد - وأوردته فيما تقدم - حديث: « لو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا » الحديث. وإن صحت هذه الرواية فى هذا الحديث الذى أوردته الآن المثبت للخلة، فيكون الله - تعالى - قد أذن له - عليه الصلاة والسلام - عند تبريه

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٦٤٥) والخطيب في تاريخه (٧/ ٣١) وفي إسناده أصرم بن حوشب قال ابن حبان في المجروحين (١/ ١٨١): كان يضع الحديث على الثقات. والحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٢٨-٣٢٩).

(٢) في ط: السكوني. والمثبت من الرياض النضرة. وهو أصوب.

(٣) أورده صاحب الرياض النضرة (١/ ١٢٧)، وعزاه للحافظ أبي الحسن على بن عمر الحربي السكري.

من خلة غير الله - تبارك وتعالى -، مع تشوقه لخلة أبى بكر لولا خلة الله - فى اتخاذ أبى بكر خليلا؛ مراعاة لجنوحه إليها؛ وتعظيمًا لشأن أبى بكر، ولا يكون ذلك انصرافا عن خلة الله عز وجل، بل الخلتان ثابتتان [كما تضمنه الحديث][١] إحداهما لتشريف المصطفى ﷺ، والأخرى لتشريف أبى بكر[٢].

الحديث الحادى والأربعون - أخرج الحافظ السلفى عن أنس بن مالك - رضى الله تعالى عنه -: قال رسول الله ﷺ: « أبو بكر أخى فى الدنيا والآخرة، رحم الله أبا بكر، وجزاه عن رسول الله خيرًا »[٣].

الحديث الثانى والأربعون - أخرج الحافظ ابن عبيد وصاحب الصفوة عن ابن عمر - رضى الله تعالى عنهما - قال: كنت عند النبى ﷺ، وعنده أبو بكر عليه عباءة قد خلها فى صدره بخلال،[فنزل جبريل] [٤] فقال جبريل: يا محمد، ما لى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلها فى صدره بخلال ؟! قال: يا جبريل، أنفق ماله عليّ قبل الفتح. قال: فإن الله يقرأ عليك السلام، ويقول لك: قل له: أراضٍ عنى أنت فى فقرك هذا أم ساخط ؟ فقال أبو بكر: أسخط على ربى ؟! أنا عن ربى راض، أنا عن ربى راض، أنا عن ربى راض »[٥].

الحديث الثالث والأربعون - أخرج عبد الرزاق، والبغوى فى المصابيح عن أنس - رضى الله تعالى عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر »[٦]- رضى الله تعالى عنه - وفى رواية عن أبى أمامة « أرحم هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ». خرجه فى الفضائل[٧].

---

(١) المثبت من الرياض النضرة.
(٢) ينظر الرياض النضرة (١/ ١٢٧).
(٣) أورده صاحب الرياض النضرة (١/ ١٣٢) وعزاه للحافظ السلفي.
(٤) المثبت من الرياض النضرة. وخَلَّها: جمع بين طرفيها.
(٥) ذكره الهندي في الكنز (٣٥٦٥٨) وعزاه إلى أبي نعيم في فضائل الصحابة وانظر صفوة الصفوة (١/ ١٣٠)، والرياض النضرة (١/ ١٣٢).
(٦) أخرجه الترمذي (٣٧٩٣)، وابن ماجة (١٥٤)، وأحمد (٣/ ٢٨١)، وابن حبان (٢٢١٨- موارد)، والحاكم (٣/ ٤٢٢)، والبيهقي (٦/ ٢١٠) من حديث أنس بن مالك. وانظر الرياض النضرة (١/ ١٣٥).
(٧) وروي بهذا اللفظ أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري ذكره الهندي في الكنز (٣٣١٢٢) وعزاه لسمويه والعقيلي في الضعفاء الكبير. وانظر الرياض النضرة (١/ ١٣٥، ١٣٦) عن أبي أمامة.

الحديث الرابع والأربعون - أخرج الحافظ الخطيب أبو بكر أحمد بن على بن ثابت البغدادى عن جابر بن عبد الله - رضى الله تعالى عنه - قال: « كنا عند النبى ﷺ، فقال: يطلع عليكم رجل لم يخلق الله بعدى أحدا خيرًا منه ولا أفضل، وله شفاعة مثل شفاعة النبيين، فما برحنا حتى طلع أبو بكر، فقام النبى ﷺ، وقبله، والتزمه »(١).

الحديث الخامس والأربعون - عن أنس - رضى الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « خير أصحابى أبو بكر »(٢).

الحديث السادس والأربعون - أخرج صاحب الفضائل عن جابر - رضى الله عنه - قال: كنا عند باب النبى ﷺ نقول فى المهاجرين والأنصار، نتذاكر الفضائل، فارتفعت أصواتنا، فخرج - عليه الصلاة والسلام - علينا، وقال: فيم أنتم ؟! قلنا: نتذاكر الفضائل، قال: « لا تقدموا على أبى بكر أحدًا، فإنه أفضلكم في الدنيا والآخرة »(٣).

الحديث السابع والأربعون - أخرج أبو نعيم البصرى والغيلانى عن إسماعيل بن أبى خالد قال: بلغنى أن عائشة - رضى الله تعالى عنها - نظرت إلى النبى ﷺ، فقالت: يا سيد العرب، فقال: أنا سيد ولد آدم، وأبوك سيد كهول العرب، وعليّ سيد شباب العرب(٤).

الحديث الثامن والأربعون - أخرج سعيد بن منصور والحاكم أبو عبد الله عن عمرو بن شرحبيل قال: قال رسول الله ﷺ: « رأيت كأنى فى غنم سود فيها غنم بيض، فلم أستبن السود من كثرة البيض، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله هذه العرب ولدتَ فيها، ثم تدخل العجم؛ فلا تستبين العرب من كثرتهم، فقال - عليه الصلاة والسلام -: كذلك عبرها الملك [بسحره] »(٥).

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ١٢٣-١٢٤) من حديث جابر بن عبد الله. وانظر الرياض النضرة (١/ ١٣٦-١٣٧).

(٢) ذكره صاحب الرياض النضرة (١/ ١٣٧).

(٣) أورده صاحب الرياض النضرة (١/ ١٣٧).

(٤) أورده صاحب الرياض النضرة (١/ ١٣٨).

(٥) ما بين المعكوفين من المستدرك والرياض النضرة. والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك =

الحديث التاسع والأربعون - أخرج تمام فى فوائده وأبو سعيد النقاش عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال: سمعت النبى ﷺ يقول: « أتانى جبريل - عليه السلام - فقال: يا محمد، إن الله - تبارك وتعالى - يأمرك أن تستشير بأبى بكر »(١).

الحديث الخمسون - عن عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يسمر(٢) عند أبى بكر الصديق - رضى الله تعالى عنه - الليلة فى الأمر من أمر المسلمين، وإنه سمر عنده ذات ليلة، وأنا معه، فخرج رسول الله ﷺ، وخرجنا معه، فإذا برجل قائم يصلى بالمسجد، فقام رسول الله ﷺ يستمع قراءته فما كدنا نعرفه، فقال - عليه الصلاة والسلام -: « من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد »(٣).

الحديث الحادى والخمسون - عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله كره من السماء أن يخطأ أبو بكر فى الأرض »(٤).

الحديث الثانى والخمسون - أخرج أبو حاتم عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: قال النبى ﷺ: « أنا أول من تنشق عنه الأرض، ثم أبو بكر، ثم عمر، ثم آتى البقيع، فيحشرون معى، ثم أنتظر أهل مكة حتى يحشروا بين الحرمين »(٥).

الحديث الثالث والخمسون - أخرج الملا فى سيرته عن أبى الدرداء قال: قال

= (٤/ ٣٩٥)، وذكره الهندي في كنز العمال (٣٥١٣٦) بنحوه من حديث ابن مسعود وعزاه لأبي نعيم في فضائل الصحابة وابن عساكر وانظر الرياض النضرة (١/ ١٦٠).

(١) أورده صاحب الرياض النضرة (١/ ١٦١).

(٢) في ط: يسهر. والمثبت من الترمذي، والرياض النضرة.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٧، ٢٥، ٢٦)، والترمذي (١٦٩)، والنسائي في فضائل الصحابة (١٥٢) وابن خزيمة (١١٥٦، ١٣٤١) من طريق الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود. وأورده صاحب الرياض النضرة (١/ ١٦١، ١٦٢).

(٤) أخرجه الحارث بن أبي أسامة (٩٣٨- بغية)، وابن الجوزي في الموضوعات (٥٩٢)، وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع وينظر اللآلئ (١/ ٣٠٠)، تنزيه الشريعة (١/ ٣٧٣).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٦٩٢)، وابن الجوزي في «العلل» (١٥٢٧، ١٥٢٨)، من طريق عبد الله ابن نافع الصائغ عن عاصم عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر به وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح ومداره على عبد الله بن نافع، قال يحيى: ليس بشيء، وقال علي: يروي أحاديث منكرة، وقال النسائي: متروك.

رسول الله ﷺ: « أول من يرد على الحوض يوم القيامة أبو بكر الصديق »(١).

الحديث الرابع والخمسون - أخرج أبو الغطريف عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال: « لكل نبى رفيق، ورفيقى أبو بكر » وعن الزبير بلفظ « اللهم إنك جعلت أبا بكر رفيقى فى الغار، فاجعله رفيقى فى الجنة »(٢).

الحديث الخامس والخمسون - أخرج الخطيب البغدادى، والملا بمعناه، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا كان يوم القيامة، نصب لإبراهيم منبر أمام العرش، ونصب لى منبر أمام العرش، ونصب لأبى بكر كرسى فيجلس عليه ثم ينادى مناد: يا لك من صديق بين خليل وحبيب »(٣).

الحديث السادس والخمسون - أخرج أبو الحسن العتيقى، وصاحب الديباج، وصاحب الفضائل عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: قلت لجبريل - حين أسرى بى إلى السماء: يا جبريل، هل على أمتى حساب ؟ قال كل أمتك عليها حساب ما خلا أبا بكر، فإذا كان يوم القيامة، قيل له: يا أبا بكر، ادخل، فيقول: ما أدخل حتى يدخل معى كل من أحبنى فى الدنيا(٤).

الحديث السابع والخمسون - عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت ليلة أسرى بى مكتوبا حول العرش فى فرندة خضراء بقلم من نور: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أبو بكر الصديق(٥). قلت: الفرندة - بفتح الفاء والراء المهملة-: ثوب معروف، معرب(٦).

---

(١) أورده صاحب الرياض النضرة (١/ ١٦٤)، وعزاه للملا.

(٢) أورده الطبري في الرياض النضرة (١/ ١٦٤).

(٣) أخرجه الخطيب في تاريخه (٤/ ٣٨٦-٣٨٧)، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (٥٨٩) من حديث معاذ وقال ابن الجوزي: لا يصح وينظر اللآلئ (١/ ٢٩٦)، والتنزيه (١/ ٣٤٥).

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخه (٢/ ١١٨)، ومن طريقه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢٩٥، ٢٩٦) من حديث أنس وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح وداود بن صغير مجروح قال الخطيب كان ضعيفًا وأما كثير النواء فقال النسائي: ضعيف، وقال ابن عدي: كان غاليًا في التشيع.

(٥) أخرجه الخطيب (١١/ ٢٠٤) وابن الجوزي في الموضوعات (٦٠٩). وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح والمتهم به عمر بن إسماعيل، قال يحيى: ليس بشيء كذاب رجل سوء خبيث، وقال النسائي والدارقطني: متروك الحديث. وينظر: اللآلئ (١/ ٢٩٧-٢٩٨)، والفوائد المجموعة (٣٣٩)، والرياض النضرة (١/ ١٦٧).

(٦) ينظر: ترتيب القاموس (فرند)، ووقع في ط: فريدة. والمثبت من الرياض، والقاموس.

الحديث الثامن والخمسون - أخرج أبو حاتم عن جابر بن عبد الله: أن النبى ﷺ حين رجع إلى المدينة من عمرة الجعرانة، بعث أبا بكر أميرا على الحج، فحج بالناس. وعن أبى هريرة قال: بعثنى أبو بكر فى تلك الحجة فى مؤذنين بعثهم يوم النحر، يؤذنون بمنى ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان[١].

الحديث التاسع والخمسون - عن عبد الله بن عمر الليثى أن النبى ﷺ أمر أبا بكر أن يصلى بالناس الصبح، وأن أبا بكر كبر، فوجد النبى ﷺ بعض الخفة؛ فقام، ففرج الصفوف. قال: فكان أبو بكر لا يلتفت، فلما سمع الحس من ورائه عرف أنه لا يتقدم إلى ذلك المقام إلا رسول الله ﷺ، فخنس وراءه فى الصف، فرده - عليه الصلاة والسلام - مكانه. وفى رواية ابن إسحاق: فدفع فى ظهره، وقال: صلِّ بالناس. وجلس رسول الله ﷺ إلى جنب أبى بكر، فصلى قاعدًا عن يمين أبى بكر[٢]. وقوله: «خنس»: أى انقبض، وتأخر.

الحديث الستون - أخرج الإمام أحمد ومسلم فى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: من أصبح منكم اليوم صائمًا؟ قال أبو بكر: أنا. قال: فمن تبع منكم جنازة؟ قال أبو بكر: أنا. قال: فمن أطعم اليوم مسكينا؟ قال أبو بكر أنا. قال: فمن عاد منكم اليوم مريضا؟ قال أبو بكر: أنا. فقال - عليه الصلاة والسلام -: ما اجتمعت فى امرئ إلا دخل الجنة[٣].

وفى رواية أن رسول الله ﷺ صلى الصبح، فلما قضى صلاته، قال: أيكم اليوم أصبح صائمًا؟ فقال عمر: أما أنا يا رسول الله، بت لا أحدث نفسى بالصوم؛ فأصبحت مفطرًا. فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله بت [الليلة][٤]أحدث نفسى بالصوم؛ فأصبحت صائما. قال: فأيكم اليوم عاد مريضا؟ فقال عمر: يا رسول الله، إنا صلينا الساعة، ولم نبرح، فكيف نعود [المريض] [٥] ؟! فقال أبو بكر:

(١) تقدم تخريجه في حوادث السنة التاسعة.
(٢) تقدم تخريجه في أكثر من موضع.
(٣) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ١٣٥) رقم (١٠٧)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥١٥) ومسلم (٨٧/ ١٠٢٨)، والنسائي في فضائل الصحابة رقم (٦)، وابن خزيمة (٢١٣١) من طريق أبي حازم الأشجعي عن أبي هريرة.
(٤) المثبت من الرياض.
(٥) في ط: المراض. والمثبت من الرياض.

[أنا] [١]يا رسول الله، أخبرونى أن أخى عبد الرحمن بن عوف وجع، فجعلت طريقى عليه، فسألت عنه، ثم أتيت المسجد. فقال رسول الله ﷺ: فأيكم اليوم تصدق بصدقة ؟ فقال عمر مثل ما قال أولا، فقال أبو بكر: [أنا] [٢]يا رسول الله لما جئت من عند عبد الرحمن بن عوف دخلت المسجد، وإذا بسائل يسأل وابن لعبد الرحمن بن أبى بكر معه كسرة خبز، فأخذتها منه، فناولتها السائل. فقال - عليه الصلاة والسلام - لأبى بكر: أبشر بالجنة، أبشر بالجنة. مرتين[٣].

الحديث الحادى والستون - أخرج ابن السمان فى الموافقة عن صلة بن زفر قال: كان أبو بكر إذا ذكر عند علي قال: السبّاق. والذى نفسى بيده ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه [أبوبكر][٤].

الحديث الثانى والستون - أخرج الشيخان والإمام أحمد والترمذى وأبو حاتم عن رسول الله ﷺ أنه قال: « من أنفق زوجين فى سبيل الله نودى إلى الجنة يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب يسمى الريان. فقال أبو بكر: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، هل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ فقال - عليه الصلاة والسلام -: نعم، وأرجو أن تكون منهم[٥]. قلت: فسر بعض العلماء قوله - عليه الصلاة والسلام: « زوجين »، فقال: قريبان أو عبدان. وقال الحسن البصرى: شيئان متغايران، درهم ودينار، درهم وثوب، وخف ولجام. وقال العلامة الباجى: يحتمل أن يريد بذلك العمل من صلاتين، أو صيام يومين. والأصل فى الزوج: الصنف، والنوع من

---

(١) المثبت من الرياض.
(٢) المثبت من الرياض.
(٣) ينظر: الرياض النضرة (١/ ١٧٤، ١٧٥).
(٤) المثبت من الرياض النضرة (١/ ١٧٥)
والحديث ذكره الهندي في كنز العمال (٣٥٦٧٥) وعزاه للطبراني في الأوسط.
(٥) أخرجه مالك (٢/ ٢٤-٢٥)، والبخاري (١٨٩٧، ٣٦٦٦)، ومسلم (١٠٢٧)، والترمذي (٣٦٧٤)، والنسائي (٤/ ١٦٨-١٦٩)، (٥/ ٩)، وابن حبان (٣٠٨)، والبيهقي (٩/ ١٧١)، من حديث أبي هريرة.

كل شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه: ٥٣] أى أصنافا. وكل شيئين مثلين كانا أو غير مثلين فهما زوجان، وكل واحد منهما زوج، والمراد: وأنفق نوعين من ماله فى سبيل الله(١).

الحديث الثالث والستون - أخرج الإمام أحمد عن أنس: أن النبى ﷺ قال: « إن طير الجنة كأمثال البخت، ترعى من شجر الجنة ». قال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة، فقال - عليه الصلاة والسلام -: أكلها أنعم منها - قالها ثلاث مرات - وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها(٢).

الحديث الرابع والستون - عن عمر - رضى الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « إن فى الجنة حورًا خلقهن الله من الورد، يقال لهن: « الورديات »، لا يتزوج بهن إلا نبى أو صديق أو شهيد، وإن لأبى بكر منهن أربعمائة »(٣).

الحديث الخامس والستون - عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: « يدخل رجل الجنة فلا يبقى أهل دار، ولا أهل غرفة إلا قالوا مرحبًا، إلينا، إلينا. قال أبو بكر: يا رسول الله، ما توى على هذا الرجل فى ذلك اليوم. قال: أجل، وأنت هو يا أبا بكر(٤). خرجه أبو حاتم هكذا بالتاء معدّى بـ« على ». والتوى - بالقصر -: الهلاك(٥).

الحديث السادس والستون - عن عبد خير عن على - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « الخير ثلاثمائة وستون خصلة، إذا أراد الله بعبد خيرًا جعل فيه واحدة منهن، فأُدْخل بها الجنة ». قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله هل فيَّ شيء منهن ؟ قال: نعم، جمع من كل »(٦). خرجه فى الفضائل، وأخرجه ابن البهلول من حديث سليمان بن يسار، وقال: حديث حسن.

---

(١) ينظر: الفتح (٧/ ٣٧٩-٣٨٠).
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢١) من طريق جعفر بن سليمان قال: ثنا ثابت عن أنس، به.
(٣) أورده صاحب الرياض النضرة (١/ ١٨٤).
(٤) أخرجه ابن حبان برقم (٦٨٢٨- الإحسان) وأورده الطبري في الرياض النضرة (١/ ١٨٤)، وعزاه لأبي حاتم بن حبان.
(٥) ينظر: الصحاح للجوهري (توى).
(٦) أورده الطبري في الرياض النضرة (١/ ١٨٥).

الحديث السابع والستون - أخرج الواحدى فى أسباب النزول عن ابن مسعود - رضى الله تعالى عنه -: أن النبى ﷺ قال لأبى بكر يوم بدر، وقد أراد أن يتقدم فى أول الجند، فمنعه، وقال: « أما تعلم أنك عندى بمنزلة سمعى وبصرى »(١).

الحديث الثامن والستون - أخرج الملا فى سيرته عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا أقبل أبو بكر صافحه النبى ﷺ، وعانقه، وقبل فاه، فقال على - رضى الله عنه -: أتقبل فا أبى بكر ؟! فقال ﷺ: يا أبا الحسن، منزلة أبى بكر عندى كمنزلتى من ربى(٢).

الحديث التاسع والستون - أخرج الخلعى والملا وصاحب فضائله عن على - رضى الله تعالى عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبى بكر: يا أبا بكر، إن الله قد أعطانى ثواب من آمن به منذ خلق الله آدم إلى أن بعثنى، وإن الله أعطاك ثواب من آمن منذ بعثنى إلى أن تقوم الساعة(٣). قلت: تأمل ما يدل عليه هذا الحديث العظيم من المحبة والتكريم والفضل العميم.

الحديث السبعون. أخرج الحافظ السلفى فى مشيخته عن أنس - رضى الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « حب أبى بكر واجب على أمتى »(٤).

الحديث الحادى والسبعون - عن عبد الله بن أبى أوفى قال: « خرج رسول الله ﷺ، فقال: يا عمر، إنى أشتاق إلى إخوانى، فقال عمر يا رسول الله، أفلسنا إخوانك ؟! قال: لا، أنتم أصحابى، ولكن إخوانى قوم آمنوا بى، ولم يرونى، قال: فدخل أبو بكر على بقية ذلك، فقال له عمر: يا أبا بكر إن رسول الله ﷺ قال: إنى أشتاق إلى إخوانى، فقلت له: ألسنا إخوانك ؟! قال: لا، أنتم أصحابى، ولكن إخوانى قوم آمنوا بى، ولم يرونى، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر ألا تحب قوما

---

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (٨٠١).

(٢) وذكره الطبري في الرياض (١/ ١٨٥).

(٣) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٢٥٦) وابن الجوزي في العلل رقم (٢٩٣) من طريق الحارث عن على وقال ابن الجوزي: هذا لا يصح وذكره الهندي في الكنز (٣٢٦٤٢) وزاد نسبته للديلمي والطبري في الرياض النضرة (١/ ١٨٩).

(٤) أورده الطبري في الرياض النضرة (١/ ٢٠٦)، وله شاهد من حديث سهل بن سعد أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٥/ ٤٢٥)، وابن الجوزي في «العلل» (٢٩٢) وقال ابن الجوزي: تفرد به عمر بن إبراهيم الكردي وعمر ذاهب الحديث وقال الدارقطني: كان كذابًا يضع الحديث.

بلغهم أنك تحبّنى، فأحبّوك بحبّك إيّاى ؟ فأحببهم أحبهم الله ». أخرجه ابن فيروز(١).

الحديث الثانى والسبعون - خرج ابن السمان عن قيس بن أبى حازم(٢) قال: التقى أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب، فتبسم أبو بكر فى وجه على - رضى الله تعالى عنهما -، فقال له على: مالك تتبسم(٣)؟! فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يجوز أحد الصراط إلا من كتب له عليّ بن أبى طالب الجواز، فضحك عليّ، وقال: ألا أبشرك يا أبا بكر! قال رسول الله ﷺ: لا يكتب عليٌّ الجواز(٤) إلا لمن أحبَّ أبا بكر »(٥).

الحديث الثالث والسبعون - عن أنس أن يهوديا أتى أبا بكر، فقال: والذى بعث موسى كليما إنى لأحبك، فلم يرفع أبو بكر إليه رأسه؛ تهاونا باليهودى. قال فهبط جبريل على النبى ﷺ، فقال: يا محمد، العليّ الأعلى يقرئك السلام، ويقول لك: قل لليهودى - الذى قال لأبى بكر: إنى أحبك: إن الله - عز وجل - قد حاد عنه فى النار خلتين: لا توضع الأنكال فى قدميه، ولا الغل فى عنقه؛ بحبه لأبى بكر. قال فبعث النبى ﷺ فأحضره، وأخبره الخبر، فرفع رأسه إلى السماء، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك [محمد](٦)رسول الله حقًّا، والذى بعثك بالنبوة لا ازددت لأبى بكر إلا حبًّا، فقال رسول الله ﷺ: هنيئًا هنيئا »(٧).

الحديث الرابع والسبعون - أخرج ابن بشران وصاحب الفضائل عن على - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: ينادى مناد أين السابقون الأولون ؟ فيقال:

---

(١) أورده الطبري في الرياض النضرة (١/ ٢٠٦)، وأخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٠/ ٢٤٧) من حديث عبد الله بن أبي أوفى.
(٢) في ط: حاتم. والتصحيح من الرياض النضرة.
(٣) في الرياض: تبسمت.
(٤) في الرياض: لا يكتب الجواز.
(٥) أورده الطبري في الرياض (١/ ٢٠٧).
(٦) المثبت من الرياض.
(٧) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٧٥١) ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (٥٧٨)، وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع والمتهم به العدوي فإنه كان يضع الحديث. وينظر اللآلئ (١/ ٢٩٢)، والتنزيه (١/ ٣٤٢-٣٤٣)، والفوائد (٣٣١-٣٣٢). وانظر: الرياض النضرة (١/ ٢٠٧).

من ؟ فيقول: أين أبو بكر الصديق ؟ فيتجلى الله لأبى بكر الصديق خاصة وللناس عامة(١).

الحديث الخامس والسبعون - أخرج أبو داود عن ابن عمر: كنا نقول ورسول الله ﷺ حيّ: أفضل أمته بعده أبو بكر ثم عمر، فيبلغ ذلك النبى ﷺ، فلا ينكره(٢). وفى البخارى عن محمد ابن الحنفية: قلت لأبى - يعنى عليًا رضى الله عنه - أى الناس خير بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال: أبو بكر. قلت: ثم مَنْ ؟ قال: عمر - وخشيت أن يقول عثمان - قلت: ثم أنت. قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين(٣). قال ذلك فى تمكنه، وقوة ولايته على منبر الكوفة، وأبو بكر وعمر قد ماتا، فأى تقية تكون إذ ذاك، وأى طعم يبقى لها، وأى نتيجة فيها، وأى عقل لمدعيها ؟! .

الحديث السادس والسبعون - أخرج الطبرانى عن أسعد بن زرارة أن رسول الله ﷺ قال: إن روح القدس جبريل أخبرنى: أن خير أمتك بعدك أبو بكر(٤).

الحديث السابع والسبعون - أخرج ابن مهدى: والطبرانى عن سلمة بن الأكوع - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « أبو بكر خير الناس إلا أن يكون نبى »(٥).

الحديث الثامن والسبعون - أخرج الديلمى عن عائشة - رضى الله تعالى عنها-: أن رسول الله ﷺ قال: « أبو بكر منى، وأنا منه، وأبو بكر أخى فى الدنيا والآخرة »، رضى الله تعالى عنه(٦).

الحديث التاسع والسبعون - أخرج الديلمى عن سمرة: أن رسول الله ﷺ قال: « أُمرت أن أولى الرؤيا أبا بكر »(٧).

---

(١) ذكره السيوطي في اللآلئ (١/ ٢٨٨) وعزاه لابن بشران في الأمالي.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٢٨) من طريق الزهري عن سالم عن أبيه.
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٧١).
(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٤٤٨) من طريق هارون بن موسى الفروي ثنا أبو غزية محمد بن موسى الأنصاري ثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة عن أبيه عن جده. وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٤٧): وفيه أبو غزية محمد بن موسى وهو ضعيف.
(٥) ذكره الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٤٧) وقال: رواه الطبراني وفيه إسماعيل بن زياد وهو ضعيف.
(٦) ينظر: كنز العمال (٣٢٥٥٠)، والرياض النضرة (١/ ١٣١).
(٧) ينظر: المصدر السابق (٣٢٥٥٢).

الحديث الثمانون - أخرج الترمذى عن عائشة - رضى الله تعالى عنها -: أن النبى ﷺ قال: لأبى بكر: « أنت عتيق من النار »[(١)].

الحديث الحادى والثمانون - عن ابن عمر: أن النبى ﷺ قال لأبى بكر: « أنت صاحبى على الحوض، وصاحبى فى الغار »[(٢)].

الحديث الثانى والثمانون - أخرج أبو يعلى فى مسنده، وأبو سعيد، والحاكم وصححه، عن عائشة - رضى الله تعالى عنها - قالت: إنى لفى بيتى ذات يوم، ورسول الله ﷺ، وأصحابه فى الفِناء والستر بينى وبينهم، إذ أقبل أبو بكر، فقال - عليه الصلاة والسلام -: « من سره أن ينظر إلى عتيق من النار، فلينظر إلى أبى بكر »[(٣)] وأن اسمه الذى سماه به أهله عبد الله، فغلب عليه اسم عتيق.

الحديث الثالث والثمانون - أخرج الحاكم بسند جيد: أن عائشة قالت: جاء المشركون إلى أبى بكر، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ؟! قال أبو بكر: أو قال ذلك ؟ قالوا: نعم، فقال: لقد صدق. قالوا: فأنت تصدقه يا أبا بكر ؟! فقال: إنى لأصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة[(٤)].

الحديث الرابع والثمانون - أخرج الطبرانى عن معاذ: أن رسول الله ﷺ قال: رأيت أنى وضعت فى كفة، فعدلتها، ثم وضع أبو بكر فى كفة وأمتى فى كفة، فعدلها[(٥)]. وللحديث بقية اقتصرت منها على محل الشاهد.

الحديث الخامس والثمانون - أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه والضياء عن سعيد بن زيد - رضى الله عنه - قال: « عشرة فى الجنة: أبو بكر فى الجنة... » الحديث[(٦)]. وله تتمة، ستأتى.

---

(١) تقدم تخريجه في صفته -رضي الله عنه-.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٧٠) من حديث ابن عمر وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
(٣) تقدم تخريجه في صفته -رضي الله عنه- .
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢-٦٣)، وذكره الطبري في الرياض النضرة في (ذكر اسمه الصديق).
(٥) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٦٨٩) وعزاه إلى الطبراني وابن عدي وابن عساكر.
(٦) أخرجه أحمد (١/ ١٨٨)، وأبو داود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٥٧)، والنسائي في فضائل الصحابة (٥٣، ١٠٠، ١٠٦) وأبو يعلى (٩٧١)، وابن أبي عاصم (١٤٢٨، ١٤٢٩، ١٤٣٠، =

الحديث السادس والثمانون - أخرج الترمذى عن على - رضى الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: « رحم الله أبا بكر، زوجنى ابنته، وحملنى إلى دار الهجرة، وأعتق بلالا من ماله، وما نفعنى مال ما نفعنى مال أبى بكر »(١).

قال العلامة ابن حجر: وقوله: « وحملنى إلى دار الهجرة » ينافيه حديث البخارى: أنه ﷺ لم يأخذ الراحلة التى هاجر عليها من أبى بكر إلا بالثمن(٢)، إلا أن يجمع بأنه أخذها منه أولا بالثمن، ثم أبرأ أبو بكر ذمته من الثمن. انتهى. قلت: تعليل أئمة الحديث امتناعه - عليه الصلاة والسلام - من الأخذ إلا بالثمن، يقصد أن تكون الهجرة تامة خالصة لله تعالى من سائر وجوهها، لا مشركية لمخلوق فيها، ولا منة - ينافى هذا الجمع، إذ بالإبراء تتحقق الشركة، والله تعالى أعلم.

الحديث السابع والثمانون - أخرج ابن عساكر عن المقداد قال: استب عقيل بن أبى طالب وأبو بكر، وكان أبو بكر نسابا، غير أنه تحرج من قرابة عقيل من النبى ﷺ؛ فأعرض عنه، وشكاه إلى النبى ﷺ، فقام - عليه الصلاة والسلام - على الناس، فقال: « ألا تدعوا لى صاحبى ؟! ما شأنكم وشأنه ؟! فوالله ما منكم رجل إلا على باب قلبه(٣) ظلمة، إلا باب(٤) أبى بكر فإن على بابه النور، ولقد قلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، وأمسكتم الأموال، وجاد لى بماله، وخذلتمونى، وواسانى واتبعنى »(٥).

الحديث الثامن والثمانون - أخرج البخارى عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: « من جرّ ثوبه خُيَلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة »، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن أحد شقى ثوبى يسترخى إلا أن أتعاهد ذلك منه، فقال - عليه الصلاة

= ١٤٣١)، والضياء المقدسي في المختارة (١٠٨٩، ١٠٩٠) من حديث سعيد بن زيد.

(١) أخرجه الترمذي (٣٧١٤) من طريق المختار بن نافع ثنا أبو حيان التيمي عن أبيه عن علي به وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه والمختار بن نافع شيخ بصري كثير الغرائب. وانظر: الرياض النضرة (١/٢٤٣)، وذكر وصفه ﷺ لكل واحد منهم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٠٥) من حديث عائشة.

(٣) في ط: بابه. والمثبت من الرياض النضرة.

(٤) في الرياض النضرة: قلب.

(٥) أورده الطبري في الرياض النضرة (٢/١٨)، ذكر مواساة النبي ﷺ.

والسلام -: « إنك لست تصنع ذلك خيلاء »(١).

الحديث التاسع والثمانون - أخرج ابن أبى حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير: لما نزلت ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٦٦]، قال أبو بكر يا رسول الله لو أمرتنى أن أقتل نفسى لفعلت، فقال ﷺ: « صدقت »(٢).

الحديث التسعون - أخرج ابن أبى حاتم، وأبو نعيم عن سعيد بن جبير قال: قرئت عند النبى ﷺ ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: ٢٧]، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذا لحسن، فقال - عليه الصلاة والسلام -: « أما إن الملك سيقولها لك عند الموت »(٣).

الحديث الحادى والتسعون - أخرج الطبرانى فى الكبير وابن شاهين فى السنة عن ابن عباس موصولا قال: « دخل رسول الله ﷺ غديرا، فقال: ليسبح كل رجل إلى صاحبه، فسبح كل رجل منهم إلى صاحبه حتى بقى رسول الله ﷺ وأبو بكر، فسبح رسول الله ﷺ إلى أبى بكر حتى اعتنقه »(٤).

الحديث الثانى والتسعون - أخرج ابن عساكر من طريق مجمع الأنصارى عن أبيه قال: إن كانت حلقة رسول الله ﷺ لتشبك حتى تصير كالأسوار، وإن مجلس أبى بكر منها لفارغ، لا يطمع فيه أحد من الناس، فإذا جاء أبو بكر جلس ذلك المجلس عن يمينه - عليه الصلاة والسلام -، وأقبل - عليه الصلاة والسلام - بوجهه، وألقى إليه حديثه، وسمع الناس. قلت: تأملها، فيا لها منقبة، حلت من يفاع المجد أعلى مرقبة.

الحديث الثالث والتسعون - أخرج ابن عساكر عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: « حب أبى بكر وشكره واجب على كل أمتى ». وأخرج مثله من حديث سهل

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٥)، وأحمد (٢/ ٦٧، ١٣٦)، وأبو داود (٤٠٨٥)، والنسائي (٨/ ٢٠٨) من طريق موسى بن عقبة عن سالم بن عبد الله عن ابن عمر.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٣٢٤) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٧٢١٣)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٨٤) عن سعيد بن جبير وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٨٨)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٦٠-٢٦١) رقم (١١٦٧٦) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٤٧) وفيه من لم أعرفه.

ابن سعد(١).

الحديث الرابع والتسعون - أخرج ابن عساكر: أنه قيل لأبى بكر فى مجمع: هل شربت الخمر فى الجاهلية؟ فقال أعوذ بالله، فقيل له: ولم؟ قال: كنت أصون عرضى، وأحفظ مروءتى، فإن من شرب الخمر كان مضيعا عرضه ومروءته، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدق أبو بكر، صدق أبو بكر»(٢).

الحديث الخامس والتسعون - أخرج الحاكم فى الكنى، وابن عدى فى الكامل، والخطيب فى تاريخه، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أبو بكر وعمر خير الأولين والآخرين، وخير أهل السموات، وخير أهل الأرضين، إلا النبيين والمرسلين»(٣).

الحديث السادس والتسعون - أخرج الطبرانى عن أبى الدرداء: «اقتدوا باللذين من بعدى: أبى بكر، وعمر؛ فإنهما حبل الله الممدود، من تمسك به فقد تمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها»(٤).

الحديث السابع والتسعون - أخرج الترمذى عن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال: ما من نبى إلا وله وزيران من أهل السماء، ووزيران من أهل الأرض، فأما وزيراى من أهل السماء: فجبريل، وميكائيل؛ وأما وزيراى من أهل الأرض: فأبو بكر، وعمر(٥).

الحديث الثامن والتسعون - أخرج أحمد والشيخان والنسائى عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما راع فى غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منه شاة، فطلبه الراعى، فالتفت إليه الذئب، فقال: استنقذها منى فمن لها يوم السبع، يوم

(١) حديث أنس تقدم وينظر الحديث السبعون أما حديث سهل بن سعد أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٥/ ٤٥٢) وقال الخطيب: تفرد به عمر بن إبراهيم الكردي وهو ذاهب الحديث وذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٥٩٣) وعزاه أيضًا إلى أبي نعيم في فضائل الصحابة والديلمي.

(٢) ذكره الطبري في الرياض النضرة (٢/ ١٤٦)، وعزاه للرازي.

(٣) أخرجه الخطيب (٥/ ٢٥٣)، وابن عدي في الكامل ومن طريقه ابن الجوزي في العلل (٣١١) وفيه جبرون بن واقد قال ابن عدي: هذا حديث منكر وأما جبرون فما يعرف.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه الترمذي (٣٦٨٠) وقال: هذا حسن غريب وكذا عزاه له الطبري في الرياض النضرة (١/ ٣٣٥) في ذكر أنهما وزيراه.

لاراعى لها غيرى ؟ فقال الناس: سبحان الله، ذئب يتكلم!! فقال النبى ﷺ: فإنى أؤمن بذلك، وأبو بكر »(١).

الحديث التاسع والتسعون: أخرج أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه عن أبى سعيد والطبرانى عن جابر بن سمرة وابن عساكر عن ابن عمر: أن النبى ﷺ قال: « إن أهل الدرجات العلا ليراهم من هو أسفل منهم كما ترون الكوكب الدرى فى أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم »(٢).

الحديث المائة - أخرج ابن عساكر عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال: « إن أهل عليين ليشرف واحدهم على الجنة، فيضيء وجهه لأهل الجنة كما يضيء القمر ليلة البدر، وإن أبا بكر وعمر منهم، وأنعما »(٣).

الحديث الحادى والمائة - أخرج الحاكم وصححه، والترمذى عن عبد الله بن حنطب أن رسول الله ﷺ رأى أبا بكر وعمر، فقال: « هذان السمع والبصر »(٤).

الحديث الثانى والمائة - أخرج أبو نعيم - فى الحلية - عن ابن عباس، والخطيب عن جابر، وأبو يعلى أن رسول الله ﷺ قال: « أبو بكر وعمر منى بمنزلة السمع والبصر من الرأس »(٥).

الحديث الثالث والمائة - أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « إن لكل نبى خاصة من أصحابة، وإن خاصتى من أصحابى أبو بكر

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٥-٢٤٦)، والبخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨)، والحميدي (١٠٥٤)، وابن حبان (٦٤٨٥)، من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٧، ٥٠، ٦١، ٧٢، ٩٣، ٩٨)، وعبد بن حميد (٨٨٧)، والحميدي (٧٥٥)، وأبو داود (٣٩٨٧)، والترمذي (٣٦٥٨)، وابن ماجة (٩٦) عن أبي سعيد وذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٦٥٠) وعزاه إلى الطبراني عن جابر بن سمرة وابن عساكر عن ابن عمر.

(٣) ذكره الطبري في الرياض النضرة (١/ ٣٢٨-٣٢٩) وذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٦٥١)، وعزاه إلى ابن عساكر.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٦٧١)، والحاكم (٣/ ٦٩)، وقال الترمذي: وهذا حديث مرسل وعبد الله بن حنطب لم يدرك النبي ﷺ وأخرجه أيضًا الباوردي وأبو نعيم في فضائل الصحابة وابن عساكر كما في الكنز (٣٢٦٥٥).

(٥) حديث ابن عباس: ذكر المناوي في «الفيض» (١/ ١٢٣): أن في سنده الوليد بن الفضل، قال ابن حبان يروي الموضوعات وقال الحاكم وأبو نعيم وأبو سعيد النقاش: روى عن =

وعمر »[١].

الحديث الرابع والمائة - أخرج ابن عساكر عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال: « لكل نبى وزيران، ووزيراى وصاحباى: أبو بكر وعمر »[٢].

الحديث الخامس والمائة - أخرج ابن عساكر عن على والزبير - رضى الله عنهما -: أن النبى ﷺ قال: « خير أمتى بعدى أبو بكر وعمر »[٣].

الحديث السادس والمائة - أخرج الخطيب فى تاريخه أن رسول الله ﷺ قال: « سيد كهول أهل الجنة أبو بكر وعمر، وإن أبا بكر فى الجنة مثل الثريا فى السماء »[٤].

الحديث السابع والمائة - أخرج ابن النجار[٥] عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: « ما قدمت أبا بكر وعمر، ولكن الله قدمهما »[٦].

الحديث الثامن والمائة - أخرج ابن قانع عن الحجاج التيمى أن رسول الله ﷺ قال: « من رأيتموه يذكر أبا بكر وعمر بسوء؛ فإنما يزيل الإسلام »[٧].

الحديث التاسع والمائة - أخرج ابن عساكر عن ابن مسعود: أن النبى ﷺ قال: « القائم بعدى فى الجنة، والذى يقوم بعده فى الجنة، والثالث، والرابع فى الجنة ».

الحديث العاشر والمائة - أخرج ابن عساكر عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: « أربعة لا يجتمع حبهم فى قلب منافق، ولا يحبهم إلا مؤمن: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى »[٨].

= الكوفيين الموضوعات. حديث جابر: أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ٤٥٩-٤٦٠) من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر وسنده حسن.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٠٠٨) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٥٥) وفيه عبد الرحيم بن حماد الثقفي وهو ضعيف. وذكره الطبري في الرياض النضرة (١/ ٣٣٦) وعزاه للملا في سيرته.

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٦٦٠) وعزاه إلى ابن عساكر عن أبي ذرّ.

(٣) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٦٦٣) وعزاه إلى ابن عساكر عن علي والزبير معًا.

(٤) أخرجه الخطيب (٥/ ٣٠٧، ٧/ ١١٩) وينظر كنز العمال (٣٢٦٦٤).

(٥) في ط: البخاري. وهو تحريف، والمثبت هو الصحيح.

(٦) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٧٠٦) وعزاه إلى ابن النجار عن أنس.

(٧) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة (٢٢١).

(٨) ذكره الهندي في الكنز (٣٣١٠٨) وعزاه إلى ابن عساكر عن أنس.

الحديث الحادى عشر والمائة - أخرج البخارى - فى تاريخه - والنسائى والحاكم عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: « نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر » وعدد أشخاصًا ستة(١).

الحديث الثانى عشر ومائة - أخرج الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار - وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر - فلا يرفع إليه أحد منهم بصره إلا أبو بكر وعمر؛ فإنهما كانا ينظران إليه، وينظر إليهما، ويتبسمان إليه، ويتبسم إليهما(٢).

الحديث الثالث عشر ومائة - أخرج الترمذى والحاكم عن ابن عمر والطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم، فدخل المسجد، وأبو بكر وعمر: أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله، وهو آخذ بأيديهما، وقال: « هكذا نبعث يوم القيامة »(٣).

الحديث الرابع عشر ومائة - أخرج البزار عن أبى أروى الدوسى قال: كنت عند النبى ﷺ، فأقبل أبو بكر وعمر، فقال: « الحمد لله الذى أيدنى بكما »(٤).

الحديث الخامس عشر ومائة - أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد عن أنس - مرفوعًا: أن رسول الله ﷺ قال: « إنى أرجو لأمتى - فى حبهم لأبى بكر وعمر - ما أرجو لهم فى قول لا إله إلا الله »(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ١٦٧) وفي الأدب المفرد (٣٣٧)، والترمذي (٣٧٩٥)، والنسائي في فضائل الصحابة (١٢٦، ١٣٩)، وأحمد (٢/ ٤١٩)، والحاكم (٣/ ٣٣٣)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٤٢) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٠)، والترمذي (٣٦٦٨)، وعبد بن حميد (١٢٩٨) من طريق الحكم بن عطية عن ثابت عن أنس.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٦٩)، والحاكم (٤/ ٢٨٠) من طريق سعيد بن مسلمة عن إسماعيل بن أمية عن نافع عن ابن عمر وقال الترمذي: وسعيد بن مسلمة ليس عندهم بالقوي وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي بضعف مسلمة وأخرجه الطبراني في الأوسط (٨٢٥٨) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه البزار (٢٤٩٠) من حديث أبي أروى الدوسي وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٥٤-٥٥): رواه البزار والطبراني في الأوسط والكبير وفيه عاصم بن عمر بن حفص وثقه ابن حبان وقال: يخطئ ويخالف وضعفه الجمهور وبقية رجاله ثقات.

(٥) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٧٠٢) وعزاه للديلمي عن أنس.

الحديث السادس عشر ومائة - أخرجه أبو يعلى عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: « أتانى جبريل - آنفا - فقلت - يا جبريل، حدثنى بفضائل عمر، فقال: لو حدثتك بفضائل عمر مدة ما لبث نوح فى قومه - ما نفدت فضائله، وإنه لحسنة من حسنات أبى بكر »(١).

الحديث السابع عشر ومائة - أخرج أحمد عن عبد الرحمن بن غنم: أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر: « لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتكما »(٢).

الحديث الثامن عشر ومائة - أخرج الطبرانى عن سهل قال: لما قدم - عليه الصلاة والسلام - من حجة الوداع صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: « أيها الناس، إن أبا بكر لم يسؤنى قط، فاعرفوا له ذلك، أيها الناس، إنى راض عن أبى بكر »(٣).

الحديث التاسع عشر ومائة - أخرج ابن سعد عن بسطام بن مسلم قال: قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر: « لا يتأمّر عليكما أحد بعدى »(٤).

الحديث العشرون ومائة - أخرج ابن عساكر مرفوعًا: « حب أبى بكر وعمر إيمان، وبغضهما كفر »(٥).

الحديث الحادي والعشرون ومائة - أخرج ابن عساكر - أيضًا -: أن رسول الله ﷺ قال: « حب أبى بكر وعمر من السنة »(٦).

الحديث الثانى والعشرون ومائة - أخرج محمد بن يحيى فى الزهريات عن أبى ذر قال: هجّرتُ يوما من الأيام، فإذا النبى ﷺ قد خرج من بيته، فسألت عنه

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٣/ ١٧٩) رقم (١٦٠٣) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٧١) رواه أبو يعلى والطبراني في الكبير والأوسط وفيه الوليد بن الفضل العنزي وهو ضعيف جدا.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ١٠٤-١٠٥) رقم (٥٦٤٠) وقال ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/ ٦٦٧): حديث منكر موضوع. وينظر الإصابة (٣/ ٢٠٥-٢٠٧) فقد أطال الكلام على هذا الحديث.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ١٥٨) وانظر الرياض النضرة (١/ ٣٤٩) عن ابن عمر، نحوه.

(٥) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٧٠٣، ٣٢٧٠٤) وعزاه إلى ابن عساكر والديلمي عن جابر.

(٦) ينظر: الحديث السابق.

الخادم، فأخبرنى أنه ببيت عائشة، فأتيته وهو جالس ليس عنده أحد من الناس، وكان حينئذ أرى أنه فى وحى، فسلمت عليه، فرد عليّ السلام، ثم قال: ما جاء بك ؟ قلت: الله ورسوله، فأمرنى بالجلوس، فجلست إلى جنبه لا أسأله عن شيء إلا ذكره لى، فمكث غير كثير، فجاء أبو بكر يمشى مسرعًا، فسلم، فرد عليه السلام، ثم قال: ما جاء بك ؟ قال: الله ورسوله، فأشار بيده إلى ربوة مقابل النبى ﷺ أن اجلس، فجلس، ثم جاء عمر، ثم جاء عثمان، فجلسا إلى جانب أبى بكر، ثم قبض عليه الصلاة والسلام سبع أو تسع حصيات، فسبحن حتى سمع لهن حنين كحنين النحل فى كف رسول الله ﷺ، ثم ناولهن أبا بكر، وجاوزنى، فسبحن فى كف أبى بكر، ثم أخذهن منه، فوضعهن فى الأرض، فخرسن، ثم ناولهن عمر فسبحن فى كفه، ثم أخذهن فوضعهن فى الأرض فخرسن، ثم ناولهن عثمان فسبحن فى كفه، ثم أخذهن فوضعهن فى الأرض فخرسن(١).

قال العلامة ابن حجر: تأمل سر إعطاء النبى ﷺ إياهن لأبى بكر من يده قبل وضعهن فى الأرض بخلافه فى عمر وعثمان، فعلم أن ذلك لمزيد قرب أبى بكر حتى صيّر يده ليست أجنبية من يد النبى ﷺ، فلم يفصل بينهما بزوال حبات تلك الحصيات، بخلافه فى عمر وعثمان.

الحديث الثالث والعشرون والمائة - أخرج الملا فى سيرته أنه ﷺ قال: « إن الله افترض عليكم حب أبى بكر وعمر وعثمان وعلى كما افترض الصلاة والزكاة والصوم والحج، فمن أنكر فضلهم؛ فلا تقبل منه الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج ».

الحديث الرابع والعشرون ومائة - أخرج الشيخان وأحمد وغيرهم عن أبى موسى الأشعرى: أنه خرج إلى المسجد، فسأل عن النبى ﷺ، فقالوا: وجه هاهنا، فخرجت فى أثره حتى دخل بئر أريس، فجلست عند الباب - وبابها من جريد - حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته، فتوضأ، فقمت إليه فإذا هو جالس على بئر أريس، وتوسط قفها، فجلست عند الباب، فقلت: لأكونن بوابًا للنبى ﷺ اليوم،

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٦/ ٦٤-٦٥) نحوه ونقله ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ١٤٦) وعزاه للبيهقي.

فجاء أبو بكر فدق الباب، فقلت: من هذا ؟ قال: أبو بكر، فقلت: على رسلك، ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ، فقلت: هذا أبو بكر يستأذن، فقال: ائذن له وبشره بالجنة، وهكذا حين جاء عمر، وهكذا حين جاء عثمان، وزاد بعد « بشره الجنة » قوله: « على بلوى تصيبه »[(١)].

الحديث الخامس والعشرون ومائة - أخرج الحافظ عمر بن محمد بن خضر الملا فى سيرته أن الشافعى - رضى الله تعالى عنه - روى بسنده: أنه ﷺ قال: « كنت أنا وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى أنوارًا على يمين العرش قبل أن يخلق الله آدم بألف عام، فلما خلق أسكنا ظهره، ولم نزل ننتقل فى الأصلاب الطاهرة حتى نقلنى الله إلى صلب عبد الله، ونقل أبا بكر إلى صلب أبى قحافة، ونقل عمر إلى صلب الخطاب، ونقل عثمان إلى صلب عفان، ونقل عليًا إلى صلب أبى طالب، ثم اختارهم لى أصحابًا، فجعل أبا بكر صديقًا، وعمر فاروقًا، وعثمان ذا النورين، وعليًا وصيًا، فمن سب أصحابى فقد سبنى، ومن سبنى فقد سب الله، ومن سب الله أكبه فى النار على منخريه »[(٢)].

الحديث السادس والعشرون ومائة - أخرج المحب الطبرى - فى الرياض النضرة: أنه ﷺ قال: « أخبرنى جبريل أن الله تعالى - لما خلق آدم، وأدخل الروح فى جسده أمرنى أن آخذ تفاحة من الجنة فأعصرها فى حلقه، فعصرتها فى فيه، فخلق الله من النقطة الأولى أنت [يا محمد][(٣)] ومن الثانية أبا بكر، ومن الثالثة عمر، ومن الرابعة عثمان، ومن الخامسة عليًا، فقال آدم: يا رب من هؤلاء الذين أكرمتهم ؟ فقال تعالى: هؤلاء خمسة أشياخ من ذريتك، وهم أكرم عندى من جميع خلقى ». قال العلامة ابن حجر: أى أنت أكرم الأنبياء والرسل، وهم أكرم أتباع الرسل، فلما عصى آدم ربه، قال: يا رب، بحرمة أولئك الأشياخ الخمسة الذين

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٤، ٣٦٩٣، ٣٦٩٥، ٦٢١٦، ٦٢٧٢) ومسلم (٢٤٠٣)، والترمذي (٣٧١٠)، وأحمد (٤/٤٠٦-٤٠٧) وفي فضائل الصحابة (٢٠٩)، وابن حبان (٦٩١١، ٦٩١٢) من حديث أبي موسى الأشعري.
(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض (١/٢٤٨).
(٣) المثبت من الرياض.

فضلتهم إلا تبت عليّ، فتاب عليه(١).

الحديث السابع والعشرون ومائة - عن محمد بن كعب القرظى لما اشتكى أبو طالب شكواه التى مات فيها قالت له قريش: أرسل إلى ابن أخيك يرسل إليك من الجنة التى ذكرها ما يكون لك شفاء، فجاء رسوله إلى رسول الله ﷺ، وأبو بكر جالس معه، فقال: إن عمك يقول لك: إنى ضعيف سقيم، فأرسل إليّ من جنتك ما يكون شفاء، فقال أبو بكر: إن الله حرمها على الكافرين، فرجع الرسول فأخبرهم بمقالة أبى بكر، فحملوا عليه بأنفسهم، ثم أرسلوه فقال له النبى ﷺ مثل ما قال أبو بكر: « إن الله حرمها على الكافرين »(٢).

الحديث الثامن والعشرون ومائة - أخرج فى الفضائل - وقال حسن صحيح - عن عائشة رضى الله تعالى عنها - أن النبى ﷺ قال لحسان: لا تعجل، وَأْتِ أبا بكر فإنه أعلم قريش بأنسابها حتى يمحض لك نسبى.

الحديث التاسع والعشرون ومائة - عن ابن عمر: لما كانت الليلة التى ولد فيها أبو بكر الصديق أقبل ربكم على جنة عدن، فقال: وعزتى وجلالى لا أدخلك إلا من أحب هذا المولود(٣). أخرجه الديلمى. قال فى بحر الأنساب، ونقله فى الرياض عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: حدثنى على بن أبى طالب من فيه قال: لما أمر الله - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام خرج وأنا معه وأبو بكر، فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر - رضى الله تعالى عنه - وكان مقدمًا فى كل خير، وكان رجلاً نسابة فتقدم(٤)، وقال: ممن القوم ؟ فقالوا: من ربيعة، فقال: أى ربيعة أنتم، من هامتها أم لهزمتها ؟ فقالوا بل من الهامة العظمى، فقال أبو بكر: وأى هامتها العظمى ؟ قالوا: من ذهل الأكبر، فقال: أفيكم عوف الذى يقال فيه: « لا

---

(١) ينظر: الرياض النضرة (١/ ٢٤٧، ٢٤٨).
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ١٦٦)، عن أبي صالح نحوه، وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي حاتم.
(٣) ذكره الطبري في الرياض النضرة (١/ ١٥٥)، ذكر ما جاء في الترغيب في محبته، رضي الله عنه.
(٤) في الرياض: فسلم.

حر بوادى عوف ؟ » قالوا: لا. قال: أفيكم جساس بن مرة حامى الذمار، ومانع الجار ؟ قالوا: لا. قال: أفيكم بسطام بن قيس أبو اللواء ومنتهى(١) الأحياء ؟ قالوا: لا. قال: أفيكم الحوفزان قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟ قالوا: لا. قال: أفيكم المزدلف صاحب العيافة والندوة (٢) ؟ قالوا: لا. قال: أفمنكم أخوال الملوك من كندة ؟ قالوا: لا. قال: أفمنكم أصهار الملوك من لخم ؟ قالوا: لا، قال أبو بكر: فلستم ذهل الأكبر، أنتم ذهل الأصغر، فقام إليه غلام من بنى شيبان حين بقل وجهه يقال له: « دغفل »، فقال: [من الرجز]

إِنَّ عَلَى سَائِلِنَا أَنْ نَسْأَلَهْ   وَالعِبْءَ لاَ تَعْرِفُهُ أَوْ تَحْمِلُهْ

يا هذا، إنك قد سألتنا فأخبرناك، ولم نكتمك شيئًا من أمرنا، فمن الرجل ؟ فقال أبو بكر: من قريش، فقال الفتى: بخ بخ، أهل الشرف والرياسة، فمن أى القرشيين أنت ؟ قال: من ولد تيم بن مرة. قال الفتى: أمكنت - والله - من سواء الثغرة، أمنكم قصى الذى جمع القبائل من فهر، وكان يدعى فى قريش مجمعًا ؟ قال: لا، قال: أفمنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه، وأهل(٣) مكة مسنتون عجاف ؟ قال: لا. قال : أفمنكم شيبة الحمد عبد المطلب مطعم طير السماء الذى كان وجهه كالقمر فى الليلة الداجية ؟ قال: لا. قال: فمن أهل السقاية أنت ؟ قال: لا. قال: فمن أهل الإفاضة بالناس أنت ؟ قال: لا. قال: فمن أهل الحجابة أنت ؟ قال: لا. قال: فمن أهل الندوة أنت ؟ قال: لا. قال: فمن أهل الرفادة أنت ؟ قال: لا. فاجتذب أبو بكر زمام ناقته راجعًا إلى رسول الله ﷺ، فقال الغلام: [من الرجز]

صَادَفَ درُّ السَّيْلِ درًّا يَدْفَعُهْ   يَهِيضُهُ طَوْرًا وطَوْرًا (٤) يَصْدَعُهْ

أما - والله - لو ثبت؛ لأخبرتك من أى قريش أنت. قال: فتبسم رسول الله ﷺ. قال على: فقلت: يا أبا بكر، لقد وقعت من الأعرابى على باقعة. قال: أجل، يا أبا

(١) في الرياض: ومنتمي.
(٢) في الرياض: العمامة الفردة.
(٣) في الرياض: ورجال.
(٤) في الرياض: حينا وحينا.

حسن، ما من طامة إلا وفوقها طامة، والبلاء موكل بالمنطق.

قال: ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليه السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر، وسلم، وقال: ممن القوم ؟ قالوا: من شيبان بن ثعلبة. فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، وقال: بأبي أنت وأمي هؤلاء غرر الناس، وفيهم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان مفروق أدنى القوم مجلسًا، فقال أبو بكر: كيف المنعة فيكم ؟ فقال مفروق: علينا الجهد، ولكل قوم جهد[(١)]. قال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوّكم ؟ فقال: إنا لأشد ما نكون غضبا حين نلقى، وأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله، يديلنا مرة، ويديل علينا آخرى ثم التفت إلى رسول الله ﷺ، فقال: لعلك أخو قريش ؟ قال أبو بكر: لقد بلغكم أنه رسول الله ﷺ ألا هو ذا. فقال مفروق: بلغنا أنه يذكر ذلك، فإلام تدعونا يا أخا قريش ؟ فتقدم رسول الله ﷺ، وجلس، فقام أبو بكر يظله بثوبه، فقال رسول الله ﷺ: [أدعوكم][(٢)] إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وإلى أن تعزّروني[(٣)] وتنصروني، فإن قريشًا قد ظاهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد، فقال مفروق بن عمرو: وإلام تدعونا يا أخا قريش ؟ فوالله ما سمعت كلامًا أحسن من هذا، فتلا رسول الله ﷺ ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ إلى قوله ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]، فقال مفروق: وإلام تدعونا يا أخا قريش ؟ قال: فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل: ٩] الآية. قال مفروق: دعوت - والله - يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذّبوك وظاهروا [عليك]. وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة، فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا، فقال هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعك [على دينك]؛

---

(١) في الرياض: حد.
(٢) المثبت من الرياض.
(٣) في الرياض: تئووني.

لمجلس جلسنا إليك ليس له أول ولا آخر - زلة فى الرأى، وقلة نظر فى العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدًا، ولكن ترجع ونرجع، وتنظر وننظر. وكأنه أحب أن يشرك المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى بن حارثة: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيها جواب هانئ بن قبيصة فى تركنا ديننا، ومتابعتك على دينك، وإنا نزلنا بين صريين اليمامة والسماوة، فقال رسول الله ﷺ ما هذان الصريان ؟ فقال: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى، فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا ألا نحدث حدثًا، ولا نؤوى محدثًا، وإنى أرى هذا الأمر الذى تدعونا إليه يا أخا قريش، مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك مما يلى مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لم ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا[(١)] إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه ؟ قال النعمان بن شريك: اللهم، فلك ذلك. فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] ثم نهض رسول الله ﷺ قابضًا على يد أبى بكر، وهو يقول: « أية أخلاق فى الجاهلية ما أشرفها ! بها يدفع الله بأس[(٢)] بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم ».

قال فدفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، فما نهضنا حتى بايعوا رسول الله ﷺ. قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ، وقد سُرّ بما كان من أبى بكر ومعرفته بأنسابهم[(٣)].

هذا ما ظفرت به من الأحاديث الخاصة به، وأما ما ورد مشتركًا بينه وبين عمر رضى الله تعالى عنهما، أو مع الثلاثة، أو مع الأربعة، أو مع العشرة - فشيء كثير لم أورد منه إلا شيئًا، وما ورد فى الثناء عليه من الصحابة، والسلف الصالح من الآثار والمناقب من: زهده، وتقواه وورعه، وهداه، وحياطته للدين، والقيام بأمر

---

(١) في ط: إن لبثتم.
(٢) في ط: ما شاء. والمثبت من الرياض.
(٣) ينظر: الرياض النضرة (١/ ١٥٣-١٥٧).

المسلمين، ومصالحهم، والشفقة على الأمة، والنصح لها، واقتفاء ما كان عليه رسول الله ﷺ بحضرة النبى ﷺ وسماعه لتلك وفى غير حضرته، لم أورد منه شيئًا أصلاً، وإلا لاستوعب الكتاب أجمع.

ولما اشتهرت وفاة النبى ﷺ بالنواحى ارتدت طوائف من العرب عن الإسلام، ومنعوا الزكاة، فخرج أبو بكر فى المهاجرين والأنصار، فقال له عمر: ألِّف الناس، وارفق بهم، فقال له أبو بكر: أجبّار فى الجاهلية، وخوّار فى الإسلام ؟! إنه قد انقطع الوحى، وتم الدين، أينقص وأنا حى ؟! ثم خرج لقتالهم حتى بلغ نقعاء بحذاء نجد، وهربت الأعراب بذراريهم، فكلم الناس أبا بكر، وقالوا: ارجع إلى المدينة، وأمِّر على الجيش رجلاً، فما زالوا به حتى رجع، وبعث خالدًا، وأمره أن يقاتل الناس على خمس، من ترك واحدة منهن قاتله كما يقاتل من ترك الخمس جميعًا: على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى البيت من استطاع إليه سبيلاً.

وأمر على الأنصار خاصة ثابت بن قيس بن شماس، وأمر خالدًا أن يصمد لقتال طليحة الأسدى، فسار وعدة من معه ألفان وسبعمائة إلى ثلاثة آلاف، ووجه عكاشة ابن محصن الأسدى، وثابت بن أقرم الأنصارى إلى طليحة، فانتهيا إلى قطن، فصادفا به ابنا لطليحة متوجهًا إلى أبيه بثقله، فقتلاه، وأخذا ماله، فساق وراءهم طليحة - بعد أن علم بما فعلاه - هو وأخوه سلمة، فقتلا عكاشة وثابتا، فسار خالد فقاتل طليحة، فهزمه الله تعالى، وكان طليحة بطلاً شديد البأس فى القتال، وقال طليحة فى قتله عكاشة، وثابت بن أقرم: [من الطويل]

فَمَا ظَنُّكُم بِالقَوْمِ إذْ تَقْتُلُونَهُمْ ... أَلَيْسُوا وَإِنْ لم يُسْلِمُوا بِرِجَالِ
أَقَمْتُ لَهُمْ صَدْرَ الحِمَالَةِ إنَّهَا ... مُعَوَّدَةٌ قَتْلَ الكُمَاةِ نزَالِ
فَيوْمًا تَرَاهَا فى الجلاَلِ مَصُونَةً ... وَيَوْمًا تَرَاهَا غَيْرَ ذاتِ جلاَلِ[١]
فَإنْ يَكُ أَوْلاَدٌ أُصِبْنَ وَنِسْوَةٌ ... فَلَنْ تَذْهَبُوا[٢] فَرغًا بِقَتْلِ حبَالِ

---

(١) رواية الشطر الثاني:
... ... ويومًا تراها في ظلال عوالي

(٢) في البداية والنهاية: فلم يذهبوا.

عَشِيَّةَ غَادَرْتُ ببنَ أَقْومَ ثَاوِيًا وَعُكَّاشَةَ الغَنْمِىَّ عِنْدَ مجَالِى[(١)]

وكان من شأن طليحة أنه تنبأ على عهد رسول الله ﷺ وكان يقول: إن ذا النون يأتيه، فقال ﷺ: لقد ذكر ملكًا عظيمًا، فلما كان زمن أبى بكر فيمن ارتد، فبعث أبو بكر رضى الله تعالى عنه خالد بن الوليد إليه، فلما انتهى إلى عسكره، ووجده قد ضربت له قبة من أدم وأصحابه حوله، فقال خالد: ليخرج إليَّ طليحة، فقالوا لا تصغر نبينا، هو طلحة، فخرج إليه، فقال له خالد: إن من عهد خليفتنا أن يدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، فقال: يا خالد أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله.

فلما سمع خالد ذلك انصرف عنه، وعسكر بالقرب منه على ميل، فقال عيينة بن حصن لطليحة: لا أبا لك، هل أنت مرينا بعض نبوتك؟ قال: نعم. وكان قد بعث عيونًا له حين سار خالد من المدينة مقبلاً إليهم فعرفوا خبر خالد، فقال: لئن بعثتم فارسين على فرسين أغرين محجلين [من بنى نصر بن قعين][(٢)] أتوكم من القوم بعين، فهيئوا له فارسين فبعثوهما، فخرجا يركضان، فلقيا عينا لخالد مقبلا إليهم، فقالا: ما خبر خالد ؟ وقالا: ما وراءك ؟ قال: هذا خالد بن الوليد فى المسلمين قد أقبل، فزادهم فتنة وقال: ألم أقل لكم ؟! فلما كان السحر نهض خالد إلى طليحة فيمن معه من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما التقى الجمعان[(٣)] تزمل طليحة فى كساء له زاعمًا انتظار الوحى، فلما طال ذلك على أصحابه، وألح عليهم المسلمون بالسيف - قال له عيينة بن حصن: هل أتاك بعد ؟ فقال من تحت الكساء: لا، والله ما جاء بعدُ، فقال له عيينة: تبا لك آخر الدهر! ثم جذبه [جذبة] جلس[(٤)] منها، وقال: قبح الله هذه من نبوة، فجلس طليحة، ثم قال له عيينة: ما قيل لك ؟ قال: قيل لى إن لك [مرجى كمرجاه][(٥)]، وأمرًا لا تنساه. فقال له عيينة: أظن قد علم الله - تعالى - أن سيكون لك أمر لا تنساه، هذا كذاب، ما بورك لنا ولا له فيما

(١) ينظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٧٩)، والبداية والنهاية (٦/ ٣٤٩).
(٢) المثبت من المحاسن والمساوئ.
(٣) في المحاسن والمساوئ: الصفان.
(٤) في المحاسن والمساوئ: جاش.
(٥) في المحاسن والمساوئ: رحى كرحاه.

نطلب[١]، ثم هرب عيينة وأخوه، فأدركوه وأسروه، وأفلت أخوه، وهرب طليحة منهزمًا، وأسلمه شيطانه حتى قدم الشام فأقام عند بنى حنيفة[٢] الغسانيين حتى فتح الله - تعالى - أجنادين، وتوفى أبو بكر - رضى الله عنه تعالى كذا فى المحاسن والمساوى - ثم أسلم طليحة، وحسن إسلامه[٣].

قال ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة قال: لما سار خالد - وكان سيفًا من سيوف الله ورسوله - فأسرع المسير حتى نزل ببزاخة، وجمع له هناك العدو بنو أسد وغطفان، فاقتتلوا حتى قتل من العدو خلقًا كثيرًا، وأسر منهم أسارى، فأمر خالد بالحضر أن تبنى ثم أوقد فيها النيران، وألقى الأسارى فيها، وقتل فى ذلك الوجه مالك بن نويرة التميمى.

قال ابن إسحاق: أتى خالد بن الوليد - رضى الله عنه - لمالك بن نويرة فى رهط من قومه بنى حنظلة، فضرب أعناقهم، وسار فى أرض بنى تميم، فلما غشوا قومًا منها أخذوا السلاح وقالوا نحن مسلمون، فقيل لهم: ضعوا السلاح فوضعوه، ثم صلى المسلمون فصلوا، فروى سالم بن عبد الله عن أبيه قال: قدم أبو قتادة الأنصارى على أبى بكر فأخبره بقتل مالك بن نويرة وأصحابه، فجزع لذلك، ثم ودى مالكًا ورد السبى والمال.

وهو مالك بن نويرة بن شداد اليربوعى التميمى فارس ذى الخمار، وذو الخمار فرسه. كان فارسًا شجاعًا مطاعًا فى قومه، وفيه خُيلاء، كان يقال له: « الجفول » لكثرة سفره، وكان من فرسان العرب وشجعانهم، وذوى الرأى والردافة فى الجاهلية، وكانت لبنى يربوع أيام آل المنذر، ومعنى الردف: أن يجلس مجلس الملك إذا غاب، وعن يمينه إذا جلس، فإذا شرب الملك شرب الردف بعده، وللردف إتاوة تؤخذ مع إتاوة الملك، وفى ذلك يقول راجزهم:

وَمَنْ يُنَافِرْ آلَ يَرْبوعٍ يَجِدْ ... ألمَجْلِسَ الأَيْمَنَ وَالرِّدَفَ النَّجِدْ

قدم على النبى ﷺ فولاه صدقة قومه بنى يربوع ثم ارتد، فلما نازله خالد بعد

---

(١) في المحاسن والمساوئ: تطالب.
(٢) في المحاسن والمساوئ: بني جفنة.
(٣) ينظر: المحاسن والمساوئ (٣٠-٣١).

وفاته - عليه الصلاة والسلام - قال: أنا آتى بالصلاة دون الزكاة. فقال له: أعلمت أن الصلاة والزكاة معًا لا تقبل واحدة دون الأخرى ؟ فقال: قد كان صاحبك يقول ذلك ؟ قال خالد: وما تراه لك صاحبًا ؟ ولقد هممت أن أضرب عنقك، ثم تجاوز طويلاً فصمم خالد على قتله، فكلمه أبو قتادة الأنصارى وابن عمر، فكره كلامهما، وقال لضرار بن الأزور: اضرب عنقه، فجاءت امرأته ليلى بنت سنان، كاشفة وجهها - فألقت نفسها عليه، فالتفت مالك إلى زوجته وقال: أنت التى قتلتينى، وكانت فى غاية الجمال، قال خالد: بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام، فقال: أنا على الإسلام. قال: اضرب عنقه؛ فضرب عنقه، وجعل رأسه إحدى أثافى القدر، وطبخ فيها طعام. فقالت امرأة من قومه حين رأته: اصرفوا وجه مالك عن النار، فوالله لقد كان حديد الطرف فى الغارات، غضيض الطرف عن الجارات، لا يشبع ليلة يضاف، ولا ينام ليلة يخاف، ثم تزوج خالد بالمرأة، فقال أبو زهير السعدى من أبيات: [من الطويل]

قَضَىٰ خالدٌ بَغْيًا عَلَيْهِ لِعِرْسِهِ   وَكَانَ لَهُ فِيهَا هَوًى قَبْلَ ذَلِكَ

ويذكر أن أخا مالك بن نويرة - متمم بن نويرة - قدم المدينة، فأنشد أبا بكر مندبة ندب بها أخاه، وناشده فى دم أخيه، منها قوله مخاطبًا لضرار بن الأزور: [من الكامل]

نِعْمَ القَتِيلُ إِذَا الرِّيَاحُ تَنَوَّحَتْ   خَلْفَ البُيُوتِ قَتَلْتَ يَابْنَ الأَزْوَرِ

ثم توجه إلى أبى بكر فقال: [من الكامل]

وَدَعَوْتَهُ بِاللهِ ثُمَّ غَدَرْتَهُ   لَو هُوْ دَعَاكَ بِذِمَّة لَمْ يَغْدِرِ

فقال أبو بكر: والله ما دعوته، ولا غدرته، فقال أخوه متمم بقية أبياته المشهورة، وانحط على فرسه وكان أعور، فما زال يبكى حتى دمعت عينه العوراء، فقام إليه عمر بن الخطاب، فقال: وددت لو رثيت أخى زيدًا بمثل ما رثيت به أخاك، فقال متمم: والله لو علمت أن أخى صار إلى ما صار إليه أخوك لم أرثه، ولم أحزن عليه - يعنى الجنة - قلت: وهذا الجواب من متمم يؤيد صحة الرواية بارتداده، وقال له عمر - رضى الله تعالى عنه - يومًا: حدثنا عن أخيك، فقال: أسرت مرة فى حى عظيم من أحياء العرب، فأقبل أخى مالك، فما هو إلا أن طلع على

الحاضرة، فما كان أحد قاعدًا إلا قام، ولا بقيت امرأة إلا تطلعت من خلال البيوت، فما نزل عن جمله حتى تلقوه بى فى رمتى. قلت: الرمة - بضم الراء وشد الميم: الخطام من الليف، أطلقت ههنا على الحبل الذى ربط به، فقال عمر - رضى الله عنه -: إن هذا لهو الشرف ومن شعر مالك قوله: [من الكامل]

ولقَدْ عَلِمْتُ ولا مَحَالةَ أنَّنِي ... لِلْحَادِثَاتِ، فَهَل تَرَيْنِى أَجْزَعُ ؟!
أفْـنَـيْـنَ عـادًا ثـمَّ آلَ مُـحَـرِّقِ ... فَتَرَكْنَهُمْ بَدَدًا ومَا قَدْ جمعُوا
وعَددتُ أيَّامِى إلىٰ عِرْق الثَّرَى ... ودَعَوتُهُمْ فعلمتُ أنْ لَمْ يسمَعُوا
ذَهبُوا فَلَمْ أدركْهُمُ، ودهَتْهُمُ ... غَوْلُ اللَّيالِى والطَّرِيقُ المَهْيَعُ

ومنه قوله: [من الطويل]

وقَالُوا لِى اسْتَأْسِر فَإنَّكَ آمِنٌ ... فَقُلتُ إنِ اسْتَأْسَرتُ إنِّى لخائِنُ
عَلامَ تَرَكْتُ المشْرَفِىَّ مضَاجِعي ... ومطردًا فيه المنَايَا كَوامِنُ
فإنْ تَقْتلونى بَعْدَ ذاك فَإننى ... أَمُوتُ بمقْدَارٍ وَتبْقَى الضَّغَائِنُ

ثم كلمه فى السبى والمال فرد إليه أبو بكر السبى والمال. وله مندبة أخرى يقول فيها: [من الطويل]

وَكُنَّا كَنَدْمَانى جُذيْمَةَ حقْبَةً ... مِنَ الدَّهْرِ حتَّى قيل لَنْ يَتَصَدَّعَا
فَلَمَّا تَفَرَّقنَا كَأَنِّى وَمَالِكًا ... لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلةً مَعَا(١)

ذكر أولاده رضى الله تعالى عنه

كان له ستة: ثلاثة بنين، وثلاث بنات، أما البنون: فعبد الله أكبر أولاده الذكور، أمه قتيلة - بالتصغير، وقيل بالتكبير - من بنى عامر بن لؤى، شهد فتح مكة وحنينا والطائف مع النبى ﷺ مسلمًا، وجرح بالطائف، وبقى إلى خلافة أبيه، ومات فيها، رماه فى وقعته بسهم أبو محجن الثقفى، فبرئ منه ثم انتقض عليه الجرح فمات به، وترك سبعة دنانير فاستكثرها أبوه أبو بكر - رضى الله تعالى عنه - ولم يعقب.

والثانى - عبد الرحمن بن أبى بكر، يكنى أبا عبد الله، أسلم فى هدنة الحديبية، وهاجر إلى المدينة، وكتب للنبى ﷺ، وكان من الشجعان. له مواقف فى الجاهلية والإسلام مشهورة، وأبلى فى فتوح الشام بلاء حسنا، وكان ممن شهد بدرًا مع

(١) تنظر القصة في البداية والنهاية (٦/ ٣٥٤-٣٥٥) وفيه بعض الشعر.

المشركين، ثم من الله تعالى عليه بما من على أمه: أم رومان بنت الحارث من بنى فراس بن غنم بن كنانة، أسلمت وهاجرت. مات فجأة سنة ثلاث وخمسين بعد وفاة معاوية قبل أن تتم البيعة ليزيد، بجبل قرب مكة، فأدخلته أخته شقيقته عائشة الحرم، ودفنته، وأعتقت عنه، وكان شهد الجمل معها، وله عقب. مروياته ثمانية أحاديث.

ومحمد بن أبى بكر، ويكنى أبا القاسم كان من نساك قريش، أمه: أسماء بنت عميس الخثعمية وكانت من المهاجرين الأولين، وكانت تحت جعفر بن أبى طالب، وهاجرت معه إلى الحبشة، ولما استشهد جعفر بمؤته من أرض الشام تزوجها أبو بكر - رضى الله عنه - فولدت له محمدًا بذى الحليفة، لخمس بقين من ذى القعدة سنة عشر من الهجرة، ولما توفى أبو بكر - رضى الله تعالى عنه وعنها - تزوجها على بن أبى طالب، ونشأ محمد بن أبى بكر هذا فى حجر على - رضى الله تعالى عنه - وكان على راحلة على - رضى الله عنه - يوم الجمل، وشهد معه صفين، وولاه عثمان فى أيامه مصر وكتب له العهد، ثم اتفق مقتله - يعنى عثمان - قبل وصوله - يعنى محمدا - إليها، وولاه على - كرم الله وجهه - مصر بعد رجوعه من صفين فوقع بينه وبين عمرو بن العاص حرب،فهزم محمد بن أبى بكر وقتل، وأكثر المؤرخين على أنه أحرق فى جوف حمار ميت، يقال: كان ذلك قبل قتله، وقيل: بعد القتل.

وأما البنات: فعائشة أم المؤمنين شقيقة عبد الرحمن، وقد تقدم ذكرها فى زوجاته عليه الصلاة والسلام.

وأسماء بنت أبى بكر، شقيقة عبد الله، وهى أكبر بناته، وهى ذات النطاقين - وتقدم ذكر سبب تسميتها بذلك عند ذكر الهجرة تزوجها الزبير بمكة، وولدت له عدة أولاد: المنذر، وعروة أحد الفقهاء السبعة، والمهاجر، وعبد الله، وخديجة، وأم الخير، وعائشة، ثم طلقها، فكانت مع ولدها عبد الله حتى قتل، وعاشت بعده خمسة أيام، وكانت من المُعَمَّرين، بلغ عمرها مائة سنة وعميت، وكان موتها بمكة، وسيأتى لها مزيد ذكر عند خلافة ابنها عبد الله بن الزبير.

وأم كلثوم، وهى أصغر بناته - رضى الله تعالى عنها - وهى التى تركها أبو بكر فى بطن بنت خارجة، كان أبو بكر قد نزل عليه، وتزوج ابنته، وتوفى عنها وتركها

حبلى فولدت بعده أم كلثوم، فاحتالت له حتى أمسك عنها، فتزوجها طلحة بن عبيد الله[١]. ذكر هذا ابن قتيبة وغيره، وابن عبد البر فى الاستيعاب، وابن الجوزى فى الصفوة.

ذكر وفاته رضى الله تعالى عنه

قال فى الرياض: قال أهل السير توفى أبو بكر - رضى الله تعالى عنه - ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، وذكره فى الصفوة العلامة ابن الجوزى، وقال فى الخميس: قال ابن إسحاق: توفى يوم الجمعة لتسع بقين من الشهر المذكور، وذكره أبو عمرو، والأول أصح لما روت عائشة قالت: لما ثقل أبو بكر قال: أى يوم هذا ؟ قلنا: يوم الاثنين. قال: وأى يوم قبض رسول الله ﷺ ؟ قال: يوم الاثنين. قال: فإنى أرجو فيما بينى وبين الليل، فإن مت فى ليلتى، فلا تنتظروا بى الغد، فإن أحب الأيام والليالى إليّ أقربها من رسول الله ﷺ. خرجه الإمام أحمد بسنده. كذا فى الرياض[٢].

قال: وكان عليه ثوب فيه ردْغ من زعفران، أو مِشق - بكسر الميم وسكون الشين المعجمة -: وهى المغرة. قال: فإذا أنا مت، فاغسلوا لى ثوبى هذا، وضموا إليه ثوبين جديدين، وكفنونى فى ثلاثة أثواب. قالوا: ألا نجعلها كلها جددًا ؟ قال: إنما هى للمهلة[٣]، وهى بضم الميم وقال بعضهم بكسرها الصديد والقيح، وحكى بعض العراقيين فيها الفتح.

ولما مات - رضى الله تعالى عنه - غسلته زوجته أسماء بنت عميس بوصية منه، وصب عليها الماء ابنه عبد الرحمن، ولما كفن حمل على السرير الذى كان ينام عليه رسول الله ﷺ، وهو سرير عائشة من خشب الساج منسوج بالليف، وبيع فى ميراث عائشة، فاشتراه رجل من موالى معاوية بأربعة آلاف درهم، فجعله للناس يحملون عليه موتاهم بالمدينة، وصلى عليه عمر بن الخطاب فى مسجد رسول الله ﷺ تجاه المنبر، وكبر أربعًا، ودفن إلى جنب قبر النبى ﷺ، وألصق لحده بلحده، ونزل فى

---

(١) ينظر: الرياض النضرة (٢/ ٢٥٥-٢٥٨).

(٢) ينظر: الرياض النضرة (٢/ ٢٣٩)، وصفة الصفوة (١/ ١٣٨-١٣٩) وأخرجه أحمد (٦/ ٤٥)، وهو عند البخاري رقم (١٣٢١).

(٣) ينظر: الرياض (٢/ ٢٤٠).

قبره عمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن بن أبى بكر، ودفن ليلاً، وكان آخر ما تكلم به رضى الله عنه: ربِّ توفنى مسلمًا وألحقنى بالصالحين(١).

وروى الليث بن سعد عن علوان عن صالح بن كيسان عن حميد بن عبد الرحمن ابن عوف عن أبيه قال: دخلت على أبى بكر أعوده فى مرضه، فسلمت عليه، وسألته كيف أصبحت؟ فقال: بحمد الله بارئًا، أما إنى على ما ترى وجع، وجعلتم لى شغلاً مع وجعى، جعلت لكم عهدًا بعدى، واخترت لكم أحبكم لنفسى، فكلكم وَرِمَ لذلك أنفه رجاء أن يكون الأمر له ثم قال: أما إنى لا آسى على شيء إلا على ثلاث فعلتهن، وثلاث لم أفعلهن، وثلاث وددت أنى سألت رسول الله ﷺ عنهن: وددت أنى لم أكن كشفت بيت فاطمة، وتركته وإن أغلق على الحزب، ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة قذفت الأمر فى عنق عمر وأبى عبيدة، ووددت أنى لما كنت وجهت خالد بن الوليد إلى أهل الردة، أقمت بذى القصة فإن ظفر المسلمون وإلا كنت لهم مددًا وردءًا؛ ووددت أنى يوم أتيت بالأشعث أسيرًا ضربت عنقه، فإنه يخيل إلى أنه لا يكون شر إلا طار إليه؛ ووددت أنى يوم أتيت بالعجاج الأسلمى لم أكن حرقته، وقبلته، وأطلقته، ووددت أنى حيث وجهت خالد بن الوليد إلى الشام، وجهت عمر إلى العراق، فأكون قد بسطت يمينى وشمالى فى سبيل الله؛ ووددت أنى سألت رسول الله ﷺ فيمن هذا الأمر، ولا ننازعه أهله، وأنى سألته: هل للأنصار فى هذا الأمر شيء؟ وأنى سألته عن العمة وبنت الأخ، فإن فى نفسى منهما حاجة. رواه هكذا - أو أطول من هذا - ابن وهب عن الليث بن سعد إلى عبد الرحمن بن عوف.

وروى القاسم عن عائشة أن أبا بكر حين حضره الموت قال: إنى لا أعلم عند آل أبى بكر غير هذه اللقحة، وغير هذا الغلام الصيقل، وكان يعمل سيوف المسلمين ويخدمنا، فإذا مت فادفعيهما إلى عمر. قال: فلما دفعتهما قال عمر: رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده(٢).

حكى ابن عمر قال: كان سبب موت أبى بكر - رضى الله تعالى عنه - كمدا

(١) ينظر: الرياض النضرة (٢/ ٢٤١) وهناك زيادة، وصفة الصفوة (١/ ١٣٩).
(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ١٤٣).

على موت النبى ﷺ ما زال يذيبه حتى مات. والكمد: الحزن المكتوم.

وعن عائشة - رضى الله عنها - كان أول مرضه أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الأخرى، وكان يومًا باردًا فحم خمسة عشر يومًا، لا يخرج إلى الصلاة، وكان يأمر عمر بن الخطاب يصلى بالناس[١]، فدخل عليه الناس؛ يعودونه، وكانت عائشة لما ثقل تتمثل بقول الشاعر: [من الطويل]

أعاذِلُ ما يُغْنِى الحذَارُ عَنِ الفَتَىٰ إِذَا حَشْرَجَتْ يَومًا وضَاقَ بَها الصَّدْرُ

فقال لها أبو بكر: لا تقولى هذا، ولكن قولى ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق:١٩] ثم إنها تمثلت بقول أبى طالب: [من الطويل]

وأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوجْهِهِ ثِمَالِ اليَتَامَىٰ عِصْمَةٍ لِلأَرَامِلِ

فقال لها: ذاك رسول الله ﷺ.

وقال الناس له لما دخلوا عليه، يعودونه: ألا ندعو لك طبيبًا، ينظر إليك ؟ فقال: قد نظر إلى، فقالوا: ما قال لك ؟ قال: قال لى إنى فعال لما أريد[٢].

قال الواقدى: توفى - رضى الله تعالى عنه - ليلة الثلاثاء، لثمان بقين من جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة، أسلم وهو ابن سبع وثلاثين، وعاش فى الإسلام ستًّا وعشرين سنة، ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر واثنتا عشرة ليلة، من متوفى رسول الله ﷺ، وأوصى أن يدفن إلى جانب رسول الله ﷺ كما تقدم ذكر ذلك[٣].

قال جابر بن عبد الله الأنصارى: فانطلقنا، ودفعنا الباب، وقلنا: هذا أبو بكر. ففتح الباب، ولم ندر من فتحه لنا، وليس فى البيت أحد، وقال: ادخلوا فادفنوه، ولا نرى شخصًا. قال فى « شواهد النبوة » سمعوا صوتًا يقول: ادفنوا الحبيب إلى حبيبه.

ولما توفى أبو بكر كان أبوه حيًا بمكة، وعاش بعده ستة أشهر وأيامًا.

مروياته فى كتب الحديث: مائتان واثنان وأربعون حديثًا. رضى الله تعالى عنه، وأرضاه وجعل الجنة منقلبه ومثواه، ونفعنا به، آمين.

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٣/ ٤١٩)، المنتظم (٤/ ١٢٩)، سبل الهدى (١١/ ٢٦٠).
(٢) تنظر هذه الروايات في الطبقات الكبرى (٣/ ١٤٨- ١٤٩)، وسبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٦٠-٢٦١)، والمنتظم (٤/ ١٢٨ -١٣٠).
(٣) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ١٥١).

خلافة أمير المؤمنين: عمر الفاروق رضى الله عنه

أخرج الواقدى من طرق: أن أبا بكر - رضى الله عنه - لما ثقل دعا عبد الرحمن ابن عوف، فقال: أخبرنى عن عمر بن الخطاب، فقال: ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى، فقال أبو بكر: وإنْ، فقال عبد الرحمن بن عوف: هو والله - أفضل من رأيك فيه.

ثم دعا عثمان بن عفان، فقال: أخبرنى عن عمر بن الخطاب، فقال: أنت أخبرنا به، فقال: وإنْ، فقال: اللهم علمى به: أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله.

وشاور معهما سعيد بن زيد، وأسيد بن الحضير، وغيرهما من المهاجرين والأنصار، فقال أسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى للرضا ويسخط للسخط، الذى يسره خير من الذى يعلن، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه، ثم دخل عليه بعض الصحابة، فقال قائل منهم: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن تولية عمر علينا، فقد ترى غلظته ؟ فقال أبو بكر: أجلسونى، فأجلس، فقال أبالله تخوفنى ؟! خاب من يَزَوَّد من أمركم بظلم !! أقول: اللهم إنى استخلفت عليهم خير أهلك، أبلغ عنى من وراءك ما قلت.

ثم دعا عثمان فقال اكتب:

« بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إنى قد استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا وإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم إلا خيرًا، فإن عدل فذلك ظنى فيه وعلمى به، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظملوا أى منقلب ينقلبون. والسلام عليكم ورحمة الله ».

ثم أمر بالكتاب فختمه، ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختومًا، فبايع الناس لمن فيه، ورضوا به[1].

---

(١) ينظر: طبقات ابن سعد (٣/١٤٨-١٤٩)، وتاريخ الطبري (٣/٤٢٨).

ورأيت فى الجمع الغريب ما نصه - بعد قوله: « فبايع الناس لمن فيه »: حتى مر الكتاب بعلى - رضى الله تعالى عنه - فقال: بايعنا لمن فيه وإن كان عمر - بزيادة الواو قبل إن، وفى رواية أخرى بحذف الواو.

قلت: يؤيد رواية عدم الواو ما ذكره فى الرياض النضرة، وعبارته: « روى أن أبا بكر لما ثقل أشرف على الناس من كوة، فقال: يأيها الناس، إنى قد عهدت عهدًا، أفترضون به ؟ قال الناس: رضينا يا خليفة رسول الله، فقال عليّ: لا نرضى إلا أن يكون عمر، قال: فإنه عمر. انتهى. ثم دعا عمر - رضى الله عنه - خاليًا، فأوصاه بما أوصاه به، ثم خرج من عنده، فرفع أبو بكر يده، فقال: اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت به أعلم، واجتهدت لهم رأيى فوليت عليهم خيرهم وأقواهم وأحرصهم على ما أرشدهم، فقد حضرنى من أمرك ما حضر، فاخلفنى فيهم، فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، أصلح ولايتهم، واجعله من خلفائك الراشدين، وأصلح له رعيته(١).

وفى الصفوة: أول ما تكلم به عمر - رضى الله تعالى عنه - حين صعد المنبر أن قال: اللهم إنى شديد فلينى، وإنى ضعيف فقونى، وإنى بخيل فسخنى(٢).

وعن الحسن: أول خطبة خطبها: حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإنى ابتليت بكم، وابتليتم بى، فما كان بحضرتنا باشرنا، ومهما غاب عنا وليناه أهل القوة والأمانة، فمن يحسن نزده حسنى، ومن يسئ نعاقبه(٣). ثم قال: بلغنى أن الناس قد هابوا شدتى، وخافوا غلظتى، وقالوا: قد كان عمر يشدد علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، فكيف الآن وقد صارت الأمور إليه ؟! ولعمرى من قال ذلك فقد صدق، كنت مع رسول الله ﷺ، فكنت عبده وخادمه حتى قبضه الله، وهو راض عنى ولله الحمد، وأنا أسعد الناس بذلك، ثم ولى أبو بكر، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدتى بلينه فأكون سيفًا مسلولاً حتى يغمدنى، فما زلت معه كذلك حتى قبضه الله تعالى - وهو عنى راض، ولله الحمد، وأنا أسعد الناس بذلك، ثم إنى وليت الآن

---

(١) ينظر: طبقات ابن سعد (٣/١٤٩- ١٥٠).

(٢) ينظر: طبقات ابن سعد (٣/٢٠٨)، وصفة الصفوة (١/١٤٥).

(٣) ينظر: طبقات ابن سعد (٣/٢٠٨)، وتاريخ الخلفاء (١١٣- ١١٤)، والرياض النضرة (٢/٤٠٤).

أموركم، اعملوا أن تلك الشدة قد تضاعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين، وأما أهل السلامة فى الدين والقصد فإنما اللين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحدًا يظلمه أحد أو يتعدى عليه حتى أضع خده بالأرض، وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق، ولكم عليّ أيها الناس، ألا أخبأ عنكم شيئًا من خراجكم، وإذا وقع عندى ألا يخرج إلا بحقه، ولكم على ألا ألقيكم فى المهالك، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا. أقول قولى هذا، وأستغفر الله لى ولكم.

قال سعيد بن المسيب: ولى عمر، فزاد فى الشدة فى مواضعها واللين فى مواضعه، وكان أبا للعيال حتى أنه كان يمشى إلى المغيبات، ويقول: ألكنَّ حاجة حتى أشتريها لكن؟ فإنى أكره أن تخدعن فى البيع والشراء، فيرسلن معه [بجواريهن](١)، ومن كان ليس لها شيء اشترى لها من عنده(٢). وهو أول من قال: أطال الله بقاءك، قالها لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه.

وأخرج ابن عساكر عن إسماعيل بن زياد، قال: مرّ على بن أبى طالب - رضى الله عنه - على المساجد فى رمضان وفيها القناديل، فقال: نور الله على عمر فى قبره كما نور علينا مساجدنا(٣).

وأوليات عمر مفردة بالتأليف، وذكر هذا العلامة جلال الدين السيوطى فى تاريخه(٤).

قال ابن الجوزى فى المنتظم: روى أن أبا طلحة خرج فى ليلة مقمرة، فرأى عمر - رضى الله عنه - قد دخل بيتًا ثم خرج منه، فلما أصبح أبو طلحة ذهب إلى ذلك البيت، فإذا فيه عجوز عمياء مقعدة. فقال لها أبو طلحة: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ فقالت: إنه يتعاهدنى منذ كذا وكذا بما يصلحنى، ويخرج عنى الأذى والقذى(٥).

ولما رجع رضى الله عنه من الشام إلى المدينة - انفرد عن الناس؛ ليتعرف أخبار

(١) في ط: نحو الحملين.
(٢) ينظر الرياض النضرة (٢/ ٣١٥-٣١٦).
(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض (٢/ ٣٠٩) وعزاه لابن السمان في الموافقة.
(٤) ينظر: تاريخ الخلفاء (١٠٨)، وطبقات ابن سعد (٣/ ٢١٣) والرياض (٢/ ٣١٣-٣١٤).
(٥) ينظر: صفة الصفوة (١/ ١٤٦).

رعيته، فمر بعجوز لها خباء، فقصدها، فقالت: يا هذا، ما فعل عمر ؟ قال: قد أقبل من الشام سالمًا، فقالت: لا جزاه الله عنى خيرًا. قال لها: ولم ؟ قالت: لأنه ما فاتنى من عطائه منذ ولى أمر المسلمين دينار ولا درهم، فقال: وما يدرى عمر بحالك وأنت فى هذا الموضع ؟! فقالت: سبحان الله: ما ظننت أن أحدًا يلى على الناس، ولا يدرى ما بين مشرقها ومغربها. فبكى عمر، فقال: واعمراه بك أتدافعه منك حتى العجائز، ثم قال لها: يا أمة الله، بكم تبيعينى ظلامتك من عمر ؟ فإنى أرحمه من النار، فقالت: لا تهزأ بى، يرحمك الله ؟ فقال عمر: لست بهزاء - فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين دينارًا - فبينما هو كذلك إذ أقبل: على بن أبى طالب، وعبد الله بن مسعود - رضى الله عنهما - فقالا: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فوضعت العجوز يدها على رأسها، وقالت: واسوأتاه، شتمت أمير المؤمنين فى وجهه، فقال: لا عليك، يرحمك الله.

ثم طلب وفاء فلم يجده، فقطع قطعة من مرقعته، وكتب فيها: « بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما اشترى عمر ظلامتها منذ ولى إلى يوم كذا بخمسة وعشرين دينارًا، فما تدعيه عند وقوفه فى المحشر بين يدى الله - تعالى - فهو منه برىء شهد على ذلك من فلانة: على بن أبى طالب، وعبد الله بن مسعود ».

قال أبو طلحة: ثم دفع الكتاب إليّ، وقال: إذا مت فاجعله فى كفنى؛ ألقى به ربى عز وجل(١).

وأخباره فى مثل هذا كثيرة جدًا، وإنما ذكرت هذا منها، لما جر إليه ذكره بالشدة واللين والرفق والشفقة على المسلمين.

ذكر نسبه رضى الله عنه

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح ابن عدى بن كعب بن لؤى، يلتقى مع رسول الله ﷺ فى كعب بن لؤى، أمه: حنتمة بنت هاشم بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وقال طائفة بنت هشام بن المغيرة، ومن قال ذلك فقد أخطأ، ولو كانت كذلك لكانت أخت أبى جهل بن هشام، والحارث

(١) ينظر: الرياض النضرة (٢/ ٣٩٠-٣٩١).

ابن هشام، وإنما هى بنت هاشم، وهاشم وهشام أخوان[(١)].

ذكر إسلامه

قال ابن إسحاق: كان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة[(٢)].

عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ، فوجدته سبقنى إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا - والله - شاعر كما قالت قريش، فقرأ: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١]. قال: فقلت: كاهن، فقال: عليه الصلاة والسلام وهو يقرأ: ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴾ إلى ﴿ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٢-٤٧]. قال: فوقع الإسلام من قلبى كل موقع. خرجه أحمد[(٣)].

وفى طريق آخر عن أنس بن مالك قال: خرج متقلدًا السيف، فلقيه رجل من بنى زهرة، فقال أين تعمد يا عمر ؟ قال: أريد أن أقتل محمدا، قال: وكيف تأمن من بنى هاشم ومن بنى زهرة وقد قتلت محمدا ؟! فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبأت، وتركت دينك الذى أنت عليه، فقال الرجل: لا تلمنى، ولم أختك وخَتنك إن كنت تلوم، فإنهما قد صبآ. فمشى عمر حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب بن الأرت، فلما سمع خباب حس عمر - توارى فى البيت، فدخل عليهما، وكانوا يقرءون سورة « طه » فسكتوا، فقال: ما هذه الهمهمة التى سمعتها عندكم ؟ فقال: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا. قال: فلعلكما قد صبأتما، فقال له خَتنه أرأيت يا عمر، إن كان الحق فى غير دينك؛ فوثب عمر على ختنه، فوطئه وطأ شديدًا، فجاءته أخته فدفعته عنه، فنفحها نفحة بيده، فدمى وجهها، فقالت غضبى: ويلى

---

(١) ينظر: الاستيعاب (٣/ ٢٣٥)، وتهذيب الكمال (٢١/ ٣١٦)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٤٣٨)، والإصابة (٤/ ٤٨٤).

(٢) السيرة النبوية (١/ ٣٦٩).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٦٥) وعزاه للطبراني في الأوسط، وقال: ورجاله ثقات، إلا أن شريح بن عبيد لم يدرك عمر.

يا عمر، أرأيت أن الحق فى غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

فلما تبين عمر قال: أعطونى هذا الكتاب الذى عندكم فأقرأه، وكان عمر يقرأ الكتب، فقالت له أخته: إنك رجسٌ، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل أو توضأ، فقام فتوضأ ثم أخذ الكتاب، فقرأ « طه » إلى قوله: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: ١٤]، فقال عمر: دلونى على محمد، فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت، فقال: أبشر يا عمر، فإنى أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس: « اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين، عمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام »، ثم قال: إن رسول الله ﷺ فى الدار التى فى أصل الصفا.

فانطلق عمر حتى أتى الدار. قال: وعلى الباب حمزة، وطلحة، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: عمر، فلما رأى حمزة وجل القوم من عمر - قال حمزة: نعم، هذا عمر، وإن يرد الله به خيرًا يسلم، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هينا، قال: والنبى داخل يوحى إليه، فخرج رسول الله ﷺ حتى أتى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه، فقال: « ما أنت بمنته عنى يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما لم ينزل بالوليد بن المغيرة. اللهم اهد عمر بن الخطاب، اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب ». فقال عمر: أشهد أنك رسول الله، فأسلم عمر، فكبر النبى ﷺ وأهل البيت تكبيرة سمعت من أعلى مكة(١).

فقال عمر: يا رسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق ؟ قال: يا عمر إنا قليل. قال عمر: والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلسٌ جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان. ثم خرج وطاف بالبيت، ثم مر بقريش وهم ينظرونه، فقال له أبو جهل ابن هشام - وهو عم والدته حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومى -: زعم فلان أنك صبوت، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله؛ فوثب عليه

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٠٢-٢٠٣)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢١٩- ٢٢٠)، وابن الجوزي في المنتظم (٤/ ١٣٢) من طريق القاسم بن عثمان البصري عن أنس بن مالك به وينظر تاريخ الإسلام (السيرة النبوية- ١٧٤).

المشركون، ووثب عمر على عتبة بن ربيعة، فبرك عليه، وجعل يضربه، وأدخل إصبعيه فى عينيه، فجعل عتبة يصيح؛ فتنحى الناس عنه. فقام عمر فجعل لا يدنو منه أحد إلا أخذ [شريف من][1] دنا منه حتى أحجم الناس عنه، واتبع المجالس التى كان يجلس فيها بالكفر، فأظهر الإسلام فيها.

ثم انصرف إلى النبى ﷺ وهو ظاهر عليهم، فقال: ما يحبسك بأبى أنت وأمى ؟! فوالله ما بقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام غير هائب ولا خائف، فخرج - عليه الصلاة والسلام - فى صفَّين من أصحابه، عمر بن الخطاب فى يمينهما، وحمزة بن عبد المطلب فى يسارهما، حتى طاف بالبيت وصلى الظهر معلنا. ثم انصرف إلى دار الأرقم هو ومن معه[2]. أخرجه أبو القاسم الدمشقى فى الأربعين الطوال.

وعن ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر. أخرجه البخارى وأبو حاتم[3].

وعنه - أيضا - قال: كان إسلام عمر فتحا، وهجرته نصرا، وإمارته رحمة، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا، وصلى عند الكعبة، وصلينا معه[4]. أخرجه الحافظ السلفى.

وخرج الخلعى طرفا من هذه القصة، وقال: فقال عمر: لا نعبد الله سرًّا بعد اليوم، فأنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤]، وكان ذلك أول ما نزل من القرآن فى تسمية الصحابة مؤمنين، وكان عمر عند ذلك ينصب راية للحرب بمكة، ويحاربهم على الحق، فيقول لأهل مكة: والله لو بلغت عدتنا ثلاثمائة رجل لتركتموها لنا، أو لتركناها لكم[5].

(١) بدل ما بين المعكوفين في ط ممن، والمثبت من الرياض النضرة (٢/ ٢٨٣).
(٢) أخرجه بنحوه أبو نعيم في دلائل النبوة (١٦٧- ١٦٩) وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٤٠) ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه كما في الإصابة من حديث ابن عباس (٣/ ٤٨٦)، وقال الذهبي في تاريخ الإسلام (السيرة النبوية - ١٧٩): إسناده ضعيف. وينظر: مجمع الزوائد (٩/ ٦٨).
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٨٤، ٣٨٦٣)، وابن حبان (٦٨٨٠).
(٤) ينظر: الرياض النضرة (٢/ ٢٨٤). وينظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٢٠٤).
(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٦٥٩)، والبزار (٢٤٩٥- كشف الأستار) عن ابن عباس. وقال الهيثمي (٩/ ٦٥): وفيه النضر أبو عمر وهو متروك وينظر الدر المنثور، تفسير الآية ٦٤، من سورة الأنفال (٣/ ٣٦٢).

وعن صهيب قال: لما أسلم عمر جلسنا حول البيت حلقا حلقا، وانتصفنا ممن غلظ علينا[١].

وعن على - رضى الله عنه -: ما سمينا مؤمنين حتى أسلم عمر. خرجه فى الفضائل.

وعن ابن مسعود: لما أسلم عمر أظهر الإسلام، ودعا إلى الله علانية.

وعن ابن عباس قال: لما أسلم عمر قال المشركون: انتصف القوم مِنّا[٢].

وهو أول من مصر الأمصار كالكوفة والبصرة، وحقق كلمته فى إعلاء كلمة الله، ففتح الفتوحات العظيمة فى المواضع العديدة، فتح مصر والشام ثم الروم ثم القادسية، ثم انتهى الفتح إلى حمص وحلوان والرقة والرُّها وحرّان ورأس العين والخابور ونصيبين وعسقلان وطرابلس، وما يليها من السواحل، وبيت المقدس وبيسان واليرموك والأهواز وقيسارية وتستر ونهاوند والرى وما يليها وأصفهان وبلاد فارس وغيرها[٣].

ومع هذا كله بقى على حاله كما كان قبل الولاية فى لباسه وزيه وأفعاله وتواضعه، يسير منفردا فى سفره وحضره من غير حرس ولا حجاب، لم تغيره الأمور ولم يستطل على مسلم بلسانه، ولا يحابى أحدا فى الحق. وكان لا يطمع الشريف فى حيفه، ولا يشفق الضعيف من عدله، ولا يخاف فى الله لومة لائم، وينزل نفسه من مال الله منزلة رجل من أوساط المسلمين، وجعل فرضه كفرض رجل من المهاجرين، وكان يقول: أنا ومالكم كولى اليتيم إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، أراد: أنه يأكل ما تقوم به بنيته لا يتعداه.

قال مجاهد: تذاكر الناس فى مجلس ابن عباس، فأخذوا فى فضل أبى بكر ثم فى فضل عمر، فلما سمع ابن عباس ذكر عمر بكى بكاءً شديدًا حتى أغمى عليه، ثم قال: يرحم الله عمر، قرأ القرآن، وعمل بما فيه، فأقام حدود الله كما أمر لا تأخذه فى الله لومة لائم، لقد رأيت عمر أقام الحد على ولده فقتله[٤].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٠٤)، وتمامه: ورددنا عليه بعض ما يأتي به.
(٢) تقدم قبل سطور.
(٣) ينظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٢١٣-٢١٤).
(٤) ينظر: الرياض النضرة (٢/ ٣٥٥).

قلت: قصة إقامة الحد على ولده ذكرها فى الرياض النضرة، وبعضها عن عمرو ابن العاص قال: بينما أنا بمنزلى بمصر إذ قيل: هذا عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب، وأبو سرعة يستأذنان عليك، فقلت: يدخلان، فدخلا وهما متنكران، فقالا: أقم علينا الحد؛ فإنا أصبنا البارحة شرابا وسكرنا. قال: فزبرتهما وطردتهما. فقال لى عبد الرحمن: إن لم تفعل خبرت والدى عمر إذا قدمت عليه. قال عمرو: فقلت إنى إن لم أقم عليهما الحد غضب عليّ عمر وعزلنى، قال: فأخرجتهما إلى صحن الدار، فضربتهما الحد، وأدخلت عبد الرحمن ناحية إلى بيت من الدار، فحلق رأسه، وكانوا يحلقونه مع الحدود، والله ماكتبت لعمر بحرف مما كان، حتى إذا كان كتابه جاءنى فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر إلى عمرو بن العاص، عجبت لك وجوابك عَلَيَّ وخلافك عهدى فما أرانى إلا عاذلك تضرب عبد الرحمن فى بيتك وتحلق رأسه في بيتك، وقد عرفت إن هذا ليخالفنى، إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلتَ: هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت أنى لا هوادة لأحد من الناس عندى فى حق، فإذا جاءك كتابى - فابعث به فى عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع، والسلام. فبعثت به كما قال أبوه، وكتبت إلى عمر أعتذر إليه بأنى ضربته فى صحن دارى، فبالله الذى لا يحلف بأعظم منه إنى لأقيم الحدود فى صحن دارى على المسلم والذمى، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر، فقدم عبد الرحمن على أبيه عمر، فدخل وعليه عباءة لا يستطيع المشى من سوء مركبه، فقال له عمر: يا عبد الرحمن، فعلت وفعلت فكلمه عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين، قد أقيم عليه الحد. فلم يلتفت إليه، وأمر بإقامة الحد عليه، فجعل عبد الرحمن يقول: إنى مريض، وأنت قاتلى. فأقام عليه الحد ثانيا، وحبسه، فمرض ومات. انتهى(١).

قال ابن قتيبة وأبو عمر وصاحب الصفوة: كان عمر بن الخطاب من المهاجرين السابقين، ممن صلى إلى القبلتين، وشهد بدرا والحديبية وبيعة الرضوان وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، وهاجر علانية(٢).

(١) ينظر: الرياض النضرة (٢/ ٣٥٤- ٣٥٥).
(٢) ينظر: الاستيعاب (٣/ ٢٣٦)، وصفة الصفوة (١/ ١٤٣)، والرياض النضرة (٢/ ٣١٣- ٣١٤).

عن ابن عباس قال: قال على: ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر إلا مختفيا إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى فى يده سهما، واحتضن عنزته، ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعا متمكنا، ثم أتى المقام فصلى متمكنا، ثم وقف على حلقهم واحدة واحدة، فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه، أو يؤتم ولده، أو يرمل زوجته - فليلقنى وراء هذا الوادى. ثم مضى. خرجه ابن السمان فى الموافقة[١].

وتوفى رسول الله ﷺ وهو عنه راض، وبشره بالجنة، وأخبره أن الله جعل الحق على لسانه وقلبه، وأن رضاه وغضبه عدل، وأن الشيطان يفر منه، وأن الله أعز به الإسلام، واستبشر أهل السماء بإسلامه، وسماه عبقريا ومحدَّثا وسراج أهل الجنة، ودعاه صاحب رحا وافرة العرب، يعيش حميدا ويموت شهيدا، وإنه رجل لا يحب الباطل، ولو كان بعده نبى لكان عمر[٢]. وكل هذا وغيره يأتى فى الأحاديث الواردة مع الآيات فى شأنه.

قال صاحب الصفوة: وهو أول من عس بنفسه فى عمله، وحمل الدرة، وأدب بها وكانت أهيب من سيف الحجاج، وكانت تخافه ملوك الروم وفارس وغيرهما[٣]، وكان - رضى الله تعالى عنه - إذا كان فى سفر نادى الناس فى المنزل عند الرحيل: ارحلوا أيها الناس، فيقول القائل: يأيها الناس، هذا أمير المؤمنين قد ناداكم، تقدموا فاستقوا وارحلوا، ثم ينادى الثانية: الرحيل، فيقول الناس: اركبوا؛ فقد نادى أمير المؤمنين الثانية؛ فاذا استقلوا قام فرحل بعيره وعليه غرارتان، إحداهما: فيها سويق، والأخرى: فيها تمر وبين يديه قربة وخلفه جفنة، فكلما نزل جعل فى الجفنة من السويق، وصبَّ عليه من الماء وسط شنارة - قال: والشنارة مثل النطع الصغير - من جاءه لحاجة أو يستقضى قال له: كل من هذا السويق والتمر.

ثم يرحل فيأتى المكان الذى رحل الناس منه، فإن وجد متاعا ساقطا أخذه؛ وإن

---

(١) ينظر: الرياض النضرة (٢/ ٢٨٦).
(٢) ينظر: الرياض النضرة (٢/ ٣١٣-٣١٤).
(٣) ينظر: صفة الصفوة (١/ ١٤٣).

وجد أحدا فيه عرج أو عرض لدابته أو بعيره - يكارى له، ويسوق به، فيتبع آثار الناس؛ فإذا أصبح الناس من الغد لم يفقد أحد متاعا له سقط منه إلا قال: حتى يأتى أمير المؤمنين، فيطلع عمر وإن جمله مثل المشجب مما عليه من المتاع للناس، فيأتى الرجل، ويقول: يا أمير المؤمنين، إداوتى، فيقول: هل يغفل الرجل الحليم عن إداوته التى يشرب فيها، ويتوضأ للصلاة منها ؟! أو كل ساعة أبصر، أو كل الليل أكلأ عينى من النوم، ثم يدفع إليه إداوته؛ ويقول الآخر: يا أمير المؤمنين، قوسى؛ ويقول آخر: رشائى؛ أو ما وقع منهم فيصفونه فيدفعه إليهم.

ولما بلغ الشام تلقوه ببرذون وثياب، فكلموه أن يركب البرذون؛ ليراه العدو؛ فيكون ذلك أرهب بلباس البياض، ويطرح الفرو الذى عليه، فأبى، فألحوا عليه، فركب البرذون بفروته وثيابه، فهملج به البرذون وخطام ناقته بعد فى يده، فنزل وركب راحلته، وقال: لقد غرنى هذا حتى خفت أن أنكر نفسى. ذكر هذا كله أبو حذيفة إسحاق بن بشر فى فتوح الشام[1].

قال العلامة ابن الجوزى: لما بعث عمر بن الخطاب سعد بن أبى وقاص لحرب القادسية - كتب إليه وهو بالقادسية أن وجه نضلة الأنصارى إلى حلوان العراق؛ فيغزو أهلها، فبعث سعد بن أبى وقاص نضلة الأنصارى فى ثلاثمائة فارس، فساروا حتى أتوا حلوان فأغاروا على أهلها، وأصابوا غنيمة وسبيا، وأثقلوا بذلك حتى أرهقتهم صلاة العصر وكادت الشمس أن تغرب، فألجأ نضلة السبى والغنيمة إلى سفح جبل؛ وقام فأذن فقال: « الله أكبر الله أكبر »، فأجابه مجيب من الجبل: كبرتَ كبيرا يا نضلة؛ ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال: كلمة الإخلاص يا نضلة؛ ثم قال: أشهد أن محمدا رسول الله، فقال: هو الذى بشرنا به عيسى بن مريم وعلى رأس أمته تقوم القيامة؛ ثم قال: حى على الصلاة، فقال: طوبى لمن سعى إليها، وواظب عليها؛ ثم قال: حى على الفلاح، فقال: قد أفلح من أجاب داعى الله؛ ثم قال: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، قال: أخلصت الإخلاص كله يا نضلة، حرم الله تعالى بها جسدك على النار.

فلما فرغ نضلة من أذانه قام فقال: من أنت يرحمك الله، أملك أم طائف من الجن

(١) ينظر: الرياض (٢/٣١٦- ٣١٧).

أم من عباد الله ؟! قد سمعنا صوتك، فأرنا صورتك وشخصك، فإن الوفد وفد رسول الله ووفد عمر بن الخطاب، فانفلق الجبل عن هامة كالرحى، أبيض الرأس واللحية، عليه طمران من صوف، فقال: أنا زريب بن برتمك، وصى العبد الصالح عيسى بن مريم، أسكننى هذا الجبل، ودعا لى بطول البقاء إلى حين نزوله من السماء، قال: فسأل نضلةَ والخلق الذين معه عن النبى ﷺ، فقالوا: قد قبض؛ فسأل عن أبى بكر، فقالوا: قد قبض؛ ثم سألهم عن عمر، فقالوا: حى، ونحن جيشه، فقال: أقرئوه منى السلام، وقولوا له: يا عمر، سدد وقارب، فقد وفى الأمر، وأخبروه بهذه الخصال التى أخبركم بها: يا عمر، إذا ظهرت هذه الخصال فى أمة محمد فالهرب، الهرب: إذا استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وانتسبوا إلى غير مناسبهم، وانتموا إلى غير مواليهم ولم يرحم كبيرهم صغيرهم، ولم يوقر صغيرهم كبيرهم، وترك الأمر بالمعروف فلم يؤمر به، وترك النهى عن المنكر فلم ينه عنه، ويعلم عالمهم العلم؛ ليجلب به الدنيا، ويأتى المطر فيضا، والولد غيظا، وطولوا المنارات، وفضضوا المصاحف، وزخرفوا المساجد، وأظهروا الرشا، وشيدوا البنا، واتبعوا الهوى، وباعوا الدين بالدنيا، وقطعت الأرحام، وبيعت الأحكام، وأكلوا الربا، وصار الغنى عزا، والفقر ذلاً، وخرج الرجل من بيته فقام إليه من هو خير منه؛ وسلم عليه، وركبت الفروج السروج.

قال: ثم غاب عنهم فلم يروه، فكتب بذلك نضلة إلى سعد، وكتب به سعد إلى عمر - رضى الله عنه -، فكتب عمر إلى سعد: أن سر أنت بنفسك ومن معك من المهاجرين والأنصار حتى تنزلوا ذلك الجبل، فإن لقيته فأقرئه منى السلام، فخرج سعد فى أربعة آلاف من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى نزلوا ذلك الجبل، ومكث سعد أربعين يومًا، ينادى بالصلاة، فلم يجد جوابًا، ولم يسمع خطابا، فكتب بذلك إلى عمر - رضى الله عنه[1].

صفته رضى الله عنه

عن زر بن حبيش - رضى الله عنه - قال: كان عمر - رضى الله عنه - أبيض، أبهق، يشبه لون الجص بياضا، لا يكون له دم ظاهر، وكان طوالاً، أصلع، أبلج،

---

(١) ينظر: الرياض النضرة (٢/ ٣٢٩- ٣٣١).

شديد حمرة العينين، كث اللحية، خفيف عارضيها، سلتا، كثير الشعر، فى أطرافه صهبة، أعسر أيسر - يعنى يعمل بكلتا يديه - أروح كأنه راكب والناس مشاة - قال الجوهرى: الأروح: هو الذى يتباعد صدور قدميه ويتدانى عقباه - وكان لا يغير شيبه، فقيل له: يا أمير المؤمنين، ألا تغيره ؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من شاب شيبة فى الإسلام كانت له نورا يوم القيامة »(١)، وما لنا نغيره(٢)!!.

الآيات النازلة بما أشار به عمر رضى الله تعالى عنه فى قضايا متعددة

فمنها: اتخاذ مقام إبراهيم مصلي! عن طلحة بن مصرف قال: قال عمر: يا رسول الله، أليس هذا مقام أبينا إبراهيم ؟ قال: بلى. قال عمر: فلو اتخذته مصلى ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾(٣) [البقرة: ١٢٥].

ومنها: مشورته فى أسارى بدر عن ابن عباس عن عمر قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: « ما تقولون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، بنو العم والعشيرة والإخوان، أرى أن نأخذ منهم الفداء، فيكون لنا قوة على المشركين، وعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام؛ فيكونون لنا عضدا. قال: فما ترى يا بن الخطاب ؟ قلت: يا رسول الله، ما أرى الذى يراه أبو بكر، ولكن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده، فقدمهم لنا نضرب أعناقهم. قال: فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلته، وقال: مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى إذ قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]، ومثلك يا عمر كمثل

(١) أخرج الحديث بنحوه عبد الرزاق (٨٥٣٣) ومن طريقه الطبراني في الكبير (٥١)، وأخرجه البيهقي (٩/ ٢٤٨) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٧): ورجاله موثقون. وينظر طبقات ابن سعد (٣/ ٢٤٧)، والرياض النضرة (٢/ ٢٧٤)، وصفة الصفوة (١/ ١٤٢).

(٢) أخرج قول عمر الطبراني في الكبير (٥٨)، وفي الأوسط (٤٢٨٦) من طريق مجاهد عن ابن عمر عن عمر به وصححه ابن حبان (٢٩٨٣) من طريق آخر عن عمر. وينظر الرياض (٢/ ٢٧٤).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن مردويه كما في الدر المنثور (١/ ٢٢٣)، تفسير الآية: ١٢٥ من سورة البقرة. والبخاري (٤٠٢) مطولاً من حديث أنس، وسيأتي. وينظر الرياض (٢/ ٢٨٨).

نوح إذ قال: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ ﴾ الآية [نوح: ٢٦، ٢٧].

ثم أخذ رسول الله ﷺ منهم الفداء، فلما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان، قلت: يا نبى الله أخبرنى من أى شيء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء، وإلا تباكيت لبكائكما، فقال: لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منه - فأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨]. أخرج هذا الحديث مسلم فى صحيحه(١).

وعند البخارى معناه بزيادة قوله: إنه قتل من المشركين سبعين(٢)، وأسر سبعين، وبزيادة: ولكن أن تمكن عليا من عقيل، فيضرب عنقه، وحمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه، وفلانا من فلان، حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين، ثم ذكر معنى ما بعده، وزاد: فلما كان يوم أحد من العام القابل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته، وشج وجهه، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وأنزل الله - عز وجل -: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٣) [آل عمران: ١٦٥].

وروى: أنه ﷺ قال لعمر: لقد كاد يصيبنا بخلافك شر يا بن الخطاب(٤). وفى

(١) أخرجه مسلم (٥٨- ١٧٦٣) بنحوه، وليس فيه: مثلك يا أبا بكر. . .» إلى كمثل نوح. . . الآية» وقد جاء هذا اللفظ في حديث ابن مسعود أخرجه أحمد (١/ ٣٨٣)، والحاكم (٣/ ٢٢) وصححه ووافقه الذهبي وينظر الرياض (٢/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٨٦) من حديث البراء بن عازب قال: جعل النبي ﷺ على الرماة يوم أحد عبد الله بن جبير فأصابوا منا سبعين وكان النبي ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة: سبعين أسيرًا، وسبعين قتيلًا».

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٠-٣١) مطولاً ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (١/ ٤٢) من حديث ابن عباس عن عمر. وقوله «ولكن أن تمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه» عند مسلم (٥٨- ١٧٦٣) من حديث ابن عباس عن عمر. وقوله « وكسرت رباعيته وجرح وجهه، وهشمت البيضة على رأسه» عند البخاري (٤٠٧٥) من حديث سهل بن سعد بنحوه. وينظر الرياض (٢/ ٢٨٩).

(٤) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٢٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٤٣) من حديث ابن عمر وصححه =

رواية: لو نزل بنا عذاب ربى. وفى رواية: لو عذبنا فى هذا الأمر - يعنى عذابا ظاهرًا، فلا ينافى ما وقع لهم يوم أحد - لما نجا منه غير عمر. خرجها القلعى(١).

ومنها: قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم:٥]، وذلك أنه لما بلغه - رضى الله عنه - شيء فى معاتبة أمهات المؤمنين للنبى ﷺ، فقال لهن: لتكففن عن رسول الله ﷺ أو ليبدلنه أزواجا خيرا منكن، فقالت له إحداهن: يا عمر أما فى رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ؟! فأنزل الله هذه الآية المذكورة: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا . . . ﴾ الآية. أخرجه البخارى ومسلم وأبو حاتم(٢).

ومنها: أنه لما أمر نساء رسول الله ﷺ أن يحتجبن، قالت له زينب: وإنك علينا يا بن الخطاب، والوحى ينزل فى بيوتنا، فأنزل الله: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ الآية [الأحزاب:٥٣]. أخرجه أحمد(٣).

وفى رواية الطبرانى عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبى ﷺ حيسًا فى قعب، فمر عمر - رضى الله عنه - فدعاه فأكل معنا، فأصابت أصبعى أصبعه، فقال: حس - وهذه كلمة يقولها الإنسان من العرب إذا أصابه ما مَضَّه أو أحرقه كالجمرة والضربة ونحوهما كذا فى الصحاح - أوهِ، لو أطاع فيكن ما رأتكن عين، فنزلت آية الحجاب(٤).

ومنها: قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ

= الحاكم ووافقه الذهبي.

(١) تنظر هذه الروايات في الرياض النضرة (٢/ ٢٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٢، ٤٩١٦)، والنسائي في التفسير (٦٣١)، وابن حبان (٦٨٩٦) من حديث أنس بن مالك عن عمر بن الخطاب والحديث ليس في مسلم، ولم يعزه له المزي في تحفة الأشراف (٨/ ١٢-١٣) رقم (١٠٤٠٩).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٦)، والبزار (٢٥٠٥-كشف الأستار) والطبراني كما في مجمع الزوائد (٩/ ٧٠) من حديث ابن مسعود. وقال الهيثمي: فيه أبو نهشل ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. وينظر الرياض (٢/ ٢٩١).

(٤) أخرجه النسائي في التفسير (٤٣٩) والطبراني في الصغير (١/ ٨٣) وفي الأوسط (٣٣٧٤-مجمع البحرين)، وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٦)، وابن مردويه كما في الدر المنثور (٥/ ٤٠٢). وقال السيوطي: سنده صحيح. وقال الهيثمي (٧/ ١٠٠): ورجاله رجال الصحيح غير مرسى بن أبي كثير، وهو ثقة. وينظر الرياض (٢/ ٢٩١).

ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤] عن ابن عباس أن عمر حدثه، قال: لما اعتزل رسول الله ﷺ نساءه وكان له وجد عليهن؛ فاعتزلهن فى مشربة من خزانته - قال عمر: فدخلت المسجد، فإذا الناس ينكثون بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقلت: لأعلمهن هذا اليوم، وذلك قبل الأمر بالحجاب، فدخلت على عائشة بنت أبى بكر، فقلت: يا بنة أبى بكر، بلغ من أمرك أن تؤذى رسول الله ﷺ ؟! قالت: ما لى ومالك يا بن الخطاب، عليك بنفسك؛ فأتيت حفصة بنت عمر، فقلت: يا حفصة، لو علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك، ولولا أنا لطلقك. قال: فبكت أشد بكاء. قال: فقلت لها: أين رسول الله ﷺ ؟ قالت: هو فى خزانته. قال: فذهبت، فإذا أنا برباح: غلام رسول الله ﷺ قاعدا على أسكفّة الغرفة، مدليا رجليه على نقير يعنى جذعا منقورا، فقلت: يا رباح، استأذن على رسول الله ﷺ، فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إليّ وسكت، قال: فرفعت صوتى، فقلت: استأذن يا رباح على رسول الله ﷺ، فإنى أظن أن رسول الله ﷺ يظن بى ربما جئت من أجل حفصة، والله لئن أمرنى أن أضرب عنقها الآن لضربت عنقها. قال: فنظر رباح إلى الغرفة، ونظر إليّ، ثم قال هكذا ؛ يعنى أشار بيده أن ادخل، فدخلت، فإذا هو - عليه الصلاة والسلام - مضطجع على حصير وعليه إزاره، فجلس، وإذا الحصير قد أثر فى جسده، وقلبت عينى فى الخزانة، فإذا ليس فيها شيء من الدنيا غير قبضتين من شعير وقبضة من قرص نحو صاعين، وإذا أفيق معلق أو أفيقان. قال: فابتدرت عيناى، فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك ؟ فقلت: يا رسول الله، ما لى لا أبكى وأنت صفوة الله ورسوله وخيرته من خلقه، وهذه الأعاجم: كسرى وقيصر، فى الثمار والأنهار وأنت هكذا، فقال: يا بن الخطاب، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟ فقلت: بلى يا رسول الله فأحمد الله فما تكلمت فى شيء إلا أنزل الله تصديق قولى من السماء. قال: فقلت يا رسول الله، إن كنت طلقت نساءك أو تظاهرن عليك، فإن الله - عز وجل - وجبريل معك، وأنا وأبو بكر وصالح المؤمنين، فأنزل الله - عز وجل -: ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية [التحريم: ٤]. قال فما أخبرت بذلك نبى الله، وأنا أعرف الغضب فى وجهه حتى رأيت وجهه يتهلل، وكشر؛ فرأيت ثغره - وكان أحسن

الناس ثغرا ﷺ - فقال: إنى لم أطلقهن، فقلت: يا نبى الله، فإنهم قد أشاعوا: أنك طلقت نساءك، أفأخبرهم أنك لم تطلق؟ قال: إن شئت، فقمت على باب المسجد، فقلت: ألا إن رسول الله ﷺ لم يطلق نساءه، فأنزل الله فى الذى كان من شأنى وشأنهم: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ [النساء:٨٣]. قال عمر: فأنا الذى استنبطه منهم. خرجه أبو حاتم والبخارى ومسلم(١).

وفى رواية لأبى حاتم - أيضًا - قال له عمر: لو اتخذت يا رسول الله فراشا أوبر من هذا؟ فقال - عليه الصلاة والسلام -: يا عمر ما لى وللدنيا - أو ما للدنيا وما لى - إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب سائر فى يوم صائف، فاستظل تحت شجرة، ثم راح وتركها. خرجها الثقفى فى الأربعين(٢).

ومنها: منعه - رضى الله عنه - للنبى ﷺ من الصلاة على المنافقين. عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول، جاء إليه عبد الله بن عبد الله، وكان قد أسلم إلى النبى ﷺ، فقال: إن أبى قد مات، وسأله أن يعطيه قميصه، يكفنه فيه، وأن يصلى عليه، فقام النبى ﷺ؛ ليصلى عليه، فقام عمر، فأخذ بثوبه - عليه الصلاة والسلام - وقال: لا تصلِّ عليه وقد قال يوم كذا وكذا - وشرع يعدد عليه قوله - فتبسم ﷺ، وقال: أخر عنى يا عمر، فقال له عمر: ألم ينهك الله أن تستغفر لهم؟ فلما أكثر عليه قال: إنما خُيرت - يعنى قوله: ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ ﴾ [التوبة: ٨٠]- فاخترت، ولو علمت أنى إذا زدت على السبعين يغفر لهم لزدت عليها، فصلى رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرا حتى أنزل الله الآيتين فى سورة براءة: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ ﴾ إلى ﴿ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤]. قال عمر: فعجبت من جرأتى على رسول الله ﷺ. وقال لما نزلت: ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٨، ٥١٩١)، ومسلم (٣٠-١٤٧٩)، وابن حبان (٤١٨٨) من حديث ابن عباس عن عمر. وهذا لفظ ابن حبان. وينظر الرياض النضرة (٢/ ٢٩٢- ٢٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠١)، وابن حبان (٦٣٥٢)، والطبراني في الكبير (١١٨٩٨)، والحاكم (٤/ ٣٠٩-٣١٠) من حديث ابن عباس. قال الهيثمي (١٠/ ٣٢٩): ورجال أحمد رجال الصحيح غير هلال بن خباب، وهو ثقة.

نَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٨٠] قال: فلأزيدن على السبعين واحدا فى الاستغفار، فقال له عمر: والله لا يغفر لهم سواء استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم(١).

ومنها: موافقته فى قوله: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]. عن أنس بن مالك لما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] فقال عمر: فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤] أخرجه الواحدى فى أسباب النزول(٢)، وفى رواية فقال ﷺ قبل نزولها: أتزيد فى القرآن يا عمر ؟ فنزل جبريل بما قال عمر: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾(٣).

ومنها: موافقته لقوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦]، وذلك أنه ﷺ استشار عمر فى قصة الإفك فى أمر عائشة حين قيل فيها من الإفك ما قيل، فقال عمر: يا رسول الله، من زوجكها ؟ قال: الله تعالى، فقال عمر: أفتظن أن ربك دلس عليك فيها ؟ سبحانك! هذا بهتان عظيم، فأنزل الله على وفق ما قال عمر: ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾(٤).

ومنها: موافقة معنوية. روى عن على - رضى الله عنه -: أن عمر انطلق إلى اليهود، فقال: إنى أسألكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى، هل تجدون وصف محمد فى كتابكم ؟ قالوا: نعم. قال: فما يمنعكم من اتباعه ؟ قالوا: إن الله لم يبعث رسولاً إلا كان له من الملائكة كفيل، وإن جبريل هو الذى يكفل محمدا، وهو الذى يأتيه، وهو عدونا من الملائكة وميكائيل سلمنا، فلو كان هو الذى يأتيه اتبعناه. قال عمر: فإنى أشهد أنه ما كان ميكائيل ليعادى سلم جبريل، وبأن جبريل ما كان يسالم عدو ميكائيل. قال: فمر رسول الله ﷺ، فقالوا: هذا صاحبك يا بن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧٠)، ومسلم (٣- ٢٧٧٤) من حديث ابن عمر. وأخرجه البخاري (١٣٦٦، ٤٦٧١) من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (٦٢٧) وفيه على بن زيد بن جدعان، ضعيف كما في التقريب وذكره السيوطي في الدر (٥/ ١٢) وعزاه للطيالسي، وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر.

(٣) ينظر الرياض النضرة (٢/ ٢٩٥).

(٤) ينظر الرياض (٢/ ٢٩٥).

الخطاب، فقام إليه، وقد أنزل الله عليه: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ . . . ﴾ إلى قوله ﴿ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٩٧، ٩٨]، فقال: والذى بعثك بالحق ما جئت إلا لأخبرك بقول اليهود، فإذا اللطيف الخبير قد سبقنى بالوحى، فقرأ - عليه الصلاة والسلام - هذه الآية، وقال له: قد وافقك ربك يا عمر[١].

ومنها: تحريم الخمر والميسر، وذلك أن عمر كان حريصا على تحريمها، وكان يقول: اللهم بين لنا فى الخمر، فإنه يذهب المال والعقل، فنزل قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة:٢١٩] الآية، فدعا رسول الله ﷺ عمر، فتلا بها عليه، فلم ير فيها بيانا، فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا، فأنزل الله - تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ إلى قوله ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة:٩٠، ٩١]، فدعاه رسول الله ﷺ، فتلاها عليه، فقال عمر عند ذلك: انتهينا يا ربنا، انتهينا[٢].

ومنها: آية الاستئذان. عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ أرسل غلاما[٣] من الأنصار إلى عمر بن الخطاب وقت الظهر، فدخل على عمر، فوافاه على حالة كره عمر رؤيته عليها، فقال: يا رسول الله وددت لو أن الله أمرنا، ونهانا فى حال الاستئذان، فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ﴾ [النور:٥٨]. خرجه أبو الفرج، وخرجه صاحب الفضائل، وزاد بعد قوله: « فدخل عليه »: وكان نائما وقد انكشف بعض جسده[٤].

---

(١) أخرجه الطبري (١/ ٤٧٨) رقم (١٦١١)، وابن أبي شيبة، وإسحاق بن راهويه كما في الدر المنثور (١/ ١٧٤) عن الشعبي، وقال السيوطي: صحيح الإسناد، ولكن الشعبي لم يدرك عمر. وأخرجه الطبري (١٦١٦) عن السديّ، به. وقد ذكره المحب الطبري في الرياض (٢/ ٢٩٥-٢٩٦) باللفظ المذكور في المتن وعزاه لابن السمان في الموافقة، وأبي الفرج في أسباب النزول.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٥٣)، وأبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٨/ ٢٨٦)، والحاكم (٢/ ٢٧٨)، والبيهقي (٨/ ٢٨٥)، والضياء في المختارة (٢٥٦). وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) اسم الغلام في الواحدي: مدلج بن عمرو.

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٦٤٨) دون سند، وينظر الرياض (٢/ ٢٩٧).

ومنها: قوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعه: ١٣، ١٤] بكى عمر، وقال: يا رسول الله، وقليل من الآخرين، آمنا بالله، وصدقنا برسوله، ومن ينجو منا قليل! فأنزل الله: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعه: ٣٩، ٤٠]، فدعا رسول الله ﷺ عمر، وقال: لقد أنزل الله كما قلت: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾(١).

ومنها: موافقته فى التوراة. عن طارق بن شهاب قال: دخل يهودى إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -، فقال: أرأيت قوله - تعالى -: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [ال عمران: ١٣٣] فأين النار ؟ فقال للصحابة: أجيبوه، فلم يكن عندهم فيها شيء، فقال له عمر: أرأيت النهار إذا جاء ملأ السموات والأرض ؟ قال: بلى. قال: فأين الليل؟! قال: حيث شاء الله. قال: عمر: فالنار حيث شاء الله عز وجل. قال اليهودى: والذى نفسك بيده، يا أمير المؤمنين، إنها لفى كتاب الله المنزل على موسى كما قلت(٢).

ومنها: الإشارة فى الخروج إلى بدر، وذلك أنه - عليه الصلاة والسلام - استشار أصحابه فى الخروج إلى غزوة بدر، فأشار عمر - رضى الله عنه - بالخروج، فنزل قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ [الانفال: ٥]، وكان عمر من المحبين للخروج، وهو المشير به(٣).

ومنها قصته فى الصيام لما جامع زوجته بعد الانتباه فى الليل، وكان ذلك محرمًا فى أول الإسلام، فنزل قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧] أخرجه أحمد فى مسنده(٤).

---

(١) أخرجه ابن عساكر كما في تهذيب تاريخ دمشق (٦/ ١٠)، وابن مردويه كما في الدر المنثور (٦/ ٢١٨) من طريق عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله، به. وأخرجه ابن أبي حاتم عن عروة بن رويم مرسلاً، كما في الدر المنثور، وكذا ذكره الواحدي في أسباب النزول (٧٨١) وينظر الرياض (٢/ ٢٩٧).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري (٧٨٣٤) حدثنا مجاهد بن موسى قال: حدثنا جعفر بن عون قال: أخبرنا الأعمش عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب وهذا إسناد صحيح، وزاد السيوطي نسبته في الدر (٢/ ١٢٩) إلى عبد بن حميد وابن منذر، وينظر الرياض (٢/ ٢٩٧).

(٣) ينظر: دلائل النبوة (٣/ ١٠٢- ١١٧).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٠)، والطبري (٢٩٤٩) من طريق ابن المبارك عن ابن لهيعة قال حدثني =

ومنها قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ [النساء: ٦٥] أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى الأسود قال: اختصم رجلان إلى النبى ﷺ، فقضى بينهما، فقال المقضى عليه: ردنا إلى عمر بن الخطاب، فأتيا إليه، فقال الرجل: قضى لى رسول الله ﷺ على هذا، فقال: ردنا إلى عمر، فقال له عمر: أكذلك كان ؟ قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل ثم خرج مشتملا على السيف، فضرب به عنق الذى قال ردنا إلى عمر فقتله، وأدبر الآخر فأتى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنه قتل عمر - والله - صاحبى، فقال: رسول الله ﷺ ما كنت أظن أن يجترئ عمر على قتل مؤمن، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، فأهدر - عليه الصلاة والسلام - دم الرجل لإخبار الله بكفره، وبرئ عمر - رضى الله عنه - من قتله، وأثيب عليه(١).

ومنها: ما أخرجه عثمان بن سعيد الدارمى من طريق ابن شهاب عن سالم بن عبد الله أن كعب الأحبار قال: ويل لملك الأرض من ملك السماء، فقال عمر: إلا من حاسب نفسه. فقال كعب: والذى نفسى بيده إنها محبرة فى التوراة كما قلت، فخر عمر ساجدا لله سبحانه(٢).

وعن على - رضى الله تعالى عنه -: إن عمر ليقول القول، فينزل القرآن بتصديقه، وعنه - أيضًا - كنا نقول: إن فى القرآن لكلاما من كلام عمر، ورأيًا من رأيه، رضى الله عنه وأرضاه(٣).

= موسى بن جبير مولى بني سلمة عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه بنحوه. وقال السيوطي في الدر (١/ ٣٥٧) بعد أن زاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم قال: سنده حسن، وقال الهيثمي (٦/ ٣٢٠) فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وقد ضعف. اهـ قلت: فيه موسى بن جبير مستور كما في التقريب.

(١) ذكره السيوطي في الدر (٢/ ٣٢٢) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود وذكر السيوطي شواهد له لكنها مرسلة أيضا.

(٢) ينظر: الرياض (٢/ ٢٩٧- ٢٩٨).

(٣) ينظر: الرياض (٢/ ٢٩٨).

الأحاديث فى شأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه

الحديث الأول - عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ قال: « اللهم أعز الدين بأحب الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب، أو بعمرو بن هشام » يعنى أبا جهل، فكان عمر أحبهما إليه. أخرجه الإمام أحمد والترمذى[(١)].

الحديث الثانى - ما أخرجه ابن السمان فى الموافقة عن على - رضى الله تعالى عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب »[(٢)] وروى مثله ابن مسعود[(٣)] وعائشة[(٤)] وغيرهما[(٥)].

الحديث الثالث - أخرج أبو حاتم والدارقطنى والحلقى والبغوى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: لما أسلم عمر أتى جبريل النبى ﷺ، فقال: يا محمد، لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر. قال ابن عباس، وكيف لا يكون ذلك، ولم يصعد للمسلمين صلاة ظاهرة، ولا نسك معروف إلا بعد إسلامه حين قال: والله لا نعبد الله سرا بعد هذا اليوم[(٦)]؟!.

الحديث الرابع - عن عقبة بن عامر - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ « لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب » أخرجه أحمد والترمذى[(٧)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٩٥)، والترمذي (٣٦٨١)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢١٥-٢١٦)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر. وصححه ابن حبان (٦٨٨١).

(٢) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٢٧٦٨) وعزاه للطبراني والحاكم عن ابن عباس، وللطبراني عن ثوبان، ولابن عساكر عن عليّ والزبير وذكره الحافظ في الفتح (٧/ ٤٠٤) وعزاه لخيثمة في فضائل الصحابة.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٣١٤)، والحاكم (٣/ ٨٣)، وقال الهيثمي (٩/ ٦٤- ٦٥) رواه الطبراني في الكبير، والأوسط بنحوه باختصار، ورجال الكبير رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد، وقد وثق.

(٤) أخرجه ابن حبان (٦٨٨٢)، والخطيب في التاريخ (٤/ ٥٤). والحاكم (٣/ ٨٣) بإسناد، صححه الحافظ في الفتح (٧/ ٤٠٤).

(٥) ينظر: الفتح (٧/ ٤٠٤)، ومجمع الزوائد (٩/ ٦٤)، وكنز العمال (١١/ ٥٨١).

(٦) أخرجه ابن حبان (٦٨٨٣)، وابن عدي (٤/ ٢٠٩)، والحاكم (٣/ ٨٤) وفي سنده عبد الله بن خراش ضعيف، كما في التقريب.

(٧) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤)، والترمذي (٣٧٦٩)، والحاكم (٣/ ٨٥)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٢٩٨) رقم (٨٢٢)، وابن حبان كما في الفتح (٧/ ٤٠٨)، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

الحديث الخامس - ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: « قد يكون فى الأمم محدَّثون، فإن يكن فى أمتى أحد، فهو عمر ابن الخطاب »(١)، وتفسير محدَّثون: ملهمون، أى يلهمون الصواب.

الحديث السادس - عن سعد بن أبى وقاص قال: دخل عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يسألنه، ويستكثرنه رافعات أصواتهن، فلما استأذن عمر انقمعن وسكتن وابتدرن للحجاب، فدخل ورسول الله ﷺ يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى، لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب، فقال عمر: يا عدوات أنفسهن، أتهابننى، ولا تهابنَّ رسول الله ﷺ ؟! فقلن: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: « يا بن الخطاب، إن الشيطان ما لقيك سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك ». أخرجه الشيخان وأحمد والنسائى(٢). قلت: « أفعل » هنا ليس على وصفه من الزيادة، بل هو مستعمل لأفعل الفعل كما فى: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ [البقرة:٢٢٨] الناقص واراشح أحد لا نبى الله.

الحديث السابع - أخرج الشيخان عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « بينما أنا نائم رأيتنى فى الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، قلت: لمن هذا القصر ؟ قالوا: لعمر بن الخطاب، فذكرتِ غيرتك، فوليت مدبرًا »، فبكى عمر، وقال: أمنك أغار يا رسول الله(٣).

الحديث الثامن - أخرج الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « بينما أنا نائم شربت لبنا حتى إنى أنظر إلى الرى يجرى فى أظفارى، ثم ناولته عمر. قالوا: فما أوَّلته يا رسول الله ؟ قال: العلم »(٤).

الحديث التاسع - أخرج أحمد والترمذى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال:

---

(١) كذا قال المصنف عن أبي هريرة عن عائشة فوهم، فالحديث قد ورد عن أبي هريرة، وعن عائشة فأما حديث أبي هريرة: فأخرجه البخاري (٣٤٦٩، ٣٦٨٩) من طريق أبي سلمة عنه مرفوعًا وأما حديث عائشة: فأخرجه مسلم (٢٣- ٢٣٩٨) عن أبي سلمة عنها مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٩٤، ٣٦٨٣، ٦٠٨٥)، ومسلم (٢٢-٢٣٩٦)، وأحمد (١/ ١٧١، ١٨٢، ١٨٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٦٠) رقم (١٠٠٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤٢، ٣٦٨٠، ٥٢٢٧، ٧٠٢٣، ٧٠٢٥)، ومسلم (٢١- ٢٣٩٥).

(٤) أخرجه البخاري (٨٢)، ومسلم (١٦- ٢٣٩١).

سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينما أنا نائم رأيت الناس عرضوا على وعليهم قُمص، فمنها ما يبلغ الثديّ، ومنها ما يبلغ الركبة، ومنها ما يبلغ أنصاف الساقين، وعرض علىَّ عمر وعليه قميص يجره. قالوا: فما أولته يا رسول الله ؟ قال: الدين(١).

وفى رواية للحكيم الترمذى: بالدين إن القميص يستر العورة فى الدنيا، والدين يسترها فى الآخرة، ويحجبها عن كل مكروه، والأصل فيه: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾(٢) [الأعراف: ٢٦]، واتفق المعبرون على ذلك أعنى تعبير القميص بالدين، وإن ذلك يدل على بقاء آثار صاحبه من بعده. قال ابن العربى: إنما أول القميص بالدين؛ لأنه يستر عورة الجهل كما أن القميص يستر عورة البدن، وأما غير عمر فما يبلغ ثديه: هو ما يستر قلبه عن الكفر وإن عصى، وما يبلغ أسفل منه وفرجه باد: هو من لم يستر رجله عن المشى للمعصية، والذى يستر رجله: هو الذى احتجب بالتقوى من جميع الوجوه، والذى يجر قميصه زاد على ذلك بالعمل الصالح الخالص(٣).

وقال العارف ابن أبى جمرة: المراد بالناس فى الحديث: مؤمنو هذه الأمة، والمراد بالدين: امتثال الأوامر واجتناب النواهى. وكان لعمر فى ذلك المقام العالى. ويؤخذ من الحديث أن كل ما يرى فى القميص من حسن أو غيره عبر بدين لابسه، ونقصه إما بنقص الإيمان أو العمل(٤)، وفى الحديث: أن أهل الدين يتفاضلون فى الدين بالقلة والكثرة وبالقوة والضعف، وهذا من أمثلة ما يحمد فى المنام، ويذم فى اليقظة شرعا أعنى جر القميص(٥)، لما ورد من الوعيد فى جره خيلاء(٦).

---

(١) الحديث متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣)، ومسلم (١٥- ٢٣٩٠)، وأحمد (٣/ ٨٦)، والترمذي (٢٢٨٦)، والنسائي (٨/ ١١٣- ١١٤).

(٢) ينظر الفتح (١٤/ ٤٢٦، ٤٢٧)، وقال الحافظ: واتفق أهل التعبير على أن القميص يعبر بالدين، وأن طوله يدل على بقاء آثار صاحبه من بعده.

(٣) ينظر: الفتح (١٤/ ٤٢٧).

(٤) ينظر: الفتح (١٤/ ٤٢٨).

(٥) ينظر: الفتح (١٤/ ٤٢٧).

(٦) أخرجه البخاري (٥٧٩١)، ومسلم (٤٢-٢٠٨٥) من حديث ابن عمر مرفوعًا: «من جرّ ثوبه مخيلة لم ينظر الله إليه يوم القيامة».

الحديث العاشر - أخرجه أحمد والترمذى عن ابن عمر، وأبو داود والحاكم عن أبى ذر، وأبو يعلى والحاكم عن أبى هريرة، والطبرانى عن بلال ومعاوية: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»(١).

الحديث الحادى عشر - أخرج الترمذى عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «إنى أنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فروا من عمر»(٢)، وأخرج ابن عدى عنها: «رأيت شياطين الإنس والجن فروا من عمر»(٣).

الحديث الثانى عشر - أخرج ابن ماجة والحاكم عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يصافحه الحق عمر، وأول من يأخذ كتابه بيمينه عمر، له شعاع كشعاع الشمس فيدخل الجنة عمر»(٤). والمصافحة هنا: كناية عن مزيد الإنعام والاتصال، وهو أن أبا بكر أول من يدخل الجنة(٥)، فيجمع بحمل الأولية على التشبيه، أى أول من يدخلها بعد أبى بكر.

الحديث الثالث عشر - أخرج البزار عن ابن عمر وابن عساكر عن أبى هريرة والصعب بن جثامة: أن رسول الله ﷺ قال: «عمر سراج أهل الجنة»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٩٥)، والترمذي (٣٦٨٢)، وابن حبان (٦٨٩٥) من حديث ابن عمر. وأخرجه أبو داود (٢٩٦٢)، وابن ماجة (١٠٨)، والحاكم (٣/ ٨٧)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٩١) من حديث أبي ذر، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وأخرجه أحمد (٢/ ٤٠١)، وابن حبان (٦٨٨٩)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٥٠)، والبزار (٣/ ١٧٤) من حديث أبي هريرة وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٦٩): رواه أحمد والبزار، والطبراني في الأوسط، ورجال البزار رجال الصحيح غير الجهم بن أبي الجهم، وهو ثقة. وأخرجه الطبراني في الكبير (١٠٧٧) من حديث بلال. وقال الهيثمي (٩/ ٦٩): فيه أبو بكر بن أبي مريم، وقد اختلط.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٩١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٣) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٢٧٢١)، وعزاه لابن عدي.

(٤) أخرجه ابن ماجة (١٠٤) من طريق داود بن عطاء المديني، عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب وأخرجه الحاكم (٣/ ٨٤) من طريق آخر عن سعيد، كلاهما عن أبي بن كعب. في إسناد ابن ماجة داود بن عطاء ضعيف كما في التقريب ونقل محقق سنن ابن ماجه قول ابن كثير في جامع المسانيد: هذا الحديث منكر جدًا؛ وما هو أبعد من أن يكون موضوعًا. اهـ وتعقب الذهبي الحاكم فقال: موضوع، وفي إسناده كذاب.

(٥) تقدم في فضائل أبي بكر.

(٦) أخرجه البزار (٢٥٠٢- كشف الأستار) من حديث ابن عمر. وقال الهيثمي (٩/ ٧٧) فيه عبد الله بن إبراهيم بن أبي عمرو الغفاري، وهو ضعيف. وأخرجه أبو نعيم في الحلية =

الحديث الرابع عشر - أخرج البزار عن قدامة بن مظعون عن عمه عثمان بن مظعون قال: قال رسول الله ﷺ: « هذا غلق العتبة » وأشار بيده إلى عمر، لا يزال بينكم وبين الفتنة باب شديد الغلق ما عاش هذا بين أظهركم »(١).

الحديث الخامس عشر - أخرج الطبراني في الأوسط والحكيم في نوادر الأصول عن ابن عباس قال: جاء جبريل - عليه السلام - إلى النبي ﷺ، فقال: « أقرئ عمر السلام، وأخبره أن: غضبه عز، ورضاه حكم »، وفي رواية « أتاني جبريل، فقال: أقرئ عمر السلام، وقل له: إن رضاه حكم، وإن غضبه عز »(٢).

الحديث السادس عشر - أخرج ابن عساكر وابن عدي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « ما في السماء ملك إلا وهو يوقر عمر، ولا في الأرض شيطان إلا وهو يفرق من عمر »(٣).

الحديث السابع عشر - أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة: « إن الله باهى بأهل عرفة عامة، وباهى بعمر خاصة(٤)».

الحديث الثامن عشر - أخرج الطبراني والديلمي عن الفضل بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « الحق بعدي مع عمر حيث كان، يدور معه حيث دار »(٥).

= (٦/ ٣٣٣) من حديث أبي هريرة. وفيه الواقدي متروك، كما في التقريب، وأخرجه ابن عساكر كما في كشف الخفاء (٢/ ٩٤)، وقال العجلوني: سنده ضعيف. وينظر كنز العمال (٣٢٧٣٤).

(١) أخرجه البزار (٢٥٠٦-كشف الأستار) والطبراني في الكبير (٩/ ٢٦-٢٧) رقم (٨٣٢١). وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٧٥) فيه جماعة لم أعرفهم، ويحيى بن المتوكل ضعيف.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٦٦٥- مجمع البحرين) وقال الهيثمي (٩/ ٧٢): فيه خالد بن يزيد العمري وهو ضعيف.

(٣) أخرجه ابن عدي (٦/ ٣٤٩)، والحاكم في تاريخ نيسابور، والديلمي كما في كشف الخفاء (٢/ ٤١٨). وقال ابن عدي: هذا باطل، وأقره الذهبي في الميزان (٦/ ٥٤٩) في ترجمة موسى بن عبد الرحمن الثقفي الصنعاني.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٦٦٧- مجمع البحرين) وقال الهيثمي (٩/ ٧٣): فيه عبد الرحمن بن إبراهيم القاص، وثقه أحمد، وضعفه الجمهور.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (١٨/ ٢٨٠) رقم (٧١٨)، وفي الأوسط (١٢٢٦- مجمع البحرين) عن الفضل مطولاً، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٩): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وأبو يعلى بنحوه. . . ، وفي إسناد أبي يعلى عطاء بن مسلم، وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه جماعة، وفي إسناد الطبراني من لم أعرفهم. وينظر: ضعفاء العقيلي (٣/ ٤٨٢- ٤٨٣).

الحديث التاسع عشر - أخرج الطبرانى عن سديسة قالت: قال رسول الله ﷺ: « إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خر لوجهه »(١).

الحديث العشرون - أخرج الطبرانى عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: « قال لى جبريل ليبكين الإسلام على موت عمر » رضى الله عنه(٢).

الحديث الحادى والعشرون - أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: « من أبغض عمر فقد أبغضنى، ومن أحب عمر فقد أحبنى، وإن الله باهى بالناس عشية عرفة عامة، وباهى بعمر خاصة، وإنه لم يبعث الله نبيا إلا كان فى أمته محدَّث، وإن يكن فى أمتى منهم أحد، فهو عمر » قالوا: يا رسول الله، كيف محدث ؟ قال: تتكلم الملائكة على لسانه(٣).

الحديث الثانى والعشرون - أخرج أبو داود عن عمر: أن رسول الله قال: له: « لا تَنْسَنَا يا أخى من دعائك »، وفى رواية قال له: « يا أخى أشركنا فى صالح دعائك، ولا تَنْسَنَا »(٤).

الحديث الثالث والعشرون - أخرج النجار عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: « الصدق بعدى مع عمر حيث كان »(٥).

الحديث الرابع والعشرون - أخرج أحمد والترمذى وابن حبان فى صحيحه عن أنس والشيخان عن جابر وأحمد عن بريدة بن الحصيب: أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٣٠٥) رقم (٧٧٤) من طريق الأوزاعي عن سديسة مرفوعًا. وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٧٣): لا نعلم الأوزاعي سمع أحدًا من الصحابة. ورواه في الأوسط (٣٦٥٩- مجمع البحرين) عن الأوزاعي عن سالم عن سديسة وهو الصواب، وإسناده حسن، إلا أن عبد الرحمن بن الفضل بن الموفق لم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦١) ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٧٥)، وقال الهيثمي (٩/ ٧٧): وفيه حبيب كاتب مالك، وهو متروك كذاب.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٦٦٨- مجمع البحرين) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٧٢): وفيه أبو سعد خادم الحسن، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ: وقال الذهبي في الميزان (٧/ ٣٧٢): لايدرى من ذا، وخبره باطل.

(٤) أخرجه أبو داود (١٤٩٨)، والترمذي (٣٥٦٢)، وابن ماجة (٢٨٩٤)، وأحمد (١/ ٢٩)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٠٦)، والبيهقي (٥/ ٢٥١) من حديث ابن عمر عن عمر، به.

(٥) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٢٧١٦) وعزاه لابن النجار، (٣٢٧٥٥) وعزاه لابن النجار والديلمي.

« دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب، فقلت: لمن هذا القصر ؟ قالوا: لرجل من قريش، فظننت أنى أنا هو، فقلت: ومن هو ؟ قالوا: عمر بن الخطاب، فلولا ما علمت من غيرتك لدخلته »(١).

الحديث الخامس والعشرون - أخرج الطبرانى وابن عدى: أن رسول الله ﷺ قال: « عمر معى، وأنا مع عمر، والحق بعدى مع عمر حيث كان »(٢).

الحديث السادس والعشرون - أخرج الترمذى والحاكم عن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه -: أن النبى ﷺ قال: « ما طلعت الشمس على خير من عمر »(٣) قلت: المراد: بعد أبى بكر، جمعا بينه وبين ما ورد من مثله فى حق أبى بكر رضى الله عنهما.

الحديث السابع والعشرون - أخرج ابن سعد عن أيوب بن موسى قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه، وعمر الفاروق فرق الله به بين الحق والباطل »(٤).

الحديث الثامن والعشرون - أخرج الطبرانى عن عصمة بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال كذا: « ويحك إذا مات عمر فإن استطعت أن تموت فمت »(٥).

الحديث التاسع والعشرون - أخرج فى المصابيح عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: « أشد أمتى فى أمر الله عمر »(٦).

الحديث الثلاثون - عن الحسن الفردوسى قال: لقى عمر أبا ذر فأخذ بيده

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٠)، والترمذي (٣٦٨٨)، وابن حبان (٥٤، ٦٨٨٧) من حديث أنس وأخرجه البخاري (٣٦٧٩)، ومسلم (٢٠-٢٣٩٤) من حديث جابر. وقد أخرجاه أيضًا من حديث أبي هريرة، وقد تقدم قريبًا. وأخرجه أحمد (٥/ ٣٥٤، ٣٦٠)، والترمذي (٣٦٨٩) من حديث بريدة.

(٢) تقدم قريبًا من حديث الفضل بن عباس.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٨٤)، والحاكم (٣/ ٩٠)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٧٤)، والعقيلي (٣/ ٤) وقال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بذاك. وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: الحديث شبه موضوع.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٠٥).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ١٨٠) رقم (٤٧٨)، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٨٢): فيه الفضل بن المختار، وهو ضعيف.

(٦) ذكره ابن كثير في البداية (٧/ ١٥١)، دون أن يعزوه.

فعصرها، فقال أبو ذر: دع يدى يا قفل الفتنة، وعرف عمر أن لكلمته أصلا، فقال: يا أبا ذر، ما قفل الفتنة ؟ فقال أبو ذر: جئتَ يومًا ونحن عند النبى ﷺ، فكرهتَ أن تتخطى رقاب الناس، فجلست فى أدبارهم، فقال ﷺ: « لا تصيبكم فتنة ما دام هذا معكم »[(١)]. خرجه المخلص الذهبي والرازى والملا فى سيرته، ومعناه فى الصحيح من حديث حذيفة، ولفظه: قال: كنا عند عمر، فقال أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ فى الفتنة. قال حذيفة: قلت: أنا، فقال: هات، فقلت: سمعت من رسول الله ﷺ يقول: فتنة الرجل فى أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »، فقال عمر: ليس هذا أريد، أريد التى تموج كموج البحر. قال: قلت: مالك ولها يا أمير المؤمنين ؟ إن بينك وبينها بابا مغلقا، فقال: يكسر الباب أو يفتح ؟ قال: لا بل يكسر. قال ذلك أحرى ألا يغلق. قال: قلنا لحذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب ؟ قال: نعم، كما يعلم أن دون غد الليلة؛ فإنى حدثته حديثا ليس بالأغاليط. قال: فهبنا أن نسأل حذيفة من الباب، فقلنا لمسروق: سله، فسأله، فقال: عمر. أخرجه البخارى ومسلم[(٢)].

عن عبد الله بن سلام أنه مر بعبد الله بن عمر وهو نائم، فحركه برجله، وقال: من ؟ قال: أنا عبد الله بن عمر، فقال: قم يا بن قفل جهنم، فقام عبد الله وقد تغير وجهه حتى أتى والده عمر، فقال له: ما سمعه من عبد الله بن سلام، فقال عمر: الويل لعمر إن كان بعد عبادة أربعين سنة، ومصاهرة النبى ﷺ، وقضاياه فى المسلمين بالاقتصاد أن يكون مصيره إلى جهنم، قال: فقام عمر، وتقنع بطيلسانه، وألقى الدرة على عاتقه، فاستقبله عبد الله بن سلام، فقال له عمر: بلغنى عنك أنك قلت لابنى: يا بن قفل جهنم، قال ابن سلام: نعم. قال: فكيف قلت إنى فى جهنم حتى أكون قفل جهنم ؟! قال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن تكون فى جهنم، ولكنك قفل جهنم. قال كيف ؟! قال: أخبرنى أبى عن آبائه عن موسى بن عمران - عليه

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٦٦٩- مجمع البحرين)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٧٦): ورجاله رجال الصحيح غير السري بن يحيى، وهو ثقة ثبت، ولكن الحسن البصري لم يسمع من أبي ذر فيما أظن.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٥)، ومسلم (٢٣١- ١٤٤) كتاب الإيمان (٢٦-١٤٤) كتاب الفتن.

السلام - عن جبريل: أنه قال: يكون فى أمة محمد رجل يقال له: عمر بن الخطاب أحسن الناس دينا، وأحسنهم يقينا، ما دام فيهم فالدين عال، واليقين فاش، فاستمسك بالعروة الوثقى من الدين فجهنم مقفلة، فإذا مات عمر فرق الدين، وافترق الناس على فرق عن أهواء، وفتحت أقفال جهنم فيدخل فيها(١).

الحديث الحادى والثلاثون - عن عمران بن حصين قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا كان يوم القيامة وحشر الناس، جاء عمر بن الخطاب حتى يقف فى الموقف، فيأتيه شيء أشبه شيء به، فيقول له: جزاك الله خيرًا، فيقول له: من أنت ؟ فيقول: أنا الإسلام، جزاك الله عنى يا عمر خيرًا، ثم ينادى مناد: ألا لا يدفعن لأحد كتاب حتى يدفع لعمر بن الخطاب، ثم يعطى كتابه بيمينه ويؤمر به إلى الجنة. قال: فبكى عمر، وأعتق جميع ما يملكه وهم إذ ذاك تسعة عشر(٢).

الحديث الثانى والثلاثون - عن ابن عباس - رضى الله عنهما -: نظر رسول الله ﷺ إلى عمر ذات يوم وتبسم، ثم قال: أتدرى يا بن الخطاب لم تبسمت إليك ؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: إن الله - عز وجل - نظر إليك بالشفقة والرحمة ليلة عرفة، وجعلك مفتاح الإسلام(٣).

الحديث الثالث والثلاثون - عن أنس - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: « عمر بن الخطاب أول من يسلم عليه الحق يوم القيامة، وكل أحد مشغول بأخذ الكتاب وقراءته »(٤). أخرجه فى الفضائل.

الحديث الرابع والثلاثون - عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « عمر بن الخطاب من أهل الجنة »(٥) أخرجه أبو حاتم.

الحديث الخامس والثلاثون - عن زيد بن أبى أوفى: أن رسول الله ﷺ قال لعمر

---

(١) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٥٨٢٠) عن ابن عباس وعزاه لابن عساكر.

(٢) ينظر: الرياض (٢/ ٣٠٧،٣٠٨)، وفيه وهم تسعة، بدلاً من قوله: تسعة عشر.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٤٣٠) عن ابن عباس به، إلا أنه قال: «إن الله باهى ملائكته ليلة عرفة بأهل عرفة عامة، وباهى بك خاصة» وقال الهيثمي (٩/ ٧٣): فيه رشدين بن سعد مختلف في الاحتجاج به.

(٤) تقدم حديث أبي: «أول من يصافحه الحق عمر، وأول من يأخذ كتابه بيمينه عمر، له شعاع كشعاع الشمس فيدخل الجنة عمر».

(٥) أخرجه ابن حبان (٦٨٨٤).

ابن الخطاب: « أنت معى فى الجنة ثالث ثلاثة »(١).

الحديث السادس والثلاثون - عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال: « ينادى مناد يوم القيامة: أين الفاروق ؟ فيؤتى، فيقول: مرحبًا بك يا أبا حفص، هذا كتابك إن شئت فاقرأه، وإن شئت فلا، فقد غفرت لك، ويقول الإسلام: يا رب، هذا عمر أعزنى فى دار الدنيا فأعزه فى عرصات القيامة، فعند ذلك يحمل على ناقة من نور، وقد كسى حلتين لو نشرت إحداهن لغطت الخلائق؛ ثم يسير بين يديه سبعون ألف لواء؛ ثم ينادى مناد: يأهل الموقف هذا عمر فاعرفوه. خرجه الفضائلى(٢).

الحديث السابع والثلاثون - عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « من أحب عمر عمّر الله قلبه بالإيمان »، أخرجه الفضائلى(٣).

الحديث الثامن والثلاثون - عن مالك بن أنس - رضى الله عنه - قال: أصاب الناس قحط فى زمن عمر، فجاء رجل إلى قبر النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله، استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا. قال فأتاه رسول الله ﷺ فى المنام، فقال: ائت عمر ومره أن يستسقى للناس فإنهم يسقون، وقل له: عليك الكيس، الكيس، فأتى الرجل عمر فأخبره، فبكى عمر، وقال: يا رب، ما آلو إلا ما عجزت عنه(٤). خرجه البغوى فى الفضائل وأبو عمرو.

الحديث التاسع والثلاثون - عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « اتقوا غضب عمر، فإن الله يغضب لغضبه » خرجه الملا فى سيرته وصاحب النزهة.

---

(١) أخرجه مطولاً الطبراني في الكبير (٥١٤٦)، والبخاري في التاريخ الصغير (١/ ٢٥٠)، وابن قانع في معجمه (٢٥٠)، وابن عساكر كما في التهذيب (٦/ ٢٠٢)، والبغوي في معجمه، والباوردي كما في الدر المنثور (٤/ ٦٦٩) وقال البخاري: هذا إسناد مجهول، لا يتابع عليه، ولا يعرف سماع بعضهم من بعض، لا أصل له. وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢١٩): هذا حديث لا يصح.

(٢) ذكره المحب في الرياض (٢/ ٣١٨).

(٣) ذكره المحب في الرياض (٢/ ٣١٩).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٥٦) رقم (٣٢٠٠٢) وذكره الهندي في الكنز (٢٣٥٣٥) وعزاه للبيهقي في الدلائل. وينظر تاريخ الإسلام عهد الخلفاء الراشدين (٢٧٣).

وفى رواية: « لا تغضبوا عمر فإن الله يغضب إذا غضب »[١].

الحديث الأربعون : عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: رأى النبى ﷺ ثوبًا أبيض على عمر، فقال: أجديد قميصك أم غسيل ؟ فقال عمر: بل جديد، فقال ﷺ: « البس جديدا، وعش حميدًا، ومت شهيدا ». قال عبد الرزاق: وافقه الثورى عن إسماعيل بن أبى خالد « ويعطيك الله قرة العين فى الدنيا والآخرة ». أخرجه أبو حاتم[٢].

وعن عمر وقد قرأ يومًا على المنبر: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾ [الرعد:٢٣] هل تدرون ما جنات عدن ؟ قصر فى الجنة له خمسة آلاف باب، على كل باب عشرون ألفا من الحور العين، لا يدخله إلا نبى، وهنيئا لصاحب هذا القبر، وأشار إلى قبره - عليه الصلاة والسلام -، أو صديق وأشار إلى قبر أبى بكر الصديق، أو شهيد وأنى لعمر الشهادة وهو بجزيرة العرب، ثم قال: إن الذى أخرجنى عن حنتمة بنت هاشم بن المغيرة - يعنى أمه - قادر أن يسوقها إلى . قال ابن مسعود - رضى الله عنه -: فساقها الله إليه على يد شر خلقه مجوسى عبد مملوك للمغيرة بن شعبة[٣]، كما سيأتى ذكر هذا بالأثر عند ذكر وفاته، رضى الله تعالى عنه .

الحديث الحادى والأربعون - عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ قال: « كيف بك يا بن الخطاب إذا جاءك منكر ونكير، وهما ملكان فظان، غليظان، أسودان، أزرقان، ألوانهما كالليل الدامس، أصواتهما كالرعد القاصف، عيونهما كالشهب الثواقب، أسنانهما كالرماح، يسحبان شعورهما على الأرض، بيد كل منهما مطرقة لو اجتمع الثقلان لم يقدروا على حملها، يسألانك عن ربك وعن

(١) أخرجه الخطيب (٥/ ٤٣٠) في ترجمة محمد بن عبد الله أبي لقمان النخاس، قال الخطيب: كان ضعيفًا يروي المنكرات عن الثقات. وذكره الهندي في الكنز (٣٢٧٨٦) وزاد نسبته إلى الحاكم في تاريخه، وأبي نعيم في فضائل الصحابة، والديلمي، وابن النجار.

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٨٩٧)، وهو في مصنف عبد الرزاق (٢٠٣٨٢)، وأخرجه من طرق عنه أحمد (٢/ ٨٨-٨٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٨٥) رقم (١٠١٤٣)، وابن ماجة (٣٥٥٨)، والطبراني في الكبير (١٣١٢٧)، وابن السني في اليوم والليلة (٢٦٨) والبغوي في شرح السنة (٦/ ١٧٣) رقم (٣٠٠٦) عن معمر عن الزهري عن سالم عن ابن عمر، به.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٠٧) دون قول ابن مسعود، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم.

نبيك ؟ فقال عمر - رضى الله عنه -: أيأتيانى وأنا ثابت كما أنا ؟ قال: نعم. قال عمر: فسأكفيكهما - وفى رواية بفيهما الحجر - فقال رسول الله ﷺ: والذى بعثنى بالحق نبيًّا لقد أخبرنى جبريل: أنهما يأتيانك ويسألانك، فتقول أنت: الله ربى فمن ربكما ؟ ومحمد نبى فمن نبيكما ؟ والإسلام دينى فما دينكما ؟ فيقولان: واعجباه! ما ندرى نحن أرسلنا إليك أم أنت أرسلت إلينا ؟! » خرجه عبد الواحد بن محمد بن على المقدسى فى كتابه التبصرة[1].

الحديث الثانى والأربعون : روى الحاكم فى تاريخه عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: « رضَا الله رضا عمر، ورضَا عمر رضا الله تبارك وتعالى »[2].

الحديث الثالث والأربعون : عن أبى هريرة: « لو لم أبعث فيكم لبعث عمر، إن الله - عز وجل - أيّد عمر بملكين يوفقانه ويسددانه، فإذا أخطأ صرفاه حتى يكون صوابًا » أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس[3].

أقول: هذا ما ظفرت به من الأحاديث الواردة فى شأنه خاصة، وما ورد مشتركا بينه وبين أبى بكر أو مع الثلاثة أو مع الأربعة أو مع العشرة فهى كثير، لم أورد منه شيئا، وكذلك ما ورد فى الثناء عليه من الصحابة والسلف الصالح من المناقب والكرامات والصلابة فى الدين والزهد والخوف من الله وغير ذلك من أوصافه الجميلة ومزاياه الجليلة، فهى كثير مبسوط مسطر، لم أورد منه شيئا؛ طلبا للاختصار، واعتمادا على ما ذكره المؤلفون فى محاله.

ذكر وفاته شهيدا رضى الله عنه

قال الذهبى: قال سعيد بن المسيب: إن عمر لما نفر من منى أناخ بالأبطح، ثم كوم كومة من بطحاء، ثم استلقى ورفع يديه إلى السماء فقال: اللهم كبرت سنى، وضعفت قوتى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط. ثم رجع

---

(١) ذكره الحافظ في المطالب العالية (٤٦٠٣) مختصرًا، دون آخره، . عن عطاء بن يسار، وعزاه للحارث بن أبي أسامة، وقال رجاله ثقات مع إرساله.

(٢) ذكره الهندي في الكنز (٣٢٧٤٨)، وعزاه للحاكم في تاريخه.

(٣) ذكره المتقى الهندي في الكنز (٣٢٧٦١) وعزاه للديلمي عن أبي هريرة وأبي بكر.

إلى المدينة، فما انسلخ ذو الحجة حتى طعن(١).

وقالت عائشة - رضى الله عنها -: لما كان آخر حجة حجها عمر بأمهات المؤمنين مررت بالمحصب، فسمعت رجلا على راحلة رفع عقيرته، فقال: [من الطويل]

أبعد قَتِيلٍ بالمدينة أَظْلَمَتْ ... له الأرضُ تهتزُّ العِضَاهُ بأسوقِ؟!
جزى الله خيرًا من إمامٍ وباركتْ ... يَدُ الله فى ذاك الأدِيمِ الممزَّقِ
فمن يَسْعَ أو يركبْ جناحى نعامةٍ ... ليدركَ ما قدمتَ بالأمس يُسْبَقِ
قَضيْتَ أمورًا ثُمَّ غادرتَ بَعْدهَا ... بَوَائِقَ فِى أكمَامِهَا لم تُفَتَّقِ
ومَا كنْت أخْشَى أنْ تكونَ وفاتُهُ ... بكفَّىْ سَبَنْتَى أهرتِ الشِّدقِ أزْرقِ

قالت: فلم ندر ذا الراكب من هو، وكنا نتحدث أنه من الجن، فرجع عمر من تلك الحجة، وطعن فى ذى الحجة(٢). وقولها: لما كان آخر حجة؛ وذلك لأن سيدنا عمر - رضى الله عنه - حج عشر سنين متواليات بأزواج النبى ﷺ آخرهن سنة ثلاث وعشرين من الهجرة حج بهن فى الهوادج عليهن الستور، ووصى عليهن ابنه عبد الرحمن، فكان ينزلهن فى الشعب، لا منفذ له صونا لهن، وينزل هو عند بابه.

وروى عن سيدنا عمر - رضى الله تعالى عنه - أنه لما وصل إلى المدينة قال: اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك، واجعل موتى فى بلد رسولك. كذا فى البخارى(٣).

وقال معدان بن أبى طلحة اليعمرى: خطب عمر بعد رجوعه إلى المدينة يوم جمعة، فذكر نبى الله وأبا بكر، ثم قال: رأيت كأن ديكا نقرنى نقرة أو نقرتين، وإنى لا أراه إلا لحضور أجلى، وإن قوما يأمروننى أن أستخلف، وإن الله لم يكن ليضيع دينه ولا خلافته، فإن عجل بى أمرى فالخلافة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفى

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٥٥)، والحاكم (٣/ ٩١-٩٢)، وينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين (٢٧٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٥٧) رقم (٣٢٠٠٦)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٥٤، ٢٨٥ - ٢٨٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٩٠).

رسول الله ﷺ، وهو عنهم راض: عثمان، وعلى، والزبير، وطلحة، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد(١).

وقال الزهرى: كان عمر لا يأذن لسبى قد احتلم فى دخول المدينة حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة - وهو عامله على الكوفة - يذكر له أن عنده غلاما عنده صنائع، ويستأذنه أن يدخل المدينة، ويقول: إن عنده أعمالاً كثيرة يحسنها فيها منافع للناس، إنه: حداد، نقاش، حجار؛ فأذن له أن يرسل به، وضرب عليه المغيرة بن شعبة مائة درهم فى الشهر، فجاء إلى عمر فشكا كثرة الخراج عليه، فقال له عمر: ما خراجك بكثير وأنت تحسن هذه الصنائع، فانصرف ساخطا يتذمر، ويقول: وسع عدل عمر العالمين غيرى، فمكث عمر ليالٍ ثم دعاه، فقال له: ألم أخبر أنك لو تشاء لصنعت رحى تطحن بالريح ؟ فالتفت إلى عمر عابسًا، وقال: لأصنعن لك رحى يتحدث الناس بها، فلما ولى قال عمر لأصحابه: توعدنى العبد آنفا، ثم اشتمل العبد واسمه: فيروز، وكنيته: أبو لؤلؤة على خنجر ذى رأسين، فقبضه فى وسطه، فكمن له فى زاوية من زوايا المسجد فى الغلس، وكان عمر يقول للناس حال القيام للصلاة: أقيموا صفوفكم قبل أن يكبر، فجاء هذا الغلام المجوسى: فيروز أبو لؤلؤة، وقام حذاءه فى الصف، فلما كبر عمر للصلاة ضربه بين كتفيه وفى خاصرته فسقط(٢).

قال عمرو بن ميمون: إنى لقائم فى الصلاة وما بينى وبين عمر إلا ابن عباس، فما هو إلا أن كبر بعد أن ضرب، فسمعته - رضى الله عنه - يقول: قتلنى الكلب، وطار العلج، لا يمر على أحد يمينا ولا شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم سبعة أو [تسعة](٣)، فطرح رجل عليه برنسا وضمه، فلما علم عدو الله أنه مأخوذ نحر نفسه، ثم قال عمر - رضى الله عنه -: الحمد لله الذى لم يجعل ميتتى على يد أحد يدّعى الإسلام(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٣٧) رقم (٣٧٠٦٢) وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٥٥)، والحاكم (٣/ ٩٠ - ٩١). وينظر تاريخ الإسلام عهد الخلفاء الراشدين (٢٧٦).

(٢) ينظر طبقات ابن سعد (٣/ ٢٦٢)، وكنز العمال (٣٦٠٤٨)، وعهد الخلفاء الراشدين (٢٧٦).

(٣) ليست في صحيح البخاري .

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٠٠) .

قال ابن خلكان: ذكر أنه لما طعن عمر اختار من الصحابة - رضى الله عنهم - الستة النفر الذين تقدم ذكرهم، وكان سعد غائبا، فأرسل إليه، فجعل أمره إلى عبد الرحمن بن عوف كما سأذكره، وجعل ابنه عبد الله بن عمر مشيرا، وليس له من الأمر شيء، وأمر المسور بن مخرمة - وفى رواية أمر أبا طلحة الأنصارى - أن يكون فى خمسين رجلا يكونون مع هؤلاء النفر أهل الشورى، قال فإنهم فيما أحسب يجتمعون فى بيت، فقم أنت فى أصحابك على بابه فلا تترك أحدا يدخل عليهم، ثم إن اتفقوا على واحد إلى ثلاثة أيام، وإلا فاضربوا أعناق الكل؛ فلا خير للمسلمين فيهم، ولو افترقوا فرقتين فالفرقة التى فيها عبد الرحمن بن عوف(١).

وأوصى أن يصلى بالناس صهيب بن سنان الرومى فى تلك الثلاثة الأيام(٢).

عن أبى الحويرث قال: لما مات عمر، ووضع؛ ليصلى عليه، أقبل على وعثمان أيهما يصلى عليه، فقال لهما عبد الرحمن بن عوف: إن هذا لهو الحرص على الإمارة، لقد علمتما ما هذا إليكما، وقد أوصى به إلى غيركما، يا صهيب تقدم فصل عليه(٣).

قال الذهبى: قال سالم بن عبد الله بن عمر: دخل أصحاب الشورى ما عدا سعدًا فإنه كان غائبا على عمر - رضى الله تعالى عنه - فنظر إليهم، ثم قال: إنى نظرت لكم فى أمر الناس، فلم أجد عند أحد شقاقا إلا أن يكون فيكم، ثم قال مخاطبا عثمان وعليا وابن عوف: إن قومكم لن يدَعوا أن يؤمروا أحدكم أيها الثلاثة، فإن كنتَ على شيء من أمر الناس يا عثمان، فلا تحملن بنى أبى معيط على رقاب الناس، وإن كنت يا بن عوف على شى من أمر الناس فلا تحملن بنى زهرة على رقاب الناس، وإن كنت يا بن أبى طالب على شيء من أمر الناس، فلا تحملن بنى هاشم على رقاب الناس، قوموا فتشاوروا، وأمروا أحدكم. فقاموا يتشاورون. قال ابن عمر: فدعانى عثمان؛ ليدخلنى فى هذا الأمر، فقلت له: لم يدخلنى أمير

---

(١) ينظر طبقات ابن سعد (٣/ ٢٧٧-٢٧٨)، وتاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين (٣٠٤).

(٢) ينظر مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٤٣٦-٤٣٧) وطبقات ابن سعد (٣/ ٢٦٢)، والفتح (٧/ ٤٣٠).

(٣) ينظر طبقات ابن سعد (٣/ ٢٨٠)، والمستدرك (٣/ ٩٢)، وتاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص ٢٨٢ .

المؤمنين معكم، وقلت: وكيف تؤمرونى وأمير المؤمنين حى ؟ فكأنما أيقظتهم، فقال عمر: أمهلوا فإذا حدث بى حادث فأمروا[1].

قال الذهبى: فلما دفن اجتمع هؤلاء الرهط أهل الشورى، فقال عبد الرحمن لعثمان خلوة: إن لم أبايعك فبمن تشير على ؟ فقال: أشير عليك بعلى، وقال لعلى: إن لم أبايعك فبمن تشير على ؟ فقال: بعثمان، ثم قال لطلحة: أما أنا وأنت فلا نريدها، فبمن تشير على ؟ فقال: أشير بعثمان، ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة، فقال الزبير: قد جعلت أمرى إلى على، وقد كان سعد جعل أمره إلى عبد الرحمن بن عوف، وقال طلحة: قد جعلت أمرى إلى عثمان، فخلا عبد الرحمن بن عوف وعلى وعثمان، فقال عبد الرحمن: أنا لا أريدها، فأيكما يبرأ من هذا الأمر لصاحبه، فيجعله لله، والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم، وليحرصن على صلاح الأمة ؟ فسكت الشيخان: على، وعثمان. فقال عبد الرحمن: اجعلاه إليّ والله عليّ لا آلوكم عن أفضلكم. قالا: نعم، فخلا بعلى، وقال له: لك من القدم فى الإسلام والقرابة ما قد علمت، الله عليك وعهده، لئن أمرتك لتعدلن، ولئن أمرتُ عليك لتسمعن وتطيعن ؟ قال على: نعم. ثم خلا بعثمان، فقال له مثل ذلك. فقال: نعم.

فلما أخذ ميثاقهما نودى فى الناس: الصلاة جامعة، فخرج عبد الرحمن عليه عمامة النبى ﷺ التى عممه إياها، متقلدًا سيفه، وصعد المنبر، فوقف طويلا يدعو سرًا، ثم قال: يأيها الناس، إنى قد سألتكم سرًا وجهرا، ثنا ووحدانا على أمانتكم، فلم أجدكم تعدلون عن أحد هذين الرجلين: على، وعثمان. قم إليّ يا على، فقام على - رضى الله عنه - ووقف جنب المنبر، فأخذ بيده، فقال: تبايعنى على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفعل أبى بكر ؟ فقال على: اللهم لا، ولكن على جهدى من ذلك وطاقتى.

ثم قال عبد الرحمن: يا عثمان، قم. فقام فأخذ بيده فى موقف على، وقال له: كما قال لعلى، فقال عثمان: اللهم نعم. فرفع عبد الرحمن بن عوف رأسه إلى

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢٦١-٢٦٢) وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٤٣٠): إسناده صحيح. وينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين (٢٨١-٢٨٢).

سقف المسجد ويده فى يد عثمان، ثم قال: اللهم اشهد، اللهم إنى جعلت ما فى رقبتى فى رقبة عثمان. قال: فازدحم الناس على عثمان يبايعونه حتى غشوه عند المنبر، فأقعد على الدرجة الثانية من المنبر، وعبد الرحمن قاعد فى مقعد النبى ﷺ من المنبر فوقه، قال: وتلكأ على، فقال عبد الرحمن: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]، فرجع على، وشق الناس حتى وصل إلى عثمان، وبايعه وهو يقول خدعة، وأى خدعة(١)!!.

وبقى عمر - رضى الله عنه - بعد طعنه ثلاثة أيام، وكان طعنه يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة(٢).

قال العلامة الشامى فى سيرته: أرسل عمر - رضى الله عنه - وهو جريح ابنه عبد الله إلى عائشة - رضى الله عنها - فقال له: قل لها يقرأ عمر عليك السلام - ولا تقل أمير المؤمنين؛ فإنى اليوم لست أميرهم - وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فجاء إليها عبد الله بن عمر، فسلم، واستأذن؛ فدخل، فوجدها تبكى، فقال لها؛ فأذنت وقالت: كنت أردته - تعنى مكان القبر - لنفسى، ولأوثرنه اليوم على نفسى.

فلما أقبل عبد الله من عندها قيل لعمر: هذا عبد الله. قال: ارفعونى، فأسنده رجل، فقال لعبد الله: ما لديك ؟ فقال عبد الله: الذى تحب، أذنت عائشة. قال: الحمد لله، ما كان شيء أهمّ إليّ من ذلك، فإذا أنا قبضت فاحملونى، ثم سلم وقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لى فأدخلونى، وإن ردت فردونى إلى مقابر المسلمين(٣).

---

(١) ينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين (٣٠٤)، وينظر كذلك تاريخ الطبري (٤/ ٢٣٧-٢٣٩) وقال ابن كثير في البداية (٧/ ١٦٥): وما يذكره كثير من المؤرخين كابن جرير، وغيره من رجال لا يعرفون أن عليًا قال لعبد الرحمن: خدعتني، وإنك إنما وليته، لأنه صهرك، وليشاورك كل يوم في شأنه، وأنه تلكأ حتى قال له عبد الرحمن ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا﴾ إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت في الصحاح فهي مردودة على قائليها وناقليها والله أعلم والمظنون بالصحابة خلاف ما يتوهم كثير من الرافضة، وأغبياء القصاص الذين لا تمييز عندهم بين صحيح الأخبار وضعيفها، ومستقيمها وسقيمها ومبادها وقويمها، والله الموفق للصواب.ا هـ.

(٢) ينظر طبقات ابن سعد (٣/ ٢٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٩٢) من حديث عمرو بن ميمون الأودي.

وأوصاهم أن يقصدوا فى كفنه، ولا يتغالوا.

وغسله ابنه عبد الله، وحمل على سرير رسول الله ﷺ، وصلى عليه صهيب فى مسجده ﷺ، وكبر عليه أربعًا، ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح، فنزل فى قبره ابنه عبد الله، وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد.

كانت مدة خلافته عشر سنين، وستة أشهر، وخمس ليال.

قال الذهبى: لما توفى عمر أظلمت الأرض، فجعل الصبى يقول: يا أماه أقامت القيامة ؟ فتقول: لا يا بنى، ولكن قتل عمر.

ذكر أولاده رضى الله عنه

كان له ثلاثة عشر: تسعة ذكور، وأربع أناث(١)، الأول عبد الله، وكان يكنى أبا عبد الرحمن، أسلم مع أبيه صغيرا بمكة، وصاحب مع أبيه وأمه وهو ابن عشر سنين، وشهد المشاهد كلها بعد أحد.

قال الدارقطنى: استصغره النبى ﷺ يوم أحد، وشهد الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة(٢) فشهد المشاهد كلها. كان عالما مجتهدًا عابدا لزومًا للسنة فارًا من البدعة ناصحًا للأمة، رؤى فى الكعبة ساجدًا يقول فى سجوده: يا رب، ما يمنعنى من مزاحمة قريش على هذه الدنيا إلا خوفك. أثنى عليه رسول الله ﷺ، فقال: « إن عبد الله رجل صالح »(٣).

قال نافع: أعتق ألف نسمة أو زاد، عاش إلى زمان عبد الملك بن مروان.

قال أبو اليقظان: زعموا أن الحجاج دس له رجلا قد سم زج رمحه، فزحمه فى الطريق، وطعنه فى ظهر قدمه، فدخل عليه الحجاج، فقال له: يا أبا عبد الرحمن من أصابك ؟ قال: أنت أصبتنى. قال: وَلم تقول هذا يرحمك الله ؟! قال: حملتَ

---

(١) ينظر طبقات ابن سعد (٣/ ٢٠١) وصفة الصفوة (١/ ١٤٢)، وتاريخ الإسلام: عهد الخلفاء الراشدين (٢٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٦٤)، ومسلم (٩١-١٨٦٨) من حديث ابن عمر قال: عرضني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد في القتال، وأنا ابن أربع عشرة سنة، فلم يجزني، وعرضني يوم الخندق، وأنا ابن خمس عشرة سنة، فأجازني.

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٤٠، ٣٧٤١)، ومسلم (١٣٩-٢٤٧٨) من حديث ابن عمر عن حفصة.

السلاح فى بلد لم يكن يحمل السلاح فيه، فمات، فصلى عليه عند الردم، ودفن فى حائط أم خرمان[١].

قلت: هذا الحائط لا يعرف اليوم بمكة ولا حولها، وإنما بالأبطح موضع يقال له: « الخرمانية » فلعله نسب إلى أم خرمان. وقال غير أبى اليقظان: دفن بـ« فخ » وهو موضع مشهور وهو ابن أربع وثمانين سنة، وله عقب منهم: عبد الرحمن، وسالم[٢]، وكان عبد الله هذا من الصلاح والدين والعقل عن أحوال الدنيا على الجانب الأعظم، فمن ذلك ما نقله العلامة الصفدى فى تذكرته، فقال: هجت عاتكة بنت عبد الرحمن زوجها ابن أبى عتيق بهذين البيتين: [من الكامل]

ذَهَبَ الإلهُ بما تعيشُ به ... وَقَمَرْتَ لبد أيمَا قَمَرِ
أنفقتَ مَالَكَ غير مُحْتَشِمٍ ... فى كُلِّ زانِيَةٍ وفى الخَمْرِ

وكان ابن أبى عتيق هذا صاحب دعابة وفكاهة، فأخذ البيتين المذكورين فى رقعة، وخرج فإذا هو بعبد الله بن عمر المشار إليه، فقال له: يا أبا عبد الرحمن اقرأ هذا وأشر عليّ برأيك، فلما قرأها قال له: ما ترى فيمن هجانى بهذا ؟ قال له ابن عمر: أرى أن تعفو عنه، وتصفح، فقال ابن عتيق: والله لئن لقيت قائلهما لأ. .كنه، فاربدّ لون عبد الله بن عمر، وأخذته رعدة واختلاط، فقال لابن أبى عتيق: ما هذا غضب الله عليك ؟! فقال له: هو ما قلت لك، والله لأفعلنها. وافترقا.

فلما كان بعد أيام لقيه عبد الله بن عمر، فأعرض عنه موليا، فقال ابن أبى عتيق: علمت يا أبا عبد الرحمن أنى لقيت قائل ذلك الشعر ف. .كته، فصعق ابن عمر، وليط به، فلما رأى ابن أبى عتيق ما ناله دنا منه، وساره فى أذنه، وقال: والله إن الشعر لامرأتى وهى التى فعلتُ بها، فقام ابن عمر - رضى الله عنهما - وقبل بين عينيه. انتهى ما ذكره الصفدى.

---

(١) ينظر المعارف لابن قتيبة (١٨٥) وأخرج البخاري (٩٦٦) عن سعيد بن جبير قال: كنت مع ابن عمر حين أصابه سنان الرمح في أخمص قدمه فلزقت قدمه بالركاب. فنزلت فنزعتها، وذلك بمنى. فبلغ الحجاج فجعل يعوده. فقال الحجاج: لو نعلم من أصابك، فقال ابن عمر: أنت أصبتني. قال: وكيف؟ قال: حملت السلاح في يوم لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم، ولم يكن السلاح يدخل الحرم.

(٢) ينظر الرياض النضرة (٢/ ٤٢٤).

قلت: رأيت فى كتاب أنساب قريش للزبير بن بكار: ابن أبى عتيق هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، رضى الله عنهم(١).

وقريب من هذه ما وقع لولده سالم بن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهم -، وهو ما رأيته بخط العلامة: نجم الدين بن عمر بن فهد القرشى، ما نصه: أخبرنا أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك الأنماطى، وذكر سندا، انتهى فيه إلى الزبير بن بكار قاضى مكة قال: حدثنى عمى عن أشعب الطماع قال: كان عبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان شفعنى ويسخنى ويدعونى، فأحدثه وألهيه، فمرض، ولهوت عنه فى بعض جرياتى أيامًا، ثم جئت منزلى، فقالت لى زوجتى بنت رومان: ويحك أين كنت؟ عبد الله بن عمرو كان ينفعك، مرض، فهو يقلق بالنهار ويسهر بالليل، أرسل إليك؛ تلهيه وتعلله فلم يجدك. قلت: إنا لله، ثم فكرت ساعة، ثم قلت: هات لى قارورة دهن خلوفية ومنديل الحمام، ففعلت، وخرجت أريد الحمام، فمررت بسالم بن عبد الله بن عمر؛ فقال لى: يا أشعب، هل لك فى هريس أهديث إلىّ ؟ قلت: نعم، جعلنى الله فداك، فدعا بها؛ فأتى بصحفة كبيرة فأكلت حتى شبعت، فجعلت أتكاره عليها، فقال: ويحك يا أشعب لا تقتل نفسك!! فإن ما فضل عنك نبعث به إلى بيتك. قلت: وتفعل ؟ قال: ما أردت إلا ذاك، فكففت يدى، فبعث بها إلى بيتى، وخرجت فدخلت الحمام فاطليت، ثم صببت على دهن الخلوفية، ثم سكبت على ماء، وخرجت وعلىّ صفرة الدهن، وقد صار لونى أصفر كأنه الزعفران. قال فلبست أطمارى، وعصبت رأسى، وأخذت معى وصبة، ثم خرجت أمشى متكئا عليها حتى جئت باب عبد الله بن عمرو بن عثمان، فلما رآنى حاجبه قال: ويحك يا أشعب ظلمناك، وغضضنا منك، وأنت قد بلغتَ ما أرى من العلة. قال: قلت: أدخلنى على سيدى أخبره، فأدخلنى عليه، فإذا عنده سالم بن عبد الله بن عمر، أتى إليه، يعوده، وعبد الله بن عمرو بن عثمان المذكور: ابن أخت سالم بن عبد الله المذكور، فقال لى عبد الله بن عمرو بن عثمان: ويحك يا أشعب ظلمناك، وغضضنا عليك، وقد بلغتَ من العلة ما أرى ؟ قال: فتضاعفت، ثم قلت: أى سيدى، كنت عند بعض من أغشاه فأصابنى قىء وبطن، فما حملت إلى

(١) ينظر طبقات ابن سعد (٥/ ١٤٩) .

منزلى إلا جنازة، فبلغنى عنك، فخرجت أدبّ إليك. قال أشعب: فنظر إليّ سالم، ثم قال لى: أشعب ؟ قلت: أشعب. قال: ألم تكن عندى آنفا. قلت: ومن أين أكون عندك جعلنى الله فداك، وأنا أموت ؟! فجعل سالم يمسح عينيه، ثم يقول: ألم تأكل الهريس آنفا عندى ؟ فأقول: هل بى آكل جعلنى الله فداك مع العلة ؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، يا أشعب إنى لأرى الشيطان يتمثل على صورتك، وما أرى مجالستك تحل. قال أشعب: وفطن بى عبد الله بن عمرو، فقال لى: يا أشعب، أتخدع خالى ؟! اصدقنى خبرك. قال: قلت: بالأمان ؟ قال: بالأمان، فحدثته حديثى، فضحك ضحكا شديدا طويلا، انتهى. والحديث شجون، يجر الفن منه إلى فنون.

والثانى من أولاده الذكور - رضى الله عنه - عبد الرحمن الأكبر شقيقه(١)، أمهما: زينب بنت مظعون، أخت عثمان بن مظعون الجمحى.

والثالث: زيد الأكبر، أمه: أم كلثوم بنت على بن أبى طالب، من فاطمة بنت رسول الله ﷺ، رمى بحجر فمات، وقد تقدم ذكره عند ذكر أمه أم كلثوم هذه، رضى الله عنها.

والرابع: عاصم، أمه: أم كلثوم جميلة بنت عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح، حمى الدبر، وهى التى كان اسمها: عاصية، فسماها عمر: جميلة، فذهبت إلى النبى ﷺ ليغير لها اسمها فسماها كما سماها عمر: جميلةً، وقد تقدم ذكر ذلك.

والخامس: زيد الأصغر. والسادس: عبيد الله، أمهما: مليكة بنت جرول الخزاعية:

كان عبيد الله شديد البطش، ولما قتل عمر قتلَ الهرمزان، وقتل جفينة وهو رجلٌ نصرانى وقتل ابنة صغيرة لأبى لؤلؤة؛ فأخذ عثمان عبيد الله ليقتص منه، فاعتذر بأن عبد الرحمن بن أبى بكر أخبره أنه رأى أبا لؤلؤة والهرمزان وجفينة - وهو الرجل النصرانى من أهل الحيرة - يدخلون يتشاورون، وبينهم خنجر له رأسان، مقبضه فى وسطه، فقتل عمر صبيحة تلك الليلة. فاستدعى عثمان عبد الرحمن بن أبى بكر فسأله، فقال: انظروا إلى السكين، فإن كانت ذاتَ طرفين؛ فما أرى القوم إلا قد

(١) ينظر ترجمته في الإصابة (٤/ ٢٨٥).

اجتمعوا على قتله. فنظروا إليها فوجدوها كما وصف عبد الرحمن، فقال عمرو بن العاص: قتل أمير المؤمنين بالأمس، ويقتل ابنه اليوم ؟! والله هذا لا يكون أبدا! فترك عثمان قتله.

ثم لحق عبيدُ الله بمعاوية حين أفضت الخلافة إلى على - كرم الله وجهه - خشية أن يقيده على بالهرمزان وصاحبه والبنتِ. ولما كان يومُ صفين، خرج مع معاوية، فقتل يومئذ[(١)].

والسابع: عبد الرحمن الأوسط، أمه أم ولد اسمها: لهية، وهو المكنى بـ« أبى شحمة » المحدود فى الخمر، الميتِ به؛ جزم بذلك الدارقطنى[(٢)].

والثامن: عبد الرحمن الأصغر، أمه أم ولد.

والتاسع: عياض بن عمر، أمه: عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وهى أخت سعد بن زيد؛ أحد العشرة، زوج أخت عمر: فاطمة بنت الخطاب، وهى التى قتل عنها - رضى الله عنه - فتزوجها بعده الزبيرُ بن العوام[(٣)].

وأما البنات الأربع:

فحفصة زوج النبى ﷺ، وقد تقدم ذكرها فى باب أزواجه - عليه الصلاة والسلام - وهى شقيقة عبد الله وعبد الرحمن الأكبر.

والثانية: رقية بنت أم كلثوم، وهى شقيقة زيد الأكبر.

والثالثة: فاطمة، أمها: أم حكيم بنت الحارث بن هشام.

والرابعة: زينب، أمها: أم ولد اسمها فكيهة؛ ذكر ذلك كله ابن قتيبة وصاحب « الصفوة »[(٤)].

وههنا حكاية ظريفة، وقعت لسيدنا عمر مع عمرو بن معدى كرب الزبيدى، أحببت إيرادها، وهى ما ذكره المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » ومنه نقلت؛ قال: بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معدى كرب: أن أرسلْ إليَّ سيفَك الذى

---

(١) ينظر ترجمة عبيد الله بن عمر بن الخطاب، في الطبقات (٥/ ١٠-١٤)، وينظر الطبقات (٣/ ٢٧١).

(٢) وينظر الإصابة (٥/ ٣٥).

(٣) ينظر تاريخ الطبري (٤/ ١٩٩).

(٤) ينظر صفة الصفوة (١/ ١٤٢).

تحضر به الحروب، المسمى بـ« الصمصامة »، فأرسل إليه به فى قراب خَلقٍ بالٍ، فأخذه عمر ثم ضربَ به فى الضريبة، فلم يَحْكِ، فرماه من يده، ثم بعث إلى عمرو يستدعيه، فلما حضر قال له عمر: إن هذا سيفك، ضربت به فلم يحك. فقال: يا أمير المؤمنين، إنك أرسلت تطلب السيف فأرسلت إليك بالسيف، ولم أرسل إليك بالزند الذى تضرب به، فعلاه عمر بالدرّة، فقال عمرو: الحمى أضرعتنى به. ثم قال له عمر: أخبرنى عن السلاح، قال: ما تريد منه ؟ فقال عمر: ما تقول فى الرمح ؟ فقال: أخوك، وربما خانك فانقصف. قال: فما تقول فى السهام ؟ قال: رسل المنايا: فمنها طائش، ومنها مصيب. قال: فما تقول فى الدروع ؟ قال: لا ترد أجلا قد حضر، وإنها لحصن حصين. قال: فما تقول فى الترس ؟ قال: نِعْمَ الجُنة، وعليه تدور الدوائر. قال: فما تقول فى السيف ؟ قال: عنده تبكيك أمك. قال: صف لى الحرب. فقال: الحرب مرة المذاق؛ إذا كشفت عن ساق، من صبر فيها عرف؛ ومن تهور فيها تلف، ثم أنشد: [من الكامل]

أَلْحَرْبُ أَوَّلَ مَا تَكُونُ فتيَّةٌ ... تَسْعَى بِزِينَتِها لِكُلِّ جَهُولِ
حَتَّى إِذَا حَمِيَتْ وشَبَّ ضِرَامُهَا ... عَادَتْ عَجُوزًا غَيْرَ ذَاتِ خَلِيلِ(١)
شَمْطَاءَ جَزَّتْ شَعْرَهَا(٢) وَتَنَكَّرَتْ ... مَكْرُوهَةً لِلَّثْمِ وَالتَّقْبِيلِ

ثم قال: إنى سائلك يا عمرو، هل انصرفت عن فارس قط ؟ فقال عمرو: لأحدثنك حديثا لم أحدث به أحدا غيرك؛ خرجت فى خيل بنى زبيد أريد بنى كنانة، فأتينا قومًا سراة، فقال عمر - رضى الله عنه -: كيف علمت أنهم سراة ؟ قال: رأيت مرابط خيل، وقدورا تكفأ، وقبابا حمرا جديدة، ونعما كثيرة وشاء. قال عمرو: فأهويت إلى أعظمها قبة، بعد ما حوينا السبى، وكان بيتًا منتبذًا من البيوت، فنظرت إليه، وإذا بامرأة بادية الجمال على فرش لها. قال: فلما نظرت إليَّ وإلى الخيل، استعبرتْ، فقلت: ما يبكيك ؟ قالت: والله ! ما أبكى على نفسى؛ ولكن أبكى حسدًا لبنات عمى، سلمن وابتلى أناس دونهن. فقلت أنا - فى ظنى -: والله! إنها لصادقة. فقلت لها: وأين هن؟ قالت: فى هذا الوادى وراءك. فقلت

(١) في مروج الذهب: حليل.
(٢) في مروج الذهب: رأسها.

لأصحابى: لا تحدثوا شيئًا حتى آتيكم. ثم همزتُ فرسى حتى علوت كثيبًا، فإذا غلام أصهب الشعر أهدب أقنى، يخصف نعلاً له، وسيفه بين يديه، وفرسه عنده، فلما نظر إليَّ نبذ النعل من يده، ثم أخذ سلاحه وأشرف على الكثيب، فلما نظر إلى الخيل محيطةً ببيته، أقبل نحوى ثم حمل على يقول: [من الرجز]

أَقُـولُ لـمَّـا مَـنَـحَـتْـنِـى فَـاهَـا
وَأَلْـبَـسَـتْـنِـى بُـكْـرَةً رِدَاهَـا
إِذَنْ سَـأَجْـوى الْـيَـوْمَ مَـنْ جَـوَاهَـا[1]
فَـلَـيْـتَ شِـعْـرى الـيَـوْمَ مَـا دَهَـاهَـا
أَلـخَـيْـلُ تَـبـغِـيـهَـا عَـلَـى خـوَاهَـا
حَـتَّـى إِذَا خَـلاَ بِـهَـا خـوَاهَـا

قال عمرو: فقدمت عليه، وأنا أقول: [من الرجز]

عَـمْـرو عَـلَـى طُـولِ الـوِجَـا[2] دَهَـاهَـا
بِـالـخَـيْـلِ يَـبْـغِـيـهَـا عَـلَـى خَـوَاهَـا
حَـتَّـى إِذَا خَـلاَ بِـهَـا خَـوَاهَـا

وحملت عليه، فإذا هو أروع من نهر؛ فراغ عنى، ثم حمل على فضربنى بسيفه ضربة صرعنى بها؛ فلما أفقت من صرعتى، حملت عليه، فراغ عنى، ثم حمل على فصرعنى، واستاق ما فى أيدينا من الغنيمة. ثم أفقتُ واستويت على فرسى، فلما رآنى أقبل، وهو يقول: [من الرجز]

أَنَا ابْنُ عَبْدِ[3] اللَّهِ مَحْمُودُ الشِّيَمْ
وَخَـيْـرُ مَـنْ يَـمْـشـى بِـسَـاقٍ وَقَـدَمْ
عَـدُوُّهُ يَـفْـدِيـهِ مِـنْ كُـلِّ الـسَّـقَـمْ

قال عمرو: فحملت عليه، وأنا أقول [من الرجز]

أَنَا ابْنُ ذِى التَّقْلِيدِ فِى الشَّهْرِ الأَصَمْ
أَنَـا ابْـنُ ذِى الإِكْـلِـيـل قـتَّـال الـبُـهَـمْ

---

(١) في مروج الذهب: سأحوي. . . حواها.
(٢) في المروج: الردي.
(٣) في مروج الذهب: أنا عبيد.

مَنْ يَلْقَنِى يَرْدَى كَمَا أَرْدَتْ إِرَمْ
أُنْزِلُهُ لَحْمًا عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ

فراغ - والله - عنى، ثم ضربنى، ثم صرخ صرخة، فرأيت الموت - والله؛ يا أمير المؤمنين - ليس دونه شيء، وخفته خوفًا لم أخف أحدًا قط قبله مثله، فقلت له: من أنت؛ فوالله ! ما اجترأ عليَّ أحد قط إلا عامر بن الطفيل؛ لإعجابه بنفسه، وعمرُو بن كلثوم؛ لسنه وتجربته ؟! قال: بل من أنت، أخبرنى وإلا قتلتك. قال عمرو: فقلت: أنا عمرو بن معدى كرب. فقال: وأنا ربيعة بن مكدم.

ثم قلت: اختر منى إحدى ثلاث: إن شئت اجتلدنا بالسيف حتى يموت أعجزنا، وإن شئت اصطرعنا، وإن شئت السلم؛ فإنك حدث وبقومك إليك حاجة. فقال: بل هذه الثلاث إليك. قال عمرو: فاخترت السلم. فقال لى: ألق سيفك، وانزل عن فرسك. قال عمرو: فقلت يا بن أخى، قد جرحتنى جرحين، ولا يزال بى، فوالله: ما كف حتى نزلت عن فرسى، فأخذ بعنانه، ثم أخذ بيدى فى يده فانصرفنا إلى الحى، وأنا أجر رجلى، حتى طلعنا على الخيل، فلما رأونى همزوا خيولهم إلى نحوى، وأرادوا ربيعة، فناديتهم: إليكم عنه، فمضى - والله - كأنه ليث، حتى شقهم ثم أقبل إلي، وقال: كأن أصحابك يريدون غير الذى أردت، فصمتَ والله القوم لم يتكلم أحد، وأعظموا ما رأوا. فقلت: يا ربيعة بن مكدم، لا يريدون إلا خيرًا؛ وإنما سميته ليعرفه القوم، ومضينا معه حتى نزل، فقامت إليه صاحبته وهى ضاحكةٌ فمسحت وجهه، ثم أقبل بإبل فنحرت، وضرب علينا القباب، فأقمنا عنده يومين وانصرفنا.

قال عمرو: ثم غزوت بعد زمان فى صناديد قومى بنى كنانة فأخذنا عيالهم، ومنهم امرأة ربيعة بن مكدم وكان غائبًا، فبلغه ذلك فأقبل فى الطلب على فرس عري ومعه رمح بلا سنان، فلما لحق بنا قال لى: يا عمرو، خل عن الظعينة وما معك، فلم ألتفت إليه، ثم أعادها فلم ألتفت إليه. ثم قال: يا عمرو، إما تقف لى أو أقف لك، فوقفت، وقلت: قد أنصف القارة من راماها؛ فقف لى يا ابن أخى، فوقف، فحملت عليه وأنا أقول: [من الرجز]

أَنَا ابنُ ثَوْرٍ ثم فَتَّاق الدَّلَقْ

لـسـتُ بـمـأمـونٍ ولا فـي خَـرَقْ(١)
وأَسـتُـرُ الـقـومَ إذا احـمـرَّ الـحَـدَقْ
إذا الـرجـالُ عَـضَّـهُـمْ فـوق الـتَّـرَقْ(٢)
وَجَـدتـنـى بـالـسـيـف فَـتَّـاقَ الـحـلـقْ

حتى إذا ظن أن قد خالطه السنان إذا هو نقب لفرسه، ومر السنان على ظهر الفرس، ثم وقفت له، فحمل على وهو يقول: [من الرجز]

أَنَا الكِنَانيُّ الغُلَامُ لاَ برخ كم من هِزَبْرٍ رَامَنى قَدِ انْشَرَخْ(٣)

فقرع رأسى بالرمح، ثم قال: إليك يا عمرو، فلولا أنى أكره قتلك لقتلتك. فقلت: لا ينصرف إلا أحدنا. فحملت عليه، حتى إذا ظن أن قد خالطه السنان إذا هو حزام لفرسه، ثم إنه حمل على فقرع رأسى بالرمح ثانية وقال: خذها إليك ثانية، وإنما العفو مرتان. فصاحت به امرأته: السنان له درك. فأخرج سنانًا من بين إزاره كأنه شعلة نار، فركبه على رمحه، فلما نظرت إليه وذكرت طعنته بغير سنان، قلت له: خذ الظعينة. فقال: دعها وانج بنفسك. فقالت بنو زبيد: تتركها لغلام؟ فقلت: والله لقد رأيت الموت الأحمر فى سنانه وسمعت صريره فى تركيبه. فانصرفنا، ورجع بالظعينة والغنيمة(٤).

ومثلها ما رأيته فى كتاب « المحاسن والمساوى »، قال: وَفَدَ على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أعرابى يستحمله، فقال له: خذ بعيرًا من إبل الصدقة، فنظر إلى بعير منها استحسنه واختاره فتعلق بذنبه، ونازعه البعير نفسه ونقر فاقتلع ذنبه فى يده، فقال له عمر: يا أخا العرب، هل رأيت أشد منك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، خرجت بامرأة من أهلى أريد بها زوجها، فنزلت منزلاً أهله خلوف، فأنخت بها إلى جانب، ودنوت من الحوض، فإذا رجل قد أقبل معه ذود له، فصرف ذوده إلى

---

(١) البيت في المروج:
أنـا أبـو ثـور ووقـاف الـزلـق لست بمأفون ولا في خرق.
(٢) البيت في المروج:
وأسد القوم إذا أحمر الحدق إذا الرجال عضهم ناب الفرق.
(٣) البيت في المروج:
أنا الغلام ابن الكناني لا بذخ كم من هزبر قد رآني فانشدخ.
(٤) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٣٣-٣٣٩).

الحوض، وأقبل نحو المرأة لا أدرى ما يريد، فلما قرب منها ساورها، فنادتنى، فلما انتهيت إليه إذا هو قد خالطها، فجئت لأدفعه، فأخذ رأسى ووضعه بين ذراعه وجنبه؛ فما استطعت أن أتحرك حتى قضى ما أراد، ثم قام عنها فأطلقنى بعد، ثم احتلب من ذوده فروى، ثم ذهب فاضطجع، وقالت المرأة: نعم الفحل هذا، لو كانت لنا منه سخلة. فأمهلته حتى امتلأ نومًا، ثم قمت إليه فضربت ساقه بالسيف فقطعت، فوثب، فهربت وعليه الدم، فرمانى بساقه، فأصابت بعيرى فقتلته، فقال عمر: فما فعلت المرأة؟ فقال الرجل الأعرابى: هذا حديث الرجل. فكرر عليه عمر السؤال مرارًا فى كلها يقول: هذا حديث الرجل.

خلافة أمير المؤمنين، عثمان، ذى النورين، رضى الله عنه(١)

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشى، الأموى، العبشمى. يجتمع مع رسول الله ﷺ فى جده عبد مناف، فهو أقربهم إلى رسول الله ﷺ بعد على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - أمه أروَى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، أسلمت، رضى الله عنها، رواه أبو بكر بن مخلد. وأمها البيضاء، أم حكيم بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ.

اسمه فى الجاهلية والإسلام عثمان، ويكنى أبا عمرو، وأبا عبد الله، والأولى أشهر. قيل: إنه ولدت له رقية ولدًا أسماه عبد الله فاكتنى به فمات، وولد له عمرو فاكتنى به إلى أن مات، ويدعى بـ« ذى النورين »؛ لأنه تزوج بابنتى رسول الله ﷺ، رقية وأم كلثوم، ولم يعلم أحد تزوج بابنتى نبى غيره. وقيل: إنه إذا دخل الجنة زفت له برقيتين، وقيل: لأنه كان يجمع القرآن فى الوتر؛ فالقرآن نور، وقيام الليل نور، وقيل غير ذلك.

وهو من السابقين الأولين، وصلى إلى القبلتين، وهاجر الهجرتين، وهو أول من هاجر إلى الحبشة فارًّا بدينه، ومعه زوجته رقية، رضى الله عنهما. وعد من البدريين، ومن أهل بيعة الرضوان، ولم يحضرهما. وكان سبب غيبته عن بدر أن زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ مرضت، فأذن له رسول الله ﷺ فى الجلوس

(١) ينظر ترجمته في الاستيعاب (١٧٩٧) أسد الغابة (٣٥٨٩) الإصابة (٥٤٦٤) الطبقات الكبرى (٣/ ٥٣-٨٤) فضائل الصحابة لأحمد (١/ ٤٤٨-٥٢٧) التاريخ الكبير (٦/ت ٢١٩١) التاريخ الصغير (١/ ٥٨-٧١) تلقيح فهوم أهل الأثر (٨٤) الكامل في التاريخ (٢/ ٥٩).

ليمرضها، وقال له: لك أجر رجل شهد بدرًا، وضرب له بسهمه من غنيمتها.

وأما غيبته عن بيعة الرضوان؛ فبعثه رسول الله ﷺ من الحديبية إلى مكة[(١)]. عن أنس رضى الله تعالى عنه قال: « لما أرسل رسول الله ﷺ عثمان إلى أهل مكة، دعا رسول الله أصحابه إلى البيعة، وقال: إن عثمان فى حاجة لله ورسوله، فضرب بإحدى يديه على الأخرى، وقال: هذه عن عثمان، فكانت يد رسول الله ﷺ له خيرًا من أيديهم لأنفسهم ». خرجه الترمذى[(٢)]. وإنما أرسله عليه الصلاة والسلام لعزته فيهم، ولو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه؛ لأنه كان له فى قريش محبة وعزة لا توصفان، حتى ضربوا بذلك المثل فقالوا:

أحبك الرحمن، حبَّ قريش عثمان.

وتوفى رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ، وبشره بالجنة، ودعا له بالخصوص غير مرة؛ فأثرى وكثر ماله، وكانت له شفقة ورحمة ورأفة على المسلمين. فلما ولى زادت رحمته وتواضعه ورأفته برعيته، وكان يُطْعِمُ طَعَامَ الإمارة، ويأكل الخلِ والزيت.

وجهزة جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيرًا بأحلاسها وأقتابها، وأتم الألف بخمسين فرسًا، وقال قتادة: حمل على ألف بعير وسبعين فرسًا، واشترى بئر « رومة » بخمسة وثلاثين ألفًا وسبَّلها. وله من أفعال الخير وأنواع البر ما يطول ذكره[(٣)].

ولد بمكة. قلت: لم أظفر بتعيين موضع ولادته فى كلام أحد ممن يعتمد كلامه.

افتتح فى أيامه الإسكندرية، وسابور، وإفريقية، وقبرص، وسواحل الروم، واصطخر الآخرة، وفارس الأولى، وخوزستان، وطبرستان، وكرمان، وسجستان، وساحل الأردن، ومرو، والأساورة[(٤)].

ذكر إسلامه رضى الله تعالى عنه

قال فى « الرياض النضرة، فى مناقب العشرة »: « عن عمرو بن عثمان – رضى الله

(١) كل هذه المناقب مذكورة في المصادر التي ذكرناها آنفا.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٠٢) من طريق الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.
(٣) سيأتي ذلك عند ذكر فضائل عثمان.
(٤) تنظر هذه الفتوحات في تاريخ الإسلام (٣١١، ٤٢٩) جزء « الخلفاء الراشدون ».

عنهما - قال: كان إسلام عثمان أبى فيما حدثنا عن نفسه قال: كنت رجلاً مشتهرًا بالنساء، وإنى ذات ليلة بفناء الكعبة قاعد فى رهط من قريش، إذ أتينا فقيل لنا: إن محمدًا أنكح عتبة بن أبى لهب رقية، وكانت رقية ذات جمال رائع. قال عثمان: فدخلتنى الحسرة، لم لا أكون أنا سبقت إلى ذلك، فلم ألبث أن انصرفت إلى منزلى، فأصبت خالة لى قاعدة، وهى سعدى بنت كريز، وكانت قد ظرفت وتكهنت عند قومها، فلما رأتنى قالت: [من الرجز]

أَبْشِرْ وحُيِّيتَ ثَلاثًا تَتْرَى   أَتَاكَ خَيرٌ ووُقِيتَ شرًّا
أُنْكِحْتَ والله حَصَانًا زَهْرَا   وأنتَ بَكْرٌ ولَقِيتَ بِكْرَا
وافيتَهَا بنتَ عَظيمٍ قَدْرَا   لله أمْرٌ قَدَ أشاد ذِكْرَا

قال عثمان: فعجبت من قولها فقلت: يا خالة ما تقولين ؟ فقالت: يا عثمان، [من الرجز] :

لَكَ الجَمَالُ ولَكَ اللِّسَانُ   هَذَا نَبِيٌّ مَعَه البُرْهَانُ
أَرْسَلَهُ محبُّه الدَّيَّانُ   فَاتْبَعْهُ لا يعبأْ لَكَ الأوثَانُ

قال: قلت يا خالة، إنك لتذكرين شيئًا ما وقع ذكره فى بلدنا فأبينيه لى. قالت: محمد بن عبد الله، رسول من عند الله، جاء بتنزيل الله، يدعو إلى الله، ثم قالت: مصباحه مصباح، ودينه فلاح، وأمره نجاح، وقرنه نطاح، دانت له البطاح، ما ينفع الصياح، لو وقع الذباح، وسلت الصفاح، ومدت الرماح، قال: ثم انصرفت ووقع كلامها فى قلبى، فجعلت أفكر فيه. وكان لى مجلس عند أبى بكر، فأتيته، فأصبته فى مجلس ليس عنده أحد، فجلست إليه؛ فرآنى منكسرًا؛ فسألنى عن أمرى، وكان رجلاً شايبًا، فأخبرته بما سمعت من خالتى، فقال: يا عثمان، ويحك !! إنك رجل حازم لا يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأوثان التى يعبدها قومنا ؟! أليست من حجارة لا تضر ولا تنفع، صم لا تبصر ولا تسمع ؟ قلت: بلى والله، إنها كذلك. فقال: والله صدقتك خالتك. هذا محمد بن عبد الله قد بعثه الله برسالته إلى خلقه، فهل لك أن تأتيه فتسمع منه ؟ قلت: بلى. فوالله ما كان بأسرع من أن مر رسول الله ﷺ ومعه على بن أبى طالب يحمل ثوبًا، فلما رآه أبو بكر قام فسارَّه فى أذنه بشيء، فجاء رسول الله ﷺ فقعد ثم أقبل علىَّ فقال: يا عثمان أجب الله إلى

جنته؛ فإنى رسول الله إليك وإلى خلقه. قال: فوالله ما تمالكتُ حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، ثم لم ألبث أن أتزوج رقية بنت رسول الله ﷺ. وفى إسلام عثمان تقول خالته سعدى المذكورة [من الطويل] :

هَدَى اللهُ عثمانًا بِقَولى إلى الهُدَى ... وأرشَدَهُ واللهُ يَهْدِى إلى الحقِّ
فَتَابَع بالرَّأى السَّديدِ محمدًا ... وَكَانَ برأى لا يحيدُ عن الصِّدْقِ
وأنكَحَهُ المبعوثُ بالحقِّ بِنتهُ ... فَكَانَ كَبَدْرٍ مَازَجَ الشَّمْسَ فى الأُفُقِ
فِدًى لَكَ يَا بْنَ الهاشِمِيِّين مُهْجتى ... فأَنْتَ أمينُ اللهِ أُرْسِلْتَ للخَلْقِ

وأسلمت أخت عثمان آمنة بنت عفان، وأسلم إخوته لأمه الوليد وخالد وعمارة، أسلموا يوم الفتح، خرجه الفضائلى(١).

صفته رضى الله تعالى عنه

كان رضى الله عنه رجلاً مربوعًا، ليس بالقصير ولا بالطويل، حسن الوجه، بوجنته نكات جدرى، أقنى الأنف، من أجمل الناس، رقيق البشرة، خفيف الجسم، عظيم اللحية طويلها، أسمر اللون، كثير الشعر، ذو جمة أسفل من أذنيه، ضخم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، أصلع، وبكثرة شعر رأسه ولحيته كان أعداؤه يسمونه نعثلا(٢)، كما سيأتى ذكر ذلك.

عن أسامة بن زيد قال: « بعثنى رسول الله ﷺ بصحفة فيها لحم إلى عثمان، فدخلت عليه فإذا هو جالس مع رقية ما رأيت زوجًا أحسن منهما، فجعلت مرة أنظر إلى عثمان ومرة أنظر إلى رقية. فلما رجعت إلى رسول الله ﷺ قال: دخلتَ عليهما ؟ قلت: نعم. قال: هل رأيت زوجًا أحسن منهما ؟ قلت: لا ». خرجه البغوى فى معجمه، والحافظ الدمشقى(٣).

---

(١) ينظر الرياض النضرة (٣/ ٧-٩).

(٢) ينظر طبقات ابن سعد (٣/ ٤٢)، وصفة الصفوة (١/ ١٥٤)، ومجمع الزوائد (٩/ ٨٣)، والرياض (٣/ ٦-٧) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٧٦) رقم (٩٧) والخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٣٩) من طريق مولى لعثمان بن عفان عن أسامة بن زيد به وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٨٣) وقال : وفيه راو لم يسم وبقية رجاله رجال الصحيح.

وفى سيرة الشامى: لما بويع عثمان رقى المنبر بعد العصر أو قبل الزوال يومئذٍ، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: أيها الناس، إنكم فى بقية آجالكم؛ فبادوروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، ولا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. واعتبروا بمن مضى من القرون وانقضى، ثم جدوا ولا تغفلوا. أين أبناء الدنيا وإخوانها ؟ أين الذين شيدوها وعمروها وتمتعوا بها طويلاً، ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا خير رمى، واطلبوا الآخرة حيث رغب الله عز وجل فيها؛ فإنه سبحانه ضرب لكم مثلاً فقال: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ . . .﴾ إلى ﴿. . . مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥] فاتقوا الله، إن تقوى الله غنم، وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. إن الله أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها. إن الدنيا تفنى، والآخرة تبقى؛ فلا تشتغلوا بالفانية عن الباقية؛ فإن الدنيا منقطعة والمصير إلى الله تعالى، واتقوا الله؛ فإن تقواهُ جنة من سأله، ووسيلة عنده ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴾ [آل عمران: ١٠٣] الآية. ثم نزل(١).

أخرج ابن سعد عن الزهرى قال: ولى عثمان اثنتى عشرة سنة فلم ينقم الناس عليه شيئًا مدة ست سنين، بل كان أحب إلى قريش من عمر؛ لأن عمر كان شديدًا عليهم، فلما ولى عثمان لان لهم ووصلهم، ثم توانى فى أمورهم، واستعمل أقاربه وأهل بيته فى الست السنين الأواخر، وأعطاهم المال متأولاً فى ذلك الصلة التى أمر الله بها، وقال: إن أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما، وإنى أخذته فقسمته فى أقربائى. فكان ذلك مما نقم عليه(٢).

وأخرج ابن عساكر عن الزهرى قال: قلت لسعيد بن المسيب: هل أنت مخبرى كيف كان قتل عثمان، ما كان شأن الناس وشأنه ولم خذله أصحاب محمد ﷺ ؟ فقال ابن المسيب: قتل عثمان مظلومًا، ومن قتله كان ظالمًا، ومن خذله كان معذورًا. قلت كيف قال: لأنه لما ولى كره ولايته نفر من الصحابة؛ لأنه كان يحب

---

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٧٧-٢٧٨).
(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٤٧) عن الزهري وينظر تاريخ الإسلام (٣/ ٤٣١-٤٣٢).

قومه، وكان كثيرًا ما يولى بنى أمية ممن لم يكن له صحبة، [وكان] من أمرائه ما ينكره الصحابة، فكان يستعتب فيهم فلا يعزلهم، فلما كان فى الست الأواخر استأثر ببنى عمه فولاهم دون غيرهم، وأمرهم بتقوى الله.

ولما كانت سنة خمس وثلاثين خرج المصريون وغيرهم على عثمان، قال إسماعيل بن أبى خالد: لما نزل أهل مصر الجحفة وأتوا يعاتبون عثمان فى هذه الأشياء، صعد عثمان المنبر فقال: أيكم يذهب إلى هؤلاء القوم فيسألهم ما نقموا منا وما يريدون ؟ وكان القوم الذين من مصر نحو أربعمائة، فقال المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص: نحن نذهب، فلما وصلا إليهم ردوهما أقبح رد. فقام على فقال: أنا أذهب إليهم، فذهب فقال: ما الذى نقمتم على عثمان ؟ فذكروا الأمور الستة عشرة المذكورة، فأجابهم عن الأول بأن دعواهم إسرافه فى بيت المال فإنما كان من مال نفسه.

وأما عن الثانى وهو الحمى، فأجاب بأنى إنما حميته لإبل الصدقة كما حمى رسول الله ﷺ لذلك؛ فقالوا: إنك زدت. فقال: إنما زدت لإبل الصدقة لما زادت، ولم أحم بإبلى ولا لغنمى، وليس هذا مما ينقم على الإمام.

وأما الثالث وهو حمى سوق المدينة، فأجاب بأنه افتراء عليه ولا أصل له. وأما الرابع وهو حمى البحر، فليس كذلك، وإنما لما كان متسعًا فى المال منبسطًا فى التجارات حمى سفينه أن يُحمل فيها متاع غير متاعه.

وأما الخامس وهو ضربى لابن مسعود، فإنه إنما كان للأدب حين امتنع من إتيانه بالمصحف ليجتمع الناس على مصحف واحد؛ فكان لى ذلك؛ فأحرقت مصحفه وكان من أكبر المصالح؛ فإنه لو بقى فى أيدى الناس أدى ذلك إلى فتنة كبيرة فى الدين؛ لكثرة ما فيه من الشذوذ، ولحذفه المعوذتين مع شهرتهما. وأما هجرى له فلم تزل هذه سيمة الخلفاء قبلى.

قلت: وهجره إياه ليس بأعظم من هجر علىّ أخاه عقيلاً وأبا أيوب الأنصارى حين فارقاه بعد انصرافه من صفين، وذهب إلى معاوية ولم يوجب ذلك طعنًا عليه ولا عيبًا فيه. وقد روى عن أعرابى من هَمْدان دخل المسجد فرأى ابن مسعود وحذيفة وأبا موسى يطعنون على عثمان فقال: أنشدكم الله لو أن عثمان ردكم إلى

أعمالكم وعطاياكم أكنتم ترضون ؟ قالوا: اللهم نعم. فقال الهمدانى: اتقوا الله يا أصحاب محمد ولا تطغوا على أئمتكم. ولما كان تلقيه به مما يكره؛ فإن منصب الخلافة لا يحتمل ذلك، وليس هذا بأعظم من ضَرْبِ عُمَرَ سَعْدَ بن أبى وقاص بالدرة على رأسه حين لم يقم له، وقال له: إنك لم تهب الخلافة، فأردتُ أن تعرف أن الخلافة لم تهبك. ولم يغير ذلك سعدًا ولا رآه عيبًا. وكذلك ضرب أبى بن كعب حين رآه يمشى وخلفه قوم، وقال: إن هذه مذلة للتابع وفتنة للمتبوع. وأما السادس وهو قصة عبادة، فهى دعوى باطلة وكذب مختلق.

وأما السابع وهو قولهم: إن عبد الرحمن ندم على توليته فكذب صريح، ولو كان كذلك لصرح بخلعه إذ لا مانع له؛ فإن أعيان الصحابة على زعمهم منكرون ناقمون أحداثه، والناس تبع لهم، فلا مانع من خلعه. فكيف يصح ما وصفوا به كل واحد منهما فى حق الآخر ؟ وإنما الذى صح فى قصته أن عثمان استوصى منه، فإن عبد الرحمن كان يبسط عليه من القول لا يبالى ما يقول. ويروى أن عثمان قال له: إنى أخاف يا بن عوف أن يبسط من دمى.

وأما الثامن وهو ضرب عمار فقد حلف أنه لم يكن ذلك عن أمره، وذلك أن عمارًا جاء هو وسعد إلى المسجد، وأرسلا إليَّ أن ائتنا، فإنا نريد أن نذاكرك أشياء فعلتها. فأرسلت إليهما إنى عنكم اليوم مشغول فانصرفا وموعدكما يوم كذا وكذا. فانصرف سعد وأبى عمار أن ينصرف، فأعدت إليه الرسول فأبى، فتناوله رسولى بغير أمرى، والله ما أمرته ولا رضيت بضربه، وهذه يدى لعمار فليقتص منى إن شاء.

وأما التاسع وهو انتهاك حرمة كعب ابن عبدة الفهرى، قال: فقد استرضيته؛ إذ كتبت إليه، فلما دخل على قلت: يا كعب، كتبت إليك كتابًا غليظًا، ولقد كتبت إلى بعض الذى هتكت مشورتك، ولكنك خدشتنى وأغضبتنى حتى نلت منك ما نلت، ونزعت قميصى ودعوت بسوط ودفعته إليه، وقلت: قم فاقتص منى ما ضربتك، فقال كعب: أما إذ فعلت فأنا أدعه لله لا أكون أول من اقتص من الأئمة. ثم صار بعد من خواصّى.

وأما العاشر وهو تركى إقامة الحد على عبيد الله بن عمر؛ فما ذاك إلا بخوفى ثوران فتنة عظيمة من قبله؛ لأنه كان بنو تميم وبنو عدى مانعين من قتله ودافعين

عنه، وكان بنو سهم أيضًا مانعين من ذلك، حتى قال عمرو بن العاص: قتل أمير المؤمنين بالأمس فيقتل ابنه اليوم ؟! لا يكون والله هذا أبدًا، ومال فى بنى سهم. فلما رأيت ذلك اغتنمت تسكين الفتنة، وقلت: أمره إليّ وسأرضى أهل الهرمزان منه.

وأما الحادى عشر وهو انفرادي بأقوال شاذة، فلم يزل أصحاب رسول الله ﷺ على نحو ذلك ينفرد الواحد منهم بما يقول ويخالفه الباقون؛ وهذا على بن أبى طالب فى مسألة بيع أم الولد على مثل ذلك، وفى الفرائض عدة مسائل على هذا النحو لكثير من الصحابة، فلم أنفرد بهذا المعنى.

وأما الثانى عشر فهو هتكى حرمة الأشتر - فهل أثار الفتنة فى هذه القصة إلا فعل الأشتر بالكوفة من هتك حرمتي وتسليط العامة على ضرب عاملى بلا اعتذار عن الأمر بنفيه بل ذلك أقل ما يستوجب، ثم لم ينفعه ذلك حتى سار من الشام إلى الكوفة وأضرم نار الفتنة.

وأما الثالث عشر وهو إتمامى الصلاة بمنى؛ فعذرى فى ذلك ظاهر؛ لأنى ممن لا يوجب القصر فى السفر وأنا أبيحه فيه، وأيضًا هى مسألة اجتهادية، فقولى لا يوجب تكفيرًا ولا فسقًا.

وأما الرابع عشر وهو نفيى لأبى ذر؛ فلتجاسره عليّ وتجبيهى بالكلام الخشن ومفسدة عليّ، وإثارة الفتنة، وتأدية ذلك التجاسر لإذهاب هيبتى وتقليل حرمتى؛ ففعلت ما فعلت؛ صيانة لمنصب الشريعة، وإصابة لحرمة الدين.

قلت: كان عذر أبى ذر فيما كان يدعو عثمان - رضى الله تعالى عنه - إلى ما كان عليه صاحباه من التجرد عن الدنيا والزهد فيها - مخالفة عثمان إلى أمور مباحة من اقتنائه الأموال، وجمعه الغلمان الذين يستعان بهم على الحروب، وكل منهما على هدًى من الله تعالى.

وأما الخامس عشر وهو ردى الحكم، فقد استأذنت النبى ﷺ فى رده إلى المدينة فوعدنى بذلك، فلما ولى أبو بكر سألته فى ذلك فقال: كيف أرده إليها وقد نفاه رسول الله ﷺ؟! فقلت له: بوعد رسول الله ﷺ إياى بذلك، فقال أبو بكر: لم أسمعه يقول لك ذلك، ولم يكن لى أنا بينة على ذلك. ثم لما ولى عمر سألته ذلك فأبى ولم يردده بقول الواحد، فلما وليت قضيت بعلمى، وكان قد تاب وأصلح عما

كان طرد لأجله مما تقدم ذكره، وإغاثة التائب مما يحمد.

وأما السادس عشر وهو عزل ابن مسعود وعمرو بن العاص ونحوهما، فأما عمرو ابن العاص فإنما عزلته؛ لأن أهل مصر أكثروا شكايته، وأما ابن مسعود فلما بلغنى عنه، ولم تزل الأئمة على مثل ذلك، ولم يكن قصدى من منع عطائه حرمانه ألبتة، وإنما التأخير إلى غاية اقتضى نظرى التأخير إليها، فكان لما قضى الله وصلت به ورثته، ولعله كان أنفع لهم فأزال عنهم وعثتهم، وأرسل إلى ابن أبى سرح يتهدده، ورجعوا إلى أوطانهم(١).

قلت: وأحسن ما يقال فى الجواب عن جميع ما ذكر أنه عليه الصلاة والسلام قد أخبر عن وقوع فتنة عثمان، وأنه على الحق فى حديث كعب بن عجرة كما سيأتى، وفى رواية على الهواء أخرجها أحمد، وأخبر أنه يقتل ظلمًا كما فى حديث ابن عمر الآتى أيضًا، وأمر باتباعه عند ثوران الفتنة كما فى حديث مرة بن كعب كما يأتى، فمن شهد له عليه الصلاة والسلام أنه على الحق وأنه يقتل ظلمًا وأمر باتباعه - كيف يتطرق الوهم إلى أنه على الباطل ؟ ثم قد ورد فى الحديث الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام أخبره أن الله يقمصه بقميص، وأن المنافقين يريدونه على خلعه، فأمره ألاَّ يخلعه، وأمره بالصبر فامتثل أمره ﷺ وصبر على ما ابتلى به، وهذا من أدل دليل على أنه كان على الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فمن خالفه يكون على الباطل، فكيف وقد وصف النبى ﷺ الذين أرادوا خلعه بالنفاق؛ فعلم بالضرورة أن كل ما روى عنه مما يوجب الطعن عليه أمر بين مفترى عليه مختلق وبين مجهول، وعلى تقدير صحته يحمل على أحسن الحالات، فيكون معه على الحق تصديقًا لخبر النبوة المقطوع بصدقه(٢).

ولما بلغ عبد الرحمن بن عوف قول عثمان فيه ما قال أرسل إلى عثمان يقول: ما تخلفت عن بدر، ولا فررت يوم أحد، ولا خالفت سنة عمر؛ فأرسل إليه عثمان: تخلفت عن بدر لأن بنت رسول الله ﷺ شغلتنى بمرضها. أما يوم أحد فقد عفا الله عنى. وأما سنة عمر فوالله ما استطعتها أنا ولا أنت(٣).

---

(١) ينظر العواصم من القواصم (٥٦-٦٠) تاريخ الإسلام (٣/ ٤٢٩-٤٣٠).

(٢) سيأتي تخريج كل هذه الروايات عند ذكر فضائل عثمان.

(٣) ينظر تاريخ الإسلام (٣/ ٤٣٢-٤٣٣).

ثم لما كان شوال من السنة المذكورة خرجوا كالحجاج حتى نزلوا بقرب المدينة، فخرج أهل مصر فى سبعمائة. وأمراؤهم: عبد الرحمن بن عديس البلوى، وكنانة ابن بشر الليثى، وسودان بن حمران السكونى، وقتيرة السكونى، والغافقى بن حرب العكى، ومعهم ابن السوداء.

وخرج أهل الكوفة فى مائتين، فيهم: زيد بن صوحان العبدى، والأشتر النخعى، وزياد بن النضر المسمعى، وزياد بن النضر الحارثى، وعبد الله بن الأصم، وهو مقدمهم.

وخرج أهل البصرة فى نحو مائة وخمسين، فيهم: حُكيم بن جبلة، وذَريح بن عباد العبدى، وبشر بن شريح القيسى، وعليهم: حرقوص بن زهير السعدى.

فأما أهل مصر فكانوا يشتهون عليا. وأما أهل البصرة فكانوا يشتهون الزبير. وأما أهل الكوفة فكانوا يشتهون طلحة، فخرجوا ولا تشك كل فرقة أن أمرها يتم دون الأخرى حتى كانوا من المدينة على ثلاث فقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا « ذا خشب »،وتقدم ناس من أهل الكوفة فنزلوا « الأعوص ». وجاء زياد بن النضر، وعبد الله بن الأصم ليكشفا خبر المدينة فدخلا فلقيا أزواج النبى ﷺ، وطلحة والزبير، وعليا، فقال: إنما نؤم هذا البيت ونستعفى من بعض عمالنا واستأذنوهم للناس، فكلهم أبى ونهى، فرجعا فاجتمع من أهل مصر نفر فأتوا عليا. ومن أهل البصرة [نفر] فأتوا الزبير. ومن أهل الكوفة نفر فأتوا طلحة وقال كل فريق منهم: إن بايعنا صاحبنا وإلا كدناهم، وفرقنا جماعتهم ثم كررنا حتى نبغتهم. فأتى المصريون عليًا وهو فى عسكر عند « أحجار الزيت » وقد سرح ابنه الحسن إلى عثمان واجتمعوا عليه فسلم المصريون على عليٍّ وعرضوا له، فصاح بهم وطردهم وقال: لقد علم الصالحون أنكم ملعونون فارجعوا لا صحبكم الله تعالى. فانصرفوا وفعل طلحة والزبير نحو ذلك. وأزال عثمان شكواهم وعزل عنهم ابن أبى سرح، وكتب لمحمد على مصر بعد أن اختاروه، فذهب القوم وأظهروا أنهم راجعون إلى بلادهم، فذهب أهل المدينة إلى منازلهم، فلما بلغ القوم إلى عساكرهم كروا بهم وفجأوا أهل المدينة فدخلوها وضجوا بالتكبير ونزلوا فى مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان. وقالوا: من كف يده فهو آمن، ولزم الناس بيوتهم، فأتى عليٌّ رضى الله عنه

وقال: ما ردكم بعد ذهابكم ؟ قالوا وجدنا مع بريد كتابا بقتلنا.

وقال الكوفيون والبصريون: نحن نمنع إخواننا المصريين وننصرهم، فعلم الناس أن ذلك مكر منهم.

وكتب عثمان إلى أهل الأمصار يستمد بهم فساروا إليه على الصعب والذلول فبعث معاوية إليه حبيب بن مسلمة الفهرى. وبعث إليه ابن أبى سرح معاوية بن خديج، وسار إليه من الكوفة القعقاع بن عمرو.

فلما كان يوم الجمعة صلى عثمان بالناس وخطب فقال: يا هؤلاء اتقوا الله، فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ، فامحوا الخطأ بالصواب فإن الله لا يمحو السيئ إلا بالحسن، فقام محمد بن مسلمة فقال: أنا أشهد بذلك، فأقعده حكيم بن جبلة. فقام زيد بن ثابت فقام إليه من ناحية أخرى محمد بن أبى قتيرة فأقعده وتكلم فأفظع.

وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد. وحصبوا عثمان حتى صرع نحو المنبر فغشى عليه فاحتمل وأدخل الدار.

وكان المصريون لا يطمعون فى أحد من أهل المدينة أن ينصرهم إلا ثلاثة فإنهم كانوا يراسلونهم: محمد بن أبى بكر الصديق، ومحمد بن جعفر، وعمار بن ياسر.

قال: واستقبل أناسًا منهم: زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وسعد بن مالك، والحسن بن على، فنهضوا لنصرة عثمان، فبعث إليهم عثمان يحلف عليهم: أن ينصرفوا فانصرفوا.

وأقبل عليٌّ حتى دخل على عثمان هو وطلحة والزبير يعودونه من صرعته، ثم رجعوا إلى منازلهم.

قال الواقدى: وقولهم: « وجدنا بريدًا معه كتاب بقتلنا »: هو أنهم لما كانوا بـ« البويب » وفى رواية بـ « ذى خشب » رأوا جملاً عليه ميسم الصدقة فأخذوه فإذا عليه غلام أسود لعثمان ففتشوا متاعه بعد أن سألوه فتارة يقول: أنا عبد لمروان، وتارة: لفلان، فلما فتشوه وجدوا قصبة من رصاص فيها كتاب فى جوف الإداوة فى الماء ففتحوه فإذا هو: إلى عبد الله بن أبى سرح أن: افعل بفلان كذا واقتل فلانًا واقطع رجل فلان ويده، وعدد جماعة من القوم واثبت فى عملك حتى يأتيك

أمرى: وعلى الكتاب ختم بخاتم عثمان. قال الواقدى: فحدثنى عبد الله بن الحارث عن أبيه لما رجعوا إلى المدينة أتوا عليًا فقالوا له ألم تر إلى عدو الله ؟ فقم معنا. قال: والله ما أقوم معكم.

قالوا: فلم كتبت إلينا ؟

قال: والله ما كتبت إليكم. فنظر بعضهم إلى بعض وخرج عليٌّ من المدينة. فانطلقوا إلى عثمان فقالوا: كتبت فينا بكذا، فقال: إنما هما اثنتان: تقيمون رجلين من المسلمين، يعنى شاهدين، أو يمينى بالله الذى لا إله إلا هو - ما كتبت ولا علمت. قالوا: كيف يخرج غلامك ببعيرك بكتاب عليه خاتمك ولا تعلم به ؟ وزعموا أنه خط مروان وسألوه أن يدفعه إليهم فأبى وعلموا أنه لم يحلف كاذبًا ولزموا بيوتهم.

فقال عثمان: قد يكتب الكتاب على لسان الرجل وينقش الخاتم على الخاتم. فقالوا: قد أحل الله دمك ونقض العهد والميثاق. وحصروه فى الدار(١).

وروى بشر بن شغاف عن عبد الله بن سلام قال: بينما عثمان يخطب إذ قام إليه رجل فنال منه، فوذأته فاتذأ. فقال رجل: لا يمنعك مكان ابن سلام أن تسب نعثلا فإنه من شيعته. فقلت له: لقد قلت عظيمًا فى الخليفة من بعد نوح(٢).

أقول: وذأته: زجرته، وقمعته. وقالوا لعثمان نعثلا؛ تشبيهًا له برجل مصرى اسمه: نعثل، كان طويل اللحية. والنعثل فى اللغة: ذكر الضباع.

وكان عمر يشبه بنوح فى الشدة. ولما أخذت من يد عثمان العصا وهو قائم يخطب وكان الآخذ لها جهجاه بن عمرو الغفارى، وكسرها بركبته وقعت الآكلة فى ركبته والعياذ بالله تعالى(٣).

ثم إنهم أحاطوا بالدار وحصروه.

قال الزبير بن بكار: حدثنى محمد بن الحسن قال: لما كثر الطعن على عثمان تنحى علىٌّ إلى ماله بالبقيع، فكتب عثمان: أما بعد فقد بلغ الحزام الطُّبيين، وجاوز

(١) تنظر هذه الرواية بطولها في البداية والنهاية (٧/ ١٩٤-١٩٦) وينظر الطبقات الكبرى (٣/ ٤٧-٤٨) وتاريخ الطبري (٥/ ١١٩) والكامل لابن الأثير (٣/ ١٦٨) .

(٢) ينظر تاريخ الإسلام (٣/ ٤٤٣-٤٤٤) .

(٣) ذكر ذلك الحافظ في الإصابة (١/ ٦٢٢) وعزاه للباوردي وابن السكن.

السيل الزبى، وبلغ الأمر فوق قدره، وطمع فى الأمر من لا يدفع عن نفسه [من الطويل]

فَإِنْ كُنْتَ مأْكُولاً فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ وَإِلاَّ فَأَدْرِكْنى وَلَمَّا أُمزَّقِ[(١)]

وعن أبان بن عثمان: لما ألحوا على عثمان بالرمى خرجت حتى أتيت عليا فقلت: يا عم أهلكتنا الحجارة. فقام معى فلم يزل يرمى حتى فتر كتفه ثم قال: يا بن أخى اجمع حشمك ثم يكون هذا شأنك[(٢)].

وعن أبى إدريس الخولانى أنه قال: أرسل عثمان إلى سعد فأتاه فكلمه فقال له سعد: أرسل إلى على. فإن أتاك ورضى صلح الأمر. قال: فأنت رسولى إليه. فأتاه فقام معه عليٌّ فمرّا بمالك الأشتر، فقال الأشتر لأصحابه: أين يريد هذا ؟ قالوا: يريد عثمان. فقال: والله لئن دخل على عثمان لتقتلن عن آخركم. فقام إليه فى أصحابه حتى اختلجه عن سعد، وأجلسه فى أصحابه وأرسل إلى أهل مصر: إن كنتم تريدون قتله فأسرعوا. فدخلوا عليه فقتلوه[(٣)].

وعن أبى حبيبة: لما اشتد الحصار على عثمان قالوا له - يعنى الذين عنده فى الدار فكانوا قريبًا من ستمائة فيهم مروان بن الحكم -: ائذن لنا فى القتال. قال: أعزم على من كانت لى عليه طاعة أن لا يقاتل، أيما عبد من عبيدى أغمد سيفه فهو حر[(٤)].

وعن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: بعث عثمان المسور بن مخرمة إلى معاوية أنه محصور، ويأمره أن يجهز له جيشًا سريعًا. فلما قدم على معاوية ركب معاوية لوقته هو وسالم بن عقبة، ومعاوية بن خديج فساروا من دمشق إلى عثمان عشرا فدخل نصف الليل على عثمان وقبل رأسه وقال له عثمان: أين الجيش ؟ قال ما جئت إلا ثالث ثلاثة، فقال عثمان لا وصل الله رحمك ولا أعز بعيرك ولا جزاك خيرًا، فوالله لا أقتل إلا فيك ولا ينقم على إلا من أجلك.

فقال: بأبى أنت وأمى لو بعثت إليك جيشًا فسمعوا عاجلوك بالقتل ولكن معى

(١) ينظر تاريخ الإسلام (٣/ ٤٤٨) .
(٢) ينظر أنساب الأشراف (١٤٥٦) وتاريخ الإسلام (٣/ ٤٤٩) .
(٣) ينظر تاريخ الإسلام (٣/ ٤٤٩) .
(٤) ينظر تاريخ خليفة (١٧٣) وتاريخ الإسلام (٣/ ٤٤٩-٤٥٠) .

نجائب فاخرج معى، فما شعر بى أحد فوالله ما هى إلا ثلاث حتى ترى معالم الشام، فقال: بئسما أشرت به وإنى لن أحسمه. فأسرع معاوية راجعًا، وورد المسور يريد المدينة ولقى معاوية بـ « ذى المروة » فقدم على عثمان وهو رام لمعاوية غير عاذر له. فلما كان فى آخر حصره بعث المسور ثانيًا إلى معاوية يستنجده فقال معاوية: إن عثمان أحسن فأحسن الله به، ثم غير فغير الله به. فشدد المسور عليه، فقال معاوية: تركتم عثمان حتى إذا كانت نفسه فى حنجرته قلتم: اذهب فادفع عنه الموت وليس ذاك بيدى. ثم أنزله فى مشربة على رأسه فما دخل عليه داخل حتى قتل عثمان. ولما أنكر عثمان، وحلف بعد أن أحضروا الكتاب ونصوه بمحضر من الصحابة فيهم طلحة، وعلى، والزبير، وسعد - لم يبق أحد إلا حنق على عثمان وزاد ذلك غضبًا وحنقًا أعوان أبى ذر، بما فعله بأبى ذر، وقبيلة هذيل، بما فعله فى ابن مسعود، وبنى مخزوم، بما فعله بعمار بن ياسر.

قلت: قد تقدم ذكر ما فعله مع أبى ذر، وابن مسعود، وعمار، وأرسل علىٌّ بالحسنين وأرسل الزبير بابنه عبد الله، وطلحة بابنه، وأبناء غيرهم وأمروهم وهم شاكوا السلاح أن يحرسوا عثمان رضى الله عنه، فلما دخلوا على عثمان قال لهم أعزم عليكم إلا ما رجعتم فوضعتم أسلحتكم ولزمتم بيوتكم، فقال ابن الزبير: نحن نعزم على أنفسنا ألاَّ نبرح(١).

قال الأوزاعى: حدثنى محمد بن عبد الملك بن مروان أن المغيرة بن شعبة دخل على عثمان فقال: إنك إمام العامة، وقد نزل بك ما ترى، وإنى أعرض عليك خصالاً: إما أن تخرج فتقاتلهم فإن معك عددًا وقوة. وإما أن تخرق لك بابا آخر فتقعد على ركائبك فتلحق بـ « مكة » فإنهم لن يستحلوا دمك وأنت بها. وإما أن تلحق بـ « الشام » ففيها معاوية. فقال عثمان: أما أن ألحق بـ « الشام » فلن أفارق دار هجرتى، وأما أن أقاتل، فلن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ بسفك الدماء، وأما أن أخرج إلى مكة فإنى سمعت من رسول الله ﷺ يقول: يلحد رجل من قريش بـ « مكة » يكون عليه نصف عذاب العالم(٢).

---

(١) ينظر تاريخ الإسلام (٣/ ٤٥٠-٤٥١) .
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٦٧) من طريق الأوزاعي، به.

وروى نافع عن ابن عمر: أصبح عثمان يحدث الناس أنه رأى النبى ﷺ فى المنام يقول له « أفطر عندنا » فأصبح صائمًا وقتل يومه(١).

وقال ثمامة بن حزن القشيرى يوم الدار وأشرف عليهم عثمان، فقال: ائتونى بصاحبيكم اللذين ألباكم. فدعيا له كأنهما جملان أو حماران، فقال: أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس فيها ماء عذب غير بئر رومة فقال: من يشتريها فيكون دلوه كدلاء المسلمين وله فى الجنة خير منها ؟ فاشتريتها، وأنتم اليوم تمنعونى أن أشرب منها حتى أشرب من الماء المالح ؟! قالوا: اللهم نعم. قال: أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله فقال رسول الله ﷺ: من يشترى بقعة بخير له منها فى الجنة ؟ فاشتريتها وزدتها فى المسجد وأنتم تمنعونى اليوم أن أصلى فيه ؟! قالوا: اللهم نعم. قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ كان على ثبير بـ « مكة »، فتحرك وعليه أبو بكر، وعمر، وأنا، فقال: اسكن ثبير، فما عليك إلا نبى وصديق وشهيدان ؟ قالوا: اللهم نعم. فقال: الله أكبر شهدوا ورب الكعبة أنى شهيد. ثم قال: ولكن طال عليكم أمرى واستعجلتم وأردتم خلع سربال سربلنيه الله، وإنى لا أخلعه حتى أموت أو أقتل(٢).

ثم أشرف عليهم ذات يوم، قال ابن عمر: فقال: عَلَامَ تقتلوننى ؟ فإن رسول الله ﷺ قال: لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إسلام، أو زنا بعد إحصان، أو رجل قتل نفسًا(٣). فوالله ما زنيت فى الجاهلية ولا فى الإسلام، ولا قتلت نفسًا، ولا كفرت قال الحسن: حدثنى وثاب قال: بعثنى عثمان فدعوت له الأشتر فقال: ما يريد الناس ؟ قال: ثلاثًا يخيرونك بين الخلع وبين أن يقتص منك فإن أبيت فإنهم قاتلوك. فقال: ما كنت لأخلع سربالاً سربلنيه الله، وبدنى ما يقوم بقصاص. ثم حاصره أولئك القوم حتى منعوه الماء، فأشرف عليهم يومًا فقال: أفيكم عليٌّ ؟ قالوا: لا. قال أفيكم سعد ؟ قالوا: لا. فسكت ثم قال: ألا أحد

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٥٥) والبلاذري في أنساب الأشراف (١٤٦٩) من طريق نافع عن ابن عمر.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١/ ٧٤) والترمذي (٣٧٠٣) والنسائي (٦/ ٢٣٥) وابن خزيمة (٢٤٩٢) من طريق أبي مسعود الجريري عن ثمامة بن حزن، به.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٦٣) والنسائي (٧/ ١٠٣) من طريق نافع عن ابن عمر عن عثمان.

يسقينا ماء ؟ فبلغ ذلك عليًا فبعث إليه بثلاث قرب فجرح بسببها جماعة من موالى بنى هاشم حتى وصلت إليه. وبلغ عليًا أن عثمان يراد قتله فقال: إنما أردنا منه مروان، فأما عثمان فإنا لا ندع أحدًا يصل إليه[(١)].

ورمى الناس عثمان بالسهام حتى خضب بالدماء على بابه فأصاب مروان سهم وخضب محمد بن طلحة وشج قنبر مولى على، فخشى محمد بن أبى بكر أن يغضب بنو هاشم لشأن الحسن فلا يتم لهم ما أرادوه، فاتفق هو وصاحباه وتسوروا من دار حتى دخلوا عليه ولا يعلم أحد؛ لأنهم كانوا فوق البيوت ولم يكن مع عثمان إلا امرأته، فدخل محمد فأخذ بلحيته ثم قال بها حتى سمع وقع أضراسه، وقال: يا نعثل قد أخزاك الله. فقال: لست بنعثل، ولكنى عبد الله وأمير المؤمنين ، فقال: ما أغنى عنك معاوية، ما أغنى عنك عبد الله بن عامر، ما أغنى عنك فلان وفلان، فقال له عثمان: أرسل لحيتى، فوالله لو يراك أبوك لساءه مكانك منى، فقال: إن ما يراد بك أشد من ذلك. وطعن جنبه بمشقص، وقيل: إنه أطلق لحيته وتراخت يده فرجع وقال: اللهم إنى أشهدك أنى برىء من دم عثمان. وكذلك قالته امرأته نائلة وقالت: لكنه هو الذى أدخلهما يعنى الرجلين كنانة بن بشر، وسودان بن حمران، ورفع كنانة مشاقص فوجأ بها فى أذن عثمان فمضت حتى دخلت حلقه ثم علاه بالسيف وضرب جبينه بعمود حديد وضربه سودان بن حمران المرادى، فقتله ووثب عليه عمرو بن الحمق وبه رمق فطعنه تسع طعنات وقال ثلاث لله، وست لما فى نفسى عليه[(٢)].

وعن رَيْطة مولاة أسامة قالت: جاء رجل من خلف عثمان بسعفة فضرب بها جبهته، فرأيت الدم يسيل وهو يمسحه، ويقول: اللهم لا يطلب بدمى غيرك. وجاء آخر فضربه بالسيف على صدره فأفقصه، وتعاوروه بأسيافهم فرأيتهم ينتهبون بيته[(٣)].

وقال الشعبى: جاء رجل من « تُجيب » من المصريين والناس حول عثمان فأسبل سيفه ثم قال: أفرجوا، ففرجوا له فوضع ذباب سيفه فى بطن عثمان فأمسكت

---

(١) ينظر تاريخ الإسلام (٣/ ٤٤٦) وتاريخ خليفة (١٧٠) .

(٢) ينظر الطبقات الكبرى (٣/ ٥٤) تاريخ الطبري (٤/ ٣٩٣) أنساب الأشراف (١٤٧٠) تاريخ الإسلام (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٦) .

(٣) ينظر تاريخ الإسلام (٣/ ٤٥٤-٤٥٥) .

زوجته نائلة بنت الفرافصة السيف لتمنع عنه فجز السيف أصابعها. وقيل الذى قتله رجل يقال له حمار. ووجدوه وعنده زوجته نائلة وهو يقرأ فى المصحف صائمًا(١).

وعن الزهرى قال قتل عند صلاة العصر، وشد عبد لعثمان على كنانة بن بشر فقتله، فشد سودان بن حمران على العبد فقتله(٢).

وقال أبو نضرة: عن أبى سعيد ضربوه فجرى الدم من المصحف على قوله: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧] قال فإنها فى المصحف ما حكت، فإن أبا خريت ذكر أنه ذهب هو وسهيل المرى فأخرجوا إليهما المصحف فإذا قطر الدم على الآية المذكورة(٣).

وعن الزهرى قلت لسعيد بن المسيب: هل أنت مخبرى كيف كان قتل عثمان؟ قال: قتل مظلومًا ومن خذله كان معذورًا ومن قتله كان ظالمًا. إنه لما استخلف كره ذلك ناس من الصحابة الذى يحب قومه ويوليهم وكان يكون منهم ما يكره الصحابة فيستعتب فيهم فلا يعزلهم، فلما كان فى الست السنين الأواخر استأثر ببنى عمه فولاهم وما اشترك معهم فولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح مصر، فمكث عليها، فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه. وقد كان قبل ذلك منه هنات إلى ابن مسعود وأبى ذر وعمار، فحنق عليه قومهم.

قلت: قد ذكرت فيما تقدم أسباب ذلك. انتهى.

وجاء المصريون يشكون ابن أبى سرح فكتب إليه يتهدده فأبى أن يقبل وضرب بعض من أتاه ممن شكا فقتله فخرج من أهل مصر ستمائة رجل وقيل سبعمائة فنزلوا المسجد وشكوا إلى الصحابة صنع ابن أبى سرح بهم فقام طلحة فكلم عثمان بكلام شديد وأرسلت إليه عائشة تقول: أنصفهم من عاملك ودخل عليه على وكان متكلم القوم فقال: إنما يسألونك رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا فتكه دما فاعزله واقض بينهم.

فقال: اختاروا رجلا أوليه عليكم، فأشاروا عليه بمحمد بن أبى بكر فكتب عهده وخرج معه عدد من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر، وبين ابن أبى

(١) ينظر تاريخ خليفة (١٧٥) وتاريخ الإسلام (٣/ ٤٥٥).
(٢) ينظر تاريخ الطبري (٤/ ٣٩١) وتاريخ الإسلام (٣/ ٤٥٧).
(٣) ينظر أنساب الأشراف (١٤٩٠) وتاريخ الإسلام (٣/ ٤٥٦-٤٥٧) وتاريخ خليفة ص ١٣٠، ١٣١.

سرح، فلما كان محمد ومن معه على مسيرة ثلاث من المدينة وقيل بعد أن وصلوا إلى « عقبة أيلة » إذا هم بغلام أسود على بعير مسرعا فسألوه فقال وجهنى أمير المؤمنين إلى عامل مصر، فقالوا: هذا عامل مصر يعنى محمد بن أبى بكر ففتشوه فإذا إداوة تقلقل فشقوها، فإذا فيها كتاب عثمان إلى ابن أبى سرح فجمع محمد من عنده من الصحابة ففكوا الكتاب بمحضر منهم فرجعوا إلى المدينة، وكان ما كان فيما تقدم ذكره. انتهى.

ثم لما قتلوه هربوا من حيث دخلوا ثم صرخت المرأة فلم يسمع صراخها، لما فى الدار من الجلبة فصعدت إلى الناس وأخبرتهم، فدخل الحسن والحسين وابن الزبير وغيرهم فوجدوه مذبوحًا. وبلغ عليا وطلحة والزبير الخبر فجاءوا وقد ذهبت عقولهم ودخلوا عليه فرأوه مذبوحا. فقال على: كيف قتل وأنتم على الباب ؟! ولطم الحسن وضرب صدر الحسين وشتم ابن الزبير وابن طلحة، فقالوا لم يؤت من جهتنا بل تسور عليه من الدار، وخرج على غضبانا إلى منزله فجاء الناس يهرعون إليه ليبايعوه فقال: ليس ذلك إليكم إنما ذاك إلى أهل بدر، فمن رضوه فهو خليفة، فلم يبق أحد من البدريين إلا أتى عليا. ثم خرج إلى المسجد فصعد المنبر فكان أول من صعد إليه طلحة فبايعه بيده اليمنى وكانت شلاء لأنه وقى بها رسول الله ﷺ من سهم يوم أحد فشلت، فكانت كالفأل السوء لخلافة على، فإنه لم يتهن فيها بل من حرب إلى حرب إلى أن قتل - رضى الله تعالى عنه - كما سيذكر جميع ذلك فيما يأتى قريبا، ثم بايعه الزبير وسعد والصحابة جميعا، ثم نزل فدعا الناس وطلب مروان فهرب منه هو وأقاربه(١).

قال الإمام الذهبى فى تاريخه « دول الإسلام »: كان قاتلوا عثمان يدا واحدة فى الشر، وكان حثالة من الناس قد ضووا إليهم، وكان أصحاب النبى ﷺ الذين خذلوه كرهوا الفتنة فظنوا أن الأمر لا يبلغ قتله، فلما قتل ندموا على ما صنعوا فى أمره. ولعمرى لو قاموا أو قام بعضهم فحثا فى وجوه أولئك التراب لانصرفوا خاسئين، لكن الفتن لها أسباب، نعوذ بالله منها ومن أسبابها.

وعن الشعبى قال: ما سمعت فى مراثى عثمان أحسن من قول كعب بن مالك

---

(١) ينظر تاريخ الإسلام (٣/ ٤٥٧)، أنساب الأشراف (١٤١٩)، تاريخ الخلفاء (١٥٧-١٦١) .

[من الطويل] :

فَكَفَّ يَدَيْهِ ثُمَّ أَغْلَقَ بَابَهُ ... وأَيْقَنَ أَنَّ اللهَ لَيسَ بِغَافِلِ
وقالَ لِأَهْلِ الدار: لاَ تَقْتلوهُمُ ... عَفَا اللهُ عن كل امرئٍ لم يُقَاتِلِ
فَكَيْفَ رأيتَ اللهَ صَبَّ عليهمُ الْ ... عدَاوَةَ والبَغْضَاءَ بَعْد التَّوَاصُلِ(١)

وقال حسان يرثيه [من الخفيف] :

خَذَلَتْهُ الأَنصَارُ إِذْ حَضَر المَوْ ... تُ وَعَابَتْ وُلاتُهُ الأَنْصَارُ
مَن عذيرى مِنَ الزُّبَيْرِ ومن طَلْ ... حَةَ هَاجَا أمرا له مِقْدَارُ
فَوَلِيُّهْ محمدُ بْنُ أبى بَكْـ ... ـرِ عِيَانًا وخَلفهُ عَمَّارُ

وقال أيضا [من البسيط] :

مَنْ سَرَّهُ الموتُ صِرْفًا لاَ مِزَاجَ لَهُ ... فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً(٢) فِى دارِ عثمانَا
ضَحَّوْا بأشمَط عُنوانُ السجودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ الليلَ تَسْبيحًا وقُرْآنَا
صَبْرًا فِدًى لَكُمُ أمى وَمَا وَلَدتْ ... قَدْ ينفعُ الصبرُ فى المَكْروهِ أحيانا
لَتَسْمَعُنَّ وَشِيكًا فِى دِيارِكُمُ(٣) ... اللهُ أَكبر يَا ثَارَاتِ عثمانَا(٤)

ورثته زوجته بنت الفرافصة التى كفها قطعت بالسيف [من الطويل]:

أَلاَ إِنَّ خيرَ النَّاسِ بَعْدَ ثلاثةٍ ... قَتِيلُ التُّجِيبِيِّ الَّذى جَاء مِنْ مِصْرِ
فَمَا لِيَ لاَ أَبْكِي وَتَبْكِى قَرَابَتِي ... وَقَدْ غَيَّبُوا عَنَّا فُضُولَ أَبى عَمْرِو

وقال الوليد بن عقبة [من الطويل]

بَنِى هَاشِمٍ إنا وَمَا كَانَ بيننا ... كَصَدْعِ الصَّفَا مَا يرمض الدهر شَائِبُهْ
بنى هاشمٍ كَيْفَ المودَّةُ بَيْنَنَا ... وسيفُ ابنِ أَرْوَى عِندكم وَخَزائِنُهْ
بنى هاشم رُدُّوا سِلَاحَ ابن أُختِكُمْ ... وَلاَ تَنهَبُوه لا تَحِلُّ نَهَائِبُهْ(٥)

---

(١) وبعد هذا البيت في تاريخ الإسلام: [من الطويل]

وكيف رأيت الخير أدبر بعده ... عن الناس إدبار النعام الجوافل

ينظر تاريخ الإسلام (٣/ ٤٦١-٤٦٢) والبداية والنهاية (٧/ ١٩٦) والاستيعاب (٣/ ٨٢)، وديوان كعب بن مالك (٣٠٩)، والأغاني (١٣/ ٢٣٣) .

(٢) في تاريخ الإسلام: مأدبة.

(٣) في التاريخ : ديارهم.

(٤) ينظر ديوان حسان (١/ ٩٦) وتاريخ الإسلام (٣/ ٤٦٢) .

(٥) في أنساب الأشراف: مناهبه.

غَدَرْتُمْ بِهِ كيما تَكُونُوا[١] مَكَانه كما غَدَرَتْ يومًا بِكِسْرَى مَرَازِبُهْ[٢]

فأجابه عتبة بن أبى لهب - رضى الله عنه - [من الطويل]:

فَإِن تسألونا سيفَكُمْ إنَّ سيفَكُمْ أُضِيعَ وَأَلْقَاه لَدَى الرَّوْعِ صاحِبُهْ
سَلُوا أهلَ مصرٍ عن سلَاحِ ابن أُخْتِنَا فَهُـمْ سَلَبُوهُ سَيْفَهُ وَخَزَائِبُهْ
وكَانَ وليَّ الأمرِ بَعْدَ محمدٍ علينَا وَفِى كُلِّ المواطن صَاحِبُهْ
عليٌّ إِلى أَنْ أَظْهَرَ الله دِينَهُ وَأَنتَ مع الأَشْقَين فِيمَنْ يحارِبُهْ
وأنت امرؤٌ من أهل صنوانَ نازحٌ فَمَا لَكَ فينا من حَمِيم تُعَاتِبُهْ
وَقَدْ أنزلَ الرَّحْمَنُ أَنَّكَ فاسِقٌ فما لك فى الإِسلام سَهْمٌ تُطَالِبُهْ

قال ابن لهيعة: عن يزيد بن أبى حبيب قال: بلغنى أن الركب الذين ساروا إلى عثمان عامتهم جُنّوا والعياذ بالله[٣].

وروى عمر بن على بن الحسين عن أبيه قال: قال مروان: ما كان فى القوم أدفع عن صاحبنا من صاحبكم، يعنى: عليا عن عثمان. قال فقلت: ما بالكم تسبونه على المنابر ؟ قال: « لا يستقيم الأمر إلا بذلك »[٤]. رواه ابن خيثمة بإسناد قوى عن عمر وكان لعثمان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف ألف درهم وخمسون ومائة ألف دينار.

وقال الليث بن أبى سليم: عن طاوس، عن ابن عباس سمع عليا يقول: والله ما قتلت عثمان ولا أمرت، ولكن غلبت. يقول ذلك ثلاثا. وجاء نحوه عن على من طرق. وجاء عنه أنه لعن قتلة عثمان[٥].

وقال قتادة: ولى عثمان ثنتى عشرة سنة غير اثنى عشر يوما[٦].

وقال السُدِّى: قتل يوم الجمعة لثمان خلون من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين بعد العصر، ودفن بـ« البقيع » بين العشاءين ليلة السبت وهو ابن اثنتين وثمانين سنة،

---

(١) ويروي في أنساب الأشراف: هم قتلوه كي يكونوا .
(٢) ينظر أنساب الأشراف (٦/ ٢٢٨) .
(٣) ينظر تاريخ الإسلام (٣/ ٤٦١) .
(٤) ينظر تاريخ الإسلام (٣/ ٤٦٠-٤٦١) .
(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٦٠) من طريق الليث . وينظر تاريخ الإسلام (٣/ ٤٦١) .
(٦) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٧٧) وتاريخ خليفة (١٣٢) .

وهو الصحيح(١)، وقيل: ست وثمانين. واختلف فى مدة الحصار فقيل أكثر من عشرين يوما(٢)، وعن عبد الله بن فروخ شهدته دفن فى ثيابه بدمائه ولم يغسل، رواه عبد الله بن أحمد فى « زيادات المسند »(٣)، وخرجته نائلة وهى تصرخ ومعها سراج فقال لها جبير بن مطعم: أطفِئى السراج لا يُفطن لنا. ثم انتهوا إلى البقيع، فصلى عليه جبير بن مطعم، وخلفه أبو جهم بن حذيفة، ونيار بن مكرم وزوجتاه نائلة وأم البنين وهما دلياه فى حفرته على الرجال الذين نزلوا فى قبره، ولحدوا له وغيبوا قبره وتفرقوا(٤).

والمكان الذى دفن فيه يقال له: حش كوكب، أى: بستان رجل يسمى: كوكبا، خارج البقيع أو فى طرفه الأقصى. وروى أن نائلة بنت الفرافصة كانت مليحة الثغر جدا فكسرت ثناياها بحجر، وقالت: والله لا يجتليكن أحد بعد عثمان، رضى الله تعالى عنه.

وقال حسان بن ثابت [من البسيط]:

يَا لَلرِّجَالِ لِأَمْرٍ هَاجَ لِى حُزْنًا ... لَقَدْ عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْكِى عَلَى الدِّمَنِ
إِنِّى رَأَيْتُ وَلِيَّ اللهِ مُضْطَهِدًا ... عُثْمَانَ يَهْوِى إِلَى الأَجْدَاثِ فِى كَفَنِ(٥)

[ومن المتقارب]:

لَعَمْرُ أَبِيكَ فَلَا تَكْذِبَنْ ... لَقَدْ ذَهَبَ الخَيْرُ إِلاَّ قَلِيلَا
لَقَدْ سَفِهَ النَّاسُ فِى دِينِهِمْ ... وَخَلَّى ابْنُ عَفَّانَ شَرًّا طَوِيلَا(٦)

قال العلامة ابن الجوزى فى « المنتخب »: قال شعبة: أخبرنى عبد الرحمن، سمعت أبى يقول: سمعت عليا - رضى الله تعالى عنه - يقول: قتل الله عثمان وأنا معه، قال أبو حمزة: فذكرته لابن عباس فقال صدق على، يقول: الله قتل عثمان ويقتلنى معه.

---

(١) ينظر تاريخ خليفة (١٣١) والطبقات الكبرى (٣/ ٥٧).
(٢) وقال الواقدي: حاصروه تسعا وأربعين يوما وقال الزبير: حاصروه شهرين وعشرين يوما. ينظر الاستيعاب (١٧٩٧).
(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١/ ٢٧).
(٤) ينظر الاستيعاب (١٧٩٧) والطبقات (٣/ ٥٧)
(٥) ينسب هذا لكعب بن مالك. ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب (١٧٩٧).
(٦) ينظر المصدر السابق.

وقد روى شعبة عن حبيب بن الزبير عن عبد الرحمن بن الشرود أن عليا - رضى الله عنه - قال: إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٣][1]، وقال عبد الله بن شوذب: حدثنى زهدم الحرمى، قال: كنت فى سمر عند ابن عباس فقال: لأحدثنكم حديثا: إنه لما كان من أمر هذا الرجل - يعنى: عثمان - ما كان. قلت لعلى: اعتزل هذا الأمر فوالله لو كنت فى جحر لأتاك الناس حتى يبايعوك وايم الله ليتأمرن عليه معاوية، ذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ [الإسراء: ٣٣][2] الآية، كما قال فى « الرياض ». وعن محمد بن عبد الله أن الحكم بن عبد الملك بن مروان قال: لما قتل عثمان ألقى على المزبلة. قال سهم بن حبيش - وكان ممن شهد مقتل عثمان -: فلما أمسينا قلت لئن تركتم صاحبكم حتى يصبحَ مثَّلُوا به فلما كان من الليل أتاه اثنا عشر رجلا منهم حويطب بن عبد العزى، وحكيم بن حزام، وجبير بن مطعم، وعبد الله بن الزبير، وجدى مروان بن الحكم، فاحتملوه فلما ساروا به إلى المقبرة ليدفنوه فإذا هم بقوم من بنى مازن فقالوا: والله لئن دفنتموه هنا لنخبرن الناس غدا فاحتملوه وكان على الباب وإن رأسه يقول طق طق حتى صاروا به إلى « حش كوكب » فاحتفروا له، فلما أخرجوه ليدفنوه صرخت ابنته عائشة وكان مصباح فى حق، فقال لها ابن الزبير: لئن لم تسكتى لأضربن الذى فيه عيناك، فسكتت فدفنوه خرجه القلعى[3].

قال: ولما حملناه وسرنا غشينا سواد من خلفنا فهبناهم حتى كدنا نفر منهم فإذا مناد: لا روع عليكم اثبتوا، فإنا جئنا نشهده معكم. وكان ابن خنيس يقول: هم الملائكة. أخرجه ابن الضحاك[4]. وعن هارون بن يحيى أن عثمان جعل يقول حين ضرب والدماء تسيل على لحيته: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، اللهم إنى أستعينك وأستعيذك على جميع أمورى، وأسألك الصبر على بليتى[5].

---

(١) له طرق أخرى عند الطبري في تفسيره (٧/ ٢٥٠) وينظر الدر المنثور (٤/١٨٨-١٨٩) والرياض النضرة (٣/ ٤٨) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٢٨) وعزاه للطبراني وابن عساكر .

(٣) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١٦١) وينظر الرياض النضرة (٣/ ٧٤) .

(٤) ينظر الرياض النضرة (٣/ ٧٥) .

(٥) ينظر الرياض النضرة (٣/ ٧٢) .

الآيات فى شأن عثمان رضى الله عنه

منها قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٦٢] الآية، عن أبى سعيد الخدرى: أنها نزلت فى عثمان، رضى الله تعالى عنه(١).

ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. الآية، عن محمد بن حاطب قال سمعت عليا - رضى الله تعالى عنه - يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] عثمان. خرجه الحاكمى(٢).

ومنها عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦] هو عثمان. خرجه البخارى(٣).

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩] عن ابن عمر قال: إنها نزلت فى عثمان - رضى الله تعالى عنه -. خرجه الواحدى فى « الفضائل »(٤).

الأحاديث فى شأن عثمان رضى الله تعالى عنه

الحديث الأول: عن أنس - رضى الله تعالى عنه - قال: هاجر إلى أرض الحبشة عثمان - رضى الله عنه - وخرج معه بابنة رسول الله ﷺ رقية، فلما أبطأ عليه خبرهما جعل يتوكف الأخبار، فقدمت امرأة من قريش من الحبشة، فسألها رسول الله ﷺ عنهما فقالت: أنا رأيتهما. فقال - عليه الصلاة والسلام -: على أى حال رأيتهما ؟ قالت: رأيتهما وقد حملها على حمار وهو يسوق بها. فقال النبى ﷺ: « صحبهما الله، إن كان عثمان أول من هاجر إلى الله عز وجل ». أخرجه خيثمة بن

---

(١) ينظر أسباب النزول للواحدي (١٧١) .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ٩٠) رقم (٣٤٨٣٠) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٦٠٩) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد .

(٣) ليس عند البخاري في صحيحه كما يوهم كلام المصنف بل هو في التاريخ الكبير كما عزاه إليه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٣٥) . وعزاه أيضا لابن سعد وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٥٦) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٦٠٤) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر .

سليمان والملا فى « سيرته »(١).

الحديث الثانى: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله أوحى إليّ أن أزوج كريمتيّ عثمان بن عفان » خرجه الطبرانى. وفى رواية: « بنتيّ »، يعنى: رقية، وأم كلثوم(٢).

الحديث الثالث: عن أبى هريرة قال: لقى النبى ﷺ عثمان بن عفان عند باب المسجد فقال: « يا عثمان هذا جبريل أخبرنى أن الله قد أمرنى أن أزوجك أم كلثوم بمثل صداق رقية وعلى مثل صحبتها ». أخرجه ابن ماجة القزوينى، وأبو سعيد النقاش(٣).

وفى رواية ابن عباس: « والذى نفسى بيده لو أن عندى مائة تموت واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى حتى لا يبقى من المائة شيء »(٤).

الحديث الرابع: عن أبى هريرة قال: دخلت على رقية بنت رسول الله ﷺ امرأة عثمان وفي يدها مشط فقالت خرج من عندى رسول الله ﷺ آنفا رجلت رأسه فقال: كيف تجدين أبا عبد الله ؟ قلت: خير الرجال. قال: أكرميه فإنه من أشبه أصحابى بى خلقا(٥).

الحديث الخامس: أخرج الملا عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: « إن عثمان بن عفان أشبهُ الناس بى خلقا وخلقا ودينا وسمتا وهو ذو النورين، زوجته ابنتى وهو معى فى الجنة كهاتين » وحرك السبابة والوسطى(٦).

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٩٦) رقم (١٣١١) من حديث أنس .
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٥٠١) من طريق محمد بن حرب النشائي نا عمير بن عمران الحنفي عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس به وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن ابن جريج إلا عمير بن عمران تفرد به محمد بن حرب وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٨٦): رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عمير بن عمران الحنفي وهو ضعيف بهذا الحديث وغيره . وينظر مجمع البحرين (٣٦٧٥) .
(٣) أخرجه ابن ماجة (١١٠) من طريق عثمان بن خالد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن الأعرج عن أبي هريرة، به . وقال البوصيري في الزوائد (١/ ٦٦): هذا إسناد ضعيف فيه عثمان بن خالد وهو ضعيف باتفاقهم . ا هـ وعبد الرحمن بن أبي الزناد لين الحديث أيضا .
(٤) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٨١٤) وعزاه إلى ابن عساكر عن ابن عباس .
(٥) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٨٤) وقال: رواه الطبراني وفيه محمد بن عبد الله يروى عن المطلب ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات .
(٦) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٢) وعزاه للملا في سيرته .

الحديث السادس: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: « عثمان أحيى أمتي وأكرمها »(١).

الحديث السابع: عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعا فى بيته كاشفا عن فَخِذَيْهِ أو عن ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحال فحدثه، ثم استأذن عمر فأَذن له، وهو على تلك الحالة فحدثه، ثم استأذن عثمان، فجلس - عليه الصلاة والسلام - وسوى ثيابه، فدخل فتحدث، فلما خرجوا قلت: يا رسول الله، دخل أبو بكر فلم تهش له ولم تبال به، ثم دخل عمر فلم تهش له ولم تبال به، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك. فقال - عليه الصلاة والسلام -: « ألا أستحيى من رجل تستحيى منه الملائكة » خرجه أحمد ومسلم وأبو حاتم(٢).

الحديث الثامن: عنها أيضًا قالت: قال رسول الله ﷺ فى مرضه: « وددت لو أن عندى بعض أصحابى. قالت: فقلت: يا رسول الله ألا ندعو لك أبا بكر ؟ فسكت. قالت: فقلنا: عمر ؟ فسكت. قالت: فقلنا: عثمان ؟ قال: « نعم » فأرسلنا إلى عثمان. خرجه الترمذى(٣).

الحديث التاسع: عن عبد الرحمن بن خباب قال: شهدت رسول الله ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان فقال: يا رسول الله عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله. ثم حض - عليه الصلاة والسلام - على الجيش، فقام عثمان فقال: يا رسول الله مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله. ثم حض على الجيش فقام عثمان فقال: ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله. فأنا رأيت رسول الله ﷺ عند المنبر وهو يقول: « ما على عثمان ما فعل بعدهن، ما على عثمان ما فعل بعدهن » خرجه الترمذى(٤).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٥٦) وينظر كنز العمال (٣٢٨٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٧١، ٦/ ١٥٥) وفي الفضائل (٤٩٣) وأخرجه مسلم (٢٤٠١) وأبو يعلى (٤٨١٥) وابن حبان (٦٩٠٧) والبيهقي (٢/ ٢٣٠-٢٣١) من حديث عائشة.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧١١) وابن ماجة (١١٣) والحاكم (٣/ ٩٩) وابن سعد (٣/ ٦٦-٦٧) وأحمد (١/ ٥٨، ٦٩) وابن حبان (٦٩١٨) وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٧٠٠) وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٤/ ٧٥) وعبد بن حميد في المنتخب من المسند (٣١١) من حديث عبد الله بن خباب وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

وقال أبو عمر: جهز عثمان جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيرا وأتم الألف بخمسين فرسا. وفى رواية عن قتادة: حمل على ألف بعير وسبعين فرسًا(١).

الحديث العاشر: عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان بعشرة آلاف دينار فى كمه حين جهز جيش العسرة؛ فصبها فى حجره - عليه الصلاة والسلام -، فرأيته - عليه الصلاة والسلام - يقلبها فى حجره ويقول: « ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم ». خرجه الترمذى وأحمد(٢).

الحديث الحادى عشر: عن بشر بن بشير السلمى عن أبيه قال: لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء، وكان لرجل من بنى غفار بئر يقال لها: « رومة » يبيع القرب منها بمد، فقال له رسول الله ﷺ: تبيعها ببئر فى الجنة ؟ فقال: يا رسول الله ليس لى ولا لعيالى بئر غيرها، ولا أستطيع ذلك. قال: فبلغ ذلك عثمان، فاشتراها منه بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبى ﷺ فقال اجعل لى مثل الذى جعلت له عينا فى الجنة، فإنى قد اشتريتها وجعلتها للمسلمين(٣).

الحديث الثانى عشر: عن الأحنف بن قيس قال: انطلقت حاجا فمررت بالمدينة، فبينما نحن بمنزلنا إذ جاءنا جاءٍ، فقال: الناس مجتمعون فى المسجد، فانطلقت أنا وصاحبى، فإذا الناس مجتمعون على نفر فى المسجد، قال الأحنف: فتخللتهم حتى قمت عليهم وإذا على بن أبى طالب وطلحة والزبير وسعد، فلم يكن أسرع مما جاء عثمان عليه ملاءة صفراء قد قنع بها رأسه فقال: أههنا على ؟ قالوا: نعم. قال: أههنا الزبير ؟ قالوا: نعم. قال: أههنا طلحة ؟ قالوا: نعم. قال: أههنا سعد ؟ قالوا: نعم. قال: أنشدكم الله الذى لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من يبتاع مربد بنى فلان غفر الله له فابتعته بعشرين ألفا فأتيت النبى ﷺ فقلت: قد ابتعته، فقال اجعله فى مسجدنا وأجره لك ؟ فقالوا اللهم نعم. ثم قال:

---

(١) ينظر الاستيعاب (٣/ ١٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٦٣) والترمذي (٣٧٠١) من طريق عبد الله بن القاسم عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة عن عبد الرحمن بن سمرة، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ١٣٢) وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الأعلى بن أبي المساور وهو ضعيف.

أنشدكم الله الذى لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من يبتاع بئر رومة غفر الله له فابتعتها بخمسة وثلاثين ألفا فقال: اجعلها سقاية للمسلمين وأجرها لك؟ فقالوا: اللهم نعم. ثم قال: أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله ﷺ نظر فى وجوه القوم فقال: من يجهز هؤلاء غفر الله له - يعنى جيش العسرة - فجهزتهم حتى لم يفقدوا عقالا ولا خطاما؟ قالوا: اللهم نعم. قال اللهم اشهد ثلاثا. أخرجه الدارقطنى وأبو حاتم وأحمد(١).

الحديث الثالث عشر: أخرج أحمد أن رسول الله ﷺ كان على « حراء » ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فتحرك الجبل حتى سقطت حجارته بالحضيض، فركضه - عليه الصلاة والسلام - برجله وقال « اسكن حراء، فما عليك إلا نبى وصديق وشهيدان ». ومثله فى الترمذى إلا أنه ذكر « ثبيرا » مكان « حراء »(٢).

الحديث الرابع عشر: أخرج الترمذى عن أنس قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة فبايع الناس بيعة الرضوان فقال النبى ﷺ: « إن عثمان فى حاجة الله وفى حاجة رسوله » فضرب - عليه الصلاة والسلام - إحدى يديه على الأخرى، وقال: « هذه عن عثمان » فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم(٣).

ونسبة الحاجة إلى الله تعالى على طريق الاستعارة والتمثيل المعروف فى علم البيان.

الحديث الخامس عشر: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ قوموا بنا نعود عثمان. قلنا: عليل يا رسول الله؟ قال: نعم. فقام ﷺ واتبعناه حتى أتى منزل عثمان فاستأذن فأذن له فدخل ودخلنا فوجدنا عثمان مكبوبا على وجهه، فقال له: مالك يا عثمان لا ترفع رأسك؟ فقال: يا رسول الله إنى أستحيى يعنى من الله تعالى. قال: ولم ذاك؟ قال: إنى أخاف أن يكون على غضبان. فقال - عليه

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٧٠) وابن أبي شيبة (١٢/ ٣٩-٤٠) والنسائي (٦/ ٢٣٤-٢٣٥) والطبري في: تاريخه (٤/ ٤٩٧) وابن حبان (٦٩٢٠) عن الأحنف بن قيس.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٥٩) وفي فضائل الصحابة (٧٥١) والترمذي (٣٦٩٩) والنسائي (٦/ ٢٣٦) والدارقطني (٤/ ١٩٩) وابن أبي عاصم في السنة (١٣٠٩) وابن حبان (٦٩١٦).

(٣) تقدم تخريجه في بداية ترجمة عثمان.

الصلاة والسلام - ألست صاحب بئر رومة، ومجهز جيش العسرة، والزائد فى مسجدى، وباذل المال فى رضا الله ورضائى، ومن تستحيى منه ملائكة السماء ؟ هذا جبريل يخبرنى عن الله عز وجل أنك نور أهل السماء، ومصباح أهل الأرض، وأهل الجنة.

خرج المُلاَّ عن عثمان بن موهب قال: جاء رجل من أهل مصر وحج البيت فرأى قومًا فقال: من هؤلاء ؟ قالوا: هؤلاء قريش. قال: فمن الشيخ فيهم ؟ قالوا: عبد الله بن عمر. فقال الرجل: يا بن عمر إنى سائلك فحدثنى هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد ؟ قال نعم. قال: تعلم أنه تغيب عن بدر ؟ قال: نعم. قال: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال: نعم. قال الرجل: الله أكبر وقام. فقيل لابن عمر إن هذا يقول إنك وقعت فى عثمان. قال: أو قد فعل ذلك ؟ قالوا إنه يقول ذلك. قال: فردوه، فردوه. فقال: أعقلت ما قلت لك ؟ قال الرجل: نعم سألتك: أشهد عثمان بيعة الرضوان فقلت: لا، وسألتك: أشهد بدرا، فقلت: لا، وسألتك: أكان ممن استزله الشيطان، فقلت: نعم. فقال ابن عمر: أبين لك: أما فراره يوم أحد، فأشهد أن الله تعالى عفا عنه وغفر له.

قلت: يشير إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٥] وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته ابنة رسول الله ﷺ رقية وكانت مريضة فتخلف ليمرضها بأمره ﷺ وقال له: إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه.

وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز بمكة منه لبعثه مكانه فكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة فقال - عليه الصلاة والسلام - بعد أن وضع إحدى يديه على الأخرى: « هذه يمينى عنى وشمالى عن عثمان »، قال عثمان - رضى الله عنه -: كانت بيعة الرضوان فيّ وضرب ﷺ عنى بشماله على يمينه وشمال رسول الله ﷺ خير من يمينى[١].

قلت: وقول عثمان كانت بيعة الرضوان فيّ أى بيمينى، وذلك أنه قد ورد أن

---

(١) حديث عثمان بن موهب: أخرجه البخاري (٣٦٩٨) والترمذي (٣٧٠٦) وأحمد (٢/ ١٠١، ١٢٠).

سببها أنه أشيع أن عثمان قتل بمكة قتله المشركون فكان هذا هو السبب فى أن دعاهم - عليه الصلاة والسلام - إلى المبايعة فمعنى الظرفية هنا السببية مثل « دخلت النار امرأة فى هرة ».

وَزِيدَ والظَّرْفِيَّةَ اسْتَبِنْ ببا   وَفى وَقَدْ يبينانِ السَّبَبَا

فدخل فى جوار أبان بن سعيد بن العاص ابن عمه وحمله على السرج وأردف خلفه، فلما قدم به إلى مكة قال له: طف يا بن عم، فقال عثمان: يا بن عم إن لنا صاحبا لا نبتدع أمرا حتى يكون هو الذى يعمله فنتبع أثره ﷺ.

الحديث السادس عشر: عن إياس عن أبيه أن النبى ﷺ لما بايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى قال الناس: هنيئًا لأبى عبد الله الطواف بالبيت. فقال - عليه الصلاة والسلام -: « لو مكث عثمان كذا كذا ما طاف حتى أطوف». أخرجه ابن الضحاك[1]. قلت: قد أشار إلى ذلك البوصيرى صاحب الهمزية بقوله: [من الخفيف]

وَأَبى أَنْ يَطُوفَ بالبيْتِ إِذْ لَمْ   يَدْنُ مِنْهُ إِلَى النَّبِيِّ فِنَاءُ
فَجزتهُ عَنْهَا ببيعةِ رضوَا   نَ يَدٌ مِنْ نبيِّهِ بَيْضَاءُ
أَدَبٌ عِنْدَهُ تَضَاعَفتِ الأعْـ   ـمَالُ بالتَّرْكِ حَبَّذَا الأُدَبَاءُ

الحديث السابع عشر: عن فاطمة بنت عبد الرحمن عن أمها أنها سألت عائشة وأرسلها عمها فقالت: إن أحد بنيك يقرئك السلام ويسألك عن عثمان فإن الناس قد شتموه، فقالت عائشة: لعن الله من لعنه، والله لقد كان قاعدا عند نبى الله ﷺ، وإن رسول الله ﷺ مسند ظهره إليّ، وإن جبريل ليوحى إليه القرآن وإنى لأمسح العرق عن جبين رسول الله ﷺ وإنه يقول له: اكتب يا عثيم، فما كان الله لينزل تلك المنزلة إلا كريما على الله ورسوله. أخرجه أحمد والحاكم[2].

الحديث الثامن عشر: روى ابن عساكر وأبو نعيم والطبرانى فى « الأوسط » عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: « اللهم ارض عن عثمان (ثلاثا) وفى رواية: « رضيت عن عثمان فارض عنه »، وفى لفظ: « غفر الله لك يا عثمان ما قدمت

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٩٠-٩١) رقم (١٤٤) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٨٧) وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف وينظر كنز العمال (٣٢٨٧٥) .
(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٥٠) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٩٢) .

وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما كان منك وما هو كائن إلى يوم القيامة »[١].

الحديث التاسع عشر: أخرج ابن عدى فى « الكامل »، وابن عساكر، والديلمى، عن ابن عمر: رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: « إنا والله لنشبه عثمان بأبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام »[٢].

الحديث العشرون: روى ابن عساكر، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: « والله ليشفعن عثمان فى سبعين ألفا من أمتى قد استوجبوا النار حتى يدخلهم الله الجنة »[٣].

الحديث الحادى والعشرون: روى أبو نعيم، وابن عساكر، عن جابر - رضى الله تعالى عنه - أن رسول الله ﷺ قال: « عثمان وليى فى الدنيا والآخرة »[٤] رضى الله عنه.

الحديث الثانى والعشرون: أخرج ابن عساكر، عن جابر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: « عثمان فى الجنة »[٥].

الحديث الثالث والعشرون: أخرج الترمذى عن طلحة، وابن ماجة عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: « لكل نبى رفيق فى الجنة، ورفيقى فيها عثمان بن عفان »[٦].

الحديث الرابع والعشرون : أخرج الترمذى وابن ماجة والحاكم وصححه عن

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٨٤٢) وعزاه إلى ابن عساكر عن يوسف بن سهل بن يوسف الأنصاري عن أبيه عن جده . أما اللفظ الثاني فذكره الهندي في الكنز (٣٢٨٤١) وعزاه لابن عساكر عن عائشة، ولأبي نعيم وابن عساكر عن أبي سعيد .

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٥/ ١٧٨٣) والعقيلي في الضعفاء الكبير (١/ ١٧٣-١٧٤) وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١٩٦) من حديث ابن عمر وضعفوه وذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٨٣٤) وعزاه إلى ابن عدي والعقيلي وابن عساكر والديلمي .

(٣) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٨٧٤) وعزاه إلى ابن عساكر عن ابن عباس .

(٤) ذكره الهندي في الكنز (٣٢٨٠٣) وعزاه إلى أبي يعلى عن جابر وذكره الحافظ في المطالب العالية (٣٩٣٨) وعزاه لأبي يعلى .

(٥) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٨٠٤) وعزاه لابن عساكر عن جابر .

(٦) أخرجه الترمذي (٣٦٩٨) من طريق شيخ من بني زهرة عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن طلحة بن عبيد الله به وقال الترمذي: هذا حديث غريب ليس إسناده بالقوى وهو منقطع وأخرجه ابن ماجة (١٠٩) من طريق عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن أبي هريرة.

مرة بن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ يذكر فتنة فقرَّ بها، فمر رجل مقنع فى ثوب، فقال: « هذا يومئذ على الهدى » فقمت إليه فإذا هو عثمان بن عفان، فأقبلت إليه بوجهى فقلت: هذا ؟ قال: نعم(١).

الحديث الخامس والعشرون: عن الحسن بن على - رضى الله عنهما - قال: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام متعلقا بالعرش ، ثم رأيت أبا بكر آخذًا بحقوى رسول الله ﷺ، ثم رأيت عمر آخذا بحقوى أبى بكر، ثم رأيت عثمان آخذا بحقوى عمر، ثم رأيت الدم منصبا من السماء إلى الأرض فحدث الحسن بهذا الحديث وعنده ناس من الشيعة فقالوا: ما رأيت عليا ؟ قال: ما كان أحد أحب إلىَّ أن أراه آخذا بحقوى النبى ﷺ من على، ولكن إنما هى رؤيا: فقال لهم أبو مسعود - عقبة ابن عمرو -: إنكم لتجدون على الحسن فى رؤيا رآها، لقد كنت مع رسول الله ﷺ فى غزاة وأصاب المسلمين جهد حتى عرفت الكآبة فى وجوه المسلمين والفرح فى وجوه المنافقين، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ قال: « والله لا تغيبن حتى يأتيكم الله برزق. فعلم عثمان أن الله ورسوله تصدقا، فوجه راحلته فإذا هو بأربعة عشر راحلة فاشتراها وما عليها من الطعام فوجه منها سبعا إلى رسول الله ﷺ ووجه سبعا إلى أهله. فلما رأى المسلمون العير قد جاءت عرف الفرح فى وجوههم، والكآبة فى وجوه المنافقين، فقال رسول الله ﷺ: ما هذا ؟ فقالوا: أرسل به عثمان هدية إليك. قال أبو مسعود: فرأيته - عليه الصلاة والسلام - رافعا يديه يدعو لعثمان بدعاء ما سمعته يدعو لأحد قبله ولا بعده مثله: اللهم أعط لعثمان وافعل لعثمان، رافعا يديه حتى رأيت بياض إبطيه. خرجه القزوينى الحاكمى(٢).

الحديث السادس والعشرون: عن أبى سعيد الخدرى قال: رمقت رسول الله ﷺ من أول الليل إلى أن طلع الفجر يدعو لعثمان: « اللهم إنى رضيت عن عثمان فارض عنه » فما زال رافعا يديه يدعو حتى طلع الفجر(٣).

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٦) والترمذي (٣٧٠٤) من حديث كعب بن مرة .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٤٩) رقم (٦٩٤) . وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٨٨) وفيه سعيد بن محمد الوراق وهو ضعيف ورواه الطبراني في الأوسط وفيه رؤيا رآها الحسن ابن علي رضي الله عنهما .
(٣) تقدم تخريجه قريبا .

الحديث السابع والعشرون: عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: مكث آل محمد ﷺ أربعة أيام ما يطعمون شيئا حتى تضاغوا صبياننا. فدخل رسول الله ﷺ، فقال: يا عائشة هل أصبتم شيئا بعدى ؟ فقلت: من أين إن لم يأتنا الله عز وجل به على يديك ؟ فتوضأ وخرج مستخفيا يصلى ههنا مرة وههنا مرة. قالت: فأتى عثمان من آخر النهار فاستأذن، فهممت أن أحجبه، ثم قلت: هو رجل من مكاثير الصحابة لعل الله عز وجل إنما ساقه إلينا ليجرى على يديه خيرا، فأذنت له فقال: يا أماه، أين رسول الله ﷺ ؟ فقلت: يا بنى ما طعم آل محمد منذ أربعة أيام شيئًا، دخل عليّ رسول الله ﷺ متغيرا ضامر البطن، فأخبرته بما قال لى وما رددت عليه. قالت: فبكى عثمان، وقال: مقتا للدنيا. ثم قال: يا أم المؤمنين ما كنت بحقيق أن ينزل بك بعض الأمر ثم لا تذكرينه لى، ولعبد الرحمن بن عوف، ولثابت بن قيس، ثم خرج فبعث إلينا بأحمال من دقيق، وأحمال من حنطة، وأحمال من التمر وبملوح وثلاثمائة درهم فى صرة. ثم قال: يبطئ هذا عليكم. ثم بعث بخبز وشواء كثير فقال: كلوا أنتم واصنعوا لرسول الله ﷺ حتى يجىء، ثم أقسم على أن لا يكون مثل هذا إلا أعلمته به. قالت ودخل رسول الله ﷺ فقال يا عائشة: هل أصبتم بعدى شيئًا ؟ قلت: يا رسول الله قد علمت أنك إنما خرجت تدعو إلى الله عز وجل، وقد علمت أن الله لا يرد سؤالك. فقال: ما أصبتم ؟ قلت: كذا وكذا حمل بعير دقيقا، وكذا وكذا حمل بعير حنطة، وكذا وكذا حمل بعير تمرا وثلاثمائة درهم فى صرة، وخبزا وشواء كثيرا. قال ممن ؟ قلت: عثمان بن عفان.

قلت: قد بكى وذكر الدنيا بالمقت وأقسم عليّ أن لا يكون مثل هذا إلا كلمته. فلم يجلس رسول الله ﷺ حتى خرج إلى المسجد فرفع يديه وقال: « اللهم قد رضيت عن عثمان فارض عنه » وكررها ثلاثا ودعا له كثيرًا. أخرجه الحافظ أبو القاسم الدمشقى فى « الأربعين »[1].

الحديث الثامن والعشرون: عن جابر قال: أتى رسول الله ﷺ بجنازة رجل ليصلى عليه فلم يصل عليه، فقيل: يا رسول الله ما رأيناك تركت الصلاة على أحد قبل هذا. قال: « فإنه كان يبغض عثمان، فأبغضه الله عز وجل ». خرجه الترمذى[2].

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٨٤١) وعزاه لابن عساكر عن عائشة .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٠٩) من طريق محمد بن زياد عن محمد بن عجلان عن أبي الزبير عن =

الحديث التاسع والعشرون: عن عمر - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يوم يموت عثمان تصلى عليه ملائكة السماء » قلت يا رسول الله: عثمان خاصة أو الناس عامة ؟ قال: « عثمان خاصة ». خرجه الحافظ الدمشقى(١).

الحديث الثلاثون: أخرج الحافظ ابن بشران عن على بن أبى طالب أنه قال: قلت يا رسول الله من أول من يحاسب يوم القيامة ؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم من ؟ قال: عمر. قلت: ثم من ؟ قال: أنت يا على. قلت: يا رسول الله أين عثمان ؟ قال: « إنى سألت عثمان حاجة سرا فقضاها سرًا، فسألت الله أن لا يحاسب عثمان إلا سرًا ».

عن عبد الرحمن بن مهدى قال: كان لعثمان شيئان ليسا لأبى بكر ولا لعمر: صبر نفسه حتى قتل ظلما. وجمعه الناس على مصحف.

عن أنس بن مالك أن حذيفة قدم على عثمان وكان يتمارى أهل الشام فى فتح « أرمينية »، و« أذربيجان » مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أَدرِكْ هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل إلى حفصة: أن أرسلى بالصحف ننسخها فى المصحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها إليه فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم. ففعلوا. وأرسل إلى كل أفق مصحفا، وأمر بما سوى ذلك من القرآن على كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. خرجه البخارى(٢).

الحديث الحادى والثلاثون: عن عقبة بن عامر الجهنى قال: قال رسول الله ﷺ: لما أسرى بى دخلت جنات عدن فناولنى جبريل تفاحة فانفلقت عن حوراء عيناء مرضية كأن مقادم عينيها أجنحة النسور، فقلت: لمن أنت ؟ فقالت: للخليفة

= جابر به وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ومحمد بن زياد صاحب ميمون بن مهران ضعيف في الحديث جدا .

(١) أخرجه ابن عساكر (٥/ ٣٦٤-تهذيب) وذكره الهندي في الكنز (٣٢٨٧٢) وعزاه إلى أبي نعيم في فضائل الصحابة وأبي بكر الشافعي في الغيلانيات والديلمي وابن عساكر .

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٨٧) من طريق الزهري عن أنس، به .

المقتول ظلما عثمان بن عفان. خرجه خيثمة بن سليمان، والحاكمى[١].

الحديث الثانى والثلاثون: عن مرة بن كعب النمرى قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ فى طريق من طرق المدينة إذ قال: كيف تصنعون فى فتنة تثور فى أقطار الأرض كأنها صياصى البقر؟ قالوا: فنصنع ماذا يا رسول الله ؟ قال عليكم بهذا وأصحابه فاتبعوا هذا وأصحابه. قال فأسرعت حتى عقلت الرجل فقلت: هذا يا نبى الله ؟ قال هذا. فإذا هو عثمان بن عفان. خرجه أبو حاتم وأحمد وقال فيه: فأسرعت حتى غبت فلحقت بالرجل، فقلت: هذا يا نبى الله ؟ ثم ذكر ما بقى[٢].

الحديث الثالث والثلاثون: عن أبى حبيبة قال سمعت أبا هريرة وعثمان محصور يستأذن فى الكلام فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنها تكون فتنة واختلاف. قلنا: يا رسول الله فماذا تأمرنا ؟ قال: عليكم بالأمير وأصحابه » وأشار إلى عثمان ابن عفان. خرجه القزوينى الحاكمى[٣].

الحديث الرابع والثلاثون: عن زيد بن أبى أوفى أنه - عليه الصلاة والسلام - دعا عثمان وقال: ادن أبا عمرو فلم يزل يدنو منه حتى ألصق ركبتيه بركبتيه، ثم نظر - عليه الصلاة والسلام - إلى السماء وقال: سبحان الله ثلاث مرات، ثم نظر إلى عثمان وكانت أزراره محلولة فزرها ﷺ بيده ثم قال: اجمع عِطْفَىْ ردائك على نحرك. قال: إن لك لشأنا فى أهل السماء أبا عمرو، وترد عليَّ الحوض وأوداجك تشخب دما، فأقول لك: مَنْ فعل بك هذا ؟ فتقول فلان وفلان. وذلك كلام جبريل. خرجه أبو الخير الحاكمى، وأبو القاسم الدمشقى[٤].

الحديث الخامس والثلاثون: أخرج الصوفى عن عبد الله بن عمر أنه - عليه الصلاة والسلام - قال لعثمان: « يا عثمان إنْ كساك الله قميصا وأرادك المنافقون

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٤٦٤) وابن الجوزي في الموضوعات (٦١٤) من طريق عبد الله بن سليمان ثنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر به وله طريق آخر عند ابن الجوزي في الموضوعات (٦١٥) وينظر اللآلئ المصنوعة (١/ ٣١١-٣١٢) والضعفاء الكبير (٢/ ٣٢٠) واللسان (٣/ ٤٠٢) .

(٢) تقدم تخريجه قريبا .

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٤٣٣-٤٣٤) من حديث أبي هريرة وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

(٤) ذكره الهندي في الكنز (٣٢٨٦٠) عن عائشة بنحوه وعزاه لابن عساكر .

على خلعه فلا تخلعه، فو الذى نفسى بيده لئن خلعته لا ترى الجنة حتى يلج الجمل فى سَمِّ الخياط »[١].

الحديث السادس والثلاثون: عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: « يشفع عثمان يوم القيامة فى مثل ربيعة ومضر ». خرجه الحاكمى القزوينى[٢].

الحديث السابع والثلاثون: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا كان يوم القيامة يؤتى بعثمان وأوداجه تشخب دمًا، اللون لون الدم، والرائحة رائحة المسك، يكسى حلتين من نور، فينصب له منبر على الصراط فيجوز المؤمنون بنور وجهه وليس لمبغضه منه نصيب ». خرجه المُلاَّ فى « سيرته »[٣].

الحديث الثامن والثلاثون: عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: رأيت رسول الله ﷺ وضع يده على كتف عثمان فقال: « كيف أنتم إذا قتلتم إمامكم وتجالدتم بأسيافكم، وورث دهماءكم شراركم، فويل لأمتى إذا فعلوه ». خرجه الحاكمى.

الحديث التاسع والثلاثون: عن أبى سهلة قال: قال عثمان يوم الدار: « إن رسول الله ﷺ عهد إلى عهدا وإنى صابر عليه » أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح. خرجه أحمد فزاد: قال قيس فكانوا يرونه ذلك اليوم[٤].

الحديث الأربعون: عن عبد الله بن سلام قال: أتيت عثمان وهو محصور أسلم عليه، فقال: مرحبًا بأخى مرحبا بأخى، أفلا أحدثك ما رأيت الليلة فى المنام ؟ قلت نعم. قال: رأيت رسول الله ﷺ فقال: حصروك ؟ فقلت نعم. فقال عطشوك ؟ فقلت نعم. فأدلى دلوا من ماء فشربت حتى رويت، فإنى لأجد بردا بين كتفى وبين قدمى. فقال: إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا. قال ابن سلام: فأصبح صائما وقتل من يومه، رضى الله عنه[٥].

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/٥٥٨) رقم (١١٧١) وذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٨٧١) وعزاه للطبراني .

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٨٧٣) وعزاه إلى ابن عساكر عن الحسن مرسلا .

(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/٤٧) وعزاه للملا في سيرته .

(٤) أخرجه أحمد (١/٥٨، ٦٩) والترمذي (٣٧١١) وابن حبان (٦٩١٨) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح .

(٥) أخرجه الترمذي (٣٢٥٦، ٣٨٠٣) عن عبد الله بن سلام بنحوه .

الحديث الحادى والأربعون: عن أبى ذر عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال لعثمان: « كيف أنت يا عثمان إذا جئتنى وأوداجك تشخب دما، فأقول من فعل هذا بك ؟ فتقول: بين خاذل وآمر، إذ نادى مناد من تحت العرش: إن الله تعالى قد حكم عثمان فى القاتل والخاذل ». أخرجه الديلمى فى « مسند الفردوس »(١).

قلت: هذا ما ظفرت به مما ورد فى شأنه خاصة. وأما ما ورد فى شأنه مع الاثنين أو مع الثلاثة أو مع الأربعة أو مع العشرة فلم أورد منه. وكذلك ما ورد فى نعته ومناقبه من الأحوال الجميلة، والمناقب الجليلة، وصلاته وصيامه، وإعتاقه الألوف رجالا ونساء، وختمه القرآن فى ركعة واحدة وغير ذلك، فلم أورد منه شيئا، وكذا ما قيل فيه من الثناء من الصحابة، والسلف فلم أورد منه شيئا؛ لكثرته وشهرته فى موضعه من الكتب المفردة لذلك.

ذكر أولاده رضى الله عنه

كان له من الولد ستة عشر: تسعة ذكور، وسبع إناث. أما الذكور فعبد الله الأكبر أمه فاختة بنت غزوان وبه كان يكنى. وعبد الله الأصغر أمه رقية بنت رسول الله ﷺ هلك صغيرا، وقيل بلغ ست سنين فنقره ديك فى عينه فكان سبب موته. وعمرو وكان أسنهم وبه كان يكنى بعد عبد الله الأكبر، وهو - يعنى عمرًا - أكثرهم عقبا، وتوفى بمنى. وخالد وهو الذى كان بيده المصحف الذى قطر عليه دم عثمان حين قتل. وأبان شهد الجمل مع عائشة، وعقبه كثير. وعمرو له عقب أيضًا أمهم بنت جندب بن الأزد. وسعيد والوليد أمهما فاطمة بنت الوليد وعبد الملك أمه أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارى. وأما الإناث فمريم أخت عمرو لأمه. وأم سعيد أخت سعيد لأمه وعائشة. فأم أبان وأم عمرو وأمهن رملة بنت شيبة بن ربيعة، ومريم أمها نائلة بنت الفرافصة، وأم البنين وأمها أم ولد(٢).

وفى « دول الإسلام » كانت مدة خلافته رضى الله عنه اثنتى عشرة سنة وأحد عشر يومًا أو أربعة عشر يومًا.

---

(١) ينظر فردوس الأخبار (٤٩١٥) .
(٢) ينظر صفة الصفوة (١/ ١٥٤-١٥٥) .

وقال فى « الرياض »: قال ابن إسحاق كانت مدة خلافته اثنتى عشرة سنة إلا اثنى عشر يومًا، وقيل: وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وقيل: ست وثمانين سنة، قال قتادة: وقيل ثمان وثمانين، وقيل: ابن تسعين.

قال الواقدى: لا خلاف عندنا فى القول الأول أنه الأصح رضى الله عنه[١].

* * *

(١) ينظر الرياض النضرة (٣/٧٦).

خلافة أمير المؤمنين أبى الحسنين على بن أبى طالب رضى الله عنه(١)

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم، أقربهم إلى رسول الله ﷺ نسبًا يجتمع معه - عليه الصلاة والسلام - فى عبد المطلب الجد الأدنى، وينسب إلى هاشم، فيقال: القرشى الهاشمى، ابن عم رسول الله ﷺ لأبويه، وأخوه بالمؤاخاة، وصهره على ابنته، وأبو السبطين، وأول هاشمى ولد بين هاشميين، وأول خليفة من بنى هاشم، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد العلماء الربانيين، والشجعان المشهورين، والزهاد المذكورين، والسابقين إلى الإسلام، لم يسجد لصنم قط، وبات ليلة الهجرة على فراشه ﷺ يقيه بنفسه، وخلفه بمكة؛ ليرد الودائع التى كانت عنده ﷺ، وكان يحمل راية رسول الله ﷺ العظمى فى القتال فيتقدم بها فى نحر العدوّ، وشهد معه المشاهد كلها وأبلى فيها بلاءً حسنًا، وبايعه على الموت، وكان أشجع الناس ما بارز أحدا قط إلا قتله، وكان إذا ورد عليه مال لم يترك منه شيئًا حتى يقسمه، وكان يكنس بيت المال ليصلى فيه، ولا يخص بالولايات إلا أهل الديانات، وكان - عليه الصلاة والسلام - إذا لم يغز بنفسه لم يعط سلاحه إلا عليًا، وشهد له - عليه الصلاة والسلام - بالشهادة فى تحريك حِرَاء.

روى أن معاوية قال لضرار يا ضرار، صف لى عليًا. قال: أعفنى يا أمير المؤمنين. قال معاوية: لتصفنه. قال ضرار: أما إذ لابد من وصفه: كان - والله - بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، وتتفجر ينابيع العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس إلى الليل ووحشته، كان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، كان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له، يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيته فى بعض

(١) ينظر: طبقات ابن سعد (٣/ ١٣) وتاريخ البخاري الكبير (٦/ ٢٥٩)، وتاريخ بغداد (١/ ١٣٣-١٤١) والاستيعاب ت (١٨٧٥)، وأسد الغابة ت (٣٧٨٩)، وصفة الصفوة (١/ ١٦٢) وتهذيب الكمال (٢٠/ ٤٧٢)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٣٣٤)، والإصابة (٤/ ٤٦٤)، وغيرها كثير .

مرافقه - وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه - قابضًا على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكى بكاء الحزين، ويقول: « يا دنيا غرى غيرى، ألى تعرضت أم إليَّ تشوقت، يا صفراء اصفرى، ويا بيضاء بيضى، هيهات قد طلقتك ثلاثًا لا رجعة لى فيك، فعمرك قصير، وخطرك حقير، آه، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق ». قال: فبكى معاوية، وقال: « رحم الله أبا حسن كان - والله - كذلك، فكيف حزنكم عليه يا ضرار ؟ قال: حزن من ذبح واحدها فى حجرها[(١)].

أخرج الدولابى وأبو عمرو قال ابن عباس: أعطى عليّ تسعة أعشار العلم، ووالله لقد شاركهم فى العشر الباقى، وإذا ثبت لنا الشيء عن على لم نعدل عنه إلى غيره[(٢)].

روى ابن المنذر وابن أبى حاتم عن بعجة بن عبد الله الجهنى قال تزوج رجل امرأة [فولدت له غلامًا لستة أشهر، فاتهمها]؛ فأمر عثمان برجمها فبلغ ذلك عليًا - رضى الله عنه - فأتاه فقال له: ما تصنع ؟ قال عثمان ولدت غلامًا لستة أشهر وهل يكون ذلك ؟! فقال له على: أما سمعت الله يقول: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الاحقاف: ١٥]، وقال ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فلم نجده بقى إلا ستة أشهر، فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، عليَّ بالمرأة، فوجدها قد فرغ منها، وكان من قولها لأختها: يا أخية لا تحزنى، فوالله ما كشفت ثوبى لأحد قط غيره. وقال: فشب الغلام بعد فاعترف به الرجل، وكان أشبه الناس به قال: فرأيت الرجل بعد يتساقط عضوا عضوا عياذا بالله[(٣)].

قال سعيد بن المسيب: لم يكن أحد يقول: « سلونى » غير على بن أبى طالب رضى الله عنه[(٤)]، وهو أول من أسلم وأول من صلى، وأجمعوا أنه صلى إلى القبلتين، وهاجر، ولم يزل اسمه فى الجاهلية والإسلام عليًا، وكان يكنى أبا حسن،

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٨٤-٨٥) وابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ٢٠٩) وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ١٦٦) .
(٢) ذكره الحافظ في الإصابة (٤/ ٤٦٧) مختصرا وكذا ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ٢٠٧) .
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٩) وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم .
(٤) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ٢٠٦) .

وسماه رسول الله ﷺ صديقًا، وكان يكنى أبا قثم وأبا تراب كناه النبى ﷺ بهما، وكانت أحب الكنى إليه. وما أحسن قول بعضهم [من الوافر] :

إِذَا مَا رَمِدَتْ عَيْنِى فَكُحلى ... تُـرَابٌ مَسَّ نَـعْلَ أَبى تُـرَابِ
هُوَ البَكَّاءُ فِى المِحرابِ لَيْلاً ... هُوَ الضَّحَّاكُ فِى يَوْمِ الضِّرَابِ

أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. قال أبو عمرو: هى أول هاشمية ولدت هاشميًا، أسلمت ودفنت بالمدينة، وشهدها رسول الله ﷺ، وتولى دفنها، وأشعرها قميصه، وأضجعها فى قبرها.

وروى الطبرانى فى الكبير والأوسط برجال الصحيح عن أنس بن مالك قال: ماتت فاطمة بنت أسد: أم على بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه - فَدَخَل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها، فقال: رحمك الله يا أمى، كنت أمى بعد أمى، تجوعين وتشبعينى، وتعرين وتكسينى، وتمنعين نفسك طيبًا وتطعمينى، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة، ثم أمر أن تغسل ثلاثًا ثلاثًا، فلما بلغ الماء الذى فيه الكافور سكبه رسول الله ﷺ بيده، ثم خلع رسول الله ﷺ قميصه فألبسها إياه وكفنها ببرد فوقه، ثم دعا أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصارى وعمر بن الخطاب وغلامًا أسود؛ يحفرون قبرها، فلما بلغوا اللحد حفر رسول الله ﷺ فأخرج ترابه، ثم لما فرغ اضطجع فيه، ثم قال: الله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت، اغفر لأمى فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم الراحمين، وكبر عليها أربعًا، وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصديق(١).

قال ابن عباس فلما سوى عليها التراب قيل: يا رسول الله، رأيناك صنعت شيئًا لم نرك صنعته لأحد، فقال: إنى ألبستها قميصى؛ لتلبس من ثياب الجنة، واضطجعت فى قبرها؛ لأخفف عنها من ضغطة القبر، إنها كانت أحسن خلق الله إلىَّ صنعًا بعد أبى طالب(٢).

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٣١٥) رقم (٨٧١) وفي الأوسط [٣٨٤١-مجمع البحرين] ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٢١) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٦٠) وفيه روح بن صلاح وثقه ابن حبان، والحاكم، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨٤٠- مجمع البحرين) . وقال الهيثمي (٩/ ٢٦٠): فيه سعدان بن الوليد ولم أجده وبقية رجاله ثقات .

ولد - رضى الله عنه - وأبوه غائب، فسمته أمه حيدرة: وهو اسم الأسد، فلما قدم أبوه كره هذا الاسم، وسماه: عليًا.

صفته - رضى الله عنه -: كان رضى الله تعالى عنه فوق الربعة من الرجال، أدعج العينين عظيمهما، حسن الوجه كأنه قمر ليلة البدر، ضخم البطن، عظيم المشاش، ضخم الذراعين، عظيم اللحية قد ملأت صدره، إن عاينته من قريب قلت أسمر، أصلع شديد الصلع(١).

عن أبى سعيد الرسمى قال: كنا نبيع الثياب على عواتقنا فى السوق، فإذا رأينا عليًا قد أقبل قلنا « بُزُرْك شكم » فيقول عليّ: ما تقولون ؟ قلنا نقول: عظيم البطن. قال أجل، أعلاه علم وأسفله طعام(٢).

وكان عظيم المنكبين لمنكبيه مشاش كمشاش السبع الضارى، لا يبين عضده من ساعده قد أدمج إدماجًا، شثن الكفين، عظيم الكراديس، أصلع ليس فى رأسه شعر إلا من خلفه.

وعن أبى لبيد قال: رأيت على بن أبى طالب يتوضأ، فحسر العمامة عن رأسه، فرأيت رأسه مثل راحتى، عليه مثل خط الأصابع من الشعر.

وعن الشعبى أنه قال: رأيت على بن أبى طالب ورأسه ولحيته قطنة بيضاء، وكان إذا مشى تكفأ، وإذا أمسك بذراع رجل أمسك بنفسه، فلم يستطع أن يتنفس، وهو قريب إلى السمن، شديد الساعد واليد، وإذا مشى إلى الحرب هرول، ثبت الجنان، ما صارع قط أحد إلا صرعه، ما اعتلى ضريبة إلا قد، ولا اعترض إلا قط، شجاع منصور على من لاقاه رضى الله عنه.

عن أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن: أنه بلغه أن على بن أبى طالب والزبير أسلما، وهما ابنا ثمان سنين(٣).

وقال ابن إسحاق: أسلم وهو ابن عشر سنين، وعن الحسن أسلم على، وهو ابن خمس عشرة سنة، وقيل: أربع عشرة، وهو يختلف إلى الكتاب له ذؤابة. حكاه

(١) ينظر طبقات ابن سعد (٣/١٨-٢١) ومعجم الطبراني الكبير (١/٩٣-٩٥) وصفة الصفوة (١/١٦٢)، ومجمع الزوائد (٩/١٠٣-١٠٤) .
(٢) ينظر طبقات ابن سعد (٣/١٩) .
(٣) ينظر الاستيعاب (٣/٢٠٠) .

الجندرى[١].

عن عاصم بن عمر قال: لقى عمر بن الخطاب على بن أبى طالب، فقال: يا أبا الحسن، نشدتك بالله هل كان رسول الله ﷺ ولاك الأمر ؟ قال: إن قلت لك، فماذا تصنع أنت وصاحبك ؟ فقال: أما صاحبى فقد مضى، وأما أنا فوالله لأخلعنها من عنقى فى عنقك، فقال على: جدع الله أنف من أبعدك من هذا، ولكن رسول الله ﷺ جعلنى عَلمًا، فإذا أنا مت فمن خالفنى ضل. أخرجه السمان فى الموافقة.

عن محمد ابن الحنفية قال: أتى رجل وعثمان محصور، فقال: إن أمير المؤمنين مقتول الساعة. قال: فقام على، قال محمد: فأخذت بوسطه تخوفًا، فقال: حل لا أم لك، قال فأتى على الدار وقد قتل الرجل، فأتى داره فدخلها وأغلق بابه، فأتاه الناس فضربوا على الباب ودخلوا، فقالوا: إن هذا الرجل قد قتل، ولابد للناس من خليفة، وإنه لم نَرَ أحدا أحق بها منك، فردّد، فأبوا. قال: فإذا أبيتم على فإن بيعتى لا تكون سرًا، ولكن ائتوا المسجد، فمن شاء أن يبايعنى بايعنى، فخرج إلى المسجد، فبايعه الناس[٢].

وعن المسور بن مخرمة قال: قتل عثمان وعلى فى المسجد، فمال الناس إلى طلحة، قال: فانصرف على يريد منزله، فلقيه رجل من قريش عند موضع الجنائز، فقال: انظروا إلى رجل قتل ابن عمه وسلب ملكه، قال: فولى على راجعًا لرقى المنبر، فقيل: ذاك عليّ على المنبر، فمال الناس إليه، فبايعوه وتركوا طلحة. أخرجه فى المناقب وغيره.

ولا تضاد بين هذا وما قبله، بل يحمل على أن طائفة من الناس أرادوا بيعة طلحة، والجمهور أتوا عليًا فى داره، وسألوه فأجابهم على ما تقدم تقريره، فخرج بعد انصرافهم عنه فى بعض شئونه، فلما سمع كلام ذلك الرجل خشى الخلف بين الناس، فصعد المنبر فى وقته ذلك وبادر إلى البيعة لهذا المعنى لا لحب المملكة، وخشية فواتها؛ فإنه الزاهد فيما سوى الله، ولا قيمة لسماع كلام ذلك الرجل.

---

(١) ينظر طبقات ابن سعد (٣/ ١٥)، ومعجم الطبراني الكبير (١/ ٩٥)، والاستيعاب (٣/ ١٩٩) ومجمع الزوائد (٩/ ١٠٥-١٠٦) .

(٢) ينظر تاريخ الطبري (٤/ ٤٢٧) .

قال ابن إسحاق: إن عثمان لما قتل بويع على بن أبى طالب بيعة العامة فى مسجد رسول الله ﷺ، وبايع أهل البصرة، وبايع له أهل اليمن وبالمدينة طلحة والزبير، واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، وتخلف عن بيعته نفر، فسئل عنهم، فقال: أولئك قوم قعدوا عن الحق، ولم يقوموا مع الباطل.

بويع - رضى الله تعالى عنه - يوم السبت تاسع عشر ذى الحجة الحرام من سنة خمس وثلاثين من الهجرة.

قال العلامة الحافظ الذهبى: روى عن أبى حارثة، وأبى عثمان النهدى قالا: لما أتى معاوية الخبر أرسل إلى حبيب بن مسلمة الفهرى، فقال: أشر عليّ برجل ينفذ بأمرى ولا يقصر، قال: ما أعرف لذلك غيرى. قال: أنت لها، وجعل على مقدمته يزيد بن شجعة الحميرى فى ألف، وقال: إن قدمت يا حبيب، وقد قتل فلا تدعن أحدًا أشار إليه ولا أعان عليه إلا قتلته، وإن أتاك الخبر قبل أن تصل فأقم حتى أنظر، وبعث يزيد بن شجعة فى ألف على البغال، يقودون الخيل معهم الإبل عليهم الروايا، فأغذّ السير فأتاه خبر قتله بقرب خيبر، ثم أتاه النعمان بن بشير معه القميص الذى قتلوه فيه بالدماء، وأصابع نائلة امرأة عثمان قد قطعها السيف حين أرادت الدفاع عنه، والخصلة الشعر من لحية عثمان، أرسلت ذلك أم حبيبة بنت أبى سفيان ابن حرب زوجته عليه الصلاة والسلام، فرجعوا، فلفه معاوية فى القميص على منبر دمشق والأصابع معلقة فيه، فآلى رجال من أهل الشام لا يأتون النساء، ولا يمسون الغسل إلا من حلم، ولا ينامون على فراش حتى يقتلوا قتلة عثمان أو تفنى أرواحهم، وبكوه[1] سنة فلما كانت سنة ست وثلاثين، كانت فتنة الجمل.

قال العلامة المسعودى فى كتابه المسمى « مروج الذهب ومعادن الجوهر »: قال ابن عباس: قدمت من مكة إلى المدينة بعد قتل عثمان بخمسة أيام، فجئت لأدخل على علي، فقيل لى: عنده المغيرة بن شعبة، فجلست بالباب ساعة، فخرج المغيرة على، وقال: متى قدمت ؟ قلت: الساعة، فدخلت عَلَى علي، فسلمت عليه، فقال لى: أين لقيت الزبير وطلحة ؟ قلت: بالمراصف، وكانا قد استأذنا عليًا فى العمرة،

---

(١) ينظر تاريخ الإسلام عهد الخلفاء الراشدين ص (٤٥١ - ٤٥٢) وينظر البداية والنهاية (٧/ ٢٥٥).

فقال لهما: لعلكما تريدان البصرة أو الشام، فأقسما أنهما لا يقصدان غير مكة للعمرة، وكانت عائشة بها قد خرجت من قبل حاجَّة، ثم قال على: ومن معهما ؟ قلت: أبو مسعود بن الحارث بن هشام المخزومى فى فتية من قريش، فقال على: أما إنهم لن يدعوا أن يخرجوا يقولون: نطلب بدم عثمان، والله يعلم إنهم قتلة عثمان، فقلت له: أخبرنى عن شأن المغيرة ودخوله عليك، فقال: جاءنى بعد مقتل عثمان بيومين، فقال: إننى ناصح لك، وإنى أشير عليك بإبقاء عمال عثمان، فاكتب إليهم بإبقائهم على أعمالهم، فإذا بايعوك، واطمأن أمرك - عزلت من كرهت، وأبقيت من أحببت، فقلت: والله لا أداهن فى دينى، ولا أعطى الرياء فى أمرى. قال فإن كنت قد أبيت فانزع من شئت، وأثبت معاوية فإن له جرأة وهو فى أهل الشام مسموع منه، ولك حجة فى إبقائه فقد كان عمر ولاه الشام كلها، وعثمان بعده، فقلت: والله لا أستعمل معاوية يومين، فخرج من عندى على إشارته، ثم عاد إلَيّ بعد يوم، فقال: إنى أشرت عليك بما علمت، فنظرت فى الأمر فإذا أنت مصيب لا ينبغى أن تأخذ أمرك بخدعة، ولا يكون لك فيه دلسة.

قال ابن عباس، فقلت لعلى: أما أول ما أشار به عليك: فقد نصحك، وأما الآخر: فقد غشك. وإنى أشير عليك بتثبيت معاوية فإن بايع لك فلك على أن أنقله من منزله.

فقال على: والله لا أعطى معاوية إلا السيف حتى يدخل فى الحق، وتمثل بقول القائل: [من الطويل]

فَمَا مِيْتَةٌ إنْ مِتهَا غَيْرَ عَاجِزٍ بِعَارٍ إِذَا مَا غَالَتِ النَّفْسُ غَوْلَهَا

فقلت: وهو والله لا يعطيك إلا السيف حتى يغلب بباطله حقك، قال على: وكيف ذاك ؟! قلت: إنك تطاع اليوم، وتعصى غدا، وإنه يطاع، ولا يعصى.

فلما انتشر على على أصحابه وكان ابن عباس إذ ذاك بالبصرة قال على - كرم الله وجهه -: لله در ابن عباس !! كأنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

وفى رواية: فقلت له بعد تمثله بالبيت: يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع، أما سمعت قوله ﷺ: « الحرب خدعة »[1]؟ قال: بلى، فقلت: أما والله لئن أطعتنى

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧-١٧٣٩) من حديث جابر بن عبد الله وأخرجه ابن ماجة (٢٨٣٤) من حديث ابن عباس .

لأصدرن لهم بعد ورد، ولأتركنهم ينظرون فى أدبار الأمور كما لا يدرون ما كان وجهها فى غير نقض ولا إثم، فقال لى: يا بن عباس، لست من هناتك ولا هنات معاوية فى شيء، تشير على برأى فيه فإذا عصيتك، فأطعنى، فقلت فأنا أفعل، وأيسر مالك عندى الطاعة، فقال: سر إلى الشام فقد وليتكها. قلت: ما هذا برأى، يضرب عنقى بعثمان ؟ وأدنى ما هو صانع أن يخلصنى. قال على: ولِمَ ؟ قلت: لقرابتى منك، فإن كل من حمل عليك حمل على، ولكن اكتب إلى معاوية: فمنه، وعِدْهُ، فأبى على، وقال: والله لا كان هذا أبدا، ثم تلا ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[1] [الكهف: ٥١] .

وروى الواقدى عن رجاله قال: كان يعلى بن منية التميمى عامل عثمان على اليمن، فوافى الموسم عام قتل عثمان، فجاء إلى عائشة وهى بمكة للحج، فقال: قد قتل خليفتك الذى كنت تحرصين عليه، فقالت: برئت إلى الله من قاتله.

وعن الوليد بن عبد الله قال: قال يعلى بن منية: أيها الناس، من خرج يطلب بدم عثمان فعليّ جهازه، وكان معهم بمكة عبد الله بن عامر بن كريز عامل عثمان على البصرة، فهرب منها لما أخذ البيعة بها لعلى على الناس جارية بن قدامة السعدى، وأعطى يعلى بن منبه عائشة أربعمائة ألف درهم، وقال: هذه من عين مالى أقوى بها من طلب بدم عثمان، فبلغ عليًا قوله، فقال: من أين له، سرق اليمن، ثم جاء وأعطاها كراعًا وسلاحًا، والجمل الذى عليه هودجها واسمه عسكر، فلما انكشفوا يوم الجمل هرب يعلى المذكور[2] .

قال الذهبى: لما قتل عثمان سقط فى أيدى أصحاب النبى ﷺ، فبايعوا عليًا رضى الله عنه، ثم إن طلحة، والزبير، ومروان، وعائشة، ومن تابعهم من بنى أمية - رأوا أنهم لا يخلصهم مما وقعوا فيه من توانيهم فى نصرة عثمان إلا أن يقوموا فى الطلب بدمه، والأخذ بثأره ممن قتله، فسار طلحة والزبير من المدينة[3]، واستأذنا عليًا فى العمرة، فقال لهما ما تقدم، فأقسما أنهما يريدان مكة للعمرة،وكانت عائشة بمكة حاجّة، فاجتمعوا ومعهم يعلى بن منية عامل اليمن،

(١) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٦٣-٣٦٥) وينظر البداية والنهاية (٧/ ٢٥٥) .
(٢) ينظر البداية والنهاية (٧/ ٢٥٧)، ومروج الذهب (٢/ ٣٦٦) .
(٣) ينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٤٨٣) .

وعبد الله بن عامر عامل البصرة، فأرادوا الشام، فصدهم عبد الله بن عامر، وقال: إن معاوية لا ينقاد إليكم ولا يعطيكم من نفسه الظنة، لكن هذه البصرة لى بها صنائع وعدة، فجهزهم بألف ألف درهم، وسار القوم نحوها فى نحو ستمائة راكب، فانتهوا بالليل إلى ماء لبنى كلاب يعرف بالحوأب، فعوت كلابه على الركب، فسألت عائشة عن اسم هذا الماء، فقيل لها: « الحوأب » فذكرت قوله ﷺ لنسائه وعائشة معهن: « أيتكن صاحبة الجمل الأدب أو الأدبب تنبحها كلاب الحوأب تنجو بعد ما كادت »؛ فاسترجعت، وقالت: ردونى إلى حرم رسول الله ﷺ، لا حاجة لى فى المسير هذا، فقال لها الزبير: تالله ما هذا بـ« الحوأب » وأشار إلى جبل هناك، ولقد غلط من أخبرك.

فأتوا إلى البصرة، فخرج إليهم عثمان بن حنيف الأنصارى عامل على عليها، فمانعهم، وجرى بينهم قتال، ثم اصطلحوا على ترك الحرب إلى قدوم على، فلما كان بعض الليالى أسروا عثمان، ونتفوا لحيته، وقتلوا سبعين رجلاً، فهم أول من قتل فى الإسلام ظلمًا(١).

وتشاح الزبير وطلحة فى الصلاة بالناس، ثم اتفقوا لهذا يوم وللآخر يوم، وسار على - رضى الله عنه - من المدينة بعد أربعة أشهر معه أربعة آلاف، حتى انتهى إلى الربذة، وفاته طلحة والزبير، وكان أرادهم، فانصرف حين فاتوه إلى العراق، وأرسل ابنه الحسن وعمار بن ياسر إلى الكوفة؛ يستنفران له الناس، وكتب من الربذة إلى أبى موسى الأشعرى - وكان ولاه على الكوفة - فقال أبو موسى: إنما هى فتنة،

---

(١) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٦٦-٣٦٧) وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم « أيتكن صاحبة الجمل الأدب أو الأدبب تنبحها كلاب الحوأب » .أخرجه أحمد (٦/ ٥٢، ٩٧)، وأبو يعلى (٤٨٦٨) وابن حبان (٦٧٣٢)، والبزار (٣٢٧٥) والحاكم (٣/ ١٢٠)، والبيهقي (٦/ ٤١٠) من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال : لما أقبلت عائشة بلغت مياه بني عامر ليلا نبحت الكلاب، قالت: أي ماء هذا؟ قالوا: ماء الحوأب قالت ما أظنني إلا أني راجعة فقال بعض من كان معها بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله ذات بينهم قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها ذات يوم: « كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب » وقال ابن كثير في البداية (٦/ ٢٣٦) وهذا إسناد على شرط الصحيحين ولم يخرجاه . وله شاهد من حديث ابن عباس باللفظ المذكور في المتن رواه البزار كما في المجمع (٧/ ٢٣٧)، وقال الهيثمي رجاله ثقات .

فثبط الناس، فبلغ ذلك عليًا فولى على الكوفة بدله قرظة بن كعب الأنصارى، وكتب إلى أبى موسى: اعتزل عملنا يا بن الحائك مذمومًا مدحورًا، فما هذا أول يومنا منك، وخرج مع الحسن وعمار نحو سبعة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً فيهم الأشتر النخعى، وقال عمار لأهل الكوفة: أما - والله - إنى لأعلم أنها - يعنى عائشة - زوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم بها لينظر أتبغونه أم إياها ؟ فخرج القوم مع الحسن وعمار حتى قدموا على على بذى قار - اسم مكان - فسار فى نحو عشرة آلاف، حتى أتى البصرة(١).

قال أبو عبيدة: كان على خيل علي يوم الجمل عمار بن ياسر، وعلى الرجل محمد بن أبى بكر الصديق، وعلى الميمنة علي بن الهيثم السدوسى، ويقال: عبد الله بن جعفر، وعلى الميسرة الحسين بن على، وعلى المقدمة عبد الله بن عباس، ودفع اللواء إلى ابنه محمد ابن الحنفية، وكان على خيل طلحة والزبير طليحة، وعلى الرجل عبد الله بن الزبير، وعلى الميمنة عبد الله بن عامر بن كريز، وعلى الميسرة مروان بن الحكم، وكان اللواء مع عبد الله بن حكيم بن حزام المخزومى(٢)، وقال المطلب بن زياد [عن السدى]: شهد مع علي يوم الجمل مائة وثلاثون بدريًا، وسبعمائة من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم(٣).

قلت: ورأيت نقلاً عن الشعبى: أنه بالغ، فقال: لم يشهد الجمل من الصحابة إلا على وعمار وطلحة والزبير(٤)، وهو مخالف لما نقله الثقات غيره، وذكر عن المنذر ابن أبى الجارود فيما حدث به الفضل بن الحباب الجمحى عن ابن عائشة عن معن ابن عيسى: أنه لما قدم على البصرة دخل مما يلى الطف، قال ابن الجارود: فخرجت، أنظر إليه، فورد فى موكب عظيم وله ألف فارس يقدمهم فارس على فرس أشهب عليه قلنسوة وثياب بيض متقلدًا سيفًا معه راية، وإذا تيجان القوم الأغلب عليها البياض مدججين فى الحديد والسلاح، فقلت: من هذا ؟ فقيل لى:

---

(١) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٦٧-٣٦٨) .

(٢) ينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين (٤٨٥) .

(٣) ينظر السابق ص ٤٨٤، وما بين القوسين منه .

(٤) نقل ابن كثير في البداية (٧/ ٢٦١) عن الشعبي قوله: ما نهض معه في هذا الأمر غير ستة نفر من البدريين ليس لهم سابع، وقال غيره: أربعة .

هذا أبو أيوب الأنصارى خالد بن زيد، وقيل: ابن زيد صاحب رسول الله ﷺ الذى نزل عليه مقدمه المدينة، وأقام فى بيته إلى أن عمر المسجد النبوى، وبيوت نسائه، وهؤلاء الأنصار معه، ثم تلاه فارس آخر عليه عمامة صفراء، وثياب بيض متقلدًا سيفًا متنكبًا قوسًا معه راية على أشقر فى نحو ألف فارس، فقلت: من هذا ؟ فقيل لى: هذا حذيفة بن ثابت الأنصارى ذو الشهادتين، ثم تلاه فارس آخر على فرس كميت معتمًّا بعمامة صفراء من تحتها قلنسوة بيضاء، وعليه قباء أبيض، متقلدًا سيفًا، متنكبًا قوسًا فى نحو ألف فارس من الناس، ومعه راية، فقلت: من هذا ؟ فقيل: أبو قتادة بن ربعى الأنصارى، ثم تلاه فارس آخر على فرس أدهم عليه ثياب بيض، وعمامة سوداء قد مد لها بين يديه، ومن خلفه شديد الأدمة عليه سكينة ووقار رافعًا صوته بالقرآن معه راية فى ألف فارس من الناس مختلفى الألوان والتيجان من شيوخ، وكهول وشيب وشباب عليهم السكينة والوقار، كأنما أوقفوا ليوم الحساب، وأثر السجود فى جباههم فقلت: من هذا ؟ فقيل لى: هذا عمار بن ياسر المخزومى فى عدة من الصحابة المهاجرين والأنصار وأبنائهم، ثم تلاه فارس على فرس أشقر، وعليه ثياب بيض، متقلدًا سيفًا، تخط رجلاه فى الأرض طولاً فى ألف من الناس الغالب على تيجانهم الصفرة والبياض، معه راية صفراء، فقلت: من هذا ؟ فقيل: هذا قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى الخزرجى فى عدة من الأنصار وأبنائهم وغيرهم من قحطان، ثم تلاه فارس آخر على فرس، أشكل ما رأينا أحسن منه عليه ثياب بيض، وعمامة سوداء، أسدلها بين يديه، ومن خلفه، وبيده لواء، فقلت: من هذا؟ فقيل لى: هذا عبيد الله بن العباس أخو عبد الله ، ثم تلاه موكب آخر فيه فارس أشبه الناس بالأولين قبله، فقلت: من هذا ؟ قيل: هذا قثم بن العباس.

ثم أقبلت الرايات والمواكب يتلو بعضها بعضا، واشتبكت الرماح، ثم ورد موكب فيه خلق من الناس عليهم السلاح والحديد مختلفى الرايات، فى أوله راية عظيمة، فى أوله فارس كأنه قد كسر، وجبر نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى فوق، حوله أمم كأنما على رءوسهم الطير، عن يمينه شاب حسن الوجه، وبين يديه شاب مثلهما، قلت: من هؤلاء ؟ فقيل لى: هذا على بن أبى طالب، وأما من عن يمينه فالحسن وعن شماله الحسين، وهذا محمد ابن الحنفية بين يديه معه الراية

العظمى، وهذا الذى خلفه عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، وهؤلاء أولاد عقيل وغيرهم من فتيان بنى هاشم، وهؤلاء المشايخ من أهل بدر الذين شهدوها مع النبى ﷺ من المهاجرين والأنصار، فسار على - رضى الله تعالى عنه - حتى نزل بالموضع المعروف بالزاوية، فصلى أربع ركعات، وعفر خديه فى التراب، وقد خلط ذلك بدموعه، ثم رفع يديه يدعو، ثم بعث رجلاً من أصحابه يقال له: مسلم معه مصحف يدعوهم إلى الله تعالى، فرموه بسهم، فقتلوه، فحمل إلى على، فقالت أم مسلم: [من الرجز]

يَا رَبِّ إنَّ مُسْلِمًا أَتَاهُمْ   يَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ لاَ يَخْشَاهُمْ
فَخَضَّبُوا مِنْ دَمِهِ لِحَاهُمْ   وَأُمُّهُ قَائِمَةٌ تَرَاهُمْ(١)

ثم إن عليًا - رضى الله عنه - راسل القوم وناشدهم، فأبوا إلا القتال فكانت وقعة الجمل.

قال الإمام الذهبى فى « تاريخه »: اصطف الفريقان - وليس لطلحة ولا لعلى رأسى الفريقين قصد فى القتال، بل ليتكلما فى اجتماع الكلمة - فترامى أوباش الطائفتين، وشبت نار الحرب، وثارت النفوس، وبقى طلحة يقول: أيها الناس أَنصِتوا. والفتنة تغلى، فقال: أف فراش النار وذباب طمع، وقال: اللهم خذ لعثمان منى اليوم حتى ترضى، إنا داهنّا فى أمر عثمان، كنا بالأمس يدًا على من سوانا، وأصبحنا اليوم جبلين من حديد يزحف أحدنا إلى صاحبه، وقد كان منى فى أمر عثمان ما لا أرى كفارته إلا بسفك دمى(٢).

وعن عكرمة عن ابن عباس قال: لما كان على بـ « الربذة » متوجهًا إلى البصرة للقتال قام إليه ابنه الحسن، فبكى بين يديه، وقال له: ائذن لى فأتكلم.

قال: تكلم، ودع عنك أن تحن حنين الأمة.

فقال: لقد كنت أشرتُ عليك بالمقام، وأنا أشير به عليك الآن، إن للعرب جولة، ولو رجعت إليها عوازب أحلامها لضربوا إليك آباط الإبل حتى يستخرجوك، ولو كنت فى مثل جحر الضب.

---

(١) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٦٨-٣٧٠) وينظر تاريخ الطبري (٤/ ٥٢٩).
(٢) ينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٤٨٦).

فقال على: أترانى - لا أَبَا لَكَ:- كنتُ منتظرًا كما ينتظر الضبع اللدم(١).

وعن يحيى بن سعيد الأنصارى، عن عم له: أنه لما كان يوم الجمل نادى عَلِيٌّ فى الناس: لا تراموا أحد بسهم، وكلوا القوم فإن هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة.

ثم إن القوم نادوا بأجمعهم: يا ثارات عثمان.

قال: وابن الحنفية أمامنا برتوة معه اللواء، فمد على - رضى الله عنه - يديه، وقال: اللهم كب قتلة عثمان لوجوههم.

ثم إن الزبير قال لأساورة معه: ارموهم ولا تبلغوا، فكأنه إنما أراد أن ينشب القتال، فلما نظر أصحاب على إلى النشاب لم ينتظروا أن يقع إلى الأرض وحملوا عليهم فهزموهم(٢).

وخرج على رضى الله عنه بنفسه حاسرًا على بغلة رسول الله ﷺ فنادى: يا زبير اخرج إلى. فخرج شاكى السلاح حتى التقت أعناق دوابهما فقيل ذلك لعائشة، فقالت: واخفرتك يا أسماء!.

فقيل لها: الزبير شاكى السلاح وعليّ حاسر، فاطمأنت قليلاً، فقال له على: ويحك يا زبير ما الذى أخرجك ؟! قال: دم عثمان.

فقال على: قتل الله أولانا بدم عثمان، ثم قال له: أتذكر يا زبير يوم لقيت رسول الله وضحكتُ إليه وأنت معه، فقلت: ما يدع ابن أبى طالب زهوه، فقال لك: ليس به زهو، أتحبه يا زبير ؟ فقلت: والله إنى لأحبه، فقال لك: إنك ستقاتله، وأنت له ظالم(٣).

---

(١) ينظر تاريخ الطبري (٤/ ٤٨٥) وتاريخ الإسلام عهد الخلفاء الراشدين ص (٤٨٧) والبداية (٧/ ٢٦١-٢٦٢) وينظر مستدرك الحاكم (٣/ ١١٥). واللدم: صوت الحجر أو الشيء يقع بالأرض. وكانوا إذا ارادوا صيد الضبع ضربوا جحرها بحجر أو بأيديهم فتحسبه شيئا تصيده، فتخرج لتأخذه، فتصاد والمراد: إنى لا أخدع . ينظر: النهاية (لدم) .

(٢) ينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٤٨٧ - ٤٨٨) .

(٣) أخرجه أبو يعلى (٦٦٦)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٣٥)، ومن طريقه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٨٤٧) رقم (١٤١٨)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٤١٥) من طريق عبد الملك بن مسلم عن أبي جرو سمع عليا وهو يناشد الزبير فذكره وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٣٨) فيه عبد الملك بن مسلم قال البخاري: لم يصح حديثه . وأخرجه العقيلي (٣/ ٦٥) ومن طريقه ابن الجوزي (١٤١٧) عن إسماعيل بن أبي خالد عن عبد السلام رجل من حية به وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح فإن عبد السلام مجهول ولم يدرك الزبير وأخرجه =

فقال الزبير: أستغفر الله، لو ذكرتها ما خرجت، فكيف أرجع الآن، وقد التقت حلقتا البطان، هذا والله العار الذى لا يغسل أبدًا. فقال على: يا زبير ارجع بالعار قبل أن يُجْمَعَ العار والنار، فرجع الزبير وهو يقول: [من البسيط]

إِخْتَرتُ عَارًا عَلَى نَارٍ تُؤَجِّجُه ... أَنَّى يَقُومُ بِهَا خَلْقٌ مِنَ الطِّينِ
نَادَى عَليٌّ بِأَمْرٍ لَسْتُ أَجْهَلُهُ ... عَارٌ لَعَمْرُكَ فى الدُّنْيا وَفى الدِّينِ
فَقُلْتُ حَسْبُكَ مِنْ عَذْلٍ أَبَا حَسَنٍ ... فَبَعْضُ هَذَا الَّذِى قَدْ قُلْتَ يَكْفِينِي

فقال له ابنه عبد الله بن الزبير: إلى أين تذهب؟ فقال أذكرنى عَلِيٌّ أمرًا كنت نسيته. قال: ليس الأمر كذلك، لكن فررت من سيوف بنى هاشم، فإنها حداد يحملها فتية أنجاد. فقال راويه: قال له: جبنا جبنا.

فقال لا والله، ولكنه أذكرنى أمرًا أنسانيه الدهر فاخترت العار على النار، أبالجبن تعيرنى لا أبا لك ؟! ثم قلع سنان رمحه وسار فى ميمنة عليّ، فقال علِيّ: أفرجوا له فقد هاجوه، ثم رجع فشد فى الميسرة، ثم رجع فشد فى القلب، ثم رجع وقال لابنه: أيفعل هذا جبان ؟! ثم مضى منصرفا بوادى السباع.

والأحنف بن قيس التميمى منحاز فى قومه من بنى تميم، فأتاه رجل فقال: هذا الزبير مار، فقال ما أصنع بالزبير وقد جمع بين جيشين عظيمين يقتل بعضهم بعضا وها هو صار إلى منزله سالمًا، فلحقه عمرو بن جرموز بوادى السباع، وقد نزل الزبير للصلاة، فأتاه من خلفه فطعنه، وهو فى الصلاة.

ثم استسقى الزبير لبنا فشربه فخرج من جرحه، فمات رحمه الله، فاحتز رأسه وأتى به وسيفه وخاتمه إلى على رضى الله عنه فقال على: يا أعرابى تبوأ مقعدك من النار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قاتل ابن صفية فى النار»(١).

= الحاكم (٣/ ٣٦٦) من حديث أبي حرب بن الأسود الديلي عن أبيه به وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. قلت: وقد وهما في ذلك، ففيه عبد الله بن محمد بن عبد الملك بن مسلم الرقاشي، مقبول كما فيه جده عبد الملك بن مسلم تقدم قول البخاري: إن حديثه لا يصح ثم أخرجه من طريق آخر، هو والبيهقي في الدلائل (٦/ ٤١٤) وقال ابن كثير في البداية (٦/ ٢٣٨): غريب.

(١) ذكره ابن كثير في البداية (٧/ ٢٧٤) دون أن يعزوه. وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٨١) موقوفًا على عليّ. وقال الحافظ في الإصابة (٢/ ٤٦٠): إسناده صحيح.

وقال عليّ: طالما جلا الكروب عن وجه رسول الله ﷺ، ولكن حلول الحين ومقدار السوء!.

وقال قاتله لما قال له عليٌّ ما قال : [من المتقارب]

أَتَيْتُ عَلِيًّا بِرَأْسِ الزُّبَيْرِ وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو بِهِ الزُّلْفَهْ
فَبَشَّرَ بِالنَّارِ قَبْلَ العِيَانِ وَلَيْسَتْ بِشَارَةَ ذِى التُّحفَه
لَسِيَّانِ عِنْدِىَ قَتْلُ الزُّبَيْرِ وَضَرْطَةُ عَيْرٍ بِذِى الْجُحفَهْ(١)

وقال حسان بن ثابت يرثيه : [من الطويل]

أَقَامَ عَلَى هَدْىِ النَّبِيِّ وَهَدْيِهِ حَوَارِيُّهُ وَالقوْلُ بِالْفِعْلِ يَكْمُلُ
أَقَامَ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَطَرِيقِهِ يُوَالِى وَلِيَّ الحَقِّ وَالحَقُّ أَعْدَلُ
هُوَ الفَارِسُ المَشْهُورُ وَالبَطَلُ الَّذِى يَصُولُ إذا ما كَانَ يَوْمٌ محَجَّلُ
إِذَا كَشَّفَتْ عن سَاقِها الحَرْبُ حَشَّها بِأَبْيَضَ سَبَّاقٍ إِلى الموتِ يَرْفُلُ
فَمَا مِثْلُه فيهِمْ وَلاَ كَانَ قَبْلَهُ وَلَيْسَ يَكُونُ الدَّهْرَ مَا دَامَ يَذْبُلُ
ثَنَاؤُكَ خَيْرٌ مِنْ فِعَالِ مَعَاشِرٍ وَفِعْلُكَ يَابْنَ الهَاشميةِ أَفْضَلُ
فَكَمْ كرْبَةٍ ذَبَّ الزُّبَيْرُ بِسَيْفِهِ عَنِ المُصْطَفَى وَاللَّهُ يُعْطِى فَيُجْزِلُ(٢)

وفيه يقول بعض بنى آل الزبير : [من الكامل]

جَدِّى ابْنُ عمَّة أحمدٍ وَوَزِيرُهُ عِنْدَ البَلاَءِ وَفَارِسُ الشُّعَرَاءِ
وَغَدَاةَ بَدْرٍ كَانَ أَوَّلَ فَارِسٍ شَهِدَ الوَغَى فى اللأْمةِ الصَّفْراءِ
نَزَلَتْ بِسيمَاهُ المَلائِكُ نُصْرَةً بِالحَوْضِ يَوْم تأَلُّبِ الأَعْداءِ(٣)

وقال جرير يرثيه : [من الكامل]

إنَّ الرزيَّةَ مَنْ تَضَمَّنَ قَبْرَهُ وَادِى السباعِ، لِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

(١) ينظر: القصة بطولها والشعر في مروج الذهب (٢/ ٣٧١- ٣٧٣) وتنظر الأبيات في الاستيعاب ترجمة رقم (٨١١)، وأسد الغابة ترجمة رقم (١٧٣٢) .
(٢) ينظر ديوان حسان (٢٩٤)، ومستدرك الحاكم (٣/ ٣٦٢-٣٦٣) ، والاستيعاب ترجمة رقم (٨١١)، وأسد الغابة ترجمة رقم (١٧٣٢) ومجمع الزوائد للهيثمي (٨/ ١٢٨)، و (٩/ ١٥٥) وسير أعلام النبلاء (١/ ٥٦)، وتاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٥٠٠)، وحلية الأولياء (١/ ٩١)، والإصابة ترجمة رقم (٢٧٩٣) .
(٣) ينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٥٠١) .

لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزبيرِ تَوَاضَعَتْ   سُورُ المَدِينَةِ والجِبَالُ الخُشَّعُ(١)

وقالت زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، أخت سعيد بن زيد أحد العشرة الكرام رضى الله تعالى عنهم: [من الكامل]

غَدَرَ ابْنُ جُرْمُوزٍ بِفَارِسِ مُهْجَةٍ   يَوْمَ اللِّقَاءِ وَكَانَ غَيْرَ مُعَذِّرِ

يَا عَمْرو لَوْ نَبَّهْتَهُ لَوَجَدتَهُ   لاَ طَائِشًا رَعِشَ البَنَانِ وَأَبْتَرِ(٢)

ونادى عَلِيٌّ رضى الله عنه بعد رجوع الزبير طلحة فقال: يا أبا محمد، ما الذى أخرجك ؟ قال: الطلب بدم عثمان.

قال على: قتل الله أولانا بدم عثمان، أما سمعته ﷺ يقول: « اللهم وال من والاه »(٣)، وأنت أول من بايعنى ثم نكثت، وقد قال الله تعالى ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ [الفتح: ١٠] فقال طلحة: أستغفر الله، ثم رجع.

فقال مروان: رجع الزبير ويرجع طلحة، والله لا أطلب ثأرى بعد اليوم.

فرمى مروان طلحة بسهم شكَّ ساقه بجنب فرسه، فما زال ينشج حتى مات.

وفى رواية أنه قال: هذا ممن أعان على قتل عثمان. والتفت إلى أبان بن عثمان وقال له: قد كفيناك بعض قتلة أبيك(٤). ثم اقتتلوا فقطعت على خطام الجمل سبعون يدا مختمة، كُلَّما أخذ رجل بخطامه قطعت يده، وكلهم من بنى ضبة، وهم يرتجزون بقولهم :

نَحْنَ بَنُو ضَبَّةَ أَصْحَابُ الجَمَلْ   لاَ نَرْهَبُ المَوْتَ إِذَا المَوْتُ نَزَلْ

رُدُّوا عَلَيْنا شَيْخنا ثم بجلْ   عُثْمَان رُدُّوهُ بِأَطْرَاف الأَسَلْ(٥)

قال العلامة إبراهيم البيهقى فى كتابه « المحاسن والمساوى »: لما سارت عائشة

---

(١) ينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٥٠٧)، وينظر طبقات ابن سعد (٣/ ٨٣) وهناك نسبها إلى جرير بن الخطفي .

(٢) ينظر طبقات ابن سعد (٣/ ٨٣)، والاستيعاب ت (٣٤٥٨)، وأسد الغابة ت (٧٠٨٧)، والبداية (٧/ ٢٧٨) .

(٣) سيأتي في مناقب علي بن أبي طالب .

(٤) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٧٣) ، وينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٤٨٦-٤٨٧) وطبقات ابن سعد (٣/ ١٦٧)، والإصابة ترجمة رقم (٤٢٨٥) .

(٥) ينظر تاريخ خليفة ص (١٤٢)، وتاريخ الطبري (٤/ ٥١٨، ٥٣٠)، والبداية (٧/ ٢٧١) ومروج الذهب (٢/ ٣٧٥) .

أقبلت فى هودج من حديد، وهى تنظر من ينظر قد صير لها فيه، فقالت لرجل من ضبة وهو آخذ بخطام جملها: أين ترى على بن أبى طالب ؟ فقال لها هو ذاك رافعًا يديه إلى السماء فنظرت عائشة إليه ثم قالت: ما أشبهه بأخيه، فقال الضبى ومن أخوه ؟ قالت: رسول الله ﷺ، فنبذ خطام جملها من يده، ومال إلى على، كرم الله وجهه(١).

وعن الحسن البصرى أن الأحنف بن قيس قال لعائشة - رضى الله عنها - يوم الجمل: يا أم المؤمنين هل عهد إليك رسول الله ﷺ هذا المسير ؟ قالت: اللهم لا.

فقال: هل وجدتيه فى كتاب الله تعالى ؟ قالت: ما نقرأ إلا ما تقرءون.

قال: فهل رأيت رسول الله ﷺ استعان بشىء من نسائه إذا كان فى قلة والمشركون فى كثرة ؟ قالت: اللهم لا.

قال الأحنف: فإذن [ما] هو ذنبنا(٢)؟!.

وحمل أصحاب الجمل على ميمنة على وميسرته فكشفوهما، فأتى عليا بعض ولد عقيل، وهو يخفق نعاسا فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذا النعاس ؟

فقال له على: اسكت يا بن أخى إن لعمك يومًا لا يعدوه، واللهِ ما يبالى عمك أوقع على الموت أو الموت وقع عليه.

ثم بعث إلى ولده محمد ابن الحنفية، وكان صاحب رايته، كما تقدم ذكره وقال له: احمل على القوم، فأبطأ محمد بالحملة، وكان بإزائه قوم من الرماة ينتظر نفاد سهامهم، فأتاه عَلِى، فقال: هلاَّ حملت على القوم ؟ فقال: ما أجد متقدما إلا على سنان، وإنى أنتظر نفاد سهامهم. فقال له على: احمل بين الأسنة فإن للموت عليك جنة.

فحمل محمد فشك بالرماح والنبل، فأتاه على فضربه بقائم سيفه وقال له: أذرعك عِرْق سوء من أمك ؟! وأخذ الراية من يده، وحمل وحمل الناس معه، فما كان القوم إلا كرماد اشتد به الريح فى يوم عاصف، ورمى الهودج بالنشاب حتى صار كأنه قنفد، وصرخ صارخ: اعقروا الجمل فعقره رجل اختلف فى اسمه، وكان

---

(١) ينظر المحاسن والمساوئ ص ٤٥ .
(٢) ينظر السابق ص ٤٥،٤٦ وما بين القوسين منه .

الهودج ملبسًا بالدروع وداخله أم المؤمنين، وهى تشجع الناس الذين حول الجمل، فلا قوة إلا بالله!.

ثم إنها ندمت وندم علىّ عَلَى ما وقع.

ثم أتى على - كرم الله وجهه - إلى الهودج فضرب أعلاه بقضيب فى يده فقال: أبهذا أمرك رسول الله ﷺ يا حميراء ؟! والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ أبرزوك، وصانوا حلائلهم.

فسُمِعَ صوت من الهودج: ملكت فأسجح.

ولما سقط الجمل بعد الوقعة أتى محمد بن أبى بكر، فحط هودجها عن الجمل فأدخل يده، فقالت: مَنْ ؟ قال: أقرب الناس إليك قرابة، وأبغضهم إليك محمد بن أبى بكر، يقول لك أمير المؤمنين: هل أصابك شيء ؟ فقالت: ما أصابنى إلا سهم لم يضر فى شيئًا. والتقى الأشتر مالك بن الحارث النخعى من فرسان على، هو وعبد الله بن الزبير من فرسان الجمل فاعتركا وسقطا عن فرسيهما، وطال اعتراكهما فعلاه الأشتر ولم يجد سبيلا إلى قتله، والناس يجولون وعبد الله بن الزبير ينادى ويقول : [من مجزوء الخفيف]

أُقْـتُـلُـونِـى وَمَـالِـكًـا وَاقْـتُـلُـوا مَـالِـكًـا مَـعِـى

فلا يسمعه أحد لشدة الصياح ووقع الحديد على الحديد، ولا يراهما راء لظلمة النقع وترادف العجاج. وكلم خزيمة بن ثابت عليًا فقال يا أمير المؤمنين: لا ينكس اليوم برأس محمد واردد إليه الراية، فدعا به ورد إليه الراية ثم قال له : [من الرجز]

إِطْعَنْ بِهَا طَعْنَ أَبِيكَ تُحْمَدِ
لَا خيْر فِى الْحَرْبِ إِذَا لَمْ تُوقَدِ
بِـالْـمَـشْـرَفِـيِّ وَالْـقَـنَـا الْـمُـسَـدَّدِ

ثم استسقى على، فأتى بعسل وماء، فحسا حسوة فقال: هذا الطائفى[1]، وهو غريب بهذا البلد، فقال له عبد الله بن جعفر: أما يشغلك ما نحن فيه عن علم هذا ؟! فقال: والله يا بنى ما ملأ صدر عمك شيء من أمور الدنيا[2].

(١) فى ط: الولائفى.
(٢) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٧٥-٣٧٦) والبداية والنهاية (٧/ ٢٧٢) وتاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص ٤٩٠ .

ثم جهز على - رضى الله عنه - عائشة وبعث معها أخاها عبد الرحمن بن أبى بكر، وثلاثين رجلا وعشرين امرأة من ذوات الدين والشرف من نساء عبد القيس، وهمدان، وألبسهن العمائم وقلدهن السيوف، وقال: لا تعلمن عائشة [أنكن نسوة]. فكن هن اللاتى يلين جملها وخدمتها(١). وبعث على ابن عباس إلى عائشة يأمرها بالخروج إلى المدينة مع من هيأهم للخروج بها، فدخل عليها ابن عباس بغير إذنها وأخذ وسادة فجلس عليها، فقالت: يا بن عباس أخطأت السُّنة، دخلت بغير إذننا وجلست على رحلنا بغير أمرنا. فقال لها: لو كنت فى البيت الذى خلفك ﷺ فيه ما دخلنا إلا بإذنك، ولا جلسنا إلا بأمرك، إن أمير المؤمنين يأمرك بسرعة الأوبة، والتأهب للرجوع للمدينة، ثم خرج ابن عباس من عندها.

ثم أتاها على فى اليوم الثانى، ومعه الحسن والحسين وباقى أولاده وأولاد إخوته، ونساء من بنى هاشم وغيرهم من شيعته من همدان، فلما بصرن به النساء صحن فى وجهه: يا قاتل الأحبّة. فقال: لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من فى البيت، وأشار إلى بيت من البيوت كان قد اختفى فيه مروان بن الحكم، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عامر وغيرهم، فضرب من كان مع على - رضى الله عنه - بأيديهم إلى قوائم سيوفهم لما علموا أن فى البيت ناسا حذرا من الاغتيال، فقالت له عائشة بعد كلام طويل كان بينهما: إنى أريد أن أكون معك فأسير إلى قتال عدوك عند مسيرك، فقال: ارجعى إلى البيت الذى تركك فيه رسول الله ﷺ. فسألته تأمين ابن أختها عبد الله بن الزبير؛ لأنه ابن أسماء بنت أبى بكر أخت عائشة. وتكلم الحسن والحسين فى مروان فأمنه، وأمن الوليد بن عقبة، وولده عثمان وغيرهم من بنى أمية، وأمن الناس جميعا وقال - رضى الله عنه - كما قال - عليه الصلاة والسلام -: « من دخل داره فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن »(٢).

ثم ارتحلت عائشة فلما وصلت المدينة الشريفة، قالت: كنت بخير فى مسيرى، وقد أعطى ابن أبى طالب فأكثر، ولكنه بعث معى رجالا أنكرتهم، فعرفها النسوة

---

(١) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٧٩) وتاريخ الطبري (٤/ ٥٤٤) والبداية (٧/ ٢٧٤) أنه أذن لمن نجا ممن جاء في الجيش معها أن يرجع إلا أن يحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر .

(٢) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٧٧-٣٧٨) . وأما الحديث فقد تقدم في فتح مكة .

حالهن حينئذ فقالت: ما ازددت والله يا ابن أبى طالب إلا كرما، وددت أنى لم أخرج هذا المخرج وأنى أصابنى كيت وكيت، من أمور شاقة ذكرتها، وإنى قيل لى: تخرجين فتصلحين بين المسلمين فكان ما كان[1].

ثم ولى على البصرة ابن عباس وسار إلى الكوفة، ثم بعث إلى الأشعث بن قيس فعزله عن أذربيجان، وأرمينية وكان عاملا لعثمان عليها، وصرف جريرا عن همدان، وكان عاملا لعثمان عليها، وكان فى نفس الأشعث عليه من ذلك شيء، فكان منه الميل إلى خديعة عمرو بن العاص قد أراد به تحكيم أبى موسى الأشعرى[2]، كما سيأتى.

روى ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: كان بين العباس، وعلى بن أبى طالب مباعدة، فلقيت عليًا فقلت له: إن كان لك فى النظر إلى عمك حاجة فإنه وجع، وما أراك تلقاه. فوجم لها علىٌ، وأقبل على يده ورجله يقبلهما ويقول: يا عم، ارض عنى رضى الله عنك. قال: قد رضيت عنك. ثم قال: يا بن أخى كنت قد أشرت عليك بأشياء فلم تقبل منى، فرأيت فى عاقبتها ما كرهت، وها أنا الآن أشير عليك برأى آخر، فإن قبلته وإلا نالك ما نالك، فقال على: وما الذى أشرت به علىّ يا عم ؟ قال: أشرت عليك لما مرض - عليه الصلاة والسلام - أن تسأله فإن كان الأمر فينا أعطاناه، وإن كان فى غيرنا أوصى بنا، فقلتَ: إنْ منعناها لم يعطناها أحد؛ فمضت تلك؛ فلمّا قُبِضَ عليه الصلاة والسلام أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة فدعوناك إلى أن نبايعك، فقلتُ: ابسط يدك لنبايعك؛ فإنا إن بايعناك لم يختلف عليك منافيٌّ، وإن بايعك بنو عبْد مناف لم تختلف عليك قريش، وإن بايعتك قريش لم يختلف عليك أحد من العرب، فقلتَ فى جهاز النبى شغل وليس على ثوب، فلم نلبث أن سمعنا التكبير من سقيفة بنى ساعدة فقلتَ: ما هذا يا عم ؟ قلْت: هذا ما دعوناك إليه فأبيت، فقلت: سبحان الله ويكون هذا ؟! قلت: وهل يرد مثل هذا ؟ ثم أشرت عليك حين طعن عمر ألا تدخل نفسك فى الشورى؛ فإنك إن اعتزلتهم قدموك، وإن ساويتهم تقدموك، فدخلت معهم فكان ما رأيت.

(١) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٧٩).
(٢) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٨١).

وها أنا أقول لك: أرى هذا الرجل - يعنى عثمان بن عفان - يأخذ فى أمور، وكأنى بالعرب وقد سارت إليه حتى ينحر كما تنحر الجزور، والله لئن كان ذلك وأنت بالمدينة ليرمينك الناس بدمه، ولئن فعلوا لا تنال من هذا الأمر شيئًا إلا بعد شر لا خير معه انتهى. قال ابن عباس: فكان الأمر كما قال أبى رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

وعن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر قال: كان إياس بن معاوية لى صديقًا، فدخلنا على عبد الرحمن بن القاسم بن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وعنده جماعة يتذاكرون السلف؛ ففضَّل قوم أبا بكر وقوم عمر وقوم عليًا - رضى الله عنهم -؛ فقال إياس: إن عليًا يرى أنه كان أحق الناس بالأمر، فلما بويع أبو بكر، ورأى أنهم قد اجتمعوا عليه، وأن ذلك قد أصلح العامة - اشترى صلاح العامة بنقض رأى الخاصة - يعنى بنى هاشم - ثم لما ولى عمر فعل مثل ذلك به وبعثمان، فلما قتل عثمان، واختلف الناس، وفسدت الخاصة والعامة، وجد أعوانًا فقام بالحق ودعا إليه - رضى الله عنه وكرم وجهه -. كذا فى « المحاسن » للبيهقى[١].

قال المسعودى: وكانت وقعة الجمل يومًا واحدًا، وقتل من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفا، ومن أصحاب على سبعة آلاف، وقيل: خمسة آلاف. وقال العلامة الذهبى: قتل بينهما ثلاثون ألفًا[٢]. وكانت يوم الخميس[٣] لعشرٍ خلون من جمادى الأولى سنة ست وثلاثين المذكورة، قتل فيها المشاهير: طلحة بن عبيد الله القرشى التيمى أحد العشرة المبشرة، وهو أول قتيل يوم الجمل بعد مسلم الجهنى الذى أمره على أن يدعو القوم بالمصحف إلى ما فيه فرمى بسهم فقتل[٤]، وقد ذكرنا أن مروان من جيش طلحة والزبير، وأنه القاتل له بسهم رماه به. وقال مجالد عن الشعبى قال: رأى على - رضى الله عنه - طلحة ملقى قتيلاً، فنزل فمسح التراب عن وجهه

(١) ينظر المحاسن والمساوئ ص (٤٤).
(٢) نقل الذهبي هذا القول عن السدي، ينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٤٨٤).
(٣) في تاريخ الإسلام: وكانت الوقعة يوم الجمعة.
(٤) تقدم قريبا، وتقدم رثاء أمه إياه.

ولحيته وهو يترحم عليه ويقول: ليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة[١]. ثم قال: عزيز علىَّ أبا محمد أن أراك مجدلاً فى الأودية. ثم قال: إلى الله أشكو عُجَرى وبُجرى. قال الأصمعى: معناه: سرائرى وأحزانى[٢]. ولها معانٍ أخر مذكورة فى اللغة. وقال الليث عن طلحة بن مصرف: فدفنا طلحة على شاطئ « الكلاء » بالمدّ والتشديد، وهو مرسى المراكب، فرآه بعض أهله فى المنام يقول له: ألا ترى ؟ نجونى من هذا الماء قد غرقت - ثلاث مرات يقولها - فنبشوه فإذا هو أخضر كأنه السلق، فنزحوا عنه الماء فاستخرجوه، فإذا ما يلى الأرض من لحيته ووجهه قد أكلته الأرض، فاشتروا له دارًا من دور أبى بكرة بعشرة آلاف فدفنوه بها[٣].

ومِمَّن قتل فيها محمد بن طلحة، وكان زاهدًا عابدًا، صالحًا دينًا قوامًا. ذكر ابن سعد أن محمد بن طلحة بن عبيد الله تقدم فأخذ بخطام الجمل، فحمل عليه رجل، فقال له: أذكرك حاميم، فطعنه فقتله، ثم قال: [من الطويل]

وَأَشْعَثَ قَوَّامٍ بآيَاتِ رَبِّهِ ... قَلِيلِ الأَذَى فِيمَا تَرَى العَين مُسْلِم
هَتَكْتُ لَهُ بالرُّمْحِ جَيْبَ قَمِيصِهِ ... فَخَرَّ صَرِيعًا لليَدَيْنِ وَلِلْفَم
يُذَكِّرُنِى « حَامِيمَ » والرُّمْحُ شَاجِرٌ ... فَهَلاَّ تَلاَ « حَامِيمَ » قَبْلَ التَّقَدُّم
عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ غَيْرَ أَنْ لَيْسَ تَابِعًا ... عَلِيًّا وَمَنْ لاَ يَتْبَعِ الْحَقَّ يَنْدَم

فسار على ليلته فى القتلى معه النيران، فمر بمحمد بن طلحة هذا قتيلاً فقال لابنه الحسن: يا حسن، محمد السجّاد ورب الكعبة! ثم قال: أبوه صرعه هذا المصرع، ولولا بره بأبيه ما خرج. فقال له الحسن: ما كان أغناك عن هذا يا أبت ؟! فقال: ما لى ولك يا حسن[٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ١١٣) رقم (٢٠٢) ، والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٧٢-٣٧٣) من طريق ليث عن طلحة بن مصرف أن عليا رضي الله عنه انتهى إلى طلحة . . . فذكره وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٥٣): إسناده حسن . وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١/ ٣٧): مرسل وينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٥٢٧-٥٢٨) .

(٢) ينظر سير أعلام النبلاء (١/ ٣٦)، وتاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٥٢٧) .

(٣) ينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٥٢٨) .

(٤) ينظر الاستيعاب ترجمة رقم (٢٣٦٢)، وطبقات ابن سعد (٥/ ٤٠-٤١)، ومستدرك الحاكم (٣/ ٣٧٥)، وتاريخ الطبري (٤/ ٥٢٦) والبداية (٧/ ٢٧١)، وتاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٤٨٨- ٤٨٩)، ومروج الذهب (٢/ ٣٧٤) .

وممن قتل حُكيم بن جبلة العبدى، كان متدينًا عابدًا، شريفًا مطاعًا بطلاً، وهو أحد من سار إلى الفتنة وألَّب على عثمان، وهو من جماعة على، ولم يزل يقاتل حتى قطعت رجله فأخذها وضرب بها الذى قطعها فقتله، ثم أخذ يقاتل ويقول: [من منهوك الرجز]

يَـا سَـاقُ لَـنْ تُـرَاعِـي إِنَّ مَـعَـى ذِرَاعِـي
أَحْـمِـى بِـهِ كُـرَاعِـي

حتى نزفه الدم فاتكأ على المقتول الذى قطع رجله فمر به رجل فقال: من قطع رجلك ؟ فقال: وسادتى هذه. ثم أتاه [سحيم الحدّانى][١] فقتله. وذكر المدائنى أنه رأى رجلا مصلم الأذنين، فسأله عن قصته، فذكر أنه خرج يوم الجمل ينظر القتلى، فنظر إلى رجل منهم يخفق رأسه وهو يقول: [من الطويل]

لَقَدْ أَوْرَدتْنَا أُمُّنَا حَوْمَةَ الرَّدَى فَلَمْ نَنْصَرِفْ إِلاَّ وَنَحْنُ رِوَاءُ
أَطَعْنَا بَنِى تَيْم لِشِقْوَةِ جَدِّنَا وَمَا تَيْـمُ إِلاَّ أَعْـبُـدٌ وَإِمَـاءُ

فقلت: سبحان الله!! تقول هذا عند الموت، قل لا إله إلا الله. فقال يا بن اللخناء، أتأمرنى بالجزع عند الموت ؟ فوليت عنه متعجبًا، فقال: ادن منى لقنّى الشهادة، فصرتُ إليه فلما قربت منه استدنانى، ثم التقم أذنى فذهب بها، فجعلت ألعنه وأدعو عليه، فقال: إذا صرت إلى أمك فقالت لك: من فعل هذا بك ؟ فقل: عمير بن الأهلب الضبى، مخدوع المرأة التى أرادت أن تكون أمير المؤمنين[٢].

ثم كانت فى سنة سبع وثلاثين وقعة « صفين »؛ اسم مكان كانت به الوقعة. وذلك أن سيدنا عليًا - كرم الله وجهه ورضى الله عنه - وَجَّه جرير بن عبد الله ﷺ وهو المقول فيه: [من الرجز]

لَوْلاَ جَرِيرٌ هَلَكَتْ بَجِيلَهْ نِعْمَ الفَتَى وَبِئْسَتِ الْقَبِيلَهْ[٣]

إلى معاوية، وقد كان الأشتر النخعى حذر عليًا من إرساله جريرًا وخوفه من

(١) في ط: مسجم الجذامي، والتصويب من تاريخ الإسلام، وسير الأعلام وينظر تاريخ الطبري (٤/ ٤٧١)، والاستيعاب ترجمة رقم (٥٥٨)، وأسد الغابة (١٢٣٣)، وتاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٤٩٥)، والبداية والنهاية (٧/ ٢٦٠).
(٢) ينظر مروج الذهب (٢/٣٧٨-٣٧٩).
(٣) ينظر الاستيعاب ترجمة رقم [٣٢٦] ونقل ابن عبد البر قول عمر: ما مدح من هجا قومه.

ذلك، فقال جرير: ابعثنى فإنه لم يزل بى مستنصحًا ودادًا، فآتيه فأسأله أن يسلم إليك هذا الأمر، وأدعو الشام إلى طاعتك. فقال الأشتر لسيدنا على: لا تبعثه فوالله لأظن هواه هواهم ونيته نيتهم، فقال على: دعه حتى ننظر ما يأتى إلينا به، فبعث به، وكتب إلى معاوية يعلمه بمبايعة المهاجرين والأنصار واجتماعهم عليه، ونكث الزبير وطلحة وما أوقع الله بهما، وأمره بالدخول فى طاعته، وأعلمه أنه من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة. فلما قدم عليه جرير دافعه وسأله الإقامة أيامًا، وقد كان كتب معاوية إلى عمرو بن العاص فقدم إليه، وأعطاه مصر طعمة، فأشار عمرو بالبعث إلى وجوه الشام، وأن يلزم عليًا دم عثمان ومقاتلته. فقدم جرير علىٰ علىٍ فأخبره خبرهم، واجتماع أهل الشام مع معاوية على قتاله، وأنهم يبكون على عثمان ويقولون: إن عليًا قتله، وإنهم لا بد لهم من قتاله حتى ينفوه ومن معه أو يعينهم، فقال الأشتر لعلى: قد كنت أخبرتك بعداوته وغشه، يعنى جريرًا، ولو أرسلتنى لكنت خيرًا من هذا الذى أرخى جناحه، وأقام حتى لم يدع بابًا يرجو معاوية فتحه إلا فتحه، ولا بابًا يخافه إلا غلقه. فقال له جرير: لو كنت ثم لقتلوك، لقد ذكروا أنك من قتلة عثمان، فقال: لو رأيتهم والله يا جرير لم يعْينى جوابهم، ولا ثقل على خطابهم، ولحملت معاوية على خطة أعجلته فيها عن الفكر، ولو أطاعنى أمير المؤمنين فحَبَسك وأشباهك فى مجلس فلا تخرجون منه حتى تستقيم هذه الأمور. فخرج جرير إلى الرحبة من شَاطئ الفرات، وكتب إلى معاوية يعلمه بما نزل به، وأنه أحب مجاورته فكتب إليه معاوية يأمره بالمسير إليه، وبعث معاوية إلى المغيرة ابن شعبة يقول له: قد ظهر من رأى ابن أبى طالب وما كان تقدم من توعده لك فى طلحة والزبير، فما الذى بقى من رأيه فينا ؟[١]

وذكر يحيى بن عبيد قال[٢]: قال أبو مسلم الخولانى وجماعة لمعاوية: أأنت تنازع عليًا أم أنت مثله ؟ فقال: لا والله، إنى لأعلم أن عليًا أفضل منى وأحق بالأمر، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلومًا وأنا ابن عمه، وإنما أطالب بدمه ؟ فأتوا عليًا فقولوا له فليدفع إلي قتلة عثمان وأسلم له. فأتوا عليًا فكلموه بذلك فلم يدفعهم إليه[٣].

(١) ينظر تاريخ الطبري (٤/ ٥٦١)، والبداية والنهاية (٧/ ٢٨٢)، ومروج الذهب (٢/ ٣٨١).
(٢) في تاريخ الإسلام: وحدثني يعلى بن عبيد ثنا أبي قال.
(٣) ينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص ٥٤٠.

وحدث يحيى الجعفي أن معاوية قال لجرير بن عبد الله البجلى المذكور: اكتب إلى على أن يجعل لي الشام وأنا أبايعه. وقال: وبعث الوليد بن عقبة إلى معاوية يقول: [من الطويل]

مُعَاوِيَ إِنَّ الشَّامَ شَامُكَ فَاعْتَصِمْ   بِشَامِكَ لاَ تُدْخِلْ عَلَيْنَا الْأَفَاعِيَا
وَحَامِ عَلَيْهَا بِالْقَنَابِلِ وَالْقَنَا   وَلاَ تَكُ مَحْبُوسَ الذِّرَاعَيْنِ دَانِيَا
فَإِنَّ عَلِيًّا نَاظِرٌ مَا لِجَيْشِهِ   فَأَهْدِ لَهُ حَرْبًا تُشِيبُ النَّوَاصِيَا[١]

وعن جابر الجعفى، عن الشعبى قال: لما ظهر أمر معاوية دعا على - رضى الله عنه - رجلاً وأمره أن يسير إلى دمشق فيعقل راحلته على باب المسجد ويدخل بنية السفر؛ ففعل الرجل، فسألوه: من أين جئت ؟ قال: من العراق. قالوا: ما وراءك ؟ قال: تركت عليًّا قد حشد إليكم ونهد فى أهل العراق. فلما بلغ الخبر معاوية نودى: الصلاة جامعة، وامتلأ المسجد، فصعد معاوية المنبر فتشهد ثم قال: إن عليًّا قد نهد إليكم فى أهل العراق، فما الرأى ؟ فضرب الناس بأذقانهم إلى صدورهم، ولم يرفع أحد طرفه إليه، فقام ذو الكلاع الحميرى فقال: عليك امْرَأْىُ [يعنى الرأى] وعلينا امْفِعَالُ- يعنى الفعال - فنزل معاوية ونودى فى الناس: اخرجوا إلى عسكركم، ومن تخلف بعد ثلاث أخل بنفسه. فخرج رسول على حتى وافاه فأخبره بذلك، فأمر على فنادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن رسولى الذى أرسلته إلى الشام قد قدم على، وأخبرنى أن معاوية قد نهد إليكم فى أهل الشام، فما الرأى ؟ فقال أهل المسجد: يا أمير المؤمنين، الرأى كذا، الرأى كذا. فلم يفهم على كلامهم من كثرة من تكلم وكثرة اللغط، فنزل وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب بها ابن أكالة الأكباد - يعنى معاوية[٢]- فسار على وكان مسيره من الكوفة إلى صفين لخمس خلون من شوال سنة ست وثلاثين، واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عمر الأنصارى، واجتاز على المدائن ثم الأنبار، ثم سار حتى نزل الرقة، وسار معاوية من الشام فسبق عليًّا إلى صفين، فالتقوا بصفين؛ فكانت وقعة « صفين » لسبع بقين

(١) ينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٥٣٩) .
(٢) ينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٥٤٠-٥٤١) .

من المحرم من سنة سبع وثلاثين، وشبَّت الحرب بينهم أول صفر من السنة المذكورة[١]، وكان على ميمنة على الأشعث بن قيس الكندى، وعلى الميسرة عبيد الله بن العباس، وعلى الرجالة عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى فقتل يومئذ، ومن أمراء على الأحنف بن قيس التميمى، وعمار بن ياسر، وعدى بن حاتم الطائى، والأشتر مالك بن الحارث النخعى، وعمرو بن الحمق الخزاعى، وشبث[٢] ابن ربعى الرياحى، وسعيد بن قيس الهمدانى؛ فكان رئيس همدان، والمهاجر بن خالد بن الوليد المخزومى، وغيرهم. فكان على فى خمسين ألفًا، وقيل: تسعين ألفًا. وقيل: مائة ألف، وكان على ميمنة معاوية عمرو بن العاص، وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهرى، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وكان لواؤه مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومى، ومن أمرائه أبو الأعور السلمى، وزفر بن الحارث، وذو الكلاع الحميرى، ومسلمة بن مخلد، وبسر بن أرطاة العامرى، وحابس بن سعد الطائى، ويزيد بن أبى هبيرة السكونى، وغيرهم. وكان معاوية فى سبعين ألفًا، وقيل: فى مائة ألف وعشرين ألفًا، فاقتتلوا أيامًا[٣]، ووقع القتال وعليٌ على بغلة رسول الله ﷺ وهو يقول: رضى الله عنه : [من الرجز]

مِنْ أَيِّ يَوْمَىَّ مِنَ المَوْتِ أَفِرّ ... أَيومَ لَمْ يُقَدَّرَ امْ يَوْمَ قُدِرْ

وحمل وحملوا معه؛ فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، وعلى لا يمر بفارس إلا قده وهو يقول : [من الرجز]

أَضْرِبُهُمْ وَلاَ أَرَى مُعَاوِيَهْ
الأَمْرَةَ الْعَيْنِ الْعَظِيمَ الْحَاوِيَهْ
تَهْوِى بِهِ فِى النَّارِ أُمٌّ هَاوِيَهْ

وقيل: إن الشعر لبديل بن ورقاء الخزاعى[٤].

قال الزهرى: اقتتلوا أيامًا حتى قتل خلق كثير، قتل من أهل الشام خمسة وأربعون ألفًا، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفًا، واقتتلوا قتالاً لم تقتَتِل هذه الأمة مثله

(١) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٨٤) .
(٢) فى ط: شبيب والمثبت من تاريخ الإسلام .
(٣) ينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص ٥٤١-٥٤٢ وينظر تاريخ خليفة ص ١٤٦-١٤٧ .
(٤) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٩٦) .

قط، وغلب أهل العراق على قتلى حِمص، وغلب أهل الشام على قتلى أهل العالية[(١)]. وفى كتاب « المحاسن والمساوى » كتب أمير المؤمنين يوم صفين إلى معاوية بن أبى سفيان: ما لك تقتل الناس بيننا ؟ ابرز إلىّ، فإن قتلتنى استرحت منى، وإن قتلتك استرحت منك. فقال له عمرو: أنصفك الرجل فابرز إليه، قال: كلا يا عمرو، أردت أن أبرز إليه فيقتلنى وتثب على الخلافة بعدى ؟ قد علمت قريش أن ابن أبى طالب أشدها وأسدها، ثم أنشأ يقول : [من الكامل]

يَا عَمْرُو قَدْ أَسْرَرْتَ تُهْمَةَ غَادِرٍ ... بِرِضَاكَ لِى تَحْتَ العَجَاجِ بِرَازِي
مَا لِلْمُلُوكِ وَلِلْبِرازِ وَإِنَّمَا ... حَتْفُ المُبَارِزِ خَطْفَةٌ مِنْ بَازِي
إِنَّ الَّذِى سَوَّلَتَ نَفْسَكَ طَالِبًا ... قَتْلِى جَزَاكَ بِمَا نَوَيْتَ الْجَازِي
فَلَقَدْ كَشَفْتَ قِنَاعَهَا مَذْمُومَةً ... وَلَقَدْ لَبِسْتَ لَهَا ثِيَابَ الحَازِي

فأجابه عمرو بقوله [من الوافر]

مُعاوِيَ إِنَّنِى لَمْ أَجْنِ ذَنْبًا ... وَمَا أَنَا بِالَّذِى يُدْعَى بِحَازِي
فَمَا ذَنْبِى بِأَنْ نَادَى عَلِيٌّ ... وَكَبْشُ الْقَوْمِ يُدْعَى لِلْبِرَازِ
فَلَوْ بَارَزْتَهُ لَلَقِيتَ قِرْنًا ... حَدِيدَ النَّابِ سَهْمًا ذَا اعْتِزَازِ
أَجُبْنًا فِى العَشِيرَةِ يَا بن هِنْدٍ ... وَعِنْدَ البَاهِ كَالتَّيْسِ الحِجَازِي[(٢)]

ثم إن معاوية أقسم على عمرو بمبارزة على؛ فبرز، فلما التقيا سل على سيفه فكشف عمرو ثوبه عن عورته وقال: مكره أخاك لا بطل، فحول على - رضى الله عنه - وجهه عنه، وقال: قبحت[(٣)]. قال السهيلى: جاء عمرو بن العاص إلى معاوية فقال له: إن عمار بن ياسر قد قتل، قال معاوية: فماذا ؟ قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار: « تقتلك الفئة الباغية ». فقال معاوية لعمرو: رحضت فى بولك، أنحن قتلناه ؟ إنما قتله الذى أخرجه. فبلغ قوله عليًا فقال: إذًا ما قتل حمزة إلا النبى ﷺ؛ لأنه الذى أخرجه[(٤)].

---

(١) ينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص (٥٤١) .
(٢) ينظر المحاسن والمساوئ ص (٤٨) وذكره المسعودي في مروج الذهب (٢/ ٣٩٧) دون الشعر.
(٣) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٩٧) .
(٤) أخرجه عبد الرزاق (١١/ ٢٤٠) رقم (٢٠٤٢٧)، ومن طريقه أحمد (٤/ ١٩٩) عن معمر عن =

واختلط الناس بالناس، وبطل النبل، وقصفت الرماح، وأجنهم الليل، وتنادوا بالشعار، وتكادم القوم؛ فكان يعتنق الفارسان فيقعان فى الأرض جميعًا عن فرسيهما(١). قلت: التكادم: التعاضض، من الكدم، وهو العض.

وفى ليلة الجمعة - وهى ليلة الهرير - كان جملة من قتله عليّ فى يومها وليلتها خمسمائة وثلاثة وعشرين رجلًا، أكثرهم فى اليوم، وكان إذا قاتل رجلًا لم يكن يضرب إلا قتل. وانكسفت الشمس، وتقطعت الألوية والرايات، ولم يعرفوا مواقيت الصلاة؛ فقال معاوية لعمرو: هات مخبآتك وأدركنا مما نحن فيه، ولك مصر طعمة. فقال: ناد فى العسكر برفع المصاحف، فنودى فوجد فى العسكر أكثر من خمسمائة مصحف، فأمر برفعها على الرماح وأن ينادوا: بيننا وبينكم كتاب الله.

وفى ذلك يقول النجاشى بن الحارث : [من الطويل]

فَأَصْبَحَ أَهْلُ الشَّامِ قَدْ رَفَعُوا القَنَا ... عَلَيْهَا كِتَابُ اللهِ خَيْرُ قُرَانِ
وَنَادَوْا عَلِيًّا: يَابن عَمِّ مُحَمَّدٍ ... أَمَا تَتَّقِى أَنْ يَهْلِكَ الثَّقَلَانِ

فلما رأى أهل العراق ذلك؛ قالوا: نجيب إلى كتاب الله، وأحب القوم الموادعة، وقال لعلى كثير من أصحابه: قد أعطاك معاوية الحق، دعاك إلى كتاب الله فاقبل منه. وكان أشد القوم فى ذلك الأشعث بن قيس الكندى؛ فقال على: يأيها الناس، إنه لم ينزل بى من أمركم ما أحب حين قدحتكم الحرب، وقد - والله - أخذت منكم وتركت، وإنى كنت بالأمس الأمير فأصبحت اليوم مأمورًا، وقد أحببتم البقاء(٢). قال الأعمش: حدثنى من رأى عليًا يوم صفين يصفق بيديه، ويعض على إبهامه، ويقول: يا عجبا أعصى ويطاع معاوية!!(٣) فقال له الأشتر: يا أمير المؤمنين، إن معاوية لا خلف له من رجاله، ولك بحمد الله الخلف، ولو كان له مثل رجالك لما كان له مثل صبرك ولا نصرك، فاقرع الحديد بالحديد واستعن بالله. فقال الأشعث: يا أمير المؤمنين، إنا لك اليوم على ما كنا بالأمس، وليس ندرى كيف

= طاوس عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه به وينظر طبقات ابن سعد (٣/ ١٩١). وينظر تاريخ الإسلام عهد الخلفاء الراشدين ص ٥٧٨ .

(١) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٩٩) .

(٢) ينظر مروج الذهب (٢/ ٣٩٩-٤٠٠) .

(٣) ينظر تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين ص ٥٤١ .

يكون غدًا، وقد والله فل الحديد وكلت البصائر - وتكلم بكلام كثير - ولكن إن شئت أتيتُ معاوية فسألته ما يريد ؟ قال على: اذهب إليه. فأتاه فقال له معاوية: نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله فى كتابه، تبعثون رجلًا منكم ترضون به وتختارونه، ونبعث رجلًا منا، ونأخذ عليهما العهد والميثاق أن يعملا بكتاب الله. فصوب الأشعث قوله. وذهب إلى عليٍّ؛ فقال أكثر القوم: رضينا وسمعنا وأطعنا. فاختار أهل الشام عمرو بن العاص، وقال الأشعث ومن ارتد بعد ذلك إلى رأى الخوارج: رضينا نحن بأبى موسى الأشعرى. فقال على: عصيتمونى أوّلاً فلا تعصونى الآن؛ إنى لا أرتاح إلى أبى موسى. فقال الأشعث: لا نرضى إلا أبا موسى. قال على: ويحكم ليس هو بثقة، فعل كذا وكذا، وقد فارقنى وخذل الناس عنى ثم هرب شهرًا حتى أمنته، ولكن هذا عبد الله بن عباس. فقال الأشعث وأصحابه: والله لا يحكم فينا مضريان. قال على: فالأشتر. فقالوا وهل أشعل ما نحن فيه إلا الأشتر. فقال على: فاصنعوا ما أردتم وافعلوا ما بدا لكم. فبعثوا إلى أبى موسى وأفهموه بالقضية، وقيل لأبى موسى: قد اصطلح الناس، فقال الحمد لله. قيل: وقد جعلوك حكمًا، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون(١). فافترقوا بعد أن صيروا الأجل إلى شهر رمضان من العام القابل على اجتماع الحكمين فى موضع عدل بين الكوفة والشام يسمى « دومة الجندل »، وكان الوقت الذى كتبت فيه الصحيفة بالرضا بالحكمين لأيام بقين من صفر سنة سبع وثلاثين، وقرأ الأشعث الصحيفة على الناس مارًا بها فرحًا وسرورًا؛ فقال عروة بن أدية: أتحكِّمون يا أشعث فى دين الله وأمره ونهيه الرجال ؟ لا حكم إلا لله. وهو أول من قالها، ونبذ سيفه على الأشعث فهمز فرسه عن الضربة فأصابت عجز الفرس، ونجا الأشعث. وفى فعل عروة بالأشعث يقول رجل من تميم: [من الخفيف]

غـروُ يَا عـروَ كُل فِتْنَة قَوْم ... سَلَفَتْ إِنَّمَا تَكُونُ فُتَيْنَه(٢)
ثَمَّ تَنْمُو وَيَعْظُمُ الخطْبُ فِيهَا ... فَاحْذَرَنْ غِبَّ مَا صَنَعْتَ عرِيَّهْ
أَعَلَى الأَشْعَثِ المعصبِ بِالتَّا ... جِ حَمَلْتَ السِّلَاحَ يابن أديَّهْ

(١) ينظر مروج الذهب (٢/ ٤٠٠-٤٠٢) وليس فيه قول على: إني لا أرتاح إلى أبي موسى وينظر تاريخ الطبري (٥/ ٩١)، والبداية والنهاية (٧/ ٣٠٦) .

فانْظُرِ اليَوْمَ مَا يقُولُ عليٌّ   واتَّبِعْهُ فَذَاكَ خَيْرُ البَرِيهْ[1]

عن صعصعة بن صوحان قال: خرج يوم صفين رجل من أصحاب معاوية يقال له: كريز بن الصباح الحميرى، فوقف بين الصفين وقال: من يبارز ؟ فخرج إليه رجل من أصحاب على فقتله، فوقف عليه فقال: من يبارز ؟ فخرج إليه آخر من أصحاب على فقتله وألقاه على الأول، فقال: من يبارز ؟ فخرج إليه الثالث فقتله وألقاه على الأولين وقال: من يبارز ؟ فأحجم الناس عنه، وأحب من كان فى الصف الأول أن يكون فى الآخر، فخرج إليه عليٌّ على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فشق الصفوف، فلما انفصل منها نزل عَنِ البغلة وسعى إليه فقتله، وقال: من يبارز ؟ فخرج إليه رجل آخر فقتله وألقاه على الأول، ثم قال: من يبارز ؟ فخرج إليه رجل فقتله وألقاه على الأولين ثم قال: من يبارز ؟ فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الثلاثة، ثم قال: يأيها الناس، إن الله عز وجل يقول: ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ولو لم تبتدئوا هذا ما ابتدأناه. ثم رجع إلى مكانه.

عن ابن عباس وقد سأله رجل أكان على يباشر القتال يوم صفين ؟ فقال ابن عباس: والله ما رأيت رجلًا أطرح لنفسه فى متلف من على، ولقد كنت أراه يخرج حاسر الرأس بيده السيف إلى الرجل الدارع فيقتله. أخرجها الواحدى. ذكر أبو مخنف لوط بن يحيى، عن ابن الأغر التميمى قال: بينا أنا واقف بصفين إذ مرَّ العباس بن ربيعة بن الحارث بن المطلب مكمل فى سلاحه، وعيناه تبرقان من تحت المغفر كأنهما شعلتا نار أو عينا أرقم، وبيده صفيحة يمانية يقلبها والمنايا تلوح فى شفرتيها، وهو على فرس صعب. فبينما هو يبعثه ويلين من عريكته، إذ هتف به هاتف من صف معاوية يقال له: عزاز بن أرقم لزهل الشامى: يا عباس، هلم إلى النزول. قال فنزل العباس إلى الشامى وهو يقول: [من البسيط]

اللهُ يَعْلَمُ أنَّا لاَ نُحِبُّكُمُ   وَلا نَلُومُكُم إذْ لَمْ تُحِبُّونَا

ثم زحف كل منهما إلى صاحبه، وكفَّ الفريقان عنهما ينظرون ما يكون من الرجلين فتكافحا بسيفيهما نهارهما، لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لأمته،

---

(١) ينظر مروج الذهب (٢/٤٠٣-٤٠٤)، وتاريخ الطبري (٥/٥٥) .

إلى أن لحظ العباس فتقًا فى درع الشامى فأهوى إليه بيده وهتكه إلى ثندوته، ثم عاد لمجاولته وقد انفرج له بعض الدرع فضربه العباس ضربة انتظم بها جوائح صدره؛ فحول وجهه وكبر الناس تكبيرة ارتجت الأرض من تحتهم بها، فإذا قائل يقول ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة: ١٤] الآية. قال ابن الأغر: فالتفتُّ فإذا على بن أبى طالب، فقال لى: يا بن الأغر من المبارز لعدونا ؟ قلت ابن أخيكم، هذا العباس بن ربيعة، فقال على للعباس: ألم أنهك وعبد الله بن عباس أن تحلا بمركز كما لو تناشر آخرنا ؟ قال العباس: إن ذلك كما قلت. قال على: فما عدا مما بدا ؟ قال العباس أفأدعى إلى البراز باسمى فلا أجيب ؟ فقال عليٌّ: طاعتك إمامك أولى من إجابة عدوك. وتغيظ واستطار، ثم تطامن وسكت ورفع يديه مبتهلاً وقال: اللهم اشكر للعباس واغفر ذنبه. وتأسف معاوية على عزاز بن أرقم ثم قال: ألا رجل شرى نفسه يطلب بدم عزاز ؟ فانتدب له رجلان من لخم من أهل البأس من صناديدهم، قال: فاذهبا فأيكما قتل العباس فله مائة أوقية من التبر، ومثلها من اللجين، وبعددها من برود اليمن؛ فأتياه فدعواه للبراز وصاحا بين الصفين: يا عباس اخرج إلى الداعى، فقال العباس: إن لى سيدًا أريد أوامره، فأتى عليًا وهو فى جناح الميمنة يخوض الناس فأخبره الخبر، فقال على: والله لود معاوية أنه ما بقى من بنى هاشم نافخ ضرمة إلا طعن فى بطنه؛ إطفاءً لنور الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. ثم قال: يا عباس، ناقلنى سلاحك بسلاحى؛ فناقله على، ووثب على فرس العباس، وقصد اللخميين فلم يشكا أنه العباس، فقالا له: أذن لك صاحبك ؟ فحرج أن يقول نعم؛ فقال: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ [الحج: ٣٩] الآية، وكان العباس أشبه الناس فى جسمه وركوبه بعلى - رضى الله تعالى عنه - فبرز له أحدهما فكأنما أخطأ رأسه، ثم برز الآخر فألحقه بالأول، ثم أقبل يقول: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٤] الآية، ثم قال: يا عباس، خذ سلاحك وهات سلاحى، فإن عاد لك أحد فعد لى. ونمى الخبر إلى معاوية. فقال: قبح الله اللجاج، وما ركبته قط إلا خذلت، فقال عمرو بن العاص: المخذول - والله - اللخميان، فقال له معاوية: اسكت أيها الرجل؛ فليس هذا من شأنك، قال عمرو: فإن لم يكن الله رحم اللخميين ولا أراه يفعل، قال معاوية: ذاك

والله أضيق لحجتك، وأخسر لصفقتك، قال عمرو: قد علمت ذلك، ولولا مصر وولايتها لركبت المسحاة عنها؛ فإنى أعلم أن ابن أبى طالب على الحق، وأنا على هذه، فقال له معاوية: مصر والله أعمتك، ولولا مصر لألفيت بصيرًا. وكان مع على من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ألفان وثمانمائة، قتل منهم خمسة وعشرون صحابيًا.

ولما تفرقوا - على إلى الكوفة ومعاوية إلى الشام - كثر اختلاف الكلمة بين أصحاب على، وتفاوت الرأى، وعدم انتظام الأمور، وتبرأ الأخ من أخيه، وتضارب القوم بنعال السيوف، وقيل بالنعال، وتسابوا، ولام كلٌّ الآخرَ. ولما وصل على الكوفة انحاز عنه ستة آلاف، وقيل اثنا عشر ألفًا من القوم وغيرهم؛ فنزلوا « حَرَوْرَاء »، قرية من قرى الكوفة، وجعلوا شبيب بن ربعى التميمى عليهم، فخرج إليهم علىّ وأدخلهم جميعًا الكوفة، فجعلوا ينادون عليًا وهو على المنبر: جزعت من البلية، ورضيت بالقضية، وقبلت الدنية، لا حكم إلا لله. فقال على: حكم الله انتظم فيكم، فيقولون: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥] الآية، فيقول على - رضى الله عنه -: ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

* * *

فهرس موضوعات الجزء الثانى

الموضوع الصفحة

* * *

سمط النجوم العوالي
في أنباء الأوائل والتوالي

تأليف

عبد الملك بن حسين بن عبد الملك
الشافعي العاصمي المكي
المتوفى سنة ١١١١هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود   الشيخ علي محمد معوض

الجزء الثالث

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2615-6

90000>

9782745126153

http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : baydoun@dm.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم
مناظرة ابن عباس للخوارج

قال الذهبى: قال عكرمة بن عمار: حدثنى أبو زميل قال: حدثنى ابن عباس قال: لما اجتمعت الخوارج قلت لعلى - رضى الله تعالى عنه -: أبرد بالصلاة لعلى آتى القوم. [قال] فإنى أخافهم عليك. قلت: كلا. فقال: أنت وذاك. فلبس حلتين من أحسن الحلل، وكان جهيرًا جميلاً. قال: فأتيت القوم، فلما رأونى قالوا: مرحبًا بابن عباس، فما هذه الحلة ؟ قلت: وما تنكرون من ذلك ؟! لقد رأيت على رسول الله ﷺ حلة من أحسن الحلل. قال: ثم تلوت عليهم: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ يُؤْمِنُونَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ [الأعراف:٣٢] الآية. قالوا: فما جاء بك ؟ قلت: جئتكم من عند أمير المؤمنين، ومن عند أصحاب رسول الله ﷺ وصهره، فأقبل بعضهم على بعض، وقالوا: لا تكلموه فإن الله تعالى يقول: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف:٥٨] وقال بعضهم: وما يمنعنا من كلام ابن عم رسول الله ﷺ يدعونا إلى كتاب الله . فقالوا: ننقم عليه خلالاً ثلاثًا: أحدها: أنه حكم الرجال فى دين الله، وما للرجال وحكم الله ؟! الثانية: أنه قاتل، ولم يسب، ولم يغنم، فإن كان قد حل قتالهم فقد حل سبيهم، وإلا فلا. الثالثة: أنه محا نفسه من إمرة المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير المشركين.

قال ابن عباس: هل غير هذا ؟ فقالوا: حسبنا هذا. فقال لهم: أرأيتم إن خرجت لكم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أراجعون أنتم ؟ قالوا: وما يمنعنا ؟ قال: أما قولكم إنه حكم الرجال فى أمر الله - تعالى - فإنى سمعت الله - تعالى - يقول فى كتابه: ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [المائدة:٩٥]، وذلك فى ثمن صيد أرنب ونحوه قيمته ربع درهم، فوض الله - تعالى - فيه الحكم إلى الرجال، ولو شاء أن يحكم لحكم، وقال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ الآية [النساء:٣٥]، أخرجت من هذه ؟ قالوا: نعم. قلت: وأما قولكم قاتل، ولم يسب؛ فإنه قاتل أمكم؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب:٦] فإن زعمتم أنها ليست بأمكم فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها أمكم فما حل سباؤها، فأنتم بين ضلالتين، أخرجت من هذه ؟ قالوا: نعم. قلت: وأما

قولكم إنه محا اسمه من إمرة المؤمنين، فإنى أنبئكم عن ذلك: أما تعلمون أن رسول الله ﷺ يوم الحديبية، جرى الكتاب بينه وبين سهيل بن عمرو كتاب الصلح والهدنة، فقال: يا على، اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك الدخول، ولا قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، - فقال عليه الصلاة والسلام -: اللهم إنك تعلم أنى رسولك، ثم أخذ الصحيفة، فمحاها بيده، ثم قال: يا على، اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله . . . إلخ فوالله ما أخرجه ذلك عن النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. قال: فرجع ثلثهم، وانصرف ثلثاهم، وقتل سائرهم على الضلالة يوم النهروان(١) كما يأتى قريبًا ذكره.

قال عوف: حدثنا أبو نضرة عن أبى سعيد: « تفترق أمتى فرقتين، تمرق بينهما مارقة، تقتلهم أولى الطائفتين بالحق »، وهكذا رواه قتادة وسليمان التيمى عن أبى نضرة(٢).

قال المسعودى: فاجتمع الثلث الباقى من الخوارج فى أربعة آلاف - قلت: ظهر أن المسعودى رجح رواية أنهم كانوا اثنى عشر ألفًا فكان الثلث أربعة آلاف - وبايعوا عبد الله بن وهب الراسبى، ولحقوا بالمدائن، وقتلوا عامل على عليها عبد الله بن خباب، ذبحوه ذبحًا، وبقروا بطنه وبطن امرأته، وكانت حاملاً [وقتلوا غيرها من النساء، وكان علي قد انفصل عن الكوفة في خمسة وثلاثين ألفًا](٣)، ثم ساروا إلى النهروان، وأتى إلى على من قبل عامله على البصرة ابن عباس - ثلاثة آلاف فيهم الأحنف بن قيس، وذلك سنة ثمان وثلاثين، فنزل على - رضى الله عنه - إلى الأنبار، والتأمت عليه العساكر، فسار حتى أتى إلى النهروان، فبعث إليهم على بالحارث بن مرة العبدى رسولاً، يدعوهم إلى الرجوع، فقتلوه، وبعثوا إلى على - رضى الله تعالى عنه - إن تبتَ من حكومتك، وشهدت على نفسك بالكفر بايعناك،

---

(١) ذكره بطوله الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام (٣/ ٥٨٨-٥٩٠) وينظر البداية والنهاية (٧/ ٣١٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٥، ٣٢، ٤٨، ٦٤، ٧٩، ٩٧) ومسلم (١٥٠/ ١٠٦٥) وأبو داود (٤٦٦٧) من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري، به.

(٣) المثبت من مروج الذهب.

وإن أبيت فاعتزلنا حتى نختار لأنفسنا إمامًا فإنا منك برآء، فقال على - كرم الله وجهه -: سيروا إلى القوم فإنكم تجدونهم قد عسكروا بالرملة، فوالله لا يفلت منهم عشرة، ولا يقتل منكم عشرة، فأشرف عليهم وقد عسكروا بالرملة على حسب ما قاله لأصحابه رضى الله تعالى عنه، ثم أتى عليهم، فلم يفلت منهم إلا سبعة(١)، ولم يقتل من أصحاب على إلا تسعة، فقال: الله أكبر لقد صدق رسول الله - ﷺ - فقد أخبرنى بذلك، ثم أمر ينظر المخدج من بين القتلى، وهو ذو الثدية: لحم مجتمع على منكبه كثدى المرأة، عليه شعرات سود، إذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذى بطن يده، ثم تترك فتعود إلى منكبه، فلما وجدوه بين القتلى، ثنى على - رضى الله عنه - رجله ونزل فخر ساجدًا، ومر بهم وهم صرعى، فقال: لقد صرعكم من غركم. قالوا: ومن غرهم ؟ قال: الشيطان(٢).

التقاء الحكمين بدومة الجندل

لما كان رمضان من السنة المذكورة وصل من قبل على أبو موسى الأشعرى فى أربعمائة، أميرهم شريح بن هانئ، ووصل من قبل معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة كذلك، أميرهم شرحبيل بن السمط، فلما تدانى القوم من الموضع الذى كان الاجتماع فيه - قال ابن عباس لأبى موسى: إن عليًا لم يرض بك حكمًا لفضل عندك والمقدمون عليك كثيرون، وإنما الناس أبوا غيرك، وإنى أظن لشر يراد بهم، وقد ضم داهية العرب معك، فمهما نسيت فلا تنس أن عليًا بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وليست فيه خصلة تباعده عن الخلافة، وليس فى معاوية خصلة تقربه من الخلافة.

وكان معاوية قد وصى عمرًا، فقال: يا أبا عبد الله إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبى موسى، وإن أهل الشام راضون بك، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان، قصير الرأى، فأجد الحزّ، وطبق المفصل، ولا تلقه برأيك كله.

فلما اجتمعا قال عمرو لأبى موسى: تكلم، ولا تقل إلا خيرًا، فقال أبو موسى: بل تكلم أنت، فقال عمرو: ما كنت لأفعل، ولا أقدم نفسى عليك، ولك حقوق

(١) في المروج: عشرة.
(٢) ينظر مروج الذهب (٢/ ٤١٥-٤١٦)، وهناك زيادات وقد ذكرت هنا مختصرة، وبتصرف .

كلها واجبة لسنك[١] وصحبتك رسول الله ﷺ، وأنت حقيق، فتكلم أبو موسى فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر الحدث الذى حل بالإسلام، ثم قال: يا عمرو، هلم إلى أمر يجمع الله به الألفة، ويلم الشعث وذات البين، فجزاه عمرو خيرًا، ثم قال عمرو: إن للكلام أولاً وآخرًا، ومتى تنازعنا الكلام خطبًا لم يبلغ آخره حتى ينسى أوله، فاجعل ما كان من كلام يتصادق عليه فى كتاب يصير إليه أمرنا.

قال أبو موسى: فاكتب، فدعا عمرو بصحيفة وغلام له كاتب فتقدم إليه أن يبدأ به أولاً دون أبى موسى؛ لما أراد من المكر، ثم قال له بحضرة الجماعة: اكتب فإنك شاهد علينا، ولا تكتب شيئًا يأمرك به أحدنا حتى تستأمر فيه الآخر، فإذا أمرك فاكتب، وإذا نهاك عنه فانته حتى يجتمع رأينا.

اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان، فكتب، وبدأ بعمرو، فقال له عمرو: لا أم لك تقدمنى قبله كأنك جاهل حقه ؟ فبدأ باسم أبى موسى عبد الله بن قيس، وكتب: تقاضيَا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى... الآية، ثم قال عمرو: نشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله عمل بكتاب الله وسنة رسوله حتى قبضه الله إليه، وقد أدى الحق الذى عليه. قال أبو موسى: اكتب، ثم ذكر فى عمر ما ذكر فى أبى بكر، ثم قال: اكتب: وإن عثمان ولى هذا الأمر باجتماع المسلمين، وشورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضِيَ عنهم، وإنه كان مؤمنًا، فقال أبو موسى: ليس هذا مما قعدنا له، فقال عمرو: والله لا بد أن يكون مؤمنًا أو كافرًا، فقال أبو موسى: مؤمنًا، فقال عمرو فمره يكتب،فقال أبو موسى للكاتب: اكتب، فكتب، فقال عمرو: ظالمًا قتل أو مظلومًا ؟ فقال أبو موسى: بل قتل مظلومًا، قال عمرو: أو ليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطانًا يطلب بدمه ؟ قال أبو موسى: بلى، قال عمرو: فعلى ذلك قاتله يقتل أينما وجد، قال أبو موسى: نعم،قال عمرو: فهل تعلم لعثمان وليًا أقرب من معاوية ؟ قال: لا، قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيث وجد حتى يقتله أو يعجزه ؟ قال أبو موسى: بلى، قال عمرو: قل للكاتب اكتب، فأمره أبو موسى؛ فكتب، فقال عمرو فإنا نقيم الحجة البينة أن عليًا

(١) في ط: بنسبك. والمثبت من المروج.

قتل عثمان، قال أبو موسى: هذا أمر قد حدث فى الإسلام، وإنما اجتمعنا لغيره[١] فهلم إلى أمر يصلح الله به أمر أمة محمد ﷺ، فقال عمرو وما هو ؟ قال أبو موسى: قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية، وأهل الشام [لا يحبون][٢] عليًا، فهلم نخلَعْهما، ويستخلف عبد الله ابن عمر - وكان زوج بنته - فقال عمرو: ويفعل ذلك عبد الله، قال أبو موسى: نعم إذا حمله الناس عليه، فعزم عمرو إلى كل ما مال إليه أبو موسى، فصوبه، فقال عمرو: هل لك فى سعد، وعدد جماعة ؟ فأبى أبو موسى إلا عبد الله بن عمر، فجعل عمرو الصحيفة بعد أن ختماها تحت قدمه، وقال أرأيت إن رضى أهل العراق بعبد الله بن عمر، وأباه أهل الشام أنقاتلهم ؟ قال: لا ، فإن رضى أهل الشام به وأباه أهل العراق أنقاتل أهل العراق ؟ قال: لا، قال عمرو: وأما إذا رأيت الصلاح فى هذا الأمر، والخير للمسلمين،فقم واخطب [الناس]، واخلع صاحبينا جميعًا، وتكلم باسم هذا الرجل الذى يستخلف، فقال أبو موسى: بل أنت قم، فاخطب، فأنت أحق بذلك، فقال عمرو: ما أحب أن أتقدمك، وما قولى وقولك للناس إلا [قول] واحد، فقم راشدًا، فقام أبو موسى: فحمد الله، وأثنى عليه [وصلى على نبيه ﷺ][٣]، ثم قال: أيها الناس، إنا نظرنا فى أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا فى الأمن والصلاح ولم الشعث وحقن الدماء وجمع الألفة، خلعنا عليًا ومعاوية، وقد خلعت عليًا كما خلعت عمامتى هذه، ثم أهوى إلى عمامته، فحولها عن رأسه، واستخلفنا رجلاً صحب رسول الله ﷺ بنفسه، وصحب أبوه النبى فبرّز في سابقته[٤]، وهو عبد الله بن عمر، فأطراه فرغب الناس فيه، ثم نزل، فقام عمرو: فحمد الله، وأثنى عليه [وصلى على نبيه ﷺ][٥]، ثم قال: أيها الناس، إن أبا موسى قد خلع عليًا، وأخرجه من الأمر الذى يطلب، وهو أعلم به، ألا وإنى قد خلعت عليًا معه، وأثبت معاوية على وعليكم، وإن أبا موسى قد كتب فى الصحيفة: أن عثمان قتل مظلومًا شهيدًا، وأن لوليه سلطانًا يطلب بدمه، وله طاعتنا، وبيعتنا[٦]

(١) في ط: فيه. والمثبت من المروج.
(٢) المثبت من المروج .
(٣) المثبت من المروج.
(٤) في ط: فثور في ساقته. والمثبت من المروج.
(٥) المثبت من المروج.
(٦) في ط: ويبعثنا. والمثبت من المروج.

على الطلب بدم عثمان، فقال أبو موسى: كذب عمرو لم أستخلف معاوية، ولكنا خلعناه وعليًا، فقال عمرو: بل كذب أبو موسى قد خلع عليًا، ولم يخلع معاوية[١].

قلت: ورأيت وجهًا آخر فى كيفية ذلك ذكره المطرزى شارح المقامات فى شرحها، فقال إن عمرو بن العاص قال لأبى موسى بعد أن أظهر له عمرو الموافقة على تولية عبد الله بن عمر، وصوب رأيه فى ذلك: قم فاخلع عليًا، ثم انزل، فإذا نزلت، قمت أنا فخلعت صاحبى معاوية، وأقمت عبد الله بن عمر كما أشرت، فإن تك وثبة من الشيعة قوبلت بها دونك، فلما قام عمرو بعد أبى موسى فعل ما فعل، ثم نزل قائلا: إن الله - تعالى - يقول: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الاسراء: ٣٣].

ووجدت فى مروج الذهب وجها آخر فى ذلك هو: أنهما لما اتفقا على خلع على ومعاوية ، اتفقا على أن يجعلا الأمر شورى بعد ذلك، يختار الناس لهم رجلا صالحا يصلح، ففعل عمرو ما فعل.

وفى رواية أن أبا موسى قال له حينئذ: لعنك الله، غدَرْت، وفجرت، إنما مثلك كمثل الكلب، ثم ركله فألقاه لجنبه على الأرض، وارتحل أبو موسى، ولحق بمكة حياء، ولم يعد إلى الكوفة، وقد كان بها أهله وولده، وآلى ألا ينظر إلى وجه على أبدًا ما بقى، ومضى عمرو وسعد بن أبى وقاص إلى بيت المقدس.

قال المسعودى: قال ابن عباس يخاطب أبا موسى: [من الوافر]

أبا موسَى بُليتَ وكُنْت شيخًا ... قريبَ العفو[٢] مخزونَ اللسانِ
وما عَمْرو صفاتكَ يا بْنَ قيسٍ ... فيا لله مِنْ شيخٍ يماني
فأمسيت العشيةَ ذا اعتذارٍ ... ضعيفَ الرأيِ منكوبَ الجنان[٣]
فعضَّ الكفَّ من ندمٍ وماذا ... يَرُدُّ عليكَ عضُّكَ للبنانِ

وفى مثل هذا المعنى يقولُ خزيمة بن مالك الأسدى: [من البسيط]

لو كان للقومِ رأيٌ يُعْصَمُونَ بِهِ ... عِنْدَ الخطوبِ رمَوْكُمْ بابن عباسِ

---

(١) ينظر: مروج الذهب (٢/٤٠٦-٤٠٩).
(٢) في ط: العمر. والمثبت من المروج.
(٣) في ط: منكوت العنان . والمثبت من المروج.

لكنْ رموكمْ بِوَغدٍ مِنْ ذوى يَمَنٍ   لم يدر ما ضَرْبُ أَخْمَاسٍ بِأَسْدَاسِ(١)

ولما انصرف الفريقان من حيث كانا إلى حيث جاء دخل عمرو بن العاص سترا له، ولم يأت معاوية، فأرسل معاوية يدعوه، فقال عمرو: إنما كنت آتيك إذ كانت لى إليك حاجة، فأما إذا كانت الحاجة إلينا، فأنت أحق أن تأتينا، فعلم معاوية ما قد دفع إليه، فخمر الرأى، وأعمل الحيلة، فأمر بطعام كثير يصنع، ثم دعا الخاصة ومواليه، فقال لهم: إنى سأغدو إلى هذا، فإذا دعوت بالطعام قدموا مواليه، وأهله، فليجلسوا قبلكم، فإذا شبع الرجل منهم، فقام، فليجلس رجل منكم مكانه، فإذا خرجوا، ولم يبق فى البيت غيركم - فأغلقوا الباب، واحذروا أن يدخل منهم أحد إلا أن آمركم.

وغدَا عليه معاوية وعمرو جالس على فرشه، فلم يقم له عنه ولا دعاه إليه، فجاء معاوية، فجلس على الأرض، واتكأ على ناحية الفراش، وذلك أن عمرا كان عند نفسه أنه ملك الأمر وإليه التصريف حيث يشاء بندب الخلافة من يرى فخرج بينهما كلام كثير، فكان فيما قاله عمرو لمعاوية: هذا الكتاب - وأشار إلى صحيفة التحاكم بينه وبين أبى موسى السابق ذكرها - عليه خاتمى وخاتمه، قد أقر بأن عثمان قتل مظلومًا، وأخرج عليًا من هذا الأمر، وعرض على رجالا هم لهذا الأمر أهل، وبهذا، الأمر إليّ أستخلف عليه من شئت، فقد أعطانى أهل الشام عهدهم ومواثيقهم على الرضا بمن أختاره، فجاء معاوية، وضاحكه، وداعبه يحوله عما كان فيه، ثم قال: يا أبا عبد الله هل من غداء ؟ فقال عمرو: أما شيء يسع ما ترى فلا والله، فقال معاوية: هلم غدائى، فجئ بالطعام المعد فوضع، فقال معاوية: يا أبا عبد الله ادع مواليك وأهلك، فدعاهم، فقال عمرو: فادع أصحابك ومواليك، قال: نعم يأكل أصحابك أولا، ثم يجلس هؤلاء بعد، فجعلوا كلما قام رجل من أصحاب عمرو جلس موضعه رجل من أصحاب معاوية، حتى لم يبق من أصحاب عمرو واحد، فقام الذى وكله بالباب فأغلقه، فقال له عمرو: فعلتها ؟! فقال: نعم، والله بينى وبينك أمران أيهما شئت فعلت، قال: ما هما ؟ قال: البيعة، أو قتلك ليس والله غيرهما، قال عمرو: فأذن لغلامى وردان؛ أستشيره، وأنظر رأيه. قال معاوية:

---

(١) ينظر : مروج الذهب (٢/ ٤٠٩، ٤١٠) مع اختلاف في السياق.

لا تراه، والله ولا يراك إلا قتيلا أو على ما قلت لك. قال عمرو: فأوف إذن بطعمة مصر. قال: هى لك ما عشت.

فاستوثق كل منهما من صاحبه، وأحضر معاوية الخواص من أهل الشام، ومنع أن يدخل معهم من حاشية عمرو أحد، فقال لهم عمرو قد رأيت أن أبايع معاوية فلم أر أحدا أقوى على هذا الأمر منه، فبايعه أهل الشام، وانصرف [معاوية] إلى منزله خليفة(١).

قال العلامة البيهقى فى كتاب المحاسن: عن عمرو بن الأصم قال: حدثنا رجل من بنى هاشم، فقال أصلح الله الأمير، ألا أحدثك بفضائل أمير المؤمنين، على بن أبى طالب ؟ قال نعم. قال: حدثنى أبى، قال: حضرت مجلس محمد ابن عائشة بالبصرة إذ قام إليه رجل من وسط الحلقة، فقال: يا أبا عبد الرحمن، من أفضل أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فقال: أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير - وعد العشرة ما عدا عليًا - فقلت: فأين على ؟ فقال: ما هذا ؟ تسألنى عن أصحاب رسول الله ﷺ أو عن نفسه، قال: بل عن أصحابه، فقال إن الله تعالى يقول: ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ . . . ﴾ [آل عمران: ٦١]، فكيف يكون أصحابه مثل نفسه(٢).

وعن عطاء، كان لعلى - رضى الله تعالى عنه - موقف من رسول الله ﷺ يوم الجمعة، إذا خرج أخذ بيده، فلا يخطو خطوة إلا قال: اللهم هذا عليّ ابتغى مرضاتك؛ فارض عنه، حتى يصعد المنبر(٣). وروى أبو عثمان قاضى الرى عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، قال: كان عبد الله بن عباس يحدث على شفير زمزم ونحن عنده، فلما قضى حديثه قام إليه رجل فقال: يا بن عباس، إنى رجل من أهل الشام، رأيتهم يتبرءون من على ويلعنونه؛ فقال ابن عباس: لعنهم الله تعالى فى الدنيا والآخرة، وأعد لهم عذابًا مهينًا، ألبعد قرابته من رسول الله ﷺ ؟ أو أنه لم يكن أول ذكران العالمين إيمانًا بالله ورسوله، وأول من صلى وركع وعمل بأعمال البر ؟. قال الشامى: إنهم والله ما ينكرون من قرابته وسابقيته، غير أنهم يزعمون أنه قتل

---

(١) ينظر مروج الذهب (٢/ ٤١١، ٤١٢) .
(٢) ينظر المحاسن والمساوئ (ص٣٩) .
(٣) ينظر: المحاسن والمساوئ (ص٣٩) .

الناس. فقال ابن عباس: ثكلتهم أمهاتهم، إن عليًا أعرف بالله ورسوله وبحكمهما منهم، فلم يقتل إلا من استحق القتل. فقال: يا بن عباس، إن قومى جمعوا لى نفقة، وأنا رسولهم إليك وأمينهم، لا يسعك أن تردنى بغير حاجتى، فإن القوم هالكون فى حقه[١]؛ ففرج عنهم فرج الله عنك. فقال ابن عباس: يا أخا الشام، إن مثل على بن أبى طالب فى هذه الأمة فى عمله وفضله كمثل العبد الصالح، الذى لقيه موسى - عليه السلام - حين انتهى إلى ساحل البحر فقال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾، [الكهف: ٦٦]، قال العالم: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ ﴾ [الكهف: ٦٧، ٦٨]، الآية. فلما خرق السفينة لم يصبر موسى، وترك ما ضمن له من ترك السؤال فى خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وكان العالم أعلم بما يأتى من موسى، وكبر على موسى الحق وعظم؛ إذ لم يكن يعرفه وهو نبى مرسل، فكيف أنت يا أخا أهل الشام وأصحابك، إن عليًا لم يقتل إلا من كان يستحق القتل، وإنى أخبرك أن رسول الله ﷺ كان عند أم سلمة زوجته إذ أقبل علىٌّ يريد الدخول، فنقر نقرًا خفيفًا، فعرف النبى ﷺ نقره فقال: يا أم سلمة، قومى فافتحى الباب، فقالتْ: يا رسول الله، من ذا الذى يبلغ خطره أن أستقبله بمحاسنى، فقال: يا أم سلمة، إن طاعتى طاعة الله عز وجل، قومى فافتحى؛ فإن بالباب رجلاً ليس بالخرق ولا بالنزق[٢] ولا بالعجل فى أمره، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يا أم سلمة، إن تفتحى الباب له فلن يدخل حتى يخفى عليه الوطء. فلم يدخل حتى غابت عنه، وخفى عليه الوطء، فلما لم يحس لها حركة دفع الباب ودخل، فسلم على النبى ﷺ فرد عليه السلام، وقال: يا أم سلمة، هل تعرفين هذا ؟ قالت: نعم، هذا على بن أبى طالب، فقال رسول الله ﷺ: نعم، هذا على، سيط لحمه بلحمى، ودمه بدمى، وهو منى بمنزلة هارون من موسى؛ إلا أنه لا نبىّ بعدى، يا أم سلمة، هذا على سيد المؤمنين، وأمير المسلمين، وموضع سرى وعلمى، وبابى الذى الرأى[٣] إليه، وهو الوصى على [أهل] بيتى والأخيار من

(١) في المحاسن والمساوئ: أمره.
(٢) في ط: ليس بالحوف ولا النوف. والمثبت من المحاسن والمساوئ. والخرق: الجهل والحمق. والنزق: الخفة والطيش في الأمر. ينظر الوسيط (خرق)، (نزق).
(٣) في المروج: آوى.

أمتى، وهو أخى فى الدنيا والآخرة، وهو معى فى السناء[١] الأعلى، اشهدى يا أم سلمة أن عليًا يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، قال ابن عباس: وقتلهم لله رضا، وللأمة صلاح، ولأهل الضلالة سخط. فقال الشامى يا بن عباس، من الناكثون ؟ قال: الذين بايعوا عليًا بالمدينة ثم نكثوا؛ فقاتلهم بالبصرة، وهم أصحاب الجمل، وأما القاسطون معاوية وأصحابه، والمارقون أهل « النهروان » ومن معهم. فقال الشامى: يا بن عباس، ملأت صدرى نورًا وحكمة، وفرجت عنى فرج الله تعالى عنك، أشهد أن عليًا مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة[٢].

وكتب معاوية إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه: أما بعد، فلو علمنا أن الحرب تبلغ منا ومنك ما بلغت لم نحثها بعضًا على بعض، وإنا - وإن كنا قد غلبنا على عقولنا - بقى لنا منها ما نرم به ما مضى ونصلح ما بقى، وقد كنت سألتك الشام على أنه لا يلزمنى لك طاعة، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك [إليه] أمس، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو، ولا تخاف من القتل إلا ما أخاف، وقد - والله - بردت الأحقاد، وذهبت الأدغال، ونحن بنو عبد مناف، وليس لبعضها على بعض فضل يستذل به العبد، ويسترق به حر، والسلام.

فكتب إليه على بن أبى طالب: من على بن أبى طالب إلى معاوية بن أبى سفيان. أما بعد، فقد جاءنى كتابك؛ تذكر فيه أنك لو علمت أن الحرب تبلغ منا ومنك ما بلغت لم نحثها بعضًا على بعض، فإنا وإياك نلتمس منها غاية لم ندركها بعد. وأما طلبك منى الشام؛ فلم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس، وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء؛ فلست أمضى على الشك منى على اليقين، وليس أهل الشام على الدنيا بأحرص من أهل العراق على الآخرة. وأما قولك إنّا بنو عبد مناف؛ فليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبى طالب، ولا الطليق كالمهاجر، ولا المبطل كالمحق، وفى أبينا فضل النبوة التى قتلنا بها العزيز، وبعنا بها الحر[٣]، والسلام[٤].

---

(١) كان بياضا بالأصل والمثبت من المحاسن والمساوئ.
(٢) ينظر: المحاسن والمساوئ (ص٣٩-٤١) .
(٣) في ط: قبلناها العزيز، ويقبلها الحر. والمثبت من المروج، وهو الصواب إن شاء الله.
(٤) ينظر مروج الذهب (٣/ ٢٢-٢٣) وأشار إلى هذه الرسائل الطبري في تاريخه (٥/ ١٤٠) .

ثم كتب معاوية إلى قيس بن سعد بن عبادة عامل عليّ على مصر: أما بعد، فإنك يهودى ابن يهودى، وإن ظفر أحب الفريقين إليك عزلك واستبدل بك، وإن ظفر أبغضهما إليك نكل بك وقتلك، وكان أبوك أوتر قوسه ورمى غرضه، فأكثر الحزَّ وأخطأ المفصل.

قلت: هذا من معاوية يشير به إلى منع أبيه سعد بن عبادة عن بيعة أبى بكر، ثم عن بيعة عمر، وطمعه أن يكون هو الخليفة، وجمع قومه الخزرج فى ذلك حتى اجتمعوا إلى سقيفة بنى ساعدة كما تقدم ذكر ذلك عند ذكر خلافة أبى بكر الصديق، فخذله قومه، وأدركه يومه؛ فمات بـ« حوران » ضريرًا.

فكتب إليه قيس: أما أنت فوثنى ابن وثنى، دخلت فى الإسلام كرهًا وخرجت منه طوعًا، لم يتقدم إيمانك ولم يحدث نفاقك، وكان أبى أوتر قوسه ورمى غرضه، فشعب به[١] من لم يبلغ عقبه ولا نشق[٢] غباره، ونحن أنصار الدين الذى منه خرجت، وأعداء الدين[٣] الذى فيه دخلت[٤]. ولما صرف على - رضى الله عنه - قيس بن سعد عن مصر، وولى مكانه محمد بن أبى بكر كتب محمد إلى معاوية: من محمد بن أبى بكر، إلى الغاوى معاوية بن صخر، أما بعد، فإن الله بعظمته وسلطانه خلق خلقه بلا عبث منه، ولا ضعف فى قوة، ولا حاجة به إلى خلقهم، ولكنه خلقهم عبيدًا، وجعل منهم غويًا ورشيدًا، وشقيًا وسعيدًا. اختار على علم واصطفى وانتخب منهم محمدا ﷺ، فانتخبه بعلمه، واصطفاه لرسالته، وائتمنه على وحيه، وبعثه رسولاً ودليلاً؛ فكان أول من أجاب وأناب، وأذعن وصدق وأسلم - أخوه وابن عمه على بن أبى طالب، صدقه بالغيب المكتوم، وآثره على كل حميم، ووقاه بنفسه كل هول، وحارب حربه وسالم سلمه، فلم يبرح مبتذلاً لنفسه ساعات الليل بالخوف والخشوع والخضوع، حتى برز شارقًا[٥] لا نظير له ممن اتبعه، ولا مقارب له فِى فعله، وقد رأيتك تنال منه وأنت أنت، وهو هو؛ أصدق الناس نية، وأفضلهم

(١) شعب الشيء: فرقه أو جمعه، من الأضداد.
(٢) نشق: يشم. ينظر الوسيط (نشق).
(٣) في ط: الزي. والمثبت من المروج.
(٤) ينظر مروج الذهب (٣/ ٢٥-٢٦).
(٥) في المروج: سابقا.

ذرية، وخير الناس زوجة، وأفضل الناس ابن عم أخوه السارى بنفسه يوم مؤتة[(١)]- قلت: يريد به جعفرًا الطيار - رضى الله عنهما - وعمه سيد الشهداء يوم أحد، أبوه الذاب عن رسول الله ﷺ وعن حوزته، وأنت اللعين ابن اللعين، لم تزل أنت وأبوك تبغيان لرسول الله ﷺ الغوائل، وتجتهدان فى إطفاء نور الله، وتجمعان على ذلك الجموع، وتبذلان فيه الأموال، وتؤلبان عليه القبائل، على ذلك مات أبوك، وعليه خليفته والشهيد عليك من تدنى، ولجأ إليك من بقية الأحزاب ورؤساء النفاق، والشاهد لعلى أنصاره الذين ذكرهم بفضله، وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار، فهم معه كتائب وعصائب يرون الحق فى اتباعه، والشقاء فى خلافه، فكيف بك - لك الويل! - تعدل نفسك بعلى ؟ وهو وارث رسول الله ﷺ ووليه، وأبو ولده، وأولى الناس به اتباعًا، وأقربهم به عهدًا؛ يخبره[(٢)] بسره ويطلعه على أمره، وأنت عدوه؛ فتمتع فى دُنياك ما استطعت بباطلك، وليمددك ابن العاصى فى غوايتك، فإن أجلك قد انقضى، وكبرك قد دهى[(٣)]، ثم تبين لك لمن تكون العاقبة العليا، واعلم أنك إنما تكايد ربك الذى أمنت كيده، ويئست من روحه، فهو لك بالمرصاد، وأنت منه فى غرة[(٤)]، وَالسلام على من اتبع الهدى.

فكتب إليه معاوية: من معاوية بن أبى صخر، إلى الزارى على أبيه محمد بن أبى بكر، أما بعد، فقد أتانى كتابك، تذكر فيه ما الله أهله فى عظمته وقدرة سلطانه، وما اصطفى به رسول الله ﷺ، مع كلام كثير فيه لك تضعيف، ولأبيك فيه تعسيف، وذكرت فضل على بن أبى طالب، وقدم سوابقه، وقرابته من رسول الله ﷺ، ومواساته إياه فى كل هول وخوف، فكان احتجاجك عليّ وعيبك لى بفضل غيرك لا بفضلك، فأحمد ربًا صرف هذا الفضل عنك وجعله فى غيرك؛ فقد كنا وأبوك معًا نعرف فضل على وحقه لازم لنا مبرز علينا، فلما اختار الله لنبيه ما عنده، وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته، وأفلج حجته، وقبضه إليه - كان أبوك وفاروقه[(٥)] أول من

(١) في ط: بعد نور. والمثبت من المروج، وهو الصواب.
(٢) في ط: يخلوه. والمثبت من المروج.
(٣) في المروج: وكيدك قد وهى.
(٤) في المروج: في غرور.
(٥) فى ط: « كان أبوك وفاز وقد أول» . وهو تحريف .

انتزع حقه وخالفه عن أمره، على ذلك اتفقا واتسقا، ثم إنهما دعواه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما، وتلكأ عليهما؛ فهمّا به الهموم وأرادا [به] العظيم، ثم إنه بايع لهما وسلم إليهما، فأقاما لا يشركانه فى أمرهما، ولا يطلعانه على سرهما، حتى قبضهما الله تعالى، ثم قام ثالثهما عثمان فهدى هديهما وسار سيرتهما، فعبته أنت وصاحبك، حتى طمع فيه الأقاصى من أهل المعاصى، فطلبتما له الغوائل، وأظهرتما عداوتكما، حتى بلغتما فيه مناكما؛ فخذ حذرك يا بن أبى بكر، وقس شبرك بفترك؛ فإنك تقصر أن توازى أو تساوى من يزن حلمه الجبال، ولا تلين على قسر قناته، ولولا فعل أبيك من قبل ما خالفنا ابن أبى طالب ولسلمنا إليه، ولكنا رأينا أباك فعل به ذلك مِنْ قبلنا فأخذنا بمثله، فعب أباك بما بدا لك أَوْ دع، والسلام على من أناب. كذا ذكره المسعودى(١) وهو من كبار الجماعه؛ كذا أورد هذه المكاتبة ومد بها باعه. فقبح الله من كان اختراعه.

ثم وجه معاوية عمرو بن العاص إلى مصر فى أربعة آلاف، معه معاوية بن خديج، وأبو الأعور السلمى وفاء لعمرو بما وعده، وكان عليها محمد بن أبى بكر واليًا من جهة على فاقتتلا، فظفر عمرو بمحمد ووضع فى جيفة حمار، وأحرق فيها. قيل: وضع حيًا، وقيل: بعد قتله، فبلغ ذلك معاوية فسر، وبلغ عليًا فحزن أشد حزن على محمد رحمه الله تعالى. ثم ولى على الأشتر مالك بن الحارث النخعى، وبعثه إليها فى جيش مكان محمد بن أبى بكر، فمات بالطريق، ويقال: إن معاوية دس إلى دهقان أن يسمه فسمه فى شربة عسل؛ فما استقر فى جوفه حتى هلك؛ فأتى من كان معه على الدهقان ومن كان معه، وإنه لما بلغ معاوية الخبر قال: لله جنود منها العسل(٢).

ذكر وفاته: قال ابن خلكان: سببها أنه اجتمع من بقى من الخوارج، فتذكروا أصحاب النهروان وترحموا عليهم، وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم. وقال غيره: سببها أنه لما طال النزاع بين على ومعاوية تعاقدوا على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص، فانتدب لذلك ثلاثة نفر عبد الرحمن بن ملجم المرادى، والبرك بن عبد الله التميمى، وعمرو بن بكر التميمى - أيضًا - فقال عبد الرحمن بن ملجم: أنا لكم

(١) ينظر مروج الذهب (٣/ ٢٠-٢٢) وهناك زيادات لم ترد هنا.
(٢) ينظر: مروج الذهب (٢/ ٤٢٠، ٤٢١) .

بعلى، وقال البرك: أنا لكم بمعاوية، وقال عمرو: أنا لكم بعمرو بن العاص. واتعدوا أن يكون القتل ليلة السابع عشر من رمضان، وكان اجتماعهم لهذا التعاقد بمكة، فسار عبد الرحمن إلى على بالكوفة، وسار البرك بن عبد الله إلى معاوية بالشام، وسار عمرو بن بكر إلى عمرو بن العاص بمصر، فلما دخل ابن ملجم الكوفة عازمًا على ذلك، وكان قد اشترى سيفًا بألف دينار، وسقاه السم حتى نفضه، وكان فى خلال ذلك يأتى عليًا فيستحمله فيحمله، وينشد على - رضى الله تعالى عنه - إذا رآه: [من الوافر]

أُرِيدُ حَيَاتَهُ وِيُرِيدُ قَتْلِي عذَيرى من خَلِيلى من مُرَادِ

ثم يقول: هذا والله قاتلى، قيل: فما يمنعك منه ؟ قال: إنه لم يقتلنى بعد. وقيل له: إن ابن ملجم يسم سيفه، وقال: إنه سيقتلك قتلة تتحدث بها العرب؛ فبعث إليه وقال له: تسم سيفك ؟ قال: لعدوى وعدوك، فخلى عنه، وقال: ما قتلنى بعد(١).

وعن عبد الله بن مطيع، قال: خطبنا على بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه- قال: والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة، لتخضبن هذه من هذه(٢). فقال الناس: أعلمناه لَنَبِيرَنَّهُ ولَنَبِيرنَّ عشيرته، قال: أنشدكم بالله أن يقتل بى غير قاتلى. وقعت عين ابن ملجم على قطام امرأة رائعة جميلة كانت ترى رأى الخوارج، كان على قتل أباها وأخاها بالنهروان، فخطبها ابن ملجم، فقالت له: آليت ألا أتزوج إلا على مهر لا أريد سواه، ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على بن أبى طالب. فقال ابن ملجم: والله لقد قصدت قتل على بن أبى طالب، وما أقدمنى هذا المصير غيره، ولكن لما رأيتك آثرت تزويجك. قالت: ليس إلا بالذى قلت لك. قال لها: يغنينى أو يغنيك قتل على، وأنا أعلم أنى إذا قتلته لم أفلت. قالت: إن قتلته ونجوت فهو الذى أردت، ويهنيك العيش منى، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها. فقال لها: لك ما اشترطت. فقالت: سألتمس من يشد ظهرك؛ فبعثت إليه بابن عم لها يدعى: وردان بن مخالد؛ فأجابها، ولقى ابن ملجم شبيب بن بحر الأشجعى، فقال: يا شبيب هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ قال: وما هو ؟ قال: تساعدنى على

---

(١) ينظر: الاستيعاب (٣/ ٢٢٠) .

(٢) في الاستيعاب: والله ليخضبن هذا من دم هذا.

قتل على بن أبى طالب. قال: ثكلتك أمك، لقد جئت شيئًا إمرًا[١]، كيف تقدم[٢] على ذلك ؟ قال: إنه رجل لا حرس له، ويخرج إلى المسجد منفردًا دون من يحرسه، ننتظره حين يخرج إلى المسجد فنكمن له فى المسجد، فإذا خرج إلى الصلاة قتلناه، فإن نجونا نجونا، وإن قتلنا سعدنا بالذكر فى الدنيا والجنة فى الآخرة. فقال له: ويلك، إن عليًا ذو سابقة فى الإسلام مع النبى ﷺ، والله ما ينشرح قلبى لقتله. قال: ويلك!، إنه حكم الرجال فى دين الله، وقتل إخواننا الصالحين فنقتله ببعض من قتل، فلا تَشُكن فى دينك. فأجابه وأقبلا حتى دخلا على قطام، وهى معتكفة فى المسجد الأعظم فى قبة ضربتها لنفسها، فدعت لهم، وأخذوا أسيافهم، وجلسوا أمام السُّدة التى يخرج منها على، وكان - رضى الله تعالى عنه - فى شهر رمضان الذى قتل فيه يفطر ليلة عند الحسن، وليلة عند الحسين، وليلة عند عبد الله بن جعفر، ولا يزيد على ثلاث لقم، ويقول: أحبُّ أن ألقى الله وأنا خميص.

ولما كانت الليلة التى قتل فى صبيحتها أكثر الخروج والنظر إلى السماء، وجعل يقول: والله ما كذبت ولا كذبت، وإنها الليلة التى وعدت. فلما خرج إلى صحن الدار قاصدًا الخروج إلى المسجد، إذا أوز يَصِحن فى وجهه فطردوهن، فقال: دعوهن، فإنهن نوائح، فخرج إلى الصلاة من باب السُّدة، فبدره شبيب فضربه فأخطأه، وضربه ابن ملجم على موضع الصلع من رأسه، وقال: الحكم لله يا على لا لك ولا لأصحابك. فقال على: فزت ورب الكعبة، لا يفوتكم الكلب، فشد الناس عليه من كل جانب فحمل ابن ملجم عليهم بسيفه؛ فأفرجوا له وتلقاه المغيرة بن نوفل بقطيفة فرمى بها عليه، ثم احتمله فرمى به الأرض، وجلس على صدره، ثم أوثقوه. وأما شبيب فهرب خارجًا من باب كندة .

ولما أخذ عبد الرحمن قال على: احبسوه، فإن مت فاقتلوه ولا تمثلوا به، وإن لم أمت فالأمر إليّ فى العفو والقصاص. أخرجه أبو عمر[٣]، وكذا فى الرياض.

قال ابن الجوزى: بقى على يوم الجمعة ويوم السبت، وتوفى ليلة الأحد، وقيل:

(١) في الاستيعاب: بجرة.
(٢) في الاستيعاب: تقدر.
(٣) ينظر الاستيعاب (٣/ ٢١٨-٢١٩)، ومروج الذهب (٢/ ٤٢٣-٤٢٤) وتاريخ الطبري (٥/ ١٤٣-١٤٦) والبداية والنهاية (٧/ ٣٦١-٣٦٢) .

توفى من يوم الجمعة، وكان الفتك به ليلة سبع عشرة فى رمضان كوقعة بدر، وقيل: صبيح ليلة ثالث عشرة، وقيل: لإحدى عشرة ليلة خلت، وقيل: بقيت، وقيل: لثمان عشرة ليلة خلت منه، ذكر هذا كله ابن عبد البر فى « الاستيعاب »(١)، وفى ذلك يقول الفرزدق: [من الطويل]

فلم أر مَهْرًا سَاقه ذُو سماحةٍ كَمَهْرِ قطام بين عربٍ(٢) وأَعْجُمِ
ثـلاثـةُ آلافٍ وعَـبْـدٌ وقـيـنـةٌ وضرْبُ عليٍّ بالحسامِ المصمم
فلا مَهْرٌ اغلَى مِنْ عليٍّ وإن علا ولا فَتْكٌ الاَّ دونَ فتكِ ابنِ ملجمِ(٣)

وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، ومحمد ابن الحنفية يصب الماء.

وروى هارون بن سعد أنه كان عند على مسك أوصى أن يحنّط به، وقال: « إنه من حنوط رسول الله ﷺ » أخرجه البغوى. وصلى عليه الحسن وكبر عليه أربعًا، وقيل: سبعًا، وقيل: تسعًا.

وقيل: إن عليًا - رضى الله تعالى عنه - أوصى أن يخفى قبره؛ لعلمه أن الأمر يصير إلى بنى أمية، فلم يأمن أن يمثلوا بقبره(٤).

وقد اختلف فى قبره، فقيل: فى زاوية الجامع بالكوفة، وقيل: بالرحبة من الكوفة، وقيل: بقصر الإمارة منها، وقيل: بنجف الحيرة فى المشهد الذى يزار به اليوم، وأصح ما قيل: إنه مدفون بقصر الإمارة بالكوفة(٥).

قال العلامة السيوطى فى تاريخه: قال شريك: نقله ابنُهُ الحسن يريد به المدينة، فكان فى مسيرهم ما أخرج ابن عساكر عن ابن عبد العزيز قال: لما قتل على بن أبى طالب كرم الله وجهه حملوه ليدفنوه عند رسول الله ﷺ، فبينما هم فى مسيرهم ليلاً إذ ندَّ الجمل الذى هو عليه؛ فلم يدروا أين ذهب، ولم يقدروا عليه، فلذلك يقول أهل العراق: هو فى السحاب! وقيل: إن البعير الذى هو عليه وقع فى بلاد طيئ، فأخذوه ودفنوه. انتهى ما قاله السيوطى(٦).

---

(١) ينظر الاستيعاب (٣/ ٢١٧-٢١٨).
(٢) في الاستيعاب: من فصيح.
(٣) ينظر الاستيعاب (٣/ ٢٢٣) وتاريخ الطبري (٥/ ١٥٠) والبداية والنهاية (٧/ ٣٦٤).
(٤) ينظر البداية والنهاية (٧/ ٣٦٥).
(٥) ينظر الاستيعاب (٣/ ٢١٧).
(٦) ينظر تاريخ الخلفاء (ص١٣٩-١٤٠).

وقال العلامة الدميرى فى « حياة الحيوان الكبرى »: التحقيق أن عليًا - رضى الله تعالى عنه - لا يعرف قبره على الحقيقة. قلت: ذكر ابن خلكان أن الرشيد خرج يومًا إلى الصيد فانتهى به إلى موضع قبر على المشهور الآن بالمشهد، فأرسل فُهودًا على صيد، فتبعت الصيد إلى مكان القبر، ووقفت الفهود عنده ولم تتقدم إلى الصيد، فعجب هارون الرشيد من ذلك؛ فجاء رجل من أهل الحيرة فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن دللتك على قبر ابن عمك على بن أبى طالب، ألى عندك ملزمة ؟ قال: نعم. قال: هذا قبره. فقال له الرشيد: من أين علمته ؟ قال: كنت أجيء مع أبى فيزوره، وأخبرنى أبى أنه كان يجىء مع جعفر الصادق - رضى الله عنه - فيزوره، وأن جعفرًا كان يجىء مع أبيه محمد الباقر فيزورهُ، وكان الباقر يجيء مع أبيه زين العابدين على بن الحسين فيزوره، وكان الحسين أعلمهم بمكان القبر، فأمر الرشيد بأن يحجر على الموضع، وكان أول الناس وضع فيه، ثم تزايدت الأبنية فيه فى أيام ملوك السامانِيَّة وأيام بنى حمدان، وتفاقمت بزيادة فى أيام ملوك الديلم بنى بويه، قال: وعضد الدولة منهم هو الذى أظهره ظهورًا عظيمًا، وعمر المشهد عمارة حسنة، وأوصى أن يُدفن هناك فدفن.

قال الحافظ الذهبى: سئل على وهو على منبر الكوفة عن قوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فقال: اللهم اغفر، هذه الآية نزلت فيَّ وفى عمى حمزة، وفى ابن عمى عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، فأما عبيدة فقضى نحبه شهيدًا يوم بدر، وأما حمزة فقضى نحبه شهيدًا يوم أحد، وأما أنا فأنتظر أشقاها يخضب هذه من هذا - وأشار إلى لحيته ورأسه - عهدٌ عهده إليّ حبيبى أبو القاسم ﷺ .

ولما أصيب دعا الحسن والحسين فقال لهما: أوصيكم بتقوى الله، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء زوى منها عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأعينا الضعيف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالمين خصمًا وللمظلوم أنصارًا، وأعطوا لله، ولا تأخذكم فى الله لومة لائم. ثم نظر إلى ولده محمد ابن الحنفية فقال له: هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ قال: نعم. فقال له: أوصيك بمثله. ثم قال: أوصيك بتوقير أخويك؛ لعظم حقهما عليك، ولا تؤثر امرأً دونهما(١). ثم قال

(١) في المروج: ولا تقطعن أمرا دونهما.

[لهما: سيفكما وابن أبيكما][(١)] أوصيكما به؛ فإنه أخوكما، وقد علمتما أن أباكما يحبه. ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله إلى أن قبض كرم الله وجهه[(٢)].

وعن هشيم مولى الفضل: لما مات على قام الحسين ومحمد ابن الحنفية إلى ابن ملجم فقطعاه عضوًا عضوًا وسملا عينيه بمسمار حديد حمى ولم يتأوه، فلما جودل قطع لسانه فصاح، فقيل له: فقال: والله ما صياحى جزعًا من الموت، لكن خشيت أن تمر بى ساعة من الدنيا لا أذكر الله فيها ولما أرادوا فعل ذلك نهاهما الحسن؛ عملاً بوصية والده فلم يمتثلا لشدة حزنهما، ثم جعل فى قوصرة، وأوقد النار، وأحرقت جيفته أم الهيثم بنت الأسود النخعية، وقيل: بل أمر الحسن بضرب عنقه فضربت[(٣)].

ومن أغرب ما سمعته قول عمران بن حطان بن ظبيان السدوسى البصرى أحد رءوس الخوارج يمدح ابن ملجم قاتل الإمام على كرم الله وجهه وسود وجهيهما: [من البسيط]

يا ضَرْبَةً مِنْ تقيٍّ ما أرادَ بها … إلا لِيَبْلُغَ مِنْ ذى العرشِ رِضْوَانَا
إنِّى لأَذْكُرُهُ يومًا فأحسبُهُ … أوفى البريةِ عند الله ميزانَا
أكْرم بقومٍ بطونُ الطيرِ قبرهُمُ … لم يخلطُوا دينَهُمْ بغيًا وعدوانَا

قال الذهبى: لما بلغ شعره هذا عبد الملك بن مروان أدركته الحمية فنذر دمه فوضع عليه العيون فلم تحمله أرض[(٤)].

وكان سن على - رضى الله تعالى عنه - خمسًا وستين سنة، ذكر ذلك أبو بكر أحمد بن الدارع فى كتاب « مواليد أهل البيت »، ولم يذكره غيره، وقيل: سبع وخمسون، وقيل: ثمان وخمسون، وقيل: ثلاث وستون، وعليه الأكثرون[(٥)].

صحب النبى ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة، وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة، ثم هاجر فكان معه بالمدينة عشر سنين، ثم عاش من بعده ثلاثين سنة.

ومما رثى به على - رضى الله تعالى عنه - قول أبى الأسود الدؤلى: [من الوافر]

ألا يا عَيْنُ ويحَكِ أَسْعدينَا … ألا تَبْكِينَ امِيرَ المؤمنينا

---

(١) المثبت من المروج.
(٢) ينظر مروج الذهب (٢/ ٤٢٥-٤٢٦) .
(٣) ينظر مروج الذهب (٢/ ٤٢٦) .
(٤) ينظر مروج الذهب (٢/ ٤٢٦-٤٢٧) والاستيعاب (٣/ ٢٢١) وتاريخ الإسلام (٣/ ٦٥٤) .
(٥) ينظر الخلاف في سنة وفاته الاستيعاب (٣/ ٢١٧-٢١٨) .

تبـكّـى أمّ كـلـثـوم عَـلـيـهِ بعبرتـهـا وقَـدْ رأتِ الـيَـقـيـنَـا
ألا قُلْ للخوارجِ حيثُ كانوا فـلا قَـرَّتْ عـيـونُ الـحـاسـدينـا
أفى شَهْرِ الصيامِ فَجَعْتُمُونَا بـخـيـرِ الـنـاسِ طُرًّا أجـمـعـيـنَـا
قتلتُمْ خَيْرَ مَنْ ركبَ المطايا وذَلَّـلـهـا ومَـنْ رَكِـبَ الـسـفـيـنَـا
ومَنْ لَبِسَ النعالَ ومَنْ حذاها ومَـنْ قـرأ الـمـثـانِـى والـمـبـيـنَـا
وكُـلّ مـنـاقـبِ الـخـيـراتِ فـيـه وحـبّ رسـولِ رَبِّ الـعـالـمـيـنـا
لقد علمتْ قريشٌ حَيْثُ كانَتْ بـأنَّـكَ خـيـرُهُـمْ حـسـبًـا ودِيـنـا
إذا استقبلْتَ وجَهَ أبى حُسَيْنٍ رأيـتَ الـبـدْرَ فـوقَ الـنـاظِـريـنـا
وكـنَّـا قـبـل مـقـتـلِـهِ بـخَـيْـرٍ نـرى مَـوْلَـى رسـولِ الله فـيـنـا
يُـقـيـم الـحـقَّ لا يـرتَـابُ فـيـه ويـعـدلُ فـى الـعـدا والأقـربـيـنـا
ولـيـس بـكـاتِـم عـلـمًـا لـدَيْـهِ ولـم يـخـلَـقْ من الـمـتـسـخِّـرِيـنـا
كـأنَّ الـنـاسَ إذْ فـقـدوا عـلـيًّـا نـعـامٌ حـارَ فـى بَـلَـدٍ سـبـيـنـا
فلا تشمتْ معاوية بْنَ حربٍ فـإنَّ بـقـيـةَ الـخـلـفـاءِ فـيـنـا(١)

وقال بكر بن حماد يرثى عليًا كرم الله وجهه، ويرد على عدو الله عمران بن حطان قوله فى عدو الله ابن مُلْجم: [من البسيط]

قلْ لابنِ ملجمَ والأقدارُ غالبةٌ هدمْتَ وَيْلَكَ للإسلامِ أركانا
قتلْتَ أفضَلَ مَنْ يمشى على قَدَمٍ وأولَ الـنـاسِ إسلامًا وإيـمـانـا
وأعلَمَ الناسِ بالإسْلامِ ثُمَّ بما سَنَّ الرسولُ لنا شرعًا وتبيَانًا
صِهْرَ النبيِّ ومولاه وناصِرَهُ أضـحَـتْ مـنـاقـبه نـورًا وبـرهـانـا
وكان منه عَلَى رغْمِ الحسودِ له مكانَ هارونَ من مُوسى بن عِمْرَانا
وكَانَ فى الحربِ سيفًا ماضيًا(٢) ذَكَرًا لـيـثًـا إذَا لَـقِـيَ الأقـرانُ أقـرانـا
ذكَرْتُ قاتلَهُ والدمْعُ منحدرٌ فقلْتُ سبحانَ ربِّ الناسِ سبحانًا
إنِّى لأحسبُهُ ما كانَ من بَشَرٍ يخشى المعادَ ولكنْ كان شَيْطانا

---

(١) ينظر الاستيعاب (٣/ ٢٢٣-٢٢٤) وتاريخ الطبري (٥/ ١٥٠-١٥١) وسبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠٧-٣٠٨) مع اختلاف في بعض الألفاظ، وترتيب الأبيات.

(٢) في الاستيعاب: صارمًا.

أشقَى مراد إذا عدَّت قبائلها وأخْسَر الناسِ عِنْدَ الله ميزانا
كعاقِرِ الناقةِ الأُولى التِي جلَبَتْ على ثمودِ بأرضِ الحجرِ خُسْرَانا
قد كانَ يخبرُهُمْ أنْ سوفَ يخضبها قَبْلَ المنيةِ أزمانًا فأزمانا
فلا عفا اللهُ عنه ما تحملَهُ ولا سَقَى قَبْرَ عمرانَ بْنِ حِطَّانا
لقولِهِ فى شقي ظلَّ مجترمًا وقال ما قاله(١) ظُلْمًا وعُدْوانا:
« يا ضربةً من تَقِيٍّ ما أراد بها إلا ليبلُغَ مِنْ ذى العرشِ رِضْوانا »
بل ضربةٌ مِنْ غويٍّ أورثَتْهُ لظًى فسوْفَ يلقى بِها الرحمَنَ غَضْبَانا
كأنه لم يردْ قصدًا بضربتِهِ إلا لِيَصْلَى عذَابَ الخُلْدِ نيرانا(٢)

وقال الصفى الحلى يمدح على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه:
[من الخفيف]

جُمِعَتْ فى صفاتِكَ الأضدادُ فلهذا عَزَّتْ لكَ الأندادُ
زاهِدٌ حاكمٌ عليمٌ شجاعٌ ناسكٌ فاتكٌ فقيرٌ جَوَادُ
هِمَمٌ ما جُمِعْنَ فى بَشَرٍ قَطْ طُ ولا حَازَ مثلَهُنَّ العبادُ
خلقٌ يخجل النسيمَ مِن اللطْ فِ وبأسٌ يذوبُ منه الجمادُ
فلِهذا تعمَّقَتْ فيكَ أقوا مٌ بأقوالِهِمْ فزانُوا وزادُوا
وغلَتْ فى صفاتِ فضلِكَ «يَاسِي نٌ» و«حَاميمُ» «هل أتى» ثم «صَادُ»
ظهرَتْ منك للورَى مكرمَاتٌ فأقرَّتْ بفضلِكَ الحسادُ
إن يكذب بها عداكَ فَقَدْ كَذْ ذبَ مِنْ قبلُ قوْمُ لوطٍ وعادُ
أنتَ سِرُّ النبيِّ والصنو وابن الْ عَمِّ والطهْرُ والأخُ المستجادُ
لو رأى مثلَكَ النبيُّ لآخا هُ وإلاَّ لأخطَأَ الإنتقادُ
وبكُمْ بَاهَلَ النبيُّ ولم يُلْ فَ لكُمْ خامسٌ سواه يُرَادُ
كنتَ نفسًا له وعِرْسُكَ وابنا كَ لديْهِ النساءُ والأولادُ
جَلَّ معناك أن يحيطَ به الشِّعْ رُ ويُحْصِى صفاتِكَ التَّعْدَادُ
إنما اللهُ عنكُمُ أذهَبَ الرجْ سَ فردَّتْ بغيظها الحسادُ

(١) في الاستيعاب: ونال ما ناله.
(٢) ينظر: الاستيعاب (٣/ ٢٢١، ٢٢٢).

ذاكَ مَدْحُ الإلهِ فيكُمْ فإنْ قُهْـ ـتُ بَمْدحٍ فذاكَ قولٌ معادُ

وقال خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين من قصيدة فيه: [من الطويل]

رأَوْا نعمةً للهِ ليسَتْ عليهِمُ عليكَ وفضلاً بارعًا لا تنازعُهْ
فعَضُّوا من الغيظِ الطويلِ أكفَّهُمْ عليكَ ومَنْ لم يرْضَ فاللهُ خادعُهْ
مِن الدينِ والدنيا جميعًا لَكَ المنَى وفَوْقَ المنَى أخلاقُهُ وطبائعُهْ[١]

الآيات فى شأن على كرم الله وجهه

منها عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، قال: « نزلت فى على بن أبى طالب؛ كانت معه أربعة دراهم فأنفق بالليل درهمًا وفى النهار درهمًا، ودرهما فى السر ودرهما فى العلانية، فقال له - عليه الصلاة والسلام -: ما حملك على هذا ؟ قال: أستوجب على الله ما وعدنى، فقال - عليه الصلاة والسلام -: إن لك ذلك »[٢] وتابع ابن عباس مجاهد وابن المسيب ومقاتل.

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة: ١٨]، نزلت فى على بن أبى طالب والوليد بن عتبة »[٣]، أخرجه الحافظ السلفى. وعن ابن عباس أن الوليد بن عتبة قال لعلى: أنا أحدّ منك سنانًا وأبسط منك لسانًا وأملأ كتيبة، فقال له على: اسكت، إنما أنت فاسق تقول الكذب، فأنزل الله الآية تصديقًا لعلى[٤]. قال قتادة: لا والله ما استويا عند الله لا فى الدنيا ولا فى الآخرة. ثم أخبر عن الفريقين فقال: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟... ﴾ [السجدة: ١٩]، أخرجه الواقدى.

---

(١) ينظر الاستيعاب (٣/ ٢٢٤).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١١٦٤) والواحدي في أسباب النزول (١٨٠) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٢٤) وقال: فيه عبد الوهاب بن مجاهد وهو ضعيف ا.هـ وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٤٢) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر.

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (٦٨٧) من حديث ابن عباس وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٤١) وزاد نسبته إلى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني وابن عدى وابن مردويه والخطيب وابن عساكر".

(٤) انظر السابق.

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ ﴾ [القصص: ٦١]، الآية قال مجاهد: نزلت فى على وحمزة وأبى جهل(١).

ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦]، قال ابن الحنفية: لا يبقى مؤمن إلا وفى قلبه ودّ لعلى وأهل بيته(٢). أخرجه الحافظ السلفى.

ومنها قوله تعالى: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩]، إلى قوله: ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [الحج: ٢٤]، وعن أبى ذر، كان يقسم: لنزلت هذه الآية فى على وحمزة وعبيدة بن الحارث بن المطلب حين بارزوا عتبة بن ربيعة وأخاه شيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر(٣). أخرجه مسلم.

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الزمر: ٢٢]، الآية، نزلت فى على وحمزة وأبى لهب وأولاده، فعلى وحمزة شرح الله صدرهما للإسلام، وأبو لهب وأولاده قست قلوبهم، ذكره أبو الفرج.

وعن على - رضى الله عنه - قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ [المجادلة: ١٢]، قال لى رسول الله ﷺ: ما ترى، أدينار؟ قلت: لا يطيقونه. قال: فكم؟ قلت: شعيرة، قال: إنك لزهيد. فنزلت ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ ﴾ [المجادلة: ١٣]، فبى خفف الله عن هذه الأمة(٤). أخرجه أبو حاتم.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨]،

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري (١٠/ ٩٢)، رقم (٢٧٥٤٧) والواحدي في أسباب النزول (٦٦٤).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٢٢) (١٢٦٥٥) من حديث ابن عباس في قوله ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦] وقال المحبة في صدور المؤمنين نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥١٢) وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(٣) حديث أبي ذر أخرجه البخاري (٣٩٦٦، ٣٩٦٨، ٣٩٦٩، ٤٧٤٣) ومسلم (٣٠٣٣) والنسائي في التفسير (٣٦١) وابن ماجة (٢٨٣٥) وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور (٤/ ٦٢٧) إلى سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (٣٣٠٠) وقال: حسن غريب وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٧٢) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والنحاس.

قال ابن عباس: آجر على نفسه فسقى نجيلاً بشيء من شعير ليلة حتى أصبح، فلما أصبح قبض الشعير فطحن منه فجعل منه شيئًا ليأكلوه، يقال له: الحريرة؛ دقيق بلادهن، فلما تم نضاجه أتى مسكين يسأل، فقال: أطعموه إياه، ثم صنعوا الثلث الثانى، فلما تم نضاجه أتى يتيم فسأل، فقال: أطعموه إياه، ثم صنعوا الثلث الباقى [فلما تم نضاجه] أتى أسير من المشركين فسأل، فقال: أطعموه إياه، فأطعموه إياه؛ وطووا يومهم، فنزلت(١). وهذا قول الحسن وقتادة، أن الأسير كان من المشركين(٢)، قال أهل العلم: وهذا يدل على أن الثواب مرجو فيهم، وإن كانوا من غير أهل الملة، وهذا إذا كان ما أعطوه من غير الزكاة والكفارة كما هنا.

قلت: يحتمل أن يكون الجار والمجرور مطلقا بالفعل على فعل مضاف، ليكون المعنى: أتى من ديار المشركين أسير الصادق بكونه مؤمنًا. بل هذا الاحتمال أولى من اعتباره صفة للأسير المؤدى إلى تعيين كونه من المشركين، المحوج إلى التوجيه بقوله. قال أهل العلم: وهذا يدل. . . . إلى آخره.

وعن ابن عباس أنه قال: ليس فى كتاب الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة: ١٠٤] إلا وعلىّ أولها وآخرها، ولقد عاتب الله أصحاب محمد ﷺ فى القرآن، وما ذكر عليًا إلا بخير. أخرجه أحمد فى « المناقب ».

الأحاديث فى شأن أبى الحسنين كرم الله تعالى وجهه

الحديث الأول: عن أبى ليلى، عن النبى ﷺ أنه قال: « الصديقون ثلاثة: حبيب النجار، مؤمن آل يس، الذى قال: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٣٨]. وحرمل، مؤمن آل فرعون، الذى قال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ [غافر: ٢٨]. وعلى بن أبى طالب، وهو أفضلهم » أخرجه أحمد فى

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (٨٤٤) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٤٨٥) مختصراً وعزاه لابن مردويه ولم يذكر فيه القصة .

(٢) أثر الحسن ذكره السيوطي في الدر (٦/ ٤٨٤) وعزاه إلى سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه عن الحسن بلفظ: كان الأساري مشركين يوم نزلت هذه الآية ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨] وأما أثر قتادة فذكره السيوطي أيضاً عن قتادة في الآية قال: لقد أمر الله بالأسارى أن يحسن إليهم وأنهم يومئذ لمشركون فوالله لأخوك المسلم أعظم عليك حرمة وحقاً. وعزاه إلى عبد بن حميد.

« المناقب ».

الحديث الثانى: عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله - ﷺ - لعلى بن أبى طالب: « سلام عليك أبا الريحانتين؛ فعن قليل يذهب ركناك، والله خليفتى عليك »، فلما قبض عليه الصلاة والسلام قال: هذا أحد الركنين الذى قال - ﷺ -، فلما ماتت فاطمة قال: هذا الركن الآخر. أخرجه أحمد فى المناقب أيضًا.

الحديث الثالث: عن سهل بن سعد، أن رجلاً جاءه فقال: هذا فلان - لأمير من أمراء المدينة - يدعوك تسُبّ عليًا على المنبر، قال: أقول ماذا ؟ قال: تقول له أبا تراب. قال: فضحك سهل وقال: والله ما سماه أبا تراب إلا رسول الله ﷺ ما كان اسم أحب إليه منه؛ دخل عليّ على فاطمة ثم خرج، فجاء - عليه الصلاة والسلام -، فقال: أين ابن عمك ؟ فقالت: كان بينى وبينه شيء، فغاضبنى وخرج، ولم يَقِلْ عندى، وها هو مضطجع فى المسجد. فخرج - عليه الصلاة والسلام - فوجد رداءه قد سقط عن ظهره، فجعل رسول الله ﷺ يمسح التراب عن ظهره ويقول: « اجلس أبا تراب »[(١)]. أخرجه البخارى ومسلم وأبو حاتم.

الحديث الرابع: عن معاذة العدوية، سمعت عليًا على منبر البصرة يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر[(٢)].

الحديث الخامس: عن أبى ذر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلى: أنت الصديق الأكبر، وأنت الفاروق الذى يفرق بين الحق والباطل، يعسوب المؤمنين. وفى رواية: الدين خرجهما الحاكمى[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٤١، ٣٧٠٣، ٦٢٠٤، ٦٢٨٠) ومسلم (٢٤٠٩) والبخاري في الأدب المفرد (٨٥٢) وابن حبان في صحيحه (٦٩٢٥) والطبراني في الكبير (٥٨٠٨، ٥٨٧٠، ٥٨٧٩، ٦٠١٠).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ١٢٦) رقم (٨٤٥٢) ذكره الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص٣٤٣-٣٤٤) وقال: في إسناده عباد بن عبد الله الأسدي وهو المتهم بوضعه وقال ابن المديني: ضعيف الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال في الميزان: هذا الحديث كذب على علي. وقد أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين وتعقبه الذهبي بأن عبادا ضعيف، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف بدون قوله « أنا الصديق الأكبر" من طريق زيد بن وهب الجهني مكان عباد» ا.هـ قال المعلمي اليماني تعليقاً على كلام الشوكاني: لا يفيده ذلك شيئاً مع كلام كبار الأئمة فيه وظهور سقوطه»ا.هـ.

(٣) أخرجه البزار (٢٥٢٢-كشف)، وذكره الشوكاني في الفوائد (ص٣٤٤-٣٤٥) وقال: رواه =

الحديث السادس: عن عمر بن الخطاب، قال: كنت أنا وأبو عبيدة وأبو بكر وجماعة من الصحابة، إذ ضرب رسول الله ﷺ منكب على فقال: عليّ، أنت أول المؤمنين إيمانا، وأول المسلمين إسلامًا، وأنت منى بمنزلة هارون من موسى »[١]. خرجه ابن السمان.

الحديث السابع: عن زيد بن أرقم، قال: « كان أول من أسلم على بن أبى طالب ». خرجه أحمد والترمذى وصححه[٢]. وفى رواية: « بعث رسول الله ﷺ يوم الإثنين، وصلى معه عليٌّ يوم الثلاثاء »[٣]. وفى رواية عن ابن عباس: « على أول من أسلم بعد خديجة »[٤]. قال أبو عمرو: وهذا حديث صحيح الإسناد، ولا مطعن لأحد فى رواته. قلت: هو يعارض ما تقدم عن ابن عباس فى أبى بكر، والصحيح: أن أبا بكر أول من أظهر إسلامه؛ فلا تعارض.

الحديث الثامن: عن معاذة العدوية، قالت: سمعت عليًا على منبر البصرة يقول: « أنا الصديق الأكبر؛ آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم أبو بكر »[٥]. أخرجه ابن قتيبة فى « المعارف ».

الحديث التاسع: عن سلمان، أنه قال: أول هذه الأمة ورودًا على نبيها أولها إسلامًا على بن أبى طالب[٦]. وقد روى مرفوعًا إلى النبى ﷺ، ولفظه: « أول هذه الأمة ورودا على الحوض . . . » الحديث. وفى رواية: « أولكم ورودًا على

= البزار عن أبي ذر مرفوعاً وفي إسناده محمد بن عبيد الله بن أبي رافع متهم وعباد: ضعيف رافضي ا.هـ

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٣/ ١٢٤) رقم (٣٦٣٩٥) وعزاه لابن النجار.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧١) والترمذي (٣٧٣٥) والنسائي في فضائل الصحابة (٣٤) من حديث أبي حمزة رجل من الأنصار قال سمعت زيد بن أرقم، به.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٢٨) من حديث أنس بن مالك .

(٤) رواه أحمد (١/ ٣٧٣) من طريق أبي عوانة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس قال: أول من صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد خديجة علي. ورواه الترمذي (٣٧٣٤) من طريق شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس بلفظ أول من صلى علي .

(٥) أخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير (٢/ ١٣٠-١٣١) في ترجمة سليمان بن عبد الله ونقل عن البخاري قال: «لا يتابع عليه ولا يعرف سماع سليمان من معاذة» ا.هـ وذكره المتقي الهندي في الكنز (١٣/ ١٦٤) رقم (٣٦٤٩٧) وعزاه إلى محمد بن أيوب الرازي في جزئه أيضاً.

(٦) رواه الخطيب في تاريخه كما نقله السيوطي (١/ ٣٢٦) .

الحوض أولكم إسلامًا، على بن أبى طالب »[١]. خرجه ابن القلعى. وعن عفيف ابن الأشعث، عن قيس الكندى، قال: كنت امرءًا تاجرًا، قدمت للحج فأتيت العباس بن عبد المطلب أبتاع منه بعض تجارتى، قال: فوالله إنى عنده بمنى، إذ خرج علينا رجل من خباء قريب منه، فنظر إلى السماء، فلما رآها قام يصلى، ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء فقامت خلفه، ثم خرج غلام حين راهق الحلم، فقام معه يصلى، قال عفيف: فقلت للعباس: من هذا ؟ قال: هذا محمد ابن أخى، فقلت: من هذه المرأة ؟ قال: هذه امرأته خديجة بنت خويلد، قلت: فمن هذا الغلام ؟ قال: هذا ابن عمه على بن أبى طالب. قلت: فما الذى يصنع ؟ قال: يصلى، وهو يزعم أنه نبى، ولم يتبعه أحد على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الفتى، وهو يزعم أنه سيفتح كنوز كسرى وقيصر، قال: فكان عفيف يقول: لو كان الله رزقنى الإسلام يومئذ فأكون ثانيا مع على بن أبى طالب. وقد أسلم فيما بعد وحسن إسلامه[٢].

وعن على نفسه قال: « صليت قبل أن يصلى الناس بسبع سنين ». وفى رواية عنه أيضًا: « عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة خمس سنين »[٣]. خرجه أبو عمر. وقال على – رضى الله عنه –: « أنا أول من يجثو للخصومة بين يدى الرحمن يوم القيامة، وفينا نزلت ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩]، فى مبارزتنا يوم بدر، أنا وحمزة وعبيدة مع شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة »[٤]. خرجه البخارى عنه.

الحديث العاشر: عن على، قال: قال رسول الله ﷺ: « يا على، إنك أول من يقرع باب الجنة فيدخلها بغير حساب بعدى »[٥]. خرجه الإمام على بن موسى

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ١٣٦) والخطيب (٢/ ٨١) وابن الجوزي في العلل (١/ ٢١١) وانظر الكلام على هذا الحديث في اللآلئ (١/ ٣٢٧) والفوائد المجموعة للشوكاني (ص٣٤٧) وانظر – لزاماً – كلام المعلمي اليماني في تعليقه على الفوائد.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٩). وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٠٦): رواه أحمد، وأبو يعلى بنحوه، والطبراني بأسانيد، ورجال أحمد ثقات ا. هـ وينظر الرياض النضرة (٣/ ١١١–١١٢)

(٣) أخرجه أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ٢٠٠– بتحقيقنا).

(٤) أخرجه البخاري (٣٩٦٥، ٣٩٦٧، ٤٧٤٤) من حديث قيس بن عباد عن علي وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦٢٧) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة والنسائي وابن جرير والبيهقي.

(٥) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١١٤).

الرضى فى مسنده.

الحديث الحادى عشر: عن أنس - رضى الله عنه -، قال: كان عنده ﷺ طير أهدى إليه، وكان مما يعجبه أكله فقال: « اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك يأكل معى هذا الطير، فجاء على فأكل معه »(١). خرجه الترمذى والبغوى فى « المصابيح »، وخرجه الجزري، وزاد بعد قوله: « فجاء على فقال استأذن على رسول الله ﷺ، فقلت: ما عليه إذن، ثم جاء فرددته ثم دخل الثالثة أو الرابعة، فقال - عليه الصلاة والسلام - لعلى: ما حبسك عنى - أو ما أبطأك عنى - يا على ؟ قال: جئت فردنى أنس، وكان أنس خادم رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: يا أنس، ما حملك على ما صنعت ؟ قلت: رجوت أن يكون رجلاً من الأنصار، فقال ﷺ: يا أنس، أو فى الأنصار خير من على أو أفضل من على ؟ » خرجه البخارى(٢).

الحديث الثانى عشر: عن معاذة الغفارية، قالت: كان لى أنس بالنبى ﷺ، أخرجُ معه فى الأسفار، وأقوم على المرضى وأداوى الجرحى، فدخلت على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة وعلى خارج من عنده، فسمعته يقول: يا عائشة إن هذا أحب الرجال إليّ وأكرمهم علىّ؛ فاعرفى له حقه وأكرمى مثواه »(٣). خرجه الخجندى.

الحديث الثالث عشر: عن البراء، قال: قال رسول الله ﷺ: « على منى بمنزلة رأسي من جسدى »(٤). خرجه الملا.

الحديث الرابع عشر: عن سعد بن أبى وقاص، أن النبى ﷺ قال لعلى: « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى »(٥). أخرجه البخارى ومسلم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٢١) والحاكم (٣/ ١٣٠) وقد ذكره البغوي في مصابيح السنة (٤٧٧٠) وقال: غريب وذكره المتقي الهندي في الكنز (١٣/ ١٦٧) الحديث (٣٦٥٠٧) وعزاه لابن عساكر، ولابن النجار.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ١٣٠) وليس هو عن البخاري فلعله تحريف من الناسخ وقد جمع ابن الجوزي طرق هذا الحديث في العلل المتناهية (١/ ٢٢٨-٢٣٧) ونقل قول ابن طاهر: حديث الطائر موضوع، إنما يجيء من سقاط أهل الكوفة عن المشاهير والمجاهيل عن أنس وغيره.

(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١١٦).

(٤) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١١٧).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧٠٦) ومسلم (٢٤٠٤) والترمذي (٣٧٢٤) وابن ماجة (١١٥)، (١٢١) والنسائي في الخصائص (١١، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٤) وابن حبان في صحيحه (٦٩٢٦).

وفى رواية عنه قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالجرف طعن ناس من المنافقين فى أمر على وقالوا: إنما استخلفه استثقالاً، فخرج على فحمل سلاحه حتى أتى النبى ﷺ بالجرف فقال: يا رسول الله، ما تخلفت عنك فى غزاة قط قبل هذه، وقد زعم المنافقون أنك خلفتنى استثقالاً. فقال: « كذبوا، ولكن خلفتك لما ورائى، فارجع فاخلفنى فى أهلى، أفلا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبى بعدى ».

الحديث الخامس عشر. عن أسماء بنت عُميس، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « اللهم إنى أقول كما قال أخى موسى: اجعل لى وزيرًا من أهلى، أخى عليًا ﴿ اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى. . . ﴾ إلى ﴿ بصيرًا ﴾[(1)] أخرجه الإمام أحمد.

الحديث السادس عشر. عن أنس - رضى الله عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ لعلى يوم غزوة تبوك: « أما ترضى أن يكون لك من الأجر مثل ما لى، ولك من المغنم مثل ما لى؟! »[(2)]. أخرجه الخلعى.

الحديث السابع عشر: عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، قال: قال رسول الله ﷺ لوفد ثقيف حين جاءوه: « لتسلمن أو لأبعثن عليكم رجلاً منى، أو قال مثل نفسى، فليضربن أعناقكم، وليسبين ذراريكم، وليأخذن أموالكم ». قال عمر: فوالله ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ، فجعلت أنصب صدرى رجاء أن يقول هو هذا. قال: فالتفت إلى على، وأخذ بيده وقال: « هو هذا، هو هذا ». أخرجه عبد الرزاق فى جامعه وأبو عمر[(3)].

الحديث الثامن عشر: عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله - ﷺ -: « ما من نبى إلا وله نظير من أمته، وعلى نظيرى »[(4)] أخرجه الخلعى.

الحديث التاسع عشر: أخرج ابن السمان فى « الموافقة » قال: جاء أبو بكر وعلى يزوران قبر النبى ﷺ بعد وفاته بسبعة أيام فقال على: تقدم يا خليفة رسول الله ﷺ. فقال أبو بكر: ما كنت لأتقدم رجلاً سمعت رسول الله ﷺ يقول فيه: « على

---

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١١٨).
(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١١٩).
(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٨٩)، وذكره ابن عبد البر (٣/ ٢١٠)، وينظر (٣/ ١١٩).
(٤) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١٢١).

منى بمنزلتى من ربى »(١).

الحديث العشرون: عن سلمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « كنت أنا وعلى نورًا بين يدى الله تعالى قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق الله آدم قسم ذلك النور جزءين فجزء أنا وجزء على »(٢). أخرجه أحمد فى « المناقب ».

الحديث الحادى والعشرون: عن حبشى بن جنادة قال: كنت جالسًا عند أبى بكر فقال: « من كانت له عدة عند رسول الله ﷺ ؟ فقام رجل فقال: يا خليفة رسول الله، وعدنى بثلاث حثيات من تمر، ثم قام فقال: أرسلوا إليَّ عليًّ، فأتى فقال: يا أبا الحسن، إن هذا يزعم أن رسول الله ﷺ وعده بثلاث حثيات من تمر فاحثها له، قال: فحثاها بمرة لا تزيد واحدة على الأخرى، فقال أبو بكر: صدق رسول الله ﷺ، قال لى ليلة الهجرة ونحن خارجون من الغار نريد المدينة: « يا أبا بكر كفى وكف على فى العدد سواء » أخرجه ابن السمان فى « الموافقة »(٣).

الحديث الثانى والعشرون: عن أبى أيوب، قال: قال رسول الله ﷺ: « لقد صلت الملائكة عليَّ وعلى عليّ؛ لأنا كنا نصلى ليس معنا مصل غيرنا » خرجه أبو الحسن الخلعى(٤).

الحديث الثالث والعشرون: عن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: « لما أسرى بى مررت على ملك جالس على سرير من نور، وإحدى رجليه فى المشرق والأخرى فى المغرب، وبين يديه لوح ينظر فيه، والدنيا كلها بين عينيه، والخلق بين يديه وركبتيه، ويده تبلغ المشرق والمغرب، فقلت: يا جبريل، من هذا ؟ قال: هذا عزرائيل، تقدم فسلم عليه، فتقدمت فسلمت عليه، فقال: وعليك السلام يا أحمد، ما فعل ابن عمك على ؟ فقلت: وهل تعرف ابن عمى عليًا ؟ فقال: وكيف لا أعرفه وقد وكلنى الله بقبض أرواح الخلائق ما خلا روحك وروح ابن عمك على بن أبى

---

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١١٨-١١٩) .
(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١٢٠) .
(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٢٠) وعزاه لابن السمان في الموافقة.
(٤) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٦٣٥) من حديث أبي أيوب وقال : لا يصح وينظر اللآلئ (١/ ٣٢٠) وتنزيه الشريعة (١/ ٣٧٦) .

طالب، فإن الله يتوفاه كما شئته » خرجه الملا فى سيرته[١].

الحديث الرابع والعشرون: عن عمرو بن شاس الأسلمى - وكان من أهل بيعة الرضوان - قال: خرجت مع على إلى اليمن فجفانى فى سفرى حتى وجدت فى نفسى عليه، فلما قدمت المدينة أظهرت شكايته فى المسجد حتى بلغ ذلك النبى ﷺ فى ناس من أصحابه، فلما رآنى حدد النظر إليَّ حتى إذا جلست قال: « والله يا عمرو، والله لقد آذيتنى. قلت: أعوذ بالله أن أؤذيك يا رسول الله. فقال: بلى، من آذى عليًّا فقد آذانى ». خرجه أحمد. وفى رواية « أى عمرو، من أحب عليًّا فقد أحبنى، ومن أبغض عليًّا فقد أبغضنى، ومن آذى عليًّا فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله »[٢].

الحديث الخامس والعشرون: عن أم سلمة، قالت: أشهد أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من أحب عليًّا فقد أحبنى، ومن أحبنى فقد أحب الله، ومن أبغض عليًّا فقد أبغضنى، ومن أبغضنى فقد أبغض الله » خرجه المخلص والحاكمى[٣].

الحديث السادس والعشرون: عن ابن عباس، قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى على بن أبى طالب، فقال له: « أنت سيد فى الدنيا، سيد فى الآخرة، من أحبك فقد أحبنى، وحبيبك حبيبى، وحبيبى حبيبك، وعدوك عدوى، وعدوى عدوك، والويل لمن أبغضك » أخرجه أحمد فى المناقب[٤].

الحديث السابع والعشرون: عن ابن عباس، أنه مرّ بعد ما كف بصره بمجلس من مجالس قريش وهم يسبون عليًّا؛ فقال لقائده: ما سمعت من هؤلاء يقولون ؟ قال: يسبون عليًّا. فقال لقائده: ردنى إليهم، فرده، فقال: أيكم السابُّ الله ؟ قالوا:

---

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٢/ ١٢١) وعزاه للملا في سيرته.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٧٥) وأحمد (٣/ ٤٨٣) وفي الفضائل (٩٨١) وابن حبان (٦٩٢٣) وابن عبد البر في الاستيعاب (٢/ ٥٢٣) والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٣٢٩-٣٣٠) والبزار (٢٥٦١) من حديث عمرو بن شاس وعلقه البخاري في تاريخه الكبير (٦/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٢٢) وعزاه للمخلص والحاكمي.

(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ١٢٨) والطبراني في الأوسط كما في المجمع (٩/ ١٣٦) والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٤١) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٤٨) وصححه الحاكم على شرط الشيخين وتعقبه الذهبي وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سبحان الله! من يسب الله فقد أشرك. فقال: أيكم السابُّ لرسول الله ﷺ قالوا: سبحان الله! من يسب رسول الله فقد كفر. فقال: أيكم السابُّ لعلى ؟ قالوا: أما هذا فقد كان. قال: فأنا أشهد بالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من سب عليًا فقد سبنى، ومن سبنى فقد سب الله، ومن سب الله عز وجل أكبه فى النار على منخره »، ثم ولَّى عنهم، فقال لقائده: ما سمعتهم يقولون ؟ قال: ما قالوا شيئًا. قال: فكيف رأيت وجوههم حين قلت ما قلت ؟ فقال: [من الكامل]

نظروا إليكَ بأعينٍ محمرَّةٍ نَظَرَ التيوسِ إلى شفارِ الجازرِ

قال ابن عباس: زدنى فداك أبى. فقال:

خزرُ الحَوَاجِبِ ناكسُو أذقانِهِمْ نَظَرَ الذليلِ إلى العزيزِ القَاهرِ

قال ابن عباس: زدنى فداك أبى. قال: ما عندى غيرهما. قال ابن عباس: لكن عندى. فقال:

أحياؤُهُمْ خزىٌ على أمواتِهِمْ والميتُونَ مسبَّةٌ للغابِرِ[(١)]

الحديث الثامن والعشرون: عن أبى ذر الغفارى، قال: قال رسول الله ﷺ لعلى: « من أطاعك فقد أطاع الله، من عصاك فقد عصانى » أخرجه الإسماعيلى فى معجمه. وفى رواية « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن أطاعك فقد أطاعنى، ومن عصانى فقد عصى الله ومن عصاك فقد عصانى » خرجه الخجندى[(٢)].

الحديث التاسع والعشرون: أخرج أحمد فى « المناقب » عن أبى ذر أيضًا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يا على من فارقنى فقد فارق الله، ومن فارقك فقد فارقنى »[(٣)].

الحديث الثلاثون: عن ابن عباس - رضى الله عنهما -: « آخى النبى ﷺ بين أصحابه، فجاء على تدمع عيناه، قال: يا رسول الله، آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بينى وبين أحد، فقال له رسول الله ﷺ: أنت أخى فى الدنيا والآخرة ». وفى رواية: « ألا ترضى أن أكون أخاك ؟ قال: بلى يا رسول الله، رضيت. قال: فأنت

---

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٢٢-١٢٣) وعزاه للملا في سيرته.
(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٢٣) وعزاه للإسماعيلي في معجمه والخجندي.
(٣) قال المحب في الرياض (٣/ ١٢٣): أخرجه أحمد في المناقب والنقاش.

أخى فى الدنيا والآخرة » أخرجه الخلعى(١).

الحديث الحادى والثلاثون: عن على - رضى الله عنه - أنه كان يقول: « أنا عبد الله وأخو رسول الله، لا يقولها غيرى إلا كذب ». خرجه أبو عمر(٢).

الحديث الثانى والثلاثون: عنه أيضًا، قال: « طلبنى رسول الله ﷺ فوجدنى فى حائط نائمًا، فضربنى برجله وقال: قم، فوالله لأرضينك، أنت أخى وأبو ولدى تقاتل على سنتى، من مات على عهدى فهو فى كنز الجنة، ومن مات على غير عهدى فقد قضى نحبه، ومن مات محبك بعد موتك ختم الله له بالأمن والأمان، ما طلعت الشمس أو غربت »(٣). خرجه أحمد فى المناقب.

الحديث الثالث والثلاثون: عن على - رضى الله عنه - « جمع رسول الله ﷺ بنى عبد المطلب منهم من يأكل الجذعة ويشرب الفرق، فصنع لهم مدًّا من طعام فأكلوا حتى شبعوا، وبقى الطعام كما هو كأنه لم يمس، ثم دعا بغمر فشربوا حتى رووا، وبقى الشراب كأنه لم يمس، فقال: يا بنى عبد المطلب، إنى بعثت إليكُم خاصة وإلى الناس عامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ؟ فلم يقم إليه أحد، قال على: فقمت وكنت أصغر القوم، فقال: اجلس، ثم قال ذلك مرات، كل ذلك أقوم إليه فيقول: اجلس، حتى كان فى الثالثة ضربت يده على يدى ». خرجه أحمد فى المناقب(٤). وفى رواية لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]، دعا رسول الله ﷺ رجالاً من أهله فأطعمهم حتى شبعوا فقال: « من يضمن عنى دينى ومواعيدى، ويكون معى فى الجنة ؟ » فقال علىٌّ: أنا. فقال ﷺ: « تقضى دينى ومواعيدى ».

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٢٠) والحاكم (٣/ ١٤) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وينظر الرياض النضرة (٣/ ١٢٤).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ٢٠٢) والحديث أخرجه النسائي في الخصائص (٧) وأحمد في الفضائل (٩٩٣) وابن ماجة (١/ ٤٤) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٩٨) والحاكم (٣/ ١١١) وابن الجوزي في الموضوعات (٦٣٧) من حديث علي وقال ابن الجوزي: هذا موضوع.

(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٢٤-١٢٥) وعزاه لأحمد في المناقب.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٥٩) حدثنا عفان ثنا أبو عوانة عن عثمان بن المغيرة عن أبي صادق عن ربيعة بن ناجذ عن علي، به.

أخرجه أحمد فى المناقب[1]. قلت: الفرق: مكيال يسع ثلاثة آصع.

الحديث الرابع والثلاثون: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « على باب الجنة مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله على أخو رسول الله »، وفى رواية: « مكتوب على باب الجنة محمد رسول الله، على أخو رسول الله، قبل أن تخلق السموات والأرض بألفى سنة » خرجهما أحمد فى المناقب[2].

الحديث الخامس والثلاثون: عن عبد الله بن عباس قال: كنت أنا والعباس جالسين عند نبى الله ﷺ، إذ دخل على بن أبى طالب، فسلم فرد عليه رسول الله ﷺ السلام، وقام إليه وعانقه، وقبل بين عينيه، وأجلسه عن يمينه، فقال العباس: يا رسول الله، أتحب هذا ؟ فقال: يا عم والله لله أشد حبًّا له منى، إن الله جعل ذرية كل نبى من صلبه، وجعل ذريتى من صلب هذا ». أخرجه أبو الخير الحاكمى[3].

الحديث السادس والثلاثون: عن البراء بن عازب، قال: كُنَّا عند النبى ﷺ فى سفر فنزلنا بغدير « خم »، فنودى فينا: « الصلاة جامعة، وكسح لرسول الله ﷺ تحت شجرة فصلى الظهر وأخذ بيد على، وقال: ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا: بلى. فقال: من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١١١) حدثنا أسود بن عامر ثنا شريك عن الأعمش عن المنهال عن عباد بن عبد الله الأسدي عن علي، به. وشريك صدوق سيء الحفظ وعباد بن عبد الله الأسدي ضعيف وينظر التقريب (٣١٥٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٤٩٨) والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢/ ٨٦) والخطيب في الموضح (١/ ٤٦٥) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٤٥) من طريق زكريا بن يحيى الكسائي ثنا يحيى بن سالم ثنا أشعث ابن عم الحسن بن صالح ثنا مسعر بن كدام عن عطية العوفي عن جابر به وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن مسعر إلا أشعث ابن عم الحسن ابن صالح ولا عن أشعث إلا يحيى بن سالم تفرد به زكريا بن يحيى الكسائي ا.هـ وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح والمتهم به زكريا بن يحيى، قال يحيى بن معين: كان رجل سوء، وقال ابن عدي: حدث بأحاديث في مثالب الصحابة، وقال الدارقطني: هو متروك، وقال يحيى بن سالم: ضعيف ا.هـ قلت: وفيه جهالة وعطية العوفي ضعيف.

(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٣١٧)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٣٣٨) من حديث ابن عباس. وفي إسناده محمد بن عمران المرزباني وهو كذاب قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، قال الأزهري: لم يكن المرزباني ثقة، وقال أبو عبد الله الكاتب: كان المرزباني كذابًا. وقال ابن الجوزي: ومن فوق المرزباني في الإسناد إلى المنصور ما بين مجهول وبين من لا يوثق به.

وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار » زاد أحمد فى المناقب: « وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه »[١] ورواه أكثر من ثمانية عشر صحابيًا[٢].

ولقى عمر بن الخطاب على بن أبى طالب بعد ذلك فقال له: « هنيئًا لك يا بن أبى طالب؛ أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة ». وعن سالم، قيل لعمر: إنك تصنع بعلى شيئًا ما نراك تصنعه بأحد من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: إنه مولاى.

وعن عمر وقد جاءه أعرابيان يختصمان فقال لعلى: « اقض بينهما يا أبا الحسن، فقضى على بينهما، فقال أحدهما: هذا يقضى بيننا ؟ فوثب إليه عمر وأخذ بتلبيبه وقال: ويحك! أتدرى من هذا ؟ هذا مولاى ومولى كل مؤمن، ومن لم يكن مولاه فليس بمؤمن ». وعنه وقد نازعه رجل فى مسألة فقال له: بينى وبينك هذا الجالس - وأشار إلى على بن أبى طالب - فقال الرجل: هذا الأبطن ؟ فنهض عمر عن مجلسه، وأخذ بتلبيبه ورفعه من الأرض، ثم ضرب به الأرض، فقال: أتدرى من صغرت ؟ مولاى ومولى كل مؤمن أو مسلم ». خرجهن ابن السمان. قلت: غدير « خم » موضع بين مكة والمدينة بالجحفة، أو هو قريب منها على يمين الذاهب إلى المدينة.

الحديث السابع والثلاثون: عن عمران بن حصين، قال: « بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليها عليًا. قال: فمضى على السرية فأصاب جارية، فأنكروا عليه، وتعاقد أربعة من أصحاب النبى ﷺ وقالوا: إذا لقينا رسول الله ﷺ أخبرناه بما صنع. قال عمران بن حصين: وكان المسلمون إذا قدموا من سفر بدءوا برسول الله

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٨١) وفي الفضائل (١٠٤٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١٣٦٣)، وابن ماجة (١١٦) من حديث البراء وفي إسناده على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٠)، والنسائي في الخصائص (١٥)، والحاكم (٣/ ١٠٩)، وابن حبان (٢٢٠٥) وابن أبي عاصم (١٣٦٥، ١٣٦٧)، والطبراني في الكبير (٤٩٦٩، ٤٩٧٠)، من حديث زيد بن أرقم وأخرجه ابن ماجة (١٢١)، والنسائي في الخصائص (١٦)، والحاكم (٣/ ١١٦) من حديث سعد بن أبي وقاص وينظر بقية شواهد هذا الحديث في السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني رقم (١٧٥٠). وينظر: أيضا مجمع الزوائد (٩/ ١٠٦-١١١).

ﷺ وسلموا عليه، ثم انصرفوا إلى رحالهم. فلما قدمت السرية سلموا على رسول الله ﷺ، فقام أحد الأربعة فقال: يا رسول الله، ألم تر أن عليًّا صنع كذا وكذا ! فأعرض عنه، ثم قام الثانى فقال مثل مقالته، فأعرض عنه، ثم قام الثالث فقال مثل مقالته، فأعرض عنه. ثم قام الرابع فقال مثل ما قالوا، فأقبل إليه رسول الله ﷺ والغضب يعرف فى وجهه فقال: ماذا تريدون من على ؟ ثلاث مِرَارٍ. إن عليًّا منى وأنا منه، وهو ولى كل مؤمن بعدى ». خرجه الترمذى وأبو حاتم وأحمد(١).

الحديث الثامن والثلاثون: عن بريدة بن الخصيب قال: بعث رسول الله ﷺ سرية وأمَّر عليها رجلاً وأنا فيها، فأصبنا سبيًا، فكتب الرجل إلى رسول الله ﷺ: ابعث لنا من يخمسه. فبعث عليًّا، وفى السبى وصيفة هى أفضل السبى، قال: فخمس وقسم، قال فخرج ورأسه يقطر، فقلنا يا أبا الحسن، ما هذا ؟ قال: ألم تروا إلى الوصيفة التى كانت فى السبى، فإنى قسمت وخمست فصارت فى الخمس، ثم صارت من آل بيت النبى ﷺ، ثم صارت من آل على ووقعت بها. فكتب الرجل إلى النبى ﷺ بذلك، فقلت للرجل: ابعثنى مصدقًا فبعثنى. قال بريدة: فجعلت أقرأ الكتاب وأقول: صدق، فأمسك النبى ﷺ يدى والكتاب، وقال لى: تبغض عليًّا ؟ قلت: نعم . قال: فلا تبغضه، وإن كنت تحبه فازدد له حبًّا، فوالذى نفسى بيده لنصيب آل على فى الخمس أفضل من وصيفة. قال بريدة: فما كان من الناس أحد بعد قول رسول الله ﷺ أحب إلى من على. وفى رواية: « لا تقع فى على؛ فإنه منى وأنا منه، وهو وليكم بعدى ». خرجهما الإمام أحمد بن حنبل(٢).

الحديث التاسع والثلاثون: عن بريدة أيضًا: « من كنت وليه فعلى وليه » أخرجه أبو حاتم(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٧- ٤٣٨)، وفي الفضائل (١٠٣٥)، والترمذي (٣٧١٢)، والنسائي في فضائل الصحابة (٤٣) وفي الخصائص (٨٩)، والطيالسي (٨٢٩)، وابن حبان (٦٩٢٩)، والحاكم (٣/ ١١٠- ١١١)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٥٦٨- ٥٦٩) من حديث عمران وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وصححه الحاكم على شرط مسلم وسكت عنه الذهبي.

(٢) أخرجه (٥/ ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥٨، ٣٦١) من حديث بريدة وينظر: الحديث الآتي.

(٣) أخرجه النسائي في الخصائص (٨٠)، وفي الفضائل (٤١) وابن أبي عاصم (١٣٥٤)، وابن حبان (٦٩٣٠)، والبزار (٢٥٣٥)، والحاكم (٢/ ١٢٩-١٣٠) عن بريدة.

الحديث الأربعون: عن بريدة أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ونصب الصراط على جسر جهنم ما جازها أحد حتى كانت معه براءة بولاية على بن أبى طالب ». خرجه الحاكمى[١].

الحديث الحادى والأربعون: عن ابن مسعود، قال: أنا رأيت رسول الله ﷺ أخذ بيد على وقال: « هذا وليى وأنا وليه، واليت من والاه وعاديت من عاداه » أخرجه الحاكمى[٢]. وعن أبى صالح قال: لما حضرت ابن عباس الوفاة قال: اللهم إنى أتقرب إليك بولاية على بن أبى طالب. خرجه أحمد فى المناقب.

الحديث الثانى والأربعون: عن عمار بن ياسر، وأبى أيوب الأنصارى، قالا: قال رسول الله ﷺ: « حق عَليٍّ على المسلمين حق الوالد على الولد » خرجه الحاكمى[٣].

الحديث الثالث والأربعون: عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ قال: « لما قتل على بن أبى طالب أصحاب اللواء يوم أحد، قال جبريل: يا رسول الله، إن هذه لهى المواساة، فقال له النبى ﷺ: إن هذا منى وأنا منه، فقال جبريل: وأنا منكما يا رسول الله ». خرجه أحمد فى المناقب[٤].

الحديث الرابع والأربعون: أخرج أحمد فى « المناقب » عن على - رضى الله عنه - قال لما كانت ليلة يوم بدر قال رسول الله ﷺ: من يسقى لنا من الماء ؟ فأحجم القوم، فقام على فاحتضن قربة ثم أتى بئرًا بعيدة القعر مظلمة فانحدر فيها،

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٧٤٣) من حديث علي وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع. وينظر اللآلئ المصنوعة (١/ ٣٨٠).

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١١١) وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه المعلى بن عرفان وهو متروك.

(٣) أخرجه ابن حبان في المجروحين (٢/ ١٢٢) من طريق عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر ابن على بن أبي طالب عن أبيه عن جده عن علي وعيسى قال ابن حبان: يروي عن أبيه عن آبائه أشياء موضوعة لا يحل الاحتجاج به كأنه كان يهم ويخطئ حتى كان يجئ بالأشياء الموضوعة عن أسلافه فبطل الاحتجاج بما يرويه لما وصفت. اهـ وينظر: موضوعات ابن القيسراني (٤١٤).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٤١)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١١٧) فيه حبان بن علىّ وهو ضعيف، ووثقه ابن معين في رواية، ومحمد بن عبيد الله بن أبي رافع ضعيف عند الجمهور، ووثقه ابن حبان.

فأوحى الله - عز وجل - إلى جبريل وميكائيل وإسرافيل تأهبوا لنصرة محمد وحزبه، فسقطوا من السماء لهم لغط يذعر من يسمعه، فلما صاروا بالبئر سلموا عليه من عند آخرهم[١].

الحديث الخامس والأربعون: عن أبى الحمراء[٢]، قال: قال رسول الله ﷺ: « ليلة أسرى بى إلى السماء نظرت إلى ساق العرش الأيمن، فرأيت كتابًا فهمته: محمد رسول الله ﷺ أيدته بعلى ونصرته به ». خرجه الملا فى سيرته[٣].

الحديث السادس والأربعون: عن ابن عباس، قال: كنا عند النبى ﷺ فإذا طائر فى فيه لوزة خضراء، فألقاها فى حجر النبى ﷺ، فأخذها النبى ﷺ فقبلها ثم كسرها، فإذا فى جوفها ورقة خضراء مكتوب فيها « لا إله إلا الله محمد رسول الله، نصرته بعلى » خرجه أبو الخير الحاكمى[٤].

الحديث السابع والأربعون: عن جابر: أنهم يوم رجعوا من « الجعرانة » إلى المدينة، بعث رسول الله ﷺ أبا بكر على الحج، فأقبلنا معه حتى إذا كان بالعرج ثوّب بالصبح، فلما كان استواء المنكبين سمع الرغوة خلف ظهره، فوقف عن التكبير، فقال: هذه رغوة ناقة رسول الله ﷺ، فلعل أن يكون رسول الله ﷺ نصلى معه، فإذا على عليها، فقال له أبو بكر: أمير أم رسول ؟ فقال: لا، بل رسول، أرسلنى ببراءة أقرؤها على الناس فى مواقف الحج، قال جابر: فقدمنا مكة فلما كان قبل التروية بيوم، قام أبو بكر فخطب الناس، فعلمهم مناسكهم، حتى إذا فرغ قام

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٠٠١١)، وعزاه لابن شاهين وفيه أبو الجارود قال أحمد: متروك وقال ابن حبان: رافضي يضع الفضائل والمثالب.

(٢) في ط: الجهراء. والتصحيح من الحلية والعلل المتناهية ومجمع الزوائد.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٧)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (٩/ ١٢٤)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٧٨) من حديث أبي الحمراء وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح، قال ابن حبان: أحمد بن الحسن الكوفي يضع الحديث، وقال الدارقطني: متروك. اهـ وفي إسناد الطبراني عمرو بن ثابت وهو متروك وينظر: الكنز (٣٣٠٤٠، ٣٣٠٤١).

(٤) ذكره ابن حبان في المجروحين (٢/ ٢٨٩)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٨٠) من طريق محمد بن أبي الزعيزعة عن أبي المليح عن ميمون بن مهران عن ابن عباس به وقال ابن الجوزي: وهذا لا يصح، قال البخاري: ابن أبي الزعيزعة منكر الحديث جدًا لا يكتب حديثه، وقال ابن حبان: دجال من الدجالين يروي الموضوعات.

عليٌ، فقرأ على الناس براءة حتى ختمها. ثم لما كان يوم النحر خطب الناس أبو بكر، فحدثهم عن إفاضتهم، وعن نحرهم، وعن مناسكهم، فلما فرغ قام على فقرأ على الناس براءة حتى ختمها. فلما كان يوم النفر الأول قام أبو بكر يخطب الناس فحدثهم كيف يرمون وكيف ينفرون، فلما فرغ قام على فقرأ على الناس براءة حتى ختمها ». خرجها أبو حاتم.

وفى رواية عن على قال: لما نزلت عشر آيات من براءة دعا النبى ﷺ أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة، ثم دعانى فقال لى: أدرك أبا بكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه، فاذهب به إلى أهل مكة فاقرأه عليهم، فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه، فلما رجع أبو بَكْرٍ بعد الحج أتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله نزل فيّ شيءٌ ؟ قال: لا، ولكن جبريل جاءنى وقال: لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك[١].

الحديث الثامن والأربعون: عن السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، قالت: خرج علينا رسول الله ﷺ فى عشية عرفة فقال: « إن الله تعالى قد باهى بكم وغفر لكم عامة، وبعلى خاصة، وإنى رسول الله غير محاب بقرابتى » خرجه أحمد[٢].

الحديث التاسع والأربعون: عن الحسن بن على - رضى الله عنهما - قال: « قال رسول الله ﷺ: ادعوا لى سيد العرب - يعنى عليًا - قالت عائشة: ألست بسيد العرب ؟ فقال: أنا سيد ولد آدم، وعلى سيد العرب. فلما جاء أرسل إلى الأنصار، فأتوه فقال لهم: « يا معشر الأنصار، ألا [أدلكم][٣] على ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا؟! » قالوا: بلى يا رسول الله. قال: « هذا على فأحبوه بحبى، وأكرموه بكرامتى، إن جبريل أخبرنى بالذى قلت لكم عن الله عز وجل ». خرجه الفضائلى[٤].

---

(١) اللفظ الثاني أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١/ ١٥١) من طريق محمد بن جابر عن سماك عن حنش عن علي بن أبي طالب.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٨٢) وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله وعباد الكلبيي ليس بشيء، وقال النسائي وابن حبان: هو متروك.

(٣) بياض في ط.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٧٤٩) من حديث الحسن وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٣٥) وفيه إبراهيم بن إسحاق الصيني وهو متروك، وفي الكنز (٣٣٠٠٧) عن ابن كثير: هذا حديث منكر.

الحديث الخمسون: عن عبد الله بن أسعد بن زرارة، قال: قال رسول الله ﷺ: « ليلة أسرى بى انتهيت إلى ربى عز وجل، فأوحى إليّ، أو أمرنى - شك الراوى - فى على أنه سيد المسلمين وولى المتقين وقائد الغر المحجلين »[(١)].

الحديث الحادى والخمسون: عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب: « أنت سيد فى الدنيا سيد فى الآخرة » خرجه أبو عمر وأبو الخير الحاكمى[(٢)].

الحديث الثانى والخمسون: عن بريدة، قال: قال رسول الله ﷺ: « لكل نبى وصى ووارث، وإن عليًا وصيى ووارثى ». خرجه البغوى فى معجمه[(٣)].

الحديث الثالث والخمسون: عن أنس، قال: قلنا لسلمان: سل النبى ﷺ مَنْ وصيه ؟ فقال سلمان: يا رسول الله، من وصيك ؟ فقال: يا سلمان، من كان وصى موسى ؟ قال: يوشع. قال: فإن وصيى ووارثى وصهرى [يقضي ديني، ينجز موعدي][(٤)] على بن أبى طالب . خرجه أحمد فى المناقب. زاد غيره: أن عليًا قال له: يا رسول الله، وما أرث منك ؟ قال: ما ورّث الأنبياء من قبلى. قال: وما ورّث الأنبياء من قبلك ؟ قال: كتاب ربهم وسنة نبيهم[(٥)].

الحديث الرابع والخمسون: عن الحسين بن على، عن أبيه، عن جده، قال: أوصى النبى ﷺ عليًا أن يغسّله، فقال على: أخشى ألاَّ أطيق ذلك، قال: إنك

---

(١) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة رقم (٦٨)، والحاكم (٣/ ١٣٧-١٣٨) وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي وأخرجه أيضًا الباوردي وأبو نعيم كما في الكنز (٣٣٠١٠).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ١٢٨)، والطبراني في الأوسط كما في المجمع (٩/ ١٣٦)، والخطيب (٤/ ٤١)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٤٨) من حديث ابن عباس وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين وتعقبه الذهبي بأنه موضوع وتكلم فيه ابن الجوزي أيضًا وحكم ببطلانه.

(٣) أخرجه الجوزقاني في الأباطيل (٢/ ١٥٠) رقم (٥٤٤)، وابن الجوزي في الموضوعات (٧٠٦، ٧٠٧) وقال: هذا حديث لا يصح وأقره السيوطي في اللآلئ (١/ ٣٥٩)، وابن عراق في التنزيه (١/ ٣٥٧). وقال الجوزقاني: في إسناده ظلمات.

(٤) بدل ما بين المعكوفين في ط: « وعدي » والمثبت من الموضوعات.

(٥) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥)، وحكم ابن الجوزي على كل طرقه بالوضع وأقره السيوطي في اللآلئ (١/ ٣٥٨)، وابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٣٧٤-٣٧٥) وينظر المنار المنيف (٨٢) والفوائد المجموعة (٣٦٩)، والأسرار المرفوعة (١٠٢٣).

ستعان عليَّ، قال: فقال على: فوالله ما أردت أن أقلب عن رسول الله ﷺ عضوًا إلا قلب لى. خرجه ابن الحضرمى(١).

الحديث الخامس والخمسون: عن محمد ابن الحنفية، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: إنْ ولد لك غلام فسمه باسمى وكنه بكنيتى، وهذا رخصة لك دون الناس(٢).

الحديث السادس والخمسون: عن الحسن بن على، قال: كان رأس رسول الله ﷺ فى حجر على وهو يوحى إليه، فلما سرى عنه قال: يا على، صليت العصر؟ قال: لا. قال: اللهم أنت تعلم أنه كان فى حاجتك، وفى حاجة رسولك، فرد عليه الشمس. فردها عليه وصلى وغابت الشمس. خرجه الدولابى(٣). وفى رواية عن أسماء بنت عميس بلفظ: فأقبلت الشمس لها خوار حتى ارتفعت قدر ما كانت فى وقت العصر؛ فصلى، ثم رجعت فغربت. وفى رواية عنها أيضًا: فرجعت الشمس حتى بلغت نصف المسجد(٤). قال فى « الرياض »: قال علماء الحديث: هو حديث موضوع، ولم تردَّ الشمس لأحد، وإنما حبست ليوشع بن نون(٥).

الحديث السابع والخمسون: عن أنس بن مالك فى قصة زواج على بفاطمة، وقد تقدم ذلك دعاؤه لعلى وفاطمة حتى أتى بالماء فنضح عليهما وقال: اللهم إنى أعيذها بك وذُريتها من الشيطان الرجيم. أخرجه أبو حاتم(٦).

الحديث الثامن والخمسون: عن ابن عباس لما زوج رسول الله ﷺ فاطمة لعلى قالت: « يا رسول الله، زوجتنى برجل فقير لا شيء له، فقال ﷺ: أما ترضين يا فاطمة أن الله اختار من أهل الأرض رجلين فجعل أحدهما أباك والآخر بعلك ».

---

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٣٩) وعزاه لابن الحضرمي.

(٢) ذكره المحب الطبرى في الرياض النضرة (٣/ ١٤٠) وعزاه للمخلص الذهبي وأخرجه ابن الجوزي بنحوه في العلل المتناهية (٣٩٦)، وقال: هذا حديث لا يصح.

(٣) ذكره المحب الطبري (٣/ ١٤٠) وعزاه للدولابي.

(٤) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ٩) وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٥٦) وينظر اللآلئ المصنوعة (١/ ١٧٤) وتنزيه الشريعة (١/ ٣٧٩) والسلسلة الضعيفة (٩٧١).

(٥) ينظر: الرياض النضرة (٣/ ١٤١).

(٦) أخرجه ابن حبان (٦٩٤٤)، والطبراني في الكبير (٢٢/رقم ١٠٢١) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٠٨- ٢٠٩): رواه الطبراني وفيه يحيى بن يعلى الأسلمي وهو ضعيف.

أخرجه الملا فى سيرته[١].

الحديث التاسع والخمسون: عن ابن عباس أيضًا قال: كنت عند النبى ﷺ فغشيه الوحى، فلما أفاق قال: أتدرى ما جاء به جبريل ؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: أمرنى أن أزوج فاطمة من على،فانطلق فادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا وطلحة والزبير، وعدة من الأنصار، فقال: إن الله تعالى قد أمرنى أن أزوج فاطمة بنت خديجة من على بن أبى طالب، فاشهدوا أنى قد زوجته على أربعمائة مثقال فضة إن رضى على بن أبى طالب بذلك. ثم دعا بطبق من بسر فوضعه بين أيدينا، ثم قال: انتهبوا. فانتهبنا. فبينما نحن ننتهب إذ أقبل على بن أبى طالب، فلما دخل قال له رسول الله ﷺ: ياعلى، إن الله أمرنى أن أزوجك فاطمة، وقد زوجتكها على أربعمائة مثقال إن رضيت. قال: قد رضيت يا رسول الله. قال: ثم قام على فخر ساجدًا شكرًا لله تعالى. قال النبى ﷺ: جعل الله منكما الكثير الطيب، وبارك الله فيكما، قال أنس: فوالله لقد أخرج منهما الكثير الطيب. أخرجه أبو الخير الحاكمى[٢].

الحديث الستون: عن أنس، قال: بينما رسول الله ﷺ فى المسجد إذ قال لعلى: هذا جبريل يخبرنى أن الله عز وجل زوجك فاطمة، وأشهد على تزويجها أربعين ألف ملك، وأوحى إلى شجرة طوبى أن انثرى عليهم الدر والياقوت؛ فنثرته عليهم، فابتدرت الحور العين يلقطن فى أطباق الدر والياقوت، فهم يتهادونه بينهم إلى يوم القيامة. خرجه الملا فى سيرته[٣].

الحديث الحادى والستون: عن أم سلمة: « أن النبى ﷺ جلل الحسن والحسين وفاطمة وعليًا كساء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى، أذهب عنهم الرجس

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ١٩٦)، والطبراني كما في المجمع (٩/ ١١٥)، وابن الجوزي في العلل (١/ ٢٢٣- ٢٢٤)، وعزاه الهندي في الكنز (٣٢٩٢٥)، وعزاه للحاكم وقد سقط من المطبوع. وينظر تلخيص المستدرك (١/ ١٩٦) والحديث ضعفه ابن الجوزي والذهبي وغيرهما.

(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٤٥-١٤٦) وعزاه لأبي الخير القزويني الحاكمي.

(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٤٦) وعزاه للملا في سيرته.

وطهرهم تطهيرًا ». أخرجه الترمذى[(١)].

الحديث الثانى والستون: عن زيد بن أرقم: أن رسول الله ﷺ قال لعلى وفاطمة والحسن والحسين: « أنا حرب لمن حاربهم، سلم لمن سالمهم » أخرجه الترمذى. وفى رواية عن أبى بكر الصديق قال: رأيت رسول الله ﷺ ختم خنمة وهو متكئ على فرش عربية، وفى الخيمة علىّ وفاطمة والحسن والحسين فقال: « معشر المسلمين، أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة، حرب لمن حاربهم، ولىُّ من والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد، طيب المولد، ولا يبغضهم إلا شقى الجد، ردئ الولادة »[(٢)].

الحديث الثالث والستون: عن عائشة - رضى الله عنها -، قالت: قال رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة: ادعوا لى حبيبى فدعوا له أبا بكر، فلما نظر إليه وضع رأسه ثم قال: ادعوا لى حبيبى فدعوا له عمر، فلما نظر إليه وضع رأسه ثم قال: ادعوا لى حبيبى فدعوا له عليًا، فلما رآه أدخله معه فى الثوب الذى كان عليه، فلم يزل يحضنه حتى قبض ويده عليه » أخرجه الرازى[(٣)]. قلت: قد تقدم فى ذكر وفاته - عليه الصلاة والسلام - أن أبا بكر - رضى الله عنه - يوم وفاته ﷺ كان غائبًا بـ « السنح » لما رآه أصبح مفيقًا يوم الاثنين، فأذن له - عليه الصلاة والسلام - فلم يعد إلا وقد توفى - عليه الصلاة والسلام - فلينظر وجه التوفيق بين ذاك وبين قوله هنا: فدعوا له أبا بكر، فلما نظر إليه وضع رأسه. ولو لم تقيد هذه الواقعة بقوله: لما حضرته الوفاة لكان وجه التوفيق ممكنًا، يحمل وقوعها على ما قبل عزم أبى بكر إلى « السنح »، فليتأمل.

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٠٥) من طرق عطاء بن أبي رباح عن عمر بن أبي سلمة به. وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٧٠)، وابن ماجة (١٤٥)، وابن حبان (٦٩٧٧)، والحاكم (٣/ ١٤٩)، والدولابي في الكنى والأسماء (٢/ ١٦٠) من حديث صبيح مولى أم سلمة عن زيد بن أرقم وقال الترمذي: هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه وصبيح مولى أم سلمة ليس بمعروف.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٧٣٤) من طريق إسماعيل بن أبان ثنا عبد الله بن مسلم الملائي عن أبيه عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن عائشة به. وقال ابن الجوزي: تفرد به إسماعيل عن عبد الله بن مسلم، قال أحمد بن حنبل: حدث بأحاديث موضوعة فتركناه وقال يحيى: هو كذاب، وقال ابن حبان: يضع الحديث على الثقات.

الحديث الرابع والستون: عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: يوم خيبر « لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه » قال: فبات الناس يدوكون - أى: يخوضون ويموجون ليلتهم - أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ؛ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال عليه الصلاة والسلام: أين على بن أبى طالب ؟ قالوا: يشتكى عينيه، قال: فأَرسلوا إليه. فلما جاء بصق فى كفه ومسح بها عينيه، ودعا له؛ فبرأ لوقته حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال على: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يقولوا مثلنا. قال: انفذ على رسلك - أى: امض على تؤدتك؛ كما تقول: على هينتك - حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم. أخرجه البخارى ومسلم وأبو حاتم(١).

الحديث الخامس والستون: عن محدوج بن زيد الهذلى(٢) أن النبى ﷺ قال لعلى: أما علمت يا على، أنه أول من يدعى يوم القيامة بى؟!، فأقوم عن يمين العرش فى ظله فأكسى حلة خضراء من حلل الجنة، ثم يدعى بالأنبياء بعضهم على أثر بعض، فيقومون سماطين عن يمين العرش، ويكسون حللاً من الجنة. ألا إنى أخبرك يا على أن أمتى أول الأمم يحاسبون يوم القيامة، ثم أبشر؛ فأول ما يدعى بك لقرابتك منى،فيدفع إليك لوائى - لواء الحمد - وهو أول لواء تسير به بين السماطين. آدم وجميع خلق الله يستظلون بظل لوائى يوم القيامة، وطوله مسيرة ألف سنة، سنانه ياقوتة حمراء، قبضته فضة بيضاء، زجه درة(٣) خضراء، وله ثلاث ذوائب من نور، ذؤابة فى المشرق، وذؤابة فى المغرب، والثالثة فى وسط الدنيا، مكتوب عليه [ثلاثة] أسطر: الأول: بسم الله الرحمن الرحيم، الثانى: الحمد لله

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢، ٣٠٠٩، ٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦)، وأحمد (٥/ ٣٣٣)، وأبو داود (٣٦٦١)، والنسائي في الفضائل (٤٦)، وفي الخصائص (١٧) وسعيد بن منصور (٢٤٧٢، ٢٤٧٣، ٢٤٨٢)، وابن حبان (٦٩٣٢)، والطحاوي (٣/ ٢٠٧)، والطبراني في الكبير (٥٩٩١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٦٢)، والبيهقي (٩/ ١٠٦-١٠٧) من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد.

(٢) في ط: يزيد الذهلي. والتصحيح من الرياض النضرة.

(٣) في ط: وردة. والمثبت من الرياض النضرة.

رب العالمين، الثالث: لا إله إلا الله محمد رسول الله، طول كل سطر [مسيرة] ألف سنة، وعرضه [مسيرة][١] ألف سنة، فتسير باللواء والحسن عن يمينك والحسين عن يسارك، حتى تقف بينى وبين إبراهيم فى ظل العرش، ثم تكسى حلة من الجنة، ثم ينادى منادٍ تحت العرش: نعم الأب أبوك إبراهيم، ونعم الأخ أخوك على، أبشر يا على، إنك تكسى إذا كسيت، وتدعى إذا دعيت، وتحيا إذا حييت ». أخرجه أحمد فى المناقب[٢].

وأخرج الملا فى سيرته زيادة: قيل: يا رسول الله، وكيف يستطيع على أن يحمل لواء الحمد ؟ فقال رسول الله ﷺ: وكيف لا يستطيع ذلك ؟ وقد أعطى خصالاً شتى: صبرا كصبرى، وحسنًا كحسن يوسف، وقوة كقوة جبريل ![٣].

الحديث السادس والستون: عن ابن عباس، قال: كان على حامل راية النبى ﷺ يوم بدر والمشاهد كلها، ولما كسرت يد على - رضى الله عنه - يوم أحد؛ فسقط اللواء من يده، قال رسول الله ﷺ: ضعوه فى يده اليسرى، فإنه صاحب لوائى فى الدنيا والآخرة[٤].

الحديث السابع والستون: عن أبى سعيد الخدرى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن فيكم من يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله. قال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله ؟ قال: لا. قال عمر: أنا هو يا رسول الله ؟ قال: لا، ولكن خاصف النعل، وكان أعطى نعله عليًا يخصفها[٥]. ومثل هذا ما رواه علي نفسه من قوله فيه يوم الحديبية: « يا معشر قريش، لتنتهن أو ليبغين الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين، قد امتحن الله قلبه على الإيمان، قالوا: من هو يا رسول

(١) المثبت من الرياض النضرة.
(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٧١- ١٧٢) وعزاه لأحمد في المناقب وذكره الحافظ في الإصابة (٥/ ٥٨٠) وعزاه لأبي نعيم وقال: مختلف في صحبته -أي صحبة محدوج.
(٣) ينظر الرياض النضرة (٣/ ١٧٢).
(٤) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٥٦) وعزاه للحضرمي.
(٥) أخرجه النسائي في الخصائص (١٥٦)، وأبو يعلى (١٠٨٦)، وابن حبان (٦٩٣٧) والحاكم (٣/ ١٢٢)، وأحمد (٣/ ٣١، ٣٣، ٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

الله ؟ قال: هو خاصف النعل. ثم التفت عليٌ إلى من عنده وقال: إن رسول الله ﷺ قال: « من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار ». أخرجه الترمذى، وقال: حسن صحيح[(١)].

الحديث الثامن والستون: عن ابن عباس: « أن النبى ﷺ أمر بسد أبواب المسجد إلا باب على ». خرجه الترمذى[(٢)]. وفى رواية: فتكلم فى ذلك ناس، فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإنى أمرت بسد هذه الأبواب إلا باب على، فقال فيه قائلكم، وإنى والله ما سددت شيئًا ولا فتحته ؟ ولكنى أمرت بشيء فاتبعته ». أخرجه أحمد[(٣)].

الحديث التاسع والستون: عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: « يا على، لا يحل لأحد يُجنب فى هذا المسجد غيرى وغيرك ». أخرجه الترمذى[(٤)].

الحديث السبعون: عن أنس بن مالك، قال: « كنت عند النبى ﷺ فرأى عليًا مقبلاً فقال: يا أنس، قلت: لبيك. قال: هذا المقبل حجتى على أمتى يوم القيامة ». أخرجه النقاش[(٥)].

الحديث الحادى والسبعون: عن - على رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « أنا دار الحكمة، وعلى بابها »، وفى أخرى: « أنا مدينة العلم، فمن أراد العلم فليأته من بابه »[(٦)].

(١) أخرجه الترمذي (٣٧١٥) وقال: حسن صحيح غريب.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٣٢)، وأحمد (١/ ٣٣٠، ٣٧٣)، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١/ ٣٣١)، والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف (٦٣١٦) من حديث ابن عباس مطولاً ومختصرًا.
(٣) ينظر: الحديث السابق.
(٤) أخرجه الترمذي (٣٧٢٧) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وسمع مني محمد بن إسماعيل هذا الحديث فاستغربه.
(٥) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٥٩).
(٦) أخرجه الترمذي (٣٧٢٣) وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٣٤٦) وابن الجوزي في الموضوعات (٦٥٤) من طريق شريك عن سلمة بن كهيل عن الصنابحي عن علي به وقال الترمذي: هذا حديث غريب منكر. وله طرق أخرى عن علي ذكرها ابن الجوزي في الموضوعات (٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨) وحكم عليها بالوضع وينظر اللآلئ (١/ ٣٢٩) تنزيه الشريعة (١/ ٣٧٧) والفوائد المجموعة (٣٤٩).

الحديث الثانى والسبعون: عن معقل بن يسار، قال: وضَّأت رسول الله ﷺ فقال: هل لك فى فاطمة نعودها. فقلت: نعم. فقام يتوكأ عليَّ حتى دخلنا على فاطمة، فقلنا: كيف تجدينك ؟ قالت: اشتد حزنى، واشتدتْ فاقتى، وطال سقمى. فقال: أو ما ترضَيْنَ أنْ زَوَّجْتُك أقدمهم سلمًا، وأكثرهم علمًا، وأعظمهم حلمًا ». أخرجه أحمد، وزاد القلعى: « زوجتك سيدًا فى الدنيا والآخرة »(١).

الحديث الثالث والسبعون: عن أنس، عن النبى ﷺ أنه قال « أقضى أمتى على ». أخرجه فى « المصابيح »(٢). وقال سعيد بن المسيب: لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ يقول: « سلونى » غير على بن أبى طالب(٣). وعن أبى الطفيل، قال: شهدت عليًّا يقول: « سلونى »، والله لا تسألونى عن شيء إلا أخبرتكم به، وسلونى عن كتاب الله، فوالله ما مِنْ آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار؟، أم فى سهل أم فى جبل؟ ». أخرجه أبو عمر(٤).

الحديث الرابع والسبعون: عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله ﷺ لعلى: «تختصم الناس بسبع ولا يحاجك أحد من قريش، أنت أولهم إيمانًا بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله، وأقسمهم بالسوية، وأعدلهم فى الرعية، وأبصرهم بالقضية، وأعظمهم عند الله مزية». أخرجه الحاكمى(٥).

الحديث الخامس والسبعون: عن على رضى الله عنه، قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيًا فقلت: يا رسول الله، بعثتنى إلى قوم ذوى أسنان، وأنا شاب لا أعلم القضاء، فوضع يده على صدرى فقال: إن الله يهدى قلبك ويثبت لسانك، يا على، إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما تسمع من الأول؛ فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء فيما اختلفا. قال على: فما أشكل عليَّ قضاء بعد ذلك ». خرجه الإسماعيلى والحاكمى(٦).

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦) من حديث معقل وينظر الرياض النضرة (٣/ ١٦٠) .
(٢) قال المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٧) أخرجه في المصابيح في الحسان.
(٣) اخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ٢٠٦) وذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٦-١٦٧) وعزاه أيضا لأحمد في المناقب والبغوي في معجمه .
(٤) ذكره المحب الطبري (٣/ ١٦٧) وعزاه لابن عبد البر .
(٥) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٧) وعزاه للحاكمي.
(٦) أخرجه أحمد (١/ ٩٠، ١٤٣، ١٥٠) وأبو داود (٣٥٨٢) والترمذي (١٣٣١) من طريق =

الحديث السادس والسبعون: عن جابر « دعا النبى ﷺ عليًا يوم الطائف فانتجاه، فقال الناس: لقد أطال نجواه مع ابن عمه، فقال ﷺ: ما انتجيته ولكن الله انتجاه »(١).

الحديث السابع والسبعون: عن على - كرم الله وجهه -، قال: « انطلقت أنا والنبى ﷺ حتى أتينا الكعبة، فقال لى رسول الله ﷺ: اجلس وأصعد على منكبك(٢)، فذهبت لأربض به، فرأى منى ضعفًا فنزل، وجلس إلىَّ نبى الله ﷺ وقال لى: اصعد على منكبى، فصعدت على منكبه، قال: فنهض فخُيل لى أن لو شئت لنلت أفق السماء، حتى صعدت إلى البيت وعليه تمثال صفر أو نحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه، حتى استمكنت منه، فقال لى رسول الله ﷺ: اقذفه، فقذفته؛ فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق حتى توارينا بالبيوت؛ خشية أن يرانا أحد من الناس، وذلك صنمهم الأكبر(٣).

الحديث الثامن والسبعون: روى أبو سعيد فى « شرف النبوة » أن رسول الله ﷺ قال لعلى: « أوتيت ثلاثًا لم يؤتهن أحد ولا أنا؛ أوتيت صهرًا مثلى ولم أوت أنا مثلى، وأوتيتَ زوجة صديقة مثل ابنتى ولم أوت أنا مثلها زوجة، وأوتيت الحسن والحسين من صلبك ولم أوت من صلبى مثلهما، ولكنكم منى وأنا منكم ». وأخرج معناه الإمام على بن موسى الرضا فى مسنده بزيادة ولفظه: « يا على أعطيت ثلاثًا لم يجتمعن لغيرك، مصاهرتى وزوجتك وولديك، والرابعة لولاك ما عرف

= سماك عن حنش عن علي به وأخرجه أحمد (١/ ٨٨، ١٥٦) من طريق حارثة بن مضرب عن علي وأخرجه أحمد (١/ ١٣٦) وعبد بن حميد (٩٤) وابن ماجه (٢٣١٠) من طريق أبي البختري عن علي.

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٢٦) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٩٨) من حديث جابر وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) في الرياض: وصعد على منكبي.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٨٤) وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١/ ١٥١) وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ١٦٣) دون إسناد وعزاه لأحمد وذكره صاحب الرياض النضرة (٣/ ١٧٠-١٧١) وعزاه أيضا للحاكمي.

المؤمنون »[١].

الحديث التاسع والسبعون: عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: « أعطيت فى على خمسًا هى أحب إليّ من الدنيا وما فيها، أما واحدة: فهى تكأتى عليه بين يدى الله - عز وجل - حتى يفرغ [من] الحساب، وأما الثانية: فلواء الحمد بيده، آدم ومن ولده من تحته، الثالثة: فواقف على عقر حوضى يسقى من عرف من أمتى، وأما الرابعة: فساتر عوراتى ومسلمى إلى ربى - عز وجل - وأما الخامسة: فلست أخشى عليه أن يرجع زانيًا بعد إحصانٍ، ولا كافرًا بعد إيمان ». أخرجه أحمد فى المناقب[٢]. قلت: التكأة: بضم التاء وبالهمز: ما يتكأ عليه، وعقر الحوض، بضم العين وإسكان القاف: آخر الحوض.

الحديث الثمانون: عن عبد الله بن أبى أوفىٰ: أن النبى ﷺ قال لعلى: « أنت معى فى قصرى فى الجنة مع فاطمة بنتى، وأنت أخى ورفيقى، ثم تلا ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧] أخرجه أحمد فى المناقب[٣].

الحديث الحادى والثمانون: عن ابن عمر، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلى: « يا على، يدك فى يدى تدخل معى يوم القيامة حيث أدخل ». أخرجه الحافظ الدمشقى[٤].

الحديث الثانى والثمانون: عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: « الجنة تشتاق إلى ثلاثة: على وعمار وسلمان الفارسى ». أخرجه ابن السرى[٥].

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٧٢-١٧٣) وعزاه لأبي سعيد في شرف النبوة وعلى بن موسى في مسنده.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢١١) والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢/ ٢٢) وابن الجوزي في العلل (١/ ٢٤٥-٢٤٦) من حديث علي وقال العقيلي: ليس له أصل وقال ابن الجوزي: وفيه الحارث الأعور قال الشعبي وابن المديني: كذاب وذكره الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٧٣-١٧٤) وعزاه لأحمد في المناقب.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٤٠٢) وقال: هذا حديث لا يصح، أما عمار فقال يحيى: ليس حديثه بشيء، وقال الدارقطني: متروك. وأما المحاربي فقال يحيى: يروى عن المجهولين أحاديث منكرة.

(٤) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٨٢) وعزاه للحافظ الدمشقي في الأربعين الطوال.

(٥) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٨٢) وعزاه إلى ابن السري. وفي ط: أخرجه ابن السكري، والمثبت من الرياض النضرة.

الحديث الثالث والثمانون: عنه - أيضًا - قال: قال رسول الله ﷺ: « نحن بنى عبد المطلب سادات أهل الجنة، أنا وحمزة وعلى وجعفر والحسن والحسين والمهدى ». أخرجه ابن البرى(١).

الحديث الرابع والثمانون: عن على - رضى الله عنه -: دخل رسول الله ﷺ وأنا فى المنام فاستسقى الحسن والحسين، قال: فقام رسول الله ﷺ إلى شاة لنا بكر فحلبها فدرَّت، فجاء الحسين، فنحاه النبى ﷺ، فقالت فاطمة: لكأنه أحبهما إليك(٢). قال: لا، ولكنه - يعنى الحسن - استسقى قبله. ثم قال: إنى وإياك وهذين وهذا الراقد فى مكان واحد يوم القيامة ». أخرجه أحمد فى المسند(٣).

الحديث الخامس والثمانون: عن عبد الله بن عمر، قال: بينا أنا عند رسول الله ﷺ وجمع المهاجرين والأنصار إلا من كان فى سرية - أقبل عليّ يمشى. وهو متغضب، فقال: « من أغضب هذا فقد أغضبنى ». فلما جلس قال له رسول الله ﷺ: ما لك يا على ؟ قال: آذانى بتولك. قال: أما ترضى أن تكون معى فى الجنة والحسن والحسين وذرياتنا خلف ظهورنا، وأزواجنا خلف ذرياتنا، وأشياعنا عن أيماننا وشمائلنا ». أخرجه أحمد فى « المناقب »، وأبو سعيد فى « شرف النبوة »(٤).

الحديث السادس والثمانون: عن على - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « يا على إن لك كنزًا فى الجنة، وإنك ذو قرنيها، فلا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة »(٥). أخرجه الهروى فى غريبه. وقوله قرنيها، أى:

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٨٧) والحاكم (٣/ ٢١١) من حديث أنس وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: ذا موضوع. وأخرجه الخطيب (٩/ ٤٣٤) ومن طريقه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٢٣) وقال الخطيب: هذا حديث منكر جدا.

(٢) في المجمع: كأنه أحبهما يا رسول الله.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٠١)، وابن أبي عاصم في السنة (١٣٢٢) من طريق معاذ بن معاذ ثنا قيس ابن الربيع عن أبي المقدام عن عبد الرحمن الأزرق عن علي به وقال الهيثمي (٩/ ١٧٣) في إسناده قيس بن الربيع وهو مختلف فيه.

(٤) ذكره المحب الطبري (٣/ ١٨٣) وعزاه لأحمد في المناقب. وأبي سعد في شرف النبوة.

(٥) أخرجه أحمد (١/ ١٥٩) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٦٧) رقم (٣٢٠٨٣) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ١٥)، والحاكم (٣/ ١٢٣) وقال الهيثمي (٨/ ٦٦): فيه ابن إسحاق، وهو مدلس.

طرفيها.

الحديث السابع والثمانون: عنه - رضى الله عنه - وكرم وجهه -، قال: « كنت أمشى مع النبى ﷺ فى بعض طرق المدينة فمررنا على حديقة، فقلت: يا رسول الله، ما أحسنها ! قال: لك فى الجنة أحسن منها ». أخرجه أحمد فى المناقب. وفى رواية: « فلما خلا الطريق اعتنقنى وأجهش باكيًا. فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك ؟ قال: ضغائن فى صدور أقوام لا يبدونها لك إلا من بعدى. فقلت: فى سلامة [من] دينى ؟ قال: فى سلامة من دينك »(١).

الحديث الثامن والثمانون: عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: « يا على، إن لك فى الجنة ما لو قسم على أهل الأرض لوسعهم »(٢).

الحديث التاسع والثمانون. عن أنس - رضى الله عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ: « عليٌّ يزهر بأهل الجنة كما يزهر كوكب الصبح بأهل الدنيا »(٣). أخرجه أبو الخير القزوينى. ويزهر: يضيء، يقال: زهرت النَّارُ زهرًا: أضاءت.

الحديث التسعون: عن على رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ « لما أسرى بى إلى السماء أخذ جبريل بيدى وأقعدنى على درنوك من درانيك الجنة، وناولنى سفرجلة، فكنت أقلبها، إذ انفلقت وخرجت منها حوراء لم أر أحسن منها، فقالت: السلام عليك يا محمد. قلت: وعليك السلام. قالت: أنا الراضية المرضية، خلقنى الجبار من ثلاثة أصناف: أعلاى من عنبر، ووسطى من كافور، وأسفلى من مسك، عجننى بماء الحيوان، ثم قال: كونى فكنت، خلقنى لأخيك وابن عمك على بن أبى طالب ». خرجه الإمام على الرضا بن موسى الكاظم فى مسنده(٤).

الحديث الحادى والتسعون: عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ١٣٩) بالرواية الأولى، وأخرجه بالروايتين في حديث واحد أبو يعلى (٥٦٥)، والبزار كما في المجمع (٩/ ١٢١)، والمطالب العالية (٣٩٦٠)، والخطيب (١٢/ ٣٩٨)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٤٣) رقم (٣٨٨)، وقال الهيثمي: فيه الفضل بن عميرة، وثقه ابن حبان وضعفه غيره. وأخرجه ابن الجوزي (٣٨٩) من حديث أنس ثم قال: هذان حديثان ليس فيهما صحيح.

(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١٨٥) ولم يعزه لأحد.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في العلل (٤٠٣)، وقال: هذا حديث لا يصح.

(٤) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١٨٥) وعزاه كما عزاه المصنف.

اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، وإن قصرى فى الجنة وقصر إبراهيم متقابلان، وقصر على بن أبى طالب بين قصرى وقصر إبراهيم فيا له من حبيب بين خليلين »[١].

الحديث الثانى والتسعون: عن سلمان، قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا كان يوم القيامة ضرب لى قبة حمراء على يمين العرش، وضرب لإبراهيم قبة خضراء عن يسار العرش، وضرب فيما بينهما لعلى بن أبى طالب قبة من لؤلؤ بيضاء، فما ظنكم بحبيب بين خليلين »[٢]. أخرجه الحاكمى.

الحديث الثالث والتسعون: عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: « يا على، معك يوم القيامة عصا من عصى الجنة تذود بها المنافقين عن الحوض » أخرجه الطبرانى[٣]. وفى رواية عن على - رضى الله عنه -: « لأذودن بيدى هاتين القصيرتين عن حوض رسول الله ﷺ رايات الكفار والمنافقين؛ كما تذاد غرائب الإبل عن حياضها ». أخرجه أحمد فى المناقب[٤].

الحديث الرابع والتسعون: عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ لعلى: « لك يوم القيامة ناقة من نوق الجنة تركبها، وركبتيك مع ركبتى، وفخذك مع فخذى، حتى تدخل الجنة » أخرجه أحمد فى المناقب[٥].

الحديث الخامس والتسعون: عن عبد الله بن الحارث قال: قلت لعلى بن أبى طالب: أخبرنى بأفضل منزلتك من رسول الله ﷺ، قال: نعم ، بينا أنا عنده وهو يصلى، فلما فرغ من صلاته قال: « يا على، ما سألت الله - عز وجل - من الخير

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل (١/ ٢٥٠) رقم (٤٠٠)، والحاكم في التاريخ، والبيهقي في فضائل الصحابة، كما في كنز العمال (٣٢٩٨٨). وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح؛ يزيد بن معقل وعقبة بن موسى مجهولان.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في العلل (٤٠١)، والبيهقي في فضائل الصحابة كما في كنز العمال (٣٢٩٨٧) وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٤١- مجمع البحرين)، وفي الصغير (٢/ ٨٩) وابن الجوزي في العلل (٣٩٨) وقال الهيثمي (٩/ ١٣٨): فيه سلام بن سليمان المدائني، وزيد العمي، وهما ضعيفان، وقد وثقا، وبقية رجاله ثقات. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٤٢- مجمع البحرين) بنحوه. وقال الهيثمي (٩/ ١٣٨): فيه محمد بن قدامة الجوهري، وهو ضعيف.

(٥) ذكره المحب الطبري (٣/ ١٨٦)، وعزاه لأحمد في المناقب.

إلا سألت لك مثله، وما استعذت بالله من الشر إلا استعذت لك مثله » أخرجه المحاملى[(١)].

الحديث السادس والتسعون: عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: « ما اكتسب مكتسب مثل فضل على، يهدى إلى الهدى، ويرد عن الردى » أخرجه الطبرانى[(٢)].

الحديث السابع والتسعون: عن بريدة، قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله أمرنى بحب أربعة، وأخبرنى أنه يحبهم. قيل: يا رسول الله، فسمهم لنا. قال: على منهم. يقول ذلك ثلاثًا ». أخرجه أحمد والترمذى[(٣)].

الحديث الثامن والتسعون: عن ابن عباس: أن عليًا دخل على النبى ﷺ فقام إليه وعانقه وقبل بين عينيه، فقال العباس: أتحب هذا يا رسول الله ؟ فقال: يا عم، والله لله أشد حبًا له منى » أخرجه أبو الخير القزوينى[(٤)].

الحديث التاسع والتسعون: عن إبراهيم بن عبيد بن رفاعة الأنصارى، عن أبيه، عن جده، قال: « أقبلت من بدر ففقدنا رسول الله ﷺ، فنادى الرفاق بعضهم بعضًا: أفيكم رسول الله ؟ فوقفوا حتى جاء رسول الله ﷺ، ومعه على بن أبى طالب، فقالوا: يا رسول الله، فقدناك. فقال: إن أبا الحسن وجد مغصًا فى بطنه فتخلفت عنده ». أخرجه أبو عمر[(٥)].

---

(١) ذكره الهندي في الكنز (٣٦٤٧٤)، وعزاه للمحاملي في أماليه.

(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١٨٩) بهذا اللفظ وعزاه للطبراني وأخرجه الطبراني في الأوسط (١٩٣- مجمع البحرين)، وفي الصغير (١/ ٢٤١) بلفظ: «ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه إلى هدى، أو يرده عن ردى، ولا استقام دينه حتى يستقيم عمله» وقال الهيثمي (١/ ١٢٥): فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف. اهـ إذن الرواية «فضل علم» وليس «فضل عليّ» والله أعلم.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥١،٣٥٦)، والترمذي (٣٧١٨)، وابن ماجه (١٤٩)، والحاكم (٣/ ١٣٠) من طريق أبي ربيعة الإيادي، عن ابن بريدة عن أبيه به وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: ما خرج مسلم لأبي ربيعة اهـ. وقلت: هو مقبول كما في التقريب.

(٤) أخرجه الخطيب في التاريخ (١/ ٣١٦-٣١٧)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢١٤) رقم (٣٣٨). وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

(٥) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ٢٠٥)، والحاكم (٣/ ٢٣٢)، والخطيب في التاريخ (٢/ ٤٤-٤٥)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (٦/ ٧٢) وقال الهيثمي: فيه أبو معشر نجيح، وهو ضعيف، يكتب حديثه. اهـ.

الحديث المائة: عن أم عطية، قالت: بعث رسول الله ﷺ جيشًا فيهم على بن أبى طالب، قالت: فسمعت رسول الله ﷺ وهو رافع يديه يقول: « اللهم لا تمتنى حتى ترينى عليًا » أخرجه الترمذى(١).

الحديث الحادى والمائة: عن على، قال: كنت شاكيًا فمر بى رسول الله ﷺ وأنا أقول: اللهم إن كان أجلى قد حضر فأرحنى، وإن كان متأخرًا فارفع عنى، وإن كان بلاء فصبرنى.

فقال رسول الله ﷺ: كيف قلت ؟ فأعدت عليه، فضربنى، وقال « اللهم عافه أو اشفه » -شعبة الشاكُّ - قال: فما اشتكيت وجعى ذاك بعد ». أخرجه أبو حاتم(٢).

الحديث الثانى والمائة: عن أنس، أن النبى ﷺ بعث عليًا، ثم بعث رجلاً خلفه، وقال « ادعه، ولا تدعه من ورائه » أخرجه الدارقطنى(٣).

الحديث الثالث والمائة: عن على، قال: أهدى لرسول الله ﷺ حلة سيراء مسيرة بحرير، إما سداؤها وإما لحمتها، فبعثها النبى ﷺ إليَّ؛ فقلت: يا رسول الله، ما أصنع بها ؟ فقال: لا أرضى لك شيئًا وأكرهه لنفسى، فشققت منها أربعة أخمرة خمارًا لفاطمة بنت أسد أم على، وخمارًا لفاطمة بنت محمد، وخمارًا لفاطمة بنت حمزة، وذكر فاطمة أخرى ». أخرجه الضحاك(٤).

الحديث الرابع والمائة: عن عبد الأعلى بن عدى البَهْرانى(٥) أن رسول الله ﷺ دعا عليًا يوم « غدير خم » فعممه وأرخى عذبة العمامة من خلفه(٦).

الحديث الخامس والمائة: عن على، قال: قال رسول الله ﷺ: « من أحب

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٣٧)، والبخاري في التاريخ الكبير (٩/ ٢٠- كتاب الكنى). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٨٣-٨٤)، والترمذي (٣٥٦٤)، والنسائي في اليوم والليلة (١٠٥٨)، وابن حبان (٦٩٤٠)، والحاكم (٢/ ٦٢٠-٦٢١) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١٩٣) وعزاه للدارقطني بلفظ: ارعه...

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٣٧)، وابن ماجه (٣٥٩٦)، وابن أبي عاصم كما في الإصابة ترجمة رقم (١١٥٩٣) من طريق هبيرة عن عليّ وأصله في صحيح مسلم (١٧-١٨/ ٢٠٧١) عن أبي صالح الحنفي عن على.

(٥) في ط: عبد الله بن عدي الهواي. والمثبت من الرياض النضرة.

(٦) ذكره المحب الطبري (٣/ ١٩٤) ولم يعزه لأحدٍ.

هذين وأباهما وأمهما كان معى فى درجتى يوم القيامة » أخرجه أحمد والترمذى[١].

الحديث السادس والمائة: عنه - رضى الله تعالى عنه -: « والذى فلق الحبة وبرأ النسمة لعهد النبى ﷺ لا يحبنى إلا مؤمن، ولا يبغضنى إلا منافق » أخرجه مسلم وأبو حاتم[٢].

الحديث السابع والمائة: عن أم سلمة، قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: « لا يحب عليًا منافق، ولا يبغضه مؤمن » أخرجه الترمذى[٣]. وعن جابر بن عبد الله: « ما كنا نعرف المنافقين إلا ببغضهم عليًا »[٤].

الحديث الثامن والمائة: عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله ﷺ: « من أحب أن يستمسك بالقضيب الأحمر الذى غرسه الله فى جنة عدن كله فليستمسك بحب على » أخرجه أحمد فى المناقب[٥].

الحديث التاسع والمائة: عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: « حب على يأكل الذنوب كما تأكل النار الحطب » أخرجه الملا فى سيرته[٦].

الحديث العاشر والمائة: عن أنس، قال: « دَفع على بن أبى طالب إلى بلال درهمًا ليشترى بطيخًا، قال: فاشترى به. فأخذ بطيخة فقورها فوجدها مرة، فقال: يا بلال رد هذا على صاحبه وائتنى بالدرهم، إن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل أخذ حبك على الشجر والبشر والمدر[٧]، فما أجاب إلى حبك عذب وطاب، وما

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد (١/ ٧٧)، والترمذي (٣٧٣٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه مسلم (١٣١-٧٨)، والترمذي (٣٧٣٦)، والنسائي (٨/ ١١٥)، وابن ماجه (١١٤)، وأحمد (١/ ٨٤، ٩٥، ١٢٨)، وابن حبان (٦٩٢٤).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٢)، والترمذي (٣٧١٧) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧١٩، ٣٧٢٠- مجمع البحرين). وقال الهيثمي (٩/ ١٣٥-١٣٦) رواه الطبراني في الأوسط والبزار بنحوه، بأسانيد كلها ضعيفة.

(٥) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٧٢٧) وأقره السيوطي في اللآلئ (١/ ٣٦٩)، وابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٣٦١).

(٦) أخرجه الخطيب في التاريخ (٤/ ١٩٥) ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (٦٩٦)، وأقر ابن الجوزي السيوطي في اللآلئ (١/ ٣٥٥)، وابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٣٥٥)، والشوكاني في الفوائد (٣٦٧).

(٧) في الرياض النضرة: الثمر والبذر.

لم يجب خبث ومرَّ. وإني أظن هذا مما لم يجب ». أخرجه الملا(١). وفي هذا دلالة على أن العيب الحادث إذا كان مما لا يطلع على العيب القديم إلا به لا يمنع الرد.

الحديث الحادى عشر ومائة: عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، قالت: قال رسول الله ﷺ: « إن السعيد [كل السعيد](٢) حق السعيد من أحب عليًا فى حياته وبعد مماته » أخرجه أحمد(٣).

الحديث الثانى عشر ومائة: عن عمار بن ياسر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يا على، طوبى لمن أحبك وصدقك، وويل لمن أبغضك وكذب فيك ». أخرجه ابن عرفة(٤).

الحديث الثالث عشر ومائة: عن على - رضى الله عنه -، قال: قال لِى رسول الله ﷺ: « فيك مثل من عيسى، أبغضه اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلته بالمنزلة التى ليس بها »، ثم قال على - رضى الله عنه -: « يهلك فيّ رجال مُحب مفرط [يقرظني] بما ليس فى، ومُبغض [مفترٍ] يحمله شنآني على أن يبهتنى »(٥). أخرجه أحمد فى المسند. ومعنى بهتوا: كذبوا عليه، والبهت: الكذب وقول الزور.

الحديث الرابع عشر ومائة: عن أبى الجمراء، قال: قال رسول الله ﷺ: « من أراد أن ينظر إلى [آدم] فى علمه، وإلى نوح فى فهمه، وإلى إبراهيم فى حكمه، وإلى زكريا بن يحيى فى زهده، وإلى موسى بن عمران فى بطشه، فلينظر إلى على

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ١٩١). وفي ط: « لايحب » بدل « لم يحب ».
(٢) المثبت من الرياض النضرة.
(٣) أخرجه ابن الجوزي في العلل (٣٨٢)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (٩/ ١٣٥)، وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح. وقال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم. وينظر الرياض النضرة (٣/ ١٩١).
(٤) أخرجه الخطيب في التاريخ (٩/ ٧٢) ومن طريقه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٩١) من طريق الحسن بن عرفة، والحاكم (٣/ ١٣٥) من طريق أحمد بن حنبل كلاهما -الحسن، أحمد بن حنبل عن سعيد بن محمد الوراق، عن علي بن الحزور عن أبي مريم الثقفي عن عمار به. وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: بل سعيد وعليّ متروكان.
(٥) أخرجه عبد الله بن أحمد (١/ ١٦٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٨٤) رقم (١٠٠٤)، والحاكم (٣/ ١٢٣)، وابن الجوزي في العلل (٢٥٩)، (٣٥٧) به وفي إسناده الحكم بن عبد الملك قال الذهبي في التلخيص: وهاه ابن معين. وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٣٦) رواه عبد الله والبزار باختصار وأبو يعلى أتم منه، وفي إسناد عبد الله وأبي يعلى: الحكم بن عبد الملك وهو ضعيف، وفي إسناد البزار محمد بن كثير القرشي الكوفي وهو ضعيف.

بن أبى طالب » أخرجه الحاكمى والقزوينى[١].

الحديث الخامس عشر ومائة: عن عائشة - رضى الله عنها -، قالت: رأيت أبا بكر يكثر النظر إلى وجه على، فقلت: يا أبت، رأيتك تكثر النظر إلى وجه على فقال: يا بنية، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « النظر إلى وجه على عبادة ». أخرجه ابن السمان فى الموافقة[٢].

الحديث السادس عشر ومائة: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « ما مررت بسماء إلا وأهلها يشتاقون إلى على بن أبى طالب، وما فى الجنة شيء إلا وهو مشتاق إلى على بن أبى طالب » أخرجه الملا فى سيرته[٣].

الحديث السابع عشر ومائة: عن ابن عباس - أيضًا -: « أن رسول الله صف المهاجرين والأنصار صفين، ثم أخذ بيد على والعباس من بين الصفين وضحك؛ فقال له رجل: من أى شيء ضحكت فداك أبى وأمى ؟ قال: هبط علىّ جبريل بأن الله باهى بالمهاجرين والأنصار أهل السموات العلا، وباهى بك يا على، وبك يا عباس حملة العرش »[٤]. أخرجه أبو القاسم فى الفضائل.

الحديث الثامن عشر ومائة: عن أبى ذر - رضى الله عنه -، قال: « بعثنى رسول الله ﷺ أدعو عليًا، فأتيت بيته فناديته فلم يجبنى، فعدت فأخبرت رسول الله ﷺ، فقال لى: عد إليه ادعه فإنه فى البيت، قال أبو ذر: فعدت أناديه فسمعت صوت رحى تطحن، فشارفت فإذا الرحى تطحن، وليس معها أحد، فناديته، فخرج إلىّ منشرحًا فقلت: إن رسول الله ﷺ يدعوك، فجاء، ثم لم أزل أنظر إلى رسول الله ﷺ وينظر إلىّ فقال: يا أبا ذر، ما شأنك ؟ فقلت: يا رسول الله، عجبت من العجب، رأيت رحًى تطحن وليس معها أحد يديرها فقال: يا أبا ذر، إن لله ملائكة يسيحون فى الأرض قد وكلوا بمعونة آل محمد ﷺ ». أخرجه الملا فى سيرته[٥].

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٦٩٧).

(٢) أخرجه ابن حبان في المجروحين (١/ ٢٤١)، وابن الجوزي في الموضوعات (٦٧١، ٦٧٢) وقد ساقه عن عدد من الصحابة ثم قال (٢/ ١٢٩): هذا حديث لا يصح من جميع طرقه.

(٣) ذكره المحب في الرياض (٣/ ١٩٨) وعزاه للملا في سيرته.

(٤) ذكره المحب في الرياض (٣/ ١٩٨) وعزاه لأبي القاسم في فضائل العباس.

(٥) ذكره المحب الطبري في الرياض (٣/ ٢٠٢) وعزاه للملا في سيرته.

الحديث التاسع عشر ومائة: عن أبى سعيد الخدرى، قال: اشتكى الناس عليًا يومًا، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيبًا، فسمعته يقول: أيها الناس لا تشكوا عليًا، فوالله إنه لأخشى فى ذات الله - عز وجل -، أو فى سبيل الله » . أخرجه أحمد(١) .

الحديث العشرون ومائة: عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه قال: أشهد علىٰ رسول الله ﷺ لسمعته وهو يقول: « لو أن السموات السبع والأرضين السبع وضعت فى كفة؛ ووضع إيمان على فى كفة - لرجح إيمان على ». أخرجه ابن السمان والحافظ السلفى(٢).

الحديث الحادى والعشرون ومائة: عن - على رضى الله عنه -، قال: « قال رسول الله ﷺ: يا على، كيف أنت إذا زهد الناس فى الآخرة، ورغبوا فى الدنيا، وأكلوا التراث أكلاً لمًا، وأحبوا المال حبًا جمًا، واتخذوا دين الله دخلاً، ومال الله دولاً ؟ قلت: أتركهم وما اختاروا، وأختار الله ورسوله والدار والآخرة، وأصبر على مصيبات الدنيا وبلواها، حتى ألحق بك - إن شاء الله تعالى -. قال: صدقت، اللهم افعل به ذلك ».أخرجه الحافظ أبو طاهر السلفى(٣).

الحديث الثانى والعشرون ومائة: عنه - رضى الله عنه - أيضًا، قال: « جعت بالمدينة جوعًا شديدًا، فخرجت أطلب العمل فى عوالى المدينة، فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدرًا فظننتها تريد بَلَّهُ، فعاطيتها كل دلو بتمرة، فمددت ستة عشر دلوًا حتى مجلت يدى، ثم أتيتها فقلت: بكلتا يدى هكذا بين يديها فعدت لى ست عشرة تمرة، فأتيت النبى ﷺ فأخبرته، فأكل معى منها، وقال لى خيرًا، ودعا لى ». أخرجه أحمد وصاحب الصفوة والفضائلى(٤). قوله مجلت يدى، أى: نفطت من العمل. وقوله فعاطيتها: من المعاطاة، وهى: المناولة، كأن كل واحد منهما أخذ بيد صاحبه على ذلك إذا عاقده عليه، وإن لم يوجد أخذ يد حسًا.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٨٦)، والحاكم (٣/ ١٣٤) وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) ذكره الهندي في الكنز (٣٢٩٩٣) وعزاه للديلمي عن ابن عمر.
(٣) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٣١٥١٩)، وعزاه للثقفي في الأربعين، وقال: فيه صالح بن أبي الأسود؛ واهٍ.
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٩٠، ١٣٥) عن مجاهد قال: قال عليّ: جعت مرة... فذكره. وقال الهيثمي (٤/ ١٠٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح إلا أن مجاهدًا لم يسمع من عليّ، والله أعلم. اهـ وينظر: صفة الصفوة (١/ ١٦٨).

الحديث الثالث والعشرون ومائة: عن سهل بن سعد: أن على بن أبى طالب دخل على فاطمة، والحسن والحسين يبكيان؛ فقال: ما يبكيهما؟[(١)] قالت: الجوع. فخرج على فوجد دينارًا فى السوق فجاء إلى فاطمة فأخبرها، فقالت: اذهب إلى فلان اليهودى فخذ لنا به دقيقًا؛ فجاء إلى اليهودى فاشترى به دقيقًا، فقال: أنت ختن هذا الذى يزعم أنه رسول الله ؟ قال: نعم. قال: فخذ دينارك، ولك الدقيق. فخرج على رضى الله عنه حتى جاء فاطمة فأخبرها، فقالت: اذهب إلى فلان الجزار، فخذ لنا بدرهم لحمًا، فذهب على فرهن الدينار على لحم بدرهم فجاء به، فعجنت الدقيق وخبزته، وأرسلت إلى أبيها فجاءهم، فقال: يا رسول الله، أذكر لك، فإن رأيته حلالاً أكلنا. فذكرت له من شأنه، قال: كلوا باسم الله. فبينما هم مكانهم، إذا غلام ينشد الله والإسلام الدينار، فأمر رسول الله ﷺ فدعى له فسأله، فقال: سقط منى فى السوق. فقال رسول الله ﷺ: يا على، اذهب إلى الجزار فقل له إن رسول الله ﷺ يقول: أرسل إليَّ بالدينار ودرهمك عليَّ. فأرسل به فدفع الدينار إلى الغلام». أخرجه أبو داود[(٢)].

الحديث الرابع والعشرون ومائة: عن أسماء بنت عميس، عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ أتاها يومًا فقال: أين ابناى ؟ يعنى حسنًا وحسينًا. قالت: أصبحنا وليس فى بيتنا ما يذوقه ذائق، فقال لى على: أذهب بهما؛ فإنى أتخوف أن يبكيا عليك وليس عندك شيء، فذهب بهما إلى فلان اليهودى، فخرج إليه رسول الله ﷺ فوجدهما يلعبان فى مشربة وبين أيديهما فضل من تمر، فقال - عليه الصلاة والسلام -: يا على، ألا تنقلب بابنىَّ قبل أن يشتد عليهما الحر ؟ قالت: فقال على: يا رسول الله، أصبحنا وليس فى بيتنا شيء، فلو جلست حتى أجمع لفاطمة تمرات؟، فجلس رسول الله ﷺ وعلى ينزع لليهودى كل دلو بتمرة، حتى اجتمع له شيء من تمر، فجعله فى حجزته، ثم أقبل النبي ﷺ يحمل أحدهما وعلى يحمل الآخر. أخرجه الدولابى فى « الذرية الطاهرة »[(٣)].

---

(١) في ط: يبكيكما. والمثبت من أبي داود.

(٢) أخرجه أبو داود (١٧١٦) ومن طريقه البيهقي في السنن (٦/ ١٩٤)، وينظر: نصب الراية (٣/ ٤٦٩-٤٧٠).

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ١٦٥)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٤٢٢) ووقع عند الحاكم أسماء بنت =

الحديث الخامس والعشرون ومائة: أخرج الإمام أحمد عن على - رضى الله تعالى عنه -: « أن رسول الله ﷺ لما تزوج فاطمة، بعث معها بخميلة، ووسادة من أدم حشوها ليف، ورحيين وسقاء وجرتين، فقلت لفاطمة ذات يوم: والله لقد سنوت حتّى اشتكيت صدرى، وقد جاء الله أباك بسبى، فاذهبى فاستخدميه. فقالت: وأنا والله لقد طحنت حتى مجلت يداى. فأتت النبى ﷺ فقال: ما جاء بك يا بنية ؟ قال: جئت لأسلم عليك. واستحيت أن تسأله ورجعت. فقلت: ما صنعت ؟ قالت: استحييت أن أسأله. فأتيناه معًا. فقلت: يا رسول الله، لقد سنوت حتى اشتكيت صدرى، وقالت فاطمة: وقد طحنت حتى مجلت يدى، وقد جاء الله بسبى وسعة فأخد منا. قال: لا والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم. ولكن أبيعه وأنفق عليهم [أثمانهم](١)؛ فرجعنا. فأتانا رسول الله ﷺ وقد دخلنا قطيفة لنا إذا غطينا رءوسنا انكشفت أقدامنا، وإذا غطينا أقدامنا انكشفت رءوسنا، فلما رأيناه ثرنا!، فقال: مكانكما. ثم قال: ألا أخبركما بخير مما سألتمانى ؟ قلنا: بلى. قال: كلمات علمنيهن جبريل فقال: تسبحان الله دبر كل صلاة عشرًا وتحمدان عشرًا وتكبران عشرًا، وإذا أويتما إلى فراشكما سبحا ثلاثًا وثلاثين واحمدا ثلاثًا وثلاثين وكبرا ثلاثًا وثلاثين. قال على: فما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله ﷺ. فقيل له: ولا ليلة صفين ؟ قال: ولا ليلة صفين »(٢). قوله سنوت: استقيت. والسانية: الناضحة التى يستقى عليها الماء.

الحديث السادس والعشرون ومائة: عن البراء بن عازب قال: « بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى اليمن يدعوهم إلى الإسلام ، وكنت فيمن سار معه، فأقام عليهم ستة أشهر لا يجيبونه إلى شيء، فبعث النبى ﷺ على بن أبى طالب، وأمره أن يرسل خالدًا ومن معه إلا من أراد البقاء مع على فيتركه، قال البراء: وكنت مع من عقب مع على، فلما انتهينا إلى أوائل اليمن، وبلغ القوم الخبر فجمعوا له، وصلى

= أبي بكر الصديق وصححه، وتعقبه الذهبي، وقال الهيثمي (١٠/ ٣١٩): إسناده حسن.

(١) المثبت من المسند.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٠٦- ١٠٧) عن حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عليّ به. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٠٣): رواه أحمد، وفيه عطاء بن السائب، وقد سمع منه حماد بن سلمة قبل اختلاطه.

عليّ بنا الفجر، فلما فرغ صف بنا صفًا واحدًا، ثم تقدم بين أيدينا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ؛ فأسلمت همدان كلها فى يوم واحد، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فلما قرأ كتابه خرَّ ساجدًا وقال: السلام على همدان، السلام على همدان ». أخرجه أبو عمرو(١).

الحديث السابع والعشرون ومائة: عن عبيدة السلمانى قال: ذكر على الخوارج فقال: فيهم رجل مخدج اليد، لولا أن تبطروا لأخبرتكم بما وعد الله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ لمن قتلهم، قال: فقلت لعلى: أسمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال: إى ورب الكعبة، إى ورب الكعبة ». أخرجه مسلم(٢).

الحديث الثامن والعشرون ومائة: عن ابن مسعود - رضى الله عنه - « أن رسول الله ﷺ أتى منزل أم سلمة، فجاء على فقال رسول الله ﷺ: هذا قاتل القاسطين والناكثين والمارقين بعدى ». أخرجه الحاكم(٣). القاسطون: الجائرون، من القَسْطِ، بفتح القاف، والقصود وهو الجور، والقِسط بكسر القاف: العدل.

الحديث التاسع والعشرون ومائة: أخرج الطبرانى والحاكم وصححه عن أم سلمة قالت: « كان رسول الله ﷺ إذا غضب لم يجترئ أحد أن يكلمه إلا على - رضى الله عنه »(٤).

الحديث الثلاثون ومائة: أخرج الديلمى عن عائشة - رضى الله تعالى عنها- أن النبى ﷺ قال: « خير إخوتى على، خير أعمامى حمزة »(٥).

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢/ ٣٦٩)، وفي الدلائل (٥/ ٣٩٦). وقال في السنن: أخرج البخاري صدر هذا الحديث (٤٣٤٩) . . . فلم يسقه. بتمامه وسجود الشكر في تمام الحديث صحيح على شرطه.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٥- ١٠٦٦).

(٣) أخرجه البغوي في شرح السنة (٥/ ٤٢٨) رقم (٢٥٥٣) وابن عساكر كما في البداية (٧/ ٣٣٩)، والحاكم في الأربعين كما في كنز العمال (٣٦٣٦١). وينظر الرياض النضرة (٣/ ٢٢٦).

(٤) أخرجه الطبراني (٣٧٠٦- مجمع البحرين) ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٢٧) وقال الهيثمي (٩/ ١١٩): فيه حسين بن حسن الأشقر، وثقه ابن حبان، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله وثقوا. اهـ وأخرجه الحاكم (٣/ ١٣٠) وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: الأشقر وثق وقد اتهمه ابن عدي، وجعفر تكلم فيه.

(٥) ذكره الهندي في الكنز (٣٢٨٩٣) وعزاه للديلمي في مسند الفردوس.

الحديث الحادى والثلاثون ومائة: أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أم سلمة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « على مع القرآن والقرآن مع على لا يفترقان حتى يردا على الحوض »(١).

الحديث الثانى والثلاثون ومائة: أخرج أبو يعلى عن عائشة - رضى الله عنها -، قالت: « رأيت النبى ﷺ التزم عليًا وقبله وهو يقول: بأبى، الوحيد الشهيد بأبى، الوحيد الشهيد »(٢).

الحديث الثالث والثلاثون ومائة: أخرج الحاكم عن جابر أن النبى ﷺ قال: « على إمام البررة، وقاتل الفجرة، منصور من نصره، مخذول من خذله »(٣).

الحديث الرابع والثلاثون ومائة: أخرج الدارقطنى عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال: « على باب حطة، من دخل منه كان مؤمنًا، ومن خرج منه كان كافرًا »(٤).

الحديث الخامس والثلاثون ومائة: عن على الرضى ابن الإمام موسى الكاظم: أن رسول الله ﷺ قال لعلى: « أنت قسيم الجنة والنار، فيوم القيامة تقول النار: هذا لى وهذا لك ». وأخرج الدارقطنى أن عليًا قال للستة الذين جعل الأمر شورى بينهم كلامًا طويلاً من جملته: أنشدكم الله هل فيكم أحد قال له رسول الله ﷺ: أنت قسيم النار يوم القيامة غيرى ؟ قالوا: اللهم لا.

الحديث السادس والثلاثون ومائة: أخرج ابن أبى شيبة أنه ﷺ قال فى مرض موته: « أيها الناس، يوشك أن أقبض قبضًا سريعًا فينطلق بى، وقد قدمت إليكم القول معذرةً إليكم، ألا إنى مخلف فيكم الثقلين؛ كتاب الله عز وجل، وعترتى أهل بيتى » ثم أخذ بيد على فرفعها فقال: « هذا على مع القرآن، والقرآن مع على، لا

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٢٤- مجمع البحرين)، وفي الصغير (١/ ٢٥٥) قال الهيثمي (٩/ ١٣٧) قال: فيه صالح بن أبي الأسود، وهو ضعيف. وصححه الحاكم (٣/ ١٢٤)، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٥٧٦). وقال الهيثمي (٩/ ١٤٠-١٤١): فيه من لم أعرفه.

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ١٢٩) وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: بل والله موضوع، وأحمد ابن يزيد الحراني كذاب، فما أجهلك على سعة معرفتك! وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٦٦٦).

(٤) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٢٩١٠) وعزاه للدارقطني في الأفراد. وأخرجه ابن الجوزي في العلل (٣٨٤) من طريق الدارقطني، وأعله بحسين الأشقر، ونقل أنه كذاب.

يفترقان حتى يردا على الحوض فاسألهما ما خلفت فيهما »[١].

الحديث السابع والثلاثون ومائة: روى سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبو نعيم، عن على - رضى الله تعالى عنه -، قال فى قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]، قال: قال رسول الله ﷺ: « يا على، إن الله تعالى أمرنى أن أدنيك ولا أقصيك، وأن أعلمك وأن تعى، وحق لك أن تعى، سألت ربى أن يجعلها أذنيك » قال مكحول: وكان على يقول ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا فنسيته[٢].

الحديث الثامن والثلاثون ومائة: روى الديلمى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « أعلم الناس بعدى على بن أبى طالب »[٣].

الحديث التاسع والثلاثون ومائة: روى الطبرانى فى الكبير عن محمد بن عبد الله ابن أبى رافع، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ بعث عليًا مبعثًا، فلما قدم قال: « الله ورسوله وجبريل عنك راضون »[٤].

الحديث الأربعون ومائة: روى الخطيب والديلمى[٥] عن عائشة - رضى الله عنها -، قالت: قال: رسول الله ﷺ: « ذكر عليّ عبادة »[٦].

الحديث الحادى والأربعون ومائة: روى الديلمى عن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: « عليّ منى ومبين لأمتى ما أرسلت به من بعدى، حبه إيمان وبغضه نفاق »[٧].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٦٤٤) رقم (١٥٥٥)، والحاكم (٣/ ١٠٩) بنحوه من حديث زيد بن أرقم وآخره: « ثم أخذ بيد علىّ فقال: من كنت وليه فعلىّ وليه » وقد تقدم آخره قريبًا من حديث أم سلمة.

(٢) أخرجه الطبري (٣٤٧٧١)، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن محكول كما في الدر المنثور (٦/ ٢١٣) وأخرجه الطبري (٣٤٧٧٣)، والواحدي في أسباب النزول (٨٣٨) عن بريدة به. وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٦٧) من حديث علي.

(٣) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٢٩٧٧) وعزاه للديلمي عن سلمان.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٣١٩) رقم (٩٤٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٣٤): رواه الطبراني من رواية حرب بن الحسن الطحان عن يحيى بن يعلى، وكلاهما ضعيف.

(٥) في ط: الدئلي، وهو تصحيف. والصحيح ما أثبتنا.

(٦) ذكره الهندي (٣٢٨٩٤) وعزاه للديلمي في مسند الفردوس. وهو في مسند الفردوس برقم (٢٩٧٤).

(٧) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٤٠٠٠) وعزاه له المتقي الهندي (٣٢٩٨١).

الحديث الثانى والأربعون ومائة. روى أبو نعيم فى « الحلية » عن على - رضى الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال له: « مرحبًا بسيد المسلمين، وإمام المتقين »(١).

الحديث الثالث والأربعون ومائة: روى الديلمى، عن ابن عباس - رضى الله عنهما -، قال: قال رسول الله ﷺ لعلى: « من أحبك فبحبّى أحبك، فإن العبد لا ينال ولايتى إلا بحبك »(٢).

الحديث الرابع والأربعون ومائة: روى أبو نعيم فى الحلية، عن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ: « يا على، إن الله زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب إلى الله منها؛ هى زينة الأبرار عند الله؛ الزهد فى الدنيا؛ فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئًا، ولا ترزأ الدنيا منك شيئًا، ووهب لك حب المساكين، فجعلت ترضى بهم أتباعًا، ويرضون بك إمامًا »(٣).

الحديث الخامس والأربعون ومائة: روى الخطيب والرافعى عن على - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال له: « سألت الله فيك يا على أربعًا فمنعنى واحدة وأعطانى ثلاثًا: سألت الله أن يجمع عليك أمتى فأبى عَلَيّ، وأعطانى منك أن أول من تنشق الأرض عنه أنا وأنت، ومعى لواء الحمد وأنت تحمله بين يدى؛ تسبق الأولين والآخرين، وأعطانى أنك ولى المؤمنين بعدى »(٤).

الحديث السادس والأربعون ومائة: روى ابن عساكر، عن عمار بن ياسر - رضى الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: « يا على، ستقتلك الفئة الباغية، وأنت على الحق، فمن لم ينصرك يومئذ فليس منى »(٥).

الحديث السابع والأربعون ومائة: عن أبى جعفر محمد بن على بن الحسن، قال: نادى ملك من السماء يقال له: رضوان: « لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٦٦) من حديث الشعبي عن عليّ. وعزاه له الهندي في الكنز (٣٣٠٠٩).
(٢) ذكره الهندي في الكنز (٣٣٠٢٥) وعزاه للديلمي.
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٧١). وعزاه له الهندي في الكنز (٣٣٠٥٣).
(٤) أخرجه الخطيب في التاريخ (٤/ ٣٣٩)، وابن الجوزي في العلل (٣٩٤) وقال: هذا حديث لا يصح.
(٥) ذكره الهندي في الكنز (٣٢٩٧٠) وعزاه لابن عساكر بلفظ: «ياعلى، ستقاتلك الفئة الباغية، وأنت على الحق، فمن لم ينصرك يومئذٍ فليس مني».

على »[١] خرجه الحسن بن عرفة العبدى. قلت: ذو الفقار هو سيف رسول الله ﷺ غنمه يوم بدر، وكان سيف نبيه بن الحجاج فأعطاه النبى ﷺ عليًا كرم الله وجهه. قال أبو العباس: سمى بذلك لأنه كان به حفر صغار. الفقرة: الحفرة الصغيرة التى تكون فيه، والمفقر من السيوف الذى فيه خروز، والعامة تسميه المعَيَّر. وفى ذكرى أن عدة الفقر فى سيفه المذكور - كرم الله وجهه - ست عشرة فقرة.

الحديث الثامن والأربعون ومائة: عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، قال: « كان أبى يسمر مع على - رضى الله عنه -، وكان على يلبس ثياب الصيف فى الشتاء وثياب الشتاء فى الصيف، فقيل له: لو سألته! فسأله، فقال على: إن رسول الله ﷺ بعث إليَّ يوم خيبر، وأنا أرمد العين؛ فقلت: يا رسول الله، إنى أرمد العين؛ فتفل فى عينى وقال: « اللهم أذهب عنه الحر والبرد »، فما وجدت حرًا ولا بردًا منذ يومئذ، وقال: « لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يكون الفتح على يده » فتشوف لها أصحاب رسول الله ﷺ فأعطانيها ». أخرجه الإمام أحمد[٢]. وعن جابر بن عبد الله: أن على بن أبى طالب حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها، وبعد ذلك لم يحمله أربعون رجلاً. وفى طريق ضعيف: ثم اجتمع عليه سبعون رجلاً فكان جهدهم أن أعادوا الباب. أخرجها الحاكم[٣].

الحديث التاسع والأربعون ومائة: حدثنا إبراهيم بن أحمد الفضائلى بإسناد يرفعه إلى أبى مالك الأشجعى رواه، « أن النبى ﷺ قال: « هبط عليّ جبريل يوم حنين فقال: يا محمد، إن ربك تبارك وتعالى يقرئك السلام، ويقول: ادفع هذه الأترجة إلى ابن عمك ووصيك على بن أبى طالب، قال فدفعتها إليه؛ فوضعها فى كفه، فانفلقت نصفين، فخرج منها رق أبيض مكتوب فيه بالنور: تحية من الطالب الغالب إلى على بن أبى طالب »[٤].

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٧١٥) وينظر: كشف الخفاء (٢/ ٤٨٨).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٩٩)، وابن ماجه (١١٧)، وقال البوصيري في الزوائد (١/ ٧٠): هذا إسناد ضعيف.
(٣) تقدم في فتح خيبر.
(٤) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٧٣٢) وقال: هذا حديث لا يشك في وضعه. وأقره السيوطي في اللآلئ (١/ ٣٧٠)، وابن عراق في التنزيه (١/ ٣٦٢).

الحديث الخمسون ومائة: أخرج الديلمى فى « مسند الفردرس »، عن سلمان، عنه ﷺ: « كنت أنا وعلى نورًا بين يدى الله مطبقًا، يسبح الله ذلك النور ويقدسه قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق الله آدم ركب ذلك النور فى صلبه فلم يزل فى شيء واحد حتى افترقنا فى صلب عبد المطلب فجزء أنا وجزء على »(١).

الحديث الحادى والخمسون ومائة: عن أم سلمة: « لو لم يخلق عليٌّ ما كان لفاطمة كفؤ ». أخرجه فى « مسند الفردوس »(٢).

الحديث الثانى والخمسون ومائة: عن عليٍّ نفسه: « لو أن عبدًا عبد الله مثل ما قام نوح فى قومه، وكان له مثل أحد ذهبًا فأنفقه فى سبيل الله، ومدَّ فى عمره حتى يحج ألف عام على قدميه، ثم قتل بين الصفا والمروة مظلومًا، ثم لم يوالك يا على - لم يشم رائحة الجنة ولم يدخلها ». أخرجه الديلمى(٣).

الحديث الثالث والخمسون ومائة: عن ابن عباس: « لو اجتمع الناس على حب على بن أبى طالب لما خلق الله النار ». أخرجه الديلمى(٤).

الحديث الرابع والخمسون ومائة: عن حذيفة: « مثل على بن أبى طالب فى الناس مثل ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فى القرآن ». أخرجه الديلمى أيضًا(٥). انتهى.

قلت: هذا ما ظفرت به مما ورد فى شأنه خاصة، وأما ما ورد فى شأنه مع الواحد أو مع الاثنين أو مع الثلاثة أو مع الأربعة أو مع العشرة فلم أورد منه شيئًا أصلاً، وكذلك ما ورد من الثناء عليه من الصحابة والأكابر والسلف الصالح، وما أثر من كراماته ومكاشفاته وزهده، وورعه وسماحته وحماسته، وفصاحته وعبادته، ومناقبه الحميدة، وشمائله الفريدة، فلم أورد من ذلك شيئًا، إذ لو رمت استيعاب بعض ذلك لخرج الكتاب بذلك عن وضعه المقصود بالذات، فاعتمدت على ما أثبته الأئمة الأثبات، وأودع بطون الكتب المصنفات.

---

(١) ذكره الديلمي في مسند الفردوس (٤٨٨٤).
(٢) ذكره الديلمي في مسند الفردوس (٥١٧٠).
(٣) ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٣٩٨) وعزاه للديلمي.
(٤) ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٣٩٩)، وعزاه للديلمي.
(٥) ذكره الديلمي في مسند الفردوس (٦٧٤٠).

ذكر أقضيته رضى الله عنه

عن زيد بن على، عن أبيه، عن جده قال: أُتى عمر بن الخطاب بامرأة حامل قد اعترفت بالفجور فأمر برجمها، فتلقاها على فقال: ما بال هذه؟ قالوا: أمر عمر برجمها، فردها على وقال لعمر: هذه سلطانك عليها فما سلطانك على ما فى بطنها؟ فقال عمر: كل أحد أفقه منك يا عمر، فضمها[(١)] حتى وضعت غلامًا ثم ذهب بها إليه فرجمها[(٢)].

وعن [أبي] عبد الرحمن السلمى قال: أتى [عمر][(٣)] بامرأة أجهدها العطش فمرت براع فاستسقته فأبى أن يسقيها حتى تمكنه من نفسها ففعلت، فشاور الناس فى رجمها فقال على هذه[(٤)] مضطرة إلى ذلك فخل سبيلها ففعل[(٥)].

وعن أبى ظبيان، قال: شهدت عمر أتى بامرأة قد زنت؛ فأمر برجمها، فانتزعها على من بين أيديهم فردهم، فرجعوا إلى عمر فقالوا: ردنا على، قال عمر: ما فعل هذا على إلا لشيء، فأرسل إليه فجاء فقال: ما لك رددت هذه؟ قال: أنا سمعت النبى ﷺ يقول رفع القلم عن ثلاثة: النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يحتلم[(٦)]، وعن المبتلى حتى يعقل. قال: بلى، قال: فهذه مبتلاة بنى فلان، فلَعَلَّه أتاها وغرَّ بها. قال عمر: لا أدرى. قال على: وأنا لا أدرى. فترك رجمها[(٧)].

وعن مسروق أن عمر أتى بامرأة قد نكحت فى عدتها ففرق بينهما، وجعل مهرها فى بيت المال، وقال: لا يجتمعان أبدًا، فبلغ ذلك عليًا فقال: إن كان جاهلاً[(٨)] فلها المهر بما استحل من فرجها، ويفرق بينهما. فإذا انقضت عدتها فهو خاطب من الخطاب. فخطب عمر وقال: ردوا الجهالات إلى السنة. فرجع إلى قول على -

---

(١) في الرياض: فضمنها.
(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٣) وعزاه لابن السمان في الموافقة.
(٣) الزيادة من الرياض النضرة.
(٤) في ط: هي. والمثبت من الرياض.
(٥) ذكره المحب الطبري (٣/ ١٦٣-١٦٤) وعزاه لابن السمان في الموافقة.
(٦) في الرياض: يكبر.
(٧) أخرجه أحمد (١/ ١٥٤، ١٥٨)، وأبو داود (٤٤٠٢) من طريق عطاء بن السائب عن أبي ظبيان عن على به. وينظر: الرياض النضرة (٣/ ١٦٤)، مع اختلاف يسير.
(٨) في الرياض: جهلاً.

رضى الله عنهما[١]- خرج جميع ذلك ابن السمان فى « الموافقة ». وأخرج حديث أبى ظبيان الإمام أحمد.

وعن ابن سيرين: أن عمر سأل الناس: كم يتزوج المملوك ؟ فلم يجب أحد. فقال لعلى: إياك أعنى يا صاحب المعافرى -رداء كان عليه- فقال: اثنتين.

وعن محمد بن زياد قال: كان عمر حاجًا فجاءه رجل قد لطمت عينه فقال: من لطم عينك ؟ قال: على بن أبى طالب. فقال: لقد وقعت عليك عين الله، ولم يسأل ما جرى منه ولم لطمه ؟، فجاء على والرجل عند عمر، فقال على: هذا الرجل يطوف وهو ينظر إلى الحُرم فى الطواف، فقال عمر: أحسنت يا أبا الحسن. ثم أقبل على الرجل فقال: وقعت عليك عين من عيون الله عز وجل؛ فلا حق لك.

وعن حنش بن المعتمر: أن رجلين أتيا امرأة من قريش، واستودعاها مائة دينار. وقالا: لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه حتى نجتمع. فلبثا حولاً ثم جاء أحدهما إليها وقال: إن صاحبى قد مات فادفعى إليّ الدنانير، فأبت. فثقل عليها بأهلها، فلم يزالوا بها حتى دفعتها إليه. ثم لبث حولاً آخر فجاء الآخر وقال: ادفعى إليّ الدنانير، فقالت: إن صاحبك جاءنى فزعم أنك قد مت فدفعتها إليه. فاختصما إلى عمر، فأراد أن يقضى عليها، وروى أنه قال لها: ما أراك إلا ضامنة. فقالت: أنشدك الله أن تقضى بيننا أو ادفعنا إلى على بن أبى طالب، فدفعهما عمر إلى على، وعرف أنهما قد مكرا بها فقال: أليس قلتما: لا تدفعيها إلى رجل منا دون الآخر ؟ قال: بلى. قال: فإن مالك عندنا، اذهب فجئ بصاحبك حتى ندفعها إليكما.

وعن أبى سعيد الخدرى، سمع عمر يقول لعلى - وقد سأله عن شيء فأجابه: أعوذ بالله أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن. وعن يحيى بن عقيل قال: كان عمر يقول لعلى إذا سأله ففرج عنه: لا أبقانى الله بعدك يا على[٢]. وعن محمد بن يحيى بن حبان بن منقذ، كان تحته امرأتان هاشمية وأنصارية، فطلق الأنصارية، ثم مات على رأس الحول، فقالت: لم تنقض عدتى، فارتفعوا إلى عثمان، فقال: هذا

---

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٤)، وعزاه لابن السمان في الموافقة.

(٢) ذكر كل هذه الآثار المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٥-١٦٦) وعزاها لابن السمان في الموافقة.

ليس لى به علم، فارتفعوا إلى على بن أبى طالب فقال: تحلفين عند منبر رسول الله ﷺ أن لم تحيضى ثلاث حيضات ولك الميراث، فحلفت فاشتركت[١] فى الميراث. أخرجه ابن حرب الطائى[٢].

وعن زر بن حبيش قال: جلس اثنان يتغديان، مع أحدهما خمسة أرغفة، ومع الآخر ثلاثة أرغفة، وجلس إليهما ثالث، واستأذن فى أن يأكل من طعامهما فأذنا له، فأكلوا على السواء ثم ألقى إليهما ثمانية دراهم وقال: هذا عوض عما أكلت من طعامكما، فتنازعا فى قسمها، فقال صاحب الخمسة: لى خمسة ولك ثلاثة، وقال صاحب الثلاثة: بل نقسمها على السواء. فترافعا إلى على - كرم الله وجهه - فقال لصاحب الثلاثة: اقبل من صاحبك ما عرض عليك. قال: فقال ما أريد إلا الحق. فقال على: لك الحق درهم واحد وله سبعة. قال: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال: لأن الثمانية أربعة وعشرون ثلثًا، لصاحب الخمسة خمسة عشر ولك تسعة، وقد استويت فى الأكل وأكلت ثمانية وبقى لك واحد، وأكل صاحبك ثمانية وبقى له سبعة، وأكل الثالث ثمانية سبعة لصاحبك وواحد لك. فقال: رضيت الآن. خرجه الخلعى[٣].

وعن على - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فوجد أربعة قد وقعوا فى حفرة حفرت ليصطادوا فيها الأسد، سقط أولا رجل فتعلق بآخر وتعلق الآخر بآخر حتى تساقط الأربعة، فجرحهم الأسد فماتوا من جراحته، وتنازع أولياؤهم حتى كادوا يقتتلون، فقال على: أنا أقضى بينكم، فإن رضيتم فهو القضاء، وإلا حجزت بعضكم عن بعض حتى تأتوا رسول الله ﷺ ليقضى بينكم. اجمعوا من قبائل الذين حفروا البئر ربع الدية وثلثها ونصفها ودية كاملة؛ فللأول ربع الدية؛ لأنه أهلك من فوقه، والذى يليه ثلثها لأنه أهلك من فوقه، وللثالث النصف؛ لأنه أهلك من فوقه، وللرابع دية كاملة. فأبوا أن يرضوا، فأتوا رسول الله ﷺ [فلقوه][٤] عند مقام

---

(١) في الرياض: فأشركت.
(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٦) وعزاه لابن حرب الطائي.
(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٨) وعزاه للخلعي. وأخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ٢٠٧-٢٠٨).
(٤) المثبت من الرياض النضرة.

إبراهيم فقصوا عليه القصة، فقال: أنا أقضى بينكم واحتبى ببردة، فقال رجل من القوم: إن عليًا قضى بيننا. فلما قصوا عليه ما قضاه[(١)] أجازه. أخرجه أحمد فى المناقب[(٢)].

وعن الحارث عن على: أنه جاءه رجل بامرأة فقال: يا أمير المؤمنين، دلست على هذه وهى مجنونة. قال: فصعَّد على بصره فيها وصوبه، وكانت امرأة جميلة، فقال: ما يقول هذا ؟ قالت: والله يا أمير المؤمنين ما بى جنون، ولكنى إذا كان ذلك الوقت غلبتنى غشية، فقال على: خذها، ويحك!، وأحسن إليها، فما أنت لها بأهل. أخرجه أبو طاهر السلفى[(٣)]. قلت: هذه الربوح من النساء فسل عنها وتأمل قول الإمام لزوجها: ما أنت لها بأهل - رضى الله عنه وكرم وجهه[(٤)].

وعن زيد بن أرقم قال: أتى على باليمن بثلاثة نفر وقعوا على جارية فى طهر واحد، فولدت ولدًا فادعوه، فقال لأحدهم: تطيب به نفسًا لهذا ؟ قال: لا. وقال للآخر: تطيب به نفسًا لهذا ؟ قال: لا. قال: أراكم شركاء متشاكسين، إنى مقرع بينكم؛ فمن أصابته القرعة غرمته ثلثى القيمة[(٥)] وألزمته الولد، فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال: ما أجد فيها إلا ما قال على[(٦)].

وقد روى عنه - رضى الله عنه - أنه كان على منبر الكوفة فسأله سائل عن رجل هلك وخلَّف أبوين وبنتين وزوجة، وهذه المسألة من أربعة وعشرين، وتعول بثمنها وتسمى « المنبرية »؛ لأنه سئل عنها وهو على المنبر يخطب وكانت خطبته على حرف العين، فقال: الحمد لله الذى يحكم بالحق قطعًا، ويجزى كل نفس بما تسعى، وإليه المآب والرجعى، فسئل عن هذه فقال: بديهة على فقر الخطبة: صار ثمن المرأة تسعًا. ثم استمر على أسلوب خطبته، رضى الله عنه وكرم وجهه[(٧)].

(١) في الرياض: القصة.
(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٧٧، ١٥٢) من طريق حماد بن سلمة عن سماك عن حنش عن علي به.
(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٩) وعزاه للسلفي.
(٤) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٤٣٩- ٤٤٠). وينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٦٨).
(٥) في ط: الدية. والمثبت من الرياض.
(٦) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٩) وعزاه للإمام أحمد في المناقب.
(٧) أخرجه البيهقي (٦/ ٢٥٣) وذكره الحافظ في التلخيص (٣/ ١٩٢-١٩٣) وعزاه لأبي عبيد أيضًا وقال الحافظ: وليس عندهما أن ذلك كان على المنبر وقد ذكره الطحاوي من رواية =

وعن [جميل] بن عبد الله بن زيد قال: ذكر عند النبى ﷺ قضاء قضى به على فأعجب النبى ﷺ وقال: « الحمد لله الذى جعل فينا الحكمة أهل البيت ». أخرجهما أحمد فى المناقب(١).

وعن ابن إسحاق: أن عثمان لما قتل، بويع على بن أبى طالب بيعة العامة فى مسجد رسول الله ﷺ، وبايع له أهل البصرة، وبايع له بالمدينة طلحة والزبير، قال أبو عمرو: واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، وتخلف عن بيعته نفر فلم يكرههم، وسئل عنهم فقال: أولئك قوم قعدوا عن الحق، ولم يقوموا مع الباطل - كما تقدم ذكر ذلك. وتخلف عنه معاوية ومن معه بالشام، وكان منهم فى « صفين » ما كان، ثم خرج عليه الخوارج فكفروه وكل من معه؛ إذ رضى بالتحكيم فى دين الله بينه وبين أهل الشام، فقالوا: حكمت الرجال فى دين الله، والله تعالى يقول: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف: ٤٠]، فقال على: « كلمة حق أريد بها باطل ! » ثم اجتمعوا وشقوا عصا المسلمين، ونصبوا راية الخلاف، وسفكوا الدماء وقطعوا السبيل؛ فخرج إليهم بمن معه فرام رجعتهم فأبوا إلا القتال، فقاتلهم بـ« النهروان » فقتلهم واستأصل جمهورهم، ولم ينج منهم إلا القليل. ثم تشاوروا وتواعد منهم أولئك الثلاثة النفر: عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله التميمى، وعمرو بن بكر التميمى - أيضًا - على قتل أولئك الثلاثة على ومعاوية وعمرو بن العاص، فأما البرك؛ فإنه ضرب معاوية فأصاب أوراكه وكان عظيم الأوراك فقطع منه عرق النكاح فلم يولد له بعد ذلك، فلما أخذ قال: الأمان والبشارة؛ فقد قتل على فى هذه الليلة، فاستبقاه معاوية حتى جاء الخبر بذلك، فقطع يده ورجله وأطلقه، فرحل إلى البصرة فأقام بها حتى بلغ زيادًا أنه تزوج وولد له، فقال: أيولد له وأمير المؤمنين لا يولد له ؟ فقتله. قالوا: وأمر معاوية باتخاذ المقصورة من ذلك الوقت، يعنى وقت أن ضرب.

وأما عمرو بن بكر؛ فإنه رصد عمرو بن العاص فاشتكى عمرو بطنه ذلك اليوم فلم يخرج للصلاة، فاستناب رجلاً من الناس من بنى سهم يقال له: خارجة، فضربه

= الحارث عن علي فذكر فيه المنبر. اهـ .

(١) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ١٦٩- ١٧٠) وعزاه لأحمد في المناقب.

عمرو بن بكر فقتله فأخذ، فلما دخل به على عمرو بن العاص ورآهم يخاطبونه بالإمارة قال: أو ما قتلت عمرًا ؟ قيل: لا، وإنما قتلت خارجة، فقال: أردت عمرًا والله أراد خارجة، فقتله عمرو بن العاص، فسلم معاوية وعمرو وفاز على بالشهادة، رضى الله عنه وكرم وجهه(١): [من البسيط]

فليتَهَا إذْ فدَتْ عمرًا بخارجةٍ فدَتْ عليًّا بمَنْ شاءَتْ من البَشَرِ

وعن الزهرى قال: قدمت دمشق وأنا أريد العراق، فأتيت عبد الملك لأسلم عليه، فوجدته فى قبة على فراش يفوت القائم وتحته سماطان، فسلمت عليه ثم جلست؛ فقال لى: يابن شهاب، أتعلم ما كان ببيت المقدس صباح مقتل على ؟ فقلت: لا(٢)، فقال: هلم. فقمت من وراء الناس حتى أتيت خلف القبة، وحول إليّ وجهه، وأحنى عليّ، فقلت: ما كان ؟ فقال: لم يرفع حجر من بيت المقدس إلا وجد تحته دم، فقال: لم يبق أحد يعرف هذا غيرى وغيرك، فلا يسمعوا منك. فما حدثت به حتى ماتوا. أخرجه ابن الضحاك فى الآحاد والمثانى(٣).

ذكر أولاده رضى الله تعالى عنه وكرم وجهه :

كان له من الولد أربعة عشر ذكرًا وثمان عشرة أنثى: الحسن والحسين، وسيأتى ذكرهما؛ هذا عند خلافته وهذا عند دعوته. ومحسن مات صغيرًا، أمهم فاطمة بنت رسول الله ﷺ(٤)، ومحمد الأكبر أمه خولة بنت إياس بن جعفر الحنفية، ذكره الدارقطنى قال: وأخته لأمه عوابة بنت أبى مكمل الغفارية، وقيل: بل كانت أمه من سبى اليمامة فصارت إلى على، وإنما كانت أمه لبنى حنيفة سندية سوداء ولم تكن من أنفسهم، أعطاه إياها أبو بكر من سبى بنى حنيفة. أخرجه ابن السمان(٥).

وعبد الله قتله المختار، وأبو بكر قتل بـ« الطف » مع الحسين، أمهما ليلى بنت مسعود(٦) بن خالد النهشلى، وهى التى تزوجها عبد الله بن جعفر خلف عليها بعد

---

(١) ينظر: الاستيعاب (٣/ ٢١٨-٢١٩)، والرياض النضرة (٣/ ٢٣٤- ٢٣٦).
(٢) في الرياض النضرة: نعم. ولعل الصواب ما أثبت، والسياق يدل عليه.
(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ٢٣٧) وعزاه لابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني.
(٤) ينظر: الرياض النضرة (٣/ ٢٣٩)، وصفة الصفوة (١/ ١٦٢- ١٦٣).
(٥) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ٢٣٩) وعزاه لابن السمان في الموافقة.
(٦) في الرياض: معوذ.

عمه على جمع بين زوجة على وابنته ؛ فولدت له صالحًا وأم أبيها وأم محمد بني عبد الله ابن جعفر؛ فهم إخوة أبى بكر وعبد الله ابنى على لأمهما. ذكره الدارقطنى. والعباس الأكبر وعثمان وجعفر وعبد الله قتلوا مع الحسين - أيضًا - أمهم أم البنين بنت حرام بن خالد الوحيدية[١] الكلابية. ومحمد الأصغر أمه أم ولد قتل مع الحسين، ويحيى وعون، أمهما أسماء بنت عميس الخثعمية، فهما أخوا بنى جعفر ابن أبى طالب، وأخوا محمد بن أبى بكر لأمهم؛ لأن عليًا تزوج أسماء هذه بعد أبى بكر الصديق، وقد أتت من أبى بكر بمحمد. وأبو بكر تزوجها بعد قتل جعفر بن أبى طالب فى غزوة مؤتة، بعد أن ولدت منه عدة أولاد. وعمر الأكبر، أمه أم حبيب الصهباء التغلبية، سبية سباها خالد بن الوليد فى الردة، فاشتراها على كرم الله وجهه. ومحمد الأوسط، أمه أمامة بنت أبى العاص من زينب بنت النبى ﷺ[٢].

ذكر الإناث: أم كلثوم الكبرى، وزينب الكبرى، شقيقتا الحسن والحسين، ورقية شقيقة عمر الأكبر من أم حبيب المذكورة، وأم الحسن ورملة الكبرى، أمهما أم سعد بنت عروة بن مسعود الثقفى، وأم هانئ وميمونة ورملة الصغرى وزينب الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجمانه ونقية ونفيسة لأمهات [أولاد][٣] شتى، ذكرهم ابن قتيبة وصاحب « الصفوة »[٤]، فجملتهم اثنان وثلاثون ولدًا، وعدهم الحافظ محمد بن يوسف الشامى فى سيرته سبعة وثلاثين: عشرين ذكرًا، وسبع عشرة أنثى. الحسن والحسين ومحسن ومحمد الأكبر وعمر الأكبر والعباس الأكبر، كلهم أعقبوا، ومحمد الأصغر قتل بـ« الطائف »[٥]، والعباس الأصغر وعمر الأصغر وقتل بـ«الطف»، وعثمان طفل، وجعفر قتل بـ « الطف »، وجعفر مات طفلاً، وعبد الله الأكبر قتل بـ« الطف »، وعبد الله مات طفلاً، وأبو على يقال: قتل بـ« الطف »، وعبد الرحمن وحمزة ورجاء وأبو بكر عتيق، يقال: قتل بـ« الطف »، وعون درج، ويحيى مات طفلاً. وبناته: زينب

---

(١) في ط: جد لحية. والمثبت من الرياض.
(٢) ينظر: المعارف لابن قتيبة (٢١٠-٢١١)، الرياض النضرة (٣/ ٢٣٩-٢٤٠).
(٣) المثبت من الصفوة والرياض.
(٤) ينظر: المعارف (٢١١) صفة الصفوة (١/ ١٦٢-١٦٣) الرياض النضرة (٣/ ٢٤٠).
(٥) في ط: الطف. والمثبت من سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٨٨).

الكبرى وزينب الصغرى وأم كلثوم الصغرى ورقية الكبرى ورقية وفاطمة الصغرى وفاخِتة وأمة الله وجمانة ورملة وأم سلمة وأم الحسين وأم الكرام وهى نفيسة وميمونة وخديجة وأمامة فالجميع سبعة وثلاثون(١)، العقب منه فى الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية وعمر والعباس، هؤلاء الخمسة.

وتزوج بنات على بنو عقيل وبنو العباس ما خلا أم كلثوم بنت فاطمة كانت تحت عمر بن الخطاب فولدت له زيدًا ورقية ابنى عمر بن الخطاب، ثم مات عنها عمر فتزوجها بعدهُ عبد الله بن جعفر فمات عنها، ثم تزوجها بعده أخوه محمد بن جعفر فجاء منها ببنت، ثم مات عنها محمد فتزوجها عون بن جعفر أخوهما فماتت عنده. وأم الحسن تزوجها جعفر بن هبيرة المخزومى، وفاطمة تزوجها سعيد بن الأسود من بنى الحارث بن فهر(٢).

كانت خلافته - رضى الله تعالى عنه - أربع سنين وتسعة أشهر ويومًا واحدًا ؟ وكانت مدة إقامته بالمدينة بعد أن ولى الخلافة أربعة أشهر، ثم صار إلى العراق، وقتل بالكوفة.

وللناس خلاف فى مدة عمره قد تقدم، وكذلك فى قدر خلافته، رضى الله عنه وكرم الله وجهه(٣).

ذكر شيء مما أثر من حكمه وكلماته وأشعاره

كان - رضى الله عنه - أفصح الناس وأعلمهم بالله، وأشدهم حبًا وتعظيمًا لخدمة لا إله إلا الله. وقيل له: ألا تحرس نفسك ؟ قال: حارس كل إنسان أجله، وإن الأجل جنة حصينة. وقال - رضى الله عنه -: كونوا بقبول العمل أشد اهتمامًا منكم بالعمل؛ فإنه لن يقبل عمل مع التقوى، وكيف يقبل عمل متقبل ؟ وقال - رضى الله عنه وكرم وجهه -: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك وحلمك، وتكون مشغولاً بعبادة ربك، فإن أحسنت حمدت الله تعالى، وإن أسأت استغفرت الله، ولا خير فى الدنيا إلا لأحد رجلين: رجل أذنب ذنبًا فهو

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٨٨).
(٢) ينظر: الرياض النضرة (٣/ ٢٤٠-٢٤١).
(٣) ينظر: مصادر ترجمة سيدنا على بن أبي طالب، رضي الله عنه.

يتدارك ذلك بتوبة، ورجل يسارع فى الخيرات.

وقال - رضى الله تعالى عنه -: « احفظوا عنى خمسًا فلو ركبتم الإبل فى طلبهن لا تبلغوهن: لا يرجو عبد إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه، ولا يستحى جاهل أن يسأل عالمًا بعلم، ولا يستحى عالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، الله أعلم. والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له ».

وقال - رضى الله تعالى عنه -: « إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل؛ أما اتباع الهوى؛ فبعيد عن الحق، وأما طول الأمل؛ فينسى الآخرة. ألا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل. ألا إن الفقيه - كل الفقيه - الذى لا يُقَنِّطُ الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولا يرخص لهم فى معاصى الله، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره. ولا خير فى عبادة لا علم فيها، ولا خير فى عمل لا فهم فيه، ولا خير فى قراءة لا تدبر فيها ».

وقال - رضى الله تعالى عنه -: « كونوا ينابيع العلم، مصابيح الليل، خلق الثياب، جدد القلوب، تُعرفون فى ملكوت السماء، وتذكرون فى الأرض ».

وقال - رضى الله تعالى عنه -: « يأيها الناس، إنكم والله لو حننتم حنين الواله الثكلان، وجأرتم جؤار مبتلى الرهبان، وخرجتم من الأموال والأولاد فى التماس القرب إلى الله عز وجل، وابتغاء رضوانه، وارتفاع درجة عنده، أو غفران سيئة - كان ذلك قليلاً فيما تطلبون جزيل ثوابه، والخوف من عذابه. والله لو سالت عيونكم رغبة ورهبة إليه سبحانه وتعالى، ثم عُمِّرْتُمْ عمر الدنيا مجدين فى الأعمال الصالحة، ولم تبقوا شيئًا من جهدكم لما دخلتم الجنة بأعمالكم؛ ولكن برحمته سبحانه وتعالى ». جعلنا الله وإياكم من التابعين والعابدين.

وقال - رضى الله تعالى عنه - لكُمَيْل بن زياد: القلوب أوعية فخيرها أوعاها. احفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعالم ربانى، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، مع كل ريح يميلون، لم يستنيروا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، العلم خير لك من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم

يزكو [على العمل][١] والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم والمال محكوم عليه، محبة العالم دين يدان بها، العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته، وجميل الأحدوثة بعد موته، ومنفعة المال تزول بزواله، مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم فى القلوب موجودة. إن ههنا- وأشار إلى صدره - علمًا جمًّا لو أصبت له حملة، بلى أصيب لفتى غير مأمون عليه، يستعمل آلة الدنيا للدين، فيستظهر بحجج الله تعالى على كتابه، وبنعمه على عباده، وينقاد لأهل الباطل[٢]، لا بصيرة له فى أحنائه[٣]، ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة، منهومًا للذات، سلس القياد للشهوات، أو مغرى بجمع الأموال والادخار، أقرب شبهًا بِهِمُ الأنعام السائمة، كذاك يموت العلم بموت حامله. والله يأبى أن تخلو الأرض من قائم لله عز وجل بحجته؛ لئلا تبطل حجج الله وبيناته، أولئك هم الأقلون عددا، الأعظم عند الله قدرا، بهم يدفع الله عز وجل عن حججه حتى يؤديها إلى نظرائهم، ويزرعها فى قلوب أشياعهم[٤]، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعر منه المشركون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى[٥]، أولئك خلفاء الله فى بلاده، ودعاته إلى دينه. هاه هاه شوقًا إلى رؤيتهم. استغفر الله. انصرف إذا شئت[٦].

وعن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - قال: ما انتفعت بكلام بعد النبى ﷺ إلا بشيء كتبه إليّ على بن أبى طالب؛ فإنه كتب: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، يا أخى، فإنك تسر بما يصل إليك مما لم يكن يفوتك، ويسوؤك ما لم تدركه، فما نلت يا أخى من الدنيا فلا تكن به فرحا، وما فاتك فلا تكن به حزينا[٧]، وليكن عملك لما بعد الموت. والسلام[٨].

(١) المثبت من سبل الهدى والرشاد.
(٢) في السبل: الحق.
(٣) في السبل: إخبائه.
(٤) في السبل: ويزرعوها في قلوب أشباههم.
(٥) في السبل: بالنظر إلى الأعلى.
(٦) ذكر كل هذه الإمام الصالحي في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٩٨-٣٠٠).
(٧) في السبل: عليه حزنا.
(٨) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٣/ ٢٠١) وعزاه للمخلص.

ومن كلامه - رضى الله تعالى عنه - لو انكشف الغطاء ما ازددت يقينا. وقال: الزهد فى كلمتين من القرآن ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣]. ومن كلامه فى المناجاة: كفانى غنًى أن تكون لى ربا، وكفانى فخرا أن أكون لك عبدا. أنت لى كما أحب، فوفقنى لما تحب(١).

ومن كلامه فى العلم: المرء مخبوء تحت طى لسانه، لا تحت طيلسانه، فتكلموا تعرفوا ما ضاع امرؤ عرف قدره.

ومن كلامه فى الأدب: أنعم على من شئت تكن أميره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره. وقال - رضى الله عنه -: من وسع عليه فى دنياه فلم يعلم أنه مُكِرَ به فهو مخدوع فى عقله(٢). وقال - رضى الله عنه -: الدنيا جيفة، فمن أراد شيئًا منها فليصبر على مخالطة الكلاب(٣). وله كلمات كثيرة مشهورة قد أفردت بالتصنيف والجمع، وقد قرأت منها نسخة فى نحو الثلاثة كراريس، رضى الله عنه.

وفى سيرة الشامى: أتى - رضى الله عنه - بفالوذج فوضع بين يديه فقال: إنك طيب الرائحة، حسن اللون، طيب الطعم، ولكن أكره أن أعود نفسى ما لم تعتد. وكان بالخورنق وهو يرعد بردًا تحت قطيفة، فقيل له: إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك فى هذا المال حظًّا، فقال: والله ما أرزؤكم من مالكم شيئًا، إنها لقطيفتى التى خرجت بها من المدينة(٤).

ومما يروى من شعره - رضى الله تعالى عنه - قوله: [من الوافر]

حقيقٌ بالتواضُعِ مَنْ يموتُ ويكفى المرءَ مِنْ دنياهُ قوتُ
فما للمرءِ يصبحُ ذا هُمُوم وحرصٍ ليس تدركُهُ النعوتُ
صنيعُ مليكِنَا حَسَنٌ جميلٌ وما أرزاقُهُ عنا تَفُوتُ

وقال جوابًا لمعاوية عن كتاب منه يفتخر فيه: [من الوافر]

محمدٌ النبيُّ أخِى وصِهْرِي وحمزَةُ سيِّدُ الشهداءِ عَمِّى

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠١- ٣٠٤).
(٢) في السبل: عن غفلة.
(٣) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠١).
(٤) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠١).

وجعفرَ[١] الذى يُمسِى ويُضحِي يطيرُ مع الملائكةِ ابنُ أُمِّي
وبنتُ محمَّدٍ سَكَنِى وعِرسي توسَّط لَحمها بدمِى ولَحمِي
وسبطا أَحمَدٍ ولداي مِنهَا فمن فِيكُمْ[٢] له قسْمٌ كقسْمِي
سبقْتُكُمُ إلى الإسلامِ طُرًّا صغيرًا ما بلغْتُ أوانَ حِلْمِي
وأوجَبَ لى الولاءَ معًا عليْكُمْ رسول الله يَوْمَ غديرِ خمٍّ

كتبها إلى معاوية حين أرسل إليه معاوية كتابًا يقول فيه: يا أبا الحسن، إن لى فضائل كثيرة، كان أبى سيد - أو قائد - قريش فى الجاهلية، وصرت ملكًا فى الإسلام، وأنا صهر رسول الله ﷺ وخال المؤمنين، وكاتب الوحى. فقال على: أَبالفضائل يفخر عليَّ ابن أكالة الأكباد؟! ، فكتبها وأرسلها إليه[٣].

قال أبو عمرو الزاهد: سمعت ثعلبًا يقول: اجتمعت رواة الشعر من الكوفيين والبصريين فلم يزيدوا على عشرة أبيات صحيحة لأمير المؤمنين على، وأجمعوا أن ما كان زائدًا على العشرة فهو منحول، ومن الصحيح قوله فى السندرة: [من الرجز]

أنا الذى سَمَّتْنِ أمِّى حيدرَهْ
كليثِ غاباتٍ كريهِ المنظرَهْ
أفيهِمُ بالكيلِ كَيْلَ السندرَهْ
أضربُهُمْ ضربًا يبينُ الفقَرَهْ
وأترُكُ القِرْنَ بقاعٍ مقفرَهْ
أقتُلُ منهُمْ سبعَةً وعشرَهْ
كلُّهُمُ أهْلُ فسوقٍ فَجَرَهْ[٤]

وقال محمد بن عمرو البلخى: أنشدنا أبو محمد بن محمد القاضى عن أبيه عن جده لأمير المؤمنين على - كرم الله وجهه - قوله: [من الوافر]

أتم الناسِ أعرفُهُمْ بنقْصِهْ وأقمعُهُمْ لشهوتِهِ وحِرْصِهْ

(١) في السبل: جعفرنا.
(٢) في السبل: فأيكم.
(٣) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠١).
(٤) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠١، ٣٠٢).

فدانِ على السلامةِ مَنْ تُدَانِي ومَنْ لا تَرْضَ صحبتَهُ فأقْصِهْ
ولا تستَغْلِ عافيةً بشَيْءٍ ولا تستَرْخِصَنَّ أذى كرخصِهْ
وخَلِّ الفحْصَ ما استغنيتَ عنه فكَمْ مستجلبٍ عطبًا بفحصِهْ

ومما ينسب إليه كرم الله وجهه: [من الطويل]

ألا هَلْ إلى طُولِ الحياةِ سبيلُ وأنَّى وهذا الموتُ لَيْسَ يحولُ
وإنِّى وإنْ أصبَحْتُ بالموتِ موقنًا فلى أَمَلٌ دونَ اليقينِ طويلُ
وللدهرِ ألوانٌ تروحُ وتَغْتَدِي وإنَّ نفوسًا بينهُنَّ تسيلُ
أرى عللَ الدنْيَا عليَّ كثيرةً وصاحبُهَا حتى المماتِ عليلُ
إذا انقطَعَتْ عنِّى مِنَ العيشِ مُدَّتي فإنَّ بكاءَ الباكياتِ قليلُ
وإنَّ افتقادِى فاطمًا بعد أحمدٍ دليلٌ على ألاَّ يدومَ خليلُ
ولم أرَ إنسانًا يرى عيبَ نفسِهِ وإنْ كان لا يَخْفَى عليه جَمِيلُ
ومَنْ ذا الذى يَنْجُو من الناسِ سالمًا وللناسِ قَالٌ بالظنونِ وقيلُ
أَجَلَّكَ قومٌ حِينَ صِرْتَ إلى الغنَى وكُلُّ غنيٍّ فى العيونِ جليلُ
ولَيْسَ الغنَى إلا غنى زَيَّنَ الفتَى عشيَّة يُقْرِى أو غداةَ يُنِيلُ
ولم يفتقرْ يومًا وإنْ كان معدمًا سخيٌّ ولم يستَغْنِ قَطُّ بخيلُ

ومنه قوله - كرم الله وجهه - يمدحه ﷺ: [من الطويل]

أَقِيكَ بنَفْسِى أيها المصطفَى الَّذِي هَدَانا به الرحمنُ مِنْ غُمَّةِ الجهلِ
وتَفْدِيكَ حوبائى وما قَدْرُ مهجتى ومَنْ أنتمِى منه إلى الفَرْعِ والأَصْلِ
ومَنْ كان لى مذ كُنْتُ طفلاً ويافعًا وأنعشَنِى بالعلِّ منه وبالنَّهْلِ
ومَنْ جدهُ جَدِّى ومَنْ عمه أبي ومن أَهْلُهُ أمِّى ومن بِنْتُه أَهْلِي
ومَنْ حينَ آخَى بين مَنْ كان حاضرًا دعانى وآخانِى وبَيَّن مِنْ فضلى
لكَ الفضْلُ إنى ما حييتُ لشاكرٌ لإحسانِ ما أوليتَ يا خاتَمَ الرسْلِ

قلت: ومن الصحيح ما أورده المجد الفيروزابادى، صاحب «القاموس» فيه نقلاً عن الملا فى قوله: [من البسيط]

تلْكُمْ قريشٌ تمنَّانى لتَقْتُلَنِى فلا وربِّكَ ما برُّوا ولا ظَفِرُوا
فإنْ هلكْتُ فرهْنٌ مهجَتِى لَهُمُ بذاتِ ودقينِ لا تبقِى ولا تذرُ

ونقل عنه أنه لم يصح عن على غيرهما وهو محجوج بنقل الثقات غيره غيرهما.

ومن ذلك ما رواه ابن عساكر عن نبيط الأشجعى قال: قال على رضى الله عنه:

إذا اشتملَتْ على اليأسِ القلوبُ ... وضاقَ بما بِهِ الصدْرُ الرحيبُ
وأوطنَتِ المكارِهُ واطمأنَّتْ ... وأَرْسَتْ[1] فى أماكِنِهَا الخطُوبُ
ولمْ يرَ لانكشافِ الضُّرِّ[2] وجْهٌ ... ولا أغنَى بحيلتِهِ الأريبُ
أتاكَ على قنوطٍ منْكَ غَوثٌ ... يجىءُ به القريبُ المستجيبُ
وكُلُّ الحادثاتِ إذا تناهَتْ ... فموصولٌ بها الفرَجُ القريبُ[3]

ومن ذلك ما رواه الشعبى قال: قال على بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه - لرجل كره صحبة رجل: [من الهزج]

لا تصحَبْ أخا الجهْلِ ... وإيَّاكَ وإيَّاهُ
فكَمْ مِنْ جاهلٍ أردَى ... حليمًا حينَ آخاهُ
يقاسُ المرءُ بالمرْءِ ... إذا ما هُوَ ماشَاهُ
وللشيْءِ على[4] الشيءِ ... مقاييسٌ وأشبَاهُ
وللقلْبِ على القَلْبِ ... دليلٌ حِينَ يلقَاهُ[5]

ومن ذلك ما رواه المبرد قال: كان مكتوبًا على سيف على بن أبى طالب، رضى الله عنه: [من البسيط]

للناس حرصٌ على الدنيا بتدبيرِ ... وصَفْوُهَا لكَ ممزوجٌ بتكديرِ
لم يُرْزَقُوهَا بفعْلٍ عندما قسمَتْ ... لكنَّهُمْ رُزِقُوهَا بالمقاديرِ
كمْ مِنْ أديبٍ لبيبٍ لا تساعدُهُ ... وأحمقٍ نال دنياهُ بتقصيرِ
لو كان عَنْ قوةٍ أو عَنْ مغالبةٍ ... طارَ البزاةُ بأرزاقِ العصافيرِ[6]

روى عن حمزة بن حبيب الزيات قال: كان على بن أبى طالب يقول: [من المتقارب]

---

(١) في ط: وأربت. والمثبت من السبل.
(٢) في ط: العسر. والمثبت من السبل.
(٣) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠٢).
(٤) في ط: من. والمثبت من السبل.
(٥) ينظر: السبل (١١/ ٣٠٢).
(٦) ينظر: السبل (١١/ ٣٠٢).

لا تُفْشِ سرَّكَ إلا إليكَ ... فإنَّ لكلِّ نَصِيحٍ نصيحَا
فإنِّى رأيتُ غواةَ الرجا ... لِ لا يَدَعُونَ أديمًا صحيحَا[١]

ومن ذلك ما رواه ابن عبد البر، عن الحارث الأعور، قال: سئل على بن أبى طالب عن مسألة فدخل مبادرًا، ثم خرج فى حذاء ورداء وهو يتبسم، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنك كنت إذا سئلت عن المسألة[٢] تكون فيها كالمسلة المحماة، قال: إنى كنت حاقنًا ولا رأى لحاقن. ثم أنشا يقول: [من المتقارب]

إِذَا المشكلاتُ تصدَّيْنَ لي ... كشفْتُ حقائقَهَا بالنظَرْ
وإنْ برِقَتْ فى مخيلٍ[٣] الصَّوا ... بِ عمياءُ لا يجتليها البَصَرْ
مقنعة بغيوبِ الأمورِ ... وضعْتُ عليها صحيحَ الفِكَرْ
لسانًا كشقشقةِ الأريحي ... يِّ أو كالحسامِ اليمانِى الذَّكَرْ[٤]
وقلبًا إذا استَنْطَقَتْهُ العيو ... نُ أربَى عليها تراهُ درَرْ[٥]
ولستُ بإمعةٍ فى الرجا ... لِ أسألُ هذا وذا ما الخَبَرْ
ولكنَّنى مِذْرَهُ الأصغرَيْنِ ... أبيِّنُ مِنْ صاحبى ما غمرْ[٦]

وقال ابن النجار: أخبرنى يوسف بن المبارك بن كامل، قال: أنشدنى أبو الفتح مفلح بن أحمد الرومى قال: أنشدنا أبو الحسين بن أبى القاسم التنوخى عن أبيه عن أجداده إلى على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أنه قال: [من المتقارب]

أصمُّ عن الكلمِ المحفظاتِ ... وأحلُمُ والحِلْمُ بى أشبَهُ
وإنى لأترُكُ جَهْمَ الكلامِ ... لكيلا أجابَ بما أكْرَهُ

---

(١) ينظر السابق.
(٢) في السبل: كالسَّلة.
(٣) في السبل: مجىء.
(٤) ويروى البيت في السبل هكذا:
لسانه كشقشقة الأَرْحَبِي ... ي أو كالحمام اليماني الذكر
(٥) ويروى في السبل هكذا:
وقلب إذا استنطقته الهمو ... مِ أربى عليها بواهي الذرر
(٦) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم رقم (١٨٧٩) من طريق الحارث عن علي. وينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/٣٠٢،٣٠٣)، والبيت الأخير في السبل:
ولكنني مذرب الأصغرين ... أُبَيِّن مع ما مضى ما غبر

إذا ما احترزْتُ سِفَاهَ السفيهِ عـلـيٌّ فـإنـيَ لا أسـفـهُ[١]
فكَمْ من فَتًى يعجبُ الناظرينَ لـه ألـسُـنٌ ولـه أوجُـهُ
ينامُ إذا حَضَرَ المَكْرُمَاتِ وعـنـدَ الـدناءة يَـسْـتَـنْـبِـهُ[٢]

وأما خطبه ومواعظه ووصاياه فإنها لا تحصى، وأدناها لا يستقصى. رضى الله تعالى عنه وأرضاه، وكرم وجهه ومن والاه، آمين.

خلافة أمير المؤمنين أبى محمد الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما[٣]

قال الحافظ الذهبى فى تاريخه « دول الإسلام »: قال جرير بن حازم: بايع أهل الكوفة الحسن بن على بعد أبيه وأحبوه أكثر من أبيه، ثم سار حتى نزل بـ« المدائن »، وبعث قيس بن سعد بن عبادة على المقدمة فى اثنى عشر ألفًا، فبينما الحسن بـ« المدائن » إذ نادى منادٍ: ألا إن قيسًا قد قتل. فاختبط الناس وانتهبت الغوغاء سرادق الحسن حتى نازعوه بساطه تحته، وطعنه رجل من الخوارج بخنجر مسموم فى فخذه؛ فوثب الناس على الرجل فقتلوه، لا رحمه الله، ونزل الحسن القصر الأبيض بـ« المدائن »، وكاتب معاوية فى الصلح. وقال نحو هذا ابن إسحاق والشعبى.

وروى أنه لما خلع نفسه قام فيهم فقال: ما ثنانا عن أهل الشام شك ولا ندم، لكن كنتم فى مسيركم إلى صفين، ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم. وتوجع الحسن من تلك الطعنة، ثم عوفى ولله الحمد.

ثم سار الحسن يريد الشام، وأقبل معاوية، وكان اجتماعهما بـ« مسكن » وهى من أرض السواد من ناحية الأنبار. قال ابن عيينة: حدثنا أبو موسى قال: سمعت الحسن البصرى يقول: استقبل الحسن بن على معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: والله إنى لأرى كتائب لا تولى أو تقتل أقرانها. فقال معاوية،

(١) في السبل: أنا الأسفه.
(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٠٣).
(٣) ينظر: الاستيعاب ت(٥٧٣)، وأسد الغابة ت(١١٦٥)، والإصابة ت(١٧٢٤)، وتهذيب الكمال (٦/ ٢٢٠)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٢٤٥-٢٧٩)، وحلية الأولياء (٢/ ٣٥) وغيرها.

وكان خير الرجلين: أرأيت إن قتل هؤلاء هؤلاء من لى بذراريهم، من لى بأمورهم، من لى بنسائهم ؟ قال: فبعث عبد الرحمن بن ميسرة فصالح الحسن معاوية وسلم الأمر له، وبايعه بالخلافة على شروط اشترطها ووثائق، وحمل إليه معاوية مالاً، يقال: خمسمائة ألف. قلت: لم أجد تعيين هذه الخمسمائة ألف؛ هى دنانير أم دراهم فيما اطلعت عليه من التواريخ، وذلك فى جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين.

قال أبو عبد الله الهمدانى محمد: حدثنا أبو العريف قال: لما ورد الحسن إلى الكوفة بعد مبايعته معاوية، قال له رجل من همدان يقال له أبو عامر: السلام عليك يا مذل المسلمين. فقال: لست بمذل المسلمين، ولكنى كرهت أن أقتلكم على الملك. ثم قال له آخر: يا عار المسلمين. فقال: العار خير من النار.

ثم إن الحسن - رضى الله تعالى عنه - رجع مع آل بيته من الكوفة ونزل المدينة، وسمى هذا العام المذكور - وهو عام إحدى وأربعين - (عام الجماعة) لاجتماع الأمة على خليفة واحد، هو معاوية بعد نزول الحسن - رضى الله عنه - له بها.

ثم دخل معاوية الكوفة، وخرج عليه عبد الله بن أبى الحوساء بـ « النخلة »(١)، فسير عليه؛ فقتله، وخرج عليه بالبصرة خوارج فقتل فريقًا وأمن فريقًا. وسيأتى ذكر ذلك عند ذكر خلافته إن شاء الله تعالى(٢).

مناقب الحسن بن على رضى الله تعالى عنه

هو الحسن بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، القرشى، الهاشمى، أبو محمد، سبط النبى ﷺ وشبيهه، يكنى أبا محمد، أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين، وهو سيد شباب أهل الجنة، وريحانة النبى ﷺ، ويلقب بالتقى والسيد.

ولد منتصف رمضان سنة ثلاث من الهجرة، قال أبو عمر: هذا أصح ما قيل(٣)، وقيل: فى شعبان، وقيل: سنة أربع، وقيل: سنة خمس، قال فى « الإصابة »:

---

(١) في تاريخ خليفة: النخيلة.

(٢) ينظر: تاريخ خليفة (١٥٣) تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٢٢٥)، تاريخ الطبري (٥/ ١٥٩-١٦٠)، الكامل في التاريخ (٣/ ٤٠٤)، تاريخ الإسلام حوادث سنة (٤١هـ).

(٣) ينظر: الاستيعاب (١/ ٤٣٦).

والأول أثبت[1] سماه النبى ﷺ الحسن، وعق عنه يوم سابع ولادته، وحلق شعر رأسه وتصدق بزنة شعره فضة[2]، وهو خامس أهل الكساء. وقال أبو أحمد العسكرى: سماه النبى ﷺ الحسن، وكناه أبا محمد، ولم يكن يعرف هذا الاسم فى الجاهلية. وروى عن ابن الأعرابى عن الفضل، قال: إن الله تعالى حجب اسم الحسن والحسين حتى سمى بهما النبى ﷺ ابنيه الحسن والحسين. قال: فقلت له: والذى باليمن ؟ قال: ذاك حسْن بسكون السين وحَسِين بفتح الحاء وكسر السين، ولا يعرف قبلهما إلا اسم رملة فى بلاد « ضبة » قال ابن غنمة: [من الوافر]

لِأُمِّ الأرضِ ويلٌ ما أجَنَّتْ غداةَ أَضَرَّ بالحَسَنِ السَّبِيلُ

وعندها قتل بسطام بن قيس الشيباني[3].

قال على: لما ولد الحسن رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ: أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قلت: حربًا. قال: بل هو حسن، فلما ولد الحسين قال: أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قلت: حربًا قال: بل هو حسين. فلما ولد الثالث قال: أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قلت: حربًا، قال: بل هو محسن. ثم قال: سميتهم بأسماء ولد هارون، شبر وشبير ومشبر[4]. وفضائله كثيرة مشهورة.

ولى الخلافة بعد أبيه – رضى الله تعالى عنه – لِعشر ليال بقين من رمضان، سنة أربعين من الهجرة – ستة أشهر، وبايعه أكثر من أربعين ألفًا، ثم نزل عنها لمعاوية فى النصف من جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين من الهجرة، وقيل: لخمس بقين من ربيع الأول، وقيل: فى ربيع الآخر[5]، قال ابن الأثير: قول من قال سنة إحدى وأربعين أصح ما قيل فيه، وأما من قال بنزوله سنة أربعين فقد وهم[6]، وكان نزوله مصداق قول جده ﷺ « إن ابنى هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من

---

(١) ينظر: الإصابة (٢/ ٦٠).
(٢) ينظر: الاستيعاب (١/ ٤٣٦).
(٣) ينظر: أسد الغابة (٢/ ١٣-١٤).
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٩٨، ١١٨) والبخاري في الأدب المفرد (٨٢٣) وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٤٣٦) والحاكم (٣/ ١٦٨)، والبيهقي (٦/ ١٦٦) من حديث علي وضعفه الألباني في ضعيف الأدب المفرد (١٣٣/ ٨٢٣). وفي ط: شبر وشبير، وبشير.
(٥) ينظر: الاستيعاب (١/ ٤٣٧).
(٦) ينظر: أسد الغابة (٢/ ١٩).

المسلمين »[١] وأى شرف أعظم من شرف من سماه النبى ﷺ سيدًا ؟!

وروى أبو القاسم البغوى والدولابى، عن قابوس بن المخارق، قال: إن أم الفضل قالت لرسول الله ﷺ: رأيت كأن عضوًا من أعضائك فى بيتى، فقال رسول الله ﷺ: خيرًا رأيت، تلد فاطمة غلامًا فترضعينه بلبن ابنك قثم. فولدت حسنًا فأرضعته بلبن قثم. قالت: فجئت به يومًا إلى النبى ﷺ فوضعته فى حجره فضرب كتفه، فقال النبى ﷺ: لم أرضعت ابنى يرحمك الله ؟[٢].

وروى الإمام أحمد والشيخان وابن ماجة وابن حبان وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير، عن أسامة بن زيد[٣] والطبرانى فى الكبير أيضًا، وابن عساكر، عن عائشة رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: « إنى أحبه فأحبه وأحب من يحبه »[٤].

وروى الشيخان وابن حِبَّان، عن البراء رضى الله عنه، قال: رأيت الحسن بن على رضى الله عنهما على عاتق رسول الله ﷺ وهو يقول: « اللهم إنى أحبه فأحبه »[٥] وروى البخارى عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ كان يأخذ الحسن والحسين ويقول: « اللهم إنى أحبهما فأحبهما »[٦].

وروى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: « كان رسول الله ﷺ حاملاً للحسن على عاتقه فقال رجل: نعم المركب ركبت. فقال عليه الصلاة والسلام: نعم الراكب هو »[٧].

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٤)، وأبو داود (٤٦٦٢)، والترمذي (٣٧٧٣)، والنسائي (٣/ ١٠٧)، وأحمد (٥/ ٣٧) من حديث أبي بكرة مرفوعًا.

(٢) ذكره ابن الأثير في أسد الغابة (٢/ ١٤) من طريق الدولابي.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٠٥)، وفي الفضائل (١٣٥٢)، والبخاري (٣٧٣٥،٣٧٣٥،٦٠٠٣)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/ ٦٢)، وابن حبان (٦٩٦١)، والطبراني في الكبير (٢٦٤٢) من حديث أسامة بن زيد.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥٨٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٧٦): فيه عثمان بن أبي الكنات وفيه ضعف.

(٥) أخرجه البخاري (٣٧٤٩) وفي الأدب المفرد (٨٦) ومسلم (٢٤٢٢)، والترمذي (٣٧٨٣)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٨٣- ٢٨٤،٢٩٢) وفي الفضائل (١٣٥٣، ١٣٨٨)، والنسائي في الفضائل (٦٠) وابن حبان (٦٩٦٢)، والطبراني (٢٥٨٢)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٣) وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٦) أخرجه البخاري (٣٧٣٥، ٣٧٤٧)، وابن سعد (٤/ ٦٢) وانظر التخريج قبل السابق.

(٧) أخرجه الترمذي (٣٧٨٤) ومن طريقه ابن الأثير في أسد الغابة (٢/ ١٦-١٧) من طريق عكرمة عن ابن عباس.

وروى الإمام أحمد فى المناقب عن أبى زهر بن الأرقم، رجل من الأزد رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول للحسن بن على: « من أحبنى فليحبه، فليبلغ الشاهد الغائب » ولولا عزيمة رسول الله ﷺ ما حدثتكم(١).

وروى الطيالسى والبزار وابن عساكر، عن على رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « من أحبنى فليحب هذا » يعنى الحسن(٢). وروى ابن حبان عن أسامة ابن زيد قال: كان رسول الله ﷺ يقعدنى على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الآخر، ويقول: « اللهم إنى أرحمهما فارحمها »(٣).

وروى الدولابى عن محمد بن عبد المؤمن، مولى بنى هاشم: أن النبى ﷺ رأى الحسن مقبلاً فقال: « اللهم سلمه وسلم منه ».

وروى أبو سعيد بن الأعرابى، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: لا زلت أحب هذا الرجل - يعنى حسنًا - بعدما رأيت رسول الله ﷺ يصنع به ما يصنع، رأيت الحسن فى حجر رسول الله ﷺ، وهو يدخل لسانه فى فمه أو لسان الحسن فى فمه ثم قال: « إنى أحبه فأحبه وأحب من يحبه ».

وروى الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه رأى الحسن بن على رضى الله عنهما فى بعض طرق المدينة فقال: اكشف عن بطنك - فداك أبى - حتى أقبل حيث كان رسول الله ﷺ يقبل، فكشف له عن بطنه فقبل سرته »(٤).

وروى ابن أبى الدنيا وأبو بكر الشافعى، عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما قال: رأيت الحسن بن على يأتى رسول الله ﷺ وهو ساجد فيركبه على ظهره، فما ينزله حتى يكون هو الذى ينزل، ويأتى وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر(٥).

---

(١) ذكره الحافظ في الإصابة (٢/ ٦٢) وعزاه لأحمد عن رجل من الأزد.
(٢) أخرجه البزار (٢٦٢٤- كشف).
(٣) أخرجه ابن حبان (٦٩٦١) من طريق أبي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد.
(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٥٥، ٤٢٧، ٤٨٨، ٤٩٣) وفي الفضائل (١٣٧٥)، والحاكم (٣/ ١٦٨)، وابن حبان (٦٩٦٥)، والطبراني (٢٥٨٠، ٢٧٦٤)، والبيهقي (٢/ ٢٣٢) من طريق عمير بن إسحاق عن أبي هريرة وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٨١): رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح غير عمير بن إسحاق وهو ثقة.
(٥) ذكره الحافظ في الإصابة (٢/ ٦٢) وعزاه إلى ابن سعد.

وروى أبو سعيد الأعرابى، عن [أبي] سعيد رضى الله عنه، قال: جاء الحسن إلى النبى ﷺ وهو ساجد فركب على ظهره، فأخذه النبى ﷺ بيده، فأقامه على ظهره ثم ركع، ثم أرسله فذهب(١).

وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب « اليقين » عن محمد بن معشر اليربوعى، قال: قال على للحسن ابنه، رضى الله عنهما: كم بَيْنَ الإيمان واليقين ؟ قال: أربع أصابع. قال: بيّن. قال: اليقين ما رأته عينك، والإيمان ما سمعته أذنك وصدقت به. قال على: أشهد أنك ممن أنت منه، ذرية بعضها من بعض(٢).

وروى الدولابى، عن زيد بن الحسن، رضى الله عنهما، قال: خطب الحسن رضى الله عنه الناس حين قتل أبوه رضى الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: لقد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون، ولم يشركه الآخرون، وكان رسول الله ﷺ يعطيه الراية فيقاتل جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فما يرجع حتى يفتح الله عز وجل عليه، ما ترك على ظهر الأرض صفراء ولا بيضاء إلا أربعمائة(٣) درهم فضلت من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادمًا لأهله. ثم قال: يأيها الناس، مَنْ عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على، وأنا ابن الوصى، وأنا ابن البشير، وأنا ابن المنذر(٤)، وأنا ابن الداعى إلى الله بإذنه والسراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين افترض الله محبتهم على كل مسلم، فقال تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣] فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت(٥).

قال صاحب « السيرة الشامية »: بايعه أكثر من أربعين ألفًا. وقال صالح ابن الإمام أحمد: سمعت أبى يقول: بايع الحسن تسعون ألفًا- بتقديم التاء - فترك الخلافة وصالح معاوية لما سار إليه من الشام، وسار إلى معاوية فلما تقاربا أرسل إلى

---

(١) أخرجه ابن الأعرابي في المعجم (٥٩٧)، والبزار (٢٦٣٨-كشف) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) ذكره الصالحي في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٦٧) وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في اليقين.

(٣) في السبل: سبعمائة.

(٤) في السبل: النذير.

(٥) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٦٧).

معاوية يبذل له تسليم الأمر، على أن تكون الخلافة له بعده، وعلى ألا يطلب أحدًا من أهل المدينة والحجاز بشيء مما كان فى أيام بنى أمية وغير ذلك. وظهرت المعجزة النبوية فى قوله عليه الصلاة والسلام: « إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ».

ولم يسفك فى أيامه محجمة دم، وهى نحو سبعة أشهر، وكان صلحهما لخمس بقين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وقيل: فى النصف من جمادى الأولى من السنة المذكورة، على الخلاف المتقدم فى ذلك، فإن مدة الخلافة التى ذكرها عليه الصلاة والسلام انتهت بخلافته ولم يبق إلا الملك، وقد صان الله تعالى أهل البيت منه(١).

قال أبو بشر الدولابى: أقام الحسن - رضى الله تعالى عنه - بالكوفة إلى ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وقتل عبد الرحمن بن ملجم، لعنه الله تعالى، ويقال: إنه ضربه بالسيف فاتقاه بيده فندرت وقتله. ثم سار إلى معاوية فالتقيا بـ« مسكن » من أرض « الكوفة »، كما تقدم نقل ذلك عن الذهبى، واصطلحا، وسلم إليه الأمر، وبايع له لخمس بقين من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وأخذ منه خمسمائة ألف(٢)، كما تقدم نقل ذلك عن الذهبى(٣).

وروى الحافظ أبو نعيم وغيره عن الشعبى - رحمه الله تعالى - أنه قال: أما بعد، فإن أكيس الكيس التقى، وأحمق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذى اختلفت عليه أنا ومعاوية إنما هو حق لامرئ، فإن كان له فهو أحق بحقه، وإن كان لى فقد تركته له إرادة صلاح الأمة وحقن دمائهم ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأنبياء: ١١١] ثم نزل(٤).

قلت: رأيت فى المسعودى أن عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يأمر الحسن فيخطب، فكره معاوية ذلك، فألزمه عمرو وقال: أريد أن يبدو عيّه فى الناس؛ فإنه يتكلم فى أمور لا يدرى ما هى. فأمر معاوية الحسن فقام وتشهد فى بديهته، ثم

---

(١) ينظر: السابق (١١/ ٦٧، ٦٨).
(٢) في السبل: مائة ألف دينار.
(٣) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٦٨).
(٤) ذكره الصالحي في السبل (١١/ ٦٨)، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

قال: يا أهل الكوفة، لو لم تذهل نفسى إلا لثلاث لذهلت: مقتلكم أبى، ونهبكم رحلى، وطعنكم فخذى. وإنى قد بايعت معاوية فاسمعوا له وأطيعوا[١].

ومن مناقبه وجوده وزهده فى الدنيا قوله: إنى لأستحيى من الله عز وجل أن ألقاه ولم أمش إلى بيته، فمشى عشرين حجة من المدينة على رجليه، وإن الجنائب[٢] لتقاد بين يديه. وخرج من ماله مرتين، وقاسم الله ثلاث مرات، حتى إنه كان يعطى نعلاً ويمسك نعلاً. وقال محمد بن سيرين: ربما كان يجيز الواحد بمائة ألف. واشترى حائطًا من قوم من الأنصار بأربعمائة ألف، وإنه بلغه أنهم احتاجوا إلى ما فى أيدى الناس فرده إليهم. ولم يقل لسائل قط: لا.

ولا يأنس به أحد فيدعه يحتاج إلى غيره، ورأى غلامًا أسود يأكل من رغيف لقمة ويطعم كلبًا هنالك لقمة فقال: ما يحملك على هذا ؟ فقال الغلام: إنى أستحيى أن آكل ولا أطعمه، فقال الحسن: لا تبرح حتى آتيك، فذهب إلى سيده فاشتراه واشترى الحائط الذى هو فيه، وأعتقه وملكه الحائط، فقال الغلام: يا مولاى، قد وهبت الحائط للذى وهبتنى إليه.

وكان الحسن سيدًا حليمًا، زاهدًا عاقلاً، فاضلاً، فصيحًا، ذا سكينة ووقار، جوادًا يكره الفتن وسفك الدماء، دعاه ورعه وزهده إلى ترك الخلافة وقال: خشيت أن يجىءَ يوم القيامة سبعون ألفًا أو أكثر تنضح أوداجهم دمًا.

وكان من أحسن الناس وجهًا، وأكرمهم وأجودهم وأطيبهم كلامًا، وأكثرهم حياء، وكان أكثر دهره صائمًا، وكان فعله يسبق قوله فى المكارم والجود، وكان كثير الأفضال على إخوانه؛ لا يغفل عن أحد منهم، ولا يحوجه إلى أن يسأله؛ بل يتقدمه بالعطاء قبل السؤال. وقال لأصحابه: إنى أخبركم عن أخٍ كان من أعظم الناس فى عينى، وكان الذى عظمه فى عينى صغر الدنيا فى عينه، كان خارجًا عن سلطان بطنه؛ فلا يشتهى ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، انتهى.

وما سمع من الحسن كلمة فحش قط،وأعظم ما سمع منه: أنه كان بينه وبين شخص خصومة فقال: إنه ليس عندنا إلا ما رغم أنفه. قلت: هذا الشخص المبهم

---

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٩).

(٢) في السبل: النجائب. وكلاهما بمعنى الخيل.

هو مروان بن الحكم الأموى.

وقيل له: إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إليّ من الغنى، والسقم أحب إلى من الصحة، فقال: رحم الله أبا ذر،أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله عز وجل لم يتمن غير الحالة التى اختارها الله عز وجل. وهذا حد[١] الوقوف على الرضا بما يصرف به القضاء.

ومن كلامه رضى الله عنه: كن فى الدنيا ببدنك، وفى الآخرة بقلبك. وكان يقول لبنيه وبنى أخيه: تعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يحفظه - أو قال يرويه - فليكتبه وليضعه فى بيته. ورأى سيدنا أبو بكر الحسن - رضى الله عنهما - وهو يلعب مع الصبيان، فحمله أبو بكر على عاتقه وقال: بأبى، شبيه بالنبى ليس شبيهًا بعلى، وعلى رضى الله عنه يتبسم. وقد كان أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - يجله ويعظمه، ويحترمه ويكرمه، وكذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وقد جاء الحسن والحسين يوم الدار وعثمان محصور، ومعهما السلاح ليقاتلا عن عثمان، فخشى عثمان عليهما،وأقسم عليهما ليرجعان إلى منازلهما، تطييبًا لقلب على وخوفًا عليهما، وكان على - رضى الله عنه وكرم وجهه - أرسلهما وأمرهما بذلك، وكان على يكرم الحسن إكرامًا زائدًا، ويعظمه ويبجله. وكان ابن عباس يأخذ الركاب للحسن والحسين إذا ركبا، ويرى هذا مِنَ النعم. وكان إذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطمونهما مِمَّا يزدحمون عليهما للسلام عليهما، رضى الله عنهما وأرضاهما.

وكان عبد الله بن الزبير يقول: والله ما قامت النساء عن مثل الحسن[٢]. قال البيهقى فى كتابه « المحاسن والمساوى »: أتى الحسن بن على رضى الله عنهما إلى معاوية بن أبى سفيان، وقد سبقه ابن عباس، فأمر معاوية بإنزالهما فى محل فأنزلا، فبينما معاوية مع عمرو بن العاص ومروان بن الحكم وزياد بن أبيه، يتذاكرون قديمهم وحديثهم ومجدهم - إذ قال معاوية: أكثرتم الفخر، فلو حضر الحسن بن على وابن عباس لقصرا من أعينكم.

---

(١) في ط: أخذ. والمثبت من السبل.
(٢) ذكر هذه المحاسن كلها الإمام الصالحي في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٦٨-٦٩).

فقال زياد: وكيف ذاك يا أمير المؤمنين ؟ ما يقومان لمروان فى غرب منطقه، ولا لنا فى بواذخنا، فابعث إليهما حتى تسمع كلامهما. فقال معاوية لعمرو: ما تقول ؟ قال: هذا إليك، فابعث إليهما فى غد. فبعث معاوية ابنه يزيد إليهما فأتياه فدخلا عليه، وبدأ معاوية فقال: إنى أجلكما وأرفع قدركما عن المسامرة بالليل، ولا سيما أنت يا أبا محمد، فإنك ابن (١) رسول الله ﷺ، وسيد شباب أهل الجنة. فتشكرا له. فلما استويا فى مجلسهما وعلم عمرو أن الجرة (٢) ستقع به قال: والله لابد أن أقول؛ فإن قهرت فسبيلى ذاك، وإن قهرت أكون قد ابْتَدأت. فقال: يا حسن، إنا تفاوضنا فقلنا: إن رجال بنى أمية أصبر عند اللقاء، وأمضى فى الوغى، وأوفى عهدًا، وأكرم خيمًا، وأمنع ذمارًا لما وراء ظهورها من بنى عبد المطلب.

ثم تكلم مروان فقال: وكيف لا نكون كذلك وقد قارعناكم فغلبناكم، وحاربناكم فملكناكم، فإن شئنا عفونا وإن شئنا بطشنا. ثم تكلم زياد فقال: ما ينبغى لهم أن ينكروا الفضل لأهله، ويجحدوا الخير فى مظانه، نحن الحملة فى الحروب، ولنا الفضل على سائر الناس قديمًا وحديثًا.

فتكلم الحسن رضى الله عنه فقال: ليس من العجز أن يصمت الرجل عند إيراد الحجة، ولكن من الإفك أن ينطق بالخنا، ويصور الباطل بصورة الحق. يا عمرو افتخارًا بالكذب وجرأة على الإفك، ما زلت أعرف مثالبك الخبيثة أبديها مرة وأمسك أخرى، فتأبى إلا انهماكًا فى الضلالة، أتذكر مصابيح الدجى وأعلام الهدى، وفرسان الطراد وحتوف الأقران، وأبناء الطعان، وربيع الضيفان، ومعدن النبوة، ومهبط العلم.

وزعمتم أنكم أحمى لما وراء ظهوركم، وقد تبين ذلك يوم بدر حين نكصت الأبطال، وتساورت الأقران، واقتحمت الليوث(٣)، واعتركت المنية، وقامت [رحاها على قطبها، وافترت](٤) عن نابها، وطار شرار الحرب، فقتلنا رجالكم،

(١) في ط: من.
(٢) في المحاسن والمساوئ: الحدَّة.
(٣) في ط: البيوت. والمثبت من المحاسن والمساوئ.
(٤) في ط: رحلها على مطيها وفرت. والمثبت من المحاسن والمساوئ.

ومَنَّ النبى ﷺ على ذراريكم، فكنتم لعمرى فى هذا اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم.

ثم قال: وأما أنت يا مروان، فما أنت والإكثار فى قريش، وأنت طليق وأبوك طريد، تنقلب من خزية إلى سوءة، ولقد جىء بك إلى أمير المؤمنين، فلما رأيت الضرغام قد دميت براثنه واشتبكت أنيابه كما قال: [من الكامل]

لیثٌ إذا سَمِعَ الليوثُ زئيرَهُ   بَصْبَصْنَ ثُمَّ قذفْنَ بالأبعارِ

فلما منَّ عليك بالعفو، وأرخى خناقك بعد ما ضاق عليك، وغصصت بريقك، لا تقعد منا مقعد أهل الشكر، ولكن تساوينا وتحاربنا، ونحن ممن لا يدركنا عار، ولا تلحقنا خزاية. ثم التفت إلى زياد فقال: وما أنت يا زياد وقريشًا، ما أعرف لك فيها أديمًا صحيحًا، ولا فرعًا ثابتًا، ولا قديمًا بائتًا، ولا منصبًا[(١)] كريمًا، كانت أمك بغيًّا تداولها رجالات قريش وفجار العرب، فلما ولدت لم يعرف لك العرب والدًا فادعاك هذا - يعنى معاوية - بعد ممات أبيه ما لك افتخار، تكفيك سمية، ويكفينا رسول الله ﷺ، وأبى على بن أبى طالب، سيد المؤمنين، الذى لم يرتد على عقبيه، وحمزة سيد الشهداء، وجعفر الطيار، وأنا وأخى سيدا شباب أهل الجنة.

ثم التفت إلى ابن عباس فقال: يابن عم، إنما هى بغاث الطير انقض عليها أجدل. فأراد ابن عباس أن يتكلم، فأقسم عليه معاوية أن يكف فكف، ثم خرجا. فقال معاوية: أجاد عمرو الكلام لولا أن حجته دحضت، وقد تكلم مروان لولا أنه يكفر، ثم التفت إلى زياد فقال: ما دعاك إلى محاورتهما؟ ما كنت إلا كالحجل فى كف العقاب.

فقال عمرو لمعاوية: ألا رميت من ورائنا؟ فقال معاوية: إذا أشرككم فى الجهل؛ أفاخر رجلاً رسول الله جده؟! ، وهو سيد من مضى ومن بقى، وأمه فاطمة سيدة نساء العالمين. ثم قال لعمرو: والله لئن سمع به أهل الشام لهى السوأة السوءاء. فقال عمرو: لقد أبقى عليك، ولكنه طحن مروان [وزيادًا][(٢)] طحن الرحى بثفالها، ووطئها[(٣)] وطء البازل القراد بمنسمه.

(١) في المحاسن: منبتا.
(٢) المثبت من المحاسن والمساوئ.
(٣) في ط: وصلبها. والمثبت من المحاسن والمساوئ.

فقال زياد: قد والله فعل، ولكن معاوية يأبى إلا الإغراء بيننا وبينهم، لا جرم. والله لا شهدت مجلسًا يكونان فيه إلا كنت معهما على من فاخرهما. فخلا ابن عباس بالحسن، فقبل بين عينيه وقال: أفديك يابن عم، والله ما زال بحرك يزخر، وأنت تصور، حتى شفيتنى من أولاد البغايا.

ثم إن الحسن رضى الله عنه غاب أيامًا ثم رجع حتى دخل على معاوية، وعنده عبد الله بن الزبير فقال معاوية: يا أبا محمد، إنى أظنك تعبًا نصبًا، فأت المنزل فأرح نفسك. فقام الحسن، فلما خرج قال معاوية لعبد الله بن الزبير: لو افتخرت على الحسن، فإنك ابن حوارى رسول الله ﷺ، وابن عمته، ولأبيك فى الإسلام، نصيب وافر، فقال ابن الزبير: أنا له. فرجع وهو يطلب ليلته الحجج، فلما أصبح دخل على معاوية وجاء الحسن رضى الله عنه، فحياه معاوية وسأله عن مبيته فقال: خير مبيت وأكرم مستفاض.

فلما استوى به مجلسه قال ابن الزبير: لولا أنك خوار فى الحرب غير مقدام ما سلمت الأمر لهذا - يعنى معاوية - وكنت لا تحتاج إلى اختراق الآفاق، وقطع المفاوز تطلب معروفه وتقوم ببابه، وكنت حريًا ألا تفعل ذلك، وأنت ابن على ونائبه ونجدته، فما أدرى ما الذى حملك على ذلك ؟ ضعف رأى، أم وهدة مخبر(١)؟ فما أظن لك مخرجًا من هاتين الخلتين. أما والله لو استجمع لى ما استجمع لك لعلمت أنى ابن الزبير، وأنى لا أنكس عن الأبطال، وكيف لا أكون كذلك، وجدتى صفية بنت عبد المطلب، وأبى الزبير حوارى رسول الله ﷺ، وأشد الناس بأسًا، وأكرمهم حسبًا فى الجاهلية، وألوطهم برسول الله ﷺ.

فالتفت إليه الحسن وقال: أما والله لولا أن بنى أمية تنسبنى إلى العجز عن المقال لكففت عنك تهازيًا(٢)، ولكن سأبين ذلك لتعلم أنى لست بالعيى ولا الكليل اللسان، إياى تعير وعلى تفتخر ؟ ولم يكن لجدك بيت فى الجاهلية ولا مكرمة، فزوجه جدى صفية فتفاخر على جميع العرب بها وشرف بمكانها، فكيف تفاخر من هو من القلادة واسطتها، ومن الأشراف سادتها ؟ نحن أكرم أهل الأرض، لنا

---

(١) في المحاسن والمساوئ: وهن نجيزة.
(٢) في المحاسن والمساوئ: تهاونًا.

الشرف الثاقب، والكرم الغالب.

ثم تزعم أنى سلمت الأمر، فكيف يكون - ويحك - كذلك، وأنا ابن أشجع العرب، وقد ولدتنى فاطمة سيدة نساء العالمين، لم أفعل - ويحك - ذلك جبنًا ولا ضعفًا، ولكنه بايعنى مثلك وهو يطلبنى بترة، ويداجينى المودة، فلم أثق بنصرته لأنكم أهل بيت غدر، وكيف لا يكون كما أقول ؟ وقد بايع أبوك أمير المؤمنين، ثم نكث بيعته، ونكص على عقبيه، واختدع حشية من حشايا رسول الله ﷺ ليضل بها الناس، فلما خلف إلى الأعنة قتل بمضيعة لا ناصر له، وأتى بك أسيرًا وقد وطئتك الكماة بأظلافها والخيل بسنابكها، واعتلاك الأشتر فغصصت بريقك، وأقعيت على عقبيك كالكلب إذا احتوشته الليوث.

فنحن - ويحك - نور البلاد وملاكها، وبنا يفتخر الأئمة، وإلينا تلقى مقاليد الأزمة. أتصول وأنت بمختدع الشاء[1]؟!، ثم أنت تفتخر على بنى الأنبياء. لم تزل الأقاويل منا مقبولة، وعليك وعلى أبيك مردودة، دخل الناس فى دين جدى طائعين وكارهين، ثم بايعوا أمير المؤمنين، فساروا إلى أبيك وطلحة حين نكثا البيعة وخدعا عرس رسول الله ﷺ فقتل أبوك وطلحة، وأتى بك أسيرًا فبصبصت بذنبك وناشدته الرحم ألا يقتلك، فعفا عنك، فأنت عتاقة أبى، وأنا سيدك وسيد أبيك فذق وبال أمرك.

فقال ابن الزبير: اعذرنا يا أبا محمد، فإنما حملنى على محاورتك هذا، وأحب الإغراء بيننا، فهلا إذ جهلتُ أمسكت عنى؛ فإنكم أهل بيت سجيتكم الحلم والعفو. فقال الحسن: يا معاوية، انظر هل أكيع عند محاورة أحد ؟ ويحك، أتدرى من أى شجرة أنا، وإلى من أنتهى ؟ انته قبل أن أسمك بميسم تتحدث به الركبان فى الآفاق والبلدان. فقال ابن الزبير: هو لذلك أهل. فقال معاوية: فلا أراك تفتخر على أحد بعدها.

واستأذن الحسن بن على - رضى الله تعالى عنهما - على معاوية فأذن له، وعنده عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص، فلما أقبل قال عمرو: قد جاءكم الأقدُّ[2] العييُّ

(١) في المحاسن والمساوئ: تختدع النساء.
(٢) في المحاسن والمساوئ: الفهُّ.

الذى كأن بين لحييه عبلة. فقال عبد الله بن جعفر: مه، فوالله لقد رمت صخرة ململمة تنحط عنها السيول، وتقصر دونها الوعول، ولا تبلغها السهام، فإياك والحسن إياك؛ فإنك لا تزال راتعًا فى لحم رجل من قريش، ولقد رميت فما برح سهمك، وقدحت فما أورى زندك. فسمع الحسن الكلام فلما أخذ الناس مجالسهم قال الحسن: يا معاوية، لا يزال عندك عبدًا راتعًا فى لحوم الناس ؟ أما والله لئن شئت ليكونن بيننا ما تتفاقم فيه الأمور، وتحرج منه الصدور، ثم أنشأ يقول: [من الوافر]

أتأمُرُ يا معاويَ عَبْدَ سهم ... بشتْمِى والملا مِنَّا شهودُ
إذا أخذَتْ مجالسَهَا قريشٌ ... فقدْ علمَتْ قريشٌ ما تريدُ
قَصَدتَ إليَّ تَشْتِمنى سفاهًا ... لضغْنٍ ما يزولُ وما يبيدُ
فما لَكَ مِنْ أبٍ كأبى تسامي ... به مَنْ قد تسامي أو تكيدُ
ولا جَدٌّ كجدِّى يابن هندٍ ... رسولُ الله إن ذكِر الجدودُ
ولا أمٌ كأمى مِنْ قريشٍ ... إذا ما حُصِّلَ الحسبُ التليدُ
فما مِثْلِى تهكّم يابنَ هندٍ ... ولا مثلى تُجَارِيهِ العبيدُ
فمهلاً لا تَهِجْ منى أمورًا ... يشيبُ لها معاوية الوليدُ(١)

وذكروا أن عمرو بن العاص قال لمعاوية ذات يوم: ابعث إلى الحسن بن على فمره أن يخطب، فلعله أن يحصر فيكون ذلك مما يعير به. فبعث إليه معاوية فأصعده المنبر وقد جمع له الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، من عرفنى فأنا الذى يعرف، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على بن أبى طالب ابن عم النبى ﷺ أنا ابن البشير النذير، السراج المنير، أنا ابن من بعث رحمة للعالمين وسخطًا على الكافرين، أنا ابن من بعث إلى الجن والإنس، أنا ابن المستجاب الدعوة، أنا ابن الشفيع المطاع، أنا ابن أول من ينفض رأسه من التراب، أنا ابن أول من يقرع باب الجنة، أنا ابن من قاتلت معه الملائكة، نصر بالرعب من مسيرة شهر. فافتن(٢) فى هذا الكلام ولم يزل حتى أظلمت الدنيا على معاوية فقال: يا حسن، قد

(١) الشطر الثاني في المحاسن والمساوئ:
... ... يشيب لهولها الطفل الوليد

(٢) في ط: فاحتز، والمثبت من المحاسن والمساوئ.

كنت ترجو أن تكون خليفة ولست هناك، فقال الحسن: إنما الخليفة من سار بسيرة نبى الله ﷺ، وعمل بطاعة الله تعالى، وليس الخليفة من دان بالجور، وعطل السنن، واتخذ الدنيا أبًا وأمًّا، ولكن ذاك ملك أصاب ملكًا تمتع به قليلاً، وكان قد انقطع عنه فتعجل لذته، وبقيت عليه تبعته، فكان كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأنبياء: ١١١] ثم انصرف. فقال معاوية لعمرو: والله ما أردت إلا هتكى، ما كان أهل الشام يرون أن أحدًا مثيلى حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا.

وقدم عليه مرة أخرى، فوجد عنده عمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، والمغيرة بن شعبة، وصناديد قومه، ووجوه أهل اليمن وأهل الشام، فلما نظر إليه معاوية وثب وأقعده على سريره، وأقبل عليه بوجهه يريد السرور بمقدمه، فلما نظر مروان إلى ذلك حسده. وكان معاوية قد قال لهم: لا تحاوروا هذين الرجلين - يعنى الحسن وابن عباس - فلقد قلداكم العار وفضحاكم عند أهل الشام.

فقال مروان: يا حسن، لولا صلة أمير المؤمنين وما قد بنى له آباؤه الكرام من المحل والعلاء، ما أقعدك هذا المقعد، ولقتلك وأنت له مستوجب بقودك الجماهير، فلما أحسست بنا، وعلمت أَنْ لا طاقة لك بفرسان أهل الشام، وصناديد بنى أمية - أذعنت بالطاعة، واحتجزت بالبيعة، وبعثت تطلب الأمان، أما والله لولا ذاك لأريق دمك، وعلمت أنا نعطى السيوف حقها عند الوغى، فاحمد الله تعالى إذا ابتلاك بمعاوية فعفا عنك،ثم صنع بك ما ترى.

فنظر إليه الحسن فقال: ويحك يا مروان، لقد تقلدت مقاليد العار فى الحروب عند مشاهدتها، والمحاولة[1] عند مخالطتها، نحن - هبلتك الهوابل - [لنا] الحجج البوالغ.

ولنا إن شكرتم - عليكم النعم السوابغ - ندعوكم إلى النجاة وتدعوننا إلى النار، فشتان ما بين المنزلتين. تفخر ببنى أمية وتزعم أنهم صُبر فى الحروب أسد عند اللقاء؟ ثكلتك أمك؛ أولئك البهاليل السادة، والحماة القادة، بنو عبد المطلب، أما والله لقد رأيتهم وجميع من فى هذا البيت ما هالتهم الأهوال، ولم يحيدوا عن

(١) في المحاسن والمساوئ: والمخاذلة.

الأبطال، كالليوث الضارية الباسلة الخفية[١] فعندها وليت هاربًا وأخذت أسيرًا، فقلدت قومك العار، لأنك فى الحروب خوَّار. أيراق دمى زعمت، أفلا أرقت دم من وثب على عثمان فى الدار فذبحه كما يذبح الجمل، وأنت تثغو ثغاء النعجة، وتنادى بالويل والثبور كالأمة اللكعاء[٢]، ألا دافعت عنه بيدٍ، أو ناضلت عنه بسهم، لقد ارتعدت فرائصك، وغشى بصرك فاستغثت بى كما يستغيث العبد بربه؛ فأنجيتك من القتل ومنعتك منه، ثم تحثُّ معاوية على قتلى، ولو رام ذلك معك لذبح كما ذبح ابن عفان.

أنت معه أقصر يدًا وأضيق باعًا، وأجبن قلبًا أن تجسرا على ذلك. ثم تزعم أنى ابتليت بحلم معاوية، أما والله لهو أعْرَف بشأنه، وأشكر لما وليناه هذا الأمر، فمتى بدا له فلا يغضى جفنه على القذى معك، فوالله لألحقن بأهل الشام بجيش يضيق عنه فضاؤها، ويستأصل فرسانها، ثم لا ينفعك عند ذلك الهرب والروغان، ولا ترد عنك الطلب يذرعك فى الكلام.

فنحن من لا نجهل، آباؤنا القدماء الأكابر، وفروعنا السادة الأخيار، وانطق إن كنت صادقًا. فقال عمرو: ينطق بالخنا وتنطق بالصدق. ثم أنشأ يقول: [من البسيط]

قد يَضْرطُ العيرُ والمكواةُ تأخذُهُ ويضرطُ العيرُ والمكواةُ فى النارِ

ذق وبال أمرك يا مروان. وأقبل عليه معاوية فقال: قد نهيتك عن هذا الرجل فأنت تأبى إلا انهماكًا فيما لا يعنيك، اربع على نفسك، فليس أبوك كأبيه ولا أنت مثله، أنت ابن الطريد الشريد، وهو ابن رسول الله ﷺ الكريم، فقال ارم من دون قبضتك، وقم بحجة عشيرتك. ثم قال مروان لعمرو: طعنك أبوه فوقيت نفسك بخصيتك فلذلك تحذره . وقام مغضبًا. فقال معاوية: لا تحاور البحور فتغمرك، ولا الجبال فتبهرك، واسترح من الاعتذار.

ولقى عمرو بن العاص الحسن بن على - رضى الله عنهما - فى الطواف فقال له: يا حسن، أزعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك ؟ فقد رأيت الله عز وجل

---

(١) في المحاسن والمساوئ: الحنقة.
(٢) في ط: الوكعاء. والمثبت من المحاسن والمساوئ.

أقامه بمعاوية، فجعله رأسًا بعد ميله، وَبَيِّنًا بعد خفائه، أفرضى الله قتل عثمان ؟ أم من الحق أن تدور بالبيت كما يدور الحمار بالطحين ؟ عليك ثياب كغرفئ البيض، وأنت قاتل عثمان. والله إنه لألمُّ للشعث، وأسهل للوعث، أن يوردك[(١)] معاوية حياض أبيك.

فقال الحسن رضى الله عنه: إن لأهل النار علامات يعرفون بها، وهى الإلحاد لأولياء الله تعالى، والموالاة لأعداء الله تعالى، الله إنك لتعلم أن عليًّا رضى الله تعالى عنه لم يرتب فى الأمر، ولم يشك فى الله طرفة عين، وايم الله لتنتهين يابن أم عمرو أو لأقرعن جبينك بكلام تبقى سمته عليك ما حييت، فإياك والإنزار على؛ فإنى مَنْ قد عرفت؛ لست بضعيف الغمزة، ولا بهش المشاشة، ولا بمرىء المأكلة، وإنى من قريش فى وسط القلادة يُعرف حسبى، ولا أدعى لغير أبى، وقد تحكمت فيك قريش فغلب عليك ألأمُهم نسبًا وأعظمهم لعنة؛ فإياك عنى فإنك رجس، وإنما نحن أهل بيت الطهارة أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيرًا.

وقيل: واجتمع مرة أخرى بالحسن، فقال الحسن: قد علمت قريش بأسرها أنى منها فى أعز أرومتها؛ لم أطلع على ضعف، ولم أعكس على خسف، أعرف بشبهى، وأدعى لأبى. فقال عمرو: قد علمت قريش أنك من أقلها عقلاً وأكثرها جهلاً، وإن فيك خصالاً لو لم يكن منها إلا واحدة لشملك خزيها كما شمل البياض الحلك. والله لتنتهين عما أراك تصنع، أو لألبسن لك حافة كجلد العائط[(٢)] أرميك من خللها بأحد من وقع الأثافى. أغرك منها أديمك[(٣)] عرك السلقة[(٤)]؟ ما لك طالما ركبت صعب المنحدر، ونزلت فى عراص الوعر؛ التماسًا للفرقة وارتصادًا للفتنة ؟ ولن يزيدك الله تعالى فيها إلا ضياعة.

فقال الحسن رضى الله تعالى عنه: أما والله لو كنت تسمو بحسبك، وتعمل برأيك، ما سلكت فج قصدٍ، ولا حللت رابية مجد. وايم الله لو أطاعنى معاوية فجعلك بمنزلة العدو الكاشح؛ فإنك طالما طويت على هذا كشحك، وأخفيته فى

(١) في ط: يدرك. والمثبت من المحاسن والمساوئ.
(٢) العائط من الإبل: ما أنزى عليها فلم تحمل. وفي ط: العامط.
(٣) في ط: مما أدعك. والمثبت من المحاسن والمساوئ.
(٤) في المحاسن والمساوئ: السلعة.

صدرك، وطمح بك الرجا إلى الغاية القصوى التى لا يورق فيها غصنك، ولا يخضر بها مرعاك، أما والله ليوشكن يا ابن العاص أن تقع بين لحيى ضرغام من قريش، فرى ممتنع فروس ذى لبد، يضغطك ضغط الرحى للحب، لا ينجيك منه الروغان إذا التفت حلقتا البطان، انتهى[١].

وذكر هذا البيهقى فى كتابه المسمى « المحاسن والمساوئ »: وكان لرجل على أبى عتيق مال فتقاضاه، فقال أبو عتيق: ائتنى العشية فى مجلس كذا فسلنى عن بيت قريش، فأتاه الغريم فى ذلك المجلس وفيه وجوه قريش والحسن بن على، فقال الغريم: يا أبا عتيق إنا تلاحينا فى بيت قريش ورضينا بك حكمًا، فقال: آل حرب. فقال الغريم: ثم من ؟ فقال: آل أبى العاص. فشق ذلك على الحسن.

فقال الغريم: فأين بنو عبد المطلب ؟ فقال: لم أكن أظن أن تسألنى عن غير بيت الآدميين؛ فأما إذ صرت تسألنى عن بيت الملائكة، وعن رسول رب العالمين، وسيد كل شهيد، والطيار مع الملائكة، فمن يسامى هؤلاء فخرًا إلا وهو منقطع دونهم. فانجلى عن الحسن رضى الله عنه. ثم قال لأبى عتيق: إنى لأحسب أن لك حاجة. قال: نعم يابن رسول الله، لهذا [علّي] كذا وكذا. فاحتملها عنه، ووصله بمثلها.

وذكروا أن رجلين أحدهما من بنى هاشم، والآخر من بنى أمية، قال هذا: قومى أسمح، وقال هذا: قومى أسمح، قال: فاسأل أنت عشرة من قومك، وأسأل أنا عشرة من قومى، فانطلق صاحب بنى أمية فسأل عشرة فأعطاه كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، وأتى صاحب بنى هاشم إلى الحسن بن على رضى الله عنهما فأمر له بمائة وخمسين ألف درهم، ثم أتى الحسين بن على رضى الله عنهما فقال له: هل بدأت بأحد قبلى ؟ قال: بدأت بأخيك الحسن، فقال: ما أستطيع أن أزيد على سيدى، فأعطاه مائة وخمسين ألف درهم. فجاء صاحب بنى أمية يحمل مائة ألف من عشرة أنفس؛ وجاء صاحب بنى هاشم يحمل ثلاثمائة ألف من نفسين، فغضب صاحب بنى أمية فردها عليهم فقبلوها، وجاء صاحب بنى هاشم فردها عليهما فأبيا أن يقبلاها، وقالا: ما كنا نبالى أخذتها أم ألقيتها فى الطريق[٢].

---

(١) ينظر: المحاسن والمساوئ (٧٣-٨١).
(٢) ينظر: المحاسن والمساوئ (٥٢-٥٣).

وقال أبو جعفر الباقر: جاء رجل إلى الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما فاستعان به فى حاجة فوجده معتكفًا فاعتذر إليه، فذهب إلى أخيه الحسن فاستعان به فقضى حاجته، وكان معتكفًا، وقال: لَقَضَاءُ حاجة أخٍ لى فى الله عز وجل أحبُّ إليَّ من اعتكاف شهر.

وكان - رضى الله عنه - كثير التزويج، فكان لا تفارقه أربع حرائر، وكان مطلاقًا مصدقًا، وكان أبوه على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول: يا أهل الكوفة، لا تزوجوه فإنه مطلاق، فيقولون: والله يا أمير المؤمنين، لو خطب إلينا كل يوم زوجناه منا، ابتغاء فى صهر رسول الله ﷺ(١).

ورأى الحسن فى منامه كأن مكتوبًا بين عينيه ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] فبلغ ذلك سعيد بن المسيب رضى الله عنه فقال: إن كان رأى هذه الرؤيا فقلَّ ما بقى من أجله. فلم يلبث الحسن بن على بعد ذلك إلا أيامًا حتى مات. وقد أوصى أخاه الحسين ألا يطلب الخلافة، ورغبه فى الزهد فى الدنيا والعزوف عنها، إلى غير ذلك من وصايا كثيرة قال فى آخرها: أبى الله أن يجعل فينا أهل البيت مع النبوة الخلافة والملك والدنيا؛ فإياك وسفهاء أهل الكوفة أن يستخفوك فيخرجوك، فتندم حيث لا ينفعك الندم، ثم رفع طرفه إلى السماء فقال: « اللهم إنى أحتسب نفسى عندك، فإنى لم أصب بمثلها، فارحم صرعتى، وآنس فى القبر وحدتى، وأقل عثرتى، يا أرحم الراحمين »(٢).

قال العلامة المسعودى فى « المروج »: عن على بن الحسين قال: دخل أبى الحسين على عمى الحسن حدثان ما سقى السم، فقام عمى الحسن لقضاء الحاجة ثم رجع فقال: لقد سقيت السم عدة مرات فما سقيت مثل هذه، ولقد لفظت طائفة من كبدى فرأيتنى أنكثه بعود فى يدى، فقال له أبى: يا أخى، من سقاك ؟ قال له: وما تريد من ذلك ؟ فإن كان الذى أظن فالله حسيبه، وإن كان غيره فما أحب أن يؤخذ بى برىءٌ، فلم يلبث أن توفى رضى الله تعالى عنه.

وذكر بأنَّ امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندى قد بعث إليها يزيد: إن

---

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٦٩).
(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٤٣٨).

احتلت فى قتل الحسن وجهت إليك مائة ألف درهم وتزوجتك، فكان هذا الذى بعثها على سَمِّه. فلما مات وفَّى لها بالمال وأرسل إليها: إنا لم نرضك للحسن فكيف نرضاك لأنفسنا ؟! والله أعلم بصحة ذلك.

وقال الشاعر النجاشى - وكان من شيعة على - فى شعر طويل يرثيه به، منه قوله: [من السريع]

جَعْدَةَ ابكِيهِ ولا تَسْأَمى   جعد بكاء المعول الشاكلِ
لم تسبلى السِّتْرَ على مثْلِهِ   فى الأرضِ مِنْ حافٍ ومن ناعلِ

وقال آخر: [من المتقارب]

تَعَزَّ فكَمْ لكَ من سالفٍ[1]   يفرجُ عنك عليلَ الحَزَنْ
بموتِ النبيِّ وقَتْلِ الوصىِّ   وقَتْلِ الحُسَيْنِ وسمِّ الحَسَنْ[2]

وكانت وفاته لخمس خلون من ربيع الأول سنة خمسين، وقيل: اثنتين وخمسين من الهجرة، ودفن بالبقيع فى قبة عمه العباس بن عبد المطلب.

ولما دفن وقف محمد ابن الحنفية أخوه على قبره فقال: لئن عزت حياتك فقد هزت وفاتك، ولنعم الروح روح تضمنها كفنك، ولنعم الكفن كفن تضمنه بدنك، وكيف لا يكون هذا وأنت عضيد الهدى، وعتيد التُّوى وخلف[3] أهل التقى، وخامس أهل الكسا. غذتك بالتقوى أكف الحق، وأرضعتك ثدى الإيمان، وربيت فى حجر الإسلام، فطب حيًا وميتًا، وإن كانت أنفسنا غير سخية بفراقك، رحمك الله أبا محمد. ثم تمثل بقول القائل: [من الطويل]

أأدهُنُ رأسي أم تطيبُ مجالسى   وخدّكَ معفورٌ[4] وأنتَ سليبُ ؟!
سأبكِيكَ ما ناحَ الحمامُ بأيكةٍ   وما اخضَرَّ فى أرضِ الحجازِ قضيبُ
غريبٌ وأكنافُ الحجازِ تحوطُهُ   ألا كُلُّ ما تحتَ الترابِ غريبُ[5]

---

(١) هذا الشطر في المروج:
تأس فكم لك من سلوة
(٢) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٥، ٦).
(٣) في ط: وحليف. والمثبت من المروج.
(٤) في ط: وجدّك معقور. والمثبت من المروج.
(٥) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٦-٧).

كان - رضى الله عنه - قد أوصى إلى أخيه الحسين أن يدفنه مع جده رسول الله ﷺ إن وجد إلى ذلك سبيلاً، فإن منعت فادفنى بـ« البقيع ». فلما مات لبس الحسين ومواليه السلاح وخرجوا به ليدفنوه، فخرج مروان بن الحكم فى موالى بنى أمية، وهو يومئذ عامل المدينة لمعاوية ليمنعه، فخرج أبو هريرة، فرده الحسين وأقسم عليه؛ فذهب بالحسن، فدفن بـ« البقيع » فى قبر فى قبة العباس ودفن فى هذا القبر أيضًا على زين العابدين، وابنه محمد الباقر، وابنه جعفر الصادق، فهم أربعة فى قبر واحد، أكرم به قبرًا. وفى ذكرى أنه دفن فيه أيضًا رأس الحسين أتى به من « دمشق » فدفن. والله أعلم(١).

ومشى مروان فى جنازة الحسن وبكى؛ فقيل له: أتبكى عليه وقد كنت تفعل به ما تفعل ؟ فقال: كنت أفعل ذلك مع من هو أعظم من هذا، وأشار إلى جبل أحد.

صفته رضى الله عنه

كان أبيض اللون مشربًا بالحمرة، أدعج العينين، سهل الخدين، دقيق المسربة، ذا وفرة كأن عنقه إبريق فضة، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، ربعة، من أحسن الناس وجهًا، كان أشبه الناس برسول الله ﷺ من تحت الصدر إلى الرأس. عمره سبع وأربعون سنة، وقيل: ثمان وأربعون، كان منها مع جده رسول الله ﷺ سبع سنين، ومع أبيه عليٍّ بعد وفاة رسول الله ﷺ ثلاثين سنة، وعاش بعد وفاة أبيه على كرم الله وجهه إلى حين وفاته رضى الله عنه عشر سنين، مدة خلافته منها ستة أشهر وثلاثة أيام(٢).

أولاده تسعة عشر ولدًا: تسعة ذكور، الحسن، وزيد، وحسين الأثرم، وعبد الله، وأبو بكر، وعبد الرحمن، والقاسم، وطلحة، وعمر، قاله البلاذرى، وذكر المحب الطبرى فى « ذخائر العقبى » نقلاً عن الدولابى أنهم خمسة: الحسن، وزيد، وعبيد الله، وعمر، وإبراهيم. وعن أبى بكر بن الدراع أنهم أحد عشر ذكرًا وبنت: عبد الله القاسم، والحسن، وزيد، وعمر، وعبيد الله، وعبد الرحمن، وأحمد، وإسماعيل، والحسين، وعقيل، والأنثى: أم الحسن. وعلى كل الروايات: العقب منه فى رجلين

---

(١) ينظر: الاستيعاب (١/ ٤٤٢).

(٢) ينظر: مصادر ترجمته وقد تقدم ذكرها.

فقط هما زيد والحسن المثنى.

وكان قد أعقب - أيضًا - من الحسين الأثرم وعمر، لكن انقرض عقبهما، فلم يبق للحسن السبط إلا من هذين الشخصين: الحسن المثنى وزيد ابنى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه(١).

* * *

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٧٠).
وثبت في النسخة الثالثة وفي ط:
وهذا آخر الجزء وهو آخر النصف الأول من (النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى) والحمد لله رب العالمين.
وكان الفراغ من نسخ هذا التاريخ فى يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة خامس عشرين ذى القعدة الحرام من شهور سنة ١١٣٨على يد الفقير إلى ربه محمد ابن المرحوم الشيخ سليمان ابن أحمد حينون عفا الله عنهما آمين.
وصلى الله على من لا نبى بعده محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته الطاهرين
ووجد بهامش الصفحة الأخيرة من الأصل المخطوط:
بلغ مقابلة بحسب الطاقة على نسخة سقيمة ولله الحمد والمنة.
وتحته:
بلغ مقابلة مرة ثانية على نسخة سقيمة فصح إن شاء الله، ما عدا مواضع مشكّك عليها، فلتصحح. ولله الحمد والمنة.

المقصد الرابع
وفيه سبعة أبواب
الباب الأول
فى الدولة الأموية[١]

لا يخفى أنه كان لبنى عبد مناف فى قريش محل من العدد والشرف لا يناهضهم فيه أحد من بطون قريش، وكان فخذاهم: بنو أمية وبنو هاشم حيًا جميعًا يباهون بعبدِ مناف وينتمون إليه، وجميع قريش تعرف ذلك وتسلم لهما الرياسة عليهما؛ إلا أن بنى أمية كانوا أكثر عددًا من بنى هاشم وأوفر رجالاً، والعزة إنما هى بالكثرة؛ قال الشاعر: [من السريع]

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى ... وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

وكان لهم قبل الإسلام شرف معروف انتهى إلى حرب بن أمية، وكان رئيسهم يوم حرب الفجار الأول والثانى، وقد تقدم ذكره فى سيرته ﷺ.

وقد روى أن قريشًا تواقعوا ذات يوم وحربٌ مسند ظهره إلى الكعبة، فتبادر إليه غلمة منهم ينادون: يا عم، أدرك قومك ! فقام يجر إزاره، حتى أشرف عليهم من بعض الروابى، ولوَّح بطرف ثوبه إليهم أن تعالوا، فتبادرت الطائفتان إليه بعد أن كان حَمِيَ وطيسهم.

وكان إذا مرّ مع أشراف قريش فوصلوا إلى ثنية أو حلق ربع لم يتقدمه أحد.

---

(١) لم يتعرض تاريخ دولة إسلامية ما للنقد والخلاف في وجهات النظر مثلما تعرض تاريخ دولة الأمويين وهذا لا يرجع إلى ضعف الدولة في عهدهم بل العكس تماما حيث إن هذه الدولة لها جهود مشكورة وعظيمة في جميع مناحى الحياة في الدولة الإسلامية عسكريًا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيًا. ولكن مصدر هذا الخلاف والنقد أنها-لسوء طالعها- جاءت بعد دولة عظيمة في كل شيء بلغت حد الدولة المثالية ألا وهى دولة الخلافة الراشدة لذلك جاءت أعمالهم- وإن عظمت- قليلة بالنسبة إلى هؤلاء لذلك جاءت المقارنة في غير صالحهم وتنظر أخبار دولة بني أمية في البداية والنهاية (١٨/٨)، تاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وأربعين (ص٥)، تاريخ خليفة (ص٢٠٣)، تاريخ الطبري (١٥٩/٥، ١٦٠)، الكامل لابن الأثير (٣/ ٤٠٤) تهذيب تاريخ دمشق (٢٢٣/٤)، مرآة الجنان (١١٨/١، ١١٩) نهاية الأرب (٢٠/ ٢٢٥، ٢٢٦)، مقاتل الطالبِيِّينَ (٦٣، مروج الذهب (١٨٨/٣)، وما بعدها، تاريخ الخلفاء (١٩٤) المعارف (٣٤٤)، المعرفة والتاريخ (١/ ٣٠٥).

فلما جاء الإسلام ودهش الناس لما وقع من أمر النبوة والوحى وتنزل الملائكة وما وقع من خوارق الأمور، نسى الناس أمر العصبية مسلمهم وكافِرهم.

أما المسلمون: فنهاهم الإسلام عن أمور الجاهلية؛ كما فى الحديث الشريف « إن الله أذهب عنكم حمية الجاهلية وفخرها؛ لأنا وأنتم بنو آدم، وآدم من تراب »(١).

وأما المشركون: فشغلهم ذلك الأمر العظيم عن أمر العصائب وذهلوا عنه حينًا من الدهر؛ ولذلك لما افترق أمر بنى أمية وبنى هاشم بالإسلام إنما كان ذلك الافتراق بحصار بنى هاشم فى الشعب لا غير، ولم يقع كبير فتنة؛ لأجل نسيان العصبيات والذهول عنها بالإسلام.

حتى كانت الهجرة وشرع الجهاد ولم تبق إلا العصبية الطبيعية التى لا تفارق، وهى نفرة الرجل على أخيه وجاره فى القتل والعدوان عليه، فهذه لا يذهبها شيء ولا هى محظورة، بل هى مطلوبة ونافعة فى الجهاد والدعاء إلى الدين.

كذا فى تاريخ ابن خلدون.

قلت: قوله: « ولم تبق إلا العصبية الطبيعية... إلى آخره » صحيح لا شك فيه؛ مصداقه: قول صفوان بن أمية، عندما انكشف المسلمون يوم حنين؛ إذ قال - وهو إذ ذاك مشرك فى المدة التى جعلها رسول الله ﷺ له مهلة ليسلم بعدها حين استمهله تلك فى الإسلام، وفى حفظى أنه طلب مدة شهر فأعطاه رسول الله ﷺ مهلة شهرين، فخرج معه - عليه الصلاة والسلام - إلى حنين لأخيه لما سمعه يقول: ألا بطل السحر لا يرد هاربهم إلا البحر: « بِفِيكَ الكثكث ! لأن يربنى رجل من قريش خير لى من أن يربنى رجل من هوازن رئيسهم مالك بن عوف »(٢)؛ فلا باعث له على قوله ذاك إلا العصبية الطبيعية لقومه قريش على هوازن.

ثم إن شرف بنى عبد مناف لم يزل فى بنى أمية وبنى هاشم، فلما هلك أبو طالب وهاجر بنوه مع رسول الله ﷺ وحمزة كذلك؛ ثم بعده العباس، والكثير من بنى عبد المطلب وسائر بنى هاشم - خلا الجو حينئذ من مكان بنى هاشم بمكة

(١) أخرجه أبو داود (٥١١٦) وأحمد (٢/ ٣٦١، ٣٦٦، ٥٢٣) والترمذي (٣٩٥٥، ٣٩٥٦) من حديث أبي هريرة وقال الترمذي: حديث حسن.

(٢) تقدم في غزوة حنين.

واستغلظت رياسة بنى أمية فى قريش، ثم استلحمت مشيخة قريش من سائر البطون يوم بدر وهلك فيها عظماء من بنى عبد شمس عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وعتبة بن أبي معيط، وغيرهم، فاستقل أبو سفيان بن حرب بشرف بنى أمية والتقدم فى قريش، وكان رئيسهم يوم أحد وقائدهم يوم الأحزاب، وهى وقعة الخندق.

ولما كان الفتح قال العباس - وكان صديقًا لأبى سفيان - للنبى ﷺ: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له ذكرًا غدًا - وكان ذلك ليلة دخول مكة - فقال النبى ﷺ: « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن »(١)، ثم مَنَّ على قريش بعد أن ملكهم يومئذ وقال: « اذهبوا فأنتم الطُلَقَاءُ »(٢)، ثم أسلمت مشيخة قريش بعد ذلك، وشكت مشيخة قريش إلى أبى بكر ما وجدوا فى أنفسهم من التخلف عن رتبة المهاجرين الأولين، وما بلغهم من كلام عمر - رضى الله تعالى عنه - فى تركه شوراهم، فاعتذر إليهم أبو بكر وقال: « أدركوا إخوانكم بالجهاد »، وأنفذهم لحرب أهل الردة، فأحسنوا الغناء فى الإسلام، وقَوَّموا الأعراب عن الجنف والميل.

ثم لما ولى عمر، رمى بهم الرومَ وفارس، وأوعبت قريش فى النفير إلى الشام وكان معظمهم هنالك، واستعمل يزيد بن أبى سفيان على الشام وطال أمد ولايته إلى أن هلك فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة، فولى عمر مكانه أخاه معاوية بن أبى سفيان، فأقره عثمان بعد عمر، فاتصلت رياستهم على قريش فى الإسلام برياستهم قبيل الفتح التى لم تحل صبغتها ولا نسى عهدها أيام شغل بنى هاشم بأمر النبوة وتبدّد الدنيا من أيديهم بما اعتاضوا عنها من مباشرة الوحى وشرف القرب من الله تعالى برسوله.

وما زال الناس يعرفون ذلك لبنى أمية، وانظر مقالة حنظلة بن زياد الكاتب لمحمد

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٠٧) كتاب الجهاد: باب فتح مكة حديث (٨٦/ ١٧٨٠) وأبو داود (٢/ ١٧٨) كتاب الخراج باب ما جاء في خبر مكة حديث (٣٠٢٤) وأحمد (٢/ ٥٣٨) والدارقطني (٣/ ٦٠-٦١) كتاب البيوع حديث (٢٣٣) والبيهقي (٦/ ٣٤) كتاب البيوع: باب ما جاء في بيع دور مكة، وفي «دلائل النبوة» (٥/ ٥٦) والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٦٤٣، ٦٤٤- بتحقيقنا) كلهم من طريق عبد الله بن رباح عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١١٨)، وينظر: فتح مكة.

ابن أبى بكر: « إن هذا الأمر إن صار إلى التغالب، غلبك بنو عبد مناف ».

ولما هلك عثمان، واختلف الناس على عليٍّ، كانت عساكر عليٍّ أكثر عددًا لمكان الخلافة والفضل، إلا أنها من سائر القبائل من ربيعة ويمن وهمدان وخزاعة وغيرهم، وجموع معاوية إنما هى جند الشام من قريش شوكة مضر وبأسهم، نزلوا بثغور الشام منذ الفتح، وكانت عصبته أشد وأمضَىٰ شوكة.

ثم كسر من جَنَاحِ عليٍّ - كرم الله وجهه - ما كان من أمر الخوارج، وشغل بهم إلى أن هلك، واجتمع الناس على الحسن من بعده، فحقن الدماء وسكن النائرة، ودفع الأمر إلى معاوية وخلع نفسه، واتفقت الجماعة على بيعة معاوية.

* * *

خلافة معاوية بن أبى سفيان(١)

قال العلاَّمة ابن خلدون الحضرمى فى تاريخه المسمى: « بالعِبَر وديوان المبتدأ والخبر فى أخبار العرب والعجم والبربر »: كان اتفاق الجماعة منتصف سنة إحدى وأربعين، وسمى ذلك العام « عام الجماعة » عندما نسى الناس النبوة والخوارق ورجعوا إلى أمر العصبية والتغالب وتعين بنو أمية للغلب على مضر وسائر العرب، ومعاوية يومئذ كبيرهم، فلم تتعده الخلافة ولا ساهمه فيها غيره، واستوت قدمه واستفحل شأنه واستحكمت فى مضر رياسته وتوثق عهده، وأقام فى سلطانه وخلافته عشرين سنة ينفق من بضاعة السياسة التى لم يكن أحد من قومه أوفر منه فيها؛ يدامل أهل الترشيح من ولد فاطمة وبنى هاشم وآل الزبير وأمثالهم، ويصانع رءوس العرب وقرون مضر بالإغضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه، وكانت غايته فى الحلم لا تدرك، وعصاه لا تقرع، ومرقاته فيه تزل عنها الأقدام:

منها: ما روى أنه مازح عدى بن حاتم يومًا يؤنبه بصحبة على - رضى الله تعالى عنه - فقال له عدى: « والله، إن القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا، وإن السيوف التى قاتلناك بها لعلى عواتقنا، ولئن أدنيت إلينا شبرًا من الشر، لندنينَّ إليك من الشر باعًا، وإن حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم، لأهونُ علينا من أن نسمع المساءة فى عليٍّ - كرم الله تعالى وجهه - السيف يا معاوية، يبعث السيف ! »، فقال معاوية: هذه كلمات حق فاكتبوها، وأقبل على عدى بالمقالة محدثًا.

أمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن أمية بن عبد شمس، أسلمت يوم فتح مكة وبايعت النبى ﷺ وهو على الصفا، وعمر - رضى الله عنه - دونه، فجاءته فى نسوة من قريش يبايعْنَ على الإسلام، وعمر - رضى الله عنه - يكلمهنَّ عن رسول الله ﷺ، فلما أخذ عليهن أن لا يشركن بالله شيئًا، قالت هند: قد علمنا أنه لو كان مع الله

---

(١) ينظر: مصادر دولة بني أمية، وينظر في ترجمة معاوية فضلا عن ذلك في موسوعة رجال الكتب الستة (٤/ ٥، ٦)، تهذيب الكمال (٣/ ١٣٤٤)، تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٠٧)، ٣٨٥)، خلاصة تهذيب الكمال (٣/ ٣٩)، الكاشف (٣/ ١٥٧)، تاريخ البخاري الكبير (٧/ ٣٢٦)، الثقات (٣/ ٣٧٣)، أسد الغابة (٥/ ٢٠٩)، البداية والنهاية (٨/ ٢٩)، شذرات الذهب (١/ ٤١٨) تجريد أسماء الصحابة (٢/ ٨٣).

غيره، لأغنَىٰ عنا، فلما قال: « ولا يسرقن » قالت: لكنْ يا رسول الله، أبو سفيان رجل ممسك، وربما أخذتُ من ماله بغير علمه ما يصلح ولده، فقال لها رسول الله ﷺ: « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف »، ثم قال: « أئنك لأنت هند ؟! » قالت: نعم، يا رسول الله، اعْفُ عنى ! فقال: « عفا الله عنك »(١).

وفى رواية بعد قولها: « نعم، يا رسول الله » - أنه قال لها: « أأنتِ هند أكالة الكبود ؟! » فقالت: أنبىّ حقودٌ ؟ وكان أبو سفيان حاضرًا، فلما قال رسول الله ﷺ: « ولا يزنين »، قالت: أتزنى الحرة يا رسول الله ؟ فلما قال لها: « ولا يقتلن أولادهن »، قالت: والله ربيناهم صغارًا حتى قتلتهم أنت وأصحابك ببدر كبارًا، قال: فضحك عمر من قولها حتى مال، فلما قال: « ولا يعصينك فى معروف »، قالت: بأبى أنت وأمى ! ما أكرمك وأحسن ما دعوت إليه، والله، ما قمتُ مقامى هذا وأنا أضمر أن أخالفك فى شيء(٢).

وروى عن حميد بن وهب قال: كانت هند بنت عتبة بن ربيعة قبل أبى سفيان عند الفاكه بن المغيرة وكان من فتيان قريش، وكان له بيت للضيافة تغشاه الناس من غير إذن، فخلا البيت ذات يوم فقام الفاكه، وهند فيه، وخرج لبعض حاجاته، وأقبل رجل ممن كان يغشى ذلك البيت فولجه، فلما رأى المرأة ولَّىٰ هاربًا، فأبصره الفاكه، فانتهى إليها، فوجدها راقدة فضربها برجله، وقال: من هذا الذى كان

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٥٠) والبخاري (٤/ ٤٠٥) كتاب البيوع، باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم، الحديث (٢٢١١)، ومسلم (٣/ ١٣٣٨) كتاب الأقضية- باب قضية هند- الحديث (٧/ ١٧١٤) أبو داود (٣/ ٨٠٢) كتاب البيوع، باب الرجل يأخذ حقه من تحت يده- الحديث (٣٥٣٢) والنسائي (٨/ ٢٤٦) كتاب آداب القضاء باب قضاء الحاكم على الغائب إذا عرفه. وابن ماجه (٢/ ٧٦٩)، كتاب التجارات- باب ما للمرأة من مال زوجها- الحديث (٢٢٩٣)، والدارمي (٢/ ١٥٩) كتاب النكاح: باب في وجوب نفقة الرجل على أهله والحميدي (١/ ١١٨) رقم (٢٤٢) والشافعي في «مسنده» (٢/ ٦٤) كتاب الطلاق: باب النفقات حديث (٢١٠، ٢١١)، وأبو يعلى (٨/ ٩٨) رقم (٤٦٣٦) وابن حبان (٤٢٤١- الإحسان) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ٣٣٨) وابن الجارود (١٠٢٥) وعبد الرزاق (٩/ ١٢٦-١٢٧) رقم (١٦٦١٣) وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٨٨) والدارقطني (٤/ ٢٣٤-٢٣٥) كتاب الأقضية والأحكام حديث (١٠٨) والبيهقي (٧/ ٤٧٧) كتاب النفقات: باب النفقة على الأولاد من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن هندًا قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت.

(٢) ينظر الحديث السابق.

عندك ؟ قالت: ما رأيت أحدًا ولا انتبهت حتى أنبهتنى، فقال لها: الحقى بأهلك، وتكلَّم فيها الناس، فخلا بها أبوها عتبة بن ربيعة، فقال لها: يا بنية، إن الناس قد أكثروا فيك فأنبئينى بذلك، فإن يكن الرجل صادقًا، دسست إليه من يقتله فتنقطع عنا القالة، وإن يكن كاذبًا حاكمته إلى بعض كهان اليمن !! قال: فحلفت له بما كانوا يحلفون به فى الجاهلية؛ أنه كاذبٌ، فقال عتبة للفاكه: إنك قد رميت ابنتى بأمرٍ عظيمٍ، فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن.

فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم، وخرج عتبة فى جماعة من بنى عبد مناف ومعهم هند ونسوة معها تأنسُ بهنَّ فلما أشرفوا على بلاد الكاهن، تنكر حال هند وتغيَّر وجهها، فقال لها عتبة: يا بنية، إنى قد رأيتُ ما بكِ من تغير الحال، وما ذاك إلا لمكروه عندك، فقالت: لا، والله يا أبتاه، ما ذاك لمكروه، ولكنى أعرفُ أنكم ستأتون بَشَرًا يخطئ ويصيب، فلا آمنه أن يَسِمَنِى بِسِيمَاءَ تكون علىَّ سُبَّةً فى العرب آخر الدهر، فقال لها أبوها: إنى سوف أستخبره لك قبل أن ينظر فى أمرك، فصفر لفرسه حتى أدلى ثم أدخل فى إحليله حبة من الحنطة وأَوْكَأَ عليها بسير، وصبَّحوا الكاهن فنحر لهم وأكرمهم، فلما تغدوا، قال له عتبة: إنا جئناك لأمرٍ وقد خبأت لك خبيئةً أختبرك بها فانظر ما هو، قال الكاهن: بُرَّة فى كمرة، قال عتبة: أريد أبين مِنْ هذا، قال: حبة بر فى، إحليل مهر، فقال عتبة: صدقت، انظر فى أمر هؤلاء النسوة، فجعل يدنو من إحداهنَّ ويضربُ كتفها ويقول: انهضى، حتى دنا من هند فضرَبَ كتفها، وقال: انهضى غَيْرَ وسخاء ولا زانية، وستلدينَ ملكًا يقال له معاوية، فنظر إليها الفاكه فأخذ بيدها، فنترتْ يدها من يده، وقالت: إليك عنى، فوالله، لأحرصنَّ أن يكون من غيرك، فتزوَّجها أبو سفيان، فجاءت منه بمعاوية بن أبى سفيان.

قال أهل العلم: وولدته فى خيف مِنًى، فهو معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى العبشمى، يلتقى مع رسول الله ﷺ فى جده عبد مناف بن قصى.

ولما استقلَّ معاوية بالخلافة بعد نزول الحسن له عنها، وسمى ذلك العام - وهو عَامُ إحدى وأربعين - « عام الجَمَاعة » كما تقدَّم ذلك ؛ بعث عماله على الأمصار؛

فبعث على الكوفة المغيرة بن شعبة، ويقال: إن معاوية كان ولى على الكوفة أولاً عبد الله بن عمرو بن العاص، فأتاه المغيرة بن شعبة متنصحًا، وقال: عمرو بمصر وابنه بالكوفة، فأنت بين نابي الأسد، فعزل معاوية حينئذٍ عبد الله بن عمرو عن الكوفة، وولاها المغيرة بن شعبة وبلغ ذلك عمرو بن العاص، فقال لمعاوية: إن المغيرة يحتاز المال؛ فلا تَقْدِرُ على رده منه، فاستعمل من يخافك، فقصر معاوية ولاية المغيرة على الصلاة، وولَّى على الخراج غيره.

ثم ولى على البصرة بُسْر بن أرطاة العامرى، وكان قد تغلب عليها حمران بن أبان عند صُلْح الحسن مع معاوية، فبعث إليه معاوية بُسْرًا، فخطب الناس وتعرض لعليٍّ، ثم قال: أنشد الله رجلًا يعلم أنى صادق أو كاذب إلا صدقنى أو كذبنى، فقال له أبو بكرة - وهو صحابى مشهورٌ اسمة نُفَيْع بن الحارث بن كلدة الثقفى قلت: لقب بأبى بكرة؛ لأنه كان مع ثقيف فى حصن الطائف حال حصار النبى ﷺ أهل الطائف، فنادى - عليه الصلاة والسلام -: « من أتى إلينا، فله الأمان، وهو حر »[1]، فتدلى نفيع بن الحارث هذا من أعلى الحصن ببكرة، ونزل إليه - عليه الصلاة والسلام - وأسلم، فلقب لذلك بأبى بكرة -: « اللهم، لا نعلمك إلا كاذبًا »، فأمر به يسجن، فقام أبو لؤلؤة الضبى فدفع عنه.

وكان على فارس من أعمال البصرة زياد ابن أبيه عاملاً لعليٍّ، فبعث إليه معاوية يطلبه بالمال، فقال زياد: صرفْتُ بعضه فى وجهه، واستودعْتُ بعضه للحاجة إليه، وحملت ما فضل إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رحمه الله، ورضِيَ عنه - فكتب إليه معاوية بالقدوم، لينظر فى ذلك فامتنع، فلما ولى بسر، جمع عنده أولاد زياد الأكابر: عبد الرحمن وعبيد الله وعبادًا، وكتب إليه: لتقدمنَّ أو لأقتلنَّ بنيك، فامتنع زياد واعتزم بُسْر على قتلهم، فأتاه أبو بكرة وكان أخا زياد لأمه - وسيأتى ذكر ذلك - فقال لبسر: أخذتهم بلا ذنب، وصلح الحسن مع معاوية علَىٰ أصحاب عليٍّ حيث كانوا، فأمهله بسر إلى أن يأتى كتاب معاوية، ثم قدم أبو بكرة على معاوية، وقال: إن الناس لم يبايعوا علَىٰ قتل الأطفال، وإن بُسْرًا يريد قتل بنى زياد، فكتب معاوية إلى بسر بتخليتهم، وجاء إلى السجن بعد الميعاد، ولم يبق منه إلا ساعة وهم

(١) تقدم تخريجه، وينظر حصار الطائف.

موثقون للقتل، فأدركهم وأطلقهم بُسْر.

ثم عزل معاوية بسرًا وولَّى عليها عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ثم ولَّىٰ معاويةُ سنة اثنتين وأربعين على المدينة مروان بن الحكم، وعلى مكة خالد بن العاص بن هشام، ثم عزل مروانَ عن المدينة سنة تسع وأربعين، وولَّىٰ مكانه عليها سعيد بن العاص، ثم عزله سنة أربع وخمسين، فرد إليها مروان بن الحكم

ولما امتنع زياد ابن أبيه بفارس بعد مقتل على - كما قدَّمناه - وكان عبد الرحمن ابن أخيه لأمه أبى بكرة يلى أمواله بالبصرة - رفع إلى معاوية أن زيادًا استودَعَ أمواله عبد الرحمن، فبعث معاوية إلى المغيرة بالكوفة أن ينظر فى ذلك، فأحضر عبد الرحمن، وقال: إن يَكنْ أبوكَ أساء إليَّ، فقد أحسن عمك، وأحسن العذر عنه عند معاوية.

ثم قدم المغيرة على معاوية، فذكر معاوية له ما عنده من الوجل باعتصام زياد بفارس، وقال: داهية العرب معه أموالُ فارس يدبر الحيل؛ فلا آمن أن يبايع لرجل من أهل البيت ويعيد الحرب جذعة، فاستأذنه المغيرة أن يأتيه ويتلطَّف له، ثم أتاه وقال: معاوية بعثنى إليك وقد بايعه الحسن، ولم يكن هناك غيره، فخذ لنفسك قبل أن يستغنى معاوية عنك، قال له زياد: أَشِرْ عَلَيَّ، والمستشار مؤتمن، فقال المغيرة: أرى أن تشخص إليه وتصل حبلك بحبله وترجع عنه، فكتب إليه معاوية بأمانه وخرج زياد من فارس نحو معاوية فاعترضه عبد الله بن حازم السلمى فى جماعة وقد بعثه عبد الله بن عامر ليأتيه به، فلما رأى عبد الله بن حازم كتاب الأمان تركه.

فلما قدم زياد على معاوية، سأله عن أموال فارس، فأخبره بما أنفق وما حمله إلى على وما بقى عنده مودعًا للمسلمين، فصدَّقه معاوية وقبضه منه، ويقال: إنه قال له: أخاف أن تكون مَكَرْتَ بى فصالحنى، فصالحه على ألفَيْ درهمٍ بعث بها إليه واستأذنه فى نزول الكوفة فأذن له، وكان المغيرة يكرمه ويعظمه.

وكتب إليه معاوية أن يُلزم زيادًا، وحجر بن عدى، وسليمان بن صرد، وشبيب ابن ربعى، وابن الكواء، وابن الحمق، وهؤلاء أصحاب على - رضى الله تعالى عنه - بالصلاة فى الجماعة، فكانوا يحضُرُونَ الصلاة.

وفى سنة ثلاث وأربعين أو التى قبلها: كان استلحاق معاوية زيادًا، قال العلامة ابن خلدون: كانت سُمَيَّة أم زياد مولاة للحارث بن كلدة الثقفى الطبيب، وولدت منه أبا بكرة نفيع بن الحارث، ثم زوَّجها بمولًى له، فأتتْ منه بابن سماه نافعًا، ثم إن أبا سفيان قد ذهب إلى الطائف فى بعض حاجاته، فأصاب سمية هذه ببعض أَنْكِحَةِ الجاهلية، وولدَتْ زيادًا هذا ونسبته إلى أبى سفيان، وأقرَّ لها به، إلاَّ أنه كان يخفيه.

قلت: هذا ما ذكره ابن خلدون، ورأيتُ المسعودى فى مروجه(١) قال ما نصه: ذهب أبو سفيان إلى الطائف لتجارة، فنزل على أبى مريم السلولى - خَمَّار بالطائف - فقال لما طالت إقامته: إن ابنة عتبة لا أتمكَّنُ معها بامرأة، وقد طالت عزوبتى فأبغنى بغيًا، فقال أبو مريم: لا أعلم الآن إلا سمية أمة الحارث بن كلدة، قال: فأتنى بها، فأتاه بها، ثم أخذ أبو سفيان بكُمِّ درعها، فأدخلها فى حجرة من الدار، ثم خرج وجبينه يرشحُ عرقًا ونفسه يتتابع. قال أبو مريم: فقلت له: كيف رأيتها؟ فقال: لا بأس بها لولا استرخاء فى ثدييها، وذفر فى إبطيها(٢).

قال ابن خلدون: ولما شَبَّ زياد، سمت به النجابة، واستكتبه أبو موسى الأشعرى لما كان على البصرة واستكفاه عمر - رضى الله عنه - فى أمر، فحسن غَنَاؤه فيه، وحضر زياد عنده يعلمه بما صنع، فأبلغ ما شاء فى الكلام، فقال عمرو ابن العاص، وكان حاضرًا: لِلَّهِ هذا الغلامُ!! لو كان أبوه من قريش ساق العَرَبَ بعصاه، فقال أبو سفيان وعلى - رضى الله عنه - يسمع: واللهِ إنى لأعرف أباه، ومَنْ وضعه فى رَحِمِ أُمِّهِ، فقال له على - رضى الله تعالى عنه -: اسكُتْ، فلو سمع عمر هذا منك، كان إليك سريعًا.

ثم استعمل على - رضى الله تعالى عنه - زيادًا على فارس فضبطها، فكتب إليه معاوية يتهدده ويعرض له بولادة أبى سفيان إياه، فقام زياد فى الناس خطيبًا فقال: عجبًا لمعاوية يخوِّفنى وبينى وبينه ابن عم الرسول فى المهاجرين والأنصار.

وكتب إليه على - رضى الله تعالى عنه -: إنى قد وليتك وأنا أراك أهلاً، وقد

---

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ١٥، ١٦).

(٢) في مروج الذهب: من فيها، والكلام ليس بنصه من المروج.

كان من أبى سفيان فلتة من أمانى الباطل وكذب النفس لا توجبُ ميراثًا ولا نسبًا، ومعاوية يأتى الإنسان من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، فاحذر ثم احذر، والسلام.

ولما قتل على - رضى الله تعالى عنه - وصالح زياد معاوية وَضَعَ زياد مصقلة بن هبيرة الشيبانى علىٰ معاوية؛ ليعرِّض له بنسب أبى سفيان ففعل، ورأى معاوية أن يستميله باستلحاقه فالتمس الشهادة بذلك ممن عَلِمَ لحوق نسبه بأبى سفيان، فشهد له رجل من أهل البصرة وألحقه، وكان أكثر شيعة عَلِى ينكرون ذلك وينقمون على معاوية، حتى أخوه لأمه أبو بكرة.

وكتب زياد إلى عائشة - رضى الله تعالى عنها - فى بعض الأحيان: « من زياد ابن أبى سفيان » يستدعى جوابها بهذا النسب؛ ليكون جوابها له حجة، فكتبت إليه: « من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد »، وكان عبد الله بن عامر يبغض زيادًا، فقال يومًا لبعض أصحابه: ابن سمية يقبِّح آثارى ويعترض معاوية، فأمر معاوية حاجبه عما لى، لقد هممت أن آتى بقسامة من قريش أن أبا سفيان طرير سمية. فوصل الخبر إلى زياد، فأخبر به معاوية فأمر معاوية حاجبه أن يرد عبد الله بن عامر من أقصى الأبواب فرد، فشكا ذلك إلى ابنه يزيد، فركب معه وأدخله على معاوية، فلما رآه، قام من مجلسه ودخل إلى بيته، فقال يزيد: نقعد فى انتظاره، فلم يزالا حتى خرج، وغدا ابن عامر يعتذر فيما كان منه من القول فى زياد، فقال معاوية: إنى لا أتكثر بزياد من قِلَّة، ولا أتعزَّز به من ذلَّة، ولكن عرفت حقًّا للَّه فوضعته موضعه.

وخرج ابن عامر يترضى زيادا ورضى معاوية له.

وفى استلحاق معاوية زيادًا يقول يزيد بن مفرغ الحميرى: [من الوافر]

أَلا أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ ... مُغَلْغَلَةً مِنَ الرَّجُلِ اليَمَانِي
أَتَغْضَبُ أَنْ يُقَالَ: أَبُوكَ عَفٌّ ... وَتَرْضَىٰ أَنْ يُقَالَ: أَبُوكَ زَانِي ؟!
فَأَشْهَدُ أَنَّ رَحْمَكَ مِنْ زِيَادٍ ... كَرَحْمِ الفِيلِ مِنْ وَلَدِ الأَتَانِ

وفى زياد وأخويه لأمه نُفَيع ونافع يقول حارث بن صريم الحارثى: [من المنسرح]

إِنَّ زِيَادًا وَنَافِعًا وَأَبَا ... بَكْرَةَ عِنْدِى مِنْ أَعْجَبِ العَجَبِ

إِنَّ رجـالاً ثَـلاَثَـةً خُـلِـقُـوا مِنْ رَحْمِ أُنْثَىٰ مُخَالِفِي النَّسَبِ
ذَا قُـرَشِـيٌّ فِـيـمَـا يَـقُـولُ وَذَا مَوْلًى وَهَذَا بِالزَّعْمِ مِنْ عَرَبِ[١]

وفى سنة خمس وأربعين: عزل معاوية الحارث بن عبد الله الأزدى عن البصرة، وولى عليها زيادًا، وجمع له خراسان وسجستان، ثم جمع له السند والبحرين وعمان.

وفى البصرة خطب خطبته البتراء، وإنما سميت بتراء؛ لأنه لم يفتتحها بالحمد والثناء.

وفى سنة سبع وأربعين: كان الطاعون بالكوفة، وعليها المغيرة بن شعبة، فهرب منها ثم عاد إليها فمات، فضمها إلى زياد مع البصرة، فهو أول من جمع له ولاية العراقَيْنِ: البصرة والكوفة[٢].

وفى سنة ثمان وأربعين قبض معاوية فدك من مروان بن الحكم[٣]، وكان وهبها له عثمان، رضى الله عنه.

وفى سنة خمسين: حج معاوية، وأمر بحمل المنبر من المدينة إلى الشام، فكسفت الشمس، ورئيت الكواكب، فجزع لذلك وأعظمه ورده إلى موضعه، وزاد فيه ست مراقٍ.

وبعث جيشًا كثيفًا إلى بلاد الروم مع سفيان بن عوف، وندب يزيد ابنه إلى الخروج معهم، فتثاقل فتركه، ثم بلغ الناس أن الغزاة أصابهم جوع ومرض، فأنشد يزيد: [من البسيط]

أَهْونْ عَلَيَّ بما لاقَتْ جموعُهُمُ يَوْمَ الطوانةِ مِنْ حُمَّىٰ ومِنْ شُومِ
إِذَا اتَّكَأْتُ عَلَى الأنماطِ مُرْتَفِقًا بِـدَيْـرِ مرَّانَ عِـنْـدِى أُمُّ كُـلْـثُـومِ

قلت: أم كلثوم زوجته بنت عبد الله بن عامر بن كريز المتقدِّم ذكر قوله فى زياد: «لقد هممت أن آتى بقسامة...».

---

(١) ينظر الشعر في مروج الذهب (٣/ ١٧) والشطر الأخير فيه هكذا:
.... مـولى، وهـذا بـزعـمـه عـربي

(٢) ذكر الحافظ الذهبي أن هذه الحادثة كانت في سنة خمسين، ينظر تاريخ الإسلام حوادث سنة خمسين وينظر تاريخ الطبري (٥/ ٢٣٤)، والكامل في التاريخ (٣/ ٤٦١).

(٣) ينظر تاريخ خليفة (٢٠٨) فتوح البلدان (٥٣١)، تاريخ الإسلام حوادث سنة ثمان وأربعين.

فلما بلغ قوله هذا أباه معاوية، حلف ليلحقنَّهُ بهم، فسار يزيد فى جمع كثير جمعه له معاوية، فيهم ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصارى، فأوغلوا فى بلاد الروم وبلغوا القسطنطينية، وقاتلوا الروم عليها، فاستشهد أبو أيوب الأنصاريُّ، ودفنوه قريبًا من سورها، ورجع يزيد والعساكر إلى الشام(١).

وكان المغيرة بن شعبة أيام إمارته على الكوفة كثيرًا ما يتعرَّض لَعِلىّ فى مجالسه وخُطَبِهِ ويترحَّم على عثمان ويدعو له، وكان حجر بن عَدِيٍّ بن حاتم الطائى إذا سمعه يقول: إياكم قد أضلَّ الله ولعن، ثم يقول: « أشهد أنَّ مَنْ تذمُّون أَحَقُّ بالفَضْلِ، وَمَنْ تُزكُّونَ أولَىٰ بالذَّمِّ »، فيعذله المغيرة ويقول: « يا حجر، اتق غضب السلطان وسَطْوته؛ فإنها تهلك أمثالك » لا يزيده على ذلك.

ولما كان آخر إمارته، قال فى بعض أيامه مثل ما كان يقول، فصاح به حجر: « مُرْ لنا بأرزاقنا؛ فقد حبستها عنا، وأصبحْتَ مولعًا بذَمِّ خَيْرِ الناسِ »، وصاح الناس به من جوانب المسجد: صدق حجر، فمُرْ لنا بأرزاقنا، فالذى أنت فيه لا يُجدى علينا نفعًا. فدخل المغيرة إلى بيته، وعذله قومه فى جرأة حجر عليه بوهن سلطانه ويسخط عليه معاوية، فقال المغيرة: لا أحب أن أسعى بقتل أحد من أهل المصر، وسيأتى بعدى من يصنع معه مثل ذلك فيقتله.

ثم توفى المغيرة، وولى زياد كما تقدَّم، فلما قدم، خطب الناس وترحَّم على عثمان، ولعن قاتله، فقال حجر ما كان يقول، فسكت عنه زياد، ورجع إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث، وبلغه أن حجرًا تجتمع عليه شيعة عليٍّ ويعلنون بلعن معاوية والبراءة منه، وأنهم حصبوا عمرو بن حريث، فشخص زياد إلى الكوفة حتى دخلها، ثم خطب الناس وحُجْرٌ جالس يسمع، فتهدده، وقال: لست بشيء إن لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالاً لمن بعده. ثم بعث إليه فامتنع من الإجابة، فبعث صاحب الشرطة شداد بن هيثم الهلالى إليه فى جماعة، فسبَّهم أصحاب حجر، فجمع زياد أهل الكوفة وهددهم، فتبرءوا، فقال: ليدعُ كل رجل منكم عشيرته الذين عند حُجْر، ففعلوا، حتى إذا لم يبق معه إلا قومه، قال زياد

(١) ينظر: «تاريخ خليفة» (٢١١) «تاريخ الطبرى» (٥/ ٢٣٢) جمهرة أنساب العرب (٢٨٣) تاريخ الإسلام حوادث سنة خمسين.

لصاحب الشرطة: انطلق إليه فائتنى به طوعًا أوكرهًا. فلما جاء يدعوه، امتنع من الإجابة وحمل عليهم، وأشار عليه أبو القمطرة الكندى بأن يلحق بكندة فيمنعوه، هذا وزياد على المنبر ينتظر، ثم غشيهم أصحاب زياد، وضرب عمرو بن الحمق الخزاعى فسقط ودخل فى دور الأزد فاختفَىٰ، وخرج حجر من أبواب كندة فركب ومعه أبو القمطرة إلى دور قومه واجتمع إليه الناس، ولم يأته من كندة إلا قليل.

ثم أرسل زياد وهو على المنبر إلى مدلج وهمدان ليأتوه بحُجْر، فلما علم أنهم قصدوه، تسرَّب من داره إلى النخع، ونزل على أخى الأشتر، وبلغه أن الشرطة تسأل عنه فى النخع، فأتى الأزد، واختفى عند ربيعة بن ناجد، وأعياهم طلبه، فدعا زياد محمد بن الأشعث، وقال: لئن لم تأتنى به، لأقطعنك إربًا إربًا. فاستمهله ثلاثة أيام، فأمهله حتى بعث حجر بن عدى إلى محمد بن الأشعث أن يأخذ له أمانًا من زياد حتى يبعث به إلى معاوية، فجاء محمد بن الأشعث ومعه جرير بن عبد الله، وحجر بن زيد، وعبد الله بن الحارث أخو الأشتر، فاستأمنوا له زيادًا، فأجابهم، ثم أحضروا حجرًا فحبسه.

ثم طلب أصحابه، فخرج عمرو بن الحمق الخزاعى من أصحاب حُجْر شيعة علىّ إلى الموصل، ومعه رفاعة بن شداد، فاختفى فى جبل هنالك، فرفع خبرهما إلى عامل الموصل وهو عبد الرحمن بن عثمان الثقفى - ابن أخت معاوية، ويعرف بابن أم الحكم - فسار إليهما فهرب رفاعة، وقبض على عمرو، وكتب إلى معاوية بذلك، فكتب معاوية إلى زياد: إن عمرو بن الحمق طعن عثمان تسع طعنات، وقال حين طعنه: ست لله تعالى، وثلاث لما فى نَفْسِى. فاطعنه يا زياد كذلك تسع طعنات. فطعن فمات فى الأولى والثانية، فكملتْ عليه ميتًا.

ثم جَدَّ زياد فى طلب أصحاب حجر، فأتى بقبيصة بن ضبيعة العبسى بأمان فحبسه، وجاء قيس بن عباد الشيبانى برجل من قومه من أصحاب حجر فأحضره زياد، وسأله عن على بن أبى طالب، فأثنىٰ عليه فضربه وحبسه، وعاش قيس بن عباد حتى قاتل مع ابن الأشعث، ثم دخل بيته فى الكوفة وسعى به إلى الحجاج فقتله، ثم أرسل زياد إلى عبد الله بن خليفة الطائى من أصحاب حجر، فتوارى عنه وجاء الشرط فأخذوه، ونادت أخته النَّوَّار بقومه فخلصوه، فأخذ زياد عدى بن

حاتم، وهو فى المسجد، وقال: ائتنى بعبد الله بن خليفة الطائى وخبره، فقال له: آتيك بابن عمى تقتله ؟! والله لو كان تحت قدمى ما رفعتها عنه، فحبسوه، فنكر الناس عليه ذلك وكلموه، وقالوا: تفعل هذا بصاحب رسول الله ﷺ وكبير طيئ ؟! فقال زياد: أخرجه علَىٰ أن يخرج ابن عمه عنى، فأطلقه وأمر عدى عبد الله أن يلحق بجبلى طيئ، فلم يزل هنالك حتى مات. وأتى زياد بكريم بن عفيف الخثعمى من أصحاب حجر وغيره.

ولما جمع منهم اثنَىْ عشر فى السجن، دعا رؤساء الأرباع، وهم يومئذ عمرو بن حريث على ربع أهل المدينة، وخالد بن عروة على ربع تميم وهمدان، وقيس بن الوليد على ربع ربيعة وكندة، وأبو بردة بن أبى موسى على ربع مذحج وأسد، فشهدوا كلهم أن حجرًا جمع الجموع وأظهر شتم معاوية ودعا إلى حربه، وزعم أن الإمارة لا تصلح إلا فى الطالبيين ووثب بالمصر وأخرج العامل، وأظهر عذرَ أبى تراب والترحُّمَ عليه.

أقول: نعم، رحمة الله عليه ورِضَاهُ، والبراءة من عدوه ومن أهل حربه.

وإن النفر الذين معه وهم رءوس أصحابه على مثل رأيه.

ثم استكثر زياد من الشهود، فشهد إسحاق وموسى ابنا طلحة، والمنذر بن الزبير، وعمارة بن عقبة بن أبى معيط، وعمر بن سعد بن أبى وقاص، وغيرهم، وكتب فى الشهود شريح بن الحارث القاضى وشريح بن هانئ.

ثم استدعى زيادُ وائل بنَ حُجر الحضرمى، وكثير بن شهاب، ودفع إليهما حُجْرًا وأصحابه، وهم الأرقم بن عبد الله الكندى، وشريك بن شداد الحضرمى، وصيفى ابن فضيل الشيبانى، وقبيصة بن ضبيعة العبسى، وكريم بن عفيف الخثعمى، وعاصم بن عوف البجلى، وورقاء بن سمى البجلى، وكرام بن حيان العنزى، وعبد الرحمن بن حسان العنزى - أيضًا - ومحرز بن شهاب التميمى، وعبد الله بن حوية السعدى، ثم أتبع هؤلاء الاثنى عشر بعتبة بن الأخنس بن سعد بن بكر، وسعد ابن عمران الهمدانى، وأمرهما أن يسيرا بهم إلى معاوية، ثم لحقهما شريح بن هانئ، وأرسل كتابًا إلى معاوية دفعه إلى وائل بن حجر الحضرمى.

فلما انتهوا إلى مرج عذراء قرب دمشق، تقدم وائل وكثير إلى معاوية، وقرأ كتاب

شريح بن هانىء، وفيه: بلغنى أن زيادًا كتب شهادتى، وإنى أشهد على حُجْر أنه ممن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويديم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حرامُ الدم والمال، فإن شئت فاقتله أو فدعه، فقال معاوية: ما أرى هذا إلاَّ أخرج نفسه من شهادتكم، يعنى: شريح بن هانئ. وحبس القوم بمرج عذراء حتى لحقهم عتبة بن الأخنس، وسعد بن عمران اللذَيْنِ ألحقهما بهم زياد، وجاء عامر بن الأسود العجلى إلى معاوية، فأخبره بوصولهما، فاستوهب يزيد بن أسد البجلى عاصمًا وورقاء ابنى عمه، وقد كتب جرير يزكيهما، ويشهد ببراءتهما، فأطلقهما معاوية، وشفع وائل بن حُجر فى الأرقم، وأبو الأعور السلمى فى ابن الأخنس، وحبيب بن سلمة فى أخويه فتركهم، وسأله مالك بن هبيرة فى السكونى فردَّهُ، فغضب وجلس فى بيته.

وبعث معاوية هدبة بن فياض القضاعى، والحصين بن عبد الله الكلابى، وأبا شريف البدى إلى حجر وأصحابه، ليقتلوا منهم من أمر بقتله، فأتوهم وعرضوا عليهم البراءة من عَلِىّ، فأبوا وصَلَّوْا عامَّة ليلتهم، ثم قدموا من الغد للقتل، فتوضأ حُجْر وصلىٰ وقال: والله لولا أن يظنوا بى الجزع من الموت، لاستكثرت منها، اللهم إنا نستعديك على أمتنا، أهل الكوفة يشهدون علينا، وأهل الشام يقتلوننا، ثم مَشَىٰ إليه هدبة بن فياض بالسيف فارتعد، فقالوا له: كيف وأنت تزعم أنك لا تجزع من الموت، فابرأ من صاحبك ونحن ندعك! فقال: وما لى لا أجزع، وأنا بين القبر والكفن والسيف، وإن جزعت من القتل، لا أقول ما يسخط الرب فقتلوه، وقتلوا خمسة معه: شريك بن شداد، وصيفى بن فضيل، وقبيصة بن ضبيعة، ومحرز ابن شهاب، وكرام بن حيان، وصَلَّوْا عليهم ودفنوهم.

وجىء بعبد الرحمن بن حيان العنزى، وكريم الخثعمى إلى معاوية، فوعظه الخثعمى، وطلبه معاوية البراءة من على، فسكت واستوهبه سمرة بن عبد الله الخثعمى، فوهبه له عَلَىٰ ألاَّ يدخل الكوفة، فنزل الموصل، ثم سأل معاوية عبد الرحمن بن حسان عن على، فأثنى خيرًا، ثم عن عثمان، فقال: أول من فتح باب الظلم، وأغلق باب الحق، فرده إلى زياد ليقتله شَرَّ قِتْلة، فدفنه زياد حَيًّا، فهو سابع القوم.

وأما مالك بن هبيرة السكونى، فلما لم يشفعه معاوية فى حُجر، جمع قومه وسار

ليخلصه وأصحابه، فلقى القتلة وسألهم، فقالوا: تاب القوم، وسار إلَى عذراء فتيقن قتلهم، فأرسل فى أثر القتلة، فلم يدركوهم، وأخبر معاوية بما فعل مالك، فقال: تلك حرارة يجدها فى نفسه، وكأنى بها قد طُفِئَتْ، ثم بعث إليه بمائة ألف، وقال: خفت أن يعيد القوم حربًا؛ فتكون على المسلمين أعظم من قتل حُجْر، فطابتْ نفس مالك. ولما بلغ عائشة خبر حجر وأصحابه، أرسلت عبد الرحمن بن الحارث إلَى معاوية تشفع، فجاء وقد قتلوا، فقال لمعاوية: أين غاب عنك حلم أبى سفيان ؟ قال: حين غاب عنى مثلك من حلماء قومى، وحملنى ابن سمية فاحتملت. وأسفت عائشة على قتل حُجْر وكانت تُثْنِى عليه.

قلت: وحجر هذا هو حجر بن عدى بن حاتم الطائى المشهور بالكرم، وأبوه عدى صحابى رضى الله تعالى عنه. وقيل: إن لحُجر ابنِهِ هذا صُحْبَة، ولم يصح.

وفى سنة ثلاث وخمسين مات زياد ابن أبيه فى رمضان بطاعون أصابه فى يمينه خرجت بها قرحة يقال: إنها بدعوة عبد الله بن عمر بن الخطاب؛ وذلك أن زيادًا كتب إلى معاوية: إنى ضبطت العراق بشمالى، ويمينى فارغة، فاشغلها بالحجاز، فكتب له عهدًا بذلك، وجمع له الحجاز مع العراقَيْن، وخاف أهل الحجاز من ذلك.

قال العلامة المَسْعُودِى(١): لما سمع بولايته أهل المدينة اجتمع الكبير والصغير بمسجد رسول الله ﷺ، وقدَّموا ابن عمر فاستقبل القبلة ودعا معهم، وكان من دعائه أن قال: اللهم، اكفنا يمين زياد، وضَجُّوا إلى الله تعالى، ولاذوا بقبر النبى ﷺ ثلاثة أيام؛ لِعِلْمِهِم بظلمه وجوره وفسقه.

ولما خرجت بكفه تلك البثرة، حكها ثم مدت واسودَّتْ، فصارت آكلة سوداء، فاستدعىٰ شريحًا القاضى، واستشاره فى قطع يده، فقال له: لك رزق مقسوم، وأجل معلوم، وإنى أكره إن كانت لك مدة أن تعيش أجذم، وإن حم أجلك، أكره أن تلقى ربك مقطوع اليد، فإذا سألك: لم قطعتها ؟ قلت: بغضًا لك، وفرارًا من قضائك، فقال: لا أبيت والطاعون فى لحافٍ واحدٍ، واعتزم عَلَىٰ قطعها، فلما نظر

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٣٥).

إلى النار والمكاوى، جزع وتركه، وقيل: تركه لإشارة شريح القاضى، وعذل[(١)] الناس شريحًا فى تلك الإشارة، فقال لهم: وددت لو أن الله قطع يده يومًا، ورجله يومًا، وسائر جسده يومًا يومًا، ولكن المستشار مؤتمن.

وكان زياد قد جمع الناس بباب قصره يعرضهم[(٢)] على لعن على بن أبى طالب، لعن الله اللاعنَ والعارضَ، فمن أَبىٰ عرضه على السيف.

وذكر عبد الرحمن بن السائب قال: حضرتُ فصرت إلى الرحبة، [ومعي جماعة من الأنصار]، فنمت فرأيت فى منامى وأنا جالس فى جماعة، رأيتُ شخصًا طويلاً قد أقبل، فقلت: من هذا ؟! قال: أنا النقاد ذو الرقبة، بعثت إلى صاحب هذا القصر، فانتبهت فزعًا فما كان إلا مقدار ساعة حتى خرج خارج من القصر، فقال: انصرفوا، فالأمير عنكم مشغول، وإذا به قد أصابه ما ذكرنا من البلاء فى كفه- وفى ذلك يقول عبد الله بن السائب من أبيات: [من البسيط]

مَا كَانَ منتهيًا عَمَّا أَرَادَ بنا حتَّىٰ أُتِيحَ[(٣)] لَهُ النَّقَّادُ ذو الرَّقَبَهْ
فَأَسْقَطَ الشِّقَّ مِنْهُ ضَرْبَةٌ ثَبَتَتْ لَمَّا تَنَاوَلَ ظُلْمًا صَاحِبَ الرَّحَبَهْ[(٤)]

قلت: « صاحب الرحبة » يريد به على بن أبى طالب؛ لأنه دفن فى رحبة مسجد الكوفة على أحد الأقوال فى موضع قبره، وقد ذكرت الاختلاف فيه فيما تقدَّم -: فهلك وهو ابن خمس وخمسين، ودفن بالثومة من أرض الكوفة، لا رحمه الله.

قال يومًا لجلسائه: من أنعَم الناس عيشًا ؟ قالوا: أمير المؤمنين، قال: هيهات، فأين ما يَلْقَىٰ من الرعية ؟! قالوا: فأنت أيها الأمير، قال: فأين ما يَرِدُ علينا من الثغور والخراج ؟! بل أنعمهم عيشًا: من له سدادٌ من عَيْشٍ، وحَظٌّ من دِينٍ، وامرأةٌ حسناءُ رضيها ورضيته، لايعرفنا ولا نعرفه.

ولما توفى زياد، قدم ابنه عبيد الله على معاوية، وهو ابن خمس وعشرين سنة، فقال له معاوية: من استعمل أبوك على المصرين؟ فأخبره، فقال معاوية: لو استعملك أبوك لاستعملتك، فقال له عبيد الله: أنشدك الله أن يقول لى أحد

(١) أى: ولام.
(٢) في المروج: يحرضهم.
(٣) في المروج: تَأَتَّي.
(٤) انظر الشعر في المروج (٣/ ٣٥-٣٦).

بعدك: لو استعملك أبوك لاستعملتك، فولاه خراسان من البصرة سنة خمس وخمسين، ووصاه فكان من وصيته: « اتق الله، ولاتؤثرنَّ على تقواه شيئًا؛ فإن فى تقواه عوضًا، وَقِ عرضك من أن تذله، وإذا أعطيت عهدًا، فأوف به، ولاتتبعن كثيرًا بقليل، ولايخرجنَّ منك أمر حتى تبرمه، فإذا خرج فلا يردن عليك. وإذا لقيت عدوك فكبِّر أكبر من معك، وقاسمهم على كتاب الله، ولاتطُمعنَّ أحدًا فى غير حقه، ولاتؤيسنَّ أحدًا من حق هو له »، ثم ودَّعه وسار، وذلك فى أول سنة أربع وخمسين من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والتحية.

ذكر أن معاوية تنازع إليه عمرو بن عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه - وأسامة بن زيد بن حارثة مولَىٰ رسول الله ﷺ - رضى الله عنه - فى أرض، فقال عمرو لأسامة: كأنك تنكرنى؟! فقال له أسامة: مايسرنى نسبك بولائى، فقام مروان بن الحكم، فجلس إلى جانب عمرو بن عثمان، فقام الحسن بن على بن أبى طالب، فجلس إلى جنب أسامة، فقام سعيد بن العاص، فجلس إلى جنب مروان، فقام الحسين بن على، فجلس إلى جنب الحسن، فقام عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس، فجلس إلى جنب سعيد بن العاص، فقام عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، فجلس إلى جنب الحسين، فقام عبد الرحمن بن الحكم، فجلس إلى جنب عبد الله بن عامر، فقام عبد الله ابن العباس، فجلس إلى جنب عبد الله بن جعفر.

فلما رأى ذلك معاوية قال: لاتعجلوا أنا كنت شاهدًا: إذ أقطعها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد فقام الهاشميون فخرجوا ظاهرين، وأقبل عليه الأمويون، وقالوا: هلا كنت أصلحت بيننا؟! قال: دعونى، فو الله ماذكرت عيونهم تحت المغافر بصفِّين إلا لبس على عقلى، وإن الحرب أولها نجوى، وأوسطها شكوى، وآخرها بلوى، ثم تمثل بأبيات عمرو بن معدى كرب: [من الكامل]

أَلْحَربُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ فَتِيَّة ....

وقد تقدم ذكرها فى آخر خلافة عمر، رضى الله تعالى عنه.

ثم قال: ما فى القلوب يشب الحروب، والأمر الكبير، يبعثه الأمر الصغير.

ومما ذكره المسعودى[1] قوله: ضحك معاوية ذات يوم ضحكًا ذهب به كل

(١) ينظر: المروج (٣/ ٢٩).

مذهب، فقال عمرو بن العاص: لم تضحك يا أمير المؤمنين، أضحك الله سنك؟! فقال معاوية: أضحك من تغوّر[١] ذهنك يوم بارزت عليًا وإبدائك سوءتك، أما والله يا عمرو، لقد واقعت المنايا، ورأيت الموت عيانا، ولو شاء لقتلك، ولكن أَبَى ابنُ أَبي طالب فى أمرك[٢] إلا تكرُّمًا. فقال عمرو: أما والله، إنى لعَنْ يمينك حين دعاك للبرازِ، فاحولَّتْ عيناك، وبدا[٣] سحرك، وبدا منك ما أكره ذكره؛ فمن نفسك فاضحك أو فدع.

دخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قريش، فقال له معاوية إنى سائلك عن مسائل، قال ابن عباس: سل عما بدا لك، قال: فما تقول فى أبى بكر؟ قال: رحم الله أبا بكر، كان والله للفقراء رحيمًا، وللقرآن تاليًا، وعن المنكر ناهيًا، وبربه عارفًا، ومن الله خائفًا، وعن الشبهاتِ زاجرًا، وبالمعروف آمرًا، وبالليل مصليًا، وبالنهار صائمًا، ففاق أصحابه ورعًا وكفافًا، وسادهم زهدًا وعفافًا، فغضب الله على مَنْ تنقَّصه أو طعن فيه .

قال: ماتقول فى عمر؟ قال: رحم الله عمر أبا حفص، كان والله كهف الإسلام، ومأوى الأيتام، ومثنى الإحسان، ومحل الإيمان، وكهف الضعفاء، ومعقل الصفاء، قام بحق الله صابرًا محتسبًا، حتى أوضح الدين وفتح البلاد، وأمَّنَ العباد، فأعقب الله من يبغضه اللعنة إلى يوم القيامة.

قال فما تقول فى عثمان بن عفان؟ قال: رحم الله عثمان، كان والله أكرمَ الحَفَرَة، وأفضل البررة، هجادًا بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر النار، نهاضًا إلى كل مكرمة، سباقًا إلى كل مُنْجِيَةٍ، حَيِيًا وفيًا، صاحب جيش العسرة، وختَنَ رسولِ الله ﷺ، فأعقب الله من طعن عليه لعنة اللاعنين إلى يوم القيامة.

قال: فما تقول فى عَلِى بن أبى طالب؟ قال: رحم الله عليًا، كان والله علم الهدى، وكهف التقى، وبدر الحجى، وبحر الندى، وطود النهى، وكهف الورى، داعيًا إلى الحجة العظمى، مستمسكًا بالعروة الوثقى، خير من آمن واتقى، وأفضل

---

(١) في المروج: حضور.
(٢) في المروج: قتلك.
(٣) في ط: ربا. والمثبت من المروج.

من تقمص وارتدى، وأحبَّ من انتعل وسعى، وأفصح من تنصت وقرا، وأكبر من شهد النجوى، سرى الأنبيا، والنبى المصطفَىٰ، صاحب القبلتين، فهل يوازيه أحد، وأبو السبطين، فهل يقاربه بشر، زوجته خير النسوان، فهو بفرقه فاضل، وهو للأسود قتال، وفى الحروب يختال، لم تر عينى مثله، فعلى من تَنَقَّصَهُ لعنة الله والعباد إلى يوم القيامة.

قال معاوية: يابن عباس، قد أكثرت فى ابن عمك، فما تقول فى أبيك العباس؟ فقال: رحم الله أبا الفضل، كان صنو نبى الله، وقرة عين صفى الله، سيد الأعمام، وله أخلاق آبائه الأمجاد، وأحلام أجداده الأجواد، تباعدت الأسباب عند فضله، صاحب البيت والسقاية، والمشاعِرِ والتلاوة، ولم لايكون كذلك، وهو يشابه أكرم من دَبَّ وهَبَّ، عبد المطلب.

فقال معاوية: يابن عباس، أشهد أنك نَبِيْهُ أهل بيتك، قال ابن عباس: ولم لا أكون كذلك، وقد قال لى رسول الله ﷺ: «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٩٤) كتاب الوضوء: باب وضع الماء عند الخلاء حديث (١٤٣) ومسلم (٤/ ١٩٢٧) كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل عبد الله بن عباس حديث (١٣٨/ ٢٤٧٧)، وأحمد (١/ ٣٢٧) والنسائي في «الكبري» (٥/ ٥١-٥٢) كتاب المناقب: باب عبد الله بن العباس حديث (٨١٧٧) وأبو يعلى (٤/ ٤٢٧) رقم (٢٥٥٣) وابن حبان (١٥/ ٥٢٩) رقم (٧٠٥٣) والطبراني في «الكبير» (١١/ ١٠٤) رقم (١١٢٠٤) كلهم من طريق هاشم بن القاسم ثنا ورقاء بن عمر اليشكري عن عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس به.
وأخرجه البخاري (١/ ٢٠٤) كتاب العلم: باب قول النبي ﷺ: «اللهم علمه الكتاب حديث (٧٥)، و(٧/ ١٢٦)، كتاب فضائل الصحابة: باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما حديث (٣٧٥٦)، (١٣/ ٢٥٩) كتاب الاعتصام حديث (٧٢٧٠) والترمذي (٥/ ٦٨٠) كتاب المناقب: باب مناقب عبد الله بن عباس حديث (٣٨٢٤) والنسائي في «الكبري» (٥/ ٥٢) كتاب المناقب حديث (٨١٧٩) وابن ماجه (١/ ٥٨) المقدمة: باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ حديث (١٦٦)، وأحمد (١/ ٢١٤، ٣٥٩) والفسوي في «المعرفة والتاريخ (١/ ٥١٨) وابن حبان (١٥/ ٥٣٠) رقم (٧٠٥٤) والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٩٣) رقم (١٠٥٨٨) كلهم من طريق خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس، وقال الترمذي: حسن صحيح.
وأخرجه أحمد (١/ ٢٦٩) والطبراني في «الكبير» (١١/ ٢١٣) رقم (١١٥٣١) كلاهما من طريق سليمان بن بلال عن حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس به.
وأخرجه أحمد (١/ ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥) والفسوى في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٤٩٣-٤٩٤) وابن حبان (١٥/ ٥٣١) رقم (٧٠٥٥) والطبراني في الكبير (١٠٥٨٧، ١٠٦١٤) =

وروى عن ابن عباس أنه قال: أتيت معاوية، وقد قعد على سريره وجميع أصحابه ووفود العرب عنده، فدخلْتُ وسلمت وقعدت، فقال معاوية: مَنِ النَّاسُ يابن عباس ؟ فقلت: نحن قال: فإذا غبتم؟ قلت: فلا أحد، قال: ترى أنى قعدت هذا المقعد بكم؟ قلت: نعم، فبمن قعدت؟ قال: بمن كان مثل حرب بن أمية، قلت: من أكفأ عليه إناءه، وأجاره بردائه قال: فغضب، وقال: وارِ شخصك عنى شهرًا، فقد أمرتُ لك بصلتك وأضعفتها لك، فلما خرجت قلت لخاصته: ألا تسألونى ما الذى أغضب معاوية؟! [قالوا: بلى، فقل بفضلك قال: إن أباه حربا][1] لم يلتق أحد من رؤساء قريش فى عقبة ولامضيق مع قوم، إلاَّ لم يتقدم على حرب أحد حتى يجوزه أولاً، فالتقى حرب مع رجل من بنى تميم فى عقبة، فتقدمه التميمى، فقال حرب: أنا حرب بن أمية، فلم يلتفت إليه التميمى، وجاز قبله، فقال حرب: موعدك مكة، فبقى التميمى دهرًا، ثم أراد دخول مكة، فقال: من يجيرنى مِنْ حرب بن أمية، فقالوا له: عبد المطلب، فقال التميمى: عبد المطلب أجلُّ قدرًا من أن يجير على حرب، فأتى ليلاً دار الزبير بن عبد المطلب، فدقَّ عليه الباب، فقال الزبير لأخيه الغيداق: قد جاءنا رجل إمَّا طالبُ حاجة، وإما طالبُ قِرًى، وإما مستجيرٌ، وقد أعطيناه ما أراد، فخرج إليه الزبير، فقال منشدًا: [من الكامل]

لاقَيْتُ حَرْبًا فى الثَّنِيَّةِ مُقْبِلاً والصُّبْحُ أبلَجُ ضَوْءُهُ للسَّارِى
فَدَعا بصَوْتٍ واكْتَنَىٰ لِيَرُوعَنِى وَدَعَا بِدَعْوَتِهِ يُرِيدُ فَخَارِى
فتركْتُهُ كالكَلْبِ يَنْبَحُ وَحْدَهُ وأتَيْتُ أَهْلَ معالِم وفَخَارِ
ليثًا هِزَبْرًا يُسْتَجَارُ بقُربِهِ رَحْبَ المَبَاءَةِ مُكْرِمًا للجَارِ
وَلَقَدْ حَلَفْتُ بمكَّةٍ وبِزمزمٍ والبيتِ ذى الأحجَارِ والأستارِ

= كلهم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس به وأخرجه الترمذي (٥/ ٦٧٩-٦٨٠) كتاب المناقب باب مناقب عبد الله بن عباس رضي الله عنه حديث (٣٨٢٣) من طريق عبد الملك ابن أبي سليمان عن عطاء عن ابن عباس قال: دعا لى رسول الله ﷺ أن يؤتيني الحكمة مرتين.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث عطاء وقد رواه عكرمة عن ابن عباس.

(١) الزيادة من المحاسن والمساوئ، وهى زيادة يقتضيها السياق.

إِنَّ الزبيرَ لَمَانِعِى مِنْ خَوْفِهِ   ما كَبَّرَ الحُجَّاجُ فى الأَمْصَارِ

فقال الزبير: تقدَّم، فإنا لا نتقدَّم من نجيره، فتقدم التميمى، فدخل المسجد، فرآه حرب فقام إليه فلطمه، فحمل عليه الزبير بالسيف، فعدا حتى دخل دار عبد المطلب، فقال: أجرنى من الزبير، فأكفأ عليه جفنة كان أبوه هاشم يطعم فيها الناس، فبقى تحتها[١] ساعة، ثم قال له: اخرج، فقال: كيف أخرج وسبعة[٢] من ولدك قد احتبوا بسيوفهم على الباب؟! فألقى عليه عبد المطلب رداءً كان كَساهُ إياه سيفُ ذو يزن لما قَدِمَ عليه، له طرتان خضراوان، فخرج عليهم به فعلموا أنه قد أجاره، فتفرقوا عنه[٣].

وحضر مرةً مجلس معاوية هو وعمرو بن العاص، فأقبل عبد الله بن جعفر، فلما نظر إليه ابن العاص قال: قد جاءكم رجل كثير الخلوات بالتمنى، والمطربات بالتغنى، يحب القيان، كثير مزاحه، شديد طماحه، صروف عن السنان، ظاهر الطيش، لين العيش، أخاذ بالسيف، منفاق بالسرف. فقال ابن عباس: كذبت والله[٤] أنتَ! وليس كما ذكرت، ولكنه لله ذكور، ولنعمائه شكور، وعن الخنا زجور، جواد كريم، سيد حليم، ماجد لهيم، إن ابتدأ أصاب، وإن سئل أجاب، غير حصر ولا هياب، ولا فحاش عياب، حل من قريش فى كريم النصاب، كالهزبر الضرغام، الجرىء المقدام، فى الحسب القمقام، ليس يدعى لدعىٍّ، ولا يدنى لدنىٍّ؛ كمن اختصم فيه من قريش شرارها، فغلب عليه جزارها، فأصبح ألأمها حسبًا، وأدناها منصبًا، ينوء منها بالذليل، ويأوى منها إلى القليل، مذبذب بين الحيين، كالساقط بين الفراشين، لا المضطر إليهم عرفوه، ولا الظاعن عنهم فقدوه، فليت شعرى بأى قدم تتعرض للرجال، وبأى حسب تبارز عند النضال، أبنفسك فأنت الوغد الزنيم، أم بمن تنتمى إليه فأهل السفه والطيش، والدناءة فى قريش، لا بشرف فى الجاهلية شهروا، ولا بقديم فى الإسلام ذكروا، غير أنك تتكلم بغير

(١) في المحاسن والمساوئ: هناك.
(٢) في المحاسن والمساوئ: وتسعة.
(٣) ينظر المحاسن والمساوئ ص (٨٣، ٨٤)، والمحاسن والأضداد ص (١٥٤، ١٥٥).
(٤) في ط: وأهله، والمثبت من المحاسن والمساوئ.

لسانك، وتنطق [بالزور][١] بغير أركانك، والله لكان أبين للفضل، وأظهر للعدل، أن ينزلك معاوية منزلة العبد الحقيق[٢]، فإنه طالما أسلس دلوك، وطمح بك رجاؤك إلى الغاية القصوى.

فقال عبد الله بن جعفر لابن عباس: أقسمت عليك لَمَا أَمسَكْتَ؛ فإنك عنى ناضلت، ولى فاوضت، فقال ابن عباس: دعنى والعبد؛ فإنه قد كان يهدر خاليًا؛ إذ لا يجد راميًا، قد أتيح له ضيغم شرس، للأقران مفترس، وللأرواح مختلس. فقال ابن العاص لمعاوية: دعنى يا أمير المؤمنين أنتصف منه، فوالله ماترك شيئًا. فقال ابن عباس: دعه فلا يبقى المبقى إلا على نفسه، فوالله، إن قلبى لشديد، وإن جوابى لعتيد، وبالله الثقة؛ كما قال نابغة بنى ذبيان: [من الوافر]

وَقَبْلَكَ مَا قَذَعْتُ وقَاذَعُونِى فَمَا نزر[٣] الكَلَامُ وَمَا شَجَانِى

يَصُدُّ الشَّاعِرُ العَرَّافُ عَنِّى صُدُودَ الْبَكْرِ عَنْ قَدَمِ هجَانِ[٤]

ولما بلغ غانمة بنت غانم القرشية سب معاوية وعمرو بن العاص بنى هاشم، قالت لأهل مكة: أيها الناس، إن قريشًا سادَتْ فجادت، وملكَتْ فملكَتْ، وفضلت ففضلت، واصطفيت فاصطفت، ليس فيها كدر عيب، ولا أفن ريب، ولاحسروا طاغين، ولاجادوا نادمين، ولا المغضوب عليهم ولا الضالين، إن بنى هاشم أطول الناس باعًا، وأمجد الناس أصلاً، وأوسع الناس حلمًا، وأكثر الناس عطاء، منا عبد مناف الذى يقول فيه الشاعر: [من الكامل]

كَانَتْ قُرَيْشٌ بَيْضَةً فتفلَّقَتْ فَالمُحُّ خَالِصُهَا لِعَبْدِ منافِ[٥]

وولده هاشم الذى هَشَمَ الثريد لقومه؛ وفيه يقول الشاعر: [من الكامل]

عَمْرُو الَّذِى هَشَمَ الثَّرِيدَ لقَوْمِهِ ورجالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ[٦]

ثم منا عبد المطلب الذى سُقِينَا به الغيث، وفيه يقول الشاعر: [من الكامل]

---

(١) المثبت من المحاسن والمساوئ.
(٢) في المحاسن والمساوئ: البعيد السحيق.
(٣) في ط: برز. والمثبت من المحاسن والمساوئ. ونزر: أى: قل.
(٤) ينظر: المحاسن والمساوئ ص (٨٤، ٨٥)، والمحاسن والأضداد (١٥٥-١٥٧).
(٥) البيت لابن الزبعري، والمح: صفار البيض. ينظر اللسان (محح).
(٦) البيت لابن الزبعري أيضًا، ومسنتون: أصابتهم سنة وقحط وأجدبوا. ينظر اللسان (سنت). =

[ونحن سنى المحل قام شفيعنا بِمَكة يدعو والمياه تغور
وابنه أبوطالب عظيم قريش، وفيه يقول الشاعر:[من الكامل][(١)]
أُنبِئْتُهُ[(٢)] مَلكًا فقَامَ بحَاجَتِى وَترى العُلَيِّجَ خَاسِئًا[(٣)] مَذْمُوما
ومنا العباس بن عبد المطلب، أردفه رسول الله ﷺ، وأعطاه ماله؛ وفيه يقول الشاعر: [من الطويل]
رَديفُ رَسُولِ الله لم أَرَ مثلَهُ ولا مِثْلُهُ حَتَّى القِيَامَةِ يُوجَدُ
ومنا حمزة سيد الشهداء؛ وفيه يقول الشاعر: [من الوافر]
أَبَا يَعْلَىٰ لَكَ الأرْكَانُ هدَّتْ وأَنْتَ المَاجِدُ البَرُّ الوَصُولُ
ومنا جعفر ذو الجناحَيْن، أحسن الناس حسبًا، وأتمهم كمالاً، ليس بغدار ولا ختال، بدله الله تعالى بكل يد جناحًا يطير بهما فى الجنة؛ وفيه يقول الشاعر: [من الطويل]
فَهاتُوا محاكى جَعْفَرٍ وَعَليَّنَا أَلَسْنَا أَعَزَّ النَّاسِ عِنْدَ الحقائِقِ ؟![(٤)]
ومنا أبو الحسن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أفرس بنى هاشم، وأكرم من احتفى وانتعل بعد رسول الله ﷺ؛ وفيه يقول الشاعر: [من الطويل]
وَهَذَا عَلِيٌّ سَيِّدُ النَّاسِ فَاتَّقُوا عَلِيًّا بِإِسْلَامِ تَقَدَّمَ مِنْ قَبْلُ
ومنا الحسن بن على سبط رسول الله ﷺ، وسيد شباب أهل الجنة؛ وفيه يقول الشاعر: [من الوافر]
وَمَنْ يَكُ جَدُّهُ حَقًّا نَبِيًّا فَإِنَّ لَهُ الفَضِيلَةَ فِى الأَنَامِ

= وفي اللسان:
عمرو العلا هشم الثريد لقومه...
وفي المحاسن والمساوئ:
هشم الثريد لقومه، وأجارهم ورجال مكة مسنتون عجاف
(١) المثبت من المحاسن والمساوئ.
(٢) في المحاسن المساوئ: آتيته.
(٣) في المحاسن والمساوئ: خائبًا.
(٤) ويروى هذا البيت هكذا:
هاتوا كجعفرنا ومثل عليِّنا كانا أعز الناس عند الخالق

ومنا الحسين بن على حمله جبريل على عاتقه، وكفى بذلك فخرًا؛ وفيه يقول الشاعر: [من الطويل]

نَفَىٰ عَنْهُ عَيْبَ الآدَمِيِّينَ رَبُّهُ وَمَنْ جَدُّهُ جَدُّ[١] الحُسَيْنِ المُطَهَّرُ

ثم قالت: يا معشر قريش، والله ما معاوية بأمير المؤمنين، ولا هو كما يزعم، هو والله شانئ[٢] رسول الله ﷺ، وإنى آتية معاوية، وقائلة له ما يعرق منه جبينه، ويكون منه أنينه.

فكتب عامل معاوية إليه بذلك، فلما بلغ معاوية أن غانمة قربت منه، أمر بدار ضيافة، فنظفت، وألقى فيها فرش، فلما دنت من المدينة استقبلها يزيد فى حشمه ومماليكه، فلما دخلت المدينة، نزلت دار أخيها عمرو بن غانم، فقال لها يزيد: إن أبا عبد الرحمن يأمرك أن تصيرى إلى ضيافته، وكانت لاتعرف يزيد، فقالت: من أنت كلأك الله؟ قال: يزيد بن معاوية، قالت: فلا رعاك الله يا ناقص لست بزائد، فتمعَّر لون يزيد، فأتى أباه فأخبره، فقال: هى أسنُّ قريش، وأعظمهم حالاً، قال يزيد: كم تعدُّ لها يا أمير المؤمنين؟ قال: كانَتْ تعد على عهد رسول الله ﷺ أربعمائة عام، وهى بقية الكرام.

فلما كان من الغد، أتاها معاوية فسلم عليها، فقالت: على أمير المؤمنين السلام، وعلى الكافرين الهوان، ثم قالت: مَنْ منكم ابن العاص؟ قال عمرو: هٰأنَذَا، فقالت له: رأيتك تسب قريشًا وبنى هاشم، وأنت أهل السبِّ، وفيك السبُّ، وإليك يعود السبُّ، ياعمرو، إنى والله لعارفة بعيوبك وعيوب أمك، وإنى أذكر لك ذلك عيبًا عيبًا: وُلِدْتَ من أمة سوداء مجنونة حمقاء، تبول من قيام، وتعولها اللئام، إذا لامسها الفحل، كانت نطفتها أنفذ من نطفته، ركبها فى يوم واحد أربعون رجلاً، وأما أنت فقد رأيتك غاويًا غير راشد، ومفسدًا غير مصلح، ولقد رأيت فحل زوجتك على فراشك، فما غرت[٣] ولا أنكرت، وأما أنت يا معاوية، فما كنت فى خير ولا رُبِّيتَ فى نعمة، فما لك وبنى هاشم؟! أنساء أمية كنسائهم، أم أعطى أمية فى الجاهلية والإسلام ما أعطى هاشم؟! فكفى فخرًا برسول الله ﷺ.

(١) في ط: ومجده مجد. والمثبت من المحاسن والمساوئ.
(٢) في ط: تالي. والمثبت من المحاسن والمساوئ.
(٣) في ط: غيرت. والمثبت من المحاسن والمساوئ.

فقال معاوية: أيتها الكبيرة، أنا كاف عن هاشم، قالت: فإنى أكتب عليك عهدًا، فقد كان النبى ﷺ دعا ربه أن يستجيب لى خمس دعوات، فأجعلُ تلك الدعوات كلها فيك، فخاف معاوية، وحلف لها ألاً يسب بنى هاشم أبدًا.

فهذا آخر ماكان من أمرها معه(١).

قيل: قال رجل من قريش: ما أظن معاوية أغضبه شىء قط، فقال بعضهم: إن ذكرت أمه، غضب، فقال مالك ابن أسماء القرشى: أنا أغضبه إن جعلتم لى جُعْلاً، ففعلوا فأتاه في الموسم فقال له: يا أمير المؤمنين، إن عينيك لتشبهان عينَىْ أمك، قال: نعم، كانتا عينين طالما أعجبتا أبا سفيان، ثم دعا معاوية مولاه شقران، فقال له: أعدد لأسماء دية ابنها، فإنى قد قتلته. وهو لا يدرى، فرجع وأخذ الجعل، فقيل له: إن أتيت عمرو بن الزبير، فقلت له مثل ما قلت لمعاوية، أعطيناك كذا وكذا، فأتاه فقال له ذلك، فأمر بضربه حتى مات، فبلغ معاوية موته، فقال: أنا والله قتلته، وبعث إلى أمه بتلك الدية التى أعدها، وأنشأ يقول: [من الطويل]

أَلاَ قُلْ لِأَسْمَاءِ الْمُنَىٰ أُمِّ مَالِكٍ فَإِنِّى لَعَمْرُ الله أَهْلَكْتُ مَالِكَا(٢)

وقيل لشريك القاضى: إن معاوية كان حليمًا، فقال: كلا والله لو كان حليمًا، لما سفه الحق وقاتل عَلِيًّا، عليه السلام(٣).

ولما مات سعيد بن العاص، وفد ابنه عمرو على معاوية، فاستنطقه، فقال: إن أول كل مركب صعب، وإن مع أمس غدًا، فقال له معاوية: من أوصى بك أبوك؟ فقال: إنه أوصى إلىّ، ولم يُوصِ بى، فقال معاوية: إن ابن سمية هذا لأشدق، فُسمِّى عمرو الأشدق من ذلك اليوم(٤).

ودخل مالك بن هبيرة السلولى على معاوية، وكان شيخًا كبيرًا، فأجلسه فحرك رجله فمدها فقال له معاوية: ليت لنا جارية لها مثل ساقيك، فقال متصلاً: وبمثل عجيزتك يا أمير المؤمنين، فخجل معاوية، وقال: واحدة بواحدة.

ودخل عليه شريك بن الأعور، فقال له معاوية: أنت شريك، وما لله من

(١) ينظر: المحاسن والمساوئ ص(٨٦-٨٨)، والمحاسن والأضداد (ص١٥٧-١٦١).
(٢) ينظر أنساب الأشراف (٢٨٩).
(٣) ينظر أنساب الأشراف (٣٧٤).
(٤) ينظر أنساب الأشراف (٢٩٩).

شريك، وابن الأعور، والصحيح خير من الأعور، وإنك لدميم، والوسيم خير [من] الدميم، فبم سَوَّدَكَ قومك؟ فقال له شريك: إنك لمعاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعويت، فسميت معاوية، وإنك ابن حرب، والسلم خير من الحرب، وإنك ابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك ابن أمية، وما أمية إلا أمة صغرت، فبم صرت أمير المؤمنين؟ فقال له معاوية: أقسمت عليك إلا خرجت عنى، فخرج وهو يقول: [من الوافر]

أَيَشْتُمُنِى مُعَاوِيَةُ بْنُ حَرْبٍ وَسَيْفِى صَارِمٌ وَمَعِى لِسانِى
وَحَوْلِى مِنْ ذَوِى يَمَنٍ لُيُوثٌ ضراغمةٌ تَهَشُّ إلى الطِّعانِ

وقال: أربيت على علىٍّ فى أربع خصال: كان رجلاً سره علنه، وكنت كتومًا لأمرى، وكان لايسعى حتى يفجأه الأمر، وكنت أبادر ذلك، وكان فى أخبث جند وأشدهم ختلاً، وكنت فى أطوع جند، وكنت أحبَّ منه إلى قريش، فثاب إلىَّ ما شئت من جائح، وتفرق عنه.

ودخل يومًا على امرأته ميسون بنت بحدل أم يزيد ومعه خَصِىٌّ، فاستترت منه، فقال: لم ذلك، وإنما هو بمنزلة امرأة؟! فقالت: كأنك ترى أن مُثْلَتَكَ به تحلل ماحرم الله عليه مِنِّى.

وروى أن عدى بن حاتم دخل على معاوية، فقال له معاوية: ياعدى، أين الطرفات؟ يعنى بنيه طارفًا وطريفا وطرفةَ، قال: قتلوا يوم صفِّين بين يدَىْ على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فقال معاوية: ما أنصفك ابن أبى طالب؛ إذ قدَّم بنيك وأخَّر بنيه، فقال عدى: بل ما أنصفت أنا عليًا: إذ قُتِلَ وبقيتُ.

قيل: قال عمرو بن العاص لمعاوية يا أمير المؤمنين، مابقى من شبابك وتلذذك؟ قال: والله، مابقى شىء يصيبه الناس من الدنيا إلا وقد أصبته أما النساء، فلا أرب لى فيهنَّ ولا لهنَّ، وأما الطِّيبُ، فقد شممته حتى ما أبالى به، وأما الطعام، فقد طعمت الحلو والحامض حتى لا أجد فرق ما بينهما، وأما الثياب، فقد لبست من لينها وجيدها حتى ما أبالى ما ألبس، فما شىء ألذ عندى من شربة ماء بارد فى يوم صائف، ونظرى إلى بنىَّ وبنى بنىَّ يدرجون حولى، فأنت ياعمرو، مابقى من لذتك ؟ قال: أرض أغرسها وآكل من ثمرتها وأنتفع بغلَّتها.

ثم التفت معاوية إلى وردان مولى عمرو بن العاص، فقال: يا وردان، مابقى من

لذتك؟ قال: صنائع كريمة أعقدها[١] فى أعناق الرجال لايكافئونى عليها تكون لأعقابى من بعدى، فقال معاوية: تبًّا لهذا المجلس؛ يغلبنا عليه هذا العبد[٢].

وعلى هذا الذكر، قال قتيبة بن مسلم لوكيع بن الأسود: ما السرور؟ قال: لواء منشور، وجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير.

وقيل لحصين بن المنذر ما السرور؟ قال: مرأة حسناء، فى دار قوراء، وفرس بالفناء.

وقيل لبعضهم: أى الأمور أمتع؟ قال: الأمانى، فليس سرور النفس بالجدة؛ إنما سرورها بالأمل والمنى؛ وأنشد: [من البسيط]

إِذَا تَمَنَّيْتُ بِتُّ اللَّيْلَ مُغْتَبِطًا   إِنَّ المُنَىٰ رَأْسُ أَمْوَالِ المَفَالِيسِ
لَوْلاَ المُنَىٰ متُّ مِن هَمٍّ ومِنْ جَزَعٍ   إذا تذكَّرْتُ ما فى داخلِ الكِيسِ

وقيل لعبد الله بن الأهتم: ما السرور؟ قال: رفع الأولياء، وحط الأعداء.

وقال بعضهم: السرور توقيع نافذ، وأمر جائز.

وقيل لطرفة بن العبد: ما السرور؟ فقال: مطعم شهىّ، ومركب وطى، وملبس دفى.

وقيل للأعشى: ما السرور؟ فقال صهباء صافية، تمزجها غانية، بصوب غادية.

وقيل لمعن: ما السرور؟ فقال:[مجلس يقل هذره ، وعود يصفو وتره ، وعقول تفهم ما أقول .

وقيل لمظلوم: ما السرور ؟ فقال:][٣] كفاية ووطن، وسلامة وسكن.

وقيل لبعض العرب: ما السرور؟ فقال بنون أغيظ بهم عداتى، ولاتقرع معهم صفاتى.

وقيل لفتاة: ما السرور؟ فقالت: زوج يملأ قلبى جلالاً، وعينى جمالاً، وفنائى جِمالاً.

وقيل لطفيلى: ما السرور؟ فقال: ندامى تسكن صدورهم، وتغلى قدورهم، ولا تغلق دورهم.

وقيل لقانص: ما السرور؟ فقال: قسى مأطورة، وشرعة مشرورة، ونبال مطرورة[٤].

---

(١) في المحاسن والمساوئ: أعتقلها.
(٢) ينظر أنساب الأشراف(٢٠٦)، والمحاسن والمساوئ(ص٢٥٢)، مروج الذهب(٣/ ٣١-٣٢).
(٣) المثبت من المحاسن والمساوئ.
(٤) المأطورة: المعطوفة المقوسة. والشرعة: الوتر. ومشرورة: مفتولة بشدة. والنبال المطرورة: المحدبة.

وقال الشاعر: [من الخفيف]

أَطْيَبُ الأطيباتِ قَتْلُ الأعادِى   واخْتيَالٌ عَلَىٰ مُتُونِ الجيَادِ
وَأَيادٍ تَخْبُو بِهِنَّ كَرِيمًا   إنَّ عندَ الكَرِيمِ تزكُو الأَيَادِى
وَرَسولٌ يَأْتِى بِوَعْدِ حَبيبٍ   وَحَبِيبٌ يَأْتِى بِلاَ مِيعَادِ

وقال الآخر[١]: [من الخفيف]

أَطْيَبُ الأَطْيَبَاتِ أَمْرٌ وَنَهْىٌ   لا يُرَدَّانِ فِى الأمورِ الجِسَامِ
وامتطاءُ الخُيُولِ فى كَنَفِ الأمْـ   ـنِ بِغَيْرِ الإقدامِ والإحجامِ
وَسماع الصَّهِيلِ فِى لجبِ المَو   كبِ تحتَ اللِّوَاءِ والأعلامِ

وقال الآخر[٢]: [من الخفيف]

أَطيبُ الأطيباتِ طيبُ الزمانِ   وندامَى المُنَعَّمَاتِ الغَوانِى
واحتساءُ العُقارِ فِى غُرَّةِ الصُّبْـ   ـحِ على شَدْوِ مَاهِرَاتِ القِيَانِ
وَأَمَانٌ مِن الهُمُومِ وَمَالٌ   لَيْسَ يُفْنِيهِ نَائِبُ الحَدَثَانِ[٣]

ولقد خرج بنا الاستطراد، إلى غير المراد، فنعود فنقول:

وقدم زياد ابن أبيه على معاوية، فلما طال به المجلس، حدثه بحديث، فقال له معاوية: كذبت، فقال زياد: مهلاً يا أمير المؤمنين، فوالله، ماحللت للكلام حبوة إلا على بيعة الصدق، ولم أكذب، وحياة الكذب عندى موت المروءة، فاستحياه معاوية، وقال: يغفر الله لك يا أخى، فكأنى أرى بك حرب بن أمية؛ فى جميل شيمه وكرم أخلاقه.

وحكى عن معاوية؛ أنه قعد للناس فى يوم عيد، ووضعت الموائد وبدر الدراهم للجوائز والصِّلات، فجاء رجل فقعد على كيس دنانير، والناس يأكلون، فصاح به الخدم: تنحَّ، فليس لك هذا بموضع، فقال معاوية: دعوا الرجُلَ يجلس حيث أحبَّ، فأخذ الكيس وقام، فلم يجسر أحد أن يدنو منه، فقال الخدم: إنه قد نقص من المال كيس، فقال معاوية: أنا صاحبه، وهو محسوب لكم.

---

(١) في المحاسن والمساوئ: وللخليع.
(٢) في المحاسن والمساوئ: وللموصلي.
(٣) ينظر المحاسن والمساوئ (٢٥٢-٢٥٤)، وهناك زيادات لم يوردها المصنف هنا.

ويحكى عن معاوية بينما هو يسير وشرحبيل بن السمراء يسايره؛ إذ راثَتْ فرس شرحبيل، فساءه ذلك، فقال معاوية: يا أبا يزيد، إنه يقال: إن الهامة إذا عظمتْ، دلَّتْ على وفور الدماغ وصحة العقل، قال: نعم يا أمير المؤمنين، إلا هامتى؛ فإنها عظيمة وعقلى ضعيف ناقص، فتبسم معاوية، وقال: كيف ذاك، لله أنت؟ قال: لإعلافى دابتى مكوكين من شعير؛ فتبسم معاوية أيضًا، وحمله على فرس من مراكبه.

قال صاحب كتاب المحاسن والمساوئ: قيل لمعاوية: من رأيت شر الناس؟ فقال: علقمة بن وائل الحضرمى؛ قدم على رسول الله ﷺ فأمر[ني] أن أنطلق به إلى رجل من الأنصار أنزله عليه، فانطلقت معه وهو على ناقته وأنا أمشى فى ساعة شديدة الحر وليس برجلى حذاء، فقلت: احملنى يا عم، من هذا الحر؛ فإنه ليس على حذاء، قال: لست من أرداف الملوك، قلت: أنا معاوية بن أبى سفيان، قال: قد سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك، فقلت: ألق إلى نعليك، قال: لا تقلهما قدماك، ولكن امش فى ظل ناقتى، وكفاك بذلك شرفًا، وإن الظل لك كثير.

قال معاوية: فما مرَّ بى مثل ذلك اليوم، ثم أدرك سلطانى فلم أؤاخذه بذلك؛ بل أجلسته على سريرى هذا وقضيت حوائجه. انتهى[(١)].

كان صعصعة بن صوحان، وأخوه زيد، وقيل: يزيد بن صوحان، وكلاهما من شيعة عليٍّ من الفصحاء البلغاء، دخل صعصعة على معاوية، فسأله: ما السؤددُ فيكم ؟ قال: إطعام الطعام، ولين الكلام، وبذل النوال، وكف النفس عن السؤال، والتودد للصغير والكبير، وأن يكون الناس عندك شرعا، ثم قال: ما المروءة والسيادة؟ قال: أخوان اجتمعا، فإن لقيا قهرا وإن كان بينهما قليل، وصاحبهما جليل، محتاجان إلى صيانة ونزاهة ودماثة[(٢)] وفراهة، قال: فهل تحفظ فى ذلك شيئًا؟ قال: نعم، أما سمعت قول مرة بنِ ذهل الشيبانى حيث يقول: [من الكامل]

إنَّ السِّيَادَةَ والمُرُوءَةَ عُلِّقَا حَيْثُ السِّمَاكُ من السماءِ الأعزلُ
وَإذَا تَقَابَلَ يجريانِ لغايةٍ عَثَرَ الهَجِيْنُ وأَسْلَمَتْهُ الأَرْجُلُ

(١) ينظر المحاسن والمساوئ (٢٥١).
(٢) في مروج الذهب: ديانة.

ونَجا الصريحُ مع الغِيَاثِ مُعَوَّدًا قربَ الجيادِ ولمْ يجِئْهُ الأَفْكَلُ[(١)]

قال معاوية: لو أن رجلًا ضرب آباط الإبل شرقًا وغربًا لفائدة هذه الأبيات ما عنفته.

ثم قال له: فمن الحليم؟ قال: من ملك غضبه، فلم يعجل، وأوحى إليه بحق أو باطل، فلم يقبل، ذلك الحليم يا معاوية.

ثم قال له: فمن الفارس فيكم الشجاع، حدّ لى فيه حَدًّا أسمعه منك، فإنك تضع الأشياء مواضعها يابن صوحان. قال: الفارس من قصر أجله فى نفسه، وضغم عن أمله بضرسه، وكانت الحرب عليه يومه أهون من أمسه، ذلك الفارس إذا أوقدت الحرب، واشتد بالأنفس الكرب، وتداعوا للنزال، وتسارعوا للقتال، وتخالسوا المُهَج، واقتحموا بالسيوف اللجج. قال معاوية: زدنى. قال: نعم الفارس كثير الحذر، يردد[(٢)] النظر، يلتفت بقلبه، ولا يدير[(٣)] خرزات صلبه. قال: أحسنت يا بن صوحان، فهل فى مثل هذه الصفة من شعر؟ قال: نعم، لزهير بن جناب الكلبى قوله: [من الخفيف]

فَارسٌ يَكْلأُ الصَّحَابَة مِنْهُ بِحُسَام يمرُّ مَرَّ الحَرِيقِ
لاَ تَرَاهُ يَوْمَ[(٤)] الوَغَىٰ فِى مَجَالٍ يُغْفِلُ الضَّرْبَ[(٥)] لاَ وَلاَ فِى المَضِيقِ
مَنْ يَرَاهُ يَخَلْهُ فِى الحربِ يَوْمًا أنه تَائِهٌ[(٦)] مُضِلُّ الطَّرِيقِ

فقال له معاوية: أحسنت كل الحسْنْ يابن صوحان[(٧)].

ومن حسن سياسات معاوية أن رجلًا من أهل الكوفة قدم دمشق على بعير له بعد منصرفهم من صفين، فتعلّق به رجل من أهل دمشق، وقال: هذه ناقتى أخذت منى

(١) ينظر الشعر في مروج الذهب، والبيت الأخير فيه:

ويجى الصريح مع العتاق معودا ....

والأفكل: فرس نزال بن عمرو المرادي. ينظر ترتيب القاموس (فكل).

(٢) في المروج: مدير.

(٣) في ط: ترف. والمثبت من المروج.

(٤) في المروج: لدى.

(٥) في المروج: الطرف.

(٦) في المروج: أخرق.

(٧) ينظر: المروج (٣/ ٥٢-٥٤).

بصفين، فرفع أمرهما إلى معاوية، فأقام الدمشقى خمسين رجلاً يشهدون أنها ناقته، فقضى معاوية على الكوفى وأمره بتسليم الناقة، فقال الكوفى: أصلحك الله إنما هو جملٌ، وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكم مضى، ودس إلى الكوفى من أحضره إليه، وسأله عن ثمن بعيره، فدفع إليه ضعف ثمنه، وبره وأحسن إليه، وقال له: أبلغ عليًا أنى أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل.

ولقد بلغ من طاعتهم [له] أنه صلى بهم عند مسيره إلى صفين الجمعة يوم الأربعاء، وأعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها، هكذا ذكره المسعودى فى مروجه(١).

ثم انتهى بهم الحال إلى أن جعلوا لَعْنَ علىٍّ - رضى الله تعالى عنه، وكرم وجهه - سُنَّةً ينشأ عليها صغيرهم، ويهلك عليها كبيرهم.

أقول: انظر إلى هذا النقل من المسعودى هل يخرج إلا من قلب مبغض، ويدخل إلا فى أذن مبغض؟! سيما صلاته بهم الجمعة يوم الأربعاء، أى معنى فيه له؟! هب أن ما عداه على تقدير صحته له غرض فيه، وأما نسبة الصلاة، فليس القصد بها إلا نسبته إلى الاستخفاف بالدين، والتلاعب بعماده التى هى أعظَمُ ركنِهِ المكين، وقد علمت أن المسعودى هو من هو، وإذا كان اعتقادهم فى الشيخين - وحاشاهما - ارتدادهما وهما من هما، فما ظنك بسواهما؟!

وذكر بعض الإخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأى منهم: من أبو تراب هذا الذى يلعنه الإمام على المنبر؟ فقال الشامى: أراه إما لِصًّا من لصوص القين، أو من قطاع الطريق.

وحكى الجاحظ أنه قال لرجل من أهل الشام وهو يريد الحجَّ، وقد ذكر له البيت الشريف: يا أخى إذا أتيته فمن يكلِّمنى منه.

وقال - أيضًا -: إنه أخبره صديق له أنه قال له رجل وقد سمعه يصلى على محمد ﷺ: ماتقول فى محمد هذا، أربُّنا هو؟!

وذكر ثمامة بن أشرس قال: كنت مارًّا بالسوق ببغداد، فإذا رجل يبيع كحلاً ويصفه أنه ينجح لكل داء فى العين، فنظرت إلى عينيه، فإذا واحدة برشاء،

---

(١) ينظر: المروج (٣/ ٤١).

والأخرى موكوسة[١]، فقلت له فى ذلك فقال: أو هاهنا اشتكيت عينى يا أبله؟! إنما اشتكيتها بمصر، فقال أصحابه: صدق صدق.

قال المسعودى وذكر لى بعض إخوانى من أهل العلم قال: كنا نقعد، فنتذاكر[٢] أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا ومعاوية، ونذكر ما يذكره أهل العلم، وكان قوم من الناس منهم ينظرون إلينا فقال لى بعضهم، وكان أظرفهم وأعقلهم وأكبرهم لحية: كم تطنبون فى علىّ ومعاوية وفلان وفلان؟ فقلت له: وما تقول أنت فى ذلك؟ فقال: من تريد؟ قلت: علىّ؛ ما تقول فيه؟ قال: أليس هو أبا فاطمة؟ قلت: ومن كانت فاطمة؟ قال: امرأة النبى ﷺ بنت عائشة أخت معاوية، قلت: فما كان من قصة على؟ قال: قتل فى غزاة حنين مع النبى ﷺ[٣].

وفى الطيوريات عن سليمان المخزومى، قال: أذن معاوية للناس إذنًا عامًا، فلما احتفل المجلس قال: أنشدونى ثلاثة أبيات لرجل من العرب، كل بيت منها قائم بمعناه، فسكتوا، ثم طلع عبد الله بن الزبير - رضى الله تعالى عنهما - فقال معاوية: هذا مِقْوَلُ العرب، وعلّامتها أبو خبيب، فقال: مَهْيَم، قال معاوية: أنشدنى ثلاثة أبيات لرجل من العرب كل بيت قائم بمعناه، قال بثلاثمائة ألف، قال: أو تساوى؟ قال: أنت بالخيار فأنت واف كاف، قال: هات، فأنشده للأفوه الأودى: [من الوافر]

بَلَوْتُ النـاسَ قرنًا بعد قَرْنٍ   فَلَمْ أَرَ غَيْرَ ختـالٍ وَقَـالِـى

فقال معاوية: صدقت، هيه، فقال: [من الوافر]

وَذُقْـتُ مَـرَارَةَ الأَشْـيَـاءِ طُـرًّا   فَمَـا طَـعْـمٌ أَمَرّ مِنَ الـسُّـؤَالِ

قال: صدقت، هيه، فقال: [من الوافر]

وَلَمْ أَرَ فِى الخُطُوبِ أَشَدَّ وقعًا   وَأَصْعَبَ مِنْ مُعَادَاةِ الرِّجَالِ

قال معاوية: صدقت، ثم أمر له بثلاثمائة ألف.[٤]

---

(١) في المروج: مأسوكة. وفي ط: مركومة. والمثبت من هامش المروج من نسخة للمروج ولعله الصواب.
(٢) في المروج: نتناظر.
(٣) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٤٢).
(٤) ذكره السيوطي في «تاريخ الخلفاء» (ص١٦١) وعزاه للطيوريات.

قال العلامة الدميرى فى حياة الحيوان الكبرى: لما تزوَّج معاوية ميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد بن معاوية، واتصلت به، وكانت ذاتَ جمالٍ باهرٍ وحسنٍ غامرٍ، أعجب بها معاوية وهيأ لها قصرًا مشرفًا على الغوطة، وزينه بأنواع الزخارف، ووضع فيه من الأوانى الفضة والذهب ما يضاهيه، ونقل إليه من الديباج الرومى الملون والفرش ما هو لائق به، ثم أسكنها مع وصائف لها؛ كأمثال الحور العين، فلبست يومًا أفخر ثيابها وتطيبتْ وتزينَتْ بما أعدَّ لها من الحلى والجواهر التى لايوجد مثلها، ثم جلست فى روشنها وحولها الوصائف ونظرَتْ إلى الغوطة وأشجارها وأنهارها، وتجاوب الطير فى أوكارها، واشتمَّتِ الأزهارَ والرياحينَ والنُّوَّارَ، فتذكرت نجدًا، وحنَّتْ إلى أترابها وأناسها، وذكرت مسقط رأسها، فبكت وتنهدت، فقال لها بعض حظاياها: مايبكيك، وأنت فى ملك يضاهى ملك بلقيس؟! فتنفست الصعداء، ثم أنشدت: [من الوافر]

لَبَيْتٌ تَخْفُقُ الأَرْوَاحُ فِيهِ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قصرٍ مُنِيفِ
وَلُبْسُ عباءةٍ وتَقَرَّ عينى ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لبسِ الشُّفوفِ
وأَكل كسيرةٍ فى ظلِّ بيتى ... أحبُّ إِلَيَّ مِنْ أكلِ الرَّغيفِ
وأصواتُ الرياحِ بكلِّ فَجٍّ ... أحبُّ إليَّ مِنْ نقرِ الدُّفوفِ
وكَلْبٌ ينبحُ الطُّرَّاقَ دونى ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِطٍّ أَلُوفِ
وَبَكْرٌ يتبعُ الأظعَانَ صَعْبٌ ... أحبُّ إِلَيَّ مِنْ بَغْلٍ زَفُوفِ
وخرق مِنْ بنى عَمى نَحِيفٌ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِلْجٍ عَنُوفِ

فلما دخل معاوية، عرَّفته الحظية بما قالت، وقيل: إنه سمعها وهى تنشد ذلك، فقال: ما رضيتْ بنت بحدل حتى جعلتنى علجًا عنوفًا، هى طالق ثلاثًا، مروها فلتأخذ جميع ما فى القصر، فهو لها، ثم سيَّرها إلى أهلها بنجد، وكانت إذ ذاك حاملًا بيزيد، فولدته بالبادية، وأرضعته سنتين، وليتها لم تلد ولم ترضع!! ثم أخذه معاوية منها بعد ذلك.

وذكر العلامة أبو القاسم الحريرى فى درة الغواص أن عبيد بن شرية الجرهمى عاش ثلاثمائة سنة وأدرك الإسلام، فأسلم ودخل على معاوية بالشام، وهو خليفة، فقال له معاوية: حدثنى بأعجب ما رأيت؟ فقال: مررت بقوم يدفنون ميتًا لهم، فلما

انتهيت إليه، اغرورقت عيناى بالدموع؛ فتمثلت بقول الشاعر: [من البسيط]

يَا قَلْبُ إنكَ من أسماءَ مغرورُ   فاذْكُرْ ولَنْ يَنْفَعَنْكَ اليَوْمَ تذكيرُ
قَدْ بُحتَ بالحُبِّ ما تُخْفِيهِ مِنْ أَحَدٍ   حَتَّى جَرَتْ لَكَ أطْلاَقٌ مَحَاضِيرُ
فَلَسْتَ تَدْرِى وَمَا تَدْرِى أَعَاجِلُهَا   أدنَىٰ لِرُشْدِكَ ذَا أَمْ فِيهِ تَأْخِيرُ ؟!
فَاسْتَقْدِرِ الله خَيْرًا وارضَيَنَّ به   فَبَيْنَمَا العُسْرُ إذْ دَارَتْ مياسيرُ
وبينما المرءُ فِى الأَحْيَاءِ مغتبطٌ   إذْ قَدْ هَوَى الرَّمْسَ تَعْفُوهُ الأعَاصِيرُ
يَبْكِى الغَرِيبُ عَلَيْهِ لَيْسَ يَعْرِفُهُ   وَذُو قَرَابَتِهِ فى الحَىِّ مَسْرُورُ

فقال لى شخص: أتعرفُ مَنْ يقول هذه الأبيات؟ قلت: لا والله، إلا أنى أرويها منذ زمان، فقال: والذى يُحْلَفُ به، إن قائلها هو صاحبنا الذى دفناه الساعة ! وأنت الغريبُ الذى يبكى عليه وليس يعرفه ! وهذا الذى خرج من قبره أَمَسُّ الناس به رحمًا، وهو أسرُهُمْ بموته كما وصف.

فتعجب معاوية من هذا الاتفاق الغريب، ووصله بمال عظيم.

وذكر أن أبا الأسود الديلىّ من شيعة على دخل على معاوية خاليًا، فتحادثا طويلاً، فحبق أبو الأسود، فقال لمعاوية: إنها فلتة، فاكتمها على، فقال معاوية: أفعل ذلك، فلما خرج من عنده، دخل على معاوية عمرو بن العاص، فأخبره عن ضرطة أبى الأسود، ثم خرج عمرو فلقى أبا الأسود بالسوق، فقال له: مافعلت ضرطتك يا أبا الأسود؟! فقال أبو الأسود: كل ذى جوف ضروط، ثم غدا على معاوية فقال له: إن امرأً لم يؤمن على ضرطة حقيق ألاَّ يؤمن على إمرة المؤمنين.

قال العلامة الذهبى - فى دول الإسلام، عند ذكر عبيد الله بن زياد المعروف أبوه بزياد ابن أبيه عند الناس، وعند بنى أمية بزياد بن أبى سفيان -: روى عن معاوية أنه كتب إلى زياد: أوفد علَّى ابنك عبيد الله، ففعل، فما سأله معاوية عن شىء إلا أنفذه فيه، حتى سأله عن الشعر، فلم يعرف منه شيئًا، فقال له معاوية: ما منعك من رواية الشعر؟ قال: كرهت أن أجمع كلام الله وكلام الشيطان فى صدرى، فقال: اغرب، والله لقد وضعتُ رِجَلىّ فى الركاب يوم صفين مرارًا مايمنعنى من العزيمة إلا أبيات ابن الإطنابة حيث يقول: [من الوافر]

أَبَتْ لِى عِفَّتِى وَأَبَىٰ حَيَائِى   وأَخْذِى الحَمْدَ بالثَّمَنِ الرَّبيحِ

وَإِعْطَائِى على الإعدام مَالِى ... وإِقْدَامِى عَلَى البَطَلِ المُشِيحِ
وَقَوْلِى كُلَّمَا جَشَأَتْ وطَاشَتْ: ... مَكَانَكِ تُحْمَدِى أَوْ تَسْتَرِيحِى

وكتب إلى أبيه فروَّاه الشعر، فما سقط عليه منه بعدُ شىء.

قلت: وإنما ذكرتها ههنا لتعلقها بمعاوية؛ إذ الكلام فيه هنا.

قال معاوية يومًا على المنبر: أيها الناس، إن الله فضل قريشًا بثلاث؛ فقال لنبيه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ونحن عشيرته الأقربون، وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ونحن قومه، وقال ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ [قرش: ١] ونحن قريش، فقال له رجل من الأنصار: على رسلك يامعاوية؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ [الأنعام: ٦٦] وأنتم قومه، وقال: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [الزخرف: ٥٧] وأنتم قومه، وقال: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠] وأنتم قومه، ثلاث بثلاث، ولو زدتنا لزدناك.

قال سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت: دخل رهط من الأنصار على معاوية، فقال لهم: يا معشر الأنصار، قريش خير لكم منكم لهم، فإن يكن ذلك لقتلَىٰ أُحُد، فقد نلتم يوم بدر، وإن تكن للأثرة، فوالله ماجعلتم إلى صلتكم سبيلاً: خذلتم عثمان يوم الدار، وقتلتم أنصاره يوم الجمل، وصليتم بالأمر يوم صفين، فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين، أما قولك عن قتلى أحد، فإن قتيلنا شهيد، وحيّنا فائز. وأما قولك: الأثرة، فإن رسول الله ﷺ أمرنا بالصبر عليها. وأما قولك: إنا خذلنا عثمان يوم الدار، فإنِ الأمر فى عثمان إلا جَفَلَىٰ.

وأما قولك: إنا قتلنا أنصاره يوم الجمل، فذاك ما لا نعتذر منه، وأما قولك: إنا صلينا الأمر يوم صفين، فإنا كنا مع رجل لم نأله خيرًا، فإن لمتنا فرب ملوم لا ذنب له، ما مددت لنا شبرًا من عذر إلا مددنا لك باعًا من خير، وإنك جدير بأن تستصفى قلوبنا من كدرها بفَضْلِ حلمك، فقال: أفعلُ وكرامة، ثم أدناهم وأجزل حباءهم. كذا فى المحاسن للبيهقىّ.

وعن محمد الخزاعى قال: دخلتْ بكارة الهلالية على معاوية، وكانت قد كبرت وغشى على بصرها، وضعفت قوتها، فسلمت وجلست، فرد عليها معاوية السلام،

وقال لها: كيف أنت يا خالة؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين، قال: غَيَّرَكِ الدهرُ، قالت: هو كذا؛ من عاش كبر، ومن مات قُبِر، فقال عمرو بن العاص: هى القائلة يا أمير المؤمنين: [من الكامل]

يَا زَيْدُ دُونَكَ فَاحْتَفِرْ فِى أَرْضِنَا   سَيْفًا حُسَامًا فى التُّرابِ دَفِينَا

قَدْ كُنْتُ أَخْبَؤُهُ لِيَوْمِ مُلمَّةٍ   وَالـيَوْم أَبرَزَهُ الزَّمَانُ مَصُونا

فقال مروان: هى والله القائلة - أيضًا - يا أمير المؤمنين: [من الكامل]

أَتُرَى ابْنَ هِنْدٍ للخِلاَفةِ مَالِكًا   هَيْهَاتَ ذَاكَ وَإِنْ أراهُ بَعِيدُ

مَنَّتْكَ نَفْسُكَ فِى الخَلاَءِ ضَلاَلَةً   أَقْوَال عَمْرٍو وَالشَّقِىُّ سَعِيدُ

وقال سعيد بن العاص: هى والله القائلة أيضًا: [من الكامل]

قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَمُوتَ وَلاَ أَرَىٰ   فَوْقَ المَنَابِرِ مِنْ أُمَيَّةَ خَاطِبَا

أَللهُ أَخَّرَ مُدَّتِى فَتَطَاوَلَتْ   حَتَّىٰ رَأَيْتُ مِنَ الزَّمَانِ عَجَائِبَا

فقالت: يا معاوية، إن هؤلاء جماعة حسنة، وأنا والله القائلة هذا جميعه، وما خفى عنك أكثر، فضحك معاوية، وقال لها: ليس يمنعنا ذلك من أداء حقك، وقضاء حوائجك، فما كان لك من حاجة فأبديها، قالت: أما فى المجلس فلا، وانصرفت، فأرسل خلفها واسترضاها، وأعطاها عشرة آلاف درهم.

وعن سهل التيمى قال: حج معاوية فسأل عن امرأة من بنى كنانة يقال لها: دارمة الحجازية الكنانية، فأخبروه بسلامتها، فأمر بإحضارها، فلما حضرت، وكانت سوداء، فقال لها: كيف أنت، يابنة حام؟ قالت: لست بابنة حام، إنما أنا امرأة من بنى كنانة، قال: أتدرين لم أرسلت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله، قال: أردت أن أسألك لم أحببت عليًا وأبغضتنى وواليته وعاديتِنى؟ قالت: أحببت عليًا؛ لعدله فى الرعية وقسمته بالسوية، وأبغضتك؛ لقتالك من هو أولى بالخلافة منك، وطلبك ما ليس بحق لك. وواليت عليًا؛ لما عقد له رسول الله ﷺ من الولاية، ولحبه المساكين، وإعظامه لأهل الدين، وعاديتك بسفك الدماء، وجورك فى القضاء، وحكمك بالهوى. فقال لها معاوية: ورأيتِ عليًا؟ قالت: نعم، قال: كيف رأيتِه ؟ قالت: رأيته ما فتنه الملكُ الذى فتنك، ولم تشغله النعمة التى شغلتك، قال: فهل سمعت من كلامه شيئًا؟ قالت: نعم، كان كلامه يجلو القلوب من

العمى؛ كما يجلو القين الصدى، قال: فهل لك من حاجة؟ قالت: نعم، أعطنى مائة ناقة حمراء فيها فحولها ورعاتها، قال: فما تصنعين بها؟ قالت: أغذى بلبنها الصغار، وأستحيى بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر، قال: فإذا دفعتها لك، أكون عندك فى منزلة على؟ قالت: لا والله، فقال معاوية: [من الطويل]

إِذَا لَمْ أَجُدْ بِالحِلْمِ مِنِّى عَلَيْكُمُ   فَمَنْ ذَا الَّذِى بَعْدِى يُؤَمَّلُ لِلْحِلْمِ ؟!
خُذِيهَا هَنِيئًا واذْكُرِى فِعْلَ ماجِدٍ   جَزَاكِ عَلَى حَرْبِ العداوةِ بِالسِّلْمِ

ثم قال لها: والله لو كان على حيًّا ما أعطاك منها ناقة، قالت: لا والله، ولا وَبرَةً؛ لأنها من مال المسلمين.

واستأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية، فأذن لها، فدخلت وسلمت، وكان عليها ثلاثة دروع تسحب خلفها، ثم جلست، فقال لها: كيف أنت يابنة صفوان ؟ قالت: كسلت بعد نشاط، وضعفت بعد قوة، فقال: شتَّان بين لسانك اليوم وبين قولك: [من الكامل]

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارِمًا ذَا رَوْنَقٍ   عَضْبَ المحزة لَيْسَ بالخَوَّارِ
أسرِجْ جَوَادَكَ مُسْرعًا ومُشَمِّرًا   للحَرْبِ غَيْر معوّدٍ لِفِرَارِ
أَجِبِ الإمامَ وَذبَّ تَحْتَ لوائِهِ   وَالْقَ العَدُوَّ بِصَارِمٍ بَتَّارِ
يا ليتنى أَصْبَحْتُ غَيْرَ قعيدةٍ   فَأذبَّ عَنْهُ عَسَاكِرَ الفُجَّارِ

قالت: قد كان ذلك، ولكن عفا الله عما سلف، ومن عاد، فينتقم الله منه، قال: هيهات ! أما والله لو عاد لعدتِ، ولكنه اخترم، قالت: أجل، والله، إنى على بينة من ربى، وهدى من أمرى، فقال بعض جلسائه: وهى القائلة ترثى عليًّا: [من الكامل]

يَا لَلرِّجَالِ لهوْلِ عُظْمِ مُصِيبَةٍ   حَلَّتْ فَلَيْسَ مُصَابها بالحَائِلِ
أَلشَّمْسُ كاسفَةٌ لِفَقْدِ إمَامِنَا   خَيْرِ الخلائِقِ والإمَامِ العَادِلِ
صِهْرَ النبىِّ لَقَدْ نَفَذْتَ فؤَادنا   وَالحَقُّ أَصْبَحَ خَاضِعًا للبَاطِلِ

فقال لها معاوية: قاتلك الله، ما أبقيت لنا من قول! ثم خرجت، فبعث لها معاوية بجائزة سنية.

وأخباره بمثل ذلك كثيرة شهيرة.

قيل: ذكر أنه جلس يومًا فى مجلس كان له بدمشق، وكان ذلك المجلس مفتح الجوانب يدخل منه النسيم من سائر جهاته، فبينما هو جالس ينظر، وكان يومًا شديد الحر، لا نسيم فيه، وكان وسط النهار؛ إذ نظر إلى رجل يمشى نحوه، وهو يتلظى من حر الرمضاء، ويحجل فى مشيته راجلاً حافيًا، فتأمله وقال لجلسائه: هل خلق الله رجلاً أشقى ممن يحتاج إلى الحركة فى مثل هذه الساعة؟ فقال بعضهم: لعله يقصد أمير المؤمنين، فأوصى حاجبه: إن طلبنى هذا الأعرابى، فلا تمنعه من الدخول علىّ، فكان كذلك، فأدخله، فقال له معاوية: ممن الرجل؟ فقال: من تميم، قال: ما الذى جاء بك فى هذا الوقت؟ قال: جئتُ شاكيًا، وبك مستجيرًا، قال: ممن؟ قال: من مروانَ بنِ الحكم بما ملك، وأنشد: [من الطويل]

مُعَاوِىَ يا ذا الحِلْمِ والجودِ والفَضْلِ ... وَيَا ذا النَّدَىٰ وَالعِلْمِ وَالرُّشْدِ وَالنُّبْلِ
أَتيتُكَ لمَّا ضَاقَ فِى الأَرْضِ مَذْهَبِى ... فَيَا غَوْثُ لاَ تَقْطَعْ رَجَائِى مِنَ العَدْلِ
وَجُدْ لِى بِإِنْصَافٍ مِنَ الجَائِرِ الذى ... بَلاَنِى بِشَىءٍ كانَ أَيْسَرُهُ قَتْلِى
سَبَانِىَ سُعْدَىٰ وانبَرَىٰ لخُصُومَتِى ... وَجَارَ ولم يَعْدِلْ وَغَاصَبَنِى أَهْلِى
وَهَمَّ بقتلى غَيْرَ أَنَّ مَنِيَّتِى ... تَنَاءَتْ ولم أَسْتَكْمِلِ الرِّزْقَ مِنْ أَجْلِى

فلما سمع معاوية إنشاده والنار تتوقد من فيه، قال: مهلاً يا أخا العرب، اذكر قصتك، وأبِنْ عن أمرك، فقال: يا أمير المؤمنين، كانت لى زوجة وكنت لها محبًا، وبها كلفًا، وكانت لى صرمة من إبل نستعين بها على قيام حالى، فأصابتنا سنة سَنْتَاءُ حُطَمَة شديدة أذهبتِ الخفَّ والحافر؛ فبقيت لا أملك شيئًا. فلما ذهب ما بيدى، بقيت مهانًا ثقيلاً على الناس، فلما علم أبوها ما بى من سوء الحال، أخذها منى وحجرنى وطردنى وأغلظ على، فأتيتُ إلى عاملك مروان راجيًا لنصرته، فلما أحضر أباها، سأله عن حالى، فقال: ما أعرفه قبل اليوم، فقلت: أصلح الله الأمير، إنْ رَأَىٰ أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها فليفعل، فبعث خلفها وأحضرَهَا، فلما حضرت بين يديه، وقعَتْ منه موقع الإعجاب، فصار لى خصمًا، وعليَّ منكرًا، وأظهر لى الغضب، وبعث بى إلى السجن، فبقيت كأنما خررت من السماء، واستهوت بى الريح فى مكان سحيق، ثم قال لأبيها: هل لك أن تزوِّجها منى على ألف دينار وعشرة آلاف درهم لك، وأنا ضامن لك خلاصها من هذا الأعرابى ؟ فرغب أبوها

في المال، وأجابه إلى ذلك.

فلما كان من الغد، بعث إليَّ وأحضرنى، ونظر إلى كالأسد الغضبان، وقال: يا أعرابى، طلق سعدى، فقلت: لا، فسلط عليَّ جماعة من غلمانه، فأخذونى يعذبونى أنواع العذاب، فلم أجد بُدًّا من طلاقها، فأعادنى إلى السجن، فمكثت فيه إلى أن انقضت عدتها، فتزوجها، ودخل بها وأطلقنى، وقد أتيتك مستجيرًا إليك ملتجئًا، وأنشد: [من المجتث]

فِى القَلْبِ مِنِّىَ نَارُ   وَالنَّارُ فِيهَا اسْتِعَارُ
وَالجِسْمُ مِنِّى سَقِيمٌ   فِيهِ الطَّبِيبُ يَحَارُ
وفى فؤادِيَ جَمْرٌ   والْجَمرُ فِيهِ شَرارُ
والعَيْنِ تنهلُّ دمعًا   فَدَمْعُهَا مِدْرَارُ
وَلَيْسَ إلاَّ بِرَبِّي   ثُمَّ الأَمِيرِ انْتِصَارُ

ثم اضطرب واصطكَّتْ لحياه، وصار مغشيًا عليه، وأخذ يتلوى كالحية المقتولة، فلما سمع كلامه معاوية وإنشاده، قال: تعدى وظلم ابن الحكم فى حدود الدين، واجترأ على حرم المسلمين، ثم قال: والله يا أعرابى، لقد أتيتنى بحديث لم أسمع بمثله، ثم دعا بدواة وقرطاس، وكتب إلى مروان بن الحكم: قد بلغنى أنك ظلمت واعتديت، وينبغى لمن كان واليًا أن يكفَّ بصره عن شهواته، ثم كتب إليه بعد كلام، فقال: [من البسيط]

وَلِيتَ وَيْحَكَ أمرًا لَسْتَ تُدْرِكُهُ   فَاسْتَغْفِرِ اللَّه مِنْ فِعْلِ امرِئٍ زَانى
وَقَدْ أَتَانَا الفَتَى الْمِسْكِينُ مُنْتَحِبًا   يَشْكُو إِلَيْنَا بِبَثٍّ ثُمَّ أَحْزَانِ
أُعْطِى الإِلَهَ يَمِينًا لا أُكَفِّرُهَا   نَعَمْ وَأَبْرأُ من دينِي وَدَيَّانِي
إن أَنْتَ خالَفْتَنِى فيما كَتَبْتُ به   لأَجْعَلَنَّكَ لَحْمًا بَيْنَ عقْبَانِ
طَلِّقْ سُعَادَ وعَجِّلْهَا مُجَهَّزَةً   مع الكُمَيْتِ ومَعْ نَصْرِ بن ذبيانِ

ثم طوى الكتاب، وطبعه بخاتمه، واستدعى بالكميت ونصر بن ذبيان، وكان يستنهضهما للمهمات لأمانتهما، فأخذا الكتاب، وقدما المدينة، وأسلما الكتاب إلى مروان، فجعل يقرأ ويرتعد ويبكى، وأخبر سعدى وطلقها، وجهزها وصحبها الرجلان، وكتب إلى معاوية فصلاً يقول فيه: [من البسيط]

لا تعجَلنَّ أميرَ المؤمنينَ فقَدْ أوْفى بنذْرِكَ فى رفْقٍ وإحسانِ
وما أَتَيتُ حَرَامًا حينَ أعجبني فكَيْفَ أُدْعَىٰ بإسْمِ الخائِنِ الزاني ؟!
أُعْذُرْ فإنَّكَ لو أبصَرْتَهَا لَجَرَتْ مِنْكَ الأمانِى علَى تِمْثَالِ إنسانِ
وَسَوْفَ تَأْتِيكَ شَمْسٌ لَيسَ يَعْدِلُهَا عند الحقيقةِ مِنْ إنْسٍ وَلاَ جَانِ

وختم الكتاب ودفعه إلى الرسولين، وسلم إليهما الجارية، فوصلوا إلى معاوية، فقرأ الكتاب ثم قال: لقد أحسن فى الطاعة، ثم أمر بإحضار الجارية، فلما رآها، رأى صورة لم ير مثلها، فخاطبها فوجدها فصيحة اللسان عذبة المنطق، فقال: عَلَيَّ بالأعرابى، فأتى به وهو على غاية من سوء الحال، فقال: يا أعرابى، هل لك عنها من سلوّ، وأعيضك عنها ثلاث جوار نُهَّدٍ أبكارٍ، مع كل جارية ألف دينار، وأقسم لك من بيت المال فى كل سنة ما يكفيك، فقال الأعرابى: استجرت بعدلك من مروان، فبمن أستجير من جورك، ثم أنشد: [من البسيط]

لاَ تَجْعَلَنّى جَزَاكَ اللَّه مِنْ مَلِكٍ كَالمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَا إلَى النَّارِ
أُرْدُدْ سُعَادَ عَلَىٰ حرَّانَ مُكْتَئِبٍ يُمْسى ويُصْبح فى هَمٍّ وَتَذْكَارِ
أَطْلِقْ وَثَاقى وَلاَ تَبْخَلْ عَلَيَّ بها فَإنْ فَعَلْتَ فإنِى غَيْرُ كَفَّارِ

واللَّه يا أمير المؤمنين لو أعطيتنى ما حوته الخلافة ما أخذته دون سعاد، وأنشأ يقول: [من الطويل]

أَبَى القلبُ إلاَّ حُبَّ سُعْدَىٰ وَبُغِّضَتْ إلَـيَّ نـسـاءٌ مَـا لَـهُـنَّ ذُنُـوبُ

فقال معاوية: يا أعرابى، إنك مقر أنك طلقتها، ومروان طلقها، ونحن نخيِّرها، فإن اختارت سواك زوجناها، قال: افعل، فقال معاوية: ما تقولين، أيُّما أحبُّ إليك: أمير المؤمنين فى عِزِّهِ وشرفه وسلطانه، أو مروان بن الحكم فى عسفه وجوره، أو هذا الأعرابى فى جوعه وفقره ؟ فأنشدت: [من البسيط]

هَذَا وَإنْ كَانَ فِى جُوعٍ وَإضْرَارِ أَعَزُّ عِنْدِيَ مِنْ قَوْمِى ومِنْ جارِي
وَصَاحِبِ التَّاجِ أو مَرْوَانَ عَامِلِهِ وَكُلِّ ذِى دِرْهَمٍ عِنْدِى وَدِينَارِ

ثم قالت: واللّه يا أمير المؤمنين، ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان، ولا لغدرة الأيام؛ فإن لى معه صحبةً قديمةً لا تُنْسَى، ومحبةً لا تبلَىٰ، فأنا أحق من صبر معه فى الضراء؛ كما تنعمت معه فى السراء. فعجب معاوية من عقلها ومروءتها وموافاتها،

وأمر لها بعشرة آلاف درهم، وردها إلى الأعرابى بعقد صحيح. انتهت.

قال ابن سعد فى الطبقات افتخر الحسن بن على فى مجلس معاوية، فقال: أنا ابن ماء السما، وعروق الثرى، وابن من ساد أهل الدنيا، بالحسب الثاقب، والشرف الفائق، والقدم السابق، أنا ابن من لرضاه رضى الرحمن، ثم رد وجهه للخصم، فقال: هل لك أب كأبى، أو قديم كقديمى، فإن تَقُلْ: لا، تُغْلَبْ، وإن تقل: نعم، تكذب، فقال الخصم: لا؛ تصديقًا لقولك، فقال سيدنا الحسن: [من الكامل]

أَلْحَقُّ أَبْلَجُ لاَ تَزِيغُ سَبِيلُهُ وَالحَقُّ تَعْرِفُهُ أُولُو الأَلْبَابِ

وقال معاوية يومًا وعنده أشراف الناس من قريش وغيرهم: أخبرونى بأكرم الناس أبًا وأمًّا، وعمًّا وعمَّة، وخالاً وخالةً، وجدًّا وجدةً ؟! فقام مالك بن العجلان، وأومأ إلى الحسن فقال: ها هو ذا ابن على بن أبى طالب، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعمه جعفر الطيار، وعمته أم هانئ بنت أبى طالب، وخاله القاسم ابن رسول الله ﷺ، وجده رسول الله، وجدته خديجة بنت خويلد، فسكت القوم ونهض الحسن. فقام رجل من بنى سهم، فأَنَّبَ ابن العجلان على مقالته، فقال ابن العجلان: ما قلتُ إلا حقًّا، وما أحد من الناس يطلب مرضاة مخلوق بمعصية الخالق، إلا لم يعطه اللَّه أمنيته فى دنياه، ولم يختم له إلا بالشقاء فى أخراه. بنو هاشم أرواكم عودًا، وأوراكم زندًا، كذلك يا معاوية ؟ فقال: اللهم نعم.

عهد معاوية لابنه يزيد بالخلافة

ذكر ابن الجوزيّ[1] بسنده قال: قَدِمَ المغيرة بن شعبة على معاوية، فشكا إليه الضعف واستعفاه فأعفاه، وأراد أن يولى سعيد بن العاص، وقال أصحاب المغيرة للمغيرة: إن معاوية قلاك، فقال لهم: رويدًا، ونهض إلى يزيد، وعرض له بالبيعة، وقال: ذهب أعيان الصحابة وكبراء قريش وذَوُو أسنانهم، وإنما بقى أبناؤهم وأنت منى أفضلهم وأحسنهم رأيا وسياسة، وما أدرى ما يمنع أمير المؤمنين من العَقْدِ لك، فأَدْلَى ذلك يزيد إلى أبيه، فاستدعاه وفاوضه فى ذلك، فقال: قد رأيت ما كان من الاختلاف وسفك الدماء بعد عثمان، وفى يزيد ابنك خلف، فاعقد له يكون كهفًا للناس بعدك، فلا يكون فتنة ولا سفك للدماء، وأنا أكفيك الكوفة، ويكفيك زياد

(١) ينظر: المنتظم (٥/ ٢٨٥، ٢٨٦).

البصرة، فرد معاوية المغيرة إلى الكوفة وأمره أن يعمل فى بيعة يزيد، فقدم الكوفة وذكر من يرجع إليه من شيعة بنى أمية، فأجابوا، وأوفد منهم جماعة مع ابنه موسى ابن المغيرة، فدعوا معاوية إلى بيعة يزيد، فقال: وقد رضيتموه ؟ قالوا: نعم، نحن ومن وراءنا، فقال: ننظر ما قدمتم له، ويقضى الله أمره، والأناة خير من العجلة.

ثم كتب إلى زياد يستشيره، فنكر زياد ذلك وأعظم أن يكاتب فيه، واستدعى عبد الله بن كعب النميرى، وكانت له صحابة وله به ثقة، وقال له: دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصُّحُفِ، إن معاوية كتب إلى أن أجمع الناس على بيعة يزيد، وهو يتخوَّف نفرة الناس ويرجو مطابقتهم ويستشيرنى، وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رسلة وتهاون فيما أولع به من الصيد، فالق معاوية مؤديًا عنى، وأخبره عن فعلات يزيد، وقل له: رويدك بالأمر، فقمنٌ أن يتم لك ما تريد ولا تعجل، فقال له عبيد الله بن كعب: لا تفسد على معاوية رأيه، ولا تمقتْ إليه ابنه، وأنا ألقى يزيد فى سر من معاوية، فأخبره عنك بكتاب معاوية إليك يستشيرك فى بيعته، وأنك تتخوف خلاف الناس لما ينقمون عليك، وأنك ترى له ترك ما ينقمون عليه لتستحكم الحجة على الناس ويسهل الأمر، وفى ذلك نصح يزيد، ورضا معاوية، والسلامة عن درك الأمة.

فقال له زياد: لقد رميت الأمر بحجره، اشخص علَىٰ بركة الله، وكتب زياد إلى معاوية يأمره بالتؤدة وألاَّ يعجل، فقبل ذلك معاوية، وبلغ عبيد الله بن كعب وصية زياد إلى يزيد، فكف عن كثير مما كان يصنع.

فلما مات زياد، اعتزم معاوية على العهد ليزيد، وقرأ كتابه على الناس باستخلافه يزيد إن حدث به حدث المَوْت، فيزيد ولى عهده، فاستوثق له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر: الحسين بن على، وابن عمر، وابن الزبير، وابن عباس، وعبد الرحمن بن أبى بكر.

فحج معاوية سنة إحدى وخمسين، فلما قدم مكة، بعث عن الحسين، وقال: يا بن أخى، قد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر، أنت تقودهم، فما إربك[١] إلى هذا الخلاف ؟ قال الحسين: أرسل إليهم، فإن بايعوا فأنا منهم، ولا تعجل

(١) في ط: رأيك، والمثبت من المنتظم، ومعناه: فما حاجتك .

عليّ، فعاهده معاوية على الكتمان.

ثم بعث عن ابن الزبير فأجابه بمثل ما أجاب الحسين، وطلبه العهد فأبى وخرج، ثم بعث عن ابن عمر، فأجابه بمثل كلامهما وألان له القول بعض اللين؛ بأن قال: أخاف أن أدع الأمة كالضأن لا راعى لها، فقال له ابن عمر: أبايعك على أنى أدخل بعدك فيما تجتمع عليه الأمة، فوالله لو اجتمعوا بعدك على عبد حبشى، لدخلْتُ معهم، وخرج فأغلق بابه، ولم يأذن لأحد.

ثم بعث معاوية عن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، فقال له: بأيّة يد أو رجل تُقْدِمُ على معصيتى؟ فقال عبد الرحمن: أرجو أن يكون ذلك خيرًا لى، فقال معاوية: والله لقد هممتُ أن أقتلك، قال عبد الرحمن: لو فعلت لأخذك [الله] فى الدنيا والآخرة، ولم يذكر ابن عباس(١).

وقد ذكر فى كيفية هذا الحديث طريق غير هذا ذكره الذهبى فى تاريخه دول الإسلام، أحببت إيراده؛ لاشتماله على زيادة علم، ونصه: روى النعمان بن راشد، عن الزهرى، عن ذكوان مولى عائشة، قال: لما أجمع معاوية على أن يبايع لابنه يزيد، حج فقدم مكة فى نحو من ألف رجل، فلما دنا من المدينة، خرج ابن عمر وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر، فلما قدم معاوية المدينة، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر ابنه يزيد، فقال: من أحق بهذا الأمر منه؟ ثم ارتحل فقدم مكة، فقضى طوافه ودخل منزله، فبعث إلى ابن عمر، فتشهد، وقال: أما بعد، يا بن عمر، إنك كنت تحدثنى أنك لا تحب تبيت ليلة سوداء ليس عليك فيها أمير، وأنا أحذر [ك] أن تشق عصا المسلمين أو تسعى فى فساد ذات بينهم.

فقام ابن عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنك كانت قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك بخير من أبنائهم، فلم يروا فى أبنائهم ما رأيت فى ابنك، ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا الخيار، وإنك تحذرنى أن أشقّ عصا المسلمين، ولم أكن لأفعل، إنما أنا رجل من المسلمين، فإذا اجتمعوا على أمر، فإنما أنا رجل منهم. فقال معاوية: يرحمك الله، فخرج ابن عمر، ثم أرسل إلى ابن أبى بكر، فتشهد ثم أخذ فى الكلام، فقطع عبد الرحمن عليه كلامه، فقال: إنك والله لوددت

(١) ينظر: المنتظم (٥/ ٢٨٥، ٢٨٦).

أنا وكلناك فى أمر ابنك إلى الله، وإنا والله لا نفعل، والله لتردنَّ هذا الأمر شورى فى المسلمين، أو لنردنها عليه جذعة، ثم وثب ومضى، فقال معاوية: اللهم، اكفنيه بما شئت، ثم قال: على رسلكَ أيها الرجلُ لا تشرفنَّ على أهل الشام؛ فإنى أخاف أن يسبقونى بنفسك حتى أخبر العشيرة أنك قد بايعْتَ، ثم كُنْ بعدُ علَىٰ ما بدا لك من أمرك.

ثم أرسل إلى ابن الزبير فقال: يا بن الزبير، إنما أنت ثعلب رواغ، كلما خرج من جحر دخل آخر، وإنك عمدت[١] إلى هذين الرجلين فنفخت فى مناخيرهما، وحملتهما على غير رأيهما، فقال ابن الزبير: إن كنت قد مللت الإمارة، فاعتزلها، وهلم ابنك فلنبايعه، أرأيت إذا بايعنا ابنك معك، لأيكما نسمع ونطيع ؟! لا نجمع البيعة لكما أبدًا.

ثم راح وصعد معاوية المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار، زعموا أن ابن عمر وابن أبى بكر وابن الزبير لم يبايعوا يزيدَ، وقد سمعوا وأطاعوا وبايعوا، فقال أهل الشام: والله لا نرضَىٰ حتى يبايعوا على رءوس الأشهاد، وإلا ضربنا أعناقهم، فقال معاوية: سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشرِّ، لا أسمع هذه المقالة من أحد منكم بعد اليوم، ثم نزل، فقال الناس: بايع ابن عمر وابن الزبير وابن أبى بكر، وهم يقولون: لا والله، ما بايعنا، فيقول الناس: بلى، وارتحل معاوية فلحق بالشام[٢].

وقال جويرية بن أسماء: سمعتُ أشياخَ المدينةِ يحدِّثون أن معاوية لما رحل عن مرّ داخلاً مكة، قال لصاحب حرسه: لا تدع أحدًا يسير معى إلا من حملته أنا، فخرج يسير وحده حتى إذا كان وسط الأراك، لقيه الحسين بن على - رضى الله تعالى عنهما - قال: فوقف، وقال: مرحبًا وأهلاً بابن ابنة رسول اللّه ﷺ، وسيد شباب المسلمين، دابة لأبى عبد الله يركبها، فأتى ببرذون، فتحول عليه، ثم طلع عبد الرحمن بن أبى بكر، فقال معاوية: مرحبًا وأهلاً بشيخ قريش وسيدها وابن صديق الأمة، دابة لأبى محمد، فأتى ببرذون فركب، ثم طلع ابن عمر فقال: مرحبًا

(١) في ط: عهدت. والمثبت من تاريخ الاسلام.
(٢) ينظر: تاريخ الإسلام، حوادث سنة إحدى وخمسين.

وأهلاً بصاحب رسول الله ﷺ وابن الفاروق، فدعا له بدابة فركبها، ثم طلع ابن الزبير، فقال: مرحبًا بابن حواريّ رسول الله ﷺ وابن عمة رسول الله ﷺ، ثم دعا بدابة فركبها، ثم أقبل معاوية يسير بينهم لا يسايره غيرهم حتى دخل مكة.

ثم كانوا أول داخل عليه، وآخر خارج، وليس لهم صباح إلا ولهم[1] حباء وكرامة، ولا تعرَّض لهم بذكر شيء حتى قضى نسكه وترحلت أثقاله وقرب مسيره، فأقبل بعض القوم على بعض، فقال: أيها القوم، لا تخدعوا، إنه والله ما صنع بكم ما صنع لحبكم، ولا لكرامتكم ولا صنعه إلا لما يريد، فأعدوا له جوابًا، فأقبلوا على الحسين، فقالوا: أنت يا أبا عبد الله، فقال: وفيكم شيخ قريش وسيدها هو أحق بالكلام، فقالوا لعبد الرحمن: يا أبا محمد، قال: لست هناك، وفيكم صاحب رسول الله ﷺ وسيد المسلمين، فقالوا لابن عمر: أنت، قال: لست بصاحبكم، ولكن، ولوا الكلام ابن الزبير، قال: نعم، إن أعطيتمونى عهودكم ألاَّ تخالفونى، كفيتكم الرجل، قالوا: ذاك لك.

قال: فأذن لهم معاوية، فدخلوا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد علمتم مسيرى فيكم، وصلتى لأرحامكم، وصفحى عنكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم وأحسن الناس فيكم رأيًا، وإنما أردت أن تقدموه باسم الخلافة، وتكونون أنتم الذين تنزعون وتؤمرون وتقسمون، فسكتوا، فقال: ألا تجيبونى ؟ فسكتوا، فأقبل على ابن الزبير، فقال: هات يا بن الزبير؛ فإنك لعمرى صاحبُ خطبة القوم، قال: نعم، يا أمير المؤمنين، نخيرك ثلاث خصال، أيها ما أخذت فهو لك، قال: لله أبوك اعرضهُنَّ، قال: إن شئت، اصنع ما صنع رسول الله ﷺ، وإن شئت اصنع ما صنع أبو بكر، وإن شئت اصنع ما صنع عمر، قال معاوية: ما صنعوا ؟ قال ابن الزبير: قبض رسول الله ﷺ ولم يعهد عهده ولم يستخلف أحدًا، فارتضى المسلمون أبا بكر، فقال معاوية: إنه ليس فيكم اليوم مثل أبى بكر؛ فإن أبا بكر رجل تقطع دونه الأعناق، وإنى لست آمن عليكم الاختلاف، قال ابن الزبير: صدقت، والله ما تحب أن تدعنا، فاصنع ما صنع أبو بكر، قال معاوية: لله أبوك، ما صنع أبو بكر ؟

(١) هذه العبارة في تاريخ الإسلام هكذا: «وليس في الأرض صباح إلا أولاهم».

قال: عهد(١) إلى رجل من قاصية قريش، ليس من رهطه فاستخلفه، فإن شئت أن تنظر أى الرجل من قريش ليس من بنى عبد شمس فترضى به.

قال معاوية: فالثالثة ما هى ؟ قال: تصنع ما صنع عمر، قال: وما صنع ؟ قال: جعل الأمر شورى فى ستة ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه ولا من رهطه، قال معاوية: فهل عندك غير هذا ؟ قال: لا، قال: فأنتم ؟ قالوا: ونحن أيضًا، فقال: أما إنى قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر، وأنه كان يقوم القائم منكم إليَّ فيكذبنى على رءوس الناس فأحتمل ذلك له، وإنى قائم بمقالة إن صدقت فلى صدقى، وإن كذبت فلى كذبى، وإنى أقسم بالله، لئن رد على إنسان منكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يسبق إِلىّ رأسه، فلا يَرْعَيَنَّ رجل إلا على نفسه، ثم دعا صاحب حرسه، فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين، فإن ذهب رجل يرد على كلمة فى مقامى هذا، فليضربا عنقه. ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يُسْتَبَدُّ بأمر دونهم ولا يقضى أمر إلا عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ابن أمير المؤمنين من بعده، فبايعوا باسم الله، قال: فضربوا على يده بالمبايعة، ثم جلس على رواحله، وانصرف الناس(٢).

وفاة معاوية بن أبى سفيان

ذكر غير واحد: أنه لما ثقل فى الضعف، وتحدث الناس أنه الموت، قال لأهله: احشوا عينى إثمدًا وأوسعوا رأسى دهنًا، ففعلوا وبرقوا وجهه بالدهن، ثم مهدوا له مجلسًا وأسندوه، فأذن للناس فدخلوا وسلَّموا عليه قيامًا، فلما خرجوا من عنده، أنشد قائلًا: [من الكامل]

وَتَجَلُّدِى لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ   أَنِّى لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ

فسمعه رجل من العلويين، فأجابه يقول: [من الكامل]

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا   أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لاَ تَنْفَعُ(٣)

---

(١) في تاريخ الإسلام: عمد.

(٢) ينظر: تاريخ خليفة (٢١٥-٢١٧)، وتاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وخمسين.

(٣) ينظر: تاريخ الطبري (٥/ ٣٢٦).

وكان قد خطب الناس قبل موته، فقال: إنى كزرع مستحصد، وقد طالت إمارتى عليكم حتى مللتكم ومللتمونى، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى، ولن يأتيكم بعدى إلا من أنا خير منه كما كان من قبلى خيرًا منى، وقد قيل: من أحب لقاء الله، أَحَبَّ الله لقاءه، اللهم إنى قد أحببتُ لقاءك، فأحبِبْ لقائى، وبارك لى فيه.

فلم يمض قليل حتى ابتدأ به مرضه، فدعا ابنه يزيد، وقال: يا بنى، إنى قد كفيتك الرحلة، ووطأت لك الأمور، وأخضعت لك رقاب العرب، وجمعت لك ما لم يجمع أحد، وإنى لا أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر الذى استتبَّ لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن على، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر، فأما ابن عمر: فرجل قد وقذته العبادة، وإذا لم يبق غيره بايعك، وأما الحسين: فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك، فظفرت به، فاصفح عنه؛ فإن له رحمًا ماسّة وحقًّا عظيمًا، وأما ابن أبى بكر: فإن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثله، وليس له همة إلا فى النساء، وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك روغان الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك، وقد فزت عليه، فقطعه إربًا إربًا. هذا حديث الطبرى عن هشام(1).

وله عن هشام من طريق آخر قال: لما حضرتْ معاوية الوفاة سنة ستين، كان يزيد غائبًا ببيت المقدس، فدعا بالضحاك بن قيس الفهرى، وكان صاحب شرطته، ومسلم بن عقبة المرّيّ، فقال: « أبلغا يزيد وصيتى: انظر أهل الحجاز؛ فإنهم أصلك، وأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أخفُّ من أن يشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام، فليكونوا بطانتك وعيبتك، وإن رابك(2) شيء من عدوك، فانتصر بهم، فإذا أصبتم، فاردد أهل الشام إلى بلادهم؛ فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم، تغيرتْ أخلاقهم، ولست أخاف عليك من قريش إلا ثلاثة - ولم يذكر فى هذا الطريق عبد الرحمن بن أبى بكر، فنقص ذكره من الأربعة السابق ذكرهم -

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٥/ ٣٢٢-٣٢٣)، وينظر كتاب المعمرين لابن أبي حاتم (ص١٥٥).
(٢) في الطبري: نابك.

وقال فى ابن عمر: قد وقذه الدين، فليس بملتمس شيئًا قبلك، وقال فى الحسين: ولو أنى صاحبه عفوت عنه، وأنا أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه، وقال فى ابن الزبير: إذا شخص إليك، فالبد له إلا أن يلتمس منك صلحًا، فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت(١).

وكانت وفاة معاوية منتصف رجب سنة ستين، وقيل جمادى الآخرة لتسع عشرة سنة وأشهر من ولايته(٢).

وكان على خاتمه عبد الله بن حصين الحميرى، وهو أول من اتخذ « ديوان الخاتم »، وكان سببه أنه أمر لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم، وكتب بذلك كتابًا إلى زياد بالعراق، ففض عمرو الكتاب وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه، أنكر معاوية وأخذ عمرًا بردها وحبسه، فأدَّاهَا عنه أخوه عبد الله بن الزبير، فأحدث عند ذلك ديوان الخاتم(٣).

صفة معاوية

كان رجلاً أبيض جميلاً، إذا ضحك انقلبت شفته العليا، وكان يخضب بالصفرة.

قال أبو عبد رب الدمشقى: رأيت معاوية يصفر لحيته كأنها الذهب(٤).

وعن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ قال: سمعت معاوية على منبر المدينة يقول: أين فقهاؤكم يأهل المدينة ؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن هذه القصة، ثم وضعها على رأسه أو خده، فلم أر على عروس ولا على غيرها أبهَىٰ منها على معاوية(٥).

ذكر مناقبه

ذكر المفضل الغلابى؛ أن زيد بن ثابت كان كاتب وحى رسول الله ﷺ، وكان معاوية كاتبه فيما بينه وبين العرب؛ كذا قال(٦).

---

(١) ينظر تاريخ الطبري (٥/ ٣٢٣) والمعمرين (ص١٥٦).
(٢) هكذا جزم المصنف، وفيه خلاف ينظر في تاريخ الطبري (٥/ ٣٢٣، ٣٢٤).
(٣) ينظر: تاريخ الطبري (٥/ ٣٣٠).
(٤) ينظر: تاريخ الإسلام وفيات سنة ستين، ترجمة معاوية بن أبي سفيان.
(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣٤٧) رقم (٨٠٥) من طريق الزهري عن عمر بن عبد العزيز عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ عن معاوية.
(٦) ينظر تاريخ الإسلام وفيات سنة ستين، ترجمة معاوية.

وقد صح عن ابن عباس قال: « كنت ألعب، فدعاني رسول الله ﷺ وقال: ادع لي معاوية، وكان يكتب الوحي »(١).

وقال معاوية بن صالح، عن العرباض بن سارية سمعت رسول الله ﷺ وهو يدعونا إلى السحور: « هلم إلى الغداء المبارك »، ثم سمعته يقول: « اللهم، علم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب » رواه أحمد في مسنده(٢).

وروى عن عبد الرحمن بن أبي عميرة المزني، وكان من أصحاب النبي ﷺ؛ أن النبي ﷺ قال لمعاوية: « اللهم، علمه الكتاب والحساب، وقه العذاب »(٣).

وروى عبد الرحمن بن أبي عميرة - أيضًا - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول لمعاوية: « اللهم، اجعله هاديًا مهديًا، واهده واهد به » رواه الوليد [بن] مسلم وأبو مسهر عن سعيد نحوه. ورواه الترمذي، عن الذهلي، عن أبي مسهر(٤).

وروى نعيم بن حماد، بسنده، عن يونس بن ميسرة، عن عبد اللّه بن بسر؛ أن رسول الله ﷺ استأذن أبا بكر وعمر في أمر، فقال: أشيرا عَلَيَّ، فقالا: الله ورسوله أعلم، فقال: « ادْعُوَا معاوية وأحضراه أمركما؛ فإنه قوي أمين »(٥).

وروى عن وحشي بن حرب بن وحشي، عن أبيه، عن جده قال: أردفَ رسول الله ﷺ معاوية بن أبي سفيان خلفه فقال: ما يليني منك ؟ قال: بطني، قال: « اللهم، املأه علمًا »، وقال خليفة: جمع عمر لمعاوية الشام كله، ثم أقره عثمان(٦).

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٠، ٣٣٨) ومسلم (٩٦/ ٢٦٠٤) من طريق أبي حمزة القصاب عن ابن عباس.
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٧) وابن حبان (٢٢٧٨) والبزار (٣/ ٢٦٧) رقم (٢٧٢٣) من حديث العرباض بن سارية.
(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ٢٤٠، ٧/ ٣٢٧) وابن الأثير في أسد الغابة (٣/ ٤٧٩) وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٧٥-٢٧٦) من طريق أبي مسهر ثنا سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن عبد الرحمن بن أبي عميرة المزني، به.
وذكره الألباني في الصحيحة (١٩٦٩) وعزاه أيضًا لعباس الترفقي في حديثه وابن عساكر في تاريخ دمشق.
(٤) أخرجه الترمذي (٣٨٤٢) والخطيب في تاريخه (١/ ٢٠٧-٢٠٨).
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وينظر الصحيحة (١٩٦٩).
(٥) ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام عند ترجمة معاوية وقال: هذا من مناكير حماد وهو صاحب أوابد.
(٦) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٨/ ١٨٠) من طريق وحشي. وقال الذهبي: قال صالح جزرة: لا تشتغل بوحشي ولا بأبيه.

وقال مسلم بن جندب، عن أسلم مولى عمر، قال: قدم علينا معاوية وهو أَبَضُّ[(١)] الناس وأجملهم، فحج مع عمر، وكان عمر ينظر إليه فيعجب له، ثم يضع إصبعه على متنه، ويرفعها عن مثل الشراك، ويقول: بخ بخ نحن إذن خير الناس أن جمع لنا خير الدنيا، والآخرة، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، سأحدثك، إنا بأرض الحمامات والريف، فقال له عمر: سأحدثك ما بك إلطافك نفسك بأطيب الطعام، وتضحّيك حتى تضرب الشمس منكبيك[(٢)]، وذوو الحاجات وراء الباب.

قال أسلم: فلما جئنا ذا طوى، أخرج معاوية حلة، فلبسها فوجد عمر منها رائحة طيبة، فقال عمر: يعمد أحدكم يخرج حاجًّا تَفِلًا حتى إذا جاء أعظم بلدان الله، أخرج ثوبيه؛ كأنهما كانا فى الطيب فيلبسهما، فقال معاوية: إنما لبستهما لأَدْخُلَ فيهما على عشيرتى، والله لقد بلغنى أذاك[(٣)] ههنا وبالشام، الله يعلم أنى لقد عرفت الحياء فيه، ونزع معاوية الثوبين، ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما[(٤)].

وقال أبو الحسن المدائنى: كان عمر إذا نظر إلى معاوية، قال: هذا كسرى العرب[(٥)].

وقال مجاهد، عن الشعبى، عن على قال: لا تكرهوا إمرة معاوية، فإنكم لو فقدتموه رأيتم الرءوس تندر عن كواهلها[(٦)].

وروى علقمة بن أبى علقمة، عن أمه، قالت: قدم معاوية المدينة، فأرسل إلى عائشة - رضى الله تعالى عنها - أن أرسلى إلىَّ بأنبجانية رسول الله ﷺ وشعره، فأرسلت بذلك معى أحمله، فأخذ الأنبجانية، فلبسها وغسل الشعر بماء، فشرب منه، وأفاض على جلده[(٧)].

---

(١) أبض: من بض البدن بضاضة وبضوضة أي: امتلأ ونضُر، ويقال: بشرة بضة وبضيضة، أي: رقيقة نضرة. ينظر الوسيط (بضض).
(٢) في تاريخ الإسلام: متنيك.
(٣) في ط: أناك. والمثبت من تاريخ الإسلام.
(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٠٢-٢٠٣) رقم (٥٧٦). وذكره الذهبي في تاريخ الإسلام في ترجمته رضي الله عنه.
(٥) ينظر البداية والنهاية (٨/ ١٢٥)، وتاريخ الإسلام، ترجمة معاوية.
(٦) ينظر تاريخ الإسلام ترجمة معاوية.
(٧) ينظر المصدر السابق.

وروى أبو بكر الهذلى، عن الشعبى، قال: لما قدم معاوية المدينة عام الجماعة - يعنى: عام أربعين من الهجرة - تلقته رجال قريش، فقالوا: الحمد لله الذى أعزَّ نصرك، وأعلى أمرك، فما رد عليهم جوابًا حتى دخل المدينة، فعلا المنبر، ثم حمد الله، وقال: « أما بعد، فإنى والله ما وليت أمركم إلا وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولايتى ولا تحبونها، وإنى لعالم بما فى نفوسكم، ولكنى خالستكم بسيفى هذا مخالسة، ولقد رمت نفسى على عمل ابن أبى قحافة، فلم أجدها تقوم بذلك، وأردتها على عمل عمر، فكانت عنه أشدَّ نفورًا، وحاولتها على مثل سنيَّاتِ عثمان فأبت على، وأين مثل هؤلاء. هيهات أن يدرك أحد فضلهم من بعدهم، غير أنى سلكت بها طريقًا لى فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكل فيه مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة، ما استقامت السيرة، وحسنت الطاعة، فإن لم تجدونى خيركم، فأنا خيرٌ لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذنى، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله، فارضوا منى ببعضه؛ فإنها لقائبة قوبها[1] وإن السيل إذا جاء تترى وإن قل أغنى، وإياكم والفتنة فلا تهموا بها؛ فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة وتورث الاستئصال، وأستغفر اللَّه لى ولكم. ونزل[2].

قال الحافظ الذهبى فى دول الإسلام: قال جندل بن والق وغيره: حدثنا محمد ابن بشر، حدثنا مجالد، عن أبى الوداك، عن أبى سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه. مجالد ضعيف[3].

وقد رواه الناس عن على بن زيد بن جدعان، وليس بالقوى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد، فذكره.

وروى عن أبى بكر بن داود، قال: هو معاوية بن تابوه رأس المنافقين، حلف أن

---

(١) القائبة: البيضة والقُوب: الفرخ أيضًا أو فلق الطير بيضه ويقال في المثل: تخلصت قائبة من قُوب، أو: قابة من قوب: أي بيضة من فرخ. يضرب لمن انفصل من صاحبه.
ينظر ترتيب القاموس (قوب).

(٢) ينظر البداية والنهاية (٨/ ١٤١) وتاريخ الإسلام ترجمة معاوية.

(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٤١٦) من طريق مجالد عن أبي الوداك عن أبي سعيد، به. ومجالد بن سعيد ضعيف.

يتغوَّط فوق المنبر الشريف[1].

وقال بسر بن سعيد، عن سعد بن أبى وقاص، قال: ما رأيتُ أحدًا بعد عثمان أقضَىٰ بحق من صاحب هذا الباب، يعنى: معاوية[2].

وعن أبى بكر بن أبى مريم، عن ثابت مولى أبى سفيان؛ أنه سمع معاوية يخطُبُ ويقول: إنى لست بخيركم، وإن فيكم من هو خير منى عبد الله بن عمر، وعبد الله ابن عمرو، وغيرهما من الأفاضل، ولكنى حسبت أن أكونَ أَنْكَاكم فى عدوكم، وأنفعكم ولاية، وأحسنكم خلقًا.

قال همام بن منبه: سمعت ابن عباس يقول: ما رأيتُ رجلًا كان أخلق للملك من معاوية؛ كان الناس يردون منه على أرجاء وادٍ رحب، لم يكن بالضيق الحصر العصعص[3] المتعصب. يعنى ابن الزبير.

وقال أبو أيوب، عن أبى قلابة إن كعب الأحبار قال: لن يملك هذه الأمة أحد ما ملك معاوية[4].

قلت: صدق كعب فيما قاله؛ فإن معاوية بقى خليفة عشرين سنة لا ينازعه أحد الأمر فى الأرض جميعًا؛ بخلاف عبد الملك بن مروان وأبى جعفر المنصور وهارون الرشيد وغيرهم؛ فإنهم كان لهم مخالف وخرج عن حكمهم بعض الممالك[5].

وروى ضمام بن إسماعيل، قال: سمعت أبا قبيل حيى بن هانئ يخبر عن معاوية، وصعد المنبر يوم جمعة، فقال: أيها الناس، إن المال مالنا، والفيء فيئنا، من شئنا أعطينا، ومن شئنا منعنا. فلم يجبه أحد. فلما كانت الجمعة الأخرى، قال مثل ذلك، فلم يجبه أحد. فلما كانت الجمعة الثالثة، قال مثل ذلك، فقام إليه رجل فقال: كلا، إنما المال مالنا، والفيء فيئنا، من حال بيننا وبينه، حكمناه إلى الله

(١) ينظر سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٠).
(٢) ينظر تاريخ الإسلام ترجمة معاوية.
(٣) الضيق والحَصِر البخيل. والعصعص، - كقنفذ -: النكد القليل الخير.
(٤) ذكر هذه الآثار كلها الحافظ الذهبي في تاريخه المسمي بتاريخ الإسلام عند ترجمة معاوية في حوادث سنة ستين.
(٥) وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله في محله.

بأسيافنا. فنزل معاوية وأرسل إلى الرجل، فأدخل عليه، فقال القوم: هلك، ففتح معاوية الأبواب، ودخل الناس، فوجدوا الرجل معه على السرير، فقال معاوية: إن هذا أحيانى، أحياه الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « سيكون أئمة من بعدى يقولون، فلا يرد عليهم قولهم يتقاحمون فى النار تقاحم القردة »، وإنى تكلمت، فلم يرد على أحد، فخشيت أن أكون منهم، ثم تكلمت الجمعة الثانية، فلم يرد على أحد، فقلت فى نفسى: إنى من القوم، ثم تكلمت هذه الجمعة الثالثة، فقام هذا، فرد عليَّ، فأحيانى أحياه الله، فرجوت أن يخرجنى الله منهم. فأعطاه وأجازه[١].

وروى عن خالد بن معدان، قال: وفد المقدام بن معدى كرب، وعمر بن الأسود، ورجل من بنى أسد له صحبة على معاوية، فقال معاوية للمقدام: توفى الحسن، فاسترجع، فقال معاوية: أتراها مصيبة ؟ قال المقدام: ولم لا، وقد وضعه رسول الله ﷺ فى حجره، وقال: « هذا[٢] منى، وحسين من على »، ثم قال معاوية للأسدى: ما تقول أنت ؟ قال: جمرة أطفئَتْ، فقال المقدام: أنشدك الله، هل سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن لبس الذهب والحرير، وعن جلود السباع والركوب عليها ؟ قال: نعم، قال: فوالله، لقد رأيت هذا كله فى بيتك[٣] يا معاوية، فقال معاوية: عرفت أنى لا أنجو منك[٤].

وكان يضرب المثل بحلم معاوية، وقد أفرد ابن أبى الدنيا، وأبو بكر بن أبى عاصم تصنيفًا مستقلاً فى حلم معاوية، فقال: إن رجلاً شارط آخر على أن يضرب معاوية كَفًّا، فلما فعله، التفت إليه معاوية، وقال: اذهب إلى صاحبك، وخذ شرطك، ولا تعد لمثلها. ثم إن هذا الرجل شارط آخر على مثلها فى يزيد، فلما فعله، أمر بقطع يديه، فقال الرجل: إن كان لا بد فواحدة، فقال يزيد: واحدة للضرب، والأخرى للشرط، فقال له الرجل: غَرَّنى حلم معاوية يا يزيد، فقال يزيد: تلك أمة قد خلت.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ٣٩٣-٣٩٤) رقم (٩٢٥).
وقال الهيثمي (٥/ ٢٣٩): رجاله ثقات وقال الذهبي في تاريخه: هذا حديث حسن.
(٢) في ط: حسن، والمثبت من تاريخ الإسلام وهو موافق لرواية أحمد وأبي داود.
(٣) في تاريخ الإسلام: في بنيك. والمثبت موافق لرواية أبي داود.
(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٢) وأبو داود (٤١٣١) مطولاً. وينظر تاريخ الإسلام ترجمة معاوية.

وعن قبيصة بن جابر قال: صحبت معاوية فما رأيتُ رجلاً أثقل حلمًا ولا أبطأ جهلاً ولا أبعد أناة منه.

وقال جرير، عن مغيرة قال: أرسل الحسن بن على، وعبد اللَّه بن جعفر إلى معاوية يسألانه، فبعث إليهما بمائة ألف دينار، فبلغ ذلك عليًا، فقال لهما: ألا تستحيان من رجل نطعن فيه غدوة وعشية تسألانه المال؟ قالا: لأنك حرمتنا، وجاد لنا.

وقال مالك: كان معاويةُ ينتف الشيب كذا وكذا سنةً، وكان يخرج إلى الصلاة ورداؤه يحمل وراءه، فإذا دخل للصلاة جعل عليه، وذلك من الكبر.

وذكر غيره؛ أن معاوية أصابته اللقوة قبل أن يموت، وكان اطلع فى بئر عادية فى الأبواء لما حج، فأصابته اللقوة، يعنى: بطل نصفه[(١)].

وعن الشعبى قال: أول من خطب الناس قاعدًا معاويةُ، وذلك حين كَثُرَ شحمه، وعظم بطنه.

وعن ابن سيرين: أصاب معاوية لقوة[(٢)]، فاتخذ لحفًا خفافًا تلقى عليه، فلا يلبث أن يتأذى بها، فإذا أخذت عنه يسأل أن ترد عليه، فقال: قبحك الله من دار مكثت فيك عشرين سنة أميرًا، وعشرين سنة خليفة، ثم صرت إلى ما أرى[(٣)].

وروى عبد الأعلى بن ميمون بن مهران، عن أبيه؛ أن معاوية قال فى مرضه: كنت أوضئ رسول الله ﷺ يومًا، فنزع قميصه وكسانيه فرفعته، وخبأت قلامة أظفاره فى قارورة، فإذا مت فاجعلوا القميص على جلدى، واسحقوا تلك القلامة واجعلوها فى عينى، فعسى [الله أن يرحمنى ببركتها][(٤)].

وقال أبو عمرو بن العلاء: لما حضرت معاوية الوفاة أنشد: [من الطويل]

هُوَ المَوْتُ لاَ يُنْجِىْ مِنَ المَوْتِ وَالّذِي   نُجَاوِزُ بَعْدَ المَوْتِ أَدْهَىٰ وَأَفْظَعُ

---

(١) تنظر هذه الآثار في تاريخ الإسلام للذهبي، ترجمة معاوية بن أبي سفيان عند حوادث سنة ستين من الهجرة.

(٢) في تاريخ الإسلام: أخذت معاوية قرحة واللقوة: مرض يعرض للوجه فيميله إلى أحد جانبيه. ينظر النهاية (٤/ ٢٦٨).

(٣) ينظر المصدر قبل السابق.

(٤) ينظر أنساب الأشراف (٤٣١) وتاريخ الطبري (٥/ ٣٢٧).

اللهم، أقل العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك، فما وراءك مذهب.

قال أبو مسهر: صلى عليه الضحاك بن قيس الفهرى، ودفن بدمشق بين باب الجابية والباب الصغير(١).

قال العلامة المسعودى(٢): وقبره يزار إلى الآن، عليه بيت مبنىٌ يفتح كل اثنين وخميس، وله من العمر ثمانون، وقيل: تسعون، وكان أميرًا وخليفةً أربعينَ سنةً، منها أربع سنين فى خلافة عمر، رضى اللّه عنه.

بيعة يزيد بن معاوية(٣)

قد مضَىٰ أن معاوية جعل ابنه ولى عهده، وأكره الناس على ذلك، فلما توفى، لم يدخل فى طاعة يزيد الحسين بن على، ولا عبد الله بن الزبير، ولا من يشايعهما.

قال أبو مسهر: حدثنا خالد بن يزيد، حدثنى سعيد بن حريث، قال: لما كانت الغداة التى توفى ليلتها معاوية فزع الناس إلى المسجد، ولم يكن قبله خليفة بالشام غيره، فكنت فيمن أتى المسجد، فلما ارتفع النهار وهم يبكون فى الخضراء، وابنه يزيد غائب، وبعث إليه البريد، وهو ولى عهده، وكان بحوارين، وكان نائبه على دمشق الضحاك بن قيس الفهرى، فدفن معاوية، فلما كان بعد أسبوع، بلغنا أن ابن الزبير خرج بالمدينة وحارب.

وكان معاوية قد غشى عليه مرة، فركب بموته الركبان، فلما بلغ ذلك ابن الزبير، خرج، فلما كان يوم الجمعة، صلى بنا الضحاك، ثم قال: تعلمون أن خليفتكم يزيد قدم، ونحن غدا متلقوه، فلما صلى الصبح ركب فركبنا معه، فسار إلى ثنية العقاب، فإذا بأثقال يزيد، ثم سرنا قليلًا، فإذا بيزيد فى ركب معه أخواله من بنى كلب، وهو

(١) ينظر تاريخ الإسلام ترجمة معاوية.

(٢) ينظر: مروج الذهب (٣/ ١١).

(٣) ينظر: منهاج السنة ٢/ ٢٣٧، سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥-٤٠، المعارف ٣٥١، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٢١٥، مروج الذهب ٢/ ٥٦٧، الكامل فى التاريخ ٤/ ١٢٦، تاريخ الإسلام ٣/ ٩١، تاريخ الخميس ٢/ ٣٠٠، شذرات الذهب ١/ ٧١، تهذيب التهذيب ١١/ ٣٦٠، تقريب التهذيب ٢/ ٣٧١، خلاصة تهذيب الكمال ٣/ ١٧٧، تعجيل المنفعة ١١٨٩، لسان الميزان ٦/ ٢٩٣، البداية والنهاية ٨/ ٢٤٨ .

على بختي له رحل وريطة[١] مثنية في عنقه، ليس عليه سيف ولا عمامة، وقد كان ضخمًا سمينا قد كثر شعره وشعث، فأقبل الناس يسلِّمون عليه ويعزونه وهو ترى فيه الكآبة والحزن وخفض الصوت، والناس يعيبون ذلك منه، ويقولون: هذا الأعرابيُّ الأميُّ ولي أمر الناس، والله سائل عنه، فسار، فقلنا: يدخل من باب توما، فلم يدخل، ومضى إلى باب شرقى، فلم يدخل منه وأجازه، ثم أجاز باب كيسان إلى باب الصغير، فلما وافاه أناخ ونزل، ومشى الضحاك بين يديه إلى قبر معاوية فصففنا خلفه[٢] وكبر أربعًا، فلما خرج من المقابر، أتى ببغلة، فركبها إلى الخضراء، ثم نودي: الصلاة جامعة لصلاة الظهر، فاغتسل ولبس ثيابًا نفيسةً[٣]، ثم جلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر موت أبيه، وقال: إنه كان يغزيكم البحر والبر، ولستُ حاملاً أحدًا من المسلمين في البحر. وإنه كان يشتيكم بأرض الروم، ولست مشتيًا أحدًا بها، وإنه كان يخرج لكُمُ العطاء ثلاثًا، وأنا أجمعه لكم كله. قال: فافترقوا وما يفضلون عليه أحدًا[٤].

وقال أبو بكر بن أبي مريم، عن عطية بن قيس، قال: خطب معاوية، فقال: « اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلِّغه ما أملت وأعنه، وإن كنت إنما حملني على ذلك حب الوالد لولده وأنه ليس بأهل، فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك ».

وقال حميد بن عبد الرحمن: دخلنا على بشير، وكان صحابيًا، فقلنا: استخلف يزيد فقال: يقولون إن يزيد ليس بخير أمة محمد ﷺ وأنا أقول ذلك، ولكن لأن يجمع الله أمة محمد أحب إليَّ من أن تفترق. كذا في الذهبي [٥].

بويع يزيد بعد موت أبيه، وعلى المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وعلى مكة عمرو بن سعيد بن العاص الشهير بالأشدق، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد، وعلى

---

(١) البختي: واحدة البخت، وهي الإبل الخراسانية. والريطة: الملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة، وهي أيضا: كل ثوب لين رقيق.
(٢) في ط: حوله. والمثبت من تاريخ الإسلام.
(٣) في تاريخ الإسلام: نقيَّة.
(٤) ينظر: تاريخ الإسلام، بيعة يزيد، في حوادث سنة ستين.
(٥) ينظر السابق.

الكوفة النعمان بن بشير.

ولم يكن هم يزيد إلا بيعة النفر الذين أبوا على معاوية بيعته، فكتب يزيد إلى الوليد بن عتبة بموت معاوية، وأن يأخذ حسينًا وابن عمر وابن الزبير بالبيعة من غير رخصة.

فلما أتى الوليد نعى معاوية، استدعى مروان بن الحكم، وكان منقطعًا عنه بما كان يبلغه عنه، فلما قرأ مروان الكتاب بنعى معاوية، استرجع وترحَّم، فاستشاره الوليد فى أمر أولئك النفر، فأشار عليه أن يحضرهم لوقته، فإن بايعوا وإلا قتلتهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فيثب كل رجل منهم فى ناحية، إلا ابن عمر؛ فإنه لايحبُّ القتال ولايحب الولاية، إلا أن يرفع إليه الأمر.

فبعث الوليد لوقته عبد الله بن عمرو بن عثمان - وهو غلام حدث - فجاء إلى الحسين وابن الزبير فى المسجد فى ساعة لم يَكُنِ الوليد يجلس فيها للناس، وقال: أجيبا الأمير، فقالا: انصرف، الآن نأتيه.

ثم حدسا فيما بعث إليهما فلم يَعْدُوَا ما وقع، وجمع الحسين فتيانه وأهل بيته وسار إليه، وأجلسهم بالباب، وقال: إن دعوتكم أو سمعتم صوتى عاليًا، فادخلوا بأجمعكم. ثم دخل، [فسلم] ومروان عنده، فشكرهما الوليد على الصلة بعد القطيعة، ودعا لهما بصلاح ذات البين، فأقرأه الوليد الكتاب بنعى معاوية ودعاه إلى البيعة، فاسترجع وترحَّم، وقال: مثلى لايبايع سِرًّا ولايكتفى بها منى، فإذا ظهرت للناس ودعوتهم، كان أمرنا واحدًا، وكنت أول مجيب. فقال الوليد - وكان يحب المسالمة-: انصرف يا أبا عبد الله. وقال مروان للوليد: لاتقدر منه على مثلها أبدًا حتى تكثر القتلىٰ بينك وبينه، ألزمه البيعة؛ وإلا اضرب عنقه. فوثب الحسين وقال: أنت تقتلنى أو هو؟ كذبت والله، فانصرف إلى منزله يتهادَىٰ بين مواليه، وهو يقول: [من الخفيف]

لاَ ذَعَرْتُ السَّوَامَ فِى فَلَقِ الصُّبْـحِ مُغِيـرًا وَلاَ ذَعَـرْتُ يَـزِيـدَا
يَوْمَ أعطى مَخَافَةَ القَتْلِ ضَيْمًا وَالـمَـنَـايَا صَدَدْنَنِى أَنْ أَحِيـدَا

وأخذ مروان فى عذل الوليد، فقال: يا مروان، والله ما أحبُّ أن لى ما طلعَتْ عليه الشمس من مال الدنيا وملكها، ، وأنى قتلت الحسين أن قال: لا أبايع.

وأما ابن الزبير، فإنه اختفىٰ فى داره، وجمع أصحابه، وألح الوليد فى طلبه، وبعث مواليه فشتموه وتهددوه وأقاموا ببابه فى طلبه، فبعث ابن الزبير أخاه جعفرًا يلاطف الوليد، ويشكو ما أصابه من الذعر ويعده بالحضور من الغداة، وأن يصرف رسله من بابه، فبعث إليهم وانصرفوا. وخرج ابن الزبير من ليلته مع أخيه جعفر وحدهما، وأخذا طريق الفرع إلى مكة، فسرح الوليد الرجال فى طلبه، فلم يدركوه ورجعوا وتشاغل بذلك عن الحسين سائِرَ يومه، ثم أرسل إلى الحسين يدعوه، فقال الحسين: أصبحوا وَتَروْنَ ونَرَىٰ. وسار فى الليلة الثانية ببنيه وبنى أخيه إلا محمد بن الحنفية، وكان قد نصحه، وقال: تنحَّ عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت، وابعث دعاتك إلى الناس، فإن أجابوك فاحمد الله، وإن اجتمعوا على غيرك فلم ينقصْ بذلك دينك ولاعقلك ولم تذهب به مروءتك ولافضلك. وأنا أخاف أن تأتى مصرًا أو قومًا؛ فيختلفون عليك؛ فتكون لأول الأسنة، فإذا خير الأمة نفسًا وأبًا أضيعها دمًا وأذلُّها أصلاً. قال له الحسين: فإنى ذاهب، قال له: انزل مكة، فإن اطمأنت بك الدار، فبسبيل ذلك، وإن نأت بك، لحقت بالرمال وشعاب الجبال ومن بلد إلى بلد حتى تنظر مصير أمر الناس وتعرف الرأى. فقال: يا أخى، نصحْتَ وأشفقْتَ، فلحق بمكة، وبعث الوليد إلى ابن عمر ليبايع، فقال: إذا بايع الناس، وقيل: إن ابن عمر وابن عباس كانا بمكة ورجعا إلى المدينة، فلقيا الحسين وابن الزبير فأخبراهما بموت معاوية وبيعة يزيد، فقال ابن عمر: لانفرّق جماعة المسلمين. وقَدِمَ هو وابن عباس المدينة وبايعا عند بيعة الناس.

ولما دخل ابن الزبير مكة، وعليها عمرو بن سعيد بن العاص الشهير بالأشدق؛ كما تقدَّم ذكره، قال: أنا عائذ بالبيت، ولم يكنْ يصلِّى ولايفيض معهم، ويقف هو وأصحابه ناحية.

ولما بلغ يزيد صنيع الوليد بن عتبة بأمر أولئك النفر وتوانيه فى أمرهم، عزله عن المدينة، وولاها عمرو بن سعيد، فقدمها فى رمضان، واستعمل على شرطته عمرو ابن الزبير بالمدينة لما كان بينه وبين أخيه عبد الله بن الزبير من البغضاء.

قال العلامة ابن [خلدون]: وولى يزيد بن معاوية عمرو بن سعيد بن العاص المدينة ومكَّة، والموسم والطائف، فقدم إلى المدينة سنة ستين فى رمضان قبيل

العتمة، فصلى العتمة بالناس، وقرأ: ﴿ لَمْ يَكُنِ ... ﴾[البينة:١] و ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [الزلزلة:١]، فلما أصبح، خرج على الناس وعليه قميص أحمر وعمامة حمراء، فصعد المنبر، فرماه الناس بأبصارهم، فقال: يأهل المدينة، ما لكم ترمونا بأبصاركم كأنكم تريدون تقروننا سيوفكم؟! أنسيتم مافعلتم؟! أما لو انتقم منكم فى الأولى ماعدتم إلى الثانية. أغركم إذ قتلتم عثمان، فوجدتم صابرًا حليمًا وإمامًا مواتيًا، فذهب غضبه وذهبت أذاته، فاغنموا أنفسكم، فقد وليكم إمام بالشباب المقتبل، البعيد الأمل، وقد اعتدل جسمه، واشتدَّ عظمه، ورمى الدهر ببصره واستقبله بأسره، فهو إن عض نهش، وإن وطئ فرش، لايقلقله الحصى، ولاتقرع له العصا، فرعف وهو يتكلم على المنبر، فألقى إليه رجل عمامة مسح بها، فقال رجل من خثعم: دم على المنبر فى عمامة، فتنة عمت وعلا ذكرها، ورب الكعبة.

ثم خرج عمرو بن سعيد إلى مكة، فقدمها قبيل التروية بيوم، وخرج الحسين - رضى الله تعالى عنه - فقيل لعمرو: خرج الحسين، فقال: اركبوا كُلَّ بعير بين السماء والأرض فى طلبه، قال: وكان الناس يتعجبون من قوله، فطلبوه فلم يدركوه، فكانت الفتنة المشهورة. انتهى. ذكر ذلك فى ذكر العيافة والزجر والطيرة.

وأحضر نفرًا من شيعة ابن الزبير بالمدينة، فضربهم من الأربعين إلى الخمسين إلى الستين، منهم المنذر بن الزبير، وابنه محمد، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، ومحمد بن عمار بن ياسر، وغيرهم.

ثم جهز البعوث إلى مكة سبعمائة ونحوها، وقال لعمرو بن الزبير: من نبعث إلى أخيك؟ فقال: لاتجد رجلاً أبلى له منى، فجهز معه سبعمائة مقاتل.

وعذل مروان بن الحكم عمرو بن سعيد بن العاص فى غزو مكة، وقال له: اتق الله، ولاتحل حرمه، فقال: والله لنغزونه فى جوف الكعبة.

وجاء أبو شريح الخزاعى إلى عمرو بن سعيد فقال له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنما أذن لى بالقتال فيها ساعة من نهار، ثم عادت كحرمتها بالأمس »(١)،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣١، ٣٢، ٦/ ٣٨٤، ٣٨٥) والبخاري (١٠٤) ومسلم (٤٤٦/ ١٣٥٤) وأبو داود (٤٥٠٤) والترمذي (٨٠٩) والنسائي (٥/ ٢٠٥) من حديث أبي شريح الخزاعي.

فقال له عمرو بن سعيد: نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ.

ويقال: إن الجيش كان عدته ألفَىْ مقاتل، وعلى مقدمته أنيس بن عمير الأسلمى، فلما قاربوا مكة، نزل أنيس بذى طوى، ونزل عمرو بالأبطح، وبعث إلى أخيه عبد الله أن بر يمين يزيد، فإنه حلف ألاَّ يقبل بيعته إلا أن يؤتى به فى جامعة؛ فلا تضرب الناس بعضهم ببعض؛ فإنك فى بلد حرام.

فأرسل عبد الله بن الزبير من اجتمع معه من أهل مكة مع عبد الله بن صفوان بن أمية، فهزموا أنيسًا بذى طوى، وقتل أنيس فى الهزيمة، وتخلف عن عمرو بن الزبير أصحابه، فدخل دار ابن علقمة وأجاره، وقال لأخيه عبد الله بن الزبير: قد أجرته، فأنكر ذلك عليه، وأجاز جواره، وقيل: إنه لم يجز جواره، وضربه بكل من ضربه عمرو بن سعيد بن العاص بالمدينة من جماعته، وحبسه بسجن عارم، ومات تحت السياط.

توجه الحسين بن على إلى الكوفة واستشهاده بكربلاء(١)

لما خرج الحسين من المدينة إلى مكة، لقيه عبد الله بن مطيع، وسأله: أين تريد؟ فقال: مكة، وأستخير الله فيما بعد، فنصحه ألا يقرب الكوفة، وذكَّره قتلهم أباه، وخذلانهم أخاه، وأن يقيم بمكة لايفارق الحرم حتى يتداعى إليه الناس، ورجع عنه.

ونزل الحسين بمكة، فأقام الناس يختلفون إليه، وابن الزبير فى جانب الكعبة يصلى ويطوف عامة النهار، ويأتى الحسين فيمن يأتيه؛ وعلم أن أهل الحجاز لايلتفتون إليه مع الحسين.

ولما بلغ أهل الكوفة بيعة يزيد، ولحاق الحسين بمكة، اجتمعت أهالى الكوفة والشيعة فى منزل سليمان بن صُرَدَ الخزاعى، وكتبوا إليه: إنا حبسنا أنفسنا على بيعتك، ونحن نموت دونك، وإننا لم نبايع للنعمان بن بشير أمير الكوفة، ولانجتمع معه فى جمعة ولا عيد، ولو جئتنا أخرجناه، وبعثوا بالكتاب مع عبد الله بن سميع

(١) ينظر تاريخ الطبري (٥/ ٤٠٠-٤٧٠) الطبقات الكبرى (٥/ ١٤٥) الكامل في التاريخ (٤/ ٥٠) تاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين، البداية والنهاية (٨/ ١٨٦-١٨٧) ومروج الذهب (٣/ ٦٤-٧٢) أنساب الأشراف (٣/ ٣٧٣- ٤٢٦).

الهمدانى، ثم كتبوا إليه ثانيةً بعد ليلتين نحو مائة وخمسين صحيفة، ثم ثالثة، يستحثونه للحاق بهم، فأجابهم الحسين: فهمت ما قصصتم، وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل، يكتب إلىّ بأمركم ورأيكم، فإن اجتمع ملؤكم على مثل ما قدمتْ به رسلكم، أقدم عليكم قريبًا، ولعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحق.

فسار مسلم ودخل المدينة، وصلى فى المسجد النبوى، وودع أهله واستأجر دليلين من قيس، فضَلاَّ الطريق، وعطش القوم، فمات الدليلان بعد أن أشارا إليهم بموضع الماء، وانتهوا إليه وشربوا ونجوا.

فتطير مسلم بذلك، وكتب إلى الحسين يستعفيه، فكتب إليه الحسين: إنى خشيت ألاَّ يكون حملك على ذلك إلا الجبن، فامض لوجهك، والسلام. فسار مسلم ودخل الكوفة أول ذى الحجة من سنة ستين، واختلفت إليه الشيعة، وقرأ عليهم كتاب الحسين، فبكوا ووعدوه بالنصر.

وعلم النعمان بن بشير أمير الكوفة بمكان مسلم، وكان حليمًا يجنح إلى المسالمة، وكان على الكوفة حين مات معاوية، فلما بلغه خبر مسلم والحسين، قال: لاَبْنُ بنت رسول الله ﷺ أحبُّ إلينا من ابن بنت بَحدَل. فخطب وحذَّر الناس الفتنة وقال: لا أقاتل من لا يقاتِلُنِى، ولا آخذ بالظنة والتهمة، ولكن إن نكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم، فوالله لأضربنكم بسيفى ما دام قائمه فى يدى، ولو لم يكن لى ناصر. وقال له بعض حلفاء بنى أمية: لايصلح ما ترى إلا الغشم، وهذا الذى أنت عليه مع عدوك رأى المستضعفين، فقال: أكون من المستضعفين فى طاعة الله أحبُّ إلىّ من أن أكون من الأَعزِّينَ فى معصية الله. ثم نزل عن المنبر.

فكتب عمارة بن الوليد، وعمر بن سعد بن أبى وقاص، إلى يزيد بالخبر بضعف النعمان، وبقوله: لابن بنت رسول الله. . . إلخ، فابعث إلى الكوفة رجلاً قويًا ينفذ أمرك، ويعمل عملك فى عدوك، فأشار إلى يزيد سرجون الرومى كاتب أبيه بعبيد الله بن زياد، وكان منحرفًا عنه فقال له: إن أباك معاوية ولاَّه قبل موته. فكتب يزيد له بعهده على الكوفة مضافًا إلى البصرة، وبعث إليه مع مسلم بن عمرٍو الباهلي والد قتيبة بن مسلم، وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو نفيه.

وكان الحسين قد كتب إلى أشراف البصرة: الأحنف بن قيسٍ، والمنذر بن الحارث، ومالكِ بن مسمع البكرى، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، ووِدّ وعمرو بن عبيد الله بن معمر يدعوهم إلى الكتاب والسنة وإماتة البدعة. وخشى المنذر أن يكون دسيسًا من عبيد الله بن زياد، فأتاه بالرسول والكتاب من بين أصحابه، فقتل الرسول، ثم خطب الناس وأخبرهم بولايته الكوفة، واستخلافه أخاه عثمان بن زياد على البصرة، وتهدَّدهم على الخلاف بالقتل، وأخذ الأدنى بالأقصى، والقريب بقريبه، ثم أَغَذَّ عبيد الله السير يسابق الحسين إلى الكوفة.

قال العلامة ابن خلدون: فى خمسمائة، فتخلفوا عنه شيئًا فشيئًا.

وقال الحافظ الذهبى: فى اثنى عشر رجلاً حتى دخل الكوفة وحده، ومر بالمجالس، فظنوه الحسين، فحيوا ورحبُّوا، وهو يسمع، وساءه ذلك، ثم انتهى إلى القصر فى هجيج الناس يتبعونه، فأغلق النعمان الباب دونه يظنه الحسين، وقال: ما أنا بمسلم أمانتى إليك ولا أقاتلك، فدنا منه عبيد الله، وقال: افتح لا فتحت، فعرف صوته، وفتح له، وتفرق الناس.

ثم خطب لولايته ووعد بالإحسان للمحسن، والشدة على المريب والعاصى، وحذر من المخالفة، ثم أخذ العُرَفَاء بأن يكتبوا له الغرباء والحرورية وأهل الريب، ويضمن كل واحد ما فى عرافته، ومن وجد فى عرافته أحد لم يعرفه صلبه على باب داره. ثم نزل عن المنبر.

وسمع مسلم بن عقيل بذلك، فأتى منزل هانئ بن عروة، وكان الحسين أمره بالنزول عليه، فاستجار به، فآواه على كره لمكانه؛ خشية العاقبة، وأقامت الشيعة تختلف إليه فى دار هانئ. ودعا ابن زياد مولًى له وأعطاه مالاً ودسه عليهم؛ ليأتيه بعلمهم، فأتاه مسلم بن عوسجة الأسدى، وهو يصلى بالمسجد - وكان من كبار دعاتهم- فقال له: أنا من أهل الشام، وأردت لقاء هذا الرجل الذى يبايع للحسين، فاقبض هذا المال وأدخلنى عليه أبايعه، وإلا فخذ أنت بيعتى قبل لقائه؛ فأخذ بيعته وبقى يختلف إليه.

ومرض هانئ بن عروة، فأتاه عبيد الله بن زياد يعوده، وحمل أصحاب هانئ على الفتك بابن زياد، فقال: ما أحب ذلك فى بيتى، ثم مرض شريك بن الأعور،

أو تمارض. فقيل لابن زياد: إن شريكًا شاك يقىء الدم، وكان قد شرب المغرة فجعل يقيئها، فجاء ابن زياد يعوده، وكان قد نزل على هانئ، وكان شديد التشيع شهد صفين مع على، فقال لمسلم بن عقيل: إذا قلت: اسقونى، فاخرج واقتله، ثم اقصد القصر، فلا حائل دونه، وإن برئت من وجعى، كفيتك أمر البصرة.

فلما جاء عبيد الله بن زياد إلى منزل هانئ، جبن مسلم عن قتله، وبقى شريك ينبهه لذلك ويقول: « اسقونى، اسقونى » فأبطأ عليه، فقال: ويحكم اسقونى، ولو كانت فيه نفسى، فلا يجيب، حتى خرج ابن زياد ولم يصنعْ مسلم شيئًا، وكان من أشجع الناس ولكن أخذته كبوة، فاعتذر عن قتله بأن هانئًا يكره ذلك فى بيته، وبأن عليًا حدَّثَ عن النبى ﷺ؛ أن الإيمان قيد الفتك.

ثم قضى شريك بعد ثلاثٍ، وصلى عليه عبيد الله بن زياد، ثم علم بعد ذلك بشأنه، فحلف لايحضر جنازة عراقى.

ثم إن المولى الذى دسه ابن زياد بالمال اختلف إليه مسلم بن عوسجة بعد موت شريك، فأدخله على مسلم بن عقيل، فأخذ بيعته وقبض ماله، وأقام يختلف إليهم ويخبر ابن زياد بأحوالهم حتى تبيَّن جلية الأمر، وكان هانئ انقطع عن عبيد الله بن زياد بعذر المرض، فدعا ابن زياد محمد بن الأشعث، وأسماء بن خارجة، وعمرو ابن الحجاج، والزبيدى، وعذل هانئًا فى انقطاعه عنه وأنه بلغه برؤه من المرض، وقال: القوه فمروه ألاَّ ينقطع عنى، فلقيه القوم ولاموه فى ذلك ثم حلفوا عليه واستركبوه معهم، ودخلوا به على ابن زياد، وكان مكرمًا له، فقال له ابن زياد: يا هانئ، ما هذه الأمور التى تربض فى دارك للمسلمين وأمير المؤمنين؟! وأخبره بشأن مسلم بن عقيل، فأنكر، فدعا ابن زياد المولى الذى دَسَّه عليهم، ورآه هانئ فسقط فى يده، ثم قال: والله، مادعوت الرجلَ ولاعلمت بشىء من أمره، وصدقه الخبر عن مجيئه إلى داره، واستجارته به واستحيائه من رده، وقد كان من أمره ما بلغك، وأنا الآن أعطيك عهدًا ورهينة حتى أخرجه من دارى وأعود إليك، فقال له ابن زياد: والله لاتفارقنى حتى تأتينى به، فقال: آتيك بضيفى تقتله ؟! والله لا فعلت. ثم قام إليه مسلم بن عمرو الباهلى، ولم يكن هنالك أعز منه، فاستأذن ابن زياد ودخلا ناحية، ونصحه أن يأتى به؛ فإنه ابن عمهم وليسوا قاتليه ولا ضاربيه،

وليس عليك فى ذلك منقصة، وإنما دفعته إلى السلطان، فأبى ولجَّ. وسمعه ابن زياد، فاستدناه، وقال: لئن لم تأتنى به، لأضربنَّ عنقك، قال هانئ: إذن والله تكثر البارقة.

ويقال إن هانئًا لما رأى الرجل الذى كان عينًا، قال: أيها الأمير، أنت آمن وأهلك، فسِرْ حيث شئت، فأشار ابن زياد إلى مهران مولاه، وهو قائم على رأسه، فأخذ بضفيرتى هانئ، وأخذ ابن زياد القضيب من يد مهران، ولم يزل يضرب وجه هانئ حتى كسر أنفه، ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته، ثم أغلق عليه فى بيت. وجاء أسماء بن خارجة منكرًا لذلك؛ لأن هانئًا جاء فى جواره، وأمر به ابن زياد يطرد عنه وحبس، وأظهر محمد بن الأشعث الرضا وجلس، وبلغ عمرو بن حجاج أن هانئًا قتل، فأقبل فى مذحج وأحاطوا بقصر ابن زياد، وأمر ابن زياد القاضى شريحًا أن يعلمهم بحياة هانىء بعد أن أدخله عليه فرآه حَيًّا، فأخبرهم فانصرفوا.

وجاء الخبر إلى مسلم بن عقيل، وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفًا، وحوله فى الدار أربعة آلاف، فنادى فيهم، وركب نحو قصر عبيد الله بن زياد، وأحاط به وامتلأ المسجد والسوق من الناس إلى المساء، وضاق بعبيد الله بن زياد أمره، وليس معه فى القصر إلا نحو خمسين رجلًا من أهل بيته ومواليه، وتسلل إليه الأشراف، وأمر كثير بن الحارث أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج؛ فيخذِّل عنه الناس، وأمر ابن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضرموت، ويرفع راية أمان لمن حماه من الناس، وبعث بمثل ذلك القعقاع بن شور الذهلى، وشبيب بن ربعى التميمى، ومجاز بن أبى أبجر العجلى، وشمر بن ذى الجوشن الضبابى، وترك وجوه الناس عنده استئناسًا بهم، وخرج أولئك النفر على الناس فافترقوا عن مسلم بن عقيل إلى أن بقى فى المسجد فى ثلاثين، فخرج واختفى عند عجوز من ذوى ابن الأشعث، وتعرف إليها فأخفته.

وخرج ابن زياد إلى المسجد قبل العتمة ونادى فى الناس، فامتلأ المسجد، وأحضر الحصين بن تميم، وكان على الشرط أن يفتش الدور، وشعر ابن العجوز بمسلم بن عقيل عند أمه، فأتى عبد الرحمن بن محمد الأشعث، فأخبره وأخبر أباه، فأخبر ابن زياد، فقال: ائتنى به الساعة، وبعث معه عمر بن عبيد الله السلمى فى

سبعين من قيس، فلما أتوا الدار، وسمع مسلم بن عقيل الأصوات، خرج بسيفه وما زال يحمل عليهم، وقطعت شفته العليا، وسقطت ثنيتاه، وألقوا عليه النار والقصب وهو يقاتل حتى أثخن وعجز عن القتال، فأمنه ابن الأشعث، وحمله على بغل وانتزعوا سيفه، فقال: هذا أول الغدر وبكَىٰ، فعذله عمرو بن عبيد الله السلمى فقال: إنما أبكى على الحسين وآله.

قلت: خَيَّبَ الله أهل العراق الخونة الفجار، وأحلَّهم الدرك الأسفل من النار.

ثم قال مسلم لابن الأشعث: عساك أن تبعث تخبر الحسين بحالى ليرجع بأهل بيته ولايغترَّ بأهل الكوفة، ففعل ذلك ابن الأشعث، ولقيه الرسول بزبالة، وقد جاءه كتاب مسلم فى الأول يخبره بمن بايعه ويستحثه على السير، فقال الحسين حين قرأ كتاب الأشعث: كُلُّ ماقدر كائن، وعند الله نحتسب أنفسنا وفساد أمتنا.

ثم أدخل محمد بن الأشعث مسلم بن عقيل على ابن زياد، وأخبره بما أعطاه من الأمان، فقال: ما بعثناك لتؤمنه، واستسقى مسلم وهو بباب القصر، فجاءه عمارة بن عقبة بماء بارد، فلم يطق الشرب لما كان يسيل من دم فيه، فتركه ودخل على ابن زياد، فقال له: لتقتلنَّ، فقال: دعنى لأوصى. فالتفت إلى عمر بن سعد بن أبى وقاص، فناجاه بأن يقضى عنه دينه، ويوارى جثته، ويبعث إلى الحسين يرده. ثم حاوره وأساء بعضهما على بعض، ثم أصعد فوق القصر وضربَتْ عنقه، تولى ذلك بكير بن عمران لضربة أصابه مسلم بها فى الجولة عند الدار.

وكان ابن الأشعث قد تشفَّع فى هانىء بن عروة، فوعد باستبقائه، فلما قتل مسلم، أخرج إلى السوق فضربت عنقه، وبعث ابن زياد بالرأسين إلى يزيد، فكتب إليه يزيد يشكره ويأمره بالاحتراس ووضع المراصد، فإن الحسين قد سار إليك.

ثم طلب ابن زياد المختار بن أبى عبيد، وعبيد الله بن الحارث بن نوفل، وكانا جاءا مع مسلم بن عقيل، فحبسهما.

ولما أراد الحسين المسير إلى الكوفة بكتاب مسلمِ السابقِ وأهل العراق جاءه عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى وهو بمكة، فقال له: بلغنى أنك تريد العراق، فأنا مشفق عليك، تأتى بلدًا فيه العمال والأمراء وبيوتُ الأموال، والناس عبيد الدينار والدرهم، فلا آمن عليك، فجزاه الحسين خيرًا، وقال: لابدَّ لى

من ذلك، وأتاه ابن عباس بمثل ذلك فعصاهما. ثم ألم عليه ابن عباس وأشار عليه بالخروج إلى اليمن، فقال له الحسين: يا بن عمى، لا أنقض عزمى، قال: فإذ قد عصيتنى، فلا تسر بنسائك ولاصبيانك؛ فإنى أخاف أن تقتل وهم ينظرون كما قتل عثمان، ولقد أقررت عين ابن الزبير بخروجك من الحجاز. ثم التفت إلى ابن الزبير، فإذا هو فى جماعة من قريش قد استعلاهم بالكلام، فجاء حتى ضرب بيده بين عضديه، فقال: أصبحت والله كما قال (فأنشده): [من الرجز]

يَا لَكِ مِنْ قُنْبُرَةٍ بِمَعْمَرِ خَلاَ لَكِ الجَوُّ فَبِيضِى وَاصْفِرِى
وَنَقِّرِى مَا شِئْتِ أَنْ تُنَقِّرِى قَدْ رُفِعَ الفَخُّ فَمَاذَا تَنْظُرِى

خلا الحجاز من الحسين بن على، وأقبلت تهدر فى جوانبها، فغضب ابن الزبير، وقال: والله، إنك لترى أنك أحق بهذا الأمر من غيرك، فقال ابن عباس: إنما يرى ذلك من كان فى حال مثلك، وأنا من ذلك على يقين، فقال ابن الزبير: وبأى شىء تحقق عندك أنك أَوْلَىٰ بهذا الأمر منى ؟ فقال ابن عباس: أنا أحق بمن تدلى بحقه، وبأي شيء تحقق عندك أنك أحق بهذا الأمر من سائر العرب إلا بنا؟! فقال ابن الزبير: تحقق عندى أنى أحق بها منكم لشرفى عليكم قديمًا وحديثًا، فقال ابن عباس: أنت أشرف أم مَنْ شَرُفْتَ به؟! فقال ابن الزبير: إن من شرفْت به زادنى شرفًا إلى شرف قديم كان لى، قال: أفمنِّى الزيادة أم منك؟ قال: بل منك، فتبسم ابن عباس، فقال ابن الزبير: يا بن عباس، دعنى من لسانك هذا الذى تقلِّبه كيف شئت، والله لاتحبوننا يابنى هاشم أبدًا، قال ابن عباس: صدقت؛ نحن أهل بيت مع الله - عز وجلَّ - لانحب من أبغضه الله تعالى، فقال: ما ينبغى لك أن تصفح عن كلمة واحدة؟ فقال: إنما أصفح عمن أقر، وأما عمن هرّ فلا، والفضل لأهل الفضل، قال ابن الزبير: فأين الفضل؟ قال: عندنا أهل البيت، لا نَصْرِفُهُ عن أهله؛ ولانضعه فى غير أهله، فنندم، قال ابن الزبير: فبظلم فلسْت من أهله، قال: بلى، إن نبذت الحسد، ولزمت الحدود، وانقضى حديثهم، وقام القوم فتفرقوا.

وكان خروج الحسين من مكة يوم التروية من سنة ستين، وسار مع أصحابه فلقى بالتنعيم عيرًا مقبلة من اليمن عليها الورس والحلل، بعث بها بجير بن رومان عامل اليمن إلى يزيد فأخذها الحسين وأعطى أصحابه كراهم. ثم سار فرأى الفرزدق

بالصفاح، فقال له: أخبرنى عن الناس خلفك، فقال: القلوب معك - أو قلوبهم معك - وسيوفهم عليك مع بنى أمية، والقضاء ينزل من السماء، فقال الحسين: صدقت لله الأمر يفعل مايشاء، كل يوم هو فى شأن.

ثم لحقه كتاب عبد الله بن جعفر مع ابنيه عون ومحمد يسأله بالله فى الانصراف والرجوع لايهلك نفسه وأهل بيته، وإنى فى إثر كتابى. ثم جاءه كتاب عمرو بن سعيد بن العاص عامل يزيد على مكة مع أخَيه يحيى بن سعيد بالأمان والترغيب، فلم يفعل، واعتذر بأنه رأى رسول الله ﷺ فى المنام يأمره بأمر، وهو ماض له.

ولما بلغ ابن زياد مسير الحسين من مَكَّة، بعث الحصين بن تميم التميمى صاحب شرطته، فنزل القادسية، ثم نظم الخيل ما بينه وبين خفان، وما بينه وبين القطقطانة إلى جبل لعلع، ولقى هنالك قيس بن مسهر الأسدى بكتاب الحسين من الحاجر إلى أهل الكوفة يعرِّفهم بقدومه، فبعث به الحصين إلى ابن زياد، فلما جاءه قال: اصعد القصر، فسبَّ الحسين، فصعد وأدى رسالة أهل الكوفة وأنه فارقه بالحاجر ولعن ابن زياد وأباه واستغفر لعلى وبنيه، فأمر ابن زياد فرمى به من القصر فتقطع، وانتهى الحسين فى مسيره إلى عبد اللّه بن مطيع، فعذله فيما جاء له، ، وناشده الله وحرمة الإسلام والعرب وبنات الرسول لا تأتى الكوفة فتقتلك بنو أمية، فأبى وسار، ولقيه خبر قتل مسلم بن عقيل بالثعلبية، فناشده الله أصحابه فى الرجوع، فقال بنو عقيل: لا والله حتى ندرك ثأرنا، فقال الحسين: لا خير فى العيش بعد هؤلاء.

ثم سار، فكان لا يمر بماء إلا اتبعه من عليه حتى انتهى إلى زبالة، فلقيه مقتل قيس بن مسهر الأسدى الذى ألقاه ابن زياد من أعلى القصر، فأعلم الناس الذين معه بذلك، وقال: قد خذلتنا شيعتنا، فمنْ أحب فلينصرف، وقصده أن يوطنهم على ما يقدمون، فافترقوا عنه ولم يبق معه إلا أصحابه الذين خرجوا معه من مكة، فسار إلى سرف، ثم سار منها إلى منتصف النهار، فلقيهم الحر بن يزيد التميمى، ولما رآه قال له بعض الناس معه: مل بنا إلى ذى جشم تجعله عن يسارك ونستقبل القوم من وجه واحد، ففعل، وسبقهم إلى الجبل فنزل، وجاء الحر فى ألف فارس أرسله الحصين بن تميم من القادسية يستقبل الحسين، فقال الحسين: إنى لم آتِ إلا بكتبكم ورسلكم، فإن تعطونى ما أطمئن إليه من العهد أقدم مِصْرَكُمْ؛ وإلا أرجع من

حيث جئت، ثم حضرت الصلاة فصلى الحسين، وصلى الحر وأصحابه بصلاته.

ثم استقبلهم وأنمى عليهم شأن الكتب وذم الولاة، فقال الحر: والله ما ندرى ما هذه الكتب والرسل، فاستدعى بخرجين مملوءين صحفًا ونشرها، فقال الحر: لسنا من هؤلاء، وإنما أمرنا إذا لقيناك ألاَّ نفارقك حتى نقدمك الكوفة على ابن زياد، فقال الحسين: الموت أدنى من ذلك، ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا، فمنعهم الحر، وطال بينهما الكلام، وقال الحر: لم أومر بقتالك، وإنما أمرت ألا أفارقك حتى أقدمك الكوفة فخذ طريقًا غير طريقها، وأكتبُ أنا إلى ابن زياد، واكتب أنت إليه وإلى يزيد، فعسى أن يأتى من الأمور ما يدفع عنى أن أُبتلى بشيء من أمرك.

فتياسر عن طريق العذيب والقادسية، وسار الحر معه، وهو يعظه ويذكِّره حقوق أهل البيت ووجوب طاعتهم، ويقدح له فى ولاته وأمرائه بما كان معهم، ويذكُرُ له كتب أهل الكوفة ورسلهم، والحر يعظه، ويقول له: اتق الله فى نفسك، فلئنْ قاتلت لتقتلنَّ، فيقول: بالموت تخوفنى ؟! ويضرب الأمثال وينشد فى الشجاعة.

فلما رآه الحر كذلك، عدل يسير عنه ناحية حتى انتهوا إلى عذيب الهجانات- سمى بهجان ابن النعمان، كانت ترعى فيه- فإذا هو بأربعة فرسان دليلهم الطرماح بن عدى الطائى، وأجمح الحر حسهم فردهم، فقال الحسين: هم بمنزلة أصحابى وإلا ناجزتك، ثم أخبره بخبر الكوفة وقتل قيس بن مسهر، فبكى وقرأ: ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ [الأحزاب:٢٣]، ثم دعا لهم، وقال له الطرماح: ما أرى معك كثير أحد، ولو لم يقاتلك إلا هؤلاء الذين مع الحر، لكانوا أكثر من كفْئِكَ، فكيف بمن سار إليك من الكوفة، فلم تر عيناى جمعًا أكثر منهم، فأنشدك الله ألاَّ تتقدم إليهم شبرًا، وإن أردت، فسر معى، انزل جبلنا أجأ، فقد امتنعنا به والله من ملوك غسان وحمير والنعمان، ومن الأبيض والأحمر، وتجتمع إليك طيئ فى عشرين ألفًا لا يوصل إليك وفيهم عين تطرف، فجزاه خيرًا، وقال: قد عاهدنا هؤلاء القوم الذين معنا، فلا بد من الوفاء لهم، فودعه الطرماح وانصرف.

فسار الحسين ومَرَّ بقصر بنى مقاتل، فرأى فسطاطًا لعبيد الله بن الحر الجعفى، فاستدعاه فقال: والله ما خرجت من الكوفة إلا فرارًا من الحسين، فركب الحسينُ وجاءه ودعاه إلى النصرة، أو أن يكون ممن يكف، فأجابه إلى هذه.

ثم ركبوا من الغد، وأراد أن يفارق الحر، فمنعه؛ وإذا بكتاب من ابن زياد إلى الحر يأمره أن يجعجع بالحسين حتى يجيء كتابه ورسوله ولا ينزله إلا بالعراء فى غير حصن ولا ماء، وقد أمرت الرسول أن يلزمك حتى يأتينى بإنفاذك أمرى، فقرأ الحر الكتاب، وأعلم الحسين وأصحابه بما فيه فقالوا: دعنا ننزل فى الغاضرية، فقال: لا أستطيع، وهذا الرجل قد بعث عينًا عليَّ، فقال زهير بن القين، وكان صحبه من مكة: تعال نحاجز هؤلاء، فهم أهون علينا ممن يأتينا بعدهم، فقال: ما كنت لأبدأهم بالقتال، وذلك لليلتين من المحرم سنة إحدى وستين.

فلما كان الغد، قدم عمر بن سعد بن أبى وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف، وكان ابن زياد جهَّزه إلى حرب الديلم، وكتب له عهده على الرى، فلما كان أمر الحسين، دعاه أن يقدم حربه، ثم يرجع إلى عمله، فاستعفاه، فقال: نعم، على أن ترد ولاية الرى، فقال: أمهلنى، واستشار أصحابه فكلهم نهاه، غير ابن أخته حمزة ابن المغيرة بن شعبة، وقال له: تفتدى من دم الحسين بسلطان الأرض لو كان لك، ثم غدا على ابن زياد واستعفاه ثانية، فقال له مثل الأول، قال: فإنى سائر، وأقبل فى الجيوش حتى نزل بالحسين، وبعث إليه يسأله ما جاء به ؟ فقال: كُتُبُ أهل الكوفة، فأما إذ[1] كرهونى، فأنا أنصرف عنهم، فكتب بذلك إلى ابن زياد، فكتب إليه أن يعرض على الحسين البيعة أو يمنعه ومن معه من الماء، فأرسل عمرو بن الحجاج إلى الشريعة[2]، ومنعوهم الماء، واشتدَّ عليهم العطش، فركبوا إلى الماء، وقاتلوا عليه، وملئوا قربهم، ثم بعث الحسين إلى عمر فى اللقاء، فلقيه ليلاً، وتحادثا طويلاً وافترقا.

وكان فيما قال له الحسين: دعونى أرجع إلى المكان الذى جئت منه، أو أذهب فى الأرض العريضة حتى يستقيم أمر الناس. وكتب عمر بذلك إلى عبيد الله بن زياد يبشره بأن الله أطفأ النائرة وجمع الكلمة، فقبل ابن زياد ذلك، وقام إليه شمر بن ذى الجوشن منكرًا لذلك، وقال: تقبل ذلك منه، وقد نزل بأرضك ؟! ولئن رحل ولم

---

(١) في ط: فإن. والمثبت كما في البداية والنهاية، وتاريخ الطبري، وتاريخ الإسلام وهو أنسب وأصوب.

(٢) الشريعة: مورد الإبل على الماء الجارى. ينظر: النهاية (٢/ ٤٦٠).

تضغ يدك فى يده، ليكونن أعز، وتكون أعجز، ولكن لينزل على حكمك.

وقد بلغنى أن الحسين وعمر باتا يتحادثان عامَّة ليلتهما بين العسكرين، فقال ابن زياد: نِعْمَ ما رأيت، اخرج إليه أنت بهذا الكتاب؛ ليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمى، ويبعث بهم سلمًا، وإن امتنعوا، فليقاتلهم، وإن أبى عمر من ذلك، فأنت الأمير، وابعث إلى برأسه، وكتب إلى عمر بذلك وعنفه على المطاولة والشفاعة، وأن يفعل ما أمره به، وإلا فليعتزل العسكر، ويخلى بين شمر وبينه، وكتب معه أمانًا لبنى على بن أبى طالب من أم البنين بنت حذام، وهم العباس وعبيد الله وجعفر وعثمان، سأله الأمان لهم عبد الله ابن خالهم أبى المحل بن حرام، وكان حاضرًا عند ابن زياد، فردوا أمانه، وقالوا: لا حاجة لنا فيه.

ولما أتى شمر إلى عمر، قال له: يا شمر، أظنك أنت تثنيه عما كتبت به إليه، وأفسدت علينا أمورًا أرجو أن تصلح، والحسين والله لا يستسلم أبدًا. ونهض إليه عشية تاسوعاء، فركب العباس أخو الحسين فى عشرين فارسًا وتلقَّاهم، فأخبروه بما جاء به من أمر ابن زياد، فجاء به إلى الحسين، فقال: ارجع إليهم، ووخرهم إلى الغداة، لنستكثر من الصلاة والدعاء والاستغفار، فوعدهم الحسين إلى الغداة: فإما رضينا، وإلا رددناه.

فشاور عمر أصحابه، فأشار بعضهم بإمهاله، وهو عمرو بن الحجاج الزبيدى. فقال: والله لو كان من الديلم، لوجب إمهاله. وأشار قيس بن الأشعث بالمناجزة، وقال: ليصبحنك بالقتال، فرجع عمر، وجمع الحسين أصحابه، واستشارهم وجزاهم خيرًا، وأذن لهم فى الانطلاق، وقال: هذا الليل قد غشيكم، فاتخذوه جملًا، وافترقوا فى البلاد، والقوم إذا أصابونى، لَهُوا عن غيرى، فأبوا فقال: يا بنى عقيل، حسبكم من القتل بمسلم، واذهبوا فقد أذنت لكم، قالوا: ما تقول الناس ؟! والله، لا نفعل، ولنقاتلن معك حتى نرد موردك، وقام إليه بعض أصحابه من غير عشيرته، فقال: كيف نتخلى عنك، ولم نعذر إلى الله فى حقك، والله لا أفارقك حتى أكسر رمحى وسيفى وأقذفهم بالحجارة دونك حتى أموت.

وتكلم أصحابه بمثل ذلك فجزاهم خيرًا، وسمعن أخواته بذلك فطفقن يعولن ويلطمن، حتى غشى على بعضهن، فجاء إليهن وعزَّاهنَّ برسول الله ﷺ ومَنْ سلف

من قومه وعاهَدْنَ ألا يكثرن الصراخ عليه، ولا يشققْنَ الجيوب، ولا يخمشن الوجوه، ولا يدعين بالويل والثبور.

ثم أمر أن تدخل أطناب البيوت بعضها فى بعض؛ ليستقبلوا العدو من أمامهم، ثم قاموا يصلون ويدعون ويستغفرون حتى أصبح، وذلك يوم عاشوراء.

وركب عمر بن سعد فى التعبئة، وعبأ الحسين أصحابه اثنين وثلاثين فارسًا وأربعين راجلًا، وأعطى رايته أخاه العباس، وضرب للحسين فسطاط أمام أخبيته، فدخل فيه، واستعمل النورة، ثم أميث له المسك فى جفنة، واطلى به، ثم ركب ووضع المصحف أمامه، وقاتل أصحابه بين يديه وهو يدعو.

ثم تقدم على راحلته ونادى الناس، ووعظ وذكر بحقوقه، وقال: إن كذبتمونى، فعندكم من يخبركم، سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد وأنسًا وسُهَيْل بن سعد وزيد ابن أرقم يخبروكم بما سمعوا من رسول الله ﷺ فى حقنا أهل البيت، أما فى هذا حاجز يحجزكم عن دمى ؟! تطلبونى بمالٍ أو دمٍ أو قصاصٍ ؟! فلم يجيبوه. فنادى: يا شبيب بن ربعى، يا حجار بن أبجر، يا قيس بن الأشعث، يا زيد بن الحارث، ألم تكتبوا إِلَيَّ بالقدوم ؟! قالوا: لا، قال: بلى، قد فعلتم، فدعونى أنصرف إلى مأمنى من الأرض، فقال له قيس: أفلا تنزل على حكم ابن زياد، وهو ابن عمك ؟! قال: لا، والله لا أعطى يدى إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبد، عباد الله، إنى عذت بربى وربكم أن ترجمون، أعوذ بربى وربكم من كل متكبِّرٍ لا يؤمن بيوم الحساب.

ثم أناخ راحلته، ونزل عنها وخرج زهير بن القين، وهو شاكى السلاح، وكان صحب الحسين من مكة، فوقف بين العسكر، ووعظ أهل الكوفة، ونصحهم ودعاهم إلى نصرة ابن رسول الله ﷺ وخذلان ابن زياد، وأفحش فى ذم عبيد الله وأبيه، وقال: يقتلانكم ويقطعانكم ويسملانكم ويقتلان أماثلكم، اذكروا حجر بن عدى، وهانئ بن عروة. فشتموه وأثنوا على ابن زياد، وقالوا: لا نبرح حتى نقتلكم أو نأسركم، فقال لهم: أعيذكم بالله أن تقتلوا ابن فاطمة، خلوا بينه وبين ابن معاوية؛ فإن يزيد يرضى منكم بدون هذا، ثم رماه شمر وشتمه، فتشاتما ساعة، ثم رده الحسين فرجع.

ولما زحف عمر بن سعد نحو الحسين، قال له الحر بن يزيد الذى كان جاء ليلازم الحسين: أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ قال: نعم، قال: ولا تقبلون منه واحدة من الخصال التى عرض عليكم ؟! فقال عمر: لو كان الأمر إليَّ، لفعلتُ، ولكن أميرنا أبى ذلك. ثم أقبل يدنو نحو الحسين حتى استراب به أصحابه، ولحق به، وقال: يا بن رسول الله، أنا صاحبك الحر الذى حبستك عن الرجوع، وسايرتك فى الطريق، وجعجعت بك فى هذا المكان، ووالله لو ظننت أنهم لا يقبلون منك واحدة مما عرضت عليهم، أو يبلغون بك هذه المنزلة، ما فعلت الذى فعلت، وقد جئتك تائبًا أموت دونك، أفتراها لى توبة ؟! قال: نعم، يتوب الله عليك ويغفر لك.

ثم انعطف إلى أصحابه وقال: ألا تقبلون من الحسين واحدة مما عرض عليكم؛ فيعافيكم الله من حربه وقتاله ؟! فقال له عمر: قد حرصت على ذلك، وما وجدت إليه سبيلاً، ثم نادى أهل الكوفة ووبَّخهم على أن دعوه وأسلموه، ثم منعوه من التوجه فى بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ومنعوه وأصحابه ماء الفرات يشربه اليهوديُّ والنصرانيُّ والمجوسيُّ، وتمرغ فيه كلاب السواد وخنازيرهم وهو وأهله صرعى من العطش. بئسما خلفتم محمدًا فى ذريته، ودعا عليهم، فرموه بالنبل فرجع.

ثم تقدم عمر بن سعد برايته، ورمى بسهم، وقال: اشهدوا أنا أول رامٍ، وتبارز الناس، وقتل فى البراز يسار مولى زياد، وسالم مولى عبيد الله بن زياد، قتلهما عبد الله بن عمير الكلبى، وكان قد لحق بالحسين من الكوفة ومعه امرأته، ثم حمل عمرو بن الحجاج على الحسين وأصحابه، فجثوا على الركب وأشرعوا نحوه الرماح، فلم يقدموا، وذهبوا ليرجعوا فأصابوهم بالنبل، فصرعوا منهم رجالاً، وخرج يزيد بن حصين - من أصحاب الحسين - يبارز يزيد بن معقل، فبارزه فقتله آخر دونه.

وخرج عمرو بن قرظة الأنصارى فقاتل وقتل، وقاتل الحر بن يزيد مع الحسين قتالاً شديدًا، وقتل من أصحاب عمرو، وصاح عمرو بن الحجاج بالناس يقاتلون فرسان المصر مستميتين، وهم قليلون وقل ما يبقون ولو رميتموهم بالحجارة لقتلتموهم، ووافقه عمر، فمنع الناس من المبارزة، ثم حمل عمرو بن الحجاج على جانب الحسين، واقتتلوا ساعة، وقتل مسلم بن عوسجة الأسدى، وانصرف عمرو

ومسلم صريع، فجاء إليه الحسين ودعا له، ودنا منه حبيب بن مظاهر، واستوصاه، وقال: أوصى إليك بهذا أن تموت دونه وأشار إلى الحسين، فقال: أفعل، ثم قضى مسلم، وصاحَتْ جاريته، وسمعها شمر بن ربعى، وقد سمع أصحابه يقولون: قتلنا مسلم بن عوسجة، فنكر قتله وتسخط، وقال: أتفرحون لمثل مسلم ؟! وعدد مواقفه، ثم حمل فى الميسرة فثبتوا، ثم حملوا على الحسين وأصحابه من كل جانب وهم يكرهون ولا يحملون على جانب من خيل الكوفة إلا كشفوا.

وبعث عروة بن قيس وهو على خيل الكوفة إلى عمر بن سعد أن ابعث إلينا الرجال والرماة، فقال لشبيب بن ربعى: تقدم، فقال: مثلى لا يبعث فى الرماة، وكان يكره ذلك القتال كله، فقال للحصين بن تميم: تقدم، فرشقوا الحسين وأصحابه بالنبل فعقروا خيولهم وأرجلوهم، وقاتل الحر بن يزيد أشد قتال إلى أن انتصف النهار، ولا يقدرون يأتونهم إلا من وجه واحد لاجتماع مضاربهم، فبعث عمر من يقوض تلك الأبنية.

وكان أصحاب الحسين يتخللون الأبنية فيقتلون الرجل يعرض أو ينهب، فأمر عمر بن سعد فأضرمت نار، ومنعت العدو من الجواز من جانبها، وبلغ شمر فسطاط الحسين ليحرقه بالنار، فصاح به الحسين والنساء، وجاء شبيب بن ربعى فزجره عن ذلك فرجع، واتبعه زهير بن القين فى عشرة فكشفهم عن البيوت، وقتلوا من أصحاب شمر أبا عوزة الضبابى، وعطف عليهم فأصاب منهم.

ثم حضر وقت الصلاة، وذكر أبو ثمامة الأنصارى بالصلاة، فقال الحسين: الإمهال لنصلى، ووقع الكلام فى ذلك بين الحصين بن زيد من أهل الكوفة وحبيب ابن مظاهر من أصحاب الحسين. وقتل الحبيب رجل من بنى تميم، وقتله الحصين. ولما قتل حبيب هد ذلك من الحسين، ثم حمل الحر بن يزيد، فقاتل حتى قتل، ثم صلى الحسين الظهر صلاة الخوف، ثم اشتدَّ القتال بعد الصلاة، وخلصوا إلى الحسين، فاستقدم الحنفى أمامه، واستهدف لهم فرموه حتى سقط، وقاتل زهير بن القين حتى قتل، وأسر يافع بن هلال الجملى بعد أن قتل اثنى عشر منهم، وقتله شمر، فتنافر أصحاب الحسين أن يقتلوا بين يَدَيْهِ، فقتل منهم جماعة، ثم رموا بالحجارة من كل جانب، واستأذنه الضحاك بن عبد الله فى الانصراف والنجاة، فأذن

له وانصرف.

ثم خلص القوم إلى أهل البيت، فقتل على الأكبر بن الحسين بعد أن حمل عليهم مرارًا، فطعنه مرة بن منقذ فصرع، فجاء الحسين فحمله حتى وضعه بين يَدَيْ فسطاطه، ثم رمى عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهم فقتل، ثم حمل آخر على عون ابن عبد الله بن جعفر فقتل، ثم على عبد الرحمن بن عقيل فقتل، ثم على جعفر بن عقيل فقتل، ثم على القاسم بن الحسين فقتل، وجالوا عنده جولة وطئته فيها الخيل، ثم انجلت الغبرة والحسين قائم على فرسه وهو يفحص برجَلْيهِ، ثم احتمله فألقاه مع ابنه على وقتلى أهل بيته.

ومكث الحسين طويلاً من النهار والناس يتحاشَوْنَ قتله، ثم جاء مالك بن النُّسير من كندة، فضربه على رأسه بالسيف فأدماه، ودعا الحسين بابنه عبد الله وهو مُتَحَيِّر فأجلسه فى حجره، فرمى بسهم ذبحه، ثم رمى أبو بكر بن الحسين بسهم فقتل، ثم تقدم العباس بن على وإخوته من أمه فقتلوا جميعًا، واشتد عطش الحسين، فجاء ليشرب من الفرات، فرمى حصين بن تميم بسهم فى فمه فجعل يتلقى الدم ويدعو، ثم أقبل شمر بن ذى الجوشن فى عشرة من رجالته، فحالوا بين الحسين وبين أهله، فقال: امنعوا أهلى ورحلى من طغامكم، فقال: ذلك لك، ثم حمل عليهم وحملوا عليه وأحاطوا به من يمينه وشماله.

وخرجت زينب تنادى فلقيت عمر بن سعد، فقالت: يا عمر، يقتل أبو عبد الله، وأنت تنظر ؟! فبكى وزوى عنها وجهه، ثم نادى شمر: ماذا تنتظرون بالرجل ؟! فحملوا عليه، وضرب زرعة بن شريك التميمى كتفه الأيسر وعلى عاتقه فأوهنه، ثم طعنه سنان بن قيس النخعى بالرمح، وقال لخولى بن يزيد الأصبحى: جز رأسه، فأرعد، فنزل إليه سنان فأخذ رأسه ودفعه إلى خولى، وسلب ما كان عليه، فأخذ سراويله بحر بن كعب وقطيفته قيس بن الأشعث، وكانت من خز، وسيفه رجل من دارم، وانتهب الناس ثقله ومتاعه وإبله وسلبوا نساءه.

وانتهوا إلى على بن الحسين وهو مريض، وأراد الشمر قتله فمنعه حميد بن مسلم، وجاء عمر بن سعد وقال: لا يدخلنَّ بيت النبوة أحد، ولا يعرض لهذا الغلام المريض، وليرد عليهم متاعهم. ولم ينج من القوم إلا اثنان. ونادى عمر بن

سعد فى أصحابه: من ينتدب للحسين؛ فيوطئه فرسه، وكان ابن زياد أمره بذلك، فانتدب عشرة فداسوه حتى رضوا ظهره وصدره، وكان به ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة، وقتل من أصحابه اثنان وسبعون رجلاً، ودفنهم أهل الغاضرة من بنى أسد. وقتلوا من أصحاب عمر بن سعد مائة وثمانين رجلاً، فصلى عليهم ودفنهم.

وبعث برأس الحسين ورءوس أصحابه إلى ابن زياد مع شمر، وقيس بن الأشعث، وعمرو بن الحجاج، وعروة بن قيس، وأحضرها بين يديه، وجعل ينكت بقضيبه بين ثنيتى الحسين، فقال له زيد بن الأرقم: ارفع قضيبك عنها، فلقد رأيت شفتَىْ رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما، ثم بكى، فزجره ابن زياد فخرج مغضبًا.

ثم ارتحل عمر بن سعد إلى الكوفة بعد مقتلهم بيومين، ومعه نساؤهم وصبيانهم وبناتهم وعليٌّ بن الحسين مريض، ومروا بالحسين وأصحابه صرعى فأعولوا ولطموا.

ولما أدخلوا على ابن زياد، قال عبيد الله: من هذه ؟ يشير إلى زينب، فقيل له: هذه زينب بنت فاطمة، فكلَّمها وأجابته، وأبلغَتْ فأغضبته حتى قال لها: هذه شجاعة ولقد كان أبوك شجاعًا، فقالت: ما للمرأة والشجاعة؟! ثم قال لعلى بن الحسين: ما اسمك ؟ فأخبره، فقال: ألم يقتل الله عليًا ؟! فقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، فقال: أنت والله منهم، ثم قال: انظروا هل أنبت ؟ فقيل له: نعم، فقال: اقتلوه، فقال: ومن يوكل بهذه النسوة ؟! وتعلقت به زينب، وقالت: يا بن زياد، حسبك، أما رويت من دمائنا ؟! ثم اعتنقته، وقالت: إن قتلته فاقتلنى معه، وقال على: يا بن زياد، إن كان بينك وبينهن قرابة، فابعث معهن من يصحبهن بصحبة الإسلام.

ثم خطب الناس وتعرض للحسين، وشتمه بعض شيعته، وأمر بقتله وصلبه، ثم أمر برأس الحسين، فطيف به فى الكوفة، ثم بعث به وبرءوس أصحابه إلى يزيد مع عمرو بن ذى الجوشن، ويقال: مع زفر بن قيس، وبعث معهم بالنساء والصبيان محمولاتٍ على الأقتاب، والغل فى عنق على بن الحسين ورقبته، فدخل على يزيد

زفر بن قيس، فقال: ما وراءك ؟ قال: أبشر بفتح الله وبنصره، ورد علينا الحسين فى ثمانية عشر من أهل بيته، وستين من شيعته، وسرنا إليهم وسألناهم أن ينزلوا على حكم الأمير عبيد الله أو القتال، فاختاروا القتال، فغدونا عليهم مع شروق الشمس، فأحطنا بهم من كل ناحية حتى أخذت السيوف مأخذها من هام القوم، وجعلوا يهربون إلى غير وزر، ويلوذون بالآكام والحفر؛ كما لاذ الحمام من صقر، فما كان إلا جزر جزور، أو نومة قائل، حتى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسامهم مجردةً وثيابهم مرملةً، وخدودهم معفرةً، تصهرهم الشمس، وتعفر عليهم الريح، زوارهم العقبان والرخم، قال: فدمعت عينا يزيد، وقال: كنت أرضى من طاعتك بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سُمَيَّةَ، أما والله، لو أنى صاحبه، لعفوتُ عنه، فرحم الله الحسين.

أقول: بل لعن الله ابن ميسون قبل ابن سمية وبعده إلى يوم يبعثون.

ويقال: إن آل الحسين لما وصلوا إلى الكوفة، حبسهم ابن زياد، وبعث إلى يزيد بالخبر، فأمره بإرسالهم إليه، فبعثهم مع نخفر بن ثعلبة وشمر، ومعهما الثقل والرأس، وأنهما لما وضعا الرأس بين يديه وحدثاه، سمعت حديثهما هند بنت عبد الله بن عامر، وكانت تحت يزيد، فتسفعت بثوبها وخرجت، فقالت: يا أمير المؤمنين، رأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ؟! قال: نعم، فأعولى عليه، عجل عليه ابن زياد، فقتله، قتله الله، ثم دخل عليه الناس والرأس بين يديه، ثم قال: إن هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام: [من الطويل]

أَبَىٰ قَوْمُنَا أَنْ يُنْصِفُونَا فَأَنْصَفَتْ قَوَاضِبُ فِى أَيْمَانِنَا تَقْطُرُ الدِّمَا
تُفَلِّقْنَ هَامًا مِنْ رِجَالٍ أَعِزَّةٍ علينا وَهُمْ كانوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

ويقال: إنه استشهد ببعض أبيات قصيدة عبد الله بن الزبعرى التى قالها فى يوم أحد التى مطلعها قوله: [من الرمل]

يَا غُرَابَ البَيْنِ أَسْمَعْتَ فَقُلْ إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئًا قَدْ فُعِلْ

ومنها قوله:

لَيْتَ أَشْيَاخِى بِبَدْرٍ شَهِدُوا جَزَعَ الخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأَسَلْ

وإنه نكت فى ثغر الحسين بقضيبه؛ كما فعل ابن زياد، فقال له أبو برزة الأسلمى

ما قال زيد بن أرقم لابن زياد، ثم قال يزيد: يا حسين، والله لو أنى صاحبك ما قتلتك، ثم قال: أتدرون من أين أتى الحسين ؟ قال: أبى خير من أبيه، وأمى فاطمة خير من أمه، وجدى رسول الله خير من جده، وأنا خير منه، فأما أمه وجده فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يعتقد غير هذا. وأما أبى وأبوه، فقد تحاجا عند الله، وما علم الناس أيهما حكم له؛ ولكنه أتى من قبل الفقه، ولم يقرأ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦]. ثم أدخل نساء الحسين عليه والرأس بين يديه فجعلت فاطمة وسكينة بنتا الحسين تتطاولان تنظران إلى الرأس، ويزيد يتطاول يستر عنهما الرأس، فلما أبصرنه صحْنَ، فصاح نساء يزيد وبنات معاوية، فقالت فاطمة: أبناتُ رسول الله سبايا يزيد، فقال: يا بنة أخى، كنت لهذا أكره، قالت: والله ما ترك لنا من خُرص، قال: أما إنى سأوصل إليكنَّ ما هو أعظم مما أخذ منكن، ثم أخرجن وأدخلن دور يزيد، فلم تبق امرأة فى بيتهنَّ إلا أتتهنَّ وأقمْنَ المأتم، وسأل عما أخذ منهنَّ فأضعفه لهنَّ. وكانت سكينة تقول: ما رأيت عدوًا خيرًا من يزيد بن معاوية.

ثم أدخل على بن الحسين مغلولاً فقال: يا يزيد لو رآنى رسول الله مغلولاً لفكنى، قال: صدقت، وأمر بفكه عنه، فقال: لو رآنا رسول الله على بعد لقربنا، فأمر به فقرب منه، وقال له: يا على، أبوك الذى قطع رحمى، وجهل حقى، ونازعنى سلطانى، فصنع الله به ما رأيته. فقال على: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ...﴾ الآية [الحديد:٢٢]، وقال يزيد: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى:٣٠]، ثم سكت عنه وأمر بإنزاله وإنزال نسائه فى دار جده، ثم لم يزل يذم من ابن زياد فعله فى الحسين، ويقول: لعن الله ابن مرجانة، سأله أن يضع يده فى يدى، أو يلحق بثغر حتى يتوفاه الله، فلم يجبه إلى ذلك، وقتله، وبغَّضنى إلى المسلمين، وزرع العداوة لى عند البر والفاجر، مالى ولابن مرجانة، لعنه الله وغضب عليه.

ثم أمر النعمان بن بشير أن يجهِّزهم بما يصلحهم وبعث معهم إلى المدينة رجلاً من أهل الشام فى خيل تسير معهم، ودعا عليًا ليودعه، وقال له: لعن الله ابن مرجانة، والله لو أنى صاحب أبيك ما سألنى خصلة أبدًا إلا أعطيته إياها، ولدفعت

عنه الحيف بما استطعت، ولو بهلاك ولدى، ولكن قضى الله ما رأيت، فكاتبنى بأيَّة حاجة تكون لك، وأوصى بهم ذلك الرسول، فخرج بهم، فكان يسايرهم ليلاً من ورائهم بحيث لا يفوتون نظره عن حوائجهم، حتى دخلوا المدينة، فقالت فاطمة لأختها زينب: لقد أحسن إلينا هذا الرجل، فهل لك أن نصله بشيء ؟! فقالت: ما معنا إلا حلينا، فأخرجتا سوارين ودملجين لهما، فبعثتا بذلك إليه واعتذرتا، فرد الجميع، وقال: لو كان الذى صنعته للدنيا، لكان فى هذا ما يرضينى؛ وإنما صنعته لله، ولقرابتكم من رسول الله ﷺ.

وكان ابن زياد بعث إلى المدينة بخبر الحسين، وبها عمرو بن سعيد، فأعلم الناس وبكى نساء بنى هاشم، فلما سمع عمرو أصواتهنَّ، قال: ناعية بناعية عثمان، وفى الذهبى: قال يزيد اليزدى: حدثنى من شافه الحسين بن على، قال: رأيت أبنية مضروبة فى الفلاة للحسين، فأتيته، فإذا شيخ يقرأ القرآن والدموعُ تسيل على خديه، فقلت: بأبى أنت وأمى، يا بن رسول الله، ما أنزلك هذه البلاد، والفلاة التى ليس بها أحد ؟! فقال: هذه كتب أهل الكوفة إليَّ لأخرج، ولا أُرَاهُمْ إلا قاتلىَّ، فإذا فعلوا ذلك، لم يدعوا لله حرمة إلا انتهكوها، فيسلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قرم الأمة؛ يعنى: مقنعتها.

وروى الزبير بن بَكَّار، عن محمد بن حسن، قال: لما نزل عمر بن سعد بالحسين، وأيقن أنهم قاتلوه، قام فى أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد نزل بنا ما ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت حتى لم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وإلا خسيس عيش كالمرعى الوبيل؛ ألا ترون الحق لا يعمل به، والباطل لا ينهَىٰ عنه ؟! ليرغب المؤمن فى لقاء الله، وإنى لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا ندمًا.

وقال خالد الحذاء، عن الجريرى: إن الحسين لما أرهقه السلاح، قال: ألا تقبلون منى ما كان رسول الله ﷺ يقبله من المشركين ؟! قيل: وما كان يقبل منهم ؟ قال: كان إذا جنح أحد منهم للسلم، قَبِلَ منه، قالوا: لا؛ قال: فدعونى أرجع، قالوا: لا، قال: فدعونى آتى أمير المؤمنين يزيد، فأضع يدى فى يده، فقال له رجل: أبشر بالنار، فقال الحسين: بل إن شاء الله، برحمة ربى وشفاعة نبيى،

فقاتل، فلما استحرَّ القتل بأهله، فإنهم لا يزالون يقتلون واحدًا بعد واحدٍ، صاح الحسين: أما ذَابٌّ يذبكم عن حريم رسول الله ﷺ ؟! فحينئذ خرج الحر بن يزيد بن الحارث الرياحى، فقاتل معه حتى قتل، وحمل الحسين بمفرده وقتل كثيرًا من شجعانهم وهويقول: [من الطويل]

أَنَا ابْنُ عَلِيٍّ الخَيْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... كَفَانِىَ هَذَا مَفْخَرًا حِينَ أَفْخَرُ
وَجَدِّى رَسُولُ الله أَكْرَمُ مَنْ مشَىٰ ... ونحنُ سِرَاجُ الله فى النَّاسِ يُزْهِرُ
وفاطِمَةُ أُمِّى سُلَالَةُ أَحْمَدٍ ... وَعَمِّىَ يُدْعَىٰ ذا الجناحَيْنِ جَعْفَرُ
وفِينَا كِتَابُ الله أُنزِلَ صَادِقًا ... وفينا الهُدَىٰ والوَحْيُ والخَيْرُ يُذْكَرُ

وفى رواية: قيل: إنه لما جيء برأسه فى طست، وضع بين يدى ابن زياد، فنكته بقضيبه وقال: من قتله ؟ فقام رجل، قيل: هو الشمر بن ذى الجوشن، وقيل: سنان ابن أنس النخعى وكان قد طعن الحسين فى ترقوته، ثم انتزع الرمح، فطعنه أخرى فى ثوانى صدره، فخر - رضى الله عنه - صريعًا، فقال لخولى بن يزيد: حز رأسه، فأرعدت يده ، فنزل سنان فحز رأسه - لا رحمهم الله، ولا رضى عنهم:- كما تقدَّم ذكر ذلك فقال: أنا. وأنشد: [من الرجز]

أَوْقِـرْ رِكَـابِـى فِـضَّـةً وذهـبـا
إنـى قَـتَـلْـتُ الـمَـلِـكَ الـمُـحَـجَّـبَا
قَـتَـلْـتُ خَـيْـرَ الـنـاسِ أُمًّـا وأَبَـا
ومَـنْ يُـصَـلِّـى الـقبـلـتَـيْـنِ فـى الـصِّـبَا
وخَـيْـرَهُـمْ إذْ يُـنْـسَـبُـونَ نَـسَـبَا

وذكر كيفية قتلهم بقوله: غدونا عليهم. . إلى آخر ما تقدم ذكره.

قال: فاسود وجهه فى الحال، فغضب ابن زياد من قوله، وقال له: إذا علمت ذلك، فلم قتلته ؟! والله، لا نلت منى خيرًا، ولألحقنك به، ثم ضرب عنقه.

وقتل مع الحسين - رضى الله تعالى عنه - من إخوته وبنيه، وبنى أخيه الحسن، ومن أولاد جعفر وعقيل تسعة عشرة نفرًا، وقيل: أحد وعشرون[١].

قال الحسن البصرى: ما كان على وجه الأرض يومئذ لهم شبيه، رضى الله عنهم.

---

(١) ينظر تاريخ الطبري (٥/ ٤٦٧-٤٦٩) وتاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين.

وروى أبو معشر نجيح، عن بعض مشيخته؛ أن الحسين قال حين نزلوا كربلاء، ما اسمُ هذه الأرض ؟ قالوا: كربلاء، قال: كَرْبٌ وبلاء(١).

وروى شريك، عن مغيرة قال: قالت مرجانة لابنها عبيد الله: يا خبيث، قَتَلْتَ ابن رسول الله ﷺ، لا ترى الجنة أبدًا !!(٢).

قال المدائنى: عن على بن مدرك، عن جده قال: احمرت آفاق السماء بعد قتل الحسين ستة أشهر، يرى فيها كالدم، فحدثت بذلك شريحًا، فقال لى: ما أنت من الأسود ؟! قلت: هو جدى أبو أمى، فقال: أما والله إن كان لصدقًا(٣).

قلت: وما أشجَىٰ قول أبى العلاء أحمد بن سليمان، الشهير بالمعرّى؛ فإنه أشار إلى هذا المعنى، فقال من قصيدة: [من الخفيف]

وَعَلَى الأُفْقِ مِنْ دِمَاءِ الشَّهِيدَيْـ ... ـنِ عَـلِـيٍّ وَنَـجْـلِـهِ شَـاهِـدَانِ
فَهُمَا فِى أَوَاخِرِ اللَّيْلِ فَجْرا ... نِ وَفِـى أُولـيَـاتِـهِ شَـفَـقَـانِ
ثَبَتَا فِى قَمِيصِهِ لِيَجِيءَ الْـ ... ـحَشْرَ مُسْتَعْدِيًا إِلَى الرَّحْمَٰنِ

وكذا روى مثل ذلك سليمان بن حرب، عن حماد، عن ابن سيرين، قال لرجل: تعلم هذه الحمرة فى الأفق مم هى ؟ قال: لا، قال: من يوم قتل الحسين(٤).

وقال جرير بن عبد الحميد، عن يزيد بن زياد، قال: قتل الحسين ولى أربعَ عَشْرَةَ سنةً، فلما قتل، صار الورس الذى فى عسكرهم رمادًا، وكان فى قافلة من اليمن تريد العراق، فوافتهم حين قتله، واحمرت آفاق السماء، ونحروا ناقة فى عسكرهم، وكانوا يرون فى لحمها نارًا(٥).

وقال حماد بن زيد: حدثنى جميل بن مرة، قال: أصابوا إبلًا فى عسكر الحسين يوم قتل، فنحروها وطبخوها، فصارت مثل العلقم(٦).

وقال قرة بن خالد: حدثنا أبو رجاء العطاردى قال: كان لنا جار من بَلْهُجَيْم،

---

(١) ينظر تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٣٣٨). ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربي ص (١٤٤) تاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين، (ص ١٣- ١٤).
(٢) ينظر تاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين (ص١٥).
(٣) ينظر المصدر السابق (ص١٥).
(٤) ينظر المصدر السابق (ص١٥).
(٥) ينظر تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٣٤٢) والمصدر السابق (ص١٥).
(٦) ينظر تاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين (ص١٦).

فقدم الكوفة، فقال: ما ترون هذا الفاعل ابن الفاعل، قتله الله ؟! يعنى: الحسين، رضى الله تعالى عنهما، قال أبو رجاء: فرماه الله بكوكبين من السماء، فطمسا عينيه، وأنا رأيته(١).

وقال معمر بن راشد: أول ما عرف الزهرى تكلم فى مجلس عبد الملك بن مروان، فقال له: تعلم ما فعلت حجار بيت المقدس يوم قتل الحسين ؟! فقال الزهرى: إنه لم يقلب حجر فيه إلا وجد تحته دم عبيط(٢).

قال جعفر بن سليمان: حدثتنى أم سالم خالتى، قالت: لما قتل الحسين، مطرنا مطرًا كالدم على البيوت والجدر(٣).

وروى حماد بن سلمة، عن عمار بن أبى عمار، عن ابن عباس: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام نصف النهار أشعث أغبر، وبيده قارورة فيها دم، فقلت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، ما هذا ؟ قال: هذا دَم الحسينِ وأصحابِهِ، ولم أزل منذ اليوم ألتقطه، فأحصى ذلك اليوم فوجدوه قتل يومئذ(٤).

وقال حماد، عن عمار: سمعت أم سلمة تقول: سمعتُ الجنَّ تبكى على الحسين وتنوح عليه(٥).

وعن أبى جناب الكلبى قال: أتيتُ كربلاء، فقلت لرجل من أشراف العرب بها: بلغنى أنكم تسمعون نوح الجنِّ، فقال لى: ما تلقى أحدًا إلا أخبرك أنه سمع ذلك، فقلت له: فأخبرنى ما سمعت أنت ؟ قال: سمعتهم يقولون: [من مجزوء الكامل]

مَسَحَ الرَّسُولُ جَبِينَهُ ... فَلَهُ بَرِيقٌ فِى الخُدُودِ
أَبَواهُ مِنْ عُلْيَا قُرَيْـ ... ـشٍ جَدُّهُ خَيْرُ الجُدُودِ

رواه ثعلب فى أماليه(٦).

ولما دخل الرأس على يزيد، ووضع بين يديه، وأنشد البيتين المتقدم ذكرهما:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٣٠).
(٢) ينظر تاريخ الإسلام حوادث سنة أحدى وستين (ص١٦).
(٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) أخرجه أحمد(١/ ٢٨٣)والطبراني(٢٨٢٢)وابن عساكر(٤/ ٣٤٣-تهذيب)من حديث ابن عباس.
(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٦٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٠٢) وقال: وفيه عمرو بن ثابت بن هرمز وهو ضعيف.
(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٦٥، ٢٨٦٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٠٢): =

[من الطويل]

أَبَىٰ قومُنَا أن ينصفُونَا ... .

قال عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم: [من الطويل]

لَهَامٌ بجَنْبِ الطَّفِّ أَوْفَىٰ قَرَابَةً مِنِ ابن زياد العَبْدِ ذى النَّسَبِ الوغلُ

سُمَيَّة أمسَىٰ نَسْلُهَا عَدَدَ الحَصَىٰ وَبِنْتُ رَسُولِ الله لَيْسَ لَهَا نَسْلُ

فضرب يزيد صدره، وقال: اسكت[1].

قال الحافظ الذهبى: روى عن أبى عبيدة، أن يونس بن حبيب حدثه قال: لما قتل الحسين وبنو أبيه، وبعث ابن زياد برءوسهم إلى يزيد، سُرَّ بقتلهم أولاً، ثم ندم ثانيًا، فكان يقول: وما عليَّ لو احتملت الأذى، وأنزلت الحسين منى، وحكمته فيما يريد، وإن كان فى ذلك وهن فى سلطانى؛ حفظًا لرسول الله ﷺ ورعاية لحقه وقرابته، لعن الله ابن مرجانة - يريد عبيد الله بن زياد - فإنه أخرجه واضطره، وقد كان سأله أن يخلى سبيله ويرجع من حيث أقبل، أو يأتينى فيضع يده فى يدى أو يلحق بثغر من الثغور، فأبى ذلك، ورده عليه، فأبغضنى بقتله المسلمون.

قال المسعودى: كان قتل مسلم بن عقيل فى اليوم الذى خرج فيه الحسين من مكة يوم التروية كما تقدَّم ذكره.

قال: لما قتل الحسين، وحمل رأسه إلى ابن زياد، خرجت بنت عقيل فى نساء قومها حواسر حائرات؛ لما ورد عليهنَّ من قتل السادات، وهى تقول شعرًا: [من البسيط]

مَاذَا تَقُولُونَ إِنْ قَالَ النَّبِيُّ لَكُمْ ماذا فعلتُمْ وأنتُمْ آخِرُ الأُمَم ؟!

بعترتى وَبِأَهْلِى بَعْدَ مُفْتَقَدِي نِصْفٌ أُسارَىٰ ونصْفٌ ضُرِّجُوا بدَم

مَا كَانَ هَذَا جَزَائى إِذْ نَصَحْتُ لَكُمْ أن تَخْلُفونِى بسُوءٍ فِى ذَوِى رَحِمى[2]

وقال المدائنى، عن إبراهيم بن محمد، عن عمرو بن دينار: حدثنى محمد بن على بن الحسين، عن أبيه، قال: لما قتل الحسين ودخلنا الكوفة، لقينا رجل،

= وفيه من لم أعرفه وأبو جناب مدلس.

(١) ينظر تاريخ الطبري (٥/ ٤٦٠) وتاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين (ص١٨).

(٢) ينظر مروج الذهب (٣/ ٧٨).

فدخلنا منزله، فألحفنا فنمت، فلم أستيقظ إلا بحس الخيل فى الأزقة، فحملنا إلى يزيد، فدمعت عيناه حين رآنا، وأعطانا ما شئنا، وقال: إنه سيكون فى قومك أمر، فلا تدخل معهم فى شيء، فلما كان من أهل المدينة ما كان، كتب مع مسلم بن عقبة المُرِّيِّ كتابًا فيه أمانى، فلما فرغ مسلم من الحرة بعث إليَّ، فجئته وقد أيقنتُ بالموتِ، فكتبت وصيتى، فرمى إليَّ الكتاب، فإذا فيه: استوص بعلى بن الحسين خيرًا، فإن دخل معهم فى أمرهم فأمِّنْهُ واعفُ عنه، وإن لم يكن معهم، فقد أصاب وأحسن(١).

وقال رزق الله بن عبد الوهاب الجبائى فى الحسين - رضى الله عنه - شعرًا: [من الكامل]

رَأْسُ ابنِ بنتِ محمدٍ ووصيِّهِ ... للمسلمينَ عَلَىٰ قَنَاةٍ يُرْفَعُ
والمُسْلِمُونَ بمنظرٍ وبمَسْمَعٍ ... لا جَازِعٌ فيهِمْ ولا مُسْتَرْجِعُ
أيقظْتَ أجفانًا وكنْت أنمتهَا ... وأنمْتَ عينًا لم تَكُنْ لك تَهْجَعُ
مَا رَوْضَةٌ إلاَّ تَمَنَّتْ أنها ... لَكَ تربةٌ ولحظٌ قبركَ موضعُ

وقال أحمد بن عيسى الهاشمى معتذرًا عن الكحل يوم عاشوراء: [من مخلع البسيط]

لَمْ أَكْتَحِلْ فى صَبَاحِ يَوْمٍ ... أُهْرِقَ فيهِ دَم الحُسَيْنِ
إلاَّ لحُزْنٍ وَذَاكَ أَنِّى ... سَوَّدتُّ حتى بَيَاضَ عَيْنِي

وقال بعضهم فى مثل معناه شعرًا: [من مخلع البسيط]

وَلاَئِمٍ لاَمَ فِى اكْتِحَالِي ... يَوْمَ أراقُوا دَمَ الحُسَيْنِ
قُلْتُ: دَعُونِى أَحَقُّ عُضْوٍ ... فِيهِ بِلُبْسِ السَّوادِ عَيْنِي

ومما قال أبو الحسين الجزار فى ذلك شعرًا: [من الكامل]

وَيَعُودُ عَاشُورَاءُ يُذْكِرُنِي ... رُزْءَ الحُسَيْنِ فَلَيْتَ لَمْ يَعُدِ
يَا لَيْتَ عَيْنًا فِيهِ قد كُحِلَتْ ... بِمَرَاوِدٍ لَمْ تَخْلُ مِنْ رَمَدِ
يومٌ سبيلى حينَ أذكُرُهُ ... ألاَّ يدورَ الصَّبْرُ فى خَلَدِي
ويدًا به لشماتةٍ خُضِبَتْ ... مقطوعةٌ مِنْ زَنْدِهَا بِيَدِي
أما وَقَدْ قُتِلَ الحُسَيْنُ به ... فَأَبُو الحُسَيْنِ أحقُّ بالكَمَدِ

(١) ينظر سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٢٠-٣٢١) وتاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين ص(٢٠-٢١).

مناقب الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه

هو الحسين بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب، وريحانة النبى ﷺ، ولد بالمدينة لخمس خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة على الصحيح، وقيل: ست، وقيل: سبع[١].

قال فى الإصابة: وهذا القول الآخر ليس بشيء[٢].

وكانت والدته البتول علقت به بعد أن ولدت أخاه الحسن بخمسين يومًا، وقيل: بطهر واحد[٣].

ألقابه: الرشيد، والطيب، والرضى، والسيد، والزكى، والمبارك، والسبط، والتابع لمرضاة الله.

كان الحسين أشبه الخلق بالنبى ﷺ من سرته إلى كعبه. وروى أبو عمر، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: أبصرَتْ عيناى، وسمعَتْ أذناى رسول الله ﷺ، وهو يقول له: تَرَقَّ عينَ بقَّهْ. فرقى الغلام حتى وضع قدميه على صَدْرِ رسول الله ﷺ، ثم قال له رسول الله ﷺ: افتح فاك، ثم قبله، ثم قال: اللهم، إنى أحبه فأحبه[٤].

روى خيثمة بن سليمان بن حيدرة - وقال أبو الحسن بن الهيثمي: رجاله كلهم ثقات - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: «أخذ رسول الله ﷺ بيدى، فانطلقنا إلى سوق بنى قينقاع، فلما رجع دخل المسجد، فجلس، فقال: أين لُكَعُ؟ فجاء الحسين يمشى حتى سقط فى حجره، فجعل أصابعه فى لحية رسول الله ﷺ، ففتح رسول الله ﷺ فمه وأدخل فاه فى فيه، ثم قال: اللهم، إنى أحبه فأحبه، وأحب من يحبه، قال أبو هريرة: فما رأيته قط إلا فاضت عينى دموعًا[٥].

وروى أبو بكر بن أبى شيبة، عن يعلى العامرى؛ أنه خرج مع رسول الله ﷺ إلى

---

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٧١).

(٢) ينظر الإصابة (٢/ ٦٨) والمصدر السابق.

(٣) ينظر الإصابة (٢/ ٦٨) وسبل الهدى والرشاد (١١/ ٧١)، وهو مروى عن جعفر بن محمد أخرجه الطبراني في الكبير كما في المجمع (٩/ ٨٨) وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح إلا أن محمد بن على لم يدرك ذلك.

(٤) ذكره الصالحى في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٧١) وعزاه لأبي عمر عن أبي هريرة.

(٥) ذكره الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٨٣- ١٨٤) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات، =

طعام دعى إليه، فإذا حسين مع غلمان يلعبون فى طريقه، فاستهوى رسول الله أم القوم ثم بسط يده، فطفق الصبى يفر ههنا مرة، وههنا مرة، وجعل رسول الله ﷺ يضاحكه، ثم أخذه رسول الله ﷺ، فجعل إحدى يديه تحت ذقنه، والأخرى تحت قفاه، ثم أقام رأسه، فوضع فاه على فيه، وقال: « حسين منى، وأنا من حسين، رحم الله من أحبَّ حسينًا، حسين سبط من الأسباط »(١).

وروى ابن أبى عاصم، عن أنس - رضى الله تعالى عنه - قال: لما قتل الحسين، وجيء برأسه إلى ابن زياد، فجعل ينكت بقضيب على ثناياه، وكان حسن الثغر، فقلت فى نفسى: لأسوءنك؛ لقد رأيت رسول الله ﷺ يقبل موضع قضيبك من ثنيته(٢).

وروى عن أبى ظبيان قال: والله إن كان رسول الله ﷺ يفرج رجليه، يعنى: الحسين، ويقبل زبيبته(٣).

وروى ابن حبان، عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال: كان رسول الله ﷺ يدلع لسانه للحسين، فيرى الصبى حمرة لسانه، فيهش إليه، فقال عيينة بن حصن بن بدر الفزارى: أراك تصنع هذا بهذا، فوالله ليكون لى الولد قد خرج وجهه وما قبلته، فقال رسول الله ﷺ: « من لا يرحم لا يرحم »(٤) رواه أبو عبيدة. وعنده: فإذا رأى الصبى حمرة لسانه، هش إليه.

وروى [أبو] الحسن [بن] الضحاك، عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يمص لعاب الحسين كما يمص الرجل التمرة(٥).

= وينظر سبل الهدي والرشاد (١١/ ٧١).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ١٠٢-١٠٣) وأحمد في مسنده (٤/ ١٧٢) وفي الفضائل (١٣٦١) والحاكم (٣/ ١٧٧)، وابن حبان (٦٩٧١) والطبراني في الكبير (٢٢/ رقم ٧٠٢) من حديث يعلى العامري وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي وهو عند الترمذي مختصرا (٣٧٧٥)، وقال: هذا حديث حسن.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٧٨) والقطيعي في زوائد الفضائل (١٣٩٤) وابن حبان (٦٩٧٢) والطبراني في الكبير (٢٨٧٩) من حديث أنس وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

(٣) ينظر سبل الهدي والرشاد (١١/ ٧٢).

(٤) أخرجه ابن حبان (٦٩٧٥) وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (ص٨٦).

(٥) ذكره الصالحي في سبل الهدي والرشاد (١١/ ٧٢) وعزاه لأبي الحسن بن الضحاك.

وروى ابن حبان، وابن سعد، وأبو يعلى، وابن عساكر، عن جابر - رضى الله تعالى عنه - قال: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، وفى لفظ: إلى سيد شباب الجنة، فلينظر إلى الحسين بن على، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك(١).

وروى أبو القاسم البغوى، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، قال: خلونا عند رسول الله ﷺ إذْ أقبل الحسين، فجعل ينزو على ظهر رسول الله ﷺ، وعلى بطنه، فبال، فقمنا إليه، فقال - عليه الصلاة والسلام -: دعوه، ثم دعا رسول الله ﷺ بماء فصبه على ثوبه(٢).

وروى سعيد بن منصور، والترمذى، وحسنه، عن يعلى بن مرة العامرى - رضى الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « حسين منى، وأنا من حسين، أحب الله من أحبَّ حسينًا، حسين سبط من الأسباط »(٣).

وروى الإمام أحمد، عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: « الحسنُ والحسيْنُ سِبطانِ من الأسْبَاطِ ».

وروى الطبرانى فى الكبير، عن على - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ أحَبَّ هذا - يعنى الحسين - فقد أحبنى »(٤).

وروى الحاكم، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « اللهمَّ، إِنى أحبه فأحبه » يعنى: الحسين(٥).

وروى أبو القاسم البغوى بسنده، قال: خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة، فمر على باب فاطمة - رضى الله تعالى عنها - فسمع حسينًا يبكى، فقال رسول الله ﷺ: « أما تعلمين أن بكاءه يؤذينى »(٦).

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١٨٧٤) وابن حبان (٦٩٦٦) وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٩٠) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير الربيع بن سعد وهو ثقة.
(٢) ذكره الصالحى في سبل الهدي والرشاد (١١/ ٧٢)، وعزاه لأبي القاسم البغوى.
(٣) تقدم تخريجه قريبا.
(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٦٤٣)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٨٩): وفيه الحارث الأعور وهو ضعيف.
(٥) أخرجه الحاكم (٣/ ١٦٩، ١٧٧، ١٧٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
(٦) ذكره الصالحى في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٧٣) وعزاه لأبي القاسم البغوي.

وروى الطبراني فى الكبير، وابن سعد، عن عائشة -رضى الله تعالى عنها - أن رسول الله ﷺ قال: « أخبرنى جبريل أن ابنى الحسين يقتل بأرض الطفِّ، وجاءنى بهذه التربة، وأخبرنى أن فيها مضجعه »(١).

وروى الإمام أحمد، عن ثابت، عن أنس - رضى الله تعالى عنه - قال: استأذن ملك المطر(٢) أن يأتى النبى ﷺ فأذن له، فقال - عليه الصلاة والسلام [لأم سلمة: « احفظى](٣) علينا الباب لا يدخل أحد »، فجاء الحسين فوثب حتى دخل، فجعل يصعد على منكب رسول الله ﷺ، فقال [له] ملك المطر: أتحبه ؟ فقال - عليه الصلاة والسلام - نعم، قال: إن أمتك تقتله، وإن شئت أريتك المكان الذى يقتل فيه، قال: فضرب بيده، فأراه ترابا أحمر، فأخذت أم سلمة ذلك التراب، فصرته فى طرف ثوب[ها]، قال: فكنا نسمع بقتله بكربلاء. ورواه البيهقى من حديث وهب بن ربيعة بن زياد، قال: أخبرتنى أم سلمة - رضى الله تعالى عنها - أن رسول الله ﷺ اضطجَعَ ذات يوم، فاستيقظ وهو حائر، ثم اضطجع، فرقد، ثم استيقظ وهو حائر دون ما رأيتُ منه فى المرة الأولى، ثم اضطجع فاستيقظ وفى يده تربة حمراء، وهو يقلبها، فقلت: ما هذه التربة، يا رسول الله ؟! قال: « أخبرنى جبريل؛ أن ابنى هذا يقتل بأرض العراق، قال: فقلت: يا جبريل، أرنى تربة الأرض، فقال: هذه تربتها »(٤).

وروى البزار(٥) عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - قال: كان الحسين جالسًا فى حجره - عليه الصلاة والسلام - فقال له جبريل: أتحبه ؟ فقال: كيف لا، وهو ثمرة فؤادى، فقال: إن أمتك ستقتله؛ ألا أريك موضع قبره ؟! فقبض قبضة وإذا تربة حمراء(٦).

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨١٥) وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٩٠) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.
(٢) في ط: القطر. والمثبت من المسند لأحمد.
(٣) في ط: أغلقي. والمثبت من مسند أحمد.
(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٢٤٢، ٢٦٥) من طريق ثابت عن أنس.
(٥) في ط: البراء. وهو تصحيف.
(٦) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٩٤-١٩٥) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات وفي بعضهم خلاف.

وروى الإمام أحمد، عن عبد الله بن نجى[(١)]، عن أبيه، أنه سار مع أمير المؤمنين على - كرم الله وجهه - فلما حازَىٰ شط الفرات، قال: صبرًا أبا عبد الله، قلت: وما ذاك، يا أمير المؤمنين ؟ قال: دخلت على النبى ﷺ، وعيناه تفيضان بالدمع، فقلت: مم ذلك يا رسول الله، صلى الله عليك ؟ فقال: قام من عندى جبريل - عليه الصلاة والسلام - وأخبرنى أن ابنى الحسين يقتل بشط الفرات، وقال: هل لك أن أنعمك من تربته ؟ فقلت: نعم، فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عينى أن فاضتا[(٢)].

وروى الإمام أحمد، عن أبى أمامة الباهلى، قال: قال رسول الله ﷺ: لا تدع أحدًا يدخل، فجاء الحسين فمنعته، فبكى فخليته فدخل حتى قعد فى حجره ﷺ، فقال جبريل - عليه الصلاة والسلام -: إن أمتك ستقتله، فقال - عليه الصلاة والسلام -: تقتله، وهم مؤمنون ؟ قال: نعم، وأراه من تربته. وفى رواية: قال رسول الله ﷺ: يا جبريلُ، أفلا أراجع ربِّى عز وجل ؟ قال: لا؛ إنه أمر قد قضى وفُرِغَ منه[(٣)].

وروى الإمام أحمد، عن فاطمة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: لقد دَخَلَ جبريل عليَّ البيت، ولم يدخل عليَّ قبلها، فقال: ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت، أريتك التربة التى يقتل بها، فأخرج تربة حمراء[(٤)].

وروى البغوى، عن أنس بن الحارث - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن ابنى هذا يقتل بأرض يقال لها كربلاء، فمن شهد ذلك فلينصره »، قال: فخرج أنس بن الحارث إلى كربلاء، فقتل مع الحسين، رضى الله تعالى عنهم أجمعين [(٥)].

وروى الملا، عن أم سلمة؛ أنها قالت: ناولنى رسول الله ﷺ كفًا من تراب

---

(١) في ط: يحيى، والتصحيح من مسند أحمد وهو أبو سلمة الحضرمي صدوق من الثالثة وانظر: التقريب ت (٣٦٨٨).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٨٥).
(٣) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٩٢) وقال: رواه الطبراني ورجاله موثقون وفي بعضهم ضعف.
(٤) لم أجده عن فاطمة رضي الله عنها في مسند أحمد ولعله في الفضائل.
(٥) ذكره الصالحى في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٧٥)، وعزاه للبغوي.

أحمر، وقال: إن هذا من تربة الأرض التى يقتل بها ابنى - يعنى: الحسين - فمتى صار دمًا فاعلمى أنه قد قتل. قالت أم سلمة: فوضعته فى قارورة، وكنت أقول: إن يومًا يتحول فيه دمًا ليوم عظيم. وفى رواية: فأصبته يوم قتل الحسين، وقد صار دمًا، قالت أم سلمة: فلما كانت ليلة قتل الحسين، سمعت قائلاً يقول: [من الخفيف]

أَيُّهَا ٱلْقَاتِلُونَ جَهْلاً حُسَيْنًا   أَبْشِرُوا بِالْعَذَابِ وَالتَّنْكِيلِ

قالت: فبكيت وفتحت القارورة، فإذا الحصيات قد خرجت دمًا(١).

وأخرج ابن سعد قال: مر على - رضى الله تعالى عنه - بكربلاء عند مسيره إلى صفين، وحاذى نينوى - اسم قرية على الفرات - فوقف وسأل عن اسم هذه الأرض، فقيل له: كربلاء، فبكى حتى بلت دموعه الأرض، ثم قال: هاهنا مناخ ركابهم، هاهنا مهراق دمائهم، فتية من آل محمد يقتلون بهذه العرصة، تبكى عليهم السموات والأرض(٢).

ولما سير برأسه إلى يزيد، فنزلوا أول مرحلة، فجعلوا يشربون والرأس بين أيديهم، فبينما هم كذلك إذْ خرجَتْ عليهم من الحائط يد معها قلم من حديد، فكتب سطرًا بدم، وهو: [من الوافر]

أَتَرْجُو أُمَّةٌ قَتَلَتْ حُسَيْنًا   شَفَاعَةَ جَدِّهِ يَوْمَ الْحِسَابِ؟!

فهربوا وتركوا الرأس. أخرجه منصور بن عمار(٣).

وذكر غير واحد؛ أن هذا البيت وجد بحجر فى دير راهب فى كنيسة بأرض الروم، ولايدرى من كتبه، فسألوه، فقال: هذا مكتوب قبل مبعث نبيكم بثلاثمائة سنة(٤).

وقد تقدم ذكر حمرة السماء.

قال ابن الجوزى: وحكمته أن غضبنا يؤثر حمرة الوجه، والحق تنزه عن الجسمية، فأظهر تأثر غضبه على من قتل الحسين بحمرة الأفق؛ إظهارًا لِعظَم الجناية.

قال: وإذا كان أنين العباس، وهو مأسور ببدر منع رسول الله ﷺ النوم، فكيف

---

(١) ينظر سبل الهدي والرشاد (١١/ ٧٥-٧٦).
(٢) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٧٥).
(٣) ذكره الصالحى في سبل الهدي (١١/ ٧٦) وعزاه لأبي نعيم من طريق ابن لهيعة عن أبي قبيل.
(٤) ينظر سبل الهدى والرشاد (١١/ ٨٠).

بابنه الحسين، ولما أسلم وحشيٌ قاتلُ حمزة، قال له: غيب وجهك عنى؛ فإنى لا أحب أن أرى من قتل الأحبة، والإسلام يجب ما قبله، فكيف بقلبه ﷺ أن يرى من ذبح الحسين، وأمر بقتله، وحمل أهله على أقتاب الجمال سافرات الوجوه، ناشرات الشعور.

وأخرج أبو الشيخ أن جمعًا يذكرون أنه ما من أحد أعان على قتل الحسين إلا أصابه بلاء قبل أن يموت.

ونقل سبط ابن الجوزى عن السديّ؛ أنه أضافه رجل بكربلاء، فتذاكروا هذا المعنى أى أنه ما من أحد أعان على قتل الحسين، أو شركهم فى دمه بوجه، إلا مات أقبح ميتة، فكذَّب المضيف بذلك، وقال: إنه ممن حضر ولم يصبه شيء، فقام ليصلح السراج، فأخذته النار، فذهب ليطفئها بريقه، فالتهب فمه، فجعل ينادى: النارَ النارَ، وانغمس فى الفرات، ومع ذلك دبت النار فى جسده، فأحرقته، قال السدى: وأنا والله، رأيته كالحممة[١].

وحكى سبطه، عن الواقدى؛ أن شيخًا حضر قتله فقط، فعمى، فسئل عن سببه ؟ فقال: إنه رأى النبيَّ ﷺ حاسرًا عن ذراعه، وبيده السيف، وبين يديه نطع، ورأى عشرة من قاتلى الحسين مذبوحين بين يديه، ثم لعنه وسبه بتكثير سوادهم، ثم أكحله بمرود من دم الحسين، فأصبح أعمى.

وأخرج - أيضًا - أن شخصًا منهم علق فى لبب فرسه رأس العباس بن على فرئى بعد أيام ووجهه أشد سوادًا من القار، فقيل: إنك كنت أنضر العرب وجهًا، فقال: ما مرت عليَّ ليلة مذ حملت ذلك الرأس إلا واثنان يأخذان بضبعى، ثم ينهضان إلى نار تؤجج، فيدفعانى فيها، وأنا أنكص فتسفعنى كما ترى، ثم مات على أقبح حالة.

وذكر البارزى، عن المنصور؛ أنه رأى رجلاً بالشام وجهه وجه خنزير، فسأله، فقال: إنه كان يلعن عليًا كل يوم ألف مرة، وفى كل جمعة أربعة آلاف مرة وأولاده معه، فرأيت النبيَّ ﷺ وذكر منامًا طويلاً من جملته أن الحسن شكاه إليه، فلعنه ثم بصق فى وجهه، فصار وجهه وجه خنزير، وصار آية للناس.

وروى البخارى فى صحيحه، والترمذى، عن ابن عمر؛ أنه سأله رجل عن دم

(١) ينظر تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٣٤٣). وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣١٣).

البعوض، أطاهر أم لا ؟ فقال له: ممن أنت ؟ قال: من أهل العراق، فقال ابن عمر: انظروا إلى هذا، يسألنى عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن النبى ﷺ ؟![١].

قال العلامة سبط ابن الجوزى فى كتابه مرآة الزمان وغيره: المشهور أن يزيد لما وصل إليه الرأس الشريف، جمع أهل الشام، وجعل ينكت الرأس بالقضيب الخيزران، وتمثل بتلك الأبيات.

وقيل: بل ترحم على الحسين، وتنكر لابن زياد؛ لكنه قال: المشهور الأول.

وجمع بأنه أظهر الثانى، وأخفى الأول بقرينة أنه بالغ فى رفعة ابن زياد حتى أدخله على نسائه، وبقرينة قوله البيتين السابق ذكرهما فيه، ثم قال: وليس العجب إلا من ضرب يزيد ثنايا الحسين بالقضيب وحمل آل النبى ﷺ سبايا على أقتاب الجمال موثقين فى الحبال، والنساء مكشفات الوجوه والرءوس. وذكر أشياء من قبيح فعله[٢].

قال: ويقال: إنه بعث بالرأس معهم إلى المدينة حين ردهم إليها.

وقيل: بل كان الرأس فى خزانته؛ لأن سليمان بن عبد الملك رأى النبى ﷺ فى المنام يلاطفه ويبشره، فسأل الحسن البصرى عن تعبير ذلك، فقال له: لعلك صنعت إلى آله معروفًا، قال سليمان: نعم، وجدت رأس الحسين فى خزانة يزيد، فكسوته خمسة أثواب، وصليتُ عليه فى جماعة من أصحابى وقبرته، فقال له الحسن البصرى: إن ذلك سبب رضا النبى ﷺ عليك، فأمر سليمان للحسن بجائزة حسنة[٣].

قلت: رأيت فى الذهبى ما نصه: قال عبد الصمد بن سعيد القاضى: حدثنا سليمان بن عبد الحميد البهرانى، سمعت أبا أمية الكلاعى، سمعت أبا كريب، قال: كنتُ فى القوم الذين توثبوا على الوليد بن يزيد، وكنت فيمن نهب خزانتهم بدمشق، فأخذت سفطًا، وقلت: فيه غنائى، فركبت فرسى وجعلته بين يدى، وخرجت من باب توما، ففتحته، فإذا بحريرة فيها قرطاس مكتوب عليه: هذا رأس الحسين بن

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٨٥، ٩٣، ١١٤، ١٥٣) والبخاري (٣٧٥٣، ٥٩٩٤) والترمذي (٣٨٥٩) والطبراني (٢٨٨٤) من حديث ابن عمر وقال الترمذي: حسن صحيح.
(٢) تقدم ذكر هذه الوقائع.
(٣) ينظر البداية والنهاية (٨/ ٢٢٢).

على، فحفرت له بسيفى، ودفنته، فالله أعلم أيًا كان ذلك[١].

فلما فعل يزيد ما مر كان عنده إذ ذاك رسول قيصر، فقال متعجبًا: إن عندنا فى بعض الخزائن فى دير حافر حمار عيسى، فنحن نحج إليه كل عام من الأقطار، وننذر النذور ونعظمه؛ كما تعظمون كعبتكم، وأنتم تفعلون هذا بابن بنت نبيكم، فأشهد أنكم على باطل.

وقال آخر كان معه: بينى وبين داود سبعون أبًا، وإن اليهود تعظمنى وتحترمنى، وأنتم تفعلون ما تفعلون فى ابن نبيكم، قال: وكانت الحرس على الرأس الشريف، كلما نزلوا منزلاً، رفعوه على رمح وحرسوه، فرآه راهب فى دير، فسأل عنه، فعرفوه به، فقال: بئس القوم أنتم، لو كان للمسيح ولد، لأسكناه فى أحداقنا، بئس القوم أنتم، هل لكُمْ فى عشرة آلاف دينار، ويبيت الرأس عندى هذه الليلة ؟ فقالوا: نعم، فأخذه وغسله وطَيَّبه ووضعه على فخذه، وقعد يبكى إلى الصبح؛ لأنه رأى نورًا ساطعًا من الرأس إلى السماء، ثم خرج عن الدير وما فيه وصار يخدم أهل البيت، فهنيئًا له ثم هنيئًا.

وكان مع أولئك الحرس دنانير أخذوها من عسكر الحسين، ففتحوا أكياسها ليقتسموها، فرأوها خزفًا، وعلى أحد وجهى كل منها: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وعلى الآخر: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

قال أهل السير: لما سيق حريم الحسين إلى الكوفة كالأسارَىٰ، بكى أهل الكوفة، فجعل زين العابدين بن على بن الحسين يقول: إن هؤلاء يبكون من أجلنا، فمن ذا الذى قتلنا؟!

وأخرج الحاكم من طرق متعدِّدة أنه - عليه الصلاة والسلام - قال: قال جبريل: قال الله تبارك وتعالى: إنى قتلتُ بدمِ يحيى بن زكريا سبعينَ ألفًا، وإنى قاتل بدم الحسين بن على سبعين ألفًا [وسبعينَ ألفًا][٢]، وقتل هذه العدة بسببه لايستلزم أنها بقدر عدة القاتلين له، فإنها فتنة أفضت إلى تعصبات ومقاتلات تفى بذلك.

(١) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث سنة إحدى وستين (ص٢٠).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ١٧٨)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: على شرط مسلم . وما بين المعكوفين زيادة من مستدرك الحاكم.

ولاية الوليد بن عتبة على الحجاز، وعزل عمرو بن سعيد(١)

ولما قتل الحسين، وبلغ خبره إلى مكة، قام ابن الزبير فى الناس فخطبهم، وعظم قتل الحسين، وعاب من تولاه وأمر به، وترحَّم عليه، ولعن قاتله، وتعرض ليزيد بسماع الغناء والحداء وشرب الخمر وكلاب الصيد، وقد كان بويع سرًّا، وأظهر أنه عائذ بالبيت، فقال له أصحابه: أظهر بيعتك، فلم يبق بعد الحسين من ينازعك، فقال: لاتعجلوا. وبلغ يزيد الخبر بأمره، فحلف ليؤتين به إليه فى جامعة فصنع جامعة من فضة وبعث بها إليه؛ لتبرَّ يمينه، فامتنع من رسله، ورجع يزيد، فأغراه بنو أمية بعمرو بن سعيد العامل بالحجاز، وقالوا: لو أراد لبعث به إليك؛ فعزله، وولى مكانه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، فسار إلى الحجاز، ولحق عمرو بيزيد، وبيَّن له مكايدة ابن الزبير، فعذره، وأقام الوليد يحاول غِرَّة ابن الزبير فيجده مستحذرًا ممتنعًا.

ثم كتب ابن الزبير إلى يزيد يعيبُ الوليد بأنه أخرق، لايتجه لرشد، ولايرعوى لعظة، فابعث رجلًا سهل الخلق أرجو أن يسهل به من الأمور ما استوعر ويجمع به ما افترق، فعزل الوليد، وولى عثمان بن محمد بن أبى سفيان.

خلع أهل المدينة يزيد، ووقعة الحرة، وحصار مكة(٢)

لما ولى عثمان بن محمد بن أبى سفيان على أهل الحجاز سنة اثنتين وستين، بعث إلى يزيد وفدًا من أهل المدينة، فيهم عبد الله بن حنظلة الغسيل، وعبد الله بن عمرو بن أبى حفص بن المغيرة، والمنذر بن الزبير، ورجال من أشراف أهل المدينة، فأكرمهم يزيد، وأجازهم بمائة ألف درهم لكل واحد منهم، واستأذنه المنذر فى القدوم على ابن زياد فى العراق، فأذن له، ورجع الوفد إلى المدينة، فقاموا بمعايب يزيد فقالوا: يشرب الخمر، ويضرب بالطنابير، ويلعب بالكلاب، ويسمر عنده الخراب واللصوص، فنكر الناس شأنه، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل على خلعه، وبلغ الخبر يزيد، فبعث إلى ابن زياد بحبس المنذر، وكان

(١) ينظر تاريخ الطبري (٥/ ٤٧٤-٤٧٥).
(٢) ينظر تاريخ الطبري (٥/ ٤٧٨-٤٩٥) تاريخ الإسلام حوادث سنة ثلاث وستين (ص٢٣) وما بعدها والطبقات الكبرى (٥/ ٦٧-٦٨)، البداية والنهاية (٨/ ٢٣٨-٢٤٥) ومروج الذهب (٣/ ٧٩-٨٠).

صديقًا له ولأبيه، فكره ذلك، وأذن له فى الانصراف إلى بلده، فقدم المدينة، وعاب يزيد أعظم من الأولين، وحرض الناس عليه، فبعث يزيد النعمان بن بشير إلى المدينة لردهم عما كانوا فيه من الانتقاص، وأتاهم وخوَّفهم الفتنة، وقال: لاطاقة لكم بأهل الشام، وقال له عبد الله بن مطيع: يا نعمان، تفرق جماعتنا، وتفسد ما أصلح الله من أمرنا؟! فقال له النعمان: والله لكأنى بك لو نزلَتْ بك الجموع، ودارت الحرب، ركبت بغلتك إلى مكة، وتركت هؤلاء المساكين - يعنى الأنصار - يقتلون فى مساكنهم، ومساجدهم، وعلى أبواب دورهم، فعصاه الناس، وانصرف إلى يزيد.

فلما كان سنة ثلاث وستين وقد بايعوا لعبد الله بن الغسيل على خلع يزيد، وأخرجوا عثمان بن محمد بن أبى سفيان عامل يزيد عليهم، فاجتمع له بنو أمية ومواليهم فى ألف رجل، وامتنعوا بدار مروان بن الحكم، وكتبوا إلى يزيد يستحثونه، فأمر عمرو بن سعيد أن يسير إليهم فى الناس، فأبى، وقال: كنت قد ضبطت البلاد، والآن تهراق الدماء بالصعيد، فبعث إلى عبيد الله بن زياد بالمسير إلى المدينة، وحصار ابن الزبير بمكة، فأعظم غزو الكعبة مع ماكان منه من قتل الحسين، فأبى واعتذر، فبعث إلى مسلم بن عقبة المُرِّىّ، وأخبره بخبر بنى أمية، فقال: ما يكونون ألف رجل؟ قال الرسول: بلى، قال: فما استطاعوا القتال ساعة من نهار؟! هؤلاء أذلاء، دعوهم حتى يجهدوا فى أنفسهم فى جهاد عدوهم، فقال يزيد: ويحك، لاخير فى العيش بعدهم؛ فاخرج بالناس، ويقال: إن معاوية أوصى يزيد إن حدث بك حدث من أهل المدينة، فارمهم بمسلم بن عقبة.

فتجهز مسلم، ونادى بالعطاء، ومعونة مائة دينار، فاجتمع له اثنا عشر ألفًا، فسار بهم إلى الحجاز، وقال له: ادع القوم ثلاثًا قبل القتال، وإذا ظهرت، فأبحها ثلاثًا بما فيها من مال ورثه وطعام وسلاح، فهو للجند، واكفف عنهم بعد الثلاث، وإن حدث بك حدث، فاستخلف الحصين بن نمير السكونى، واستوص بعلىّ بن الحسين خيرًا، فقد أتانى كتابه، ولم يدخل مع الناس، وقد كان مروان بن الحكم لما أصاب بنى أمية ما أصابهم رَغَّبَ إلى على بن الحسين أن يكون حَرَمُهُ مع حَرَمِهِ، فأجابه وخرج بحرمه، وحرم مروان، ومنهم عائشة بنت عثمان إلى ينبع.

وقيل: بل بعثهم مع ابنه عبد الله إلى الطائف، ثم سار مسلم بالجيش، وبلغ أهل المدينة خبره، فاشتد حصارهم لبنى أمية بدار مروان حتى أنزلوهم على أن يخرجوهم إلى الشام، ولا يظاهروا عليهم، ولا يدلوا على عوراتهم، وبعث أهل المدينة إلى الموارد بينهم وبين الشام، فألقوا فيها القطران، فأرسل الله السماء بالمطر، واستغنى العسكر عن الموارد، ولقى بنى أمية مسلم بن عقبة بوادى القرى، فسأل عمرو بن عثمان بن عفان، واستشاره فقال: أخذوا علينا العهد ألاَّ ندل على عورة، فقال: لولا أنك ابن عثمان، لضربت عنقك، ولا أقيل فيها قرشيًّا بعدك. ثم استدعى مروان بعد، فقال مروان لابنه عبد الملك: ادخل قبلى إليه يجتزئ بك، فدخل، فقال مسلم: هات ما عندك، قال: أرى أن تسير إلى أدنَىٰ نخيلها، فإذا أصبحت، تركت المدينة ذات اليسار، ومضيت حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقًا، ثم تستقبل القوم، فإذا أشرقت الشمس، كانت فى ظهوركم ووجوههم، وترون من أشعة سلاحهم ما لا يرون، ويتأذون بشعاع الشمس، ولا تتأذون ثم قاتلهم، فقال له مسلم: لله أبوك، أى امرئ وَلَدَكَ ؟! ثم دخل مروان، وقال: إذا لقيت عبد الملك، فقد لقيتنى، فقال: ما حملت من رجال قريش.

ثم ارتحل وعمل برأى عبد الملك، وأتاهم من قبل المشرق، ثم دعاهم، وقال: أنتم أصل أمير المؤمنين، وأنا أكره إراقة دمائكم، وإنى أؤجلكم ثلاثًا، فإن راجعتم الحق، قبلت وسرت إلى مكة، وإن أبيتم، كنت قد أعذرت. ولما مضت الثلاث قال: ما تصنعون، يا أهل المدينة ؟ قالوا: نحارب، فلاطفهم فى الطاعة، لينصرف إلى مكة، فقالوا: لا ندعك تأتى بيت الله، وتلحد فيه، وتستحلُّ حرمته. وكانوا قد خندقوا على أنفسهم، وكان عبد الله بن مطيع فى قريش على ربع، وعبد الرحمن بن أزهر بن عوف على ربع، ومعقل بن صنان الأشجعى فى المهاجرين على ربع، وأمير جماعتهم عبد الله بن الغسيل على الأنصار فى أعظم تلك الأرباع[١].

قال الذهبى[٢]: كتب عبد الله بن جعفر إلى المدينة - وكان عندَ يزيد بالشام - ألاَّ يعرضوا لجيشه، فورد مسلم بن عقبة، فمنعوه، ونصبوا له الحرب، ونالوا من يزيد،

---

(١) ينظر المصادر السابقة.

(٢) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث سنة ثلاث وستين (ص٢٤).

فأوقع فيهم، وأباحها ثلاثة أيام.

وقال الواقدى: أنبأنا ابن أبى ذئب، عن صالح بن أبى حسان، أنبأنا إسماعيل ابن إبراهيم المخزومى، قال: لما وثب أهل الحرة، وأخرجوا بنى أمية عن المدينة، واجتمعوا على عبد الله بن حنظلة، وبايعوه على الموت، قال: يا قوم، اتقوا الله فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرْمَىٰ بالحجارة من السماء.

قال: وكان ابن حنظلة يبيتُ تلك الليالى فى المسجد، وما يزيد على أن يفطر على شربة من سويق ويصوم الدهر(١).

وقال الذهبى(٢): دخل عبد الله بن مطيع ليالى الحرة على ابن عمر، فقال له ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزع يَدًا من طاعة، لم يكن له حجة يوم القيامة، ومن مات مفارقًا للجماعة، فإنه يموت ميتة جاهلية»(٣).

وقال المدائنى: توجه مسلم بن عقبة إلى المدينة فى اثنى عشر ألف رجل، ويقال: اثنى عشر ألف فارس، وخمسة عشر ألف راجل.

قال السهيلى فى روضه: وقعة الحرة كان سببها أن أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية، وأخرجوا بنى أمية، وأمروا عليهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الذى غسلت أباه الملائكة يوم أُحد. ولم يوافق أهلَ المدينة على هذا الخلع أَحَدٌ من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ، وصمد مسلم فى العساكر، فانكشف أهل المدينة من كل جانب، ثم حمل ابن الغسيل، فانكشف العساكر، وانتهت إلى مسلم، فنهض فى وجوههم بالرجال، واشتد القتال، ثم جاء الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب لابن الغسيل، فقاتل معه، ثم انتقى الشجعان يريد قتل مسلم، فحمل على أهل الشام، فانفرجوا، وجثت الرجال أمامه على الركب، ومضَىٰ نحو راية مسلم، فقتل صاحبها يظن أنه مسلم بن عقبة، فأخذ مسلم رايته، وسار وشدت

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥/ ٦٧-٦٨) من طريق الواقدى. وذكره الذهبى في تاريخه عند حوادث سنة ثلاث وستين (ص٢٧).

(٢) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث سنة ثلاث وستين (ص٢٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٧٠، ٨٣، ٩٣، ٩٧، ١٢٣، ١٣٣، ١٥٤) ومسلم (١٨٥١) وابن حبان (٤٥٧٨) من طريق زيد بن أسلم عن ابن عمر، وهذا لفظ ابن حبان، وأخرجه أحمد (٢/ ١١١) ومسلم (١٨٥١) والحاكم (١/ ٧٧، ١١٧) من طريق نافع عن ابن عمر.

الرجال أمامه، فصرع الفضل بن عباس، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف.

وتقدمت خيل مسلم إلى ابن الغسيل، ومعه أخوه لأمه محمد بن ثابت بن قيس ابن شماس، وعبد الله بن زيد بن عاصم، ومحمد بن عمرو بن حزم، وأبلى محمد ابن سعد بن أبى وقاص، ثم انهزم الناس، وأباح مسلم المدينة ثلاثًا للقتل والنهب، وأفزع ذلك الصحابة الذين بها، وخرج أبو سعيد الخدرى؛ ليأوى إلى كهف فى الجبل، فاعترضه رجل من العسكر لقتله فعرفه بنفسه، فتركه.

قال السهيلى: لما أرجف أهل المدينة بيزيد، دعا عبد الله بن عمر ببنيه ومواليه، فقال لهم: إنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله، وإنه والله لا يبلغنى عن أحد منكم أنه خلع يدًا من طاعة إلا كانت الفيصلَ بينى وبينه، ثم لزم بيته.

ولزم أبو سعيد الخدرى بيته، فدخل عليه فى تلك الأيام التى أبيحت المدينة فيها، فقيل له: من أنت أيها الشيخ ؟ فقال: أنا أبو سعيد الخدرى صاحب رسول الله ﷺ، فقالوا: قد سمعنا خبرك، ولنعم ما فعلت حين كففت يدك، ولزمت بيتك، ولكن هات المال، فقال: أخذه الذين دخلوا قبلكم عليَّ وما عندى شيء، فقالوا: كذبت، ثم قالوا: أضجعوه، فأضجعوه، فجعل كل واحد يأخذ من لحيته خصلة، وأخذوا ما وجدوا حتى صوف الفرش، وحتى أخذوا زوجين من حمام كان صبيانه يلعبون بهما(١).

وأما جابر بن عبد الله الأنصارى، فخرج فى ذلك اليوم يطوف فى أزقة المدينة، وهو أعمى، والبيوت تنتهب وهو يعثر فى القتلى، ويقول: تعس من أخاف رسول الله ﷺ، فقال له قائل: ومن أخاف رسول الله ﷺ ؟ فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « من أخاف المدينة، فقد أخاف ما بين جنبيَّ »(٢)، فحملوا عليه ليقتلوه، فأخذه منهم مروان بن الحكم، وأدخله بيته.

وقتل فى ذلك اليوم من وجوه المهاجرين والأنصار ألف وسبعمائة رجل.

وقيل: من أخلاط الناس عشرة آلاف، سوى النساء والصبيان، ونهبوا وأفسدوا، واستحلوا الحرم، وعطلت الصلوات فى مسجده - عليه الصلاة والسلام - ولم يبقَ

(١) ينظر البداية والنهاية (٨/ ٢٤٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٤، ٣٩٣) من طريق زيد بن أسلم عن جابر وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٥٣)، وابن حبان (٣٧٣٨) من طريق محمد بن جابر عن جابر رضي الله عنه.

فى المسجد إلا سعيد بن المسيب جعل نفسه ولهانًا خبلًا، فتركوه، وكان يقول: كنت أسمع عند مواقيت الصلاة همهمة من الحجرة المطهرة. وافتض فيها ألف عذراء، وإن مفتضًّها فعل ذلك أمام الوجه الشريف، والتمس ما يمسح به الدم، فلم يجد، ففتح مصحفًا قريبًا منه، ثم أخذ من أوراقه ورقةً، فتمسح بها، نعوذ بالله ما هذا إلا صريح الكفر وأنتنه.

ومن ذلك أن امرأة من الأنصار دخل عليها رجل من أهل الشام، وهى ترضع ولدها، وقد أخذ ما كان عندها، فقال لها: هاتى الذهب، وإلا قتلتك وقتلت ابنك، فقالت: ويحك إن قتلته، فأبوه أبو كبشة صاحب رسول الله ﷺ، وأنا من النسوة اللاتى بايعن رسول الله ﷺ، وما خنت الله فى شيء بايعت رسوله عليه، فأخذ الصبى من حجرها وثديها فى فيه، وضرب به الحائط حتى انتثر دماغه فى الأرض، والمرأة تقول: لو كان عندى شيء أفديك به يا ابنى لفديتك، قال: فما خرج من البيت حتى اسودَّ نصف وجهه، وصار مثلة فى الناس.

قال المؤلف: وأحسب هذه المرأة جدة لهذا الصبيِّ لا أُمًّا له؛ إذ يبعد فى العادة أن تبايع رسول الله ﷺ امرأة، وتكون يوم الحرة فى سن من يُرْضِعُ.

والحرة التى يعرف بها هذا اليوم، يقال لها: حرة زهرة، بقرية كانت لبنى زهرة قوم من اليهود، فقيل للقرية: زهرة، وكانت عامرة فى الزمن الأول، يقال: كان فيها ثلاثمائة صائغ؛ ذكره الزبير بن بكار فى فضائل المدينة.

ويقال: إن مسلمًا لما حارب أهل المدينة، ووقف ابن الغسيل والناس لقتاله، خالفهم بنو حارثة من الأنصار، وأدخلوا أهل الشام من ناحيتهم، فانهزم الناس، وكان من هلك فى الخندق أكثر ممن قتل.

ثم دعا مسلم الناس إلى بيعة يزيد على أنهم خَوَلٌ له يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم بما شاء، ومن امتنع قتله، وجيء بعد يوم بيزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود، ومحمد بن أبى الجهم بن حذيفة، فقالا: لا نبايع إلا على الكتاب والسنة، فقتلهما، وأنكر عليه مروان قتل فريق على أمان، فطعنه بالقضيب فى خاصرته، وقال: والله، لو قلتها أنت لقتلتك.

ثم جيء بمعقل بن سنان، فقال له: والله لأقتلنك، فناشده الله والرحم، فقال:

أما أنت لقيتنى بطبرية ليلة انصرف وفدكم من عند يزيد، فأثنيت عليه شرًا، وقلت: نرجع المدينة، فنخلع هذا الفاسق ابن الفاسق، ونبايع لرجل من أبناء المهاجرين، وإنى آليت لا ألقاك بحيث أقدر على قتلك إلا قتلتك، ثم أمر به فقتل.

وجيء بيزيد بن وهب، فقال: أبايع على سنة عمر، فقتله، وشفع فيه مروان لصهر بينهما فلم يشفعه.

ثم جاء على بن الحسين بين مروان وعبد الملك، وجلس بينهما فقال: تجيئنى بين هذين لتأمن عندى، والله لو كان الأمر إليهما، لقتلتك، وإنما أمير المؤمنين أوصانى بك وأخبرنى أنك كاتبته، ثم أجلسه معه على السرير، فقال: لعل أهلك فزعوا، فقال: نعم، فرده إلى بيته على دابته، ولم يلزمه البيعة؛ كما ألزم أهل المدينة.

ثم أحضر عبد الله بن عباس للبيعة، وكانت أمه كندية، فقال الحصين بن النمير: لا تبايع ابن أختنا إلا مثل ما بايع على بن الحسين، فتركه.

ثم جاء عمرو بن عثمان بن عفان، ولم يكن خرج مع بنى أمية، فقال: هذا الخبيث ابن الطيب، وأمر به فنتفت لحيته.

وكان ممن قتل فى الحرة زيد بن عاصم الأنصارى، وعبيد الله بن عبد الله بن موهب، ووهب بن عبد الله بن زمعة، وعبد الله بن عبد الرحمن بن عاظب، والزبير ابن عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب. وكان لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ثلاث وستين[(١)].

وأتى خبر الواقعة لابن الزبير مع المسور بن مخرمة، فاستعدَّ هو وأصحابه، وعرفوا أن مسلم بن عقبة نازل، ثم استخلف مسلم على المدينة روح بن زنباع الجذامى - وقيل: عمرو بن محرز الأشجعى - وشخص إلى مكة لقتال ابن الزبير، فمات بالمشلل، وقيل: بثنية هرشى، وأوصى الحصين بن نمير فقال: يا برذعة الحمار، لو كان هذا الأمر إلىَّ، ما وليتك هذا الجند، لكن أمير المؤمنين ولاك، فأسرع السير، وعجل المناجزة، ولا تمكن قريشًا من أذنك، ثم مات.

وسار الحصين بالناس، وقدم مكة لأربع بقين من المحرم، وقد بايع أهلها وأهل

(١) ينظر مصادر ذكر وقعة الحرة.

الحجاز لعبد الله بن الزبير، واجتمعوا عليه، ولحق به أهل المدينة، وقدم عليه نجدة ابن عامر الحنفى فى الخوارج لمنع البيت، وخرج ابن الزبير للقاء أهل الشام، وعثرت البغلة بعبد الله فنزل، واجتمع إليه المسور بن مخرمة، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وجماعة من أصحابه، فقتلوا جميعًا، وصابرهم ابن الزبير إلى الليل، ثم انصرفوا وأقاموا يقاتلونه شهرًا وبعض شهر، واحترق البيت.

يقال: قذفوه بالنار فى المجانيق(١).

ويقال: كان أصحاب ابن الزبير يوقدون حول الكعبة، فعلقت شرارة منها بثوب الكعبة، واحترق خشب البيت.

والأول أصح؛ لأن البخارى ذكر فى صحيحه: أن ابن الزبير لما احترقت الكعبة، تركها ليراها الناس محترقة؛ فتحزّبهم على أهل الشام(٢).

ثم لم يزل العسكر محاصرين لابن الزبير حتى جاءهم نعى يزيد لأول ربيع الثانى.

وفاة يزيد، وبيعة معاوية ابنه وملكه

ثم مات يزيد منتصف ربيع الأول سنة أربع وستين(٣).

قال العلامة الحافظ الذهبى: روى زحر(٤) بن حصين، عن جده حميد بن منهب، قال: زرت الحسن بن أبى الحسن،يعنى: البصرى، فخلوت به، فقلت: يا أبا سعيد، ما ترى ما الناس فيه ؟ فقال لى: أفسد أمر الناس اثنان:

عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف، فحملت، وقال: أين القراء، فحكم الخوارج، فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة.

والآخر: المغيرة بن شعبة؛ فإنه كان عامل معاوية على الكوفة، فكتب إليه معاوية: إذا قرأت كتابى، فأقبل معزولاً، فأبطأ عنه، فلما ورد عليه، قال: ما أبطأ بك ؟ قال: أمر كنت أُوَطِّئه وأهَيِّئُهُ، قال: وما هو ؟ قال: البيعة ليزيد من بعدك، قال: أو فعلت ؟ قال: نعم، قال: ارجع إلى عملك، فلما خرج المغيرة، قال له

(١) ينظر تاريخ خليفة (٢٥٤-٢٥٥) وتاريخ الطبري (٥/ ٤٩٦-٤٩٧) تاريخ الإسلام حوادث سنة أربع وستين (ص٣٣) وما بعدها.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر تاريخ خليفة (ص١٩٤) وتاريخ الطبرى (٥/ ٤٩٩)، البداية والنهاية (٨/ ٢٤٨-٢٤٩).

(٤) في ط: ابن حر. والمثبت من تاريخ الإسلام.

أصحابه: ما وراءك ؟ قال: وضعت رجل معاوية في غرز غيّ لا يزال فيه إلى يوم القيامة، قال الحسن: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم، ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة[١].

قال محمد بن مروان السعيدي: أنبأنا محمد بن أحمد بن سليمان الخزاعى، عن أبيه، عن جده، عن محمد بن الحكم عن أبى عوانة، قال: كان معاوية يعطى عبد الله بن جعفر كل عام ألف ألف درهم، فلما وفد على يزيد، أعطاه ألفى ألف، فقال عبد الله ليزيد: بأبى أنت وأمى، فأمر له بألف ألف أخرى، فقال له عبد الله: والله، لا أجمعهما لأحد بعدك[٢].

حدثنا محمد بن بشار بندار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عوف الأعرابى، حدثنا مهاجر أبو مخلد، حدثنى أبو العالية، حدثنى أبو مسلم، قال: قال أبو الدرداء: سمعت النبى ﷺ يقول: « أول من يبدل سنتى رجل من بنى أمية يقال له يزيد » أخرجه الرويانى فى مسنده عن بندار. وفى رواية عن الأوزاعى، عن مكحول، عن أبى عبيدة، قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يزال أمر أمتى قائمًا بالقسط حتى يكون أول من يثلمه رجل من بنى أمية، يقال له يزيد »[٣].

وقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب، قال رجل: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد أقمت عنده، فرأيته مواظبًا للصلاة متحريا للخير يسأل عن الفقه، قال: كان ذلك منه تصنعًا لك ورياء[٤].

وقال الزبير بن بكار فى أنساب قريش: أنشدنى عمى ليزيد قوله: [من المديد]

آبَ هَـذَا الـهَـمُّ فَـاكْـتَـنَـعَـا ... وَأَمَـرَّ الـنَّـوْم فَـامْـتَـنَـعَـا

(١) ينظر تاريخ الإسلام وفيات سنة أربع وستين (ص٢٧٢).
(٢) ينظر المصدر السابق (ص٢٧٢-٢٧٣).
(٣) اللفظ الثاني أخرجه أبو يعلى (٨٧٠، ٨٧١) وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٤٤) وقال: رواه أبو يعلى والبزار ورجال أبي يعلى رجال الصحيح إلا أن مكحولا لم يدرك أبا عبيدة وذكره الحافظ في المطالب (٤٥٣٢) وعزاه لأحمد بن منيع والحارث وأبي يعلى قال الحافظ: رجاله ثقات إلا أنه منقطع.
وأخرجه أيضا البزار (١٦١٩) من طريق مكحول عن أبي ثعلبة الخشني عن أبي عبيدة به وسنده ضعيف.
(٤) ينظر البداية والنهاية (٨/ ٢٥٥).

راعـيًـا لـلـنـجـم أرقـبُـهُ فَـإذا مـا كـوْكَـبٌ طَـلَـعَـا
حـام حـتَّـى إنَّـنِـى لَأَرَىٰ أنـه بـالـغَـوْر قـد وَقَـعَـا
ولـهـا بـالـمـاطِـرُون[1] إذَا أَكَـلَ الـنَّـمْـلُ الَّـذِى جَـمَـعَـا
خـرفـةٌ حـتَّـىٰ إذا ربـعَـتْ نـزلَـتْ مـن جِـلَّـقٍ بِـيَـعَـا[2]
فـى قـبـابٍ وَسْـطَ دسـكـرةٍ حَـوْلَـهَـا الزيـتـونُ قـد يـنَـعَـا[3]

قلت: هذه الأبيات من قصيدة له فى نصرانية تعشَّقها، وافتتَن بها، لعنه الله وإياها، وأساء عقباه وعقباها.

ومن شعره فى الخمر: [من الطويل]

أقولُ لصَحْبٍ ضَمَّتِ الكَأْسُ شَمْلَهُمْ وَدَاعِى صَبَابَاتِ الهَوَىٰ يَتَرَنَّمُ
خُذُوا بنَصِيبٍ مِنْ نَعِيمٍ وَلَذَّةٍ فكُلٌّ وَإِنْ طَالَ المدَىٰ يَتَصَرَّمُ

ومن شعره أيضًا فيها: [من الطويل]

وَدَاعٍ دَعَـانِـى والـثُّـرَيَّـا كَـأَنَّـهَـا قلائصُ قد أعنقْنَ خَلْفَ فَنِيقِ
وقالَ: اغتنِمْ من دَهْرنا غَفلَاتِهِ فَعَقْدُ ذِمَامِ الدَّهْرِ غَيْرُ وَثِيقِ
ونـاولَـنِـى كَـأْسًـا كَـأَنَّ بـنـانَـهُ مـخـضَّـبـةٌ مِـنْ لَـوْنِـهَـا بِـخَـلُـوقِ
إذا ما طغَىٰ فيها الحَبَاءُ حسبتَهَا كَـوَاكِبَ دُرٍّ فى سَمَاءِ عَقِيقِ
تَدُبُّ دَبِيبَ النَّمْلِ فى كُلِّ مفصلٍ وتَكْسُو وجُوهَ الشَّرْبِ ثَوْبَ شَقِيقِ
وإنِّىَ مِنْ لَذَّاتِ دَهْرِى لقانعٌ بحلْوِ حَدِيثٍ أَوْ بِمُرٍّ عتيقِ
هَمَا مَا هُمَا لَمْ يَبْقَ شيءٌ سِوَاهُمَا حَدِيثُ صَدِيقٍ أَوْ عَتِيقُ رَحِيقِ

ومما ينسب إليه يخاطب أباه معاوية عند نهيه إياه عن شرب الخمر قوله: [من الطويل]

أَمِنْ شَرْبَةٍ من ماءِ كَرْمٍ شَرِبْتُهَا غضبْتَ عليَّ الآنَ طابَ لى السُّكْرُ
سأشرَبُ فاغضَبْ لا رَضِيتَ كلاهما حبيبٌ إلى قَلْبِى عُقُوقُكَ والخَمْرُ

---

(١) الماطرون: موضع بالشام قرب دمشق. ينظر المراصد (٣/ ١٢٢١).
(٢) يروى هذا البيت في البداية والنهاية:
نـزهـة حـتـى إذا بـلـغـت نـزلـت مـن جـلّـق تـبـعـا.
(٣) ينظر البداية والنهاية (٨/ ٢٥٦-٢٥٧) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢٧٤-٢٧٥) حوادث سنة ٦١-٨٠هـ.

توفى كما تقدم فى ربيع الأول سنة أربع وستين، وله تسع وثلاثون سنة، وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر، ودفن بحوَّارين من أرض دمشق بمقبرة باب الصقر، وفيه يقول القائل: [من الرجز]

يـاأَيُّـهَـا الـقَـبْـرُ بِـحَـوَّارِيـنَـا ضَمَمْتَ شَرَّ الناسِ أَجْمَعِينَا

ورثاه شاعرهم الأخطل بقوله: [من الطويل]

لَعَمْرِيَ قَدْ دَلَّى إلى اللَّحْدِ خَالدٌ جَنَازَةَ لاَ نِكْسِ الفُؤَادِ ولا غمرِ

مُقِيمٌ بحوَّارِينَ لَيْسَ يَرِيمهَا سَقَتْكَ الغَوَادِي مِنْ ثَرِيٍّ ومن قَبْرِ

قال فى « الإشاعة لأشراط الساعة » فى الباب الأول، وهو فى الأمارات البعيدة التى ظهرت وانقضت، وهى كثيرة، إلى أن قال:

ومنها ملك بنى أمية يزيد ومن بعده، المشتمل على الفتَن العظام؛ كقطع الليل المظلم.

وعن عمران بن الحصين - رضى الله عنه - قال: أبغض الناس إلى رسول الله ﷺ بنو أمية، وثقيف، وبنو حنيفة.

وعن أبى ذر - رضى الله تعالى عنه -: إذا بلغت بنو العاص أربعين رجلاً، اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولاً، وكتاب الله دخلاً.

وعن على - رضى الله تعالى عنه - قال: لكل أمة آفة، وآفة هذه الأمة بنو أمية(١).

وعن عمرو بن مرة الجهنى، قال: استأذن الحَكَمُ بن أبى العاص على رسول الله ﷺ، فعرف صوته، فقال: « ائذنوا له حية ولد حية، لعنة الله عليه وعلى كل من يخرج من صلبه، إلا المؤمن منهم، وقليل ما هم ».

قلت: وهذا الاستثناء إشارة إلى عمر بن عبد العزيز، ومعاوية بن يزيد، ويزيد الناقص، والصالحِ منهم.

وعن ابن عمر: هجَّرْتُ الرواح إلى النبى ﷺ، فجاء أبو الحسن - رضى الله عنه - فقال له - عليه الصلاة والسلام -: « ادنُ »، فلم يزل يدنيه حتى التقم أذنه، فبينما هو يسارُّهُ إذ رفع رأسه كالفزع، فإذا قارع يقرع بسيفه الباب، فقال - عليه الصلاة والسلام - لعلى: « اذهب فقده كما تقاد الشاة إلى حالبها »، فإذا على -

(١) قال ابن القيم في المنار (ص١١٧): وكل حديث في ذم بني أمية فهو كذب.

كرم الله وجهه - يدخل الحكم بن أبى العاص آخذًا بأذنه، ولها زنمة حتى أوقفه بين يديه - عليه الصلاة والسلام - فلعنه نبى الله ثلاثًا، ثم قال: أجلسه ناحية، حتى راح إليه قوم من المهاجرين والأنصار، ثم دعاه فلعنه، ثم قال: « إن هذا سيخالف كتاب الله وسنة نبيه، وسيخرج من صلبه فتن يبلغ دخانها السماء »، فقال ناس من القوم: هو أقلُّ وأذلُّ من ذلك، فقال ﷺ: « بلى وبعضكم يومئذ شيعته ».

ثم إنه - عليه الصلاة والسلام - نفاه إلى الطائف، ولم يرده أبو بكر ولا عمر، ورده عثمان حين ولى الخلافة، وكان رده أحد الأمور التى نقمت عليه، رضى الله تعالى عنه.

قلت: وقد ذكرت ذلك وجوابه فيما تقدم فى ترجمة عثمان، رضى الله عنه.

ومن الفتن التى وقعت فى زمن يزيد قتل الحسين، ووقعة الحرة، وخراب المدينة بعد الحرة، ورمى الكعبة بالمنجنيق.

ومنها فى زمن بنى مروان قتل ابن الزبير، وهدم الكعبة، بعد رميها بالمنجنيق أيضًا، وتولية الحجاج، وأنه قتل مائة وأربعة وعشرين ألف نفس حرامًا صبرًا، سوى ما قتله فى المحاربات، ووجد فى حبسه ثمانون ألفًا منهم ثلاثون ألف امرأة، وكان حبسه مبلطًا لا سقف له؛ ليتأذوا بالحر والبرد، وكان حبسه من حبسه ظلمًا صرفًا وهوى نفس، حتى إنه وجد فيه من حبس لبولة بالها فى جنب سور واسط البلد التى اختطَّها الحجاج.

ومنها: قتل زيد بن على بن الحسين، وصلبه، وإحراقه بالنار، وقتل ولده يحيى فى زمانهم، وشربهم الخمر، وصلاتهم بالناس سكارى، وتقديم الجوارى فى المحراب للصلاة بالناس، وغير ذلك من أنواع القبائح.

بل نقل العلامة السيوطى فى تاريخه للخلفاء(1)؛ أن الوليد بن يزيد عزم على الحج؛ لأجل أن يشرب الخمر فوق الكعبة، فقتل قبل أن يبلغ مراده.

وعن المسور بن مخرمة قال: قال عمر بن الخطاب لعبد الرحمن بن عوف: ألم يكن فيما تقرءونه: قاتلوا فى الله آخر مرة كما قاتلتم أول مرة قال: متى ذاك ؟ قال: إذا كانت بنو أمية الأمراء، وبنو مخزوم الوزراء. رواه الخطيب البغدادى، فكانت

---

(١) ينظر تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص٢٠١).

دولتهم لمفاسد كثيرة ومظالم لا تعدُّ ولا تحصى. . . إلى أن قال: وأما بنو يزيد وبنو الحكم، فهم ملعونون على لسان النبى ﷺ؛ ولذا قال الإمام أحمد بن حنبل، حين سأله ابنه عن لعن يزيد ؟ فقال الإمام: إن الله تعالى يقول: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ . . .﴾ الآية [محمد: ٢٢، ٢٣] وأى فساد وقطيعة أشد مما فعله يزيد يا بنى.

وفى تاريخ أبى مخرمة المسمى: « قلادة النحر »، عن الشيخ نصر بن مجلى، وكان من الثقات العباد الصالحين، قال: رأيت على بن أبى طالب فى المنام، فقلت: يا أمير المؤمنين، تفتحون مكة، وتقولون: من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ثم يتم على ولدك الحسين ما تم، فقال لى: أما سمعت أبيات ابن صيفى فى هذا ؟ قلت: لا، قال: اسمعها منه، ثم انتبهت فبادرت إلى دار ابن الصيفى، فذكرت له الرؤيا، فشهق وبكى، وحلف بالله إنها لم تخرج من فيه ولا من خطه إلى أحد، وما نظمها إلا فى ليلته، ثم أنشدنى: [من الطويل]

مَلَكْنَا وكَانَ العفوُ منا سجيَّةً فلما ملكْتُمْ سَالَ بالدَّمِ أبطَحُ
وَحَلَّلْتُمْ قَتْلَ الأسَارَىٰ وطَالَمَا غَدَوْنَا مِنَ الأَسْرَىٰ نَمُنُّ ونَصْفَحُ
وَحَسْبُكُمُ هَذَا التَّفَاوُتُ بَيْنَنَا فكُلُّ إِنَاءٍ بالَّذِى فِيهِ يَنْضَحُ

قلت: اسم ابن الصيفى: سعيد بن محمد أبو الفوارس التميمى، شاعر مشهور، وهو الملقب بحيص بيص، توفى سنة أربع وسبعين وخمسمائةفى القرن السادس.

قال العلامة الدميرى فى « حياة الحيوان »(١): سئل الإمام أبو الحسن عماد الدين على بن محمد الملقب بالكيا الهراسى من رءوس معيدى إمام الحرمين، عن يزيد بن معاوية . هل هو من الصحابة، وهل يجوز لعنه أم لا ؟ فأجاب: إنه لم يكن من الصحابة؛ لأنه ولد فى زمن عثمان، وأما جواز لعنه: ففيه لكل واحد من الإمام أبى حنيفة ومالك وأحمد قولان: تصريحٌ وتلويحٌ، ولنا قول واحد: التصريح دون التلويح، وكيف لا يكون ذلك، وهو المتصيد بالفهد، واللاعب بالنرد، والمدمن على الخمر. وكتب فصلاً طويلاً أضربنا عن ذكره.

ثم قال: ولو مددت ببياض، لأطلقت العنان، وبسطت الكلام فى مخازى هذا الرجل.

---

(١) ينظر حياة الحيوان للدميرى (٢/ ٢٦٦).

هذا وأما الغزالى فقد أفتى فى هذه المسألة بخلاف ما أفتى به الكيّا، وبسط الكلام فى ذلك.

قال العلامة محمد بن مصطفى كاتى فى تاريخه المسمى: « بغية الخاطر، ونزهة الناظر »: كان ليزيد بن معاوية قرد سماه أبا قيس كان يركبه فوق حمار بسرج فى المواكب، وله زى كزى راكبى الخيل من العمامة والكسوة ويجلسه فى مجالس أنسه، وكان لهذا القرد من الفطنة وإدارك الأمور ما لا يدرك، فأركب مرة على حمار وحشيٍّ، ففرت به، فأنشد يزيد يقول: [من الطويل]

تَمَسَّكْ أَبَا قَيْسٍ بِفَضْلِ عِنَانِهِ فَلَيْسَ عَلَيْهِ إِنْ هَلَكْتَ ضَمَانُ

وبويع بعده ابنه معاوية، فمكث ثلاثة أشهر، ثم خطب الناس، وقال: إنى ضعيف عن أمركم، وطلبت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر، فلم أجده، فطلبت ستة مثل أهل الشورى، فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم؛ اختاروا له، ودخل منزله، فمات يقال: مسمومًا، وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، وهلك ليومه بالطاعون. وقيل: إن معاوية بن يزيد أوصى الضحاك بن قيس أن يصلى بالناس حتى تجمع الناس على إمام.

قال العلامة ابن السبكى: إن معاوية بن يزيد بن معاوية لما خلع نفسه، صعد المنبر، فجلس طويلاً، ثم حمد الله وأثنى عليه، بأبلغ ما يكون من الحمد والثناء، ثم ذكر النبى ﷺ بأحسن ما يذكر به، ثم قال: أيها الناس، ما أنا بالراغب فى الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم، وإنى أعلم أنكم تكرهونا - أيضًا - لأنا بلينا بكم وبليتم بنا، إلا أن جدى معاوية نازع هذا الأمر من كان أولى به منه ومن غيره، لقرابته من رسول الله ﷺ، وعظيم فضله وسابقيته، أعظم المهاجرين قدرًا، وأشجعهم قلبًا، وأكثرهم علمًا، وأولهم إيمانًا، وأشرفهم منزلة، وأقدمهم صحبة، ابن عم رسول الله ﷺ، وصهره، وأخوه، زوجه ابنته - رضى الله تعالى عنها - وجعله لها بعلاً، باختياره لها، وجعلها له زوجة باختيارها له، أبو سبطيه سيدَيْ شباب أهل الجنة، وأفضل هذه الأمة، تربية الرسول، وابنا فاطمة البتول - رضى الله تعالى عنها - حتى انتظمت لجدى معاوية الأمور، فلما جاءه القدر المحتوم، واخترمته أيدى المنون، بقى مرتهنًا بعمله، فريدًا فى قبره، ووجد ما قدمت يداه،

فرأى ما ارتكبه واعتداه.

ثم انتقلت الخلافة فى أبى يزيد، فتقلد أمركم لهوى كان أبوه هويه فيه، ولقد كان أبى يزيد بسوء فعله وإسرافه على نفسه غَيْرَ خليق بالخلافة على أمة محمد ﷺ، فركب هواه، واستحسن خطاه، وأقدم على ما قدم من جرأته على الله تعالى، وبغيه على من استحل حرمته من أولاد رسول الله ﷺ، فقلَّتْ مدته، وانقطع أثره، وضاجع عمله، وصار حليف حفرته، رهين خطيئته، وبقيت أوزاره وتبعاته، فهل عوقب بإساءته وجوزى بعمله ؟! وذلك ظنى. ثم اختنقته العبرة، فبكى طويلاً، وعلا نحيبه، وحمد الله، ثم قال: وصرت أنا ثالث القوم، والساخطُ عليَّ أكثر من الراضى، وما كنت لأتحمل آثامكم، ولا يرانى الله جلت قدرته متقلدًا أوزاركم، وألقاه بتبعاتكم، فشأنكم وأمركم، فخذوه، ومن رضيتم به عليكم فولوه، فلقد خلعت بيعتى من أعناقكم، والسلام.

فقال له مروان بن الحكم، وكان تحت المنبر: أسنة عمريَّةٌ يا أبا ليلى ؟ فقال: اغدُ عنى، أعن دينى تخدعونى، فوالله ما ذقت حلاوة خلافتكم، فأتجرع مرارتها، ائتنى برجال مثل رجال عمر، على أنه كان حين جعلها شورى وصرفها عمن لا يشك فى عدالته ظلومًا. والله، لئن كانت الخلافة مغنمًا، لقد نال أبى معها مغرمًا ومأثمًا، ولئن كانت شرًّا، فحسبه منها ما أصابه.

ثم نزل، فدخل عليه أقاربه وأمه، فوجدوه يبكى، فقالت له أمه: ليتك كنت حيضة، ولم أسمع بخبرك، فقال: وددت والله ذلك، ثم قال: ويلى إن لم يرحمنى ربى.

ثم إن بنى أمية قالوا لمؤدبه القصوص: أنت علمته هذا، ولقنته إياه، وصددته عن الخلافة، وزينت له حب على وأولاده - رضى الله تعالى عنهم - وحملته على ما وَسَمَنَا به من الظلم، وحسنت له البدع حتى نطق بما نطق، وقال ما قال !! فقال: والله ما فعلته، ولكنه مجبولٌ ومطبوعٌ على حب على وأولاده - رضى الله عنهم - فلم يقبلوا منه ذلك، وأخذوه ودفنوه حيًا حتى مات، رحمه الله.

وتوفى معاوية - رضى الله تعالى عنه - بعد خلعه نفسه بأربعين ليلة - رحمه الله تعالى - وهو المسمى: معاوية الأصغر، وقيل بعد الخلع بتسعين ليلة، وكان عمره ثلاثًا

وعشرين سنة، وقيل: إحدى وعشرين، وقيل: ثمان عشرة، ويقال: إنه لما احتضر، قيل له: ألا تستخلف ؟! فأبى، وقال: ما أصبت من حلاوتها، فلمَ أتحمل مرارتها.

ولم يعقب، رحمة الله عليه ورضوانه(١).

إظهار ابن الزبير للبيعة(٢)

ولما هلك يزيد، بلغ الخبر إلى عبد الله بن الزبير بمكة قبل أن يعلم الحصين بن نمير ومن معه، وكان حصارهم قد اشتد، فناداهم ابن الزبير وأهل مكة: علام تقاتلون، وقد هلك صاحبكم ؟! فلم يصدقوه. فلما بلغ الخبر الحصين، بعث إلى ابن الزبير، وواعده الأبطح ليلاً، فالتقيا، فقال له الحصين: هلم نبايعك، فأنتَ أحقُّ، وهذا الجند الذى معى هم وجوهُ أهْلِ الشام وفرسانُهُمْ، واخرج معنا، فلا يختلف عليك اثنان على أن تؤمن الناس وتهدر لهم ما أصابوا من الدماء، فأبى من إهدارها، وكان الحصين يكلِّمه سرًا، وهو يجهر، ويقول: والله لا أفعل، فقال الحصين: قَبَّحَ الله من يَعُدُّكَ بعدها داهية، ثم ارتحل إلى المدينة، وراجع ابن الزبير رأيه، فأرسل إليه: لا أسير إلى الشام، ولكن بايعوا لى هناك وأنا مؤمنكم، فقال الحصين: لا يتمُّ إلا بحضورك، فهناك بنو أمية يطلبون الأمر، ومَرَّ الحصين بالمدينة، فكانوا يتخوفون عسكره، وهم حذرون منهم إلى أن بعدوا. ثم وصلوا دمشق.

انتقاض أمر ابن زياد ورجوعه إلى الشام

لما جاء الخبر إلى ابن زياد بالبصرة بمهلك يزيد بن معاوية، ثم معاوية ابنه، واختلاف الناس بالشام، جمع الناس، فخطب ونعى يزيد وثلبه، فنهاه الأحنف، ثم

---

(١) ينظر تاريخ خليفة (٢٥٥) تاريخ الطبري (٥/ ٤٩٩-٥٠٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٣٩) البداية والنهاية (٨/ ٢٦٠-٢٦٢) تاريخ الخلفاء (ص١٦٨).

(٢) ينظر: البدء والتاريخ ٦/ ١٨، مجالس ثعلب ٨/ ٣٢، نهاية الأرب ٢١/ ٨٠، مرآة الجنان ١/ ١٤٨، شذرات الذهب ١/ ٤٢، العقد الثمين ٥/ ١٤١، خلاصة تهذيب التهذيب ١٩٧، فوات الوفيات ٢/ ١٧١، تاريخ الخلفاء ٢١١، تقريب التهذيب ١/ ٤١٥، البداية والنهاية ٨/ ٣٣٢، الوافى بالوفيات ١٧/ ١٧٢، تهذيب الكمال ١٤/ ٥٠٨، وفيات الأعيان ٣/ ٧١، سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٦٣، حلية الأولياء ١/ ٣٢٩، غاية النهاية ١/ ٤١٩، الإصابة ٢/ ٣٠٩، أسد الغابة ٣/ ١٦١، المعرفة والتاريخ ٣/ ٦٣٥ .

تلطف لأهل البصرة، وقرر وسائله إليهم بالمهاجرة والمولد وحسن الآثار فى الجباية والعسكر وإصلاح السابلة وكف الأذى، وأعلمهم باختلاف الناس بالشام بعد يزيد، وقال: أنتم أعز الناس وأغناهم عن الناس وأوسعهم بلادًا، فاختاروا من تولون، وأنا أول راض به، فقال أهل البصرة: هلمَّ فلنبايعك، فأبى، ثم ألحوا عليه ثلاثًا، فأجاب وبايعوه، ثم انصرفوا، وتناجوا ومسحوا أيديهم بالحيطان، وقالوا: يظن ابن مرجانة أن ننقاد له فى الجماعة والفرقة. ولما بايعوه، أرسل إلى أهل الكوفة يعلمهم ببيعة أهل البصرة ويدعوهم إليها، وكان خليفته على الكوفة عمرو بن حريث، فجمع الناس وذكر لهم رسوله ذلك، فقام يزيد بن الحارث بن رويم الشيبانى، فقال: الحمد لله الذى أراحنا من ابن سميّة لا نبايعه وحَصَبَهُ، ثم تبعه الناس وحصبوه، ورجع بالخبر إلى ابن زياد، فبدا لأهل البصرة فى بيعته وضعف سلطانه، وأقام لاتنفذ أوامره، ويحال بين أعوانه وبين الخصوم إذا سحبوهم، ثم جاء إلى البصرة سلمة بن ذؤيب التميمى الحضرمى، فنصب لواء فى السوق، ودعا لابن الزبير، فبايعه ناس، وأتى الخبر ابن زياد، فجمع الناس، فقال: بلغنى أنكم مسحتم أيديكم بالحيطان، وقلتم ما قلتم، وأنا الآن ترد أوامرى، ويحال بين أعوانى وبين طلبى، هذا سلمة بن ذؤيب يدعوكم إلى الخلاف فيجيبه منكم مجيبون.

فقال الأحنف: والله، نحن نأتيك بسلمة، فخرجوا ليأتوا به، فإذا جمعه قد كثف والخرق قد اتسع، فبعدوا عن ابن زياد، ولم يرجعوا إليه، فدعا مقاتلة السلطان ليقاتلوا معه، فقالوا: إن أذن قوادنا فى ذلك، وقال إخوته وأصحابه: ليس لنا خليفة نقاتل عنه، وإن كانت علينا هلكنا، وهلكت أموالنا، فعند ذلك أرسل إلى الحارث ابن قيس من بنى جهضم ابن خزيمة بن مالك بن فهم من الأزد، وقال: إن أبى أوصانى بك إن أصابنى الدهر بشىء. فعدَّد عليه قلة المكافأة منه ومن أبيه، وأقام عنده إلى الليل، ثم أردفه خلفه وخرج به. وفرق ابن زياد على مواليه الكثير مما كان فى بيت المال وهو تسعة عشر ألف ألف مرتين. وسير به الحارث والناس يتحارسون خوفًا من الحرورية، ويمر بالناس فيسألونه، فيقول: أنا الحارث بن قيس، إلى أن أنزله بداره فى الجهاضم، فأثنى عليه ابن زياد، وقال: اذهب بنا إلى مسعود بن عمرو؛ فقد علمت شرفه فى الأزد وطاعتهم له؛ فأكون فى داره وإلا فرّق عليك أمر

قومك، فجاء إلى مسعود، فتطير من ابن زياد، ومازال الحارث يلاطفه حتى سكن، وقال له: أفتخرجه من بيتك بعد ما دخله؟! فجعله فى بيت أخيه عبد الغافر بن عمرو، ثم ركب هو والحارث وجماعة من قومه، وطافوا فى الأزد، وقالوا لهم: ابن زياد فُقِدَ ولا نأمن أن يتهمونا به، فأصبحوا بالسلاح.

وقيل: إن الحارث لم يلق مسعود بن عمرو، وإنما جاء بعبيد الله ومعه مائة ألف، وأتى بها امرأة مسعود، فطلب منها الجوار لابن زياد بأن تلبسه ثياب مسعود، فلما جاء مسعود تلطَّفوا به حتى رضى، وأصبح الناس فى البصرة بغير أمير، ثم رفعوا رأيهم إلى قيس بن الهيثم السلمى، وكان أمويًا، وإلى النعمان بن سفيان الراسبى، وكان هاشميًا يؤمران عليهم من يختارانه، فقدم النعمان عليهم عبد الله بن الحارث ابن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، ويلقب بَبَّهُ، فرضيه الناس وبايعوه، وأنزلوه بدار الإمارة فى جمادى الآخرة سنة أربع وستين.

ثم أنفق ابن زياد أموالاً فى جمع ربيعة والأزد، واتفقوا على أن يرد ابن زياد إلى إمارته، وركبوا لذلك، ورئيسهم مسعود بن عمرو، ورئيس ربيعة مالك بن مسمع، وتركوا ابن زياد فى حيهم، وبعث مواليه معهم، وجاء مسعود فدخل المسجد وصعد المنبر، وأخبر الأمير عبد الله بن الحارث بذلك، وقيل له: اركب فى بنى تميم، وأصلح بين الناس، فأبى.

وجاء بنو تميم إلى الأحنف ليركبوه فتعلل ولم يركب، ثم أركب عباد بن حصين فى بنى عمرو بنى تميم، وعيسى بن طلق بن سعيد بن زيد مناة، ومسعود يخطب فاستنزلوه وقتلوه، ثم قتلوا مالك بن مسمع ببيته، وهرب عبيد الله بن زياد فلحق بالشام، ولزم عبد الله بن الحارث بيته.

وكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير، فكتب إلى أنس بن مالك يصلى بالناس حتى بعث عمر بن عبيد الله بن معمر بعد ثلاثة أشهر، فحبس عبد الله بن الحارث، فأقام عمرو فى ولايتها شهرًا، ثم جاءه الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى من قبل ابن الزبير، ويلقب القباع، وفى أيامه سار نافع بن الأزرق من البصرة إلى الأهواز.

وأما الكوفة، فلما طرد يزيد بن الحارث بن رويم رسول ابن زياد، اجتمع أهل

الكوفة على عمر بن سعد بن أبى وقاص، ثم عزلوه، واجتمعوا على عامر بن مسعود ابن أمية بن خلف بن حذافة الجمحى، وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير، فأقره وأقام عاملاً على الكوفة. وبلغه انتقاض أهل الري؛ فبعث محمد بن عمير بن عطارد التميمى، فهزمه أهل الرى، فبعث إليهم عتاب بن ورقاء التميمى، فهزمهم، وقتل أميرهم الصرحان، ثم قدم الكوفة من قبل ابن الزبير عبد الله بن زيد الخطمى على الصلاة، وإبراهيم بن طلحة على الخراج، واستعمل محمد بن الأشعث بن قيس على الموصل، فاجتمع لابن الزبير أهل البصرة وأهل الكوفة ومَنْ بالقبلة من العرب، وأهل الجزيرة وأهل الشام إلا أهل الأردن.

بيعة مروان(١)، ووقعة مرج راهط(٢)

ولما بويع ابن الزبير بمكة بيعته الظاهرة، ولى على مصر عبد الرحمن بن جحدر الفهرى، وعلى المدينة عبيد الله بن الزبير، وأخرج بنى أمية فلحقوا بالشام، وفيهم مروان بن الحكم، وأقام هناك، فمر به الحصين بن نمير مرجعه من مكة بعد موت يزيد، فأخبره بما دار بينه وبين ابن الزبير، وحرض بنى أمية على طلب الأمر، وكان رأى مروان أن يسير إلى ابن الزبير فيبايع له بالخلافة، فقدم ابن زياد من العراق حين انتقضوا عليه، وأخرجوه، فسفه رأى مروان فى ذلك، وحثه على طلب الأمر لنفسه، فقام لذلك وسار إلى دمشق، والضحاك بن قيس يومئذ قد بايعه أهلها على الصلاة بهم، حتى يجتمع الناس على إمام، وهو مع ابن الزبير، وهو يدعو له فى السر، وزفر بن الحارث الكلابى بِقِنِسرينَ على مثل رأيه، والنعمان بن بشير بحمص

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٥/ ٥٣٠) وما بعدها، و(٦١٠)، ومروج الذهب (٣/ ٢٨٥)، والكامل (٤/ ١٩١)، الحلة السيراء (١/ ٢٨)، البداية والنهاية (٨/ ٢٣٩، ٢٥٧)، النجوم الزاهرة (١/ ١٦٤، ١٦٩) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٧٦) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٥)، نسب قريش (١٥٩، ١٦٠)، طبقات خليفة (ت١٩٨٤)، المحبر (٢٢، ٥٥، ٥٨، ٢٢٨، ٣٧٧)، التاريخ الكبير (٧/ ٣٦٨) الجرح والتعديل (٨/ ٢٧١) جمهرة أنساب العرب (٨٧)، الاستيعاب (١٣٨٧) الجمع بين رجال الصحيحين (٢/ ٥٠١)، أسد الغابة (٥/ ١٤٤)، تهذيب الكمال (١٣١٥).

(٢) موقعة مرج راهط، ينظر تاريخ الطبرى (٥/ ٥٣٥-٥٤٤) تاريخ خليفة (ص١٩٩-٢٠٠) مروج الذهب (٣/ ٩٥-٩٧) وتاريخ الإسلام حوادث سنة أربع وستين والبداية والنهاية (٨/ ٢٦٥-٢٦٧).

كذلك، وكان بفلسطين حسان بن مالك بن بحدل الكلبى عامل معاوية، وابنه وهواه فى بنى أمية، فسار إلى الأردن واستخلف على فلسطين رَوْح بن زنباع، فأخرجه نائل ابن قيس وبايع لابن الزبير، وبايع أهل الأردن حسان بن مالك على أن يجنبهم بيعة خالد، وعبد الله ابنى يزيد لصغرهما، وكتب حسان إلى الضحاك يعظم حق بنى أمية، ويذم ابن الزبير بالفتنة، وخلع الأئمة، وكتب مع الرسول نسخة كتابه، وقال: إن لم يقرأ الضحاك على الناس؛ وإلا فاقرأ أنت هذا عليهم، فلما دفع الكتاب إلى الضحاك، حبسه وصعد المنبر، فلم يقرأه، فقرأ الرسول نسخته على الناس، فاضطربوا بين مصدق لحسان ومكذب، وتشاتموا ثم سكتوا، وقضى الضحاك صلاة الجمعة ودخل القصر، ثم خرج إلى المسجد واختلف قبائل قيس وكلب، قيس تدعو لابن الزبير ونصرة الضحاك، وكلب تدعو إلى بنى أمية وهم أخوال عبد الله وخالد ابنى يزيد، فاقتتلوا ثم افترقوا من يومهم.

وبعث الضحاك إلى بنى أمية يعتذر إليهم، ويواعدهم الاجتماع بحسان بن بحدل بالجابية، وكتبوا إليه جميعًا بذلك، وساروا نحو الجابية، ثم ثناه ثور بن معن السلمى عن رأيه فى ذلك خشية أن يميل حسان إلى ابن أختهم خالد بن يزيد، وأشار إليه بالدعاء لابن الزبير، فخرج الضحاك ونزل بمَرْج راهط، واجتمع بنو أمية وحسان بالجابية، وأقام يصلِّى بهم أربعين يومًا، وهم يشتورون، وأشار مالك بن هبيرة السكونى على الحصين بن نمير ببيعة خالد؛ لأن أباه يزيد ابن أختهم، فأبى حصين، وقال: تأتينا العرب بشيخ، ونأتيها بصبى؟! فقال مالك: والله لئن ولى مروان، لتكونُنَّ عَبِيدًا له ولقومه؛ فإنه أبو عشرة، وأخو عشرة، وعم عشرة، ثم قام رَوْح بن زنباع، فخطب الناس، وذكر فضل ابن عمر وسابقيته وأشار إلى ضعفه، ثم ذكر ابن الزبير، وأثنى عليه بأبيه وأمه، ثم ذكر دخوله فى الفتنة وسفك الدماء وشق العصا وخلع الأئمة، ومثل هذا لايكون إمامًا، فعليكم بمروان بن الحكم؛ فلا يكون صدعٌ إلا شعبه، ولا تعدلوا عن الكبير إلى الصغير.

ثم اجتمع رأيهم على البيعة لمروان، ثم لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص، على أن إمرة دمشق لعمرو، وإمرة حمص لخالد، وقال حسان لخالد: إن الناس أبوك لصغرك، وما أريد إلا أهل بيتك لكن فعلته؛ نظرًا لكم.

ثم بايعوا مروان أول ذى القعدة سنة أربع وستين، وسار الناس من الجابية إلى الضحاك، وقد بعث النعمان بن بشير بحمص، فأمده بشرحبيل بن ذى الكلاع، وأمده زفر بن الحارث بأهل قنسرين، وقاتل ابن قيس بأهل فلسطين، فاجتمع على مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون، وجعل على ميمنته: عمرو بن سعيد، وعلى ميسرته: عبيد الله بن زياد، وثار على الضحاك بدمشق يزيد بن أبى النمس الغسانى، وكان مختفيًا بها، فأخرج عنها عامله، وبايع لمروان، وأمده بالأموال والرجال والسلاح، واقتتل مروان والضحاك بمرج راهط عشرين ليلة وانهزم الضحاك، وقتله دحية بن عبد الله الكلبى، وقتل معه فى المعركة ثمانون من أشراف أهل الشام، واستحكمت قيس بالقتل، وكانت الوقعة آخر سنة أربع وستين، وقيل فى المحرم من سنة خمس، وأتى مروان برأس الضحاك فساءه، وبلغ خبر الهزيمة إلى النعمان بن بشير بحمص مع الفَلِّ؛ فخرج هاربًا بأهله وبنيه. فخرج فى طلبه عمرو بن الخلى الكلاعى، فقتله وجاء برأسه، وهرب زفر بن الحارث من قنسرين، فلحق بقرقيسياء، وعليها عياض الجرشى كان يزيد ولاه فخدعه وغلبه عليها وتحصَّن بها، واجتمعت إليه قيس، وهرب نائل بن قيس الجذامى عن فلسطين، ولحق بابن الزبير بمكة، واستعمل مروان بعده على فلسطين رَوْح بن زنباع، واستوسق[1] الشام لمروان، وتزوَّج أم خالد بن يزيد.

وقيل: إن عبيد الله بن زياد جاء لبنى أمية بتدمر، ومروان مجمع على المسير لابن الزبير، فثناه عن ذلك، وأخذ له البيعة على بنى أمية، وأهل تَدمُر، وساروا إلى الضحاك وهزموه.

فلما ملك مروان الشام، سار إلى مصر، وعليها عبد الرحمن بن جحدر الفهرى يدعو لابن الزبير، فخرج للقائه وبعث مروان عمرو بن سعيد. فخالف عبد الرحمن إلى مصر، فرجع وانتقض أمره، وبايع الناس مروان، وملك مصر ورجع إلى دمشق، فبلغه أن مصعب بن الزبير أقبل فى الجيوش، فبعث إليه عمرو بن سعيد، وحال بينه وبين الشام، وانهزم مصعب ورجع مروان إلى دمشق، فاستقر بها، وبعث عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة، وإذا فرغ منها، سار إلى العراق، وبعث حُبَيش بن

---

(١) استوسق له الأمر: أى أمكنه. ينظر الوسيط (وسق).

دلجة القَينى إلى المدينة وعليها جابر بن الأسود بن عوف لعبد الله بن الزبير، فهرب منه جابر، وبعث الحارث بن أبى ربيعة جيشًا من البصرة للقاء حبيش، فسار إليهم.

وبعث عبد الله بن الزبير عباس بن سهل بن سعد أميرًا على المدينة ويسير فى طلب حبيش حتى يوافى عسكر البصرة فيلحقهم بالربوة، وقتل حبيش واعتصم من عسكره بالمدينة خمسمائة فارس، فقتلهم عباس، وكان مع حبيش الحجاج وأبوه يوسف بن الحكم على جمل واحد، وكان عمرو بن سعيد لما رجع من قتال مصعب بفلسطين، أنهَىٰ عنه إلى مروان أنه يقول: الأمر إلىَّ من بعده، فشكا ذلك إلى حسان ابن بحدل، فقام فى الناس وقال: بلغنا أن رجالاً يتمنَّونَ أمانى، قوموا فبايعوا لعبد الملك وعبد العزيز، فبايعوا من عند آخرهم، وولى ابن الزبير أخاه عبيد الله على المدينة، ثم عزله وولى مصعبًا.

مفارقة الخوارج لابن الزبير

كان الخوارج عند استبداد ابن زياد عليهم بالكوفة ومسير العساكر من الشام إلى ابن الزبير، قال لهم نافع بن الأزرق منهم: سيروا بنا إلى ابن الزبير نجاهد معه إن كان على رأينا، وإلا ندافع عن البيت، فجاءوا إليه وقاتلوا معه أهل الشام، ثم أرادوا اختبار رأيه فيهم فسألوه، وقال: ائتونى من الغداة، وجمع أصحابه بالسلاح، فلما جاءوا من الغد ونظر إليهم، فقال لهم ابن الأزرق: إن الرجل مزمع خلافكم، ثم قال عبيدة بن هلال من الخوارج: إن الله بعث محمدًا ﷺ يدعو إلى الدين، فأجابه المسلمون، وعمل فيهم بكتاب الله حتى قبضه الله، واستخلف أبو بكر وعمر، فعملا بالكتاب والسنة، ثم استخلف عثمان، فحمى الحمى، وآثر القربَىٰ، ورفع الدرَّةَ، ووضع السوط، ومزق الكتاب، وضرب منكرى الجور، وآوى طريد الرسول، وضرب السابقين بالفضل، وحَرَمَهُمْ، وأخذ فىء الله الذى أفاء عليهم فقسمه فى فُسَّاق قريش ومُجَّان العرب، فسارت إليه طائفة فقتلوه، فنحن أولياؤهم، ومن ابن عفان وأوليائه بريئون، فما تقول أنت؟ فقال ابن الزبير: أما الذى ذكرتم به النبى ﷺ فهو فوقه، وأما ما ذكرتم به أبا بكر وعمر فقد وُفِّقتم وأصبتم، وأما الذى ذكرتم به عثمان، فلا أعلم أن أحدًا من خلق الله اليوم أعلم بعثمان وأمره مِنِّى: نقموا عليه واستعتبوه فلم يدع شيئًا إلا أعتبهم، ثم جاءوه بكتاب له يأمر بقتلهم يزعمون أنه

كتبه، فقال ماكتبته، وإن لم تكن بينة، حلفت لكم، فوالله ماجاءوا ببينة، ولا استحلفوه، ووثبوا عليه فقتلوه.

وأما ما عبتموه به، فليس كذلك، وأنا أشهدكم ومن حضر أنى ولىُّ عثمان بن عفان، وعدوٌّ أعدائه، قالوا: فبرىء الله منك، وتفرقوا.

فأقبل نافع بن الأزرق، وعبد الله بن صفار، وعبد الله بن إباض، وحنظلة بن نهيس، وبنو الماحوز عبد الله وعبيد الله والزبير، وكلهم من تميم حتى أتوا البصرة، وانطلق أبو طالوت من بكر بن وائل، وأبو فديك من قيس بن ثعلبة، وعطية بن الأسود من يشكر، فوثبوا مع أبى طالوت، ثم تركوه واجتمعوا على نجدة ابن عامر الحنفى، وكان من خبرهم ما يذكر عند ذكر الخوارج(١).

خروج سليمان بن صُرَدَ فى التوابين من الشيعة(٢)

لما قتل الحسين، ورجع ابن زياد إلى الكوفة، تلاوم الشيعة على ما أضاعوه من أمر الحسين، وأنهم ودعوه ولم ينصروه، فندموا، وقالوا: لا كفارة لذلك إلا قتل قاتليه أو الموت دون ذلك؛ كما قال الله لبنى إسرائيل: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٤]. واجتمعوا إلى خمسة نفر من رءوسهم سليمان بن صُرَد الخزاعى، وكانت له صحبة، والمسيب بن نجبة الفزارى، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدى، وعبد الله بن وال التيمى من تيم بكر، ورفاعة بن شداد البجلى، وكانوا من خيار أصحاب على، واجتمعوا فى منزل سليمان بن صرد، وتفاوضوا فى تلك الندامة، واعترفوا بذنبهم، واتفقوا على البيعة لسليمان بن صرد وطاعته، وأخرجوا من أموالهم النفقة على ذى الخلة من أشياعهم، وجعلوا قبض ذلك ونفقته لعبد الله ابن وال، وكتب سليمان إلى سعد بن حذيفة، وهو بالمدائن بما اعتزموا عليه، فقرأ الكتاب سعد على من هناك من الشيعة، وأجابوا بالموافقة والخروج عند الأجل الذى ضرب لهم، وكانوا يدعون إلى ذلك فى السر منذ مقتل الحسين، والناس يجيبونهم نفرًا بعد نفر.

ولما هلك يزيد، دعا بعضهم إلى الوثوب على عمرو بن حريث خليفة ابن زياد

---

(١) ينظر تاريخ الإسلام حوادث سنة أربع وستين.
(٢) ينظر البداية والنهاية (٨/ ٢٧١-٢٧٣).

على الكوفة، ثم رأوا أن الأمر لايستتبُّ لهم بذلك؛ لأن قتلة الحسين هم جماعة الكوفة، فأقصروا عن ذلك، ووثب الدعاة فى النواحى، واستجاب لهم الناس، ثم أخرج أهل الكوفة عمرو بن حريث، وبايعوا لابن الزبير، وقدم عبد الله بن يزيد الخطمى أميرًا على الكوفة من قبله فى رمضان سنة ثلاث وستين، ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج، والمختار بن أبى عبيد الثقفى، وبلغ إلى عبد الله بن يزيد الخطمى خبر سليمان وأصحابه التوابين، وأشير عليه بحبسهم، وخُوِّف عاقبة أمرهم، فقال: نحن تاركوهم ما تركونا، وهم يطلبون قتلة الحسين ولسنا منهم، ثم خطب بمثل ذلك، وقال: والله ماقتلنا حسينًا، ولقد أُصِبْنَا بمقتله، وهؤلاء القوم الذين رفع إلينا أمرهم آمنون، فيسيرون إلى قاتلى الحسين، وهو ابن زياد فها هو على جسر مَنْبج، وهو سائر إليكم، فسيروا إليه، وأنا ظهر لكم عليه، ولايقتل بعضكم بعضًا.

فقام إبراهيم بن محمد بن طلحة فقال: يأيها الناس، لاتغرنكم مقالة هذا المداهن، والله من خرج علينا لنقتلنه، ومن علمنا بخروجه، لنأخذن القريب بالقريب، والولى بالولى، والعريف بعرافته حتى يستقيم، فوثب عليه ابن نجبة وعبد الله بن وال وأساءوا إليه، ثم تشاتموا، وأنزل الأمير عن المنبر وخرج أصحاب سليمان يشترون السلاح ويتجهزون، والمختار يسفِّهُ رأيهم فى ذلك ويرى أنه أبصر منهم.

وكان سبب قدوم المختار الكوفة أن الشيعة كانت تسبُّ المختار بما كان منه من أمر الحسين وإشارته على عمه بالمدائن أن يقبض عليه لمعاوية، ولما جاء مسلم بن عقيل إلى الكوفة، نزل داره وبايعه ودعا، ثم جاء يوم خروجه من قريته بظاهر المدينة الكوفة، ففاته أمر ابن عقيل، ووقع فى يد ابن حريث فأمنه، ثم رفع عمارة بن الوليد أمره إلى عبيد الله، فاعتذر بأنه كان مع ابن حريث، وشهد له فضرب عبيد الله وجهه بقضيب شتر عينه وحبسه، حتى قتل الحسين فبعث إلى عبد الله بن عمر؛ أن يشفع فيه إلى ابن زياد، وكان زوج أخته صفية بنت أبى عبيد، فشفعه على ألاَّ يقيم بالكوفة، فخرج إلى الحجاز، وسأل فى طريقه عن ابن الزبير؟ فقيل: إنه عائذ بالبيت ومبايع سرًا، ولو كثر جمعه لظهر، فقال: هذه فتنة، واعتزم المختار على الطلب بدم الحسين من يومئذ.

وقدم إلى ابن الزبير، وأخبره خبر العراق، ودعاه إلى البيعة، فكتم أمره عنه، ففارقه وغاب بالطائف سنة، ثم رجع إلى مكة، ولم يأت ابنَ الزبير، وكان قد ظهر أمره، فدس عليه ابن الزبير عباس بن سهل بن سعد فلقيه وعذله عن تأخره عن ابن الزبير، فقال: كتم عنى وأرانى الاستغناء، فاستغنيت عنه، فحمله على لقائه معه، وحضر عند ابن الزبير ليلاً وقال: أبايعك على ألا تقضى أمرًا دونى، وأكون أول داخل، وتولينى أفضل عملك، فقال ابن الزبير: أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله، فقال: لا، فبايعه ابن الزبير على ما أحب، وشهد معه قتال الحصين بن نمير، وأبلى فيه.

فلما هلك يزيد، وأطاع أهل العراق ابن الزبير، فإذا هو لا يستعمله، وبلغه الخبر عن الشيعة بالكوفة، ففارق ابن الزبير إليهم، وقدم الكوفة، ونزل فى داره، واختلفت إليه الشيعة، وجاءه رءوس الناس من كندة وبنى هند، وأخبروه بخبر سليمان بن صرد وأصحابه، وأنهم على المسير، فقال: إن ابن الزبير بعثنى إليكم وأمرنى بقتال الملحدين والطلب بدم أهل البيت، والدفع عن الضعفاء فبايعوه، وبعث إلى الشيعة الذين عند سليمان بن صرد بمثل ذلك ودعاهم إلى طاعته واستمالهم عن سليمان، فمال إليه طائفة منهم، وخرج سليمان نحو الجزيرة لشأنه، وجاء الناس إلى الأمير عبد الله يزيد الخطمى، وصاحبه ابراهيم بن محمد بن طلحة، منهم: شبيب بن ربعى، ويزيد بن الحارث بن رويم، فقالوا لهما: إن المختار يريد أن يثب عليكم وهو أشد من سليمان وجاءوا به، فقال عبد الله: ما كنت لآخذ أحدًا على الظنة، وتولى إبراهيم أمره وحبسه، وقيل: إنما جاء المختار إلى الكوفة بأمر ابن الزبير، وإنه قال له: ابعثنى أستخرج لك جندًا من شيعة على تقاتل بهم أهل الشام، فبعثه حتى إذا اجتمع إليه الناس، وثب على ابن مطيع عامل ابن الزبير بالكوفة، وكتب إليه: إن ابن مطيع داهن، وراسل عبد الملك؛ فأخرجْهُ.

وأما سليمان بن صُرَدَ فخرج فى ربيع سنة خمس وستين، ونزل النخيلة، ثم استقبل عدد الناس، وأرسل من نادى فى الكوفة بثأر الحسين، فجاء بعض وتثاقل بعض، والمختار يثبطهم، وأقام بالنخيلة ثلاثًا، ثم سار فى أربعة آلاف ونادى فيهم: من أراد الدنيا ومتاعها فى الفئ والغنيمة فليرجع، وليس معنا إلا سيوفنا وزاد النقلة،

فوافقوه، ثم أشار بعضهم بالرجوع إلى الكوفة ومناجزة قتلة الحسين، فأكثرهم هنالك، فقال سليمان: إنما قتله الذى عَبَّأ الجنود إليه، ومنعه الأمان حتى يستسلم، وهو ابن زياد، ومن بعده أهون منه.

ولحقه أمير الكوفة عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد، فعذلاه فى المسير، وأشارا عليه بالرجوع حتى نتجهز جميعًا لهذا العدو، فنلقاه بجمع كثيف، وقد كان بلغهم إقبال عبيد الله بن زياد من الشام فى الجنود، فلم يوافقهما سليمان ولا أصحابه، وساروا لوجههم، وتخلف عنهم كثير من أصحابهم، وفى ذلك يقول عبد الله بن الأحمر يحرض: [من الطويل]

صَحَوْتُ وقد يَصْحُو الصِّبَا والغَوَانِيا ... وقُلْتُ لِأَصْحَابِى: أَجِيبُوا المُنَادِيَا
وقُولُوا لَهُ إِذْ قَامَ يَدْعُو إِلَىٰ الهُدَىٰ ... وقَبْلَ الدُّعا: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ دَاعِيَا
ألا فَانْعَ خيْرَ النَّاس جَدًّا ووالدًا ... حُسَيْنًا إِذَا ما كُنْتَ للدِّينِ نَاعِيَا
لِيَبْكِ حسينًا مجتدٍ ذو خَصَاصةٍ ... عديمٌ وأَيْتَامٌ تشكَّى المواليا
وأضحَىٰ حُسَين للرماحِ دَرِيئَةً ... وغودر ذا دَرْسَيْنِ بالطَّفِّ ثَاوِيَا
فيا لَيْتَنِى إذ ذاكَ كُنْتُ شهدتُهُ ... فضارَبْتُ عنه الشَّامِتِينَ الأعَادِيَا
سَقَى الله أرضًا ضَمَّتِ المجْدَ والثَّنا ... بِغَرْبِيَّةِ الطَّفِّ الغَمَامَ الغَوادِيَا
فَيَا أُمَّة تَاهَتْ وضَلَّتْ سَفاهَةً ... أَنِيبُوا فَأَرْضُوا الوَاحِدَ المُتَعَالِيَا

ثم ساروا يقدمهم من ذكر، وعبد الله بن الأحمر يقول: [من الرجز]

خَرَجْنَ يلمعْنَ بنا أرْسَالاَ ... عوابسًا تَحْمِلْنَا أبْطَالا
نُرِيدُ أَنْ نَلْقَىٰ بِهَا القتالاَ ... ألقاسِطِينَ الغُدَّرَ الضُّلاَّلاَ
وقد رَفَضْنَا الوُلْدَ والأَمْوَالاَ ... والخَفِرَاتِ البِيضَ والحِجَالاَ
نُرْضِي بِهِ ذا النِّعَمِ المِفْضَالا

ثم انتهوا إلى قبر الحسين، فصاحوا وبَكوا، وجددوا التوبة من خذلانه، وأقاموا عنده يومًا وليلة، فزادهم ذلك حنقًا، وبلغهم كتاب عبد الله بن يزيد يثنيهم عن المسير، فأبوا واستماتوا، ثم انتهوا إلى قرقيسيا على تعبئة، وبها زفر بن الحارث الكلابى متحصنًا من مروان وقومه، ودخل إليه المسيب بن نجبة يطلبه فى السوق لأصحابه، فأمر ابنه الهذيل فأخرج لهم سوقًا، وبعث إليهم بعلف ودقيق وجزائر،

واستغنوا بها عن السوق إلا فى غير الطعام، وأعطى المسيب ألف درهم وفرسًا، فأخذ الفرس ورد المال، ثم خرج زفر من الغداة يودعهم، وأخبرهم بمن سار من الجيوش إليهم، وأنهم عدد كثير وأن أمراءهم الحصين بن نمير، وشرحبيل الكلابى، وأدهم بن محرز، وحملة بن عبيد الله الخثعمى، وعبيد الله بن زياد، فأقيموا معنا ونلقاهم جميعًا.

فأبى سليمان وأصحابه من ذلك، فأشار عليهم بوجه الرأى فى السير والحرب وودعهم، فساروا مجدِّينَ إلى عين الوردة، فأقاموا بها خمسًا وأراحوا، حتى إذا كانت عساكر الشام على يوم وليلة عنهم فخطبهم سليمان بن صرد وحرضهم، وقال: إن قتلت، فأمير الناس المسيبُ بن نجبة، فإن قتل، فعبد الله بن سعد بن نفيل، فإن قتل، فعبد الله بن وال، فإن قتل، فرفاعة بن شداد.

ثم سرح المسيب فى أربعمائة فارس يشن عليهم الغارة، فإن رأى ما أحب وإلا رجع، فسار يومه وليلته وجاء أصحابه بأعرابى، فسألوه عن العسكر، فقال: أدنى عسكر منكم شرحبيل بن ذى الكلاع على ميل، وقد اختلف هو وحصين بن نمير فى الإمارة، وهما ينتظران أمر ابن زياد، فأغذُّوا إليهم السير، وأشرفوا عليهم، وهم غارُّونَ وحملوا، فانهزم العسكر، وغنم أصحاب المسيب ما فيه ورجعوا إلى أصحابهم موقرين، وسرح ابن زياد الحصين بن نمير مسرعًا حتى نزل فى اثنى عشر ألفًا، ثم تراجعوا على التعبئة، ولما دنا بعضهم من بعض، دعاهم أهل الشام إلى الجماعة إلى مروان، ودعاهم أصحاب سليمان إلى إسلام عبيد الله بن زياد إليهم، وأنهم يخرجون أصحاب ابن الزبير من العراق، ويرد الأمر إلى أهل البيت، ثم اقتتلوا وكان الظهور لسليمان وأصحابه على الحصين، وأمده ابن زياد بثمانية آلاف فاقتتلوا من الغد على السواء، وتحاجزوا عند المساء.

ولما أصبح أهل الشام، أتاهم أدهم بن محرز الباهلى فى عشرة آلاف مددًا، فقاتلوهم يوم الجمعة إلى ارتفاع الضحى، ولما رأى سليمان كثرتهم وما لقى أصحابه منهم، كسر جفن سيفه واستمات، واتبعه ناس منهم، فقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة، ثم قتل سليمان، وبعده المسيب بن نجبة بعد أن حمل مرارًا، فأخذ الراية عبد الله بن سعد بن نفيل، وقاتل فجاءه، وهو فى القتال الخبر من عبد الله بن سعد

ابن حذيفة بمدد أهل المدائن فى سبعين ومائة ومدد أهل البصرة مع المثنى بن مخرمة فى ثلاثمائة، فقال: لو كان ذلك ونحن أحياء. ثم قتل عبد الله بن سعد، ونادوا عبد الله بن وال، فإذا هو قد اصطلى الحرب، فحمل رفاعة بن شداد حتى كشف عن أهل الشام، وجابَه، فأخذ الراية وقاتل، واستماتوا.

وتولى قتالهم عند المساء أدهم بن مخرمة، فقتل عبد الله بن وال وهو مقبل، وأراد رفاعة بن شداد الانصراف بالناس، فقال له بعض أصحابه: لا تفعل حتى يغشانا الليل، فنسير فى دلجته على مهل، فلما أمسوا رجع أهل الشام إلى معسكرهم وأصحاب رفاعة إلى معسكرهم، وقد قتل عامتهم وفشت الجراحة فيهم وفى خيلهم، فسار بالناس ليلته، وأصبح الحصين فلم يرهم، وانتهوا إلى قرقيسيا وأضافهم زفر ثلاثًا، وزودهم إلى الكوفة، وبلغ سعد بن حذيفة بن اليمان - من أهل المدائن - إلى هيت، فلقيه خبرهم فرجع، ولقيه المثنى بن مخرمة العبدى فى أهل البصرة بصدد، وأقاموا حتى جاء رفاعة وأصحابه فاستقبلوه، وبكوا وافترقوا إلى بلادهم، ودخل رفاعة الكوفة، وبعث إليه المختار بن أبى عبيد، وهو محبوسٌ يدعوه إلى طاعته فى الطلب بدماء أهل البيت وجهاد الملحدين، وأن سليمان لم يكن صاحبكم الذى تنتصرون به، وبلغ الخبر عبد الملك بن مروان بن الحكم، فخطب الناس وأعلمهم بموت سليمان بن صرد وأصحابه. ولأعشى همدان قصيدة طويلة يرثى بها أهل عين الوردة من التَّوَّابين: سليمان بن صرد الخزاعى وأصحابه ويصف ما فعلوه فقال: [من الطويل]

تـوجَّـهَ مِنْ دُونِ الـثَّـوِيَّةِ سائرًا ... إلى ابْنِ زِيادٍ فى الجموعِ الكَتَائِبِ
فَساروا وَهُمْ مِنْ بَين مُلْتَمِسِ التُّقَىٰ ... وآخَرَ مِمَّا جُمَّ بالأمْسِ تَائبِ
فَلاقَوْا بعيْنِ الوَرْدِ جَيْشًا مشاكلاً ... عليهم بِبِيض قَاطِعَاتٍ قَواضِبِ
فَجَاءَهُمْ جَمْعٌ مِنَ النَّاسِ بَعْدَهُ ... جُمُوعٌ كمَوْجِ البَحْرِ مِنْ كُلِّ جانبِ
فما بَرِحُوا حَتى أُبِيدَتْ جُمُوعُهُمْ ... ولَمْ يَنْجُ مِنهُمْ ثَمَّ غَيْرُ عَصَائبِ
وغودِرَ أَهْلُ الصَّبْرِ صَرْعىٰ فأصْبَحُوا ... تُعَاوِرُهُمْ ريحُ الصَّبَا والجَنَائِبِ
وأضحَى الخُزَاعِيُّ الرَّئيسُ مُجَدَّلاً ... كأنْ لَمْ يُقَاتِلْ مَرَّةً ويُحَارِبِ
ورأسُ بنى أزدٍ وفارسُ قومِهِ ... جميعًا مع التيميِّ عارى المَنَاكِبِ

وعَمْرُو بنُ عمرو وابْنُ بِشْرٍ وخالدٌ ... وبَكْرٌ وزيدٌ والحُسَين بن غالبِ
أَبَوْا غَيْرَ ضَرْبٍ يُفْلِقُ الهَامَ حَدُّهُ ... وطَعْنٍ بأَطْرَاف الأَسِنَّةِ لَازِبِ
فيا خَيْرَ جَيْشٍ للعراقِ وأَهْلِهِ ... سُقِيتُمْ روايا كُل أسحَمَ ساكبِ
فَلَا يَبْعَدَنْ فُرْسَانُنَا وحُمَاتُنَا ... إِذَا البِيضُ أبدَتْ عَنْ خدام الكَوَاعِبِ
فإن تُقْتَلُوا فالقَتْلُ أكرَمُ مِيتَةٍ ... وَكُلُّ فتى يومًا لإحْدَى الشَّواعِبِ
وما قُتِلُوا حتى أَصَابُوا عصابةً ... بِحَزِّ نُحُورٍ كالتُّيُوسِ الضَوَارِبِ

وفى كتاب الأذكياء للحافظ أبى الفرج بن الجوزى[1] قال: كان حويطب بن عبد العزى قد بلغ مائة وعشرين سنة، ستين منها فى الجاهلية، وستين فى الإسلام، فلما ولى مروان بن الحكم دخل عليه، فقال له مروان: ما سنك يا عم ؟ فأخبره، فقال له مروان: تأخر إسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث، فقال حويطب: والله لقد نهضت إلى الإسلام غير مرة كل ذلك يعوقنى أبوك عنه وينهانى، ويقول: لا تَدَعْ دين آبائك لدين محمد، فأسكت مروان وندم على سؤاله إياه، ثم قال له حويطب: أما أخبرك عثمان بن عفان ما كان لقى من أبيك حين أسلم، فازداد مروان غمًّا إلى غمه.

وحكى عن البخترى بن عبيد، أنه قال: كنت عند معاوية بن أبى سفيان جالسًا، وكان حسان من جلسائه - وليس بحسان بن ثابت الصحابى - فأقبل رجل على ناقة حمراء، وعليه برنس، ثم نزل عنها ومشى، حتى دنا من معاوية، وهو جالس، فسلم عليه، فضم له معاوية رجليه، فجلس الرجل على الطنفسة، ثم أقبل عليه معاوية بالحديث، فلما قام، انكشف البرنس، فرأيت عليه قميص كتان، ورأيت أثر مسح زقاق الزيت على قميصه، فقال حسان لمعاوية: من هذا الذى شغلك حديثه يا أمير المؤمنين ؟ قال: هذا رجل يرجو الخلافة من بعدى، فقال له حسان: ليس هذا الزيات بأهل لذلك يا أمير المؤمنين، قال معاوية: مهلًا يا حسان، هذا مروان بن الحكم !

* * *

(١) ينظر الأذكياء. لابن الجوزى (ص١٦٦).

خلافة عبد الملك بن مروان(١)
بعد وفاة أبيه مروان

كان أبوه مروان عند ولايته تزوَّج أم خالد بن يزيد وهى بنت هاشم بن عتبة، فوقع بين خالد بن يزيد بن معاوية وبين بعض ولد مروان كلام، فقال لخالد: اسكت، فلست والله تُعَدّ لا فى العير ولا فى النفير، فقال له خالد: وهل كان فى العير غير جدى، وفى النفير غير جدى، ولكن لو قلت: حبيلات وغنيمات والطائف، ورحم الله عثمان، قلنا: صدقت. انتهى.

قلت فى قول خالد: « جدى فى العير جدي في النفير » يشير إلى أن جده لأبيه أبا سفيان هو الذى كان فى العير، وجده لأمه هو الذى كان فى النفير، وهو عتبة بن ربيعة بن أمية بن عبد شمس؛ لأن أم جده معاوية هى بنت عتبة.

وأما قوله: « حبيلات » فهى جمع حبلة، وهى أصل الكَرْمِ.

وقوله: « غنيمات والطائف ورحم الله عثمان » يعنى يعيره بكون جده الحكم والد مروان نفاه النبى ﷺ إلى الطائف، فأقام ثمة عنده حبيلات وغنيمات واستمر إلى أثناء خلافة عثمان - رضى الله عنه - فرده إلى المدينة، وكان رده من جملة الأمور المنقومة على عثمان، رضى الله عنه.

وأراد مروان أن يقصر بخالد، لما كان حسان بن بحدل يميل إليه، فدخل خالد يومًا على مروان يمشى بين السماطين، فقال مروان: إنه لأحمق، وقال: تنحَّ يا بن رطبة الاسْتِ يسقطه من عين أهل الشام، فتوجه إلى أمه، فقالت: اكتم خبرك، وأنا أكفيك؛ فلا تصير تسمعها منه، ودخل عليها مروان، فقال: هل قال لك خالد شيئًا ؟ قالت: هو أشد لك تعظيمًا من هذا، ثم قام عندها يومًا، فغطته بالوسادة، وتحاملت هى وجواريها عليه، فقتلته، وأراد عبد الملك أن يثأر منها، فقيل له: لا

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٢٩٢)، تاريخ الإسلام (٣/ ٢٧٦) العبر (١/ ١٠٢)، النجوم الزاهرة (١/ ٢١٢)، شذرات الذهب (١/ ٩٧) تهذيب التهذيب (٦/ ٤٢٢)، تقريب التهذيب (١/ ٥٢٣) خلاصة تهذيب الكمال (٢/ ١٨٠)، خلاصة تهذيب التهذيب (٢٤٦)، ميزان الاعتدال (٢/ ٦٦٤)، سير الأعلام (٤/ ٢٤٦)، تاريخ البخاري الكبير (٥/ ٤٢٩)، الثقات (٥/ ١١٩) طبقات ابن سعد (٥/ ٢٢٣)، طبقات خليفة (ت٢٠٦١)، المعارف (٣٥٥)؛ المعرفة والتاريخ (١/ ٥٦٣)، تاريخ اليعقوبي (٣/ ١٤)، تاريخ بغداد (١٠/ ٣٨٨)، العقد الثمين (٥/ ٥١٢).

يسمع أن امرأة قتلت أباك.

ولادته سنة ثنتين من الهجرة، بويع فى رجب سنة أربع وستين، وكانت الشوكة والغلبة لابن الزبير مدته خمسة عشر شهرًا، و قيل: عشرة أشهر، وفاته فى رمضان سنة خمس وستين، عمره ثلاث وستون، وقيل: أربع وستون، وقد كان بايع لولده عبد الملك، ثم بعده لولده الآخر عبد العزيز والد عمر بن عبد العزيز، رضى الله تعالى عنه.

وثوب المختار[1] بالكوفة وأخباره

لما قتل سليمان بن صرد، وقدم الشيعة إلى الكوفة، وكان المختار محبوسًا كما مر، كتب إليهم من السجن يعدهم ويمنيهم ويعرفهم أن الذى بعثه ابن الحنفية لطلب الثأر، فقرأ كتابه رفاعة بن شداد، والمثنى بن مخرمة العبدى، وسعد بن حذيفة بن اليمان، ويزيد بن أنس، وأحمد بن شميط البجلى، وعبد الله بن شداد البجلى، وبعثوا إليه عبيد الله بن كامل منهم: إنا بحيث نسرك، وإن شئت أن نأتيك ونخرجك من الحبس فعلنا، فسر بذلك وأمهلهم.

ثم شفع فيه ابن عمر إلى عبد الله بن يزيد، وإبراهيم بن محمد بن طلحة، فأطلق، واستحلفاه ألاَّ يخرج عليهم، ونزل بداره، واختلفت إليه الشيعة، وبايعوه، وقوى أمره.

ثم عزل ابن الزبير إبراهيم بن محمد بن طلحة، وعبد الله بن يزيد، واستعمل على الكوفة عبد الله بن مطيع، فقدمها فى رمضان سنة خمس وستين، وخطب الناس بأن ابن الزبير أمره ألاَّ يقسم فيئهم فى غيرهم، وأن يسير فيهم بسيرة عمر وعثمان، ثم توعدهم على الخلاف، فقالوا: أما فيئنا، فلا يكون غير ذلك، وأما السيرة: فسيرة عليٍّ التى سار بها فى بلادنا، ولا حاجة لنا فى سيرة عثمان ولا عمر، فقال ابن مطيع: نسير بكل سيرة ترضونها.

ثم بلغه أن المختار يدعو لأهل البيت، وبمن اجتمع له وأشاروا عليه بحبسه،

---

(١) ينظر عن المختار بن أبى عبيد فى: شذرات الذهب ١/ ٧٤، تاريخ ابن الوردى ١/ ١٧٦، المختصر لأبى الفداء ١/ ١٩٤، سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٣٨، البداية والنهاية ٨/ ٢٨٩، وفيات الأعيان ٣/ ٧١، الكامل ٤/ ٢١١، أسد الغابة ٤/ ٣٣٦، العقد الفريد ٧/ ١٤٩، تاريخ خليفة ٢٦٢. ٢٦٤، الأخبار الطوال ٢٠٥، المعارف ص ٤٠٠، تاريخ الطبرى ٥/ ٥٦٩، مروج الذهب ٣/ ١٠٦، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٢٥٨، المعرفة والتاريخ ١/ ٢١٩، عيون الأخبار ١/ ١٠٣.

فبعث إليه فاعتذر بالمرض.

وارتاب أصحاب المختار فيما بلغهم عن ابن الحنفية، فساروا إليه بمكة يسألونه واستأذنوه فى اتباعه، فقال: وددت أن الله انتصَرَ لنا من عدونا بمن يشاء مِنْ خلقه. فرجعوا وأخبروا بذلك المختار، وقالوا له: قد أمرنا بنصرك، فجمع الشيعة، وأخبرهم بما قدم به أصحابهم من عند ابن الحنفية، وأنه أخبرهم رسوله، وأمركم باتباعى وطاعتى فيما دعوتكم إليه من قتال المحلين، والطلب بدماء أهل البيت، وشهد الوافدون بذلك، فاجتمعت الشيعة ومن جملتهم الشعبى وأبو شرحبيل.

وأشار عليه بعض أصحابه بدعاء إبراهيم بن الأشتر؛ ليقوى أمرهم به، فمضى إليه الشعبى فى جماعة منهم، وذكر تقدُّم أبيه فى ولاية على، ودعاه إلى الطلب بدم الحسين وأصحابه، فقال: على أن تولونى، فقالوا: قد جاء المختار بتولية ابن الحنفية، وقد أمرنا بطاعته، فسكت إبراهيم.

ثم جاء المختار بكتاب ابن الحنفية إلى إبراهيم يسأله النصرة ويعده بالولاية العامة، وفيه: « من محمد المهدى إلى إبراهيم بن مالك الأشتر »، ودفعه إليه الشعبى، وقرأه وقال: مازال ابن الحنفية يكاتبنى، فلا يزيد على اسمه واسم أبيه، فشهد جماعة منهم أنه كتابه، وسكت الشعبى، وسأله إبراهيم بعد انصرافهم فقال: هؤلاء الذين يشهدون سادة القراء، ومشيخة المصر، وفرسان العرب، فكتب أسماءهم عنده، ثم حمل عشيرته على إجابة المختار، وصار يختلف إليه، وتواعدوا للخروج منتصف ربيع الأول سنة ست وستين.

ونما الخبر إلى ابن مطيع، فبعث إلى رءوس الناس فى كل ناحية من الكوفة يوقظهم لذلك وألاَّ يؤتوا من قبلهم، فاستعدوا، فركب إياس بن مضارب فى الشرط، وأحاط بالسوق والقصر، ثم ركب إبراهيم بن الأشتر يريد المختار قبل الموعد بليلتين، وهو مظهر للسلاح، ولقى إياس بن مضارب، فارتاب به، وأراده على الإتيان لابن مطيع، فأبى، وطعنه فقتله، وافترق أصحاب إياس وجاءوا إلى ابن مطيع، وولى مكانه ابن راشد على الشرطة، ومضى إبراهيم إلى المختار وأخبره بالخبر، وبعثوا فى الشيعة وتنادوا بثأر الحسين، ومضَىٰ إبراهيم إلى النخع، فاستركبهم وسار بهم فى المدينة ليلاً، وهو يتجنب المواضع التى فيها الأمراء، ثم

لقيه بعضهم، فهزمهم ثم آخرين كذلك، ثم رجع إلى المختار، فوجد شبيبَ بنَ رَبعى وحجار بن أبجر العجلى يقاتلانه فهزمهما.

وجاء شبيب إلى ابن مطيع، فأشار عليه بجمع الناس والنهوض إلى القوم فقد قوى أمرهم، فركب واجتمع الناس وتوافى إلى المختار نحو أربعة آلاف من الشيعة، وبعث ابن مطيع شبيب بن ربعى فى ثلاثة آلاف وراشد بن إياس فى أربعة آلاف، فسرح إليهم المختار إبراهيم بن الأشتر لراشد فى ستمائة فارس وستمائة راجل، ونعيم بن هبيرة لشبيب فى ثلاثمائة فارس وستمائة راجل، واقتتلوا من بعد صلاة الصبح وقتل نعيم فوهن المختار لقتله، وظهر شبيب وأصحابه عليهم، وقاتل إبراهيم ابن الأشتر راشد بن إياس فقتله، وانهزم أصحابه، فركبهم القتل، وبعث ابن مطيع جيشًا كثيفًا، فهزمهم إبراهيم، ثم حمل على شبيب فهزمه، وزحف المختار فمنعه الرماة من دخول الكوفة، ورجع المنهزمون إلى ابن مطيع، فدهش، فشجعه عمرو ابن الحجاج الزبيدى، وقال له: اخرج واندب الناس، ففعل وقام فى الناس، ووبخهم على هزيمتهم وندبهم، ثم بعث عمرو بن الحجاج فى ألفين، وشمر بن ذى الجوشن فى ألفين، ونوفل بن مساحق فى خمسة آلاف، ووقف هو بكناسة، واستخلف على القصر شبيب بن ربعى، فحمل ابن الأشتر على ابن مساحق، فهزمه وأسره ثم مَنَّ عليه، ودخل ابن مطيع القصر، وحاصره إبراهيم بن الأشتر ثلاثًا ومعه يزيد بن أنس وأحمد بن شميط.

ولما اشتد الحصار على ابن مطيع، أشار عليه شبيب بن ربعى بأن يستأمنَ المختار، ويلحق بابن الزبير وله ما بعده، فخرج عليهم مساء، ونزل دار أبى موسى، واستأمن القوم للمختار، فدخل القصر وغدا على الناس فى المسجد، فخطبهم ودعا إلى بيعه ابن الحنفية، فبايعه أشراف الكوفة على الكتاب والسنة والطلب بدم الحسين، ووعدهم بحسن السيرة.

وبلغه أن ابن مطيع فى دار أبى موسى، فبعث إليه بمائة ألف درهم، وقال: تجهز بهذه، وكان ابن مطيع قد فرق بيوت الأموال على الناس، وسار ابن مطيع إلى وجهه، وملك المختار الكوفة وجعل على شرطته عبد الله بن كامل، وعلى حرسه كيسان أبا عمرة، وجعل الأشراف جلساءه، وعقد لعبد الله بن الحارث بن الأشتر

على أرمينية، ولمحمد بن عمير بن عطارد على أذربيجان، ولعبد الرحمن بن سعيد ابن قيس على الموصل، وإسحاق بن مسعود على المدائن، ولسعد بن حذيفة بن اليمان على حلوان، وأمره بقتال الأكراد وإصلاح السابلة، وولى شريحًا على القضاء.

ثم طعنت فيه الشيعة بأنه شهد على حجر بن عدى، ولم يبلغ عن هانئ بن عروة رسالته إلى قومه، وأن عليًا عزله وأنه عثمانى، وسمع ذلك هو، فتمارض، فجعل مكانه عبد الله بن عتبة بن مسعود، ثم مرض فولى مكانه عبد الله بن مالك الطائى.

مسير ابن زياد إلى المختار
وخلاف أهل الكوفة عليه وغلبه إياهم

كان مروان بن الحكم لما استوثق له أهل الشام، بعث جيشين؛ أحدهما: إلى الحجاز مع حنيش بن دلجة القينى، وقد مر شأنه ومقتله، والآخر: إلى الكوفة مع عبيد الله بن زياد، وكان من أمره وأمر التوابين من الشيعة ما تقدَّم، وأقام محاصرًا لزفر بن الحارث بقرقيسيا، وهو مع قومه قيس على طاعة ابن الزبير، فاشتغل بهم عن العراق سنة أو نحوها، ثم توفى مروان، وولى بعده عبد الملك، فأقره على ولايته وأمره بالجد، وأيس من أمر زفر وقيس، فنهض إلى الموصل، فخرج عنها عبد الرحمن بن سعد عامل المختار إلى تكريت، وكتب إلى المختار بالخبر، فبعث يزيد بن أنس الأسدى فى ثلاثة آلاف إلى الموصل، فساروا إليها على المدائن، وسرح ابن زياد للقائه ربيعة بن المختار الغنوى فى ثلاثة آلاف، والتقيا ببابل، وعبأ يزيد أصحابه وهو راكب على حماره وحرضهم، وقال: إن مت فأميركم ورقاء بن عازب الأسدى، وإن هلك فعبد الله بن ضمرة العذرى، وإن هلك فسعد الحنفى.

ثم اقتتلوا يوم عرفة، وانهزم أهل الشام وقتل ربيعة، وسار العسكر غير بعيد، فلقيهم عبد الله بن حملة الخثعمى قد سرحه ابن زياد فى ثلاثة آلاف، فرد المنهزمين وأعاد القتال يوم الأضحى، فانهزم أهل الشام، وأثخنت فيهم أهل الكوفة القتل والنهب، وأسروا منهم ثلاثمائة فقتلوهم، وهلك يزيد بن أنس من آخر يومه، وقام بأمرهم ورقاء بن عازب خليفة، وهاب لقاء ابن زياد بعد يزيد، وقال: نرجع لموت أميرنا قبل أن يظهر علينا أهل الشام بذلك وصرف الناس.

وتقدم الخبر إلى الكوفة، فأرجف الناس بالمختار، وأشيع أن يزيد قتل، وساء المختار رجوع العسكر، فسرح إبراهيم بن الأشتر فى سبعة آلاف، وضم إليه حنيش يزيد، ثم تناجز ابن زياد فساروا لذلك، ثم اجتمع أشراف الكوفة عند شبيب بن ربعى - وكان شيخهم جاهلى إسلامى - وشكوا من سيرة المختار وإيثاره الموالى عليهم، ودعوه إلى الوثوب به، فقال: حتى ألقاه وأعذر إليه، ثم ذهب إليه وذكر له جميع ما ذكروه، فوعده الرجوع إلى رضاهم له، وذكر شأن الموالى وشوكتهم فى الفئ، فقال: إن أعطيتمونى عهدكم على قتال بنى أمية وابن الزبير، تركتهم، فقال: اخرج إليهم بذلك، وخرج فلم يرجع، واجتمع رأيهم على قتاله، وهم: شبيب بن ربعى، ومحمد بن الأشعث، وعبد الرحمن بن سعد بن قيس، وشمر بن ذى الجوشن، وكعب بن أبى كعب الخثعمى، وعبد الرحمن بن مخنف الأزدى، وكان ابن مخنف أشار عليهم بأن يمهلوا لقدوم أهل الشام ومجيء أهل البصرة؛ فيكفونهم أمره قبل أن يقاتلكم بمواليكم وشجعانكم، وهو عليكم أشد، فأبوا رأيه، وقالوا: لا تفسد جماعتنا.

ثم خرجوا وشهروا السلاح، وقالوا للمختار: اعتزلنا، فإن ابن الحنفية لم يبعثك. قال: فتعالوا نبعث إليه الرسل منى ومنكم، وأخذ يعللهم بمثل هذه المراجعات، وكف أصحابه عن قتالهم ينظرون وصول إبراهيم بن الأشتر، وقد بعث إليه بالرجوع، فجاء والقوم مجتمعون ورفاعة بن شداد البجلى يصلى بهم، فلما وصل إبراهيم، عبأ المختار أصحابه، وسرح بين يديه أحمد بن شميط البجلى، وعبد الله بن كامل الشاكرى، فانهزم أصحابهما وصبرا، وأمدهما المختار بالرجال والفرسان فوجًا بعد فَوْج، وصار ابن الأشتر إلى مضر، وفيهم شبيب بن ربعى، وقاتلهم فهزمهم، واشتد ابن كامل على أهل اليمن، فرجع رفاعة بن شداد أمامهم إلى المختار، فقاتل معه حتى قتل، وقتل من أهل اليمن عبد الله بن سعيد بن قيس والفرات بن زفر بن قيس، وعمرو بن مخنف، وجرح أخوه عبد الرحمن، فمات، فانهزم أهل اليمن هزيمة قبيحة وأسر من الوادعيين خمسمائة أسير، فقتل المختار كل من شهد قتل الحسين منهم، وكانوا نصفهم وأطلق الباقين، ونادى المختار بالأمان إلا من شرك فى دماء أهل البيت، وفر عمرو بن الحجاج الزبيدى وكان أشد من

حضر قتل الحسين؛ فلم يوقف له على خبر، وقيل: أدركه أصحاب المختار، فأخذوا رأسه، وبعث فى طلب شمر بن ذى الجوشن، فقتل طالبه، وانتهى إلى قرية الكلتانية، فارتاح يظن أنه نجا، وإذا فى قرية أخرى بإزائه أبو عمرة صاحب المختار بعثه مصلحًا بينه وبين أهل البصرة، فنما إليه خبره، فبعث إليه وألقى شلوه للكلاب، وانجلت الوقعة عن سبعمائة وثمانين قتيلاً أكثرهم من اليمن، وكانت آخر سنة ست وستين.

وخرج أشراف الناس إلى البصرة، وتتبع المختار قتلة الحسين، ودل عليهم عبيد الله بن أسد الجهنى، ومالك بن الأشتر الكندى، وحمل بن مالك المحاربى بالقادسية، فأحضرهم وقتلهم، ثم أحضر زياد بن مالك الضبعى، وعمران بن خالد الغنوى، وعبد الرحمن بن أبى خشكارة البجلى، وعبد الله بن قيس الخولانى، وكانوا نهبوا من الورس الذى كان مع الحسين، فقتلهم، وأحضر عبد الله وعبد الرحمن ابني طلحة، وعبد الله بن وهب الهمدانى، ابن عمرو الأعشى، فقتلهم، وأحضر عثمان بن خالد الجهنى، وابن أسماء بشر بن شميط القابسى، وكانا مشتركين فى قتل عبد الرحمن بن عقيل وفى سلبه، فقتلهما، وحرقهما بالنار، وبحث عن حولى بن يزيد الأصبحى صاحب رأس الحسين، فجيء برأسه وحرق بالنار، ثم قتل عمر بن سعد بن أبى وقاص بعد أن كان أخذ له الأمان من عبد الله بن جعدة بن هبيرة، فبعث أبا عمرة فجاءه برأسه وابنه حفص عنده، فقال: تعرف هذا ؟ قال: نعم، ولا خير فى العيش بعده، فقتله.

وعن الهيثم بن حسن بن عمارة قال: قدم شيخ من خزاعة أيام المختار، فنزل على عبد الله بن أبى أبزى الخزاعى، فلما رأى ما تصنع شيعة المختار به من الإجلال والإعظام، جعل يقول: يا عباد الله أبالمختار يصنع هذا ؟! والله، لقد رأيته يبيع الإماء بالحجاز، فبلغ ذلك المختار، فدعا به وقال: ما هذا الذى بلغنى عنك ؟ قال: الباطل، فأمر بضرب عنقه، فقال: لا والله لا تقدر على ذلك، قال: ولم ؟! قال: أما إنى أنظر إليك وقد فتحتَ مدينة دمشق حجرًا حجرًا وقتلت المقاتلة، وسبيت الذرية، ثم تصلبنى على شجرة على نهر، والله إنى لأعرف الشجرة الساعة، وأعرف شاطئ ذلك النهر، قال: فالتفت المختار إلى أصحابه، فقال لهم: أما إن الرجل قد

عرف السحر، فحبس حتى إذا كان الليل بعث إليه، فقال: يا أخا خزاعة، أو مزاح عند القتل ؟! فقال: أنشدك الله أن أقتل ضياعًا، قال: وما تطلب ههنا ؟ قال: أربعة آلاف درهم أقضى بها دينى، قال: ادفعوها له، وإياك أن تصبح بالكوفة. فقبضها وخرج ليلته.

وعنه قال: كان سراقة البارقى من ظرفاء أهل المدينة، فأسره رجل من أصحاب المختار، فأتى به المختار، وقال: أسرت هذا، فقال سراقة: كذب والله ما أسرنى إنما أسرنى رجل عليه ثياب بيض على فرس أبلق، فقال المختار: أما إن الرجل قد عاين الملائكة، خلوا سبيله فلما أفلت، أنشأ يقول: [من الوافر]

أَلاَ أَبْلِغْ أبا إسْحاقَ عَنِّي   بأَنَّ البُلْقَ دُهْم مُصْمتَات
أرى عَيْنَيَّ مَا لَمْ تَرْأَيَاهُ   كِلاَنَا مولَعٌ بِالتُّرَّهَاتِ
كَفَرْتُ بِدِينِكُمْ وجعلتُ نَذْرًا   عَلَيَّ قِتَالَكُمْ حَتى المَمَات

ويقال: إن الذى بعث المختار على قتلة الحسين أن يزيد بن شراحيل الأنصارى قدم على محمد بن الحنفية، فقال له ابن الحنفية: يزعم المختار أنه لنا شيعة، وقتلة الحسين عنده على الكراسى يحدثونه. فلما سمع المختار ذلك، تتبعهم بالقتل، وبعث برأس عمر وابنه إلى ابن الحنفية، وكتب إليه أنه قتل من قدر عليه وهو فى طلب الباقين، ثم أحضر حكيم بن طفيل الطائى، وكان رمى الحسين وأصاب سلب العباس ابنه، وجاء عدى بن حاتم ليشفع فيه، فقتله ابن كامل والشيعة قبل أن يصل حذرًا من قبول المختار شفاعته.

وبحث عن مرة بن منقذ بن عبد القيس قاتل على بن الحسين، فدافع عن نفسه، ونجا إلى مصعب بن الزبير، وقد شلت يده بضربة.

وبحث عن زيد بن رقاد الجنبى قاتل عبد الله بن مسلم بن عقيل رماه بسهمين، وقد وضع كفه على جبهته يتقى النبل، فأثبت كفه فى جبهته، وقتله بالأخرى، فخرج بالسيف يدافع، فقال لهم ابن الكامل: ارموه بالحجارة، فرموه حتى سقط وأحرقوه حيًا.

وطلب سنان بن أنس الذى كان يدعى قتل الحسين فلحق بالبصرة.

وطلب عمرو بن صبيح الصدائى، فقتله طعنًا بالرماح.

وأرسل فى طلب محمد بن الأشعث، وهو بقريته عند القادسية، فهرب إلى

مصعب وهدم المختار داره، وطلب آخرين كذلك من المتهمين بأمر الحسين، فلحقوا بمصعب وهدم دورهم.

شأن المختار مع ابن الزبير

كان على البصرة الحارث بن أبى ربيعة، وهو القباع عاملاً لابن الزبير وعلى شرطته عباد بن حسين وعلى المقاتلة قيس بن الهيثم، وجاء المثنى بن مخرمة العبدى، وكان ممن شهد مع سليمان بن صرد، ورجع فبايع المختار وبعثه إلى البصرة يدعو له، فجاءه كثير من الناس، وعسكر لحرب القباع، فسرح إليه عباد بن الحسين، وقيس بن الهيثم فى العساكر، فانهزم المثنى إلى قومه عبد القيس، وأرسل القباع عسكرًا يأتون، فجاءه زياد بن عمرو العتكى، فقال له: لتردن خيلك عن إخواننا، أو لنقاتلنهم ! فأرسل الأحنف بن قيس، وأصلح الأمر على أن يخرج المثنى عنهم فسار إلى الكوفة.

وقد كان المختار لما خرج المطيع من البصرة، كتب إلى ابن الزبير يخادعه ليتمَّ أمره فى الدعاء لأهْل البيت، وطلبه المختار بالوفاء لما وعده من الولاية، فأراد ابن الزبير أن يتبين الصحيح من أمره، فولى عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام على الكوفة، وأعلمه بطاعة المختار وبعثه إليها، وجاء الخبر إلى المختار، فبعث زائدة بن قدامة فى خمسمائة فارس، وأعطاه سبعمائه درهم، وقال: ادفعها إلى عمرو، فهى ضعف ما أنفق وأمره بالانصراف بعد أن تكمن خيلك، فإن أبى فَأَرِهِ الخيل، وكان كذلك، ولما رأى عمرو الخيل، أخذ المال، وسار نحو البصرة، واجتمع هو وابن مطيع فى إمارة القباع قبل وثوب المثنى بن مخرمة.

وقيل: إن المختار كتب إلى ابن الزبير: إنى اتخذت الكوفة دارًا، فإن سوغتنى ذلك وأعطيتنى مائة ألف درهم، سرت إلى الشام، وكفيتك مروان، فمنعه من ذلك، وأقام المختار يصانعه ويوادعه ليتفرَّغ لأهل الشام.

ثم بعث عبد الملك بن مروان عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص إلى وادى القرى، فكتب المختار إلى ابن الزبير يعرض عليه المدد، فأجابه أن يعجل بإنفاذ الجيش إلى جند عبد الملك بوادى القرى، فسرح شرحبيل بن ورس الهمدانى فى ثلاثة آلاف أكثرهم من الموالى، وأمره أن يأتى المدينة ويكاتبه بذلك، واتهمه ابن

الزبير فبعث من مكة عباس بن سهل بن سعد فى ألفين، وأمره أن يستنفر العرب، وإن رأى من جيش المختار خيلاً، فناجزهم وأهلكهم. فلقيهم عباس بالرقيم، وهم على تعبئة، وقال: سيروا بنا إلى العدو الذى بوادى القرى، فقال ابن ورس: إنما أمرنى المختار أن آتى المدينة، ففطن عباس لما يريد، وأنزلهم وجاءهم بالعلوفة والزاد وتخير ألفًا من أصحابه وحمل عليهم، فقتل ابن ورس وسبعين معه من شجعان قومه وأمن الباقين فرجعوا إلى الكوفة، ومات أكثرهم فى الطريق. وكتب المختار إلى ابن الحنفية يشكو ابن الزبير ويوهمه أنه بعث الجيش فى طاعته، ففعل ابن الزبير ما فعل، ويستأذنه فى بعث الجيوش إلى المدينة، ويبعث ابن الحنفية عليهم رجلاً من قبله فيعلم الناس أنى فى طاعتك، فكتب إليه ابن الحنفية: قد عرفت قصدك، ووفاءك بحقى، وأحب الأمور إلى الطاعة، فأطع الله وتجنب دماء المسلمين، فلو أردتُ القتال لوجدت الناس إلى سراعًا، والأعوان كثيرًا، لكن اعتزلهم، واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين !.

ثم دعا ابن الزبير محمد ابن الحنفية ومن معه من الشيعة وأهل بيته إلى البيعة، فامتنع، وبعث إليه ابن الزبير، وأغلظ عليه وعليهم، فاستكانوا وصبروا، فتركهم.

وذكر المسعودى(١) عن عمرو بن شيبة، عن مساور بن السائب، أن ابن الزبير خطب أربعين يومًا لا يصلِّى على النبيِّ ﷺ، وقال: ما يمنعنى أن أصلى إلا شمخ رجال بآنافها !.

ودخل عبد الله بن عباس على ابن الزبير، فقال له ابن الزبير: أنت الذى تؤنبنى وتبخلنى(٢)؟ قال ابن عباس: نعم، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « ليس المسلم الذى يشبعُ ويَجُوعُ جاره »(٣)، قال ابن الزبير: إنى أكتُمُ بغضَكمْ أهلَ هذا البيت منذ أربعين سنة - وجرى بينهما خطب طويل.

(١) ينظر مروج الذهب (٣/٨٨، ٨٩، ٩٠).
(٢) في ط: ترقبني. والمثبت من مروج الذهب.
(٣) في ط: « بئس المسلم يشبع ويجوع غيره » والمثبت من المروج.
والحديث أخرجه الخطيب البغدادى في التاريخ (٥/٣٠٦)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/٥٢٨)، ولفظه: « ليس المسلم من يشبع وجاره طاوٍ »، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٦٧): رواه الطبراني والبزار بلفظ: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم». وقال: إسناد البزار حسن.

وخطب ابن الزبير فقال: ما بال أقوام يفتون بالمتعة، ويتنقصون حواريَّ رسول الله ﷺ وأم المؤمنين عائشة ؟! ما بالهم أعمى الله بصائرهم كما أعمى أبصارهم - يعرض بابن عباس - فقال ابن عباس لقائده: اهدنى إليه[١]، فقال له: أما قولك فى المتعة، فسل أمك تخبرك؛ فإن أول مجمر سطع للمتعة لمجمر سطع بين أمك وأبيك.

قلت: يريد متعة الحج لا متعة النكاح؛ فإن الزبير تزوَّج أسماء بنت أبى بكر فى الإسلام من أبيها معلنًا، فكيف تكونُ متعة نكاح ؟! حمى الله الزبير عن ذلك، وحمى الله ابن عباس عن إرادة ما هنالك. انتهى.

وأما قولك: « أم المؤمنين » فبنا سميت أم المؤمنين، وضرب عليها الحجاب.

وأما قولك: « حوارى رسول الله ﷺ » فلقد لقيته فى الزحف - يعنى حرب يوم الجمل - وأنا مع إمام هدى، فإن يكن على ما أقول، فقد كفر بقتاله[٢]، وإن يكن على ما تقول، فقد كفر بهربه.

ثم انصرف ابن عباس يقوده غلامه.

قلت: هذا الكلام عدم صحة معناه دليل على عدم صحة نسبته لابن عباس، رضى الله عنهما.

أما أولاً: فإن الزبير لم يهرب من على يوم الجمل، وإنما لما ذكره على - رضى الله تعالى عنه - بقول رسول الله ﷺ: « إنك ستقاتله، وأنت له ظالم »[٣] تذكَّر ورجع واستغفر؛ كما تقدَّم ذكر ذلك فى وقعة الجمل.

وأما ثانيًا: فلأنه ليس القتال ولا الهرب كفر إن فرض وقوع ذلك؛ إذ غاية ما فيه أن يكون خروجًا عن الإمام العادل لشبهة قامَتْ عند الخارج، وهو ليس بكفر بل معصية وفسوق؛ وتأمل قوله - عليه الصلاة والسلام - للزبير: « وأنت له ظالم » ولم يقل: وأنت كافر؛ وكذلك قوله - عليه الصلاة والسلام - لعمار: « تَقْتُلُكَ الفئة

(١) في مروج الذهب: فقال ابن عباس: يا غلام، اصمدني صَمْدَه فقال: يا ابن الزبير

قد أنصف القارة من راماها إنا إذا ما فِئَة نلقاها

نَرُدُّ أولاها على أخراها

(٢) في المروج: بقتالنا.

(٣) تقدم تخريجه وينظر موقعة صفين.

الباغيةُ »[١]، وقوله - عليه الصلاة والسلام - فى الحسن مع معاوية وقومه: « وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »[٢]؛ فسماهم مسلمين مع أنهم خارجون عن الحسن ظالمون له بقتالهم، فتأمل ذلك؛ لكن الراوى لهذه القصة المسعودى وهو من هو، وما هذا بأعجب مما رواه من قوله: أَكْتُمُ بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة![٣]

وروى أن ابن الزبير خطب، فقال فى أثناء خطبته: عذرت بنى الفواطم أن يتكلموا، فما بال ابن الحنفية ؟! فقال محمد ابن الحنفية: يابن أم رومان، ومالى لا أتكلَّم ؟! أليست فاطمة بنت محمد حليلة أبى، وأم إخوتى ؟! أليست فاطمة بنت أسد جَدَّتى ؟! أو ليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبى ؟! أما والله لولا خديجة بنت خويلد بن أسد ما تركت فى بنى أسد عظمًا إلا هشمته، وإن نالتنى منهم المعايب[٤]، صبرت[٥].

ولما استولى المختار على الكوفة، وأظهرت الشيعة دعوة ابن الحنفية، خاف ابن الزبير أن يتداعى الناس إلى الرضا به، فاعتزم عليهم فى البيعة وتوعدهم بالقَتْل، وحبسهم بزمزم، وضرب لهم أجلًا، وكتب ابن الحنفية إلى المختار بذلك فأخبر الشيعة وندبهم، وبعث أمراء منهم فى نحو ثمانمائة عليهم عبد الله الحذلى، وبعث لابن الحنفية أربعمائة ألف درهم، وساروا إلى مكة، فدخلوا المسجد الحرام وبأيديهم الخشب - كراهة إشهار السيف فى الحرم - وطفقوا ينادون بثأر الحسين حتى انتهوا إلى زمزم، وأخرجوا ابن الحنفية، وقد كان بقى من أجله يومان واستأذنوه فى قتال ابن الزبير، فقال: لا أستحلُّ القتال فى الحرم، ثم جاء باقى الجند، وخافهم ابن الزبير، وخرج ابن الحنفية إلى شعب على، واجتمع له أربعة آلاف رجل، فقسم بينهم المال وامتنع، ولما قتل المختار واستوثق أمر ابن الزبير، بعث إليه بالبيعة،

(١) تقدم تخريجه وينظر موقعة صفين.
(٢) تقدم تخريجه في مناقب الحسن.
(٣) ينظر مروج الذهب (٣/ ٨٩-٩٠).
(٤) في المروج: فيه المصائب.
(٥) ينظر مروج الذهب (٣/ ٨٩).

فخافه على نفسه، وكتب لعبد الملك، فأذن له أن يقدم الشام حتى يستقيم أمر الناس، ووعده بالإحسان فخرج ابن الحنفية وأصحابه إلى الشام، ولما وصل مدين، لقيه خبر مهلك عمرو بن سعيد فندم، وأقام بأيلة وظهر للناس فضله وعبادته وزهده، وكتب له عبد الملك أن يبايعه، فرجع إلى مكة ونزل شعب أبى طالب، فأخرجه ابن الزبير إلى الطائف، وعذل ابن عباس ابن الزبير على شأنه، ثم خرج عنه ولحق بالطائف ومات هناك، فصلى عليه ابن الحنفية وعاش حتى أدرك حصار الحجاج لابن الزبير، ولما قتل ابن الزبير، بايع محمد ابن الحنفية لعبد الملك، وكتب عبد الملك إلى الحجاج بتعظيم حقه وبَسْطِ أمله، ثم قدم الشام، وطلب من عبد الملك أن يرفع عنه، ففعل.

وقيل: إن ابن الزبير بعث إلى ابن عباس وابن الحنفية فى البيعة، فقالا: حتى يجتمع الناس على إمام؛ فإن هذه فتنة، فحبس ابن الحنفية فى زمزم، وضيق على ابن عباس فى منزله، فأراد إحراقهما، فأرسل المختار جيشه كما تقدَّم ونفس عنهما، فلما قتل المختار، قوى ابن الزبير عليهما، فخرجا إلى الطائف.

مقتل ابن زياد(١)

ولما فرغ المختار من قتال أهل الكوفة آخر سنة ست وستين، بعث إلى إبراهيم ابن الأشتر لقتال ابن زياد، وبعث معه بالكرسى الذى يستنصر به، وهو كرسيٌّ قد غشاه بالذهب، وقال للشيعة: هذا فيكم مثل التابوت فى بنى إسرائيل، فكثر السبئية، وأحضره قتال ابن زياد، فكان له الظهور، فازدادت الشيعة فتنة، ويقال: إنه كرسى على بن أبى طالب، وإن المختار أخذه من ولد جعدة بن هبيرة، وكانت أمه أم هانئ بنت أبى طالب، فهو ابن أخت على، ثم أسرع إبراهيم بن الأشتر السير، وأوغل فى أرض الموصل، وكان ابن زياد قد ملكها كما مرَّ، فلما دخل إبراهيم أرض الموصل، عبأ أصحابه، ولما بلغ نهر الخابور، بعث على مقدمته الطفيل بن لقيط

(١) ينظر: [عبيد الله بن زياد] فى البدء والتاريخ ٦/ ١٢، مرآة الجنان ١/ ١٤٢، البداية والنهاية ٨/ ٢٨٣، نثر الدر ٥/ ١٣، وفيات الأعيان ٢/ ٥٠٢، فتوح البلدان ١١٩، جمهرة أنساب العرب ١١٣، العقد الفريد ١/ ١١٧ و١٤٨ و١٤٩، المعارف ١٨٨، المعرفة والتاريخ ١/ ٢١٨، أنساب الأشراف ٣/ ٢٩٨، تاريخ خليفة ص ٢١، تاريخ الطبرى ١٠/ ٣٢٧، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٢٣٦، الأخبار الطوال ٢٢٥ و٢٢٧، المحبّر ٣٠٣ .

النخعى، ونزل ابن زياد قريبًا من النهر، وكانت قيس مضطغنة على بنى مروان من وقعة المرج، وجند عبد الملك يومئذ كليب، فلقى عمير بن الحباب السلمى إبراهيم ابن الأشتر، ووعده بأن ينهزم بالميسرة، وأشار عليه بالمناجزة، ورأى عند ابن الأشتر ميلاً إلى المطاولة فثناه عن ذلك، وقال: إنهم ملئوا منكم رعبًا، وإن طاولتهم اجترءوا عليكم، قال: وبذلك أوصانى صاحبى، ثم عبأ أصحابه فى السحر الأول يمشى ويحرض الناس حتى أشرف على القوم، وجاء عبد الله بن زهير السكونى بأنهم خرجوا على دهش وفشل، وابن الأشتر يحرض أصحابه ويذكرهم فعال ابن زياد وأبيه، ثم التقى الجمعان، وحمل الحصين بن نمير من ميمنة أهل الشام على ميسرة إبراهيم، فقتل على بن مالك الخثعمى، ثم أخذ الراية قرة بن على، فقتل، وانهزمت الميسرة كما كانوا، وحملت ميمنة إبراهيم على ميسرة ابن زياد، وهم يرجون أن ينهزم عمير بن الحباب كما وعدهم، فمنعته الأنفة من ذلك وقاتل قتالاً شديدًا، وقصد ابن الأشتر قلب العسكر وسواده الأعظم، فاقتتلوا أشد قتال حتى كانت أصوات الضرب بالحديد كأصوات القَصَّارين، وإبراهيم يقول لصاحب الراية: انغمس برايتك فيهم، ثم حملوا حملة رجل واحد، فانهزم أصحاب ابن زياد، وقال ابن الأشتر: إنى قتلت رجلاً تحت راية منفردة، شممت منه رائحة المسك، وضربته بسيفى فقصمته نصفين فالتمسوه، فإذا هو ابن زياد، فأخذ رأسه وأحرقت جثته.

وحمل شريك بن جدير التغلبى على الحصين من غير سلاح، فاعتنقه وجاء به أصحابه، فقتلوا الحصين، ويقال: إن الذى قتل ابن زياد هو ابن جدير هذا، وقتل شرحبيل بن ذى الكلاع، وادعى قتله سفيان بن يزيد الأزدى، وورقاء بن عازب الأسدى، وعبيد الله بن زهير السلمى، واتبع أصحاب ابن الأشتر المنهزمين، فغرق فى البحر أكثر ممن قتل وغنموا جميع ما فى العسكر، وطير ابن الأشتر البشارة إلى المختار، فأتته بالمدائن، وأنفذ ابن الأشتر عماله إلى البلاد، فبعث أخاه عبد الرحمن إلى نصيبين، وغلب على سنجار ودارة وما والاهما من أرض الجزيرة، وولى زفر ابن الحارث قرقيسيا، وحاتم بن النعمان الباهلى حَرَّان والرُّهَا وسميساط، وعمير بن الحباب السلمى كفر توثا وطور عبدين، وأقام بالموصل، وأنفذ رءوس عبيد الله وقواده إلى المختار.

مسير مصعب[١] إلى المختار وقتله إياه

كان ابن الزبير فى أول سنة سبع وستين - أو آخر سنة ست - عزل الحارث بن أبى ربيعة - وهو القباع - وولى مكانه أخاه مصعبًا، فقدم البصرة، وصعد المنبر، وجاء الحارث فأجلسه مصعب تحته بدرجة، ثم خطب وقرأ الآيات من أول القصص ونزل، ولحق به أشراف الكوفة، حين هربوا من المختار، ودخل عليه شبيب بن ربعى، وهو ينادى: واغوثاه، ثم قدم محمد بن الأشعث بعده، واستحثوه على المسير، وبعث عن المهلب بن أبى صفرة، وهو عامله على فارس ليحضر معه قتال المختار، فأبطأ، واعتلَّ، فأرسل إليه محمد بن الأشعث بكتابه، فقال المهلب: ما وجد مصعب بريدًا غيرك؟! فقال: ما أنا ببريد، ولكن غلبنا عبيدنا على آبائنا وحرمنا، فأقبل معه المهلب بالجموع والأموال، وعسكر مصعب عند الجسر.

وأرسل عبد الرحمن بن مخنف إلى الكوفة سِرًّا ليثبط الناس عن المختار، ويدعو الناس إلى ابن الزبير، وسار على التعبئة، وبعث فى مقدمته عباد بن الحصين الحبطى التميمى، وعلى ميمنته عمر بن عبيد الله بن معمر، وسار ميسرته المهلب، وبلغ الخبر المختار، فقام فى أصحابه وندبهم إلى الخروج مع ابن شميط، وعسكر بحمام أعين، وبعث برءوس الأرباع الذين كانوا مع ابن الأشتر مع ابن شميط، فسار وعلى مقدمته ابن كامل الشاكرى، وانتهى إلى المدار فعسكر قريبًا من مصعب، ثم حمل عباد صاحب مقدمة مصعب على ابن شميط وأصحابه، فثبتوا وحمل المهلب على الميسرة على ابن كامل فثبت، ثم كَرَّ المهلب وحمل حملة منكرة وصبر ابن كامل قليلاً وانهزموا، وحمل الناس جميعًا على ابن شميط، فانهزم وقتل واستحرَّ القتل فى الرجال، وبعث مصعب عبادًا فقتل كل أسير أخذه، وتقدَّم محمد بن الأشعث فى خيل من أهل الكوفة؛ فلم يدركوا منهزمًا إلا قتلوه.

ولما فرغ مصعب منهم، أقبل فقطع الفرات، وسار إلى الكوفة، ولما بلغ المختار

(١) ينظر: طبقات خليفة (٢٤١)، طبقات ابن سعد (٥/ ١٨٢)، التاريخ الكبير (٧/ ٣٥٠)، الأخبار الطوال (١٤٢)، مروج الذهب (٣/ ١٠٦)، العقد الفريد (٧/ ١٥١)، المعرفة والتاريخ (١/ ٢١٤، ٢٢٣، ٦٢٧، ٢/ ٤٧٩، ٧٥٨، ٣/ ٩١، ٣١٣)، الثقات (٥/ ٤١٠)، البداية والنهاية (٨/ ٣١٧)، النجوم الزاهرة (١/ ١٨٧)، الكامل (١٣/ ٣٤٥)، سيرة ابن هشام (١/ ١١٢)، الفتوح لابن أعثم (٦/ ٢٦٠)، الجرح والتعديل (٨/ ٣٣).

خبر الهزيمة ومن قتل من أصحابه، وأن مصعبًا أقبل إليه فى البر والبحر سار إلى مجمع الأنهار - نهر الجزيرة والسلحين والقادسية ونهر يوسف - فكسر الفرات فذهب ماؤه فى الأنهار، وبقيت السفن سفن أهل البصرة فى الطين، فخرجوا إلى الكسر وأزالوه وقصدوا الكوفة، وسار المختار فنزل حروراء[1] بعد أن حصن القصر، وأدخل عدة الحصار.

وأقبل مصعب وعلى ميمنته المهلب، وعلى ميسرته سعيد بن منقذ الهمدانى، وعلى الخيل عمرو بن عبد الله النهدى، ونزل محمد بن الأشعث فيمن هرب من أهل الكوفة بين العسكرين.

ولما التقى الجمعان، اقتتلوا ساعة وحمل عبد الله بن جعدة بن هبيرة المخزومى على من بإزائه، فحطم أصحاب المختار حطمة منكرة وكشفوهم، وحمل مالك بن عمرو النهدى فى الرجالة عند المساء على ابن الأشعث حملة منكرة، فقتل ابن الأشعث وعامة أصحابه، وقتل عبيد الله بن على بن أبى طالب، وقاتل المختار، ثم افترق الناس عنه ودخل القصر، وسار مصعب من الغد فنزل السبخة، وقطع عنهم الميرة، وكان الناس يأتونهم بالقليل من الطعام والشراب خفية، ففطن مصعب لذلك فمنعه، وأصابهم العطش، فكانوا يصبون العسل فى الآبار ويشربون.

ثم إن المختار أشار على أصحابه بالاستماتة فتحنط وتطيب وخرج فى عشرين رجلاً منهم السائب بن مالك الأشعرى فعذله، فقال: ويحك يا أحمق، وثب ابن الزبير بالحجاز، وابن نجدة باليمامة، ومروان بالشام، فكنت كأحدهم إلا أنى طلبت بثأر أهل البيت إذ نامت عنه العرب، فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نية، ثم تقدم فقاتل حتى قتل على يد رجلين من بنى حنيفة أخوين: طرفة وطراف ابنى عبد الله بن دجاجة.

وكان عبد الله بن جعدة بن هبيرة لما رأى عزم المختار على الاستماتة تدلى من القصر واختفىٰ عند بعض إخوانه، ثم بعث الذين بقوا بالقصر إلى مصعب، ونزلوا على حكمه، فقتلهم أجمعين، وأشار عليه المهلب باستبقائهم، فاعترض أشراف الكوفة ورجع إلى رأيهم، ثم أمر بكف المختار بن أبى عبيد فقطعت وسمرت إلى

---

(١) حَرَوْرَاء: قرية بظاهر الكوفة، وقيل: موضع على ميلين منها. ينظر المراصد (١/ ٣٩٤).

جانب المسجد، فلم ينزعها من هنالك إلا الحَجَّاج. وقتل زوجته خولة بنت النعمان ابن بشر زعمت أن المختار [رجل كان يقول ربى الله وكان يصوم نهاره ويقوم ليله، وأنه بذل دمه لله ولرسوله فى طلب قتلة الحسين وأهل بيته][1] فاستأذن أخاه عبد الله وقتلها؛ كذا فى تاريخ ابن خلدون.

قال المسعودى[2]: أتى مصعب بحريم المختار، فدعاهنَّ إلى البراءة منه فقبلْنَ[3]، إلا حرمتان؛ إحداهما: فاطمة بنت سمرة بن جندب الفزارى، والأخرى: خولة بنت النعمان بن بشير الأنصارى، فكتب مصعب بخبرهما إلى أخيه عبد الله بن الزبير، فكتب إليه: إن رجعتا عما هما عليه وبرئتا، وإلا فاقتلهما، فلما طلب البراءة منهما، قالتا: كيف نبرأ من رجل [يقول ربى الله][4] كان صائم النهار وقائم الليل، قد بذل دمه لله ورسوله فى طلب قتلة ابن بنت نبيه وأهله وشيعته، فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس، وأبرد الأكباد، فعرضهما مصعب على السيف، فأجابت الفزارية وتبرأت منه ولعنته، وقالت: لو دعوتمونى إلى الكفر مع السيف، لكفرت، وأما ابنة النعمان الأنصارية فأبت، وقالت شهادة أرزقها فأتركها؟! كلا إنها موتة ثم الجنة، وأقدم على رسول الله ﷺ وأهل بيته، اللهم، اشهد أنى متبعة نبيك وابن عمه وأهل بيته، ثم قدمت فقتلت، ففى ذلك يقول عمر بن أبى ربيعة: [من الخفيف]

إنَّ مِنْ أَعْجَبِ الأَعَاجِيبِ عِنْدِى   قَتْلَ حَسْنَاءَ غَادَةٍ عُطْبُولِ[5]
قَتَلُوهَا ظُلمًا عَلَى غَيْرِ جُرْمٍ   إنَّ لِلَّهِ دَرَّهَا مِنْ قَتِيلِ
كُتِبَ القَتْلُ والقِتَالُ عَلَيْنَا   وَعَلَى الغَانِيَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ

ثم كتب مصعب إلى إبراهيم بن الأشتر يدعوه إلى طاعته ويعده بالولاية على أعِنَّة الخيل، وما غلب عليه من أرض العرب، وكتب إليه عبد الملك بولاية العراق، واختلف إليه أصحابه، وجنح إلى مصعب خشية مما أصاب من ابن زياد وأشراف

(١) بياض بالأصل، والزيادة بالمعني من مروج الذهب ليستقيم المعنى.
(٢) ينظر مروج الذهب (٣/ ١٠٧).
(٣) في المروج: ففعلن.
(٤) الزيادة من المروج.
(٥) في المروج: بيضاء حرة عطبول. والعُطْبول: المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق. ينظر ترتيب القاموس (عطبل).

الشام، فكتب إلى مصعب بالإجابة، وسار إليه فبعث على عمله بالموصل والجزيرة وأرمينية وأذربيجان المهلب بن أبى صفرة.

وقيل: إن المختار إنما أظهر الخلاف لابن الزبير عند قدوم مصعب البصرة، وإنه بعث على مقدمته أحمد بن شميط، وبعث مصعب عبادًا الحبطى، ومعه عبيد الله بن على بن أبى طالب، وتوافوا ليلاً، فناجزهم المختار من ليلته، وانكشف أصحاب مصعب إلى عسكرهم، واشتدَّ القتال وقتل من أصحاب مصعب جماعة منهم محمد ابن الأشعث، فلما أصبح المختار وجد أصحابه قد توغلوا فى أصحاب مصعب، وليس عنده أحد، فانصرف ودخل قصر الكوفة، وفقده أصحابه، فلحقوا به، ودخل القصر معه ثمانية آلاف منهم، وأقبل مصعب فحاصرهم أربعة أشهر يقاتلهم بالسيف كل يوم حتى قتل، وطلب الذين فى القصر الأمان من مصعب، ونزلوا على حكمه فقتلهم جميعًا، وكانوا ستة آلاف رجل.

ولما ملك مصعب الكوفة، بعث عبد الله بن الزبير ابنه حمزة على البصرة مكان مصعب، فأساء السيرة، وقصر بالأشراف، ففزعوا إلى مالك بن مسمع، فخرج إلى الجسر وبعث إلى حمزة: الحق بأبيك، وكتب الأحنف إلى أبيه أن يعزله عنهم ويعيد لهم مصعبًا، ففعل، وخرج بالأموال فعرض له مالك بن مسمع، وقال: لا ندعك تخرج بأعطياتنا، فضمن له عمر بن عبيد الله العطاء، فكف عنه.

وقيل: إن عبد الله بن الزبير إنما رد مصعبًا إلى البصرة عند وفادته عليه بعد سنة من قتل المختار، ولمَّا رد إلى البصرة، استعمل عمر بن عبيد الله بن معمر على فارس، وولاه حرب الأزارقة، وكان المهلب على حربهم أيام مصعب وحمزة، فلما أراد أن يولى المهلب الموصل والجزيرة وأرمينية؛ ليكون بينه وبين عبد الملك، فاستقدمه واستخلف على عمله ابنه المغيرة، فلما قدم البصرة، عزله مصعب عن حرب الخوارج وبلاد فارس، واستعمل عليها عمر بن عبيد الله بن معمر؛ فكان له فى حروبهم مانذكره فى أخبار الخوارج.

* * *

خلاف عمرو بن سعيد الأشدق ومقتله(١)

كان عبد الملك بعد رجوعه من قنسرين، أقام بدمشق زمانًا، ثم سار لقتال زفر بن الحارث الكلابى بقرقيسيا، واستخلف على دمشق عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى- ابن أخته - وسار معه عمرو بن سعيد، فلما بلغ بطنان، انتقض عمرو، وأسرى ليلاً إلى دمشق، وهرب ابن أم الحكم عنها، فدخلها وهدم داره، واجتمع إليه الناس فخطبهم ووعدهم، وجاء عبد الملك على أثره، فحاصره بدمشق، ووقع بينهما القتال أيامًا، ثم اصطلحا وكتبا بينهما كتابًا وأمنه عبد الملك، فخرج إليه عمرو، ودخل عبد الملك دمشق فأقام أربعة أيام، ثم بعث إلى عمرو ليأتيه، فقال له عبد الملك بن يزيد بن معاوية وهو صهره وكان عنده: لا تأته؛ فإنى أخشى عليك منه، فقال: والله لو كنت نائمًا ما أيقظنى، ووعد الرسول بالرواح إليه.

ثم أتى بالعشى ولبس درعه تحت القباء، ومضىٰ فى مائة من مواليه، وقد جمع عبد الملك عنده بنى مروان، وحسان بن بحدل الكلبى، وقبيصة بن ذؤيب الخزاعى، وأذن لعمرو فدخل، ولم يزل أصحابه يجلسون عند كل باب حتى بلغ غاية الدار وما معه إلا غلام، ونظر إلى عبد الملك والجماعة حوله فأحس بالشر، فقال للغلام: انطلق إلى أخى يحيى، وقل له يأتينى، فلم يفهم عنه، وأعاد عليه فيجيبه الغلام: لبيك؟ وهو لايفهم، فقال له: اغرب عنى، ثم أذن عبد الملك لحسان وقبيصة فلقيا عمرًا، ودخل فأجلسه معه على السرير وحادثه زمنًا، ثم أمر بنزع السيف، فأنكر ذلك عمرو، وقال: إنا لله يا أمير المؤمنين، فقال عبد الملك: أتطمع أن تجلس معى متقلّدًا سيفك؟! فأخذ عنه السيف، فقال له عبد الملك: يا أبا أمية إنك حين خلعتنى حلفتُ بيمين، إن أنا رأيتك بحيث أقدر عليك أن أجعلك فى جامعة، فقال بنو مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين، قال: نعم، وما عسيت أن

(١) ينظر عن عمرو بن سعيد في: طبقات خليفة (١١، ٢٩٨)، سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٢)، الأخبار الطوال (٢٤٤)، المعرفة والتاريخ (٣/٣٢٦)، عيون الأخبار (٢/ ١٧١)، مختصر التاريخ (١١٠)، تقريب التهذيب (٢/ ٧٠)، الأصابة (٣/ ١٧٥)، خلاصة تهذيب التهذيب (٢٨٩) الكنى والأسماء (١/ ١١٣)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤٩)، تهذيب الكمال (١٠٣٥)، العقد الفريد (١/ ٧٩)، تاريخ الطبرى (٥/ ٤٧٤)، الكامل في التاريخ (٢/ ٤١٤)، المعارف (١٤٥)، تاريخ خليفة (٩٧)، المحبّر (١٠٤).

أصنع بأبى أمية، فقال بنو مروان: أبر قسم أمير المؤمنين يا أبا أمية، فقال عمرو: قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين.

فأخرج من تحت فراشه جامعة، وأمر غلامًا فجمعه فيها وسأله أن يخرجه على رءوس الناس، فقال: أمكرًا عند الموت؟! ثم جذبه جذبة أصاب فمه السرير، فكسر ثنيته، ثم سأله الإبقاء، فقال عبد الملك: والله، لو علمتُ أنك تبقى إن أبقيت عليك، وتصلح قريش، لأبقيتك، ولكن لايجتمع رجلان مثلنا فى بلد، فشتمه عمرو، وخرج عبد الملك إلى الصلاة وأمر أخاه عبد العزيز بقتله، فلما قام إليه بالسيف، ذكره الرحم، فأمسك عنه وجلس، ورجع عبد الملك من الصلاة وغلقت الأبواب، فأغلظ على عبد العزيز، ثم تناول عمرًا فذبحه بيده، وقيل: أمر غلامه ابن الزعيزعة فقتله.

وفقد الناس عمرًا مع عبد الملك حين خرج إلى الصلاة، فأقبل أخوه يحيى فى أصحابه وعبيده، وكانوا ألفًا ومعه حميد بن حريث وزهير بن الأبرد، فهتفوا باسمه، ثم كسروا باب المقصورة، وضربوا الناس بالسيوف، وجرحوا الوليد بن عبد الملك، واقتتلوا ساعة، ثم خرج عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى بالرأس، فألقاه إلى الناس، وألقى إليهم عبد العزيز بن مروان بدر الأموال فانتهبوها وافترقوا، ثم خرج عبد الملك إلى الناس، وسأل عن الوليد، فأخبر بجراحته، وأتى بيحيى بن سعيد وأخيه عنبسة، فحبسهما وحبس بنى عمرو بن سعيد، ثم أخرجهم جميعًا، وألحقهم بمصعب حتى حضروا عنده بعد قتل مصعب فأمنهم ووصلهم.

وكان بنو عمرو أربعة: أمية، وسعيد، وإسماعيل، ومحمد، ولما حضروا عنده قال: أنتم أهل بيت ترون لكُمْ على جميع قومكم فضلاً لن يجعله الله لكم، والذى كان بينى وبين أبيكم لم يكن حديثًا، وإنما كان قديمًا فى أنفس أوليائكم على أوليائى فى الجاهلية، فقال سعيد: يا أمير المؤمنين تعد علينا أمرًا كان فى الجاهلية، والإسلام قد هدم ذلك، ووعد جنة، وحذَّر نارًا، وأما عمرو فهو ابن عمك، وقد وصل إلى الله وأنت أعلم بما صنعت، وإن أَخَذْتَنَا بِهِ، فبطن الأرض خير لنا من ظهرها، فَرَقَّ لهم عبد الملك وقال: أبوكم خيَّرنى بين أن يقتلنى أو أقتله، فاخترتُ قتله على قتلى، وأما أنتم فما أَرغبنى فيكم وأوصلنى لقرابتكم. وأحسن جائزتهم.

وقيل: إن عمرًا إنما كان خَلْعُهُ وقتله حين سار عبد الملك لقتال مصعب، طلبه أن يجعل له العهد بعده كما فعل أبوه؛ فلم يجبه إلى ذلك، فرجع إلى دمشق.

وقيل: كان عبد الملك استخلفه على دمشق، فعصى وامتنع بها، وكان قتله سنة تسع وستين.

مسير عبد الملك إلى العراق ومقتل مصعب

ولما صفا الشام لعبد الملك، اعتزم على العراق، وأتته الكتب من أشرافهم يدعونه، فاستمهله أصحابه، فأبى وسار نحو العراق، وبلغ مصعبًا مسيره فأرسل إلى المهلب بن أبى صفرة، وهو بفارس فى قتال الخوارج يستشيره، وقد كان عزل عمر ابن عبيد الله بن معمر عن فارس وحرب الخوارج، وولى المهلب مكانه، وذلك حين استخلف هو على البصرة وجاء خالد بن عبيد الله بن خالد بن أسد إلى البصرة مختفيًا داعية لعبد الملك عند مالك بن مسمع فى بكر بن وائل والأزد، وأمده عبد الملك بعبيد الله بن زياد بن ظبيان، وحاربهم عمر بن عبيد الله بن معمر، ثم صالحهم على أن يخرجوا خالدًا فأخرجوه، وجاء مصعب وقد طمع أن يدرك خالدًا فوجده قد خرج، فسخط على ابن معمر، وسَبَّ أصحابه، وضربهم وهدم دورهم، وخلعهم، وهدم دار مالك بن مسمع، واستباحها، وعزل ابن معمر عن فارس، وولى المهلب وخرج إلى الكوفة، فلم يزل بها حتى سار للقاء عبد الملك.

قلت: هكذا ذكره فى العبر، ورأيت فى المروج ما نصه(١): كان مصعب حين صفا له العراق بعد قتل المختار وأصحابه، خرج حتى انتهى إلى الموضع المعروف بـ« باجميرا »(٢) مما يلى الجزيرة، يريد الشام لحرب عبد الملك بن مروان، فبلغه مسير خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد من مكة إلى البصرة فى عدة من مواليه وولده ناكثًا لبيعة أخيه عبد الله بن الزبير وداعية لعبد الملك، فحاربه مصعب فكسره، فخرج هاربًا ببنيه حتى لحق بعبد الملك.

وهو كما ترى مخالفٌ لقول صاحب كتاب العبر.

---

(١) يُنظر مروج الذهب (٣/ ١١٢).

(٢) في ط: بالحميراء. وهو تحريف والصحيح ما أثبتنا و (باجُمَيْرا): موضع دون تكريت إلى الموصل. ينظر المراصد (١/ ١٤٧).

وجاء مصعب وطمع أن يدرك خالدًا فوجده قد خرج، فسخط على ابن معمر، وسبَّ أصحابه... إلى آخره.

قال الذهبى: يروى فى بعض الآثار أن مصعبًا لما سار عن الكوفة عشرة أيام يريد قتال عبد الملك بن مروان، كتب إلى زوجته سكينة ابنة الحسين بن على، رضى الله عنه: [من الطويل]

وَكَانَ عزيزًا أن أَبِيتَ وبَيْنَنَا ... سِفَارٌ فَقَدْ أصبحْتُ منكِ على عَشْرِ
وأَنْكَاهُمَا للعَيْنِ واللَّهِ فاعْلَمِى ... إذ ازددتُ مِثْلَيْهَا فصرْتُ على شَهْرِ
وأَبْكى لعينى منهما اليَوْمَ أننى ... أَخَافُ بألاَّ نَلْتَقِى آخِرَ الدَّهْرِ

فلما جاءها الخبر بموته، قالت: [من الطويل]

فَإِنْ تقتلوه تقتُلُوا الماجِدَ الذى ... يرى الموْتَ إلا بالسيُوفِ حَرَامَا
وقبلك ما خَاضَ الحُسَين مَنِيَّةً ... إلى السيْفِ حتى أوردُوهُ حِمَامَا

وكان معه الأحنف، فتوفى بالكوفة، ولما بعث عن المهلب يسير معه إلى أهل البصرة أن يكون المهلب على قتال الخوارج، فرده، فقال له المهلب: إن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم؛ فلا نتعدَّىٰ، ثم بعث مصعب عن إبراهيم بن الأشتر، وكان على الموصل والجزيرة، فجعله على مقدمته، وسار حتى عسكر فى مسكن، وسار عبد الملك وعلى مقدمته أخوه محمد بن مروان، وخالد بن عبد الله ابن خالد بن أسيد، فنزلوا قرقيسيا، وحصروا زفر بن الحارث الكلابى، ثم صالحه، وبعث زفر معه الهذيل ابنه فى عسكر وسار عنه، فنزل بمسكن قريبًا من عسكر مصعب، وفر الهذيل من زفر، ولحق بمصعب، وكتب عبد الملك إلى أهل العراق وكتبوا إليه وكلهم يشرط أصبهان، وأتى ابن الأشتر بكتابه مختومًا إلى مصعب، فقرأه، فإذا هو يدعو إلى نفسه، ويجعل له ولاية العراق، فأخبره مصعب بما فيه، وقال: مثل هذا لايرغب عنه، فقال إبراهيم: ماكنت لأتقلَّد الغدر والخيانة، ولقد كتب عبد الملك إلى أصحابك كلهم مثل هذا فأطعنى، واقتلهم أو احبسهم فى أبيض كسرى، فأبى عليه مصعب، وأضمر أهل العراق الغدر بمصعب، وعذلهم قيس بن الهيثم ولامهم فى طاعة أهل الشام، فأعرضوا عنه.

ولما تدانى العسكران بعث عبد الملك إلى مصعب يقول: تعال نجعل الأمر

شورى، فقال مصعب: ليس بيننا إلا السيف، فقدم عبد الملك أخاه محمدًا، وقدم مصعب إبراهيم بن الأشتر، وأمده بالجيش، فأزال محمدًا عن موقفه فأمده عبد الملك بعبد الله بن يزيد، فاشتد القتال، وقتل من أصحاب مصعب مسلم بن عمرو الباهلى والد قتيبة، وأمد مصعب إبراهيم بعتاب بن ورقاء، فساء ذلك إبراهيم، ونكره، وقال: قد أوصيته لايمدنى بعتاب وأمثاله، وكان قد بايع لعبد الملك، فجرَّ الهزيمة على إبراهيم، فقتل وحمل رأسه إلى عبد الملك، وتقدم أهل الشام، فقاتل مصعب ودعا رءوس العراق إلى القتال، فاعتذروا وتثاقلوا، فدنا محمد ابن مروان من مصعب وناداه بالأمان، وأشعره بغدر أهل العراق، فأعرض عنه، فنادى ابنه عيسى بن مصعب، فأذن له أبوه فى لقائه، وبذل له الأمان وأخبر أباه، فقال: أظنهم يَفُونَ لك بذلك، فإن أحببت فافعل، قال: لاتتحدَّث نساء قريش أنى رغبت بنفسى عنك، قال: فاذهب إلى عمك بمكة، فأخبره بصنع أهل العراق، ودعنى، فإنى مقتول، فقال: لا أخبر قرشيًا عنك أبدًا، ولكن الحق أنت بالبصرة، فإنهم على الطاعة، أو بأمير المؤمنين بمكة، فقال: لا تتحدَّثْ قريش عنى أننى فرزتُ، ثم قال لعيسى: تقدم يا بنى أحتسبك، فتقدم فى ناس وقتل وقتلوا، ولج عليه عبد الملك فى قبول أمانِهِ، فأبى، ودخل سرادقه فتحنَّط ورمى السرداق فخرج، فقاتل، ودعاه عبيد الله بن زياد بن ظبيان إلى البراز، فشتمه وحمل عليه، فضربه فجرحه.

وخذل أهل العراق مصعبًا حتى بقى فى سبعة أنفس، فأثخنته الجراحة، فرجع إليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فقتله، وجاء برأسه إلى عبد الملك، فأمر له بألف دينار، فلم يأخذها وقال: إنما قتلته بثأر أخى، وكان قطع الطريق فقتله صاحب شرطة مصعب، وقيل: إن الذى قتله زائدة بن قدامة الثقفى من أصحاب المختار، وأخذ عبيد الله رأسه وأمر عبد الملك به وبابنه عيسى، فدفنا بدير الجاثليق عند نهر دجيل، وكان ذلك سنة إحدى وسبعين.

قال الذهبى[1]: لما بذل لمصعب الأمان - وقد بقى فى سبعة نفر - أبى وبارز فعرقبت فرسه، وبقى راجلاً فأقبل عبيد الله بن زياد بن ظبيان، وكان قد أثخن

(١) ينظر تاريخ الإسلام (٣٠٤- حوادث سنة ٦١-٨٠هـ).

جراحًا. فاختلفا ضربتين سبقه مصعب بالضربة الأولى إلى رأسه فلم تؤثر ضربته إلا جرحًا، وضربه ابن ظبيان فقتله وأخذ رأسه إلى عبد الملك، فسجد، وقبض عبيد الله بن ظبيان على قائم سيفه، واجتذبه حتى أتى على أكثره، سله ليضرب به عبد الملك حال سجوده، ثم تذمَّم واسترجع، فكان يقول بعد ذلك: ذهب الفتك بين الناس إذ هممت فلم أفعل؛ فأكون قد قتلت عبد الملك ومصعبًا ملكَى العرب فى ساعة واحدة.

وكان قتله يوم الثلاثاء، لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى، سنة اثنتين وسبعين من الهجرة النبوية، ودفن هو وابنه بدير الجاثليق كما تقدم آنفًا.

وتمثل عبد الملك عند مجيء رأس مصعب بقوله: [من الطويل]

نُعَاطِى الملوكَ الحقَّ ما قَسَطُوا لنا ... ولَيْسَ علينا قَتْلُهُمْ بِمُحَرَّمِ

ولما رجع عبد الملك إلى الكوفة، ودخل قصر الإمارة، وضع الرأس بين يديه.

حدَّث المنقرى، قال: حدثنى سويد بن سعيد، قال: حدثنا مروان بن معاوية الفزارى، عن محمد بن عبد الرحمن، عن أبى مسلم بن الحنفى: كنت مع عبد الملك بن مروان حين جيء إليه برأس مصعب بن الزبير، فرأى عبد الملك فيَّ اضطرابًا، فسألنى، فقلت: يا أمير المؤمنين، دخلت هذا القصر، يعنى: قصر الإمارة بالكوفة، فرأيت رأس الحسين بين يَدَىْ عبيد الله بن زياد فى هذا الموضع، ثم دخلته فرأيتُ رأسَ ابن زياد بين يَدَى المختار بن أبي عُبَيْدٍ الثقفي، ثم دَخَلْتُهُ فرأيت رأسَ المختار بين يدى مصعب بن الزبير، وهذا مصعبٌ بين يديك، فوثب عبد الملك متطيِّرًا، وقال: لا أراك الله الخامس، وأمر بهدم القصر حجرًا حجرًا.

ثم دعا عبد الملك جند العراق إلى البيعة فبايعوه، وسار إلى الكوفة، فأقام بالنخيلة أربعين يومًا، وخطب الناس، فوعد المحسن وتوعد المسيء، وطلب يحيى ابن سعيد بن جعفر وكانوا أخواله فأحضروه وأمنه، ثم ولى أخاه بشر بن مروان على الكوفة، ومحمد بن نمير على همذان، ويزيد بن ورقاء بن رويم على الرى، ولم يف لهم بأصفهان؛ كما اشترطوا عليه.

وكان عبد الله بن يزيد بن أسد والد خالد القسرى ويحيى بن مصدق الهمدانى قد لجأا إلى على بن عبيد الله بن عباس، ولجأ هذيل بن زفر بن الحارث، وعمرو بن يزيد الحكمى إلى خالد بن يزيد، فأمنهم عبد الملك، وصنع عمرو بن حريث

لعبد الملك طعامًا، فأحضره بالخورنق، وأذن للناس عامة فدخلوا، وجاء عمرو بن حريث، فأجلسه معه على سريره، وطعم الناس، ثم طاف مع عمرو بن حريث على القصر يسأله عن مساكنه ومعالمه، ولما بلغ عبد الله بن خازم مسير مصعب لقتال عبد الملك قال: أمعه عمر بن معمر؟! قيل: لا، هو على فارس، قال: فالمهلب؟ وقيل: فى قتال الخوارج، قال: فعباد بن الحصين؟ قيل: على البصرة، قال: وأنا بخراسان: [من الطويل]

خُذِينِى فَأَجْرِينِى جَعَارِ وَأَبْشِرِى بِلَحْمِ امرِئٍ لم يَشْهَدِ اليَوْمَ نَاصِرهْ

ثم بعث عبد الملك برأس مصعب إلى الكوفة، ثم إلى الشام، فنصب بدمشق، وأرادوا التطواف به، فمنعت من ذلك زوجة عبد الملك عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فغسلته ودفنته، وانتهى قتل مصعب إلى المهلب، وهو يحارب الأزارقة، فبايع الناس لعبد الملك بن مروان.

ولما جيء بخبر مصعب لعبد الله بن الزبير، خطب الناس فقال: الحمد الله الذى له الخلق والأمر، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء؛ ألا وإنه لم يذل الله من كان الحق معه، وإن كان الناس عليه.

وقد أتانا من العراق خبر أحزننا؛ فإن لفراق الحميم لوعةً يجدها حميمه عند المصيبة، ثم عبد من عباد الله وعون من أعوانى، ألا وإن أهل العراق أهل الغدر والنفاق، أسلموه وباعوه بأقلِّ الثمن، فإنْ يقتل ثمة[1] فوالله، ما نموت على مضاجعنا كما يموت بنو أبى العاص، فوالله، ما قتل رجل منهم فى الجاهلية ولا فى الإسلام، ولا نموت إلا قعصًا بالرماح وتحت ظلال السيوف؛ ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذى لا يزول سلطانه ولا يبيد، فإن تقبل، فلا آخذها أخذ الأشر البطر، وإن تدبر، لم أبك عليها بكاء الضرع المهين، أَقُولُ قولى هذا، وأستغفر الله لى ولكم[2].

ولما بلغ خبر مصعب البصرة، تنازع فى ولايتها حمران بن أبان وعبد الله بن أبى بكر، واستعان حمران بعبد الله بن الأهتم، فغلب عليها، وكانت له منزلة عند بنى أمية، فلمّا تمهد الأمر بالعراق لعبد الملك بعد مصعب، ولى على البصرة خالد بن

(١) فى ط: فمه.
(٢) ينظر مروج الذهب (٣/ ١١٩)، تاريخ الإسلام (ص٣٠٧) (حوادث سنة ٦٢هـ).

عبد الله بن أسيد، فاستخلف عليه عبد الله بن أبى بكر، فقدم على حمران وعزله حتى جاءه خالد، ثم عزل خالدًا سنة ثلاث وسبعين، وولى مكانه على البصرة أخاه بشرًا، وجمع له المصرين، وسار بشر إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث، وولى عبد الملك على الجزيرة وأرمينية بعد قتل مصعب أخاه محمد بن مروان سنة ثلاث وستين، فغزا الروم، ومزقهم بعد أن كان هادن ملك الروم أيام الفتنة على ألف دينار، يدفعها إليه كل يوم.

أمر زفر بن الحارث(١) بقرقيسيا

قد ذكرنا فى وقعة راهط مسير زفر إلى قرقيسيا، واجتماع قيس عليه، وأقام بها يدعو لابن الزبير، ولما ولى عبد الملك، كتب إلى أبان بن عقبة بن أبى معيط، وهو على حمص، بالمسير إلى زفر، فسار وعلى مقدمته عبد الله بن رميث الطائى، فعاجله عبد الله بالحرب، وقتل من أصحابه نحو ثلاثمائة، ثم أقبل أبان، فواقع زفر وقتل ابنه وكيع بن زفر، وأوهنه، ثم سار إليه عبد الملك إلى قرقيسيا قبل مسيره إلى مصعب، فحصره ونصب عليه المجانيق، وقالت كلب لعبد الملك: لا تخلط معنا القيسية؛ فإنهم ينهزمون إذا التقينا مع زفر، ففعل، واشتد حصارهم، وكان زفر يقاتلهم فى كل غداة، وأمره ابن الهذيل أن يحمل حتى يضرب فسطاط عبد الملك، ففعل وقطع بعض أطنابه، ثم بعث عبد الملك أخاه محمدًا بالأمان لزفر وابنه الهذيل على أنفسهما ومَنْ معهما، وأن لهم ما أحبوا، فأجاب الهذيل وداخل أباه فى ذلك، وقال: عبد الملك لنا خير من ابن الزبير، فأجاب على أن له الخيار، وأن ينزل حيث شاء، ولا يعين على ابن الزبير.

وبينما الرسل تختلف بينهم، إذ قيل لعبد الملك: قد هدم من المدينة أربعة أبرجة، فترك الصلح وزحف إليهم، فكشفوا أصحابه إلى عسكرهم، ورجع إلى الصلح، واستقرَّ بينهم على الأمان، ووضع الأموال ألاَّ يبايع لعبد الملك حتى يموت

---

(١) ينظر عن زفر بن الحارث العقد الفريد (٨/ ٢١٤)، الوافى بالوفيات (١٤/ ١٩٩) فوات الوفيات (٢/ ٣٨٩)، الأخبار الطوال (١٧٢)، المحبّر (٢٥٥)، تاريخ الطبرى (٤/ ٥٠٥)، تاريخ خليفة (١٩٥)، الفتوح لابن أعثم (٦/ ٢٦)، تاريخ اليعقوبي (٢/ ٢٥١)، الوزراء والكتاب (٣٥)، الولاة والقضاء (٤٢).

ابن الزبير للبيعة التى له فى عنقه وأن يدفع إليه مال نفسه فى أصحابه، وتأخر زفر عن لقاء عبد الملك؛ خوفًا من فعلته بعمرو بن سعيد، فأرسل إليه بقضيب النبى ﷺ، فجاء إليه وأجلسه عبد الملك معه على سريره وزوج ابنه مسلمة الرباب بنت زفر، وسار عبد الملك إلى قتال مصعب، فبعث زفر بن الهذيل معه فى عسكر، فلما قارب مصعبًا، هرب إليه وقاتل مع ابن الأشتر حتى إذا قتلوا، اختفى الهذيل فى الكوفة حتى آمنه عبد الملك؛ كما مر.

مقتل عبد الله بن الزبير(١)

كان عبد الملك لما بويع بالشام، بعث إلى المدينة عروة بن أنيف فى ستة آلاف من أهل الشام، وأمره أن يعسكر بالعرصة، ولا يدخل المدينة، وعامل ابن الزبير يومئذ على المدينة الحارث بن حاطب بن الحارث بن معمر الجمحى، فهرب الحارث، وأقام ابن أنيف شهرًا يصلى بالناس الجمعة بالمدينة ويرجع إلى معسكره، ثم رجع ابن أنيف إلى الشام، فرجع الحارث إلى المدينة، وبعث ابن الزبير سليمان ابن خالد الدورقى على خيبر وفدك، وبعث عبد الملك إلى الحجاز عبد الملك بن الحارث بن الحكم فى أربعة آلاف، فنزل وادى القرى، وبعث سرية إلى سليمان بخيبر وهرب فأدركوه فقتلوه ومن معه، وأقاموا بخيبر وعليهم أبو القمقام، ونكر عبد الملك ذلك واغتم له، وقال: قتلوا رجلًا صالحًا بغير ذنب، ثم عزل ابن الزبير الحارث بن حاطب عن المدينة، وولى مكانه جابر بن الأسود بن عوف الزهرى، فبعث جابر إلى خيبر أبا بكر بن أبى قيس فى ستمائة، فانهزم ابن القمقام وأصحابه أمامهم، وقتلوا صبرًا.

ثم بعث عبد الملك طارق بن عمرو مولى عثمان، وأمره أن ينزل بين أيلة ووادى القرى ويمنع عمال ابن الزبير من الانتشار، ويسد خللًا إن ظهر له بالحجاز، فبعث طارق خيلًا إلى أبى بكر بخيبر، واقتتلوا، فأصيب أبو بكر فى مائتين من أصحابه، وكتب ابن الزبير إلى القباع، وهو عامله على البصرة يستمده ألفَىْ فارس إلى

(١) ينظر تاريخ خليفة (ص٢٠٦) تاريخ الطبرى (٦/ ١٩٢) مروج الذهب (٣/ ١٢٠-١٢٢) وتاريخ الإسلام حوادث سنة ثلاث وسبعين والبداية والنهاية (٨/ ٣٦٥-٣٦٧)، والفتوح لابن الأعثم (٦/ ٢٧٨-٢٧٩).

المدينة، فبعثهم القباع، وأمر ابن الزبير جابر بن الأسود أن يسيرهم إلى قتال طارق ففعل، ولقيهم طارق فهزمهم، وقتل مقدمهم وقتل من أصحابه خلقًا، وأجهز على جريحهم، ولم يستبق أسيرهم، ورجع إلى وادى القرى، ثم عزل ابن الزبير جابرًا عن المدينة، واستعمل طلحة بن عبد الله بن عوف، وهو طلحة الندى، وذلك سنة سبعين، فلم يزل على المدينة حتى أخرجه طارق.

ولما قتل عبد الملك مصعبًا، ودخل الكوفة، بعث منها الحجاج بن يوسف الثقفى فى ثلاثة آلاف من أهل الشام لقتال ابن الزبير، وكتب معه الأمان لابن الزبير ومن معه إن أطاعوا، فسار فى جمادى سنة ثنتين وسبعين، فلم يعرض للمدينة، ونزل الطائف، وكان يبعث الخيل إلى عرفة وتلقاهم هناك خيل ابن الزبير، فينهزمون دائمًا، وترجع خيل الحجاج بالظفر، ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بضعف ابن الزبير وتفرُّق أصحابه، ويستأذنه في دخول الحرم لحصار ابن الزبير ويستمده، فكتب عبد الملك إلى طارق باللحاق بالحجاج، فقدم المدينة فى ذى القعدة سنة ثنتين وسبعين، وأخرج عنها طلحة الندى عامل ابن الزبير، وولى مكانه رجلاً من أهل الشام، وسار إلى الحجاج بمكة فى خمسة آلاف، ولما قدم الحجاج مكة، أحْرَم بحجة ونزل بئر ميمون، وحج بالناس، ولم يطف ولا سعى، وحصر ابن الزبير عن عرفة فنحر بدنه بمكة، ولم يمنع الحجاج من الطواف والسعى، ثم نصب الحجاج المنجنيق على أبى قبيس ورمى به الكعبة، وكان ابن عمر قد حج تلك السنة فبعث إلى الحجاج بالكف عن المنجنيق لأجل الطائفين، ففعل، ونادى منادى الحجاج عقيب الإفاضة: انصرفوا إلى بلادكم، فإنا نعود بالحجارة على ابن الزبير، ورمى المنجنيق على الكعبة وألَحّتِ الصواعق عليهم فى يومين، وقتلت من أهل الشام رجالاً، فذعروا، فقال لهم الحجاج: لا تنكروا؛ فهذه صواعق تهامة، وإن الفتح قد حضر فأبشروا، ثم أصابت الصواعق من أصحاب ابن الزبير، فسرى عن أهل الشام، وكانت الحجارة تقع بين يدى ابن الزبير، وهو يصلى فلا ينصرف، ولم يزل القتال بينهم، وغلت الأسعار، وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح ابن الزبير فرسه، وقسم لحمه فى أصحابه، وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم، والمُدُّ من الذرة بعشرين، وبيوت ابن الزبير مملوءة قمحًا وشعيرًا وذرةً وتمرًا، ولا ينفق منه إلا ما

يمسك الرمق يقوى به نفوس أصحابه، ثم أجهدهم الحصار.

وبعث الحجاج إلى أصحاب ابن الزبير بالأمان، فخرج إليه منهم نحو عشرة آلاف وافترق الناس عنه، وكان ممن فارقه ابناه حمزة وخبيب، وأقام ابنه الزبير حتى قتل معه، وحرض الحجاج الناس، وقال: قد ترون قلة أصحاب ابن الزبير وما هم فيه من الجهد والضيق، فتقدموا وملئوا ما بين الحجون إلى الأبواب، فدخل ابن الزبير على أمه أسماء، وقال: يا أمه، قد خذلنى الناس حتى ولدى، والقوم يعطوننى ما أردتُ من الدنيا فما رأيك ؟! فقالت له: أنت أعلم بنفسك، إن كنت على حق، وتدعو إليه، فامض له؛ فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكِّن من رقبتك تلعب بها غلمان بنى أمية، وإن كنت إنما أردتَّ الدنيا، فبئس العبد أنتَ أهلكْتَ نفسك ومن قتل معك، وإن قلت: كنت على حق، فلما وهن أصحابى، ضعفْتُ، فليس هذا بفعل الأحرار ولا أهل الدين.

فقال: يا أمه، أخاف أن يمثلوا بى ويصلبونى، فقالت: يا بنيَّ، الشاة لا تألم بالسلخ، فامض على بصيرتك واستعزَّ بالله، فقبل رأسها، وقال: هذا رأيى الذى خرجْتُ به داعيًا إلى يومى هذا، وما ركنت إلى الدنيا، وما أخرجنى إلا الغضب لله، وأن تستحلَّ حرماته، لكن أحببت أن أعلم رأيك، فقد زدتنى بصيرة، وإنى يا أمه فى يومى هذا مقتول، فلا يشتدَّ حزنك وسلِّمى الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يخن ولم يغدر، ولم يظلم، ولم يقر على الظلم، ولم يكن عندى آثر من رضا الله تعالى، اللهم، لا أقول هذا تزكية لنفسى، لكن تعزية لأمى حتى تسلو عنى. فقالت: إنى لأرجو أن يكون عزائى فيك جميلاً، إن تقدمتنِى، أحتسبك، وإن ظفرتَ، سررت بظفرك، ثم قالت: اخرج حتى أنظر إلامَ يصير أمرك، فقال: جزاك الله خيرًا، فلا تدعى الدعاء، فدعت له، فودعها وودعته، ولما عانقته للوداع، وقعتْ يدها على الدرع، فقالت: ما هذا صنيعُ مَنْ يريد ما تريد، فقال: ما لبسته إلا لأشد منك، فقالت: إنه لا يشد منى، فنزعها، وقالت له: البس ثيابك مشمرة.

ثم خرج فحمل على أهل الشام حملةً منكرةً، فقتل منهم، ثم انكشف هو وأصحابه، وأشار عليه بعضهم بالفرار، فقال: بئس الشيخ أنا فى الإسلام إن أوقعت

قومًا قتلوا، ثم فررت على مثل مصارعهم.

وامتلأت أبواب المسجد بأهل الشام، والحجاج وطارق بناحية الأبطح إلى المروة، وابن الزبير يحمل على هؤلاء وهؤلاء وينادى أبا صفوان لعبد الله بن صفوان ابن أمية بن خلف، فيجيبه من جانب المعرك.

ولما رأى الحجاج إحجامَ الناسِ عن ابن الزبير، غضب وترجَّل وصمد إلى صاحب الراية بين يديه، فتقدم ابن الزبير إليهم عنه وكشفه، ورجع فصلى ركعتين عند المقام، وحملوا على صاحب الراية، فقتلوه عند باب بنى شيبة، وأخذوا الراية، ثم قاتلهم وابن مطيع معه حتى قتل.

ويقال: أصابته جراحة، فمات منها بعد أيام.

ويقال: إنه قال لأصحابه يوم قتل: يا آل الزبير، لو طبتم لى نفسًا عن أنفسكم، كنا أهل البيت فى العرب اصطلمنا فى الله، فلا يرعكم وقع السيوف، فإن ألم الدواء فى الجراح أشد من وقعها، صونوا سيوفكم عما تصونون وجوهكم، وغضوا أبصاركم عن البارقة، وليشغل كل امرئ قرنه، ولا تسألوا عنى ومن كان عنى سائلاً، فإنى فى الرعيل الأول، ثم حمل حتى بلغ الحَجُون، فأصابته جراحة فى وجهه، فأرعش لها ودمى وجهه، ثم قاتل قتالاً شديدًا، وقتل فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين، وحمل رأسه إلى الحجاج فسجد، وكبَّر أهل الشام، وسار الحجاج وطارق حتى وقفا عليه وبعث الحجاج برأسه، ورأس عبد الله بن صفوان، ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى عبد الملك، وصلب جثته منكسة على ثنية الحجون اليمنى، وبعثت إليه أسماء فى دفنه فأبى، وكتب إليه عبد الملك يلومه على ذلك، فخلى بينها وبينه.

ولما قتل عبد الله، ركب أخوه عروة، وسبق رسل الحجاج إلى عبد الملك، فرحب به وأجلسه على سريره، وجرى ذكر عبد الله، فقال عروة: إنه كان، فقال عبد الملك: وما فعل ؟! قال: قتل، فخر ساجدًا، ثم أخبره عروة أن الحجاج صلبه، واستوهَبَ جثته لأمه، فقال: نعم، وكتب إلى الحجاج ينكر عليه صلبه، فبعث بجثته إلى أمه، وصلى عليه عروة ودفنه، وماتت أمه بعده بخمسة أيام.

ولما فرغ الحجاج من ابن الزبير، دخل إلى مكة، فبايعه أهلها لعبد الملك، أمر

بكنس المسجد من الحجارة والدم، وسار إلى المدينة، وكانت فى عمله فأقام بها شهرين، وأرسل إلى الحسن بن الحسن، فقال: هات سيف رسول الله ﷺ ودرعه، فقال: لا أفعل، قال: فجاء الحجاج بالسوط والعصا والسيف، وقال: والله لأضربنك بها حتى تبرد أو فأتنى بهما، فقال الناس: يا أبا محمد، لا تتعرض لهذا الجبار، فجاء الحسن بسيف رسول الله ﷺ ودرعه، فوضعهما بين يديه، فأرسل الحجاج إلى رجل من آل أبى رافع، فقال له: هل تعرف سيف رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، فخلطه بأسياف، ثم قال له: أخرجه، فأخرجه، ثم جاء بالدرع، فنظر إليها، فقال: هناك علامة، كانت على الفضل ابن عباس يوم اليرموك، فطعن بحربة فخرقت الدرع، فرفعوها فوجدوا الدرع، كما قال، فقال الحجاج للحسن: أما والله لو لم تجئنى به، وجئت بغيره، لضربت به رأسك، وأساء إلى أهلها، وقال: أنتم قتلة عثمان. وختم أيدى جماعة من الصحابة بالرصاص؛ استخفافًا بهم كما يفعل بأهل الذمة؛ منهم: جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد، ونقلت عنه فى ذم المدينة أقوال قبيحة أمره فيها إلى الله تعالى.

وقيل: إن ولاية الحجاج وما فعل فيها كانت سنة أربع وسبعين، وإن عبد الملك عزل عنها طارقًا، واستعمله، ثم هدم الحجاج بناء الكعبة الذى بناه ابن الزبير، وأخرج الحجر منه وأعاده إلى البناء الذى أقره عليه النبى ﷺ، وهو بناء قريش، ولم يصدق ابن الزبير فى الحديث الذى رواه عن عائشة، فلما صح ذلك عند عبد الملك قال: وددت أنى تركته، وما عمل.

ولاية المهلب(١) حرب الأزارقة

ولما عزل عبد الملك خالد بن عبد الله عن البصرة واستعمل مكانه أخاه بشر بن مروان، وجمع له المصرين، أمره أن يبعث المهلب إلى حرب الأزارقة فيمن ينتخبه من أهل البصرة، ويتركه ورأيه فى الحرب، وأن يبعث من أهل الكوفة رجلًا شريفًا

(١) ينظر عن المهلب بن أبي صفرة في: شذرات الذهب (١/ ٩٠)، تهذيب التهذيب (١٠/ ٣٢٩)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٠٦)، تذهيب التهذيب (٤/ ٧٥)، تاريخ الإسلام (٣٠٧)، العبر (١/ ٩٥)، وفيات الأعيان (٥/ ٣٥٠)، تهذيب الكمال (ص١٣٨٣)، طبقات ابن سعد (٧/ ١٢٩)، طبقات خليفة (ت ١٦٢٠)، تاريخ البخارى (٨/ ٢٥)، المعارف (٣٩٩)، تاريخ الطبرى (٦/ ٣٥٤).

معروفًا بالبأس والنجدة والتجربة فى جيش كثيف إلى المهلب؛ فيتتبعوا الخوارج حتى يهلكوهم، فأرسل المهلب جديع بن سعيد بن قبيصة ينتخب الناس من الديوان.

وشق على بشر أن إمرة المهلب جاءت من عبد الملك، فقصر به، ودعا عبد الرحمن بن مخنف، فأعلمه بمنزلته عنده، وقال: إنى أوليك جيش الكوفة لحرب الأزارقة، وكُنْ عند حسن ظنى بك، ثم أخذ يغريه بالمهلَّب، وألاً يقبل رأيه ولا مشورته، فأظهر له الوفاق، وسار إلى المهلب، فنزلوا رام هرمز ولقى بها الخوارج، فخندق عليه على ميل من المهلب حيث يتراءى العسكران، ثم أتاهم نعى بشر بن مروان لعشر ليال من مقدمهم، وأنه استخلف على البصرة خالد بن عبيد الله ابن خالد، وافترق ناس من أهل المصرين إلى بلدهم، ونزلوا الأهواز، وكتب إليهم خالد بن عبيد الله يتهددهم ويحذِّرهم عقوبة عبد الملك إن لم يرجعوا إلى المهلب فلم يلتفتوا إليه، ومضوا إلى الكوفة واستأذنوا عمرو بن حريث فى الدخول؛ فلم يأذَنْ لهم فدخلوا وأضربوا عن إذنه.

ولاية الحجاج[(١)] على العراق

وقيل فى سبب ولايته: إنه وفد على عبد الملك ومعه إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله التيمى، وكان من رجال قريش علمًا وعملاً وزهدًا ودينًا. وكان الحجاج مسخَّرًا له لايترك من إجلاله شيئًا، فلما قدما على عبد الملك، أذن للحجاج بالدخول، فلما دخل، سلم ولم يبدأ بشىء إلا أن قال: يا أمير المؤمنين، قدمت عليك برجل من أهل الحجاز ليس له نظير فى كمال المروءة والديانة وحسن المذهب والطاعة، مع القرابة ووجوب الحق، فقال عبد الملك: ومن هو؟ قال: إبراهيم ابن طلحة التيمى، فليفعل أمير المؤمنين به مايفعل بأمثاله. فقال عبد الملك: أذكرتنا حقًّا واجبًا ورحمًا قريبة، ثم أذن له، فلما دخل، قرَّبه وأدناه، وقال له: إنَّ أبا محمد ذكرنا

(١) ينظر عن الحجاج بن يوسف الثقفي في: البداية والنهاية (٩/ ١١٧)، تهذيب التهذيب (٢/ ٢١٠)، لسان الميزان (٢/ ١٨٠)، العبر (١/ ١١٢)، المعارف (٣٩٥)، تاريخ البخارى (٢/ ٣٧٣)، البدء والتاريخ (٦/ ٢٧)، تاريخ ابن عساكر (٤/ ١٠٥)، تاريخ الكامل لابن الأثير (٤/ ٥٨٣) شذرات الذهب (١/ ١٠٦)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٣٠) خلاصة تذهيب التهذيب (٧٣)، سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٤٣) مروج الذهب (٣/ ١٣٢).

مالم نَزَلْ نعرفك به من الفضل وحسن المذهب، فلا تدعنَّ حاجة إلا ذكرتها، فقال إبراهيم: إن أولى الأمور أن تفتتح به الحوائج ماكان فيه لله رضًا، ولحق رسوله أداء، ولجماعة المسلمين نصيحة، قال: وماهو؟ قال: لايمكن القول إلا وأنا خالٍ فأخلنى، قال: أو دون أبى محمد؟ قال: نعم، فأشار عبد الملك إلى الحجاج، فخرج، فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، إنك عهدت إلى الحجاج مع تغطرسه وتعجرفه وبعده عن الحق وركونه إلى الباطل، فوليته الحرمين، وبهما من أولاد المهاجرين والأنصار من قد علمت يسومهم الخسف ويقودهم بالعنف، ويطؤهم بطغام أهل الشام، ورعاع لاروية لهم فى إقامة حق، ولا فى إزالة باطل، ثم تظن أن ذلك ينجيك من عذاب الله، فكيف بك إذا جاثاك محمد ﷺ للخصومة بين يدَيِ الله تعالى؟! أما والله إنك لن تنجو هنالك إلا بحجة تضمنُ لك النجاة، فاتق لنفسك أو دع.

وكان عبد الملك متكئًا فاستوى، وقال: كذبتَ ومِنْتَ فيما جئتَ به، ولقد ظَنَّ بك الحجَّاجُ ظنًّا لم يجده فيك، فأنت المائن الحاسد، قال: فقام إبراهيم، وهو لايبصر شيئًا، فلما جاوز الستر، لحقه لاحق، وقال للحاجب: امنع هذا من الخروج، وائذن للحجاج، فدخل فلبث مليًا، قال إبراهيم: ولا أشك أنهما فى أمرى، ثم خرج الإذن لى فدخلت، فلما كشف الستر إذا أنا بالحجاج خارج، فاعتنقنى وقبل بين عينى، وقال: إذا جزى الله المتواخيين لفضل تواصلهما، فجزاك الله عنى أفضل الجزاء، والله لئن بقيت، لأرفعنَّ ناظريك، ولأتبعن الرجال غبار قدميك.

قال: قال إبراهيم: فقلت فى نفسى، إنه ليسخر منى، فلما وصلت إلى عبد الملك، أدنى مجلسى كما فعل أولاً، ثم قال: يا بن طلحة هل أعلمت الحجاج بما جرى، أو شاركَكَ أحد فى نصيحتك؟! قلت: لا والله لا أعلم أحدًا أظهر يَدًا من الحجاج، ولو كنت محابيًا أحدًا بدينى لكان هو، ولكنى آثرت الله ورسوله والمسلمين، فقال عبد الملك: قد علمت صدق مقالتك، ولو آثرتَ الدنيا لكان لك فى الحجاج أَمَلٌ، وقد عزلتُهُ عن الحرمين لما كرهتَ من ولايته عليهما، وأخبرته أنك أنت الذى استنزلتنى له عنهما؛ استصغارًا للولاية، ووليته العراق لما هنالك من الأمور التى لايدحضها إلا مثله، وإنما قلت ذلك؛ ليؤدى ما يلزمه من ذمامك،

فاخرج معه فإنك غير ذامٍّ صحبته مع يدك عنده، قال إبراهيم: فخرجت مع الحجاج، فأكرمنى أضعاف إكرامه الأول، واستدل الناس بذلك على مكارم عبد الملك وأخلاقه واعترافه بالحق وتيقظه فى الأمور ودهائه.

ثم ولى عبد الملك الحجاج بن يوسف على الكوفة والبصرة سنة خمس وسبعين، وأرسل إليه وهو بالمدينة يأمره بالمسير إلى العراق، فسار على النجب فى اثنى عشر راكبًا، حتى قدم الكوفة فى شهر رمضان، وقد كان بشر بعث المهلب إلى الخوارج، فدخل المسجد وصعد المنبر، وقال: علىَّ بالناس، وظنوه من بعض الخوارج فهموا به، حتى تناول عمير بن ضابئ البرجمى الحصباء، وأراد أن يحصبه، فلما تكلم، جعلت الحصباء تسقط من يده، وهو لايشعر بها ثم حضر الناس، وخطب خطبة عظيمة أحسنُ من أوردها المبرّد فى الكامل(١)، تهدد فيها أهل الكوفة، وتوعدهم على التخلُّف عن المهلب، ثم نزل.

قلت: هذا ما أورده المبرّد فى كامله، فقال: وفى سنة خمس وسبعين، حج بالناس عبد الملك بن مروان، وخطب على منبر رسول الله ﷺ، وسير على إمرة العراق الحجاج بن يوسف الثقفى، فسار من المدينة إلى الكوفة فى اثنى عشر راكبًا بعد أن وهب البشير بها ثلاثة آلاف دينار، قال الوليد بن مسلم: حدثنى عبيد الله بن يزيد [بن] أبى مسلم الثقفى، عن أبيه، قال: كان الحجاج عاملاً لعبد الملك على مكة، فكتب إليه بولاية العراق، قال: فخرجت معه فى نفر قليلين(٢) على النجائب، فلما كنا بماء قريب من الكوفة، نزل فاختضب وتهيأ، وذلك يوم جمعة، ثم راح معتمًا قد ألقى عذبة العمامة بين كتفيه متقلدًا سيفه متنكبًا قوسه، حتى نزل عند دار الإمارة عند مسجد الكوفة، وقد أذَّن المؤذن بالأذان الأول، فخرج عليهم وهم لايعلمون، فجمّع بهم.

ثم صعد المنبر، فجلس عليه، فسكت، وقد اشرأبوا إليه وجثوا على الركب، وتناولوا الحصباء ليحصبوه بها، وقد كانوا حصبوا عاملاً قبله، فخرج عليهم فسكت سكتة أبهتتهم وأحبوا أن يسمعوا كلامه، فكان بدء كلامه أن قال:

يا أهل العراق، يا أهل الشقاق، يا أهل النفاق، والله، إن كان أمركم ليهمنى قبل

---

(١) ينظر الكامل للمبرد (ص١٣٠١) وما بعدها.
(٢) في تاريخ الإسلام: ثمانية أو تسعة.

أن آتى إليكم، ولقد كنت أدعو الله أن يبتليكم بى، فأجاب دعوتى، ألا إنى قد اسريت البارحة، فسقط منى سوطى، فاتخذت هذا مكانه - وأشار إلى سيفه - فو الله، لأجرنه فيكم جر المرأة ذيلها ولأفعلن وأفعلن.

قال يزيد: فرأيتُ الحصباء تتساقَطُ من أيديهم، وقال: قوموا إلى بيعتكم، فقامت القبائل قبيلة قبيلة تبايع، فيقول: من؟ فتقول: بنو فلان، حتى جاءت قبيلة فقال: من؟ قالوا: النخع، قال: منكم كَميل بن زياد؟ قالوا: نعم، قال: فما فعل؟ قالوا: أيها الأمير شيخ كبير، قال: لا بيعة لكم عندى، ولاتقربون حتى تأتونى به، قال: فأتوه به منعوشًا فى سريره حتى وضعوه إلى جانب المنبر فقال الحجاج: لم يبق ممن دخل على عثمان الدار غير هذا، فدعا بنطع وضربت عنقه.

وقال أبو بكر الهذلى: حدثنى من شهد الحجاج حين قدم العراق، فبدأ بالكوفة فنودى: الصلاة جامعة، فأقبل الناس إلى المسجد والحجاج متقلِّد قوسًا عربية، وعليه عمامة خز حمراء متلثمًا فقعد، وعرض القوس بين يديه، ثم لم يتكلم حتى امتلأ المسجد، قال محمد بن عمير: فسكت حتى ظننت أنه إنما يمنعه العِىُّ، وأخذت فى يدى كَفًّا من حصباء أردت أن أضرب بها وجهه، فقام فوضع النقاب وتقلَّد قوسه وقال: [من الوافر]

أَنَا ابْنُ جَلاَ وَطَلاَّعُ الثنايا مَتَىٰ أَضَعِ العمامَةَ تَعْرِفُونى

إنى لأرى رءوسًا قد أينعَتْ، وحان قطافها، كأنى أَنظر إلى الدما، بين العمائم واللحى، : [من الرجز]

لـيـس بـعـشـك فـادرجـى
قَـدْ شَـمَّـرَتْ عـن سـاقـهـا فَـشَـمِّـرِى

هذا أَوَانُ الحَرْبِ فاشتدِّى زِيَمْ قد لَفَّهَا الليلُ بسَوَّاق حُطَمْ
لـيس بـرَاعِـى إِبِـل ولا غَـنَـمْ ولا بجَزَّارِ على ظَهْر وَضَمْ
قَـدْ لَفَّـهَـا الـلـيـلُ بعَـصْـلَـبِىّ مـهـاجِـر لَـيْـسَ بـأعـرابـىّ

إنى والله ما أغمز غمز التين، ولايقعقع لى بالشنان، ولقد فُررت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة، وحذيت من الغابة[1]، وإنكم يا أهل العراق طالما أوضعتم فى

---

(١) في تاريخ الإسلام: وجريت إلى الغاية.

الضلالة، وسلكتم سبيل الغواية، أما والله لألحينكم[١] لحى العود، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، ياعبيد العصا، أنا الغلام الثقفى، لا أعد إلا وفيت، ولا أحلف إلا فريت، إنما مثلكم كما قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢] شاهت الوجوه؛ فإنكم أشباه ذلك، فاستوثقوا واستقيموا. أقسم بالله، لتدعن الإرجاف، ولتقبلن على الإنصاف، ولتنزعنَّ عن القيل والقال، وكان [وكان]، والهبر وما الهبر؟، أو لأهبرنكم بالسيف يدع النساء أيامَىٰ والولدانَ يتامَىٰ، ألا إن أمير المؤمنين نثل كنانته بين يديه، فعجم عيدانها فوجدنى أمرَّها عودًا وأصلبها مكسرًا؛ فوجهنى إليكم، فاستقيموا ولايميلن منكم مائل. واعلموا أنى إذا قلت قولاً وفيت به، من كان منكم من بعث المهلب، فليلحق به، فإنى لا أجد أحدًا بعد ثالثة[٢] إلا ضربت عنقه. وإياى وهذه الزرافات، فإنى لا أجد أحدًا يسير فى زرافة إلا سفكت دمه واستحللت ماله. ثم نزل.

هذا ما رواه المبرد، وزاد الذهبى[٣] بإسناد عن الثورى: قم يا غلامُ، فاقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين، فقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من فى الكوفة، سلام عليكم، فسكتوا، فقال الحجاج: اكفف ياغلام، ثم أقبل عليهم، فقال: يسلِّم عليكم أمير المؤمنين، فلا تردون عليه شيئًا؟ هذا أدب ابن نهية[٤]، أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب، أو لتستقيمنَّ، اقرأ ياغلام، فقرأ قوله: السلام عليكم، فلم يبق فى المسجد أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين أفضل السلام.

قلت: العصلبئ: الشديد من الرجال، والسواق الحطم: العنيف فى سوقه،

---

(١) في تاريخ الإسلام، وتاريخ الطبري والعقد الفريد: لألحونكم.

(٢) في تاريخ الإسلام: بعد ثلاثة.

(٣) ينظر تاريخ الإسلام للذهبي حوادث سنة خمس وسبعين ص (٣٢٣) وتاريخ الطبري (٦/ ٢٠٨)، الكامل لابن الأثير (٤/ ٣٧٧)، مروج الذهب (٣/ ١٣٦)، الفتوح لابن أعثم (٧/ ١٠).

(٤) في الكامل (٢/ ٤٩٥) «زعم أبو العباس أن نهية رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج» وينظر مروج الذهب (٣/ ١٣٦)، العقد الفريد (٥/ ١٨).

الوضم: كل ما وقى به اللحم من الأرض، عجمت العود: إذا عضضته بنابك لتعرف أصلب هو أم رخو، الزرافات: الجماعات.

وحضر الناس عنده للعطاء واللحاق بالمهلب، فقام إليه عمير بن ضابئ، وقال: أنا شيخ كبير عليل، وابنى هذا أشد منى، فقال: هذا خير لنا منك، ثم قال: ومن أنت؟ قال: عمير بن ضابئ، قال: الذى دخل على عثمان فى داره، وداس على ظهره، فكسر ضلعين من أضلاعه؟ قيل: نعم، فقال: ياعدو الله، أفلا بعثت إلى عثمان بدلاً؟ قال: إنه حبس أبى، وكان شيخًا كبيرًا، فقال: إنى لأحسب فى قتلك صلاح المصرين، وأمر به فقتل، وانتهب ماله.

وقيل: إن عتبة بن سعيد بن العاص هو الذى أغرى به الحجاج حين دخل عليه، ثم أمر الحجاج مناديه فنادى: ألا إن ضابئًا تخلف بعد ثالثة من النداء فأمر بقتله، وذمة الله بريئة ممن بات الليلة عن جند المهلب، فتسارع الناس إلى المهلب وهو برامهرمز، وجاءه العرفاء فأخذوا كتبه بموافاة العسكر، وقد كان من أخذ الحصباء بيده يريد أن يحصب بها الحجاج تساقط من يده خوفًا ورعبًا، فثبتت مهابته في قلوبهم، وتحكَّم حينئذ فى رقابهم.

وكان القاسم بن سلام يقول: قاتل الله أهل العراق، أين قبائلهم وعشائرهم وأهل الأنفة، وأين تجبرهم؟! قتلوا عليًا، وطعنوا الحسن، وقاتلوا المختار، وعجزوا عن قتل هذا الملعون الدميم الصورة، وقد جاءهم فى اثنى عشر راكبًا وهم فى مائة ألف، ولكن ظهر به تصديق قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى قوله: اللهم سلط عليهم الغلام الثقفى.

ثم بعث الحجاج إلى البصرة الحكم بن أيوب الثقفى، وأمره أن يشتد على خالد ابن عبد الله، وبلغه الخبر، فقسم فى أهل البصرة ألف ألف وخرج عنها.

ويقال: إن الحجاج أول من عاقب على التخلف عن البعوث بالقتل، قال الشعبى: كان الرجل إذا أخلَّ بوجهه الذى يكتب إليه زمن عمر وعثمان وعلى، تنزع عمامته ويقام بين الناس، فلما ولى مصعب، أضاف إليه حلق الرءوس واللحى، فلما ولى بشر، أضاف إليه تعليق الرجل بمسمارين فى يده فى حائط، فيخرق المسمار يده، وربما مات، فلما جاء الحجاج، ترك ذلك كله، وجعل عقوبة من يخل بمكانه

من الثغر أو البعث: القتل.

ثم ولى الحجاج على السند سعيد بن أسلم بن زرعة، فخرج عليه معاوية بن الحارث العلافى، وأخوه، فغلباه على البلاد وقتلاه، فأرسل الحجاج مجاعة بن سعيد التميمى مكانه فغلب على الثغر، وغزا وفتح فتوحات، ومات بمكران لسنة من ولايته.

وثوب أهل البصرة على الحجاج

ثم خرج الحجاج من الكوفة، واستخلف عليها عروة بن المغيرة بن شعبة، وسار إلى البصرة وقدمها، وخطب كما خطب بالكوفة، وتوعد على القعود عن المهلب كما توعَّد، فأتاه شريك بن عمر اليشكرى وكان به فتق، فاعتذر به، وبأن بشر بن مروان قَبِلَ عذره بذلك، وأحضر عطاءه ليرد إلى بيت المال، فضرب الحجاج عنقه، وتتابع الناس متوجهين إلى المهلب، ثم سار حتى كان بينه وبين المهلب ثمانية عشر فرسخًا فقام ليشد ظهره، وقال: يا أهل المصرين، هذا والله مكانكم حتى يهلك الله الخوارج، ثم قطع لهم الزيادة التى زادها مصعب فى الأعطية، وكانت مائة مائة، وقال: لسنا نجيزها، فقال عبد الله بن الجارود: إنما هى زيادة عبد الملك، وقد أجازها أخوه بشر بأمره، فانتهره الحجاج، فقال له: إنى لك ناصح، وإنه قول من ورائى، فمكث الحجاج أشهرًا لا يذكر الزيادة، ثم أعاد القول فيها فرد عليه ابن الجارود مثل الرد الأول فقال له مصقلة بن كرب العبدى: سمعًا وطاعةً للأمير فيما أحببنا وكرهنا؛ فليس لنا أن نرد عليه، فانتهره ابن الجارود وشتمه، وأتى الوجوه إلى عبد الله بن الجارود، فصوبوا رأيه، وقال له الهذيل بن عمران البرجمى، وعبد الله ابن حكيم بن زياد المجاشعى، وغيرهما: إن هذا الرجل مجمع على نقض هذه الزيادة، فتعال نبايعك على إخراجه من العراق، ونكتب إلى عبد الملك أن يولِّى علينا غيره، وإلا خلعناه، وهو يخافنا ما دامت الخوارج، فبايعوه سرًّا وتعاهدوا.

وبلغ الحجاج أمرهم، فاحتاط وحذر، ثم خرجوا فى ربيع سنة ست وسبعين، وركب عبد الله بن الجارود فى عبد القيس على راياتهم، ولم يبق مع الحجاج إلا خاصته وأهل بيته، وبعث الحجاج يستدعيه، فأفحش فى القول لرسوله، وصرح بخلع الحجاج، فقال له الرسول: تهلك قومك وعشيرتك، وأبلغه تهديد الحجاج

إياه، فأمر به فضرب وأخرج، وقال: لولا أنك رسول لقتلتك.

ثم زحف ابن الجارود فى الناس حتى غشى فسطاطه، فنهب ما فيه من المتاع والظهر وأخذوا زوجاته وانصرفوا عنه، وكان رأيهم أن يخرجوه ولا يقتلوه.

وقال الغضبان بن القبعثرى الشيبانى لابن الجارود: لا ترجع عنه، وحرضه على معاجلته، فقال: إلى الغداة.

وكان مع الحجاج عثمان بن قطن، وزياد بن عمرو العتكى صاحب الشرطة بالبصرة، فاستشارهما، فأشار زياد بأن يستأمن القوم ويلحق بأمير المؤمنين، وأشار عثمان بالثبات، ولو كان دونه الموت، ولا تخرج إلى أمير المؤمنين من العراق بعد أن رقاك إلى ما رقاك، وفعلت ما فعلت بابن الزبير، فقبل الحجاج رأى عثمان، وحقد على زياد فى إشارته، وجاءه عامر بن مسمع يقول: قد أخذت لك الأمان من الناس، فجعل الحجاج يغالطه رافعًا صوته عليه ليسمع الناس، ويقول: والله لا أؤمنهم حتى يأتونى بالهذيل بن عمران، وعبد الله بن حكيم، ثم أرسل إلى عبيد بن كعب النميرى أن ائتنى فامنعنى، فقال: إن أتيتنى منعتك، فأبى.

وبعث إلى محمد بن عمير بن عطارد، وعبد الله بن حكيم بمثل ذلك، فأجابوه بمثله، ثم إن عباد بن الحصين الحبطى مَرَّ بابن الجارود والهذيل وعبد الله بن حكيم يتناجون، فطلب الدخول معهم فأَبوا، فغضب وسار إلى الحجاج، وجاءه قتيبة بن مسلم فى بنى أعصر للحمة القيسية، ثم جاءه سبرة بن على الكلابى، وسعيد بن أسلم الكلابى، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف الأزدى، فثابت إليه نفسه، وعلم أنه قد امتنع، وأرسل إليه مسمع بن مالك بن مسمع: إن شئت أتيتك، وإن شئت أقمت وثبطت عنك، فأجابه أن أقم. فلما أصبح إذا حوله ستة آلاف، وقال ابن الجارود لعبيد الله بن زياد بن ظبيان: ما الرأى ؟ قال: تركته أمس، ولم يبق إلا الصبر.

ثم تزاحفوا، وعبأ ابن الجارود وأصحابه على ميمنته الهذيل، وعلى ميسرته ابن ظبيان، وتعبَّأ الحجاج على ميمنته قتيبة بن مسلم أو عباد بن الحصين، وعلى ميسرته سعيد بن أسلم، وحمل ابن الجارود حتى جاز أصحاب الحجاج، وعطف الحجاج عليه، فعاد ابن الجارود بظهر، ثم أصابه سهم غرب فوقع ميتًا، ونادى منادى

الحجاج بأمانِ الناس إلا الهذيل وابن حكيم، وأمر ألاَّ يتبع المنهزمون، ولحق ابن ظبيان بعمان، فمات هنالك.

وبعث الحجاج برأس الجارود ورءوس ثمانية عشر من أصحابه إلى المهلب، ونصبت ليراها الخوارج فيتأسوا من الخلاف. وحبس الحجاج عبيد بن كعب، ومحمد بن عمير؛ لامتناعهما من الإتيان إليه، وحبس ابن القبعثرى؛ لتحريضه عليه، فأطلقه عبد الملك.

وكان فيمن قتل مع ابن الجارود: عبد الله بن أنس بن مالك، فقال الحجاج: لا أرى إنسانًا يعين علىّ، ودخل البصرة فأخذ ماله، وجاءه أنس، فأساء عليه، وأفحش فى شتمه، فكتب أنس إلى عبد الملك يشكوه، فكتب عبد الملك إلى الحجاج يشتمه ويغلظ عليه فى التهديد على ما فعل بأنس، وأن يجيء إلى منزله ويتنصَّل؛ وإلا نبعث من يضرب ظهره ويهتك ستره، قالوا: وجعل الحجاج فى قراءته يتغير وجهه ويتمعَّر وجبينه يرشح عرقًا، ثم جاء إلى أنس بن مالك واعتذر إليه.

وفى غضون هذه الواقعة خرج الزنج بفرات البصرة، وقد كانوا خرجوا قبل ذلك فى أيام مصعب، ولم يكونوا بالكثير، وأفسدوا الثمار والزروع، ثم جمع لهم خالد ابن عبد الله، وافترقوا قبل أن ينال منهم، وقتل بعضهم، وصلبهم.

فلما كانت هذه الوقعة، قدموا عليهم رجلاً منهم اسمه رباح، ويلقب شير زنجى، أى: أسد الزنج، وأفسدوا، فلما فرغ الحجاج من ابن الجارود، أمر زياد بن عمرو صاحب الشرطة أن يبعث إليهم من يقاتلهم، فبعث إليهم ابنه حفصًا فى جيش، فقتلوه وانهزم أصحابه، فبعث جيشًا فهزم الزنج وأبادهم.

مقتل ابن مخنف، وحرب الخوارج(١)

كان المهلب وعبد الرحمن بن مخنف واقفَينِ للخوارج برامهرمز، فلما أمدهم الحجاج بالعساكر من الكوفة والبصرة، تأخر الخوارج من رامهرمز إلى كازرون، واتبعهم العسكر حتى نزلوا بهم، وخندق المهلب على نفسه، وقال ابن مخنف وأصحابه: خندقنا سيوفنا، فبيتهم الخوارج وأصابوا الغرة فى ابن مخنف فقاتل

(١) ينظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٢١١-٢١٣)، الكامل في التاريخ (٤/ ٣٨٨) نهاية الأرب (٢١/ ١٥٢، ٣٥٣)، تاريخ الإسلام للذهبي حوادث سنة خمس وسبعين (ص٣٢٤).

وأصحابه حتى قتلوا، هكذا حديث أهل البصرة.

وأما أهل الكوفة، فذكروا أنهم لما نهضوا إلى الخوارج، اشتد القتال بينهم، ومال الخوارج على المهلب واضطروه إلى معسكره، وأمده عبد الرحمن بالخيل والرجال، ولما رأى الخوارج مدده، تركوا من شغل المهلب، وقصدوا عبد الرحمن، فقاتلوه، وانكشف عنه الناس وصبر فى سبعين من قومه، فقاتلوا إلىآخر الليل، وقتلوا عن آخرهم.

وبعث الحجاج على عسكر ابن مخنف من أهل الكوفة عتاب بن ورقاء، وأمره أن يسمع للمهلب، فثقل ذلك عليه؛ فلم تحسن بينهما العشرة، وكان يترادَّان فى الكلام، وربَّما أغلظ له المهلب، وأرسل عتاب إلى الحجاج يسأله العود، وكان خرق الخوارج وشبيب قد اتسع عليه، فصادف منه ذلك موقعًا، واستقدمه وأمره أن يترك العسكر مع المهلب، فولى عليهم المهلب ابنه حبيبًا، وأقام يقاتلهم بنيسابور نحوًا من سنة، وتحركت الخوارج على الحجاج من سنة ست وسبعين إلى سنة ثمان، وشغل بحربهم، وأول من خرج منهم صالح بن مسرح من بنى تميم، بعث إليه العساكر فقتل، فولوا عليهم شبيبًا، واتبعه كثير من بنى شيبان، وبعث إليهم الحجاجُ العساكر مع الحارث بن عميرة، ثم مع سفيان الخثعمى، ثم الحرز بن سعيد، فهزموهم، وأقبل شبيب إلى الكوفة، فحاربه الحجاج وامتنع عليه، ثم سرح عليه العساكر، وبعث فى أثرهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فهزموهم، ثم بعث عتاب بن ورقاء، وقتل منهم جماعة؛ كما نذكر ذلك كله فى أخبارهم.

وفى سنة ست وسبعين خرج صالح بن مسرح التميمى، وكان صالحًا ناسكًا مخبتًا، وكان بدارا(١) والموصل وله أصحاب يقرئهم ويفقههم، ويقص عليهم، ولكنه يحط على الخليفتين عثمان وعلى كدأب الخوارج، ويتبرأ منهما، ويقول: تيسروا رحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء، ولا تجزعوا من القتل فى الله؛ فإن القتل أيسر من الموت، والموت نازل بكم، فلم يلبث أن أتاه كتاب شبيب بن يزيد من الكوفة فيه: أما بعد، فإنك شيخ

(١) دارا: بلد بالجزيرة، وهى كذلك قلعة حصينة فى جبال طبرستان، وأيضا: واد في ديار بنى عامر. ينظر المراصد (٢/ ٥٠٤).

المسلمين، ولن نعدل بك أحدًا، وقد دعوتنى، فاستجبت لك، وإن أردت تأخير ذلك، أعلمنى؛ فإن الآجال غادية ورائحة، ولا آمن أن تخترمنى المنية ولم أجاهد الظالمين، فيا له غبنًا، ويا له فضلاً متروكًا، جعلنا الله وإياك ممن يريد بعمله الله ورضوانه.

فرد عليه صالح الجواب، يحضه على المجيء، فجمع شبيب قومه، وقدم على صالح وهو بـ« دارا »، فتصمدوا مائة وعشرة أنفس. ثم وثبوا على خيل لمحمد بن مروان[١]، فأخذوها، وقويت شوكتهم وأخافوا المسلمين، فندب محمد إلى قتالهم عدى بن عدى بن عميرة الكندى، فقاتلهم فهزم عدى، فندب لقتالهم خالد بن جزء السلمى، والحارث العامرى، واقتتلوا أشد القتال، وانجاب صالح إلى العراق، فوجه الحجاج عسكرًا عليهم سورة بن الحر، فاقتتلوا، ثم مات صالح مثخنًا به الجراح فى جمادى الأخرى من السنة المذكورة، وعهد إلى شبيب بن يزيد، فالتقى شبيب هو وسورة فانهزم سورة بعد قتال شديد، ثم سار شبيب، فلقى سعيد بن عمرو الكندى[٢] فاقتتلوا، ثم انصرف شبيب، فهجم الكوفة، وقتل بها أبا سليم مولى عنبسة[٣] بن أبى سفيان والد الليث بن سليم وغيره من المشاهير، ثم خرج عنها، فوجه الحجاج لحربه زائدة بن قدامة الثقفى ابن عم المختار فى جيش كثير، فالتقوا أسفل الفرات، فهزمهم شبيب، وقتل زائدة، فوجه الحجاج لحربه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث؛ فلم يقاتلهم، وكان مع شبيب امرأته غزالة، وكانت معروفة بالشجاعة، ودخلت مسجد الكوفة تلك المرأة وقرأت وِرْدَهَا فى المسجد، وكانت نذرت أن تصعد المنبر فصعدته.

ثم حار الحجاج فى أمره مع شبيب، فوجه لقتاله عثمان بن قطن الحارثى، فالتقوا فى آخر العام المذكور، فقتل عثمان وانهزم جمعه بعد أن قتل منهم ستمائة نفر، واستفحل أمر شبيب بن يزيد، فنزل المدائن، فندب الحجاج لقتاله أهل الكوفة كلَّهم، وعليهم زهرة بن حوية السعدى شيخ كبير قد باشر الحروب، وبعث إلى زهرة عِبد الملك من الشام سفيان بن الأبرد وحبيبًا الحكمى مددًا بستة آلاف،

(١) في ط: رواد. والمثبت من تاريخ الإسلام، وتاريخ الطبرى.
(٢) في ط: النهدي. والمثبت من تاريخ خليفة، وتاريخ الإسلام للذهبى.
(٣) في ط: عتبة. والمثبت من تاريخ خليفة، وتاريخ الإسلام.

واجتمع جميع الجيش خمسين ألفًا، وعرض شبيب بن يزيد جنوده بالمدائن، فكانوا ألف رجل، فقال: يا قوم، إن الله كان ينصركم، وأنتم مائة أو مائتان، فأنتم اليوم مئون، ثم ركب فأخذوا يتخلَّفون عنه ويتأخرون، فلما التقى الجمعان، لم يثبت معه إلا ستمائة، فحمل شبيب فى مائتين على ميسرة الناس، فانهزموا واشتد القتال، وعتاب بن ورقاء جالس هو وزهرة بن حوية على طنفسة فى القلب، فقال عتاب: هذا يوم كثر فيه العدد وقل فيه الغناء - يعنى: النفع - والهفى على خمسمائة من رجال تميم.

وتفرق عن عتاب عامة الجيش وحمل عليه شبيب فقاتل عتاب ساعة وقتل، ووطئت الخيل زهرة بن حوية فهلك، فتوجع له شبيب لما رآه صريعًا، فقال له رجل من قومه: والله، يا أمير المؤمنين، إنك لتتوجع لرجل من الكافرين، قال: إنك لست أعرف بصلاتهم[1] منى، إنى أعرف من قديم أمرهم مالا تَعْرِفُ، لو ثبتوا عليه كانوا إخواننا. ثم قال شبيب لأصحابه: ارفعوا عنهم السيف، ودعا الناس إلى طاعته وبيعته فبايعوه ثم هربوا ليلاً، وهذا كله قبل أن يقدم جيش الشام الذى بعثه عبد الملك، فتوجَّه شبيب نحو الكوفة، وقد دخلها عسكر الشام، فشدوا ظهر الحجاج، وانتعش بهم، واستغنى عن عسكر الكوفة، وقال: يا أهل الكوفة، لا أعز الله من أراد بكم العز، الحقوا بالحيرة مع اليهود والنصارى، ولا تقاتلوا معنا، وحنق عليهم. وهذا ممايزيدهم فيه بغضًا.

ثم إنه وجه الحارث بن معاوية الثقفى فى ألف فارس فى الكشف، فالتمس شبيب غفلتهم، فالتقوا، فحمل شبيب على الحارث فقتله، وانهزم من معه، ثم جاء شبيب فنازل الكوفة، وحفظ الناس السِّكك، وبنى شبيب مسجدًا بطرف السبخة، فخرج إليه أبو الورد مولى الحجاج فى عدة غلمان فقاتل حتى قتل، ثم خرج طهمان مولى الحجاج - أيضًا - فى طائفة، فقتله شبيب.

ثم إن الحجاج خرج من قصر الكوفة، فركب بغلاً وخرج فى جيش الشام، فلما التقى الجمعان، نزل الحجاج وقعد على كرسى، ثم نادى: يا أهل الشام، أنتم أهل السمع والطاعة، والصبر واليقين، لا يغلبنَّ باطل هؤلاء حقكم، غضوا الأبصار،

(١) في تاريخ الإسلام، وتاريخ الطبري: بضلالتهم.

واجثوا على الركب، وأشرعوا [إليهم][١] الأسنة. وكان شبيب فى الستمائة، فجعل مائتين معه كردوسًا، ومائتين مع سويد بن سليم، ومائتين مع المحلل بن وائل، فحمل سويد عليهم حتى إذا غشى أطراف الأسنة، وثبوا فى وجوههم يطعنونهم قدمًا قدمًا، فانصرفوا، فأمر الحجاج بتقديم كرسيه وصاح بأصحابه، فحمل عليهم شبيب، فثبتوا وطال القتال، فلما رأى شبيب صبرهم نادى: يا سويد، احمل على أهل هذه السكة، لعلك تزيل أهلها عنها، فتأتى الحجاج من ورائه، ونحن من أمامه، فحمل سويد بن سليم على أهل السكة، فرمى من فوق البيوت، فرد[٢].

قال أبو مخنف: فحدثنى فروة بن لقيط الخارجى من قوم شبيب، قال: فقال لنا شبيب يومئذ: يا أهل الإسلام، إنما شرينا الله، ومن شرى الله، لم يكثر عليه ما أصابه شدة، كشداتكم فى مواطنكم المعروفة، وحمل على الحجاج، فوثب أصحاب الحجاج طعنًا وضربًا، فنزل شبيب وقومه فصعد الحجاج على مسجد شبيب فى نحو عشرين رجلًا، وقال: إذا دنوا فارشقوهم بالنبال، فاقتتلوا عامة النهار أشد قتال فى الدنيا حتى أقر كل فريق للآخر.

ثم إن خالد بن عتاب بن ورقاء قال للحجاج: ائذن لى فى قتالهم؛ فإنى موتور - لأنه قتل أبوه عتاب بن ورقاء -وممن لا يتهم فى نصيحته، فأذن له، فخرج فى عصابة، ودار من ورائهم فقتل مصادا[٣] أخا شبيب وغزالة امرأة شبيب، وأضرم النيران فى عسكره، فوثب شبيب وأصحابه على خيولهم، فقال الحجاج: احملوا عليهم، فقد ارتعبوا، فشدوا عليهم فهزموهم، وتأخر شبيب فى خاصّة قومه، فذكر من كان مع شبيب: أنه كان ينعس، ويخفق برأسه، وخلفه الطلب، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، التفت فانظر من خلفك، فالتفت غير مكترث، ثم أكب يخفق، ثم قلت: إنهم دنوا، فالتفت، ثم أقبل يخفق، وبعث الحجاج إلى خيله أن دعوه فى حرق النار، فتركوه ورجعوا[٤].

---

(١) المثبت من تاريخ الإسلام.

(٢) ينظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٤ - ٢٧٠)، وتاريخ الإسلام (٣٢٧ - ٣٢٩) حوادث سنة (٧٦هـ)، وتاريخ خليفة ص (٢١٠ - ٢١١).

(٣) فى ط: مضاء، والتصحيح من تاريخ الإسلام وتاريخ الطبرى.

(٤) ينظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٤)، وتاريخ الإسلام (٣٣٣ - حوادث ٧٦هـ).

ومَرَّ أصحاب شبيب بعامل للحجاج على بلد بالسواد، فقتلوه، ثم أتوا بالمال على دابة، فشتمهم شبيب على مجيئهم بالمال، وقال: قد اشتغلتم بالدنيا، ثم رمى بالمال فى الفرات.

ثم سار بهم إلى الأهواز، وبها محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، فخرج لقتاله، وسأله محمد المبارزة، فبارزه شبيب فقتله، ومضىٰ إلى كرمان، فأقام شهرين ورجع إلى الأهواز، فندب له الحجاج مقدمى جيش الشام سفيان بن الأبرد الكلبى، وحبيب بن عبد الرحمن الحكمى(١)، فالتقوا على جسر دجيل، فاقتتلوا حتى حجز بينهم الليل، ثم ذهب شبيب، فلما صار على جسر دجيل، قطع الجسر فوقع شبيب وغرق.

وقيل: قفز به فرسه فألقاه فى الماء وعليه الدرع، فقال له رجل: أغرقًا يا أمير المؤمنين ؟ قال: ذلك تقدير العزيز العليم، وألقاه دجيل إلى ساحله ميتًا، وأتى به الحجاج.

قال أبو مخنف: فسمعتهم يقولون: إنه شق بطنه، فأخرج قلبه، وكان مجتمعًا صلبًا كأنه صخرة، وأنه كان يضرب به الأرض، فيثب قامة الإنسان(٢).

قلت: لله أبو هذا البطل القرم الذى بارز الأقران، فكسرهم، وشتت شملهم وقهرهم يظفر فى ستمائة على خمسين ألفًا، هو شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس بن عمرو بن الصلت الشيبانى(٣)، خرج بالموصل كما تقدَّم، فبعث إليه الحجاج خمسة قواد قتلهم واحدًا بعد واحد، ثم سار إلى الكوفة، وحاصر الحجاج بها، وقاتله، وكانت امرأته غزالة من الشجاعة والفروسية قريبًا منه، هرب الحجاج منها فى بعض حروبه، فعيَّره بعض الناس: [من الكامل]

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفى الحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَّا بَرَزْتَ إِلَيْ غَزَالَةَ فِى الوَغَىٰ بَلْ كان قلبُكَ فى جَنَاحَيْ طَائِرِ

---

(١) فى ط: التميمى. والتصحيح من تاريخ الإسلام، وتاريخ خليفة.

(٢) ينظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٢٧٠ - ٢٨١) وتاريخ الإسلام حوادث سنة سبع وسبعين والبداية والنهاية (٩/ ١٧ - ٢٧).

(٣) ينظر: فى أخبار شبيب بن يزيد مروج الذهب ٣/ ٣٤٦ وما بعدها، تاريخ الطبرى ٦/ حوادث ٧٦ و٧٧، المعارف ٤١٠، البداية والنهاية ٩/ ١٩، النجوم الزاهرة ١/ ١٩٦، وفيات الأعيان ٢/ ٤٥٤ .

وكانت أمه تسمى جهيزة، تشهد الحروب كذلك.

قال بعضهم: رأيت شبيبًا وقد دخل المسجد، وعليه جبة طيالسة عليها نقط من أثر المطر، وهو طويل أشمط، جعد، آدم اللون، فبقى فى المسجد يرتج.

ولد سنة ست وعشرين من الهجرة، وغرق بدجيل سنة سبع وسبعين.

ولما حمل إلى عبد الملك عتبان الحروريّ من أصحاب شبيب، قال له عبد الملك: ألست القائل: [من الطويل]

فإنْ كان مِنْكُمْ كان مَرْوَانُ وابنُهُ وعَمْرٌو ومنْكُمْ هاشمٌ وحبيبُ
فمنا حُصَيْن والبطين وقَعْنَبٌ ومنا أَمِير المؤمنينَ شَبِيبُ

فقال عتبان: يا أمير المؤمنين، إنما قلت: « ومنا أميرَ المؤمنين » - ونصب على النداء - فاستحسن قوله وأطلقه.

وجهيزة أم شبيب هى التى يضرب بها المثل فى الحمق، لأنها لما حملت، قالت: فى بطنى شيء ينفر[1]، فقيل: أحمق من جهيزة. وروى عنها ما يدل على عدم الحمق؛ فإن عمرو بن شبيب قال: حدثنى خلاد بن يزيد الأرقط قال: كان شبيبٌ نُعِيَ إلى أمه، فيقال لها: إنه قد قتل، فلا تقبل، فلما قيل لها: إنه قد غرق، قبلت ذلك، وقالت: إنى رأيتُ حين ولدته أنه خرج منى شهاب نار، فعلمت أنه لا يطفئه إلا الماء. كذا فى دول الإسلام للحافظ الذهبى[2].

وفى سنة ثمان وثمانين: بنى الحجاج مدينة واسط المدينة المعروفة؛ وذلك أن الحجاج كان ينزل أهل الشام إذا ورد الكوفة على أهل الكوفة، فضرب البعث عن أهل الكوفة إلى خراسان وعسكروا قريبًا من الكوفة حتى يستتموا، فرجع منهم ذات ليلة فتى حديث عهد بعرس بابنة عمه، فطرق بيته فدق الباب فلم يفتح له إلا بعد هنيهة.

وإذا سكران من أهل الشام يستأذن وشكت عليه ابنة عمه مراودته إياها، فقال لها: ائذنى له، فأذنت له، فجاء فقتله الفتى الكوفى، وخرج إلى العسكر وقال: ابعثى إلى الشاميين، وادفعى إليهم صاحبهم، ففعلت، فأحضروها عند الحجاج فأخبرته،

(١) فى تاريخ الإسلام: ينقز.
(٢) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث سنة ست وسبعين وسبع وسبعين (٤١٨ - ٤١٩).

فقال: صدقت، وقال للشاميين: لا قود له ولا عَقْلَ؛ فإنه قتيل الله إلى النار، ثم نادى منادٍ: لا ينزل أحد على أحد. وبعث الرواد فارتادوا له مكان واسط، ووجد هنالك راهبًا ينظف بقعة من النجاسات، فقال: ما هذه ؟ قال: نجد فى كتبنا أنه يبنى ههنا مسجد للعبادة، فاختطَّ الحجاج مدينة واسط هنالك، وبنى المسجد فى تلك البقعة.

وفى تاريخ ابن خلكان(١): أن ابن الزبير لمَّا ولى الخلافة بمكَّة ولى أخاه عبيد الله ابن الزبير المدينة، ولم يزل يقيم للناس الحج من سنة أربع وستين إلى سنة اثنتين وسبعين، فلما ولى عبد الملك، منع أهل الشام من الحج من أجل ابن الزبير؛ لأنه كان يأخذ الناس بالبيعة إذا حجوا، فضجَّ الناس لما منعوا من الحج، فبنى عبد الملك قبة على صخرة بيت المقدس ومساجد الأمصار.

وقيل: إن أول من سن التعريف بالبصرة عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - لما كان عاملاً عليها لعلى - رضى الله تعالى عنهما - وبمصر عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك، وببيت المقدس عبد الملك بن مروان.

ولما قتل عبد الملك مصعب بن الزبير، وأراد الرجوع، جاء إليه الحجاج، فقال: إنى رأيت فى منامى أنى أخذت عبد الله بن الزبير، فسلخته، فولنى قتاله، فبعثه فى الجيش المتقدِّم ذكره، فحصره أكثر من خمسين يومًا، وقيل: خمسة أشهر، وفعل ما فعل، وأرسل برأسه إلى عبد الملك، فأرسل عبد الملك بالرأس إلى عبد الله بن حازم السلمى، وهو عامل ابن الزبير على خراسان، وما والاها، وكان عبد الله بن حازم هذا من الأبطال والفرسان المعدودين المشهورين. ولقد سمعت عبارة فى وصفه بالشجاعة، لم أسمعْ نظيرها فى غيره، فما أحقها أن تكون فى أمير المؤمنين على بن أبى طالب؛ فإنها غاية فى المدح ما خلفها غاية، وهى قول بعض العرب فيه: ما استحيا شجاع قط أن يفر من عبد الله بن حازم السلمى. فتأملها بالذوق، تجدها تجذب المحامد بالطوق.

الشيء بالشيء يذكر: قال فى العقد(٢): فرسان الحروب فى الجاهلية ربيعة بن مكدم من بنى فراس بن غنم بن مالك بن كنانة.

(١) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/ ٧١، ٧٢).
(٢) ينظر: العقد الفريد (١/ ١٠٥).

قلت: هو صاحب الواقعة مع عمرو بن معدى كرب التى تقدَّم ذكرها، كان يعقر على قبره فى الجاهلية، ولم يعقر على قبر أحد قبله. وبنو فراس من الذين قال فيهم على بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه - يمدحهم، ويذم أهل الكوفة: « يا معشر الكوفة، من فاز بكم، فاز بالسهم الأخيب، أبدلكم الله بى من هو شر لكم، وأبدلنى بكم من هو خير منكم، وددت والله أن لى بجمعكم وأنتم مائة ألف ثلاثمائة من بنى فراس بن غنم بن مالك بن كنانة ».

وعنترة بن شداد العبسى، وعتبة بن الحارث بن شهاب، وأبو [براء][(١)] عامر بن مالك ملاعب الأسنة، وزيد الخيل، وبسطام بن قيس، والأحيمر السعدى، وعامر ابن الطفيل، وعمرو بن عبد ود العامرى، وعمرو بن معدى كرب الزبيدى.

وأما فى الإسلام: فعلى بن أبى طالب، والزبير، وطلحة، ورجال من الأنصار، منهم: أبو دجانة الأنصارى، وعاصم بن ثابت بن أبى الأقلح، وقيس بن سعد بن عبادة، وعباد بن الحصين، والأشتر بن مالك النخعى، وعبد الله بن الزبير، ومسلمة ابن عبد الملك بن مروان، وعمير بن الحباب، وقطرى بن الفجاءة، والحريش بن هلال السعدى، وشبيب الحرورى الخارجى، وعبد الله بن حازم السلمى المذكور.

وكان عبد الله بن حازم هذا عاملاً لابن الزبير على خراسان وما والاها؛ كما تقدم ذكره، فلما أرسل إليه عبد الملك بن مروان برأس ابن الزبير، أرسله مع رجل من بنى عامر بن صعصعة يدعوه إلى طاعته، وأن تكون له خراسان طعمة سبع سنين لا يسأل عن شيء منها، قال ابن حازم للرسول: لولا أن الرسل لاتقتل - وفى رواية: لولا خشية الفتنة من بنى عامر وبنى سليم - لضربت عنقك، ولكنْ كُلْ كِتَابَ صاحبك، فأكله، ثم أمر بالرأس فغسَّله وقَبَّله ودفنه.

وقيل: إنه بعثه إلى آل الزبير بالمدينة، فدفنوه مع جثته، حيث دفنت[(٢)].

وعبد الملك أول من سمى بعبد الملك فى الإسلام[(٣)]، كان مشدود الأسنان بالذهب، حازمًا يقظا لا يكلُ أمره إلى سواه، شديد البخل يلقب: رشح الحجر؛ لبخله، ويلقب - أيضًا - بأبى الذباب، لبخر كان فى فيه؛ كذا قيل، مقدمًا على

(١) المثبت من تاريخ الإسلام.
(٢) تقدم الكلام على هذا عند حادث قتل ابن الزبير.
(٣) ينظر: تاريخ بغداد (١٠/ ٣٨٩ - ٣٩٠).

سفك الدماء.

أوصى ابنه الوليد لما ثقل مرضه، فقال: يا وليد، لا ألفينك إذا وضعتنى فى حفرتى تعصر عينيك كالأمة الوكعاء، بل شمر وائتزر، والبس جِلْد النمر، وادع الناس إلى البيعة، فمن قال برأسه كذا - أى: لا - فقل بالسيف كذا، أى: اضرب عنقه، ومن سكت، مات بدائه.

وكان عبد الملك يلقب قبل ذلك بحمامة المسجد لقبه به عبد الله بن عمر، وجاْءته الخلافة وهو يقرأ فى المصحف، فطبقه، وقال: سلام عليك، هذا فراق بينى وبينك[١].

وقيل لابن عمر: رأيتَ لو تفانوا أصحاب رسول الله ﷺ، فمن نسأل بعدهم؟ قال: سلوا هذا الفتى، يعنى: عبد الملك بن مروان[٢].

عن يونس بن ميسرة، عن عبد الملك؛ أنه قال وهو على المنبر: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ لا يغزو فى سبيل الله، أو يجهز غازيًا، أو يخلفه بخير، إلا أصابه الله بقارعة قبل الموت»[٣].

وقال النضر بن محمد، وذكر سندًا إلى سحيم مولى أبى هريرة، عن أبى هريرة؛ أن عبد الملك بن مروان دخل عليهم، وهو غلام شاب، فقال أبو هريرة: هذا يملك العرب.

وقال جرير بن حازم، عن نافع: لقد رأيت المدينة وما بها شابٌّ أشد تشميرًا، ولا أنسك، ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان[٤].

وعن ابن عمر قال: ولد الناس أبناء، وولد مروان أبًا.

قال مالك: سمعت يحيى بن سعيد يقول: أول من صلى فى المسجد ما بين الظهر إلى العصر عبد الملك بن مروان، وفتيان كانوا معه إذا صلى الإمام الظهر، قاموا فصلوا إلى العصر، فقيل لسعيد بن المسيب: لو قمنا فصلينا كما يصلى هؤلاء، فقال سعيد بن المسيب: ليست العبادة بكثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر فى أمر الله، والورع عن محارم الله.

(١) ينظر: تاريخ بغداد (١٠/ ٣٩٠).
(٢) ينظر: تاريخ بغداد (١٠/ ٣٨٩).
(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٠٣)، وابن ماجه (٢٧٦٢)، والدارمى (٢/ ٢٠٩) من حديث أبى هريرة
(٤) ينظر: تاريخ بغداد (١٠/ ٣٨٩).

وروى إسماعيل بن أبى خالد، عن الشعبى: ما جالست أحدًا إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان؛ فإنى ما ذاكرته حديثًا إلا زادنى فيه، ولا شعرًا إلا زادنى فيه[١].

وقال أحمد بن إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى، حدثنا أبى، عن أبيه، قال: لما نزل مسلم بن عقبة المرى المدينة، دخلت المسجد النبوى، فجلست إلى جنب عبد الملك، فقال لى: أمن هذا الجيش أنت ؟ قلت: نعم، قال: ثكلتك أمك، أتدرى إلى من تسير، إلى أول مولود ولد فى الإسلام.

قلت: مراده بالمدينة، فقد صح أن عبد الله بن الزبير أول مولود ولد بها، قيل: بقباء، وقيل: بالمدينة نفسها، ففرح المسلمون فرحًا شديدًا، لأن اليهود تفوهوا بأنا سحرنا محمدًا وأصحابه؛ فلا يولد لهم، فكان أول مكذب لهم، رضى الله عنه. انتهى.

وإلى ابن حَوَارِيِّ رسول الله ﷺ، وإلى ابن ذات النطاقين، وإلى من حنكه رسول الله ﷺ، أما والله إن جئته نهارًا، وجدته صائمًا، وإن جئته ليلاً لتجدنه قائمًا، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبَّهم الله جميعًا فى النار. فلما صارت الخلافة إلى عبد الملك، وجهنا مع الحجاج حتى قتلناه.

قال الأصمعى: حدَّثنا عباد بن مسلم بن زياد، عن أبيه، قال: ركب عبد الملك ابن مروان بكرًا، فأنشأ قائده يقول: [من الرجز]

يَـا أَيُّـهَـا الـبـكْـرُ الـذى أَرَاكَـا
غَـلَبْـتَ أهـلَ الأرضِ فـى مَـمْـشَـاكـا[٢]
وَيْـحَـكَ هَـلْ تـعـلَـمُ مَـنْ عَـلاَكَـا
خـلـيـفَـةُ الـلَّـهِ الـذى امْـتَـطَـاكَـا
لَـمْ يَـحْـبُ بَـكْـرًا مِـثْـلَ مـا حَـبَـاكَـا

فلما سمعه عبد الملك قال: إيهًا يا هناه، قد أمرت لك بعشرة آلاف درهم[٣].

ومما نقلته من العقد لابن عبد ربه القرطبى[٤] قال: مدح جرير الحجاج بأبيات

(١) ينظر: تهذيب الكمال (٤١١/١٨).
(٢) هذا الشطر فى البداية والنهاية، وتاريخ الإسلام هكذا: عليك سهل الأرض فى ممشاكا.
(٣) ينظر: البداية والنهاية (٧٨/٩)، وتاريخ الإسلام حوادث سنة ٨١هـ (ص ١٤٠).
(٤) ينظر: العقد الفريد (٣٣٠/١، ٣٣١).

منها قوله: [من الوافر]

دَعَا الحَجَّاجُ مِثْلَ دعاءِ نُوحٍ فأسمَعَ ذا المعارِجِ فَاسْتَجَابَا

فقال له الحجاج: إن الطاقة تَعْجِزُ عن مكافأتك، ولكنى موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فسر بكتابى هذا إليه فسار إلى عبد الملك، فأنشده القصيدة التى مطلعها: [من الوافر]

أَتَصْحُو أَمْ فؤادُكَ غَيْرُ صَاحِ ؟! ... ...

فقال عبد الملك: بل فؤادك يا ابن الفاعلة، حتى انتهى إلى قوله فيها: [من الوافر]

تَعَزَّتْ أمُّ حَزْرَةَ ثُمَّ قالَتْ: رأيتُ الوارِدِينَ ذَوِى امتِيَاحِ
ثِقِى باللَّهِ ليْسَ له شريكٌ ومِنْ عندِ الخليفةِ بالنجاحِ
سأشكُرُ إن رَدَدتَ إلَيَّ ريشِي وأثبتَّ القَوَادِمَ مِنْ جَنَاحِي
أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا وأندى العَالَمينَ بُطُونَ راحِ ؟!

فلما قال هذا البيت استوى عبد الملك جالسًا، وكان متكئًا، ثم قال: من مدحنا فبمثل هذا فليمدح، ثم قال: يا جرير، أترى أم حزرة ترويها مائة ناقة من نعم كلب ؟! فقال: إذا لم تروها، فلا أرواها الله، وقال: يا أمير المؤمنين، إن الإبل أباق، ونحن مشايخ، وليس بأحدنا فضل عن راحلته، فلو أمرت بالرعاة لها، فأمر له بثمانية أعبد، قال: وكانت بين يدى عبد الملك صحاف من فضة يقرعها بقضيب فى يده، فقال جرير: والمحلب يا أمير المؤمنين، وأشار إلى صحفة، فنبذها إليه بالقضيب، وقال: خذها، ففى ذلك يقول: [من البسيط]

أَعْطَوْا هُنَيْدَةَ يَحْدُوها ثمانيَةٌ ما فى عطائِهِمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ

وروى هشام بن الكلبى، عن أبيه قال: دخل أعرابى إلى عبد الملك بن مروان، فمدحه وأحسن، وعنده جرير والفرزدق والأخطل، فقال له عبد الملك: أتعرف أهجَىٰ بيت فى الإسلام ؟ قال: نعم؛ قول جرير: [من الوافر]

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنكَ من نُمَيْرٍ فلا كَعْبًا بَلَغْتَ ولا كلَابا

قال: أصبتَ، فهل تعرف أرقَّ بيت قيل فى الإسلام ؟ قال: نعم، قول جرير أيضًا: [من البسيط]

إنَّ العُيُونَ التى فى طَرْفِهَا حور(١) قتلْنَنَا ثم لم يُحْيِينَ قَتْلَانا

(١) فى ط: مرض. والمثبت من العقد الفريد.

يَصْرَعْنَ ذا اللبّ حتى لا حراكَ به وهُنَّ أضعَفُ خَلْقِ اللّه أركانا

قال عبد الملك: أحسنت، ثم قال: فهل تعرفُ أمدح بيت فى الإسلام ؟ قال: نعم، قوله فيك يا أمير المؤمنين: [من الوافر]

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا وأَنْدَى العالَمينَ بُطُونَ رَاحِ ؟!

قال: أحسنت، فهل تعرف جريرًا ؟ قال: لا، والله، وإنى إلى رؤيته لمشتاق، فقال: هذا جرير، وهذا الفرزدق، وهذا الأخطل، فأنشأ الأعرابى يقول: [من المتقارب]

فَحَيَّا الإلهُ أَبَا حَزْرَةٍ وَأَرْغَمَ أنفَكَ يا أَخْطَلُ

وَجَدُّ الفرزدقِ أَتْعِسْ به وَدَقَّ خياشيمَكَ الجَنْدَلُ

فأنشأ الفرزدق يقول: [من البسيط]

بَلْ أَرْغَمَ اللّهُ أنفًا أنتَ حامِلُهُ يا ذا الخَنَا ومقَالِ الزُّور والخَطَلِ

ما أَنْتَ بالحَكَمِ التُّرْضَىٰ حكومتُهُ ولا الأَصِيلِ وَلاَ ذِى الرأْيِ والجَدَلِ

فغضب جرير، وأنشأ يقول:[من البسيط]

أَتَشْتُمَانِ سفَاهًا خَيْرَكُمْ حَسَبًا ؟! فَفِيكُمَا وإلهى الزُّورُ والخَطَلُ

شَتَمْتُمَاهُ عَلَىٰ رَفْعِى وَوَضْعِكُما لا زِلْتُمَا فى سِفَالٍ أيها الرَّجُلُ

ثم نهض، فقبل يدى عبد الملك، وقال: يا مولاَىَ، جائزتى لجرير، فقال عبد الملك: وله منى مثلها. انتهى

وحكى الهيثم بن عدى؛ أن عبد الملك بن مروان بَعَثَ إلى عمر بن أبى ربيعة المخزومى، وإلى جميل بن معمر العذرى صاحب بثينة، وإلى كثير عزة - وهو كثير ابن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعى المدنى - وأوقر ناقة ذهبًا وفضة، ثم قال: لينشد كل واحد منكم ثلاثة أبيات، فأيكم كان أغزل شعرًا، فله الناقة وماعليها، فقال عمر بن أبى ربيعة: [من الطويل]

فَيَا لَيتَ أنى حِينَ تَدْنُو منيَّتِى شَمَمْتُ الذى ما بَين عينيكِ والفَمِ

وَلَيْتَ طهورى كَانَ رِيقكِ بَعْدَهُ ولَيْتَ حَنُوطِى مِنْ مُشَاشِكِ والدَّمِ

وَلَيْتَ سُلَيْمَىٰ فِى المنامِ ضَجِيعَتِى لَدَى الجَنَّةِ الخضراءِ أو فى جَهَنَّمِ

وقال جميل: [من الطويل]

حَلَفْتُ يمينًا يا بثينَةُ صادقًا فإنْ كُنْتُ فيها كاذبًا فَعَمِيتُ

حلفتُ لها بالبُدْنِ تدمى نحورُهَا لقد شَقِيَت نَفْسِي بكُمْ وعنِيتُ

ولو أنَّ رَاقي المَوْتِ يَرْقي جنازتى بمَنْطِقِهَا فى الناطِقِينَ حَيِيتُ

وقال كثير عزة: [من الكامل]

بِأَبِى وأُمِّى أَنتِ مِنْ معشوقةٍ ظَفِرَ العدوُّ بها فَغَيَّرَ حالَهَا

ومشَىٰ إليَّ بعَيْبِ عزَّةَ نسوةٌ جعل المليكُ خدودَهُنَّ نِعَالَهَا

ولو انَّ عزَّةَ حاكَمَتْ شَمْسَ الضحَىٰ فى الحُسْنِ عند موفَّقٍ لَقَضَىٰ لها

فقال عبد الملك: خذ الناقة ياصاحب جهنم.

وكان يقال: من أراد رِقَّة الغزل، فعليه بشعر عمر بن أبى ربيعة المخزومي، ومن شعره ماروواه ابن الأنبارى: [من الكامل]

لبثوا ثَلاَث منى بمَنْزِلِ قلعةٍ وَهُمُ عِلى عرضٍ لَعمْرُكَ ما هُمُ

متجاورينَ بغَيْرِ دارِ إقامةٍ لو قد أجَدَّ رحيلهم لم يَقْدَمُوا

ولَهن بالبَيْتِ العتيقِ لبانَةٌ والبيتُ يعرفُهُنَّ لو يتكلَّمُ

لَو كان حَيًّا قبلهنَّ ظعائنًا حَيَّا الحطيمُ وجوهَهُنَّ وزَمْزَمُ

لكنَّهُ مما يطيفُ برُكْنِهِ منهنَّ صماء الصَّدَىٰ مُسْتَعْجمُ

وكأنهنَّ وقد صدرْنَ عشيَّةً بيضٌ بأكنافِ الخيامِ منظَّمُ

وفى كتاب أنساب قريش للزبير بن بكار لعمر بن أبى ربيعة قوله: [من الطويل]

نَظَرْتُ إليها بالمحصَّبِ من مِنًى ولى نَظَرٌ لولا التحرُّمُ عازمُ

فقلْتُ أشمسٌ أم مصابيحُ بيعَةٍ بَدَتْ لكَ تحت السُّجْفِ أَمْ أنتَ حَالِمُ ؟!

بعيدة مَهْوَى القُرْطِ إما لنوفَلٍ أَبُوهَا وإمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وهَاشِمُ

فلم أستطِعْهَا غَيْرَ أَنْ قَدْ بَدَا لَنَا عشيَّةَ راحَتْ وَجْهُهَا والمَعَاصِمُ

وقال الزبير بن بكار: أنشد ابن أبى عتيق سعيدَ بن المسيب قول عمر بن أبى ربيعة: [من الخفيف]

أيها الراكبُ المجدُّ ابتِدَارًا قد قَضَىٰ مِنْ تِهَامَةَ الأوطارا

إن يكُنْ قلبُكَ الغدَاةَ جَلِيدًا ففؤادى بالحُبِّ أمْسَىٰ مُعَارا

ليت ذا الدَّهْرَ كان حَتْمًا علينا كُلَّ يومَين حِجَّةً واعتِمَارا

فقال سعيد بن المسيب: لقد كلف ابن أبى ربيعة المسلمين شططًا.

وروى الأصمعى، عن صالح بن أسلم، قال: قال عمر بن أبى ربيعة: إنى قد

أنشدت من الشعر مابلغك وبلغ غيرك، ولكن وربِّ هذه البِنِيَّة - يشير إلى الكعبة - ماحللت إزارى على فرج حرام قط.

حضر مجلس عبد الملك يومًا قوم من وجوه العرب، فقال لهم عبد الملك: أيُّ المناديل أفضل؟ فقال بعضهم: مناديل مصر، كأنها [غِرقِئ](١) البيض، وقال بعض: مناديل اليمن كأنها أنوار الربيع، فقال عبد الملك: ماصنعتم شيئًا، أفضلها ما قاله عبدة بن الطبيب حيث يقول: [من البسيط]

لَمَّا نزلْنَا ضربْنَا ظِلَّ أخبيةٍ   وفَارَ بالغَلْيِ للقَوْمِ المراجيلُ
ورد وأشْقَر لا يُؤْنيه طابخُهُ   ما قارَبَ النضْجَ منها فهو مأكولُ
ثم انثنينا عَلَىٰ عُوجٍ مسوَّمةٍ   أعرافُهُنَّ لأيدينا مَنَادِيلُ

ثم قال: وما أطربنى لقول طفيل الخيل: [من البسيط]

إنى وإنْ قَلَّ مالى لا يُفَارِقُنِى   مِثلُ النعامةِ فى أوصالهَا طُولُ
تقريبُهَا المَرطَىٰ والجَوْزُ معتدلٌ   كأنه سبدٌ بالماءِ مغسُولُ
أو ساهم الوجهِ لم تقطَعْ أباجلُهُ   يُصَانُ وَهْوَ بيوم الروعِ مبذولُ

قلت: وفى حفظى لابن المعتز فى مثل هذا المعنى من وصف الفرس ما يعجب سماعه، ويحسن فى الطروس إيداعه قوله: [من الكامل]

ولقد وَطِئْتُ الغيثَ يَحْمِلُنِى   طِرْفٌ كلونِ الصبحِ حينَ وقدْ
يمشِى ويعرضُ فى العِنَانِ كما   صَدَفَ المعشَّقُ بالدَّلاَلِ وصَدّ
طارَتْ به رجلٌ موقعةٌ   رجَّامةٌ لحَصَى الطريقِ وَيَدْ
وكأنه مَوْجٌ يسيلُ إذا   أطلقتَهُ، وإذا حبست جَمَدْ

وقول زيد الخيل: [من الرمل]

يا بنى الصيداء رُدُّوا فَرَسى   إنما يُصنَعُ هذا بالذَّلِيلِ
لا تذيلوه فإنى لم أكُن   يا بنى الصَّيْدَا لِمُهْرِى بالمُذِيلِ
عَوِّدُوهُ كَالَّذِى عَوَّدْتُهُ   دلج الليْلِ وَإِيطَاء القَتِيلِ

قيل: وفدت عزة على عبد الملك بن مروان، فلما دخلت سلَّمَتْ، فرد عليها السلام، ورحب بها، وقال: ما أقدمك يا عزة؟ قالت: شدة الزمان، وكثرة الألوان،

(١) الغرقئ: قال فى « القاموس »: همزته زائدة . . . وغرقَأتِ الداجاجة بيضتها: باضتها وليس لها قشر يابس . ينظر: ترتيب القاموس (غرق) .

واحتباس القطر، قال: هل تروين لكثير: [من الطويل]

وَقَدْ زعَمَتْ أنِّى تغيَّرْتُ بعدها ... ومَنْ ذا الذى يَا عَزُّ لا يتغيَّرُ ؟!

قالت: أَزْوِي له هذا، ولكنى أَزْوِي قوله فى قصيدة له: [من الطويل]

كأنِّى أُنَادِى صَخْرَةَ حِينَ أَعْرَضَتْ ... مِنَ الصُّمِّ لو تمشِى بها العُصْمُ زَلَّتِ

قال: ماكنت لتصيرين إلى حاجته، أو تهبين نفسك لى، فأزوجك منه، قالت: الأمر إليك يا أمير المؤمنين، ماكنت لأزهد فى هذا الشرف الباقي لى ما دامت الدنيا أن يكون أمير المؤمنين وليي، فعظم بذلك قدرها عنده، وأمر لها بمال، وكتب إلى كثير وهو بالكوفة؛ أن اركب البريد وعجل؛ فإنى مزوجك عزة، وأتاه الكتاب وهو مضنى من الشوق إليها، فرحل وأقبل نحوها، فلما كان ببعض الطريق إذا هو بغراب على شجرة بانة ينتف ريشه ويطايره، وكان كثير شديد الطيرَة، فلما رآه تَطَيَّر وهَمَّ بالانصراف، ثم غلبه شوقه، فمضى وهو مكروبٌ لما رأى، حتى أتى ماء لبنى نهد، فإذا هو برجل يسقى إبله، فنزل كثير عن راحلته واستظلَّ بشجرة هناك، فأبصره النهديُّ وأتاه، وسأله عن اسمه ونسبه، فانتسب، فرحَّبَ به، فأخبره كثير عما رأى فى طريقه، فقال: أما الغراب فغربة، وأما البانة فبين، وأما نتف ريشه ففرقة.

فتطير من ذلك ومشَىٰ، حتى دنا من دمشق، فإذا بجنازة فاستعبر، وقال: أسأل الله خير ما هو كائن، فسأل عن الميت فإذا هى عزة، فخر مغشيًّا عليه، فعُرِفَ، وصب عليه الماء، فكان مجهوده أن بلغ القبر، فلما دفنت، انكبَّ على القبر، وهو يقول: [من الطويل]

سِرَاجُ الدُّجَىٰ صفرُ الحَشَا منتهى المنى ... كَشَمْسِ الضحَىٰ نَوَّامة حينَ أُصْبِحُ

إذا مامشتْ بين البيوتِ تخزَّلت ... ومالَتْ كما مال النزيفُ المرنَّحُ

تعلَّقتُ عزا وهىَ رود شبابها ... علاقة حُبٍّ كاد بالقَلْبِ يرجحُ

أقولُ ونِضْوِى واقفٌ عند رَمْسِها ... عليكِ سلامُ اللهِ والعَيْن تسفَحُ

فهلا فَدَاكِ الموتُ مَنْ أنتِ دونه ... ومَنْ هو أسوا منكِ دلاًّ وأقبحُ

على أمِّ بكرٍ رحمةٌ وتحيَّةٌ ... لها منك والنائى يودُّ وينصحُ

منعمة لو يدرج النمْلُ بينها ... وبين حواشِى بردها كَادَ يجرحُ

وما نظَرَتْ عينى إلى ذِى بشاشةٍ ... من الناسِ إلا أنْتِ فى العينِ أملحُ

ثم بكى حتى غشى عليه فأفاق، وهو يقول: [من الطويل]

ما أَعْيَفَ النَّهْدِيَّ لا دَرَّ دَرُّهُ وأزجَرَهُ للطَّيْرِ لا طَارَ طائرُهْ
رأيتُ غرابًا واقِعًا فَوْقَ بَانَةٍ يُنَتِّفُ أعلَىٰ ريشِهِ ويطايرُهْ
فقال غرابٌ: ذا اغترابٌ من النوَىٰ وبانَة بَيْن مِنْ حَبِيبٍ تُعَاشِرُهْ

ثم لم ير ضاحكًا بعدها حتى أدركه الموت. انتهى

وقيل: كان جوثة الضمرى صديقًا لعبد الملك بن مروان، ثم خرج عليه مع ابن الزبير، فلما استأمن الناس، قال عبد الملك لجوثة: أكنتُ مستحقًّا منك أن تعين ابن الزبير عليَّ مع مابينى وبينك؟! فقال: يا أمير المؤمنين، لاتعجلنَّ عليَّ حتى تسمعَ عذرى، قال: هاته، قال: هل رأيتنى قطُّ فى حرب أو سباق أو نضال إلا والفئة التى أنا معها مغلوبة مهزومة بسوء بختى وشؤمى؟! وإني خرجت مع ابن الزبير ليقتل على رسمى، فضحك منه عبد الملك وعفا عنه، وأحسن إليه.

وقال عبد الملك: كلكم يرشح نفسه لهذا الأمر، يعنى: الخلافة، ولايصلح له منكم إلا من كان له سيف مسلول، ومال مبذول، وعدل تطمئن إليه القلوب والعقول.

وقال لابنه الوليد: يابنى، اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه الرعية، إلا حزم أو توان.

واصطبح فى يوم شديد البرد، فدعا بزوج سمور وعمامة خز، فلبسهما، وأمر بكَوَانِينِ النارِ فأضرم فيها الفحم بين يديه، ثم دعا بمُضَحِكٍ له يُدعَى أبا الزعيريرة، فقال له عبد الملك: اخرج إلى الشتاء، فقل له: أرعد وأبرق كيف شئت، قد استعددنا لك. فخرج إلى صحن الدار، ثم عاد فقال: قد أديتُ رسالتَكَ إليه، فقال: أمّا أمير المؤمنين، فلا سبيل إليه، ولكنْ والله لأضربنَّ ضبب أبى الزعيريرة ضربًا يدخله فى حِر أمه، فضحك منه ووصله وخلع عليه من ثيابه.

وكان يقول: خلتان لاتدعوهما إن قدرتم: تعلم العربية، ولباس الثياب الفاخرة؛ فإنهما الزينة والمروءة الظاهرة.

وعن عوانة قال: جرى بين عروة بن الزبير، وبين عبد الملك بن مروان كلام أغلظ له عروة فيه، وكان الحجاج حاضرًا فقال له: يا ابن العمياء، أتكلم أمير المؤمنين بمثل هذا ؟! فقال له عروة: وما أنت وذاك يا ابن المتمنية؟. فضحك

عبد الملك، وقال للحجاج: قد كنت غنيًا عن هذا. وإنما أراد عروة: أن أم الحجاج وهى الفارعة بنت همام قالت: [من البسيط]

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا ؟! أَمْ هَلْ سَبِيلٌ إِلَىٰ نَصْرِ بنِ حَجَّاجِ؟!

وكان نصر بن حجاج هذا من أجمل أهل المدينة.

قلت: ذكروا أن عمر بن الخطاب خشى من وقوع الفتنة به، فنفاه من المدينة بعد أن حلق لمة كانت له؛ ففيه يقول الشاعر: [من الخفيف]

حَلَقُوا رَأْسَهُ لِيَزْدَادَ قُبْحا غِيرَةً مِنْهُمْ عليه وشُحًّا
كان صُبْحًا عليه لَيْلٌ بهيمٌ فَمَحَوْا لَيْلَهُ وأَبقَوْهُ صُبْحَا

وعن المدائنى: جرى بين عبد الملك وعمرو بن سعيد بن العاص منازعةٌ، فأغلظ له عمرو، فقال له خالد بن يزيد: ياعمرو، أمير المؤمنين لايكلَّم بمثل هذا، فقال له عمرو: اسكت، فوالله لقد سلبوك ملكَكَ، ونكَحُوا أمك، فما هذا النصح الموشح بغشٍّ؟! أنت كما قال الشاعر: [من الطويل]

كَمُرْضِعَةٍ أولادَ أُخْرَىٰ وضيعَتْ بنيها فَلَم ترقع بذلك مَرْقَعَا

وقدم الحجاج على عبد الملك بن مروان، فمر بخالد بن يزيد بن معاوية، وعنده رجل من أهل الشام، فقال الشامى لخالد: من هذا؟ يشير إلى الحجاج، فقال له خالد كالمستهزىء: هذا عمرو بن العاص، فعدل إليه الحجاج وقال: إنى والله ما أنا بعمرو بن العاص، ولا ولدت عمرًا ولا ولدنى، ولكنى ابن الغطاريف من ثقيف، والعقائل من قريش، ولقد ضربت بسيفى هذا أكثَرَ من مائة ألف، كلهم يشهد أنك وأباك وجدك من أهل النار، ثم لم أجد لذلك جزاءً ولا شكرًا، وانصرف عنه وهو يقول: عمرو بن العاص، عمرو بن العاص !

وكان عبد الملك إذا دخل عليه رجل من أفق من الآفاق، قال له: أعفنى من أربع، وقل بعدها ماشئت؛ لا تكذبنى؛ فإن المكذوب لا رأى له، ولا تجبنى عما لم أسألك؛ فإن فيما أسألك غنية عنه، ولاتطرنى؛ فإنى أعلم بنفسى منك، ولاتحملنى على الرعية؛ فإنى إلى الرفق بهم أحوج.

ذكر ابن خلكان[1]؛ أن عبد الملك بن مروان لما عزم على الخروج لمحاربة

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان (١٠٨/٤).

مصعب بن الزبير، ناشدته زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية ألاَّ يخرج بنفسه، وأن يستنيب غيره، وألحت عليه فى المسألة. فلما لم يسمع منها، بكت وبكى من حولها من جواريها وحشمها، فقال عبد الملك: قاتل الله كثيرًا كأنه رأىٰ موقفنا هذا حين قال: [من الطويل]

إذا ما أَرَادَ الغزْوَ لم يَثْنِ هَمَّهُ   حَصَانٌ عليها نَظْمُ دُرٍّ يَزِينُهَا
نهتْهُ فلمَّا لم تَرَ النَّهىَ عاقَهُ   بكَتْ فبكَىٰ مما شجاها قَطِينُهَا

ثم عزم عليها أن تقصر وخرج.

وروى جرير بن عبد الحميد لعبد الملك: [من الطويل]

لَعَمْري لقد عُمِّرْتُ فى الدهْرِ بُرْهَةً   ودانَتْ لِىَ الدُّنيا بِوَقْعِ البَوَاتِرِ
فَأَضحَى الذى قد كَانَ مِمَّا يَسُرُّنِى   كلمحِ مَضَىٰ فى المزمناتِ الغوابرِ
فيا ليتنى لَمْ أَغْنَ فى الملك ساعةً   ولم أَلْهُ فى لذاتِ عيشٍ نواضِرِ
وكنتُ كذى طِمْرَيْنِ عاشَ ببُلْغَةٍ   من الدَّهْرِ حتَّىٰ زارَ ضَنْكَ المَقَابرِ

وعن يحيى الغسانى قال: كان عبد الملك كثيرًا مايجلس إلى أم الدرداء فى مؤخر المسجد بدمشق، فقالت له مرة: بلغنى يا أمير المؤمنين؛ أنك شربت الطلا بعد النسك والعبادة، فقال: إى والله، والدماء.

وقال على بن محمد: لما أيقَنَ عبد الملك بالموت، دعا مولاه أبا علاقة، فقال: والله، لوددت أنى كنت منذ ولدت إلى يومى هذا جمالاً.

ولم يكن له من البنات إلا واحدة وهى فاطمة، وكان قد أعطاها قرطى مارية والدرة اليتيمة، وقال: اللهم، إنى لم أخلف شيئًا أهم إلىَّ منها فاحفظها، فتزوجها عمر بن عبد العزيز.

ثم أوصى بنيه بتقوى الله، ونهاهم عن الفرقة والاختلاف، وقال: انظروا مسلمة، واصدروا عن رأيه - يعنى أخاهم - فإنه مجنكم الذى تجتنون به، ونابكم الذى عنه تفترون، وكونوا بنى أم بررة، وكونوا فى الحرب أحرارًا، واحلولوا فى مرارة، ولينوا فى شدة، وكونوا كما قال ابن عبد الأعلى الشيبانى: [من الكامل]

إنَّ القِدَاحَ إذا اجتمعْنَ فَرَامَهَا   بالكَسْرِ ذو حَنَقٍ وبطْشٍ أَيِّدِ
عَزَّتْ فلم تُكْسَرْ، وإنْ هِىَ بُدِّدَتْ   فالكَسْرُ والتوْهِينُ للمتبدِّدِ

يا ولدى، اتق الله فيما أخلفك فيه، واحفظ وصيتى، وخذ بأمرى، وانظر أخى معاوية؛ فإنه ابن أمى، وقد ابتلى فى عقله بما علمتَ، ولولاك لآثرته بالخلافة، فصل رحمه، واحفظنى فيه، وانظر أخى محمد بن مروان، فأقره على الجزيرة ولا تعزله، وانظر أخاك عبد الله، فلا تؤاخذه، وأقرره على عمله بمصر، وانظر الحجاج، فأكرمه؛ فإنه هو الذى وطأ لكم المنابر، وهو سيفك ياوليد، ويدك على من ناوأك؛ فلا تسمعن فيه قول أحد، وأنت إليه أحوج منه إليك، ثم تمثل: [من الوافر]

فَهَلْ مِنْ خالدٍ إمَّا هَلَكْنَا ؟! وهَلْ بالمَوْتِ يا للناسِ عَارُ ؟!

ولادته فى شهر رمضان، سنة خمس وعشرين من الهجرة، وجلوسه فى شهر رمضان سنة خمس وستين، مدته إحدى وعشرون سنة وشهران، وفاته يوم الخميس نصف شوال سنة ست وثمانين، عمره إحدى وستون سنة.

خلف سبعة عشر ذكرًا، وأنثى واحدة، ولى الخلافة منهم أربعة: الوليد، وسليمان، وهشام، ويزيد، وكان منهم ولد اسمه معاوية مشهور بالعِىِّ والبلادة، طار يومًا باز من يده، فقال: أغلقوا أبواب المدينة حتى لايخرج البازى، ووقف يومًا على باب طحان، فنظر إلى حمار له يدور بالرحى، وفى عنقه جلجل، فقال للطحان: لم جعلت هذا الجلجل فى عنق هذا الحمار؟! فقال الطحان: ربما أدركتنى سآمة، أو نمت، فإذا لم أسمع الجلجل، علمت أنه واقف، فصحت عليه، فقال له: أرأيت إن وقف الحمار، وحرك رأسه بالجلجل؟! فقال الطحان: من لى بحمار يكون عقله مثل عقل ابن أمير المؤمنين. وكان أبوه عبد الملك منع أن يمشى أحد بالليل بعد العشاء الأخيرة، فخرج ذات ليلة مع الشرط يدور فى الطرق، فوجدوا رجلًا، فلما رآهم الرجل، قعد على روث فرس، فقالوا له: لم خرجتَ؟ قال: خرجت لأقضى الحاجة، فتلُّوه من يده، فإذا تحته روث فرس، فقالوا له فى ذلك؟! فقال: لا عليكم ألاَّ تبحثوا عن ذلك، يخرى كل إنسان ما أراد. فقال معاوية ابن عبد الملك: صدق والله، أطلقوه، فأطلقوه بعد أن استغربوا ضحكًا.

وكان عبد الملك يروم خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد الذى كان عهده أبوه مروان لعبد الملك بن مروان، ثم من بعده لأخيه عبد العزيز بن مروان، والبيعة لابنه

الوليد، وكان قبيصة ينهاه عن ذلك، ويقول: لعلّ الموت يأتيه، وتدفع العار عن نفسك.

وجاءه رَوْح بن زنباع ليلة، وكان عنده عظيمًا، ففاوضه فى ذلك، فقال: لو فعلته، ما انتطح فيه عنزان، فقال: نصبح إن شاء الله، وأقام روح عنده، ودخل عليهما قبيصة بن ذؤيب من جنح الليل، وهما نائمان - وكان لايحتجب عنه، وإليه الخاتم والسكة - فأخبره بموت عبد العزيز أخيه فقال عبد الملك لروح: كفانا الله مانريد، ثم ضم مصر إلى ابنه عبد الله بن عبد الملك.

ويقال: إن الحجاج كتب إلى عبد الملك يزين له البيعة للوليد، فكتب عبد الملك إلى عبد العزيز: إنى رأيت أن يصير الأمر إلى ابن أخيك، فكتب له عبد العزيز: إنى أرى فى ابنى أبى بكر ماترى فى الوليد، فكتب عبد الملك إلى عبد العزيز أن يحمل خراج مصر، فكتب إليه: إنى وإياك يا أمير المؤمنين، قد أشرفنا على عمر أهل بيتنا، ولاندرى أينا يأتيه الموت فلا تفسد علىَّ بقية عمرى. فَرَقَّ له عبد الملك وتركه.

ولما جاء الخبر بموته - وذلك سنة أربع وثمانين - أمر الناس بالبيعة لولديه الوليد ابن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان، وكان على المدينة هشام بن إسماعيل المخزومى، فدعا الناس إلى البيعة، فأجابوا، إلا سعيد بن المسيب، فضربه ضربًا مبرحًا، وطاف به فى الأسواق، وكتب عبد الملك إلى هشام يلومه، ويقول: إن سعيدًا ليس عنده شقاق ولاخلاف، وقد كان ابن المسيب امتنع من بيعة ابن الزبير، فضربه جابر بن الأسود عامل المدينة لابن الزبير ستين سوطًا، وكتب ابن الزبير يلوم جابرًا.

خلافة الوليد بن عبد الملك(١)

قال الثعالبى: قال عبد الملك بن مروان: ولدت فى شهر رمضان، وفطمت فيه، وبلغت الحلم فيه، ووليت الخلافة فيه، وختمت القرآن فيه، وأظن موتى فيه، فلما

(١) ينظر: ترجمته فى شذرات الذهب (١/ ١١١)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٢٠)، العقد الثمين (٧/ ٣٨٩)، العبر (١/ ١١٤)، فوات الوفيات (٤/ ٢٥٤)، البداية والنهاية (٩/ ٧٠)، تاريخ الطبرى (٦/ ٤٩٥)، تاريخ اليعقوبى (٣/ ٢٧)، المعارف ص (٣٥٩)، مروج الذهب (٣/ ٣٦٥)، عنوان المعارف (١٥)، الكامل (٥/ ٨) وما بعدها، تاريخ الخلفاء (٢٢٣)، تاريخ الخميسى (٢/ ٣١١)، الذهب المسبوك للمقريزى (٢٩)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٧).

دخل شوال، أمن الوفاة فتوفى فى شوال فى سنة ست وثمانين؛ كما تقدم ذكره.

ولما دفن قال الوليد: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان على مصيبتنا بأمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة، فكان أول من عزى نفسه وهنأها، ثم قام عبد الله بن همام السلولى فقال: [من الرجز]

أَللَّهُ أعْطَاكَ التى لا فَوْقَهَا وَقَدْ أَرَادَ المُلْحِدُونَ عَوْقَهَا
عَنْكَ ويَأْبَى الله إلا سَوْقَهَا إلَيْكَ حتى قَلَّدُوكَ طَوقَهَا

وبايعه ثم بايعه الناس بعده.

ثم صعد الوليد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، لامقدم لما أخر الله، ولا مؤخر لما قدمه الله. وقد كان من قضاء الله وسابق علمه ماكتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت، وقد صار أبى إلى منازل الأبرار، وولى هذه الأمة بالذى يحق الله عليه من الشدة على المذنب(١)، واللين لأهل الحق والفضل، وإقامة ما أقام الله من منازل(٢) الإسلام وأعلامه؛ من حج البيت، وغزو الثغور، وشن الغارة على أعداء الله؛ فلم يكن عاجزًا ولا مفرطًا. أيها الناس، عليكم بالطاعة، ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع المفرد. أيها الناس، من أبدى لنا نفسه، ضربنا الذى فيه عيناه، ومن سكت، مات بدائه، ثم نزل(٣).

عمارة المسجد النبوى(٤)
على يد عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز

كان الوليد عزل هشام بن إسماعيل المخزومى عن المدينة سنة سبع وثمانين، وولَّىٰ عليها ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان، فقدمها ونزل دار مروان، ودعا عشرة من فقهاء المدينة، فيهم الفقهاء السبعة المعروفون، فجعلهم أهل مشورته لايقطع أمرًا دونهم، فأمرهم أن يبلغوا الحاجات، والظلامات إليه، فشكروه وجزوه خيرًا، ودعا له الناس.

---

(١) فى تاريخ الطبرى: المريب.
(٢) فى تاريخ الطبرى: منار.
(٣) ينظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٤٢٣ - ٤٢٤).
(٤) ينظر: تاريخ خليفة (٣٠١) ومروج الذهب (٣/ ١٦٦) وتاريخ الإسلام حوادث سنة سبع وثمانين.

ثم كتب إليه الوليد سنة ثمانين أن يدخل حجر أمهات المؤمنين فى المسجد، وأن يشترى مافى نواحى المسجد من الدور حتى يجعله مائتى ذراعٍ فى مثلها، ويقدم القبلة، ومن أبى أن يعطيك ملكه، فقومه قيمة عدل، وادفع إليه الثمن، واهدم عليه الملك، ولك فى عمر وعثمان أسوة فى ذلك. فأعطاه أهل الأملاك ما أحب منها بأثمانها، وبعث الوليد إلى ملك الروم: إنى أريد بناء المسجد النبوى، فبعث إليه ملك الروم بمائة ألف مثقال من الذهب، ومائة من الفعلة، وأربعين حملاً من الفسيفساء، فبعث بذلك كله إلى عمر بن عبد العزيز، واستكثر معهم من فعلة الشام، وشرع فى عمارته فعمره عمر بن عبد العزيز، ولم يغير شيئًا من مكانه الذى كان عليه فى زمنه ﷺ حتى إنه يأتى الجذع القائم فيقلعه، ثم يضع موضعه أساس الأسطوانة ويرفع البناء عليها؛ فلذا ترى بعض الأساطين متسعًا مابينها، وبعضها متضايقًا؛ لأنها كانت كذلك فى بناء عمر بن الخطاب الذى هو على بنائه عليه الصلاة والسلام.

ورزق الفقهاء والفقراء والضعفاء، وحرم عليهم سؤال الناس، وفرض لهم مايكفيهم وضبط الأمور أتم ضبط.

ثم ولى سنة تسع وثمانين على مكة خالد بن عبد الله القسرى(١)، قال العبشمى، عن أبيه: كان الوليد دميمًا سائل الأنف طويلاً أسمر، به أثر جدرى، أفطس، وبمقدم لحيته شمط، ليس فى رأسه ولحيته غيره، إذا مشى يتبختر فى مشيته، كان أبواه يترفانه، فشَبَّ بلا أدبٍ ولا علمٍ(٢).

وروى يحيى الغسانى؛ أن روح بن زنباع قال: دخلت يومًا على عبد الملك وهو مهموم، فقال لى: فكرت فيمن أوليه أمر العرب فلم أجده، فقلت: أين أنت عن الوليد؟ قال: إنه لايحسن النحو، قال: فقال لى عبد الملك: رُحْ إلى العشية؛ فإنى سأظهر كآبة فسلنى، قال: فرحت إليه والوليد عنده، فقلت له: لا يسوءك الله، ماهذه الكآبة؟ قال: فكرت فيمن أوليه أمر العرب، فلم أجده، فقلت: أين أنت عن ريحانة قريش وسيدها الوليد؟ فقال لى: يا أبا زنباع، إنه لايلى العرب إلا من تكلّم

(١) ينظر: تاريخ خليفة (٣٠٢)، تاريخ الطبرى (٦/ ٤٤٠)، الكامل فى التاريخ (٤/ ٥٣٦)، تاريخ الإسلام حوادث سنة تسع وثمانين، والبداية والنهاية (٩/ ٩١).
(٢) ينظر تاريخ الإسلام وفيات سنة ست وتسعين ونهاية الأرب (٢١/ ٣٣٦).

بكلامهم، قال: فسمعها الوليد، فقام من ساعته، وجمع أصحاب النحو، وجلس معهم فى بيت، وطبق[١] عليه ستة أشهر، ثم خرج وهو أجهل مما كان، فقال عبد الملك: أما إنه قد أعذر؛ كذا قاله الحافظ الذهبى فى الدول[٢].

وروى سعيد بن عامر الضبعى، عن كثير أبى الفضل الطفاوى، قال: شهدت الوليد بن عبد الملك صلى الجمعة والشمس على الشرف، ثم صلى العصر[٣].

وبنو أمية معروفون بتأخير الصلوات عن أول أوقاتها؛ قال فى مسامرة الأخبار: قال ابن الأنبارى: حدثنا أبو عكرمة الضبى؛ أن الوليد بن عبد الملك قرأ على المنبر: ﴿ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴾ [الحاقة: ٢٧] وضم التاء، وتحت المنبر عمر بن عبد العزيز، وسليمان بن عبد الملك أخوه، فقال عمر بن عبد العزيز: وددتها والله عليك[٤].

وعن أبى الزناد، قال: كان الوليد لحانًا كأنى أسمعه على منبر النبى ﷺ يقول: يا أهل المدينة.

وكان الوليد جبارًا ظالمًا، لكنه أقام الجهاد فى أيامه، وفتحت فى خلافته فتوحات عظيمة، وكان يختن الأيتام، ويرتب لهم المؤدبين، ويرتب للزمنَىٰ من يخدمهم، وللأضراء من يقودهم من رقيق بيت المال، وعمَّر مسجده - عليه الصلاة والسلام - ووسَّعه، وكان يبر حملة القرآن، ويقضى ديونهم.

وبنى الجامع الأموى فى ذى القعدة سنة ست وثمانين؛ قال العلامة محمد بن مصطفى الشهير بكاتى فى تاريخه بغية الخاطر: إن الوليد بنى بدمشق الجامع المشهور بجامع بنى أمية، وشرع فى بنائه أواخر سنة ست وثمانين، وحين شرع، أحضر العملة من كل جهة، وعدتهم اثنا عشر ألف رجل، وأنفق فى عمارته أربعمائة صندوق، فى كل صندوق من الذهب العين ثمانية وعشرون ألف دينار ذهبًا أحمر، وامتد بناؤه عشر سنين، وفيه عمود من المرمر يميل إلى الحمرة اشتراه بألف وخمسمائة دينار.

---

(١) فى تاريخ الإسلام: وطيَّن.
(٢) ينظر: تاريخ الإسلام وفيات سنة ست وتسعين، وفوات الوفيات (٤/ ٢٥٤).
(٣) ينظر: تاريخ الإسلام المصدر السابق.
(٤) ينظر: المصدر السابق، وفيه: فقال سلمان وددتها والله.

قال فى خريدة العجائب: وفى محرابه عمودان صغيران من المرمر الأخضر، حصله من عرش بلقيس الملكة ابنة الهدهاد زوجة سليمان بن داود - عليهما السلام - وجعل فى المسجد طاقات على عدد أيام السنة، تدخل الشمس فى كل يوم من طاق من تلك الطاقات، وكانت فيه ستمائة سلسلة من ذهب للقناديل، ومازالت إلى أيام عمر بن عبد العزيز بعد سليمان بن عبد الملك، فجعلها فى بيت المال، واتخذ عوضها صفرًا وحديدًا.

قال الذهبى: قال ضمرة، عن على بن أبى عبلة[(١)] سمع عبد الله بن عبد الملك ابن مروان قال: قال لى الوليد: كيف أنت والقرآن؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أختمه فى كل جمعة، قلت: فأنت يا أمير المؤمنين؟ قال: وكيف مع الاشتغال، قلت: على ذلك؟ قال: فى كل ثلاث، قال على: فذكرت ذلك لإبراهيم بن أبى عبلة فقال: كان يختم فى رمضان سبع عشرة ختمة.

وقال ضمرة: سمعت إبراهيم بن أبى عبلة يقول: رحم الله الوليد، وأين مثل الوليد ؟! فتح الهند والسند، والأندلس وغيرها، وبنى مسجد النبى ﷺ ووسَّعه، وبنى مسجد دمشق، وكان يعطينى قصاع الفضة أقسمها على قراء بيت المقدس[(٢)].

غريبة: قال عمرو بن عبد الواحد الدمشقى، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبيه، قال: خرج الوليد بن عبد الملك من الباب الأصغر، فوجد رجلاً عند الحائط عند المئذنة الشرقية يأكل وحده، فجاء حتى وقف على رأسه، فإذا هو يأكل خبزًا وترابًا، فقال له الوليد: ما شأنك انفردت عن الناس؟ قال: أحببت الوحدة، قال: فما حملك على أكل التراب، أما فى بيت مال المسلمين مايجري عليك؟ قال: بلى، ولكن رأيت القنوع، قال: فرجع الوليد إلى مجلسه، ثم أحضره، فقال: إن لك لخبرًا لتخبرنى به، وإلا ضربت عنقك[(٣)]، قال: نعم، كنت جمالاً ومعى ثلاثة أجمال موقرة طعامًا حتى أتيت مرج الصفر، فقعدت فى خربة أبول، فرأيت البول ينصب فى شق فأتبعته حتى كشفته، فإذا غطاء على حفير، فنزلت فإذا مال صبيب،

---

(١) فى ط: جميلة. والمثبت من تاريخ الإسلام.
(٢) ينظر: تاريخ الإسلام وفيات سنة ست وتسعين، ووفيات الوفيات (٤/ ٢٥٤).
(٣) فى تاريخ الإسلام: ما فيه عيناك.

فأنخت رواحلى، وحللت[١] أعكامى، ثم أوقرتها ذهبًا، وغطيت الموضع، فلما سرت عنه غير يسير، وجدت معى مخلاة فيها طعام، فقلت: أنا أترك الكسرة؟![٢] ففرغتها، ورجعت لأملأها فخفى على الموضع، وأتعبنى الطلب، فرجعت إلى الجمال فلم أجدها ولم أجد الطعام الذى أخرجته من المخلاة، فآليت على نفسى ألاَّ آكل شيئًا إلا الخبز بالتراب، فقال الوليد: كم لك من الولد؟ فذكر عيالاً، قال: يجرى عليك من بيت المال، ولاتستعمل فى شىء، فإن هذا هو المحروم، قال ابن جابر: فذكر لنا أن الجمال جاءت إلى بيت مال المسلمين، فأناخت عنده، فأخذها أمين الوليد، فطرحها فى بيت المال. رواته ثقات؛ قاله الكنانى[٣].

وعن نمير بن عبد الله الصنعانى، عن أبيه، قال: قال الوليد: لولا أن الله ذكر آل لوط فى القرآن، ماظننت أن أحدًا يفعل هذا[٤].

وعن يزيد بن المهلب قال: لما ولانى سليمان بن عبد الملك خراسان، روَّعنى[٥] عمر بن عبد العزيز، فقال لى: يا يزيد، اتق الله؛ فإنى حين وضعت الوليد فى قبره إذا هو يركضُ فى أكفانه، يعنى: يضرب الأرض برجليه[٦].

دخل جرير على الوليد بن عبد الملك، وعنده عدى بن الرقاع العاملى، فقال الوليد لجرير: أتعرف هذا؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قال: هذا عدى بن الرقاع، فقال جرير: شر الثياب الرقاع، فممنْ هو؟ قال: من عاملة، قال جرير: الذين يقول الله تعالى فيهم: ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغاشية: ٣، ٤] ثم قال: [من الطويل]

يُقَصِّرُ باعُ العامِلِيِّ عن العُلاَ ... ولكنَّ أَيْرَ العامِلِيِّ طويلُ

فقال له عدى: [من الطويل]

أَأُمُّكَ كانَتْ خَبَّرَتْكَ بِطُولِهِ ... أَمَ انتَ امْرُؤٌ لَمْ تَدْرِ كَيْفَ تَقُولُ؟!

---

(١) فى تاريخ الإسلام: وأفرغت.
(٢) فى تاريخ الإسلام: أنزل الكسوة.
(٣) ينظر: تاريخ الإسلام وفيات سنة ست وتسعين، ووفيات الوفيات (٤/ ٢٥٤).
(٤) ينظر السابق.
(٥) في: تاريخ الإسلام: ودَّعنى.
(٦) ينظر: تاريخ الإسلام وفيات سنة ست وتسعين، ووفيات الوفيات (٤/ ٢٥٤).

فقال: لا؛ بل أنا امرؤ لم أدر كيف أقول، فوثب عدى إلى رِجْل الوليد يقبلها، ويقول: أجرنى منه، فقال الوليد لجرير: لئن ذكرته فى شعرك لأسرجنك وألجمنك حتى يركبك فتعيرك بذلك الشعراء.

قال المدائنى: أتى الوليد بن عبد الملك برجل من بنى عبس قد ذهبت عينه، فسأله عن سبب ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، ماكان فى بنى عبس أكثر منى مالاً وولدًا، فأتى السيل فاجترف مالى وولدى، وبقى لى ولد صغير وبعير، فحملت الصبى ونَدَّ البعير، فوضعت الصبى وتبعته فنفحنى برجله، ففقأ عينى، فرجعت إلى ابنى، فإذا الذئب يَلَغُ فى دمه، فقال الوليد: اذهبوا به إلى عروة بن الزبير؛ ليعلم أن فى الدنيا من هو أعظم مصيبة منه. انتهى

قلت: ومصيبة عروة بن الزبير فى رجله وولده شهيرة.

وفاة الحجاج(١)

هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود الثقفى أمير العراق أبو محمد. ولد سنة أربعين، أو إحدى وأربعين، كان فصيحًا بليغًا مفوهًا، فاسقًا ظلومًا، غشومًا سفاكًا للدماء، روى أنه لم يرضع الثدى حتى قال بعض الكهان: اذبحوا له ثلاث جدى، وألعقوه بعض دمها، وغسلوه بالدم، ففعلوا؛ فلذلك أتى يحب سفك الدم.

وولد بغير مخرج فَغُوِّرَ له مخرج بالحديد.

قال أبو عمرو(٢): مارأيت أحدًا أفصح من الحجاج، والحسن بن على، والحسن أفصحهما، وستأتى عدة من قتله صبرًا، ومن كان فى سجنه.

وقيل فى سبب ولاية الحجاج ماذكر بعض المؤرخين: أن الحجاج لم يزل فى كنف أبيه، وكان أبوه رجلاً نبيلاً جليلَ القدر، إلى أن اتصل بروح بن زنباع من أمراء عبد الملك، ثم به، ولم يزل يترقى إلى أن ولى العراق والمشرق، وطار ذكره وعظم سلطانه.

وأول ماعلم من شهامته وجوره: أن أباه خرج من مصر يريد عبد الملك، ومعه

---

(١) ينظر: تاريخ خليفة (٢٤٠)، تاريخ الطبرى (٦/ ٤٩٣)، جمهرة أنساب العرب (٢٦٧)، وفيات الأعيان (٢/ ٢٩ - ٥٤)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣)، البداية والنهاية (٩/ ١٣٦ - ١٤٣).

(٢) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٥٢).

ابنه الحجاج، فأقبل سليم بن عمرو القاضى، وكان من أورع الناس وأتقاهم، فقام إليه أبوه يوسف، فسلم عليه، وقال له: ألك حاجة إلى أمير المؤمنين؟ فقال: نعم، أن تسأله يعزلنى عن القضاء، فقال يوسف: لوددت أن قضاة المسلمين كلَّهم مثلك، فكيف أسأله ذلك؟ ثم انصرف، فقال الحجاج لأبيه: من هذا الذى قمت إليه؟ فقال: هذا سليم بن عمرو قاضى مصر وقاصُّهم، فقال: يغفر الله لك يا أبت، أنت ابن عقيل تقوم إلى رجل من كندة؟! فقال: والله إنى لأرَى الناس مايرحمون إلا بهذا وأشباهه، فقال والله، مايفسد على أمير المؤمنين إلا هذا وأشباهه، يقعدون وتقعد إليهم أحداث، فيذكرون سيرة أبى بكر وعمر؛ فيخرجون على أمير المؤمنين، فوالله لو أضيف إلَىَّ هذا الأمر، لسألت أمير المؤمنين أن يجعل لى السبيل، فأقتل هذا وأشباهه، فقال له: اتق الله يابنى، والله إنى لأظنُّ أن الله خلقك شقيًا.

وأول ما أعجب به عبد الملك منه: أنه كان قد اتصل بروح بن زنباع، وصار من جملة شرطته، وكان روح بن زنباع بمنزلة نائب عبد الملك. توجه إلى الجزيرة لقتال زفر بن الحارث عندما عصَىٰ عليه بقرقيسيا، فأمر روح بن زنباع جماعة من أصحاب شرطته يحثون المتأخرين من العسكر فى كل منزل، وكان الحجاج من جملتهم، فمر يومًا بعد رحيل العسكر بجماعة من خواصِّ روح فى خيمة يأكلون، فأمرهم بالرحيل، فسخروا منه أولاً لمحلهم، وثانيًا لمحلِّ سيدهم، وقالوا له: انزل كُلْ واسكُتْ، فضرب بسيفه أطناب الخيمة، فسقطت عليهم، وأطلق فيها نارًا، فأحرقت أثاثهم، فقبضوا عليه، وأتوا به روح بن زنباع، وسمع عبد الملك الخبر، وطلبه وقال: من فعل هذا بغلمان روح ؟ فقال: أنت يا أمير المؤمنين، أمرتنا بالاجتهاد فيما وليتنا، ففعلنا ما أمرت، بهذه الفعلة يرتدعُ من بقى من العسكر، وما على أمير المؤمنين أن يعوضهم ما احترق، وقد قامت الحرمة وتم المراد. فأعجب عبد الملك ذلك، وقال: إن شرطيكم لجلد. ثم أقرّه على ما هو عليه.

ولما طال الحصار والقتال بينه وبين زفر بن الحارث، أرسل عبد الملك رجاء بن حيوة وجماعة منهم الحجاج إلى زفر يدعوه إلى الصلح، فأتوا بالكتاب وقد حضرت الصلاة، فقام رجاء، فصلى مع زفر، وصَلَّى الحجاج وحده، فسئل عن ذلك ؟ فقال: لا أصلى مع منافق خارج عن أمير المؤمنين، وبارز عن طاعته، فسمع ذلك

عبد الملك، فزاده عجبًا بالحجاج، ورفع قدره، وولاه تبالة، وهى أول ما وَلِي، فخرج إليها، فلما قرب، سأل عنها، فقيل له: إنها وراء هذه الأكمة، فقال: أف لبلد تسترها أكمة، ورجع، فقيل فى المثل: أهون على الحجاج من تبالة، ثم وصل إلى ما وصل إليه.

وزعم بعض الرواة أن أول أمر الحجاج أنه كان معلمًا للصبيان، وكان يسمى كليبًا، وفيه يقول الشاعر: [من المتقارب]

أَيَنْسَىٰ كُلَيْبٌ زَمَانَ الهُزَالِ ... وتَعْلِيمَهُ سُورَةَ الكَوْثَرِ
رَغِيفٌ لَهُ فَلَكٌ مَا يُرَىٰ ... وَآخَرُ كَالقَمَرِ الأَزْهَرِ

يشير إلى أن خبز المعلّمين يختلف فى الصغر والكبر بحسب اختلاف بيوت الصبيان، ثم صار دباغًا؛ ويستدل على ذلك بحكايته مع كعب الأشقرى؛ وذلك أن المهلب بن أبى صفرة لما أطال قتال الأزارقة، وكان الحجاج أرسله لذلك، كتب إليه يستبطئه فى تأخير مناجزتهم، فقال المهلب لرسوله: قل له: إن الشاهد يَرَى ما لا يَرَى الغائب، فقال كعب الأشقر، وكان من جند المهلب: [من الكامل]

إنَّ ابْنَ يوسُفَ غَرَّهُ مِنْ غَزْوِكُم ... خَفْضُ المقامِ بجَانبِ الأمْصَارِ
لو عَايَنَ الصَّفَّين حِينَ تَلَاقَيَا ... ضَاقَتْ عليه برُحْبِهَا الأَقْطَارُ
ورأىٰ معاوَدَةَ الدباغ غنيمَةً ... أيامَ كَانَ مُحَالِفَ الإِقْتَارِ

فبلغت أبياته الحجاج، فكتب إلى المهلب بإشخاصه، فأشخصه المهلب إلى عبد الملك، وكتب إليه يستوهبه منه، فقدم كعب برسالة المهلب إلى عبد الملك، فاستنشده، فأعجبه ما سمع، وكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن يعفو عن كعب، فلما دخل كعب على الحجاج، قال: إيه يا كعب «ورأى معاودة الدباغ غنيمة»، فقال: أيها الأمير، لوددت فى بعض ما شاهدته فى تلك الحروب، وما يرده المهلب من خطرها أن أنجُوَ منها وأكون حجامًا أو حائكًا، فقال له الحجاج: أولى لك، لولا قسم أمير المؤمنين، لما نفعك ما أسمع، فالحَق بصاحبك.

وروى ابن الكلابى، عن عوانة بن الحكم قال: سمع الحجاج تكبيرًا فى السوق، وهو فى الصلاة، فلما انصرَفَ، صعد المنبر، فقال: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق. قد سمعت تكبيرًا ليس بالتكبير الذى يراد به الله فى

الترغيب، ولكنه الذى يراد به الترهيب، إنها عجاجة تحتها قَصْف. أى بنى اللكيعة، وعبيد العصا، وأولاد الإماء، ألاَ يربأ الرجل منكم على ظلعه، ويحسن حمل رأسه، وحقن دمه؛ فيبصر موضع قدمه؛ والله ما أرى الأمور تنتقل بى وبكم حتى أوقع بكم وقعة تكون نكالاً لما قبلها، وتأديبًا لما بعدها(١).

وقال سيار أبو الحكم: سمعتُ الحجاج على المنبر يقول: أيها الرجل، وكلُّكم ذلك الرجل، رجل خطم نفسه فزمها فقادها بخطامها إلى طاعة(٢) الله تعالى، وعنجها بزمامها عن معاصى الله(٣).

قال مالك بن دينار: سمعت الحجاج يخطب فيقول: امرؤ زود نفسه قبل أن يكون الحساب إلى غيره، امرؤ نظر إلى ميزانه، امرؤ عقل عن الله أمره، امرؤ أفاق واستفاق، وأبغض المعاصى والنفاق، وكان إلى ما عند الله بالأشواق. فما زال يقول ذلك حتى أبكانى(٤).

وروى أنه خطب، فقام إليه رجل فقال له: ما أصفق وجهك، وأقلَّ حياءك، تفعل ما تفعل، ثم تقول هذا ؟! فأخذوه، فلما نزل، دعا به فقال له، لقد اجترأت ! ! فقال: يا حجاج، أنت تجتريء على الله؛ فلا تنكره فى نفسك، وأجترئ أنا عليك، فتنكره عليَّ ! فخلى سبيله(٥).

وقال شريك، عن عبد الملك بن عمير قال: قال الحجاج يومًا: من كان له بلاء، فليقم، فلنعطه على بلائه، فقام رجل، فقال: أعطنى على بلائى، قال: وما بلاؤك ؟ قال: قتلت الحسين، قال: وكيف قتلته ؟ قال: دسرته بالرمح دسرًا، وهبرته بالسيف هبرًا، وما أشركت معى فى قتله أحدًا، قال: أما إنك وإياه لن تجتمعا فى موضع واحد. وقال له: اخرج(٦).

وروى صالح بن موسى الطلحى، عن عاصم بن بهدلة؛ أنهم ذكروا الحسين -

(١) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٦٢، ٦٣)، تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص٣١٨ .
(٢) المثبت من تاريخ الإسلام.
(٣) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٦٣)، تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص٣١٨ .
(٤) ينظر السابق.
(٥) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٦٣)، وفيات الأعيان (٢/ ٣١)، تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص (٣١٩)
(٦) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٦٣، ٦٤)، تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص٣١٩ .

رضى الله عنه - عند الحجاج فقال: لم يكن من ذرية النبى ﷺ، فقال له يحيى بن يعمر: كذبت أيها الأمير، فقال له الحجاج: لتأتينى على ما قلت ببينة من كتاب الله تعالى أو لأقتلنك، فقرأ قوله تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ [الأنعام: ٨٤، ٨٥]، ثم قال: أخبرنا الله أن عيسى من ذرية إبراهيم بأمه، فقال الحجاج: صدقت، فما حملك على تكذيبى فى مجلسى ؟ قال: أخذ الله على الأنبياء(١) ليبيننه للناس ولا يكتمونه، قال: فنفاه الحجاج إلى خراسان(٢).

قال أبو بكر بن عياش: سمعت الحجاج وذكر هذه الآية: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ ﴾ [التغابن: ١٦]، قال: هذه لعبد الله أمين الله وخليفته ليس فيها مثنوية(٣)، والله لو أمرتُ رجلاً أن يخرج من باب هذا المسجد فأخذ من غيره لحل لى دمه وماله، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان لى حلالاً، يا عجبًا من عبد هذيل، يزعم أنه يقرأ قرآنًا من عند الله ما هو إلا رجز من رجز الأعراب، والله لو أدركت عبد هذيل، لضربت عنقه. رواها واصل بن عبد الأعلى شيخ مسلم عن أبى بكر، فقال: قاتل الله الحجاج، ما أجرأه على الله، كيف يقول هذا فى العبد الصالح الصحابىّ الجليل عبد الله بن مسعود ؟! قال أبو بكر بن عياش: ذكرت قوله هذا للأعمش ؟ فقال: قد سمعته منه(٤).

ورواها محمد بن يزيد عن أبى بكر، فزاد قوله: ولا أجد أحدًا يقرأ على قراءته إلا ضربتُ عنقه، ولأحكنَّها من المصحف، ولو بضلع خنزير.

قال ضمرة بن شوذب: ربما دخل الحجاج على دابته حتى يقف على حلقة الحسن البصرى، فيستمع إلى كلامه، فإذا أراد الانصراف يقول: يا حسن، لا تملَّ الناس، فيقول له الحسن: أصلح الله الأمير، إنه لم يبق إلا من لا حاجة له.

قال الأصمعى: قال عبد الملك بن مروان للحجاج: إنه ليس أحد إلا وهو يعرف عيبه، فَعِبْ نفسك، فقال الحجاج: أعفنى يا أمير المؤمنين، فأبى عليه، فقال: أنا

---

(١) فى ط: العلماء، والمثبت من تاريخ الإسلام.

(٢) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٦٨)، تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص ٣١٩ .

(٣) فى تاريخ الإسلام: مثوبة.

(٤) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٧٢)، تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص ٣٢٠ .

لجوجٌ حقودٌ حسودٌ، فقال عبد الملك: ما فى الشيطان أقبحُ مما ذكرت.

وقال يزيد بن هارون: أنبأنا العوام بن حوشب، حدثنا حبيب بن أبى ثابت، قال: قال على - كرم الله وجهه - لرجل: لا متّ حتى تدرك فتى ثقيف، قيل: يا أمير المؤمنين، ما فتى ثقيف؟ قال: ليقالنَّ له يوم القيامة: اكفنا زاوية من زوايا جَهنَّمَ، رجل يملك عشرين سنة[1] لا يدع معصية لله إلا ارتكبها.

وقال جعفر بن سليمان: حدثنا مالك بن دينار، عن الحسن؛ أن عليًا كان على المنبر فى العراق، فقال: اللهم، إنى ائتمنتهم فخانونى، ونصحتهم فغشونى، اللهم فسلِّطْ عليهم غلام ثقيف يحكم فى دمائهم وأموالهم بحكم الجاهلية.

وقد كوشف الإمام على - كرم الله وجهه - بما سيقع من الحجاج، فقال ما قال؛ فكان كما قال.

قال أبو عاصم النبيل: حدثنى جليس هشام بن أبى عبد الله، قال: قال عمر بن عبد العزيز لعنبسة بن سعيد: أخبرنى ببعض ما رأيت من عجائب الحجاج، قال: كنا جلوسًا عنده ليلة، فأتى برجل، وكان قد نهى عن المشى بالليل بعد العشاء الأخيرة، فقال: ما أخرجك هذه الساعة، وقد قلت: لا أجد فيها أحدًا إلا فعلت به ؟! قال: أما والله لا أكذب الأمير، أغمى على أمى منذ ثلاث، وكنت عندها، فلما أفاقت الساعة، قالت: يا بنى، أعزم عليك إلا رجعت إلى أهلك؛ فإنهم مغمومون بتخلفك عنهم، فخرجت، فأخذنى الطائف، فقال الحجاج: ننهاكم وتعصوننا ؟! يا غلام، اضرب عنقه، ثم أتى برجل آخر فقال: ما أخرجك هذه الساعة ؟ قال: والله لا أكذبك، لزمنى غريمٌ، فلما كانت الساعة أغلق الباب وتركنى على بابه، فجاءنى الطائف فأخذنى، فقال: اضربوا عنقه، ثم أتى بآخر، فقال: ما أخرجك هذه الساعة ؟ قال: كنت مع شَرْبٍ أشرب فعربدوا، فخفت على نفسى فخرجْتُ، ففكَّر الحجاج ساعة، ثم قال: رجل أحب المسالمة يا عنبسة، ما أراه إلا صادقًا فأخلوا سبيله.

فقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة: فما قلتَ للحجاج شيئًا فى ذلك ؟ قال عنبسة: لا، فقال عمر لآذنه: لا تأذن لعنبسة إلا أن يكون فى حاجة.

---

(١) فى تاريخ الإسلام: أو بضعًا وعشرين سنة.

وقال بسطام بن مسلم، عن قتادة قال: قيل لسعيد بن جبير: خرجت على الحجاج ؟! قال: إنى والله ما خرجت عليه حتى كفر[(١)].

قال هشام بن حسان: أحصوا ما قتل الحجّاج صبرًا، فبلغ مائة وأربعة وعشرين ألفًا.

وقال عباد بن كثير: أطلق سليمان بن عبد الملك فى غداة واحدة أحدًا وثمانين ألف أسير، وعرضت السجون بعد موت الحجاج، فوجدوا فيها ثلاثة وثمانين ألفًا، منها ثلاثون ألفًا من النساء لم يجبْ على أحد منهم قطع ولا صلب.

وعن عمر بن عبد العزيز: لو تخابثت[(٢)] الأمم وجئنا بالحجاج لغلبناهم، ما كان يصلح لدنيا ولا لآخرة.

قال العباس الأزرق، عن السرى بن يحيى قال: مَرَّ الحَجَّاج فى يوم جمعة، فسمع استغاثة فقال: ما هذا ؟ قيل: أهل السجون يقولون: قتلنا الحر، فقال: قولوا لهم: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، قال: فما عاش بعد ذلك إلا أقلَّ من جمعة.

وبنى واسطًا فى سنتين؛ قاله الأصمعى، وشرع فيها سنة ست وثمانين، قال فى المحاسن: وهو أول من ابتنى مدينة فى الإسلام، وهى واسط، وأول من قعد على سرير فى الحرب، وأول من اتخذ المحامل، فقال فيه حميد الأرقط: [من الرجز]

أَخْـزَى الإِلَـهُ عَـاجِـلاً وآجِـلاَ
أَوَّل عَـبْـدٍ عَـمِـلَ الـمَـحَـامِـلاَ
عَـبْـدَ ثـقـيـفٍ ذَاكَ أَزلاً آزِلاَ

قال مسلم بن إبراهيم: حدَّثنا الصلت بن دينار، قال: مرض الحجاج فأرجف به أهل الكوفة، فلما عوفى، صعد المنبر، وهو يتثنى على أعواده، فقال: يا أهل الشقاق والنفاق والمراق، نفخ الشيطان فى مناخركم، فقلتم: ماتَ الحجاج، فمه ؟ والله ما أرجو الخير إلا بعد المَوْت. وما رضى الله الخلود لأحد من خلقه إلا لأهونهم عليه إبليس، وقد قال العبد الصالح سليمان: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا

---

(١) ينظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٨٢)، تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص ٣٢٣ .
(٢) فى ط: تحاسبت. والمثبت من تاريخ الإسلام، وهو الصواب.

﴿يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]. فكان ذلك، ثم اضمحل، فكأن لم يكُنْ. يأيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، كأنى بكلٍّ حى ميت، وبكل رطب يابس، وكل امرئ فى ثياب طهور إلى بيت حفرته، فحد له فى الأرض خمسة أذرع طولاً فى ذراعين عرضًا، فأكلت الدود[١] لحمه، ومصت من صديده ودمه.

قال محمد بن المنكدر: كان عمر بن عبد العزيز يبغضُ الحجاج، فنفس عليه بكلمة قالها عند الموت: « اللهم اغفر لى؛ فإنهم يزعمون أنك لا تفعل »[٢].

وقال الأصمعى: أَنْشَدَ الحجاج لما احتضر: [من البسيط]

يَا رَبِّ قَدْ حَلَفَ الأَعْدَاءُ وَاجْتَهَدُوا بِأَنَّنِى رَجُلٌ مِنْ سَاكِنِي النارِ
أيحلفُونَ عَلَىٰ عمياءَ ؟! وَيْحَهُمُ ما عِلْمُهُمْ بعظيمِ العَفْوِ غَفَّارِ[٣]

فأخبر الحسن بذلك، فقال: إن نجا فبهما.

وروى أن الحسن حين أخبر بموت الحجاج، سجد شكرًا لله.

وقال ابن سيرين: إنى لأرجو للحجاج ما أرجو لأهل لا إله إلا الله، فبلغ قوله الحسن - يعنى البصرى - فقال: أما والله ليخلفنَّ الله رجاءه فيه.

قال ابن شوذب عن أشعث الحدانى قال: رأيت الحجاج فى منامى [بحال سيئة][٤] فقلت له: ما صنع الله بك ؟ قال: ما قتلت أحدًا قتلة إلا قتلنى بها قتلة، ما عدا سعيد بن جبير؛ فإنى قتلت به سبعين قتلة، قلت: ثم مه ؟ قال: ثم أمر بى إلى النار، قلت: ثم مه ؟ قال: ثم أرجو ما يرجو أهل لا إله إلا الله.

قال ابن خلكان[٥]: مات بـ« واسط »، وعَفِىَ قبره، وأجرى عليه الماء.

قال العلامة الذهبى[٦]: وعندى مجلد فى أخبار الحجاج فيه عجائب، لكن لا أعرفُ صحتها.

توفى سنة خمس وتسعين قبل موت الوليد بسنة، ولما حضرته الوفاة، استخلف

---

(١) فى تاريخ الإسلام: الأرض.
(٢) ينظر: تاريخ الإسلام ت٢٣٣ ص ٣٢٥، تهذيب تاريخ دمشق ٤/ ٨٥ .
(٣) فى تاريخ الإسلام: ستار.
(٤) المثبت من تاريخ الإسلام.
(٥) ينظر: وفيات الأعيان ٢/ ٥٣ .
(٦) ينظر: تاريخ الإسلام ت ٢٣٣ ص ٣٢٧ .

على الصلاة ابنه عبد الله، وعلى عرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبى كبشة، وعلى خراجهما يزيد بن أبى مسلم، وكتب إلى قتيبة بن مسلم الباهلى، وكان قد ولاه على خراسان: قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجِدَّك وجهادك أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك، وصانع بك الذى تحب. فأتمَّ مغازيك، وانتظر ثواب ربك، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك، حتى كأنى أنظر إلى بلادك والثغر الذى أنت فيه.

قيل: أصيب الحجاج بمصيبة، وعنده رسول عبد الملك بن مروان، فقال الحجاج: ليت أنى قد وجدت إنسانًا يخفف عنى ما أنا فيه، فقال له الرجل الرسول: أقول، أيها الأمير ؟ قال له: قل، فقال: كل إنسان يفارقه صاحبه بموت أو بصلب أو يقع من فوق البيت أو يقع عليه البيت أو يغشى عليه أو يكون شيء لا نعرفه. فضحك الحجاج وقال: مصيبتى فى أمير المؤمنين أعظم، حيث وجه مثلك رسولاً.

وكان الحجاج مهيبًا جدًا لجرأته وإقدامه على سفك الدماء واشتداد عضده بمن أقامه أميرًا؛ فكان يهابه عماله والخاصّة والعامّة؛ فمن ذلك ماذكره فى المروج[1]: كتب عبد الملك بن مروان إليه: أنت عندى كسالم، والسلام. فلم يفهم الحجاج مراد عبد الملك بذلك، فكتب إلى قتيبة بن مسلم عامله على خراسان، وبعث كتاب عبد الملك مع الرسول إليه، فلما ورد الرسول عليه، ناوله الكتاب، ففزع، واضطرب قتيبة، فضرط فخجل واستحيا، فقرأ الكتاب، ثم أراد أن يقول للرسول: اقعد، فقال: اضرط، فقال الرسول: قد فعلت، فاستحيا قتيبة حياءً أكثَرَ، وقال له: ما أردت أقول لك إلا اقعد، فغلطت، فقال الرسول: قد غلطت أنا وأنت [قال قتيبة][2] ولا سواء، أغلط من فمى، وتغلط من استك. ثم قال قتيبة: أعلم الأمير أن سالمًا كان عبدًا لرجل، وكان عنده أثيرًا عزيزًا، وكان يسعى به إليه كثيرًا؛ فقال: [من الطويل]

يُدِيرُونَنِى عَنْ سَالِمٍ وَأُدِيرُهُمْ   وَجِلْدَةُ بَين العينِ والأنْفِ سَالِمُ

فلما أتى الحجاج بالرسالة، سُرَّ بذلك، وكتب له به عهدًا على خراسان بالتأييد.

قلت: ورأيت فى تاريخ الصفدى ما نصه: قال نافع مولى ابن عمر: كان ابن عمر

(١) ينظر: مروج الذهب ٣/ ١٢٧ .
(٢) المثبت من المروج.

يلقى سالمًا ابنه فيقبله، ويقول: شيخ يقبل شيخًا.

وقال خالد بن أبى بكر: بلغنى أن عبد الله بن عمر كان يلام فى حب ابنه سالم، فيقول: [من الطويل]

يَلُومُونَنِى فِى سَالِمٍ وَأَلُومُهُمْ وَجِلْدَةُ بين العَينِ والأنفِ سَالِمُ

ورواه بعضهم: « يديرونني وأديرهم ».

قال الصفدى: اشتهر هذا البيت كثيرًا، وروسل به، وكتب به عبد الملك إلى الحجاج. انتهى.

قلت: تفسير قتيبة ذلك بأن سالمًا كان عبدًا لرجل وكان عنده... إلى آخره لا يوافق ما ذكره الصفدى؛ أن البيت لعبد الله بن عمر فى ابنه سالم بن عبد الله بن عمر، والأصح التفسير الثانى لرواية نافع له عن عبد الله بن عمر، إلا أن يكون عبد الله متمثلاً به لا ناظمه؛ فيمكن ما قاله قتيبة.

وصَحّف الجوهرى، بل حرَّف فى صحاحِه، فقال: يقال للجلدة التى بين العين والأنف سالم، وأورد البيت.

قال الصفدى: وأنا شديد التعجب من صاحب الصحاح كونه ما فهم المعنى من البيت، وأن الكلام جارٍ على التشبيه، وأن سالمًا عند أبيه بمنزلة هذه الجلدة من المكان المذكور لعزته.

قال الخطيب التبريزى: تبع الجوهرى خاله إبراهيم الفارابى(١) صاحب « ديوان الأدب » فى غلط هذا الموضع. انتهى.

ولم يغير الوليد بعد موت الحجاج أحدًا من عماله؛ بل أبقاهم حتى كان سليمان ابن عبد الملك، فعزلهم جميعًا، واستعمل غيرهم.

قال ابن حمدون فى تذكرته: ذكر أن وضاح اليمن كان من أحسن الناس شكلاً، وأجملهم وجهًا، وكان يتبرقع فى المواسم من العين، فحجت أم البنين زوجة الوليد ابن عبد الملك، فرأت هذا، فهويته واستقدمته بمدح، فقدم ومدح الوليد بقصيدة فأجازه، وكانت أم البنين تأتى به إلى قصرها وتجلس معه، وإذا خافت، خبأته فى صندوق، فأُهدِيَ إلى الوليد جوهر، فاستدعى بخادم، وأرسله به إلى أم البنين،

---

(١) فى ط: القازانى. والصواب ما أثبتنا.

فأتاها فجأة، ووضّاح عندها، فرآها الخادم وهى تواريه فى الصندوق، فطلب منها من الجوهر حجرًا، فانتهرته وأبت، فأتى الوليد وأخبره بما رأى وعلم له الصندوق، فكذَّبه ونهره وضَرَبَ عنقه فى الحال، وقام مسرعًا إلى أم البنين، وهى فى مقصورتها تمتشطُ.

فجلس على الصندوق الذى أخبره به الخادم، وقال لها: ما أحب هذا البيت إليك دون البيوت ؟! قالت: لأنه يضم حوائجى جميعًا، فقال: أريد أن تهبى لى صندوقًا منْ هذه الصناديق، قالت: دونك الجميع، فقال: ما أريد إلا واحدًا، قالت: ارسم الذى تقصده، فقال: هذا الذى جلست عليه، قالت: خذ غيره؛ فإن لى فيه حوائج أحتاجها، قال: ما أريد غيره، قالت: خذه، فأمر الخادم بحمله إلى مجلسه، وحفر بئرًا عظيمة، وأعمق فيها حتى وصل الماء، ودنا من الصندوق، فقال: يا صندوق، إنه بلغنا عنك خبر، فإن كان حقًّا، قد كُفيناك، ودفناك، وانقطع خبرك، وإن كان باطلاً، فإنما دفنا الخشب، وأهون به، ثم قذف به فى البئر، وهال التراب عليه، وردت البسط على حالها، ولم ير الوليد ولا أم البنين فى أحد منهما أثرًا ولا تغيَّرَتْ مودة أحدهما للآخر، حتى فرق الموت بينهما، ولم ير وضاح بعدها أبدًا.

قلت: فمن أين اتصل نبأ هذا الخبر والحالة هذه ؟! وقد اختلف العقلاء فى فعل الوليد هذا: هل يعد به من أهل المروءة والحياء والكرم؛ فبه يمدح، أم من أهل الدناءة والوقاحة والعار الذى يذم به؛ فبه يقدح ؟ ذهب إلى كل منها عقلاء؛ لكنى أرجح كونه ثانيًا لا أولاً؛ إذ الشهم لا يبقى على صفحة عرضه الغبار، ولا يرضى بلباس العيب، ولو كان فوقه ألف دثار.

ومن شعر وضاح فى جارية قد شَبَّبَ بها قوله: [من السريع]

قَالَتْ: أَلاَ لا تَلِجنْ دَارَنَا   إِنَّ أَبَانَا رَجُلٌ غَائِرُ
قُلْتُ: فإنى طالبٌ غِرَّةً   وإنَّ سيفى صارِمٌ باترُ
قالتْ: فَإنَّ البابَ ذو منعةٍ   قلتُ: فإنى واثبٌ كاسرُ
قالتْ: فإنَّ النَّاسَ مِنْ دوننا   قلتُ: فإنى كاتمٌ ماهرُ
قالت: فإنَّ القصْرَ مِنْ دوننا   قلْتُ: فإنى فوقه طائرُ
قالتْ: فإنَّ البَحْرَ من دوننا   قلْتُ: فإنى سابحٌ ماهرُ

قالت: فَحَوْلِى إخوةٌ سَبْعَةٌ قلتُ: فإنى لَهُمُ حاذرُ
قالت: فليْثٌ رابضٌ دوننا قلتُ: فإنى أَسَدٌ ظافرُ
قالت: فإنَّ الله مِنْ فوقنا قلتُ: فَرَبِّى راحمٌ غافرُ
قالت: لقد أَعْيَيْتَنَا حجةً فائتِ إذا ما هَجَعَ السامِرُ
واسقُطْ علينا كسُقُوطِ النَّدَى لَيْلَةَ لا نَاهٍ ولا آمِرُ

وقال أبو عمر الضرير: توفى الوليد نصف جمادى الآخرة، سنة ست وتسعين بدير مرَّان، وحمل على أعناق الرجال؛ فدفن بباب الصغير، وكان عمره إحدى وخمسين سنة، ومدة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وخلَّف أربعة عشر ولدًا(١).

خلافة سليمان بن عبد الملك(٢)

قال ابن خلدون: أراد الوليد أن يمنع أخاه سليمان، ويبايع لولده عبد العزيز بن الوليد، فأبى سليمان، فكتب إلى عماله ودعا الناس إلى ذلك؛ فلم يجبه إلا الحجاج، وقتيبة بن مسلم، وبعض خواصِّه، واستقدم سليمان، ثم استبطأه، فأجمع المسير إليه ليخلعه، فمات دون ذلك، ولما مات، بويع سليمان من يومه، وهو بالرملة، فعزل عمال الحجاج جميعهم، وأمر يزيد بن المهلب بنكبة آل عقيل قوم الحجاج وبنى أبيه وبسط العذاب عليهم، فولى يزيد بن المهلب أخاه عبد الملك بن المهلب على ذلك، ففعله، ثم عزل قتيبة وقتله، وأتى إليه برأسه، وكان ذلك منه لموافقتهما الوليد على خلعه.

بويع بالخلافة فى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين بعد الوليد بالعهد المذكور من أبيهما، كان من خيار بنى أمية، فصيحًا مفوهًا، مؤثرًا للعدل، محبًّا للغزو، وجهز

(١) ينظر: فوات الوفيات (٤/ ٢٥٤)، تاريخ الإسلام وفيات سنة ست وتسعين.
(٢) ينظر: فى أخبار سليمان بن عبد الملك فى: مروج الذهب ٣/ ١٨٣، الكامل ٥/ ٣٧، العبر للذهبى ١/ ١١٥، سير أعلام النبلاء ٥/ ١١١، دول الإسلام للذهبى ١/ ٦٩، نهاية الأرب للنويرى ٢١/ ٣٥٣، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٧٤، مرآة الجنان ١/ ٢٠٧، الوافى بالوفيات ١٥/ ٤٠٠، تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢٢٥، أخبار الدول للقرمانى ١٣٧، تاريخ الطبرى ٦/ ٥٤٦، المعرفة والتاريخ ١/ ٢٢٣، البدء والتاريخ ٦/ ٤١، تاريخ خليفة ٣١٦، التاريخ الكبير للبخارى ٤/ ٢٥، الجرح والتعديل ٤/ ١٣٠، وفيات الأعيان ٢/ ٤٢٠، فوات الوفيات ٢/ ٦٨، خلاصة الذهب المسبوك للإربلى ١٣، الأخبار الطوال ٣٢٩، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٢٩٣.

الجيوش مع أخيه مسلمة بن عبد الملك؛ لحصار القسطنطينية. وقالت امرأة: رأيته أبيض، عظيم الوجه، مقرون الحاجبين، يضرب شعره منكبيه، ما رأيت أجمل منه[١].

وقال الوليد بن مسلم: حدثنى غير واحد أن البيعة أتت لسليمان وهو بمشارف البلقاء، فأتى إلى بيت المقدس، وأتته الوفود، فلم يروا وفادة كانت أهنأ من الوفادة إليه، كان يجلس فى قبة فى صحن المسجد مما يلى الصخرة، ويجلس الناس على الكراسى، ويقسم الأموال، ويقضى الأشغال[٢].

وقال سعيد بن عبد العزيز: ولي سليمان وهو إلى الشباب والتَرَفُّه ما هو، فقال لعمر بن عبد العزيز: يا أبا حفص، إنا ولينا ما قد ترى ولم يكن لنا بتدبيره عِلْم، فما رأيت من مصلحة العامَّة فَمُرْ به، فكان من ذلك عزل عمال الحَجَّاج، وإخراج من فى سِجْنِ العراق، ومن ذلك كتابه: « إن الصلاة قد أميتت فأحيوها وردوها إلى أول وقتها » مع أمور حسنة كان يسمع من عمر فيها[٣].

وعن الشعبى: لمَّا حج سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين، فرأى الناس بالموسم، قال لعمر بن عبد العزيز: أما ترى هذا الخلق الذى لا يُحْصِي عددهم إلا الله تبارك وتعالى، ولا يسع رزقهم غيره ؟ قال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء اليوم رعيتك، وغدًا هم خصماؤك، فبكى سليمان بكاء شديدًا، ثم قال: بالله أستعين[٤].

وعن ابن سيرين قال: رحم الله سليمان بن عبد الملك، افتتح خلافته بخير، وختمها بخير، افتتحها بإحياء الصلوات لمواقيتها، واختتمها باستخلاف عمر بن عبدالعزيز[٥].

وفى الذهبى: قيل: كان من الأكلة المذكورين، فذكر محمد بن زكريا الغلابى[٦]، وليس بثقة، قال: حدثنا

(١) ينظر: تاريخ الإسلام وفيات سنة تسع وتسعين، ترجمة سليمان بن عبد الملك .
(٢) ينظر السابق .
(٣) ينظر السابق .
(٤) ينظر السابق .
(٥) ينظر السابق .
(٦) فى ط: العلائى. والتصحيح من تاريخ الإسلام .

محمد بن عبد الرحمن القرشى، عن أبيه، عن هشام بن سليمان قال: أكل سليمان بن عبد الملك أربعين دجاجة تشوى له على النار على صفة الكباب، وأكل أربعًا وثمانين كلوة بشحومها وثمانين جردقة(١).

وقال محمد بن عبد الحميد الرازى، عن ابن المبارك: إن سليمان لما حَجَّ أتى الطائف، فأكل سبعين رمانة، وخروفًا، وستين دجاجة، وأتى بمكوك زبيب طائفى، فأكله أجمع.

وعن عبد الله بن الحارث قال: كان سليمان بن عبد الملك أكولاً(٢).

وقال إبراهيم بن هشام [بن يحيى بن يحيى: ثنا أبى عن أبيه قال]: جلس سليمان بن عبد الملك فى بيت أخضر، على وطاء أخضر، عليه ثياب خضر، ثم نظر فى المرآة، فأعجبه شبابه وجماله، فقال: كان محمد ﷺ نبيًّا، وكان أبو بكر صديقًا، وكان عمر فاروقًا، وكان عثمان حييًّا، وكان معاوية حليمًا، وكان يزيد صبورًا، وكان عبد الملك سائسًا، وكان الوليدُ جَبَّارًا، وأنا الملك الشابُّ، فما دار عليه الشهر حتى مات(٣).

وروى محمد بن سعيد الدارمي، عن أبيه، قال: كان سليمان بن عبد الملك ينظر فى المرآة من فرقه إلى قدمه، ويقول: أنا الملك الشاب، فلما نزل بمرج دابق، حُمَّ وفشت الحُمَّىٰ فى عسكره، فنادى بعض خدمه، فجاءت بطست، فقال لها: ما شأنك ؟ قالت: محمومة، قال: فأين فلانة ؟ قالت: محمومة، فما ذكر أحدًا إلا قالت: محموم، فالتفت إلى خاله الوليد بن القعقاع العبسى، وقال: [من الكامل]

قَرِّبْ وَضُوءَكَ يَا وَلِيدُ فَإِنَّمَا ... هَـذِى الـحَـيَـاةُ تَـعِـلَّـةٌ وَمَـتَـاعُ

فقال الوليد: [من الكامل]

فاعمَلْ لنَفسِكَ فى حَيَاتِكَ صالحًا ... فـالـدَّهْـرُ فـيـه فُـرْقَـةٌ وجـمَـاعُ

ومات فى مرضه ذاك(٤).

قال الدميرى فى حياة الحيوان(٥): لما استقل بالخلافة، اتخذ ابن عمه عمر بن

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام وفيات سنة تسع وتسعين، ترجمة سليمان بن عبد الملك .
(٢) ينظر السابق .
(٣) ينظر السابق .
(٤) ينظر السابق .
(٥) ينظر: حياة الحيوان (٩٦/١) .

عبد العزيز وزيرًا ومشيرًا، ثم إنه أراد أن يستكتب يزيد بن أبى مسلم وزير الحجاج، فقال له عمر: سألتك بالله يا أمير المؤمنين، لا تحيي ذكرى الحجاج باستكتابك يزيد، فقال له سليمان: يا عمر، إنى لم أجد عنده خيانة فى درهم ولا دينار، فقال: يا أمير المؤمنين، إن إبليس أعفُّ منه فى الدرهم والدينار، قد أغوى الخلق، فأضرب سليمان عما عزم عليه.

وفى الكامل لأبى العباس محمد بن يزيد الملقَّب بالمبرد النحوى المشهور[1]: أنه دخل على سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبى مسلم وزير الحجاج، وكان يزيد قبيحًا دميمًا، فقال له سليمان: قبح الله رجلاً أجرَّك رسنه، وشركك فى أمانته - يعرض بالحجاج - فقال يزيد: يا أمير المؤمنين، لا تقل هذا، قال سليمان: ولم ؟ قال: لأنك رأيتنى، والأمر عنى مُدْبِرٌ، ولو رأيتنى والأمرُ عليَّ مقبل، لاستحسنت منى ما استقبحت، ولاستعظمت ما استصغرت. فقال له سليمان: ويحك، وقد استقر الحجاج فى قعر جهنم بَعْدُ أم لا ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تقل ذلك فى الحجاج، قال: ولم ؟ قال: لأن الحجاج وطأ لكم المنابر، وذلَّل لكم الجبابرة، وإنه يأتى يوم القيامة عن يمين أبيك عبد الملك، ويسار أخيك الوليد، فحيث ما كانا كان.

ولَّى سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك - وكان يلقب بالجرادة الصفراء - أرمينية وأذربيجان غير مرة، وإمرة العراقين، وسيره فى مائة وعشرين ألفًا إلى القسطنطينية؛ كماتقدَّم.

وروى مسلمة، عن عمر بن عبد العزيز، وهو مذكور فى سنن أبى داود سليمان ابن الأشعث السجستانى.

من الفوائد عن مسلمة: أنه لما حصر عمورية، حصل له صداع، فلم يركب فى الحرب، فقال أهل عمورية للمسلمين: ما لأميركم لم يركب اليوم ؟ فقالوا: عرض له صداع، فأخرجوا له برنسًا، وقالوا: ألبسوه له يزل عنه ما يجد، فلبسه مسلمة، فشفى لوقته، ففتشوه فلم يجدوا فيه شيئًا، ثم فتقوا أزراره، فإذا فيها بطاقة مكتوب فيها هذه الآيات آيات التخفيف: ﴿ ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ... ﴾ الآية

(١) ينظر: الكامل للمبرد ص ٧٣٠ .

[الأنفال: ٦٦]، ﴿. . . ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ . . .﴾ الآية [البقرة: ١٧٨]، ﴿ حمٓ عٓسٓقٓ ﴾ [الشورى: ١، ٢]، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي . . .﴾ الآية [البقرة: ١٨٦]، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ . . . ﴾ الآية [الفرقان: ٤٥]، ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. . .﴾ الآية [الأنعام: ١٣]، فقال المسلمون: من أين لكم هذا، وإنما أنزل على نبينا محمد ﷺ ؟ قالوا: وجدناه منقورًا فى حجر فى كنيسة قبل أن يبعث نبيكم بسبعمائة عام.

ومما يحكى من محاسن سليمان: أنه دخل عليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، أنشدك الله والأذان، فقال له سليمان: أما أنشدك الله، فقد عرفناه، فما الأذان ؟ فقال الرجل: قوله تعالى: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٤] فقال له: ما ظلامتك ؟ قال: ضيعتى فلانة غلبنى عليها عاملك فلان، فنزل سليمان عن سريره، ورفع البساط، ووضع خده فى الأرض، وقال: والله لا رفعته حتى يكتب له برد ضيعته، فكتب الكتاب وهو واضعٌ خده بالأرض، رحمه الله وعفا عنه.

ومما يحكى عنه: أنه قال لطلحة بن مصرف: ما تقول فى أبى بكر ؟ قال: ما أدركت دهره ولا أدرك دهرى، ولقد قال الناس فيه فأحسنوا، وهو إن شاء الله كذلك، فقال: ما تقول فى عمر ؟ فقال مثل ذلك، قال: ما تقول فى عثمان ؟ قال: ما أدركت دهره ولا أدرك دهرى، ولقد قال فيه الناس فأحسنوا، وقال فيه ناس وأساءوا، وعند الله علمه، قال: ما تقول فى على ؟ فقال مثل ذلك، قال: سُبَّ عليًا، فقال طلحة: لا أسبه، قال: والله لتسبنه أو لأضربن عنقك، قال: والله لا أسبه، فأمر بضرب عنقه، فقام إليه رجل بيده سيف فهزه، فقال طلحة: ويلك يا سليمان، أما ترضى بما رَضِىَ به من هو خير منك فيمن هو شر من عليٍّ ؟ قال: وما ذاك ؟ قال: فإن الله عز وجل رضى من عيسى، وهو خير منك؛ إذ قال فى بنى إسرائيل، وهم شر من على: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ. . . ﴾ الآية [المائدة: ١١٨]؛ فسكن غضبه وخلى سبيله، فخرج طلحة يختال فى مشيته.

ودخل سالم بن عبد الله بن عمر، على سليمان بن عبد الملك، وعليه ثياب غليظة خشنة رثة، فأقعده سليمان معه على السرير، وكان عمر بن عبد العزيز حاضرًا، فقال له رجل: ياعمر، ما استطاع خالك - يعنى سالم بن عبد الله - أن

يلبس ثيابًا فاخرةً يدخل بها على أمير المؤمنين - وعلى المتكلم ثياب فاخرة - فقال له عمر: ما رأيتُ ثيابه وضعته، ولا رأيتُ ثيابَكَ هذه رفعتك إلى مكانه، فسكت الرجل، ولم يحر جوابًا.

ويروى أنه لما حم، خرج لصلاة الجمعة، فوجد حظية له فى صحن الدار، فأنشدته: [من الخفيف]

أَنْتَ نِعْمَ المَتَاعُ لو كُنْتَ تبقَىٰ   غَـيْـرَ أن لا بَـقَـاءَ لـلإنـسـانِ
لَيْسَ فِيمَا بَدَا لنا مِنْكَ عَيْبٌ   عـابَهُ النَّاسُ غَـيْرَ أنـكَ فَـانِـي

فلما فرغ من الصلاة، دخل داره، ودعا بتلك الحظية، فقال لها: ما قلت لى فى صحن الدار ؟ فقالت: والله ما قلتُ لك شيئًا ولا رأيتك، وأنى لى بالخروج إلى صحن الدار ؟ فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، نعيت إليَّ نفسى، فما دارت عليه جمعة أخرَىٰ إلا وهو فى قبره.

تُوُفِّي رحمه الله فى صفر سنة ثمان وتسعين، وقيل: تسع، بمرج دابق، وله تسع وثلاثون سنة، وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز.

خلافة عمر بن عبد العزيز(١)
رضى الله عنه وأرضاه

قال الوليد بن مسلم بن عبد الرحمن بن حسان الكنانى: لما مرض سليمان بمرج دابق، قال لرجاء بن حَيْوَةَ كاتبه ووزيره: من لهذا الأمر بعدى ؟ أستخلف ابنى، فقال له رجاء: ابنك غائب فى القسطنطينية، ولا تدرى حياته أو موته، فقال: أستخلف ابنى داود الآخر، فقال: إنه صغير، قال: فمن ترى ؟ قال: استخلف عمر ابن عبد العزيز، قال: أتخوف إخوتى لا يرضون، قال رجاء: فولِّ عمر، ثم بعده

---

(١) ينظر ترجمة عمر بن عبد العزيز فى: سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزى، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، تاريخ الطبرى ٦/ ٥٦٥، تهذيب الكمال ٢/ ١٠١٦، الكامل لابن الأثير ٥/ ٥٤، خلاصة الذهب المسبوك ١٨، الكاشف ٢/ ٢٧٥، تذكرة الحفاظ ١/ ١١٨، العبر ١/ ١٢٠، البداية والنهاية ٩/ ١٩٢، مرآة الجنان ١/ ٢٠٨، العقد الثمين ٦/ ٣٣١، غاية النهاية ١/ ٥٩٣، تاريخ الخلفاء ٢٢٨، شفاء الغرام ٢/ ٤٢٠، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٣٠١، أنساب الأشراف ١/ ١٦، الجرح والتعديل ٦/ ١٢٢، الأغانى ٩/ ٢٥٤، نهاية الأرب ٢١/ ٣٥٥، مروج الذهب ٣/ ١٩٢، النجوم الزاهرة ١/ ٢٤٦، سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٤ .

أخاك يزيد بن عبد الملك، وتكتب كتابًا وتختم عليه وتدعوهم إلى البيعة لمن فيه مختومًا، فقال سليمان: لقد رأيتُ ما رأيتَ، ائتنى بقرطاس، فكتب فيه العهد على ما ذكر، ودفعه إلى رجاء، وقال: اخرج إلى الناس، فليبايعوا لمن فى هذا الكتاب، قالوا: ومن فيه ؟ قال: هو مختوم لا تخبرون بمن فيه حتى يموت، قالوا: لا نبايع، ورجع رجاء إليه فأخبره، فقال: انطلق إلى صاحب الشرط والحرس، فاجمع الناس، وأمرهم بالبيعة، فمن أبى، فاضرب عنقه، ففعل، فبايعوا لمن فيه.

قال رجاء بن حيوة: فبينما أنا راجع إذ سمعت جلبة موكب[1]، فإذا هشام بن عبد الملك، فقال لى: يا رجاء قد علمت موقعك منا، وإن أمير المؤمنين صنع شيئًا ما أدرى ما هو، وأنا أتخوف أن يكون قد أزالها عنى، فإن يكن قد عدلها[2] عنى، فأعلمنى ما دام فى الأمر نفس حتى أنظر، قال رجاء: فقلت له: سبحان الله يستكتمنى أمير المؤمنين أمرًا، فأطلعك عليه ! لا يكون هذا أبدًا، قال: فأدارنى وألاحنى، فأبيت عليه، فانصرف، فبينما أنا أسير؛ إذ سمعت جلبة خلفى، فإذا عمر ابن عبد العزيز، فقال لى: يا رجاء، إنه وقع فى نفسى أمر كبير من هذا الرجل، أتخوَّف أن يكون قد جعلها إلىَّ، ولست أقوم له بهذا الشأن، فأعلمنى ما دام فى الأمر نفس، لعلى أتخلَّص منه ما دام حيًا، فقلت: سبحان الله، يستكتمنى أمير المؤمنين أمرًا، وأطلعك عليه ! قال: وثقل سليمان، فلما مات، أجلسته مجلسه وأسندته وهيأته، وخرجت إلى الناس، فقالوا: كيف أصبح أمير المؤمنين ؟ قلت: ساكنًا، وأحب أن تسلموا عليه، وتبايعوا بين يديه على ما فى الكتاب.

فدخلوا، وأنا قائم عنده، فلما دنوا، قلت: إنه يأمركم بالوقوف، ثم أخذت الكتاب من عنده، وتقدمت إليهم وقلت: إنه يأمركم أن تبايعوا لمن فى هذا الكتاب، فبايعوا وبسطوا أيديهم، فلما بايعتهم وفرغت، قلت: آجركم الله فى أمير المؤمنين، قالوا: فمن ؟ ففتحت الكتاب، فإذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز، فتغيَّرَتْ وجوه بنى عبد الملك، وقال هشام: لا نبايعه أبدًا، فقال له رجاء: والله نضرب عنقك، فقام آسفًا يجر رجليه، فلمَّا سمعوا: « وبعده يزيد بن عبد الملك » كأنهم تراجعوا،

---

(١) فى ط: فركبت. والتصحيح من تاريخ الإسلام .

(٢) فى ط: عهد بها. والمثبت من تاريخ الإسلام .

فقالوا: أين عمر ؟ فطلبوه، فإذا هو فى المسجد، فأتوه، فسلَّموا عليه بالخلافة، فعقر به، ولم يستطع النهوض حتى أخذوا بضبعيه، فدنوا به إلى المنبر، وأصعدوه، فجلس طويلاً لا يتكلَّم، فقال رجاء: ألا تقومون إلى أمير المؤمنين، فتبايعوه ؟! فنهض القوم إليه، فبايعوه رجلاً رجلاً، ومَدَّ يده إليهم، ثم صعد إليه هشام بن عبد الملك، فلما مد يده إليه، قال هشام: إنا لله وإنا إليه راجعون، أسفًا لما فاته وأخطأه، فقال له عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ لما وقع فيه من ولاية أمر الأمة.

ثم قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنى لست بفارضٍ ولكنى منفِّذ، ولست بمبتدع ولكنى متبعٌ، وإن من حولكم من الأمصار والبلدان والمدن، إن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن أبوا، فلست لهم بوال.

ثم نزل، فأتاه صاحب المراكب، فقال: ما هذا ؟ قالوا: مركب الخلافة(١)، قال: لا حاجة لى به، ائتونى بدابتى، فأتوه بدابته، فانطلق إلى منزله، ثم دعا بدواة، فكتب بيده إلى الأمصار، قال رجاء: كنت أظن أنه يَضْعُفُ، فلما رأيت صنعه فى الكتاب، علمت أنه سيقوى(٢).

وقال عمر بن مهاجر: صلى عمر بن عبد العزيز المغرب، ثم صلى على جنازة سليمان بن عبد الملك.

ولما بلغ عبد العزيز بن الوليد، وكان غائبًا، موت سليمان بن عبد الملك، ولم يعلم ببيعة عمر، عقد لواء ودعا لنفسه، وجاء إلى دمشق، ثم بلغه عهد سليمان إلى عمر بن عبد العزيز، فجاء إليه واعتذر، وقال: أنا فعلت ما فعلت لما بلغنى أن سليمان لم يعهد إلى أحد، فخشيت على الأموال أن تنتهب، فقال له عمر بن عبد العزيز: لو قمت بالأمر، لقعدتُ فى بيتى، ولم أنازعك، فقال له عبد العزيز: والله لا أجيبُ لهذا الأمر.

فأول ما بدأ به عمر بن عبد العزيز لما استقرَّتِ البيعة له: أنه رد ما كان لفاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوجته من المال والحلى والجواهر إلى بيت المال،

(١) فى تاريخ الإسلام: الخليفة .
(٢) ينظر: تاريخ الطبرى ٦/ ٥٥٠ - ٥٥٣، حلية الأولياء ٥/ ٢٩٥ - ٢٩٦، الطبقات الكبرى ٢٥٠ - ٢٥١، المعرفة والتاريخ ١/ ٥٧٤، سيرة عمر لابن الجوزى ص ٥٦، تاريخ الإسلام: الطبقة الحادية عشر ص ١٩٤ .

وقال: لا أجتمع أنا وأنت وهو فى بيت واحد، فردته جميعًا، ولما ولى أخوها يزيد من بعده رده عليها، فأبت، وقالت: ما كنت لأطيعه حيًا وأعصيه ميتًا، ففرقه يزيد على أهله.

وكتب إلى مسلمة بن عبد الملك، وهو بأرض الروم، يأمره بالقفول بالمسلمين.

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصى، أمير المؤمنين، أبو حفص القرشى الأموى.

قال الإمام محمد بن إدريس الشافعى: هو خامس الخلفاء الراشدين، رضى الله تعالى عنه وأرضاه.

ولد بالمدينة، وقيل: بحلوان من أعمال مصر، سنة ستين، عام وفاة معاوية، أو بعدها بسنة.

أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

روى عن أبيه وأنس وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب وغيرهم.

صفته: كان - رضى الله عنه - أبيضَ اللون، رقيق الوجه، جميلاً، نحيف الجسم، حسن اللحية، غائر العينين، بجبهته أثر حافر دابة - ولذلك سمى أشج بنى أمية - قد وخطه الشيب.

قال ثروان مولاه: دخل عمر إلى إصطبل أبيه، وهو غلام فضربه فرس فشجه، فجعل أبوه يمسح عنه الدم، ويقول: إن كنت أشج بنى أمية، إنك لسعيد، رواه ضمرة عن ثروان(١).

وعن ضمام بن إسماعيل، عن أبى قبيل؛ أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام، فقالت أمه: ما يبكيك ؟ قال: ذكرت الموت - وكان قد جمع القرآن وهو غلام صغير - فبكت أمه(٢).

وعن سعيد بن عفير، عن يعقوب، عن أبيه؛ أن عبد العزيز بن مروان أمير مصر بَعَثَ ابنه [عمر بن] عبد العزيز إلى المدينة يتأدَّب بها، وكتب إلى صالح بن كيسان؛ أن يتعاهده، وكان يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يسمع منه العلم، فبلغه أن

---

(١) ينظر: تهذيب الكمال (٢١/ ٤٣٧) .
(٢) ينظر المصدر السابق .

عمر ينتقصُ عليًّا، فقال له: متى بلغك أن الله سَخِطَ على أهل بدر بعد أن رَضِيَ عنهم ؟ ففهم، وقال: معذرة إلى الله وإليك، لا أعود.

وقال غيره: لما مات عبد العزيز، طلب عبد الملك بن مروان عمر إلى دمشق، فزوجه ابنته فاطمة بنت عبد الملك، وكان الذين يعيبون عمر من حساده لا يعيبونه إلا بالإفراط فى التنعُّم والاختيالِ فى المشية؛ هذا قبل الإمرة.

قال أبو زرعة عبد الأحد بن الليث القيناني: سمعت مالكًا يقول: أتى فتيان إلى عمر بن عبد العزيز، فقالوا: إن أبانا تُوفيَ وترك لنا مالاً نحو عمنا حميد الأمجى، فأحضره عمر، وقال له: أنت القائل: [من المتقارب]

حُـمَـيْـدُ الـذى أمـج داره أَخُو الخَمْرِ ذى الشيْبَةِ الأَصْلَع

أَتَـاهُ الـمَـشِـيـبُ علَىٰ شـربـهـا وكَـانَ كَـريـمًـا فَـلَـمْ يَـنْـزِع

قال: نعم، قال: ما أرانى إلا حادكَ إذ أقررت بشربها، وأنك لم تنزع عنها، قال: أين يذهب بك ؟ ألم تسمع الله يقول: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ. . . ﴾ الآية [الشعراء: ٢٢٤]، قال عمر: أَولَى لك يا حميد، ما أراك إلا قد تفلت، ويحك يا حميد، كان أبوك رجلاً صالحًا وأنت رجل سوء، قال: أصلحك الله، وأينا يشبه أباه ؟ أما كان أبوك رجل سوء، وأنت رجل صالح ؟ قال: إن هؤلاء زعموا أن أباهم تُوُفِّيَ وترك مالاً عندك، قال: صدقوا، وأحضره بختم أبيهم، ثم قال: إن أباهم مات سنة كذا وكذا، وكنت أنفق عليهم من مالى، وهذا مالهم، فقال عمر: ما أحد أحق أن يكون عنده منك. فامتنع.

وقال زيد بن أسلم، قال أنس - رضى الله تعالى عنه-: ما صليت وراء إمام بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى، يعنى: عمر بن عبد العزيز، وكان عمر أميرًا على المدينة، قال زيد بن أسلم: كان يتم الركوع والسجود، ويخفف القيام والقعود.

وقال عمر بن قيس الملائى: سئل محمد بن على بن الحسين، عن عمر بن عبد العزيز؟ فقال: هو نجيبة بنى أمية، ولكل قوم نجيبة، وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده !

وقال سفيان الثورى: كان العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة(١).

---

(١) تنظر هذه الأقوال فى مصادر ترجمة عمر بن عبد العزيز وقد تقدم ذكرها .

قال الترمذى فى تاريخه، بسند رفعه إلى جويرية، عن نافع: بلغنا أن عمر بن الخطاب قال: إن مِنْ ولدى رجلًا بوجهه شجة[١]، يلى فيملأ الأرض عدلاً. قال: هو عمر بن عبد العزيز.

وعن السرى بن يحيى، عن رياح بن عبيدة، قال: خرج عمر بن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكئ على يده، فقلت فى نفسى: إن هذا الشيخ لجافٍ، فلما صلى، لحقته، فقلت: أصلح الله الأمير، من الشيخ الذى كان متكئًا على يدك ؟ قال: يا رياح رأيته ؟ قلت: نعم، قال: ما أحسبك إلا رجلًا صالحًا ؟ ذاك أخى الخضر أتانى فأعلمنى أنى سألى أمر هذه الأمة، وأنى سأعدل فيها[٢]. رواته ثقات.

قال جرير، عن مغيرة: جمع عمر بن عبد العزيز بنى مروان حين استخلف، فقال: إن رسول الله ﷺ كان له فدك ينفق منها، ويعود منها على صغير بنى هاشم، ويزوج منها أيمهم، وإن فاطمة سألته أن يجعلها لها فأبى، وكانت كذلك حياة أبى بكر، ثم عمر، ثم اقتطعها مروان، ثم صارت إليَّ، فرأيت أمرًا منعه رسول الله ﷺ ليس لى بحَقٍّ، وإنى أشهدكم أنى قد رددتها على ما كانت عليه أيام رسول الله ﷺ[٣].

وفى كتاب المحاسن والمساوى للعلامة إبراهيم البيهقى ما نصه: وحدث إسماعيل بن أبى خالد، قال: أتى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج، وعنده عمر بن عبد العزيز، وخالد بن الريان، فقال له الوليد: ما تقول فى أبى بكر ؟ فقال: صاحب رسول الله ﷺ، وثانى اثنين، رحمه الله تعالى وغفر له، قال: فما تقول فى عمر بن الخطاب ؟ قال: هو الفاروق، رحمه الله تعالى وغفر له، قال: فما تقول فى عثمان بن عفان ؟ قال: كان سُنَيات من خلافته ملازمًا للعدل، قال: فما تقول فى مروان بن الحكم ؟ قال: لعن الله ذاك، قال: فما تقول فى عبد الملك ؟ قال: ذاك ابن ذاك، لعن الله ذاك، فقال: فما تقول فيَّ ؟ قال: ابن ذينك، وأنت شر الثلاثة، فقال الوليد: يا عمر، ما تقول فيما تسمع ؟ قال: يا أمير المؤمنين، ما أحد أعلم

---

(١) فى تاريخ الإسلام: شين.

(٢) ينظر: المعرفة والتاريخ ١/ ٥٧٧، حلية الأولياء ٥/ ٢٥٤، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٣٢، البداية والنهاية ١/ ٣٣٣.

(٣) ينظر: تهذيب الكمال (٢١/ ٤٤٣) وأخرجه أبو داود برقم (٢٩٧٢).

بهذا منك، فألح عليه؛ والله لتقولن، فقال: أما إذ أبيت إلا أن أقول، فسب أباه كما سَبَّ أباك، ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

فقال: ليس إلا هذا ؟ فقال: لا يا أمير المؤمنين، إلا أن تداخلك جبرية، فأما فى الحق، فليس إلا هذا، فالتفت إلى خالد بن الريان، وهو قائم على رأسه، ثم قام وهو غضبان، فقال خالد: والله يا عمر، لقد نظر إليَّ أمير المؤمنين نظرةً كنت أظن أنه يأمرنى بضرب عنقك، قال: لو أمرك أكنت تفعل ؟ فقال: إى والله، قال: أما إنه كان يكون شرًا لكما وخيرًا لى، ثم سكت عمر عنه، وبقى ذلك فى قلبه، ولما قام الوليد من مجلسه، دخل على زوجته أم البنين بنت عبد العزيز أخت عمر، فقال لها: أخوك الحروريُّ، والله لأقتلنه، فمكث عمر أيامًا فى منزله لا يحضُرُ الباب ولا يلتمس المعذرة، فأتاه رسول الوليد وقت القائلة فدعاه، فلما دخل باب القصر، عدل به إلى بيت، فأدخل فيه وطين عليه الباب، فرجع صاحب دابته إلى أهله، فأخبرهم، فأخبروا أخته، فبحثت عن خبره فعلمته، فدخلت على الوليد، وناشدته الرحم، وقبلت يده، فقال: قد وهبته لك، إن أدركته حَيًا، قال: ففتحوا عنه الباب، فوجدوه قد انثنى عنقه، فحملوه إلى منزله وعالجوه، فلما توفى الوليد - وكان سليمان بعده، فهلك، وتولى عمر الخلافة - جاء خالد بن الريان فى اليوم الذى استخلف فيه عمر متقلدًا سيفه، يريد الوقوف على رأسه، فقال عمر: يا خالد، انطلق بسيفك هذا، فضعه فى بيتك واقعد فيه، لا حاجة لنا فيك، أنت رجل إذا أُمِرْتَ بشيء فعلته، لا تنظر لدينك. فلما ولى خالد ذاهبًا، نظر عمر إلى قفاه، فقال: اللهم يا رب، إنى قد وضعته لك فلا ترفعه أبدًا، فما لبث إلا جمعة حتى ضربه الفالج فقتله. انتهى.

قال عبد الله بن صالح: حدثنى الليث قال: لما ولى عمر، بدأ بلحمته وأهل بيته، وأخذ ما بأيديهم، وسمى أموالهم مظالم، ففزعت بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان، فأتته ليلاً فأنزلها عن دابتها، فلما أخذت مجلسها، قال: يا عمة، أنت أولَىٰ بالكلام فتكلّمى، قالت: تكلم يا أمير المؤمنين، قال: إن الله بعث نبيه رحمة للأمة، ثم اختار له ما عنده فقبضه الله، وترك لهم نهرًا شربهم سواء، ثم قام أبو بكر، فترك النهر على حاله، ثم ولى عمر، فعمل عمل صاحبه، ولم يزل النهر يشق منه يزيد

ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان حتى أفضَى الأمر إلى وقد يبس النهر الأعظم، ولن يروى أصحاب النهر الأعظم حتى يعود إلى ما كان عليه، فقالت: حسبك، قد أردت كلامك ومذاكرتك، فأما إذا كانت مقالتك هذه، فلست بذاكرة لك شيئًا، فرجعت إليهم، فأبلغتهم كلامه(١).

وعن محمد المروزى قال: أخبرت أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة، جاء صاحب الشرطة ليسير بين يده بالحربة - جريًا على عادة الخلفاء قبله - فقال له عمر: تنحَّ عنى، مالى ولك، إنما أنا رجل من المسلمين، ثم سار مختلطًا بالناس حتى دخل المسجد، فصعد المنبر، واجتمع الناس إليه، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر النبى ﷺ، ثم قال: أيها الناس، إنى ابتليت بهذا الأمر من غير رأيٍ منى فيه ولا طلبٍ ولا مشورةٍ وإنى قد حللت(٢) ما فى أعناقكم من بيعتى، فاختاروا لأنفسكم غيرى، فصاح المسلمون صيحة واحدة، قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك أميرنا باليمن والبركة، فلما سكتوا، حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبى ﷺ، ثم قال: أوصيكم بتقوى الله؛ فإن تقواه خلف من كل شيء، وليس من تقوى الله خلف، وتعجلوا لآخرتكم؛ فإن من عجل لآخرته، كفاه الله أمر دنياه وآخرته، وأصلحوا سرائركم يصلح الله علانيتكم، وأكثروا ذكر الموت، وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل؛ فإنه هادم اللذات، وإنى والله لا أعطى أحدًا باطلًا، ولا أمنع أحدًا حقًّا [ثم رفع صوته فقال](٣): أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعونى ما أطعت الله، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم. ثم نزل.

ودخل دار الخلافة، فأمر بالستور فهتكت، وبالبسط فرفعت، وأمر ببيع ذلك وإدخال أثمانها فى بيت مال المسلمين، ثم ذهب يتبوأ مقيلًا، فأتاه ابنه عبد الملك، فقال له: ما تريد أن تصنع يا أبت ؟ فقال: أى بنى، أقيل، فقال: أتقيل ولا ترد المظالم [إلى أهلها] (٤)؟ قال: أي بني، إنى سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان،

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة وفيات سنة إحدى ومائة ترجمة عمر بن عبد العزيز، وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٩) .

(٢) فى البداية والنهاية: خلعت .

(٣) المثبت من البداية والنهاية .

(٤) المثبت من البداية والنهاية .

فإذا صليت الظهر، رددت المظالم، فقال: يا أمير المؤمنين، من أين لك أن تعيش إلى الظهر ؟ فقال: ادن منى، فدنا منه، فقبل بين عينيه، وقال: الحمد لله الذى أخرج من ظهرى[١] من يعيننى على دينى، فخرج ولم يقل، فأمر مناديًا أن ينادى: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فتقدَّم إليه ذمى من أهل حمص، فقال: أسألك كتاب الله، قال: وما ذاك ؟ قال: إن العباس بن الوليد اغتصبنى أرضى، والعباس جالس، فقال عمر: ما تقول يا عباس ؟ قال: إن الوليد أقطعنى إياها، هذا كتابه، فقال عمر: ما تقول يا ذمى ؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله، فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد، اردد عليه أرضه[٢] ياعباس، فردها عليه، ثم جعل لايدع شيئًا مما كان فى يد أهل بيته من المظالم إلا رَدَّها مظلمة مظلمة.

فلما بلغ الخوارج سيرة عمر - رضى الله تعالى عنه - وما رد من المظالم، اجتمعوا وقالوا: ماينبغى لنا أن نقاتل هذا الرجل.

ولما بلغ عمر بن الوليد رد الضيعة على الذمى، كتب إلى عمر بن عبد العزيز كتابًا فيه: « إنك قد أزريت على من كان قبلك من الخلفاء، وعبت عليهم فعلهم، وسرت بغير سيرتهم بغضًا لهم وشينًا لمن بعدهم من أولادهم، قطعت ما أمر الله به أن يوصل؛ إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم، وأدخلتها بيت المال جورًا وعدوانًا، ولن تترك على هذا الحال، والسلام ».

فلما قرأ عمر بن عبد العزيز كتاب عمر بن الوليد، كتب إليه: « بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد، السلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، أما بعد، فقد بلغنى كتابك، أما أول شأنك يا ابن الوليد، فأمك بنانة أمة السكون، كانت تطوف فى سوق حمص، وتدخل فى حوانيتها، ثم الله أعلم بها، ثم اشتراها ذبيان من بيت مال المسلمين، فأهداها لأبيك فحملت بك، فبئس المولود أنت، ثم نشأت فكنت جبارًا عنيدًا، تزعم أنى من الظالمين؛ إذ حرمتك وأهل بيتك مال الله الذى فيه حق القرابة والمساكين والأرامل، وإنَّ أَظْلَمَ منى وأترك لعهد الله: مَن استعملك صبيًّا سفيهًا على جند المسلمين، تحكم فيهم

(١) فى البداية والنهاية: صلبى.

(٢) فى البداية والنهاية: ضيعته.

برأيك، ولم يكن له فى ذلك نية إلا حب الوالد لولده، فويل لأبيك، ما أكثر خصماءه يوم القيامة، وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج يسفك الدماء ويأخذ المال الحرام، وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل أعرابيًا جافيًا على مصر، وأذن له فى المعازف وآلات اللهو والشرب. وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لغالية البربرية فى خُمْس العرب نصيبًا. فرويدًا يابن بنانة، فلو التقت حلقتا البطان، ورد الفىء إلى أهله، لتفرغتُ لك ولأهل بيتك فوضعتهم فى المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق، وأخذتم فى الباطل، ومن وراء ذلك ما أرجو أن أكون رائيه من بيع رقبتك، وقسم ثمنك بين اليتامى والأرامل؛ فإن لكلٍّ فيك حقًّا. والسلام على من اتبع الهدى، ولاينال سلامُ الله القوم الظالمين »[١].

وفى الذهبى: كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر، يكتب إليه بسيرة عمر بن الخطاب فى الصدقات، فكتب إليه بالذى سأل، وكتب إليه: «إنك إن عملت بمثل عمل عمر فى زمانه ورجاله فى مثل زمانك ورجالك، كنت عند الله خيرًا من عمر »[٢].

وعن ميمون بن مهران، سمعت عمر بن عبد العزيز يقول: لو أقمت فيكم خمسين عامًا، ما استكملت العدل فيكم، إنى لأريد الأمر، فأخاف ألا تحمله قلوبكم، فأخرج منه طمعًا من طمع الدنيا، فإن أنكرت قلوبكم هذا سكنت إلى هذا[٣].

وعن سعيد بن عامر، حدثنا جويرية قال: دخلنا على فاطمة بنت على بن أبى طالب، فأثنت على عمر بن عبد العزيز خيرًا، وقالت: لو كان بقى لنا ما احتجنا بَعْدُ إلى أحد.

وعن عطاء بن أبى رباح قال: حدثتنى فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز؛ أنها

(١) ينظر: البداية والنهاية (٩/ ٢٣٨ - ٢٣٩).

(٢) ينظر: تاريخ الإسلام: الطبقة الحادية عشرة ص ١٩٥ و سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٧) وقد تعقب الذهبى هذا الكلام فقال: هذا كلام عجيب أنى يكون خيرًا من عمر؛ حاشا وكلا ولكن هذا القول محمول على المبالغة وأين عز الإسلام بإسلام عمر وأين شهوده بدرًا وأين فرق الشيطان من عمر وأين فتوحات عمر شرقًا وغربًا.

(٣) ينظر: تاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة ترجمة عمر بن عبد العزيز، وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٩ - ١٣٠).

دخلت عليه وهو جالس فى مصلاه تسيلُ دموعه على لحيته، فقالت: يا أمير المؤمنين، أشيء حدث؟ قال: يا فاطمة، إنى تقلدت من أمر أمة محمد ﷺ أسودها وأحمرها، فتفكرت فى الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعارى المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذى العيال الكثير، والمال القليل، وأشباههم فى أقطار الأرض وسائر البلاد، فعلمت أن ربى سائلى عنهم يوم القيامة، فخشيت ألاَّ تثبت لى حجة، فبكيت.

وعن الأوزاعى؛ أن عمر بن عبد العزيز كان جالسًا فى بيته وعنده أشراف بنى أمية، فقال: تحبون أن أولى كل رجل منكم جندًا؟ فقال رجل منهم: لم تعرض علينا ما لا تفعله؟ فقال: ترون بساطى هذا؟ إنى لأعلم أنه سيصير إلى بلاء وفناء، وإنى أكره أن تدنسوه بأرجلكم، فكيف أوليكم دينى وأوليكم أعراض المسلمين وأسارهم(١)؟! هيهات، فقالوا: أما لنا قرابة؟! أما لنا حق؟! قال: ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين فى هذا الأمر عندى إلا سواء، إلا رجل من المسلمين حبسه عنى طول شقته(٢).

حدثنا معاوية بن صالح الحمصى، حدثنى سعيد بن سويد؛ أن عمر بن عبد العزيز صلَّى بهم الجمعة، ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك، فلو لبست، فنكس رأسه مليًا، ثم رفعه، فقال: أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند المقدرة(٣).

وحدث إبراهيم بن هشام، عن أبيه، عن جده، عن مسلمة بن عبد الملك، قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز، فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لزوجته - وهى أختى فاطمة بنت عبد الملك: اغسلوا قميص أمير المؤمنين، فقالت: نفعل، ثم عدت، فإذا بالقميص على حاله، فقلت لها، فقالت: والله ماله قميص غيره، رضى الله تعالى عنه وأرضاه(٤).

---

(١) فى تاريخ الإسلام: وأبشارهم.

(٢) ينظر حلية الأولياء (٥/ ٢٧٠ - ٢٧١)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٢)، وتاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة.

(٣) ينظر الطبقات الكبرى (٥/ ٤٠٢)، والسير (٥/ ١٣٣ - ١٣٤)، وتاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة.

(٤) ينظر: سيرة عمر لابن عبد الحكم (٥٠)، وسيرته لابن الجوزى (١٥٣)، صفة الصفوة (٢/ ١٢٠)، الطبقات الكبرى (٥/ ٢٩٧)، سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٤).

وعن إسماعيل بن عياش، عن عمر بن مهاجر: كانت نفقة عمر بن عبد العزيز كل يوم درهمين[(١)].

وعن عون بن المعتمر قال: دخل عمر بن عبد العزيز على زوجته ذاتَ يوم فقال: عندك درهم نشترى به عنبًا؟ قالت: لا، أنتَ أمير المؤمنين لا تقدر على درهم؟ قال: هذا أهون على من معالجة الأغلال فى جهنم[(٢)].

قال يحيى بن معين: كان عمر بن عبد العزيز يلبس الفروة الكبل، وكان سراج بيته على ثلاث قصبات فوقهن طين، وكان يسرج عليه الشمعة ماكان فى حوائج المسلمين، فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها، ثم أسرج عليه سراجه[(٣)].

وعن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال: قال لى رجاء بن حَيْوَة: ما أكمل مروءة أبيك عمر، سمرت عنده ليلة فعشى السراج، فقال لى: أما ترى السراج قد عشى؟ قلت: بلى، قال: وإلى جانبه وصيف راقد، قلت: ألا أنبهه؟ قال: لا، قلت: أفلا أقوم؟ قال: ليس من مروءة الرجل استخدامه ضيفه، فقام إلى بطة الزيت، وأصلح السراج، ثم رجع، وقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز[(٤)].

وعن سليمان بن حرب: قالت لى فاطمة زوجة عمر: كان عمر إذا صلى العشاء، قعد فى مسجده، ثم رفع يديه، فلم يزل يبكى حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه فلا يزال يدعو ربه رافعًا يديه يبكى؛ حتى تغلبه عيناه، يفعل ذلك ليله أجمع[(٥)].

وعن ميمون بن مهران، قال: قال لى عمر: حدثنى، فحدثه حديثًا، فبكى منه بكاءً شديدًا، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو علمتُ لحدثتك حديثًا ألين منه، قال: ياميمون، إنا نأكل هذه الشجرة العدس، وهى ماعلمت مرقة للقلب، مغزرة للدمعة، مذلة للجسد[(٦)].

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٤) تاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة .
(٢) ينظر: حلية الأولياء (٥/ ٢٥٩)، السير (٥/ ١٣٤ - ١٣٥) تاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة .
(٣) ينظر: المعرفة والتاريخ (١/ ٥٧٩)، وتاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة .
(٤) ينظر: المعرفة والتاريخ (١/ ٥٧٧ - ٥٧٨)، والسير (٥/ ١٣٦) .
(٥) ينظر: الزهد لابن المبارك رقم (٨٨٤)، والحلية (٥/ ٢٦٠)، والسير (٥/ ١٣٧) .
(٦) ينظر السير (٥/ ١٣٧) .

قلت: صدق - رضى الله عنه - فإن من خواص العدس ماذكره، والسبب الخفى فى ذلك البكاء إنما هو رقة فى قلبه من خوف الله تعالى وخشيته، لكنه وجد سبيلاً إلى إسناده إلى العدس لما قيل: إن فيه خاصية ذلك؛ كأنه قصد البعد عن مظان الرياء، رضى الله تعالى عنه.

قال مجاهد: قال لى عمر بن عبد العزيز: ماتقول الناس فى؟ قلت: يقولون: مسحور، قال: ما أنا بمسحور والله، ولكنى بخوف ربى مسحور.

قال: وكانت بنو أمية قد تبرمَتْ بعمر؛ لكونه شدَّد عليهم وانتزع كثيرًا مما فى أيديهم مما غصبوه، وكان قد أهمل التحرز، فدسوا له غلامًا سقاه السمَّ، ثم دعا الغلام، وقال: ويحك، ماحملك على أن تسقينى السم؟ قال: ألف دينار أُعْطيتها، وعلى أن أعتق، قال عمر: هاتها، فألقاها فى بيت مال المسلمين، وقال: اذهب حيث لايراك أحد(١).

وروى أنه وقع غلاء عظيم فى زمنه، فقدم عليه وفد من العرب، فاختاروا رجلاً منهم لخطابه، فتقدم إليه، وقال: يا أمير المؤمنين، إنا قد وفدنا إليك من ضرورة عظيمة، وحقنا فى بيت المال، وماله لا يخلو: إما أن يكون لله أو لعباد الله أو لك: فإن كان للَّه فإن الله غنىٌ عنه، وإن كان لعباد الله فآتهم إياه، وإن كان لك فتصدق علينا؛ إن الله يحب المتصدقين. فاغرورقت عينا عمر بالدموع، وقال: هو كما ذكرت، وأمر بحوائجهم فقضيت، فهمَّ الأعرابى بالانصراف، فقال له عمر: أيها الرجل، كما أوصلت حوائج عباد الله إلىَّ، فأوصل حاجتى، وارفع فاقتى إلى الله عز وجل، فقال الأعرابى: اللهم، اصنع بعمر بن عبد العزيز كصنعه فى عبادك، فما استتم كلامه حتى ارتفع غيم عظيم، وهطلت السماء، فجاء فى المطر بردة، فوقعت على حجر، فانكسرت، فخرج منه كاغد مكتوب فيه: « هذه براءة من الله العزيز الجبار، لعمر بن عبد العزيز من النار »(٢).

وقال رجاء بن حيوة: كان عمر بن عبد العزيز من أعظم الناس وألينهم وأعلمهم وأجملهم فى مشيته ولبسه، ولما استخلف قومَتْ ثيابه وعمامته وقميصه وقباؤه

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ٢٣٤ - ٢٣٥)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٠).
(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٣ - ١٤٤) وتاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة.

وخُفَّاه ورداؤه، فإذا هن يعدلْنَ اثنَى عشر درهمًا.

وعن زوجته فاطمة؛ أنها قالت: ما اغتسل والله عمر من جنابة منذ ولى هذا الأمر، كان نهاره فى أشغال المسلمين ورد المظالم، وليله فى عبادة ربه[١].

قال الحافظ: كان لعمر بن عبد العزيز رأفة بالخَلْق عامة، وبأولاد النبى ﷺ خاصَّة، من ذلك قصة زيد بن الحسن السبط - رضى الله عنهما - وذلك أن عمر بن عبد العزيز كتب فى حقه حين كان واليًا على المدينة الشريفة من قبل الوليد إلى الوليد: أما بعد، فإن زيد بن الحسن شريف بنى هاشم، فأدوا إليه صدقات رسول الله ﷺ وأعنه ياهذا على ما استعانك عليه فأمر له بذلك.

قال عبد الله بن وهب: حدثنى يعقوب قال: بلغنى أن الوليد كتب إلى زيد بن الحسن يسأله أن يبايع لابنه، ويخلع سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد الذى عهده له أبوه عبد الملك إلى الوليد، ففرق زيد، وأجاب الوليد، فلما استخلف سليمان، وَجدَ كتاب زيد بذلك إلى الوليد فكتب إلى أبى بكر بن حزم أميره: ادع زيدًا، فاقرأ عليه كتابه، فإن عرفه فاكتب إلى، وإن أنكره فحلفه. قال: فخاف الله، واعترف بذلك، وأشار عليه القاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، فكتب بذلك ابن حزم إلى سليمان بن عبد الملك، وكان جواب سليمان أن اضربه مائة سوط، ودرِّعه عباءة ومشه حافيًا. قال: فحبس عمر بن عبد العزيز الرسول فى عسكر سليمان، وقال: حتى أكلم أمير المؤمنين فيما كتب به، ومرض سليمان فمات، فحرق عمر بن عبد العزيز الكتاب، جزاه الله تعالى فى فعله أفضل الجزاء.

وقال - رضى الله تعالى عنه -: لو كنت فى قتلة الحسين، وأمرت أن أدخل الجنة، ما فعلتُ؛ حياء أن تقع عليَّ عين رسول الله ﷺ.

وأتى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج فقال: ما تقول فى الحجاج ؟ قال: ما عساى أن أقول فى الحجاج، وهل الحجاج إلا خطيئة من خطاياك وأبيك، وشَرَرٌ من نارك وناره؟! فلعنة الله عليك وعلى الحجاج معك، وأقبل يشتمهما، فالتفت الوليد إلى عمر بن عبد العزيز، فقال: ما تقول فى هذا ؟ قال عمر: ما أقول

---

(١) ينظر سيرة عمر لابن عبد الحكم (٥٢)، وسيرته لابن الجوزى (٥٨)، والزهد لابن المبارك رقم (٨٩٠)، وحلية الأولياء (٥/ ٢٥٩)، والسير (٥/ ١٣٥ - ١٣٦) .

فى هذا! هذا رجل يشتمكم؛ فإما أن تشتموه كما يشتمكم أو تعفون، فغضب الوليد، وقال: ما أظنك إلا خارجيًا، فغضب عمر، وقال: ما أظنك إلا مجنونًا، وقام وخرج مغضبًا ولحقه خالد بن الريان، فقال له: ما حملك على ما أجبت به أمير المؤمنين ؟ والله لقد ضربْتُ يدى على قائم سيفى أنتظره متى يأمرنى بضرب عنقك، فقال له عمر: وكنتَ فاعلاً لو أمرك ؟ قال: نعم، فلما استخلف عمر بن عبد العزيز، جاء خالد بن الريان فقام على رأسه؛ كما كان يقوم على رأس من كان قبله من الخلفاء، وكان رجل من الكتَّاب يضرُّ وينفع بقلمه، فجاء حتى جلس مجلسه الذى يجلس فيه بين يدى الخلفاء، فنظر عمر إلى خالد بن الريان، فقال له: يا خالد، ضع سيفك؛ فإنك تطيعنا فى كل ما أمرناك به، وضع أنت يا هذا قلمك؛ فقد كنت تضر وتنفع، وقال: اللهم، إنى قد وضعتهما فلا ترفعهما، قال: فوالله ما زالا وضيعين بشرٍّ حتى ماتا.

قلت: قد تقدمت هذه الرواية على نوع مخالفة لما هنا.

وروى أنه - رضى الله تعالى عنه - صعد المنبر ذات يوم بمكة، فقال: أيها الناس، من كانت له ظلامة فليتقدم، فتقدم على بن الحسين بن على - كرم الله وجهه - فقال: إن لى ظلامة عندك، فقال: وما ظلامتك ؟ فقال: مقامك هذا الذى أنت فيه، فقال: إنى لأعلم ذلك، ولكن لو علمت أن الناس يتركونه لك والله لتركته.

وروى عن الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر قال: كان العبد الصالح أبو حفص عمر بن عبد العزيز يهدى إلينا الدراهم والدنانير فى زقاق العسل؛ خوفًا من أهل بيته.

قال الكلبى: لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، وقدمت عليه الشعراء كما كانت تقدم على الخلفاء، فأقاموا ببابه أيامًا، لم يؤذن لهم فى الدخول، حتى قدم عدى بن أرطاة - وكانت له منه مكانة - فتعرض له جرير، وسأله أن يستأذن لهم، فقال: يا أمير المؤمنين، الشعراء ببابك لهم أيام لا يؤذن لهم، وأقوالهم نافذة وسهامهم مسمومة، فقال عمر: يا عدى، مالى وللشعراء ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن النبيَّ ﷺ مُدِحَ، وأعطَى، وفيه أسوة لكل مسلم، فقال: ومن مدحه ؟ قال:

العباس بن مرداس السلمى، فكساه حلة، وقال: يا بلال، اقطع لسانه عنى، قال: أتروى قوله ؟ قال: نعم، قال عمر: قل، فأنشد: [من الطويل]

رَأَيْتُكَ يا خَيْرَ البريةِ كلَّهَا   بخيرِ كتابٍ جئْتَ بالحَقِّ مُعْلِمَا
وقَرَّرْتَ بالإسلام أمرًا مدمَّسًا   وأطفَأْتَ بالبرهانِ جمرًا مُضَرَّمَا
فَمَنْ مُبْلِغٌ عنى الرسُولَ محمَّدًا   فكُلُّ امرئٍ يُجْزَىٰ بما قد تَكَلَّما
أقمت سَبِيلَ الحَقِّ بعد اعوجاجِهِ   وكان قديمًا وَجْهُهُ قد تَجَهَّمَا
تعالَىٰ عُلوًّا فوق عَرْشٍ إلٰهنا   وكان جَلَالُ الله أعْلَىٰ وأعظَمَا

قال عمر: فمن بالباب من الشعراء ؟ قال عدى: يا أمير المؤمنين، عمر بن أبى ربيعة القرشى المخزومى، فقال: لا قرَّبه الله ولا حياه، أليس هو القائل: [من الطويل]

أَلاَ لَيْتَ أنى حينَ تدنُو منيتي   شَمَمْتُ الذى ما بَين عينيكِ والفَمِ
وباتَتْ سُلَيْمَىٰ فى المنامِ ضجيعَتِى   هُنَالِكَ أو فى جَنَّةٍ أو جَهَنَّمِ

فليته عدو الله تمناها فى الدنيا، ثم رجع إلى العمل الصالح، والله لا يدخل على، فمن بالباب غيره ؟ فقال: كثير عزة، قال: أو ليس هو القائل: [من الكامل]

رُهْبَانُ مَدْيَنَ والذين عَهِدتُّهُمْ   يَبْكُونَ من حَرِّ العذابِ قُعُودا
لو يسمَعُونَ كما سَمِعْتُ كلامَهَا   خَرُّوا لعَزَّةَ رُكَّعًا وسُجُودا

عَدِّ عن ذكره، من بالباب غيره ؟ قال: الأحوص الأنصارى، قال: أبعده الله وأسحقه، أليس هوالقائل، وقد أفسد على رجل جاريته، حتى أَبَقَتْ من سيدها: [من المنسرح]

أللَّهُ بَيْنِى وَبَين سَيِّدِهَا   يَفِرُّ مِنِّى بِهَا وَأَتْبَعُهُ

لا يدخل على، من بالباب غيره ؟ قال: الفرزدق همام بن غالب التميمى، قال: أليس هو القائل يفتخر بالزنىٰ: [من الطويل]

هُمَا دَلَّيَانِى مِنْ ثمانينَ قَامَةً   كَمَا انْقَضَّ بازٍ أَقْتَمُ الريشِ كاسِرُهْ
فَلَمَّا استَوَتْ رِجلَايَ فى الأرْضِ قالتا   أَحَيٌّ يُرَجَّىٰ أم قتيلٌ نُحَاذِرُهْ ؟!

لا يدخل على، من بالباب غيره ؟ قال عدى: الأخطل التغلبى، قال: هو الكافر والقائل: [من الوافر]

وَلَسْتُ بصائمٍ رمَضَانَ عمري   ولَسْتُ بآكِل لَحْمَ الأضاحي

ولستُ بزاجِرٍ جَمَلاً بكورًا إلَىٰ بطحاءِ مكَّةَ للنجاحِ
ولَسْتُ بِقَائِم كَالْعَيْرِ يَدْعُو قُبَيْلَ الصُّبْحِ: حَيَّ عَلَىٰ الفَلَاحِ
ولكنِّى سأَشْرَبُهَا شمولاً وأسجُدُ عند مبتلجِ الصباحِ

والله لا وطئ لى بساطًا، من بالباب غيره ؟ قال عدى: جرير بن عطية الخطفى، قال: هو القائل: [من الكامل]

لولا مراقبةُ العيونِ أَرَيْنَنَا حِدَقَ المَهَا وَسَوالِفَ الآرامِ
طَرَقَتْكَ صائدَةُ القلوبِ ولَيْسَ ذا وَقْتُ الزيارة فارْجِعِى بسَلامِ

فإن كان ولا بد، فائذن لجرير، فخرج عدى فأذن له، فدخل وهو يقول: [من الكامل]

وَسِعَ الخلائِقَ عَدْلُهُ ووقارُهُ حتَّى ارعَوَىٰ وأقامَ مَيْلَ المائِلِ
إنِّى لأَرْجُو مِنْكَ خَيْرًا عاجلاً فالنَّفسُ مُولَعَةٌ بحُبِّ العاجِلِ

فلما حضر بين يديه، قال له: اتق الله ولا تقل إلا حقًّا، فقال: [من البسيط]

كَمْ باليمامة مِنْ شعثاءَ أرملةٍ ومِنْ ضعيفٍ سقيم الصوتِ والنَّظَرِ
مِمَّنْ يَعُدُّكَ تكفى فَقْدَ والدِهِ كالفَرْخِ فى العُشِّ لم يدرُجْ ولم يَطِرِ
إنا لنَرْجُو إذا ما الغيْثُ أخلَفَنَا مِنَ الخليفةِ ما نَرْجُو من المَطَرِ
نَالَ الخلافَةَ إذْ كانَتْ له قَدَرًا كما أَتَىٰ رَبَّهُ موسَىٰ على قَدَرِ
هذى الأرامِلُ قد قَضَّيْتَ حاجتها فَمَنْ لحاجةِ هذا الأَرْمَلِ الذَّكَرِ ؟!

وهى طويلة، فقال: والله يا جرير، ما ملك عمر سوى مائة درهم، يا غلام، ادفعها له، ودفع له حلى سيفه، فخرج جرير إلى الشعراء، فقالوا: ما وراءك ؟ قال: ما يسوءكم، رجل يعطى الفقراء، ويمنع الشعراء، وأنا عنه راض، وأنشأ يقول: [من الطويل]

رَأَيْتُ رُقَى الشيْطَانِ لا تستفزُّهُ وقد كَانَ شَيْطَانِى مِنَ الجِن رَاقيا

وفى الطبقاتِ لابن سعد، عن عمر بن قيس: لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، سمع صوت لا ندرى قائله يقول: [من الطويل]

مِنَ الآنَ قَدْ طَابَتْ وَقَرَّ قرارُهَا عَلَىٰ عُمَرَ المَهْدِيِّ قَامَ عَمُودُهَا

وكان عمر عفيفًا زاهدًا ناسكًا عابدًا مؤمنًا ورعًا تقيًّا صادقًا، وهو أول من اتخذ

دار المضيف من الخلفاء، وأول من فرض لأبناء السبيل، وأزال ما كان بنو أمية تذكر به عليًّا على المنابر، وكتب إلى الآفاق بتركه، وجعل مكان ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ...﴾ الآية [النحل: ٩٠]، فامتدحه الشعراء بذلك: [من الطويل]

وَلِيتَ فَلَمْ تَشْتُمْ عليًّا ولم تُخِفْ بَرِيًّا ولم تتبعْ سجيَّةَ مُجْرِمِ
وقُلْتَ فَصَدَّقْتَ الذى قُلْتَ بالذي فعَلْتَ وأضحَىٰ راضيًا كُلُّ مسلِمِ
فما بَين شرقِ الأرضِ والغَرْبِ كلِّها منادٍ ينادى مِنْ فصيحٍ وأعجمِ
يقولُ: أمير المؤمنينَ ظَلَمْتَنِي بِأَخْذِكَ دينارى ولا أَخْذِ درهمِي
فَأَرْبِحْ بها مِنْ صفقةٍ لمبايِعٍ وأكْرِمْ بها مِنْ بَيْعَةٍ ثمَّ أكْرِمِ

وكتب إلى عماله ألاَّ يقيد مسجون بقيد؛ فإنه يمنع من الصلاة، وكتب - أيضًا - إلى عماله: « إذا دعتكم قدرتكم إلى ظلم الناس، فاذكروا قدرة الله عليكم، ونفاد ما تأتون إليهم، وبقاء ما يأتى إليكم من العذاب بِسَبَبِهِمْ ».

ومزاياه كثيرة، ومن أرادها، فعليه بالحلية وغيرها مما أفرد لذلك.

وكان مرضه بدير سمعان بحمص، ولما احتضر قال: إلهى، أنا الذى أمرتنى فقصرت، ونهيتنى فعصيت، ولكن لا إله إلا الله، فتوفى لخمس مضين من شهر رجب، سنة إحدى ومائة، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر، وقيل: أربعين، مدته سنتان وخمسة أشهر وأربعة عشر يومًا، رحمه الله ورضى الله تعالى عنه وأرضاه.

ومما رثى به - رحمه الله - قول الشريف الرضيِّ الموسوى نقيب الأشراف ببغداد أبو القاسم، على بن الحسين بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن موسى بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه وعنهم - قوله فيه، وقد جرى ذكر عمر بن عبد العزيز، وما تفرد به عن أهل بيته من الصلاح والعدل وجميل السيرة، وما كان منه من قطع سب على على المنابر - رضى الله تعالى عنه، وكرم وجهه - إذ عمر بن عبد العزيز توفى بعد تمام المائة الأولى بسنة، والشريف الرضى توفى أواخر القرن الرابع، أو أول الخامس، فلم يدرك وفاته، وإنما قال هذه القصيدة لما جرى ذكره بما ذكر فقال: [من الخفيف]

يَابْنَ عَبْدِ العزيزِ لَوْ بَكَتِ العَيْـ ـنُ فَتًى مِنْ أُمَيَّةٍ لَبَكَيْتُكْ

غَيْرَ أنِّى أَقُولُ إنَّكَ قد طِبْـ ـتَ وَإنْ لم يَطِبْ ولم يَزْكُ بَيْتُكْ
أَنْتَ نَزَّهْتَنَا عَنِ السَّبِّ والقَذْ فِ فلو أَمْكَنَ الجَزَا لَجَزيْتُكْ
وَلَوَ انِّى رَأَيْتُ قَبْرَكَ لاسْتَحْـ ـيَيْتُ مِنْ أن أُرَىٰ وما حَيَّيْتُكْ
وَقَلِيلٌ أَنْ لو بَذَلْتُ دِمَاءَ الـ ـبُدْنِ صِرْفًا على الثَّرَىٰ وسَقَيْتُكْ
دَيْرُ سمعانَ لا أَغَبَّكَ غادٍ خَيْرُ ميتٍ من آل مرْوَانَ مَيْتُكْ
أَنْتَ بالذُّكْرِ بين عَيْنِى وقلبي إنْ تَدَانَيْتُ مِنْكَ يَوْمًا أَتَيْتُكْ
وإذَا حركَ الحَشَا خَاطِرٌ مِنْـ ـكَ تَوَهَّمْتُ أَنَّنِى قَدْ رَأَيْتُكْ
قَرُبَ العَذْلُ مِنْكَ لَمَّا نَأَى الجَوْ رُ بِهِمْ فاجْتَوَيْتَهُمْ وَاجْتَبَيْتُكْ
وَلَوَ انِّى مَلَكْتُ دفعًا لما نَا بَكَ مِنْ طَارِقِ الرَّدَىٰ لَفَدَيْتُكْ

رحمه الله تعالى.

خلافة يزيد بن عبد الملك(١)

ابن مروان بن الحكم أمير المؤمنين أبو خالد الأموى، ولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز بعهد من أخيه سليمان معقود فى تولية عمر بن عبد العزيز؛ كما ذكرناه.

وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، ولد سنة إحدى أو اثنتين وسبعين، وكان جسيمًا أبيض مدوَّر الوجه أفقم لم يشب.

وقيل لعمر بن عبد العزيز حين احتضر: اكتب ليزيد فأوصه بالأمة، فقال: بماذا أوصيه ؟ إنه من بنى عبد الملك، ثم كتب:

أما بعد، فاتق الله يا يزيد، وإياك أن تدركك الصرعة بعد الغفلة حين لا تُقَال العثرة، ولا تقدر على الرجعة؛ إنك تترك ما تترك لمن لا يحمدك، وتصير إلى من لا يعذرك، والسلام.

ولما ولى يزيد، عمل بسيرة عمر بن عبد العزيز أربعين يومًا، فدخل عليه من

---

(١) ينظر ترجمته فى: شذرات الذهب ١/ ١٢٨، فوات الوفيات ٤/ ٣٢٢؛ البداية والنهاية ٩/ ٢٣١، خلاصة الذهب المسبوك ٣٠، معجم بنى أمية ٢٠١، سير أعلام النبلاء ٥/ ١٥٠، العبر ١/ ١٢٨، تاريخ الطبرى ٧/ ٢١، مروج الذهب ٣/ ٢٠٧، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٣١٠، المعارف ٣٦٤، تاريخ خليفة ٣٣١، الكامل لابن الأثير ٥/ ١٢٠، تاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة ص ٢٧٩ .

الذين أضلَّهم الله على علم أَرْبَعُونَ نفرًا من الشيوخ من أهل دمشق، وحلفوا له بالله ما على الملك من سؤال ولا عذاب فى لَذَّات نفسه؛ لأنه مشتغل بأمور الناس- نعوذ بالله مما سيلقى الظالمون من شديد العذاب الأليم! وخدعوه بذلك، فانخدع لهم، وكان كلامهم موافقًا لهواه، فانهمك فى اللذات واللهو والطرب، ولم يراقب الله، ولم يخشه.

وروى أن ابن شهاب عبد الله بن مسلم الزهرى، دخل عليه، فقال له يزيد: ههنا حديث حدَّثنا به أهل الشام، فقال: وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال: حدثوا أن الله تعالى إذا استرعى عبدًا عباده، كتب له الحسنات، ولم يكتب عليه السيئات ؟ فقال ابن شهاب: كذبوا يا أمير المؤمنين، أنبى خليفةٌ أقرب عند الله أم خليفة غير نبى ؟ فقال: بل نبىٌ خليفة أقرب، قال: أحدثُكَ بما لا تشكُّ فيه، قال الله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ... ﴾ الآية [ص: ٢٦]، يا أمير المؤمنين، هذا فى حق خليفة نبى، فما ظنك بخليفة غير نبى ؟!

يحكى عن مؤدب يزيد هذا؛ أنه قال له فى صغره وقت تعلمه، وقد لحن: لم لحنت ؟ فقال: الجواد قد يعثر، فقال له المؤدب: إى والله، ويضرب حتى يستقيم، فقال يزيد: وربما يرمح سائسه، فيكسر أنفه(١).

وفى تاريخ ابن عساكر: ذكر أن يزيد بن عبد الملك كان قد اشترى فى أيام أخيه سليمان بن عبد الملك جاريةً من عثمان بن سهل بن حنيف الأنصارى بأربعة آلاف دينار، وكان اسمها حَبَّابة - بتشديد الباء الأولى- وأحبها حبًّا شديدًا، فبلغ أخاه سليمان ذلك، فقال: لقد هممت أن أحجر على يزيد، فبلغ ذلك يزيد، فباعها؛ خوفًا من أخيه سليمان، فلما أفضت الخلافة إليه بعد سليمان، قالت له زوجته: يا أمير المؤمنين، هل بقى فى نفسك من الدنيا شيء ؟ قال: نعم، قالت: ما هو ؟ قال: حَبَّابة، فاشترتها له وهو لا يعلم، وزينَتْهَا وأجلستها من وراء الستر، ثم قالت له: يا أمير المؤمنين، هل بقى فى نفسك من الدنيا شيء ؟ قال لها: أوما أعلمتك أنها حبابة، فرفعت الستر، وقالت: ها أنت وحَبَّابة، وتركته وإياها، فحظيت عنده وغلبت على عقله، ولم ينتفع به فى الخلافة.

---

(١) ويروى هذا أيضًا عن يزيد بن معاوية وقد تقدم .

وأنه قال يومًا: بعض الناس يقولون: إنه لن يصفو لأحد من الملوك يوم كاملٌ من الدهر، وإنى أريد أن أكذبهم فى ذلك، وأقبل على لذَّاته واختلَىٰ مع حبابة، وأمر أن يحجب عن سمعه وبصره كل خبر يُكْرَهُ، فبينما هو فى تلك الحال فى صفو عيش وزيادة فرح وسرور، إذ تناولت حَبَّابة حَبَّة رمان، وهى تضحك، فغصَّتْ بها، فماتت، فاختلَّ عقل يزيد، وتكدر عيشه، وذهب سروره، ووجد عليها وجدًا شديدًا، وتركها أيامًا لم يدفنها، بل يقبِّلها ويرتشفها حتى أنتنت، وجافت، فأمر بدفنها، ثم نبشها من قبرها، فلم يعشْ بعدها إلا خمسة عشر يومًا، وكان مرضه بالسُّلِّ، ومما قال فيها: [من الطويل]

فَإِنْ تَسْلُ عنكِ النَّفْسُ أَوْ تَدَعِ الهَوَىٰ فباليَأْسِ تَسْلُو عَنْكِ لا بالتَّجَلُّدِ

وَكُلُّ خلِيلٍ زَارَنِى فَهُوَ قَائِلٌ مِنَ اجلِكِ هَذَا هَامَة اليَوْمِ أَوْ غَدِ(١)

قال أبو مسهر: مات يزيد بأربد بمرض السُّل، وقال غيره: مات لخمس بقين من شعبان، سنة خمس ومائة، وكانت خلافته أربع سنين وشهرًا، عمره خمس وأربعون، وقيل: تسع وعشرون(٢).

خلافة هشام بن عبد الملك(٣)

كان ذا دهاء وحزم، وفيه حلم وتدبير لأحوال المملكة، ونظر لأحوال الرعية، وقلة شَرَهٍ، وكان مجتنبًا لسفك الدماء؛ لكنه قتل الإمام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، وكفَى بقتله سفكًا للدماء.

قام بتدبير المملكة أتم قيام، وكان يجمع الأموال ويوصف بالبخل والحرص، يقال: إنه جمع من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبله، فلما مات احتاط الوليد بن يزيد على ما تركه وأمر الخزان، فغلقوا الخزائن، وما كفنه إلا مملوك من مماليكه.

(١) ينظر: تاريخ الإسلام الطبقة الحادية عشرة، وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٥٠ - ١٥١) .
(٢) ينظر: تاريخ الإسلام، الطبقة الحادية عشرة .
(٣) ينظر ترجمته فى: شذرات الذهب ١/ ١٦٣، مرآة الجنان ١/ ٢٦١، تنبيه الطالب ١/ ٦٠٧، تاريخ الخلفاء ٣٤٧، فوات الوفيات ٤/ ٢٣٨، خلاصة الذهب المسبوك ٢٦، نسب قريش ١٦٧، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٥١، الكامل لابن الأثير ٥/ ٩٦، الطبرى ٧/ ٢٠٠، اليعقوبى ٣/ ٥٧، ابن خلدون ٣/ ٨٠، المسعودى ٣/ ٢١٦، الأعلام ٨/ ٨٦، مختصر تاريخ العرب لسيد أمير على ١١٨ - ١٣٥، تاريخ الإسلام للذهبى الطبقة الثالثة عشرة ص ٢٨٢ ، تاريخ الخميس ٢/ ٣١٨ .

وكان هشام أحول العين، حُكِيَ أنه خرج يومًا فلقى رجلاً أعور، فأمر بضربه وحبسه، فقال له الأعور: ما ذنبى ؟ فقال هشام: تشاءمتُ بك، فقال الأعور: شؤم الأعور على نفسه، وشؤم الأحول على غيره؛ ألا ترى أنى استقبلتك فلم يصبك منى شيء، وأنت استقبلتنى فنالنى منك السوء ؟ فخجل هشام ووصله.

وقيل: عرض هشام الجند بحمص، فمر به رجل من أهل حمص، وهو على فرس نفور، فقال هشام: ما حملك على أن تركب فرسًا نفورًا ؟ فقال الحمصى: لا والله يا أمير المؤمنين، ليس بنفور، ولكنه أبصر حولتك، فظن أنك عزون البيطار، فنفر، فقال هشام: تنح؛ عليك وعلى فرسك لعنة الله، وكان عزون البيطار رجلاً أحول.

حكى الزبير بن بكار: قال هشام لأبى النجم الفضل بن قدامة العجلى: صف لى إبلاً، قال أبو النجم: فذهب بى الروى إلى أن قلت: [من الرجز]

وَصَارَتِ الشَّمْسُ كَعَينِ الأَحْوَلِ

فغضب هشام، فقال: أخرجوا هذا، ثم بعد مدة أدخلت عليه، فقال: هل لك أهل ؟ قلت: نعم، وابنتان، قال: زوجتهما ؟ قلت: إحداهما، قال: فما أوصيتها ؟ قلت: [من الرجز]

أَوْصَيْتُ مِنْ بَرَّةَ قَلْبًا حُرًّا بِالكَلْبِ خَيْرًا والحمَاةِ شَرًّا
لاَ تَسْأمِى خَنْقًا لَهَا وَجرًّا وَالحَيَّ عمَّيهِمْ بِشَرٍّ طُرًّا
وإنْ حَبَوْكِ ذَهَبًا وَدُرًّا حَتَّىٰ يَرَوْا حُلْوَ الحياةِ مُرًّا

فضحك هشام، واستلقى، وقال: ما هذه وصية يعقوب بنيه، قلت: يا أمير المؤمنين، ولا أنا مثل يعقوب، عليه السلام، قال: فما زدتها ؟ قلت: [من الرجز]

سُبِّى الحمَاةَ وَابْهَتِى عَلَيْهَا وإنْ نَأَتْ فَأزلِفِى إليها
واقرعِى بِالوُدِّ مِرْفَقَيْهَا مظاهر اليد بِهِ عليها

قال: فما فعلت أختها ؟ قلت: درجت بين أبيات الحى، فنفعتنا، قال: فما قلتَ فيها ؟ قال: قلت: [من السريع أو الرجز]

كَأَنَّ ظَلاَّمَةَ أُخْتَ شَيْبَانْ يتيمَةٌ وَوَالِدَاهَا حَيَّانْ
أَلرَّأْسُ قَمْلٌ كُلُّهُ وَصُؤْبَانْ وَلَيْسَ فِى الرِّجْلَينِ إلا خَيْطَانْ

فَهْيَ الَّتِى يَذْعَرُ منها الشَّيْطَانْ

فوصلنى هشام بدنانير، وقال: اجعلها فى رجلى ظلامة، وهذا أبو النجم هو القائل: [من الرجز]

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي

ومن العقد لابن عبد ربه(١): كان الكميت الشاعر المشهور مادِح أهل البيت يمدح بنى هاشم، ويعرِّضُ ببنى أمية، فطلبه هشام بن عبد الملك، فهرب عنه، فكان مطردًا عشرين سنة لا يستقرُّ له قرار؛ خوفًا من هشام، وكان مسلمة بن عبد الملك أخو هشام له حاجة على هشام يقضيها له كل سنة، ولا يرده فيها كائنةً ما كانت، فخرج مسلمة إلى بعض حروبه، ثم أتى، فأتاه الناس يسلمون عليه، وأتاه من جملتهم الكميت بن زيد، فقال: السلام عليك أيها الأمير، أما بعد: [من مجزوء الكامل]

... ... قِفْ بِالدِّيَارِ وُقُوفَ زَائِرْ

حتى انتهى إلى قوله:

يَا مُسْلِمٌ يَا بْنَ الوَلِيـ د لميِّت إنْ شِئْتَ نَاشِرْ
عَلقَتْ حبالِى مِنْ حِبَا لِكَ ذِمَّةَ الرَّجُلِ المُجَاوِرْ
فَالآنَ صِرْتُ إِلَىٰ أُمَيـ يَةَ وَالأُمُورُ لَهَا مَصَايِرْ
وَالآن كُنْت بِهِ المصيـ ب لمهتدٍ بالأَمْسِ حَائِرْ

فقال مسلمة: سبحان الله، من هذا [الهندكي الجلحاب الذي أقبل](٢) من أخريات الناس، فبدأ بالسلام، ثم أما بعد، ثم الشعر ؟ قيل له: الكميت، فأعجب به وبفصاحته، فذكر له الكميت بعد أن تَمَّ إنشاده رعبه من هشام، وطول تشرده، فضمن له مسلمة أمانه، وتوجَّه حتى أدخله على هشام، وهو لا يعرفه، فقال الكميت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، الحمد لله، فقال هشام: نعم، الحمد لله يا هذا، فقال الكميت مبتدئ الحمد ومبتدعه، واستمر فى خطبة طويلة بديعة فيها

---

(١) ينظر: العقد الفريد ٢/ ٥٦ .

(٢) فى ط: الهيلمانى الخلجان الذى بدا. المثبت من العقد الفريد، والهندكى الجلحاب: الهندى الشيخ الكبير .

قوله: « تهت فى حيرة، وحرت فى سكرة، ادلأمَّ بى خَطَرُهَا، وأهاب بى داعيها، فأجابنى غاويها، [فاقطوطيت إلى الضلالة](١) وتسكعت فى الظلمة والجهالة، جائرًا عن الحق، قائلاً بغير الصدق، فهذا مقام العائذ، ومنطق التائب اللائذ، ومصير الهداية بعد العمى، يا أمير المؤمنين، كم من عاثر أَقَلتُم عثرته، ومجترم عفوتم عن جرمه. . . إلى آخر ما قال، فقال هشام: ويحك مَنْ سَنَّ لك الغواية، وأهاب بك فى الغيابة ؟! فقال الكميت: الذى أخرج أبى من الجنة، فَنَسِى ولم يجد له عزمًا، وهو مترصد لبنيه، فعفا عنه هشام.

وفى ربيع الأبرار: تنسب إلى الفرزدق مكرمة يُرجَىٰ له بها الجنة، هى أنه لما حج هشام بن عبد الملك فى أيام أبيه، مدحه الفرزدق، فلما طاف بالبيت، جهد أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه، فلم يقدر على ذلك؛ لكثرة الزحام، فنصب له كرسى، وجلس عليه ينظر إلى الناس، ومعه جماعة من أعيان أهل الشام، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين بن على بن الحسين، وكان من أجمل الناس وجهًا، وأطيبهم أرجًا، وبين عينيه سجدة، فلما انتهى إلى الحجر تنحَّىٰ عنه الناس هيبةً وإجلالاً حتى استلم الحجر، فغاظ ذلك هشامًا، فقال له رجل من أهل الشام: من هذا الذى هابه الناس هذه الهيبَةَ ؟! فقال هشام: لا أعرفه؛ مخافة أن يرغَبَ فيه أهل الشام، وكان الفرزدق حاضرًا، فقال: أنا أعرفه، فقال الشامى: مَنْ هو، يا أبا فراس ؟ قال:

[من البسيط]

هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبادِ اللَّهِ كُلِّهِمُ ... هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهرُ العَلَمُ

هَذَا الذى تَعْرِفُ البطحَاءُ وَطْأَتَهُ ... والبيتُ يَعْرِفُهُ والرُّكْنُ والحَرَمُ

إذا رَأَتْهُ قريشٌ قَالَ قائلُهَا: ... إلى مكارِمِ هذا يَنْتَهِى الكَرَمُ

يَنْمِى إلى ذِرْوةِ العزِّ التى قَصُرَتْ ... عَنْ نَيْلِها عَرَبُ الإسلامِ والعَجَمُ

يكادُ يُمْسِكُهُ عرفانَ راحَتِهِ ... رُكْنُ الحَطِيمِ إذا ما جَاءَ يَسْتَلِمُ

فى كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ ريحُهُ عبقٌ ... مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فى عِرْنينه شَمَمُ

يُغْضِى حياءً ويُغْضَىٰ مِنْ مَهَابَتِهِ ... فَمَا يُكَلَّمُ إلاَّ حينَ يَبْتَسِمُ

---

(١) فى ط: فامطرطأت. والمثبت من العقد الفريد. واقطوطيت: يقال: اقطوطى الرجل فى سيره: أى: قارب فى مشيه مع سرعة . ينظر القاموس (قطو)

يَنشَقُّ نُورُ الهُدَىٰ مِنْ نُورِ غُرَّتِهِ كالشَّمْسِ تنجَابُ عَنْ إشراقها الظُّلَمُ
مُنْشقةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ طَابَتْ عَنَاصِرُهُ والْخيمُ والشِّيَمُ
هذا ابن فاطمةٍ إنْ كُنْتَ تَجهَلُهُ بِجَدِّهِ أنبياءُ اللَّهِ قد خُتِمُوا
أَللَّهُ شَرَّفَهُ قِدْمًا وعَظَّمَهُ جَرىٰ بذاك له فى لَوْحِهِ القَلَمُ
ولَيْسَ قولُكَ: مَنْ هذا ؟ بضائِرِهِ أَلعُرْبُ تعرفُ مَنْ أنكَرْتَ والعَجَمُ
كِلْتَا يَديْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُمَا يَسْتَوكِفَانِ ولا يَعْرُوهُما العَدَمُ
سَهْلُ الخليقةِ لا تُخْشَىٰ بوادِرُهُ يَزِينُهُ اثنانِ: حُسْنُ الخُلْقِ والشِّيَمُ
حَمَّالُ أثقالِ أقوامٍ إذا فدحوا حلْوُ الشمائِلِ تَحْلُو عنده النِّعَمُ
ما قال لا قَطُّ إلاَّ فى تَشَهُّدِهِ لَوْلاَ التَّشَهُّدُ كانَتْ لاؤهُ نَعَمُ
عَمَّ البريَّةَ بالإحسانِ فانقَشَعَتْ عنها الغَيَابَةُ والإملاقُ والعَدَمُ
مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ وبغضُهُمُ كُفْرٌ وقُرْبُهُمُ مَنْجًى ومُعْتَصَمُ
إنْ عُدَّ أهلُ التُّقَىٰ كانوا أَئِمتَهُمْ أو قِيلَ: مَنْ خَيْرُ أهلِ الأرضِ؟ قِيلَ: هُمُ
لا يستطيعُ جَوَادٌ بُعْدَ غايتِهم ولا يُدَانيهِمُ قَوْمٌ وإنْ كَرمُوا
هم الغُيُوثُ إذا ما أزمةٌ أَزَمَتْ والأُسْدُ أُسْدُ الشَّرَىٰ إيَّاكَ تحتذمُ
لا ينْقصُ العُسْرُ بَسْطًا من أكُفِّهِمُ سِيَّان ذلك إن أثْرَوا وإنْ عدمُوا
مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ الله ذِكْرُهُمُ فى كُلِّ بَدْءٍ ومختوم به الحكمُ
أَيُّ الخلائِقِ ليسَتْ فى رِقَابِهِمُ لِأوليَّةِ هذا أو له نعمُ
مَنْ يَعْرِفِ اللهَ يَعْرِفْ أَوَّلِيَّةَ ذا فَالدِّينُ مِنْ بَيْتِ هَذَا نَالَهُ الأمَمُ

فغضب هشام، وقال للفرزدق: أو رافضيٌّ أنت يا فرزدق ؟ فقال: إن كان حُبُّ آل البيت رفضًا فنعم، فحرمه هشام جائزته، فتحمَّل عليه الفرزدق بأهل بيته، فأبىٰ أن يعطيه شيئًا، فقال له عبد الله بن جعفر بن أبى طالب: كم كنتَ تؤمل أن يعطيك هشام ؟ فقال الفرزدق: ألف دينار فى كل سنة، قال: فكم تؤمل أن تعيش ؟ قال: أربعين سنة، قال: يا غلام، عليَّ بالوكيل، فدعاه، فقال: أعط الفرزدق أربعين ألف دينار، فقبضها منه، ثم أمر هشام بحبس الفرزدق، فحبس، فأنفذ إليه على زين العابدين اثنى عشر ألف درهم، وقال: هذا عاجل برِّنا ولك المزيد، فردَّها الفرزدق، وقال: مدحته لله لا للعطاء، فأرسل إليه زين العابدين، وقال له: إنا أهل بيت إذا

وهبنا شيئًا لا نستعيده، والله تعالى عالم بنيتك ومُثيبك عليها، فشكر الله لك سعيك، فلما بلغته الرسالة قبلها، وكان حبس هشام للفرزدق بعسفان بين مكة والمدينة؛ ففى ذلك يقول الفرزدق: [من الطويل]

أَتَحْبِسُنِى بَين المَدِينَةِ والتي ... إِلَيْهَا رقابُ النَّاسِ يَهْوى مُنِيبُهَا ؟!
يُقَلِّبُ رَأْسًا لم يكُنْ رَأْسَ سيِّدٍ ... وَعَيْنًا له حَوْلاَءَ بَادٍ عُيُوبُهَا

قال مصعب الزبيرى: زعموا أن عبد الملك رأى فى المنام كأنه بال فى محرابه ﷺ أربع مرات، فدسَّ إلى سعيد بن المسيب من يسأله تعبير ذلك ؟ فقال: يملك من صُلْبِ هذا الرائى أربعة، وكانوا كذلك: الوليد بن عبد الملك، يزيد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك وهو آخرهم، توفى ثانى عشر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة؛ وعمره أربع وخمسون سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وسبعة عشرة يومًا.

قال الصفدى(١) فى تذكرته: من أولاد هشام: سعيد بن هشام بن عبد الملك بن مروان، كان منهمكًا فى لذات الدنيا مغرًى بحب النساء، وفيه يقول القائل مخاطبًا أباه هشامًا: [من البسيط]

أَبْلِغْ هِشَامًا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ فَقَدْ ... أَغْظْتَنَا بأمِيرِ غَيْرِ عِنِّينِ
طَوْرًا يشارِكُ هذا فِى حَلِيلَتِهِ ... وتارَةً لا يُرَاعِى حُرْمَةَ الدِّينِ

قال: فحبسه أبوه هشام، فقال أبو محمد السلمى، وكان هذا السلمى فى حبس هشام: إن سعيدًا كان فى بيت علَىَّ حِدَة، وكنت أسمع من بيته صوت العود، فخرجت يومًا إليه، فإذا هو قد أخذ جفنة فنقبها، وعلق فيها أوتارًا، فقلت: ويحك على هذه الحال، تفعل هذا ! فقال: لا أبا لك لولا هذا متنا غمًّا، وهو القائل: [من الرجز]

أَرْسَلْتُ كَلْبِى طالبًا ما يأكُلُهْ ... مَنِ الَّذِى يَرُدُّهُ أو يَجْهَلُهْ

وبلغ أباه هشامًا ما صنعه، فأمر بإخراجه، وقال له: لعنك الله، أفسقًا كفسق العوامِّ، هلا فسقًا كفسق الملوك ؟ فقال له ابنه: وهل للملوك فِسْقٌ يمتازون به ؟! قال: نعم، قال: وما هو ؟! قال أن تحيي هذا، وتقتل هذا، وتأخذ مال هذا، فتعطيه

(١) ينظر: تاريخ الصفدى «الوافى بالوفيات» ١٥/ ٢٦٩ - ٢٧٠ .

هذا، ومن شعر سعيد هذا قوله: [من الرمل]

آلُ مَرْوَانَ أَرَاهُمْ فِى عَمًى غضب العَيْش عليهِمْ وَالفَرَحْ
كُلُّهم يَسْعَىٰ لما يُتْعِبُهُ وأنا أَسْعَىٰ لِأُنْسٍ وَقَدَحْ

وفى درة الغواص: قال حماد الراوية: كان انقطاعى إلى يزيد بن عبد الملك فى خلافته، وكان أخوه هشام يحسدني لذلك، فلما مات يزيد وولى هشام، خفته، ومكثت فى بيتى سنة لا أخرج إلاَّ إلى من أثق به من إخوانى سرًّا، فلما لم أسمع أحدًا يذكرنى فى السنة أمنت، فخرجتُ يومًا أصلى الجمعة فى مسجد الرصافة، فإذا بشرطيين واقفين عليَّ، وقالا: يا حماد، أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفى - وكان واليًا على العراق لهشام بن عبد الملك - فاستسلمت فى أيديهما، ثم صرت إلى يوسف بن عمر، وهو فى الإيوان الأحمر، فسلمت، فرد على السلام، ورَمَى إلى كتابًا فيه: « بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين، إلى يوسف بن عمر الثقفيّ، أَمَّا بعد، إذا قرأت كتابى هذا، فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع ولا تتعتع، وادفع له خمسمائة دينارٍ وجملاً مهريًّا يسير عليه اثنتى عشرة ليلة إلى دمشق »، فأخذت الدنانير، ونظرت فإذا جمل مرحول، فركبت ووضعت رجلى فى الغرز، وسرت حتى وافيت دمشق فى اثنتى عشرة ليلة.

فنزلْتُ على باب هشام، فاستأذنت، فأذن لى، فدخلت إليه فى دارٍ قوراءَ مفروشة بالرخام، وبين كل رخامتين قضيب ذهب، وهشام جالس على طنفسة حمراء، وعليه ثياب حمر من الخز، وقد تضمخ بالمسك والعنبر، فسلمت فردَّ على السلام واستدنانى فدنوْتُ حتى قبلت رجله، فإذا جاريتان لم أر مثلهما قطُّ فى أذن كل منهما حلقتان فيهما لؤلؤتان تتقدان، فقال: كيف أنت يا حماد؟ فقلت: بخير يا أمير المؤمنين، فقال: أتدرى، لم بعثت إليك؟ قلت: لا، قال: بعثت إليك بسبب بيت خطر ببالى، ولاأعرفه لمن، قلت: وما هو؟ قال: [من الخفيف]

وَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا فجاءَتْ قَيْنَةٌ فى يَمِينِهَا إِبْرِيقُ

فقلت: يقوله عدى بن زيد العبادى من قصيدة، فقال: أنشدنيها، فأنشدته: [من الخفيف]

بَكَرَ العاذِلُونَ فى وَضَحِ الصُّبْـ ـحِ يقولُونَ لى أَلاَ تَسْتَفِيقُ
وَيَلُومُونَ فِيك يابنةَ عَبْدِ الـ ـلهِ والقَلْبُ عندكُمْ موثُوقُ

لَسْتُ أدرى إذْ أَكْثَرُوا العَذلَ فيها أَعَـدُوٌّ يـلـومُـنِـى أمْ صَـدِيـقُ ؟

قال حماد: فأنشدته حتى انتهيت إلى قوله: [من الخفيف]

وَدَعَوْا بالصَّبُوحِ يومًا فجاءَتْ قَـيْـنَـةٌ فـى يَـمِـيـنِـهـا إبْـرِيـقُ
قَدَّمَتْهُ على عقارٍ كَعَيْنِ الدْ دِيكِ صَفَّى سلافَها الرَّاووقُ
مُـرَّةٌ قَـبْـلَ مَـزْجِـهـا فـإذا مـا مُزِجَتْ لَذَّ طَعْمهَا مَنْ يَذُوقُ
وطـفـا فَـوْقَـهَـا فـقـاقـيـعُ كَـالـيَـا قُـوتِ حُمْرٌ يَزِينُهَا التصفيقُ
ثـمَّ كـان الـمـزَاجُ مـاءَ سَـحَـابٍ لا صَـرِى آجِـنٌ ولا مَـطـرُوقُ

فطرب هشام، وقال: أحسنت يا حماد والله، ثم قال: يا حماد، سل حاجتك، فقلت: إحدى هاتين الجاريتين، ثم ذهبت، فلم أعقل حين أصبحت إلا والجاريتان عند رأسى، وإذا عشرة من الخدم مع كل واحد بدرة فيها عشرة آلاف درهم، فقال أحدهم: إن أمير المؤمنين يقرئك السلام، ويقول: خذ هذا، فانتفع به فى سفرك، فأخذت ذلك والجاريتين وعدت إلى أهلى.

خلافة الوليد بن يزيد(١)

لما توفى هشام بالرصافة، ولى بعده الوليد ابن أخيه يزيد، وكان متلاعبًا، وله مجون وشراب وندمان، وأراد هشام خلعه فلم يمكنه، وكان يضرب من يؤخذ فى صحبته، فخرج الوليد فى خاصته ومواليه، وخلف كاتبه عياض بن مسلم؛ ليكاتبه بالأحوال، فضربه هشام وحبسه. ولم يزل الوليد مقيمًا فى البرية حتى مات هشام، وجاءه مولى أبى محمد السفيانى على البريد بكتاب سالم بن عبد الرحمن صاحب ديوان الرسائل بالخبر، فسأل عن كاتبه عياض فقال: إنه لم يزل محبوسًا حتى مات هشام، فأرسل إلى الخزان أن يحتفظوا بما فى أيديهم حتى منعوا هشامًا من كفن، ثم خرج عياض بعد موت هشام من الحبس، وكتب أبواب الخزائن، ثم كتب الوليد من وقته إلى عمه العباس بن عبد الملك أن يأتى الرصافة فَيُحْصِى ما فيها من أموال هشام

(١) ينظر ترجمته فى: تاريخ الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٦٤، تاريخ ابن خلدون ٣/ ١٠٦، الوزراء والكتاب ٦٨، تاريخ الخميس ٢/ ٣٢٠، خزانة الأدب ١/ ٣٢٨، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٧١، تاريخ الطبرى ٧/ ٢٠٩، مروج الذهب ٣/ ٢٢٤، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٧٠، تاريخ الإسلام الطبقة الثالثة عشرة ص ٢٨٧، نسب قريش ١٦٧ .

وولده وماله وحشمه، إلا مسلمة بن هشام، فإنه كان يراجع أباه هشامًا بالرفق بالوليد، فانتهى لما أمره به الوليد، ثم استعمل الوليد العمال، وكتب إلى الآفاق بأخذ البيعة، فجاءته بيعتهم، وكتب مروان بيعته، واستأذن فى القدوم، ثم عهد الوليد من سنته لابنيه الحكم وعثمان بعده، وجعلهما ولى عهده، وكتب بذلك إلى العراق وخراسان.

قال الذهبى(١): كان أبوه يزيد بن عبد الملك حين احتضر، عهد بالأمر إلى هشام ابن عبد الملك وأخيه بأن يكون العهد من بعده لولده الوليد بن يزيد، فلما مات هشام، بويع له بالخلافة يوم موت عمه هشام، وهو إذ ذاك بالبرية فارًا من عمه هشام؛ لأنه كان بينه وبين عمه هشام منافسة؛ لأجل استخفافه بالدين، وشربه الخمر، واشتهاره بالفسق والفجور، فهمَّ هشام بقتله ففرَّ وصار لا يقيم بأرض خوفًا من هشام، فلما كان الليلة التى قدم عليه البريد فى صبحها بالخلافة، قلق تلك الليلة قلقًا شديدًا، فقال لبعض أصحابه: ويحك قد أخذنى الليلة قلق، فاركَبْ بنا حتى ننبسط، فسار مقدار ميلين، وهما يتحادثان فى أمر هشام، وما يكتب إليه من التهديد والوعيد، ثم نظرا فرأيا فى البعد رهجًا وصوتًا، فقالا: اللهم، أعطنا خيرهم، فلما قدم البريد، وأثبتوا الوليد معرفة، ترجلوا وجاءوا فسلموا عليه بالخلافة، فبهت، ثم قال: ويحكم أمات هشام ؟ قالوا: نعم، ثم أعطوه الكتب فقرأها. وسار مِنْ فوره إلى دمشق، فأقام على اشتهاره بالمنكرات، وتظاهر بالكفر والزندقة.

قال ابن عساكر وغيره(٢): انهمك الوليد فى شرب الخمر ولذاته ورفَض الآخرة وراء ظهره، وأقبل على القصف واللهو والتلذذ مع الندماء والمغنين، وكان يضرب بالعود، ويوقع بالطبل، ويمشي بالدف، وكان قد انتهك محارم الله حتى قيل له: الفاسق، وعرف بذلك، ومع هذا: كان أكمل بنى أمية أدبًا وفصاحَة وظرفًا وأعرفهم باللغة والنحو والحديث، وكان جوادًا مفضالاً، ولم يكن فى بنى أمية أكثر منه إدمانًا للشراب والسماع، ولا أشد مجونًا وتهتكًا منه، واستخفافًا بالدين وأمر الأمة، يقال: إنه واقع جارية وهو سكران وجاءه المؤذنون يؤذنونه بالصلاة، فحلف ألاَّ يصلى

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٧١، وتاريخ الإسلام الطبقة الثالثة عشرة ص ٢٨٩ .
(٢) ينظر: تاريخ ابن عساكر ١٧/ ٤٦١ .

بالناس إلا هى، فلبست ثيابه وصلَّتْ بالمسلمين، وهى جنب سكرَىٰ، وقيل: إنه صنع بركة، فملأها خمرًا، وكان إذا طرب، ألقى نفسه فيها ويشرب منها حتى يظهر النقص فى أطرافها.

وحكى الماوردى فى كتاب أدب الدين والدنيا، عنه: أنَّه تفاءل ذات يوم فى المصحف، فخرج له قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٥]، فأمر بالمصحف فنصب ورماه بالسهام حتى مزقه، وهو يقول: [من الوافر]

أَتُوعِدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ فَهَا أَنَا ذَاكَ جَبَارٌ عَنِيدُ
إذا مَا جِئْتَ رَبَّكَ يَوْمَ حشْرٍ فقُلْ يا ربِّ مَزَّقَنِى الوَلِيدُ

وقد جاء فى الحديث: « يكون فى هذه الأمة رجل يقال له الوليد هو شر من فرعون »[1]، فتأوله العلماء بالوليد بن يزيد هذا، فخلعه أهل دمشق لما ذكر، وقتله يزيد ابن عمه الوليد فى جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، وكانت خلافته سنة واحدة.

قال العلامة ابن خلدون: ولقد ساءت المقالة فيه كثيرًا، وكثير من الناس نفوا عنه ذلك، وقالوا: إنها شناعات الأعداء ألصقوها به.

قال المدائنى: دخل ابنه المعمر بن يزيد على الرشيد هارون، فسأله: ممن أنت ؟ فقال: من قريشٍ، فقال الرشيد: من أيها ؟ فسكت ووجم، فقال له الرشيد: قل، وأنت آمن، ولو أنك مروان، فقال: أنا المعمر بن يزيد، فقال: رحم الله عمك، ولعن يزيد الناقص، فإنه قتل خليفة هو مجمع عليه؛ ارفع حوائجك، فرفعها إليه وقضاها.

وقال شبيب بن شبة: كنا جلوسًا عند المهدى، وذكر الوليد، فقال المهدى: كان زنديقًا، فقام ابن علاثة الفقيه فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى أعدل من أن يولى

(١) أخرجه أحمد فى «المسند» (١/ ١٨) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده ضعيف لانقطاعه فسعيد بن المسيب لم يدرك عمر إلا صغيرًا فروايته عنه مرسلاً .
والحديث أخرجه أيضا ابن الجوزى فى الموضوعات رقم (٣٣٠) وتعقبه الحافظ ابن حجر فى القول المسدد (ص ٤) وكذا السيوطى فى اللآلئ (١/ ١٠٦ - ١١٠) بما يخرجه عن حد الوضع، وينظر تنزيه الشريعة (١/ ١٩٨ - ١٩٩) والتعقبات على الموضوعات (ص ٣٧) .

خلافة النبوة، وأمر الأمة زنديقًا؛ إنه أخبرنى عنه من كان يشهده فى ملاعبه وشربه بمروءة فى طهارته وصلاته، فكان إذا حضرت الصلاة، يطرح الثياب التى عليه المطيَّبة المصبغة، ثم يتوضَّأ فيحسن الوضوء، ويؤتى بثياب بيض نظيفة، فيلبسها ويصلى فيها، فإذا فرغ، عاد إلى تلك الثياب فلبسها واشتغل بشربه ولهوه؛ أترى هذا من فعال من لا يؤمن بالله ؟! فقال له المهدى: بارك الله فيك يا بن علاثة، وإنما كان الرجل محسدًا فى خلاله، ومزاحمًا بكبار عشيرته، وأهل بيته من عمومته، مع لهو كان يصاحبه أوجَدَ لهم السبيل على نفسه، فكان من خلاله قرض الشعر الوثيق، ونظم الكلام البليغ.

قال يومًا لهشام يغريه فى مسلمة: إن عقبى من بقى لخوف من مضى، وقد أمكن بعد مسلمة الصيد لمن رمى، واختل الثغر فهوى، وعلى أثر من سلف يمضى من خلف، فتزودوا؛ فإن خير الزاد التقوى. فأعرض هشام وسكت القوم.

وأما حكاية مقتله: فإنه لما تعرض له بنو عمه، ونالوا من عرضه، أخذ فى مكافأتهم، فضرب سليمان ابن عمه هشام مائة سوط، وحلقه وغربه إلى معان من أرض الشام، فحبسه إلى آخر دولته، وحبس أخاه يزيد بن هشام، وفرق بين روح بن الوليد وبين امرأته، وحبس عدة من ولد الوليد، وطعنوا عليه فى تولية ابنيه الحكم وعثمان العهد مع صغرهما، وكان أشد الناس عليه يزيد بن الوليد؛ لأنه يتنسك؛ فكان الناس إلى قوله أميل؛ فخرج عليه يزيد بن الوليد المذكور الملقب بالناقص، وتغلب على دمشق.

خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان(١)

لما خلع أهل دمشق الوليد بن يزيد بن الوليد المذكور، ثم جهز يزيد الجيش إلى الوليد بمكانه من البادية، فإنه كان غائبًا بها، فجهز إليه الجيش مع عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، ومع منصور بن جمهور، وقد كان الوليد حين بلغه الخبر،

(١) ينظر ترجمته فى: النجوم الزاهرة ١/ ١٢٦، تاريخ الخميس ٢/ ٣٢١، البداية والنهاية ١٠/ ١١، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٧٤، تاريخ ابن خلدون ٣/ ١٠٦، تاريخ خليفة ٣٦٨، تاريخ الطبرى ٧/ ٢٣١، تاريخ الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٩١، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٧٤، خلاصة الذهب المسبوك ٤٥، تاريخ الإسلام الطبقة الثالثة عشرة ص ٣١١ .

بعث عبد الله بن يزيد بن معاوية إلى دمشق، فأقام بطريقه قليلًا، ثم بايع ليزيد، وأشار على الوليد وأصحابه أن يلحق بحمص؛ فيتحصن بها، قال له ذلك يزيد بن خالد بن يزيد، وخالفه عبد الله بن عنبسة، وقال: ما ينبغى للخليفة أن يدع عسكره وحرمه قبل أن يقاتل، فسار إلى قصر النعمان بن بشير، ومعه أربعون من ولد الضحاك وغيرهم، وجاءه كتاب العباس بن الوليد بأنه قادم، ولما وصل عبد العزيز ومنصور اللذان أرسلهما يزيد صحبة الجيش، بعث إليه وإلى أصحابه زياد بن الحصين الكلبى يدعوانهم إلى الكتاب والسنة، فقتله أصحاب الوليد فقاتلوهم حينئذ، واشتد القتال بينهم، وبعث عبد العزيز بن منصور بن جمهور لاعتراض العباس بن الوليد فى أن يأتى الوليد، فجاء به منصور كرهًا إلى عبد العزيز، وألزمه البيعة لأخيه يزيد، ونصبوا راية باسمه فتفرق الناس عن الوليد، واجتمعوا على العباس وعبد العزيز، وأرسل الوليد إلى عبد العزيز بخمسين ألف دينار وولاية حمص ما بقى على أن ينصرف فأبى، ثم قاتل الوليد قتالاً شديدًا؛ حتى سمع النداء بقتله وسبه من جوانب الحومة، فدخل القصر وأغلق الباب، وطَلَبَ الكلام من أعلى القصر، فكالمه يزيد بن عنبسة السكسكى، فذكَّره بحقوقه وفعاله فيهم، وزيادته فى أرزاقهم، فقال ابن عنبسة: ما ننقم عليك فى أنفسنا، وإنما ننقم عليك فى انتهاكك ما حرم الله تعالى، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله تعالى.

فقال: حسبك يا أخا السكاسك، لقد أكثرت وأغرقْتَ، فيما أحل الله سعة عما ذكرْتَ، ثم رجع إلى الدار فجلس وأخذ المصحف يقرأ، وقال: يوم كيوم عثمان، فتسوَّروا عليه، وأخذ يزيد بن عنبسة بيده يقيه لا يريد قتله، وإذا بمنصور بن جمهور فى جماعة معه ضربوه، واحتزوا رأسه وساروا به إلى يزيد، فأمر بنصبه، فتلطَّف له يزيد بن فروة فى المنع من ذلك، وقال: هذا ابن عمك وخليفة، وإنما تنصب رءوس الخوارج، ولا آمن أن يغضب له أهل بيته، فلم يجبه يزيد إلى ذلك، وأطافه بدمشق على رمح [وبعثه] إلى أخيه سليمان بن يزيد، وكان معهم عليه. وكان قتله فى جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة؛ كما تقدم ذكر ذلك.

ولما قتل، خطب يزيد بالناس فذمه وثلبه، وأنه قتله لأجل ذلك، ثم وعدهم بحسن النظر والاقتصار عن النفقة فى غير حاجاتهم وسد الثغور والعدل فى العطاء

والأرزاق، ورفع المظالم، وإلا فلكم ما شئتم من الخلع، وكان يسمى الناقص؛ لأنه نقص الزيادة التى زادها الوليد فى أعطيات الجند وهى عشرة عشرة، وردها كما كانت أيام هشام، وقيل: لنقصان كان فى أصابع رجليه، وأول من سماه بذلك مروان ابن محمد.

ولما قتل الوليد، كان مروان بن محمد بن مروان بن الحكم على أرمينية، وكان على الجزيرة عبدة بن رباح الغسانى، وكان الوليد قد بعث بالصائفة أخاه، فبعث معه مروان بن عبد الملك، فلما انصرفوا من الصائفة، لقيهم بحران خبر مقتل الوليد، فسار عبدة عن الجزيرة إلى الشام، فوثب عبد الملك بالجزيرة وحران، فضبطهما وكتب إلى أبيه مروان بأرمينية يستحثه طالبًا بدم الوليد بعد أن أرسل إلى الثغور من يضبطها، وكان معه ثابت بن نعيم الجذامى من أهل فلسطين، وكان صاحب فتنة، وكان هشام قد حبسه على إفساد الجند بإفريقية عند مقتل كلثوم بن عياض، وتشفع فيه مروان، فأطلقه واتخذ عنده يدًا، فلما سار من أرمينية، دخل ثابت بن نعيم إلى أهل الشام فى العود إلى الشام من وجه الفرات، واجتمع له الكثير من جند مروان وناهضه القتال، ثم غلبهم وانقادوا له، وحبس ثابت بن نعيم وأولاده، ثم أطلقهم من حران إلى الشام، وجمع نيفًا وعشرين ألفًا من الجزيرة يسير بهم إلى يزيد، وكتب إليه بشرط ما كان عبد الملك ولى أباه محمدًا من الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان، فأعطاه يزيد ولاية ذلك، وبايع له مروان وانصرف، وأقام يزيد فى الخلافة والأمور مضطربة عليه، وكان مظهرًا للنسك وقراءة القرآن وأخلاق عمر بن عبد العزيز، وكان ذا دين وورع.

قال الشافعى[1]- رضى الله تعالى عنه - ولي يزيد بن الوليد، وكان قدريًا، فدعا الناس إلى القدر وحملهم عليه، وبايع لأخيه إبراهيم بن الوليد بالعهد ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك؛ حمله على ذلك أصحابه القدرية لمرض أصابه، ثم توفى يزيد آخر سنة ١٢٦ ست وعشرين ومائة، وكانت خلافته خمسة أشهر وعشرين يومًا، [و] عمره تسع وثلاثون سنة، وقيل: أربعون.

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبى الطبقة الثالثة عشرة ص ٣١٢ .

خلافة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان(١)

بويع له بعد موت يزيد، وكان إبراهيم قليل العقل قليل التدبير، فانتقض الناس عليه، ولم يتم له أمر، وكان يسلم عليه تارة بالخلافة، وتارة بالإمارة، وقال فيه الشاعر: [من الطويل]

نُبَايعُ إبراهيمَ فى كُلِّ جمعةٍ ألا إنَّ أَمْرًا أَنْتَ وَالِيهِ ضَائِعُ

وأقام على ذلك نحوًا من ثلاثة أشهر، ولم يبايعه مروان بن محمد، وقام عليه وخلعه، ثم بعد خلعه بثلاثة أيام قتله، وقيل: صلبه، وكان يلقب: صلبان، وهو اسم مجنون بدمشق.

وقال ابن خلدون: لم يقتله؛ بل عاش إلى أن هلك سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

خلافة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم(٢)

لما مات يزيد بن الوليد، وجلس فى مكانه إبراهيم أخوه، لم يبايعه مروان، وتعلل بأشياء، ونهض للخلافة، وبويع فى خامس عشر شهر صفر سنة سبع وعشرين ومائة. وكان قبل ذلك واليًا على أرمينية؛ كما تقدَّم ذكره، وصار سلطانه فى الشام ومصر فقط، وكان زمانه زمان حرب وفتن واختلاف، فاضطربت أموره، فسار إلى دمشق، فلما انتهى إلى قنسرين، وكان عليها بشر بن الوليد عاملاً لأخيه يزيد، ومعه أخوهما مسرور، فدعاهما مروان إلى بيعته، ومال إليه يزيد بن عمر بن هبيرة، وخرج بشر للقاء مروان، فلما تراءى الجمعان، مال ابن هبيرة وقيس إلى مروان، وأسلموا بشرًا وسرورًا، فأخذهما مروان وحبسهما، وسار بأهل قنسرين ومن معه إلى حمص، وكانوا قد امتنعوا من بيعة إبراهيم فوجه إليهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فى جند أهل دمشق، وكان يحاصرهم، فلما دخل مروان، رحل

(١) ينظر: تاريخ ابن الأثير ٥/ ٣٠٨ وما بعدها، تاريخ الطبرى ٧/ ٢٩٩، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٧٥، البداية والنهاية ١٠/ ٢١، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٧٦، تهذيب ابن عساكر ٢/ ٣٠٦، تاريخ الخلفاء ٢٥٣، الوافى ٦/ ١٦٣، المعرفة والتاريخ ٢/ ٨٢٨ .

(٢) ينظر ترجمته فى: تاريخ الخلفاء ٢٥٤، معجم بنى أمية ١٦١ و ١٦٢، المعرفة والتاريخ ٢/ ٣٩٦، تاريخ الإسلام للذهبى الطبقة الرابعة عشرة ص ٥٣٣ - ٥٣٧، تاريخ خليفة ٤٠٣، كتاب المجروحين والضعفاء ٣/ ١٤، البداية والنهاية ١٠/ ٢٢، سير أعلام النبلاء ٦/ ٧٤، تاريخ الطبرى ٧/ ٣١١، الكامل لابن الأثير ٥/ ٣٢٣ .

عبد العزيز عنهم وبايعوا مروان، وخرج للقائه سليمان بن هشام فى مائة وعشرين ألفًا، ومروان فى ثمانين ألفًا، فدعاهم إلى الصلح، وترك الطلب بدم الوليد على أن يطلقوا ابنيه الحَكَم وعثمان وليى عهده، فأبوا وقاتلوه، وسرب عسكرًا جاءوهم من خلفهم فانهزموا، وأثخن فيهم أهل حمص، فقتلوا منهم نحوًا من خمسة عشر ألفًا، وأسروا مثلها، ورفع مروان القتل، وأخذ عليهم البيعة للحكم وعثمان ابني الوليد، وكان ممن شهد مقتل الوليد، وهرب يزيد بن خالد القسرى إلى دمشق، فاجتمع مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج، وتشاوروا فى قتل الحكم وعثمان؛ خشية أن يطلقهما مروان؛ فيثأران كل منهما، وولوا ذلك يزيد بن خالد، فبعث مولاه أبا الأسد فقتلهما، وأخرج يوسف بن عمر فقتله، واعتصم أبو محمد السفيانى ببيت فى الحبس؛ فلم يطيقوا فتحه، وأعجلتهم خيل مروان، وأنهب سليمان بن هشام بيت المال، وخرج من المدينة، وعمر مولى الوليد بن يزيد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه ونبشوا قبر يزيد بن الوليد، وصلبوه على باب الجابية، وجاء مروان فدخل دمشق وأُنبِئ بابن الوليد ويوسف بن عمر مقتولين فدفنهما، وأتى بأبى محمد السفيانى فى قيوده، فسلم عليه بالخلافة، وقال: إن وليِّي العهد جعلاها لك، ثم بايعه، وسمع الناس فبايعوه، وكان أولهم بيعة معاوية بن يزيد بن حصين بن نمير وأهل حمص، ثم رجع مروان، واستأمن له إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام، وقدما عليه، وكان قدوم سليمان بمن معه من إخوته وأهل بيته ومواليه، فبايعوا لمروان فى سنة تسع وعشرين ومائة فى رمضان منها.

قيام أبى مسلم الخراساني[1]
بالدعوة لبنى العباس بخراسان

ظهر بها فى مدينة مرو، فدانت له البلاد، وهزم الأحزاب المروانية، وكان أبو مسلم داعيًا لإبراهيم بن محمد الإمام بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب أخى

---

(١) ينظر ترجمته فى: شذرات الذهب ١/ ١٧٩، تاريخ بغداد ١٠/ ٢٠٧، العبر ١/ ٣٨٦، ميزان الاعتدال ٢/ ٥٨٩، لسان الميزان ٣/ ٤٣٦، سير أعلام النبلاء ٦/ ٤٨، تاريخ الطبرى ٧/ ٤٧٩، المعارف ٣٧٠، البدء والتاريخ ٦/ ٧٨، تاريخ الإسلام للذهبى الطبقة الرابعة عشرة ص ٥٨١، وفيات الأعيان ٣/ ١٤٥، الكامل لابن الأثير ٥/ ٣٦٦ .

السفاح عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس، وكان إبراهيم المذكور بالقرية المعروفة بالكرار والحميمة والكتب من أبى مسلم تصل إليه بما اتفق من الفتوحات، وكان قبله نصر بن سيار عاملاً على خراسان لمروان، فحاصره أبو مسلم حتى خرج متخفيًا، فكتب نصر إلى مروان يستنجده بهذه الأبيات يقول: [من الوافر]

أَرَى خَلَلَ الرمادِ وميضَ نَارٍ ... وَيوشِكُ أَنْ يكُونَ لها ضِرَامُ
فإنَّ النارَ بالعيدان(١) تُذْكى ... وإنَّ الحَربَ أوَّلهـا كَلامُ
فَإنْ لم تُطفِئوها تُخرِجُوهَا ... مُسَجَّرَةً يشيبُ لها الغُلاَمُ(٢)
أقولُ من التعجُّبِ لَيْتَ شعري ... أأيقاظٌ أُمَيَّةُ أَمْ نِيَامُ ؟!
فَإنْ يكُ قومنا أضحَوْا(٣) نيامًا ... فقلْ قُومُوا فَقَدْ حَانَ القيامُ
تعَزي عَنْ رجالِكِ ثُمَّ قولي ... عَلَى الإسلامِ والعَرَبِ السلامُ

فوجده الرسول مشغولاً بحرب الضحاك بن قيس، فكتب إليه الجواب: « الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فاحسم الثؤلول قبلك »، فقال نصر لأصحابه: أما إن صاحبكم قد أعلمكم أن لا نصر عنده، وصادف وصول كتاب نصر إلى مروان عثور مروان على كتاب إبراهيم الإمام ابن محمد لأبى مسلم يوبِّخه حيث لم ينتهز الفرصة من نصر؛ إذ أمكنته، ولا يطاوله فى المحاصرة، ويأمره ألا يدع بخراسان متكلمًا بالعربية. فلما قرأ مروان الكتاب، بعث إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك وهو يومئذ عامله على دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء أن يسير إلى الحميمة للقبض على إبراهيم الإمام، فقبضه عامل البلقاء وشدَّه وثاقًا، وكان القبض عليه فى مسجد الحميمة، وأرسل به إلى الوليد، وأرسل به الوليد إلى مروان، فحبسه بحران ثم قتله.

وكان إبراهيم قد عهد بالوصية إلى أخيه عبد الله بن محمد الملقَّب بالسفاح ابن الحارثية، وأرسل إليه بالجامعة وأمره أن يسير على ما ذكر فيها؛ فإن الأمر صائر إليه، وإن بنى العباس موطدة لا محالة، فلما اشتهر قتل إبراهيم الإمام، بايع

(١) فى ط: بالعودين. والمثبت من البداية والنهاية.
(٢) البيت فى البداية والنهاية:

فإن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام

(٣) فى البداية والنهاية: فإن كانوا لحينهم.

أبو مسلم وغيره من الدعاة أبا العباس عبد الله السفَّاح ابن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس، فبث دعوته فى سائر الأمصار، وأظهر لبس السواد، وسير أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدى إلى شهر زور، فقتل عثمان بن سفيان، وأقام بناحية الموصل، وسار مروان بن محمد إليه من حران فى مائة وعشرين ألف قارح، ونزل بالزاب - اسم نهر قرب الموصل - وبعث السفاح سلمة بن محمد فى ألفين، وعبد الله الطائى فى ألف وخمسمائة، وعبد الحميد بن ربعى الطائى فى ألفين، وورس بن نضلة فى خمسمائة كل ذلك إمداد لأبى عون.

ثم ندب أهل بيته إلى السير إلى أبى عون، فأرسل عبد الله بن على(١) بن عبد الله ابن عباس، فسار وقدم على أبى عون، فتحول له عن سرادقه بما فيه، ثم أمر عنبسة ابن موسى فى خمسة آلاف، فعبر النهر من الزاب فى أول جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وقاتل عساكر مروان إلى المساء، فرجع فعقد مروان الجسر من الغد، وقدم ابنه عبد الله فعبر، فبعث عبد الله بن على عم السفاح المذكور المخارق ابن غفار فى أربعة آلاف نحو عبد الله بن مروان، فسرح ابن مروان الوليد بن معاوية ابن مروان بن الحكم، فانهزم أصحاب المخارق، وأسر هو وجيء به إلى مروان مع رءوس القتلى، فقال له: أنت المخارق ؟ قال: لا، قال: فتعرفه فى هذه الرءوس ؟ قال: نعم، هو ذا، فخلى سبيله.

وقيل: بل أنكر أن يكون فى الرءوس؛ فخلى سبيله.

ثم عاجلهم عبد الله بن على بالحرب، وعلى ميمنته أبو عون، وعلى ميسرة مروان الوليد بن معاوية، فأرسل إليه مروان فى الموادعة، فأبى، وحمل الوليد بن معاوية وهو صهر مروان على ابنته، فقاتل أبا عون حتى انهزم إلى عبد الله بن على، فأمر الناس عبد الله بن على فترجلوا، ومشى قدمًا ينادى: يالثارات إبراهيم، وبالشعار: يا محمد يا منصور، وأمر مروان القبائل أن يحملوا فتخاذلوا واعتذروا حتى صاحب شرطته، ثم ظهر له الخلل فأباح الأموال للناس على أن يقاتلوا، فأخذوها من غير قتال، فبعث ابنه عبد الله يصدهم عن ذلك، فتنادوا بالفرار، فانهزموا، فقتل منهم خلق كثير، وقطع مروان الجسر فغرق منهم أكثر ممن قتل.

---

(١) في ط: فأرسل محمد عبد الله.

قال الكاتى فى تاريخه: قيل: كان سبب هزيمته أنه نزل عن فرسه فى الحرب ليزيل حقنه، فهرب الفرس إلى وسط العسكر، فتوهموا أنه قتل، فقيل: ذهبت الدولة بالبولة.

وكانت الهزيمة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

ومضى مروان فى هزيمته، ونظر إلى أصحابه مع كثرة عَددهم وقوة عُددهم ولِمَا قد ظَهَرَ فيهم من الفشل، وما حل بهم من الجزع والوجل، فقال: إذا انقضت المدة، لم تنفع العدة.

فأقام عبد الله بن على فى عسكره سبعة أيام، واجتاز عسكر مروان بما فيه، وكتب بالفتح إلى ابن أخيه عبد الله السفاح، وسار مروان منهزمًا إلى مدينة الموصل، وعليها هشام بن عمرو التغلبى وبشر بن خزيمة الأسدى، فقطعا الجسر ومنعاه العبور إليهم، وقيل لهم: هذا أمير المؤمنين، فتجاهلوا، وقالوا: أمير المؤمنين لا يفرُّ، ثم أسمعوه الشتم والقبائح، فسار إلى حران، وبها أبان ابن أخيه يزيد بن محمد، فأقام بها نحوًا من عشرين ليلة، وسار عبد الله بن على المذكور على أثره إلى الموصل، فملكها، وعزل هشامًا التغلبيَّ، وولى مكانه محمد بن صول، ثم سار فى أتباع مروان إلى حران، فخرج منها مروان، وترك عليها أبان ابن أخيه، وسار إلى حمص، وجاء عبد الله إلى حران، فلقيه أبان مفردًا، فآمنه وملك الجزيرة.

ولما بلغ مروان حمص، أقام بها ثلاثًا وارتحل، فاتبعه أهلها، لينهبوه فقاتلهم وهزمهم، وأثخن فيهم، وسار إلى دمشق، وعليها الوليد ابن عمه، فأوصاه بقتال عروة، وسار إلى فلسطين، فنزل نهر أبى فطرس، وقد غلب على فلسطين الحكم بن ضبعان الجذامى، فأرسل مروان إليه عبد الله بن يزيد بن روح بن زنباع الجذامى، فأجاره، ثم سار عبد الله بن على فى أثره من حران بعد أن هدم الدار التى حبس فيها مروان أخاه إبراهيم الإمام، وقدم عليه أخوه عبد الصمد بن على بعثه السفاح مددًا فى أربعة آلاف، فسار إلى قنسرين فأطاعوه، ثم إلى حمص كذلك، ثم إلى بعلبك، ثم لما نزل مزة دمشق من قرى الغوطة، قدم عليه أخوه صالح بن على بعثه السفاح مددًا فى ثمانية آلاف، وأقام عبد الله بن على خمس عشرة ليلة، وارتحل يريد

فلسطين، فأجفل مروان إلى النيل، ثم إلى الصعيد، ونزل صالح بن على الفسطاط، يعنى: مصر، فتقدمت عساكره، فلقوا خيلاً لمروان فهزموهم وأسروا منهم، ودلوهم على مكانه ببوصير.

ذكر العلامة الدميرى فى حياة الحيوان[(١)]: أن مروان لما أن وصل إلى « أبو صير »، وهى قرية عند الفيوم، قال: ما اسم هذه القرية ؟ قيل له: أبو صير، فقال: وإلى الله المصير، ثم دخل كنيسة، فبلغه أن خادمًا نم عليه، فأمر به فقطع رأسه، وسل لسانه، وألقى على الأرض، فجاءت هرة، فأكلته، ثم سار إليه أبو عون وعامر بن إسماعيل المذحجى، فأدركوه ببوصير، ثم هجم على الكنيسة التى كان نازلاً بها عامر بن إسماعيل المذحجى، فخرج مروان من باب الكنيسة وفى يده السيف، وقد أحاطت به الجنود، وصفت حوله الخيول، فتمثل ببيت العجاج بن حكيم السلمى: [من الكامل]

مُتَقَلِّدِينَ صَفَائِحًا هِنْدِيَّةً ... تَتْرُكْنَ مَنْ ضَرَبُوا كَأَنْ لَمْ يُولَدِ

ثم قاتل حتى قتل، فأمر عامرٌ برَأْسه، فقطع فى ذلك المكان، وسل لسانه، وألقى على الأرض، فجاءت تلك الهرة بعينها، فخطفته وأكلته، فقال عامر: لو لم يكن فى الدنيا عجب إلا هذا، لكان كافيًا، لسان مروان فى فَمِ هرةٍ، وفى ذلك يقول شاعرهم: [من البسيط]

قَدْ يَسَّرَ اللَّهُ مِصْرًا عَنْوَةً لكُمُ ... وأهْلَكَ الظَّالِمَ الجَبَّارَ إِذْ ظَلَمَا

فَلَاكَ مِقْوَلَهُ هِرٌّ يُجَرْجِرُهُ ... وَكَانَ عَامِرُ مِنْ ذِى الظُّلْم منْتَقِمَا

وبعث عون بالرأس إلى صالح بن على، فبعث به صالح إلى السفاح، ووجد عامر بن إسماعيل المذكور نساء مروان وبناته فى كنيسة بوصير، وقد وكل بهن خادمًا يقتلهنَّ بعده، فبعث بهنَّ إلى صالح، ولما دخلن عليه سألنه فى الإبقاء عليهنَّ على قتلاهم عند بنى أمية، ثم عفا عنهنَّ وحملهن إلى حران يبكينَ، ودخل عامر بعد قتل مروان الكنيسة، فجلس على فرش مروان، وكان مروان يتعشَّىٰ، فلما سمع الوجبة، وثب عن عشائه فخرج فقتل، فجلس عامر على ذلك الطعام، وجعل يأكل منه، ودعا بابنة لمروان، وكانت أسن بناته، فقالت: يا عامر، إن دهرًا أنزل مروان عن

(١) ينظر: حياة الحيوان للدميرى (٢/ ٣٩٩، ٤٠٠).

فرشه، وأقعدك عليه، حتى تعشيت بعشائه، واستصبحت بمصباحه، ونادمت ابنته- لقد أبلغ فى موعظتك، وأجمل فى إيقاظك، فاستحيا عامر، وصرفها.

قال ابن زنبل فى تاريخه: قتل مع مروان ابنه عبيد الله، وهرب ابنه الآخر عبد الله حتى انتهَىٰ إلى ملك النوبة، فلما وصل إليها، وصل إليه ملك البلاد، وما رضى بالجلوس فوق الفرش بل جلس فوق التراب، فقال للترجمان: قل للملك، لم فعلت ذلك ؟ فقال له: إنى ملك، وحق على كل ملك أن يكون متواضعًا لعظمة الله تعالى، ثم أقبل ينكث فى الأرض بإصبعه، ثم رفع رأسه، وقال له: كيف سُلبتم نعمة الملك، وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم ؟ ! فقال: جاء من هو أقربُ منا إليه، وقتلنا وطردنا، وجئتُ أنا مستجيرًا إليك، ثم قال: كيف كنتم تشربون الخمر، وهى محرمة عليكم فى كتابكم ؟ ! فقال: فعله عبيدنا وأتباعنا من العجم وغيرهم، لما دخلوا فى ملكنا من غير علمنا، ثم قال: فلم كنتم تركبون على دوابكم بآلة الذهَبِ والفضةِ والديباج، وهو محرم عليكم ؟ ! فقال له مثل الأول، ثم قال: فلم كنتم إذا خرجتم لصيد طائر لا خَطَرَ له، هجمتم فى أهل القرى، وكلفتموهم الضيافة، وما لا قدرة لهم عليه، وأفسدتم مزارعهم بدوابكم، والفساد محرم فى دينكم ؟ ! فتعذَّر بمثل الأول، وقال: كرهنا مخالفتهم؛ لأن مماليكنا تمكنوا فى البلاد، فهز رأسه، وقال: لا والله، ولكنكم استحللتم ما حرِّم عليكم، وارتكبتم ما نهاكم عنه وأحببتم الفساد والظلم،وكرهتم العدل، فسلبكم الله تعالى العِزَّ وألبسكم الذل. والنقمة إذا نزلت عمت، والبلية إذا حلت شملت، وإن لله فيكم نقمة لن تبلغ غايتها، فاخرج من بلدى؛ وإلا قتلتك ومن معك. قال: فخرج من بلاده ملومًا مدحورًا.

قال ابن خلدون: بقى عبد الله بن مروان المذكور إلى أيام المهدى العباسى، فأخذه عامل فلسطين، وسجنه إلى أن مات فى السجن. وكان مروان بطلاً شجاعًا مهيبًا، كانوا يعدونه فى مقابلة ألف مقاتل، أبيض اللون ربعة أشهل العين ضخمًا كثَّ اللحية، كان حاكمًا سائسًا لقب بالجعديِّ، قال العلامة السيوطى فى تاريخه[1]: نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم؛ لتمسكه بمذهبه، كان يقول بخلق القرآن، ويتزندق، أمر هشام بن عبد الملك خالدًا القسرى بقتله لذلك فقتله، ويلقب مروان

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢٠٥ .

بالحمار - أيضًا - لأنه كان لا يجفُّ له لبد فى محاربة الخارجين عليه، كان يصل السرى بالسرى، ويصبر على مكاره الحرب، ويقال فى المثل: فلان أصبر من حمار، أو لأن العرب تُسَمِّى كل مائة سنة حمارًا، فلما قارب ملك بنى أمية فى زمنه مائة سنة، لقبوه بالحمار.

قال مروان: وا لهفتاه على دولة ما نصرت، وكف ما ظفرت، ونعمة ما شكرت، فقال له خادمه وكان من أولاد عظماء النصارى: من أهمل الصغير حتى يكبر، والقليل حتى يكثر، والخفيَّ حتى يظهر، أصابه مثل هذا.

مدة خلافته خمس سنين وعشرة أشهر، وعمره خمسون سنة، وقيل: سبع وخمسون، وقيل: ثمان، وقيل: ستون.

وفى روض الأخبار: ذهبت الدولة من بنى أمية فى عهد ثلاثة من الرجال: مروان ابن محمد، وصاحب عسكره يزيد بن عمر بن هبيرة، وكان خطيبًا شجاعًا يضرب بشجاعته المثل، ووزيره وكاتبه عبد الحميد، وكان يقال: بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد.

قال المطرزى فى شرحه على المقامات الحريرية: كان لمروان عبد الحميد كاتبًا، والبعلبكى مؤذنًا، وسلامة الحادى حاديًا، فأحضروا إلى السفاح بعد قتل مروان، فقال سلامة الحادى: استبقنى يا أمير المؤمنين، فإنى أحسن الحداء، قال: وما بلغ من حدائك ؟ قال: تعمد إلى إبل ظمئت ثلاثًا، ثم توردها، فإذا بدأت تشرب، رفعت صوتى بالحداء، فترفع رءوسها، وتدع الشرب، ثم لا تشرب حتى أسكت. فأمر بإبل ظماء، فقرب منها الماء، ثم حدا، فرفعت رءوسها، فلم تزل رافعةً حتى سكت من حدائه. فاستبقاه وأجازه.

ثم قال البعلبكى: إنى مؤذِّن منقطع النظير، قال: وما بلغ من أذانك ؟ فقال: تأمر جارية فتقدِّم لك طستًا، وتأخذ إبريقًا بيدها، وأشرع فى الأذان، فتدهش ويذهب عقلها حتى تلقى الإبريق من يدها، وهى لا تعلم، فأمر بذلك فوجده صحيحًا، فاستبقاه وأجازه.

وقال عبد الحميد: استبقنى يا أمير المؤمنين؛ فإنى فريد الدهر فى الكتابة والبلاغة، فقال: ما أعرفنى بك ؟ ! فأنت الذى فعلت بنا الأفاعيل، وعملت بنا

الدواهى، فقطعت يداه ورجلاه وضرب عنقه.

ودخل سديف يومًا على السفاح، وعنده سليمان بن هشام وقدامة فقال: [من الخفيف]

لاَ يَغُرَّنْكَ مَا تَرَىٰ مِنْ رجالٍ   إنَّ تَحْتَ الضلوعِ داءً دَوِيًّا
فَضَعِ السيْفَ وارْفَعِ السَّوْطَ حتَّىٰ   لا تَرَىٰ فَوْقَ ظَهْرِها أُمَوِيًّا

فأمر السفاح بسليمان فقتل، ودخل شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم على السفاح، وعنده ثمانون أو تسعون نفسًا من بنى أمية قد أمنهم فهم على الكراسى، فأنشد: [من الخفيف]

أَصْبَحَ المُلْكُ ثابتَ الآساسِ   بالبهاليلِ مِن بَنى العَبَّاسِ
طَلَبُوا وتْرَ هاشمٍ فَشَفَوْهَا   بعدَ مَيْلٍ مِنَ الزمَانِ وَبَاسِ
لا تُقِيلَنَّ عبد شَمْسٍ عثارًا   واقْطَعَنْ كلَّ رقْلَةٍ وغِرَاسِ
أَقْصِهِمْ أيها الخليفةُ واقْطَعْ   عنكَ بالسَّيْفِ شَأْفَةَ الأَرْجَاسِ
ذلُّهَا أَظْهَرَ التودُّدَ منها   وبهَا مِنْكُمُ كَحَرِّ المَوَاسِى
ولَقَدْ ساءنى وسَاءَ سَوائي   قُرْبُهَا مِنْ مَنَابِرٍ وكراسِي
أَنْزِلُوهَا بحَيثُ أَنْزَلَهَا اللـ   ـهُ بدَارِ الهَوَانِ والإتْعَاسِ
واذكُرُوا مَصْرَعَ الحُسَيْنِ وَزَيْدٍ   وقَتِيلاً بجَانِبِ المِهْرَاسِ
والقتيلَ الذى بحرَّانَ أضْحَىٰ   ثَاوِيًا بَيْنَ غُرْبَةٍ وَتَنَاسِي

فقال السفاح: أنتم بين يَدَيَّ على الكراسى، ودماء أسلافى تقطر من أسيافكم، فأمر بهم، فشدخوا بعمد الحديد، وبسط فوقهم الأنطاع، فأكل عليها الطعام، وأنينهم يسمع، وإن الطعام فى صحون المائدة ليختلج لاختلاجهم، وقال: والله ما أكلت طعامًا ألذَّ من طعامى هذا، يوم بيوم الحسين، ولا سواء. وكان كبير منهم جالسًا إلى جانب السفاح، فقال له السفاح: كأن هذا لم تطبْ به نفسك ؟ فقال: نعم، والله، قال: أفتحب اللحاق بهم ؟ قال: نعم، وإنى إلى ذلك لمشتاق، فلا خير فى العيش بعدهم، فأمر به، فسحب وشدخ كما شدخوا.

وقيل: إن القائل للشعر الثانى هو سديف صاحب البيتين الأولين، لا شبل بن عبد الله.

ثم تتبعوا بنى أمية بالقتل، فقتل سليمان بن على بن عبد الله بن العباس عم السفاح

بالبصرة جماعة منهم، ورموا بأشلائهم فى الطريق، فأكلتها الكلاب، ونبش عبد الله ابن على عم السفاح أيضًا قبور الخلفاء منهم، فلم يجدوا فى القبور إلا شبه الرماد، وخيطًا فى قبر معاوية، وجمجمة فى قبر عبد الملك، وربما وجدوا فيها بعض الأعضاء، إلا هشام بن عبد الملك، فإنه وجد كما هو لم يبل، فضربه بالسياط، ثم صلبه وحرقه وذراه فى الريح.

قال ابن خلدون: كذا قيل، والله أعلم بصحة ذلك.

واستقصوا فى تتبعهم قتلاً، ولم يفلت إلا الرضعاء، أو مَنْ هرب إلى الأندلس مثل عبد الرحمن الملقَّب بالداخل؛ لأنه أول من دخل إلى بلاد المغرب، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وغيره ممن تبعه من قرابته.

وفى ربيع الأبرار للزمخشرى: انقرضت دولة بنى أمية، وكانوا أربعة عشر نفرًا: معاوية، يزيد بن معاوية، ومعاوية بن يزيد الذى يقال له: معاوية الأصغر - رضى الله عنه - مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية، عبد الملك بن مروان، الوليد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية - رضى الله عنه وأرضاه - يزيد بن عبد الملك بن مروان، هشام بن عبد الملك بن مروان، الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الفاسق ممزِّق المصحف بالسهام، ومقدِّم الجارية تؤم الناس فى صلاة الصبح جنبًا سكرى، يزيد ابن الوليد بن عبد الملك، إبراهيم بن الوليد أخى يزيد المذكور قبله، يليه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم المنبوز بالحِمَارِ.

وفى أكثر التواريخ: ذكروا أن مدة ملكهم ألف شهر؛ لأن الحسن بن على - رضى الله تعالى عنهما - حين تكلموا عليه فى تسليم الأمر إلى معاوية قال: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر: ٣]، وذلك ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فقول الحسن - رضى الله عنه - كان تقريبًا لا تحديدا، ويمكن أن يكون تحديدًا على بعض الحساب؛ نظرًا إلى تمكنهم وانهزامهم، وقتلهم من تداخل السنين والشهور، وهى يسيرة.

فأما على ظاهر الحساب: أن معاوية بن أبى سفيان بويع بعد وفاة على بن أبى طالب فى ثانى عشر ذى الحجة فى سنة أربعين من الهجرة، وبويع عبد الله السفاح

العباسى فى ثالث عشر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فإن أخرجنا من هذه المدة مدة ابن الزبير تكون مدة ملكهم إلى أن مات مروان ثلاثًا وثمانين سنة وشهرين وثلاثة وعشرين يومًا؛ لأن مدة ابن الزبير تسع سنين وأشهر بويع سنة أربع وستين، وقيل: ثلاث وسبعين سنة.

وإن حسبتها من اليوم الذى صالح فيه الحسن معاوية، تكون بعد إخراج مدة ابن الزبير ثلاثًا وثمانين سنة وشهرًا واحدًا، وستة وعشرين يومًا، والله أعلم.

وفى سراج الملوك: سئل بعض العلماء ما الذى أذهب ملك بنى أمية ؟ فقال: تحاسد الأكفاء، وانقطاع الأخبار، وذلك أن يزيد بن عمر بن هبيرة وزير مروان كان يحبُّ أن يضَعَ نصر بن سيار أمير خراسان لمروان، فكان لا يمده بالرجال، ولا يرفع إلى مروان ما يرد من الأخبار.

وسئل بعض بنى أمية عن سبب زوال ملكهم ؟ فقال: استعمال الصغار من الرجال، على الكبير من الأعمال، وتقديم الأرذال والأنذال، على أهل الدين والكمال، وذوى النجدة من الرجال، فآل أمرنا إلى ما آل.

وقال بعضهم - وقد سئل عن مثل ذلك - فقال: نوم الغدوات، وشرب العشيات، والاجتراء بإعلان الفجور وترك النهْيِ عن المنكرات. ولا شيء أضيع للملك وأهلك للرعية من شدة الحجاب، وعدم القبول لقول العقلاء؛ لأنهم قالوا: من تم سروره قصرت شهوره، والحزم أسد الآراء، والغفلة أضر الأعداء، ومن قعد عن حيلة تدبير الملك أقامته شدائد الفتن، ومن نام عن عدوه نبهته المكائد والمحن، ومن أعجبته آراؤه غلبته أعداؤه، ومن استضعف عدوه اغتر، ومن اغتر ظفر به عدوه، ومن طالت عداوته زالت سلطته، ومن كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلكه وفناؤه، ورأس الحكمة التودد إلى الناس.

قلت: صدق فيما به نطق، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتحول سلطانه ! !.

ورأيت فى تاريخ العلامة محمود بن على بن أحمد البهوتى المسمى بتاريخ الخلائف ما نصه: قد كان لبنى أمية ألقاب تلقبوا بها، فمعاوية بن أبى سفيان يلقب بالتَّامِّ لدين الله، ويزيد يلقب بالمنتصر على أهل الزيغ، ومعاوية بن يزيد يلقب بالراجع إلى الله، ومروان بن الحكم يلقب بالمؤتمن بالله، وعبد الملك بن مروان

بالموفَّق لأمر الله، والوليد بن عبد الملك بالمنتقِم لله، وسليمان بن عبد الملك بالداعِي إلى الله، وعمر بن عبد العزيز بالمعصوم باللّهِ، ويزيد بن عبد الملك بالقادر بصُنْع الله، وهشام بن عبد الملك بالمنصور بالله، والوليد بن يزيد بالمكتفى بالله، ويزيد بن الوليد بالشاكر لأنعم الله، وإبراهيم بن الوليد بالمعتز بالله، ومروان بن محمد بالقائم بحق الله، وعبد الله بن الزبير بالعائذ ببيت الله، فسبحان مغيِّر الدول ومفنى الأمم، لا رب غيره سبحانه ! ! فليس العباسية أبا عذرتها، فليعلم ذلك !

* * *

الباب الثاني
فى الدولة العباسية (١)

اعلم أن أمر الإسلام لم يزل جميعًا ودولته واحدة أيام الخلفاء الأربعة وبنى أمية من بعدهم؛ لاجتماع عصبية العرب.

---

(١) جاء التحول فى الدعوة العباسية من العمل سرا إلى العمل علنًا فى عهد آخر الخلفاء الأمويين وهو مروان بن محمد . وقد استطاع زعيم تلك الدعوة فى خراسان وهو أبو مسلم الخراسانى أن يجتذب إليه الموالى هناك، وأن يوسع الفرقة بين سكان خراسان من العرب . ولم يلبث أن استولى على مرو عاصمة خراسان . وقد أسرع الوالى الأموى على خراسان وهو نصر بن سيار إلى إرسال استغاثة إلى مروان الثانى، يشرح فيها خطورة ما يجرى فى ولايته ويطلب الإمدادات . وجاءت هذه الاستغاثة فى شعر بليغ، ما زال مضرب الأمثال إلى اليوم، وفيها يقول الوالى الأموى إلى السلطات الأموية فى دمشق:

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وأن الحرب مبدؤها كلام
فقلت من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام

وكان الأمويون طوال هذه المدة لا يعلمون بمن يدعو إليه العباسيون، حتى وقع فى يد الخليفة مروان بن محمد كتابٌ من الإمام إبراهيم العباسى يحمل بعض التعليمات الخاصة بالدعوة وتنظيمها . فأرسل مروان إلى السلطات بدمشق للقبض على الإمام إبراهيم بالحميمة، وإلقائه فى السجن . ولما علم الإمام إبراهيم بما سيؤول إليه مصيره أوصى إلى أخيه أبى العباس بالإمامة، وأمره أن يرحل مع أهله من الحميمة إلى الكوفة . ونزل أبو العباس على داعى العباسيين بالكوفة، وهو أبو سلمة الخلال . وبقى مختفيًا عن رقابة السلطات الأموية .

وحاول أبو سلمة الخلال، الذى اشتهر باسم «وزير آل محمد» أن ينتهز اختفاء أبى العباس، ويعمل على تحويل الخلافة إلى أحد العلويين، ولكن أبا العباس بادر بإبلاغ أبى مسلم الخراسانى فى خراسان بهذه المؤامرة التى يبيتها أبو سلمة الخلال . وكان أبو مسلم قد استطاع السيطرة على مرو عاصمة خراسان وصار القائد الأعلى للجيوش العباسية هناك، وأرسل أبو مسلم إلى الكوفة نفرًا من قادة العباسيين، وقابلوا أبا العباس وبايعوه بالخلافة . واضطر أبو سلمة الخلال إلى أن يبايع هو أيضًا بخلافة أبى العباس .

وخطب أبو العباس خطبة فى مسجد الكوفة، وذلك أثر مبايعته بالخلافة فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م . وجاءت هذه الخطبة بمثابة الإعلان الرسمى عن قيام الدولة العباسية .

وقد وجه أبو العباس السفاح جهوده عقب مبايعته بالخلافة للقضاء على مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين . إذ كان الأمويون يستعدون فى عجل لضرب العباسيين وهم ما زالوا فى طلائع سلطانهم . ولكن شمس الأمويين كانت قد آذنت بالمغيب، وشمس العباسيين =

ثم ظهر من بعد ذلك أمر الشيعة، وهم الدعاة لأهل البيت، فغلبت دعاة بنى العباس على الإمامة، واستقلوا بخلافة الملة، ولحق فل بنى أمية بالأندلس، فقام بأمرهم فيها عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك ومن تبعه من مواليهم ومن العرب، فلم يدخلوا فى دعوة بنى العباس، وانقسمت لذلك دعوة بنى العباس، وانقسمت بذلك دولة الإسلام بدولتين؛ لافتراق عصبية العرب.

ثم ظهر دعاة أهل البيت بالمغرب والعراق من العلوية، ونازعوا خلفاء بنى العباس، واستولوا على القاصية من النواحى؛ كالأدارسة بالمغرب الأقصى، والعبيديين بالقيروان ومصر، والقرامطة بالبحرين، والداعى بطبرستان والديلم، والأطروش فيها ومن بعده، وانقسمت دولة الإسلام بذلك دولاً متفرقة.

ذكر الشيعة ومبادئ دولهم
وكيف انساقت إلى العباسية من بعدهم إلى آخر دولهم

كان مبدأ هذه الدولة، أعنى دولة الشيعة: أن أهل البيت لما توفى رسول الله ﷺ كانوا يرون أنهم أحق بالأمر، وأن الخلافة لهم دون من سواهم من قريش. وفى الصحيح، أن العباس قال لعلى فى وجع رسول الله ﷺ الذى توفى فيه: « اذهَبْ بنا إليه نسأله فى هذا الأمر، فإن كان فينا علمناه، وإن كان فى غيرنا أوصى بنا، فقال على: إن سألناه فمنعناها لا يعطيناها الناس »[1] وفى الصحيحين- أيضًا - عن رسول الله ﷺ قال فى مرضه الذى توفى فيه: « هلموا أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا »، فاختلفوا فى ذلك عنده، وتنازعوا ولم يتم الكتاب، وفى رواية قال:

= فى الصعود . إذ التقت جيوش العباسيين الوافرة العدد بقيادة عم الخليفة نفسه، وهو عبد الله ابن على بجيوش الأمويين بقيادة مروان بن محمد . وذلك عند نهر الزاب الأعلى وهو أحد فروع دجلة بالقرب من الموصل . ودارت رحى معركة حامية الوطيس فى آخر شهر جمادى الآخر سنة ١٣٢هـ/ يناير ٧٥٠م انتهت بهزيمة مروان بن محمد وفراره إلى دمشق . وتابع عبد الله العباسى مطاردة مروان بن محمد، فاستولى على مدن الشام الواحدة بعد الأخرى، وسلمت له دمشق نفسها، إيذانًا بانتهاء عهدها كعاصمة للدولة الإسلامية . وانتهى الأمر بإلقاء القوات العباسية القبض على مروان بن محمد الذى فر إلى مصر، وذلك عند قرية بوصير قرب الفيوم، وقتلته فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م . وتم إرسال رأس مروان بن محمد ومعها شارات الخلافة إلى أبى العباس السفاح، اعترافًا بقيام الدولة العباسية الجديدة . ينظر: تاريخ العالم الإسلامى (١٨١ - ١٨٣) .

(١) أخرجه البخارى (٤٤٤٧) .

« قوموا عنى »، وكان ابن عباس يقول: « إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين ذلك الكتاب، لاختلافهم ولغطهم »[1]، حتى قد ذهب كثير من الشيعة إلى أن النبى ﷺ أوصى فى مرضه ذلك لعلى، ولم يصح ذلك من وجه يعول عليه. وكما نقلوه عن أهل الآثار؛ أن عمر قَالَ يومًا لابن عباس: إن قومكم - يعنى قريشًا - ما أرادوا أن يجمعوا لكم بين النبوة والخلافة، فتتبجحوا عليهم، وأن ابن عباس أنكر ذلك، وطلب من عمر إذنه فى الكلام، فتكلم بما غضب له عمر، وظهر من محاورتهما أنهم كانوا يعلمون أن فى نفوس أهل البيت شيئًا من أمر الخلافة والعدول عنهم بها، مما الله تعالى أعلم بصحته وعدمها.

قصة الشورى

أنَّ جماعة من الصحابة كانوا يتشيَّعون لعلى، ويرون استحقاقه على غيره، فلما عدل بها إلى سواه، أنفوا من ذلك، وأسفوا له؛ مثل الزبير، وسعد، وعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وغيرهم؛ إلا أن القوم لرسوخ قدمهم فى الدين وحرصهم على الألفة بين المسلمين لم يزيدوا فى ذلك على النجوى بالتأفف والأسف.

ثم لما فشا النكير على عثمان، والطعن فى الآفاق، كان عبد الله بن سبأ، ويعرف بابن السوداء، من أشد الناس خوضًا فى التشيع لعلى بما لا يرضاه من الطعن على عثمان وعلى الجماعة فى العدول إليه عن على، وأنه ولى بغير حق، فأخرجه عبد الله بن عامر عامل عثمان على البصرة منها إلى مصر، فاجتمع إليه جماعة من أمثاله جنحوا إلى الغلو فى ذلك وافتجار المذاهب الفاسدة فيه؛ مثل خالد بن ملجم، وسودان بن حمران، وكنانة بن بشر، وغيرهم، ثم كانت بيعة على ووقعة الجمل وصفين وانحراف الخوارج عليه بما أنكروا من التحكيم فى الدين، وتمحضت شيعته للاستماتة معه فى حرب معاوية.

ثم لما قتل على وبويع ابنه الحسن - رضى الله تعالى عنهما - فخرج عن الأمر لمعاوية سخط ذلك شيعة على منه، وأقاموا يتناجون فى السر باستحقاق أهل البيت

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٤ - ٣٢٥، ٣٣٦) والبخارى (٤٤٣٢، ٥٦٦٩، ٧٣٦٦) ومسلم (١٦٣٧/ ٢٢) وابن حبان (٦٥٩٧) من طريق الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس، به.

والميل إليهم، وسخطوا من الحسن ما كان منه من النزول لمعاوية، وكتبوا إلى الحسين بالدعاء له فامتنع، وواعدهم إلى هلاك معاوية، فساروا إلى محمد بن الحنفية، وبايعوه فى السر على طلب الخلافة متى ما أمكنه، وولى على كل بلد رجلًا، وأقاموا على ذلك، ومعاوية يكف بسياسته من غربهم، ويقلع الداء إذا تعين له منهم؛ كما فعل بحجر بن عدى وأصحابه، وقد تقدَّم ذكر قتلهم عند ذكر خلافته، ويروض من شماس أهل البيت، ويسامحهم فى دعوى تقدمهم واستحقاقهم، ولا يهيج أحدًا منهم بالتثريب عليه فى ذلك، إلى أن مات، وولى يزيد، فكان من خروج الحسين وقتله ما هو معروف، وكانت من أشنع الوقائع فى الإسلام عظمت بها الشحْناء، وتوغل الشيعة فى شأنهم وعظم النكير والطعن على من تولى ذلك وأَمَرَ به، أو قعد عنه، ثم تلاوموا على ما أضاعوا من أمر الحسين، وأنهم لم ينصروه، فندموا، ورأوا أن لا كفارة لذلك إلا الاستماتة دون ثأره، وسَمَّوْا أنفسهم التوابين، وخرجوا لذلك يقدمهم سليمان بن صُرَد الخزاعى، وجماعة معه من خيار أصحاب على، كرم الله وجهه.

وكان ابن زياد قد انتقض عليه العراق، فلحق بالشام ونزل منبج قاصدًا العراق، فزحفوا إليه وقاتلوه حتى قتل سليمان وكثير من أصحابه؛ كما ذكرنا ذلك فيما تقدم، وذلك سنة خمس وستين.

ثم خرج المختار بن أبى عبيد، ودعا لمحمد بن الحنفية كما قدمته.

وفشا التعصب لأهل البيت فى الخاصة والعامة بما خرج بهم عن حدود الحق.

واختلفت مذاهب الشيعة فيمن هو أحقُّ بالأمر من أهل البيت. وبايعَتْ كل طائفة لصاحبها سرًّا، ورسخ الملك لبنى أمية، فطوى هؤلاء الشيعة قلوبهم على عقائدهم فيها وتستروا بها، مع تعدُّد فرقهم وكثرة اختلافهم، وسار زيد بن على بن الحسين، وقرأ على واصل بن عطاء إمام المعتزلة فى وقته، وكان واصل يتردد فى إصابة على فى حرب الجمل وصفين، فلقن ذلك عنه، وكان أخوه محمد الباقر يعذله فى الأخذ عمن يرى تخطئة جده، وكان زيد - أيضًا - مع قوله بأفضلية عليٍّ على الصحابة يرى أن بيعة الشيخين صحيحة، وأن إمامة المفضول جائزة؛ خلاف ما عليه الشيعة، ويرى أنهما لم يظلما عليًّا.

ثم دعته الحال إلى الخروج بالكوفة سنة إحدى وعشرين ومائة، واجتمع له عامة الشيعة، ورجع عنه بعضهم، لما سمعوه يثنى على الشيخين، وأنهما لم يظلما عليًا، وقالوا له: لم يظلمك هؤلاء، فرفضوا دعوته، وقالوا: نحن نرفضك إذنْ، فقال: اذهبوا فأنتم الرافضة، فسموا الرافضة من أجل ذلك، ثم قاتل يوسف بن عمر فقتله وبعث برأسه إلى هشام بن عبد الملك، وصلب شلوه بالكناسة، ولحق ابنه يحيى بخراسان فأقام بها، ثم دعته شيعته إلى الخروج، فخرج هناك سنة خمس وعشرين ومائة، فسرح إليه نصر بن سيار العساكر، فقتلوه، وبعث برأسه إلى الوليد، وصلب شلوه بالجوزجان، وانقرض شأن الزيدية هنالك.

وأقام الشيعة على شأنهم وانتظارِ أمرِهم، والدعاة لهم فى النواحى على الإجمال للرضا من أهل البيت، ولا يصرحون بمن يدعون له حذرًا عليه من أهل الدولة، وكانت شيعة محمد بن الحنفية أكثر شيعة أهل البيت، وكانوا يرون أن الأمر بعد محمد بن الحنفية لابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد، وكان - يعنى أبا هاشم عبد الله ابن محمد - كثيرًا ما يفد على سليمان بن عبد الملك، فمر فى بعض أسفاره بمحمد ابن على بن عبد الله بن عباس بمنزله بالحميمة من أعمال البلقاء، فنزل عليه وأدركه المرض عنده فمات، وأوصى له بالأمر، وقد كان أعلم شيعته بالعراق وخراسان أن الأمر صائر إلى ولد محمد بن على هذا، وهو والد إبراهيم والسفاح، فلما مات أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، قصدت الشيعة محمد بن على وبايعوه سرًا، وبعث الدعاة منهم إلى الآفاق على رأس مائة من الهجرة أيام عمر بن عبد العزيز، وأجابه عامة أهل خراسان، وبعث عليهم النقباء.

وتداول أمرهم هنالك، فتوفى محمد سنة أربع وعشرين ومائة، وعهد لابنه إبراهيم، وأوصى الدعاة بذلك، وكانوا يسمونه الإمام، ثم بعث أبا مسلم الخراسانى إلى أهل دعوته بخراسان ليقوم فيهم بأمره، وكتب إليهم بولايته، وذلك فى دولة مروان بن محمد المنبوز بالحمار، فعثر مروان على كتاب من إبراهيم الإمام إلى أبى مسلم الخراسانى، فأمر عامله على دمشق أن يأمر عامل البلقاء بالقبض على إبراهيم الإمام، فقبض عليه، وأوثقه شدًا، وأرسل به إلى مروان بن محمد، فحبسه بحران ثم قتله؛ كما قدمنا ذكر ذلك قريبًا، وملك أبو مسلم خراسان، وزحف إلى العراق،

فملكها وغلبوا بنى أمية على أمرهم، وانقرضت دولتهم، فقامت دولة بنى العباس، وهذه الدولة من دول الشيعة؛ كما ذكرناه، وفرقتها منهم يعرفون بالكيسانية، وهم القائلون بإمامة محمد بن الحنفية بعد على بن أبى طالب، ثم بعده ابنه أبو هاشم عبد الله بن محمد، ثم بعده محمد بن على بن عبد الله بن عباس بوصيته؛ كما ذكرناه، إلى ابنه إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، ثم من بعده إلى أخيه أبى العباس عبد الله السفاح، وهو عبد الله بن الحارثية، هكذا مساقها عند هؤلاء الكيسانية.

قلت: قال المسعودى(١): هذه نسبة إلى كيسان، وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى؛ فإن اسمه كيسان، وإنما نسبوا إليه؛ لأنه أول من دعا لمحمد بن الحنفية.

قال ابن خلدون: ويسمون أيضًا: الخرمانية؛ نسبة إلى أبى مسلم الخراسانى؛ لأنه كان يلقب خرمان.

ولبنى العباس - أيضًا - شيعة يسمون الراوندية من أهل خراسان، يزعمون أن أحق الناس بالإمامة بعد النبى ﷺ عمه العباس؛ لأنه وارثه وعاصبه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٧٥]، والناس منعوه من حقه فى ذلك وظلموه، إلى أن رده الله إلى ولده، ويذهبون إلى البراءة من الشيخين وعثمان، ويجيزون بيعة على؛ لأن العباس قال له: « يا بن أخى، هلم أبايعك فلا يختلف عليك اثنان »، ولقول داود بن على على منبرالكوفة يوم بويع السفاح: يا أهل الكوفة، إنه لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله ﷺ إلا على بن أبى طالب، وهذا القائم فيكم، يعنى السفاح.

قال فى الإشاعة لأشراط الساعة فى أماراتها البعيدة: ومنها دولة بنى العباس: عن عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه -: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا أقبلت رايات ولد العباس من عقبات(٢) خراسان، جاءوا بنعى الإسلام، فمن سار تحت لوائهم لم تنله شفاعتى يوم القيامة » رواه أبو نعيم فى الحلية(٣).

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٨٧)

(٢) فى الحلية، والموضوعات: عِقاب، وهما صحيحان. جمع عقبة: عقاب، عقبات. والعقبة: المرقى الصعب من الجبال، والطريق فى أعلى الجبال.

(٣) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ١٩٢) وابن الجوزى فى الموضوعات (٨٥٢) والجوزقانى =

وعن على - رضى الله تعالى عنه - موصولاً: « مالى ولبنى العباس شيعوا أمتى - أى: صيروهم شيعًا وفرقًا - وسفكوا دماءها، ولبسوا ثياب السواد، ألبسهم الله ثياب النار » رواه الطبرانى[١].

والأحاديث الواردة فى ذمهم كثيرة؛ فلا نطول بذكرها.

فمن الفتن الواقعة فى زمانهم: قتال أهل المدينة، وقتل محمد النفس الزكية ابن عبد الله المحض ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط، وقتل أخيه إبراهيم بن عبد الله، وحبس أبيهما عبد الله المحض، حتى مات فى السجن، وقتل جماعة كثيرة من العلويين، وحبس الإمام جعفر الصادق فى زمن المنصور، وموت الإمام موسى الكاظم فى الحبس بالسمِّ فى زمن الرشيد هارون، وإدخال الفلسفة فى الإسلام، ونصرة أهل الاعتزال، وتكليف العلماء على القول بخلق القرآن[٢]، وقتلُ كثير منهم بسبب ذلك فى زمن المأمون، وضربُ الإمام أحمد بن حنبل فى زمنه، وزمنِ أخيه المعتصم وابنه الواثق، ولم تتفق فى زمانهم الكلمة، ولم تصف لهم الخلافة، وأكثرهم أدعياء، ومنهم ظلمة فسقة، وأحسن من فيهم المتوكل؛ لأنه أول من رجع

= فى الأباطيل (١/ ٢٧٥) من حديث عمر . وقال الجوزقانى: حديث باطل . وقال ابن الجوزى: هذا حديث موضوع بلا شك وواضعه من لا يرى لدولة بنى العباس، وينظر الفوائد المجموعة ص (٤١٠ - ٤١١) .

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير(١٤٢٦) وفيه يزيد بن ربيعة وهو ضعيف، وينظر: المجمع (٥/ ٢٤٧) .

(٢) يطلق القرآن على الكلام النفسى القديم على معنى أنه صفة قديمة قائمة بذاته تعالى، وعلى الكلام اللفظى الذى هو القرآن على معنى أنه خلقه، وليس لأحد فى أصل تركيبه كسبٌ.
وعلى هذا المعنى يحمل قول السيدة عائشة: «ما بين دفتى المصحف كلام الله» وإطلاقه عليهما قيل بالاشتراك اللفظى حقيقى فى النفسى، مجاز فى اللفظى، وعلى كل فمن أنكر أن ما بين دفتى المصحف كلام الله فقد كفر، إلا أن يريد أنه ليس هو الصفة القائمة بذاته. ومع كون اللفظ الذى نقرؤه حادثًا لا يجوز أن يقال: القرآن حادث إلا فى مقام التعليم، لأنه يطلق على الصفة القائمة بذاته أيضًا، لكن مجازًا على الأرجح، فربما يتوهم من إطلاق أن القرآن حادث حدوث الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى . ولذلك ضُرِب الإمام أحمد بن حنبل وحبس على أن يقول بخلق القرآن، فلم يقبل، وضرب بالسياط حتى غُشى عليه.
وامتنع باقى الأئمة من القول بخلق القرآن، وقد وقع فى ذلك امتحان كبير لخلق كثير من أهل السنة، فخرج البخارى فارًا وقال: اللهمّ اقبضنى إليك غير مفتون، فمات بعد أربعة أيام.
وسجن عيسى بن دينار عشرين سنة. وسئل الشعبى فقال: أما التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، فهذه الأربعة حادثة، وأشار إلى أصابعه فكانت سبب نجاته . واشتهرت أيضًا =

عن الاعتزال، ونصر السنة؛ لكنه كان فى التعصب على جانب عظيم بحيث إنه هَدَمَ

= عن الإمام الشافعى (رضى الله عنه)، ويؤيد هذا قول العلامة اللقانى فى جوهرته:

ونـزه الـقـرآن أى كـلامـه عن الحدوث واحذر انتقامه

فـكـل نـصّ لـلـحـدوث دلا احمل على اللفظ الذى قد دلا

فقوله رضى الله عنه: واحذر انتقامه «أى: وخف وعيد الله وانتقامه منك إن قلت بحدوثه» يؤيِّد هذا ما جاء عن رسول الله ﷺ وهو ما رواه الإمام أبو عبد الله بن بطة العكبرى فى كتابه «الإبانة»، حدثنا أبو بكر محمد بن جعفر بن أيوب الصابونى الحرّانى، حدثنا محمد ابن الحارث الخولانى الوردى، ومحمد بن موسى النسائى، قال: حدثنا أبو جعفر أحمد بن إبراهيم، أخبرنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعى عن حسّان بن عطية عن أبى الدرداء أنه سأل رسول الله ﷺ عن القرآن فقال: «كلام الله غير مخلوق» وشبهة الخصوم فى ذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿وخلق كل شيء﴾، والقرآن شيء، فيكون خالقًا له. وكذا قوله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء:٢] المراد من الذكر هو القرآن. وكذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف:٣] والجعل والخلق واحد. ومن حيث المعقول قالوا: إن الكلام فى الشاهد من جنس الحروف والأصوات، فيكون فى الغائب كذلك. ويستحيل قيام الحروف والأصوات بذات القديم فى الأزل، فيكون الكلام حادثًا غير قائم بذاته.

ولأن فى القرآن خطابات بالأمر والنهى لأشخاص معينين نحو قوله لموسى: ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ [طه:١٢]، وقوله لموسى وهارون: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ٱذْهَبَآ ﴾ [طه:٤٢، ٤٣]، وقوله ليحيى: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم:١٢]، وكذلك الأوامر والنواهى لغيرهم، وكانوا معدومين فى الأزل، فلو كان أزليًا لكان هذا أمرًا ونهيًا للمعدوم، وإنه سفه. وأيضًا فيه إخبار عن أمور كانت ماضية نحو قوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ [نوح:١]، ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ [القصص:٧]، ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ [المؤمنون:٥٠] وغير ذلك من الآيات، فلو كان أزليًا لكان الإخبار عنها قبل وجودها كذبًا، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

والجواب عن هذه الشبه: أن هذا محمول على اللفظ أى على القرآن بمعنى اللفظ المنزل على نبينا ﷺ المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه. ولذلك قال العلامة اللقانى كما سبق:

فـكـل نـصّ لـلـحـدوث دلاَ احمل على اللفظ الذى قد دلا

أى احمل على اللفظ الذى دل على الصفة القديمة دلالة الأثر على منشئه. وخلاصة القول فى هذا المقام: أن كل ظاهر من الكتاب والسنة دل على اللفظ المقروء لا على الكلام النفسى. لكن يمتنع أن يقال القرآن مخلوق إلا فى مقام التعليم. والقرآن يطلق على كل من اللفظى والنفسى وإن كان الأكثر إطلاقه على اللفظى. وعلى كل فالقول بالحدوث ربما يوهم الصفة القديمة وهو محال، لذلك امتنع القول بحدوث القرآن سدًا للذرائع. وهذه المسألة قد انقرضت منذ زمن طويل، والحمد لله ولكن أوردناها هنا؛ لإيضاح ما قد يغمض على كثير من القراء الكرام من المراد بمسألة «خلق القرآن». ينظر: تحقيق صفة الكلام لشيخنا/ حافظ محمد مهدى.

قبر الحسين بن على - رضى الله تعالى عنه - وجعله مزرعة، ومنع الناس من زيارته، وقد قال بعض الشعراء فى ذلك: [من الكامل]

تاللَّهِ إنْ كانَتْ أميةُ قد أَتَتْ ... قَتْلَ ابْنِ بِنْتِ نَبيهَا مَظْلُومَا
فَلَقَدْ أتاه بَنُو أَبِيهِ بمثْلِهِ ... هذا لَعَمْرُكَ قَبْرُهُ مَهْدُومَا
أَسِفُوا على ألاَّ يَكُونُوا شَارَكُوا ... فِى قَتْلِهِ فَتَتَبَّعُوهُ رَمِيمَا

وقال آخر: [من الكامل]

تاللَّهِ ما فَعَلَتْ عُلُوجُ أميَّةٍ ... مِعْشَارَ ما فَعَلَتْ بَنُو العَبَّاسِ

نعم، كان المهتدى منهم زاهدًا ناسكًا يتأسى بعمر بن عبد العزيز فى هديه، لكنه قتل بعد سنة، ولم تطل أيامه.

خلافة أبى العباس عبد الله بن محمد السفاح(١)

قد قدمت كيف كان أصل هذه الدعوة وظهورها بـ« خراسان » على يد أبى مسلم عبد الرحمن الخراسانى، ثم استيلاء شيعتهم على خراسان والعراق، ثم قتل مروان ابن محمد بـ« بوصير ».

بويع للسفاح هذا بالخلافة يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الأول، سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وفى المسامرة بويع فى الكوفة يوم الخميس، ومن غد يوم الجمعة لعشرين خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة بويع بيعة العامة.

وهو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى، السفاح المشهور بابن الحارثية كان أصغر من أخيه المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد، كان كريمًا جوادًا.

وفي كتاب قلادة النحر لأبي مخرمة: ما حصل في زمانه بينه وبين الطالبيين من الأشراف شيء، ولا قام عليه أحد منهم، بل قربهم وأحسن إليهم، وكانت المحبة صافية بينهم، وقام بأمر الدولة العباسية أبو مسلم الخراساني، وتأطدت له الأعمال

(١) ينظر ترجمته فى: شذرات الذهب ١/ ١٨٣ و١٩٥، فوات الوفيات ٢/ ٢١٥ - ٢١٦، البداية والنهاية ١٠/ ٥٢ و٥٨، تاريخ الطبرى ٧/ ٤٢١، تاريخ خليفة ٤٠٩، تاريخ بغداد ١٠/ ٥٣، تاريخ الكامل لابن الأثير ٥/٤٠٨، سير أعلام النبلاء ٦/ ٧٧، مروج الذهب ٣/ ٢٦٦، المعارف ٣٧٧، أنساب الأشراف ٣/ ١٨٣، تاريخ الموصل ١٦١، تاريخ بغداد ١٠/ ٥٣، الوافى بالوفيات ١٧/ ٤٣٣، تاريخ الخلفاء ٢٠٦، الذهب المسبوك للمقريزى ٣٦ .

من الشرق إلى الغرب، وحصل عنده برد النبي ﷺ، وأما القضيب والمخصرة، فإن مروان بن محمد لما تيقن بالقتل دفنهما حسدًا، فدل عليهما غلام، فأخرجهما عامر ابن إسماعيل المذحجي الداخل على مروان الكنيسة، وأرسل بهما إلى السفاح، واسم أمه ريطة بنت عبيد الله، من ذرية حارث بن مالك بن ربيعة؛ ولذلك يقال للسفاح ابن الحارثية، وكان بنو أمية يمنعون بني هاشم من نكاح الحارثيات؛ لأنهم كانوا يرون أن زوال ملكهم على يد ابن حارثية، فلما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، أتاه محمد بن علي والد السفاح فقال: أريد أتزوج ابنة خالي من بني الحارث، فتأذن لي ؟ فقال له عمر: تزوج من شئت، فتزوج ريطة المذكورة، فأولدها السفاح، فانتقلت الخلافة إليه، يفعل الله ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لقضائه، ولا مانع لحكمه.

ولما استقر السفاح في الخلافة، خرج عليه بعض أشياع بني أمية وقوادهم، وكان أول من نقض عليه حبيب بن مرة المري من قواد مروان، كان بحوران والبلقاء، خاف على نفسه وقومه، فخلع وبيض، ومعناه لبس البياض، ونصب الرايات البيض؛ مخالفة لشعار العباسية في ذلك، وتابعه قيس ومن يليهم، والسفاح يومئذ بالحيرة، فزحف إليه عبد الله بن على عم السفاح، وبينما هو في محاربته، بلغه الخبر بأن أبا الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي نقض بقنسرين، وكان من قواد مروان، فلما انهزم مروان، وقدم على عبد الله بن على، بايعه ودخل في دعوة العباسيين، وكان ولد مسلمة بن عبد الملك مجاورين له ببالس، فبعث بهم وبنسائهم القائد الذي جاءه من قبل عبد الله بن علي، وشكوا ذلك إلى أبي الورد، فقتل القائد، وخلع معه أهل قنسرين، وكاتبوا أهل حمص في الخلاف، وقدموا عليهم أبا محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية، وقالوا: هو السفياني الذي يذكر، ولما بلغ ذلك عبد الله بن علي، وادع حبيب بن مرة، وسار إلى أبي الورد بقنسرين، ومر بدمشق فخلف بها أبا غانم عبد الحميد بن ربعي الطائي في أربعة آلاف فارس مع حرمه وأثقاله، وسار إلى حمص فبلغه أن أهل دمشق خلعوا وبيضوا، وأقاموا فيهم عثمان بن عبد الأعلى الأزدي، وأنهم هزموا أبا غانم وعسكره، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وانتهبوا ما خلفه عبد الله بن علي عندهم، فأعرض عن ذلك وسار

للقاء السفياني وأبي الورد، وقدم أخاه عبد الصمد في عشرة آلاف، فانكشف ورجع إلى أخيه عبد الله بن علي منهزمًا، فزحف عبد الله في جماعة القواد، ولقيهم بمرج الأخرم، وهم في أربعين ألفًا فانهزموا. وثبت أبو الورد في خمسمائة من قومه فقتلوا جميعًا، وهرب أبو محمد إلى تدمر وراجع أهل قنسرين طاعة العباسية، ورجع عبد الله بن على إلى قتال أهل دمشق ومن معهم، فهرب عثمان بن عبد الأعلى، ودخل أهل دمشق في الدعوة، وبايعوا لعبد الله بن علي، ولم يزل أبو محمد السفياني بأرض الحجاز متغيبًا إلى أيام المنصور، فقتله زياد بن عبد الحارثي عامل الحجاز يومئذ للمنصور، وبعث رأسه إلى المنصور مع ابنين له أسيرين، فأطلقهما المنصور.

ثم خلع أهل الجزيرة وبيضوا، وكان السفاح بعث إليها ثلاثة آلاف من جنده مع موسى بن كعب من قواده، وأزالهم بحران، وكان إسحاق بن مسلم العقيلي عامل مروان على أرمينية، فلما بلغته هزيمة مروان، سار عنها، واجتمع إليه أهل الجزيرة، وحاصروا موسى بن كعب بحران شهرين، فبعث السفاح أخاه أبا جعفر إليهم، وكان محاصرًا لابن هبيرة بواسط، فسار لقتال إسحاق بن مسلم، وهو بقرقيسيا والرقة، وقد خلعوا وبيضوا، وسار نحو حران، فأجفل إسحاق بن مسلم عنها ودخل الرُّهَا، وبعث أخاه بكار بن مسلم إلى قبائل ربيعة بنواحي ماردين، ورئيسهم يومئذ بريكة من الحرورية، فصمد إليهم أبو جعفر المنصور فهزمهم، وقتل بريكة في المعركة، وانصرف بكار إلى أخيه إسحاق، فخلفه إسحاق بالرها، وسار إلى سميساط، وجاء عبد الله بن علي فحاصره، ثم جاء أبو جعفر المنصور، فحاصروه سبعة أشهر، وهو يقول: لا أخلع البيعة من عنقي حتى أتيقن مَوْتَ صاحبها - يعني مروان بن محمد - فلما تيقن موته، طلب الأمان، فاستأذنوا السفاح، فأمرهم بتأمينه، وخرج إسحاق بن مسلم إلى أبي جعفر؛ فكان من آثر أصحابه وخواصه.

قلت: لله أبو إسحاق بن مسلم هذا ما أوقفه عند عقده، وأوفاه بميثاقه وعهده.

واستقام أهل الجزيرة والشام، وولّى السفاح أخاه أبا جعفر على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان؛ فلم يزل عليها حتى جاءته الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح، ولقد صدق من قال : [من الكامل]

لاَ يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرفيعُ مِنَ الأذَىٰ حَتَّىٰ يُرَاقَ عَلَىٰ جَوَانِبِهِ الدَّمُ

ذكر ابن الأثير(١)؛ أن أبا جعفر المنصور لما أمره أخوه السفاح بحصار ابن هبيرة أحد الناقضين عليه، حاصره بـ« واسط » ، وكان ابن هبيرة خندق على نفسه ، فقال أبو جعفر : إن ابن هبيرة يخندق على نفسه كالنساء، فبلغ ذلك ابن هبيرة، فأرسل إلى أبى جعفر يقول : أنت الذى تقول كذا وكذا، فابرز إليَّ لترى(٢) ، فأرسل إليه المنصور: لم أجد لى ولك مثلاً فى ذلك إلا كالأسدِ لقى خنزيرًا، فقال له الخنزير: بارزنى(٣)، فقال له الأسد: ما أنت لى بكفء، فإن [بارزتك و](٤) نالنى منك سوء كان عارًا عليَّ، وإن قتلتك قتلت خنزيرًا، فلم أحصل على حمد، ولا فى قتلى إياك فخر، فقال له الخنزير: إن لم [تبارزنى] لأُعرفنَّ السباع أنك جبنت عني، فقال له الأسد: احتمال عار كذبك أيسر من تلطخ براثنى بدمك.

قال الحافظ الذهبى فى دول الإسلام(٥): لما صلى السفاح بالناس أول جمعة، خطب، فقال فى خطبته: الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه، فكرمه وشرفه وعظمه، واختاره لنا وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه. ثم ذكر قرابتهم فى آيات القرآن إلى أن قال: فلما قبض الله نبيه، قام بالأمر أصحابه إلى أن وثب بنو حرب ومروان، فجاروا واستأثروا، فأملى الله لهم حينًا حتى آسفوه(٦)، فانتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حَقَّنا ليمنَّ بنا على الذين استضعفوا فى الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله، يا أهل الكوفة، أنتم محل محبتنا، ومنزل(٧) مودتنا، لم تفتروا عن ذلك، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور، فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، ولقد زدت فى عطياتكم مائة مائة،

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير ٤٣٨/٥ - ٤٣٩، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣١٨/٦ .
(٢) فى ط: فذين. والمثبت من وفيات الأعيان .
(٣) فى ط: بادرنى. والمثبت من الوفيات .
(٤) المثبت من وفيات الأعيان .
(٥) ينظر: سير أعلام النبلاء ٧٨/٦، الطبرى ٧/ ٤٢١، ابن الأثير ٥/ ٤١١ و٤١٥ .
(٦) فى ط: أمنوه. والمثبت من تاريخ الإسلام.
(٧) فى تاريخ الإسلام: وقبول .

فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[١].

وفى سنة ست وثلاثين ومائة: استأذن أبو مسلم الخراسانى السفاح فى القدوم عليه للحجِّ، وكان منذ ولى خراسان لم يفارقها، فأذن له فى القدوم بخمسمائة من الجند، فكتب إليه أبو مسلم: إنى قد وترت الناس ولا آمن على نفسى، فأذن له فى ألف، وقال: إن طريق مكة لا يحتمل العسكر، فسار فى ثمانية آلاف فرقهم ما بين نيسابور والرى، وخلف مواليه وخزائنهُ بالرى، وقدم فى ألف، وخرج القواد بأمر السفاح لتلقيه، ودخل على السفاح، فأكرمه وأعظمه، واستأذن فى الحج، فأذن له، وقال: لولا أن أبا جعفر يريد الحجَّ، لاستعملتك[٢] على الموسم، وأنزله بقربه، وكان قد كتب إلى أبى جعفر: إن أبا مسلم استأذننى فى الحج، فأذنتُ له وهو يريد ولاية الموسم، فاسألنى أنت فى الحج، فلا يطمع أن يتقدمك، فقدم أبو جعفر إلى الأنبار. وكان بين أبى جعفر وأبى مسلم - من حين بعث السفاح أبا جعفر إلى خراسان ليأخذ عليه البيعة له ولأبى جعفر من بعده وتولى أبو مسلم على خراسان - شيء، فاستخف أبو مسلم إذ ذاك بأبى جعفر، فلما قدم أبو جعفر الآن، أغرى السفاح بقتل أبى مسلم، فأذن له فى قتله، ثم ندم، فكفه عن ذلك، وسار أبو جعفر إلى الحجِّ، ومعه أبو مسلم[٣].

وفى كتاب الأذكياء لأبى الفرج بن الجوزى حكاية طريفة، عن خالد بن صفوان التميمى؛ أنه دخل على أبى العباس السفاح، وليس عنده أحد فقال: يا أمير المؤمنين، إنى والله ما زلت مذ قلَّدك الله تعالى خلافته، أطلب أن أصير إلى مثل هذه الخلوة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإمساك الباب حتى أفرغ، فعل، فأمر السفاح الحاجب بذلك، فقال ابن صفوان: يا أمير المؤمنين، إنى فكرت فى أمرك، وأجلت فكرى فيك، فلم أر أحدًا له قدرة واتساع فى الاستمتاع بالنساء مثلك، ولا أضيق فيهن عيشًا؛ إنك ملكت نفسك امرأة من نساء العالمين فقصرت نفسك عليها، فإن مرضت مرضت، وإن غابت غبت، وحرمت نفسك التلذذ باستطراف الجوارى،

(١) ينظر تاريخ الطبرى (٧/ ٤٢٥)، وتاريخ الإسلام حوادث سنة اثنتين وثلاثين ومائة، بيعة السفاح.
(٢) عبارة الطبرى: لوليتك.
(٣) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث سنة ست وثلاثين ومائة، وتاريخ الطبرى (٧/ ٤٦٨ - ٤٦٩).

ومعرفة أخلاقهن والتلذذ بما يشتهى منهنَّ؛ فإن منهن الطويلة التى تشتهى لجسمها، والبيضاء التى تحب لروعتها، والسمراء اللعساء، والصفراء الذهبية ، ومولدات المدينة والطائف واليمامة ذوات الألسن العذبة، والجواب الحاضر، وبنات الملوك، وما يشتهى من نضارتهن ولطافتهن، وتخلل خالد لسانه، فأطنب فى صفات ضروب الجوارى وشوقه إليهن، فلما فرغ من كلامه، قال السفاح: ويلك ! ملأت مسامعى ما أشغل خاطرى، ما سلك فيها أحسن من هذا، فأعدْ على كلامك؛ فقد وقع منى موقعًا، فأعاده خالد بأحسن مما ابتدأه، فقال له السفاح: انصرف، فانصرف، وبقى السفاح مفكرًا، فدخلت عليه أم سلمة زوجته، وكان قد حلف ألاَّ يتخذ معها سرية ووفى، فقالت: إنى أنكرت منك يا أمير المؤمنين، فهل حدث شيء، أو أتاك خبر ارتعت له ؟ قال: لا، فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد، فخرجت إلى مواليها وأمرتهم بضرب خالد، قال خالد: فخرجت من الدار مسرورًا بما ألقيت إلى أمير المؤمنين، ولم أشكَّ فى الصلة.

فبينما أنا واقف؛ إذ أقبلوا يسألون عنى فحققت الجائزة، فقلت: لهم: ها أنا، فاستبق أحدهم بخشبة فغمزت برذونى، فلحقنى وضرب عجز البرذون، وركضت فيهم، واستخفيت فى منزلى أيامًا، ووقع فى قلبى أنى أتيت من أم سلمة، فبينا أنا ذات يوم جالس فى المنزل لم أشعر إلا بقوم قد هجموا على، فقالوا: أجب أمير المؤمنين، فسبق فى قلبى أنه الموت، فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون، لم أر دم شيخ أضيع من دمى، وركبت إلى دار أمير المؤمنين، فأصبته جالسًا، ولحظت فى المجلس بيتًا عليه ستور رقاق، وسمعت حسًا من خلف الستر، فأجلسنى ثم قال: ويحك يا خالد، وصفت لى صفة فأعدها على، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن العرب إنما اشتقت اسْمَ الضرتين من الضرر، وأن أحدًا لم يكن عنده من النساء أكثر من واحدة إلا كان فى ضُرٍّ وتنغيص.

فقال السفاح: لم يكن هذا من كلامك أولاً، قلت: بلى يا أمير المؤمنين، وأعلمتك أن الثلاث من النساء يدخلْنَ على الرجل البؤس، ويشيبن الرأس، فقال السفاح: برئتُ من رسول الله ﷺ؛ إن كنت سمعت هذا منك أو مر فى حديثك لى، قلت: بلى يا أمير المؤمنين، وأخبرتك أن الأربع من النساء شَرٌّ مجموع لصاحبه

يشبنه ويهرمنه، قال السفاح: لا والله ما سمعت هذا منك أولاً، قلت: بلى والله، فقال السفاح: أتكذبنى ؟ قلت: فتقتلنى ؟ ! نعم، والله يا أمير المؤمنين، إن أبكار الإماء رجال إلا أنه ليس لهنَّ خصى، قال خالد: فسمعت ضحكًا من خلف الستر، ثم قلت: والله وأخبرتك أن عندك ريحانةَ قريشٍ، وأنت تطمح بعينيك إلى النساء والجوارى، فقيل لى من وراء الستر: صدقتَ والله يا عماه بهذا حدثته، ولكنه غير حديثك، ونطق بما فى خاطره عن لسانك، فقال السفاح: مالك، قاتلك الله ؟ قال خالد: فانسللت وخرجت، فبعثت لى أم سلمة بعشرة آلاف درهم وبرذون وتخت ثياب، وقالت: الزم ما سمعناه منك.

ويروى أنه سهر ذات ليلة، وعنده أناس من مضر، وفيهم خالد بن صفوان بن أهتم التميمى المذكور، وناس من اليمن فيهم إبراهيم بن مخرمة الكندى، فقال أبو العباس: هاتوا فافلعوا ليلتنا بمحادثتكم، فبدأ إبراهيم بن مخرمة فقال: يا أمير المؤمنين، إن أخوالك هم الناس، وهم العرب الأول الذين كانت لهم الدنيا، وكانت لهم اليد العليا، ما زالوا ملوكًا وأربابًا تداولوا الرياسة كابرًا عن كابر، وآخرًا عن أول، يلبس آخرهم سرابيل أولهم، يعرفون الحمد ومآثر الحمد، منهم النعمانان والحمادان والقابوسان، ومنهم غسيل الملائكة، ومَنِ اهتز لموته العرش، ومنهم مكلِّم الذئب، ومن كان يأخذ كل سفينة غصبًا، ويجرى فى كل نائية نهبًا، ومنهم أصحاب التيجان وكماة الفرسان، ليس من نبل، وإن عظم خطره، وعرف أثره، من فرس رائع، أو سيف قاطع، أو مجن واق، أو درع حصينة، أو درة مكنونة، إلا وهم أربابها وأصحابها. إن حل ضيف قروه، وإن سألهم سائل أعطوه، لا يبلغهم مكاثر، ولا يطاولهم مطاول ولا مفاخر. فمن مثلهم يا أمير المؤمنين، البيت يمان، والحجر يمان، والركن يمان، والسيف يمان.

فقال أبو العباس ما أرى مضر تقول بقولك هذا، وما أظن خالدًا يرضى بما ذكرت.

فقال خالد: إن أذن أمير المؤمنين وأمنت الموجدة، تكلمت.

فقال أبو العباس: تكلَّم ولا ترهب أحدًا.

فقال خالد: يا أمير المؤمنين، خاب المتكلِّم وأخطأ المتقحم؛ إذ قال بغير علم،

ونطق بغير صواب، أو يفخر على مضر، ومنهم النبى ﷺ، والخلفاء من أهل بيته، وهل أهل اليمن إلا دابغ جلد، أو قائد قرد، أو حائك برد ؟ ! دل عليهم هدهد، وغرقهم جرذ، وملكتهم أم ولد. والله يا أمير المؤمنين، ما لهم ألسنة فصيحة، ولا سنة صحيحة، ولا حجة تدل على كتاب، ولا يعرفون بها صواب، وإنهم لبإحدى الخصلتين، إن جازوا قصدوا ما أكلوا، وإن حادوا عن حكمنا قتلوا.

ثم التفت إلى الكندى، فقال: أتفخر بالفرس الرائع، والسيف القاطع، والترس الواقى والدرع الحصينة، وأشباه ذلك ؟ ! أفلا تفخر بأكرم الأنام وخيرهم محمد ﷺ ؟ ! فالمن من الله - عز وجل - عليكم إذ كنتم من أتباعه وأشياعه، فمنا نبى الله المصطفى، وخليفة الله المرتضى، ولنا السؤدد والعلا، وفينا العلم والحجا، ولنا الشرف المقدم، والركن الأعظم، والبيت المكرم، والجناب الأخضر، والعدد الأكثر، والعز الأكبر، ولنا البيت المعمور، والمشعر المشهور، والسقف المرفوع، وزمزم وبطحاؤها، وجبالها وصحراؤها، وحياضها وغياضها، وأحجارها وأعلامها، ومنابرها وسقايتها، وحجابها وسدنة بيتها، فهل يعدلنا عادل، أو يبلغ فخرنا قائل ؟ ! ومنا أعظم الناس، عبد الله بن عباس، أعلم البشر، الطيبة أخباره، الحسنة آثاره، ومنا الوصى وذو النورين، ومنا الصديق والفاروق، ومنا أسد الله وأسد رسوله سيد الشهداء حمزة، ومنا ذو الجناحين جعفر الطيار، ومنا الكماة والفرسان، ومنا الفقهاء والعلماء، ومنا عرف الدين، ومن عندنا أتاكم اليقين، فمن زاحمنا زحمناه، ومن عادانا اصطلمناه، ومن فاخرنا فخرناه، ومن بدل سنتنا قتلناه.

ثم التفت إلى الكندى فقال: كيف علمك بلغات قومك ؟ قال: إنى بها عالم، فقال: ما الجحمة فى لغتكم ؟ قال: العين، قال: فما المبزم ؟ قال: السن، قال: فما الشناتر ؟ قال: الأصابع، قال: فما الصنبارة ؟ قال: الأذن، قال: فما القلوب ؟ قال: الذئب، قال: فما الزب ؟ قال: اللحية، قال: أفتقرأ كتاب الله تعالى ؟ قال: نعم، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقال جل ذكره: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٤]، فقال عز وجل: ﴿ السن بالسن والعين بالعين ﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل: الجحمة بالجحمة،

وقال: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم ﴾ [البقرة: ١٩]، ولم يقل: شناترهم فى صنابرهم، وقال: ﴿ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ ﴾ [المائدة: ٤٥]، ولم يقل: المبزم بالمبزم، وقال: ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ [يوسف: ١٧]، ولم يقل: أكله القلوب، وقال: ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى ﴾ [طه: ٩٤]، ولم يقل: بزبى، وإنى سائلك يا بن مخرمة عن ثلاث خصال، فإن أقررت بها قهرت، وإن جحدتها كفرت، قال: وما هى ؟ قال: أتعلم أن فينا نبى الله المصطفى ﷺ ؟ قال: اللهم نعم، قال: أفتعلم أن فينا كتاب الله المنزَّل ؟ قال: اللهم نعم، قال: أفتعلم أن فينا خليفة الله المرتضى ؟ قال: اللهم نعم، قال: فأى شيء يعدل هذه الخصال ؟ قال أبو العباس: اكفف عنه، فوالله ما رأيت غلبة قطُّ أنكَرَ منها، والله ما فرغت من كلامك يا أخا مضر، حتى توهمتُ أنه سيعْرَجُ بسريرى إلى السماء. ثم أمر لخالد بمائة ألف درهم.

وفى ابن خلكان: أن السفاح نظر يومًا إلى المرآة، وكان من أجمل الناس وجهًا، فقال: اللهم، إنى لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك، ولكنى أقول: اللهم عمرنى طويلاً فى طاعتك ممتعًا بالعافية. فما استتمَّ كلامه حتى سمع غلامًا يقول لآخر: الأجل بينى وبينك شهران وخمسة أيام، فتطير من كلامه، وقال: حسبى الله، ولا قوة إلا بالله، عليه توكلت، وبه استعنت، فما مضت المدة المذكورة حتى أخذته الحمى، ومرض، فمات بعد شهرين وخمسة أيام بالجدرى بالأنبار مدينته التى بناها، وسماها: الهاشمية، وهو ابن إحدى وثلاثين سنة، وقيل: ثلاث وثلاثين، وكانت وفاته يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة، سنة ست وثلاثين ومائة، ومدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، وولادته سنة خمس ومائة، وكان أبيض مليحًا جميلاً حسن اللحية والهيئة.

* * *

خلافة أبى جعفر المنصور(١)

هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، أخو السفاح عبد الله المتقدم قبله، كان السفاح، ولاَّه الحج سنة ست وثلاثين، ومات السفاح فى ثالث عشر ذى الحجة منها، فأتاه الخبر، وهو عائد من الحج، وأتته الخلافة بمكانٍ يعرف بالصافية، فقال: صفا أمرنا، وكان السفاح قد عهد قبل موته بالخلافة لأخيه أبى جعفر ومن بعده لعيسى ابن أخيهما موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس، وجعل العهد فى ثوب وختمه بخواتيم أهل البيت، ودفعه إلى عيسى، ولما توفى السفاح، وكان أبو جعفر بمكة حاجًا، أخذ له البيعة على الناس عيسى بن موسى، وكتب إليه بالخبر، فجزع واستدعى أبا مسلم، وكان قد حج معه؛ كما تقدَّم ذكره، فأقرأه الكتاب، فبكى أبو مسلم واسترجَعَ، وسكَّن أبا جعفر عن الجزع، وبايع له أبو مسلم والناس، وأقبلا حتى قدما الكوفة، ويقال: إن أبا مسلم كان فى رجوعه من مكة متقدِّمًا على أبى جعفر، وأن الخبر أتاه قبله، فكتب إليه يعزيه ويهنيه بالخلافة، وبعد يوم كتب له ببيعته، فلما قدم أبو جعفر الكوفة، سار منها إلى الأنبار، فسلم إليه عيسى بن موسى بيوت الأموال والدواوين، واستقام أمر أبى جعفر المنصور.

قال ابن خلدون: تولى أبو جعفر المنصور الخلافة فى أول سنة سبع وثلاثين ومائة، وكان أول ما فعل أن قتل أبا مسلم الخراسانى صاحب دعوتهم وممهد دولتهم، وذلك لما كان أبو مسلم يستخفُّ بأبى جعفر من حين بعثه السفاح إلى خراسان؛ ليأخذ البيعة له ولأبى جعفر من بعده؛ كما ذكرت آنفًا، ولأمور أخر حدثت عن أبى مسلم؛ منها: أنه لما حج معه، كان يؤثر نفسه على المنصور، ويتقدم بالإحسان إلى الوفود، وإصلاح الطريق والمياه، وكان الذكر له، ولما صدرا

(١) ينظر ترجمته فى: البداية والنهاية ١٠/ ١٢١ - ١٢٩، العقد الثمين ٥/ ٢٤٨، تاريخ الخلفاء ٢٥٩ - ٢٧١، شذرات الذهب ١/ ١٨٥ و٢١٣ و٢١٦، المعارف ٣٧٧ - ٣٧٨، مروج الذهب ٣/ ٢٩٤، تاريخ الطبرى ٧/ ٤٦٩، الوزراء والكتاب ٩٦ - ١٤٠، تاريخ بغداد ١٠/ ٥٣، الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٦١، العبر للذهبى ١/ ٢٢٨، سير أعلام النبلاء ٧/ ٨٣، دول الإسلام للذهبى ٩٣ - ٩٥، فوات الوفيات ٢/ ٢١٦ - ٢١٧، وفيات الأعيان ٢/ ٢٩٤ - ٢٩٧، تاريخ الإسلام للذهبى الطبقة السادسة عشرة ص ٤٦٥ .

عن الموسم، تقدَّم ولقيه الخبر بوفاة السفاح قبل المنصور، فبعث إلى أبى جعفر يعزيه ولم يهنئه بالخلافة، ولا رجع إليه ولا انتظره، فغضب أبو جعفر وكتب إليه وأغلظ فى العتاب، فكتب إليه يهنئه بالخلافة، وتقدَّم إلى الأنبار قبل أبى جعفر، ودعا عيسى بن موسى أن يبايع له، فأبى عيسى؛ لأن عهده إنما هو بعد موت المنصور، فأراد أبو مسلم رفع الخلافة عن أبى جعفر إلى عيسى، فامتنع عيسى، وقدم أبوجعفر، وقد كان عم المنصور عبد الله بن على الذى كان تولى قتال مروان ابن محمد خلع طاعة المنصور وبايع لنفسه.

وقال: إن السفاح حين أراد أن يبعث الجنود إلى مروان بن محمد، تكاسل عنه بنو أبيه، فقال لهم: من انتدب منكم، فهو ولى عهدى، فلم ينتدب غيرى، وسرت إلى مروان بن محمد، وشهد له أبو حاتم الطائى وخفاف المروروذى وغيرهما من القواد وبايعوه، وكان قد ظفر من أموال بنى أمية بما لا يحصَىٰ من ذخائر وبما لا يستقصى، فسرَّح أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراسانى إلى قتال عمه عبد الله بن على المذكور، فهزمه وجمع الغنائم من عسكره، فبعث أبو جعفر المنصور مولاه أبا الخصيب لجمعها، فغضب أبو مسلم، وقال: أنا أمين على الدعاء، فكيف أخون الأموال ؟ ! وهم بقتل أبى الخصيب، ثم خلى عنه.

وخَشِيَ المنصور أن يمضي أبو مسلم إلى خراسان، فكتب له بولاية الشام، فازداد نفارًا، وخرج من الجزيرة يريد خراسان، وسار أبو جعفر إلى المدائن وكتب إلى أبى مسلم يستقدمه، فأجابه بالامتناع، والتمسك بالطاعة عن بُعْدٍ، والتهديد بالخلع إن طلب سوى ذلك، فبقى أبو جعفر المنصور حائرًا بعد أن هَمَّ بقتله بين الاستبداد برأيه فى أمر أبى مسلم وبين الاستشارة فيه،فقال يومًا لسلم بن قتيبة ما ترى فى أبى مسلم ؟ ! فقال ابن قتيبة: يا أمير المؤمنين، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فقال المنصور: حسبك يابن قتيبة، لقد أودعتها أذنًا واعية.

ثم كتب المنصور إلى أبى مسلم ينكر عليه هذا الشرط، وأنه لا يحسن معه طاعة، وبعث إلى عيسى بن موسى برسالة يؤانسه، وقيل: بل كتب إليه أبو مسلم يعرض له بالخلع، وأنه تاب إلى الله مما جناه من القيام بدعوتهم، وأخذ أبو مسلم طريق حلوان، وأمر المنصور ابن عمه عيسى بن موسى فى مشيخة بنى هاشم بكتاب إلى

أبى مسلم يحرضونَهُ على التمسك بالطاعة، ويحذرونه عاقبة البغى ويأمرونه بالرجوع، وبعث الكتاب مع مولاه حميد المرورروذى، وأمره بملاينته والخشوع له بالقول حتى ييأس منه، فإذا يئس من موافقته يخبره بقسم أمير المؤمنين: لا وكلت أمرك إلى غيرى، ولو خضت البحرِ لخضته وراءك، ولو اقتحمت النار لاقتحمتهاحتى أقتلك أو أموت.

فأوصل حميد الكتب وتلطَّف له فى القول مؤمنًا، واحتجَّ عليه بما كان منه فى التحريض على طاعتهم، فاستشار أبومسلم مالك بن الهيثم، فأبى له من الإصغاء إلى القول، وقال: والله، لئنْ أتيته ليقتلنك، ثم بعث أبو مسلم إلى ميزك صاحب الرى يستشيره، فأبى له من ذلك، وأشار عليه بنزول الرى وخراسان من ورائه؛ ليكون أمكن لسلطانه، فأجاب أبو مسلم حميدًا رسول أبى جعفر بالامتناع، فلما يئس حميد منه، أبلغه مقالة المنصور، فوجم طويلاً ورعب من ذلك القول وأكبره، وكان المنصور قد كتب إلى عامل أبى مسلم بخراسان يرغبه فى الانحراف عنه بولاية خراسان، فأجاب سِرًّا، وكتب إلى أبى مسلم بخراسان يحذِّره الخلاف والمعصية، فزاده على ذلك رعبًا، وقال لحميد قبل انصرافه: قد كنت عزمت على المضى إلى خراسان، ثم رأيت أن أوجه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين يأتينى برأيه؛ فإنى أثق به، فبعث به إلى المنصور، فلما قدم أبو إسحاق، تلقاه بنو هاشم وأهل الدولة بكل ما يحبُّ، وداخله المنصور فى صرف أبى مسلم عن وجهة خراسان ووعده بولايتها، فرجع أبو إسحاق إلى أبى مسلم وأشار عليه بلقاء المنصور، فاعتزم على ذلك، واستخلف مالك بن الهيثم بعسكره بحلوان، وقدم المدائن على المنصور فى ثلاثة آلاف.

وخشى أبو أيوب وزير المنصور أن يحدث منه عند قدومه فتك، فدعا بعض إخوانه، وأشار عليه بأن يأتى أبا مسلم، ويتوسل به إلى المنصور فى ولاية كسكر يصيب فيها مالاً عظيمًا، وأن يشرك أخاه فى ذلك، ويجعل ذلك أبو مسلم فى حوائجه، وأن أمير المؤمنين عازم على أن يوليه ما وراء بابه وينزع نفسه، واستأذن له المنصورَ فى لقاء أبى مسلم، فأذن له، فلقى ذلك البعض أبا مسلم، وتوسل إليه وأخبره الخبر، فطابت نفسه، وذهب عنه الحزن، واستبشر بتولية المنصور إياه ما وراء بابه.

ولما قرب أبو مسلم، أمر الوزير أبو أيوب الناس بتلقيه، ثم دخل على المنصور، فقبَّلَ يده، ثم انصرف ليريح ليلته، ودعا المنصور من الغد حاجبه عثمان بن نهيك، وأربعة من الحرس - منهم شبيب بن واج، وأبو حنيفة حرب بن قيس - وأجلسهم خلف الرواق، وأمرهم بقتل أبى مسلم إذا صفق بيديه، واستدعى أبا مسلم، فلما دخل سأله عن سيفين أصابهما لعمه عبد الله بن على، وكان أبو مسلم متقلدًا أحدهما، فقال أبو مسلم: هذا أحدهما، فقال المنصور: أرنيه، فانتضاه أبو مسلم وناوله إياه، فأخذ يقلِّبه بيده ويهزه، ثم وضعه تحت فراشه، وأقبل يعاتبه فقال: كتبتَ إلى السفاح تنهاه عن الموات كأنك تعلِّمه، فقال أبو مسلم: ظننت أنه لا يحلُّ، ثم اقتديتُ بكتاب السفاحِ، وعلمتُ أنكم معدن العلم، قال: فتقدمك عنى بطريق مكة ؟ ! فقال: كرهت مزاحمتك على الماء، قال: فامتناعُكَ عن الرجوع إليَّ حين بلغك موت السفاح، وامتناعُكَ من الإقامة حتى ألحقك ؟ !

قلت: قد تقدَّم أن أبا مسلم حال عودهما من الحج كان متقدِّمًا على المنصور، فبلغه خبر موت السفاح قبله، ولم يرجع إلى المنصور للتعزية والتهنئة له بالخلافة، ولم يقمْ فى مكانه إلى أن يصل إليه المنصور بل استمرَّ سائرًا حتى دخل الكوفة قبله؛ فلذلك يؤنبه بذلك.

فقال أبو مسلم: طلبت الرفق بالناس والمبادرة إلى الكوفة، قال: فجارية عمى عبد الله أردتَّ أن تتخذها لنفسك ؟ ! قال: لا، وإنما وكلْتُ بها من يحفظها، قال: فمراغمتك وسيرك إلى خراسان ؟ ! قال: خفت منك، فقلت: آتى خراسان، وأكتُبُ بعذرى، فأذهب ما فى نفسك منى، قال: فالمال الذى جمعته بحران ؟ ! قال: أنفقته على الجند تقويةً لكم، قال: ألست الكاتب إليَّ تبدأُ بنفسك وتخطب آمنة بنت على بن عبد الله بن عباس، وتزعم أنك من ذرية سليط بن عبد الله بن عباس ؟ ! لقد ارتقيت لا أُمَّ لك مرتقًى صعبًا، ثم قال له: وما الذى دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره فى دعوتنا، وهو أحد نقبائنا من قبل أن ندخلك فى هذا الأمر ؟ ! قال: أراد الخلافة فقتلته، ثم قال أبو مسلم: كيف يقال لى هذا بعد بلائى وما كان منِّى ؟ ! قال: يا ابن الخبيثة، لو كانت أَمَةٌ مكانك، لَأَغْنَتْ؛ إنما ذاك بدولتنا ورِيحِنا؛ فأَكَبَّ أبو مسلم يقبل يدى المنصور ويعتذر، فازداد المنصور

غضبًا، فقال أبو مسلم: دع هذا، فقد أصبحت لا أخاف إلا الله وحده، فشتمه المنصور، وصفَّق بيده، فخرج الحرس، وضربه عثمان بن نهيكٍ، فقطع علابيه، فقال أبو مسلم: يا أمير المؤمنين استبقنى لعدوك، فقال: لا أبقانى الله إذن، وأى عدو أعدى منك ؟ ! وأخذه الحرس بسيوفهم حتى قتلوه، وذلك لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة.

وخرج الوزير أبو الجهم، فصرف الناس والجند، وقال: الأمير قائل عند أمير المؤمنين، فانصرفوا، وأمر لهم بالجوائز، وأعطَىٰ أبا إسحاق مائة ألف.

ودخل عيسى بن موسى على المنصور بعد قتله، فسأله عنه، وأخذ فى الثناء على طاعته وبلائه وذكر رأى الإمام إبراهيم فيه، فقال المنصور: والله، لا أعلم على وجه الأرض عدوًّا أعدى لكم منه، هو ذا فى البساط، فاسترجع عيسى، فأنكر عليه المنصور، وقال: وهل كان لكم ملك معه ؟ ! ثم دخل على المنصور جعفر بن حنظلة، فاستشاره فى قتل أبى مسلم، فأشار بقتله، فقال له المنصور: وفقك الله، ثم نظر إليه قتيلاً، فقال: عُدَّ خلافتك من هذا اليوم، ثم دعا أبا إسحاق، وعذله على متابعة أبى مسلم، وقال: تكلم بما أردت وأخرجه قتيلاً، فسجد أبو إسحاق، ثم رفع رأسه يقول: الحمد لله الذى آمننى بك، والله ما جئته قَطُّ إلا وتكفنْتُ وتحنطْتُ، ورفع ثيابه وأراه كفنه وحنوطه، فرحمه المنصور، وقال: استقبل طاعتك، واحمد الله الذى أراحك.

وكتب المنصور بعد قتل أبى مسلم إلى نصر بن الهيثم - الذى استخلفه أبو مسلم على خراسان، حال سيره إلى المنصور - كتابًا على لسان أبى مسلم يأمره بحمل أثقاله، وقد كان أبو مسلم أوصاه: إن جاءك كتابى بخاتمى تامًّا، فاعلم أنى لم أكتبه، فلما رآه نصر بن الهيثم كذلك، فطنَ وانحدر إلى همذان يريد خراسان، فكتب له المنصور بولاية شهرزور، وكتب إلى زهير بن التركى بهمذان بحبس نصر، فمر نصر بهمذان، وخادعه زهير، ودعاه إلى طعامه وحبسه، وجاء كتاب العهد بشهرزور لنصر، فأطلقه زهير، ثم جاءه بعد ذلك كتاب، فقال: جاءنى كتاب عهده، فخليت سبيله، ثم قدم نصر على المنصور، فعذله فى استشارته على أبى مسلم بالامتناع من السير إليه، فقال نصر: نعم، يا أمير المؤمنين، اصطنعنى فنصحتُ له، وإن

اصطنعنى أمير المؤمنين، نصحت وشكرت، فاستعمله المنصور على الموصل، ثم أقبل المنصور على من حضر، وأبو مسلم طريح بين يديه، وأنشده: [من السريع]

زَعَمْتَ أَنَّ الدَّيْنَ لاَ يُقْتَضَىٰ فَاسْتَوْفِ بالكَيْلِ أبا مُجْرِمِ
إشْرَبْ بِكَأْسٍ كُنْتَ تسقى بِهَا أَمَرَّ فِى الحَلْقِ مِنَ العَلْقَمِ

وكان يقال له: أبو مُجْرِم، وفيه يقول أبو دلامة: [من الطويل]

أَبَا مُجْرِمٍ ما غَيَّرَ الله نعمَةً على عَبْدِهِ حتى يغيِّرَهَا العَبْدُ
أَفِى دَوْلَةِ المَنْصُورِ حاوَلْتَ غدرةً ألا إن أَهْلَ الغَدْرِ آباؤُكَ الكُرْدُ؟!
أبا مجرمٍ خَوَّفْتَنِى القَتْلَ فانْتَحَىٰ عليكَ بما خوفْتَنِى الأَسَدُ الوَرْدُ

ولما قتله المنصور، خطب الناس، فذكر أن أبا مسلم أحسن أولاً وأساء آخرًا، ثم قال فى آخر خطبته: وما أحسن قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر: [من البسيط]

فَمَنْ أَطَاعَكَ فَانْفَعْهُ بِطَاعَتِهِ كَمَا أَطَاعَكَ وَادْلُلْهُ عَلى الرَّشَدِ
وَمَنْ عَصَاكَ فعاقِبْهُ معاقبَةً تَنْهَى الظَّلُومَ ولا تَقْعُدْ على ضَمَدِ

الضمد بفتح الضاد المعجمة والميم: الحقد.

وفى ابن خلكان وغيره(١): كان أبو مسلم قد سمع الحديث وروى عنه، وأنه خطب يومًا فقام إليه رجل، فقال: ما هذا السواد الذى أرى عليك ؟ فقال أبو مسلم: حدثنى [أبو] الزبير، عن جابر بن عبد الله - رضى الله تعالى عنهما - أن النبى ﷺ دخل مكة يوم الفتح، وعلى رأسه عمامة سوداء(٢)، وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة، يا غلام، اضرب عنقه.

قلت: حديث جابر هذا فى صحيح مسلم، ومن ثم كان شعار بنى العباس فى الخطبة السواد.

وكان أبو مسلم فصيحًا عالمًا بالأمور شجاعًا فاتكًا، ولم يُرَ قطُّ مازحًا، ولا يظهر عليه سرور ولا غضب، ولا يأتى النساء إلا مرة واحدة فى السنة، وكان يقول:

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ١٤٨، تاريخ الإسلام الطبقة الرابعة عشرة ص ٥٨٢ .
(٢) أخرجه مسلم (١٣٥٨/ ٤٥١)، الترمذى (١٦٧٩)، وفى الشمائل (١١٥)، والنسائى (٥٣٤٥)، وأحمد (٣/ ٣٨٧)، والدارمى (٢/ ٧٤) من حديث جابر .

النكاح جنونٌ، ويكفى العاقل أن يجنَّ فى السنة إلا مرة واحدة.

وأحصى من قتله أبو مسلم صبرًا، وفى حروبه، فكانوا ستمائة ألف ونيفًا(١).

وفى المحاسن قال: قال ابن المعافى لأبى مسلم: أيها الأمير، لقد قمت بأمرٍ لا يقصر بك ثوابه عن الجنة فى إقامة دولة بنى العباس، فقال: خوفى من النار والله أولى من طمعى فى الجنة؛ إنى أطفأت من بنى أمية جمرة، وألهبت من بنى العباس نيرانًا، فإن أفرح بالإطفاء فواحسرتا من الإلهاب.

وحدث أبو نميلة، عن أبيه قال: سمعت أبا مسلم بعرفات يقول فى الموقف باكيًا: اللهم، إنى أتوب إليك مما أظن أنك لن تغفره لى، فقلت: أيها الأمير، أيعظم على الله تعالى غفران ذنب ؟ ! فقال: إنى نسجت ثوبًا من الظلم لا يبلى ما دامت الدولة لبنى العباس، فكم صارخٍ وصارخةٍ تلعننى عند تفاقم هذا الأمر، فكيف يغفر الله تعالى لمن هذا الخلق خصماؤه ؟ ! انتهى.

واختلف فى نسبته، فقيل: من العرب، وقيل: من العجم، وقيل: من بنى أمية، وقيل: من الأكراد، وقيل له: ما كان سبب خروج الدولة عن بنى أمية ؟ فقال: لأنهم أبعدوا أصدقاءهم ثقةً بهم، وأدنوا أعداءهم تألفًا لهم، فلم يصر العدوُّ صديقًا بالتأليف، وصار الصديق عدوًّا بالإبعاد.

وفى سنة ثمان وثلاثين ومائة: دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموى المسمى بالداخل؛ لأنه أول من دخل المغرب، فدخل الأندلس واستولى عليها، وامتدت أيامه، وبقيت الأندلس فى يد أولاده إلى بعد الأربعمائة(٢).

وكان عبد الرحمن هذا من أهل العلم والعدل، وكانت سيرته حميدة فى الدين، وكان يجاهد الكفار على إعلاء كلمة الدين، فقيل للإمام مالك بن أنس - رضى الله تعالى عنه -: إن بالمغرب ملكًا قائمًا بالشرائع يلبس الصوف، ويأكل الشعير، ويجاهد أعداء الدين من المشركين المجاورين له، فقال: ما أحوج بلدتنا إلى واحد مثله تتزيَّن به، فوصلت كلمة مالك إليه بالأندلس، فجمع الناس فى مملكته ونادى

(١) ينظر تاريخ الإسلام حوادث سنة سبع وثلاثين ومائة .
(٢) ينظر تاريخ الإسلام حوادث سنة ثمان وثلاثين ومائة .

ألاَّ يدان إلا بمذهب مالك؛ فمن ثم كان أهل المغرب على مذهب الإمام مالك، رضى الله تعالى عنه.

ثم سمع المنصور بذلك، فحصلت منه إساءة إلى الإمام مالك؛ بسبب ذلك القول.

وأمه بربرية، وكذلك أم المنصور؛ فكانوا يقولون: ملك الدنيا ابنا بربريتين: المنصور، وعبد الرحمن بن معاوية.

هذا، وفى سنة أربعين ومائة، حج المنصور فنزل فى دار الندوة، وكان يخرج فيطوفُ سحرًا بالبيت، فخرج ذات ليلة، فبينما هو يطوف إذ سمع قائلاً يقول: اللهم، إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع، فهرول المنصور حتى ملأ مسامعه، ثم رجع إلى دار الندوة، وقال لصاحب الشرطة: إن بالبيت رجلاً يطوف صفته كذا، فائتنى به، فخرج فوجد رجلاً عند الركن اليمانى، فقال: أجب أمير المؤمنين، فلما دخل عليه، قال له المنصور: ما الذى سمعتك آنفًا تشكوه إلى الله تعالى من ظهور البغى والفساد... إلى آخره ؟ ! فوالله لقد حشوتَ مسامعى ما أمرضنى ! فقال: يا أمير المؤمنين، إن الذى دخله الطمع، وحال بين الحق وأهله أنتَ، فقال له المنصور: ويحك ! كيف يدخلنى طمع، والصفراء والبيضاء ببابى، وملك الأرض فى قبضتى ؟ ! فقال الرجل: سبحان الله يا أمير المؤمنين، وهل دخل أحدًا من الطمع ما دخلك ؟ ! إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم، فأهملت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، واتخذت بينك وبينهم حجابًا من الجصِّ والآجُرِّ، وحجبة تمنعهم البلاغ، وأمرت ألاَّ يدخل عليك إلا فلان وفلان، ثم استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الجائع ولا العارى، ولا أحد إلا وله فى هذا المال حَقٌّ.

فلما رآك هؤلاء الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجمَعُ الأموالَ ولا تقسِّمها، قالوا: هذا قد خان الله ورسوله، فمالنا لا نخونه ؟ ! فاجتمعوا على ألاَّ يصل إليك من أموال الناس إلا ما أرادوا، فصاروا شركاءك فى سلطانك، وأنت غافل عنهم، وإذا جاء المظلوم إلى بابك، وجدك قد أوقفت ببابك رجلاً ينظر فى المظالم؛ فإن كان الظالم من بطانتك، علَّل المظلوم وسوَّف به من وقت إلى وقت،

فإذا اجتهد وظهرت أنتَ، فصرخ بين يديك، ضرب ضربًا مبرحًا ليكون نكالاً لغيره، وأنت ترى ذلك فلا تنكره. ولقد كانت الخلفاء من قبلك إذا انتهت إليهم الظلامة، أزيلَتْ فى الحال. ولقد كنت أسافر إلى الصين، فقدمتُ مرة إليه، فوجدت الملك الذى به فَقَدَ سَمْعَهُ فبكى، فقال وزراؤه: ما يبكيك ؟ فقال: ما بكيت لمصيبة نزلت بى، إنما أبكى لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمعه، ثم قال: إن ذهب سمعى، فلم يذهب بصرى، نادوا فى الناس: لا يلبس أحد أحمر إلا مظلومًا. وكان يركب الفيل ويذهب فى البلد لعلَّه يجد لابس ثوب أحمر فينصفه؛ فهذا يا أمير المؤمنين رجلٌ مشرك بالله، غلبت رأفته على شح نفسه بالمشركين.

فكيف بك وأنت مؤمن بالله وابن عم رسول الله ؟ ! يا أمير المؤمنين، إنما يجمع المال لإحدى ثلاث: إن قلتَ: إنما أجمع المال للولد، فقد أراك الله عبرة فى الطفل؛ إذ يسقط من بطن أمه وليس له على وجه الأرض من مال، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فلم يزل لطف الله تعالى بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس فيه، وحوى ما حوته تلك اليد الشحيحة، ولست بالذى تعطى، وإنما الله سبحانه وتعالى المعطِى. وإن قلت: إنما أجمعه لمصيبة تنزل بى، فقد أراك الله تعالى عبرة فى الملوك والقرون الذين خلوا من قبلك، ما أغنى عنهم ما أعدوا من الأموال والذخائر والكُرَاع حين أراد الله تعالى ما أراد. وإن قلت: إنما أجمعه لغاية هى أحسن من الغاية التى أنت فيها، فوالله ما فوق غايتك إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح. فبكى المنصور بكاءً شديدًا، ثم قال: كيف أعمل، والعلماءُ قد فرَّتْ منى، والصالحون لم يدخلوا على ؟ ! فقال: يا أمير المؤمنين، افتح الباب، وانتصر للمظلوم من الظالم، وخذ المال مما حل، واقسمه بالحق والعدل، وأنا ضامن من هرب منك أن يعود إليك.

ثم خرج الرجل، فقام المنصور للصلاة، فلما صلى، طلب الرجل فلم يجده، فذهب إليه الشرطى، فوجده عند الركن اليمانى، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال الرجل: ليس إلى ذلك سبيل، قال الشرطى: إذنْ يضرب عنقى، قال: لا، ولا إلى ضرب عنقك سبيل، ثم أخرج ورقًا مكتوبًا فقال: خذه معك، فإن فيه دعاء الفرج، وذكر له فضلاً عظيمًا، فأخذه الشرطى، وأتى إلى المنصور، فلما رآه قال: ويحك ؟

أتحسن السحر ؟ ! قال: لا والله، ثم قصَّ عليه القصة، فأمر المنصور بنقله، وأمر للشرطى بألف دينار، وهو هذا:

« اللهم، كما لطفت فى عظمتك وقدرتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمتَ ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، فكانت وساوس الصدور عندك كالعلانية، وعلانية القول كالسر فى علمك، فانقاد كل شيء لعظمتك، وخضع كل ذى سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك، اجعل لى من كل هم وغم أصبحتُ أو أمسيتُ فيه فرجًا ومخرجًا، اللهم، إن عفوك عن ذنوبى، وتجاوزك عن خطيئتى، وسترك على قبيح عملى أطمعنى أن أسألك ما لا أستوجبه منك بما قصرت فيه، فصرت أدعوك آمنًا، وأسألك مستأنسًا؛ فإنك المحسن، وأنا المسيء إلى نفسى فيما بينى وبينك، تتودَّد إليَّ بنعمتك، وأتبغض إليك بالمعاصى، ولكن الثقة بك حملتنى على الجرأة عليك، فَعُدِ اللهمَّ بفضلك وإحسانك عليَّ؛ إنك أنت الرءوف الرحيم ».

وكان هذا الرجل هو الخضر - عليه السلام - وهذا الدعاء مشهور بأنه دعاء الخضر، وهو عظيم الفوائد، جم العوائد.

وفى سنة ست وأربعين ومائة: بنى مدينة بغداد، سببها ثورة الراوندية عليه بالهاشمية، ولأنه كان يكره أهل الكوفة، ولا يأمن على نفسه منهم، فتجافى عن جوارهم، وسار إلى مكان بغداد اليوم، وجمع من كان هناك من البطارقة، وسألهم عن أحوالهم ومواضعهم فى الحر والبرد والمطر والوحل والهوام، واستشارهم فأشاروا عليه بمكانها، وقالوا: تجيئك الميرة فى السفن من الشام، والرقة ومصر والمغرب إلى الصراة، ومن الصين والهند والبصرة وواسط وديار بكر والروم والموصل فى دجلة، ومن أرمينية وما اتصل بها من تامرا تتصلُ بالزاب، يعنى: نهر الموصل، وأنت بين أنهار كالخنادق لا تعبر إلا على القناطر والجسور، وإذا قطعتها لم يكن لعدوك مطمع فى أرضك، وأنت متوسِّط بين البصرة والكوفة وواسط والموصل قريب من البر والبحر والجبل، فشرع المنصور فى عمارتها، وكتب إلى الشام والكوفة وواسط والبصرة فى الصناع والفعلة، واختار من ذوى الفضل والعدالة والعفة والأمانة والمعرفة بالهندسة، فأحضرهم لذلك، وأمر بخطها بالرماد، فشكلَتْ

أبوابها وفصلاتها وطاقاتها ونواحيها، وجعل على الرماد حبّ القطن، فأضرم نارًا، ثم نظر إليها، وهى تشتعل فعرف رسمها، وأمر أن تحفر الأسوس على ذلك الرسم. ووكل بها أربعة من القواد يتولى كل واحد منهم ناحية، ووكل الإمام الأعظم أبا حنيفة بن ثابت - رضى الله عنه - بِعَدِّ الآجُرِّ واللبن، وقد كان أراده على القضاء والمظالم، فأبى فحلف ألاَّ يقلع عنه حتى يعمل له عملاً؛ فكان هذا.

وأمر المنصور أن يكون عرض أساس السور من أسفله خمسين ذراعًا ومن أعلاه عشرين ذراعًا، ووضع بيده أول لبنة، وقال: بسم الله، والحمد لله، والأرض لله، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ثم قال: ابنوا على بركة الله.

واستشار خالدًا البرمكيَّ فى نقض المدائن وإيوان كسرى، فإنه بالمدائن، فقال: لا أرى لك؛ لأنه من آثار الإسلام وفتوح العرب، وفيه مصلى على بن أبى طالب، فاتهمه المنصور بعصبية العجم؛ لأن خالدًا أصله من العجم، وأمر بنقض القصر الأبيض، فإذا الذى ينفق عليه أكثر من ثمن الجديد، فأقصر المنصور عنه، فقال له خالد: أما الآن فلا أرى إقصارك عنه لئلاَّ يقال: عجزوا عن هدم ما بناه غيرهم، والهدم أَيْسَرُ من البناء، فأعرض عنه، ونقل الأبواب إلى بغداد من واسط ومن الشام ومن الكوفة، وجعل المدينة مدوَّرة، وجعل قصره وسطها؛ ليكون الناس منه على حد سواء، وجعل المسجد الجامع إلى جنب القصر، وجعل لها سورين والداخل أعلى من الخارج، وكان زنة اللبن الذى يبنى به كل لبنة مائة رطل وسبعة عشر رطلاً، وطولها ذراع في ذراع، وكان مقدار النفقة عليها بالجامع والقصر والسورين والفنادق والأبواب والأسواق أربعة آلاف ألف، وثمانمائة ألف وثلاثة وثلاثين ألف درهم.

وفى سنة ثمان وأربعين: توطأت الممالك كلها للمنصور، وجلت هيبته فى النفوس، ودانت له الأمصار، ولم يبق خارجًا عنه سوى جزيرة الأندلس؛ فإنه غلب عليها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام؛ كما قدمت ذكره.

وفى سنة تسع وأربعين: فرغ من بناء بغداد.

وفى سنة خمسين: بنى الرصافة وشيدها.

وفى سنة ثلاث وخمسين: ألزم المنصور رعيته لبس القلانس الطوال، وكانوا يعملونها بالقصب والورق ويلبسونها، فقال أبو دلامة فى ذلك: [من الطويل]

وَكُـنَّـا نـرجِّـى مـن إمـام زيـادةً فزاد الإِمَامُ المصطَفَىٰ[١] فى القَلاَنِسِ
تَرَاهَا على هَامِ الرجالِ كَأَنَّهَا زُنَارُ يَهُودٍ جُلِّلَتْ بِالبَرَانِسِ[٢]

وكان أبو جعفر المنصور مهيبًا سفاكًا ذا دهاءٍ وحزمٍ وتدبيرٍ لأمور الرعية، وكان يغلب عليه الصمت، وعلى ظاهر أحواله الصلاح.

أمه، يقال لها: سلامة، بربرية، يقال: إنها قالت: لما حملتُ به، رأيتُ كأن أسدًا خرج منى، فأقعى وزأر وضرب بذيله الأرض، فأقبلت إليه الأسود من كل ناحية، فكلما انتهى أسد منها إليه سجد.

كانت ولادته سنة خمس وتسعين، وهى السنة التى توفى فيها الحجاج بن يوسف.

يحكى أنه رتب أوقاته لأموره: كان بعد أن يصلى الصبح إلى وقت صلاة الظهر: يدبر أحوال البلاد، ويرفع المظالم عن العباد، ويقضى حوائج الناس، ومن الظهر إلى وقت العصر: يدبر أحوال نفسه، ومن العصر إلى المغرب: يتقيد بأمور خواصّ أهل بيته، وبعد المغرب إلى العشاء: يشتغل بالقراءة، وبعد العشاء إلى مضى الثلث الأول من الليل: يجتمع إليه ندماؤه، ويتحدَّثون بالسير والأخبار والأشعار المتضمنة للحكم والشجاعة، فإذا تفرقوا من عنده: رقد الثلث الأوسط، فإذا دخل الثلث الأخير: قام وتوضأ وتهجد وقرأ القرآن إلى الصبح.

وفى ربيع الأبرار: سأل المنصور بعض بطانة هشام بن عبد الملك الأموى عن تدبير هشام فى حروبه، فقال ذلك البعض: فعل كذا - رحمه الله - وصنع كذا - رحمه الله - فقال المنصور: لعنك الله وإياه، تطأ بساطى وتترحَّم على عدوى، أخرجوه عنى، فقام الرجل وهو يقول: والله، لنعمة عدوك قلادة فى عنقى لا ينزعها إلا غاسلى، فقال المنصور: ردوه عليَّ، فَرُدَّ، فقال له المنصور: يا شيخ، أشهد أنك نتيجة حر، وثمرة شريف، ودعا له بمال، فقال الرجل: لولا افتراض طاعتك ما قبلت بعده لأحد نعمة، فقال له المنصور: كفيت قومك فخرًا، كن أول داخل عليَّ، وآخر خارج عنى.

(١) فى البداية والنهاية: المرتجى .
(٢) ينظر: البداية والنهاية (١٠/١١٨)، وتاريخ الإسلام (ص ٣٥٦) حوادث سنة ثلاث وخمسين ومائة .

ودخل بعض الهاشميين عليه، فجعل يحدِّثه ويكثر من ذكر أبيه والترحم عليه، فيقول: كان أبى رحمه الله، وفعل أبى رحمه الله، فقال له الربيع حاجب المنصور: كم تترحَّم على أبيك بحضرة أمير المؤمنين، فقال له الهاشمى: أنت معذورٌ فإنك لا تعرف حلاوة الآباء، فخجل منه أشد الخجل، وذلك أن الربيع كان لقيطًا لا يعرف له أب.

وكان المنصور - مع هذه الصفات الحميدة - يوصف بالبخل الشديد، ولذا لقب بالدوانيقى(١).

ذكر ابن خلدون: أنه حاسب القواد الذين جعلهم على بناء بغداد عند الفراغ منها، فألزم كُلًّا بما بقى عنده، حتى إنه أخذ من خالد بن الصلت منهم خمسة عشرة درهمًا بعد أن حبسه عليها.

ومما يحكى عنه من الشح: أنه قال للمسيب بن زهير: أحضرنى بناء حاذقًا الساعة، فأحضره فأدخله إلى بعض محالِّه، وقال: ابن لى بإزائه طاقًا يكون شبيهًا بالبيت، فلم يزل يؤتى بالحصى والآجر حتى بناه وجوَّده، فنظر إليه المنصور واستحسنه، وقال للمسيب: أعطه أجره، فقال: أعطيه خمسة دراهم، فاستكثرها، وقال: لا أرضى بذلك، فلم يزل حتى نقصه درهمًا، ففرح بذلك، وابتهج كأنه أصاب مالاً.

وحكى - أيضًا - أنه لدغ، فدعا مولى له يقال له: أسلم، رقاء، فأمره أن يرقيه، فرقاه فبرئ، فأمر له برغيف، فأخذ الرغيف فثقبه وصيَّره فى عنقه، وجعل يقول: رقيت مولاى، فبرئ فأمر لى بهذا الرغيف، فبلغ المنصور ذلك، فقال له: لم أبرك أن تشنع على، فقال: لم أشنع؛ إنما أخبرت بما أمرتَ، فأمر أن يصفع ثلاثة أيام كل يوم ثلاث صفعات.

قلت: وعندى، والله، فى صحة هذا القول عشرون شكًّا، والله أعلم بالحقائق.

وحكى عن الأوزاعى قال: بعث إلىَّ المنصور فقال: لمَ تبطئ عنا ؟ ! قلت: وما تريد منا ؟ ! فقال: لآخذ عنكم وأقتبس منكم، فقلت له: مهلاً؛ فإن عروة بن رويم أخبرنى أن نبى الله ﷺ قال: « من جاءته موعظة من ربه فقبلها، شكر الله له ذلك،

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٨٣).

ومن جاءته فلم يقبلها، كانت حجة عليه يوم القيامة »، مهلًا، فإن مثلك لا ينبغى له أن ينام، إنما جعلت الأنبياء رعاة لعلمهم بالرعية، يجبرون الكسير، ويسمنون الهزيل، ويؤوون الضالة، فكيف من يسفك دم المسلمين، ويأخذ أموالهم ؟ ! أعيذك بالله أن تقول: إن قرابتك من رسول الله ﷺ تدعوك إلى الجنة، إن رسول الله ﷺ كانت فى يده جريدة يستاك بها، فضرب بها قورة أعرابى، فنزل جبريل فقال: يا محمد، إن الله تبارك وتعالى لم يبعثك مؤيسًا مقنطًا، تكسر قرون أمتك، ألق الجريدة من يدك، فدعا الأعرابى إلى القصاص من نفسه، فكيف بمن يسفك دماء المسلمين ؟ ! إن الله عز وجل أوحى إلى من هو خير منك داود - عليه السلام - ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ. . . ﴾ الآية [ص: ٢٦]، وأوحى إليه: « يا داود، إذا أتاك الخصمان فلا يكون لأحدهما على صاحبه الفضل، فأمحوك من ديوان نبوتى »، اعلم أن ثوبًا من ثياب أهل النار لو علق بين السماء والأرض، لمات أهل الأرض من نتن ريحه، فكيف بمن يتقمصه، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبال الدنيا، لذابت كما يذوب الرصاص حتى تنتهى إلى الأرض السابعة، فكيف بمن تقلدها، فبكى حتى خضبت دموعه لحيته ووجهه.

العهد للمهدى وخلع عيسى بن موسى (١)

كان السفاح قد عهد إلى عيسى ابن أخيه موسى أن يكون خليفةً بعد أبى جعفر المنصور، وولاه على الكوفة، فلم يزل عليها. فلما كبر المهدى بن أبى جعفر المنصور، أراد المنصور أبوه أن يقدمه فى العهد على عيسى، وكان يكرمه فيجلسه عن يمينه، والمهدى عن يساره، فكلمه فى التأخر عن المهدى فى العهد، فقال: يا أمير المؤمنين، كيف بالأيمان التى عليَّ وعلى المسلمين، وأبى من ذلك، ولم يرض بتقدُّم المهدى عليه، فتغير له المنصور وباعده بعض الشئ، وصار يأذن

(١) ينظر [عيسى بن موسى] فى: العبر للذهبى ١/ ٢٥٣، شذرات الذهب ١/ ٢٦٦، الكامل لابن الأثير ٥/ ١٤١ وما بعدها، الوزراء والكتاب ١٢٦ - ١٢٧، تاريخ الطبرى ٧/ ٤٥٨ وما بعدها . سير أعلام النبلاء للذهبى ٧/ ٤٣٤، تاريخ خليفة ٤١١ وما بعدها، المعرفة والتاريخ ١/ ١١٧ وما بعدها، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٣٥٠ وما بعدها، العقد الفريد ١/ ٣٦، وفيات الأعيان ٢/ ٣٨٨، مرآة الجنان ١/ ٣٥٦، جمهرة أنساب العرب ٣٢ و ٣٣ .

للمهدى قبله، ولعميه عيسى بن على وعبد الصمد، ثم يدخل عيسى بن موسى، فيجلس تحت المهدى، واستمر المنصور على التنكُّر لعيسى، وعزله عن الكوفة، ثم راجع عيسى رأيه، وخلع نفسه فبايع المنصور للمهدى بالعهد وجعل عيسى من بعده.

ويقال: أنه أعطاه أحد عشر ألف درهم، وأشهد جماعة عليه بالخلع.

قال فى بغية الخاطر للعلامة محمد بن مصطفى الشهير بكاتى: ذكر أن أبا جعفر المنصور قال لعمرو بن عبيد: عظنى، قال: بما رأيتُ، أو بما سمعتُ ؟ فقال: بل بما رأيتَ، فقال: توفى عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - وخلف أحد عشر ابنًا، وبلغت قيمة تركته سبعة عشر دينارًا، فكفن بخمسة دنانير واشترى له موضع قبره بدينارين وأصاب كل واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطًا. ومات هشام بن عبد الملك، وخلف أحد عشر ابنًا، فحصل لكل واحد من ورثته مما خلفه عشرة آلاف دينار، فرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حمل على مائة فرس فى سبيل الله، ورأيت رجلاً من أولاد هشام يسأل الناس.

وفى سنة ثمان وخمسين: توفى المنصور محرمًا بالحج، وكانت وفاته ببئر ميمون السادس من ذى الحجة من السنة المذكورة، وبئر ميمون على ثلاثة أميال من مكة، ودفن قبل بئر الحجون وبين بئر ميمون، وحفر له مائة قبر ودفن فى أحدها؛ خوفًا أن تنبشه الأعداء.

قال ابن خلدون: دفن بمقبرة المعلاة بعد أن صلى عليه عيسى بن موسى، وقيل: إبراهيم بن يحيى، وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة، وعمره اثنتان وستون سنة وأحد عشر شهرًا وستة أيام، وقيل: أربع وستون.

صفته: قال ابن الأثير فى كامله(١): كان طويلاً أسمر خفيف اللحية رَحْبَ الصدر، كأن عينيه لسانان ناطقان، صارمًا مهيبًا ذا جرأة وسطوة وحزم وعزم ورأى وشجاعة وكمال عقل ودهاء وعلم وحلم وفقه، وخبرة فى الأمور تقبله النفوس وتهابه الرجال، كان يخلط الملك بزى النسك، وكان بخيلاً بالمال إلا عند النوائب.

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير (٦/ ٢٢)، سير أعلام النبلاء ٧/ ٨٣ .

قلت: ورأيتُ فى الذهبيِّ[1] أنه كان أغرى بسفيان الثورى، فأضمر قتله حال فراغه من المناسك، وأعد خشبة مع الخشابين ليصلبه عليها، فجاء الخبر إلى سفيان الثورى - رضى الله عنه - وهو مضطجع بالحجر، ورأسه فى حجر الفضيل بن عياض، ورجلاه فى حجر سفيان بن عيينة، فقيل له: إن أبا جعفر المنصور قارب مكة، فانج بنفسك واختفِ، فقام إلى أثواب البيت الشريف ودعا طويلاً، ثم قال: برئت من رب هذه البنية، إن دخلها أبو جعفر المنصور إلا ميتًا، فكان الأمر كذلك.

ولما سار المنصور إلى الحجِّ، أوصى ولده المهدى عند وداعه، فقال له: لم أدعْ شيئًا إلا تقدمت إليك فيه، وسأوصيك بخصال، وما أظنك تفعل واحدة منها - وكان له سفط فيه دفاتر عمله وعليه قفل لا يفتحه أحد غيره - فقال للمهدى: انظر لهذا السفط، فاحتفظ به، فإن فيه علم آبائك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فإن حزبك أمر، فانظر فى الدفتر الكبير، فإن أصبت فيه ما تريد وإلا ففى الثانى والثالث حتى بلغ سبعة، فإن ثقل عليك، فالكراسة الصغيرة؛ فإنك واجد ما تريد فيها وما أظنك تفعل. وانظر هذه المدينة وإياك أن تستبدل بها غيرها. وقد جمعت لك فيها من الأموال ما لو انكسر عليك الخراج عشر سنين، كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصالح البيت، فاحتفظ بها؛ فإنك لا تزال عزيزًا ما دام بيت مالك عامرًا، ولا أظنك تفعل. وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم وتحسن إليهم وتقدمهم وتوطئ الناس أعقابهم وتوليهم المنابر، فإنَّ عزك عزهم وذكرهم لك، وما أظنك تفعل. وانظر مواليك، فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم، فإنهم مادتك لشدتك إن تنزل بك يومًا، وما أظنك تفعل وأوصيك بأهل خراسان خيرًا؛ فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا دماءهم وأموالهم فى دولتك، ولا تخرج محبتك من قلوبهم، أحسن إليهم وتجاوز عن مسيئهم، واخلف من مات منهم فى ولده وأهله بخير، وما أظنك تفعل.

وإياك أن تبنى مدينة الشرقية؛ فإنك لا تتمُّ بناءها، وأظنك ستفعل.

وقيل: قال: إنى قد ولدت فى ذى الحجة، ووليت فى ذى الحجة، وقد هجس فى نفسى أنى أموت فى ذى الحجة من هذه السنة، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى يجعل لك فيما حزبك فرجًا ومخرجًا، ويرزقك السلامة وحسن

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٥١ .

العاقبة من حيث لا تحتسب. يا بنى، احفظ محمدًا ﷺ فى أمته يحفظك الله ويحفظ عليك أمورك، وإياك والدم الحرام؛ فإنه حوب عند الله عظيم، وعار فى الدنيا لازم مقيم، والزم الحدود؛ فإن فيها صلاحك العاجل والآجل، ولا تعتد فيها فتبور؛ فإن الله تعالى لو علم شيئًا أصلح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمر به فى كتابه. واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أَمَرَ بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الأرض فسادًا مع ما ذخر له من العذاب الأليم، فقال: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ... ﴾ الآية [المائدة: ٣٣]، فالسلطان، يا بنيَّ، حبل الله المتين، وعروته الوثقى، ودينه القويم، فاحفظه وحصنه وذب عنه وأوقع بالملحدين فيه والمارقين منه واقتل الخارجين عنه ولا تجاوز ما أمرك الله به فى محكم القرآن، واحكم بالعدل، ولا تشطط؛ فإن ذلك أقطع للشغب، وأحسم للعدو، وأنجع فى الدواء، واعف عن الغى، فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفه لك.

وافتتح بصلة الرحم وبر القرابة، وإياك والتبذير لأموال الرعية، واشحن الثغور بالمصالح، واضبط الأطراف، وأمن السبل، وسكِّن العامة، وأدخل المرافق عليهم، وادفع المكاره عنهم، وأعد الأموال واخزنها، وإياك والتبذير؛ فإن النوائب غير مأمونة وهى من شيم الزمان، وأعد الكراع والجُنْدَ ما استطعت، وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غد؛ فتتداول الأمور ويضيع حدسك فى إحكام الأمور النازلات لأوقاتها، وأَعِدَّ رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون فى الليل، وباشر الأمور ولا تضجر ولا تكسل، واستعمل حسن الظن بالله، وأسئ الظن بعمالك، وكتابك، وخُذْ نفسك بالتيقظ وتفقدْ من يبيت على بابك، وسَهِّلْ إذنك للناس. وانظر فى أمر النُّزَّاع إليك، ووكل بهم عينًا غير نائمة، ونفسًا غير لاهية، ولا تنم؛ فإن أباك لم ينم منذ ولى الخلافة، ولا دخل عليه الغمض إلا وقلبه متيقظ. هذه وصيتى إليك، والله خليفتى عليك.

ثم ودعه وسار إلى الكوفة فأحرم منها قارنًا. وساق الهدى وأشعره وقلَّده لأيام خلت من ذى القعدة.

ولما سار منازل، عرض له وجعه الذى مات منه، وهو البطن، ولما قرب من

مكة رأى على جدار خرب سطرين هما:[من الطويل]

أَبَا جَعْفَرٍ حانَتْ وفاتُكَ وانْقَضَتْ سِنُوكَ وَأَمْر اللَّهِ لا بُدَّ واقِعُ
أبا جعفرٍ هل كاهِنٌ أو منجِّمٌ لك اليَوْمَ من رَيْبِ المنيةِ دافعُ

فلما قرأها، تيقن انقضاء أجله. ثم اشتد به وجعه، فجعل يقول للربيع، وكان عديله: بادر بى إلى حرم ربِّى هاربًا من ذنوبى. فلما وصل إلى بئر ميمون، مات سحرًا ليلة السادس من ذى الحجة؛ كما تقدَّم ذكره.

ولم يحضره إلا خدمه والربيع مولاه فكتموا الأمر، ثم غدا أهل بيته على عادتهم، فدعا الأكابر وذوى الأسنان، ثم عامتهم، فبايعهم الربيع للمهدى، ثم بايع القواد وعامة الناس.

وسار العباس بن محمد، ومحمد بن سليمان إلى مكة، فبايعا الناس للمهدى بين الركن والمقام.

وذكر على بن محمد النوفلى، عن أبيه، وهو من أهل البصرة، كان يختلف إلى المنصور قال: جئت من مكة صبيحة موته إلى العسكر، فإذا موسى بن المهدى عند عمود السرادق والقاسم بن المنصور فى ناحية، فعلمت أنه قد مات، ثم أقبل الحسن ابن زيد العلوى والناس حتى ملئوا السرادق، وسمعنا همس البكاء، ثم خرج أبو العنبر الخادم مشقوق الأقبية وعلى رأسه التراب وهو يستغيث، وقام القاسم فشق ثيابه، ثم خرج الربيع فى يده قرطاس، فقرأه على الناس وفيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بنى هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين. ثم بكى وبكى الناس، ثم قال: البكاء أمامكم، فأنصتوا رحمكم الله، ثم قرأ: أما بعد، فإنى كتبت كتابى هذا، وأنا فى آخر يوم من أيام الدنيا، أقرأ عليكم السلام، وأسأل الله ألاَّ يفتنكم بعدى، ولا يلبسكم شيعًا يذيق بعضكم بأس بعض.

ثم أخذ فى وصيتهم بالمهدى، وبعثهم على الوفاء بعهده، ثم تناول الحسن بن زيد وقال: قم نبايع موسى بن المهدى لأبيه فقام فبايعه، ثم بايع الناس الأول فالأول، ثم دخل بنو هاشم على المنصور، وهو فى أكفانه مكشوف الرأس لمكان الإحرام، فحملوه من مكانه الذى مات فيه على ثلاثة أميال من مكة فدفنوه، وكان

عيسى بن موسى لما بايع الناس، أَبَىٰ من البيعة؛ لأنه كان ولى العهد بعد أبى جعفر، وإنما أخَّره أبو جعفر، وقدم ابنه المهديَّ عليه، وجعل له العهد بعد المهدى، فقال له على بن عيسى بن ماهان: والله لتبايعنَّ أو لأضربنَّ عنقك، فبايع ثم بعث موسى ابن المهدى والربيع بالخبر والبردة والقضيب وخاتم الخلافة إلى المهدى، وخرجوا من مكة.

خلافة المهدي(١)

محمد بن أبى جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس القرشى الهاشمى.

لما وصل الخبر إلى المهدى منتصف ذى الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة، اجتمع أهل بغداد فبايعوه. قال السيوطى فى تاريخه: أول من هنأ المهديَّ بالخلافة وعزاه بأبيه المنصورِ أبو دلامة، فقال: [من الكامل]

عَيْنَـايَ واحـدَةٌ تُـرَىٰ مسـرورةً ... بأميرِهَا جَذْلَىٰ، وأخرَىٰ تَذْرِفُ
تَبْكِي وتضحَكُ تَارَةً ويَسُوءُهَا ... ما أنكَرَتْ ويَسُرُّهَا ما تَعْرِفُ
فيسُوءُهَا مَوْتُ الخليفةِ مُحْرِمًا ... ويَسُرُّهَا أنْ قَامَ هـذَا الأرأفُ
ما إنْ رَأَيْتُ كما رأيتُ ولا أَرَىٰ ... شَعْرا أسرِّحُهُ وآخَر أَنْتِفُ(٢)
هَلَكَ الخليفةُ يَالَدِينِ محَّمدٍ ... وأتاكُمْ مِنْ بعده مَنْ يَخْلُفُ
أَهْدَىٰ لهذا اللَّهُ فَضْلَ خلافةٍ ... ولذاكَ جَنَّاتِ النعيمِ تزخرفُ(٣)

وذكر الصولى أن امرأةً اعترضت المهدى، فقالت: يا عصبة رسول الله، انظر

---

(١) ينظر ترجمة المهدى فى: شذرات الذهب ١/ ٢٦٦ - ٢٦٩، تاريخ الخلفاء ٢٧١، الوافى بالوفيات ٣/ ٣٠٠ - ٣٠٢، العبر للذهبى ١/ ٢٣٠ - ٢٣١، الوزراء والكتاب ١٤١ - ١٦١، سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٠٠، تاريخ بغداد ٥/ ٣٩١، الطبرى ٨/ ١١٠، المعارف ٣٧٩، الكامل لابن الأثير ٦/ ٣٢ - ٣٤ و ٨١ - ٨٧، البداية والنهاية. ١/ ١٢٩ - ١٣١، مروج الذهب ٣/ ٣١٩، المحبر ٣٥ - ٧٠، أنساب الأشراف ٣/ ٨٠، تاريخ خليفة ٤٢٣، نسب قريش ٥٤ وما بعدها، مرآة الجنان ١/ ٣٥٦ - ٣٥٨، تاريخ الزمان ١١ و١٢، تاريخ الخلفاء ٢٧١ - ٢٧٩، العبر للذهبى ١/ ٢٣٠، المختصر فى أخبار البشر ٢/ ١٠، أخبار الدول ١٤٨ .

(٢) فى تاريخ الإسلام والبداية والنهاية: ينتف .

(٣) ينظر الشعر فى: تاريخ بغداد (٥/ ٣٩٢)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٦٢) .

فى حالى، فقال المهدى: ما سمعتها من أحد قطُّ، اقضوا حاجتها وأعطوها عشرة آلاف درهم.

وكان أول ما فعله أن أطلق من كان فى حبس أبيه المنصور، إلا من كان حبسه فى دم أو مال أو ممن سعى بالفساد، وكان حليمًا جوادًا فصيحًا سلك مع الناس سيرة مرضية، فأحبه الناس، وإن كان منهمكا فى اللهو، فقد أراح الناس من تعب الظلم والجور والاعتساف، لما أضاف إلى ذلك من الحلم والجود والإنصاف، حتى اطمأن به العباد والبلاد، وكانت أيامه كالأعياد.

ولادته سنة سبع وعشرين ومائة. وفى سنة ستين: حج المهدى، واستخلف على بغداد ابنه الهادى، واستصحب ابنه هارون وجماعة من أهل بيته. ولما وصل إلى مكة، اهتم بكسوة الكعبة، فكساها بأفخر الكسوة بعد أن أتاه بنو شيبة، فقالوا: قد تكاثرت الكساوى على الكعبة، ونحن نخشَى من ثقلها على الكعبة، فأمر بنزع جميع ما كان عليها، وكانت فيها كسوة هشام بن عبد الملك من الديباج الثخينِ، وقسم مالاً عظيمًا هناك فى مصارف الخير؛ فكان منه ما جاء به من العراق ألف ألف درهم، ووصل إليه من مصر ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليمن مائة ألف دينار، ففرق ذلك كله، وفرق مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب، ووسع المسجد الحرام؛ وذلك لأنه رأى الكعبة ليست فى وسط المسجد لضيق جانبه من جهة اليمن؛ فأمر الصناع والمهندسين بتوسيعه من تلك الجهة واشترى دورًا هنالك وهدمها، فنهاه المهندسون، وقالوا: يدخل السيل إن فعلتَ ذلك إلى المسجد لضيق مجراه حينئذ، فقال: لا بدَّ من ذلك، وإن دخل السيل، ولو أنفقت فى ذلك جميع بيوت المال، وصعد المهندسون على ظهر الكعبة، ونصبت الرماح بعضها إلى بعض، ومدَّتْ من أعلى الكعبة إلى الجهات الأربع حتى كانت مستوية متوسطة فى المسجد نسبة الجهات الأربع إليها على السواء، فجزاه الله خيرًا وشكر سعيه.

قال الفاكهى: كان بعد جدار المسجد من الجانب الجنوبى عن الكعبة تسعة وأربعين ذراعًا لا غير، ولبيان مثل هذه الأمور كتب مفردة.

ولما رجع أمر ببناء القصور بطريق مكة، أوسع من قصور أبيه المنصور من القادسية إلى زبالة، وأمر باتخاذ المصانع فى كل منهل وبتحديد الأميال، وحفر

الآبار، وذلك على يد يقطين بن موسى. وأمر بالزيادة فى مسجد البصرة وتقصير المنابر إلى مقدار منبر النبى ﷺ.

وفى سنة ثلاث وستين: ظهر عطاء المقنع شيخ لعين خراسانى كان يعرف السحر والسيميا، فربط الناس بالخوارق والمغيبات، وادعى الربوبية، وكان يقول بالتناسخ، أى: أن الله تعالى تحول إلى صورة آدم، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له، ثم تحول إلى صورة نوح ثم إلى صورة إبراهيم وغيرهم من الأنبياء والحكماء والفلاسفة، ويقرأ: ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٨] ثم إنه تحول سبحانه وتعالى إلى صورة أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة العباسية، ثم مِنْ بعدِ أبى مسلم إلى صورة نفسه، فعبده خلائق من الجهلة، وكان مشوهًا أصور أعور العين قصيرًا، فكان لا يكشف وجهه، بل اتخذ له وجهًا من الذهب؛ ولذلك قيل له: المقنَّع، ومما أضل الناس به من المخاريق: أنه أظهر لهم قمرًا يرونه فى السماء من مسيرة شهرين مع قمر السماء، وفى ذلك يقول ابن سناء الملك من قصيدة أخرج فيها ذكره مخرج الغزل فقال: [من الطويل]

إِلَيْك فَمَا بَدْرُ الْمُقَنَّعِ طَالِعًا ... بِأَسْحَرَ مِنْ أَلْحَاظِ بَدْرِ الْمُقَنَّعِ

ولأبى العلاء المعرى: [من الطويل]

أَفِقْ أيها الْبَدْرُ الْمُعَمَّمُ رَأْسَهُ ... ضَلَالٌ وَغيٌّ مِثْل بَدْرِ الْمُقَنَّعِ

ولما استفحل شرُّ عطاء - لعنه الله - جهز المهديُّ عسكرًا لحربه، فقصدوه وحصروه فى قلعته ببلسام من أعمال بخارى، فلما عرف أنه مأخوذ جمع نساءه فسقاهنَّ السُّمَّ فهلكْنَ، ثم تناول هو السُّمَّ، فمات وهو يتحسَّاه فى نار جهنم خالدًا، ثم أخذت القلعة وقتل رءوس أتباعه - لعنه الله - وبعث برأسه ورءوسهم إلى المهديِّ، فوصلَتْ إليه بحلب، وهو ذاهب لغزو الروم(١).

وفى سنة أربع وستين ومائة: خلع المهدى ابن عمه عيسى بن موسى عن ولاية العهد إلى ابنه موسى الهادى ابن المهدى.

وفى سنة ست وستين أخذ البيعة لابنه الآخر هارون بعد ابنه الهادى ولقبه بالرشيد(٢).

---

(١) ينظر: تاريخ خليفة (٤٣٧) وتاريخ الطبرى (٨/ ١٤٤) دول الإسلام (١/ ١٠٩) تاريخ ابن خلدون (٣/ ٢٠٧) تاريخ الإسلام حوادث سنة ثلاث وستين ومائة .

(٢) تاريخ الطبرى (٨/ ١٥٤) .

فالحاصل: أن المهدى محمدًا عهد إلى ولديه الهادى وهارون الرشيد، على أن يكون الهادى بعده قبل الرشيد.

ثم فى سنة تسع وستين: اعتزم على خلع ابنه الهادى،والبيعة للرشيد، وتقديمه على الهادى، وكان الهادى بجرجان فبعث إليه بذلك واستقدمه، فضرب الهادى الرسول وامتنع، فسار إليه المهدى، فلما بلغ ماسبذان، توفي هنالك يقال مسمومًا من بعض جواريه، يقال: سمَّت إحداهما الأخرى فى كمثرى، فغلط المهدى، فأخذها فأكلها، فما جسرت أن تقول له: إنها مسمومة.

ويقال: سبب موته أنه طرد صيدًا، فدخل وراءه إلى خربة، فدق باب الخربة ظهره، فأدخل قربوس السرج فى صدره.

وكان موته فى المحرم من السنة المذكورة سنة تسع وستين، ولم يوجد له نعش يحمل عليه فحمل على باب، ودفن تحت شجرة جوز.

وكانت مدة خلافته عشرين سنة وشهرًا، وله من العمر ثلاث وأربعون سنة، وكان جوادًا ممدحًا سخيًّا إلى الرعية حسن الخلق والخلق[(١)].

يقال: إن أباه خلف فى الخزائن مائة ألف ألف دينار، وستين ألف ألف درهم، ففرقها المهدى.

وقد قيل: ما جاء فى بنى العباس أكرم من المهدى، ولا أبخل من أبيه المنصور.

دخل على المهدى شريك القاضى، فقال له المهدى: يا شريك، ما تقول فى على بن أبى طالب ؟ قال: ما قال فيه جدك العباس وعبد الله ابنه، فقال: ما قالا فيه ؟ قال: أما العباس فمات، وعلى عنده أفضلُ الصحابة، وقد كان يرى كثيرًا من المهاجرين الأولين يسألونه عما ينزل بهم من النوازل وما احتاج هو إلى أحد منهم حتى لحق إلى كرامة الله تعالى. وأما عبد الله ابنه، فكان يضرب بين يديه بسيفَين، وكان فى حروبه رأسًا متبعًا وسيدًا مطاعًا، فلو كانت إمامة عليٍّ جورًا، لكان أول من قعد عنه جدك عبد الله؛ لعلمه بدين الله وفقهه فى أحكام الله، فأطرق المهدى رأسه ساعة، ثم عزلَ شريكًا عن القضاء بعد أيام قليلة.

---

(١) تاريخ الطبرى (٨/ ١٦٩ - ١٧٠)، الكامل فى التاريخ (٦/ ٨٢)، البدء والتاريخ (٦/ ٩٨)، تاريخ الإسلام حوادث سنة تسع وستين ومائة .

ودخل عليه ابن الخَيَّاط وامتدحه، فأمر له بخمسين ألف درهم، فسأله أن يقَّبل يده فقبَّلها، ثم خرج، فما انتهى إلى الباب حتى فرقها جميعًا، فعوتب على ذلك فقال: [من الطويل]

لَمَسْتُ بكَفِّى كَفَّهُ أَبْتَغِى الغِنَىٰ ... وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي
فَلاَ أَنَا منه ما أَفَادَ ذَوُو الغِنَىٰ ... أَفَدتُّ، وَأَعْدَانِى فَأَتْلَفْتُ[1] ما عِنْدِي

فبلغ المهدى ذلك، فأمر له بخمسين ألف دينار.

وقال سَلْمٌ الخاسرُ يرثى المهدى : [من الوافر]

وَبَاكيةٍ على المَهْدِيِّ عَبْرَىٰ ... كَأَنَّ بها - وما جُنَّتْ - جُنُونا
وقد خَمَشَتْ محاسِنَهَا وأبْدَتْ ... غدائِرَهَا وأَظْهَرَتِ القُرُونَا
لَئِنْ بلى الخليفةُ بعد عِزٍّ ... لقدْ أَبْقَىٰ مساعِىَ مَا بَلينَا
سَلاَمُ اللَّهِ غُدْوَةَ كلَّ يوم ... على المهديِّ حيثُ ثَوَىٰ رَهينَا
تركْنَا الدِّينَ والدُّنْيَا جميعًا ... بحَيثُ ثَوَىٰ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَا

وفى كتاب الأذكياء لابن الجوزى: أن أبا دلامة دخل على المهدى، فأنشده قصيدة، فقال له المهدى: سلنى حاجتك، فقال: يا أمير المؤمنين، تهب لى كلب صيد، فغضب، وقال: أتسأل كلب صيد، وأنا أقول لك ما أقول ؟! فقال: يا أمير المؤمنين، الحاجة لى أم لك ؟! فقال له: بل لك، قال: فإنى سائلك إياه، فأمر له بكلب صيد، فقال: يا أمير المؤمنين، هبنى خَرَجْتُ إلى الصيد، فأعدو على رجلى ؟! فأمر له بدابَّةٍ، فقال: يا أمير المؤمنين، فمن يقومُ عليها ؟ فأمر له بغلام، فقال: يا أمير المؤمنين، هبنى صدت صيدًا فمن يطبخه ؟ فأمر له بجارية، فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء أين يبيتون ؟ فأمر له بدار، فقال: يا أمير المؤمنين، قد صار فى عنقى عيال، فمن أين لى ما يقوت هؤلاء؟ قال: قد أقطعتك ألف جريب عامر.

وعن عبد الله بن هارون قال: حدثنى عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله عن المغيرة قال: دخل المغيرة بن عبد الرحمن المخزومى وأبو السائب والعثمانى[2] وابن أخت الأحوص على المهدى، وهو بالمدينة فقال: أنشدونى، فأنشده المغيرة:

---

(١) فى تاريخ الإسلام: فبددت .
(٢) في ط: ابن. ثم بياض.

[من الطويل]

وللنَّاسِ بَدْرٌ فى السماءِ تَرَوْنَهُ ... وأَنْتَ لنا بَدْرٌ على الأرضِ مُقْمِرُ
فَبِاللَّهِ يا بَدْرَ السماءِ وصِنْوَهُ ... تُرَاكَ تُكَافى عُشْرَ ما لَكَ مُضْمَرُ
وما البَدْرُ إلا دُونَ وَجْهِكَ فى الدُّجَىٰ ... يغيبُ فَتَبْدُو حِينَ غَابَ فَتُقْمِرُ
وما نَظَرَتْ عينى إِلَى البَدْرِ ماشيًا ... وأَنْتَ فتمشِى فى الثيَابِ فَتَسْحَرُ

ثم أنشده ابن أخت الأحوص فقال: [من البسيط]

قَالَتْ كلابة مَنْ هذا فقلْتُ لها ... هذا الذى أَنْتِ مِنْ أعدائِهِ زَعَمُوا
إِنِّى امرؤٌ لَجَّ بى حُبٌّ فأحْرَضَنِي ... حَتَّىٰ بَلِيتُ وحَتَّىٰ شَفَّنِى السَّقَمُ

ثم أنشده المخزومي: [من الطويل]

رَمَى القلْبُ مِن قلبِى السوَادَ فأَوْجَعَا ... وَصَاحَ فصيحٌ بالرَّحيلِ فَأَسْمَعَا
وغَرَّدَ حادِى البَينِ وانشقَّتِ العَصَا ... فأَصْبَحْتُ مَسْلُوبَ الفُؤَادِ مُفَجَّعَا
كفَىٰ حَزَنًا مِنْ حادِثِ الدَّهرِ أنني ... أَرَى البَينَ لا أَسْطِيعُ للبَينِ مَدْفعَا
وقد كُنْتُ قَبْلَ اليومِ بالبَيْنِ جَاهِلاً ... فيا لَكَ بينًا ما أَمَرَّ وأَوْجَعَا

ثم أنشده أبو السائب يقول: [من الطويل]

أَصِيخَا لداعي حُبِّ ليلَىٰ فَيِمَّمَا ... صُدُورَ المطايا نَحْوَهَا فتَسَمَّعَا
خليلَيَّ إنْ ليلَىٰ أقامَتْ فَإِنَّنِي ... مُقِيمٌ، وإنْ بانَتْ فبينا بِنَا مَعَا
وإنْ أثبتتْ لَيْلَىٰ بربْعٍ يحوزها ... أعيذُكُمَا باللَّه أَنْ تَتَزَعْزَعَا

ثم أمر لهم بصلات جسيمة.

وحدث إدريس بن سليمان بن يحيى بن يزيد بن أبى حفصة: كان سبب اتصال مروان بخلفاء بنى العباس، وكان - والله أعلم - من شعراء بنى أمية، أن جارية يمانية أهديت إلى أبى جعفر المنصور، فأنشدته شعرًا لمروان يمدح فيه السرى بن عبد الله، يذكر فيه وراثة العباس، فسألها المنصور عن الشعر ؟ فقالت: هو لمروان، فوافاه بالربذة حاجًا، وبالمنصور العلة التى مات بها، فلقى مروان الربيع حاجب المنصور، فقال له: كن قريبًا حتى يدعو بك، فلم تزل العلة بالمنصور تشتدُّ حتى مات قبل أن يصل إليه مروان فقال له الربيع: الْحَقْ بالمهديِّ ولا تتخلف عنه، فانصرفَ مروان إلى اليمامة فجعلها طريقًا وعليها بشر بن المنذر واليًا، فأوفده بشر

على المهدى فيمن أوفد، فقدم مروان على المهدى وقد مدحه بأربع قصائد مطلع الأولى: [من الطويل]

صَحَا بَعْدَ جُهْدٍ فاستَرَاحَتْ عواذلُهْ ... وأَقْصَرْنَ عنه حِينَ أَقْصَرَ بَاطِلُهْ

والثانية: [من الكامل]

طَافَ الخَيَالُ فَحَيِّهِ بسَلَامِ ... أَنَّىٰ أَلَمَّ، ولَيْسَ حين مَنَامِ

وفيها يقول:

أَنَّى يكُونُ ولَيْسَ ذاكَ بكَائِنٍ ... لِبَنِي البَنَاتِ وِرَاثَةُ الأَعْمَامِ ؟ !

والثالثة: [من الكامل]

إغْصِ الهَوَىٰ وَتَعَزَّ عَنْ سُعْدَاكَا ... فَلِمِثْلِ حِلْمِكَ عَنْ هَوَاكَ نهاكا

والرابعة: [من الطويل]

بَرى العَين شَوْقٌ حَالَ دُونَ التجلُّدِ ... ففاضَتْ بأَسْرَابٍ مِنَ الدَّمْعِ حُشَّدِ

قال إدريس: فأعطى المهدى مروان إجازة سبعين ألف درهم، فقال مروان يمدحه فى قصيدة، ويذكرها: [من الطويل]

بِسَبْعِينَ أَلْفًا رَاشَنِى مِنْ حِبَائِهِ ... وما نَالَهَا فى الناسِ مِنْ شَاعِرٍ قبلي

رحم الله أهل الكرم.

وحدث أحمد بن أبى بكر الباهلى قال: حدثنى حاجب المهدى قال: قال لى المهدى يومًا نصف النهار: اخرج فانظر من فى الباب، فخرجت فإذا شيخ واقف، فقلت: لك حاجة ؟ فقال: لا أخبر بحاجتى أحدًا غير أمير المؤمنين، فأخبرت المهدى بخبره وبقوله، فقال: ائذن له، ومُرْهُ بالتخفيف، فخرجت، وقلت له: ادخل وخفِّفْ، فدخل وسلَّم بالخلافة، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنا قد أمرنا بالتخفيف: [من الطويل]

فإنْ شئْتَ خَفَّفْنَا فكنَّا كَرِيشَةٍ ... متَىٰ تَلْقَهَا الأنفاسُ فى الجَوِّ تَذْهَبِ
وإن شئْتَ ثَقَّلْنَا فكُنَّا كصخرةٍ ... متى تُلْقِهَا فِى حَوْمَةِ البَحْرِ تَرْسُبِ
وإن شئْتَ سلَّمنا فكُنَّا كراكبٍ ... متى يَقْضِ حَقًّا من سلامِكَ يَغْرُبِ

فضحك المهدى، وقال: بل تكرم وتقضى حاجتك، فقضى حاجته، ووصله بعشرة آلاف درهم.

كان معن بن زائدة الشيبانى من أمراء المنصور أبى المهدى، ثم أبقاه المهديُّ واليًا على أذربيجان على ما كان من والده المنصور، وهو أحد الأجواد المشهورين والشجعان المذكورين، قَدِمَ عليه قوم من أهل الكوفة مستميحين، فنظر إليهم فى هيئة رثة، فأنشأ يقول: [من الطويل]

إذا نَوْبَةٌ نَابَتْ صديقَكَ فاغْتَنِمْ مَرَمَّتَهَا فالدَّهْرُ بالناسِ قُلَّبُ
فأَحْسَنُ ثوبَيْكَ الذى أنتَ لابسٌ وأَمْهَرُ مُهْرَيْكَ الذى هُوَ يُرْكَبُ

وقال: يا غلام، أعطهم لكلٍّ واحد أربعة آلاف، فقال أحدهم: يا سيدى، دنانير أو دراهم ؟ فقال معن: والله، لا تكونُ همتك أرفع من همتى، يا غلام، صفرها لهم.

وأتاه أعرابى ومعه مولود فقال: [من البسيط]

سَمَّيْتُ طِفْلِيَ مَعْنًا ثم قلْتُ له هذا سَمِيُّ فَتًى فى الناسِ محمودِ
أمسَتْ يمينُكَ مِنْ جُودٍ مُصَوَّرَةً لا بَلْ يمينُكَ منها صُورَةُ الجُودِ

فأمر له بثلاثمائة دينار.

روى أن المهدى خرج يومًا يتصيَّد، فلقيه الحسين بن مطير الأسدى فأنشده: [من البسيط]

أضحَتْ يمينُكَ مِنْ جُودٍ مصوَّرَةً لا بَلْ يمينك منها صُورَةُ الجودِ
مِنْ حُسْنِ وجهِكَ تُضحِي الأرضُ مشرقَةً ومِنْ بنانِكَ يَجْرِى الماءُ فى العُودِ

فقال له المهدى: كذبتَ يا فاسقُ، وهل تركْتَ فى شعرك موضعًا لأحد مع قولك فى معن بن زائدة: [من الطويل]

أَلِمَّا بِمَعْنٍ ثُمَّ قولا لِقَبْرِهِ سَقَتْكَ الغَوَادِى مَرْبَعًا ثُمَّ مَرْبَعَا
فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وارَيْتَ جُودَهُ وقَدْ كَانَ منه البَرُّ والبَحْرُ مُتْرَعَا
ولكنْ حَوَيْتَ الجُودَ والجُودُ ميِّتٌ ولو كَانَ حيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدَّعَا
ولما مَضَىٰ مَعْنٌ مَضَى الجُودُ والنَّدَىٰ وأَصْبَحَ عِرنينُ المَكَارِمِ أَجْدَعَا

فأطرق الحسين، ثم قال: يا أمير المؤمنين، وهل مَعْنٌ إلا حسنة من حسناتك ؟! فرضى عنه، وأمر له بألف دينار .

* * *

خلافة الهادي(١)

موسى بن المهدى محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم. كان شجاعًا كريمًا، وكان فى صغره لا يزال فاتحًا فمه خلقةً، فوكل أبوه غلامًا ينبهه على إطباق فمه كلما رآه فاتحه، فيقول له: موسى أَطبقْ، فكان يقال له لذلك فى صغره موسى أطبق.

كانت ولادته سنة ست وأربعين ومائة. وقال سلم الخاسر جامعًا بين التهنئة للهادى بالخلافة والعزاء بأبيه المهدى محمد فقال: [من الطويل]

لَقَدْ قَامَ مُوسَىٰ بِالخِلَافَةِ والهُدَىٰ ... وَمَاتَ أَميرُ المؤمنين مُحَمَّدُ
فَمَاتَ الذى عَمَّ البريَّة فَقْدُهُ ... وقَامَ الذى يَكْفِيكَ مَنْ تتفقَّدُ

وقال مروان بن أبى حفصة: [من الطويل]

لَقَدْ أَصْبَحَتْ تختالُ فى كُلِّ بلدةٍ ... بقَبْرِ أميرِ المؤمنينَ المَقَابِرُ
ولو لم تُسَكَّنْ بابنه بَعْدَ موتِهِ ... لَمَا بَرِحَتْ تَبْكِى عَلَيْهِ المنابرُ
ولو لم يَقُمْ موسَىٰ عليهَا لَرَجَّعَتْ ... حَنِينًا كَمَا حَنَّ الصفايا العَشَائِرُ

بويع بالخلافة بعد موت أبيه، وكان الهادى مقيمًا بجرجان يحارب أهل طبرستان، وكان الرشيد لما توفى المهدى والعسكر معه بماسبذان، نادى فى الناس بالعطاء؛ تسكينًا لهم وقسم فيهم، فلما استوفوها، تنادوا بالرجوع إلى بغداد، وتسابقوا إليها، واستيقنوا موت المهدى، فأتوا باب الربيع وأحرقوه وطالبوه بالأرزاق وفتقوا السجون، وقدم الرشيد بغداد فى أثرهم، فبعثت الخيزران إلى الربيع ويحيى، فامتنع يحيى خوفًا من غيرة الهادى، وأمر الربيع بسنتين للجند فسكنوا، وكتب الهادى إلى الربيع يتهدَّده، فاستشار يحيى فى أمره، وكان يثق بوده، فأشار عليه بأن يبعث ابنه الفضل يعتذر عنه ويصحبه الهدايا واللطف، ففعل، فرضى الهادى عنه،

(١) ينظر [الهادى] فى: شذرات الذهب ١/٢٦٦ - ٢٧١، تاريخ الخلفاء ٢٧٩ وما بعدها، العبر للذهبى ١/٢٥٧، تاريخ بغداد ١٣/٢١ - ٢٥، الوزراء والكتاب ١٦٧ - ١٧٥، مروج الذهب ٣/ ٣٣٤، البداية والنهاية ١٠/ ١٣١، المعارف ٣٨٠ - ٣٨١، سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٤١، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٢١٤ - ٢١٧، مرآة الجنان ١/٣٥٨، خلاصة الذهب المسبوك ١١٣ - ١١٥، البدء والتاريخ ٦/٩٩، العقد الفريد ١/ ١٨٠، المحبّر ٣٧، تاريخ اليعقوبى ٢/٣٨٦، الأخبار الطوال ٣٨٦، الفتوح لابن أعثم ٨/٢٤١، الطبرى ٨/ ٦٠، أنساب الأشراف ٣/ ٩٥، نسب قريش ٥٤ .

فأخذت البيعة ببغداد للهادى، وكتب الرشيد بذلك إلى الآفاق، وبعث نصر إلى الهادى بجرجان، فركب البريد إلى بغداد.

قال الصولى: ولا يعرف خليفة رَكِبَ خيل البريد إلا الهادى من جرجان إلى بغداد، فقدمها فى عشرين يومًا، واستوزر الربيع، وهلك لمدة قليلة من وزارته، واشتد الهادى فى طلب الزنادقة وقتلهم.

وفى سنة تسع وستين: كان ظهور حسين المقتول بفخ، وهو الحسين بن على بن الحسن بن [الحسن بن](١) الحسن بن على بن أبى طالب، وقصته معروفة(٢).

وكان للهادى بغض بالرشيد بما كان المهدى أبوهما يؤثره عليه أخيرًا، وكان رأى أنه دفع إليهما قضيبين، فأورق قضيب الهادى من أعلاه، وأورق قضيب الرشيد كله، وتأول ذلك بقصر مدة الهادى وطول مدة الرشيد وحسنها، فلما ولى الهادى أجمع على خلع أخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر بن الهادى مكانه، وفاوض فى ذلك قُوَّاده، فأجابه إلى ذلك يزيد بن مزيد، وعلى بن عيسى، وعبد الله بن مالك، ووضع الشيعة على الرشيد ينتقصونه، ويقولون: لا نرضى به، ونهى الهادى أن يسار بين يديه بالحربة، فاجتنبه الناس، وكان يحيى بن خالد يتولَّى أموره، فاتهمه الهادى بمداخلته، وبعث إليه وتهدده، فحضر عنده مستميتًا وقال: يا أمير المؤمنين، إن حملت الناس على نكث الأيمان فيه، هانت عليهم فيمن توليه، وإن بايعت لجعفر بعده، كان ذلك أوثق للبيعة، فصدقه وكف عنه، وعاد أولئك الذين خلعوه من القواد والشيعة فأغروه بيحيى، وأنه الذى منع الرشيد من خلع نفسه، فحبسه الهادى، فطلب الحضور للنصيحة، فأحضره من الحبس، فقال: يا أمير المؤمنين، أتظنُّ الناس يسلمون الخلافة لابنك جعفر وهو صبيٌّ، ويرضون به لصلاتهم وحَجِّهم وغزوهم، وتأمن أن يسمو إليها عند ذلك أهل بيتك، فتخرج من ولد أبيك، والله، لو لم يعقده له المهديُّ، لكان ينبغى أن تعقده أنت له حذرًا من ذلك، إنى أرى أن تقر العهد لأخيك، فإذا بلغ ابنك، أتيتك بأخيك فخلع نفسه وبايع له، فقبل الهادى قوله وأطلقه.

---

(١) المثبت من تاريخ الإسلام، والبداية والنهاية.

(٢) تنظر قصته فى: تاريخ الطبرى (٨/ ١٩٢ - ١٩٣) وتاريخ الإسلام حوادث سنة تسع وستين ومائة، والبداية والنهاية (١٠/ ١٦٨).

ولم يقنع القواد ذلك؛ لأنهم كانوا حذرين من الرشيد، فأرسل إلى الرشيد وضيق عليه، واستأذنه فى الصيد، ومضىٰ إلى قصر مقاتل، فنكره الهادى وأظهر جفاءه، وبسط الموالى فيه ألسنتهم، ثم خرج الهادى إلى حديثة الموصل، فاشتد مرضه هنالك، واستقدم العمال شرقًا وغربًا.

ولما ثقل، تآمر القوم الذين بايعوا جعفرًا فى قتل يحيى بن خالد، ثم أمسكوا خوفًا من الهادى، ثم توفى الهادى فى شهر ربيع سنة سبعين ومائة، وقيل: إنما توفى بعد أن عاد من حديثة الموصل.

ويقال: إن أمه الخيزران دسَّت بعض الجوارى عليه، فقتلنه؛ لأنها كانت أول خلافته تستبد عليه بالأموال، فعكف الناس على بابها، واختلفت المواكب إليها، فوجد الهادى من ذلك، فكلمته يومًا فى حاجة فلم يجبها، فقالت: قد ضمنتها لعبد الله بن مالك، فغضب الهادى وشتمه وحلف لا قضيتها، فقامت وهى مغضبة، فقال: مكانك، والله، وإلا انتفيت من قرابتى من رسول الله ﷺ، لئن بلغنى أن أحدًا من قُوَّادى وخاصَّتى وقف ببابك، لأضربن عنقه، ولأقبضنَّ ماله. ما للمواكب تغدو وتروح عليك، أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك ؟! إياك إياك، لا تفتحى بابك لمسلم ولا ذمى، فانصرفت وهى لا تعقل. ثم قال لأصحابه: أيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه؛ فيقال: فعلت أم فلان، وصنعت ؟ ! فقالوا: لا نحب ذلك، قال: فما بالكم تأتون أمى، فتتحدَّثون معها؟![1]

ويقال: إنه لمَّا جَدَّ فى خلع الرشيد، خافت عليه منه، فلما ثقل فى مرضه، دسَّت بعض الجوارى، فجلس على وجهه، فمات.

وحكى فى بغية الخاطر: أن الهادى كان يدور يومًا فى بستانه ومعه خواصُّه، وهو راكب على حمار، وليس معه سلاح، فدخل عليه حاجبه، فأخبره أن رجلًا من الخوارج جيء به أسيرًا، وكان الهادى حريصًا على الظفر به، فأمر بإدخاله، فأدخل بين رجلين قد أمسكا بيديه، فلما رأى الخارجيُّ وجه الهادى، جذب يديه من

(١) ينظر: تاريخ الطبرى (٨/ ٢٠٥)، والكامل فى التاريخ (٦/ ٩٩)، ودول الإسلام (١/ ١١٣)، وتاريخ الإسلام حوادث سنة سبعين ومائة .

الرجلين، واخترط سيف أحدهما، ووثب نحو الهادى، فلما رأى ذلك من حول الهادى، فروا جميعًا، وبقى الهادى وحده، وثبت على حماره بركابه وعزم، حتى إذا قرب الخارجيُّ منه وكاد أن يعلوه بالسيف، قال الهادى: اضرب عنقه يا غلام، فالتفت الخارجيُّ حين سمع ذلك وهمًا منه، فوثب الهادى عن حماره، وانتزع السيف من يده، فذبحه به ذبحًا، ثم عاد على ظهر حماره من فوره، وتراجع إليه حاشيته، وقد ملئوا رعبًا وجبنًا، فما خاطبهم فى ذلك بكلمة واحدة، ولم يكن بعد ذلك يفارقه السيف ولا يركب إلا الخيل[١].

وفى مروج الذهب[٢]: أنه رفع إلى الهادى أن رجلاً من بلاد المنصورة من أرض السند من أشرافهم ربى غلامًا سنديًا [أو هنديا][٣]، وأن الغلام هوى مولاته، فراودها عن نفسها فأجابته، فدخل مولاه، فوجدها معه، فَجَبَّ ذكر الغلام [وخصاه][٤]، ثم عالجه إلى أن برئ، فأقام مدة، وكان لمولاه ابنان، فصعد بهما الغلام السندى إلى أعلى سور الدار، فرأى سيده ابنيه مع الغلام، فقال: يا غلام، عرَّضْتَ ابنيَّ للهلاك، فقال الغلام: دع عنك هذا، فوالله لئن لم تَجُبَّ نفسك بحضرتى الآن لأرمينَّ بهما، فقال: الله الله فيَّ وفى ابنيَّ! فقال الغلام: دع عنك هذا، فوالله ما هى إلا نفسى، وإنى لأسمح بها من شربة ماء. فأهوى ليرمِيَ بهما، فأسرع مولاه فأخذ المدية، فَجَبَّ نفسه، فلما رأى الغلام أنه قد فعل، رمى بالصبيين فتقطَّعا، ثم قال: هذا الذى فعلْتُ بفعلك فيَّ، وقتل هذين الولدين زيادة، فأمر الهادى [بالكتاب إلى صاحب السند][٥] بقتل الغلام السندى وتعذيبه بأنواع العذاب، وأمر بإخراج كل سندى من مملكته، فَرَخُصُوا فى أيامه حتى كانوا يتداولون فى ذلك الزمان بأبخس ثمن، وقد قيل فى مثل هذا المعنى: [من البسيط]

لاَ تأمَنَنَّ فتًى أسكَنْتَ مهجَتهُ غَيْظًا وتَحْسِبُ أن الغَيْظَ قد ذَهَبَا
لاَ تقطَعَنْ ذَنَبَ الأفعَىٰ وتُرْسِلُهَا إنْ كُنْت شَهْمًا فَأَتْبِعْ رأْسَهَا الذَّنَبَا

---

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٣٣٥).
(٢) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٣٣٥، ٣٣٦).
(٣) المثبت من مروج الذهب.
(٤) المثبت من مروج الذهب.
(٥) المثبت من مروج الذهب.

وفى العقد لابن عبد ربه[١]: ذكر عن عبد الله بن الضحاك، عن الهيثم بن عدى قال: إن سيف ابن معدى كرب الزبيدى البطل المشهور المسمى بالصمصامة دخل فى يد المهدى، فأعطاه لولده الهادى، فأخرج ذلك السيف الهادى يومًا فى مجلسه، ووضعه بين يديه، ودعا بمكتل دنانير، وقال لحاجبه: ائذن للشعراء، فلما دخلوا، أمرهم أن يقولوا فى السيف، فبدأهم ابن يامين البصرى فقال: [من الخفيف]

حَازَ صمصامَةَ الزبيديِّ مِنْ دُو[٢] ... نِ جَمِيعِ الأَنَامِ مُوسَى الأَمِينُ
سَيْفَ عَمْرٍو وكَانَ فيما سَمِعْنَا ... خَيْرَ ما أُغْمِدَتْ عليه الجُفُونُ
أَخْضَرُ المَتْنِ بين خَدَّيْهِ نُورٌ ... مِنْ فِرِنْدٍ تَمِيدُ فيه العُيُونُ
أَوْقَدَتْ فوقه الصواعِقُ نارًا ... ثم ساطَتْ بِهِ الذُّعَاف المَنُونُ[٣]
فإذا ما سَلَلْتَهُ بَهَرَ الشمْـ ... سَ ضياءً فلم تَكُنْ تَسْتَبِينُ
وكأَنَّ الفِرِنْدَ والرونَقَ الجَا ... رِيَ فِى صَفْحَتَيْهِ مَاءٌ مَعِينُ
وكأَنَّ المَنُونَ نِيطَتْ إِلَيْهِ ... فَهْوَ فى كُلِّ جانِبَيْهِ منونُ
ما يُبَالِى مَنِ انتضَاهُ لِحَرْبٍ ... أَشِمَالٌ سَطَتْ به أَمْ يَمِينُ

فقال الهادى: دونك السيف والمكتل فخذْهُمَا. ففرق ابن يامين المكتل والدنانير على الشعراء، وقال: فى السيف عوضٌ، ثم انصرف، فبعث إليه الهادى فاشترى منه السيف بخمسين ألف دينار، هكذا هكذا.

قلت: وتعجبنى أبيات أربعة لابن الرومى فى وصف السيف حيث يقول: [من الخفيف]

خَيْرُ ما اسْتَعْصَمَتْ بِهِ الكَفُّ غضبٌ ... ذَكَرٌ جسُّهُ أَنِيثُ المَهَزِّ
مَا تَأَمَّلْتَهُ بِعَيْنَيْكَ إلاَّ ... أرعدتْ صَفْحَتَاهُ من غَيْر هَزِّ
مِثْلُهُ أَفْزَعَ الشجَاعَ إِلى الدِّرْ ... عِ فَغَالَىٰ بِهِ عَلَىٰ كُلِّ بَزِّ
مَا يُبَالى أَصممت شَفْرَتَاهُ ... فى مَحَزٍّ أم جَازَتَا عَنْ مَحَزِّ

قال الحافظ الذهبى[٤]: وعن مصعب الزبيرى، عن أبيه قال: دخل مروان بن أبى

(١) ينظر: العقد الفريد (١/ ١٥٣).
(٢) فى العقد الفريد: عمرو.
(٣) فى العقد الفريد: القيون. والذعاف: السم.
(٤) ينظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٤٢)، تاريخ بغداد (١٣/ ٢٣)، البداية والنهاية (١٠/ ١٥٩)، وفيات الأعيان (٥/ ١٩٠).

حفصة الشاعر على الهادى بن المهدي فأنشده قصيدة: [من الطويل]

تَشَابَهَ يَوْمَا بَأْسِهِ وَنَوَالِهِ فَمَا أَحَدٌ يَدْرِى لِأَيِّهِمَا الفَضْلُ
أَيَوْمُ عَطَاهُ الجَمِّ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ ... ...

فلما فرغ من إنشادها، قال له: أيما أحب إليك، ثلاثون ألفًا معجلة، أم مائة ألف تدون فى الدواوين ؟ فقال مروان: تعجل الثلاثون ألفًا، وتدوَّن المائة ألف؛ فتلك من الهادى قليل. قال الهادى: بل يعجَّلَانِ لك جميعًا، احملوا إليه مائة وثلاثين ألفًا.

قال نفطويه: قيل: إن الهادى قال لإبراهيم الموصلى: إن أطربتني فاحتكم، فغنَّاه: [من الهزج]

سُلَيْمَىٰ أَزْمَعَتْ بَيْنَا فَأَيْنَ لِقَاؤُهَا أَيْنَا

فى أبيات يسيرة، فأعطاه سبعمائة ألف درهم.

قال الذهبى(١): كان الهادى يتناول المسكر، ويلعب، ويركب حمارًا فارهًا - يعنى قبل تلك الواقعة التى ذكرتها قريبًا - وكان فصيحًا قادرًا على الكلام، أديبًا تعلوه هيبة، وله سطوة وشهامة، وكان طويلاً جسيمًا أبيضَ، شفته العليا تقلص؛ فلا يزال مفتوح الفم، فوكل به أبوه خادمًا كلما رآه مفتوحَ الفم قال له: « موسى أطبق »، فيفيق على نفسه، ويطبق شفتيه؛ كما تقدم ذكر ذلك.

مات فى ربيع الآخر سنة سبعين ومائة وسِنُّهُ ثلاث وعشرون سنة، ومدة خلافته سنة وشهران.

وقيل فى سبب موته غير ما تقدَّم؛ وهو أنه دفع نديمًا له من جرف على أصول قصب قد قطع، فتعلَّق النديم به فوقع، فدخلت قصبة فى مخرجه، فكانت سبب موته، فماتا جميعًا(٢).

* * *

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٤٢).

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٤٢)، وفي موته أخبار أخرى. ينظر: الطبري (٨/ ٢٠٥) وما بعدها.

خلافة هارون الرشيد(١)

ابن المهدى بن المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، وكان فصيحًا بليغًا يحجُّ عامًا ويغزو عامًا، وربما جمع بينهما فى عام واحد، ويصلى كل يوم مائة ركعة لا يتركُهَا إلا لعلة، ويتصدق كل يوم بألف درهم، ويحب العلماء، ويظهر حرمات الإسلام، ويتفقد الصلحاء، ومع ذلك كان منهمكًا فى اللهو، وله فى ذلك نوادر وحكايات لا تحصر بحدٍّ، ولا تحصى بعَدٍّ.

بويع ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، سنة مات أخوه الهادى سنة سبعين ومائة، وولد له المأمون فيها، وكانت ليلة عجيبة، فيها وفاة خليفة، وولاية خليفة، وولادة خليفة.

ولما بويع الرشيد استوزر يحيى بن خالد البرمكى، فقال إبراهيم الموصلى: [من الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشمْسَ كانَتْ مريضَةً(٢) فلمَّا أَتَىٰ هارُونُ أَشْرَقَ نُورُهَا
تَلَبَّستِ الدُّنْيَا جَمَالاً بِمُلْكِهِ(٣) فَهَارُونُ وَالِيهَا وَيَحْيَىٰ وَزِيرُهَا

فأعطاه هارون مائة ألف، وأعطاه يحيى خمسين ألفًا.

وكان يحيى يصدر عن رأى الخيزران أم الرشيد، ولداود بن رزين الواسطى قوله فيه: [من الطويل]

بِهَارُونَ لَجَّ(٤) النُّورُ فِى كُلِّ بلدةٍ وقامَ بِهِ فى عَدْلِ سِيرَتِهِ النَّهْجُ

---

(١) ينظر [هارون الرشيد] فى: شذرات الذهب ١/ ٣٣٤، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٢١٧، أخبار الدول للقرمانى ١٤٩، تاريخ الخلفاء ٢٨٣، النجوم الزاهرة ٢/ ١٤٢، سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٨٦، دول الإسلام ١/ ١١٣، الكامل لابن الأثير ٦/ ١٠٦، وفيات الأعيان ١/ ٣٣١ - ٣٣٩، خلاصة الذهب المسبوك ٧٧ و٩٩، سراج الملوك ٥١، تاريخ بغداد ١٤/ ٥ - ١٣ رقم ٧٣٤٧، الفتوح لابن أعثم ٨/ ٢٤٣ - ٢٨٦، عيون الأخبار ١/ ١٧، البدء والتاريخ ٦/ ١٠١ - ١٠٧، نثر الدر ٢٩ - ٣٧، تاريخ خليفة ٤٣٧، أنساب الأشراف ٣/ ٩٤، تاريخ الطبرى ٨/ ٢٣٠، المعارف ٣٨١، الأخبار الطوال ٣٨٦، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٣٨٧، المعرفة والتاريخ ١/ ١٦١ .

(٢) فى تاريخ الطبرى: سقيمة .

(٣) ويروى هذا الشطر فى تاريخ الطبرى هكذا: بيمن أمين الله هارون ذى الندى: . . .

(٤) فى تاريخ الطبرى: لاح .

إمامٌ بِذَاتِ الله أَصْبَحَ شُغْلُهُ فأَكْثَرُ مَا يُعْنَى به الغَزْوُ والحَجُّ
تَضِيقُ عيونُ الخَلْقِ عن نُورِ وَجْهِهِ إذا ما بَدَا لِلنَّاسِ مَنْظَرُهُ البلْجُ
تَفَسَّحَتِ الآمالُ فِي جُودِ كَفِّهِ وَأَعْطى الذى يرْجُوهُ فَوْقَ الذى يَرْجُو[(١)]

وفى سنة خمس وسبعين ومائة: كان خُرُوجُ يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى فى الديلم، وهو أخو المهدى محمد الملقب بالنفس الزكية، واشتدت شوكته، وكثر جمعه، وأتاه الناس من الأمصار، فندب إليه الرشيد الفضل بن يحيى فى خمسين ألفًا، وولاه جرجان وطبرستان والرى، وما يليها وحمل معه الأموال، فسار ونزل بالطالقان، وكاتب يحيى وحذره وبسط أمله، وكتب إلى صاحب الديلم فى تسهيل أمر يحيى على أن يعطيه ألف ألف درهم، فأجاب يحيى على الأمان بخط الرشيد وشهادة الفقهاء والقضاة وجلة بنى هاشم ومشايخهم، وعين عبد الصمد بن على أن يكون منهم، فكتب له الرشيد بكل ما أحبَّ وأفاضَ عليه العطاء، وعظُمَتْ منزلة الفضل عنده. ثم إن الرشيد حبس يحيى إلى أن هلك فى محبسه[(٢)].

وفى سنة ست وثمانين: حج الرشيد، فسار من الأنبار ومعه أولاده الثلاثة: محمد الأمين، وعبد الله المأمون، والقاسم الملقب بالمؤتمن، وكان قد ولى الأمين العهد، وولاه العراق والشام إلى آخر المغرب، وولى المأمون العهد بعده وسلم إليه من همدان إلى آخر المشرق، وبايع لابنه القاسم بعد موت المأمون، ولقبه المؤتمن، وجعل خلعه وإثباته للمأمون، وضم إليه الجزيرة والثغور والعواصم، ومَرَّ بالمدينة فأعطى فيها ثلاثة أعطية: عطاء منه، وعطاء من الأمين، وعطاء من المأمون، فبلغ ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، ثم سار إلى مكة، فأعطى مثلها، وأحضر الفقهاء والقضاة والقواد، وكتب كتابًا أشهد فيه على الأمين بالوفاء للمأمون، وآخر على المأمون بالوفاء للأمين، وعلَّق الكتابين فى الكعبة الشريفة، وجدَّد عليهما العهود بذلك، قال إبراهيم الحجبي: لما أردت تعليق كتاب العهد بالكعبة، سقط منى المعلاق؛ فكان فألاً بسرعة نقضه.

---

(١) رواية هذا البيت فى الطبرى هكذا:

وإن أمين الله هارون ذا الندى ينيل الذى يرجوه أضعاف ما يرجو

(٢) ينظر تاريخ الطبرى (٨/٢٤١ - ٢٤٤) الكامل فى التاريخ (٦/ ١٢٢ - ١٢٥) تاريخ ابن خلدون (٣/ ٢١٨)، تاريخ الإسلام حوادث سنة خمس وسبعين ومائة .

ولما صير الرشيد ولده الأمين ولى عهده بعهده، قال سلم الخاسر قصيدة فى ذلك يقول فيها: [من الكامل]

قُلْ للمنازلِ بالكَثِيبِ الأَعْفَرِ سُقِّيتِ غَادِيَةَ السماءِ المُمْطِرِ
قَدْ بايَعَ الثَّقَلاَنِ مَهْدِيَّ الهُدَىٰ لمحمدِ ابنِ زُبَيْدَةَ ابْنَةِ جَعْفَرِ
قَدْ وَفَّقَ اللَّهُ الخليفَةَ إِذْ بَنَىٰ بَيْتَ الخلافةِ لِلْهِجَانِ الأَزْهرِ
فَهُوَ الخليفَةُ عَنْ أَبِيهِ وَجَدِّهِ شَهِدَا عليه بِمَنْظَرٍ وبِمَخْبَرِ

فحشت زبيدة فاه جواهر، قيل: باعة بعشرين ألف دينار.

قلت: ومن شعر سلم قوله: [من مخلّع البسيط]

بَانَ شَبَابِي فَمَا يَحُورُ وطَالَ مِنْ لَيْلِيَ القَصِيرُ
أَهْدى لِيَ الشَّوْقَ وَهْوَ حُلْوٌ أَغَنُّ فِى طَرْفِهِ فُتُورُ
وَقَائِلٍ حِينَ شَبَّ وَجْدِي وَاشْتَعَلَ المُضْمَرُ السَّتِيرُ
لَوْ شِئْتُ أَسْلاَكَ عَنْ هَوَاهُ قَلْبٌ لِأَشْجَانِهِ ذَكُورُ
فَقُلْتُ لا تَعْجَلَنْ بِلَوْمِي فَإِنَّمَا يُنْبِئُ الخَبِيرُ
عَذَّبَنِى والهَوَىٰ صَغِيرُ فَكَيْفَ بِى والهَوَىٰ كَبِيرُ
مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الجَسُورُ

وسلم هذا اسمه: سلم بن عمرو البصرى أحد الشعراء المحسنين، وهو غلام بشار بن برد، مدح المهدى والرشيد والبرامكة، وكان عاكفًا على المعاصى، ثم تزهد وتنسك مدةً مديدة، ثم مرق وعاد إلى اللهو وباع مصحفه، واشترى بثمنه ديوان شعر، فلقب لذلك « الخاسر ».

ومن غريب ما اتفق لهارون الرشيد: أن أخاه موسى الهادى لما ولي الخلافة قبله، سأل عن خاتم عظيم القدر كان لأبيه المهدى، فبلغه أن الرشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع فألحَّ عليه فيه، فشقَّ على الرشيد أخذه، فطلبه ومر على جسر بغداد فرماه فى دجلة، فلما مات الهادى وولى الرشيد الخلافة، أتى إلى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم رصاص، فرماه فيه، وأمر الغطاسين أن يلتمسوه ففعلوا، فاستخرجوا الخاتم الأول، فعد ذلك من سعادة الرشيد.

وفى سنة سبع وثمانين: كانت نكبة الرشيد بالبرامكة.

اعلم أن البرامكة يقال: أصلهم من جيل من العجم كانوا مجوسًا، وأولهم فى التقرب إلى الخلفاء خالد بن برمك، وكان من كبار الشيعة، وله قدم راسخ فى الدولة، وكان يلى الولايات العظام: ولاه المنصور على الموصل وأذربيجان، وولى ابنه يحيى على أرمينية، ووكله المهدى بكفالة الرشيد، فأحسن تربيته، ودفع عنه أخاه الهادى، لما أراده على الخلع وتولية ابنه العهد، وحبسه الهادى لذلك، فلما ولى الرشيد، استوزر يحيى، وفوض له أمور ملكه، وكان أولاً يصدر عن رأى الخيزران أم الرشيد، ثم استبدَّ بالرأى فى الدولة، وكان بيتهم معمورًا بالرجال من العمومة والقرابة، وكان بنوه جعفر والفضل ومحمد قد ساهموا أباهم فى حمل الدولة، واستولَوْا على حظٍّ من تقريب السلطان واستخلاصه، وكان الفضل أخا للرشيد من الرضاع؛ أرضعت أمه الرشيد وأرضعته الخيزران، وكان يخاطب يحيى يا أبت، واستوزر الفضل وجعفرًا، وولى جعفر على مصر وخراسان، وبعث الفضل لاستنزال يحيى بن عبد الله العلوى من الديلم، ودفع ولده المأمون لما ولاه العهد إلى كفالة جعفر بن يحيى؛ فحسنت آثارهم فى ذلك كله، ثم عظم سلطانهم واستيلاؤهم على الدولة، وكثرت السعاية فيهم، وعظم حقد الرشيد على جعفر منهم. فلما كثرت فيهم السعاية بسبب استيلائهم على الخليفة فمن دونه، تحيل أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالاً على إسماعه للخليفة، ولتحريك حفائظه عليهم، ومن ذلك بيتان هما: [من الرمل]

لَيْتَ هِنْدًا أنجزتْنَا ما تَعِدْ وشَفَتْ أَنْفُسَنَا ممَّا نَجِدْ
واستَبَدَّتْ مَرَّةً واحدة إنما العَاجِزُ مَنْ لا يَسْتَبِدّ

فلما سمعها الرشيد قال: إى والله عاجز، فبعثوا بذلك كامن غيرته، وسلَّطوا عليه انتقامه؛ نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال؛ ذكر هذا ابن عبد ربه القرطبى فى «العقد»، فتنكر لهم الرشيد.

ودخل عليه يومًا يحيى بن خالد بغير إذن، فأنكر ذلك عليه، وخاطب طبيبه جبريل بن بختيشوع منصرفًا به عن مواجهته، وكان حاضرًا، فقال يحيى: أما هى عادتى يا أمير المؤمنين، وإذ قد نكرت منى، فسأكون فى الطبقة التى تجعلنى فيها، فاستحيى هارون وقال: ما أردت ما تكره.

وكان الغلمان يقومون بباب الرشيد، يعنى: إذا دخل يحيى، فتقدم لهم مسرور الخادم بالنهى عن ذلك؛ فصاروا يعرضون عنه إذا أقبل، وأقاموا على ذلك زمانًا، فلما حج الرشيد سنة سبع وثمانين، ورجع من حجه، ونزل الأنبار، أرسل مسرورًا الخادم فى جماعة من الجند ليلاً، فأحضروا جعفرًا بباب الفسطاط، وأعلم الرشيد، فقال: ائتنى برأسه، فطفق جعفر يتذلل ويسأل مسرورًا المراجعة فى أمره؛ فدخل إلى الرشيد يكلِّمه فيه؛ فحذفه الرشيد بِعَصًا كانت فى يده وتهدده، فخرج وأتاه برأسه، وحبس يحيى وابنه الفضل من ليلته وبعث من احتاط على منازل يحيى وولده وجمع موجودهم، وكتب فى ليلته إلى سائر النواحى بقبض أموالهم ورقيقهم، وبعث من الغد بشلو جعفر، وأمر بأن يقسم بقطعتين، وينصبا على الجسر، وأعفى محمد بن خالد من النكبة، ولم يضيق على يحيى وابنه الفضل.

قال فى المروج(١): واختلف فى سبب إيقاعه بهم، فأما الظاهر: فاحتجار(٢) الأموال؛ فإنهم كانوا ليس للرشيد معهم أمرٌ، حتى كان يحتاج لليسير من المال؛ فلا يقدر عليه.

وقيل: إن سبب ذلك أن الرشيد لما وجه يقطين بن موسى إلى إفريقية لإصلاحها، وكان يقطين من كبار الشيعة، وممن كان مع إبراهيم الإمام فقال: يا أمير المؤمنين، اكشف لى عن جسدك أقبله؛ لأكون قبلت بضعة من رسول الله ﷺ، ثم قال: يا أمير المؤمنين، حدثنى مولاى إبراهيم الإمام أن الخامس من خلفاء بنى العباس تغدر به كُتَّابه، فإن لم يقتلهم قتلوه، فقال له الرشيد: آلله، حدثك الإمام بهذا ؟ قال: نعم، فكان ذلك السبب فى قتلهم؛ لأنه هو الخامس من خلفاء بنى العباس.

وقيل: إن سبب قتل جعفر أنه رفع إلى الرشيد رقعة لم يدر رافعها، وفيها: [من السريع]

قُلْ لأمِينِ اللَّهِ فِى أَرْضِهِ ... ومَنْ إِلَيْهِ الحَلُّ والعَقْدُ
هذا ابْنُ يَحْيَى قد غَدَا مَالِكًا ... مِثْلَكَ ما بَيْنَكُمَا حَدُّ

(١) ينظر مروج الذهب للمسعودى ٣/ ٣٧٧ .
(٢) فى المروج: احتياز .

أَمْـرُكَ مَـرْدُودٌ إِلَـىٰ أَمْـرِهِ وَأَمْـرُهُ لَـيْـسَ لـه رَدُّ
وقَدْ بَنَى الدَّارَ التى ما بَنَىٰ مِثَالَهَا الفُرْسُ ولا الهِنْدُ
أَلدُّرُّ والياقُوتُ حَصْبَاؤها وتُرْبُهَا العَنْبَرُ والنَّدُّ
ونَحْنُ نخْشَىٰ أنه وَارِثٌ مُلْكَكَ إِنْ غَيَّبَكَ اللَّحْدُ
ولَنْ يُبَاهِي العَبْدُ أربابَهُ إلاَّ إذا ما بَطَرَ العَبْدُ

فلما وقف عليها الرشيد أوقع به.

وقيل: سببه أن الرشيد لما استنزل يحيى بن عبد الله العلوى عند جعفر، وكان يخافه على الخلافة، وكان جعفر يرى سرور الرشيد بموت من يموت فى حبسه من هؤلاء الأصناف، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن يحيى بن عبد الله قد مات، فَسُرَّ سرورًا، وأخبر أباه يحيى بذلك، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، إن تركناه تلفنا، وإن قتلناه فالنار لنا. ثم خيل له أن كتب إلى على بن موسى بن ماهان والى خراسان، وكان متزوجًا بنت يحيى، فعرفه ما جرى، وفزع إليه فى أن يكون يحيى عنده مكرمًا إلى أن يقضى الله قضاءه، وكان الكتاب بخط يحيى، ولم يكن يحيى يعلم ما بين على بن عيسى وبين ولديه الفضل وجعفر من العداوة، فلما وصل الكتاب إلى على بن عيسى بن ماهان، وصل يحيى بن عبد الله قال: هذا من حيل الفضل وجعفر عليَّ، فأجاب يحيى بأنه يفعل ما أراد، وأنفذ الكتاب إلى الرشيد؛ فأعلمه أن يحيى بن عبد الله عنده، فكتب إليه الرشيد يحسن فعله ويعلمه فساد أمر البرامكة لديه، وأمره ببعث يحيى بن عبد الله إليه من غير أن يعلم أحدًا، فلما وصل يحيى إلى الرشيد، أوقع بالبرامكة بعد مدة من ذلك الوقت.

وقيل: أرادت البرامكة الزندقة وإفساد الملك، فقتلهم.

وقيل: سبب ذلك أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر، ولا عن أخته عباسة، ومتى غاب أحدهما عنه، لا يتم سروره، فقال لجعفر: أزوجكها ليحلَّ لك النظر إليها ولا تمسها، وكانا يحضران مجلسه، وربما فارقهما فيمتلئان من الشراب، وهما شابان، فجامعها جعفر، فحملت منه. وفى كمامة الزهر أن العباسة عشقت جعفرًا، فراودته، فأبى خوفًا على نفسه، ورأت أن النساء إلى الخديعة أقرب، فبعثت إلى أم جعفر عتابة، وكانت عتابة ترسل إلى ابنها فى كل جمعة بِكْرًا، وكان لا يطؤها حتى يأخذ

شيئًا من النبيذ، فقالت العباسة: أرسليني لجعفر كجارية من اللواتي ترسلينها إليه، فأبت، فقالت لها: إن لم تفعلي، أخبرت الرشيد أنك كلمتني في كيت وكيت، وإن اشتملتُ على ولد، زاد في شرف ابنك، وما عسى أن يفعل أخي بعد اشتمالي على ولد، فطمعت عتابة في ذلك ووعدت ولدها بجارية من هيئتها كذا وكذا، فطالبها جعفر بها، فمطلته أيامًا، ثم قالت للعباسة: تَهَيَّئِي في هذه الليلة ففعلت، وأدخلتها على جعفر، وكان لا يعرفها لأنه كان يجلس معها هو والرشيد، فلا يجسر أن يرفع طرفه إليها خوفًا، فلما قضى منها وطره، قالت له: كيف رأيت خديعة بنات الملوك، فقال: وبنت أي ملك أنت ؟ قالت: أنا مولاتك العباسة، فطار السكر من رأسه، وقال لأمه: بعتيني والله رخيصًا. فكان هذا هو السبب.

ويقال: إن علية بنت المهدي قالت للرشيد: ما رأيت لك يا سيدي يوم سرور منذ قتلت جعفرًا، فلأي شيء قتلته ؟ فقال لها: يا حياتي، لو علمت أن قميصي يعلم السبب، لأحرقته(١).

وفي ربيع الأبرار: لم أر أبر من الفضل بأبيه يحيى؛ بلغ من بره أنه لما كانا محبوسين، وكان يحيى لا يتوضأ إلا بماء مسخن، فمنع السجان الوقود في ليلة باردة، فلما أخذ يحيى مضجعه، قام الفضل إلى قمقم، فأدناه إلى المصباح فلم يزل قائمًا وهو في يده حتى أصبح، فتوضأ به أبوه يحيى، فشعر السجان بذلك، فلما كانت الليلة الثانية، غيب السجان المصباح، فبات الفضل متأبطًا القمقم، يدفئه لأبيه ليله أجمع.

ومات يحيى بالسجن في الرقة سنة تسع وثمانين ومائة بعد قتل جعفر بثلاث سنين؛ وبقي الفضل بعده في السجن، ثم مات، وكانت دولتهم منذ استخلف هارون إلى أن قتل جعفر سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يومًا.

وقد رثتهم الشعراء وأكثروا، ومن ذلك قول علي بن معاذ: [من السريع]

يَـاأَيُّـهَـا الـمُـغْـتَـرُّ بِـالـدَّهْـرِ ... وَالـدَّهْـرُ ذُو صَـرْفٍ وَذُو غَـدْرِ
إِنْ كُـنْـتَ ذَا جَـهْـلٍ بِـتَـصْـرِيـفِـهِ ... فَـانْـظُـر إِلَـى المَـصْـلُـوبِ بِـالجِسْرِ

---

(١) ينظر وفيات الأعيان (١/ ٣٣٦) نهاية الأرب (٢٢/ ١٤٣)، مرآة الجنان (١/ ٤١١)، الوافي بالوفيات (١١/ ١٦٣)، البدء والتاريخ (٦/ ١٠٥) .

فبينما جَعْفَرٌ فى مُلْكِهِ ... عشيَّةَ الجمعَةِ بالغَمْرِ
إذْ عَثَرَ الدهرُ به عثْرَةً ... يا وَيْلَتِى مِنْ عَثْرَةِ الدَّهْرِ

وقال سلم الخاسر: [من الطويل]

هَوَتْ أنجُمُ الجَدْوَى وشَلَّتْ يد النَّدَىٰ ... وغَاضَتْ بِحَارُ الجُودِ بَعْدَ البَرَامِكِ
هوتْ أنجُمٌ كانَتْ لآل ابْنِ بَرْمَكٍ ... بها يَعْرِف الجارِى قَوِيمَ المَسَالِكِ

وقال منصور النميرى: [من مخلع البسيط]

أُنْدُبْ بَنِى بَرْمَكٍ لِدُنْيَا ... تَبْكِى عَلَيْهِمْ بكُلِّ نَادِى
كانتْ بهِمْ بُرْهَةً عَرُوسًا ... فأضحَتِ الآنَ فِى حِدَادِ

وقال دعبل الخزاعى: [من الطويل]

ألم تر صَرْفَ الدّهْرِ فى آلِ بَرْمَكٍ ... وآلِ نهيكٍ والقُرُونِ الَّتى خَلَوْا
لقد غَرَسُوا غَرْسَ النخيلِ تكرُّمًا ... فما حصدُوا إلا كما تحصدُ البَقْلُ

وقال أبو عذرة الأعرابى: [من الخفيف]

ما رَعَى الدَّهْرُ آلَ بَرْمَكَ لَمَّا ... أَنْ رَمَىٰ ملكَهُمْ بأمْرٍ بديعِ
إنَّ دهرًا لم يَرْعَ حقًّا ليحيى ... غَيْرُ راعٍ حَقًّا لآلِ الرَّبِيعِ

قلت: آل الربيع هو حاجب هارون الرشيد، كأنه يهددهم بهذا القول ويخوفهم.

ولبعضهم: [من المديد]

يَا بَنِى بَرْمَكَ وَاهًا لَكُمْ ... ولأَيَّامِكُمُ المُقْبِلَهْ
كَانَتِ الدنيا عَرُوسًا بِكُمْ ... وَهِيَ اليَوْمَ عَجُوزٌ أَرْمَلَهْ

وفى ابن خلكان[١]: عن محمد بن عبد الرحمن الهاشمى، قال: دخلت على والدتى فى يوم عيد النحر[٢]، فوجدت عندها امرأة عجوزًا[٣] فى ثياب رثة، فقالت لى والدتى: أتعرف من هذه؟ قلت: لا، قالت: هذه عتابة أم جعفر البرمكى. فأقبلت عليها بوجهى وأكرمتها، وتحادثنا زمانًا، ثم قلت: يا أمه، ما أعجب ما رأيت؟ قالت: يا بنى، لقد أتى على هذا العيد وعلى رأسى أربعمائة وصيفة، وإنى أعد أن ابنى عاق لى، ولقد أتى على العيد اليوم وما مناى إلا جلد شاتين أفرش

(١) ينظر: وفيات الأعيان (١/ ٣٤١).
(٢) فى وفيات الأعيان: يوم نحر.
(٣) فى وفيات الأعيان: برزة.

أحدهما وألتحف بالآخر. قال: فدفعت لها خمسمائة دينار[١]، فكادت تموت فرحًا.

وههنا مكاتبة من يحيى بن خالد حال كونه فى السجن إلى الخليفة هارون نثر ونظم، أحببت ختم قصتهم بها، هى:

إلى أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، وخلف المهديين، وخليفة رب العالمين. من عَبْدٍ أسلمته ذنوبه، وأوبقته عيوبه، وخذله شقيقه، ورفضه صديقه، وزل به الزمان، وناح عليه الحدثان، فسار إلى الضيق بعد السعة، وعالج البؤس بعد الدعة، وافترش السخط بعد الرضى، واكتحل السهر، وافتقد الهجوع، فساعته شهر، وليلته دهر، قد عاين الموت، وشارف الفوت، جزعًا يا أمير المؤمنين، وحجة الله على فقدك لما أصيب به من بُعدك لا لمصيبتى بالحال والمال؛ فإنَّ ذلك كان بك ولك عارية فى يدى منك، ولا بد أن تستردَّ العوارى، فإن كانت المحنة فى جعفر، فبجرمه أخذته، وبجريرته عاقبته، وما أخاف عليك زلة فى أمره، ولا مجاوزة به فوق ما يستحقه، فاذكر يا أمير المؤمنين خدمتى، وارحم ضعفى وسنى، ووهن قوتى، وهب لى رِضًى عنى، فمن مثلى الزلل ومنك الإقالة، ولست أعتذر ولكنى أقرّ، وقد رجوت أن يظهر منك الرضى من وضوح عُذْرى، وصدق قولى، وظاهر طاعتى ومليح حجتى، ما يكتفى به أمير المؤمنين، ويرى الجلية فيه ويبلغ المراد منه، إن شاء الله تعالى.

ثم كتب تحتها شعرًا يقول: [من مجزوء الكامل]

قُلْ لِلْخَلِيفةِ ذى الصنَا ... ئِعِ والعطايا الفَاشِيَهْ
وابنِ الخلائفِ مِنْ قريْـ ... شٍ والملوكِ الهَادِيَهْ
رأسِ الملوك وخَيْرِ مَنْ ... ساسَ الأمورَ الماضيَهْ
إنَّ البرامكَةَ الذيـ ... ـن رُمُوا لَدَيْكَ بداهِيَهْ
عَمَّتْهُمُ لَكَ سخطةٌ ... لم تُبْقِ مِنْهُمْ باقِيَهْ
فَكأنَّهُمْ مما بِهِمْ ... أَعْجَازُ نَخْلٍ خاوِيَه
صُفْرُ الوجوهِ عَلَيْهِمُ ... خِلَعُ المذَلّةِ بادِيَهْ

(١) فى وفيات الأعيان: درهم.

مستضعفونَ مُطَرَّدُو نَ بكُلِّ أرضٍ قاصِيَهْ
من دون ما يَلْقَوْنَ مِنْ عَتْبٍ يشِيبُ النَّاصيَهْ
أضحَوْا وجُلُّ مناهُمُ منكَ الرضَا والعافِيهْ
بَعْدَ الوزارةِ والإما رةِ والأمورِ العاليَهْ
أُنظُرْ إلى الشيخِ الكبيـ ـر فنَفْسُهُ لك راجيَهْ
أوَ مَا سَمِعْتَ مقالتي يا ذا الفروعِ الزاكيَهْ
ما زلْتُ أرجو راحَةً فاليومَ حَانَ رجائيَهْ
اَلْيَوْمَ قد سَلَبَ الزما نُ كرامتي وبَهَائِيَهْ
ألقَى الزمَانُ جِرَانِيَهْ مستثبتًا بفنائيَهْ
ورمَى سواءَ مَقاتِلِي فأصاب حِينَ رمانيَهْ
يا مَنْ يَوَدُّ لِيَ الرَّدَيْ يكفيكَ ويَحْكَ ما بِيَهْ
يكفيكَ أنّي مستبا حٌ مَعْشَرِي ونِسَائِيَهْ
يكفيك ما أبْصَرْتَ مِنْ ذلي وذُلِّ مكانيَهْ
إن كان لا يَكْفِيكَ إلـ لاَ أنْ أذُوقَ حِمَامِيَهْ
فلقدْ رَأَيْتُ المَوْتَ مِنْ قبلِ المماتِ عَلاَنِيَهْ
وفُجِعْتُ أَعْظَمَ فجْعَةٍ وفَنِيْتُ قبْلَ فَنَائِيَهْ
أُنظُرْ بعينِكَ هَلْ تَرَىٰ إلاَّ قُصُورًا خاليَهْ
وذخائرًا موروثَةً قُسِّمْنَ قَبْلَ مَمَاتِيَهْ
ومصارعًا وفجائعًا ومصائبًا متواليهْ
أَخَلِيفَةَ اللَّهِ الرِّضَا لا تُشْمِتَنْ أعدائيَهْ
واذكُرْ مُقَاسَاتِي الأمُوْ رَ وخِدْمَتِي وعَنَائِيهْ
إِرْحَمْ جُعِلْتُ لك الفدا كِبَرِي وشِدَّةَ حَالِيَهْ
وارحم أخاكَ الفَضْلَ والْـ باقِينَ مِنْ أولادِيَهْ
أخليفةَ الرحمنِ إنْـ نَكَ لو رَأَيْتَ بَنَاتِيَهْ
وبُكَاءَ فاطمةَ الكبـ يرةِ والمَدَامِعَ جاريهْ
ومقالَهَا بتوجُّعٍ يا شِقْوَتِي وبَلاَئِيَهْ

ما لى وقد غَضِبَ الإما ... مُ عَلىَ جميع رِجَالِيَهْ
يا نظرةَ المَلِكِ الرِّضَا ... عـودى إلَـيْـنَـا ثَـانِـيَـهْ

فلما رأى الرشيد هذه الأبيات، وقَّع تحتها قوله: [من مجزوء الكامل]

أَجْرَى القَضَاءُ عَلَيْكُمُ ... مـا جِـئْـتُـمُـوهُ عَـلاَنِـيَـهْ
مِنْ تَرْكِ نُصْحِ إمامِكُمْ ... عـنـد الأُمُـورِ الـبَـادِيَـهْ
يـا آلَ بَـرْمَـكَ إنَّـمَـا ... كُـنْـتُـمْ مـلـوكًـا عـادِيَـهْ
فـكَـفَـرْتُـمُ وعَـصَـيْـتُـمُ ... وجـحـدتُّـمُ نَـعْـمَـائِـيَـهْ
هَذِى عُقُوبَةُ مَنْ عَصَىٰ ... مـعـبـودَهُ وعَـصَـانِـيَـهْ

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً. . . ﴾ الآية [النحل: ١١٢].

سأل الرشيد موسى الكاظم بن جعفر، فقال له: لم زعمتم أنكم أقرب إلى رسول الله ﷺ منا ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لو أن رسول الله ﷺ أنشر، فَخَطَبَ إليك هل كنت تجيبه ؟ فقال: سبحان الله، وكنت أفخر بذلك على العرب والعجم، فقال موسى: لكنه لا يخطب إليَّ ولا أزوِّجه؛ لأنه ولَدَنَا ولم يَلِدْكُمْ. ودخل عليه يومًا، فعثر بهدب البساط، فوقع، فضحك الرشيد، فالتفت إليه موسى فقال: يا أمير المؤمنين، إنه ضعف صوم، لا ضعف سكر.

وكان الرشيد قد حمل موسى معه سنة أن حَجَّ، حمله معه من المدينة إلى بغداد، وحبسه غير مضيق عليه إلى أن توفى.

قال الذهبى: بلغنا أنه بعث إلى الرشيد رسالة يقول: إنه لن ينقضى عنى يوم من البلاء إلا انقضى عنك معه يوم من الرخاء، ثم نقضى جميعًا إلى يوم ليس له انقضاء، يخسر فيه المبطلون(١).

قال عبد الرحمن بن صالح الأزدى: لما رأى الرشيد قبره - عليه الصلاة والسلام - فقال: السلام عليك يا رسول الله، يا ابن عم - يفتخر بذلك - فتقدَّم موسى بن جعفر فقال: السلام عليك يا أبت، فتغيَّر وجه الرشيد، وقال: هذا الفخر حقًّا، قال: ولعل الرشيد ما حمله إلى بغداد وحبسه إلا لقوله: السلام عليك يا أبتِ؛

(١) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبى حوادث سنة (٢٠٠هـ)، تاريخ بغداد ١٣/ ٣٢، صفة الصفوة ٢/ ١٨٧ .

فإن الخلفاء لا يحتملون مثل هذا[(١)].

حكى الإمام محمد بن ظفر قال: كان الرشيد مع ظلمه، وعظيم مُلْكه، وجبروته يعتريه خَوْفُ الله، فمن ذلك أن خارجيًا خرج عليه، فقتل أبطاله، وانتهب أمواله مرارًا، ثم إنه جهز إليه جيشًا كثيفًا، فقاتلوه فغلبوه بعد جهد، وأتوا به الرشيد، فجلس مجلسًا عامًا وأمر بإدخاله عليه، فلما مثل بين يديه قال: يا هذا، ما تريد أن أصنَعَ بك ؟ قال: ما تريدُ أن يَصْنَعَ الله بك إذا وقفْتَ بين يديه، فعفا عنه وأمر بإطلاقه.

فلما خرج، قال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، رجلٌ قَتَلَ أبطالك، وانتهب أموالك، تطلقه بكلمة واحدة ؟ هذا مما يُجَرِّئُ عليك أهلَ الشرِّ، فقال الرشيد: ردوه، فعلم الرجل أنه قد تكلَّم فيه، فقال: يا أمير المؤمنين، لا تطعهم، فلو أطاع الله الناس فيك، ما ولاك طرفة عين، قال: صدقت، ثم أمر له بصلة.

وفي كتاب روض الأخبار: أن الرشيد خرج إلى الصيد، فانفرد عن عسكره، والفضل بن الربيع خلفه، فإذا شيخ راكب على حمار، فنظر إليه، فإذا هو رطب العين، فغمز الفضل عليه، فقال له الفضل: أين تريد يا شيخ ؟ قال: حائطًا لي، فقال: هل أدلك على شيء تداوى عينيك، فتذهب هذه الرطوبة ؟ فقال الشيخ: ما أحوجني إلى ذلك، فقال له الفضل: خذ عيدان الهواء وغبار الماء وورق الكمأة، فصيره في قشر جوزة، واكتحل به؛ فإنه يذهب رطوبة عينيك. فاتكأ الشيخ على حلس حماره، وضرط ضرطة طويلة، ثم قال: هذه أجرة وصفك، فإن نفعنا الكحل زدناك، فضحك الرشيد حتى كاد أن يسقط [من] على ظهر فرسه.

قال النضر بن شميل إمام اللغة: حدثني الفراء، عن الكسائي، قال: دعاني الرشيد وليس عنده إلا حاشيته وابناه المأمون والأمين، فقال: يا علي، مازلت ساهرًا مفكرًا في معاني أبيات قد خفيت علي. قلت: إن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنيها، فأنشد: [من الرجز]

قد قُلْتُ قولاً للغُرَابِ إذْ حَجَلْ
عَلَيْكَ بالقُودِ المسانيفِ الأُوَلْ

(١) ينظر تاريخ الإسلام للذهبي حوادث سنة (٢٠٠هـ) تاريخ بغداد ١٣/ ٣١، الكامل لابن الأثير ٦/ ١٦٤، الأئمة الإثنا عشر ٩٠، ٩١ .

تَغَدَّ ما شِئْتَ عَلَىٰ غَيْرِ عَجَلْ

قلت: نعم يا أمير المؤمنين، إن العير إذا فصلَتْ من خيبر، وعليها التمر، يقع الغراب على آخر العير، فطرده السائق يقول: يا هذا، تقدم إلى أوائل العير، فكل على غير عجل. والقود: جمع أقود، وهو الطويل العنق، والأنثى قوداء، والمسانيف: المتقدمة.

ثم أنشدنى: [من الطويل]

لَعَمْرِى لَئِنْ عَشَّرْتُ مِنْ خشْيَةِ الردَىٰ نُهَاقَ الحميرِ إِنَّني لَجَهُولُ

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، كان الرجل من العرب إذا وصل إلى خيبر، أكبَّ على أربعة، وعشَّر تعشير الحمار، وهو أن ينهق عشر نهقات متتابعات يفعل ذلك؛ فيدفع عن نفسه حمى خيبر.

ثم أنشدنى قول الآخر: [من البسيط]

أجاعلٌ أَنتَ بَيْقُورًا مُضَرَّمَةً ذريعَةً لَكَ بين اللّهِ والمَطَرِ

قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كانت العرب إذا أبطأ المطر، شدت العشر والسلع – وهما ضربان من النبت – فى أذناب البقر، وألهبوا فيها النار، وشردوا بالبقر؛ تفاؤلاً بالبرق والمطر.

ثم أنشدنى: [من الطويل]

لعمركَ ما لامَ الفتَىٰ مِثْل نَفْسِهِ إذا كانَتِ الأحياءُ تَعْرَىٰ ثيابُهَا
وآذَنَ بالتصْفِيقِ مَنْ سَاءَ ظَنُّهُ فلم يَدْرِ مِنْ أيِّ اليدَيْنِ جوابُهَا

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، كان الرجل منهم إذا ضَلَّ فى المفازة، قلب ثيابه، وصاح كأنه يومئ إلى إنسان، ويشتد شدة ويصفق بيديه، فيهتدى الطريق.

ثم أنشدنى: [من مجزوء الكامل]

قَوْدَاء تَمْلِكُ رَحْلَهَا مِثْلَ اليَتِيم مِنَ الأَرَانِبْ

فقلت: نعم، يقول: هذه ناقة مثل اليتيم من الآكام، واليتيم الواحد من كل شيء، والأرانب: الآكام.

ثم أنشدنى لآخر: [من الطويل]

إِلى اللّهِ أشكُو هَجْمَةً هجريَّةً تعاورها أَمر السِّنِين الغَوَابِرِ

فعادَتْ روايا تَحْمِلُ الطِّينَ بَعْدَ ما تَكُونُ قِرًى للمُعْتَفِينَ المَفَاقِرِ[(١)]

قلت: نعم، هذا رجل فى بستانه نخيل أتى عليها الدهر، فجفت، فقطعها وصيرها أجذاعًا، وسقف بها البيوت، فقال: هذه الأجذاع كانت تحمل الرطب فنأكل ونطعم الأضياف، فجفت، فقطعتها وسقفت بها، فهى الآن تحمل الطين والتراب وغير ذلك.

ثم أنشدنى: [من الطويل]

وَسِرْبِ مِلَاحٍ قد رأيتُ وجوهَهُمْ إِنَـاثٌ دَوَانِـيـهِ، ذُكُـورٌ أواخِـرُهْ

قلت: نعم، يعنى: الأضراس.

ثم أنشدنى قول الآخر: [من الطويل]

فَإِنِّى إذن كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ جَنْبُهُ إِذَا لَمْ يَعَفْ يَوْمًا وَعَافَتْ صَوَاحِبُهْ

قلت: نعم، كانت العرب إذا وردت البقر الماء، فشربت الثيران، وأبت البقر، ضربت الثيران فتشرب البقر، وهو كما قال الشاعر الآخر: [من البسيط]

إِنِّى وَقَتْلِى سُلَيْكًا ثُمَّ أَعْقِلَهُ كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لَمَّا عَافَتِ البَقَرُ

ثم أنشدنى قول الآخر: [من الطويل]

وَمُنْحَدِرٍ مِنْ رَأْسِ بَرْقَاءَ حَطَّهُ مَخَافَةَ بَينٍ أَوْ حَبِيبٍ مُزَايِلِ

قلت: نعم، يعنى: الدموع، والبرقاء: العين؛ لأن فيها بياضًا وسوادًا. حطه: أساله.

قال: فوثب الرشيد، فجذبنى إلى صدره، وقال: لله در أهل الأدب، ثم دعا بجارية: فقال: احملى إلى منزل الكسائى خمس بدر على أعناق خمسة أعبد يلزمون خدمته.

ثم قال لى: استنشدهما - يعنى ابنيه - فأنشدنى محمد الأمين فقال: [من الطويل]

وَإِنِّى لَعَفُّ الفَقْرِ مُشْتَرَكُ الغِنَىٰ وَتَارِكُ شَكْلٍ لاَ يُوَافِقُهُ شَكْلِي

وَشَكْلِيَ شَكْلٌ لا يَقُومُ لِمِثْلِهِ مِنَ الناسِ إِلاَّ كُلُّ ذي ثِقَةٍ مِثْلِي

ولى نيقةٌ فى المَجْدِ والبَذْلِ لم يَكُنْ تَأَنَّقَهَا فيما مَضَىٰ أَحَدٌ قَبْلِي

وأجعلُ مالى دُونَ عِرْضِيَ جُنَّةً لِنَفْسِى وأَسْتَغْنِى بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِ

وأنشدنى عبد الله المأمون: [من الكامل]

بَكَرَتْ تلومُكَ مَطْلَعَ الفَجْرِ ولَقَدْ تَلُومُ بغَيرِ ما تَدْرِي

---

(١) المعتفي: كل طالب رزق أو فضل والمفاقر: جمع فقر على غير قياس. ينظر: ترتيب القاموس (عفو)، واللسان (فقر).

ما إنْ مَلَكْت مُصِيبَةً نَزَلَتْ إذْ لا تحكُمُ طائعًا أَمْرِى
مَلِكُ المُلوكِ عَلَىَّ مُقْتَدِرٌ يُعْطى إذا ما شاء مِنْ يُسْرِ
فَلَرُبَّ مغتبطٍ تمدُّ له ومفَجَّع بنوائِبِ الدهْرِ
ومكاشِحٍ لى قد مَدَدتُّ له نَحْرًا بلا ضرعٍ ولا غمْرِ
حتى يَقُولَ لنَفْسِهِ لَهَفٌ فِى أَيِّ مذهَبِ غايَةٍ أَجْرِى
ويَرَىٰ قَنَاتِى حِينَ يَغْمِزُهَا غَمْزَ الثِّقَافِ بطيئَةَ الكَسْرِ

فقال الرشيد: يا على، كيف تراهما ؟ فقلت: [من الطويل]

أَرَىٰ قَمَرَىْ أُفْقٍ وَفَرْعَىْ بشامَةٍ يَزِينُهُمَا عِرقٌ كريمٌ ومَحْتِدُ
يَسُدَّانِ آفاقَ السماءِ بشيمةٍ يؤيِّدُهَا حَزْمٌ وعَضْبٌ مُهَنَّدُ
سليلَىْ أَمِيرِ المؤمنينَ وَحَائِزَىْ مواريثِ ما أَبْقَىٰ النَّبِيُّ محمَّدُ

ثم قلت: يا أمير المؤمنين، فرع زكا أصله، وطاب مغرسه، وتمكّنت عروقه، وعذبت مشاربه. غذاهما ملك أغر، نافذ الأمر، واسع العلم، عظيم الحلم. فأسأل الله أن يزيد بهما الإسلام تأييدًا وعزًّا، ويمتع أمير المؤمنين بهما ويمتعهما بدوام سلطانه وقدرته، ما دجا ليل وأضاء نهار. ثم انقضى المجلس وخرجت جذلاً مسرورًا.

وفى كتاب الأذكياء: ذكر أبوجعفر أحمد بن جعفر البلخى؛ أن الرشيد جمع بين الكسائى وأبى محمد اليزيدى، يتناظران فى مجلسه، فسألهما الكرمانى عن قول الشاعر: [من مجزوء الرمل]

ما رَأَيْنَا خَرِبًا يَنْـ ـقر عنه البَيْضَ صَقْرُ
لاَ يَكُونُ العَيْرُ مُهْرًا لا يكون؛ المُهْرُ مُهْرُ

فقال الكسائى: يجب أن يكون المهر منصوبًا على أنه خبر كان، ففى البيت على هذا إقواء. فقال اليزيدى: الشعر صوابٌ؛ لأن الكلام قد تم عند قوله: « لا يكون » الثانية، ثم استأنف، فقال: المهر مهر، ثم ضرب بقلنسوته على الأرض، وقال: أنا أبو محمد. فقال له يحيى: أتكتنى بحضرة أمير المؤمنين ؟ فقال الرشيد: والله، إنَّ خَطَأَ الكسائي مع حسن أدبه لأحب إلى من صوابك مع سوء أدبك. فقال: يا أمير المؤمنين، إن حلاوة الظفر أذهبت عنى التحفظ فأمر بإخراجه.

واجتمع الكسائى، ومحمد بن الحسن الشيبانى صاحب الإمام أبى حنيفة - رضى الله تعالى عنهما - فقال الكسائى: من تبحر فى علم النحو، اهتدى إلى سائر العلوم، فقال له محمد: ما تقول فيمن سها فى سجود السهو، هل يسجد مرة أخرى ؟ قال: لا، قال: لم ذا ؟ قال: لأن النحاة يقولون: المصغَّر لا يصغر، قال محمد: فما تقول فى تعليق العتق بالملك ؟ قال: لا يصح، قال: لم ؟ قال: لأن السيل لا يسبق المطر.

وتعلم الكسائى النحو على كبر سنه، وسببه أنه مشى يومًا حتى أعيا، فجلس وقال: عييت، فقيل له: لحنت، قال كيف ؟ قيل: إن كنت أردت التعب، فقل أعييت، وإن كنت أردت انقطاع الحيلة، فقل: عييت،بغير همز. فأنف من قولهم: « لحنت »، واشتغل بالنحو حتى مهر وصار إمام وقته. وكان يؤدب الأمين والمأمون، وصارت له اليد العظمى والوجاهة التامة عند الرشيد وولديه.

وتوفي محمد بن الحسن والكسائى فى يوم واحد سنة سبع وثمانين ومائة، ودفنا فى مكان واحد، فقال الرشيد: ههنا دفن العلم والأدب.

وقصة الكسائى مع سيبويه فى مسألة: « فإذا هو هى، أو إياها » شهيرة لا نطول بذكرها.

وقال المبرد: حدثنى محمد بن عباد الحنفى قال: أخبرنى العباس بن الأحنف ببغداد قال: لم أدر ذات يوم إلا والمسودة قد أحاطت بى، فمضى بى إلى دار الخلافة هارون الرشيد، فصرت إلى خالد بن يحيى فقال: ويحك يا عباس، إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخذك وحسن تأتيك، وإن الذى ندبتك له من شأنك، وقد عرفت خطرات الخلفاء، وإنى أخبرك أن ماردة هى الغالبة على أمير المؤمنين، وقد جرى بينهما عتب، وهى بِعِزَّة دالَّة المعشوق تأبى أن تعتذر، وهو بِعِزَّةِ الخلافة وشرف الملك يأبى، وقد رمت الأمر من قبلها فأعيانى، وهو أحرى أن تستقيده الصبابة، فقل شعرًا تسهل به هذا السبيل.

فلما قضى كلامه دعاه أمير المؤمنين، فصار إليه وأعطيت ورقًا ودواة، فاعترانى الدمع ونفر عنى كل شيء، ثم انفتح لى شيء من الأشياء، والرسل من الخليفة ما تغبنى، فجاءتنى أربعة أبيات رضيتها، وقعت صحيحة المعنى سهلة الألفاظ

ملائمة لما طلب منى، فقلت لأحد الرسل: أبلغ الوزير أنى قد قلت أربعة أبيات، فإن كان، فَفِيهَا مقنع. وفى مدة ذهاب الرسول ومجيئه حضرنى بيتان من غير ذلك الروى، فكتبت الأربعة فى صدر الرقعة، وعقبتها بالبيتين، وذلك قولى: [من الكامل]

أَلْعَاشِقَانِ كِلاَهُمَا مُتغضِّبُ وكلاهما متوحِّدٌ متجنِّبُ
صَدَّتْ مُغَاضِبةً وصَدَّ مُغَاضِبًا وكلاهُما ممَّا يُعَالِجُ مُتْعَبُ
رَاجِعْ أَحِبَّتَكَ الَّذِينَ هَجَرْتَهُمْ إنَّ المتيَّمَ قَلَّمَا يتجنَّبُ
إن التجنُّبَ إنْ تطاوَلَ منكُمَا دَبَّ السُّلُوُّ له فَعَزَّ المَطْلَبُ

ثم البيتان وهما: [من السريع]

لاَ بُدَّ للعاشِقِ من وَقْفَةٍ تَكُونُ بين الوَصْلِ والصَّرْمِ
حَتَّىٰ إذا الهَمُّ تمادَىٰ به رَاجَعَ مَنْ يَهْوَىٰ عَلَىٰ رَغْمِ

قال: ثم وجهت بالرقعة فدفعها إلى الرشيد، فقال: والله، ما رأيت شعرًا أشبه بما نحن فيه من هذا، والله لكأنى قصدت به، فقال يحيى: فأنت والله المقصود، يا أمير المؤمنين، هذا يقوله العباس بن الأحنف فى هذه القصة. فلما قرأ البيتين، وأفضى إلى قوله: « راجع من يهوى على رغم » استغرق ضحكًا ثم قال: إنى والله أراجعها على رَغْم، يا غلام، نعلى. فنهض وأذهله الجذل والسرور عن أن يأمر لى بشيء، فدعانى يحيى، وقال: إن شعرك قد وقع بغاية الموافقة. ثم جاء إنسان، فسارَّهُ بشيء، فنهض ونهضت لنهوضه، فقال: يا عباس، أمسيت أنبل الناس، أتدرى ما سارَّنى به هذا الرسول ؟ قلت: لا، قال: ذكر أن ماردة تلقت أمير المؤمنين لما علمت بمجيئه، فقالت له: كيف كان هذا يا أمير المؤمنين ؟ فأعطاها الشعر، وقال: هذا الذى جاء بى، قالت: من يقوله ؟ فقال: العباس بن الأحنف، قالت: فبكم كوفئ ؟ فقال الخليفة: ما فعلت شيئًا، قالت: إذن والله لا أجلس حتى يكافأ. وأمير المؤمنين قائم لقيامها، وأنا قائم لقيامهما، وهما يتناظران فى صِلَتِكَ، هذا كله لك. قلت: ما لى من هذا إلا القبلة، فضحك، وقال: هذا أحسن من شعرك، فأمر لى الخليفة بمالٍ وأمرتْ هى لى بمال دونه، وأمر لى الوزير بمال دون ما أمرت به، وحملت المال على بغلة. انتهى.

وروى عن المبرد قال: حدثنى من أثق به أن مسلم بن الوليد الأنصارى المسمَّىٰ

بصريعِ الغوانى كان يمدحُ من دون الخليفة، وكان يقول: إن نفسى تذوب حسرات من أن يحويِ جوائز الخلفاء من لا يقاربنى فى الأدب، ولا يوازينى ولا يصلح أن يكون شعره خادمًا لشعرى. فخرج ذات يوم، فلقى يزيد بن منصور الحميرى بباب الرشيد، فسلم عليه، وسأله أن يقربه من الخليفة، فوعده ذلك، فدخل الحميرى، فأصاب أمير المؤمنين لقس النفس قد اشتمل عليه الفكر فى سرعة تقضى الأمور، وأنه لا يتشبث منها بشيء إلا كان كالظل الحائل، والسراب الخادع. فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إنما هذا الذى أنت فيه عارض لك، وكانت الحكماء تقول: الهم مفسدة للنفس، مضلة للفهم، مشدهة للقلب، وقالت أيضًا: بالسرور يطيب العيش، ومع الهم يتمنى الموت.

قال: وكأن الرشيد نشط واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر، فتقدم الحميرى وقال: يا أمير المؤمنين، خلفت بالباب آنفًا رجلًا من أخوالك الأنصار، متقدمًا فى شعره وأدبه وظرفه، أنشدنى قصيدة يذكر فيها أنسه ولهوه ومحادثة إخوانه، ويذكر مجالس اتفقت بأبلغ قول وأحسن وصف، يبعث والله على الصبابة والفرح ويباعد من الهم والترح. وكأنه وفق بيمن أمير المؤمنين وسعادة جده لأن يكون زائدًا فى سرور أمير المؤمنين. قال: فاستفزه السرور والقلق إلى دخوله عليه واستماع قصيدته، فجعل الخليفة يتابع الرسل إليه، فدخل مسلم، فسلَّم بالخلافة، ثم أمهل حتى سكن، ثم أذن له فى الجلوس والانبساط، واستدعى منه الشعر فانبرى ينشد:

[من الطويل]

أَدِيرَا عَلَيَّ الكَأسَ لاَ تَشْرَبَا قبلي ... وَلاَ تَطْلُبَا مِنْ عِنْدِ قَاتِلَتِى ذَحْلِي
فما جَزَعِى أَنِّى أموتُ صَبَابَةً ... ولكنْ على مَنْ لا يَحِلُّ لها قَتْلِي
أحبُّ التى صَدَّتْ وقالَتْ لِتِرْبِهَا ... دَعِيهِ الثريا مِنْهُ أَقْرَبُ مِنْ وَصْلِي
بَلَىْ ربما وَكَّلْتُ عَيْنِى بنظرةٍ ... إليها تزيدُ القَلْبَ خَبْلًا على خَبْلِ
كَتَمْتُ تباريحَ الصبَابَةِ عَاذِلِي ... فلم يَدْرِ ما بى واستَرَحْتُ مِنَ العَذْلِ
ومانحَةٍ شرَّابَها المَلْك قَهْوَةً ... يهوديةَ الأَصْهَارِ مُسْلِمَةَ البَعْلِ
رَبِيبَةَ شَمْسٍ لم تُهَجَّنْ عُروقُهَا ... بِنَارٍ ولم يُجْمَعْ لها سَعَفُ النَّخْلِ
بعثنا لها مِنا خَطِيبًا لِبُضْعِهَا ... فجاء بها يَمْشِى العِرَضْنَةَ فى مَهْلِ

قَدِ استودعَتْ دَنًّا لها فَهْوَ قائِمٌ … بها شفقًا بين الكروم على رِجْلِ
فوافَىٰ بها عَذْرَاءَ خلّ أخو نَدًى … جَزِيلُ العطايا غَيْرُ نِكْسٍ ولا وَغْلِ
مُعَتَّقَةً لا تَشْتَكِى دَمَ عاصِرٍ … حروريَّةً فِى جَوْفِهَا دَمُهَا يَغْلِي
أغارَتْ على كَفِّ المُدِيرِ بلونِهَا … فصَارَتْ له منها أَنَامِلُ كالذّبْلِ
أماتَتْ نفوسًا من حياةٍ قريبةٍ … وماتَتْ فلم تُطْلَبْ بوتر ولا تَبْلِ
شَقَقْنَا لها فى الدَّنِّ عينًا فأسْبَلَتْ … كما أخلصَتْ عَين الخَرِيدَةِ بِالكُحْلِ
كأنَّ فنيقًا بازلاً شقَّ نَحرهُ … إذا أسفَرَتْ منها الشعاعُ على البُزْلِ
ودارَتْ علينا الكَأسُ مِنْ كَفِّ ظَبْيَةٍ … مبتَّلةٍ حَوْرَاء كَالرَّشَأ الطِّفْلِ
كأنَّ ظباءً عُكَّفًا فى رياضها … أباريقُها أو حِينَ قَعْقَعَةِ النَّبْلِ
وحنَّ لنا عودٌ فَبَاحَ بِسِرِّنَا … كأنَّ عليه سَاقَ جاريةٍ عُطْلِ
تضاحكُهُ طَوْرًا وتبكيه تارةً … خَدَلَّجةٌ هَيْفَاءُ ذَاتُ شَوًى عَبْلِ
إذا ما عَلَتْ منا ذُؤَابَةَ مَاجِدٍ … تَمَشَّتْ به مَشْيَ المُقَيَّدِ فى الوَحْلِ
فلا نحن مِتْنَا مَوْتَةَ الدَّهْرِ بغتةً … ولا هى عَادَتْ بعد عَلٍّ ولا نَهْلِ
سأنقادُ لِلَّذَّاتِ مُتَّبِعَ الهَوَىٰ … لِأُمْضِىَ هَمًّا أو أَصِبْتَ فَتًى مِثْلِي
هَلِ العيشُ إلاَّ أَنْ تَرُوحَ مَعَ الصِّبَا … وَتَغْدُوصَرِيعَ الكَأْسِ والأَعْيُنِ النُّجْلِ؟!

قال: فجعل الرشيدُ يتطاوَلُ لها ويستحسنُ جميع ما حكاه، وأمر له بمال جزيل، وأن يتخذ له مجلس يتحول إليه، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته هذه، وسمَّاه يومئذ بآخر بيت فى القصيدة: « صَرِيعَ الغوانى »؛ فالرشيد هو الذى سماه بهذا الاسم، فلزمه. انتهى. كذا فى المحاسن لإبراهيم البيهقى.

وأدخل الفضل بن يحيى أبا نواس إلى عند الرشيد، فقال له الرشيد: أنت القائل: [من مجزوء الرمل]

عتقَتْ فِى الدَّنِّ حَتَّىٰ … هِىَ فِى رِقَّةِ دِينِى ..

أحسبك زنديقًا. قال: يا أمير المؤمنين، قد قلت ما يشهد لى بخلاف ذلك، قال: وما هو ؟ فقال: [من السريع]

أَيَّةُ نَارٍ قَدَحَ القَادِحُ … وَأَيُّ جِدٍّ بَلَغَ المازِحُ ؟ !
لِلَّهِ دَرُّ الشَّيْبِ مِنْ واعظٍ … ونَاصِحٍ لو قُبِلَ النَاصِحُ

فاغْدُ فَمَا فى الحَقِّ أُغْلُوطَةٌ وَرُحْ لِمَا أَنْتَ لَهُ رَائحُ
مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَذَاكَ الَّذِي سِيقَ إِلَيْهِ المَتْجَرُ الرَّابحُ
لا يَجْتَلِي الحَوْرَاءَ مِنْ خِدْرِهَا إلاَّ امْرُؤٌ مِيزَانُهُ رَاجِحُ
فاسْمُ بِعَيْنَيْكَ إلَىٰ نِسْوَةٍ مُهُورُهُنَّ العَمَلُ الصَّالِحُ

فقال الرشيد: لا أعتبر بهذا الكلام، يا غُلام، اضرب عنقه، فقال أبو نواس: يا أمير المؤمنين، أتقتلنى شهوة لقتلى ؟ قال: بل استحقاقًا، قال: فإن الله تعالى يحاسب، ثم يعفو أو يعاقب؛ فبماذا استحققتُ عند أمير المؤمنين القتل ؟! قال بقولك: [من الطويل]

أَلاَ فَاسْقِنِى خَمْرًا وقُلْ لِى هِيَ الخَمْرُ ولاَ تَسْقِنِى سِرًّا إذا أَمْكَنَ الجَهْرُ

قال: يا أمير المؤمنين، فهل علمت أنه سقانى أو شربْت ؟! قال: أظُنُّ، قال: أفتقتلنى على الظنِّ، وبعض الظن إثم ؟ قال: وقد قلت - أيضًا - ما تستحقُّ به القتل غير هذا، قال: وما هو ؟! قال: قولك فى التعطيل: [من الكامل]

مَا جَاءَنَا أَحَدٌ يُخَبِّرُ أَنَّهُ فِى جَنَّةٍ مَنْ مات أو فى نَارِ

قال: أفجاء أحد يا أمير المؤمنين ؟! قال: لا، قال: أفتقتلنى على الصدق ؟! قال: أولست القائل: [من البسيط]

يَا أَحْمَدُ المُرْتَجَىٰ فِى كُلِّ نائبةٍ قُمْ سَيِّدِى نَعْصِ جَبَّارَ السَّمَوَاتِ

قال أبو نواس: أفقام أحمد يا أمير المؤمنين، وصار القول فعلاً ؟ قال: لا أعلم، قال: أفتقتلنى على ما لا تعلم ؟! قال: فدع هذا كله، قد اعترفْتَ فى مواضع كثيرة من شعرك بما يوجب عليك القتل، قال: قد علم الله تعالى هذا من قبل علم أمير المؤمنين، فأخبر عنى أنى أقول ما لا أفعل؛ يشير إلى الآية فى الشعراء: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٦]، فقال الفضل: يا سيدى؛ إنه ليؤمن بالبعث، وإنه يحمله المجون على ذِكْرِ ما لم يعتقده.

ثم إن أبا نواس أنشد الخليفة يقول مدحًا: [من الطويل]

لَقَدْ طَالَ فِى رَسْمِ الديارِ بُكَائِي وقَدْ طال تَرْدَادِى بها وَعَنَائِي
كأنِّى مريعٌ فِى الديارِ طريدَة أَرَاهَا أمامِى مَرَّةً وَوَرَائِي
فَلَمَّا بدا لِى اليَأْسُ عَدَّيْتُ نَاقَتِي عَنِ الدارِ واسْتَوْلَىٰ عَلَيَّ عَزَائِي

إِلَىٰ بَيْتِ حَانٍ لاَ تَهِرُّ كِلاَبُهُ عَلَيَّ ولا ينكرْنَ طُولَ ثَوَائي
فما رمتُهُ حتى أتَىٰ دُونَ ما حَوَتْ يمينى وحَتَّىٰ رَيْطَتى وحِذَائي
وكأسٍ كمصباح السماءِ شَرِبْتُهَا عَلَىٰ قُبْلَةٍ أو مَوْعِدٍ بِلِقَاءِ
أَتَتْ دونها الأَيامُ حتَّىٰ كأنها تَسَاقَطُ نورًا مِنْ فُتُوقِ سَمَاءِ
تَرَىٰ ضَوْءَهَا من ظاهرِ البَيْتِ ساطعًا عَلَيْك وَلَوْ غَطَّيْتَهُ بِغِطَاءِ
تَبَارَكَ مَنْ سَاسَ الأمورَ بِقُدْرَةٍ وفَضَّلَ هَارُونًا على الخُلَفَاءِ
نَرَاكَ بِخَيْرٍ ما انْطَوينا عَلَى التقَىٰ وما سَاسَ دُنْيَانَا أبو الأُمَنَاءِ
إمامٌ يخافُ الله حَتَّىٰ كأنه يؤمِّلُ رُؤْيَاهُ صَبَاحَ مَسَاءِ
أَشَمّ طِوَال الساعِدَيْنِ كأنما يُنَاطُ نِجَادًا سَيْفُهُ بِلِواءِ

قال: فخلع عليه الرشيد، ووصله بعشرة آلاف درهم، والفضل بمثلها، فنظر إلى جارية تختلف كأنها لؤلؤة، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا ميت فى ليلتى هذه، فإذا مت، فمر أن أُدْفَنَ فى بطن هذه الجارية، فقال له الرشيد: خذها لا بارَكَ الله لك فيها، فقال أبو نواس: فانصرفت بمثل الشمس حسنًا، وفى منزلى غلام لى مثل القمر، فلقينى محمد بن بشير الشاعر فقال: أتيتك مهنئًا بما حباك أمير المؤمنين، فقلت: هى نعمة تتبعها نقمة، قال: ولم ذاك ؟ قلت: عندى غلام مثل القمر، وهذه الشمس إن جمعتهما أتخوَّفُ ما تعلم، وإن أفردت الجارية لم آمَنْ عليها وغلامِى لا بُدَّ منه، قال: اجعلها عند بعض إخوانك إلى وقت حاجتك، قلت: فلعلَّ الحارسَ هو المحروس منه، قال: فصَيِّرهَا عند عجوز تثقُ بها، قلت: لعلى أسترعِى الذئب، قال: ثم افترقنا، فالتقى معى بعد ثلاث، فقلت له: يا محمد بن بشير، ما على وجه الأرض شر منك، شاورتك فى أمر فلم تفتح عليَّ فيه شيئًا، فلما فارقتك، ازدحَمَ عليَّ الرأى المصيب، فقال لى: صنعت ماذا ؟ قلت: زوجْتُ الشمْسَ بالقَمَرِ، فحصلتهما لأَقْضِى بهما وطرى، فقال: كان الشيء عليك حلالاً فجعلته حرامًا، فقال أبو نواس: يا أحمق، ما شاورتك فى الحلال والحرام، إنما قلت لك: كيف الرأى فى تحصيلهما عندى ؟ ثم أنشأ يقول: [من السريع]

زَوَّجْتُ هَذَاكَ بِهَذى لِكَيْ أَنْكِحَ ثِنْتَينِ فَثِنْتَينِ
أَنْكِحُ هَذَا مرَّة ثُمَّ ذا أُدِيرُ رُمْحًا بين صَفَّيْنِ

مَتَّعْتُ نَفْسِى بِهِمَا لَذَّةً يَا مَنْ رَأَىٰ مَطْلَعَ شَمْسَيْنِ

وذكر أن هارون الرشيد لما قدم المدينة المنورة لزيارة النبى ﷺ، وذلك فى بعض حجاته، وجه يحيى بن خالد البرمكى إلى الإمام مالك بن أنس - رضى الله تعالى عنه -: احمل إليَّ كتابك الذى صنعت - يعنى الموطأ - أسمعه عليك، فقال مالك ليحيى: أَقرِئْهُ السلام، وقل له: العلم يزار، ولا يزور، ويؤتى ولا يأتي، فرجع إلى هارون الرشيد وأخبره، ثم قال يحيى: يا أمير المؤمنين، يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك بأمر فخالفك، اعزم عليه حتى يأتيك، فبينما هم كذلك إذا بمالك قد دخل وليس معه الكتاب، جاء مسلِّمًا على الخليفة، فسلَّم وجلس، فقال له هارون: يبلغ أهل العراق أنى سألتك أمرًا من الأمور سهلاً فأبيت على، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعلك فى هذا الموضع، فلا تكنْ أول من ضيع العلم؛ فيضيعك الله تعالى، ولقد رأيت من ليس هو فى حسبك ونسبك يعز هذا العلم ويجله، فأنت أحرى أن تجله، ولم يزل يعظه ويعدد عليه حتى بكى، ثم قال مالك: أخبرنى الزهرى، عن خارجة، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب الوحى عند رسول الله ﷺ: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [النساء: ٩٥]، وابن أم مكتوم عند النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أنا رجل ضرير، فهل لى رخصة - يعنى فى ترك الجهاد - فقال - عليه الصلاة والسلام-: «لا أدرى»، قال زيد: وقلمى رطب ماجف، حتى غشى النبى ﷺ الوحى، ثم سرى عنه، فقال: «اكتب يا زيد: ﴿ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾(1) [النساء: ٩٥]»، قال: فحرف واحد يا أمير المؤمنين بعثَ فيه الملك جبريل من مسيرة خمسين ألف عام، حتى نزل على النبى ﷺ، أفلا ينبغى لى أن أعزه وأجله ؟ قال: بلى، ثم إن هارون أتى إلى منزل الإمام مالك، فسمع منه الكتاب، ووفقه الله للصواب.

وقد قيل الدين لسيوف الأمراء وألسن العلماء.

واجتمع القاضى أبو يوسف بالإمام مالك عند الرشيد، فقال له القاضى أبو يوسف: ما تقول فيمن سها بزيادة فى الصلاة ؟ فقال الإمام مالك: يسجد للسهو

---

(١) تقدم تخريجه فى الجزء الأول .

بعد السلام، فقال: فإن سها بهما، فقال: يسجد قبل السلام، فقال أبو يوسف ملتفتًا إلى الرشيد: الشيخ تارة يخطئ وتارة لا يصيب، فظن الإمام مالك أنه يقول: تارة يخطئ، وتارة يصيب، فقال: على هذا أدركنا مشايخنا من السلف الصالح، ثم نبه الإمام مالك لقول أبى يوسف ومراده، فقال: ما ظننت أن أهل العلم يتكلَّمون بمثل هذا، قلت: رحم الله الإمام مالكًا، ورضى عنه، فما أغفله عن مظان السوء، وما أسلم فطرته، وأخلص نيته، وأصدق طويته حيث لم يخطر بباله ذلك، ولا خطر بباله أن يخطر ببال أهل العلم.

وقد طلب الرشيد من الإمام مالك أن يكتب مذهبه لقصد أن يجمع الأمة على مذهبه فقط، فقال الإمام: لا تفعل هذا؛ فإن الأحاديث النبوية كثيرة، وقد نقلها العلماء فى سائر البلدان وانتشرت، فلا تحجر واسعًا، ودع الأمة على مذاهبها، رضى الله عنه.

قال الأصمعى: وقال لى الرشيد: يا أصمعى، ما أغفلك عنا وأجفاك لنا، قلت: والله يا أمير المؤمنين، ما ألاقتنى بلاد بعدك حتى أتيتك، فسكت، فلما انصرف الناس قال: اجلس، فجلست، فلما لم يبق سوى الغلمان قال: ما معنى ما ألاقتنى ؟ فقلت: قال الشاعر: [من الكامل]

كَفَّاكَ كَفٌّ مَا تُلِيقُ بِدِرْهَمٍ ... جُودًا وأُخْرَىٰ تُعْطِ بالسَّيْفِ الدِّمَا

فقال: أحسنْتَ هكذا فكُنْ، وقرنا فى الملا، وعلمنا فى الخلا، وأمر لى بخمسة آلاف دينار رواها أبو حاتم، عنه.

وفى مروج الذهب: رأى الرشيد أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم مما يلى الفرما، فقال له يحيى بن خالد البرمكى: لو فعلت ذلك، كانت الروم تختطف الناس من المسجد الحرام وتدخل مراكبهم إلى الحجاز. فترك ذلك(١).

قال الجاحظ: اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره: وزراؤه البرامكة، وقاضيه أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبى حفصة، ونديمه العباس بن محمد عم أبيه، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناسَ وأعظمهم، ومغنيه أبو إسحاق(٢) الموصلى، وزوجته زبيدة بنت جعفر(٣).

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٨٩)، تاريخ الخلفاء (ص ٢٢٩) .
(٢) فى تاريخ الإسلام: إبراهيم .
(٣) ينظر: تاريخ بغداد (١٤/ ١١)، تاريخ الإسلام الطبقة العشرون (ص ٤٣٠) .

وحكى أنه خلف من الأثاث والعين والورق والجواهر والدواب ما قيمته ألف ألف وخمسة وعشرون ألف دينار. ومن النقد مائة ألف ألف دينار، وله أخبار فى اللهو واللذات المحظورة والنساء، فالله يسامحه.

قال صاحب جواهر العقدين: لما أنشد منصور النميرى هارون الرشيد قصيدته تقربًا للرشيد يغض فيها من الطالبيين منها قوله: [من الوافر]

يُسَمُّونَ النَّبِيَّ أَبًا ويَأْبَىٰ مِنَ الأحزاب سَطْرٌ فى السُّطُورِ

يريد بذلك الآية الكريمة ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ... ﴾ الآية. [الأحزاب: ٤٠]، رأى فى ليلته النبيَّ ﷺ وهو يهوى عليه بقضيب من نار، ويقول: أنت الذى تنفى ذريتى منى، فانتبه مرعوبًا، ومال إلى التشيع، وقال فى ذلك ما أوجب أن أمر الرشيد لما وقف عليه بقتله، فنجاه الله ووجدوه قد مات، وهذه الواقعة ذكرها أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب الأغانى.

قال أبو محمد بن حزم: أراه كان لا يشرب النبيذ المختلف فيه إلا الخمر المتفق على تحريمها، ثم جاهر بها جهارًا كبيرًا.

قال السيوطى فى تاريخه[1]: فى سنة اثنتين وتسعين ومائة: توجه الرشيد نحو خراسان، فذكر محمد بن الصباح أن أباه شيع الرشيد إلى النهروان، فجعل يحادثه فى الطريق، إلى أن قال: يا صباح، لا أحسبك ترانى بعدها، قلت: بل يردك الله سالمًا، ثم قال: ولا أحسبك تدرى ما أجد، فقلت: لاوالله، فقال: تعال أريك، وانحرف عن الطريق، فأومأ إلى الخواصِّ فتنحوا، ثم قال: أمانة الله يا صباح أن تكتم عليَّ وكشف عن بطنه، فإذا عصابة حرير حوالى بطنه فقال: هذه علة أكتمها عن الناس كلِّهم، ولكل واحد من ولدى على رقيب، فمسرور رقيب المأمون، وجبريل ابن بختيشوع رقيب الأمين، وفلان رقيب المؤتمن، ما منهم أحد إلا وهو يحصى أنفاسى ويعدُّ أيامى ويستطيل دهرى، فإن أردت أن تعرف ذلك، فالساعة أدعو ببرذون فيجيئون به أعجَفَ ليزيد فى علتى، ثم دعا ببرذون فجاءوا به كما وصف، فنظر إلى، ثم ركبه، وودعنى، وسار إلى جرجان، ثم رحل منها فى صفر سنة ثلاث وتسعين، وهو عليل إلى طوس، فلم يزل بها إلى أن مات.

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء (ص ٢٣٢).

قال الذهبى(١): إن الرشيد رأى منامًا أنه يموت بطوس، فانتبه وبكى، وقال: احفروا لى قبرًا فحفر له، ثم حمل فى قبته على جمل، وسيق به حتى نظر إلى القبر فقال: يا ابن آدم، تصير إلى هذا. وأمر قومًا فنزلوا، فختموا فيه ختمة، وهو فى محفته على شفير القبر، فلما مات، دفن به.

وكانت خلافته ثلاثًا وعشرين سنة وشهرين وتسعة عشر يومًا، وقيل: أربعًا وعشرين، وقيل: خمسًا وعشرين سنة، وعمره أربع وأربعون سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام.

خلافة محمد الأمين(٢)

ابن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس، بايع له أبوه الرشيد بولاية العهد فى سنة خمس وسبعين، ولقبه بالأمين، وله يومئذٍ خمس سنين، لحرص أمه زبيدة على ذلك، قال الذهبى(٣): فكان هذا أول وهن جرى فى دولة الإسلام من حيث الإمامة، ثم لابنه الآخر من بعد الأمين عبد الله، ولقبه المأمون، وولاه ممالك خراسان بأسرها. ثم بايع ابنه الآخر القاسم، ولقبه المؤتمن، وولاه الجزيرة والثغور وهو صبى، فلما قسم الدنيا بين هؤلاء الثلاثة قال بعض العقلاء: قد ألقى بينهم بأسهم، وغائلة ذلك تضرُّ بالرعية، ثم إنه علق نسخة البيعة بالكعبة الشريفة، وفى ذلك يقول إبراهيم الموصلى: [من مجزوء الكامل]

(١) ينظر: تاريخ الإسلام، الطبقة العشرون (ص ١٤).

(٢) ينظر [الأمين] فى: أنساب الأشراف ٣/ ٩٤، المعرفة والتاريخ ١/ ١٦١، تاريخ الزمان لابن العبرى ١٨ و١٩، تاريخ خليفة ٤٥٧، الكامل فى التاريخ ٦/ ٢٢١، وفيات الأعيان ٤/ ٣٦ وما بعدها، وخلاصة الذهب المسبوك ١٠٧ و١٠٨، البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٢، مرآة الجنان ١/ ٤٥٨، تاريخ الخلفاء ٢٣٨، الوافى بالوفيات ٥/ ١٣٥، شذرات الذهب ١/ ٣٥٠، سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٣٤، الوزراء والكتاب ٢٩٨ - ٢٩٩، العقد الفريد ٣/ ٢٦١، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٤٠٧، ٤١٦ - ٤٢١، دول الإسلام ١/ ١٢٤، العبر ١/ ٣٢٥، المعارف ٣٨١، الأخبار الطوال ٣٩٢ - ٣٩٤.

(٣) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث سنة مائة وخمس وسبعين ص ١١، البداية والنهاية ١٠/ ١٦٥، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٤٠٨.

خيرُ الأمورِ مغبَّةً وأحقُّ أمرٍ بالتمامْ
أمرٌ قضى أحكامَهُ الرَّ رَحمنُ فِي البَيْتِ الحَرَامْ

وقال عبد الملك بن صالح: [من البسيط]

حُبُّ الخليفةِ حبٌّ لا يدينُ له عاصِى الإلهِ وشانٍ يَلْقَحُ الفتنا
ألـلَّهُ قَلَّدَ هارونًا سياستَهُ لمَّا اصْطَفَاهُ فأحيا الفرضَ والسُّنَنَا
وقلَّدَ الأَمْرَ هارون لِرَأْفَتِهِ بنا أمينًا ومأمونًا ومؤتمنا

قال بعضهم: وقد زوى الرشيد الخلافة عن ولده المعتصم لكونه أميًّا، فساقها الله إليه، وجعل الخلفاء بعده كلهم من ذريته، ولم يجعل من نسل غيره من أولاد الرشيد خليفة.

بويع الأمين بالخلافة يوم توفى الرشيد بطوس والأمين ببغداد، فورد عليه بها خاتم الخلافة والبردة والقضيب، فلما تمكن من الخلافة خلع أخاه المأمون، وجعل العهد لولده موسى وهو فى المهد، وسماه الناطق بالحق، وقطع ذكر المأمون والمؤتمن، وجعل ولده موسى فى حجر علي بن عيسى، فأرسل إلى الكعبة الشريفة من جاءه بكتاب العهد الذى علقه فيها الرشيد للأمين والمأمون فمزقه، وكان ذلك برأى الفضل بن الربيع وبكر بن المعتمر، فقال بعض الشعراء فى ذلك: [من المتقارب]

أضاعَ الخلافةَ غِشُّ الضَّميرِ وفسقُ الوزيرِ وجهلُ المُشِيرِ
ففضلٌ وزيرٌ وبَكْرٌ مُشيرٌ يريدانِ ما فيه حَتْفُ الأميرِ
لواطُ الخليفةِ أعجوبَةٌ وأعجبُ منه حلاق الوَزِيرِ
فهذا يدوسُ وهذا يُدَاسُ وهذا لعمرى خلافُ الأمورِ
فلو يستعفَّانِ هذا بذاكَ لكانا بعُرْضَةِ أمرٍ يسيرِ
وأعجبُ مِنْ ذا وذا أَنَّنَا نُبَايعُ للطفْلِ فينا الصغيرِ
ومَنْ ليسَ يُحْسِنُ غَسْلَ استِهِ ولم يخلُ من بولِهِ حجْرُ ظِيرِ

وكان أول من أجاب الأمين إلى خلع المأمون وزيره على بن عيسى بن ماهان، فجهزه الأمين لحرب المأمون فى مائة ألف مقاتل، فلما قرب من الرى قابله طاهر بن

الحسين من قبل المأمون فى أربعة آلاف أو خمسة آلاف، وحمل عليه على حين غفلة، فكانت بينهما وقعة فى ذلك الموضع كانت الدائرة على عليّ بن ماهان وأصحابه، وانجلت عن قتل على بن عيسى، فحز رأسه، وظفر طاهر بجميع خزائنه، وأرسل على الفور إلى ذى الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون بكتاب يقول فيه: « أطال الله بقاءك، وكبت أعداءك، كتبت كتابى هذا إليك ورأس على بن ماهان بين يدى، وخاتمه فى إصبعى ». فسمع المأمون بذلك، وسلم عليه بالخلافة فى ذلك الوقت.

ولما قتل على بن عيسى بعث الأمين عبد الرحمن بن الأنبارى فى عشرين ألف فارس إلى همذان، وولاه عليها وعلى كل ما يفتحه من بلاد خراسان، فسار إلى همذان وحصنها، وجاءه طاهر فبرز إليه ولقيه، وهزمه طاهر إلى البلد، ثم خرج عبد الرحمن ثانية فانهزم إلى المدينة، وحاصره طاهر حتى ضجر منه أهل المدينة وطلب الأمان من طاهر؛ فأمنه وأقام فى أمانه، ثم أصاب عبد الرحمن غرة من طاهر فركب وهجم عليه فى عسكره فقاتله طاهر أشد القتال حتى انهزم أصحاب عبد الرحمن وقتل، ولم يزل طاهر يهزم الجيوش، ويقتل قواد الأمين واحدًا بعد واحد، وهو سائر إلى بغداد يريد الأمين، وفر قائدان من قواد الأمين الكبار هما خزيمة بن خازم ومحمد بن على بن عيسى بن ماهان إلى طاهر بن الحسين، فوثبا على جسر دجلة فى ثامن المحرم فقطعاه وركزا أعلامهما وخلعا الأمين ودعيا للمأمون، فأصبح طاهر ابن الحسين وألح على أصحاب محمد الأمين، ودخل طاهر قسرًا بالسيف، ونادى مناديه: من لزم بيته فهو آمن. ثم أحاط بمدينة المنصور وبقصر زبيدة وقصر الخلد، فثبت على قتال طاهر حاتم بن الصقر والهرش والأفارقة، فنصب طاهر المجانيق خلف السور وعلى القصرين ورماهم، فخرج محمد وأمه وأهله من القصر إلى مدينة المنصور، وتفرق عامة جنده وعلمائه، وقل عليهم القوت والماء، وفنيت خزائنهما على كثرتها.

قال الحافظ الذهبى[1]: ذكر عن محمد بن راشد، أخبرنى إبراهيم بن المهدى أنه كان مع محمد بمدينة المنصور فى قصر باب الذهب، فخرج ليلة من القصر من

(١) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث سنة ثمان وتسعين ومائة (ص ٥٥ - ٥٦).

الضيق والضنك فصار إلى قصر القرار[١]، فطلبنى فأتيت، فقال: ما ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر وضوءه فى الماء، فهل لك فى الشراب؟ قلت: شأنك. فدعا برطل من نبيذ فشربه، ثم سقيت مثله، فابتدأت أغنيه من غير أن يسألنى لعلمى بسوء خلقه، فغنيت، فقال: ما تقول فيمن يضرب عليك؟ فقلت: ما أحوجنى إلى ذلك، فدعا بجارية وكان اسمها ضعف، فتطيرتُ من اسمها. ثم غنت الجارية بشعر النابغة الجعدى: [من الطويل]

كليبٌ لعمرِى كان أكثَرَ ناصرًا   وأيْسر ذنبًا منك ضُرِّجَ بالدَّمِ

فتطير الأمين من ذلك وقال لها: غنى غير هذا، فغنت: [من البسيط]

أبكِى فراقَهُمْ عينى فأرَّقها   إنَّ التفرُّقَ للأحبابِ بَكَّاءُ
ما زال يَعْدُو عليهِمْ رَيْبُ دهرِهِمْ   حتى تفَانَوا ورَيْبُ الدَّهرِ عَدَّاءُ
فاليومَ أبكيهمُ جَهْدِى وأندبُهُمْ   حتى أءوب وما فى مُقْلَتى ماءُ

فقال: لعنك الله، أما تعرفين غير هذا؟ فقالت: ظننت أنك تحبه، ثم غنت: [من المنسرح]

أما وربِّ السكونِ والحركِ   إنَّ المنايا كثيرَةُ الشَّرَكِ
ما اختلَفَ الليلُ والنهارُ ولا   دارَتْ نجومُ السماءِ فى الفَلَكِ
إلا لنقلِ السلطانِ من ملكٍ   قد زالَ سلطانُهُ إلى مَلِكِ
ومُلْكُ ذى العرشِ دائمٌ أبدًا   لَيسَ بفانٍ ولا بمُشْتَرَكِ

فقال لها: قومى لعنك الله فقامت، فعثرت فى قدح بلور له قيمة فكسرته، فقال: ويحك يا إبراهيم، أما ترى؟ والله ما أظن أمرى إلا قد قرب. فقلت: بلى، يطيل الله عمرك ويعز ملكك. فسمعت صوتًا من دجلة ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١]، فوثب محمد مُغْتَمًّا، ورجع إلى موضعه بالمدينة، فقتل بعد ليلة أو ليلتين.

وذكر المسعودى[٢] أن إبراهيم المهدى قال: استأذنت على الأمين وهو فى شدة الحصار، فإذا هو واضع رجله بالشباك[٣]، وكان فى القصر بركة عظيمة يدخل من

(١) فى ط: الغراب. والمثبت من تاريخ الإسلام.
(٢) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٤٠٢ - ٤٠٣).
(٣) فى المروج: قد تطلع إلى دجلة بالشباك.

دجلة إليها الماء من ذلك الشباك الحديد، فسلمت وهو مقبل على الماء، والخدم [والغلمان][١] قد انتشروا فى تفتيش الماء وهو كالواله، فقال لى: لا تؤذنى يا عم، فإن مقرطتى قد ذهبت فى البركة إلى دجلة، وإن كوثر - اسم خادم له خصى - قد صاد مقرطتين، ولم أصد أنا شيئًا بعد- والمقرطة سمكة كان قرطها بحلقتى ذهب فيهما جوهرتان عظيمتان- قال إبراهيم: فخرجت وأنا آيس من فلاحه، وقلت: لو ارتدع فى وقت لكان هذا الوقت. وكان مع طاهر هرثمة بن أعين، وعظم الأمر واشتد الحصار والبلاء، حتى خربت بذلك منازل بغداد، ووثب العيارون على أموال الناس فانتهبوها، وأقام الحصار مدة سنة.

ومما عمل فى بغداد من المراثى قَول القائل: [من الوافر]

بكَيْتُ دَمًا على بغدادَ لما   فقدتُّ نضارَةَ العيشِ الأنيقِ
أصابَتْهَا من الحسادِ عَين   فأفنَتْ أهلها بالمنجنيقِ

وتضايق الأمر على الأمين، وكتب طاهر إلى وجوه أهل بغداد سرًّا يعدهم إن أعانوه، ويتوعدهم إن لم يدخلوا فى طاعته، فأجابوا طاهرًا وفارقوا الأمين، وصرحوا بخلعه، ومنع طاهر الأمين ومن معه من كل شيء، حتى كاد هو وأصحابه أن يموتوا جوعًا وعطشًا. فلما عاين الأمين ذلك كاتب هرثمة بن أعين وطلب منه أن يؤمنه حتى يأتيه؛ فأجابه هرثمة إلى ذلك وبلغ ذلك طاهرًا فشق عليه؛ كراهة أن ينسب الظفر لهرثمة دونه، فلما كان يوم الخميس لخمس بقين من المحرم من سنة ثمان وتسعين ومائة خرج الأمين إلى هرثمة فى حراقة، فركب الأمين ومن معه، وكان طاهر قد أكمن للأمين، فلما صار الأمين فى الحرَّاقة رموه بالنشاب والحجارة، فانكفأت الحراقة وغرق محمد وهرثمة، فسبح محمد حتى صار إلى بستان موسى، فعرفه محمد بن حميد الطاهرى، فصاح بأصحابه فنزلوا ليأخذوه، فبادر محمد الماء، فأخذ برجله وحمله على برذون، وخلفه من يمسكه كالأسير.

قال أحمد بن سلام: كنت مع الأمين فى الحراقة فأخذت وحبست، فبعد هدوء من الليل إذا أنا بحركة الخيل وهم يقولون: بشر زبيدة فأدخل عليَّ رجل عريان عليه سراويل وعمامة ملثم بها، وعلى كتفه خرقة خلقة، فصيروه معى ووكلوا بنا، فلما

(١) المثبت من مروج الذهب .

حسر العمامة عن وجهه فإذا هو محمد؛ فاستعبرت واسترجعت فى نفسى، فقال لى: من أنت ؟ قلت: مولاك أحمد بن سلام، قال: أعرفك، كنت تأتينى بالرقة. قلت: نعم. قال: كنت تأتينى وتتلطفنى كثيرًا، لست مولاى؛ بل أنت أخى، ادن منى فإنى أجد وحشة شديدة، قال أحمد: فضممته إليَّ، ثم قال: يا أحمد، ما فعل أخى ؟ قلت: حيٌّ. قال: قبح الله صاحب البريد ما أكذبه، كان يقول لى: قد مات. قلت: قبح الله وزراءك. قال: لا تقل، فما لهم ذنب، ولست أول من طلب أمرًا فلم يقدر عليه. قال: أتراهم يقتلوننى أو يفون لى بأمانهم ؟ قلت: بل يفون لك يا سيدى. وجعل يمسك الخرقة بعضديه فنزعت منطقة(١) عليَّ وقلت: ألقها وخذ هذه. فقال: ويحك دعنى. فهذا من الله لى فى هذا الموضع خير كثير. فلما انتصف الليل دخل الدار قوم من العجم بالسيوف، فقام وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ذهبت والله نفسى فى سبيل الله. أما من حيلة ؟ أما من مغيث ؟ فأحجموا عن التقدم. وجعل بعضهم يقول لبعض: تقدم. فقمت وصرت وراء حصر(٢) ملففة، وأخذ محمد بيده وسادة وقال: ويحكم أنا ابن عم رسول الله ﷺ، أنا ابن هارون أنا أخو المأمون، الله الله فى دمى.

فوثب عليه خُمَارَوَيه - غلام لقريش الدندانى - فضربه بالسيف على مقدم رأسه، فضربه محمد بالوسادة واتكأ عليه، فأخذ السيف من يده، فصاح خمارويه: قتلنى قتلنى، فتكاثروا عليه فذبحوه من قفاه وذهبوا برأسه إلى طاهر؛ فنصب رأسه على حائط بستان، وأقبل طاهر يقول: هذا رأس المخلوع محمد الأمين، ثم بعث به مع البردة والقضيب والمصلى - وهو من سعف مبطن - مع ابن عمه محمد بن مصعب إلى المأمون، فلما وصل الرأس إليه سجد شكرًا لله تعالى على الظفر، وأمر لمحمد ابن مصعب بألف ألف درهم، وجُرَّت جثته بحبل. ولما بلغ إبراهيم بن المهدى عم الأمين ما وقع للأمين بكى طويلاً وأنشد: [من السريع]

عُوجَا لمغنى طللٍ داثرِ ... بالخُلْد ذات الصَّخْر والآجرِ
والمرمر المسنون يطلى بِهِ ... والباب باب الذَّهَبِ الناضرِ

(١) فى تاريخ الإسلام: مبطنة .
(٢) فى ط: حبر . والمثبت من تاريخ الإسلام .

وأبلغا عنّى مقالاً إلى الـ مَوْلى عن المأمورِ والآمِرِ
قولا له يا ابنَ وليّ الهدَىٰ طَهِّرْ بلادَ اللَّهِ منْ طاهِرِ
لم يكفِهِ أن حَزَّ أَوْداجَهُ ذبح الضَّحَايا[1] بِمُدَى الجازِرِ
حتى أتى يَسْحَبُ أوصالَهُ فى شَطَنٍ يعنى به السابِرِي[2]
قد برد الموتُ على عَيْنِهِ[3] فطرفه منكسرُ الناظِرِ

ولما بلغ هذا الشعر المأمون اشتد عليه ذلك، وندم وحزن وحوقل[4].

ولخزيمة بن الحسن على لسان زبيدة قصيدة يقول فيها : [من الطويل]

أَتَىٰ طاهرٌ لا طَهَّرَ اللَّهُ طاهرًا فما طاهِرٌ فيما أَتَىٰ بُمطَهَّرِ
فأخرجَنِى مكشوفَةَ الوَجْهِ حاسرًا فَأنْهَبَ أموالى وأحرقَ أَدْوُرِي
يَعِزُّ عَلَىٰ هَارُونَ ما قَدْ لَقِيتُهُ وما مَرَّ بى من ناقِصِ الخلقِ أعورِ
تذكَّرْ أميرَ المؤمنينَ قَرَابتِي فديتُكَ من ذى حُرْمَةٍ مُتَذَكِّرِ

وكان الأمين من أحسن الشباب صورة: أبيض طويلاً جميلاً، ذا قوة مفرطة وبطش وشجاعة معروفة، وفصاحة وأدب وفضل وبلاغة، لكن كان سيء التدبير، ضعيف الرأى، لا يصلح للإمارة. قال ابن جبير: لما ملك محمد الأمين ابتاع الخصيان، وغالى بهم وصيرهم لخلوته، ورفض النساء والجوارى، ووجه إلى البلدان فى طلب الملهين وأجرى لهم الأرزاق، واقتنى الوحوش والسباع والطيور، واحتجب عن أهل بيته وعن أمرائه واستخف بهم، ومحق بيوت الأموال، وضيع الجواهر والنفائس، وبنى عدة قصور فى عدة أماكن، وعمل خمس حرَّاقات على صفة أسد وفيل وعقاب وحية وفرس، وأنفق فى عملها أموالاً، فقال أبو نواس: [من الخفيف]

سَخَّرَ اللَّهُ للأمينِ مطايا لم تُسَخَّرْ لصاحبِ المحرابِ
فإذا ما ركابُهُ سارَ برًّا سارَ فى الماء راكبًا ليثَ غابِ
أسدًا باسطًا ذراعَيهِ يَهوي أهرت الشِّدْقِ كَالحَ الأنيابِ

(١) فى تاريخ الإسلام: الهدايا .
(٢) فى تاريخ الإسلام: يفنى به السائر .
(٣) فى تاريخ الإسلام: جفنه .
(٤) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث ١٩١هـ ص (٦١ - ٦٣) .

وهكذا حتى وصفها جميعًا .

ومن شجاعته وقوة بطشه ما نقله المسعودى[1] فقال: حكى أنه اصطبح يومًا فأتى بسبع هائل على جمل فى قفص فوضع بباب القصر، فقال: افتحوا القفص وخلوه، فقيل، يا أمير المؤمنين، إنه سبع هائل أسود كالثور كثير الشعر، فقال: خلوا عنه. ففعلوا. فخرج فزأر وضرب بذنبه الأرض، فتهارب الناس وأغلقت الأبواب، وبقى الأمين وحده غير مكترث، فأتاه الأسد وقصده، فرفع يده فجذبه الأمين وقبض على ذنبه[2] وغمزه وهزه ورماه إلى خلف، فوقع السبع على صخرة[3] فخر ميتًا، وجلس الأمين وكأنه لم يعمل شيئًا، وإذا أصابعه قد تخلعت، فشقوا بطن الأسد، فإذا مرارته قد انشقت على كبده.

قال الذهبى[4]: كتب الأمين إلى طاهر بن الحسين رقعة فيها « يا طاهر، ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا فكان جزاؤه عندنا إلا السيف، فانظر لنفسك أو دع » قال: فلم يزل طاهر يتبين موقع الرقعة منه. قلت: وكان طاهر قد انتدب لحربه من جهة أخيه المأمون، فكتب له هذه الرقعة[5] وهى غاية فى التحذير[6].

ولم يل الخلافة هاشمى ابن هاشمية إلا على بن أبى طالب ومحمد الأمين هذا؛ فإن أم الأول فاطمة بنت أسد هاشمية، وكذا أم الثانى، زبيدة بنت جعفر بن المنصور[7].

قال الصولى: حدثنا أبو العيناء عن محمد بن عمرو الرومى، قال: خرج كوثر خادم الأمين ليرى الحرب، فأصابته رجمة فى وجهه، فجلس يبكى، وجعل الأمين يمسح الدم عن وجهه ثم قال: [من مجزوء الرمل]

ضَـرَبُـوا قـرَّةَ عـيـنـي ومِـن اجْـلِـي ضَـرَبُـوهُ
أَخَـذَ الـلَّـهُ لـقـلـبـي مِـنْ أنـاسٍ أحـرقُـوهُ

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٤٠٣) .
(٢) فى المروج: على أصل أذنيه .
(٣) فى المروج: مؤخره. وفى تاريخ الإسلام: عجزه .
(٤) ينظر: تاريخ الإسلام الطبقة العشرون (ص ٣٨٢) .
(٥) فى تاريخ الإسلام: الورقة .
(٦) فى تاريخ الإسلام: التخذيل .
(٧) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٤٠٤، ٤٠٥) .

قال: ثم أحضر عبد الله بن أيوب التميمى الشاعر فقال له: قل عليهما، فقال: [من مجزوء الرمل]

مـا لـمَـنْ أهَـوىٰ شبـيه   فـبِـهِ الـدُّنْـيَـا تَـتِـيـهُ
وَصْـلُـهُ حـلـوٌ ولـكـنْ   هــجْـرُهُ مُـرٌّ كــريــهُ
مَنْ رأى الناسُ له فضـ   ـلاً عـلـيـهـم حَـسَـدُوهُ
مثـل مـا قَـدْ حَسَدَ الـ   ـقـائـمَ بـالـمُـلْـكِ أَخُـوهُ

فقال الأمين: والله بحياتى أحسنت يا عباسى، أنظر، فإن جاء على ظهر فأوقره له، وإن جاء فى زورق فأوقره له، فأوقر له ثلاثة بغال دراهم هى التى جاء عليها[1].

ومما قيل فى هجو الأمين أقامه مقام الرثاء فقال: [من الرمل]

لِمَ نَـبْـكِـيكَ لـمـاذا لـلـطَّرَبْ   يا أبا موسَىٰ وتزويج اللّعبْ
ولـتَـرْكِ الـخَـمْـسِ فـى أوقـاتِـهَـا   حرصًا منكَ على ماءِ العِنَبْ
وشـنـيـف أنـا لا أَبْـكِـى لـه   وعلى كوثَرَ لا أخشَى العَطَبْ
لم تَكُنْ تصلحُ للمُلكِ ولَمْ   تعطك الطاعَةَ بالمُلْكِ العربْ
لِمَ نـبـكـيكَ لـمـا عَـرَّضْـتَـنَـا   لـلـمـجـانـيقِ وطَـوْرًا لـلـسَّـلَـبْ

وذكر عن الكسائى أنه قال: لما ولانى الرشيد تأديب ابنيه الأمين والمأمون كنت أشدد عليهما فى الأدب وآخذهما أخذًا شديدًا خصوصًا الأمين، فأتتنى ذات يوم خالصة أمة زبيدة فقالت: إن السيدة تقرئك السلام وتقول لك: حاجتى أن ترفق بابنى محمد، فقلت قولى لها: إن محمدًا مرشح للخلافة بعد أبيه، ولا يجوز التقصير فى حقه. قالت خالصة: إن لرقة السيدة سببًا أنا أخبرك به، إنها فى الليلة التى ولدته فيها أريت فى منامها كأن أربع نسوة أقبلن عليه فاكتنفنه من جهاته الأربع، فقالت التى بين يديه: ملك قليل العمر، ضيق الصدر، عظيم الكبر، واهى الأمر، شديد الغدر. وقالت التى من خلفه: قصاف، مبذر متلاف، قليل الإنصاف، كثير الإسراف. وقالت التى عن يمينه: ملك عظيم الحطم، قليل اللحم، كثير الإثم، قطوع الرحم. وقالت التى عن شماله: ملك غدار، كثير العثار، سريع الدمار. ثم بكت خالصة وقالت: يا كسائى، هل ينفع الحذر مع القدر ؟ قلت: لا والله.

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام: حوادث ١٩١هـ (ص ٣٨٢، ٣٨٣).

وذكر الأصمعى أنه دخل على الرشيد - قال: وكنت قد غبت عنه بالبصرة حولا - فسلمت عليه بالخلافة، فأشار إلى بالجلوس فجلست حتى خفَّ الناس، ثم قال: يا أصمعى، ألا تحب أن ترى محمدًا وعبد الله ابنيَّ ؟ قلت: بلى يا أمير المؤمنين، إنى لأحب ذلك، وقد أردت القصد إليهما لأسلم عليهما. ثم قال الرشيد: على بمحمد وعبد الله، فانطلق الرسول، فأقبلا كأنهما قمرا أفق، قد قاربا خطاهما ورميا ببصرهما الأرض حتى وقفا على أبيهما فسلما عليه بالخلافة، فأومأ لهما فجلس محمد عن يمينه وعبد الله عن شماله، ثم أمرنى بمطارحتهما الأدب، فكنت لا ألقى عليهما شيئا من فنون الأدب إلا أجابا فيه وأصابا. فقال: كيف ترى أدبهما ؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ما رأيت مثلهما فى ذكائهما وجودة فهمهما وذهنهما، فأطال الله بقاءهما ورزق الأمة رأفتهما. فضمهما إلى صدره، وسبقته عبرته فبكى حتى تحدرت دموعه على لحيته، ثم أذن لهما فى القيام، فنهضا حتى إذا خرجا قال: يا أصمعى، كيف بهما إذا ظهر تعاديهما وبدا تباغضهما، ووقع بأسهما بينهما، حتى تسفك الدماء، ويود كثير من الأحياء أن لو كان فى الأموات ؟ قلت: يا أمير المؤمنين، هذا شيء قضى به المنجمون عن مولدهما، أو شيء أثرته العلماء فى أمرهما ؟! قال: بل شيء أثرته العلماء عن الأوصياء. قال الصولى: وكان الرشيد يسمع ما يجرى بينهما جميعه من موسى بن جعفر الصادق، ولذلك قال ما قال.

قال فى « قلادة النحر »: إن المأمون مر يومًا على زبيدة أم الأمين فرآها تحرك شفتيها بشيء لا يعرفه، فقال لها: يا أماه أتدعين على أن قتلت ابنك وسلبته، فما كان الباغى إلا ابنك، وإن لكل باغ مصرعا. قالت: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: فما الذى قلت ؟ قالت: يعفينى أمير المؤمنين. فألح عليها قال: ولا بد أن تقوليه. قال: قلت: قبح الله اللجاج والملاحَّة. قال وكيف ذلك ؟ قالت: إنى لألعب يومًا مع أمير المؤمنين الرشيد الشطرنج على الحكم والرضا فغلبنى، فأمرنى أن أتجرد من أثوابى وأطوف القصر عريانة، فاستعفيته فلم يعفنى، فتجردت من ثيابى وطفت القصر عارية. ثم عاودنا اللعب فغلبته، فأمرته أن يذهب إلى المطبخ فيطأ أقبح جارية وأشوهها خلقة، فاستعفانى فلم أعفه، فبذل لى خراج مصر والعراق، فأبيت وقلت: والله لتفعلن ذلك فأبى، فألححت عليه وأخذت به، وجئت به إلى المطبخ، فلم

أر جارية أقبح ولا أقذر ولا أنتن ريحًا ولا أشوه خلقة من أمك مراجل، فأمرته أن يطأها فوطئها، فعلقت منه بك، فكنت سببًا لقتل ولدى وسلبه ملكه، فولى المأمون وهو يقول: لعن الله الملاحَّة.

أقول: نعم لعن الله الملاحة؛ إذ إلحاحه على زبيدة كان سبب سماع هذا الكلام المؤلم.

قال الثعالبى فى « المعارف »: كانوا يقولون: لو نشرت زبيدة ضفائرها ما تعلقت إلا بخليفة أو ولى عهد، فإن المنصور جدها، والسفاح أخو جدها، والمهدى عمها، والرشيد زوجها، والأمين ابنها، والمأمون والمعتصم ابنا زوجها. وأما ولاة العهد فكثير. ونظيرتها فى ذلك من بنى أمية عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبى سفيان: أبوها يزيد بن معاوية، ومعاوية بن أبى سفيان جدها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان بن الحكم حموها، وعبد الملك بن مروان زوجها، ويزيد بن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، والوليد وهشام وسليمان بنو زوجها عبد الملك، ويزيد وإبراهيم ابنا الوليد ابنا ابن زوجها.

كانت مدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وثمانية عشر يومًا، وقيل ثمانية أشهر. وقتل لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، وعمره سبع وعشرون سنة، وقيل: وأربعة أشهر وعشرة أيام، وقيل: ست وعشرون سنة وخمسة أشهر، وقيل: ثلاث وثلاثون سنة وستة أشهر، رحمه الله تعالى وعفا عنه وعن المسلمين، آمين.

خلافة المأمون(١)

عبد الله بن هارون الرشيد بن المهدى محمد بن المنصور بن عبد الله أبو العباس، الهاشمى، ولد سنة سبعين ومائة عندما استخلف أبوه الرشيد، وقرأ العلم فى صغره، وسمع ابن هشيم، وعباد بن العوام، ويوسف بن عطية، وأبا معاوية الضرير،

(١) ينظر ترجمته فى: شذرات الذهب ٢/ ٣٩، فوات الوفيات ٢/ ٢٣٥، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٤، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٢٥، تاريخ الخلفاء ٣٠٦، البدء والتاريخ ٦/ ١١٢، الكامل لابن الأثير ٦/ ٢٨٢، المعارف ٣٨٧، الأخبار الطوال ٤٠٠، تاريخ اليعقوبى ٣/ ١٧٢، تاريخ الطبرى ٨/ ٤٧٨، البداية والنهاية ١٠/ ٢٤٤، تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٣، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٧٢، الفهرست ١٢٩، الذهب المسبوك ١٨٦، مروج الذهب ٤/ ٤، المحبر ٤٠، عيون الأخبار ٢/ ٢٥٣ - ٢٥٥، تاريخ خليفة ٤٦٦ - ٤٧٣، دول الإسلام ١/ ١٢٥ - ١٣٢، مرآة الجنان ٢/ ٧٨، الوافى بالوفيات ١٧/ ٦٥٤ .

وطبقتهم. وبرع فى الفقة والعربية وأيام الناس. ولما كبر عُني بالفلسفة وعلوم الأوائل، ومهر فيها؛ فجرَّه ذلك إلى القول بخلق القرآن.

وكان من أتم رجال بنى العباس حزمًا وعزمًا، وحلمًا وعلمًا، ورأيًا ودهاءً، وهيبةً وشجاعةً، وسؤددًا وسماحة. وله محاسن وسيرة طويلة. وبرع فى معرفة التاريخ وفنون الأدب، وكان يضرب المثل بحلمه.

وامتحن العلماء فى زمانه، وكان يجبرهم على القول بخلق القرآن.

قال فى المسامرة: بايع المأمون على الرضا فى شهر رمضان سنة إحدى ومائتين، وجعله ولى عهده من بعده، ولبس الخضرة ونوه بذكره، فغضب بنو العباس بالعراق لهذين الأمرين وخلعوه، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدى ولقبوه المبارك، فحاربه الحسن بن سهل، فهزمه إبراهيم وألحقه بواسط، وأقام إبراهيم بالمدائن. ثم سير المأمون إليه جيشًا آخر فهزموه، فاختفى وانقطع خبره إلى أن ظهر فى وسط خلافة المأمون فعفا عنه، وله سيره مبسوطة مذكورة، ومات على الرضا - رضي الله تعالى عنه - سنة ثلاث ومائتين، فرجع المأمون سنة أربع ومائتين إلى لبس السواد كعادته وعادة آبائه.

قال الحافظ الذهبى(١): قال ابن أبى الدنيا: وكان المأمون أبيض، ربعة حسن الوجه، تعلوه صفرة، قد وَخَطَهُ الشيب(٢) أعين ، طويل اللحية ، دقيقها ، ضيق الجبين ، على خده خال ، وقال الجاحظ : أبيض فيه صفرة، وكان ساقاه دون جسده صفراوين؛ كأنما طليا بالزعفران، أمه أم ولد اسمها مراجل، ماتت أيام نفاسها به، وكان فصيحًا مفوهًا، وكان يقول: معاوية بعمرو، وعبد الملك بحجاجه، وأنا بنفسى. وقد رويت هذه الكلمة عن المنصور. وكان نقش خاتم المأمون عبد الله بن عبيد الله. وروى أنه ختم فى بعض الرمضانات ثلاثًا وثلاثين ختمة.

وقال الحسين بن فهم الحافظ: حدثنا يحيى بن أكثم قال: قال لى المأمون: أريد أن أحدث، قال: ومن أولى بهذا من أمير المؤمنين ؟ فقال: ضعوا لى منبرًا. ثم صعد، فأول حديث حدثنا عن هشيم عن أبى هشيم عن أبى الجهم عن الزهرى عن

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ١٠/ ٢٧٣، تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٤، فوات الوفيات ٢/ ٢٣٥، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٢٥ .

(٢) وخطه الشيب: فشا وانتشر . ينظر : ترتيب القاموس (وخط)

أبى سلمة عن أبى هريرة - فرفع الحديث - قال: « امرؤ القيس صاحب لواء الشعر إلى النار »[١] ثم حدث بنحو ثلاثين حديثًا ثم نزل. فقال لى: كيف رأيت يا يحيى مجلسنا ؟ قلت: أجل مجلس يفقه الخاصة والعامة. فقال: ما رأيت لكم حلاوة، إنما المجلس لأصحاب الخلقان والمحابر[٢].

وقال السراج: حدثنا سهل بن عساكر قال: تقدم رجل غريب بيده محبرة إلى المأمون فقال: يا أمير المؤمنين، صاحب حديث منقطع به. فقال: ما تحفظ فى باب كذا ؟ فلم يذكر الرجل فيه شيئًا، قال: فمازال المأمون يقول: حدثنا هشيم، وحدثنا يحيى، وحدثنا حجاج، فذكر الباب، ثم سأله عن باب آخر فلم يذكر فيه شيئًا، فقال المأمون: حدثنا فلان، وحدثنا فلان، إلى أن قال لأصحابه: يطلب أحدهم الحديث ثلاثة أيام، ثم يقول أنا من أصحاب الحديث ! ! أعطوه ثلاث دراهم[٣]. ومع هذا فكان المأمون مسرفًا فى الكرم جوادًا ممدحًا، جاء عنه أنه فرق فى ساعة واحدة ستة وعشرين ألف ألف درهم. وجاء أنه مدحه أعرابى مرة فأجازه بثلاثين ألف دينار.

وأما ذكاؤه وعلمه فروى محمد بن عون عن أبى عيينة أن المأمون جلس فجاءته امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين مات أخى وخلف ستمائة دينار، فأعطونى دينارًا واحدًا، وقالوا: هذا نصيبك. فحسب المأمون وقال أيضًا: هذا نصيبك، هذا أخوك خلف أربع بنات، قالت: نعم، قال: لهن أربعمائة دينار، وخلف والدة لها مائة دينار، وخلف زوجة فلها خمسة وسبعون دينارًا، بالله ألك اثنا عشر أخا ؟ قالت: نعم. قال: لكل واحد ديناران ولك دينار واحد.

وقال ابن الأعرابى: قال لى المأمون: أخبرنى عن قول هند بنت عتبة: [من الرجز]

نحنُ بناتُ طارقْ   نمشِى على النمارِقْ

من طارق هذا ؟ قال: فنظرت فى نسبها فلم أجده، فقلت: ما أعرف. فقال المأمون: إنما أرادت النجم، انتسبت إليه بحسنها. ثم رمى إلى بعنبرة فى يده فبعتها

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٨) من حديث أبى هريرة .

(٢) ينظر فوات الوفيات ٢/ ٢٣٦، والخلقان جمع خَلَق، يقال: ثوب خلق، وملحفة خلقة والجمع خُلقان وفى ط: الحلقات .

(٣) ينظر فوات الوفيات ٢/ ٢٣٧، تاريخ الخلفاء ٣٣١ - ٣٣٢، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٧٦ .

بخمسة آلاف درهم.

وقال أبو معشر المنجم: كان المأمون أمارًا بالعدل، محمود السيرة، ميمون النقيبة، فقيه النفس، يعد من كبار العلماء. وعن الرشيد والده قال: إنى لأعرف فى عبد الله حزم المنصور، ونسك المهدى، وعزة الهادى، ولو أشاء لأنسبه إلى الرابع - يعنى نفسه - لنسبته، وقد قدمت محمدًا عليه وإنى لأعلم أنه ينقاد إلى هواه، مبذر لما حوته يده، يشاركه فى رأيه الإماء والنساء، ولولا أم جعفر - يعنى زبيدة - وميل بنى هاشم إليه لقدمت عبد الله عليه.

وعن المأمون قال: لو عرف الناس حبى للعفو، لتقربوا إلى بالجرائم، وأخاف ألا أوجر فيه. يعنى لكونه طبعًا له. وعن يحيى بن أكثم قال: كان المأمون يحلم حتى يغيظنا. وذكر أن ملاحًا مر به المأمون، فقال الملاح: أتظنون أن هذا نَبل فى عينى وقد قتل أخاه الأمين؟ لا والله. فسمعها المأمون فتبسم وقال: ما الحيلة حتى أنبل فى عينى هذا السيد الجليل؟!

وعنه قال: كان المأمون يجلس للمناظرة فى الفقه يوم الثلاثاء، فجاء رجل عليه ثياب قد شمرها، ونعله فى يده، فوقف على طرف البساط وقال: السلام عليكم، فرد المأمون السلام، فقال: أتأذن لى فى الدنو؟ قال: ادن وتكلم. فقال: أخبرنى عن المجلس الذى أنت فيه، جلسته باجتماع الأمة أم بالمغالبة والقهر؟ قال المأمون: لا بهذا ولا بهذا، بل كان يتولى أمور الناس(١) من عقد لى ولأخى، فلما صار الأمر إلىَّ علمت أنى محتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين فى الشرق والغرب على الرضا بى فرأيت أنى متى تخليت عن الأمر اضطرب حبل الإسلام وتنازعوا [ومرج عهدهم](٢) وبطل الجهاد والحج وانقطعت السبل، فقمت حياطة للمسلمين إلى أن يجمعوا على رجل يرضون به فأسلم إليه الأمر، فمتى اتفقوا على رجل خرجت له من الأمر. فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وذهب. فوجه المأمون من يكشف خبره فرجع فقال: يا أمير المؤمنين مضى إلى مسجد فيه خمسة عشر رجلاً فى مثل هيئته، فقالوا له: أتيت(٣) الرجل؟ قال: نعم، وأخبرهم بما جرى، فقالوا: ما نرى بما قال

(١) فى تاريخ الإسلام: أمر المؤمنين.
(٢) المثبت من تاريخ الإسلام.
(٣) فى تاريخ الإسلام: ألقيت.

بأسًا، وافترقوا. فقال المأمون: كفينا مؤنة هؤلاء بأيسر الخطب(١).

وأتى برجل من الخوارج فقال له: ما حملك على الخروج والخلاف ؟ قال ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، فقال له المأمون: ألك علم بأنها منزَّلة ؟ قال: نعم. قال: ما دليلك ؟ قال: إجماع الأمة. قال: فكما رضيت بإجماعهم فى التنزيل، فارض بإجماعهم فى التأويل. قال: صدقت، السلام عليك يا أمير المؤمنين.

وعن إسحاق الموصلى قال: كان المأمون قد سخط على الحسين بن الضحاك الملقب بالخليع الشاعر لكونه هجاه عندما قتل الأمين، قال إسحاق: فبينما أنا ذات يوم عند المأمون إذ دخل الحاجب برقعة فاستأذن فى إنشادها فأذن له فقال: [من الطويل]

أَجِزْنِي فإنِّى قد ظَمِئْتُ إلى الورِدِ   متَى تنجزِ الوعدَ المؤكَّد بالعَهْدِ
أعيذُكَ من خُلْفِ الملوكِ فقد ترَىٰ   تقطُّعَ أنفاسى عَليْكَ من الوَجْدِ
أيبخَلُ فردُ الحُسْنِ عنِّى بنائِلٍ   قَلِيلٍ وقَدْ أفردتُّهُ بهوًى فَرْدِ ؟!

إلى أن قال:

رأى اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عبادِهِ   فملَّكه، واللَّهُ أعلمُ بالعَبْدِ
ألاَ إنما المأمونُ للناسِ عصمةٌ   مُمَيِّزَةٌ بين الضلاَلَةِ والرشدِ

فقال له: أحسنت. قال: يا أمير المؤمنين أحسن قائلها. قال: ومن هو ؟ قال: عبدك الحسين بن الضحاك. فقال: لا حياه الله ولا بياه، أليس هو القائل: [من الطويل]

فلا تَمَّتِ الأشياءُ بعد محمَّدٍ   ولا زالَ شمْلُ الملكِ فيها مبدَّدَا
ولا فَرِحَ المأمونُ بالمُلْكِ بعدَهُ   ولا زالَ فى الدنيا طريدًا مشرَّدَا

هذه بتلك فلا شيء له عندنا. قال الحاجب: فأين عادة عفو أمير المؤمنين ؟ قال: أما هذه فنعم، ائذنوا له. فدخل، فقال: هل عرفت يوم قتلِ أخى هاشمية هتكت ؟ قال: لا. قال: فما معنى قولك: [من الطويل]

ومما شَجَىٰ قَلْبى وكَفْكَفَ عَبْرَتِي   محارمُ مِنْ آلِ الرسولِ استُحِلَّتِ

(١) ينظر: تاريخ الإسلام حوادث ٢١١هـ (ص٢٣٤) .

ومهتوكة بالجلْدِ عنها سجوفها كعاب كقرنِ الشمسِ حين تبدَّتِ
فلا باتَ ليلُ الشامتِينَ بغبطةٍ ولا بلَغَتْ آمالها ما تمنَّتِ

فقال: يا أمير المؤمنين لوعة غلبتنى، وروعة فاجأتنى، ونعمة سلبتها بعد أن غمرتنى. فإن عاقبت فبحقك، وإن عفوت فبفضلك. فدمعت عينا المأمون وأمر له بجائزة.

حكى الصولى أنه كان يحب اللعب بالشطرنج، واقترح فيه شيئًا، وكان ينهى أن يقول الشخص: تعال نلعب، ويقول: بل نتناقل، ولم يكن به حاذقًا. وكان يقول: أنا أدبر الدنيا وأتسع لها، وأضيق عن تدبير شبرين. وله فيه: [من البسيط]

أرضٌ مُرَبَّعَةٌ حمراءُ مِنْ أدمٍ ما بين إلفَيْنِ معروفَيْنِ بالكَرَمِ
تذاكرا الحَرْبَ فَاحْتَالاَ لها حِيَلاً مِنْ غيرِ أَنْ يأْثَما فيها بِسَفْكِ دَمِ
هذا يُغِيرُ على هذا، وَذَاكَ عَلىٰ هذا يُغِيرُ، وَعَينِ الحَزْمِ لَمْ تَنَمِ
فَانْظُرْ إلى فِطَنٍ جَالَتْ بِمَعْرِفَةٍ فى عَسْكَرَيْنِ بلا طَبْلٍ ولا عَلَمِ

ونظر المأمون إلى عمه إبراهيم بن المهدى - وكان يلقب بالتنين لسمنه - فقال له: ما أظنك عشقت قط. ثم أنشد: [من السريع]

وَجْهُ الَّذِى يَعْشَقُ مَعْرُوفُ لِأَنَّهُ أَصْفَرُ مَنْحُوفُ
لَيْسَ كَمَنْ يَأْتِيكَ ذَا جُثَّةٍ كَأَنَّهُ لِلذَّبْحِ مَعْلُوفُ

وعن المأمون قال: ما أعيانى قط جواب إلا جواب ثلاثة: صرت إلى أم ذى الرياستين الفضل بن سهل أعزيها فيه فقلت: لا تأسى عليه، فإنى عوضه لك. قالت: يا أمير المؤمنين، كيف لا أحزن على ولد أكسبنى مثلك ؟!. وأتيت بمتنبىء فقلت له: من أنت ؟ قال: أنا موسى بن عمران. قلت: ويحك! موسى له آيات، فائتنى بها حتى أومن بك. قال: إنما أتيت بهذه المعجزات لفرعون إذ قال: « أنا ربكم الأعلى » فإن قلت ذلك أتيتك بالآيات. قال: وأتى أهل الكوفة يشكون عاملهم، فقال خطيبهم: هو شر عامل؛ أما فى أول سنة فإنا بعنا الأثاث، وفى الثانية بعنا العقار[١]، وفى الثالثة نزحنا عن بلادنا، وأتيناك نستغيث. فقلت: كذبت، بل هو رجل قد حمدت مذهبه، ورضيت دينه فاخترته معرفة بكم، وقد تقدم سخطكم على

---

(١) فى تاريخ الإسلام: الضياع .

العمال غير مرة. قال: صدقت يا أمير المؤمنين، وكذبت أنا، فقد خصصتنا به هذه المدة دون باقى البلاد، فاستعمله على بلد آخر يشملهم من عدله وإحسانه(١) مثل الذى شملنا. فقلت: قم فى غير حفظ الله، قد عزلته عنكم(٢).

وكان قدوم المأمون من خراسان إلى بغداد فى صفر سنة أربع ومائتين، دخلها فى رابع صفر فى أبهة عظيمة وتجمل زائد، فكلمه العباسيون وغيرهم فى العود إلى لباس السواد وترك الخضرة، فتوقف، ثم أجاب إلى ذلك لما قال له بعض أهل بيته: إنك على أثر أولاد على بن أبى طالب، والأمر فيك أقدر منك على برهم والأمر فيهم. قال: إنما فعلت ما فعلت لأن أبا بكر لما ولى لم يول أحدًا من بنى هاشم شيئًا ثم عمر ثم عثمان كذلك، ثم لما ولى على ولي عبد الله بن عباس البصرة، وعبيد الله اليمن، ومعبدًا مكة، وقثم البحرين، وما ترك أحدًا منهم إلا ولاه شيئًا، وكانت هذه فى أعناقنا حتى كافأته فى ولده بما فعلت.

وفى سنة عشر بعد المائتين تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل، وقام بخلع للقواد وكلفتهم مدة سبعة عشر يومًا، وكتب رقاعًا فيها أسماء بضياع له، ونثرها على القواد والعباسيين، فمن وقعت فى يده رقعة باسم ضيعة تسلمها، ونثر صينية ملأى جواهر بين يدى المأمون عندما زفت إليه.

وفى سنة إحدى عشرة ومائتين أمر المأمون بأن ينادى: برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير، وأن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ على بن أبى طالب.

وفى سنة اثنتى عشرة أظهر القول بخلق القرآن، ثم فى سنة ثمان عشرة امتحن العلماء بالقول بخلق القرآن، فكتب إلى نائبه بالعراق إسحاق بن الخزاعى ابن عم طاهر بن الحسين بذلك ليلزم العلماء ويحاجهم فى ذلك.

قال الحافظ الذهبى(٣): قال إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوى فى تاريخه: حكى أبو سليمان بن داود [بن] على، عن يحيى بن أكثم قال: كنت عند المأمون وعنده جماعة من قواد خراسان وقد دعا إلى خلق القرآن حينئذٍ، فقال لأولئك القواد: ما تقولون فى القرآن؟ قالوا: كان شيوخنا يقولون: ما كان فيه من ذكر

(١) فى تاريخ الإسلام: وإنصافه.
(٢) ينظر السابق (ص ١٣٨).
(٣) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبى الطبقة الثانية والعشرون ص ٢٣٧، فوات الوفيات ٢/٢٣٨.

الحمير والجمال والبقر فهو مخلوق، وما كان فيه من سوى ذلك فهو غير مخلوق. فأما إذا قال أمير المؤمنين غير ذلك[١] فنحن نقول: كله مخلوق. فقلت للمأمون: أتفرح بموافقة هؤلاء ؟ !

ومن كلام المأمون: الناس ثلاثة: فمنهم مثل الغذاء لا بد منه على كل حال، ومنهم كالدواء يحتاج إليه فى حال المرض، ومنهم كالداء مكروه على كل حال. وكان يقول: لا نزهة ألذ من النظر فى عقول الرجال. وكان يقول: غلبة الحجة أحب إلى من غلبة القدرة؛ لأن غلبة الحجة لا تزول، وغلبة القدرة تزول بزوالها. وكان يقول: الملك يغتفر كل شيء إلا ثلاثًا: القدح فى الملك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم.

وكان المأمون معروفا بالتشيع؛ روى عنه أبو داود المصاحفى قال: سمعت النضر ابن شميل يقول: دخلت على المأمون فقال لى: إنى قلت اليوم شعرًا فاسمعه، فقلت: هاته. قال: [من المنسرح]

أَصْبَحَ دِينِى الَّذِى أَدِينُ بِهِ ... وَلَسْتُ مِنهُ الغَدَاةَ مُعْتَذِرَا
حُبَّ عَلِيٍّ بَعْدَ النبىّ وَلاَ ... أَشْتُمُ صِدِّيقَهُ وَلاَ عُمَرَا
وابنُ عفانَ فى الجِنَانِ مَعَ الْـ ... أَبْرَارِ ذَاكَ القَتِيلُ مُصْطَبِرَا
وعائِشُ الأُمُّ لَسْتُ أَشْتُمُهَا ... مَنْ يَفْتَرِيهَا فَنَحْنُ منه بَرَا[٢]

ومن شعره: [من المتقارب]

لِسَانِى كَتُومٌ لِأَسْرَارِكُمْ ... وَدَمْعِى نَمُومٌ لِسِرِّى مُذِيعُ
فَلَوْلاَ دُمُوعِي كتمتُ الهَوَىٰ ... وَلَوْلاَ الهَوَىٰ لَمْ تَكُنْ لِى دُمُوعُ[٣]

وفى ابن خلكان[٤]: دخل النضر بن شميل على المأمون ليلة فتفاوضا الحديث، فروى المأمون عن هشيم بسنده إلى ابن عباس قوله ﷺ: « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز »[٥] بفتح السين. فقال النضر: يا أمير

---

(١) فى تاريخ الإسلام: هو مخلوق.
(٢) ينظر: فوات الوفيات ٢/ ٢٣٨.
(٣) ينظر: تاريخ الخلفاء ٣٣٣، تاريخ دمشق ٢٨٠.
(٤) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/ ٣٩٨ - ٣٩٩.
(٥) ذكره الهندى فى كنز العمال (٤٤٥٢٠) وعزاه للشيرازى فى الألقاب عن على وابن عباس.

المؤمنين صدق هشيم، حدثنا فلان ابن فلان. . . إلى على بن أبى طالب، فذكر الحديث، فقال فيه: « سداد من عوز » وكسر السين، وكان المأمون متكئا فاستوى جالسًا وقال: كيف قلت، سِداد بكسر السين ؟ قلت: لأن السَّداد بالفتح ههنا لحن، فقال: أتلحنني ؟ قلت: إنما لحن هشيم فتبعه أمير المؤمنين، فقال: ما الفرق بينهم. قلت: السداد، بالفتح: القصد فى الدين والسبيل، وبالكسر: البلغة، وكان ما سددت به شيئا فهو سداد. فقال المأمون: أو تعرف العرب ذلك ؟ قلت: نعم، هذا العرجى يقول: [من الوافر]

أَضَاعُونِى وَأَىَّ فَتًى أَضَاعُوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ

فاستوى جالسًا وقال: قبح الله من لا أدب له. ثم أقبل على فقال: أخبرنى بأخلب بيت قالته العرب: قلت: قول ابن بيض فى الحكم بن مروان: [من المنسرح]

تَقُولُ لِى وَالعُيُونُ هَاجِعَةٌ أَقِمْ عَلَيْنَا يَوْمًا فَلَمْ أُقِمِ
مَتَى يَقُلْ صَاحِبُ السُّرَادِقِ هَا ذَا إِبْنُ بيض بالبَابِ يَبْتَسِمِ
قَدْ كنت أسلمتُ فِيكَ مُقْتَبلاً فَهَاتِ أدخُلْ وأَعْطِنِى سَلَمِي

فقال: لقد أحسن وأجاد، فأخبرنى بأنصف بيت قالته العرب، قلت: قول عروبة: [من الكامل]

إِنِّى وإن كان ابن عَمِّىَ وَاغِرًا لَمُدَاهِن من خلفهِ وَوَرَائِهِ
ومعده نَصْرِى وإن كان امْرأً مُتَبَاعِدًا من أَرْضِهِ وَسَمائِهِ
فأكون وَالى سِرِّهِ وأَصُونُه حَتَّى يحينَ علىَّ وَقْتُ أَدَائِهِ
وَإِذَا الحَوَادِثُ أَجْحَنَتْ بِسَوَامِهِ قَرَّبْتُ جلتَهَا إِلَىٰ حِرْبائِهِ
وَإِذَا دَعَا باسمى لِيَرْكبَ مَرْكبًا صعبًا ركِبْتُ لَهُ على سِيسَائِهِ
وَإِذَا رَأَيْتُ عليه بُرْدًا ناضرًا لَمْ يَلْقَنِى مُتَمنيا لِرِدَائِهِ

قال: لقد أحسن وأجاد، فأخبرنى عن أغرب بيت قالته العرب، قلت: قول راعى الإبل: [من المنسرح]

أَطْلُبُ مَا يَطْلُبُ الْكريم مِنْ الر رْزْقِ لِنَفْسِى وَأُجْمِلُ الطَّلَبَا
وَأَطْلُبُ الدُّرَّةَ الصفاءَ وَلاَ أَطْلُبُ فى غَير خلفها جَلَبَا

إنى رأيتُ الفَتَى الكَريمَ إِذَا رَغَّبتهُ فِى صَنِيعةٍ رَغِبَا
والنذْلَ لا يطلب العَلاَء وَلاَ يعطيكَ شَيْئًا إلا إذا رَهِبَا
مثلُ الحِمارِ المُوَاقِعِ السُّوءِ لاَ يُحْسِنُ مَشْيًا إلا إذا ضُرِبَا

فقال: والله لقد أحسن وأجاد، ودعا بالدواة فما أدرى ما يكتب. ثم قال: يا نضر كيف تقول فعل الأمر من الإتراب؟ فقلت: أقول أترب القرطاس والقرطاس متروب، قال: فكيف تقول من الطين؟ قلت: أقول طن الكتاب والكتاب مطين، قال: هذه أحسن من الأولى ثم دفَع ما كتب إلى خادم وجهه معى إلى الحسن بن سهل. فلما قرأ الفضل الرقعة قال: يا نضر، قد أمر لك بخمسين ألف درهم، فما كان السبب؟ فأخبرته، فأمر لى بثلاثين ألف درهم أخرى، فأخذت ثمانين ألف درهم بحرف واحدٍ استفيد منى.

وقد نادى المأمون بإباحة المتعة فلم يجسر أحد ينكر عليه، فروى له يحيى بن أكثم حديث الزهرى، عن ابنى الحنفية، عن أبيهما محمد بن على - رضى الله تعالى عنهما - أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن متعة النساء يوم خيبر، فلما صح له الحديث رجع إلى الحق ونادى بإبطالها.

وأما مسألة خلق القرآن فصمم عليها ولم يرجع عنها فى سنة ثمان عشرة، وامتحن العلماء بها فعوجل ولم يمهل، توجه فى هذه السنة غازيًا إلى أرض الروم، فلما وصل إلى البذندون مرض واشتد به المرض، فأوصى بالخلافة إلى أخيه المعتصم بن الرشيد، وأما المؤتمن المعقود له العهد بعده فقد كان خلعه قبل حين، وجعل الرضى مكانه فيما تقدم سنة إحدى ومائتين، فلما ورد نزل على عين البذندون فأقام هناك واعتل.

قال المسعودى(١): أعجبه برد ماء العين وصفاؤها وطيب الموضع وكثرة الخضرة، وقد طرح له درهم فى العين فقرأه فيها لفرط صفائها، ولم يقدر أحد أن يسبح فيها لشدة بردها، فرأى سمكة نحو الذراع كأنها الفضة فجعل لمن يخرجها سيفًا، فنزل فراش فاصطادها وطلع، فاضطربت وفرت إلى الماء، فنضح صدر المأمون ونحره وابتل ثوبه، ثم نزل الفراش ثانية فأخذها فقال المأمون: يقلى

(١) ينظر: مروج الذهب ٤/ ٤٣ - ٤٥، وانظر نحوه فى الهفوات النادرة ١٨٣ - ١٨٥ .

الساعة، ثم أخذته رعدة وتغطى باللحف وهو يرتعد ويصيح، فأوقدت حوله نار، ثم أتى بالسمكة فما ذاقها لشغله بحاله، ثم أفاق من غمرته فسأل عن تفسير اسم المكان بالعربى فقيل له: مد رجليك، فتطير به، وسأل عن تفسير البقعة قيل: الرقة، وكان فيما علم من مولده أنه يموت بالرقة فكان يتجنب نزول الرقة، فلما سمع هذا من الروم عرف وأيس وقال: يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه، وأجلس المعتصم عنده من يلقنه الشهادة، فرفع الرجل بها صوته، فقال له ابن ماسويه: لا تصح، فوالله ما يفرق الآن بين ربه وبين مانى.

ففتح المأمون عينيه وبهما من عظم الورم والحمرة أمر شديد، وأقبل يحاول بيديه البطش بابن ماسويه، ورام مخاطبته فعجز، فرمز بطرفه نحو السماء وقد امتلأت عيناه دموعًا وقال فى الحال: يا من لا يموت، ارحم من يموت، ثم قضى فى يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين، فنقله ابنه العباس وأخوه المعتصم إلى طرسوس، فدفن هناك.

ولما ورد خبر وفاته بغداد قال أبو سعيد المخزومى: [من الخفيف]

هَلْ رَأَيْتَ النُّجُومَ أَغْنَتْ عَنِ الْمأْ مُونِ يَوْمًا أَوْ ملكه[1] المأسوس
خَلَّفُوهُ بِعَرْصَتَىْ طَرَسُوس مِثْلَ مَا خَلَّفُوا أَبَاهُ بِطُوسِ

حدث محمد بن أيوب أمير البصرة للمأمون قال: كان بالبصرة رجل من بنى تميم، شاعر أديب، كنت آنس به، فأردت نفعه فقلت: خليفتنا المأمون أجود من السحاب الحافل والريح العاصف، وإنى موفدك عليه، فدعا لى، فأعطيته نجيبًا ونفقة، ثم عمل أرجوزة لطيفة ذكرنى فيها فاستحسنتها، وخرج إلى الشام والمأمون بـ « سلغوس »[2] ثم أخبرنى بعد ذلك فقال: بينا أنا فى غداة قرة على نجيبى وأنا أريد العسكر، إذا أنا بكهل على بغل فاره ما يقر قراره ولا تدرك خطاه، فتلقانى مواجهة فقال: السلام عليك، بكلام جهورى وقال: قف إن شئت. فوقفت، فتضوعت منه رائحة المسك، فقال: ممن أنت ؟ فقلت: رجل من مضر، فقال: ونحن من مضر، قال: ثم ممن ؟ قلت: من تميم من بنى سعد، فقال: هيه ما أقدمك ؟ قلت: قصدت

---

(١) فى ط: هلكه . والمثبت من المروج.
(٢) سلغوس: حصن فى بلاد الثغور بعد طرسوس . ينظر : المراصد (٢/ ٧٢٨).

هذا الخليفة الذى ماسمعت بمثله أندى راحة ولا أوسع ساحة ولا أطول باعًا ولا أمد يفاعًا، وقد قصدته بشعر يلذ على أفواه الرواة، ويحلو فى آذان المستمعين. قال: فأنشدنيه، فمضيت وقلت: يا ركيك، أخبرك بشعر قلته فى الخليفة ومديح حبرته فيه ؟ فقال: وما تأمل منه ؟ قلت: إن كان على ما ذكر لى فألف دينار. قال: فأنا أعطيك ألف دينار إن رأيت الشعر جيدًا، ومتى تصل إليه وبينك وبينه عشرون ألف رامح ونابل، فقلت له: أمعك مال ؟ قال: بغلى هذا خير من ألف دينار، أنزل لك عن ظهره، فقلت: ما يساوى هذا البغل هذا النجيب ؟ فقال: دع عنك هذا ولك الله أن أعطيك ألف دينار، فأنشدته الأرجوزة وقلت: [من الرجز]

مَأمُونُ يَا ذَا المِنَنِ الشَّرِيفَهْ وَصَاحِبَ المَرْتَبَةِ المُنِيفَهْ
وَقَائِدَ الْكَتِيبَةِ الْكَثِيفَهْ هَلْ لَكَ فِى أُرْجُوزَةٍ ظَرِيفَهْ
أَظْرَفَ مِنْ فِقْهِ أَبِى حَنِيفَهْ لاَ وَالَّذِى أَنْتَ لَهُ خَلِيفَهْ
مَا ظَلَمَتْ فِى أَرْضِنَا عَفِيفَهْ أَمِيرنَا مُؤْنَتُهُ خَفِيفَهْ
ومَا اجْتَنَىٰ شَيْئًا سِوَى الوَظِيفَهْ فَالذِّئْبُ وَالنَّعْجَةُ فِى سَقِيفَهْ
وَاللِّصُّ وَالتَّاجِرُ فِى قَطِيفَهْ

قال: فوالله ما أتممتها حتى غشينا زهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق يقولون: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فأخذنى شبه جنون، فنظر إلى وقال: لا بأس عليك، قلت: أمعذرى أنت ؟ قال: نعم، ثم التفت إلى خادم وقال: أعطه ما معك، فأخرج كيسًا فيه ثلاثة آلاف دينار ذهبًا وقال: هاك، سلام عليك، ومضى. ورجعت إلى بلدى مسرورًا.

فى المسامرة لابن عربى: أشرف المأمون من قصره فرأى رجلًا قائما وبيده فحمة، وهو يكتب بها على حائط قصره، فأمر المأمون بعض خدمه أن يذهب إليه فينظر ما كتب ويأتيه به، فبادر الخادم إلى الرجل مسرعًا وقبض عليه وتأمل الكتاب وإذا هو: [من البسيط]

يَا قَصْرُ جُمِّعَ فيكَ الشُّؤم واللُّومُ مَتَى تُعَشِّشُ فى أَرْجَائِكَ البُومُ
يَوْمَ تُعَشِّشُ فيكَ البُومُ مِنْ فَرَحِي أَكُونُ أَولَ مَنْ يَنْعَاك مَرْغُومُ

ثم إن الخادم قال للرجل: أجب أمير المؤمنين. فقال له: سألتك بالله لا تذهب

بى إليه، فقال الخادم: لا بد من ذلك. فلما مثل بين يديه أعلمه الخادم بما كتبه، فقال له المأمون: ويلك ما حملك على هذا ؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنه لن يخفى عليك ما حواه قصرك من خزائن الأموال، والحلى والحلل، والطعام والشراب، والفرش والأوانى، والأمتعة والجوارى، والخدم، وغير ذلك مما يقصر عنه وصفى، ويعجز عنه فهمى، وإنى يا أمير المؤمنين قد مررت عليه الآن وأنا فى غاية الجوع والفاقة، فوقفت مفكرًا فى أمرى، وقلت فى نفسى: هذا القصر عامر عال، وأنا جائع، ولا فائدة لى فيه، ولو كان خرابًا وأنا مررت به لم أعدم منه رخامة أو خشبة أو مسمارًا أبيعه وأتقوت بثمنه. أوَمَا علم أمير المؤمنين ما قال الشاعر ؟! فقال المأمون: وما قال الشاعر ؟ فقال : قال [من الطويل]

إِذَا لم يَكُنْ للمَرْءِ فى دولةِ امْرِئٍ ... نصيبٌ وَلاَ حَظٌّ تَمَنَّىٰ زَوَالَهَا
وَمَا ذَاكَ مِنْ بُغْضٍ لها، غَيْرَ أَنَّهُ ... يُرَجِّى سِوَاها فَهْوَ يهوىٰ زَوَالَهَا

فقال المأمون: يا غلام، أعطه ألف دينار. ثم قال: هى لك كل سنة ما دام قصرنا عامرًا بأهله. وفى مثل هذا المعنى قال الشاعر: [من الطويل]

إِذَا كنتَ فِى أَمْرٍ فَكُنْ فيه مُحْسِنًا ... فَعَمَّا قليلٍ أَنْتَ مَاضٍ وَتَارِكُهْ
وَكَمْ دَحَتِ الأَيَّامُ أربابَ دَوْلَةٍ ... وَقَدْ مَلَكُوا أضعافَ مَا أَنْتَ مَالِكُهْ

كانت مدة خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يومًا، وعمره ثمان وأربعون سنة وأربعة أشهر، ومن شعر المأمون فى آل البيت قوله: [من الوافر]

وَكَمْ غَاوٍ يَعَضُّ عَلَيَّ غَيْظًا ... إِذَا أَذْنَيْتُ أَبْنَاءَ الوَصِيِّ
يحاولُ أَنَّ نورَ الله يُطْفَىٰ ... وَنُورُ اللَّهِ فى حِصْنٍ أَبِيِّ
فقلتُ أَلَيسَ قَدْ أُوتيتَ عِلْمًا ... وَبَانَ لَكَ الرشيدُ مِن الْغَوِيِّ
وَعُرِّفْتَ احتِجَاجى بالمَثَانِي ... وَبِالمَعْقُولِ وَالأَثَرِ القَوِيِّ
بِأَيَّةِ خَلَّةٍ وبِأَيِّ مَعْنَى ... تُفَضِّلُ مُلْحِدِينَ عَلَىٰ عَلِيِّ
عليٌّ أَعْظَمُ الثَّقَلينِ حَقًّا ... وأفضَلُهم سِوَىٰ حَقِّ النبيِّ

رحمه الله تعالى !.

* * *

خلافة المعتصم[(١)]

أمير المؤمنين، أبو إسحاق، محمد بن هارون الرشيد، ولد سنة ثمانين ومائة وأمه أم ولد اسمها ماردة، بويع بعد المأمون بعهد منه إليه فى رابع عشر رجب سنة ثمان عشرة ومائتين، وكان أبيض، أصهب اللحية طويلها، ربع القامة، مشرب اللون، ذا شجاعة وهمة عالية، وقوة مفرطة، قال نفطويه: حدثت أنه أدخل زند رجل بين إصبعيه فكسره، وكان يحمل ألف رطل فيمشى بها خطوات، ويفحص الدينار فيمحو سكّته بواحدة.

وكان أميًا لا يحسن الكتابة. روى الصولى قال: كان للمعتصم غلام فى الكتاب يتعلم معه فمات ذلك الغلام، فقال له الرشيد أبوه: مات غلامك؟ قال: نعم يا سيدى، واستراح من الكتاب. فقال الرشيد له: وإن الكتاب ليبلغ منك هذا؟ دعوه ولا تعلموه. وكان يقرأ ويكتب قراءة وكتابة ضعيفة[(٢)].

قال العلامة البهوتى: ذكر أبو الفضل الرياشى كتب ملك الروم - لعنه الله - إلى المعتصم يتهدده، فأمر بجوابه. فلما قرئ عليه الجواب لم يرضه، وقال للكاتب اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار[(٣)].

قال أبو بكر الخطيب: غزا المعتصم بلاد الروم سنة ثلاث وعشرين ومائتين،

---

(١) ينظر [المعتصم] في: شذرات الذهب ٢/ ٦٣، الكامل لابن الأثير ٦/ ٥٢٥، المعارف لابن قتيبة ٣٩٢، الأخبار الطوال ٤٠١، البدء والتاريخ ٦/ ١١٤، تاريخ اليعقوبى ٣/ ١٩٧، تاريخ الطبرى ٩/ ١١٨ - ١٢٣، العبر ١/ ٤٠٠ - ٤٠٢، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٩٠، تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٢، فوات الوفيات ٤/ ٤٨، الذهب المسبوك ٢٢١، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٥٠، الوافى بالوفيات ٥/ ١٣٩، البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٥، تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٢، تاريخ الخلفاء ٣٣٤، تاريخ خليفة ٤٧٥، المحبر ٤٢، نسب قريش ٢٧٢، نثر الدر ٣/ ٤٤، الأذكياء لابن الجوزى ٢٠٢، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٦، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٢٥٦ - ٢٧٠، مرآة الجنان ٢/ ٩٤، دول الإسلام ١/ ١٣٧ .

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٩١، تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٣، فوات الوفيات ٤/ ٤٩، تاريخ الخلفاء ٣٣٤ .

(٣) ينظر: تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٤، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٩١، البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٦ .

فأنكى فى العدو نكاية عظيمة، ونصب على عمورية المجانيق وفتحها، وقتل ثلاثين ألفًا وسبى مثلها، وكان فى سبيه ستون بطريقًا ثم أحرقها، وهى من أَجَلِّ فتح وقع فى الإسلام. وسبب ذلك - على ما ذكره أهل التواريخ - أن رجلًا وقف على المعتصم حال شربه وقال: يا أمير المؤمنين كنت بعمورية وجارية من أحسن النساء أسيرة قد لطمها على وجهها علج فقالت: وامعتصماه. فقال لها العلج: عساه أن يأتيك على خيل بلق، فلما سمع المعتصم كلامه أمر بالختم على الكأس وقال: وقرابتى من رسول الله ﷺ لا شربته حتى أغزوه فأنتقذها. ثم استجاش وسار إليه على الخيل البلق - كما قال الحافظ الذهبى[١]. ولما تجهز المعتصم لفتح عمورية حكم المنجمون أن ذلك الوقت طالع نحس وأنه يكسر، فكان من ظفره ونصره ما لم يخف. فقال فى ذلك أبو تمام الطائى حبيب بن أوس قصيدته البديعة البائية، وهى:

[من البسيط]

أَلسَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ ... فِى حَدِّه الحَدُّ بَين الجِدِّ واللعِبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لاَ سُودُ الصَّحَائِفِ فِي ... مُتُونِهِنَّ جَلاَءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ
والعِلْمُ فى شُهُبِ الأَرْمَاحِ لاَمِعةً ... بَين الخَمِيسَينِ لاَ فى السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
أَيْنَ الرِّوَايَةُ بَلْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا ... صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
تَخَرُّصًا وَأَحَادِيثًا مُلَفَّقَةً ... لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلاَ غَرَبِ
عَجَائِبًا زَعَمُوا الأَيَّامَ مُجْفِلَةً ... عَنْهُنَّ فِى صَفَرِ الأَصْفَارِ أَوْ رَجَبِ
وَخَوَّفُوا النَّاسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلِمَةٍ ... إِذَا بدا الكَوْكَبُ الغَرْبِيُّ ذُو الذَّنَبِ
وَصَيَّرُوا الأَبْرُجَ العلْيَا مُرتبةً ... مَا كَانَ مُنْقَلِبًا أَوْ غيرَ مُنْقَلِبِ
يَقْضُونَ بِالأَمْرِ عَنْهَا وَهْى غَافِلَةٌ ... مَا دَارَ فِى فَلَكٍ مِنْهَا وَفِى قُطُبِ
لَوْ بَيَّنَتْ قَطُّ أمْرًا قَبْلَ مَوْقِعِهِ ... لَمْ تُخْفِ مَا حَلَّ بالأَوْثَانِ وَالصُّلُبِ
فَتح الفُتُوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ ... نَظْمٌ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ
فَتْحٌ تَفَتَّحُ أبوابُ السَّماءِ لَهُ ... وَتَبْرُزُ الأَرْضُ فِى أَثْوابِهَا القُشُبِ
يَا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ انْصَرفَتْ ... مِنْكَ المُنَى حُفَّلًا مَعْسُولَةَ الحلبِ
أَبْقَيْتَ جَدَّ بَنى الإِسْلاَمِ فى صَعَدٍ ... والمُشْرِكِينَ وَدَارَ الحَرْبِ فِى صَبَبِ

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٠/٣٠٣ .

أُمٌّ لَهُمْ لَوْ رَجَوْا أن تُفْتَدَى جَعلُوا	فِدَى لَهَا كلَّ أمٍّ بَرَّةٍ وَأبِ
وبرْزَةُ الوَجْهِ قَدْ أَعْيتْ رِيَاضَتُها	كِسْرَى وَصَدَّتْ صُدودًا عن أبى كَرِبِ
بِكْرٌ فَمَا افْتَرَعَتْهَا كَفُّ حَادِثَةٍ	وَلاَ تَرقَّتْ إِليها هِمَّةُ النُّوبِ
مِنْ عَهْد إِسكندرٍ أَوْ قبلَ ذلكَ قَدْ	شَابَتْ نَوَاصِى اللَّيَالي وَهْىَ لَمْ تَشِبِ
حَتَّى إِذَا مَخَّضَ الله السِّنينَ لَهَا	مَخْضَ الحَلِيبَةِ كَانَتْ زُبْدَةَ الحِقَبِ
أَتتْهُمُ الكُرْبَةُ السَّوْدَاءُ سَادِرَةً	منها وَكَانَ اسْمُهَا فَرَّاجَةَ الكُرَبِ
جَرَى لَهَا الفَأْلُ نَحسًا يَوْمَ أَنْقرَةٍ	إِذْ غُودِرَتْ وَحْشَةَ السَّاحَاتِ وَالرحَبِ
لمَّا رَأَتْ أُختَها بالأَمْسِ قَدْ خَرِبَتْ	كَانَ الخَرَابُ لها أَعْدَى مِنَ الجَرَبِ
كَمْ بينَ حِيطَانِها مِنْ فارِسٍ بَطَلٍ	قَانِى الذَّوائِبِ مِنْ آنِى دَم سَرِبِ
بِسُنَّةِ السَّيفِ والخَطِّىّ مِنْ دَمِهِ	لاَ سُنَّةِ الدِّينِ والإِسْلاَمِ مُخْتَضِبِ
لَقَدْ تركْتَ - أَميرَ المؤمِنِينَ - بِهَا	لِلنَّارِ يَوْمًا ذَلِيلَ الصَّخْرِ والخَشَبِ
غادرْتَ فيهم بَهِيمَ اللَّيْلِ وَهْو ضُحًى	بِثُلَّةِ وَسْطَها صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ
حَتَّى كأَنَّ جَلابِيبَ الدُّجَىٰ رَغِبَتْ	عَنْ لَونِها، وَكَأَنَّ الشَّمْسَ لم تَغِبِ
ضوءٌ مِنَ النَّارِ والظَّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ	وَظُلْمَةٌ مِنْ دُخَانٍ فِى ضُحًى شَحِبِ
فالشَّمْسُ طالعةٌ مِنْ ذَا وَقَدْ أَفلَتْ	وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ فِى ذَا وَلَمْ تَجِبِ
تَكَشَّفَ(١) الدَّهْر تصريح الغَمام لَهَا	عَنْ يَوْم هيجاءَ منها طَاهِرٍ جلبِ
لم تَطْلُعِ الشَّمْسُ منه يَوْمَ ذاك عَلَىٰ	بَانٍ بأَهْلٍ وَلَمْ تَغْرُبْ عَلَى عَزَبِ
مَا رَبْعُ مَيَّةَ مَعْمُورًا يُطِيفُ بِهِ	غَيْلاَنُ أَبْهَى رُبًى مِنْ رَبْعِهَا الخَرِبِ
وَمَا الخُدُودُ وإن أُدْمِينَ من خَجَلٍ	أَشْهَىٰ إِلَىٰ نَاظِرِى مِنْ خَدِّها التَّرِبِ
سَمَاجَةً غَنِيَتْ منْهَا العُيونُ بِهَا	عَنْ كُلِّ حُسْنٍ بَدَا أَوْ مَنْظَرٍ عَجَبِ
وَحُسْنُ منقَلَبٍ تَبْدُو عَوَاقِبُهُ	جَاءَتْ بَشَاشَتُهُ عَنْ سُوءِ مُنْقَلَبِ
تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ مُنْتَقِمِ	لِلهِ مُرْتَقِبٍ فِى اللَّهِ مُرْتَغِبِ
ومُطعمِ النَّصْلِ لم تَكْهَمْ أَسِنَّتُهُ	يَوْمًا ولا حُجِبَتْ عن رُوحِ مُحتَجِبِ
لم يَرْمِ قومًا وَلَم يَنْهَدْ إِلى بَلَدٍ	إِلاَّ تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ
لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلاً يَوْمَ الوَغَى لَغَدَا	مِنْ نفسِهِ وَحْدَهَا فِى جَحْفَلٍ لَجِبِ

---

(١) فى الديوان: تصرح .

رَمَىٰ بِكَ اللَّهُ بُرْجَيْهَا فَهَدَّمَهَا … وَلَو رَمَى بِكَ غَيْرُ اللَّهِ لَمْ يُصِبِ
مِنْ بَعْدِ مَا أَشَّبوهَا[1] واثقِينَ بِهَا … واللَّهُ مِفْتَاحُ بَاب المَعْقِلِ الأَشِبِ
وَقَالَ ذُو أَمْرِهِم لاَ مَرْتَعٌ صَدَدٌ … لِلسَّارِحِينَ وَلَيْسَ الوِرْدُ عَنْ كَثَبِ
أَمَانِيًا سَلَبَتْهُمْ نُجْحَ هَاجِسِهَا … ظُبَى السُّيوفِ وَأَطْرَافُ القَنَا السُّلُبِ
إِنَّ الحمامَيْنِ مِنْ بِيضٍ ومِنْ سُمُرٍ … دَلْوَا الحَيَاتينِ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ عُشُبِ
لَبَّيْتَ صَوْتًا زِبَطْرِيًّا هَرَقْتَ لَهُ … كَأْسَ الكَرَا ورُضَابَ الخُرَّدِ العُرُبِ
عَدَاكَ حَرُّ الثُّغُورِ المُسْتَضَامَةِ عَنْ … بَرْدِ الثُّغُورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا الحَصِبِ
أَجبْتَهُ مُعْلِنًا بالسَّيْفِ مُنْصَلِتًا … وَلَوْ أَجَبْتَ بِغَيْرِ السَّيْفِ لم تُجِبِ
حَتَّى تَرَكْتَ عَمُودَ الشِّرْك مُنْعَفِرًا … وَلَمْ تُعَرِّجْ عَلَى الأَوْتَادِ والطُّنُبِ
لمَّا رَأَى الحَرْبَ رَأْى العَينِ تُوفَلِسٌ … والحَرْبُ مُشْتَقَّةُ المعنى مِنَ الحَرَبِ
غَدَا يُصَرِّفُ بالأَمْوَالِ جِزْيَتَهَا … فَعَزَّهُ البَحْرُ ذُو التَّيَّارِ والعَبَبِ
هَيْهَاتَ زُعْزِعَتِ الأَرْضُ الوَقُورُ بِهِ … عَنْ غَزْوِ مُحْتَسِبٍ لا غَزْوِ مُكْتَسِبِ
لَمْ يُنْفِقِ الذَّهَبَ المُرْبِى بِكَثْرَتِهِ … عَلَى الحصَى وَبِهِ فَقْرٌ إِلَى الذَّهَبِ
إِنَّ الأُسُودَ أُسود الغَابِ هِمَّتُها … يَوْمَ الكَرِيهَةِ فِى المَسْلُوبِ لاَ السَّلَبِ
وَلَّىٰ وَقَدْ أَلْجَمَ الخَطِّيُّ مَنْطِقَهُ … بِسَكْتَةٍ تحتها الأَحْشَاءُ فِى صَخَبِ
أَحْذَىٰ قَرَابِينَهُ صَرْفَ الرَّدَى وَمَضَى … يَحُثُّ أَنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الهَرَبِ
مُوَكَّلاً بِيَفَاعِ الأَرْضِ يُشْرِفُهُ … مِنْ خِفَّةِ الخَوْفِ لاَ من خِفَّةِ الطَّرَبِ
إن يَعْدُ من حَرِّهَا عَدْوَ الظَّلِيم فَقَدْ … أَوْسَعْتَ جَاحِمَهَا مِنْ كَثْرَةِ الحَطَبِ
تِسْعُون أَلْفًا كآسَادِ الشَّرَىٰ نَضِجَتْ … جُلُودُهُمْ قَبْلَ نُضْجِ التِّينِ وَالعِنَبِ
يَا رُبَّ حَوْبَاءَ لَمَّا اجْتُثَّ دَابِرُهُمْ … طَابَتْ وَلَو ضُمِّخَتْ بِالمِسْكِ لَمْ تَطِبِ
وَمُغْضَبٍ رَجَعَتْ بِيضُ السُّيوفِ بِهِ … حَيَّ الرِّضَا عَنْ رَدَاهُمْ مَيِّتَ الغَضَبِ
وَالحَرْبُ قَائِمَةٌ فِى مَأْزِقٍ لَجِبٍ … تَجْثُو الرِّجَالُ به صُغْرًا عَلَى الرُّكَبِ
كَمْ نِيلَ تَحْتَ سَنَاهَا مِنْ سَنَا قَمَرٍ … وَتَحْتَ عَارِضِهَا مِنَ عَارِضٍ شَنِبِ
كم كَانَ فِى قَطْعِ أَسْبَابِ الرِّقَابِ بِها … إِلَى المُخَدَّرةِ العَذْرَاء مِنْ سَبَبِ
كم أَحْرَزَتْ قُضُبَ الهِنْدِيِّ مُصْلَتَةً … تَهْتَزُّ من قُضُبٍ تَهْتَزُّ فى كُثُبِ

---

(١) في ط: أثبتوها. والمثبت من الديوان، والمعنى: أحاطوها بالرماح لحمايتها .

بِيضٌ إِذَا انْتُضِيَتْ مِنْ حُجْبِهَا رَجَعَتْ أَحَقَّ بِالبِيضِ أَبْدَانًا مِنَ الحُجُبِ
خليفةُ اللَّهِ، جَازَى اللَّه سَعْيَكَ عَنْ جُرْثُومَةِ الدِّينِ وَالإِسْلَامِ والحَسَبِ
بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ الكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إلاَّ عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ
إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمٍ مَوْصُولَةٍ وَذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ
فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللاَّئِي نُصِرْتَ بِهَا وَبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرٍ أَقْرَبُ النَّسَبِ
أَبْقَتْ بَنِى الأَصْفَرِ المُصْفَرِّ كَاسْمِهِمُ صُفْرَ الوُجُوهِ وَجَلَّتْ أَوْجُهَ العَرَبِ(١)

وكان يقال له: المثمن؛ فإنه ثامن الخلفاء من بنى العباس، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر، وفتح ثمان فتوحات، وخلف من الذهب ثمانية آلاف ألف دينار، ومن الدراهم ثمانية عشر ألف ألف، ومن الخيل ثمانين ألفًا، وثمانية آلاف مملوك، وثمانية آلاف جارية، وبنى ثمانية قصور، وكان عدد غلمانه الترك ثمانية عشر ألفًا، وولد فى شعبان، وهو ثامن شهور السنة، وخلف ثمانية ذكور وثمان إناث، وتوفى وعمره ثمان وأربعون سنة(٢).

وعن أحمد بن أبى دؤاد قال: كان المعتصم يخرج ساعده إليّ فيقول: يا أبا عبد الله، عض ساعدى بأكبر قوتك. فأقول: لا تطيب نفسى. فيقول: إنه لا يضرنى. فأروم ذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلاً عن الأسنان.

وانصرف يومًا من دار المأمون إلى داره، وكان شارع الميدان منتظمًا بالخيام فيها الجند، فإذا امرأة تبكى وتقول: ابنى ابنى، وإذا بعض الجند أخذ ابنها، فدعاه المعتصم وأمره برد ابنها عليها فأبى. فاستدناه فدنا منه فقبض عليه بيده فسمعت أصوات عظامه ثم أطلقه فسقط ميتًا، وأمر بإخراج الصبى إلى أمه.

ونقل أنه حال محاصرته لعمورية أصبح ذلك اليوم برد عظيم وثلج، فلم يقدر أحد أن يخرج يده ولا أن يمسك قوسه، فأوتر المعتصم فى ذلك اليوم فوق أربعة آلاف قوس.

أخبر إبراهيم بن عبد السلام عن الحسين بن الضحاك قال: دخلت أنا ومحمد بن عمرو الرومى دار المعتصم، فخرج علينا كالحًا، فدخل إيتاخ مملوك فقال: الملهون

(١) ينظر ديوانه (ص ١٨ - ٢١).
(٢) ينظر فى تسميته «المثمن»: الفخرى / ٢٢٩، التنبيه والأشراف/ ٣٠٧.

على الباب، مخارق وعلويه وفلان وفلان. فقال: اغرب عليك وعليهم لعنة الله، قال: فتبسمت إلى محمد وتبسم إلى، فقال المعتصم: مم تبسمت ؟ فقلت: خطر ببالى شيء، قال: هاته. فأنشدته: [من مجزوء الخفيف]

إِنفِ عَنْ قَلْبِكَ الحَزَنْ   بِدُنُوٍّ مِنَ السَّكَنْ
وَتَمَتَّعْ بِكَرٍّ طَرْ   فِكَ فِى وَجْهِهِ الحَسَنْ

فدعا لى بألف دينار ولمحمد بألف، فقلت: الشعر لى فما معنى ألف محمد ؟ قال: لأنه جاء معك. وأمر الملهين بالدخول فدخلوا، فما زال يومه ذلك ينشد ذلك الشعر ويردده، انتهى.

قال أبو العيناء: أنشدنى المعتصم عقب ذكر جرى لبغداد: [من المتقارب]

سَقَانِى بَعَيْنَيْهِ كَأْسَ الهَوَىٰ   فَظَلْتُ وَبِى مِنْهُ مِثْلَ اللَّمَمْ
بِعَيْنَىْ مَهَاةٍ شَقِيقِيَّةٍ   وَأَشْنَبَ عَذْبٍ وَفَرْعٍ أَجَمّ

قال أبو العيناء: فتوهمت أنه يعنى « سر من رأى » ويكنى عنها بذلك، فقلت: يا أمير المؤمنين، قال مروان فى جدك: [من الرجز]

قُرَيْش الأَبْلَجُ ذُو البَهَاءِ
غَيْثُ العُفَاةِ غُرَرُ الأَنْوَاءِ
هُمْ زِمَامُ الدَّوْلَةِ الزَّهْرَاءِ

قال: قل يا أبا عبد الله فى مدح بنى هاشم لك أو لغيرك فقد أصبت مقالاً. فأنشدت لمروان بن أبى حفصة: [من المتقارب]

إِلَىٰ ملِكٍ مِثْلِ بَدْرِ الدُّجَىٰ   عَظِيم الفِنَاءِ رَفِيعِ الدِّعَمْ
قَرِيعِ نِزَارِ غَدَاةَ الْفَخَارِ   وَلَوْ شِئْتَ قُلْتَ: جَمِيعِ الأُمَمْ
لَهُ كَفُّ جُودٍ تُقِيدُ الغِنَىٰ   وَكَفٌّ تُبِيدُ بِسَيْفِ النِّقَمْ

فقال: زدنى، فأنشدته: [من الرجز]

يَا قُطُبَ الرَّخْرَاحَةِ المَلْحَاءِ
وَمَنْزِلَ البَدْرِ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْمُجْتَدَى فِى السَّنَةِ الْعَجْفَاءِ

فقال: حسبك. ثم التفت إلى جارية بين يديه فقال: عشر بدر ووصيفة وفرس

ومملوك وخمسون ثوبًا من الساعة. فجيء بهذا كله فأخذته وانصرفت، فقال الناس: يا أبا العيناء ما هذا ؟ قلت: مال الله، على يد عبد الله، لله الحمد، ولأمير المؤمنين الشكر، ما دامت السماء، وما حملت مثقلة إلى الماء.

وعن ابن أبى دؤاد قال: أرسل المعتصم إلى مملوك له تركى مقدم العساكر كان يتعلق على الآداب، فطلب منه كلب صيد فوجه به إليه، ثم رده المعتصم بعد رجوعه من الصيد وهو يعرج، فكتب أشناس إلى المعتصم بقوله:

الكلب أخذت جيد مكسور رجل جبت
رد جيد كما كنت كلب أخذت

فكتب إليه المعتصم من جنس شعره:

الكلب كان يعرج يوم الذى بعثت لو كان جا مجبر
جبر رجل كلب أنت

فللَّه ما أحلم المعتصم وألطف طبعه !!

قال الحافظ الذهبى(١): كان المعتصم من أهيب الخلفاء وأعظمهم، لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن، فنسأل الله السلامة. وهو أول من أدخل الأتراك الديوان.

وقال على بن المنجم: استتمت عدة غلمان المعتصم الأتراك بضعة عشر ألفًا وعلق له خمسون ألف مخلاة وذلك للعدو بالنواحى، وكان يتشبه بملوك الأعاجم سمتًا ومشية.

هجاه دعبل الخزاعى بقوله: [من الطويل]

مُلُوكُ بَنِى العَبَّاسِ فى الكُتُبِ سَبْعَةٌ وَلَمْ تَأْتِنَا فِى ثَامِنٍ لَهُمُ الكُتُبُ(٢)
كَذَلِكَ أَهْلُ الكَهْفِ فى الكهفِ سَبْعَةٌ غَدَاةَ ثَوَوْا فِيهِ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُ
وَإِنّى لَأُعْلِى(٣) كَلْبَهُمْ عَنْكَ رَغْبَةً لِأَنَّكَ ذُو ذَنْبٍ وَلَيْسَ لَهُ ذَنْبُ

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام: الطبقة الثالثة والعشرون (ص ٣٩٤).

(٢) ويروى هذا الشطر فى تاريخ الخلفاء هكذا:

... ... ولم يأتنا فى ثامن منهم الكتب .

(٣) فى تاريخ الخلفاء: لأزهى .

لَقَدْ ضَاعَ أَمْرُ الناسِ حِينَ يَسوسُهُمْ وَصِيفٌ وَأَشْنَاسٌ وَقَدْ عَظُمَ الخَطْبُ
وَإِنِّى لأَرْجُو أَنْ تُرَى مِنْ مَغِيبِهَا مَطَالِعُ شَمْسٍ قَدْ يَغَصُّ بِهَا الشَّرْبُ
وَهَمُّكَ تُرْكِيٌّ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ فَأَنْتَ لَهُ أُمٌّ وَأَنْتَ لَهُ أَبُ

فتطلبه المعتصم؛ فخاف وهرب حتى قدم مصر ثم خرج إلى المغرب(١).

أخرج الصولى عن الفضل اليزيدى قال: وجه المعتصم إلى الشعراء ببابه: من كان منكم يحسن أن يقول فينا كما قال منصور النميرى فى الرشيد: [من البسيط]

إنَّ المَكَارِمَ وَالمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ أَحَلَّكَ الله مِنْها حَيْثُ تَجْتَمِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِيرِ اللَّهِ مُعْتَصِمًا فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إن أَخْلَفَ القَطْرُ لَمْ تُخْلَفْ فَوَاضِلُهُ أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ

فقال أبو وهب(٢): فينا من يقول خيرًا منه فيك: [من البسيط]

ثَلاثَةٌ تُشرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ
يَحْكِى أَفَاعِيلَهُ فِى كُلِّ نَائِبَةٍ أَللَّيْثُ وَالغَيْثُ وَالصَّمْصَامَةُ الذَّكَرُ(٣)

فأسنى جائزته. وروى الصولى عن أحمد بن الخصيب قال: قال لى المعتصم: إن بنى أمية ملكوا وما لأحد منا ملك ؟ وملكنا نحن ولهم بالأندلس هذا الأموى. فقدر ما يحتاج إليه لمحاربته، وشرع فى ذلك، فاشتدت علته ومات.

وفى سنة إحدى وعشرين ومائتين بنى المعتصم « سر من رأى » لكثرة عسكره وضيق بغداد عليه، وانتقل إليها وسكنها بعسكره، وسميت « العسكر »(٤).

وفى سنة سبع وعشرين ومائتين احتجم المعتصم فَحم فمات. قال على بن الجعد: لما احتضر جعل يقول: أؤخذ من بين هذا الخلق ؟ ذهبت الحيلة فليس حيلة، حتى صمت.

ومن كلامه: إذا اشتغلت الألباب بالآداب، والعقول بالتعليم، انتبهت النفوس على محمود أمرها، وأبرز التحريك حقائقها. وكان يقول: عاقل عاقل مرتين أحمق.

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء/ ٢٦٩ .
(٢) فى تاريخ الخلفاء: أبو وهيب .
(٣) ينظر: تاريخ الخلفاء/ ٢٧١ .
(٤) ينظر: تاريخ بغداد ٣/٣٤٦، فوات الوفيات (٤/ ٤٩)، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٠٥)، معجم البلدان (٣/ ١٧٤) .

وتوفي يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول، سنة ثمان وعشرين، وعمره ثمان وأربعون سنة وثمانية أيام. ومن أحسن ما سمع منه قوله - إن صح عنه: اللهم إنك تعلم أنى أخافك من قِبَلى، ولا أخافك من قبلك، وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلى. رحمه الله تعالى.

ولما مات المعتصم رثاه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات جامعًا بين العزاء والهناء فقال: [من المنسرح]

قَدْ قُلْتُ إِذْ غَيَّبُوكَ وَاصْطَفَقَتْ عَلَيْكَ أَيْدٍ بِالتُّرْبِ وَالطِّينِ
إِذْهَبْ فَنِعْمَ الحَفِيظُ كُنْتَ عَلَى الد دُّنْيَا وَنِعْمَ الظَّهِيرُ لِلدِّينِ
مَا يَجْبُرُ اللَّهُ أُمَّةً فَقَدَتْ مِثْلَكَ إِلاَّ بِمِثْلِ هَارُونِ

خلافة الواثق بالله(١)

هارون بن أبى إسحاق محمد المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور.

بويع بالخلافة بـ « سر من رأى » بموت أبيه المعتصم، فاستقر الأمر له ببغداد وغيرها. ولد لعشرٍ بقين من المحرم سنة ست وتسعين ومائة. وفى المسامرة بويع فى تاسع ربيع الأول، يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين.

أمه أم ولد اسمها قراطيس. كان أبيض، حسن الخيم، فى عينه اليمنى نكتة بياض.

ولما ولى قتل أحمد بن نصر الخزاعى على القول بخلق القرآن، ونصب رأسه إلى الشرق فدار إلى القبلة فأقعد رجلا معه رمح أو قصبة، وأمره أن يرد الرأس كلما دار إلى القبلة إلى الشرق.

ورؤى فى المنام فقيل له: ما فعل الله بك ؟ قال: غفر لى ورحمنى، إلا أنى كنت

---

(١) ينظر [الواثق بالله] فى: تاريخ بغداد ١٤/ ١٥، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٢٠٤، تاريخ الطبرى ٩/ ١٢٣، تاريخ الخلفاء ٣٦٧، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٧، الأغانى ٩/ ٢٧٦، فوات الوفيات ٤/ ٢٢٨، الكامل لابن الأثير ٦/ ٥٢٨، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٠٦، مروج الذهب ٤/ ٦٥، المحبر ٤٢، المعارف لابن قتيبة ٣٩٣، دول الإسلام ١/ ١٣٨، مرآة الجنان ٢/ ١٠٧، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٢٧٠، شذرات الذهب ٢/ ٧٥، نهاية الأرب ١/ ٣٧٤، خلاصة الذهب المسبوك ١٨٧، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٢٣ .

مهمومًا رأيت النبى ﷺ مرتين معرضًا عنى بوجهه فغمنى ذلك، ثم رأيته مرة ثالثة فقلت: يا رسول الله ألستُ على الحق فلم تعرض عنى ؟ قال: بلى، ولكنى أعرضت عنك حياءً إذ قتلك رجل من أهل بيتى.

وروى البغدادى أن طاهر بن خلف قال: سمعت محمدًا الملقب بالمهتدى بن الواثق يقول: كنت عند أبى الواثق إذ أتى برجل محصور مقيد فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: لا سلم الله عليك. فقال: بئسما أدبك به من أدبك، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء: ٨٦]، والله ما حييتنى بأحسن منها ولا رددتها. فقال له أبى: وعليك السلام. فقال ابن أبى دؤاد: يا أمير المؤمنين، الرجل متكلم، فقال: كلمه وسله، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا محبوس مقيد، أصلى فى الحبس بتيمم؛ منعت الماء، فمر بقيودى تحل ومر لى بماء أتطهر به فأصلى ثم سل؛ فأمر له بماء فتوضأ وصلى ثم قال لابن أبى دؤاد: سله فقال الشيخ: المسألة لي، فمره أن يجيبني، فقال: سل. فأقبل الشيخ على ابن أبي دؤاد، فقال: أخبرنى عن هذا الأمر الذى تدعو الناس إليه أشيء دعا إليه رسول الله ﷺ ؟ قال: لا. قال: فشيء دعا إليه أبو بكر بعده ؟ قال: لا. قال: فشيء دعا إليه عمر بن الخطاب ؟ قال: لا. قال: فشيء دعا إليه عثمان بن عفان ؟ قال: لا. قال الشيخ: فشيء دعا إليه على بن أبى طالب ؟ قال: لا. قال الشيخ: فشيء لم يدع إليه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا على تدعو إليه أنت أيها الإنسان (!!) ليس يخلو أن تقول: علموه أو جهلوه، فإن قلت علموه وسكتوا عنه وسعنا وإياك من السكوت ما وسع القوم، وإن قلت جهلوه وعلمته أنت فيا لكع ابن لكع يجهل النبى ﷺ والخلفاء الراشدون شيئًا وتعلمه أنت وأصحابك ؟ قال المهتدى بن الواثق: فرأيت أبى وثب قائمًا ودخل الخلوة وجعل ثوبه فى فيه يضحك، ثم جعل يقول: صدق، ليس يخلو من أن يقول: علموه أو جهلوه، فإن قال علموه وسكتوا وسعنا ما وسع القوم جزمًا. قال المهتدى: ثم دعا أبى عمارًا الحاجب، وأمره أن يعطى الشيخ أربعمائة دينار ويأذن له فى الرجوع إلى وطنه وأهله، وسقط من عينه ابن أبى دؤاد ولم يمتحن بعد ذلك أحدًا[1].

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٠/٣٠٨ - ٣٠٩ .

والشيخ المذكور هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الأزدي شيخ أبي داود والنسائي.

وقال الحافظ أبو نعيم فى حليته: قال المهتدى: ما قطع أبى - يعنى الواثق - إلا شَيْخٌ جيء به من المصنعة فمكث فى الحبس مدة.. ثم ذكر القصة بقرب مما ذكرناه.

وأخرج الصولى قال: غنى فى مجلس الواثق بشعر الأخطل: [من البسيط]

وَشَادِنٍ فَرِحٍ بِالْكَأْسِ نَادَمَنِي لاَ بِالْحُصورِ وَلاَ فِيهَا بِسَوَّارِ

فقيل: سوار وسآر، فوجه إلى ابن الأعرابى فسأله عن ذلك فقال: سوار وثاب، يقول ولا يثب على ندمائه وسآر يفضل فى الكأس سؤرا، وقد رويا جميعًا. فأمر الواثق له بعشرين ألف درهم.

وفى الذهبى قيل: رأى الواثق منامًا كأنه سأل الله الجنة، وأن قائلاً يقول: لا يهلك على الله إلا مَنْ قلبه مَرْتٌ، فأصبح فسأل الجلساء عن ذلك فلم يعرفوا معناه. فوجه إلى أبى محلم فسأله عن الرؤيا والمرت، فقال أبو محلم: المَرْت: القفر الذى لا ينبت شيئًا؛ فالمعنى لا يهلك على الله إلا من قلبه خال من الإيمان خلو المرت من النبات.

فقال له الواثق: أريد شاهدًا على هذا. فقال: قال شاعر بنى أسد: [من البسيط]

وَمَرْتِ مَرَوْرَاتٍ يَحَارُ بِهَا الْقَطَا وَيُصْبِحُ ذُو عِلْمٍ بِهَا وَهْوَ جَاهِلُ

فأمر له الواثق بمائة ألف دينار.

وفى ابن خلكان(١) فى ترجمة أبى عثمان بكر المازنى البصرى النحوى شيخ المبرد، رواها عن شيخه أبى عثمان: أن رجلاً من أهل الذمة قصده ليقرأ عليه كتاب سيبويه، ويزن له مائة دينار، فامتنع أبو عثمان من ذلك، فقال له المبرد تلميذه: جعلت لك الفداء، أترد المنفعة مع فاقتك؟ فقال: إن هذا الكتاب يشتمل على أكثر من ثلاثمائة آية من كتاب الله تعالى، ولست أرى أن أمكن منه ذميًا غيرة على كتاب الله وحمية له. قال فاتفق أن جارية غنت بحضرة الواثق بقول العرجى: [من الكامل]

أَظَلُومُ إِنَّ مُصَابَكُمْ رَجُلاً أَهْدَى السَّلاَمَ تَحِيَّةً ظُلْمُ

فاختلف من بحضرته فى إعراب رجل، منهم من نصبه على أنه اسم إن، ومنهم

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٢٨٤ .

من رفعه على أنه خبرها، والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازنى لقنها إياه بالنصب، فأمر الواثق بإشخاصه، قال [أبو عثمان][1]: فلما مثلتُ بين يديه قال لى: ممن الرجل ؟ قلت: [من] مازن. قال: أى الموازن ؟ أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة ؟ قلت: من مازن ربيعة. فكلمنى بكلام قومى فقال لى: بَاسْمُكَ ؟ لأنهم يبدلون الباء من الميم والميم منها. فكرهت أن أواجهه بالمكر فقلت: بكر يا أمير المؤمنين. ففطن لما قصدته وأعجب به، ثم قال: ما تقول فى البيت ؟ وأنشده، أترفعه أم تنصبه ؟ قلت: بل الوجه النصب يا أميرَ المؤمنين. قال: ولم ؟ قلت: لأن مصاب مصدر ميمى بمعنى الإصابة ورجلاً منصوب به، والمعنى إن إصابتكم رجلاً أهدى السلام تحية ظلم، فظلم هو الخبر لـ « إنَّ » ولا يتم الكلام إلا به، فاستحسنه الواثق وأعجب به. ثم قال: هل لك من ولد ؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، بنية. قال: ما قالت لك عند مسيرك ؟ قال قلت: أنشدت [وهى تبكى][2] قول الأعشى: [من المتقارب]

أَيَا أَبَتَا لاَ تَرِمْ عِندَنَا ... فَإِنَّا بِخَيْرٍ إِذَا لَمْ تَرِمْ
أُرَانَا إِذا أَضْمَرَتْكَ البِلاَ ... دُ نُجْفَى وَتُقْطَعُ مِنَّا الرَّحِمْ

قال الواثق: فما قلت لها ؟ قلت: قول جرير: [من الوافر]

ثِقِى بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ ... وَمِنْ عِنْدِ الخلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ

فقال: عليَّ النجاح، إن شاء الله تعالى، ثم أمر لى بألف دينار، ولحف وهدايا كثيرة، ووهب لى الجارية جملة أخرى وردنى مكرمًا. قال المبرد: فلما عاد جئت لأهنئه بالقدوم، فقال لى: كيف رأيت يا أبا العباس ؟ تركنا لله مائة، فعوضنا ألفًا. فقلت: من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

كان الواثق مؤثرًا لكثرة الجماع، فقال لطبيب: اصنع لى دواءً للباءة. فقال الطبيب: يا أمير المؤمنين لا تهدم بدنك بالجماع، واتق الله فى نفسك. فقال: لا بد من ذلك، فأمر الطبيب أن يؤخذ لحم سبع فيغلى عليه سبع غليات على جمر، وتتناول منه - إذا شربت - وزن ثلاثة دراهم، ولا تجاوز هذا القدر، فأمر بذبح سبع

---

(١) المثبت من وفيات الأعيان .
(٢) المثبت من وفيات الأعيان .

فذبح وطبخ لحمه، وصار يتنقل به على شرابه، فلم يكن إلا قليل حتى استسقى، فأجمع الأطباء على أن لا دواء له إلا أن ينزل بطنه ثم يترك فى التنور قد سجر بحطب الزيتون حتى يصير جمرًا، ثم يجلس فيه، ففعل به ذلك ومنع الماء ثلاث ساعات، فجعل يستغيث ويطلب الماء فلا يسقونه؛ فصار فى جسده نفاطات مثل البطيخ، ثم أخرجوه فجعل يقول: ردونى إلى التنور وإلا مت؛ فردوه، فسكن صياحه. ثم انفجرت تلك النفاطات وقطر منها ماء، فأخرج من التنور وقد اسود جسده فمات بعد ساعة. ولما احتضر جعل يقول:

أَلْمَوْتُ فِيهِ جَمِيعُ النَّاسِ تَشْتَرِكُ ... لاَ سُوقَةٌ مِنهُمُ يَبْقَى وَلاَ مَلِكُ

مَا ضَرَّ أَهْلَ قَلِيلٍ فِى تَفَاقُرِهِمْ ... وَلَيْسَ يُغْنِى عَنِ الْأَمْلاَكِ مَا مَلَكُوا

ثم أمر بالبسط فطويت، وألصق خده فى الأرض، وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه.

قال الذهبى(١): روى عن أحمد بن محمد الواثقى، أمير البصرة، عن أبيه قال: كنت أدخل فى مرض الواثق عليه، إذ لحقته غشية فما شككنا أنه مات، فقال بعضنا لبعض: تقدموا. فما جسر أحد، فتقدمت أنا، فلما صرت عند رأسه، وأردت أن أضع يدى على أنفه لحقته إفاقة ففتح عينيه، فكدت أموت فزعًا أن يرانى قد مشيت إلى غير رتبتى، فرجعت إلى خلف، فتعلقت قبيعة سيفى بالعتبة فعثرت على سيفى فاندلق فكاد أن يدخل فى لحمى، فسلمت وخرجت، واستدعيت بسيف وجئت فوقفت ساعة فتلف الواثق تلفًا لم يشك فيه، فشددت لحييه وغمضته وسجيته، وجاء الفراشون فأخذوا ما تحته ليردوه إلى الخزائن؛ لأنه مكتتب عليهم، وترك وحده فى البيت، فقال لى أحمد بن أبى دؤاد القاضى: إنا نريد أن نتشاغل بأمر البيت، وأحب أن تحفظه إلى أن يدفن، فأنت من أخصهم به فى حياته، فرددت باب المجلس وجلست عند الباب، فأحسست بعد ساعة بحركة فى المجلس أفزعتنى، فدخلت فإذا بجرذون قد جاء فاستل عينه. فقلت: لا إله إلا الله ! هذه العين التى فتحها من ساعة فاندلق سيفى هيبة لها ! كذا فى الذهبى. والجرذون: أكبر من اليربوع.

قال يحيى بن أكثم: ما أحسن أحد إلى آل أبى طالب ما أحسن إليهم الواثق؛

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣١٣ .

ما مات ومنهم فقير؛ وكان عالمًا شاعرًا حاذقًا، أكثر بنى العباس رواية للشعر، بليغًا، كان يقاس بعبد الله بن المعتز.

قال حمدون بن إسماعيل: كان الواثق يحب خادمًا له أهدى إليه من مصر، فأغضبه الواثق، ثم إنه سمعه يقول لبعض الخدم عن الواثق: والله إنه ليروم أن أكلمه من يومين فلم أفعل فقال الواثق: [من البسيط]

يَا ذَا الَّذِى بِعَذَابِى ظَلَّ مُفْتَخِرَا ... مَا أَنْتَ إِلاَّ مَلِيكٌ جَارَ إِذْ قَدَرَا
لَوْلاَ الْهَوَىٰ لَتَجَارَيْنَا عَلَى قَدَرٍ ... وَإِنْ أُفِق مِنْهُ يَوْمًا مَا فَسَوْفَ تَرَىٰ

ومن شعر الواثق قوله: [من السريع]

حَيَّاكَ بِالنَّرْجِسِ وَالْوَرْدِ ... مُعْتَدِلُ الْقَامَةِ وَالْقَدِّ
فَأَلْهَبَتْ عَيْنَاهُ نَارَ الجوَى ... وَزَادَ فِى اللَّوْعَةِ وَالْوَجْدِ
أَمَّلْتُ بِالْمُلْكِ وِصَالاً لَهُ ... فَصَارَ مُلْكِى سَبَبَ الْبُعْدِ
مَوْلًى وَيَشْكُو الظُّلْمَ مِنْ عَبْدِهِ ... فَأَنْصِفُوا الْمَوْلَىٰ مِنَ الْعَبْدِ

قال الصولى: أجمعوا على أن ليس لأحد من الخلفاء مثل هذه الأبيات فى اللطف والرقة، مات بـ« سُرّ من رأى »، يوم الأربعاء، لست بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين. وكانت خلافته خمس سنين وستة أشهر، وعمره ست وثلاثون سنة وأحد عشر شهرًا وأربعة أيام.

خلافة المتوكل(١)

جعفر، أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور.

بويع فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، بعد الواثق. وكان أسمر اللون، مليح العينين، نحيف الجسم، خفيف العارضين، إلى القصر أقرب، أمه أم ولد تركية

---

(١) ينظر [المتوكل] فى: المعارف ٣٩٣، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٢٨، شذرات الذهب ٢/ ١١٤ - ١١٦، تاريخ الخميس ٢/ ٣٧٨، أخبار الدول للقرمانى ١٥٩، المختصر فى أخبار البشر ٢/ ٤١، مرآة الجنان ٢/ ١٥٤، البداية والنهاية ١٠/ ٣٤٩، العقد الثمين ٣/ ٤٣١، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٧٥ وما بعدها، فوات الوفيات ١/ ٢٠٩، العبر للذهبى ١/ ٤٤٩، دول الإسلام ١/ ١٤٩، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٠ - ٤١، تاريخ الخلفاء ٣٤٦، خلاصة الذهب المسبوك ٢٢٣، الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٣، العقد الفريد ١/ ٢٦٩، المعرفة والتاريخ ١/ ٢٠٩، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٤٧٨، البدء والتاريخ ٦/ ١٢٠، تاريخ بغداد ٧/ ١٦٥ - ١٧٢ .

اسمها شجاع.

استخلف فأظهر السنة، وتكلم بها فى مجلسه، وكتب إلى الآفاق برفع المحنة بالقول بخلق القرآن، وأظهر السنة ونصر أهلها.

وقدم إلى دمشق فى صفر سنة أربع وأربعين وأعجبته، فعزم على المقام بها، ونقل دواوين الملك إليها، وأمر بالبناء بها. وبنى قصرًا كبيرًا بـ « داريه » من جهة المزة، ثم رجع إلى « سر من رأى » دار ملكه.

قيل إن سبب ميله إلى دمشق: أن إسرائيل بن زكريا الطَبيب نعت له دمشق، وأنها موافقة لمزاجه، ومذهبة عنه العلل التى تعرض له فى الصيف بالعراق.

كان المتوكل شجاعًا كريمًا، ما أعطى خليفة شاعرًا ما أعطاه المتوكل. ومن أفعاله الشنيعة أنه هدم قبر الحسين بن على فى سنة سبع وثلاثين، وهدم جميع ما حوله من الدور، وجعل مكانها مزارع، ومنع من زيارته، فتألم الناس لذلك، وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد، وهجاه بعض الشعراء بقوله: [من الكامل]

تاللَّهِ إِنْ كَانَتْ أُمَيَّةُ قَدْ أَتَتْ قَتْلَ ابنِ بِنْتِ نَبِيها مَظْلُومَا
فَلَقَدْ أَتَاهُ بنو أَبِيهِ بِمِثْلِهِ هَذَا لَعَمْرِى قَبْرُهُ مَهْدُومَا
أَسِفُوا عَلَى أَلاَّ يَكُونُوا شَارَكُوا فِى قَتْلِهِ فَتَتَبَّعُوهُ رَمِيمَا

وهذا الفعل السيِّىء محا جميع محاسنه، وصار ما عذب من إحسانه مغلوبًا بأجاجه وآسنه، وعدت هذه الزلة أقبح قبيحة، وهذه الخلة الشنيعة أفضح من كل فضيحة.

وذكر ابن خلكان(١) فى ترجمة المتوكل عن المتوكل نفسه قال: ركبت إلى دار الواثق أخى فى مرضه الذى مات فيه لأعوده، فجلست فى الدهليز لأنتظر الإذن، فبينما أنا جالس إذ سمعت النياحة عليه، وإذا إيتاخ ومحمد بن عبد الملك الزيات يأتمران فى أمرى، فقال محمد بن عبد الملك: نقتله فى التنور. وقال إيتاخ: بل ندعه فى الماء البارد حتى يموت ولا يرى عليه أثر القتل. فبينما هما على ذلك إذ جاء أحمد بن أبى دؤاد القاضى فدخل وحدثهما كلامًا لا أفهمه، لما داخلنى من الخوف وشغل القلب فى إعمال حيلة فى الهرب، فبينما أنا كذلك، وإذا بالغلمان

(١) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٤٧٨ - ٤٧٩ .

يتغادون ويقولون: انهض يا مولانا. فلم أشك أنى داخل لأبايع لولد الواثق، ثم ينفذ فيَّ ما قررا. فلما دخلت بايعونى، فسألت عن الحال، فأعلمت أن ابن أبى دؤاد كان سبب ذلك ثم إن المتوكل قتل إيتاخ بالماء البارد، وابن الزيات بالتنور على ما أشارا إليه فى حقه.

وهذا من أعجب الاتفاق؛ فإن ابن الزيات هو الذى صنع التنور، وكان يعذب به الناس فعذبه الله به جزاءً وفاقًا. وهو من حديد داخله مسامير وكان يسجر عليه بحطب الزيتون حتى يصير كالجمر ثم يدخل فيه الإنسان، نسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة. وكان ابن الزيات إذا استغاث به أحد من الرعية فقال: ارحمنى، يقول: الرحمة خور فى القلب، فلما ألقى هو فى التنور قال للمتوكل: ارحمنى، فقال له: الرحمة خور فى القلب أو فى الطبيعة، وكان قد حبسه قبل أن يدخله التنور أيامًا فكتب إليه فى الحبس بقوله: [من البسيط]

هِيَ السَّبِيلُ فَمِنْ يَوْمٍ إِلَى يَوْمِ ... كَأَنَّهُ مَا تُرِيكَ العَيْنَ فِى النَّومِ
لاَ تَعْجَلَنَّ رُوَيْدًا إِنَّهَا دُوَلٌ ... دُنْيَا تَنَقَّلُ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمِ

ووقعت فى أيامه عجائب: منها أن النجوم ماجت من السماء وتناثرت كأنها الجراد، فرميت قرية السويداء بناحية مضر أحجار من السماء وُزن حجر منها فكان عشرة أرطال، ومار جبل باليمن عليه مزارع ومدن إلى جبل آخر بينهما نحو أربعة أيام، ووقع طائر أبيض دون الرخمة فصاح: يا معشر الناس، اتقوا الله أربعين مرة، وجاء من الغد ففعل كذلك !! فكتبوا خبر ذلك على البريد إلى بغداد، وكتبوا فيه شهادة خمسمائة رجل سمعوا ذلك بآذانهم، وكان هذا فى شهر رمضان سنة إحدى وأربعين ومائتين، وحصلت زلازل، وغارت عيون مكة؛ فأرسل المتوكل مائة ألف دينار ذهبًا لإجراء عين عرفات فصرفت فيها إلى أن جرت، كذا ذكره السيوطى(١).

قال العلامة النجم، عمر بن فهد فى تاريخه « إتحاف الورى، بأخبار أم القرى »: فى حوادث سنة خمس وأربعين ومائتين: غارت عين مشاش، وهى عين مكة فبلغ ثمن القربة درهمًا، فبعث المتوكل مالاً ثانيًا فأنفق عليها حتى جرت(٢). قال ابن

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى (٣٤٨ - ٣٤٩).
(٢) ينظر: الكامل لابن الأثير ٧/ ٨٨.

الأثير فى تاريخه المسمى بـ « الكامل »: هذه العين من عمل زبيدة بنت جعفر زوجة الرشيد، وهى عين بازان. قال العلامة القطبى: عين مشاش هى عين مكة موجودة الآن، وهى من جملة العيون التى تصب فى عين حنين، وهى تقوى وتضعف أحيانا لقلة الأمطار وكثرتها، ومحلها معروف.

ولماكثر الترك ببغداد، ودخلوا فى الملك، واستولوا على المملكة، وصار بيدهم الحل والعقد، والولاية والعزل، إلى أن حملهم الطغيان على الفتك بالخليفة المتوكل، لما أراد أن يصادر مملوك أبيه وصيفًا التركى؛ لكثرة أمواله وخزائنه فتعصب له باغر التركى، وانحرف الأتراك عن المتوكل؛ فدخل باغر ومعه عشرة أتراك وهو فى مجلس أنسه وعنده وزيره الفتح بن خاقان بعد مضى هزيع من الليل، فصاح الفتح: ويلكم هذا سيدكم وابن سيدكم، وهرب من كان حوله من الغلمان والندمان على وجوههم، فبقى الفتح وحده، والمتوكل غائب سكران فضربه باغر بالسيف على عاتقه فقدَّه إلى حقوه، فطرح الفتح نفسه عليه، فضربهما باغر ضربة ثانية فماتا جميعًا فلفهما معًا فى بساط، ومضى هو ومن معه، ولم ينتطح فى ذلك عنزان. وقيل إن سبب ذلك أن ابنه المنتصر باطن عليه الأتراك حتى قتلوه، وذلك أنه كان بايع بالعهد للمنتصر، ثم أراد أن يعزله ويولى المعتز ابنه لمحبته لأمه، فسأل المتوكل المنتصر أن ينزل عن العهد فأبى، فكان يحضره مجلس العامة ويحط من منزلته ويتهدده ويشتمه، وقيل: كان هذا وهذا سببًا لذلك.

قال المسعودى(١): ولم يصح عن المتوكل النصب، حدثنا المبرد قال: قال المتوكل لأبى الحسن على الهادى بن محمد الجواد بن عَلِى الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق: ما يقول ولد أبيك فى العباس ؟ قال: ما يقولون فى رجل فرض الله طاعة نبيه على خلقه، وفرض طاعته على نبيه. فأعجب بجوابه المتوكل إعجابًا. قلت: لا يخفى على الفطن هذه التورية من هذا السيد الجليل وصدقها. وسعى إلى المتوكل بأبى الحسن المذكور بأن فى منزله سلاحًا وكتبًا من الشيعة، وأنه يريد التَوثُّب على الخلافة، فبعث إليه المتوكل جماعة فهجموا على منزله فوجدوه على الأرض مستقبل القبلة يقرأ القرآن، فحملوه على حاله إلى المتوكل، والمتوكل

(١) ينظر: مروج الذهب للمسعودى ٤/ ٩٣ .

يشرب الخمر، فأعظمه وأجلسه وقال: اشرب. فقال: والله ما خامر لحمى ودمى قط، فأعفنى، فأعفاه. ثم قال له أنشدنى فأنشد: [من البسيط]

بَاتُوا عَلَى قُلَلِ الْأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ غُلْبُ الرِّجَالِ فَلَمْ تَنفَعْهُمُ(١) الْقُلَلُ
واسْتُنْزِلُوا بَعْدَ عِزٍّ عَنْ مَعَاقِلِهِمْ وَأُودِعُوا حُفْرَةً يَا بِئْسَمَا نَزَلُوا
نَادَاهُمْ صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ مَا قُبِرُوا أَيْنَ الْأَسِرَّةُ وَالتِّيجَانُ وَالحلل(٢)
فَأَفْصَحَ الْقَبْرُ عَنْهُمْ حِينَ سَاءَلَهُ تِلْكَ الْوُجُوهُ عَلَيْهَا الدُّودُ يَقْتَتِلُ
قَدْ طَالَمَا أَكَلُوا دَهْرًا وَمَا شَرِبُوا فَأَصْبَحُوا بَعْدَ ذَاكَ الْأَكْلِ قَدْ أُكِلُوا

فبكى جعفر والحاضرون وقال: يا أبا الحسن لقد لينت منا قلوبًا قاسية، أعليك دين ؟ قال: نعم، أربعة آلاف. فأمر له بها ورده مكرمًا.

ومما يحكى من كرمه أنه دخل عليه ابن الجهم - وقيل النميرى - فأنشده قصيدة يقول فيها: [من مجزوء الكامل]

وَإِذَا مَـرَرْتَ بِـبِـئْـرِ عُـرْ وَةَ فَـاسْـقِـنـى مِـنْ مَـائِـهَـا

وكان بيد المتوكل درتان عظيمتان يقلبهن، فدحا(٣) إليه بدرة منهما فقال: استقص بها، فهى والله خير من مائة ألف دينار، قال: لا والله، ولكنى فكرت فى أبيات أعملها آخذ بها الأخرى، فقال: قل، فقال: [من مخلع البسيط]

بِـسُـرَّ مَـنْ رَا إِمَـامُ عَـدْلٍ تَـغْـرَقُ مِـنْ كَـفِّـهِ الـبِـحَـارُ
يُرْجَىٰ وَيُخْشَى بِكُلِّ خَطْبٍ كَـأَنَّـهُ جَـنَّـةٌ(٤) وَنَـارُ
أَلْـمُـلْـكُ فِـيـهِ وَفِـى بَـنِـيـهِ مَـا اخْـتَـلَفَ الـلَّـيْـلُ وَالـنَّـهَـارُ
يَـدَاهُ فِـى الـجُـودِ ضَـرَّتَـانِ عَـلَـيْـهِ كِـلْـتَـاهُـمَـا تَـغَـارُ
لَـمْ تَـأْتِ مِـنْهُ الـيَـمِـيـنُ شَـيْـئًـا إِلاَّ أَتَـتْ مِـثْـلَـهُ الْـيَـسَـارُ

قال: فدحا إليه بالدرة الأخرى. قلت: رحم الله الكرام المجيزين على دردى النظام بدرى النظام.

وأجاز مروان بن أبى الجنوب على قصيدته التى يقول فيها: [من الطويل]

---

(١) فى المروج: فما أغنتهم .
(٢) فى ط: الكلل . والمثبت من المروج .
(٣) دحا: رمى . ينظر: الوسيط (دحا) .
(٤) فى تاريخ الخلفاء: بحره .

فَأَمْسِكْ نَدَى كَفَّيْكَ عَنِّى وَلاَ تَزِدْ فَقَدْ خِفْتُ أَنْ أَطْغَى وَأَنْ أَتَجَبَّرَا

فقال: لا أمسك حتى يغرقك جودى، فأمر له بمائة وعشرين ألف دينار وخمسمائة ثوب ديباج.

قال على بن محمد النديم: دخلت على المتوكل العباسى وعنده الرضى، فقال: يا على من أشعر الناس ؟ قلت: البحترى، قال: ومن بعده ؟ قلت: مروان بن أبى حفصة، فالتفت إلى الرضى وقال: من أشعر الناس فى زماننا ؟ قال: على بن محمد العلوى. قال: وما تحفظ من شعره ؟ قال قوله: [من الطويل]

لَقَدْ فَاخَرَتْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عِصَابَةٌ بِمَطِّ خُدُودٍ وَامْتِدادِ الأَصَابِعِ
فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الفَخَارَ قَضَىٰ لَنَا عَلَيْهِمْ بِمَا نَهْوىٰ نِدَاءُ الصَّوَامِعِ

قال المتوكل: وما معنى نداء الصوامع ؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. قال المتوكل: وأبيك إنه لأشعر الناس، ثم أنشده قوله أيضًا: [من المتقارب]

عَصَيْتُ الهَوَىٰ وَهَجَرْتُ النِّسَاءَ وَكُنْتُ دَوَاءً فَأَصْبَحْتُ دَاءَ
وَمَا أَنْسَ لاَ أَنْسَ حَتَّى المَمَاتِ تَرِيبَ الظِّبَاءِ تُجِيبُ الظِّبَاءَ
دَعِينِى وَصَبْرِى عَلَى النَّائِبَاتِ فَبِالصَّبْرِ نِلْتُ الثَّرَىٰ وَالثَّوَاءَ
فَإِنْ يَكُ دَهْرِى لَوَىٰ رَأْسَهُ فَقَدْ لَقِيَ الدَّهْرُ مِنِّى الْتِوَاءَ
لَيَالِيَ أَرْوِى صُدُورَ الْقَنَا وَأَرْوِى بِهِنَّ الصُّدُورَ الظِّمَاءَ
وَنَحْن إِذَا كَانَ شُرْبُ المُدَام شَرِبْنَا عَلَى الصَّافِنَاتِ الدِّمَاءَ
بَلَغْنَا السَّمَاءَ بِأَنْسَابِنَا وَلَوْلاَ السَّمَاءُ لَجُزْنَا السَّمَاءَ
فَحَسْبُكَ مِنْ سُؤْدَدٍ أَنَّنَا بِحُسْنِ البَلاَءِ كَشَفْنَا الْغِطَاءَ
يَطِيبُ الثَّنَاءُ لِآبَائِنَا وَذِكْرُ عَلِيٍّ يَزِينُ الثَّنَاءَ
إِذَا ذُكِرَ النَّاسُ كَانُوا مُلُوكًا وَكَانُوا عَبِيدًا وَكَانُوا الإِمَاءَ
هَجَانِى رِجَالٌ وَلَمْ أَهْجُهُمْ أَبَى اللهُ لِى أَنْ أَقُولَ الْهِجَاءَ

فوصله لهذه الرواية بمال عظيم

وفى سنة أربع وأربعين ومائتين قتل المتوكل يعقوب بن السكيت الإمام فى العربية؛ وذلك أنه حضر يومًا مجلس المتوكل، وكان يؤدب أولاده، فجاء منهم

المعتز والمؤيد، فقال المتوكل: يا يعقوب، أيما أحب إليك ابناى هذان أم الحسن والحسين ابنا على رضى الله عنهم ؟ فقال يعقوب: والله إن قنبر خادم على خير منك ومن ابنيك. فقال المتوكل للأتراك: سلوا لسانه من قفاه، ففعلوا ذلك فمات، ثم أرسل المتوكل لأولاده دية أبيهم عشرة آلاف درهم[1]، كذا فى « حياة الحيوان ».

وذكر ابن خلكان: كان المتوكل يبغض عليًا، فذكر يومًا على عنده فغض منه، فتمعَّر وجه ابنه المنتصر لذلك، فشتمه أبوه المتوكل وأنشد مواجها له: [من المجتث]

غَـضِـبَ الـفَـتَـى لابْـنِ عَـمِّـهْ   رَأْسُ الـفَـتَـى فِـى حِـرِ امِّـهْ

فحقد عليه وأغرى على قتله مع ما كان مما تقدم من عدوله بالعهد عنه إلى أخيه المعتز. قلت: هذا يؤيد القول الثانى أن المتوكل ناصبى، خلاف ما قاله المسعودى.

وذكر أن على بن الجهم كان بدويًا جافيًا، قدم على المتوكل أول قدمة فأنشده قصيدة يمدحه بها يقول فيها: [من الخفيف]

أَنْتَ كَالْكَلْبِ فِى حِفَاظِكَ لِلوُد   دِّ وَكَالتَّيْسِ فِى قِرَاعِ الخُطُوبِ
أَنْتَ كَالدَّلْوِ لاَ عَدِمْتُكَ دَلْوًا   مِنْ كِبَارِ الدِّلا كَثِيرِ الذّنُوبِ

فعرف المتوكل قوته، ورقة قصده، وخشونة لفظه، وعرف أنه ما رأى سوى ما شبه لملازمته البادية وعدم مخالطته، فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة، وفيها بستان يتخلله النسيم، والجسر قريب منه، وأمر له بجائزة سنية، فلطف طبعه عن أول أمره، وأنشد الأشعار البليغة الرقيقة بعد ذلك.

وحكى أن عبادة المخنث دخل يومًا إلى دار المتوكل، فرأى رطبة مطروحة فأكب ليأخذها، فرآه ابن للمتوكل صغير فأشار بإصبعه إلى استه وقال: يا عم من فتح لك هذه الكوة ؟ فقال له عبادة: الذى فتح لأمك ثنتين، فسمعه المتوكل فأمر بضرب عنقه، فهرب ولم يدر إلى أين يتوجه، فأخذ يهرب فى الصحارى ومعه طبله ونايه، فلما أمعن فى الصحراء خاف أن يدركه الطلب، فرأى غارًا مفتوحًا فدخله وسد بابه بالحجارة، فلما صار إلى أقصاه وجد فيه أسدًا عظيمًا رابضًا ففزع منه وهم الأسد أن

(١) ينظر: معجم الأدباء ٢٠/ ٥١، وفيات الأعيان ٦/ ٣٩٥ - ٣٩٦ .

يثب عليه، فما وسعه إلا أن ضرب الطبل، فلما سمعه الأسد فزع من صوته وهرب يريد الخروج، فوجد باب الغار مسدودًا فربض هناك خائفًا من صوت الطبل. فجعل عبادة تارة يضرب بالطبل، وتارة يزمر بالناى خوفًا من الأسد، ووافق ذلك قدوم الفتح بن خاقان من نزهة كان خرج إليها، فلما سمع صوت الطبل والناى فى الصحراء أنكره، ثم تبعه حتى وقف على باب الغار، وأمر أن يفتح، فلما فتحوه خرج الأسد هاربًا على وجهه، فخرج عبادة وهو يبكى ويصرخ، ويقول: هذا دفعه إلى أمير المؤمنين أعلمه ضرب الطبل والغناء بالناى وشردته على، فقال له الفتح: أنا أرضى أمير المؤمنين، ولك على ألف دينار، فقال: أخاف والله أن يضرب عنقى.

فقال الفتح: أنا أستوهبه دمك، فقال: إن فعلت فقد رضيت. ثم أخذه معه، وأتى به المتوكل، فلما دخل عليه قال: يا أمير المؤمنين، لى إليك حاجة، قال: وما هى ؟ قال: هب لى دم عبادة فأنا الذى أذنبت وليس هو، فقال: ما كانت نيتى إلا أن أضرب عنقه، وقد وهبته لك، فقبل الفتح يده وقال: أنا الذى أطلقت الأسد وما له ذنب، فلما سمع المتوكل ذكر الأسد سأل عن أصل القصة، فقال له الفتح بما رأى، قال: وزعم أن أمير المؤمنين أعطاه ذلك الأسد ليعلمه الطبل والغناء، فضحك المتوكل حتى فحص برجله الأرض وقال: خدعك والله يا فتح، إن الأصل كيت، وأنجز الفتح لعبادة الألف التى وعده بها بوعده السابق. انتهى. كذا فى « بقية الخاطر » لمحمد بن مصطفى الشهير بالكاتى.

قال البحترى: اجتمعنا فى مجلس المتوكل فنعت له سيف هندى، فبعث إلى اليمن فاشترى له بعشرة آلاف فأتى به، فأعجبه ثم قال للفتح: أبغنى غلامًا أدفع إليه هذا السيف لا يفارقنى به، فأقبل باغر التركى، فقال الفتح: هذا موصوف بالشجاعة والبسالة، فدفع المتوكل إليه السيف وزاد فى رزقه، فوالله ما انتضى ذلك السيف إلا ليلة ضربه باغر بالقصر الجعفرى(١)، وكان المتوكل مستغرقًا بجاريته التى اسمها قبيحة وهى أم ولده المعتز لا يصبر عنها ساعة. فوقفت له يومًا وقد كتبت على خديها بالغالية « جعفر » فتأملها ثم أنشأ يقول: [من الطويل]

وَكَاتِبَةٍ بِالمِسْكِ فِى الْخَدِّ جَعْفَرًا   بِنَفْسِى مَخَطُّ المِسْكِ مِنْ حَيْثُ أَثَّرَا

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبى الطبقة الخامسة والعشرون ص٢٠٠ .

لَئِنْ أَوْدَعَتْ سَطْرًا مِنَ المِسْكِ خَدَّهَا   لَقَدْ أَوْدَعَتْ قَلْبِى مِنَ الحُبِّ أَسْطُرَا(١)

وكانت ليلة المتوكل يضرب بها المثل فى السرور الذى يعقبه ترح، يقال: مات بليلة المتوكل، كان قتله ليلة الأربعاء لليلتين مضتا من شهر شوال سنة سبع وأربعين ومائتين، وهو أول مقتول بمعرة ولده المنتصر بعد قتل الأمين بمباشرة طاهر بن الحسين، كانت مدة خلافته أربع عشره سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام، وكان عمرهُ أربعين سنة وشهرًا وقيل إحدى وأربعين سنة.

خلافة المنتصر بالله(٢)

محمد بن المتوكل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور أخى السفاح بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، بويع بالخلافة فى الليلة التى قتل فيها أبوه، ومن الغد البيعة العامة.

ولما ولى خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد التى عقدها لهما أبوه المتوكل، وأظهر العدل والإنصاف فى الرعية، فمالت إليه النفوس والقلوب مع هيبتهم له، وكان محببًا إلى العلويين، وصولاً لهم، بارًا بهم، أزال عن آل أبى طالب ما كانوا فيه من الخوف والمحنة بمنعهم من زيارة قبر الحسين، ورد « فدك » عليهم، فقال يزيد المهلبى فى ذلك يمدحه: [من الكامل]

وَلَقَدْ بَرَزْتَ الطَّالِبِيَّةَ بَعْدَ مَا   ذَمُّوا زَمَانًا بَعْدَهَا وَزَمَانَا
وَرَدَدتَّ أُلْفَةَ هَاشِمٍ فَرَأَيْتَهُمْ   بَعْدَ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُمْ إِخْوَانَا

وكان حليمًا كريمًا. منْ كلامه: لذة العفو أعذب من لذة التشفى. وأقبح أفعال المقتدر الانتقام.

---

(١) ينظر: الأغانى ١٩/ ٣١١، البداية والنهاية ١٠/ ٣٥١، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٣، تاريخ الخلفاء ٣٥٠ .

(٢) ينظر المنتصر بالله فى: شذرات الذهب ٢/ ١١٨، الكامل لابن الأثير ٧/ ٥٤ - ٥٧، وفيات الأعيان ١/ ٣٥٠، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٢٧، تاريخ الخلفاء ٣٥٦ - ٣٥٨، تاريخ الخميس ٢/ ٣٧٨، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٢ - ٤٦، العبر للذهبى ١/ ٤٥٢، فوات الوفيات ٣/ ٣١٧، البداية والنهاية ١٠/ ٣٥٢، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٢٩، العقد الفريد ٤/ ١٦٥، الوافى بالوفيات ٢/ ٢٨٩، البدء والتاريخ ٦/ ١٢٣، المعارف ٣٩٣، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٤٨٧، المعرفة والتاريخ ١/ ٢١٠، تاريخ الطبرى ٩/ ١٦٢، تاريخ بغداد ٢/ ١١٩ .

وقال الحافظ الذهبى[(١)]: ذكر نجيح بن على المنجم أن المنتصر جلس للهو، وأمر بفرش بساط من ذخائر الخزينة تداولته الملوك ففرش، فرأى فيه صورة رأس عليه تاج، وعليه كتابة بالفارسية، فطلب من يقرأ تلك الكتابة فأحضر رجل من الأعاجم فقرأها، وعبس عند ذلك، فسأله المنتصر عنها فقال: لا معنى لها، فألح عليه فقال: هى « أنا الملك شيرويه بن كسرى بن هرمز، قتلت أبى فلم أمتع بالملك بعده إلا ستة أشهر ». فتغير وجه المنتصر وقام من ذلك المجلس، وترك اللهو الذى أراده، وبات مغتما وتوعك، ثم رأى فى ليلة وعكه أباه فانتبه فزعًا يبكى، فقالت له أمه: ما يبكيك ؟ فقال: أفسدت دينى ودنياى، رأيت أبى الساعة يقول لى: قتلتنى يا محمد لأجل الخلافة، والله لا تتمتع بها إلا أيامًا قلائل، ثم مصيرك إلى النار، فاستمر موهومًا من هذا المنام فما عاش بعد ذلك إلا أيامًا قلائل، وكان على حذر من الأتراك يسبهم ويلعنهم، ويقول: هؤلاء قتلة الخلفاء؛ فلم يأمنوه؛ فأرادوا قتله فما أمكنهم الإقدام عليه؛ لشدة محاذرته منهم، فدسوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار عند توعكه ليسمه فقصده بمبضع مسموم فأحس بذلك وأراد قتل الطبيب، فقال له: إنك تصبح طيبًا وتقدم على قتلى، فأمهلنى إلى الصبح، فأمهله فأصبح ميتًا. وكانت وفاته لأربع خلون من ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائتين، وعمره ست وعشرون سنة، وقيل: خمس وعشرون وأربعة أيام، ومدة خلافته ستة أشهر.

خلافة المستعين بالله[(٢)]

أحمد بن المعتصم بن هارون. كان فاضلاً دينًا، أخباريًا مطلعًا على التواريخ، متجملاً فى ملبسه. وهو أول من أحدث الأكمام العراض؛ فجعل عرض الكم ثلاثة

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبى [الطبقة الخامسة والعشرون] ص ٤١٩ - ٤٢٠، تاريخ بغداد ٢/ ١٢٠ - ١٢١

(٢) ينظر المستعين بالله فى: المعارف ٣٩٣، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٤٩٤، البدء والتاريخ ٦/ ١٢٣، العقد الفريد ٤/ ١٦٥، تاريخ الخميس ٢/ ٣٨٩، تاريخ الخلفاء ٣٥٨ - ٣٥٩، شذرات الذهب ٢/ ١٢٤ - ١٢٦، أخبار الدول ١٦١ وما بعدها، البداية والنهاية ١١/ ٢ و١١ وما بعدها، نهاية الأرب ٢٢/ ٣٠١ - ٣١٤، وفيات الأعيان ١/ ٤٧٩، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٣٠، دول الإسلام ١/ ١٥٠، النجوم الزاهرة ٢/ ٣١٣ وما بعدها، فوات الوفيات ١/ ١٤٠ - ١٤٣)، تاريخ بغداد ٥/ ٨٤ - ٨٦، المحبر ٤٤، تاريخ الطبرى ٩/ ٢٥٤ - ٣٦٣، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٦-٥٠ .

أشبار، وهو عم المنتصر قبله، أخو المتوكل أبيه. وإنما قدمته الأتراك وعدلوا عن أولاد المتوكل؛ لأنهم كانوا قتلوا المتوكل فخافوا أن يلى الخلافة أحد من أولاده فيأخذ بثأر أبيه؛ فاختاروا من أولاد المعتصم أحمد هذا، ولقبوه بالمستعين بالله.

أمه أم ولد تسمى مخارق، وما كان له من الخلافة إلا الاسم، وكان المماليك الأتراك مستولين على الملك، وكان الأمر جميعه لكبيرى الأتراك « وصيف، وبغا » التركيين حتى قيل فى ذلك: [من الرجز]

خَلِيفَةٌ فِى قَفَصٍ بَيْنَ وَصِيفٍ وبغَا
يَقُولُ مَا قَالاَ لَهُ كَمَا تَقُولُ البَبَّغَا

والببغا: هى الطير المسمى بالدرة، واستمر كذلك وهو مترصد لهما، إلى أن ظفر بوصيف فقتله، وهرب باغر الذى كان سطا فى المتوكل وقتله، فتنكرت له الأتراك فخرج عنهم من « سر من رأى » إلى بغداد، فأرسلوا إليه يعتذرون، ويسألونه العودة إلى « سر من رأى »، فامتنع منهم، فلما أبى قصد الأتراك خلعه، فأتوا إلى الحبس، فأخرجوا محمدًا أبا عبد الله بن المتوكل، ولقبوه المعتز بالله، وبايعوه وعمره تسعة عشر عامًا، ولم يل الخلافة أصغر منه، وجيشوا على المستعين بالله جيشًا إلى أن خلع نفسه، وأشهد القضاة والعدول على نفسه بذلك، وانحدروا به إلى واسط وحبسوه تسعة أشهر، ثم دسوا إليه سعيدًا الحاجب فذبحه فى الحبس فى ثالث شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وجاء برأسه إلى المعتز وهو يلعب الشطرنج فقيل له: هذا رأس المخلوع. فقال: دعوه هناك حتى أفرغ من اللعب، ثم أمر بدفنه وعمره إحدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر، وخلافته إلى زمان خلعه سنتان وثمانية أشهر وستة عشر يومًا.

* * *

خلافة المعتز بالله(١)

محمد بن المتوكل جعفر بن المعتصم بن الرشيد هارون بن المهدى محمد بن المنصور عبد الله كان بديع الحسن جدًّا، مليح الصورة ليس فى الخلق أجمل منه حسنًا، كان مستضعفًا مع الأتراك، وكان صالح بن وصيف مستوليًا عليه، وهو خائف منه، فاجتمع الجند عليه، وطلبوا منه أرزاقهم، ووعدوه أنه إذا أنفق عليهم أرزاقهم ركبوا معه على صالح بن وصيف، فيقتلوه ويصفو الملك له، ولم يكن فى خزائنه مال يصرفه عليهم فطلب من أمه وكانت تركية اسمها قبيحة لفرط جمالها بين النساء، فأبت أن تعطيه وشحت عليه بالمال، وسخت بولدها وكان معها مال عظيم فاتفق الأتراك على خلعه، وركب عليه صالح بن وصيف ومحمد بن بغا وهجموا عليه وجروا برجله، وأوقفوه فى الشمس، فصار يرفع رجلاً ويضع رجلاً، وعذبوه وهم يلطمونه ويقولون: اخلعها ويتقى بيديه ويأبى، ثم أجابهم، وخلع نفسه؛ فأدخلوه الحمام، ومنعوه الماء إلى أن مات عطشًا. وقيل: أتوه بماء مالح فشربه وسقط ميتًا، ثم أخرجوه وأشهدوا عليه أنه لا أثر به، وصادر صالح بن وصيف قبيحة أم المعتز وعذبها حتى أخذ منها ألف ألف دينار ذهبًاونصف أردب لؤلؤ ومثله زمرد وسدس أردب ياقوت أحمر، ثم أخرجت إلى مكة وأقامت بها إلى أن ماتت، وأقل الناس الترحم عليها؛ حيث إن هذا المال عندها وشحت به عن ولدها عند احتياجه؛ فكان عليه ما كان.

توفى فى ثالث شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين. مدة خلافته سنتان وأحد عشر شهرًا، وعمره اثنتان وعشرون سنة وسبعة أشهر.

* * *

(١) ينظر: [المعتز بالله] فى: شذرات الذهب ٢/ ١٣٠، تاريخ الخلفاء ٣٥٩، أخبار الدول ١٦٢ و١٦٣، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٣٢، الوافى بالوفيات ٢/ ٣٩١ - ٣٩٤، فوات الوفيات ٣/ ٣١٩ - ٣٢١، تاريخ بغداد ٢/ ١٢١، تاريخ الخميس ٢/٣٧٩، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٣، المعارف ٣٩٤، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٥٠٠ - ٥٠٤، تاريخ الطبرى ٩/ ١٧٦ وما بعدها، البدء والتاريخ ٦/ ١٢٣، العقد الفريد ٤/١٦٦، تاريخ الزمان ٤٠ - ٤٢، خلاصة الذهب المسبوك/ ٢٣٠ .

خلافة المهتدى بالله(١)

أبو إسحاق بن الواثق هارون بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور الخليفة الصالح، ولد فى خلافة جده، سنة بضع عشرة ومائتين، وبويع بالخلافة لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وما قبل بيعة أحد حتى أتى إليه بالمعتز قبل قتله، فلما رآه قام له وسلم على المعتز بالخلافة وجلس بين يديه فجيء بالشهود والقاضى ابن أبى الشوارب فشهدوا على المعتز أنه عاجز عن الخلافة، واعترف بذلك ومد يده وبايع المهتدى، فارتفع حينئذ المهتدى إلى صدر الديوان، وقال: لا يجتمع سيفان فى غمد، وتمثل بقول أبى ذؤيب: [من الطويل]

تُرِيدِينَ كَيْمَا تجمعينى وَخَالِدًا وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيْحَكِ فِى غِمْدِ

وكان المهتدى بالله أسمر، رقيقًا، مليح الوجه، ورعًا متعبدًا، عادلاً، قويًّا فى أمر الله تعالى، بطلاً شجاعًا، لكنه لم يجد ناصرًا ولا معينًا على الحق والخير. قال أبو بكر بن الخطيب(٢): قال أبو موسى العباسى: لم يزل صائمًا منذ ولى إلى أن قتل، قال العباس بن هاشم بن القاسم: كنت بحضرة المهتدى عشية فى رمضان، فوثبت لأنصرف، فقال لى: اجلس فجلست، وتقدم فصلى بنا ثم دعا بالطعام، فإذا طبق عليه خبز وآنية فيها ملح وخل وزيت، فدعانى إلى الأكل فقال: كل واستوف فليس ههنا من الطعام غير ما ترى؛ فعجبت، ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قد أسبغ الله نعمته عليك، فقال: إن الأمر على ما وصفت، ولكنى فكرت فى أنه كان فى بنى أمية عمر بن عبد العزيز، فكان من التقلل والتقشف على ما بلغك، فغرت على بنى هاشم فأخذت نفسى بما رأيت(٣).

وقال ابن عرفة النحوى: حدثنى بعض الهاشميين، قال: كان للمهتدى سفط فيه

---

(١) ينظر [المهتدى بالله] فى: شذرات الذهب ٢/ ١٣٢، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٦، تاريخ الخميس ٢/ ٣٨١، الوافى بالوفيات ٥/ ١٤٤، البداية والنهاية ١١/ ١٧، فوات الوفيات ٤/ ٥٠، تاريخ الخلفاء ٣٦١، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٣٥، تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٧، الكامل لابن الأثير ٧/ ١٩٨ - ٢٠٤، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٥٠٤ - ٥٠٦، تاريخ الطبرى ٩/ ١٥٤، البدء والتاريخ ٦/ ١٢٣، تاريخ الزمان ٤٢ - ٤٤، خلاصة الذهب المسبوك ٢٢١ .

(٢) ينظر: تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٩ .

(٣) ينظر: تاريخ بغداد ٣/ ٣٥٠ .

جبة صوف وكساء، وكان يلبسه بالليل ويصلى فيه، وكان قد اطرح الملاهى، وحرم الغناء، وحسم عن الظلم، وكان يشرف على الدواوين بنفسه، ويجلس الكتاب بين يديه، فتبرم به بابك التركى وانحصر، وكان ظلومًا، غشوما فأمر المهتدى بقتله، فلما قتل هاجت الأتراك، ووقع الحرب بينهم وبين المغاربة؛ فقتل من الفريقين أربعة آلاف، وخرج المهتدى والمصحف فى عنقه، وهو يدعو الناس إلى نصرته، والمغاربة معه وبعض العامة، فحمل عليهم طنبغا أخو بابك فهزمهم، ومضى المهتدى منهزمًا والسيف فى يده وقد جرح جرحين، حتى دخل دار محمد بن أبى داود، فتجمعت الأتراك وهجموا عليه، وأخذوه أسيرًا، وحمل على دابة، وأردف خلفه سائس بيده خنجر، وأدخل إلى دار بعضهم وجعلوا يصفعونه ويقولون: اخلعها، فأبى عليهم، فسلم إلى رجل منهم فوطئ مذاكيره حتى قتله. وتوفى فى رجب سنة ست وخمسين ومائتين، وكانت مدة خلافته سنة واحدة إلا خمسة عشر يومًا، عمره ثمان وثلاثون سنة وأربعة أشهر.

خلافة المعتمد على الله(١)

أبى جعفر، أحمد بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور.

لما قتل متغلبة الأتراك الخليفة المهتدى صبرًا عمدوا إلى الحبس، وأخرجوا ابن عمه أبا جعفر أحمد بن المتوكل، ولقبوه بالمعتمد على الله، وبايعوه سنة ست وخمسين، أمه أم ولد اسمها فينان، وكان له انهماك على اللذات واللهو، فقدم أخاه طلحة بن المتوكل ولقبه بالموفق بالله، وجعله ولى عهده، ولاه المشرق، والحجاز، واليمن، وفارس،وطبرستان، وسجستان، والسند. وكان له ولد صغير اسمه جعفر ولاه المغرب، والشام، والجزيرة، ولقبه المفوض إلى الله، وعقد لهما لواءين أبيض وأسود، وعقد لهما البيعة، وشرط على أخيه الموفق بالله أنه إن حدث به الموت وولده صغير كان الموفق ولى عهده، وإن كان حينئذٍ ولده كبيرًا كان هو ولى عهده،

(١) ينظر المعتمد على الله فى: مرآة الجنان ٢/ ١٩٣، تاريخ الخميس ٢/ ٣٨٣، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٤١، تاريخ الخلفاء ٣٦٣ - ٣٦٨، دول الإسلام ١/ ١٦٩، البداية والنهاية ١١/ ٦٥، وفيات الأعيان ١/ ١٧٣، خلاصة الذهب المسبوك ٢٣٣، الكامل لابن الأثير ٧/ ٤٥٥، تاريخ الزمان ٤٤ - ٤٦، العقد الفريد ٤/ ١٦٦، تاريخ الطبرى ٩/ ٤٧٤، تاريخ بغداد ٤/ ٦٠ .

وكتب بذلك معاقدة كتب كل منهما خطة عليه، وكتب القضاة والعدول خطوطهم عليها، وأرسلها إلى مكة فعلقت فى الكعبة، وما أفاد مع هذا حذر من قدر؛ كان الموفق عاقلاً مدبرًا شجاعًا، مشتغلا بأمور المملكة، ملتفتًا لأمور الرعية، وكان أخوه المعتمد مكبًا على لهوه ولذاته، مهملاً أحوال الرعية غير ملتفت إليها؛ فكرهه الناس وأحبوا أخاه طلحة الموفق، وظهرت فيه نجابات كثيرة، وكان ميمونًا مظفرًا فى الحروب.

وظهر أيام المعتمد طائفة من الزنج، وتغلبوا على المسلمين، وكان لهم رئيس اسمه يهبول يدعى أنه أرسله الله إلى الخلق، وادعى علم المغيبات، وقتل فى المسلمين. . . . ، ذكر الصولى أنه قتل ألف ألف وخمسمائة ألف مسلم، وكان يستأسر نساء المسلمين ويبيعهن فى الأسواق بأبخس ثمن، وينادى على الشريفة العلوية بدرهمين، وكان عند الزنجي الواحد منهم عشر شرائف يطؤهن ويمتهنهن فى الخدم الشاقة، وكان ذلك من أعظم المصائب فى الإسلام. وتملك هذا الكافر مدنًا كثيرة للمسلمين، واستأصل أهلها، وجعل دار مملكته واسط ورامهرمز وما والاهما؛ فانتدب لقتاله الموفق بالله، وجمع الجموع والعساكر ممن حنكته الحروب، ووسمته قوارع الخطوب، فاتخذهم جنانًا ويدًا، ورضى بهم ساعدًا وعضدًا، فركض بهم إلى الأعداء اللئام، الكفرة الطغام. فالتقت الفئتان على ضربية الحرب، وتساقيا كئوس الطعن والضرب، فجفلت السودان من لامع الصارم الأبيض، وفروا كما يفر الليل الأسود من النهار المبيض، وقتل أميرهم يهبول، ونصر الله ملة الإسلام، ومحا بنوره ذلك الظلام، واستردت المدائن التى أخذها وغيرها من البلاد، واطمأن المسلمون وكافة العباد، ولقبوه بالناصر لدين الله، وصار له حينئذٍ لقبان: الموفق بالله، والناصر لدين الله. ودخل إلى بغداد فى عظمة وعلو شأن، ورأس ذلك الكافر ورءوس أصحابه على رماح، ودعا له المسلمون، وقصدته الشعراء بالمدائح، وأحبه الناس، وبعد صيته واستفحل أمره.

واستمر أخوه المعتمد على حاله منهمكًا فى اللهو واللذات وله اسم الخلافة، وجميع الأمور يتلقاها الموفق بالله الناصر لدين الله، فحسده أخوه المعتمد، لذهابه بالذكر والصيت، وأراد هضمه؛ لاستيلائه على المملكة ورضا الناس عنه، فلم يدر

كيف يصنع فى ذلك، فاستعان على هضم جانب أخيه بصاحب مصر يومئذٍ أحمد بن طولون، وكان ملكًا شجاعًا فاتكًا، صاحب جيوش وجنود، كثير الأموال والخزائن، مستقلا بمملكة مصر يأخذ خراجها، فكاتبه المعتمد، وأمره أن يقاتل أخاه ليخف أمره ويهون بذلك، فجرت بينهما حروب اشتغل بها الموفق عن أخيه المعتمد، وصار يواليه تارة ويداريه، ويباعده تارة ويدانيه. ومضى على ذلك زمان والموفق بعد مرهن.

وكان للموفق ابن نجيب اسمه أحمد جعله الموفق ولى عهده واستعان به فى حروبه، وظهرت له نجابة وقوة، فخشى الموفق على نفسه وعلى أخيه المعتمد لما رأى من شجاعته وبسالته؛ فأودعه بطن الحبس ووكل به من يثق به فى أمره، واستمر محبوسًا إلى أن اشتد حال الموفق فى المرض فبادر غلمانه إلى الحبس، وأخرجوا ولده أحمد منه فلما رآه الموفق قال: ياولدى لهذا اليوم خبأتك، وكان ذلك قبل موته بثلاثة، وفوض إليه وأوصاه بعمه المعتمد خيرًا، ثم مات بعد ثلاثة أيام.

وشمت المعتمد بموت أخيه، وظن أنه استراح وصفا له دهره، والدهر ما صفا لأحد من البشر؛ وإن صروفه تأتى بالعبر والغير. فما حال عليه الحول حتى سلب ذلك الطول والحول، ولم يكن له بعد خذلانه الناصر من قوة ولا ناصر. وتوفى يوم الإثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين. وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة وأحد عشر شهرًا وعمره أربعون سنة وستة أشهر.

خلافة المعتضد(١)

أحمد بن الموفق بالله طلحه بن المتوكل بن المعتصم.

بويع له بالخلافة بعد وفاة عمه المعتمد فى تاريخ وفاته المذكور آنفًا. أمه أم ولد اسمها صواب، كان قليل الرحمة، مهيبًا ظاهر الجبروت، وافر العقل، شجاعًا

(١) ينظر المعتضد فى: شذرات الذهب ١٩٩/٢، الانتصار لابن دقماق ٦٧/٤، نهاية الأرب ٣٤٦/٢٢، بدائع الزهور ١٧١/١، تاريخ ابن خلدون ٣٤٦/٣ - ٣٥٤، النجوم الزاهرة ١٢٦/٣، تاريخ الخلفاء ٥٨٨ - ٥٩٩، وفيات الأعيان ١٧٣/١، الوافى بالوفيات ٤٢٨/٦، البداية والنهاية ٨٦/١١ - ٩٤، فوات الوفيات ٧٢/١، تاريخ بغداد ٤٠٣/٤ - ٤٠٧، تاريخ مختصر الدول ١٥٠، سير أعلام النبلاء ٤٦٣/١٣، الكامل لابن الأثير ٣٣٨/٧ وما بعدها، البدء والتاريخ ١٢٥/٦، تاريخ اليعقوبى ٥١٠/٢، تاريخ الطبرى ٥٣٠/٩ .

مظفرًا. دانت له الأمور فسالمه كل مخالف ومعاند، شديد السطوة، حسن السياسة، يقدم على الأسد وحده، إذا غضب على أحد ألقاه فى حفرة وطم عليه التراب[(١)]، وله تصرفات شتى فى قتل من غضب عليه، أسقط المكوس ورفع المظالم عن الرعية، وأظهر عز الملك بعد ما ذل ووهن، وجدد ملك بنى العباس، وفى ذلك يقول عبد الله بن المعتز: [من السريع]

أَمَا تَرَى مُلْكَ بَنِى هَاشِم　　عَادَ عَزِيزًا بَعْدَ مَا ذُلِّلا
يَا طَالِبَ المُلْكِ فَكُنْ مِثْلَهُ　　تَسْتَوْجِبِ المُلْكَ وَإلاَّ فَلاَ

وفيه يقول أبو العباس على بن الرومى: [من الطويل]

هَنِيئًا بَنِى الْعَبَّاسِ إنَّ إمَامَكُمْ　　إمَامُ الْهدَى وَالْبَأْسِ وَالجودِ أَحْمَدُ
كَمَا بِأَبِى العَبَّاسِ أُسِّسَ[(٢)] مُلْكُكُمْ　　كَذَا بِأَبِى الْعَبَّاسِ أَيْضًا يُجَدَّدُ
إمَامٌ يَظَلُّ الأَمْسُ يَشْكُو فِرَاقَهُ　　تأسُّفَ مَلْهُوفٍ وَيَشْتَاقُهُ الْغَدُ[(٣)]

وكان مع سطوته وبأسه يتوخى العدل،ويبرز المراء فى صورة الجبروت والعسف، وهو فى ذلك محق فى الباطن، فمن ذلك ما روى عن عبد الله بن حمدون قال: خرج المعتضد للصيد يومًا وأنا معه، فمر بمقثاة فعاث بعض جنوده فيها، فصاح صاحبها واستغاث بالمعتضد، فأحضره وسأله عن سبب صياحه فقال: ثلاثة من غلمانك نزلوا المقثاة فأخربوها. فأمر عبيده بإحضارهم، فضرب أعناقهم ومضى وهو يحادثنى فقال لى: اصدقنى ما الذى تنكره الناس من أحوالى ؟ فقلت له: سفكك للدماء. فقال: ما سفكت دمًا حرامًا قط، فقلت: بأى ذنب قتلت أحمد ابن الطيب ؟ فقال: دعانى إلى الإلحاد فقتلته لما ظهر لى إلحاده؛ لنصرة الدين. فقلت: فالثلاثة الذين نزلوا المقثاة الآن ؟ فقال: والله ما قتلتهم، وإنما ثلاثة من قطاع الطرق، وأوهمت الناس أنهم هم، ثم أحضر صاحب الشرطة فأمره بإحضار الثلاثة الذين نزلوا المقثاة فأحضرهم وشاهدتهم، ثم أمر بإعادتهم إلى الحبس. وهكذا ينبغى تدبير السياسة، وإظهار النصفة، وتخويف الجند

---

(١) ينظر: مروج الذهب (٤/ ٢٣٣) .
(٢) فى تاريخ الخلفاء: أنشئ .
(٣) وروايته فى تاريخ الخلفاء:

إمام يظل الأمس يعمل نحوه　　تلهف ملهوف ويشتاقه الغد

وإرعابهم[١].

ومما وقع فى أيام المعتضد من عمارة المسجد الحرام زيادة دار الندوة، وهى الزيادة التى فى شامى المسجد وهى أول الزيادتين، والأخرى التى فى الجانب الغربى، سيأتى أن الآمر بها المقتدر، وبينهما قريب من عشرين سنة، وليست الزيادة هى عين دار الندوة، بل محلها فى تلك الأماكن لا على التعيين من خلف مقام الحنفى إلى آخر الزيادة.

قلت: ما سبق بيانه أن قصيًا أول من بنى مكة، ثم بنت قريش بيوتها، وأن البيوت كانت محدقة بالكعبة ، ولها أبواب شارعة إلى المطاف، وبين كل دارين طريق إلى المطاف، وهو هذه البقعة المرخمة - يقتضى أن دار الندوة هى محل مقام الحنفى الآن بلا شبهة، فتأمل ذلك.

ومن شعر المعتضد قاله حين مرض: [من الطويل]

تَمَتَّعْ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ لاَ تَبْقَىٰ وَخُذْ صَفْوَهَا مَهْمَا[٢] صَفَتْ وَدَعِ الرَّنْقَا
وَلاَ تَأْمَنَنَّ الدَّهْرَ إِنِّى أَمِنْتُهُ فَلَمْ يُبْقِ لِى حَالاً وَلَمْ يَرْعَ لِى حَقًّا
قَتَلْتُ صَنَادِيدَ الرِّجَالِ وَلَمْ أَدَعْ عَدُوًّا وَلَمْ أُمْهِلْ عَلَى حَسَدٍ خَلْقَا
وَأَخْلَيْتُ دَارَ الْمُلْكِ عَنْ كُلِّ نَازِلٍ وَفَرَّقْتُهُمْ غَرْبًا وَمَزَّقْتُهُمْ شَرْقَا[٣]
وَلَمَّا بَلَغْتُ النَّجْمَ عِزًّا وَرِفْعَةً وَدَانَتْ رِقَابُ الخَلْقِ أَجْمَعَ لِى رِقًّا
رَمَانِى الرَّدَىٰ سَهْمًا فَأَخْمَدَ جَمْرَتِي فَهَأنذا فِى حُفْرَتِى عَاجِلاً مُلْقَىٰ
وَأَفْسَدتُ دُنْيَاىَ وَدِينِى سَفَاهَةً فَمَنْ ذَا الَّذِي مِنِّى بِمَصْرَعِهِ أَشْقَىٰ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِى بَعْدَ مَوْتِىَ مَا أَرَى لِرَحْمَةِ رَبِّى أَمْ إِلَىٰ نَارِهِ أُلْقَىٰ[٤]

ثم عهد إلى ابنه على ولقبه المكتفى بالله، وأخذ له البيعة قبل موته بثلاثة أيام.

---

(١) ينظر: المنتظم (٥/ ١٢٣)، نهاية الأرب (٢٢/ ٣٦١)، الوافى بالوفيات (٦/ ٤٣٠)، تاريخ الخلفاء/ ٣٦٨ .

(٢) فى تاريخ الخلفاء: ما إن .

(٣) روايته فى الخلفاء:

وأخليت دور الملك عن كل بازل وشتتهم غربًا ومزقتهم شرقا

(٤) وجاء هذا الشطر فى تاريخ الخلفاء هكذا:

... ... إلى نعمة الله أم إلى ناره ألقى

حكى المسعودى[١] أن المعتضد كان مفرطًا فى الجماع، فاعتل من إفراطه وطالت علته، وغشى عليه؛ فشك من حوله فى موته، وكان لا يجسر أحد عليه لشدة هيبته، فتقدم إليه الطبيب ليخبره بجس النبض، ففتح عينيه وفطن لذلك، فرفس الطبيب برجله رفسة رماه أذرعا فمات الطبيب !! ثم مات المعتضد من ساعته.

وكان أسمر اللون، مهيبًا جدًا، معتدل الشكل. توفى لسبع بقين من ربيع الأول سنة تسع وثمانين ومائتين، وقيل: سنة سبع وثمانين، وكان مدته تسع سنين وتسعة أشهر وأربعة أيام، وعمره ست وأربعون سنة وشهر.

خلافة المكتفى بالله[٢]

على بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور.

لما توفى المعتضد كان ابنه المكتفى غائبًا بالرقة، فنهض بأعباء البيعة له الوزير أبو الحسين القاسم بن عبيد الله، وكتب إليه فوصل، وكان يوم دخوله يومًا مشهودًا زينت له بغداد، ونزل دار الخلافة وخلع على الوزير سبع خلع، ومدحه الشعراء وأنعم عليهم بالجوائز السنية.

كان مولده فى غرة ربيع الأول سنة مائتين وأربع وستين. وأمه أم ولد تركية اسمها غنجك[٣]، وكان مليح الصورة يضرب بحسنه المثل. قال ابن المعتز: [من الكامل]

مَيَّزْتُ[٤] بَيْنَ جَمَالِهَا وَفِعَالِهَا فَإِذَا المَلاَحَةُ بِالْجِنَايَةِ لاَ تَفِي

---

(١) ينظر: مروج الذهب ٤/ ٢٧٤، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٦٧، الوافى بالوفيات ٦/ ٤٢٩، نهاية الأرب ٢٢/ ٣٥٨ .

(٢) ينظر [المكتفى بالله] فى: شذرات الذهب ٢/ ٢١٩، نهاية الأرب ٢٣/ ١١ - ٢٣، تاريخ الخلفاء ٦٠٠ - ٦٠٣، كنز الدرر ٧٣ - ٧٦، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٧٩ - ٤٨٥، وفيات الأعيان ٦/ ١٩٨ - ٢٠٠، دول الإسلام ١/ ١٧٩، مرآة الجنان ٢/ ٢٢٤، العبر ٢/ ١٠٢، أخبار الدول ١٦٥، البداية والنهاية ١١/ ٩٤، النجوم الزاهرة ٣/ ١٨٣، الكامل لابن الأثير ٧/ ٥١٦، تاريخ الطبرى ١٠/ ٣٦، العقد الفريد ٤/ ١٦٦، المنتظم ٦/ ٣١ - ٣٣، تاريخ الزمان ٤٩، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٤٩ .

(٣) فى تاريخ الخلفاء: اسمها جيجك .

(٤) فى تاريخ الخلفاء: قايست .

وَاللَّهِ لاَ كَلَّمْتُهَا وَلَوَ انَّهَا كَالشَّمْسِ أَوْ كَالْبَدْرِ أَوْ كَالْمُكْتَفِي

كان وسيمًا جميلاً، بديع الحسن، وردى اللون، معتدل الطول، أسود الشعر. قال الصفدى فى « شرح اللامية »: ومن أين للمكتفى صفة الحسن ؟ والذى دلت عليه التواريخ أنه كان أسمر أعين قصيرًا، وليست هذه من صفات الحسن. قلت: المثبت مقدم على النافى؛ سيما وأكثر التواريخ فيها وصفه بالحسن كما هنا.

وكان إلى حب على بن أبى طالب. امتدحه شاعر بقصيدة يذكر فيها فضل أولاد العباس على أولاد على، فقطع المكتفى عليه إنشاده وقال: كأنهم ليسوا ابنى عم وإن لم يكونوا خلفاء، ما أحب أن يخاطب أهلنا بشيء من ذلك، ولم يسمع القصيدة ولا أجازه عليها: وذكر عبد الغفار فى « تاريخ نيسابور » عن أبى المدينى - وكان معلمًا للمكتفى قبل أن يلى الخلافة، فلما أفضت إليه كتب إليه بهذين البيتين: [من الخفيف]

عِنْدَ أَهْلِ التُّقَىٰ وَأَهْلِ المُرُوَّهْ حَقُّ الأُسْتَاذِ فَوْقَ حَقِّ الأُبُوَّهْ
وَأَحَقُّ الأَنَامِ أَنْ يَحْفَظُوا ذَا كَ وَيرْعَوْهُ أَهْلُ بَيْتِ النُّبُوَّهْ

ومن أعظم الحوادث فى أيام المكتفي ظهور القرامطة الملحدين؛ بل الكفرة أعداء الدين فأول من خرج منهم يحيى بن بهرويه القرمطى، وكانت دار ملكهم هجر، وهم طائفة إباحية يدعون أن الإمام الحق بعد النبى ﷺ محمد بن الحنفية، ويسندون إليه أقاويل باطلة لا أصل لها، فجهز عليه المكتفى جيوشًا فقتله، فقام بعده أخوه الحسين وظهر شأنه[(١)]، وظهر ابن عمه عيسى ابن مهرويه، ويلقب بالمدثر، وزعم أنه المراد بالسورة الشريفة يا أيها المدثر، ولقب غلامًا مظلمًا بالمطوّق بالنور، وزعم أنه المهدى، ودعا لنفسه على المنابر، وأفسد بالشام وعاث؛ فحارب المكتفى الثلاثة وقتلهم، وطيف برءوسهم فى البلاد فى سنة إحدى وتسعين ومائتين.

ولم يطل زمان المكتفى؛ توفى ليلة الأحد لاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين، ومدة خلافته ست سنين وسبعة أشهر، وعمره إحدى وثلاثون سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يومًا.

---

(١) ينظر تفاصيل ذلك: الكامل لابن الأثير ٧/ ٥٢٣ - ٥٢٦، البداية والنهاية ١١/ ٩٦، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٨٢، العبر للذهبى ٢/ ٨٤ .

خلافة المقتدر بالله(١)

أبو الفضل جعفر بن المعتضد بن الموفق بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ابن المهدى بن المنصور.

بويع له بالخلافة ببغداد يوم مات أخوه المكتفى وهو ابن ثلاث عشرة سنة وأربعين يومًا، ولم يل الخلافة قبله ولا بعده أصغر منه، وضعف دست الخلافة فى أيامه.

ذكر صاحب « النوادر » وغيره أن صافى مولى المعتضد قال: مشيت يومًا بين يدى المعتضد وهو يريد دار الحريم، فلما بلغ باب دار المقتدر وقف وتسمع وتطلع من خلل الباب، فإذا هو بالمقتدر وله إذ ذاك خمس سنين، وبين يديه طبق فضة فيه عنقود عنب فى وقت فيه العنب عزيز جدًا، والصبى يأكل منه واحدة بعد واحدة ثم يطعم الجماعة عنبه عنبة على الدور، حتى فنى العنقود والمعتضد يتمزق غيظًا، ثم رجع ولم يدخل الدار، فرأيته مهمومًا، فقلت: ما سبب هذا يا سيدى ؟ فقال: يا صافى، لولا العار والنار لقتلت هذا الغلام اليوم، فإن فى قتله صلاحًا للأمة. فقلت: يا سيدى، ما شأنه، وأى شيء غمك أعيذك بالله من هذا ؟ فقال: ويحك، أنا بصير بما أقول؛ أنا رجل قد سست الأمور، وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد، ولا بد من موتى، وأنا أعلم أن الناس بعدى لا يختارون أحدًا على ولدى، إنهم سيجلسون ابنى عليًا - يعنى المكتفى - وما أظن عمره يطول للعلة التى به - يعنى الخنازير التى فى حلقه - فيتلف عن قريب ولا يرى الناس إخراجها عن ولدى، ولا يجدون بعد أمثل من جعفر - يعنى المقتدر - وهو صبى وله من الطبع والسخاء ما قد رأيته من أنه أطعم الوصائف مثل ما أكل، وساوى بينه وبينهم فى شيء عزيز فى العالم. والشح على مثله فى طبائع الصبيان غالب، فيحتوى على النساء لقرب عهده بهن، فيقسم ما جمعته من الأموال كما قسم العنب، ويبذر خراج الدنيا،

---

(١) ينظر المقتدر بالله فى: شذرات الذهب ٢/ ٢٨٤، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٣٣، تاريخ الخميس ٢/ ٣٨٦، البداية والنهاية ١١/ ١٦٩، مرآة الجنان ٢/ ٢٧٣، الوافى بالوفيات ١١/ ٩٤، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٦٢، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٣٥٨، أخبار الدول ١٦٥، تاريخ الخلفاء ٢٧٨ - ٣١٦، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٣ - ٥٦، العبر للذهبى ٢/ ١٨١، خلاصة الذهب المسبوك ٢٣٩، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٢ - ١٠٥، الكامل لابن الأثير ٨/ ٥٨ - ٦٥، تاريخ بغداد ٧/ ٢١٣ - ٢١٩، المنتظم ٦/ ٢٤٣، تاريخ الطبرى ١٠/ ٤٢، تاريخ الزمان ٥٠ وما بعدها .

فتضيع الثغور، وتعظم الأمور، وتحدث الحوادث والأسباب التى فيها زوال الملك عن بنى العباس. فقلت: يا مولاى، يتخلق بأخلاقك، ولايكون هذا الذى ظننت. فقال: ويحك، احفظ عنى ما أقول؛ فإنه كما قلت. ومكث يومه مهمومًا. وضربه الدهر ضربة ومات المعتضد، وولى المكتفى ولم يطل عمره، وولى المقتدر، فكان ما ذكره المعتضد، فوالله لقد وقفت على رأس المقتدر وهو فى مجلس لهوه، فدعا بالأموال فأخرجت إليه ووضعت البدر بين يديه، فجعل يفرقها على الجوارى والنساء، ويلعب بها ويمحقها ويهبها، وأعطى القهرمانة سبحة جوهر لم ير مثلها، وأخرج على النساء جميع جواهر الخلافة، وأتلف أموالاً كثيرة، منها من النقد ثمانمائة ألف ألف دينار(١)، فذكرت قول مولاى المعتضد، ثم إن الجند وثبوا على وزيره فقتلوه، واتفقوا على خلع المقتدر، وعقدوا لأبى العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل فوليها.

خلافة عبد الله بن المعتز بن المتوكل(٢)

لما أقاموه فى الخلافة لقبوه الغالب بالله، وقيل: المرتضى بالله، بعد أن شرط عليهم ألا يكون فى ذلك حرب ولا سفك دم، فلما بويع استمر يومًا وليلة، فأرسل إلى المقتدر يأمره بإخلاء دار الخلافة، وأن يذهب إلى دار محمد بن طاهر لينظر فى أمره، فلما جاء الرسول إلى المقتدر وبلغه الرسالة قال: ليس عندى جواب إلا السيف، ولبس السلاح وركب، ومعه جماعة قليلة من خدمه وهم مستسلمون للقتل فى غاية الخوف والوجل، وهجموا على عبد الله بن المعتز، فأهاله ذلك وألقى الله فى قلبه الرعب فانهزم هو ووزيره وقاضيه، وكل من هو فى ديوانه؛ ظنًا أن خلف هؤلاء أعوانًا وأنصارًا، وقبض المقتدر على ابن المعتز وحبسه، ثم أخرجه من الحبس ميتًا.

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٥٥ .

(٢) ينظر [عبد الله بن المعتز] فى: شذرات الذهب ٢/ ٢٢١، النجوم الزاهرة ٣/ ١٦٥، البداية والنهاية ١١/ ١٠٨، مرآة الجنان ٢/ ٢٢٥، دول الإسلام ١/ ١٧٩، فوات الوفيات ٢/ ٢٣٩، وفيات الأعيان ٣/ ٧٦، الكامل لابن الأثير ٨/ ١٤، تاريخ بغداد ١٠/ ٩٥، فهرست ابن النديم ١٦٨، تاريخ الطبرى ١٠/ ١٤٠، كشف الظنون ١٠٤، هدية العارفين ١/ ٤٤٣، المنتظم ٦/ ٨٤، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٢ - ٤٤ .

قال ابن خلكان[(١)]: لما أدخل ابن المعتز على المقتدر أمر به فطرح على الثلج عريانًا، وحشى سراويله ثلجًا، فلم يزل كذلك والمقتدر يشرب إلى أن مات فى ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائتين.

وعبد الله بن المعتز لقصر زمانه لا ينبغى عده من الخلفاء، ولكن قد ذكرناه كما ذكره بعض المؤرخين لفضله وأدبه، وهو أشعر بنى العباس؛ بل أشعر بنى هاشم على الإطلاق، وأغزرهم فضلاً وأدبًا ودخولاً، ومعرفة بعلم الموسيقا، وصاحب التشبيهات المبتكرة، الغريبة المخترعة، المرقصة، التى لا يشق له فيها غبار. وكان يقول: إذا قلت: كأن، ولم أجد تشبيهًا فقطع الله لسانى. قلت: مما أحفظ لعبد الله ابن المعتز من ذلك قوله فى تشبيه الهلال والثريا، حيث يقول: [من المنسرح]

قَدِ انْقَضَتْ دَوْلَةُ الصِّيَامِ وَقَدْ ... بَشَّرَ سُقْمُ الهِلَالِ بِالْعِيدِ
يَتْلُو الثُّرَيَّا كَفَاغِرٍ شَرِهٍ ... يَفْتَحُ فَاهُ لِأَكْلِ عُنْقُودِ

وقوله فى تشبيه الليل والهلال والنجوم: [من المنسرح]

كَأَنَّمَا اللَّيْلُ وَالهِلَالُ وَقَدْ ... لَاحَتْ نُجُومُ السَّمَاءِ مُنْقَضَّهْ
وَأَمٌ مِنَ الزَّنْجِ حَوْلَهُ ذَهَبٌ ... تَبْدُرُ مِنْهُ بَنَادِقُ الفِضَّهْ

وقوله: [من الرجز]

إِذَا الْهِلَالُ فَارَقَتْهُ لَيْلَتُه
لِكُلِّ مَنْ يَرْمُقُهُ وَيَنْعَتُهْ
كَأَنَّهُ أَسْمَرُ شَابَتْ لِحْيَتُهْ

وهو صاحب القصيدة البائية التى يفخر فيها على بنى هاشم، ويدعى أولوية الخلافة ببنى العباس - وهو فى ذلك ظالم - وهى قوله: [من المتقارب]

أَلاَ مَنْ لِعَيْنٍ وَتَسْكَابِهَا ... تُشَكِّى القَذَا وَبُكَاهَا بِهَا
تَرَامَتْ بِنَا حَادِثَاتُ الزَّمَانِ ... تَرَامِى القِسِيِّ بِنشَّابِهَا
وَيَا رُبَّ أَلْسِنَةٍ كَالسُّيوفِ ... تُقَطِّعُ أَرْقَابَ أَصْحَابِهَا
وكم دُهِىَ المرءُ مِن نفسِهِ ... فمزَّقَهُ حَدُّ أَنيابِهَا

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/ ٧٦ ت ٣٤١) حيث أثبت فى هذه الترجمة طريقة أخرى لمقتله.

وَإنْ فُرْصَةٌ أمكنَتْ فى العدوِّ فَلاَ تُبدِ همَّكَ إلاّ بِهَا
فإنْ لم تَلِجْ بابَها مُسْرِعًا أتاكَ عدوُّكَ مِنْ بَابِهَا
وهلْ نافِعٌ نَدَمٌ بعدَهَا وتأميلُ أخرى وأَنَّىٰ بِهَا
وَمَا يُنْتَقَصْ من شبابِ الرجالِ يُزَدْ فى نُهاها وَأَلْبَابِهَا
نهيتُ بَنِى رَحِمِى نَاصِحًا نَصِيحَةَ بَرٍّ بأنسَابِهَا
وقد رَكِبُوا بغيهم وارْتَقَوْا مَعَارِجَ تَهْوِى بِركَّابِهَا
فَرَامُوا فَرَائِسَ أُسْدِ الشَّرَىٰ وقد نَشِبَتْ بينَ أنيابِهَا
دَعُوا الأُسْدَ تفرسُ ثم اشْبَعُوا بما تفضلُ الأُسْدُ فى غابِهَا

ومنها:

قتلنا أميةَ فى دارِهَا ونحنُ أحقُّ بأسلاَبِهَا
ولما أَبَى اللَّهُ أَن تملِكُوا نهضْنَا إليها وقُمْنَا بِهَا
ونحن ورثنا ثيابَ النَّبِيِّ فَلِمْ تَجذِبونَ بأَهْدَابِهَا
لَكُمْ رَحِمٌ يا بنى بِنْتِهِ ولكنْ بَنُو العمِّ أولَىٰ بِهَا
فَمَهْلاً بنى عَمِّنَا إنَّها عطيَّةُ ربٍّ حَبَانا بِهَا
وكانت تَزَلزلُ فى العالَمِينَ فَشُدَّتْ لَدَيْنَا بأَطْنَابِهَا

فرد عليه شاعر زمانه، وفصيح أوانه عبد العزيز بن سرايا الحلى، وأجاد فقال:

[من المتقارب]

أَلاَ قُلْ لِشرِّ عبيدِ الإلهِ وَطَاغى قريشٍ وَكَذَّابِهَا
أَأَنتَ تُفَاخِرُ آلَ النبىِّ وَتجحَدُهَا فَضْلَ أَنْسَابِهَا
بِكُمْ بَاهَلَ المُصْطَفى أَمْ بِهِمْ وَرَدَّ العُدَاةَ بِأَوْصَابِهَا؟!
أَعَنْكُم نَفَى الرِّجسَ أَمْ عَنْهُمُ لِطُهْرِ النُّفُوسِ وَأَلْبَابِهَا؟!
أَم الشُّرْبُ واللَّهْوُ مِنْ دَأْبِكُمْ وَفَرْطُ العِبَادَةِ مِنْ دَأْبِهَا؟!
وقلتم وَرِثْنَا ثِيَابَ النَّبِيِّ فَلِمْ تَجْذِبُونَ بأَهْدَابِهَا
وعندكَ لاَ تُورَثُ الأنبياءُ فَكَيْفَ حَظِيتُمْ بأَثْوَابِهَا
فكذبْتَ نَفْسَكَ فى الحالَتَيْنِ ولم تعلمِ الشَّهْدَ مِنْ صَابِهَا
أَجَدُّكَ يَرْضَىٰ بما قلتَهُ وَمَا كَانَ يَوْمًا بِمُرْتَابِهَا

وكان بـ« صِفِّينَ » من حِزْبِهِمْ ... لحربِ الطُّغَاةِ وأحْزَابِهَا
وقد شَمَّرَ المَوْتُ عن سَاقِهِ ... وكَشَّرَتِ الحَرْبُ عن نَابِهَا
فأقبلَ يَدْعُو إلى حَيْدَرٍ ... بِإِرْعَابِها وبِإِرْهَابِهَا
وآثَرَ أَنْ ترتضيه الأَنَامُ ... مِنَ الحَكَمَينِ لإِسْهَابِهَا
ليُعْطِى الخِلافَةَ أَهْلاً لَهَا ... فلم يرتضوه لأَنجابِهَا
وَصَلَّى معَ الناسِ طولَ الحياةِ ... وحَيْدَرُ فى صدرِ مِحْرابِهَا
فَهَلاَّ تَقَمَّصَها جَدُّكُمْ ... إِذَا كانَ ذلك أَحْرَىٰ بِهَا
وإِذْ جَعَلَ الأمرَ شُورَى لهم ... فَهَلْ كَانَ من بَعْضِ أَرْبَابِهَا
أَخَامِسَهُمْ كَانَ أَمْ سَادِسًا ... وَقَدْ جُلِيَتْ بَيْنَ خُطَّابِهَا
وقولُكَ: أنتم بَنُو بنتِهِ ... وَلَكِنْ بَنُو العَمِّ أَولَى بِهَا
بَنُو البِنْتِ أيضا بَنُو عَمِّهِ ... وذَلِكَ أَدْنَى لأَنْسَابِهَا
فَدَعْ فِى الخلاَفَةِ فَصْلَ الخِطَابِ ... فليسَتْ ذَلُولاً لِرُكَّابِهَا
وَمَا أَنْتَ والفَحْصَ عَنْ شَأْنِهَا ... وَمَا قَمَّصُوكَ بِأَثْوَابِهَا
وَمَا سَاوَرَتْكَ سِوَى سَاعَةٍ ... فَمَا كُنْتَ أَهْلاً لأَلْقَابِهَا
وَكَيْفَ يَخُصُّوكَ يَوْمًا بِهَا ... وَلَمْ تَتَأَدَّبْ بِآدَابِهَا
وَقُلْتَ بِأَنَّكُمُ القَاتِلُونَ ... أُسودَ أُمَيَّةَ فِى غَابِهَا
كَذَبْتَ وَأَسْرَفْتَ فِيمَا ادَّعَيْتَ ... وَلَمْ تَفْدِ نَفْسَكَ عَنْ عَابِهَا
فَكَمْ حَاوَلَتْهَا سَرَاةٌ لَكُمْ ... فَردَّتْ عَلَى نَكْصِ أَعْقَابِهَا
ولولا سُيُوفُ أبي مُسْلِمٍ ... لَعَزَّتْ عَلَى جَهْدِ طلاَّبِهَا
وَذَلِكَ عَبْدٌ لَهُمْ لاَ لَكُمْ ... رَعَى فيكمُ قُرْبَ أَنْسَابِهَا
وَكنتُمْ أَسَارَى بِبَطْنِ الحُبُوسِ ... وَقَد شَفَّكُمْ لَثْمُ أَعْقَابِهَا
فَأَخْرَجَكُمْ وَحَبَاكُمْ بِهَا ... وَقَمَّصَكُمْ فَضْلَ جِلْبَابِهَا
فجازَيْتُمُوه بِشَرِّ الجَزَاءِ ... لطغْوَى النُّفُوسِ وَإِعْجَابِهَا
فَدَعْ ذِكْرَ قَوْمٍ رَضُوا بالكَفَافِ ... وَجَاءُوا القَنَاعَةَ مِنْ بَابِهَا
هُمُ الزَّاهِدُونَ هُمُ العَابِدُونَ ... هُمُ العَامِلُونَ بِآدابِهَا
هُمُ القَائِمُونَ هُمُ الرَّاكِعُونَ ... هُمُ السَّاجِدُونَ بِمِحْرَابِهَا

هُمْ قُطْبُ مِلَّةِ دِينِ الإِلَهِ وَدَوْرُ الرُّحِيِّ بِأَقْطَابِهَا
عَلَيْكَ بِلَهْوِكَ بِالْغَانِيَاتِ وَخَلِّ الْمَعَالِى لِأَرْبَابِهَا
وَوَصْفِ العِذَارِ وَذَاتِ الخِمَارِ وَنَعْتِ العُقَارِ بِأَلْقَابِهَا
وَشِعْرِكَ فِى مَدْحِ تَرْكِ الصَّلَاةِ وَسَعْيِ السُّقَاةِ بِأَكْوَابِهَا
فَذَلِكَ شَأْنُكَ لاَ شَأْنُهُمْ وَجَرْىُ الجِيَادِ بِأَحْسَابِهَا

واستمر المقتدر فى الخلافة إلى أن خرج عليه مؤنس الخادم مقدم جيشه، وذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة لأمر بلغه عنه، وهو أنه قد عزم على اغتياله، فبلغ المقتدر ما نقل إلى مؤنس، فحلف المقتدر على بطلان ذلك معتذرًا إلى مؤنس فأسرّها مؤنس ولم يقبل حلفه ولا عذره، وركب والجيش معه وجاءوا دار الخلافة، فهرب خواص المقتدر، وأشهد المقتدر على نفسه بالخلع، وأحضر مؤنس أبا منصور محمد بن المعتضد وبايعه، ولقب بالقاهر بالله، وفوضت الوزارة إلى الوزير أبى على ابن مقلة الكاتب المشهور، واستقر القاهر، وكتب الوزير إلى سائر البلاد، وعمل يوم الإثنين الديوان، فجاء العسكر يطلبون منه رسم البيعة، فارتفعت الأصوات فمنعهم الحاجب من الدخول إلى الخليفة القاهر، فقتلوا الحاجب، ومالوا إلى دار مؤنس الخادم، وأخرجوا المقتدر من الحبس، وحملوه على أعناقهم إلى دار الخلافة، فجلس على سريرها، وأتوه بأخيه القاهر، وهو مقهور يبكى ويقول: الله الله يا أخى فى روحى. فاستدناه المقتدر، وقبل بين عينيه، وقال: يا أخى، لا ذنب لك، الذنب لمؤنس، وأنت مضطر مغلوب على أمرك، والله لا ينالك منى مكروه، فطب نفسًا وقر عينًا. وبذل المقتدر الأموال للجند واسترضاهم، وثبتت له الخلافة بعد العزل مرتين، الأول بالمعتز، والثانية بالقاهر، وهذه التولية ثالث مرة، والثالثة ثابتة.

ومن محاسن المقتدر أنه زاد فى المسجد الحرام باب إبراهيم فى الجانب الغربى منه، وليس المراد بإبراهيم المضاف إليه هذا الباب سيدنا إبراهيم الخليل - على نبينا وعليه وعلى سائر النبيين أفضل الصلاة والسلام - وإنما هو إبراهيم كان خياطًا يَجْلِسُ عند الباب وعمر دهرًا، فعرف الباب به وأضيف إليه، كذا فى أعلام القطبى.

وقدمت على المقتدر رسل ملك الروم بهدايا لطلب الهدنة، فعمل المقتدر موكبًا عظيمًا لإرهاب العدو، فأقام مائة وستين ألف مقاتل بالسلاح الكامل سماطين، وأقام

بعدهم الخدم وهم سبعة آلاف خادم، ثم الحجاب وهم سبعمائة حاجب، وعلق فى دار الخلافة ثمانية وثلاثين ألف ستر ديباج، وكانت الفرش الفاخرة التى بسطت فى الأرض اثنين وعشرين ألف بساط، وفى الحضرة مائة سبع بسلاسل الذهب والفضة، وأبرز شجرة صيغت من الذهب والفضة وأغصانها تتمايل بحركات مصنوعة، وعلى الأغصان طيور ذهب وفضة تنفخ فيها الريح فيسمع لكل طير تغريد وصفير خاص، وهذا بعد وهن الخلافة وضعفها، فكيف كان زينتها فى أيام دولتهم فى كمال وصفها، فسبحان من لا يزال ملكه ولا يزول.

وفى هذه السنة - وهى سنة سبع عشرة وثلاثمائة - لم تشعر الحجاج يوم التروية بمكة إلا وقد وافاهم عدو الله أبوطاهر القرمطى فى عسكر جرار، فدخلوا بخيلهم وسلاحهم المسجد الحرام، ووضعوا السيف فى الطائفين والمصلين والمحرمين إلى أن قتلوا فى المسجد الحرام وفى مكة وشعابها - أزيد من ثلاثين ألف إنسان، وركض أبو طاهر بسيفه مسلولاً بيده وهو سكران، فصفر لفرسه عند البيت فبال وراث، والحجاج يطوفون والسيوف تأخذهم، وقتل فى المطاف خاصة ألف محرم، وطمت بئر زمزم بالقتلى، وما بمكة من الحفر والآبار ملئت بهم، وطلع أبو طاهر إلى باب الكعبة فقلعه وهو يقول: [من الرمل]

أَنَـا بِـالـلَّـهِ وَبِـالـلَّـهِ أَنَـا يَـخْـلُـقُ الْـخَـلْـقَ وَأُفْـنِـيـهِـمْ أَنَـا

وأطلع رجلًا لقلع الميزاب فأتاه سهم من جبل أبى قبيس فقتله، وأطلع آخر لقلعه فسقط إلى أسفل فانفضخ دماغه، فقال: دعوه حتى يأتى من يأخذه. وقتل أمير مكة محمد بن محارب وخلقا من العلماء والصلحاء، واستدعى جعفر بن أبى علاج فأمره بقلع الحجر الأسود فقلعه بعد العصر يوم الإثنين رابع عشر ليلة خلت من ذى الحجة من تلك السنة. وأقام بمكة أحد عشر يومًا، وقيل: ستة أيام، ثم انصرف إلى بلده هجر، وحمل معه الحجر الأسود يريد أن يحول الحج إلى بلده الذى سماه دار الهجرة، وأراد أخذ مقام الخليل، فغيبه بنو شيبة فى بعض شعاب مكة.

ولما وصل إلى بلده علق الحجر الأسود فى الأسطوانة السابعة مما يلى صحن المسجد، وبقى الحجر الأسود عندهم، وبذل له المطيع العباسى خمسين ألفًا فلم يردوه، إلى أن أيسوا من تحويل الحج إلى بلدهم هجر، فردوه إلى محله من أنفسهم

بعد اثنين وعشرين عامًا وأربعة أيام، أتى به سمندر بن الحسن القرمطى إلى مكة يوم النحر سنة ٣٣٩ تسع وثلاثين وثلاثمائة فوضعه، وقال: أخذناه بأمر، ورددناه بأمر.

وللقرمطى وعترته سير مطولة، وابتلى أبو طاهر بأكلة فصار لحمه يتناثر بالدود، فمات أشنع موتة. وفى التواريخ صور أخرى لهذه القصة متناقضة، وهذا ملخص أصح ما روى فيها، فاعتمدنا عليه باختصار.

ثم وقع بين مؤنس والمقتدر حرب خرج فيه المقتدر فتوغل فى المعركة، فضربه بربرى من خلفه فسقط إلى الأرض. فقال لضاربه: ويحك أنا الخليفة، فقال: أنت المطلوب، وذبحه بالسيف ورفع رأسه على الرمح، وسلب ما على بدنه وبقى مكشوف العورة حتى سُتر بحشيش، ثم حفر له مكانه فدفن وعفى أثره.

وكانت وفاته لثمان بقين من شوال سنة عشرين وثلاثمائة ومدة خلافته أولاً وثانيًا وثالثًا خمس وعشرون سنة إلا أيامًا، وعمره ثمان وثلاثون سنة وشهر ونصف.

خلافة القاهر بالله(١)

أخيه محمد بن المعتضد بن الموفق بالله بن المتوكل بن المعتصم بويع لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلاثمائة.

ولما ولى قبض على أخيه المكتفى، وأمر به فأقيم فى بيت وسد عليه بالآجر والجص حتى مات غمًا. وقبض على أم المقتدر فطالبها بمال لم تقدر عليه؛ فتهددها وضربها بيده وعذبها وعلقها منكوسة حتى كان يجرى بولها على وجهها وهى تقول: ألست ابنى فى كتاب الله، ألم أخلصك من ابنى المقتدر لما جىء بك إليه تبكى ؟ وأنت الآن تعاقبنى هذه العقوبة. ثم إنها ماتت بعدُ عقب ذلك(٢).

ثم إن الجند شغبوا عليه، وهجموا على داره من سائر الأبواب، فهرب إلى سطح حمام واستتر فيه، فأتوا إليه وقبضوا عليه، وخلعوه وحبسوه، وسملوا عينيه. قال

---

(١) ينظر [القاهر بالله] فى: تاريخ الخلفاء ٣٨٦ - ٣٩٠، البداية والنهاية ١١/ ١٧٠، النجوم الزاهرة ٣/ ٣٠٣، العبر للذهبى ٢/ ٢٥٠، الوافى بالوفيات ٢/ ٣٤، الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٤٤، تاريخ بغداد ١/ ٣٣٩، المنتظم ٦/ ٢٤١، شذرات الذهب ٢/ ٣٤٩، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٩٨، تاريخ الزمان ٥٣، نهاية الأرب ٢٣/ ١٠٥، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٣٩١، مرآة الجنان ٢/ ٢٧١ .

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٩٩ .

ابن البطريق: لأن القاهر قد ارتكب أمورًا قبيحة لم يسمع بها فى الإسلام، وكان أهوج طائشًا، سفاكًا للدماء، مدمنا للشرب، كانت له حربة يأخذها بيده فلا يضعها حتى يقتل بها إنسانًا، ولولا الحاجب سلامة لأهلك الناس(١).

وحكى أن رجلاً قال: صليت فى جامع المنصور ببغداد، فإذا أنا بإنسان عليه جبة عتابية قد ذهب وجهها، وبقيت بطانتها وقطنها، وهو يقول: أيها الناس، تصدقوا عليَّ، بالأمس كنت أمير المؤمنين وأنا اليوم من فقراء المسلمين، فسألت عنه فقيل لى إنه القاهر بالله.

كانت مدة خلافته ست سنين وسبعة أشهر. ووفاته تأخرت إلى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وعمره اثنان وخمسون سنة وثمانية أشهر.

خلافة الراضى بالله(٢)

أبى العباس محمد بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم •

بويع بالخلافة يوم خلع عمه القاهر سنة ست وعشرين وثلاثمائة، واستوزر أبا على بن مقلة. وأطلق كل من كان فى حبس القاهر، ثم قبض على ابن مقلة، وسبب ذلك أن محمد بن رائق كان بواسط متغلبًا عليها إلا أن الضرورة ألجأته إلى ذلك؛ لاضطراب الأمور عليه، ولضعف من يلى الوزارة عن القيام بها، فأحضر الراضى القضاة، وأعلمهم بأن ابن مقلة راسله فى محمد بن رائق فأفتوا بقطع يده اليمنى، وبعد أيام قطع لسانه، ثم مات فى شوال سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة. ودعا الراضى بالله محمد بن رائق فقدم إلى بغداد، فجعله الراضى أمير الأمراء، وفوض إليه تدبير المملكة، ومن ذلك اليوم بطل أمر الوزارة ببغداد، ولم يبق إلا اسمها، والحكم للأمراء والملوك المتغلبين، فكان قدومه لخمس بقين من ذى الحجة سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٥/٩٩، تاريخ الخلفاء ٣٨٨.

(٢) ينظر: [الراضى بالله] فى: تاريخ بغداد ٢/ ١٤٢ - ١٤٥، المنتظم ٦/ ٢٦٥، الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٨٢، العبر ٢/ ٢١٨، الوافى بالوفيات ٢/ ٢٩٧ - ٣٠٠، فوات الوفيات ٢/ ٣٧٥ - ٣٧٧، مرآة الجنان ٢/ ٢٩٦، البداية والنهاية ١١/ ١٧٨ - ١٧٩، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٧١، تاريخ الخلفاء ٣٩٠، شذرات الذهب ٢/ ٣٢٤، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٠٣، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٧٢، تاريخ الخميس ٢/ ٣٩٣، دول الإسلام ١/ ٢٠١، نهاية الأرب ٢٣/ ١٢١ وما بعدها.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة والدنيا فى أيدى المتغلبين، وكل من حصل فى يده بلد ملكه ومانع عليه: فالبصرة وواسط والأهواز فى يد عبد الله اليزيدى وإخوته، وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه الديلمى، والموصل وديار ربيعة ومضر فى أيدى بنى حمدان الحسن بن حمدان وناصر الدولة وسيف الدولة، ومصر والشام فى يد أبى بكر محمد بن طغج الإخشيدى، والمغرب وإفريقية فى يد المهدى الفاطمى، والأندلس فى يد بنى أمية أولاد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك الأموى، وخراسان وما والاها فى يد نصر بن أحمد السامانى، واليمامة وهجر والبحرين فى يد أولاد أبى طاهر القرمطى، ولم يبق فى يد الراضى وابن رائق سوى بغداد وما والاها، وتعطلت دواوين المملكة، ونقص قدر الخلافة وضعف ملكها.

فتوفى الراضى بالله خامس ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة بعلة الاستسقاء والسحج، وكان أكبر أسباب علته كثرة الجماع، وكانت مدة خلافته ثلاث سنين وخمسة أشهر وعشرة أيام، وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وهو آخر خليفة له شعر مدوّن، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش والأموال، وآخر خليفة خطب يوم الجمعة وجالس الندمان، وكانت جوائزه وأموره على ترتيب المتقدمين. ومن شعره قوله:

[من مجزوء الخفيف]

كُلُّ صَفْوٍ إِلَى كَدَرْ ... كُلُّ أَمْنٍ إِلَى حَذَرْ
وَمَصِيرُ الشَّبَابِ لِلْـ ... ـمَوْتِ فِيهِ أَوِ الْكَدَرْ
دَرَّ دَرُّ الْمَشِيبِ مِنْ ... وَاعِظٍ يُنْذِرُ الْبَشَرْ
أَيُّهَا الْآمِلُ الَّذِي ... تَاهَ فِي لُجَّةِ الْقَدَرْ
أَيْنَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ... ذَهَبَ الْعَيْنُ وَالْأَثَرْ
رَبِّ فَاغْفِرْ لِيَ الْخَطِيـ ... ـئَةَ يَا خَيْرَ مَنْ غَفَرْ[1]

* * *

(١) ينظر: تاريخ بغداد ٢/ ١٤٤، ١٤٥ .

خلافة المتقى لله(١)

أخوه إبراهيم بن المقتدر بن المعتضد. بويع له بالخلافة يوم موت أخيه الراضى، فصلى ركعتين وركب السرير. وكان ذا دين وورع وزهد، ولهذا لقبوه بالمتقى، ولم يكن له من الخلافة إلا الاسم، والتصرف لـ « توزون ».

ثم إنه زاد استيلاؤه فخلع المتقى، وسلمه لابن عمه المستكفى فأخرجه إلى جزيرة بقرب السند، وأكحله بعد أن أشهد المتقى على نفسه بالخلع سنة ٣٣٣ ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهرًا. ولما توفى قال القاهر - وكان يعيش: [من السريع]

صِرْتُ وَإِبْرَاهِيم شَيْخَىْ عَمًى لاَ بُدَّ لِلشَّيْخَينِ مِنْ مَصْدَرِ
مَـا دَامَ تـوزون لَـهُ إِمْـرَةٌ مُطَاعَةٌ فَالْمَيْلُ فِى المَجْمَرِ

ولم يحل الحول على توزون حتى مات، وكان عُمْر المتقى اثنتين وثلاثين سنة وستة أشهر واثنى عشر يومًا.

خلافة المستكفى بالله(٢)

أبى القاسم، عبد الله، المستكفى على بن المعتضد، بويع بالخلافة بعد ابن عمه. وفى أيامه قدم معز الدولة أحمد بن بويه الديلمى إلى بغداد، فخلع عليه وفوض إليه أمر المملكة وتدبيرها، وأمر أن يخطب له على المنابر، ولقبه بمعز الدولة، ولقب أخاه أبا الحسن على بعماد الدولة، ولقب أخاهما أبا الفتح بركن الدولة، وكان

---

(١) ينظر [المتقى بالله] فى: تاريخ الخلفاء ٣٩٤ - ٣٩٧، شذرات الذهب ٣/ ٢٢، الوافى بالوفيات ٥/ ٣٤١، العبر ٢/ ٣٠٧، المنتظم ٦/ ٣١٦، الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٦٨ وما بعدها، تاريخ بغداد ٦/ ٥١، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٠٥، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٨٢، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٤١٨، دول الإسلام ١/ ٢٠٥، تاريخ ابن الوردى ١/ ١٧٥، مروج الذهب ٤/ ٣٣٩، فوات الوفيات ١/ ١٧، وفيات الأعيان ٢/ ١١٤، خلاصة الذهب المسبوك ٢٥٣.

(٢) ينظر [المستكفى بالله] فى: تاريخ بغداد ١٠/ ١٠ - ١١، المنتظم ٦/ ٣٣٩، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١١١، الكامل لابن الأثير ٨/ ٤٢٠ وما بعدها، العبر للذهبى ٢/ ٢٤٥، البداية والنهاية ١١/ ٢١٠، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٩٩، تاريخ الخلفاء ٣٩٧، شذرات الذهب ٢/ ٣٤٥، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٧٨، مرآة الجنان ٢/ ٣١٣، دول الإسلام ١/ ٢٠٧، الوافى بالوفيات ١٧/ ٣٢٣، مروج الذهب ٤/ ٣٥٥، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٤٢٠ .

قدومه سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

ثم وقعت الفتنة بينه وبين معز الدولة، وقبض عليه وسمل عينيه. وسبب ذلك أن معز الدولة بلغه أن المستكفى قد دبر على هلاكه، فدخل وقبل الأرض، ثم قبل يده وطرح له كرسيٌّ فجلس عليه، ثم تقدم إليه رجلان من الديلم ومدا أيديهما إلى المستكفى فظن أنهما يريدان تقبيل يده فمدها إليهما، فجذباه من أعلى السرير وجعلا عمامته فى عنقه، ثم سحب إلى دار معز الدولة فاعتقله، ثم خلعه وسمل عينيه، فصار ثالثًا للأولين قبله، وانتهبت دار الخلافة حتى لم يبق فيها شيء(١).

وكان خلعه فى جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ومدة خلافته سنة واحدة وأربعة أشهر ويومان، وعمره ست وأربعون سنة وشهران، وكانت وفاته فى بيت معز الدولة فى ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة.

خلافة المطيع بالله(٢)

الفضل بن المقتدر بن المعتضد. ضعفت فى زمنه الخلافة، وكاد ينمحى رسمها، ولا يذكر اسمها، وغلب على الأمر معز الدولة، والمطيع لا نهى له ولا أمر، ولا خلافة تذكر، وعين له معز الدولة فى كل يوم مائة دينار، فهذا كان حظه من الخلافة، وانقطعت الخطبة لبنى العباس فى مصر والشام والحجاز، وغلب على المطيع مرض الفالج واشتدت زمانته، فجعل ابنه ولى عهده مع ضعف حاله.

وتوفى فى أيامه معز الدولة سنة ست وخمسين وثلاثمائة فقام ولده عز الدولة بختيار مقام والده، وقلده المطيع موضع أبيه وخلع عليه، فاستقل بالأمور كأبيه(٣).

وفي سنة ثمان وخمسين توفي كافور الإخشيدي صاحب مصر وفيها قدم جوهر، القائد الرومى - غلام المعز لدين الله الفاطمى صاحب إفريقية - إلى مصر وأقام بها

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ١٥/١٣٣، الكامل لابن الأثير ٨/ ٤٥٠ - ٤٥١ .

(٢) ينظر [المطيع بالله] فى: شذرات الذهب ٣/ ٤٨ - ٤٩، تاريخ الخلفاء ٣٩٨، البداية والنهاية ١١/ ٢١٢، المنتظم ٦/ ٣٤٣، تاريخ بغداد ١٢/ ٣٧٩، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١١٣، العبر للذهبى ٢/ ٣٣٤، دول الإسلام ١/ ٢٢٥، النجوم الزاهرة ٤/ ١٠٨، أخبار الدول ١٦٩، مروج الذهب ٤/ ٣٧٢، مرآة الجنان ٢/ ٣٨٠، أخبار الزمان ٦٧، ذيل تاريخ دمشق ١١ .

(٣) ينظر: الكامل لابن الأثير ٨/ ٥٧٥، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١١٦ .

الدعوة لسيده المعز الفاطمى، وبايعه الناس على ذلك، وانقطعت الخطبة بمصر عن بنى العباس، وشرع فى بناء القاهرة والقصرين، ثم دخل المعز بنفسه مصر لثمان بقين من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، كما سنذكر ذلك عند فتح مصر فى الباب الثالث المعقود للدولة الفاطمية إن شاء الله تعالى.

ولما تغلب سبكتكين التركى، وهو غلام معز الدولة، وقويت شوكته، ونفذت كلمته، وانضاف إلى ذلك مالحق المطيع من الفالج والمرض - خلع نفسه طائعًا من الخلافة، وسلمها لولده الطائع عبد الكريم، وقيل: أبو بكر، ولقبه الطائع لله، وذلك فى ذى القعدة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة. ثم توفى سنة أربع وستين، وكانت خلافته تسعًا وعشرين سنة وستة أشهر وأحد عشر يومًا، وعمره تسع وخمسون سنة وسبعة أشهر واثنان وعشرون يومًا.

خلافة الطائع لله(١)

عبد الكريم بن المطيع الفضل بن المقتدر بن المعتضد.

بويع له بالخلافة، والأمر مغلوب عليه، وما له إلا الاسم، لم يل الخلافة من بنى العباس أكبر سنًّا منه، كان عمره حين استخلف سبعًا وأربعين سنة، ولم يتقلد الخلافة منهم من أبوه حى غيره وغير أبى بكر الصديق فى الخلفاء رضى الله تعالى عنه وعنهم، ولما ولى خلع على سُبكتكين التركى فولاه ما وراء بابه.

وفى أيامه استولى عضد الدولة على بغداد وملكها، فخلع عليه الطائع، وتوجه بتاج جوهر وطوَّقة وسوَّره وعقد له لواءين بيده، أحدهما مفضض والآخر مذهب على رسم ولاة العهود، ولم يعهد هذا اللواء الثانى لغيره، وأمر بضرب الدبادب على بابه صبحًا ومغربًا وعشاءً، وأنه يخطب له على منابر الحضرة، وذلك بعد محاربة عضد الدولة لابن عمه عز الدولة ابن معز الدولة وظفره به.

---

(١) ينظر [الطائع لله] فى: تاريخ الخلفاء ٤٠٥ - ٤١١، شذرات الذهب ٣/ ١٤٣، الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٣٧ وما بعدها، المنتظم ٧/ ٦٦، العبر للذهبى ٣/ ٥٥ - ٥٦، تاريخ بغداد ١١/ ٧٩، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١١٨، تاريخ ابن الوردى ١/ ٣١٠، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٤٣٦، مرآة الجنان ٢/ ٤٤٦، المختصر فى أخبار البشر ٢/ ١٢٧، النجوم الزاهرة ٤/ ٢٠٨، ذيل تاريخ دمشق ١١، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٠٤ .

ولما مات عضد الدولة قام ولده بهاء الدولة بن عضد الدولة بتدبير المملكة بعد والده، فخلع عليه الطائع، وقلده ما كان قلد أباه.

ثم إن بهاء الدولة أمسك الطائع واعتقله ونهبت دار الخلافة، ثم أشهد على الطائع بخلع نفسه من الخلافة وتسليمها إلى أبى العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر، وكان الخلع والإشهاد فى شهر شعبان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وأقام مخلوعًا إلى أن توفى فى ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وتسعة أيام، وكان عمره ثلاثًا وخمسين سنة.

خلافة القادر بالله(١)

هو أبو العباس، أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن جعفر بن المعتضد.

كان رجلاً صالحًا عالمًا كثير التهجد والصدقات، وصنف كتابًا فى فضل الصحابة وذم الروافض، وكان يُقرأ فى المساجد والجوامع(٢).

بويع بالخلافة ليلة خلع الطائع نفسه، وكان غائبًا فقدم فى عاشر رمضان، وجلس من الغد جلوسًا عامًا، وهنئ وأنشد الشعر بين يديه، ومن ذلك قول الشريف الرضى من قصيدة: [من الكامل]

شَرَفُ الْخِلاَفَةِ يا بَنِى الْعَبَّاسِ ... أَلْـيَـوْمَ جَـدَّدَهُ أَبُـو الْـعَـبَّـاسِ

ذَا الطَّوْدُ أَبْقَاهُ الزَّمَانُ ذَخِيرَةً ... مِنْ ذَلِكَ الجَبَلِ العَظِيمِ الرَّاسِي

يحكى أن فى زمانه جيء إليه برجل قامته ذراع واحد، ولحيته شبران، وأذناه فى غاية الطول والعرض المفرط، دور الواحدة أربعة أذرع، فطافوا به ببغداد، وكان من يأجوج ومأجوج رمت به الريح من فوق السد، فأحضر القادر له أجناسًا من الترك فلم يفهموا كلامه.

واستمر القادر إلى أن توفى حادى عشر ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين

(١) ينظر [القادر بالله] فى: تاريخ بغداد ٤/ ٣٧ - ٣٨، المنتظم ٧/ ١٦٠ - ١٦٥، الكامل لابن الأثير ٩/ ٨٠ وما بعدها، العبر للذهبى ٣/ ١٤٨، الوافى بالوفيات ٦/ ٢٣٩، النجوم الزاهرة ٤/ ١٦٠، تاريخ الخلفاء ٤١١، شذرات الذهب ٣/ ٢٢١، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٢٧، دول الإسلام ١/ ٢٥٢، مرآة الجنان ٣/ ٤١، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٤٣٦، أخبار الدول ١٧١، الوافى بالوفيات ٦/ ٢٣٩، تاريخ ابن الوردى ١/ ٣٤٠ .

(٢) ينظر: تاريخ بغداد ٤/ ٣٧، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٢٨ .

وأربعمائة، ومدة خلافته إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر، وعمره ست وثمانون سنة وثمانية أشهر ويومان.

قال الحافظ الذهبى[(١)]: كان فى عصر القادر رأس الأشعرية الإمام الأستاذ أبو إسحاق الإسفراينى. قلت: هذا الإمام هو جد الفقير إلى الله تعالى جامع هذا الكتاب. وقد ذكره ابن قتيبة وغيره بالسيادة وشرف النسبة المحمدية الحسينية، والبعض الآخر لم يذكره بسيادة وشرف من المؤرخين؛ لنسبه فيحتمل صحة النسبة ويكون من إطلاق من أطلق اعتمادًا على تقييد من قيد، على أن لى اتصالاً لا ريب فيه بنسبه عليه الصلاة والسلام من جهة الأم؛ فأرجو بهما أو به الفوز الأخروى برضا الله تعالى. على أنى بحمد الله متشرف بانتظامى فى سلك وارثى علمه عليه الصلاة والسلام فرعًا عن أصل آصل، سلسلة علم ما فصلها - بحمد الله - جاهل، علماء محققين، فضلاء مدرسين، وإن عريت عزائمى عن ذاك، ومنيت أسبابى عما هناك؛ ففى ولائى لأهل بيته ومحبتى، وحسن اعتقادى وخدمتى - ما يقوى قوى أمراس أملى، وأطمع به أن يمحى خطأ خطط خطلى ورأس المعتزله، القاضى عبد الجبار، ورأس الرافضة ابن المعلم، ورأس الكرامية محمد بن الهيصم، ورأس القراء أبو الحسن الحمامى، ورأس المحدثين الحافظ عبد الغنى بن سعيد، ورأس الصوفية أبو عبد الرحمن السلمى صاحب كتاب « مناقب الأبرار، ومحاسن الأخيار »، ورأس الشعراء أبو عمرو بن دراج، ورأس الكتاب المجودين ابن البواب، ورأس الملوك السلطان محمود بن سُبكتكين، انتهى. وزاد السيوطى[(٢)] فقال: ورأس الزنادقة الحاكم بأمر الله العبيدى، ورأس اللغويين إسماعيل الجوهرى، ورأس النحاة عثمان بن جنى، ورأس البلغاء البديع الهمذانى، ورأس الخطباء ابن نباتة صاحب الخطب المشهورة، ورأس المفسرين أبو القاسم ابن حبيب النيسابورى، ورأس الخلفاء القادر بالله، فإنه من أعلامهم، تفقه وصنف، ومدته فى الخلافة من أطول المدد.

* * *

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ١٥/ ١٣٢، وينظر: ترجمة أبي إسحاق الإسفراييني ص ٥٣٥، والأنساب ١/ ٢٠٥، والعبر ٢/ ٢٧١، والوافى بالوفيات ١٢/ ٢٦٥، وشذرات الذهب ٢/ ٣٧٢ .

(٢) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٣٣ .

خلافة القائم بأمر الله(١)

عبد الله بن القادر بالله أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن المعتضد.

كان خَيِّرًا دينًا، فاضلاً صالحًا، مغلوبًا على أمره مدة زمانه. أمه أرمنية اسمها قطر الندى، أدركت خلافته(٢). بويع بالخلافة يوم مات أبوه القادر بالله، وكانت بيعته بحضرة القضاة والأمراء والكبراء، فكان أول من بايعة الشريف الرضى الموسوى وأنشد: [من المتقارب]

فَإمَّا مَضَى جَبَلٌ وَانْقَضَىٰ … فَمِنْكَ لَنَا جَبَلٌ قَدْ رَسَا
وَإمَّا فُجِعْنَا بِبَدْرِ التَّمَامِ … فَقَدْ بَقِيَتْ مِنْهُ شَمْسُ الضُّحَىٰ
لَنَا حَزَنٌ مِنْ خِلَالِ السُّرُورِ … فَكَمْ ضَحِكٌ مِنْ خِلَالِ البُكَا
فَيَا صَارِمًا أَغْمَدَتْهُ يَدٌ … لَنَا بَعْدَكَ الصَّارِمُ المُنْتَضَىٰ
وَلَمَّا حَضَرْنَاكَ عَقْدَ البَيَانِ … عَرَفْنَا بِهَدْيِكَ طُرْقَ الهُدَىٰ
فَقَابَلْتَنَا بِوَقَارِ المشِيبِ … كَمَالاً وَسِنُّكَ سِنُّ الفَتَىٰ

واستوزر أبا طالب محمد بن أيوب، واستقضى ابن ماكولا الإمام المشهور فى أيامه.

وفى سنة ثلاثين وأربعمائة كان انقراض الدولة الديلمية دولة بنى بويه، وكانت مدتها مائة وسبعًا وعشرين سنة، وابتدأت دولة السلاطين السلجوقية.

قال الذهبى(٣): وآل سلجوق هم ملوك الروم، وقد امتدت أيامهم وبقى منهم بقية إلى زمن الملك الظاهر.

وفى ليلة النصف من شعبان سنة إحدى وستين وأربعمائة فى خلافة القائم

---

(١) ينظر [القائم بأمر الله] فى: تاريخ بغداد ٩/ ٣٩٩، العبر للذهبى ٣/ ٢٦٤، تاريخ الخلفاء ٤١٧ - ٤٢٣، شذرات الذهب ٣/ ٣٢٦، المنتظم ٨/ ٥٧ وما بعدها، الكامل لابن الأثير ٩/ ٤١٧، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٣٨، الوافى بالوفيات ١٧/ ٢٠، أخبار الدول ٢/ ١٦٠، تاريخ الخميس ٢/ ٣٥٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٤ - ١١، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٤٤٧، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٤٢، الكامل لابن الأثير ١٠/ ٩٤، دول الإسلام ١/ ٢٧٥، تاريخ ابن الوردى ١/ ٥١٢ .

(٢) ينظر: الكامل لابن الأثير ١٠/ ٩٥، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ١٣٨ .

(٣) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبى حوادث سنة ثلاثين وأربعمائة ص ٤٢، المنتظم ٨/ ٩٩ - ١٠٠، البداية والنهاية ١٢/ ٤٥، دول الإسلام ١/ ٢٥٥، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٩، شذرات الذهب ٣/ ٢٤٤ .

المذكور كان حريق جامع دمشق الذى كان عمره الوليد بن عبد الملك وكلفه. وقد تقدم ذكره عند ذكر خلافة الوليد، وكان حريقه فى هذه السنة. وسبب الحريق أن غلمان الفاطميين والعباسيين اختصموا فيما بينهم، فألقيت نار بدار الملك، وهى الخضراء بجانب المسجد من جهة القبلة، فاحترقت وتعدى حريقها حتى وصل إلى الجامع، فسقطت سقوفه وتناثرت فصوصه المذهبة التى على جدرانه، وتغيرت معالمه ومحاسنه، وتبدلت بهجته بضدها(١)، وقد كانت سقوفه مذهبة مبطنة كلها، والجملونات من فوقها، وجدرانه بالفصوص المذهبة والملونة مصور فيها جميع بلاد الدنيا: الكعبة ومكة فوق المحراب، والبلاد كلها شرقيها وغربيها كل فى مكانه اللائق به، وفيه كل شجرة مثمرة وغير مثمرة، كل مصور فى بلدانه وأوطانه، والستور مرخاة على أبوابه النافذة إلى الصحن، وعلى أصل الحيطان إلى مقدار الثلث منها، وباقى الجدران بالفصوص المذهبة والملونة، وأرضه كلها بالفصوص الرخام الملون، ولم يكن فى الدنيا بناء أحسن منه، لا قصور الملوك ولا غيرها من دور الخلفاء وغيرهم. ثم لما وقع هذا تبدل الحال الكامل بضده، وصارت أرضه طينًا فى الشتاء، غبارًا فى الصيف، ولم يزل كذلك حتى تبلط فى زمن العادل أبى بكر بن أيوب بعد الستمائة، وكان جميع ما سقط من الرخام وغيره مستودعًا فى المشاهد الأربعة، شرقيه وغربيه حتى فرغها من ذلك القاضى كمال الدين الشهرزورى فى زمن الملك العادل نور الدين الشهيد محمود بن زنكى حين ولاه نظر الأوقاف كلها، ولم تزل الملوك تجدد فى محاسنة إلى زماننا هذا، فتماثل حاله فى زمن الأمير شكر بن عبد الله الناصرى نائب الشام، وذلك فى سنة ثلاثين وسبعمائة.

وأما الخضراء وهى دار الملك والإمارة، فبادت وصارت كومًا ترابًا، بعدما كانت فى غاية الإحكام والإتقان، وحسن البناء وطيب الفناء، فهى إلى يومنا هذا لا يسكنها لرذالة مكانها إلا سفْلَةُ الناس وأسقاطهم، بعد ما كانت دار الملك والإمارة منذ أسسها معاوية بن أبى سفيان الأموى. كذا فى تاريخ ابن السبكى.

وكان القائم بأمر الله أبيض، مليح الوجه، مشربًا بحمرة، ورعًا زاهدًا عابدًا، مريدًا لقضاء حوائج المسلمين، موقرًا لأهل العلم، معتقدًا فى الفقراء

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير ١٠/ ٥٩، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٣٨، تاريخ ابن الوردى ١/ ٣٧٣ .

والصالحين[١]، ولم يقم أحد فى الخلافة إقامته، كانت مدته أربعًا وأربعين سنة وثمانية أشهر، وقيل: خمسًا وأربعين سنة، وكانت وفاته سنة سبع وستين وأربعمائة لعشرة أيام مضت من شعبان.

قال ابن السبكى: افتصد القائم بأمر الله يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب من السنة المذكورة من « ماشرا » كان يعتاده[٢]. قلت: ماشرا اسم لعلة[٣]، نعوذ بالله من جميع العلل. ثم نام فانفجر فصاده، فاستيقظ وقد سقطت كل قوته، وحصل اليأس منه، فدعا حفيده وولى عهده من بعده عمدة الدين أبا القاسم عبد الله بن محمد ابنه، وأحضر إليه الفقهاء والنقباء، وأشهد عليه ثانيًا بولاية العهد له من بعده فشهدوا، ثم توفى وكان عمره أربعًا وسبعين سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام، ومدته أربعًا وأربعين سنة، ومدة أبيه قبله إحدى وأربعين سنة؛ فمجموعهما خمس وثمانون سنة وأشهر، وذلك مقارب لمدة دولة بنى أمية كلها.

خلافة المقتدى بأمر الله[٤]

هو القاسم، عمدة الدين عبد الله بن ذخيرة الدين محمد ابن الخليفة القائم عبد الله ابن القادر أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس.

بويع له بالخلافة يوم وفاة جده القائم بأمر الله، وذلك أنه لما افتصد استدعى ابن ابنه هذا عبد الله ولقبه المقتدى بأمر الله كما تقدم ذكر ذلك، فلما مات جده القائم بأمر الله المذكور بويع بالخلافة يوم وفاته بحضرة الإمام الولى الشهير أبى إسحاق

---

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير ١٠/ ٩٥ .

(٢) ينظر: الكامل لابن الأثير ١٠/ ٩٤ .

(٣) «الماشرا» ورم حاد ينتج عن دم صفراوى يعم الوجه وربما غطى العين .

(٤) ينظر [المقتدى بأمر الله] فى: المنتظم ٩/ ٨٤، الكامل لابن الأثير ١٠/ ٢٢٩ - ٢٣١، تاريخ الزمان ١٢١، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٥٢، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣١٨، تاريخ ابن الوردى ١/ ٥٦٨، فوات الوفيات ٢/ ٢١٩، تاريخ الخميس ٢/ ٤٠٢، تاريخ الخلفاء ٤٢٣ وما بعدها، النجوم الزاهرة ٥/ ١٣٩، الجوهر الثمين ١٨٧، مرآة الجنان ٣/ ١٤٣، البداية والنهاية ١٢/ ١٤٦، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٤٨٠، دول الإسلام ٢/ ١٦، الوافى بالوفيات ١٧/ ٤٦٧ .

الشيرازى الشافعى صاحب كتاب « التنبيه » و« المهذب »، وغيرهما، أحد أركان أئمة الشافعية. ثم إن المقتدى جهز الإمام المذكور إلى نيسابور إلى جلال الدولة ملك شاه السلجوقى سفيرًا له في خطبة ابنته، فنجز الشغل وناظر إمام الحرمين هناك، ثم ودعه إمام الحرمين حال خروجه، وأخذ بركاب بغلته حتى ركب، وكان المقتدى قد بايع بالعهد لولده المستظهر بعده، ثم لما ولدت ابنة ملك شاه من الخليفة المقتدى ولدًا أقبل ملك شاه يريد بغداد، وأرسل إلى المقتدى يلزمه أن يعزل ولده المستظهر عن ولاية عهده ويجعل ولى عهده ابن بنته جعفر مكانه، وأن يخرج من بغداد ويتركها ويذهب إلى أى بلد شاء، فأرسل المقتدى يتلطف به فى ذلك، فأبى إلا شدة وغلظة، يريد بذلك إظهار التحكم والحيف على الخليفة، وطلب الخليفة الإمهال شهرًا فأبى وقال: ولا ساعة، فأرسل إلى وزيره فاستمهله له عشرة أيام فأمهله، فصار الخليفة يصوم النهار ويقوم الليل ويضع خده على التراب، ويناجى حضرة رب الأرباب، يدعو على ملك شاه، فاستجاب الله دعاءه، فهلك ملك شاه قبل مضى العشرة الأيام وكفاه الله تعالى شره، وما ربك بظلام للعبيد. وعدت هذه كرامة للخليفة المقتدى، وهذه عقبى كل ظالم ومعتدى.

ذكر أن المقتدى قدم إليه طعام فتناول منه ثم غسل يديه، وهو على أكمل حال فى جسمه ونفسه، وبين يديه قهرمانته شمس النهار فقال: ما هذه الأشخاص الذين دخلوا على بغير إذن ؟ فالتفتت فلم تر أحدًا، فنظرت إليه فوجدته قد تغير وجهه، واسترخت يداه، وانحلت قواه، وسقط إلى الأرض، فإذا هو قد مات، فأمسكت عن البكاء واستدعت الخادم، فاستدعى الوزير أبا منصور، فبكيا وأحضرا أبا العباس أحمد بن المقتدى، وكان أبوه المقتدى قد عهد إليه بالخلافة بعده، فعزياه وهنآه، وأخفى موته ثلاثة أيام حتى توطأت البيعة لابنه أحمد، ولقب بالمستظهر بالله(١).

كانت وفاة المقتدى سنة سبع وثمانين وأربعمائة. ومدة خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر إلا يومين، وعمره ثمان وثلاثون سنة وثمانية شهور.

* * *

(١) ينظر: تاريخ الزمان لابن العبرى ١٢١، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٢٣ .

خلافة المستظهر بالله(١)

أبى العباس، أحمد بن المقتدى بن محمد القائم عبد الله بن القادر أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد. بويع بعد موت والده المقتدى، وأول من بايعه الوزير أبو منصور بن جهير كما تقدم ذكر ذلك، وحضر من العلماء الإمام الغزالى والشاشى وابن عقيل وبايعوه يومئذ، وكان كريم الأخلاق، حافظًا للقرآن العظيم، فصيحا بليغًا، شاعرًا منطيقًا. من شعره: [من البسيط]

أَذَابَ حَر الْجَوَىٰ فِى الْقَلْبِ مَا جَمُدَا يَوْمًا مَدَدْنَ عَلَىٰ رَسْمِ الوَدَاعِ يَدَا
قَدْ أَخْلَفَ الوَعْدَ بَدْرٌ قَدْ شُغِفْتُ بِهِ مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ وَفَىٰ دَهْرًا بِمَا وَعَدا
إِنْ كُنْتُ أَنْقُضُ عَهْدَ الحُبِّ فِى خَلَدِي مِنْ بَعْدِ هَذَا فَلاَ عَايَنْتُهُ أَبَدَا

حكى أنه اجتمع فى زمانه فى برج الحوت ستة أنجم من السبعة السيارة ما عدا زحل، فحكم المنجمون أنه سيظهر طوفان كطوفان نوح عليه الصلاة والسلام، فتألم من ذلك المستظهر بالله، وأحضر من المنجمين ابن الفيلسوف وسأله عن ذلك فقال: فى زمان نوح عليه الصلاة والسلام اجتمع فى برج الحوت السبعة الأنجم بكمالها، والآن اجتمع ستة، ولا يعلم الغيب إلا الله، لكن الذى تدل عليه الدلائل وليس بقطعى أنه سيجتمع الماء من العالم من طرقٍ شتى فى مكان واحد، فيغرقون فى ذلك المحل. فخافوا على بغداد لاجتماع العالم فيها وهى فى جنب شط النهر، فوصل الخبر أن الحجاج حين نزلوا فى وادى المناقب هجم عليهم سيل جحاف فغرقوا أجمعين فى ذلك السيل، فتعجب من قرب التحقيق من قوله والأمر بيد الله تعالى سبحانه ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، الآية

توفى المستظهر ليلة الخميس لأربع وعشرين ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وخمسمائة. ومدة خلافته خمس وعشرون سنة وعشرة أيام، وعمره إحدى وأربعون سنة وأحد عشر شهرًا وأربعة أيام.

---

(١) ينظر [المستظهر بالله] فى: تاريخ الخلفاء ٤٣٠، شذرات الذهب ٤/ ٣٣، أخبار الدول ٢/ ١٦٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٢١٥، مرآة الجنان ٣/ ٢٠٣، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٤٩٥، الجوهر الثمين ٢٠٠، عيون التواريخ ١٢/ ٨٢، العبر ٤/ ٢٦، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٦٠، البداية والنهاية ١٢/ ١٨٢، وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٠، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٩٦، الكامل لابن الأثير ١٠/ ٥٣٤

خلافة المسترشد بالله(١)

الفضل بن المستظهر أحمد بن المقتدى عبد الله بن محمد الذخيرة بن القائم عبد الله بن القادر أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن المعتضد.

بويع يوم وفاة والده المستظهر، وكان شجاعًا دينًا، مشتغلاً بالعبادة، لم يل الخلافة بعد المعتضد أشهم منه، أمه أم ولد اسمها لبابة، كان شديد الهيبة، ذا رأى ويقظة وهمة عالية، ضبط الأمور، وأحيا مجد بنى العباس، وجاهد غير مرة.

يحكى أن فى زمانه ظهر سنة أربع عشرة وخمسمائة قبر الخليل إبراهيم وإسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، وشوهدت أجسامهم المباركة كأنما دفنوا تلك الساعة، ووجد عندهم فى الموضع قناديل الذهب والفضة وغير ذلك، ذكر ذلك فى كتاب « قلادة النحر » الفقيه بامخرمة.

كانت وفاته يوم الخميس سابع عشر ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، ومدة خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر.

ومن شعره قوله: [من الطويل]

أَنَا الأَشْقَرُ المَوْعُودُ [بى] فِى المَلَاحِمِ وَمَنْ يَمْلِكُ الدُّنْيَا بِغَيْرِ مُزَاحِمِ؟!

فكان هذا التخيل من خيالاته الفاسدة؛ فإنه ما يملك من الدنيا ولا فناء داره.

خرج عليه الملك مسعود بن محمد بن ملك شاه السلجوقى فلم يقاتل معه أحد، فقاتل وحده إلى أن حمل أسيرًا فحبس(٢). وذكر أهل التواريخ أنه لما حبس رأى فى منامه كأن على يده حمامة مطوقة، وأتاه آتٍ فقال له: خلاصك فى هذا وأشار إلى الحمامة، فلما أصبح حكى ذلك لابن سكينة الإمام فقال له: ما أولته يا أمير المؤمنين؟ فقال: أولته بقول أبى تمام: [من الكامل]

هُنَّ الحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهُنَّ حِمَامُ

---

(١) ينظر [المسترشد بالله] فى: تاريخ الخلفاء ٣٤٥، شذرات الذهب ٤/ ٨٨، أخبار الدول ٢/ ١٧٠، البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٨، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٥٦، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٦١، عيون التواريخ ١٢/ ٢٩٣، دول الإسلام ٢/ ٥٠، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٦١، مفرج الكروب ١/ ٦٠، خلاصة الذهب المسبوك ٢٧٣، دول الإسلام ٢/ ٥٠، فوات الوفيات ٢/ ٢٤٨، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٣٩، العبر للذهبى ٤/ ٧٥، طبقات السبكى ٧/ ٢٥٧ .

(٢) ينظر تفاصيل ذلك فى سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٦٥ .

ولا أرى أحلامى إلا فى حِمامى، فقتل بعد أيام قلائل. وقيل فى كيفية قتله غير ذلك، فقتل فى التاريخ المذكور وعمره ثلاث وأربعون سنة وأحد عشر شهرًا.

خلافة الراشد بالله(١)

منصور بن المسترشد بن المستظهر بن المقتدى.

بُويعَ له يوم وفاة أبيه بعهد منه فمكث ما شاء الله، ثم وقع بينه وبين السلطان مسعود بن محمد قاتل والده فاستخدم الراشد أجنادًا كثيرة وتهيأ للقائه، فكاتب السلطان مسعود أتابك زنكى وأرتغش، كبيرى جند الراشد، فأشارا عليه بالتوقف عن المسير إلى الملك مسعود، وأقبل الملك مسعود بجيوشه، فدخل بغداد فى ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، فنهب دور الجند، ومنع من نهب البلد، واستمال الرعية وأحضر القضاة والشهود، فقدحوا فى الراشد بأنه صدرت منه سيرة قبيحة من سفك الدماء وارتكاب المنكرات، وفعل ما لا يجوز فعله، وشهدوا عليه بذلك؛ فحكم قاضى القضاة بخلعه فخلعوه فى ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، وكان الراشد قد هرب هو وأتابك زنكى إلى الموصل، فطلبه السلطان مسعود، فهرب إلى فارس ثم دخل أصبهان وحاصرها فتمرض هناك، فوثب عليه جماعة من الفداوية فقتلوه، وكانت مدته إلى أن خلع سنة إلا أيامًا، وعمره إحدى وعشرين سنة، وقيل ثلاثون سنة.

كان شابًا أبيض تام الشكل، شديد البطش، شجاع النفس، كريمًا جوادًا فصيحًا. قال العماد الكاتب(٢): كان للراشد الحسن اليوسفي، والكرم الحاتمى، رحمه الله تعالى.

---

(١) ينظر [الراشد بالله] فى: تاريخ الخلفاء ٤٣٦ - ٤٣٧، تاريخ الخميس ٢/٣٦٢، النجوم الزاهرة ٥/٢٦٣، البداية والنهاية ١٢/٢١٣، فوات الوفيات ٤/١٦٨ - ١٦٩، المنتظم ١٠/٧٦ - ٧٧، سير أعلام النبلاء ١٩/٥٦٨، شذرات الذهب ٤/١٠٠، الكامل لابن الأثير ١١/٦٢، العبر للذهبى ٤/٨٩، مرآة الجنان ٣/٢٥٩، الجوهر الثمين ٢٠٦، أخبار الدول ٢/١٧٢، دول الإسلام ٢/٥٢ .

(٢) ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر . للعماد الكاتب ١/٣٢ .

خلافة أبى عبد الله المقتفى[(١)]

محمد بن المستظهر بن المقتدى، وهو عم الراشد قبله.

بويع له يوم خلع ابن أخيه الراشد ولقب بالمقتفى، وسبب تلقيبه بهذا أنه رأى النبى ﷺ قبل الخلافة بأشهر فى المنام وهو يقول له: إنه سيصل إليك هذا الأمر، فاقتف بى. فقام بتدبير المملكة، وكان بيده أَزِمَّةُ الأمور؛ لا يجرى فى خلافته أمر وإن صغر إلا بتوقيعه، وكتب بيده فى أيام خلافته ثلاث ربعات[(٢)].

وكان محمود السيرة مشكور الدولة، يرجع إلى فضل ودين، وعقل ورأى وسياسة، جدد معالم الإمامة، ومهد رسوم الخلافة، وامتدت أيامه، ولم ير مع سماحته ولين جانبه ورأفته بعد المعتصم خليفة مثله فى شهامته وصرامته، مع ما خص به من زهده وورعه وعبادته، ولم تزل جيوشه منصورة حيث يممت.

قال العلامة ابن الجوزى: من أيام المقتفى هذا عادت بغداد والعراق إلى يد الخلفاء ولم يبق لهم منازع، وقبل ذلك من دولة المقتدر إلى وقته كان الحكم للمتغلبين من الملوك، وليس للخليفة معهم إلا الاسم فقط[(٣)].

ومن سلاطين دولته سنجر صاحب خراسان، ونور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام المعروف بنور الدين الشهيد.

وفى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فى خلافته قال ابن الأثير[(٤)]: ظهر بدمشق الشام سحاب أسود، فاشتد الظلام حتى لا يرى أحد أحدًا، ثم انقشع وظهر بعده سحاب أحمر، فتلونت السماء بلون النار، ثم بعد ذلك ظهرت ريح عظيمة عاصف تقلع الأشجار العظيمة من أصولها.

---

(١) ينظر [المقتفى بالله] فى: تاريخ الخلفاء ٤٣٧ - ٤٤٢، شذرات الذهب ٤/ ١٧٢ - ١٧٤، أخبار الدول ١٧٥، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٣٢، تاريخ الخميس ٢/ ٣٦٢، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٩٩، الوافى بالوفيات ٢/ ٩٤، البداية والنهاية ١٢/ ٢٤١، مرآة الجنان ٣/ ٣١٠، دول الإسلام ٢/ ٧١، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٦٢، عيون التواريخ ١٢/ ٥٢١، الجوهر الثمين ١/ ٢٠٧، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٢٢، تاريخ الزمان ١٧٤، الكامل لابن الأثير ١١/ ٢٥٦، المنتظم ١٠/ ١٩٧ .

(٢) ينظر الكامل لابن الأثير ١١/ ٤٣، تاريخ الخلفاء ٤٣٧، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٠١ .

(٣) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبى [وفيات سنة خمس وخمسين وخمسمائة] ص ١٧٥ .

(٤) ينظر: الكامل لابن الأثير (١١/ ٥٤) .

وفى سنة خمس وأربعين وخمسمائة من خلافته أمطرت السماء دما أحمر لا ينكر منه شيء، وكان ذلك الإمطار فى بلاد نيسابور.

وفى « قلادة النحر » فى حوادث سنة تسع وأربعين وخمسمائة فى خلافة المذكور: كانت قصة أهل قرية المعلف، وهى قرية بين الكُدر والمهجم من أعمال تهامة اليمن، وفى كفاية المستبصر: هما قريتان اسم إحداهما معلف والأخرى سحلة، أرسل الله عليهما سحابة سوداء فيها رجف وبرق وشعل نار تلهب وريح، فلما رأوا ذلك زالت عقولهم فألتجأ منهم قوم إلى المساجد فغشيهم العذاب، فاحتملت الريح أصل القريتين من تحت الثرى بمساكنهم بمن فيها من الرجال والنساء والأطفال والدواب فألقتهم بمكان بعيد نحو خمسة أميال من حيث احتملتهم، فوجدوا حيث ألقتهم صرعى ولبعضهم أنين، وهم صم بكم عمى، فماتوا عن آخرهم يومهم، نسأل الله السلامة والعافية لنا ولجميع المسلمين.

وكان المقتفى محبًا للحديث وسماعه، معتنيًا به وبالعلم، مكرمًا لأهله. ولما دعا الإمام أبا منصور الجواليقى النحوى ليجعله إمامًا يصلى به الصلوات الخمس - دخل فما زاد على أن قال: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. وكان الطبيب هبة الله بن صاعد ابن التلميذ النصرانى قائما فقال: ما هكذا يسلم على أمير المؤمنين يا شيخ، فلم يلتفت إليه الجواليقى، وقال للمقتفى: يا أمير المؤمنين، سلامى هو ما جاءت به السنة النبوية، وروى له خبرًا فى صورة السلام ثم قال: يا أمير المؤمنين لو حلف حالف أن نصرانيًا أو يهوديًا لم يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه المعتبر - ما لزمته كفارة الحنث؛ لأن الله تعالى ختم على قلوبهم ولن يفك ختمه إلا الإيمان، فقال المقتفى: صدقت وأحسنت. فكأنما ألقم ابن التلميذ حجرًا مع فضله وغزارة علمه وأدبه.

وتوفى الخليفة المقتفى يوم الأحد ثالث ربيع الاول، وقيل: الآخر، وقيل: رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة. مدة خلافته خمس وعشرون سنة وثلاثة أشهر ونصف، وعمره سبع وستون سنة، وقيل: وشهر واحد.

* * *

خلافة المستنجد بالله(١)

أبو المظفر، يوسف ابن المقتفى لأمر الله محمد بن المستظهر أحمد بن المقتدى.

كان أديبًا فاضلاً، أهلاً للخلافة، بويع له يوم وفاة والده. أمه أم ولد حبشية اسمها طاوس.

حكى أنه قبل أن يستخلف رأى فى منامه أن ملكًا نزل من السماء فكتب فى كفه خمس خاءات، فلما أصبح سأل الإمام محمدًا الغزالى، أو أخاه أحمد عن تعبير ذلك، فقال: والله أعلم، أنك ستلى الخلافة سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فكان كذلك، وليها سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فالخاء الأولى للخلافة.

وكان موصوفًا بالعدل والديانة، أبطل المكوس وقام كل القيام على المفسدين، روى أنه سجن رجلاً كان يسعى بالفساد فى الناس، فجاء إليه رجل، وبذل فيه عشرة آلاف دينار فقال المستنجد له: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار على آخر مثله تأتينى به فأحبسه وأكفى الناس شره(٢). وله شعر متوسط منه قوله فى بخيلٍ: [من السريع]

وَبَـاخِـلٍ أَشْـعَـلَ فِـى بَـيْـتِـه تَـكَـرُّمًـا مِـنْـهُ لَـنَـا شَـمْـعَـهْ
فَمَا جَرَتْ مِنْ عَيْنِهَا دَمْعَةٌ حَتَّى جَرَتْ مِنْ عَيْنِهِ دَمْعَهْ

وقوله: [من الخفيف]

عَيَّرَتْنِي بِالشَّيْبِ وَهْوَ وَقَارُ لَيْتَهَا عَيَّرَتْ بِمَا هُوَ عَارُ
إِنْ تَكُنْ شَابَتِ الذَّوَائِبُ مِنِّي فَاللَّيَالِى تَزِينُهَا الْأَقْمَارُ

وفى سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وهى السنة الثالثة من خلافته جرت الكائنة الغريبة، وهى ما ذكره العلامة السيد نور الدين على السمهودى المدنى فى كتابه « خلاصة الوفا » وغيره، فقال: إن الملك العادل نور الدين رأى النبى ﷺ فى نومه

---

(١) ينظر: [المستنجد بالله] فى: شذرات الذهب ٤/ ٢١٨، تاريخ الخلفاء ٣٥٤، تاريخ الخميس ٢/ ٣٦٣، حسن المحاضرة ٢/ ٩١، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٨٦، الضوء اللامع ١٠/ ٣٢٩، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٢٥، البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٢، مرآة الجنان ٣/ ٣٧٩، دول الإسلام ٢/ ٧٩، العبر للذهبى ٤/ ١٩٤، فوات الوفيات ٤/ ٣٥٨، المنتظم ١٠/ ١٩٢، الكامل لابن الأثير ١١/ ٢٥٦، مفرج الكروب ١/ ١٩٣، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤١٢، خلاصة الذهب المسبوك ٢٧٦ .

(٢) ينظر سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤١٤، الكامل لابن الأثير ١١/ ٣٦٢، المنتظم ١٠/ ١٩٣ .

ليلة ثلاث مرات وهو يشير إلى رجلين أشقرين، يقول: أنجدنى من هذين. فأرسل إلى وزيره، وتجهزا فى بيته ليلتهما على رواحل خفيفة فى عشرين نفرًا، وصحب مالاً كثيرًا فقدم المدينة فى ستة عشر يومًا، فزار ثم أمر بإحضار أهل المدينة بعد كتابتهم، وصار يتأمل فى كل ذلك تلك الصفة إلى أن انقضت الناس فقال: هل بقى أحد ؟ قالوا: لم يبق سوى رجلين صالحَيْن عفيفين مغربيين يكثران الصدقة. فطلبهما فرآهما الرجلين اللذين أشار إليهما عليه الصلاة والسلام، فسأل عن منزلهما فأخبر أنهما فى رباط بقرب الحجرة الشريفة، فأمسكهما ومضى إلى منزلهما فلم ير غير ختمتين وكتبًا فى الرقائق، ومالاً كثيرًا فأثنى عليهما أهل المدينة خيرًا فبقى مترددًا متحيرًا، فرفع حصيرًا فى البيت فرأى سردابًا محفورًا ينتهى إلى صوب الحجرة، فارتاعت الناس لذلك، فقال لهما السلطان: أصدقانى، وضربهما ضربًا شديدًا، فاعترفا بأنهما نصرانيان بعثهما النصارىٰ فى زى حجاج المغاربة، وأمالوهما بالمال العظيم ليتحيلا فى الوصول إلى الجناب الشريف، ونقله وما يترتب عليه، فنزلا قرب رباط وصارا يحفران ليلاً، ولكل منهما محفظة جلد، والذى يجتمع من التراب يخرجانه فى محفظتيهما إلى البقيع إذا خرجا بعلة الزيارة، فلما قرب من الحجرة أرعدت السماء وأبرقت وحصل رجف عظيم، فقدم السلطان صبيحة تلك الليلة، فلما ظهر حالهما بكىٰ السلطان بكاء شديدا، وأمر بضرب رقابهما، فقتلا تحت الشباك الذى يلى الحجرة الشريفة المسمَّىٰ الآن شباك الجمال، ثم أمر بإحضار رصاص عظيم، وحفر خندقًا عظيمًا إلى الماء حول الحجرة الشريفة كلها وأذاب ذلك الرصاص، وملأ الخندق، فصار حول الحجرة سور من رصاص إلى الماء، انتهى.

وفى سنة إحدى وستين وخمسمائة ذكر صاحب الخميس عن شمس الدين صواب الموصلى بواب المسجد النبوى، والقائم بأمره بإسناد صحيح عنه أن جماعة من الروافض وصلوا من حلب فأهدوا إلى أمير المدينة الشريفة من الأموال والجواهر ما لم يخطر ببال، فشغله ذلك وأنساه دينه، والتمسوا منه أن يخرجوا جسد أبى بكر وعمر - رضى الله تعالى عنهما - من عند النبى ﷺ.

فلما غشيه من حب الدنيا والتشاغل بالأموال عن الدين وافقهم على ذلك. قال صواب الموصلى المذكور: فطلبنى أمير المدينة وقال: إن فى هذه الليلة يصل إليك

كذا وكذا من الرجال، فحين يصلون إليك سلم إليهم مفتاح الحجرة الشريفة النبوية ولا تتشاغل عنهم، وإلا أخذت ما فيه عيناك.

قال صواب: فأخذتنى رعدة ودهشة، ولا أدرى إلامَ يئول الأمر، فانتظرت، فلما كان نصف الليل أقبل أربعون رجلاً فدخلوا من باب السلام، فسلمت إليهم مفتاح الحجرة المطهرة، فإذا معهم المقاحف والمكاتل وآلات الحفر؛ فعرفت مرادهم؛ وغاب حسى من الهيبة النبوية، ثم سجدت لله وجعلت أبكى وأتضرع، فما نظرت إلا وقد انشقت الأرض واشتملتهم بجميع ما معهم من آلات الحفر والتأمت لساعتها، وذلك عند المحراب العثمانى، فسجدت شكرًا لله، فلما استبطأ الأمير الخبر أرسل لى رسولاً فأخبرته بما رأيت، فطلبنى عاجلًا فوصلت إليه فإذا هو مثل الواله، فسألنى مشافهة فحققت له ما رأيت، فقال: إن خرج منك هذا الأمر قتلتك، فلم أزل ساكتًا عن بثّ هذا الأمر مدة حياة ذلك الأميرخوفًا منه.

وتوفى المستنجد يوم السبت ثالث ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة، ومدة خلافته اثنتا عشرة سنة إلا يومًا أو يومين، وعمره سبع وأربعون سنة، وقيل: تسع وأربعون وشهر. وكان أسمر طويل اللحية، وهو الثانى والثلاثون من الخلفاء. قال فيه بعض الأدباء: [من البسيط]

أَصْبَحْتَ لُبَّ بَنِى العَبَّاسِ كُلِّهِمُ إِنْ عُدِّدَتْ بِحِسَابِ الجُمَّلِ الخُلَفَا

خلافة المستضىء بنور الله(١)

أبى محمد، الحسن بن المستنجد، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه المستنجد، وخطب له بالديار المصرية واليمن، وكانت الخطبة منقطعة منهما فى زمن المطيع العباسى عند استيلاء المعز الفاطمى على مصر، وكان المستضيء جوادًا كريمًا، مؤثرًا للخير، كثير الصدقات سخيًا، محييًا للسنة، أمنت البلاد فى زمانه، وأبطل مظالم كثيرة، واحتجب عن أكثر الناس؛ فلم يكن يركب إلا مع مماليكه، ولم يكن يدخل عليه غير الأمير قيماز.

---

(١) ينظر [المستضيء بالله] فى: العبر ٤/ ٢٢٣، مرآة الزمان ٨/ ٣٥٦، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٤، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٦٨، الكامل لابن الأثير ١١/ ٤٥٩، المنتظم ١٨/ ١٩٠، تاريخ الخلفاء ٣٥٥، فوات الوفيات ١/ ١٣٧، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٢٨، تاريخ الخميس ٢/ ٣٦٦ .

قال الذهبى: ولم يل الخلافة أحد اسمه الحسن بعد الحسن بن على - رضى الله تعالى عنهما - غير هذا، ووافقه فى الكنية أيضًا. ومما نظمه العماد الكاتب حين جاءت البشارة بخلافة المستضيء وهو بأرض الموصل قوله: [من الخفيف]

قد أضاءَ الزمانُ بالمُسْتَضِيِّ وارثِ البُرْدِ وابْنِ عَمِّ النبيِّ
جاءَ بِالحقِّ والشريعةِ والعَدْ لِ فيا مرحبًا بهذا المَجِيِّ
فهنيئًا لأهْلِ بغدادَ فازوا بعد بؤسَىٰ بكلِّ عيشٍ هنيِّ

وكان مرضه بالحمى، ابتدأ بها يوم عيد الفطر، فلما كان يوم السبت سلخ شوال سنة خمس وسبعين وخمسمائة توفى إلى رحمة الله تعالى، وكانت مدة خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية وعشرين يومًا، وقيل: تسع سنين وثلاثة أشهر، وعمره سبع وثلاثون سنة.

خلافة الناصر لدين الله(١)

أحمد بن المستضىء حسن بن المستنجد يوسف بن المقتفى لأمر الله محمد بن المستظهر بن المقتدى. كانت فيه شهامة وصرامة وإقدام، وعقل ودهاء، وكان مستقلًا بأمور الملك بالعراق متمكنًا، طالت أيامه، وكانت له دسائس وعيون عند كل أحد من الأمراء والعظماء، والسلاطين والحكام من الأجناس المختلفة؛ حتى كان يظن أن له اطلاعًا على المغيبات.

بويع بالخلافة بعد موت والده، وعمره ثلاث وعشرون سنة، فبسط العدل، وأمر بإراقة الخمور، وكسر الملاهى، وإزالة المكوس والضرائب، فعمر البلاد، وبسط الأرزاق، وقصدت الناس بغداد وتبركوا به.

وفى أيامه ظهور صلاح الدين يوسف بن أيوب، واستخلاصه بيت المقدس من الفرنج، واستيلاؤه على مصر، وإزالة دولة الفاطميين عنها، فخطب بها للناصر العباسى، كما سنذكر ذلك عند ذكرهم.

---

(١) ينظر [الناصر لدين الله] فى: الكامل لابن الأثير ١٠٨/١٢ - ١٨١، مرآة الزمان ٨/ ٦٣٥، تكملة المنذرى ٣/ت٢٠٧٠، مفرج الكروب ٤/ ١٦٣، مختصر أبى الفداء ٣/ ١٤٢، العبر للذهبى ٥/ ٨٧، دول الإسلام ٢/ ٩٥، الوافى بالوفيات ٦/ ٣١٠، فوات الوفيات ١/ ٦٢، البداية والنهاية ١٣/ ١٠٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٦١، المنهل الصافى ١/ ٢٦٤، شذرات الذهب ٥/ ٩٧، سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٩٢، تاريخ الخلفاء ٣٥٨ .

وفى أيامه مات السلطان طغرلبك شاه بن أرسلان بن طغرلبك بن محمد بن ملك شاه، وهو آخر ملوك الدولة السجلوقية، وكان عدتهم نيفًا وعشرين ملكًا، أولهم طغرلبك الذى أعاد الخليفة القائم إلى بغداد، ومدة دولتهم مائة وستون سنة.

وطالت أيامه؛ فأحيا رسوم الخلافة، وامتلأت القلوب بهيبته، وكان ذا فكر صائب، وكانت أيامه من غرر الزمان، وهو الذى وقع للشريف قتادة بن إدريس صاحب مكة معه تلك الواقعة حين استدعاه، وسأذكرها إن شاء الله فى الخاتمة عند ذكر الشريف قتادة.

وكان له إحسان على أهل الحرمين، وكانت الكعبة الشريفة تُكْسَىٰ الديباج الأبيض زمن المأمون إلى آخر أيام الناصر هذا، فكساها الديباج الأسود، واستمر إلى زماننا هذا.

قال فى « قلادة النحر » نقلاً عن العماد الكاتب: فى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، فى خلافة الناصر العباسى، أجمع المنجمون على اجتماع الكواكب السبعة فى برج الميزان، ويدل ذلك على خراب العالم، وأن تهب ريح مثل ريح قوم عاد، وعينوا الاجتماع فى ليلة نصف شعبان من السنة المذكورة. وفرق الملوك فحفروا حفائر ونقلوا إليها الماء والزاد، قال: فلما كانت الليلة التى عينوها جلسنا عند السلطان، والشموع تتقد، فلم يتحرك اللهب منها، ولم تر ليلة مثلها فى ركود ريحها وسكونها(١)، ولكن ظهر بعد ذلك أن سلطان التتار خرج فى تلك الليلة من تلك السنة، فكان منه ما كان من الفساد، وعاث فى أكثر البلاد، وأفنى خلقًا من العباد، حتى قتل الخليفة العباسى المستعصم بالله ببغداد، كما سأذكر قصته على أتم الأحوال.

وفى سنة [اثنتين وثمانين وخمسمائة](٢) أمطرت السماء يومًا وليلة رمادًا وأظلمت الدنيا وعجز الناس عن اطِّراق الطرق إلى بيوتهم من الأسواق، وذلك بمدينة زبيد باليمن، ووقعت بردة فى أسفل وادى « مور » من بلاد « تهامة »، طولها مائة وستون ذراعًا، وعرضها عشرة أذرع، وسمكها نحوًا من قامتين، فلما ذابت سقى بمائها أربع قطع من الأرض فى ذلك الموضع.

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ٢٢/٢٠٦ .

(٢) فى ط: سنة ستين وستمائة، والمثبت من تاريخ الخلفاء ص (٣٦٢) .

وكان الناصر فى أكثر الليل يشق الدروب والأسواق، وكان الناس يتهيئون للقائه، وهو أطول بنى العباس خلافة، كانت مدته ستًّا وأربعين سنة، وقيل: سبعًا وأربعين، وكانت وفاته سلخ شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وستمائة، أصابه فى آخر عمره الفالج؛ فبقى معه سنتين وذهبت عينه، ثم مات فى التاريخ المذكور وعمره سبعون سنة إلا شهرًا. كان تركى الوجه، أقنى الأنف، خفيف العارضين، أشقر اللحية، رقيق المحاسن. رحمه الله تعالى.

خلافة الظاهر بأمر الله(١)

أبى نصر، محمد بن الناصر لدين الله، أحمد بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفى.

كان من أهل الورع والدين، تابعا للشرع، اتفق أهل النقل أنه ما جاء أحد بعد عمر بن عبد العزيز مثله، فإنه أحيا سنة العمرين، وسار بسيرتهما، فأعاد الأموال المغصوبة والأملاك المأخوذة فى أيام أبيه ومن قبله إلى أهلها، وأظهر العدل، وأزال المكس، وكان العمال تكيل للديوان بكيل زائد على ما يكيلون به للناس فأبطل ذلك، وكتب إلى وزيره ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين: ١-٦]، فقال له الوزير: تفاوت الكيل ينوف على ثلاثين ألف دينار، فقال له: أبطله ولو أنه ثلاثمائة ألف دينار. وفرق ليلة عيد النحر على الفقهاء مائة ألف دينار، فلامه وزيره على ذلك، فقال: اتركنى أفعل الخير؛ فإنى لا أدرى كم أعيش، ولم يمتد زمانه(٢).

وكان فى أضيق عيش، فقالوا له إشفاقا لحاله: لم لا تتوسع فى المأكل والمشرب والرزق ؟ فقال: من فتح الحانوت بعد العصر، فحاله معلوم فى البيع والشراء.

توفى فى شهر رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة. ولما توفى اتفق خسوف القمر

(١) ينظر [الظاهر بأمر الله] فى: الكامل لابن الأثير ١٢/ ١٨٨ - ١٨٩، مرآة الزمان ٨/ ٦٤٢، تكملة المنذرى ٣/ ت٢١١١، ذيل الروضتين ١٤٩، مختصر ابن العبرى ٢٤٢، مختصر أبى الفداء ٣/ ١٢٣، سيرأعلام النبلاء ٢٢/ ٢٦٤، العبر للذهبى ٥/ ٩٥، دول الإسلام ٢/ ٩٦، الوافى بالوفيات ٢/ ٩٥ - ٩٧، البداية والنهاية ١٣/ ١١٢ - ١١٣، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٦٥، شذرات الذهب ٥/ ١٠٩ .

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٦٥، الكامل لابن الأثير ١٢/ ١٨٨ .

فى تلك السنة مرتين. فجاء ابن الأثير رسولاً من صاحب الموصل برسالة فى التعزية أولها: « ما لليل والنهار لا يعتذران وقد عظم حادثهما، وما للشمس والقمر لا ينكسفان وقد فقد ثالثهما !!: [من الطويل]

فيا وَحْشَةَ الدنْيَا وكانَتْ أنيسةً   ووحدةَ مَنْ فيها لِمَصْرَعِ واحدِ

وهو سيدنا ومولانا، الإمام الظاهر بالله، أمير المؤمنين، الذى جعلت ولايته رحمة للعالمين ».. إلى آخر رسالة ذكرها السيوطى فى تاريخه[١]. وكانت مدته عشرة أشهر وأيامًا، وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وقيل: وخمسون وستة أشهر.

خلافة المستنصر بالله[٢]

أبى جعفر، منصور بن الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء الحسن بن المستنجد يوسف بن المقتفى محمد بن المستظهر بن المقتدى.

بويع له بالخلافة بعد موت أبيه الظاهر فى رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة، فنشر العدل وبذل الإنصاف، وقرب أهل العلم والدين، وبنى المساجد والربط والمدارس، وأقام منار الدين، وقمع المتمردين، ونشر السنن، وكف كف الفتن، وحمل الناس على أقوم سنن، وحفظ الثغور وافتتح الحصون، واجتمعت القلوب على محبته، والألسن على مدحته، ولم يجد أحد من المتعنتة فيه معابًا. وكان جده الناصر يقربه، ويسميه القاضى، لهديه وعقله، وإنكار ما يجده من المنكر.

قال الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى[٣]: كان المستنصر راغبًا فى فعل الخير، مجتهدًا فى أعمال البر، وله فى ذلك آثار جميلة، وهو الذى أنشأ « المستنصرية » التى لم يبن مثلها فى مدارس الإسلام، ولم يوجد فى المدارس أكثر كسبًا منها، ولا أكثر أوقافًا عليها، ورتب فيها الرواتب الحسنة لأهل العلم.

---

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٦٨ .

(٢) ينظر [المستنصر بالله] فى: مرآة الزمان ٨/ ٧٣٩، التكملة للمنذرى ٣/ت ٣٠٩٥، سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٥٦، ذيل الروضتين ١٧٢، مختصر ابن العبرى ٢٥٣، المختصر بأخبار البشر ٣/ ١٧٩، دول الإسلام ٢/ ١١٠، العبر للذهبى ٥/ ١٦٦، البداية والنهاية ١٣/ ١٥٩، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٤٥، شذرات الذهب ٥/ ٢٠٩، تاريخ الخلفاء ٣٦٨ .

(٣) ينظر التكملة للمنذرى ٣/ ٦٠٧ (ت ٣٠٩٥) .

وقال ابن واصل: بناها على دجلة من الجانب الشرقى، وهى بأربعة مدرسين على المذاهب الأربعة، وعمل فيها « مارستانًا »، ورتب فيها مطبخًا للفقهاء، ومزملة للماء البارد، ورتب لبيوت الفقهاء الحصر والبسط والزيت والورق والحبر، ورتب فيها الخبز واللحم والحلوى والفواكه، وكسوة الشتاء وكسوة الصيف، وجعل فيها ثلاثين يتيمًا، ووقف على ذلك ضياعًا وقرى كثيرة سردها الذهبى وغيره، ولكل فقيه فى الشهر دينار، وشرع فى عمارتها سنة خمس وعشرين وستمائة، وأتمها فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة[(١)]، ونقل إليها من الكتب النفيسة، وعدة فقهائها مائتان وثمانية وأربعون فقيهًا من المذاهب الأربعة، وشيخ حديثٍ، وشيخ نحوٍ وشيخ طب، وشيخ فرائض، وكان غلال ما وقف عليها فى كل عام نيفًا وسبعين ألف مثقالٍ ذهبًا.

وفى سنة اثنتين وثلاثين أمر المستنصر بضرب الدراهم الفضية؛ ليعامل بها بدلاً عن قراضة الذهب[(٢)]، فجلس الوزير وأحضر الولاة والتجار والصيارفة، وفرشت الأنطاع وأفرغ عليها الدراهم، وقال الوزير: قد رسم مولانا أمير المؤمنين بمعاملتكم بهذه الدراهم عوضًا عن قراضة الذهب؛ رفقًا بكم، وإنقاذًا لكم من التعامل بالحرام، ومن الصرف الربوى، فأعلنوا الدعاء له، ثم أديرت وسعرت كل عشرة دراهم بدينار، فقال أبو المعالى، القاسم بن أبى الحويل فى ذلك أبياتًا: [من الخفيف]

لا عَدِمْنَا جميلَ رأيكَ فينا ... أَنْتَ باعَدتَّنا عَنِ التَّطفيفِ
ورسَمْتَ اللُّجينَ حتى أَلِفْنَا ... هُ وما كان قَبْلُ بالمألوفِ
ليس للجَمْعِ كان مَنْعُكَ للصَّرْ ... فِ ولكنْ للعَدْلِ والتعريفِ

قلت: تأمل بيته الأخير؛ فما ألطفه!

ومن مناقبه أن الوجيه القيروانى امتدحه بقصيدة يقول فيها: [من الكامل]

لو كُنْتَ فى يومِ السقيفةِ حاضرًا ... كُنْتَ المقدَّمَ والإمامَ الأَوْرَعَا

فقال له قائل بحضرته: أخطأت؛ قد كان حاضرًا العباس جد أمير المؤمنين، ولم يكن المقدم إلا أبو بكر، فأقر ذلك المستنصر وخلع على القائل، ثم أمر بنفى الوجيه

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٦٣ .
(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٦٤، تاريخ الخلفاء ٣٧٠ .

فخرج إلى مصر[١]، كذا قاله الذهبى. قلت: العباس - رضى تعالى عنه - لم يحضر السقيفة؛ فالرد مردود، على أن قول الشاعر: « حاضر » لا يلزم منه حضوره عند السقيفة حتى يرد ما قاله هذا القائل؛ بل مراده: حضوره، أى: وجوده فى ذلك الزمن، يعنى زمن اجتماعهم فى السقيفة، لا حضور نفس الاجتماع فيها.

وكانت مدارس بغداد يضرب بها المثل فى ارتفاع العماد، وإتقان المهاد، وطيب الماء، ولطف الهواء، ورفاهية الطلاب، وسعة الطعام والشراب.

وأول مدرسة بنيت فى الدنيا مدرسة « نظام الملك »؛ فلما سمع علماء ما وراء النهر هذا الخبر اتخذوا ذلك العام مأتمًا، وحزنوا على سقوط حرمة العلم، فقالوا حين سئلوا عن ذلك: إن للعلم ملكة شريفة لا تطلبها إلا النفوس الشريفة، بجاذب الشرف الذاتى، فلما جعلت عليه الأجور تطلبته النفوس الرذلة؛ لتجعله مكسبًا وسلمًا لحطام الدنيا، لا لتحصيل شرف العلم؛ بل لتحصيل المناصب الدنيوية الأسفلية الفانية، فيرذل العلم لرذالتهم، ولا يشرفون بشرفه. ألا ترى إلى علم الطب؛ فإنه مع كونه شريفًا لما تعاطاه اليهود والنصارى رذل برذالتهم، ولم يشرفوا بشرفه، وهذا حال طلبة العلم فى هذا الزمان الفاسد، كذا فى « الأعلام ». قلت: قد كان هذا قبل، وأما اليوم فلا طلب ولا مطلوب، ولا رغبة ولا مرغوب، نسأل الله اللطف وحسن الخاتمة.

ومن جملة خدام المستنصر بالله الأمير شرف الدين، وإقبال الشرابى المستنصرى.

وفى سنة ست وثلاثين وستمائة وقع باليمن مطر عظيم عمه جميعًا، وكان فيه برد عظيم قتل من الدواب والوحوش شيئًا كثيرًا، ونزلت فيه بردة كالجبل الصغير لها شناخيب، يزيد كل واحد منها على ثلاثة أذرع، وقعت فى مفازة من بلاد « سنحان » و« زراحة »، وذلك بمرحلتين بمسير الجمال عن صنعاء فغاب فى الأرض أكثرها، وكانت يدور حولها عشرون رجلًا فلا يرى بعضهم بعضًا. وبشاذروان الكعبة الشريفة فى وسط مصلى جبريل عليه الصلاة والسلام، وهى الحفيرة المسماة الآن بالمعجنة، حجر من الرخام الأزرق ومنقور فيه « بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بعمارة هذا

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٧٠ - ٣٧١ .

المطاف الشريف - وذكر اسمه - وذلك فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة. وصلى الله على سيدنا محمد وآله » انتهى. وهذا الحجر باقٍ إلى يومنا.

ثم توفى المستنصر لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة، وكانت خلافته ست عشرة سنة وعشرة أشهر، وعمره اثنتان وخمسون سنة وأربعة أشهر، رحمه الله تعالى.

خلافة المستعصم بالله(١)

أبى أحمد، عبد الله بن المستنصر بالله، منصور بن الظاهر بأمر الله، محمد بن الناصر لدين الله، أحمد. هو آخر الخلفاء العباسيين بالعراق. أمه أم ولد حبشية اسمها هاجر.

بويع له بالخلافة عند موت أبيه المستنصر، كان لينًا هينًا، قليل الرأى، بعيد الفهم، فوض جميع أموره إلى وزيره مؤيد الدين - بل مدمر الدين - ابن العلقمى الرافضى، فكان سبب هلاكه وزوال ملكه كما سيأتى ذكره، وكان للمستنصر أبيه ابنان: أحدهما يسمى بالخفاجى، كان شديد الرأس، شديد الرأى، شجاعًا صعب المراس، والثانى هذا المستعصم، وكان هينًا لينًا، ضعيف الرأى، فاختاره الأمير الشرابى على أخيه الخفاجى؛ ليستبد هو بالأمر، ويستقل بأحوال الملك؛ فإنه لا يخشاه كما يخشىٰ من أخيه الخفاجى. فلما توفى المستنصر أخفى الأمير إقبال موته نحوًا من عشرين يومًا، حتى دبر الولاية للمستعصم، وبويع له بالخلافة، ففر أخوه الخفاجى إلى العربان وتلاشىٰ أمره.

وفى سنة إحدى وأربعين بنى إقبال الشرابى مدرسة بمكة على يمين الداخل من باب السلام إلى المسجد، ورباطًا فيه عدة خلاوى، ووقف بالمدرسة كتبًا ذهبت شذر مذر إلا قليلاً، والمدرسة باقية إلى الآن، وعلوها مجلسان مطلان على باب السلام، وبها كتب وقفها بعض أهل الخير ممن أدركناه، رحمهم الله تعالى، كذا فى

---

(١) ينظر [المستعصم بالله] فى: شذرات الذهب ٥/ ٢٧٠ - ٢٧٢، تاريخ الخلفاء ٤٦٤، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٣٦، البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٤، فوات الوفيات لابن شاكر ٢/ ٢٣٠، العبر للذهبى ٥/ ٢٣٠، خلاصة الذهب المسبوك ٢٨٩، سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٧٤، النجوم الزاهرة ٧/ ٦٣، دول الإسلام ٢/ ١٢١ .

« الأعلام » للقطب النهروالى؛ نسبة إلى « نهروالا » قرية من قرى الهند أو العجم.

وفى موسم السنة المذكورة حجت والدة المستعصم بالله، وهى أم ولد حبشية اسمها هاجر كما تقدم، وكان فى خدمتها الأمير إقبال الشرابى الدوادار، ومعه ستة آلاف خلعة، وتصدق بنحو ستين ألف دينار، وعدت جمال ركب أهل بغداد تلك السنة، فكانت فوق مائة وعشرين ألف بعير، ثم عادت إلى بغداد.

وفى سنة أربع وخمسين وستمائة، كان ظهور النار، قال أبو شامة فى كتاب « الروضتين »: جاءنا كتب من المدينة الشريفة فيها: لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة، ظهر بالمدينة دوى عظيم، ثم زلزلة عظيمة؛ فكانت ساعة بعد ساعة إلى خامس الشهر المذكور، فظهرت نار عظيمة فى الحرة الشرقية قريبًا من قريظة، نراها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا، وسالت أودية منها وادى « شظا » سيل الماء، وطلعنا نقصدها فإذا الجبال تسير نارًا، وسارت هكذا وهكذا، كأنها الجبال، وطار منها شرر كالقصر، وفزع الناس إلى القبر الشريف مستغفرين تائبين، واستمرت هكذا أكثر من شهر(١).

وقال الذهبى: كانت تدب دبيب النمل، وكانت تحرق كل ما مرت عليه من الحجارة وغيرها؛ فكانت الحجارة تذوب كما يذوب الرصاص، وكانت لا تحرق أشجار المدينة على مشرفها الصلاة والسلام. وكان نساء المدينة يغزلن على ضوئها، ثم انطفأت بعد مدة قريبة من شهر، ومع ذلك ما كان لها حرارة، وما كانت تؤثر فيمن وصل إليها.

ذكر أن أمير المدينة الشريفة أرسل رجلين ليتحققا أمر هذه النار، فلما وصلا إلى قربها، وشاهدا عدم حرارتها - تقربا إليها؛ حتى إن أحدهما أخرج نشابًا فأدخله النار فذاب نصله، ولم يحترق العود، فقلب النشاب وأدخله النار فاحترق الريش ولم يحترق العود؛ لأن السهام كانت من أشجار المدينة، وذلك من معجزاته عليه الصلاة والسلام.

قال اليافعى فى تاريخه: وهذه النار هى التى ذكرها رسول الله ﷺ فقال: « تظهر فى آخر الزمان نار شرقى المدينة، تضيء لها أعناق الإبل بـ« بصرى » من أرض

---

(١) ينظر: تفاصيل هذه المعجزة فى دلائل النبوة من السيرة النبوية لابن كثير، وقد أورد ابن كثير ملخصًا شاملاً لما أورده أبو شامة. وينظر: البداية والنهاية (٣/ ٢١٩ - ٢٢٣)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٨٠)، تاريخ الخلفاء (ص ٣٧٢).

الشام ». قلت: الذى ذكره الحافظ الذهبى أن لفظ الحديث: « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار بأرض الحجاز، تضيء لها أعناق الإبل بـ« بصرى »[1]، ثم قال: وأمر هذه النار متواتر، وهو مصداق ما أخبر به المصطفى ﷺ. وقد حكى غير واحد ممن كان بـ« بصرى » أنه رأى فى الليل أعناق الإبل فى ضوئها، والصادق لا ينطق عن الهوى، ﷺ.

ثم كان أن مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبد الملك صار وزير المستعصم، وكان رافضيًا سبابًا، مستوليا على المستعصم، عدوًا له ولأهل السنة، يداريهم فى الظاهر، وينافقهم فى الباطن وكان دائرًا على طمس آثار السنة، وإعلاء منار البدعة، فصار يكاتب هولاكو قائد التتار، ويطمعه فى ملك بغداد، ويخبره بأخبارها، ويعرفه بصورة أخذها، وبضعف الخليفة، وبانحلال العسكر عنه. وصار يحسن للمستعصم توفير الخزائن، وعدم الصرف على العسكر، والإذن لهم فى الذهاب أين شاءوا، ويقطع أرزاقهم، ويشتت شملهم؛ بحيث إنه أذن مرة لعشرين ألف مقاتل، فذهبوا ووفر علوفاتهم من الخزانتين.

وكان التتار جائلين فى الأرض يقتلون ويأسرون ويخربون الديار، ونارهم فى غاية الاشتعال والاستعار، والمستعصم ومن معه فى غفلة عنهم؛ لإخفاء ابن العلقمى عنه سائر الأخبار، إلى أن وصل هولاكو خان إلى بلاد العراق، واستأصل من بها قتلاً وأسرًا.

وتوجه إلى بغداد، وأرسل إلى الخليفة يطلبه، فاستيقظ من نوم الغرور، وندم على غفلته حيث لا ينفع الندم، وجمع من قدر عليه وبرز إلى قتاله، وجمع من أهل بغداد خاصته، ومن عبيده وخدامه ما يقارب أربعين ألف مقاتل، لكنهم مرفهون بلين المهاد، وساكنون على شط بغداد، فى ظل ثخين، وماء معين، وفاكهة وشراب، واجتماع أحباب، ما كابدوا حربًا، ولا ذاقوا طعنًا ولا ضربًا، وعساكر المغل ينوفون على مائة ألف مقاتل، فوقع التصاف، والتحم القتال، وزحف الخميس إلى الخميس، يوم الخميس عاشر محرم سنة ست وخمسين وستمائة، وصبر أهل بغداد

---

(١) أخرجه البخارى (٧١١٨) ومسلم (٢٩٠٢) والحاكم (٤/ ٤٤٣) وابن حبان (٦٨٣٩) من حديث أبى هريرة .

على حر السيوف، صبروا مضطرين على طعم الحتوف، وأعطوا الدار حقها، واستقبلوا غمام السهام وبلها وودقها، واستمروا كذلك من إقبال الفجر إلى إدبار النهار، فعجزوا عن الاصطبار، وانكسروا أشد انكسار، وولوا الأدبار، وغرق كثير منهم فى دجلة، وقتل أكثرهم شر قتلة، ووضعت التتار فيهم السيف والنار، فقتلوا فى ثلاثة أيام ما ينوف على ثلاثمائة ألف وسبعين ألفًا، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الخزائن والأموال، وأخذ هولاكو جميع النقود، وأمر بحرق الباقى، ورمى كتب مدارس بغداد فى دجلة، وكانت لكثرتها جسرًا يمرون عليها ركبانًا ومشاة، وتغير لون الماء بحبرها إلى السواد، فأشار الوزير على الخليفة بمصانعتهم وقال: أنا فى تقرير الصلح، فخرج، ووثق لنفسه بينهم، ورجع إلى الخليفة وقال: إن الملك هولاكو قد رغب فى أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبى بكر، ويبقيك فى منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم فى سلطنته، ولا يؤثر أن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع سلاطين الديلم والسلجوقية، وينصرف عنك بجنوده، فيجيب مولانا إلى هذا، فإن فيه حقنًا لدماء من بقى من المسلمين، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد، فالرأى أن تخرج إليهم.

فخرج الخليفة فى أعيان دولته فأنزل فى خيمة، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد، فخرجوا من بغداد، فضربت أعناقهم، وكذلك تخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم، حتى قتل جميع من فيها من العلماء والأمراء والحجاب والكتاب، واستبقى هولاكو المستعصم أيامًا إلى أن استصفى أمواله وخزائنه وذخائره، ثم رمى رقاب أولاده وذويه وأتباعه، وأمر أن يوضع الخليفة فى غرارة، ويرفس بالأرجل حتى يموت؛ ففعل به ذلك[١].

وفى رواية: أن خروج الخليفة المستعصم إليه كان قبل وقوع شيء من القتال، ثم لما خرج وفعل به ومن معه ما فعل - بذل السيف فى بغداد، واستمر السيف نحو أربعين يومًا، فبلغت القتلى أكثر من ألف ألف نسمة، ولم يسلم إلا من اختفى فى بئر أو قناة.

واستشهد الخليفة - رحمه الله - يوم الأربعاء رابع عشر صفر من سنة ست وخمسين وستمائة، وانقطعت بموته خلافة بنى العباس بن عبد المطلب من العراق،

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ٢٣/ ١٨١ .

وعدتهم سبعة وثلاثون خليفة، أولهم: عبد الله السفاح ابن محمد بن على بن عبد الله ابن العباس، وآخرهم: هذا المستعصم بالله عبد الله بن المستنصر بالله أبى جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضئ بنور الله حسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفى لأمر الله محمد بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدى بأمر الله عبد الله ابن الأمير محمد الذخيرة بن القائم بأمر الله عبد الله بن القادر بالله أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بن جعفر بن المعتضد بن أحمد ابن الأمير طلحة الموفق بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون ابن المهدى محمد بن المنصور أبى جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس.

وكانت مدة خلافته ست عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام، وعمره خمس وأربعون سنة، وقيل: ست وأربعون وشهران.

وهذه السنة التى قتل فيها المستعصم تسمى: « سنة المصائب »، وبقيت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصفًا: ستٍ وخمسين وستمائة، وسبع وخمسين، وثمانٍ وخمسين، وتسعٍ وخمسين، إلى رجب منها؛ فأقيمت بمصر الخلافة، وبويع المستنصر كما سنذكره.

قال الحافظ الذهبى[1] عند ذكر قتل الخليفة: وما أظنه دفن، وقتل معه جماعة من أولاده، وأعمامه[2] وبنى عمه، وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها، وعملت الشعراء قصائد فى مراثى بغداد وأهلها[3]، وتمثل بقول سبط بن التعاويذى: [من الكامل]

بَادَتْ وأهلُوهَا مَعًا فبيوتُهُمْ ... ببقاءِ مولانا الوزيرِ خرابُ

وقال بعضهم: [من الكامل]

يا عصبَةَ الإسلامِ نوحِى واندُبِي ... حزنًا علَىٰ ما تَمَّ للمستعصِمِ
دَسْتُ الوزارةِ كان قَبْلَ زمَانِهِ ... لابْنِ الفراتِ فَصَارَ لابنِ العلقمِى

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٧٧.
(٢) فى ط: من أولاد أعمامه. والمثبت من تاريخ الخلفاء.
(٣) فى ط: وعملت الشعراء قصائد فى بغداد وأهلها مراثى. والمثبت من تاريخ الخلفاء.

قلت: يشير إلى ابن الفرات، وكان وزيرًا فى خلافة المقتدر. وكان آخر خطبة خطبت ببغداد، قال الخطيب فى أولها: الحمد لله الذى هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار، والسيف قائم بها. ومما قاله تقى الدين ابن أبى اليسر فى بغداد: [من البسيط]

لسائلِ الدمعِ عنْ بغدَادَ إخبارُ ... فما وقوفُكَ والأحبابُ قد ساروا
يا زائرينَ إلى الزوراءِ لا تَفِدُوا ... فما بذاك الحِمَىٰ والدارِ ديَّارُ
تاجُ الخلافةِ والرَّبْعُ الذى شَرُفَتْ ... به المَعَالِمُ قد عَفَّاهُ إقفارُ
أضحَىٰ لِعَصْفِ[1] البلا فى رَبْعِهِ أثرٌ ... وللدموعِ على الآثارِ آثارُ
يا نارَ قَلْبِىَ من نارٍ لحَرْ[2] وغَى ... شبَّتْ عليه ووافى الرَّبْعَ إعصارُ
علا الصليبُ على أعلَىٰ منابِرِهَا ... وقامَ بالأمرِ مَنْ يحويه زُنَّارُ
وكم حريمٍ سَبَتْهُ التُّركُ غَاصِبةً ... وكان مِنْ دونِ ذاك السِّتْرِ أَسْتَارُ
وكم بُدُورٍ على البَدْرِيةِ انخسفَتْ ... ولم يعدْ لِبُدُورٍ مِنْهُ إبدارُ
وكم ذخائرَ أضحَتْ وهيٍ شائعةٌ ... من النِّهابِ وقد حازَتْهُ كفارُ
وكم حدودٍ أقيمَتْ من سيوفِهِمُ ... على الرِّقابِ وحُطَّت فيه أوزَارُ
نادَيْتُ والسَّبْىُ مَهْتُوكٌ يَجُرُّهُمُ ... إلى السِّفاحِ من الأعداءِ دَعَّارُ
إليكَ يا ربَّنا الشكوَىٰ فأنْتَ تَرَىٰ ... ما حلَّ بالدِّينِ والباغونَ فُجَّارُ

ومن غريب الاتفاق ما رواه بعضهم قال: لما استولت التتار على بغداد، وقتلوا الخليفة المستعصم، كان ببغداد رجل من ذوى اليسار معروف، فلما سمع بقرب التتار من بغداد، جعل فى قاع داره مخبأ تحت الأرض، ووضع فيه صناديقه وأمتعته، وسائر ما يعزُّ عليه من أموال وغيرها، ثم جعل على فم ذلك الموضع هيئة فم الخرابة، وجعل تسرب مائها إلى موضع آخر؛ ليخفى أمر ذلك الموضع عن الناظرين. وقال فى نفسه: إذا دخلت التتار بغداد خرجت إلى الصحراء، فإذا خرجوا عدت إلى دارى ومالى. فلما فرغ من إحكام ذلك وجد فى ذخائره ستًّا من اللآلىء الكبار النفيسة، كبارًا جدًّا، فقال فى باله: فتح هذه المطمورة أمر عظيم، وفكر فى

---

(١) ف ط: لعطف. والمثبت من تاريخ الخلفاء.
(٢) فى تاريخ الخلفاء: لحرب.

حفظ تلك اللؤلؤات، فلم يجد لها موضعًا أحسن من عش عصافير كان بسقف تلك الدار قريبًا من المخبأ المذكور، فاستدعى بسلم فوضعها فى ذلك العش، وجلس فى دهليز تلك الدار، وعليه زى الفقراء، فلما دخلت التتار بغداد خرج إلى موضع استتر فيه، فأمسك بعض عساكر التتار رجلاً من أهل بغداد، وألزموه أن يريهم دور أهل اليسار من أهل بغداد، ليجد فيها ما يأخذه، فأتى ذلك الرجل بذلك البعض إلى هذه الدار المذكورة فطافا فيها فلم يجدا شيئًا، فغضب التترى فربطه وقال: أتهزأ بى ؟ وجعل يضربه ويعذبه، والرجل يحلف له أن صاحب هذه الدار من مياسير أهل بغداد، وما هزأت بك. فبينما هو يضربه إذ زرق عليه عصفور من ذلك العش الذى فيه اللؤلؤات فأصاب الزرق وجهه، فازداد غيظه فضرب ذلك العش فوقع العش، وسقطت تلك اللؤلؤات منه، فتدحرجت منه ثلاث، فوقعن في ثقب تلك الخربة، فأخذ التتري تلك الثلاث لؤلؤات، وألزم الرجل بخراب تلك الخرابة لإخراج اللؤلؤات الأخرى، فلما شرع فى تخريبها وأزال وجهها، وجد سلالم تنتهى إلى الموضع الذى فيه الأموال والذخائر والصناديق، فأخذ التترى جميع ما هناك وأطلق الرجل وأعطاه ما تيسر؛ فاعتبروا يا أولى الألباب.

شرح حال التتار(١)

قال الموفق عبد اللطيف الخجندى فى خبر التتار: هو حديث يأكل الأحاديث، وخبر يطوى الأخبار، وتاريخ ينسى التواريخ، ونازلة تصغر كل نازلة، وفادحة تطبق الأرض، وتملؤها ما بين الطول والعرض.

هذه الأمة لغتهم مشوبة بلغة الهند؛ لأنهم فى جوارهم، وبينهم وبين « بنكث » أربعة أشهر، وهى فى النسبة إلى الترك، عراض الوجوه، واسعو الصدور، خفاف الأعجاز، صغار الأطراف، سمر اللون، سريعو الحركة فى الجسم والرأى، تصل إليهم أخبار الأمم، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم، قَلّما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم؛ لأن الغريب لا يشتبه بهم، وإذا أرادوا جهة كتموا أمرهم، ونهضوا دفعة واحدة؛ فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه، ولا عسكر حتى يخالطوه، فلهذا تفسد

(١) ينظر تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٧٣ وما بعدها .

على الناس وجوه الحيل فيهم، وتضيق طرق الحرب عليهم، ونساؤهم يقاتلن كرجالهم، والغالب على سلاحهم النشاب، وأكلهم أى لحم وجدوه، وليس فى قتلهم استثناء ولا إبقاء، يقتلون الرجال والنساء والأطفال، وكان مقصودهم إفناء النوع الإنسانى وإبادة العالم، لا قصد الملك والمال.

وقال سبط ابن الجوزى فى « مرآة الزمان »: أرض التتار بأطراف بلاد الصين، وهم سكان بوادى، مشهورون بالشر والغدر.

وسبب ظهورهم أن إقليم الصين متسع دوره ستة أشهر، وهم ست ممالك، ولهم ملك حاكم على الست، وهو القان الأكبر المقيم بـ « طغماج » وهو كالخليفة على المسلمين، وكان سلطان أحد الممالك الست، واسمه « دوس خان »، قد تزوج بعمة « جنكيز خان » ملك التتار فحضر زائرًا لعمته، وقد مات زوجها، وكان قد حضر مع « جنكيز خان » « كشلوخان »، فأعلمتهما أن الملك الذى هو « دوس خان » لم يخلف ولدًا، وأشارت على ابن أخيها أن يقوم مقامه، فقام مقامه وانضم إليه خلق من المغل، ثم سير التقاديم والهدايا إلى القان الأكبر، فاستشاط غضبًا، وأمر بقطع أذناب الخيل التى أهديت إليه وطردها، وقتل الرسل لكون التتار لم يتقدم لهم سابقة سلطنة، إنما هم بادية الصين، فلما سمع جنكيزخان وصاحبه كشلوخان تحالفا على التعاضد، وأظهرا الخلاف للقان، وهو الحاكم على الست المدن المذكورة، وأتتهما أمم كثيرة من التتار، وعلم القان قوتهم وشرهم؛ فأرسل يؤانسهم، ثم أرسل بعد ذلك ينذرهم ويتهددهم، فلم يغن ذلك فيهم شيئًا، ثم عزم على قصدهم فقصدهم، ووقع بينهم ملحمة عظيمة، فكسروا القان وملكوا بلاده، واستفحل شرهم، واستمر الملك بين جنكيزخان وكشلوخان على المشاركة، ثم سارا إلى بلاد « قاسون » من نواحى الصين فملكاها، فمات كشلوخان، فقام مقامه ولده، فاستصغره جنكيزخان فوثب عليه فقتله، واستقل جنكيزخان، ودانت له التتار وانقادت، واعتقدوا فيه الألوهية، وبالغوا فى طاعتهم(١).

ثم كان أول خروجهم من بلادهم سنة ست وستمائة إلى نواحى الترك و« فرغانة »، فأرسل خوارزم شاه محمد بن تكش صاحب خراسان - الذى أباد

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٧٤ .

الملوك وأخذ الممالك وعزم على قصد الخليفة فلم يتهيأ له - إلى أهل « فرغانة » و« الشاش » و « كاشان »، وتلك البلاد النزهة العامرة بالجلاء والإجفال عنها إلى سمرقند وغيرها، ثم خربها جميعًا؛ خوفًا من التتار أن يملكوها؛ لعلمه أنه لا طاقة له بهم(١).

ثم سارت التتار يتحفظون ويتنقلون إلى سنة خمس عشرة وستمائة، فأرسل فيها جنكيزخان إلى السلطان خوارزم رسلًا وهدايا، وقال الرسل لخوارزم شاه: إن القان الأعظم جنكيزخان يسلم عليك ويقول لك: ليس يخف عليَّ عظم شأنك، وما بلغت من سلطانك، ونفوذ حكمك على الأقاليم، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندى مثل أعز أولادى، وغير خافٍ عليك أنى ملك الصين، وأنت أخبر الناس ببلادى، وأنها مغارات العساكر والخيول، ومعادن الذهب والفضة، وفيها كفاية عن غيرها، فإن رأيت أن تعقد بيننا المودة فأمر التجار بالسفر لتعم المصلحتان. فأجابه خوارزم شاه إلى ملتمسه، وسر جنكيزخان بذلك، واستمر الحال على المهادنة إلى أن وصل من بلاده تجار، وكان خال خوارزم شاه نائبًا عنه على بلاد ما وراء النهر، ومعه عشرون ألف فارس، فشرهت نفسه إلى أموال التجار، فكتب إلى جنكيزخان يقول: إن هؤلاء القوم قد جاءوا بزى التجار، وما قصدهم إلا التجسس، وإن أذنت لى فيهم فأذن له بالاحتياط عليهم، فقبض عليهم وأخذ أموالهم، فوردت رسل جنكيزخان إلى خوارزم شاه يقول: إنك أعطيت أمانك للتجار فغدرت، والغدر قبيح، وهو من السلطان أقبح، فإن زعمت أن الذى فعله خالك بغير أمرك فسلمه إلينا، وإلا سوف تشاهد منى ما تعرفنى به، فدخل خوارزم شاه من الرعب، لكنه تجلد وأمر بقتل الرسل فقتلوا، فيالها من قتلة كم هدرت من دماء للإسلام، أجرت بكل قطر سيلًا من الدم(٢).

ثم سار جنكيزخان إليه فانجفل خوارزم شاه عن « جيحان » إلى « نيسابور » إلى « مرج همدان »؛ رعبا من التتار، فأحدق به التتار وقتلوا كل من معه، ونجا هو بنفسه فخاض الماء إلى جزيرة ولحقته علة ذات الجنب فمات بها وحيدًا طريدًا،

---

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٧٤ .
(٢) ينظر السابق ٣٧٥ .

وذلك سنة سبع عشرة وستمائة؛ فملكوا جميع مملكة خوارزم شاه.

ثم بعد ذلك عبروا النهر بعد أن أخذوا « بخارى » و« سمرقند »، وكان خوارزم شاه قد أباد الملوك من مدن خراسان، فلم يجد التتار أحدًا فى وجوههم، فطوفوا البلاد قتلاً وسبيًا، وساقوا إلى أن وصلوا همدان وقزوين.

قال ابن الأثير فى كامله(١): حادثة التتار من الحوادث العظمى، والمصائب الكبرى، التى عقمت الدهور عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلقه الله لم يبل بمثلها - لكان صادقًا؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها. ومن أعظم ما يذكرون فعل « بُخْتَنَصَّر » ببنى إسرائيل ببيت المقدس، فما بيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من مدن الإسلام ؟ وما بنو إسرائيل، بالنسبة إلى ما قتلوا من الأنام ؟ فهذه الحادثة التى استطار شررها، وعم ضررها، وسارت فى الدنيا سير السحاب استدبرته الريح، فإن قومًا خرجوا من أطراف الصين فقصدوا كبار المدن والقرى مثل « تركستان » و« كاشغر » و« بلاساغون »، ثم منها إلى بخارىٰ وسمرقند، فتملكوا ملكها، وأبادوا أهلها، ثم تعبر طائفة إلى خراسان فتفرغ منها ملكًا وتخريبًا وقتلاً وإبادة، ثم إلى الرى وهمذان، إلى حد العراق، ثم يقصدون « أذربيجان » ونواحيها، ويخربونها ويفتحونها، كل ذلك فى أقل من سنة أمر لم يسمع بمثله، ثم من أذربيجان إلى « دَرْبَنْد شروان »، ثم إلى بلاد « اللان » فقتلوا وأسروا، ثم بلاد « القفجاق » - وهم من أكثر الترك عددًا - فقتلوا من وقف، وهرب الباقون، واستولى التتار عليها، ومضت طائفة منهم إلى « غزنة » وأعمالها، و« سجستان » و« كرمان » ففعلوا مثل هذا، هذا ما لم يطرق الأسماع مثله؛ فإن الإسكندر الذى ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة، وإنما ملكها فى نحو عشرين سنة، ولم يقتل أحدًا وإنما رضى بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأعمره، ولم يبق أحد فى البلاد التى لم يطرقوها إلا وهو خائف يترقب وصولهم إليه، ثم إنهم كانوا لا يحتاجون إلى الميرة ومددهم يأتيهم، فإن معهم الأغنام والبقر والخيل، يأكلون

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٣٥٨/١٢ . فقد أورد ابن الأثير خبر التتار الملاعين بالتفصيل فى كامله فانظر ٣٥٨/١٢ - ٤٠٠ .

لحومها لا غير، وأما خيل ركوبهم فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق الشجر، لا تعرف الشعير. وديانتهم سجودهم للشمس - والعياذ بالله - حال طلوعها، ولا يحرمون شيئًا، ويأكلون جميع الدواب وبنى آدم، ولا يعرفون نكاحًا، بل المرأة الواحدة يأتيها الجماعات، ويثبون وثوب القردة، يقطعون المسافات الطويلة فى أيام قليلة، ويخوضون الأوحال، ويتعلقون بالجبال، ويصبرون على العطش والجوع، ويهجرون الغمض والهجوع، ولا يبالون بالحر والبرد، والسهل والوعر، طعامهم كف شعير، وشربهم من طرف البئر، يكاد أحدهم يتقوت بطرف أذن فرسه، يقطعها ويأكلها نيئة !! ويصبر على ذلك أيامًا عديدة؛ بل يكتفى هو وفرسه بحشيش الأرض مدة مديدة.

ثم ساروا إلى بغداد وهم ينوفون على مائتى ألف فارس وراجل سالب باسل، فكان ما كان منهم على الخليفة المستعصم وبغداد وأهلها، وملكهم هولاكو بعد أن مات جنكيزخان.

ثم وصلوا إلى حلب وبذلوا فيها السيف، بعد أن ملكوا ما بينها وبين بغداد من المدن والقرى.

ثم أرسل هولاكو إلى الملك الناصر، صاحب دمشق كتابًا صورته: « يعلم سلطان ناصر طال بقاؤه أنا لما توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم قتلناهم بسيف الله، ثم خرج إلينا رؤساء البلد ومقدموها، فكانت قصارى كل منهم سببًا لهلاك نفوس تستحق الإذلال. وأما صاحب البلد الخليفة، فإنه خرج إلى خدمتنا، ودخل تحت عبوديتنا، فسألناه عن أشياء كذبنا فيها؛ فاستحق الإعدام وكان كذبه ظاهرًا ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. وأنت فأجب ملك البسيطة، ولا تقولن: قلاعى المانعات، ورجالى المقاتلات وقد بلغنا أن شذرة من عساكر العراق التجأت إليك هاربة، وإلى خبائك لائذة: [من الكامل]

أينَ المفَرُّ ولا مفَرَّ لهاربٍ ولنا البسيطانِ الثرَىٰ والماءُ

فبساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشام سماءها أرضًا وطولها عرضًا(١).

ثم أرسل كتابًا ثانيًا يقول فيه « حضرة ملك ناصر طال عمره، أما بعد، فإنا فتحنا

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٧٨ .

بغداد، واستأصلنا مُلكها ومَلكها، وقد كان ضن بالأموال، ولم ينافس فى الرجال، فظن أن ملكه يبقى على ذلك الحال، وقد علا ذكره ونما قدره، فخسف فى الكمال بدره: [من المتقارب]

إذا تَمَّ شيءٌ بدا نقصُهُ ترقَّبْ زوالاً إذا قِيلَ تَمّ

ونحن فى طلب الازدياد على ممر الآباد، فلا تكن كالذين نسوا الله. وأبدِ ما فى نفسك إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، أجب دعوة ملك البسيطة تأمن من شره، وتنل من بره، واسعَ إليه برجالك وأمرائك، ولا تعُق رسولنا، والسلام ».

ثم أرسل إليه كتابًا ثالثًا يقول فيه: « أما بعد، فنحن جنود الله، بنا ينتقم ممن عتا وتجبر، وطغى وتكبر، وبأمر الله ما ائتمر، إن عوتب تنمر، وإن روجع استمر، ونحن قد أهلكنا البلاد، وأبدنا العباد، وقتلنا النساء والأولاد، فيا أيها الباقون، أنتم بمن مضى لاحقون، ويا أيها الغافلون، أنتم إليهم تساقون، ونحن جيوش الهلكة لا جيوش المملكة، مقصودنا الانتقام، وملكنا لا يرام، ونزيلنا لا يضام، وعدلنا فى ملكنا قد اشتهر، ومن سيوفنا أين المفر، ولا مفر ؟ ! ذلت لهيبتنا الأسود، وأصبحت فى قبضتنا الأمراء والخلفاء، ونحن إليكم صائرون، ولكم الهرب، وعلينا الطلب: [من الطويل]

ستعلَمُ ليلَىٰ أىَّ دينٍ تداينَتْ وأي غريم للتقاضيِ غَريمُهَا

دمرنا البلاد، وأيتمنا الأولاد، وأهلكنا العباد، وجعلنا عظيمهم صغيرًا، وأميرهم أسيرًا، تحسبون أنكم ناجون أو متخلصون، وعن قليل سوف تعلمون على ما تقدمون، وقد أعذر من أنذر ».

فلما وصلوا إلى دمشق خرج إليهم الملك المظفر، المسمى قطز، من ملوك الأتراك من مصر، ومقدم عسكره الظاهر بيبرس البندقدارى، فالتقى معهم عند « عين جالوت »[1]، ووقع المصاف يوم الجمعة خامس عشر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة، فهزم التتار شر هزيمة، وانتصر المسلمون ولله الحمد والمنة، وقتل من التتار مقتلة عظيمة، وولوا الأدبار، وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينتهبونهم، وجاء كتاب الملك المظفر إلى دمشق بخبر النصر؛ فطار المسلمون

(١) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٢٥٥ وما بعدها، تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٨٠ .

فرحا، وسيأتى ذكر الملك المظفر قطز فى الباب الخامس المعقود للدولة التركية إن شاء الله تعالى.

قال السخاوى[١]: ثم لم يزل بقاياهم يخرجون إلى أن كان آخرهم « تيمور لنك » الأعرج، فطرق الديار الشامية وعاث فيها، وحرق دمشق حتى جعلها خاوية على عروشها، ودخل الروم والهند وما بين ذلك، وطالت مدته إلى أن مات وتفرق بنوه فى البلاد.

قلت: وفى الشائع أن ملوك الهند فى زماننا يرجع نسبهم إلى تيمور لنك هذا، والله أعلم بصحة هذا؛ فإنى لم أره منقولاً.

واعلم أن السنة النبوية قد أشارت إلى قتال الترك وفتنتهم، فقد روى الستة إلا النسائى حديث: « لا تقوم القيامة حتى تقاتلوا قومًا نعالهم الشعر، وحتى تقاتلوا الترك صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأعين، كأن وجوههم المجان المطرقة »[٢]، وفى رواية للبخارى: « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزًا وكرمان من الأعاجم، حمر الوجوه، فطس الأنوف، صغار الأعين، كأن وجوههم المجان المطرقة، نعالهم الشعر »[٣] وفى لفظ له: « عراض الوجوه » فقوله: « نعالهم الشعر » يحتمل أنه على ظاهره، ويحتمل أن تكون من جلود مشعرة، قاله المناوى فى « تخريج المصابيح »، وحمر الوجوه: بيض مشربة بحمرة.

و« ذلف » بالذال المعجمة فى رواية الجمهور، قال صاحب « المشارق » وهى الصواب، ويروى بإهمال الدال، وهو جمع أذلف، كأحمر وحمر، معناه: فطس الأنوف كما فى الرواية الأخرى، أى: قصارها مع انبطاح. وقال النووى: الذلف: غلظ أرنبة الأنف. والمجان: جمع مجن بكسر الميم: الترس. والمطرقة بضم الميم وإسكان الطاء، وحكى فتحها مع تشديد الراء، والأول هو المشهور فى الرواية، ومعناه: أن وجوههم عريضة ووجناتهم ناتئة.

---

(١) ينظر: الضوء اللامع (٢/ ٤٦ - ٥٠ ت١٩٢].

(٢) أخرجه البخارى (٣٥٩٠) ومسلم (٢٩١٢/ ٦٤) وعبد الرزاق (٢٠٧٨٢) وأحمد (٢/ ٣١٩) وابن حبان (٦٧٤٣) والبيهقى فى السنن (٩/ ١٧٦) وفى الدلائل (٦/ ٣٣٦) من حديث أبى هريرة.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩١٢/ ٦٥) وأبو داود (٤٣٠٣) والنسائى (٦/ ٤٤ - ٤٥) وابن حبان (٦٧٤٥) من طريق سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة.

وقوله: « حتى تقاتلوا خوزًا وكرمان » ضبطه ابن الأثير فى نهايته[(١)] فقال: بالخاء والزاى المعجمتين: جيل معروف، وهم من بلاد الأهواز، وكرمان صقع معروف، قال السمعانى: بلدة معروفة من بلاد العجم بين خراسان وبحر الهند. وورد « اتركوا الترك ما تركوكم، فإن أول من يسلب أمتى ملكها بنو قنطوراء »[(٢)] . . . . الحديث، زاد فى رواية « فإنهم أصحاب بأس شديد وغنائم قليلة » قلت: بنو قنطوراء بالمد والقصر، قيل: كانت جارية لسيدنا إبراهيم الخليل فولدت له أولادًا، فانتشر منهم الترك. حكاه محمد بن الأثير واستبعده، لكن ما استبعده جزم به المجد الفيروزأبادى فى قاموسه. وروى الخطيب البغدادى عن على - رضى الله تعالى عنه -: تكون مدينة بين الفرات ودجلة، يكون فيها ملك بنى العباس وهى الزوراء، تكون فيها حرب مفظعة يسبى فيها النساء، وتذبح فيها الرجال كما تذبح الغنم[(٣)]، ثم قال: وإسناده شديد الضعف. قال الحافظ السيوطى: وقد وقعت هذه الحرب بعد موت الخطيب بأكثر من مائتى سنة، وذلك يقوى الحديث ويصححه.

قال السخاوى: ومن المرات التى قاتل فيها المسلمون الترك دولة بنى أمية حتى أغزى معاوية الجيش إلى الروم، وأردفهم بابنه يزيد بن معاوية، ومعه عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وأبو أيوب الأنصارى، ثم كان بينهم وبين المسلمين مسدودًا بالهدنة التى عقدها يزيد بينه وبينهم، إلى أن فتح ذلك شيئًا فشيئًا، وكثر السبى فيهم حتى كان أكثر عسكر المعتصم بن الرشيد منهم، ثم غلبت الأتراك على الملك فقتلوا ابنه المتوكل بن المعتصم، ثم أولاده الخلفاء واحدًا بعد واحد إلى أن خالط المملكة الديلم، ثم كانت الملوك السامانية من الترك أيضًا، فملكوا بلاد العجم، ثم غلب على تلك الممالك آل « سُبكتكين » غلام معز الدولة بن بويه، ثم آل سلجوق، وامتدت مملكتهم إلى العراق والشام والروم، وكانت بقايا أتباعهم بالشام، وهم آل زنكى والد محمود بن زنكى الملقب نور الدين الشهيد، وأتباع آل زنكى هم بنو أيوب الأكراد، فاستكثرت بنو أيوب الأتراك من المماليك أيضًا

(١) ينظر: النهاية (٢/ ٨٧) .
(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٠٩) بلفظ: « اتركوا الحبشة ما تركوكم » وسيأتي تخريجه قريبًا بلفظ: « إن أول من يسلب أمتى . . . »
(٣) أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد (١/ ٣٩)

فغلبوهم بالديار المصرية والشامية والحجازية. وخرج على آل محرق فى المائة الخامسة الغز فخربوا البلاد، وقتلوا فى العباد، ثم جاءت الطامة الكبرى بعد الستمائة؛ فكان خروج جنكيزخان، وخلفه بعده هولاكو، واستعرت الدنيا بهم نارًا لا سيما الشرق بأسره، حتى لم يبق بلد منه إلا دخلها شرهم، ثم كان خراب بغداد، وقتل الخليفة وسلب ملكه ودمار عماره، وظهر به - بل بجميع ذلك - مصداق قوله ﷺ «أن أول من يسلب أمتى ملكها بنو قنطوراء»(١)، وقد تقدم ذكر الحديث، والله سبحانه أعلم.

وكان ممن نجا من سيوف التتار من بنى العباس أبو العباس أحمد بن الظاهر(٢)، عم المستعصم المقتول، قيل: كان محبوسًا ببغداد، فلما أخذت التتار بغداد أطلق فهرب، وصار إلى عرب العراق، فلما تسلطن الملك الظاهر بيبرس بعد الملك المظفر قطز، وفد عليه إلى مصر فى رجب سنة تسع وخمسين وستمائة، ومعه عشرة من بنى مهارش عرب الحلة، البلدة المعروفة، فركب السلطان الملك الظاهر بيبرس للقائه، ثم أثبت نسبه على يد قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز الشافعى، ثم بايعه بالخلافة السلطان، ثم قاضى القضاة المذكور، ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم الكبار على مراتبهم، وذلك فى ثالث عشر رجب من السنة المذكورة.

وضربت السكة باسمه، وخطب له، ولقب بلقب أخيه المستنصر، وفرح الناس، وركب يوم الجمعة وعليه السواد إلى جامع القلعة، فصعد المنبر وخطب خطبة ذكر فيها شرف بنى العباس، ودعا للسلطان والمسلمين، ثم صلى بالناس، ثم رسم بعمل خلعة للسلطان، وبكتابة تقليد له، ثم نصبت خيمة بظاهر القاهرة، وركب الخليفة المستنصر بالله المذكور، والسلطان الظاهر المذكور معه يوم الإثنين رابع شهر شعبان إلى الخيمة، وحضر القضاة والعلماء والأمراء والوزراء، فألبس الخليفة السلطان الخلعة بيده وطوقه، ونُصِبَ مِنْبَر فصعد عليه فخر الدين بن لقمان فقرأ التقليد، ثم

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٠٣٨٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٣٠٧) رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه مروان بن سالم وهو متروك.

(٢) ينظر ترجمته فى: تاريخ الخلفاء ٣٨١، دول الإسلام ٢/ ١٢٥، العبر ٥/ ٢٥٨، البداية والنهاية ١٣/ ٢٣١ - ٢٣٣، النجوم الزاهرة ٧/ ١٠٩ - ١١٧، سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٦٨، ذيل الروضتين ٢١٣، ذيل مرآة الزمان ١/ ٤٤١.

ركب السلطان بالخلعة ودخل من باب النصر وزينت القاهرة، وحمل الوزير التقليد على رأسه راكبًا والأمراء مشاة، ورتب السلطان للخليفة جيشًا وأتابكًا واستدارًا وشرابيًا وخازندارًا وحاجبًا وكاتبًا، وعين له خزانة وجملة مماليك، ومائة فرس وثلاثين بغلاً، وعشر قطارات جمال إلى أمثال ذلك(١).

قال الذهبى: ولم يل الخلافة أحد بعد ابن أخيه إلا هذا المستنصر؛ فإنه وليها بعد ابن أخيه وهو المستعصم المقتول، وإلا المقتفى بن المستظهر؛ فإنه وليها بعد الراشد ابن أخيه المسترشد بن المستظهر(٢)، ثم عزم المستنصر إلى العراق يريد تخت بغداد، فخرج معه السلطان الملك الظاهر بيبرس يشيعه إلى أن دخلوا دمشق، ثم سار الخليفة بمن معه متوجهًا إلى بغداد، فلما وصل إلى السراة ثالث محرم سنة ستين وستمائة - قاتله هناك « قره بغا » نائب هولاكو على بغداد، فقتل المستنصر ومن معه، ولم ينج منهم إلا القليل، ولم يقم له أمر فكانت ولايته ستة أشهر(٣).

والحاصل أن خلفاء بنى العباس البغداديين سبعة وثلاثون خليفة أولهم السفاح وآخرهم المستعصم، ومدة ملكهم فيها خمسمائة وأربع وعشرون سنة ويوم واحد. وقد ذكرهم الإمام محمد بن عبد اللطيف بن يحيى بن على بن تمام السبكى نظما مبتدئًا بأبى بكر الصديق فقال: [من الطويل]

إذا رمتَ أعداد الخلائفِ عُدَّهُمْ ... كما قُلْته تدعى اللبيبَ المحصِّلاَ
عتيقٌ وفاروقٌ وعثمانُ بعدَهُ ... عليُّ الرِّضَا مِنْ بَعْدِهِ حَسَنٌ تلا
معاويةٌ ثم ابنُهُ وحفيدُهُ ... مُعَاويَة وابنُ الزُّبَيْرِ أخو العُلاَ
ومروانُ يتلوه ابنُهُ ووليدُهُ ... سليمانُ وافَىٰ بَعْدَهُ عُمَرٌ وَلاَ
يزيدُ هشامٌ والوليدُ يزيدُهُمْ ... سناهُمْ بإبراهيمَ مروانُ قَدْ علا
وسَفَّاحُ المنصورُ مهدىٌّ ابنُهُ ... وهادِى رشيدٌ للأمينِ تَكَفَّلا
وأعقب بالمأمونِ مُعْتَصِم غدا ... بَوَائقه يسْتَتْبع المُتَوَكِّلا
ومنتصرٌ والمستعِينُ وبعدَهُ ... لمعتزٌ المَتْلُوّ بالمهتدي اقْبَلا

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٦٩ .
(٢) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٨٢ .
(٣) ينظر: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٧٠ - ١٧١، ذيل الروضتين ٢١٣، ذيل مرآة الزمان ١/ ٤٥٤، تاريخ الخلفاء ٣٨٢ .

ومعتمدٌ يَقْفُوه معتضِدٌ وعَنْ سنا المكتفى يتلوه مقتدرٌ سلا
وبالقاهِرِ الراضِى يُفوِّضُ متقٍ وثَانِيهِ مُسْتَكْفٍ مطيع تفضَّلا
وطائعُهُمْ للَّهِ باللَّهِ قادرٌ وقائمُهُمْ بالمقتدي استَظْهر العلا
ومسترشدٌ والراشدُ المكتفي بِهِ ومستنجدٌ والمستضِي نَاصِرٌ جلا
فظاهِرُهُمْ مستنصرٌ قد تكمَّلوا فإن آت تقصيرًا فكُنْ متطوِّلا

قلت: ولم يذكر عبد الله بن المعتز فيهم، وقد ذكره بعض المؤرخين، وبعضهم لم يذكره؛ لكونه ولى نصف يوم أو نحوه؛ فلذلك تركه الناظم.

ثم صار الملك فى مصر، والحل والعقد إلى ملوك الأتراك، ثم الجراكسة ثم العثامنة، وقد كانوا يعينون واحدًا من أولاد العباس للخلافة، ويكون كواحد من العامة لا حلٌ له ولا عقد يجاب، ولا يسمع، ولا يفكر فى رأى له فيتبع.

فأول من ورد إليهم مصر المستنصر الذى تقدم ذكر قدومه إليها على الملك الظاهر بيبرس؛ فجهزه وسيره إلى بغداد فتم عليه ما تم، ثم وصل بعده إلى مصر من بنى العباس أبو العباس أحمد بن الراشد بن المسترشد، ولقب بالحاكم بأمر الله[1]، فأكرمه الظاهر بيبرس أيضًا، وأثبت نسبه بحضرة قضاة الشرع وبايعه بالخلافة، فأجرى عليه النفقة وسكن بمصر، وليس له من الأمر شيء وإنما اسمه الخليفة، واستخلف أولاده من بعده على هذا النسق ليس لهم إلا اسم الخلافة، يأتون به إلى السلطان الذى يريد توليته، فيقول له: وليتك السلطنة. هكذا كانوا بألقاب الخلفاء واحدًا بعد واحد، وكانت سلاطين الأقاليم يتبركون بهم، ويرسلون إليهم أحيانًا يطلبون تقليد السلطنة، فيكتبون إليهم تقليدًا ويعهدون إليهم بالسلطنة عهدًا.

ولا يخفى أن هؤلاء ليس لهم من الخلافة إلا الصورة، كما كانت الخلفاء البغداديون المحجور عليهم من جانب أمرائهم، وإنما لهم الاسم المجرد عن المعنى من كل وجه، وعدتهم ثمانية عشر خليفة، أولهم: المستنصر الذى جهزه الملك الظاهر بيبرس إلى بغداد فوقع له فى الطريق ما وقع، وإنما عددناه منهم لأن ولايته بمصر، وآخرهم: محمد المتوكل على الله ابن المستمسك بالله يعقوب، وهذا

(١) ينظر [الحاكم بأمر الله] فى: البداية والنهاية ١٣/ ٢٧٥، تاريخ الخلفاء ٣٨٢، الدرر الكامنة ١/ ١١٩، فوات الوفيات ١/ ٦٨، الأعلام للزركلى ١/ ١١١.

المستمسك هو آخر من ذكره العلامة السيوطى فى منظومته فى الخلفاء[١].

واستمر المستمسك بالله خليفة إلى أن كبرت سنه، وكف نظره، ودخلت أيام الدولة العثمانية، وافتتحت الديار المصرية، فأخذه السلطان سليم معه إلى « اسطنبول » واستمر بها إلى أن مات السلطان سليم، ثم عاد إلى مصر فخلع، وولى ولده المتوكل على بن المستمسك فى شعبان سنة أربع عشرة وتسعمائة، واستمر خليفة إلى أن توفى ثانى عشر شعبان سنة خمس وتسعين وتسعمائة، فى أيام المرحوم داود باشا صاحب مصر، وبانى رباط الداودية ومدرستها المعروفة به، وبموته انقطعت الخلافة الصورية أيضا بمصر، وكان المتوكل فاضلاً أديبًا له شعر حسن، منه قوله: [من البسيط]

لم يبقَ محتسبٌ يُرجَىٰ ولا حسنٌ	ولا كريمٌ إليه مُشْتَكَىٰ حَزَنِي
وإنما سَادَ قومٌ غيرُ ذى حَسَبٍ	ما كنتُ أوثرُ أنْ يمتدَّ بى زَمَنِي

قال العلامة قطب الدين: اجتمعت به رحلتى إلى مصر سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة، وأخذت عنه. وهذه قصيدة العلامة السيوطى[٢] المتضمنة لذكر الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين البغداديين والمصريين، ومدة وفياتهم، وهى غاية فى ضبط أولئك. قال رحمه الله تعالى: [من البسيط]

ألحمدُ للَّهِ حمدًا لا نَفَادَ له	وإنما الحمدُ حقًّا رأسُ مَنْ شكَرَا
ثمَّ الصلاةُ على الهادِى النبيِّ ومَنْ	سادَتْ بنسبته الأشرافُ والأُمَرَا[٣]
إنَّ الأمينَ رسُولَ اللَّهِ مبعثُهُ	لأَربعينَ مضَتْ فيما رَوَوْا عُمُرَا
وكانَ هجرتُهُ منها [لطَيْبَةَ مِنْ][٤]	بعد الثلاثةِ أعوامًا تلى عَشَرَا
وماتَ فى عامِ إحدى بَعْدَ عَشْرتها	فيا مصيبةَ أَهْلِ الأرضِ حينَ سَرَىٰ
وقامَ مِنْ بعده الصِّديقُ مجتهدًا	وفى ثلاثة عشر بَعْدَهُ قُبِرا
وهو الذى جَمَعَ القرآنَ فى صحفٍ	وأولُ النَاسِ سَمَّىٰ المُصْحَفَ الزُّبُرَا
وقامَ من بعدِهِ الفاروقُ ثُمَّتَ فِي	عشرينَ بعْدَ ثلاثٍ غَيَّبوا عُمَرا

---

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء ص ٤١٣ .

(٢) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٤١٤ - ٤١٨ . وهناك أبيات لم يوردها المصنف هنا .

(٣) فى تاريخ الخلفاء: الكبرا .

(٤) فى تاريخ الخلفاء: لطيبته .

وَهْوَ الذى اتخَذَ الديوانَ وافترَضَ الْ — عَطاءَ قَبلُ وبيتَ المالِ والدُّرَرَا
وَهْوَ المسمَّىٰ أميرَ المؤمنينَ ولم — يُدْعَىٰ به قَبْلَهُ شخصٌ مِنَ الأُمَرَا
وقام عثمانُ حتَّىٰ جاءَ مَقْتَلُهُ — بعد الثلاثينَ فى خَمسٍ(١) وقد حُصِرا
وبعدُ قامَ عليٌّ ثمَّ مقتلُهُ — لأربعينَ فمَنْ أوداه قد خَسِرَا
ثم ابنُهُ السِّبْطُ نصفَ العامِ ثُمَّ أتَىٰ — بنو أميَّةَ يَبْغونَ الوغَىٰ زُمَرَا
فسلَّم الأمرَ فى أُخرَىٰ لِرَغْبَتِهِ — عن دارِ دُنْيَا بلا ضَيْرٍ ولا ضَرَرَا

الخلفاء الأمويون:

وكان أولَ ذِى مُلكٍ معاويةٌ — فى النِّصْفِ من عامِ ستينَ الحِمَامُ عَرا
ثمَّ اليزيدُ ابنُهُ أَخْبِثْ به ولدًا — فى أربعٍ بعدها ستُّونَ قد قُبِرَا
وابنُ الزبَيْرِ وفى سبعينَ مَقْتَلُهُ — بعد الثلاثِ وكَمْ بالبيتِ قد حُصِرا
وفى ثمانينَ مَعْ ستٍّ عليه قضى — عبدُ المليكِ به الأمرَ الذى اشتُهرا
ثم الوليدُ ابنُهُ فى قَبْلِ مَا رَجَبٍ — فى الستِّ من بعدِ تسْعِينَ انقضَىٰ عُمُرا
وَهْوَ الذى مَنَعَ الناسَ النداءَ له — باسْمٍ وكانتْ تُنَادَىٰ باسمِها الأُمَرَا
وقامَ بَعْدُ سليمانُ الخِيَارُ وفِي — تسعٍ وتسعينَ جاء الموتُ فى صَفَرَا
وبعدَه عُمَرٌ ذاكَ النجيبُ وفِى — إحدَى تلى مائةً قد أَلْحَدُوا عُمَرَا
وَهْوَ الذى أمر الزهْرِيَّ خَوْفَ ذَهَا — بِ العلم أنْ يجمَعَ الأَخبارَ والأَثَرا
ثم اليَزِيدُ فَفِي خَمْسٍ قَضَىٰ وتَلاَ — هِشَامُ في الخَمْسِ والعِشْرينَ قَدْ سطرا
ثم الوليدُ وبعد العام [مقتله — من بعد ما جاء بالفسق الذى شهرا
ثم اليزيد وفى ذا العام](٢) مات وقد — أقام ست شهور مثل ما أثرا
وبعدَهُ قامَ إبراهيمُ ثم مضَىٰ — بالخلعِ سبعينَ يومًا مذ أقامَ ثرا
وبعده قامَ مروانُ الحمارُ وفي — ثنتينِ بعد ثلاثينَ الدماءُ جَرَىٰ

الخلفاء العباسيون :

وقام مِنْ بَعْدِهِ السَّفَّاحُ ثمَّ قَضَىٰ — بعدَ الثلاثينَ فى ستٍّ وقد جُدِرَا
وقامَ مِنْ بعدِهِ المنصورُ ثمَّتَ في — خمسينَ بعد ثمانٍ مُحْرِمًا قُبِرا

---

(١) فى تاريخ الخلفاء: ست .
(٢) ما بين المعكوفين سقط من ط، وأثبتناه من تاريخ الخلفاء .

ثم ابنُهُ وَهُوَ المهديُّ ماتَ لدَىٰ … تسعٍ وستينَ مَسْمُومًا كما ذُكِرَا
ثم ابنُهُ وَهُوَ الهادِى وموتَتُهُ … فى عامِ سبعينَ لمَّا هَمَّ أنْ غَدَرَا
ثم الرشيدُ وفِى تسعين تاليةٍ … ثلاثةً ماتَ فى الغزوِ الرَّفِيعِ ذُرَا
ثم الأمينُ وفى تسعينَ تاليةٍ … ثمانيًا جاءه قتلٌ كما ذُكِرَا
وقامَ مِنْ بعده المأمونُ ثمَّتَ في … ثمانِ عشرةَ كان الموتُ فاعْتَبِرا
وقامَ معتصمٌ مِنْ بعدِهِ وقضَىٰ … فى عامِ سبعٍ وعشرينَ الذى أُثِرَا
وَهْوَ الذى أدخَلَ الأَتراكَ منفردًا … ديوانَهُ واقتناهُمْ جالبًا وشرا
ثم ابنُهُ الواثِقُ المالى الورَىٰ رُعبًا … وفى ثلاثينَ مَعْ ثِنْتَيْنِ قد غَبَرَا
وذو التوكُّلِ ما أزكاهُ من خُلُقٍ(١) … ومظهرُ السُّنَّةِ الغَرَّاءِ إذ نَصَرَا
فى عامِ سبعٍ تليهَا أربعُونَ قَضىٰ … قتلاً حَبَاه ابنُه المدعوُّ منتَصِرَا
فلم يَقُمْ بعدَهُ إلاَّ اليسيرَ كَمَا … قد سَنَّهُ الله فيمَنْ بعضَه غَدَرَا
والمستعينُ وفى عامِ اثنتينِ تَلاَ … خمسينَ خَلْعٌ وقتلٌ جاءه زُمَرَا
وَهْوَ الذى أحدثَ الأكمامَ واسعةً … وفى القلانِسِ عن طُولٍ أَتَى قِصَرَا
وقامَ مِنْ بَعْدِه المعتزُّ ثُمَّتَ في … خمسٍ وخمسينَ حَقا قتلُهُ أثرَا
والمهتدِى الصَالِحُ الميمونُ مَقْتَلُهُ … مِنْ بعدِ عَامٍ وقفى قبله عمرا
أقامَ مِنْ بَعْدِهِ بالأَمْرِ مُعْتَمِدٌ … فى عامِ تسعٍ وسبعين الحِمَامُ عَرَا
وذاكَ أولُ ذِى أمرٍ له حَجَرُوا … وأولُ الناسِ موكولاً به قُهِرَا
وقام مِنْ بعده بالأمرِ معتضدٌ … وفى ثمانينَ مَعْ تسع مضتْ قُبِرَا
ثم ابنُهُ المكتفي بالله أحمدُ فِي … خمسٍ وتسعينَ وافاه(٢) الذى قدرَا
فى عامِ عشرينَ فى شوالَ بَعْدَ مُضِي … ثلاثةٍ قُتِلَ المدعوُّ مُقْتَدِرَا
وبعدَهُ القاهِرُ الجَبَّارُ مخلَعُه … فى اثنينِ مِنْ بعد عشرين وقد سُمِرَا
وقام من بعدِهِ الراضى وَمَاتَ لَدَىٰ … تسعٍ وعشرينَ وانسُبْ عِنْدَهُ أَخَرَا
والمتَّقي وَمَضَىٰ بالخَلْعِ مُشْتَمِلاً … من بعد أربعةِ الأعوامِ فى صَفَرا
وقام بالأمرِ مستكفيهِمُ وَقَفَا … من بعدِ عامٍ لأمرِ المتقي أَثَرَا

(١) فى تاريخ الخلفاء: خلف .
(٢) فى التاريخ للسيوطى: سبحان .

ثم المطيعُ وفى ستينَ يتبعُهَا ... ثلاثةٌ فى أخيرِ العامِ قد غَبرَا
ثم ابنُه الطائعُ المقهورُ مخلَعُهُ ... عامَ الثمانينَ مَعْ إحْدَىٰ كما أُثِرَا
ثم الإمامُ أبو العباسِ قادرُهم ... فى اثنينِ مِنْ بعد عشرينَ مَضَتْ قُبِرَا
ثم ابْنُهُ قائِمٌ لله ماتَ لَدَىٰ ... سبعٍ وستينَ مِنْ شعبانَ قَدْ سُطِرَا
والمقتدِي ماتَ فى تسعٍ(١) بأوَّلِهَا ... بَعْدَ الثمانينَ جدَّ الملك واقتدَرَا
وَقَامَ مِنْ بَعدِه مستظهِرٌ وقَضَىٰ ... فى خامسِ القرنِ فى اثنينِ تلِى عَشرَا
وقام مِنْ بعدهِ مسترشدٌ ولَدَىٰ ... تسعٍ وعشرين فيه القَتْلُ حَلَّ عُرَا
ثمَّ ابنُهُ الراشدُ المقهورُ مَخْلَعُهُ ... مِنْ بعد عامٍ فلا عينٌ ولا أَثَرَا
والمقتفي ماتَ مِنْ بَعْدِ التَمَكُّنِ فِي ... خمسٍ وخمسِينَ وانقادَتْ له النُّصَرا
وقَامَ مِنْ بعدهِ مستنجدٌ وقَضَىٰ ... من بعدِ ستينَ مَعْ سِتٍّ وقد شعرا
والمستضىءُ بأمر الله ماتَ لَدَىٰ ... خمسٍ وسبعين بالإحسان قد بَهَرا
وقام مِنْ بعدهِ بالأمرِ ظاهِرُهُم ... تسعًا شهورًا فأقلل مدةً قِصَرَا
وقام مِنْ بعدهِ مستنصرٌ وقَضَىٰ ... لأربعينَ وكَمْ تَرْثِيهِ مِنْ شُعَرَا
وقام مِنْ بعدهِ مستعصمٌ ولَدَىٰ ... ستٌّ وخمسينَ كَانَ الفتنةُ الكبرَىٰ
جاء التتارُ فَأَرْدَوْهُ وبلدتَهُ ... فيلعنُ اللَّهُ والمخلوقةُ التَّتَرَا
مرتْ ثلاثُ سنين بعدَهُ وَيلى ... نصفٌ ودَهْرُ الرَّدَىٰ عَنْ قائمٍ شغرَا(٢)

الخلفاء العباسيون المصريون:

وقامَ مِن بعد ذا مستنصرٌ وثَوَىٰ ... فى آخِرِ العام قَتْلاً مِنْهُمُ وسرى(٣)
أقام ستَّ شهورٍ ثم رَاحَ لَدَى ... مُهَلٌ ستينَ لَم يَبْلُغْ بها وَطَرَا
وقام مِنْ بعده فى مصرَ حاكِمُهُمْ ... على وَهَى لا كَمَنْ مِن قَبْلُ قد غَبرَا
ومات(٤) فى عام إحدى بَعْد سبع مِئِى ... وقام من بعدُ مستكفيهمُ وجَرَىٰ
فى أربعينَ قضىٰ إذ قام واثِقُهُمْ ... فَفِى اثنتينِ قضىٰ خلعا مِنَ الأمَرَا

---

(١) فى تاريخ الخلفاء: سبع .
(٢) المثبت من تاريخ الخلفاء. ووقع فى ط ثغرًا .
(٣) فى ط: أشرا. والمثبت من تاريخ الخلفاء .
(٤) فى ط: وقام. والمثبت من تاريخ الخلفاء .

وقام حاكمُهُمْ مِنْ بعدِه وقضىٰ عَامَ الثلاثِ مع الخَمْسِينَ معتبرَا
فقام مِنْ بعدِه بالأمرِ معتضدٌ وفى الثلاثةِ والستينَ قَدْ غَبرَا
وذو التوكُّلِ يتلوهُ أَقَامَ إلىٰ بعدَ الثمانينَ فى خمسٍ وقد حُصِرَا
وبايَعُوا واثقًا بالله ثُمَّتَ فى عامِ الثمانِ قَضَىٰ وسَمَّه عُمَرا
وبايَعُوا بعدَهُ بالله معتصمًا فى عامِ إحدى وتسعينَ أُزِيل وَرَا
وذو التوكُّل رَدُّوهُ أقامَ إلى ذا القرنِ عامَ ثمانٍ منه قَد قُبِرَا
أولادُه منهمُ خمسٌ مبجلةٌ حازوا الخلافةَ إِذْ كانَتْ لَهُمْ قَدَرَا
والمستعينُ وآلَ الأمرُ أن خلعوا فى شهرِ شعبان فى خمسٍ تَلي عَشَرَا
وقام مِنْ بعدِه بالأمر معتضدٌ لأربعينَ تليها الخمسةُ احتُضِرَا
وقام بالأمر مستكفيهمُ وقَضَىٰ فى عامِ الأَرْبع والخمسينَ مُضْطَبِرَا
وقام قائِمهُمْ من بعدُ ثُمَّتَ في سبعٍ وخمسينَ بعد الخلع قد حُصِرَا
وقام مِنْ بعدِه مستنجدٌ دَهرًا خلِيفة العَصْرِ رقَّاهُ الإله ذُرَا
وبعدَ نظمِىَ هذا النظمَ فى مُدَدٍ قَضَىٰ خليفتُنا المذكورُ مصطَبِرَا
فى عام الأَرْبَعِ من شهرِ المحرَّمِ مِنْ بعدِ الثمانينَ يومَ السبت قَدْ قُبِرَا
وبويع ابنُ أخيه بَعْدَهُ ودُعِى بذي التوكُّلِ كالَجْد الذى شُهِرَا
وماتَ عامَ ثلاثٍ بعد تِسْعِمِئِى سلخ المحرَّمِ عَنْ عهدٍ له سطرَا
لنجله البرِّ يعقوبَ الشريفِ وَقَدْ لُقِّبَ مستمسكًا بالله فى صَفَرَا

هذا آخر ما نظمه العلامة السيوطى، وقال بعضهم: فذكر خلع المستمسك هذا بعد طول عمره وكبر سنه وانكفاف نظره وولاية ابنه محمد المتوكل على الله بن المستمسك بالله – فقال:

وكان خلعٌ له فى عام أربعةٍ من بعد عَشْرَةَ فى شعبانَ قد شُهِرَا
ولم يكنْ خَلْعُهُ من أجلِ مَنْقَصَةٍ فى دينِه ثم دنياهُ وليسَ جَرَى
شبيهُ ذاكَ ولكنْ أمرُ خالِقنَا مُذْ حلَّ فى عينه فأَذْهَبَ البَصَرَا
وأهلُ حَلٍّ وعَقْدٍ بايَعُوا بِرِضَا لِنَجْلهِ لَيْسَ فِيهِمْ واحدٌ غَدَرَا
بذى التوكُّلِ حقًّا لقبُوهُ وَقُلْ محمدٌ إِسمه لاَ زَال مُنْتَصِرَا
فى ساعةِ الخلع والمخلوعُ والدُه كانَتْ بَنُو عَمِّهِ راضِينَ ما ذكَرَا

الباب الثالث
فى الدولة العبيدية(١)
المسمَّين بالفاطميين(٢) بالمغرب ثم بمصر

اعلم أن بنى العباس حين ولوا الخلافة امتدت إيالتهم على جميع ممالك الإسلام، كما كان بنو أمية من قبلهم، ثم لحق بالأندلس من فلِّ بنى أمية من ولد هشام بن عبد الملك - حفيده عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، ونجا من تلك الهلكة، فأجاز البحر ودخل الأندلس فملكها من يد عبد الرحمن بن يوسف الفهرى، وخطب للسفاح فيها حولاً، ثم لحق به أهل بيته من المشرق فعذلوه فى ذلك، فقطع الدعوة عن السفاح وبقيت بلاد الأندلس منقطعة عن الدولة الإسلامية من بنى العباس.

ثم كانت وقعة « فخ » أيام الهادى أخى الرشيد علىٰ بنى الحسن بن على سنة تسع وستين ومائة، وقتل داعيتهم يومئذ الحسين بن على بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، وجماعة من أهل بيته، ونجا آخرون، وخلص منهم إدريس بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى إلى المغرب الأقصى، وقام بدعوته البرابر هنالك؛ فاقتطع المغرب عن بنى العباس، واستحدثوا هنالك دولة لأنفسهم،

---

(١) أجمع أهل العلم على تقبيح سيرة الفاطميين فالعلامة السيوطى لم يورد - فى تاريخه عمدًا - أحدًا منهم بالتفصيل . حيث علل ذلك بأن إمامتهم غير صحيحة حيث إنهم غير قرشيين فجدهم مجوسى وأكثرهم من الزنادقة الخارجين عن الإسلام فمنهم من أظهر سبَّ الأنبياء ومنهم من أباح الخمر ومنهم من سبَّ الصحابة، يقول الشيخ الباقلانى عن المهدى العبيدى. كان باطنيًا خبيثًا حريصًا على إزالة ملة الإسلام .ويقول الذهبى عنهم: «كانوا على ملة الإسلام شرًا من التتر» .

وقد أجمع العلماء بالقيروان على أن حال بنى عبيد حال المرتدين والزنادقة لما أظهروا من خلاف الشريعة .

ومن أعظم الأقوال فيهم قول الذهبى - فيهم - كانوا أربعة عشر متخلفًا لا مستخلفًا . ينظر فى الدولة العبيدية: اتعاظ الحنفا للمقريزى فقد أفرده المقريزى لدولتهم، تاريخ الخلفاء للسيوطى ٤٢٠، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٣٦٤، النجوم الزاهرة ٣/ ١٦٦، الكامل لابن الأثير ٨/ ٤٧ - ٥٠، العبر للذهبى ٢/ ٣٧، المواعظ والاعتبار ١/ ٣٥١، ٢/ ١١، البيان المغرب ١/ ٢٩٨، وفيات الأعيان ١/ ١٥٨ .

(٢) نسبتهم إلى السيدة فاطمة عليها السلام جهل وافتراء يقول العلامة السيوطى فى تاريخه: «وإنما سمتهم بالفاطميين جهلة العوام، فجدهم مجوسى» ينظر تاريخ الخلفاء ص ٤ .

ثم ضعفت الدولة العباسية بعد الاستفحال، وتغلب على الخليفة بها الأولياء والقرابة والمصطنعون، وصار تحت حجرهم من حين قتل الخليفة المتوكل العباسى، وحدثت الفتن ببغداد، وصار العلوية إلى النواحى مظهرين لدعوتهم، فدعا أبو عبد الله الشيعى سنة ست وثمانين ومائتين بإفريقية فى كتابه لعبيد الله المهدى بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وبايع له، وانتزع إفريقية من بنى الأغلب واستولى عليها وعلى المغرب الأقصى ومصر والشام، واقتطعوا سائر هذه الأعمال عن بنى العباس، واستحدثوا دولة أقامت مائتين وسبعين سنة كما يذكر الآن فى أخبارهم، ثم ظهر بطبرستان من العلوية الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط، ويعرف بالداعى، خرج سنة خمسين ومائتين أيام المستعين، ولحق بالديلم فأسلموا على يديه، وملك طبرستان ونواحيها، وصار له هناك دولة أخذها من يد أخيه سنة إحدى وثلاثمائة الأطروش من بنى الحسين، ثم من بنى على بن عمر داعى الطالقان أيام المعتصم. وسيأتى ذكر ذلك فى الباب الثانى من الخاتمة عند ذكر من دعا من أهل البيت. واسم هذا الأطروش الحسن بن على بن الحسين بن على بن محمد، وكانت لهم دولة وانقرضت أيام الخمسين والثلاثمائة، واستولى عليها الديلم، وصارت لهم دولة أخرى فظهر باليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى، وهو ابن إبراهيم طباطبا، لقب بذلك للكنة كانت فى لسانه يعدل عن لفظ قبا قبا إلى طبا طبا ابن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى، وأظهر هنالك دعوى الزيدية وملك « صعدة » و« صنعا »، وكانت لهم هنالك دولة لم تزل حتى الآن، وأول من ظهر منهم يحيى ابن الحسين بن القاسم سنة تسعين ومائتين. وسيأتى ذكرهم فى الدعاة للمبايعة.

ثم ظهر أيام الفتنة من دعاة العلوية صاحب الزنج، ادَّعى أنه أحمد بن عيسى بن زيد الشهيد، وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين أيام المهتدى، وطعن فى نسبه؛ فادعى ثانيًا أنه من ولد يحيى بن زيد قتيل الجوزجان، وقيل: إنه انتسب إلى طاهر ابن الحسين بن على. والذى ثبت عند المحققين أنه على بن عبد الرحيم بن عبد القيس، فكانت له ولبنيه دولة بنواحى البصرة، قام بها الزنج إلى أن انقرضت على يد الموفق طلحة المعتمد أيام السبعين ومائتين.

ثم ظهر القرمطى بنواحى البحرين وعمان، سار إليهما من الكوفة سنة تسع وسبعين ومائتين أيام المعتضد، وانتسب إلى بنى إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق دعوى كاذبة. وكان من أصحابه الحسن الجبائى وزكرويه القاشانى؛ فقاما بالدعوة من بعده ودعوًا لعبيد الله المهدى، وغلبوا على البصرة والكوفة، ثم انقطعوا عنها إلى البحرين وعمان، وكانت هنالك دولة انقرضت آخر المائة الرابعة، وتغلب عليهم العرب من بنى سليم وبنى عقيل.

وفى خلال ذلك استبد بنو سامان بما وراء النهر آخر أعوام الستين والمائتين، وأقامت دولتهم إلى آخر المائة الرابعة، ثم اتصلت دولة أخرى فى مواليهم بِغَزْنَةَ إلى منتصف المائة السادسة.

وكانت للأغالبة بالقيروان وإفريقية دولة أخرى استبدوا بها على الخلفاء من لدن أيام الرشيد والمأمون إلى أول المائة الثالثة، ثم أعقبتها دولة أخرى لمواليهم بنى طغج، موالى كافور إلى الستين والثلاثمائة.

ثم استولى المعز الفاطمى على مصر بعد موت كافور لما افتتحها له عبده جوهر الرومى الصقلى، واختط القاهرة والجامع الأزهر والقصرين، واستمرت فى يد أولاده إلى سنة سبع وستين وخمسمائة، حتى كان أخرهم العاضد، فاستولى عليه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردى، وقطع خطبة الفاطميين، وأعاد الخطبة بمصر لبنى العباس، للمستضئ بن المستنجد منهم، بعد أن قطعت عنهم مائتين ونيفًا وثمانين سنة، مدة استيلاء الفاطميين عليها كما سيأتى ذكر كل ذلك فى الدولة الأيوبية.

ثم عقبها دولة أخرى لمواليهم، وهى الدولة التركمانية الذين أولهم المعز أيبك التركمانى، ثم عقبتها دولة أخرى لمواليهم، وهى الدولة الشركسية، ثم عقبتها دولة أخرى وهى العثمانية، وسيأتى ذكر كل دوله فى باب على حدة على ترتيب ما ذكرناه.

وفى خلال هذا كله تضايق نطاق الدولة العباسية بخروج المستبدين بالنواحى عليها، ولم يمتد نطاقها إلا إلى نواحى السواد والجزيرة فقط، إلا أنهم قائمون ببغداد على أمرهم.

ثم كانت للديلم دولة أخرى، واستولوا فيها على النواحى، وملكوا الأعمال. ثم ساروا إلى بغداد وملكوها، وصيروا الخليفة فى مملكتهم من لدن المستكفى أعوام الثلاثين والثلاثمائة إلى الأربعمائة والخمسين، فكانت مدتهم مائة وعشرين سنة، وكانت من أعظم الدول.

ثم أخذها من أيديهم الملوك السلجوقية إحدى شعوب الترك، فلم تزل دولتهم من لدن القائم بأمر الله العباسى سنة الأربعين وأربعمائة أو الخمسين إلى آخر المائة السادسة، وكانت دولتهم كذلك من أعظم الدول فى العالم، وتشعبت عنها دول لهم ولأشياعهم فى النواحى، وهى باقية لهذا العهد آخذة فى التلاشى. كما سنذكر كلا فى محله من بابه المعقود له.

نسب العبيديين بإفريقية

قد اختلف الناس فى صحة نسب هؤلاء العبيديين القائمين بإفريقية ثم بمصر؛ فأثبت نسبهم وصححه جماعة ونفاه جماعة كثيرون. قال العلامة ابن خلكان:(١) والجمهور على عدم صحة نسبهم، وأنهم كذبة أدعياء، لا حظ لهم فى النسبة المحمدية أصلاً.

فممن أثبت نسبهم العلامة ابن خلدون فى تاريخه فقال:

نسبة هؤلاء العبيديين إلى أول خلفائهم، وهو عبيد الله المهدى بن محمد الحبيب ابن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق، ولا عبرة بمن أنكر هذا النسب من أهل القيروان وغيرهم، ولا بالمحضر الذى كتب ببغداد أمام القادر بالله العباسى بالقدح فى نسبهم، وأشهد فيه أعلام الأئمة مثل القدورى، والصيمرى، وأبى العباس الأبيوردى، وأبى حامد الأسفراييني، وأبى الفضل النسوى، وأبى جعفر النسفى، ومن العلويين المرتضى، وابن البلجانى، وابن الأزرق، وزعيم الشيعة أبى عبد الله بن النعمان؛ فهى شهادة على السماع.

وكان ذلك القدح متصلاً فى دولة العباسيين منذ مائتين من السنين، فاشيًا فى أمصارهم وأعصارهم عند أعدائهم شيعة بنى العباس؛ فتلون الناس بمذهب أهل

(١) ينظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ١١٧ - ١١٨ .

الدولة، فجازت شهادتهم بذلك، والشهادة على السماع فى مثله جائزة، على أنها شهادة نفى؛ فلا تعارض شهادة المثبت، مع أن طبيعة الوجود فى الانقياد إليهم، وظهور كلمتهم، حتى فى مكة والمدينة - أدل شيء على صحة نسبهم.

وأما من يجعل نسبهم فى اليهودية والنصرانية كميمون القداح، فكفاه إثمًا وسفسفة. وكان شيعة هؤلاء العبيديين فى المشرق واليمن وإفريقية، وكان أصل ظهورهم بإفريقية دخول الحلوانى وأبى سفيان من شيعتهم إليها، أنفذهما جعفر الصادق وقال لهما: بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجئ صاحب البذر، فنزل أحدهما ببلد « مرغة » والآخر ببلد « سوف جمار »، وكلاهما من أرض كتامة؛ ففشت هذه الدعوة فى تلك النواحى.

وكان محمد الحبيب ينزل « سلمية » من أرض حمص، وكان شيعتهم يتعاهدونه بالزيارة إذا زاروا قبرالحسين، فجاء محمد بن الفضل من « عدن لاعة » من اليمن لزيارة محمد الحبيب، فبعث معه رستم بن الحسن بن حوشب من أصحابه؛ لإقامة دعوته باليمن، وأن المهدى خارج فى هذا الوقت، فسار فأظهر الدعوة للمهدى من آل محمد بنعوته المعروفة عندهم، واستولى على أكثر اليمن وسمى بالمنصور، وابتنى حصنًا بجبل « لاعة »، وفرق الدعاة فى اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب.

ولما توفى محمد الحبيب عهد إلى ابنه عبيد الله وقال له: أنت المهدى، وتهاجر بعدى هجرة بعيدة فتلقى محنًا شديدة. واتصل خبره بسائر دعاته فى إفريقية واليمن، وبعث إليه أبو عبد الله الشيعى رجالاً من كتامة يخبرونه بما فتح الله عليهم، وأنهم فى انتظاره، وشاع خبره واتصل بالخليفة العباسى على المكتفي، فطلبه ففر من أرض الشام إلى العراق، ثم لحق بمصر ومعه ابنه الآخر أبو القاسم غلامًا حدثًا، وخاصته ومواليهم، بعد أن كان أراد قصد اليمن فبلغه ما أحدث بها على بن الفضل، وأنه أساء السيرة، فانثنى عن ذلك، واعتزم على اللحاق بأبى عبد الله الشيعى داعيتهم بالمغرب، فارتحل هو ومن معه من مصر إلى الإسكندرية، ثم خرجوا من الإسكندرية فى زى التجار، وجاء كتاب المكتفى إلى عامل مصر - وهو يومئذ عيسى النوشرى - بخبرهم والقعود لهم بالمراصد، وكتب إليه بنعته وحليته فسرح

فى طلبهم، ثم وقف عليهم وامتحن أحوالهم؛ فلم يقف على اليقين فى شيء منها فخلى سبيلهم، وجدَّ المهدى فى السير، وكانت له كتب فى الملاحم منقولة من آبائه، سرقت من رَحْلِهِ فى طريقه، فيقال: إن ابنه أبا القاسم استردها من « برقة » حين زحف إلى مصر.

ثم إن المهدى أغزى ابنه أبا القاسم، وجموع كتامة سنة إحدى وثلاثمائة إلى الإسكندرية ومصر، وبعث أسطوله فى البحر فى مائتى مركب، وشحنها بالأمداد، وعقد عليها لحباسة بن يوسف، فسارت العساكر فملكوا برقة والإسكندرية والفيوم، فبعث المقتدر عساكر من بغداد مع سُبكتكين ومؤنس الخادم؛ فتواقعوا معهم مرارًا وأجلوهم عن مصر؛ فرجعوا إلى المغرب.

ثم أعاد المهدى حباسة فى العسكر فى البحر سنة اثنتين وثلاثمائة إلى الإسكندرية فملكها، وسار يريد مصر، فجاء مؤنس الخادم من بغداد لمحاربته فتواقعوا مرات، وكان الظهور آخرًا لمؤنس، وقتل من أصحاب حباسة حوالى سبعة آلاف، وانصرف إلى المغرب فقتله المهدى، فانتقض عليه لذلك أخو حباسة واسمه عروبة، واجتمع عليه من « كتامة » خلق كثير من كتامة والبربر؛ فسرح إليه المهدى مولاه غالبًا فى الجيوش؛ فهزمهم وقتل عروبة وبنى عمه فى أمم لا تحصى.

ثم اعتزم المهدى على بناء مدينة على ساحل البحر يتخذها معصمًا لأهل بيته، لما كان يتوقعه على الدولة من الخوارج. ويحكى عنه أنه قال: بنيتها ليعتصم بها الفواطم ساعة من نهار، وأراهم موقف صاحب الحمار بساحتها، فخرج بنفسه يرتاد موضعًا لبنائها، ومر بـ « تونس » وقرطاجنة حتى وقف على مكانها؛ جزيرة متصلة بالبر؛ كصورة كف اتصلت بزند فاختطها، وهى المهدية، وجعلها وأدار ملكه، وأدار عليها سورًا محكمًا، وجعل لها أبوابًا من الحديد، وزن كل مصراع مائة قنطار.

وابتدأ بناءها آخر سنة ثلاث وثلاثمائة، ولما ارتفع السور رمى من فوقه بسهم إلى ناحية المغرب ونظر إلى منتهاه، وقال: إلى هذا الموضع يصل صاحب الحمار - يعنى أبا يزيد - وأبو يزيد هذا خارجى خرج عليه، نهب باجة وغيرها، وأحرق وقتل الأطفال وسبى النساء، واجتمع إليه قبائل البربر، واتخذ الأخبيه والبيوت وآلات

الحرب، وأهدى إليه رجل حمارًا أشهب، وكان يركبه وبه لقب، وكان يلبس جبة صوف قصيرة ضيقة الكمين، وهو أبو يزيد بن مخلد بن كيداد، وكان جده كيداد من أهل « قسطيلية » من بلد « توزر »، وكان يختلف إلى بلاد السودان بالتجارة، وبها ولد ولده أبو يزيد المذكور، ثم أمر أن ينحت فى الجبل دار لإنشاء السفن تسع مائة سفين، ويخبأ في أرضها أهراء الطعام ومصانع للمياه، وبنى فيها القصور والدور، فكملت سنة ست وثلاثمائة. فلما فرغ منها قال: اليوم أمنت على الفواطم.

ثم جهز ابنه أبا القاسم بالعساكر إلى مصر مرة ثانية سنة سبع وثلاثمائة فملك الإسكندرية، ثم سار وملك الجيزة والأشمونين وكثيرًا من الصعيد، وكتب إلى أهل مكة بطلب الطاعة فلم يجيبوه إليها، وبعث المقتدر مؤنسًا الخادم فى العساكر؛ فكانت بينه وبين أبى القاسم عدة وقعات ظهر فيها مؤنس، وأصاب عسكر أبى القاسم الجهد من الغلاء والوباء، فرجع إلى إفريقية، وكانت مراكبهم قد وصلت من المهدية إلى الإسكندرية فى ثمانين أسطولاً؛ مددًا لأبى القاسم.

ثم توفى عبيد الله المهدى فى ربيع سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وولى بعده ابنه أبو القاسم محمد، ويقال: نزار، ولقب القائم بأمر الله؛ فعظم حزنه على أبيه، حتى يقال: إنه لم يركب سائر أيامه إلاَّ مرتين. وكثر الثوار عليه فى النواحى، فسير إليهم وأخذهم، واستباح أموالهم وديارهم، وحاصر الأدارسة ملوك الريف، ودخل المغرب وحاصر فاس، واستنزل عاملها أحمد بن بكر، ثم بعث عسكرًا إلى مصر مع خادمه « زيران » فملكوا الإسكندرية، فجاءت عساكر الإخشيد من مصر؛ فأزعجوهم عنها؛ فرجعوا إلى المغرب.

ثم توفى القائم أبو القاسم، محمد بن عبيد الله المهدى، صاحب إفريقية بعد أن عهد إلى ولده إسماعيل، وذلك سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة؛ فقام بعده ولده إسماعيل بعهده إليه، وتلقب بالمنصور. هذا ما ذكره ابن خلدون، ثم استمر فى ذكر تعدادهم - واحدًا بعد واحد - إلى آخرهم العاضد لدين الله.

وأما غير ما ذكره ابن خلدون فى شأنهم، فقال به جماعات كثيرون منهم الإمام الحافظ الذهبى فى تاريخه « دول الإسلام »، ونصه: اعلم أن مبدأ أمرهم ومنشأ خبرهم، أن الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله القداح - لأنه كان يعالج العيون

بالقدح فتبصر - ابن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنهم - قدم إلى « سلمية »، وكان له بها ودائع وأموال من ودائع جده عبد الله القداح، فاتفق أن جرى بحضرته ذكر النساء، فوصفت له امرأة يهودى حداد مات عنها زوجها، وهى فى غاية الحسن والجمال، وله منها ولد يماثلها فى الجمال، فتزوجها وأحبها، وحسن موضعها منه، وأحب ولدها فعلمه العلم، وصارت له نفس عظيمة وهمة كبيرة، وكان الحسين يدَّعِي أنه الوصِيّ وصاحب الأمر، والدعاة بالمغرب واليمن يكاتبونه، ولم يكن له ولد؛ فعهد إلى اليهودى ابن الحداد ربيبه، وأعطاه الأموال، وأمر أصحابه بطاعته وخدمته، وقال: إنه الإمام الرضى، وزوجه ابنة عمه، وهو جدهم عبيد الله فتلقب بالمهدى، ووضع لنفسه نسبًا هو عبيد الله بن الحسن بن عَلِيّ بن محمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، فلما توفى الحسين قام بعده المهدى هذا، فلما انتشرت دعوته أرسل إليه داعيه بالمغرب بما فتح الله عليه من البلاد، وأنهم ينتظرون قدومه إليهم؛ فشاع خبره عند الناس أيام المكتفى العباسى عليّ بن المعتضد؛ فطلبه فهرب هو وولده نزار الملقب بالقائم، وهو يومئذٍ غلام، ومعهما خاصتهما ومواليهما، فلما وصلا إلى إفريقية أحضر الأموال منها واستصحبها معه، فوصل إلى « رقادة » فى العشر الأخير من شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعين ومائتين، ونزل فى قصر من قصورها، وأمر أن يدعى له فى الخطبة فى جميع تلك البلاد، وجلس يوم الجمعة للمبايعة، وأحضر الناس بالعنف، ودعاهم لمذهبه، فمن أجاب أحسن إليه ومن أبى حبسه، فاستمر على ذلك إلى أن كانت وفاته سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

ثم قام من بعده ابنه نزار، وتلقب بالقائم بأمر الله تعالى، واستمر إلى أن مات سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

ثم قام من بعده ابنه إسماعيل، وتلقب بالمنصور. انتهى ما ذكره الحافظ الذهبى.

قال ابن خلكان(١) فى ترجمة المنصور هذا: وذكر أبو جعفر، أحمد بن محمد المروذى، قال: خرجت مع المنصور بن القائم بن المهدى العبيدى، صاحب

(١) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١/ ٢٣٤، ٢٣٥) باختصار.

إفريقية، يوم هزم أبا يزيد الخارجى فسايرته وبيده رمحان، فسقط أحدهما مرارًا، فمسحته وتفاءلت له فأنشدته: [من الطويل]

فألقَتْ عَصَاها واسْتَقَرَّ بِهَا النَّوىٰ كَمَا قَرَّ عَيْنًا بالإيابِ المُسافِرُ

فقال: هلا قلت ما هو خير من هذا وأصدق ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٧، ١١٩] فقلت: يا مولانا، أنت ابن رسول الله، قلت ما عندك لما عندك من العلم.

وكان المنصور شجاعًا رابط الجأش، فصيحًا بليغًا، يرتجل الخطب ارتجالاً، وتوفى بمدينته التى بناها وسماها « المنصورية ». انتهى ما ذكره ابن خلكان.

وإِفْرِيقِيَّة، بكسر الهمزة والفاء الساكنة والراء المكسورة بعدها مثناة تحتية فقاف مكسورة فمثناة تحتية مشددة: إقليم عظيم ببلاد المغرب، افتتح فى خلافة عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه.

ثم قام من بعده ابنه معد الملقب بالمعز بن إسماعيل(١)، الملقب بالمنصور بن نزار، الملقب بالقائم بن عبيد الله، الملقب بالمهدى. هذا المعز أول من ملك مصر من العبيديين، أرسل عبده جوهرًا الرومى الصقلى، أرسله من إفريقية بلاد المغرب؛ لأخذ بلاد مصر عند اضطراب جَيْشِهَا بعد موت كافور الإخشيدى، فلم يجتمعوا عليه؛ فأرسل بعضهم إلى المعز يستنجد به، فأرسل مولاه جوهرًا هذا فى ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، فوصل إلى القاهرة فى شعبان فى مائة ألف مقاتل، ومعه من الأموال ألف ومائتا صندوق، وقيل: خمسمائة صندوق، فانزعج الناس، وأرسلوا يطلبون إليه الأمان فآمنهم؛ فلم يرض الجيش بذلك، وبرزوا لقتاله فكسرهم وجدد الأمان لأهلها، ودخلها يوم الثلاثاء لثمان عشرة ليلة خلت من شعبان، فشق مصر ونزل فى مكان القاهرة اليوم وأسس من ليلته القصرين، وخطب يوم الجمعة

---

(١) ينظر [المعز لدين الله] فى: المنتظم ٧/ ٨٢، العبر للذهبى ٢/ ٣٣٩، مرآة الجنان ٢/ ٣٨٣، البداية والنهاية ١١/ ٢٨٣، الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٦٣، شذرات الذهب ٣/ ٥٢، دول الإسلام للذهبى ١/ ٢٢٦، كنز الدرر ١١٩، اتعاظ الحنفا ١/ ٩٣، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٠٣، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢٩٩، وفيات الأعيان ٥/ ٢٢٤ - ٢٢٨، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٥٩ - ١٦٧ .

الآتية وقطع الدعاء لبنى العباس، ودعا لمولاه المعز وذكر الأئمة الاثنى عشر، وأذن بحى على خير العمل، وكان يظهر الإحسان إلى الناس، ويجلس كل يوم سبت مع الوزير جعفر بن الفرات، واجتهد فى تكميل القاهرة، وفرغ من جامعها سريعًا وهو الجامع الأزهر المشهور، وأرسل أميرًا من أمرائه - يسمى جعفر بن فلاح - إلى الشام، فأخذها لسيده المعز، ثم قدم مولاه المعز فى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وصحبته توابيت آبائه، فلما وصل إلى الإسكندرية فى شعبان منها تلقاه أعيان مصر؛ فخطب الناس هناك خطبة بليغة ارتجالاً، ذكر فيها فضلهم وشرفهم، وقد كذب وقال: إن الله تعالى قد أغاث الرعايا بهم وبذويهم، حكى ذلك قاضى بلاد مصر، وكان جالسًا إلى جانبه، ثم إنه سأله: هل رأيت خليفة أفضل منى ؟ فقال القاضى: لم أر أحدًا من الخلائف سوى أمير المؤمنين، فقال له: أحججت ؟ فقال: نعم، قال: وزرت قبر النبى ﷺ ؟ قال: نعم، قال: وقبر أبى بكر وعمر. قال: فتحيرتُ ماذا أقول، ثم نظرت فإذا ابنه قائم مع كبار الأمراء فقلت: شغلنى رسول الله ﷺ عنهما، كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولى العهد، ونهضت إليهما فسلمت عليهما، ورجعت فانفسح المجلس إلى غير هذا المجال.

ثم سار من الإسكندرية إلى مصر فدخلها فى اليوم الخامس من رمضان من هذه السنة فنزل بالقصرين، ثم كانت أول حكومة انتهت إليه: أن امرأة كافور الإخشيدى تقدمت إليه فذكرت له أنها كانت أودعت رجلاً من اليهود الصواغ قباء من لؤلؤ منسوج بالذهب، وأنه جحدها ذلك؛ فاستحضره وقرره، فجحد اليهودى ذلك وأنكره فأمر عند ذلك المعز أن تحفر داره وأن يستخرج ما فيها فوجدوا القباء قد جعله فى جرة ودفنه، فسلمه المعز إليها، فتقدمت إليه وعرضته عليه فأبى أن يقبله منها ورده عليها، فاستحسن ذلك منه الحاضرون من مؤمن وكافر، وقد ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر »[1].

وفى بعض التواريخ: أنه سئل فى ذلك المجلس عن نسبه فاستل سيفه إلى نصفه بيمناه، وقبض قبضة من الذهب بيسراه فقال: هذا نسبى، وهذا حسبى. والله أعلم بصحة ذلك.

---

(١) تقدم فى غزوة الأحزاب .

وفى سنة ثلاثٍ وستين وثلاثمائة عملت الروافض البدعة الشنعاء يوم عاشوراء ببغداد؛ من تعليق المسوح، ونثر التتن فى الأسواق، وخروج النساء سافرات الوجوه والنهود، ينحن على الحسين رضى الله تعالى عنه. ووقعت فتنة عظيمة بين أهل السنة والروافض، وكلا الفريقين قليل عقلٍ بعيدٌ من السداد؛ وذلك أن جماعة من أهل السنة أركبوا امرأة جملاً وسموها عائشة، وتسمى بعضهم بطلحة والزبير، وقاتل مقاتل أصحاب على بن أبى طالب، فقتل من الفريقين خلق كثير، وعاثت العيارون فى البلد بالفساد، ونهبت الأموال، وقتل الرجال، ثم أخذ جماعة منهم فقتلوا وصلبوا فسكنت الفتنة(١).

قال العلامة ابن الأثير فى كامله(٢): لما استقر المعز الفاطمى فى الديار المصرية وتأطد ملكه، سار إليه الحسين بن أحمد القرمطى الأحسائى، قال ابن عساكر: وبقية نسبه: ابن أبى سعيد الحسن بن بهرام، ويقال: الحسن بن أحمد بن الحسن بن يوسف بن كودر كار، يقال: أصلهم من الفرس، قال: ويعرف الحسين هذا بالأعصم، وكان قد تغلب على دمشق سنة سبع وخمسين وثلاثمائة، ثم عاد إلى بلده الأحساء بعد سنة، ثم عاد إلى دمشق فى سنة ستين، وكسر جيش جعفر بن فلاح أول من ناب بالشام عن المعز الفاطمى. ذكر له الحافظ ابن عساكر أشعارًا حسنة رائقة فائقة؛ فمن ذلك ما كتبه إلى جعفر بن فلاح قبل الحرب بينهما، وهو هذه الأبيات: [من البسيط]

أَلْحَرْبُ ساكِنَةٌ والخيلُ صَافِنَةٌ ... والسِّلْمُ مبتَذَلٌ والظِّل مَمْدُودُ
فإنْ أنبتُمْ فَمَقْبُولٌ إِنَابَتُكُمْ ... وَإِنْ أبيتُمْ فَهَذا الكُورُ مَشْدُودُ
على ظهورِ المَطَايا أو يَرِدْنَ بِهَا ... دِمَشْقَ وَالْبَابُ مَهْدُومٌ ومَرْدُودُ
إِنى امرُؤٌ لَيْسَ من شَأْنِى ولا أَرَبِى ... طَبْلٌ يَرِنُّ وَلاَ نَایٌ وَلاَ عُودُ
ولاَ اعْتِكَافٌ عَلَى خمرٍ ومجْمَرَةٍ ... وذاتِ دَل لـهَـا دَلٌّ وتـفـنـيـدُ
ولا أَبِيتُ بَطِينَ البَطْنِ من شِبَعٍ ... وَلِى رفيقٌ خميصُ البَطْنِ مَجْهُودُ
ولا تَسَامَتْ بِىَ الدنيا إِلَى طَمَعٍ ... يَوْمًا وَلاَ غَرَّنِى منها المَوَاعِيدُ

(١) ينظر: المنتظم ٧/ ١٨ - ١٩، تجارب الأمم ٢/ ٢٠٢، العبر ٢/ ٢٩٦، دول الإسلام ١/ ٢١٩، الكامل لابن الأثير ٨/ ٥٥٢، تاريخ الإسلام حوادث ثلاث وخمسين وثلاثمائة ص ١٣ .

(٢) ينظر: الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٣٨ بمعناه .

ومن شعره أيضًا قوله: [من الكامل]

يَا سَاكِنَ البَلَدِ المَنِيعِ تَعزُّزًا   بِقِلاَعِهِ وَحُصُونِهِ وَكُهُوفِهِ
لاَ عِزَّ إلاَّ لِلْعَزِيزِ بِنَفْسِهِ   وَبِخَيْلِهِ وَبِرَجْلِهِ وَسُيُوفِهِ

ثم فى هذا العام، وهو عام ثلاث وستين وثلاثمائة سار إلى مصر فى جيش كبير من أصحابه، والتقى معه أمير العرب ببلاد الشام، وهو حسان بن الجراح الطائى فى عرب الشام بكمالهم، فلما سمع به المعز الفاطمى سقط فى يده لكثرتهم؛ فكتب إلى القرمطى يستميله ويقول له: إن دعوة آبائك إنما كانت لآبائى قديمًا، فدعوتنا واحدة. ويذكر فضله وفضل آبائه. فرد له الجواب بقوله: [من الكامل]

زَعَمتْ رِجَالُ الغُرْبِ أَنِّى هِبْتُهَا   فَدَمِى إِذَنْ مَا بَينْهَا مَطْلُولُ
يَا مِصْرُ إنْ لَمْ أَسْقِ أَرْضَكِ مِنْ دَمٍ   يَرْوِى ثَرَاكِ فَلاَ سَقَانِى النِّيلُ

وصل كتابك الذى كثر تفصيله وقل تحصيله، ونحن سائرون على أثره والسلام. فلما انتهوا إلى أطراف مصر عاثوا قتلاً ونهبًا وفسادًا، وحار المعز ماذا يفعل؛ لكثرة من مع القرمطى، وضعف جيشه عن مقاومته؛ فعدل إلى المكيدة والخديعة، فراسل حسان بن الجراح أمير العرب، ووعده بمائة ألف دينار؛ فأرسل إليه حسان أن ابعث إلىَّ بما التزمت فى أكياس، وأقبل بمن معك، فإذا التقينا انهزمتُ بمن معى، فأرسل إليه المعز بمائة ألف فى أكياس، ولكنها زغل أكثرها ضرب النحاس، وألبسه ذهبًا وجعله فى أسفل الأكياس، ووضع فى رءوس الأكياس الدنانير الخالصة. ولما بعثها إليه ركب فى أثرها بجيشه فالتقى الناس، فلما تواجه الفريقان ونشبت الحرب بينهما - انهزم حسان بن الجراح بالعرب؛ فضعف جانب القرمطى وقوى عليه المعز الفاطمى فكسره، وانهزمت القرامطة بين يديه؛ فرجعوا إلى « أذرعات » فى أذل حال، وبعث المعز فى آثارهم بعض الأمراء فى عشرة آلاف فارس ليحسم مادة القرامطة.

ولما أرسل جوهر القائد الرومى الصقلى رسولاً إلى سيده المعز الفاطمى بإفريقية يبشره بفتح الديار المصرية وإقامة الدعوة والخطبة له بها - فرح فرحًا شديدًا. وامتدحه الشعراء فكان ممن امتدحه شاعره محمد بن هانئ الأندلسى بالقصيدة المشهورة وهى: [من الطويل]

تَقُولُ بنو العباسِ هَلْ فُتِحَتْ مِصْرُ   فَقُلْ لبنى العباسِ قَدْ قُضِى الأَمْرُ

وقد جَاوَزَ الإسكندريةَ جَوْهَرٌ تطالِعُهُ البُشْرىٰ ويَقْدُمُهُ النَّصْرُ
وقد أَوْفَدَتْ مِصْرٌ إليهِ وُفودَهَا وَزِيدَ على المعقودِ مِنْ جسرِهَا جِسْرُ
فمَا جَاء هذا اليومُ إلاَّ وَقَدْ غَدَتْ وأَيْدِيكُمُ مِنْهَا ومِنْ غَيرِها صِفْرُ
فلا تُكْثِرُوا ذَمَّ الزمَانِ الذى خَلاَ فَذَلِكَ عَصْرٌ قد تَقَضَّى وَذَا عَصْرُ
أَفِى الجيشِ كنتُمْ تَمْتَرُونَ- رُوَيْدَكُم- فهذا القَنَا العَرَّاصُ والعَسْكَرُ المَجْرُ
وقد أَشْرفَتْ خيلُ الإلهِ طَوَالِعًا عَلَى الدِّينِ والدُّنيا كَمَا طَلَعَ الفَجْرُ
وَذَا ابْنُ رَسولِ الله يطلُبُ وَتْرَهُ وكَانَ حَرٍ ألاَّ يَضِيعَ لَهُ وَتْرُ
ذَرُوا الوِرْدَ فى مَاءِ الفُرَاتِ لِخيلِهِ فلا الضَّحْلُ منه تمنَعُونَ ولا الغَمْرُ
أَفِى الشمسِ شكٌّ إنها الشمسُ بَعْدَ مَا تَجلَّتْ عِيَانًا ليسَ مِنْ دونِها سِتْرُ
وَمَا هِيَ إلا آيةٌ بعدَ آيةٍ ونذرٌ لكم إنْ كَانَ تُغنيكُمُ النُّذْرُ
وكونُوا حَصِيدًا خامِدِينَ أوِ ازعَوُوا إلىٰ مَلِكٍ فى كَفِّه الموتُ والنَّشْرُ
أَطِيعُوا إمامًا للأئمةِ فَاضِلاً كمَا كَانَتِ الأَعْمَالُ يَفْضُلُهَا البِرُّ
رِدُوا سَاقيًا لا تُنْزِفُونَ حِيَاضَهُ جموعًا كما لا تُنْزِفُ الأَبْحُرَ الذَّرُّ
فإن تَتْبَعُوهُ فَهْوَ مَوْلاكُمُ الَّذِي لَهُ بِرَسُولِ الله دُونَكُمُ الفَخْرُ
وإلاَّ فبُعْدًا للبَعِيدِ فَبَيْنَهُ وبينَكُمُ مَا لاَ يُقرِّبهُ الدَّهرُ
أَفِى ابْنِ أَبى السِّبْطينِ أمْ فى طليقِكُمْ تَنَزَّلتِ الآياتُ والسُّوَرُ الغُرُّ
بَنِى نتلةٍ ما أَوْرَثَ الله نتلةً وَمَا ولدَتْ هَلْ يستوى العَبْدُ والحُرُّ
وَأَنَّىٰ بِهذَا وَهْيَ أَعْدَتْ بلُؤْمِهَا أَبَاكُمْ فإِيَّاكُمْ ودَعْوَىٰ هِيَ الكُفْرُ
ذَرُوا النَّاسَ رُدُّوهُمْ إلىٰ مَنْ يَسُوسُهُمْ فَمَا لَكُمُ فى الأَمْرِ عُرْفٌ ولا نُكْرُ
أسرتُمْ قُرُومًا بالعراقِ أعِزَّةً فَقَدْ فُكَّ من أعناقِهِمْ ذلِك الأَسْرُ
وقد بَزَّكُمْ أيَّامَكُمْ عَصَبُ الهُدَىٰ وَأَنْصَارُ دِينِ اللَّهِ والبيضُ والسُّمْرُ
وَمُقتَبلٌ أَيَّامُهُ مُتهلِّلٌ إِلَيْهِ الشَّبابُ الغَضُّ والزَّمَنُ النَّضْرُ
أَدَارَ كَمَا شَاءَ الوَرَىٰ وتَحَيَّزَتْ على السبعةِ الأَفْلَاكِ أُنْمُلُهُ العَشْرُ
أَتَدْرُونَ مَنْ أزكىٰ البريةِ مَنْصِبًا وأفضلُهَا إنْ عُدِّدَ البَدْوُ والحَضْرُ
تعالَوْا إلى حكامِ كُلِّ قبيلةٍ فَفِى الأَرْضِ أَقْيَالٌ وأنديَةٌ زُهْرُ
وَلاَ تَعْدِلُوا بالصِّيدِ مِنْ آلِ هاشمٍ ولا تَتْرُكوا فِهْرًا وَمَا جمعتْ فِهْرُ

فجيئوا بمَنْ ضمَّتْ لُؤَيُّ بنُ غالبٍ   وجيئوا بمن ضمَّتْ كنانَةُ والنَّضْرُ
ولا تَذَرُوا عُلْيَا مَعَدٍّ وعِزَّهَا   ليُعْرَفَ منكُمْ مَنْ لَهُ الحقُّ والأَمْرُ
ومِنْ عَجَبٍ أن اللسانَ جَرَى لَهُمْ   بذكرٍ عَلَى حينَ انْقَضَوْا وانْقَضَى الذِّكْرُ
فَبَادُوا وعَفَّى الله آثارَ مُلْكِهِمْ   فَلاَ خَبَرٌ تلقاهُ عنهُمْ ولا خُبْرُ
أَلاَ تلكمُ الأَرْضُ الأَرِيضَةُ أَصْبَحَتْ   وَمَا لِبَنِى العباسِ فى عُرْضِهَا فِتْرُ
فَقَدْ دَالَتِ الدُّنيَا لآلِ محمدٍ   وقدْ جرَّرَتْ أذيالَهَا الدولةُ البِكْرُ
وردَّ حقوقَ الطالبيِّينَ مَنْ زكَتْ   صنائِعُهُ فى آلِهِ وزَكَا الذُّخْرُ
مُعِزُّ الهُدَىٰ والدينِ والرَّحِمِ التي   بِهِ اتَّصلَتْ أسبَابُهَا ولَهُ الشُّكْرُ
مَنِ انْتَاشَهُمْ فى كلِّ شرقٍ ومغربٍ   فبُدِّلَ أَمْنًا ذَلِكَ الخَوْفُ والذُّعْرُ
وكُلُّ إمامِيٍّ يَجِيءُ كَأَنَّمَا   على يَدِهِ الشِّعْرَىٰ وَفى وجْهِهِ البَدْرُ
ولما تولَّتْ دولةُ النَّصْبِ عَنْهُمُ   تولَّى العَمَىٰ والجَهْلُ واللُّؤْمُ والغَدْرُ
حقوقٌ أَتَتْ من دونِهَا أَعصُرٌ خَلَتْ   فَمَا رَدَّهَا دَهْرٌ عليهِمْ ولا عَصْرُ
فجرَّدَ ذو التَّاجِ المقاديرَ دونَهَا   كما جُرِّدَتْ بيضٌ مضارِبُها حُمْرُ
وأنقذَها مِنْ بُرْثُنِ الدهرِ بعدَمَا   تواكَلَها الفرْس المنيّب والهَصْرُ
وأجْرَى على ما أنزل اللّهُ قَسْمَهَا   فَلَمْ يَنْخَرِمْ فيهَا قليلٌ ولا كُثْرُ
فدونَكُمُ يَا آلَ بَيْتِ محمَّدٍ   صَفَتْ بمعزِّ الدِّينِ حَمْأَتُها الكُدْرُ
فقدْ صَارَتِ الدنيا إليكُمْ مَصِيرَهَا   وَصَار له الحمْدُ المُضَاعَفُ والأَجْرُ
إمامٌ رأيتُ الدينَ مُرْتَبِطًا بِهِ   فَطَاعَتُه فَوْزٌ وعِصْيَانه خُسْرُ
أَرَىٰ مَدْحَهُ كالمدحِ لله إنَّه   قُنُوتٌ وَتَسْبِيحٌ يُحَطُّ به الوِزْرُ
هُوَ الوَارِثُ الدنيا وَمَنْ خُلِقَتْ لَهُ   مِنَ النَّاسِ حَتَّى يلتقى القطر والقَطْرُ
وما جَهِلَ المنصورُ فى المَهْدِ فَضْلَهُ   وقد لاحَتِ الأَعْلاَمُ والسِّمة البُهْرُ
رَأَى أَنْ يُسَمَّى مالكَ الأرضِ كلِّها   فلمَّا رآه قَالَ ذَا الصَّمَدُ الوَتْرُ
وَمَا ذَاكَ أخذٌ بالفَرَاسَةِ وَحْدَهَا   وَلاَ أنه فِيها إلى النُّطْقِ مُضْطَرٌّ
ولكنْ مَرْجُوًّا مِنَ الأَثَرِ الذي   تَلَقَّاهُ عَنْ حَبْرٍ ضَنِينٍ به حَبْرُ
وكنْزًا مِنَ العِلْمِ الرُّبُوبِيِّ إنه   هوَ العِلْمُ حقًّا لا العِيَافَةُ والزَّجْرُ
فبشَّرْ به البيتَ المحرَّمَ عَاجِلاً   إذَا أَوْجَفَ التَّطْوَافُ بالناسِ والنَّفْرُ

وَهَا فَكَأَنْ قَدْ زارَهُ وتجانَفَتْ ... به عَنْ قصورِ المُلْكِ طيبة والسرُّ
هلِ البيتُ بَيْتُ الله إلاَّ حَرِيمُه ... وهَلْ لِغَريبِ الدارِ عَنْ دارِهِ صَبْرُ
مَنَازِلُهُ الأُولَى اللَّواتِى يَشُقْنَهُ ... فليْسَ له عنهنَّ مَعْدًى ولا قَصْرُ
وحيثُ تلقَّى جَدُّه القدسَ وانتحتْ ... لَهُ كلماتُ اللَّهِ والسرُّ والجَهْرُ
فإن يَتَمَنَّ البيتُ تلكَ فَقَدْ دَنَتْ ... مواكِبُها والعُسْرُ مِنْ بعدِه اليُسْرُ
ألستَ ابنَ بانِيهِ فلو جِئْتَهُ انجلَتْ ... غَوَاشِيهِ وابْيَضَّتْ مناسِكُه الغُبْرُ
حبيبٌ إِلَى بطحاءِ مَكَّةَ موسِمٌ ... تحيى مَعَدًّا فيهِ مَكَّةُ والحِجْرُ
هناكَ تضىءُ الأرضُ نورًا وتلتقِى ... دُنُوًّا فلا يَسْتَبْعِد السَّفَرَ السَّفْرُ
وتُدْرَى فروضُ الحجِّ مِنْ نَافِلاَتِهِ ... ويَمْتَازُ عند الأَمَّةِ الخَيْرُ والشَّرُّ
شهدتُ لَقَدْ أعززتَ ذَا الدِّينَ عِزَّةً ... خَشِيتُ لَهَا أن يَسْتَبِدَّ بكَ الكِبْرُ
وأمضيتَ عزمًا ليسَ يَعْصِيكَ بَعْدَهُ ... مِنَ الناسِ إلا جَاهِلٌ بك مُغْتَرُّ
فلم يَبْقَ إلا البُرْدُ ترىٰ وَقَدْ نَأَىٰ ... عليكَ به أَقْصَى مَوَاعيدِه شَهْرُ
وما ضَرَّ مِصرًا حينَ ألقتْ قِيَادَهَا ... إليك أَمُدَّ النيلُ أم غَالَهُ الجَزْرُ
وقد حُبِّرتْ فيهَا لك الخُطَبُ التي ... بَدَائِعُها نَظْمٌ وأَلفَاظُهَا نَثْرُ
فلم يُهْتَرَقْ فيهَا لِذِى ذِمَّةٍ دَمٌ ... حَرَامٌ ولم يُحْمَلْ على مُسْلِمٍ إِصْرُ
غَدًا جَوْهَرٌ فيهَا غَمَامَةَ رَحْمَةٍ ... يَقِى جَانِبَيْهَا كُلَّ حادثةٍ تَعْرُو
كأَنِّى به قَدْ سَارَ فِى القومِ سِيرَةً ... سَواء إِذَا ما حَلَّ فى الأرضِ وَالْقَطْرُ
ومن أين تَغْدُوهُ وسيلةُ مِثلِهَا ... وقَدْ قُلِّصتْ فى الحربِ عن ساقِهِ الأُزْرُ
وثَقَّفَ تثقيفَ الرُّدَيْنِيِّ قَبْلَهَا ... وما الطِّرْفُ إلا أن يُهَذِّبَهُ الضُّمْرُ
وليسَ الذى يأتى بأوَّلِ مَا كَفَىٰ ... فَشُدَّ بِهِ مُلْكٌ وَسُدَّ بِه ثَغْرُ
فما بِمَدَاهُ دُونَ عِزٍّ تخلُّفٌ ... وما بِخُطَاه دونَ صَالِحَةٍ بَهْرُ
سننتَ لَهُمْ فيه من العَدْلِ سُنَّةً ... هىَ الآيَةُ الكبرىٰ وبُرْهَانها السِّحْرُ
على مَا خلا من سنةِ الوَحْيِ مَا خَلا ... فَأَذْيَالُهَا تَضْفُو عليهِمْ وتَنْجَرُّ
وأوصيتَهُ فيهم بِرفْقِكَ مُرْدِفًا ... بجودِكَ معقودًا بِهِ عندَكَ البِرُّ
وَصَاةً كما أوصَىٰ بِهِ اللَّهُ رُسْلَهُ ... ولَيْسَ بأُذْنٍ أنتَ مُسْمِعُهَا وَقْرُ
وثَبَّتَّهَا بالكُتْبِ فِى كُلِّ مُدْرَجٍ ... كَأَنَّ جميعَ الخيرِ فى طَيِّه سَطْرُ

يَقُولُ رجالٌ شاهَدُوا يومَ حُكْمِهِ بِذَا تَعْمُرُ الدنيا وَلَوْ أنَّها قَفْرُ
بذَا لا ضِيَاعٌ حَلَّلُوا حرماتِهَا وَأَقْطَاعَها واسْتُصْفِيَ السَّهْلُ والوَعْرُ
فحسْبُكُمُ يَا أهلَ مِصْرٍ بعَدْلِهِ دليلاً على العَدْلِ الذى عنه يَفْتَرُّ
فذاكَ بيَانٌ واضحٌ عن خليفةٍ كثيرُ سِوَاهُ عند مَعْرُوفه نَزْرُ
رَضِينَا لَكُمْ يا أهل مصرٍ بِدَوْلَةٍ أطيلَ لَنَا فى ظلِّها الأمْنُ والوَفْرُ
لكُمْ أسْوَةٌ فينا قديمًا فلَمْ يَكُنْ بأحوالِنَا عنكُمْ غِطَاءٌ ولاَ سِتْرُ
وهَلْ نحنُ إلاَّ مَعْشَرٌ من عُفَاتِهِ لَنَا الصافِنَاتُ الجُرْدُ والعَسْكرُ الدَّثْرُ
فكيفَ مَوَالِيهِ الذِينَ كأنَّهُمْ سَمَاءٌ على العافِينَ أمْطَارُها التِّبْرُ
لَبِثْنَا به أيَّامَ دهرٍ كَأَنَّمَا بِهَا وَسَنٌ أَوْ مَالَ مَيْلاً بها السُّكْرُ
فيا مَلِكًا هَدْيُ المَلاَئِكِ هَدْيُه ولكنَّ بَحْرَ الأنبياءِ لَهُ بَحْرُ
ويا رَازِقًا من كفِّهِ نَشأَ الحَيَا وإلاَّ فَمِنْ أسْرَارِهِ يَنْبُعُ البَحْرُ
ألاَ إنَّمَا الأيَّامُ أيامُكَ التى لِيَ الشَّطْرُ من نَعْمَائِها وَلَكَ الشَّطْرُ
لَكَ الشَّطْرُ منها مَالِكَ المَجْدِ والعُلاَ وَيَبْقَى لَنَا مِنْهَا الحَلُوبَةُ والدَّرُّ
لقَدْ جدتَّ حَتَّىٰ لَيْسَ لِلمَالِ طَالِبٌ وأعطَيْتَ حَتَّى ما لمُنْفِسة قَدْرُ
فلَيْسَ لِمَنْ لا يرتَقِى النجمَ هِمَّةٌ وليسَ لِمَنْ لاَ يَسْتَفِيدُ الغِنَى عُذْرُ
وَدِدتُّ لجيلٍ قد تقدَّم عصرهُمْ لَوِ استأخَرُوا فى حَلْبَةِ العُمْرِ أو كَرُّوا
وَلَوْ شَهِدُوا الأيامَ والعَيْشُ بَعْدَهُمْ حَدَائِقُ والآمَالُ مُونِقَةٌ خُضْرُ
فَلَوْ سَمِعَ التثويبَ مَنْ كَانَ رِمَّةً رُفَاتًا وَلَبَّى الحَيَّ مَنْ ضَمَّهُ القَبْرُ
لَنَادَيْتُ مَنْ قَدْ مَاتَ حَى بِدَوْلَةٍ تُقَامُ بِهَا المَوْتَى وَيُرْتَجَعُ العُمْرُ

انتهت

قلت: قوله « بنى نتلة » يشير إلى بنى العباس؛ لأن نتلة أم العباس، وقد أفحش فرمى بنى العباس بالكفر والرق والعبودية !! فلا قوةَ إلا بالله.

وكان هذا - محمد بن هانئ - شاعرًا محبوبًا مقربًا عند المعز، استصحبه معه من بلاد القيروان وتلك النواحى حين توجه إلى الديار المصرية، فلما كان ببعض الطريق وُجد محمد بن هانئ مقتولاً مجدلاً على حافة البحر، وذلك فى رجب، وقد كان شاعرًا مطبقًا، قوى النظم؛ إلا أنه كفره غير واحد من العلماء فى مبالغاته فى مدائحه

للمعز خصوصًا. فمن ذلك قوله فيه - قبحهما الله تعالى: [من الكامل]

مَاشِئْتَ لاَ مَا شَاءَتِ الأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الوَاحِدُ القَهَّارُ

وهذا خطأ كثير، وكفر كبير. وقال - أيضًا - قبحه الله وأخزاه وفض فاه: [من مجزوء الكامل]

وَلَطَالَمَا زَاحَمْتَ تَحْـ ـتَ رِكَابِهِ جِبْرِيلاَ

ومن ذلك قوله، قال ابن الأثير: ولم أر ذلك فى ديوانه: [من مخلع البسيط]

حَلَّ بِرقَّادَةَ المَسِيحُ حَلَّ بِهَا آدَمٌ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا الله ذُو المَعَالِي فَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

قال ابن الأثير: وقد شرع بعض المتعصبين له فى الاعتذار عنه؛ قال العلامة ابن السبكى فى تاريخه: وهذا الكلام - إن صح عنه - فليس عنه اعتذار، لا فى الدار الآخرة، ولا فى هذه الدار.

قال فى « الأرج المسكى »: فصارت الخطبة الإسلامية على قسمين، فمن بغداد إلى حلب وسائر ممالك الشرق إلى أعمال الفرات يُخطب فيها للمطيع العباسى، ومن حلب إلى بلاد المغرب مع الحرمين الشريفين يخطب فيها للمعز العُبَيدى هذا.

وتوفى المعز فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة. ثم قام من بعده ابنه نزار[1] الملقب بالعزيز ابن المعز الفاطمى العبيدى، بويع بعد موت أبيه المعز، وقام بتدبيره القائد جوهر غلام والده، وكان يدعى التنجيم فكتب له: [من مخلع البسيط]

بِالظُّلْمِ والجَوْرِ قَدْ رَضِينَا وَلَيْسَ بِالْكُفْرِ والحَمَاقَهْ
إِنْ كُنْتَ أُعْطِيتَ عِلْمَ غَيْبٍ بَيِّنْ لَنَا كَاتِبَ البِطَاقَهْ

كان العزيز هذا قد استوزر رجلين، أحدهما نصرانى اسمه « عيسى بن نسطورس »، والآخر يهودى اسمه « ميشا » فعز بسببهما أهل تينك الملتين فى ذلك

---

(١) ينظر [العزيز بالله] فى: خطط المقريزى ١/ ٣٤٥، العبر للذهبى ٣/ ٣٤، شذرات الذهب ٣/ ١٢١، المختصر فى أخبار البشر ٢/ ١٣١، تاريخ ابن الوردى ١/ ٢١٣، سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٦٧ - ١٧٣، تاريخ الزمان لابن العبرى ٧٣، ذيل تاريخ دمشق ٤٤، المنتظم ٧/ ١٩٠، مرآة الجنان ٢/ ٤٣٠، البداية والنهاية ١١/ ٣٢٠، الدرة المضية ٢٣٨، الكامل لابن الأثير ٩/ ١١٦، النجوم الزاهرة ٤/ ١١٢، وفيات الأعيان ٥/ ٣٧١ - ٣٧٦، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٥١ .

الزمان على المسلمين، حتى كتبت إليه امرأة قصة فى حاجة فقالت فيها: بالذى أعز النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بميشا، وأذل المسلمين بك !! إلا ما كشفت عن ظلامتى، فعند ذلك أمر بالقبض عليهما، وأخذ من النصرانى ثلاثمائة ألف دينار(١)، كذا ذكره ابن السبكى رحمه الله تعالى.

قال ابن خلكان(٢): أكثر أهل العلم [بالنسب](٣)لا يصححون نسب المهدى عبيد الله جد خلفاء مصر؛ حتى إن هذا العزيز فى أول ما تولى صعد المنبر يوم الجمعة، فوجد هنالك ورقة مكتوبًا فيها هذه الأبيات: [من السريع]

إِنَّا سَمِعْنَا نَسَبًا مُنْكَرًا ... يُتْلَىٰ عَلَى المِنْبَرِ فى الْجَامِعِ
إِنْ كُنْتَ فِيمَا تَدَّعِى صَادِقًا ... فَاذْكُرْ أَبًا بَعْدَ الأَبِ السَّابِعِ(٤)
وَإِنْ تُرِدْ تَحْقِيقَ مَا قُلْتَهُ ... فَانْسُبْ لَنَا نَفْسَكَ كَالطَّائِعِ
أَوْ لاَ دَعِ الأَنْسَابَ مَسْتُورَةً ... وَادْخُلْ بِنَا فِى النَّسَبِ الوَاسِعِ
فَإِنَّ أَنْسَابَ بَنِى هَاشِمٍ ... يَقْصُرُ عَنْهَا طَمَعُ الطَّامِعِ

وتوفى العزيز فى رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة، فكانت مدته إحدى وعشرين سنة. ثم قام بعده ابنه منصور الملقب بالحاكم بأمر الله(٥)، بويع بعد موت أبيه، وهو صاحب الجامع الذى هو داخل باب النصر فى القاهرة، وكان أول أمره خيرًا، ولما كبر عبد الكواكب، وفعل فى حكوماته ما يضحك منه الصبيان من المهملات والقبائح، واستمر إلى أن عملت أخته على قتله فقتل.

قال ابن خلكان فى تاريخه « وفيات الأعيان »(٦) فى ترجمة الحاكم بأمر الله: كان

(١) ينظر: المنتظم ٧/ ١٩٠، تاريخ الإسلام وفيات سنة ست وثمانين وثلاثمائة ص ١٣٠ .
(٢) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/ ٣٧٣ .
(٣) المثبت من وفيات الأعيان .
(٤) وفى بعض نسخ الوفيات: الرابع .
(٥) ينظر [الحاكم بأمر الله] فى: شذرات الذهب ٣/ ١٩٢، النجوم الزاهرة ٤/ ١٧٦ - ١٩٦، حسن المحاضرة ٢/ ١٣، تاريخ الخلفاء ٤١٥، الجوهر الثمين ٢٥١، صبح الأعشى ٣/ ٤٢٦ - ٤٢٧، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٥٦ - ٦١، اتعاظ الحنفا ٢/ ٣ -- ١٢٣، مرآة الجنان ٣/ ٢٥، البداية والنهاية ١٢/ ٩ - ١١، دول الإسلام ١/ ٢٤٥، تاريخ ابن الوردى ١/ ٣٣٢ - ٣٣٣، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٧٣، وفيات الأعيان ٥/ ٢٩٢، ذيل تاريخ دمشق ٧٩، المنتظم ٧/ ٢٩٣ - ٣٠٠ .
(٦) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/ ٢٩٧ .

له حمار أشهب، يدعى بـ« قمر » يركبه، وكان يحب الانفراد والركوب وحده، فخرج راكبًا حماره ليلة الإثنين رابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة إلى ظاهر مصر، وطاف ليله كله، وأصبح متوجهًا إلى شرق حلوان، ومعه ركابيان؛ فأعاد أحدهما ثم أعاد الآخر، وبقى الناس يخرجون يلتمسون رجوعه، ومعهم دواب الموكب إلى يوم الأحد سلخ الشهر المذكور، ثم خرج ثانى القعدة جماعة[١] من الموالى والأتراك، فأمعنوا فى طلبه، وفى الدخول فى الجبل، فرأوا الحمار الأشهب الذى كان يركب عليه وهو على قرنة الجبل، وقد ضربت يداه بسيف وعليه سرجه ولجامه، فتبعوا الأثر إلى البركة التى فى شرقى حلوان، فنزل فيها رجل فوجد فيها ثيابه وهى سبع جبّات، ووجدت مزررة لم تحل أزرارها وفيها أثر السكاكين، فحملت إلى القصر ولم يشكوا فى قتله، غير جماعة من الغالين فى حبهم له، السخيفين عقولاً؛ يظنون حياته وأنه سيظهر، ويحلفون بغيبة الحاكم.

وكان الحاكم جوادًا بالمال، سفاكًا للدماء، وكانت سيرته عجبًا، يخترع كل يوم حكمًا يحمل الناس عليه؛ فمن ذلك أنه أمر الناس فى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة بكتب سب الصحابة - رضى الله تعالى عنهم - فى حيطان المساجد والقناطر والشوارع، وكتب به إلى سائر البلدان من الديار المصرية، ثم أمر بقطع ذلك سنة سبع وتسعين وثلاثمائة، وأمر بضرب من سب الصحابة وتأديبه، وأمر بقتل الكلاب؛ فلم ير كلب فى الأسواق والأزقة إلا قتل، ونهى عن بيع الفقاع والملوخيا، ونهى عن بيع الزبيب قليله وكثيره، وجمع جملة كثيرة منه فأنفق على إحراقها ما يساوى خمسمائة دينار، ثم منع من بيع العنب أصلاً، وألزم اليهود والنصارى أن يتميزوا فى لباسهم عن المسلمين فى الحمامات وخارجها، ثم أفرد حمامًا لليهود وحمامًا للنصارى، وألزمهم ألا يركبوا أشياء من المراكب المحلاة، وأن تكون ركبهم الخشب، ولا يستخدموا أحدًا من المسلمين، ولا يركبوا حمارًا لمكار مسلم، ولا سفينة نوتيها مسلم[٢].

وفى سنة خمس وأربعمائة منع النساء من الخروج من المنازل أو يطلعن من

---

(١) ذكر ابن خلكان بعض أسمائهم فى وفيات الأعيان (٥/ ٢٩٧) .

(٢) ينظر المواعظ والاعتبار ٢/ ٢٨٦، النجوم الزاهرة ٤/ ١٧٧، وفيات الأعيان ٥/ ٢٩٣ .

الأسطحة والطاقات، ومنع الخفافين من عمل الخفاف لهن، ومن الخروج إلى الحمامات، وقتل خلقًا منهن على مخالفة ذلك، وهدم بعض الحمامات عليهن، وجهز عجائز يطفن فى البيوت يستعلمن أحوال النساء من منهن تعشق أو تعشق بأسمائهن وأسماء من يعترض لهن، وأكثر من الدوران بالليل، وغرق من اطلع على فسقه من الرجال والنساء، فضاق النطاق عليهن وعلى الفساق، ولم يتمكن أحد منهم أن يصل إلى أحد إلا نادرًا؛ حتى إن امرأة نادت قاضى القضاة بالديار المصرية، وهو مالك بن سعد الفارقى، وحلفته بحقّ الحاكم لما وقف لها فاستمع كلامها؛ فوقف لها فبكت بكاء شديدًا وقالت: إن لى أخًا ليس لى غيره وهو فى السياق، وأنا أسألك لما وصلتنى إلى منزله لأنظر إليه قبل أن يفارق الدنيا، فرق لها القاضى رقةً شديدةً، وأمر رجلين معه أن يكونا معها حتى يبلغاها إلى المنزل الذى تريده، فأغلقت بابها وأعطت المفتاح جارتها، وذهبت حتى وصلت مع الرجلين إلى منزل فطرقت الباب ودخلت، وقالت لهما: اذهبا راشدين، فإذا هو منزل رجل تهواه ويهواها، فأخبرته بما احتالت به على القاضى، فأعجبه ذلك، وجاء زوجها آخر النهار فوجد بابه مغلقًا، فسأل عن أمرها فذكر له ما صنعت، فاستغاث على القاضى وذهب إليه وقال: ما أريد امرأتي إلا منك؛ فإنها ليس لها أخ بالكلية، وإنما ذهبت إلى عشيقها؛ فخاف القاضى من معرة هذا الأمر، فركب إلى الحاكم وبكي لديه، فسأله عن شأنه، فأخبره بما اتفق من الأمر، فأرسل الحاكم مع الرجلين من يحضر الرجل والمرأة جميعًا على أى حال كانا عليه، فوجدوهما متعانقين سكرانين، فسألهما القاضى عن حالهما، فأخذا يعتذران بما لا يجدى، فأمر بتحريق المرأة فى بارية، وضرب الرجل بالسياط ضربًا مبرحًا. وازداد احتياط الحاكم على النساء حتى مات. ذكر هذا ابن الجوزى فى « المنتظم »(١). وأمر بهدم القمامة وجميع الكنائس بالديار المصرية، ووهب جميع ما فيها من الآلات، وجميع ما لها من الأحباس لجماعة من المسلمين، وأمر ألا يتكلم أحد فى صناعة النجوم، وأن ينفى المنجمون من البلاد، وكذلك أصحاب الغناء. ثم أمر ببناء ما كان هدمه من الكنائس، ورد ما كان أخذه من أحباسها. انتهى.

---

(١) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ٧/٢٦٨ - ٢٧٠ .

حلوان: مدينة كثيرة النزه فوق مصر بمقدار خمسة أميال، كانت مسكن عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز، وبها ولد عمر رضى الله تعالى عنه.

وقال العلامة السبكى فى تاريخه عند ذكر الحاكم: ولنذكر شيئًا من صفاته القبيحة، وسيرته الملعونة، أخزاه الله ولا وقاه شرًّا:

كان - قبحه الله - كثير التلون فى أفعاله وأقواله، جائرًا فى كيفية بلوغ ما يؤمله؛ لأنه كان يروم أن يدعي الألوهية كما ادعاها قارون فى زمن موسى عليه الصلاة والسلام، فكان قد أمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن تقوم الناس على أقدامهم صفوفًا؛ إعظامًا لذكره واحترامًا لاسمه !! فكان هذا يفعل فى سائر ممالكه حتى فى الحرمين الشريفين، وكان أهل مصر على الخصوص إذا قاموا خروا سجدًا، حتى إنه يسجد بسجودهم من فى الأسواق من الرعاع وغيرهم، وابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ، ثم قتلهم وخربها. وألزم الناس بإغلاق الأسواق والدكاكين نهارًا وفتحها ليلاً، فامتثلوا ذلك دهرًا طويلاً، حتى اجتاز مرة بشيخ يعمل النجارة فى أثناء النهار فوقف عليه وقال: ألم أنهكم عن هذا ؟ فقال: يا سيدى أما كان الناس يسهرون لما كانوا يتعيشون بالنهار ؟ فهذا من جملة السهر. فتبسم وتركه، وأعاد الناس إلى أمرهم الأول. وكل هذا منه تغيير للرسوم، واختبار لطاعة العامة، ليرقى إلى ما هو أهم من ذلك لعنه الله.

وقد كان يعمل الحسبة بنفسه؛ يدور فى الأسواق على حماره فمن وجده قد عثر فى معيشته أمر عبدًا أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، وهذا أمر منكر ملعون لم يسبق إليه - لعنه الله - وكانت العامة يبغضونه ويكتبون له الأوراق التى فيها الشتيمة البليغة له ولأسلافه وحريمه فى صورة قصص، فإذا قرأها ازداد حنقًا عليهم، حتى إن أهل مصر حملوا صورة امرأة من ورق بخفها وإزارها وفى يدها قصة فيها من الشتم والقبائح شيء كثير، فلما رآها ظنها امرأة فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها فقرأها؛ فرأى ما فيها فأغضبه جدا وأمر بقتل تلك المرأة، فلما تحققها من ورق ازداد غيظًا على غيظه ثم لما وصل إلى القاهرة أمر العبيد من السودان أن يذهبوا إلى مصر فيحرقوها، وينهبوا ما فيها من الأموال والحريم، فذهب العبيد فامتثلوا ما أمرهم به فقاتلهم أهل مصر قتالاً عظيمًا ثلاثة أيام، والنار تعمل فى

الدور والحرم، وفى كل يوم يخرج بنفسه - لعنه الله - فيقف من بعيد ويبكى ويقول: من أمر هؤلاء العبيد بهذا ؟ ! ثم اجتمع الناس فى الجوامع فرفعوا المصاحف، وجأروا إلى الله تعالى واستغاثوا به، فرق لهم الترك والمشارقة وانحازوا إليهم؛ فقاتلوا معهم عن حريمهم ودورهم السودان وتفاقم الحال جدًا. ثم ركب الحاكم ففصل بين الفريقين، وكف العبيد عنهم، وكان يظهر التنصل من القضية، وأن العبيد ارتكبوا ذلك عن غير علمه، وهو ينفذ إليهم السلاح ويحثهم على ذلك فى الباطن، وما انجلى الحال حتى احترق من مصر نحو ثلثها، ونهب قريب من نصفها، وسبي حريم خلق كثير ففعل بهن الفواحش والمنكرات، حتى إن منهن من قتلت نفسها خوفًا من العار والفضيحة، واشترى الرجال من سبي لهم من النساء والحريم من أيدى العبيد[1]. انتهى ما قاله ابن السبكى.

وقَالَ ابن الجوزى فى كتابه « المنتظم، فى ذكر الأمم[2]، من العرب والعجم »: ثم زاد ظلم الحاكم وعنَّ له أن يدعي الربوبية، فصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون: يا واحد يا أحد، يا محيى يا مميت !! وكان قد تعدى شره الناس حتى إلى أخته؛ يتهمها بالفاحشة ويسمعها أغلظ الكلام؛ فتبرمت منه، وعملت على قتله، فراسلت فيه أكبر الأمراء، وكان يقال له: ابن دواس، فتوافقت هى وهو على قتله فواطأها على ذلك، وجهز من عنده عبدين أسودين فقال لهما: إذا كانت الليلة الفلانية فكونا بجبل المقطم، ففى تلك الليلة يكون الحاكم هناك فى الليل ينظر فى النجوم، وليس معه إلا ركابى وصبى، فاقتلاه واقتلاهما معه. واتفق الحال على ذلك وتقرر، فلما كانت تلك الليلة قال الحاكم: لا بد أن فى هذه الليلة علي قطعًا عظيمًا؛ فإن نجوت منه عمرت نحوًا من ثمانين سنة، فقالت له أمه: يا مولاى، فإذا كان الأمر كما تقول، فارحمنى ولا تترك ليلتك هذه إلى موضع أصلاً. وكان من عادته أن يدور حول القصر كل ليلة، فدار ثم عاد إلى القصر فنام إلى قريب ثلث الليل الأخير، فاستيقظ وقال: إن لم أركب الليلة فاضت نفسى؛ فثار وركب فرسًا وتبعه صبى وركابى حتى صعد جبل المقطم، فاستقبله ذانك العبدان فأنزلاه عن

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٨٠ - ١٨١ .
(٢) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ٧/ ٢٩٧ - ٣٠٠ .

مركوبه وقطعا يديه ورجليه وبقرا بطنه، وأتيا به مولاهما، فحمله إلى أخته فدفنته فى مجلس دارها، واستدعت الأمراء والأكابر والوزير، وقد أطلعته على الحيلة، فبايعته لولد الحاكم أبى الحسن على، ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله.

وكان بدمشق فاستدعته، وجعلت تقول للناس: إن الحاكم قال لى: إنه يغيب سبعة أيام ثم يعود، فاطمأن الناس بذلك، وجعلت ترسل ركابين يصعدون الجبل ويجيئون فيقولون: تركناه فى الموضع الفلانى، ويقول الذين من بعدهم تركناه فى موضع كذا وكذا حتى اطمأن الناس وقدم ابنه، فحين وصل ألبسته تاج جد أبيه المعز، وحلته حلية عظيمة، فأجلسته على السرير فبايعه الأمراء والرؤساء، وأطلقت لهم الأموال الجزيلة، وخلعت على ابن دواس خلعة سنية هائلة، وعملت عزاء أخيها ثلاثة أيام، ثم أرسلت إلى ابن دواس طائفة من الجند ليكونوا بين يديه بسيوفهم؛ وقوفًا فى خدمته، ثم أمرتهم فى بعض الأيام أن يقولوا له: أنت قاتل مولانا ثم يهتبرونه بسيوفهم، ففعلوا ذلك، وقتلت كل من اطلع على سرها فى قتل أخيها، فعظمت هيبتها، وقويت حرمتها، وثبتت دولتها؛ فإنها هى التى كانت متولية الأمور لدولة ابن أخيها(١).

وكان عمر الحاكم حين قتل سبعًا وثلاثين سنة، وكان قتله سنة إحدى عشرة وأربعمائة، ومدة ملكه خمسًا وعشرين سنة، لعنه الله وقبحه.

وفى ربيع الآخر من سنة اثنتين وأربعمائة فى دولة الحاكم المذكور، كتبت ببغداد محاضر تتضمن اللعن والقدح فى نسب الخلفاء المصريين الذين يزعمون أنهم فاطميون وليسوا كذلك، وكتب فى ذلك جماعة من العلماء والقضاة والفقهاء والأشراف والأماثل والمعدّلين والصالحين، شهدوا جميعًا أن الناجم، وهو منصور ابن نزار الملقب بالحاكم بأمر الشيطان لا بأمر الله - حكم الله عليه بالبوار والدمار، والخزى والنكال والاستئصال، ابن معد بن إسماعيل بن محمد القائم ابن سعيد، لا أسعده الله؛ فإنه لما صار إلى المغرب تسمَّى بعبيد الله، وتلقب بالمهدى، ومن تقدم من سلفه من الأرجاس والأنجاس - عليه وعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين - أدعياء خوارج، لا نسب لهم فى ولد عليّ بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه - ولا

---

(١) ينظر: المنتظم ٧/ ٢٩٧ - ٣٠٠، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٨٢ .

يتعلقون منه بسبب، وأنه منزه عن أباطيلهم، وأن الذى ادعوه باطل وزور. وأنهم لا يعلمون أحدًا من أهل بيوتات الطالبيين توقف فى إطلاق القول فى هؤلاء، وأنهم الخوارج، وأنهم أدعياء.

وقد كان هذا الإنكار لباطلهم شائعًا فى الحرمين، وفى أول أمرهم بالمغرب، منتشرًا انتشارًا يمنع من أن يدلس على أحد كذبهم أو يذهب وَهْمٌ إلى تصديقهم، وإن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق فجار، ملحدون زنادقة معطلون، وللإسلام جاحدون، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، قد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وأحلوا الخمور، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية.

وقد كتب خطه فى المحضر خلق كثير:

فمن العلويين: المرتضي، والرضى، وابن الأزرق الموسوي، وأبو طاهر بن أبى الطيب، ومحمد بن محمد بن عمرو بن أبى يعلى. ومن القضاة: أبو محمد القناتى، وأبو القاسم الحمزوى، وأبو العباس بن السورى. ومن الفقهاء: الإمام أبو حامد الإسفراييني، وأبو محمد بن الكشفلى، وأبو الحسين القدورى، وأبو عبد الله الصيمرى، وأبو عبد الله البيضاوى، وأبو على بن حكمان. ومن الشهود: أبو القاسم التنوخى فى كثير، وقُرئ بالبصرة، وكتب فيه خلق كثير. هذه عبارة الشيخ أبى الفرج بن الجوزى(١)، رحمه الله تعالى.

ثم قام من بعده ولده علي الملقب بالظاهر لإعزاز دين الله(٢)، وكني بأبى هاشم، بويع بعد قتل أبيه وهو ابن ست عشرة سنة، وقامت عمته بتدبير ملكه أحسن قيام - كما تقدم ذكره - إلى أن ماتت، فحذا حذوها، وحسنت أيامه وسيرته. إلى أن طمع الناس فيه لصغر سنه، وتغلب صاحب الرملة حسان بن مفرَج البدرى على أكثر بلاد الشام. وتضعضعت دولة الظاهر إلى أن توفى يوم الأحد منتصف شعبان سنة سبع

(١) ينظر المنتظم لابن الجوزى ٧/ ٢٥٥ - ٢٥٧ .

(٢) ينظر [الظاهر العبيدى] فى: شذرات الذهب ٣/ ٢٣١ - ٢٣٢، حسن المحاضرة ٢/ ١٤، النجوم الزاهرة ٤/ ٢٤٧، اتعاظ الحنفا ٢/ ١٢٤، المواعظ والاعتبار ١/ ٣٥٤، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٦١، البداية والنهاية ١٢/ ٣٩، الجوهر الثمين ٢٥٣، الدرة المضية ٣٣٩، تاريخ ابن الوردى ١/ ٣٤٢، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٨٤ - ١٨٦، دول الإسلام ١/ ٢٥٤، العبر ٣/ ١٦٢، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٢٠، وفيات الأعيان ٢/ ٤٠٧ - ٤٠٨، الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٤٧ .

وعشرين وأربعمائة، وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة، وكانت مدة ولايته ستة عشر عامًا وتسعة أشهر.

ثم قام بالأمر بعده ابنه معد المُكَنَّى أبا تميم، الملقب بالمستنصر(١)- بسين الاستفعال - ابن الظاهر وعمره سبع سنين، وتكفل بأعباء المملكة بين يديه الأفضل، أمير الجيوش، بدر بن عبد الله الجمالى. بويع يوم موت أبيه وهو ابن سبع سنين وسبعة وعشرين يومًا، وبقي فى الخلافةستين سنة وأربعة أشهر، ولا يعلم فى الإسلام خليفة ولا سلطان أقام فى الملك هذه المدة(٢) والمستنصر هذا هو الذى خطب له البساسيرى على منابر بغداد، وهذا شيء لم يقع لأحد من آبائه.

وفى أيامه وقع الغلاء العظيم بمصر، حتى إن الكلب بيع بخمسة دنانير ليؤكل، والقط بثلاثة دنانير، وضعفت الناس من شدة الجوع؛ حتى إن الكلب يدخل إلى بيت الشخص فيأكل ولده وليس له قدرة على النهوض إلى دفعه، وكان بمصر حارة تعرف بحارة « الطبق » وفيها عشرون دارًا، كل دار تساوى أكثر من ألف دينار فبيعت كلها بطبق خبز؛ كل دار منها برغيف !!.

قال ابن الجوزى فى « المنتظم »(٣): خرجت امرأة وَمَعَهَا قدر ربع من جوهر، فقالت: من يأخذ منى هذا الجوهر ويعطينى عوضه برًا ؟ فلم تجدْ مَنْ يأخذه مِنْهَا بذلك، فَقَالَتْ: إِذًا لم ينفعْنى وقت الحاجة فلا حاجة لى به، فألقته على الأرض وانصرفت، فالعجب ما كان له من يلقطه. وأخرج المستنصر جميع الذخائر فباعها، يقال: إنه باع فى هذا الغلاء ثمانين ألف قطعة من أنواع الجواهر المثمنة، وخمسة وسبعين ألف قطعة من أنواع الديباج المنسوج بالذهب، وعشرين ألف سيف محلى، وأحد عشر ألف دار، وافتقر الخليفة حتى لم يبق له إلا سجادة تحته وقبقاب فى رجله،

---

(١) ينظر [المستنصر العبيدى] فى: شذرات الذهب ٣/ ٣٨٢، حسن المحاضرة ٢/ ١٤، النجوم الزاهرة ٥/ ١٤٠، اتعاظ الحنفا ٢/ ٣٣٢، المواعظ والاعتبار ١/ ٣٥٥، الجوهر الثمين ٢٥٤، البداية والنهاية ١٢/ ١٤٨، مرآة الجنان ٣/ ١٤٥، الدرة المضيّة ٤٤١، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٧، العبر للذهبى ٣/ ٢١٥، دول الإسلام ٢/ ١٥، المختصر فى أخبار البشر ٢/ ٢٠٥، نهاية الأرب ٢٨/ ٢٤٠ - ٢٤٣، وفيات الأعيان ٥/ ٢٢٩ - ٢٣١ .

(٢) ينظر: وفيات الأعيان ٥/ ٢٢٩ .

(٣) هذا وهم من المصنف لأن هذا الخبر ورد فى مرآة الزمان لسبط بن الجوزى وليس لابن الجوزى صاحب المنتظم .

فصار إذا نزل للصلاة يستعير بغلة الديوان حتى يركبها، ومات معظم الناس جوعًا[١].

قال ابن الجوزى فى « المنتظم »[٢]: فى سنة اثنتين وستين وأربعمائة فى ولاية المستنصر كان غلاء شديد، وقحط عظيم بديار مصر؛ بحيث إنهم أكلوا الجيف والميتات والكلاب، وأفنيت الدواب. فلم يبق لصاحب مصر فرس بعد العدد الكثير، ونزل الوزير يومًا عن بغلته فغفل عنها الغلام لضعفه من الجوع، فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها، فأخذوا وصلبوا، فأصبحوا وعظامهم بادية على ما صلبوا عليه، قد أكل الناس لحومهم !! وظهر على رجل يقتل الصبيان والنساء، ويدفن رءوسهم وأطرافهم، ويبيع لحومهم؛ فقتل.

وفيها ضاقت يد شريف مكة محمد بن أبى هاشم بن فليتة، فأخذ الذهب من أستار الكعبة والميزاب والباب فضرب ذلك دراهم ودنانير، وكذلك فعل صاحب المدينة بالقناديل التى فى الحجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وقبلها فى سنة خمسين وأربعمائة كانت فتنة البساسيرى، وهو أرسلان التركى - قبحه الله تعالى - وذلك أنه عزم على أن يسير إلى بغداد ويأخذها من صاحبها الخليفة العباسى المسمى بالقاهر بن القادر، ويخطب فيها للمستنصر الفاطمى، فركب البساسيري ومعه قريش بن بدران أمير العرب إلى الموصل، فأخذها وأخرب قلعتها؛ فانزعج الناس لذلك، واضطربت بغداد، وأرجف الناس بأن البساسيرى عازم على قصد بغداد، وأنه قرب من الأنبار، وتفرق الجيش من بغداد، إلى نواحى همذان والأهواز، وبقيت بغداد وليس بها أحد من المقاتلة، فعزم الخليفة القائم بأمر الله على الرحيل من بغداد إلى غيرها وليته فعل، ثم أحب داره والمقام مع أهله فلبث فيها اغترارًا، ولما خلا البلد من المقاتلة قيل للناس: من أراد الخروج فليذهب إلى حيث شاء؛ فانزعج الناس وبكى الرجال والنساء والأطفال، وعبر كثير من الناس إلى الجانب الغربى، وبلغت المعبرة دينارًا أو دينارين لعدم الجسر[٣].

قال[٤]: وطار فى تلك الليلة على دار الخليفة نحو من عشر بومات مجتمعات

(١) ينظر المنتظم لابن الجوزى ١٦/ ١١٨، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥/ ١٧ .
(٢) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ١٦/ ١١٨ .
(٣) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ١٦/ ٣٢ - ٣٣ .
(٤) ينظر: المصدر السابق .

يصحن صياحًا مزعجًا. وقيل للوزير أبى القاسم بن المسلمة، الملقب برئيس الرؤساء، وزير القائم العباسى: من المصلحة أن الخليفة يرتحل من بغداد لعدم المقاتلة بها فلم يقبل، وشرعوا فى استخدام طائفة العوام، ودُفِعَ إليهم سلاح من دار المملكة. فلما كان يوم الأحد الثامن من ذى القعدة من هذه السنة، دخل البساسيرى بغداد، ونشر الرايات البيض المصرية، وعلى رأسه أعلام مكتوب عليها: الإمام المستنصر بالله، أبو تميم معد أمير المؤمنين، فتلقاه أهل « الكرخ » - وهم أهل الرفض والإلحاد - فتضرعوا إليه، وسألوه أن يجتاز عندهم، فدخل الكرخ وخرج إلى « مشرعة الروايا »، فخيم بها، والناس إذ ذاك فى ضر ومجاعة شديدة، ونزل قريش بن بدران فى نحو مائتى فارس على مشرعة باب البصرة، وكان البساسيرى قد جمع العيارين وأطمعهم فى نهب دار الخلافة، ونهب أهل الكرخ دور أهل السنة بباب البصرة، ونهبت دار قاضي القضاة الدامغانى، وهلك أكثر السجلات والكتب الحكمية، ونهبت دار المتعلقين بخدمة الخليفة، وأعادت الروافض الأذان بـ « حى على خير العمل »، وكذلك أذن فى سائر جوامع بغداد، وضربت له السكة على الذهب والفضة، وحوصرت دار الخلافة فحاجز الوزير ابن المسلمة بمن معه من المستخدمين دونها، فلم يفد ذلك شيئًا، فركب الخليفة بالسواد والبردة على كتفيه، وعلى رأسه القواد، وبيده سيف صلت، وحوله زمرة من الهاشميين والجوارى حاسرات وجوههن، ناشرات شعورهن، معهن المصاحف على رءوس الرماح، وبين يديه الخدم بالسيوف المسللة.

ثم إن الخليفة أخذ ذمامًا من أمير العرب، قريش بن بدران لنفسه وأهله ووزيره ابن المسلمة، فآمنه على ذلك وأنزله فى خيمة، فلامه البساسيرى على ذلك، وقال له: لقد علمت ما كان وقع الاتفاق عليه بينى وبينك من أنك لا تستبد برأى دونى ولا أنا دونك، ومهما ملكنا فبينى وبينك.

واستحضر البساسيرى ابن المسلمة ووبخه ولامه لومًا شديدًا، ثم ضربه ضربًا مبرحًا واعتقله مهانًا عنده، ونهبت العيارون دار الخلافة؛ فلا يحصى ما أخذ منها من الجواهر، والنفائس، والديباج، والأثاث، وغير ذلك مما لا يحد ولا يوصف.

قلت: ما أخذه البساسيرى لأستاذه المستنصر من دار الخليفة القائم العباسى

أخرجه وباعه بأبخس الأثمان، وهو مضطر جوعان، ولم يتمتع به فى هذه الدار، وهو محاسب عليه فى دار القرار.

ثم اتفق رأى البساسيرى وقريش بن بدران على تسيير الخليفة من بغداد، وتسليمه إلى أمير « حديثة عانة »، وهو مهارش بن مجلى البدرى، وهو من بنى عم قريش بن بدران، وكان رجلًا صالحًا.

قلت: « حديثة عانة »: بليدة بين حلب وبغداد، مشهورة مذكورة إلى الآن، النسبة إلى جزئها الأول فيقال: فلان الحديثى. انتهى.

فلما بلغ الخليفة ذلك دخل على قريش بن بدران ألا يخرجه من بغداد فلم يفد ذلك شيئًا، وسيروه مع أصحابه إلى حديثة عانة، فكان عند مهارش أميرها حولاً كاملًا، وليس معه أحد من أهله، فحكي عن القائم أنه قال: لما كنت بحديثة عانة قمت ليلة إلى الصلاة، فوجدت فى قلبي حلاوة المناجاة، ثم دعوت الله تعالى فقلت: اللهم أعدنى إلى وطنى، واجمع بينى وبين أهلي وولدي، ويسر اجتماعنا، وأعد روض الأنس زاهرًا، وربع القرب عامرًا، فقد قل العزاء، وبرح الخفاء. قال: فسمعت قائلاً على شط الفرات يقول: نعم نعم، فقلت: هذا رجل يخاطب آخر، ثم أخذت فى السؤال والابتهال، فسمعت ذلك الصائح يقول: إلى الحول إلى الحول، فعلمت أنه هاتف أنطقه الله تعالى بما جرى الأمر عليه. وكان الأمر كذلك؛ فإنه خرج من داره فى ذى القعدة من هذه السنة، ورجع إليها فى ذى القعدة من السنة المقبلة(١)، كما سنذكره الآن.

ولما كان يوم عيد الأضحى ألبس البساسيرى الخطباء والمؤذنين البياض، وعليه هو وأصحابه كذلك، وعلى رأسه الألوية المستنصرية والقطاريف المصرية، وخطب للمستنصر الفاطمى صاحب مصر، والروافض فى غاية السرور، وانتقم من أعيان أهل بغداد انتقامًا عظيمًا، وغرق خلقًا كثيرًا، وقتل من العلماء جمعًا.

ولما كانت ليلة الإثنين لليلتين بقيتا من ذى الحجة، أحضر بين يديه الوزير ابن المسلمة، وعليه جبة صوف، وطرطور من لبد أحمر، وفى رقبته مخنقة من جلود، فأركب جملًا، وطيف به فى البلد، وخلفه من يصفعه بقطعة جلد. وحين أجاز

---

(١) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ١٦/ ٣٥ .

بالكرخ، نثروا عليه خلقان المداسات، وبصقوا فى وجهه ولعنوه وسبوه، فأوقف بإزاء دار الخلافة وهو فى ذلك كله يتلو قوله تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ الآية [آل عمران:٢٦]، ثم لما فرغ من الطواف به فى البلد، وأعيد إلى العسكر، ألبس جلد ثور بقرنيه، وعلق بكلاب فى شدقيه، ورفع إلى الخشبة حيًا فجعل يضطرب إلى آخر النهار، فمات رحمه الله تعالى، وكان آخر كلامه أن قال: الحمد لله الذى أحيانى سعيدًا وأماتنى شهيدًا(١).

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وبغداد فى قبضة البساسيرى، يخطب فيها للخليفة المستنصر الفاطمى، والقائم قاعد بـ « حديثة عانة » .

ثم لما كان يوم الإثنين، ثانى عشر صفر، أحضر البساسيرى قاضى القضاة أبا عبد الله الدامغانى، وجماعة من الوجوه والأعيان من العلويين والعباسيين، وأخذ عليهم البيعة للمستنصر الفاطمى، ثم دخل دار الخلافة، وهؤلاء المذكورون معه، وأمر بنقض تاج دار الخلافة؛ فنقضت بعض الشراريف. ثم قيل له: إن ترك الفتح فى هذا الأمر من المصلحة؛ فتركه. ثم ركب إلى زيارة المشهد، وأمر بأن تنقل جثة ابن المسلمة إلى ما يقارب الحرم الظاهري، وأن ينصب على دجلة(٢).

وكتبت أم الخليفة، وكانت عجوزا كبيرة قد بلغت التسعين، وهى مختفية فى مكان - إلى البساسيرى؛ تشكو إليه الفقر والحاجة وضيق الحال، فأرسل إليها ونقلها إلى الحريم، وأخدمها جاريتين، ورتب لها كل يوم اثنى عشر رطلا من خبز، وأربعة أرطال من لحم؛ ولا يفى هذا بقيراط مما فعله بولدها وبأهل السنة(٣).

وكان وقوع هذا الواقع، والسلطان طغرلبك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق غائب؛ لقتال أخيه إبراهيم بن ميكائيل. فلما ظفر به وأسره وقتله، وتمكن فى أمره، وطابت نفسه واستقر حاله، ولم يبق له بتلك البلاد منازع - سمع بهذا الواقع؛ فكتب إلى قريش بن بدران أمير العرب، يأمره بأن يعاد الخليفة إلى داره، على ما كان عليه، وتوعده على ترك ذلك بأسًا شديدًا. فكتب إليه قريش، يتلطف به ويسأله، ويقول: أنا معك على البساسيرى بكل ما أقدر عليه، حتى يمكن الله منه؛

(١) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ١٦/ ٣٨ .
(٢) ينظر: السابق (١٦/ ٤٤ - ٤٥)
(٣) ينظر: السابق (١٦/ ٤٤) .

ولكن أخشى أن أشرع فى أمرٍ يكون فيه على الخليفة مفسدة، أو يبدر إليه أحد بأذية؛ ولكن سأعمل فى أمره بكل ما يمكننى. ثم إنه راسل البساسيرى، وأشار عليه بعود الخليفة إلى داره؛ وخوفه من جهة الملك طغرلبك. وقال له - فيما قال -: إنك دعوتنا إلى طاعة المستنصر صاحب مصر، وبيننا وبينه ستمائة فرسخ، ولم يأتنا من جهته رسول ولا أحد، ولم يفكر فى شيء مما أرسلنا إليه، وهذا الملك من ورائنا بالمرصاد.

وجاء كتاب من الملك طغرلبك، عنوانه: « إلى الأمير الأجل، علم الدين أبى المعالى، قريش ابن بدران، مولى أمير المؤمنين. من شاهنشاه، ملك المشرق والمغرب، طغرلبك أبى طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق » وعلى رأس الكتاب العلامة السلطانية بخط السلطان: « حسبى الله » وكان فى الكتاب ما نصه: « والآن، فقد سارت بنا المقادير إلى قتال كل عدو للدين والملك، ولم يبق لنا وعلينا من المهمات؛ إلا خدمة سيدنا ومولانا الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين، وإطلاع أبهة إمامته على سرير عزه، فإن الذى يلزمنا ذلك، ولا فسحة فى التضجيع فيه ساعة من الزمان، وقد أقبلنا بجيوش المشرق إلى هذا المهم العظيم؛ ونريد من الأمير الجليل السعى النجيح الذى وفق له وتفرد به؛ وهو أن يتمم وفاءه من أمانته وخدمته فى باب سيدنا ومولانا الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين، وأن يكون أحد الرجلين: إما أن يقبل به إلى وكر عزه، ويتولى إقامته وموقف خلافته من مدينة السلام، وينتدب بين يديه متوليا أمره منفذا حكمه شاهرا سيفه وقلمه، وذلك المراد، وهو خليفتنا فى تلك الخدمة المفروضة؛ ويوليه العراق بأسرها، وتصفى له مشارع برها وبحرها؛ لا يطأ حافر من خيول العجم شبرًا من أرض تلك المملكة إلا بالتماس لمعاونته ومظاهرته. وإما أن يحافظ على شخصه العالى؛ بتحويله من القلعة إلى حين يجاء لخدمته فيتكفل بإعادته، ويكون الأمير الجليل مخيرًا بين أن يلتقى بنا أو يقيم حيث شاء بتولية العراق، وسنخلفه فى الخدمة. وهو - أدام الله تمكنه - يتيقن ما ذكرنا، ويعلم أن توجهنا إثر هذا الكتاب بهذا الغرض المعلوم، ولا غرض سواه، ومن اتصل ببغداد من سائر العرب والعجم والأكراد، كلُّهم إخواننا، وفى ديننا وعهدنا، وعلينا لهم عهد الله وميثاقه - ما داموا موافقين للأمير ولكل محترم -

عفونا وأمننا لما بدر منه؛ إلا البساسيرى؛ فإنه لا عهد له ولا أمان، وهو موكول إلى الشيطان؛ وقد ارتكب فى دين الله عظيما، وهو - إن شاء الله - مأخوذٌ حيث وجد، ومعذب على ما عمل وسعى فى دماء خلق كثير بسوء دخيلته، وإدارة أفعاله على فساد عقيدته !. وكتب فى رمضان، سنة إحدى وخمسين وأربعمائة »(١).

فلما وصل الكتاب إلى قريش بن بدران، استعلم عن أخبار الملك طغرلبك من الرسل وغيرهم؛ فإذا معه جنود عظيمة، فخاف من ذلك خوفًا شديدًا، وبعث إلى البرية، وأمر بحفر أماكن للماء، وتجهيز علوفات كثيرة إلى هنالك، وأنفذ الكتاب إلى البساسيرى؛ فانزعج البساسيرى لذلك وخارت قوته وضعف أمره، وبعث إلى أهله فنقلهم من بغداد، وأرصد له إقامات عظيمة بواسط، وجعلها دار مقره، ووافق على عود الخليفة إلى بغداد؛ ولكن اشترط شروطًا كثيرة؛ ليذهب خجله.

وترحل قريش بن بدران إلى أرض الموصل، وبعث إلى « حديثة عانة » يقول لأميرها مهارش بن مجلى - الذى سلم إليه الخليفة -: المصلحة تقتضي أن تحول الخليفة إلي؛ حتى نستأمن لأنفسنا بسببه؛ فلا نسلمه حتى نأخذ لأنفسنا أمانًا، ويكون فى يدك دون يدى. فامتنع عليه مهارش، وقال: قد غدر بى البساسيرى فى أشياءَ وعدنى بها فلم أرها، ولست بمرسله إليك أبدًا، وله فى عنقى أيمان كثيرة لا أغدر بها.

وكان مهارش رجلا صالحًا ثقة أمينا، فقال للخليفة: من المصلحة أن نسير إلى بلد بدر بن مهلهل، وننظر ما يكون من أمر السلطان: فإن ظهر دخلنا بغداد، وإن كانت الأخرى نظرنا لأنفسنا؛ فإنا نخشى من البساسيرى أن يعود فيحصرنا. فقال له الخليفة: افعل ما فيه المصلحة.

فسارا فى الحادى والعشرين من ذى القعدة، إلى أن حصلا بقلعة « عكبراء » فتلقته رسل الملك طغرلبك بالهدايا التى كان أنفذها إليه، وهو متشوق إليه كثيرًا، وجاءت الأخبار بأن السلطان طغرلبك دخل بغداد، وكان يومًا مشهودًا؛ غير أن الجيش نهبوا بغداد سوى دار الخليفة، وصودر خلق كثير وشرعوا فى عمارة دار الملك، وأرسل السلطان إلى الخليفة مراكب كثيرة من أنواع الخيول وغيرها،

(١) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ١٦/ ٤٦ .

وسرادق عظيمة وملابس سنية؛ أرسل ذلك مع وزيره عبد الملك الكندرى.

ولما انتهوا أرسلوا بتلك الآلات قبل أن يصلوا إليه، وقالوا لمن حوله: اضربوا السرادق، وليلبس الخليفة ما يليق به، ثم نجيء نحن فنستأذن عليه، فلا يأذن لنا إلا بعد ساعة طويلة فلما دخل الوزير عبد الملك الكندرى ومن معه، قبلوا الأرض، بعد أن استأذنوا - فلم يؤذن لهم إلا كما قالوا. وأخبر الخليفة بسرور السلطان بما حصل؛ من العود إلى بغداد واشتياقه إليه جدا، وكتب الوزير عبد الملك إلى السلطان وأخبره بما جرى، وأحب أن يأخذ خط الخليفة فى أعلى الكتاب؛ فيكون أقرَّ لِعَيْنِ السلطان. ولم يكن عند الخليفة دواة؛ فأحضر الوزير دواته ومعها سيف، قال: هذه حرمة السيف والقلم، فأعجب الخليفة قوله.

وترحلوا من منازلهم تلك بعد يومين، فلما وصلوا إلى النهروان، خرج السلطان طغرلبك من بغداد لتلقيه. فلما انتهى إلى السرادق قبل الأرض بين يدى الخليفة سبع مرات، فأخذ الخليفة مخدة فوضعها بين يديه، فأخذها السلطان فقبلها ثم جلس عليها، وقدم للخليفة الحبل الياقوت الأحمر، الذى كان لابن بويه، فوضعه بين يديه، وأخرج اثنتى عشرة حبة لؤلؤ كبار، وقال: هذا لرسلان خاتون؛ وهى أخته زوجة الخليفة، وكانت قد خرجت فى وقعة البساسيرى، ولحقت بأخيها السلطان طغرلبك؛ تخدم وتسأل أن يسبح الخليفة بهذه المسبحة؛ وجعل يتعذر عن تأخره عن الحضرة فيقول: سببه عصيان أخي إبراهيم عَلَيّ فحاربته وقتلته، واتفق موت أخى الأكبر؛ فاشتغلت فى ترتيب أولاده فى هذه الممالك. وأنا شاكر لمهارش بما كان منه من خدمة أمير المؤمنين، وأنا - إن شاء الله - أمضي إلى هذا الكلب البساسيرى، وأعود إلى الشام، وأفعل بصاحب مصر ما ينبغى أن يجازى به؛ من سوء المقابلة بما كان من فعله ههنا. فدعا له الخليفة وشكره على ذلك. كل ذلك بتوجيه الوزير عبد الملك الكندرى بين الخليفة والسلطان، وأعطى الخليفة السلطان سيفًا كان لم يبق معه من أمور الخلافة سواه.

ودخلَ الخليفةُ بغداد يومَ الخميسِ، لخمسٍ بقين مِنْ ذى القعدةِ، وَكَانَ ذلك يومًا مشهودًا؛ الجيش كُلّه مَعَهُ، والقضاة والأعيان بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالسُّلطان آخذ بلجام بغلته، حتى وصل إلى باب الحجرة. ولما وصل الخليفة إلى دار مملكته ومقر خلافته،

استأذن السلطان طغرلبك فى الخروج وراء البساسيري، فأذن له. وكان قد عزم على أن يمضى معه، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا أكفيك. وأطلق لمهارش عشرة آلاف دينار، ولم يرض.

وشرع السلطان فى ترتيب الجيوش وراء البساسيرى، فأرسل جيشًا من ناحية « الكوفة »؛ ليمنعوه من الدخول إلى الشام، وخرج هو فى التاسع والعشرين من شهر ذى الحجة، فى بقية الجيش. وأما البساسيرى فإنه مقيم بـ « واسط » فى جمع غلات وتمور، يتهيأ لقتال أهل بغداد ومن فيها، وعنده: أن السلطان طغرلبك ومن معه ليسوا بشيء يخاف منهم؛ وذلك لما يريده الله من إهلاكه على يد السلطان، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا !.

ولما سار السلطان وقد وصلت إليه السرية الأولى، فلقوه بأرض « واسط » فالتقوا هناك، فانهزم أصحاب البساسيرى ونجا بنفسه على فرسه، فتبعه بعض الغلمان فرمى فرسه بنشابة؛ فألقته إلى الأرض، وجاء وضربه على وجهه ولم يعرفه، وأخذه واحد من الجيش، يقال له: كشتكين، فحز رأسه وحمله إلى السلطان، وأخذت الأتراك من جيش البساسيرى، من الأموال والذخائر ما عجزوا عن حمله.

ولما وصل الرأس إلى السلطان، أمر أن يذهب به إلى « بغداد » وأن يرفع على قناة، وأن يطاف به، والدباب والبوقات والنفاطون معه، ففعل ذلك، وخرج الناس والنساء والصبيان؛ للفرجة عليه، ثم نصب على الطَّيار تجاه دار الخلافة، ولله الحمد والمنة !.

وكان مع البساسيرى خلق من البغادِدَة، خرجوا ظانين أنه سيعود إليها؛ محبة فيه، فهلكوا ونهبت أموالهم كلها، ولم ينج من أصحابه إلا القليل !.

وأما الخليفة: فإنه لما عاد إلى دار الخلافة، جعل لله عليه ألا ينام على وطاء، ولا يأتيه أحد بطعامه إذا كان صائمًا، ولا يخدمه فى وضوئه وغسله؛ بل يتولى ذلك كله بنفسه. وعاهد الله ألا يؤذى أحدًا ممن آذاه، وأن يصفح عمن ظلمه، وكان يقول: ما عاقبت من عصى الله فيك، بأكثر من أن تطيع الله فيه ! (١).

انتهت وقعة البساسيرى بكمالها، وأحببت إيرادها؛ لأنها من أعظم الوقائع، ولم

(١) ينظر: المنتظم لابن الجوزى ١٦/ ٥٥ - ٥٦ .

تخل من فائدة ويقال: إن المستنصر هذا أحسن السيرة والعدل؛ لما احتفظ بتدبير المملكة. وذكروا أنه كتب على رقعة: [من السريع]

أَصْبَحْتُ لاَ أَرْجُو وَلاَ أَتَّقِي إلاَّ إِلَهِي وَلَهُ الْفَضْلُ
جَدِّي نَبِيِّي وَإِمَامِي أَبِي وَقَوْلِيَ التَّوْحِيدُ وَالْعَدْلُ

المال مال الله، والعبيد عبيد الله، والعطاء خير من المنع ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وفى أيامه احترق جامع دمشق، سنة إحدى وستين وأربعمائة.

قلت: البساسيرى[١] هذا اسمه: أرسلان، ويلقب: أبا الحارث، وهو من الترك، وكان من مماليك بهاء الدولة ابن عضد الدولة الديلمى، وكان أولا مملوكا لرجل من أهل مدينة « بسا » بالباء العجمية - بـ « أصبهان » فنسب إلى ذلك الرجل المنسوب إلى تلك المدينة فقيل له البساسيرى، ثم كان مقدمًا كبيرًا عند الخليفة القائم بأمر الله، لا يقطع أمرًا دونه، وخطب له على منابر العراق كلها، ثم طغى وبغى، وتمرد وعتا، وخرج على الخليفة بل وعلى المسلمين، ودعا إلى خلافة الفاطميين؛ ليتم له ما رامه من الأمل الفاسد. وكانت وفاته سنة إحدى وخمسين وأربعمائة.

وكانت وفاة المستنصر يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة.

ثم قام من بعده أحمد الملقب بالمستعلي[٢]، المكنى بأبى القاسم، بويع بعد موت أبيه المستنصر، وسنه نيف وعشرون سنة. وكان القائم بتدبير ملكه: أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى. وقد كان عهد أبوه إلى ولده الآخر نزار، فخلعه الأفضل، فقاتله نزار، فهزمه الأفضل وأسر القاضى ونزار؛ فقتل القاضى وحبس نزار حتى مات، واستقر المستعلى فى الخلافة، وكان عمره

---

(١) ينظر [البساسيرى] فى: شذرات الذهب ٣/ ٢٨٧، الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٤٩، النجوم الزاهرة ٥/ ٢، وفيات الأعيان ١/ ١٩٢ - ١٩٣، المنتظم لابن الجوزى ١٦/ ٥٦ .

(٢) ينظر [المستعلى] فى: الكامل لابن الأثير ١٠/ ٢٣٧ وما بعدها، وفيات الأعيان ١/ ١٧٨ - ١٨٠، العبر للذهبى ٣/ ٣٤١، البداية والنهاية ١٢/ ١٦٢، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٦٦ - ٦٨، خطط المقريزى ١/ ٣٥٦ - ٣٥٧، النجوم الزاهرة ٥/ ١٤٢، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٩٦، شذرات الذهب ٣/ ٤٠٢ .

إحدى وعشرين سنة.

وفى أيامه: استولت الفرنج على سواحل أهل الشام وبيت المقدس(١)، واضمحل أمر الفاطميين، ولم يبق لهم من الخلافة إلا الاسم، واستمر إلى أن مات يوم الثلاثاء ثالث صفر سنة خمس وسبعين وأربعمائة.

ثم قام بالأمر بعده ابنه منصور الملقب بالآمر بأحكام الله(٢) ابن المستعلى ابن المستنصر، الفاطمى العبيدى، أبو عَلي الخبيث الرافضى، بويع بعد موت أبيه، وتولى تدبير مملكته شاهنشاه، فلما كبر جازاه بالقتل، وأقام عوضه فى الوزارة المأمون البطائحى، صاحب جامع الأقمر بالقاهرة، ثم قبض عليه وقتله وصلبه أيضا.

واستمر الآمر إلى أن مات ليلة الأربعاء، ثالث عشر ذى القعدة الحرام، سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وكانت مدته سبعًا وعشرين سنة وتسعة أشهر، ولم يعقب.

وسبب موته: أنه مر على الجسر من الروضة عند خروجه إلى الجزيرة تجاه مصر، فوثب عليه تسعة فضربوه بالسكاكين، حتى إن أحدهم وثب وركب خلفه، ثم حمل جريحًا إلى أن مات(٣).

ثم قام من بعده ابن عمه عبد المجيد، الملقب بالحافظ لدين الله (٤)بن محمد بن المستنصر المكنى أبا الهول. بويع بعد قتل الآمر، ودام إلى أن مات فى جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

واستوزر فى أيامه أحمد بن الأفضل، شاهنشاه بن بدر الجمالى، ولقب أمير الجيوش كأبيه وجده، وكانت الأمور قبل ولاية الحافظ اضطربت لموت الآمر عن

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير ١٠/ ٢٧٢ - ٢٨٩، حيث أورد الحروب الصليبية بالتفصيل.

(٢) ينظر: [الآمر بأحكام الله] فى: شذرات الذهب ٤/ ٧٢ - ٧٣، النجوم الزاهرة ٥/ ١٧٠ - ١٨٥، خطط المقريزى ١/ ٣٥٧، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٦٨ - ٧١، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٩٧، الكامل لابن الأثير ١٠/ ٣٢٨، وفيات الأعيان ٥/ ٢٩٩ - ٣٠٢، العبر للذهبى ٤/ ٦٢، البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٠ - ٢٠١.

(٣) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ١٥/ ١٩٩، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥/ ١٨٤ - ١٨٥.

(٤) ينظر [الحافظ لدين الله] فى: شذرات الذهب ٤/ ١٣٨، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٧، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٧١ - ٧٣، خطط المقريزى ١/ ٣٥٧، البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٦، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٩٩، تاريخ ابن إياس ١/ ٦٤ - ٦٥، وفيات الأعيان ٣/ ٢٣٥ - ٢٣٧، العبر للذهبى ٤/ ١٢٢، الكامل لابن الأثير ١٠/ ٦٦٥.

غير ولد، وكان الحافظ كثير المرض بالريح القولنج، فعمل له الحكيم المسمى « سرماه » طبلاً للقولنج الذى وجد بعد فى خزائن الفاطميين لما ملك السلطان صلاح الدين مصر، وكان هذا الطبل مركبًا من المعادن السبعة فى أشرافها، وكان من خاصية هذا الطبل إذا ضرب به أحد خرج منه تلك الريح المذكورة، فلما وجد فى الخزائن ضرب به بعض الأجناد الأجلاف، فخرج منه ريح؛ فغضب وضرب به الأرض فكسره فبطلت تلك الخاصية، فندم السلطان صلاح الدين لذلك غاية الندم[1].

وفى أيام الحافظ هذا ابتذلت الخلافة حتى لم يبق له من الحكم لا قليل ولا كثير، وكانت مدته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر.

ثم قام من بعده ابنه إسماعيل، الملقب بالظافر[2]، ابن عبد المجيد بن محمد بن المستنصر الفاطمى العُبيدى، صاحب الجامع الظافرى المعروف بجامع الفاطميين داخل القاهرة، بويع بعد موت أبيه وهو ابن سبع عشرة سنة وأشهر.

وكان يهوى نصرًا، ابن وزيره العباس وينادمه، فينزل الظافر له خفية وينام عنده، فتكلم الناس فى ذلك، فبلغ العباس ذلك فوبخ ابنه بما سمع من كلام الناس، فلما نزل إليه الخليفة فى بعض الليالى على عادته ومعه خادم واحد ونام، قام نصر إليه فقتله ورمى به فى بئر، وعرف أباه الوزير بذلك، فلما أصبح الوزير توجه إلى باب القصر كأنه لم يعلم بما وقع، فطلب الخليفة على العادة فقال له خادم القصر: ابنك نصر يعرف أين هو، فقال له الوزير: ما لابنى علم. ثم أحضر العباس أخوين للظافر وابن أخيه وقتلهم صبرًا بين يديه[3]، ثم أحضر أعيان الدولة وقال لهم: إن الظافر قد ركب البارحة فى مركب فانقلب به وغرق. وقام ودخل إلى الحريم وأخرج عيسى بن الظافر وبايعه ولقبه بالفائز، وتفرق الناس عن الوزير لما عرفوا أمر الظافر وطالبوه بدم الخليفة.

---

(١) ينظر: النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥/ ٣٣٥ .

(٢) ينظر [الظافر بالله] فى: شذرات الذهب ٤/ ١٥٢ - ١٥٣، تاريخ ابن إياس ١/ ٦٥، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٠٢، خطط المقريزى ٢/ ٣٠، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٧٣ - ٧٥، البداية والنهاية ١٢/ ٢٣١، العبر للذهبى ٤/ ١٣٦، وفيات الأعيان ١/ ٢٣٧، الكامل لابن الأثير ١١/ ١٤١ .

(٣) ينظر: وفيات الأعيان ١/ ٢٣٧ .

وكانت مدة الظافر أربع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وأرسل النساء يستغثن بطلائع بن رزيك، وكان إذ ذاك بدمشق متولى منية ابن الخصيب، فجمع طلائع عسكره وقصد عباسًا الوزير فبلغه، فجمع عباس ما قدر على جمعه من الجواهر والأموال وخرج نحو الشام، فخرج عليه الفرنج فى الطريق فأسروه وأخذوا أمواله، وتولى طلائع وزارة مصر، وأرسل فبذل للفرنج مالاً عظيمًا، وأخذ عباسًا منهم وقتله وصلبه على باب القصر، وتلقب بالملك الصالح، وهو صاحب جامع باب الزويلة. وكان قتل الظافر سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

ثم قام من بعده ابنه عيسى، الملقب بالفائز[1] بن الظافر بن الحافظ بن محمد بن المستنصر. بويع بعد قتل أبيه وهو صبى، وأصيب بالرجفة لما أخرجه الوزير عباس من الحريم على كتفه للبيعة، وهو ابن سنتين أو أربع، وذلك أنه لما رأى أعمامه قتلى فزع واضطرب، ودام به ذلك إلى أن مات يوم الجمعة سابع عشر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وهو ابن عشر سنين تقريبًا.

قال فى البداية: وفيها - يعنى سنة تسع وأربعين وخمسمائة - تولى الفائز بنصر الله، أبو القاسم، عيسى بن إسماعيل الظافر، ثم كانت وفاته فى صفر وعمره إحدى عشرة سنة، ومدة ولايته من ذلك ست سنين وشهران، وكان مدبر دولته أبو الغارات.

ثم قام من بعده عبد الله، الملقب بالعاضد لدين الله[2] بن يوسف بن الحافظ، ولم يكن أبوه خليفة، وكان يومئذ قد ناهز الاحتلام، فقام بتدبير مملكته الملك الصالح طلائع بن رزيك الوزير، وأخذ له البيعة وزوجه بابنته وجهزها بأمر عظيم، وقد عمرت بعد زوجها العاضد، ورأت زوال دولة الفاطميين على يد السلطان

---

(١) ينظر [الفائز بالله] فى: شذرات الذهب ٤/ ١٧٥، تاريخ ابن إياس ١/ ٦٦، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٠٥، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٠٦، خطط المقريزى ١/ ٣٥٧، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٧٥، البداية والنهاية ١٢/ ٢٤٢، وفيات الأعيان ٣/ ٤٩١، العبر للذهبى ٤/ ١٥٦، الكامل لابن الأثير ١١/ ١٩١.

(٢) ينظر [العاضد] فى: شذرات الذهب ٤/ ٢١٩ - ٢٢٠، تاريخ ابن إياس ١/ ٦٧، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٠٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٣٤، خطط المقريزى ١/ ٣٥٧، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٧٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٤ - ٢٦٨، العبر للذهبى ٤/ ١٩٧، وفيات الأعيان ٣/ ١٠٩، الكامل لابن الأثير ١١/ ٢٥٥.

صلاح الدين، يوسف بن أيوب بن شاذى الكردى؛ فإن العاضد هو آخرهم، وكان انتقال دولتهم فى زمنه، وكان لما بويع ابن إحدى عشرة سنة.

قال فى « الأرج المسكى »: وكان القائم بتدبير ملكه وزيره الملك الصالح طلائع ابن رزيك، وزر له بعد والده ولقب بالعادل، فانتزعها منه شاور، وهو الذى كان سببًا لخراب الديار المصرية بمباطنته الفرنج لعنهم الله، وزوال دولة العبيديين منها.

ثم بعد قتل شاور وزر له أسد الدين شيركُوه بن شاذى الكردى، وهو عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ لأن أيوب وشيركوه أخوان أبوهما شاذى، وأيوب يلقب نجم الدين، وشيركوه يتلقب « أسد الدين »؛ فهو عم السلطان صلاح الدين، فلقب شيركوه بالملك المنصور، وأقام شهرين وأيامًا ثم مات، فاستوزر العاضد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولقبه بالملك الناصر، فقطع الملك الناصر بعد سنين اسم الخليفة العاضد من الخطبة بمصر وأعمالها، بأمر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بن آق سُنْقر، صاحب الشام المعروف بنور الدين الشهيد، ومات العاضد بعد ذلك بأيام فى يوم الإثنين، يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة، وندم السلطان صلاح الدين على قطعه الخطبة فى حياته وتمنى أن كان القطع بعد موته، فاستولى السلطان صلاح الدين بن أيوب على مصر وذخائرها.

واختلف فى سبب موت العاضد، فقيل: إنه تفكر فى أموره فرآها فى إدبار فأصابه ذَرَبٌ عظيم فمات منه، وقيل: إنه لما خطب لبنى العباس بالقاهرة بلغه ذلك فاغتم فمات، وقيل: إنه لما أيقن بزوال ملكه كان فى يده خاتم فصه مسموم فمصه فمات منه.

قال الذهبى(١): وكان العاضد مع وزرائه كالمحجور عليه لا يتصرف فى شيء مما يريد، وهو آخر ملوك مصر المسمين بالعبيديين والفاطميين، وكانت مدة تملكهم مائتين وثمان سنين فكانوا لأربعة عشر متخلفًا لا مستخلفًا.

وقال العلامة ابن السبكى فى تاريخه المسمى بـ « البداية »: كان ابتداؤها سنة أربع وستين وثلاثمائة. وكان موت العاضد فى سنة سبع وستين وخمسمائة، وأعيدت الخطبة للمستضيء العباسى ابن المستنجد. وفرح المسلمون فرحًا شديدًا، وكانت

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ١٥/ ٢١١ - ٢١٢ .

الخطبة قد قطعت عن بنى العباس من ديار مصر من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة فى خلافة المطيع العباسى. قال ابن الجوزى: وقد ألفت فى ذلك كتابًا سميته « النصر على مصر ».

قال العلامة ابن السبكى: واتفق أنه لما دخل المعز الفاطمى مصر أرسل إلى الجامع الأزهر يطلب ألقابًا تكون عنده لمن يقوم بعده من أولاده وأولاد أولاده، فكتبت له هذه الألقاب: العزيز، الحاكم بأمر الله، إلى العاضد آخرهم. والعضد فى اللغة: القطع. فكان مع إرادته سبحانه وتعالى قاطعًا لخلافتهم، وبه انقراض ملكهم(١).

قال العلامة ابن السبكى: واتفق أنه لما استقر أمر السلطان صلاح الدين فى مصر بالخطبة لبنى العباس عن مرسوم الملك نور الدين محمود بن زنكى له بذلك، لمعاتبة الخليفة المستنجد إياه قبل وفاته بذلك، وكان إذ ذاك العاضد مريضًا مدنفًا. فكانت وفاته يوم عاشوراء فى سنة سبع وستين كما تقدم ذكر ذلك، فحضر السلطان صلاح الدين جنازته، وشهد عزاءه وبكى عليه، وتأسف وظهر منه حزن، فقد كان مطيعًا له فيما يأمره به. ولما مات استحوذ الملك صلاح الدين على القصر بما فيه، وأخرج أهل العاضد إلى دار أفردها لهم، وأجرى عليهم النفقات والأرزاق الهنية والمعيشة المرضية. وكان يتندم على إقامته الخطبة العباسية قبل وفاته وهلاً صبر بها إلى ما بعد مماته، ولكن كان ذلك قدرًا مقدورًا، وفى الكتاب مسطورًا. ومما قال العماد الكاتب فى ذلك: [من المنسرح]

تُوُفِّيَ العَاضِدُ الدَّعِيُّ فَمَا ... يَفْتَحُ ذُو بِدْعَةٍ بِمِصْرَ فَمَا
وَعَصْرُ فِرْعَوْنِهَا انْقَضَىٰ وَغَدَا ... يُوسُفُهَا فِى الأُمُورِ مُحْتَكِمَا
فَانْطَفَأَتْ جَمْرَةُ الفُؤَادِ وَقَدْ ... بَاخَ مِنَ الشَّرِّ كُلُّ مَا اضْطَرَمَا
وَصَارَ شَمْلُ الصَّلَاحِ مُلْتَئِمًا ... بِهَا وَعَقْدُ السَّدَادِ مُنْتَظِمَا
لَمَّا غَدَا معلما شِعَارُ بَنِى الْـ ... عَبَّاسِ حَقًّا وَالْبَاطِلُ اكْتُتِمَا
وَبَاتَ دَاعِى التَّوْحِيدِ مُنْتَصِرًا ... وَمِنْ دُعَاةِ الإِشْرَاكِ مُنْتَقِمَا
فَظَلَّ أَهْلُ الضَّلَالِ فِى ظُلَلٍ ... دَاجِيَةٍ مِنْ عَمَايَةٍ وَعَمَىٰ

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ١٥/ ٢١٢ .

وَارْتَبَكَ الْجَاهِلُونَ فِى ظُلَمٍ لَمَّا أَضَاءَتْ مَنَابِرُ الْعُلَمَا
وَعَادَ بِالْمُسْتَضِىءِ مُمْتَهِدًا بِنَاءُ حَقٍّ قَدْ كَانَ مُنْهَدِمَا
وَاعْتَلَتِ الدَّوْلَةُ الَّتِى اضْطُهِدَتْ وَانْتَصَرَ الدِّينُ بَعْدَ مَا اهتُضِمَا
وَاهْتَزَّ عِطْفُ الْإِسْلَامِ مِنْ جَذَلٍ وَافْتَرَّ ثَغْرُ الْإِيمَانِ مُبْتَسِمَا
وَاسْتَبْشَرَتْ أَوْجُهُ الْهُدَىٰ فَرَحًا فَلْيَقْرَعِ الْكُفْرُ سِنَّهُ نَدَمَا
عَادَ حَرِيمُ الْأَعْدَاءِ مُنْتَهَكَ الْ حِمَى وَفَيْءُ الطُّغَاةِ مُقْتَسَمَا
قُصُورُ أَهْلِ الْقُصُورِ أَخْرَبَهَا عَامِرُ بَيْتٍ مِنَ الْكَمَالِ سَمَا
أُزْعِجَ بَعْدَ السُّكُونِ سَاكِنُهَا وَمَاتَ ذُلاً وَأَنْفُهُ رَغِمَا

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة[1]: وقد قال حسان الشاعر المدعو عرقلة: [من الخفيف]

أَصْبَحَ الْمُلْكُ بَعْدَ آلِ عَلِيٍّ مُشْرِقًا بِالْمُلُوكِ مِنْ آلِ شَاذِى
وَغَدَا الشَّرْقُ يَحْسُدُ الغَرْبَ لِلْقَرْ مِ وَمِصْرٌ تَزْهُو عَلَى بَغْدَاذِ
مَا حَوَوْهَا إِلاَّ بِعَزْمٍ وَحَزْمٍ وَصَلِيلِ الفُولاَذِ فِى الفُولاَذِ
لاَ كَفِرْعَوْنَ وَالْعَزِيزِ وَمَنْ كَا نَ بِهَا كَالْخَصِيبِ وَالْأُسْتَاذِ

وقوله: « آل عَلِي » يعنى الفاطميين. ولم يكونوا فاطميين، وإنما كانوا أدعياء ينتسبون إلى يهودى حداد بـ « سلمية »، ثم ذكر ما ذكرناه من كلام الأئمة فيهم وطعنهم فى نسبهم.

قال: وقد استقصيت الكلام فى ذلك فى بعض الأحيان من الكفريات والمصائب العظيمات، وقد صنف العلماء فى الرد عليهم كتبًا كثيرة من أجلِّ ما وضع فيه: كتاب القاضى العلامة، إمام الأئمة، أبى بكر الباقلانى، الذى سماه: « كشف الأسرار، وهتك الأستار ».

ومن أحسن ما قاله بعض الشعراء فى بنى أيوب يمدحهم على ما فعلوه بمصر قوله من قصيدة: [من الطويل]

أَلَسْتُمْ مُزِيلِي دَوْلَةِ الْكُفْرِ من بَنِي عُبَيْدٍ بِمِصْرِ ؟! إِنَّ هَذَا هُوَ الفَضْلُ
زَنَادِقَةٌ شِيعِيَّةٌ بَاطِنِيَّةٌ مَجُوسٌ، وَمَا فِى الصَّالِحِينَ لَهُمْ أَصْلُ

---

(١) ينظر الروضتين لأبى شامة ١/ ٢٠١ .

يُسِرُّونَ كُفْرًا يُظْهِرُونَ تَشَيُّعًا لِيَسْتَتِرُوا شَيْئًا، وَعَمَّهُمُ الْجَهْلُ

ومما قيل من الشعر ببغداد يبشر الخليفة المستنجد بالله العباسى: [من الطويل]

لِيَهْنِكَ يَا مَوْلاَىَ فَتْحٌ تَتَابَعَتْ إِلَيْكَ بِهِ خُوصُ الرَّكَائِبِ تُوجَفُ
أَخَذْتَ بِهِ مِصْرًا وَقَدْ حَالَ دُونَهَا مِنَ الشِّرْكِ نَاسٌ فِى لَهَا الْحَقِّ تُقْذَفُ
فَعَادَتْ بِحَمْدِ الله بِاسْمِ إِمَامِنَا تَتِيهُ عَلَىٰ كُل الْبِلاَدِ وَتَشْرُفُ
فلا غَرْوَ إِنْ ذَلَّتْ لِيُوسُفَ مِصْرُهُ وكانَتْ لَهُ عَلْيَاؤُهَا تَتَشَوَّفُ
تَمَلَّكَهَا فِى قَبْضَةِ الْكُفْرِ يُوسُفٌ وَخَلَّصَهَا مِنْ عُصْبَةِ الفِسْقِ يُوسُفُ
فَشَابَهَهُ خَلْقًا وخُلْقًا وَعِفَّةً وَكُلٌّ عَنِ الرَّحْمَنِ فِى الأَرْضِ يَخْلُفُ
كَشَفْتَ بِهَا عَنْ آلِ هَاشِمِ سُبَّةً وَعَارًا أَبَىٰ إِلاَّ بِسَيْفِكَ يُكْشَفُ

ذكر الشيخ شهاب الدين فى « الروضتين »: أن أبا الفضائل، الحسين بن محمد، وزير ابن هبيرة - أنشدها للخليفة المستنجد والد المستضيء قبل موته، عند تأويل منام رآه بعض الناس للخليفة، فأراد الشاعر بيوسف الثانى الخليفة المستنجد؛ لأن اسمه يوسف، وكذا ذكره ابن الجوزى وغيره أن هذه القصيدة أنشدت للمستنجد فى حياته، ولكن لم يُخطب بمصر إلا لولده المستضيئ بن المستنجد ، فجرى التأويل باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم إن الخليفة المستضيئ أرسل إلى الملك نور الدين الشهيد خلعة سنية، وكذلك للملك صلاح الدين إلى الديار المصرية، فرفعت على أعلام سود ولواء معقود، ففرقت على الجوامع ببلاد الشام وبلاد مصر، فلله الحمد على ما صح من العز والنصر.

وكان قد أجمع جماعة من الدولة المصرية الفاطمية الذين كانوا حكامًا فاتفقوا فيما بينهم أن يعيدوا الدولة الفاطمية، فكتبوا إلى الفرنج يستدعونهم، إليهم، وعينوا خليفة من ورثة الفاطميين ووزراء وأمراء، وذلك فى غيبة السلطان ببلاد « الكرك »، ثم اتفق مجيئه. وكان من نية الملك صلاح الدين أن يبعث أخاه تورانشَاه شمس الدين، إلى اليمن، فشرع عُمارةُ اليمني يذكر له اليمن وما فيها من المصالح والدور والمتنزهات والمغلات، ويحسن له المصير إليها؛ ليخف الجيش بمصر ويضعف عن مقاومة الفرنج إذا قدموا لنصرة الفاطميين، فخرج تورانشاه ولم يخرج معه عمارة؛ بل أقام بالقاهرة يفيض فى هذا الحديث، ويدخل المتكلمين فيه، وكان من

أكابر الدعاة إليه والمحرضين عليه، هذا وقد أدخلوا معهم فى هذا الأمر بعض من ينتسب إلى الملك الناصر، وذلك من قلة عقولهم وكثرة جهلهم، فخانهم أحوج ما كانوا إليه، وهو الشيخ زين الدين على بن نجا الواعظ، فجاء إلى السلطان وأخبره بما تمالأ عليه القوم وما انتهى أمرهم إليه، فأطلق له السلطان أموالاً جزيلة، وأفاض عليه خلعًا جميلة، ثم استدعاهم السلطان واحدًا واحدًا فقررهم فأقروا له بذلك؛ فاعتقلهم، ثم استفتى العلماء فى أمرهم، فأفتوا بقتلهم وتبديد شملهم، فعند ذلك أمر بهم فصلبت رءوسهم وأعيانهم دون أتباعهم وغلمانهم، وأمر بنقل من بقي من جيش العُبَيديين إلى أقاصى البلاد.

وقد كان عمارة هذا معاديًا للقاضى الفاضل، فلما حضر بين يدى السلطان قام القاضى الفاضل فاجتمع بالسلطان ليشفع فيه، فتوهم عمارة أنه تكلم فيه فقال: يا مولانا السلطان لا تسمع منه، فغضب القاضى الفاضل ونهض وخرج من القصر، فقال له السلطان: إنه كان قد شفع فيك، فندم عمارة ندمًا عظيمًا، ولما ذهب به ليصلب اجتاز بدار القاضى الفاضل فطلبه فتغيب عنه فأنشد عند ذلك قائلاً: [من الرجز]

إِنَّ الْخَلاصَ هُوَ الْعَجَبْ   عَبْدُ الرَّحِيمِ قَدِ احْتَجَبْ

قال ابن أبى طى: وكان الذين صلبوا الفضل بن كامل القاضى، وهو أبو القاسم، هبة الله، ابن عبد الله بن كامل قاضى قضاة الديار المصرية زمن الفاطميين، ويلقب بـ« فخر الأمناء » وهو أول من صُلب، وقد كان ينسب إلى فضيلة وأدب. وله شعر رائق منه فى غلام رفاء: [من مخلع البسيط]

يَا رَافِيًا خَرْقَ كُلِّ ثَوْبٍ   وَيَا رَشًا حُبُّهُ اعْتِقَادِي
عَسَىٰ بِكَفِّ الوِصَالِ تَرْفُو   مَا مَزَّقَ الهَجْرُ مِنْ فُؤَادِي

وابن عبد القوى داعى الدعاة، وكان يعلم بدقائق القصد، فعوقب ليعلم بها فامتنع من ذلك فمات واندرست، وشريا كاتب السر، وعبد الصمد أحد أمراء المصريين، ونجاح الحمامى، رجل منجم نصرانى كان قد بشرهم بأن هذا الأمر يتم بعلم النجوم، وعمارة اليمنى هذا، وقد كان شاعرًا مطبقًا، بليغًا فصيحًا، لا يُلحق فى هذا الشأن. وله ديوان مشهور، ذكره ابن السبكى فى طبقاته، وله فى الفاطميين ووزرائهم وأمرائهم مدائح كثيرة جدًا، وأقل ما نسب إلى الرفض، وقد اتهم باطنه

بالكفر المحض، وله مصنف فى الفرائض، وكتاب « الوزراء الفاطميين »، وكتاب جمع فيه سيرة نفسه. وكان أديبًا فاضلاً، فقيهًا فصيحًا. وذكر العماد الكاتب فى « الخريدة » أنه قال فى قصيدته التى يقول فيها: [من البسيط]

أَلْعِلْمُ مُذْ كَانَ مُحْتَاجٌ إِلى الْعَلَمِ   وَشَفْرَةُ السَّيْفِ تَسْتغْنِى عَنِ الْقَلَمِ

وهى طويلة قال فيها أيضًا

قَدْ كَانَ أَوَّلُ هَذَا الدِّينِ مِنْ رَجُلٍ   سَعَىٰ إِلَىٰ أَنْ دَعَوْهُ سَيِّدَ الأُمَمِ

قال العماد الكاتب: فأفتى علماء مصر بكفره وقتله، وحرضوا السلطان على المثلة بمثله. قال: ويجوز أن يكون الشعر معمولاً عليه، كذا قاله العلامة ابن السبكى. أقول: سبحان الله كيف هذا الإفتاء بالكفر والحال أن هذا اللفظ ليس ظاهرًا فيما يوجب الكفر فضلاً عن أن يكون نصا ؟ إذ قوله « سعى » يحتمل أن يريد به سعيه ﷺ فى إبلاغ دين الله، وعرضه نفسه على القبائل، وصبره على ما لاقاه من أذى قريش وغيرهم، وجهاده فى إعلاء كلمة الله وإعلانها، وهذا هو الظاهر ظهورًا بيّنًا، والمطلوب والمتعين الحمل عليه؛ إذ الإيمان والعصمة ثابتان له قبل ذلك بلا شك، فعندى فى هذا التكفير تفكير. انتهى.

ومما أورد له ابن الساعى قوله يمدح بعض الملوك: [من الكامل]

مَلِكٌ إِذَا قَابَلْتُ بِشْرَ جَبِينِهِ   فَارَقْتُهُ وَالبِشْرُ فَوْقَ جَبِينِى
وَإِذَا لَثَمْتُ يَمِينَهُ وخَرَجْتُ مِنْ   أَبْوَابِهِ لَثَمَ المُلُوكُ يَمِينِي

ومما وجد من شعر عمارة يرثى العاضد الفاطمى ودولته وأيامه: [من الكامل]

أَسَفِى عَلَىٰ زَمَنِ الإِمَامِ الْعَاضِدِ   أَسَفَ العَقِيمِ عَلَىٰ فِرَاقِ الوَاحِدِ
جَالَسْتُ مِنْ وُزَرَائِهِ وَصَحِبْتُ مِنْ   أُمَرَائِهِ أَهْلَ الثَّنَاءِ الخَالِدِ
لَهَفِى عَلَىٰ حُجُرَاتِ قَصْرِكَ إِذْ خَلَتْ   يَا ابْنَ النَّبِيِّ مِنِ ازْدِحَامِ الوَافِدِ
وَعَلى النَّوَازِلِ مِنْ عَسَاكِرِكَ الَّتِي   كَانَتْ كَأَمْوَاجِ الخِضَمِّ الرَّاكِدِ
قُلِّدتَّ مُؤْتَمَنَ الخِلاَفَةِ أَمْرَهُمْ   فَكَبَا وَقَصَّرَ عَنْ صَلاَحِ الْفَاسِدِ
فَعَسَى اللَّيَالِى أَنْ تَرُدَّ عَلَيْكُمْ   مَا عَوَّدَتْكُمْ مِنْ جَمِيلِ عَوَائِدِ

وله من قصيدة فيه: [من البسيط]

يَا عَاذِلِى فِى هَوَىٰ أَبْنَاءِ فَاطِمَةٍ   لَكَ المَلاَمَةُ إِنْ قَصَّرتَ فِى عَذَلِي

بِاللّهِ زُرْ سَاحَةَ الْقَصْرَيْنِ وَابْكِ مَعِي عَلَيْهِمَا، لاَ عَلَىٰ صِفِّينَ وَالْجَمَلِ
وَقُلْ لِأَهْلِهِمَا وَاللّهِ مَا الْتَحَمَتْ فِيكُمْ قُرُوحِي وَلاَ جُرْحِي بِمُنْدَمِلِ
مَاذَا تُرَىٰ كَانَتِ الْإِفْرِنْجُ فَاعِلَةً فِي نَسْلِ آلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِي

وقد أورد الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى « الروضتين » من أشعار عمارة هذا ومدائحه فى الخلفاء الفاطميين وذويهم - شيئًا كثيرًا، فمن ذلك قوله: [من البسيط]

لِي فِي هَوَى الرَّشَإِ الْعُذْرِيِّ أَعْذَارُ لَمْ يَبْقَ لِي مُذْ أَقَرَّ الدَّمْعُ إِنْكَارُ
لِي فِي الْقُدُودِ وَفِي لَثْمِ الخُدُودِ وَفِي ضَمِّ النهودِ لُبَانَاتٌ وَأَوْطَارُ
هَذَا اخْتِيَارِي فَوَافِقْ إِنْ رَضِيتَ بِهِ أَوْ لاَ فَدَعْنِي وَمَا أَهْوَىٰ وَأَخْتَارُ

ومما أنشد الشيخ تاج الدين الكندى فى عمارة حين صلب قوله: [من الطويل]

عمَارَةُ فِي الْإِسْلَامِ أَبْدَىٰ خِيَانَةً وَبَايَعَ فِيهَا بَيْعَةً وَصَلِيبَا
وَأَمْسَىٰ شَرِيكَ الشِّرْكِ فِي بُغْضِ أَحْمَدٍ فَأَصْبَحَ فِي حُبِّ الصلِيبِ صَلِيبَا
وَكَانَ خَبِيثَ الْمُلْتَقَىٰ إِنْ عَجَمْتَهُ تَجِدْ مِنْهُ عُودًا فِي الثِّقَافِ صَلِيبَا
سَيَلْقَىٰ غَدًا مَا كَانَ يَسْعَىٰ لِأَجْلِهِ وَيُسْقَىٰ صَدِيدًا فِي لَظًى وَصلِيبَا

قلت: الأول صليب النصارى، والثانى بمعنى مصلوب، والثالث بمعنى القوى، والرابع بمعنى ودك العظام.

ولما صلب الملك الناصر هؤلاء بين القصرين فى القاهرة - وكان ذلك اليوم يوم السبت الثامن من شهر رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة - كتب إلى الملك نور الدين الشهيد محمود بن زنكى يعلمه بذلك وما وقع بهم من الخزى والنكال، فوصل الكتاب بذلك الأمر يوم توفى الملك نور الدين المذكور، رحمه الله تعالى .

* * *

فهرس موضوعات الجزء الثالث

الموضوع — الصفحة

* * *

سمط النجوم العوالي
في أنباء الأوائل والتوالي

تأليف

عبد الملك بن حسين بن عبد الملك
الشافعي العاصمي المكي
المتوفى سنة ١١١١هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
الشيخ علي محمد معوض

الجزء الرابع

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2615-6
90000>
9782745126153
http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : baydoun@dm.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع

فى الدولة الأيوبية السُّنِّيةِ[(١)] السَّنيَّة

هم أصحاب الفتوحات الجليلة الجلية، الكاشفون عن الإسلام والمسلمين كل كربة وبلية.

قال ابن السبكي رحمه الله: كان ابتداء دولتهم وملكهم سنة أربع وستين وخمسمائة.

وقال السيد السمرقندي في تحفة الطالب: سنة تسع وخمسين وخمسمائة.

السبب في توردهم الديار المصرية

قال العلامة ابن السبكي وغيره: لما كانت سنة تسع وخمسين وخمسمائة قدم شاور بن مجبرّ أبو شجاع السعدي الملقب بأمير الجيوش وهو إذ ذاك وزير الديار المصرية بعد آل رُزِّيك لما قتل الناصر رزِّيك بن صالح بن رزِّيك وقام في الوزارة بعده، يعني وزارة العاضد العبيدي، واستفحل أمره فيها.

فسار عليه أمير؛ يقال له: الضرغام بن سوار، وجمع له جموعًا كثيرة، واستظهر عليه وقتل ولديه، واستوزر العاضد بعده ضرغام بن سوار المذكور ولقب بالمنصور، فخرج شاور من الديار المصرية هاربًا من العاضد وضرغام ملتجئًا إلى نور الدين محمود بن زنكي أمير الشام من جهة السلجوقي في الديار المصرية.

فأرسل معه نور الدين جيشًا عليهم أسد الدين شيركوه بن شاذي عم السلطان

(١) شاع فى معظم كتابات المؤرخين نعت دولة بنى أيوب بالدولة «السُّنِّية» وهذا احتراز لمجيئهم بعد دولة الفاطميين العبيديين - الدولة الخبيثية - التى ناصرت المذهب الشيعى؛ فكانت وبالاً على العالم الإسلامى. فلما جاء الأيوبيون أعادوا الأمور إلى نصابها الطبيعى، فنشروا العدل، ونصروا السنة، وأزالوا الغمة، فحقق الله على أيديهم الفتوحات العظيمة التى كانت- وما زالت - إحدى مفاخر الإسلام والمسلمين.

ينظر فى الدولة الأيوبية: السلوك ١/ ٤١ الكامل ١١/ ٣٣٤، العبر ٤/ ٧٩، نزهة الأساطين ٥١، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٨١، الفضائل الباهرة ٤٢، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٧، تاريخ العالم الإسلامي ٢٠٧، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية لابن الأثير ص ١٤١، تاريخ الإسلام د/ حسن إبراهيم حسن ٤/ ١٠٤ - ١١٤ .

يوسف بن أيوب بن شاذي، فلما دخلوا مصر خرج إليهم الجيش الذي بها، فاقتتلوا أشد القتال فهزمهم أسد الدين، وقتل منهم خلقًا وقتل ضرغام بن سوار وطيف برأسه في البلاد، واستقر شاور في الوزارة.

ثم اصطلح العاضد هو وشاور. وفي هذه السنة المذكورة كانت وفاة محمد بن على بن أبي منصور أبي جعفر الأصفهاني الملقب بالجمال وزير صاحب الموصل قطب الدين بن مودود بن زنكي، وهو ابن أخي محمد بن زنكي بن آق سنقر السلجوقي المذكور.

كان هذا الجمال الأصفهاني كثير المعروف والصدقات وله آثار حسنة بـ« مكة » و« المدينة »، من ذلك أنه ساق عينًا إلى عرفات وعمل هنالك مصانع، وبنى مسجد عرفات ودرجه، وأحكم أبواب الحرم، وبنى مسجد الخيف، وبنى الحجر، وزخرف الكعبة وأذهبها وعملها بالرخام، وبنى على المدينة النبوية سورًا، وبنى جسرًا على دجلة عند جزيرة ابن عمرَ بالحجر المنحوت والحديد والرصاص، وبنى ربطًا كثيرة.

وكان يتصدق كل يوم على بابه بمائة دينار، ويفتدي من الأسارى كل سنة بعشرة آلاف دينار ولا تزال صدقاته وافدة إلى الفقهاء والفقراء حيث كانوا، ولما مات دفن في رباط بناه لنفسه بالموصل، وقد كان بينه وبين أسد الدين شيركوه المذكور مؤاخاة وعهد: أيهما مات قبل الآخر أن يحمله إلى المدينة، فاستأجر له أسد الدين رجالا فنقلوه إليها، فما مروا به في بلدة إلا صلى عليه أهلها وترحموا وأثنوا عليه خيرًا، فصلى عليه بـ« الموصل »، و« تكريت » و« بغداد » و« الحلة » و« الكوفة » و« مكة »، وطيف به حول الكعبة ثم نقل إلى المدينة المشرفة فدفن برباط بناه شرقي المسجد النبوي.

قال ابن الجوزي[(١)] وابن الساعي: وليس بينه وبين حرم رسول الله ﷺ سوى مقدار خمسة عشر ذراعًا.

قال ابن الساعى: لما صُلِّيَ عليه بالحلة صَعِدَ شاب على نشز فأنشد: [من الطويل]

سَرَىٰ نَعْشُهُ فَوْقَ الرِّقَابِ وطَالَما سَرَىٰ جُودُهُ فَوْقَ الرِّكَابِ ونَائِلُهْ

---

(١) ينظر: المنتظم ١٨/ ١٦١ .

يَمُرُّ عَلَىٰ الوَادِي فَتُثْنِي رِمَالُهُ   عَلَيْهِ وبِالنَّادِي فَتُثْنِي أَرَامِلُهْ

رجعنا إلى سيرة شاور والعاضد وأسد الدين.

لما اصطلح شاور مع العاضد استمرا على دَخَن، فلما كانت سنة أربع وستين وخمسمائة طغت الفرنج بالديار المصرية وتحكموا في إيوانها، وسكنها أكثر شجعانهم ولم يبق شيء من أن يستحوذوا عليها، ويخرجوا منها أهلها المسلمين، وذلك بسبب ما قرره لهم شاور على مصر كل عام بألف ألف دينار، وأن تكون لهم بها شحنة، فلما سمع الفرنج بذلك طمعوا في أخذها بالأصالة، فركبت أمدادهم من كل ناحية وساروا، فأول ما أخذوا مدينة « بلبيس »، فقتلوا خلقًا وأسروا آخرين، فأمر الوزير شاور بإحراق مصر وأن ينتقل الناس إلى « القاهرة »، فنهبت البلد.

وبقيت النار تعمل في مصر أربعة وخمسين يومًا، فعند ذلك أرسل الخليفة العاضد لدين الله إلى الملك نور الدين الشهيد محمود بن زنكي يستغيث به، وبعث إليه بشعور نسائه يقول له: أدركني واستنقذ نسائي من يد الفرنج، والتزم له بثلث خراج مصر، على أن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عندهم بمصر، ولهم إقطاعات زائدة على الثلث، فشرع نور الدين في تجهيز الجيوش إلى الديار المصرية، فلما استشعر الوزير شاور بوصول المسلمين أرسل إلى ملك الإفرنج يقول: قد عرفت محبتي ومودتي، ولكِن العاضد والمسلمون لا يوافقوني على تسليم البلد، واستدعى نور الدين الشهيد الأمير أسد الدين شيركوه، فقدمه على العساكر التي قد جهزها إلى الديار المصرية، وأضاف إليه جملة من الأمراء والأعيان.

وكان في جملتهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، وأضاف إليه ستة آلاف من التركمان، فلما وصلت الجيوش النورية إلى الديار المصرية وجدوا الفرنج قد انشمروا عن القاهرة بالصفقة الخاسرة، فدخل الأمير أسد الدين على العاضد، وخلع عليه خلعة سنية فلبسها، وعاد إلى مخيمه بظاهر القاهرة، وخرجت وجوه الناس إلى مخيم أسد الدين خدمة له، وكان ممن خرج إليه الخليفة العاضد متنكرًا فأسرَّ إليه أمورًا مهمة، منها: قتل الوزير شاور، وقرر معه ذلك.

وعظم أمر الأمير أسد الدين بمصر، ولم يقدر الوزير شاور على منع شيء من ذلك لكثرة من مع أسد الدين من الجيش، ولكن شرع يماطل فيما كان تقرر لهم

وللملك نور الدين مما كان التزمه لهم وهو مع ذلك يتودد إلى الأمير أسد الدين ويركب معه.

وعزم على فعل ضيافة له، فنهى أسد الدين وأصحابه عن الحضور عنده، خوفًا عليه من غائلته، وشاوروه في قتل شاور فلم يمكنهم الأمير أسد الدين من ذلك، فلما كان في بعض الأيام جاء شاور إلى منزل أسد الدين فوجده قد ذهب إلى زيارة قبر الشافعي - رضي الله تعالى عنه -، وإذا ابن أخيه الملك صلاح الدين يوسف هنالك فأمر صلاح الدين بالقبض عليه، ولم يمكنه قتله إلا بعد مشاورة عمه أسد الدين، فانهزم أصحاب شاور، فأعلموا العاضد لعله يبعث من ينقذه، فأرسل العاضد إلى الأمير أسد الدين يطلب رأس شاور، فقتله يوسف وأرسل برأسه إليه ففرح المسلمون بذلك، وأمر أسد الدين بنهب دار شاور فنهبت، ودخل على العاضد فاستوزره وخلع عليه خلعة عظيمة ولقبه: الملك المنصور، فسكن دار شاور وعظم شأنه هنالك.

قلت: وهذا الوزير شاور: هو أول من استكتب القاضي الفاضلُ، استدعي به من الإسكندرية فحظي عنده وانحصرت فيه الكتابة، لما رأوا فضله وفضيلته، ومما قاله عمارة اليمني في شاور قوله: [من الكامل]

ضَجِرَ الحَدِيدُ مِنَ الحَدِيدِ وشَاورٌ في نَصْرِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَضْجَرِ
حَلَفَ الزَّمَانُ ليَأْتِيَنَّ بِمِثْله حَنِثَتْ يَمِينُكَ يا زَمَانُ فَكَفِّرِ

ولم يزل قائمًا فى الوزارة إلى أن ثار عليه ضرغام بن سوار، كما تقدم ذكره، ثم كان قتله على يد الناصر صلاح الدين يوسف . ولما استقر أسد الدين بمصر كما ذكرنا أرسل إلى القصر يطلب كاتبًا، فأرسلوا إليه بالقاضي الفاضل، وكانوا قد أبغضوه، أرسلوه إليه؛ رجاء أن يُقتل معه إذا قتل أسد الدين شاور فيما كانوا يؤملون.

ثم إن أسد الدين بعث العمال، وأقطع الإقطاعات، وولى للولايات، وفرح بنفسه أيامًا معدودات، فأدركه حِمَامُهُ يوم السبت ثاني عشر جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام.

فلما توفي أسد الدين أشار الأمراء الشاميون على العاضد بتولية صلاح الدين

يوسف بن أيوب الوزارة بعد عمه أسد الدين، وخلع عليه خلعة سنية، ولقبه: الملك الناصر.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في كتاب « الروضتين »(١): صفة الخلعة التي لبسها صلاح الدين يومئذ هى عمامة بيضاء بطرف ذهب، وثوب ديبقي بطراز الذهب، وجبة بطراز ذهب، وطيلسان مطرز بذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار، وسيف محلى بخمسة آلاف دينار، وحجرة من الخيل بثمانية آلاف دينار، وعليها طوق ذهب، وسرفسار ذهب بجوهر، وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي قوائمها أربعة عقود جوهر، وفي رأسها قضيب ذهب، ومع الخلعة عدة بقج وخيل، ومنشور الولاية في ثوب أطلس أبيض، وكان ذلك يوم الإثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

وأقام صلاح الدين بالديار المصرية بصفة نائب للملك نور الدين الشهيد محمود ابن زنكي يخطب له على المنابر بالديار المصرية بعد الخليفة. وقد قال بعض الشعراء في قتل صلاح الدين شاور: [من الطويل]

هنيئًا لِمصْرِ حَوْزُ يوسُفَ مُلْكَهَا ... بأَمْرٍ مِنَ الرحْمَنِ قَدْ كَانَ مَوْقُوتَا
وما كَانَ فِيها قَتْلُ يوسُفَ شاورًا ... يمـاثـلُ إلاَّ قَتْـلَ داوُدَ جَالُـوتَـا

وارتفع قدر صلاح الدين بين العباد بتلك البلاد، واضطهد العاضد في أيامه غاية الاضطهاد، وزاد في إقطاعات الذين معه فأحبوه وخدموه واحترموه، فاستمر حتى كان أول جمعة من سنة سبع وستين وخمسمائة - وهي السنة التي توفي فيها الخليفة العاضد قبل وفاته - أمر بإقامة الخطبة لبنى العباس بـ« مصر »، وفي الجمعة الثانية بـ« القاهرة »، وكان ذلك يومًا مشهودًا.

ولما انتهى الخبر بذلك إلى الملك نور الدين الشهيد محمود بن زنكي بـ« الشام » أرسل إلى الخليفة يعلمه بذلك مع ابن عصرون، فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وفرح المسلمون فرحًا شديدًا، وكانت الخطبة عن بنى العباس قد قطعت من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسى حين تغلب الفاطميون، وهم المسمون بالعُبَيديين على مصر، وملكها منهم المعز الفاطمي باني القاهرة والقصرين

---

(١) الروضتين ١/ ٤٣٩ .

إلى هذا الأوان وهو سنة سبع وستين وخمسمائة، وذلك مائتا سنة وثماني سنين، كما تقدم ذكر ذلك.

قال ابن الجوزى[١]: وقد ألفت في ذلك كتابًا سميته « النصر على مصر » فهذا هو سبب استيلاء الدولة الأيوبية على مصر والشام وأعمالهما.

وكانت وفاة نور الدين الشهيد في شوال سنة تسع وستين وخمسمائة. فأولهم الملك الناصر:

السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب[٢]

ابن شاذي[٣] الكردي[٤] الروادي

وهم خيار الأكراد الدويني. ومنهم من يقول: أيوب بن شاذي بن مروان وزاد بعضهم بعد مروان : ابن يعقوب، والذي عليه جمهورهم أنه لا يعرف بعد شاذي أحد من نسبهم، وأغرب بعضهم فزعم أنهم من سلالة مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بنى أمية، وهذا ليس بصحيح، كذا قاله ابن السبكي.

قلت: والذي انتسب هذه النسبة ادعاءً هو الملك أبو الفداء إسماعيل بن طغتكين ابن أيوب بن شاذي، ويعرف: بابن سيف الإسلام؛ لأن سيف الإسلام لقب

---

(١) المنتظم ١٨/ ١٩٦ .

(٢) ينظر ترجمته فى: السلوك ١/ ٤١، الكامل ١١/ ٣٤٢، العبر ٤/ ٧٩ و٥/ ٢٥٠ و٣٣٠، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٧، تاريخ العالم الإسلامى ٢١٠، النجوم الزاهرة ٦/ ٣ - ٦٣، الأعلام ٨/ ٢٢٠، نزهة الأساطين ٥١، مرآة الزمان ٨/ ٤٢٥، مفرج الكروب ١/ ١٦٨ وما بعدها، الدارس ٢/ ١٧٨ و ١٨٨، طبقات السبكى ٧/ ٣٣٩ - ٣٧٩، بدائع الزهور ١/ ٦٩، تاريخ الخميس ٢/ ٣٨٧، وفيات الأعيان ٧/ ١٣٩ - ٢١٨، البرق الشامى ٤٢، بالإضافة إلى الكتب التى تخصصت فى سيرته كالنوادر السلطانية لابن شداد، والروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة، والبرق الشامى لعماد الدين الكاتب، والنفح القسى فى الفتح القدسى لعماد الدين أيضًا، وصلاح الدين الأيوبى وعصره لمحمد فريد أبى حديد، وحياة صلاح الدين الأيوبى لأحمد بيلى المصرى . . وغير ذلك .

(٣) وردت في بعض المصادر [شادى]. ينظر: نزهة الأساطين ص ٥١، السلوك ١/ ٤١ .

(٤) اختلف المؤرخون فى نسب بنى أيوب إلى ثلاثة آراء:
الأول: أنهم من العرب .
الثانى: أنهم من الأكراد الروادية .
الثالث: أنهم من الفرس .
ينظر: نزهة الأساطين ص ٥١ .

لـ « طغتكين بن أيوب » أخي صلاح الدين.

وقد ملك إسماعيل هذا بعد أبيه فتعاظم في نفسه وادعى الخلافة وتلقب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين، وزعم أنه أموي، ومدحه الشعراء وأطروه ولهجوا بذلك. وقال هو في نفسه: [من الطويل]

وَإِنّي أَنَا الهَادِي الْخَلِيفَةُ والذِي ... أَدُوسُ رِقَابَ الغلبِ بالضُّمَّرِ الجُرْدِ
ولا بُدَّ مِنْ بَغْدَادَ أَطْوِي رُبُوعَهَا ... وأَنْشُرُهَا نَشر السَّمَاسِرِ للبردِ
وأَنْصِبُ أَعْلاَمِي عَلَى شُرُفَاتِهَا ... وأُحْيِي بِهَا مَا كَانَ أَسَّسَهُ جَدِّي
ويخطبُ لي فيها على كلِّ منبرٍ ... وأُظِهْرُ دِينَ اللَّهِ في الغَوْرِ والنَّجْدِ

وهذا الادعاء ليس بصحيح، ولا أصل له فيعتمد عليه، ولا مستند يستند إليه.

وكان السلطان صلاح الدين رحمه الله متقشفًا في ملبسه ومأكله، وملبسه لا يلبس إلا الكتان والقطن والصوف، ولا يعرف أنه تخطى مكروهًا بعد أن أنعم الله عليه بالملك، بل كان همه الأكبر، ومقصوده الأعظم - نصرة الإسلام، وكسر الأعداء اللئام، ويعمل فكره في ذلك ورأيه وحده ومع من يثق برأيه ليلا ونهارًا.

هذا مع ما لديه من الفضائل والفواضل والفوائد الفرائد في اللغة والأدب وأيام الناس، حتى قيل: إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها.

وكان مواظبًا على الصلوات في أوقاتها في جماعة.

يقال: لم تفته الجماعة في صلاة قبل مماته بدهر طويل حتى في مرض موته، وكان يتجشَّم القيام مع ضعْفه، وكان يفهم ما يقال بين يديه من البحث والمناظرة ويشارك في ذلك مشاركة حسنة وإن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها.

وكان يحفظ، ويحفِّظ أولاده عقيدة جمعها له القطب النيسابوري.

وكان يحب سماع القرآن العظيم ويواظب على سماع الحديث، حتى إنه سمع في بعض المصافات جُزْءًا وهو بين الصفين وتبجح بذلك وقال: هذا موقف لم يسمع فيه أحد حديثًا.

وكان رقيق القلب، سريع الدمعة عند سماع القرآن والحديث، كثير التعظيم لشعائر الدين.

وكان من خيار الملوك وأشجعهم وأكرمهم وأحسنهم. فتح الفتوحات التي لا تحصى

من ممالك الكفر، ودمر ديارهم، واستلب أعمارهم، وسبى نساءهم وصغارهم.

وكان شيخًا كريمًا حليما ضحوك الوجه، كثير البِشر أحسن الملوك سيرة، وأطهرهم سريرة يشبَّه بالملك العادل نور الدين الشهيد، ولم يترك في خزائنه سوى ستة وثلاثين درهما.

وقال غير ابن السبكي: سبعة وأربعين درهما.

ولم يترك عقارًا ولا مزرعة ولا شيئًا من أنواع الأملاك، لكثرة عطاياه وهباته وصدقاته وخيراته إلى أمرائه وفقرائه حتى إلى أعدائه.

وخلف من الأولاد سبعة عشر ذكرًا، وابنة واحدة، أكبرهم الملك الأفضل نور الدين علي.

وكان قد قسم البلاد في حياته بين أولاده: فالديار المصرية لولده العزيز عثمان، وبلاد دمشق وما حولها لولده الأفضل المذكور، والديار الحلبية لولده الظاهر غازي، والكرك والشوبك لأخيه العادل أبي بكر.

ثم شرعت الأمور تضطرب وتختلف، حتى آل الأمر واستقرت الممالك، واجتمعت المحافل على أخي السلطان الملك العادل، وصارت المملكة في أولاده الأماجد الأفاضل كما ستراهم حين تعدادهم واحدًا بعد واحد.

وكان سبب وفاته أن اعترته حمى صفراوية ليلة السبت سادس عشر صفر، وتفاقم به الحال ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة(١)، فدخل عليه القاضي الفاضل في الصبح وهو بآخر رمق فلما قرأ القارئ قوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه عز وجل، وله من العمر سبع وخمسون سنة، ودفن بتربته عند مدرسة أنشأها بـ« الموصل »، وألحده ولده نور الدين عَلِي الأفضل، ودفن معه سيفه الذي كان يحضر به الجهاد والجلاد، وذلك بإشارة القاضي الفاضل.

وقد عمل فيه الشعراء المراثي الكثيرة، فمن أحسنها قصيدة العماد الكاتب وهي

---

(١) ينظر: الأصفهانى الفتح القسى ص ٦٢٧، مرآة الزمان ٨/ ٤٣٠، مفرج الكروب ٢/ ٤١٩، السلوك ١/ ١١٢، النجوم الزاهرة ٦/ ٥١، إلا أن ابن شاهين يرى أن وفاته كانت ليلة الأربعاء ثامن عشر من صفر، نزهة الأساطين ص ٥٢ .

مائتان واثنان وثلاثون بيتًا. فمنها قوله في أولها : [من الكامل]

شَمْلُ الهُدَىٰ والمُلْكِ عَمَّ شَتَاتُهُ والدَّهْرُ سَاءَ وأَقْلَعَتْ حَسَنَاتُهُ
أَيْنَ الَّذِي مُذْ لَمْ يَزَلْ مَخْشِيَّةً مَرْجُوَّةً هَبَّاتُهُ وهِبَاتُهُ ؟!
أَيْنَ الذِي طَاعَاتُنَا كانَتْ لَهُ مَبْذُولَةً ولِرَبِّهِ طَاعَاتُهُ ؟!
باللَّهُ أَيْنَ النَّاصِرُ المَلِكُ الذِي لِلَّهِ خَالِصَةً صَفَتْ نيَّاتُهُ ؟!
أَيْنَ الذي مَا زَالَ سُلْطَانًا لَنَا يُرجَىٰ نَدَاهُ وتُتَّقَىٰ سَطَوَاتُهُ ؟!
أَيْنَ الذِي شَرُفَ الزَّمَانُ بِفَضْلِهِ وسَمَتْ عَلَى الفُضَلاءِ تَشْرِيفَاتُهُ ؟!
أَيْنَ الذِي عَنَتِ الفِرنجُ لِبَأْسِهِ ذلا ومِنْهَا أَدْرَكَتْ ثَارَاتُهُ ؟!
أَغْلاقُ أَعْنَاقِ العِدَىٰ أَسْيَافُهُ أَطْواقُ أَجْيَادِ الوَرَىٰ مِنَّاتُهُ

قلت: إن كانت القصيدة كلها على هذه الوتيرة، فما تصلح أن تكون بعقر داره عقيرة. رحمه الله.

ثم تولى ابنه الملك العزيز عثمان(١)

أبو الفتح ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

تسلطن بعد موته وكان نائبًا عن أبيه بمصر لما كان أبوه بـ« دمشق »، وتم أمره وسنه نيِّف وعشرون سنة وكان أصغر إخوته، وكان أكبرهم الملك الأفضل نور الدين علي، وكانت إليه ولاية العهد من أبيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان بـ« دمشق » وأخوه عثمان بـ« مِصر » وعمه الملك العادل أبو بكر بـ« حلب »، وكان أكولاً يأكل الخروف وحده، وكان فاضلاً متأدبًا حليمًا، حسن السيرة، متدينًا، قلَّ أن يعاقب على ذنب، ومع هذا ما صفا له الدهر ولا هنَّاه بالملك بعد أبيه، لبث مدة يسيرة ثم حصره عمه الملك العادل أبو بكر، وأخوه الملك العزيز عثمان صاحب

(١) ينظر ترجمته في: السلوك ١/ ١١٤، النجوم الزاهرة ٦/ ١٢٠، بدائع الزهور ١/ ٧٣، وفيات الأعيان ٣/ ٢٥١ - ٢٥٣، نزهة الأساطين ص ٥٣ مرآة الزمان ٨/ ٤٦٠، الجوهر الثمين ٢/ ٢١، الأعلام ٤/ ٢١٥، الكامل ١٢/ ٩٧، التكملة للمنذرى ٢/ ١٥٠ - ١٥١ رقم ٤٦٧، ذيل الروضتين ص ١٦، المختصر لأبى الفداء ٣/ ١٠٠، العبر ٤/ ٢٧٨، الخطط للمقريزى ١/ ٢٣٥، تتمة المختصر ٢/ ١٧٠، الوافى بالوفيات للصفدى ١٩/ ٥١٦، دول الإسلام ٢/ ٧٨، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٩١ - ٢٩٤، تاريخ ابن الفرات ٤/ ٢/ ١٤٣ - ١٤٨، مفرج الكروب ٣/ ٨٢ - ٨٤، الدارس ١/ ٣٨٧ - ٣٨٩ .

الترجمة هذه، وأخرجاه من ملكه إلى « صَرْخَد » ثم جهزاه إلى « سميساط »، وفي ذلك كتب إلى الخليفة الناصر العباسي بـ« بغداد » قوله: [من البسيط]

مَوْلَايَ إنَّ أبَا بَكْرٍ وصَاحِبَهُ ... عُثْمَانَ قَدْ غَصَبَا بالسَّيْفِ حَقَّ عَلِي
وهْوَ الذِي كَانَ قَدْ ولاَّهُ والِدُهُ ... عَلَيْهِمَا فاسْتَقَامَ الأمْرُ حِينَ وَلِي
فَخَالَفَاهُ وحَلاَّ عقْدَ بَيْعتِهِ ... والأَمْرُ بَيْنَهُمَا والنَّصْفُ فيه جَلِي
فانظُرْ إلىٰ حَظِّ هَذَا الاسْمِ كَيْفَ لَقِي ... مِنَ الأوَاخِرِ ما لاَقَىٰ مِنَ الأُوَلِ

فأجابه الناصر العباسي: [من الكامل]

وَافَىٰ كِتَابُكَ يابْنَ يُوسُفَ مُعْلِنًا ... بالوردِ يُخْبِرُ أَنَّ أَصْلَكَ طَاهِرُ
غَصَبُوا عَلِيًّا حَقَّهُ إذْ لَمْ يَكُنْ ... بَعْدَ النَّبِيِّ لَهُ بِيَثْرِبَ نَاصِرُ
فاصْبِرْ فإنَّ غَدًا عَلَيْه حِسَابُهُمْ ... وَابْشِرْ فَنَاصِرُكَ الإمَامُ النَّاصِرُ

وكان فيهما تشيع.

وقال العلامة الصفدي في « تاريخه »[١]: توفى يوم الجمعة فجأة بعد أن صلى الجمعة خامس عشر صفر من سنة (٦٢٢هـ)، وحمل إلى « حلب » ودفن بها.

وكان صحيح العقيدة، عنده علم وأدب، يحب العلماء والعلم، وله في الجهاد مع أبيه مشاهد معروفة وآثار جميلة، ووقف أوقافًا جميلة.

ولشعراء عصره فيه أمداح طائلة وقصائد هائلة، مثل ابن الساعاتي وابن سناء الملك وغيرهما.

فمن قول ابن سناء الملك فيه من قصيدة: [من الخفيف]

مَلِكٌ إسْمُهُ عَلِيٌّ وَلَكِنْ ... كَيْدُهُ في حُرُوبه كَيْدُ عَمْرِو
لَيْسَ يَنْفَكُّ بَيْنَ فَتْحٍ وفَتْكٍ ... حين يختالُ بين نصلٍ ونصرِ
وَجْهُهُ البَدْرُ في الحُرُوبِ فَلاَ تعـ ... ـجَبْ إذا كان يَوْمُهُ يَوْمَ بدرِ[٢]

وله فيه من أخرى: [من البسيط]

حَسْبِى عليٌّ نَدًى حَسْبِى عَلِيٌّ هُدًى ... حَسْبِى عليٌّ جدًى حَسْبِى عَلِيٌّ عُلاَ
حَمَدتُّ آخرَ أَيَّامِى بِخِدْمَتِهِ ... ولَسْتُ أَحْمَدُ مِنْ أَيامِىَ الأُولاَ

---

(١) الصفدى (٢٢/ ٣٤٤).
(٢) ينظر: ديوان ابن سناء الملك ٣٧٥، والوافى بالوفيات (٢٢/ ٣٤٤).

ذِكْرِي بِهِ سَارَ حَالِى عِنْدَهُ عَظُمَتْ قَدْرِي بِهِ جَلَّ مِقْدَارِى لَدَيْهِ عَلَا[١]

ثم قال: وقال كمال الدين بن العديم: لم يكن متشيعًا وإنما قال هذا الشعر؛ موافقة للحال وتقربًا للإمام الناصر العباسي، فإنه كان منسوبًا إلى التشيع.

قال الصفدي[٢]: ولما تعصب عليه أخوه العزيز عثمان المذكور، وعمه العادل أبو بكر قال: [من الكامل]

ذى سُنَّةٌ بَيْنَ الأَنَامِ قَدِيمَةٌ أبدًا أَبُو بَكْرٍ يَجُورُ عَلَى عَلِى

وكتب بتلك الأربعة الأبيات إلى الناصر العباسي.

قلت: قد ذكرت الأربعة أبيات وفي حفظي له بيتان يذم بهما حظه، وهو معنى لم أسمعه لغيره، ووكر لم يأو إليه غير طيره هما: [من الكامل]

يا مَنْ يُسَوِّدُ بالخضابِ شُعُورَهُ لعَسَاهُ مِنْ أَهْلِ الشَّبِيبَةِ يُجْعَلُ

ها فَاخْتَضِبْ بِسَوادِ حَظِّي مَرَّةً ولَكَ الأمانُ بأنَّه لا يُنْصَلُ

وإنما ذكرت ترجمة عَلِي الأَفْضَلِ في ترجمة أخيه عثمان صاحب الترجمة؛ لجريان ذكره بأكبريته على إخوته بنى يوسف بن أيوب.

واستمر عثمان في الملك إلى أن خرج [إلى] الفيوم يتصيد، فلاح له ظبي، فساق خلفه فكبا به الفرس، فوقع فدخل قربوس السرج في فؤاده فحمل إلى القاهرة[٣]، وتوفى في عشر المحرم الحرام[٤] سنة خمس أو ست وتسعين وخمسمائة، ومدة ملكه خمس سنين وعشرة أيام[٥].

---

(١) ينظر: الديوان ٦٠٨، والوافى بالوفيات (٢٢/ ٣٤٤)، وبعد البيت الأول بيت آخر:
حسبى أبو حسن فى كل نائبة يستفرغ الحول أو يستفرغ الحيلا

(٢) ينظر: الوافى بالوفيات (٢٢/ ٣٤٥).

(٣) ينظر مرآة الزمان ٨/ ٤٦٠، وفيات الأعيان ٣/ ٢٥٢، غير أن ابن الأثير فى الكامل ١٢/ ١٤٠، وابن دقماق فى الجوهر الثمين ٢/ ٢١ ذكروا فى سبب وفاته قولاً آخر. أنه خرج إلى الصيد، فوصل إلى الفيوم، فرأى ذئبًا فركض فرسه فى طلبه، فعثر الفرس، فسقط عنه فى الأرض ولحقته حمى، فعاد إلى القاهرة مريضًا، فبقى كذلك إلى أن توفى بعد خمسة أيام.

(٤) ينظر: مفرج الكروب ٣/ ٨٣، بينما يرى المقريزى فى السلوك (١/ ١٤٤) أنه توفى. منتصف ليلة السابع والعشرين من المحرم. لكن يشير ابن الأثير فى الكامل ١٢/ ١٤٠، وابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٦/ ١٤٦، والمنذرى فى التكملة. أنه توفى فى العشرين من المحرم.

(٥) فى مفرج الكروب ٣/ ٨٣، والخطط ٢/ ٢٣٥ ست سنين إلا شهرًا، بينما فى السلوك للمقريزى ١/ ١٤٤ ست سنين تنقص شهرًا وستة أيام. غير أن ابن شاهين فى نزهة الأساطين =

ثم تولى ابنه الملك المنصور محمد[(١)]

ابن عثمان العزيز بن صلاح الدين، تسلطن بعد موت أبيه[(٢)]، وعمره نحو العشرين[(٣)].

وصار مدبر مملكته الأمير قراقوش. ووقع له مع عمه الملك الأفضل صاحب الشام أمور عجيبة، وكذلك مع عم أبيه العادل أبي بكر بن أيوب، ولم تطل أيامه، لتغلب أعمامه عليه إلى أن خلعه عم أبيه الملك العادل أبو بكر بن أيوب[(٤)].

ثم تولى الملك العادل[(٥)]

عم أبيه أبو بكر سيف الدين بن أيوب.

تسلطن بعد خلع ابن ابن أخيه في شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة[(٦)].

وفي أيامه انتقلت السلطنة من دار الوزارة إلى قلعة الجبل في سنة أربع وستمائة[(٧)].

وكان له سعد عظيم، فإن غالب ملوك بنى أيوب من نسله.

= ص٥٤ - يرى أن مدته ست سنين .

(١) ينظر ترجمته فى: السلوك ١/ ١٤٥ - ١٥٣، بدائع الزهور ١/ ٧٤، الأعلام ٦/ ٢٦١، نزهة الأساطين ص ٥٥، الكامل ١٢/ ١٥٦، وفيات الأعيان ٥/ ٣٩٠، حلى القاهرة ١٩٦ .

(٢) فى يوم الاثنين السابع عشر من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة (ينظر نزهة الأساطين ص٥٥) .

(٣) تشير بعض المصادر إلى أنه تسلطن وعمره تسع سنين وأشهر (ينظر السلوك ١/ ١٤٦) .

(٤) كان دخول العادل القاهرة كما يقول ابن الأثير فى الكامل (١٢/ ١٥٦) - يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة . وكان خلع المنصور محمد واستقلال العادل بالملك يوم الجمعة الحادى والعشرين من شوال منها .

وكانت مدته سنة وثمانية أشهر وعشرين يومًا . ينظر: الخطط للمقريزى ٣/ ٢٣٥، السلوك ١/ ١٥٢، نزهة الأساطين ص٥٥ .

(٥) ينظر ترجمته فى: وفيات الأعيان ٥/ ٧٤ - ٧٩، بدائع الزهور ١/ ٧٥، السلوك ١/ ١٥٢ - ١٩٤، مرآة الزمان ٨/ ٥٩٤، ذيل الروضتين ١١١، حلى القاهرة ص ٢٠٦، الأعلام ٦/ ٤٧، الكامل ١٢/ ١٥٥، مفرج الكروب ٣/ ٢٧٠، كنز الدرر ٧/ ١٩٧، تتمة المختصر ٢/ ٢٠١، تاريخ ابن الفرات ٥/ ٢٣٩، الجوهر الثمين ٢/ ٢٥، النجوم الزاهرة ٦/ ١٦٠، التاريخ المنصورى ص ٧ - ١١، تاريخ الخلفاء ص ٣٦٤ .

(٦) أما اليوم الذى تولى فيه السلطة فقد اختلف المؤرخون فيه، فيرى ابن شاهين فى نزهة الأساطين (ص ٥٦) أنه تسلطن فى يوم الجمعة حادى عشرى شوال وتابعه فى ذلك المقريزى فى السلوك (١/ ١٥٢) . إلا أن ابن تغرى بردى ذكر فى النجوم الزاهرة (٦/ ١٦٠) أنه تولى فى العشرين من شوال .

(٧) ينظر: السلوك ١/ ١٦٩ .

وكان يأكل خروفًا كاملاً مشويًا[١] كما كان يأكله ابن أخيه الأفضل المتقدم ذكره.

وتوفى بـ« مالقين » بلد بالشام في ثامن جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة[٢]، فصبره ولده الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، وحمله - ولم يعلم بموته أحد - إلى قلعة دمشق، فدفنه بها، وهو الملقب بالعادل الكبير.

ولما مات استقر كل واحد من ولده بمملكته التي كان قسمها بينهم، فاستقر الكامل محمد في سلطنته بـ« مصر »، واستقر الملك المعظم عيسى في ممالك الشام، واستقر الأشرف موسى شاه « أرمن » بديار بكر وممالك الشرق.

وباقي أولاده كل في جهة أو في خدمة أخ من إخوته.

وكانت مدة ولايته على مصر ثماني عشرة سنة ونحو ثمانية أشهر.

ثم تولى الملك الكامل محمد[٣]

ابن أبي بكر الملك العادل.

استقل بسلطنة مصر يوم الجمعة سابع جمادى الأخرى من سنة خمس عشرة وستمائة، فعمَّر قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه[٤]، وبنى المدرسة الكاملية بين القصرين[٥]، وله من الخيرات غير ذلك، واستمر إلى أن توفى بدمشق يوم الأربعاء ودفن من غد يوم الخميس ثاني عشر[٦] رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة، ومدة

---

(١) ينظر: السلوك ١/ ١٩٣ .

(٢) ينظر: الكامل ١٢/ ٣٥٠، وفيات الأعيان ٥/ ٧٨، نزهة الأساطين ص ٥٧، السلوك ١/ ١٩٤ وفيه أنه مات عن خمس وسبعين - وقيل ثلاث وسبعين - سنة .

(٣) ينظر ترجمته فى: شذرات الذهب ٥/ ١٧١، بدائع الزهور ١/ ٧٧، الكامل ١٢/ ٣٥١، السلوك ١/ ١٩٤، الحوادث الجامعة ١٠٧، وفيات الأعيان ٥/ ٧٩، ٩٢، الدارس ٢/ ٢٧٧، مرآة الزمان ٨/ ٦٣٣، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٢٩، دول الإسلام ٢/ ١٣٤، الجوهر الثمين ٢/ ٢٩، الخطط ٢/ ٣٧٧، تاريخ الخلفاء ٣٦٤، نزهة الأساطين ص ٥٨، الأعلام ٧/ ٢٨ .

(٤) كان الفراغ من إنشائها يوم الأحد، لسبع خلون من جمادى الأولى سنة ثمان وثمانمائة للهجرة، وبلغت النفقة عليها خمسين ألف دينار . ينظر: وفيات الأعيان ٥/ ٨١ .

(٥) أنشأها سنة إحدى وعشرين وستمائة وهى ثانى دار عملت للحديث النبوى بعد مثيلتها فى دمشق، التى أقامها الشهيد نور الدين زنكى . ينظر: مرآة الزمان ٨/ ٦٣٣، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٢٩ .

(٦) وفى الذيل على الروضتين لأبى شامة ص ١٦٦ ليلة الخميس الثانى والعشرين من رجب، وفى كنز الدرر للدوادارى ٧/ ٣٢٣ يوم الخميس رابع المحرم سنة ست وثلاثين وستمائة . والأقرب إلى الصحة ما نص عليه مؤرخنا - هنا - أنه توفى يوم الأربعاء ودفن يوم الخميس ثانى عشر =

ملكه عشرون سنة وشهران[١].

ثم تولى ابنه أبو بكر العادل[٢]

وهو المسمى بالعادل الصغير ابن محمد الكامل بن أبي بكر العادل، وهو المسمى بالعادل الكبير .

تسلطن بعد موت والده الكامل بـ« مصر »، وكان الصالح نائب أبيه ببلاد الشرق، فلما مات الكامل اتفق رأي الأمراء على تولية أبي بكر العادل هذا، وأن يكون نائبه بـ« دمشق » ابن عمه الملك الجواد يوسف، وأن يكون أخوه أيوب على حاله بديار بكر وممالك الشرق، فتم ذلك، وتسلطن العادل فيه وله ثمان عشرة سنة، ثم بلغ الخبر أخاه فتحرك طالبًا لملك مصر حتى ملكها بعد أمور وقعت له مع أخيه، وقهره وخلعه عن الملك وحبسه[٣]، ثم قتله بعد سنين في السجن في شوال سنة ست وأربعين وستمائة، وكانت مدة العادل سنة وشهرين وأيامًا[٤] مع ما وقع له من الأنكاد والحروب والفتن.

ثم تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل[٥]

وله سير وأوصاف جميلة حميدة، وهو ممدوح الصفي الحلي، وباني المدرسة

= رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة حيث هو الرأى الغالب عند المؤرخين . ينظر: وفيات الأعيان ٥/ ٨٣، الخطط للمقريزى ٢/ ٣٧٧، التكملة لوفيات النقلة للمنذرى ٤/ ٤٨٥ .

(١) وقد اختلف المؤرخون فى مدة ملكه: فابن شاهين فى نزهة الأساطين ص ٥٩ يرى أنها ثلاثًا وعشرين سنة تزيد شيئًا، وابن دقماق صاحب الجوهر الثمين ٢/ ٢٩ يرى أنها عشرين سنة وخمسة وأربعين يومًا، وفى السلوك للمقريزى ١/ ٢٩٩ «أنها عشرين سنة وثلاثة وأربعين يومًا» .

(٢) ينظر ترجمته فى: وفيات الأعيان ٥/ ٨٤، السلوك ١/ ٢٦٧، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٠٣، تاريخ ابن الوردى ٢/ ١٧٨، بدائع الزهور ١/ ٨٢، الأعلام ٧/ ٢٨-٢٩، نزهة الأساطين ص ٦٠، الجوهر الثمين ٢/ ٣٣-٣٥، مفرج الكروب ٥/ ٢٦٦ .

(٣) راجع بشأن إمساكه وأسره، ثم خلعه ابن دقماق الجوهر الثمين ٢/ ٣٣ .

(٤) اختلف المؤرخون فى مدة ملكه فابن واصل يرى أنها سنتين وشهورًا . (مفرج الكروب ٥/ ٢٦٦)، وابن شاهين يرى أنها سنتين وشهرين وثمانية عشر يومًا (نزهة الأساطين ص ٦٠) .

(٥) ينظر ترجمته فى: الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٦، بدائع الزهور ١/ ٨٣، السلوك ١/ ٢٩٦ - ٣٤٢، مرآة الزمان ٨/ ٧٧٥، نزهة الأساطين ص٦١، الأعلام ٢/ ٣٨، وفيات الأعيان (٥/ ٨٦)، الجوهر الثمين (٢/ ٣٨)، تاريخ الإسحاقى ١٨٩، النجوم الزاهرة ٦/ ٣١٩ .

بين القصرين المعروفة بالصالحية[١]، التي هي الآن المحكمة، إلا أنه لم يمكث فإنه وقعت له أكلة في خده فمات ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة بـ« المنصورة »، وحمل إلى القاهرة.

وأخفت زوجته المسماة شجرة الدر موته، خوفًا على المسلمين، إلى أن حضر ابنه المعظم توران شاه ودبرت الملك بينما وصل، وعلمت على المناشير بخط يحاكي خط الصالح.

وهو صاحب قلعة الروضة[٢] تجاه مصر القديمة على النيل. وهو الذي استكثر من المماليك الأتراك بديار مصر[٣]، وفي هذا المعنى قال بعضهم: [من البسيط]

أَلصَّالِحُ الْمُرْتَضَىٰ أَيُّوبُ أَكْثَرَ مِنْ ... تُرْكٍ بِدَوْلَتِهِ يَا شَرَّ مَجْلُوبِ
لاَ وَاخَذَ اللَّهُ أَيُّوبًا بِفَعْلَتِهِ ... فالنَّاسُ كلُّهُمُ فى ضُرِّ أَيُّوبِ

ثم تولى تورنشاه[٤]

ابن الملك الصالح ابن الملك الكامل ابن الملك العادل.

تسلطن بعد موت أبيه بنحو شهرين ونصف، وقيل: بأربعة أشهر، وهو الأصح؛ لأن أباه مات في شعبان.

وقدم تورنشاه أواخر ذي الحجة.

ففي أول المحرم من سنة ثمان وأربعين ولي[٥]، ولما ملك واستفحل أمره تغير

---

(١) كان ابتداء البناء فيها سنة تسع وثلاثين وستمائة، وانتهى سنة إحدى وأربعين وستمائة للهجرة. ينظر: النجوم الزاهرة ٦/ ٣٤١، السلوك ١/ ٣٠٨ .

(٢) وتعرف باسم «قلعة المقياس»، و «قلعة الجزيرة» و «القلعة الصالحية» وقد ابتدئ فى بنائها يوم الجمعة سادس عشرة من شعبان سنة ثمان وثلاثين وستمائة للهجرة . ينظر: النجوم الزاهرة ٦/ ٣٤١، السلوك ١/ ٣٠١، حسن المحاضرة ٢/ ٣٨١ وما بعدها .

(٣) والعلة فى ذلك أنه لما تعرض للمحن لم يثبت من عساكره إلا المماليك فرعى لهم ذلك وأكثر منهم وسماهم البحرية وأسكنهم فى قلعة الروضة . ينظر: السلوك ١/ ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٤) ينظر ترجمته فى: الجوهر الثمين ٢/ ٤٠، مرآة الزمان ٨/ ٧٨٢، السلوك ١/ ٣٥٩، وفيات الأعيان ١/ ٣٠٦ - ٣٠٩، الوافى بالوفيات ١٠/ ٤٤٥، المنهل الصافى ٢/ ١٦٥، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٦٤، ذيل الروضتين ١٨٥، الشذرات ٥/ ٢٤١، فوات الوفيات ١/ ١٨٧، نزهة الأساطين ص ٦٣، الأعلام ٢/ ٩٠، بدائع الزهور ١/ ٢٦، تاريخ ابن الوردى ٢/ ١٨١، مجلة المجمع العلمى ١٦/ ٣٠٨ .

(٥) فى نزهة الأساطين ص ٦٣: « . . . أنه تسلطن بدمشق فى يوم السبت، مستهل شوال سنة سبع وأربعين وستمائة وجلس على تخت الملك بعد قدومه - بالمنصورة قريب ثغر دمياط =

على مماليك أبيه بالقتل والفتك، وتوعد شجرة الدر جارية أبيه بالمصادرة، فدفعت له أشياء وهو لا يكفُّ عنها، فتغير خاطرها عليه، وكانت مطاعة، فوثب عليه المماليك بإشارتها يوم الإثنين سابع عشر محرم[١] الحرام سنة ثمان وأربعين وستمائة فلم يثبت لهم وهرب، فطلع إلى برج خشب فأطلقوا فيه النار والنفط فنزل إلى الخركاه فرموه بالنشاب، فصار يصيح: ما لي حاجة بالملك دعوني أتوجه إلى الحصن، فلم يتركوه وضربوه بالسيوف إلى أن مات[٢]، وسلطنوا شجرة الدر زوجة أستاذهم.

ثم تولت شجرة الدر[٣]

وسلطنوها باتفاق من الأمراء، وحلفوا لها، واستحلفوا جميع العساكر المصرية والشامية، واستمرت تعلم على المناشير، ويدعى لها على المنابر بـ« مِصر » وأعمالها، ويكنون عنها بالجهة الصالحية ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل صاحبة الملك الصالح، فبقيت على ذلك الحال نحو ثلاثة أشهر، ثم بدا لها خلع نفسها[٤].

= لتسع بقين من ذى القعدة من السنة المذكورة .

(١) فى وفيات الأعيان لابن خلكان (١/ ٣٠٩) « . . . يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم».

(٢) يرى بعض المؤرخين أن بموت «توران شاه» انقضت الدولة الأيوبية الكردية، وأن مدتهم - بمصر - كانت إحدى وثمانين سنة» ينظر: السلوك ١/ ٣٦١، نزهة الأساطين ص ٦٤ .

(٣) هى: عصمة الدين، أم الخليل، شجرة الدر، الملكة، سُرية الملك الصالح، التركية . ينظر ترجمتها فى: السلوك ١/ ٣٦١ وهو يسميها «شجر الدر»، دول الإسلام ٢/ ١٢٢، بدائع الزهور ١/ ٨٩ و٩٢ و٩٣، خطط مبارك ٥/ ٣٢، تراجم إسلامية ص٦١، الدر المنثور ص٢٥٥، مرآة الزمان ٨/ ٧٧٤ و٧٧٥ و٧٨٢ و٧٨٣، شذرات الذهب ٥/ ٢٦٨، الأعلام ٣/ ١٥٨، نزهة الأساطين ص ٦٧، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٧، الوافى بالوفيات ١٦/ ١٢٠، ذيل مرآة الزمان ١/ ٦١، مرآة الجنان ٤/ ١٣٧، البداية والنهاية ١٣/ ١٩٩، النجوم الزاهرة ٧/ ٥٦، حسن المحاضرة ٢/ ٣٩ .

(٤) عارض الرأى العام - فى مصر والشام - «شجرة الدر» عندما تسلطنت على البلاد انطلاقًا من المبدأ الإسلامى «لا يفلح قوم ولَّوا عليهم امرأة» لذا عارضها سلطان العلماء العز بن عبد السلام وذكر «أن الله ابتلى المسلمين فى مصر بولاية امرأة عليهم»، كما أَنَّ الخليفة العباسى «المستعصم بالله» - رغم أنها بعثت إليه بالهدايا - أرسل إلى مصر منكرًا متهكمًا . . إن كانت الرجال قد عدمت من عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً . السلوك ١/ ٣٦٨ . لذا خلعت نفسها بعد مدة وجيزة - حوالى ثلاثة أشهر على أكثر الآراء - بل إِنَّ بعض المؤرخين أسقطوا هذه الفترة - عمدًا - من التأريخ للدولة المملوكية، واعتبروها فترة وسطًا بين دولتين لأنها ليست من نسل الأيوبيين لتعد ضمن سلاطينهم، وليست جديرة بالسلطنة لكونها امرأة =

ثم تولى الملك عز الدين أيبك التركماني(١)

واستقر في السلطنة، وقد كان هو أتابك(٢) العساكر لها رتبه الأمراء، ثم تزوج الأتابك المذكور بها وكانت مستولية عليه.

فبعد استقرار أيبك المذكور في السلطنة بخمسة أيام أجمع رأى الأمراء جميعهم على تولية مظفر الدين موسى بن الناصر ابن الملك المسعود ابن الملك الكامل ابن الملك العادل، ولقبوه بالملك الأشرف فلم يسع المعز إلا الإذعان لهم؛ لعظم شوكتهم.

فتولى الملك الأشرف موسى مظفر الدين(٣)

ابن الملك الناصر ابن الملك المسعود بن الكامل بن العادل.

بويع عام ثمان وأربعين، فقام عامًا واحدًا إلى أن قويت شوكة المعز المذكور أيبك على الأمراء فخلع الصبي واستقل بالسلطنة، وبخلعه انتهت الدولة الأيوبية الكردية، وكانت مدة ولايتهم اثنتين وثمانين سنة وأربعة أشهر، وعدة ملوكهم: تسعة رجال وامرأة هي شجرة الدر المذكورة، وكانت تركية الجنس، ثم آل به الأمر أن قتلته؛ لما بلغها عنه أنه يريد التزوج عليها، فقتلها بعده غلمانه، كما سيأتي.

= فتعد من سلاطين المماليك، وعد «المعز أيبك» أول سلاطين المماليك . ينظر: الجوهر الثمين ٢/ ٥٥ .

(١) ينظر ترجمته فى: بدائع الزهور ١/ ٩٠، السلوك ١/ ٣٦٨ - ٤٠٤، النجوم الزاهرة ٧/ ٣ - ٤١، الأعلام ٢/ ٣٣، نزهة الأساطين ص ٦٩، الجوهر الثمين ٢/ ٥٥، الخطط للمقريزى ٢/ ١٨٤، البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٩، ذيل مرآة الزمان ١/ ٥٤، المنهل الصافى ١/ ٥، الوافى بالوفيات ٩/ ٤٧٢، الدليل الشافى ١/ ٤ .

(٢) أتابك: يتألف هذا اللقب من لفظين تركيين، وهما أطا بمعنى أب، وبك بمعنى أمير . وأصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥ - ٤٨٥هـ) كانوا يطلقون لفظ أطابك على كبير أمرائهم، يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير . وكثيرًا ما تزوج الأطابك من أم الموصى به، فتصبح العلاقة بين السلطان ووصيه شبه أبوية، ثم أطلق هذا اللقب فى أيام المماليك بمصر على مقدم العساكر أو القائد العام، على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء جميعًا، وكان يسمى أتابك العساكر .

ينظر: صبح الأعشى (٤/ ١٨)، النجوم الزاهرة (٧/ ١٨٤ - حاشية رقم ٦) .

أتابك الجيوش: من الألقاب المركبة على لقب «أتابك»، وكان فى مصطلح ديوان الإنشاء فى عصر المماليك أعلى الألقاب الفخرية المضافة إلى لفظ «الجيوش» ولذا كان يطلق على النائب الكافل . ينظر: صبح الأعشى (٦/ ١٣٣)، الألقاب الإسلامية (ص ١٢٤) .

(٣) ينظر ترجمته فى: الوافى بالوفيات ٩/ ٤٧٠، النجوم الزاهرة ٧/ ٥، الجوهر الثمين ٢/ ٤٧، =

الباب الخامس
في ذكر الدولة التركمانية[(١)]

كان ابتداؤها سنة ثمان وأربعين وستمائة.

أولهم المعز أيبك التركماني الصالحي النجمي التركي، أول ملوك الأتراك بالديار المصرية.

وقد نظم بعضهم من مسه الرق من ملوك الأتراك في أبيات مواليًا وهي:

أيبك قطز يعقبو بيبرس ذو الإكمال بعدو قلاوون بعدو كتبغا المفضال
لاجين بيبرس برقوق شيخ ذو الأفضال ططر برسباي جقمق ذو العلا أينال
وخشقدم عنه قل بلباي ذو الأحوال تمر بغاقيتبيه الغمر ذو الإقبال

قال في «الأرج المسكي»: وهذه الأبيات مفيدة، لأن كثيرًا من فقهائنا نصوا على عدم صحة أوقافهم معللين ذلك بأنهم أرقّاء لبيت المال، وما وقفوه من أموال بيت المال، ويجعلون ذلك وسيلة إلى جواز تناول من يكون مقيمًا بـ« مِصر » من أموال الحرمين الموقوفة عليهم من ملوك الأتراك، والإطلاق في ذلك خطأ، فإن بعضهم لم يمسه الرق وهو من عدا المنظومين في هذه الأبيات فليتنبه لذلك، وأيبك المذكور كان من مماليك الملك الصالح أيوب الأيوبي اشتراه في حياة والده الملك الكامل، وجعله جاشنكير[(٢)] فلهذا تسلطن يوم السبت آخر ربيع أول سنة ثمان

= الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٧، السلوك ١/ ٣٦٩، حسن المحاضرة ٢/ ٣٨، نزهة الأساطين ص٧١، البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٩، بدائع الزهور ١/ ١/ ٢٨٥ وما بعدها.

(١) تحتل دولة المماليك مكانة هامة وبارزة فى التاريخ لأنه - كان بحق - عصر حركة دائمة ونشاط دائب ففى الخارج الحروب والتوسعات والانتصارات .. وفى الداخل الإصلاحات الاقتصادية والتيارات العلمية والتغيرات الاجتماعية. وقد اعتاد المؤرخون تقسيم دولة المماليك إلى قسمين مماليك بحرية، ومماليك جراكسة. ينظر العصر المماليكى فى مصر والشام د. سعيد عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك للدكتور سعيد عاشور، الفضائل الباهرة لابن ظهيره ص ٤٤.

(٢) الجاشنكير: وتسمى وظيفته الجاشنكيرية، والجاشنكير هو الذى يتحدث فى أمر السماط مع الأستادار ويتذوق الشراب قبل السلطان فى الولائم والأسمطة خوفًا من أن يدس فيه سم أو نحوه؛ ويساعده صغار الجاشنكيرية. والكلمة فارسية مركبة من لفظين، أحدهما: جاشنا بجيم فى أوله وهى الفارسية القريبة من الشين ومعناها: الذوق ولذلك يقولون فيمن يذوق الطعام «الشيشنى». والثانى كير ومعناه: المتناول أى الذى يتذوق الطعام. =

وأربعين أو تسع وأربعين وستمائة بعد خلع شجرة الدر نفسها، وأجمع على سلطنته الأمراء من غير كره، وركب بشعار السلطنة، وحملت الغاشية بين يديه وتم أمره.

ثم إن المماليك الصالحية اتفقوا على واحد من بنى أيوب، وهو موسى وسلطنوه واجتمعوا عليه، وكان القائم بهذا الأمر: فارس الدين أقطاى الجمداري، وبيبرس البندقداري، وبلباي الرشيدي، وسنقر الرومي، فأقاموا مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف ابن الملك المسعودي بن الكامل بن العادل ولقبوه الملك الأشرف، وكان عند عماته. فأحضروه، وكان عمره إذ ذاك نحو عشر سنين، ولم يعزل المعز عن السلطنة بل كان أتابك العساكر، وخطب لهما على المنابر معًا، وكانت هذه الحركة بعد سلطنته بخمسة أيام كما تقدم ذكر ذلك، واستمر شريكًا للصبي إلى أن مهد أموره وقويت شوكته وصفا له الوقت، فعزل الصبي، واستقل بعد أمور حصلت ووقائع، إلى أن قتلته زوجته شجرة الدر لما بلغها أنه يريد التزوج عليها، فواطأت على قتله جماعة من المماليك، ثم قتلتهم جميعًا، وكان قتلها له يوم الثلاثاء عشر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة.

ثم تولى ابنه الملك المنصور نور الدين علي(١)

تسلطن وجلس على تخت الملك، وعمره خمس عشرة سنة، ووزر له وزير أبيه شرف الفائزي، وقام بتدبير ملكه الآمر علم الدين سنجر الحلبي، فحدثته نفسه بالوثوب على الآمر فقبض عليه الأمير قطز المعزّي الأيبكي، ووقع في أيامه حروب كثيرة مع المماليك الصالحية.

ثم قدم في أيامه هولاكو ملك التتار إلى « بغداد » وقتل الخليفة المستعصم، ثم ملك هولاكو حلب والشام، وقصد مصر، فلما بلغ الأمير قطز ذلك وكان قد استفحل أمره في الديار المصرية كلموه في السلطنة، والقيام بملاقاة التتار، فجمع القضاة وأعيان الدولة فأجمع رأي الجميع على خلع الملك المنصور من السلطنة لصغر سنه؛ لعدم دفعه للعدو المخذول، فخلع، وتسلطن قطز، وبقي الملك

= ينظر: صبح الأعشى (٤/ ٢١ و ٤٦) و (٥/ ٤٦٠).

(١) ينظر ترجمته: في الجوهر الثمين ٢/ ٥٨، نزهة الأساطين ص ٧٢، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٨، السلوك ١/ ٤٠٥، النجوم الزاهرة ٧/ ٤١، الفضائل الباهرة ص ٤٤، كنز الدرر ٨/ ٣٥، بدائع الزهور ١/ ٣٠٠، البداية والنهاية ١٣/ ٢٤٩، الأعلام ٤/ ٢٦٥ .

المنصور معتقلاً إلى أن مات، وكانت مدته سنتين، وسبعة أشهر واثنين وعشرين يومًا[١]، كان كثير اللهو فاستولى عليه أكابر الدولة وحبسوه، كما تقدم.

ثم تولى الملك المظفر سيف الدين قطز[٢]

بويع عام سبع وخمسين وستمائة وهو بـ« مصر المحروسة »، وله ولاية الشام، وحلب، وجميع ما كان لمخدومه.

فلما وصل الخبر بأن التتار وصلوا دمشق - مع استمرارهم على قتل المسلمين وتعطيل شعائر الدين- تجهز الملك المظفر المذكور في جيوش عظيمة، ومقدمها الظاهر بيبرس، فالتقى الجمعان عند عين جالوت يوم الجمعة خامس عشر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة وانتصر المسلمون، وهزم التتار، وقتلوا شر قتلة، ثم ولوا الأدبار والناس يتخطفونهم، ثم جاء كتاب الملك المظفر إلى دمشق بالنصر، فطار الناس فرحًا، ثم دخل المظفر إليها مؤيدًا منصورًا، وأحبه الناس غاية المحبة فمهَّد أمورها وأصلح ما فسد من شأنها.

وهو أول من ملك البلاد الشامية من ملوك الترك بديار مصر؛ لأن الشام جميعه في تصرف الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وغيره من بنى أيوب من بعده، واتبع بيبرس آثار التتار حتى أخرجهم من حلب وطردهم عن البلاد.

ثم وقعت الوحشة بينه وبين بيبرس؛ لأنه وعده ولاية حلب ثم أخلفه، فاتفق أن المظفر قطز لما عاد إلى مصر صار إلى التصيد فرأى أرنبًا فساق خلف الأرنب، وساق وراءه جماعة من الأمراء قد اتفقوا على قتله، وكبيرهم بيبرس البندقداري ومعه آبض.

فلما دنوا منه - ولم يبق عند قطز غيرهم - تقدم إليه بيبرس وشفع عنده شفاعة فقبلها المظفر، فأهوى بيبرس على يده ليقبلها فقبض عليه وحمل عليه آبض فضربه

---

(١) فى السلوك للمقريزى ١/ ٤١٧، وبدائع الزهور ١/ ٣٠٢ «أن مدته كانت سنتين وثمانية شهور وثلاثة أيام» .

(٢) ينظر ترجمته فى: البداية والنهاية ١٣/ ٢٥٠، النجوم الزاهرة ٧/ ٧٢، نزهة الأساطين ص ٧٣، السلوك ١/ ٤١٧، ذيل مرآة الزمان ٢/ ٢٨، كنز الدرر ٨/ ٤٩، الجوهر الثمين ٢/ ٦٠، حسن المحاضرة ٢/ ٣٩، بدائع الزهور ١/ ٣٠٦، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٨، ذيل الروضتين ٢١٠، فوات الوفيات ٢/ ١٣٢، مورد اللطافة ص ٣٥ - ٣٨، الأعلام ٥/ ٢٠١ .

بالسيف، ثم حملوا عليه وقتلوه وتركوه ميتًا، وساقوا وهم شاهرون سيوفهم إلى أن وصلوا إلى الدهليز السلطاني بمنزله في الصالحية، فجلس بيبرس على مرتبة السلطنة وتم أمره.

وكان قتل المظفر يوم السبت سادس ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة(١)، فكانت مدته سنة واحدة إلا يومًا وقيل إلا عشرة(٢).

ثم تولى الملك الظاهر بيبرس(٣)

البندقداري الصالحي التركي النجمي، ركن الدين أبو الفتوح .

تسلطن بعد قتل الملك المظفر، وأصله تركي الجنس، أخذ من بلاده وبيع بـ« دمشق » للعماد الصائغ ثم اشتراه منه علاء الدين أيدكين البندقداري.

ثم لما صادر الملك الصالح علاء الدين أيدكين أخذ بيبرس هذا في جملة من أخذ وجعله من مماليكه البحرية، وما زال يترقى والقدر يسعفه إلى أن صار أستاذه أيدكين من جملة أمرائه.

وهو الذي استحدث بـ« مصر » القضاة الأربعة، وهو صاحب الفتوحات الكثيرة، والهمم العلية، والأخلاق الرضية.

ومن أثر خيراته إنشاء المدرسة التي بين القصرين تجاه البيمارستان، والجامع الذى بالحسينية.

وفي أيامه أقيمت الخلافة العباسية بـ« مصر » بعد قتل المستعصم كما تقدم ذلك،

---

(١) فى الجوهر الثمين ٢/ ٦٥ «أنه توفى يوم السبت، نصف ذى القعدة منها»، وفى نزهة الأساطين ص ٧٣ أنه توفى «يوم السبت خامس عشرى ذى القعدة سنة ثمان وسبعمائة» .

(٢) فى نزهة الأساطين ص ٧٣ «فكانت مدته سنة ويومًا» .

(٣) يرى معظم المؤرخين أن الظاهر بيبرس هو المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام وذلك بسبب أعماله وإصلاحاته وفتوحاته . ينظر فى ترجمته: ذيل مرآة الزمان ٢/ ٣٥٠، الجوهر الثمين ٢/ ٨٠، النجوم الزاهرة ٧/ ٩٤، السلوك ١/ ٤٣٦، تاريخ ابن الفرات ٧/ ٨٠، كنز الدرر ٨/ ٢٠٠، نزهة الأساطين ص ٧٤، الأعلام ٢/ ٧٩، بدائع الزهور ١/ ٩٨ و١١٢، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٢٢٤، الدارس للنعيمى ١/ ٣٤٩، دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٣٦٣، فوات الوفيات ١/ ٨٥، البداية والنهاية ١٣/ ٢٥٧، تاريخ أبى الفداء ٣/ ٢٠٧ . بالإضافة إلى الكتب التى تخصصت فى سيرته وأحواله وفتوحاته كسيرة الظاهر بيبرس لابن عبد الظاهر، وسيرة الظاهر بيبرس لابن شداد، وسيرة الظاهر بيبرس للعينى، وكتاب الظاهر بيبرس د . سعيد عاشور .

فأقام في السلطنة سبع عشرة سنة وشهرين ونصفًا[١].

ومات في القصرين بـ« دمشق » سنة ست وسبعين - بتقديم السين - وستمائة.

ثم تولى ابنه الملك السعيد ناصر الدين[٢]

محمد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس.

دعى بـ« بركة خان » على اسم جده لأمه بركة خان، ملك التتار ابن دولة خان الخوارزمي.

تسلطن في حياة أبيه بيبرس صورة في يوم الخميس تاسع صفر سنة سبع وستين وستمائة إلى أن استبد بالأمر بعد موت أبيه، واستمر إلى أن خرج عليه جماعة من الأمراء، وكبيرهم حموه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي وخلعوه من الملك وسلطنوا أخاه سلامش بن الملك الظاهر.

وكانت مدة الملك السعيد من يوم موت أبيه سنتين وشهرين ونصفا[٣].

وأعطى الكرك بعد أن خلع، فتوجه إليها وأقام بها إلى أن مات يوم الجمعة خامس عشر ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وستمائة.

ثم تولى الملك سلامش بن بيبرس[٤]

الملك العادل سيف الدين.

تسلطن بعد أخيه، وهو ابن سبع سنين ونصف، وصار أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي، فخلع به في شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة،

---

(١) في نزهة الأساطين ص ٧٦ «أن مدته ثمان عشرة سنة تزيد يسيرًا»، وفى الجوهر الثمين ٢/ ٨٠ «أن مدته سبع عشرة سنة وشهرين».

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ٧٧، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٨، الروض الزاهر ص ٢٠٤ وما بعدها، الجوهر الثمين ٢/ ٨٦، تاريخ سلاطين المماليك لابن أبى الفضائل ٤٥٢ و٤٥٥ و٤٧٠، السلوك ١/ ٦٤١، تاريخ أبى الفداء ٣/ ١٢، مورد اللطافة ص ٤١، بدائع الزهور ١/ ١١٢، تاريخ ابن الفرات ٧/ ١٦٥، النجوم الزاهرة ٧/ ٢٥٩، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٢٢٧، الأعلام ٦/ ٥٢.

(٣) فى الجوهر الثمين ٢/ ٨٩ أن مدته «سنتين وشهرًا واحدًا وأيامًا».

(٤) ينظر ترجمته فى: النجوم الزاهرة ٧/ ٢٨٦، ابن الفرات ٧/ ١٥٠، كنز الدرر ٨/ ٢٣٠، السلوك ١/ ٦٥٦، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٨، الجوهر الثمين ٢/ ٩٠، نزهة الأساطين ص٧٨، البداية والنهاية ١٣/ ٣٣٦، بدائع الزهور ١/ ١١٤ و ١٢٨، النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص٤٧١، الأعلام ٣/ ١٠٦.

وكانت مدته مائة يوم[١]، وليس له إلا مجرد الاسم.

ثم تولى الملك المنصور قلاوون الألفي[٢]

الملك المنصور سيف الدين.

تسلطن بعد خلع سلامش، وأصله من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب، اشتراه سنة سبع وأربعين وستمائة، وترقى بعد موت أستاذه الصالح، وعظم بدولة الظاهر بيبرس إلى أن صار يخطب له مع السلطان العادل سلامش المذكور، وضربت السِّكة على وجه باسم سلامش، وعلى الوجه الآخر باسم قلاوون، وأمسك جماعة من الأمراء الظاهرية، واستعمل مماليكه على البلاد وأمرهم. وله همة عظيمة.

ومن مناقبه أن عدة مماليكه بلغت اثني عشر ألفًا، وأن مُلْك مصر دام من بعده في ذريته ونسله ثم في يد مماليكهم، إلى أن انقضت دولة الأتراك، وجاءت دولة الأروام وكان أجلَّ ملوك الترك، وهو الذي بنى بمصر البيمارستان[٣] بين القصرين والقبة التي دفن فيها، وله فتوحات بساحل البحر الرومي، منها: طرابلس وبيروت وصيداء وغير ذلك، وكانت مدة سلطنته إحدى عشرة سنة وشهرين ونصفًا[٤]، وتوفى سنة تسع وثمانين وستمائة.

---

(١) فى الجوهر الثمين. لابن دقماق ٢/ ٩١ «خمسة شهور وأيامًا».

(٢) ينظر ترجمته فى: الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٨، السلوك ١/ ٦٦٣، تاريخ أبى الفداء ٤/ ١٢، الجوهر الثمين ٢/ ٩٢، النجوم الزاهرة ٧/ ٢٩٢، كنز الدرر ٨/ ٢٨٣، العبر للذهبى ٥/ ٣٥٧، البداية والنهاية ١٣/ ٣٣٧، تاريخ ابن الفرات ٨/ ٧٦ - ٨١، بدائع الزهور ١/ ١١٤، فوات الوفيات ٢/ ١٣٣، النهج السديد ٤٧٥ وما بعدها، مورد اللطافة لابن تغرى بردى ٤٢- ٤٤، الأعلام ٥/ ٣٠٣، نزهة الأساطين ص ٧٩. بالإضافة إلى الكتب التى تناولته هو وأولاده بالتفصيل كتذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه لابن حبيب.

(٣) البيمارستان المنصورى: شرع فى بنائه - بخط بين القصرين من القاهرة - أول ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وفرغ منه فى أقل من السنة، ورتب المنصور فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض وجعل فيه الأسرة المفروشة بالفرش المحتاج إليها فى المرض، مفردًا لكل طائفة من المرضى موضعًا، فضلاً عن قاعة لإلقاء الدروس على الأطباء وطلبة العلم. وقد وقف عليه من الأملاك ما يقارب ريعها فى السنة مليون درهم وجعله وقفًا على الملك والمملوك، والجندى والأمير، والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكور والإناث». ينظر: الخطط للمقريزى ٢/ ٤٠٦ - ٤٠٨، وتشريف الأيام والعصور ص ٥٥ - ٥٧، ابن الفرات ٧/ ٢٧٨، بدائع الزهور ١/ ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٤) فى نزهة الأساطين ص ٨٠ «إحدى عشرة سنة وثلاثة شهور ونصف». وفى الجوهر الثمين «إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وستة أيام».

ثم تولى الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون(١)

تسلطن بعد موت أبيه، واستمر إلى أن خرج من القاهرة في أوائل المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة. وتوجه إلى البحيرة للصيد، فلما كان بتروجة يوم السبت ثاني عشر محرم الحرام وقت العصر حضر إليه نائب السلطنة الأمير بيدار ومعه جماعة من الأمراء، وكان الأشرف قد أمره بكرة النهار أن يمضي بالدهليز والعساكر إلى جهة القاهرة، وبقي الأشرف وأمير شكار يتصيدان، فأحاطوا به وليس معه إلا شهاب الدين بن الأشهل أمير شكار المذكور، فابتدر الأشرف بيدار وضربه بالسيف فقطع يديه، ثم ضربه حسام الدين لاجين على كتفه فحلها، فصاح لاجين على بيدار: من يريد الملك تكون هذي ضربته ؟! فسقط الأشرف عن فرسه ولم يكن معه سيف بل كان في وسطه بند مشدود، ثم جاء الأمير بهادر رأس نوبة فأدخل السيف من أسفله وشق به إلى حلقه وتركه طريحًا في البرية، واتفقوا على بيدار وحلفوا له ومشوا تحت العصائب السلطانية يريدون القاهرة ولقبوه بالملك الأوحد، وبات تلك الليلة وأصبح يسير إلى القاهرة، فلما ارتفع النهار إذا بجمع عظيم قد أقبل فيه الأمير كتبغا المنصوري، والأمير حسام الدين الأستادار، وغيرهما، يطلبون بيدار بدم أستاذهم الأشرف خليل، فالتقوا فانكسر بيدار وقتل، وحملت الأشرفية رأسه على رمح، وعادوا إلى القاهرة، واتفقوا على سلطنة أخيه محمد بن قلاوون، فكانت مدته ثلاث سنين وشهرين(٢)، وقتل سنة ثلاث وتسعين وستمائة.

ثم تولى الملك الناصر محمد(٣)

أخو الأشرف المذكور.

بويع بعد قتل أخيه في العام المذكور، وعمره تسع سنين، وهذه سلطنته الأولى، واستقر نائبه في السلطنة الأمير كتبغا المنصوري، وفي الوزارة علم الدين سنجر

(١) ينظر ترجمته فى: فوات الوفيات ١/ ١٥١، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٢٣٨، النجوم الزاهرة ٨/ ٣، السلوك للمقريزى ١/ ٧٥٦، بدائع الزهور ١/ ١٢١، نزهة الأساطين ص ٨١، الأعلام ٢/ ٣٢١، كنز الدرر ٨/ ٣٠٠، دول الإسلام ٢/ ١٨٩، العبر للذهبى ٥/ ٣٦٠، البداية والنهاية ١٣/ ٣٧٣، تاريخ ابن الفرات ٨/ ١٠١، الخطط ٢/ ٢٣٨، تذكرة النبيه ١/ ١٣٧، الجوهر الثمين ٢/ ١٠٨ .

(٢) فى خطط المقريزى ٢/ ٢٣٩: «ثلاث سنين وشهرين وأربعة أيام» .

(٣) ينظر ترجمته فى: الجوهر الثمين ٢/ ١٧١، كنز الدرر ٨/ ٣٥٢، العبر للذهبى ٥/ ٣٨٠، =

الشجاعي مضافاً للأستدارية وتدبير الدولة، ثم قبض الناصر على جماعة من الأتراك الذين اتفقوا على قتل أخيه، ثم أمسكه كتبغا الشجاعي لما بلغه أنه يريد الفتك به ولقتله بعض أصحاب كتبغا المنصوري صبرًا، واستبد كتبغا بأمر المملكة لصغر سن الناصر، ثم بدا له أن يخلعه ويتسلطن عوضه، فاتفق مع أكابر الأمراء على ذلك فوافقوه، وخلعوا الناصر في الحادي والعشرين(١) من المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة، وسلطنوا :

كتبغا(٢)

ولقبوه بالعادل. وكانت مدة الناصر هذه الأولى نحو السنة. ثم جهز كتبغا الناصر إلى الكرك بعد أن قال له: لو علمت أنهم: يُخلون لك الملك والله لتركته، ولكنهم لا يخلونه لك، وأنا مملوكك، ومملوك والدك أحفظ لك الملك، وأنت الآن تروح إلى الكرك إلى أن تترعرع وتجرب الأمور فتعود إلى ملكك، بشرط أنك تعطيني دمشق أكون بها مثل صاحب « حماه »، فوافقه على ذلك، فأقام كتبغا سنتين(٣)، ثم هرب إلى الشام سنة ست وتسعين وستمائة.

ثم تولى الملك المنصور حسام الدين لاجين(٤)

الذي كان نائبًا عن كتبغا، فأقام سنتين وشهرًا ونصفًا(٥)، وقتل في القلعة سنة ثمان وتسعين وستمائة.

= تاريخ ابن الفرات ٨/ ١٧٢، النجوم الزاهرة ٨/ ٤١، بدائع الزهور ١/ ٣٧٨، نزهة الأساطين ص ٨٤، مورد اللطافة ص ٤٤، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٢٣٠، فوات الوفيات ٢/ ٢٦٣، الدرر الكامنة ٤/ ١٤٤، السلوك ١/ ٨٧٢ و ٢/ ٧٣، الأعلام ٧/ ١١ .

(١) فى نزهة الأساطين ص ٨٥ «حادى عشر» .

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ٨٩، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٨، النجوم الزاهرة ٨/ ٥٥، بدائع الزهور ١/ ١٣٣، السلوك ١/ ٨٠٦ و٨٢٠ و٨٢٦، فوات الوفيات ٢/ ١٣٨، الأعلام ٥/ ٢١٩، الجوهر الثمين ٢/ ١٢٠ .

(٣) فى الجوهر الثمين لابن دقماق ٢/ ١٢٠ «سنة وأحد عشر شهرًا وعشرين يومًا» وفى نزهة الأساطين ص ٨٩ - ٩٠ «سنتين وسبعة عشر يومًا» .

(٤) ينظر ترجمته فى: الخطط للمقريزى ٢/ ٢٣٩، النجوم الزاهرة ٨/ ٨٥، الجوهر الثمين ٢/ ١٢٢، العبر ٥/ ٣٨٠ وما بعدها، البداية والنهاية ١٤/ ٣، السلوك ١/ ٨٥٠ وما بعدها، بدائع الزهور ١/ ٣٩٥ وما بعدها، نزهة الأساطين ص ٩١ - ٩٢، تذكرة النبيه ١/ ١٩٥، كنز الدرر ٨/ ٣٨٠، مورد اللطافة ص ٤٩، الأعلام ٥/ ٢٣٨ .

(٥) فى الجوهر الثمين لابن دقماق ٢/ ١٢٦ «كانت دولته سنتين وثلاثة أشهر» .

ثم عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون

إلى السلطنة ثانيًا(١)، وفيه يقول الوداعى : [من السريع]

أَلْـمَـلِـك الـنَّـاصِـرُ قَـدْ أَقْـبَـلَـتْ   دَوْلَـتُـهُ مُـشْـرِقَـةَ الـشَّـمْـسِ
عَـادَ إِلَـىٰ كُـرْسِـيِّـهِ مِـثْـلَ مَـا   عَـادَ سُـلَـيْـمَـانُ إِلَـى الـكُـرْسِـي

واستمر إلى أن تجهز لقتال التتار، فانكسر فرجع إلى مصر، ثم تجهز للقائهم أيضًا فكسرهم وهزمهم، ونصر الله الإسلام وأهله، ثم عاد إلى مصر فتنكر عليه صاحب « سلال » وأستاداره بيبرس الجاشنكير، ودام ذلك التكدر بينهم إلى أن أظهر في رمضان سنة ثمان وسبعمائة التوجُّه إلى الحجاز، وخرج من القاهرة، وتوجه إلى « الكرك » متبرمًا منهما، وأعرض عن ملك مصر، فروجع في ذلك فأبى، فكانت مدته عشرين سنة، فاتفق الأمراء على سلطنة بيبرس الجاشنكير وسلطنوه، فتسلطن:

بيبرس الجاشنكير(٢)

ولقبوه بالملك المظفر. تسلطن عام ثمان وسبعمائة بعد خلع الناصر محمد بن قلاوون، وعيب به في الإرسال إلى الكرك، وتطلب الأموال منه، حتى إن الناصر تأدب معه في المكاتبات وكتب له الملك المظفر وهو لم يرجع عنه، فلما زاد عليه تحرك عليه، وكانت مماليك أبيه النواب بالديار الشامية كلهم معه - ما عدا الأفرم فإنه كان من أعوان الجاشنكير - فأجابوه بالسمع والطاعة، فتوجه إلى الجاشنكير المذكور فجبن عن لقائه لتغير مماليكه وجماعته عليه، ثم تسحب من قلعة الجبل والعامة من خلفه تؤذيه وتريد به شرًّا حتى شغلهم بنثر الذهب عليهم، وتوجه هاربًا إلى الصعيد واستولى الناصر على البلد، ثم احتال على قبضه وإحضاره فخنقه بالوتر ثم أطلقه وسمه، ثم خنقه ثانيًا هكذا، إلى أن مات في شوال سنة تسع وسبعمائة،

---

(١) عاد إلى السلطة للمرة الثانية فى يوم الاثنين جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة، ثم خلع فى سنة ثمان وسبعمائة . ينظر: نزهة الأساطين ص ٨٦ .

(٢) ينظر ترجمته فى: الجوهر الثمين ٢/ ١٣٩، خطط المقريزى ٢/ ٤١٧، نزهة الأساطين ص ٩٣، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٣٢ - ٢٧٦، السلوك ٢/ ٤٥ - ٧١ ثم ٨٠، الأعلام ٢/ ٧٩ - ٨٠، الوافى بالوفيات ١٠/ ٣٤٨ .

فكانت مدة دولته سنة[١]، وفي ذلك يقول بعضهم: [من الوافر]

تَثَنَّى عطْفُ مصر حِينَ وافى قدومُ النَّاصر المَلِكِ الخَبِيرِ
فَذَلَّ الجَشْنَكِير بِلاَ لِقَاءٍ وأَصْبَحَ وَهْوَ ذُو جَأْشٍ نَكِيرِ
إذا لَمْ تنضد الأقدار شَخْصًا فأَوَّلُ مَا يُرَاعُ مِنَ النَّصِيرِ

وهو الذي بنى « البيبرسية »[٢] بالدرب الأصفر.

وهذه هي المرة الثالثة[٣] لعود السلطان الناصر محمد إلى الملك، فدام في السلطنة ثلاثة وثلاثين عامًا بعد بيبرس المذكور، وعظم أمره جدًّا وعمر العمائر الهائلة، حتى إنه صار أجل سلاطين مصر من جميع الوجوه، واستمر إلى أن مات يوم الأربعاء عشري ذي الحجة الحرام سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وتسلطن من ولده لصلبه ثمانية نفر، وكانت مدة ولايته في المرات الثلاث أربعًا وأربعين سنة وخمسة عشر يومًا.

ثم تولى الأشرف على كجك بن محمد الناصر بن قلاوون[٤]

تسلطن بعد قتل أخيه، وكان قوصون إذا حضرت العلامة يأخذ القلم بيده، ويجعله في يد الأشرف حتى يعلم على المناشير، واضطربت الأحوال ووقع التعصب على قوصون في الخاصة والعامة؛ لقبح سيرته معهم، فقتلوه ونهبوا داره وخلعوا كجك في يوم الإثنين عاشر شوال سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة بأخيه أحمد ابن الناصر محمد بن قلاوون، وحبس كجك بقلعة الجبل إلى أن مات في سلطنة أخيه الآخر، وهو الملك الكامل سنة ست وأربعين وسبعمائة.

---

(١) فى نزهة الأساطين ص ٩٤ «كانت مدته أحد عشر شهرًا» .

(٢) وهى الخانقاه البيبرسية: بناها قبل أن يلى السلطة سنة ست وسبعمائة للهجرة واكتملت فى السنة التالية لها . راجع بشأنها: خطط المقريزى ٢/٤١٦ - ٤١٨ .

(٣) كان ذلك فى يوم الخميس ثانى شوال سنة تسع وسبعمائة . ينظر نزهة الأساطين ص ٨٧ .

(٤) تولى «كجك» السلطنة بعد خلع أخيه المنصور أبى بكر محمد بن قلاوون - الذى تولى فى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وخُلع فى شهر صفر سنة اثنين وأربعين وسبعمائة فكانت مدة شهرين - وهذا ما لم يذكره مؤرخنا .

ينظر ترجمة الأشرف كجك فى: نزهة الأساطين ص ٩٦، بدائع الزهور ١/٤٩١، الخطط ٢/٢٣٩، النجوم الزاهرة ١٠/٢١، السلوك ٢/٥٧١، الجوهر الثمين ٢/١٧٨، تاريخ الملك الناصر للشجاعى ص ١٩١، الدرر الكامنة ٣/٢٦٥، البداية والنهاية ١٤/ ١٩٢-١٩٤، الأعلام ٥/٢٢٠ .

ثم تولى الملك الناصر أحمد بن قلاوون(١)

تسلطن بعد خلع أخيه كجك(٢)، واستمر إلى أن اختار ترك ملك مصر، وعاد إلى الكرك وأخذ الأموال والذخائر بعد أن ظلم وتعسف، فطلبوه للملك مرارًا وهو ممتنع متعذر، وترد أجوبته بخط كاتب نصراني كان مقربًا عنده، فخلعوه بأخيه الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون، وأجلس على تخت الملك يوم الخميس ثاني عشر محرم الحرام سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فكانت مدته دون الأربعة أشهر، فجهز إليه أخوه الملك الصالح الجيوش مرة بعد أخرى، وحاصره بالكرك فلم يقدر الناصر أحمد على مقاومة الناصر إلى أن تلاشى أمر الناصر وهلك أهل الكرك من الجوع، وهو مع ذلك لا يمل ولا يكل من القتال والحصار، إلى أن قبض عليه يوم الإثنين وقت الظهر ثاني عشر صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وكتب بذلك إلى أخيه، فأرسل الملك منجك اليوسفي فحز رأسه، وتوجه به إليه إلى القاهرة.

ثم تولى الملك الصالح إسماعيل المذكور ابن محمد قلاوون(٣)

تسلطن بعد توجه أخيه إلى الكرك، واستمر إلى أن مات في العشرين من ربيع الأول سنة ست وأربعين وسبعمائة، وكانت مدته ثلاث سنين وشهرًا وثمانية عشر يومًا. ورثاه الصفدي(٤) بقوله: [من الطويل]

مَضَى الصَّالحُ المَرْجو للبأْسِ والنَّدَىٰ   وَمَنْ لَمْ يَزَلْ يَلْقَى المُنَىٰ بالمَنَائِحِ
فَيا لَكَ مِصْر كَيْفَ حَالُكِ بَعْدَهُ   إذا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكِ بصَالِحِ ؟!

---

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص٩٧، تاريخ الملك الناصر ص ٢٠٤، الجوهر الثمين ٢/ ١٧٩، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٠، السلوك ٢/ ٥٩٣، النجوم الزاهرة ١٠/ ٦٠، بدائع الزهور ١/ ٤٩٥، المنهل الصافى ٢/ ١٥٨، الدرر الكامنة ١/ ٢٩٤، البداية والنهاية ١٤/ ١٩٣ و ٢٠٢ و ٢٠٧ و ٢١٣، الأعلام ١/ ٢٢٣ .

(٢) أشار ابن إياس في (بدائع الزهور ١/ ٤٩١) إلى أن «كجك» لفظ أعجمى معناه بالعربية: «صغير» وقد تنبأ والده بأنه سيلى بعده الملك وهو صغير، والملوك لهم فراسة فى الأمور .

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ٩٨، تاريخ الملك الناصر ص ٢٣١، الوافى بالوفيات ٩/ ٢١٩، الخطط ٢/ ٢٤٠، السلوك ٢/ ٦١٩، المنهل الصافى ٢/ ١٦٣ و٤٢٦، النجوم الزاهرة ١٠/ ٧٨، الجوهر الثمين ٢/ ١٨٢، الدرر الكامنة ١/ ٣٨٠، البداية والنهاية ١٤/ ٢٠٢ - ٢١٦، بدائع الزهور ١/ ١٨١، الأعلام ١/ ٣٢٤ .

(٤) الوافى بالوفيات ٩/ ٢٢٠ .

ثم تولى الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون(١)

تسلطن بعد موت أخيه الملك الصالح بعهد منه إليه بعد اختلاف من الأمراء في إقامته وإقامة أخيه حاجي، فاتفقوا عليه، وقال الأمير نائب السلطنة: بشرط أن لا يلعب بالحمام، فنقم عليه شعبان بعد أن تسلطن، وأخرجه إلى نيابة « صفد »، وكان جلوس الملك الكامل على سرير الملك يوم الخميس ثاني شهر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة، فقال فيه ابن نباتة المصري : [من مخلع البسيط]

شَعْبَانُ سُلْطَانُنَا المُرَجىٰ   مُبَارَكُ الطَّالِعِ البَدِيعِ
يَا بَهْجَةَ الدَّهْرِ إذْ تَبَدَّىٰ   هِلاَلُ شَعْبَانَ فِي رَبِيعِ

واستمر إلى أن خلعه الأمراء يوم الإثنين مستهل جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين وسبعمائة بأخيه حاجي، فكانت مدته سنة واحدة وسبعة عشر يومًا(٢).

قال الصفدي(٣): حكى لي سيف الدين داود بن أرغون شاه قال: مَدَدْنا السماط على أن يأكل الملك الكامل، وجهزنا طعام حاجي إليه في السجن، فخرج حاجي وأكل على السماط ودخل الكامل السجن، وأكل الطعام الذي كان لحاجي، وقلت في واقعته: [من السريع]

بيتُ قَلاَوُون مُعَادَاتُهُ   في عاجِلٍ كانَتْ بلا آجلِ
حلَّ عَلَىٰ أَمْلاَكِهِ للردى   دَيْنٌ قَدِ اسْتَوْفَاهُ بالكَامِلِ

وقتل الكامل يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

ثم تولى حاجي(٤)

ويقال : أمير الحاج ولقب بالملك المظفر. تسلطن بعد خلع أخيه الملك الكامل كما تقدم، واستمر إلى أن وقع بينه وبين الأمراء أشد المنافرة، وتفرقت عنه قلوب الناس، فخرج الأمراء بمن معهم إلى قبة النصر، فركب المظفر ومن معه إليهم،

---

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ٩٩، الجوهر الثمين ٢/ ١٨٥، السلوك ٢/ ٦٨٠، النجوم الزاهرة ١٠/ ١١٦، الخطط ٢/ ٢٤٠، بدائع الزهور ١/ ١٨٣، البداية والنهاية ١٤/ ٢١٦ - ٢١٩، الدرر الكامنة ٢/ ١٩١، شذرات الذهب ٦/ ١٥٠، الأعلام ٣/ ١٦٤، الوافي بالوفيات ١٦/ ١٥٣ .

(٢) في السلوك ٢/ ٧١٣، والنجوم الزاهرة ١٠/ ١٤٠ «أن مدته سنة وثمانية وخمسين يومًا» .

(٣) ينظر: الوافي بالوفيات ١٦/ ١٥٥ .

(٤) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٠٠، الدرر الكامنة ٢/ ٣، البداية والنهاية ١٤/ ٢١٩، =

فتفرق عنه أصحابه، فالتقاهم هو بنفسه فطعنه أمير يلبغا أمير مجلس فطرحه عن فرسه، وضربه الأمير طال برقه بالطبر من خلفه فجرح وجهه وأصابعه، ثم ربطوه وأحضروه إلى الأمير أرقطاي النائب ليقتله،فلما رآه نزل عن فرسه ورمى عليه قباءه وقال: أعوذ بالله، هذا سلطان ابن سلطان ما أقتله، خذوه إلى القلعة، فأدخلوه إلى تربة هناك وقضى الله أمره فيه، وذلك في ثاني عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وكانت مدته سنة وثمانية أشهر واثني عشر يومًا[(١)]، وكان أكبر أسباب عزله لعبه بالحمام، فقال الصفدي[(٢)] رحمه الله تعالى في ذلك: [من الخفيف]

أَيُّهَا الـعَـالِـمُ الـلَّـبِـيـبُ تَـفَـكَّـرْ   فِي المَلِيكِ المُظَفَّرِ الضرْغَامِ
كَمْ تَمادَىٰ فِي البغْيِ والغيِّ حَتىٰ   كَانَ لعْبُ الحَمَامِ جِدَّ الحِمَامِ

ثم تولى السلطان حسن بن محمد بن قلاوون[(٣)] من أولاد الناصر محمد بن قلاوون

تسلطن بعد أخيه قبله، وكان اسمه قمارى، فلما جلس على سرير الملك سماه النائب قمارى، فقال له السلطان: يا عم ما اسمي إلا حسن، ما أنا مملوك، فقال النائب: المرسوم مرسومك يا خوند. واستمر في الملك إلى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، فوقعت بينه وبين الأمير طاز الناصري وحشة، فقام طاز في خلعه وسلطنة أخيه صالح فتم له ذلك، فَأُخِذَ السلطان حسن، وحبس بالدور من قلعة الجبل بعد أن خلع نفسه، وذلك في أوائل رجب من سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، وكانت

= بدائع الزهور ١/ ١٨٧، النجوم الزاهرة ١٠/ ١٤٨ - ١٧٤، الأعلام ٢/ ١٥٣، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٠، الوافى بالوفيات ١١/ ٢٣٧، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٨، الشذرات ٦/ ١٥٢، البدر الطالع ١/ ١٨٧ .

(١) فى نزهة الأساطين ص ١٠٠ «أن مدته - كانت - سنة ونحوًا من أربعة شهور» أما فى السلوك للمقريزى ٢/ ٧٧٤ «فمدته - كانت - سنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يومًا» .

(٢) ينظر الوافى بالوفيات (١١/ ٢٤٠) .

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٠١، الدرر الكامنة ٢/ ٣٨، العقد الثمين ٤/ ١٨٠، النجوم الزاهرة ١٠/ ١٨٧، البداية والنهاية ١٤/ ٢٢٤، الوافى بالوفيات ١٢/ ٢٦٦، الجوهر الثمين ٢/ ١٩٥، الخطط ٢/ ٢٤٠، بدائع الزهور ١/ ١٩٠ و٢٠٢، الأعلام ٢/ ٢١٦، السلوك ٢/ ٧٤٥ .

مدته ثلاث سنين وتسعة أشهر(١).

ثم تولى الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون(٢)

تسلطن بعد أخيه حسن، وصار مدبر مملكته الأمير أق طاز، وليس للصالح فيها إلا الاسم فقط، إلى أن أخرج طاز الأمير شيخو اللال العمري الناصري من سجن الإسكندرية فبقي أمر المملكة إلى ثلاثة: شيخو أتابك العساكر، وهو أول من سمى بالأمير الكبير، ولبس لها خلعة فصارت الأتابكية وظيفة من يومئذ، والأمير طاز أمير مجلس(٣)، والأمير صرغتمش رأس نوبة النوب، ونائب السلطنة إذ ذاك الأمير صلاي.

واستمر الصالح إلى أن خلعه شيخو من السلطنة وأعاد حسن في يوم الإثنين ثاني شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة، فكانت مدة الصالح ثلاث سنين وثلاثة أشهر(٤)، واحتفظ عليه بداره إلى أن توفى في ذي الحجة الحرام سنة إحدى وستين وسبعمائة.

وتولى أمر السلطان حسن وعظم شأنه إلى أن وقع بينه وبين غلامه مملوك يلبغا العمري، فتحاربا فانكسر حسن إلى القلعة، فتبعه يلبغا فهيأ السلطان مماليكه للقتال فلم يجد لهم خيلا لأن الخيل كانت في الربيع، فَتَزَيَّا بغير زيه وهرب، فعرف وقبض عليه ولم يعلم ما وقع له، وكانت مدته هذه الثانية ست سنين وسبعة أشهر.

والسلطان حسن هذا هو الذي بنى المدرسة التي بالرميلة بمصر، وهي من أحسن المدارس عالية البناء واسعة الفناء، ثم عمر لها عمارة بأربعة رءوس، وقد وصفها

(١) يشير مؤرخنا هنا إلى الفترة الأولى للسلطان حسن بن محمد بن قلاوون حيث إنه - نتيجة للخلاف بينه وبين الأمير طاز الناصرى - خلع وتولى أخوه الملك الصالح صالح بن محمد ابن قلاوون . إلا أنه عاد للسلطنة للمرة الثانية سنة خمس وخمسين وسبعمائة . ينظر: نزهة الأساطين ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٠٤، الجوهر الثمين ٢/ ١٩٩، الخطط ٢/ ٢٤٠، السلوك ٢/ ٨٤٣، النجوم الزاهرة ١٠/ ٢٥٤، بدائع الزهور ١/ ١٩٤، البداية والنهاية ١٤/ ٢٣٩ - ٢٥١، الدرر الكامنة ٢/ ٢٠٣، الأعلام ٣/ ١٩٥، الوافى بالوفيات ١٦/ ٢٧٠ .

(٣) أمير مجلس: هو الذى يتحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم، ولا يكون إلا واحدًا . ومن عمله أيضًا أنه يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير فى الترتيب وغيره .
ينظر: صبح الأعشى (٤/ ١٨)، و (٥/ ٤٥٥) .

(٤) فى نزهة الأساطين: أن مدته . . ثلاث سنين وأربعة أشهر . ص ١٠٥ .

المؤرخون وصفًا عجيبًا[١].

وقصة السلطان حسن مع الشيخ العلامة قوام الدين الأتقاني حين قال له السلطان: ما الفرق بينك وبين الحمار ؟ فأجاب بقوله: هذه الوسادة، وقد كانت بينهما.

وفي أيام السلطان حسن بنى شيخو جامعه، وخانقاءه، وبنى صرغتمش مدرسة، وقرر الشيخ قوام الدين في تدريسها، وكانت مدة تصرف السلطان حسن أولاً وثانيًا عشر سنين وأربعة أشهر، ثم قتل بيد مملوكه يلبغا سنة اثنتين وستين وسبعمائة.

ثم تولى محمد ابن الملك المظفر حاجي[٢]

ويقال: أمير الحاج بن محمد بن قلاوون وتلقب بالملك المنصور، بويع بعد قتل عمه حسن في العام المذكور، فأقام سنتين وخمسة أشهر، ثم خلع فأقام بالقلعة محبوسًا إلى أن مات سنة أربع وستين وسبعمائة.

ثم تولى الملك شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون[٣]

ولقب بالملك الأشرف بعد ابن عمه قبله، إلا أن الأمور كلها بيد يلبغا، وشاركه في ذلك طنبغا الطويل، فما زال يلبغا وطنبغا حتى ظفر به وقبض عليه وظلم، فاتفق المماليك على قتله ففر، فاشتجاشوا بالسلطان شعبان عليه فوافقهم ونزل إلى بولاق وسلطن يلبغا أيزك بن حسن أخا شعبان فلم يتم له ذلك، ثم انهزم يلبغا فقتل، فأقام شعبان في الأتابكية بعده استدمر، وخلع عليه فأراد استدمر أن يحذو حذو يلبغا في مشاركه السلطنة بعد أن سكن بالكبش فلم يوافقه شعبان على شيء من ذلك، فأراد استدمر خلع شعبان وركب عليه، فانكسر استدمر ومسك وحبس، وفي ذلك يقول

(١) من ذلك قول المقريزى فى الخطط (٢/ ٣١٦ - ٣٢٠) أنه لم يبن فى الإسلام نظيرها، ولا حكاها معمار فى حسن عملها، وينظر أيضًا: النجوم الزاهرة ١٠/ ٣٠٦ .

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٠٦، الجوهر الثمين ٢/ ٢١٦، الخطط ٢/ ٢٤٠، السلوك ٣/ ٦٥، النجوم الزاهرة ١١/ ٣، بدائع الزهور ١/ ٢١١ و٢١٢، البداية والنهاية ١٤/ ٣١٨، الأعلام ٦/ ٧٥ .

ويعتبر المنصور محمد بن حاجى بن محمد بن قلاوون هو أول من تسلطن من أحفاد الناصر محمد بن قلاوون .

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٠٨، بدائع الزهور ١/ ٢١٢، حسن المحاضرة ٢/ ١٠٤، الدرر الكامنة ٢/ ١٩٠، البداية والنهاية ١٤/ ٣٤٤، الأعلام ٣/ ١٦٣ - ١٦٤، السلوك ٣/ ٨٣، الجوهر الثمين ٢/ ٢٤٠، الخطط ٢/ ٢٤٠، النجوم الزاهرة ١١/ ٦٧، إنباء الغمر ١/ ١٠٣ - ١٠٤ .

ابن العطار الشاعر: [من البسيط]

هِلاَلُ شَعْبَانَ جَهْرًا لاَحَ فِي صَفَرِ بالنَّصْرِ حَتَىٰ أَرَىٰ عِيدًا لشَعْبَانِ
وأَهْلُ كَبْشٍ كَأَهْلِ الفِيلِ قَدْ أُخِذُوا رَجْمًا ومَا انْتَطَحَتْ في الكَبْشِ عنزانِ

واستمر شعبان عظيم الشوكة إلى أن توجه للحج سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وأقام جماعة في تدبير المملكة فاختلفوا عليه، وخلعوه في غيبته، وسلطنوا ولده عليًّا وزعموا أن شعبان بالعقبة، وصادف قولهم هذا أن الأمراء الذين معه خرجوا عليه بعقبة أيلة، وانهزم معهم وعاد إلى القاهرة واختفى في تربة عند قبة النصر، فبلغ الأمراء الذين عصوه فأمسكوا غلامًا كان معه وضربوه فأقر، فتوجهوا إليه وقتلوه، وقتلوا من معه من الأمراء، وكان قتله ليلة الثلاثاء خامس ذي القعدة سنة سبع وسبعين وسبعمائة(١).

قلت: ومن خيراته بناء منارة « الحزورة »، كما ذكره القطب وغيره، والعمود المنقور عليه اسمه كان قريبًا منها .

فلما وقع الحريق بالمسجد -وعمّر ذلك الجانب فرج بن برقوق ثاني ملوك الشراكسة- نقل لا عن قصد، ووضع تحت منارة باب بنى سهم المعروف بباب العمرة، فيظن الرائي ذلك التاريخ في العمود أن الإشارة فيه إليها لقرب مكانه منها، وإنما هو لمنارة الحزورة وهي مؤرخة بعام اثنين وسبعين وسبعمائة.

وفي سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة أحدثت العلامة الشطفة الخضراء على عمائم الشرفاء ليتميزوا بها، وكان ذلك بأمر هذا السلطان شعبان بن حسن بن الناصر محمد ابن قلاوون المذكور، فقال في ذلك العلامة أبو عبد الله بن جابر الضرير النحوي صاحب شرح الألفية المشهور بالأعمى والبصير رحمه الله تعالى: [من الكامل]

جَعَلُوا لأَبْنَاءِ النَّبِيِّ عَلاَمَةً إنَّ العَلاَمَةَ شَأْنُ مَنْ لَمْ يشْهَر
نُورُ النُّبُوَّةِ فِي كَرِيم وُجُوهِهِمْ يُغْنِي الشَّرِيفَ عَنِ الطِّرَازِ الأَخْضَرِ

وفي هذه السنة كان ابتداء خروج الطاغية تيمورلنك، الذي خرب البلاد وأباد العباد، فكان تاريخ خروجه عذاب وذلك سنة ٧٧٣، واستمر يعثو في الأرض بالفساد إلى أن أهلكه الله في ليلة الأربعاء سابع عشر شعبان سنة سبع وثمانمائة،

(١) فى نزهة الأساطين ص (١٠٩) «أنه مات مقتولاً فى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة» .

وسيأتي ذكره عند ذكر ملوك آل عثمان في الباب السابع إن شاء الله تعالى.

ثم تولى بعده ولده على بن الأشرف شعبان(١)
وتلقب بالملك المنصور في عام السبع والسبعين والسبعمائة المذكور

تسلطن بعد والده وهو ابن سبع سنين، واستمر إلى أن مات في يوم الأحد ثالث عشر صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة، وكانت مدته خمسة أعوام وخمسة أشهر(٢) وله من العمر ثلاثة عشر عامًا.

ثم تولى أخوه حاجي بن شعبان الأشرف(٣)

وتلقب بالملك الصالح بعد موته في عام ثلاث وثمانين، فدام سلطانه عامًا كاملاً وأشهرًا(٤)، وكان سنه ست سنين والكلام لبرقوق، ثم خلعه برقوق بعد إلزام له من الأمراء لما وقع من الفتن، وتسلطن برقوق يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين، ثم إن برقوقا جعل حاجي بن الأشرف شعبان بعد خلعه في قلعة الجبل كما هي عادة أولاد السلاطين، فاستمر إلى سنة خمس وثمانين، فثار على برقوق يلبغا الناصري فخلعه، وأعاد حاجي إلى الملك، فتسلطن ثانيًا(٥)، واستمر إلى أن حف به منطاش، واستعان به على حرب برقوق بعد أن أطلق من حبس الكرك، فتوجه حاجي معه لقتال برقوق، فانتصر عليهما ومعهما الخليفة العباسي، فقتل منطاش، وأمسك حاجي إلى أن دخل به إلى القلعة بمصر، وفرش له الحرير ليمشي عليه فعزل نفسه، ثم جعله بداره بقلعة الجبل مبجلاً إلى أن مات في ليلة الأربعاء تاسع عشر شوال سنة أربع عشرة وثمانمائة، فكانت مدته الثانية هذه سبعة أعوام ونحو ستة

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١١٠، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٠، السلوك ٣/ ٢٨٤، تاريخ ابن قاضى شهبة ١/ ٦٠، إنباء الغمر ١/ ٢٣٢، الدليل الشافى ١/ ٤٥٧، ابن إياس ١/ ٢٣٨، الأعلام ٤/ ٢٩٣.
وهو أول سلطان من أولاد أولاد أولاد الناصر محمد بن قلاوون.

(٢) فى نزهة الأساطين ص ١١٠ أن مدته كانت «خمس سنين وثلاثة أشهر وخمسة عشر يومًا».

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص١١١، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٠، السلوك ٣/ ٤٣٩، النجوم الزاهرة ١١/ ٢٠٦، تاريخ ابن قاضى شهبة ١/ ٨٦، إنباء الغمر ١/ ٢٥٧، الجوهر الثمين ٢/ ٢٥٩، ابن إياس ١/ ٢٥٥ و ٢٥٧ و ٢٧٤، الأعلام ٢/ ١٣.

(٤) فى الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٠ «فكانت مدته سنة وشهرين ينقصان أربعة أيام».

(٥) كان ذلك - كما أشار ابن دقماق - «يوم الثلاثاء، سادس جمادى الآخرة، سنة إحدى وتسعين وسبعمائة للهجرة» ينظر: الجوهر الثمين ٢/ ٢٧٣.

عشر يومًا.

وبعزل الصالح نفسه كما ذكر انقضت الدولة التركية، وأقبلت الدولة الشركسية وكانت مدتهم مائة وأربعًا وثلاثين سنة، وعدة ملوكهم خمسة وعشرين ملكًا، والملك لله الذي لا يزول ملكه ولا يتحول .

* * *

الباب السادس
في ذكر الدولة الشركسية[(١)] بمصر والشام وأعمالهما

اعلم أن الشراكسة جنس من الترك في جنوب الأرض لهم مدائن عامرة، ولهم جمال ومزارع يرعون ويزرعون، وهم تابعون لسلطان سراي قاعدة ملك « خوارزم »، وملوك هذه الطوائف لملك سراي كالرعية يقاتلونهم، ويسبون منهم النساء والأولاد ويجلبونهم إلى أطراف البلاد والأقاليم، وكان الملك المنصور قلاوون الذي هو من ملوك الأتراك صاحب مصر قد استكثر من شراء المماليك الشركسية وكذلك أولاده وأولادهم، وأدخلوهم في الخدم الخاصة وصاروا سلحدارية وجمدارية وجاشنكيرية، وكبروا عمائهم وسلكوا طرائق أستاذيهم ملوك الترك وأدخلوا السلطنة وغلبوا عليها واستكثروا من جنسهم وعملوا قواعد انتظمت بها دولتهم وولي منهم ومن أولادهم السلطنة بمصر اثنان وعشرون ملكا.

وكان ابتداء ملكهم سنة أربع وثمانين وسبعمائة، ومدة ملكهم مائة وثمانية وثلاثون سنة. فأولهم:

السلطان الملك الظاهر سيف الدين[(٢)]
أبو سعيد برقوق بن آنص العثماني. كذا ذكره المقريزي[(٣)] في خططه

قام بدولة الشراكسة، جلبه عثمان بن مسافر فلذلك يقال له : برقوق العثماني، فاشتراه الأتابك يلبغا العمري، وهو من جملة الأتراك الذين مسهم الرق مماليك بنى أيوب، وإنما سمي برقوق؛ لجحوظٍ في عينيه، وتقلبت به الأحوال إلى أن صار أمير

---

(١) سُميت دولة الشراكسة أو «الجراكسة» بهذا الاسم لأن مؤسسها الأمير «برقوق» من أصل جركسى، وجميع سلاطينها من أصل جركسى ما عدا اثنين هما «خشقدم» و «تمربغا» كانا من أصل يونانى . ينظر: العصر المماليكى فى مصر والشام د . سعيد عاشور ص ١٥١ وما بعدها، «الدولة المملوكية الثانية» د . محمد مصطفى زيادة، قيام دولة المماليك الثانية د . حكيم أمين عبد السيد، الحركة العلمية فى دولة المماليك الجراكسة د . محمد كمال الدين عز الدين، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤١، النجوم الزاهرة ١١/ ٢٢١، نزهة الأساطين ص ١١٥ .

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١١٥، الجوهر الثمين ٢/ ٢٦١، الخطط ٢/ ٢٤١، السلوك ٣/ ٤٧٧، تاريخ ابن قاضى شهبة ١/ ٨٦، إنباء الغمر ٢/ ٦٦، الدليل الشافى ١/ ١٨٨، المنهل الصافى ٣/ ٢٨٧، النجوم الزاهرة ١١/ ٢٢١، الضوء اللامع ٣/ ١١، بدائع الزهور ١/ ٢٥٨ و٢٩٠، الأعلام ٢/ ٤٨، ديوان الإسلام ١/ ٢٠٢، درة الحجال (ت ٣١٤) .

(٣) ينظر الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤١ .

مائة مقدم ألف، وكان أتابكًا للملك الصالح حاجي بن الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر بن محمد قلاوون، وهو الرابع والعشرون من ملوك الأتراك مماليك الأيوبية المتغلبين عليهم، وكان إذ ذاك سن الملك الصالح حاجي لما ولى السلطنة عشرة أعوام، وليس له من السلطنة إلا الاسم، فألزم الأمراء برقوق بخلع الملك الصالح حاجي وبتوليته السلطنة بدله، فخلع بعد سنة ونصف كما تقدم، وذلك يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة.

وكان برقوق متمكنًا من المملكة جمع الأموال والخزائن، واشترى المماليك الشركسية، فتمكنت من الملك، وتلاعبت بعده المماليك الشركسية بملك مصر، وصاروا ملوكها وسلاطينها بالقوة والغلب والاستيلاء، وكانت تقع بينهم فتن وجدال وجلاد، وقتل نفوس، وحرب بسوس، وخوف وبؤس، إلى أن يستقر الأمر لواحد منهم فيركب في شعار السلطنة.

وكان من شعار سلاطينهم عمامة كبيرة ملفوفة مكلفة يجعلون في مقدمها ويمينها ويسارها شكل ستة قرون بارزة من نفس العمامة ملفوفة من نفس الشاش، يلبسها السلطان في موكبه وديوانه وذلك عرف لهم، والعرف يحسن ويقبح، ويلبس قفطانًا يكون على كتفه قطعة طراز مزركش بالذهب ومثله على كتفه الأيسر.

ويلبسه الأمراء أيضًا، فليس مخصوصًا بالسلطان، ويخلع بمثل هذا القفطان على من أراد، وتحمل على رأس السلطان قبة صغيرة لطيفة كالجسر في وسطها صورة طير صغير يظلل السلطان بتلك القبة، والذي يحملها على رأس السلطان هو أمير كبير وظيفته أن يصير سلطانًا بعد ذلك.

وأكابر أمرائه أربعة وعشرون أميرًا بطبلخانة(١) تضرب على أبوابهم صبحًا وعصرًا

---

(١) أمراء الطبلخانة: تدل هذه التسمية على أنه كان عملهم دق الطبول وغيرها من الآلات الموسيقية فى المواكب الرسمية أو فى الأمور الهامة. وهذا التميز للقواد بدق الطبل تشريفًا لهم، عرف من قبل فى العراق زمن البويهيين، فهم بمثابة أصحاب القضب فى عهد الفاطميين، وسموا بذلك لحملهم القضب فى أيديهم. وقد سمى أمراء الطبلخانات بعدد المماليك الذين يملكونهم – وهم أقل مما يملكه أمراء المئين – فسموا بأمراء ثمانين وسبعين، وأقلهم أمراء أربعين، فهذا الرقم هو أدناها. ومع أن المؤرخين لا يذكرون عدد الجنود تحت قيادتهم إلا أنه ولا ريب كانت تحت أيديهم أجناد أقل فى العدد من الأجناد، التى تحت قيادة أمراء الألوف. وعلى هذا فأمراء الطبلخانات كانوا تحت قيادة أمراء الألوف. وقد كان عدد =

كل واحد منهم أمير بابه مقدم ألف بمنزلة البيكلاربيكية عندهم، ودونهم أمير عشرة[١] مقدم مائة بمنزلة السنجق[٢]، كل واحد منهم عمامته بقرنين فقط، ودونهم الخاصكية[٣] يكون له فرس، وخادم، وعلى رأسه زنط عليه عمامة بعذبة يديرها تحت حنكه، ودونهم - وهم المشاة - على رءوسهم طواقٍ من جوخ أحمر ضيق مدخله واسع آخره لاطئ برأسه، وملبوسُ أكثرِهم اللطةُ البيضاء المصقولة يكون على كتفيه طرازان من مخمل وأطلس مزركش، وفي أوساطهم شدود بيض مصقولة يشدونها ويسدلونها، ويسدلون أطرافها إلى أنصاف سوقهم، وكأن خيال السلطنة في دماغ كل واحد منهم من حين يُجلب إلى السوق إلى أن يموت.

حتى إن واحدًا منهم جلب، وهو حقير فاحش القرعة فاحش العرَج، قال للدلال الذي يبيعه: هل اتفق تولي الأقرع الأعرج سلطانًا في مصر؟ وبالجملة فقد كانت

= أمراء الطبلخانات فى الجيش أو الوظائف أكثر من عدد أمراء الألوف، فهم أربعون أو ثلاثون أميرًا. ينظر: صبح الأعشى (٣/ ٤٨٠)، (٤/ ١٥ و ٦١)، النجوم الزاهرة (٦/ ٦٤٤).

(١) أمراء العشرات أو العشراوات: تسمى وظيفتهم أمريات عشرة، ليس لهم الحق فى دق الطبول تشريفًا لهم، وكان لكل أمير من هؤلاء عشرة مماليك خاصة به، وقد يكون تحت إمرته أكثر كعشرين مثلاً: فيسمون أمراء العشرينات أو أقل مثل خمسة، فيسمون أمراء الخمسات أو الخمسوات. وهؤلاء الأمراء معظمهم من أبناء الأمراء المقدمين أو الطبلخانات تقديرًا لخدمات آبائهم. وقد وصل عددهم فى الجيش إلى عشرين أميرًا من أمراء العشرينات وخمسين من أمراء العشرات وثلاثين من الخمسوات. ولا ريب أن عدد الأجناد تحت قيادتهم أقل من عدد الأجناد تحت قيادة فئتى أمراء المماليك السابقين. ينظر: صبح الأعشى (٤/ ١٥)، والخطط (٣/ ٣٥٠)، وبدائع الزهور (٢/ ٢٥)، والسلوك (٢/ ٣١٤).

(٢) السنجق: لفظ تركى يطلق فى الأصل على الرمح، والجمع سناجق، وهى رايات صفر صغار يحملها السنجقدار. ويظهر أن العادة كانت أن يركب السلطان فى المواكب زمن السلم بالسناجق فقط. أما مواكب الحرب فكان سير السلطان فيها بالأعلام، ومنها السناجق. ثم راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقابه واسمه وتسمى العصابة ثم راية أخرى عظيمة فى رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش ويتولى أمر هذه الأعلام كلها الأمير علم. ينظر: صبح الأعشى (٤/ ٨) و (٥/ ٤٥٦ و٤٥٨).

(٣) الخاصكية: هم الذين يلازمون السلطان فى خلواته ويسوقون المحمل الشريف ويتعينون بكوامل الكفال ويجهزون فى المهمات الشريفة والمتعينون للإمرة والمقربون فى المملكة، وكان عدتهم فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكيًا ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا فى أيام الملك الأشرف برسباى نحو ألف ومنهم من هو صاحب وظيفة، ومنهم من لا وظيفة له. ينظر: زبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهرى (ص ١١٦).

لهم سماحة وحماسة وصداقة لمن صادقوه، وكانت أرزاق مصر بأيديهم، وأهل مصر تتلاعب بهم فيما بيدهم من الأرزاق.

ثم لما تسلطن برقوق استمر سلطانًا، وأنشأ المدرسة التي بمصر بين القصرين(١)، كان مشد عمارتها شركس الخليلي، فقيل في ذلك العمل: [من البسيط]

قَدْ أَنْشَأَ الظَّاهِرُ السُّلْطَان مَدْرَسَةً فَاقَتْ عَلَى إِرَم فِي سُرْعَةِ العَمَلِ
يَكْفِي الخَلِيلَ بِأَنْ جَاءَتْ لخدْمَته صمُّ الجِبَالِ لَها تَمشي عَلَىٰ عَجَلِ

فأقام سلطانًا إلى أن اختلف عليه الأمراء، فخرج عليه تمربغا الأفضلي ويلبغا العمري فجهّز عليهما عساكر فكسر، وقوى أمرهما وملكا مصر، فإن برقوقًا عجز عن النهوض وقبض عليه، فأخرج حاجي من دور القلعة وأعيد إلى السلطنة، وحبس برقوق بالكرك ثم تسحب من الحبس، وجمع الجيوش، وقاتل وغلب على المملكة، وأعيد إلى السلطنة، وصار يتتبع أعداءه ومن خرج عليه، ويقدم من وافقه وحالفه إلى أن اصطفاهم وما صفا له الزمان، وظن أنه آمن وأين الأمان، وبرق برق الزيال على برقوق وشاهد الانفصال، فعهد بالسلطنة إلى ولده الناصر فرج، وتوفى إلى رحمة الله تعالى ليلة الجمعة وقت التسبيح منتصف شوال سنة واحد وثمانمائة، وفي ذلك يقول أحمد المقرى رحمه الله تعالى: [من الطويل]

مَضَى الظَّاهِرُ السُّلْطَانُ أَكْرَمُ مَالِكٍ إِلَىٰ رَبِّهِ يَرْقَىٰ إِلَى الخُلْدِ فِي الدَّرَجْ
وقَالُوا سَتَأْتِي شِدَّةٌ بَعْدَ مَوْتِهِ فَأَكْذَبَهُمْ رَبِّي وَمَا جَا سِوَى فَرَجْ

وخلّف برقوق من الذهب العين ألفي ألف دينار وأربعمائة ألف دينار، ومن الخيل المسومة والبغال الفارهة ستة آلاف، ومن الجمال خمسة آلاف، وكان عليق دوابه كل شهر أحد عشر ألف أردب شعير وفول، وكانت مدة تصرفه ست عشرة سنة وأربعة أشهر(٢).

(١) ينظر: الجوهر الثمين ٢/ ٢٦٥، السلوك ٣/ ٥٤٦، تاريخ قاضى شهبة ٣/ ١٨٣ - ١٨٥، إنباء الغمر ١/ ٣١٣، المنهل الصافى ٣/ ٢٨٨، النجوم الزاهرة ١١/ ٢٤٠، الضوء اللامع ٣/ ١٢.
(٢) فى نزهة الأساطين ص ١١٩ « ست عشرة سنة وأيامًا ».

ثم تولى ابنه الملك الناصر(١)

أبو السعادات فرج بن برقوق عند وفاة أبيه كما تقدم، صبيحة يوم الجمعة منتصف شوال سنة ثمانمائة وواحدة، وصار الأمير أيتمش مدبر مملكته، والأمير يشبك خازنداره، فوقعت بينهما منافرات أدت إلى مشاجرة، ثم إلى قتال، فانكسر أيتمش، فهرب إلى نائب الشام وجيش جيوشًا على الناصر ويشبك، فخرج الناصر لقتالهم فهزمهم، واضطربت أحوال مصر؛ لاختلاف الكلمة.

ثم وصل تيمورلنك إلى بلاد الشام، وأخذها من سردون الظاهري، فخرج إليه الناصر فرج فوجده قد توجه إلى بلاد الروم، فأعطى الشام لتغري بردي، وعاد إلى مصر سنة ثلاث وثمانمائة.

ومن خيرات فرج: تعميره المسجد الحرام من الحريق الواقع به ليلة السبت لليلتين بقيتا من شوال سنة ثمانمائة واثنتين، وسببه ظهور نار من رباط راشت الملاصق لباب الحزورة من أبواب المسجد في الجانب الغربي منه، وراشت هو الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسي، وقف هذا الرباط على الرجال الصوفية أصحاب المرقعات في سنة ٥٢٩ خمسمائة وتسع وعشرين، فوشت النار من سراج تركه في الخلوة، فاحترق ما في الخلوة وعلق الحريق من شباك الخلوة إلى سقف المسجد فاشتعل سقف المسجد، وعجزوا عن إطفائه، لارتفاع السقف فاحترقت الأروقة من ابتداء الحريق إلى باب العجلة، فأرسل فرج الأمير بيسق سنة ثمانمائة وثلاث إلى مكة، وكان هو أمير الحاج المصري، فعمر المسجد الحرام في مدة يسيرة، وكملت في أواخر شعبان سنة أربع وثمانمائة.

ومن جملة خيراته: أنه لما رأى رباط راشت وما آل إليه بعد الحريق من الخراب حتى صار سباطة بذلك المحل، أمر بإعادته رباطًا كما كان، وصرف عليه من ماله إلى أن عاد أحسن من الأول، ويسمى هذا الرباط الآن رباط الخاص، سببه أنه استأجره وعمره بعد تهدمه في أواسط القرن العاشر، والخاص من طائفة المباشرين

---

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٢٠، الخطط ٢/ ٢٤١، إنباء الغمر ٢/ ٥٣٠، النجوم الزاهرة ١٢/ ١٦٨، السلوك ٣/ ٩٥٩، بدائع الزهور ١/ ٣١٧ و٣٥٠ و٣٥٤ - ٣٥٧، الضوء اللامع ٦/ ١٦٨، الأعلام ٥/ ١٤٠ .

في ديوان السلطان بمصر من خدمة السلطان جقمق العلائي ومن بعده، وكان هذا بيسق الأمير من أهل الخير رحمه الله.

ثم كثرت الفتن بمصر من الأمراء الظاهرية على فرج، إلى أن ضجر من ذلك وهرب من القلعة بعد العشاء ليلة الإثنين سادس ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة، فاختفى عند سعد الدين بن عرب أحد رءوس المباشرين فأخفاه عنده، فأصبح الأمراء فاقديه، فأقاموا في السلطنة أخاه الملك المنصور عبد العزيز بن برقوق(١)، فتلاشت أمور المملكة لصغر سنه واختلاف الأمراء عليه، فظهر الناصر فرج بعد هروبه واختفائه وركب معه أمراء من مماليك أبيه، فأخذ القلعة في جمادى الآخرة سنة ثمانمائة وثمان ونفى أخويه عبد العزيز وإبراهيم إلى الإسكندرية فتوفيا بها، واتهم فرج بقتلهما في سنة تسع وثمانمائة.

ثم صار الملك الناصر يتتبع أعداءه من الأمراء فيقتلهم واحدًا بعد واحد، فتجمعوا عليه وخرجوا عن طاعته، وقاتلوه فهزمهم، وخرجوا إلى الشام فتبعهم وصاروا يمكرون به ويهربون عنه، ويتعبونه في طلبهم، إلى أن مل منه الخدم والأتباع فصادفوه في طلبهم بعد التعب والدأب، وهو ومن معه قد أتعبوا خيولهم في طلبهم من العشاء إلى الصباح وأشرفوا عليه. فحمل الناصر ومن معه وهم نفر قليل على أعدائه وهم متوفرون كثيرون، فمنعه أصحابه من هذه الحملة، وعلموا أنهم في قلة فلم يطعهم وأطاع غروره وجهله، واغتر بشجاعته وظن أن لا يقابله أحد، فدارت عليه الدوائر، فما كان للناصر من قوة ولا ناصر. فأُخِذَ وقيد، وحبس بقلعة دمشق إلى أن قتل بأيدي المشاعلية بالسكاكين في ليلة السبت منتصف صفر سنة خمس عشرة وثمانمائة وألقي بعد هذه القتلة على سباطة مزبلة، وهو عريان عن اللباس تمر به الناس تنظر إلى ذلك البدن الممتهن والجسد العاري الممتحن، إلى أن عطف الله بعض الأنام بعد عدة أيام فحمله وغسله وكفنه وواراه في مقبرة باب الفراديس.

ووقع في أيام فرج بن برقوق المذكور أن سلطان كاله من سلاطين الهند وهو غياث الدين أعظم شاه بن إسكندر شاه أرسل إلى الحرمين الشريفين صدقة كبيرة مع

---

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٢٣، النجوم الزاهرة ١٣/ ٤١، الضوء اللامع ٤/ ٢١٧، بدائع الزهور ١/ ٣٤٩ و٣٥١، الأعلام ٤/ ١٥ . وكانت مدته شهرين وعشرة أيام .

خادمه ياقوت الغياثي؛ ليتصدق بها على أهل الحرمين، ويعمر له بمكة مدرسة ورباطًا ويوقف على ذلك جهات يصرف ريعها على أفعال البر كالتدريس ونحوه، وكان ذلك بإشارة وزيره خان جهان، فوصل ياقوت المذكور بأوراق سلطانية إلى مولانا الشريف حسن بن عجلان شريف مكة يومئذ مع هدايا جليلة إليه فقبلها وأن يفعل ما أمر به السلطان غياث الدين، لكنه أخذ ثلث الصدقة على معتاده ومعتاد آبائه، ووزع الباقي على الفقهاء والعلماء والفقراء، فاشترى ياقوت الغياثي لعمارة المدرسة والرباط دارين متلاصقتين على باب أم هانئ، هدمهما وبناهما رباطًا ومدرسة، واشترى أصيلتين وأربع وجبات من ماء الريحاني، وجعلها وقفًا على المدرسة، وجعل لها أربعة مدرسين، واشترى دارًا مقابلة للمدرسة المذكورة بخمسمائة مثقال ذهبًا ووقفها على مصالح الرباط، وأخذ منه السيد حسن بن عجلان في الدارين اللتين بناهما رباطًا ومدرسة والأصيلتين والأربع وجبات من قرار عين الريحاني اثني عشر ألف مثقال ذهبًا، وأخذ منه مبلغًا لا يعلم قدره كان جهزه معه سلطانه؛ لتعمير عين عرفة. فذكر مولانا أنه يصرف ذلك على عمارتها، فعين الشريف أحد قواده وهو الشهاب بركوت المكيني لتفقد عين بازان وإصلاحها وإصلاح البركتين وكانتا معطلتين فأصلحهما.

وكان خان جهان المذكور أرسل مع ياقوت الغياثي المذكور خادمًا له يسمى إقبال أرسله بصدقة أخرى من عنده لأهل المدينة، وجهز معه مالا يبنى له به مدرسة ورباطا وهدية لأمير المدينة يومئذ، وهو الأمير جماز الحسيني، فانكسرت السفينة التي بها الأموال بقرب جدة؛ فأخذ الشريف حسن ربع ما خرج من البحر على عادتهم في المكسر، وأخذ ما يتعلق بالأمير جماز؛ لأنه عصى وظهر منه شنائع في المدينة من أخذ مفتاح خزانة النبي ﷺ من قاضي المدينة جبرًا بعد إهانته، وهو القاضي زين الدين أبو بكر بن الحسين المراغى، وضرب شيخ الخدام، وأخذ من خزانة النبي ﷺ إحدى عشرة خوشخانة وصندوقين كبيرين، وصندوقًا صغيرًا كلها ممهورة فيها ذهب مودعة لملوك العراق، وخمسة آلاف كفن أراده، وأخذ قناديل الذهب من الحجرة فمنعه الله ورجمته العامة، فهرب من المدينة الشريفة، وأخذه الله، ونهب العرب كل ما معه، فأرسل مولانا الشريف حسن بن عجلان إلى المدينة عسكرًا

وصلوا إليها بعد خراب البصرة، فولى عليها الشريف حسن بن عجلان غير الحسيني المذكور، وكل ذلك سنة إحدى عشرة وثمانمائة.

ولما قتل الناصر فرج ما أقدم أحد من الشراكسة على التلبس بالسلطنة خوفًا من مخاصمة العسكر.

ثم ولي الخليفة العباسي[(١)]

ولّوه بالجبر، وهو المستعين بالله أبو الفضل العباسي المصري بعد تمنع شديد.

وكان القائم بتدبير المملكة الأمير شيخ المحمودي، فاستمر المستعين بالله ستة أشهر وأيامًا[(٢)] وخلع، وكان استناب المؤيد شيخ، وشاركه في الخطبة والأمر للمؤيد.

ثم تولى الأمير شيخ المحمودي[(٣)]

وتلقب بالملك المؤيد في مستهل شعبان من السنة المذكورة سنة خمس عشرة وثمانمائة، وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق، اشتراه من تاجر يسمى محمود اليزدي، فأعتقه فلذلك يقال له: المحمودي، ثم جعله أمير عشرة ثم صاحب طبلخانة ثم مقدم ألف[(٤)] ثم ولي نيابة طرابلس فأسره تيمور لما أسر نواب البلاد الشامية، ثم هرب منه إلى أن آل أمره أن صار سلطانًا فخدم المستعين وعصى عليه

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٢٤، إنباء الغمر ٣/ ٤٤٥، الضوء اللامع ٤/ ١٩، النجوم الزاهرة ١٣/ ١٩٠، السلوك ٤/ ٢١٤، الدليل الشافى ١/ ٢٠٦، بدائع الزهور ١/ ٣٥٧، تاريخ الخميس ٢/ ٣٨٤، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٢، التبر المسبوك ٢٥، الأعلام ٣/ ٢٦٥.

(٢) فى السلوك ٤/ ٢٤٤ «سبعة أشهر وخمسة أيام».

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٢٦، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٣، إنباء الغمر ٣/ ٢٣٧، السلوك ٤/ ٢٤٣، النجوم الزاهرة ١٣/ ٢٠٩، الدليل الشافى ١/ ٣٤٧، بدائع الزهور ٢/ ٢، شذرات الذهب ٧/ ١٦٤، الضوء اللامع ٣/ ٣٠٨، الأعلام ٣/ ١٨٢.
بالإضافة إلى من تخصصوا فى كتابة سيرته كالبدر العينى الذى ألَّف سيرته فى كتاب أسماه «السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد. شيخ المحمودى».

(٤) مقدم ألف (مقدمو ألوف): وظيفتهم تسمى تقدمة أو تقادم ألف أو ألوف أى تحت قيادتهم ألف من أمراء المئين - مفردها أمير مئين - أو ألوف من الجنود كما يسمون لأن الواحد منهم يملك مائة مملوك أو أكثر خاصة به، وقد وصل عدد هؤلاء الأمراء الكبار أربعة وعشرين، وإن نقص إلى الثمانية عشر أو العشرين، ولهم رئيس يسمى: رأس مقدمى الألوف.
ينظر: صبح الأعشى (٣/ ٤٥٠) و(٤/ ١٤).

نواب البلاد الشامية، فتوجه لقتالهم مرارًا كثيرة، وافتتح الشام وغيرها ثم عاد إلى مصر، وكان يعتريه ألم المفاصل فصار يُحمل على الأكتاف ويركب المحفة، وكان شجاعًا مقدامًا مهيبًا، وكانت أسواق ذوي الأدب نافقة عنده؛ لجودة فهمه وذوقه، وكان يحب العلماء والفضلاء ويجلُّ قدرهم، وبنى مدرسته الموجودة[١] الآن فبدأ في عمارتها سنة سبع عشرة وثمانمائة وكان سنه عشرين سنة.

قلت: وهو الباني للجامع المشهور بجامع المؤيدية[٢] وبه المنارة التي توارد عليها شيخا الإسلام: الحافظ شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلاني الشافعي، والعلامة الإمام الهمام محمود العيني الحنفي، وذلك لما أن ظهر في المنارة اختلال بعد بنائها، فقال الحافظ المذكور هذين البيتين يعرض فيهما به في ستر التورية: [من الطويل]

لِجَامِعِ مَوْلانَا الـمُؤَيّدِ بَهْجَةٌ　　مَنَارَتُهُ بالـحُسْنِ تَزْهُو وبالزَّيْنِ
تَقُولُ وَقَدْ مَالَتْ عَنِ القَصْدِ أَمْهِلُوا　　فَلَيْسَ عَلَى جِسْمِي أَضَرُّ مِنَ العَيْنِ

فوصل خبر البيتين إلى الإمام العلامة محمود العيني، فقال في جوابهما معرضًا ستر التورية كذلك: [من البسيط]

مَنَارَةٌ كَعَرُوسِ الحُسْنِ إذْ جُلِيَتْ　　وَهَدْمُهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ والقَدَرِ
قَالُوا: أُصِيبَتْ بِعَيْنٍ قُلْتُ: ذَا غَلَطٌ　　مَا أَوْجَبَ الهَدْمَ إلاَّ خِسَّةُ الحَجَرِ

قال الحافظ ابن حجر: والبيتان قد عملهما له النواجي لا سامحه الله، سامح الله الجميع. ومن أعجب ما وقع له في أيامه أن جملاً لجمال يقال له: الفاروني يحمّله فوق طاقته فهرب أثناء جمادى الآخرة من تلك السنة، ودخل المسجد الحرام ولم يزل يطوف بالبيت، والناس حوله يريدون إمساكه فيعضهم ولا يمكن من نفسه، فتركوه حتى أتم ثلاثة أسابيع، ثم جاء إلى الحجر الأسود فقبله، ثم توجه إلى جهة مقام الحنفي، ووقف هناك تجاه الميزاب الشريف، فبرك عنده وبكى، وألقى نفسه على الأرض ومات، فحمله الناس إلى بين الصفا والمروة، ودفنوه هناك.

(١) هى المدرسة المؤيدية تلك البناء العظيم الهائل الحافل بداخل باب زويلة. ينظر: نزهة الأساطين ص ١٢٧، الخطط للمقريزى ٢/ ٣٢٨ - ٣٣٠.

(٢) أشار إليه «السخاوى» فى الضوء اللامع ٣/ ١٠ بقوله: «لم يعمر فى الإسلام أكثر منه زخرفة، ولا أحسن ترخيمًا بعد الجامع الأموى».

وفي آخر سنة ثمان عشرة وثمانمائة أرسل المؤيد منبرًا حسنًا إلى المسجد الحرام، ودرجة الكعبة، ووصل ذلك في موسم السنة المذكورة، وخطب الخطيب على المنبر الجديد خطبة التروية يوم سابع ذي الحجة الحرام.

وكانت وفاة المؤيد شيخ المحمودي يوم الإثنين لتسع خلون من المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وكانت مدة سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر(١).

ثم تولى بعده ولده الملك المظفر(٢)

أبو السعادات أحمد بن المؤيد بعهد منه، وعمره إذ ذاك سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام.

وصار مدبر مملكته الأمير ططر أمير مجلس أتابك العساكر، وخالف عليه أمير الشام ومن معه فتجهز ططر عليهم، ومعه الملك المظفر أحمد طفلا وقاتلهم وقتل كثيرًا منهم إلى أن صفا له الوقت فخلع الملك المظفر أحمد.

ثم تولى ططر(٣)

وتسلطن عوضه يوم الجمعة لليلة بقيت من شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة، ورجع بالمظفر إلى مصر، واستمر بالقلعة إلى أن نقل إلى الإسكندرية، فتوفى بها مطعونًا في السنة المذكورة، وكانت مدة سلطنته سبعة أشهر وعشرين يومًا(٤)، ونقل إلى الجامع المؤيدي داخل باب زويله، رحمه الله تعالى.

وكان ططر من مماليك الظاهر برقوق أعتقه وقدمه، ولا زال يترقى إلى أن صار عند المؤيد رأس نوبة(٥) ثم أمير مجلس، ثم تسلطن وتلقب بالملك الظاهر لقب

(١) فى الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٣ «ثمان سنين، وخمسة شهور، وستة أيام».
(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٢٨، الضوء اللامع ١/ ٣١٣، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٣، السلوك ٤/ ٥٦٣، النجوم الزاهرة ١٤/ ١١٠، بدائع الزهور ٢/ ١٠، الأعلام ١/ ١٣٧.
(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٢٩، الدليل الشافى ١/ ٣٦٣، النجوم الزاهرة ١٤/ ١٩٨، الضوء اللامع ٤/ ٨، بدائع الزهور ٢/ ١٣، إنباء الغمر ٣/ ٢٥٠، الخطط ٢/ ٢٤٣، السلوك ٤/ ٥٨٢، الأعلام ٣/ ٢٢٦ - ٢٢٧. بالإضافة إلى كتاب «الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر» للبدر العينى وهو كتاب أفرد لسيرته وأخباره.
(٤) فى خطط المقريزى أن مدته - المظفر أحمد - كانت ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام.
(٥) رأس نوبة: لصاحبها الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم. وفى هذه الوظيفة أربعة من الأمراء واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخانات. ولكل أمير من أمراء المئين أو الطبلخاناة رأس نوبة. ينظر: صبح الأعشى (٤/ ١٨ و٦٠).

أستاذه، ومهد الممالك وقبض على المخالفين عليه، وقرب المحالفين له.

وله آثار جميلة ومقاصد حسنة جليلة من أعظمها أنه قرر لصاحب مكة الشريف حسن بن عجلان عشرين ألف دينار تحمل إليه من خزينة مصر كل عام، وجعل ذلك في مقابلة ترك المكس على الخضرة، والفواكه والحبوب، وغيرها بمكة، وأمر أن يكتب عهده واعترافه بذلك على سواري المسجد من ناحية باب السلام ومن ناحية باب الصفا، والسواري المكتوبة بهذا العهد موجودة إلى الآن في المسجد الحرام.

ثم توفي يوم الأحد لأربع بقين من ذي الحجة سنة أربع وعشرين وثمانمائة فكانت مدة ملكه أربعة وتسعين يومًا.

ثم تولى بعده ابنه الملك محمد بن الظاهر ططر(١)

وعمره نحو العشر سنوات .

وأتابكه ومدبر مملكته الأتابك جان بيك الصوفي إلى أن تغلب على الأتابك برسباي الدقماقي، فقبض عليه وأرسله إلى سجن الإسكندرية فصار أتابكا مكانه، واستبد بأمور الملك من غير مشارك، فخلع الملك الصالح يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة، ومدة ملكه ثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا(٢)، وعمره عشرون سنة، واستمر بعد الخلع عند والدته بالقلعة إلى أن توفي بالطاعون.

ثم تولى الملك الأشرف برسباي الدقماقي(٣)

اشتراه الأمير دقماق الظاهري نائب « ملطية » وقدمه إلى الظاهر برقوق هدية فأعتقه وقربه ورقاه إلى أن ولاه الملك المؤيد مقدم ألف، واستمر إلى أن تسلطن بعد قبضه على محمد بن ططر.

ومن جملة مناقبه أنه أخذ بلاد قبرس، وأسر ملكها في سنة تسع وعشرين

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٣٠، الخطط ٢/ ٢٤٤، السلوك ٤/ ٥٩٠، إنباء الغمر ٣/ ٢٧٠، الدليل الشافى ٢/ ٦٣٠، النجوم الزاهرة ١٤/ ٢٠٨، بدائع الزهور ٢/ ١٣، الضوء اللامع ٧/ ٢٧٤، الأعلام ٦/ ١٧١ .

(٢) فى نزهة الأساطين ص ١٣٠ : «كانت مدته أربعة شهور وأربعة أيام» .

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٣١، السلوك ٤/ ٦٠٧، إنباء الغمر ٣/ ٢٧٠، الدليل الشافى ١/ ٢٨٦، المنهل الصافى ٣/ ٢٦٢، النجوم الزاهرة ١٤/ ٢٤٢، الضوء اللامع ٣/ ٨، بدائع الزهور ٢/ ٨١، ديوان الإسلام ١/ ٢٠٢، الأعلام ٢/ ٤٨ .

وثمانمائة وهو في تخت مملكته لم يتحرك، وكان عاقلاً مدبرًا سيوسا محبا لجمع المال، اشترى من ماله ثلاثة آلاف مملوك شركسي، وفتح آمد سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة، وبنى مدرسته الأشرفية(١) التي أنشأها بمصر على رأس الوراقين، وعلق خوذة ملك آمد التي أخذها بعد قتله علقها بدهليز مدرسته بين البابين بسلسلة، وله خيرات كثيرة.

توفى سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، ومدة ولايته ستة عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام(٢).

ثم تولى بعده ولده يوم موته(٣)

الملك العزيز يوسف بن برسباي وعمره أربعة عشر عامًا

وصار مدبر مملكته(٤) الأتابك جقمق العلائي(٥)، ولا زال يقوى أمره والأقدار تساعده إلى أن خلع العزيز بعد أن تسلطن نحوًا من ثلاثة أشهر وأربعة أيام، لم يكن له فيها سوى الاسم.

ثم ولي مكانه يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة ولقب بالملك الظاهر -سيف الدين، وكني بأبي سعيد جقمق العلائي، وجلس على سرير المملكة، والعلائي نسبة إلى مشتريه علاء الدين فنسب إليه فقيل: العلائي، ثم انتقل إلى الظاهر برقوق فقيل: الظاهري، وكان عند الظاهر

---

(١) هذه المدرسة كانت مدرسة وجامعًا فى آن واحد، وعمل فيها صوفية، ومدرس لكل من المذاهب الفقهية الأربعة . وهذه المدرسة ما تزال باقية حتى الآن . ينظر: إنباء الغمر ٣/ ٣٤٣، الخطط للمقريزى ٢/ ٣٣٠ - ٣٣١ . سعاد ماهر . مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ٤/ ١٠٩ - ١١٧ .

(٢) فى نزهة الأساطين ص ١٣٢ «كانت مدته ست عشرة سنة، وتسعة شهور، وعشرة أيام» .

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٣٣، الخطط للمقريزى ٢/ ٢٤٤، السلوك ٤/ ١٠٥٣، الدليل الشافى ٢/ ٧٩٩ - ٨٠٠، المنهل الصافى ٤/ ٢٨٣، الضوء اللامع ١٠/ ٣٠٣، النجوم الزاهرة ١٤/ ١٠٨، الشذرات ٧/ ٢٣٩ و٢٤٢ و٣٠٩، بدائع الزهور ٢/ ٢٣ و٢٥ - ٢٦، نظم العقيان ١٧٩، الأعلام ٨/ ٢٢١ .

(٤) مدبر الملك: من ألقاب الوزراء . ينظر: صبح الأعشى (٦/ ٦٩) .

(٥) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٣٤، السلوك ٤/ ١٠٨٦، الدليل الشافى ١/ ٢٤٦، المنهل الصافى ٤/ ٢٨٣، النجوم الزاهرة ١٥/ ٢٥٤، الضوء اللامع ٣/ ٧١، نظم العقيان ص ١٠٣، حوادث الدهور ١/ ٣٩٣، بدائع الزهور ٢/ ٢٤ و٣٤، الشذرات ٧/ ٢٩١، الأعلام ٢/ ١٣٢ .

برقوق خاصكيًا، ثم صار في دولة الناصر فرج بن برقوف ساقيًا، ثم أمير عشرة مقدم مائة، ثم في دولة المؤيد خازندارًا[١]. ثم من مقدمي الألوف، ثم في الدولة الأشرفية حاجب الحجاب[٢]، ثم أمير آخور[٣] كبير، ثم أمير سلاح، ثم صار أتابكا إلى أن تسلطن فخرج عن طاعته الأمير قرقماس، فقاتله وظفر به، وسجنه في الإسكندرية ثم قتله، ثم خرج عن طاعته نائب حلب تغري برمش، ثم أينال الحكمي نائب الشام، فجهز عليهما العساكر فقتلهما واحدًا بعد واحد، وبعد قتل هؤلاء صفا له الوقت فأخذ وأعطى وأقدم وسطًا. وكان متواضعًا محبًّا للفقراء والعلماء والصالحين، يميل إلى تربية الأيتام ويحسن إليهم، عفيفًا عن المنكرات، طاهر الفم والذيل. لا يعلم من ملوك الشراكسة قبله ولا بعده أعف منه. وكان - على قاعدة الأتراك - الدعوى عنده لمن يسبق، يذاكر بمسائل فقهية، ويتعصب لمذهب الحنفية، وملك مصر نحو خمس عشرة سنة[٤].

ومن أول ما عمل في ولايته أن أرسل إلى شريف مكة الشريف بركات بن حسن ابن عجلان بخلَع ومراسيم، وأرسل إليه سودون المحمدي، ليكون أميرًا على خمسين فارسًا من الترك مقيمين بمكة.

وفي سنة سبع وخمسين وثمانمائة وردت القصاد من مصر تخبر أن الملك الظاهر جقمق زاد به المرض، فخلع نفسه من السلطنة يوم الخميس لسبع بقين من محرم السنة المذكورة

---

(١) الخازن: كاتب يتولى خزن الغلات وصرفها وعليه سداد ما يعجز من عهدته . وقد تضاف إليها اللفظ الفارسى «دار» فتكون: الخازندار، وهو الذى يتولى أعمال خزانة السلطان أو الأمير أو غيرهما وفى عهدته ما بها من أموال وغلال .
ينظر: صبح الأعشى (٥/ ٤٦٢ - ٤٦٣)، قوانين الدواوين لابن مماتى (ص ٣٠٦) .

(٢) حاجب الحجاب: وظيفة حاجب الحجاب فى العصر المملوكى أن صاحبها ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن كان، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند وما ناسب ذلك . ينظر: صبح الأعشى (٤/ ١٩) و(٥/ ٤٤٩) .

(٣) أمير آخور: وظيفة يتحدث متوليها على إسطبل السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرها مما هو داخل فى حكم الإسطبلات . وهو مركب من لفظين وهو أمير والثانى فارس وهو آخور ومعناه المعلف، فيكون معنى أمير آخور أمير المعلف لأنه المتولى لأمر الدواب . ينظر: صبح الأعشى (٥/ ٤٦١) .

(٤) فى نزهة الأساطين ص ١٣٥ «كانت مدته أربع عشرة سنة وعشرة شهور ويومين» .

ثم تولى بعده أبو السعادات فخر الدين عثمان بن جقمق[١]

ولقب بالملك المنصور، ورضي الناس به واطمأنوا، وسنه إذ ذاك دون العشرين، وركب في شعار السلطنة، وحمل الأتابك أينال العلائي أمير كبير القبة والطير على رأسه، وقد تقدم أن من قواعدهم أن لا يحملها إلا من يلي السلطنة بعد المتولي المحمولة له.

وجلس على تخت السلطنة في قلعة الجبل، وباشر الأمور إلى أن توفي والده بعد ولايته باثني عشر يومًا، فوقعت فتنة بين الأمراء، فخلع عثمان بن جقمق، فقاتل بعد الخلع قتالاً شديدًا، ثم حبس فتسحب من الحبس، فظفر به، وقبض عليه، وأرسل إلى سجن الإسكندرية، فسجن إلى سنة أربع وستين، فأطلقه السلطان خشقدم وأمر بإكرامه وهو بالإسكندرية. وكانت مدته نحو أربعين يومًا[٢].

ثم تولى الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر أينال العلائي[٣]

يوم خلع عثمان صبيحة يوم الإثنين لثمان مضين من ربيع الأول من السنة المذكورة، وأينال مملوك لبرقوق اشتراه، ثم أعتقه ابنه فرج، ثم رقاه جقمق إلى أن جعله أتابكا، واستمر إلى أن تسلطن، وطالت أيامه نحو ثمان سنين وشهرين. وكان طويلاً خفيف اللحية بحيث اشتهر بأينال الأجرود، وكان قليل الظلم، قليل سفك الدماء متجاوزًا عن التقصير.

وفي أيامه ولى الأمير جان بك مشدا على جدة،وهو الذي التمس منه الشريف بركات أن يلتمس من السلطان إقامة ولده محمد بن بركات مقامه في شرافة مكة، كما سيأتي في ذكر بركات بن حسن بن عجلان في الخاتمة - إن شاء الله تعالى -.

وهو الباني للبستان - أعني جان بك - الذي على يسار الذاهب إلى منى، المعروف ببستان جان بك، وحفر فيه عدة آبار، وغرس ما قدر عليه من الأشجار

---

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٣٦، النجوم الزاهرة ١٦/ ٢٤، بدائع الزهور ٢/ ٣٧ و٢٤٢، الأعلام ٤/ ٢٠٤، حوادث الدهور ١/ ٣٣٥ .

(٢) فى نزهة الأساطين ص١٣٦ «أن مدته ثلاثة وأربعين يومًا» .

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٣٧، حوادث الدهور ١/ ٣٥٧، النجوم الزاهرة ١٦/ ٣٦ - ٥٦، الدليل الشافى ١/ ١٧٦، الضوء اللامع ٢/ ٣٢٨، بدائع الزهور ٢/ ٣٩، الأعلام ٢/ ٣٥ - ٣٦ .

حتى شجر التمر هندي. قلت: وهو الآن موجود وفيه المربعة التي تحتها السبيل المعطل، وفي البستان شيء من الأشجار، وقليل من الخضر.

واستمر أينال سلطانًا إلى أن خلع نفسه من السلطنة لولده الملك المؤيد شهاب الدين أبي الفتح أحمد بن أينال العلائي.

ثم تولى ابنه أحمد المذكور ابن أينال ولقب بالملك المؤيد(١)

كما مر آنفًا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة، وتوفي والده أينال بعد ولايته بيوم واحد، فاستمر خمسة أشهر، وخمسة أيام(٢)، ثم خلع، فإن الطوائف اتفقوا على خلعه من غير موجب بالأتابك خشقدم، فخلعوه، ثم حبسوه بالإسكندرية إلى أن أطلقته تمربغا في أيام سلطنته يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان من السنة المذكورة.

ثم تولى أتابكه الملك العادل سيف الدين خشقدم الناصري(٣)

وهو رومي اشتراه الملك المؤيد، وأعتقه وصار خاصكيا عنده، ثم تنقلت به الدولة إلى أن جعله أينال أتابكا لولده فخلعه بعد خمسة أشهر وتسلطن مكانه. وكان خشقدم محبًّا للخير، وكسا الكعبة في أول ولايته على العادة. وكان حسن السيرة إلا أنه كان فيه شح وطمع، ويرضى بإفساد مماليكه في أمور المسلمين، فلذلك تمنى الناس زواله، حتى اليهود والنصارى.

ثم مرض، وطال مرضه، وتوفى يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، ومدة ملكه ست سنين وخمسة أشهر وأيام

---

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٣٩، النجوم الزاهرة ١٦/ ٢١٨، الضوء اللامع ١/ ٢٤٦، بدائع الزهور ٢/ ٦٥ و٢٨٤، حوادث الدهور الفصل ٣ ص ٣٩٥ حوادث سنة ٨٦٥، الأعلام ١/ ١٠٢ .

(٢) فى نزهة الأساطين ص ١٣٩ «أن مدته كانت أربعة شهور وثلاثة أيام» .

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٤٠، الدليل الشافى ١/ ٢٨٦، النجوم الزاهرة ١٦/ ٢٥٣، الضوء اللامع ٣/ ١٧٥، نظم العقيان ص ١٠٩، بدائع الزهور ٢/ ٧٠، حوادث الدهور ٣/ ٥٥٤ و٦٥٧، الأعلام ٢/ ٣٠٦ .

ثم تولى بعده في ذلك اليوم أتابكه بلباي المؤيد(١)

تلقب بالملك الظاهر أبي النصر وخلع على الأمير تمربغا الظاهري الأتابكية عوضًا عن نفسه، وكان بلباي ضعيفًا عن تدبير الملك وتنفيذ الأمور، فخلعه الأمراء من السلطنة يوم السبت لسبع مضين من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، وكانت مدة سلطنته شهرين إلا أربعة أيام.

ثم تولى مكانه الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا الظاهري(٢)

ويقال : إنه رومي الأصل من مماليك الظاهر جقمق أعتقه ورباه صغيرًا ورقاه إلى أن جعله خاصكيا ثم سلحدارًا ثم خازندارًا، ثم إلى أن صار أتابكا للعساكر ثم تسلطن، وكان له فضل وتودد إلى الناس، وحذق ببعض الصنائع بحيث كان يعمل القبي الفائقة بيده ويعمل السهام عملاً فائقًا، ويرمى بها أحسن رمي مع الفروسية التامة.

وما زال به الأمر حتى خلعوه ونفوه إلى الإسكندرية، وكانت مدة ولايته ثمانية وخمسين يومًا.

ثم إن السلطان قايتباي اعتذر إليه من وثوبه عليه، وأكرمه وأحسن مثواه، وأرسله إلى دمياط على أحسن حال، فقبل عذره ولم يقع لملك من الإكرام بعد الخلع ما وقع له لكونه جديرًا بذلك.

ثم تولى السلطنة أتابك العساكر يومئذ السلطان الأشرف قايتباي(٣) المحمودي الظاهري الشركسي

ظهر يوم الإثنين لست مضين من شهر رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة يوم خلع تمربغا، وقيل له : المحمودي؛ لأنه جلبه الخوجا محمود إلى مصر، فنسب

---

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٤١، النجوم الزاهرة ١٦/ ٣٥٦، الضوء اللامع ١٠/ ٢٢٨، بدائع الزهور ٢/ ٨٤ و١٠١، الشذرات ٧/ ٣١٥، الأعلام ٨/ ٢٠٨ .

(٢) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٤٢، النجوم الزاهرة ١٦/ ٣٧٣، الضوء اللامع ٣/ ٤٠، نظم العقيان ص ١٠٢، بدائع الزهور ٢/ ٨٧ و١٥٦، الأعلام ٢/ ٨٧ .

(٣) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٤٣، النجوم الزاهرة ١٦/ ٣٩٥، الكواكب السائرة ١/ ٢٩٨، أخبار الدول ص ٢١٦، الشذرات ٨/ ٧، الضوء اللامع ٦/ ٢٠٢، بدائع الزهور ٢/ ٩٠ - ٣٠٣، الأعلام ٥/ ١٨٨ .

إليه، فاشتراه الأشرف برسباي، وأعتقه الظاهر جقمق وإليه انتسب بالظاهري.

وكان محبًّا للخير معتقدًا في الصالحين. حكى عن نفسه أنه لما جلبه سيده إلى مصر للبيع وهو إما مراهق أو بالغ كان معه رفيقه أحد المماليك والجلب، فتحادثا مع الجمال ليلة من الليالي في شهر رمضان فقالوا: لعل هذه الليلة ليلة القدر، والدعاء فيها مستجاب، فليدع كل واحد منا بدعاء يحبه. قال قايتباي: فقلت: أما أنا فأطلب سلطنة مصر من الله تعالى. فقال رفيقي: وأنا أطلب أن أكون أميرًا كبيرًا، والتفتنا إلى الجمال، فقلنا له: أي شيء تطلب أنت؟ فقال: أنا أطلب من الله خاتمة الخير، فصار قايتباي سلطانًا وصار صاحبه أميرًا كبيرًا، فكنا إذا اجتمعنا نقول: فاز الجمال من بيننا.

وكان رحمه الله ملكًا جليلاً وسلطانًا نبيلاً، له اليد الطولى في الخيرات، والطول الطائل في إسداء المبرات، بنى في المساجد الثلاثة عدة رُبط ومدارس، وجوامع عظيمة الآثار باهرة الأنوار، وله بمصر والشام وغزة وغير ذلك آثار جميلة، وخيرات جزيلة، أكثرها باق إلى الآن، وجميع عمائره يلوح عليها لوائح النورانية والأنس، وفي أول ولايته أرسل إلى شريف مكة، بالمراسيم والخلع، وهو الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، وإلى قاضي القضاة إبراهيم بن على بن ظهيرة تقليدًا لقضاء مكة، ومراسيم تتضمن الأمر بإبطال جميع المكوسات والمظالم، وأن ينقر ذلك على أسطوانة من أساطين الحرم الشريف في باب السلام.

وفي أواخر سنة أربع وسبعين وثمانمائة - أو التي قبلها - بنى مسجد الخيف بناء عظيمًا محكمًا، وجعل في وسط المسجد قبة عظيمة هي حد مسجد رسول الله ﷺ، وبنيت جدرانه المحيطة به وبنى أربع بوائك من جهة القبلة فصارت قبة عالية فيها محراب النبي ﷺ، وبلصق القبة مئذنة غير المئذنة التي على باب المسجد، وبنى دارًا بلصق باب المسجد كانت مسكن أمير الحاج، وعلى باب الدار سبيل على صهريج كبير جعل في صحن المسجد يمتلئ من المطر، وجدد العلمين الموضوعين لحد عرفة، والعلمين الموضوعين لحد الحرم، وجدد عين عرفات، وابتدأ العمل فيها من سفح جبل الرحمة إلى وادي نعمان، فوجد الماء بكثرة، فاقتصر على ذلك ولم يصل إلى أم العين، وكانت قد انقطعت منذ مائة وخمسين عامًا، فكان الحجاج

يقاسون في يوم عرفة من قلة الماء ما لا صبر عليه، ثم أصلح البرك وملأها بالماء، ثم أصلح عين خليص وأجراها وأصلح بركتها وبنى قبتها، وكان ذلك سنة تسع وسبعين وثمانمائة.

وفي سنة اثنين وثمانين وثمانمائه أمر السلطان وكيله وتاجره الخوجا شمس الدين محمد بن عمر الشهير بابن الزمن وشادّ عمائره الأمير سنقر الجمالي أن يحصلا له موضعًا مشرفًا على الحرم الشريف ليبنى فيه مدرسة ليدرس فيها على المذاهب الأربعة، ورباطًا يسكنه الفقراء، ويعمل له ربوعًا ومسقفات، يحصُل منها ريع كبير، يصرف منه على المدرسين وعلى القراء، وأن تقرأ له ربعة في كل يوم يحضرها القضاة الأربعة، والمتصوفون، ويقرر لهم وظائف، ويعمل مكتبًا للأيتام، وغير ذلك من جهات الخير، فاستبدل له رباط السدرة، ورباط المراغي، وكانا متصلين، وكان إلى جانب رباط المراغي دار الشريفة شمسية من شرائف بنى حسن اشتراها وهدم ذلك جميعه، وجعل فيه اثنتين وسبعين خلوة، ومجمعًا كبيرًا مشرفًا على المسجد الحرام وعلى المسعى، وصير المجمع المذكور مدرسة، بناها بالرخام الملون، والسقف المذهب، وقرر فيها أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة، وأربعين طالبًا، وأرسل خزانة كتب وقفها على طلبة العلم وجعل مقرها المدرسة المذكورة، وجعل الواقف في ذلك المجمع للقضاة الأربعة حضورًا بعد العصر مع جماعة من الفقهاء، يقرءون ثلاثين جزءًا من القرآن، وجعل لها معلم أربعين صبيًا من الأيتام، ورتب لكل واحد من الأيتام وأهل الخلاوي ما يكفيهم من القمح كل سنة، وللمدرسين وقراء الربعة، وأهل الخدم مبالغ من الذهب تصرف لهم كل سنة، وبنى عدة ربوع ودور تغل في كل عام نحوًا من ألفي دينار، ووقف عليهم بمصر قرى وضياعًا كثيرة تغل حبوبًا كثيرة تحمل كل عام إلى أهالي مكة، وعمل من الخيرات العظيمة ما لم يعمله سلطان قبله، وذلك باقٍ إلى الآن إلا أن الأكلة استولت على تلك الأوقاف فضعفت جدًا.

قلت: هذا في زمان قطب الدين رحمه الله تعالى، وأما الآن فقد تضاعفت لا ضعفت، إلا أنها - كما قال رحمه الله -: قد استولت عليها أكلة النظار، وقد صارت المدرسة سكنًا لأمراء الحج إذا وصلوا مكة أيام الموسم. وكان الفراغ من

بناء هذه المدرسة، والرباط والبيتين أحدهما: من ناحية باب السلام، والثاني: من ناحية باب الحريريين في سنة أربع وثمانين وثمانمائة على يد مُشَيِّدِ عمائره الأمير سنقر الجمالي.

وفي هذه السنة وردت أحكام سلطانية من السلطان قايتباي إلى صاحب مكة الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان رحمه الله تتضمن أنه رأى منامًا وأن بعض المعبرين عبر له ذلك المنام بغسل البيت الشريف من داخله وخارجه وغسل المطاف، وأنه أمره أن يفعل ذلك.

فحضر مولانا الشريف محمد بن بركات رحمه الله بنفسه، وقاضي القضاة إبراهيم ابن ظهيرة وناس من الترك المقيمين بمكة الأمير قاتي باي اليوسفي، والأمير سنقر الجمالي، والدوادار الكبير جان بك نائب جدة المعمورة، وبقية القضاة والأعيان، وفاتح الكعبة عمر بن أبي راجح الشيبى، والشيبيون والخدام، وغسلوا الكعبة الشريفة من ظاهرها وباطنها قدر قامة، وغسلوا أرض الكعبة وأرض المطاف الشريف، وطيبوها بالطيب والعود، وكان ذلك يوم الخميس لثمان بقين من ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة.

ومن أعظم ما وقع في أيام السلطان قايتباي - من الأمور المهولة - حريق المسجد النبوي في ثلث الليل الأخير من ليلة الإثنين ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وثمانمائة، فعمره رحمه الله أحسن عمارة وبنى المقصورة، وأدار عليها الشبك الحديد جميعها(١).

وكان تمام ذلك في عام ثمان وثمانين وثمانمائة كما رأيته مرسومًا بالقلم الحديد في جهة الباب من الحجرة الشريفة. وقد ذكر السيد السمهودي ذلك مفصلاً وغيره، وعمر السلطان المذكور بالمدينة مثل ما عمر بمكة من المدرسة والرباط، وأوقف كتبًا على طلبة العلم الشريف، فأرسل مصاحف كثيرة وكتبًا لخزانة المسجد الشريف، عوضًا عما احترق.

ولم يحج من ملوك الشراكسة غير السلطان قايتباي المذكور، وذلك لتمكنه في

---

(١) ينظر: تفاصيل ذلك فى: الضوء اللامع ٦/ ٢٠٦ - ٢١٠، الكواكب السائرة ١/ ٢٩٩، الخطط . لعلى مبارك ٢/ ٣١٤، ٣٢٢ .

الملك وحسن تدبيره وضبطه للممالك فحج سنة أربع وثمانين وثمانمائة.

فأقام الأمير يشبك الدوادار الكبير نائبًا عنه بمصر، وخرج بعد الحاج بثلاثة أيام.

وكان أمير الحاج الخارج بالمحمل الشريف خشقدم، فخرج السلطان قاصدًا للحج والزيارة، ووصلت القصاد إلى شريف مكة يومئذ جمال الدين الشريف محمد ابن بركات بن حسن بن عجلان سقى الله رمسه صوب الرحمة والرضوان، فتهيأ هو والقاضي إبراهيم بن ظهيرة القاضي الشافعي لملاقاة السلطان؛ فإن القصاد أخبروهما أنهم فارقوه من عقبة « أيلة »، فأرسل الشريف أحد قواده يسبقه إلى ملاقاة السلطان بسماط حلوى. فوصل إلى « الحوراء »، ولاقى السلطان، ومد له سماط الحلوى هنالك فوصل عليه وأظهر غاية اللطف والمجابرة، وأكل وقسم على أمرائه وعسكره، وكان سماطًا كبيرًا جميلاً. ويحكى من لطافة السلطان أنه تناول شيئًا من الحلوى، وسأل الذي جاء به: ما اسم هذا عندكم ؟ فقال له القائد: اسمه: « كل واشكر ».

فقال له: سلم على سيدك، وقل له: أكلنا وشكرنا.

ثم لما وصل إلى ينبع عدل إلى المدينة الشريفة فأقام الشريف محمد ومن معه من القضاة والأعيان ببدر منتظرين قدوم السلطان، فلما وصل الخبر بعود السلطان من المدينة ركب الشريف محمد ومن معه لملاقاته، فاجتمعوا به في مسجد الصفراء، وتلاقيا على ظهور الخيل وتصافحا، ومشى الشريف عن يمينه، والقاضي إبراهيم عن يساره، وباقي من معهما سلموا على السلطان من بُعْد، ومشوا أمامه، وصار السلطان يلاطفهما، ويسألهما عن أحوالهما، ويشكر مساعيهما ويطمن خواطرهما، وينصت لهما إذا تكلما، واستمر كذلك إلى أن وصل السلطان إلى وطاقه فرجعا عنه إلى مخيمهما، وصاروا يسايرونه في الطريق، ويبدى لهم وافر الانبساط وكمال النشاط، وألبسهم خلعًا فاخرة مرارًا عديدة، وتقدموا إلى وادي « مر » ورتبوا له سماطًا حافلاً، ولما كان صبح يوم الأحد مستهل ذي الحجة وصل السلطان إلى مخيمه بوادي مر ووجد السماط ممدودًا فجلس هو ومن معه عليه، وأكل وأطعم وخلع على الخدام خلعًا متعددة جميلة، ووصل بقية القضاة والخطباء والأعيان، فسلموا على السلطان فانصرفوا أمامه، وركب السلطان هو وشيخ الإسلام إبراهيم بن

ظهيرة وولده أبو السعود، وأخوه أبو البركات وأمام السلطان إبراهيم بن الكركي الحنفي، ودخلوا مكة عصرًا من أعلاها وشيخ الإسلام هو الذي تقدم لتطويف السلطان، وصار يلقنه الأدعية إلى أن دخل من باب السلام الأقصى، وطلع بفرسه منه فجفل به الفرس، فسقطت عمامته واستمر مكشوف الرأس إلى أن تقدم المهتار فشالها من الأرض ومسحها، فناولها السلطانَ فلبسها، وكان ذلك تأدبيًا له من الله تعالى حيث كان يتعين عليه أن ينزعها، ويدخل مكشوف الرأس متواضعًا.

ولما وصل إلى العتبة الداخلة من باب السلام الأدنى، ترجل وقرأ الريس بين يديه بصوت جهوري ﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ... ﴾ [الفتح: ٢٧] الآية. ثم رفع يديه يدعو للسلطان، وأمن من حوله من أهل الأصوات، فقبل الحجر وطاف، والريس يدعو له من أعلى قبة زمزم، والناس محيطون بالطواف يشاهدونه ويدعون له، إلى أن تم طوافه وصلى خلف المقام ثم خرج إلى الصفا، فلما فرغ من سعيه عاد إلى الزاهر فبات به في مخيمه، وركب في الصبح في موكبه، ولاقاه الشريف وأولاده والقاضي، فخلع السلطان على الشريف والقاضي، وغيرهما، ومشوا أمامه في الموكب العظيم، والأبهة الجليلة، ولم يتخلف أحد بمكة حتى النساء المخدرات.

ودخل مكة بهذه الصفة إلى أن وصل مدرسته، فترجل له الناس، وسلم عليهم، ودخل المدرسة، ومد له الشريف سماطًا، واستمر على ذلك تمد له صبحًا وليلاً الأسمطة الجليلة الجميلة، ومد له ثاني يوم القاضي إبراهيم بن ظهيرة سماطًا بالمدرسة، واستمر بالمدرسة ما ظهر لأحد إلى أن طلع عرفة، وكانت الوقفة بالإثنين فأفاض مع الناس، وأتم حجه، وقرب أغنامًا كثيرة، وكان يناسب أن ينحر شيئًا من الإبل فما أشار عليه به أحد.

وركب مرة إلى درب اليمن يشاهد ما قدمه له الشريف محمد من الإبل، والخيل وتشكر من فضل الشريف، ثم سافر ظهر يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة بعد أن طاف للوداع، والريس يدعو له على قبة زمزم، ومشى القهقرى إلى أن خرج من باب الحزورة وركب معه الشريف وأولاده، والقاضي إبراهيم إلى الزاهر، ثم ودعهم وودادعهم وسافر إلى مصر وعاد إلى مملكته، ولم يختل شيء من ملكه مع

غيبته عن تخت مصر نحو ثلاثة أشهر، وذلك لإتقانه أمر الملك وتدبيره وضبطه.

ولقد كان واسطة عقد الشراكسة وأقربهم إلى قلوب الرعية، وأجملهم حالاً وأحسنهم إحسانًا وأفضلهم عقلاً، وأكملهم نبلا، وأكثرهم في جهات الخير إيثارًا وآثارًا، وأكبرهم عمائر وأوقافًا وأدوارًا، وأطولهم طولاً وزمانًا، وأمكنهم ملكًا وقوة وإمكانًا. وكانت أيامه كالطراز المذهب، ودولته تنجلي كالعروس في حلل الجوهر والذهب، حتى قدم عليه بريد الأجل، وما أغنى عنه ما جمعه من الخيل والخول، وكان انتقاله إلى رحمة الله تعالى يوم الأحد لثلاث بقين من ذي القعدة سنة ٩٠١ إحدى وتسعمائة، وكانت مدة تصرفه ثلاثين سنة إلا ثلاثة أشهر(١).

ثم تولى الملك الناصر أبو السعادات محمد ابن السلطان قايتباي(٢)

وكان يغلب عليه الجنون والسفه، وما كان له التفات إلى الملك، ولا تدبير السلطنة، بل غلب عليه اللهو واللعب والحركات المستبشعة.

يحكى عنه أمور قبيحة منها: أنه كان إذا سمع بامرأة حسناء هجم عليها، وقطع دائر فرجها ونظمه في خيط أعده لنظم فروج النساء.

ومنها: أن والدته كانت من عقلاء النساء وأجملهن هيأت له جارية جميلة، وجمعتها به في بيت مزين أعدته لهما فدخل بها وقفل الباب على نفسه وعليها، وربطها وشرع يسلخ جلدها عنها كالجلاد، وهي بالحياة، وهي تصرخ، فلما سمعوا صراخها أرادوا الهجوم عليه فما أمكنهم لأنه قفل الباب من داخل واستمر كذلك إلى أن سلخها، وحشا جلدها بالأثواب السندسية وخرج يظهر للناس أستاذيته في السلخ، وأن الجلادين يعجزون عن كماله في صنعته قُبِّحَ هو وصنعته.

ومنها: أنه مر في موكبه بدكان حلواني، ودار حوله أمراؤه فأقامه من دكانه، وجلس كأنه يبيع الحلاوة، وأخذ بيده الميزان فصار يزن لهم حتى جبرت الحلاوة.

وكان يقلي الجبن المقلي بنفسه يبيعه للجند ويأمرهم بشرائه منه، ويأخذ أكياس الذهب إلى طرف النيل فيرمى دينارًا فيقول: هذا قال: بق، ويرمى الآخر فيقول:

---

(١) فى نزهة الأساطين ص ١٤٦ «أن مدته كانت تسعًا وعشرين سنةً وأربعةَ شهورٍ وأحدًا وعشرين يومًا».

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٤٧، بدائع الزهور ٢/ ٣٠٣، وليم موير ١٦٣، النور السافر ٤٠، الشذرات ٨/ ٢٢، الأعلام ٧/ ٩.

هذا ما قال : بق، ثم يحضر الأمراء الكبار ويأمر بذبحهم في الديوان، فصار الشخص منهم إذا أضجع للذبح صوت صوت الغنم، فيضحك ويطلقه.

وكانت له حركات من هذه الخرافات منها ما يضحك ومنها ما يبكي، إلى أن سقط من أعين الناس والعسكر وسطوا عليه كما سطا بالحسام الأبتر، وسلخوه من الملك كما سلخ الضعيفة بالخنجر، ومزقوه كل ممزق ولعذاب الآخرة أكبر.

وسبب قتله أنه من غروره خرج مختفيًا منفردًا من خدمه وعبيده متباعدًا عن خوله وحشمه، فتوجه يمشي وحده إلى بر الجزيرة، فكمن له عشرة أنفس من مماليك أبيه في خيمة على ممره، فلما وصل إليهم خرجوا له من الخيمة، فأمسكوا بلجام فرسه، وضربوه بالسيوف إلى أن قطعوه، وجاءوا به مقتولاً إلى القاهرة ودفنوه في تربة أبيه سنة ٩٠٤ أربع وتسعمائة، وكانت مدة سلطنته ثلاث سنين[(١)] .

ثم تولى بعده خاله الملك الظاهر قانصوه[(٢)]

وهو خال هذا المقتول، وكان أميًا لا يعرف إلا بلسان الشركس قريب العهد ببلده؛ لأنه جلب للسلطان قايتباي من بلاده وهو كبير قد وخطه الشيب، وصار يرقيه بواسطة أخته زوجة قايتباي خوندام الناصر ولده، وهي التي أقامته مقام ولدها الناصر، وبذلت له الأموال والخزائن، وأرادت إقامته وإصلاحه، ولن يُصْلِحَ العطَّارُ ما أفسَد الدهرُ، فما استكملته الإيالة، وما أهلوه للسلطنة والولاية، فخلعوه من الملك أواخر سنة ٩٠٥ خمس وتسعمائة، وكانت مدته سنة وسبعة أشهر[(٣)].

ثم تولى بعده السلطنة أمير كبير جانبُلاط[(٤)]

وتلقب بالملك الأشرف في أوائل سنة خمس وتسعمائة، ولم يتهنَّ بالسلطنة، ولا وافقه أحد عليها، وخلع بعد ستة أشهر.

---

(١) فى نزهة الأساطين ص ١٤٨ «كانت مدته سنتين وعشرين يومًا» .
(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٥٠، بدائع الزهور ٢/ ٣٤٩، الأعلام ٥/ ١٨٧ .
(٣) فى نزهة الأساطين ص ١٥١ «أن مدته كانت عشرين شهرًا وتسعة أيام» .
(٤) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٥٢، الكواكب السائرة ١/ ١٧١، أخبار الدول ٢١٨، شذرات الذهب ٨/ ٢٨، بدائع الزهور ٢/ ٣٧٠، الأعلام ٢/ ١٠٧ .

ثم تولى مكانه الملك العادل طومان باي(١)

وما استكمل يومًا واحدًا بل هجم عليه العسكر وقتلوه، فما أقدم أحد على السلطنة، وكانت الأمراء متوفرة، وبعضهم يشير إلى بعض في الجلوس على تخت الملك فاتفقوا على تولية قانصوه الغوري، لأنهم رأوه سهل الإزالة أي وقت أرادوا إزالته أزالوه؛ لأنه كان أقلهم مالا وأضعفهم حالاً وأوهنهم قوة، وأشاروا أن يتقدم فأبى فألزموه بذلك، فقال: أقبل ذلك بشرط أن لا تقتلوني، فإذا أردتم خلعي من السلطنة فأخبروني بما تريدون وأنا أوافقكم على ذلك وأترك لكم الملك وأمضى حيث أريد، فعاهدوه على ذلك فقبل.

ثم تولى قانصوه الغوري السلطنة(٢)

ولقبوه الملك الأشرف أبا النصر قانصوه الغوري، وذلك في سنة ٩٠٦ ست وتسعمائة، وفرح العسكر بولايته لأنهم سئموا تعدد السلاطين وسرعة تقضّي ملكهم، بل فرح العامة وأمنوا على أنفسهم وأموالهم في الجملة.

وكان قانصوه الغورى كثير الدهاء ذا رأى وفطنة وتيقظ، إلا أنه كان شديد الطمع كثير الظلم والفسق، بخيلا محبًا للعمارة، فمن جملة عمارته: الجامع والتربة، وكان في نيته أن يدفن بها، ووقف عليها أوقافًا كثيرة وما قدر له دفنه بها بل ذهب تحت سنابك الخيل وما عرف شخصه، ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وله آثار جميلة في طريق الحاج في عقبة أيلة ومآثر بمكة المشرفة وغيرها، وكان يتنزل مع الأمراء من غير تشديد عليهم ولا إظهار عظمة وأمر ونهى، وذلك في ابتداء أمره إلى أن تمكن من قوته وبأسه.

حكى العلامة قطب الدين عن شيخه أحمد بن عبد الغفار عن والده وكان من

---

(١) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٥٤، بدائع الزهور ٣/ ٦٨ - ١١٦، وليم موير ١٧٦، الأعلام ٣/ ٢٣٤، أخبار الدول ٢١٩ .

(٢) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٥٥، مفاكهة الخلان ٢/ ٢٣٧، الكواكب السائرة ١/ ٢٩٥، الشذرات ٨/ ٢٨ و١١٣، أخبار الدول ص ٢١٩، ديوان الإسلام ٣/ ٣٩٥، معجم المؤلفين ٨/ ١٢٧، بدائع الزهور ٣/ ٨٥، سير أعلام النبلاء ٣/ ١١٢ - ١٦٤ ثم ٥/ ٣٩٠، البدر الطالع ٢/ ٥٥، الأعلام ٥/ ١٨٧ .

أرباب الأقلام في ديوان قانصوه قال: استشم الغوري مبادئ فتنة أراد الأمراء إحداثها، وأرادوا أن يجعلوها مقدمة لخلعة من السلطنة، فلما استشعر ذلك منهم عمل ديوانًا وجمع فيه الأمراء والمقدمين، وأمرهم بالجلوس، وجلس بينهم كأحدهم، وكانت عادة الأمراء الوقوف بين يدي السلطان ولا يجلسون معه إلا في السماط فقط، فلما جلسوا وجلس، أنكروا ذلك وكانوا يتعجبون من ذلك وكلٌّ مصغٍ إلى ما يقول السلطان؛ فقال: ما جمعتكم يا أغوات إلا لأسألكم سؤالا خطر لي، وأطلب منكم جوابه على الوجه الذي ترونه صوابًا. فقالوا: نعم، فقال: أسألكم عن جماعة جاءوا إلى رجل، وأودعوه صرة من الدراهم مربوطة مختومة، فقال: أنا أستودع منكم هذه الوديعة بشرط أن تأتوني وتطلبوا وديعتكم بلا نزاع معي ولا خصومة فأرد وديعتكم إليكم، فقالوا: نعم قبلنا منك هذا الشرط، وأودعوه ومضوا، ثم عادوا إليه بعد مدة وقالوا: نريد الوديعة بنزاع شديد ومخاصمة ومضاربة قوية، فقال لهم: هذه وديعتكم حاضرة خذوها بلا نزاع ولا ضراب معي كما شرطت عليكم، فقالوا: لا بد من المخاصمة والنزاع معك، فأيهم على الباطل، وأيهم على الحق؟ ففهموا مراده واستعفوا منه، فقال لهم: أنا ما جلست معكم إلا لتعلموا أني كأحدكم لا أمتاز عليكم بشيء، وهذه السلطنة أسلمها لأيكم أرادها ولا أنازع عليها، فإنما أنا رجل من الجند، فقبَّل كل منهم يده، وأذعنوا له بالسلطنة وسألوه استمراره فيها.

وسكنت الفتنة بهذا التدبير، وغفلوا عنه مدة واشتغلوا عنه بضروريات وطالت معه الحيل إلى أن صار يأخذ منهم واحدًا بعد واحد، ويتغافل عنهم، ثم يحصل حيلة أخرى، وعلة أخرى لأحدهم، فيأخذه بها، ويوقع بين الاثنين، ويأخذ هذا بذاك، وذاك بذا، ويدس لهم الدسائس من الطعام والسم ونحوه، حتى أفنى قرانصتهم ودهاتهم إلا قليلاً منهم.

واتخذ مماليك جددًا، واستجلب جلبًا وأعد عددًا، وصاروا يظلمون الناس ويعاملون الخلق عسفًا وغشما، وهو يغضي عنهم ويتغافل، فأظهروا الفساد، وأهلكوا العباد، وأكثروا العناد، وطغوا في البلاد، وصار يصادر الناس، ويأخذ أموالهم بالقهر والبأس.

وكثرت العوانية في أيامه؛ لكثرة ما يصغي إليهم، وصاروا إذا شاهدوا أحدًا توسع

في دنياه، وأظهر التجمل في ملبسه ومثواه، وشوا به إلى السلطان فيرسل إليه يطلب القرض، ويصفي أمواله، ويسلمه إلى الصوباشي ليأخذ ماله، ويهلك أهله وعياله.

وجمع من هذا الباب أموالا عظيمة، وخزائن واسعة ذهبت في آخر الأمر سدى وتفرقت بيد العدى، وتمزقت بددًا.

وأما الميراث فبطل في أيامه، وصار إذا مات أحد يأخذ ماله جميعه للسلطنة، ويترك أولاده فقراء إلا إن اعتني به اعتناء كبيرًا جعل له نزرًا يسيرًا من مال أبيه، وأخذ لنفسه باقيه. وكثر ظلمه في آخر أيامه، فاستجاب الله فيه دعاء المظلومين، وقُطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين.

وحكي عن شخص من أولياء الله تعالى مجاب الدعوة أنه رأى بمصر في أيام الغوري جنديًا من الشراكسة أخذ متاعًا من دلال ولم يُرضِه في قيمته، فتبعه الدَّلال يطلب منه حقه وهو ممتنع، فقال له الدلال: بيني وبينك شرع الله، فضربه الجندي بالدبوس، فشج رأسه، وقال: هذا شرع الله، فسقط الدلال مغشيًا عليه، ومضى الجندي بالمتاع وما قدر أحد من المسلمين على منعه من فعله. قال الشخص: فصعب عليّ هذا الحال، فرفعت يدي إلى الله تعالى، ودعوت الله عز وجل على الجندي المزبور وسلطانه وحزبه وإخوانه، وعلى الظلمة من أعوانه، فصادف ساعة إجابة وقبول، واقترن السؤال بحصول المسئول، فبت تلك الليلة على طهارة، وأنا أفكر في أمرهم، وأحدث نفسي كيف يزول ملك هذا السلطان الجائر، وقد ملأت جنوده الأرض. وأنَّى للمسلمين بسلطان رءوف رحيم، عادل كريم؟ فنمت فرأيت فيما يرى النائم ملائكة من السماء بأيديهم مكانس يكنسون الشراكسة من أرض مصر، ويلقونهم في بحر النيل، فلم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتى وقع ذلك.

ثم إني استيقظت من نومي وسمعت قارئًا يقرأ قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦]، فعلمت أن الله سوف يأخذهم أخذًا وبيلا.

فما مضى على هذه الوقعة قليل من الزمان إلا وبرز الغوري بجنوده، وأمواله وبنوده، وأثقاله وخزائنه، وأنصاره وأعوانه من مصر لقتال السلطان سليمان خان إلى حلب، فجاء الخبر بعد قليل بأنه كسر وقتل أكثر جنوده وفقد هو تحت سنابك الخيل

في « مرج دابق »، وكان قتله بين الظهر والعصر، يوم الأحد خامس عشر رجب سنة ٩٢٢ اثنتين وعشرين وتسعمائة.

وقيل: إنه فقد من الحرب وأنه عاش مدة ببلاد المغرب، وقيل: بل عاش بمصر مدة طويلة.

قال شيخنا: وعلم بما قدمته من أن شخصًا مات بالقرب من زمن الوقعة ببعض مدارس مصر فوجد في عنقه كيس فيه ختم باسم الغوري فقيل: إنه هو، وكانت مدة الغوري خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يومًا.

وللأشرف قانصوه الغورى مآثر جميلة وعمائر حسنة جليلة. فمما عمره بمكة المشرفة باب إبراهيم بعقد كبير، جعل علوه قصرًا، وجعل في جانبه مسكنين لطيفين، وبيوتًا ممتدة حول باب إبراهيم، ووقف الجميع على جهات خير، ولا يصح وقف ذلك؛ لأنه في المسجد، وكذلك السكنان؛ لأن أكثرهما في المسجد الحرام، وما أمكن العلماء أن ينكروا عليه ذلك في أيام سلطنته؛ لعدم إصغائه إلى كلام أهل الشرع، وبنى أيضًا ميضأة خارج باب إبراهيم على يمين الخارج، وقد أبطلت؛ لأن روائحها تصل إلى المسجد فيتأذى المصلون، فأبطلت وأغلق بابها قريبًا في سنة ٩٨٠ تسعمائة وثمانين بأمر شريف سلطاني.

قلت: هي الآن مفتوحة ينتفع بها المسلمون عامرة.

ومن أثره الترخيم الواقع في الحجر الشريف، عمل بأمره في أيامه، واسمه مكتوب فيه وفرغ من عمارته سنة ٩١٧ سبع عشرة وتسعمائة، وبنى بركة بدر وعدة خانات وآبار في طريق الحاج المصري، وبنى خانًا في عقبة أيلة والأزلم، ومدرسة أنشأها علوَّ سقف الجملون بالقاهرة، وأنشأ مجرى الماء من مصر العتيقة إلى قلعة الجبل.

ومن آثاره بناء سور جدة وكانت العربان تهجم في أيام الفتن وتنهبها، ونهبت مرارًا أيام الوقائع بين الشريف بركات وأخيه هزاع، وبعد هزاع جازان، فأرسل الغوري أحد أمرائه المقدمين، وهو الأمير حسين الكردي، وجهز معه عسكرًا من الترك والمغاربة واللوند في خمسين غرابًا لدفع ضرر الفرنج في بحر الهند، فلما وصل إلى جدة بنى سورها وهدم كثيرًا من بيوتها وأخذ حجارتها، وبنى بها السور في شدة وبأس، واستخدم عامة الناس في حمل الحجر واللَّبِن حتى التجار المعتبرين

وسائر المنتسبين، وضيق على الناس بحيث يحكى أن أحدهم تأخر قليلاً عن المجيء، فلما جاء أمر أن يبنى عليه فبني، واستمر قبره جوف البناء إلى يوم الجزاء إلى غير ذلك من الظلم الشديد والجور العتيد، وبنى السور جميعه فى أقل من سنة.

وكان ظلومًا غشومًا أكولا يستوفي الخروف مع عدة أرغفة ونفائس له معدَّة. واستمر حاكما بـ« جدة » إلى أن تقوى بالمال، وتأثل وجمع جنودًا من كل صنف، ثم توجه إلى « الهند » سنة إحدى وعشرين وتسعمائة ثم رجع إلى مكة.

وقد انقضت دولة الشراكسة بمصر، وملكها السلطان سليم خان، فورد حكم سلطاني إلى شريف مكة بركات بن محمد بن حسن بن عجلان بقتل الأمير حسين الكردي المذكور، وكان الشريف بركات هو المستخرج لذلك الحكم لعداوة سابقة بينه وبين حسين المذكور، فأخذ مقيدًا إلى جدة، وربط في رجله حجر كبير، وغرق في بحر جدة في موضع يقال له: « أم السمك » فأكلته الأسماك بعد أن كان يعد من الأملاك.

ولما قتل الغوري وانكسرت عساكره هرب بقية الشراكسة من السيوف إلى مصر وصيروا الدوادار الكبير طومان باي سلطانًا، فتولى والسلطان سليم في إثرهم، هم في الهرب وهو من ورائهم للطلب، فأرسل إليه السلطان سليم بعد أن ملك حلب والشام وما بينهما من البلاد بقاصد، وكتب معه كتبًا يستميل بها خاطره، ويستجلب بها قلبه، ويعده بكل جميل إن دخل في الطاعة، وكف القتال بين المسلمين، فلم يلتفت لشيء من ذلك، بل قتل القاصد وعين مَنْ يهجم في العسكر والأمراء، وسير من المماليك الخاصة ألفين وخمسمائة، وجمع من مشايخ العربان ما كمل به سبعة آلاف خيال، وساروا جميعًا إلى العريش.

ثم إن السلطان سليم خان أرسل إلى الوزير الأعظم سنان باشا بأربعة آلاف خيال ليلحق من قدَّمه من العسكر، وهم ألفان عليهم الأمير محمد بير بن عيسى، وقصد بتقدمتهم تمهيد الطريق، فلما خشي عليهم أتبعهم بالوزير المذكور، فأدركهم بـ« غزة ». فلما بلغ الشراكسة ذلك توقفوا عن الحرب، لكنهم سعوا في جمع الناس من القرى والنواحي، فأقاموا في العريش ثلاثة أيام، فجمع سنان باشا من معه من الأمراء والأعيان، واستشارهم في المقاتلة أو الانتظار حتى يرد السلطان فأجمعوا

على المقاتلة؛ خشية من الهجوم.

ففي ليلة السبت سابع عشري ذي القعدة الحرام ركب سنان، وخرج من غزة وأظهر أنه راجع لجهة الرملة، فسار طول ليلته، وأصبح بالقرب من خان يوسف، وكان بالقرب منه عسكر الشراكسة، فلما رأى جانبرد الغزالي وكان رئيس من تقدم من الشراكسة العسكر العثماني هيأ عسكره، وعين الميمنة والميسرة، وكذلك سنان باشا جعل على ميمنته فرهاد بمن معه، وعلى ميسرته محمد بن عيسى، فلما رأى الغزالي ذلك عين بعض جماعة من عسكره مع المشاة وأمرهم أن يقروا على ساقة العسكر أولا، فلما رأى سنان باشا ذلك أخرج من عسكره مقدار ألف خيال وماش ترمي البندق، وأمرهم أن يكونوا خلف العسكر وحوله، فلما رأى الشراكسة ذلك تربصوا وسايروا العسكر قليلاً قليلاً ينتهزون الفرصة، فلما نزل سنان بمحل المنزل هجم الغزالي، وكان سنان أمر الينيشرية، وغالب العسكر أن لا يخرجوا سلاحهم وأن يكونوا حول ثقلهم، فلما هجم الغزالي قابله طائفة الينيشرية برمي البندق، ثم ركب سنان وتلاحق العسكر، والتحم القتال إلى وقت الغروب، فانهزم الغزالي وقتل غالب الأمراء الذين معه وأرسلت رءوسهم مع من قبض عليه أيضًا إلى السلطان سليم فسر بذلك، وذهب الغزالي إلى مصر، وسار السلطان سليم حتى نزل ببركة الحج، وتهيأ منها لفتح قلعة مصر، وأخذ البلاد، فاتفقت الشراكسة المقيمون بها، وغيرهم من العرب على إعانة طومان باي، فبلغت عدتهم عشرين ألفًا، فجمع طومان باي المدافع الكثيرة، وأخرجها للريدانية وقررها في الأرض، وأرسل إلى الإسكندرية، وطلب من يضرب بالمدافع، فاجتمع عنده خلق كثير، فنزل بمخيمه، فلما بلغ السلطان ذلك وكان قد صف عسكره ميمنة وميسرة ترك استقبال طومان باي، وسلك طريقًا أخرى من خلف جبل المقطم من وراء عسكر الشراكسة، واستمرت مدافع الشراكسة مركوزة لمن يأتي من أمام الريدانية بلا نفع ولا دفع، وبادرهم برمي المدافع والبنادق، واستقبلته خيول الجند وفرسانها، والتحم الحرب وحمي الوطيس، حتى أظلمت الدنيا ولم تزل الشراكسة تهجم مع تلك الظلمات على العساكر العثمانية المرة بعد المرة وتكر وتفر، والقتل فيهم وهم لا يصدهم شيء حتى قتل منهم جانب عظيم من أعيانهم، وقتل من العساكر العثمانية أقل من ذلك،

فانكسرت الشراكسة، ولم يزل عسكر السلطان خلفهم إلى أن أدخلوهم بيوتهم فنهبت بيوتهم وأموالهم، وكان ذلك يوم الخميس تاسع عشر ذي الحجة الحرام سلخ سنة ٩٢٢ اثنتين وعشرين وتسعمائة.

وفي صبح يوم الجمعة غرة محرم الحرام افتتاح سنة ٩٢٣ ثلاث وعشرين وتسعمائة أمر السلطان في المسجد والجوامع بالخطبة باسمه الشريف، وضرب السكة كذلك باسمه، وأقام بالعادلية ثلاثة أيام، ثم ارتحل ودخل البلاد وتعدى إلى الجيزة، ونزل بعسكره فيها، فجمع طومان باي من بقي من الشراكسة نحو سبعة آلاف، وهجم على البلاد ليلا، واتفق معه بعض العرب وتبعه خلق من أهل مصر، وقتلوا جميع من وجد في البلد من العسكر العثماني، وقصد الهجوم ليلاً على السلطان في الجيزة، وهيأ مراكب البحر للذهاب، فلما بلغ ذلك السلطان سليم خان عين جماعة على المعابر، وأمر العساكر بالتقيد، وعدم الغفلة، فلم يقدر طومان باي على الهجوم ليلاً، وبعث جماعة وأمرهم بالهجوم على مصر، وكل من وجدوه من آدمي أو بهيمة قتلوه أو محل قابل للحرق أحرقوه، وأغاروا على الناس، والمصريون يقاتلونهم من الأماكن الحصينة بالسهام والحجارة، واستمر الحرب على هذا الأسلوب ثلاثة أيام، فوصل السلطان بنفسه، وسار على البلاد، ورمى المدافع على جميع من لاقاه، واشتد الحرب في الرميلة، وهلك خلق كثير من الجهتين، ثم هرب طومان باي إلى جامع الشيخونية وحارب، هناك ضجت الرعايا بطلب الأمان وكثر الصياح منهم، فأمنهم السلطان وأمر بتتبع الشراكسة خاصة، فلم يجد طومان باي بدًا من الهروب، فخرج في نحو عشرة أنفس هاربًا لجهة الصعيد، وقتل ذلك اليوم ما ينيف على أربعة آلاف نفس حتى سالت الدماء، وتكدر بحر النيل وتعفن الهواء لذلك، فرميت أجسامهم في البحر، وجمعت رءوسهم أكوامًا بعد أكوام، فعاد السلطان لمخيمه بالجيزة، وبنى له كوشكا عاليًا يسكنه مدة مقامه بمصر هربًا من العفونة، ونقل إليه من قبض عليه من أعيان أمراء الشراكسة، فأمر بضرب أعناقهم على ضوء المشاعل، وقتل سنان باشا ذلك اليوم، فأسف عليه السلطان سليم وقال: أي فائدة في مصر بلا يوسف؟ لأن سنان لقبه يوسف.

وفي صبيحة ذلك اليوم دون ديوانًا رتب فيه للعساكر العطايا، وعين أرباب

المناصب فأرسل إليه الغزالي - وكان قد هرب في الوقعة الأولى من الريدانية إلى جهة الصالحية - فطلب الأمان، فلما علم السلطان أنه لم يحضر الوقعة التي داخل البلد عفا عنه وطلبه، فجاء تائبًا مستغفرًا، فأنعم عليه ببلدة « سجاع »، ثم أقام السلطان في محله إلى ثالث عشري محرم، وارتحل وصعد إلى القلعة.

ثم إن طومان باي أرسل بطلب الأمان والعفو عما مضى، فقبل السلطان منه ذلك واستمال خاطره، وأرسل بجوابه وإجابته كيخية عسكر أنادول مصطفى شلبي والقضاة الأربعة قضاة مصر، وكتب إليه بالعهد والأمان معهم، فلما وصلوا إليه منعه بعض المفسدين من الشراكسة وحرضوه على العصيان فقتل مصطفى شلبي المذكور والقضاة الأربعة، وأظهر عدم الانقياد، واجتمع عنده بقية الشراكسة وطائفة من العربان، وقصد العود إلى مصر وتعدى على المراكب ووصل قريب مصر حتى نزل ببركة الحبش، فعين السلطان بعض الأمراء والعساكر لحربه، فتوجهوا لقتاله، وخرج السلطان أيضًا بنفسه فنزل بالقرب من النيل، فارتحل طومان باي من محله وهرب، فتبعه العسكر منازل، فعلم الأمراء أنه لا راحة لهم ما دام موجودًا فتركوا أثقالهم وسعوا في طلبه فأدركوه بين الإسكندرية ورشيد، فحصل حرب عظيم وقبض على جماعة ممن معه، وهرب هو، وتوجه فى طلبه بعض الأمراء فأدركه في بحيرة، وأحاط به وقتل جميع من معه، فألقى طومان باي نفسه في البحر، فلما أشرف على الغرق طلب الأمان، فرموا له حبلا وتمسك به فجروه إلى البر ومسكوه، وقيدوه وجاءوا به إلى السلطان، ويقال: إنه هرب واستجار بشيخ عرب بنى جذام عبد الدائم ابن مقر، وأنه هرب إلى خياط السلطان سليم وسلم إليه السلطان طومان باي، ذكر هذا العلامة قطب الدين رحمه الله تعالى، فقصد السلطان العفو عنه لما رآه، ثم تذكر جرائمه، ونقض العهد وقتل القضاة الأربعة والكيخية وعلم أن الفتنة لا تنام ما دام موجودًا فأمر بشنقه فشنق على باب زويلة فتم أمر السلطان سليم خان على مصر.

وقد مهد القوانين والقواعد ونصب القضاة الأربعة على المذاهب الأربعة، وولى ملك الأمراء الأمير خير بك على مصر المحروسة، وولى جان بردي الغزالي على الشام، وكان وعدهما بذلك وهما من خواص أمراء الغورى، وكانا يكرهانه في الباطن، ويكرههما كذلك فأرسل لهما السلطان الأمان وعهد لهما أن يوليهما مصر

والشام، فوافقاه على ذلك، فلما تلاقى العسكران فرا بالميمنة والميسرة، فبقي الغوري وخواص من معه في القلب، فغار الغوري تحت سنابك الخيل، ومحي كما يمحى النهار بالليل، كما تقدم ذكر ذلك عند ذكر حرب الغوري.

ومهد السلطان سليم الأمور على ما ينبغي، وسار إلى الإسكندرية وعاد إلى مصر، ثم توجه من مصر إلى تخت الملك القسطنطينية، وقد تمهدت له البلاد، وعم حكمه العباد، ودخل أمر الحرمين الشريفين تحت حكمه، وخطب له فيهما بأمره ورسمه، وفي سائر هذه الأقطار بشريف لقبه واسمه. وانقضت دولة الشراكسة عن آخرها[١]. ولله البقاء سبحانه.

* * *

(١) عن سقوط هذه الدولة يمكن مراجعة د . محمد مصطفى زيادة: نهاية السلاطين المماليك فى مصر « ضمن أبحاث مجلة الجمعية التاريخية، مج ٤ لسنة ١٩٥١، د. سعيد عاشور . العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٧٩ - ١٩١، د . عبد المنعم ماجد . طومان باى آخر سلاطين المماليك .

الباب السابع
في ذكر ملوك آل عثمان(١)

خلد الله سلطنتهم القائمة إلى آخر الزمان، أصلحُ الدول بعد الصحابة والتابعين دولتُهم وذلك لانقيادهم للشرع، وتمكنهم من رتبة العبادة كالصلاة والصوم والحج، والجهاد وملازمة الجماعة، واتباع السنة وحسن العقيدة، والشفقة على الأمة، وكشف كل كربة وغمة، وقل أن يوجد جميع ذلك في دولة من الدول السابقة.

فأصلهم ومبدأ ظهورهم وسبب ملكهم أن آل سلجوق لما تركوا وطنهم من فتنة جنكز خان ملك التتار، وعزموا إلى جانب بلاد الروم جاء معهم من طائفة أغوز رجل اسمه أرطغرل(٢) يتصل نسبه بيافث بن نوح عليه الصلاة والسلام، وكان بصحبته نحو ثلاثمائة وأربعين رجلًا، وكان شجاعًا ثم تشمر في خدمة السلطان علاء الدين كيقباد بن كيخسرو بن قلج أرسلان بن طغرل السلجوقي، وكان يحبه السلطان علاء الدين لكونه شجاعًا، وفتحت على يديه بلاد كثيرة من بلاد الكفار.

(١) تمتد جذور الدولة العثمانية إلى جماعات الأتراك التى اتصلت بالدولة الإسلامية أيام الخلافة الأموية وازدادوا أيام العباسيين وخاصة المعتصم . ثم اجتذب السلاجقة كثيرًا من القبائل التركية من بلاد ما وراء النهر نحو العراق وغيره من البلاد الإسلامية فى غرب آسيا . . ثم لما تفككت دولة السلاجقة استقر «أرطغول» - وهو أبو عثمان مؤسس الخلافة العثمانية - بجزء منها ثم جاء عثمان فنظم الجيوش وفتح الفتوحات معلنًا - هو ومن جاء بعده - قيام خلافة إسلامية أرهبت الأعداء . . . وتوهت أوروبا ونصرت الإسلام قرونًا عديدة وهكذا شاءت الإرادة الإلهية أن تحفظ الأمة الإسلامية فى ظل شجرة الخلافة التى استمرت وارفة الظلال على مدى ثلاثة عشر قرنًا ونيف رغم تقلب العهود والحكام حتى كان السقوط فى غفلة منها على أيدى القوى الصليبية والصهيونية الطامعة والحاقدة والمغرضة تحت شعارات الحرية والإخاء والمساواة والأمن والسلام العالمى!!!

ينظر فى الخلافة العثمانية: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب - د . سيد رجب حراز، التاريخ الموحد للأمة الإسلامية - د . على حسن الخربوطلى، الإسلام والخلافة - د . على حسن الخربوطلى، العرب والعثمانيون - د . عبد الكريم رافق، الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية - د . على حسون، الدولة الإسلامية - تقى الدين النبهانى، الخلافة - تقى الدين النبهانى، معالم التاريخ فى العصور الوسطى - لمحمد رفعت ومحمد أحسن حسونه، السلطان عبد الحميد الثانى ومشروع الجامعة الإسلامية - لموفق بني المرجة، تاريخ الدولة العثمانية العلية - إبراهيم بك حليم .

(٢) ينظر: الدولة العثمانية - دولة إسلامية مفترى عليها . . - د . عبد العزيز محمد الشناوى، تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ٣١ .

ولما كانت سنة ٦٩٧ سبع وتسعين وستمائة توفي الغازي أرطغرل فكتب السلطان علاء الدين لعثمان بن أرطغرل[1] بموافقة السلطنة وأرسل إليه خلعة وسيفًا ونقارة وخصه بالغزو على الكفار، فسار عثمان بن أرطغرل ففتح اينه كولي وينى شهر وكوبري حصار وبلجك وغير ذلك.

ثم لما توفي السلطان علاء الدين سنة تسع وتسعين وستمائة، اجتمع أكثر الغزاة عند عثمان بن أرطغرل، فتسلطن عثمان الغازي وجلس على تخت السلطنة في السنة المذكورة، واشتغل بالجهاد وافتتاح البلاد، وكان مولده سنة ست وخمسين وستمائة، دأب في خدمة والده في الجهاد، وتمرس بالغزو في سبيل الله، واستمر بعد والده مع الكفار في الجلاد فرأى السلطان علاء الدين السلجوقي جده وجهده في الجهاد، وعلم قابليته ونجابته في فتح أطراف البلاد، فأكرمه وأمره، وأمده بأنواع الإعانة والإمداد، وأرسل الراية السلطانية والطبل والزمر إليه، وعملوا نوبة بين يديه، فعند أول سماعه صوت الطبل والزمر قام على قدميه تعظيما لذلك فصار ذلك قانونًا لآل عثمان باقيًا مستمرًا إلى الآن، فإنهم يقومون على أقدامهم عند ضرب النوبة على أبوابهم.

وكان جلوس السلطان عثمان على تخت السلطنة عام تسع وتسعين بتقديم التاء فى الموضعين وستمائة، وافتتح فيها كوبرى حصار من الكفار، وأمر بصلاة الجمعة وخطب باسمه فقيه حوله من أهل العلم اسمه طورسن، ثم افتتح قلعة قره حصار، ثم قلعة اينه كولي، ثم قلعة يني شهر، وافتتح قلعة يار حصار، وصارت من جملة مملكته، فزوج ولده أورخان على نيلوفر خان ابنة صاحب يارحصار، واستمر في الغزاة والجهاد وفتح البلاد، وقتل الكفار أهل العناد، إلى أن دعاه الله إلى جنته، وأبدله سلطنة خيرًا من سلطنته، فأجاب داعي الحق لما دعاه، وبادر إلى إجابته ولبى نداه، فعاش سعيدًا، ومات حميدًا إلى رحمة الله عن ست وستين سنة.

وكان للسيف والضيف كثير الإطعام فاتك الحسام، كثير البذل واسع العطاء، شجاعًا مقدامًا على الأعداء، ما خلف نقدًا ولا متاعًا إلا درعًا وسيفًا يقاتل بهما الأعداء الكفار، وبعض خيل وقطيعًا من الغنم اتخذها للضيفان، وأنسالها باقية إلى

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ٣١: ص ٣٤، الشذرات ٦/ ٦٨ و٧٨ .

الآن ترعى حول بلاد بروسا أبقوها تيمنًا وتبركا، وهو أول من أظهر عظمة هذا الملك، وسلك سبيل العدل فيه حتى قيل فيه: ثالث العمرين.

وكان جميل الصورة حتى قيل : ثالث القمرين. وكان يحب الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والأيتام فيجمع أنواع الطعام وأصناف الحلوى، فيطبخ لهم بعد كل ثلاثة أيام سماطًا عظيما يأكل منه الخاص والعام ممن ذكر وغيرهم.

وكان الموجود له عند موته فرس وسيف ودرع ونحو ذلك من اللباس والفراش. كذا قاله العلامة محمد شلبي والد أحمد شلبي النشانجي قاضي محكمة مكة الشريفة سابقًا، وهو ابن أرطغرل بن سليمان شاه، وكان لجده سليمان أربعة أولاد منهم اثنان توجها إلى بلاد العجم وهما سنقر ودندار، وتوجه إلى بلاد الروم اثنان أرطغرل وكون وقدما على السلطان علاء الدين السلجوقي وكان سلطان بلاد قرمان، فأكرمهما وأذن لهما في الإقامة، وصار دأبهم الجهاد في سبيل الله إلى أن صار أمر أرطغرل إلى ما صار كما تقدم ذكر ذلك. وخلف أرطغرل أولادًا نجباء أقواهم جأشًا السلطان عثمان، فاستمر إلى أن توفي سنة خمس وعشرين وسبعمائة وكانت مدته ستا وعشرين سنة.

ثم تولى السلطان أورخان الغازي(١) ابن السلطان عثمان خان

مولده سنة سبع وثمانين وستمائة، وجلس على تخت السلطنة سنة ست وعشرين وسبعمائة وفتح إزنيق وبروسا وغيرهما.

وأرسل ابنه سليمان باشا إلى روم إيلي مع أربعين نفرًا ففتحوا قلعة ملقرة وأبسالة وبولاير، ووزه، وكان السلطان أورخان فاق والده في الجهاد وفتح البلاد وبذل الاجتهاد، وهو الذي افتتح بروسا في حياة والده ثم جعلها مقر سلطنته، واتسعت مملكته ونفذت كلمته.

واجتمعت ملوك النصارى وجميع الكفرة على قتال العساكر السلطانية الإسلامية واجتمعوا على أن يتعدوا من بلاد روميلي إلى جهة أنادول ويقاتلوا السلطان أورخان، وكان له ولد نجيب اسمه سليمان بك، فاستأذن والده في قتالهم، فوقع حرب شديد كان الظفر فيه لسليمان بك، وهو أول من كتب على السكة من آل

(١) ينظر ترجمته في: تاريخ الدولة العلية ص ٣٦ - ٣٨، الشذرات ٦/ ١٨٩ .

عثمان فكتب في وجهٍ : محمد رسول الله، وفي الوجه الآخر اسمه الشريف، وهو أول من رتب طبقات العساكر وسمى الطبقات المذكورة بأسمائها المشهورة، وكان أول سلطنته بـ« بروسا » وأعمالها، ثم ملك عدة من البلاد الإسلامية وغزا الكفار وفتح ممالك متعددة، وغنم بلادًا وأموالاً، وبنى الجوامع ومساجد ومدارس ومطبَخا للمسافرين، وللمقيمين في غالب الممالك التي تحت سلطانه، وعمر في الطرقات والمفاوز، ومحال الخوف والمقطعة سبلا وخانات وقصورًا وجسورًا وأمثال ذلك من الخيرات العميمة، وسلك سبيل العدل والجود والفضل والإحسان على نمط والده المرحوم الساكن بأعالى الجنان. وتوفي السلطان أورخان حميدًا سنة إحدى وستين وسبعمائة عن ثلاث وثمانين سنة.

ثم تولى السلطان مراد خان[1] الغازي خدا وندكار ابن السلطان أورخان

وجلس على سرير الملك والسلطنة سنة إحدى وستين وسبعمائة في « بروسا »، ولي السلطنة وعمره أربع وثلاثون سنة، وافتتح كثيرًا من البلاد منها أدرنة سنة إحدى وستين وسبعمائة، وهو أول من اتخذ المماليك، وسماهم ينيشري يعني: العسكر الجديد، وألبسهم اللباد الأبيض المثني إلى خلف، وسماهُ بُرْكلة بالضم للموحدة وسكون الراء، ثم توجه إلى فتح قوصوة، فلما وصل إليها التقى الجمعان، وانهزمت الكفار، ثم اجتمعت النصارى على سلطانهم أسبوت فقاتلهم السلطان مراد قتالاً عظيما فقتل سلطانهم، فأظهر واحد من ملوكهم الطاعة، وتقدم ليقبل يد السلطان، فلما قرب أخرج خنجرًا فضرب به السلطان مرادًا فاستشهد، فصار من يومئذ لا يدخل على السلطان أحد بسلاح، بل يدخل بين رجلين يكتنفانه، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة.

وفي « مورد اللطافة، فيمن ولي السلطنة والخلافة » عن السلطان مراد ما نصه:

كان ملكًا جليلًا، ذا هيبة وعظمة، وشدة بطش، فتح الممالك العظيمة كقلعة نكبولي ونحوها، وحاصر الفرنج برًا وبحرًا، وضيق عليهم المسالك فانتدب لحربه بعض ملوكهم، فلما التقى الجمعان، وتصاف العسكران تحاربا وتعاركا وتضاربا،

(١) ينظر ترجمته فى: تاريخ الدولة العلية ص ٣٩ - ٤٥، الشذرات ٦/ ٣٣٢ .

فقصد السلطان ملك الفرنج وحمل عليه مرة بعد أخرى فتقاربا وتعاركا وتضاربا وهما على ظهور الخيل، فسقطا معًا على الأرض فانقلب عدو الله على السلطان وضربه بالخنجر صادف مقتله، فأدركه عسكره، واحتملوه إلى خيمته وهو يجود بنفسه، فعهد بالملك إلى ابنه يلدرم بايزيد في التاريخ الآتي ذكره، ومات بعد ذلك سنة ست وتسعين وسبعمائة رحمه الله تعالى.

ثم تولى السلطان يلدرم با يزيد[1] ابن السلطان مراد الغازي

ولما سمع بوفاة أبيه خنق أخاه يعقوب شلبي واشتغل بالفتوحات، ففتح الأفلاق وقونية وآق سراى ونيكده وقيصرية وسلانيك، وغيرها من البلاد، ثم هرب بعض الأمراء من خدمة السلطان يلدرم ودخلوا عند تيمورلنك، فحركوه وجاءوا به إلى بلاد الروم، فالتقى العسكران في موضع يقال: جبوق أواسي، فانكسر السلطان يلدرم، لكثرة من مع تيمور من العسكر كالجراد المنتشر، فأخذ السلطان يلدرم وحبس ثم توفي بالحمى المحرقة سنة سبع وثمانمائة وكان ابنه الأمير محمد أمير أماسية فلما سمع بذكر ذلك خرج بعسكر أماسية خلف تيمور فأخذ جثة والده بعد حرب شديدة. وكانت مدة سلطنته ست عشرة سنة.

وتيمور ويقال: تيمورلنك[2]، واللنك - في اللغة الفارسية -: الأعرج؛ لأنه كان به عرج، كان ظهوره في عام سبعمائة وثلاث وسبعين، وكان تاريخ ذلك لفظ « عذاب » قاله العلامة السيوطي في « تاريخه ».

وكان أول أمره راعيًا للغنم، ثم صار أمير آخور لبعض سلاطين العجم في سمرقند و« بخارى » فتغلب على مخدومه، ولم يزل حتى تفرد بالسلطان وملك البلاد طرفًا بعد طرف في أسرع زمن على أعجب أسلوب، وذلك أنه إذا قصد محلا ورّى بغيره فيهجم على ذلك المحل وأهله غافلون، ثم يبدأ بقتل جميع من فيه من كل ذي روح، ثم يتملك البلاد ويأخذ جميع ما فيها من الأموال والسلاح والطعام

(١) ينظر ترجمته فى: تاريخ الدولة العلية ص ٤٦ - ٤٩، الشذرات ٨/ ٣٢٩، عجائب المقدور فى نوائب تيمور ص ١٧١ وما بعدها .

(٢) ينظر ترجمته الوافية فى: «تاريخ بخارى» لأرمينوس بن فامبرى . ترجمة أحمد بن محمود الساداتى مراجعة يحيى الخشاب . بالإضافة إلى مؤلف خاص بسيرته وهو «عجائب المقدور فى نوائب تيمور» لابن عرب شاه .

بحيث خربت جميع الممالك التي دخلها مما وراء النهر.

فلما خرج إلى البلاد الإسلامية كبغداد والروم والشام وحلب كان عادته يقتل أعيان البلاد وأركان دولتها، ثم ينصب فيها من يقوم بأمرها من جماعته، فهابته أكثر سلاطين الإسلام وملوكه، وقصدوه بالهدايا والتحف اتقاء شره.

ومولانا السلطان يلدرم صاحب الترجمة لم يلتفت إليه، ولم يكترث بشأنه لاشتغاله بالغزوات وما فيه سعادة الدنيا والآخرة فهجم على بلاد الروم على غرة وأسرع في السير إلى المحل الذي فيه السلطان المشار إليه قبل أن يعلم أحد بوصوله، فما وسع السلطان إلا مقابلته لأن شهامته أبت أن يعرض عنه ويترك قتاله، فاتفق بمراد الله أن كسر عسكر السلطان المذكور وحبسه إلى أن كانت وفاته بالحمى كما تقدم ذكر ذلك.

وفي « عجائب المقدور في أخبار تيمور » للإمام العلامة أحمد بن محمد الحنفي الدمشقي عرف بابن عرب شاه رحمه الله تعالى: ومعنى يلدرم البرق فوجه الأخذ المذكور من هذا اللقب سرعة الحركة، وقوة الظهور مع النور واللمعان، رحمه الله تعالى.

قلت: أخبرني بعض فضلاء أهل الهند أن ملكهم الآن، وهو المسمى أورنك زيب ابن شاه جهان يتصل نسبه بتيمور هذا، ومنه إلى جنكزخان طاغية التتار، وينكرون كونه راعيًا أو خادمًا لبعض ملوك العجم فتغلب على مخدومه في السلطنة، ويدَّعون عراقته فيها. والله أعلم بالحقائق.

قلت: وذكر الإمام المذكور في كتابه المذكور واقعة لتيمور مع العلامة القاضي محب الدين أبي الوليد محمد بن محمد بن محمود الحلبي قاضيها الحنفي المعروف بابن الشحنة أحببت ذكر نصها(١):

لما كان يوم الخميس تاسع ربيع الأول من عام ثمان وثمانمائة أخذ يعني تيمور قلعة حلب بالأمان والأيمان التي ليس معها إيمان، فاستحضر علماءها وقضاتها فحضروا إليه، وطلب من معه من أهل العلم فقال لكبيرهم عنده، وهو المولى عبد الجبار ابن العلامة نعمان الدين الحنفي، قل لهم: إني سائلهم عن مسائل سألت

---

(١) ينظر تفاصيل تلك المناظرة فى: «عجائب المقدور» ص ١٣٨ - ١٤٣ .

عنها علماء « سمرقند » و« بخارى » و« هراة » و« خراسان »، وسائر البلاد التي افتتحتها، فلم يفصحوا الجواب، فلا تكونوا مثلهم، ولا يجاوبنى إلا أعلمكم وأفضلكم وليعرف ما يتكلم به، فإني خالطت العلماء ولي بهم اختصاص وألفة، ولي في العلم طلب قديم. قال صاحب الكتاب: وكان يبلغنا عنه أنه يتعنت العلماء في الأسئلة، ويجعل ذلك سببًا إلى قتلهم أو تعذيبهم.

قال القاضي ابن الشحنة: فقال القاضي شرف الدين موسى الأنصاري الشافعي: هذا شيخنا ومدرس هذه البلاد ومفتيها - مشيرًا إليَّ - سلوه والله المستعان. قال: فقال لي قاضيه عبد الجبار: سلطاننا يقول إنه بالأمس قتل منا ومنكم، فمن الشهيد: قتيلنا أم قتيلكم؟ فوجم الجميع، وقلنا في أنفسنا: هذا الذي كان يبلغنا عنه من التعنت. وسكت القوم، ففتح الله على بجواب سريع بديع. فقلت: هذا سؤال سئل عنه سيدنا رسول الله ﷺ، قال لي صاحبي شرف الدين المذكور بعد أن انقضت الحادثة: والله العظيم لما قلت: هذا السؤال سئل عنه رسول الله ﷺ وأنا محدث زماني، قلت: عالمنا قد اختل عقله، فإن هذا سؤال لا يمكن الجواب عنه في هذا المقام، ووقع في نفس عبد الجبار قاضيه مثل ذلك وألقى إليّ تيمور سمعه وبصره، وقال لعبد الجبار يسخر من كلامي: كيف سئل رسول الله ﷺ عن هذا، وكيف أجاب؟ فقلت: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الرجل يقاتل حميَّة، ويقاتل ليُري مكانه من الشجاعة، فأيّنا الشهيد في سبيل الله؟ فقال ﷺ: « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمةُ اللهِ هى العُلْيَا فَهُوَ الشَّهِيدُ ».

فقال تيمور لنك: خوب خوب. فانفتح باب المؤانسة فكثر منه السؤال، وكثر مني الجواب.

وكان آخر ما سأل أن قال: ما تقولون في على ومعاوية ويزيد؟ فأسرّ إلىّ القاضي شرف الدين: أن اعرف كيف تجاوبه فإنه شيعى، فلم أفرغ من سماع كلامه إلا وقد قال القاضي علم الدين القفصي المالكي كلامًا معناه: إن الكل مجتهدون، فغضب لذلك غضبًا شديدًا، وقال: عَلِيٌّ عَلَى الحقِّ، ومعاوية ظالم، ويزيد فاسق، وأنتم حلبيون تبع لأهل دمشق، وهم يزيديون قتلوا الحسين.

قال: فأخذت في ملاطفته والاعتذار عن المالكي بأنه أجاب بشيء وجده في

كتاب لا يعرف معناه، فعاد إلى دون ما كان عليه من البسط.

قال: ولما كان آخر شهر ربيع المذكور طلبني ورفيقي القاضي شرف الدين وأعاد السؤال عن علي ومعاوية، فقلت: لا شك أن الحق كان مع علي في نوبته، وليس معاوية من الخلفاء فإنه صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « الخلافة بعدي ثلاثون سنة » وقد تمت بعلي وابنه الحسن.

فقال تيمور لنك: قُلْ عَلِيٌّ عَلَى الحق، ومعاوية ظالم. فقلت: قال صاحب الهداية: يجوز تقلد القضاء من ولاة الجور فإن كثيرًا من الصحابة والتابعين تقلدوا القضاء من معاوية، وكان الحق مع علي في نوبته، فأنس لذلك. انتهى من الكتاب المذكور ملخصًا.

قلت: في قوله: « في نوبته » احتراز لطيف عن نسبة التعدي إلى الصديق، وتاليه كما هو مذهبنا معشر أهل السنة والجماعة، ومرت على تيمور ولم يفطن لذلك.

وفي رواية: لما استولى على كثير من قلاع النصارى، هرب بعض وزرائه وحلق لحيته وحواجبه وصار في صورة قلندري، ووصل معه جماعة إلى تيمور، وشكوا من السلطان يلدرم وحسنوا له الوصول إلى بلاد الروم، فوصل إلى البلاد الشامية والحلبية، وقتل من بها وأسر ونهب، واستمر إلى أن وصل أذربيجان، وخرج إليه السلطان فغدر به العساكر، وذهبوا إلى تيمور، ووثب هو ومَنْ بقي معه وقتل ولده السلطان مصطفى واستمر يقاتل إلى أن وصل بسيفه إلى تيمور، فألقى عليه بساط، فأمسك وتوفي. كما تقدم ذكر ذلك.

ثم تولى السلطان محمد ابن السلطان يلدرم(١)

واستقر في السلطنة سنة ست عشرة وثمانمائة، وكانت مدته تسع سنين.

وافتتح عدة من الحصون منها: بلدة اسكب وآق شهر وغيرهما.

وكان شجاعًا مقدامًا مجاهدًا في سبيل الله تعالى، وله خيرات متعددة منها بـ« برسا » جامع عظيم، ومدرسة علمية، وتربة سلطانية، ومنها بولاية مرزفون جدد، وأنشأ جامعين وحمامين، وأوقافًا عديدة كثيرة الغلة، وقفها وشرط أن تحمل غلتها إلى الحرمين الشريفين.

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ٥٢ - ٥٥ .

فهو أول من عمل الصر لأهل الحرمين الشريفين من آل عثمان أدام الله دولتهم وصولتهم.

ولما تم أجله المسمى في أم الكتاب، دعاه ملَك الفناء إلى دار البقاء المستطاب. فعاش سعيدًا، ومضى حميدًا، وتحول من دار البلى إلى دار البقا ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ [العلق: ٨].

وكانت وفاته بمرض الإسهال، فتكون له مرتبة الشهادة، وذلك في سنة خمس وعشرين وثمانمائة.

ثم تولى السلطان مراد الثاني(١) ابن السلطان محمد بن يلدرم

وجلس على تخت السلطنة سنة خمس وعشرين وثمانمائة، وظهر في أيامه رجل وادعى أنه ابن السلطان يلدرم، واسمه مصطفى الذي فقد في فتنة تيمور، فظهر تزويره فصلبوه في برج قلعة أدرنة. وفتح في زمنه سمندرة ومورة. ثم إنه بحسن اختياره أقعد ولده محمدًا الآتي بعده واختار التقاعد ببلدة « مغنيسا » مدة.

ثم قامت عليه طائفة الينيشرية، فأرسلوا إلى مغنيسا وأتوا بوالده منها، وأجلسوه ثانيًا على سرير السلطنة.

فلما توفي أجلس ابنه السلطان محمد على تخت السلطنة، وعمره ثمانية عشر عامًا، وعاش تسعًا وخمسين سنة، وكان ملكًا عظيمًا مطاعًا، عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهبًا، وللشرفاء مثلها في كل عام، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين عامًا.

قال ابن تغري بردي في « تاريخه »: لم يكن في زمانه شرقًا ولا غربًا مثله في غزو الكفار أهلك الله على يده الملك قزال، عظيم ملوك الفرنج؛ في عام ثمانية وأربعين وثمانمائة، وكانت وقعة عظيمة مشهورة هلك فيها من الفريقين ما يزيد على عشرين ألفًا، كانت طوائف الكفار اجتمعوا من كل ناحية في هذه الوقعة، وعزموا على استئصال ثغور الإسلام خصوصًا بيت المقدس، فلما التقى الجمعان ظهر أن طائفة الكفار فوق عدد المسلمين بأضعاف مضاعفة، فلما وقع الحرب ظهرت الغلبة على المسلمين.

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ٥٦ - ٦٣ .

فأرسل الله تعالى ريحًا عاصفًا بتراب عظيم على جانب الكفار فأدبروا وركب المسلمون أكتافهم قتلاً وأسرًا، وغنموا غنائم جزيلة لا حد لها ولا عد، من النقود والخيول والسلاح وغير ذلك، ومحاسنه كثيرة ومآثره شهيرة.

ثم تولى السلطان محمد خان فاتح القسطنطينية(١) ابن مراد

مولده: عام خمس وثلاثين وثمانمائة، جلوسه أولا بفراغ من والده له في عام سبع وأربعين وثمانمائة، وتقاعد والده بولاية مغنيسا إلى نيف وخمسين، فقامت طائفة الينيشرية واجتمعت على عود السلطان مراد خان لصغر ولده محمد المذكور، فعاد السلطان مراد مدة يسيرة ثم أدركته الوفاة.

واستقر السلطان محمد المذكور في الملك عام وفاة والده الموافق لسنة ست وخمسين وثمانمائة.

ثم إن السلطان محمد سلك طريق العدل وأقام نظام الملك، وأظهر أبهة السلطنة وذلك جميعه ببركة والده ونفع ما جمعه له من المال والرجال، والمدن الواسعة، والأمصار النافعة، وهابته الملوك ودخلت في طاعته أكابر الممالك وأعيانها، فملك تسعة سلاطين أربعة من المسلمين وخمسة من النصارى، أما المسلمون فسلطان ولاية « قرمن »، وسلطان « كرميا »، وسلطان « النكا »، وسلطان « اسفنديار »، وفتوحاته مشهورة.

وكان من أعظم سلاطين آل عثمان وأقواهم اجتهادًا، له غزوات كثيرة لا تحصى، من أعظمها: فتح القسطنطينية في اليوم الحادي والخمسين من حصارها، وهو الرابع والعشرون من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وله كرامات عجيبة وآثار بديعة، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة. ولما افتتح القسطنطينية صلى فى أكبر كنائسها وهي أيا صوفية صلاة الجمعة وهي باقية تسامي قباب السماء وتحاكي في الاستحكام متين الأهرام، فما وهت ولا وهنت كبرًا ولا هرمًا.

دام سلطانه إلى أن مات سنة ست وثمانين وثمانمائة.

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ٦٤ - ٦٩، صحوة الرجل المريض ص٤٠ - ٤١ .

ثم تولى السلطان بايزيد(١) ابن السلطان محمد وجلس في سنة ست وثمانين وثمانمائة، وافتتح الفتوحات

وفي أيامه في سنة ثمان وثمانين أو خمس وتسعين وثمانمائة ظهر من بلاد العجم شاه إسماعيل ابن حيدر الصفوي وكان له ظهور عجيب وفتك في البلاد، وسفك دماء العباد، فأظهر مذهب الرفض والإلحاد، وغير اعتقاد أهل العجم إلى الانحلال والفساد بعد الصلاح والسداد. وأخرب ممالك العجم، وأزال من أهلها حسن الاعتقاد، والله تعالى يفعل في ملكه ما أراد، وتلك الفتنة باقية إلى الآن في جميع البلاد.

وظهر من أتباع شاه إسماعيل المذكور ببلاد الروم شخص ملحد زنديق، يقال له: سلطان قولي. أهلك الحرث والنسل، وعم بالفساد والقتل، فأرسل السلطان وزيره الأعظم على باشا بعسكر كثير إلى قتال هذا الطاغي وأمده بجيش عظيم لقطع جاذرة هذا الباغي فاستشهد على باشا في ذلك القتال، ووفد بأكفان شهادته على الكبير المتعال، وانكسر الشيطان فولى المفسد التعيس وعسكره جنود إبليس، وأسكن الله تلك الفتنة بعد ما أطلقت، وكفى الله شر أولئك الأشرار بعد أن عظمت محنتهم وعمت .

وفي سنة سبع وثمانين وثمانمائة قاتله أخوه السلطان جم شيد، فبرز السلطان بايزيد لقتاله فهزمه، ففر إلى مصر ونجح زمن السلطان قايتباي، وعاد فأكرمه السلطان قايتباي إكرامًا عظيمًا، فذهب إلى دوسق وجمع طائفة من الغزاة، ونازع أخاه على الملك ثانيًا، فقاتله السلطان بايزيد فانكسر السلطان جم ثانيًا، وفر إلى بلاد النصارى في سنة ٨٨٨ ثمان وثمانين وثمانمائة، فأرسل إليه السلطان بايزيد أحد عبيده في صورة حلاق، فاستخدمه وأمره أن يحلق رأسه فحلق رأسه بموسى مسموم، وهرب في الحال، وأثر السم في رأسه وسرى إلى بدنه فمات سنة خمس عشرة وتسعمائة.

وكان السلطان بايزيد ملكًا جليلاً عالمًا عاملاً، ترقى فى مراتب الكمال الجليلة وتسنَّم ذرى المفاخر الأثيلة، جمع الله له بين السلطنة العظمى الظاهرة، والإمامة

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ٧٠ - ٧٨ .

الكبرى الباطنة حتى نقل عنه أنه كان يرى القبلة المعظمة في افتتاح كل صلاة، وكانت أيامه كثيرة الخيرات والفتوحات.

وكان يجهز إلى أهل الحرمين الشريفين في كل عام أربعة عشر ألف دينار ذهبًا يصرف نصفها على فقهاء مكة والآخر للمدينة.

وممن ورد عليه في شبابه خطيب مكة الشيخ محيى الدين عبد القادر بن عبد الرحمن العراقي، والشيخ شهاب الدين أحمد بن العُليف شاعر البطحاء، وفاضلها فنالا منه خيرًا كثيرًا. وصنف له العليف تاريخًا «سماه الدر المنظوم، في مناقب السلطان بايزيد ملك الروم»، وامتدحه بقصيدة رائية طنانة أولها: [من الطويل]

خُذُوا من ثنائِي موجبَ الحمدِ والشكرِ ... ومِنْ در لفظِي طيب النظمِ والنثرِ
فيا راكبًا يسرى على ظَهْر ضامر ... إلى الروم يهدي نحوها طيبَ النشْرِ
لك الخير إن وافيت بروص عُجْ بها ... رويدًا لإسطنبولَ سامية الذكْرِ
لدي ملك لا يبلغُ الوصْفُ كنهَهُ ... شريف المساعي نافذ النهْيِ والأمرِ
إلى بايزيد الخَيْر والملك الذى ... حمى بيضة الإسلام بالبيضِ والسمرِ
وجرّد للدين الحنيفيِّ صارمًا ... أباد به جمع الطواغيتِ والكُفْرِ
وجاهدهم في الله حقَّ جهادِهِ ... رجاءَ لما يبقَى من الفوزِ والأجرِ
له همة تملأ الصدور وصولة ... مقسَّمة بين المخافةِ والذكْرِ
أطاعَ له ما بَيْن روم وفارسٍ ... ودان له ما بين بُصْرى إلى مصرِ
هو البحرُ إلا أنه دائمُ العطا ... وذلكَ لا يخلو من المدِّ والجزرِ
هو البدرُ إلا أنه كامل الضيَا ... وذاك حليفُ النقْصِ في معظمِ الشهرِ
هو الغيثُ إلا أن للغيثِ مسكةً ... وذا لا يزالُ الدهر ينهل بالقطرِ
هو السيفُ إلا أن للسيفِ نبوةً ... وفلًّا وذا ماضى العزيمةِ في الأمْرِ
سليلُ بنى عثمان والقادةِ الألَى ... علا مجدهُمْ فوقَ السماكَيْنِ والنسرِ
ملوكٌ كرامُ الأصلِ طابَتْ فروعُهُمْ ... وهل ينسبُ الدينار إلا إلى التبرِ
محا أثر الكفارِ بالسيفِ فاغتدَتْ ... به حوزة الإسْلام سامية القَدْرِ
فيا ملكًا فاق الملوك مكارمًا ... فكلٌّ إلى أدنى مكارمه يجري
لئن فقتهُمْ في رتبة الملكِ والعلا ... فإنَّ الليالي بعضها ليلةُ القدرِ

فدتك ملوكُ الأرضِ طرًّا لأنها ... سراجٌ وأنتَ البدرُ في غرة الشهرِ
تعاليْتَ عنهم رفعةً ومكانةً ... وذاتًا وأوصافًا تجلُّ عن الحصرِ
لك العزةُ القعساءُ والرتبةُ التى ... قواعدهَا تسمو على أبرجِ النسرِ
سموتَ علوًّا إذ دنوتَ تواضعًا ... وقمتَ بحق الله في السر والجهرِ
غدت بك أرضُ الرومِ تزهو ملاحةً ... وترفل في ثوبِ الجلالةِ والفخرِ
إليك ابن عثمان الذي سَارَ ذكْرُهُ ... مسير ضياء الشمسِ في البَرِّ والبَحْرِ
يمينكَ تروى عن يسارٍ ونائلٍ ... ووجهُكَ يروى فى البشاشة عن بشرِ
وإني لصوَّانٌ لدرٍّ قلائدي ... عن المدحِ إلا فيك يا مالك العصرِ
فقابل رعاكَ الله شكري بمثلِهِ ... فإنك للمعروف من أعظمِ الذخر
فلا زلتَ محروسَ الجنابِ مؤيدًا ... من الله بالتوفيقِ والعزِّ والنصرِ

فأمر للعليف بعد وصولها إليه، وفرحه بها بألف دينار ذهبًا جائزة، ورتب له في دفتر الصر لكل عام مائة دينار ذهبًا فصارت بعده لأولاده رحمهم الله تعالى.

وكان للسلطان بايزيد أولاد، ولم يخلع بالملك إلا لولده سليم خان، ودام سلطانه اثنين وثلاثين عاما، إلى أن مات سنة ٩١٨ تسعمائة وثمانية عشر.

ثم تولى السلطان سليم ابن السلطان با يزيد كاسر العجم وفاتح بلاد العرب(١)

وجلس في سنة ثمان عشرة وتسعمائة، وفي سنة عشرين وتسعمائة ركب على إسماعيل شاه العجم ابن الشيخ حيدر ابن الشيخ جنيد ابن الشيخ إبراهيم ابن سلطان خوجه شيخ على ابن الشيخ صدر الدين موسى ابن الشيخ صفي الدين إسحاق الأردبيلي، وإليه ينسب أولاده فيقال لهم : الصفويون.

وكان الشيخ صفي الدين صاحب زاوية في أردبيل، وله سلسلة في المشايخ أخذ عن الشيخ زاهد الكيلاني، وتنتهي بوسائط إلى الإمام حجة الإسلام أحمد الغزالي فرجع بالظفر المبين.

ثم في سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ركب على السلطان الغوري، وكسره في مرج دابق قرب حلب وأباد ملكه، وقد مرت قصته.

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ٧٩ - ٨٦ .

ومن وزرائه الأجلة بير باشا، وابن هرسك أحمد، وسنان باشا، وزنبيلى وغيرهم.

مولده في « أماسية » سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، وكان عمره جميعه أربعا وخمسين سنة ولم تطل سلطنته لأنه كان سفاكا، وهذه عادة الله تعالى فى السلاطين والأمراء إذا أكثروا من القتل، وكان سلطانًا قهارًا، ملكًا جبارًا، يغير زيه في لباسه ويتجسس في الليل والنهار ويطلع على الأخبار، وله عدة مصاحبين يدورون تحت القلعة، وفي الأسواق والمحافل والجمعيات ومهما سمعوه ذكروه له فيعمل بمقتضى ما يسمعه، وله معرفة باللسانيْن الرومي والفارسي، وشعر رائق ونظم فائق، ورأيت له بيتين في الكوشك الذي بنى له، لما فتح مصر وهما بالعربي بخطه قوله: [من البسيط]

أَلْمُلْكُ لِلَّهِ مَنْ يَظْفَرْ بِنَيْلِ مُنًى ... يَتْرُكْهُ قَسْرًا وَيَضْمَنْ بَعْدَهُ الدَّرَكَا

لَوْ كَانَ لِي أَوْ لِغَيْرِي قَدْر أُنْمُلَةٍ ... فَوْقَ التُّرَابِ لَكَانَ الأَمْرُ مُشْتَرَكَا

وتحتها ما صورته: كتبه سليم بذلك الخط والقلم.

كذا ذكره العلامة قطب الدين النهروالى عن نفسه فهو فاعل رأيت.

وسليم هذا هو أول من ملك مصر من آل عثمان سلاطين الزمان أدام الله تعالى دولتهم إلى يوم القيامة، ومد على ملكهم فسطاط الإجلال والكرامة. فإنهم ظل الله تعالى الممدود على الأرض، والقائمون بشعائر الإسلام من السنة والفرض.

كان عظيم الهيبة، سعيد الحركة، كثير المبرات دائم الأسفار، مستيقظًا للأمور الجليلة، نظره إلى معالي الأمور، لو انتظم في سلكه كل لحظة أعظم الأمصار هو عنده في غاية الاحتقار والاستصغار، ويكفيه فتح مصر أم الدنيا، طاب ثراه في الجنان العليا.

ولد السلطان سليم سنة خمس وسبعين وثمانمائة، وتولى السلطنة بعد أبيه في حياته بنزوله له عن الملك لأمر اقتضاه الحال.

وأما سبب ركوبه، ومقاتلته لإسماعيل شاه، فإن إسماعيل هذا طغى وبغى وصار يقتل من ظفر به قتلاً ذريعًا، ولا يمسك شيئًا من الخزائن بل يفرقها في الحال على عساكره، إلى أن ملك تبريز وأذربيجان وبغداد وعراق العجم وخراسان.

وكان يدعي الربوبية، وكان عسكره يسجدون له، وقتل خلقًا لا يحصون ينيفون

على ألف ألف أو يزيدون بحيث لا يعهد في الإسلام ولا في الجاهلية مقدار ما قتله شاه إسماعيل هذا، وهو من ملوك العجم الموسومين بقزل باش وكان ركوبه عليه سنة عشرين وتسعمائة، فحاربهم الحرب الشديد، وانتصر عليهم، وملك غالب بلادهم مع مزيد قوتهم وعزتهم، وكان قبل الحرب كتب إليهم كتابًا فلم يعبئوا به ثم كتب إليهم كتابًا آخر أغلظ عليهم فيه، ووسمهم بالخوف والجبن عن اللقاء فاستنهضهم به؛ ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

وصورة الكتاب الأول: ليعلم إسماعيل بهادر أصلح الله أحواله أن جميع أهل الشرائع والأحكام، وعلماء الدين والإسلام، المحبين لشريعة سيد الأنام، قد أفتوا بكفرك وفسادك، وضلالك وعنادك، لارتكابك العقائد الفاسدة، والضلالات الكاسدة، والأحوال الفظيعة، والأقوال القبيحة الشنيعة. ومن استحل ما حرم الله فلا شك في كفره، فلذلك نشرت الأعلام الإسلامية، والرايات الدينية. وسرتُ إلى بلادك لإمحاء رسمك ووجودك. واضمحلال اسمك وجنودك. لكن لما كان من سنة الدين، وطريق الحق المبين، الإخبار والإعلام بالدعوة إلى اتباع شريعة الإسلام، قبل الإلجاء بالسيف حين لا يفيد أين ولا كيف؛ أرسلت إليك مخبرًا بأنك إن أخلصت التوبة، وصدقت في الأوبة، ورجعت عن تلك العقائد القبيحة الفظيعة فقد فزت بالمقصد الأسنى، ولك الأمان مع الزيادة في الحسنى.

وإن لم ترجع فلتعلم أني قد سرت إليك بآيات النصر والتمكين، ورايات الظفر المبين، عملاً بقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ [التوبة: ١٢٣]، لترمى بالعذاب مجاهرة، والنكال مباهرة، والسلام على من اتبع الهدى.

فلم يرتدع لذلك، فأرسل إليه بكتاب ثانٍ بديع اللفظ والمعاني، فلم يرتدع لفرط العتو والطغيان. فسار إليه السلطان سليم، فتلاقيا في « شالدران » بقرب « تبريز ».

وأراد أن يقيم بتبريز لأخذ إقليم العجم جميعه فما أمكنه ذلك لكثرة الغلاء والقحط، وسبب ذلك أن القوافل التي كان أعدها السلطان سليم لأن تتبعه بالميرة والعليق تخلفت عنه في محل الاحتياج إليها وما وُجد في تبريز شيء من المأكولات والحبوب؛ لأن إسماعيل شاه حرقها عند انكساره، فاشتد الغلاء بحيث بيعت العليقة بنحو مائتي درهم، والرغيف الخبز بمائة درهم، فاضطر السلطان سليم إلى العود

عن تبريز إلى بلاد الروم، وتركها خاوية على عروشها، ثم تفحص عن سبب انقطاع القوافل وتأخرها عنه وقت الحاجة، فأخبر أن سبب ذلك أن سلطان مصر الغوري قانصوه كان بينه وبين إسماعيل شاه محبة ومودة ومراسلات، بحيث كان السلطان الغوري يتهم بالرفض وعقيدته سبب ذلك، فلما ظهر للسلطان سليم أن الغوري هو الذي أمر بقطع القوافل عنهم صمم على قتال الغوري أولاً، وبعد استيلائه عليه وعلى بلاده يتوجه على شاه إسماعيل ثانيًا.

فلما استقر ركابه في تخت ملكه، تهيأ لأخذ مصر، وإزالة دولة الشراكسة عنها.

وتوجه إلى ناحيته من جهة حلب، فالتقيا بـ« مرج دابق » كما تقدم ذكر ذلك مفصلا.

كانت مدته ثمان سنين وأيامًا، وتوفي سنة ست وعشرين وتسعمائة رحمه الله برحمته، وأسكنه بحابيح جنته.

ثم تولى السلطان سليمان بن سليم خان(١)
سنة ست وعشرين وتسعمائة

ولد سنة تسعمائة تقريبًا، فتكون سنُّه حين التولية ستًّا وعشرين سنة، سلك طريق المعدلة وجادة الإنصاف، وتفقد أحوال الرعايا والعساكر، ورفع الظلم والاعتساف، وأعرض عن المنهيَّات.

وله خيرات لا تحصى معروفة في الآفاق، وفتوحات وغزوات، رفعت أهل الإيمان، وخفضت أرباب الشقاق والنفاق، منها: انكروس ورودس وبُدِن وبلغراديج وغزوة العجم، وألمان وأولونية وبغداد واسطنبول والستوراغون وسكتوار آخر غزواته، وتوفي فيها سنة ٩٧٤ أربع وسبعين وتسعمائة.

ومن مشاهير العلماء في أيام دولته المفتي على شلبي وكمال باشا زاده وسعدي شلبي وجوي زاده ومفتي خواجه شلبي وأبو السعود أفندي صاحب التفسير وغيرهم.

ووزراؤه بيري باشا وإبراهيم باشا وإياس باشا ولطفى باشا وسليمان باشا ورستم باشا وعلي باشا ومحمد باشا، كلهم كانوا أرباب خيرات ومبرات.

افتتح البلدان الواسعة بالقهر والحرب، وأخذ الكفار والملاحدة بالطعن

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ٨٧ - ٩٦، صحوة الرجل المريض ص ٤٢ - ٤٣ .

والضرب. وأيد الدين الحنيفي بمجده وسيفه الباتر.

وأقام الملة الحنيفية، وأحيا ما لها من مآثر، ونصر مذهب السنة السنية، وأظهر شعائر الإسلام البهية، وردع أهل الإلحاد فما لهم من قوة ولا ناصر.

وكان مجدد دين هذه الأمة المحمدية في هذا القرن العاشر، كما ورد: « لِكُلِّ قَرْنٍ مُجَدِّدٌ ظَاهر » .

وبنى المدارس المعروفة بالسليمانية للأربعة الأئمة : المالكي ثم الحنفي ثم الشافعي ثم الحنبلي.

وقد جعلت مدرسة دار حديث لعدم متأهل من الحنابلة، وبسط بساط العدل في سائر الممالك، وفتح القلاع والحصون، ومهد المسالك.

وكانت أيام سلطنته باسمة الثغور، ودولته الشريفة غرة في جباه الدهور.

وله فتوحات عديدة منها، وهو أولها: رودس، وغيرها مما تقدم ذكره.

ومنها: الأقطار اليمنية وثغورها الإسلامية، وكانت في القديم لعدة سلاطين وملوك.

وههنا أحببت ذكر رسالته إلى الإمام المطهر بن شرف الدين الحسني الداعي بقطر اليمن لحسن تنميقها وكثرة تحقيقها ومتانة ألفاظها وإيراقها، ورصانة إرعادها وإبراقها. وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا مثالنا الشريف السلطاني، وخطابنا المنيف العالي الخاقاني، لا زال نافذًا مطاعًا بالعون الرباني، واليمن الصمداني، أرسلناه إلى الأميري الكبيري، العوني النصيري، الهمامي المطهري، الشريفي الحسيبي النسيبي، فرع الشجرة الزكية، طراز العصابة النبوية العلوية، ونسل السلالة الهاشمية السنية المطهر بن شرف الدين. نخصه بسلام أتم، وثناء أعم.

ونبدي لعلمه الكريم أنه لا يزال يتصل بمسامعنا الشريفة إخلاصه لدينا، وقيامه بقلبه وقالبه بمرضاة سلطاننا وانقياده إلى جانبنا، وبمقتضى ذلك حصل شكرنا التام، والثناء العام، على مناصحته ومكاتبته.

ولما برز أمراؤنا الشريفة مسابقين متتابعين مع وزيرنا المعظم سليمان باشا إلى البلاد الهندية لفتح تلك الجهات السنية؛ إحياء لسنة الجهاد، وقطع دابر الفساد وأهل

العناد. فاستبشر بذلك كل مسلم وصار فرحا مسرورًا، فوقع قدر الله وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

فرجع وزيرنا المشار إليه فوجد طائفة من اللوند قد تملكوا « زبيد » من المملكة اليمنية، وحصل منهم غاية المشاق بأذى الرعية، وزاد ظلمهم على العباد والبلاد، وعم ضررهم كل حاضر وباد، فتتبع آثارهم وقطع دابرهم، واستنقذ الرعايا من أيديهم وصارت مملكة زبيد من ممالكنا الشريفة، وعاد إلى أعتابنا المنيفة، وأبرز من يديه مكتوبكم ومكتوب والدكم يتضمن الإخلاص لطاعة سلطاننا، وأنهما صارا من أتباعنا، اللائذين بأعتابنا، وبموجب ذلك حصل عندنا لكم زيادة المحبة الصادقة وحسن المودة، وتحققنا ما كان يبلغنا عنه على ألسنة الناس السفار، المترددين على أعتابنا الشريفة من تلك الديار، وبلغنا الآن عنهما خلاف ذلك وتغير ما كاتبنا به في السابق، مثل غير مطابق. وأنه وقع بينهما وبين أمرائنا وعساكر دولتنا بتلك البلاد خُلف كبير، ووقائع عم ضررها المأمور والأمير، وهذا عين الخطأ المحض الذي يترتب عليه ذهاب الروح لمن عقل وفهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]، فالآن ملكنا الشريف السامي قد ملك بعون الله تعالى بساط الأرض شرقًا وغربًا، وصارت سلطنتنا القاهرة كالإبريز المصفى، بعون النبي المصطفى، ورقم سجل سعادتنا بآيات النصر، على أهل العصر، وعلى سائر الملوك بإحياء سنة الجهاد إلى يوم العرض ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [الجمعة: ٤]، ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧]، وعساكرنا المنصورة أينما انخرطت خرطت، وأينما سقطت التقطت، وحيثما سلكت ملكت، وأين حلت فتكت، لا يعجزهم صغير ولا كبير، ولا جليل ولا حقير، ولو شئنا لعينا من عساكرنا المنصورة شرذمة قليلون. نحو مائة ألف أو يزيدون، مشاة وركبانًا من البر والبحر، لأمرائنا ولأمرنا ممتثلون، ونقوى عددهم بالاستعداد، ونشدهم بالقوة والآلة والزاد، ونتبع العسكر بالعسكر، ونملأ البر والبحر، ونلحق الجيش بالجيش من كل أسود وأحمر، حتى يتصل أول عساكرنا بآخرهم، وواردهم بصادرهم، ويكون أولهم في البلاد اليمانية، وآخرهم في بلادنا المحمية.

ولا نحتاج نعرفكم بقدرة سلطاننا وتشييد أركان دولتنا وتشديد عزمتنا. فإن

الملوك ذوي التيجان، وأصحاب القوة والإمكان، لا يزالون خاضعين لهيبتنا الشريفة قهرًا عليهم، مطأطئين رءوسهم خشية مما يلحق بهم عند المخالفة ويصير إليهم، وذلك مشهور ومعلوم، وظاهر ليس بمكتوم، لكن غلب حلمنا عليه من تعجيل النكاية إليه كونه من سلالة سيد المرسلين، ومن أهل بيت النبوة الطاهرين، ولازم على ناموس سلطنتنا الشريفة أن ننبه قبل اتساع الخرق عليه، ونعرفه بما يحل به ويصير إليه، وكونه آوى إلى الجبال يتحصن بها عن الزوال، ويزعم أن ذلك ينجيه فهذا عين المحال، وتدبيره تدميره على كل حال، جهل ذلك أم علم ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٣]، ﴿ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ [القيامة: ١٠، ١١] ولا لهارب من سلطنتنا مفر.

وقد اقتضت أوامرنا الشريفة تعيين افتخار الأمراء الكرام، صاحب العز والاحتشام، المختص بعناية الملك العلام مصطفى باشا، دامت معدلته، ونفذت كلمته باشا على العساكر المنصورة، وصحبته ثلاثة آلاف من الجند المؤيدة بالله مشاة ورماة، حماة كفاة،إعانة لأمير الأمراء الكرام، ذوي القدر والاحترام، المخصوص بمزيد عناية الملك العلام، ازدمر باشا دامت معدلته وحرست نعمته، وعينا من البر ألفي فارس، وهيأنا مثلها بعددها وعليقتها من البحر، فعرض على مسامعنا الشريف مصطفى باشا أن أن يؤخر تجهيز الجيش المذكور من البحر إلى حين يتوجه إلى تلك الجهات وينظر في الأحوال، وما عليه أهل تلك الأقطار من الحال، وإذا وقع من أحد خلاف، واحتاج إلى الخيول المذكورة فيجهز إلينا لطلبهم فتصل إليه على ما يحب، فأخرنا ذلك إلى حين يعود الجواب بتحقيق الأخبار عن الإمام وولده. فحال وصول مصطفى باشا المشار إليه إلى تلك الديار، واستقراره بتلك الأقطار، ولابد أن تحضر إلى خدمته، ممتثلا لكلمته، وتقابله بقلب منشرح، وصدر منفسح، وتمشي تحت صناجقنا الشريفة، وتدخل تحت طاعتنا المنيفة، وتكون مع عساكرنا منضما لأوامرنا المذكورة على قلب رجل واحد، غير متقاعس ولا متقاعد. فإن مصطفى باشا المشار إليه، باشا عساكرنا وخليفة أمرنا، وكلامه من كلامنا. وأمره من أمرنا، ونهيه من نهينا، ومن أطاعه فقد أطاعنا، ومن خالفه فقد خالفنا، ونعوذ بالله من المخالفة، وعدم الانقياد والمؤالفة، فليتفكر المطهر في

نفسه، قبل حلول رمسه، وليتنبه من رقدته، ويصحو من غفلته، ويفيق من سكرته.

فإن فعل ذلك وانضم إلى سلطنتنا الشريفه، فقد رحم نفسه وصان مهجته ويرى من دولتنا العادلة غاية الرعاية، وبلوغ الأمنية مع الزيادة إلى حد النهاية.

وأنه إذا دخل تحت طاعتنا ومشى على الاستقامة لدينا، وانضم إلى عساكرنا فننعم عليه بأمرنا الشريف بما يستحق به فى مملكته مستقلا به من غير معارض له في ذلك، ولا منازع له فيما هنالك، فحيث فعلت فأنت من الفائزين، لا تخف ولا تحزن، إنك اليوم لدينا مكين أمين، وإن حصل والعياذ بالله مخالفة، واستمر على العناد والمجانفة، وانهمك في الضلال، والمكابرة والخيال، فيصبح ذنبه في رقبته، ويهلك نفسه بيده ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٨]، ويدخل في قول أصدق القائلين: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحشر: ٢] ويصير بعد الوجود إلى العدم، ويندم حيث لا ينفعه الندم، وقد حذرنا رأفة به وتحننا عليه، بإصدار هذا الكتاب إليه، فإن خالف أتيناه بجنود لا قبل له بها، وأخرجناه منها ذليلا حقيرًا، لا ملجأ له من سلطنتنا إلا إليها التي هى لِمن سالمها ظلا ظليلا، وعلى من خالفها عذابًا وبيلا، ومثله لا يدل على الصواب فليعتمد على ذلك وعلامتنا الشريفة حجة عليه والسلام عليه.

فكتب إليه الإمام المطهر الجواب وهو: نور الله شمس الإسلام وأطلعها، وفجر عيون الشريعة وأنبعها، ولألأ كواكب الدين الحنيفي وأسطعها، وأعلى منار الملة البيضاء ورفعها، وزلزل جموع الظلم والعداوة وزعزعها، وأرعد قلوب الجبابرة المردة وأرعبها، وألف بين قلوب المسلمين وجمعها، بدوام دولة مولانا السلطان المعظم العظيم، ذي الملك الباهر القاهر العقيم، القاطع بسيوف عزمه عنق كل جبار أثيم، الذي أوتي الحكمة والتحية والله يؤتي من يشاء فضله العميم. شمس الخلافة المضيئة في الليل البهيم، ظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه القويم، حجة الله الواضحة للحق على التعميم. أمينه على خلقه، وخليفته القائم بحقه بتقدير العزيز العليم. المتسم بحماية آل الرسول، وأبناء فاطمة البتول، سلالة النبي الكريم، الباسط عليهم ظل عدله فلا ينالهم حَر الجحيم، فهم راتعون في رياض إحسانه ولها نبت وسيم، وكارعون من حياض امتنانه التي لا يشوب صفوها الدهر المليم. سامي

الفخار، زكي الأصل والنجار.

الفائز بحوز قصبات السبق في الحسب الصميم. الكافّ لأكُفّ من تعاشى عن الهداية، وسلك مسالك الغواية، وكان له في العجرفة تصميم.

الذي لا تحصى صفاته بتعداد، ولو أن الشجر أقلام والبحر مداد، واسأل بذلك كل خبير عليم. الخنكار الكبير، والخاقان الشهير سليمان بن سليم.

أهدي إلى مقامه نجائب التحية والتسليم، ورحمته الطيبة، وبركاته الصيِّبة، الموصولة بنعيم دار النعيم. وحرس جنابه العالي، وحرمه المحترم من صروف الليالي، بما حفظ به الآيات والذكر الحكيم. فإنه ورد من تلقائه - أطال الله للمسلمين في بقائه - مرسوم سطعت أنواره، وطلعت بالمسرة شموسه وأقماره، وتضاحكت في عرصات المجد كمائمه وأزهاره، وجرت في جداول الحمد أنهاره، وتحاسد على مشرفه ليل الزمان ونهاره. مرسوم تقر به العيون، وتصلح به الأحوال والشئون. أنشئ لله نجاره فوجدناه أشفى من الترياق، وأبهى من الإثمد في دعج الأحداق. يتبلج تبلج البرق، ويحلب الخيرات تحلب الودق، يفوق اللؤلؤ الثمين منشورًا، ويفضح شقائق النعمان زهورًا، ويجعل ممدود الثناء عليه مقصورًا. فتعطرت الأندية بنشره، وأعلنت الألسن بحمده وشكره، وهبَّ في البوادي والأمصار نسيم ذكره، ودخلت الناس أفواجًا تحت نهيه وأمره: [من الخفيف]

حَبَّذا مُدْرَجًا كَرِيمًا جَلِيلاً ... زَانَهُ مُنْشِئٌ كَرِيمٌ جَلِيلُ

لَفظهُ الدُّرُّ في السُّمُوطِ وفَخْرًا ... وبِمَعْنَاهُ سَلْسَلٌ سَلْسَبِيلُ

وإِذَا المُدْرَجَاتُ كَانَتْ مُلُوكًا ... فَهْوَ فِيهَا وبَيْنَها إِكْلِيلُ

مُدْرَجٌ فيه للبَهاءِ غُدُوٌّ ... ومَرَاحٌ ومَسْرحٌ ومَقِيلُ

فلله در أنامل صاغته بالبلاغة، وضمنته ما يعجز عنه قدامة وابن المراغة، فلو رآه الملك الضليل لطأطأ رأسه خاضعًا، أو لبيدٌ خر ساجدًا وراكعًا.

وعرفنا ما ذكره سلطان الأمم، وملك رقاب العرب والعجم، المتسم بحماية الحرم، من الإحاطة بطاعتنا، ودخولنا تحت لوائه وأقواله وأفعاله، والحمد لله الذي وفقنا لطاعته، وردنا عن السلوك في مخالفته، فإن لنا بكم الحظ الأوفر مع زيادة الحسنى، والنصيب الأفخر الأهنى.

ونرجو نيل الشرف الكامل الأكمل، ونجح المُنَى والمطالب، وبلوغ نهاية الأماني والمآرب. فمن استمسك بعروتكم الوثقى فاز بمطالبه، ونال الغاية القصوى من مآربه، ورفع له الدرجات السامية العلية، وتم له بذلك كل سؤال وأمنية، ويحظى بعيشة هنية، راضية مرضية. وهذه طريقة معروفة، وسنة قديمة مألوفة. لا تميل عن الوفا، ولا تكدر من ذلك المشرب ما صفا. كيف وطاعتكم من طاعة الملك الخالق، ومعصيتكم تظلم منها المغارب والمشارق، ونحن من مودتكم على يقين، ونرجو أن لا تصغوا أذنًا لكلام الفاسقين، ولا تهملوا رعاية الصالحين المتقين، ولا تقطعوا حق ذرية النبي الأمين، وأبناء عليّ الأنزع البطين، كرم الله وجهه في عليين ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾ [الشورى: ٢٣]، وذلك نص الكتاب المبين.

فأنتم أولى برعاية من أمر الله أن يرعى، ومن تقر به من عِتْرَةِ النبي أذنًا وسمعًا، فكم لكم من محامد مشكورة، ومفاخر مشهورة، ومعاني جميلة منثورة، نؤمل أن تشقوا بحسامها نوافج الوشاة، وتردوا كيد كل كذاب لا يراقب الله ولا يخشاه، والذي ينقله إليكم أرباب الزور، والإفك والفجور. من تحولنا عن طاعة السلطان الأعظم، ومخالفتنا لما سبق من مودتنا وتقدم. كذب يعلمه الداني والقاصى، ومن التمويه الذي لناقله أشد الاقتصاص. حاشا وكلا أن نرضى مخالفة، أو نميل عن الأحوال السالفة، أو ننكر تلك المعارف العارفة، نعوذ بالله من الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ، أو نكون ممن تعدى الحد بعد الطور، وتقاعد عن طاعتكم وهي محل السعي إليهَا على الفور، فنكون كمن اشترى الضلالة بالهدى، وتحول عن السلامة إلى مخاوف الردى، وآل الرسول عليه الصلاة والسلام أعرف الناس بالصواب. وأعلمهم بمعاني السنة والكتاب. أطيعوا الحديث. ومن نسب إليهم خلاف ذلك فهو خبيث نبيث. فثقوا منا بالمحبة الراسخة أطنابها، والمودة الشامخة قبابها، والرعاية المفتحة أبوابها.

والذي أشرتم إليه في سامي الخطاب، وبطاقة الكتاب، من بلوغ مخالفتنا لعساكركم المنصورة، وكتائبكم الواسعة الموفورة، ليس له صحة ولا ثبات، ولا كان لنا إلى حربهم تعد ولا التفات، بل قصدونا إلى تلك الجهات، وجلبوا علينا

أتراكا وأرواما، وهتكوا أستارًا كانت بيننا وبينهم وذمامًا، ولا راعوا لأوامركم الشريفة فينا أحكامًا، وضيقوا علينا مسالك المعيشة خلفًا وأمامًا، ورمونا بمدافع لا يرمى بها إلا الذين يعبدون أوثانًا وأصنامًا.

ونحن من الذين أوجب الله لهم احترامًا، نقيم الشرائع ونميت البدائع ولم نلق أثامًا، ومن الذين يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا. فدافعنا عن أنفسنا وأولادنا بما أمكن من الدفاع، وترك الزيادة عنها لا يستطاع. ونحن في مهاجر يسير، ومكان يأوي إليه البائس الفقير، لا ينافس من اعتصم به، واقتصر على طاعة ربه.

ولو أن عساكركم المنصورة الألوية، المسلمة من صروف الأقضية، وجهوا هممهم العلية، وعزائمهم الصلبة القوية، إلى الجهات العصية الكفرية. إذًا لنالوا من الخيرات نيلا عظيمًا، ولسلكوا سبيل السعادة صراطًا مستقيمًا، وأدركوا من فضل الله سبحانه وتعالى خيرًا ونعيما.

بيد أن تشاغلوا بحربنا عن جميع الحروب، وفوتوا بذلك كل غرض لهم ومطلوب، وأهملوا جهات الكفار حتى سقط الجنوب، وهبت في دار الإسلام للشرك جنوب. وحين وصل المرسوم المشرف، والمثال الكريم المعرف، طبنا به نفوسًا، وسلكنا به محلا من الأمن مأنوسًا، ودفعنا به عن وجوه الحق ظلامًا وعبوسًا، وضلالا وبوسًا.

وخمدت نيران الحرب، وغلت أيدي الطعن والضرب. فقررنا بما قررتموه كل قلب، فإن امتثل من حوالينا من الأمراء الأكابر، لما صدر عنكم من الموارد والمصادر، فتلك المنية المقصودة، والضالة المفقودة، والدرة الثمينة المنقودة، والغنيمة العظيمة الشاملة الممدودة. وإن خالفوا أوامركم المطاعة، وقابلوا نواهيكم بالإضاعة، فحسبهم عذابكم الوبيل، وما تعدونه لمن خالفكم من التنكيل. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكنا نود أن نرسل إلى الأبواب الشريفة ما تكنُّ القلوب والصدور.

إلا أن هؤلاء الذين يلوننا قطعوا وسدوا من التواصل أوصالا، وقعدوا لرسلنا بكرًا وآصالا، وصدوهم عن الوصول إلى أبوابكم العالية عن جميع الأبواب، ومنعوهم عن مناهج الذهاب والإياب.

فلولا ما كان منهم من المنع لما نريد، لكان يصدر إلى أبوابكم العالية في كل شهر بريد.

وحين وصل وكيلكم المعظم الباشا مصطفى إلى الجهات اليمنية، والديار التي هي بسيف قهركم محمية. بسط عدله في أهل اليمن، وأخمد نيران الفتن والمحن، وأصلح من الأمور ما ظهر وما بطن، واطلع على الحقائق في الماضي واللاحق، وما نحن عليه بحمد الله من حسن المساعي والطرائق، وكرم الأصول الشريفة والمعارق.

وقد أرسل إلينا قصاد أمجاد، محبون أوداد، عرفوا جميع الأمور، وأحاطوا بالظاهر منها والمستور.

ولعل الله سبحانه وتعالى يهيئ قدومه إلى صنعا. ويحيى به للإله دينًا وشرعًا، ويقطع به دابر من خالف أمركم قطعًا.

ولعمري إنه رجل عظيم، وذو خطب جسيم، بأرباب الدين رءوف رحيم.

قد طابت شمائله، وراقت أوصافه ومخايله. فهو بكل خير يجود، ويحمل من طاعتكم ما يشق على غيره ويئود.

فالله يجعل سعيه مشكورًا، ويشرح بأعماله من الاستقامة قلوبًا وصدورًا، ويدفع بعين عنايته عن الأنام والإسلام شرورًا. ويملأ الأنفس والأفئدة حبورًا إن شاء الله وسرورًا. وبعد : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ومنها: بغداد وأعمالها والمشاهد الشريفة النبوية العلوية الحسنية، والموسوية الكاظمية، والعلوية الرضوية.

ومنها: بلاد المغرب وما فيه من الجزائر، وكانت في القديم جامعة لعدة سلاطين، بل كانت دار الخلافة الأموية ثم العباسية ثم العمرية الحفصية ثم الشريفية الحسنية ثم للخلافة العبيدية.

ومنها: الممالك المعروفة بروملي وما اتصل بها من بلاد الكفار على اختلاف أنواعهم وأجناسهم مما لا يحصى كثرة.

ومنها: ما فتح من الممالك الإسلامية بناحية العجم لما خرج لمقابلة قزل باش طهماسب.

ومنها: السفر الأخير وهي الغزاة العظمى التي شرفه الله تعالى فيها بالشهادة، فهو

الملك الذي عاش سعيدًا، ومات شهيدًا.

وهذه الفتوحات بعض ما اشتهر. وأما ما هو حقير من جهة أهله أو من قلة محصوله أو مما يكون تابعًا لغيره فذلك لا يحصى ولا يحصر.

وأما الخيرات التي فعلها في الحرمين الشريفين والقدس، وغيرها من البلاد فلا يمكن حصرها، يذكر شيء منها على سبيل الاختصار نتشرف بذكره.

منها: الصرة العظيمة الرومية الواصلة كل عام وقدرها أحد وثلاثون ألفًا من الدنانير الذهب في كل عام على الدوام.

ومنها: عمارة سور المدينة المنورة، وقدر مساحته: أربعة آلاف ذراع، وعرض جداره: ثلاثة أذرع، وارتفاعه: سبعة عشر ذراعًا، وجميعه بالحجر والنورة، وأبوابه: ستة مصفحة جميعها بالحديد.

قلت: المعروف أن أبواب سور المدينة الشريفة أربعة، باب غربي وباب قبلي وباب شامي وباب شرقي: يسمى الأول في عرف الناس باب المصري. والثاني الباب الصغير. والثالث باب الشامي؛ لنزوله عنده ذهابًا وإيابًا. والرابع: باب الجمعة.

فلعل المؤرخ عد باب القلعة وبابا صغيرًا فى أسفل أكبر البروج وأعلاها يسمى عند أهل المدينة باب السر، فهما الخامس والسادس، فيصح العدد حينئذ. وقدر النفقة عليه من الذهب الجديد سبعون ألفا، ومن الحبوب أربعة عشر ألف إردب حنطة وفولا وغير ذلك، وذلك غير الواصل من مصر المحروسة من الحديد والخشب والرصاص والنحاس والجمال والحمير.

ومنها: محراب السادة الحنفية بقرب الروضة النبوية.

قلت: ويعرف اليوم بالمحراب السليماني منقوش بالرخام الملون.

ومنها: تجديد عدة من المساجد النبوية، وأنشأ عدة من القباب على من عرف قبره من أعيان السلالة المحمدية.

ومنها: ترصيص القبة الشريفة النبوية وهلال القبة المذكورة أعلاه ذهب خالص صرف وباقيه مموه وأهلة المنابر ومنبر الحرم النبوي.

ومنها: إنشاء الجدار الغربي بالحرم النبوي وإنشاء منارة عظيمة به.

ومنها: عدة شماعدين من النحاس المطلي بالذهب بالحجرة المطهرة. وإنشاء عدة من الربط وترميم بعضها مما يقرب عددًا إلى العشرين. ومنها: شراؤه ديار العشرة لاتصالها بقبلي المسجد النبوي والغرض الأعظم من ذلك هدمها ليذهب عين ما فيها من المراحيض والبلاليع، وما فيه رائحة كريهة، فهدمت جميعها وبقيت بعد هدمها وتعميرهما نافعة لكل خير تجدد بها، قابلة للإلحاق بالمسجد النبوي.

ومنها: عمارة تكية باسم والدة السلاطين العظام يعمل فيها في كل يوم للفقراء خبز وطعام.

ومنها: أنه لما بلغه احتياج المطاف الشريف إلى أساطين، وعرضوا له أن أساطين المسجد الحرام جميعها بالرخام وعرضوا بتعظيم ذلك وكونها من حجر واحد أمر أن تجعل أعمدة من النحاس، فجعلت وقيمتها تعدل وزنها فضة في القياس.

ومنها: منبر عظيم للبيت العتيق الكريم كانت النفقة عليه ثلاثين ألفا من الدنانير الذهب الجديد خارجا عما حمل معه من آلات الحديد والفولاذ والرصاص والمؤن العديدة، ووصل إلى مكة عام ست وستين وتسعمائة. فقال بعض علماء مكة فيه تاريخًا أبياتا آخرها بيت التاريخ هو: [من مجزوء الخفيف]

لِسُلَيْمَانَ مِنْبَرٌ شَاهِدٌ بِالدُّعَا لَهُ

ومنها: تعمير المدارس التى هى من العجائب برسم المدرسين من الأربعة المذاهب كما تقدم ذكره، ومنارة عظيمة من جنسهن جنب أولاهن.

ومنها: عمارة مهبط الوحي والأماكن الشريفة.

ومنها: إجراء الماء من الفرات إلى مشهد الإمام الحسين بن على رضي الله عنهما. ومنها: بالمسجد الأقصى خيرات لا تحصى.

ومنها عمارة قبة عظيمة على الصخرة الرفيعة الدرجات وجعل عوض التجصيص ألواح من فخار إزنيق بأنواع النقوش وأجل الكتابات.

ومنها: للمساجد الثلاثة المشرفة المذكورة قدر الكفاية من الحبوب والمرتبات والخبز والطعام والصلة المبرورة.

ومنها: بدار الخلافة العظمى قسطنطينية الكبرى إجراء عين من مسيرة ستة أيام أنفق على ذلك من الأموال ما لا يحصره كتب ولا ثرثرة أقلام.

ومنها: عمارة عظيمة سلطانية جامعة للخيرات الدينية والدنيوية بالشام بالمحل المعروف بالصالحية، وما ذكر هو من بعض خيراته السنية.

ومنها: وهو أعظمها إجراء عين عرفات إلى مكة. وسبب ذلك: أن العين التي كانت بمكة هى عين حنين التي أجرتها زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة الرشيد، واسمها: أمة العزيز، لأن جدها المنصور كان يرقصها وهي طفلة ويقول: أنت زبيده. فغلب على اسمها، وكانت من أهل الخيرات فصرفت عليها خزائن أموال إلى أن جرت وهي في واد قليل الأمطار بين جبال شواهق عاليات خاليات من المياه والنبات، وشقت له القناة في الجبال إلى أن سلك الماء من أرض الحل إلى الحرم، وجعلت لها شحاحيذ من كل جبل يكون ذيله مظنة للماء وجعلت منه قناة متصلة، ومنبع هذه العين جبل شامخ من تلك الجبال يقال له: « طاد » بالطاء المهملة والألف بعدها دال مهملة من جبال الثنية من طريق الطائف، وكان الماء يجرى إلى أرض حنين تسقى به مزارع ونخل مملوكة للناس، فاشترت زبيدة ذلك المحل وأبطلت تلك المزارع والنخل فصارت تلك الشحاحيذ يحصل منها المدد لهذه العين، وصار كل شحاذ عينًا يساعد عين حنين، منها: عين مشاش، وعين ميمون، وعين الزعفران، وعين البارود، وعين الطان، وعين ثقبة، كلها تنصب في ذيل عين، ويزيد بعضها، وينقص بحسب الأمطار إلى أن وصلت عين حنين إلى مكة المشرفة.

ثم إنها أمرت بإجراء عين وادي نعمان إلى عرفة وهي عين منبعها ذيل جبل كرا وهو جبل معروف فيصب الماء من ذيله في قناة إلى موضع يقال له: الأوجر من وادي نعمان، ومنه إلى موضع بين جبلين شاهقين علو عرفات، ثم منه يجري في القناة إلى أرض عرفات، ثم أدارت القناة إلى جبل الرحمة محل الموقف الشريف، وجعلت الماء ينصب إلى البرك التي في أرض عرفات فتملأ ماء يشرب منه الحاج يوم عرفة، ثم استمرت في عمل القناة إلى أن خرجت من عرفات إلى مزدلفة، ثم إلى جبل خلف منى في قبلتها، ثم ينصب الماء إلى بئر عظيمة مطوية بالأحجار كبيرة جدًا تسمى بئر زبيدة إليها انتهى عمل زبيدة فوقف، وهي من الأبنية المهولة ربما يوهم بناؤها أنه من عمل الجن، ثم صارت عين حنين تنقطع عن الوصول إلى مكة،

وكذلك عين عرفات تنقطع عن وصولها إلى منتهاها لتهدُّم قنواتهما وتخريبهما بالسيول.

وكانت الخلفاء والسلاطين إذا بلغهم ذلك أرسلوا وعمروها عند انتظام سلطنتهم وقوة تمكنهم فتجرى تارة وتنقطع أخرى، فعمرها مظفر الدين صاحب إربل سنة خمس وستمائة ثم المستنصر العباسي سنة ستمائة وتسع وعشرين. ثم في ستمائة وثلاث وثلاثين، ثم في سنة ستمائة وأربع وثلاثين، وجد ذلك مكتوبًا في حجر مبنى في قرب الموقف الشريف، ثم عمَّر عين حنين الأمير جوبان نائب السلطنة بالعراقين سنة ست وعشرين وسبعمائة، فأجراها إلى مكة وتم نفعها فإنهم كانوا في جهد عظيم لقلة الماء، ثم عمرها شريف مكة الشريف حسن بن عجلان جد ساداتنا الأشراف أشراف مكة وملوكها الآن، أدام الله سعادتهم مدى الزمان في سنة إحدى وثمانمائة فجرت وانفجرت وكثر الدعاء له من أهل البلاد والحجاج والعباد، ثم انقطعت ولقي الناس لذلك شدة عظيمة إلى أن عمرها الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، ثم عمرها وعمر عين عرفات السلطان قايتباي أجرى الأولى إلى أن دخلت مكة، وأجرى الثانية إلى أن وصلت إلى أرض عرفات، وذلك بمباشرة الأمير يوسف الجمالي وأخيه سنقر الجمالي في سنة ثمانمائة وسبعين، ثم عمر عين حنين آخر ملوك الشراكسة قانصوه الغوري إلى أن جرت وملأت برك الحجاج بالمعلاة، ثم جرت إلى بازان، ثم إلى بركة الماجن بأسفل مكة، ثم انقطعت في أوائل الدولة العثمانية وصار أهل مكة يستقون من آبار حول مكة يقال لها: العسيلات علو مكة ومن آبار بأسفلها بمكان يقال له : الزاهر وسُمِّي الآن بالجوخي في طريق التنعيم، وكذلك انقطعت عين عرفات وتهدمت قنواتها وكان الحجاج يحملون الماء إلى عرفات من الأماكن البعيدة، وصار الفقراء من الحجاج وغيرهم في يوم عرفة لا يطلبون إلا الماء لغلو الماء وعزته جدًّا.

قال العلامة القطب: وإني أذكر سنة تسعمائة وثلاثين، وأنا يومئذ مراهق في خدمة والدي أني اشتريت قربة صغيرة جدًّا يحملها الإنسان بإصبعيه بدينار ذهب، والفقراء يصيحون من العطش يطلبون ما يبل حلوقهم في ذلك اليوم الشديد، فلما كان وقت الوقوف، والناس عطاش يلهثون أمطرت السماء وسالت السيول من فضل

الله والناس واقفون، فصاروا يشربون من السيل من تحت أرجلهم ويسقون دوابهم، وذلك من رحمة الله ولطفه بعباده.

فبرزت الأوامر السلطانية السليمانية بإصلاحهما، وعُيِّن لذلك ناظر اسمه مصلح الدين مصطفى من المجاورين بمكة، فبذل جهده في عمارتهما، فجرت عين حنين إلى مكة، وعين نعمان إلى عرفات وذلك سنة ٩٣١ إحدى وثلاثين وتسعمائة، ثم اشترى الناظر المذكور عبيدًا سودًا من مال السلطنة وزوجهم بمثلهم وجعل لهم جرايات وعلوفات برسم خدمة العين، وإصلاح قنواتها، فهي خدمتهم دائمًا وهم باقون إلى الآن طبقة بعد طبقة، ثم توجه الناظر إلى الأبواب لعرض أمور في شأن العين، فأجيب إلى ما أراد وعاد إلى مصر.

ثم ركب من بندر السويس قاصدًا مكة فغرق في بحر القلزم شهيدًا، وما غرق إلا في بحر رحمة الله تعالى سنة ٩٣٩ تسع وثلاثين وتسعمائة.

ثم انقطعت سنة ستين وتسعمائة فعرضت أحوال العيون لى الأبواب السلطانية السليمانية، فالتفت الخاطر السلطاني وتوجه العطف العثماني إلى تدارك ذلك بأي وجه يكون، وأمر بالفحص عن أحوال العيون، فاجتمع قاضي مكة يومئذ عبد الباقي بن على الغزي، والأمير خير الدين سنجق جدة يومئذ، وغيرهما من الأعيان، وتفحصوا وداروا، وكشفوا فأجمع رأيهم أن أقوى العيون عين عرفات، وطريقها ظاهر ودبولها مبنية إلى بئر زبيدة، وأن الذي يغلب على الظن أن دبولها من البئر إلى مكة مبنية أيضًا وأنها مخفية تحت الأرض وأنها تحتاج إلى الكشف عنها والحفر، فإذا وجدوا من الدبل متهدمًا بنوه، وإذا وجدوا مختلا أصلحوه، فخمنوا أنهم يحتاجون في ذلك إلى ثلاثين ألف دينار ذهبًا، وذرعوه وقاسوه فكان من الأوجر إلى بطن مكة خمسة وأربعين ألف ذراع بذراع العمل، وهو أزيد من الذراع الشرعي بنحو الربع.

وهذا الذي ظنوه من وجود دبل تحت الأرض من بئر زبيدة إلى مكة لم يوجد في كتب التاريخ ولم يذكره أحد، وإنما أدَّاهم إلى ذلك مجرد الظن بحسب القرائن وعرضوا على المسامع الشريفة السلطانية في أوائل سنة ٩٦٠ ستين وتسعمائة، فلما وصل علم ذلك التمست جانم سلطان كريمة السلطان سليمان أن يأذن لها في عمل هذا الخير، حيث كانت صاحبة الخير أولا أم جعفر زبيدة العباسية فناسب أن تكون

هي صاحبة هذا الخير أخيرًا، فاختارت بعد أن استطارت لهذه الخدمة إبراهيم بن تغري بردي الدفتردار، وأعطته خمسين ألف دينار ذهبًا زيادة على ما خمنوه، فسار بحرًا فوصل إلى جدة يوم الجمعة لثمان بقين من ذي القعدة من سنة تسع وستين وتسعمائة ونزل بوطاقه خارج جدة من الجهة الشامية وركب من جدة إلى سيدنا ومولانا الشريف محمد أبي نمي وكان نازلا بوادي « مر » فقابله بالإجلال والتعظيم ومد له سماطًا عظيمًا ولاطفه وواكله وباسطه وجابره، فعرض على حضرته الشريفة الخط السلطاني، وبذل الهمة والاجتهاد في إتمام هذا الأمر، فأجاب الشريف أبو نمي بالسمع والطاعة، ثم ركب إبراهيم المذكور من عنده متوجهًا إلى مكة، فلاقاه عند دخوله مولانا الشريف حسن بن أبي نمي وقابله بالترحيب والإكرام وغاية الإجلال والاحترام، واستمر معه إلى أن فارقه من باب السلام، فدخل فطاف طواف القدوم وكان محرمًا بالحج وسعى. وعاد إلى مجمع السلطان قايتباي، وهو المحل الذي عين لنزوله، ومد له من قبل الشريف حسن سماط عظيم، ثم جاء إليه مولانا القاضي الحسين المالكي ثم كان أول ما بدأ به تنظيف الآبار التي يستسقي الناس منها، وإخراج ترابها وزيادة حفرها ليكثر ماؤها، وحصل للناس بذلك رفق عظيم، ثم توجه للكشف إلى أعلى عرفات وكثر تردده إليها، ثم أسرع في الكشف عن دبول عين عرفة وضرب أوطاقه في الأوجر من وادي نعمان علو عرفات، وشرع في حفر فقرها، وتنظيف دبولها بهمة عالية جدًا.

وكانت مماليكه القائمون في خدمته نحو أربعمائة مملوك في غاية الجمال والرشاقة والحذاقة واللباقة، وكتب نحو ألف نفس من العمال والمهندسين والحفارين، وجلب من مصر وبلاد الصعيد والشام وحلب واسطنبول طوائف بعد طوائف من خدام العيون والآبار والحدادين والحجارين والبنائين.

وأتى بآلات العمارة من مكاتل ومساحي ومجاريف وحديد وبولاد ورصاص ونحاس.

وعين لكل طائفة قطعة من الأرض تحفرها وتنظف ما فيها، واستمر إلى أن وصل عمله إلى بئر زبيدة التي انتهى عملها إليها، ولم يجد بعدها دبلا، ولا أثر عمل ولا بقايا قناة، فضاق ذرعه لذلك، وعلم أن الخطب كبير والعمل كثير وتحقق أن القدر

الباقي من هذا العمل إنما تركته زبيدة اضطرارًا لا اختيارًا وعدلت إلى عمل حنين، وتركت العمل من بعد البئر لصلابة الحجر وصعوبة إمكان قطعه وطول مسافة ما يجب قطعه، وأنه يحتاج من بئر زبيدة إلى دبل منقور تحت الأرض في الحجر الصوان طوله ألفا ذراع بذراع البنائين حتى يتصل بدبل عين حنين وينصب فيه فيصِلاَ إلى مكة. ولا يمكن نقر ذلك الحجر تحت الأرض فإنه يحتاج في النزول إلى خمسين ذراع في العمق، وصار لا يمكن ترك ذلك بعد الشروع فيه حفظًا لناموس السلطنة، فأوجد الأمير إبراهيم حيلة هي أن يحفر وجه الأرض إلى أن يصل إلى الحجر الصوان ثم يوقد عليه بالنار مقدار مائة حِمْل من الحطب الجزل ليلة كاملة في مقدار سبعة أذرع في عرض خمسة أذرع من وجه الأرض والنار لا تعمل إلا في العلو، وأما السفل فعملها فيه مقدار قيراطين من أربعة وعشرين قيراطًا من ذراع.

فيكسر بالحديد إلى أن يصل الحجر الشديد فيوقد عليه الحطب الجزل ليلة أخرى إلى أن ينزل في ذلك الحجر مقدار خمسين ذراعًا في العمق في عرض خمسة أذرع إلى أن يستوفي ألفي ذراع تقطع على هذا الحكم، وذلك يحتاج إلى عمر نوح ومال قارون وصبر أيوب، وما رأى عن ذلك محيصًا، فأقدم عليه إلى أن فرغ الحطب من جميع جبال مكة وصار يجلب من المسافة البعيدة، وغلا سعره وضاق الناس لذلك، وتعب الأمير وذهبت أمواله وخدَّامه ومماليكه وهو يتجلَّد، إلى أن قطع من المسافة ألف ذراع وخمسمائة ذراع، وصار كلما فرغ المصروف أرسل وطلب فجاءه، ثم مات له ولد طفل كان خلَّفه بمصر احترق عليه كثيرًا، ثم مات له ولدان مراهقان، ثم مات أكثر مماليكه، ثم مات هو غريبًا شهيدًا ليلة الإثنين ثاني رجب سنة ٩٧٤ أربع وسبعين وتسعمائة، وكانت جنازته حافلة، وأسف الناس على فقده لكثرة إحسانه ودفن فيها ولديه قبله.

ثم أقيم في هذه الخدمة سنجق جدة الأمير قاسم بك، أقامه سيدنا شيخ الإسلام القاضي الحسين إلى أن يصل مَن تعيِّنه السلطنة العلية.

وفي هذا العام المذكور انتقلت السلطنة من السلطان سليمان صاحب الترجمة إلى ولده الآتي بعده مولانا السلطان سليم بن سليمان، فعين لهذه الخدمة دفتردار مصر يومئذ محمد بك يكمكجي زاده وكان من أعبد السناجق، فوصل إلى هذه الخدمة

وبذل فيها نفسه وماله، وقطع مسافة وما بلغ التمام، بل وافاه الحِمام ليلة الثلاثاء لأربع ليال بقين من جمادى الأولى سنة ست وسبعين وتسعمائة ودفن بالمعلاة قبالة تربة الأمير إبراهيم الدفتردار على يسار الذاهب إلى الأبطح، ثم رجع في خدمة العين الأمير قاسم سنجق جدة المذكور آنفًا أرجعه فيها القاضي الحسين وعرض ذلك إلى الأبواب، فأنهى الأمر باستقرار قاسم بك في الخدمة أمينًا على مصارفها. وأن يكون مولانا القاضي الحسين ناظرًا على ما بقي من عمل هذه العين إلى أن يصل إلى عرفات، فاستمر قاسم بك مباشرًا لهذه الخدمة، إلى أن طرقه الحيْن فصار ثالثًا للأميرين السابقيْن، وصار من شهداء العين، وذلك لليلة خلت من رجب الحرام سنة ٩٧٩ تسع وسبعين وتسعمائة، ودفن بالمعلاة إلى جانب الأمير محمد بك اليكمكجى المتوفى بمكة.

ثم توجه مولانا القاضي الحسين توجها تامًّا إلى تكميل عمل ما بقي من العين باعتبار ما بيده من النظر، وعرض للسلطنة الشريفة بوفاة قاسم بك فبرزت الأوامر إلى حضرته الشريفة فأقدم بهمته العالية أتم إقدام، فساعدته السعادة والإقبال على الإتمام، فكمل عملها فيما دون خمسة أشهر، بعد أن عجزوا عنه في قريب من عشرة أعوام، فجرت عين عرفات ووصل الماء، وهو يجري في تلك الدبول والقنوات إلى أن دخل مكة لعشر بقين من ذي القعدة الحرام سنة ٩٧٩ تسع وسبعين وتسعمائة، وكان ذلك اليوم يوم عيد أكبر عند الناس، وعمل في ذلك اليوم أسمطة بالأبطح ببستانه الواسع الأفيح، جمع الأكابر والأعيان، ونصب لهم السرادقات والصوان، وذبح أكثر من مائة من الغنم، وقدم للناس على قدر طبقاتهم أنواع الموائد والنعم، وخلع على أكثر من عشرة أنفس من المعلمين والمهندسين خلعًا فاخرة، وأحسن إلى باقيهم بالحسنات الوافرة.

ومما رأيته بخط جدي العلامة جمال الدين بن إسماعيل العصامي ما نصُّه: لما أكمل مولانا وعزيزنا شيخ الإسلام والمسلمين ناظر النظار ببلد الله الأمين مولانا السيد الشريف القاضي الحسين بن أحمد المالكي عمارة عين عرفات كتبت إليه قولى: [من مخلع البسيط]

أَقضَى القُضَاةِ الحسينُ أَغنَىٰ   مكانَ أُمّ القُرَىٰ بِعَيْنه

وجـاءَ بـالـعَـيْـنِ بَـعْـدَ يَـأْسٍ فَـشـكْـرُهُ وَاجِـبٌ لِـعَـيْـنِـهْ

ففتح لقبولهما كل باب، وأعجب به غاية الإعجاب.

قلت: يمكن أن يقصد فيه التورية فيراد بقوله: « لعينه » الذهب، ويرشحه قوله: « أغنى » إلى آخره.

وأن يراد بها الماء الجاري ويرشحه « جاء بالعين بعد يأس ».

وعندى: سلبهما من لباس التورية أستر، وأذكى لشذى المدح وأعطر، بأن يكون المراد بالعين ذاته وشخصه، ليكون وجوب الشكر لذاته في كماله، لا لعارض يزول بزواله.

ثم جهز أخبار هذه البشائر إلى السلطان سليم ابن السلطان سليمان خان، وإلى سرادقات الحجاب الرفيع مليكة الملكات بلقيس الزمان جانم سلطان أخت مولانا السلطان سليمان، فأنعمت بالإنعامات الجزيلة، والترقيات الكثيرة الجميلة على سائر العمالين والمباشرين والمتعاطين لهذه الخدمة، ورقت مدرسة مولانا القاضي حسين - وهي الأولى مما يلي باب الزيادة - فصارت بمائة عثماني.

واستمرت هذه العين من جملة الآثار الباقية على صفحات الليالي والأيام، والأعمال الصالحات الباقيات على تكرار السنين والأعوام.

وما عنده سبحانه من تضعيف الأجر والثواب، خير وأبقى عند أولي الألباب.

وكان جملة النفقة خمسة لكوك وسبعة آلاف دينار ذهبًا أحمر جديدًا، وذلك غير ما صرف على إحضار أرباب الصناعات من الحدَّادين والحجَّارين والقطَّاعين والنجَّارين، وأهل الصناعات الدقيقة من البلاد البعيدة، وغير ما صرف على خدامها وخدامهم.

وقد كانت عمارتها في آخر الدولة السلطانية السليمانية وفي أول الدولة السلطانية السليمية.

وكان له من الأولاد مصطفى وهو أكبرهم؛ توهم منه والده أمرًا، فأمر بخنقه طائفةً من البكمان أواخر شوال سنة ستين وتسعمائة.

قال في « بغية الخاطر » للعلامة الكاتي: وفي سنة ستين وتسعمائة أمر السلطان سليم بقتل ولده مصطفى، وكان ذلك من مكر رستم باشا الوزير، فجاء تاريخ وفاته « مكر رستم » وقال آخر باللغة الفارسية: « ظلم بي حد در آخر شوال » ذكره الكاتي في تاريخه.

قلت: يريد أن لفظ لا حد له؛ أي لا نهاية؛ أي لا ميم فيبقى حرفان الظاء واللام وهما بتسعمائة وثلاثين، وآخر شوال اللام، وهى بثلاثين، فيتم العدد تسعمائة وستين وهى سنة وفاته، وهو آخر شوال، وهذا اتفاق عجيب يروق كل أديب.

وطفل اسمه مراد كذلك خنقه فألحقه بولده مصطفى.

وولده الثاني: محمد بن سليمان مات على فراشه مولدَه سنة ثمان وعشرين وتسعمائة، وولده الآخر با يزيد بن سليمان، فوقعت بينه وبين أخيه السلطان سليم محاربات قتل فيها نحو خمسين ألفًا.

ثم لما عجز عن محاربة أخيه السلطان سليم هرب هو وأولاده الأربعة وهم: أورخان ومحمود خان وعبد الله خان وعثمان، فظفر بهم السلطان سليم وأخذ أنفاسهم بالأوتار وما لهم من آثار.

وكان له ابن خامس طفل في « بروسا » فأمر بخنقه أيضًا فتبع والده وإخوته.

ومن أولاد سليمان: السلطان جهان كير، كان أحدب ظريفًا لطيف الروح خفيفًا، كان يحبه والده ولم يفارقه، توفي بأجله بمرض الخناق سنة ٩٦٥ خمس وستين وتسعمائة.

ومنهم السلطان شاه زاده بن سليمان توفي بأجله سنة ٩٦٧ سبع وستين وتسعمائة.

وعدة غزواته الكبار المشهورة ثلاث عشرة غزوة السادسة، منها: غزوة العراق كانت أواخر ذي القعدة سنة ٩٤١ إحدى وأربعين وتسعمائة.

وأنشأ القاضي عبد اللطيف بن عبد الله باكثير عند ورود خبر النصرة في تلك الغزوة تاريخًا وضمنه بيتين هما: [من المتقارب]

وَلَـمَّـا أَحَـلَّـتْ ظِـبَـانـا لَـنَـا دمَ الشَّاهِ واسْتَحْكَمَتْ سَلْخَهُ

« فَتَحْنَا العِرَاقَ » وذَا اللَّفْظُ مِنْ لَـطَـافَـتِـهِ جَـاءَ تَـارِيْـخَـهُ

وكان عبد اللطيف المذكور سافر إلى الديار الرومية، واجتمع فيها بالسلطان سليمان خان بواسطة قاضي العسكر قادري أفندي فصادف قدومه إلى الروم توجُّه مولانا السلطان إلى حرب العجم، ثم ورد خبر النصرة - كما تقدم - فعمل ذينك البيتين وقدمهما إلى صاحبه قاضي العسكر قادري أفندي، فبعد ورود السلطان من

السفر أشرفه على التاريخ وجمعه بقائله عبد اللطيف المذكور فنال منه مزيد الإكرام، وأنعم عليه بقضاء مكة المشرفة.

وكانت سلاطين مصر وغيرهم يعقدون ولاة منفردين على المذاهب الأربعة، وكان غالبًا لا يقيم النواب إلا قاضي القضاة الشافعي، والباقون يتعاطون الأحكام ولا يقيمون نوابًا. واستمر القاضي عبد اللطيف متوليًا إلى أن عزل بأول قضاة الأروام من الحنفية وهو القاضي صدر الدين، فورد إلى مكة عام ثلاث وأربعين وتسعمائة، ومن حينئذ صار الأفندي الأعظم يرد من الجهات الرومية، ويعقد له الولاية من هناك، إلا أن القضاة كانوا يقيمون القاضي الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي بطريق النيابة.

ففي زمن الأفندي ميرزا مخدوم أقام عم جدي القاضي العلامة نور الدين على زاده ابن مولانا المرحوم إسماعيل العصامي قاضيًا شافعيًا، وأقام القاضي نجم الدين المالكي نائبًا مالكيًا، وأراد إقامة حنبلي فلم يتيسر ذلك لعدم وجود حنبلي يقوم بهذا الشأن.

وآخر من أقام ذلك بمكة الأفندي عبد الرحيم الشعراوي عام توليته لها عام خمس وثلاثين وألف.

ولما كان اليوم الثاني من استقراره في الملك جعل ديوانا وأنعم على الوزراء وأمرهم بترك شعار الحزن، ورقى العسكر في الجوامك على حسب مراتبهم وانتظم الحال.

وكان ملكًا صالحًا يترجم بالولاية كثير الخير والإحسان، للقاصي والدان.

وكانت مدة سلطنته ثمانا وأربعين سنة، وهي عديمة النظير، فيمن مضى من هذا البيت المنير.

واستقر بها إلى أن توفي سنة أربع وسبعين في سابع عشر صفر وهو في محاصرة العدو، فأخفى الوزير موته وأركان الدولة وأرسلوا أوراقا إلى كوتاهية لمولانا السلطان سليم - وبين المحلين نحو ثلاثة أشهر بسير الأثقال - فركب مولانا السلطان سليم وجدَّ في السير إلى بلاد اسطنبول، ودخلها في ثامن ربيع الأول سنة ٩٧٤ أربع وسبعين وتسعمائة.

وحمل السلطان سليمان إلى دار الخلافة ودفن في المحل الذي عمره في عمارته

المذكورة، طاب ثراه.

ورثاه عالم زمانه أبو المسعود أفندي المفتي بقصيدة بليغة وهي هذه: [من البسيط]

أَصَوْتُ صَاعِقَةٍ أَمْ نَفْخَةُ الصُّورِ فالأَرْضُ قَدْ قُلِبَتْ مِنْ نَقْرِ نَاقُورِ
أَصَابَ مِنْهَا الوَرَى دَهْيَاءُ دَاهِيَةٌ وذَاقَ مِنْهَا البَرَايَا صَعْقَةَ الصُّورِ
فَهُدِّمتْ بَنْيَةُ الدُّنيا لِوَقْعَتِهَا وانْهَدَّ مَا كَانَ مِنْ دُورٍ ومِنْ سُورِ
أَمْسَتْ مَعَالِمُهَا بَهْمَاءَ مُقْفِرَةً مَا فِي المَنَازِلِ مِنْ دَوَّارٍ دَيُّورِ
تَهَدَّمَتْ قُلَلُ الأَطْوَادِ وارْتَعَدَتْ كَأَنَّهَا قَلْبُ مَرْعُوبٍ ومَذْعُورِ
واغْبَرَّ نَاصِيَةُ الخَضْرَاءِ وانْكَدَرَتْ وَكَادَ تَمْتَلِئُ الغَبْرَاءُ بِالمُورِ
فَمِنْ كَئِيبٍ ومَلْهُوفٍ ومِنْ دَنِفٍ عَانٍ بِسِلْسِلَةِ الأَحْزَانِ مَأْسُورِ
فَيَا لَهُ مِنْ حَدِيثٍ مُوحِشٍ نكرٍ يَعَافُهُ السَّمْعُ مَكرُوهٍ ومَنْفُورِ
تَاهَتْ عُقُولُ الورَى مِنْ هَوْلِ وَحْشَتِهِ فَأَصْبَحُوا مِثْلَ مَخْمُورٍ ومَسْحُورِ
تَقَطَّعَتْ قِطَعًا مِنه القُلُوبُ فَلاَ يَكَادُ يُوجَدُ قَلْبٌ غَيْرُ مَكْسُورِ
أَجْفَانُهُمْ سُفُنٌ مَشْحُونَةٌ بِدَمٍ تَجْرِي بِبَحْرٍ مِنَ العَبراتِ مَسْجُورِ
أَتَىٰ بِوَجْهِ نَهَارٍ لاَ ضِيَاءَ لَهُ كَأَنَّها غُرةٌ شِيبَتْ بِدَيْجُورِ
أَمْ ذَاكَ نَعْىُ سُلَيْمَانَ الزَّمانِ ومَنْ مَضَتْ أَوَامِرُهُ في كُلِّ مَأْمُورِ
حَقًّا وَمَنْ مَلأَ الدُّنْيَا مَهَابَتُهُ وسَخَّرَتْ كُلَّ جبارٍ وقيهورِ
مَدَارِ سَلْطَنَةِ الدُّنْيَا ومَرْكَزِهَا خَلِيفَةِ اللَّهِ فِي الآفاقِ مَذْكورِ
مُعْلِي مَعَالِمِ دِينِ اللهِ مُظْهِرِهَا في العَالَمِينَ بِسَعْيٍ مِنه مَشْكورِ
وحُسْنِ رَأْيٍ إِلَى الخَيْرَاتِ مُنْصَرِفٍ وصِدْقِ عَزْمٍ عَلَى الأَلْطَافِ مَقْصُورِ
لآيَةِ العَدْلِ والإِحْسَانِ مُمْتَثِلٌ بِغَايَةِ القِسْطِ والإلطَافِ مَوْفُورِ
مُجَاهِدٍ في سَبِيلِ اللهِ مُجْتَهِدٍ مُؤَيَّدٍ مِنْ جَنَابِ القُدْسِ مَنْصُورِ
بِلَهْذَمِيٍّ إِلَى الأَعْدَاءِ مُنْعَطِفٍ ومشْرَفيٍّ عَلَى الكُفَّارِ مَشْهُورِ
وَرايَةٍ رُفِعَتْ لِلمَجْدِ خَافِقَةٍ تَلْوِي عَلَىٰ عَلَمٍ بالنَّصْرِ مَنْشُورِ
وعَسْكَرٍ مَلأَ الآفَاقَ مُحْتَشِدٍ مِنْ كُلِّ قُطْرٍ مِنَ الأَقْطَارِ مَحْشُورِ
لَهُ وَقَائعُ في الأَكْنَافِ شَائِعَةٌ أَخْبَارُهَا زُبِرَتْ فِي كُلِّ طَامُورِ

يَا نَفسُ ما لك في الدُّنيَا مُخَلَّفَةٌ ... مِنْ بَعْدِ رِحلَتِهِ مِنْ هَذِهِ الدُّورِ
حقٌّ على كل نفسٍ أن تموتَ أسى ... لَكِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ غَيْرُ مَقْدُورِ
فَلِلْمَنَايَا مَقَادِيرٌ مُعَدَّدَةٌ ... تَأْتِي عَلَىٰ قَدَرٍ فِي اللَّوحِ مَسْطورِ
وَلَيْسَ في شَأْنِهَا للنَّاسِ مِنْ أَثَرٍ ... ومَدْخَلٍ مَا بِتَقْدِيم وتَأْخِيرِ
يَا نَفسُ فاتَّئِدي لاَ تَهْلِكِي أَسَفًا ... فَأَنْتِ مَنْظُومَةٌ فِى سِلْكِ مَقْدُورِ
إذْ لَسْتِ مَأْمورَةً بالمُسْتَحِيلِ وَلاَ ... بِمَا سِوَى بَذْلِ مَجْهُودٍ ومَيْسُورِ
ولاَ تَظُنِّينَهُ قَدْ مَاتَ بَلْ هُوَ ذَا ... حَيٌّ بِنَصٍّ مِنَ القُرْآنِ مَزْبُورِ
لَهُ نَعِيمٌ وَأَرْزَاقٌ مُقَدَّرَةٌ ... تَجْرِي عَلَيْه بِوَجْهٍ غَيْرِ مَشْعُورِ
إنَّ المَنَايَا وإنْ عَمَّتْ مُحَرَّمَةٌ ... عَلَىٰ شَهِيدٍ جَمِيلِ الحَالِ مَبْرُورِ
مُرَابِطٍ في سَبِيلِ اللهِ مُقْتَحِمٍ ... مَعَارِكَ الحَتْفِ بِالرِّضْوَانِ مَأْجُورِ
مَا مَاتَ بَلْ نَالَ عَيْشًا بَاقِيًا أبدًا ... عَنْ عَيْشٍ فَانٍ بِكُلِّ الشَّرِّ مَعْمُورِ
إبْتَاعَ سَلْطَنَةَ العُقْبَىٰ بِسَلْطَنَةِ الدْ ... دُنْيَا فَأَعْظِمْ بِرِبْحٍ غَيْرِ مَحْصُورِ
بَلْ حَازَ كِلتَيْهِمَا إذْ حَلَّ مَنْزِلَةً ... مَنْ لَمْ يُغَايِرْهُ فِي أَمْرٍ ومَأْمُورِ
أَمَا تَرَىٰ مُلْكَهُ المَحْمِيَّ آلَ إِلَىٰ ... سِرٍّ سَرِيٍّ له في الدَّهْرِ مَشْهُورِ
وَلِيِّ سَلْطَنَةِ الآفَاقِ مَالِكِهَا ... بَرًّا وبَحْرًا بعَيْنِ اللُّطْفِ مَنْظُورِ
ظِلِّ الإلَهِ مَلاَذِ الخَلْقِ قَاطِبَةً ... ومُلْتَجَا كُلِّ مَشْهُورٍ ومَذْكُورِ
فَإِنَّهُ عَيْنُهُ فِي كُلِّ مَأْثَرَةٍ ... وَكُلِّ أَمْرٍ عَظِيمِ الشَّأْنِ مَأْثُورِ
وَلاَ امْتِيَازَ وَلاَ فُرْقَانَ بَيْنَهُمَا ... وَهَلْ يُمَيَّزُ بَيْن الشَّمْسِ والنُّورِ
سَمَيْدَع مَاجِد زَادَتْ مَهَابَتُهُ ... تَخْتَ الخلافةِ في عِزٍّ وتَيْقُورِ
جَدَّ الجَدِيدانِ فِي أَيَّام دَوْلَتِهِ ... صَارَا كَأَنَّهُمَا مِسْكٌ بِكَافُورِ
أَضْحَتْ بِقَبْضَتِهِ الدُّنْيَا بِرُمَّتِهَا ... مَا كَانَ مِنْ مجهلٍ مِنْهَا ومَعْمُورِ
بَدَا بِطَلْعَتِهِ والنَّاسُ في كَرَبٍ ... وسُوءِ حَالٍ مِنَ الأَحْوالِ مَنْكُورِ
فَأَصْبَحَتْ صَفَحَاتُ الأَرْضِ مُشْرِقَةً ... وعَادَ أَكْنَافُهَا نُورًا عَلَىٰ نُورِ
سُبْحَانَ مِنْ مَلِكٍ حلَّتْ مَفَاخِرُهُ ... بَحْرَ البَيَانِ بِمَنْظُوم ومَنْثُورِ
كَأَنَّهَا ويَرَاعَ الوَاصِفِينَ لَهَا ... بَحْرٌ خَمِيسٌ إِلَىٰ مِنْقَارِ عُصْفُورِ
لاَ زَالَ أَحْكَامُهُ بالعَدْلِ جَارِيَةً ... بَيْنَ البَرِيَّةِ حَتَّىٰ نَفْخَةِ الصُّورِ

ثم تولى السلطان سليم الثاني ابن سليمان خان(١) وجلس على سرير السلطنة في سنة أربع وسبعين وتسعمائة

بويع بعد موت والده في التاريخ المذكور، فلما جلس على سرير السلطنة سار على نمط والده في العدل والإنصاف، ثم بادر في قيام شرائع الدين، فبنى جامعًا عظيما بأربع منائر كاملة الارتفاع بـ« أدرنة »، ومدرسة عظيمة للعلم بعمومه ومدرسة مفخمة برسم القراءات، وهو أول من عمر ذلك المحل المذكور، وعمر عمارة برسم الطعام للخاص والعام بمدينة قونية، وعمر خانات للمسافرين فيها كفاية النازلين بها مع دوابهم من الطعام والشراب، وأنشأ بلدة كاملة تعرف بقره نكار، وكانت خربة جميعها فحصل بها غاية النفع للمسلمين سيما المسافرين لأنها كانت معقلا لقطاع الطريق الكسجية.

وله فتوحات عظيمة من أعظمها الأقطار اليمنية؛ لأنها في آخر الدولة السليمانية اختل أمرها وهجم أهلها الطاغون على أعظم مدنها وملكوه، بل سمعنا أنه لم يبق في الحماية العثمانية إلا مدينة « زبيد » فقط، فلما جلس مولانا صاحب الترجمة على سرير السلطنة أمر بالتجهيز إليها، فعين لذلك وزيره الأكبر سنان باشا، فبرز من الديار المصرية أواخر عشر السبعين وتسعمائة في جيش كثيف بالخيل المسومة، والعساكر الشجعان المعظمة، وطوائف من السناجق السلطانية، وعدة من المدافع فوق المائة، فلما وصلوا إلى مكة البهية عرضوا لها عرضة عظيمة وأظهر أبهة الملك والسلطان.

قال السيد محمد الحسيني في تاريخه المسمى « الروضة الأنيقة في سلطان الحجاز على الحقيقة »: أخبرني الثقة أنه سمع كاتب العساكر أنهم يعلقون كل ليلة أربعة وعشرين ألف عليقة.

وله فتوحات عظيمة منها: فتح جزائر ساقس، وكل جزيرة فيها مدن عظيمة وكنائس وقلاع حصينة.

وعاد على المسلمين من هذه الفتوحات غنائم وأسرى لا تعد ولا تحصى، وانتفع بها بيت المال وجميع أركان الدولة، وسائر الرعايا انتفاعًا ظاهرًا غزير المحصول كثير المنافع، وأمن بذلك الصادرون والواردون بحرًا وبرًا.

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ٩٧ - ١٠٢ .

وله خيرات كثيرة بالحرمين الشريفين من الأجزاء القرآنية، والنقود والحبوب المرتبة كل عام أسوة أسلافه الكرام طاب ثراهم بدار السلام.

وكان مولانا صاحب الترجمة من طاعة والده المرحوم المبرور السلطان سليمان بمحل لا يمكن عنه التعبير، بحيث يراجعه في الجليل والحقير، ويصبر في رضاه على مضض الدهر وضيق العيش والضنك والقهر، وكل ما يبلغه من حاسد ونمام عن والده بالانتقاص والإعراض عنه، والإشارة بالسلطنة إلى غيره من إخوته بالإعطاء، وتمهيد أحوال السلطنة لغيره لا يمنعه ذلك من أنواع البر لوالده بالقول والفعل، ولا يحمله على العقوق، خصوصًا عن والدته فإنها كانت تصرح بعدم صلاحه للملك وقابلية غيره للدولة، وهو على غاية من الصبر وتحمل الجفاء، والتصريح بالتفويض إلى رب السماء، فكانت طاعته لوالديه موجبة لإنعام الله بالملك عليه، فانقرضت إخوته وأعقابهم ووالدته في حياة والده طاب ثراه. فلما مات والده كما ذكرنا شرفه الله بالملك على حالة هينة لم تقع لأحد من أهل هذا البيت أبدًا.

ودام سلطانه إلى أن مات على سرير ملكه وعزه في ثامن شهر رمضان المعظم قدره في عام اثنين وثمانين وتسعمائة، فدرج عتيق رمضان تغمده الله بالرحمة والرضوان.

ومن أعظم حسناته عمارة العين، فقد تقدم أن ابتداء العمارة فى أواخر دولة والده السلطان سليمان وتمامها في أول دولته. وقد قدمنا ذكرهما ومعاناتهما وما صرف على ذلك.

ومن خيراته: ابتداء عمارة المسجد الحرام سنة ثمانين وتسعمائة قبل وفاته بسنتين وإن كان تمامها إنما كان في دولة ولده الآتي بعده مولانا السلطان مراد بن سليم كما سيأتي ذكر ذلك.

وله غزوات شهيرة بالإرسال وهو جالس مكانه، فتح في أيامه السعيدة جزيرة قبرس بالسين المهملة لا بالصاد كما تقوله العامة، ومدينة تونس الخضراء، وممالك اليمن بأسرها. وتوفي إلى رحمة الله تعالى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، ومدة سلطنته ثمان سنين، وعمره الشريف ثلاث وخمسون سنة. وكان شجاعًا كريمًا مهابًا كثير الإحسان من قبل أن يجلس على سرير الملك وبعده.

ومن غزواته: فتح تونس الغرب وحلتي الوادي، وفتح ممالك اليمن واسترجاعها من أيدي العصاة البغاة أهل الإلحاد.

ومنها: فتح جزيرة قبرس بسيف الجهاد، وهي جزيرة على البحر الشامي كثيرة القطر، ومقدارها مسيرة عشرين يومًا، وبها قرى ومزارع وأشجار ومعادن الزاج القبرسي وهي على مر الأيام، رخاؤها شامل، وخيرها كامل، وبها معادن الصفر واللادن الذي يغلب العود في طيبه.

وكان معاوية رضي الله عنه غزاها وصالح أهلها على سبعة آلاف دينار، فنقضوا عليه، فغزاهم ثانية فقتل وسَبَىٰ شيئًا كثيرًا.

وبين جزيرة قبرس وساحل مصر خمسة أيام، وبينها وبين جزيرة رودس يوم واحد.

وإنما سميت جزيرة قبرس بوثن كان هناك يسمى قابرس.

وكانت أم حرام بنت ملحان الصحابية شهدت غزوة قبرس فتوفيت بها.

وأهل قبرس يتبركون بقبرها، ويقولون: هذا قبر المرأة الصالحة، وكانت سألت رسول الله ﷺ أن يدعو لها أن يجعلها الله من الذين يركبون ثبج البحر مجاهدين في سبيل الله ففعل، وهو حديث معروف.

وكان الأوزاعي يقول: إنا نرى هؤلاء - يعني أهل قبرس - أهل عهد، وإن عهدهم وقع على شرط، وأنه لا يسع المسلمين نقضه إلا بأمر يعرف به غدرهم، ورأى عبد الملك بن صالح فى حدث أحدثوه أن ذلك نقض لعهدهم، فكتب إلى عدة من الفقهاء يشاورهم في أمرهم منهم الليث بن سعد وسفيان بن عيينة وأبو إسحاق الفزاري ومحمد بن الحسن فاختلفوا عليه، وأجاب كل واحد بما ظهر له.

وقد فتحت أيضًا في دولة الشراكسة في دولة الملك الأشرف برسباي، وأسر ملكها، وذلك سنة سبع وعشرين وثمانمائة، ثم فتحت على يد السلطان سليم خان هذا المذكور، وكانت مدة سلطنته ثمان سنين كما تقدم ذكر ذلك.

* * *

ثم تولى السلطان مراد الثالث ابن السلطان سليم ابن السلطان سليمان خان(١)

وجلس بعد وفاة والده سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة.

كان مولده الشريف سنة إحدى وخمسين وتسعمائة، وبذلك انتظم في سلك كريمة قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، بحساب الجمل لأن لفظ الذكر تسعمائة وأحد وخمسون والقاعدة في ذلك مقررة في محلها.

ثم ظهر من خالق السموات، عنايات له وخصوصيات.

منها: أنه نشأ في ظل والده وجده المذكورين على مهاد العز والسلطان في حِجْر الخلافة، راضعًا ثدي العلم والعرفان. لم تعلم له صبوة مع توفر دواعيها، ولم يتناول شيئًا من المحرمات، بل ولا من المكروهات لما فيها، حتى قال أعاظم عرفاء العصر: مولانا المشار إليه ليس له نظير في هذا الدهر.

ومنها: أنه منذ ترعرع في شبابه صانه الله عن المحاربة والمخاصمة الناشئة عن حظوظ النفس وحب الرئاسة، واستعمل نفسه في العلم والعمل، ثم في الاستعداد للخلافة الإسلامية مع كمال النزاهة والعفة والنفاسة.

ومنها: أن طريقته في الملبس والمأكل والمشرب والمركب طريقة الصالحين والزهاد، ما عدا ما فيه خلل لنظام الملك أو ضرر للعباد.

وكان جلوسه على تخت الخلافة الإسلامية في ثامن شهر رمضان في اليوم الذي توفي أبوه فيه من عام اثنين وثمانين وتسعمائة، فجلس جلوسًا جامعًا لفضل الزمان والمكان، والافتنان في فعل الخيرات والمرتبات في مباديه. مما فعله أسلافه في غاياتهم مما لا شك فيه. ومنحه الله تعالى من كثرة الخراج والخزائن والعساكر ما لم يجمعه أحد من أسلافه الأكابر. فإذا عزم على فتح أعظم الممالك جهز شرذمة من عساكره المنصورة ففتح كل صعب المسالك.

ومن النعمة العظمى: إتمام عمارة المسجد الحرام، وكان ترميمه في زمان جده مولانا السلطان سليمان، ثم كان ابتداء هدمه وتعميره في زمان والده السلطان سليم

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١٠٣ - ١٠٧ .

سنة تسعمائة وثمانين. وتمام التعمير في زمانه، فأرخ ذلك جدي العلامة جمال الدين العصامي بشطر بيت هو قوله: [من الرجز]

تـاريـخُ هَـدْمِ الـمَـسْـجِـدِ فِـى رَابِـعِ الـعـشْـرِ بُـدِي

وهو تاريخ عجيب إذا معناه الحسابي يؤدي إلى تعيين السنة، ومعناه اللفظي يؤدى إلى تعيين يوم البدأة.

وسبب أمره الشريف بتعمير المسجد أن الرواق الشرقى منه مال إلى نحو الكعبة الشريفة بحيث برزت رءوس خشب سقفه الثاني لأنه كان مسقفًا سقفين بينهما قدر ذراعين بذراع العمل عن محل تركيبهما من جدر المسجد، وذلك الجدر هو جدر مدرسة السلطان قايتباي، وجدر مدرسة الأفضل التي هي الآن وقف عباد الله، وقدر مفارقة الخشب عن موضع تركيبه أكثر من ذراع، ومال وجه الرواق الشرقى إلى صحن المسجد ميلا ظاهرًا، فبادر نظَّار الحرم يصلحون ذلك المحل الذي فارق بتعديل خشب السقف بأطول منه، وأعمدوا الرواق المائل إلى صحن المسجد بأخشاب كبار حفر لها في المسجد تمسكه عن السقوط، وذلك كله في دولة السلطان سليمان، واستمر متماسكا على هذا الأسلوب من أواخر دولته إلى صدر دولة ابنه مولانا السلطان سليم، ففحش ميل ذلك الرواق، وعرض على الأبواب فبرزت الأوامر من السلطان سليم بالمبادرة إلى بناء المسجد جميعه على وجه الإتقان والإحكام، وأن يجعل عرض السقف قببًا دائرة بأروقة المسجد ليؤمن تآكل الخشب، فعين لذلك بكلربكي مصر سابقًا فخر الأمراء العظام أحمد بك، وأضيف إليه في هذه الخدمة سنجق جدة، فوصل الأمير أحمد بك في آخر ذي الحجة الحرام سنة ٩٧٩ تسع وسبعين وتسعمائة، وكانت الأوامر الشريفة وردت أن يكون الناظر على هذه العمارة والمتكلم عليها عن جانب السلطنة سيدنا ومولانا القاضي الحسين المالكي ففرح بهذه الخدمة الفرح التام، وشد نطاق حزمه على ناطق عزمه، وقام.

وحصل بين مولانا القاضي وبين أحمد بك الملاءمة والاتفاق، وبذلك يحصل تمام النجح والارتفاق، فاتفق رأي الناظر والأمين والمعمار على الشروع في الهدم، فشرع فيه رابع عشر ربيع الأول من سنة ثمانين وتسعمائة كما تقدمت الإشارة إليه بتاريخ الجد جمال الدين العصامي، وكان ابتداء الهدم مكانًا من باب السلام من

تحت منارته إلى باب علي، ومنه أيضًا إلى باب بني سهم المعروف بباب العمرة، وأخذت المعاول تعمل في شرفات المسجد وطبطاب سقفه ثم كشفوا عن أساسه فوجدوه مختلا، وكان جدارًا عظيمًا نازلا في الأرض على هيئة بيوت رقعة الشطرنج، وكان على موضع التقاطع على وجه الأرض قاعدة تركب الأسطوانة عليها فشرع في وضع الأساس على وجه الإتقان والإحكام بالنورة المخمرة إلى أن طلع الأساس على وجه الأرض، وكانت الأسطوانات المبنية سابقًا على نسق واحد في جميع الأروقة من الرخام جميعها، إلى أن وقع الحريق في الجانب الغربي بالنار الناشئة من رباط « رشت » سنة أربع وثمانمائة في دولة الملك الناصر فرج بن برقوق من الشراكسة فاحترق منه أساطين الرخام وذابت، فأرسل - من أمرائه - الأمير بيسق إلى مكة فعمر الجانب الذي احترق، وأبدل من الأعمدة الرخام المحترقة أعمدة من الحجر الصوان المنحوت، وصارت الجوانب الثلاثة بالأعمدة الرخام ما عدا هذا الجانب الغربي فهو من الحجر الصوان المنحوت، فلما وقع هذا التعمير أدخلت في هذه العمارة العثمانية دعائم من الحجر الشميسي الأصفر غلاظ بعد كل ثلاث دعائم من الرخام دعامة منها لتقوى على تركيب القبب فوقها، وبإدخال الدعائم الشميسي الأصفر، صارت الأساطين كلها على نسبة واحدة، وهي أن كل ثلاث من الرخام رابعتها واحدة من الشميسي، وذلك في غالب الأروقة من الجوانب الأربع من المسجد الشريف كأنها قائمة بغاية الأدب حول بيت الله المنيف، وهي أعلى من ارتفاع سقفها السابق كأنها تنشد بلسان حالها مفتخرة على أمثالها: [من الكامل]

إنَّ الذي سمَكَ السَّماءَ بنَىٰ لها بيتًا دَعَائِمُهُ أعزُّ وأَطْوَلُ

واستمر الحال في هذه العمارة على هذا المنوال إلى أن تم منه الجانب الشرقى والجانب الشمالي إلى باب العمرة فما عمر مولانا السلطان سليم - أسكنه الله جنات النعيم - إلى أن تتم العمارة، وسلم ملكة الشريف السعيد إلى نجله السعيد صاحب الترجمة مولانا السلطان مراد ابن السلطان سليم خان فبرز أمره الشريف لأمير العمارة الشريفة المشار إليه أحمد بك المذكور، وأن يبذل جهده وجده في الإتمام لعمارة المسجد الحرام، فأعانه الله تعالى على إتمامها وأمد كذلك سائر خدامها، إلى أن تمت عمارة الجانبين الغربي والجنوبي من المسجد الحرام بجميع أبوابه وأعتابه،

ودرجاته من داخله وخارجه، وكان ذلك في أواخر سنة أربع وثمانين وتسعمائة، وصار المسجد الحرام نزهة المناظر، وبغية للخاطر، وجلاء للنواظر والخواطر، بحيث صار ما عمره الخلفاء العباسيون قبل ذلك لا يحسن عنده أن يذكر ويوصف؛ لأن هذا البناء أمكن وأزين وأعلى وأشرف.

وكان جملة ما أنفق على عمارته مائة ألف وعشرة آلاف دينار ذهبًا غير الآلات والرصاص والنحاس والخشب، وأهلَّة القبب المعمولة بمصر المطلية بالذهب.

وجدد خيرات تفرد بها منها: مدرسة وتكية بالمدينة الشريفة، ومدرسة بمكة، وسبيل عظيم في بنائه وفرشه وعذوبة مائه.

وجدد بالروضة جملة من الدروس العلمية بمعلوم قدره كل عام مائة وخمسون دينارًا ذهبًا جديدًا للمدرس ومائة دينار جديد للطلبة لكل واحد عشرة على الدوام، وحدد في كل عام ألف دينار ذهبًا لمائة نفر من الحجاج يدعون له بخير الدنيا والآخرة عند البيت العتيق.

وفي عام ست وثمانين وتسعمائة شرع في فتح الممالك العجمية الطهماسبية وعساكره المنصورة يتبع بعضها بعضًا من غير انقطاع، فملكه الله تعالى أعظم تلك البقاع وأحصن تلك القلاع.

وفي سنة ٩٨٨ ثمان وثمانين وتسعمائة أمر بكتب أسماء الخلفاء الأربعة بعد الله ورسوله بخط كبير عظيم نقرًا في جدر المسجد الشرقي مموهًا بالذهب الصرف على أحسن قاعدة خط بديع رائق قل أن تحاكيه المهرة في بطون المهارق بين الباب المنسوب إلى سيدنا علي كرم الله وجهه، والباب المنسوب إلى عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه، ولم أظفر على حقيقة السبب لذلك إلا ما يسمع من أفواه الرواة ولم تروه أخبار الثقات.

وجملة عدد الأسطوانات الرخام ثلاثمائة وأحد عشر، والأسطوانات الشميسي مائتان وأربع وأربعون، وعدد القبب مائة واثنتان وخمسون فيه شرقية أربع وعشرون ومثلها غربية، وشامية ست وثلاثون ومثلها جنوبية، وواحدة في ركنه من جهة منارة «حزورة»، والطواجن مائتان واثنان وثمانون طاجنًا. وعدد شرفاته ألف وثلاثمائة وثمانون شرفة.

وجملة أبوابه تسعة عشر بابًا تفتح على تسعة وثلاثين طاقًا كل ذلك مسمى معلوم مشاهد.

وجعلت في عمارة المسجد الشريف تواريخ عديدة.

قال القطب النهروالى: رأيت لبعض الفضلاء تاريخًا لتمام عمارته وذلك في سنة ٩٨٤ أربع وثمانين وتسعمائة في بيت مفرد فأعجبنى نظمه لحسن سبكه واستيفاء المعنى فيه فذكر به وهو هذا البيت: [من الخفيف]

جَدَّدَ المَسْجِدَ الحَرَامَ مُرَادٌ ... دَامَ سُلْطَانُهُ وطَالَ أَوَانُهُ

قلت: هذا البيت هو لجدي العلامة جمال الدين العصامى كما رأيته بخطه في تذكرته عزاه إلى نفسه.

ولمولانا القاضي الحسين تاريخ منثور هو قوله: «أطال الله لمن أتمه عمرا» وورد تاريخ من الأبواب السلطانية معه حكم شريف برسمه على طراز باب سيدنا العباس في ظاهر الرواق فرسم هنالك وهو لقاضي العسكر نثرًا قوله: «الحمد لله الذي أسس بنيان الدين المتين بنبي الرحمة والرشاد، وخصه بمزيد الفضل والكرامة والإسعاد» وهو فيه بعض تطويل وفي آخره نظم ثلاثة أبيات تتضمن التاريخ وهي هذه: [من الرمل]

جَدَّدَ السلطانُ مرادُ بنُ سَلِيم ... مَسْجِدَ البيتِ العَتِيْقِ المُحْتَرَمْ
سُرَّ مِنْهُ المُسْلِمُونَ كلُّهُمْ ... دَامَ منصورَ اللواءِ والعَلَمْ
قال رُوحُ القدسِ في تاريخِهِ ... عَمَّرَ سُلْطَانُ مُرَادُ الحَرَمْ

وفي سنة الألف عزل مولانا السلطان مراد آغاة الينيشرية، وكان ظالمًا فأرخ عزله شاعر نظما باللغة التركية معناه: لو قطع السلطان رأس الأغا ورجله لكان له تاريخًا عجيبًا: رأس الأغا الهمزة من لفظه، ورجله الألف الأخيرة فيبقى الغين بألف هى سنة عزله.

وكانت وفاة مولانا السلطان مراد سنة ١٠٠٣ ثلاث بعد الألف، وسنه الشريف يوم ولي ثلاثون سنة، ومدة سلطنته عشرون سنة وتسعة أشهر وستة أيام.

ثم تولى السلطان محمد(١) ابن السلطان مراد ابن السلطان سليم ابن السلطان سليمان خان

وجلس سنة ثلاث وألف، وغزا بعسكره إلى غزوة مجر، وحصل هناك قتال، ومَنَّ الله عليه بالنصر فعاد مؤيدًا منصورًا.

وولي الملك بعد وفاة أبيه، وبدأ بترخيم المطاف الشريف، والتجهز بنفسه إلى جهاد الفرنج أعداء الدين وأيده الله بالنصر والظفر المبين، وأبدى في مباشرته الحرب بنفسه ما أبهر، وأنبأ بعلو همته وقوة سجيته، فإن ذلك لم يتفق إلا نادرًا، ثم عاد بالنصر التام إلى تخت مملكته وفي تاريخ ترخيم المطاف أبيات للإمام عبد القادر مطلعها: [من الكامل]

يَا مَنْ يَلُوذُ بكَعْبَةٍ وحَطِيمِ وبِهَا يَطُوفُ بِخَالِصِ التَّعْظِيمِ

وهى نحو أربعة وعشرين آخرها بيت التاريخ وهو:

قد دبَّرَ السُّلْطَانُ أيد مُلْكَهُ بَذْءَ المَطَافِ جَرَىٰ بِكُلِّ نعيْمِ

توفي إلى رحمة ربه سنة اثنتي عشرة وألف.

وكانت مدة سلطنته تسع سنين ونصف شهر، تغشاه الله بالرحمة والرضوان.

ثم تولى السلطان أحمد ابن السلطان محمد ابن السلطان مراد ابن سليم بن سليمان بن سليم خان(٢)

وجلس على سرير الملك سنة اثنتي عشرة وألف وبنى جامعه المعروف، المزخرف بأنواع الزينة، وقتل من كان في أيامه من البغاة والجلالية.

وله خيرات عديدة.

وكان كثير الخير والمعروف بحيث إنه جعل لأهل الحرمين وقفًا بمصر يجمع مغله في كل عام ويرسل إلى مكة صحبة الركب المصري عوضًا عن مال بندر جدة المعمورة لانقطاعه بموجب عدم وصول المراكب الهندية فهو المعروف بالأحمدية.

وفي سنة ست وعشرين بعد الألف أرسل إلى أعيان مكة المشرفة من شريفها وقضاتها وأئمتها وخطبائها كسوة عظيمة، فلبس كل من المذكورين ما أرسل به إليه،

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١٠٨ - ١١٢ .
(٢) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١١٣ - ١١٨ .

وكان ذلك أول النهار تجاه البيت الشريف.

وأرسل في عام عشرين الباشا حسن المعمار لعمارة عين مكة المشرفة، فوصل في أوائل ذي الحجة من العام المذكور وعمَّر العين وأصلح بعض إصلاحات كانت بالكعبة الشريفة جزاه الله خيرًا.

وموجب الإصلاح حصول تشعُّب قليل في الجانب الشمالي، فأصلحه بحزام حديد تحت الطراز كالطراز مصفح بالفضة مطلي بالذهب.

ووصل معه من الديار الرومية بميزاب الكعبة الشريفة ثم ركبه بمحله بعد أن قلع الميزاب الأول، وأرسله إلى الحضرة الشريفة السلطانية، واستمر بها إلى أن وقع سقوط الجدران في دولة السلطان مراد بن أحمد سنة تسع وثلاثين، فرفع ذلك الإزار الحديد، وسبك فضته متعاطو العمارة ولم يجعلوا عوضه عليها لعدم الاحتياج إليها بعد عمارتها.

قلت: وكان تمام ذلك الإصلاح عام أحد وعشرين بعد الألف.

وفي مصلى الجمعة لوح رخام مثبت في شاذروان البيت الشريف منقور فيه ذكر ذلك.

وفيه « وقد جاء تاريخه من القرآن العظيم: أسس بنيانه على تقوى من الله »، وهو حساب إحدى وعشرين وألف وهو من عجيب الاتفاق وأيمنه.

وكانت مدة سلطنته أربع عشرة سنة وأربعة أشهر.

ثم تولى السلطان مصطفى بن محمد أخوه(١)

وجلس على تخت الملك سنة سبع وعشرين وألف، كان السلطان أحمد بن محمد عند موته عهد بالسلطنة له، وذلك لصغر سن السلطان عثمان ابنه، فاستقر فيها بعد موت أخيه السلطان أحمد بن محمد ثلاثة أشهر، ثم دبر كزلار أغاسى الطواشي في خلع السلطان مصطفى وتولية السلطان عثمان بن أحمد، فخلع مصطفى وبقي في السرايا مخلوعًا إلى أن تولى التولية الثانية كما سيأتي، وكان خلعه ليلة الأربعاء ثالث ربيع أول من سنة ١٠٢٨ ثمان وعشرين وألف فكانت مدته هذه ثلاثة أشهر وعشرة أيام.

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١١٩ .

ثم تولى السلطان عثمان بن أحمد خان بن محمد خان(١)

فهو ابن أخي السلطان مصطفى بن محمد، وجلس على تخت الملك ثالث ربيع الأول سنة ١٠٢٨ ثمان وعشرين وألف، تولى بعد القبض على عمه مصطفى في التاريخ المذكور.

وكان عالمًا فاضلاً شجاعًا مطاعًا شريفًا يدور بالسيف والسنان، ويحمي بطوقه وطوعه بيضة الإسلام والإيمان، ثم شغب الجند على قزلار أغاسي، فنفوه إلى مصر بعد أن أرادوا قتله، وكان مقرب الحضرة السلطانية، ومدبر الدولة العثمانية.

ثم قبضوا على السلطان عثمان، وأحضروا عمه مصطفى وأجلسوه على تخت السلطنة ثانيًا، وقتلوا عثمان وكانت سنه حين التولية نحو عشر سنين، وسنه عند القتل نحو تسع عشرة سنة.

وسبب قتله أنه عزم على الحج سنة إحدى وثلاثين وألف، وصمم على ذلك، وأمر بالخيام والمضارب والوطاق أن يضرب ظاهر القسطنطينية، فأجمع رأى أرباب دولته، وأركان سلطنته على خلعه إن لم يرجع، فدخلوا عليه وأشاروا عليه بالترك وقالوا: إنك غزوت الفرنج وقتلتهم وسبيتهم، وفي قلوبهم منك أمر عظيم فنخاف بعد عزمك، وانفصالك عن التخت إلى الحجاز مع بعد المسافة أن تثب الفرنج على المملكة، ويصعب خروجهم منها، مع أن هذا ليس قانون آبائك وأجدادك، وخوفوه بذلك فلم يمتنع، وصمم على العزم إلى الحج وخرج لذلك وسلك أول طرق هذه المسالك فكتب له الثواب، وحصل له أجر القصد في الحال والمآب. قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . . ﴾ [النساء: ١٠٠] الآية، فلما عرفوا منه التصميم قتلوه وأعادوا عمه السلطان مصطفى كما ذكرنا، كذا في « منهل الظمآن لأخبار دولة آل عثمان » للشيخ العلامة محمد على بن علان.

وكان قتله يوم الخميس سابع رجب الأصب من سنة ١٠٣١ وفيه يقول بعض أدباء الشام مؤرخًا: [من الوافر]

قَضَى عُثْمَانُ سُلْطَانُ البَرَايَا بِأَسْيَافِ العَسَاكِرِ والجُنُودِ
وَوَافَتْهُ المَنِيَّةُ في السَّرَايا مؤرَّخةً كَعُثْمَانَ الشَّهِيدِ
سنة ١٠٣١

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١٢٠ - ١٢٥ .

وقال آخر مؤرخًا أيضًا: [من مجزوء الرمل]

قَدْ قَضَىٰ عُثْمَانُ ظُلْمًا حِينَ خَانَتْهُ الجُنُودُ
واللَّيَالِي أَرَّخَتْهُ إنَّ عثمانَ شَهِيدُ
سنة ١٠٣١

ومدة تصرفه ثلاث سنين وأربعة أشهر وأربعة أيام.

ثم تولى السلطان مصطفى(١) بن محمد خان وهذه هي التَوْلِيَةُ الثانية

وذلك أنه لما كان يوم خامس رمضان سنة إحدى وثلاثين ورد الخبر بوفاة السلطان عثمان، وتولية السلطان مصطفى عمه، وكان ذلك في سابع رجب من السنة المذكورة، فزينت مكة سبعة أيام ودعى له على المنبر الشريف المكي يوم الجمعة عاشر ذي القعدة الحرام من السنة المذكورة، وصلي على السلطان عثمان صلاة الغائب، وقرئت له ربعة حضرها الأعيان وذلك بأمر مولانا الشريف إدريس، واستمر إلى أن خلع في منتصف ذي القعدة الحرام من السنة الثانية والثلاثين بعد الألف، فكانت مدة تصرفه في التولية الثانية سنة وثلاثة أشهر ونصفًا.

ثم تولى السلطان مراد الغازي ابن أحمد ابن محمد بن مراد بن سليم بن سليمان بن سليم خان(٢)

جلس على سرير الملك منتصف ذي القعدة الحرام عام اثنين وثلاثين وألف جلوسًا عامًا، وأخذ السيف في يده، وأخذ ثأره من الأعداء، وهم قتلة أخيه عثمان ابن أحمد، وفتح قلعة وان.

ثم بعد سنين توجه بعسكر عظيم، وفتح بغداد، وذلك سنة ثمان وأربعين وألف وجعل جميع من كان فيها من الروافض طعمة سيفه.

وهو السلطان القائم بشعائر الإسلام المتأيد بعناية الملك العلام. فارس ميدان المنازلة إذا حمي الوطيس، وقيل: هل من مبارز، ومسقي رءوس الأسل من صدور يؤكد الشر فيها الضمير البارز، ذو الهمة التي لو تعلقت بالجو لاستنزلت منه ما تعلق بالثريا، والفواضل التي لو كفت سحائب المزن لكفت القلوب ريه، والشيم التي لا

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١١٩ .
(٢) ينظر السابق (ص ١٢٦ - ١٣٥) .

يدانيه فيها أحد، والمزايا التي لا تحصرها العبارة ولا يستقصيها العد.

ولي بعد عمه السلطان مصطفى في التاريخ المتقدم ذكره، وورد الخبر أوائل ذي الحجة منها إلى مصر فخطب له بها وزينت مكة سبعة أيام وقام بالملك على وجه السداد، وأعلى ذكره على السبع الشداد.

وكانت سنه حين ولي أربع عشرة سنة. وفي ذلك يقول فخر الأدباء بكري الصراف: [من الكامل]

لَمَّا أَرَادَ اللهُ نَفْعَ عِبَادِهِ ... وَلَّى مُرَادًا مُلْكَ خيرِ بِلادِهِ
وأَمَدَّهُ مِنْ فَضْلِهِ بِعِنَايَةٍ ... جَعَلَتْ عِدَاهُ تَحْتَ نَعْلِ جَوَادِهِ
وَشَدَا لِسَانُ الحَالِ فِي تَارِيخِهِ ... بُشْرَىٰ لَهُ قَدْ نَالَ كُلَّ مُرادِهِ
سنة ١٠٣٢

ولم يزل قائما بشعار الملك مقيما لشعائر الإسلام، مجهزًا عساكره المنصورة إلى افتتاح البلدان، وتوجه بنفسه الشريفة في عام خمس وأربعين إلى غزو العجم فافتتح كثيرًا من بلدانهم وافتتح بغداد عام ثمان وأربعين بعد الألف، ثم رجع إلى تخت مملكته اسطنبول، وأبقى على عسكره المنصور سردارًا معينا.

ويحكى أنه أرسل إلى مصر المحروسة درقة نحو إحدى عشرة طبقة ضربها بعود فثبت فيها، وبرز أمره الشريف إلى العساكر المصرية بإخراج العود منها، وأن من أخرجه يزاد في جامكيته كذا وكذا، فحاولوا إخراجه فعجزوا عن ذلك.

ثم أرسل قوسًا ومعها همايون شريف يخاطب به وزير مصر مضمونه أمر العساكر والأجناد بجر هذا القوس وزيادة علوفة من يفعل ذلك، فحاول العسكر جره فلم يقدروا، ثم علقت الدرقة بالديوان الشريف العالي بمصر المحروسة وعلق القوس بباب زويلة.

وقد جعل بعض الأرْوام تاريخًا بالتركى لسنة مجيء القوس وهى سنة ١٠٣٣ ثلاث وثلاثين وألف، وترجم بالعربية بما نصه « يا سلطان الوجود لساعدك القوة ».

ومما يدل على سعادته العظمى توجه خاطره الشريف إلى أهالي الحرمين، وأمره المتولي الجهات خصوصًا مصر بإجراء حبوبهم وإرسال مغلات أوقافهم، فما من همايون يرد منه إلا وفيه الحث على ذلك.

ومما يدل على عناية الله به أن كانت عمارة بيت الله الشريف في زمنه ابتداؤها

وانتهاؤها في أيام دولته، وقد أرخ تلك العمارة مولانا الإمام عبد القادر الطبري في قصيدة قدمها إلى السيد محمد المتولي عمارة البيت الشريف، وهي نحو الثمانية عشر بيتًا مطلعها: [من الخفيف]

عَادَ بَيْتُ الإِلهِ بَعْدَ انْهِدَامِهْ وغَدَا فَائِقًا بِحُسْنِ نِظَامِهْ

إلى أن يقول:

فِلهَذَا طَيْرُ المَسَرَّةِ أَمْسَىٰ مُنْشِدًا عِنْدَ بدئه وختامِهْ

حـالـمَـا أَتَـمَّـهُ بِـمُـرَادِ شيد بَيْت الإله تاريخ عامِهْ

وسجود البيت الشريف وعمارته وما يتعلق بهما مذكور مفرد بالتصنيف لا نطول بذكره، وسنشير إلى طرف من أخباره في دولة مولانا الشريف مسعود بن إدريس فإنها موافقة لدولة السلطان مراد في الزمان المذكور سقوطًا وابتداء تعمير، واستمر مولانا السلطان مراد إلى أن توفي سنة ١٠٤٩ تسع وأربعين وألف، وكانت مدة سلطنته سبع عشرة سنة.

ثم تولى السلطان إبراهيم بن السلطان أحمد[(١)] أخو السلطان مراد المذكور قبله

جلس على تخت الملك سنة وفاة أخيه السلطان مراد وهي سنة تسع وأربعين وألف، وشرع في أيامه في فتح جزيرة كريد، ففتحها إلا قلعة واحدة؛ وذلك لمتانتها غاية المتانة، فاستمر في الملك إلى أن انفتل من مدته سنة ثمان وخمسين وألف، وكانت مدة سلطنته ثمان سنين وثمانية أشهر[(٢)].

ثم تولى السلطان محمد خان الغازي المجاهد[(٣)]

السلطان محمد خان ابن المرحوم السلطان إبراهيم خان ابن مولانا السلطان أحمد خان ابن مولانا السلطان محمد خان ابن مولانا السلطان مراد خان ابن مولانا السلطان سليم خان ابن مولانا السلطان سليمان خان ابن مولانا السلطان سليم خان فاتح مصر والشام ابن مولانا السلطان بايزيد خان ابن مولانا السلطان محمد خان

---

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١٣٦ - ١٤٠ .
(٢) بياض بالمخطوط بقدر ستة أسطر.
(٣) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١٤١ - ١٤٧ .

فاتح القسطنطينية العظمى ابن مولانا السلطان مراد خان ابن مولانا السلطان محمد خان ابن مولانا السلطان يلدرم بايزيد ابن مولانا السلطان مراد خان ابن مولانا السلطان أورخان ابن مولانا السلطان عثمان خان الغازي.

مولده: سنة تسع وأربعين وألف، وهي السنة التي توفي فيها عمه السلطان مراد ابن أحمد.

وجلس على تخت السلطنة في شهر رجب المبارك من شهور سنة ١٠٥٨ ثمان وخمسين وألف، وعمره الشريف إذ ذاك تسع سنين.

له الفتوحات التي لا تحصى والمغازي التي لا تستقصى، أذل بغزواته أعداء الدين، واستباح قلاعهم، وجعلها دارا للمسلمين.

لم تزل أعلام نصره ظاهرة، وآيات سعده باهرة.

فمن فتوحاته الميمونة التي لم تزل بالعز والنصر مقرونة، مدينة قوش آضه وأيوار وزغره ويانق وورط ويانوا وقمانيصه وقندية التي هي كريد؛ لأنها جزيرة وقندية في طرفها، وكان فتحها سنة ثمانين أعني قلعة كريد.

وخذل بذلك كل جبار عنيد وحصل للمسلمين به المسرة ولأعينهم أعظم قرّة، وكان الفتح بها مع عقد هدنة إلى مدة مائة عام.

وهذا على مقتضى مذهب أبي حنيفة النعمان، لأن عقدها موكول إلى نظر السلطان.

وأما عند إمامنا الشافعي فلا يجوز عقدها فوق أربعة أشهر عند قوتنا وفوق عشر سنين عند ضعفنا. ثم إنهم نقضوا العقد ونكثوا العهد فعاد نقضهم عليهم ورجع وباله إليهم.

وقد أرخ الفتح المذكور الشيخ عبد الباقي بن أحمد الشامي في أبيات يقول آخرها: [من السريع]

وحِينَ كَرْبٌ زَالَ أَرَخْتُهُ نَصْرٌ من الله وفَتْحٌ قريبْ

قلت: هو تاريخ لطيف، وحسن الإخراج فيه ألطف، يشير إلى أن مدلول لفظ كرب الحسابي وهو مائتان واثنان وعشرون يسقط فيصير الباقي تاريخ تلك السنة.

وأرخه أيضا الشيخ إبراهيم ابن الشيخ عبد الرحمن الخياري المدني بأبيات أولها قوله: [من السريع]

يا مَعْشَرَ الإسْلامِ قَدْ عَمَّكُمْ فَضْلٌ عَظِيمٌ يَقْتَضِي شُكْرَكُمْ

وآخر قوله:

إنْ قيلَ ما تاريخُ عام أتَى أَلْفَتْحُ والنَّصْرُ إلىٰ شَهْرِكُمْ
فَقُلْ مُجِيبًا صَحَّ تَارِيخُهُ نَصْرٌ مِنَ الله وفَتْحٌ لَكُمْ

هذه المدن الكبار، ولا يحصى ما سواها من الصغار.

واستمر إلى أن ثار عليه الجند فخلعوه وأدخلوه معتقَلاً، وأخرجوا من كان فيه معتقِلاً أخاه مولانا السلطان سليمان بن إبراهيم، وسلموا عليه بالولاية، وضربت باسمه السكة وخفق في موكبه اللواء والراية، فهو سلطان زماننا الآن، أيده الله في المكانة والإمكان. ولم يمكث أن التفت إلى قتال أعداء الدين، وتهيأ لغزو الكفرة الملحدين، فطلبوا الهدنة أربع سنين، فوافقهم على ذلك لما اقتضاه نظره في مصالح المسلمين.

وكان توليته يوم خلع أخيه، وهو يوم السبت ثاني محرم الحرام مفتتح سنة تسع وتسعين وألف، جل من لا يزول ملكه ولا يتبدل، لا إله غيره.

الخاتمة: نسأل الله تعالى حسنها، تحتوي على ثلاثة أبواب

الباب الأول: في ذكر نسب الطالبيين، وذكر المشاهير من أعقابهم.

الباب الثاني: في ذكر من دعا منهم إلى المبايعة، وذكر مكان دعائه إليها وزمانه، وما جرى على كل قائم منهم من خليفة زمانه، وتعدادهم من على بن أبي طالب إلى يومنا هذا، حتى لا تخلو الأرض من قائم من آل محمد يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم إلى أن يظهر مهديها المنتظر، وهذا على غير رأى الإمامية، أما على رأيهم فلا يجوزون الإمامة لغير الاثنى عشر الإمام كما سنذكر ذلك.

الباب الثالث: في ذكر من ولى مكة المشرفة من آل أبي طالب إلى يومنا هذا فنقول وبالله العون:

الباب الأول
في ذكر نسب الطالبيين، وذكر المشاهير من أعقابهم

أما أنساب الطالبيين فأكثرها راجع إلى الحسن والحسين ابني على بن أبي طالب من فاطمة عليهم السلام، وهما سبطا الرسول ﷺ، وإلى أخيهما محمد بن الحنفية، وإن كان لعلي رضي الله تعالى عنه غيرهم من الولد، إلا أن الذين طلبوا الحق في الخلافة، وتعصب لهم الشيعة، ودعوا لهم في الجهات إنما هم من هؤلاء الثلاثة لا من غيرهم.

فأما الحسن: فمن ولده: الحسن المثنى وزيد، ومنهما العقب المشهود له في الدعوة والإمامة. أما الحسن المثنى، فكان جليلاً فاضلاً ورعًا، أمه خولة بنت منظور بن ريان بن سيار بن عمرو بن جابر بن عقيل بن مازن، وكانت قبل الحسن السبط تحت محمد بن طلحة بن عبيد الله التيمي أحد العشرة رضوان الله تعالى عليهم، فقتل عنها يوم الجمل وله منها أولاد، فتزوجها الحسن بن على بن أبي طالب، فسمع بذلك أبوها منظور فدخل المدينة الشريفة، وركز راية سوداء عند باب مسجد رسول الله ﷺ فلم يبق قيسي إلا دخل تحتها، ثم قال: أمثلي يفتات عليه في ابنته؟ فقالوا: لا.

فلما رأى الحسن ذلك سلم إليه ابنته فحملها في هودج، وخرج بها من المدينة، فلما صارت بالبقيع قالت: يا أبت أين تذهب بي؟ إنه الحسن ابن أمير المؤمنين عليه السلام، فقال لها: إن كان له فيك حاجة فسيلحقنا.

فلما صارا في نخل المدينة إذا بالحسن والحسين وعبد الله بن جعفر قد لحقوا بهم، فأعطاه إياها فردها إلى المدينة، وفي ذلك يقول جد حفيز العبسي: [من البسيط]

إنَّ الندَى مِنْ بني ذُبْيَانَ قَدْ عَلِمُوا ... والجودَ في آلِ مَنْظورِ بنِ سَيَّارِ
ألماطرينَ بِأَيْدِيهِمْ نَدًى ديمًا ... وكلُّ غَيْثٍ مِنَ الوَسْمِيِّ مِدْرَارِ
تَزُورُ جارَهَمُ وهنًا هديتُهُمْ ... وما نهاهم لها وهْنًا بزوارِ

وكان الحسن وصيَّ أبيه، وولى صدقة على بن أبي طالب في عصره.

قال في كتاب « أنساب قريش »: كان الحجاج بن يوسف قال للحسن وهو

يسايره في موكبه بالمدينة، والحجاج يومئذ أمير المدينة: أدخل عمك عمر بن على معك في صدقة على، فإنه عمك وبقية أهلك. فقال: لا أغير شرط على ولا أدخل فيها من لم يدخل.

قال: إذن أدخله معك. فنكص عنه الحسن حتى غفل عنه الحجاج، ثم كان وجهه إلى عبد الملك حتى قدم عليه، فوقف ببابه يطلب الإذن، فمر به يحيى بن الحكم فلما رآه يحيى، عدل إليه فسلم عليه، وسأله عن مقدمه وخبره وتحفى به، وقال له: إني سأنفعك عند أمير المؤمنين يعني عبد الملك.

فدخل الحسن على عبد الملك فرحب به وأحسن مسألته: وكان الحسن قد أسرع إليه الشيب، ويحيى بن الحكم في المجلس، فقال له يحيى: وما يمنعه يا أمير المؤمنين شيبته أماني أهل العراق كل عام يقدم عليه منهم ركب يمنونه الخلافة. فأقبل عليه الحسن بن الحسن، فقال: بئس والله الرفد رفدت، وليس كما قلت، ولكنا أهل بيت يسرع إلينا الشيب، فأقبل عليه عبد الملك، فقال: هلم ما قدمت له؟ فأخبره بقول الحجاج فقال له: ذلك إليك، اكتبوا إليه كتابا لا يجاوزه ووصله، فلما خرج من عنده لقيه يحيى بن الحكم، فعاتبه الحسن على سوء محضره، وقال: ما هذا الذي وعدتني.

فقال له: إيهًا عنك فوالله لا يزال يهابك، ولولا هيبته إياك ما قضى لك حاجة، وما آلوتك رفدًا.

وكان عبد الملك بن مروان غضب عليه، فكتب إلى هشام بن إسماعيل بن هشام ابن الوليد بن المغيرة عامله على المدينة، وكانت بنت هشام تحت عبد الملك بن مروان، وولدت له هشام بن عبد الملك: أن أقم آل على يشتمون على بن أبي طالب، وأقم آل الزبير يشتمون الزبير. فقدم كتابه على هشام، فأبى كل منهما ذلك، وكتبوا وصاياهم، فركبت أخت هشام إليه وكانت جزلة عاقلة فقالت: يا هشام أتراك الذي تهلك عشيرته على يده؟ راجع أمير المؤمنين. فقال: ما أنا بفاعل، قالت: فإن كان لابد من ذلك فمر آل على يشتمون الزبير، وآل الزبير يشتمون عليًا.

قال: هذه أفعلها. فاستبشر الناس بذلك وكان أهون عليهم. فكان أول من أقيم إلى جانب المرمر الحسن المذكور وكان رجلاً رقيق البشرة عليه يومئذ قميص كتان

رقيق، فقال له هشام: تكلم فسب الزبير، فقال: إن لآل الزبير رحماً أبلها ببلالها وأربها بربابها، يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار.

فقال هشام لحرسي عنده: اضربه، فضربه سوطًا واحدًا من فوق قميصه، فخلص إلى جسده، فشرحه حتى سأل دمه تحت قدميه في المرمر. فقام أبو هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية، فقال: أنا دونه أكفيك أيها الأمير فنال من آل الزبير فشتمهم.

ولم يحضر على بن الحسين -كان مريضًا أو تمارض - ولم يحضر عامر بن عبد الله بن الزبير، فهم هشام أن يرسل إليه، فقيل له: لا تفعل أفتقتله؟ فأمسك، وحضر من آل الزبير من كفاه.

وكان عامر يقول: إن الله لم يرفع شيئًا فيستطيع الناس خفضه، انظروا إلى ما تصنع بنو أمية يخفضون عليًا، ويغرون بشتمه، وما يزيده الله بذلك إلا رفعة.

وكان ثابت بن عبد الله بن الزبير غائبًا، فقدم فقال لهشام بن إسماعيل: إني لم أحضر هذا الجمع فاجمع الناس حتى آخذ بنصيبي. فقال هشام: وما تريد بذلك ولود من حضر أنه لم يحضر.

فقال: لتفعلن أو لأكتبن إلى أمير المؤمنين بعرضي نفسي عليك فلم تفعل، فجمع له الناس فقام فيهم فقال: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ إلى ﴿ كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة:٧٨:٧٩] لعن الله من لعن، ولعنته قوارع القرآن، لعن الله المندوب يلعنه الله بين عينيه إلا شدة لطيم الشيطان، المتناول ما ليس له هو أقصر ذراعًا وأضيق باعًا.

لعن الله الأثعل المترادف الأسنان المتوثب في الفتن توثب الحمار في القيد محمد ابن أبي حذيفة الرامي أمير المؤمنين عثمان برءوس الأفانين.

ثم قال: إن الله رماك، وكذب، لو رماه الله ما أخطأه.

لعن الله الأعور بن سمرة ابن شر العضاه، وألأمها مرعى، وأقصرها فرعا، لعنه الله ولعن من أخذ حباه، يعرض بأم هشام بن إسماعيل، وكان عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة خلف عليها بعد إسماعيل بن هشام. وعبيد الله بن عبد الرحمن هو الذي عناه ثابت بن عبد الله بن الزبير. فلما بلغ ثابت هذا من القول في هشام أمر به إلى السجن وقال: ما أراك تشتم إلا رحم أمير المؤمنين. فقال له

ثابت: إنهم عصاة مخالفون، فدعني حتى أشفى أمير المؤمنين منهم. فلم يزل ثابت في السجن حتى بلغ خبره عبد الملك فكتب: أن أطلقه فإنما شتم أهل الخلاف.

أولاده: محمد وبه كان يكنى، وعبد الله وفيه البقية، وحسن وإبراهيم، وزينب وأم كلثوم ولما خطب الحسن بن الحسن إلى عمه الحسين بن على بن أبي طالب، قال له الحسين: يابن أخي قد انتظرت هذا منك قبل اليوم، فخرج به حتى أدخله منزله، ثم أخرج له ابنتيه فاطمة وسكينة فقال: اختر. فاختار فاطمة فزوجه إياها. فكان يقال: إن امرأة سكينة مرذولتها لمنقطعة الحسن.

وأتت منه بأولاده المذكورين حسن المسمى حسن المثلث، وعبد الله وزينب وأم كلثوم ما عدا محمد فإن أمه رملة بنت سعيد بن زيد أحد العشرة.

فلما حضرت الوفاة الحسن قال لفاطمة: إنك امرأة مرغوب فيك، فكأني بعبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان قد جاء على فرس مرجلا جمته، لابسا حلته، يسير في جانب الناس يتعرض لك، فانكحي من شئت سواه، فإني لا أدع من ورائي هما غيرك.

فقالت: آمن من ذلك وأثلجته بالإيمان من العتق والصدقة لا نتزوجه.

ومات الحسن رضي الله عنه وخرج به فوافى عبد الله بن عمرو بالحال التي وصفها الحسن.

وكان يقال لعبد الله بن عمرو « المطرف » من حسنه.

فنظر إلى فاطمة حاسرًا تضرب وجهها فأرسل إليها: إن لنا في وجهك حاجة فارفقي به. فاسترخت يداها وعرف ذلك فيها وخمرت وجهها.

فلما جاءت رسله تخطبها قالت: كيف بيميني التي حلفت بها؟ فأرسل إليها: لك مكان كل مملوك مملوكان ومكان كل شيء شيئان، فعوضها عن يمينها فنكحته وزوجها به ابنها عبد الله بن الحسن، وولدت له محمدا الديباج والقاسم ورقية بني عبد الله بن عمرو بن عثمان، فكان عبد الله بن الحسن، وهو أكبر أولادها يقول: ما أبغضت بغض عبد الله بن عمرو أحدًا، ولا أحببت حب ابنه محمد أخي أحدًا.

مات الحسن وسنه خمس وثلاثون سنة في حياة أخيه زيد بن الحسن السبط، ولم يدَّع الإمامة ولا ادعاها له أحد، والعقب منه في خمسة أشخاص: عبد الله المحض،

والكامل يلقب بهما، وسيأتي ذكره عند ذكر قيام ولده محمد النفس الزكية.

ومن بنيه: الملوك الأدارسة بالمغرب الأقصى، وهم بنو إدريس بن إدريس المحض، ومن عقبهم بنو حمود ملوك الأندلس الدائلون بها من بني أمية آخر دولتهم، وهم بنو حمود بن ميمون بن أحمد بن على بن عبد الله بن عمر بن إدريس .

ومنهم: بنو سليمان بن عبد الله المحض الملوك بنواحي « تلمسان » .

ومنهم: بنو موسى الجون بن عبد الله المحض، كان من عقبه ملوك اليمامة بنو محمد الأخيضر بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله المحض.

ومنهم: بنو صالح بن موسى بن عبد الله الثاني، ويلقب بأبي الكرام بن موسى الجون، وهم الذين كانوا ملوكا بـ « غانة » من بلاد السودان بالمغرب الأقصى وعقبهم هنالك معروف.

ومن عقبه أيضًا: الهواشم بنو أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد الأكبر بن موسى الثاني ابن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون، كانوا أمراء مكة بعهد العبيديين.

ومن عقبه: بنو قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن سليمان بن موسى الجون، ملكوا مكة بعد الهواشم على يد قتادة أبيهم هذا، فمنهم بنو أبي نمى بن أبي سعيد الحسن بن على بن قتادة أمراء مكة إلى عهدنا الآن.

والثاني من أولاد الحسن المثنى الخمسة: داود بن الحسن المثنى، وكان رضيع جعفر الصادق، وكان المنصور حبسه فأفلت منه بالدعاء الذي علمه جعفر أمه، ويعرف بدعاء أم داود.

ومن عقبه السليمانيون، الذين كانوا بمكة وهم بنو سليمان بن داود، وغلبهم عليها الهواشم آخرًا وهم المسمون بآل أبي الطيب، كما ذكر ذلك الفاسي في تاريخه: « شفاء الغرام » فساروا إلى اليمن، فقامت الزيدية بدعوتهم، وغلبوا على بني طباطبا بـ « صعدة » .

والثالث من أولاد الحسن المثنى الخمسة: حسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبي طالب، ومن عقبه قتيل فخ حسين بن على بن الحسن

المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط الفخي الخارج على الهادي بن الرشيد، وسيأتي ذكره.

والرابع من أولاد الحسن المثنى: إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى. ومن عقبه بنو طباطبا أبي الأئمة بـ « صعدة » الذين غلبهم عليها بنو سليمان بن داود بن الحسن المثنى حين جاءوا من مكة ثم غلبهم عليها بنو الرسي، ورجعوا إلى إمامتهم بصعدة، وهم فيها إلى عهدنا الآن.

والخامس جعفر بن الحسن المثنى، وكان يكنى أبا الحسن، وكان أكبر إخوته سنًّا.

ومن عقبه من بني علي: باغرآل حمزة ويعرفون ببني الشجري، منهم: السيد أبو السعادات بن الشجري، له « أمالي » في النحو. انقرض عقبه. ومن عقبه أيضًا: بنو الكشيش، وآل أبي زيد، لهم أعقاب. فهذه خمسة أسباط من الحسن المثنى.

وأما أخوه زيد بن الحسن السبط فكنيته أبو الحسين، عاش تسعين سنة، وقيل: خمسًا وتسعين، وقيل: مائة.

وكان زيد قد تخلف عن عمه الحسين بن على فلم يخرج إلى العراق معه، مات زيد ولم يدَّع الإمامة، ولا ادعاها له مدع من الشيعة.

والإمامة لأولاد الحسين بن على بن أبي طالب، وهو أعقب سبطًا واحدًا، وهو مع الخمسة الأول.

السبط السادس من ولد الحسن بن على بن أبي طالب: وهو الحسن بن زيد، ويكنى أبا محمد، وكان أمير المدينة من قبل أبي جعفر المنصور، وعمل له على غيرها.

وكان مظاهرًا لبني العباس على بني عمه الحسن المثنى. وهو أول من لبس السواد من العلويين، ولا عقب لزيد إلا من ابنه الحسن هذا.

وكانت لزيد بنت اسمها نفيسة أخت للحسن بن زيد، وهي التي يسميها أهل مصر الست نفيسة ويعظمونها ويقسمون بها، وكانت زوجة الوليد بن عبد الملك.

وكان زيد يفد على الوليد فيقعده على السرير معه، ويكرمه لمكان ابنته، ووهب له ثلاثين ألف دينار دفعة واحدة.

وزعم بعض الناس أن نفيسة المذكورة بنت الحسن بن زيد بن الحسن لا أخت

له، وقد كانت تزوجت بإسحاق بن جعفر الصادق، وكان الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه يروى عنها، ولما مات أدخلت جنازته عليها فصلت عليه. والله أعلم.

قال الزبير بن بكار: حدثني نوفل بن ميمون، قال: حدثني أبو مالك محمد بن مالك بن على بن هرمة، أنه قال يمدح الحسن بن زيد بن الحسن السبط، ويعرض بعبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، وبابنيه محمد النفس الزكية، وإبراهيم بن عبد الله المحض: [من البسيط]

إني امرؤٌ مَنْ رعَى غَيْبي رَعَيْتُ لَهُ ... غَيْبَ الذِّمامِ، ومن أنكرْتُ أنكَرَني
أَمَّا بَنُو هَاشِمٍ حَوْلِي وَقَدْ رَدَعُوا ... نَبْلي الصِّيَاب التي جمَّعْتُ في قَرَنِ
فَمَا بِيَثْرِبَ مِنْهُمْ مَنْ أُعَاتبُه ... إلا عَوَائِدُ أرْجُوهُنَّ مِنْ حَسَنِ
وذَاكَ مَنْ يَأْتِهِ يَعْمِدْ إلى رَجُلٍ ... مِنْ كُلِّ صَالحَةٍ أَوْ صَالحٍ قَمِنِ
لاَ يُسْلِمِ الحمْدَ لِلُّوامِ إنْ شَحطُوا ... بَلْ يَأْخُذِ الحمد بالغالي من الثَّمَنِ
ما زَالَ يَنْمى وزَالَ الله يَرْفعُهُ ... طولاً عَلَى بغْضَةِ الأَعْدَاءِ والإحَنِ
أَمَات فِي جَوْفِ ذي الشَّحْنَاء ظَنَّتَه ... وكانَ داءً لذي الشَّحْنَاءِ والظنَنِ
إذا بَنُو هَاشِمٍ آلَتْ بأَقْدُحِهَا ... إلى المفِيضِ وخَافَتْ دَوْلَةَ الغَبَنِ
حازتْ يَدَا حسنٍ قِدْحَيْنِ من كرم ... لَمْ يُعْمَلا بِشبَا المبراةِ والسفنِ
لا يَسْتَرِيحُ إلى إثم ولا كَذِبٍ ... عندَ السُّؤالِ ولا يجتنُّ بالجُنَنِ
مَا قَال أَفْعَلُ أمضَاهُ لِوجْهَتِهِ ... وَما أبى لح ما يَأْتِي فَلَمْ يَكُنِ
ما أَطْلَعْت رَأْسَهَا كَيْمَا تُهَددني ... حَضْباءُ تطرح من نفسي على شزنِ
إلاَّ ذَكَرْتُ ابنَ زَيْدٍ وهْوَ ذُو صلةٍ ... عند السنينَ وعواد على الزمنِ
فاسلَمْ ولا زالَ من عَاداكَ محتملاً ... غيظًا ولا زالَ معفورًا على الذَّقَنِ
لم يعتب اللهُ أنفًا فيك أرغَمَهُ ... حتى تزولَ رواسي الصخْرِ من حضنِ
إذا خَلوت به ناجَيْت ذا طهرٍ ... يأوي إلى عقل صافي العقلِ مؤتمنِ
طَلْق اليدَيْنِ إذا أضيافه طرقوا ... يشكُونَ من قرة شكوى ومِنْ وَسَنِ
بَاتُوا يَعُدُّونَ نَجْمَ اللَّيْلِ بَيْنَهُمْ ... في مستجيرِ النواحي زاهق السمنِ
ثم اغتدَوْا وهُمْ دُسم شواربهم ... ولم يبيتوا على ضَيْحِ من اللبنِ
قد جعل الناس حقبًا نحو منزلِهِ ... شقا كقرنِ أثيثِ الرأسِ مدَّهنِ

فهم إلى نائلٍ منه ومنفعةٍ يعطونها سكنًا تهوى إلى سكنِ
أوصاك زيْدٌ بأغلى الأمرِ منزلةً فما أخذتَ قبيحَ الأمرِ بالحسنِ
خَلَّات صدقٍ وأخلاق خُصِصْتَ بها فلم يُضَعْن ولم يُخلْطَن بالدرنِ
يلقى الأيامِن مَنْ لاقاك سانحة وجه طليق وعُود غَيْر ذي أُبنِ
وأنتَ من هاشم حقًّا إذا نسبوا في المنكب اللينِ لا في المنكبِ الخشنِ
بنوكَ خَيْرُ بنيها إن حفلت بهم وأنتَ خيرُهُمُ في اليسرِ واللَّزَنِ
واللهُ أعطاك فضلاً من عطيته على هَنٍ وهنٍ فيما مضَى وهنِ

قال: فقال له إبراهيم بن عبد الله بن الحسن - وجاءهم بعد ذلك -: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق، ألست الذي تقول للحسن بن زيد:

اللَّهُ أَعْطَاكَ فَضْلاً مِنْ عَطِيتهِ عَلَى هَنٍ وَهَنٍ فيما مضَى وَهَنِ

تريد أبي عبد الله المحض، وأخي محمدًا النفس الزكية وإياي؟ فقال ابن هرمة: والله ما أردتكم بذلك. قال له إبراهيم: فمن أردت؟ قال: قارون وفرعون وهامان.

قلت: هذا التوجيه عما الكلام فيه أبعد من زمان المذكورين عن زمان نحن فيه. لكنه قد حلف بالله والله عليم بالنيات. ثم قال ابن هرمة يعتذر إلى إبراهيم الغمر من ذلك ويمدحه وأباه وأخاه [من البسيط]

يا ذا النُّبُوَّةِ يَدْعُونِي لِيُسْمِعَنِي مواعظًا من جَمِيلِ رَأْيِهِ الحَسَنِ
أَقْبِلْ عَلَيَّ بوَجْهٍ منْكَ أَعْرِفُهُ فقد فَهِمْتُ وسُدَّ السَّمْعُ للأُذُنِ
لا والذي أنتَ مِنه رَحْمَةٌ نَزَلَتْ نَرجُو عَواقِبَهَا في غَابِرِ الزَّمَنِ
لَقَد أَتَيْت بِأَمْرٍ ما أَبهْتُ له وَلا تَعَمَّدَهُ قَصْدى ولا عنني
إلا مَقَالَةَ أقوام ذوي إحَن وما مَقَالُ ذَوِي الشَّحْنَاءِ والإحَنِ؟!
لَمْ يُحْسنُوا الظَّنَّ إذْ ظَنّوا لِذِي حَسَبٍ وفِيهِمُ الغَدْرُ مَقْرُون إلى الظنَنِ
ما غيرت وجهه أم مقصرةٌ إذا القتامُ تغشّى أوجه الهجنِ
وكَيْفَ أَمْشِي مَعَ الأَقْوامِ مُعْتَدِلاً وَقد رَميتُ صَحِيحَ العودِ بالأُبنِ؟
وكيف يأْخذُ مثلي في تحيزهِ وسط المعاشِرِ مَبْخُوسًا من الثَّمَنِ
وقد صَحِبْتُ وجَاوَزْتُ الرِّجَالَ فلمْ أَمْلُلْ إخَاءً وَلَمْ أَغدرْ ولَمْ أَخُنِ
ومَا بَرِحْتُ بِحَمْدِ اللهِ في سَنَنٍ مِن صَالح العَهْدِ أُمْضيهَا إلى سَنَنِ

يابْنَ الفَوَاطِمِ خَيْرِ النَّاسِ كلِّهِمُ ... بَيْتًا وأولاهُمُ بالفَوْزِ لا الغَبَنِ
إنْ لِنْتَ نَحْوِي فإنَّ الله جَابِرُنا ... ولا اخْتِيارَ لنا إنْ أنْتَ لَمْ تَلِنِ
ومَا لَبِسْتُ عنانِي في مساءتِكُمْ ... ولا خَلَعْتُ لغشٍّ نَحْوَكُمْ رَسَني
وأنتَ مِنْ هَاشِمٍ في سِرِّ نَبْعَتها ... وطينةٍ لم تُقَارِفْ هُجْنَةَ الطينِ
لَوْ رَاهنَتْ هاشمٌ عَنْ خَيْرِهَا رَجُلاً ... لكان ابُوكَ الذي يَخْتَصُّ بالرَّهنِ
واللهِ لَوْلا أَبُوكَ الخَيْرُ قَدْ نَزَلَتْ ... منِّى قَوَافٍ بِأَهْلِ اللُّؤْمِ والوَهَنِ
تَبْرِي العِظَامَ فَتُبدي عَنْ جَناجِنِها ... أَخْذَ الشَّرِيحَةِ بالمبراةِ والسفنِ
أنت الجَوَادُ الذي نَدْعُو فَتلْحقُنَا ... إذا تَرَاخَى المَدى بالقرحِ والحصنِ
فما أبالي إذا ما كُنْتَ لي كنفًا ... مَنْ صدَّ أو بَتَّ مِنْ أَقْرانِهِ قَرنِي
ومَا أُبالي عَدُوَّ اللهِ شَاحَنني ... أَمْ زَاحَمَتْ شعفات الصُّمِّ من حضنِ
أنتَ المُرَجَّى لأَمْرِ النَّاس إنْ أَزِمَتْ ... جَدَّاءُ صَرِمَاءُ لَمْ تَصْدُرْ على لبنِ
يأوونَ مِنكَ إلى حِصْنٍ يُلاذُ به ... تأوِى إلَيْه الطَّرادى وَاسِعِ العطنِ

وأعقب الحسن بن زيد من سبعة رجال، ثلاثة منهم مكثرون: أبو محمد القاسم، وعلي الشريد، وأبو محمد إسماعيل. وأربعة مقلون أبو الحسن إسحاق، وأبو طاهر زيد، وأبو زيد عبد الله، وأبو إسحاق إبراهيم.

أعقب القاسم بن الحسن، وهو الفرع الأول من رجلين: محمد البطحاني، وعبد الرحمن الشجري.

أما محمد البطحاني ونسبه إلى بطحان بالضم. موضع بالمدينة، وبالفتح إلى البطحاء، وكلاهما ورد، وكان فقيها له عقب كثير منهم: إبراهيم بن محمد البطحاني، أعقب في بلاد شتى وفيهم مجانين وبله ونقص وسفهاء.

من ولده الوزير أبو منصور ناصر بن مهدي، كان فاضلا تولى الوزارة ببغداد للخليفة الناصر العباسي في عشر ذي الحجة سنة اثنتين وستمائة. وعزل في ثالث عشر جمادى الآخرة، ونقل وعياله إلى دار الخلافة وأجري عليه النفقة إلى أن مات ليلة السبت لثمان خلون من جمادى الأولى سنة سبع عشرة وستمائة في السنة التي توفي فيها الشريف قتادة النابغة جد ساداتنا ولاة مكة المشرفة وانقرض عقبه.

قال في « عمدة الطالب »: كان فيه تجبر وتكبر. فحكي أنه وجد يوما في دواته

رقعة فأنكرها فأخذها فإذا فيها [من السريع]

لاَ قَـاتَـلَ اللهُ يَـزِيـدًا وَلاَ مُـدَّتْ يَـدُ الـسُّـوءِ إِلَـى نَـعْـلِـهِ
لأَنَّـهُ قَـدْ كَـانَ ذا قـدرةٍ عَلى اجْتِثَاثِ الفَرْعِ مِنْ أصلِهِ
لَـكِـنَّـهُ أَبْـقَـى لَـنَـا مِـثْـلَـكُـمْ أَحْـيَـاءَ كَـيْ يُـعْـذَرَ فِـي فِـعْـلِـهِ

فاضطرب لذلك واجتهد أن يعلم واضعها.

قلت: هذا تجرؤ إلى الغاية والعياذ بالله لكن الابن السوء يكسب الآباء الكرام السوء.

ومنهم: الداعي الصغير بالري وطبرستان وهو الحسن بن القاسم بن على بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد البطحاني بن القاسم بن الحسن بن زيد. وكان بين هذا الداعي الصغير وبين الأطروش حروب.

وقتل هذا الداعي سنة تسع عشرة وثلاثمائة.

ومن عقبه أيضا: القاسم بن على بن إسماعيل أحد قواد الحسن بن زيد وهم غيروا نعم أهل تلك الآفاق، وأذهبوا بهجتهم، وكانوا سببًا لتورد الديلم دار الإسلام بما يستجيشونهم، خرج معهم ومع الحسيني ماكانُ بن ماهان ملك الديلم.

وكان مرداويج وبنو بويه من بعض رجاله، وكان لهم من عشيرتهم قواد ورجال يسمون بأسماء الديلم من أجل مرباهم بينهم. والله يخلق ما يشاء.

وأما عبد الرحمن الشجري: فنسبته إلى قرية قريبة من المدينة الشريفة، يكنى أبا جعفر، له عقب من ثلاثة: على ومحمد وجعفر. ومنهم بنو المنقوب، وبنو أبي الغيث، وبنو أبي نفيشة، وبنو شكر، وبنو أسود.

الفرع الثاني: على الشريد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب، سمي بذلك لقوته. مات في حبس المنصور. وأعقب من ولده عبد الله. ولعبد الله هذا عقب منهم السبعية، وهذه نسبة إلى محلة بالكوفة.

الفرع الثالث: أبو محمد إسماعيل، ويلقب جالب الحجارة بالجيم، وقيل بالحاء لشدته وقوته. ويلقب بالمهفهف أيضا. أعقب من محمد وعلي النازوكي. أما على هذا فله عقب منهم: بنو طرخان. وأما محمد فأعقب من ولده زيد. ومنه محمد الداعي، وأخوه الحسن ملكا طبرستان فملكها أولا الحسن ولقب بالداعي الكبير وبالداعي الأول سنة خمسين ومائتين. وتوفي سنة سبعين ومائتين ولم يعقب. وكان

جريئا على سفك الدماء على ما حكاه صاحب « عمدة الطالب » .

الفرع الرابع: أبو الحسن إسحاق بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب، وكان أعور ويلقب بالكوكبي، وكان مع الرشيد، قيل: إنه كان يسعى بآل أبي طالب فكان عينا للرشيد عليهم، وسعى بجماعة من العلويين فقتلوا برأيه. وغضب الرشيد عليه آخر الأمر فحبسه حتى مات في الحبس.

قال أبو عبد الله: أولد من هارون والحسن، وقيل: إسحاق ليس له ولد.

الفرع الخامس: أبو طاهر زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب. عقبه من ولد طاهر، ومنه في محمد بن طاهر.

الفرع السادس: أبو زيد عبد الله بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب. له خمسة: على والحسن ومحمد ويزيد وإسحاق. لهم أعقاب.

الفرع السابع: أبو إسحاق إبراهيم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب. أعقب من ولده إبراهيم بن إبراهيم، وأعقب إبراهيم من الحسن ومحمد لهما عقب.

قال ابن خلدون[١]: ومن عقب إبراهيم بن الحسن: محمد بن الحسن بن محمد ابن إبراهيم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب، أقام بالمدينة أيام المعتمد، وجاهر بالمنكرات والقتل إلى أن تعطلت الجماعات، ولا قوة إلا بالله.

وأما الحسين بن على رضي الله تعالى عنهما وهو القتيل بالطف أيام يزيد. أولاده اثنا عشر، وقيل أقل، قتل غالبهم بـ « كربلاء » ولم يعقب منهم إلا على زين العابدين فقط، فجميع بني حسين ينسبون إليه، وهو الإمام بعد أبيه الحسين، ولد بالمدينة يوم الخميس خامس شعبان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة في حياة جده على ابن أبي طالب قبل وفاته بسنتين. كنيته أبو الحسن، وقيل أبو محمد، وقيل أبو بكر، ألقابه زين العابدين، والزكي، والأمين، وذو الثفنات، وزين العابدين أشهرها.

صفته: أسمر قصير رقيق. معاصروه: مروان وعبد الملك والوليد ابنه. عمره سبع وخمسون سنة أقام منها مع جده على بن أبي طالب سنتين، ومع عمه الحسن بعد وفاة جده عشر سنين، ومع أبيه بعد وفاة عمه إحدى وعشرين سنة، وبقي بعد

---

(١) ينظر: تاريخ ابن خلدون: المجلد الرابع، القسم الأول ص ٢٤٦ .

وفاة أبيه أربعا وعشرين سنة وهي مدة إمامته.

قال السيد نور الدين على السمهودي مؤرخ المدينة الشريفة في كتابه «جواهر العقدين»: كانت أمه سلامة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس. وكانت له ثلاث بنات، وسبين في زمن عمر بن الخطاب، فحصلت واحدة منهن لعبد الله بن عمر بن الخطاب، فأولدها سالم بن عبد الله بن عمر، وحصلت الأخرى لمحمد بن أبي الصديق، فأولدها القاسم بن محمد بن أبي بكر، وحصلت الثالثة للحسين بن علي، فأولدها عليا زين العابدين المذكور، فهم بنو خاله.

كان زين العابدين مع أبيه رضي الله عنهما بـ «كربلاء» فاستبقي، قيل لصغر سنه لأنهم قتلوا كل من أنبت، وكان قد أمرهم عبيد الله بن زياد بقتله ثم صرفه الله تعالى عنه. وأشار بعض الفجرة على يزيد بقتله أيضا فحماه الله منه، والحمد لله والمنة.

ثم إن يزيد صار يكرمه ويعظمه، ويجلس معه ولا يأكل إلا وهو معه. ثم بعثه إلى المدينة فكان بها محترما معظما.

قال ابن عساكر: ومسجده بدمشق معروف وهو الذي يقال له «مشهد» على بجامع دمشق.

قال الإمام الزهري: ما رأيت قرشيًا أفضل منه.

وقال محمد بن سعد: كان زين العابدين ثقة مأمونًا، كثير الحديث عن رسول الله ﷺ عالما لم يكن في أهل بيته مثله، وكان إذا توضأ يصفر لونه، فإذا قام إلى الصلاة أرعد من الفزع، فقيل له في ذلك. فقال: أتدرون بين يدي من أقوم ولمن أناجي؟ ويروى أنه احترق البيت الذي هو فيه وهو قائم يصلي، فلما انصرف قيل له ما بالك لم تنصرف حين وقعت النار؟ فقال: إني شغلت عن هذه النار بالنار الأخرى.

وروى أنه لما حج وأراد أن يلبي أرعد واصفر وخر مغشيا عليه. فلما سئل قال: إني أخشى إذا قلت لبيك اللهم لبيك أن يقول لي لا لبيك ولا سعديك. فشجعوه وقالوا: لا بد من التلبية، فلما لبى غشي عليه حتى سقط من الراحلة. وكان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة. وكان رضي الله عنه يقول: صدقة الليل تطفئ غضب الرب عز وجل.

وكان إذا خرج من منزله قال: اللهم إني أتصدق اليوم وأهب عرضي لمن يغتابني.

ومات لرجل ولد مسرف على نفسه فجزع عليه فقال له على رضي الله عنه: إن من وراء ذلك لخلالا ثلاثا: شهادة أن لا إله إلا الله، وشفاعة رسول الله ﷺ، ورحمة الله تعالى.

واختلف في تاريخ وفاته، والجمهور أنها سنة أربع وتسعين في أولها.

وأغرب المدائني فقال: في سنة مائة، ودفن بالبقيع في القبر الذي فيه عمه الحسن ابن على بقبة العباس بن عبد المطلب، ودفن في هذا القبر ابنه محمد الباقر وابنه جعفر الصادق فهم أربعة في قبر واحد فأكرم به قبرا ويقال: إن رأس الحسين أرسل به إلى المدينة فدفن فيه. والله أعلم.

أولاده خمسة عشر ولدًا، وقيل أكثر، وقيل أقل. العقب منه في ستة أسباط فقط وهم: محمد الباقر، وعبد الله الباهر، وزيد الشهيد، وعمر الأشرف، والحسين الأصغر، وعلي الأصغر السبط الأول الإمام بعد أبيه هو: محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب. وسيأتي ذكر ترجمته أيضا عن ذكر الأئمة الاثني عشر قريبا. أولاده ستة العقب منه في جعفر.

السبط الثاني: عبد الله الباهر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب. لقب بالباهر لجماله. قالوا: ما حضر مجلسا إلا بهر جماله وحسنه من حضر.

توفي وهو ابن سبع وخمسين سنة. يكنى أبا محمد. وعقبه قليل. أعقب من ابنه محمد الأرقط وحده. ويكنى محمد هذا أبا عبد الله، وكان محدثا. وأقطعه السفاح عين خالد بن سعيد ويلقب بالأزرق. قال العمري: كان مجدرًا فلقب بالأرقط.

قال أبو نصر البخاري: من يطعن في الأرقط فلا يطعن من حيث النسب وإنما يطعن بشيء آخر جرى بينه وبين جعفر الصادق.

ويقال: إنه بصق في وجه الصادق فدعا عليه فصار أرقط الوجه به نمش كريه المنظر، وأما نسبه فلا مطعن فيه.

وأعقب الأرقط من إسماعيل وحده، وإسماعيل من اثنين محمد والحسين البنفسج.

أما محمد فله أحمد الدح وإسماعيل الناصب ولهما أعقاب. وأما الحسين فعقبه

في عبد الله وأحمد وإسماعيل الدح لهم أعقاب. ومن ولد الأرقط الحسين الكوكبي ابن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن الأرقط.

السبط الثالث: زيد الشهيد بن على زين العابدين بن الحسين يكنى أبا الحسن وستأتي ترجمته عند ذكر قيامه في الباب الثاني المعقود لمن دعا من الأهل إلى المبايعة.

أعقب من ثلاثة: الحسين ذي الدمعة، قيل له ذلك لكثرة بكائه. وعيسى موتم الأشبال وهو الذي حارب المنصور أول خلافته. ومحمد. وأما ابنه يحيى فلم يعقب وخرج بعد قتل أبيه. وسيأتي ذكره في الدعاة في الباب المشار إليه.

أعقب الحسين من ثلاثة: يحيى والحسين وعلي، وأعقب عيسى من أربعة: أحمد المختفى وزيد ومحمد والحسين عصارة.

وأعقب محمد من رجل واحد وهو أبو عبد الله جعفر الشاعر. وأعقب الشاعر من ثلاثة: محمد الخطيب وأحمد مسكين والقائم.

ولهم أعقاب منهم: على بن محمد الخطيب. ولعلي المذكور قوله [من المتقارب]

وإنَّـا لـنُـصْـبِـحُ أَسْـيَـافَـنَـا   إِذَا مَا اصْطَبَحْنَا بيَوْم سَفوكِ
مَـنَـابِـرهُـنَّ بُـطُـونُ الأكُـفِّ   وأَغْـمَـادُهُـنَّ رُءوسُ الـمُـلُـوك

وله أيضا [من الوافر]

لَنَا مِنْ هَاشِم هَضَبَات غُر   مُـطَـنَّـبَـةٌ بِـأَوْتَـادِ الـسَّـمَـاءِ
تُطِيفُ بِنَا المَلَائكُ كُلَّ يَوْم   ونكفلُ في حُجُورِ الأَنْبيَاءِ
ويَـهْـتَـزُّ الـمَقَامُ لَنَا ارتِياحًا   ويَـلْـقَـانَـا صـفـاه بـالـصـفـاءِ

ومن ولد الحسين ذي الدمعة: الحسن بن الحسين بن زيد. وقتل مع أبي السرايا، ويحيى بن الحسين الذي كان من عقبه يحيى بن عمر بن يحيى القائم بالكوفة أيام المستعين، وسيأتي ذكره في الباب الثاني المذكور، وعلي بن زيد بن الحسين بن زيد قام بالكوفة ثم هرب إلى صاحب الزنج بالبصرة، فقتله وأخذ جارية له كان سباها من البصرة.

السبط الرابع: عمر الأشرف بن على زين العابدين بن الحسين بن على رضي الله

تعالى عنهم. وهو أخو زيد الشهيد لأبويه وأسن. ويكنى أبا على وقيل أبا جعفر.

وكان محدثًا فاضلا أعقب من رجل واحد وهو على الأصغر والعقب من على الأصغر هذا في ثلاثة: القاسم وعمر الشجري وأبو محمد الحسن من ابنه علي، وأعقب على من ثلاثة رجال أبو على الصوفي، وأبو عبد الله الحسين الشاعر المحدث، وأبو محمد الحسن الناصر الكبير الأطروش إمام الزيدية ملك الديلم صاحب المقالة، إليه تنتسب الناصرية من الزيدية، ورد الديلم سنة سبعين ومائتين وكان بطبرستان، فلما غلب رافع عليها أخذه فضربه ألف سوط فطرش، وأقام بأرض الديلم يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، وإلى الإسلام أربع عشرة سنة، ودخل طبرستان في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثمائة فملكها ثلاث سنين وثلاثة أشهر، ويلقب بالناصر للحق، وأسلموا على يده وعظم أمره. وتوفى بـ «آمُل» عن سبع وتسعين سنة، له عقب، وعمر الشجري له عقب.

السبط الخامس: أبو عبد الله الحسين الأصغر ابن على زين العابدين بن الحسين رضي الله تعالى عنهم.

كان عفيفًا محدثًا عالمًا توفي سنة تسع وخمسين ومائة عن سبع وخمسين سنة ودفن بالبقيع، وعقبه عالم كثير بالحجاز والعراق والشام والمغرب وبلاد العجم، منهم أمراء المدينة، وسادات العراق، وملوك الري.

أعقب من خمسة رجال: عبيد الله الأعرج وعبد الله وعلي وأبي محمد الحسن وسليمان.

أما سليمان بن الحسين الأصغر بن على زين العابدين فأعقب من ابنه سليمان بن سليمان، وعقبه بالمغرب يقال لهم الفواطم.

وأما أبو محمد الحسن بن الحسين الأصغر، فعقبه من ابنه محمد بن الحسن، ومنه من عبد الله ولعبد الله محمد السليق وعلى المرعش وعقبهما كثير ببلاد العجم.

وأما على بن الحسين الأصغر، فأعقب من ثلاثة: عيسى الكوفي وأحمد جفينة وموسى حمضة لهم أعقاب.

وأما عبد الله بن الحسين الأصغر مات في حياة أبيه فعقبه من جعفر صحصح بن عبد الله، وكان له عشرة وانقرضوا. ابنته زينب بنت عبد الله بن الحسين الأصغر

تزوجها الرشيد، وفارقها ليلة دخوله بها، وذلك أنه بعث إليها تلك الليلة خادمًا ومعه تكة يريد أن يربطها لئلا تمتنع على الرشيد فلما دنا الخادم منها ركلته برجلها فكسرت ضعلين من أضلاعه، فخافها الرشيد، ولم يدخل بها، وردها من غدها إلى الحجاز، وأجرى عليها في كل سنة أربعة آلاف مثقال، وأدرها عليها بعده ابنه المأمون. فأعقب جعفر صحصح بن عبد الله بن الحسين الأصغر من ثلاثة: محمد العقيقي وإسماعِيل المنقذي ويقال لولدهما المنقذيون سموا بذلك لأنهم سكنوا دار المنقذ بالمدينة فنسبوا إليها.

وبنو محمد العقيقيون لهم أعقاب، وتنسب إليهم بنو ميمون، وآل البكري، وآل عدنان.

قال ابن خلدون: ومن ولد الحسين عبد الله العقيقي بن الحسين، كان من ولده الحسين بن محمد بن جعفر بن عبد الله العقيقي، قتله الحسن بن زيد صاحب «طبرستان».

وأما عبيد الله الأعرج بن الحسن الأصغر بن على زين العابدين، فيكنى أبا علي، كان في إحدى رجليه نقص.

وفد على أبي العباس السفاح، فأقطعه ضيعة بالمدائن تغل في السنة ثمانين ألف دينار.

وكان عبيد الله قد تخلف عن بيعة محمد النفس الزكية لما خرج بالمدينة، فحلف محمد إن رآه ليقتلنه فلما جيء به إليه غمض محمد إحدى عينيه مخافة أن يحنث.

توفي عبيد الله في حياة أبيه عن سبع وثلاثين سنة.

وانقسم عقبه بطونًا وأفخاذًا وعشائر.

أعقب من أربعة رجال: جعفر الحجة وعلى الصالح ومحمد الجوابي وحمزة مختلس الوصية.

أما حمزة مختلس الوصية، فأعقب من ثلاثة رجال محمد والحسين وعلي، وكان له عبيد الله لم يطل له ذيل.

وأعقب محمد من رجلين: أبي على ويلقب سنُّور الله، له عقب ببلاد العجم، والحسين الحرون وكان أحد الأبطال المشهورين، مات في حبس المهدي العباسي.

وأما الحسين بن حمزة، ويكنى أبا الشنف له عقب من ابنه محمد. منهم بنو ميمون وبنو حمزة. وأما على فأعقب على بن على وله عقب وقيل انقرض.

وأما محمد الجوابي بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر - والجواب قرية بالمدينة إليها نسب - له عقب من ولده الحسن بن محمد.

وأما على الصالح بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر، أعقب من رجلين عبيد الله الثاني وإبراهيم، ولهما أعقاب مبسوطة التفاريع في محالها. ومن أعقاب عبيد الله الثاني: الأمير أبو الحسين محمد الأشتر، ممدوح أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي بالقصيدة الدالية التي مطلعها: [من المنسرح]

أَهْـلاً بـدارٍ سـبـاك أَغْـيـدهـا ... ...

وأما جعفر الحجة ابن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن على زين العابدين فكان من أئمة الزيدية، وكان له شيعة يسمون الحجة، وكان القاسم الرسي بن طباطبا يقول: جعفر بن عبيد الله إمام آل محمد وكان فصيحا.

ومن عقبه الملقب بمسلم الذي يريد مصر أيام كافور وهو محمد بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى المحدث بن الحسن بن جعفر حجة الله، وابنه طاهر بن مسلم.

ومن عقب طاهر هذا أمراء المدينة إلى هذا العهد بنو جماز بن هبة بن جماز بن منصور بن جماز بن شيحة بن هاشم بن القاسم بن مهنا.

ومهنا هو الحسن بن طاهر بن مسلم.

قال ابن خلدون: هكذا قال المسبحي مؤرخ العبيديين.

وقال العتبي مؤرخ دولة بني سبكتكين: إن مهنا هو ابن داود بن القاسم أخي مسلم وعم طاهر.

قلت: رأيت في «جواهر العقدين» ما نصه: جد أهل بيت بني مهنا أمراء المدينة من الولاة والمعزولين يحيى المحدث ابن الحسن بن جعفر الحجة ابن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب؛ لأن مهنا المذكور هو ابن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى المذكور.

بل غالب من بالمدينة اليوم من أشراف بني حسين من نسله، وهو مؤيد لما قاله العتبي لا كما تراه كما قال المسبحي.

وزعم ابن سعيد أن بني جماز بن شيحة أمراء المدينة من عقب عيسى بن زيد الشهيد وفيه نظر.

ومن ولد عبيد الله الأعرج حمزة بن الحسن بن سليمان بن سليمان بن حسين ملك هاز في أرض المغرب، وملك قطيعا بلد « صنهاجة » وإليه ينسب سوق حمزة هنالك فيما قاله ابن حزم وولده بها كثير، وعم أبيه الحسن بن سليمان من قواد الحسن بن زيد بطبرستان.

السبط السادس: على الأصغر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم يكنى أبا الحسن.

أعقب من ابنه الحسن الأفطس. مات أبوه وهو حمل وأعقب الأفطس وأنجب وأكثر.

وعقبه من خمسة رجال: على حروري وعمر والحسين والحسن المكفوف وعبد الله الشهيد قتيل البرامكة.

وأما الحسين بن الحسن الأفطس الذي قام بمكة أيام أبي السرايا من قبل محمد الديباج بن الصادق ثم دعا لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم الغمر وأخذ مال الكعبة وفيه يطعنون لقبح سيرته.

وقد تكلم فيه قوم، منهم: الشريف أبو جعفر بن معية الحسنى صاحب المبسوط وأبو عبد الله الحسين بن طباطبا، وأثبته أكثر العلماء.

وعمل شيخ الشرف العبيدلي كتابا سماه «الانتصار، لبني فاطمة الأبرار» . ذكر الأفطس وولده بصحة النسب وذم الطاعن عليهم. قال العمري: وهو في الجرائد والمشجرات ما دفعهم دافع.

وقال الشيخ تاج الدين بن النقيب لما سئل عن الأفطس وولده قال: إن رسول الله ﷺ وعد أن يفترق من ذريته عدد أسباط بني إسرائيل، وقد افترق من ولد الحسين ستة أسباط هم أولاد على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب. فلو توجه الطعن على الأفطس لم يكن لعلي بن على بن الحسين عقب ولا يكون أولاد فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها اثني عشر سبطًا.

قال: وهذه حجة ظاهرة على صحة نسبهم.

وقيل: إن الحسين بن الحسن الأفطس كان حامل راية محمد النفس الزكية، ولم يخرج معه أسمع منه ولا أبصر.

وكان يقال له رمح أبي طالب، لطَوْلِهِ وطُولِهِ.

ولما قتل محمد النفس الزكية اختفى الحسن الأفطس، فلما دخل الصادق العراق ولقى المنصور قال له: يا أمير المؤمنين أتريد أن تسدي إلى رسول الله ﷺ يدًا.

قال: نعم يا أبا عبد الله. قال الصادق: تعفو عن الحسن بن على بن على زين العابدين بن الحسين فعفا عنه.

قال أبو نصر البخاري: فهذه شهادة قاطعة من الصادق أنه ابن رسول الله ﷺ. وعلى ومحمد ابنا الأفطس قتلهما المأمون.

وأما محمد الباقر يكنى أبا جعفر الغاية الساكن والهادي وأشهرها الباقر لقول النبي ﷺ لجابر بن عبد الله الأنصاري: إنك ستعيش حتى ترى رجلاً من أولادي اسمه اسمي يبقر العلم بقرًا فإذا لقيته فأقره مني السلام فلقيه جابر وأقرأه السلام من رسول الله ﷺ، ومات جابر بعد ذلك بقليل.

ولد بالمدينة يوم الخميس ثالث صفر سنة سبع وخمسين من الهجرة قبل قتل الحسين جده بثلاث سنين.

صفته: معتدل السمرة، معاصره الوليد، وولداه يزيد وإبراهيم.

عمره ثمان وخمسون سنة وقيل ستون، أقام منها مع جده الحسين ثلاث سنين، ومع ابنه على زين العابدين ثلاثًا وثلاثين سنة وقيل خمسًا وثلاثين سنة، وبقي بعد موت أبيه سبع عشرة سنة وهي مدة إمامته.

يقال: مات بالسم في زمن إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك سنة عشر ومائة، وقيل: سنة أربع عشرة، ودفن بالبقيع بالقبر الذي فيه أبوه، وعم أبيه الحسن بن على رضي الله تعالى عنهم.

أولاده ستة: أربعة ذكور: جعفر الصادق، وعبد الله الأفطح أمهما زُرَيْوَةُ بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وإبراهيم وعلي.

وبنتان: زينب وأم سلمة، والعقب منه في جعفر الصادق فقط.

فأما عبد الله الأفطح فكانت له شيعة يدعون إمامته، منهم زرارة بن أعين الكوفي،

ثم قام بالمدينة، وسأله عن مسائل من الفقه فألفاه جاهلا، فرجع عن القول بإمامته، وانقطعت الشيعة الأبطحية، وزعم ابن حزم أن بني عبيد ملوك مصر ينتسبون إليه، وليس ذلك بصحيح.

وأما الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علی زين العابدين بن الحسين بن علی بن أبي طالب، وهو القائم بعد أبيه، وهو سادس الأئمة فيكنى أبا عبد الله، وقيل: أبا إسماعيل، وله ألقاب: الفاضل والطاهر، وأشهرها الصادق، وكان يقال له عمود الشرف.

صفته: معتدل، آدم اللون، معاصره أبو جعفر المنصور، أمه فُرَيْوَةُ بنت القاسم ابن محمد كما تقدم ذلك، وولد بالمدينة يوم الإثنين لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ثمانين من الهجرة وقيل ثلاث وثمانين. عمره ثمان وستون سنة.

أقام منها مع جده علی زين العابدين اثنتي عشرة سنة وأيامًا، ومع أبيه محمد الباقر ثلاث عشرة سنة وأياما، وبقي بعد موت أبيه أربعًا وثلاثين سنة وهي مدة إمامته.

وتوفي بالمدينة يوم الإثنين منتصف رجب سنة ثمان وأربعين ومائة.

يقال: مات بالسم في زمن المنصور، ودفن مع أبيه وجده، وعم جده الحسن بن علی بن أبي طالب، وعم جد جده العباس بن عبد المطلب بالبقيع بقبة العباس، فلله دره من قبر ما أشرفه وأطهره وأكرمه وأنوره.

أولاده سبعة، وقيل أكثر، العقب منه في خمسة رجال، وهم الإمام موسى الكاظم وإسماعيل وعلي العريضي، ومحمد المأمون وإسحاق، وليس له ابن اسمه ناصر معقب ولا غير معقب بإجماع أهل النسب، وبنواحي أهل خراسان قوم ينسبون إلى ناصر بن جعفر وهم أدعياء كذابون لا محالة، وهم هناك يخاطبون بالشرف، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن أولاد جعفر الصادق محمد الديباج خرج بمكة أيام المأمون، وبايع له أهل الحجاز بالخلافة، وحمله المعتصم لما حج وجاء به إلى المأمون فعفا عنه، ومات سنة ثلاث ومائتين بجرجان.

وأما إسماعيل الإمام، وموسى الكاظم فعليهما وعلى بنيهما مدار اختلاف الشيعة، وكان الكاظم على زي الأعراب مائلا إلى السواد، وكان الرشيد يؤثره،

ويتجافى عن قبول السعاية فيه ثم حبسه.

ومن عقبه بقيه الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية من لدن على بن أبي طالب فهو أولهم، وقد تقدم ذكره عند ذكر خلافته، ثم ابنه الحسن بن على وقد تقدم كذلك، وبيان ترجمته، وتاريخ وفاته في سنة خمس وأربعين، ثم أخوه الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، ثم ابنه على زين العابدين، ثم ابنه محمد الباقر، ثم ابنه جعفر الصادق، وقد ذكرت تراجم هؤلاء.

ومن عقب جعفر الصادق من غير الأئمة محمد وعلي ابنا الحسين بن جعفر قاما بالمدينة سنة إحدى وسبعين ومائتين، وسفكا الدماء، وانتهبا الأموال واستلحما آل جعفر بن أبي طالب، وأقامت المدينة شهرا لا تقام فيها جمعة ولا جماعة.

ومن عقب إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق العبيديون خلائف القيروان ومصر بنو عبيد الله المهدي بن محمد بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وقد تقدم ذكرهم. وما للناس من الخلاف في نسبهم وهو مطرح كله وهذا أصح ما فيه، هذه عبارة ابن خلدون وهو ممن يرجح القول بصحة نسبهم، وأنه إلى إسماعيل بن جعفر الصادق كما ترى، والله أعلم بالحقائق.

الإمام السابع موسى الكاظم: يكنى إسحاق وأبا إبراهيم، وهو موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم.

ألقابه: الكاظم والصابر والصالح أشهرها الأول، لقب به لفرط تحمله وتجاوزه عن المعتدين عليه. أمه أم ولد اسمها حميدة.

ولد بالأبواء بين مكة والمدينة يوم الأحد لسبع ليال خلون من صفر سنة ثمان وعشرين ومائة.

وأقدمه المهدي بغداد ثم رده إلى المدينة فأقام بها إلى أيام الرشيد، فلما قدم الرشيد المدينة حمله معه وحبسه ببغداد إلى أن توفى في رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة.

وفي « شواهد النبوة »: مات في حبس الرشيد ببغداد يوم الجمعة لخمس خلون من رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة فقبره ببغداد.

ويقال: إن يحيى بن خالد البرمكي سمه في رطب بأمر الرشيد، وقيل لف في

بساط، وغم حتى مات رحمه الله من شهيد.

معاصره: المهدي والهادي والرشيد. عمره خمس وخمسون سنة منها مقامه مع أبيه عشرون سنة، وبقي بعد وفاة أبيه خمسًا وثلاثين سنة وهي مدة إمامته ودفن في مقابر قريش.

أولاده سبعة وثلاثون ولدًا بين ذكر وأنثى، العقب منهم في أربعة عشر رجلاً هم: الحسن والحسين وعلي الرضا وإبراهيم المرتضى وزيد النار وعبد الله وعبيد الله والعباس وحمزة وجعفر وهارون وإسحاق وإسماعيل ومحمد العابد، وإبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم هو الذي ولى محمد بن طباطبا وأبو السرايا على اليمن فذهب إليها ولم يزل بها أيام المأمون يسفك الدماء حتى لقبه الناس بالجزار، وأظهر الإمامة عند ما عهد المأمون لأخيه على الرضا بن موسى الكاظم، ثم اتهم المأمون بقتله، فجاء هو وطلب الإمامة لنفسه، ثم عقد المأمون على حرب الفاطميين باليمن لمحمد بن زياد بن أبي سفيان لما بينهم من البغضاء، فأوقع بهم مرارًا وقتل شيعتهم وفرق جماعتهم.

ومن عقب إبراهيم المرتضى هذا الشريف الرضى وأخوه المرتضى واسم كل منهما على بن الحسين بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم.

وزيد النار بن موسى الكاظم هو الذي ولاه أبو السرايا أيضا على الأهواز، فسار إلى البصرة وملكها، وأحرق دور العباسيين بها فسمى زيد النار، ومن عقبه زيد الجنة بن محمد بن زيد بن الحسين بن زيد النار، من أفاضل أهل البيت وصلحائهم، حمل إلى بغداد في محنة الفاطميين أيام المتوكل ودفع إلى ابن أبي دواد يمتحنه فشهد له وأطلقه.

ومن عقب موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على بن الحسين ابن على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم من غير الأئمة السيد أبو جعفر محمد ابن موسى بن أحمد بن محمد بن القاسم بن حمزة بن موسى الكاظم.

قال العتبي في تاريخه المسمى باليميني لدولة محمود بن سبكتكين وابنه يمين الدولة - والعتبي صاحب هذا التاريخ نسبة إلى عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب ابن أمية بن عبد شمس - في ترجمته السيد المذكور: ألفاظه منابع العلوم، وأقواله مراتع العقول، ومجاله حدائق الجد والهزل، وجوامع الكلم الفصل. فلم تبق يتيمة

خطاب، ولا كريمة صواب، ولا غرة حكمة، ولا درة نكتة، ولا طرفة حكاية، ولا فقرة رواية إلا هي عرضة خاطره، وثمرة هاجسه، ونصب تذكره، ومثال تصوره. لا تصدأ صفيحة حفظه، ولا تدرس صحيفة ذكره، ولا يكسف بدر معارفه، ولا ينزف بحر لطائفه. هو واحد خراسان من بين الأشراف العلوية في قوة الحال، وسعة المجال، واشتداد باع العز، وامتداد شعاع الجاه، والعلم الغامر، والأدب الباهر، والشعر الزاهر. فمن شعره قوله [من البسيط]

وشَادنٍ وَجْهُهُ بالحُسْنِ مَخْطُوطُ وَخَدُّهُ بِمدادِ الخَالِ مَنْقُوطُ
تَرَاهُ قَدْ جَمَعَ الضدَّيْنِ في قَرنٍ فالخِصْرُ مُخْتَصَرٌ والرِّدْفُ مَبْسوطُ

وقد أكثر الشعراء والأدباء في مدائحه، فمن ذلك قول أبي الفتح البستي [من الخفيف]

أنا للسيِّدِ الشَّريفِ غُلامٌ حَيْثُ مَا كَانَ فَلْيُبَلَّغْ سَلَامي
وإذَا كُنْتُ للشَّريفِ غُلامًا فَأنَا الحُرُّ والزَّمَانُ غُلَامِي

وقد اتفق في مجلس السيد المذكور - وكان مجمعًا للعلماء الفضلاء والجهابذة النبلاء - مناظرة بين أبي الفضل الهمذاني المعروف بالبديع، وبين أبي بكر الخوارزمي سببها معارضة الهمذاني والمجلس غاص، والمصدر فيه السيد أبو جعفر المذكور، وكان الخوارزمي ينسب البديع الهمذاني إلى مذهب الخوارج والنواصب، يريد بذلك الوضع من قدره عند السيد أبي جعفر المذكور، فقال البديع هذه الأبيات الخمسة مخاطبًا بها السيد ومبينًا له طهارة اعتقاده مما نسبه إليه الخوارزمي من النصب.

قلت: قد خلبت خلبي، واستلبت لبي، بجنسها وفصلها، فكانت هي السبب لذكر الترجمة من أصلها وهي [من مجزوء الكامل]

أنا في اعتقادي للتَّسنْ نُنِ رافضيٌّ في ولائِك
فَلَئِنْ شُغِلْتُ بِهَؤُلا ءِ فَلَسْتُ أَغْفُلُ عَنْ أولئِك
يا عقْدَ مُنْتَظِمِ النُّبُو وةِ بَيْتَ مُخْتَلِفِ الملائِكْ
يابْنَ الفَوَاطِمِ والعَوَا تِكِ والتَّرائِكِ والأرائِكْ
أَنا حَائِكٌ إنْ لَمْ أكُنْ عَبْدًا لِعَبْدِكَ وابْنُ حائِكْ

وقوله « يابن الفواطم » يريد بهن فاطمة بنت عمرو المخزومية أم أبي طالب وعبد الله والزبير بني عبد المطلب فإن هؤلاء أشقاء أمهم فاطمة بنت عمرو المذكورة، والثانية فاطمة بنت الأصم أم خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ.

والثالثة: فاطمة بنت أسد أم على بن أبي طالب.

والرابعة: فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

وقوله « والعواتك » يريد بهن عاتكة بنت هلال بن فالح بن ذكوان أم عبد مناف ابن قصي، وعاتكة بنت مرة بن هلال أم هاشم بن عبد مناف، وعاتكة بنت الأوقص ابن هلال أم وهب أبي آمنة أم رسول الله ﷺ، وهذه العواتك كلهن من سليم، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: « أنا ابن العواتك من سُلَيْم » (١) وقوله « والترائك »: جمع تريكه وهي الخوذة. قال الشاعر البحتري [من الكامل]

حَصَّ التَّرِيكُ رُءُوسَهُمْ فَرُءُوسُهُمْ فِي مِثْلِ لَأْلاَءِ التَّرِيكِ المُذْهَبِ

وأراد بالترائك أسلحة الحرب جميعها مجازا مرسلا.

فكأنه قال: يابن الفواطم والعواتك وابن أسلحة الحرب لملازمتك إياها وملازمة آبائك من قريش. وابن الأرائك يعني ابن الجالسين عليها من الملوك.

وقوله: أنا حائك.... إلى آخره، هذه طريقة للشعراء يدعون على أنفسهم تأكيدًا وحثا على فعل ما يحمد أو ترك ما يذم، فمن ذلك قول مالك الحارثي بن الأشتر النخعي من شيعة عليٍّ - كرم الله تعالى وجهه - وأمرائه المشهورين [من الكامل]

بَقيتُ وفرى وانحرفْتُ عَنِ العلا وَلَقِيتُ أَضْيافي بِوَجْهِ عَبُوسِ
إِنْ لَمْ أَشُنَّ عَلَى ابْنِ هِنْدٍ غَارَةً لَمْ تَخْلُ يَومًا مِنْ ذَهَابِ نُفُوسِ

والحائك من شأنه الرذالة والسقاطة وقلة العقل، فكيف إذا كان أبوه أيضا حائكا، فجعل الهمداني كونه حائكًا وابن حائك دعاء على نفسه إن لم يكن عبدًا لعبد السيد

---

(١) ذكره المتقى الهندى فى الكنز (٣١٨٧٤) باللفظ المذكور، وعزاه لسعيد بن منصور، والطبرانى فى الكبير، وقد أخرجه سعيد بن منصور فى سننه (٢٨٤١) . والطبرانى فى الكبير (٦٧٢٤) عن هشيم ثنا يحيى بن سعيد عن عمرو بن سعيد بن العاص أنا سيابة بن عاصم السلمى أن رسول الله (قال يوم حنين: أنا ابن العواتك . وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٢٢): ورجاله رجال الصحيح .

المذكور يريد بذلك تبيين محبته له وصدق ولائه وإكذاب ما رماه الخوارزمي به.

الإمام على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب، وهو ثامن الأئمة والإمام بعد أبيه يكنى أبا الحسن ككنية أبيه.

ألقابه: الصابر والمزكى والولي، وأشهرها الرضا. أمه أم ولد اسمها أروى. ولد بالمدينة يوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين ومائة.

معاصره: الأمين والمأمون. عمره خمس وخمسون سنة.

مدة إمامته: عشرون سنة. كان أولها في بقية ملك الرشيد ثم ملك ولده محمد الأمين بعده ثلاث سنين وخمسة وعشرين يوما، ثم خلع الأمين وجلس مكانه عمه إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة أربعة عشر يوما، ثم أخرج الأمين ثانية، وبويع له وبقي سنة وسبعة أشهر وقتله طاهر بن الحسين، ثم ملك بعده المأمون بن هارون الرشيد عشرين سنة.

عهد المأمون له بالخلافة، وزوجه ابنته أم الفضل، دخل عليه دعبل الخزاعي الشاعر بمرو فقال: يابن رسول الله، إني قلت فيكم أهل البيت قصيدة وآليت على نفسي لا أنشدها أحدا قبلك.

فقال له الرضا: هاتها. فأنشد [من الطويل]

ذكرتُ مَحلَّ الرَّبْعِ مِنْ عَرَفَاتِ ... فأَجْرَيْتُ دَمْعَ العَيْنِ بالعَبَرَاتِ
وقَدْ عَزَّنِي صَبْرِي وهاجَتْ صبابتي ... رُسُومُ دِيَارِ قَفرةٍ وَعِرَاتِ
مَدَارِسُ آياتٍ خلَتْ من تلاوةٍ ... وَمَنْزل وَحْيٍ مُقْفِر العَرَصَاتِ
لِآلِ رَسُولِ اللهِ بِالخيفِ مِنْ مِنًى ... وبِالبَيْتِ والتَّعْرِيفِ والجَمَرَاتِ
ديار عليٍّ والحسينِ وجعفرٍ ... وحمزةَ والسجادِ ذي الثفناتِ
دِيَارٌ لعَبْدِ اللهِ والفَضْلِ صِنْوِهِ ... نَجِيِّ رَسُولِ الله فِي الخَلَوَاتِ
مَنَازِلُ كانَتْ للصَّلَاةِ وللتُّقَى ... وللصَّوْمِ والتَّطهيرِ والحَسَنَاتِ
مَنَازِل جِبْرِيلُ الأمين يَحُلُّهَا ... مِنَ اللهِ بالتَّسْلِيمِ والرَّحَمَاتِ
مَنَازِلُ وَحْيِ اللهِ مَعْدِن عِلمِهِ ... سَبِيل رَشَادٍ وَاضِح الطُّرُقَاتِ
فَأَيْنَ الألى شَطَّتْ بِهِمْ غُرْبةُ النَّوَى ... فأَمْسَيْنَ في الأقطارِ مُفْتَرِقَاتِ

هُمُ آلُ مِيراثِ النَّبيِّ إذا انْتَمَوا وهُمْ خيرُ ساداتٍ وخَيرُ حُمَاةِ
مَطَاعيم فِي الإِعْسَارِ في كُلِّ مَشْهَدٍ لَقَدْ شَرُفُوا بِالفَضْلِ والبَرَكَاتِ
أئمةُ عَدْلٍ يُقْتَدَى بِفعَالِهِم وتُؤْمَنُ مِنْهُمْ زَلَّةُ العَثَرَاتِ
فَيَا رَبِّ زِدْ قَلْبِي هدى وبَصيرَةً وزِدْ حُبَّهُم يَا ربِّ في حَسَنَاتي
لَقَدْ أَمنتْ نَفسِي بِهِمْ فِي حَيَاتِها وإنِّي لأَرْجُو الأَمْنَ بَعْدَ وَفَاتِي
أَلَمْ تَرَ أنِّى مذْ ثَلاثِينَ حِجَّةً أَروحُ وأَغْدُو دائمَ الحَسَرَاتِ
أَرَى فَيْئَهُم فِي غَيْرِهم مُتَقَسِّمًا وأَيْدِيَهُمْ مِنْ فَيئهِمْ صفرَاتِ
سَأَبْكِيهمُ ما ذَرَّ في الأُفُقِ شَارِقٌ ونادَى مُنَادِي الخَيْرِ بالصَّلَوَاتِ
ومَا طَلَعتْ شَمْسٌ وَحَانَ غُرُوبُها وبِالليلِ أبكيهمْ وبِالغدوَاتِ
دِيارُ رَسُولِ اللهِ أَصْبحن بَلْقَعًا وآلُ زِيادٍ تَسْكُنُ الحُجُرَاتِ
وآلُ زِيادٍ في القُصُورِ مَصُونَةٌ وآلُ رَسُولِ اللهِ في الفَلَوَاتِ
فلوْلا الذي أرْجُوه في اليَومِ أو غَدٍ لَقُطِّع نَفْسِي إِثْرَهُمْ حَسَرَاتِ
خُرُوجُ إمَامٍ لا مَحَالةَ خَارجٌ يَقُومُ عَلَى اسْم اللهِ بِالبَرَكَاتِ
يُمَيِّزُ فِينَا كُلَّ حَقٍّ وبَاطِلٍ ويَجزى عَلَى النَّعْمَاءِ والنَّقَمَاتِ
فَيَا نَفْسُ طِيبى ثُمَّ يَا نَفْسُ فاصْبِرِي فَغَيرُ بَعِيدٍ كلُّ مَا هُوَ آتِ

قلت: دعبل هذا محب لأهل البيت، ومن ذا الذي لا يحبهم فمن لا يحبهم لا يحبه الله، ولكنه كان مولعًا بالهجو والحط من أقدار الناس، هجا الخلفاء وغيرهم، هجا المأمون بأبيات منها [من الكامل]

إنِّي مِنَ القَوْمِ الذِينَ سُيُوفُهُمْ قَتَلَتْ أَخَاك وشَرَّفَتْكَ بِمَقْعَدِ
شَادُوا بحُسْنِ فَعَالِهِمْ لَكَ مَنْصِبًا واسْتَرْفَعُوكَ مِنَ الحَضِيضِ الأَوْهَدِ

يُشيرُ بذلك إلى ما فعله طاهر بن الحسين، مقدم عساكر المأمون فإنه خزاعي، ودعبل هذا خزاعي. ولما بلغ هذا المأمون قال: تعس دعبل، ومتى كنت خاملاً فرفعني قومه. وطال عمر دعبل، وكان يقول لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك. كان مولده بين واسط العراق وكور الأهواز سنة ثمان وأربعين ومائة. والدعبل بكسر الدال المهملة وإسكان العين وكسر الباء الموحدة اسم الناقة الشارف وهو لقبه. واسمه على بن

رزين بن سليمان، قاله ابن الأثير.

واستشهد الرضا في أيام المأمون مسمومًا بطوس في قرية شاه باز يوم الجمعة لسبع بقين من رمضان سنة ثلاث ومائتين ودفن إلى جنب قبر الرشيد. أولاده خمسة، العقب منه في ابنه:

الإمام محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب وهو التاسع من الأئمة، ولد بالمدينة يوم الجمعة لعشر خلون من رجب سنة تسعين ومائة.

كنتيته: أبو جعفر.

ألقابه: القانع والمرتضى وأشهرها الجواد، زوجه المأمون ابنته أم حبيب.

صفته: أبيض اللون معتدل القامة. معاصره: المأمون والمعتصم.

عمره: خمس وعشرون سنة وأشهر.

مات ببغداد يوم الثلاثاء لخمس خلون من ذي الحجة سنة عشرين ومائتين، وكانت مدة إمامته سبع عشرة سنة أوائلها في بقية ملك المأمون، وآخرها في أول ملك المعتصم، قيل: مسموما، ولكن لم يصح، ودفن بمقابر قريش إلى جنب قبر جده موسى الكاظم.

أولاده أربعة، العقب منه في رجلين هما الهادي وموسى المبرقع.

فالإمام على الهادي بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق: هو الإمام بعد أبيه وعاشر الأئمة.

أمه أم ولد: اسمها شهامة. ويلقب: بالتقي والهادي، أشهرهما الأول. ولد بالمدينة ثالث عشر رجب سنة أربع عشرة ومائتين. مات بـ « سر من رأى » مسموما يوم الإثنين لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائتين، ودفن في داره بـ «سر من رأى» .

أولاده أربعة. أعقب من ثلاثة: أبي جعفر محمد وأبي عبد الله جعفر، وأبي محمد:

الإمام الحسن العسكري بن على الهادي بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم، وهو الإمام بعد أبيه وحادي عشر الأئمة. أمه أم ولد، اسمها سوسن.

كنيته: أبو محمد.

ألقابه: الخالص والسراج وأشهرها العسكري.

ولد بالمدينة سنة إحدى أو اثنتين وثلاثين ومائتين.

صفته: بين السمرة والبياض.

معاصره: المعتز والمهتدي والمعتمد.

عمره ثمان وعشرون سنة، ومدة إمامته ست سنين.

مات في أوائل خلافة المعتمد مسمومًا في يوم الجمعة لثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة ستين ومائتين بـ«سر من رأى»، ودفن عند قبر أبيه الهادي. خلَّف ولده محمدًا أوحده.

وهو الإمام محمد المهدي بن الحسن العسكري بن على التقي بن محمد الجواد ابن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ولد يوم الجمعة منتصف شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين، وقيل: سنة ست وهو الصحيح.

أمه أم ولد: اسمها أصقيل، وقيل سوسن، وقيل نرجس.

كنيته: أبو القاسم.

ألقابه: الحجة، والخلف الصالح، والقائم، والمنتظر، وصاحب الزمان، والمهدي وهو أشهرها.

صفته: شاب مربوع القامة، حسن الوجه والشعر، أقنى الأنف، أجلى الجبهة.

ولما توفى أبوه كان عمره خمس سنين وشيعته يقولون: إنه دخل السرداب سنة خمس وسبعين ومائتين، وعمره سبع عشرة سنة، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان من السرداب، وأقاويلهم فيه كثيرة، والله أعلم أي ذلك يكون.

قال الشيخ علاء الدين أحمد بن محمد السمناني في ذكر الأبدال والأقطاب: وقد وصل إلى رتبة القطبية محمد المهدي بن الحسن العسكري، وهو إذ اختفى دخل في دائرة الأبدال متدرجًا طبقة بعد طبقة إلى أن صار سيد الأبدال.

وكان القطب حينئذ على بن الحسين البغدادي، فلما حانت منيته صلى عليه

المهدي هذا، ودفنه وجلس مجلسه، وبقي في رتبة القطبية تسع عشرة سنة، والله أعلم.

وأما محمد بن الحنفية - وهو الفرع الثالث من أولاد على بن أبي طالب لصلبه الذين ذكرنا أن أنساب الطالبيين أكثرها راجع إلى الحسن والحسين وإليه - فهو محمد بن أمير المؤمنين على بن أبي طالب المشهور بابن الحنفية، يكنى أبا القاسم، روى أنه عليه الصلاة والسلام رخص لأمير المؤمنين في تسمية ابنه هذا، وتكنيته بأبي القاسم (١).

قال في « أنساب قريش: يقولون أمه خولة بنت جعفر بن قيس بن سلمة بن عبد الله بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة بن لجيم وتسميه الشيعة. . .[المهدىّ](٢)

حدثني محمد بن إسماعيل بن جعفر عن قيس بن سعيد بن عقبة الجهني عن أبيه، قال: سمعت كثيرا ينشد على بن عبد الله بن جعفر لنفسه في محمد بن الحنفية [من الوافر]:

أَقَـرَّ الله عَـيْـنـي إذْ رَعَـانِـي ... أَمِينُ اللهِ يُلْطِفُ في السُّؤالِ
وأَثْنَى في هَوَايَ عَلَىَّ خيرًا ... وساءَلَ عَنْ بَنِيَّ وَكَيْفَ حَالي
وكَيْفَ ذَكَرْتُ شَأْنَ أَبِي خبيبٍ ... وَزَلَّـةَ نَـعْـلِـهِ عِـنْـدَ الـنِّـضَـالِ
هُـوَ الـمَـهْـدِيُّ خَـبَّـرَنَـاهُ كَـعْـبٌ ... أخو الأَحْبَارِ في الحِقَبِ الخَوَالي

وكان كثير كيسانيا يقول بإمامة محمد بن الحنفية، ويزعم أن الأرواح تتناسخ ويحتج بقول الله عز وجل: ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار:٨] ويقول: ألا ترى أنه يحوله في صورة بعد صورة. فقال له على بن عبد الله بن جعفر: يا أبا صخر ما يثني عليك في هواك خيرًا إلا من كان على مثل رأيك.

وقيل له: إنك تقول خبرناه كعب، ألقيت كعب الأحبار؟ قال: لا. قيل: فلم قلت: خبرناه كعب؟ قال: هو بالوهم.

وكانت شيعة محمد يزعمون أنه لم يمت.

وفي ذلك يقول كثير أيضًا [من الوافر]

أَلا إنَّ الأئِـمَّـةَ مِـنْ قُـرَيْـشٍ ... وُلاَةُ الـحَـقِّ أَرْبَـعَـةٌ سَـوَاءُ

---

(١) تقدم هذا فى فضائل على بن أبى طالب .
(٢) بياض بالأصل والمثبت من نسب قريش (١/ ٤١)

عَـلـيٌّ والـثَّـلاثَـةُ مِـنْ بَـنِـيـه هُمُ الأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِم خَفَاءُ
فَـسِـبْـطٌ سِـبْـطُ إيـمـانٍ وبـرٍّ وسـبْـطٌ غَـيَّـبَـتْـهُ كَـرْبـلاَءُ
وسِبْطٌ لاَ تَـرَاه الـعَـيْـنُ حَـتَّـى يـقـودَ الـخيـلَ يَـقْـدُمُـهَا اللِّـواءُ
تَـغـيَّـبَ لاَ يُـرَى عَـنْـهُـم زَمَـانًـا بـرَضْـوى عِـنْـدَهُ عَـسَـلٌ ومَـاءُ

وفي محمد بن الحنفية يقول الحميري [من الوافر]

أَلا قُلْ لِلْوصيِّ فَدَتْكَ نَفْسِي أَطَلْتَ بذَلكَ الشِّعْبِ المُقَامَا
أَضَـرَّ بِـمـعـشـرٍ وَالَـوْكَ مِـنَّـا وسَـمَّـوْكَ الـخـلـيـفَـةَ والإمَـامَـا
وعَادَوْا فِيكَ أَهْلَ الأَرْضِ طُرًّا مـقَـامك عَـنْـهُـمُ سِـتِّـيـنَ عَـامَـا
وَما ذَاقَ ابنُ خَوْلَةَ طَعْمَ مَوْتٍ وَلاَ وَارَت لَـهُ أَرْضٌ عِـظَـامـا
لَقَدْ أَمْسَى بمُورِقِ شعب رَضْوَى تُـراجِـعُـهُ الـمـلائِـكَـةُ الـكَـلامَـا
وإِنَّ لَـهُ بِـه لـمِـقـيـل صـدْقٍ وأَنْـدِيـةً تُـحَـدِّثُـهُ كِـرَامَـا
هَـدَانَـا الـلـهُ إِذْ جِـرتُـمْ لأمـرٍ بـهِ وعـلـيـه نَـلْـتَـمِـسُ الـتَّـمَـامـا
تَـمـامَ مَـوَدَّةِ الـمَـهـدِيِّ حَـتَّـى تَـرَوْا رايـاتِـنَـا تَـتْـرَى نِـظَـامـا

وقال أيضا [من الكامل]

يا شِعْبَ رَضْوَى مَا لِمَنْ بِكَ لاَ يُرَى وبِنَا إِلَيْهِ مِنَ الصبابة أَوْلَقُ
حتى متَى وإِلَى متَى وكَم المَدَى يابْنَ الوصيِّ وأَنْتَ حَيٌّ تُرْزَقُ؟!

قال المسعودي في «المروج»(١): وشيعته تسمى الكيسانية وقد تنازعوا بعد قولهم بإمامته: فمنهم من قطع بموته، ومنهم من زعم أنه لم يمت وأنه حي مقيم بجبل رضوى المعروف بقرب ينبع.

وإنما سموا الكيسانية؛ لإضافتهم إلى المختار بن أبي عبيد وكان اسمه كيسان، ويكنى أبا عمرو، كان يدعي أن علي بن أبي طالب لقبه بذلك.

أولاد محمد بن الحنفية أربعة وعشرون، منهم أربعة عشر ذكرًا.

وقال النقيب تاج الدين: أولاد محمد بن الحنفية قليل جدا، ليس بالعراق ولا بالحجاز منهم أحد، وإن كان فبالكوفة.

وقال في «عمدة الطالب»: بشيراز وأصفهان وقزوين وبمصر والصعيد منهم

(١) ينظر: المروج (٣/ ٨٧).

جماعة. والعقب المتصل الآن من ولده في رجلين: على وجعفر قتيل الحرة.

وأما عقب ابنه أبي هاشم عبد الله الأكبر إمام الشيعة الكيسانية فمنقرض، وهذا أبو هاشم هو الذي أسند وصيته فيما قاله الشيعة إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس، وأخوه على بن محمد بن الحنفية وابنه الحسن بن على بن محمد بن الحنفية، وكلهم ادعت الشيعة إمامتهم.

قال ابن خلدون [(١)]: وخرج باليمن على المأمون، ومن ولد على بن أبي طالب من غير هؤلاء عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن على بن أبي طالب.

ومن ولد جعفر بن أبي طالب عبيد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب القائم بفارس وبويع بالكوفة، وأراد بعض شيعة العباسية تحويل الدعوة إليه فمنعه أبو مسلم الخراساني من ذلك، وكانت له شيعة ينتظرونه وساقوا الخلافة من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية بالوصية.

وكان فاسقًا.

وكان ابنه معاوية بن عبيد الله نظير أبيه في الشر.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

* * *

(١) ينظر: تاريخ ابن خلدون، المجلد الرابع، القسم الأول (ص ١٨).

الباب الثاني
في ذكر من دعا منهم إلى المبايعة

وذكر مكان دعائه وزمانه، وما جرى على كل قائم من خليفة زمانه وتعدادهم من لدن على بن أبي طالب إلى يومنا هذا، وهذا على رأي غير الإمامية من الشيعة وهم الزيدية.

أما على رأى الإمامية فلا يجوزون الإمامة لغير الاثني عشر الإمام الذين أولهم على بن أبي طالب وآخرهم الإمام محمد المهدي المنتظر، وسيأتي الدليل على تصحيح جوازها لغير الاثنى عشر الإمام بل تعينه بحيث لا تخلو الأرض من قائم من آل بيت محمد يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

قد تقدم ذكر شيعة أهل البيت لعلي بن أبي طالب، وبنيه رضي الله تعالى عنهم وما كان من شأنهم بالكوفة ومؤاخذتهم الحسن في تسليم الأمر لمعاوية، واضطراب الأمر على زياد ابن أبيه بالكوفة من أجلهم حتى قتل المتولون كبر ذلك، منهم حجر ابن عدي وأصحابه، ثم استدعوا الحسين بن على بعد وفاة معاوية فكان من قتله بـ « كربلاء » ما هو معروف، ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان، وخروج عبيد الله بن زياد عن الكوفة، وسموا أنفسهم التوابين، وولوا عليهم سليمان بن صُرَد الخزاعي، ولحقتهم جيوش ابن زياد بأطراف الشام فاستجموهم، ثم خرج المختار بن أبي عبيد بالكوفة طالبا بدم الحسين، وداعيا لمحمد بن الحنفية، وتبعه على ذلك جموع من الشيعة، وسماهم شرطة الله، وزحف عليه عبيد الله بن زياد، فهزمه المختار وقتله.

وبلغ محمد بن الحنفية من أحوال المختار ما نقمه عليه فكتب إليه بالبراءة منه، فصار المختار إلى الدعاء لعبد الله بن الزبير، ثم استدعى الشيعة من بعد ذلك زيد بن على بن الحسين - رضي الله تعالى عنهم - إلى الكوفة أيام هشام بن عبد الملك فقتله صاحب الكوفة يوسف بن عمر، وصلبه كما سيأتي ذكر ذلك عند ذكر قيامه بالدعوة، وخرج يحيى بن زيد بالجوزجان من خراسان فقتل وصلب لذلك، وطلت دماء أهل البيت في كل ناحية.

ثم اختلف الشيعة، وانقسمت مذاهبهم في مصير الإمامة إلى العلوية، وذهبوا

طرائق مع اتفاقهم على تفضيل على كرم الله وجهه على جميع الصحابة:

إلى الزيدية القائلين بإمامة بني فاطمة لفضل على وبنيه على سائر الصحابة على شروط يشترطونها، وإمامة الشيخين عندهم صحيحة وإن كان على أفضل منهما لأنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل، وهو مذهب زيد وأتباعه المسمين بالزيدية، وهم جمهور الشيعة وأبعدهم عن الانحراف والغلو.

وإلى الرافضة: وسموا رافضة قالوا: لأنه لما خرج زيد الشهيد بالكوفة، واختلفت عليه فرقة من الشيعة، وناظروه في أمر الشيخين، ودعوه إلى البراءة منهما، وأنهما ظلما عليا أنكر ذلك عليهم وامتنع عن البراءة منهما.

فقالوا له: وأنت أيضا لم يظلمك أحد ولا حق لك في الأمر فنحن نرفضك.

فقال: اذهبوا فأنتم الرافضة. فانصرفوا عنه فسموا الرافضة.

وأقام معه أتباعه الآخرون فسموا زيدية.

ثم ساق الرافضة الإمامة من على كرم الله وجهه - إلى ابنه الحسن ثم إلى الحسين ثم إلى ابنه زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق، كل هؤلاء بالوصية، وهم ستة أئمة لم يخالف فيهم أحد من الرافضة المذكورين.

ثم افترقوا من ههنا إلى فرقتين: إلى الاثنى عشرية، واختصوا باسم الإمامية إلى هذا العهد، ومذهبهم أن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم.

وخرج دعاته بعد موت أبيه، فحمله هارون الرشيد معه من المدينة، وحبسه عند عيسى بن جعفر ثم إشخاصه إلى بغداد وحبسه عند ابن شاهك.

ويقال: إن يحيى بن خالد سمه في رطب فتوفى سنة ١٨٣ ثلاث وثمانين ومائة.

وزعم شيعته أن الإمام بعده ابنه على الرضا، وكان عظيمًا في بني هاشم، وكانت له مع المأمون صحبة، وزوجه ابنته أم الفضل، وعهد له بالأمر من بعده.

وقد تقدم ذكرنا لكتاب العهد في خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - وكان عهد المأمون لعلي الرضا بالأمر سنة ٢٠١ إحدى ومائتين عند ظهور الدعاة للطالبيين في كل ناحية، وكان المأمون بـ « خراسان » لم يدخل العراق بعد مقتل أخيه الأمين، فنكر ذلك عليه شيعة العباسيين وبايعوا لعمه إبراهيم بن المهدي ببغداد، فارتحل المأمون من العراق وعلي الرضا معه، فهلك على الرضا في طريقه

سنة ثلاث ومائتين ودفن بـ « طوس » .

ثم زعموا أن الأمر بعده لابنه محمد التقي، وكان له من المأمون مكان، وأصهر إليه في ابنته أم حبيب، فأنكحه المأمون إياها سنة خمس ومائتين، ثم هلك سنة عشرين ومائتين ودفن بمقابر قريش.

ثم زعموا أن الأمر من بعده إلى علي، ويلقبونه بالهادي ومات سنة أربع وخمسين ومائتين وقبره بـ « قم »، وزعم ابن سعيد أن المعتز سمه (١).

ثم إلى ابنه الحسن العسكري ويلقب بذلك لأنه ولد بـ«سر من رأى»، وكانت تسمى العسكر وجلس بها بعد أبيه إلى أن هلك سنة ستين ومائتين، ودفن إلى جنب أبيه بالمشهد، وترك حملا ولد منه ابنه محمد، فاعتقل، وقيل: دخل السرداب بدار أبيه، قيل مع أمه، وقيل وأمه تنظر إليه ففقد، فزعمت شيعتهم أنه الإمام بعد أبيه ولقبوه المهدي والحجة، وزعموا أنه حي لم يمت، وهم الآن ينتظرونه ووقفوا عند هذا الانتظار (٢).

وهذا هو الثاني عشر من ولد على ولذلك سموا شيعته الاثنى عشرية.

وهذا المذهب بالمدينة والكرخ والشام والحلة والعراق.

قال العلامة ابن خلدون(٣): [والسرداب بالحلة]، وهم حتى الآن على ما بلغنا يصلون المغرب فإذا قضوا الصلاة قربوا مركبًا إلى باب السرداب بجهازه وحليته، ونادوا بأصوات متوسطة: أيها الإمام اخرج إلينا فإن الناس منتظرون، والخلق حائرون، والظلم عام، والحق مفقود، فاخرج إلينا نتعرف الرحمة من الله في آثارك.

ويكررون ذلك إلى أن تبدو النجوم ثم ينصرفون إلى الليلة القابلة هكذا دأبهم، وربما يحتجون لحياته بقصة الخضر، فسبحان عالم الحقائق.

قلت: قد ذكر غير ابن خلدون أن السرداب ببغداد لا بالحلة، فالله أعلم أيا كان ذلك.

لطيفة: قال ابن العربي، قال أصحابنا النصرية بالمسجد الأقصى: إن شيخنا

(١) ينظر: تاريخ ابن خلدون المجلد الرابع القسم الأول ص ٦٠ .
(٢) ينظر: تاريخ ابن خلدون المجلد الرابع القسم الأول ص٦١ .
(٣) ينظر: تاريخ ابن خلدون المجلد الرابع القسم الأول ص ٦١ .
وعبارة [السرداب بالحلة] لم ترد عند ابن خلدون .

أبا الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي اجتمع برئيس من رؤساء الشيعة، فشكا إليه فساد الخلق، وأن هذا الأمر لا يصلح إلا بخروج الإمام المنتظر، فقال له نصر: فهل لخروجه ميقات معلوم أم لا؟ فقال الشيعي: نعم إذا فسد الخلق.

فقال له نصر: فلم تحبسونه عن الخلق؟ قد فسد جميعهم إلا أنتم، فلو فسدتم لخرج، فأسرعوا به وأطلقوه من سجنه، وعجلوا بالرجوع إلى مذهبنا لتفسدوا فيخرج، فبهت الشيعي انتهى. كذا في «العواصم من القواصم».

وإلى الإسماعيلية: وهم الذين نقلوا الخلافة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل ثم ساقوها في عقبه فمنهم من أنهى بها إلى عبيد الله المهدى أحد الخلفاء العبيديين ابن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق بن محمد الباقر وهم الفرقة الزاعمون أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل وتوفى قبل أبيه، وكان أبو جعفر المنصور طلبه فشهد له عامل المدينة أنه مات. وفائدة النص عندهم على إسماعيل، وإن كان مات قبل أبيه بقاء الإمامة في ولده كما نص موسى على هارون صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهما، ومات قبله، والنص عندهم لا يرجع وراءه، لأن البداء على الله محال.

ويقولون في ابنه محمد: إنه السابع التام من الأئمة الظاهرين، وهو أول الأئمة المستورين عندهم الذين يستترون، ويظهرون الدعاة وعددهم ثلاثة ولن تخلو الأرض من إمام، إما ظاهر بذاته، أو مستور، فلا بد من ظهور حجته ودعاته.

والأئمة يدور عددها عندهم على سبعة، سبعة عدد الأسبوع والسماوات والكواكب.

وأول الأئمة المستورين عندهم: محمد بن إسماعيل المذكور، وهو محمد المكتوم، ثم ابنه جعفر المصدق ثم ابنه محمد، ثم ابنه عبيد الله المهدى صاحب الدولة بإفريقية جد الخلفاء العبيديين بها أولا وبـ«مصر» ثانيا المتقدم ذكرهم في الباب الثالث من المقصد الرابع، ومنهم من ساقها إلى يحيى بن عبد الله بن محمد المكتوم، وهؤلاء طائفة من القرامطة، وهذا من كذباتهم ولا يعرف لمحمد بن إسماعيل ولد اسمه عبد الله.

ومن شيعة آل البيت: الكيسانية نسبة إلى كيسان وهو المختار بن أبى عبيد، يذهبون إلى إمامة محمد بن الحنفية، وبنيه من بعد الحسن والحسين، ومن هؤلاء

كانت شيعة بنى العباس القائلون بوصية أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس بالإمامة.

وانتشرت هذه المذاهب وهى: مذهب الزيدية، ومذهب الرافضة المنقسمين إلى الإمامية الاثنى عشرية وإلى الإسماعيلية، ومذهب الكيسانية، وهم شيعة محمد بن الحنفية الذين صاروا شيعة لبنى العباس بإيصاء أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى جدهم محمد بن عبد الله بن العباس المذكور.

وكان أكثر الكيسانية بالعراق، وخراسان بين الشيعة، وافترق أهل كل مذهب منها إلى طرائق بحسب اختلافهم: [من الوافر]

وكُلٌّ يَدَّعِي وصْلا بِلَيْلَى ... ...

واعلم أن سبب انتصاب الأشراف للإمامة وادعائهم لها مع ما يشاهدونه من النكد والشدائد والقتل والحبس والمكائد بعد قتل على بن أبي طالب لما تقلد الخلافة والعقد عليهِ إجماع أهل بدر واختيار أكابر الصحابة وبايعوه علانية، نازعه في الخلافة معاوية بن أبى سفيان وتعلل بعلل كثيرة لبلوغ المنى وكل منهما مجتهد، لكن معاوية مجتهد مخطئ.

قال الإمام الغزالى في «قواعد العقائد» ولم يذهب لتخطئة عليّ ذو تحصيل أصلا ولا شبهة أن الحق مع على، وأن معاوية ليس ممن يعادل أحد العشرة المبشرة بالجنة فضلا عن أن يعادل عليًا، وأين الحسام من المنجل، وأين معاوية من على، فاشتبه على العامة أمرهما وصاروا فريقين، فوقعت الحرب بينهما كما قدره الله تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا يقع في ملكه إلا ما أراد ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]

فلما استشهد على - رضي الله تعالى عنه - بعد ذلك قام الحسن بن على بعده، وقد سبق في خلافته تفصيل ذلك، وذكر صلحه مع معاوية بن أبي سفيان، فلما سم ومات رضي الله عنه قام أخوه الحسين بن على تاليا ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ [الإسراء: ٣٣]، الآية، وكان قيامه زمن يزيد بن معاوية فقتل بـ«كربلاء» عطشانا، سير عليه عبيد الله بن زياد سرية عليها عمر بن سعد بن أبى وقاص، وكان من أمره ما شرح فيما تقدم مما يجرح القلوب، ويجرى الغروب.

ثم قام من بعده على زين العابدين، ثم قام من بعده زيد بن على فقتل وصلب، ثم قام ولده يحيى بن زيد فقتل، ثم هلم جرا.

فذهب الزيدية من الشيعة أن القيام افترض عليهم لطلب الحق وأن إظهار الدعوة والقيام بأمر الإمامة للأمة واجب عليهم، وهذا مكتوب في تواريخ الزيدية.

وأما الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، فلا يجوزون الإمامة لغير الاثنى عشر الإمام الذين أولهم علي، وآخرهم المهدي محمد المنتظر صاحب السرداب.

ودليل الزيدية على تصحيح جوازها لغير الأئمة الاثنى عشر أو تعينه - وهو ما وعدنا به سابقا - هو ما أخرج أبو إسحاق بن راهويه في «مسنده»، والدولابى في «الذرية الطاهرة» أن النبى ﷺ قال: «إنى تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله طرف بيده وطرف بأيديكم، وأهل بيتى» (١) ورواه الجعابى في «الطالبيين» ولفظَه: إن رسول الله ﷺ قال: «إنى مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله تعالى طرف بيد الله وطرف بأيديكم، وعترتى أهل بيتى، ولن يفترقا حتى يردا علىَّ الحوض» (٢). ورواه البزار، ولفظه: «إنى مقبوض وإنى قد تركت فيكم الثقلين كتاب الله، وعترتى أهل بيتى وإنكم لن تضلوا بعدهما» (٣)، وفى رواية: « والله

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١٥٥٨) والطحاوى فى مشكل الآثار (٢/ ٣٠٧) من طريق «أبى عامر، حدثنا كثير بن زيد، عن محمد بن عمر بن على عن أبيه، عن علىٍّ مرفوعًا: إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله . سببه بيد الله وسببه بأيديكم، وأهل بيتي » وهذا إسناد رجاله ثقات .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٤، ١٧، ٢٦ ، ٥٩)، والترمذى (٣٧٨٨) . والطبرانى فى الصغير (١/ ١٣١)، وفى الكبير (٢٦٧٨، ٢٦٧٩) . وابن أبى عاصم فى السنة (١٥٥٣، ١٥٥٤) من طريقٍ عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعًا . إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى: أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض . وعترتى: أهل بيتى، ولن يتفرقا حتى يردا علىّ الحوض . فانظروا كيف تخلفونى فيهما » وعند الترمذى عن أبى سعيد وزيد بن أرقم، وقال: هذا حديث حسن غريب .

وللحديث شواهد كثيرة . ينظر كنز العمال (١/ ١٧٢) وما بعدها ومجمع الزوائد (٩/ ١٦٥- ١٦٧) .

والحديث صححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٧٦١) بلفظ: « يا أيها الناس، إنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله، وعترتى أهل بيتى» . وهذا لفظ الترمذى (٣٧٨٦) من حديث جابر بن عبد الله .

(٣) ذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٦٦)، وعزاه للبزار من حديث على بن أبى طالب . وقال: فيه الحارث، وهو ضعيف .

سائلكم كيف خلفتمونى في كتابه وأهل بيتى» . وأخرج محمد بن جعفر الرزاز عن أم سلمة: «ألا إنى مخلف فيكم كتاب ربى عز وجل وعترتى أهل بيتى. ثم أخذ بيد على فرفعها فقال: هذا عَلِي مع القرآن والقرآن مع عَلِيّ لا يفترقان حتى يردا علىّ الحوض فأسألهما ما خلفت فيهما» (١)، وأخرج أبو سعد والملا في سيرته حديث: «استوصوا بأهل بيتى خيرا، فإنى أخاصمكم عنهم غدا، ومن أكن خصمه أخصمه، ومن أخصمه دخل النار» .

قال في «جواهر العقدين»: ولما كان كل من القرآن العظيم، والعترة الطاهرة معدنًا للعلوم الدينية والأسرار، والحكم النفيسة الشرعية، وكنوز دقائقها، واستخراج حقائقها أطلق عليه الصلاة والسلام عليهما الثقلين، ويرشد لذلك حثه على الاقتداء والتمسك والتعلم من أهل بيته.

ولا شك أن الذين وقع الحث على التمسك بهم من أهل البيت النبوى والعترة الطاهرة هم العلماء بكتاب الله، إذ لا يحث عليه الصلاة والسلام بالتمسك بغيرهم وهم الذين لا يقع بينهم وبين الكتاب اقتراب، ولهذا قال: «لا تقدموها فتهلكوا ولا تقصروا عنها فتهلكوا»(٢) .

وقال في طريق آخر في عترته: «فلا تسبقوهم فتهلكوا ولا تعلموهم فهم أعلم منكم» فاختصوا بمزيد الحث عن غيرهم من العلماء لما تضمنته الأحاديث في ذلك، ولحديث أحمد: ذُكِر عند النبى ﷺ قَضَاءٌ قضى به على، فأعجب النبى ﷺ وقال: «الحمد لله الذى جعل فينا الحكمة أهل البيت» (٣).

وكل هذا يفهم وجوب من يكون أهلا للتمسك به من أهل البيت والعترة الطاهرة في كل زمان وجدوا فيه إلى قيام الساعة حتى يتوجَّهَ الحث المذكور على التمسك به

---

(١) تقدم تخريجه فى مناقب علىّ بن أبى طالب .

(٢) هاتان الروايتان ورد نحوهما فى حديث زيد بن أرقم المطول أخرجه الطبرانى فى الكبير (٥/ ١٦٦ - ١٦٧) رقم (٤٩٧١) وفيه «كتاب الله طرفه بيد الله . وطرفه بأيديكم، فاستمسكوا به لا تضلوا، والآخر عترتى وإن اللطيف الخبير نبأنى أنهما لن يتفرقا حتى يردا علىَّ الحوض وسألت ذلك لهما ربى، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهم، فإنهم أعلم منكم» . قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ١٦٧): فيه حكيم بن جبير، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد فى المناقب، كما فى الرياض النضرة (٣/ ١٦٩) من طريق جميل بن عبد الله بن يزيد المدنى .

كما أن الكتاب العزيز كذلك، ولهذا كانوا أمانًا لأهل الأرض فإذا ذهبوا ذهب أهل الأرض.

وأما احتجاج الشيعة لمنعهم ذلك بالحديث: «يكون من أهل بيتى اثنا عشر خليفة»،[١] أو كما قال ﷺ، فليس لهم في ذلك حجة، إذ مفهوم العدد[٢] غير معتبر دليلًا يبطل معنى الحث والتمسك إذ لو لم نقل بوجود ذلك التمسك به لم يتعقل الحث على التمسك بمعدوم[٣].

وأخرج أبو الحسن بن المغازلى من طريق موسى بن القاسم عن على بن جعفر: سألت الحسن عن قوله تعالى: ﴿ كَمِشْكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ﴾ [النور: ٣٥]، قال: المشكاة فاطمة والشجرة المباركة: إبراهيم. لا شرقية ولا غربية: لا يهودية ولا نصرانية. ﴿ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ ﴾ [النور: ٣٥] قال: منها إمام بعد إمام يهدى الله لنوره من يشاء. قال: يهدى لولايتنا من يشاء.

وقوله: منها إمام بعد إمام، يعنى أئمة يقتدى بهم في الدين، ويتمسك بهم فيه ويرجع إليهم، وهذا أوضح دليل على صحة إمامة غيرهم بل تعينها.

وههنا نقل غريب وهو وإن كان لا تعلق له بما نحن فيه من وجه فله تعلق من وجه آخر إذ هو في شأن العترة الطاهرة الذين الكلام في شأنهم على بن أبي طالب كرم الله وجهه، ونصه: روى الثعلبى في تفسيره: أن سفيان بن عيينة رحمه الله: سئل عن قوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴾ [المعارج: ١] فيمن نزلت؟ فقال للسائل: سألتنى عن مسألة ما سألنى عنها أحد قبلك، حدثنى أبي عن جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله ﷺ لما كان بغدير «خم» فنادى في الناس فاجتمعوا، فأخذ بيد على وقال: «من كنت مولاه فعلى مولاه» إلى آخر

---

(١) أخرجه البخارى (٧٢٢٢، ٧٢٢٣) «من حديث جابر بن سمرة مرفوعًا: يكون اثنا عشر أميرًا كلهم من قريش» .

(٢) ينظر: البحر المحيط للزركشى ٤/ ٣٧، البرهان لإمام الحرمين ١/ ٤٦٦، التمهيد للإسنوى ٢٥٢، نهاية السول له ٢/ ٢٢١، غاية الوصول للشيخ زكريا الأنصارى ٣٩، حاشية البنانى ١/ ٢٥١، الآيات البينات لابن قاسم العبادى ٢/ ٣٠، حاشية العطار على جمع الجوامع ١/ ٣٢٨، تيسير التحرير لأمير بادشاه ١/ ١٠٠ .

(٣) أخرجه النسائى فى التفسير (٦٤٠)، والحاكم (٢/ ٥٠٢) عن ابن عباس، مختصرًا، وليس فيه موضع الشاهد «من كنت مولاه فعلىّ مولاه» .

الحديث، فشاع ذلك وطار في البلاد، فبلغ ذلك الحارث بن النعمان الفهرى فأتى رسول الله ﷺ على ناقة له، فنزل بالأبطح عن ناقته وأناخها، فقال: يا محمد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصلى خمسًا فقبلناه منك، وأمرتنا بالزكاة فقبلنا، وأمرتنا أن نصوم شهرا فقبلنا، وأمرتنا بالحج فقبلنا، ثم لم ترض بهذا حتى ترفع بضبعى ابن عمك تفضله علينا، وقلت: من كنت مولاه فعلى مولاه، فهذا شيء منك أو من الله عز وجل؟.

فقال رسول الله ﷺ: «والله الذى لا إله إلا هو إن هذا من الله عز وجل» . فولى الحارث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية، فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره فقتله فأنزل الله عز وجل: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج: ١]، كذا في «جواهر العقدين في فضل الشرفين، شرف العلم الجلى، وشرف النسب العلى» .

وها أنا أذكر من قام منهم من لدن على بن أبي طالب إلى زماننا اليوم، وهو عام سبع وتسعين وألف، فأقول:

أولهم على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وبعده ابناه الحسن في زمن معاوية، ثم الحسين في زمن يزيد، وقد سبق ذكرهما بما لا مزيد عليه، ثم بعد الحسين الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب قام في زمان عبد الملك بن مروان ثم استتر، فلما ولي الأمر الوليد بن عبد الملك شدد في طلبه فلم يظفر به، وكان مستترا بالحجاز فدس إليه من سقاه السم فمات مسموما، وحمل إلى المدينة المنورة ودفن بالبقيع، وكان قيامه سنة ثلاث وثمانين ووفاته سنة ست وثمانين، وعمره ثمان وثلاثون سنة.

قلت: قد تقدم في الرواية السابقة أن الحسن المثنى لم يدع الإمامة، ولم يدعُ إلى مبايعة، ولم يدّعها له أحد فعدّه ههنا في الدعاة على غير تلك الرواية.

ثم قام بالدعوة الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله عنهم.

ظهر زيد بالكوفة خارجا على هشام بن عبد الملك داعيا للكتاب والسنة وإلى

جهاد الظالمين وإعطاء المحرومين، والعدل في قسمة الفيء، ورد المظالم ونصر أهل البيت.

واختلف في سبب خروجه فقيل: إن يوسف بن عمر لما نكب خالد بن عبد الله القسرى كتب إلى هشام أنه شيعة لأهل البيت، وأنه ابتاع من زيد أرضا بالمدينة بعشرة آلاف دينار، وأنه رد الأرض عليه وأنه أودع زيدا وأصحابه مالا، وكان زيد قد قدم على خالد بالعراق، هو ومحمد بن عمر بن أبي طالب، وداود بن على بن عبد الله بن عباس، فأجازهم ورجعوا إلى المدينة، فبحث هشام عنهم، وسألهم فأقروا بالجائزة، وحلفوا على ما سوى ذلك فصرفهم هشام، وبعث إلى يوسف بن عمر فقابلوا خالدًا، وصدقهم وعادوا إلى المدينة، ونزلوا القادسية.

وراسل أهل الكوفة زيدا فعاد إليهم.

وقيل: سبب ذلك أن زيدًا اختصم مع ابن عمه جعفر بن الحسن المثنى في وقف على، ثم مات جعفر فخاصم أخوه عبيد الله زيدًا، وكانا يحضران عند عامل خالد فوقعت بينهما في مجلسه مشاتمات، وأنكر زيد من خالد إطالته للخصومة ويسمع مثل هذا فأغلظ له زيد وسار إلى هشام فحجبه ثم أذن له بعد حين، فحاوره طويلا ثم عرض له بأنه يذكر الخلافة وتنقصه ثم قال اخرج، قال: نعم ثم لا أكون إلا بحيث تكره فسار إلى الكوفة وقال له محمد بن عمر بن على بن أبي طالب: ناشدتك الله الحق بأهلك ولا تأت الكوفة، وذكره بفعلهم مع جده وجده.

فأخذ يتظلم مما وقع به، وأقبل إلى الكوفة، وأقام بها مستخفيًا يتنقل في المنازل، واختلفت إليه الشيعة، وبايعه جماعات، وناس من وجوه أهل الكوفة يذكر لهم دعوته، ثم يقول: أتبايعون على ذلك؟ فيقولون: نعم، فيضع يده على أيديهم، ويقول: عليك عهد الله وميثاقه وذمته نبيه لتتبعنى، ولتقاتلن عدوى، ولتنصحن لى في السر والعلانية.

فإذا قال: نعم، مسح يده على يده، ثم قال: اللهم اشهد، فبايعه على ذلك خمسة عشر ألفا وأمرهم بالاستعداد، وشاع أمره في الناس، وبلغ الخبر إلى يوسف ابن عمر، فأخرجه من الكوفة. ولحقه الشيعة بالقادسية أو الثعلبية، وعذله داود بن على بن عبد الله بن عباس على الرجوع معهم وذكره حال جده الحسين، فقالت

الشيعة لزيد: هذا إنما يريد الأمر لنفسه ولأهل بيته، فرجع معهم ومضى داود إلى المدينة.

ولما أتى زيد الكوفة، جاءه مسلمة بن كهيل، فصده عن ذلك، وقال: أهل الكوفة لا يفون لك، وقد كان مع جدك منهم أضعاف من معك ولم يفوا له، وكان أعز عليهم منك على هؤلاء.

فقال له زيد: قد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي وعنقهم.

قال: فتأذن لي أن أخرج من هذه البلد فلا آمن أن يحدث حدث وأنا لا آمن نفسي، فخرج إلى اليمامة.

وكتب عبد الله المحض بن الحسن المثنى إلى زيد يعذله ويصده فلم يصغ إليه.

وتزوج نساء بالكوفه وكان يختلف إليهن والناس يبايعونه، ثم أمر أصحابه يتجهزون.

ونمى الخبر إلى يوسف بن عمر فطلبه، وخاف زيد فتعجل الخروج، وكان يوسف بالحيرة وعلى الكوفة الحكم بن الصلت، وعلى شرطته عمر بن عبد الرحمن.

ولما علم الشيعة أن يوسف يبحث عن زيد جاء إليه جماعة منهم، فقالوا له: ما تقول في الشيخين؟ فقال زيد: رحمهما الله وغفر لهما، وما سمعت أحدًا من أهل بيتي يذكرهما إلا بخير، وغاية ما أقول: إنا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس فدفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك الكفر، وقد عدلا في الناس، وعملا بالكتاب والسنة.

قالوا: فإذا كان أولئك لم يظلموك، وهؤلاء لم يظلموك فلم تدعونا إلى قتالهم؟

فقال: إن هؤلاء ظلموا المسلمين أجمعين، وإنا ندعوهم إلى الكتاب والسنة، وأن نحيي السنن، ونطفىء البدع، فإن أجبتم سعدتم، وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل.

فقالوا: إِذَنْ نرفضك.

فقال: اذهبوا فأنتم الرافضة. ففارقوه ونكثوا بيعته.

وقالوا: سبق الإمام الحق، يعنون محمدًا الباقر، وإن جعفرًا ابنه إمامنا بعده، فمن ذلك سموا بهذا الاسم.

ثم بعث يوسف بن عمر إلى الحكم بن الصلت عامل الكوفة أن يجمع أهل الكوفة في المسجد فجمعوا، وطلبوا زيدًا في دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة فخرج منها ليلا، واجتمع عليه ناس من الشيعة الذين بقوا معه ولم يفارقوه، وهم الفرقة المخصوصة باسم الزيدية، وأشعلوا النيران، ونادوا يا منصور حتى طلع الفجر.

وأصبح جعفر بن أبي العباس فلقى اثنين من أصحاب زيد ينادون بشعاره، فقتل واحدًا وأتى بالآخر إلى الحكم بن الصلت فقتله، وغلق أبواب المسجد على الناس، وبعث إلى يوسف بن عمر بالخبر، فسار من الحيرة.

وقدم الريان بن سلمة الأراشى في ألفين خيالة، وثلاثمائة ماشية، وافتقد زيد الناس فقيل له: إنهم بالجامع محصورون، ولم يجد معه إلا مائتين وعشرين رجلا، وخرج صاحب شرطته في خيل فلقي نصر بن خزيمة العبسي من أصحاب زيد ذاهبًا إليه، فحمل عليه نصر وأصحابه فقتلوه، وحمل زيد على أهل الشام فهزمهم، وانتهى إلى دار أنس بن عمرو الأزدى ممن بايعه فناداه ولم يجبه ولم يخرج إليه. ثم سار زيد إلى الكناسة فحمل على أهل الشام، فهزمهم ثم دخل الكوفة والريان في اتباعه، فلما رأى زيد خذلان الناس قال لنصر بن خزيمة: أفعلتموها حسينية؟ فقال نصر: أما أنا فوالله لأموتن معك، وإن الناس بالمسجد فامض بنا إليهم، فجاء زيد إلى المسجد ينادى في الناس بالخروج إليه، فرماه أهل الشام بالحجارة من فوق المسجد وانصرفوا عند المساء، وأرسل يوسف بن عمر العباس بن سعد المزنى في أهل الشام، فجاءه في دار الرزق وقد كان آوى إليها عند المساء، فلقيه زيد وعلى مجنبته نصر بن خزيمة، ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن ثابت، فاقتتلوا فحمل نصر على أصحاب العباس، فهزمهم زيد وأصحابه، وعبأهم يوسف بن عمر من العشي ثم سرحهم، فكشفهم أصحاب زيد، ولم تثبت خيلهم لخيله، وبعث إليه يوسف بن عمر بالناشبة، واشتد القتال وقتل معاوية بن زيد، ثم رمي زيد عند المساء بسهم أثبته فرجع أصحابه، وأهل الشام يظنون أنهم تحاجزوا، ولما نزل النصل من جبهته مات فدفنوه وأجروا عليه الماء، وأصبح الحكم يوم الجمعة يتتبع الجرحى من الدور، ودله بعض الموالي على قبر زيد فاستخرجه، وقطع رأسه وبعث به إلى يوسف بن عمر بالحيرة فبعثه إلى هشام فصلبه على باب دمشق، وأمر يوسف الحكم بن الصلت

أن يصلب جثة زيد بالكناسة ونصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق ويحرسهم، واستمر نحوًا من سنتين أو أربع مصلوبًا، ويذكر أن العنكبوت نسجت على عورة زيد رضى الله تعالى عنه، فلما ولى الوليد أمر بإحراقهم فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قلت: كان يوسف بن عمر هذا متولى العراقين لهشام بن عبد الملك ومروان وهو الآمر للحكم بن الصلت أن يصلب جثة زيد بالكناسة مذمومًا في عمله مخدوشًا في عقله متنطعًا في حمقه. حدث عنه المدائني قال: وزن يوسف بن عمر درهمًا فنقص حبة فكتب إلى صاحب دار الضرب بالعراق فضرب ألف سوط، وخطب في مسجد الكوفة فتكلم إنسان مجنون فقال: يا أهل الكوفة ألم أنهكم أن تدخل مجانينكم المسجد اضربوا عنقه فضربت.

وتخلف عنه يومًا كاتبه، فقال له: ما حبسك؟ فقال: اشتكيت ضرسى. فقال: تشتكى ضرسك وتقعد عن الديوان، فدعا بالحجام وأمره بقلع ضرسين من أضراسه.

وعنه أيضًا قال: حدثنى رضيع ليوسف بن عمر من بنى عبس قال: كنت لا أحجب عنه ولا عن حريمه، فدعا ذات يوم بجوار له ثلاث، ودعا بخصى له أسود، يقال له: خديج فقرب إليه واحدة، فقال لها: إني أريد الشخوص فأخلفك أم أشخصك معى. فقالت: صحبة الأمير أحب إلى ولكن أحسب أن مقامي وتخلفي أعفى عليه وأخف.

فقال: أحببت التخلف للفجور. اضربها يا خديج. فضربها حتى أوجعها. ثم أمره بأن يأتيه بالأخرى، فقال لها: إني أريد الشخوص - مثل قوله للأولى - فقالت وقد رأت ما لقيت صاحبتها المتقدمة: ما أعدل بصحبة الأمير شيئًا بل يخرجني معه. فقال: أحببت الجماع ما تريدين أن يفوتك، اضربها يا خديج، فضربها حتى أوجعها. ثم أمره أن يأتيه بالثالثة وقد رأت ما وقع لأولتيها. فقال لها كما قال لهما. فقالت: الأمير أعلم. لينظر أخف الأمرين عليه فليفعله. فقال لها: اختاري لنفسك. فقالت: ما عندي لهذا اختيارفليختر الأمير. فقال: هل فرغت أنا الآن من كل عملى ولم يبق على إلا أن أختار لك. أوجعها يا خديج ضربًا. قال الرجل: فكأنما هو يضربني في الثلاث من شدة غيظي عليه وعلى آمره. فولت الجارية وتبعها الخصي، فلما بعدت قالت: الخيرة والله في فراقك لا تقر عين أحد بصحبتك فلم يفهم

يوسف كلامها فقال: ما تقول يا خديج؟ قال: قالت كذا وكذا. قال: يابن الخبيثة، من أمرك أن تخبرني؟ يا غلام: خذ السوط من يده فأوجع به رأسه، فما زال يضربه حتى اشتفيت منه. كذا في «المحاسن والمساوئ» للبيهقي.

قلت: فانظر إلى هؤلاء المتخلفين وإلى من يولونه تجد الوصلة بينهما قريبة غير غريبة.

واستجار يحيى بن زيد بعبد الملك بن بشر بن مروان، فأجازه حتى سكن الطلب، ثم سار إلى خراسان في نفر من الزيدية فقام بالدعوة كما سيذكر. كان قتله في شهر شعبان سنة ١٢١ إحدي وعشرين ومائة.

وقتل في صفر سنة اثنتين وعشرين. عمره ثلاث وأربعون سنة.

ثم قام بالدعوة ابنه الإمام يحيى بن زيد بن على زين العابدين بن على بن أبي طالب، وذلك في أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك بخراسان.

ثم انتقل إلى «بيهق» وأظهر دعوته هناك فقصدته جنود الوليد، فقاتلهم فضعف عن المقاتلة، فتوجه إلى «جوزجان»، واجتمع عليه الجنود فقاتلوا فأصابه سهمٌ آخر نهار الجمعة من شهر رمضان سنة ست وعشرين ومائة، فحز رأسه وحمل إلى الوليد ابن يزيد، وصلبت جثته على جذع عند باب جوزجان، وبقي مصلوبًا إلى أن ظهر أبو مسلم الخراساني صاحب دعوة العباسيين، فأنزله من الجذع وصلى عليه وعمره ثمان وعشرون سنة. فهؤلاء [في] دولة بني أمية.

وأما في دولة العباسيين فكان زمان عبيد الله السفاح - أول من ولي منهم - زمان صلح وسداد وبر منه بهم، ما ظهر في زمانه أحد ولا دعا داع، وكانوا شيئا واحدا على ما تقتضيه القرابة واللحمة.

فلما مات السفاح وولي أخوه المنصور عبد الله الدوانيقي قام بالدعوة محمد الملقب بالنفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبي طالب.

وسبب ذلك أنه لما صار أمر بني أمية إلى الاختلاف، واضطرب أمر مروان بن محمد اجتمع أهل البيت بالمدينة الشريفة، وتشاوروا فيمن يعقدون له الخلافة، فاتفقوا على محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن

السبط، وبايعوه سرًا وسلم له جميعهم.

ويقال: إنه حضر هذه البيعة أبو جعفر عبد الله المنصور، وبايع فيمن بايع له من أهل البيت، وأجمعوا على ذلك لتقدمه فيهم بما علموا له من الفضل عليهم، ولهذا كان مالك وأبو حنيفة - رحمهما الله تعالى - يجنحان إليه حين خرج من الحجاز، ويريان إمامته أصح من إمامة أبي جعفر لانعقاد هذه البيعة من قبل، وربما صار إليه الأمر عند الشيعة بانتقال الوصية إليه من زيد بن علي، وكان أبو حنيفة يقول بفضله، ويجنح إلى حقه، فتأدت إليهما المحنة بسبب ذلك أيام أبي جعفر المنصور حتى ضرب مالك على الفتيا في طلاق المكره، وحبس أبو حنيفة على القضاء.

ولما حج المنصور أيام أخيه السفاح سنة ست وثلاثين تغيب عنه محمد هذا وأخوه إبراهيم ولم يحضرا عنده مع بني هاشم، فسأل عنهما، فقال له زياد بن عبيد الله الحارثي: أنا آتيك بهما وكان معه بمكة فرده المنصور إلى المدينة.

ولما صارت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور سعى عنده ببني حسن، وأن محمد ابن عبد الله يروم الخروج وأن دعاته ظهروا بخراسان، فطفق يسأل عن محمد ويختص بني هاشم بالسؤال سرًا فكلهم يقول: إنك ظهرت على طلبه بهذا الأمر فخافك ويحسّن العذر عنه، إلا الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، فإنه قال: والله ما آمن وثوبه عليك، فإنه لا ينام عنك، فكان موسى الجون بن عبد الله المحض يقول بعد هذه: اللهم اطلب الحسن بن زيد بدمائنا.

ثم إن المنصور حج سنة أربعين ومائة، وألح على عبد الله بن حسن في إحضار ابنه محمد، فاستشار عبد الله بن سليمان بن علي في إحضاره.

فقال له سليمان: لو كان عافيًا لعفا عن عمه، فاستمر عبد الله على الكتمان. ثم استعمل المنصور على المدينة رياح بن عثمان المري في رمضان سنة أربع وأربعين فقدم المدينة.

وتهدد عبد الله المحض في إحضار ابنيه محمد وإبراهيم، فقال له عبد الله: إنك لأزرق قيس المذبوح فيها كما تذبح الشاة، فاستشعر ذلك ووجم، فقال له حاجبه أبو البختري: إن هذا ما اطلع على الغيب، فقال له: والله ما قال هذا إلا ما سمع، فكان كذلك كما سيذكر.

ثم جد رياح في طلب محمد فأخبر أنه في شعاب رضوى من عمل ينبع وهو جبل جهينة، فبعث عامله في طلبه فأفلت.

ثم إن رياح حبس بني حسن وقيدهم، وهم عبد الله المحض وإخوته حسن وإبراهيم وجعفر وابنه موسى الجون بن عبد الله المحض، وسليمان وعبد الله ابني أخيه داود وإسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم بن الحسن، ولم يحضر معهم أخوه على العابد، ثم حضر من الغد وقال: جئتك لتحبسنى مع قومي فحبسه، وكتب إليه المنصور أن يحبس معهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان المعروف بالديباجة وكان أخا عبد الله المحض لأمه، أمهما فاطمة بنت الحسين، وكان عامل مصر قد عثر على علي بن محمد بن عبد الله المحض بعثه أبوه محمد النفس الزكية إلى مصر يدعو له فأخذه عاملها وبعث به إلى المنصور.

ثم إن المنصور حج سنة أربع وأربعين فلما قضى حجه وخرج إلى الرَّبذة، وجاء رياح بن عثمان ليودعه أمره بإشخاص بني حسن ومن معهم إلى العراق، فأخرجهم في القيود والأغلال وأركبهم في محامل بغير وطاء وجعفر الصادق يعاينهم من وراء ستر ويبكي، وجاء محمد وإبراهيم مع أبيهما يسايرانه مستترين بزي الأعراب، ويستأذنانه في الخروج، فيقول: لا تعجلا حتى يمكنكما وإن منعتما أن تعيشا كريمين فلا تمنعا أن تموتا كريمين.

وانتهوا بهم إلى الربذة، وأحضر العثماني محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ابن عفان المعروف بالديباجة عند المنصور فضربه مائة وخمسين سوطًا بعد ملاحاة جرت بينهما أغضبت المنصور، ويقال: إن رياحًا أغرى المنصور به، وقال له: إن أهل الشام شيعته ولا يتخلف منهم عنه أحد، ثم كتب أبو عون عامل خراسان إلى المنصور: إن أهل خراسان ينتظرون محمد بن عبد الله المحض وأنه جفل منهم، فأمر المنصور بقتل العثماني وبعث برأسه إلى خراسان وبعث معه من يحلف أنه رأس محمد بن عبد الله المحض وأن أمه فاطمة بنت رسول الله، ثم قدم المنصور بهم الكوفة وحبسهم بقصر ابن هبيرة ويقال: إنه قتل محمد بن إبراهيم بن حسن، بنى عليه أسطوانة وهو حي فمات، ثم مات بعده عبد الله المحض، ثم على بن حسن.

ويقال: إن المنصور أمر بهم فقتلوا ولم ينج منهم إلا سليمان وعبد الله ابنا داود

وإسحاق وإسماعيل ابنا إبراهيم بن حسن وجعفر بن حسن.

ثم إن المنصور أرجع رياحًا إلى المدينة وأمره بإمعان الطلب لمحمد فوصلها وألح في طلب محمد وهو مختف يتنقل في اختفائه من مكان إلى مكان، وقد أرهقه الطلب حتى تدلى في بئر وانغمس في مائها وحتى سقط ابنه من جبل فتقطع، ودل عليه رياح بالمدينة فركب في طلبه فاختفى عنه ولم يره، ولما اشتد الطلب عليه أجمع على الخروج، وأغراه أصحابه بذلك.

وجاء الخبر إلى رياح بأنه الليلة خارج، وحضر العباس بن عبد الله بن الحارث بن العباس ومحمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد قاضي المدينة وغيرهما، وقال لهم: أمير المؤمنين يطلب محمدًا شرق الأرض وغربها وهو بين أظهركم، والله لئن خرج ليقتلنكم أجمعين.

فأمر القاضي بإحضار عشيرته بني زهرة فجاءوا في جمع كثير وأجلسهم بالباب، ثم أحضر نفرًا من العلويين فيهم جعفر بن محمد بن الحسين وحسين بن على بن حسين بن على وحسن بن على بن حسين بن على ورجالا من قريش، وبينما هم عنده سمعوا التكبير وقيل خرج محمد، فقال ابن مسلم بن عقبة لرياح بن عثمان: أطعني واضرب أعناق هؤلاء العلويين، فأبى.

فأقبل محمد النفس الزكية في مائة وخمسين رجلًا، وقصدوا السجن، وأخرج محمد بن خالد بن عبد الله القسري وابن أخيه ومن كان معهما محبوسًا بالظلم، وأتى دار الإمارة وهو ينادي بالكف عن القتل، فدخلوا من باب المقصورة وقبضوا على رياح بن عثمان عامل المدينة وأخيه عباس وابن مسلم بن عقبة وحبسهم، ثم خرج إلى المسجد فخطب الناس، وذكر المنصور بما نقمه عليه، ووعد الناس واستنصرهم، واستعمل على المدينة عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وعلي قضائها عبد الملك بن عبد المطلب بن عبد الله المخزومي، ولم يتخلف عن محمد ابن المحض من وجوه الناس إلا نفر قليل، منهم خبيب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير.

واستفتى أهل المدينة مالكًا في الخروج مع محمد وقالوا: في أعناقنا بيعة المنصور، فقال الإمام مالك: إنما بايعتم مكرهين، فتسارع الناس إلى محمد، ولزم

مالك بيته، وأرسل محمد المذكور إلى إسماعيل عبد الله بن جعفر يدعوه إلى بيعته - وكان شيخًا كبيرًا - فقال: أنت والله يابن أخي مقتول، فكيف أبايعك، فرجع الناس عنه قليلاً قليلاً، وأسرع بنو معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى محمد، فجاءت أختهم حمادة إلى عمها إسماعيل وقالت: يا عم إن مقالتك ثبطت الناس عن محمد، وإخوتي معه فأخشى أن يقتلوا، فطردها. فيقال: إنها غدت عليه فقتلته.

ولما استوى أمر محمد بن المحض المذكور ركب رجل من آل أويس بن أبي سرح اسمه الحسين بن صخر، وجاء إلى المنصور في تسع وخبره الخبر، فقال: أنت رأيته؟ قال: نعم، وكلمته على منبر رسول الله ﷺ، ثم تتابع الخبر، وأشفق المنصور من أمره فاستشار أهل بيته ودولته، فبعث إلى عمه عبد الله وهو محبوس يستشيره، فأشار عليه بأن يقصد الكوفة فإنهم شيعة أهل البيت، فيملك عليهم أمرهم، ويحفها بالمسالح حتى يعرف الداخل والخارج، ويستدعي سالم بن قتيبة من الري فيحشد معه كافة أهل الشام ويبعثه، وأن يثبت العطاء في الناس.

فخرج المنصور إلى الكوفة وتبعه عبد الله بن الربيع بن عبيد الله بن عبد المدان.

ولما قد الكوفة أرسل إلى بديل بن يحيى - وكان السفاح يشاوره - فأشار عليه بأن يشحن الأهواز بالجنود، وأشار عليه جعفر بن حنظلة البهراني بأن يبعث الجند إلى البصرة، فلما ظهر إبراهيم أخو محمد المذكور بتلك الناحية تبين وجه إشارتهما.

وقال المنصور لجعفر بن حنظلة: كيف خفت البصرة؟ قال: لأن أهل المدينة ليسوا أهل حرب حسبهم أنفسهم، وأهل الكوفة تحت قدمك، وأهل الشام أعداء الطالبيين، ولم يبق إلا أهل البصرة.

ثم إن المنصور كتب إلى محمد بن عبد الله المحض المذكور كتاب أمان فأجاب عنه بالرد والتعريض بأمور في الأنساب والأحوال، فأجابه المنصور بمثل ذلك، وانتصف كل منهما لنفسه بما ينبغي الإعراض عنه مع أنهما صحيحان مرويان.

وذكرهما المبرد في كامله. فمن أراد الوقوف عليهما فليلتمسهما في أماكنهما. ذكر جميع هذا العلامة ابن خلدون في كتابه المسمي «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في دولة العرب والعجم والبربر» . قلت: قد أحببت ذكرهما تجميلا للجامع

القاصر، وتكميلا يكون فيه شفاء الخاطر.

قال لسان الأدب وترجمان العرب أبو العباس محمد بن يزيد الشهير بالمبرد في كتابه المسمي «الكامل» (١): وفي سنة خمس وأربعين ومائة اشتد الطلب على محمد النفس الزكية خرج بالمدينة الشريفة، وبعث أخاه إبراهيم إلى البصرة داعيًا له فغلب عليها وعلى الأهواز وفارس، وبعث الحسن بن معاوية أو محمد بن معاوية من أولاد جعفر بن أبى طالب إلى مكة فملكها، وبعث عاملاً إلى اليمن فملكه. ودعا لنفسه وخطب على منبره عليه الصلاة والسلام، وكان يدعى بالنفس الزكية وتلقب بالمهدي، وحبس رياح بن عثمان المرى عامل المدينة للمنصور، وبلغ الخبر إلى المنصور بذلك فكتب إليه كتابًا نصه بعد البسملة:

من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله أما بعد ف ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا ...﴾ إلى ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣: ٣٤]، ولك ذمة الله وعهده وميثاقه وحق نبيه محمد ﷺ إن تبتَ من قبل أن نقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن بايعك وجميع شيعتك وأن أعطيك ألف ألف درهم وأنزلك من البلاد حيث شئت وأقضى لك ما شئت من الحاجات وأطلق من في سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ثم لا أتتبع أحدا منكم بمكروه، وإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذ لك الميثاق والعهد والأمان إن أحببت. والسلام.

فأجابه محمد المهدي بكتاب نصه بعد البسملة(٢):

من عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد.

أما بعد ﴿ طسٓمٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ...﴾ إلى ﴿ يَحۡذَرُونَ ﴾ [القصص: ١: ٦]، وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى، فقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنما أعطيتموه (٣)بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وخطبتموه بفضلنا، وإن أبانا عليًا - عليه

---

(١) ينظر: الكامل للمبرد ٣/ ١٤٨٧ - ١٤٨٨ .

(٢) ينظر: الكامل للمبرد ٣/ ١٤٨٨ - ١٤٩٠ .

(٣) فى الكامل: طلبتموه .

السلام - كان الوصى والإمام، فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء، وقد علمتم أنه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا، وإنا بنو أم رسول الله ﷺ فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم، وبنو ابنته فاطمة في الإسلام من بينكم، فأنا أوسط بني هاشم نسبًا وخيرهم أمًّا وأبًا، لم تلدني العجم ولم تعرق بي أمهات الأولاد، وإن الله عز وجل لم يزل يختار لنا فولدني من النبيين أفضلهم محمد ﷺ، ومن أصحابه أقدمهم إسلامًا وأوسعهم علمًا وأكثرهم جهادًا على بن أبي طالب، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة، ومن بناته أفضلهن، وسيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة. ثم قد علمت أن هاشمًا ولد عليًّا مرتين، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين.

وأن رسول الله ﷺ ولدني مرتين من قبل جدى الحسن والحسين سيدى شباب أهل الجنة، فما زال الله يختار لي حتى اختار لي في النار فولدني أرفع الناس درجة في الجنة، وأهون أهل النار عذابًا يوم القيامة، فأنا ابن خير الأخيار، وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة، وابن خير أهل النار.

ولك عهد إن دخلت في بيعتى أن أؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته، إلا حدًّا من حدود الله تعالى، أو حقًّا لمسلم أو معاهد، فقد علمت ما يلزمك في ذلك، فأنا أوفى بالعهد منك، وأنت أحرى بقبول الأمان مني إليك.

وأما أمانك الذى عرضت على فأى الأمانات هو؟! أمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله بن علي، أم أمان أبي مسلم الخراساني؟! والسلام.

فأجابه المنصور بقوله بعد البسملة(١):

من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله.

أما بعد فقد أتانى كتابك، وبلغني كلامك، فإذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والأولياء، وقد جعل الله العم أبًا، وبدأ به على الولد الأدنى، فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [يوسف: ٣٨]، ولقد

---

(١) ينظر: الكامل للمبرد (٣/ ١٤٩٠ - ١٤٩١).

علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدًا ﷺ وعمومته أربعة، فأجابه اثنان أحدهما أبي، وكفر اثنان أحدهما أبوك. وأما ما ذكرت من النساء وقرابتهن، فلو أعطين على قدر الأنساب وحق الأحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه.

وأما ما ذكرت عن فاطمة بنت عمرو أم أبي طالب، فإن الله لم يهد أحدًا من ولدها إلى الإسلام، ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأولى، وأسعدهم بدخول الجنة، ولكن الله أبى ذلك فقال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦]، وأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب وفاطمة أم الحسن [والحسين] وأن هاشمًا ولد عليًا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين فخير الأولين والآخرين رسول الله ﷺ لم يلده هاشم إلا مرة واحدة، ولم يلده عبد المطلب إلا مرة واحده. وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله ﷺ، فإن الله قد أبى ذلك له فقال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم، فيكف تورث الإمامة من قبلها؟! ولقد طلب بها أبوك من كل وجه، فأخرجها تخاصم ومرّضها سرًا، ودفنها ليلاً، وأبى الناس إلا تقديم الشيخين.

ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله ﷺ فأمر بالصلاة غيره[1]، ثم أخذ الناس رجلًا رجلًا فلم يأخذوا أباك فيهم، ثم كان في أصحاب الشورى فكل دفعه عنها، بايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان، وحارب أباك طلحة والزبير ودعا سعدًا إلى بيعته فأغلق بابه دونه، ثم بايع معاوية بعده، وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن، فسلمه إلى معاوية بخرق ودراهم، وأسلم في يديه شيعته، وخرج إلى المدينة، ودفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالاً من غير حله، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه.

وأما قولك: إن الله اختار لك في الكفر، فجعل أباك أهون أهل النار عذابًا فليس في الشر خيار ولا من عذاب الله هين، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفتخر بالنار، وسترد فتعلم ﴿ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ . . . ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، الآية. وأما

(١) يعني أبا بكر، وقد تقدم ذلك في مناقب أبي بكر الصديق .

قولك: لم تلدني العجم، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد وأنك أوسط بني هاشم نسبًا، وخيرهم أمًّا وأبًا، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرًّا، وقدمت نفسك على من هو خير منك أولى وأخرى وأصلا وفصلا، فخرت على إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وعلى والدِ ولده، فانظر ويحك أين تكون من الله غدا، وما ولد فينا مولود بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من على بن الحسين وهو لأم ولد، ولقد كان خيرا من جدك حسن بن حسن، ثم ابنه محمد بن على خير من أبيك عبد الله وجدته أم ولد، ثم ابنه جعفر الصادق وهو خير منك.

ولقد علمت أن جدك عليا حكم الحكمين، وأعطاهما عهد الله وميثاقه على الرضا بما حكما به فأجمعا على خلعه، ثم خرج عمك الحسين بن على فحاربه ابن مرجانة، وكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الأقتاب كالسبي المجلوب إلى الشام.

ثم خرج منكم غير واحد فقتلتكم، بنو أمية وحرقوكم بالنار، وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم، فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه، ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار كل صلاة مكتوبة كما تلعن الكفرة، فعنفناهم وكفرناهم وبينا فضله، وأشدنا بذكره، فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا - بما ذكرنا من فضل على - أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر، كل أولئك مضوا سالمين مسلما منهم، وابتلي أبوك بالدماء.

وقد علمت أن مآثرنا في الجاهلية سقاية الحاج الأعظم، وولاية زمزم، وكانت للعباس دون إخوته، فنازعنا فيهما أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر بهما، وتوفي رسول الله ﷺ وليس أحد من عمومته حيا إلا العباس، فكان وارثه دون بني عبد المطلب، وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينلها إلا ولده، فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله ﷺ خاتم النبيين، وبنوه القادة الخلفاء، فقد ذهب بفضل القديم والحديث، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها لمات عماك طالب وعقيل جوعا أو يلحسا جفان عتبة وشيبة ابني ربيعة فأذهب عنهما العار والشنار.

ولقد جاء الإسلام والعباس يمون أبا طالب للأزمة التي أصابتهم، ثم فدى عقيلا يوم بدر، فقدمناكم في الكفر، وفديناكم من الأسر، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء،

وحزنا شرف الآباء، وأدركنا من ثأركم إذ عجزتم عنه، ومنعناكم حيث لم تمنعوا أنفسكم . والسلام.

ثم عقد أبو جعفر المنصور على حربه، لعيسى ابن عمه موسى بن على بن عبد الله بن العباس، فسار في الجنود، ومعه محمد بن أبي العباس السفاح، وكثير بن حصين العبدي، وحميد بن قحطبة، وهزار مرد وغيرهم. وهؤلاء المذكورون كل رجل منهم مذكور في مقاتلة ألف مشهور مخبور. وقال له: إن ظفرت بمحمد، فأغمد سيفك وابذل له الأمان، وإن تغيب، فخد أهل المدينة به؛ فإنهم يعرفون مذاهبه. ومن لقيك من آل أبي طالب، فعرفني به. ومن لم يلقك فاقبض ماله. وكان جعفر الصادق فيمن تغيب، فقبض ماله.

ويقال: إن المنصور لما قدم المدينة بعد ذلك، طلبه جعفر بالمال، فقال المنصور: قبضه مهديكم. ولما وصل عيسى بن موسى إلى زيد، كتب إلى نفر من أهل المدينة يستدعيهم، واستشار محمد المهدي أصحابه في المقام بالمدينة، ثم في الخندق عليها، فآثر ذلك؛ اقتداء برسول الله ﷺ، فحفر الخندق الذي حفره - عليه الصلاة والسلام - للأحزاب، ونزل عيسى بن موسى بالأعوص، وكان محمد قد منع الناس من الخروج فخيرهم؛ فخرج كثير منهم بأهليهم إلى الجبال، وبقي في شرذمةٍ قليلة، ثم تدارك أمره، وأمر بردهم فأعجزوه.

ونزل عيسى بن موسى على أربعة أميال من المدينة، وبعث عسكرا إلى طريق مكة يعترضون محمدا أن ينهزم إلى مكة، وأرسل إليه بالإحسان والدعاء إلى الكتاب والسنة، ويحذره عاقبة البغي. فقال: إنما أنا رجل فررت من القتل. ثم نزل عيسى ابن موسى بالجرف، لثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، سنة خمس وأربعين، فأقام يومين، ثم وقف على سلع، ونادى بالأمان لأهل المدينة، وأن يخلوا بينه وبين صاحبه، فشتموه؛ فانصرف وعاد من الغد، وقد فرق القواد من سائر جهات المدينة، وبرز مع أصحابه، ورايته مع عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وأبلى محمد المهدي يومئذ - بلاء عظيما، وقتل بيده سبعين رجلا.

ثم أمر عيسى بن موسى حميد بن قحطبة، فتقدم في مائة من الرجالة إلى حائط دون الخندق فهدمه واجتاز الخندق، وقاتلوا من ورائه، وصابرهم أصحاب محمد

إلى العصر. ثم أمر عيسى أصحابه فردموا الخندق بالحقائب، ونصبوا عليه الأبواب، وجازت الخيل، فاقتتلوا، وانصرف محمد فاغتسل وتحنط، ثم رجع، وقال له عبد الله بن جعفر: لو أتيت الحسن بن معاوية - يعني: عامله الذي أرسله إلى مكة - فإن معه جلَّ أصحابك، وليس لك بهؤلاء طاقة. فقال: أترك أهل المدينة يقتتلون؟! والله! لا أفعل أو أقتل، وأنت مني في سعة. فمشى معه قليلا ثم رجع، وافترق عنه جلُّ أصحابه، وبقي في ثلاثمائة أو نحوها، فقال له بعض أصحابه: نحن في عدة أهل بدر، ثم جمع بين الظهر والعصر، ومضى فأحرق الديوان الذي فيه أسماء من بايعه، وجاء إلى السجن فقتل رياح بن عثمان، عامل المدينة قبله من قبل المنصور، وأخاه عباسا.

وتقدم محمد إلى بطن سلع ومعه بنو شجاع من الحمس؛ فعرقبوا دوابهم وكسروا جفون سيوفهم واستماتوا، وهزموا أصحاب عيسى مرتين أو ثلاثا. وصعد نفر من أصحاب عيسى الجبل، فانحدروا منه إلى المدينة، ورفع بعض نسوة آل العباس خمارا لهن أسود على منارة المسجد، فلما رآه أصحاب محمد وهم يقاتلون؛ هربوا. وفتح بنو غفار طريقا لأصحاب عيسى فجاءوا من وراء أصحاب محمد، ودعا محمدٌ حميد بن قحطبة للبراز فأبى، ونادى ابن خفير عن أصحاب محمد بالأمان، فلم يصغ إليه، وكثرت فيه الجراحة، ثم قتل. وقاتل محمد على شلوه يهذ الناس عنه هذًا، حتى ضرب فسقط لركبته، فطعنه ابن قحطبة في صدره، ثم أخذ رأسه فأتى به عيسى، فبعثه إلى المنصور، وأرسل معه رءوس بني شجاع، وكان قتله منتصف رمضان، سنة خمس وأربعين ومائة.

وأرسل عيسى الألوية فنصبت بالمدينة بالأمان، وصلب محمد وأصحابه ما بين ثنية الوداع والمدينة، واستأذنت أخته في دفنه فدفنته بالبقيع، وقبره مشهور، عليه قبة يزار بها، رحمه الله تعالى، عمره اثنان وخمسون سنة. وقيل: خمس وأربعون.

ثم قام أخوه إبراهيم بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، وكان قيامه بالبصرة، قد أرسله أخوه محمد النفس الزكية إليها فاستولى عليها، فبلغه الخبر بمقتل أخيه يوم العيد، غرة شهر شوال سنة خمس وأربعين، فخطب الناس

ونعاه إليهم، وأنشد [من الطويل]:

سَأَبْكِيكَ بالبِيضِ القَوَاضِبِ والقَنَا فَإِنَّ بِهَا مَا يُدْرِكُ الطالبُ الوتْرا
ولَسْتُ كمَنْ يَبْكِي أَخَاهُ بعَبْرَةٍ يُعَصِّرهَا مِنْ جَفْنِ مُقْلَتِهِ عَصْرا

فبايعوه بالإمامة، واستولى على واسط والأهواز، وكورها، وما والاها من بلاد فارس، ونهض لقتال المنصور، وكان يلاحظ آخرته أكثر من دنياه. فالتقى الجمعان بـ « باخمر » من أرض الأهواز، فجاءه سهم غرب، وحمل [عليه] جند المنصور وحزوا رأسه، وأرسلوه إلى المنصور.

وكان قتله غرة ذي الحجة من السنة المذكورة، وعمره: ثمان وستون سنة، وقيل: و خمسون.

ثم قام إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى، أخو عبد الله المحض، بعد قتل ابني أخيه: محمد، وإبراهيم؛ فعاجله المنصور قبل أن يستحكم أمره؛ فأسره وحبسه مع إخوته وأهل بيته، ومات في الحبس. وكان قيامه آخر سنة خمس وأربعين ومائة، عمره سبع وستون سنة.

ثم قام الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، في أيام المنصور - أيضا - وكان بالبصرة مستترا، وأرسل دعاته منها إلى كل ناحية؛ فسعى به إلى المنصور قر بن جلال الأزدى، فأعطاه ثلاثة آلاف درهم، وأرسل رجلا معه، يقال له: مرعيد النصراني، في جماعة من الأعوان، وكتب إلى عامله بالبصرة بالسمع والطاعة فيما يشير به مرعيد، فدخل في زي أهل الصلاح مظهرا للتشيع والعبادة، ومضى قر إلى الحسن وأخبره بقدوم رجل صالح في وصفه، ثم عرف قرين بين مرعيد وبين شيعة الحسن، فرأوا نسكه وصلاحه؛ فأنسوا به، وجعل الشيعة تصف صلاح حاله للحسن؛ حتى أحب لقاءه، ومرعيد مع ذلك - يحسن صلة الحسن بالأموال، ويرسل الجيران يستعين بهم في أمره ووصفه، وكلما كتب إليه الحسن كتابا قبله، ووضعه على رأسه وعينيه، وأكل خاتمه، يظهر أنه يريد التبرك به، إلى أن قالت له الشيعة: إن الحسن يشتهي لقاءك، فقال لهم: أخشى من اشتهار أمري، ولكن أنا في حجرة، فلو جاءني مع هذا - وأومأ إلى قرين - رجوت أن يكون الأمر مستورًا. فأجابته الشيعة إلى ذلك. وعمد مرعيد فهيأ القيد والرجال،

فخبأهم في مجلسه. فلما وصل قيدوه، وحمل بساعته إلى المنصور، فلما أوصلوه إليه أمر بحبسه وغيبه، ثم آل أمره إلى أن مات بالسم في حبسه، سنة نيف وستين ومائة.

ثم قام في أيام المنصور - أيضا - عبد الله الأشتر ابن محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبي طالب وكان ظهوره بالسند؛ لأنه هرب بعد قتل أبيه إليه، وبقي بالسند بأرض كابل يدعوهم إلى الإسلام؛ لأنهم كانوا مشركين، فأسلم على يده خلق كثير. وكان على السند من جهة المنصور: هشام بن عمرو التغلبي، فوقع بينهما قتال كثير، قدر خمسين وقعة في سنة واحدة، وقتل هناك ظلما. وكان قيامه سنة ست وأربعين ومائة، وقتل سنة إحدى وخمسين، وعمره: ثلاث وثلاثون سنة.

ثم قام الحسن بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط في البصرة، أيام المهدي بن المنصور، وتوارى لقلة أصحابه، إلى أن مات.

ثم قام عيسى بن زيد بن على زين العابدين، في أيام المهدي، فبايعه أهل الكوفة وأهل البصرة والأهواز، ووردت عليه بيعة أهل الحجاز، وهو متوارٍ. واشتد الطلب له من المنصور وأخذ الناس على الظنة، فاستتر عيسى بالأهواز، وأكثر مقامه بها في زمن المنصور. فلما ولى الأمر المهدي أظهر نفسه، فدس إليه المهدي رجلا من أصحابه، قيل: إنه أعطاه مقدار مائتي ألف دينار؛ فسمه في طعامه، وهو بسواد الكوفة مما يلي البصرة؛ فمات فجر اليوم الثالث، ودفن سرًّا، ولا يعرف قبره. وكان قيامه سنة ست وخمسين ومائة، ووفاته سنة ست وستين ومائة. عمره: ست وأربعون سنة.

ثم قام على بن العباس بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، في أيام المهدي - أيضا - ببغداد، فبايعه جماعة سرًّا. وهم بالانتقال من بغداد إلى غيرها من البلاد، فقبضه المهدي قبل استحكام أمره وحبسه، فلم يزل في حبسه إلى أن وفد عليه الحسين بن على الفخي - الآتي ذكره بعده- فكلم المهدي فيه واستوهبه منه؛ فوهبه له، ثم دس له شربة سم، فلم يزل يعمل فيه السم حتى قدم المدينة، فتفسخ لحمه، وتباينت أعضاؤه، بعد دخول المدينة بثلاثة أيام، ومات.

ثم قام الحسين بن على بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، أيام الهادي بن المهدي بن المنصور، سنة تسع وستين ومائة، وهو بالمدينة، وجده: الحسن المثلث: أخو عبد الله المحض؛ بويع بالمدينة، وخطب على منبرها، وهرب عاملها. فلما استقر أمره بالمدينة وصار إلى مكة، كتب الهادي إلى محمد بن سليمان بن على - وقد كان قدم حاجًا من البصرة - فولاه حربه، فقتله بفخ على ثلاثة أميال من مكة بل دونها، فتقاتلوا يوم التروية، فقتل الحسين في أكثر من مائة من أصحابه، ولم ينج منهم إلا اليسير، كانوا بين القتلى إلى أن جن عليهم الليل هربوا، ودفن الحسين وأصحابه هنالك، وقبره مشهور يزار إلى الآن، في بناء على يمين الداخل إلى مكة من وادي مر. وحمل رأسه إلى الهادى موسى بن المهدي العباسي، فلم يحمد ذلك. وكان الحسين هذا شجاعا جوادا كريما، يحكى أن المهدي أعطاه لما قدم عليه ألف دينار فقرقها في الناس ببغداد والكوفة، وخرج لا يملك ما يلبسه إلا فروة ليس تحتها قميص رحمه الله وغفر له وأعاد علينا من بركاته.

روى أبو الفرج الأصبهاني في « مقاتل الطالبيين » بإسناده إلى النبي ﷺ قال: « انتهى رسول الله ﷺ إلى فخ فصلى بأصحابه ثمة صلاة الجنائز ثم قال: تقتل ههنا رجال من أهل بيتي وعصابة من المسلمين تنزل لهم أكفان وحنوط من الجنة تسبق أرواحهُم إلى الجنة أجسادَهم » .

وكان عمره حين قتل إحدى وأربعين سنة.

ثم قام يحيى بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب في زمان الهادي أيضا بعد أن نجا من وقعة الفخ فجال في البلدان، ولم يقر بمكان وآخر الأمر استقر بجبل الديلم وكان إذا ذاك في زمان هارون الرشيد، فسرح الرشيد لحربه الفضل بن يحيى البرمكي، فبلغ الفضل إلى الطالقان وتلطف في استنزال يحيى بن عبد الله من بلاد الديلم على أن يشترط ما أحب ويكتب له الرشيد بذلك خطه فتم بينهما ذلك؛ وجاء به الفضل فوفى له الرشيد بكل ما أحبه، وأجرى له أرزاقا سنية حسنة.

ثم توجه يحيى بإذنه إلى المدينة ثم استرجعه هارون الرشيد من المدينة إلى بغداد بسعاية كانت فيه من بعض آل الزبير. فيقال: إنه لما حلف الزبيري بتلك اليمين التي فيها البراءة من حول الله وقوته والالتجاء إلى الحول والقوة ومات الزبيري بعد الثلاثة

الأيام أطلق الرشيد يحيى ووصله بمال، ثم بعد [ذلك] بمديدة أظهر له ذلك أنه قد صح عنده أنه يطلب الناس سرًا إلى بيعته، فكلم الرشيد الفقهاء فيما أعطاه من الأمان. فمنهم من أثبته، ومنهم من نقضه، ثم آخر الأمر أرسله إلى الحبس فمات بعد شهر من اعتقاله في الحبس.

واختلف في موته فقيل: خنقوه، وقيل: بنوا عليه، وقيل: سموه، وقيل: قتلوه بالجوع، ويقال: أطلقه الفضل بن يحيى افتئاتا على الرشيد، فكان ذلك سبب نكبة البرامكة والله أعلم أيا كان ذلك.

قلت: ذكر المسعودي(١) أن هذه المباهلة بهذه اليمين وقعت مع الزبير نفسه منسوبة إلى موسى الكاظم معه، والله أعلم من أيهما كانت.

كان قيام يحيى سنة ست وسبعين ومائة.

ثم قام من بعده أخوه إدريس بن عبد الله المحض، وذلك أنه لما أفلت ونجا من واقعة الحسين الفخي لحق بمصر إلى الغرب، وعلى بريد مصر يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور ويعرف بالمسكين وكان يتشيع، فعلم بشأن إدريس، وهو جد الأدارسة بالمغرب ومنهم طائفة بمكة أتوا إليها، وأتاه إلى المكان الذي كان به مستخفيًا وحمله على البريد إلى المغرب ومعه راشد مولاه فنزل بوليلى سنة ثنتين وسبعين وبها يومئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير «أورند» من قبائل البربر، وكبيرهم، فأجاره وأكرمه، وأجمع البربر على القيام بدعوته، وخلع الطاعة العباسية وكشف القناع، فبايعوه وقاموا بأمره، وكان فيهم مجوس فقاتلهم إلى أن أسلموا وملك المغرب الأقصى، وملك تلمسان سنة ثلاث وسبعين، ودخلت ملوك زنانة أجمع في طاعته، واستفحل ملكه، وخافه إبراهيم بن الأغلب صاحب القيروان، وراسل الرشيد يخبره فدس إليه الرشيد مولى من موالي أبيه المهدي اسمه سليمان بن جرير، ويعرف بالشماخ وأنفذه بكتاب إلى ابن الأغلب، فأجازه ولحق بإدريس مظهرا للنزوع إليه فيمن نزع من وحدان العرب ومتبرئا من الدولة العباسية، فاختصه الإمام إدريس وحلا بعينه وكان قد تأبط سما في سنون فناوله إياه عند شكايته من وجع سنونه فكان فيما زعموا حتفه.

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٣٥١ - ٣٥٣).

ودفن ببوليلى سنة سبع وسبعين ومائة.

ثم قام بالدعوة محمد بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبي طالب، وأبوه إبراهيم طباطبا لقب بذلك للكنة كانت به صغيرا سببها أنه طلب يوما غلامه أن يأتيه بقباء فلم يفهم مراده فقال له إبراهيم: « طباطبا » يريد قبا قبا فلقب به.

حبسه المهدي وبقي في الحبس إلى زمان هارون ومات فيه، فظهر ابنه محمد هذا.

وسبب ظهوره: أنه لما بعث المأمون الحسن بن سهل وزيره إلى العراق وولاه ما كان افتتحه طاهر بن الحسين من البلاد والأعمال، تحدث الناس أن الحسن بن سهل غلب على المأمون واستبد عليه وحجبه عن أهل بيته وقواده، فغضبت بنو هاشم ووجوه الناس وأجهزوا على الحسن بن سهل وهاجت الفتنة.

وكان أبو السرايا السري بن منصور ويذكر أنه من بني شيبان من ولد هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود، وقيل من بني تميم كان بالجزيرة، وطلب ففر إلى شرقى الفرات، وأقام هنالك يخيف السابلة، ثم لحق بيزيد بن مزيد بأرمينية في ثلاثين فارسا فقوده أي جعله قائدًا، وقاتل معه الخرمية وأثر فيهم، وأخذ منهم غلامه المسمى أبا الشوك، ومات يزيد بن مزيد، فكان أبو السرايا مع ولده أسد كذلك، فعزل أسد فسار أبو السرايا إلى أحمد بن مزيد، ولما بعث الأمين أحمد بن مزيد لحرب هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون بعثه أحمد طليعة إلى عسكر هرثمة فاستماله هرثمة فمال إليه فلحق به وقصده قومه بنو شيبان من الجزيرة، فاجتمع إليه منهم أكثر من ألفي فارس، واستخرج لهم الأرزاق من هرثمة بن أعين، فلما قتل الأمين نقص هرثمة من أرزاقهم، فغضب أبو السرايا واستأذن في الحج فأذن له هرثمة وأعطاه عشرين ألف درهم فصرفها في أصحابه ومضى وأوصاهم باتباعه فاجتمع له منهم نحو مائتين، وسار بهم أبو السرايا إلى عين التمر فأخذوا عاملها وقسموا ماله. ولقوا عاملا آخر بمال موقر على ثلاثة أبغال فاقتسموه، فأرسل هرثمة خلفه فهزمهم ودخل البرية، ولحق به من تخلف من أصحابه فكثر أصحابه وجمعه، وسار نحو دقوقا، وعليها أبو ضرغامة العجلي في سبعمائة فارس فخرج وقاتله، فهزمه أبو السرايا، ورجع أبو ضرغامة إلى القصر فحاصره أبو السرايا حتى نزل على الأمان، وأخذ

أمواله وسار إلى الأنبار، وعليها إبراهيم الشروني مولى المنصور عاملا فقتله وأخذ ما فيها. ثم عاد إليها عند إدراك الغلال فافتتحها. ثم قصد الرقة ومر بطوق بن مالك التغلبي واستجاشه على قيس، فأقام عنده أربعة أشهر يقاتل قيسا بعصبية ربيعة، حتى انقادت قيس إلى طوق بن مالك، وسار أبو السرايا إلى الرقة فلقى محمد بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط صاحب الترجمة فدعاه إلى الخروج، واتعدوا إلى الكوفة فدخلاها وبايعه أهلها على بيعة الرضا من آل محمد، ونهب أبو السرايا قصر العباس بن موسى بن عيسى، وأخذ معه من الأموال والجواهر ما لا يحصى، وذلك منتصف جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين.

ولما ملك الكوفة هرع الناس إليه والأعراب من النواحي وبايعوه، وأرسل أخاه أبا القاسم بن إبراهيم إلى مصر وكان على الكوفة سليمان بن منصور من قبل، الحسن بن سهل، فبعث إليه زهير بن المسيب الضبي في عشرة آلاف، فخرج إليه ابن طباطبا، وأبو السرايا فهزماه، واستباحا عسكره وأصبح محمد بن إبراهيم طباطبا من الغد ميتا، فنصب أبو السرايا مكانه غلاما من العلويين وهو محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين.

فنقول: ثم قام محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين المذكور، واستبد عليه أبو السرايا، وبعث الحسن بن سهل عيدروس بن محمد بن خالد المروروذي في أربعة آلاف، فلقيه أبو السرايا منتصف رجب، وقتله ولم يفلت من أصحابه أحد كانوا بين قتيل وأسير، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة باسمه، وبعث جيوشا إلى البصرة وواسط.

وولى بالبصرة العباس بن محمد بن عيسى الجعفري، وعلى مكة الحسين الأفطس بن الحسين بن على زين العابدين بن الحسين وجعل إليه الموسم.

وعلى اليمن محمد - أو إبراهيم - بن موسى بن جعفر الصادق. فسار أبو السرايا إلى البصرة، وأخرج ابن سهل ففر أمامهم، فبعث الحسن بن سهل إلى هرثمة يستدعيه لحرب أبي السرايا، وقد كان سار إلى خراسان مغاضبا له، فرجع بعد امتناع، وسار إلى الكوفة، وبعث الحسن بن سهل إلى المدائن وواسط على بن سعيد، فبلغ الخبر أبا السرايا وهو بقصر ابن هبيرة بالكوفة، فوجه جيشا إلى

المدائن، فملكوها في رمضان، وتقدم فنزل نهر صرصر، وعسكر هرثمة بإزائه غدوة، وسار على بن سعيد في شوال إلى المدائن، فحاصرهم بها أصحاب أبي السرايا، فرجع أبو السرايا من نهر صرصر إلى قصر ابن هبيرة وهرثمة في اتباعه، ثم حاصره هرثمة وقتل جماعة من أصحابه، فانحاز إلى الكوفة، فوثب الطالبيون على دور العباسيين، وشيعتهم فنهبوها وخربوها وأخرجوهم، واستخرجوا ودائعهم عند الناس، وأقام هرثمة بنواحي الكوفة يحاصرها، واستدعى منصور بن المهدي، وكاتب رؤساء الكوفة، واشتد الحصار على أبي السرايا بالكوفة فهرب عنها في ثمانمائة فارس، ومعه صاحبه الذي نصبه، وهو محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين صاحب الترجمة.

ودخلها هرثمة منتصف محرم ابتداء سنة ٢٠٠ مائتين وأقام بها يوما، وولى عليها بعض قواده.

وقصد أبو السرايا القادسية وسار منها إلى السوس. ولقي بخوزستان مالا حمل من الأهواز فقسمه في أصحابه، وكان على الأهواز الحسن بن على المأموني فخرج إلى أبي السرايا فهزمه الحسن وافترق أصحاب أبي السرايا، وجاء إلى منزله برأس عين زحلولا ومعه صاحبه الذي نصبه وهو محمد بن محمد صاحب الترجمة المذكورة وغلامه أبو الشوك، فظفر بهم حماد الكندغوش وجاء بهم إلى الحسن بن سهل في النهروان، فقتل أبا السرايا وبعث إلى المأمون برأسه وبمحمد بن محمد مع الرأس حيا فحبسه المأمون إلى أن مات قيل مسموما.

كان قيامه في رجب سنة تسع وتسعين ومائة، وبعد موت محمد بن محمد هذا استقل كل واحد من دعاته ودعا كل واحد منهم إلى نفسه، وسار على بن سعيد الحرشي إلى البصرة فملكها من يد زيد بن موسى بن جعفر الصادق وكان يسمى زيد النار لكثرة ما أحرق من دور العباسيين وشيعتهم، فاستأمن إليه زيد فأمنه على وأخذه، وبعث المعتصم الجيوش العباسية إلى مكة والمدينة واليمن لقتال من بها من العلويين، وكان إبراهيم بن موسى بن جعفر - لما ولاه أبو السرايا اليمن - سار إليها وبها إسحاق بن موسى بن عيسى، فهرب إسحاق إلى مكة واستولى إبراهيم على اليمن وكان يسمى الجزار لكثرة قتله، ثم بعث رجلا من بني عقيل بن أبي طالب إلى

مكة ليحج بالناس، وقد جاء لذلك أبو إسحاق في جماعة من القواد فيهم حمدويه بن علي بن عيسى بن ماهان واليا على اليمن من قبل الحسن بن سهل فَحُمَّ العقيلي عن لقائهم، واعترض قافلة الكسوة والطيب، فأخذها ونهب أموال التجار، ودخل الحُجاج إلى مكة عراة، فبعث الجلودي من القواد فصبحهم وهزمهم، وأسر منهم وتنقذ كسوة الكعبة وطيبها وأموال التجار وضرب الأسرى كل واحد عشرة أسواط وأطلقهم.

وحج بالناس تلك السنة المعتصم العباسي قبل خلافته.

وفي سنة مائتين وجه المأمون رجاء بن أبي الضحاك ليشخص إليه على الرضا بن موسى الكاظم، فوصل إليه على الرضا، فولاه العهد من بعده ولقبه الرضا وضرب الدراهم باسمه وكتب له بالبيعة إلى الآفاق وزوجه بابنته أم الفضل، وصورة كتاب العهد قد ذكرناها فيما تقدم عند ذكر خلافة الصديق رضي الله تعالى عنه.

ثم قام من بعده محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق وكان داعية لمحمد ابن محمد المذكور قبله، فاستحكم أمره باليمن وكان له بها وقائع، ثم انتقل إلى خراسان فقتل بها بجرجان بالسم.

ثم قام محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى فخذلته أنصاره، فتوارى بالمدينة إلى أن مات بها.

ثم قام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى في بلاد المغرب بعد أبيه واستفحل أمره، ثم بقي أولاده إلى الآن أمرهم قائم بالمغرب.

ثم قام القاسم الرسي بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط أيام المأمون أيضا، وكان القاسم بمصر، وبث دعاته في الأقطار، وحثوه على إظهار دعوته وكان مستترا بمصر عشر سنين، فاشتد طلب عبيد الله بن طاهر عامل المأمون على مصر له فانتقل إلى الحجاز. ولم يزل مختفيا إلى أن مات المأمون وولى أخوه المعتصم، فكثر طلب المعتصم له فلم يتم أمره، فاستأوى جبلاً بالحجاز وهو المسمى بالرس وتحصن به هو وأولاده وسكن به إلى أن مات فنسب إليه وكان يقال له نجم آل الرسول، وكان قيامه سنة عشرين ومائتين، وتوفي سنة ست وأربعين ومائتين في أيام المتوكل بن المعتصم العباسي.

ثم قام صاحب الطالقان محمد بن القاسم بن على بن عمر الأشرف بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب، وكانت العامة تسميه الصوفي لاختياره لبس الصوف الأبيض، وكان له وقعات مع آل طاهر بن الحسين أيام المعتصم، وعظم أمره، ودخل بعدها إلى « نسأ » وبقى فيها مستترا، ثم أخذ من نسأ فحبس ثم هرب من الحبس، فاختلفوا في أمره، فقيل رجع إلى الطالقان، وقيل إلى واسط فدس المعتصم له سما فمات به.

ثم قام محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط.

قيامه أيام الواثق بن المعتصم غلب على هراة السفلى وملكها، وأولاده بعده إلى سنة تسعين ومائتين.

ثم قام بعده محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ظهر بسويقة قرية معروفة بقرب المدينة المنورة.

وكان أبو الساج المتولى للموسم من قبل الخليفة المتوكل العباسي في جند كثيف، فخودع محمد بن صالح حتى لزمه أبو الساج فحبس بـ« سُرَّمَنْ رَأى » إلى أن مات في السجن، وفي زمانه انضوى أكثر الأشراف واستتروا وتوقفوا عن إظهار الدعوة.

ثم قام الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب غلب على طبرستان ونواحي الديلم وملكها أربعين سنة، وتوفي سنة خمسين ومائتين.

ثم قام محمد بن جعفر بن الحسن بن عمر بن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبي طالب ، كان قيامه ببلاد العجم في زمان المتوكل فأسره المتوكل أيضا .

وقيل: إن من الطالبيين من قام غير هؤلاء في زمن المتوكل وظهر من ظهر واستتر من استتر وحبس من حبس، وقتل من قتل فلله الأمر سبحانه.

ثم قام يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن على زين العابدين، ظهر بالكوفة وأحبه الناس حبًا شديدًا كان قيامه في خلافة المستعين.

ثم قام الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن على زين العابدين،

فأسره المستعين وحبسه ومات في الحبس.

ثم قام محمد بن جعفر بن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن، قيامه في أيام المستعين بأرمينية وقيل بالكوفة فخودع، وأسر فحبس ومات في الحبس سنة خمسين ومائتين.

ثم قام الكوكبي أحمد بن عيسى بن على بن الحسين بن على زين العابدين.

قيامه بالكوفة في خلافة المهدي سنة خمس وخمسين ومائتين.

ثم قام أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط.

قيامه في خلافة المعتمد، وكانت له حروب مع ابن طولون، ثم قتل على باب أسوان وحمل رأسه إلى المعتمد.

ثم قام الداعي محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن ابن على بن أبي طالب سنة سبع وسبعين ومائتين في خلافة المعتضد، وله وقائع قتل في إحداها في بلاد جرجان.

ثم قام الناصر الأطروش الحسن بن على بن الحسن بن على بن عمر الأشرف بن على زين العابدين.

قيامه في الجيل والديلم سنة أربع وثمانين ومائتين، واستفحل أمره إلى أن مات في خلافة المقتدر سنة أربع وثلاثمائة.

ثم قام الداعي الحسن بن القاسم بن الحسن بن على بن عبد الرحمن بن القاسم ابن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب.

كان قيامه بعد الناصر قبله في خلافة الراضي بالله العباسي.

وكان أولاد الناصر قد تملكوا بعد الناصر، وقاتلوا الداعي المذكور، فاستفحل أمر الداعي، وملك طبرستان ونيسابور والري، ثم توفوا، فصفا له الأمر اثنتي عشرة سنة.

ثم قام ولده المهدي محمد بن الحسن بن القاسم بن الحسن، وكان قيامه أيام المطيع العباسي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، فملك الجيل والديلم، ثم توفي سنة ستين وثلاثمائة.

ثم قام الثائر في الله جعفر بن محمد بن الحسين بن على بن الحسن بن على بن

عمر الأشرف بن على زين العابدين، واستفحل أمره إلى أن مات سنة سبع وستين وثلاثمائة.

ثم قام ولده أبو الحسين المهدي بن جعفر الثائر بن محمد بن الحسين في خلافة القادر بالله العباسي، ولم تطل أيامه ومات بالجدري.

ثم قام من بعده أخوه الحسين بن جعفر الثائر في أيام القادر بالله أيضا، واستقام أمره إلى أن مات.

ثم قام أحمد بن الحسين بن هارون بن الحسين بن محمد بن هارون بن محمد بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب.

قيامه في خلافة القادر أيضا سنة ثمانين وثلاثمائة وكانت له وقائع، ولم يزل على حالته في الحروب إلى أن ملك طبرستان، ثم مات سنة، إحدى عشرة وأربعمائة، وعمره تسع وسبعون سنة.

ثم قام من بعده أخوه الناطق بالحق أبو طالب يحيى بن الحسين بن هارون بن الحسين، قيامه في زمان القائم بأمر الله العباسي، واستقام له الأمر إلى أن توفى سنة أربع وعشرين وأربعمائة وعمره نيف وثمانون سنة.

ثم قام من بعده العقيقي على بن جعفر بن الحسن بن عبد الله بن على بن أحمد بن على بن الحسين بن على زين العابدين.

قيامه في خلافة القائم أيضا سنة أربع وأربعمائة.

ثم قام مانلديم سنديم أحمد بن محمد بن على بن محمد بن الحسن بن محمد ابن أحمد الأعرابي بن محمد بن الحسن بن على بن عمر الأشرف بن على زين العابدين وكان على منهاج سلفه.

كان قيامه بأنجاشية سنة سبع عشرة وأربعمائة. ووفاته في نيف وعشرين وأربعمائة.

ثم قام الناصر الحسين بن جعفر بن الحسين بن الحسن بن على بن الناصر الأطروش، سبق ذكره في جهات الديلم.

ثم قام الموفق بالله الحسين بن إسماعيل بن زيد بن جعفر بن الحسن بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن ابن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب.

ثم قام ولده المرشد بالله يحيى بن الحسين بن إسماعيل على منهاج سلفه.

ثم قام أبو طالب يحيى بن أحمد بن الآمر أبي القاسم الحسين بن المؤيد بالله أحمد بن الحسين بن هارون المتقدم ذكره.

قيامه سنة نيف وتسعين وأربعمائة في خلافة المستظهر العباسي بالجيل والديلم.

وكان حربه مع الباطنية.

وكان بنو العباس يظهرون المحبة إليه. وكانت وفاته سنة عشرين وخمسائة.

والذين لم يعرف تاريخهم وزمان قيامهم: الإمام محمد بن أبي الأعرابي بن محمد بن الحسن بن على بن عمر الأشرف بن على زين العابدين.

والإمام على العراقي بن الحسين بن عيسى بن زيد بن زين العابدين.

والإمام أحمد بن عيسى بن زيد بن زين العابدين.

والإمام الهادي بن المهدي بن الحسن بن عبد الله بن على بن الحسن بن على بن أبي طالب.

والإمام الراضي بالله ناصر بن الحسين بن زيد بن صالح بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب.

والإمام زيد بن صالح بن الحسن بن زيد بن صالح بن الحسن بن زيد بن صالح ابن عمر الناصر المذكور.

والإمام على بن محسن بن أحمد بن عبيد الله بن الحسن السلق بن على بن محمد ابن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب.

والإمام الحسين بن محمد بن على بن جعفر بن عبيد الله بن السلق المذكور.

وأخوه الإمام الحسن بن محمد بن على المذكور.

والذين لم تعرف كيفية اتصال أنسابهم الإمام أشرف بن زيد من ذرية زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب، مات سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

والإمام السيد الأزرقي. والإمام أبو الرها الكيتمي.

وهؤلاء جميعًا في جهات قزوين وطبرستان والجيل والديلم وجرجان والحجاز والعراق وبالمغرب.

أما الذين ظهروا باليمن خاصة فأولهم: الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ابن القاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم الغمر بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب. مولده بـ « الرس » سنة خمس وأربعين ومائتين.

قيامه في صعدة من بلاد اليمن سنة ثمانين ومائتين.

وقال في تاريخ الخزرجي: قام سنة أربع وثمانين، ودخل صنعاء في المحرم سنة ثمان وثمانين ومائتين في خلافة المعتضد العباسي.

فاجتمعت همدان وغيرها من قبائل العرب فأخرجوه من صنعاء ثم رجع إلى صعدة وأخذها.

وكان في زمنه قد تغلب على بن الفضل القرمطي الحميري - ينتهي نسبه إلى سبأ الأصغر - على اليمن في سنة ثلاث وستين ومائتين، فسار على المذكور بسيرة شنيعة، وأعلن بالكفر والفجور، وقهر العالم، وأمرهم بارتكاب كل محرم ومحذور.

وكان عنوان كتبه إذا أرسل إلى أحد من الملوك: من باسط الأرض وداحيها ومزلزل الجبال ومرسيها على بن الفضل إلى عبده فلان.

وكان مؤذنه يؤذن في حضرته: وأشهد أن على بن الفضل رسول الله.

ومن شعره ما أنشده الخبيث على منبر جامع صنعاء قوله [من المتقارب]

خُذي الدُّفَّ يَا هَذِهِ واضْرِبِي وغَنِّى هَزَارِيكِ ثُمَّ اطْرِبِي
تَولَّى نَبِيُّ بَنِي هَاشِم وَهَذَا نبِيُّ بَنِي يَعْرُبِ
لِكُلِّ نَبِيٍّ مَضَى شِرْعَةٌ وهَاتَان شرْعَةُ هَذَا النَّبِي
فَقَدْ حَطَّ عَنَّا فُرُوضَ الصَّلاَةِ وَفَرْضَ الصِّيام وَلَمْ يُعْقِبِ
إذَا النَّاسُ صَلَّوْا فَلاَ تَنْهَضِي وإنْ صَوَّمُوا فَكُلِي واشْرَبِي
وَلاَ تَطْلُبِي السَّعْىَ عِندَ الصَّفَا وَلاَ زَوْرَةَ القَبْرِ فِي يَثْرِبِ

وهذا كاف في بيان مزيد كفره، فحاربه الإمام الهادي المذكور إلى أن مات بـ « صعدة » مسمومًا سنة ثمان وتسعين ومائتين في خلافة المقتدر بالله العباسي.

ثم قام ولده المرتضى محمد بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم في بلاد صعدة في مكان أبيه زمن المقتدر العباسي أيضا فأقام سنة واحدة، ثم تنحى عن

الإمامة، فطلب الفقهاء الزيدية أخاه أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم طلبوه من الرس، ثم توفى محمد سنة عشر وثلاثمائة وعمره اثنان وثلاثون سنة.

ثم قام أخوه الناصر لدين الله أحمد بن الهادي يحيى بعد أن دعاه فقهاء الزيدية من الرس كما ذكر.

وكان قيامه في خلافة المقتدر أيضا سنة إحدى وثلاثمائة.

ووفاته فيها بـ « صعدة » سنة خمس عشرة وثلاثمائة.

ثم قام ولده المنصور يحيى بن أحمد الناصر بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم، وكان مقره صعدة إلى أن توفى سنة ست وسبعين وثلاثمائة.

ثم قام أخوه المختار القاسم بن أحمد الناصر بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم.

كان قيامه في صعدة وقتله في « زبيد » .

ثم قام ولده المنتصر محمد بن القاسم بن أحمد الناصر، وأكثر وقائعه مع همدان، وهي قبيلة كبيرة باليمن.

ثم قام الداعي يوسف بن المنصور يحيى بن أحمد الناصر بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم، فعانده فقهاء مذهبه وأرسلوا الإمام القاسم العياني وتعارضا.

كان قيامه سنة ثمان وستين وثلاثمائة في خلافة الطائع لله العباسي. مدته خمس وثلاثون سنة.

ثم قام المنصور العياني بن على بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن إبراهيم طباطبا.

ولما كان في « بيشة » من بلاد رفيدة فراسله فقهاء الزيدية، فطلع إلى صعدة ثم تقدم إلى صنعاء فضبطها.

وتعاقد الإمام يوسف الداعي في مدة العياني.

وكان قيام العياني سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، ووفاته سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وقبره في بلدة يقال لها «العيَّان» في طريق صعدة من صنعاء.

ثم قام ولده الحسين بن القاسم العياني، وكان له وقائع مع همدان.

وكان قيامه سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

وقتل في ريدة من البون سنة أربع وأربعمائة.

وخلف الحسين المذكور ابن أخيه ويسمى الفاضل، وهو القاسم بن جعفر بن القاسم بن على العياني، وكان بينه وبين الصليحي وقعات، ولم يكن إمامًا.

ثم قام الإمام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين ابن القاسم بن إبراهيم طباطبا.

وكان قيامه في قرية « الناعط » فوق « البون » ودخل صنعاء.

قيامه سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، ومات بقرية « الناعط » .

ثم قام الناصر الديلمي، وهو: أبو الفتح الناصر بن الحسن بن محمد بن عيسى ابن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن على بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب، دعا في الديلم ثم خرج إلى أرض اليمن فاستولى على كثير من البلاد مذحج وهمدان وخولان، وكان وصوله من الديلم في سني الثلاثين وأربعمائة، وكانت الحرب تدور بينه وبين الصليحي، فقتله الصليحي بنجد الحاج.

وقبره بـ « ردمان » من بلاد « عنس » قبل سنة أربع وأربعين وأربعمائة.

ثم قام على بن زيد بن إبراهيم المليح بن المنتصر بن محمد المختار قاسم بن الناصر بن الهادي يحيى.

وتقدم إلى « شظب » لحرب بني الصليحي، فقتل في « شظب » سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

ثم قام أحمد بن سليمان بن محمد بن المطهر بن على بن الناصر بن الهادي يحيى، وولى صعدة ونجران والجوف وصنعاء، وقصد زبيد فرجع بغير حصول مرامه في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة.

مات بحيدان من مغارب صعدة وعمره ست وستون سنة.

ثم قام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن على بن حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم طباطبا فملك صعدة وتقدم إلى صنعاء، وكان يقف في كوكبان بعد ما أخرجوه من صنعاء، ثم خلطوا عليه فمات فيها.

قيامه سنة أربع وتسعين وخمسمائة، ووفاته سنة أربع عشرة وستمائة.

ثم قام الداعي يحيى بن المحسن بن محفوظ بن محمد بن يحيى بن يحيى بن الناصر بن الحسن بن عبد الله بن المنتصر محمد بن المختار قاسم بن الناصر أحمد ابن الهادي، قام في بلاد خولان وصعدة.

وفي مدينة صعدة ولد المنصور محمد بن المنصور، فحارب الداعي، مات سنة ست وثلاثين وستمائة.

ثم قام المهدي أحمد بن الحسين بن القاسم بن عبد الله بن القاسم بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن القاسم بن إبراهيم طباطبا، قام في حصن «ثلا» فحاربه ولده المنصور، ثم اتفقا، ثم تعاديا فتحاربا فقتل الإمام.

وكان قيامه في صفر سنة ست وخمسين وستمائة، وكانت هذه السنة هي انتهاء دولة بني العباس بالعراق؛ لأنها هي السنة التي قتل التتار فيها الخليفة المستعصم العباسي كما قدمت ذلك مستوفى في بابهم.

ثم قام المنصور بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى السابق ذكره، فقام من هجرة قطابر وملك مغارب صعدة.

وكان بينه وبين أولاد المنصور محاربات. فقتل سنة ست وخمسين وستمائة.

ثم قام المهدي بن إبراهيم بن تاج الدين أحمد بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى. قيامه سنة سبعين وستمائة.

أسره فحبسه الملك المظفر الغساني في سنة أربع وسبعين وستمائة، ومات في الحبس سنة ثمانين وستمائة.

ثم قام المتوكل المطهر بن يحيى بن المرتضى بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر بن علي بن أحمد بن الهادي.

قيامه سنة ست وسبعين. ومات سنة سبع وثمانين وستمائة.

ثم قام ولده المهدي بن محمد بن محمد بن المطهر بن يحيى بن المرتضى بن القاسم.

قيامه سنة إحدى وسبعمائة. مات سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

ثم قام السراجي يحيى بن أحمد بن محمد بن عبيد الله بن سراج الدين الحسن بن محمد بن عبد الله بن سراج الدين الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي

ابن محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب.

ثم قام المؤيد يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم بن يوسف بن على بن إبراهيم ابن محمد بن أحمد بن إدريس بن جعفر بن على بن محمد بن على بن موسى الكاظم بن جعفر بن محمد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب.

قيامه سنة تسع وعشرين وسبعمائة. مات سنة تسع وستين وسبعمائة. عمره ثمانون سنة.

ثم قام بعده على بن صلاح بن إبراهيم بن تاج الدين أحمد بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى ثم قام بعده الواثق المطهر بن محمد بن المطهر بن يحيى ابن المرتضى بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر من أولاد سابق الذكر.

ثم قام أحمد بن على بن مدافع بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين الديلمي. سبق ذكر نسبه.

ثم قام المهدي على بن محمد بن على بن يحيى بن منصور بن مفضل بن الحجاج ابن عبد الله بن على بن يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل ابن إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبي طالب.

قيامه سنة خمس وخمسين وسبعمائة. وفاته سنة أربع وسبعين وسبعمائة. عمره تسع وستون سنة.

ثم قام من بعده ولده الناصر صلاح الدين بن المهدي بن على بن محمد بن علي.

قيامه سنة أربع وسبعين وسبعمائة. وفاته سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة.

ثم قام من بعده المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى بن أحمد بن المرتضى بن مفضل بن الحجاج.

قيامه سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة. وفاته سنة أربعين وثمانمائة.

ثم قام من بعده الهادي على بن المؤيد بن جبريل بن المؤيد بن أحمد بن يحيى بن أحمد بن يحيى بن يحيى سنة ست وتسعين وسبعمائة. وفاته سنة ست و ثمانين وثمانمائة.

ثم قام من بعده المطهر بن محمد بن حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن

ابن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل.

ثم قام من بعده صلاح بن على بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحسن بن جعفر بن الحسين بن أحمد بن يحيى بن عبد الله بن يحيى بن المنصور بن أحمد بن الناصر بن الهادي.

ثم قام الناصر بن محمد بن الناصر بن أحمد بن المطهر بن يحيى بن المرتضى بن المطهر بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر بن على بن أحمد بن الهادي.

ثم قام الهادي عز الدين بن الحسن بن على بن المؤيد بن جبريل بن المؤيد بن أحمد بن يحيى بن أحمد بن يحيى بن يحيى بن الناصر بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن الناصر بن أحمد بن الهادي يحيى.

قيامه سنة ثمانين وثمانمائة. وفاته سنة تسع وعشرين وتسعمائة. عمره سبع وستون سنة.

ثم قام ولده مجد الدين بن الحسن بن الحسن بن عز الدين بن الحسن بن على بن المؤيد. قيامه سنة تسع وعشرين وتسعمائه. وفاته سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة.

ثم قام الوشلي محمد بن على بن محمد بن أحمد بن على بن أحمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سراج الدين الحسن بن محمد بن عبد الله ابن الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد ابن الحسن بن على بن أبي طالب.

ثم كانت دعوة الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين ابن الإمام المهدي أحمد ابن يحيى بن المرتضى بن أحمد بن المرتضى بن المفضل بن الحجاج بن على بن يحيى بن القاسم بن يوسف الداعي بن يحيى بن أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنهم - حادي عشر جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وتسعمائة، وكان أول ظهوره بجهات المغرب من جهات صنعاء، وما ساعدته القبائل لقوة سلطان اليمن إذ ذاك عامر بن عبد الوهاب.

فلما انقضت دولته باستيلاء الشراكسة، وتملكهم أرض اليمن كانت بصنعاء طائفة من الشراكسة فكاتب أهل صنعاء الإمام شرف الدين المذكور، وتكفلوا له بإدراك

ذلك سنة أربع وعشرين وتسعمائة.

وفي شوال قصد صنعاء فلما وصل إليها مال إليه أهلها، وأخرج من كان فيها من الجند المصري بالأمان، ودخل صنعاء، ودانت له البلاد إلى أن كانت وفاته سنة خمس وستين وتسعمائة في دولة السلطان سليمان خان بن سليم خان.

ثم قام الهادي أحمد بن عز الدين بن الحسن بن عز الدين بن الحسن بن على بن المؤيد. قيامه سنة ثمان وخمسين وتسعمائة، ووفاته سنة سبع وثمانين وتسعمائة.

ثم قام الناصر الحسن بن على بن داود بن الحسن بن على بن المؤيد.

قيامه سنة ست وثمانين وتسعمائة.

ثم قبض عليه الوزير حسن باشا سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة وأرسله إلى الأبواب العالية سنة أربع وتسعين وتسعمائة.

ثم قام المتوكل عبد الله بن على بن الحسين بن عز الدين بن الحسن بن على بن المؤيد. قيامه سنة أربع وتسعين وتسعمائة. وفاته سنة سبع عشرة وألف.

ثم قام المنصور بالله القاسم بن محمد بن على بن محمد بن الرشيد بن أحمد بن الحسين بن على بن يحيى بن محمد بن يوسف الأشل بن القاسم بن محمد بن يوسف الأكبر بن المنصور بن يحيى بن الناصر بن أحمد بن الهادي إلى الحق يحيى ابن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبي طالب.

نشأ منشأ آبائه الأئمة حتى بذ بعلمه وبهر بجودة فهمه، وصار في أيام طلبه يشار إليه، مقصورة خلال الخلافة عليه. كانت دعوته في صفر الخير سنة ست وألف.

وله وقائع في أيامه مشهورة، ومواطن معروفة مأثورة. كان آية في العلوم، ومعجزة في المنطوق والمفهوم.

له التصانيف المشهورة، والنظم والنثر. وكان محط رحال الأفاضل، ومقصد الأكابر من كل قنة وساحل.

ولم يزل قائما بأعباء الخلافة حتى توفاه الله تعالى في شهر ربيع الأول عام تسع وعشرين وألف.

ثم قام من بعده ولده الإمام العظيم المؤيد بالله محمد بن أمير المؤمنين المنصور

بالله القاسم بن محمد، وظهرت فضائله في البلاد، وأذعن لفضله الحاضر والباد، وأوتى من الإحاطة بالعلوم، وصدق الفراسة، وتنوير القلب، وصفاء الخاطر، ما لم يؤت غيره، وأقبلت عليه الفتوحات من كل وجهة، وقام بنصرته أخواه السيدان الإمامان الحسن والحسين وأخوهما شمس الإسلام أبو طالب ابن الإمام المنصور.

وفي سنة خمس وأربعين وألف استولى الإمام المؤيد المذكور على جميع إقليم اليمن ما عدا زبيد والمخا، وذلك أن الباشا قانصوه لما توجه إلى اليمن عام تسع وثلاثين بعد أن قتل الشريف أحمد بن عبد المطلب وولي مسعود بن إدريس صار كلما دخل قرية ظلم أهلها ونهبهم أرسل إلى عابدين باشا، وخنقه واستولى على خزائنه، وعساكره، ونهب البلد، ونهب من يرد إليه من البنادر، وأرسل أغربة في البحر يأخذون من ظفروا به، واغتصب أماكن مأثورة وعمرها بزخارف في الصورة، فآلت أمواله إلى يد العدى ﴿ ولايَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩]. والتقى عسكره مع عسكر الإمام المؤيد محمد بن القاسم صاحب الترجمة، وعليهم أخوه الإمام الحسين بن القاسم، وكمنوا له ثم هجموا عليهم، وهم غارون، فقتلوا من عسكر قانصوه أكثرهم، ولم ينج منهم إلا القليل، وتحصن هو ومن بقي بزبيد، فتنزل عليه أخوه الآخر الإمام الحسن بعساكر كثيرة، وحاصروا زبيد، وأنفق قانصوه ما حازه من الأموال على عسكره، ثم صاروا يهددونه، ويعززونه لضيق أرزاقهم، فتعب لذلك وكاتب الإمام الحسن على أن يصل إليه آمنا، فأرسل الحسن له بالأمان، فركب هو وخواصه وأظهر أنه يريد زيارة بعض الأولياء وهرب إلى محطة الإمام الحسن فأكرمه وجهزه إلى مكة. فرجع راضيا من الغنيمة بالإياب لا يملك إلا ما عليه من الثياب، فوصل إليها في دولة مولانا المرحوم الشريف زيد بن محسن ومعه من أتباعه دون العشرين، ونزل بحوش السلطان في الكوشك المطل على البركة المعروفة ببركة الشامي، فحصل من أتباعه نوع تَعدٍّ إلى بعض الرعايا فألزمه مولانا الشريف زيد بالرحيل من يومه، وأحضر له الرحلة، فلم تغرب عليه شمس ذلك اليوم في مكة، ولما تحقق عسكره فراره عنهم بتلك الحيلة أقاموا عليهم أميرًا منهم يقال له مصطفى فضبط زبيد، واستمر محاصرا فوق سنتين منتظرًا المدد يأتيه من مصر فلم يصل إليه شيء، ولما سئم طلب الأمان فأعطاه الإمام الأمان وجهزه بعشرين ألف قرش،

فخرج إلى مكة سنة تسع وأربعين وألف ومعه المحمل اليماني السلطاني، ووضع بالقبة المبنية في محل سقاية العباس بالمسجد الحرام.

قلت: قد رأيته كثيرًا ملقى في القبة المذكورة عام سبع وستين وألف، وهو أكبر من المحمل المصري شكلا. ومن عامئذ استبدت الأئمة الزيدية بالممالك اليمنية، وقضت ما في نفسها من الأمنية، فهم حتى اليوم ولاتها حزنًا وسهلاً، ورؤساؤها فتى وكهلا. وأخرجوا جميع الأروام منها، وكفوا أكف المتغلبين عنها، بعد أن قتلوهم القتل الذريع. وتركوهم بين سليب وصريع.

وفي سنة ثمان وأربعين كانت وفاة أخيه السيد الحسن ابن الإمام القاسم وهو والد أحمد بن الحسن.

وكان أخوه الإمام محمد المؤيد صاحب الترجمة يقدمه على العساكر في الحروب كلها رحمه الله، واستمر الإمام المؤيد إلى أن حانت وفاته وانقضت أوقاته في سابع عشرى رجب الفرد سنة أربع وخمسين وألف.

ثم قام من بعده أخوه الإمام الشهير المتوكل على الله إسماعيل ابن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن الرشيد بن أحمد.

وقد تقدم بقية نسبه إلى علي بن أبي طالب في ترجمة والده المنصور بالله القاسم. كانت له الكرامات الظاهرة، والمفاخر السائرة، مع الإحاطة بجميع العلوم.

وأقبلت الفتوحات إليه من كل أوب، وجاءت إليه الوفود من كل أرض وصوب.

أرخ ابتداء دعوته السيد ناصر بن عبد الحفيظ بن عبد الله المهلا فقال [من الخفيف]

عَزَّ تاريخُ دَعْوَةٍ مِنْ كَرِيمٍ وتَوَكَّلْ عَلَى العَزِيزِ الرَّحِيمِ
مَعَهُ العِزُّ للإمامِ الكريمِ آيَةٌ يُعْرَفُ التَّوَكُّلُ مِنْهَا

وأرخه أيضًا نثرًا فجاء التاريخ «توكلت على الله وحده أبدًا».

وفي سنة ست وخمسين: جهز ابن أخيه أحمد بن الحسن إلى حضرموت، فوصل إلى الجوف، واستولى عليه الخوف، فرجع مكسوراً، وفي سنة ثمان وخمسين: استولى بدر بن عبد الله الكثيري على حضرموت وقبض على عمه السلطان بدر بن علي، وسببه أنه ظلم وتعدى الحدود، فأشار بعض السادة على بدر ابن عبد الله بالقبض على عمه، فهجم عليه ليلاً وحبسه هو وأولاده.

وفي سنة خمس وستين جهز الإمام إسماعيل ابن أخيه الإمام أحمد بن الحسن على حضرموت ونواحيها لكونهم لم يخطبوا له، فالتقى هو والأمير حسين الرصاص لكون بلده أقرب البلدان إلى دولة الإمام إسماعيل وحصل منهم قتال، فلما عجز الإمام أحمد بن الحسن أرسل إلى قبيلة يافع- وهم قبائل كثيرون- بالأموال خفية وطلب منهم أن يكونوا معه على الرصاص ووعدهم بأشياء كثيرة فاغتروا بكلامه، وتجهزوا على الرصاص، وأتوه على غرة، وبقي الرصاص بين الإمام أحمد، وبين قبائل يافع، فأبلى بلاء شديدا حتى قتل شهيدًا وتولى أخوه، وأرسل أحمد بن الحسن يرهبه، ويرغبه، والتزم له بجميع ما يطلبه، فطلب أشياء كثيرة فوفى له الإمام أحمد بها وملك البلاد.

وقبيلة الرصاص مشهورة بالشجاعة والكرم والصدق ولذلك كانوا مجللين محترمين، واستولى الزيدية على غالب حضرموت. ثم في سنة سبعين استولى على حضرموت كلها وأمرهم أن يزيدوا في الأذان « حي على خير العمل » وترك الترضي عن الشيخين، ومنع الدفوف واليراع في راتب السقاف. وانتهت دولة آل كثير من تلك الديار وقد انتهى صعود شرف آل كثير بالسلطان عبد الله بن عمر، وفي المثل: إذا تم شيء بدأ نقصه؛ فإنه لما خلع نفسه لعبادة ربه عن الملك الفاني، وصار إبراهيم بن أدهم ثاني، وتولى أخوه بدر الدين بن عمر، وفي آخر دولته ظلم وطغى، فهجم عليه ابن أخيه بدر الدين بن عبد الله وحبسه فدانت له العباد، وعمرت به البلاد إلى أن ظلم بالعدوان وصادر السادة والأعيان، ففوقوا إليه سهام الدعاء، فقدر الله أن كتب عمه المحبوس بدر بن عمر وهو بالحبس إلى الإمام إسماعيل وهون له أمر حضرموت، فكتب الإمام إسماعيل إلى السلطان بدر بن عبد الله بإخراج عمه بدر بن عمر من الحبس فأخرجه، ثم اتصل بالإمام وطلب منه التجهيز على حضرموت وتكفل له بأشياء وساعده على ذلك الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن العمودي شيخ العموديين وكان والده على أكثر وادي دوعن، فكاتبوا مشايخ العرب وأرسلوا لهم بالأموال، وصار إليه أحمد بن الحسن، فلما التقى الجيشان، انكسر جيش السلطان بدر، ولم يقاتل معه إلا خواصه، ثم انهزم منكسرا وولى مدبرًا إلى جبل أخواله فطلب الأمان لنفسه فأعطيه. ولما لم يطب لأحمد بن الحسن المقام بحضرموت أقام

بها بدر بن عمر الكثيري ورجع إلى عمه الإمام إسماعيل صاحب الترجمة. ثم لم يزل الإمام إسماعيل قائمًا بأعباء الإمامة الكبرى إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته سنة ٨٧ سبع وثمانين.

ثم قام بعده ابن أخيه الإمام الشهير أحمد بن الحسن ابن الإمام القاسم ولقب المهدي لدين الله، فقام بأمر الخلافة أحسن قيام. وانتظم به الأمر أتم نظام.

وكانت حضرته محط رحال العلماء الأعلام. وفي أثناء دعوته دعا ابن عمه مولانا علم الإسلام وإمام علماء الآل الكرام القاسم ابن الإمام المؤيد بالله، وخطب له على سابر الشرفين والأهنوم وشهارة وظليمة ولحج وأكثر التهائم، وبعد أمور كثيرة يطول شرحها حصل الاتفاق على إمامة المهدي لدين الله هذا.

وهو - أيده الله - من أعيان العترة كرما وشجاعة وتفقدا للمساكين وتعظيما للعلماء، ومستقره شهارة المحروسة، واستمر إلى أن كانت وفاته في شهر جمادى الأخرى سنة اثنتين وتسعين وألف.

ثم قام من بعده الإمام العظيم المؤيد بالله رب العالمين محمد الملقب بالعزى ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله إسماعيل بن المنصور بالله القاسم بن محمد بن على ابن محمد بن الرشيد، اتفق على خلافته رأى علماء العصر، وفضلاء الدهر، وغمر الناس برد ظل عدله، وسار سيرة الأئمة الهادين، وأمر بإحياء العلوم والمدارس، مقربا للعلماء، متعهدًا لأحوال الفضلاء، مؤديًا لحقوق الضعفاء. متبعًا في أمره ونهيه لكتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ، وقام من إخوته وبني عمه بنصرته عظماء كالإمام القاسم ابن الإمام المؤيد بالله، وكأخويه الحسن ابن الإمام المتوكل وعلى ابن الإمام المتوكل، ومن بني عمه السيدان العظيمان جمال الإسلام محمد ابن الإمام أحمد المهدي وشرف الإسلام الحسين ابن الإمام المهدي أيدهما الله تعالى، واستمر على سرير الخلافة، وما استطاع أحد خلافه، إلى أن ورد إلينا خبر وفاته أواسط سنة ١٠٩٧ سبع وتسعين وألف.

ثم كثر الشجار في كل ناحية، وطلبها عدة أشخاص في أماكن متناحية، ووقعت حروب وأهوال، وفنيت أموال وأبطال، حتى استقر عمود رحاها، وأسفر بدر ديجور رجاها، عن جمال وجودها الأمجد أمير المؤمنين الناصر لدين الله محمد بن أحمد،

فهو الآن الخليفة بهذا الزمن، في هذا القطر الشريف أعني قطر اليمن ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨] : [من مجزوء الرجز]

سِلْسِلَةٌ مِنْ ذَهَبِ مَنُوطَةٌ بِالشُّهُبِ
أَكْرِمْ بِهَا سِلْسِلَةً بَيْنَ وَصِيٍّ ونَبِي
قَدْ صَانَهَا رَبُّ السَّمَا مِنْ شَائِبَاتِ النَّسَبِ

وصلى الله على من لا نبي بعده خاتم النبيين، وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه الهداة المهتدين.

* * *

الباب الثالث
من خاتمة الخير
في ذكر من ولي مكة المشرفة من آل أبي طالب إلى يوم تاريخه ولمع من أخبارهم، ونوادر حوادث أيامهم

مكة[١] زادها الله شرفًا، أشهر من أن تعرَّف أو أن يصفها واصف، إلا أنها انقرض سكانها من قريش بعد المائة الثانية بالفتن الواقعة بالحجاز من العلوية مرة بعد أخرى، فأقفرت من قريش ولم يبق بها إلا أتباع بني حسن أخلاط من الناس، ومعظمهم موالي سود من الحبشة والزيلع.

وكان أول من وليها بعد الفتح المحمدي عتاب بن أسيد باستخلاف محمد ﷺ بعد الفتح [٢]، حين عزمه إلى غزوة حنين عام ثمان من الهجرة. والخلفاء الأربعة، ثم خلفاء بني أمية وعمالهم، ثم خلفاء بني العباس، وتعداد عمالهم فردًا فردًا مبسوط في التواريخ لا حاجة بنا إليه، وكان في خلال ذلك يتغلب بعض الطالبيين والعلويين عليها.

فأول من وليها منهم بالتغلب محمد بن الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عاملاً عليها، ومؤمرًا من جهة محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية ابن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، فإنه لما تغلب على المدينة الشريفة سنة خمس وأربعين ومائة في دولة المنصور العباسي، أمر

---

(١) اختلف في معنى تسميتها مكة فقيل: لأنها تمك الجبارين أي تذهب نخوتهم وقيل لأنها تمك الفاجر عنها أي تخرجه، وقيل كانها تجهد أهلها من قولهم تمككت العظم إذا أخرجت مخه، وقيل لأنها تجذب الناس إليها من قولهم امتك الفصيل ما في ضرع أمه إذا لم يبق فيه شيئا ، وقيل لقلة مائها .

وقد ذكر لمكة أسماء كثيرة منها: العروض والسيل ومخرج صدق والبنية وأم رحم وأم راحم وأم زحم وأم القرى والبلد والبلدة والبلد الأمين والبلد الحرام والرتاج والناسة والناشة وحرم الله تعالى وبلد الله تعالى وطيبة والقادس والمقدسة وقرية النمل ونقرة الغراب وقيل في أسمائها غير ذلك .

ينظر: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (١/ ٤٧، ٤٨) .

(٢) ينظر: الإصابة (٤/ ٣٥٦)

على مكة محمد بن الحسن هذا وسيره إليها.

فخرج إليه السري بن عبد الله بن الحارث بن العباس بن عبد المطلب أمير مكة من جهة المنصور، فتحاربا بأذاخر فهزم السري، ودخل محمد مكة، فأقام بها يسيرًا، فأتاه كتاب محمد النفس الزكية يخبره بمسير عيسى بن موسى لمحاربته، ويأمره بالمسير إليه، فسار محمد بن الحسن إليه من مكة، هو والقاسم بن إسحاق فبلغه وهو سائر بنواحي قديد قتل النفس الزكية فهرب هو وأصحابه وتفرقوا، فلحق محمد بن الحسن بإبراهيم بن عبد الله المحض حتى قتل إبراهيم.

ذكر هذا ابن الأثير [(١)]، ورجع السري إلى ولاية مكة.

ثم وليها كذلك بالتغلب سنة ١٦٩ تسع وستين ومائة في دولة الهادي بن الرشيد الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط.

وقد تقدم خبره في الباب قبل هذا عند ذكر الدعاة.

ثم وليها كذلك بالتغلب الحسين بن الحسن الأفطس بن علي الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب - وهو المعروف بالأفطس - وذلك في خلافة المأمون سنة ١٩٩ تسع وتسعين ومائة، وسببه أن أبا السرايا السري بن منصور الشيباني داعية ابن طباطبا لما تغلب على العراق ولي مكة الحسين بن الحسن الأفطس هذا، فسار إلى أن وصل وادي سرف المعروف في وقتنا اليوم بالنوارية على نصف مرحلة من مكة فتوقف عن الدخول إلى مكة خشية من أميرها من جهة المأمون، وهو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فلما بلغ داود توجيه أبي السرايا للحسين الأفطس فارق مكة هو ومن بها من شيعة بني العباس.

فلما بلغ الحسين خروج داود دخلها ليلة عرفة فطاف وسعى، ثم مشى إلى عرفة فوقف ليلا، ثم دفع إلى المزدلفة فصلى بالناس الصبح، ثم دفع إلى منى، فلما انقضى الحج عاد إلى مكة.

فلما كان مستهل محرم الحرام افتتاح سنة ٢٠٠ مائتين نزع الحسين المذكور كسوة

---

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير (٥/ ٥٤٢).

الكعبة التى كانت عليها من قبل المأمون ثم كساها كسوتين أنفذهما معه أبو السرايا من قز إحداهما صفراء والأخرى بيضاء، ثم عمد الأفطس إلى خزانة الكعبة، فأخذ جميع ما فيها من الأموال فقسمها مع كسوة الكعبة على أصحابه، وهرب الناس من مكة؛ لأنه كان يأخذ أموالهم ويزعم أنها ودائع لبنى العباس عندهم.

ولما هرب الناس هدم دورهم، فكرهه الناس لظلمه، وطغى أصحابه وبغوا، وقلعوا شبابيك البيوت الحديد التى على المسجد وباعوها حتى قلعوا شبابيك زمزم، ولم يزل كذلك على ظلمه إلى أن بلغه قتل مرسله أبى السرايا سنة مائتين، فلما علم بذلك ورأى الناس قد تغيروا عليه لما فعله معهم من القبيح واستباحة الأموال، جاء هو وأصحابه إلى محمد بن جعفر الصادق الملقب بالديباجة لجمال وجهه وسألوه المبايعة له بالخلافة فكره ذلك، فاستعان الأفطس عليه بولده على بن محمد بن جعفر الصادق ولم يزالوا به حتى بايعوه بالخلافة، وذلك فى ربيع الأول سنة مائتين، وجمعوا الناس على بيعة محمد طوعًا وكرهًا، وبقى أشهرًا وليس له من الأمر شيء، وإنما ذلك للأفطس ولابنه على بن محمد وهما على أقبح سيرة مع الناس، ووثب الأفطس على امرأة جميلة فانتزعها قهرًا من زوجها، وعلى بن محمد أخذ ابن قاضى مكة وحجزه عنده.

فلما رأى الناس ذلك اجتمعوا بالمسجد الحرام، وقالوا لمحمد بن جعفر إن لم تحضر المرأة والصبى خلعناك، فأغلق بابه خوفًا من العامة وكلمهم من الشباك، ثم طلب الأمان ليخرج يخلصهما، فأعطى فخرج وخلص الصبى من ابنه على، والمرأة من الأفطس. كذا ذكره الأزرقى.

قلت: عندى فى صحة هذين الأخذين نظر، خصوصًا أخذ ابن الديباجة ابن قاضى مكة، فالنفس أبته كل الإباء، والله أعلم.

فلم تكن إلا مدة يسيرة حتى قدم إسحاق بن موسى العباسى من اليمن فارًّا من إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، فنزل بالمشاش، واجتمع إليه جماعة من أهل مكة هربوا من العلويين، واجتمع الطالبيون إلى محمد بن جعفر المذكور، وجمع الناس من الأعراب وغيرهم وحفروا خندقًا وقابلهم إسحاق، ثم كره القتال، فسار إلى نحو العراق فلقيه جند أنفذهم هرثمة بن أعين قائد المأمون، وكان فيهم

الجلودى وورقاء بن جميل فقالا لإسحاق: ارجع معنا ونحن نكفيك القتال، فرجع معهما، ولقيهم محمد بن جعفر والطالبيون ببئر ميمونة، وقد انضم إلى محمد غوغاء مكة وسواد البادية، فلما التقى الفريقان قتل جماعة ثم تحاجزوا ثم التقوا من الغد، فانهزم محمد والطالبيون ومن معهم، ثم طلب محمد الأمان من الجلودى وإلا أجله ثلاثة أيام، فآمنه وأجله، ثم خرج من مكة، ودخل الجلودى مكة بالجيش فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة أعنى سنة ٢٠٠ مائتين.

وتوجه الديباجة إلى بلاد جهينة فجمع منها جيشًا وسار إلى المدينة، وقاتل واليها من جهة المأمون وهو هارون بن المسيب، فانهزم الديباجة أيضا، وفقئت عينه بنشابة، وقتل من عسكره خلق كثير، ثم عاد إلى مكة وطلب الأمان من الجلودى، فآمنه فدخل مكة فى أواخر ذى الحجة من السنة المذكورة فأصعده الجلودى المنبر، والجلودى فوقه بمرقاتين عليه قباء أسود، فاعتذر محمد بأنه إنما وافق على المبايعة؛ لأنه بلغه موت المأمون، ثم قدم على المأمون بـ « مرو » واعتذر واستعفى، فقبل عذره وعفا عنه وأكرمه، فلم يلبث قليلاً حتى مات فجأة بجرجان، فصلى عليه المأمون، ونزل فى لحده وقال: هذه رحم قطعت مذ سنين.

وكان موته فى شعبان سنة ثلاث ومائتين. وسبب موته على ما قيل أنه جامع وافتصد ودخل الحمام فى يوم واحد.

وفى موسم سنة ٢٠٢ اثنتين ومائتين وليها كذلك بالتغلب إبراهيم بن موسى الكاظم ابن جعفر، جاء إليها من اليمن وعليها إسحاق بن موسى بن عيسى العباسى، فلما سمع بوصوله خندق عليها وبنى سورًا على الجبال دائرًا بالبنيان.

وكان فى السنة التى قبلها سنة إحدى ومائتين وصل إلى مكة صنم من ذهب على صورة إنسان لملك من ملوك الهند، أرسل به إلى الكعبة، وعلى رأس الصنم تاج مكلل بالجوهر والياقوت والزبرجد، والصنم جالس على سرير من فضة وعلى السرير أنواع الفرش من الحرير والديباج، فوضع السرير عليه الصنم فى وسط المسعى ثلاثة أيام ومعه معرِّف لمن كان له هذا الصنم وأنه أسلم وأرسل به هدية للكعبة فاحمدوا الله تعالى أن هداه للإسلام. ثم أخذ أمير مكة العباسى المذكور ذلك الصنم من الحجبة قهرًا وضربه دنانير وأنفقها على العسكر، وحارب إبراهيم بن

موسى فكسر الأمير وهرب ودخل إبراهيم بن موسى مكة.

ثم وليها فى سنة خمسين ومائتين فى خلافة المستعين بالتغلب أيضا إسماعيل بن يوسف الأخيصر بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، فهرب منها عامل المستعين، وهو جعفر بن الفضل ابن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس المعروف بشاشات، قتل إسماعيل الجند الذين بمكة وجماعة من أهلها.

ونهب منزل جعفر شاشات وغيره وأخذ من الناس نحو مائتى ألف دينار، وعمد إلى الكعبة الشريفة فأخذ كسوتها، وما جدد فى خزانتها من الأموال، وما كان أعد من المال لإصلاح العين، ونهب مكة وأحرق بعضها، ثم خرج منها بعد مقامه بها خمسين [يومًا] فى شهر ربيع الأول، وقصد المدينة الشريفة فتوارى عنه عاملها فظلم أهلها، وأخرب دورهم، وعطلت الجماعة من مسجده عليه الصلاة والسلام أكثر من نصف شهر، ثم رجع إلى مكة فحصر أهلها حتى ماتوا جوعًا وعطشًا وبلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم واللحم رطل بدرهم والشربة الماء بثلاثة دراهم، ولقى أهل مكة منه بلاء شديدًا.

ثم سار إلى جدة فحبس عن الناس الطعام وأخذ أموال التجار وأصحاب المراكب، ووافى الموقف والناس بعرفات فقتل من الحجاج نحوًا من ألف ومائة نفس فهرب الحجاج ولم يقف بعرفة أحد ليلاً ولا نهارًا سوى إسماعيل وعسكره، ثم بعد انفصاله من عرفة رجع إلى جدة ثانيًا وأفنى أموالها وفعل أمورًا قبيحة لا حاجة بنا إلى ذكرها. كذا ذكره العلامة ابن جار الله، وقبله التقى الفاسى فى تاريخه «شفاء الغرام» (١). انتهى.

قلت: لا يظن ظان أن صدور هذا الفعل وشبهه من مثل هؤلاء السادة لنقص فى دينهم واختلال فى يقينهم حاشا وكلا، وإنما ذاك والله أعلم مما جرَّت إليه الحمية والأنفة والشهامة التى تناسب أقداسهم من استيلاء ولاة الجور على ما هم الأحقون به، فيقصدون بذلك ثلم وجوههم وتفريق جموعهم ما أمكن لتعديهم بأصل الدخول فى الخلافة، ولم ينعقد إذ ذاك إجماع على حرمة الخروج على أئمة الجور، فقد

(١) ينظر: شفاء الغرام للفاسى (٢/١٨٦).

أفتى الإمام أبو حنيفة بجواز الخروج على أبى جعفر المنصور منهم، وكذلك الإمام مالك رحمهما الله تعالى، وإنما انعقد الإجماع على ذلك بعد زمنهم بكثير هذا ما ظهر لجامعه الفقير. على أنى أعلم أن هذا الجواب ينسب إلى الإقناع، فلا يكن منك أيها الناقد لرأس الاعتراض إقناع.

ولم يزل العمالِ عليها من بنى العباس وشيعتهم والخطبة بها لهم إلى أن اشتغلوا بالفتن أيام المستعين والمعتز وما بعدهما، فحدثت الرئاسة فيها لبنى سليمان بن داود ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط.

ذكر دولة السليمانيين
ومنهم آل أبى الطيب

قال ابن خلدون: وكان كبيرهم آخر المائة الثانية محمد بن سليمان، وليس هو سليمان بن داود بن الحسن المثنى؛ لأن ذاك ذكر ابن حزم أنه قام بالمدينة أيام المأمون وبين العصرين نحو مائة سنة فيبعد أن يكون محمد بن سليمان هذا هو محمد بن سليمان بن داود القائم بالمدينة، إلا أنه من ولده.

كان أول من خطب لنفسه منهم بالإمامة محمد بن سليمان سنة ٣٠١ إحدى وثلاثمائة أيام المقتدر العباسى وخلع طاعة العباسية وخطب فى الموسم فقال:

الحمد لله الذى أعاد الحق إلى نظامه، وأبرز زهر الإيمان من أكمامه، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه لا ببنى أعمامه. صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين. وكف عنهم ببركته إساءة المعتدين. وجعلها كلمة باقية فى عقبه إلى يوم الدين. ثم أنشد:
[من المجتث]

لَأَطْلُبَنَّ بِسَيْفِي ... مَا كَانَ لِلحَقِّ دَيْنَا
وأَسْطُوَنَّ بِقَوْمٍ ... بَغَوا وجَارُوا عَلَيْنَا
يُهْدُونَ كُلَّ بَلاَءٍ ... مِنَ العِرَاقِ إِلَيْنَا

وكان يلقب بالزيدى نسبة إلى نحلته من مذهب الإمامية، وبقى ركب العراق يتعاهد مكة إلى أن اعترضه أبو طاهر القرمطى سنة ثنتى عشرة، وأسر أبا الهيجاء حمدان والد سيف الدولة وجماعة معه، وقتل الحجاج وترك النساء والأطفال

بالقفر، فهلكوا وانقطع الحاج من العراق بسبب القرامطة.

ثم أنفذ المقتدر سنة سبع عشرة وثلاثمائة منصورا الديلمى من مواليه فوافاه بمكة يوم التروية أبو طاهر القرمطى، فنهب الحاج، وقتلهم حتى فى الكعبة والحرام، وطم بئر زمزم بالقتلى والحجاج يصيحون: كيف تقتل جيران الله ووفاده؟ فيقول: ليس بجار من خالف أوامر الله ونواهيه، ويتلو ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية. وصعد على عتبة الكعبة يقول: [من الرمل]

أَنَا بِاللهِ وبِاللهِ أَنَا ... يَخْلُقُ الخلقَ وَأُفْنِيهِمْ أَنَا

وكان يخطب لعبيد الله المهدى جد الخلفاء العبيديين نسبة إلى عبيد الله المذكور صاحب إفريقية، ثم قلع الحجر الأسود وحمله إلى « الأحساء » وهى مستقر ملكه، والأحساء هذه بناها أبو طاهر بعد أن خرب جده مدينة البحرين، ولنذكرهما وإن كان ذكرهما اعتراضًا فى البين.

أما البحرين: فإقليم واسع مسافة شهر على بحر فارس بين البصرة وعُمان، شرقيها بحر فارس، وغربيها متصل باليمامة، وشماليها بالبصرة، وجنوبيها عمان، كثيرة المياه ينبطونها على القامة والقامتين، كثيرة البقل والفواكه، مفرطة الحر، منهالة الكثبان، يغلب الرمل عليهم فى مساكنهم.

وكانت فى الجاهلية لعبد القيس وبكر بن وائل من ربيعة، وملكها الفرس، ثم صارت فى صدر الإسلام لبنى الجارود، ثم ملكها أبو سعيد القرمطى بعد حصار ثلاث سنين واستباحها قتلاً وإحراقًا وتخريبًا.

ثم بنى أبو طاهر القرمطى مدينة الأحساء، وتوالت دولة القرامطة فيها وهم أخلاط من الفرس، وبنى تغلب، وبنى عقيل، وبنى سليم. وكان بناؤها فى المائة الثالثة، وسميت بهذا الاسم - يعنى الأحساء - لكثرة أحساء المياه فى الرمال بها ومراعى الإبل، وكانت للقرامطة بها دولة، وجالوا فى الأقطار والشام والعراق ومصر والحجاز، وملكوا الشام وعمان.

ثم انقضت دولة القرامطة وغلبت على البحرين وما والاها بنو عامر بن عقيل، قال ابن خلدون قال ابن سعيد: والملك الآن منهم فى بنى عصفور.

ثم رجع: وقلع باب البيت وحمله، وأطلع رجلاً لقلع الميزاب فسقط ومات.

فقال: اتركوه فإنه محروس حتى يأتى صاحبه - يعنى المهدى المنتظر - فلما بلغ عبيد الله المهدى ما فعله كتب إليه ما نصه:

والعجب من كتبك إلينا ممتنًا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها، ثم تعديت ذلك فقلعت الحجر الذى هو يمين الله فى أرضه يصافح بها عباده وحملته إلى أرضك ورجوت أن نشكرك، فلعنك الله ثم لعنك، ثم لعنك، السلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده، وفعل فى يومه ما عمل فيه حساب غده.

فانحرفت القرامطة عن طاعة العبيديين لذلك.

ثم قتل المقتدر على يد مؤنس سنة عشرين وثلاثمائة وولى أخوه القاهر.

وانقطع الحاج من العراق بعد هذه السنة إلى أن كاتب أبو على عمر بن يحيى الفاطمى سنة ٢٧ سبع وعشرين من العراق أبا طاهر القرمطى، فأطلق السبل للحاج على مكس أخذه منهم. وكان أبو طاهر يعظمه لدينه ويؤمله. فأجابه إلى ذلك وأخذ المكس من الحاج ولم يعهد مثله فى الإسلام.

وخطب فى هذه السنة بمكة للراضى بن المقتدر، وفى سنة تسع وعشرين وثلاثمائة لأخيه المتقى من بعده، ولم يصل ركب العراق فى هذه السنة من القرامطة.

ثم ولى المستكفى سنة ٣٣٣ ثلاث وثلاثين وثلاثمائة على يد توزون أمير الأمراء ببغداد فخرج الحاج فى هذه السنة بمهادنة القرامطة بعهد أبى طاهر ثم خطب للمطيع ابن المقتدر بمكة بمعز الدولة بن بويه سنة ٣٣٤ أربع وثلاثين وثلاثمائة عند ما استولى معز الدولة على بغداد وعزل المستكفى واعتقل، ثم تعطل الحج بسبب القرامطة.

وردوا الحجر الأسود سنة تسع وثلاثين بأمر المنصور العبيدى صاحب إفريقية وخطابه فى ذلك لأميرهم أحمد بن أبى سعيد. ثم جاء الحاج إلى مكة سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة مع أمير العراق وأمير من مصر فوقعت الحرب بينهما على الخطبة لابن بويه ملك العراق، وابن الإخشيد ملك مصر، فانهزم المصريون وخطب لابن بويه، واتصل وفود الحاج من يومئذ.

فلما كانت سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة جاء الحاج من بغداد ومن مصر؛ كان أمير الحاج العراقى محمد بن عبيد الله العلوى فمكر بأمير مصر وقال: نتفق على إفراد الخليفة ونترك صاحبى وصاحبك، فأجابه إلى ذلك، ثم جاء المنبر مستعدًا وأمر بالخطبة لمعز الدولة بن بويه، فوجم الآخر وتمت عليه الحيلة وعاقبه أميره كافور ويقال قتله.

ووقع معز الدولة بن بويه بعد موت أبيه والخليفة يومئذ المطيع، وسببه: أن سابور بن أبى طاهر قتل عمه أحمد بن سعيد الأمير القرمطى وكان مجمعًا على اعتراض ركب العراق وقطع الخطبة على ابن بويه بمكة، فلما قتل أحمد وقعت الفتنة بين أولاد أبى طاهر وأولاد أحمد بن أبى سعيد فأصلح المطيع بينهم، وقدم عليه الحسن بن أحمد وخطب فى الموسم للمطيع وللحسن بعده بالإمارة.

وفى سنة ٣٦٠ ستين وثلاثمائة خلع الحسن بن أحمد القرمطى طاعة العبيديين وخطب للمطيع وبعث المطيع إليه بالرايات السود، ونهض إلى دمشق فقتل عاملها من جهة العبيديين جعفر بن فلاح وخطب للمطيع، ثم وقعت الفتنة بين بنى الحسن أهل مكة وبنى الحسين أهل المدينة وزحف أهل المدينة مع أمير المعز لدين الله العبيدى صاحب مصر ليقيموا له الخطبة بمكة، فجاءت القرامطة مددًا لبنى حسن بمكة فانهزم أهل المدينة، ثم وقعت الفتنة بين بنى الحسن وبنى جعفر، وحصلت بينهم دماء، وبعث المعز العبيدى من أصلح بينهم، وتحمل ديات القتلى الفاضلة من مال المعز فمذ ملك مصر بادر جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود، وكان بالمدينة فملك مكة ودعا للمعز العبيدى فكتب له المعز بالولاية.

ثم مات جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود، فوليها بعده ابنه عيسى ابن جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب. ودامت ولايته إلى أن مات سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

ثم ولى بعد عيسى أخوه أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود، وكانت ولايته سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، ثم جاءت عساكر عضد الدولة الديلمى، ففر الحسن بن جعفر.

ولما مات المعز العبيدى وولى ابنه العزيز بعث إلى مكة أميرًا علويًا فخطب له بالحرمين. وفى سنة سبع وستين بعث العزيز العبيدى باديس بن زيرى الصنهاجى أميرًا على الحاج، واستولى له على الحرمين، وأقام له الخطبة، وشغل عضد الدولة فى العراق بقتال ابن عمه بختيار فبطل ركب العراق، ثم عاد فى السنة التى بعدها وخطب لعضد الدولة أحمد الموسوى وانقطعت بعدها خطبة العباسيين من مكة، وعادت إلى خلفاء مصر إلى حين من الدهر، وعظم شأن أبى الفتوح واتصلت إمارته فى مكة، وكتب إليه القادر سنة ست وثمانين ورغبه فى الطاعة ووعده باتصال الإمارة فى بنيه، فأنفذ أبو الفتوح الكتب إلى العزيز العبيدى صاحب مصر فأرسل إليه العزيز بالأموال والخلع فقسمها فى قومه، وكسا الكعبة بالبياض، ثم خاطبه القادر سنة تسعين وثلاثمائة فى الإذن لحاج العراق، فأجابه على أن الخطبة للحاكم صاحب مصر العبيدى، وبعث الحاكم إلى ابن الجراح أمير طى باعتراضهم، وكان على الحاج الشريف الرضى أميرًا وأخوه المرتضى، فلاطفا ابن الجراح حتى خلى سبيل الحاج على أن لا يعود.

قال ابن خلدون: وفيها ولى المدينة المشرفة، وأزال عنها إمرة بنى المهنا الحسينى، ثم اعترض حاج العراق سنة أربع وتسعين وثلاثمائة الأصفر التغلبى عند ملكه الجزيرة، فوعظه قارئان كانا فى الركب، ثم اعترضهم فى السنة التى بعدها أعراب خفاجة ونهبوهم، ثم كتب الحاكم سنة ثنتين وأربعمائة إلى عماله بالبراءة من أبى بكر وعمر فنكر ذلك أبو الفتوح وامتعض له وخرج عن طاعته بسبب ذلك. كذا فى تاريخ العلامة ابن خلدون.

ورأيت فى «شفاء الغرام» (١) للعلامة التقى الفاسى ما نصه: كان سبب عصيان أبى الفتوح عن طاعة الحاكم العبيدى أن الوزير أبا القاسم ابن المغربى لما قتل الحاكم أباه وأعمامه هرب من الحاكم، واستجار بكبير آل الجراح أمير طى فعند ذلك حسن لهم الوزير مبايعة أبى الفتوح بالخلافة، فمالوا إلى ذلك، فقصد الوزير أبو القاسم أبا الفتوح وحسن له طلب الخلافة، فاعتذر أبو الفتوح بقلة ذات يده، فحسن له الوزير أخذ ما فى الكعبة من المال فأخذه مع مال عظيم لبعض التجار

(١) ينظر: شفاء الغرام للفاسى (٢/ ١٩٤، ١٩٥).

بجدة، وخطب لنفسه وتلقب بالراشد بالله، وبايعه بالخلافة شيوخ الحسينيين وغيرهم بالحرمين، وخرج من مكة إلى الرملة قاصدًا آل الجراح فى جماعة من بنى عمه، وألف عبد أسود ومعه سيف زعم أنه ذو الفقار، وقضيب زعم أنه قضيب رسول الله ﷺ، فلما قرب الرملة تلقته العرب، وقبلوا الأرض بين يديه، وسلموا عليه بالخلافة، ونزل الرملة ونادى بالعدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فانزعج الحاكم العبيدى، وقطع الميرة عن الحرمين وما وسعه إلا الخضوع لآل الجراح لقوة شوكتهم، فاستمال حسان بن مفرج منهم وبذل له ولإخوته أموالاً جزيلة، فتخلفوا عن أبى الفتوح، فعرف أبو الفتوح ذلك، فاستجار بمفرج من الحاكم العبيدى، فكتب مفرج إلى الحاكم مستشفعًا لأبى الفتوح فشفعه فيه ورده إلى مكانه من إمرة مكة وراجع طاعة الحاكم العبيدى.

وقد كان الحاكم ولى على إمرة مكة عند عصيان أبى الفتوح أبا الطيب فى المدة التى خرج فيها عن طاعته، وأبو الطيب هذا هو أبو الطيب بن عبد الرحمن بن قاسم بن أبى الفاتك بن داود بن سليمان بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب، ومن أحفاد أحفاده الأمير يحيى ابن الأمير المؤيد ابن الأمير قاسم بن غانم بن حمزة بن وقاص بن أبى الطيب بن عبد الرحمن المذكور. وذكر ابن حزم أبا للطيب هذا، وساق نسبه كما ذكرنا، ثم قال: كان لعبد الرحمن والد أبى الطيب اثنان وعشرون ذكرًا، فذكرهم، وذكر أبا الطيب منهم، ثم قال: سكنوا كلهم أَذَنة حاشا نعمة وعبد الحكيم وعبد الحميد فإنهم سكنوا أمج بقرب مكة.

ولعل سكناهم أَذَنة للخوف من أبى الفتوح بسبب تآمر أبى الطيب بعده بمكة حال خروج أبى الفتوح إلى آل الجراح.

ولم يحج من العراق فى هذه السنة أحد.

قال ابن السبكى: ولما كان موسم ثلاث عشرة وأربعمائة: جرت فيه كائنة غريبة هى: أن رجلاً من المصريين من أصحاب الحاكم العبيدى اتفق مع جماعة من الحجاج المصريين على أمر سوء، فلما كان يوم الجمعة وهو يوم النفر الأول طاف هذا الرجل بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر الأسود جاء كأنه يريد تقبيله فضربه بدبوس كان معه ثلاث ضربات متواليات وقال: إلى متى يعبد هذا الحجر؟! إلى متى

يقبل؟!، ولا محمد ولا على فيمنعنى من ذلك فإنى أهدم اليوم هذا البيت، وجعل يرتعد، فاتقاه أكثر الحاضرين وتأخروا عنه، وذلك أنه كان رجلاً طويلاً جسيمًا أحمر اللون أشقر الشعر، وعلى باب المسجد جماعة من الفرسان وقوف ليمنعوه ممن أراده بسوء، فتقدم إليه رجل من أهل اليمن معه خنجر فوجأه به، وتكاثر عليه الناس فقتلوه وقطعوه قطعًا وحرقوه. وتتبعوا أصحابه فقتل منهم جماعة، ونهب أهل مكة ركب المصريين وتعدى النهب إلى غيرهم، ثم إنه سكن الحال، غير أنه سقط من الحجر ثلاث فلق مثل الأظفار وبدا ما تحتها أسمر يضرب إلى صفرة محببًا مثل الخشخاش، فأخذ بنو شيبة تلك الفلق، فعجنوها بالمسك واللاذن واللَّك وحشوا بها تلك الشقوق التى بدت، فاستمسك على ما هو عليه الآن، وهو ظاهر لمن تأمله.

ولما بويع القائم العباسى سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة أمر أن يجهز الحاج فلم يقدر لاستيلاء العرب، وانحلال إمرة بنى بويه، ثم خطب بمكة سنة سبع وعشرين وأربعمائة للمستنصر بن الظاهر العبيدى.

ولما كان سنة ثلاثين وأربعمائة: تولى أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان رئيس مكة وبنى سليمان وكانت مدة إمارته ثلاثًا وأربعين سنة.

ثم ولى بعده ابنه شكر بن أبى الفتوح، وجرت له مع أهل المدينة خطوب ملك فى أثنائها المدينة وجمع بين الحرمين، واستمر إلى أن مات سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، فكانت مدته ثلاثًا وعشرين سنة، ولم يعقب ولا ولد له قط، وقبل خلف بنتًا هى التى تزوجها محمد بن جعفر أول أمراء الهواشم الآتى ذكرهم الآن.

وذكر ابن حزم أن عقب جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان انقرض، وأن مكة وليها بعد شكر عبد كان له لأنه قال وقد انقرض عقب جعفر المذكور لأن ابنه أبا الفتوح لم يكن له ولد إلا شكر ولم يولد له، وصار أمر مكة إلى عبد له. انتهى كلام ابن حزم.

قال العلامة محمد بن جار الله فى تاريخه «الجامع اللطيف»: ثم ولى بعد شكر بنو أبى الطيب الحسنيون وهم من جماعة شكر الذين يقال لهم: السليمانيون، ولم يذكر العلامة الفاسى عدتهم، وأما العلامة ابن خلدون فلم يذكر بنى أبى الطيب

أصلاً، بل ذكر بعد موت شكر استيلاء أول أمراء الهواشم أبى هاشم محمد بن جعفر ابن محمد أبى هاشم بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبى الكرم بن موسى ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب.

وعلى موت شكر انقرضت دولة بنى سليمان بمكة وجاءت دولة الهواشم.

ذكر دولة الهواشم

هؤلاء الهواشم من ولد أبى هاشم محمد بن الحسن بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبى الكرم بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، كانت بين هؤلاء الهواشم وبنى السليمانيين فتن متصلة. ولما مات شكر ذهبت الرئاسة من بنى سليمان؛ لأن شكرًا آخرهم ولم يعقب.

وتقدم فيهم طراد بن أحمد لم يكن من بيت الإمارة وإنما كانوا يؤملونه لإقدامه ورأيه وشجاعته، وكان رئيس الهواشم يومئذ أبو هاشم محمد بن جعفر بن أبى هاشم محمد بن الحسن بن محمد المذكور، وكان قد ساد فى الهواشم، وعظم ذكره فاقتتلوا سنة أربع وخمسين وأربعمائة بعد موت شكر فهزم الهواشم بنى سليمان، وطردوهم عن الحجاز، فساروا إلى اليمن وكان لهم به ملك، فاستقل بإمارة مكة الأمير أبو هاشم محمد بن جعفر بن أبى هاشم محمد بن الحسن المذكور وخطب للمستنصر العبيدى.

ثم ابتدأ الحاج من العراق سنة ست وخمسين وأربعمائة بنظر السلطان ألب أرسلان بن داود ملك السلجوقية حين استولى على بغداد والخلافة، طلب منه القائم العباسى ذلك فبذل المال وأخذ رهائن من العرب، وحج بالناس أبو الغنائم نور الهدى الزينى نقيب الطالبيين، ثم جاور فى السنة التى بعدها واستمال الأمير أبا هاشم محمد بن جعفر المذكور عن طاعة العبيديين فخطب لبنى العباس سنة ثمان وخمسين وأربعمائة وانقطعت ميرة مصر عن مكة فعذله أهله عما فعل فرد الخطبة للعبيديين.

ثم خاطبه القائم العباسى وعاتبه وبذل له الأموال فخطب له سنة ثنتين وستين وأربعمائة بالموسم فقط، وكتب إلى المستنصر العبيدى معتذرًا.

ثم بعث القائم العباسى أبا الغنائم الزينى نقيب المذكورين سنة ثلاث وستين وأربعمائة أميرًا على الركب العراقى، ومعه عسكر ضخم لأمير مكة من عند ألب أرسلان وثلاثون ألف دينار، وتوقيع بعشرة آلاف دينار واجتمعوا بالموسم، وخطب الأمير أبو هاشم محمد بن جعفر للقائم العباسى فقال:

الحمد لله الذى هدانا أهل بيته إلى الرأى المصيب، وعوض بنيه لبسة الشباب بعد لبسة المشيب، وأمال قلوبنا إلى الطاعة، ومتابعة إمام الجماعة. فانحرف المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدى صاحب مصر المذكور عن الهواشم ومال إلى السليمانيين، وكتب إلى على بن محمد الصليحى صاحب دعوتهم باليمن أن يعينهم على استرجاع ملكهم وينهض معهم إلى مكة، فنهض وانتهى إلى المهجم.

وكان سعيد بن نجاح الأحول موتور بنى الصليحى قد جاء من الهند ودخل صنعاء، فثار بها واتبع الصليحى، وهو فى سبعين رجلاًوالصليحى فى خمسة آلاف فبيته بالمهجم وقتله. كذا فى تاريخ العلامة ابن خلدون.

ورأيت فى تاريخ العلامة محمد بن جار الله بعد أن قال: ثم ولى بعد شكر بنو أبى الطيب: وهم الذين يقال لهم السليمانيون من جماعة شكر، ولم يذكر الفاسى [١] عدتهم.

قال: ثم ولى على بن محمد الصليحى صاحب اليمن وذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة فى شهر الحجة، وأظهر العدل بها، واستعمل الجميل مع أهلها، وكثر الأمن، وطابت قلوب الناس، ورخصت الأسعار فى أيامه وكثرت له الأدعية، وكسا البيت ثوبًا أبيض، ورد للبيت الحلى الذى أخذه بنو أبى الطيب لما ملكوا بعد شكر، وأقام بمكة إلى ربيع الأول سنة ست وخمسين وأربعمائة.

ثم ولى عنه نائبًا أبا هاشم محمد بن جعفر هذا، وسبب ذلك أن الصليحى لما دخل مكة كان الأشراف بنو أبى الطيب قد أبعدوا عن مكة وجمعوا عليه، ثم راسلوه بأن يخرج من مكة ويؤمر بها من يختار منهم، وكان قد وقع فى عسكره الوباء فمات منهم سبعمائة رجل ولم يبق إلا نفر يسير، فاختار أبا هاشم محمد بن جعفر هذا، وهو أول الهواشم، وأقامه نائبًا عنه وأمره على مكة واستخدم له عسكرًا، وأعطاه

(١) ينظر: شفاء الغرام للفاسى (٢/١٩٦) .

مالا وسلاحًا وخمسين فرسًا، ثم عاد إلى اليمن فجاء الأشراف بنو سليمان ومعهم حمزة بن أبى وهاص، وحاربوا محمد بن جعفر فحاربهم ولم يكن له بهم طاقة، فخرج هاربًا من مكة فتبعوه، فكر راجعًا، وضرب واحدًا منهم ضربة قطع بها درعه، وجسده وفرسه ووصل إلى الأرض فرجعوا عنه، وكان تحته فرس، يقال لها: دنانير لا تكل ولا تمل،وقيل: إنه كان صهر شكر على ابنته.

ثم عاد محمد بن جعفر إلى مكة بعد خروجه منها.

فهذا الذى ذكره ابن جار الله مخالف لما ذكره العلامة ابن خلدون مخالفة ظاهرة(1). أما أولا: ففى تاريخه فإنه - أى ابن جار الله - ذكر أن إتيان الصليحى إلى مكة، وإقامته أبا هاشم محمد بن جعفر نائبًا عنه كان فى سنة ست وخمسين وأربعمائة، وأنه دخلها وأقام أبا هاشم محمد بن جعفر أول أمراء الهواشم، والذى ذكره ابن خلدون: إن الصليحى أمره المستنصر العبيدى لما مال عن الهواشم إلى السليمانيين بسبب عدولهم بالخطبة عنه إلى العباسيين أن ينهض مع السليمانيين، ويعينهم على استرجاع ملكهم، وأرخ ذلك الأمر له بسنة اثنتين وستين وأربعمائة فهذا تخالف فى التاريخ.

وأما ثانيًا: فمخالفته من جهة المعنى، إذ كيف يؤمر بإعادة السليمانيين إلى ملكهم، وإزالة الهواشم عن مكة فيفر السليمانيون عن مكة، ويرسلون له أقم من تختاره منا فيقيم عليهم أبا هاشم وهو من الهواشم المغضوب عليهم من جهة مرسله المستنصر العبيدى، وكيف يفر السليمانيون عنه، وهو آت لنصرتهم، وإرجاع دولتهم إليهم من يد الهواشم، فما علمت وجه التوفيق بينهما فى ذلك والله أعلم.

وأيضًا لم يذكر ابن خلدون أن الصليحى دخل مكة، بل إنه لما انتهى إلى المهجم - اسم محل - هجم عليه سعيد بن نجاح الأحول فقتله.

وإذ قد انجر الكلام إلى ذكر الصليحى فلنذكر طرفًا من خبره ومبدأ منتهى أمره.

قال العلامة ابن السبكى: الصليحى هو على بن محمد بن على الصليحى. كان أبوه محمد قاضيًا باليمن ونشأ له هذا الولد فتوسم فيه بعض من عنده علم من الملاحم، وقال له: أنت تلى ملك اليمن، فاشتغل على هذا وحوى علومًا كثيرة،

---

(1) ينظر: تاريخ ابن خلدون، المجلد الرابع، القسم الأول (ص ٢٢٠، ٢٢١) .

وحج بالناس دليلاً سنين متعددة. ثم توافق مع جماعة من أولاد رؤساء اليمن نحو الستين وخرجوا إلى رأس جبل منيع باليمن فحاصرهم الجند فى عشرين ألف مقاتل فلم يقدروا عليهم، ثم استفحل أمره وبنى برأس ذلك الجبل حصنًا منيعًا. ثم تدلى فأخذ البلاد بلدًا بلدًا حتى استحوذ على اليمن كلها وخطب بنفسه ودعا للخليفة المستنصر العبيدى واستمر كذلك نحوًا من ثلاثين سنة.

فلما كانت سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة - كذا قاله ابن السبكى.

وقال ابن خلدون سنة اثنين وستين وأربعمائة - خرج فى طائفة من الجيش يريد الحج، فلما كان بالمهجم اعترضه سعيد بن نجاح الأحول صاحب التهائم، وكان الصليحى قد وتره فى أول دولته، فاعترضه سعيد هذا وأخوه حناش فى سبعين رجلاً مع كل رجل منهم جريدة فى رأسها مسمار، فنذر بهم الصليحى، فأرسل سرية فى ألفى مقاتل ليردوهم فاختلفوا فى الطريق فخلص إليه سعيد وأخوه فى أصحابهما، وهو على غرة فوصلوا إليه، وقتلوه بسيفه، وقتلوا جميع أقاربه، وكانوا نحو مائة وستين، ومالوا على بقية العسكر فقتلوا وأسروا، ورجعوا إلى اليمن فملكوه مع بلاد تهامة وهذا أمر لم يتفق مثله إلا نادرًا.

وكان مقتله عند قرية يقال لها: الرهيم وبئر أم معبد وليست بأم معبد السعدية.

قلت: ومن شعر الصليحى بيتان فى حفظى هما: [من الكامل]

أَنْكَحْتُ بِيضَ الهِنْدِ سُمْر رِقَابِهِمْ ... فَرُءُوسُهُمْ دُونَ النُّثَارِ نِثَارُ
وكَذَا العُلَا لا يُسْتَبَاحُ نِكَاحُهَا ... إِلاَّ بِحَيْثُ تُطَلَّقُ الأَعْمَارُ

ولما رجع سعيد بن نجاح برأس الصليحى منصوبًا فوق المظلة التى كانت يظلل بها فوقه إذا ركب فى جنده، قال فى ذلك أبو بكر العثمانى: [من الكامل]

بَكَرَتْ مِظَلَّتُهُ عَلَيْهِ فَلَمْ تَرُحْ ... إلاَّ عَلَى الملكِ الأَجَلِّ سَعِيدِهَا
مَا كَانَ أَقْبَحَ وَجْهَهُ فى ظِلِّها ... مَا كَانَ أحسَنَ رأسَهُ فى عُودِهَا

رجع: ولما عاد محمد بن جعفر إلى مكة بعد خروجه منها جمع أنجادًا من الأتراك فزحف بهم إلى المدينة فأخرج منها بنى الحسين، وجمع بين الحرمين. ثم مات القائم العباسى وانقطع ما كان يصل إليه منه، فقطع محمد بن جعفر الخطبة للعباسيين، ثم جاء الزينبى من قابل بالأموال فأعادها.

ثم بعث المقتدى سنة سبعين وأربعمائة منبرًا إلى مكة استجيد خشبه ونقش عليه بالذهب اسمه، وبعث على الحاج ختلغ التركى وهو أول تركى تأمر على الحج، وكان واليًا على الكوفة وقهر العرب من بنى خفاجة، فبعثه المقتدى أميرًا على الحاج فوقعت الفتنة بين العسكر العراقى والمصرى فكسر المنبر وأحرق، ثم عاود الفتنة سنة ثلاث وسبعين وقطعت الخطبة عن المستنصر العبيدى وأعيدت للمقتدى العباسى واتصلت إمارة ختلغ على الحاج وبعده خمارتكين. إلى أن مات السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك فانقطعت الخطبة للعباسيين وبطل الحاج من العراق لاختلاف ملوك السلجوقية وتغلب العرب.

ومات المقتدى العباسى خليفة بغداد وبويع ابنه المستظهر.

ومات المستنصر العبيدى خليفة مصر، وبويع ابنه المستعلى وخطب له بمكة.

واستمر هذا محمد بن جعفر متوليًا على مكة إلى أن مات سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وهو أول من أعاد الخطبة العباسية بمكة بعد أن قطعت نحو مائتى سنة بسبب استيلاء العبيديين على مصر والحرمين.

وذكر ابن خلدون: أن مدة إمارته على مكة ثلاث وثلاثون سنة، إلا أنه خرج منها هاربًا من التركمان الذين استولوا عليها سنة أربع وثمانين وأربعمائة.

قال ابن الأثير: قال العلامة الفاسى: وهو أول من أعاد الخطبة العباسية ونال بسبب ذلك مالاً عظيمًا من السلطان ألب أرسلان السلجوقى، فإنه خطب له بعد القائم العباسى، ثم كان يخطب لابن ابنه عبد الله الملقب بالمقتدى العباسى حينًا، وحينًا للمستنصر العبيدى صاحب مصر يقدم فى ذلك من تكون صلته أعظم، ولعل ذلك بسبب إرسال التركمان إليه.

ثم ولى بعده ابنه القاسم بن محمد بن جعفر بن محمد بن أبى هاشم فكثر اضطرابه، ومهد بنو زيد أصحاب الحلة طريق الحاج من العراق، فاتصل حجهم وحج سنة ثنتى عشرة وخمسمائة نظر الخادم من قبل المسترشد العباسى بركب العراق، وأوصل الخلع، والأموال إلى مكة، وأمن الاضطراب الذى وقع فى ولايته استيلاء أصبهبذ بن سارتكين على مكة فى أواخر سنة سبع وثمانين، فهرب منها قاسم بن محمد المذكور، وأقام أصبهبذ بها إلى شوال، فجمع قاسم عسكرًا وكبسوا

أصبهبذ فانهزم إلى الشام ودخل قاسم مكة ودامت ولايته عليها إلى أن مات سنة ثمان عشرة وخمسمائة. ومن شعر قاسم يصف قومه قوله: [من الكامل]

قَوْمِي إِذَا خَاضُوا العَجَاجَ حَسِبْتَهمْ لَيْلاً وخِلْتَ وُجُوهَهُمْ أَقْمَارَا
لا يَبْخَلُونَ بِزَادِهم عَنْ جَارِهِمْ عَدَلَ الزَّمَانُ عَلَيْهِمُ أَوْ جَارَا
وإِذَا الصَّرِيخُ دَعَاهُمُ لِمُلِمَّةٍ بَذَلُوا النُّفُوسَ وفَارَقُوا الأَعْمَارَا
وإِذَا زِنَادُ الحَرْبِ أَذْكَتْ نَارَهَا قَدَحُوا بِأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ نَارَا

وكانت مدته ثلاثين سنة.

قال ابن خلدون: ثم ولى بعده ابنه فليتة وقيل أبو فليتة، فافتتح بالخطبة العباسية، وحسن الثناء عليه بالعدل ووصل نظر الخادم أميرًا إلى مكة على الحاج، ومعه الأموال والخلع، ثم استمر فليتة إلى أن مات سنة سبع وعشرين وخمسمائة، وكانت مدته عشر سنين.

ثم ولى بعده ابنه هاشم بن فليتة واستمر متوليًا إلى أن مات سنة تسع وأربعين، وقيل إحدى وخمسين وخمسمائة، ولم يختلف عليه اثنان مدة ولايته.

ثم تولى بعده ابنه قاسم بن هاشم بن فليتة، والخطبة للعباسيين، وإمارة حاج العراق لنظر الخادم.

ثم كانت فتنة المسترشد العباسى مع السلطان مسعود السلجوقى، ومقتل المسترشد، وتعطل ركب العراق.

ثم حج نظر فى السنة بعدها، ثم انقطع الركب العراقى للفتن والغلاء، ثم حج سنة أربع وأربعين وخمسمائة نظر الخادم ومات فى طريقه. فولى مكانه قيماز، واعترضه رعب من الأعراب فنهب الركب واتصل حج قيماز.

ثم صنع المقتفى الخليفة العباسى بابًا للبيت مصفحًا أوصله نظر الخادم إلى مكة سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة.

وبويع المستنجد الخليفة العباسى فخطب له قاسم بن هاشم الأمير المذكور كما كان يخطب لأبيه المقتفى، ثم قتل قاسم سنة ست وخمسين وخمسمائة.

وبويع المستنجد، قتلته الحشيشية، يقال كان ذلك بإشارة صاحب مصر وهو يومئذ العاضد العبيدى والمتغلب عليه.

ثم ولى بعده عمه عيسى بن فليتة، وحج العراق متصل.

وتوفى المستنجد الخليفة العباسى سنة ست وستين وخمسمائة.

وبعث المستضىء بن المستنجد بركب العراق طاشتكين التركى.

وانقضت دولة العبيديين، ووليها صلاح الدين يوسف بن أيوب، واستولى على مكة واليمن وخطب له بالحرمين، ثم مات المستضىء العباسى سنة خمس وسبعين.

وبويع ابنه الناصر العباسى وخطب له بالحرمين.

ودامت ولاية عيسى بن فليتة على مكة نصف يوم؛ لأنه دخل مكة فى يوم عاشوراء سنة ست وستين وخمسمائة، وجرى بينه وبين عسكر أخيه عيسى فتنة إلى الزوال، ثم خرج. . . .، ثم أصلحا بعد ذلك.

ثم ولى بعده ابنه داود بن عيسى، واستمر إلى الليلة النصف من رجب سنة إحدى وسبعين فعزل، وسبب عزله أن أم الناصر الخليفة العباسى حجت فى زمنه ثم أنهت إلى ابنها الناصر عن داود ما اطلعت عليه من أحواله فعزله لذلك.

ثم ولى أخوه مكثر بن عيسى، واستمر إلى موسم هذه السنة ثم عزل، وجرى بينه وبين أمير الركب العراقى طاشتكين حرب شديد فى ذلك الموسم كان الظفر فيه لطاشتكين، وذلك أنه وصل الخبر إلى مكثر أن صحبة الحاج العراقى عسكرًا كثيرًا، وسلاحًا وعددًا، وأن معهم الأمير قاسم بن مهنا، فجمع مكثر الشرفاء والعرب، ولم يحج من أهل مكة إلا القليل، ولم يوف أكثر الحاج المناسك، ولم يبيتوا بمزدلفة، ولم ينزلوا بمنى، ولم يرموا، وإنما رمى بعضهم وهو سائر، ونزل الحاج يوم النحر الأبطح، فخرج إليهم ناس من أهل مكة، فحاربوهم فى بقية يوم النحر واليوم الثانى والثالث، فاشتد القتال على أهل مكة، وقتل من الفريقين جماعة، ثم هاجموا مكة على مكثر، فصعد إلى الحصن الذى بناه بأبى قبيس، فصعدوا وراءه، فتركه وسار عن مكة فدخلوها، وأمر أمير الحاج بهدم الحصن، ونهب غالب بيوت مكة، وأحرق دورًا كثيرة.

ومن عجيب ما جرى أن إنسانًا زراقًا ضرب دارًا بقارورة نفط فأحرقها، وكانت لأيتام فاحترق ما فيها، ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكانًا آخر، فأتاه حجر فأصاب القارورة فكسرها فاحترق هو بها، وبقى ثلاثة أيام يعذب بالحريق ثم مات،

وكانت هذه الواقعة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة المذكورة.

وتسلمت مكة إلى الأمير قاسم بن مهنا الحسينى أمير المدينة، وكان وصل صحبة الحاج العراقى كما سبق خبره إلى مكثر؛ لأنه سافر إلى العراق فوليها الأمير قاسم بن مهنا المذكور بعد انهزام مكثر، فأقام متوليًا ثلاثة أيام، ثم رأى من نفسه العجز عن القيام بإمرة مكة فاستعفى فأعاد الأمير طاشتكين أمير الحاج المذكور داود بن عيسى إلى إمارة مكة، وشرط عليه شروطًا فى ترك المكوس، والعدل بين الرعايا، ولم تعلم ولاية داود هذه إلى متى استمرت، غير أنه يتداول هو وأخوه مكثر إمرة مكة، ثم انفرد بها مكثر عشر سنوات متواليات آخرها سنة ٥٩٧ سبع بتقديم السين وتسعين بتقديم التاء وخمسمائة، غير أن فى ولايته أو فى ولاية أخيه داود - على الشك - كان ممن ولى مكة سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب وذلك سنة ٥٨١ إحدى وثمانين وخمسمائة؛ لأنه قدم مكة فى هذه السنة ومنع الأذان بحى على خير العمل، وقتل جماعة من العبيديين المفسدين، وضرب السكة الدراهم والدنانير باسم أخيه السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب، وفر منه أمير مكة مكثر أو أخوه داود على الشك.

قلت: ذكر العلامة ابن جبير فى رحلته أنه رأى سيف الإسلام طغتكين المذكور داخلاً إلى الحرم الشريف.

قال: وشاهدته وعن يمينه مكثر، وعن يساره قاضى الشرع الشريف، ورأيت مكثرًا لابسًا ثوبًا أبيض، وعمامة من صوف أبيض، فطاف بالبيت والريس يدعو له إذا أقبل من الركن اليمانى حتى يجاوز مصلى جبريل موليًا، ثم يسكت، ثم يدعو إذا أقبل من الركن اليمانى، وهكذا فى كل شوط، فلما فرغ من صلاته فرش له خلف مقام الخليل شقة من كتان، فصلى عليها سنة الطواف، فاتضح - بما ذكره ابن جبير - أن الفار هو داود لا مكثر، فانتفى الشك الذي ذكره ابن جار في« تاريخه » .

وفى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة أسقط السلطان صلاح الدين المكس عن الحجاج إلى مكة فى البحر على طريق عيذاب؛ لأنه كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حجاج المغرب على عدد الرءوس ما ينسب إلى الضرائب والمكوس، ومن دخل منهم ولم يفعل به ذلك حبس حتى يفوته الوقوف بعرفة، ولو كان فقيرًا لا يملك

ـ السلطان صلاح الدين إسقاط ذلك وأن يعرض عنه أمير مكة، فقرر معه أنه يحمل إليه كل عام ألفى دينار وثمانية آلاف أردب قمح إلى ساحل جدة، ووقف على ذلك أوقافًا وخلدها، فانبسطت لذلك النفوس وزاد السرور وزال البؤس، وصار يرسل [الإنعام] للمجاورين بالحرمين من العلماء والفقراء.

ومدحه العلامة ابن جبير بقصيدة أولها: [من المتقارب]

رَفَعْتَ مَغَارِمَ مَكْسِ الحِجَازِ   بِإِنْعَامِكَ الشَّامِلِ الكَافِلِ

ثم ذكر ابن جبير شيئًا من أخبار هذا المكس، فقال: إنه كان يؤخذ من كل إنسان سبعة دنانير مصرية ونصف، فإن عجز عن ذلك عوقب بأنواع العذاب الأليم من تعليقه بالخصيتين وغير ذلك، وكانت هذه البلية فى مدة دولة العبيديين المتخلفين بمصر جعلوها معلومًا لأمير مكة فأزالها الله تعالى بعد أن أزالهم على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وعوَّض أمير مكة ما تقدم ذكره.

وضعف أمر الهواشم وكان مكثر هو آخرهم، وكان أبو عزيز قتادة يناسبهم من جهة النساء، فورث أمرهم وملك مكة من أيديهم وطردهم عنها بالسيف.

وأما ما يسمع على الأفواه من أن الشريف قتادة إنما دخل مكة سابع عشر رجب فى عمرة ابن الزبير التى يخرج فيها كل أهل مكة رفيع ووضيع، فلم أطلع على أصل فى ذلك، وانقرضت دولتهم، والبقاء لله وحده لا شريك له فى ملكه سبحانه وتعالى.

ذكر بنى قتادة أمراء مكة بعد الهواشم إلى وقتنا هذا

كان من ولد موسى الجون الذين مر ذكرهم فى بنى حسن عبد الله أبو الكرم، وكان له على ما نقل نسابتهم ثلاثة من الولد: سليمان وزيد وأحمد، ومنه تشعب ولده.

فأما زيد فولده اليوم بالصفراء بنهر الحسنية، وأما أحمد فولده بالدهناء، وأما سليمان فكان ولده مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن سليمان بن عبد الله أبى الكرم.

وكان لمطاعن إدريس وثعلب. فالثعلبية شعب بالحجاز، وكان لإدريس ابنان: قتادة النابغة وصرخة.

فأما صرخة: فولده بينبع يعرفون بالشكرة.

وأما قتادة النابغة [1]: فكان يكنى أبا عزيز.

وكان من ولده على الأكبر وشقيقه حسن. فمن ولد حسن إدريس وأحمد ومحمد وجماز.

وإمارة ينبع فى أعقابهم حتى الآن فيرجعون إلى إدريس بن حسن بن إدريس.

وأما أبو عزيز قتادة: فمن ولده بنو أبى نمى أمراء مكة لهذا العهد، وكان بنو الحسن بن الحسن كلهم متوطنين بنهر العلقمية من وادى ينبع لعهد إمارة الهواشم وكانوا ظواعن بادية.

ولما نشأ فيهم قتادة هذا جمع قومه ذوى مطاعن، وأركبهم الخيول، واستبد بإمارتهم، وكان بوادى ينبع بنو حراب من ولد عبد الله بن الحسن بن الحسن، وكان بها بنو عيسى بن سليمان بن موسى الجون، فحاربهم بنو مطاعن هؤلاء، وأميرهم أبو عزيز قتادة، فأخرجهم، وملك ينبع، والصفراء، واستكثر من الجند والمماليك، ثم استألف بنى محمد وبنى إبراهيم، وسار إلى مكة فانتزعها من أيدى الهواشم، وخطب للناصر العباسى، كذا فى تاريخ العلامة ابن خلدون.

فوليها الشريف قتادة: وهو أول من وليها من هذا الفخذ الشريف.

قال فى الوسيلة: وسبب طمعه فى ملك مكة ما بلغه من انهماك ولاتها الهواشم على اللهو، وتبسطهم فى الظلم،وإعراضهم عن صونها ممن يريدها بسوء اغترارا منهم بما هم فيه من العز والسيف لمن عارضهم فى مرادهم وإن كان ظلمًا، فتوحش عليهم بذلك خواطر جماعة من قوادهم، ولما عرف قتادة ذلك منهم استمالهم إليه، وسألهم المساعدة على ما يرومه من الاستيلاء على مكة، وبعثه على المسير إليها أن بعض الناس فزع إليه مستغيثًا به فى ظلامة ظلمها، فوعده بالنصر، وتوجه إلى مكة فى جماعة من قومه، فما شعر أهل مكة إلا وهو معهم بها، وولاتهم على ما هم فيه من اللهو والانهماك، فلم تكن لهم بمقاومته طاقة، فملكها.

(١) ينظر ترجمته فى: الكامل لابن الأثير ١٢/ ١٦٥، أبى شـامه: ذيل الروضتين: ص ١٢٣، السلوك ١/ ٢٠٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٤٩ - ٥٠، الشذرات ٥/ ٧٦، التكملة للمنذرى ٣/ ١٧، سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٥٧، العقد الثمين ٣/ ٨ - ١٣، شفاء الغرام ٢/ ١٩٨ - ١٩٩.

وقيل: إنه لم يأت إليها بنفسه فى ابتداء ملكه، وإنما أرسل إليها ابنه حنظلة فملكها له، وذلك فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة بتقديم التاء فى اللفظتين، وخرج منها مكثر بن عيسى إلى وادى نخلة.

وفى سنة ستمائة مات مكثر بنخلة، وجاء ولد محمد بن مكثر، وقاتل حنظلة بن قتادة عند المتكا، ولم يحصل لمحمد ظفر، وتمت البلاد لقتادة، ذكر ذلك ابن محفوظ وابن فهد فى « إتحاف الورى بأخبار أم القرى» .

قال صاحب « عمدة الطالب فى مناقب آل أبى طالب » وهو العلامة السيد النسيب والشريف الحسيب أبو جعفر شهاب الدين أحمد بن على بن مهنا الداودى الموسوى: كان قتادة جبارا فتاكا فيه قسوة وتشدد وحزم، وكان الخليفة فى زمانه الناصر العباسى، فاستدعى الناصر الشريف قتادة إلى بغداد ووعده ومناه فأجابه إلى ذلك، وسار إلى أن وصل إلى العراق ثم إلى المشهد الغروى، فخرج أهل بغداد لتلقيه، وكان ممن خرج فى غمار الناس رجل درويش معه أسد مسلسل، فلما نظر إليه الشريف قتادة تطير وقال: مالى ولبلد تذل فيها الأسود؟ فرجع من فوره إلى الحجاز. وكتب إلى الخليفة العباسى بقوله [من الطويل]

بِلاَدِى وَلَوْ جَارَتْ عليَّ مُرِيفَةٌ ... وَلَوْ أَنَّنِى أَعْرَى بِهَا وأَجُوعُ
وَلِى كَفُّ ضِرْغَامٍ إِذَا مَا بَسَطْتُهَا ... بِهَا أَشْتَرِى يَوْمَ الوَغَى وأَبِيعُ
مُعَوَّدَة لَثْمَ المُلُوكِ لِظُهْرِهَا ... وَفِى بَطْنِها للمُجْدِبِينَ رَبِيعُ
أَأَتْرُكُهَا تَحْتَ الرِّهَانِ وأَبْتَغِي ... بِهَا بَدَلاً إِنِّى إِذَنْ لَرَقِيعُ
ومَا أَنَا إِلاَّ المِسكُ فى غَيْرِ أَرْضِكُمْ ... أَضُوعُ وَأَمَّا عِنْدَكُمْ فَأَضِيعُ

فلما وقف الناصر العباسى على هذه الأبيات استشاط غضبًا، وامتلأ حنقًا وحربًا.
وكتب إلى الشريف قتادة [كتابًا] يقول فيه:

أما بعد: فإذا نزع الشتاء جلبابه، ولبس الربيع أثوابه، قاتلناكم بجنود لا قبل لكم بها، ولنخرجنكم منها أذلة وأنتم صاغرون.

فلما قرأ الكتاب الشريف قتادة ارتاع لذلك أشد ارتياع. وأرسل إلى بنى عمه بنى الحسين بالمدينة يستنجدهم ويسألهم المعونة، وصدر الكتاب بقوله: [من الطويل]

بَنِى عَمِّنَا مِنْ آلِ موسَى وَجَعْفَرِ ... وآلِ حُسَيْنٍ كَيْفَ صَبْرُكُمْ عَنَّا

بَنِى عَمِّنَا إِنَّا كَأَفْنَانِ دَوْحَةٍ فَلَا تَتْرُكُونَا يَتَّخِذْنَا الفَنَا فَنَّا
إِذَا مَا أَخٌ خَلَّى أَخَاهُ لآكِلٍ بَدَا بِأَخِيهِ الأَكْل ثُمَّ بِذَا ثَنَّى

فأتته منهم رجال النجدة، ذوو العدد والعدة.

فلما أقبلت تلك الكتيبة الناصرية كسرها وبدد شملها وقهرها، فلما بلغ ذلك الناصر العباسى والى عليه الإنعامات الكاملة وأقطعه الإقطاعات الهائلة.

وذكر ابن الأثير(١) فى سنة إحدى وستمائة: كان الحرب بين قتادة الشريف أمير مكة وبين الأمير سالم بن قاسم الحسينى أمير المدينة، ومع كل واحد منهما جمع كثير.

وفى ذلك يقول الشريف قتادة: [من الطويل]

مَصَارِعَ آلِ الُمصْطفَى عُدْتِ مثلَ ما بَدَأْتِ وَلَكِنْ صِرْتِ بَيْنَ الأَقَارِبِ

فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وكان الحرب بذى الحليفة.

وقد كان قتادة قصد المدينة ليحصرها ويأخذها فحصرها مدة معلومة، فلقيه سالم بعد أن قصد الحجرة الشريفة وصلى عندها، ودعا وسار إلى قتال قتادة، فانهزم قتادة وتبعه سالم إلى مكة، وحصرها وأرسل إلى قتادة يقول بعد أن حصرها المدة المعلومة: حصر بحصر يا ابن عم. فأرسل قتادة إلى من مع سالم فأفسدهم عليه فمالوا معه، فلما علم بذلك سالم رحل عنه عائدًا إلى المدينة.

ثم إن قتادة خرج لحرب ثقيف فتحصنوا بحصونهم فلم يقدر عليهم، فآمنهم وحلف، فحضروا عنده فقتل منهم طائفة من أكابرهم، واستخلف على بلادهم نوابًا من عنده، وعضدهم بعبيد له، فلم يبق لأهل الطائف معهم كلمة ولا حرمة، فعند ذلك اجتمع أهل الطائف ودفنوا سيوفهم فى الرمل - وذلك فى المجالس التى جرت عادتهم بالجلوس فيها مع أصحاب قتادة - واستدعوا أصحاب قتادة وأوهموهم أن ذلك بسبب كتاب ورد عليهم، فلما اجتمعوا أخرجوا سيوفهم وقتلوا أصحاب قتادة عن آخرهم، ولم يسلم منهم إلا واحد وصل إلى قتادة وهو واله العقل لما شاهد من الهول، وكان ذلك فى سنة ثلاث عشرة وستمائة.

وذكر الميورقى: أن فى هذه الواقعة فقد كتاب رسول الله ﷺ لأهل الطائف لما

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير (١٢/ ٢٠٥).

نهب جيش قتادة البلاد.

وذكر أبو شامة فى أخبار سنة تسع وستمائة قال: فيها قتل قتادة صاحب مكة إمام الحنفية وإمام الشافعية ونهب اليمنيين.

وذكر أيضًا فى سنة ثمان وستمائة نهبه الحاج العراقى وكان أمير الركب علاء الدين محمد بن ياقوت نيابة عن أبيه ومعه ابن أبى فراس يدبره.

وحج من الشام الصمصام إسماعيل، وكانت ربيعة خاتون أخت العادل بن أيوب فى الحج، فلما كان يوم النحر بعد رمى الجمرة وثب بعض الإسماعيلية على رجل شريف من بنى عم قتادة أشبه الناس به وظنه إياه فقتله عند الجمرة، ويقال: إن الذى قتله كان مع أم جلال الدين، فثار عبيد مكة عند ذلك والأشراف، وصعدوا على الجبلين بمنى، وهللوا وكبروا وضربوا الناس بالحجارة والمقاليع والنشاب، ونهبوا الناس يوم العيد والليلة واليوم الثانى، وقتل من الفريقين جماعة، فقال ابن أبى فراس لمحمد بن ياقوت: ارحل بنا إلى الزاهر إلى منزلة الشاميين، فلما حصلت الأثقال على الجمال حمل قتادة والعبيد، فأخذوا الجميع إلا القاتل، وقال قتادة: ما كان المقصود إلا أنا، والله لا أبقيت من حاج العراق أحدًا، وكانت ربيعة خاتون بالزاهر ومعها ابن السلاخور سياروج وحاج الشام، فجاء محمد بن ياقوت أمير الحاج العراقى فدخل خيمة ربيعة خاتون مستجيرًا بها ومعه أم جلال الدين، فبعث قتادة يطلبه، فبعثت خاتون مع ابن السلاخور إلى قتادة تقول له: ما ذنب المسلمين؟ قد قتلت القاتل وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين، واستحللت الدماء فى الشهر الحرام فى الحرم، وقد عرفت من أنا، والله لئن لم تنته لأفعلن وأفعلن.

فجاء ابن السلاخور إلى قتادة فأخبره وخوفه عاقبة ما يروم وقال: إن فعلت غير ما فعلت قصدك الخليفة من بغداد ونحن من الشام، فكف عنهم، وطلب مائة ألف دينار فجمعوا له ثلاثين ألفًا من أمير [الركب] العراقى ومن خاتون أم جلال الدين، وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون بين جريح وقتيل ومسلوب وجائع وعريان، ويقال: إن قتادة أخذ من المتاع ما قيمته ألف ألف دينار، وأذن للناس فى الدخول إلى مكة، فدخل الأصحاء الأقوياء وطافوا، ومعظم الناس ما دخل مكة، ورحلوا إلى المدينة، ثم إنهم دخلوا إلى بغداد على غاية الفقر والذل والهوان.

وفى سنة تسع وستمائة: وصل من قبل الخليفة الناصر العباسى إلى قتادة مع الركب العراقى مَالٌ وخلعة وكسوة ولم يظهر له الخليفة إنكارًا على ما تقدم من نهب الحاج، وجعل أمير الحاج يتدرجه، ويخدعه بأنه لم يصح عند الديوان العزيز إلا أن الشرفاء وأتباعهم نهبوا أطراف الحاج ولولا تلافيك لهلكوا، وقال له: يقول لك مولانا الوزير: وليس كمال الخدمة الإمامية إلا بتقبيل العتبة، ولا عز الدنيا والآخرة إلا بنيل هذه الرتبة. فقال الشريف قتادة: سأنظر فى ذلك ثم تسمع الجواب. واجتمع ببنى عمه الأشراف وعرفهم أن ذلك استدراج لهم وله حتى يتمكن من الجميع. ثم قال لهم: يا بنى الزهراء، عزكم إلى آخر الدهر مجاورة هذه البنية والاجتماع فى بطائحها، فلا يرغبونكم بالأموال والعدة والعدد، وقد عصمكم الله وعصم أرضكم بانقطاعها وإنها لا تبلغ إلا بشق الأنفس. ثم عاد أبو عزيز قتادة إلى أمير الركب العراقى وقال له: اسمع الجواب. ثم أنشده الأبيات المتقدمة، فقال له أمير الركب الشريف: يا شريف، حاشا الله أن أحمل مثل هذه الأبيات منك، وأنت ابن بنت رسول الله ﷺ والخليفة ابن عمك، وأنا مملوك تركى لا أعلم من الأمور التى فى الكتب ما علمتَ، ولكنى قد رأيت أن هذا من سرف العرب الذين يسكنون البوادى، وترغاب قطاع الطريق، والله لا حملت هذه الأبيات عنك فأكون قد جنيت على بيت الله وبنى بنت نبيه، ووالله لو وصل إليه ما ذكرت لجعل سائر الوجوه إليك، ولكن لى رأى أعرضه عليك، فأصغى إليه أبو عزيز وعلم أنه رجل عاقل، قال: الرأى أن ترسل أحد أولادك من لا تهتم له إن جرى عليه ما تتوقعه، ومعاذ الله أن يجرى عليه إلا ما تحبه، وترسل معه جماعة من ذوى الأسنان والهيئات، فيدخلوا مدينة السلام وفى أيديهم أكفانهم منشورة، وسيوفهم مسلولة، ويقبلون العتبة، ويتوسلون بالنبى ﷺ، وبصفح أمير المؤمنين، وسترى ما يكون من الخير لك وللناس. قال: فشكره قتادة ووجه صحبته ولده راجح بن قتادة، وأشياخ الشرفاء، ودخلوا بغداد على تلك الهيئة التى ذكرها، وهم يضجون ويتضرعون ويبكون، والناس يبكون لبكائهم، فاجتمع الخلق كأنه المحشر، ومالوا إلى باب النوبة من أبواب مدينة الخليفة، فقبلوا هنالك العتبة.

وبلغ الخبر الناصر العباسى فعفا عنهم وعن مرسلهم، وأنزلوهم فى الديار

الواسعة، وأكرموا الكرامة التى ظهرت، واشتهرت وعادوا إلى أبى عزيز بما أحب، فكان بعد ذلك يقول: لعن الله أول رأى عند الغضب، ولا عدمنا عاقلاً ناصحًا يثبتنا عنده.

قال المنذرى فى « التكملة »[(١)]: كان قتادة المذكور مهيبًا وقورًا قوى النفس شجاعًا مقدامًا فاضلاً له شعر، تولى إمرة مكة، رأيته بها يطوف بالبيت، ويدعو بتضرع وخشوع، والريس على زمزم يدعو له وهو كالأسد شجاعة والقطب خشوعًا وتضرعًا والبدر كمالاً وبهاء.

وكان مولده بوادى ينبع وبه نشأ. وكانت مملكته قد اتسعت من حدود اليمن إلى خلف مدينة النبى ﷺ، وكثر عسكره واستكثر من المماليك، وخافته العرب فى تلك البلاد خوفًا عظيمًا، وسار فى مكة سيرة حسنة، وأزال عنها العبيد المفسدين، وحمى البلاد وأحسن إلى الحجاج وأكرمهم وبقى كذلك مدة، ثم أساء السيرة وجدد المكوس وفعل أفعالاً شنيعة، ونهب الحجاج، وكان يخطب للناصر أحمد العباسى ابن المستضىء، ثم يخطب لنفسه بالأمير المنصور، ودام ملكه نحو سبع وعشرين سنة.

وكان وراثته الملك عن مكثر بن عيسى الذى ورثه من آبائه الهواشم، ولم يكن أبو عزيز من الهواشم إلا من جهة النساء.

ثم زاد ظلم قتادة فى الناس وأذاه للحجاج من العراقيين وغيرهم، وأظهر التعدى حتى ضج الناس وفسدت نيته على الخليفة الناصر العباسى، فارتفعت الأيدى بالدعاء عليه، فقتله الله على يد ابنه حسن بن قتادة.

وكان قتله فى جمادى الأولى، هكذا ذكره أبو شامة فى سنة ٦١٧سبع عشرة وستمائة.

وقال المنذرى[(٢)]: بل فى جمادى الأخرى من سنة ٦١٨، ثم استقر بعده فى ملك مكة ابنه حسن بن قتادة. قيل قتله خنقًا.

وسبب قتله: أن قتادة جمع جموعًا وسار من مكة يريد المدينة الشريفة فنزل

---

(١) ينظر: التكملة لوفيات النقلة للمنذرى (٣/١٧) ت (١٧٤٩).
(٢) ينظر: تكملة المنذرى (٢/١٨٦).

بوادى الفرع، وهو مريض وبعث أخاه على الجيش ومعه ابنه حسن هذا، فلما بعد وأبلغ حسن أن عمه قال لبعض الجند: إن أخى قتادة مريض وهو ميت لا محالة، وطلب منهم أن يحلفوا له ليكون هو الأمير بعده.

فلما بلغ الحسن ذلك أرسل إلى عمه من خنقه وخرج للناس فى الحرم، وطلب الأشراف ووجوه الناس، وقال لهم: إن أبى اشتد به المرض وأنا أحب أن تبايعونى،فبايعوه وحلفوا له، فأحضر تابوتًا مغطى وقال: هذا أبى مات. وكان قد دفنه ليلاً.

فلما استقرت الإمارة لحسن، وثبتت قدمه أرسل إلى أخيه، وكان بينبع وطلبه ولم يخبره بحال أبيه، فلما وصل إليه قتله، وكان له أخ اسمه راجح كانت بينهما مباينة أقام فى الأعراب هاربًا بظاهر مكة حتى كان من أمره مع آق باش أمير الركب العراقى ما كان كما سيأتى قريبًا.

ولما بلغ قتادة قتل حسن لعمه قامت قيامته وحلف ليقتلن حسنًا، فبلغ ذلك حسنًا، فدخل على أبيه بعد عوده من المدينة، فبالغ قتادة فى ذمه وتهديده، فوثب إليه حسن، واستعان بغلام وجارية كانا يخدمان أباه فأمسكا يديه، فقتله خنقًا ثم قتلهما ليخفى سبب قتله، وقيل بل قتله سمًا. فهذا سبب قتل حسن أباه قتادة.

وكانت وفاته كما تقدم فى جمادى الآخرة عام ٦١٧ سبع عشرة وستمائة أو ثمان عشرة، والأول هو الذى رأيته أكثر.

وكان قتادة يقول: أنا أحق من الناصر العباسى بالخلافة، وكان فى زمنه فى المسجد يؤذن بحى على خير العمل، ومدة عمره نحو سبعين سنة.

ومدة ولايته من سنة ٥٩٩ تسع وتسعين وخمسمائة إلى سنة ٦١٧ سبع عشرة وستمائة.

ولما وصل الملك المنصور صاحب اليمن أمر بنبش قبر قتادة وإحراقه لما فعل من نهب اليمنيين، فوجدوا فى القبر تابوتًا ليس فيه شيء، فعرف الناس بذلك أن حسن قتل أباه ودفن التابوت فى قبر آخر ليخفى قبره على الناس.

وكان لقتادة من الولد راجح وهو الأكبر الذى فر إلى الأعراب بظاهر مكة كما تقدم، وحسن وعلى الأكبر جد الأشراف المعروفين بذوى على، وعلى الأصغر جد

أبى نمى جد الأشراف الذين كانوا ولاة خليص، وهم الآن ولاة مكة، ألا ترى أن عجلان بن رميثة بن أبى نمى محمد بن أبى سعد الحسن بن على هذا الأصغر بن قتادة، ولكل من هؤلاء ذرية وأعقاب.

ومما صنع الشريف قتادة أن أدار على مكة سورًا من أعلاها؛ ليحفظها عمن يريدها بسوء.

ثم وليها الشريف حسن بن قتادة عام سبع عشرة وستمائة، ووقع فيها قتال بينه وبين آق باش أمير الركب العراقى، وهو مملوك تركى للناصر العباسى عقد له الولاية على مكة وعلى كل بلد يدخلها، ومعنى آق باش: أبيض الرأس.

وسبب القتال أنه لما ورد آق باش المذكور أميرًا، تعرض راجح لقطع الطريق بين مكة وعرفة، فأمسكه الأمير المذكور، فأرسل أخوه حسن إلى الأمير موعدًا له بمال جزيل أن يسلم إليه أخاه راجحًا، فبلغ ذلك راجحًا، فقال للأمير: أنا أعطيك أضعاف ما وعدك فأعنى على ولاية مكة، فوعده بذلك، فأرادا جميعًا دخول مكة فمنعهما حسن ووقع الحرب، فصعد آق باش على جبل عرفة بما عنده من المنعة، فأحدقت به أعراب الشريف حسن فقتل، وعلق رأسه فى ميزاب الكعبة، وقيل: رفع على رأس رمح بالمسعى، وأرسل يعتذر إلى دار الخلافة، كذا فى «عمدة الطالب».

وفى موسم تسعة عشرة وستمائة وليها الملك المسعود يوسف من بنى أيوب، وصل إليها وكان قد تفرق عن حسن والأشراف، لشحه ولم يبق عنده إلا جماعة من عشيرته.

وجاء مع صاحب اليمن المذكور أخو الشريف حسن الشريف راجح بن قتادة فتقاتلا بالمسعى، فانكسر حسن وفارق مكة فنهبها الملك المسعود، وراجح حتى سلبوا الناس أشياء من على أجسادهم، وولى الملك المسعود راجح بن قتادة حليا ونصف المخلاف، وأمر المسعود بنبش قبر قتادة فلم يجدوا إلا التابوت كما تقدم ذكر ذلك، وعمل المسعود فى مكة من المنكرات ما لم يُرَ.

منها: أنه يطلع على قبة زمزم، ويرمى الحمام بالبندق، ويجلس عبيده بالمسعى فيضربون أرجل الناس بالسيوف يقولون: إن السلطان سكران نائم، امشوا قليلاً قليلاً لئلا توقظوه. كانت داره على المسعى تسمى دار السلطنة، وكانت تسمى دار القوارير.

قلت: عثرت فى بعض التواريخ أن محلها كان محل المدرسة القايتبائية الآن. انتهى.

ثم خرج من مكة واستناب عليها نور الدين على بن رسول الغسانى الملقب بالملك المظفر ورتب معه ثلاثمائة فارس، وولى راجحًا حليًا وأعمالها.

ثم وصل حسن بجيش عظيم من الينبع إلى مكة سنة عشرين وستمائة فخرج إليه أميرها على بن رسول المذكور، فكسره على بن رسول، فتوجه إلى الشام فلم ير بها وجها ولم يفلح بعد قتل والده وعمه، وقد دعا عليه أبوه قتادة فى قصة اتفقت له نقلها الزنجانى وزير أبيه الشريف قتادة هى: أنه كان الشريف قتادة بالحرم الشريف مع الأشراف فهجم عليه ولد لولده حسن وترامى فى حجره مستجيرًا، وإذا بوالده حسن يشتد فى إِثره حتى ألقى يده فى شعره وجذب الصبى من حجر جده. فاغتاظ الشريف قتادة، وقال الحسن: هكذا ربيتك، ولهذا ادخرتك؟ فقال حسن: ذاك الإخلال أوجب هذا الإدلال.

فقال الشريف قتادة: ليس هذا بإدلال ولكنه إذلال، وانصرف حسن بولده ففعل فيه ما اقتضاه عقله، فالتفت الشريف قتادة إلى الأشراف، وقال لهم: والله لا أفلح هذا، فلم يمر به إلا زمن يسير حتى قتل أباه وذاق عقوبة العقوق والقطيعة، ثم توجه إلى العراق، فلم ير بها وجهًا، بل أرادوا قتله بسبب قتله آق باش الناصرى مملوك الخليفة الناصر العباسى فى الواقعة التى جرت فى أيامه بمكة زمن الحج، فخرج منها خائفًا، ولم يزل طريدًا شريدًا خائفًا إلى أن وصل بغداد، فأدركه أجله فى الجانب الغربى على دكة، فلما علم به غُسِّل وصُلِّى عليه، وحمل فدفن فى مشهد موسى الكاظم سامحه الله تعالى، هذا حاصل ما ذكره المؤرخون فى مصنفاتهم مفرقًا غير مجتمع فى كتاب ولا مستوفى، جمعت ما ذكروه، وسقته مجتمعًا كل حديث فى محله، وكل فرع إلى أصله، وكل نوع إلى جنسه وشكله. وهذا شأنى فى ترجمة كل واحد من هؤلاء السادة الأعلام، أذكرها كافلة للمرام، بعون الملك العلام.

على أنى لا أخلو من قول جاهل خامد، أو فاضل حاسد، أو مبغض جاحد: هل زاد على الجمع؟ وما درى أنه تفطير للفؤاد تقطير للدمع، إذ تتبع ذلك من مظانه المتفرقات، وضم شمل القصة وسبكها فى ألطف قالب من العبارات، يعرف قدره

من أشرق فى أفق الفضل وما غاض بدر تمه، ولا يجحد حقه إلا كل عاض بظر أمه.

على أن لى فيه فلتوتات، كأنها ياقوتات، ينظرها بنور العدل والإنصاف، زاكى السريرة ذاتًا وسمى، ويتخوَّنها من عم بصره وبصيرته عمه وعمى.

لكن الأعمال بمقاصدها، والله عالم بصحيح النية من فاسدها.

ولم تزل مكة فى ولاية الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، ونائبه عليها نور الدين على بن رسول إلى سنة خمس وعشرين وستمائة، فتوفى الملك المسعود بعد أن فلج ويبست يداه ورجلاه، ورأى فى نفسه العبر، نعوذ بالله من سوء قضاه.

وفيها وصل إلى مكة جيش من صاحب مصر وعلى الجيش طغتكين ومعه مائتا فارس، ففر منها نائبها نور الدين على بن رسول نائب الملك المسعود، وأنفق طغتكين على أهل مكة نفقة جيدة، وحلفهم، وتوثق منهم.

فلما كان سنة سبع وعشرين وستمائة وصل إلى مكة جيش صاحب اليمن على بن رسول الغسانى وصحبته السيد راجح بن قتادة، فنزلوا بالأبطح وحصروا مكة، وأرسل الشريف راجح إلى أهل مكة يذكرهم إحسان السلطان نور الدين أيام نيابته بمكة عن الملك المسعود، فمال رؤساء مكة إليه، فلما أحس بذلك الأمير طغتكين خاف على نفسه فخرج خائفًا وقصد وادى نخلة، فدخل راجح ومن معه.

فوليها الشريف راجح بن قتادة وكان أمير الجيش يسمى ابن عبدان، فدخل إلى مكة واستولى عليها وخطب للملك المنصور ابن الملك المسعود.

وتوجه طغتكين إلى ينبع وكان بها رتبة للكامل صاحب مصر الأيوبى، فأقام هناك، وعرف الكامل بالخبر، فجهز جيشًا كبيرًا من مصر، وأمر صاحب الينبع، وصاحب المدينة أن يخرجا مع ذلك الجيش إذا وصل إليهما، ففعلا، ووصلوا إلى مكة جميعًا فى رمضان، وحاصروا راجحًا وابن عبدان وقاتلوهما فانكسروا، واستولى على مكة أميرها الأول طغتكين، فقتل من أهل مكة خلقًا كثيرًا وأنهبت ثلاثة أيام وأظهر حقده عليهم، وأخافهم خوفًا شديدًا.

وفى سنة ثلاثين وستمائة جمع الشريف راجح جموعًا عظيمة، وأمده الملك المنصور صاحب اليمن بعساكر، فقدم مكة، وطرد طغتكين وعسكر الملك الكامل

صاحب مصر، فلما علم بذلك الكامل جهز عسكرًا فى شوال سبعمائة فارس، فلما أن وصل الحاج واتضح أمر العسكر خرج الشريف راجح من مكة فدخلها العسكر المصرى من غير محاربة وطيبوا قلوب أهلها وعدلوا فيهم وأحسنوا، وحج بالناس أمير يسمى الزاهد، وترك فى مكة أميرًا يقال له ابن مجلى فى خمسين فارسًا أقام بمكة فعدل وأحسن السيرة.

وفى سنة إحدى وثلاثين: جهز الملك المنصور صاحب اليمن إلى السيد راجح عسكرًا جرارًا، وخزانة عظيمة، فنهض راجح ومن معه من العسكر، ودخلوا مكة، وأخرجوا ابن مجلى ومن معه، فلما أن وصل الحاج سمع الشريف راجح أن الملك الكامل حاج على النجب لوعد بينه وبين الخليفة العباسى، فخرج راجح من مكة فتغير عليه خاطر الملك المنصور، فلما رجع الملك الكامل عاد راجح إلى مكة وكان بها غلاء عظيم، سموه غلاء ابن مجلى.

وفى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة: وصل من صاحب مصر عسكر ألف فارس، فخرج الشريف راجح إلى اليمن، فجهزه الملك المنصور بخزانة وعسكر أيضًا، وأرسل قناديل ذهب وفضة لتعلق فى جوف الكعبة فلم يقدر راجح ومن معه لمقاومة العسكر المصرى فلم يدخل، فلما سمع بهم العسكر المصرى خرجوا إليهم من مكة، فالتقوا بمحل يقال له الخلف والخليف، فانهزمت الأعراب أصحاب راجح، وأسر أمير عسكره ابن عبدان فقيد، وأرسل به إلى مصر.

وفى سنة خمس وثلاثين وستمائة خرج السلطان نور الدين على بن رسول من اليمن قاصدًا مكة فى ألف فارس، وأرسل للجند الذين بمكة أن كل من جاء إليه يعطيه ألف دينار وحصانا وكسوة، فمال إليه كثير من الجند، وآثروه على مولاهم، ووفى لهم بما وعدهم، وأرسل إلى الشريف راجح، فتلقاه من أثناء الطريق، فقدمه صحبة ثلاثمائة فارس من أهل النجدة من عسكره، وأعطاه النقارات والكئوسات، وتقدم إلى مكة.

فلما تحققت عساكر مصر وصول السلطان أحرقوا ما كان عندهم من الأثقال والأقوات، وخرجوا من مكة، فأرسل الشريف راجح يبشر السلطان نور الدين بما وقع، فأحرم بعمرة ودخل مكة فى رجب، وتصدق على أهل مكة بأموال جزيلة.

وفى ذلك العام مات الكامل صاحب مصر، فخطبوا للملك المنصور ابن الملك المسعود صاحب اليمن.

وفى سنة سبع وثلاثين وستمائة: أرسل صاحب مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل إلى مكة ألف فارس عليهم الشريف شيحة بن قاسم الحسينى أمير المدينة الشريفة، فلما سمع بهم راجح ومن معه من عساكر الملك المنصور، فروا إلى اليمن وأخلوا مكة، فدخلها شيحة وملكها ونهبها، فلما بلغ ذلك المنصور صاحب اليمن جهز السيد راجحًا بعسكر معه إلى مكة، فلما أحس بهم الحسينى فر هاربًا من مكة وأخلاها.

وفى موسم سنة تسع وثلاثين وستمائة دخل من صاحب مصر عسكر إلى مكة، فلما بلغ صاحب اليمن تجهز، وخرج إلى مكة بجيش كثيف، فهرب المصريون، وأحرقوا دار السلطنة بمكة، فدخل السلطان نور الدين على بن رسول الغسانى، وصام رمضان، وأقام بها وأبطل المكوس والجبايات والمظالم، وكتب ذلك فى رخامة مربعة جعلت قبالة الحجر الأسود فى حائط زمزم، وأرسل يطلب أبا سعيد الحسن بن على بن قتادة من ينبع، فلما أتاه أكرمه وأنعم عليه، فاستخدمه على مكة، واشترى منه قلعة الينبع وأمر بخرابها لأجل أهل مصر، وأبقى عنده مملوكه ابن فيروز، والأمير فخر الدين بن السلاح، فأقام ابن السلاح أميرًا سبع سنين، فولى بعده الأمير ابن المسيب سنة خمس وأربعين.

وفى سنة ست وأربعين وستمائة ولى مكة الشريف أبو سعد الحسن بن على بن قتادة، وذلك أن الملك المنصور قبل ذلك لما دخل مكة أقام أبا سعد هذا بوادى مر ليساعد عسكره الذين أقاموا بمكة، فحسن مشايخ العرب من زبيد وغيرهم لأبى سعد الحسن بن على بن قتادة أخذ مكة والاستيلاء عليها، والفتك بمن فيها من العسكر اليمنى، وهونوا عليه أمرهم، وكانوا فرقتين، فرقة تخرج إلى أعلى المعلاة، والفرقة الأخرى تخرج إلى أسفلها هكذا كل يوم. فحمل أبو سعد على إحدى الفرقتين، فكسرها فضعفت الأخرى، فقبض على ابن المسيب وأخذ خيله وعدده ومماليكه، واستولى على مكة، وأحضر الأعيان من أهلها، وقال: ما لزمته إلا لتحققى خلافه ونيته الخروج على الملك المنصور صاحب اليمن، والذهاب بهذا المال إلى

العراق، والمال عندى محفوظ إلى أن يصل مرسوم السلطان فأسلمه إليه، فوردت الأخبار بعد أيام يسيرة بموت الملك المنصور على بن رسول، فقوى أمر أبى سعد الحسن بن على بن قتادة المذكور، فخرج الشريف راجح من مكة لما رأى أن ابن أخيه أبا سعد الحسن المذكور استولى عليها، وسكن المحل المعروف بالواديين.

وكان الشريف الحسن هذا شجاعًا جلدًا كريم الأخلاق شديد الحياء، جمع الشجاعة والكرم والعلم والعمل، وكانت أمه حبشية، ووقع له معها أنه حارب بعض العرب، فلما تراءى الجمعان، جاءته فى هودجها فقالت له: اعلم أنك وقفت فى موقف إن ظفرت أو قتلت قالت الناس: ظفر ابن رسول الله أو قتل ابن رسول الله، وإن هربت قالوا: هرب ابن السوداء، فانظر أى الأمرين تحب أن يقال. فقال لها: جزاك الله خيرًا لقد نصحت فأبلغت، ورجع فقاتل حتى ظفر، فقال الناس كما قالت. ودامت ولايته على الحجاز نحو أربع سنين وأشهر إلى أن قتله ابن عمه جماز ابن حسن بن قتادة لثلاث خلون من شعبان سنة إحدى وخمسين وستمائة، وقيل فى شهر رمضان، وقيل: فى شوال.

وأبو سعد هذا هو والد عبد الكريم جد الأشراف ذوى عبد الكريم ووالد أبى نمى صاحب مكة الآتى ذكره.

كان الشريف أبو سعد هذا فاضل الأخلاق، طيب الأعراق شديد الحياء، جمع الشجاعة والكرم والعلم والعمل، له الشعر الرائق والنثر الفائق، فمن شعره القصيدة المشهورة: [من المتقارب]

خُذُوا قَوَدِى مِنْ أسيرِ الكللْ ... ...

نسبها العلامة الفاسى إليه.

والمشهور أنها لابن مطروح والشهرة تساعده.

قال: إلا أن فى القصيدة أبياتًا ترجح أنها لأبى سعد لأن إنشاءها إنما يليق بالملوك، منها قوله فيها: [من المتقارب]

وإنْ قِيلَ إنِّى غَدًا مَيِّتٌ ... بِأَيْدِى الصَّبَابَةِ ظُلْمًا فَهَلْ
تَمُوتُ نفوسٌ بِآجَالِها ... وَنَفِسى تَمُوتُ بِغَيْرِ الأَجَلْ
فَلَيْتَ إذَا مَا أَتَانِى الحِمَامُ ... يُؤَخِّرُ عَنِّى الإلَهُ الأَجَلْ

لأنى غيُوثٌ إذَا الغَيْثُ مَلّ   ويَوْمَ الكِفَاحِ أُرَوِّى الأَسَلْ

فيحتمل ويحتمل والله أعلم.

قلت: الاستدلال على أنها لأبى سعد بأن فيها أبياتًا لا يليق إنشاؤها إلا بالملوك استدلال لا ينهض، إذ كل كريم شجاع يسوغ له أن يتمدح ويقول عن نفسه ذلك، بل صناعة الشعر ومبالغاته تسوغ للشاعر القول، وإن لم يتصف بإنالة نائل ولا طول طائل.

ثم وليها جماز بن حسن بن قتادة فى رمضان من السنة المذكورة.

وذلك أنه لما كانت سنة إحدى وخمسين وستمائة، قدم الشريف جماز هذا بعسكر من عند الناصر بن العزيز بن الظاهر بيبرس، ووعده أن يخطب له بمكة، فأمده بعسكر صحبة الركب الشامى، فتقدم أمام الركب ودخل مكة فى رمضان من السنة المذكورة، واستولى على مكة وقتل ابن عمه أبا سعد الحسن بن على بن قتادة وحج بالناس، ثم نقض عهد الناصر، ولم يخطب له، وخطب للملك المظفر بن المنصور بن المسعود صاحب اليمن، فلما كان آخر يوم من ذى الحجة من السنة المذكورة قدم عمه راجح بن قتادة ففر منه جماز بلا قتال إلى ينبع.

ثم وليها راجح بن قتادة وكان بمكة غلاء عظيم، وعطش بيعت شربة الماء بدرهم والشاة بأربعين درهما، واستمر إلى سنة اثنتين وخمسين وستمائة، فلما كان شهر ربيع الأول منها هجم عليه ابنه غانم بن راجح، وأخرجه من مكة بلا قتال.

فوليها غانم بن راجح فى شهر ربيع الأول، واستمر إلى شهر شوال من السنة المذكورة.

ثم وليها أبو نميّ بن أبى سعد بن قتادة، وعمه إدريس بن حسن بن قتادة، وأخرج غانم بن راجح منها.

وأبو نمى هذا: هو والد أبى سعد الحسن المذكور، وذلك أنه فى شوال آخر السنة المذكورة أعنى سنة اثنتين وخمسين وستمائة قبل وصول الحج إلى مكة قدم الشريف أبو نمى، وعمه إدريس وأخذا مكة من غانم بن راجح بعد قتال شديد قتل فيه من الأشراف ثلاثة.

فلما كان أول الحجة وصل من جانب الملك المظفر صاحب اليمن عسكر عليه

أمير ابن برطاش فبرز له الأشراف أبو نمى وإدريس ومن معهما إلى خارج مكة، وتقاتلوا بالسرحة من قوز المكاسة، وكان معهم الشريف جماز بن شيحة، فقتل بين الصفين خلق كثير، وانهزم الأشراف، ودخل مكة عسكر الملك المظفر.

وفى عام ثلاث وخمسين وستمائة جمع الشريف أبو نمى محمد بن أبى سعد الحسن بن على بن قتادة، وعمه الشريف حسن بن قتادة جمعًا عظيمًا، وقصدوا مكة فدخلوها من رءوس الجبال، وتقاتلوا وسط مكة هم وعسكر الملك المظفر صاحب اليمن فقتلوا غالب العسكر، وأسروا الأمير ابن برطاش، وسفكت الدماء بالحرم الشريف، وامتلأت البلد منهم رعبًا بحيث لم يصل فى الحرم أحد، ووقع بينهم فى أيام الحج وبين أمير الحاج العراقى فتنة درأها الله تعالى بالصلح فسلم المسلمون، وفدى نفسه ابن برطاش الأمير، ورجع من حيث جاء.

وفى سنة أربع وخمسين وستمائة: استظهر إدريس على أبى نمى بإمرة مكة ثم اشتركا. وفى موسم خمس وخمسين وستمائة لم يحج أحد من أهل الحجاز، ولم ترفع راية من رايات الملوك لأحد بمكة.

وفى سنة ست وخمسين وستمائة خرج أبو نمى إلى ثقيف، وبقى إدريس بالبلد فهجم عليه أولاد حسن بن قتادة إخوته بعد أن لزموه.

فوليها أولاد حسن بن قتادة فى غيبة أبى نمى، فلما جاء أخرجهم منها فى السنة المذكورة بغير قتال. وكانت مدتهم ستة أيام.

وفى سنة تسع وخمسين وستمائة حج الملك المظفر يوسف بن الملك المنصور صاحب اليمن معه المراكب تسايره فى البحر مشحونة بالعلوفات والأطعمة، وأكثر فى طريقه من الصدقات وفعل الخيرات والمبرات، والشريف أبو نمى، وعمه إدريس متوليين إمرة مكة، فلما سمعا به خرجا خوفًا منه، فدخلها المظفر فى عساكر كثيرة محرمًا خاشعًا حاسر الرأس حتى دخل المطاف، ثم نزل عسكره بالحجون، ولم يزل بمكة إلى أن قضى ما عليه من الوقوف بعرفة وبقية المناسك، ولم يزل مدة إقامته بمكة يصلى المغرب على قبة زمزم، وخدم البيت وغسله مع الخدام وصب عليه وكنس، وكسا البيت الشريف من داخله، ولم يكسه ملك قبله بعد الخلفاء العباسية، وقام بمصالح الحرم وأهله، ثم أقام بمكة عشرة أيام يفرق الصدقات حتى

وصلت صدقاته إلى كل منزل بمكة، ونثر على الكعبة الذهب والفضة، وعمل للكعبة بابًا وقفلاً، وودع البيت باكيًا وعاد إلى بلاده، وفى غالب سلطنته كان يخطب له بمكة.

واستمر أبو نمى وعمه إدريس متوليين إمرة مكة إلى سنة سبع وستين، ثم انفرد بها أبو نمى، وأخرج عمه إدريس منها، وخطب لصاحب مصر الملك الظاهر بيبرس البندقدارى، واشترط عليه السلطان أن لا يمنع زائرًا لا ليلاً ولا نهارًا، ولا يعترض تاجرًا بظلم، وأن تكون الخطبة والدعاء له، ولأبى نمى، وجعل له عشرة آلاف درهم فى كل سنة، فأجاب الشريف أبو نمى بقبول هذه الاشتراطات، فلما ورد إلى السلطان من أبى نمى الإجابة بالسمع والطاعة وقبول ما اشترطه كتب السلطان إليه مرسومًا بإمرة مكة منفردًا.

ففى سنة ثمان وستين: حج السلطان الملك الظاهر بيبرس على تجريدة خيل وركاب، وكان قدم له مع الحج خيلاً وحملاً ومتاعًا فى المنازل كلما أصبح فى منزل ترك الخيل الأولى وأخذ المهيئات له، فارتحل إلى أن وصل مكة ثامن ذى الحجة آخر النهار، وقد طلع الناس عرفة، ولم يبق فى مكة غير الشريف أبى نمى وعسكره، فاستنكروا ذلك وقالوا: ما يصل فى هذا الوقت إلا من قصد إدراك الحج قبل فواته أو غريب ما قدم قبل ذلك لا يعرف العادة، ورأوهم جميعهم على الخيل البلق.

فقالوا لهم: من أين أنتم، من العراق أو من الكوفة أو من العجم أو من الترك؟ فقال السلطان: قولوا له: أليس قد قلت لا يجيئنى إلا على خيل بلق فقد جئناك على البلق، ونحن محرمون، وهذا صاحب مصر معه أمراء مصر والشام وعرفوه كل أمير باسمه فإن تقتل الجميع فاقتلهم، وكان الشريف أبو نمى قد قال مثل هذا القول فى العام الماضى، فاستغفر وتقدم إلى السلطان وقال: العفو يا مولانا السلطان، ثم ركب وسعى مع السلطان، وأشهد على نفسه أن لا يمكس أحدًا من الحجاج القادمين برًا وبحرًا ويبطل الجباية والمظالم إلى أن تقوم الساعة وكتب عليه الإشهاد بذلك، فبطل ذلك وكان فى صحائف الملك الظاهر بيبرس، وتصدق السلطان بالحرم وفرق كساوى على أهله وعلق كسوة الكعبة بيده وزار مَنْ بمكة من الصالحين، وأحسن إحسانًا كثيرًا إلى الشريف أبى نمى، وكذلك لأمير المدينة، وكتب لأبى نمى وإدريس

أن يكون حالهما واحدًا فى إمرة مكة فعادا شريكين. ثم انفرد إدريس بها أربعين يومًا، ثم قتل أبو نمى عمه إدريس فى حرب كانت بينهما بخليص، وانفرد بها، وذلك أنه لما استظهر عمه إدريس عليه، وأخرجه من مكة، وانفرد بالإمرة خرج أبو نمى هاربًا من عمه إدريس من مكة، ووصل إلى ينبع، واستنجد بصاحبها وحشد، وجمع وقصد مكة بالجيش، فالتقى هو وعمه إدريس بخليص وتحاربا فطعن أبو نمى عمه فألقاه من ظهر الفرس ونزل واحتز رأسه، واستقل بالولاية منفردًا وذلك فى سنة ٦٦٩ تسع وستين وستمائة.

وله وقائع مشهورة مع ملوك مصر وغيرهم، منها أنه فى سنة ٦٨٣ ثلاث وثمانين وستمائة كانت فتنة بينه وبين واحد من أبناء أخيه لأجل ما يؤخذ من الحاج، قيل: كانوا يأخذون من حج اليمانى فى كل جمل ثلاثين درهمًا، ومن حاج مصر على كل جمل خمسين درهما، ومع هذا لا يسلمون من النهب والعسف، فلما حج الظاهر بيبرس أزاله ثم أعادوه، فأرسل الملك المظفر عسكرًا ملكوا مكة، فجمع أبو نمى عسكرًا، ودخل إلى مكة، وأخرج عسكر اليمن، وزاد على الحجاج فى الجباية، ووصله جيش من مصر، فلما وصلوا إلى قرب مكة قفل أبو نمى أبواب سور مكة، ومنعهم من الدخول، فاجتمع الحجاج فهدموه، وأحرقوا باب المعلاة ودخلوا مكة هجمًا بعد فرار أبى نمى من مكة زمن الحج، فخشى الملك من عوده فترك بها ثلاثة آلاف مع نائب من قبله فأقاموا بها، فاتفق أن ألفًا منهم خرجوا لناحية منى للتنزه فكمن لهم الشريف أبو نمى فى خيل، ورجل بمسجد الخيف، فلما عادوا قاصدين إلى مكة هجم عليهم فقصد أميرهم فقتله ثم قال: كل من قتل فارسًا فله فرسه، فعاد أكثر رجله خيالة، ثم صدقوا المحاربة والمجالدة معه،فكسروا الألف عن آخرهم، وانتصروا وغنموا خيولهم وسلاحهم وتفكك منهم أفراد فلحقوا بالباقين بمكة، وعرفوهم الحال وأن لا طاقة لكم به فهزم الجميع إلى مصر، فلما بلغ ذلك ملك مصر جهز جيشًا كثيفًا لقتال أبى نمى المذكور، ثم عزم على الوصول إلى مكة بنفسه، فأتاه أحد العلماء الصالحين، وسأله عن توجهه، فقال: إنه لقتل الشريف أبى نمى وأهله، فقال له ذلك العالم إنك حسنت العبارة، ولكن الناس يقولون إنك ذاهب إلى حرم الله تعالى، وقتل أولاد حبيبه رسول الله ﷺ، فوقع ذلك من الملك

موقعًا ورجع عن عزمه، ثم راسل الشريف أبا نمى بالمراسيل والهدايا والكلام اللين حتى زالت الوحشة بينهما وأقره على إمرة مكة.

وفى سنة تسع وثمانين وستمائة وقع بين الشريف أبى نمى وبين الحاج فتنة عند الثنية - أعنى الشبيكة - وانتهى الأمر إلى أن دخلوا الحرم، ورؤى فى الحرم الشريف أكثر من عشرة آلاف سيف، وقتل بين الفريقين فوق أربعين نفسًا، وقتل ولد السيد أحمد بن على بن قتادة وأصيب بسهم، وأما الجرحى فكثيرون، ونهبت أموال الناس.

وفى موسم إحدى وتسعين وستمائة وقعت بعرفة جفلة عظيمة، ولزم راجح بن إدريس أمير الينبع، ثم عزموا به إلى مصر وسلم الله المسلمين.

وكانت الوقفة بالثلاثاء، وتعبت الناس من قلة الماء فبيعت الراوية بأربعة دنانير، ورحل الحاج قبل وقته المعتاد، واستمر إلى أن أخرجه جماز منها.

ثم وليها جماز بن شيحة أمير المدينة وغانم بن إدريس بن حسن بن قتادة أمير الينبع المبارك، وأخرجا أبا نمى المذكور منها فى صفر من سنة ٦٩٠ تسعين وستمائة.

ثم عاد أبو نمى بعد أربعين يومًا وأخرجهما منها.

ثم وليها جماز بن شيحة بمفرده عام سبع [وتسعين] وستمائة بمعاونة أمير يقال له الحكاحكى كان بمكة من قبل الملك المنصور قلاوون صاحب مصر والشام، وخطب لجماز بمكة المشرفة، وضربت السكة باسمه فيها، وبطل ذلك بعد مدة يسيرة من السنة المذكورة، ثم عاد أبو نمى، وتفرد بها ودامت ولايته عليها إلى أن مات عام إحدى وسبعمائة، فقبل موته بيومين ولى ولديه حميضة ورميثة أمر مكة كما سيأتى.

ولنذكر طرفًا من محامده فنقول: ولى أبو نمى محمد هذا مكة نحو خمسين سنة مشاركًا لأبيه وعمه ومنفردًا، أما مشاركته لأبيه فكانت أيام صباه وسنه سبع عشرة سنة وكان يكنى أبا مهدى، ويلقب بنجم الدين، وسبب مشاركته لأبيه أبى سعد الحسن ابن على بن قتادة أن راجحًا بن قتادة عم والده أبى سعد استنجد أخواله بنى حسين بالمدينة وطلب منهم الإعانة على إخراج ابن أخيه أبى سعد الحسن بن على المذكور والد أبى نمى المذكور من مكة وأخذها منه، فسار معه من المدينة سبعمائة فارس من

بنى حسين وجماعتهم وعليهم الأمير عيسى الملقب بالحرون فارس بنى حسين فى زمانه، وكان أبو نمى فى الينبع، فلما بلغه خبر راجح وخروجه ببنى حسين معه من المدينة إلى قتال أبيه، وإخراجه من مكة قصد مكة لنصرة أبيه فى أربعين فارسًا، فصادف راجحًا وعيسى وجماعتهم سائرين إلى مكة ليس لهم خبر، فلما تراءى الجمعان حمل أبو نمى عليهم فما حملوه لحظة حتى ولوا هاربين إلى المدينة، وانتشرت عمامة عيسى الحرون، وذهب يجرها خلفه، فقال السيد جعفر الحسينى النسابة - وهو لسان بنى حسن بالعراق - قصيدة يذكر فيها الواقعة، ويمدح أبا نمى محمد بن أبى سعد المذكور، منها: [من الوافر]

أَلَمْ يَبْلُغْكَ شَأْنُ بَنِى حُسَيْنٍ ... وَفَرْهِمُ وَمَا فَعَلَ الحَرُونُ
فَيَا لله فِعْلُ أبى نُمَيٍّ ... وبعضُ البَأْسِ يُشْبِهُهُ الجُنُونُ
يَصُولُ بِأَرْبَعِينَ عَلَى مِئَاتٍ ... وَكَمْ مِنْ كَثْرَةٍ ظَلَّتْ تَهُونُ

وكان إذ ذاك عمره سبع عشرة سنة، ثم دخل مكة مسرورًا منصورًا، فقابله أبوه بالإعزاز والإكرام، وأشركه معه فى الملك من حينئذ، ثم شاركه عمه إدريس إلى آخر ما تقدم. وكانت له شجاعة مشهورة، وخصال حميدة مذكورة. قال ولده حميضة: كانت لأبى خمس خصال: العز والكرم والحلم والشجاعة والشعر.

من شعره مدحًا فى المنصور لاجين ملك مصر لما تسلطن بعد كتبغا سنة ست وتسعين وستمائة وأرسل بها إليه، وهى: [من الطويل]

أَمَا وتعادى المُقْرَبَاتِ الشَّوَازِبِ ... بفُرْسَانها فى ضِيقِ ضَنْكِ المَقَانِبِ
وبِالجَحْفَلِ الجَرَّارِ أَفْرَطَ جَمْعُهُ ... كَأَسْرَابِ كُدْرِى [أو] سَوَارِ قَوَارِبِ
وبِالزَّرَدِ الموضونِ ضمَّتْ غُضُونُهُ ... عَلَى كلِّ مَاضِى العَزْمِ حَتْفِ المحَارِبِ
وبالبَيْضِ والبِيضِ الرِّقَاقِ أَلِيَّة ... لِنَشْرِ عِدَاتِى حَلْفَةَ غَيْرِ كاذبِ
لقد نُصِرَ الإسلامُ بالمَلِكِ الذِي ... رقَى فى سَمَاءِ المجد أَعْلَى المراتبِ
حُسَامُ الهدَى والدينِ مَنْصُورُ الذِي ... تَرَعْرَعَ مِنْ شُمِّ المُلُوكِ الشَّنَاخِبِ
ملوكُ جِهَاتِ الأَرْضِ تَعْنُو لِقَهْرِه ... فَمَرْهُوبُهَا مِنْ سَيْفِهِ أيّ رَاهِبِ
تَفَرَّدَ بالْملكِ العَظِيمِ فَلَمْ يَزَلْ ... لَهُ خَاضِعًا صِيدُ الملوكِ الأغالِبِ
مضَى كتبُغا خَوْفَ الحِمَام وقد أَتَتْ ... إليه أُسُودُ الخَيْلِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وأَحْيَيْتَهُ بالعَفْوِ مِنكَ وزِدْتَهُ لِبَاسَ أَمَانٍ مِنْ عِقَابِ العَوَاقِبِ
وأَحَرزْتَ مُلْكَ الأرضِ بالسَّيْفِ عَنْوَةً وَعبدتَّ مَنْ فى شَرْقِها والمغَاربِ
تَوَلَّيْتَ هَذَا الأَمْرَ فى خَيْرِ طَالِعٍ لِأَسْعَدِ نَجْمٍ للسَّعَادةِ ثَاقِبِ

قلت: والله إنها لقصيدة فصيحة، فى اللفظ والمعنى صحيحة. وما أحسن بيتها الثانى، وتشبيهه البديع المعانى.

وكانت وفاته بمكة المشرفة رابع شهر صفر سنة إحدى وسبعمائة بتقديم السين وقد أناف على السبعين.

ووقعت له كرامة بعد موته ذكرها العلامة تقى الدين الفاسى قال: لما مات أبو نمى محمد بن أبى الحسن بن على بن قتادة امتنع الشيخ عفيف الدين الدلاصى من الصلاة عليه، فرأى فى منامه تلك الليلة السيدة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ وعلى أبيها وعليها وذويها بالمسجد الحرام والناس يسلمون عليها، فجاء الشيخ ليسلم عليها فأعرضت عنه ثلاث مرات ثم إنه تحامل وسألها عن سبب إعراضها عنه، فقالت: يموت ولدى ولم تُصَلِّ عليه، فاعتذر منها وتاب عن مثل ذلك واعترف بالخطأ.

وله من الولد ثلاثون ذكرًا واثنتا عشرة أنثى، منهم: زيد الأكبر، وزيد الأصغر، وأبو الغيث، وشميلة، وعطيفة، ورميثة، وسيف، وأسد، ومقبل، وحميضة، وعبد الله.

ثم وليها بعد أبى نمى ولداه حميضة يلقب معز الدين، ورميثة يلقب أسد الدين فى حياته، ودعى لهما على زمزم قبل وفاته بيومين فى السنة المذكورة سنة إحدى وسبعمائة.

واستمرا شريكين فى الإمرة. فلما وصل الحاج وصل صحبته ثلاثون أميرًا، فجاء إليهم أبو الغيث وعطيفة، وشكوا إليهم من حميضة، ورميثة أنهما أسراهما وربطاهما، واستبد بالإمرة دونهما وأنهما أحق منهما، فمال الأمراء إليهما، فلما انقضى الموسم أمسك الأمراء رميثة وحميضة، وأوثقوهما فى الحديد، وذهب بهم إلى مصر، وولوا أبا الغيث وأخاه عطيفة فأقاما إلى عام ثلاث وسبعمائة.

ثم عاد كل من حميضة ورميثة إلى إمرة مكة المشرفة عام أربع وسبعمائة، وأظهرا عدلا وأسقطا بعض المكوس، ثم ساءت سيرتهما فبعث الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون من يقبض عليهما فانهزما.

ثم فى سنة اثنتى عشرة حج الناصر ففرا منه.

ثم فى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وصل عسكر من صاحب مصر المذكور نحو ثلاثمائة فارس، وأمدهم صاحب المدينة بخمسمائة فارس، ووصل معهم أبو الغيث، فلما سمع بهم رميثة وحميضة خرجا إلى حلى بن يعقوب.

ثم وليها أبو الغيث بمفرده، فعزلهما بأخيهما أبى الغيث منفردًا، وجهز معه عسكرًا قويًا فاستولى على مكة أيام الموسم من السنة المذكورة، ثم أقام العسكر عند أبى الغيث شهرين، وكانت مكة مقحطة جدًا، فتعب الجند من الغلاء، وضجر أبو الغيث من النفقة عليهم، فكتب لهم خطة بالاستغناء عنهم ففارقوه، فلم يلبث بعدهم سوى جمعة حتى قصده أخوه حميضة فقاتله، فانهزم أبو الغيث، وقتل من أصحابه جماعة، وفر هو إلى أخواله هذيل بوادى نخلة، وأرسل حميضة إلى الملك الناصر يستعطفه فلم يرض عنه، وأرسل أبو الغيث يستنصره فوعده بالنصر، ثم التقى الأخوان فى رابع ذى الحجة عام أربع عشرة وسبعمائة فغلب حميضة أخاه أبا الغيث فأسره، ثم أمر بعد ذلك بعض عبيده بقتله فقتله بخيف بنى شديد ذبحًا بحضرة الناس فهالهم ذلك.

قال فى « عمدة الطالب »: إن حميضة قتل أخاه أبا الغيث على فراشه، وحمله إلى داره ثم استدعى إخوته للضيافة، فاجتمعوا فما راعهم إلا أبو الغيث مقتولاً فى جفنة مسلوقًا كما هو وقد وضع بين أيديهم، وعلى رأس كل واحد منهم غلامان أسودان من غلمان حميضة معهم السلاح، فأذعنوا له بالملك قهرًا، ودامت له الولاية على مكة حتى فارقها فى رمضان سنة خمس عشرة وسبعمائة لما سمع بوصول أخيه رميثة.

ثم وليها رميثة منفردًا متوليًا إمرة مكة المشرفة فى عسكر معه من مصر، وذلك فى سنة خمس عشرة وسبعمائة، فلما سمع حميضة فزع لذلك، وقبل وصولهم إلى مكة بستة أيام أخذ المال من النقد والبز وهو مائة حمل، وأحرق الباقى فى الحصن الذى فى الجديدة من وادى مر وقطع ألفى نخلة.

وكان وصول العسكر صحبة الشريف رميثة إلى مكة يوم السبت منتصف رمضان من السنة المذكورة، فأقاموا بها ثلاثة عشر يومًا، ثم توجهوا جميعًا إلى الحليف وهو حصن بينه وبين مكة ستة أيام كان حميضة بعد فعل ما فعله التجأ إلى صاحبه،

وصاهره لعله يحتمى به، فواقع العسكر حميضة، وصاحب الحصن، وأخذوا جميع أموال حميضة وخزانته، ونهب الحصن وأحرق وأسر ولد حميضة ابن اثنتى عشرة سنة، وسلم إلى عمه رميثة، ثم رجع الجيش إلى مكة فى الخامس والعشرين من ذى القعدة، واستمروا إلى أن حضر الموقف ورجعوا، واستمر رميثة بمكة ونجا حميضة بنفسه، فقصده أخوه الشريف رميثة والعسكر فحاربوه، فهرب حميضة، ثم احتال عليه الناصر ملك مصر واعتقله، ثم احتال فى الهرب، وذلك أنه أمر بعض غلمانه الخاصة أن يهيىء له فرسًا سابقًا ليهرب عليه، فلما تمم له ذلك حضر الغلام إلى باب السجن والفرس معه، فأوقفه ناحية، ثم دخل إلى سيده، ثم لبس السيد لباس الغلام، والغلام لباس السيد، فلما خرج على الموكلين لم يشكوا أنه الغلام، فهرب على فرسه وقصد العراق واستنصر بملكه خدابنده بن أرغون بن ابغا بن هولاكو ملك التتار، وطلب منه جيشًا يغزو به مكة فجهز معه جيشًا عدتهم عشرة آلاف فارس، وأمر عليهم السيد أبا طالب الدلقندى، وأمرهم بطاعة حميضة، فساروا إلى البصرة، ومنها إلى القطيف طالبين أطراف الشام، وأرسل حميضة إلى أمراء العرب من كل ناحية، فأجابوه والتجئوا إلى أمراء طَيِّئ بالبادية فقدر الله موت السلطان خدابنده، وكتب الوزير رشيد الدين الطبيب إلى عسكر المغول بالخبر فلم يدبروا، واشتهر الخبر فطمع العرب فى عسكر المغول، ونكثوا العهد، وثاروا وأوقدوا نار الحرب فحارب حميضة بنفسه، ودافع عن عسكر المغول دفاعًا شديدًا بحيث إن أبا طالب قال: ما زلت أسمع بحملات على بن أبى طالب حتى رأيتها عيانًا فى حميضة بن أبى نمى، وتسحب حميضة ومعه أبو طالب، وملك شاه ومعهم ثلاث وعشرون راحلة إلى أن قرب إلى مكة، وكتب إلى أخيه رميثة يستأذنه فى دخول مكة فمنعه إلا بإذن سلطان مصر، وأرسل إلى مصر يستأذن له وإن حميضة لم يكن معه إلا فرس واحد، فكتب السلطان جوابًا لرميثة: إن حضر حميضة إلى الديار المصرية على عزم الإقامة بها قابله السلطان بالأمان وسامحه من ذنوبه السالفة، وأما الحجاز فلا يقيم به.

وكتب إلى أبى طالب الدلقندى وملك شاه بالأمان، وأرسل عدة أمراء إلى مكة لإحضار حميضة، ولو حضر من التتار، فوصلوا إلى مكة وأرسلوا إلى حميضة فى معاودة الطاعة وأن يتوجه معهم إلى الأبواب، فاعتذر بالعدم، وطلب ما يستعين به

فأعطوه، فلما قبض المال تغيب، فعادوا إلى القاهرة فى سادس عشر جمادى الآخرة من سنة سبع وعشرين وسبعمائة، فلما كان سنة ثمان وعشرين وسبعمائة أو فى أواخر السنة التى قبلها وثب على أخيه رميثة، واستولى على مكة فخرج منها أخوه رميثة إلى نخلة، فقطع حميضة الخطبة عن الناصر وخطب لأبى سعيد بن خدابنده ملك التتار، فانزعج الناصر لذلك، وأرسل عسكرًا لإحضار حميضة بسبب ما فعل فى مكة من خطبته لصاحب العراق خدابنده، وأخذه أموال التجار، ومحاربته أخاه رميثة، وإخراجه إياه من مكة، وقد كان فعل ذلك كله فلما بلغه فر من مكة، فلما دخلها عسكر الناصر ومنعوا العبيد من حمل السلاح، ونادوا بالأمان، وأظهروا العدل، فأرسلوا فى طلب حميضة فإن السلطان ألزمهم بتحصيله وحمله إلى مصر وألا يعودوا إلى الديار المصرية إلا بحميضة، وأرسلوا إلى العسكر أميرًا يقال له بهادر الإبراهيمى كان من أهل ينبع، فلما وصلوا توجه الإبراهيمى لمحاربة حميضة، وتقاربا فلم يقدم الإبراهيمى على مواجهته وفر حميضة، فاقتضى رأى العسكر أن يلزموا رميثة والإبراهيمى باتهامهما أنهما باطنا على حميضة حتى فر، وكان القبض عليهما رابع عشر ذى الحجة الحرام بعد انقضاء أيام التشريق وأرسلوا بهما تحت الاحتفاظ إلى مصر، فلما وصلا مصر رسم على الشريف رميثة، ثم شفع فيه، فأكرمه السلطان، ورتب له كل يوم [شريحتين][(١)] ذهبًا، وكان يطلع إلى الديوان إلى يوم من الأيام خرج إلى أطراف مصر، وكان قد هيئت له النجب فركب وفر، فلما علم السلطان به أرسل فى إثره، وألزم بعض مشايخ العرب وكتب إلى شيخ آل حرب يقول له هذا هرب إلى بلادك معتمدًا عليك، ولا أعرفه إلا منك، وإن لم تأتنى به فأنت خصمى فأنت الذى أعنته على الخروج، فركب شيخ آل حرب بالهجن السبق وسار مجدًّا حتى أدرك الشريف رميثة تحت العقبة - وقد اطمأن فنام - فجلس عند رأسه، وقال له: قم يا أسود الوجه. فقال له الشريف رميثة: صدقت لو لم أكن أسود الوجه مانمت حتى أدركتنى. فلزمه ودخل به إلى مصر فوضع فى السجن الكبير، واحتفظ عليه، وكان القبض عليه فى شهر جمادى الأولى سنة تسع عشرة وسبعمائة، وتوجه إلى مكة وكان أمرها لأخيه عطيفة الآتى ذكره على الفور وولوا على مكة الشريف عطيفة.

---

(١) في ط: شريفيين.

ثم وليها الشريف عطيفة بن أبى نمى من الملك الناصر وأنفذ معه عسكرًا فبلغوها سنة تسع عشرة وسبعمائة، وعليهم أميران وأقاموا عنده، ثم توجه الأميران اللذان كانا بمكة العام الماضى وكتب الشريف عطيفة أن القواد أطاعته وأن الشريف حميضة عزم اليمن، وتفرق عنه العربان، وبنو شعيب الذين كانوا معه جنده، ورخصت البلاد وأمنت الناس على أموالهم ودمائهم. فلما بلغ الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر ذلك خرج إلى الحج تاسع ذى القعدة بعد الحاج، ووصل إلى مكة بتواضع وانكسار وذل بحيث إن بعض الناس حسن له الطواف راكبًا كما فعله ﷺ فقال: ومن أنا حتى أتشبه بالنبى ﷺ؟ والله ما أطوف إلا مع الحجاج، فكانوا يدفعون عنه الناس، وهو ينضم إليهم يقول: لعلى أقبل برحمة واحد منهم.

وأبدى من المعروف والإحسان والخير فى الحرمين ما لا يوصف، وسأله التجار وأهل مكة أن يبقى عندهم عسكرًا لئلا يرجع إليهم حميضة ففعل.

واتفق ذلك العام أن شخصًا من أكابر خدام الدولة طلع إلى البيت ليباشر فى الكسوة، وجلس على طُنُفِ البيت الشَّريف، فأنكر الناس جلوسه وعدم أدبه، فأخذه النعاس فسقط من أعلى البيت إلى المطاف فكان أعظم عبرة لمن اعتبر.

وعزم السلطان إلى مصر. فقدم حميضة من اليمن بجيش سنة عشرين وسبعمائة، فأراد دخول مكة فلم يظفر، وانتصر عليه عطيفة ومن معه من العسكر المقيمين بمكة الذين أبقاهم الناصر، فلما ولى هاربًا خرج معه ثلاثة من المماليك، وأقاموا عنده.

وكان بمكة أمير العسكر يسمى بيبرس الحاجب أرسل إلى الشريف حميضة يرغبه فى مكة والصلح والحلف، وكان الشريف حميضة بقرب نخلة، فقال له الشريف حميضة: أرسل إلى أحد أولادك يكون عندى رهينة، فأرسل إليه الأمير بهدية صحبة ولده وجماعة، ففى حال خروجهم إليه جاء الخبر بموت الشريف حميضة وأنه وثب عليه بعض مماليكه، وهو نائم فقتله، جاء بهذا الخبر رجل من الأعراب، فأنكر الأمير وقوع ذلك وظن أن ذلك مكيدة فتوقف عن إرسال ولده والهدية، فلما كان المساء طرق باب المعلاة بمكة ففتح فإذا مملوك اسمه استدمر وهو على حجرة حميضة وصل إلى مكة فأرسل الأمير ولديه ناصر الدين محمد وشهاب الدين أحمد إلى الأبواب السلطانية بهذا الخبر، وجهز من توجه لإحضار سلب حميضة

والمملوكين الباقيين، فأحضر السلب وأحد المملوكين، وقيل: إن الثالث مات، فألزم صاحب نخلة بإحضاره، وتوعده إن تأخر فأحضره، واستمر الأمير بيبرس إلى أن عاد الجواب بطلبه، فتوجه فى شعبان، ووصل إلى مصر أوائل رمضان فشمله الإنعام السلطانى، وكان مع الشريف حميضة هذه المهرة عزيزة اسمها جمعة طلبها منه السلطان فى السابق فلم يسمح له بها، ولما وصل الخبر إلى السلطان أمر بقتل المملوك القاتل وهو أحد مماليك ثلاثة للسلطان هربوا لما كان بمكة للحج، ووصلوا إلى حميضة اسمه استدمر، أخبر أنه قتل حميضة اغتاله، وهو نائم وفر على حجرة حميضة المسماة جمعة المشهورة، ثم جرد سيفه وإذا به أثر الدم، وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة عشرين وسبعمائة.

وذكر اليافعى أن حميضة كان يقول: لأبى خمس فضائل: الشجاعة، والكرم، والحلم، والشعر، والسعادة. فالشجاعة لعطيفة، والكرم لأبى الغيث، والحلم لرميثة، والسعادة لى حتى لو قصدت جبلا لدهكته. ومما قيل فى حميضة قول موفق الدين الحديدى قصيدة هى: [من الخفيف]

قَدَحَ الوَجْدُ فى فُؤَادِى زِنَادا مَنَعَ الجَفْنَ أنْ يَذُوقَ الرُّقَادَا
وفُؤَادُ الشَّجِيِّ يَوْمَ الآل سَاقهُ سَائِقُ الظُّعُونِ وَقَادَا
بَدَّلينى بِالوَصْلِ هَجْرًا وبالزوْ رَةِ صَدًّا وبالتَّدَانِى بِعَادَا
يا مُعِيدَ الحَديثِ عُذْنِيهِ عَنهُمْ مَا أَلَذَّ الحدِيثَ عَنْهُم مُعَادا
هاتِ بالله يَا مُحدِّثُ حَدِّثْ بِجِيَادٍ جَاد الغَمَامُ جِيَادا
بَلَدًا بِالشَّرِيفِ شَرَّفَهُ اللـ ـه بِقَاعًا شيحَانُهُ وَوِهَادا
مَلِكٌ مِنْ قَتَادَة مَلأَ الأَرْ ضَ نِصَالاً مَحْشُودَةً وصِعَادا
إن أكُنْ فى حميضَةٍ زِدتُّ فى المَدْ حِ فَقَدْ زَادَ فِى نَوَالِى وَزَادَا
رَجُلٌ سَالَمَ المسالِمَ في اللـ ـهِ وفِى اللهِ للمُعَادِينَ عَادَى
عَادَ أبْدَى أوْلَى فَوَالَى تَعَالَى عَزَّ أَعْطَى سَطَا أَفَادَ أَبَادَا
جَادَ أغْنَى عَلاَ سَمَا جَلَّ جَلَّى ظُلَمَ الظُّلْم عَدْلُهُ سَارَ سَادَا
حَسَنُ السَّمْتِ لَيسَ يَحْسُنُ أَنْ تَسْـ ـمَعَ إلاَّ فى مِثْلِهِ الإنْشَادَا
إبن بِنْتِ النَّبِيِّ لَمْ يَجْعَلِ اللـ ـهُ سِوَاكُمْ لِأَرْضِهِ أَوْتَادَا

يَا رِكَابَ الآمَالِ ويحَكِ بالنُّجْـ ـحِ بحصنِ الجَدِيدِ أُمِّى نِجَادا
يَا جَوَادَ الزَّمَانِ ما زُرْتَ مَغْنَا هُ ابْتُ مِنْ عِنْدِهِ أَقُودُ جَوادًا
كُلُّ شِعْرٍ أَتَاكُمْ غَيْرُ شِعْرِي يَا أَبا زيد لَيْسَ يَسْوَى المِدَادَا

وقال فى العمدة: إن السلطان الناصر هو الذى دس عليه من قتله غيلة والله أعلم بالحقائق ثم إن السلطان أطلق الشريف رميثة حينئذ من السجن وأحسن إليه، وأشركه فى إمرة مكة مع أخيه عطيفة وذلك فى سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة، وكانت سنة قحط لعدم الأمطار وعدم الواصل من البحر، فتوجه الشريف عطيفة إلى مصر وشكا ذلك، فرسم السلطان بحمل الحب إليها ورتب لصاحب مكة كل عام شيئًا يحمل إليه من بلدين بالصعيد، وألزمه أن يسقط المكوس التى تؤخذ من مكة على المأكولات التى تجلب إليها ففعل ذلك.

وفى موسم سنة ٧٣٠ ثلاثين وسبعمائة اتفق أن أهل العراق جاءوا بفيل عظيم جعلوا محملهم عليه، فتطير العالم منه، وقالوا: هذا عام الفيل، ثم دخلوا به مكة، ووقفوا به بعرفة ثم توجهوا به إلى المدينة المشرفة، فلما وصلوا الفريش، وقدموا على البيداء، أوقفه الله فلم يستطع المشى، فضربوه ضربًا مبرحًا فلم يبرح، فلم يزالوا يضربونه حتى مات هنالك، وقدر الله بعد إتمام الحج بمكة أن سافر أمير أول وتأخر أمير المحمل المصرى المسمى أزدمر الخازندار تأخر لصلاة الجمعة، فلما صعد الخطيب المنبر عبث بعض العبيد بخطف شيء من أمتعة الحجاج بباب إبراهيم، فصرخت الناس، فارتج المسجد، ففزع السيد مبارك بن عطيفة وقواده بآلة الحرب وركبوا الخيل، وتبعهم الشريف عطيفة، فبادر ولد أمير الحاج لتخميد الفتنة فأصابته حربة، ففزع والده أمير الحاج أزدمر وهم بقتل الضارب فأصابته حربة أخرى فماتا جميعًا، فاشتد الأمر وعظم وهجم بالخيل إلى المسجد الحرام، ونهبت الأسواق، وتعب الشريف عطيفة، وتحير فى أمره ولم يستطع ردهم ولا قهرهم، وكان حتى الحاج نفسه ينهب بعضه بعضًا.

فلما بلغ السلطان ذلك أمر بقتل الأشراف، وقطع الأشجار من وادى نخلة والأودية، وأجلى نساءهم وأولادهم، وجهز عسكرًا وأمرهم أن يقيموا بمكة ولا يرتحلوا حتى يقضوا حاجته فى المأمور فيهم بذلك. وكان شخص من أهل العلم

يسمى قاضى القضاة جلال الدين القزوينى واعظًا فقام ووعظ السلطان ونهاه أن يحدث فى حرم الله أو أبناء رسول الله ﷺ وقال له: يا مولانا الرأى أن ترضيهم وتأخذهم بالطيب، فأرسل إليهم بعض الأمراء بدون ما كان جهزه ونواه، وعزل الشريف عطيفة لأنهم اتهموه بقتل الأمير أزدمر الخازندار المذكور بعد أن دام سلطانه عليها إلى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، ورضى عن الشريف رميثة، وأعاده لولاية مكة.

فوليها رميثة بمفرده، وولاه إمرتها مفردًا مستقلا إلى عام أربع وثلاثين، ومضى عطيفة إلى مصر بعد عزله، ووصل متوليًا لإمرة مكة شريكًا لرميثة، ثم أخرجه رميثة ليلة رحيل الحاج من مكة من هذه السنة، ثم اشتركا فى ذى الحجة من سنة خمس وثلاثين وسبعمائة.

ثم فى رمضان من سنة ست وثلاثين هجم رميثة مكة وخرج منها بعد قتل وزيره الرباع وبعض أصحابه وعاد إلى الجديدة، ثم اصطلحا واشتركا فى الإمرة سنة سبع وثلاثين وتوجها إلى مصر للملك الناصر مطلوبين، فعوق عطيفة فيها ولزم حتى مات بها فى سنة ثلاث وأربعين بالقبيبات ظاهر القاهرة ودفن هناك، وكان موصوفًا بشجاعة مفرطة رحمه الله تعالى ومما قيل فيه قول العلامة شرف الدين يحيى المعروف بالقشر المكى قصيدة منها: [من الكامل]

تَجرِى مَقَادِيرُ الإِله بِمَا تَشَا ... والدَّهْرُ قَدْ ألقى إليكَ زِمَامُهُ
ألـلـهُ أَعْـطـاكَ الـذِى أَمَّـلْـتَـهُ ... فَدَعِ الحَسُودَ تُمِيتُه أَوْهَامُهُ
مَا للسُّكُوتِ إفادةٌ عَنْ كلِّ مَنْ ... أمدَتْ بِه بَيْنَ الوَرَى أَجْرَامُهُ
هَا قَدْ قَدَرْتَ فَلاَ تَكُنْ مُتَوَانيًا ... فَالأُفْعُوَانُ قَوِيَّةٌ أَسْمَامُهُ
لاَ تَحْلمَنَّ عَنِ العَدُوِّ تَكَرُّمًا ... كَمْ سَيِّدٍ ضَرَّتْ به أَحْلاَمُهُ
لاَ تَحْقرنَّ أَخَا العَدَاوة إنَّهُ ... كَالجَمْرِ يُوشِكُ أَنْ يَضُرَّ ضِرامُهُ
أَنْتَ المليكُ ابنُ المليكِ أصَالَةً ... فَالجُودُ مِنْكُمْ وُفِّرَتْ أَقسَامُهُ
أَوَ مَا عَلِمْتَ بأنَّ فِيك فَصاحةً ... مَا حَازها قُسٌّ ولاَ أَقْوَامُهُ
ليثٌ تَخَافُ الأُسْدُ مِنْ سَطَوَاتِهِ ... غيثٌ يَجُودُ عَلَى الأَنَامِ غَمَامُهُ
مَنْ لَيسَ مَشْغُولَ البَنَانِ عَنِ النَّدى ... يَوْمًا إذا شَغَلَ اليَمِينَ حُسَامُهُ

وعاد رميثة متوليًا منفردًا، فوصل فى سنة سبع وثلاثين، ولم يزل منفردًا بها

مستقلا إلى سنة أربع وأربعين وسبعمائة كما سيأتى.

ووقع فى ولاية الشريف رميثة بن أبى نمى واقعة وهى أنه لثلاث وأربعين وسبعمائة وقعت فتنة بعرفة بين الحجاج المصريين، وبين أهل مكة من أهل مكة من قبل الظهر إلى غروب الشمس قتل فيها جماعة، ومن الترك ستة عشر نفرًا، ومن أتباع الأشراف ناس قليل، ونفر الناس من عرفة قبل الغروب، وسلكوا طريق المظلمة، ولم يقفوا بمزدلفة، ورحل الحجاج جمعيهم يوم النفر، ونزلوا الزاهر، ولم يطوفوا خوفًا على أنفسهم، وتعرف هذه السنة عند أهل مكة بسنة الظلمة، وأصيب فى هذه السنة السيد محمد بن عقبة بن إدريس بن قتادة بن إدريس بن مطاعن يوم الثلاثاء حادى عشر ذى الحجة الحرام.

ثم فى سنة أربع وأربعين وسبعمائة: وقع بين أهل مكة كذلك وأمير الحاج حرب، وقتل جماعة، وسلم الله الأشراف، ولله الحمد والمنة.

وسلم الله الحج من النهب ببركة الشريف رميثة، غير أنه كان غلاء عظيم بيعت الويبة الشعير بدينارين، والرطل البقسماط بثلاثة دراهم، والويبة الدقيق بخمسين درهما والإردب القمح بمائتى درهم، وكان الحاج المصرى والشامى كبيرًا جدًّا.

وفيها أعنى سنة أربع وأربعين وسبعمائة: اشترى الشريف عجلان بن رميثة، وأخوه الشريف ثقبة بن رميثة اشتريا مكة من أبيهما رميثة بستين ألف درهم، لأنه كبر سنًّا، وصار أولاده كل منهم يحكم فى البلاد بما شاء واختار، فما رضى بذلك ملك مصر لما بلغه، وأرسل إلى الشريف ثقبة وخدعه وطلبه إليه، فلما وصل إليه بمصر حبسه، فعند ما بلغ الشريف عجلان حبس أخيه ثقبة أخذ جلاب اليمن جميعًا فكان ذلك بعض أسباب الغلاء، وأعاد رميثة إلى إمرة مكة فعاد واستمر إلى سنة ست وأربعين وسبعمائة، فعزل عنها بابنه عجلان، وكان الملك الكامل ولاه ذلك من مصر.

فوصل مكة متوليًا ودخلها فى حياة أبيه.

وتوفى والده رميثة فى النصف من شهر ذى القعدة الحرام من السنة المذكورة.

وكان الشريف رميثة سيدًا جليلاً فاضلاً نبيلاً، شاعرًا كريمًا، حازمًا حليمًا.

ولما تغلب ابنه أحمد على الحلة وأعمالها من العراق كتب إليه أبوه رميثة قصيدة يذكر فيها شرف مكة وفضائلها ويذم العراق وأهله، فلما قتل أحمد وصل الخبر إلى

أبيه فقال: قد علمت منذ تعرض لبلاد المغول أنه مقتول.

وانقطع الحاج عن مكة خوفًا من أبيه رميثة.

وكانت وفاة رميثة يوم الجمعة الثامن من ذى القعدة الحرام سنة ست وأربعين وسبعمائة كما تقدم وطيف به أسبوعًا كما هى عادة أسلافه.

وذلك وقت صلاة الجمعة والخطيب على المنبر، فكف حتى فرغوا من الطواف به.

وكان ابنه عجلان يطوف مع الجنازة، ثم جعله فى مقام الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم.

ودفن بالمعلاة عند قبر أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد زوج النبى ﷺ.

كانت ولايته على مكة سبع مرات ومجموعها ثلاثون سنة أو أكثر، مستقلا أربع عشرة سنة ونصف سنة أو أزيد، وشريكا لأخيه حميضة فى مرتين مجموعهما نحو عشر سنين، وشريكا لأخيه عطيفة ست سنين أو أزيد.

وكان يكنى أسد الدين ويلقب أبا عرادة. وكان له من الأولاد أحمد وسند وثقبة وعجلان ومغامس، رحمه الله تعالى

ومما قيل فيه قول موفق الدين الحديدى: [من الكامل]

بِاللهِ هاتِ عَنِ اللِّوَى وطُلُولِهِ ... وعَنِ الغَضَا وجَلالِهِ وحُلُولِهِ
أَطِلِ الحَدِيثَ فَإِنَّ تَقْصِيرَ الذِي ... يَلْقَى مِنَ التَّبْرِيحِ فى تَطْوِيلِهِ
عَلِّلْ بِذكْرِ العَامِرِيَّةِ قَلْبَهُ ... فَشِفَاءُ عِلَّةِ ذَاكَ فى تَعْلِيلِهِ
وإِذَا عَلِيلُ الرِّيحِ أَهْدَى نَحْوَهُ ... نَشْرًا فَنَشْرُ عَلِيله بِعَلِيلِهِ
رَشَأٌ رَنَا فَرَمَى فُؤَادَ مُحِبِّهِ ... عَنْ قَوْسِ حَاجِبِهِ بِسَهْمِ كَحِيلِهِ
وحَوى القُلُوبَ بِأَسْرِهَا فِي أَسْرِهِ ... وسَبَى البَهَا بِرَسِيلِهِ وأَسِيلِهِ
وَبَيَاضِهِ وسَوَادِهِ وقَوِيهِ ... وَضَعِيفِهِ وخَفِيفِهِ وثَقِيلِهِ
وتَفَيَّأَ الظِّلَّ الذِى ضَمِنَتْ له الْ ... أَيَّامُ بَيْنَ مَبِيتِهِ ومَقِيلِهِ
حَطَّ الرِّحَالَ بِمَكَّةِ وأَقَامَ فِي ... حَرَمِ الخِلَافَةِ بَعْدَ طُولِ رَحِيلِهِ
جَلَبَ المديحَ لمنجبِ بنِ مُحَمَّدِ ابْـ ... ـنِ نَبِيِّهِ ابْنِ وَصِيِّه ابنِ بَتُولِهِ

ومنها:

واقرأ تحيَّتهُ البطين ومجد إِبْـ ... ـراهيمِهِ فى صُلْب إسماعيلِهِ

مَا بَيْنَ شبّره وبَينَ شبيرِهِ ... شرفٌ يَطُولُ لِهَاشِمٍ وعَقِيلِهِ
نَسَبٌ كَمُشْتَقِّ الشُّمُوسِ ومَفْخَر ... باعُ الكَوَاكِبَ قَاصِرٌ عَنْ طُولِهِ
أَمَّا الفُرُوعُ فَلَيس مِثْلَ فُرُوعِهِ ... وكَذَا الأُصُولُ فَلَيْسَ مِثْلَ أُصُولِهِ
يَابْنَ المُظَلَّلِ بِالغَمَامَةِ والذِي ... قَدْ أُنزِلَ القُرآنُ فِى تَفْضِيلِهِ
مَاذا عَسَى مَدْحِى وَقَدْ نَزَلَ الثَّنَا ... فِيكُمْ مِنَ الرَّحْمنِ فى تَنْزِيلِهِ
فِى هَلْ أَتَاكَ، وَهَلْ أَتى، وَحَدِيدِه ... حَقًّا، وغَافِرِهِ، وفِى تَنْزِيلِه
قَالوا مَدَحْتَ رُمَيْثَةَ فَأَجَبْتُهُمْ ... لَيْسَ المَدِيحُ يَنَالُ غَيْرَ مُنِيلِهِ
ولكَيْفَ لا أُثْنِى عَلَى مَنْ عَمَّنِي ... دونَ الوَرَى مِنْ خَيْرِهِ بِجَزِيلِهِ
بِنُضَارِهِ ولُجَيْنِهِ وثَوَابِهِ ... وثِيَابِهِ ورِكَابِه وخُيُولِهِ

هذا ما وجدت، ولا أعلم هذا آخرها أم لها آخر، وهى عظيمة الشأن من الحسن فى المبنى والمعنى بمكان.

وللأديب أبى عامر منصور بن عيسى بن سحبان الزيدى فيه قصيدة أولها: [من الكامل]

مَا أَومَضَتْ سَحَرًا بُرُوقُ الأَبْرقِ ... إلاَّ شَرِقْتُ بِدَمْعِيَ المُتَرقْرِقِ
صنَمٌ شُغِفْتُ به وغصْنُ شبابه ... غضٌّ وَبَرْدُ شبيبتى لم يخلَقِ
شقَّتْ عرى كَبِدِى شقائقُ خدِّهِ ... وبكأسِ فِتْنَتِهِ سُقِيتُ وما سُقِي
ما فاتَ من عُمْرٍ فلِلْغِيدِ الدُّمَى ... لا أَرْشَ فيه وللصَّبَابَةِ ما بَقِى

ومن مديحها قوله: [من الكامل]

رَجُلٌ إذا اشْتَبَهَ الرجالُ عرفْتهُ ... بجلالِ صُورتِهِ وحسنِ المنطقِ
ومظفَّرُ الحملاتِ يرقصُ منه قلـ ... ـبُ المغربِ الأَقْصى وقلبُ المشرقِ
عَلَمٌ يدلُّ على كَمَالِ صفاتِهِ ... كَرَمُ الفُرُوعِ له وطيبُ المَعرقِ
يلقَى بوجهِ البِشرِ طارقَ بابِهِ ... [لَيْلاً] ويرزقُ منه من لم يرزقِ
عَزَّتْ بنو حَسَنٍ بدَوْلته التي ... عزُّ الذليلِ بها وأَمْنُ المفرقِ
هو صُبْح ليلتها وبدْرُ ظَلاَمِهَا ... ولسانُ حِكْمَتِها وصدْرُ الفيلقِ
لا يتَّقَى مِنْ كُلِّ حادثة بها ... وبه بِمَكْرُوهِ الحوادثِ نتَّقِي

وله فيه أيضًا: [من الخفيف]

حَفِظَ العَهْدَ بعدنا أَمْ أضاعا وعَصَى لائتمامه أمْ أطاعا
ورعَى حرمةَ الجوارِ وراعَى أم وهَى بالفراق قلْبى وَرَاعَا
مَنْ يكُنْ يحمدُ الوَدَاعَ فإنِّي بعد يوم النَّوَى أذمُّ الوداعا
جيرتى ما لنا حَفِظْنَا هواكُمْ وغدا حبُّنا لديْكُمْ مُضَاعا
إنَّ مَنْ قَدَّر الفراقَ علينا قادرٌ أن يقدِّرَ الإجتماعا
قلْ لذاتِ القناعِ هل جئتُ ذنبًا فيكِ حتى أسبلْتِ دونى القناعا
إنَّ مَنْ أشبَعَ السوارَيْنِ يَدَيْـ ـكِ لَمَجْرى الوشاح مِنْكِ أجاعا

ومنها: [من الخفيف]

قل لِأَهْلِ الزَّمَانِ إنى وإنْ رِيـ ـعَ سوَايَ بكَيْدكُمْ مُرتاعا
نحنُ فى دولةٍ إذا مَدَّتِ النا سُ إلَيْنَا شبرًا مدَدْنا ذراعا
طلبتْ بى أبا عرادة عيسٌ لا تملُّ الإرقالَ والإيضاعا
عرستْ من رميثة بعراصٍ لم يزلْ نبْتُ روضها ممْرَاعا
نزلَتْ سوحَهُ عطاشًا جياعًا فَأَقَامَتْ به رواءً شِباعا
رَجُلٌ لا تراه بالمالِ مفرا حًا وَلاَ مِنْ مُلمَّة مِجْزَاعا
وعليه بِكْرُ الخلافةِ ألقَتْ إذ رَأَتْه رداءها والقِناعا
ليس بالنَّازلِ الوِهَاد مِنَ الأر ضِ ولكنَّهُ يحلُّ اليفاعا
موقدًا ناره على نَشَزِ الأر ضِ إذا النَّاسُ لبسوها القفاعا
نَمْ هنيئًا يا جاره مِلْءَ عينيْـ ـكَ ولا تخشَ نائبًا أن تراعا

ثم وليها بعده ابنه عجلان بن رميثة بن أبى نمى بن محمد بن أبى سعد الحسن بن على بن أبى عزيز قتادة يلقب عز الدين.

ولى مكة غير مرة نحو ثلاثين سنة منفردًا إلى سنة ثمان وأربعين، ثم شريكا لأخيه ثقبة إلى سنة خمسين وسبعمائة ولولده أحمد بن عجلان.

ووقعت بينه وبين أبيه وإخوته وولده أحمد منازعات اقتضت عزمه إلى مصر مرارًا أولها سنة موت والده رميثة سنة أربعين وسبعمائة، فوافق وصوله إِلَيْهَا موت ملكها الملك الصالح وتولية ابنه الكامل، فولى الكامل الشريف عجلان مكة منفردًا فوصل إليها وقرئ مرسومه بالتولية ودعى له بعد المغرب بأعلى زمزم على العادة، وقطع

الدعاء عن والده رميثة. وذهب أخوه ثقبة إلى وادى نخلة وأعطى عجلان أخاه مغامس - أو مباركا - المكان الذى عرف بالواديين، وأظهر الشريف عجلان العدل فى مكة وأبطل المكوس والنهب والقتل وخرج ربع الجبايات.

ففى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وصل ثقبة من مصر، وبيده مرسوم بنصف البلاد، وأن الشريف عجلان يكون له النصف الآخر.

وفى سنة تسع بتقديم التاء وأربعين وصل إلى مكة إليه مبارك بن عطيفة من اليمن وهم أن يدخل مكة فألقى الله فى قلبه الرعب فرجع، ووصل إلى سواكن ومات بها.

ثم وقع بين الشريف عجلان وأخيه الشريف ثقبة سنة خمسين وسبعمائة فتنة، وكان ثقبة بالجديد وعجلان بمكة فخرج إليه الشريف عجلان، فلما هم بالقتال منعه الأشراف والقواد وأصلحوا بينهما، وعزم الشريف عجلان إلى خيف بنى شديد ودخل ثقبة مكة.

ثم عزم عجلان إلى مصر، وهذه هى السفرة الثانية، فقطع الشريف ثقبة الدعاء لأخيه عجلان، فلما وصل الشريف عجلان إلى مصر كتب له مرسوم بإمرة مكة وأرسل معه أمير واشترى المماليك لنفسه، واستخدم حملة عسكر وتجهز، وصحب معه حمل نشاب وقسى، ووصل إلى مكة بهذا الجمع، فعزم الشريف ثقبة وأخواه سند ومغامس إلى اليمن، وتلقوا الجلاب ونجلوها بحلى، واستمر الشريف عجلان فى ولاية مكة.

فلما كان موسم إحدى وخمسين وسبعمائة وقع بمنى قتل ونهب من أول النهار إلى غروب الشمس، وذلك أن السلطان الملك المجاهد صاحب اليمن حج فى عسكر كبير، ووصلوا مع الأشراف السيد ثقبة وأخويه سند ومغامس، فأوحى الشريف عجلان إلى أمراء الحاج المصرى والشامى أن الملك المجاهد نيته أن يولى ثقبة إذا عزمتم، ويخلع كسوتكم ويكسو البيت بالكسوة التى صحبها معه، فأرسلوا إليه وعرفوه بما ذكر، فأنكر ذلك.

فقالوا: أعطنا ثقبة يكون رهنًا عندنا حتى ندعك تدخل، فأرسل إليهم بالشريف ثقبة فأجلوه وعظموه، فلما وصل وحج هجموا عليه بمنى وهو نائم، وقد تفرق عنه جماعته فنهبوا محطته، وبعض الحريم فنجا بنفسه إلى أعلى الجبل، فلما رأى

ما وقع صاح عليهم الأمان: إن كان لكم غرض بى أنا آتيكم، ما فعل هؤلاء الضعفاء؟ فسكن الحرب ونزل إليهم، فترجلوا له عن الخيل وأركبوه بغلا وذهبوا به، فما صفت المسألة حتى قتل خلق ونهبت الناس، وألزم الأمراء الشريف عجلان بحفظ الحاج، غير أن العرب وبعض العبيد نهبوا الناس ما بين منى ومكة.

ولما وصل الحاج والأمراء وادى مر فى موسم أربع وخمسين وسبعمائة واجههم الشريف عجلان وشكا عليهم ما فعله أخوه الشريف ثقبة فى السنة التى قبل هذه سنة ثلاث وخمسين وأنه أخذ أمواله وخيله وعبيده، وقيده فخلصه الله تعالى، فوعدوه بالولاية وطمنوا خاطره.

فلما وصلوا الزاهر خرج إليهم الشريف ثقبة على المعتاد، فتكلموا معه فى الصلح مع أخيه الشريف عجلان، فامتنع فلم يزالوا يلاطفونه حتى دخل إليهم.

فقال لهم الشريف ثقبة: إن كان هذا بأمر السلطان فنعم وإلا لا أفعل، فقبض بعض الأتراك على سيف ثقبة والباقون احتاطوا بمن معه، فأنزلوهم عن خيولهم وكبلوهم فى الحديد هو وأخويه سند ومغامس وابن عمه محمد بن عطيفة وفر القواد والعبيد، ثم أحضروا عجلان، وألبسوه الخلعة، ودخلوا به مكة ولم يختلف عليه اثنان، فلما أتموا الحج ذهبوا بالأشراف إلى مصر، ووضعوهم فى الحبس، ودام عجلان على ولاية مكة منفردًا مستقلا إلى أن فك ثقبة، والأشراف الذين معه وشاركه فى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، واستمر حتى عزلا بأخيهما سند بن رميثة وابن عمهما محمد بن عطيفة.

ثم وليها سند ومحمد بن عطيفة فى سنة ستين وسبعمائة شريكين، واستمرا إلى أوائل سنة اثنتين وستين وسبعمائة، ففيها قدم الشريف عجلان من مصر متوليًا، وأشرك أخاه ثقبة، فمات ثقبة، واستقل عجلان كما سيأتى ذكر ذلك آخر السوادة، وأخذ الشريف عجلان وولده أحمد، وذهب بهما إلى مصر فحبسا، وجهز الملك الناصر حسن بن قلاوون عسكرًا لتأييد سند ومحمد بن عطيفة مقدمهم الأمير بكتم الماردينى، وانصلح لذلك حال مكة حتى انقضى الحج من سنة إحدى وستين وسبعمائة.

ثم قامت فتنة بين بنى حسن والعسكر الذى وصل من مصر والشام للإقامة بها

عوض بكتم الأمير ومن معه، كان الظفر فيها للأشراف، وسبب ذلك أنه أشيع بمكة أن من نية العسكر المقيمين بمكة القبض على شريفها الشريف سند، ففرت الأشراف لما قاسوه من هذا الأمر، فإن الشريف عجلان وولده أحمد إلى الآن محبوسان بمصر، فأشيع ذلك قبل قدومهم، فلما وصل العسكر إلى مكة أرادوا أن ينزلوا بيتًا بالصفا للأشراف، فطالبهم الشريف صاحب البيت بالأجرة، فضرب التركى الشريف، فقتله الشريف، فتراكم الأتراك على الشريف فصاح لرباعته، فاجتمعوا إليه جماعة، واشتد الأمر، فقصدت الأشراف أجيادًا فوجدوا خيلاً للترك على باب الصفا كان الأمراء اعتمروا فهم فى الطواف فركبت الأشراف تلك الخيل، فبلغ الأمراء ذلك وهم يطوفون، فقطعوا الطواف وقصدوا المدرسة ليحفظوها وقفلوا أبواب المسجد الحرام وتحصنوا به، وأمروا بهدم الظلة التى على رأس زقاق أجياد الصغير ليروا من يقدم عليهم منه، وكان غالبهم بسطح المسجد يرمى بالنشاب، وسدوا الطريق بالأخشاب لئلا يخرج عليهم أحد من أجياد الكبير.

هذا خبر الترك.

وأما بنو حسن فإنهم استدلوا أيضًا على إصطبل لبعض الأمراء، وقصدوا الأمير قندس، وكان نازلاً بأجياد بالزباهية فقاتلوه من خارج، ودخلوا عليه الدار، فقتلوا جماعته وأسروه، ونهبوا ما كان عنده جميعه، واستجار نساؤه ببيت السيد مبارك بن رميثة، وجاء السيد مغامس من أجياد ليقاتل الترك الذين فى المسجد، فجفلت به فرسه فسقط فقتلوه، وبقى فى مصرعه إلى المغرب، وأراد محمد بن عطيفة أن يتعصب للترك، فتهدده بنو حسن بالقتل، وكان محمد بن عطيفة تأخر عن نصرة العسكر، فخرج خائفا يترقب، فدخل الشريف ثقبة مكة سادس عشر ذى الحجة، وشارك أخاه سندًا عوض محمد بن عطيفة، وانقطع عن محمد هذا فأراد الاجتماع بالترك فلم يمكنوه لما حل بهم من خوف الأشراف، وما فعلوه بهم بحيث إنهم باعوا بعضهم فى الحراج ينادى عليه الدلالون فى الأسواق، ثم ذهبوا فلم يبق منهم إلا أمير واحد وأولاده، فاقترض ما تزود به، وترحل عن مكة، وفر غالب أهل مكة أرباب الأموال خوفًا من الأشراف، إلا أن الله سلمهم من النهب، اكتفوا بما أخذوه من أموال الأتراك.

وتوجه محمد بن عطيفة إلى مصر فلم ير بها وجهًا، واستمر بها إلى أن مات سنة أربع وستين وسبعمائة.

ومما قيل فيه من المدح قول الشاعر المعروف بالنشو قصيدة هى: [من الطويل]

أترضَى بإتلافِ المحبِّ ظلامةً ... فتأخذه بالعُنْفِ والرفقُ أليقُ؟!
أعندكَ علْمٌ أنَّهُ بكَ هائمٌ ... وأكْبادُهُ مِنْ لوعةِ الهجرِ تحرقُ
فَأَحْوَالُه تُنْبِى بما فى ضميرهِ ... إذا لم يكُنْ للقَوْلِ منه مصدِّقُ
بلَوْتُ بنى الدُّنيا جميعًا بأسرِهِمْ ... وَجَرَّبْتُهُمْ إن التجاربَ تصدقُ
فلم أرَ فى ذا العَصْرِ مثلَ محمدٍ ... إمامًا به الدُّنْيَا تضىء وتشرقُ
جوادًا إذا جار الزَّمانُ على الورى ... يجودُ بما تَحْوِى يداهُ وينفقُ
لقد جَلَّ عن قدر الملوك الأُلَى مَضَوا ... إلى الغَايةِ القصوَى مِنَ الفضلِ يسبقُ
يجودُ على العَافِى ويبدِى اعتذارَهُ ... فَأَوْرَاقُهُ بالجودِ والبذلِ تورقُ
لقد عَجَزَ المداحُ فى بعضِ وصفِهِ ... عليهم بأنواعِ المكارمِ يغدقُ
على أنه واللهِ واحدُ عصرِهِ ... وهل مثله من بعدِ ذا العصرِ يخلقُ
ومن لامنى فى مدحه فهو جاهلٌ ... فَجِيدِىَ بالإحسانِ منه مطوَّقُ
وإن كان مدحُ الغَيْرِ عندىَ سُنَّةً ... فمدحى له فرضٌ عليَّ مُحَقَّقُ

فلما بلغ صاحب مصر فعل الأشراف بالترك، أرسل بالشريف عجلان وولده أحمد من سجن القاهرة إلى سجن الإسكندرية بالبرج.

قلت: ذرية بعضها من بعض، سبحان الله، هكذا وقع فى سنة ثمان وسبعين بعد الألف لما أوقع مولانا السيد حمود بن عبد الله بن حسن بالترك قريبًا من ينبع فكسرهم وبدد شملهم وقهرهم، وكان قد أرسل ولده المرحوم السيد أبا القاسم بن حمود والسيد محمد ابن المرحوم السيد أحمد بن محمد الحارث بن حسن إلى باشا مصر بهدية وقواد من الخيل، فاحتفظ بهم أولاً فى المحل المعروف بالسلطان قايتباى ثم فى بيت أغاة الأنكشارية، فلما جاءهم خبر جماعتهم وَمَا جَرَى عَلَيْهِمْ من أبويهما تحركت حمية الغضب على هذين الشريفين، فنقلا إلى السجن الكبير المسمى عرق خانة سجن الدم، فقدر الله إطلاقهما بعد ذلك ولله الحمد. فذكرت بتلك الواقعة هذه الواقعة، إلا أن الشريف عجلان وولده فكا وأعطيا إمرة مكة وهذان

لم يعطياها وتلك قسمة إلهية. انتهى.

وأمر السلطان بإرسال عسكر إلى الحجاز يتتبعون الأشراف وجندهم وعزلهم عن إمرة مكة وقال: لا حاجة لنا بهم.

فلم يستمر بعد هذه النية إلا أيامًا حتى ركب عليه عسكر مصر عزلوه، وولوا الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر، فأطلق الشريف عجلان وولاه مكة وأشرك معه أخاه ثقبة بن رميثة بسؤاله لذلك، فلما أقبل الشريف عجلان ووصل إلى وادى مر اجتمع فيه بثقبة عليلاً مدنفًا، فمات ثقبة بقرب ذلك فى شوال سنة اثنتين وستين وسبعمائة بالجديد، وحمل إلى مكة فدفن بالمعلاة.

وكان موصوفًا بالكرم والشجاعة. ومما قيل فيه قول ابن غنائم من قصيدة: [من المنسرح]

ما خفقَتْ فَوْقَ منكِبٍ عذَبهْ على فتًى كابن مُنْجِدٍ ثقبَهْ
ولا اعتزَى بالفَخَارِ منتسبٌ إلا وفَاقَتْ علاه منتسبَهْ
منتخبٌ من سليلِ منتخبٍ مُنْتَخَبٌ من سَلِيلِ منتخبَهْ
كم جَبَرتْ راحتاه منكسرًا وفَكَّ مِنْ أسْرِ عُسْرَةٍ رَقَبَهْ

فولى الشريف عجلان ولده أحمد عوض ثقبة، وجعل له ربع الحاصل، ثم جعل له ربعًا آخر.

ثم فى سنة ست وستين وسبعمائة ورد الأمر من صاحب مصر على يد الأمير بهادر والأمير سفيان الطولونى إلى شريف مكة بإسقاط المكوس والضرائب، وعوض أمير مكة عن ذلك فى كل سنة مائة وستين ألف درهم وألف إردب قمحًا ونقر ذلك فى دعائم بالمسجد الحرام جهة باب الزيادة وباب العجلة المسمى باب الباسطية أو باب الصفا، وهى موجودة إلى الآن مؤرخة بالسنة المذكورة أعنى سنة ست وستين وسبعمائة.

ولما عزل سند ومحمد وولى عجلان من مصر فوصل إلى مكة، وأشرك أخاه ثقبة ثم مات ثقبة فأمر ولده أحمد بالاجتماع بالقواد ليسألهم أن يسألوا له والده أن يشركه معه فى إمرة مكة وكانوا يخدمون سندا، فاجتمع بهم أحمد فأقبلوا عليه وعرف ذلك سند فخاف على نفسه فهرب إلى نخلة، وقيل بل أقام بوادى مر بالجديد واستجار

بابن أخيه محمد بن عجلان، ثم وقع بين بعض غلمان سند وبين بعض غلمان أحمد شيء أوجب تغير خاطر أحمد عليه فأمره بالانتقال من الجديد، فانتقل إلى وادى نخلة ثم إلى الطائف ثم إلى الشرق ثم إلى المدينة ثم إلى ينبع، فوصله وهو بها أوراق بنى حسن يأمرونه بالقدوم إليهم ليساعدوه على ولايتها فوصل وقصد محاربته فلم يتم له ذلك، فعرض له مرض مات به سنة ٧٦٣ ثلاث وستين وسبعمائة بالجديد. واستولى ابن أخيه عنان بن مغامس بن رميثة على خيله وسلاحه وذهب به إلى اليمن.

ومما قيل فى الشريف سند بن رميثة قول حمزة بن أبى بكر الشاعر المشهور قصيدة هى: [من الطويل]

خَلِيليَّ إما جئتما رَبْعَ ثهمدِ ... فلا تَسْأَلاَهُ غَيْرَ عَنْ أم معبدِ
وإن أَنْتُمَا أبصرتما بانة الحِمَى ... ورَسْمًا لذاتِ المبسم المتبددِ
فَأَوَّلُ ما تستنشدا عن حلولِهِ ... وتستفهما أَخْبَارَ رَسْم ومعهدِ
عسَى تخبر الأطلالُ عمن سَأَلْتُما ... بما شِئْتُمَا للمستهامِ المسهَّدِ

ومنها: [من الطويل]

وفى سَنَدٍ أسندتُّ مدحًا منضدًا ... غَرِيبَ القوافِى كالجمانِ المنضَّدِ
هو القَيْلُ وابن القَيْلِ سلطان مكةٍ ... وَحامِى حماها بالحسامِ المهنَّدِ
وصفوة آل الْمُصْطفَى طود فَخْرهم ... وبَانِى علاهُمْ فوقَ نَسْرٍ وسرددِ
بَنَى ما بنَى قِدمًا أبوه رميثة ... وشاد الذى قَدْ شَادَ من كلِّ سؤددِ
وشنَّ عتاقَ الخيل شُعْثًا ضوامرًا ... وأفنَى عَلَيْهَا كلَّ طاغٍ ومعتدِى
فروَّى صفاحَ البِيضِ من مُهجِ العدَى ... وسُمْرَ القنا مهما اعتلَى ظَهْرَ أجردِ
وأبيضَ طلق الوَجْهِ يهتزُّ للندَى ... ويُجْدِى إذا شَحَّ الحيا كلّ مجتدِى
كريمٌ حَلِيمٌ ماجدٌ وابنُ ماجدٍ ... ظَرِيفٌ شريفٌ سيدٌ وابنُ سيدِ
إمامُ الهدَى بَحْرُ الندا مهلكُ العدَى ... وَبَدْرٌ بدا من آلِ بيتِ محمدِ
أشمُّ طويلُ الباعِ ندبٌ مُهَذَّبٌ ... أغرُّ رحيبُ الصَّدْرِ ضخْمُ المقلَّدِ
فدوحتُهُ بين الوَرَى خير دوحةٍ ... ومحتده بين الوَرَى خيرُ مَحْتِدِ
إليكَ جَلَبتُ المَدحَ إذ أنتَ كفؤُهُ ... وإن أنا أجْلبْهُ لغيرِكَ يكسدِ

وما مدحكم إلا عَلَيْنا فريضَةٌ ومدحُ سِوَاكُم سنَّةٌ لم تؤكَّدِ
ثناؤُكُمُ أَثْنَى به اللهُ جهرةً وأنزله وَحيًا على الطهْرِ أحمدِ

فولى الشريف عجلان ولده أحمد عوض ثقبة، وجعل له ربع الحاصل، ثم جعل له ربعا آخر، ثم ترك له الإمرة على أن لا يسقط اسمه من الخطبة وغير ذلك، فوفى له أحمد بذلك حتى توفى فى جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وسبعمائة.

وكان عجلان فى سنة ثلاث وستين وسبعمائة حارب أحمد بن عيسى الحرامى صاحب حلى بمكان يقال له فجرة، فظهر عجلان على أحمد بن عيسى المذكور.

وكان عجلان رحمه الله تعالى شيخًا صالحا سعيدًا اتفق له ما لم يتفق لأسلافه من السعودات فإنه أول من ملك بلاد حلى من أهله السابقين، وبنى الحصون بأجياد، وأرض حسان والمدارس بمكة، وملك العبيد والخيول، والدروع الكثيرة، وأنشأ بمكة سبيلا للماء بالمروة واستمرت خيراته وحسناته.

ومدحه جماعة من الشعراء منهم الشاعر المعروف بالنشو وغيره وكان له جملة من الأولاد منهم: أحمد وكبيش ومحمد وعلى وحسن.

وتوفى عجلان ليلة الإثنين حادى عشر جمادى الأولى سنة سبع وتسعين وسبعمائة فى جمادى الأولى كما تقدم آنفًا بأرض الجديد، وحمل إلى مكة، ودفن بالمعلاة، وبنى عليه قبة، وبلغ من العمر نحو سبعين سنة رحمه الله تعالى.

ومما مدح به الشريف عجلان قول الشاعر المعروف بالنشو قصيدة هى: [من الكامل]

لَوْلا الغرامُ ووجدُهُ ونحولُهُ ما كُنْتَ ترحمُهُ وأنتَ عذولُهُ
إن كنْتَ تنكرُهُ فَسَلْ عن حالِهِ فَالحُبُّ داءٌ لا يفيقُ عليلُهُ
يا مَنْ يَلُومُ على الهَوى أهْلَ الهوى دَعْ لومهُمْ فالصبْرُ ماتَ حميلُهُ
دعْ عنك من لا خَيْرَ فيه من الورى لا تَمْتَدحْهُ وفى الأنامِ بديلُهُ
وامدحْ مَلِيكَ العَصْرِ وابْنَ مليكِهِ مَنْ شَاعَ ما بين الملا تفضيلُهُ
عجلانُ نَجلُ رُمَيْثَة بنِ محمدٍ أمِنَ الحَوادِثَ والخطوبَ نزيلُهُ
وَرِثَ المَكارِمَ كابرًا عن كابرٍ فنوالُهُ للعالمينَ ينيلُهُ
مِنْ آلِ أَحْمَدَ واحدٌ فى عصرِهِ فهو الشَّريفُ ابن الشريفِ سليلُهُ

ماذا يقولُ المدْحُ فيه وما عسَى | إذ كان يَخْدمُ جدَّكُمْ جبريلُهُ
أما الملوكُ فَكُلُّهُمْ مِنْ دونه | كالبَدْرِ فى أُفُقِ السماءِ حلولُهُ
سلطانُ مكَّةَ والمشَاعرِ والصفا | مَنْ لا يَخَافُ مِنَ الزمانِ نزيلُهُ
لو حاوَلَ النجْمَ العَظِيمَ لنالَهُ | تنبيك عِنْهُ رِمَاحُهُ ونصولُهُ
سكنَتْ مَحَبَّتُهُ القلوبَ جميعَهَا | لما تَقَارَنَ سَعْدُهُ وقبولُهُ

ثم وليها أحمد بن عجلان قبل وفاة أبيه، وذلك بسبب أنه لما جعل له ربع المحصول عوض عمه ثقبة طلب أحمد ربعًا آخر، فأجازه له والده، ثم إن والده لما رأى إقبال الناس على أحمد، ومحبتهم له أراد إغاظته بأخيه محمد بن عجلان فأعطاه خيلاً ودرعًا، فلم ينهض محمد لما أريد منه، فبلغ ذلك أحمد فعاتب أباه عجلان فاعتذر له، وقال له: أنا أترك لك البلاد كلها، فوقع الاتفاق على أن أحمد يعطى أباه عجلان النقد الذى شرط له، وأن يكون له أيضًا فى كل سنة الجزء الذى قرر لعجلان بديار مصر فى مقابلة إسقاط المكس عما يصل إلى مكة من المأكولات، وعن مكس الحجاج من الديار المصرية والشامية الواردين بحرًا وبرًّا وهو مائة ألف درهم وستون ألف أردب قمح، وأن لا يقطع اسم عجلان من الدعاء فى الخطبة مدة حياته، فالتزم أحمد بجميع ذلك، فألح عجلان فى تحصيل النقد المشروط على أحمد استعجازًا منه له ليكون سببًا لرجوع الأمر إليه، فيسر الله لأحمد من أعانه على إحضار المال فأحضره، فلم يجد بدا من قبوله فوفاه بجميع ما التزمه من الوعود، واستمر أحمد حتى مات حادى عشر شعبان سنة ثمان وستين وسبعمائة: وكانت مدته ستًّا وعشرين سنة.

قال فى « الدرر الكامنة فى أخبار المائة الثامنة » كان أحمد بن عجلان عظيم الأبهة واسع الحرمة كثير الرئاسة ملك جملة من العقار والعبيد وعدل وقمع المفسدين.

ثم وليها الشريف محمد بن أحمد بن عجلان ثمان سنين شريكا لأبيه ومائة يوم مستقلا بعده، ثم قتل فى مستهل ذى الحجة من السنة المذكورة لما حضر لخدمة المحمل المصرى بظاهر مكة.

سبب ذلك أن أباه الشريف أحمد بن عجلان كان قد وقع بينه وبين ابن عمه عنان

ابن مغامس منافرة، فسافر عنان ومعه حسن بن ثقبة إلى مصر فبالغا فى شكوى أحمد، وسألا من السلطان برقوق أمورًا أجابهم إليها لصدور رقة عنان، فأرسل أحمد بن عجلان بهدية سنية صحبة كبيش إلى السلطان، فلما رأى كبيش رواج عنان عند السلطان ما أمكنه إلا أن يلتزم على أحمد جميع ما أراده عنان وما أمر به السلطان خشية من حصول مكدر على أحمد وعليه، فوصلوا جميعًا إلى مكة فعرف كبيش أحمد بالأمر، وقال له: لابد لك من الموافقة على ما رسم به السلطان لكما أو الفتك بعنان، فاختار الثانى. فاجتمع عنان وحسن بأحمد بعد التوثق منه فما أجاب لمرادهما، ثم فطن عنان لقصد أحمد فيه ففر إلى الينبع وتلاه حسن بن ثقبة، ثم حسن لهما أمير الحاج المصرى أبو بكر بن سنقر الجمالى الرجوع إلى مكة، وحسن لمحمد بن عجلان أن يرجع معهما إلى مكة، وكان قد توجه من مكة مغاضبًا لأخيه أحمد وضمن لهم الأمر المذكور أن أحمد يقضى حوائجهم إذا وصلوا إليه ورجعوا، فلما اجتمعوا بأحمد قبض عليهم، وضم إليهم أحمد بن ثقبة وابنه عليا بن أحمد بن ثقبة، وقيد الخمسة وسجنهم بالعلقمية من أول سنة سبع وثمانين وسبعمائة إلى موسمها، ثم نقلهم إلى أجياد، ثم أعادهم بعد الموسم إلى العلقمية فدبروا حيلة للخروج منها، وربطوا سررا كانت عندهم بثياب معهم، وصعدوا غير محمد بن عجلان حتى بلغوا طاقة تشرف على منزل ملاصق لسجنهم، فنزلوا منها إليه ففطن لهم بعض الساكنين فصاح عليهم يظنهم لصوصًا فسمع الصياح الموكلون بهم وعرف الأشراف تيقظ الموكلين بهم، فأحجموا عن الخروج إلا عنانا فإنه أقدم، ولما بلغ إلى باب الدار وثب وثبة انفك القيد بها عن إحدى رجليه وما شعر به أحد حين خرج، فسار إلى جهة سوق الليل وما كان غير قليل حتى رأى كبيشًا والعسكر يفتشون عليه بضوء معهم فدنا إلى مزبلة بسوق الليل وأظهر أنه يبول، فأخفاه الله عن أعينهم، فلما رجعوا سار إلى أن لقيه بعض معارفه فعرفه خبره، وسأله فى تغيبه فغيَّبه فى بيت بشعب على فى صهريج فيه ووضع على فمه حشيشًا ودابة ليخفى موضع الصهريج، وفى الصباح أتى كبيش إلى ذلك البيت فما وجده فيه فقيل له إن فى البيت صهريجًا فأعرض عن ذلك لما أراده الله من سلامة عنان، ثم بعث عنان إلى أقاربه من ذوى راجح وسألهم الإعانة بمركوب له ولمن يسافر معه فأجابوه وأخرجوا له

ركائب إلى المعابدة وحملوا عليها فخارا ليخفوا أمرها على من رآها، فخرج عنان إلى المعابدة ونزل عند امرأة يعرفها فألبسته لباسها، ونمى الخبر لكبيش، فأتى منزلها وسألها فنالت من عنان كثيرًا فصدقها كبيش، فلما كان الليل ركب مع رجلين أو ثلاثة الرواحل التى أعدت لهم، فوقفت بعض ركابهم قبل وادى مر، وما وصل هو إلى خليص إلا وقد كلت راحلته، فسأل بعض أهل خليص عن راحلة لبعض أصحابه بلغه أنها بخليص فأخبر بوجودها فأخذها. ويقال: إن صاحبها كان إذا خلص من علفها يقول: ليت عنانا يخلص فينجو عليك فكان ما تمناه، فوصل إلى ينبع ثم منها إلى مصر، واستجار بملكها برقوق أول ملوك الشراكسة بمصر.

فأرسل الشريف أحمد بن عجلان يطلبه، فكتب إليه السلطان يقول: وأما ما ذكرت من جهة عنان فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ [التوبة: ٦] فكيف إذا استجار بنا ابن رسول الله ﷺ؟ وأمره بإطلاق الأشراف فامتنع من ذلك، ثم قدر الله أن الشريف أحمد مات فى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة كما تقدم ذكره، وأقيم عوضه فى إمارة مكة ولده محمد هذا ابن أحمد بن عجلان، كان المدبر لأمر ملكه عمه كبيش بن عجلان، فبعد موت أحمد بن عجلان عمد كبيش إلى الأشراف المذكورين وسمل أعينهم جميعًا فتألم الناس لذلك غاية التألم.

ولم يحصل له بعد ذلك راحة، وتوهم كبيش أن ذلك يكون حسما لمادة الشر ونجاحا، فكان للشر مفتاحا.

فلما بلغ السلطان ذلك تغير خاطره على محمد بن أحمد وعلى عمه كبيش بن عجلان، وولى إمرة مكة للسيد عنان بن مغامس، وكتم ذلك عن الناس، وخادع محمد بن أحمد وعمه كبيش بن عجلان بإرسال الخلع والمراسيم وزينت مكة، فلما تجهز الحاج خرجوا معهم بالسيد عنان بن مغامس كآحاد الناس لا يلتفت إليه إذا حضر كل ذلك لما أضمروه، فلما وصل الحاج إلى الزاهر بعثت أم محمد الشريفة فاطمة بنت ثقبة إلى أمير الحاج شركس الخليلى أمير آخور بعد أن أهدت إليه هدايا تسأله عن حال ابنها محمد وعنان فذكر لها أنه لا يعلم على ابنها سوءًا وربما حلف لها على ذلك، فانشرح لذلك خاطرها وحسنت لابنها الإقدام عَلَى ملاقاةِ المحملِ المصريّ، وَمَا زَالَتْ به حَتَّى وافقها فخرج فى عَسْكرِهِ إِلى لِقَائِهِ على العادةِ هو وعمه

كبيش، فلما أراد أن يقبل الجمل - على ما كان يفعله الشراكسة مِنَ الجهلِ - وثب إليه اثنان من الزعر من المحمل كل واحد بيده خنجر طعناه فمات من حينه، فعوجل بالعقوبة فى هذه المدة اليسيرة إذ قد تقدم أن مدة ولايته مستقلا مائة يوم، نسأل الله حسن الخاتمة ونعوذ به من سوء القضاء.

وفر عمه كبيش إلى جده فتبعوه فلم يحصلوه، وألبسوا الشريف عنان بن مغامس الخلعة، ودخلوا به مكة فوليها عنان بن مغامس، فلما وصلوا إلى أجياد تلقاهم بعض أصحاب الشريف محمد من العبيد والقواد، فتقاتلوا معهم فلم يلبثوا أن ولوا هربًا.

وَحَجَّ بِالنَّاس الشرِيفُ عنان والنَّاسُ فِى غايةِ الاضطرابِ والخوفِ.

ثم لما عزم الحاج أرسل عنان إلى كبيش عسكرًا ليخرجه من جدة ففر منها.

وسامح الشريف عنان الشيبيين فترك ما كان تأخذه الأشراف منهم بالقوة وهو خمسة آلاف درهم فى كل عام وجانب من الكسوة مع البرقع وثوب مقام الخليل.

وجرى بينه وبين كبيش فتن وجموع، ولم تصف البلاد له بحيث إنه عجز عن إقامة الجند والأشراف، فأخذ حاصل السلطان وما فيه، ونهب جدة وأموال التجار والمراكب غير مرة.

ثم إن كبيش المذكور عاد إلى جدة وحده، فنهبها وعاث عبيده فى الطرقات، فخشى عنان من كثرتهم، وأشرك معه فى الإمرة ابنى عمه أحمد بن ثقبة، وعقيل بن مبارك ثم أخاه على بن مبارك ثم دعا لهم معه على المنبر وزمزم، وظن بذلك أن يقوى أمره، ولم يساعده القدر فبلغت أحواله إلى السلطان برقوق بمصر، فعزل عنان فى رجب سنة تسع وثمانين وسبعمائة ثم ولى عوضه على بن عجلان.

فوليها على بن عجلان فى السنة المذكورة بعد عزل عنان حنقًا عليه لما اتفق فى ولايته من استيلاء كبيش، وجماعة عجلان وابنه أحمد ومن انضم إليهما وعجز عنان عن دفعهم عن الاستيلاء على جدة، فوصل النجاب إلى عنان ليسلم مكة لعلى بن عجلان، وجماعته فى النصف الثانى من شعبان من السنة المذكورة، فأقبل على بن عجلان فى جموع متقدمًا فمنعهم عنان وأصحابه من دخول مكة، وامتنع هو وجماعته من آل أبى نمى من تسليم مكة لآل عجلان، فتحارب الفريقان بالقرب من ثنية أذاخر فى التاسع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وسبعمائة فقتل كبيش بن

عجلان، وطائفة من عسكر على بن عجلان.

فتمَّ النصرُ لعنان ورجع على ومن معهم إلى محلهم وهو القصر من وادى مر وذلك فى سلخ شعبان من السنة المذكورة.

وفى شهر رمضان توجه على إلى مصر، فأقبل عليه السلطان، وولاه إمرة مكة فأقبل صحبة الحاج المصرى فى ظلٍّ من ولاه.

واستمر عنان بعد خروج على إلى القصر، ومن معه مقيما لم يبرح حتى فارقها هو ومن معه عند وصول الحاج المصرى إليها وصحبته على بن عجلان المذكور، فخرج عنان ومن معه وقصدوا الزيمة، فدخلها على وقرئ توقيعه على مقام الحنابلة، وحج بالناس، وعنان مقيم بالزيمة بوادى نخلة اليمانية وكان أصحابه سبقوه إليها، فقصدهم على بن عجلان فى طائفة من الترك فوجدوهم محاربين لقافلة بجيلة فلما أحسوا بهم هربوا وقتل أصحاب على بن عجلان منهم مبارك بن عبد الكريم من الأشراف وابن شكران من أتباعهم، وعادوا إلى مكة ومعهم من خيل الأشراف خمس، ومن دروعهم ثلاثة عشر درعًا ووصلت قافلة بجيلة إلى مكة فانتفع الناس بها، وعادوا إلى مكة عشرى ذى الحجة الحرام.

وبعد رحيل الحاج نزل عنان وأصحابه الوادى وشاركوا على بن عجلان فى أمر جدة، ثم سافر عنان فى أثناء سنة تسعين وسبعمائة واصطلح على بن عجلان والأشراف واستمر متوليًا منفردًا بالإمرة إلى أن شاركه فيها عنان فى عام اثنين وتسعين وسبعمائة، فوصل إلى مكة فى شعبان من السنة المذكورة واصطلح مع آل عجلان، وكان معه القواد ومع على الأشراف، وكانا غير متمكنين فى القيام بمصالح البلد لمعارضة بنى حسن لهما فى ذلك، واستمر عنان شريكا لعلى بن عجلان حتى فارق عنان مكة متخوفًا من آل عجلان حين أرادوا الفتك به فى المسعى وذلك فى صفر سنة أربع وتسعين وسبعمائة، وقطع ذكره من الخطبة.

ثم دخل مكة ليتجهز منها إلى مصر بعد أن أخليت له ثلاثة أيام من آل عجلان، ولم يدخل مكة إلا بعد أن استدعى من السلطان إلى مصر هو وعلى، فتوجه إلى الديار المصرية، وتلاه إليها الشريف على بن عجلان بطلب من الملك الظاهر برقوق كما ذكر.

فأقام عنان بمصر معزولا مطلقًا ثم مسجونًا بقلعة الجبل، ثم بالإسكندرية ثم

بالقاهرة حتى مات بها فى ربيع الأول سنة خمس وثمانمائة.

قال صاحب «نشأة السلافة»: وكان فى هذا التاريخ صاحب مكة الشريف حسن ابن عجلان، ثم ذكر سبب موت عنان فقال: حصل لعنان مرض خطر يقتضى إبطال بعض جسده فعولج من ذلك بإضجاعه بمحل فيه آثار النار حتى يخلص ذلك إلى أعضائه فيقويها بها ففعل به ذلك فكان أثر النار الذى أضجعوه عليه شديدًا، فأحرقه فمات فى التاريخ المذكور رحمه الله تعالى.

ورأيت فى تاريخ خلفاء الزمن وملوكه، وولاية السالكين أحسن سنن للسيد محمد بن الحسين الحسينى السمرقندى فى ترجمة الشريف عنان بن مغامس هذا ما نصه: وبقيا يعنى الشريف عنان بن مغامس، والشريف على بن عجلان على ذلك مدة بعد أن جعلت إمرة مكة بينهما نصفين ما بين وفاق وشقاق، وكيف ينتظم أمر الأملاك مع الاشتراك؟ إلى أن مات عنان قتيلاً فى شوال سنة سبع وتسعين وسبعمائة.

وسبب قتله أن أعيان الأشراف والقواد بعد أن قبض على جماعة منهم خودع فى ذلك، فأطلقهم فصاروا يكلفونه ما لا تصل إليه قدرته من أخذ الأموال من التجار والحبوب من أهل الوادى والزراع، فكثر بسبب ذلك الهرج والمرج وقل الأمان، وشق على أهل مكة الشريفة قلة الواصل وكثرة الخوف، وافترقت الكلمة بين السادة الأشراف والقواد والعبيد، فاقتتلوا بسبب ذلك ومات عنان بتلك المسالك.

هذه ألفاظه فى الكتاب المذكور، والله أعلم بالحقائق.

ولما وصل الشريف على بن عجلان إلى الديار المصرية، وقبله عنان بن مغامس أقام عنان معزولاً مطلوقًا ثم مسجونًا إلى آخر ما تقدم، وأما الشريف على فأكرمه السلطان الملك الظاهر، وفوض إليه أمر مكة المشرفة، وأحسن إليه هو والأمراء، ثم سار إلى مكة المشرفة فدخلها وقت الموسم من السنة التى خرج منها فيها سنة أربع وتسعين وسبعمائة، وفى آخر يوم منها قبض على سبعين نفرًا من الأشراف والقواد، فلم يزل يخادع فيهم حتى أطلقهم فكتموا له ذلك، وشوشوا عليه حتى قتلوه يوم الأربعاء سابع شوال سنة سبع وتسعين وسبعمائة بوادى مر وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وحمل إلى مكة المشرفة ودفن بها ليلا، وكان أخوه الشريف حسن قد حاصره

بالزاهر مدة أيام من هذه السنة، ثم توجه إلى الديار المصرية بها، فاعتقل فى السنة المذكورة، فلما وصل الخبر بوفاة أخيه على بن عجلان أطلقه الملك الظاهر برقوق وفوض إليه أمر مكة، وجميع الأقطار الحجازية لوفاة أمير مكة على بن عجلان قتلا، وجاء الخبر بولايته وقت الموسم.

وكان أخوه محمد بن عجلان وعبيد أبيه، وأخيه أحمد بن عجلان قد استولوا على مكة، وحفظوها حتى وصل إليهم من مصر فى رابع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ومعه يلبغا الناصرى وسنقر وعدة من المماليك الأتراك يزيدون على المائة أو دونها، ومن الخيل دون المائة.

ولم تتم السنة حتى وقع بين الشريف حسن وقتلة أخيه على واقعة عظيمة فى الخامس والعشرين من شوال من السنة المذكورة، وكان الظفر فيها له عليهم بحيث لم يقتل ممن معه سوى مملوك وعبد، وقتل من الأشراف نحو سبعة ومن أتباعهم نحو الثلاثين، ولم يقتل من أصحاب الشريف حسن فيما قيل غير مملوك وعبد، وكان معه ألف رجل ومائتا رجل من الترك والمولدين والعبيد وأهل مكة من الأعراب.

وأجار على حلة الشريف منصور من النهب فسلمت وكانت الوقعة بمكان يقال له الزبارة بوادى مر قريب من «أبو عروة »، فقصد الأشراف جهة الهدة، وأقام الشريف حسن بالجديد حتى أتى الموسم، وعظم بذلك أمره واستفحل بذلك قهره حتى أذل كل من عانده وناوأه، وساس الأمور بجدة مع التجار وراعاهم حتى قدموها، وأقاموا بها بعد أن تركوها، واستمر فى زيادة قدر وهيبة فى القلوب.

قال العلامة الفاسى (١): فضبط البلاد وحسم مواد الفساد، وأخذ بثأر أخيه يوم الثلاثاء خامس عشر شوال من سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، واستمر مستقلا بالولاية إلى أن أشرك معه ابنه السيد بركات فى نصف الإمرة وذلك سنة تسع وثمانمائة، ووصل توقيعه بذلك فى موسم هذه السنة وهو مؤرخ بشعبان منها.

ثم سعى لابنه السيد شهاب الدين أحمد فى نصف الإمارة فأجيب إلى ذلك وولى نصف الإمرة شريكا لأخيه بركات، وولى أبوهما نيابة السلطنة بجميع بلاد الحجاز

---

(١) ينظر: شفاء الغرام للفاسى ٢٠٨/٢ .

وذلك فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة وثمانمائة، وقرئ توقيعهم بذلك فى أوائل النصف الثانى من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وصار يدعى له ولولديه بمكة وعلى زمزم ويدعى للشريف حسن بمفرده فى الخطبة بالمدينة النبوية، وسبب ذلك أنه كان والى المدينة عجلان بن نعير بن منصور بن جماز بن شيحة الحسينى عوض أخيه نابت بن نعير فإنه كان ولى أمرها فى هذه السنة، ثم مات نابت فى صفر من هذه السنة قبل وصول توقيعه، واستمرت الخطبة باسم الشريف حسن بالمدينة الشريفة إلى أن عزل عنها عجلان بابن عمه سليمان بن هبة بن جماز بن منصور فى موسم اثنى عشر وثمانمائة، وكان يقدم فى الدعاء فى الخطبة على عجلان.

واستمر الشريف حسن وولداه إلى أن عزل هو وولداه فى هذه السنة وهى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة عن إمرة مكة بسعى الحساد، ونقل أهل الفساد، ولم يظهر لذلك أثر بمكة، فإن السلطان الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق أسرَّ أمر عزلهم لقرب الموسم خوفًا من الهرج والمرج، وولى ابن عمه على بن مبارك بن رميثة، فلما بلغ السادة الأشراف عزلهم كتموا ذلك عن الخاص والعام، فوصل أمير الحج بيشو المذكور فى موكب عظيم، ونظام تام وعساكر عديدة وهو على غاية الوجل من عدم مقابلة الأشراف، ونقص حرمته بذلك وحفظ أموال الحجاج وحقن دمائهم.

وكان من عناية الله أن مولانا الشريف حسن قابل المحامل الكريمة على العادة القديمة ولبس الخلع السلطانية على أكمل حال وأطيب بال، ثم قابل الأمير المذكور خاصة وأكرمه إكرامًا جزيلاً، فانقضى زمن الحج على أحسن الأحوال، وسافرت المحامل وتوجه كل غريب إلى بلده، ولما لم يبق إلا تجهيز الأمير، وتوديعه جهز الشريف حسن هدية عظيمة إلى الحضرة السلطانية صحبة الأمير المذكور بعد كمال رعايته وعظيم العناية به، فبعد الوداع قال له: يعلم الأمير أنا قد بلغنا أن السلطان عزم على عزلنا تصديقًا للإنهاء الباطل الصادر عن فساد كل مفسد وقول كل قائل، فلما بلغنا ذلك لم نفعل فعل أهل الظلم والجهالة الذين إذا وصل إليهم علم العزل نهبوا البلاد، وأكثروا فى الأرض الفساد.

فأجابه الأمير بأن هذه بلادكم خلفًا عن سلف، ومولانا السلطان نصره الله محب

لكم، وعلامة محبته لكم إخفاء ذلك وسوف تعلمون صحة قولى بما يأتيكم من جواب مشرفاتكم.

فلما وصل الأمير إلى مصر المحروسة وأخبر السلطان بما وقع وقدم الهدية والمكاتيب قابل ذلك بحسن القبول، ثم أرسل إلى مولانا الشريف حسن بهدايا مفخمة، وتوقيعات شريفة مكرمة، فَشَكَرَهُ فيها شكرًا عامًّا على ما فعله ظاهرًا وما صبر عليه باطنًا، ثم صَرَّح باسْتِمْرَار ولديه على ما كانوا عليه من ولاية مكة والأقطار الحجازية جميعها، واستمروا كذلك إلى سنة ثمان عشرة وثمانمائة فعزلوا بالشريف رميثة بن محمد، ثم أعيد فى عام تسع عشرة وثمانمائة بعد محاربة شديدة بينه وبين رميثة المذكور من قبل الملك المؤيد، كما يأتى قريبًا إن شاء الله تعالى، وهذا كله ببركة الصبر والتحمل والنظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى فى حفظ دماء المسلمين وأموالهم، لا سيما الحجاج وجيران بيت الله الحرام لا برحت عناية الله شاملة لحماة بلده الأمين آمين.

وَسَبَب العزلِ أَنَّ رجلًا يسمَّى جابرًا الجرشى من أرباب الأموال بجدة لما تَغَيَّرَ عليه الشريف حسن وصادره، وأخرجه من جدة لأَمرِ اقتضى ذلك - عزم إلى مصر، وكدر خاطر السلطان على مولانا الشريف حسن ودبرهم فى هذا الأمر، وأن يولوا على بن مبارك هذا وكان محبوسًا عندهم بالقلعة سنين فولوه، وأرسلوا صحبته الأمير بيسق أميرًا على الحاج المصرى، واستعد لحرب الشريف حسن، فلما تحقق مولانا الشريف حسن هذا الخبر استعد هو أيضًا للحرب وجمع من الخيل والرجل ما لم يجمعه غيره.

قيل: كان عدة الخيل ستمائة والرجل يزيدون على خمسة آلاف، وتعب الناس لذلك وضاقت بهم مكة، وتعبت الخواطر وكادت القلوب أن تبلغ الحناجر.

ثم رضى السلطان الملك الناصر على الشريف حسن وأولاده بعد توجه الحاج من القاهرة فى السنة المذكورة فأعادهم إلى ولاية مكة، فبعث الأمير بتقليد وخلع صحبة خادمه فيروز ساقى، وكتب إلى أمير الحاج المصرى بيسق يأمره بالكف عن محاربتهم، وكان تاريخ تقليد ولايتهم هذه فى هذه السنة هى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة فى الثانى عشر من ذى القعدة الحرام، ودامت ولايتهم على ذلك إلى أثناء

صفر الخير سنة ثمان عشرة وثمانمائة كما سنذكره.

وقبل وصول الحج بأيام أخمد الله الفتنة بوصول الأمير فيروز الطواشى الساقى المذكور بالخلع والمراسيم يعتذرون إلى الشريف حسن ويطمئنونه أن البلاد بلاده، وسألوا فضله أن يأذن للحاج فى دخول مكة ويعطيهم الأمان، فإنهم لما بلغهم تهيؤه تأخروا ولم يقدموا على الدخول.

فقال الشريف حسن: لا يدخلوا إلا إذا سلموا إلينا جميع ما معهم من السلاح وآلات الحرب وإلا ما دخلوها فوافقوه على ذلك ووافقهم على إعادته إليهم عند السفر فدخلوا مكة رابع ذى الحجة الحرام، وجاء الأمير إلى بيت الشريف حسن بأجياد وسلم عليه واعتذر.

قيل: ولم يحج الشريف حسن ولا أحد من أهل مكة إلا ناس قليل مخفون بحيث أن يوم النحر صلوا العيد بمكة ولم يشاهد ذلك قط.

وأصاب الحجيج مشقة عند المأزمين، ووقع قتل ونهب، ولو لم يغث الحجيج أهل الخيل جماعة الشريف حسن لذهب الحاج جميعه، وكذلك ليلة النحر بمنى وكان الفاعل لذلك غوغاء الأعراب.

وفى موسم خمس عشرة وثمانمائة قتل من آل جميل جماعة أهل شر وفساد ففزع الحاج وركب الشريف حسن بنفسه حتى أخمد الفتنة وسلم الله المسلمين.

وفى خامس ذى الحجة عام سبع عشرة وثمانمائة وقع بين القواد وأمير الحاج والناس فى صلاة الجمعة أن هجم القواد بخيولهم ملبسة إلى مقام الحنفى يطلبون الأمير، وكان قد أمسك شخصًا منهم يسمى جرادا وحبسه فتشفعوا بالشريف حسن إليه فامتنع من إطلاقه، فعظم الأمر وجرى القتال وسال الدم فى المسجد الحرام، وخرج الأتراك فى إثرهم إلى جهة سوق باب إبراهيم، فانهزم القواد ورجع الأمير، ودخل المسجد وأدخل خيله، وسمر أبواب المسجد جميعها ما عدا أربعة أبواب، وباتت خيولهم ملابس والمشاعل تقد فى المسجد وغالب الحجيج به، واجتمع القواد فى أسفل مكة بمحل يسمى الطنبداوى، وانتهبت البيوت والأسواق، وسلم الله الحاج ببركة الشريف حسن، وصادف ذلك أن مكة فى ذلك العام مغلية، فأنشد إذ ذاك بعض الأدباء وفيه تورية حسنة: [من مجزوء الكامل]

وقَـعَ الـغـلاءُ بـمـكَّـةٍ والناسُ أمْسوا فى جمادِ
والـخـبـزُ قَـلَّ فَـهَـاهُـمُ يـتـقـاتَـلُـونَ عَـلَـى جَـرَادِ

والسبب فى إمساكه أن أمير الحاج منع الناس من حمل السلاح بمكة، فرأى جرادًا هذا وهو حامل سلاح فأمسكه فوقع ما وقع.

قلت: عتو هذا الجيل قديم غير جديد، فلعل الشر إن لم ينقص منهم لا يزيد.

ودامت ولاية الشريف حسن مع ولديه بركات وأحمد إلى شهر صفر من عام ثمان عشرة وثمانمائة.

ثم وليها الشريف رميثة بن محمد بن عجلان بن رميثة بن أبى نمى بن أبى سعد الحسن بن على بن قتادة، تولى عشرين فى صفر من السنة المذكورة، وما دخل مكة ولا دعا له فى الخطبة ولا على زمزم إلا فى العشر الأول من ذى الحجة من السنة المذكورة، وكانت قراءة توقيعه فى يوم دخول مكة وهو يوم الجمعة مستهلَّ ذى الحجة سنة ثمان عشرة وثمانمائة، فدعا له الخطيب ودعا له على قبة زمزم حين طوافه بعد صلاة الجمعة، وذكر فى توقيعه الشريف بعد الترجمة أنه تولى نيابة السلطنة عن عمه حسن، وإمرة مكة عن ولديه بركات بن حسن وأحمد بن حسن، وذلك أنه لما عزل الشريف حسن برميثة بن محمد بن عجلان فارقها الشريف حسن إلى «الشقان» فجبا الجلاب هناك، وأمر أهلها بالتدبير أو المضى إلى ينبع، ثم وصل إلى الجديد من وادى مر، واستولى على غلال أصحاب رميثة، واستمر بالجديد إلى جمادى الآخرة من سنة تسع عشرة وثمانمائة.

وفى رجب منها بعث ولده الشريف بركات ومولاه القائد زين الدين شكر لاستعطاف السلطان الملك المؤيد، فأنعم عليه بولاية مكة.

وكتب له بذلك توقيعًا مؤرخًا من عشر رمضان من السنة المذكورة، وجهز له خلعة صحبة بعض الخاصكية المؤيدية والنجابة السلطانية فانتهوا إليه وهو فى ناحية جدة فى أوائل العشر الأوسط من شوال، فقصدَ مَكَّةَ متوليًا منفردًا دون ولديه من قبل الملك المؤيد، ثم شاركه ابنه السيد بركات بن حسن سنة أربع وعشرين وثمانمائة بإشارة من الملك المظفر ابن الملك المؤيد صاحب مصر كما سيأتى، فدخل مكة فى بكرة يوم الأربعاء سادس عشر شوال من سنة تسع عشرة وثمانمائة، وبأثر طوافه

بالبيت قرئ توقيعه وكان يومًا مشهودًا.

وفى ليلة الأربعاء المذكور فارق مكة السيد رميثة بن محمد ومن معه بعد حرب شديد كان بينه وبين عسكر عمه الشريف حسن بالمعلاة يوم الثلاثاء خامس عشر الشهر المذكور استظهر فيه الشريف حسن على من عانده لأنهم لما أقبلوا من الأبطح، ودنوا من باب المعلاة أزالوا من كان على الباب وقربه من أصحاب رميثة بالرمى بالنشاب والأحجار، وعمد بعضهم إلى باب السور فدهنه وأوقد تحته النار، فاحترق الباب حتى سقط إلى الأرض، وقصد بعضهم طرف السور الذى يلى الجبل الشامى مما يلى المقبرة فدخل منه جماعة من الترك أصحاب الشريف حسن ورقوا موضعًا مرتفعًا من الجبل، ورموا منه بالنشاب والأحجار من كان داخل الدرب من أصحاب رميثة فتعبوا لذلك كثيرًا، ونقب بعضهم فى السور نقبًا متسعًا حتى اتصل بالأرض فدخل منه جماعة من الفرسان من عسكر الشريف حسن إلى مكة، ولقيهم جماعة من أصحاب رميثة، فقاتلوهم حتى أخرجوهم من السور، وقد حصل فى الفريقين جراحات وهى فى أصحاب رميثة أكثر.

وقصد بعض عسكر الشريف حسن السور مما يلى بركة الصارم، فنقبوا فيه نقبًا متسعًا ولم يتمكنوا من الدخول منه لأجل البرك فإنها مهواة، فنقبوا موضعًا آخر فوقه.

ثم إن بعض الأعيان من أصحاب الشريف حسن أجار من القتال، وكان الشريف حسن كارهًا للقتال رحمة منه لمن مع رميثة من القواد والعمرة، ولو أراد الدخول إلى مكة بكل عسكره من الموضع الذى دخل منه بعضهم لقدر على ذلك، ولكنه أمضى الجيرة بترك القتال، وبأثر ذلك وصل إليها - لما تعب الناس من النهب والقتل والخوف - جماعة من العلماء والصلحاء من أهل مكة والمجاورين وحملوا المصاحف والربعات على رءوسهم، وسألوا فضل الشريف حسن فى كف عسكره، فأجابهم إلى ذلك بشرط أن يخرج من عانده من مكة المشرفة، فمضى الفقهاء إليهم وأخبروهم بذلك، فتأخروا عنه إلى جوف مكة، ودخل الشريف حسن ومن معه السور وخيم حول بركتى المعلاة، وأقام هناك حتى أصبح فدخل مكة بكرة يوم الأربعاء سادس عشر شوال كما تقدم ذكر ذلك آنفًا، وطلب الشريف رميثة وأصحابه

مهلة خمسة أيام فأعطوها ثم خرجوا إلى ناحية اليمن.

ثم فى عام أربعة وعشرين وثمانمائة تسلطن الملك المظفر ابن الملك المؤيد، فأرسل توقيعًا شريفًا للشريف حسن فقرئ بظل زمزم موضوعه أنه فوض أمر مكة إلى مولانا الشريف حسن المذكور، وأشرك معه ولده بركات، وأرسل لهما خلعة سلطانية من خزانته.

ثم وصل مرسوم شريف قرئ بالحطيم بمحضر أفندى مكة وشيخ حرمها والأعيان والصدور، مضمونه على لسان الملك المظفر بأن والده الملك المؤيد انتقل إلى رحمة مولاه، وأنه بويع بعهد من أبيه وموافقة من أهل الحل والعقد من العلماء والقضاة والأمراء، وأنه جلس على سرير السلطنة فى ثانى محرم من سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وأن المطلوب من مولانا الشريف حسن وذويه السمع والطاعة وتأمين الأقطار الحجازية، وأنه مبذول لهم من جانب السلطنة الشريفة كمال الرعاية وبذل الجود والعطاء، وكان يومًا مشهودًا.

ثم بعد مدة استمال الشريف حسن ابن أخيه رميثة المذكور وأحضره وصفا له فتغير عليه القواد وقاموا بناصر ذوى ثقبة بن أبى نمى، وهم أولاد أحمد بن ثقبة بن رميثة، وأولاد على بن مبارك، وأعلنوا بالسلطنة لثقبة بن أحمد بن ثقبة بن أحمد بن ثقبة، وميلب بن على بن مبارك، وجعلوا لكل منهما نوابًا بجدة، فجهز الشريف حسن عليهم فهربوا وقصدوا مكة واحتربوا هم ونائبه فيها مفتاح الزفتاوى فقتلوه وقتلوا جماعة معه ثم رجعوا إلى الغد.

ولما كان النصف الثانى من شوال سنة عشرين وثمانمائة قدم من مصر ولده الشريف بركات بن حسن فسر به، ولما طاف بالكعبة دعى له على زمزم، وصار أبوه الشريف حسن يتفوه له بالولاية ويقول لبنى حسن وغيرهم: هو سلطانكم.

وفى ربيع الأول من سنة إحدى وعشرين أظهر للناس أنه تخلى عن أمر مكة لابنه الشريف بركات بحيث أجلسه على المفرشة بالمسجد الحرام، وجلس هو على مفرشة عنده، فجمح ابنه حسن عن طاعة أبيه لكونه قدم أخاه بركات عليه، فأرسل له أبوه الشريف حسن يستعطفه فلم يمل أحمد لذلك، وحمله جماعة من المفسدين على نهب جدة ففعل ولم يسهل ذلك بأبيه، ثم دخل فى الطاعة، ثم نكث ومضى

إلى ينبع، ثم عاد مع الحاج ثم رجع.

وفى سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة: سأل من الملك المؤيد تفويض مكة لولديه بركات وإبراهيم، وتنصل من إمرتها لضعف بدنه وميله إلى التخلى للعبادة، وتوجه عقب الكتاب إلى صوب حلى آخر صفر.

وفى ثانى عشر ربيع الأول من سنة أربع وعشرين وصل تشريفان له ولابنه بركات، وعهد يتضمن ولايتهما لمكة من الملك المظفر أحمد ابن الملك المؤيد كما تقدم ذكر ذلك، وأراد الشريف حسن أن يشرك ولده إبراهيم مع أخيه بركات، فحصل تنافر بين الأخوين، فوصل إبراهيم من جانب اليمن ومعه الأشراف، وألزموا المؤذن بالدعاء له ففعل، ولم يسهل ذلك بأخيه بركات، وصار يخطب لإبراهيم مع أبيه حسن وأخيه بركات.

وفى سنة ست وعشرين أمر الشريف حسن بقطع الدعاء لولده إبراهيم من الخطبة وغيرها؛ لأنه أمره بمباينة ذوى راجح فلم يفعل.

ولم يزل الشريف حسن مستمرًا فى الولاية إلى أن صرف عنها هو وولده بركات سنة سبع وعشرين وثمانمائة بالشريف على بن عنان بن مغامس بن رميثة بن أبى نمى، وكان ذلك بتفويض السلطان برسباى ملك مصر المحروسة.

فوليها الشريف على بن عنان المذكور وجهز معه الملك برسباى من مصر جيشًا كثيفًا وخيلاً وأميرًا يكون عنده كما هو العادة؛ لأنه عزل حسنًا المذكور بموت سلطانه الذى ولاه وهو الملك المظفر ابن الملك المؤيد، فخشى السلطان برسباى من مخالفة حسن المذكور ومحاربته لعلى، وكانت توليته فى سنة سبع وعشرين المذكورة، فدخل مكة بمن انضم إليه من الأشراف والقواد المنسوبين لعجلان، فطاف والمؤذن يدعو له على زمزم، وقرىء توقيعه بالحطيم على العادة ولبس الخلعة، ثم خرج راكبًا من باب الصفا مختلعًا فطاف فى شوارع مكة المكرمة، ثم نزل إلى جدة المعمورة لأخذ مواجبه من الواصلين من الهند وترفق بهم غاية الترفق.

ثم عاد إلى مكة ونادى بالأمان، وأن كل من اختار الخدمة من الأشراف والقواد يأتى إلينا ومن لا فلا يقيم عندنا وله منا شهر زمان مهلة.

وقيل: إنه استمال الشريف رميثة بن محمد بن عجلان الذى كان متوليًا قبل

للشريف حسن، فوصل إليه، فلزمه الأمير قرقماس ووضعه فى الحديد، وذهب به إلى مصر صحبة الحاج، فأرسل إلى الإسكندرية هو والشريف مقبل صاحب ينبع، وخرجوا رابع عشر ذى الحجة إلى الشريف حسن، وذلك أن الشريف حسن لم يحدث منه شيء لما عزل بالشريف على بن عنان بل لما سمع أنه قرب من مكة واصلاً إليها من مصر متوليًا صحبة الحاج خرج عنها هو والأشراف الذين معه والقواد، وتنحى بناحية قرب مكة وراسل السلطان برسباى بالكلام اللين وعرفه أن عزله كان بغير سبب فخرجوا إليه وأرادوا أن يهجموا عليه لأنه مكر به بعد التجار، واستدناه فقصدوه ليظفروا به فلم يروه بحماية الله تعالى، واستمر الشريف على بن عنان إلى أن عزل عنها غرة ذى الحجة من عام ثمان وعشرين وثمانمائة بالشريف حسن.

فوليها الشريف حسن بعهد من ملك مصر برسباى لأنه راسله بالكلام اللين وعرفه عزله بغير سبب كما تقدم، فرضى عليه وأعاده إلى إمرة مكة.

ولما بلغ الشريف حسن هذا الخبر أرسل ولده السيد بركات لمواجهة أمير الحاج المصرى فواجهه ودخل هو وإياه إلى المسجد، وحلف له بالله تعالى أن السلطان قد رضى على أبيك الشريف حسن وأنه لا يناله منى ولا من السلطان سوء، وكان الحلف على الملتزم.

فعند ذلك دخل الشريف حسن وواجه الأمير، وأهدى إليه هدايا، وأعطاه مِحَفَّةً حَجَّ فِيهَا.

ثم إنه حج بالناس وأظهر طاعة السلطان برسباى، وأعلن بالدعاء له، فلما وصل خبر ذلك إلى السلطان برسباى طلب حضور مولانا الشريف حسن إليه فتوجه فى الموسم من السنة المذكورة.

فلما وصل أمر السلطان أن يتلقاه الأمراء والأكابر ويمشوا بين يديه.

ولما حضر بين يديه أنعم عليه بالخلع العديدة والإنعامات المزيدة، والتزم الشريف حسن أن يخدم السلطان بثلاثين ألف دينار وأرسل عبده شكر إلى بندر جدة ليأتيه بها، واستمر بمصر على كمال الحشمة ووفور النعمة.

فكتب بعض أدباء مكة إلى السلطان - على لسان مكة - يذكر أنها متشوقة إلى

الشريف حسن قوله: [من الوافر]

مِنَ البلدِ المُخصَّص بالأمان وَكَعْبَتِهِ المشرَّفة المباني
تقبّل كَفَّ سُلْطَانِ البرايا أبى النصرِ الموفَّقِ للمَعَانِي
برسْبَاى الذى ملكتْ يداه جَمِيعَ الخَلْقِ مِنْ قاصٍ ودانِى
وتُنْهِى ما بها من عُظْمِ شوقٍ إلى سُلْطَانِها بَدْرِ الزمانِ

إلى أن قال: [من الوافر]

فَرُدَّ إلىَّ سلطانى سريعًا فإنِّى كَالجوادِ بِلاَ عنانِ

فسمعها السلطان فرسم للشريف حسن بالتوجه إلى مكة وجهزه، وبرز ثقله خارج الديار المصرية، فاعترض له الضعف فعاد إلى القاهرة ومكث بها أيامًا يسيرة، ثم توفى بها سادس عشر جمادى الأخرى سنة تسع وعشرين وثمانمائة، ودفن فى حوش الملك الأشرف برسباى المذكور بالصحراء وقبره هناك مشهور يزار.

وله وقائع مشهورة فى التواريخ مسطورة مع إخوته، وبنى عمه وملوك مصر والقواد وغيرهم، وكان ذا ثروة عظيمة، وحشمة وافرة جسيمة، وخيرات كثيرة عميمة.

بنى بمكة رباطًا للرجال ورباطًا للنساء، وبنى المارستان، وعمر أوقافه وزاد فيها ما يحتاج إليه، وجدد رباط رامشت عند باب الحزورة، ولم يل مكة قبله من يدانيه فى شىء من ذلك.

وقد مدحه كثير من شعراء مكة المعتبرين، منهم الشيخ شهاب الدين أحمد الفاسى والد تقى الدين الفاسى مؤرخ مكة، ومنهم شيخ الإسلام شرف الدين إسماعيل بن أبى بكر المقرى، وكان الملك الناصر أحمد بن إسماعيل الغسانى صاحب اليمن تشفع إلى الشريف حسن بن عجلان سنة سبع وثمانمائة فى ترك التشويش على موسى صاحب حلى وحثه على الموافقة على ذلك القاضى شرف الدين المذكور بقصيدته النونية وهى قوله: [من الكامل]

أحسنتَ فى تدبيرِ مُلْكِكَ يا حَسَنْ وأَجَدتَّ فى تحليلِ أخلاطِ الفتَنْ
ما كنتَ بالنزقِ العَجُولِ إلى الأذَى عند النِّزَاعِ ولا الضعيفِ أخا الوَهَنْ

تمسِى ورأيُكَ عن هواكَ معوَّقٌ … والغرُّ ملقٍ فى يد الأهوا الرَّسَنْ
داءُ الرياسةِ فى متابَعَةِ الهوَى … ودواؤها فى الدفْعِ بالوجْهِ الحَسَنْ
وإذا الفتَى استَقْصَى لنصرةِ نفسِهِ … قَلَبَ الصديقُ لحربه ظَهْرَ المجَنّ
لا تُصْغِ إن شرٌّ دعا فالشرُّ إن … تنهضْ له يَنْهَضْ وإن تسكُنْ سَكَنْ
وسديد رأيٍ لا يُحَرِّكُ فتنةً … سَكَنَتْ وإن حَرَّكْتَهُ الفِتَنُ اطمأنّ
رَدَّ العدوَّ إلى الصداقةِ حكمةً … صَفَتْ من الأكدارِ عيشَ ذوى الفِطَنْ
بالسيفِ والإحسانِ تُقْتَنَصُ العلا … وحصولُهَا بهما جميعًا مرتَهَنْ
لا خيرَ فى مِنَنٍ ولا سيف بها … ماضٍ، ولا فى السيفِ ليس له مِنَنْ
أما حلىّ فإنَّ خوفَكَ لم يدَعْ … أهلاً بها للزائرينَ ولا وطَنْ
حلَّيْتهُم منها وجسمُكَ وادعٌ … فى مكةٍ لم يُحْوِجُوكَ إلى ظَعَنْ
تركوا لك الأوطانَ غَيْرَ مدافعٍ … وتعلَّقوا بذرى الشوامخِ والقُنَنْ
حفظوا نفوسًا بالفرارِ أطلَّها … سيفٌ على الأرواح ليْسَ بمؤتَمَنْ
ولحفظها بالفَرِّ أكْبرُ شاهدٍ … لك بالعلا فِلمَ التأسُّفُ والحَزَنْ
فاغمدْ سيوفَكَ رغبةً لا رهبةً … ما فى قتيلٍ فرَّ مرعوبًا سمنْ
واكرمْ سيوفَكَ من دِمَا طرداتها … فالحُرُّ يكرمُ سيفَه أن يمتَهَنْ
قد كان لا يرضَى يخطِّط سيفَهُ … فى ظهر مَنْ ولَّى أبوك أبو الحَسَنْ
وقد اقتدرْتَ وباقتدارِ ذوى النهَى … تنفلُّ أحقاد الضغائن والإحَنْ
موسَى هِزَبرٌ لا يطاقُ نزالُهُ … فى الحرب لكنْ أين موسَى من حَسَنْ
هذاكَ فى يَمَنٍ وما سلمَتْ له … يَمَنٌ وذا فى الشامِ لم يَدَعِ اليمَنْ
فانظرْ إلى موسَى وقد لعبَتْ به … لما سخطْتَ عليه أحداثُ الزمَنْ
ذاقَ المرارَ لفَوْتِهِ أوطانَهُ … فَقِهِ مرارةَ فُرْقة الرُّوحِ البَدَنْ
لو شئتَ وهو عليك سَهْلٌ هينٌ … لجمعتَ بين الجَفْنِ منه والوسَنْ
بِعْ منه مهْجَتهُ وخُذْ ما عندَهُ … ثمنًا يكنْ منك المثمِّنُ والثمَنْ
هذى مساوَمَةُ الفحولِ ومَنْ يبِعْ … ما بعْتَ لم يعلَقْ بصفقته الغبَنْ
جئنا بحُسْنِ الظَّنِّ نسألك الرضَا … والعَفْوَ عنه فلا تخيِّبْ فِيك ظَنّ
فالحرُّ يكرمُ سائليه يَرَى لهم … فضلاً كما ابتدءوه بالظنِّ الحَسَنْ

ويهينُ سائله اللئيم لظنِّهِ   فى مثله خيرًا وذلك لا يُظَنّ
لا زِلْتَ للشرفِ المخلَّد بانيًا   شرفًا ومجدًا ثابتًا لِبَنى حَسَنْ

ولما وقع بين الشريف حسن بن عجلان وبين الأمير أحمد بن إسماعيل الغسانى صاحب جهات اليمن الحرب منع مسير الجلاب بالحبوب إلى أهل الحرم الشريف، فأنشأ السيد المرتضى قصيدة يستشفع عند الأمير أحمد فى إطلاق الحبوب إلى أهل مكة، فقبل شفاعته وأطلقها، وهى هذه: [من الكامل]

عطفًا على الحرمَيْن يا ملكَ اليَمَنْ   وتجاوزًا يا خيرَ أملاكِ الزمَنْ
وارفُقْ بأهلِ اللهِ فى أمِّ القُرَى   إن لم تكُنْ أنتَ الرفيقَ فمَنْ ومَنْ؟!
إنى أشيرُ عليكَ رأىَ نصيحةٍ   والمستشارُ من البرية مؤتمَنْ
لا تسلكَنْ فيهم طريقَةَ قاطِعٍ   للرحْمِ إنهُمْ هناك كمَنْ ومَنْ
ألْمَنُّ منكَ وأنتَ مَنٌّ سائلٌ   للمسلمينَ وأنتَ فى المَنَّيْن مَنْ
أنت الذى ورثَ المكارمَ عن يدٍ   ولك المعالمُ والعلومُ بكلِّ فَنّ
ولكَ السماحةُ والتقَى من أسعدٍ   ولك الوجاهَةُ والعلا من ذى يَزَنْ
فانظُرْ بعينِ حقيقةٍ وسماحةٍ   تلك الأمَاكِنَ والمساكنَ والسكَنْ
لا تحملنَّكَ عزةٌ ملكيَّةٌ   فى حربها بخلافِ مَنْ فيها سكَنْ
إن الذى فَعَلَ الشريفُ وإن جنَى   مثلُ الحصاةِ وأنتَ فى عفو حضنْ
من ذا الذى ما ساء قَطُّ ومن له الـ   حسنَى فقَطُّ ومن له العقل الحَسَنْ
حسنٌ مليكٌ فى الحجازِ معظمٌ   فيها ولكنْ أين أحمدُ من حَسَنْ؟!
هذا له يَمَنٌ وهذا ما له   إلا فضَاضَة ما تفيضُ به عَدَنْ
ولك المدائنُ والسفائنُ كلُّها   وله يلمْلَم والجنوبُ إلى قَرَنْ
أطلقْ له سُفُنَ البحارِ فإنها   تجرِى إلى البيتِ العتيقِ على سَنَنْ
بيتٌ له خَضَعَ الملوكُ جلالةً   وبه تفاضَلَتِ الفرائضُ والسنَنْ
وأبوكَ أولُ مَنْ كساه كما أتَى   فى مُحْكَم التاريخِ فى مَلَإِ اليمنِ
ولكُمْ به آثارُ فضلٍ ظاهرٍ   فيما تظاهر من بناه وما بطَنْ
رسم المظفَّر فيه مكتوبٌ بما   ءِ العين أيده المؤيِّدُ بالمنَنْ
وعلَى منابرِهِ يشاعُ بذكْرِكُمْ   بِالصَّوْتِ فى الحرمِ الشريفِ إذا ازدجَنْ

أوَ لَيْسَ فى هذا الدعاء لأهلِهِ ولمن أقامَ به الأمانُ من الفتَنْ؟!
صُنْ مكة الغراءَ من فِتنٍ ومِنْ محن فأنتَ أحقُّ من طفأ الفِتَنْ
ومن المحاسِنِ فى الكلام قصيدةُ الْـ مُقْرى التى جمع البديعَ بها وَسَنّ
قد قال فى أبياتها وبديعهَا لله ذاك القَوْلُ من قولٍ حَسَنْ
داءُ الرياسةِ فى متابعة الهوَى ودواؤه فى الدفعِ بالوجْهِ الحَسَنْ
وإذَا الفتى استقصَى لنصرة نفسِهِ قَلَبَ الصديقُ لحربه ظهر المجِنّ
لا تُصغِ إن شرٌّ دعا فالشرُّ إن تنهضْ له ينهض وإن تسكُنْ سَكَنْ
وسديدُ رأيٍ لا يحرِّكُ فتنةً سكَنَتْ وإن حركْتَهُ الفتنُ اطمأنّ
رَدُّ العدوِّ إلى الصداقة حكمةً صفَتْ من الأكدار عَيْشَ ذوى الفطَنْ
هذى نصائحُ أبرزتْها فكرةُ الْـ مقْرى تفوقُ الدُّر ليس لها ثمَنْ
فاقبل نصائح تتصلْ بل إنها حِكَمٌ تفوقُ الدرَّ يدخله الوَهَنْ
أنتَ المليكُ ابنُ المليكِ ولَيْسَ مِنْ شأنِ الملوكِ الشمِّ إحمالُ الإحَنْ
وترى الطبيبَ إذا تقادم جُرْحُ من يدويه لاطَفَهُ وغيَّرَ بالدهنْ
كلٌّ له شجنٌ وما لك فى العلا شجَنٌ سوى الإصلاح يَالَكَ من شجنْ
ولأَنْتَ فى الإسلام رأسٌ واحدٌ والرأسُ مهما اعْتَلَّ يتبعُهُ البدَنْ
رفقًا بأهْلِ المكَّتَينِ ورحمةً بهِمُ وعطفًا شاملاً لبنى حَسَنْ
وإذا أردتَّ له معاتبةً علَى ما فاتَ قَلْتَ الصيفَ ضيَّعْتِ اللبَنْ
لا زلتَ فى الشَّرَفِ المعظَّم خالدًا ما غرَّدَ القُمْرِيْ الطروبُ على فَنَنْ

وكان له من الأولاد جملة، منهم: أبو القاسم وعلى وإبراهيم وبركات.

ثم وليها الشريف بركات بن حسن بن عجلان، وذلك أنه استدعاه السلطان برسباى سادس عشر رمضان من السنة المذكورة وهى ستة تسع وعشرين وثمانمائة، فلما قدم إلى مصر المحروسة أواسط ذى القعدة فوض إليه إمرة مكة المشرفة عوضًا عن والده، وقرر أخاه إبراهيم بن حسن نائبًا عنه ثم ألبسهما خلعتين عظيمتين، فوصلا إلى مكة المشرفة ودخلاها بالخلع السلطانية، وقرئ توقيع مولانا الشريف بركات بالحطيم، على طريقة أسلافه الكرام، لا زال الملك فيهم وفى عقبهم إلى يوم القيام.

قال المقريزى فى كتاب « السلوك فى أخبار الملوك » [(١)]: لما كان ليلة الأربعاء ثالث عشر شهر رجب من عام تسع وثلاثين وثمانمائة بعث الشريف أبو زهير بركات ابن حسن بن عجلان أمير مكة بعثًا فيه يشكو عبيد أبيه الشريف حسن بن عجلان من بطون حرب إحدى قبائل مذحج ومنازلهم حول عسفان نزلوا سنة ست عشرة وثمانمائة، وقد أخرجهم بنو لام من أعمال المدينة النبوية فكثر عبثهم، وأخذهم السابلة من المارة إلى مكة بالميرة، وجعل على هذا البعث أخاه الشريف على بن حسن بن عجلان ومعه من بنى حسن الشريف ميلب بن على بن مبارك بن رميثة وغيره فى عدة من الناس، وسار معهم الأمير أرنبغا أمير الخمسين المركزين بمكة من أماكنه السلطانية وصحبته منهم عشرون مملوكا، فنزلوا عسفان يوم الخميس رابع عشر الشهر المذكور، وقطعوا الثنية التى تعرف اليوم بمدرج على، حتى أتوا القوم وقد أنذروا بهم، فتنحوا عن الأرض وتركوا بها إبلا مع خمسة رجال، فأول ما بدءوا أن قتلوا الخمسة رجال، وامرأة حاملاً كانت معهم وما فى بطنها أيضًا، واستاقوا الإبل، حتى إذا كانوا نحو النصف من الثنية المذكورة ركب القوم عليهم الجبلين يرمونهم بالحراب والحجارة، فانهزم الأمير أرنبغا فى عدة من المماليك وقد قتل منهم ثمانية ومن أهل مكة وغيرهم نحو الأربعين وزيادة وجرح كثير ممن بقى، وغنم القوم منهم اثنين وثلاثين فرسًا وعشرين درعًا، ومن السيوف والرماح والأسلحة والأسلاب ما قيل إن مبلغه ثمنًا خمسة آلاف دينار وأكثر، فلما طلعت شمس يوم الجمعة دخل أرنبغا بمن بقى معه من المماليك مكة وهم يقولون: قتل جميع من خرج من العسكر، فقامت عند ذلك بمكة صرخة من جميع نواحيها لم نر مثلها شناعة، وأقبل المنهزمون ناسًا بعد ناس فى عدة أيام، وحمل الشريف ميلب يوم السبت ميتًا، ومات بعده بأيام شريف آخر من جراحة شوهت وجهه كله من أعلى جبهته إلى أسفل ذقنه فإنا لله وإنا إليه راجعون.

واستمر الشريف بركات على ولاية مكة إلى سنة خمس وأربعين وثمانمائة ونزل فيها بأخيه على بن حسن كما سيأتى، وقيل فى التى بعدها بموضع يقال له الحشافة بالقرب من جدة، وأجاز له فى سنة خمس جماعة من العلماء: الحافظان العراقى

(١) ينظر: السلوك للمقريزى (٤/ ٩٧١ - ٩٧٢)

والهيثمى والبرهان ابن صديق والمراغى وعائشة بنت عبد الهادى، والشمس الفرسيسى فى آخرين، وحدث عنه البقاعى وغيره، كذا فى نظم العقيان فى أعيان الأعيان للسيوطي(١).

ونشأ شريف الهمة حسن الأفعال جميل الأخلاق، أشركه والده كما قلناه فى إمرة مكة مرارًا وكان هو المشار إليه فى جميع أحوالها.

ولما توفى والده ارتحل إلى القاهرة بطلب من السلطان برسباى، والتزم بما على والده من المال، واستقر فى إمرة مكة بمفرده.

ولما وصل إلى مكة حسنت سيرته فى الناس وعم الناس خيره.

ولما مات السلطان برسباى، واستقل الملك الظاهر جقمق فى مملكة مصر طلبه إلى القاهرة، فامتنع من التوجه إليه خوفًا منه بسبب واقعة وقعت له مع الظاهر المذكور لما حج وهو أمير فى عام سبع وعشرين وثمانمائة، فعند ذلك رام السلطان أن يولى أخاه عليا، وكان على عنده بالقاهرة لأنه وقع بينه وبين أخيه بركات منافرة سنة اثنتين وأربعين، فعزم إلى مصر فأقام بها إلى أن ولى سنة خمس وأربعين كما سيذكر فلم يوافق على ذلك من أركان الدولة من يعتمد عليه فتوقف، ثم فعله فى سنة خمس وأربعين وثمانمائة.

فولى أخاه علىَّ بن حسن بن عجلان إمرة مكة المشرفة منفردًا وجهز معه عسكرًا فوصل العلم إلى الشريف بركات وهو بوادى الآبار توجه من فوره إلى جدة وأخلى مكة المشرفة من نوابه، ثم وصل وزير الشريف على بن حسن قبله إلى مكة وهو القائد مزروع العجلانى ودعا لأمير مكة من غير تعيين على منبرها فى رجب من العام المذكور، ثم وصل الشريف على فدخل مكة، ولما نزل الشريف بركات إلى جدة استولى عليها، فراسله الشريف على وأخوه الشريف إبراهيم، ومن معهما من الأمراء، وسألوه أن يخرج من البلاد فامتنع إلا من المحاربة، فوقعت بينهما الحرب بالجديد بالقرب من جدة فكانت الغلبة لعلى ومن معه من الأمراء والأتراك، واستولوا على جدة، وتوجه الشريف بركات إلى جهة اليمن هو ومن معه واستمر على فى إمرة مكة مدة قليلة إلى أن قبض عليه مع أخيه إبراهيم يوم الثلاثاء رابع شوال سنة ست

---

(١) ينظر: نظم العقيان للسيوطى ص ١٠٠ .

وأربعين وثمانمائة، وكبلا فى الحديد وظهر عزله بأخيه الشريف أبى القاسم.

فوليها الشريف أبو القاسم بن حسن بن عجلان وكان بالقاهرة، فطلب الأمراء المقيمون بمكة ولده السيد زاهر بن أبى القاسم بن حسن بن عجلان، وألبسوه خلعة ليكون نائبًا عن أبيه، فقام بحفظ البلاد ولده السيد زاهر وذهب بالأخوين على وإبراهيم إلى جدة وأركبا فى جلبة إلى القاهرة.

وتفصيل هذه الواقعة هو ما ذكره الجزيرى فى تاريخه فقال: لما كانت سنة ست وأربعين وثمانمائة وصل حكم من السلطان الظاهر جقمق صاحب مصر مع الأمير تمراز بالقبض على الشريفين على بن حسن بن عجلان وأخيه إبراهيم وتجهيزهما إلى مصر، فحضر الأمير تمراز إلى مكة فى مستهل شوال، فأرسل الأمير بيورلدى إلى الشريف على ابن الشريف حسن أن يحضر هو وأخوه السيد إبراهيم للبس خلعتيهما، فتخيلا من ذلك وكانا بوادى الآبار، ثم اقتضى رأيهما أن يقيم السيد إبراهيم بوادى الآبار ويتوجه إليهم الشريف على، فوصل إلى مكة فى عشاء ثالث شوال وأتاهم فى صباحها، فسألوه عن أخيه السيد إبراهيم فذكر لهم عنه عذرًا أقامه، فألبس الأمير تمراز الشريف على خلعة حمراء وحياصة. وقرئ مرسوم السلطان مضمونه: إنه بلغنا أن الشريف على متشوش الخاطر، فليطب نفسًا وليقر عينًا فإنا لا نغير عليه شيئًا أبدًا ما دام على العهود والمواثيق، وقد بعثنا له بخلعة ولأخيه إبراهيم كاملية فَرو قاتم، فقرت بذلك عين الشريف فلبسها وطاف بالبيت، فحسن الأتراك للشريف على أن يرسل إلى أخيه إبراهيم فيصل للبس خلعته السلطانية، فاعتمد الشريف على قولهم، وأرسل إلى أخيه ثم اجتمعا بهم فى المسجد فألبس الشريف إبراهيم خلعته، وكان بعض الأمراء الأتراك اعتذر عن حضوره ذلك اليوم بأنه شرب مسهلاً، فحسن الباقون من الأتراك للشريفين أن يعزما إليه من المسجد لزيارته، وكان نازلاً بمدرسة الباسطية ففعلا، فبعد أن وصلا إليه مع جماعة الأتراك أخرج أحد الأمراء مكتوبًا من السلطان، ودفعه لذلك الأمير المزبور فأعطاه لكاتبه فعرّبه ثم قرأه، فكان مضمونه الأمر بالقبض على الشريف على وأخيه إبراهيم، فقبض عليهما وتفرق من كان معهما، وحصلت الغوغاء فى البلد ثم استعادوا منهما ما ألبسوهما من الخلع، ثم إنهم سفروهما إلى جدة وأركبوهما البحر إلى مصر.

انتهى ما قاله الجزيرى.

قال السخاوى فى « الذيل »: كان الشريف على بن حسن المذكور حسن المحاضرة كريمًا، ذا ذوق وفهم، ونظم حتى قيل: إنه أحذق بنى حسن وأذوقهم وأفضلهم.

ومن نظمه: [من الوافر]

وإن نـال الـعُـلاَ قَـوْمٌ بـقـومٍ   رَقِـيـتُ عُـلـوَّهَـا فـردًا وَحِـيـدَا

أقام بمصر بعد أن أخذ هو وأخوه، فاستمر إلى أن مات بدمياط مطعونًا مسجونًا سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة عَنْ خمسٍ وأربعين سنةً.

ثم وصل أبو القاسم إلى مكة يوم السبت سابع عشر ذى القعدة من سنة ست وأربعين وثمانمائة لابسًا خلعة الولاية وقرئ توقيعه بالحطيم ونودى له كما تقدم، واستمر الشريف أبو القاسم فى ولاية مكة إلى سنة تسع وأربعين وثمانمائة، فهجم عليه الشريف بركات، ففر الشريف أبو القاسم منها وأقام الشريف بركات بها، فأشيع بمكة أواخر السنة المذكورة أن السلطان أوصى أمراء الحاج بالقبض على الشريف بركات، لاستيلائه على مكة من أخيه أبى القاسم بعد النداء له وقراءة توقيعه عند الحطيم، وكان قد وصل مع الحاج نحو عشرين أميرًا لذلك، فجمع الشريف بركات الخيل والرجل، وأكثر من الجمع على العادة وتقدم وواجه أمير الحاج واختلع ولكن لم يدخل لأحد منهم بيتًا كما كان يقع.

فلما كان يوم عرفة لما عزم الأمراء إلى الصلاة بمسجد نمرة وقعت جفلة حال بروزهم وثار غبار شديد فظن الناس أنهم أغاروا على جهة الشريف بركات فاختلط الحاج وألبست الأشراف والقواد وكانت ساعة مهيلة والعياذ بالله وسلم الله المسلمين، غير أن الشريف بركات لم يقف فى المحل المعتاد فيه الوقوف له بل وقف وحده ومن معه منفردًا عن الحاج ناحية، ثم نزح بعد النزول إلى منى عن مكة. وعاد الشريف أبو القاسم إلى ولايته عليها، واستمر الشريف بركات نازحًا عن مكة إلى سنة إحدى وخمسين وثمانمائة.

فلما كان سابع عشر ربيع الأول من سنة إحدى وخمسين وصل قاصد من مصر وذكر أن السلطان قد رضى على الشريف، وأعاد إليه إمرة مكة المشرفة، وسبب

ذلك أن ولده الشريف محمد بن بركات توجه إلى مصر بسبب السعى لولده الشريف بركات فى إمرة مكة، ودخل القاهرة وحصل له من الملك الظاهر جقمق غاية الإكرام وأنعم على والده الشريف بإمرة مكة المكرمة، فَهَذَا هُوَ السبب فى رضا السلطان عن أبيه، ووصول القاصد بخبر توليته مكة المشرفة، فلما وصل القاصد إلى مكة بهذا الخبر أمر الشريف أبو القاسم أتباعه بالخروج من مكة إلى وادى البيار، وخرج وأخلى مكة، وذهب إلى مصر، فمات فى السنة التى مات فيها أخوه على وفى شهرها بالطاعون المذكور أيضًا، وكان موته بالقاهرة وصلى عليه السلطان، ودفن على والده الشريف حسن بن عجلان بحوش الأشرف برسباى كذا فى « الذيل » للسخاوى، واستمر الشريف بركات فى مكة السنة المذكورة، ثم استدعاه السلطان سنة إحدى وخمسين ليقدم عليه إلى القاهرة فما خالف ولم يمتنع كما امتنع أولاً، وقدم عليه إلى القاهرة مستهل رمضان فى السنة المذكورة، فنزل السلطان إلى لقائه إلى الرميلة وبالغ فى إكرامه واحترامه، وخرج من القاهرة عائدًا إلى مكة عاشر رمضان من السنة المذكورة مكرمًا مرعيا معاملاً بكل جميل، وحصل له من الإكرام ما لا مزيد عليه مما لم يقعْ لأحد من أهله قبله.

وأخذ العلماء عنه بالقاهرة وازدحموا للقراءة عليه لعلو سنده وسمعوا من نظمه.

ثم عاد إلى مكة المشرفة وكان يوم وصوله يومًا مشهودًا عظيمًا، وذلك أنه لما كانت ليلة السبت أواسط شوال من السنة المذكورة سنة إحدى وخمسين وثمانمائة دخل الشريف بركات إلى مكة محرمًا بالعمرة فطاف وسعى وخرج إلى الزاهر وبات به، ثم دخل مكة فى صبح اليوم المذكور لابسًا التشريف وقرئ توقيعه بالحطيم، وطاف ونودى له بالدعاء على قبة زمزم كعادة أسلافه الكرام ملوك مكة.

ومما وقع فى زمانه أن أمير اليمن أحمد بن إسماعيل الغسانى المتقدم ذكره آنفًا كتب إليه أن يفرغ له دور مكة وأن يلقاه إلى حلى صحبة قصيدة هى قوله: [من الرمل]

مَنْ لصَبٍّ هاجه نَشْرُ الصَّبَا   لم يزدْهُ البَين إلا طَرَبَا
وأسيرٍ كلَّما لاحَ له   بارقُ القبلة مِنْ صبيا صَبَا
ولِطَرْفٍ أرق إنسانُهُ   دون مَنْ يَشْتَاقُهُ قد حُجِبَا
لم يزلْ يشتَاقُ نحلان وإن   قَدُمَ العهدُ ويَهْوَى الطُّنبا

ما جرَى ذكْرُ المغانى فى ربا صبواتِ الشطِّ إلا انْتَحَبَا
حَبَّذا صلْبُ القعيسا وطَنِي ولويلاتِ بها ما أَعْذَبَا
وربا البيرَيْنِ مِنْ قبليِّه وشراب بهما ما أعْذَبَا
يا أخلاَّيَ بصبْيا واللُّوَى وأحبَّائى بتَيَّاكَ الرُّبَا
هل لنا نَحْوَكُمُ من عودةٍ لِنَرَى سَدْرَكُمُ والكثبا
فَلَكَمْ خادَعْتُ قَلْبِى جاهدًا يتسلَّى عن هَوَاكُمْ فأَبَى
فاذكروا صَبًّا بِكُمْ ذا لوعةٍ بان عنْكُمْ كَارِهًا مغتصبا
وإذا عَنَّ له ذِكْرَاكُمُ صاحَ واغتصَّ الحسا وانتحبا
وإذا ما سَجَعَتْ قمريَّةٌ صاح من فَرْطِ الأسى واحَرَبَا
هَائِم القَلْبِ كئيبًا دنفًا لم يَرَ السلوانَ عَنْكُمْ مَذْهَبَا
أترى الحيَّ الذى كنَّا وهُمْ جيرة بالشَّامِ أيامَ الصبا
ليتَ شعْرِى بعدنا هل طَنَّبُوا بِرُبا نَخْلان بَغْدى طنبا
أو تناءَتْ بهِمُ عِيسُهُمُ أو سَبتهمْ بعدنا أيدى سَبَا
عجبًا للدَّهْرِ ماذا سنَّهُ ولأحداثِ اللَّيالي عَجَبَا
ما طلبتُ الدَّهْرَ إلا صعبًا وطلبتُ السِّلْمَ إلاَّ حَرَبا
ولئنْ حلَّ بقلبى نُوَبٌ مُضْمِيَاتٌ تستهلُّ النوبا
وبلانِى مِنْ زمانى محنٌ بَلَغَ الضدُّ بها ما طلبا
فلعَمْرِى ما بلت إلا صفا وانتضَتْ إلا حسامًا خَشَبَا
غير لا أنكر مَعْرُوفًا ولا عَابِس الوجه إذا الدَّهْرُ كَبَا
لا ولا منكرث لو أنه وَهَبَ الحوباءَ فيما وَهَبَا
وأجلّ الناسِ صبرًا لو على غارب المكروهِ يومًا ركبَا
إخوتِى بالشامِ بَلْ يا سادتِي وأعزّ النَّاس أمًّا وأبا
ومَسَاعِير الوغَى من حسنٍ وبنو الحربِ إذا ضاق القبا
ألشناخيبُ الذُّرَى من معشرٍ ألصَّنادِيدُ الكرامُ النجبا
إن قضيتُمْ من هوانا أَرَبًا ما قضينا من هواكُمْ أَرَبَا
أو تناءَتْ دارنا عنكُمْ ولم يأتنا منكُمْ على البُعْدِ نبا

لا تناسَوْنا وإنْ طال المدى كَمْ تناءٍ بعد بُعْدٍ قربا
فإذا ريحٌ جنوبٌ جَنَّبَتْ فاسألوها كيْفَ حال الغُرَبَا
فلديها من تَنَاهى لَوْعَتي وغرامِى ما يحطُّ الشُّهُبَا
حَبَّذا لو أننِى مِنْ دونِكُمْ خائضًا سُمْرَ العوالى والظُّبَا
وجياد الخيلِ ينشزْنَ على مَتنَاتِ الدَّارِعِينَ العذبا
ألحق الأقران شُعْثًا شُزَّبًا تتعاطَى بالعواليِ شزبا
أيها الرَّائِحُ بالشَّامِ على قلقِ السَّير كَهَبَّاتِ الصَّبَا
أو كَسَهْم طارَ عن مَخْنيهِ ذات زورَيْنِ إذا ما ركبا
قُلْ لمنْ كان لمأذونِ القضا ولأحداثِ الليالى سَبَبَا
والذى أوقد نيران الغَضَا زِدْ على نارك ياذا حَطَبَا
واستلِبْ ما شئْتَ عمدًا فعسَى عن قريبٍ أن تحطَّ السَّلبَا
إن يكنْ سَرَّكَ ما سا فعَسَى كَيْ ترَى من بعدِ هذا عَجَبَا
إن ظننْتَ الدَّهْرَ يومًا واحدًا فلقدْ حَاولْتَ أمرًا كذبا
رُبَّ صدعٍ كان أعيا شعبه أدركَتْهُ رَحْمَةٌ فانشعبا
وسرورٍ بعد يأسٍ قد أتَى وزمانٍ بعد بُؤسٍ أعشَبَا
ولَكَمْ فتحٍ منَ اللهِ أتَى حيثُ لا يُدْرِكُ ساعٍ هربَا
فجلا همًّا وأطفا حرقًا وشَفَى غِلًّا وجَلَّى كربا
وأعادَتْ رحمة البارِى على مُؤيسٍ من حالِهِ ما ذهَبَا
إن خبونى عنك فى مُسْتَوْدَعٍ فشهابُ العَزْمِ منِّى ما خَبَا
أو سلا جَفْنك لذَّاتُ الكرَى فَجُفُونِى والكَرَى ما اصطحبا
رُبَّ ليلٍ بتُّهُ مرتقبًا لطلابِ الثَّأْر أرْعَى الشهبا
أرقبُ النَّصْرَ سَريعًا طالعًا وأراعى الغَفْرَ مهما غربا
لنهارٍ تنقطُ السُّمْر به فى الوغَى ما شكلَتْ بيض الظبا
وجياد الخيلِ فى معركةٍ مجلبات يرتكبْنَ الغيهبا
فينالُ المُرتَجِى مِنْ ربِّهِ فى أعَادِيه الذى قد طَلَبَا
وصلاةُ الله تغشَى دائمًا أحْمَدَ المُخْتَارَ ما هَبَّ الصَّبَا

فلما وصل المكتوب والقصيدة إلى الشريف بركات بن حسن المذكور تصدى لجواب أحمد بن إسماعيل المذكور السيد الأمجد فصيح الفصحاء عفيف الدين السيد عبد الله بن قاسم الذروى، فكتب إليه هذه القصيدة على لسان الشريف بركات ابن حسن بن عجلان، رحم الله الجميع، فقال: [من الرمل]

بِالقَنَا الخطِّىّ والبيضِ الظبَا وبِخيلٍ تتبارَى سربا
سابحاتٍ مقرباتٍ ضُمَّرٍ أعوجيَّاتٍ عِتَاقٍ شُزَّبا
بُرِّيَتْ آذانُهَا من جودةٍ مثلَ أقلامٍ بها كَمْ كُتِبَا
داحسياتٍ إذا ما طردَتْ فائتا ما بان عنها هَرَبَا
وإذا ما انحدَرَتْ عن طاردٍ سَبَقَتْ لم يَبْغِ منها أربا
عُوِّدَتْ بالحرب حتى إنها لم تَزَلْ تَهْوَى التلاقِى طَرَبَا
بدروعٍ سابغاتٍ زُعفٍ شاهدَتْ أيامَ عادٍ وسَبَا
صافياتٍ ذات نسجٍ محكمٍ وقتيرٍ مثل أعيانِ الدبا
وببيضٍ روسةٍ لامعةٍ نصَّهُ صانعه فانْتَصَبَا
وبأبطالٍ إذا ما استَعَرَتْ نارُ حربٍ ولظاها التهبا
وردوها برماحٍ ذُبَّلٍ وبأسيافٍ تحزُّ العصبا
نحمى البَيْت ونَحمِى جدةً وربا حلى وأكناف قبا
بسيوفٍ جردَتْ من غمدٍ كبروقٍ يخترقْنَ الحُجُبَا
قُلْ لمن رامَ يناوينا ومَنْ رام يأتِى بيتنا مُغْتَصِبا
لا تحجَّ البيْتَ إلا خاضعًا دافعًا عُشْرًا لنا ثُمَّ حُبَا
وإذا ما حَجَّهُ ذو عزةٍ ترك الأمْرَ وجا مصطحبا
وإذا ما كان رأسًا لم يعُدْ عندنا يا صَاحِ إلا ذَنَبَا
سورةُ الفيلِ لنا كافيةٌ أُتركِ الجَهْلَ وخَلِّ الكذبا
ليس بيتُ اللهِ وادِى زمع لا ولا دمت لمَنْ قد طلبا
إنَّ بيْتَ اللهِ بيْتٌ خصَّهُ منه بالنصْرِ فلَنْ ينغلبا
دونه خَيْلٌ عتاقٌ شزَّبٌ عسفَتْ بالدارعِينَ النجبا
ومليك من بنى حيدرةٍ طابَ أجدادًا وأمًّا وأبا

بركاتُ المنتقَى من حَسَنٍ فارسُ الهيجا إذا ما انتدبا
ألْمُكَنَّى بالنبيِّ الهاشمِي جده الكاشفُ عنا الكُرَبَا
أطولُ الناسِ فخارًا ساميًا وأجلُّ النَّاس طرًّا حسبا
كَمْ جَنَى من عربٍ ذى عزةٍ ولمالِ الضدِّ كم قد نَهَبَا
ولَكَمْ مِنْ مـلكٍ عـاندَهُ فغدا عن مُلْكِهِ منقلبا
لو رآه الموتُ فى يَوْمِ الوغَى تَرَكَ الأمرَ وحطَّ السَّلَبَا
ولو انَّ الليْثَ وافَى سطوَهُ نكس الرأسَ وهَزَّ الذَّنبا
لا ولا يقرى لَحوحًا ضيفه لا ولا يقطَعُ حَقَّ الأدبا
وإذا ما البَغْلُ مِنْ قُلٍّ حَيًا رامَ سَبْقَ الخيلِ جَهْلاً تَعِبَا

فلما بلغه هذا الجواب تخلف عن الحجِّ، وأمر من يترصد الذروى فى بلاده صبيا، فترصدوا له حَتَّى إذا نزل الساحل جازان تحيلوا عليه حتى ركب معهم فساروا به إلى أحمد بن إسماعيل المذكور فحبسه وضيق عليه، فأمر الشريف بركات بفدائه بمائة ألف ناقة، فقال أحمد المذكور: والله ما أخرجه من الحبس حتى ينشعب هذا الصدع، فأنشأ قصيدة فى الحبس، فأرسل الله تلك الليلة مطرًا فأصبح الحجر قد انشعب بقدرة الله تعالى، فأطلقه وأحسن إليه وأوصله مأمنه. انتهى.

واستمر الشريف بركات إلى أن توهن بالمرضِ سنة تسع وخمسين وثمانمائة، فسأل مشدجدة خانى بك الظاهرى أن يرسل إلى الملك يلتمس منه للشريف بركات أن يولى إمرة مكة لولده السيد محمد بن بركات بن حسن؛ لأنه ضعيفُ الجسم ضعيف الحركة، فأرسل خانى بك يسأل فى ذلك إلى الملك، فقدرت وفاة الشريف بركات قبل ورود الخبر، وجاء الجواب بعد موته بيوم بولاية ولده محمد بن بركات، وكانت وفاة الشريف بركات بن حسن بن عجلان عصر يوم الاثنين تاسع عشر شعبان سنة تسع وخمسين وثمانمائة بأرض خالد من وادى مر، وحمل على أعناق الرجال، ودخل به مكة أثناء ليلة الثلاثاء، وغسل وصلى عليه بالمسجد الحرام بعد صلاة الصبح، ودفن بالمعلاة وبنى عليه قبة موجودة إلى الآن. ورثاه الشهاب المنصورى بقوله: [من الكامل]

قالوا قضَى بركاتُ قلْتُ يحقُّ لي أن أُتْبِع العبراتِ بالزفراتِ
يا ترحَةَ الأحياءِ عند فراقِهِ وبقربِهِ يا فرحَةَ الأمواتِ

والكعبةُ الغَرَّاءُ قالَتْ قد غدا لُبْسُ السوادِ عليه مِنْ عاداتي
فـانـظُـرْ إلـى آثـارِهِ فـى مـكَّـةٍ فَرِحَابُهَا لم تَخْلُ من بَرَكَاتِ

وكان رحمه الله مهيبًا وقورًا شجاعًا مقدامًا غضنفرًا كثير الخيرات جزيل المبرات ميمون الحركات، بنى بمكة رباطًا للفقراء وهو موجود، وهم به قاطنون.

له النثر الفائق والنظم الرائق، فمن شعره قوله: [من البسيط]

يا من بذكرهِمُ قد زادَ وَسْواسى وقد شُغِلْتُ بهمْ عَنْ سائرِ النَّاسِ
ومَنْ تقرَّرَ فى قلبى محبتُهُمْ وجئتُهُمْ طائعًا أسْعَى على راسِي
سألتكُمْ شربةً مِنْ ما مشارِبِكُمْ تُغْنِى عن الراحِ إذ ما لاحَ فى الكَاسِ

واستمر فى الولاية إلى عام ٨٥٩ تسع وخمسين وثمانمائة.

وكان ملكًا شهمًا عارفًا بالأمور، فيه خير كثير وحلم زائد مع حسن السياسة والشجاعة المفرطة زائد السكينة والوقار، وله بمكة مآثر كثيرة وقرب نافعة، منها بمكة رباط للرجال وغير ذلك.

مات بأرض خالد من وادى مر، وحمل على أعناق الرجال وغسل فى داره وطيف به كما هو المعتاد، ودفن بالمعلاة، وبنى عليه ولده الشريف محمد قبة وتأسف الناس لفقده، تغمده الله برحمته.

وكانت مدة ولايته تسع سنين من سنة إحدى وخمسين إلى سنة تسع وخمسين وثمانمائة.

وكان له من الأولاد جملة منهم الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان. ولى مكة بعد وفاة أبيه.

وقد تقدم ذكر التماس أبيه ذلك فى مرض موته.

وفى عصر يوم الثلاثاء فى يوم دفن والده وصل المرسوم بالإجابة إلى ما سأل فيه والده، وصحبة المرسوم خلعة الولاية عوضًا عن أبيه، فلما ورد المرسوم بذلك كان محمد غائبًا ببلاد اليمن لحفظ بعض أموال والده، فدعى له على زمزم بعد صلاة المغرب من ليلة الأربعاء، فلما كان يوم الجمعة قرئ المرسوم مخاطبًا فيه السيد بركات ومضمونه: إنه ورد إلينا كتاب الأمير خانى بك مشدجدة بالثناء على المخدوم، وقد بلغنا ضعفه وتوعك جسده وقلة حركته فأقمنا مقامه فى إمرة مكة

ولده السيد محمد بن بركات.

والمرسوم مؤرخ بسادس عشر رجب سنة تسع وخمسين وثمانمائة.

فلما كان رابع شوال من السنة المذكورة وصل كتاب من السلطان الملك الظاهر أيضًا إلى السيد الشريف محمد بن بركات بالعزاء فى والده الشريف بركات، وتوقيع باستقراره واستمراره فى إمرة مكة عوضًا عن والده مؤرخ فى أوائل شهر رمضان من السنة المذكورة، ودام إلى سنة ثمانين وثمانمائة.

ثم استناب ولده الشريف بركات بن محمد بن بركات، ثم توفى هو عام ثلاث وتسعمائة كما سيأتى ذكره، ومدة ولايته خمس وأربعون سنة.

ومن فتوحات الشريف محمد عام ثلاث وسبعين: أنه غزا طائفة زبيد ذوى مالك ابن رومى بين خليص ورابغ، وقتل منهم سبعين رجلاً وقتل شيخهم رومى وأخاه مالكًا وغنم منهم أموالاً عظيمة من جملتها ثلاثون ألف بعير.

وفى سنة سبع وسبعين وثمانمائة من دولته اتفق أن أمير الحاج المصرى منع الحاج العراقى من دخول مكة وخرج الأتراك والشريف محمد بن بركات بن حسن وغالب العسكر ملبسون، فلما احتاطوا بالحاج العراقى أمروهم بالدخول إلى مكة، فلما دخلوها أمسكوا الأمير والدوادار وأخذوا المحمل العراقى، وزنجروهما وأركبوهما جملين، ودخلوا بهما مكة، ثم بعد الحج عزموا بهما إلى مصر، ومن بعد تلك السنة لم يدخل محمل من العراق إلى مكة إلى الآن.

وفى عام إحدى وثمانين وثمانمائة ورد مرسوم السلطان قايتباى - طاب ثراه - بأن عشر اليمانى بينه وبين الشريف محمد بن بركات مناصفة، وبأن لمولانا الشريف محمد كل مال الموتى الذين لا وارث لهم إلى أن يبلغ ألف دينار جديد، فما زاد على ذلك كان للسلطان، وبأن أموال اليتامى فى حفظ أمير السلطان بمكة بعد أن كانت فى حفظ قاضى الشرع الشريف.

ووصل محمل من العراق فلم يدخلوا به إلى مكة المشرفة، وبذلوا على دخوله مكة وطلوعه عرفة مالا جزيلاً فلم يوافقهم على ذلك مولانا الشريف محمد المذكور.

وفى سنة اثنتين وثمانين بنيت المدرسة الأشرفية القايتبائية بمكة المشرفة.

وفيها غزا الشريف محمد على جازان، ونهبها وأحرق حصنها، وأخرب سورها وقتل عدة مستكثرة من رجالها، وغنم شيئًا كثيرًا من أموالها، وأسر طائفة عظيمة من نسائها وأطفالها، وكان معظمهم من الأشراف، وتبلغت العساكر من أموالهم وأولادهم ونسائهم بأموال كثيرة وباعدهم فى سائر الأطراف.

قال العلامة جار الله بن فهد القرشى المكى: وكان ذلك فتحًا عظيمًا أوجب جلالة مولانا الشريف محمد ورجحانه على من سلف من هذا البيت المبارك، وخافته القبائل وامتلأت من مهابته الصدور.

وفى عام أربع وثمانين كان حج مولانا السلطان قايتباى - رحمه الله - وصحبه من الديار المصرية أعيانها المشهورون من العلماء والصلحاء، وأولاد الرؤساء أهل الحل والعقد، وتجهز بالأوضاع السلطانية، وصحب من الدواب والخلع والأموال ما لا يحصره عد ولا يحويه حد، وخرج لاستقباله الشريف محمد وولده الشريف هزاع، والقاضى إبراهيم بن ظهيرة وولده القاضى أبو السعود، وقابلوه فى بدر فى افتتاح ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة على أجمل حال من كثرة العساكر وجمالتهم بالسلاح المذهب والثياب الحرير الفاخرة، والخيل المسومة والذخائر والركاب الملبسة بأنواع الذهب، والحلية النظيفة والسيوف المسقطة.

وقد تقدم شرح ذلك بأبسط من هذا عند ذكر ترجمة السلطان قايتباى فى الباب السادس المخصوص بولاة الشراكسة فلا حاجة بنا الآن إلى تكريره.

واستمر الشريف محمد بن بركات على الولاية وحمدت سيرته فى البلاد، واطمأن بوجوده العباد، ولم يزل فى زيادة علو وارتفاع، وتوافر نعم وخيرات وساع، كل ذلك مع فعل الخير والإحسان، والمبرات التى شمل بها القاصى والدان، وتكرار زيارة جده المصطفى ﷺ، والإحسان إلى المجاورين بالحرمين الشريفين، والمحلين المعظمين المنيفين، خصوصًا من يتوسم فيه الخير والصلاح، وفاق فى ذلك من تقدمه من أسلافه الكرام.

ووقع فى أيامه من العدل والطمأنينة ما لم يقع فيما تقدم من الأيام، وفوض إليه نيابة السلطنة بالأقطار الحجازية، والاستنابة فى المدينة المنورة والينبع ممن يختاره، وصرح باسمه الشريف على منبر المدينة بعد السلطان وقبل صاحبها، ونفذ أمره فى

جميع الأقطار الحجازية من أعمال الينبع كنبط والحورا وما فوق ذلك من الشام إلى أعمال جازان وما والاها من اليمن والبلاد الشرقية على التمام، وما حول ذلك من بلاد الحجاز وسراتها وبجيلة وأعمالها، وانفرد فى ذلك بعلو شأن.

وتحدث بهيبته وسطوته القاصى والدانى، ولطالما جهز جيوشه وسراياه إلى من خالف عليه وناوأه، وظفر بهم كل الظفر، واستأصل أموالهم وملكهم وقهر، كقتال أهل الينبع لما لم يوافقوا على الخضوع، وأجلى الجميع من بلادهم وكفهم عن مقاصدهم ومفاسدهم.

وكأهل جازان لما وقع منهم ما وقع من العصيان، فقتلهم واستبى، وملك بلادهم واجتبى.

وكقتل أهل زبيد وإهانتهم، ثم إكرامهم لما دخلوا فى الطاعة وإعانتهم.

وكقتل أهل حلى والعبيد، وتشريدهم كل التشريد، وإخراجهم من البلاد، والقبض على أميرهم الحرامى وجعله مع أهل الجرائم والعناد، إلى غير ذلك مما لا يحصيه قلم كاتب ولا ديوان حاسب.

ولقد كان والله حسنة من حسنات الزمان، ومنة من الله تعالى على القاصى والدان، تواضعًا وأدبًا وفهمًا وعقلاً ومداراة واغتفارًا مع حسن الشكالة ووضاءة الصورة والمواظبة على الطواف والجماعة عند وصوله إلى المحل الشريف ومزيد الوقار، والسكون والعدل، وكف جماعته عن أذى الرعية ومسايسته للتجار وعدم الطمع والتطلع لما فى أيديهم ومجاملتهم والذب عنهم، وفعل الخير الذى يحصل به الثواب العظيم كرباط بمكة المشرفة مع ما وقفه عليه والسبل العديدة بطريق الوادى وجدة، وآبار كثيرة يحصل بها النفع للمسافرين، كالذى بطريق المدينة الشريفة، وبجهة اليمن وغير ذلك من الحسنات، ولم تزل دولته قائمة قويمة وأموره منتظمة وأحواله مستقيمة.

وهو مبجل معظم عند الملوك لا يخالفونه فيما يختار فى جميع الأقطار الحجازية، ويراعون خاطره فى جميع الأحوال المنسوبة إليه، إلى أن اختاره الله تعالى لدار البقاء ونقله إلى دار كرامته، فانتقل إلى رحمة الله تعالى فى شهر محرم الحرام سنة ثلاث وتسعمائة بوادى الآبار، وحمل على أعناق الرجال إلى مكة المشرفة، وغسل فى بيته ودخل به المسجد وطيف به أسبوعا وصلى عليه عند باب

الكعبة بعد أن نادى له الريس على زمزم بصيغة الصلاة على الملك العادل أبى الفقراء والمساكين، إلى غير ذلك من التراجم.

ودفن بالمعلاة وبنى عليه ولده قبة عظيمة موجودة إلى الآن.

ومن جملة خيراته سبيل بالنوارية وسبيل آخر[١] أوقف على ذلك أوقافًا كثيرة وهى بوادى مرّ شهيرة.

ضاعف الله ثوابه وأحسن فى العقبى مآبه.

وخلف من الأولاد ستة عشر ذكرًا غير الإناث منهم خميصة وجازان وهزاع وبركات وقايتباى وعلى وراجح.

ثم وليها الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان.

كانت ولادته سنة إحدى وستين وثمانمائة فى ربيع الأول بمكة.

أمه عمرة بنت محمد بن على بن أحمد بن ثقبة بن رميثة.

دخل القاهرة سنة ثمان وسبعين وثمانمائة، وذلك بسبب أنه ورد إلى مكة المشرفة فى السنة المذكورة مرسوم من سلطان مصر بطلب سلطان مكة المشرفة الشريف محمد بن بركات عوضًا عنه، فأرسل الشريف محمد بن بركات ولده الشريف بركات بن محمد بن بركات عوضًا عنه ومعه قاضى القضاة إبراهيم بن ظهيرة، وولده القاضى أبو السعود بن ظهيرة وجماعة من أقاربه، فأكرم السلطان ومن دونه موردهما، وأشركه مع أبيه محمد ابن بركات بن حسن بن عجلان، ورجع متزايد العز.

ووقع فى أيام الثمان من سنة إحدى وتسعين وثمانمائة بين ترك أمير الحاج الأول وأمير المحمل قتال عند باب بازان بالمسعى وشج فيهم جماعة من الفريقين والتحم القتال بضرب السيف والدبوس ورمى النشاب، ثم سكّنه الله بمجئ أمير الأول ثم أحضروا القضاة والفقهاء وكتب بذلك محضر.

وفى سنة تسعمائة اتفق أن الحاج المصرى خرج عليه العرب فأخذوا غالبه؛ وكذلك الغزاوى خرجوا عليه ولكن لم يظفرهم الله به، وكذلك الحاج الشامى خرجوا عليه وأخذوه أجمع وأسروا بعض التجار، وكل ذلك فعل بنى لام المفسدين، ولم يسمع بمثل هذا الاتفاق فى سنة واحدة، ولم يزل الشريف بركات

(١) بياض بالمخطوط.

يتزايد حتى استقل بالملك بعد وفاة والده الشريف محمد سنة ٩٠٣ ثلاث وتسعمائة، وكان السلطان يومئذ محمد بن قايتباى، وتزايد فى الترقى فى العلوم والفضائل حتى صار مرجعًا فى حل الأمور المشكلات ودفع العدو، كم سافر للأعداء فرجع مسرورًا وبالظفر محبورًا.

وقد ترجمه العلامة الشيخ عبد العزيز بن فهد الهاشمى فى مؤلف له سماه « غاية المرام، بأخبار سلطان البلد الحرام » وساق نسبه فى ديباجته وختمه باستيفاء أخباره وما مدح به. وملخصه: أنه سمع الحديث بالقاهرة فى رحلته الأولى فى السنة المذكورة وهى سنة ثمان وسبعين وثمانمائة على المسند شهاب الدين أحمد الشناوى ثلاثيات البخارى وحضر مجلس بدئه وختمه، وأجازه من عدة من البلدان جملة من المشايخ: منهم عبد الرحمن بن خليل التابوتى، وأسماء بنت المهرانى، وأم هانئ الهورينى، ونشوان الحنبلية، وهاجر المقدسية، والعلم صالح البلقينى، والسعد بن الرزى، والشهاب الحجازى، والبرهان البقاعى، وقاسم بن الكريك، وابن قطلوبغا الأمير الأقصرائى، وأبو بكر بن صدقة المناوى، والمعز الكنانى، والتقى الشمنى، والجلال بن الملقن، وأخته صالحة، والبهاء المصرى، والجلال القمصى، والتقى ابن فهد، ووالده أبو بكر وعمر، وأخوه عطية، وعبد الرحيم الأسيوطى، وإبراهيم الزمزمى، وأحمد السوايطى، والقاضى عبد القادر المالكى، وأبو الفضل المرجانى، وأبو الفرج المراغى، وزينب بنت الشويكى، وآسية بنت جار الله الشيبانى، وإبراهيم ابن قاضى عجلون، وأبو ذر الحلبى، وأحمد بن الصلف، وأبو السعود العراقى، وأبو نافع الأزهرى، والتقى القلقشندى، والشموس الخمسة: الأفقهسى، والقلوانى، والزفتاوى، والسخاوى، والشيخ الفخر السيوطى، والكمال إمام الكاملية، والمحب بن الشحنة، ويحيى المناوى، وخلق كثير.

وخرَّج له الشيخ الرحلة جار الله بن عبد العزيز بن فهد عن أربعين شيخًا من مشايخه أربعين حديثًا فى فضل أهل البيت النبوى سماها « غاية الأمانى والمسرات، بعلو سلطان الحجاز أبى زهير بركات» وذلك فى سنة ست عشرة وتسعمائة، وقرأ على الشريف بركات بعضها بمنزله دار السعادة من أول الأربعين التى خرجها له إلى آخر الحديث الثالث مع الكلام على الحديث وأجاز له روايتها عنه، وكتب له بخطه

تحت طبقة سماعها ما صورته « الحمد لله ما ذكر من القراءة والإجازة صحيح فى تاريخه، وكتبه الفقير بركات بن محمد بن بركات عفا الله عنه وعن والديه والمسلمين أجمعين » وكانت القراءة المذكورة فى يوم الأربعاء رابع عشر ذى الحجة الحرام سنة ٩١٧ سبع عشرة وتسعمائة، وحصل للشريف بركات غبطة عظيمة بتخريج تلك الأحاديث، وأكرم بذلك الشيخ جار الله المذكور إكرامًا عظيمًا كما هو شأنه من إكرام العلماء.

وأجاز الشريف بركات جار الله المذكور فى استدعاء كتبه إليه الشيخ جار الله مؤرخ بيوم الجمعة ثالث عشر ربيع الثانى عام خمس عشرة وتسعمائة.

وكتب له الشريف بركات بالإجازة فى السنة التى بعدها.

وصورة ما كتبه الشريف بركات: « الحمد لله الذى نظم جواهر السنة فى سلك السند، ووصل من إلى جنابه استند، وقطع من أعرض واستبد، وخذل من كفر وجحد.

أما بعد، فقد أجاز كاتبه الفقير إلى الله تعالى بركات بن محمد صاحب مكة المشرفة عفا الله عنه لمن ذكر فى هذا الاستدعاء المبارك ما يجوز لى وعنى روايته بشرطه المعتبر، عند أهل الأثر، وأسأله ألاَّ ينسانى من دعواته، فى خلواته وجلواته.

والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

واستقر الشريف بركات فى ولاية مكة منفردًا بعد وفاة أبيه، وكانت وفاة أبيه يوم الأربعاء رابع ربيع الثانى سنة ثلاث وتسعمائة، وقرئ مرسومه بالحطيم بحضرة كاتم السر البدرى محمد بن مزهر لوصوله بقصده وقصد أخيه هزاع، وأذن له فى تولية المدينة للسيد فارس بن سامان الحسينى زوج أخته الشريفة حزيمة.

واستمر على الولاية المذكورة إلى أن خالعه أخواه هزاع وأحمد المدعو جازان فى سنة أربع وتسعمائة، ثم اصطلحوا، ثم كانت الحرب بين هزاع وبركات سجالاً.

قال الشيخ الفاضل أبو الضياء وجيه الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الديبع الشيبانى فى كتابه بغية المستفيد: لما كان يوم الأربعاء سلخ ذى القعدة من سنة ست وتسعمائة - بتقديم التاء - كانت وقعة السيد هزاع بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان مع أخيه الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، وهى

أول وقعة انكسر فيها صاحب مكة الشريف بركات بن محمد المذكور وهزم فيها هزيمة عظيمة، واستولى الركب المصرى على خزائنه ونسائه وأمواله.

والأصل فى ذلك أن الملك العادل طومان باى صاحب مصر لما تولى بعد الأشرف جانبلاط طرد رجلا من أمراء جانبلاط يقال له قانصوه المحمدى فخرج إلى مكة، فلما دخلها لم يلتفت إليه أحد من كبرائها لا الشريف بركات ولا القاضى ولا غيرهما خوفًا من السلطان طومان باى، فلما فقد طومان باى وتولى الأشرف قانصوه الغورى ليلة عيد الفطر من سنة ست وتسعمائة أرسل إلى قانصوه المحمدى إلى مكة وجعله نائب الشام، فلما وصلت إليه الكتب بذلك وهو بمكة فى أول ذى القعدة جاءه الشريف بركات والقاضى أبو السعود للسلام عليه فلم يأذن لهما وكان فى نفسه عليهما شىء لعدم التفاتهما إليه سابقًا، وكان الشريف هزاع حينئذ بمكة فعامله قانصوه على أن يجعل إليه ولاية مكة ويخلع أخاه بركات منها، ثم أمره بالخروج إلى الينبع، وأرسل إلى أمير الحاج المصرى أن يواجه الشريف هزاع ويطلق المراسيم السلطانية عليه، ويلبسه الخلع السلطانية ففعل ذلك، ولبس الشريف هزاع خلعة أخيه بركات، وألبس أخاه أحمد الملقب جازان خلعته التى كان يلبسها مع أخيه بركات، وأقبل مع الركب المصرى إلى مكة ومعه الأشراف بنو إبراهيم فى نحو مائة فارس منهم، فلما علم بذلك الشريف بركات خرج إليهم من مكة إلى وادى مر، والتقى الجمعان هناك وتقاتلا، فانكسر الشريف هزاع مرات، وقتل من أصحابه نحو الثلاثين ومن الركب المصرى رجل، ومن الحجاج نحو الخمسة، ونهب أطراف القافلة، فلما رأى ذلك الركب المصرى حملوا مع الشريف هزاع على أخيه بركات حملة واحدة، فانكسر حينئذ بركات وقتل ولده المسمى بأبى القاسم فى جماعة من عسكره، واستولى هزاع والركب المصرى على مِحَفَّة الشريف بركات وما فيها من الأموال والنساء والأطفال، وهرب الشريف بركات إلى جدة فنهبها ثم إلى حدة فنهب أكثرها، ودخل الشريف هزاع إلى مكة صحبة الحاج المصرى فاضطربت أحوال الناس وكثر النهب والخوف فى الطرقات، ورجع حجاج البحر من الطريق، وكانوا قريبًا من جدة، وكان عذر الشريف بركات إذا شكا الناس إليه ما يلقون يقول: اشكوا إلى سلطان البلد واطلبوا منه أمانها، فقد أمنتها إذ كنت سلطانًا، وأما الآن فأنا

واحد منكم.

فلما استقر هزاع جاءته الناس يصطرخون من كل جانب التجار وغيرهم من الناس وربما سبوه، فضاق خاطره ولم ينتظم أمره، فدخل على عمه إبراهيم بن بركات فشكا إليه حاله، فأمره بالخروج فى صحبته فخرج إليها والشريف بركات يومئذ مقيم بماء يقال له العد بين جدة وحدة، ثم أمره بالوقوف بجدة وتقدم إلى بركات فقال له: إن أخاك هزاع بجدة فى ألفى فارس من الترك ولا طاقة لنا بمقاومتهم، فإن أحببت تعرضت بينكما بهدنة يأمن الناس فيها ويحجون إلى عاشر المحرم على أن يعطيك أخوك هزاع ثلاثة آلاف أشرفى قبل يوم النحر، فإن فعل ذلك وإلا فلا ذمة له، فرضى بذلك بركات ظنًا أن قول عمه إن هزاعًا فى ألفى فارس حق. فسكن بعض خوف الناس ورجع هزاع إلى مكة.

وكان الحج ضعيفًا ولم يحج الشريف بركات فى هذا العام، وسلم هزاع إلى أخيه بركات ما التزمه عمه إبراهيم من المال، ولما عزم الركب المصرى علم هزاع أنه لا طاقة له بمقاومة أخيه بركات، فتوجه صحبة الركب الشامى، فتبعه الشريف بركات فحماه الركب الشامى منه. فرجع بركات إلى مكة وأمنت الناس.

وخرج هزاع إلى ينبع، وجمع جموعًا منها وعاد لحرب بركات مرة ثانية، وذلك يوم الأحد التاسع من جمادى الأولى عام سبع وتسعمائة، فالتقوا فى طرف البرقاء، فانكسر فيها بركات أيضا وهزم وقتل أخوه أبو دعيج فى سبعة من الأشراف من بنى أبى نمى، وقتل من الأتراك الذين مع بركات سبعة وقيل أربعة عشر نفرًا، وكان مع هزاع من الخيل مائتا فارس ومن الرجل ثلاثة آلاف وخمسمائة ومع بركات خمسمائة فارس ورجل كثير.

فلما انهزم بركات توجه إلى اليمن فأقام بالليث، ووصل هزاع إلى ظاهر جدة فى يوم الثلاثاء ثامن الشهر المذكور، ونادى بالأمان وقرر أحوالها، وجعل محمد بن راجح بن شميلة وزيره بها وعبدًا من قواده حاكمًا، وأرسل أخاه جازان إلى مكة ليقرر أحوالها، ثم لحقه إليها فى عساكره، ووصلت إليه المراسيم والخلع السلطانية من البحر من سلطان مصر على يد أمير يقال له إلياس فى يوم الثلاثاء ثامن عشر الشهر المذكور، فأرسل له الشريف هزاع بستين جملاً وثلاثين راحلة، وأمره بالطلوع

إلى مكة فوصل إليها، فلبس الخلعة وقرئت المراسيم واستمر سلطانًا إلى أن توفى يوم الثلاثاء خامس عشر رجب الفرد من السنة المذكورة بوادى الآبار فحمل إلى مكة، ودفن بها يوم الأربعاء صباحًا.

ولما فرغ من دفنه تولى إمرة مكة أخوه الشريف جازان بعده بمساعدة القاضى أبى السعود بن ظهيرة وإعانته له بنفقة وسلاح.

فلما علم بذلك بركات سار إلى مكة فدخلها منتصف شعبان وفر منه جازان.

ولما استقر بها بركات جاءته من مصر خلع ومراسيم بالاعتذار إليه من مباطنة أمير الحاج لأخويه هزاع وجازان، فلبس الخلعة وطاف بها.

وكان قاضى مكة أبو السعود بن ظهيرة مباطنا لجازان، فكتب إليه يستحثه ويعده بالإعانة ووعده أن يقبض له على بركات إذا وصل جازان قرب مكة، وعين لذلك القبض ليلة الخامس والعشرين من شهر رمضان، فظفر الشريف بركات بكتاب أبى السعود فاستدعاه فلما دخل عليه - وكان قد أظهر السرور والفرح بولاية بركات - أوقفه على الكتاب فأنكر ذلك، فقبض عليه فى سابع رمضان وأخذ أمواله وعقاره وعذبه.

ثم بعث به وأهله إلى جزيرة القنفذة، وأمر نائبه عليها أن يركبه سنبوقًا، ويغرقه ففعل ذلك به، وغرق يوم الأحد الثانى من ذى الحجة سنة سبع وتسعمائة، وأولاده وعياله ينظرون إليه.

ثم إن الشريف بركات توجه مع الحاج إلى ينبع لكون أخيه جازان نهب الحاج الشامى عند خليص حال قدومه إلى مكة، فحاربه مع أهلها سادس عشر ذى الحجة الحرام سنة سبع وتسعمائة، فكسر بركات كسرة ثالثة ونهبوا نهبًا فاحشًا وقتل ولده إبراهيم مع جماعة من عسكره، وعاد بركات إلى مكة مريضًا، ثم مات بها ولده السيد عجلان، ثم جاءه الخبر أول صفر سنة ثمان وتسعمائة بمجىء أخيه جازان بعسكر عظيم، وبركات مريض لا يمكنه المحاربة، فتوجه إلى جهة اليمن وأقام بها إلى شهر رجب حتى شفى وجمع جموعًا كثيرة وعاد لمكة فلقى بها أخاه جازان بالمنحنى فقاتله بها، فانكسر بركات كسرة رابعة، وفر جماعة الأشراف آل أبى نمى إلى جهة جبل حراء لمباطنتهم لجازان، فثبت هو وبعض خواصه للحرب ساعة، ثم

توجه إلى اليمن أيضًا فتبعه جازان بعسكره فخلفه الشريف بركات فى خيل قليلة وعاد من غير طريقه، ودخل مكة فى غيبة جازان يوم الجمعة حادى عشر شعبان، ففرح به أهلها لظلم أخيه جازان فيها، وبذلوا الهمة فى مساعدته ونصرته، وحفروا خنادق علو مكة وأسفلها وحاربوا أعداءه من خلفها، وعاد إليه جازان فى صبح الأربعاء ثالث عشرى رمضان من أسفل مكة من جهة المسفلة، وحاربهم مع سكانها مرة خامسة، وأظهر له الأتراك همة عالية حتى هزم جازان، وتركهم ولم يتبع منهم أحدًا، وقتل جماعة من الفريقين وجرح آخرون، وتوجه جازان منهزمًا إلى جهة حدة وأقام هو وجماعة ببئر شميس وهم خائفون وجلون، والعسكر يتخطفهم كل ساعة ليلاً ونهارًا، حتى أرسلوا يطلبون النجدة من أهل ينبع فجاءهم عسكر كبير ورحلوا معهم لحرب مكة مرة سادسة فى صبح يوم السبت رابع شوال من السنة المذكورة، وجاءوا من شعب أذاخر والخرمانية من أعلاها، وكان الشريف بركات واقفًا مع خواصه خلف الخندق من باب المعلاة، فانهزم عسكره من غير قتال، وثبت هو والأتراك وأذاق عداه الحرب والعراك لشجاعته وهمته وقوته ونجدته حتى زحزحهم عن مصافهم، وكان تحته فرس يقال لها الجرادة وأنه أقحمها الخندق وهو بمفرده ففر منه الجيش بأجمعه وهو يضرب بالسيف قذالهم حتى أبعدوا عنه قاصدين الينبع، فذرع بعد ذلك عرض الخندق فكان سبعة أذرع.

ثم إنه توجه إلى اليمن فدخل الأعداء مكة وأهانوا أهلها، وآذوهم لمساعدتهم الشريف بركات وحبهم له، فبينما هم كذلك إذ وصلت تجريدة من مصر فخرج الأعداء هاربين، فعاد الشريف بركات إلى مكة ثالث عشر ذى القعدة من عام ثمان وتسعمائة وتوجه لملاقاة مقدم التجريدة المقر الأشرف قيت الرحبى فواجهوه بالطاعة والكرامة، وخلع عليه بالزاهر ودخل معه مكة بإخوانه وعسكره وابن عم أبيه عنقا حتى وصلوا إلى مدرسة الأشرف قايتباى بالمسعى فقبض على الشريف بركات ووضع فى الحديد مع بعض إخوته وجماعة، وانهزم الباقون وحج بهم كذلك، ثم ذهب بهم إلى مصر، ومر بهم على الينبع، واتفق مع أهلها على تولية جازان على مكة.

ودخل قيت الرحبى ببركات ومن معه مصر على هذه الصفة، فأنكر الناس عليهم

ذلك، وما هان ذلك على السلطان الغورى وتعب من ترك مكة فى أيدى العصاة.

وفى ذلك يقول أبو الطيب أحمد بن الحسين العليف المكى قصيدته الكافية يسلى بها الشريف بركات ويحثه على الصبر وهى هذه: [من الطويل]

عزيزٌ على بيتِ النبوَّةِ والمُلْكِ ... مقامٌ على ذُلِّ المهانةِ والفَتْكِ
وأعظَمُ ما يلقَى الكريمُ من الأذَى ... على النفْسِ ما يلقى من الضيْمِ والضنْكِ
برَغْمِ العلا والمجْدِ والسَّيْفِ والندَى ... حَصَلْتَ أبا عجلانَ فى قبضةِ التُّركِ
وعزَّ على العلياءِ حجلكَ أدهم ... وطوقك لا مِنْ خالص التبر فى السبكِ
وتلكَ لعَمْرُ اللهِ أدهَى مصيبةٍ ... أصمَّ بها الحاكى عن الحادثِ المحْكِي
عدمتُ الليالى ما أمَرَّ صروفَهَا ... وأخلَقَهَا باللوْمِ فى الفعلِ والتَّرْكِ
أَذُلٌّ وغُلٌّ بعد عِزٍّ ومنعةٍ ... وأَسْرُ النوى بعد الأسرَّةِ والمُلْكِ
لحا الله دهرًا لا يدومُ سرورُهُ ... على حالة إلا استحالَتْ على وشْكِ
بنفسى أبا عجلانَ والفئةَ الألَى ... بنوا مجدَهُمْ بالسمهريَّةِ والبركِ
ونالوا المعالِى بالعوالِى فأصبحَتْ ... بهِمْ بيضَةُ العلياءِ مرفوعَةَ السَّمْكِ
ملوكٌ رعينا الجُودَ حَوْلَ حماهُمُ ... خصيبًا وساهمناهُمُ المالَ بالشرْكِ
رحَلْتُم فربعُ الأنسِ ما زال موحشًا ... خليًّا وسترُ العِزِّ أصبَحَ فى هتْكِ
وغادرتُم فى الكَرْبِ جيرانَ طيبةٍ ... كذا جيرةُ البَطْحَاءِ والحرم المكِّي
وأسلمتُمُ كلَّ القلوبِ إلى الأسَى ... فهذا الورَى ما بينَ باكٍ ومستَبْكِي
ولما استقلَّتْ للمسيرِ جمالُكُمْ ... وحادى النَّوى يَشْكى [إلينا] بما يشكِي
وسرتُمْ وسار الجُودُ يَمْشى أمامَكُمْ ... وظلَّتْ بنو الآمال مِنْ خلفِكُمْ تبكِي
وإنَّ الجبالَ الشُّمَّ والمجدَ والعُلاَ ... تَسيرُ بها بُزْلُ الجمالِ على وشْكِ
فلا اكتحلَتْ بالنومِ عينى بَعْدَكُمْ ... ولا ابتسمَتْ غُرُّ الثغور عن الضحْكِ
ولا باتَ ذو ملكٍ قريرًا بملْكِهِ ... ولا مهجَة إلا على لاعج مُنْكِي
فصبرًا أبا عجلانَ للحادِثِ الذي ... يَئُولُ إلى عقبى السلامَةِ والفَكِّ
حرامٌ على العلياء تنكحُ خاطبًا ... سواكَ وإن كانَتْ تَئُولُ إلى فركِ
أراد بك الحسادُ كيدًا فصادفوا ... جنابكَ لا يحكى لكَيْدٍ ولا يحكِي
فجاءُوكَ من أبنا أبيكَ لعَجْزهم ... فَلِلهِ أرحامٌ تقطَّعْنَ عن شبكِ

فهانوا عليهم بعد ذاك فأصبَحُوا ... يسومُونَهُمْ بالذلّ والخسْفِ والهَتْكِ
وأنتَ أبا عجلانَ ملْءُ عُيُونِهِمْ ... كمالاً وأَهْدَاهم إلى الرُّشْدِ والنُّسْكِ
فليْسَ لها إلاك كُفْءٌ وصاحبٌ ... وما زالَتِ العلياءُ مانعةَ الشركِ
ولا عَنْ رضًا منهم تركْتَ وربما ... يكونُ ظهورُ الفضْلِ للشيء بالتَّرْكِ
لعَمْرِكَ ما ساموك خطَّةَ عاجزٍ ... توهَّمها الجانى سبيلاً إلى المسْكِ
سوَى أن رأَوْا فيكَ الكمالَ لدِينهِمْ ... فأدوا بك الطاعاتِ فى الحَجِّ والنُّسْكِ
وما استَصْحَبُوا علياكَ إلا ليأمنوا ... مِن الخَوْف فِى الأموالِ والخيلِ والبَرْكِ
ولو شئْتَ حكَّمْتَ المهنَّدَ والقنا ... عليهِمْ ولكنْ سِرْتَ فى طاعة الملْكِ
لئن بَلَغَتْ منكَ الليالى جهالةً ... فما زالَتِ النكبا تهبُّ على الفُلْكِ
وإنْ نالتِ الأعداءُ منْكَ بزَغْمها ... فيا طالما كانَتْ بما نِلْتَهُ تَحْكِي
ورُبَّ ابتسامٍ جاءَ من جانبِ البكا ... ورُبَّ بكاءٍ جاء من جانِبِ الضحْكِ
أمَا فى رَسُولِ اللهِ يوسف أسوةٌ ... لمثلِكَ محبوسًا على الظُّلْمِ والإفكِ
أقام جميلَ الصبر فى السجْنِ بُرْهةً ... فآلَ به الصَّبْرُ الجميلُ إلى المُلْكِ
فعما قريبٍ يورقُ العودُ بالمنى ... وتعبقُ أرجاءُ العلا منكَ بالمسْكِ
وتأتى على رغم العدوِّ مملَّكًا ... وتظفرُ بالتقليدِ والتاج والزمْكِ
ويرجعُ باقى العيش حلوًا كما مضَى ... وتأوى إلى سامِى سَرِيرِكَ والمُلْكِ

ثم إن الغورى أطلق الشريف بركات من الغل، ورتب له مع جماعته النفقات، وصار يتردد إليه الشريف بركات وإلى أمرائه، ففر إلى مكة، وذلك أواخر سنة تسع وتسعمائة، فظفر فى طريقه بقاصد أعدائه متوجهًا إلى السلطان وهو السيد بطاح الحسينى فقتله وفاز بما معه من المال والهدية.

وفى مدة غيبته بمصر قتل الأتراك المقيمون بمكة أخاه جازان، وذلك أنه لما كان صبح يوم الجمعة التاسع من شهر رجب سنة تسع وتسعمائة قتل الشريف جازان بن محمد فى المطاف عند باب الكعبة فى الشوط الثالث من طوافه، قتله جماعة من الأتراك بمواطأة من أخيه حميضة بن محمد، وولوا أخاه حميضة فحج بالناس ذلك العام.

ثم إن الشريف بركات واجه الحاج المصرى فى طريقه من مصر إلى مكة هاربًا من

مصر كما تقدم ورحل، وذلك بمواطأة الدويدار، ووصل إلى مكة سابع ذى الحجة معه جيش عظيم من بنى لام وأهل الشرق وسائر المفسدين، فمنع الناس من الوقوف يوم الخميس حتى صالحه أمراء الحاج على أربعة آلاف أشرفى يسلمونها ويخلى بينهم وبين الوقوف يوم الجمعة ففعل، ووقف الناس بعرفات ومزدلفة ومنى.

وهرب حميضة ودخل بركات مكة، ثم توجه إلى زيارة جده المصطفى، ثم قصد جهة الشرق فتزوج بالشريفة غُبَيَّة بنت حميدان بن شامان الحسينى، فحملت منه بالسيد الجليل ذى المجد الأثيل ذى العز والسعد أبى نمى محمد فى أوائل سنة إحدى عشرة وتسعمائة، وولدته ليلة تاسع ذى الحجة من السنة المذكورة، وكان طالعه سعدًا أكبر، ارتفع بولادته كل شر منذ ظهر، وتوالت على والده البشائر، وصفت منه عن الأكدار السرائر، وكان والده يمسح على ناصيته ويقول: كنت فى أكدار وكروب متوالية، حتى ظهرت لى هذه الناصية. ولم يزل أبو نمى راقيًا معارج المجد، مستخدمًا للإقبال والعز والسعد.

ثم إن السلطان الغورى أرسل بتفويض إمرة الحجاز إلى الشريف بركات، فقدم أخاه السيد قايتباى فى ولاية مكة وأشرك معه ولده على بن بركات، وكان كل منهما يختلع، وينفرد عنهما الشريف بركات بالدعاء فى خطبة الجمعة، وكان بينه وبين أخيه قايتباى صداقة عظيمة، ودامت إلى أن مات السيد قايتباى يوم الأحد حادى عشرى صفر الخير عام ٩١٨ ثمان عشرة وتسعمائة بأرض حسان من وادى مر، وحمل على أعناق الرجال ومعه أخوه الشريف بركات وصلى عليه بالمسجد، وطيف به أسبوعًا كعادة أسلافه ولاة مكة ودفن بالمعلاة.

ثم إن الشريف بركات أرسل ولده الشريف أبا نمى إلى القاهرة وصحبته السيد عرار بن عجل، وفى خدمته القاضى صلاح الدين بن ظهيرة الشافعى، والقاضى نجم الدين بن يعقوب المالكى وذلك فى سنة ٩١٨ ثمان عشرة وتسعمائة، وسن السيد أبى نمى إذ ذاك ثمان سنين، فأكرمهم السلطان الغورى وقابلهم بكل جميل.

وحكى عن مزيد حذق الشريف أبى نمى أن السلطان الغورى وضعه فى حجره وقال ما سورتك؟ فأجابه: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا، فأعجب الغورى ذلك وتفاءل به، وأشركه مع والده الشريف بركات فى نصف ولاية مكة وهو بذلك السن، فصار

يخطب له مع أبيه على منابر الحرمين الشريفين.

ثم حجت خوند أم السلطان الغورى وولده الناصر محمد وصحبتهما كاتب السر محمود بن إنجا فى سنة عشرين وتسعمائة، فأكرمهم الشريف بركات، وقام بهم أحسن قيام وطلبوا منه السفر معهم لمجازاته وإكرامه فوافقهم على ذلك وسار معهم إلى القاهرة، ودخلها مرة ثالثة فأنعم عليه الغورى بخلع سنية وإكرامات مرضية لم يسبق إلى مثلها ولم يشاركه أحد فى فضلها.

وهنأه الشعراء بذلك، منهم العليف المشهور بالقصيدة الآتى ذكرها بعد، وبقصيدة أخرى منها قوله: [من الخفيف]

أَنْتَ ربُّ القضيبِ والبُرْدِ والسيْـ ... ـفِ ورَبُّ الكُمَيْتِ والمزراقِ
لو رأى المصطفَى أناسٌ عيانًا ... حَلَفُوا أنكَ ابنُهُ بالطَّلاقِ
سِرْتَ نحو المليكِ مَعْ صاحِبِ السرْ ... رِ على مَتْنِ سابحٍ سبَّاقِ
فذكرنا مَسْرَى النبيِّ وجِبْرِيـ ... ـلَ إلى الحقِّ فوق ظَهرِ البُراقِ
فتلاقَى البحران جمعًا على المَرْ ... جِ فطوبَى لبَحْرك الدفاقِ
وبلغْتَ الذى بلغْتَ بتدبيـ ... ـرِ من اللهِ فوقَ سبْعِ طباقِ
ثم أصبحت فى حماك وقد تَمْـ ... ـمَتْ بما كان من رضًا واتفاقِ

ومنهم الفاضلة الأديبة ستيتة بنت القاضى كمال الدين محمود بن شيرين القاهرية، وذكرت الإنعامات التى انفرد بها الشريف بركات فى قصيدة دالية هى قولها: [من الطويل]

قِفُوا واسمعوا قولاً صحيحًا له سَنَدْ ... عن الأشرفِ الغوريِّ ما عنه يعتمدْ
وما نالَ مولانا الشَّريف من العطا ... ثمانية ما نالَهَا قبله أحَدْ
فأوَّلها يدعَى له بمقامِهِ ... كما يُدْعَ للسلطان هذا به انفردْ
وأسمعه القيناتِ فى وَسْطِ دارِهِ ... وذلكَ ثانِى ما ذكَرْتُ من العدَدْ
وثالثُهَا يوضعُ له بإزائِهِ ... لمرتبة علياءَ فى بِرِّهِ اجتهدْ
ورابعُها يطعمُهُ باليد ما يشا ... كوالِدِ مولودٍ إذا يُعْنَ بالولَدْ
وخامسها سارا فلم ير نعله ... تمهل حتى حامل النعل قد وَرَدْ
وسادسها جازًا جميعًا بداره ... فأنزله بين العساكِرِ وانْفَرَدْ

وسابعُهَا فرشُ المصلَّى بيدِه وصلَّوْا جميعًا هكذا غاية المَدَدْ
وثامنها ما كان يَوْم وداعِهِ وأكبت أعداه ووفَّاه ما وَعَدْ
وزاد ثلاثًا رفعةً لمقامِهِ بسنجقه والطبل والجند للبودْ
وقد نال هذا منه بالبرِّ والتُّقى وصِدْقِ مقالِ والوفاء لما وَعَدْ
وذلك فضْلُ الله يؤتيه مَنْ يشا ويخسأ عَوَّاء كذاك ومَنْ حَسَدْ

وهذه ستيتة بنت شيرين أديبة عجيبة فاضلة كاملة من جملة تلامذتها الشيخ العلامة جار الله بن فهد القرشى الظهيرى.

وكان الشريف بركات بليغًا مصقعًا له النظم الرائق والنثر الفائق، فمن نظمه قوله فى الغورى فى سفرته الثانية إلى القاهرة عام تسع وتسعمائة وهو قوله: [من الطويل]

هَلُمُّوا معى نحو الصلاحِ وسارعُوا إلى جامعٍ للذكْرِ والحُسْن جامعُ
تأسَّسَ بنياه على الخَيْرِ والتقَى ألسْتَ تَراه بالمحاسِنِ ساطِعُ
أيا قانصوه اسمَعْ بحقِّكَ قصَّتي فإنى لِشَرْحِ الحالِ نحوك رافِعُ
بليتُ بجور مِنْ زمانٍ أمضَّني ومالى ولا فى الناسِ غَيْرَكَ نافعُ
وحقِّكَ ما أفنيتُ مالى ومُهْجَتي سوَى لرضا السلطانِ واللهُ سامعُ
فإن يكُ قد أرضاكَ ما قَدْ لقيته فإنى به راضٍ بَلَى ثم قانعُ
ولى أسوةٌ فى النَّاسِ بالسَّادة الأُلَى لَكَمْ بذلوا أرواحَهُمْ ثم بَايَعُوا

ونظم الغورى موشحًا وسأل من الشريف بركات أن يعارضه.

ومطلع موشح الغورى:

يا غزالاً بلحظِهِ يُنْشِى نشأةَ الأكْوَسِ

فقال الشريف بركات:

أكتم السِّرَّ وَيْكَ لا تُفْشِى بالرَّشَا الألعسِ
فهو يزرى الغصونَ إذْ يمشى فى الرداءِ السندسِي
ما على الصبِّ فى الهوَى عار إنْ تمادَى الكَمَدْ
إن لى فى الغرامِ أوطار واصطبارى نَفَدْ
واللَّواحى فى لومهم جاروا وأنا أُبدى الجَلَدْ
رَبِّ يا ذا الجلالِ والعرش كُنْ به مؤنسِي

وبوصل الحبيبِ فى الفرش جُـدْ ولا تَـخْـبِـسِ
يا غزالاً بوصله تدرك كـلَّ مـا يـسـتـطـابْ
غايتى فى الغرام مِنْ أمرك أنـنـى مـسـتـرَابْ
جُدْ لمن فى هواك لا يشرك زيـنـبًـا والـربـابْ
لم أزلْ فى وصاله أرشى كـى يـجـى مَـجْـلِـسِـي
هل لهذا القتيلِ مِنْ أرش يـا مُـنَـى الأنـفـسِ

وكان رحمه الله شهمًا عند الوفاء وحفظ العهود، وإكرام الشعراء والوفود، مع العفة والصيانة، وملازمة الخير والديانة، وإظهار الخيرات، ومواصلة المبرات.

أوقف بعض الجهات على أنواع الصلات، وبنى رباطًا سفل مكة، وأسكنه الفقراء فى حياته، وأقر الله عينه بمشاركة ولده أبى نمى له فى الولاية كما شارك هو والده.

ثم لما قدر الله تعالى زوال دولة الغورى، وأفضى ملك مصر والحرمين إلى مولانا السلطان سليم خان ملك الروم، وذلك فى رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وجهه أبوه الشريف بركات مرة ثانية إلى مواجهة السلطان الأعظم والخاقان الأكرم السلطان سليم خان، فوصل إليه إلى القاهرة بعد حربه للغورى، ودخل مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة فقابله الخنكار بالعناية والرعاية، وأقر الشريف بركات على ما كان عليه من الولاية، وأبقى أبا نمى على مشاركة والده، فعاد أبو نمى قرير العين.

واستمر الشريف بركات مشاركًا له ولده أبو نمى حتى قضى نحبه ليلة الأربعاء رابع عشرى ذى القعدة الحرام سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة بمكة الشريفة على فراشه.

ثم صلى عليه يوم الأربعاء بالمسجد الحرام، وطيف به حول الكعبة أسبوعًا كعادة أسلافه ولاة مكة الكرام، ودفن بالمعلاة وبنيت عليه قبة عظيمة وهى موجودة إلى الآن.

وكان مدة ولايته مشاركًا لأبيه محمد وولده أبى نمى وإخوته نحو ثلاث وخمسين سنة وعمر إحدى وسبعين سنة، وكان له من الأولاد ثقبة وأبو القاسم وحازم وواصل وسند وعلى وأبو نمى محمد هذا المذكور بعده.

وقد تقدم فى ترجمة والده بركات أنه ولد ليلة تاسع ذى الحجة الحرام سنة إحدى

عشرة وتسعمائة، وأن أمه عبية بنت حميدان بن شامان الحسينى، وكان يكنى نجم الدين، شارك أباه بركات فى ولاية مكة كما تقدم، وعمره ثمان سنين ولاه الغورى.

وهى آخر ولاية صدرت من الشراكسة سنة ثمان عشرة وتسعمائة، ثم أبقاه السلطان سليمان خان على مشاركة والده سنة ثلاث وعشرين لما قدم عليه بالقاهرة بعد حربه للغورى، واستيلائه على مصر، وهى أول ولاية صدرت من العثامنة.

ثم استقل بأعباء السلطنة بعد موت أبيه، وكان استقلاله بها فى سن عشرين سنة، فوصلت إليه المراسيم السلطانية السليمانية، فخمدت بولايته الفتن، وابتهج بملكه وجه الزمن.

ولم يزل ممتعًا بمكارم الشيم، متقلبًا فى صنوف النعم. وقد رزق الذرية الصالحة، ودانت له رقاب الأمم.

ولما كان موسم خمس وأربعين وتسعمائة، وصل إلى مكة الباشا سليمان من جهاد الفرنج بالديار الهندية عازمًا إلى الديار الرومية، فأرسل معه الشريف أبو نمى ولده السيد أحمد بن أبى نمى لمواجهة السلطان سليمان بن سليم خان، وفى خدمته السيد عرار بن عجل والقاضى إبراهيم بن ظهيرة والقاضى تاج الدين المالكى، فوصلوا القاهرة ثم توجهوا منها إلى الديار الرومية فى البر فوصلوا بالسلامة والعز والكرامة، واجتمع السيد أحمد بالسلطان سليمان وجلس على يساره، فقابله بالإكرام، وعامله بالاحترام، وأشركه مع والده أبى نمى فى ولاية مكة وذلك سنة ست وأربعين وتسعمائة، وأقام مدة متوعكًا بالروم حتى فاته الحج فى ذلك العام، ومات السيد عرار بالطاعون، ثم عاد إلى القاهرة عام سبع وأربعين.

قال الشيخ محيى الدين عبد القادر محمد الشهير بالجزيرى فى كتابه «درر الفوائد المنظمة»: فعاد الشريف أحمد إلى مكة عام سبع وأربعين وتسعمائة وهو فى غاية الرفعة والجلالة متوليًا ما كان والده يتولاه، وأنعم عليه السلطان سليمان بعلم مكمل بطبلخانة سلطانية رومية على أكمل هيئة فاخرة.

فبمقتضى ذلك صار الشريف فى منعة وحمى ممن يرد إلى الأقطار الحجازية من أمراء الحاج وغيرهم من أكابر الأروام، ومن أراد الاجتماع به من أكابرهم يأتى إليه إلى بيته ومحل عزه منفردًا وفى جماعة قليلة فيقصده للسلام عليه، ولا يذهب

الشريف لأحد منهم أصلا.

وتوجه قاصدًا مكة فلاقاه والده أبو نمى فى وادى مر، وجعل له سماطًا عظيمًا حضره الأعيان، ثم قرئت مراسيمه بمكة بالعشر الأول من ربيع الأول سنة سبع وأربعين وتسعمائة، وألبس الخلعة السلطانية وطاف بها، وصار يدعى له على المنابر، وسعت إلى أبوابه الشعراء والأكابر.

وممن مدحه مهنئًا للشريف أحمد بالولاية العلامة وجيه الدين عبد الرحمن بن عبد الله باكثير بقصيدة رائية هى هذه: [من الطويل]

وفَتْ صبَّهَا بعد الجفا غادَةٌ عَذْرا ... ومذ لامَهَا قالَتْ لعلَّ لها عُذْرَا
وزارَتْ ولكنْ بعد طولِ تشوُّقٍ ... إليها ولا لَوْمَ عليها ولا إزْرَا
وجاءته والأشواقُ جاذبةٌ لها ... وشاكَتْهُ ما تلقاه وهْوَ به أدرَى
وأطفَتْ ببردِ الوصلِ حرَّ بِعَادِهِ ... فباتَ ولا يشكو بعادًا ولا حَرًّا
وأصبَحَ فى أهلِ الغرام منعمًا ... بمَنْ لحظُهَا يبرى ومنه الضنا يبرا
مهاةُ فلاةٍ غادةٌ عربيَّةٌ ... عقيلةُ حَيٍّ كالضَّراغِم بل أضْرَى
عزيزة قوم مستحيل وصالها ... ولو بذل العشاق أنفسهم مهرا
محجَّبة ما إنْ تُنَالُ لناظِرٍ ... جعلْنَ لها بيض الظبا والقَنَا خِدْرَا
ممنعة لَحْظ الحسام رقيبها ... يكلّم من يحلو له لفظها المُرَّا
رَدَاحٌ كساهَا الحُسْنُ حُلَّته كما ... بمقلتها هاروتُ قد أَودَعَ السِّحْرا
مهفهفةٌ كاللُّدنِ أمَّا سوارها ... فمثرٍ وأما بندُهَا يشتكى الفَقْرَا
لها اللهُ خودٌ حين تخطو تخالها ... من التِّيهِ والإعجاب ثاملة سَكْرَى
إذا ارتجَّ منها الردفُ واهتزَّ قدُّهَا ... ولاح مُحياها وأسبَلَتِ الشَّعْرا
رأيتَ كثيبًا فوقه غُصْن بانةٍ ... عليه هلالٌ والظلامُ له سِتْرَا
رَنَتْ جؤذرًا ماسَتْ قضيبًا تأرَّجَتْ ... عبيرًا سطَتْ ليثًا ولكنَّها أجرا
بدت قمرًا طرْفى وقلبى منازلٌ ... لها أغرقَتْ هذا وذا أجَّجَتْ جمرا
لها كَفَلٌ كالحقْفِ يقعد قدّها ... إذا نهضَتْ قد أتْعَبَ العِطْفَ والخَصْرا
طويلةُ مجرى العقْدِ والجيد قد حلا ... بعقْدٍ حكى فى النظم مبسمها الدرَّا
إذا ابتسمَتْ خلْتَ الشَّتيتَ ووشمها ... لآلٍ بها خَفَّتْ زُمُرّدَةٌ خضرا

عليها جَرَى ظَلْمٌ يعز مذاقُهُ ... فلم ندر ظَلْمًا ذلك العذبُ أم خمرا
أدارَتْ على العشَّاقِ خَمْرَ عيونها ... فأضْحَوْا نشاوَى هائمين بها سَكْرَى
فلا تعجبوا مِنْ كَسْرِ أجفانها إذَنْ ... فبالشرعِ كاسُ الخمرِ يَسْتَوْجبُ الكَسْرا
كتمْتُ هواها غير أنَّ محاجري ... بما صنته خَطَّ ابن مقلتها سَطْرًا
تمنُّ على المضنَى بإرسال طيفها ... إليه ومَنْ ذاق الصبابة لا يكْرَى
رعا الله دهرًا كنْتُ سلطانَ عشقِهِ ... وكانتْ غصونُ العمْرِ يافعةً خضرا
ولما مضَى عصْرُ الشبيبة وانقضَى ... ومَرَّ وما أحلاه مِنْ زمَنٍ مَرَّا
ونَبَّهنى مِنْ نومِ جهلى وشيبتي ... صَباحُ مشيبٍ لاحَ فى مَفْرِقِى فَجْرَا
دعانى هواها للتصَابِى فلم أُجِبْ ... وقُلْتُ له أرهقتنى فى الهوَى عُسْرا
أبعد مشيبى تَبْتَغِى منى الصِّبَا ... لقد جئْتَ يا داعى الهوَى خُطَّةً نَكْرَا
فمالى وللتَّشبيب بالغِيدِ والظُّبا ... وبالوشمة الخَضْرا وبالوجنة الحَمْرَا
وقلبيَ قَدْ أطلقته من يد الهوَى ... وكان لسلطانِ الغرامِ من الأسْرَى
وفكْرِىَ عن صوْغِ المديحِ فطمتُهُ ... سوَى صَوْغِ مدحى فى ابن فاطمة الزَّهرا
أبى الظفر المنصورِ أحمَدَ مَنْ رَقَى ... سماءَ المعالى وامتطى الأنجُمَ الزهْرا
ومن قد علا هامَ الممالكِ مذ نشا ... ودبَّرها مِنْ قبْلِ أن يبلغ العَشْرَا
ومَنْ جَرَّ من فوق النجومِ ذيولَهُ ... فقنعتِ الجوزا وعممت النَّسْرَا
علا ذروةً فى المَجْدِ أكسَبَ فخرُهَا ... بَنِى هاشمٍ عِزًّا كسا جدّهُمْ فخرا
ومِنْ دوحة السبطَيْنِ أنبع غُصْنه ... ومن نفْحَةِ الريحانَتَيْنِ ملى عطرا
به افتخرَتْ آلُ النبيِّ وعظمَتْ ... قريشٌ وسادَتْ قومها مُضَرُ الحمرا
ومن حَازَ فى سنِّ الشبيبة رتبةً ... مِنَ العقلِ والتدبيرِ فاقَ بها عُمْرَا
يدبِّرُ أمْرَ الملكِ منه بهمَّةٍ ... له علَتِ السُّيُوق واعتلَتِ الغفرا
ويعلو سريرَ الملكِ ليثًا موقرًا ... مهيبًا كما يعلو المُطَهمَةَ الشُّقْرا
ويحميه رأيٌ منه ضاهى رماحه ... إذا ما حَمَتْهُ أو ضوازمه البَتْرَا
شهابٌ إذا ما رمْتَ رأيًا وإنْ ترِدْ ... أخا غارةٍ يروى القنا خلته ذمرا
شُجَاع ربى بَيْنَ الأسنةِ والظبا ... ومنذُ نشا أرضى الصَّوارم والسمرا
إذا جال فى الهيجَاءِ والخيلُ تدَّعي ... فإنَّ كماةَ الحربِ تجعلهُ سِتْرا

هزبرٌ تخافُ الأسْدُ مِنْ سطواته ... ألستَ تراها خيفةً تسكُنُ القفرا ؟!
جوادٌ لقد أخطا الذى قاسَ جودَهُ ... بسحبٍ وهذا كفُّهُ يمطرُ التبرا
عطاياه لا تحصَى بعدٍّ ولا فَمٍ ... ولا قلمٍ بل بعضها جَلَّ أن يُدْرَى
مجمعة فيه مآثرُ مَنْ غدا ... معاصِره والآتِيينَ ومَنْ مَرَّا
شريفُ السجايا من لؤَيِّ بن غالبٍ ... محاسنه تُتْلَى وإحسانه تَتْرَى
ولا عيبَ فيه غَيْر إفراطِ سؤددٍ ... وبذل نوالٍ يسترقُّ به الحرا
أبى الله إلا أنْ تكونَ له العلا ... على كُلِّ مَنْ فى الأرضِ مِنْ خلقه طرا
من المسجدِ الميمونِ أحمدُ قد سَرَى ... إلى المسجدِ الأقصَى فسبحانَ مَنْ أَسْرَى
ويمَّم ملكَ الرومِ ممتطيًا على ... نجائب عز فى الغُدُوِّ وفى المَسْرَى
وسار لسلطانِ البسيطةِ مَنْ له ... جميعُ ملوكِ الأرضِ خاضعة قهرا
مليكٌ له ملكٌ كملكِ سَمِيِّهِ ... وأكبره عَنْ أن أفوه به ذِكْرَا
تكفَّل للدنيا بأرزاقِ أهْلِهَا ... فكلُّ ابن أنثى لا يجوعُ ولا يَعْرَى
ومدَّ على أبنائها مِنْ أمانِهِ ... رواقًا فلا يخشونَ بؤسًا ولا ضُرًّا
وألبسهم جلبابَ عدلٍ طرازه ... لكم ذمَّتى أنْ لا مخاف ولا ذُعْرَا
ونوَّلَ كلًّا ما يريدُ فمن يرِدْ ... غِنًى أو حياةً ذاك رزقًا وذا عُمرَا
خليفةُ عدلٍ بالإمامةِ قائمٌ ... وإن جلَّ ذاتًا عنهما وعلا قَدْرَا
له البسطةُ العظمَى على الخلقِ كُلِّ مَنْ ... تحيطُ به الخضرا وتحملُهُ الغبرا
له الملكُ والكرسِىُّ والتاجُ والعلا ... له الوقْتُ والأملاكُ تعنو له قَسْرَا
تخرُّ إلى الأذقانِ فى عَتَبَاتِهِ ... سُجُودًا عليها لا ثمينَ له صغرا
وتلثمُ حصبا بابِهِ بمباسمٍ ... لهم شَرُفَتْ عن كونها تلثم الدُّرَّا
وتعتدُّهُ فخرًا، ومقدمُ أحمدٍ ... عليه مع التَّعْظيم تعتدُّهُ فخرا
به هزَّتِ اسطنبولُ مِعْطَفَ تائِه ... وأضحَى به إيوانها باسمًا ثغرا
وشرّفَ منها ملْكها ومليكها ... ودَوْلتها هزَّتْ وشدَّتْ به أزرا
وجرَّ به إقليمها ذَيْلَ معجبٍ ... وفاق أقاليمَ البسيطةِ إذ جَرَّا
ومَعْ عِظَمِ الخنكارِ لما بدا له ... محيَّاه كادَتْ أن تخفَّ به السَّرَّا
ولما رأى نورَ النُّبُوةِ ساطعًا ... يُضىءُ له من صبحِ غرَّته الزهْرَا

وشاهد منه صورةً نبويَّةً جمالُ سناها يَبْهَرُ العقلَ والفِكْرا
ملا عينه منه وقارًا وَهيْبَةً وحَمَّلها من نُورِ طلعته وِقْرا
وشرَّفها منه بمرأى جلالهِ وهيبته مرأى النبيِّ بالاستقرا
وَقرَّبَهُ منه وأدنَى محلهُ وأجلسَهُ من تَخْتِ سلطانِهِ الصَّدْرا
وبالَغَ فى تعظيمه خافضًا له جناحَ اتضاعٍ ما أشابَ به كِبْرا
وأدناه منه ثم حَيَّاهُ مطرقًا ووافاه بالبشرَى وأهْدَى له البشْرا
وَفيَّأَهُ مِنْ جودِهِ ظلَّ روضة أمانيه مِنْ أكمامها أطلعتْ زهرا
وأثمرَ فيها غرس رجواه مُدْنِياً إليه قطوفًا لا تُكَلِّفُهُ هَصْرا
وأينع فيها غُصْن آماله كما مطامعه منها مزاودها شكْرا
وأفق رجاه عمه سُحْب فضله وأجرَى له منها بجريته نَهْرَا
وألبسه تشريفةً عاقدًا له ولايةَ مُلْك من زبيدَ إلى مِصْرا
وأعطاه ما الآمالُ تنفدُ دونَهُ وكُلُّ الأمانِى دون غايته حَسْرَى
وأكرَمَ مثواه وأحسَنَ نزلَه وأدْخَلَهُ من ملكِهِ جنةً خضرا
هنا طرفه فيها وأمْرَى جنانه فَلِلهِ ما أهنا وَلِلَّهِ ما أمْرَى
به قد تسلَّى عن حبيبٍ ومنزلٍ فأصبح لم ينشدْ قِفَا نبك من ذِكْرَى
ولكنهُ عن ذكْرِ والدِهِ وعنْ رعاياه لم يغفُلْ ولم يستطعْ صَبْرَا
فحرك منه ساكنَ الشَّوقِ باعثٌ يحثُّ مطايا عزمه منه بالإغْرَا
فعاد إلى أوطانِهِ عودَ مُرْهَفٍ إلى غمدِهِ من بعد أن جَاوَزَ النَّحْرا
وجاء كما يرضى المَمَالِك والعلا وبيض الظُّبا والملك والنُّهى والأمْرَا
وأصبَحَ نجاب السُّرورِ مخلّقًا وقد أرَّج الأرجاء مِنْ عِطْره نَشْرَا
وطَبَّقَتِ الأرضُ التَّهَانى لعودِهِ إلى ملكٍ يشدو لها هاتِف السرَّا
فقلَّصه مُذْ بلَّغته دياره حرام على الأكوار تعلو لها الظَّهْرَا
علينا لها لَثْمُ النحورِ وفرشنا خدودًا لممشاها لنوفى لها النذرا
فيابا سليمان النَّدَى والذى اعْتَلَى عَلَى صهوةِ العلياءِ مذ شَرِبَ الدّرا
لِيَهْنِكَ ما قُلِّدتَّ فاستَخْدِمِ الظبا وسُمْرَ القنا والسعْدَ والعِزَّ والنصرا
فمثلكَ لم ننظرْ مليكًا مُعَظَّمًا تُظَلِّلُهُ الخضراءُ فى حلَّةٍ صفرا

فلا زلْتَ سلطانَ الحجازِ وفخرَهُ وتاجَ بنى الزهرا وغُرَّتها الغرَّا
فهمْ سببُ التقوَى وهم أنجمُ الهدَى وهُمْ شرَفُ الدنيا وهُمْ سادة الأُخْرَى
بهم تفرجُ الغما بهم يُكْشَفُ البلا بهم تُرْفَعُ اللأوا بهم نَدْفَعُ الضرا
بهم يأمنُ الناسُ المخاوفَ فى غدٍ إذا خيف أن تعطى الصَّحائِفُ باليُسْرَى
وهم أهلُ بيتٍ أذهَبَ الله رجْسَهُمْ وَطهَّرهُم من أنْ يُنِيطَ بهم وِزْرا
وهم نعمةُ البارى على الخَلْق إذ غَدَوْا نجاةً لهم لكنَّ نعمته الكُبْرَى
على خلقه فى الأرضِ نَجْمُ العلا أبو نميٍّ الذى قد فاق فى عَدْلِهِ كِسْرَى
مليكٌ له نورُ النبوةِ هالةٌ مُحَيَّاهُ منها قد أضاءَ لنا بَدْرا
مليكٌ له نَهْرُ الرسالةِ موردٌ فأكْرِمْ بموروِدٍ وأكْرِمْ به نهرا
به شرَّفَ الله الزَّمانَ وأهلَه وحَلَّى به الدنيا وزانَ به الأخْرَى
وأنطَقَ أفْوَاهَ الثَّناءِ بحمدِهِ وأجرَى له من كلِّ ناطقِه شُكْرا
وتوّج هاماتِ المنابرِ باسمه وزان به الأقْلامَ والطرْسَ والحِبْرَا
وأرسَلَ جبريلَ الأمينَ لجدِّهِ خديمًا وفى أوصافِهِ أنزلَ الذكْرَا
فما ذا عسَى فيه يقالُ ومدحُهُ أتانا به التَّنزيلُ فى سُورة تُقْرَا
ومَنْ كان جبرائيلُ حَامِلَ مَدْحِهِ ومادحه القرآن لا يرتَضِى الشِّعْرَا
ولو نُظِّمَتْ زهر النجوم قلائدًا بجنْبِ علاه كانَ فى حَقِّهِ هجْرَا
هو ابنُ الألَى مدُّوا سرادقَ مَجْدِهِمْ وفخرهم فوق السِّمَاكَيْنِ والنَّسْرَا
ملوكٌ غطاريفٌ جحاجحُ نُخبةٌ ليوثٌ غيوثٌ سَادَةٌ قادةٌ غرًّا
صناديدُ صِيدٌ أوجبَ الله مدحَهُمْ وحسبهم إلاَّ مَوَدَّتَهُم أجْرَا
وهم أهلُ بيتٍ لا صلاةَ لكُلِّ مَنْ يصلِّى ولا يجرى لهم ضمنها ذِكْرَا
وهم تاجُ أركانِ الصَّلاَةِ وذِكْرهم طرازٌ على عطفى تَحِيَّاتِهِ الأخرَى
غدا حُبُّهُمْ فرضًا وطاعَتُهُمْ هُدًى وقُرْبهم مَنْجًى وبغضهم كُفْرَا
ومدحهم فخرًا ولا سِيمَا أبو رُمَيْثَةَ منهم حُبُّهُ زَادَنِى فخرَا
هو الملكُ المنصورُ أندى الورَى يدًا وأغزرُهُمْ حظًّا وأوسعُهمْ صَدْرَا
وأرجحُهُمْ عقلاً وأشرفهم أبًا وأصوبُهُمْ رأيًا وأكثرُهُمْ بِرًّا
يفوقُ ملوكَ الأرضِ عزًّا وهمَّةً وبأسًا وجودًا يفضحُ الليْثَ والبَحْرا

يصيِّرُ حدّ السيف كلًّا بحلمه … ويترك وردَ الماءِ مِنْ عزمِهِ جمرا
إذا ما دَهَى أمرٌ من الخَطْبِ فادحٌ … تبيتُ بردُ الأمْرِ مقلته سَهْرَا
ولم يستَتِرْ إلا بضوءِ حسامِهِ … ولم يستشِرْ إلا الرُّدَيْنِيَّةَ السَّمْرَا
وإن رام أمرًا فالقضاءُ مُسَاعِدٌ … له واللّيالى ليس تَعْصِى له أمرا
هو البَطل المقْدَامُ فى يومِ غارةٍ … يقوم مقامًا يُزْعِدُ العسكَر المجرا
عواليه فى نَظْمِ الكلى جَادَ صنعها … كما فى الطّلاَ أسيافُهُ جادَتِ النثرا
إذا اربدَّ تفتَرُّ الأَسِنَّةُ والظبا … وتَجْرِى بُكَا عينِ النضار إذا افترَّا
يداه لنفعِ الخلقِ مملوءةٌ ندًى … فيمناه واليسرَى بها اليُمْن واليسرا
ورُبَّ يراعٍ تشخصُ البيضُ هيبةً … لسطوتِهِ والسُّمْرُ تنظُره شَزْرَا
إذا ما جرَى فى الطرْس قُلْ قَدَرٌ جَرَى … فإن شَاءَه خيرًا وإن شاءه شَرًّا
مليكٌ إذا حاولت ضبطَ صفاتِهِ … فلنْ تستطعْ ضَبطًا لذاك ولا حَصْرَا
فيا با نُمَىّ الملك والملك الذي … يجلُّ عن الألقابِ والمدحِ والإطرا
لقد صدَحَتْ فى الكونِ صادحةُ الهنا … تُغَرِّدُ فيه بالمسَرَّةِ والبشرَى
بمَقْدَمِ مَنْ أنتجته وادخَرْتَهُ … وليًّا لعهدِ الملكِ أَعْظِمْ به ذُخْرا
بمقدمه ورق البشائِر قد شَدَتْ … وكلُّ فؤادٍ من بشائرها استرّا
وقد عَمَّ أقطارَ الحجازِ قدومُهُ … سرورًا كما عَمَّ العراقَيْنِ مَعْ بُصْرَى
ووافَى وكلٌّ شيِّقٌ لِلقَائه … كما اشتاقَ حيٌّ عامَ إجدابِهِ القطرا
وقد آنسَ البيتَ الشريفَ وأهله … ومكّة والركْنَ المكرمَ والحِجْرا
وأضحَى محيًا مكةٍ متهللاً … سرورًا بمرآه وناظِرُهُ قَرَّا
وكان له عيدًا ولكنه غَدَا … لباغِضِهِ نحْرًا وحاسده فِطْرا
وخلعته الصَّفْرَاء منها لَقَدْ رَمَوْا … سَوَادًا وذكْرَاها ملا سمعَهُمْ وقْرا
به قد تحلَّتْ والمراسيمُ شُرِّفَتْ … وشرّف مُهْديها له والذى يَقْرَا
فَدُمْ وليدُمْ والملكُ طوعُ يديكما … ومدحُكُمَا يستغرقُ الحمدَ والشُّكْرا
وهاكَ من الدُّرِّ النضيدِ قصيدةً … تَغَارُ قوافِى الشعْرِ مِنْ رَسْمِهَا بالرَّا
منقَّحةَ المعنَى مُصَحَّحَة البنا … مهذَّبة الألْفَاظِ طَيِّبَةَ المقرا
تضوَّعَ رَيَّاها عليكَ ولم أكُنْ … على مِثْلِ كافورٍ أضِيعُ لها نَشْرَا

لعمرِيَ لا أرضَى القريضَ بِضَاعةً ... ويَبْخَسنِى لَو أننى قُلْتُهُ دُرًّا
وما الشعْرُ إلا دونَ قَدْرِى وبعض ما ... لذاتى مِنْ فضلٍ ولم ينضبطْ حصرا
وُدونَكَهَا مِسْكُ الصَّلاةِ خِتَامُهَا ... على أحمدَ المحمودِ فى الفتْحِ والإِسْرَا

هذا ما ذكره الكثيرى فى « الوسيلة » وغيره.

وقد ذكر السيد محمد السمرقندى ذلك مفصلا مع زيادات، وبعض مخالفات أحببت ذكر جميعه تتميما للفائدة.

قال: تشرف مولانا الشريف بركات بن محمد بن أبى نمى بن بركات بن حسن بن عجلان بحماية الحرمين الشريفين بعد وفاة والده الشريف محمد بن بركات سنة ثلاث وتسعمائة، وكان سلطان مصر يومئذ محمد ابن السلطان قايتباى.

ثم فى جمادى من العام المذكور تولى الشريف يحيى بن سبيع إمرة الينبع، ووقعت بمكة فتنة عظيمة بين الشريف بركات وأخيه هزاع، وارتحل هزاع مع أخيه أحمد الجازانى فى خمسمائة فارس من ذويهما ونزلوا بالينبع وكاتبوا السلطان فى إمرة مكة بمائة ألف دينار جديد، وافترقت الدولة مع الأخوين فرقتين، لكن سعد بركات غالب. ثم إن السلطان برز أمره العالى بتعيين المقر الكريم البدرى محمد بن مزهر لإخماد الفتنة المذكورة.

وفى عام ست وتسعمائة تسلطن الملك قانصوه الغورى بتخت مصر، فجهز للشريف هزاع بن محمد خلعة سنية بإمرة مكة المشرفة صحبة أمير الحاج، فلاقاه من ينبع ولبس التشاريف السلطانية، وسبق إلى مكة لتمهيد البلاد وتطمين العباد، فلاقاه الشريف بركات خارج مكة فاقتتلا قتالاً شديدًا، فانكسر هزاع، ولحق بأمراء الحاج فأعانوه، وأقبلوا بجموعهم من العساكر والحجاج على الشريف بركات، فولى عن محاربتهم إلى جدة وما يليها، ونهب بعض عساكره كل ما مروا به.

ودخل الحجاج مكة ومعهم الشريف هزاع وهم على غاية الخوف والوجل من الشريف بركات، وترك أكثر الناس الحج خوفًا على أنفسهم وأولادهم، وأهاليهم.

ثم إن الشريف بركات جمع عساكره وتوابعهم ونزل ببدر راجيًا من الله ما حصل لجده عليه الصلاة والسلام من النصر. فعاد الحاج المصرى والشامى بعد قضاء المناسك والشريف هزاع معهم حماية لهم، فلما قرب من بدر ولى هاربًا إلى يحيى

ابن سبيع بالينبع، فعاد الشريف بركات إلى مكة وأقام بها، واستمر هزاع بالينبع والحرب بينهما سجال.

وفى عام سبع وتسعمائة مات الشريف هزاع فدفن بمكة، وبعد موته عقد مجلس فى الحطيم صدره القاضى أبو السعود بن إبراهيم بن ظهيرة وفيه القضاة والحكام والأمراء من العرب والأروام وفيهم الشريف جازان، ومالك بن رومى شيخ طائفة زبيد وأعيان الشرفاء الكرام وتفاوضوا فيمن يليق لإمرة مكة المشرفة وطال بينهم الكلام، فقال مالك بن رومى: ما أمير مكة وسلطانها إلا جازان، وما كان هزاع إلا به وبركات ما له إلا السيف، فسكت الحاضرون جميعهم طويلاً، فقال القاضى أبو السعود: فمن يليها الآن وتكون فى وجهه؟ فقال مالك: الشريف جازان وبنو إبراهيم معه فى ذلك، فنودى لجازان فى شوارع مكة بالبلاد.

ثم كان بين الشريف بركات والشريف جازان حروب متعددة، ومواقف متكررة لحق ضررها الحاج، واختلفت كلمة العربان، وخرجوا على الحجاج، ونهبوا أموالهم، وقتلوا رجالهم فى جميع الطرقات وسائر المنازل.

وفى هذا العام وهو عام سبع وتسعمائة رفعت الشكوى إلى الأبواب السلطانية بأن جازان استولى على مكة ومعه الشريف يحيى بن سبيع، وجمع من بنى إبراهيم، وأنهم صادروا من كان بها من التجار والرؤساء، وأخذوا من المولى شمس الدين العينى خمسة وعشرين ألف دينار، وأن بنى إبراهيم تحكموا فى أهل مكة بالبلص والفساد، وأن يحيى ابن سبيع هذا رأس الفتنة، وضجت المجاورون وعزم الجميع على الهرب من مكة فى أربعين مركبًا أعدوها ببندر جدة فمنعهم الشريف جازان، ووعدهم برفع المكاره عنهم، وطمن خواطرهم، والتزم لهم أن يجهز مع كل مسافر من الحجاج من يوصله إلى مأمنه، فلم يقبلوا منه ذلك؛ لأن ميلهم إلى الشريف بركات أكثر، وقلوبهم محبة له؛ وذلك لعدم طمعه فى أموالهم، وكف الأذى عنهم بكل طريق بحيث يدفع من ماله لأهل الشوكة من العربان سكان البوادى لأجل حماية الحجاج، وعطفوا على الشكوى عدة مكاتيب لمولانا الشريف بركات أن يقيم بمكة أميرًا لها وجميع من بها من العسكر والرعايا عون له على جازان عناية من الله تعالى به، فوصل إليها.

فلما بلغ ذلك الشريف جازان أقبل محاربًا للشريف بركات فاقتتلا قتالا شديدًا فى

مواقف عديدة وصدق مع الشريف بركات من ذكر فيما وعدوه به من الإعانة، فكانت الكسرة على جازان فهرب إلى اليمن، ثم وصلت الحجاج ولم يكن بمكة أحد من جماعة جازان غير ولد يحيى بن سبيع، فلبس الخلعة نيابة عن جازان بولايته السابقة، وكان مولانا الشريف بمكة على غاية من القوة والشوكة فلم يحدث بمكة حادثًا، إجلالاً لشعائر الدين وحقنًا لدماء المسلمين.

فلما شاهد ذلك أمراء الحاج، ورؤساء الوفاد ألزموا الشريف بركات بالتوجه إلى الأبواب السلطانية لتحصل له كرامات بالإمرة وغيرها من مراداته السنية، مكافأة لصنيعه المذكور وسعيه المشكور، فتوجه وتوجه معه إخوته قايتباى وأبو الخير وعنقا، فقابلهم السلطان مقابلة عظيمة، وألبسهم خلعًا تليق بأحسابهم النبوية الكريمة.

واستمر على غاية الاحترام والاحتشام، مع الكفاية التامة من اللباس والشراب والطعام.

فوردت بمحضرهم إلى الأبواب السلطانية كتب من نائبهم بمكة المحمية بأن الشريف جازان لم تسكن مع ولايته الفتن، وحصل لأهل مكة من جماعته أنواع الظلم والجور والمحن، وبأن الأمير بكباش مكة المشرفة صار يؤمن الشريف جازان، ويظهر له الشفقة والمحبة فصار يتردد بالحرم الشريف ويكثر الطواف، فاتفق أن هجم عليه طائفة من الأتراك المماليك وقتلوه بالمطاف ضربًا بالخناجر والسكاكين، ثم احتزوا رأسه.

وأن الباش المذكور ألبس أخاه الشريف حميضة خلعة بإمرة مكة لغيبة الشريف بركات عنها، وأن الناس يتمنون الشريف بركات راضين عنه.

فلما وصل الخبر إلى مصر بذلك توجه الشريف بركات مع أخويه المذكورين من مصر إلى الحجاز من غير إذن من السلطان، ثم أرسل مطالعة إلى السلطان يذكر فيها أنه عبد لمولانا السلطان، وإنما توجه خوفًا من الطاعون، فمنع السلطان جميع من كان مع بركات من عيال وأتباع من التوجه إليه، ورسم عليهم بمصر المحروسة، فلما كان موسم عام تسع وتسعمائة برز أمير الحاج المصرى فى شوكة عظيمة، وعساكر جرارة وزيادة فى السلاح والمدافع خوفًا من الشريف بركات، فلما بلغ

الشريف بركات الخبر أرسل رسولاً إلى أمير الحاج وصل إليه فى عيون القصب معه مكاتيب مضمونها أن الحج يتوجه مع سلامة الله تعالى لا خوف عليه، وأنه فى خدمة السلطان بحراسة الحاج، وتطمين سائر الحجاج بمكة وعرفة حتى يؤدوا المناسك جميعها، ويعلنوا بالدعاء لمولانا السلطان ثم يعودون إلى أوطانهم، وأنه باذل نفسه وأولاده وإخوته ورجالهم ومالهم.

فلما بلغ الخبر إلى السلطان رضى عن الشريف بركات رضًا تامًا، وجهز إليه عياله وأتباعه، وبلغت الأخبار أهل مكة فتهيئوا للحج بعد عزمهم على تركه، وكانت سنة هنية وأهل مكة فرحون بما آتاهم الله من فضله بوجود الشريف بركات بين أظهرهم على عادته الجميلة.

ثم إن الشريف حميضة قابل الحاج المصرى مع يحيى بن سبيع بالينبع ولبس الخلعة بتولية الباش المذكور، فبلغ ذلك الشريف بركات فمنعه من دخول مكة، وكان معه طائفة من بنى إبراهيم وحلفائهم فأشاروا عليه بالخروج على الحاج وقتالهم وقتل جماعة الشريف بركات وأخذ أموالهم، ففعلوا ذلك، وحصلت شدة عظيمة من النهب والقتل، ثم أجمع رأيهم على دخول مكة ووقوفه منفردًا بعرفة وألاً يقع بينهما حرب حتى ينقضى زمن الموسم، ويدفع حميضة إلى الشريف بركات خمسة آلاف دينار ذهبًا.

فلما وصل بنو إبراهيم إلى مكة تحركت نفوسهم الخبيثة وضغائنهم السابقة فنهبوا بعض دور مكة وعاثوا حتى فى الحرم الشريف، فبادر الباش ومن معه لقتالهم وقتل أربعة من أعيانهم، وذهب الشريف حميضة مع يحيى بن سبيع إلى الينبع وجمعوا جموعًا على نية أخذ الحج وقطع الطريق، فلما وصل خبر ذلك إلى السلطان رسم بالقبض على جميع من بمصر من بنى إبراهيم والصيادلة المتسببين بالشوارع كالصيارف والعطارين ونحوهم والإحاطة بسائر أموالهم وقبضها وأخذ ما بأيديهم من السلاح، خصوصًا من أراد اللحوق بيحيى بن سبيع ومن معه.

ثم عين تجهيزة عظيمة من الأبطال والشجعان وأعيان الفرسان ومقدمهم الأمير خاير بك الأشقر، وأمرهم بالقبض على جميع من خرج من الطاعة وحمل من يليق حمله وقتل من يستحق القتل.

فلما وصل الخبر إلى يحيى بن سبيع جهز قاصدًا معه عشرون ألف دينار بشرط إبطال التجهيزة المذكورة، وأن كل من بالحجاز طائع، فلما وصلت زادت فى غضب السلطان، فجهز زيادة على الأولين أمراء متعددين، وصرح لهم أن يفتكوا بيحيى بن سبيع وبنى إبراهيم وبجميع من يناصرهم ويكثر سوادهم، وأن يمهدوا جميع الأقطار الحجازية.

فالتقوا مع يحيى بن سبيع ومالك بن رومى والشريف حميضة وجميع بنى إبراهيم وتوابعهم غرة شوال بالدهناء بالقرب من ينبع، وسبق الخبر إلى مكة إلى مولانا الشريف بركات وأن جماعة من بنى إبراهيم تواعدوا على تبييت العساكر السلطانية وأن يأتوهم ليلاً متفرقين إيهامًا للكثرة، ولأنهم لا يعرفون البلاد والغريب أعمى، فركب الشريف بركات من فوره فوافق وصوله نزول العسكر وليس عند بنى إبراهيم من وصوله خبر، فاجتمع من بنى إبراهيم سبعون فارسًا وقصدوا ما قصدوا، فركب الشريف بركات سريعًا وفاجأهم بالدهناء وقاتلهم من الظهر إلى الليل، ففر أهل الخيل ووقع القتل فى الرجّالة واقتلع منهم خيولاً وظهر عليهم ظهورًا هاشميًا والعساكر السلطانية ينظرون إلى موقف مولانا الشريف بركات وشجاعته وقوة بأسه حتى تحيرت عقولهم، ثم عزموا لقضاء حجهم وأداء مناسكهم.

وفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة كان مولد مولانا الشريف أبى نمى بن بركات كما سيأتى ذكره. وفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة حج الشيخ أجود بن زايد فى جمع عظيم يقال إنهم يزيدون على ثلاثين ألفًا.

وفى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة وصل مولانا الشريف بركات إلى جبل الروحاء بالقرب من المدينة الشريفة وقتل مالك بن رومى الزبيدى الذى كان سببًا فى نهب مكة المشرفة وقتل أولاده الثلاثة معوض وقادم وداغر وأخاه مشهون بن رومى وطائفة كثيرة منهم ومن أتباعهم من ذوى روايا وذوى جماعة، وفرح الناس بقتلهم وطيف برءوسهم فى البلاد وأرسل بها إلى مصر فنصبت على أبواب سورها، وكانت حجة هنيئة، وطابت الخواطر واطمأنت القلوب.

وفى سنة خمس عشرة وتسعمائة توجه السيد عرار بن عجل بهدية من مولانا الشريف بركات تشتمل على أقمشة نفيسة ورقيق جميل وخدام حسان وعشرين ألف

دينار ذهبًا وعشرين فرسًا مسمية وما يتبع ذلك ويناسبه وثلاثة آلاف دينار للدوادار، فقابله السلطان مقابلة عظيمة وألبسه خلعة لقدومه وخلعة عند تقديم الهدية، وخلعة عند الوداع، وأرسل معه هدية عظيمة للشريف وخلعًا سنية، ثم حلف له أيمانًا مؤكدة أنى راض عن الشريف بركات رضا تامًا خصوصًا لما وصلت إلينا رءوس زبيد ومن معهم لأن فى نفسى منهم حرًا شديدًا بموجب خروجهم على الحجاج، وقتلهم ونهبهم المرة بعد المرة، وقطعهم الطريق فى أيام سلطانى وكسر ناموسى، ولو لم يشف خاطرى الشريف بركات من طائفة زبيد بخصوصهم لخرجت إليهم بنفسى.

وكتب لمولانا الشريف كتبًا عظيمة فيها تعظيم تام وخاطبه بلفظ مولانا وشريفنا، وفوض إليه أمر الأقطار الحجازية حتى ينبع، فلما وصل السيد عرار بما معه من الهدية والخلع والشكر التام حصل لمولانا الشريف بركات السرور التام، ومدحته الشعراء ومن أعظمهم مولانا شهاب الدين أحمد بن الحسين بن العليف المسمى شاعر البطحاء بقصيدة ذكر فيها ظفره بزبيد وقتله شيخهم مالك بن رومى، وقد أجاد فقال: [من الطويل]

ذرى العزِّ ما قامَتْ عليه الممالكُ ... وما شَيَّدتْهُ المرهفاتُ البَوَاتكُ
وما أعتَقَتْ فيه الفوارسُ فى الوغَى ... وما صافَحَتْ فيه الصِّفَاحُ النَّيازكُ
وقتلُ العدا صبرًا كما شاءتِ الظبا ... ونيل المنَى والفائتُ المتداركُ
وما المجدُ إلا ما وترت به العدَى ... فدارَتْ بهم رِيح الحمام الحَواشكُ
وعزم يبيد الخَيْلَ والعيس بالسّرَى ... تكلُّ به أخفافها والسَّنابِكُ
لعمرُكَ ما تغنى الشَّجَاعَةُ فى الفتَى ... إذا الرَّأْىُ فى تَدْبِيرها لا يُشَاركُ
ولا يرفعُ الجودُ الجوادَ لفعلِهِ ... إذا لم يكُنْ والطبعُ للنفسِ مالكُ
وما لم يكنْ قطعُ الكريم كوصلِهِ ... وإلا فما تغنِى السيوفُ البواتكُ
فدًى لأبى عجلانَ مَنْ رام سعيَهُ ... ومِنْ دون ما رام الحتوفُ النواهكُ
فتَى تردُ الآمالُ منهلَ جودِهِ ... فتصدرُ عنه وهْوَ جذلانُ ضاحكُ
إذا سارَ سارَ الجودُ يحْدُو ركابَهُ ... وإن بركَتْ عَنْ سيرها فَهْوَ باركُ
يذودُ عن المجدِ الأثيلِ بطاعنٍ ... له عزماتٌ فى القلوبِ سوالكُ
حَمَى حوزةَ العَلياءِ منه مهندٌ ... إذا ما انتضَى ماضى الغرارينِ باتكُ

وفى التاجِ غيثٌ بالحيا متهلِّلٌ   وفى الدرعِ ليثٌ والتريكة زامكُ
أباد العدَا فاستَدْرَكَ السيف فوته   ومن قبلها فى الغِمْدِ لا يتماسكُ
وذاقَتْ به سوء النكالِ بما جَنَتْ   فأضحَتْ ومثواها الكدَى والدكادكُ
شفا بالقنا حرَّ النفوسِ من العدا   وزالَتْ به تلك الهمومُ السوادكُ
عزيزٌ عليه أن ينامَ ولم تَقُمْ   بأرضِ العدا بالصافناتِ المعاركُ
فتَى الحربِ لا تثنيه خودٌ عن الوغَى   رَدَاحٌ ولا تصبيه دُعْجٌ ركاركُ
أبَى غيرَ ظلِّ الرمحِ أن يدرك المنَى   فلما انقضَى حنَّتْ إليه الأرائكُ
وأقسم لا يثنى عن الحرْبِ عزمَهُ   إلى أن ترى فيه الدماءِ سوافكُ
أباحَ حمَى الأعداءِ منه بغارةٍ   كأنَّ الضحَى فيها من النقعِ حالكُ
يؤلِّبُ مِنْ أبنا أبيه عصابة   كِرام سَرَاة كالجبالِ سوامكُ
أقاموا صدُورَ الناعجاتِ وجَنْبها   إليها المَذَاكِى فى السلاحِ شوائكُ
كأَنَّ مواطى الصافناتِ أهلَّةٌ   ووَطْءَ مطاياهم بُدُورٌ فوالكُ
نماهم إلى العلياءِ والمجدِ والندَى   أبوَّةُ صدقٍ أخلَصَتْها السبائكُ
مناعيرُ فى الهيجا مساعيرُ فى الوغَى   إذا نكصَتْ عنها اللئامُ الضرائكُ
يذبُّونَ عن أحسابِهِمْ بسيوفهم   إذا ضربَتْ صفحًا لديها الوكاوكُ
ثَوَوْا فى ظهورِ اليعملاتِ كأنما   مجالسُهُمْ كيرانها والمياركُ
سَرَوْا لاقتناصِ المكرماتِ يذودُهُمْ   عن النوم هَمٌّ بالجوانِحِ سادكُ
يهزونَ أشطانَ القنا فى أكفِّهم   كأنَّ أعاليها بروقٌ نوابكُ
إذا سار فيهم خِلْتَ بدرًا وأنجمًا   ثوابت فى أفلاكها لا دوالكُ
ويَقْدُمُهُمْ ماضِى العزيمةِ مقدمٌ   على الهولِ ميمون اللثام مباركُ
يشيح به ظامِى الفصوصِ مطهَّمٌ   وأورق مَفْتُول الذراعَيْنِ تامكُ
أبو حَسَن السامى بنفْسٍ ووالدٍ   وفى منهجِ العلياءِ والعزِّ سالكُ
كريمُ المساعِى صادقُ الوعد مَنْ غدا   وليسَ له فى المكرماتِ مشاركُ
وأنتَ أبا عجلانَ رائشُ نبلهم   إذا دهمَتْ تلك الخطوبُ النواهكُ
وكَمْ لك أعضادٌ شدادٌ على العدا   وأنْتَ لعلياهم سنامٌ وحاركُ
إذا وعد اللهُ الفتَى منه نصرةً   وعزًّا وسعدًا أيدته الملائكُ

أرادتْ زبيدٌ فى جنابكَ دولةً فضلَّتْ بها أوهامها والشكائكُ
غَوَتْ عن طريق الرشد منها سفاهةً وجهلاً وغرتها ظنونٌ بواشكُ
متى كانتِ الأوغادُ ترقَى إلى العلا وتسمو إلى عالى الأمورِ الزكازكُ
وتخطبُ أوشاب الشوايا مراتبًا وتنهضُ للحزبِ الزبون الحواتكُ
طرقتهمُ وقتَ الهجيرِ بصكَّةٍ عميّ لديها فاتك العزمِ فاركُ
وطفتَ عليهم يا همامُ بنيَّةٍ كما طافَ بالبيتِ المعظَّم ناسكُ
فغادرتَهُمْ صرعَى بكلِّ تنوفةٍ تناوحهم ريحُ الصَّبا والروائكُ
تَقَاعَسَ منها مالك ومشهون وكُلّ لدى الهيجاء ألوى مماحكُ
وقامَ بها ميل المقرّضِ واستوَى ومن قبلها فى مشيه يتباوكُ
وطار بها خوفًا أخوه وقلَّصَتْ خصاه وولَّى وهو حيرانُ عانكُ
وزين وبازان بروك وقادمٌ وداغر فى البوغاءِ بئْس المباركُ
لعمرُكَ لو لم تطلُب القومَ غالهم بسعدِكَ مِنْ دونِ الطلابِ المهالكُ
وأغناك عَنْ حَثِّ المطيةِ رائدٌ من الذُلِّ فيهم حابل النومِ حابكُ
لئن كنتَ عن عمدٍ هدمْتَ عروشَهُمْ فإنك بانيها قديمًا وسامكُ
توهَّمها الروميُّ نهضةَ عاجزٍ ولم يَدْرِ أن الليْثَ بالعيرِ فاتكُ
جرى طرفه ملء العنانِ إلى المدى وطرف الردى فى جَفْنه عنه ساهكُ
أخذتَ عليه كلَّ نقب ثنية فضاقَتْ عليه بالرحابِ المسالكُ
وما زالَ يجرى فى هواهُ وغيه وأنْتَ له وسطَ العرينةِ باركُ
وهان على الأيامِ ما هو فاعلٌ وعزّ على العلياءِ ما أنتَ تاركُ
إلى أن نضَتْ عنه الحياةُ قناعها فعاجَلَهُ منكَ الحمامُ المواشكُ
فجرعته كأسًا أعلَّ بمثلها أبوك أباه فارتدَى وهو هالكُ
ولم ينجِهِ منكَ الفرارُ لحينِهِ فأصبَحَ مملوكًا ومن قبلُ مالكُ
وكيف وأنتَ الْمُعْلِمُ الفَرْدُ فى الوغى ورمحكَ طعانٌ وسيفكَ باتكُ
قضى فيه حُكْم المشرفى بعدله فبعدًا له عن منهجِ العدلِ نازكُ
كذا فليكُنْ عزمُ الكريم وإنما على قدرِ عزماتِ الكرام المداركُ
فِدَاكَ أبا عجلانَ كلُّ مملَّكٍ فأنتَ سماء والملوكُ حبائكُ

خذِ المدْحَ منى يا همامُ فإنما بقَدْرِ بناء البيتِ تسمو المدامكُ
ودَعْ ما سواى يا كريمُ فإنني أنا الشاعرُ المحكيُّ والغَيرُ حائكُ
ودونَكَ يابن الأكرمَيْنِ تحيةً تفوحُ كمسكٍ أحكمته المداوكُ
وأخرَى حباها الله لطفًا ورحمةً تهنِّى عليًا بالشفا وتبارِكُ
وتهنا بها العلياءُ والسيفُ والندَى فكلٌّ لما قد كان يشكوه ناهكُ
وقد سرَّنى النصْرُ العزيزُ على العدا وحُكْمُ القنا والمغنَمُ المتداركُ
سرورًا به عينُ الزمانِ قريرةٌ وثغرُ الليالى بالتبسُّم ضاحكُ
ودُمْ يا أبا عجلانَ ملكًا مؤيدًا تتيه به العليا وتَزْهُو الممالكُ
ولا زلْتَ تَحْيَا فى سرورٍ وغبطةٍ وشانِيكَ يَحْيَا فى المذلِة رامكُ

وفى سنة سبع عشرة عاد الشريف راجح من القاهرة قاصدًا أخاه الشريف بركات صحبة السيد عرار بن عجل ليصالحه بشفاعة من السلطان ومن أخيه السيد قايتباى، فقابله مولانا الشريف بركات بالقبول واصطلحا صلحًا شافيًا، وصارا كنفس واحدة إلى أن مات كل منهما.

وفى سنة ثمان عشرة توفى السيد قايتباى، وتعزى فيه أخوه الشريف بركات.

وتوفى السلطان بايزيد ملك الروم، وتولى ولده السلطان سليمان خان فى بلاده قبل فتح مصر. وفى هذا العام توجه الشريف أبو نمى بن بركات إلى مصر المحروسة صحبة القاضى علاء الدين ناظر الخواص السلطانية، ومعه من أعيان مكة شيخ الإسلام صلاح الدين بن ظهيرة الشافعى وشيخ الإسلام القاضى نجم الدين بن يعقوب المالكى وولده القاضى محمد، والقاضى تاج الدين وجملة من أعيان السادة، وطائفة من أعيان قوادهم بنظام عظيم، وأبهة وافرة وخيول أصيلة وركائب مسمية مع الملابس الفاخرة، والسلاح المذهب، والسروج والأكوار اللائقة بالزمان والمكان، قاصدًا منصب آبائه الكرام من السلطان الغورى بتخت مصر، فلما وصلت أخبار خروجه من مكة برزت الأوامر السلطانية إلى رئيس الزمان القاضى أحمد بن الجيعان، أن يخرج لملاقاتهم على أحسن أسلوب.

فخرج إليه بفرس عظيم، وسرج مغرق، وكنبوش مذهب، وكاملية مخمل بسمور، كل ذلك من خاصة السلطان وخزائنه المحفوظة، ومعهم ما يليق من

الطعام، ثم بعد قليل تلقاهم أمير كبير، وباش العساكر المنصورة خير بك الدوادار، وجمع عظيم من القضاة، والمباشرين من كاتب السر إلى من دونه، فلما وصلوا المحل المعروف بالبركة ضرب لهم مخيم عظيم سلطانى، وبسطت لهم فرش من الخزانة العامرة جديدة، ومقاعد مشركسة بالذهب الصرف، ونصبت له وسائد سلطانية.

ثم نزل الشريف أبو نمى فى أعظم خيمة من الخيم السلطانية، ثم نزل كل رئيس من الذين معه فى خيمة هيئت له، ثم مد لهم سماط عظيم سلطانى تضرب به الأمثال.

ثم بعد فراغه منه مد سماط الطارئ من الحلاوات والعسليات، وما يلائم ذلك، ثم بعد فراغه مد سماط الشرابات والفواكه الموجودة، ثم ركب فى موكب عظيم لا يحصى كثرة، حتى دخل البلاد فى أعظم منظر وأبهى أسلوب، والخاصة والعامة معلنون بالدعاء له مظهرون الفرح والسرور بملاقاته.

ثم سار إلى المدرسة الأشرفية الغورية فنزل بها، ثم مد له سماط بعد سماط كما شرح، وفى جميع هذه المدة يخاطب مولانا أركانُ الدولة ورؤساؤها بالألفاظ الملوكية، مع ظهور غاية البشر وكمال الفرح، ونهاية السرور، وعظيم الهناء، وناهيك بمجلس جمع أشراف الزمن، ورؤساء الوقت، وعلماء العصر، وفصحاء الدهر.

ثم ركب مولانا الشريف أبو نمى من المدرسة المذكورة فى موكب عظيم إلى الديوان، وكان السلطان حين ذاك جالسًا بصدر الديوان، فلما دخل مولانا الشريف من باب الحوش أشرف عليه السلطان وهو فى الملابس الحسنة الحسنية بالدليقين والعمامة على القبع والأنوار النبوية مشرقة عليه، والعناية الصمدانية ناظرة إليه، تعجب من هيئته الباهرة، وامتلأت عينه بمهابته، وطلعته الطاهرة، فأمر أن ينصب له كرسى بمفرده.

فلما دخل الديوان قام له ألفًا وقبل جبينه الشريف وقد زاده الله شرفًا، وأراد مولانا تقبيل يد السلطان فامتنع السلطان من ذلك أدبًا مع المقام النبوى، والجناب العلوى، فغلب على ذلك مولانا الشريف فاحتضنه، وسلم عليه، وقربه لجانبه، وأقبل عليه

بالمحادثة والملايمة، ثم أجلس من معه من القضاة والأشراف، وجابرهم بخطابه العذب، وأنصفهم فى الجلوس غاية الإنصاف، ثم أقبل على الشريف أبى نمى ووضعه فى حجره.

وكان سنه إذا ذاك ثمان سنين وقال له ما اسمك؟ فقال محمد أبو نمى الغورى فحصل للغورى سرور عظيم بذلك فقال له: أنت أشطر من أبيك.

ورأيت فى «نشآت السلافة» للإمام عبد القادر بن محمد الطبرى أنه قال له بعد وضعه فى حجره: ما سورتك؟ فقال: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا، ولم تكن إذ ذاك سورته هى فأعجب السلطان ذلك وتفاءل به واستبشر قلت: كلاهما يدل على مزيد الحذق والذكاء. ولا عجب إذا صدر من سلالة المصطفى.

وعندى أن الأولى - وهى التى ذكرها السمرقندى - أحذق، وأذكى لعود الذكاء وأعبق.

ثم ألبسه كاملية سلطانية ثانية بمسح ذهب بمقلب سمور من خاص ذخيرته، وقام السلطان ثانيًا لوداعه، ثم ركب من القلعة السلطانية إلى محل سكنه، ثم رتب له السماط السلطانى صباحًا ومساء مع الطارىء، وتوابعه مع الافتقادات له، ولجميع من معه مما لم يسبق نظيره فى الدولة السلطانية الغورية.

ثم إن مولانا الشريف استأذن فى التوجه إلى الأقطار الحجازية فكتب له توقيع شريف جليل خوطب فيه بألفاظ التكريم، والتبجيل.

ثم وجه إليه من الذخائر السلطانية سنجقًا وأربعين مملوكًا وخلعًا سنية لوالده الشريف بركات ومبلغًا من النقد له صورة برسم من صرف الطريق، وكذلك جميع ما يحتاج إليه من الدقيق، والأرز، والسمن، والعسل، والسكر، وسائر زاد الطريق، وكذلك جميع من فى صحبته من الأعيان أنعم عليهم بالعامات، معجلة ومرتبات على عادة أمثالهم، وبرز من مصر على صورة جميلة مع إظهار الإنعامات السلطانية.

ولما وصل الخبر بقدومه زينت البلاد، وانشرحت صدور العباد، وخرج لملاقاته الأعيان من مكة، فدخلها رافلاً فى نعم الله تعالى التى تفضل بها عليه، وعلى آبائه وأجداده، فلا زالت فى أولاده ثم فى أحفاده، فطاف بالبيت الحرام، ودعى له على زمزم أسوة آبائه الكرام، ثم قرئ توقيعه الكريم بمحضر جيران بيت الله الحرام، ثم

خرج إلى دار السعادة فمدحته الشعراء على عادة أسلافه بعدة قصائد من أعظمها قصيدة أحمد بن الحسين العليف أيضًا يهنىء أباه بعوده إلى سرير ملكه، ووصول ولده الشريف أبى نمى من القاهرة سنة ثمان عشرة المذكورة وهى هذه: [من الخفيف]

خدَمَتْكَ الحظوظُ والأقسامُ وجرَتْ باختيارِكَ الأحكامُ
وقضَتْ بالذى تريدُ الليالِي واستقامَتْ لأمرِكَ الأيامُ
وأطاعَتْكَ المرهفاتُ المواضِي والمذاكِى والسمْرُ والأقلامُ
وكفَاكَ المحذور أيّ شريفٍ وحَمَاكَ التدبيرُ والإلهامُ
ووقاكَ الإلهُ ما أضمَرَ الدَّهـ ـرُ وما سوَّلَتْ له الأوهامُ
لا تخفْ منه نبوةً واهتضامًا عادةُ اللهِ لا يضامُ الكرامُ
خصَّكَ اللهُ بالعنايةِ منه وكَلاَكَ الوقارُ والإعظامُ
حسبُكَ اللهُ أن يطيشَ بك الظنُّ وأنْ يستفزَّكَ الإيهامُ
ليس للملكِ غَيْر ذاتِكَ كُفْءٌ أنتَ للملكِ يا همامُ نظامُ
لكَ فيه ولا عليك امتنانٌ قدمٌ راسخٌ ومجدٌ قدامُ
وطدتْهُ سيوفُ آبائكَ الغُرّ فدانتْ لها الملوكُ العظامُ
دون ما يضمرُ الغبيُّ من الغَدْ رِ جلادٌ وغرٌ وموتٌ زؤامُ
يكبتُ الغيظُ حاسديك جميعًا وتزولُ الأحقادُ والأدغامُ
قد بلاكَ الزمانُ حلوًا ومرًّا فإذا الشَّهْدُ فيه داءٌ عقامُ
ورآكَ العدوُّ هضبةَ عزٍّ دون مرآك شامةٌ وشمامُ
لو على الأمْر عارضتْكَ الليالي قارعَتْهَا الأقدارُ والأحكامُ
لم يكنْ غَيْرُ ما تريدُ ولو كا ن فإنَّ العزيز مَنْ لا يضامُ
لا يقيمُ الفتى على الضَّيْمِ ما دا م له الرمْحُ خادمًا والحسامُ
وإذا أنْكَرَ الديارَ كَريمٌ فالمطايا دليلهُنَّ الخطامُ
ظِلُّهُ رمحُهُ وعصمتُهُ السَّيْـ ـفُ ومثواهُ صهوةٌ أو سنامُ
لا يناجِى على العزيمةِ إلا نفسَهُ والكريمُ لا يستضامُ
يقطع الأمرَ دونَ كلِّ مشيرٍ ويناغى الردَى إذا القومُ خامُوا
لَيْسَ عزًّا إلاَّ صدور العوالي والظبا والإسراج والإلجامُ

هكذا فلتكُنْ كرام المساعي ... وعلى مِثلِهَا يكونُ المقامُ
فهنيئًا أبا زهير بعودٍ ... لسريرٍ به السرورُ دوامُ
مَهَّدَتْهُ لك الخفافُ المواضِي ... وجلاه بعزمِكَ الإقدامُ
لم تجدّدْ لك الولاية عهدًا ... أنتَ مِنْ قبلها مليكٌ همامُ
لا أهنيكَ بل أهنِّى بك المُلْ ... كَ فقد حزتَهُ وأنتَ غلامُ
أنتَ يابا زهير أعلَى محلاً ... فعلام الهناءُ والإعلامُ ؟!
لم ترثه كلالةً لا ولا العهْ ... دُ حديثٌ به ولا الإلمامُ
هَدَأَ الملكُ بعد طولِ جماحٍ ... مذ تولَّيْتَ واستقامَ النظامُ
وكساه حلاكَ رونَقَ حسنٍ ... لم تبده الشهورُ والأعوامُ
لكَ فى الملكِ سالفٌ وقديمٌ ... سادةٌ قادةٌ ملوكٌ كرامُ
جمعوا البأسَ والنَّدَا فى أكفٍّ ... يُسْتَهَلُّ الردَى بها والركامُ
تستذمُّ الملوكُ منهم فينجو ... نَ وإن كان المستذمّ رمامُ
دوَّخوا الدهر والممالكَ حتى ... قَعَدُوا منهمُ الملوك وقاموا
واستباحُوا حماهُمُ وأقاموا ... ميلهم بَعْدَ عزِّهم فاستقاموا
كَسَبُوا العزَّ بالرقاقِ المواضِي ... ورَعَوا الناسَ والملوكُ سوامُ
قلدتها الولاية البيض والسُّمْ ... رُ وطَعْنٌ فذٌّ وضربٌ تُؤَامُ
وكماةٌ تسيرُ فيها المنايا ... طائعات كأنها خُدَّامُ
من لؤىِّ بن غالبٍ كلُّ فردٍ ... منهمُ فى اللقاءِ جيشٌ لُهَامُ
يوسعون الجموعَ ضربًا وطعنًا ... ولو انَّ الجموعَ سامٌ وحامُ
يستظلُّونَ بالرماحِ وبالبيـ ... ضِ لدى الحربِ والطيورُ حيامُ
إن أصابوا فما جَنَوْهُ جُبَارٌ ... أو أصِيبوا فثارُهُمْ لا ينامُ
كُلُّ الوى يختالُ للموتِ عجبًا ... حين يُدعَى وثغره بَسَّامُ
برماحٍ تعوجُ فى الهامِ طورًا ... وعلى الفوز فى الصدور تقامُ
واردَات إذا مرقْنَ لطعنٍ ... قصُرَتْ دون وقعهنَّ السهامُ
وصفاح إذا انتضَوْهَا لحربٍ ... كان من بعضِ تابعيها الحِمامُ
مخلصات إذا برزْنَ من الغِمْـ ... دِ كأنَّ الفرندَ فيها ضرامُ

مرهفات كأنهنّ لدى الضّرْ بِ ركوعٌ وسُجَّد وقيامُ
وعتاق إذا تداعوا لحَرْبٍ عزمَتْ قبل أن يناطَ اللجامُ
غاديات إلى الوغَى رائحات يستوى النُّورُ عندها والظلامُ
قد تبرقَعْنَ بالحديدِ ولكنْ عاريات لباسهنّ القَتَامُ
علَّمتها التجاربُ الكرَّ والفرَّ وكيْفَ الإقدامُ والإحجامُ
لم يزدْنَا البشيرُ عما علمنا ه ولا خامَرَ العقولَ اتهامُ
عمركَ الله لو تراخى قليلاً بشَّرتنا بسعدكَ الأحلامُ
أنتَ روحٌ للملكِ والغيرُ جسمٌ لا تقاسُ الأرواحُ والأجسامُ
ذاتُكَ القطبُ للسيادةِ والآ لُ نجومٌ وأنتَ بدرٌ تمامُ
وإذا كان فى المقاييس قربٌ كنتَ نورًا ومن سواك كمامُ
كيف يسمو إلى معاليكَ قَوْمٌ سهرَتْ مقلتاك فيها ونَامُوا
أين كانوا أبا زُهَيْرَ وقَدْ ذُد تَ عن الملكِ والخطوبُ عظامُ
حين أدجَى ضياؤها وتوارَى صبحها فانجلَى بك الإظلامُ
كنتَ طَلاَّعَ نَقْبها والثنايا يومَ أنتَ المقدَّمُ المقدامُ
همةٌ دونها الثريا وحَزْمٌ واعتزامٌ وسطوةٌ وانتقامُ
لم أقلْ ما أقولُ جهلاً ولكنْ يظهر الأمرُ إذ يزولُ اللثامُ
منصبٌ جلَّ وقعه منكَ لكنْ أنتَ أغلَى مكانةً إذ تسامُ
فاحفظِ الملكَ بالعشائرِ والما ل فأنتَ المجرّبُ الصمصامُ
وابذلِ الجهدَ يا أخا الحزم فيه فالفتَى بعد بذلِهِ لا يلامُ
ليس يخفَى عليك يابا زهيرٍ سبب النقض فيه والإبرامُ
وإذا الداءُ فى الخوافِى تعدَّى لقدامَى الجناحِ منه السقامُ
وإذا كان فى السيوفِ اضطرابٌ قرعَتْ حدّها سيوفٌ كهامُ
أنتَ فى الناسِ كاسمك البرّ فيهم بركاتٌ على الأنام جسامُ
إن دهرًا أتيتَ فيه لدهرٌ سحرٌ كله وليلٌ تمامُ
أنتَ عينُ الوجودِ فيه ولولا ك تساوَى الإيجادُ والإعدامُ
قصرَتْ عن مدى خطاكَ المساعِي حيثُ كانَتْ لك المساعى الكرامُ

وتباهَتْ بك الممالكُ فخرًا وتــهــادَتْ آثــارَكَ الأيــامُ
وَتسامَيْتَ فوق فرعِ السماكَيْـ ـنِ ومِنْ دون أخْمصَيْكَ النعامُ
جزْتَ حد الكمال فى كل وصفٍ قصرَتْ عنه فى الصفاتِ الأنامُ
كـرمٌ فـى شـجـاعـةٍ ووفـاء وحـيـاءٌ وحـرمـةٌ وذمـامُ
وارتـفـاعٌ إلـى الـعـلا وسُمُوٌّ وحـنـوٌّ ورحـمـةٌ وانـهـضـامُ
وارتـيـاحٌ إلـى الـثـنـا وسـمـاحٌ واحـتـفـالٌ بـشـأنـه واهـتـمـامُ
وأيـادٍ إذا اسـتـهـلَّ نـداهـا يستمدُّ الحياة منها الغمامُ
لا يزيدُ الثناء فيكَ ولكنْ يتحلَّى إذا ذكرت النظامُ
عظمَتْ ذاتك الشريفةُ عنه ونبَتْ دون وصفِكَ الأفهامُ
وتعالَيْتَ أن يحيطَ بك المد حُ وفيه براعةٌ وانسجامُ
لم أزلْ ظامئًا إلى مدْحِ عليا كَ وبى دائمًا إليه أُوَامُ
علَّمتنى هباتك النَّظْم والنَّثْـ ـرَ وكيف الإنجادُ والإتهامُ
أتعَبَتْ فكرتى حسانُ سجايا كَ وأعيا على البليغِ الكلامُ
والهنا فى أبى نُمَيّ المفدى والأمانِى والجمعُ والإلتئامُ
فرعُ غرسٍ ينمى إلى خير أصلٍ جاء تال وفى السباقِ إمامُ
وابنُ ملكٍ ومنبرٍ وسريرٍ ومدى الغايةِ التى لا ترامُ
سيدٌ أدركَ السيادَةَ طفلاً وبنى المكرماتِ وهو فطامُ
خفقَتْ رايةُ السعادةِ والمُلْـ ـكِ له والبنودُ والأعلامُ
وله اهتزَّ منبرٌ وسريرٌ وبه استبشَرَ الصفا والمقامُ
لا عجيبٌ إنْ نال وهْوَ صغيرٌ ما حواه الآباءُ والأعمامُ
ما على الشبل أن يحوزَ المعالِي وأبوهُ الغضنفرُ الضرغامُ
فهنيئًا له السيادة والمجْـ ـدُ جميعًا والعزُّ والإحترامُ
بَلَغتْكَ الآمالُ فيه الذى رُمْـ ـتَ فلله الحمدُ والإنعامُ
دمْتَ حتى ترى السيادَةَ والمُلْـ ـكَ لأولادِهِ وأنتَ الزمامُ
خذ مديحًا أهداه عبدٌ محبٌّ ما له فى فتًى سواكَ مرامُ
وله بالثنا عليكَ وَبِالشُّكْـ ـرِ وبالمدحِ والدعاءِ غرامُ

أنا فى مدحِكُمْ جريرٌ وفى الحمْـ دِ جميلٌ وفى الهنا هَمَّامُ
رشتُمُ بالنوال والجودِ والفضْـ لِ جناحِى كما تراشُ السهامُ
قِسْ ثنائى على ثناءِ سوَائِي تَـدْرِ أن الكلامَ منه كلامُ
واقسم اللحْظَ بيننا يا أخا الجو دِ فأنتَ المهذَّبُ المقدامُ
لَوْ دُعِينَا إلى التناصُفِ فى الحُكْـ م لبذَّ الضعيف منا الملامُ
وبقَدْرِ البليغِ والبلغ فى القو ل يكُونُ الإعرابُ والإعجامُ
ومن الشعرِ للعقولِ جلاءٌ ومن الشعرِ للنُّهَى بِرْسَامُ
يفعلُ المدحُ فى الكرامِ كما تفْـ علُ فى عقلِ شاربيها المُدَامُ
ويفيدُ الكريمَ عزًّا ومجدًا ويحطُّ الجوادَ قولٌ سخامُ
وخيار الرجالِ فى الشعْرِ من كا ن له فيه بسطةٌ واحتكامُ
فابْقَ للملكِ والممالكِ عزًّا ولك المدحُ مبدأ وختامُ
ما توالَتْ عليك غُرُّ القوافي وتغنَّتْ على الغصونِ حمامُ
وعلى المصطفَى وآلٍ كرامٍ وصحابٍ تحيةٌ وسَلامُ

وفى عام عشرين وتسعمائة حج محمد ولد السلطان الغورى مع والدته فى تجمل عظيم جدا، وخرجوا من مصر فى الجمال المزينة، والأكوار المشركسة، والمحاير المرصعة بالذهب، ومحفة خوند فى ثبتها ذهب مرصع بالجواهر، فخرجت لها السادة الأعيان من أعيان مكة المشرفة، وأركان الدولة من حين قاربت الينبع، وقابلها الشريف أبو نمى نيابة عن والده من خليص، ومد لها من الأسمطة، والحلويات، والفواكه، أصناف متعددة فى عدة منازل، وقابلها الشريف بركات من خارج مكة، فلما وصلت رأس الردم ترجل كل من لقيها حتى مولانا الشريف بركات، وأخذ بلجام مركبها إلى باب السلام، ثم حملت محفتها على الأعناق إلى القصر بباب إبراهيم. فلما توسطت المسجد وولدها بين يديها قال مقدمها: يا خوند، اشكرى نعمة الله تعالى فإن مولانا الشريف بركات حامى حمى الحرمين، حامل المحفة الشريفة إجلالاً وتعظيمًا، وقد فرش الديباج تحت جمال المحفة، ثم فرش تحت الأقدام بالمسجد الحرام، وهى تقسم على مولانا الشريف بركات، بأن يترك الحمل المرة بعد المرة، فلما وصلت القصر علو باب إبراهيم أشارت بأن يكون ولد

السلطان فى مدرسة ملك التجار رامشت، وأمير الحاج المصرى مع أركان الدولة فى خدمتها، كأقل العبيد، ثم أمر لها مولانا الشريف بركات بسماط عظيم أبهر العقول، ثم حمل إليها من الأغنام، والعسلان، والسمون، والفواكه، ما لا يحصى ولا يحصر، ثم تردد عليها مولانا الشريف أبو نمى بعرفة ومنى ومكة، وضاعف إليها من فضل والده الهدايا، والافتقادات، والأقمشة العالية، والتحف النفيسة؛ لأنه قريب العهد بموالاتها له، ثم سافر معها مولانا الشريف بركات إلى مصر المحروسة فأقبل عليه السلطان إقبالاً عظيمًا جدًا، وشكرت للخوند جميل سعيه وجزيل مراعاته، فوقع ذلك عند السلطان موقعًا عظيمًا، سيما حمل المحفة وما فى معناه، وأنعم عليه بإنعامات جزيلة، منها خادمان وعشرون مملوكًا، وخيول أصيلة، وجمال برسم الدر والنسل، مما تقتنيه الملوك من كبر الجثة، وحسن المنظر، وطيب الأصل، وغزارة اللبن، وحلاوته، ويقال إن الإبل المعروفة بالمصرية من تلك، وجمال للحمل، وعشرة آلاف دينار حوالة على بندر جدة المعمورة، وخلعًا سلطانية نفيسة، وأذن له فى المسير إلى وطنه فوصل مكة المشرفة فى شهر رجب من العام المذكور، وزينت البلاد، وصنع الأمير حسين الكردى، وهو من أمراء الغورى بجدة صنع للشريف ضيافة هائلة، وقابله هو وأعيان مكة من خارجها، وكان يوم وصوله عندهم من أعظم الأعياد.

وفى عام اثنين وعشرين وتسعمائة، وقعت المقاتلة بين السلطان الغورى، والسلطان سليم بن بايزيد ملك الروم بمرج دابق خارج حلب المحروسة، وغلب السلطان سليم الغورى وفقد فى المعركة.

ثم إن السلطان سليم خان وصل المحروسة بعد قتلة عظيمة بالريدانية بين العساكر العثمانية، ونائب سيده السلطان الغورى طومان باى، وذلك فى شهر ذى الحجة من العام المذكور، ولم يحج من مصر ركب، ووصلت الكسوة للكعبة الشريفة بحرًا صحبة مزهر الخادم.

ثم لما استقر مولانا السلطان سليم وتوطد ملكه لمصر، وأعمالها، وانتظم له الملك من دار الخلافة الإسلامية قسطنطينية، إلى غاية المملكة المصرية أنهى إليه بعض الحساد أن جميع الملك والسلطان طرازه الأعظم ملك الحرمين الشريفين،

وأعمالهما، والدعاء لمولانا على منابرهما، فشرع فى تجهيز جيش كثيف للحرمين الشريفين، وكان بمصر القاضى صلاح الدين بن ظهيرة كان السلطان الغورى صادره بطلب عشرة آلاف دينار ذهبًا فعجز عنها فحمله إلى مصر بالترسيم، فلما وقع ما شرح من تبديل الدولة، وبلغ القاضى المذكور ما عزم عليه مولانا السلطان سليم اجتمع بمولانا بيرى باشا الوزير الأعظم، وعرفه عظمة مولانا الشريف، ومراعاته للسلطنة الشريفة وحسن سياسته، وتدبيره وأن يُرْسَلَ إليه مكتوب سلطانى بما يقتضيه الرأى السلطانى، فاستقر الحال على كتابة توقيع سلطانى، وكتابة مراسلات من مولانا الوزير المذكور، ومن مولانا القاضى صلاح الدين إلى مولانا الشريف بركات، بأن يقابل التوقيع السلطانى بالقبول ويرسل ولده إلى الحضرة السلطانية السليمية بتهنئتها، وتعريفها بكمال الطاعة والانقياد، ونهاية الامتثال والمحبة والاتحاد، فوافق الشريف بركات على جميع ما ذكر، وأرسل ولده الشريف أبا نمى نائبًا إلى مصر المحمية، فقابل مولانا السلطان سليم خان طاب ثراهما وعظمه تعظيمًا مضاعفًا، وخوله وحباه، وعاد سالمًا غانمًا فى ظل والده حاميًا حاكمًا ودام عزهما إلى أن توفى والده مولانا الشريف بركات عام إحدى وثلاثين وتسعمائة كما شرح مفصلاً، ودفن بمكة بعد طوافه والنداء على زمزم، وقبره معلوم يزار عليه قبة، والدعاء عنده مستجاب، رحمه الله رحمة واسعة. ومما قاله الشهاب أحمد بن الحسين: [من البسيط]

أَلعِزُّ تحتَ ظلالِ البيضِ والأسلِ ... يومَ الطعانِ وسبق السيف للعذلِ
والمجدُ ما شاد ذكرًا أو بَنَى شرفًا ... يبقَى وما شدَّ ركنَ الملكِ والدولِ
والعزمُ ما خَضَعَ الأعدا لهيبتِهِ ... ذُلاً وما صَيَّرَ الأفكارَ فى شغلِ
لا تحملُ الضيمَ نَفْسُ الحُرِّ لو بلغَتْ ... منها الليالى بأمْرٍ غيرِ محتملِ
صمم إذا سمت أمرًا عزَّ مدركُهُ ... فما ينالُ العُلا من كان ذا كَسَلِ
وانهضْ سريعًا إلى الغاياتِ محتقبًا ... فذو العزيمةِ لا يمشى على مَهَلِ
كمْ فرصةٍ عرضَتْ فى طيها ظَفَرٌ ... فاتَتْ بتدبيرِ رأيٍ غير معتدلِ
ما لم تكُنْ برداءِ العزِّ مرتديًا ... فدَعْ طِلَابَ المعالِى عنكَ واعتَزِلِ
واغضِ الجفونَ على ذُلٍّ ومسكنةٍ ... واصبرْ على الضيم صَبْرَ العوْدِ واحتملِ

ما عَزَّ مَنْ باتَ والآمالُ تخدعُهُ ... على اكتسابِ العُلا والمجدِ بالحيلِ
ولا اجتنى العِزَّ إلا فاتكٌ بَطَلٌ ... يَرْوِى القنا مِنْ نجيعِ الخيلِ والقللِ
ليس المذلّةُ من شأنِ الكريم فدَعْ ... عنك الهُوَيْنَى وسِرْ للعزِّ فى عَجَلِ
وارحَلْ عن الدارِ لا مستعظمًا خطرًا ... ولا مريدًا سوى العلياءِ من بدلِ
وعلِّلِ النفسَ عن إلفٍ وعنْ سَكَنٍ ... واجعلْ هواكَ لغيرِ الأعينِ النُّجُلِ
إنَّ الكريمَ إذا ما جَدَّ فى طلبٍ ... حثَّ المطيَّة فى وخدٍ وفى رَمَلِ
لا يَسْأَلَنَّ سوى الهنديِّ عارفة ... إنَّ العزيزَ لغَيْرِ السيفِ لم يَسَلِ
فالسيفُ أصدقُ ما تشفى الغليل به ... وهْوَ الدواءُ من الأدواءِ والعِلَلِ
فاجعلْ له الحُكْم فى أمْر تحاولُهُ ... واقطَعْ على حُكْم ما يقضى به وصِلِ
مرأى العدُوِّ على حالٍ يعزُّ بها ... داءٌ على الحُرِّ لم يبرحْ ولم يزلِ
لا يدركُ الثأرَ إلا كل ذى حسبٍ ... بالسيفِ مشتملٍ بالرمحِ معتقلِ
مثلُ الشريفِ أبى عجلانَ مَنْ شرُفَتْ ... قناته بنجيعِ الفارسِ البطلِ
ألفاطميِّ الذى عزَّتْ مناقبُهُ ... عن النظائرِ والأشباهِ والمثلِ
مَلْكٌ إذا رايةٌ للمجْدِ قد رُفِعَتْ ... ينالها وسوَى علياه لم يَنَلِ
ذو عزمةٍ كغرارِ السيفِ ماضيةٍ ... وهمَّةٍ فى العلا تسمُو على زُحَلِ
يرى العواقبَ مِنْ مرآةِ فكرتِهِ ... غيبًا ويقضى بحُسْنِ الرأى فى العملِ
حامِى الحقيقةِ فى وِرْدٍ وفى صَدَرٍ ... ماضِى العزيمةِ مقدامٌ على الجللِ
مولًى إذا ثَوَّبَ الداعِى وقد لقحَتْ ... حَرْبٌ يلبيه لا مستفهمًا بِهَلِ
يقضى على مهج الأعداءِ عامله ... وسيفه فى الطلا يروى من العَلَلِ
مِلْءِ المفاضة مِنْ بأسٍ ومن كرم ... ومن حياءٍ وحلم غير منتحلِ
أمضى من الصارمِ الهنديِّ همته ... عزمًا وأسْرَى إلى الأرواحِ من أجلِ
تفرَّعَتْ عن صميمِ المجدِ دوحتُهُ ... من معدنِ الوحْى مثوى خاتم الرسلِ
موصولة برسولِ اللهِ نبعتُهُ ... أكرِمْ بفرعٍ بذاك الأصل متصلِ
مقابل بين فرعَيْ دوحةٍ شرفَتْ ... بين البتولِ وبين الطالبيِّ على
مغنى الرسالة والتنزيل معهدُهُ ... أعظمْ بذلكَ من بيتٍ ومن نُزُلِ
أعزّ مَنْ سَبَحَتْ جردُ العتاقِ به ... وأوجَفَتْ يعملاتُ الأينقِ الذللِ

فخرًا وعزًّا بنى الزهراءِ إن لكُمْ ... فضلاً به ما له فى الناسِ من مثلِ
يابن الملوكِ الألَى شادوا ممالكَهُمْ ... بسلّةِ السيف والعسالةِ الذبلِ
يزيدُ مَرُّ الليالى عزَّهم شرفًا ... كالعضْبِ يزدادُ إرهافًا مع الأزلِ
تسنَّموا غاربَ الأهوالِ وامتزجوا ... مَعَ الخطوبِ امتزاجَ النومِ بالمقلِ
ألضاربينَ على أكنافِ مُلْكِهِمُ ... سرادقَ العزِّ من بيضٍ ومن أسلِ
والسالكينَ إلى العلياءِ فى نَهَجٍ ... أعيَتْ مساعيه أهلَ الأعصرِ الأوَلِ
سقَاهُمُ الوَحْىُ من صافى مواردِهِ ... ماءَ النبوةِ عذًا ليس بالوَشَلِ
لولاك يا بركات الجودِ ما اعتدلَتْ ... للملكِ قائمةٌ آلَتْ إلى مَيَلِ
كم عزمةٍ لك فى الأعداءِ صادقةٍ ... أمضَى من الهندوانيات فى القللِ
تكفلت لك أطرافُ الرماحِ بهم ... والمرهفات وكُلٌّ بالوفاءِ مَلِى
فى مأزقٍ ضيق صوت الكماة به ... قرع الصوارم بالخطية الذبلِ
طرقتَهُ ثابتَ الأركانِ مبتسمًا ... كالليْثِ يفترُّ عن أنيابِهِ العُصُلِ
هتكْتَ فيه حجابَ الدارعين عَلَى ... سُمْرِ القنا غَيْرَ رعْديدٍ ولا وَكِلِ
ورُبَّ ملحمةٍ ماجَتْ بكثرتها ... صافَحتَهَا بِقِرَاعِ البيضِ والأسلِ
وفيلقٍ مظلمِ الأقتارِ مصطلم ... برق الأسنة يهديه إلى السبلِ
وردتَّهُ وحياضُ الموتِ مُتْرعةٌ ... طَلْقَ المحيَّا بوجه مسفِرٍ جذلِ
ثم أنثَنَيْتَ وقد غادرتَهُ أثرًا ... وجئْتَ بالسبْى والأسرَى مع النفلِ
وحزْتَ بالنصْر ما ترجوه من أملٍ ... وفزْتَ منه بسهمِ الناضلِ الخصلِ
عزمٌ وحزمٌ وإقدامٌ وعارضةٌ ... فى جحفلٍ لَجِبٍ أو مجمعٍ حفلِ
أوصافُ مجدِكَ فى بأسٍ وفى كرمٍ ... تصرفَتْ بين طعمِ الصابِ والعسلِ
كالغيثِ كالليثِ فى حالَىْ نَدًى ورَدًى ... ترجَى وتخشى لرزقٍ أو على أجلِ
تُرْوِى السيوفَ دماء الناكثين كما ... تَقْرِى الضيوفَ سديفَ الكُومِ والإبلِ
مثل الغضنفر فى الهيجاءِ يَوْمَ وغًى ... وفى السماحةِ مثْل العارضِ الهطلِ
أدركْتَ بالصبر ما تَعْيَا الملوك به ... ونلْتَ بالحزم ما يُرْبى على الأملِ
فى معشرٍ مَرَقُوا فى الدينِ وارتكبُوا ... محارمًا آذَنَتْ بالإثمِ والزللِ
لما نَوَوْكَ وعَيْنِ السعدِ كالئة ... صَبرتَ صبرَ كريمٍ غيرِ محتفلِ

وكُنْتَ كالبدرِ وارَى ضوءَ غُرَّته ... حينًا وآبَ مآبَ الشمسِ فى الحملِ
ما زلْتَ تملى لهم والمَوْتُ ينظرهم ... شَزْرًا بطرفٍ خفيٍّ غير منتقلِ
ورُعْبُ ذكرك يجرى فى خَوَاطِرِهِمْ ... جَرْىَ السقام بجِسْم الواهنِ الوَجِلِ
ينامُ طرفُكَ والأوهامُ تُسْهرهم ... خوفًا وتهدأ والأفكارُ فى جَدَلِ
حتى إذا أينَعَتْ للقطفِ أرؤسُهُمْ ... وحانَ بالسيفِ منها منتهى الأجلِ
صَدَمْتهم بخميسٍ لو صَدَمْتَ به ... هضابَ رضوَى لعادَتْ منه فى خَلَلِ
يكادُ يسمع وَقْعَ المرهفاتِ به ... مَنْ بالخريبة ممتدًا إلى ثُؤَلِ
ويستنيرُ بروقًا مِنْ أسنته ... بنو حرامَ الغواةُ النازلون حلِى
كم فى جوانبِهِ للوحشِ معتركٌ ... وفوقَ حافاتِهِ للطيرِ من زجلِ
دَبَّتْ إليهم مناياهم بصدمته ... دبيبَ كاسِ الطلا فى الشارِبِ الثملِ
ناموا وما نمْتَ عن وتْرٍ تحاوله ... والقومُ فى غفلةٍ يرعَوْنَ كالحملِ
ما زلْتَ تركُضُ فى مضمارِ غايتهم ... دليلك النصْرُ فى حِلٍّ ومرتحلِ
فى مقنبٍ من عتاق الخيلِ ذى رهَجٍ ... مدرَّعٍ برداءِ الروعِ مشتملِ
وفتيةٍ ألفوا حرّ المصاع به ... كأنهم تحْتَ ظلِّ السمرِ فى ظللِ
مالوا عليهم بأطرافِ القنا فكَأَنْ ... وقت الضحَى من مثار النقعِ كالطَّفَلِ
حتى بَلَغْتَ الذى حاولْتَ بُغْيَتَهُ ... فيهِمْ وجاوَزْتَ حَدَّ القولِ فى العملِ
شفيْتَ نفسًا رعاها اللهُ ما بَرِحَتْ ... عزيزةَ الذاتِ مذ كانَتْ ولم تَزَلِ
للهِ دَرُّكَ من طَلاَّبِ واترةٍ ... غَادَرْتَ رَبْعَ العدَى رسمًا على طَلَلِ
تركتهم جزرًا فى كل موحشةٍ ... للوحشِ والطير كالأنعامِ والثللِ
أذقْتَ آباءهم ثُكْلَ البنين كما ... أَيَّمْتَ منهنَّ ذات الدلِّ والكحلِ
ومُذْ سفكْتَ دماءً من نجومهمُ ... كففْت بادا الحجا عن بيضة الكللِ
لما رأوك على آثار جرَّتهم ... طاروا مطار القطا الكدريّ والحَجَلِ
وإنما ينزعون الكل من خَوَرٍ ... قوائم الخيلِ والأقدام من وحلِ
وصارَ كُلُّ زعيم فى عشيرتِهِ ... يقولُ لا ناقتى فيها ولا جَمَلِي
أين المفرُّ وخيلُ اللهِ طالبةٌ ... والسعْدُ يغتالهم فى السهْلِ والجبلِ
كفَى بسيفكَ وعظًا فى مصارِعِهم ... لكلِّ منهزمٍ منهم ومنخَزلِ

مذ عاينوا الذبْحَ فى أحلاقِهِمْ نَزَعُوا   إليكَ مِنْ وهنٍ فيهم ومِنْ وهلِ
لا تُعطِهم يا أبا عجلان عارفَةً   وما يرومُونَ من وجْه ومن قبلِ
ولا تُتَابِع هجارًا فى رعايتهم   ليس الشجيُّ رَعَاكَ اللهِ مِثلَ خَلِي
لا تحرقُ النارُ إلا كَفَّ لامسها   ولا أخو كَبِد حَرى كذى بَلَلِ
واذكُرْ على القرب ما نالوا وما فَعَلُوا   فى أهْلِ دارِكَ من فتكٍ ومن غيلِ
واعْلَمْ سلمْتَ بأن القوْمَ قد حشدوا   ولَيْسَ مطلبهم إلاَّكَ من رَجُلِ
ثَلُّوا عروشَكَ واجتاحوا حِمَاكَ به   وجاذَبُوكَ رداءَ العزِّ فى النزلِ
فاغضَبْ لنفسِكَ أودَعْ كلّ مكرمةٍ   تبقَى وقوضْ خيامَ العز وارتحلِ
واذْكُر أبا القاسم السامى ومصرعَهُ   كذاك مصْرعَ إبراهيمَ حينَ ولِي
السادَةُ القادةُ الأملاكُ من حَسُنَتْ   بذاتهم بهْمَةُ الأيامِ والدولِ
لا تجعلِ المالَ عن أرواحهم بدلاً   من اللئامِ فبئْسَ المالُ من بَدَلِ
لا تتركِ الحزْمَ عينًا ثُمَّ تطلبه   دينًا فتقرعَ سنَّ النادمِ النكلِ
ولا تقيلَنَّهُمْ باللهِ عثرتَهُمْ   واقطَعْ عرى كل ذى غدرٍ وذى نغلِ
ولا يَغُرَّنكَ منهم ودُّ مبتسم   فالخوفُ يظهرُ وُدَّ الخائنِ الدغلِ
يطوون أحشاءَهُمُ منكُمْ على ضمدٍ   ويضحكُونَ لديكُمْ ضحكةَ العَلِلِ
فاشدُدْ يديكَ ولا ترثى لحالتهِمْ   فطبعُهُمْ عن خبيثِ اللؤمِ لم يحلِ
لا تأمنَنْ غدرهُمْ فالذئبُ عادته   إن ينتهزْ فرصةً فى غفلةٍ يَصُلِ
إن تبقِ منهم مع الإمكان باقيةً   نُسِبْتَ للوهنِ فى الأمصارِ والحللِ
وجرِّد السيفَ لاستئصالِ شأفَتِهِمْ   فى كُلِّ شيخٍ وفى طفلٍ ومكتهلِ
لا تقطعِ الرجلَ من قوم وتتركهم   والرأسُ منهم صحيحٌ غيرُ منجدلِ
فالحْلمُ زين ولكنْ يابن حيدرةٍ   فى غير موضعِهِ ضرْبٌ من الخَبَلِ
والصفْحُ عن مجرمٍ من بعدِ مقدرةٍ   عجزٌ ولسْتَ بذى عجز ولا مللِ
فِيمَ التقاضِى وما بالعهْدِ من قِدَمٍ   والجرحُ منهم طريٌّ غيرُ مندملِ؟!
حاشا علاك أبا عجلانَ من ملكٍ   تُعْطِى الدنيةَ أو تؤتى من الختلِ
يأبى لك العزُّ أن تلقاه معتذرًا   أو ناهجًا فى طريقِ اللومِ والعذلِ
وأنتَ من سادةٍ شُمٍّ لهم أَنَفٌ   عن أن يقيموا على ضَيْمٍ ولا دخلِ

بيضُ الوجوهِ غطاريفٌ جحاجحةٌ تنكَّبوا عن طريقِ الجبنِ والبخلِ
أهْلُ الحمايا وأهْلُ الذبِّ ما برحوا عن الحريمِ وعِرْض غير مبتذلِ
جمعْتَ ما كان فيهم فيكَ مفترقًا من المحاسنِ بالتفصيلِ والجملِ
ودُونَكُمْ قولَ نصحٍ يا بنى حَسَنٍ يفيدُ كلَّ ذكيِّ القَلْبِ مشتعلِ
أنْتُم بنو الحربِ تدعوكُمْ وتنهضُكُمْ أحسابُكُمْ لاقتحامِ الحادثِ الجللِ
شُدُّوا إلى حومةِ الهيجا مآزِرَكُمْ وشَمِّرُوا لطلابِ الثارِ فى عجلِ
ما بالُكُمْ ورياحُ النصرِ مقبلةٌ تثاقلونَ وذُلُّ الدهرِ فى الثقلِ
إن لم تديروا رحَى الهيجاء مسرعةً فما يفيدُ صهيلُ الخيلِ فى الشكلِ
عيشُوا على العزِّ أو موتُوا على ثقةٍ موت الكرامِ وخَلُّوا الدار عن حولِ
فَمَنْ يبلغُ عنى غَيْرَ معتذرٍ يحيى بن سبعٍ مقالاً غير ذى خَطَلِ
ومالكًا وابْنَ قيمازٍ وشيعَتَهُم والتابعين مِنَ الأوشابِ والسفلِ
لابدَّ أن يبلغ الموتورُ غايتَهُ ويشرب الكأْسَ ساقيها على عللِ
فالصبْرُ يحمدُ والأيامُ كافلةٌ عقبى النجَاحِ ونيل السؤلِ والأملِ
إن تجحدون أبا عجلانَ فرصَتَهُ فيكُمْ وما كَان فى أيامِهِ الأولِ
سَلُوا مَوَاضِيهِ عنها فَهْىَ تخبركُمْ فالسيفُ والرمُح أزكَى شاهدٍ وولى
كَمْ ناشكم بالقنا فى عُقْرِ دارِكُمْ حتى اعتَصَمتُمْ ببذلِ الخيلِ والخولِ
وكَمْ سقاكُمْ غداةَ الروعِ من يدِهِ بالسيفِ كأْس الردَى عَلاًّ على نَهَلِ
وكم أذاقكُمُ حرَّ الجلادِ به فى مأقطِ الحربِ والأقدامُ لم تزلِ
لولا العرانينُ مِنْ أبنا أبيهِ لَمَا جاوزتم الرمل من خوف ومن فشل
ولا وطئتُمْ على ذُلٍّ ومنقصةٍ مواطئًا ما لكُمْ فيهنَّ من قِبَلِ
ليس القضا بكُمُ يشفى ضمائره إنَّ القضاءَ مِنَ الأشباهِ والمثُلِ
وإنما طَهَّر اللهُ البلادَ به من مِلَّةٍ خرجَتْ عن أشرفِ المللِ
وعللتهم أمانيهم علَى غَرَرٍ واللهُ فى كُلِّ هذا علة العللِ
سمتم مقامًا رفيعًا فَوْقَ رتبتكُمْ ولا يقاسُ نهيقُ العيرِ بالصهلِ
فلو رجعتُمْ إليه باذلينَ له طوعًا طوى كشحَهُ فيكم على مَلَلِ
وسُقْتُمُ المالَ فى مرضاتِهِ فعسَى يغضى قليلاً ومَنْ للعور بالحولِ

دُمْ ظافرًا يا أبا عجلانَ فى دعةٍ   قريرَ عينٍ بما أدركْتَ من أَمَلِ
فقدْ أقمْتَ اعوجاجَ الملكِ من أَوَدٍ   وصار معتدلاً من كان ذا مَيَلِ
وخُذْ نسيجَ ثناءٍ صافيًا حسنًا   يكسوكَ من وَشْيه أبهى من الحللِ
عروس مَدْحٍ تَهَادَى فى منصَّتها   تجرُّ بالحسن ذيلَ التيه والغزلِ
حَلَّيتها من سجاياكَ التى شرُفَتْ   عقودَ دُرٍّ بها زانَتْ من العطلِ
يفوحُ بين قوافيها لِمُنْشِدِهَا   من طيبِ ذكركَ عرف المسك فى حللِ
جَلَّتْ صفاتك قدرًا أن يحيطَ بها   حُسْنُ الروية أو إحسانُ مرتجلِ
واسلَمْ فإنَّكَ زينُ الدينِ ناصرُهُ   وافخرْ فإنكَ تاجُ الملكِ والدولِ
ثم الصلاةُ على المختارِ مِنْ مُضَرٍ   محمدِ المجتبَى من سائرِ الرسلِ

ثم وليها مولانا الشريف أبو نمى

قد سبق ذكر مولانا، وملخص ذلك أنه تشرف بحماية الحرمين الشريفين فى ظل والده فى عام ثمانية عشر وتسعمائة، واستمر وسعده فى زيادة إلى أن مات والده فى عام أحد وثلاثين، فمدة اشتراكه مع والده أربعة عشر عامًا، ثم تفرد بهذا المنصب المبارك مع زيادة السعود، وبسط العدل والجود؛ إلى أن أنعم الله تعالى عليه بولده مولانا السيد الشريف أحمد بن أبى نمى، فتقلد هذا المنصب بالتماس والده من مولانا السلطان سليمان بن سليم خان، وكان ذلك سنة سبع وأربعين وتسعمائة.

وملخص ذلك أنه أرسله إلى الأبواب العالية السلطانية العثمانية، ومن الاتفاق أن معظم من كان مع والده الشريف أبى نمى حال عزمه إلى مصر كان مع ولده هذا أحمد إلى إسلام بول، وصحبته من الهدايا العظيمة اللائقة بالملوك والخيول الأصائل، والصقور والشواهين والأقمشة والأطياب، فلما وصل خبر قدومه عين له السلطان سليمان من قابله على أحسن أسلوب، ثم أنزل فى بيوت السلطنة، وأمره أن يدخل عليه بالملابس الحسنية.

وكان مولانا الشريف أحمد جميل الصورة معتدل القامة، حسن اللحية والدليقين، عليه ناموس الشرف المحمدى، وأبهة الملك النبوى.

فلما دخل على السلطان قام له ألفا، ولم يقع هذا لأحد سواه.

ثم أقبل عليه بالبشر التام، وخلع عليه خلعًا متعددة تعظيمًا لشأنه، وإظهارًا لرفعته

وعناية بجنابه، وأظهر أن وصوله إليه من النعم المعدودة التى تفرد بها عن غيره، وكذلك زوجة مولانا السلطان والدة - السلاطين، وواصلة المساكين - قدمت له هدايا عظيمة، وعرفت أركان الدولة أنه فى مقام أولادها محبة وحنوا.

ثم برزت الأوامر السلطانية له بجميع المرام. ووصل إلى مكة المشرفة على ذلك النظام. وامتدحه القاضى عبد الرحمن باكثير بالقصيدة الرائية: [من الطويل]

وفَتْ صبُّها بعد الجفا غادةٌ عَذْرَا ... ومُذْ لامها قالَتْ لعلَّ لها عُذْرَا

المتقدم ذكرها.

ودام سلطانه إلى أن مات فى حياة والده الشريف أبى نمى فى شهر رجب عام ست وستين وتسعمائة.

ومما قيل فيه مدحًا قول الوجيه عبد الرحمن الكثيرى المذكور: [من الكامل]

أَلْعِزُّ ثَاوٍ بين مشتبِكِ القنا ... مَنْ رامه قالَتْ له السمرُ القنا
والنصْرُ من مخضرٍّ أوراق الظبا ... غصنًا به ثمرُ الوقائعِ يجتنى
والمجدُ فى صهواتِ دهمٍ إن عدَتْ ... عقدَتْ سنابكُهنَّ نقعًا أدكَنَا
والفَخْرُ أن تغشى الكتِيبةَ باسمًا ... ولَكَ الحمامُ من الأسنةِ قد رنا
والثابتُ الجأشِ الذى يَرِدُ الوغَى ... ويَدُ المنونِ تديرُ كاساتِ الفنا
والحزمُ فتكُكَ بالعداةِ مطاعنًا ... ومضاربًا ومذففًا ومثخّنَا
والعزمُ أنْ تستسهلَ الصعْبَ الذي ... لو كان لم يمكنْ بعزمِكَ أمكَنَا
والمكرمَاتُ أجلُّها حُسْنُ الوفا ... وأعزُّهَا الإغضاءُ عمَّنْ قد جَنَى
والسودَدُ المحضُ اكتسابُ مفاخرٍ ... ترتادُهَا منها المحامدُ تبتنَى
وأكابِرُ العلياءِ مَنْ يولى نَدًى ... يُشْرَى به المجْدُ الأثيلُ ويقتنَى
والهمةُ العلياءُ تصييرُ الذي ... عند الورَى جللاً حقيرًا هَيِّنا
والجدُّ أن تردَ المهالكَ راقيًا ... صعْبَ المخاوفِ لن تؤمّلَ مأمنا
والجودُ هجرُكَ لا فليس يخطُّها ... مَلَكَاك إذ كنتَ الجواد المُحْسِنا
والحمدُ إسداءُ الجميلِ بلا أذًى ... من غير أن تبغى الجزاءَ وتمننا
والفضلُ تقليدُ الرقابِ صنائعًا ... لو لم تَرِقَّ بها الورَى لن تُغْبَنَا
والملكُ لا يبنى دعائمَ مجدِهِ ... إلا السلاهبُ والقواضبُ والقنا

كبنا بنى ملك المَلِيك المنتقى … مِنْ معدنِ السبطَيْنِ شرف مَعْدنا
سلطانُ مكَّةَ أحمدُ الملكُ الذي … طَوْعٌ لقدرتِهِ المنايا والمُنَى
مَلِكُ الحجازِ أبو سليمان الذي … فى مفرق العليا تبوَّأ مسكنا
ملكٌ له ملكٌ تراه محوَّطًا … بالمرهفاتِ وبالرماحِ مُحَصَّنَا
ملكٌ له ملكٌ تشامخ عزُّهُ … لا ملكَ إلا صارَ قهرًا مذعنا
ملكٌ له ملكٌ ذراه على السها … وأساسُهُ تحتَ التخوم تمكّنَا
ملكٌ به أُفقُ المعالِى قد أضا … وانجابَ عنه ظلامُ ظُلْم أدكنا
ملكٌ تفرَّعَ غصنُهُ من دوحةٍ … بالمصطفى شرفَتْ وطابَتْ أغْصُنا
ملكٌ غذى بلبا الرسالة واعتلَى … عن كُلِّ مدحٍ بالصرائحِ والكنَى
ملكٌ له البيتُ الشريفُ ومكَّةٌ … وله المواقفُ والمشاعِرُ من مِنَى
ماذا عسَى فيه يقالُ ومدحُهُ … قد جاء نَصًّا فى الكتابِ مبينًا
ويدُ الرسالةِ أكسبَتْهُ شمائلاً … نبويَّةً منها علاهُ تزيَّنَا
وعلى مُحَيَّاهُ أدارَتْ هالةً … منها سنا القمرَيْنِ يكتسبُ السنا
هو مضغَةُ الطُّهرِ البتولِ وأصلُهُ … مِنْ طينة منها النبيُّ تكوَّنَا
وبجدِّه شمسُ الشريعةِ أشرقَتْ … ولسانها بالحَقِّ أصبَحَ معلنا
هذى الصفاتُ الجاعلاتُ لربِّها … من فوقِ هاماتِ المعالِى مَوْطنا
لم تنتجِ الدنيا له مثلاً وقد … زانَ الممالكَ والعلا والأزمنَا
فاقَ الملوكَ فما بنو العباسِ أو … ما غيرُهُمْ ممن نأى أو من دنا ؟!
لا مَجْدَ كان لهم فرادَى فى العلا … إلا تملُّكَهُ وكان له قَنَا
ولئِنْ أَتَوْا فعلَ المكارمِ مرَّة … فله غدَتْ طبعًا وأمسَتْ دَيْدَنَا
ملأَ القلوبَ مهابةً وملا العيو … نَ جلالةً وملا المسامِعَ بالثَّنَا
وملت معاليه الزمان وعَزَّ عن … مدحٍ وحَصْرُ علاه أعيا الألسنا
رَبُّ الندَى مردِى العدا مُرْوِى الصَّدَا … مُولِى الغنَى حُلْوُ الخبا رَحْبُ الفِنَا
أنشا بديعَ مكارمٍ ومآثرٍ … فيها تنوَّعَ مجدُهُ وتفنَّنَا
ولكَمْ مدارسَ فى العلا درَسَتْ وقد … عَمَرَتْ به وغدا حماها بَيِّنَا
ولقد ذوى روض المواهِبِ فاغتدى … بنوالِهِ غَضَّ الثمار لمن جَنَى

أغنى الخلائِقَ مِنْ نداه فلم تَجِدْ ... فى دهرِهِ ذا حاجَةٍ مُتَمَسْكِنَا
وبه لقد عَمَّ الورَى فنوالُهُ ... كَنْز الفقيرِ وطوقُ جيدِ من اغتنَى
والرزقُ والأجَلُ المقدَّرُ طوعُهُ ... وبكفه مرّ المنا وحلاَ الغِنَا
متكفِّلٌ بالأمْنِ فى الدنيا فما ... أحدٌ بها إلا وعاشَ مُؤَمَّنا
وبرزقِ مَنْ فوقَ البسيطةِ والذي ... تحْتَ المحيطةِ قد غدا متضمِّنَا
ولَدَيْهِ لا روضُ السماحِ تخاله ... هشمًا ولا نَهر الندا مُتَأَسِّنَا
والسحبُ مذ رامَتْ تجارِى كَفَّهُ ... حُمَّتْ به حسدًا وأسقَمَهَا الضَّنَى
فالغيثُ فى جَبَهاتِها عَرَقٌ جَرَى ... لما جرَتْ وكبَتْ وأدركَهَا العَنَا
يحبو النَّوَالَ ويحتبى فكأنَّهُ ... بحرٌ وطودٌ قد أحلَّ وأردنا
فى حلمه فاقَ ابن قَيْسٍ بل لدَى ... إحسانِهِ ذِكْرُ الندى لن يَحْسُنَا
ماضيه للأعداءِ مسنونًا يرى ... وعطاؤُهُ فى الحال فرضًا عينا
يهبُ الألوفَ ولم يهبها عندَما ... يلقى عليه لأمَهُ والجَوْشَنا
ويردُّ جحفلَ مَنْ يحاربه ولو ... ضاهَى الحَصَا عن رَدِّهِ لَنْ يجبنا
بطلٌ ولكنْ لا يطاقُ ففى الوغَى ... بِشَبَا العزائم عن ظباهُ له غنى
ومتَى يصلْ تلقى الكمِىَّ مجندلاً ... والذمر خلَقًا بالدماءِ مكفَّنا
يروى الثرَى بدمِ الفوارسِ فالقنا ... تَجْرِى عليهم من دماهُمْ أعينا
تقفو الجوارحُ جيشَهُ ثقةً بما ... أَلِفُوهُ فى نصْرٍ له متيقَّنَا
فَيروا بطانًا آيبين نواهلاً ... بِدَمٍ يُطَلُّ فما أذلَّ وأهْوَنَا
لم يَدْعُ هذا الدهْرَ إلا جاءَهُ ... متعثرًا مِنْ خوفه لن يأمنا
يخشَى سطاه فلم تحلَّ خطوبُهُ ... ساحاتِهِ وبصَرْفِهِ لن يطعنا
لو خَطَّ طِرْسًا نحوه لولائِهِ ... بالخادمِ المملوكِ كان مُعَنْوَنا
فمتَى دعَتْكَ خطوبُهُ فالجأ له ... وبإسْمِهِ فاعْل النداءَ وأعلِنَا
يا أحمدَ بْنَ أبى نُمَىٍّ والذي ... ألقَى له الدهْرُ القيادَ وأذعَنَا
لو زاد شىءٌ بعد غايتِهِ دعا ... كُلٌّ لملكِك أن يزيدَ تمكُّنا
من رام مِثْلَكَ فى الملوكِ فذاك في ... شَرْعِ المعالى مُشْرِكٌ لن يؤمنا
فلأنْتَ ربُّ البسطةِ العظمَى على ... كُلِّ الملوك من الرشيدِ إلى هُنَا

وأمامَ جيشِكَ رائدُ الظَّفَرِ اغتدَى   بالنصْرِ والفتحِ المبينِ مؤذِّنا
وبشأنِهِ النصْرُ المتينُ قد احتفَى   بأمرِهِ الفتحُ المبينُ قد اعتنَى
والدهرُ ساعٍ فى الذى تهوَى فإنْ   تدعوه أو تدعو أجابَ وأَمَّنا
وافاكَ تشرِيفُ المليكِ فكلُّ ما   تبغيه ثَمَّ وغيرُهُ لن يُمْكِنا
فليهنِكَ النصْرُ المفادُ ويهنِكُمْ   نيلُ المرادِ بما أَقَرَّ الأعينا
فهواتِفُ السراءِ قد صَدَحَتْ به   وترنَّمَتْ وُرْقُ التهانِى بالهنا
وشدَتْ على أيكِ السرورِ حمائمٌ   ملأتْ بشائرُهَا النواحى بالغنا
فَازِقَ العلا ملكًا فملكُكَ غابة   بك يا هِزَبْر الجحفَلْينِ محصّنا
ورياضُهُ قد أصبَحَتْ مخضلةً   منكُمْ وزهْرُ ثمارها حُلْوُ الجَنى
والماضيانِ تكفَّلا بخلودِهِ   وبحفظه سَعْدُ السعود تضمَّنا
وإليكَ تبرَ مدائحٍ لو صاغَهُ   نطقى لغَيْرِ علاكَ أَصْبَحَ أَلْكَنَا
ولحسنها حَسَّانُ يغدو خاضعًا   لو رام نَظْمَ سلوكها لن يُحْسِنَا
طابَتْ شَذًا لما جعلْتُ ختامها   مِسْكَ الصلاةِ تبرُّكًا وتَيَمُّنَا

ثم إن مولانا الشريف أبا نمى رحمه الله تعالى التمس من مولانا السلطان سليمان خان تفويض الأمر إلى ولده الثانى صاحب المقام السامى مولانا الشريف حسن، فتقلد - بعد أن أجيب إلى مراده - حماية الحرمين الشريفين وجدة المعمورة وينبع وخيبر وحلى، وجميع ما شمله اسم الأقطار الحجازية، وذلك من خيبر إلى أطراف حلى وأعمال جازان طولا، ومن أعمال الينبع المبارك إلى حجاز ثقيف، وما اتصل به من أرض نجد عرضًا، وكان ذلك سنة ٩٦١ إحدى وستين وتسعمائة، فتفرد بذلك بإشارة والده الشريف أبى نمى لما علم من كفايته وكماله. وخاطبته السلطنة الشريفة بالألقاب الهاشمية الملوكية.

وشاع وذاع ما فى محل ولايته من العدل والإنصاف، والأمن والطمأنينة فى حاضرتها وباديتها، وما إليها ينسب ويضاف، وقطع قاطع الطريق، وأخذ حق المظلوم من الظالم وإن كان أقرب حميم وأصدق صديق.

فلما وصل خبر ذلك إلى الأبواب العالية فوضت إليه كل واصل إلى الأقطار الحجازية من أعيان دولتهم وكبرائهم، وأركان سلطنتهم وأمرائهم حسبما يسطر ذلك

فى المرسوم السلطانى الواصل باسم مولانا المومأ إليه فى كل عام.

وكلما طلب من جانب السلطنة العليا مطلوبا من معالى الأمور أو إحسانًا لمن يلوذ بمقامه المبرور أجيب بحصول المراد، خصوصًا فى سلطنة مولانا السلطان مراد وفى سنة أربع وخمسين وتسعمائة اتفق يوم السابع من ذى الحجة الحرام بمكة المشرفة أن الناس بينما هم بالمسجد الحرام فى وقت السحر إذ رأوا دخانًا صاعدًا من جانب الكعبة الشريفة، فبادرت الأكابر من الشريف أبى نمى، وولده ومصطفى باشا، وأكابر الحاج يسعون إلى باب الكعبة ففتحوه بعد أن حصل عند عامة الناس غاية الوجل، فوجدوا نارًا فى عقب الذرفة اليمنى، ففكت الذرفة، وأطفئت النار، وأعيد الباب على حاله ولله الحمد. ذكر هذا الجزيرى فى تاريخه.

قلت: الظاهر أن أصل تلك النار شرر طائر من مجامر البخور التى توضع على عتبة البيت الشريف.

وفى سنة خمس وخمسين وتسعمائة - لما كان عيد يوم النحر منها - وقعت فتنة بمنى، وتعرف عند أهل مكة بالهبة، بين مولانا الشريف أبى نمى، وبين أمير الحاج المصرى المسمى محمود، وكان الشريف أحمد إذ ذاك قائمًا بأمر المملكة عن والده بتفويض من السلطان سليمان كما تقدم ذكر ذلك.

سبب هذه الفتنة أن السيد قايتباى كان بمصر فأقبل إلى مكة من طريق البحر، وكانت بينه وبين أمير الحاج المذكور مواطأة على أن يوليه مكة.

فلما كان يوم النحر علم الأمير أن جماعة الشريف أبى نمى تفرقوا عنه بالنزول إلى مكة للطواف والسعى، فاغتنم الفرصة - وكان السيد قايتباى المذكور أرسى بجدة ولم ينزل إليها - فركب الأمير ليقصد الشريف فى داره، فعلم الشريف بذلك فركب، وركبت الأشراف والقواد والجند، فثارت الفتنة، ونزل الشريف إلى مكة ثم أرسل إلى جدة تجريدة من الخيل لحرب السيد قايتباى، فلم تصل إلى جدة إلا وقد توجه منها بحرًا عائدًا إلى مصر.

وبموجب هذه الفتنة نفر الأمير، وجميع الحاج من منى يوم النفر الأول قبل الزوال، فأراد بعض الحجاج العود إلى منى للرمى قبل فواته، والمبيت مع جند صاحب مكة، فتعذر عليه ذلك، لانتشار الأعراب فى الطرق ورءوس الجبال.

ويحكى عن الشيخ العارف بالله تعالى الشيخ محمد بن أبى الحسن البكرى أنه كان بمكة حين الفتنة بمنى قد نزل بقصد الطواف والسعى، وكان فى منزله وعنده شخص يسمى الشيخ الحرفوش، فحصلت للشيخ محمد البكرى حالة جلال، واستمر دائرًا فى المحل الذى هو فيه كالأسد وهو يقول: حوش حوش يا حرفوش، كالذى ينظر شيئًا فيأمر بإمساكه، ثم سكت حاله، فقال: الآن وقعت بمنى فتنة عظيمة حشناها بإذن الله تعالى فكان الأمر كذلك.

فقال العلامة الخطيب عبد الباسط بن أيوب يذكر الواقعة، ويرفع فيها الشكوى من محمود الأمير إلى الخنكار الأعظم مولانا السلطان سليمان خان فى قصيدة هى:

[من الخفيف]

يا إمامًا بالعدلِ فى الناسِ سارا وهمامًا قد دَمَّرَ الكُفَّارا
ومليكًا إحسانُهُ ملأ الأرْ ضَ وأضحَى له الصلاحُ شِعَارا
هذه قِصَّةٌ لبابكَ جاءَتْ من أناسٍ مما دهاهُمْ حيارى
فَاتْلُهَا يا خليفةَ اللهِ فى الأر ض جميعًا عساكَ تأخذُ ثارا
نظمتْهَا قريحةٌ شاهدَتْ في عترةِ المصطفَى أمورًا كِبَارا
هجمَتْ دورهم بخيلٍ ورجلٍ واستباحوا عرضًا ومالا ودارا
ورُمُوا بالنبالِ فى حرم اللّه فضَحُوا صغارَهُمْ والكِبَارا
أذكَرَتْنَا أحوالُهُمْ بحسينٍ ويزيدٍ وأورثَتْنَا اعتبارا
آلُ بيتِ الرسولِ حُلَّ حماهم واستبيحَتْ لهم دماءٌ جِهارا
ما استمعنا ولا رأينا كَهَذَا لا رَعَى اللهُ مَنْ بهذا أشارا
قد أتانا محمودُ فى إمرةِ الحَجْ جِ وقد صَارَ بالأذَى أَمَّارا
فرأينا شخصًا يحاكِى يزيدًا فى سجاياهُ فاجرًا جَبَّارا
أذهَبَ الشرْعَ مذ أتانا وأحيا ليزيدٍ بَينَ الورَى آثارا
حَكَّمَ السيْفَ فى أعزِّ نفوسٍ وسقاها كاسَ الرَّدَى وأدارا
قَتَلَ الناسَ أظهَرَ السفكَ ظلمًا جالَ بالسيفِ يمنةً ويَسَارا
تركَ الهدْىَ والضحايا وضحَّى بدماءِ الأشرافِ فيها وسَارَا
حَرَمٌ آمِنٌ ويقتلُ فيه عترة المصطفَى جهارًا نَهَارا

إن هذا أمرٌ فظيعٌ شنيعٌ منكَرُ الشانِ يدهشُ الأبصارا
قد تركْنَا لأجلِهِ واجباتٍ ورفضْنَا المبيتَ والإعتمارا
وخشينا من اليزيديِّ قتلاً فركبْنَا من خوفِهِ الأخطارا
تَرَكَ الناسُ فى منًى نُسُكَ الحَجْـ ـجِ وخلَّوْا مبيتَهَا والجِمَارا
واعتراهُمْ من اليزيديِّ ما لم يألفُوهُ وأُحْصِروا إحصارا
وغدا الناسُ بين قتلٍ ونهبٍ وأمورٍ تحيِّرُ الأفكارا
صار فيها العزيزُ عبدًا ذليلاً والأرقَّاءُ أصبَحَتْ أحرارا
صَرَفَتْ نحوهم صروفُ الليالِي وجهَهَا بعد كان فيه استتارا
ورمتهم عن قوسها بسهامٍ أثَّرَتْ فى القلوبِ منا انكسارا
فتنةٌ أُحْدِثَتْ بأشرفِ أرضِ الله لا ترتضَى بأرضِ النَّصَارَى
كَبَّرَ الناسُ عندما عاينوها وبحارُ الدِّما غدَتْ تيَّارا
أظلم الكونُ والكواكبُ غارَتْ واقشعرَّتْ جلودنا اقشعرارا
إن هذا ظلمٌ وجَوْرٌ عظيمٌ قاتلَ اللهُ مَنْ عَنِ الحقِّ جارا
ورماه بأَسْهُمٍ صائباتٍ مِنْ يد المصطفَى تريه الصَّغَارَا
وذُهِلْنَا من المصيبةِ حتَّى أذْهَبَ الخوفُ عقلنا والوَقَارَا
فتراهم بعد الأمانِ مِنَ الخَوْ فِ سكارَى وما هُمُ بسُكَارى
يابن عثمانَ أنتَ عمرتَ بالعد لِ الأقاليمَ بَرَّها والبِحَارا
أنتَ طهَّرْتَ سائر الأرضِ ممَّنْ قد تعدَّوْا واستكبروا استكْبَارا
أنتَ كهفٌ للمسلمينَ حريزٌ وملاذٌ لمنْ يخافُ ضِرَارا
أنتَ للحقِّ ناصرٌ ومعينٌ لكَ سيفٌ قد دمَّر الأغيارا
أنتَ مَنْ أمَّ بابَ عدلك يحظَى بمناه ويبلُغُ الأوطارا
كيفَ ترضَى أن اليزيديَّ يأتي حَرَمَ اللهِ مفسدًا كَفَّارا
سوفَ تأتيه غيرةٌ منكَ حتى يتمنَّى أن لم يُثِرْ ما أثارا
فأغِثْ عِشْرةَ النبيِّ وبادرْ وزدِ الظالمينَ منك خَسَارا
وأرِحْهُمْ من اليزيديِّ واجعلْ داره بالخرابِ أرْضًا دمَارا
وارحمِ الناسَ إنهم قد أذيقوا مِنْ أذاه ما لم تذقه الأسارَى

ولكَ الأمْرُ فاقضِ ما أنتَ قاضٍ فهو واللهِ يستحقُّ النارا
قَسَمًا بالحطيم والركنِ والبيـ ـتِ الذى رَبُّهُ يقيلُ العِثَارا
وبِآلِ النبيِّ والصحبِ والأحـ ـزابِ طُرًّا والسادةِ الأخيارا
قد خبأنا له سهامَ الليالي وشدَدْنَا القِسيَّ والأوتارا
واستعنا بأعظَمِ الناسِ جاهًا واتخذْنَا ضريحَهُ مستجارا
يا نبيَّ الهدَى أغثنا سريعًا قد أضرَّ العدا بنا إضْرَارا
نحنُ قومٌ بك استَجْرَنا فنِلْنَا بمعاليكَ رحمةً وجِوَارا
شاعَ فى سائرِ الجهاتِ الذى قَدْ كان فينا وطَبَّقَ الأقطارا

وكان الشريف أبو نمى جم الفضائل، حسن الشمائل، محمود السيرة، طاهر السريرة، قطب زمانه بلا خلاف، عادل وقته فلا سبيل فى زمنه إلى الاعتساف.

له النثر الرفيع الفائق، والنظم البديع الرائق، وصفاته جامعة شتات كل فضيلة، وخصاله محمودة جميلة.

ومن صفاته الحميدة المتوارثة له عن آبائه الكرام، رعاية ذوى البيوت القديمة، وإعراضه عن الأفاقين؛ فإن ذوى البيوت كانوا عنده فى أوج الإعزاز والإكرام، يظهر مناقبهم، ويستر مثالبهم، وكان يخصهم من بين الأنام بالتحية والقيام، ولا يفرح غيرهم بقيامه لو أنه شيخ الإسلام فلهذا كانت الأمور مضبوطة، والأحوال بوجوه الصواب منوطة.

فطالما التمس منه أعيان دولته القيام لجماعة لا يكونون من ذوى البيوت بعد أن صاروا من أهل الإفتاء، فلم يجب التماسهم، ولم يضبط عليه ذلك لئلا يكون الناس على حد سواء.

فما أجدره بقول القائل: [من البسيط]

للهِ درُّ أنو شروانَ مِنْ ملكٍ ما كان أعرفَهُ بالعَالِ والسَّفلِ

ولم يفته أن جبر الخواطر مطلوب، بل هو عارف بما هو أدق من ذلك مما تكنه القلوب، غير أنه علم ما يئول إليه ذلك من الفساد، وتجرؤ الأنذال بمساواتهم لأكابر البلاد، وترتب حصول الجور فى العباد. فقد قيل: [من الوافر]

وتجتنبُ الأسودُ ورودَ ماءٍ إذا كان الكلابُ يَلغْنَ فِيهِ

فهذا من سياسته التى يحفظ بها الملك ويدوم.

فقد قال تعالى تلك الرسل : ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية.

وقال عليه الصلاة والسلام « أمرت أن أنزل الناس منازلهم » (١). والحكمة فيما كان يصنعه الشريف - تبعًا لأسلافه - أن ذوى البيوت قد عرفت مودتهم وإخلاصهم من عروق أسلافهم الأقدمين الثابتى الأساس، وانطباعهم على صدق المحبة والوداد فإن العرق دساس، فكانوا جديرين بهذه المزية، ولو لم يكن فيهم شىء من الفضائل، إلا ما ألف منهم، وعرف عنهم من الشمائل.

وأما غيرهم لو أنه أعلم أهل زمانه فلم توجد فيه هذه المزية، وربما يكون إكرامهم سببًا لحصول الأذية.

قلت: هذا قول أحمد الفضل ناقلاً له عن الإمام عبد القادر الطبرى.

وهو كما ترى قول جائر فى القضية، صادر عن روية بزلال الحق غير روية، وطوية على الحقد والحسد مطوية. وحاش لله أن تكون صفة مولانا الشريف ذلك، وعادته تلك مع أولئك؛ إذ كيف يسوغ لمولانا إلغاء صفة العلم ممن اتصف بها من الأفاضل الأعلام فلا يعظمه بسببها كما قال هذا الشخص، ولو أنه شيخ الإسلام.

ولا يعتبر إلا ذلك الود بفرض وجود المستور فى حبات القلوب، وإنما يعلم ذلك علام الغيوب، حماه الله من ذلك، مع علمه - رحمه الله - بأن المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فهو تحت طى لسانه، لا تحت طيلسانه.

وأغرب من هذا كله قوله: ولو لم يكن فيهم شيء من الفضائل.

فما أحقه بقول القائل: [من الطويل]

إذا كان لا عِلْمٌ لديْكَ تفيدُنَا ... ولا أنْتَ ذا دِينٍ فنرجُوكَ للدِّينِ

ولا أنْتَ ممنْ يُرْتَجَى لكريهةٍ ... جعلنا مثالاً مثلَ شخصِكَ مِنْ طِينِ

فإذا لم يكن الشخص فيه فضيلة ذاتية، والود لا يعلمه إلا عالم الخفية.

لم يبق سبب للإجلال والإكرام والتحية والقيام، إلا كبر العمائم وطول الأكمام، والاعتماد على رفات العظام، من الآباء والأعمام، ولا ينهض ذلك عند رعاع

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤٢) من حديث ميمون بن أبى شبيب عن عائشة مرفوعًا: «أنزلوا الناس منازلهم» وفيه قصة . قال أبو داود: ميمون لم يدرك عائشة .

العوام، فضلا عمن هو لسادات الأنام إمام، أبى نمى الهمام.

فالحق إعطاء العلم واجبه لكل إنسان، كائنًا من كان.

ثم إن كان مع فضيلة ذاته له فضيلة سلسلة علم وبيتوتة، تكلل تاج مجده درر الفخر وياقوته.

ثم أنت ترى قبح ما أورده، وتمثل به فى مراده، ووخامة شاهده فى استشهاده، وتشبيهه نفسه وأمثاله بالأسود، وغيره بالكلاب، وسيد الجميع بالماء المورود.

فأين الذكاء والفهم؟ لا قوة إلا بالله!.

وفى سنة ثلاث وستين: كان ابتداء حادث المحمل اليمانى، والمحدث له الوزير مصطفى باشا النشار المستولى على اليمن من جهة السلطان سليمان خان، وكانت ولايته له سنة اثنتين وستين، فوصل إلى مكة أميرًا على المحمل المصرى فحج ثم رجع بالمحمل والحجاج، الأمير مراد بك، ثم توجه مصطفى إلى الديار اليمنية، فأحدث اليمانى وجعله كالمحملين، ومعه خلعة من جانب السلطنة الشريفة، فبرز مولانا الشريف لملاقاة الخلعة إلى بركة الماجن، ثم وصل هو والأمير والمحمل إلى أن حاذى الشريف داره، فدخلها وتوجه الأمير ونزل عند سفح الجبل الذى على يمين الداخل إلى مكة من ثنية الحجون، ولم يزل كذلك إلى أن بطلت الخلعة والمحمل من سنة تسع وأربعين وألف، وذلك مسبب عن وقوع الفتن القوية، واشتغال الدولة العثمانية بقتال أعداء الله وإعلاء كلمته العلية، ولا بد لليمن من عطفة، ليس فيها تؤدة ولا رأفة.

وفى سنة ٩٨٥ خمس وثمانين وتسعمائة كانت وفاة السيد الأكرم السيد بركات بن أبى نمى، جد ذوى بركات الأقرب.

قال العلامة الفهامة الشيخ على الشهير بالجم: دخلت على والده مولانا الشريف أبى نمى معزيًا له فيه، فانهلت عبرته، فأخذها بمنديل كان فى يده، فأنشدته ارتجالاً بيتين يتضمنان تاريخ وفاته فقلت: [من الكامل]

يأيها الملكُ العزيزُ ومَنْ رَقَى هَامَ العلا رَفَعَ المهيمنُ شانَهُ
لا تَبْكِ مرحومًا أتَى تاريخُهُ بركاتُ أنزله اللطيفُ جنانَهُ

فسر بذلك وسُرِّى عنه بعض ما كان.

وفى سنة ٩٩٠ تسعين وتسعمائة ضحوة يوم الأحد تاسع صفر منها كانت وفاة مولانا السيد الشريف قاضى قضاة الإسلام وناظر النظار ببلد الله الحرام، مولانا القاضى الحسين بن أحمد المالكى بالطائف فى القرية المسماة بالسلامة، ووصف بالشهيد لذلك، وعد من ألقابه التى وصف بها على زمزم.

ولما بلغ موته ضده مرزا شلبى قال: سبحان الله، عاش هذه المدة فى مكة ثم لم يمت إلا خارجها؟ وأرخ ذلك بقوله « حل عام الخير » .

نعوذ بالله من الحسد وأهله، ووافق تاريخ وفاته فى تاسع صفر من السنة المذكورة لفظ « تسع فى صفر » .

وفيها أيضًا كانت وفاة العلامة الشيخ قطب الدين النهروالى مفتى السادة الحنفية يوم السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الثانى منها وقت أذان حزورة عند الفجر الثانى، فأرخ بعض الفضلاء ذلك بقوله « قد مات قطب الدين أجل علماء مكة » قلت: قد حسبته فوجدته يزيد على سنة الوفاة واحدا، ومثل ذا يغتفر عند المؤرخين على خلاف الراجح منه عدم الاغتفار مطلقًا، فيصير التاريخ هكذا قد مات قطب الدين جل علماء مكة، ولا شك أن المعنى الأول يزول حينئذ ويتحول.

وما زال مولانا الشريف أبو نمى منعم البال، ممتعًا بالأولاد والآل، مجتمع الشمل فى سائر الأحوال، مكفى الأمور، دائم السرور، بقيام ولده الشريف حسن بأعباء الملك والخلافة، مظهرًا فى الرعايا عدله وإنصافه، سالمة ممالكه من المخافة، إلى أن دعاه داعى الحق فلبّاه، وانتقل من هذه الدار إلى دار كرامة مولاه، ليلة تاسوعا افتتاح سنة ٩٩٢ اثنتين وتسعين وتسعمائة بالقرب من وادى البيار من جهة اليمن، فحمل إلى مكة، وجهز وصلى عليه بعد صلاة العصر فى المسجد الحرام عند باب الكعبة - الأفندى مرزا مخدوم، ودفن بالمعلاة، وبنى عليه قبة موجودة، عليها أوقاف محدودة، وتخلف ولده الشريف حسن لحفظ البلاد، وقطعًا لدواعى الفساد، وجعلت له ربعة بالمسجد الحرام وبالتربة، حضرها الشريف حسن وإخوته وجميع الأشراف والأعيان من أهل مكة والعربان - قدس الله روحه؛ ونور ضريحه.

وعمر الشريف أبى نمى ثمانون سنة وشهر واحد ويوم واحد، ومدة ولايته مشاركا لأبيه ولولديه الشريف أحمد والشريف حسن، ومستقلا نحو ثلاث وسبعين سنة.

وكان رحمه الله صاحب خيرات متواترة، ومبرات كثيرة متكاثرة.

أسس لأبنائه معالم الكرم، وحثهم على شريف المناقب والشيم.

نسج بينهم المودة على منوال الصفا، وحملهم على الصدق فيما بينهم والوفا.

وبنى بمكة رباطًا للفقراء الذكور ورباطًا للنساء الشرائف، وأوقف عليهم أوقافًا إلى الآن جارية فى صحائفه.

وكان له جملة من الأولاد، منهم: أحمد والحسن وثقبة وبركات وبشير وراجح ومنصور وسرور وناصر وصالحة وشمسية وغبية وصليبة وموزة وراية وغيرهم.

قلت: ورأيت نتفة لبعض شعراء ذلك الزمان ولم ينسبها الكاتب إلى شخص بعينه، وهى فى الشريف أبى نمى أحببت ذكرها هى: [من السريع]

يا فارسَ الخيلِ قهرْتَ العدا ... ألتُّرْكُ والعُرْبَانُ والتُّرْكُمَانْ

مولاك أعطاكَ خِصالاً بها ... أصبحتَ فى الناسِ فريدَ الزمانْ

فأنتَ فى حلْمٍ بعيد المدى ... قَرِيب إحسانٍ وحُلْو اللسانْ

فلا تَخَفْ مِنْ بعد ذا كربةً ... فما قضاه اللهُ بالأمرِ كانْ

فاللهُ يبقيكَ لنا آمنًا ... كما أذقْتَ الناسَ طَعْمَ الأمانْ

قلت: قد أبان هذا الشاعر عن فضاخة اللسان لا فصاحته، وضيق البيان لا فساحته، إلا أنه يدخل عن الاعتراض فى أمان بيت الأمان، فلعل أن يمحو الإساءة الإحسان، فسبحان خالق الإنسان.

وقال الشيخ عبد العزيز بن محمد الزمزمى معارضًا قصيدة ابن خطيب داريا التى مطلعها: [من السريع]

قُمْ عاطِنى الصهباءَ يا مُؤْنِسِي ... ...

وكان هذا الإعراض بإلزام له من مولانا الشريف أبى نمى، فقال يمدحه ويهنيه بعرس ابنه الشريف أحمد بن أبى نمى: [من السريع]

لِيَحْتَسِ الصَّهْبَاءَ من يحتَسِي ... حَسْبى لمَى مرشفِكَ الألْعَسِ

حلّ فأطلقْ منه كأسِى ولا ... توحشْ بحبس الكأس يا مُؤْنِسِي

مِنْ طرفِكَ الوسنانِ والخَدِّ ما ... يهزأُ بالوردِ وبالنرجسِ

وجهُكَ لى روضٌ جديدٌ إذا ... أخلقَتِ الأرْضُ القبا السندسِي

رنحت قَدًّا قال للغصْنِ مِنْ عِطْفى استعِزْ لينًا ومثلى مِسِ
غَرِّدْ لنا واشْدُ فها أنتَ مِنْ شعرِكَ كالشُّحْرُورِ فى بُرْنُسِ
أنتَ سميرى ونديمى فلِي فاكهةٌ من لفظِكَ الأكْيَسِ
ضوءُكَ فى جنحِ الدجَى ساطعٌ فذكْرُ ضوء الشمْعِ معه نُسِي
فيكَ جميعُ البسطِ يا فاتني بسط إذا خلتك فى المجلِسِ
لقد صفا العَيْشُ بسفْحِ الصفا وأحْسَنَ الصنعَ الزمانُ المُسِي
فعاطِنِى من فيكَ مسكيةً ينفحُ منها الطيبُ فى المعطسِ
وَاجْلُ صدا نفسى بأنفاسِهَا فإنها تجلُو صدا الأنفُسِ
لها حبابٌ من ثناياك قَدْ حكتهُ شهبُ الفُلُكِ الأطْلَسِ
طاهرة طِبْت وطابَتْ فلم يحرمْ تعاطيها ولم تنجسِ
تلك سُلافى لَسْتُ مِنْ غيرها أرتشفُ الراحَ ولا أحتَسِي
ما لى وللخمْرِ وشرَّابِهَا إياكِ يا نفْس بهم تَأْتَسِي
منْ كلِّ سفسافٍ إذا سَفَّها يبذى ويَهْذِى ثم لا يَنْبِسِ
قد نجسوا منها فلم يفكروا فى نَجِسِ الماءِ ولم ينجسِ
أخبارُهَا قد دُرِسَتْ بينهم فى كُتُبٍ يا ليتَ لم تُدْرَسِ
حديثُهُمْ فُحْشٌ وجهلٌ فلا تسمعُ لا أُفْتِ ولا أدرسِ
للهِ أوقاتٌ تقضَّتْ لنا مع كلِّ شهمٍ فكِه كيسِ
ونحنُ فى مجلسِ أنسٍ به أبو نميٍّ صاحب المجلسِ
سلطانُ أقطارِ الحجازِ الذي بغيره الأقطارُ لم تحرسِ
مولًى له ذوقٌ وفهمٌ ففي مجلسِهِ الآدابُ لم تبخسِ
للفضلِ سوقٌ عنده نافقٌ لكلِّ مثرٍ منه لم يفلسِ
للهِ أخلاقٌ له سمحةٌ تقولُ للضيفِ ادْنُ واستَأْنِسِ
أَيْأَسَنِى دَهرِى فلمَّا رنا إليه قَالَ ارجُ ولا تَيْأَسِ
ينسى الذى يوليكَ مِنْ فضله لكنْ ثناه شائعٌ ما نُسِي
أعداؤهُ دنَّسهم لؤمهُمْ وعرضُهُ الأبيضُ لم يدنسِ
إن عدَّتِ الفرسانُ فَهْوَ الذي يدعَى غداةَ الروع بالأفرسِ

هو المليكُ الممتطِى صهوةً من المعالِى قَطُّ لم تمسسِ
تدبيرُهُ الملكَ له دَيْدَنٌ فلم يَنَمْ عنه ولم ينعسِ
كُلُّ عزيزٍ ذلَّ من بأسِهِ وهابه الروميُّ والشركسِي
سلِ النصارَى عند ما قارَبُوا جدة عن جدهم الأتعسِ
ماذا الذى نَكَّسَ أعلامهم عنها نَعَمْ لولاه لم تنكسِ
ثم انثنَوْا للهندِ والرعْبُ في قلوبهم سَارَ إلى قبرسِ
نُصِرْتَ بالرعبِ عليهم ولم لا بأبيكَ المصطفَى تأتسي
فاستبعَدُوا الأقرَبَ واستَقْرَبُوا الـ أبعَدَ من طورهمُ الأقدسِ
أتَوْكَ كالبَحْرِ فصاروا لدَى بحركَ كالحسوةِ للمحتسِي
أتاهُمُ أنكَ فى قوةٍ من العوالى والظبا والقِسِي
أعددتَّ جيشًا لو بهم بحره أحاطَ لم يَنْجُوا من المغطسِ
وكلُّ طرفٍ سابق سابح فى لج بحرِ النقع لم يغطسِ
يفترسُ الأسد على ظهرِهِ من الأعادِى كلّ مستفرسِ
هُمْ كأسودِ الغابِ لكنَّها دونهُمُ فى شرسِ الأنفسِ
من حسنٍ ينمو إلى سَيِّدٍ لهم هِزَبْر فى الوغَى أحمسِي
نجومُهُمْ دارتْ على أبلجٍ كبدرٍ تمَّ بالسنا مكتسى
مِنْ دوحةٍ ثابتةٍ غضةٍ والأصلُ منها طيبُ المغرسِ
تنمى إلى السبطَيْنِ مِنْ فاطمٍ أكرِمْ به من نسبٍ أقعسِ
يا ملكًا لو قابَلَ السَّعْد من غرته كيوان لم ينحسِ
إنْ يبسَ الدهر عَلَى أهلِهِ أمّوا فِناءً منك لم ييبسِ
محسنُهُمْ تحسن فى حقِّه وإن أساءوا لسْتَ ممنْ يُسِي
كنتَ لنا نجم حمى أفْقنا شهابُهُ من ماردٍ أشرسِ
يا لَكُمَا مِنْ ملكَيْ كورةٍ قد كسياها أَفْخَرَ الملبسِ
يا لكما من فارسَيْ غارةٍ من خسياه فى مغارِ خُسِي
يا لكما من قائدَيْ عسكرٍ حديدُهُ مِنْ نقعه مكتسِي
شمسًا وبدرًا ينفعان الورَى نورهما يجلو دُجَى الحندسِ

أبـو نـمـيٍّ وابـنُـهُ أحـمـدٌ ألقسوريُّ الخشنُ الملمسِ
زُفَّـتْ لـه غـيـداءُ خـرعـوبـةٌ عذراءُ لم تطمثْ ولم تمسسِ
لـيـهـنِـهِ هـذا الـزواجُ الـذي أبـهَـجَـهُ بـالـرشـأ الألـعـسِ
لا زال فى عيشٍ لذيذٍ بها ودامَ من قَهْوتها محتسِي
فاحفظْ علينا الأصْلَ والفرْعَ يا رب وحُطْ ملكهما واحرسِ
يا مَنْ به الشعْرُ سما ذروةً على دراری الفلكِ الأطلسِ
هاكَ قريضًا أنتَ أدرَى بما فى سلكِهِ من جوهرٍ أنفسِ
أمرتَنِی أنظمُ شعرًا على « قُمْ عاطِنی الصهباءَ يا مُؤْنِسِي »
فقمْتُ مرتاحًا إلى نظمِهِ ولم أحلْ عنه ولم أخنسِ
فَحَبَّ هَذَا الأحسن الوَقْع من شِعْرِی لدى إصغائِكَ الأكيسِ
أو لا فعُذری أننی عاجزٌ وفيكَ يوفی خبرة الكيسِ
أنمر مِنْ مدحِكَ حتى غدا طَلْقُ لسانی فيه كالأخرسِ
أيُّ فصيح فيك يرجو القَضَا ولم يَعُدْ كالألكَنِ المبلسِ
فعشْ لنا دهرًا ودُمْ للعلا والمدْح للراح وللأكؤسِ
ما دُمْت للإقبال رأسًا وما دامَتْ مواطيك على الأرؤُسِ

وقال الشيخ عبد الرحمن باكثير: وقد اقترح عليه مولانا الشريف أبو نمى معارضة قصيدة الطيبى الخمرية التى مطلعها: [من الخفيف]

بَرَزَتْ فى الكئوسِ كالإبريز ... ...

فعارضها على البحر والقافية والمعنى واستخلص فى مدحه فقال، وذلك سنة ٩٤٩ تسع وأربعين وتسعمائة: [من الخفيف]

خَطَرَتْ فى مثَقفٍ مهزوزِ كَمْ به من متيَّمٍ موكوزِ
ورنَتْ فانتضَتْ حسامًا تحلَّى جفنه من حلاوةِ التلويزِ
سِحْرُ هاروتِهِ يخيلُ ماءً ولهيبًا فى خَدّها الإبريزي
وبتخييله تَبَلَّه قلبي فى هواه وجُنَّ عقلى الغريزي
ودموعى تَسَلْسَلَتْ فشفائي باللقا لا بطلسم وحروزِ
أو بصهباء ريقها حينَ تجلى للندامَى بثغرها لا بكوزِ

أو بظلمٍ يسقى زهور أقاحٍ نابتٍ فى وِشَاحها الفيروزي
أو بشهدٍ من الشفاه حلاه لم تَشُبْهُ مرارةُ التمزيزِ
أو بريقٍ من الثنية يُطْفِي من حشا مهجتى لَظَى تمّوزِ
أو بإحداقها إذا ما أدارَتْ كاسَ غنجٍ من خمرةِ التغميزِ
أو بساجى لحاظها حين تُومِي لوصالى بخافياتِ الرموزِ
أو براح فيها ارتياحٌ لروحي وشفاءٌ لقلبى الموخوزِ
آهِ لو ساعَدَ الشبابُ عليها والليالى وموجب التجويزِ
كُنتُ دهقانَهَا الخبيرَ وكانَتْ فئة البسطِ فى يديَّ وحوزِي
غير أنَّ الجواز عزّ ورأسى شابَ والدهْرُ مرّ قيزًا بقيزِ
فتحامَيْتُهَا وإن كان أمرى باحتساها أَمْر المبيحِ المجيزِ
خمرةٌ مدت الحباب شباكًا لاقتناصِ اللذاتِ وقتَ النهوزِ
هاتها لى تنفى الهمومَ وتُوفِي لِىَ وعدَ السرورِ بالتنجيزِ
هاتِها لى شَمْسًا مغيب سناها فى فؤادى وبرجها قطرميزي
هاتها لى روحًا من النارِ حَلَّتْ جِسْمَ نورٍ لظاه طب أزيزي
هاتها تعبدُ المجوسُ لظاها ليلةَ المهرجانِ والنيروزِ
هاتها ذَوْب عسجدٍ فى لُجَيْنٍ ظفرَتْ منه راحتى بالكنوزِ
هاتها قد غَنِيتُ مذ صار خمري مِنْ نضارٍ أكتاله بالقفيزِ
هاتها لى قد ضاعَ تمييزُ عقلي منذ هَمَّتْ من كاسها بالبروزِ
هاتها لى أدورُ فى لَيْلِ سُكري بسراجٍ منها على تمييزِي
هاتها فالتهابُهَا بند جيشٍ مِنْ صدا القلبِ هَمَّ بالتبريزِ
هاتها لى فلو بَدَتْ جنحَ ليلٍ خرقَتْ أفقَ أدمِهِ المخروزِ
هاتها لى صفراءَ فى جام تبرٍ تتهادَى فى حُلَّةِ هرموزِ
هاتها لى عروسَ دَنٍّ تجلَّتْ من لآلى حبابِهَا فى حروزِ
هاتها لى كالشمْسِ تجلى بكاسٍ كضياءِ النهارِ من غيرِ ميزِ
هاتها لى تروى عظامِى وتسقِي من حشاىَ نبات أرضٍ جروزِ
هاتها لى من لام فيها إذا ما صَدَحَ الديكُ فهو فى توزيزِ

هاتها لى فالعيشُ عصرُ شرابٍ أو شباب يفنى بشمطا عجوزِ
هاتها لى فالعمر من غيرِ راحٍ أو رداح يـمـرُّ بـالـتـجـلـيـزِ
هـاتـهـا لـى فـلَـثْـمُ درّ حـبـابٍ أو حبيب يغنى عن التعويزِ
هاتها لى صرفًا ومزجًا بظلْم بين دُرٍّ وسط اللمى مغروزِ
هـاتـهـا لى فليسَ بين نداما ى وحُورِ الجنانِ من تمييزِ
هـاتـهـا لـى فإننى بين بدرٍ وكـثـيـبٍ وأسْمَـرٍ مـهـزوزِ
هاتـهـا لى فإنَّ عندى هـلالاً فوق غصْنٍ على نقا مغروزِ
هاتها لى فمجلسى فيه رُمَّا نُ نـهـودٍ حَـلَـوْنَ من تـمـزيـزِ
هاتها كم لَدَىَّ من حُقِّ نهدٍ تحتَ مسمارِ عنبرٍ ملزوزِ
هاتها لى ولو كبرتُ وأحنَتْ قوسَ ظهرى شيخوخةُ التعكيزِ
هاتها لى ولو هرمْتُ وأوهَى حمل كاسى يديَّ من تعجيزِ
هاتها لي ولو وهَتْ قوة الشّرْ بِ فحسبى مِنْ كاسها تمزيزي
هاتها لى ولو تدانَى حِمَامي وتداعَى صحبى إلى تجهيزي
هاتها لى فمخلصى مِنْ خطاها فى معادى مدح المليكِ العزيزِ
ذى المعالى أبى نُمَيٍّ تعالَى عن بسيطٍ من الثنا ووجيزِ
ملكٌ فاق ملكُهُ ملكَ سابو رَ وكِسْرَى وقيصرٍ وابرويزِ
مـلـكٌ لا يزالُ كفُّ الثريا من معاليه آخذًا بالغروزِ
ملكٌ قد أبانَ للمجْدِ معنًى كان لولا علاهُ كالملغوزِ
مـلـكٌ قالتِ السما لعُلاه قد خفضتى فبى قفى أو فجوزي
مـلـكٌ قال دهره للـيـالـي ذا مليكٌ بمثلِهِ لَنْ تفوزي
هـو تـاجٌ لـمـفـرِقِـى وطـرازٌ منه عِطْفى قد زِينَ بالتطريزِ
نـبـويُّ الأنـوارِ نـورُ مُـحَـيَّـا هُ يزيحُ الظلامَ من تبريزِ
نـشـرَتْ فـوقـه الـنـبـوةُ بـنـدًا خافقًا بالتكريم والتعزيزِ
لا يسامى ولا يُطَاولْ عُلاهُ غَـيْـرُ فـدم بـغـيِّـه مـنـبـوزِ
هو يبدو فى خلعةِ الملكِ سام والمسامى فى بِذْلَةِ الملموزِ
فخرُ كلِّ الملوكِ منه وكل خصَّ منه بمفخرٍ مفروزِ

يبهر العقلَ فهو فى التختِ بدرٌ وهو ليْثٌ فى لاذِهِ المدروزِ
صار فولاذُهُ أخفَّ وأحلَى فوقه مِنْ موشياتِ الخزوزِ
ترجفُ البيضُ منه والدهْرُ يمسي فزعًا من سطاهُ فى تفزيزِ
مستجيرًا به وإنْ رام فعلاَ فى البرايا فمنْهُ كالمستجيزِ
بالتجاريبِ والظبا والعطايا منفدُ الدهرِ والعدا والركيزِ
تضحكُ البيضُ حين تنظر قوسي حاجبَيْهِ بالغيظِ فى تكييزِ
وإذا ما استهلَّ تبكى من الما لِ عيونٌ من عسجدٍ مكنوزِ
فى العطا والسطا وفى العَذْلِ والفضـ لِ وعَمْرو وما ابن عبد العزيزِ ؟!
ولدَى حلمه وآرا نُهَاه ما ابنُ قيسٍ وما نُهَى فَيْروزِ ؟!
ملأَ الأرضَ عدلُهُ فالرعايا لو تديمُ السرى إلى شهروزِ
هم مِنَ العدلِ فى محلٍّ حصينٍ ومن الأمنِ فى مكانٍ حريزِ
أمنوا فى زمانِهِ الظلْمَ حتى أصبَحَ الذيبُ راعيًا للمعيزِ
فاطميٌّ يرد صَرْفَ الليالي عزمُهُ لو بفيلقٍ منه غوزي
ويفلُّ الخميس والأُسْد فيه كنجوم السماءِ أو رمل قوزِ
أرعف السمر بالدما فلهذا نحلَتْ من نزيفها بالنزيزِ
للطلا والكلا انتشار ونظْمٌ بظباه ولَدْنِهِ المهزوزِ
مِنْ سطا الدهرِ فهو أوفَى مجيرٍ ولوفْدِ الثناءِ أوفَى مجيزِ
من يقسه بالسحبِ يخطى ويغدو ساخرًا بالسحابِ فى تطنيزِ
هى تعطى ماءَ وتبكِى وهذا فى ابتسام يجودُ بالإبريزِ
خدمَتْهُ العلياءُ طوعًا وظلَّتْ فى إباءٍ لغيرِهِ ونشوزِ
كيفَ يوفى الثناءَ فيه قريضٌ بعَروضٍ مقطعٍ محزوزِ
والكتابُ العزيزُ أثنَى عليه بثناءٍ يعلو عن الأرجوزِ
وله المصطفَى دعا بدعاءٍ أمنتْهُ أُسْكُفَّةُ الإفريزِ
فعلى الخَلْقِ سعده لو تجزا لم تجدْ غير مسعد معزوزِ
يا مليكًا قد جلَّ ذاتا وقدرًا عن صريحِ الثناءِ والمرموزِ
فى مراضيكَ قد سعى الدهْرُ طوعًا لك منه من غَيْرِ ما تكزيزِ

والتشاريفُ وُرْقُهَا بالتهاني لك تَشْدُو فى نغمةِ النيروزِ
وبتخليدِ ملكِكَ الفلكُ الدا ئر يَجْرِى فى قُطْبِهِ المركوزِ
فَازِقَ فَرْقَ العليا وهاك قريضًا ألبَسَ الغيرَ حُلَّةَ التعجيزِ
واستحقَّ التصدير فى المجد فاعجبْ لاجتماعِ التصديرِ والتعجيزِ
فعله فى العقولِ فعلُ الحميًا وتعالى عن حرمةِ التحجيزِ
من يفته سُكْرُ الطلا يلقَ فيه سُكْرَ من لا بإهنة الحَدِّ جوزي
ختمه المسك بالصلاة على مَنْ خصَّ فى فتحِهِ بنصرٍ عزيزِ

ولمولانا الشريف أبى نمى نفسه معارضًا قصيدة التلعفرى التى مطلعها: [من الكامل]

سَمَحَتْ بإرسالِ الدموعِ محاجرى ... ...

فقال طاب ثراه: [من الكامل]

نَامَ الخليُّ فَمَنْ لجفنى الساهرِ إذْ باتَ سلطانُ الغرام مُسَامِري
جَفَتِ المضاجعُ جانبيَّ كأنما شوكُ القتادِ على الفراشِ مباشِرِي
وتأجَّجَتْ نارُ الغرامِ وأضرمَتْ بين الجوانحِ فى مكنِّ سرائرِي
وشجيتُ من ألم الفراقِ وخانني صَبْرِى الوفىُّ على الخطوبِ وناصِري
أُفٌّ على الدنيا فما مِنْ معشرٍ إلا وأودَتْهُمْ بخطبٍ قاهرِ
فى كلِّ يومٍ للنوائبِ غارةٌ أيدى النوائبِ هنَّ أغدرُ غادرِ
خلَتِ المنازلُ من أُهَيْلِ مودتي وهُمُ هُمُ فى الحيِّ قرة ناظري
أهلُ الصفا بين الصفا وطويلع ملقى جياد وفيض أشعب عامرِ
يا أهل وِدِّى لو ترونى بعدكُمْ كغريبِ قومٍ بين أهلى حائرِ
كانوا فبانوا ثُمَّ بان تجلُّدي ومصيرهم لا بُدَّ منه لصائِرِ
من بَعْد جيرانِ الصفا أهلِ الوفا سمحَتْ بإرسالِ الدموعِ محاجري

وقال العلامة باكثير أيضًا يمدحه، ويمدح أولاده الشريف حسن، والسيد ثقبة، والسيد بركات، والسيد راجح، والسيد بشير - رحمهم الله أجمعين -: [من الخفيف]

أعيونٌ رَنَوْا بها أم صفاحُ؟! وقدودٌ ماسُوا بها أم رماحُ؟!
وثغورٌ تلألأتْ أم بروقٌ؟! وثنايا تبسَّمَتْ أم أقاحُ؟!

وبدورٌ تضيء فى جنحِ ليلٍ أم شعورٌ فيها وجوهٌ صباحُ؟!
وعيونٌ جفونهن سيوفٌ أم لحاظٌ أحداقها أقداحُ؟!
وظباءٌ حلُّوا الغضا وأشبوا نارَهُ فى جوانحى أم ملاحُ؟!
ومهاةٌ منهنَّ قد فوقَتْ لي سهم قَوْسٍ من حاجبٍ أم رداحُ؟!
غادةٌ عذبةُ المراشفِ لميا فى لماها شهْدٌ مذابٌ وراحُ
لى ببردِ الرضابِ منها اغتباقٌ وبظلمِ الشنيب منها اصطباحُ
صاح مالى ألا أبلّ أجاجًا مِنْ دموعى والثغرُ عذبٌ قراحُ
طفلةٌ لحظها يتيحُ المنايا حينَ ترنو به عيونٌ وقاحُ
مدنفات تكسو المحبَّ سقامًا فاتكات فهنَّ كسرى صحاحُ
فى ردينى قدها ولحاظى مقلتَيْهَا السيوفُ والأرماحُ
حكَتِ الغصنَ والمتيَّمُ منها شابه الورق شجوه والنواحُ
وهو فى حبها الأمينُ ولكنْ خانه فيه طرفُهَا السفاحُ
وأبو طالبِ الوصال فؤادي قد كواه مِنْ هجرها الضَّحْضَاحُ
إن تفضْ مقلتى دمًا لا عجيبٌ فحشايَ لقَدْ ملاه الجراحُ
عاذلى اقْصِرْ فلنْ يضرَّكَ غيٌّ كان منِّى ولم يفدْكَ صلاحُ
لذَّ فيها ذُلِّى فعندى سواءٌ فى هواها الإفسادُ والإصلاحُ
إن تثنَّتْ تريكَ غصنًا وحقفًا ومساءً من تحته الإصباحُ
ردفُهَا قال للكثيبِ تأخَّرْ لستَ وَزْنى فلى عليكَ الرجاحُ
مسندات لنا اعتدالاً وجورًا عن قنا قَدِّها العوالى الصحاحُ
قد قَسَتْ مهجةً ورقَّتْ خدودًا كاد من لحظنا عليها انجراحُ
يعتريها الحيا فتخجَلُ لكنْ جَفْنها يعتريه منه انفتاحُ
يا لها مِنْ عقيلةٍ دون مرمَى خدرِهَا كم غدَتْ وما تستباحُ
طلبَتْ زورتى اختفاءً لئلاَّ يعتريها من الوشاةِ افتضاحُ
كيفَ تُخْفى زيارتى وهى شمْسٌ والليالى ضياؤُهَا فضاحُ
من محيًا أبى نميٍّ أضاءَتْ فهو بدْرٌ وكوكبٌ وصباحُ
ملكٌ جوهرُ الرسالةِ تاجٌ لعلاه وللفخارِ وِشاحُ

قد تحلَّى به وَزَانَ حُلاَهُ إتزارٌ بفخره واتشاحُ
وَبَنى فى مفارقِ الملكِ دارًا طابَ فيها غدوهُ والرواحُ
حلَّ فيها مراتبًا ما لفكْرٍ لتمنى إدراكهنَّ طماحُ
خدمته العلياءُ طوعًا وأمسَتْ ولها عن سوى علاهُ جماحُ
وله همةٌ يضيقُ بها الدَّهـ رُ وفى صَدْرِهِ لديها انفساحُ
لعلاها تعنو الدراريْ ولكنْ حاسداها العوَّاءُ والنَّطَّاحُ
راحتاه للصّيدِ منها ارتياعٌ مثل ما للعفاةِ منها امتياحُ
إن يجد فالمَهَامِهُ الفيحُ بحرٌ أو يجلْ فالشمامُ بيدٌ فِسَاحُ
حين يحمى الوطيس والبيضُ تهمي بالمنايا وتسلبُ الأرواحُ
وسعيرُ الوغى يشبُّ جلادًا لزنادِ المنونِ منه اقتداحُ
وأسودُ الشرا يطافُ عليهمْ كاس حَينٍ مزاجُهَا الأتراحُ
ووجوه الكماةِ والشوس فيه قد عراها مِنَ النزالِ كلاحُ
يرد الحرب وهو طَلْقُ المحيا ثابتُ الجأشِ بَاسِمٌ مِفْرَاحُ
ويبيدُ الجيوش والأسد فيه زمرٌ دون عدهنَّ البطاحُ
وإذا ما وهَى من الدهرِ خطبٌ أو مُلِمٌّ من صَرْفِهِ فَدَّاحُ
لم يزلْ دجْنه ويجلوه إلا رأيه فهو ثاقبٌ قداحُ
ما ذوو الشور فيه إلا ظباه وقناه فَهُمْ له نصاحُ
ألمعيٌّ يكادُ بالحدسِ يدري ما به قد جَرَى القضاءُ المتاحُ
طوَّقَ الخَلْقَ بالعطا فثناه لا لسانٌ إلا به صَدَّاحُ
ونداه فى الخافِقَيْنِ يلبي صوت مَنْ شفَّه عَنا واجتياحُ
آيةٌ موسويَّةٌ فى يدَيْهِ للمعالى فيها هُدًى واتضاحُ
فهى طورًا فيها زلالٌ هنىٌ وَهْىَ طورًا فيها سِمَامٌ صُراحُ
ذاتُ ظهرٍ للاستلامِ وبطنٍ فيه للرزق والغنَى مفتاحُ
وسجاياه للزمانِ طرازٌ نَضَّدَتْهُ بدرِّهَا المداحُ
علمتهم مديحه حينَ ضَلَّتْ فى علاه الأفكارُ والأمداحُ
يا مليكًا علَتْ حلاه فجلَّتْ عن قريضٍ فيه ثنا وامتداحُ

أظهر الملك من بنيك ملوكٌ هم مصابيحُ أُفقِهِ حيثُ لاحوا
بل تراهم ضراغمًا أبرزتْهُمْ غابة المُلْكِ إذْ ألمَّ الكفاحُ
فإذا ما انتضيتُمُ لضرابٍ أثخنوه فَهُمْ لديك صفاحُ
وإذا ما فوَّقْتَهُمْ فسهامٌ صائباتٌ لمَّا تطيشُ القداحُ
وإذا ما هززتَهُمْ لطعانٍ جوَّدوه فهم يقينًا رماحُ
سِيمَا مَنْ غزا وجاءَ بنصْرٍ بالهنا فيه عمَّتِ الأفراحُ
حسنٌ من به الممالك تزهو ولكلٌ منها إليه ارتياحُ
فبه روضُهُنَّ يثمرُ عدلاً ودُجَى الظلم مِنْ سماها يزاحُ
ملكٌ إن غزا ملا الأرضَ جيشًا وإذا ما سخا ملاها السماحُ
زاد تشريف مَكَّةٍ حين أمسَى وَهْوَ فيها مليكُهَا الجحجاحُ
وكذا طيبةُ الشريفةُ زادَتْ منه طيبًا فعرفها فَيَّاحُ
رُبَّ عزمٍ يصيرُ الماء جمرًا يستعيرُ المضاءَ منه السلاحُ
فالقلاعُ المحصناتُ الرواسي ما لها غَيْرَ عزمه فتاحُ
بالخميس الذى تميدُ الأراضي منه يفنيه عضبُهُ البضاحُ
فإذا العادياتُ هيَّجْنَ نقعًا وملا الجحفَلْينِ منه الصياحُ
وأدارَتْ يد الهياجِ كئوسًا ليس فيها إلا المنية راحُ
فتراه ثَبْتَ الجنانِ قويًا جأشه معلمًا عراه انشراحُ
وترى القَوْمَ منه إما قتيلٌ أو صريعٌ قد أثخنته الجراحُ
مذ أحسَّتْ بغزوه القومُ آبوا ولكلٌ مِنْ رعبه ذبَّاحُ
واستذلُّوا وأذعنوا وأطاعوا ورأَوْا أن قتلهم يستباحُ
وأَتَوْا خيفةً وإلاَّ لكانوا جيفةً ما ترَى لهم أشباحُ
ولأمسَتْ حصونُهُمْ دارساتٍ دِمَنًا قد سَفَتْ عليها الرياحُ
ولأضْحَوْا قوتًا لكلِّ الضواري للذى منسر له أو جناحُ
ولسالَتْ منها الدماءُ بحورًا لمذاكيه كان فيها سباحُ
لكنِ العفوُ منه مذ كان طَبْعٌ وله الصفْحُ شرعةٌ وصلاحُ
فعفا رافعًا يد القتْلِ عنهُمْ وله الخيلُ والظبا واللقاحُ

فهنيئًا له بنصرٍ وفتحٍ ما له فى الحروبِ عنه براحُ
لم يزلْ مالكًا له أنتَ ظهرٌ وله صنوه الكريمُ جناحُ
ذو المعالى أبو شهاب المرجَّى مَنْ لدى جودهِ الغيوثُ شحاحُ
ثقبةُ الملك والندا مِنْ علاه لا يدانَى وماله مستباحُ
لم يزلْ فى معارجِ المَجْدِ يرقَى ما لمجدِ عن راحَتْيهِ براحُ
روضةُ المكرماتِ منه رباها مزهر وَهْوَ قبله صَوَّاحُ
رَأسُ أهلِ العطا فكعبُ الأيادي دونه ما عَلَىَّ فى ذا جناحُ
أَقْسَمَ الجودُ أن تبرَّ نداه لم يزلْ وهو هاطلٌ سحاحُ
قد روى عنه نافعٌ ويسارٌ وعطاءٌ وواصلٌ ورباحُ
ثَبْتَهُمْ عند ما تُثِيرُ المذاكي عثيرًا ممكنًا عليه المراحُ
والمنايا مِنَ الأسنةِ ترنو ولها ضيغَمُ الوغَى لمَّاحُ
يلجُ المعركَ المؤجَّج طعنًا من لظى الموتِ جمره لفاحُ
ويبيدُ الجيوشَ منه بعضْبٍ فوق غربيه للنفوسِ انسياحُ
لم يضارغهُ فى معالِيهِ إلا غرةُ العترةِ الصميمُ الصراحُ
بركاتٌ إنسانُ عَيْنِ المعالي مِنْ لقاه للآملين نجاحُ
قد تفيَّا روضَىْ معالٍ ومجدٍ وأظلَّتْهُ منهما أدواحُ
كفه للعفاةِ بحرٌ خضمٌ ليس فيه ولَيْسَ منه انتزاحُ
ضيغَمٌ عندما المهنَّدُ يغدو وهو للسفْكِ سائلٌ ملحاحُ
وصليلُ السيوفِ والسمْرِ تشدو فى مغارٍ قد طال منه الصياحُ
يتلقَّى الهيجا بغرَّةِ وجهٍ زاد منها وقْتَ الهياجِ اتضاحُ
ويخوضُ الوغَى فترضى المذاكي عنه والمرهفاتُ والأرماحُ
والهزبرانِ راجحٌ وبشيرٌ فى محيَّاهما الهدَى والفلاحُ
فهما ضيغما نزالٍ وبَحْرَا كرم فيهما السطا والسماحُ
من شذا المصطفَى وريحانَتَيْهِ طِيبُ ريا ثناهما النفاحُ
فابْقَ والملك بدره فى علاكُمْ كامل النور ما أضاء الصباحُ
وهناء ثانِ بصومِكَ مَعْ ما كان فيه فَهْوَ الحلالُ المباحُ

فعلى أجزَلِ الأجورِ صيامٌ وعلى أجملِ السرورِ نكاحُ
ولعلياك عَبْدُ بابك يُنْهِي خبرًا ذكره لديكُمْ يباحُ
لرجائى على معاليكَ وعدٌ عند ذكراه مطمعى يرتاحُ
لك فَهْمٌ وليس يطلبُ منى يا إياسَ الذكا له إيضاحُ
فارْقَ فَرْقَ العلا وهاكَ قريضًا سبكَتْ تبره القوافى الفصاحُ
فأعزهُ طرفًا ليشرفَ منه لفظُ مبناه والمعانِى الصحاحُ
بشذا المسكِ من ذكِيِّ صلاتي طابَ منه خَتْمٌ وطابَ افتتاحُ

فأما الحسن بن أبى نمى بن بركات فكان خليفة الحرمين، شريف الطرفين، أمه الشريفة الحسيبة، السيدة النسيبة فاطمة بنت بساط.

حملت به أمه عام وفاة جده بركات بن محمد فى عام أحد وثلاثين وتسعمائة.

قال الإمام عبد القادر الطبرى فى «نشآت السلافة»: ولقد أخبرنى الشريف حسن رحمه الله تعالى شفاهًا أن والدته حضرت حنوط جده الشريف بركات وهى حامل به فأثر فيها عرف الكافور، وما زالت تلقى الدم حتى خشى على ما فى جوفها من الحمل، إلى أن كان شهر ربيع من عام اثنين وثلاثين وتسعمائة، أخذها ما يأخذ النساء من الطلق، فولدته بعد اليأس، وذهب بظهوره عن الناس كل بأس.

فلا شك أنه كان محفوظًا بالعناية الصمدانية حيث سبق فى علم الله تعالى جعله خليفة فى الأرض، مالك الطول منها والعرض.

مصلحة منه للعباد عامة، ونعمة عظيمة تامة، ينشر على العالم لواء عدله، ويسبغ عليهم جلباب كرمه وفضله، ويحيى مآثر جده المصطفى، ويذكر بأقضيته ما اندرس من أخبار عدول الخلفا، ويظهر سر حكمته، وخفى قدرته، فى افتتاح هذا الدين الأقوم، بمحمد ﷺ، وختمه بأهل بيته المخصوصين من بين الناس، بتولى الله تعالى تطهيرهم من الأرجاس.

وما زال - رحمه الله تعالى - صاعدًا فى نيرى المعالى، صادعًا قلوب أعدائه بالصعدات العوالى، لائحة عليه مخايل السعادة وهو فى مهوده، طالعة من أفق السيادة كواكب مجده وسعوده.

متلمحًا فيه خصال الغر الصيد، مترقبًا منه أن يكون فى البسالة صاد الصناديد.

فما برح وهو فى حجر والده مؤديًا له الحقوق، رافعًا أخمصه الشريفة على هام العيوق، باذلا له الطاعة، ساعيا فى مرضاته بحسب الاستطاعة، ممتثلا ما يصدر من الأوامر المطاعة، إلى أن لبس أخوه أحمد خلعة الإيالة والإمارة.

فلبس سيدنا الخلعة الثانية لتكون على ولاية العهد بعد أخيه أمارة.

فاستمر كذلك حتى توفى أخوه الشريف أحمد، فرفلت إليه الخلافة فى جلبابها الضافى، وأورده الملك الباذخ موارد منهلها الصافى، بسعى أبيه المرحوم الشريف أبى نمى فى عام ٩٦١ إحدى وستين وتسعمائة، فلبس الخلعة الأولى، فكان بها أولى.

فلم يزل مشاركًا لوالده أبى نمى فى الأمر يدعى له معه على رءوس المنابر، والتوقيعات السلطانية العثمانية إنما ترد باسمه، والتشاريف الخنكارية إنما تصل برسمه.

ولما كان يوم الخميس الثامن من جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وتسعمائة ورد الخبر إلى مكة المشرفة بوفاة مولانا السلطان سليمان خان، وكان الواصل به سمندر جاشنكير السلطان سليم والده أرسل إلى بلاد اليمن لإعلام مراد باشا صاحب تعز والتهائم وإلى رضوان باشا صاحب صنعا والجبال، وكان لليمن إذ ذاك باشتان.

وهذا الانشقاق هو سبب العصيان والشقاق بأرض اليمن بعد أن كان لا يحكمها إلا باشا واحد من حين فتحها، ولكن كذا قدر.

فوصل سمندر المذكور، واجتمع بالأمير الدفتردار إبراهيم المأمور بعمارة عين عرفة، فأخبر بموت مولانا السلطان، فطلب إبراهيم الأمير قاسم بك نائب جدة، وأمين عمارة المدارس السلطانية السليمانية، واتفقا على الإرسال للقائد محمد بن عقبة حاكم مولانا الشريف حسن بمكة، ليخبروه بذلك، فأرسلا إليه فوصل فأخبراه، فأرسل القائد من وقته مورقا إلى مولانا الشريف حسن، وكان بالخلصية، وأرسل الأغا محمد بن يونس باش الترك عسكر مولانا الشريف حسن مورقًا آخر، فوصل المورقان إلى الخلصية يوم الجمعة، فركب مولانا الشريف حسن، وتوجه إلى مكة، وكان الأمير إبراهيم والأمير قاسم أرسلا مورقا إلى القاضى الحسين المالكى وكان بجدة، فركب ووصل إلى مكة يوم الجمعة، واتفقت الآراء أن يخطب

الخطيب باسم السلطان سليم ابن المرحوم السلطان سليمان خان، وكانت نوبة السيد أبى حامد النجارى، فأمروه أن يذكر فى الخطبة هذه الألقاب:

« اللهم وجدد نصرة الإسلام والمسلمين، وشيد قوائم أركان الدين المتين، ببقاء من جددت به أمر الخلافة العظمى، وشرفت بمقدمه تخت السلطنة والملك الأسمى، واخترته خير خلف عن خير سلف، وعوضت به خير عوض عمن درج إلى رحمة الله تعالى وسلف، وآتيته ما لم تؤت كثيرًا من العالمين، ومكنته من سرير السلطنة والخلافة أعظم تمكين، وأورثته الخلافة الكبرى كابرًا عن كابر، وملكته الإمامة العظمى والسلطان الباهر، وأنرت ببراهينه من مشكاة السعادة سراجًا وهاجًا، وفتحت به للرعية أبواب الأمن والإيمان فطفق الناس يدخلون فى دين الله أفواجا.

السلطان الأعظم، والخاقان الأكبر الأفخم، مولى ملوك العرب والعجم، مستخدم أرباب السيف والقلم، ملك البرين والبحرين، سلطان المشرقين والمغربين، خاقان الخافقين والجديدين، خادم الحرمين الشريفين، السلطان ابن السلطان ابن السلطان، السلطان سليم خان، ابن عبدك وفقيرك المندرج إلى رحمتك بقضائك وتقديرك، سلطان سلاطين الزمان، خاقان خواقين الدوران، الفائق بعدله عدل كسرى أنوشروان، المنقاد إلى شرعك الشريف، الممتثل لأوامرك النافذة ودينك الحق المنيف، الواقف عند مراد الله فلا يتعداه، العامل فى جميع أموره بتقوى الله، المراعى العدل والإحسان فيمن استرعاه، المجاهد المرابط فى سبيل الله، الغازى الذى استوعب عمره فى الجهاد كآبائه الغر الغزاة، الذى خرج من بيته مهاجرًا، فأدركه الأجل المحتوم، واصطفاه الله إليه وتوفاه.

الداخل فى زمرة من أنزل الله فى شأنهم بثوابه لهم ورضاه ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١٠٠] المرحوم برحمة الله الملك الرحمن، السلطان سليمان خان، أنزل الله عليه شآبيب الرحمة والغفران، وقدس روحه الشريفة وحفه بالروح والريحان، وجعل الملك كلمة باقية فى نجله السعيد، وعقبه المديد إلى يوم القيامة، وأعد له ولآبائه الكرام ما يليق بكرمه من أنواع العز والكرامة، يا رب العالمين» .

ثم وصل مولانا الشريف حسن فى يوم الإثنين هو وأولاده وبعض إخوته

والأشراف ذوى محمد، وسلم الناس عليه، ثم أمر بالنداء على المآذن بالصلاة جامعة فى غد على السلطان سليمان، فلما كان صبح يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى حضر مولانا الشريف حسن ومعه السادة الأشراف، وجميع الفقهاء الأعيان، وامتلأ المسجد بالناس، وجلس الشريف حسن بمصلاه إلى أن طلعت الشمس، فوصل إليه الأمير إبراهيم الدفتردار، والأمير قاسم نائب جدة وسمندر جاشنكير فقام لهم، وجلسوا كلهم عن يمينه، ثم حضر الأفندى وجلس عن يمين الشريف فوق الأميرين والجاشنكير، وكان على يسار الشريف أخوه مولانا السيد بشير وتحته القاضى الحسين المالكى، فبعد ارتفاع الشمس قدر رمح، قاموا وتوجهوا إلى الكعبة الشريفة، ووقفوا عند الباب الشريف، فأشار مولانا الشريف حسن إلى مولانا القاضى الحسين أن يتقدم لصلاة الغائب، ونادى الريس من أعلى زمزم بهذه الخطبة وهى الصلاة على الميت الغائب العبد الفقير إلى الله، المجاهد فى سبيل الله، المرابط لإعلاء كلمة الله، الذى خرج من بيته مهاجرًا إلى الله، المستوعب جميع عمره فى قتال أعداء الله، القائم بنفسه وماله وجنوده لنصرة دين الله، الواقف عند مراد ربه فلا يتعداه، المراعى للعدل والإحسان فيمن ولى عليه واسترعاه، المعظم لشعائر بلد الله الحرام، المؤيد لآل النبى عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

المتخذ ودهم ذخيرة عند الله تعالى فى العقبى، عملاً بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣] القامع لأعداء بيت النبوة والرسالة، والمفيض على الحرمين الشريفين مكارمه وأفضاله، السلطان الأعظم سليمان خان، أنزل الله على شآبيب الرحمة والغفران، وجعل قبره الشريف روضة من رياض الجنان، وحف تربته الشريفة بالروح والريحان.

ثم بعد الفراغ من الصلاة توجهوا أجمعين إلى مصلى الشريف عند باب الحزورة فقسمت الربعات، ثم دعا لمولانا السلطان سليمان، وأهدى ثواب ذلك إليه، ثم دعا لمولانا السلطان سليم، فعلوا ذلك ثلاثة أيام، ثم ختموا يوم الخميس منتصف الشهر المذكور.

وكان خروج مولانا السلطان سليمان لهذه الغزوة التى توفى فيها حادى عشرى ذى القعدة الحرام من سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة رحمه الله تعالى.

واستمر مولانا الشريف حسن إلى أن انتقل والده الشريف أبو نمى إلى رحمة الله تعالى فى أول عام اثنين وتسعين وتسعمائة، فاستقل بالملك وأعبائه، وشد أزره بالتدبير من سائر جهاته وأنحائه، واستخدم الحزم فى شدائد الأمور الشاسعة، وسلك فى محجته الطريق الواضحة الواسعة، فصير ولاية الحرمين خلافة، ومهد القواعد السلطانية والقوانين الحسنية بدون مخافة، وجلس على سرير الملك جلوس متمكن، وبذل الهمة فى إصلاح الرعايا بكل وجه ممكن، واستصحب الإقدام فى صعائب الأمور، وثبت الأقدام فى المواقف التى تهب له بالقبول ولأعدائه بالدبور.

وظهر به شأن أهل بيت النبوة من الشجاعة والقوة.

وأذكر بما أبداه من شريف المناقب، أحوال جده أمير المؤمنين على بن أبى طالب.

وله الآراء السديدة والغزوات العديدة، فى المواطن القريبة والبعيدة، يساعده فيها السيف والقدر، ويخدمه الفتح والظفر، طالما كشف بغزواته كل غمة، وأوضح من الخطب كل واقعة مدلهمة، ووطئ بحوافر خيله سباسب تضل فيها الخطا، وأودية لا يهتدى إليها القطا.

كم فتح بعزمه حصنا صعب المرقى، واقتحم بخيله ذروة لا يصل إليها نظر الزرقا، يتصرف فى السعد كأنه عبد بابه، ويتأمر فى الظفر كأنه لازم ركابه.

وله السرايا الكثيرة، وهى عن التفصيل غنية شهيرة. لم يؤمر فيها إلا أولاده النجباء، وقل ما أمر غيرهم من الأقرباء.

وكل سراياه لا تعود إلا بالنصرة التامة، وتنبىء فى سائر الآفاق عن البشائر العامة. وقد بعث جماعة من أولاده الكرام.

وممن بعثه منهم فأبان عن الفعل الحسن، السيد الحسين بن الحسن.

ومنهم الشريف أبو طالب المصاحب للنصرة، فقد أرسله وعاد بالظفر غير ما مرة.

ومنهم السيد مسعود، فحصل بإرساله السعود.

ومنهم السيد عقيل، فنال فى مبعثه غاية التأميل.

ومنهم السيد عبد المطلب، فأصبح بتجهيزه للسؤدد مجتلب.

ومنهم الشريف عبد الله بن الحسن، فكان بعزمه إصلاح جهات اليمن.

وجميع غزواته وسراياه بالنصر مقرونة، وطوالع طلائعه بالحروب ميمونة.

ما اتفق له فى شيء منها انكسار، ولا ذمت له فى عجاج معاركها إذا ثار آثار.

فأما العلماء، فنشروا على رءوسهم علم المفاخر، وتوجوا لديه بالوقار، ولحق أولهم الآخر.

فخدموا خزائنه المعمورة بالتآليف الحسنة، وأتوا جنابه بالتصانيف اللطيفة فى كل سنة.

وأما الشعراء فانتظموا فى زمانه انتظام درارى الإكليل، ولبسوا فى أيامه ثوب كل فخر جميل.

وقصدوا جوده العميم من سائر الأقطار، ولو جمع جميع مدائحه لكانت أسفارًا كباراً.

ولو قال قائل: إنه يمدح فى كل عام بنحو الألف، لأنصف فى قوله وما جازف.

ولم يزل يتوالى عليهم بره، وما انفك متواترا عليهم لطفه وعطفه وبشره.

يجيز على التأليف بالألف الدينار والأكثر. وينصف الشخص على التصنيف بالمبالغة فى الثناء الأعطر.

وما برح يترقى فى مصاعد السعد، ويتخطى بأخمصه هامة المجد.

ناشرًا راية عدله على مفرق الليالى والأيام.

مقلدًا جواهر فضله جيد الأنام.

ولما كان سابع عشر محرم سنة واحدة بعد الألف، حضر مولانا السيد مسعود ابن الشريف حسن، وهو أكبر أولاده بعد السيد حسين بن الحسن نيابة عن أبيه الشريف حسن بالمسجد الحرام، وحضر أكابر العلماء والأعيان لقياس طول الكعبة من داخلها لورود أمر مولانا السلطان محمد بن مراد بذلك ليعمل لها كسوة، فذرعت بالذراع الحديد المصرى فعملت وأرسلت.

وورد أمر شريف منه أيضًا أن يخمن ما يحتاج إليه فى ترخيم المطاف الشريف، فذرع المطاف الأسطى سفر المعمار والمعلم محمد البحيرى المهندس، فكان ذرعه مكسرًا بحساب الطرح ذراعًا فى ذراع ألفين وخمسمائة ذراع، وقالوا كل ذراع يحتاج

إلى أربعة دنانير يكون جملة ذلك عشرة آلاف دينار.

وكان ذلك التخمين فى تاسع عشرى جمادى الأولى سنة اثنتين بعد الألف.

ثم الذى تحرر عليه القول أن المطاف أربعة آلاف ذراع صرف عليه عشرة آلاف دينار.

وفى هذه السنة توفى الشيخ ربيع بن السنباطى السالك على الطريقة الجميلة، والمالك لأزمة كل فضيلة، مدحه جماعة من الفضلاء ورثاه غير واحد من الأدباء، منهم صاحب الريحانة بأبيات خمسة آخرها بيت التاريخ وهو: [من الخفيف]

قد فقدنا فيه اصطبارًا فأرِّخْ كلُّ صبرٍ محرم فى ربيعِ

ورثاه مؤرخًا الشيخ حسن الشامى بأربعة أبيات آخرها التاريخ وهو: [من الكامل]

وإذا ذكَرْتَ ربيعَ أيامٍ مضَتْ أرِّخْ بشوالٍ فراقَ ربيعِ

وفى سنة ثلاث بعد الألف لست عشرة مضت من جمادى الأولى، توفى مولانا السلطان مراد بن سليم، ورثاه جماعة من الفضلاء، منهم الشهاب أحمد المرحومى المغربى فقال: [من الطويل]

تهايل مِنْ رُكْنِ الصلاحِ مشيد بموتِ شهنشاه الملوك مرادِ
فلم يُرَ فى تلك الممالكِ مالكٌ مُرَادُ الورَى من بعد فَقْدِ مُرَادِى

وفى سنة أربع توفى إمام الحرمين وشيخ المصرين، من كانت العلماء تكتب عنه ما يملى، مولانا شمس الدين محمد بن أحمد بن حمزة الرملى، فاتح أقفال مشكلات العلوم، ومحيى ما اندرس منها من الآثار والرسوم، أستاذ الأستاذين، وواحد علماء الدين، علامة المحققين على الإطلاق، وفهامة المدققين بالاتفاق.

ولد سنة تسع عشرة وتسعمائة بمصر المحروسة. وله ترجمة طويلة جميلة.

وفيها توفى الشيخ على بن محمد بن على الشهير بابن غانم المقدسى الخزرجى، شمس العلوم والمعارف، بدر الفهوم واللطائف، قرة عين أصحاب أبى حنيفة، الراقى من معارج التحقيق أعالى الرتب المنيفة.

ترجمه الشيخ عبد الرءوف المناوى فقال: شيخ الوقت حالا وعلمًا، وتحقيقًا وفهمًا، وإمام المحققين حقيقة ورسما.

وفى سنة ست بعد الألف: تخلف مولانا الشريف حسن بجهة ركبة، وأرسل

أواخر ذى القعدة من السنة المذكورة إلى أخيه السيد ثقبة بن أبى نمى يلتمس منه أن يلبس خلعته أكبر أولاده السيد مسعود بن حسن، فلما كان يوم العرضة خرجا إلى المختلع لبس السيد ثقبة خلعته وهى الثانية رتبة همز الفرس، وتقدم إليها فلبسها متقدمه، ثم قال للداودار: احفظ خلعة سيدك، فلم يلبث السيد مسعود أن توفى غيظًا للنفس الأبية والشيم الهاشمية، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وبنيت على قبره قبة عظيمة باقية إلى الآن.

وفى سنة سبع بعد الألف: توفى العلامة خضر بن عطاء الله الموصلى.

قال فيه فى الريحانة: كعبة فضل مرتفعة المقام، تضمنت ألسن الرواة التزامه، فلله ذلك المتضمن والالتزام.

أقام بمكة مع بنى حسن مخضر الأكناف، وصنف باسم الشريف حسن كتابه « شرح شواهد الكشاف » .

قلت: رأيت بخط جدى العلامة جمال الدين العصامى ما نصه: أشرفنى المولى خضر بن عطاء الله على وصلٍ كتب له بأمر مولانا الشريف الحسن بن أبى نمى صورته:

الحمد لله. حسن بن أبى نمى:

يا أبا محمد ريحان بن عقبة الدويدار سلمك الله.

اعط العلامة المفيد الفهامة خضر أفندى ألف ذهب جديد نصف ذلك حفظًا لأصله خمسمائة ذهب، وهى جائزة كتابى الذى صنفه باسمى. الله الله.

كتبه صبيح بن مقبول بأمر سيدنا ومولانا الشريف أيده الله بتاريخ عشر جماد أول سنة، ١٠٠٣ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وبخط مولانا الشريف بيده: الله الله يا ريحان فى نجاز ذلك بسرعة انتهى.

رحم الله الجميع ومن شعر خضر المذكور قوله: [من الطويل]

تبدَّلْ عنِ البرشِ المبلّدِ بالطّلاَ ... فعالمُ أَهْلِ البرشِ غمْرٌ وجَاهِلُ
فما البرشُ إنْ فتشْتَ عن كنهِهِ سوَى ... دويهيةٌ تصفَرُّ منها الأناملُ

وفى سنة سبع بعد الألف طلب الشريف أبو طالب من أبيه الشريف حسن أن

يتخلف بالمبعوث ليلبس هو الخلعة، فخرج مع عمه السيد ثقبة إلى المختلع، فتقدم الشريف أبو طالب ولبس الخلعة الأولى خلعة والده متقدمًا على عمه، ثم لبس السيد ثقبة الخلعة الثانية، فوقع له ما وقع بسببه لابن أخيه، وأورد مورده الذى كرع فيه، فتوفى إلى رحمة الله تعالى حادى عشر صفر من السنة التى بعدها أعنى سنة ثمان بعد الألف.

ومولانا السيد ثقبة أكبر إخوان الشريف حسن.

كان مولده سنة خمس وعشرين وتسعمائة.

وكان رجلاً عاقلاً صبورًا، متحملاً كثير الملايمة والتودد إلى الناس.

وله فضيلة وشعر حسن ومفاكهة لطيفة.

وله من الأولاد ستة ذكور وابنة واحدة. وكان مولانا الشريف حسن يراعيه الرعاية التامة، وكان له محصول كبير جدًا من جهات عديدة، فلما مات قرر لكل واحد من أولاده فى كل شهر ألف أشرفى فضة غير المقررات السابقة وللبنت خمسمائة أشرفى، وقال لهم: إن والدى الشريف أبا نمى - رحمه الله تعالى - لما فرغ بالسلطنة اختار أن يكون مقرره فى كل شهر ألف أشرفى، وأنا أقمت لكل واحد منكم ألف أشرفى عوض الجهات التى كانت لوالدكم أعنى من المعشرات، وخراج الأراضى، فإن تلك لائقة بصاحب الأمر.

والله يلهمكم الصبر، ويعظم لكم الأجر.

وفيها توفى رئيس الأطباء داود بن عمر الأنطاكى المتوحد بأنواع الفضائل، والمنفرد بمعرفة علوم الأوائل.

شيخ العلوم الرياضية، سيما الفلسفية، وعلم الأبدان، القسيم لعلم الأديان؛ فإنه بلغ فيه الغاية التى لا تدرك، وانتهى إلى الغاية التى لا تكاد تملك.

له فضل ليس لأحد وراءه فَضْلَةٌ، وعلم لم يحز أحد فى عصره مثله.

يكاد لقوة حدسه يستشف الداء من وراء حجابه، ويناجيه بظاهر علاماته وأسبابه.

حكى أن الشريف حسن لما اجتمع به أمر بعض إخوانه أن يعطيه يده ليجس نبضه، وقال له الشريف حسن: جس نبضى، فأخذ يده فقال: هذه اليد ليست يد الملك، فأعطاه الأخ الثانى يده، فقال كذلك، فأعطاه الشريف حسن يده، فحين

جسها قبلها، وأخبر كلا بما هو متلبس به.

وحكى أنه استدعاه لبعض نسائه فلما دخل قادته جارية، ولما خرجت به قال للشريف حسن: إن الجارية لما دخلت بى كانت بكرًا، ولما خرجت بى صارت ثيبًا، فسألهما الشريف، وأمنها فأخبرته أن فلانًا استفضها قهرًا فسأله فاعترف بذلك.

وحكى العلامة شيخنا الشيخ محمد البابلى أن داود الحكيم المذكور مر ببعض الحارات التى يسكنها الضعفاء والفقراء بمصر، فسمع صوت مولود حال ولادته، فقال: هذا صوت بكرى، فتفحصوا عن ذلك فوجدوه كما قال، وذلك أن بعض البكريين تزوج ببنت فقير خفية، ووافق حال ولادتها مرور المذكور.

وله ترجمة طويلة فى الريحانة وغيرها.

وفى يوم الخميس سادس عشرى جمادى الآخرة من سنة ثمان بعد الألف قبيل المغرب بقليل: أمر مولانا الشريف حسن الشيخ عبد الكريم بن محب الدين القطبى أن يكتب إلى الباب العالى بتوجيه الأمر إلى أكبر أولاده مولانا الشريف أبو طالب، فبعد أن كتب العرض أشار مولانا بتأخيره إلى ما بعد الموسم، ثم أرسل أوائل سنة تسع فأجيب إلى ذلك، ووصل الأمر الشريف السلطانى - أواخر السنة المذكورة - بأن يكون مولانا الشريف أبو طالب مشاركًا له، ودُعِيَ لهما على المنابر.

وفى يوم الإثنين سابع ذى الحجة الحرام منها أعنى سنة ثمان كانت عرضة المصرى، وأمير حاجه بيرى بك، فتوجه مولانا الشريف حسن إلى العرضة هو وأولاده، فلما وصل المختلع أشار أن يلبس خلعة المصرى مولانا الشريف أبو طالب، فلبسها وقبل يد والده.

وأن الخلعة الثانية التى كان يلبسها أخوه السيد ثقبة بن أبى نمى تلبس لثانى أولاده السيد عبد المطلب بن حسن فلبسها، ثم جاء الأمير المذكور إليهما فتحايوا تحية الإسلام، ثم توجه الأمير واستمروا موالينا واقفين إلى أن وصل الأمير طماس أمير الحاج الشامى، فلبس مولانا الشريف حسن الخلعة التى معه ودخلوا ثلاثتهم لابسين الخلع ولم يعهد قبل مثل ذلك، وسبب ذلك توافق أمير المصرى والشامى فى المنزل بالمختلع فى ذلك اليوم.

فألبس الشريف حسن ولديه خلعة المصرى وثانيتها، وأشار إلى أمير الشامى بأن

يتهيأ ليعرض له فى ذلك الوقت لضيق الزمان والاحتياج إلى العرضة لأمير اليمانى فى اليوم الثانى، وهذا تَدْبِيرٌ حَسَنٌ لأنه تَدْبِيرُ حَسَنٍ.

ثم فى اليوم الثانى، وهو الثامن من ذى الحجة: توجه موالينا الأشراف لاستقبال المحمل اليمانى، فلبس الشريف أبو طالب القفطان الأول، والسيد عبد المطلب القفطان الثانى، وأمير الحاج اليمانى الأمير فرحات الشهير باليازجى وهو من أقارب الوزير حسن باشا صاحب اليمن، فاستمر الشريف أبو طالب على ذلك إلى أن توجه والده الشريف حسن، وكان مقيما بالمحل المعروف بالبردان، فتوجه منه غازيا إلى جهة نجد فى ثامن ربيع الآخر سنة عشر وألف. والفريق مقيم بالمبعوث مشمولاً بنظر الشريف أبى طالب تحت نهيه وأمره، وأمر بضرب النوبة على بابه السعيد.

واستمر الشريف حسن ذاهبًا إلى أن وصل إلى محل يسمى « فاعية » فأقام به مدة من الزمان.

ولما كان يوم الثلاثاء غرة جمادى الآخرة من السنة المذكورة أصبح متوعكًا، إلى أن كانت ليلة الخميس ثالث الشهر المذكور انتقل إلى رحمة الله تعالى أثناء الليلة المذكورة، فأخفى موته عن الحريم والخدم والصغار والحشم إلى أن طلع الفجر، فأظهر ذلك وحمل فى تختروانه الذى كان يركبه فى حياته على البغال، وقد حصلت علامات ذلك من عصر يوم الأربعاء حتى إن أبناءه الذين كانوا معه بذلك المحل أعدوا البغال والبراذين فى المنازل صوب مكة؛ لغلبة ظنهم بوقوع الوفاة، وبعد المسافة عن مكة لتكون كخيل البريد المسماة فى عرف الأروام ولاقا، وكان ذلك رأيًا حسنًا.

فلما توفى جدوا به فى المسير فساروا يوم الخميس وليلة الجمعة ويومها، ووصلوا به إلى مكة فى أوائل النصف الثانى من ليلة السبت، ولولا مفارقتهم الطريق بموجب الظلام والمطر والغيم، وتعويق السيل لهم فى بعض الأماكن - لأمكنهم دخول يوم الجمعة، مع أن المسافة تزيد على عشرة أيام، وما كان هذا التيسير إلا كرامة للمرحوم، لسرعة وصوله إلى البلد الحرام، وذهب الخبر بوفاته من حينها إلى الشريف أبى طالب بجهة المبعوث، فبمجرد وصول الخبر إليه قصد مكة، وخلف السيد عبد المطلب لحفظ المراح ومن فيه فدخلها ليلة السبت فى أول الثلث الثانى

قبل دخول جنازة والده، وبمجرد وصول الجنازة شرع فى التغسيل والتكفين، وصلى عليه بالمسجد الحرام قبل الفجر، ودفن بالمعلاة، وبنى عليه قبة عظيمة باقية إلى الآن، رحمه الله تعالى رحمة جمَّة، ووالى عليه صيب الرضوان والرحمة.

مات وله من العمر تسع وسبعون سنة، ومدة ولايته مشاركا لأبيه أبى نمى، وولده أبى طالب، ومستقلا نحو خمسين سنة.

وفيها توفى السيد عبد المطلب بن حسن، كان على غاية من الكمال، ومن مشاهير الأبطال، وكان يلبس الخلعة الثانية فى حياة أبيه، وكان والده يعتمد عليه فى الأمور العظام، ويفتخر به فى كل محفل ومقام - رحمه الله تعالى.

وفيها توفى القاضى على بن جار الله الحنفى المكى القرشى.

انتفع به جماعة: منهم شيخ الإسلام عبد الرحمن، وأخوه القاضى أحمد ابنا عيسى المرشدى، والإمام عبد القادر بن محمد الطبرى وغيرهم.

له تصانيف عديدة مفيدة، منها: حاشية على التوضيح، وحاشية على شرح إيساغوجى لشيخ الإسلام زكريا، وتذكرة مفيدة، وفتاوى لكنها غير مجموعة، وديوان شعر منه قوله: [من السريع]

قُلْتُ لشهْرِ الصومِ لما دنا مودِّعًا منِّى وداعَ الصديقْ
سَلِّمْ على الموسمِ باللهِ لي وقُلْ له أقبِلْ فهذا الطريقْ

قلت: ما ألطف قوله أقبل... إلخ، كأنه يشير إلى أنه كعقبة فى الطريق كانت فزالت.

وفيها توفى الملا صفى الدين بن محمد الكيلانى، المكى الشافعى، الطبيب الألمعى، الأريب اللوذعى، أفلاطون زمانه.

شرح خمرية سيدى عمر بن الفارض شرحًا مفيدًا جعله باسم مولانا الشريف حسن، وأجازه عليه إجازات عظيمة.

يحكى عنه غرائب، منها: أنه مر عليه بجنازة بعض الطرحاء فدعا به، وأخذ من دكان بعض العطارين شيئًا نفخه فى أنف الطريح فجلس من حينه، وعاش مدة بعد ذلك، فسئل عن ذلك فقال: رأيت أقدامه واقفة فعلمت أنه حى.

ومنها: أن بعض التجار كان يطعن فى معرفته، فأرسل إليه بعض الفقراء بغصن

من نبات له رائحة طيبة، فلما شمه التاجر انتفخ بطنه، وعجز الأطباء الموجودون عن علاجه، فاضطر إلى صاحب الترجمة، واستعطفه فأعطاه سفوفًا من ذلك النبات بعينه فعوفى مما به.

ومنها: أن بعض أولاد الشريف حسن أصابته علة، فأمر صفى الدين المذكور أن تجعل له كوفية من عنبر، ففعلت فزالت العلة، ثم أصابت تلك العلة بعينها بعض الرعية فعمل له كوفية من ضفع البقر فعوفى، فقيل له فى ذلك، فقال: نعم العلة واحدة، لكن ولد الشريف نشأ فى الرائحة الطيبة، فلو عملت له من الضفع لزادت عليه، والآخر بعكسه، فداوينا كلا بما يناسبه.

وكان يأمر من أصابه مرض بالخروج من مكة، ولو إلى المنحنى؛ لأن هواء مكة فى غاية الاعتدال لكن رائحة البالوعات تفسده، ولهذا بنى له هناك بيتًا يسكنه من به مرض رحمه الله تعالى.

وقد رزق مولانا الشريف حسن من الأولاد نحو خمسة وعشرين ذكرًا، منهم: سالم وعلى وأبو القاسم وحسين ومسعود وباز وأبو طالب وعقيل وعبد المطلب وعبد الله وعبد الكريم وعبد المحسن وعدنان وإدريس وفهد وشنبر وعبد المنعم والمرتضى وهزاع وعبد العزيز وعبيد الله وجود الله وبركات وقايتباى ومحمد الحارث وآدم، ومن الإناث نحو اثنتين وعشرين: شمسية وروضة وأرينب وصمدة وبلخشة وياقوتة وفاطمة وعزيزية وزين الحبوش وريمة وجربوعة وزين الشرف وسلامة وكثيرة وفاطمة أيضًا وعزيزية أيضًا ومنى ومزنة وحريملة وهيفاء وراية وعزا وغيرهن. آخرهن موتًا ياقوتة.

ومات منهم جملة من الذكور والإناث فى حياته.

وورثه سبعة عشر ذكرًا وأربع عشرة أنثى.

ووزع مخلفه بين أولاده ما عدا السلاح والخيل والعبيد فعادتهم أنها لصاحب الأمر بعده.

ذكر ما منحه الله من الفراسة المقتبسة من الحضرة النبوية، والخلافة العلوية.

فمن ذلك: أنه سرقت الفرضة السلطانية بجدة المحمية، وضاع منها قماش له صورة وأموال كثيرة، ولم يكسر بابها ولا نقب جدارها، ولا أثر يحال عليه فى معرفة

المطلوب والطالب، بل حبل مسدول من بعض الجوانب، فلما عرض على حضرته الشريفة الكريمة هذه القصة العظيمة طلب الحبل المذكور ثم شمه ثم قال: هذا حبل عطار، ثم دفعه إلى ثقة من خدامه، وأمره أن يدور به على العطارين، فعرفه بعضهم، وقال: هذا حبل كان عندى اشتراه منى فلان، ثم نقله من رجل إلى رجل إلى أن وصل بشخص من جماعة أمين جدة المعمورة، ثم وجدت السرقة بعينها فى المحل الذى ظنها فيه.

ومنها: أن رجلاً من التجار سرق له مال عظيم بمحل معين، فلما رفع قصته إلى مولانا الشريف حسن قال له: هل وجدت فى محل السرقة شيئًا من آثار العرب؟ فقال وجدت هذه العصا، فنظر إليها الشريف فوجد بها علامة، فقال: هذه العصا عليها علامة الطائفة الفلانية، فاتفق بسعده وبركة جده حضور رجل من أعيان هذه الطائفة وبيده عصا عليها نظير العلامة المذكورة فعرفه مولانا الشريف حسن بالحال، وألزمه بتحصيل المرام، فصدق الله فراسة مولانا المشار إليه ورجع المال لصاحبه.

ومنها: أن رجلاً تاجرًا عطارًا مغربيًا بمكة المشرفة هرب له عبد، ثم وجده فطلب العبد البيع، فأجابه لذلك سيده، فاشتراه رجل بمال عظيم ثم أعتقه، فبعد مدة فقد التاجر مالاً كثيرًا من دكانه وحاصله، فرفع قصته إلى مولانا الشريف حسن، فأمره أن يخفى أمره ويترك ذكره. ثم سأل عن مشترى العبد المذكور هل هو من أهل المال الكثير حتى يشترى مثل هذا العبد بماله ويعتقه، وهل سبق له عتق قبل ذلك؟ فأجيب بأنه لم يقع منه عتق، وليس له مال بل هو فقير يصرف الفلوس، وظهر الآن له نوع يسار، فطلب الشريف العبد على غفلة ثم خاطبه بغير واسطة، وعرض له بأنه بلغنى أمانتك، وأنك نصحت فى خدمة مولاك، وأنه قصر فى رعايتك فطلبت البيع، وقد أصبت فيما فعلته.

وعرض عليه أن يجعله مقدمًا عنده، ففرح العبد لذلك، ثم تغافل عنه مدة وطلبه ثانيًا وعرض له ببخل سيده، وأنه يستحق كل ما تفعل فيه ثم قال له: بلغنى أنك جمعت من مراجلك ثمنك، وأعطيته لفلان يعنى المشترى، فاشتراك به ونعم ما فعلت، فصدق العبد جميع ما قال له مولانا، فأمر بحبسه بلطف وطلب المشترى، ثم قال له: مرادى أستخدم عبد التاجر المغربى الذى أعتقته.

فأجاب بشكر العبد والثناء عليه وأنه يليق بذلك، ولم يزل يتلطف به حتى أقر بما أقر به العبد، فأمر بحبسهما معًا ثم ضربهما ضربًا شديدًا حتى أحضر جميع ما فقده التاجر إلا قليلاً، ثم أمر بصلب العبد والمشترى بعد التعزير والنكال الشديد فصلبا، فتعجب الخاص والعام من هذه الفراسة المسطورة.

ومنها: أن رجلين مصرى ويمنى تنازعا فى جارية ادعى كل منهما ملكها من غير إقامة حجة شرعية، وتحير فى أمرهما سائر الحكام من أهل الشرع والعرف، فرفعت القصة إليه، فلما سمع دعوى كل منهما وعدهما بالنظر فى أمرهما فى مجلس ثان، ثم اختلى باليمنى وسأله عن اسم الحب الحنطة فقال هو البُرّ، ثم اختلى بالمصرى، وسأله عما ذكر فقال هو القمح، ثم سأل الجارية عن اسم الحب المرة بعد المرة فقال: أم بر، فلما نطقت باللغة اليمنية قال لها والقمح ما هو؟ قالت: لا أعرفه، فلما تم ذلك عنَّ له اختبار ما منحه الله من الفراسة، فأحضر المصرى وتلطف به ووعده بعدم المؤاخذة فاعترف بأنها ملك اليمنى وزالت الشبهة ببركته ووصل الحق إلى مستحقه.

ذكر بعض فتوحاته بذاته، وأولاده الكرام فى حياته:

أولها قصة شمّر وسببها يوم الفريش: لا يخفى أن فتوحات الملوك والغزوات وما لهم من السير والسريات لا يمكن ضبط الخاص منها والعام، سيما بساداتنا حماة البيت الحرام، وخصوصًا مولانا الشريف حسن جد صاحب هذا الكتاب. فمن ذلك قصة الفريش: وهى أنه فى عام ثلاث وستين من القرن العاشر كان أمير المدينة المنورة السيد مانع الحسينى، وكان من أجل الأمراء قدرًا وأرفعهم ذكرًا، بلغ بمصاهرة موالينا وساداتنا حماة الحرمين محلا منيفًا رفيعًا، وعزًّا منيعًا، وشوكة قاهرة، وحرمة وافرة.

وكانت عادة أمراء المدينة السابقين يسلمون لبنى عمهم من السادات بنى الحسين، ولعربان عَنَزَة وضفير ونحوهم مواجب ومرتبات من الأموال الجزيلة والحبوب والأقمشة الجليلة، فمنعهم من ذلك الأمير مانع استخفافًا بهم وعدم مبالاة، فجمع كل من الطوائف المذكورة جماعته وحضر معهم. فأما السادة الأشراف آل نعير فمقدمهم الأمير منصور بن محمد أمير المدينة المنورة، وابن أميرها سابقًا.

وأما السادة الأشراف من آل جماز فمقدمهم أولاد مولانا الأمير جماز.

وأما طائفة العربان فمقدمهم الشيخ المعروف بأبى ذراع وغيره من أكابرهم.

فلما خرج ركب الحاج المدنى على عادتهم أواخر ذى القعدة، وأصبحوا بوادى «الفريش» صحبتهم الطوائف المذكورون فى جمع من الأشراف عظيم، ومن العربان بخيل وركاب مع اللبوس والزانات،وأحاطوا بالركب جميعه، وكان فى الركب الأفندى الأعظم عبد الرحمن قاضى المدينة المنورة، والجناب العالى الأمير محمد ابن حسن، وشيخ الحرم المدنى، وأعيان المدينة من وجوه العرب، وسادات بنى الحسين، فكان موقفًا شنيعًا، ومنظرًا قبيحًا وقع فيه قتل وسلب وطعن وضرب، وأهل الركب محرمون، والطوائف المذكورة مجرمون.

وسلم أعاظم الركب وأعيانه، ثم انفصلوا بعد أن التزم لهم القاضى، وشيخ الحرم المذكوران بحصول مواجبهم وعادتهم، فلما وصل خبر ذلك إلى الشريف حسن سكت على ذلك مطمنًا خواطر الحجاج، حتى انقضت أيام المناسك، ثم أرسل سرية من شجعان الفرسان، وأمر عليهم السيد عجل بن عرار برسم حماية الركب المدنى إلى وصوله المدينة، ثم يستمرون بها حفظًا لها، ولأهلها باطنًا وظاهرًا، ثم بعد ذهاب الحجيج من مكة نادى بالمسير إلى غزو الطوائف المذكورة، فخرج بذاته العزيزة فى عسكر جرار وجيش كالبحر الزخار، ما بين سادة كرام وأعراب وأروام، بالخيول الملبسة والدروع، والبنادق والمدافع، والشجعان المشهورين فى الوقائع والمجامع.

فلما بلغهم أن الملك المنصور الهزبر المعروف المشهور قصد اللحوق بهم على كل حال، شمروا نحو شمّر، وهربوا إلى رءوس الجبال، فقصدهم إلى منازلهم ومساكنهم، وخرب شمر المذكور؛ لأنه من أمنع مواطنهم، ثم قبض على أعيان الطوائف المذكورة الذين شنوا الغارة وكبل أشرافهم بالجنازير الحديد، ودخل بهم وهم أسرى بين يديه مدينة جده السعيد ﷺ، وكان يوم دخوله موكب عظيم، حضره مولانا الأفندى، وشيخ الحرم المذكوران أعلاه.

وأظهر كل منهما حصول مراده وبلوغ مناه، وتعجبوا من دخول الأشراف بالزناجير، وهم من أولاد الأمراء، وتحققوا بذلك عظم مولانا الشريف، وقوة

سلطانه بمدد جده خير الورى.

وكان هذا الغزو أول ظهور مولانا الشريف حسن، وقوة شأنه فى ظل والده الشريف أبى نمى وأيام زمانه.

ومن ذلك قصة مضبع: سار إليه بنفسه المطمئنة، وذلك فى حدود عام اثنين وثمانين وتسعمائة.

وسببه أنه ظهر من أهل مضبع نقض للعهود، ومخالفة لشرع الملك المعبود؛ لأن مضبع المذكور حصن منيع بأعلى واد وسيع، وأهله فى نعم الله رافلون، وللمنعم بها كافرون، يمنعون كل من وصل إليهم، ولو علم عصيانه لديهم، وكلما حذرهم مولانا الشريف المخالفات تحذيرًا، ما يزيدهم إلا طغيانًا كبيرًا.

فسار إليهم فى جم غفير من السادات وأتباعهم من أعيان دولته الشريفة، وأمراء مملكته المنيفة.

أخبر السيد نافع منهم أن العساكر التى سار بهم يزيدون على خمسين ألفًا ما بين راكب وراجل، ولاحق وواصل، يمرون على الجبال فيدكونها دكا، وينزلون بالرمال فيبكونها بكا.

فلما وصلوا مضبع وجدوه جبلًا رفيعًا وحصنًا منيعًا ليس فى أخذه مطمع.

فأحاطوا بجهاته الأربع ثم صعدوا على اسم الله تعالى تالين ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٤٠] فقاتلهم قتالاً شديدًا، أفنى فيه شبابًا وأشاب منه وليدًا، حتى انتصر عليهم نصرًا عزيزًا، وفتح الله له من حصونهم فتحًا مبينًا، فضرب الرقاب، وأخذ الأموال، ورتب فيه من يحفظه من شجعان الرجال، ويقيم به الشريعة المحمدية على أحسن منوال.

ثم قصد إلى تخت عزه مكة الغراء - شرفها الله تعالى بالكعبة الجليلة - فمر على بجيلة وأمرهم بالتزام الشريعة المحمدية، فخالفوا أوامر الله وأوامره العلية، فقاتلهم إلى أن طلبوا العفو، وبذلوا الأموال فأجابهم إلى ذلك.

وأخذ منهم عدة من دروع الحديد العراض الطوال يقال إنها قريب من خمسة آلاف، نال منها السادة الأشراف، وجميع من حضر من سائر الأطراف، وصار خراجها يحمل إلى حضرته الشريفة كل عام على مر الدوام.

وهذه السرية فى حكم السرايا الهاشمية إلى الكفار، من سار فيها فله أجر المجاهد بلا إنكار.

قلت: ذكر العلامة الجد جمال الدين العصامى أن هذه الغزاة كانت سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، وذكر أنه أرخها ببيت كامل بديع هو قوله:

صادَ الصناديدَ أعطَى المُلْكَ واجبَهُ   حامى حِمَى بَلَدِ اللهِ الأمينُ حَسَنْ

هكذا ذكره بيتًا مفردًا، فلم أدر أهو من قصيدة له أم من قطعة.

وهو بيت بطين المعنى، رصين المبنى.

ومن ذلك غزوة سوق الخميس، ويسمى زهران، يتصل به قرن ظبي والصفا والمخواة وجبل عظيم يسمى مَلَّس.

كان من شأن هذه المواضع أن سكانها لا يورثون النساء جملة كافة خصوصًا البنت التى منعها من أعظم سنن الجاهلية ومانعوها هم الكفار شرعًا.

ومن عادتهم أن يمنعوا كل من وصل إليهم خصوصًا العصاة لولاة الأمور، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل والفجور، ثم تكرر منهم ما ذكر من القبائح.

ونصحهم مولانا الشريف المشار إليه، وهددهم فلم ينقادوا للناصح والنصائح، فبرز أمره المطاع إلى أكبر أولاده الكرام السيد الحسين الأسد الضرغام بدر التمام أن يقصدهم فى محالهم، فقاتلهم وقتل أعظم رجالهم، وحاز نفائس أموالهم، وفاز بأسر نسائهم وأطفالهم.

فلما ملك البلاد والعباد، ووصل البشير بنصرته إلى والده وجده خير والد من خير أجداد، برزت أوامره المطاعة، أن ينصب حاكمًا شرعيًا وأميرًا ليقيم نظام السنة والجماعة، فتم ذلك على الأوضاع الشرعية ونقل خراجها إلى الخزائن الشريفة العلية.

ثم غزا معكال. وذلك أنه بعد مدة قريبة برز مولانا الشريف حسن إلى غزو معكال بأقصى البلاد الشرقية لأمور فعلوها، فيها طعن على الدولة الإسلامية، وحسبك السنة النبوية المبرورة: «الفتنة من ههنا» وأشار إلى الجهة المذكورة، فقام مولانا المشار إليه فى ذلك حماية لبيضة الإسلام خصوصًا حجاج بيت الله الحرام، وزوار جده محمد عليه الصلاة والسلام، فوصل دارهم وقاتلهم فيها احتقارًا بهم

وعساكر الإسلام الله تعالى يحميها ويبلغها بسعده أقصى أمانيها فى جمع كذلك يزيدون على خمسين ألفًا، وطال مقامه فيهم حتى استأصل أهل الدار رجالا وأموالا وكل من كان إليهم إلفًا.

فتحدث أعداؤه المخذولون أنه مات وعسكره انكسر نظير ما وقع لجده ﷺ بخيبر.

فلما وصل خبر ذلك لأهل سوق الخميس سول لهم عدو الله أخوهم إبليس، فقتلوا الحاكم الشرعى والأمير المذكورين شقاقا منهم فى الدارين.

فلما عاد مولانا الشريف من الشرق سالمًا فى النفس والأهل والمال، غانمًا ملك معكال، وما قرب منه من سائر المحال، ودخل مكة على أجمل الأحوال، ومشايخهم بين يديه فى الحديد والأغلال، ثم أقاموا فى ظل نعمه مدة عام كامل، فطلبوا من فضله وإحسانه الشامل أن يكونوا خدامه فى محل سلطانهم، وأن يحملوا إليه ما يرضيه كل عام من محصول أوطانهم، فأجابهم إلى مطلوبهم، وأمَّر عليهم محمد بن عثمان بن فضل حيث لم يبق من بيت سلطنتهم إلا هذا النسل.

ثم عزم على غزو سوق الخميس؛ لفعلهم المذكور الخسيس.

فقصدهم بنفسه الزكية افتتاح سنة سبع وثمانين وتسعمائة، فاجتمع بسوحه من بادية مكة المشرفة طوائف هذيل وغطفان وعدوان وبنى سعد وما اتصل بهم من المؤلفة، فاجتمعوا بناديه الفسيح رحابه، المنيع جاره وأحزابه، فنظر إليهم أمير دار المضيف، فاستكثر ما يجب لهم من المصاريف.

فقال على لسانهم لمولانا الشريف: لعل سيدى يعجل بالمسير، فإن الجيش كبير.

فقال له الشريف: أجبهم عنى بأنى أطعم صغيرهم حتى يشب، وشابهم حتى يشيب.

ثم سار بهم بعد مدة، فلما وصل واديهم، ونزل مخيمه المعظم فى ناديهم، قال لهم بعض عقلاء الرجال: اطلبوا من مولانا الصلح، فأجابوا جواب أهل الغرور والهوس، على سبيل التهكم: اسألوا عن الصلح جبل ملس.

فقبل تمام القال، صعدت الرجال على الجبال، وعم القتل معظم الرجال، وأسر

النساء والأطفال.

ثم قبض على مائة وسبعين من أشرافهم، وكبلهم فى الحديد فى أعناقهم وأطرافهم.

فأحضروا له من الدروع والأموال جملا كثيرة لا يحويها المقال، فأخذ ذلك من جملة الغنائم، وأقام شريعة جده سيد العوالم.

ثم عاد إلى مكة المشرفة، فدخلها فى شهر رمضان فى موكب عظيم قد أضاء، لم يسمع بمثله فيما مضى، وبين يديه الجماعات المقبوضون كل عشرة فى كبل حديد، وشيخهم مع ولديه فى الحديد، راكب فى حال غير جميل.

ثم أمر بذبح أربعة عن الحاكم كما ذبحوه؛ وذلك بسوء ما فعلوه.

ومن ذلك فى عام تسع وثمانين وتسعمائة: سار إلى ناحية الشرق مرة ثانية لمخالفة وقعت بينهم متناهية، فى جيش كثيف جرار، ومدافع كبار، تنسف الجبال وتفتح الأمصار، ففتح مدنًا وحصونًا تعرف بالبديع والخرج والسلمية والإمامية، ومواضع فى شوامخ الجبال تزيد على ما سبق بأمثال أمثال، فقويت شوكته وعز سلطانه، وتحقق عند ذوى البصائر أنه بعناية الله تعالى كل حين يعلو شأنه.

ثم عين من رؤسائه من ضبطها، على أمور التزمها وشرطها، فعاد مؤيدًا منصورًا، وعلم سعده منشورًا.

فأخبره بعض عيونه التى يبثها فى البلاد لتأتيه بأخبار العباد، أن جماعة من شوكة بنى خالد تجمعوا وتحزبوا، ومن طريقك ترصدوا وتقربوا، فى جمع من الشجعان والأبطال حتى جرائد الخيل وكرائم الجمال. فتدارك مولانا المشار إليه من الحزم والعزم ما أمكن، وقدم من قدم، وأخر من أخر، وأكمن من أكمن.

فوافاه الجيش الخالدى فوجد مولانا على غاية الحذر فتقابلا وتقاتلا، فهرب الخالدى وانكسر، فقتل مولانا أكثرهم عددًا، وغنم خيلا وإبلا وعددًا، ولم ينج منهم إلا الهارب، ومن خيلهم ورجلهم وإبلهم إلا الذاهب.

وهذه النصرة أعظم فى صدور الأعداء شوكة ونكاية، وأعلى منصبًا وأجل ولاية.

وهذه المذكورات عيون غزواته الشهيرة، وسواها كثيرة كبيرة.

ذكرما خوله الله من فصاحة اللسان، وبديع البيان، فى توقيعه بالبنان، والحكم

بفصل الخطاب والتوفيق للصواب.

فمنها: لفظ «العزة لله سبحانه وتعالى» فمولانا المشار إليه وجميع سلفه الكرام يتوجون به فى توقيعاتهم الفخام.

ولا يخفى ما فى هذه اللفظة من جوامع الكلم وحسن الأدب مع ذى الجلال والإكرام، والعظمة والإنعام، والإشارة إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٩] المستوجبة لعزة كاتبها وقائلها، وتواضعه مع كمال شرفه فى الذات والصفات.

ومن ذلك: أن جميع توقيعاته يرقم فيها بعد الجواب لفظ «على الوجه الشرعى، والقانون المحرر المرعى» وهذا من خصوصيات مولانا الشريف حسن المشار إليه دامت رحمة الله عليه.

ومن ذلك: أن جميع ما يرقمه من الكلمات ولو كثرت خال من النقط بحيث تتبع أهل الخط أكثر تحريرات مولانا فلم يجدوا فيها نقطة.

ولعل مراده بذلك دفع المماثلة لخطه ورفع المشاكلة حتى يبعد عن التزوير.

ومن ذلك: سلامته من الحشو المخل والتطويل الممل.

ومن ذلك: أن قاضيًا من قضاة المدينة الشريفة عرض عليه مكتوب، وقف صحيح العبارة بمحكمة الشرع، مضمونه: أن الأوقاف المشروحة به لا تؤخر إلا بشروط مرعية ذكرت فيه، وعين فيه أمورًا لا تمكن الإحاطة بها إلا بعد قراءة المكتوب جميعه، وقراءته تحتاج إلى زمن طويل، فلما وقف مولانا الشريف حسن عليه قال من أول نظرة: هذا فرع من أصل يحتاج إلى اتصال وثبوت بالطريق الشرعى، فعرض له القاضى المشار إليه بأن مثل هذا يبعد تزويره، وأن الخصم فى ذلك السيد مانع أمير المدينة الشريفة وهو أميركم، وكان مولانا الشريف حسن متكئًا، فاستوى جالسًا، ثم استقبل القبلة، وقال للقاضى: يا مولانا سيدى ووالدى الشريف الكبير أبو نمى ليس عندى على وجه الأرض أحب منه وأكرم، ومع ذلك والله العظيم وحق هذه الكعبة المدبجة لو ارتكب باطلا ما وافقته عليه، فإن قلتم ثبت عندى هذا المكتوب حكمت بموجبه على الفور.

فعجب القاضى المذكور من فرط ذكاء مولانا وسرعة فهمه ومتانة ديانته وتحير منه

واستحيا من قوة معرفته بالمقصود واستوائه جالسًا. ثم ذكر والده الكريم، وتقرير محبته وطاعته له، ثم فسر بعدم موافقته على الباطل، وهذا من نور النبوة بلا شك ولا ريب.

ومن ذلك أن جميع ما يرقمه للخاص والعام يبدؤه بذكر الله تعالى، ويختمه بالصلاة والسلام على جده محمد خير الأنام.

ثم يتبع ذلك بقوله: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وفى ذلك ما لا يحد من الخير ولا يحصى، ولا يحصر ولا يستقصى.

ويكفيك أنه من أفعال العلماء العاملين والصلحاء الكاملين.

ومن ذلك: معرفته للعبارة التركية، وأكثر اللغة الفارسية، وغيرهما من ألسن البرية، ولكنه لا يكتب بذلك ولا يتكلم، حذرًا من غلطة لسان أو سبق قلم فيستعمل الترجمان فى الكلام، وكذلك فى المكاتيب على الدوام.

ومن ذلك: أنه إذا اشتكى عليه صاحب ظلامة، أو دعوى يسمع شكواه جميعًا ثم يتشاغل عنه ثم يستعيده ما قال، فإن اختل كلامه اختلالا فاحشًا استدل على عدم صدقه، وأقبل عليه بوجه يليق به.

وفى هذا من الكمال ما لا مزيد عليه، وهو كونه يحفظ القصة مع طولها من أول سماع، ثم يستنبط من مخالفة ألفاظها حكما بالغة يقف بسببها على حقيقة أمر صاحبها، وليس ذلك إلا من إلهامات إلهية مستفادة من قوله ﷺ: «الحاكم ينظر بنور الله تعالى» .

ذكر كرمه وجوده وإنعامه على وفوده، خصوصًا العلماء والصلحاء والفقراء والشعراء.

فمنه عند زيارة جده ﷺ، وذلك أنه فى أول عام ولايته للأقطار الحجازية أخبر من يعتمد على نقله أن عطاياه للعلماء والشعراء فقط كانت ما يزيد على ألفى دينار ذهبًا جديدًا.

ومنه، وهى من عطاياه الشريفة، وتفرداته وأوّلياته المنيفة: أنه إذا عقد نكاحًا لنفسه أو لأولاده يطلب أعلام العلماء وأعيان الصلحاء؛ تبركا بحضرتهم، واغتنامًا لدعوتهم، فإذا تم ذلك العقد أمر بكتابة أسماء الحاضرين، ثم يعين لكل منهم شيئًا

نافعًا من المال مصلحًا للبال، مع تمييز أهل العلم والصلاح، ، والشرف والدين والفلاح.

ومن ذلك: ما أخبر به مولانا العالم العامل الفقيه حاتم القاضى الشافعى بناحية «صبيا» أن فى صحبته، وصحبة غيره عدة قصائد جاء بها من اليمن فى مدح الشريف حسن.

وأنه أجاز شعراء اليمن مع عدم حضورهم ما يجاوز ألفين من الدنانير الذهب الجديد، وأن جائزة كل شاعر يرسلها إليه مع حامل قصيدته.

وقال: هذه كانت عادته دامت سعادته، وذلك على الاستمرار، مع جميع الشعراء من سائر الأقطار.

ومن ذلك: ما أخبر به بعض حملة القرآن العظيم، المتشرفين بمدح جده الرسول الكريم. قال: حضرنا بين يدى مولانا الشريف حسن، فى صبيحة ليلة عرسه على بعض الشريفات المخدرات فى جمع عظيم بمكة، فقرأنا ما تيسر من القرآن العظيم، ثم أنشدنا ما يسره الله من المدائح الشريفة، فوصلت إلى مولانا الشريف معشرة متوسطة مملوءة من الذهب الجلالى. واحد بعشرة من قبل عمة السلطان جلال الدين أكبر، فأمر بجميعها لأهل المديح المذكورين. مع كثرة ما فيها، ولم ينظر إليها إلا نظر إحاطة لأجل المكافأة، وقال: هذا نصيب الجماعة، رفع الله ذاته الشريفة الفاخرة، وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة.

ومن ذلك: أنه زار فى بعض الأعوام قبر جده عليه الصلاة والسلام، وكان عادة ساداتنا حماة الحرمين الشريفين لما وصلوا إلى الزيارة يتصدقون على جيران الحضرة النبوية صدقة خاصة تشتمل على أسماء العلماء والحكام والصلحاء والخدام، وسكان الربط والأرامل والأيتام، والعساكر السلطانية الخيالة والحصارية، وخدام العمائر الخاقانية، وخدام العين الزرقاء الروية، ولكل اسم قدر معين من الأشرفية الفضة كل أشرفى عشرة محلقة، فأمر مولانا الشريف حسن أن يجعل مكان كل أشرفى فضة دينار جديد ذهب.

ثم اتفق لمولانا زيارة ثالثة صرف فيها أموالا جزيلة فى وجوه متعددة.

منها: أنه أمر بالصدقة أن توزع على عادتها القديمة، فلما صرف معظمها قال له

السيد محمد بن سعد نقيب الأشراف بالمدينة المنورة: إن فى هذا الدفتر المبارك جماعة كانوا صغارا فكبروا، وبالعلم تقدموا وتصدروا، فاستوجبوا من مولانا كمال العناية ووافر الرعاية.

فأجاب جوابًا شاملاً لأعلى مراتب الفضل والأدب، وأجل مناصب السؤدد والحسب، وقال: إن هذا الدفتر أمره لمولانا الوالد الشريف أبى نمى فيصرف على حكمه من غير زيادة ولا نقصان، ثم جدد دفترًا برسم زيادة الإحسان لمن ذكرنا عاليه من عظماء السادة، ثم أنعم على أهل الدفتر الجديد بأضعاف ما هو مقرر فى الدفتر السابق، ثم برز أمره الشريف بأن يعطى لكل من وصل معهم من الأتباع، وأتباع الأتباع عطاء لائقًا بمقامه الخطير، عم القريب والبعيد، والأحرار والعبيد، والصغير والكبير.

ثم تصدق صدقة مخفية بعد أن مضى ثلث الليل على العميان والمرضى، والنساء والعاجزين من الزمنى، والمقعدين قصدهم بذلك إلى أماكنهم، قيل: بنفسه الشريفة، وقيل: مع من يعتمد عليه.

ومن حسناته التى تفرد بها: أنه كان فى كل زيارة عند منصرفه من باب الحرم النبوى يأخذ فى يده الشريفة كيسًا مملوءًا من الذهب والفضة، ثم يجتمع عليه فقراء الحضرة النبوية وأطفالهم لما هو مقرر معلوم عندهم من إحسانه، فيلاطفهم عند كل محل فسيح، ثم يقول: أنثر عليكم من هذا المال؟ فإذا قالوا: نعم، نثر عليهم من ذلك جملة فيزدحمون على أخذ ذلك، وهو ينظر إليهم مع كمال السرور والفرح، ويستمر على ذلك مرة بعد أخرى حتى ينفد جميع ما عنده.

واتفق له - رحمه الله رحمة واسعة - فى بعض زياراته المقبولة، وكان يفعل ما ذكر من نثر الدنانير والدراهم، فاستوقفته امرأة تشكو عليه حالها.

فوقف لها والمطر نازل عليه من غير حائل، وهى آخذة بلجام فرسه مع غاية الازدحام يمينًا وشمالاً، وخلفًا وأمامًا.

فلم يبرح حتى انتهت شكواها، وتركت لجام الفرس باختيارها وهواها، فانظر إلى هذا المقام، أيها الناظر بعين الإنصاف، فما أجله من مقام، ولا غرو فذلك نفح طيب سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام.

ومما مدح به مولانا الشريف حسن ما قاله العلامة الفاضل الشيخ نور الدين على الشهير بالجم، معارضًا لزائية الطيبى، وعبد الرحمن الكثيرى فقال: [من الخفيف]

خطرَتْ فى موشياتِ الخزوز ... وتثنَّتْ بأسمرٍ مهزوزِ
ونضَتْ من جفونها النعْسِ سيفًا ... فأراقَتْ دمَ الفتَى المحروزِ
وأماطَتْ عن العقيقِ فأبدَتْ ... بارقًا من وشاحِهَا الفيروزي
وتثنَّتْ فللحلى تناغٍ ... فى قضيبٍ من خالصِ الإبريزِ
غادةٌ فى وشاحها حينَ تبدو ... مِنْ لآلى حُليها فى جروزِ
غادةٌ تسلبُ البدورَ إذا ما ... سَفَرَتْ عن موشم مغروزِ
غادةٌ قد سعَتْ بكاسِ مدام ... مزجَتْه بالغنجِ والتغميزِ
خندريسًا دفعْتُ عقلى فيهاَ ... حينَ همَّتْ من دونها بالبروزِ
لبسَتْ من حبابها تاج دُرٍّ ... فجلاها مديرها فى خزوزِ
هى شمسٌ يديرها بَدْرُ أفقٍ ... فوقَ لدنٍ مثقفٍ مهزوزِ
إسْقِنِيهَا مزجًا بظلْم لماها ... كى أداوى بها لظَى تمُّوزِ
إسقنيها ودَعْ مقالَ سفيهٍ ... قد أطال الجدالَ فى التجويزِ
إسقنيها على الشروطِ فإنى ... أمرؤ لا أقولُ بالتجليزِ
إسقنيها فى روضةٍ من شقيقٍ ... طرزَتْها يدُ الحيا تطريزي
إسقنيها وهادلُ الورقِ يشدو ... فوقَ شاطى النهورِ بالملغوزِ
إسقنيها مَعْ كلِّ أحورَ أحوَى ... كاملِ الحسنِ كالقنا المركوزِ
إسقنيها وعنفوانُ شبابي ... يافعٌ والسرورُ حال النهوزِ
إسقنيها فزوّج الكهل ظلمًا ... بعجوزٍ تمشى على عكوزِ
إسقنيها قديمةَ العهدِ بِكْرًا ... تَوَّجَتْهَا الملوكُ حال البروزِ
إسقنيها فما خلاصِىَ منها ... غَير مدحِى لنجلِ طه العزيزِ
حسنٌ مَنْ رقَى سمو المعالى ... فهو للفضْلِ والثنا كالمجيزِ
ملكٌ لو توعَّدَ الدهرَ يومًا ... أصبحَ الدهْرُ منه فى تفزيزِ
كفه إن تجافتِ السحبُ غيثٌ ... وَدْقه باللجينِ والإبريزِ
زاده اللهُ فى البسيطةِ بسطًا ... وحماهُ بحفظِهِ المحروزِ

ووقاه من حادثِ الدهرِ طُرًّا ... ما تلى الذّكر فى الكتابِ العزيزِ

وقال الشيخ على المذكور أيضًا يهنيه بالظفر فى غزوه جبل شمر، وإيقاعه ببنى لام، وذلك سنة أربع وستين وتسعمائة: [من الخفيف]

كيف يكفيكَ من دمِ الأبطالِ ... ما أسالَتْ لكَ الظبا والعوالي
قد بكَتْ رحمةً عليهم مواضيـ ... ـك نجيعًا جرى بميم ودالِ
وانثنَتْ عنهمُ الرماحُ امتنانًا ... بعد جازَتْ مراتب الإعتدالِ
لم تزلْ ممتط لهم كلُّ غادٍ ... سابق فى النفوسِ والأموالِ
ذى جبينٍ مغررٍ بالثريا ... وأيادٍ منعولةٍ بالهلالِ
وأديم قد شقَّ من شفقِ الأفـ ... ـق وعَدْوٍ كالريحِ فى الإرسالِ
وحسامًا يروى عَنِ المجد قولاً ... أعربَتْهُ الرماحُ بالأفعالِ
أعجمى لكنْ له ترجمانٌ ... بلسانِ الطلا فصيحُ المقالِ
كلَّما كلّم الرءوس بلفظٍ ... صَدَقتْهُ الأعناقُ بالإنفصالِ
وجيادٍ جُرْدٍ تخوضُ المنايا ... لبلوغِ المنَى وحُسْنِ المآلِ
وليوثٍ تلقى الحتوفَ اشتياقًا ... كلقىِ الحبيبِ حينَ الوصالِ
يا مليكًا رمى الزمانَ بسهمٍ ... لم يكنْ للزمانِ منه ببالِ
زعم الدهْرُ أن يصيبَ رعاياً ... ك بضيمٍ حاشاك مِنْ ذا المحالِ
ما درى الدَّهْرُ أىّ قرمٍ نزال ... إعتراه وأىّ خصمٍ جدالِ
ما درى أنكَ المليكُ الذى سُد ... تَ جميعَ الملوك بالإجمالِ
ما درى أنكَ الكريمُ الذى قد ... خُصَّ بالمكرماتِ من ذى الجلالِ
ما دَرَى يابنَ فاطمٍ وعليٍّ ... وابْنَ خَيرِ النسا وخيرِ الرجالِ
أنكَ الماجدُ الذى عَمَّ أهلَ الْـ ... ـأَرضِ شرقًا ومغربًا بالنوالِ
ما درَى أنكَ الذى لا تلاَقى ... فى نزالٍ ولا بِشُمّ الجبالِ
يَسأَمُ المجد والدواوين والأَقْـ ... ـلام والفَضْل والحجى والمعَالِي
والعوالى والمشرفيَّة والغا ... رَات والخَيْل واللّقَا والنزالِ
كم تخطَّتْ صدرًا وشكَّتْ فؤادًا ... وتمطَّتْ بمفرقٍ وسبالِ
وأسالَتْ فى الشرق سيل نجيعٍ ... سارَ فى الغربِ بالرواسى الثقالِ

وسبَتْ حلَّة وحلَّتْ محلاًّ قصر البَدْر عنه فى الإتصالِ
ما بنو لام ما قبائلُ نجدٍ ما لقاءُ الفرسانِ والأبطالِ؟!
إن هُمُ فى لقاكَ إلا شياهٌ بمخاليبِ الأسدِ والأشبالِ
جعلتهم بزاتك الشُّهب طُعْمًا حينَ مزَّقتهم برشقِ النبالِ
حين أمطرتَهُمْ سحابَ المنايا وبروقُ الظبا عليهم تلالِي
والرزايا لخَيْلها واثبات فيهمُ مرعدات بالتصهالِ
أين منهُمْ حلمٌ وصفحٌ جميلٌ منك حاطَ الورَى بأيدى الكمالِ ؟!
لو أتوا حَاقِنِى دماهُمْ لفازوا مِنْكَ بالمكرماتِ والأفضالِ
وغدوا فى مسرَّةٍ وهناءٍ وأمانٍ من الوبا والوبالِ
غَيْرَ أن الإله جَرَّدَ فيهمْ سيفَ قَهْرٍ ماضى المضاربِ صالي
ورماهُمْ بقهرمانِ ملوكِ الْـ أرضِ ماضى القضا شديد المحالِ
حسن الذات والصفات عظيم الْـ مَجْدِ سامى العلا شَريف الخصالِ
مخجل البدر قاهر الدَّهْر مزْرِى الـ بحْرِ بالجود والنهَى والجمالِ
خَفَقَتْ بالسعودِ راياتُهُ البيـ ضُ فراحَتْ كالزهْرِ جنح الليالي
دام للدينِ ناصرًا فى نعيمٍ أبَدًا سرمدًا بغَيْرِ زوالِ
ما هَمَتْ فى العدا بروقُ مواضِيـ ـهِ بنصْرٍ مسترسلٍ هَطَّالِ
وشدَتْ مادحى عُلاَهُ وقالَتْ كفَّ يكفيك من دمِ الأبطالِ

وقال أيضًا يمدحه، ويهنيه بالفتح، ويعزيه بعمه السيد حازم رحمه الله تعالى:

[من الخفيف]

آهِ مابى من جلنارِ الخدودِ وعذابِى منها بذاتِ الوقودِ
ومصابِى مِنْ مائساتٍ قدودٍ أطلعَتْ بالبها ثمارَ النهودِ
كُلّ هَيْفَاءَ تَنْثَنِى بِقوامٍ غُصْن بَانٍ على كَثِيبٍ زَرُودِ
ذات ثَغْرٍ كالدرِّ فى لازوردٍ برضابٍ يحكى ابنة العنقودِ
نافح عن مسك ذكيٍّ وعطرٍ عنبريٍّ وفاتقٍ عن ورودِ
يلمعُ البرق والدرارى توارى حينَ تفترُّ عن شتيتٍ برودِ
كم حلا لى فيه التغزُّل مَعْ كُلْـ ـلِ غزالٍ وغادةٍ أملودِ

حبذا دولَةُ الشبابِ وعصْرٌ بالتصابِى قد مَرَّ كالمطرودِ
زرتُهُمْ والشبابُ يشفعُ لى والـ عَيْشُ يخضرُّ منه يانعُ عودي
فى ليالٍ بسامر فى رياضٍ مشرقاتٍ فى ظلها فى عقودِ
بين آسٍ ونرجسٍ وورودٍ كعذارٍ وناظرٍ وخُدُودِ
وحمامُ الأراكِ تشدو بمَدْحِ الـ ملكِ الأمجدِ الكريمِ الجدودِ
حَسَنُ الذاتِ والصفاتِ بدا في أفق المجد بَدْر هذا الوجودِ
قمرٌ أشرَقَ الحجاز ووَجْهُ الْـ كونِ من نوره وهو فى المهودِ
فظننا عيسى بن مَرْيَمَ قد جا ء لإصلاحِ دَهْرِنا المفسودِ
فَهْو إن لم يكنْ نبيًّا فإبْنُ الـ أنبياءِ الكِرامِ سامى المجودِ
وابنُ مَنْ جاء بالهدايةِ والرشْـ ـدِ وسَنَّ الحدودَ فى المحدودِ
وابنُ مَنْ قد شَقَّ السمواتِ عزمًا ودنا من إلهِهِ المعبودِ
زُرْهُ إن شئتَ أن تزور سُلَيْمَا نَ جلالاً وصالحًا فى ثمودِ
شَيَّدَ الدينَ بالعوالى وأضحَى بالمعالى كالوالِهِ المعمودِ
وحَمَى البيتَ والحطيمَ بيضٍ مسرفاتٍ تجاوزَتْ فى الحدودِ
وبِخَيْلٍ سوابقٍ وجيادٍ سابحاتٍ تدوسُ قلْبَ الحسودِ
لابساتٍ من الدماءِ جلابيـ ـبَ تهادَى مخضباتِ الزنودِ
ترتمِى فى سحابةٍ من نسورٍ وأُسُودٍ من جيشِهِ والجنودِ
وبغابٍ من القنا والعوالِى مرسلاتٍ لغلِّ قلبِ الحقودِ
قاذفاتٍ بكلِّ ظبْيٍ غرير الـ لَحْظِ لكنَّ القَلْبَ من جلمودِ
وبهِمْ أبيض المحيا مُغِير الْـ بَدْر بالتَّمِّ والبها والسعودِ
واهبُ الخيلِ والممالكِ والأعـ ـمارِ والرزْقِ للعبادِ الوفودِ
يختشى الدهْرُ من سطاه وَتَخْشَا هُ المنايا بالحادثاتِ السودِ
ناشرًا من لوائِهِ كلَّ عدلٍ باسطًا فى بساطِهِ كُلَّ جودِ
كتب النَّضر فى حواشيه إنى عَبْدُ رِقٍّ لذلك المعقودِ
دامَ فى رفعةٍ ونَشْرٍ وطَيٍّ للمعالى وخافقاتِ البنودِ
ما همى الغيثُ بالربا وأضا البَدْ رُ فحاكَى لبشرِهِ المعهودِ

واستهلَّتْ بالشرقِ سحبٌ غزارٌ تَغْشَ شمسًا ثوَتْ ببرجِ اللحودِ
حازم الملكِ سيد الشهدا مَنْ بلقاهُ قد زَانَ دارَ الخلودِ
غسلته حور الجنانِ مَعَ الولْ دَانِ فى حوضِ الكوثرِ الموروِدِ
وادرجته الأملاكُ فى سندسيٍّ بحنوطٍ من رحمةٍ معدودِ
فعزاء آل النبيِّ بحقٍّ وهناء بالنصْرِ والتأييدِ
وهناء بالصومِ فى رمضانٍ وهناء بالفطْرِ والتعييدِ
دُمْتَ للملكِ والممالكِ والخَلْ قِ مَدَى الدهر دائمًا فى سعودِ
ما هَمَى الغيثُ حاكيًا جودَ كَفَّيْ كَ فأبكَيْتَهُ بجودِ الجودِ
وغدا طائرُ الجوانحِ مِنِّى بمديحِ المليكِ فى تغريدِ

وقال الشيخ عبد الرحمن بن أبى كثير يمدحه: [من الخفيف]

أَسْعِفِى الصَّبَّ باللقا والتلاقِى وانقذِيهِ من القِلَى والتلافِى
وارحَمِى من يد الهوَى أسلَمَتْهُ للتباريحِ مِنْ جوى وتجافِي
مستهامًا له التصبُّرُ أضحى خائنًا فى الغرامِ والدمع وافِي
هام فى حُبِّ غادة لو أعارَتْ نورها الشَّمْس لم تُرَعْ بانكسافِ
ظَلْمُهَا القرقفى يسقى أَقَاحًا أو لآلٍ من الثنايا الرهافِ
حف دُرًّا بها زُمرُّدُ وشم فتحلَّى منه بحسنِ اكتنافِ
حرسَتْهُ منها بعثال(١) قد حيثُ أمستْ معسولةَ الترشافِ
وبه قد حمَتْ درورًا لذيذًا وورودًا من أنملِ القطافِ
لو أرتْكَ الأثيثَ فوق المحيًا وتثنِّى القوامِ فى الأردافِ
شِمْتَ بدرًا يضىء فى جنحِ ليلٍ وقضيبًا يميسُ فى الأحقافِ
أيأستْنِى بقسوةِ القلْبِ لكنْ أطمعتنى الأعطاف بالإنعطافِ
فكأنى فى الحُبِّ ما بين يأسٍ ورجاءٍ فى موقفِ الأعرافِ
لم تفوقْ سهمًا من الحسنِ إلا وحشا العاشقينَ كالأهدافِ
أسقمتنى منها جفونٌ ضعافٌ وعجيبٌ يأتى الضنا مِنْ ضعافِ
هى دائِى وأطلبُ البرء منها كيْفَ داءٌ يكونُ للسقمِ شافي

(١) عثل يعثل عثلا: كثر وضخم وغلظ. الوسيط (عثل).

فاتكٌ لَحْظُهَا ولم نَرَ عضبًا قاتلاً وهو مغمدٌ فى غِلافِ
وبه قد غَزَتْ فكلُّ فؤادٍ متلفٌ بالجراح والإذفافِ
كمواضى سلطانِ مكَّة لما ينتضيها للفتكِ والإتلافِ
حَسَن مَنْ له الملوكُ عبيدٌ كالرعايا مهشومة الآنافِ
ملكٌ ما له من الخلقِ مثلٌ فى المعالى وما له مِنْ مُكافي
ملكٌ مَنْ رآه يسجدُ ذُلاً لو رآه سابُورُ ذو الأكتافِ
ملكٌ لو به البريةُ لاذوا لغَدَوْا منه فى غِنًى وكنافِ
ملكٌ ملكُهُ رياضُ أمانٍ مثمرات بالعدلِ والإنصافِ
ملكٌ ملكه سماءُ معالٍ آمنٌ بَدْرُهَا من الإنخسافِ
ملكٌ قد تلا الكتاب علينا فيه وصفا مِنْ أعظمِ الأوصافِ
فَهْوَ إبْنُ الضحَى وطه وياسيـ ـن وطاسين وابنُ نونٍ وقافِ
كُلُّ ملكٍ فعينه لمعالى ذاته لا تزالُ فى استشرافِ
بدرُ كلِّ الملوكِ فى أُفُقِ المـ ـلكِ وتاجٌ لهامة الأشرافِ
بحلاه بنو الرسولِ تحلَّتْ وذووه وآلُ عبد منافِ
كلُّ مجد فما له عَنْ مداه مانعٌ من تقاصرٍ وانكفافِ
فالدرارِئ فى الأفقِ قد فاقَهَا في شرفٍ باذخ وفى إشرافِ
باتفاقٍ فاق الملوكَ علوًّا وعُلا الكُلِّ ما خلا من خلافِ
فسجاياه فى العلا كسجايا حيدرٍ جدِّهِ بغيرِ تنافِي
فاعلاتٌ له بيوتَ ثناءٍ سالماتٌ بسعده من زحافِ
ألمعيٌ يدرى الذى غَابَ عنه بذكاءٍ يجلو له كُلَّ خافي
ومتى أسقَمَ النُّهَى كَشفُ صَعْبٍ فتجدْهُ يزيلُهُ كالشافي
كعبةٌ تقصدُ الوفود حماها جاعلى بابه لهم كالمطافِ
قد غدا للحُفَاةِ فيه معاذٌ وملاذٌ ومأمنٌ من مخافِ
وأنامَ الأنامَ فى ظلِّ عدلٍ وارفٍ لم يزل على الخلقِ ضافي
وجرَى رزقُهُمْ على راحتيه فَهْىَ ترضى كُلاًّ برزقٍ وافِ
منهلُ المكرماتِ كان أجاجًا وبه صارَ حالىَ الوردِ صافي

وربَاه الذاوِى غدا منه روضًا ذا زهورٍ أنوارُهُ فى اختلافِ
فنداه قوادمُ الريحِ تَغْيَا عن مجاراتِهِ وتبقى خوافِي
من يقسه بالسحْبِ يخطِى فهذى تعطِ ماءً ودمعُهَا فى انذرافِ
وهو يعطيكَ باسِمَ الثغرِ طلقًا وعطاياه عَسْجَدٌ بالجزافِ
كاتباه لم يكتُبَا لفظَ منْع منذ منشاه لا عليه ولا في
يهبُ الألْفَ ثم لم يَهَبِ الألْ فَ فكلٌ لديه بالآلافِ
إن يَجُدْ فالنوالُ يملا الأراضى أو يَجُلْ فالنقيعُ يملا الفيافي
ضيغَمٌ إن حمى الوطيسَ فأذكَى جمْرَ طعنٍ ما إن له مِنْ طافي
ورأيت الكماة تسقى مدامًا من منونٍ بأكؤسِ الأسيافِ
وحياضَ المنونِ تلجىء كُلّا لورودٍ من صابها واغترافِ
خاضه جاعلُ الفؤادِ دلاصًا والظبا عزمةً كحدِّ الرهافِ
وبه اختالَ لابسًا بردَ بأسٍ خاطرًا فيه مُعْلِمَ الأطرافِ
وأبادَ الجيوشَ بالقتْلِ حتى صيَّرَ السيفَ والقنا فى رعافِ
ولكَمْ من جحافلٍ صرْنَ منه رممًا ما اهتَدينَ للإنصرافِ
ولكم من كتائبٍ من سطاهُ قد تفانوْا بالخوفِ والإرجافِ
فهو يخشَى ويرتجى يوم بطشٍ ونوال للمعتدِى والمضافِ
يا مليكًا قد جلَّ عن كل وصفٍ حيثُ فيه مدحٌ من الله كافي
لو نظمنا فيكَ الدرارى مديحًا لا يوازِى مقدارَكُمْ ويكافي
دُمْ لك الملكُ خالدًا والعوالِى والمواضِى فى عزَّةٍ وعوافي
والجديدانِ يخدمانِكَ طوعًا بالذى شِئْتَهُ بغيرِ خلافِ
والمقاديرُ فى مراضيكَ تسعَى أبدًا بالإسعادِ والإسعافِ
وصلاةٌ ختامها المسكُ تغشَى جَدَّكَ الطُّهْرَ سيدَ الأشرافِ

وكان الشريف حسن -رحمه الله- استخدم فى آخر عمره سنة ثلاث بعد الألف بشخص من أبناء الحضارم، يسمى: عبد الرحمن بن عبد الله بن عتيق.

كان عبد الله بن عتيق تزوج بنتًا من بنات الشيخ محمد جار الله بن أمين الظهيرى، فجاءت منه بعبد الرحمن هذا وأخيه أبى بكر، فتحشر عبد الرحمن المذكور فى

الشريف حسن وبقى يفهمه النصح فى الخدمة، وسحر الشريف حسن إلى أن تمكن منه غاية التمكن، وبقى حاله كما قال الشاعر: [من السريع]

أمرُكَ مردودٌ إلى أمرِهِ وأمرُهُ ليسَ لهُ رَدُّ

فتسلط عبد الرحمن المذكور على جميع المملكة، وتصرف فيها كيف شاء، وبقى كل من يموت سواء كان من أهل البلد، أو من التجار، أو من الحجاج يستأصل ماله بحيث لا يترك لوارثه شيئًا، ولا المحلق الفرد، فإذا تكلم الوارث أظهر له حجة أن مورثه كان قد اقترض منه فى الزمن الفلانى كذا وكذا ألف دينار، ويقول: هذا الذى أخذته دون حقى وبقى لى كذا وكذا، وطريق كتابته لهذه الحجة وأمثالها على ما بلغنى ممن أثق به أن كتبة المحكمة تحت أمره وقهره، فيأمرهم بكتابة الحجة فيكتبونها، وعنده أكثر من مائة مهر للقضاة والنواب السابقين، فيمهرها ويأمر عبد الرحمن المحالبى أن يكتب إمضاء القاضى الذى قد مهر الحجة بمهره، ويكتب خاله الشيخ على بن جار الله، وأخوه الشيخ عبد القادر بن محمد بن جار الله شهادتهما.

ويكتب الشيخ على أيضًا عليها ما نصه:

«تأملت هذه الحجة فوجدتها مسددة، ويشهد بذلك محمد بن عبد المعطى الظهيرى، وابن عمه صلاح الدين بن أبى السعادات الظهيرى، وأحمد بن عبد الله الحنبلى الظهيرى وغيرهم.

ثم إنه يظهر الحجة ويقرأها بين الناس.

وجميهم يعرف أنها زور لا أصل لها ولا يقدرون أن يتكلموا بكلمة واحدة خوفًا من شره وقوة قهره، واستولى بهذا الأسلوب على ما أراد كما أراد، وإذا شُكِىَ على الشريف حسن - رحمه الله تعالى - يقول: هذه حجة شرعية، وشهودها مثل هؤلاء الجماعة الأجلاء كيف أردها؟ فنفرت قلوب الناس من ابن عتيق، وضجوا وضجروا، وكل من أمكنه السفر سافر، وما تأخر إلا العاجز.

وكان مولانا الشريف أبو طالب كلما سمع شيئًا من هذه الأمور تألم غاية التألم، فأول ما استقل بالسلطنة أرسل من المبعوث قبل وصوله إلى مكة رسله بمسك ابن عتيق، فمسك يوم الجمعة بعد العصر فى ساعة نحوسية، واستمر فى الحبس يوم السبت والأحد، فلما وصل الشريف أبو طالب وتولى أمر والده الشريف حسن ودفنه

استدعى ابن عتيق وسأله عن أفعاله فقال: قد فعلت جميع ذلك، ثم رده إلى الحبس.

ففى ليلة الإثنين أخذ ابن عتيق جنبية العبد الوصيف المرسم عليه وهو نائم، فاستيقظ العبد وخلصها منه، فلما أصبح الوصيف أخبر سيده الشريف أبا طالب بذلك، فجبذ جنبيته، وقال له: خذ هذه وقل لابن عتيق لا تسرق الجنبية فى الليل، هذه جنبيتى إن كنت تريد أن تقتل نفسك فاقتلها، وأسرع بإرسالها إلى جهنم وبئس المصير.

فلما جاء الوصيف، وقال له ما قاله الشريف أبو طالب أخذها منه، وأدخل منها فى بطنه نحو إصبع ثم أخرجها، ثم أعادها وأدخل منها ضعف الأول، ثم أخرجها ثم أدخلها جميعًا، ثم أخرجها وقال: وامالى.

واستمر ذلك اليوم إلى ظهر الغد يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة من سنة ١٠١٠ عشر وألف، فخرجت روحه إلى غير رحمة، فقد كان مرتكبًا جميع أنواع المعاصى، حتى لقد بلغنى من جماعة بكثرة أنه كان يسجد للشمس، وأما انتهاكه للشرع الشريف فشىء لا يوصف، وكان يتبجح، ويقول: الشرع ما نريده.

ولقد أبطل فى أيامه عدة من المسائل الشرعية كالوصايا والعتق والتدبير، وباع أمهات الأولاد بأولادهن، قائلا: هذه حجة شرعية أن فلانًا سيدها اعترف أن ماله جميعه لفلان فوطؤها حرام عليه والولد ولد زنا.

وكثيرا ما يأخذ حجة العتق، ويمزقها ويتملك المكتوب له العتق فيها حتى أنه بقى إذا مات شخص من أرباب الصرور والحبوب والجهات أظهر على المتوفى فراغًا من هذا الأسلوب، ويتناول المحلول جميعه، ثم هو يبيعه على شخص آخر، فسبحان الحليم الذى لا يعجل يمهل ولا يهمل، وقد قال ﷺ: «إن ربك ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يكن ليفلته»(١).

فقد أخذ ابن عتيق على غرة وقتل نفسه، ورمى به فى درب جدة فى حفرة صغيرة بلا غسل، ولا صلاة ولا كفن، ورمت عليه العامة الأحجار.

وعملت الفضلاء فيه تواريخ، منها قول بعضهم: [من الرجز]

أشقى النفوسِ الباغيَهْ   إبْنُ عَتِيق الطاغيَهْ

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣)، والترمذي (٣١١٠)، وابن ماجه (٤٠٨١)، والبيهقي (٦/ ٩٤).

نَارُ الجحيمِ استعْوَذَتْ ... منه وقالَتْ ماليَهْ
لمَّا أتى تاريخُهُ ... أَجِبْ لظى والهاوِيَهْ

ذكر هذا العلامة الخطيب المفتى عبد الكريم بن محب الدين القطبى، ومن خطه نقلت.

وهذا الشيخ عبد الكريم: هو ابن محب الدين أخى الشيخ قطب الدين المؤرخ النهروالى فيكون ابن أخيه وقطب الدين عمه.

وأما قطب الدين نفسه فلم يعقب سوى أربع بنات لا غير. انتهى.

وأرخت أيضًا وفاته بما لفظه: «يأتى من ألطاف الله ما لا يكون فى البال»، ولهذا واقعة هى ما أخبرنى به بعض آل الخواجا الشهير بالكركية.

وذلك أن ابن عتيق كان قد قصد جدة بأذية من قسم أذاياه التى كان يؤذى المسلمين بها مما ذكرناه، وأمهله فى طلب المال ثلاثة أيام، فلما خرج الخواجا من عنده أتى بيته، وهو فى غاية التعب والقلق، فلما كان اليوم الثالث كان القبض عليه من خدام الشريف أبى طالب، ونفذ الله سبحانه فيه حكمه، وقد ألهم الخواجا المذكور تكرار قوله: «يأتى من ألطاف الله ما لا يكون فى البال»، وألزم جميع أهله بتكرارها، ففرج الله عنه سبحانه، وكانت تاريخ وفاته كما تقدم ذكرها.

ثم وليها مولانا الشريف أبو طالب بعد وفاة والده الشريف حسن، إذ هو ولى عهده بعده، وظهر بالمظاهر الجميلة، ووطئ بأخمصه تاج المجد وأكليله.

واشتهر بالولاية الباطنة والظاهرة، والمكاشفات الواضحة الباهرة، وانتشرت فى الآفاق والأقطار له الكرامات الخارقة.

وكفاه سر الأسرار الغامضة، التى دونها السيوف البارقة، واستولى على الصياصى المتينة الرفيعة، والحصون المنيعة الصنيعة.

وهرعت إلى سيول نداه الوراد، وسقيت بسبب جدواه الأكباد الصواد.

لم تزل دولته محفوظة، وأحواله بعين العناية ملحوظة.

مولده - رحمه الله تعالى - فى جمادى الأولى سنة ست وستين وتسعمائة.

فاستمر فى الملك إلى أن كان يوم الثلاثاء حادى عشرى جمادى الآخرة سنة اثنتى عشرة وألف، وصل مع أذان العصر خبر وفاته، وكانت بمحل قرب بيشة، فحمل

فى التخت على البغال إلى أن تقطعت وعجزت عن السير فحمل فى شبرية على بعير، ووصلوا به إلى مكة ضحوة يوم الأربعاء ثانى عشرى الشهر المذكور، وصلى عليه عند باب الكعبة الشريفة بعد أن فتحت، ونادى عليه الريس من أعلى زمزم، وحمل إلى المعلاة، ودفن بها وجعل على قبره قبة.

وكانت وفاته آخر ليلة الأحد تاسع عشر جمادى الآخرة.

وتأسف الناس على فقده إلى الغاية، فإنه - رحمه الله تعالى - كان كريمًا ليس له نظير فى أهل بيته، إلا ما يحكى عن أخيه السيد حسين بن حسن.

وكان مهيبًا جدًا يكسر من إحدى عينيه لا لعلة بها.

ذكر عن جارية تصب القهوة بين يديه فى الديوان أنها أهوت لتأخذ الفنجان من أمام بعض الحاضرين فحبقت، فنظر إليها الشريف أبو طالب نظرة غضب، فلاذت ناحية عن الديوان، وتحاملت على غلصمتها بيدها فكسرتها وسقطت ميتة. فلله منها شهامة حركتها هيبة.

ومما سمع من كرمه أنه قبل وفاته بأيام كان وقع من شيخ زعب جناية فحبسه فيها. ثم أن جماعة الشيخ الزعبى طلبوا من الشريف أبى طالب أن يرضى عليه ويعطوه ما يطيب خاطره، واتفقوا بينهم على مائة فرس وألف بعير وكذا وكذا من الدراهم. ثم أحضروا جميع ذلك ووصلوا به إليه. فقال لهم: أنا ما كان مرادى إلا تأديب الشيخ الزعبى وليس غرضى فى طمع منه.

والذى وصلتم به من الخيل والإبل هو معاد لكم. ولم يقبل من ذلك شيئًا. وكسا الشيخ الزعبى وجماعته الذين كانوا معه فى الحبس بعد أن أطلقهم، وأمر لهم بنفايع جسيمة. فانظر إلى ملك كريم عظيم الشأن.

وأما إعطاؤه الألف الذهب وأمثالها فكثير.

ومما اتفق له أيضًا وذلك قبل أن يلى مكة أنه زار قبر جده محمد ﷺ، فلما أمسى بوادى مر هو ومن معه أضافه رجل من أهل الوادى يقال له السودانى، فذبح الذبائح ومد الموائد وقدمها.

ثم بلغه أن الشريف أبا طالب لم يتعش من ذلك الطعام ولم يحضره لبعض أشغاله، فعمد السودانى المذكور إلى أربع أو خمس من الدجاج فذبحهن وطبخهن

وقدمهن على كيلتين من العيش فى زبدية كبيرة صينى، وجاء يحملها إلى الشريف أبى طالب، وقال: يا سيدى هذا عشاء عبدك اجبر خاطره جبر الله خاطرك.

فغسل الشريف يده وأكل من تلك الزبدية لقيمات ودعا له ثم دخل مكة.

فلما استقل بالولاية على مكة وفد عليه السودانى بعد سنة وقبل يده.

فقال له الشريف أبو طالب: الزبدية التى تعشينا فيها عندك تعيش؟ فقال له: نعم يا سيدى موجودة.

فقال: اذهب فائتنى بها. فذهب إلى وادى مر وأتى بها.

فأمر له فملئت له ذهبًا أحمر كيل الزبيب، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وقد أخبرنى الثقة أنه حدثه من شاهد مجامر العنبر موقدة تسير مع نعشه من البيت إلى فراغ الدفن نحو ثلاثة عشر مجمرًا تعج فى الطرق والأسواق عجيج اللبان.

ومما قيل فى مدحه قول العلامة المفيد، البارع المجيد، مولانا وجيه الدين عبد الرحمن ابن عيسى بن مرشد الحنفى مادحه وشارحًا غزواته المقرونة بالنصر والظفر، ومتخلصًا إلى مدح والده الشريف الحسن بن أبى نمى فقال: [من الكامل]

نَقْعُ العجاجِ لدى هياجِ العثْيرِ ... أذْكَى لدينا من دُخَانِ العنبرِ
وصليلُ تجريدِ الحسامِ ووقعُهُ ... فى الهامِ أشدَى نغمةً من جؤذرِ
وسنا الأسنة لامعًا فى قسطلٍ ... أسنَى وأسمى من محيًا مسفرِ
وتسربل فى سابغاتٍ مسردٍ ... أزهَى علينا من سدوسٍ أخضرِ
وكذاكَ صهوةُ سَابِحٍ ومطهّمٍ ... أشهَى إلينا مِنْ أريكةِ أحوَرِ
ولقا الكميِّ مدرعًا فى مغفرٍ ... كلقا الغريرِ بمقْنعٍ وبمخمرِ
ألفَتْ أسنتنا الورود بمنهلٍ ... علقَتْ به علقَ النجيعِ الأحمرِ
وسيوفنا هجرَتْ جوار غُمُودها ... شوقًا لهامة كُلِّ أصيَدَ أصعَرِ
فتخالُهَا لمَّا تجرَّد عند ما ... هاجَ القتامُ بوارقًا بكنهورِ
وصَهِيل جُرْد الخيلِ خيل كأنه ... رَعْدٌ يزمجرُ فى الجدا المثعنجرِ
ودَمُ العدى متقاطرًا متدفقًا ... كالوبلِ كالسيلِ الجرافِ الحورِ
ورءوسُهُمْ تجرى به كجنادِلٍ ... قذفَتْ بها موج السيولِ المقمرِ
غشيَتْهُمْ فى العامِ منا فرقَةٌ ... تركَتْ فريقهم كسَبْسب أقفرِ

أودَتْهُمُ قتلاً وأطبقَهُمْ إلى
تركَتْ صحاريهم موائد ضمنَتْ
ودعَتْ ضيوف الوَحْش تقريها بما
فأجابَهُ مِنْ كُلِّ غيل زمرةٌ
وأظلها ظلل نشاط سحابه الـ
فبراثنُ الآسادِ تضبثُ فى الكلا
شكَرَتْ صنيعَ المشرفيةِ والقنا
فغدَتْ قبورهم بطونَ الوحشِ من
وخلَتْ ديارهم وأقوَى ربعُهُمْ
أنفَتْ من استقصاءِ قتلِ شريدِهِمْ
فثنَتْ أعنة خيلنا أجيادنا
حتى إذا حان القطافُ ليانع
عصفَتْ بهم ريحُ المنونِ فألقحَتْ
فدعَتْ سراة كماتنا لقطافها
فتجهزَتْ لحصادها فى فيلقٍ
ملأ تتوقُ إلى الكفاحِ نفوسُهُمْ
يغشون أبطال الوطيسِ بواسمًا
وتخالهم فَوْقَ الجيادِ لوابسًا
فإذا هُمُ ازدحموا بجزعٍ وانثنوا
جيشٌ طلائعه الأوابدُ إن تصخْ
بقتادة الملكِ المشيحِ كأنه
ملكٌ تدرَّعَ بالبسالةِ فاغتنَى
ملكٌ تتوَّجَ بالمهابةِ فاكتفي
ملكٌ إذا ما جالَ يَوْمَ كريهةٍ
ملكٌ يجهّزُ من جحافلِ رأيِهِ
ملكٌ تسنم ذروةَ المجدِ التي

أن حطَّمَ الخطىُّ ظهرَ المدبرِ
أشلاء كُلِّ مسوّد وغضنفرِ
أقرى المهنّد والوشيج السمهرِى
تحدو منارَ عملَّسٍ أو قسورِ
مركُوم أجنحة البزاةِ الأنسرِ
ومخالبُ العقبانِ تنشبُ فى المَرِى
إذْ لم تضفها الهبرُ غير مهبّرِ
ها يبعثُونَ إذا دعوا للمحشَرِ
وسرى السرىُّ مشمرًا عن شمرِ
كيما يخبر قائلاً عن مخبرِ
عَنْ قتلِ كُلِّ مزند وحَزَوَّرِ
من أرؤسٍ تركَتْ ولمَّا تؤترِ
وتحركَتْ بزعازعٍ من صرصرِ
بأناملِ القضْبِ الأصمِّ الأسمرِ
لو يسبحُونَ بزاخرٍ لم يزخرِ
توقانها للقا الرداحِ المعصرِ
كالليْثِ إنْ يلق الفريسة يكشرِ
سدًا تموجُ بالحديدِ الأخضرِ
أورَى زنادُ دروعهم نارًا ترِى
لوجيبِهِ من قيدِ شهرٍ تنفرِ
بينَ العوالِى ضيغَمٌ فى مزأرِ
يوم الوغَى عَنْ سابغٍ وَسَنوَّرِ
عند الطعانِ لفرقه عن مغفرِ
لم تلق غَيْرَ مجدَّلٍ ومعفَّرِ
قبل الوقيعةِ جحفلاً لم ينظرِ
مِنْ دونها المريخُ بل والمشترِى

ملكٌ تذكرنا مواقعُ عضبهِ في الهامِ وقعةَ جدِّهِ في خيبرِ
ملكٌ إذا ما جادَ حدث مسندًا عن جودِهِ جودُ الغمامِ الممطرِ
ملكٌ سما عن أن أُصَرِّحَ باسمه لسموِّهِ عن كُلِّ وصفٍ مشعرِ
ملكٌ قفا سَنَنًا سنيًّا سنه للمجْدِ والده الزكيّ العنصرِ
ألأَشرفُ الشهْمُ الذى خضَعَتْ له شُمُّ الأنوفِ وكلُّ جحجاحٍ سَرِى
ألأَفضلُ السنَدُ الذى بجنابه لاذَ الغطارفَةُ الألَى من حميرِ
ألأكملُ الندْبُ الذى أوصافُهُ أنسَتْ سما الوضاحِ وابْنِ المنذرِ
ألأكرمُ المفضالُ مِنْ إحسانه أربَى على كسرى الملوكِ وقيصرِ
ذو الهمَّةِ العليا الذى قد نَالَ ما عنه تقصُرُ همةُ الإسكندرِ
شرفًا تقاعَسَتِ الثوابتُ دونه لو لم تُمدَّ بنوره لم تُزهرِ
هَبْهَا بمنطقةِ البروجِ مقرُّها أمناهِز هذا بُنُوَّةَ حيدرِ
كلا فكيْفَ بمن حواها جامعًا نسبًا سما بأبوَّةِ المدثرِ
أعظِمْ بها من نسبةٍ نبويةٍ علويَّةٍ تنمى لأصلٍ أطهرِ
قد شرفَتْ بدءًا بأشرفِ مرسلٍ ونهاية بالسيِّدِ الحسنِ السَّرى
فَخر الخلائفِ دُرَّة التاجِ الذى بسواه هَامُ ذَوِى العُلاَ لم يفخرِ
بَشَرٌ ولكنْ فى صفاتِ ملائكٍ جُليَتْ لنا أخلاقُهُ فاستَبْصِرِ
لم تلقه يومَىْ عطا ووغىً سوَى طَلْقِ المحيًا فى حلا المستبشرِ
يلقى العفاةَ وقَدْ تلألأ وجهُهُ بسنا السرورِ وذاكَ أنضَرُ منظرِ
يعفُو عن الذنبِ العظيمِ مجازيًا جانيه بالحسنَى كأنْ لم يوزرِ
يا سيِّدَ الساداتِ دونَكَ مِدْحَةً نفحَتْ بعرفٍ مِنْ نداكَ معطَّرِ
قد فصِّلَتْ بلآلئِ المدحِ التي وقَفَ ابنُ أوسٍ دونها والبحتُرِى
وَافَتْكَ ترفُلُ فى برودِ بلاغةٍ وبراعةٍ لبرودِ صَنْعَا تزدري
صاغَتْ حلاها فكرةٌ قد زانها شَمَمُ الإباءِ من امتداحِ مقصِّرِ
ما شانها نَظْمُ القريض تكسُّبًا لولا مقامُكَ ذو العلا لم تشعرِ
ما شانها إلا اكتسابُ فضائلٍ تغنيه عن شَرَفِ العظامِ النُّخَرِ
فوردتُ منهَلَها الروِىَّ فلم أجدْ أحدًا فنلْتُ صفاه غَيْرَ مكدرِ

فَنَهَلْتُ منه وعلَّنى بنميرِهِ ولبثْتُ وارده ولمَّا أَصْدُرِ
وطَفِقْتُ فيه غائصًا للآلئ فى غَيْرِ نظمِ مديحِكُمْ لم تنثرِ
لا تدعُنِى العليا رضيعَ لبانِهَا إن كنتُ فى تلك المقالَةِ مفترِي
خُذْهَا عقيلَةَ كسْرِ خدرِ فصاحةٍ سفرتْ نقابًا عن محيا مسفرِ
جمعت فصاحةَ منطقِ الأعرابِ مَعْ حُسْنِ البيانِ ورقَّة المستحضرِ
لو شامَهَا قُسٌّ لما سُمِعَتْ له بعكاظَ يومًا خطبةٌ فى منبرِ
شرفَتْ على ما عارضَتْهُ بمدْحِ مَنْ أضحى القريضُ به كعقْدٍ جوهرِى
فاستَجْلِهَا وافَتْ تهنِّى بالذى نفحَتْ بشائره بمسْكٍ أذفرِ
نصرٌ تهزُّ بنوده ريحَ الصبا خفقَتْ على هامِ الأشمِّ الحزمرى
هو نجلُكَ المنصورُ دامَ مؤيدًا بك أينما يَلْقَ العزيمةَ يظفرِ
لازلْتُما فى ظِلِّ مجدٍ باذخٍ وجنودِ مُلْكِكُمُ ملوكُ الأعصرِ
مستمسكينَ بِهَدْيِ جدِّكم الذيَ بالرغبِ ينصرُ مِنْ مسافة أشهرِ
أهدى الإلهُ صلاتَهُ وسلامَهُ لجنابِهِ فى طَيِّ نشرِ العبهرِ
ولآلِهِ وصحابِهِ والتابعيـ ـنَ لهم بإحسانٍ ليومِ المحشرِ
ما استنشَقَ الأبطالُ فى يوْمِ الوغى نَقْعَ العجاجِ لدى هياجِ العِثْيَرِ

وقال الإمام عبد القادر بن محمد الطبرى مادحًا أباه ومتخلصًا إلى مدحه: [من الكامل]

قد أقبلتْ ريحُ القبول بعثيرِ نفح القبائل نفحة مِنْ عنبرِ
فتأرجَتْ أرجاءُ مكَّةَ إذ رُوِي خَبَر الوقائع فى المجامع عَنْ بَري
إذ ضمخَتْ أيدى الكماةِ بنَقْعِهِ وبمسها العود الرطيب السَّمْهرى
فتمايَلَتْ عذباتُهُمْ بشماله لا بالشمولِ ولا العبيرِ الأذفرِ
هزَّتهم نحو الصبا ريحُ الصَّبَا والغَيْر هزّ بكلِّ نكبا صرصرِ
هم فتيةٌ لا يطربُونَ حياتَهُمْ إلا بحربٍ أو برحبٍ مقفرِ
جوبُ المهامِهِ صَارَ منقبةً لهم أبدًا وهذا شانُ كلِّ غضنفرِ
مِنْ كُلِّ أصيدَ لا يرى متلفتًا لثباته بين العديدِ الأكثرِ
شهم عَلَنْدَى بالوشيجِ موشح لا بالوثيجِ إذا دعى فى المحضرِ

هو فى المفرِّ كَمُشْمَخِرٍّ راسخٍ ولدى المكرِّ تراه كالمُسْحَنْفِرِ
لله قومٌ ما جَنَوْا برماحهم إلا رءوسًا أينعَتْ من مثمرِ
كلا ولا نهلَتْ عطاشُ سيوفهم إلا مِنَ العَلَقِ النجيع الأحمرِ
قومٌ سواهم بالسريرِ مجرَّدٌ وهُمُ سراةٌ فوق جردٍ ضُمَّرِ
ألفوا الدروعَ مدى الزمانِ غلائلاً أغنتْهُمُ عن لبسِ كلِّ معصفرِ
لا يهتدونَ بجحفَلٍ من قسطلٍ إلا بقدْحِ جيادِهِمْ فى المحجرِ
فهمُ كبَحْرٍ من حديدٍ مائرٍ عند المسيرِ وتحتَهُمْ نارٌ ترى
حتَّى إذا دخلَ النزالُ وهاجتِ الـ أبطالُ فى الهيجا هياجَ مزمجرِ
وبدَتْ زماخرُ كلِّ صنديدٍ إذا مدَّ السواعد كان قدمًا زمخرى
يدعو النزالَ إلى نزالِ مسعرٍ لهب الوغَى منه بأعسَر مسعرِ
لاقاه غطريفٌ عليه سيطرٌ لا يرتجى إلا لقَاءَ عَشَنْزَرِى
يلقى الكريهةَ فاغرًا متبسمًا يخطو بمشيَةٍ أرعَنٍ متبخترِ
ويجرُّ عُجْبًا ذيلَ فاضتِهِ التي شملَتْهُ بين مزرّدٍ ومزرّرِ
يلقى المنونَ لِقا المُنَى بمهنَّدٍ لا ينتضى إلا بكَفٍّ مقذحرِ
دبَّتْ على متنيْهِ فى حالِ المضا نملُ المنايا دبهَا فى المحشرِ
عافَ الجفير فلا مقرَّ له سوَى هامِ الشجاعِ المقدم المتهورِ
ظلم النفوسِ لظلمها ممزوجة بدَمِ النياطِ بغربِ ذا العضْبِ الفري
ففرندُهُ ما زال وهْوَ مدبجٌ من أبيضٍ فى أسودٍ فى أحمرِ
لصليلِهِ فى الهامِ فعلُ الصلِّ فى الـ ملسوبِ مسلوب الفؤادِ المسهرِ
قسمًا به إن السيوفَ حديدَةٌ لولا يدُ الحسنِ المليكِ القسوري
ألسيدُ الجَحْجَاحُ أَفْضَلُ مَنْ به وبرأيه ظهَرَتْ نجابةُ حيْدَرِ
ألباسلُ الصنديدُ من فرجَتْ له فى مأزقٍ خطيَّة لم تقصرِ
قد أنهلتهَا كفُّه نَحْر العِدَا فانهَلَّ غَيث نجيعه المثْعَنْجِرِ
سُمْرٌ عَوَالٍ للرُّدَيْنِ نماؤها تروى به علل الورُود المصدرِ
قسمًا بها إن العواليَ خوطَةٌ لولا يمينُ ابن النبيِّ الأفخرِ
ألباسلُ الشهْمُ الأشمُّ المرتقِي ما قصَّرَتْ عنه عزائمُ قيصرِ

وتكسَّرَتْ آراءُ كِسرَى دونه ... فى وتْرِ سيفِ إذ حماه بعسكَرِ
فَعُلاَ ابن طه لَيْسَ يبرحُ واضحًا ... وبه يُرَى الوضاح شِبْهَ مقصِّرِ
جَلَّ الأشمُّ ابنُ العرانينِ الألَى ... عَنْ أن يقاسَ بمثله ابنُ المنذرِ
ثَبْتٌ إذا نُوَبُ الزمان تقاذفَتْ ... لا بالغبىِّ بها ولا المستَنْكرِ
ما ظَنَّ أمرًا سابقًا أو لاحقًا ... إلا رمَى عن قوسِ غَيْبٍ موترِ
أو لو يعادى الصَّخر لانفلق الصفا ... خَوْفًا فمنْ ذا بَعْدَ هذا يجترى
صُغرَى عزائمِهِ إذا جابَ الفَلاَ ... تنحطُّ عنها همةُ الإسكندرِ
لم يُلْفِ فى حالَيْ رضاهُ وبطشِهِ ... أبدًا سوَى متبسِّمٍ ومكشِّرِ
كملَتْ بسالتُهُ فأنجَبَ سيدًا ... قرَّتْ به عينُ الشريفِ حَزَوَّرِ
ليثٌ مخالبُهُ الأسنةُ والظبا ... يغتالُ قلبَ الفارسِ المثعنجرِ
ليثٌ صهيلُ الخيلِ أشهَى عنده ... من صوتِ مزمارٍ ورنَّةِ مِزْهَرِ
ليثٌ يرى الصهواتِ أنعَمَ من علا ... ظَهْرِ الأريكةِ أو تسنم منبرِ
ليثٌ أشار عليه والدُهُ ضحًى ... لغزاةِ قومٍ شَمَّروا من شمّرِ
فاقتادَ ظُهرًا جيشَهُ متوجِّهًا ... لا بالونىِّ المبطىءِ المستَخْبِرِ
وأبو علىٍّ بينهم متأودًا ... عند الكفاحِ تأوُّد المستبشرِ
أَلنصْرُ فى أعلامِهِ والسعْدُ في ... إقدامِهِ والرعبُ مدَّة أشهرِ
وبوجهِهِ نورُ النبوةِ ساطعٌ ... يغنيه عن ظَهْرِ الطرازِ الأخضرِ
يلقى العدُوَّ مشهّرًا بعلامةٍ ... والغيرُ إنْ لاقَى فغير مشهّرِ
يأيها المولَى الإمامُ المرتضَى ... أنتَ الخليفةُ وارثُ المدَّثِّرِ
قد قمتَ فينا منذرًا ولربِّكَ ال ... أعلَى نراكَ سموتَ كلَّ مكبرِ
وثيابُكَ الحسنى غدوْتَ مطهرًا ... وهجرْتَ رُجْزًا لا أقولُ لك اهْجُرِ
ومنحتَنَا مننًا تطوِّقُ جيدنَا ... عقيانُهَا لا منَّة المستكثرِ
يا بن الخلائفِ من قريشٍ هذه ... غُرَرُ الخلائقِ من أبيكَ الأطهرِ
أوتيتَهَا فبذلْتَ واجبَ حقِّها ... وحميتَها من أصعَرٍ أو أصعَرِ
والله قد أعطَاكَ ما لَمْ يعطِهِ ... مَنْ قد مضَى فاحمَدْ إلهَكَ واشكُرِ

ثم وليها الشريف إدريس بن الحسن، وذلك أنه كان المعتاد فى قواعد بنى حسن

أن يكون من يتفقون عليه، ويختارونه هو صاحب الأمر، فاجتمع حينئذ الأشراف جميعهم، وأعملوا رأيهم السديد وحمد غب ذلك صنيعهم فاختاروا مولانا الشريف إدريس بن الحسن فولوه، وأكبروه ورتبوه فى الولاية وصدروه، وأشركوا معه فى الدعاء على المنابر ابن أخيه مولانا الشريف محسن بن الحسين بن الحسن، وأشركوا معه أخاه السيد فهيد بن الحسن فى ربع ما يتحصل من الأقطار الحجازية، وكتبوا بذلك محضرا إلى الروم ثم وصل الجواب كذلك فاستمروا.

فلما كان يوم سابع ذى الحجة الحرام من سنة اثنتى عشرة وألف كانت عرضة المصرى وأميره الأمير حسين الشهير بدَلِى حسين، ووصل معه بثلاث خلع، لبس مولانا الشريف إدريس الخلعة الأولى الكبرى، وهى بفرو سمّور تحتها خلعة منفصلة كالبطانة، وهاتان الخلعتان عن خلعة واحدة، ولبس الشريف محسن خلعة بلا فرو، ولبس السيد فهيد خلعة كذلك بغير فرو، ووقف الشريف إدريس فى المختلع إلى أن توجه الأمير حسين، ثم جاء أمير الشامى وهو الأمير طهماس، فنزع الشريف إدريس خلعة الفرو، ولبس خلعة الشامى وهى بفرو أيضًا، ولبس الشريف محسن، ولبس السيد فهيد خلعتيهما وكلاهما بغير فرو، وكانت عرضة رائقة لم يحصل فيها مخالفة، وأخلف الله الظنون المخالفة.

وفى سلخ جمادى الأولى من سنة ثلاث عشرة وألف وصل من مصر هجان، وملخص أوراقه أن الشيخ محمد زين العابدين بن محمد البكرى مات فجأة فى القلعة فى مجلس صاحب مصر الوزير إبراهيم باشا، وذلك بعد أن تعشى عنده ودخل معه إلى الخلوة، وشرع فى قراءة فاتحة الكتاب فسقط على وجهه، فحركوه فوجدوه ميتًا رضى الله عنه، وكانت وفاته فى ثامن عشر ربيع الأول من السنة المذكورة.

وفى آخر ربيع الثانى منها: اجتمعت عساكر مصر، وقتلت صاحب مصر إبراهيم باشا، وقتلت معه محمد بن خسرو، ولم تقتل سواهما، مع أنه كان حاضرًا عنده جملة من الأمراء وقاضى مصر وغيره من الأكابر.

وفى يوم الأربعاء سابع عشر رجب من السنة المذكورة أيضًا: دخل مصر باشا جديد لها اسمه محمد باشا، وهو خادم قرجى الجنس، واستمر إلى ثانى ربيع الأول من سنة أربع عشرة بعد الألف، فعزل بالوزير حسن باشا الواصل من اليمن.

وفى شهر الحجة من السنة المذكورة: وقعت فتنة بمكة بين الأتراك النازلين بالمعلاة وبين عبيد الشريف، فركب حاكم مكة يومئذ القائد راشد بن فايز، فلما أن كان برأس المدعى أصابه سهم لا يعلم من أين جاء فوقع فى نحره فكان فيه نحره، وكان من بعض الدور النازل بها بعض الترك فحمل قتيلا.

وفيها توفى الشيخ الملا على القارى بن سلطان بن محمد الهروى الحنفى الجامع للعلوم العقلية والنقلية، والمتضلع من السنة النبوية، أحد جماهير الأعلام، ومشاهير أولى الحفظ والأفهام. ولد بهراة ورحل إلى مكة وتديرها.

أخذ عن خاتمة المحققين العلامة ابن حجر الهيثمى، وشرح المشكاة والشمائل والوترية والجزرية، وله شرح على نخبة الفكر وشرح على الشفا وشرح على الشاطبية، ولخص القاموس وسماه الناموس، وله الأثمار الجنية فى أسماء الحنفية وله غير ذلك، لكنه امتحن بالاعتراض على الأئمة لاسيما الشافعى وأصحابه، واعترض على الإمام مالك فى إرسال يديه، ولهذا تجد مؤلفاته ليس عليها نور العلم، ومن ثم نهى عن مطالعتها كثير من العلماء والأولياء.

وفى سنة ست عشرة بعد الألف: توفى السيد صبغة الله بن روح الله الحسينى قطب مدار الراسخين فى العلم والعمل الفحول، وقلب أهل الإشارات والإلهام والوصول، جبل عرفات العرفان، وحبل مستعصم رجال العطف والحنان.

صحبه الجم الغفير، وانتفع به الجمع الكثير، أوفرهم حظًّا مولانا السيد مرزا، كما أشار هو إلى ذلك فى بعض مصنفاته بيانًا ورمزًا. وكذلك مولانا السيد أسعد البلخى، والشيخ أحمد الشناوى، توفى بطيبة المنورة، ودفن بالبقيع وقبره ظاهر يزار رحمه الله رحمة الأبرار.

وفيها ورد الأمر من مولانا السلطان الأعظم أحمد خان بترميم المقامات الأربعة بالحرم الشريف على يد شيخ الحرم حسن بن مراد الرومى، فرممت على أحسن وجه وأتقنه.

وفى سنة إحدى وعشرين بعد الألف: توفى السيد فهيد بن الحسن بعد أن شارك أخاه الشريف إدريس، وابن أخيه الشريف محسن بالربع فى جميع الأقطار الحجازية الداخلة تحت حكم صاحب مكة المشرفة البهية، فكثرت أتباعه من السادة الأشراف

والحسنان والعسكر بحيث صار موكبه يضاهى موكب الملك، وإذا جلس وقفت الترك يمينًا وشمالاً، واتخذ جبالية للبندق نحو مائتين أو أكثر، ولم يحفظ أتباعه وعبيده عن النهب والسرقة فكثر ضررهم على الناس، وشد قوسه على مولانا الشريف إدريس وإخائه، واستل صارم الصرامة عليه فى شدته ورخائه، والشريف متورع عن فتح باب المصارمة، وصدع ما لا يلتئم بالجبر والملايمة، فلما زاد -كما تقوله العامة- الماء على الدقيق، ولوحظ ما حقه التفخيم بالترقيق.

وأخذ فهيد بجانب أكمل الدين القطبى، وأراد أن يلبسه قفطان الإفتاء قبل أن يحرم ويلبى.

ووقف الشريف إدريس ذلك الموقف، واعتنق السمهرى تعانقًا يثنى، ولواء الخميس العرمرم يرعب ويرجف، وأقسم لا يلبس القفطان إلا وقد ورد السنان نحره.

فقال فهيد: ولو خربت البلاد؟ فقال إدريس: ولو خربت قبل سجره، فعند ذلك تراجعا إلى النهى، وفكرا فى المبدا والمنتهى، وعادا وفى قلب كل منهما وقد.

وأخذ مولانا الشريف إدريس من ذلك فى حل ما مضى مع فهيد من العهد، خصوصًا لما صمم القطبى ورجع الأمير، ولم يجعل التفكر فى عواقب الأمور أصدق سمير، ودخل معه إلى المدرسة المعروفة، ولبس الخلعة الموصوفة، وتجاهه من جماعة الأمير اثنان من الأساكفة أرباب التشهير، وشق الشارع الأعظم حتى انتهى إلى سويقة، وصهيل خيله يسمع من كل شباك وطويقة.

كل ذلك عناد لسيده ومولاه، وكفران لمن خوله هذه النعمة وأولاه.

فأضمر حينئذ الشريف إدريس الحقد على أكمل الدين. كذا فى سلافة العصر والأرج المسكى.

ولما أراد الله انقضاء مدة فهيد وفراغ دولته، تغير عليه فى الباطن أخوه الشريف إدريس، وأرسل لابن أخيه الشريف محسن بن حسين، وكان إذ ذاك باليمن بأن يأتى بجميع من معه من الأشراف والقواد والعرب، فحضر ومعه أمير حلى محمد بن بركات الحرامى، ونودى بمكة بأن البلاد لله، وللسلطان وللشريف إدريس والشريف محسن، وخلع السيد فهيد من الذكر، ومنع من الربع، وجعل ما كان لفهيد من ربع

مغل الأقطار الحجازية لابن أخيه الشريف محسن، ولم يخطب للسيد فهيد، وخطب لمولانا الشريف إدريس أولا ولمولانا الشريف محسن بعده ثانيًا، كل هذا وفهيد فى مكة فى بيته، وجموعه وافرة، وعدته وعدده المتكاثرة، فاستعد أصحابه للقتال، وأشار إليه أعيانهم بالحرب، فامتنع من ذلك، وطلب من الشريف إدريس شهر زمان ليتأهب للخروج من مكة بعد أن طلب أن يمكن من سكنى مكة بغير ربع، فامتنع الشريف إدريس إلا أن يتوجه إلى حيث أراد من الأماكن والبلاد، فخرج من مكة سنة تسع عشرة وألف، فانضم إلى بعض أكابر الحاج المصرى، وسار إلى مصر، وتاريخ قدومه فى شهر صفر «قدومكم خير» سنة عشرين وألف، ثم منها إلى الديار الرومية، واجتمع بسلطان الروم، فيقال: إنه أنعم عليه بإمرة مكة، فعاجلته المنية قبل الأمنية، كذا فى تاريخ ابن جار الله.

وأرخ وفاته الأديب إبراهيم بن يوسف المهتار بأبيات فقال: [من الرمل]

ما وقوفى بطلولٍ ودِمَنْ غيَّرَتْ سُكَّانها أيدى الزمَنْ
لىَ شُغْلٌ عَنْ بكائى رسْمَهَا وسؤالى قَفْرَهَا بعد السكَنْ
بالذى أُسْمِعْتُهُ مِن خبرٍ حَرَمَ العينَ لَذَاذَاتِ الوَسَنْ
نَعْيَ ذى المجدِ الكريمِ المرتجَى حاوي العليا فهيد ذو المِنَنْ
فارج الكربِ وماضِى الغَربِ فى الـ حَرْبِ غيثُ الجدبِ ذو الفعلِ الحَسَنْ
مَنْ أبَتْ همتُه إلا العلا ومراقِى عزِّها خَيْر ظعنْ
واصل الروم فوافاه الردَى فى بلادٍ باعدَتْ عنه الوطَنْ
ليتَ شعْرى أىُّ أيدٍ غيبَتْ فى الثرى شخصَكَ مِن بَعدِ الكفَنْ
هل درَتْ ما غَيَّبته من حِجَى ومعالٍ ونوالٍ فى قَرَنْ
إن تحجبْتَ بأطباقِ الثرَى فأياديكَ بشام وَيَمَنْ
لكَ ذكْرٌ بالثنا لا ينقضِي صار كالفَرْضِ على أهل السنَنْ
رَحِمَ الرحمنُ مثوًى جدثٍ هو فى كلِّ فؤادٍ كالشجَنْ
وسقى الله ترابًا ضمَّهُ صيِّبُ الرضوانِ ما غيثٌ هَتَنْ
قيلَ لى هلْ قلْتَ تاريخًا له بارعًا تُمليه أربابُ الفِطَنْ
قلتُ والخدُّ روٍ مِن أدمعِي والحشا بالكَرْبِ صاد فى حَزَنْ

نصْف بيتٍ قد أتى تاريخه ماتَ بالرُّومِ فهيدُ بْنُ الحَسَنْ

وفى هذه السنة كانت وفاة أكمل الدين القطبى شهيدًا بالأعاضيد، اسم محل به نخل ومزارع بين الطائف والمبعوث والمبعوث إليه أقرب، والشريف إدريس إذ ذاك بالمبعوث.

وفى هذه السنة أيضًا وقعت قتلة بين الجبالية، وبين الحسنان، والقائد جوهر قبانى حاكم مكة، تعصبت الحسنان والقواد للقائد جوهر، فتحاربوا أجمعين على أقدامهم بخط القشاشيين إلى الصفا، وكان الظفر للحسنان والقواد وقتل بعض الجبالية.

وفى أوائل العشرين من ذى الحجة الحرام من سنة عشرين بعد الألف: وصل من الديار الرومية الباشا حسن المعمار بميزاب الكعبة المشرفة، أرسل به السلطان أحمد ابن محمد خان، وأمره أن يجعل لها إزارًا من حديد فوقه مثله من الفضة المطلية بالذهب، فبرز أمر صاحب مكة مولانا الشريف إدريس بن الحسن إلى أكابر مكة وعلمائها بأن يلقوا الباشا حسن من الحجون ويمشوا أمام الميزاب، فامتثلوا الأمر وبرزوا، وكان ذلك فى آخر النهار، فدخل الميزاب إلى مكة من الحجون وأمامه بعض طوائف الأذكار، وهم يذكرون الله تعالى، فبعد إتمام مناسك ذلك العام وقفول الحجاج إلى بلادهم توجه إلى عمارة العين وكان مأمورًا بذلك وصحبته أموال من جانب السلطنة، فاتفق عمل ذلك وأتمه، ثم إنه ركب ميزاب الكعبة بعد قلع ميزابها، وأرسل إلى الحضرة السلطانية، وجعل الإزار المأمور به على الكعبة.

واستمر الإزار عليها إلى أن اتفق سقوط بعض الجدران فى دولة الشريف مسعود ابن إدريس عام تسع وثلاثين بعد الألف، كما سيأتى تفصيله.

وقد تقدم ذكر بعض ذلك فى ترجمة السلطان أحمد بن محمد خان فى الباب المعقود لدولة العثامنة، أدامهم الله وأدام بهم الدنيا آمنة.

وفى سنة إحدى وعشرين بعد الألف: وصل الوزير حاجى محمد باشا منفصلا عن وزارة اليمن، وكان دخوله إلى مكة غرة شعبان من السنة المذكورة، وصام رمضان، وتصدق وفعل أفعالا عديدة من الخيرات، وكان وصل معه فى مركبه الواصل بحرًا فيل صغير أراد أن يهديه إلى الحضرة السلطانية العثمانية، ثم إن هذا

الفيل استمر بجدة أيامًا فجاء الخبر بموت السلطان عثمان بن أحمد خان، ثم انتقل حاجي محمد المذكور ليلة سابع عشرى شوال من السنة المذكورة، ودفن ضحى صبيحة تلك الليلة بالمعلاة، وبنيت عليه قبة عظيمة باقية إلى اليوم.

ووقع سنة وصول الفيل غلاء شديد بمكة؛ قال فيها العلامة مولانا عبد القادر بن محمد الطبرى تاريخًا وهو على غير الأبحر المتداولة ونصه:

حَـرَّمَ الله حِـلَّ سـاحـتِـهِ   قَدم الفيل ضَلَّ عن رُشْدِهْ

كثر الـهَـمّ يا فَتَى أَرِّخْ   سَنَةُ الفيلِ همها يشدهْ

وفى عام ثلاث وعشرين بعد الألف فى شهر محرم الحرام منها: وقع مطر عظيم، وفيه برد كبار كل بردة منه قدر شربة الماء بل أكبر.

وفى سنة أربع وعشرين توفى الأديب برهان الدين بن محمد بن مشعل العبدلى السالمى المكى.

كان شاعرًا ماهرًا له قصائد طويلة يمتدح بها الشريف الحسن بن أبى نمى وغيره، فمن شعره فى مليح يهواه وهو يهوى الراح قوله: [من مجزوء الكامل]

شَمْس الطلا بَذْرِى غدا   لم يَصْحُ مِنْ تعليلها

فالراحُ قتلةُ قاتلي   وأنا قتيلُ قِتيلِهَا

توفى بالطائف مجاوزًا السبعين.

وفيها توفى الشيخ نور الدين الزيادى شافعى زمانه، القطب العارف بالله فى أوانه.

قال فى الريحانة: حضرت دروسه زمانًا طويلاً وهو كما قلت فيه: [من الوافر]

لنورِ الدين فَضْلٌ لَيْسَ يَخْفَى   تضيءُ به الليالِي المدلهمَّهْ

يريدُ الحاسدونَ ليطفئُوهُ   ويأبى الله إلا أن يُتِمَّهْ

وله حاشية على شرح المنهج، وأخذ عنه كثيرون.

وفى سنة خمس وعشرين وألف لليلتين بقيتا من شعبان منها: ورد الأمر السلطانى من حضرة السلطان أحمد على يد الباشا حسن أفندى بعمل شباك نحاس فى بئر زمزم ليمنع كل ما يسقط فيها من آدمى وغيره، فجعل على قدر تدوير فم البئر وجعل له ست سلاسل وربطت بالحديد الدائر على فمها، وصار الماء فوق الشباك نحو ثلثى قامة.

وفيها توفى الشريف حازم بن راجح بن أبى نمى الحسنى: كان من أكابر السادة وأعيانهم، يرجعون فى المهمات إلى رأيه السعيد، وتدبيره الحميد.

بلغ من الحزم منتهاه، وطابق اسمه مسماه.

وقد كان رحل مع والده راجح بن أبى نمى إلى مصر حين عزم إليها منافرًا لأخيه الشريف، ثم بعد انتقال والده راجح المذكور بمصر رجع إلى مكة فأكرمه عمه الشريف حسن، واعتذر حازم عن عزمه مع والده بأنه لا يمكنه خلاف والده، فقبل عمه الشريف حسن عذره. قاله فى «الجواهر والدرر» .

وفيها توفى السيد سالم بن محمد السنهورى المالكى المصرى، أدرك ناصرًا اللقانى، وأخذ الحديث عن النجم الغيطى وغيره، وتفنن فى العلوم، ومهر فى الفقه حتى صار معتمد المالكية فى عصره، له تعليق على مختصر خليل.

وقد كان للشريف إدريس من العبيد المولدين، ومن الرقيق الجلب ما يزيد على الأربعمائة، ومن المقاديم من العرب جماعة، وكانوا فى أَشَر وبَطَر، وتِيهٍ وعَسَر وتجمل ظاهر، يتخيل الواحد منهم نفسه الملك القاهر.

وكان من خدامه وزير مكة القائد أحمد بن يونس وإن كان ولاؤه لذوى بركات، فلما كان النصف الأخير من شهر رمضان سنة ست وعشرين وقعت فتنة سببها أن القائد أحمد بن يونس، وهو الوزير على مكة من قبل مولانا الشريف إدريس وكان وزير مولانا الشريف محسن القائد ياقوت بن سليمان، وكان مولانا السيد محمد بن عبد المطلب نائبًا فى مكة عن عمه الشريف إدريس لغيبته فى الشرق كان قد استفحل أمره، وعظم حتى صارت الأمور كلها منوطة برأيه وتدبيره، موكولة إلى تقديمه وتأخيره.

فتوافق مولانا الشريف إدريس، ومولانا الشريف محسن، فأرسل مولانا الشريف إدريس إلى السيد محمد يأمره بأخذ المهر، وهو مهر العروض من القائد أحمد، وكذلك أرسل مولانا الشريف محسن إلى القائد ياقوت بن سليمان بأخذ مهره منه، ففعل كل ما أمر به.

وكان الأخذ المذكور فى صبيحة عاشر رمضان من السنة المذكورة، فحينئذ شاع فى البلد عزل أحمد بن يونس، وأرسل مولانا الشريف إدريس إلى القائد ريحان بن

سالم حاكم مكة يأمره بالوصول إليه إلى الشرق، فقدم إليه، فقلده منصب الوزارة، فوصل إلى مكة فى الشهر المذكور، ووصل الخبر إلى السيد محمد بن عبد المطلب بأن القائد أحمد بن يونس يريد الركوب عليك، وقد اجتمع عنده العدد والعدد، ووصل الخبر إلى القائد أحمد بذلك أيضًا، فركب كل منهما بعد أن ألبس، ووقف عند باب داره، ثم انجلى الأمر، وظهر أن ما أخبر به كل منهما ليس له أصل، فأرسل مولانا السيد محمد بن عبد المطلب إلى مولانا الشريف إدريس، ومولانا الشريف محسن بذلك، فلما كان العشر الأخير عزم القائد أحمد إلى مولانا الشريف بالمبعوث، وكان قد وصل إليه الشريف من محله الأول، فأقام القائد أحمد هناك، فجاء الأمر إلى مولانا السيد محمد بأخذ أموال القائد من داره، وكل ما حوله، وأن يحفظ على ذلك، فلما أن كانت ليلة العيد حصلت حركة من آخر الليل عند بيت السيد محمد، وتفريق سلاح وأدراع، فنزل إلى المسجد، وصلى صلاة العيد فقط، وبرز من المسجد قبل الخطبة، وعزم بالجيش إلى البستان -بستان ابن يونس- فختم على أمواله كلها، وأمر أن ينزل البعض منها إلى البلد، واستمر هو إلى بعد صلاة الظهر، ونزل، والجيش معه بعد أن ختم على بقية الأموال، وقبض على جماعة من المنسوبين إلى أحمد، وحبسهم بعد أن ختم على بيوتهم، ثم فكوا بعد وصول مولانا الشريف إدريس، إلا إبراهيم بن أمين كاتب أحمد، وأعظم المقربين إليه؛ فإنه لم يزل مسجونًا إلى أن قضى الله عليه فى السجن.

وأما أحمد فإنه استمر بالمبعوث، فثارت بسببه فى ثانى شوال من السنة المذكورة بين ذوى حسن، وذوى بركات فتنة أدت إلى الإدراع والإلباس، ثم رحل إلى كلاخ فأقام بها، ثم رحل منها إلى جهة الشام.

فلما أن كان فى أثناء الطريق رجع فوصل إلى مولانا الشريف إدريس، وهو بالشرق فى السنة المذكورة، فسجنه وكبله بالحديد، ثم قتله فى السنة المذكورة أيضًا فى محل يقال له: وادى النار، ودفن هناك، فسبحان الفعال لما يشاء.

وقد كان هذا الوزير فى قوة من المال والرجال قد اشتغل بالحال، ولم يفكر فى المآل وسار صيته فى الآفاق، وأكثر الدخل وأقل الإنفاق وكان ذا تدبير لأحواله حتى جاوز الحدود، فوقع به ما قضاه الملك المعبود اللهم عافية غير عافية، ورأفة منك

وافية كافية كذا فى «الأرج المسكى» .

وفى سنة سبع وعشرين فى ذى الحجة منها: قلع الشباك النحاس الذى عمل لبئر زمزم الأفندى السيد محمد بن مصطفى الفنارى لما قيل له: إن ماء زمزم تغير طعمه بسبب ذلك الشباك وأن الدلو إذا وقع ربما أمسكه أن يصعد.

وفى سنة تسع - بتقديم التاء - وعشرين وألف فى سادس عشر جمادى الأولى منها: توفى السيد منصور بن أبى نمى بمكة، وخطب له على زمزم بعد موته، وهو آخر أولاد الشريف أبى نمى موتًا وسنه نحو سبعين سنة، ورأى أولاد أولاد أولاد أولاد أبى نمى، ودفن بالمعلاة وكانت جنازته حافلة.

وفيها: غزا الشريف محسن بن الحسين بجيلة ونواحيها.

وفى يوم الأحد ثامن عشرى الشهر المذكور من السنة المذكورة: وقع فى المسجد الحرام طراد عجيب بسبب أن جبليًا أراد الطواف، فأودع سيفه عند رجل هندى، فمر به رجل تركى فابتدر الهندى السيف، وقتل التركى، فثار الناس على الهندى، فطردهم إلى باب الصفا، فتكاثر الناس على الهندى، ورموه بالحجارة فطردهم، ثم أحاطوا به، وضربه رجل عند زمزم بإبريق فزلق بالبلاط، وطاح فضرب بجنبية، ومات التركى والهندى.

وفى ليلة الأحد الرابعة والعشرين من جمادى الآخرة منها توفى السيد منجد بن راجح ابن أبى نمى بالمبعوث، وحمل إلى مكة، ودفن بالمعلاة، وكان من أعيان أشراف مكة، يوصف بالكرم.

وفى رجب منها: توفى السيد قتادة بن ثقبة بن أبى نمى ودفن بالمعلاة.

وفيها - أو التى بعدها - توفى العلامة عبد الرءوف المناوى شارح الجامع الصغير شرحين، وله ترتيب الشهاب وشرحه، وشرح أدب القضاء، وطبقات الصوفية، والأرغام، وغير ذلك. رحمه الله - تعالى -.

وفى سنة اثنتين وثلاثين وألف: توغل مولانا الشريف إدريس، وابن أخيه مولانا الشريف محسن فى الشرق، ووصلا بالفريق إلى قرب الأحساء، واجتمعا بذوى عبد المطلب، وكانوا فى العام الماضى نافروا عمَّهم الشريف إدريس فقام الشريف محسن فى موافقتهم لعمهم فتم ذلك، وطابت نفوسهم، ووصل الشريفان بفريقهما

إلى الأحساء، وضربت خيامهم قبالة الباب القبلى من سور الأحساء، وأكرمهم صاحبها على باشا الكرامة التامة، وأقاموا نحو ثمانية أيام، ولم يتفق لأحد من أشراف مكة المتولين من القتاديين وصول الأحساء كما اتفق لهذين الشريفين.

وفيها فى ثالث ربيع الثانى: دخل الشاه بغداد، وأخذها من يد المتغلب عليها من باشوات السلاطين بنى عثمان، وسبب ذلك أن رجلا من عسكرها يسمى بكر تغلب عليها، وانبسطت يده على مملكتها حتى صار إذا جاء الباشا السلطانى العثمانى متوليًا عليها لا ينفذ من حكمه إلا ما نفذه بكر المذكور، وغلب على بكر أيضًا ولده محمد، ولكل فرعون موسى، فوصل إليها وزير اسمه أحمد حافظ بجيش كبير، فلما رأى بكر ذلك أغلق أبواب بغداد، وأرسل إلى الشاه ليمكنه من البلاد، وتبقى له رقبته وماله، فأتى الشاه بعسكره، فلما رأى أحمد حافظ قوة الشاه أرسل الخلعة والتأمين لبكر ثم انصرف راجعًا، ولم يزل الشاه فى ذلك المكان، وأعطى محمد بن بكر العهود بأن يجعله نائب البلاد، ويؤمِّنه - كما طلب -على رقبته وماله، ففتح الباب باب السر، فدخل عسكر الشاه، وأظهروا أنواع الطغيان، وقتلوا بكرًا وجميع أهله شر قتلة، وقتلوا أهل السنة جميعهم، ثم خرج الشاه منها، وأقام فيها خانًا من خاناته، فأرسل سلطان الروم العثمانى وزراء معهم الجيوش الجرارة لأخذها فلم يحصل من أحد فتحُها، حتى قدَّر الله تعالى فتحها على يد السلطان مراد بن أحمد خان، كما سيأتى ذكره فى سنة ثمان وأربعين وألف.

وفيها توفى السيد دخيل الله بن ثقبة بن أبى نمى فى بيشة، ودفن بها، وكان من أجلاء الأشراف ورءوسهم وذوى الرأى منهم.

وفيها يوم الإثنين سابع رمضان منها: مات السيد أبو نمى بن عبد الكريم بن حسن ابن أبى نمى بالمبعوث وحمل إلى مكة.

وفيها ليلة الثلاثاء ثامن رمضان المذكور دخل حيدر باشا متوليًا اليمن، فنصب دكة فى المسجد الحرام، فصلى عليها فأنكر عليه الملا محمد مكى فروخ، ورماه بالحجارة فتبعه العامة فأمر بلزمه فلزم، وقال: لا بد من ضربه خمسمائة ثم طلبه، ولم يضربه وجمع فيها الأئمة الأربعة ونائب المحكمة، وأثبت أنه ما فعل ذلك إلا لعذر، وكتب ذلك فى السجل.

وفيها يوم عيد الفطر: كانت وفاة الإمام عبد القادر بن محمد الطبرى، وهو الإمام الذى تصدر فى محراب العلم والإمامة، وتسنم صهوة جموح الفضل، وملك زمامه، من رفع للعلوم أرفع رايه، وجمع بين الرواية والدراية. فأصبح وهو كاسر الوساده، بين الأئمة والساده، يشنف المسامع بفرائد كلامه، ويبهج النواظر بما تدبِّجُه أنامل أقلامه.

إذا انفهقت بشقاشق قَالِهِ لَهَاتُهُ، ثبت حق إفصاح الكلام، وبطلت ترهاته، إلى نسب فى صميم الشرف عريق، وحسب غصن مجده بالمعالى وريق، وبيت لم ليس فيه إلا إمام وخطيب وأديب، فَنَنُ فضلِهِ فى رياض الأدب رطْبٌ، والطبريون سادة من غير الفضل بريئون.

وهذا الإمام واسطة عِقْدِهِمْ، ورابطة عقدهم، ومحيى آثارهم، والآخذ من الدهر بثأرهم.

صنَّف وألف، وسبق وما تخلف.

أما الأدب فرَوْضه الممطور، وحَوْضه الراوية منه السطور.

كانت له عدة من المصنفات. منها: شرح الدريدية المسمى بالآيات المقصورة على الأبيات المقصورة، وحسن السريرة فى حسن السيرة، وشرح بديعيته التى على منوال بديعية ابن حجة المسمى على الحجة، بتأخير أبى بكر بن حجة، ونشآت السلافة بمنشآت الخلافة، وشرح قطعة من ديوان المتنبى: سماه: «الكلم الطيب على كلام أبى الطيب» .

وله عدة رسائل وغير ذلك من حواش وتعليقات. وإنشاء ومكاتبات تهيج البلابل، وتحقق -لولا أنها حلال- سحر بابل.

أَمَّ بالمسلمين فى المقام ببلد الله الأمين، واتصل بقرب سلطان مكة ونواحيها، وحامى جهاتها وضواحيها، مولانا الشريف حسن بن أبى نمى، فحصلت له من جنابه العظيم مكانة أى مكانة، وزادت علوه رفعة وأعلت مكانه، بحيث حملته على تأليف غالب مؤلفاته المذكورة برسمه، وجعلها خدمة لخزانته المعمورة متوجة بلقبه واسمه، أثمرت عزًا فيه يتنافس المتنافسون، وأينعت مجدًا يقال فيه: لمثل هذا فليعمل العاملون هطلت على غرائسها سحائب الإنعامات الحسنية، ونشرت على

دوحاتها خلع الإجلال السنية.

ولما وصل إليه بشرح الدريدية، وقرأ ديباجته لدى حضرته العلية، وذكر له أنه أنشأ بيتين هما تاريخ تمام تأليفه، وجعلهما على لسان الكتاب وأراه إياهما، تناول الشريف حسن الكتاب بيده الشريفة، وقرأ البيتين وهما: [من مجزوء الرجز]

أَرَّخَنِى مؤلِّفي ببيتِ شعْرٍ ما ذهَبْ
أحمدُ جود مَاجِد أجازنى أَلْف ذَهَبْ

فتبسم مولانا الشريف، ووضع الكتاب فى حجره، ووضع يده الشريفة على رأسه، وقال: على الرأس والعين، والله إن ذلك نزر يسير فى مقابلته، وإنى أحمد الله تعالى الذى أوجد مثلك فى زمنى.

ثم لما كانت أيام وفاته، ووصلت مطايا عمره إلى غاية محله وميقاته، وذلك فى زمن مولانا الشريف إدريس بن حسن كان سببه المقدر، فى كتابه المسطر، أنه انتابت خطبة العيد أحد ولديه، وكانت أول خطبة حصلت لديه، فتهيأ للقيام بأدائها، وأرهف عضب لسانه لإبدائها.

فمنعه بعض أمراء الأروام، الواردين إلى مكة تلك الأعوام، يسمى حيدر باشا، ورغب فى أن يكون حنفى المذهب، وأخاف من تعرض له وأمره وأرهب.

فضاق بالإمام نجده ووهده، وجهد فى إزالة المانع فلم يجد جهده؛ لأن مولانا الشريف إدريس لم يكن فى ذلك الوقت بالبلد.

فلما لم يحصل إلا على اليأس، ولم يلق لضنا دائه من آس، صعد كرسيه وتنفس الصعدا. ففاضت نفسه لوقته كمدا، وألقى على كرسيه جسدا.

وقدمت جنازته ذلك اليوم للصلاة عليه، والخطيب على المنبر ناظر إليه.

وقيل: إنه مات مسمومًا. وكانت ولادته سنة ست وسبعين وتسعمائة. وأرخت بما نصه «أشرف المدرسين» رحمه الله تعالى.

ولما بلغ الشريف إدريس وفاته بذلك تعب تعبًا شديدًا لما كان للإمام عبد القادر عنده من المحبة، فدخل مكة رابع شوال، ومعه الشريف محسن، وجمع الأشراف والقواد فى موكب عظيم، وأكرمهما حيدر باشا غاية الإكرام، فطلبا منه التوجه إلى اليمن، وأحضر له ما يحتاجه من إبل وغيرها.

وفى سنة ثلاث وثلاثين وألف قبيل الظهر من يوم الأحد سابع جمادى الآخرة وقع مطر عظيم، سالت منه أودية مكة، وامتلأ منه المسجد الحرام، وعلا الماء حتى حاذى الحجر الأسود، فقال الشيخ محمود الحناوى تاريخا فى ذلك وهو من الحسن بمكان: [من السريع]

قد جاءنا سَيْلٌ مِنَ الله في جُمَادىَ الآخر يا ذا النَّظَرْ
فى مسجدِ الله الحرامِ الذى سعَتْ إلى علياه كُلُّ البَشَرْ
سيلٌ عظيمٌ مَا رُئِى مثلُهُ تاريخه: ألماءُ حاذى الحَجَرْ

وفيها توفى الشيخ الأمجد شهاب الدين أحمد بن إبراهيم بن علان فى اليوم السادس عشر من شعبان منها الصديقى الشافعى ودفن بالمعلاة بالقرب من قبر السيدة خديجة أم المؤمنين. كان إمام التصوف فى زمانه، وأوحد علومه وعرفانه.

وفيها فى شعبان: توفى السيد الجليل، الرئيس النبيل، أبو القاسم بن بشير بن أبى نمى فى الشرق، وحمل إلى مكة، وخطب له على زمزم كعادة أسلافه.

ثم توفى فيه أيضًا أخوه السيد بركات بن بشير بمكة فجأة بعد موت أبى القاسم بأربعة أيام.

ثم توفى فيه أيضًا السيد على بن أبى طالب بن حسن بمكة وخطب له على زمزم.

واستمر الشريف شريكا لعمه الشريف إدريس على صدق الكلمة، والنصح فى الألفة بالخدمة، والمساعدة فى الأحوال، والمعاضدة له فى المؤيدات الثقال، إلى أن اجتمع أهل الحل والعقد، ومن إليهم المرجع من قبل ومن بعد، من بنى عمه السادة الأشراف، الذابين عن حمى هذه الأكناف، والعلماء والصلحاء، وأعيان سكان البطحاء، فرفعوا الشريف إدريس عن ولاية الحجاز، ومنعوه من أن تكون له علاقة فى ذلك المجاز، ووسدوا الأمر إلى السيد الشريف المحسن، ووكلوا الحال إليه فى حفظ هذا الموطن.

فأشيع فى البلد يوم الأربعاء ثالث محرم الحرام من سنة أربع وثلاثين وألف أن السادة الأشراف قد أقاموا الشريف محسن مستقلا بالأمر، فحصل بين الشريف إدريس، وبينه بسبب ذلك ما يوجب المنافرة.

وحصل اضطراب عظيم فى البلد وحركة كبيرة، وقسمت آلات الحرب من الجانبين.

فلما كانت صبيحة يوم الخميس رابع محرم الحرام من السنة المذكورة: ألبس كل من الشريفين بمن معهما من العساكر والجنود ووقف على باب داره، فبرز من جماعة مولانا الشريف محسن شرذمة من جانب عقد مولانا السيد بشير وبنية النداء بالبلد لمولانا الشريف محسن استقلالا بمفرده، فقبل وصولهم العقد رمتهم الجبالية المرصدون فى مدرسة السيد العيدروس بالبندق، وقتل من الجماعة المذكورين بالبندق مولانا السيد سليمان بن عجلان بن ثقبة، والقائد مرجان بن زين العابدين وزير مولانا الشريف محسن فرجع الباقون.

وفى ضحى هذا اليوم ركب مولانا السيد أحمد بن عبد المطلب ومعه رحل، والمنادى بين يديه ينادى بالبلاد للشريف محسن، ولم يزل هذا الاضطراب بالبلد ذلك اليوم جميعه، ومن ألطاف الله تعالى أن الجماعة بالمسجد الحرام قائمة ذلك اليوم، والأسواق موجودة فيها الأقوات لم يحصل تغير أصلا فى ذلك اليوم.

فلما كان ليلة الجمعة خامس محرم الحرام من السنة المذكورة وقع الصلح بين الشريفين على أن يستقل مولانا الشريف محسن بالبلد، ويكون الكف عن المحاربة ستة أشهر، منها ثلاثة يكون مولانا الشريف إدريس فيها بالبلد، وثلاثة بالبر، فاتفق الحال على ذلك، ودعا الخطيب لمولانا الشريف محسن بمفرده يوم الجمعة، كذا نقله المرحوم الإمام على ابن المرحوم العلامة الإمام عبد القادر الطبرى فى تاريخه.

والذى نقله غيره من الثقات أن مولانا الشريف إدريس لما ضويق، وأجلبت عليه السادة الأشراف ومن معهم، أرسل الشريف إدريس إلى الشريف محسن، والسادة الذين معه فطلب مهلة شهرين فى البلد، وأربعة أشهر خارجها؛ ليتأهب للسفر إلى حيث شاء، فأعطاه الشريف محسن ذلك، وشرط عليه أن لا يحدث شيئًا من المخالفات، فاستمر عليه شهر محرم وصفر فمرض فيه حتى خيف عليه.

وفى ليلة المولد الشريف خرج من مكة، وكان قد أضعفه المرض، فما طاف للوداع إلا فى محفة، وخرج من مكة كذلك.

كذا فى كتاب «عقود الجواهر والدرر فى أهل القرن الحادى عشر» للسيد محمد الشلى.

ولما خرج الشريف إدريس توجه إلى جهة الشرق.

ولما كان غرة رجب من السنة المذكورة: ورد خبر وفاة إدريس إلى مكة فى نواحى جبل شمر، ودفن بمحل يسمى «ياطب» منها، ومن الاتفاق أن حساب ياطب بالجمل اثنان وعشرون سنة عدد مدة ولايته مجبورة، وكان يكنى أبا عون.

وولد فى ذى القعدة سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وأمه هيا بنت أحمد بن حميضة ابن محمد بن بركات، وكانت وفاته رابع عشرى جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وكانت مدة ولايته إحدى وعشرين سنة ونصفًا رحمه الله تعالى رحمة واسعة:

ومما قيل فيه قول مولانا القاضى تاج الدين المالكى وهو: [من الطويل]

زها بكَ دستُ الملكِ والتاج والعقْدُ ... غداةَ إليك الحلُّ أصبَحَ والعَقْدُ
مُطاعًا بعطفِ الله بعد رسولِهِ ... أولى الأمرِ فالعاصِى لأمرِكَ مرتدُّ
أبا شرفٍ إدريس منتخبَ العلا ... أبى الشرَفُ الوضاحُ غيرَكَ والمجْدُ
لقد طلبَتْ شمْسُ الخلافة بدرَهَا ... فقارَنها فى الأوْجِ والطالعُ السعدُ
قنضتَ العلاَ بالزاعبيةِ والنهَى ... هما شركاها لا الأمانِيُّ والوعْدُ
وقمتَ بعبءٍ آدَ غيرَكَ حملُهُ ... منال المهارى ليْسَ تدركه الربْدُ
وشرفْتَ دسْتَ الملكِ حين حللته ... ومرقاتُكَ المرقالُ والفَرَسُ النهدُ
فكنْتَ به إدريسَ إدريسَ إذْ رَقَى ... مكانًا عليًّا خصه الصمَدُ الفرْدُ
وكنْتَ ولم تُفْتَنْ سليمانَ إذ دعا ... فأوتيتَ ما لا ينبغى لفتًى بَعْدُ
وما لم ينله غيرُ آبائكَ الألُى ... ربوعُ الندا شادُوا وزَنْدَ العلا شَدُّوا
ملوكٌ هم الأنيابُ للملكِ والسِّوَى ... إذا نُسبوا كانوا الزوائدَ إذ عُدُّوا
تولَّوْا وأفضَى ملكهُمْ لمحجَّبٍ ... تصادم تِيجَان الملوك إذا يبدو
تأخَّر عصرًا فاستزادَكَ فى العلا ... كما ازدادَ بالتأخيرِ ما ترقُمُ الهنْدُ
وأصبَحَ عطلاً جِيدُ مَنْ رام عقدها ... سواه وأضحَى يستضىءُ به العقْدُ
تفردَ طود الملك بالمجدِ جامعًا ... مزاياه فَهْوَ الجامعُ العلَمُ الفردُ
رأى إن عدته خلَّة منه خلَّة ... فصيره قصرًا عليه فلا يَعْدُو
فيا ملكًا بالفضْلِ أذعَنَ ضِدُّهُ ... وما الفضْلُ إلا ما أقرَّ به الضِّدُّ
بكَ الدسْتُ يزهو يوم سِلْمِكَ والندَى ... ويومَ الوغَى يزهو بك السرْجُ والسرْدُ

وما زلْتَ فى حالَيْكَ سلْم وضدِّهِ ... عليكَ رِوَاقُ المجدِ يرفعُ وَالبَنْدُ
فيشقى بكَ الجانى ويسعدُ مخفقٌ ... ويأمنُ مطرودٌ وترهبُكَ الأُسْدُ
إذا بيَّتَ الأعداءُ أمرًا تضاءلَتْ ... لدى خطبِهِ الآراءُ واسْتَتَرَ الرشْدُ
وترتَ قويمَ الفكرِ قوسًا لوترهم ... وأنفذْتَ سهْمَ الرأى ليس له رَدُّ
وحكَّمْتَ فيهم قاضيًا غيْرَ مغمدٍ ... هو العزْمُ لم يكهم له أبدًا حَدُّ
وقدتَّ من القودِ الجيادِ مقانبًا ... إذا طلبَتْ يدنو بتقريبها البُعْدُ
وغلَّ إلى الأعناقِ أَيْدِىَ بطشهم ... مِن الرغبِ جيشٌ ليس تكبو له جردُ
فأحياهُمُ فى الأرضِ موتَى كأنها ... عليهِمْ- وقد ضاقَتْ بما رَحُبَتْ- لَحْدُ
سجايا أبى لا يجارُ طريدُهُ ... ولا راعَ يومًا جار غفوته طرْدُ
مليكٌ هو الطودُ الأشَمُّ للائذٍ ... هو البطَلُ المطعانُ والأسد الوردُ
جوادٌ له فى المالِ صولةُ ثائرٍ ... تحكّم فى الجانى وأحفَظَهُ الحقْدُ
طوَتْ نحوه بالوفْدِ كلّ تنوفةٍ ... بخات بخد الأرْضِ من وخدها خَدُّ
وجاد فلم يفقدْ مرامًا بجودِهِ ... فقلْ عوضًا عن جاد قد فقد العقْدُ
هو البحْرُ عذبٌ للموالى، وللعدَى ... عذابٌ لهم مِنْ لجه الجزرُ والمَدُّ
هو الغيثُ يهْمِى للولى وليّه ... فينبتُ إلا أنَّ منبته الحمْدُ
ويعدو العدَى وسمى هامى ربابه ... وتبلغهم منه الصواعقُ والرعْدُ
أخا الجودِ قد قلدتَّ جِيدى ودُونَ ما ... تقلدتُ أعناقُ المطامعِ تنقَدُّ
وأمطيتَنِى مِنْ كاهلِ العزِّ مركبًا ... ترينى ذكًا كالغورِ صهوتُهُ النجْدُ
فقمْتُ خطيبًا فى المحافلِ بالثنا ... وبالشكْرِ أتلو ذا وذاكَ به أشدُو
ينافسنِى قوْمٌ شأوْتُ وقَصَّروا ... وما كضليع ضالع خلفه يغدُو
ويبخسُ منهم دُرَّ نظمِى زعانفٌ ... فواعجبًا مِنْ أينَ للنقَدِ النَّقْدُ
سماءُ سِماتِ الفضلِ لفظى نجمها ... ولم يُخْفِهِ ألاَّ تَرَى ضوءَهُ الرُّمْدُ
وإنى لما خولْت أهلٌ ولم أكُنْ ... كقولِ حسودٍ إنما أسعَدَ الجدُّ
ولستُ مُدلاً حين أسمو وإن يكُنْ ... هو الفخْرُ يوم الفخْرِ والشرف العِدُّ
ولكن بنفسى والعبودية التي ... بها شَرَفُ الآباء من قبلُ والجدُّ
وإنِّى لأرجو منْكَ ما نال مَنْ مَضَى ... ولا عجَبٌ إنْ عَزَّ بالسيدِ العَبْدُ

بقيتَ بقاءَ الدهرِ فينا مؤملاً بك التاجُ يزهو والغلائلُ والبُرْدُ

وقول الإمام عبد القادر الطبرى رحمه الله تعالى: [من الكامل]

مالِى وللغيدِ الغوانِى النُّعَّسِ ولريم رامةَ والغزالِ الألعسِ
ولبانةِ الجرعاءِ فى شرقى الغضا ولسَجْعِ ورقِ الأيكِ عند تَأَنُّسِ
ولنظْم عقيانِ القريضِ ونثْرِهِ مِنْ كُلِّ أَنْفَسِ جَوْهَرٍ فى أَنْفسِ
وَأَنَا الَّذِى قَذَفَ الزَّمَان بِجَاحِظٍ مِنْ عَيْنِهِ بى مغضبًا وَهْوَ المُسِي
ورمَى بأسهمه مقاتِلِيَ التي بَعُدَتْ عليه فحطَّ عالى مجلسِي
وإذا قنى مِنْ صَبْرٍ مُرٍّ قضائِهِ كأسًا برغمى أن أكونَ المحتَسِي
هو دُمَّلُ الليلِ الذى لم يندملْ إلا بصَبْرِ مؤمِّلٍ لم ييأَسِ
صابرتُهُ حتى ظفرتُ بفجْرِهِ وحصلْتُ منه على شفاءِ الأنفسِ
بضياءِ صبْحِ العدلِ من إدريسَ مَنْ أهدى الضيا فمحا ظلامَ مغلَّسِ
ألسيد الحامى الذمارَ بهمةٍ تسمو على الفلكِ الأثيرِ الأطلسِ
أولى وأوَّل باسلٍ تَخِذَ العجا جَةَ درعهُ يَوْمَ الوغَى كالبرنسِ
لم يكترثْ بمهمةٍ وبكفِّه عند اللقا صُمُّ الردَينى الأخرسِ
والنُّطْقُ منه الطعنَةُ النجلاءُ في النْ نجلاء من عينِ العَدُوِّ الأشوسِ
وإذا انتضى الهندىَّ خرَّتْ أرؤسٌ ودَّتْ بقطْعِ أنها لم ترؤسِ
دَلَّ المنيةَ حين ضَلَّتْ سبلها فبه اهتدَتْ لفؤادِ كلِّ مترسِ
بيمين أروَعَ يضربُ البَطَلَ المُدَرْ رَعَ نافذًا منه لقطْعِ العضرسِ
كالبَرْقِ فى الظلماءِ من نقعِ الوغَى يروى سنًا لكنْ بخَطْفِ الأرؤسِ
فرذاذُهُ العلَقُ النجيعُ وسَحُّهُ الز زلق الفجيعُ من الطلا المتبجسِ
لله ما أمضاهُ عنْدَ توحُشٍ وأمضَّهُ فى الوهْم عندَ تأنُسِ
والسيفُ بالكَفِّ التى كفَّتْ أذىً لا بالحديدِ وطبعه المتيبسِ
لولا يدا إدريسَ ما خطَّتْ بها فى الهام شَكْل مخمّس ومسدّسِ
هذا المليكُ ابنُ المليكِ ابْنِ المليـ ـكِ ابْنِ المليكِ ابنِ المليكِ الأرأسِ
زاكى الأرومةِ مِنْ هيولى هاشم عالى النجارِ من النبيِّ الأقدسِ
ذو الهمة العليا التى مِنْ دونها زُحَلٌ فما باقى الجوارِى الكُنَّسِ

هو فى النُّهَى سَحْبَانُ وائلَ والذكا ... ءِ إياسُ والجَدْوَى ابنُ مامَةَ واحْبِسِ
كملَتْ فضائله فلو مسَّ الورى ... أذيالُهُ لرأيْتَ كُلًّا مكتسي
يأيها الملكُ الرفيعُ مقامُهُ ... فوقَ الثوابتِ فى الرفيعِ الأقعسِ
لكَ عِلْمُ إدريسٍ ودينُ محمدٍ ... وعلا سليمانٍ وحكمةُ هرمسِ(١)
فافخَر على الأملاكِ مِنْ صنعا إلى ... صِينٍ ومِنْ شرقٍ لمغربِ تونسِ
باللهِ أنْتَ فثقْ به لا بالورَى ... مِنْ آدميٍّ فى الوجودِ ولو نسِى
وإليكَها عذراءَ فِكْرٍ عانس ... من بعدِ عهدكَ فهْىَ بكْرُ العُنَّسِ
عربية غنيتْ بوصفِكَ واقتنَتْ ... حُرَّ البديعِ فما أتَتْ بمجنّسِ
ذكرتْ عهودًا بالحمى فتلفعَتْ ... خجلاً ووافَتْ فى رداءٍ سندسى
تختالُ فيه إلى المليكِ وتنتضِي ... بيضَ المدائحِ من قرابِ الحندسِ
فاقبلْ وقابلها بطَلْقِ جبينك الْ ... مأنوسِ لا لاقاهُ قطْب تعبُّسِ
وانظرْ إلى حالِى فأنْتَ خبيرها ... قدمًا وقدِّرْ بالوفاءِ وهندسِ
واسلم على طولِ الزمانِ ممتعًا ... بثناءِ كُلِّ مفوهٍ ومدرسِ

ثم وليها مولانا الشريف محسن، فقام بالأمر أحسن قيام، وضبط البلاد والعباد بالضبط التام، وآمن السبل والطرق، وانتظم فى سلك طاعته سائر الفرق العاصية فى الفرق.

ثم إنهم فى العشر الأول من محرم الحرام عرضوا إلى الباب العالى، وأنهوا إلى الجناب الغالى، حضرة مولانا السلطان مراد بن أحمد خان، تغمده الله بالرحمة والرضوان، طالبين إجابتهم إلى هذا المراد، وتقليد المشار إليه إيالة هذه البلاد. فإن بذلك تنتظم الأمور، ويتم أمر الآمر والمأمور، وتنصلح الأحوال، وتتضح طرق الحق على أوضح منوال.

وكان الذاهب بالعرض الأغا محمد بن بهرام. وطلع مولانا الشريف إلى المبعوث.

فلما كان اليوم الرابع والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة وصل الأغا

(١) هذا أيضًا من قبيل المبالغات الشعرية التى يشبه فيها علم الممدوح بعلم إدريس، ودينه بدين محمد، وعلاه بعلا سليمان، وهى مبالغات مكروهة.

محمد بن بهرامَ، إلى بلد الله الحرام، فتلقى ما جاء به الأعيان، واستقبلوه إلى الزاهر إجلالا لما صحبه من البراءة السلطانية. ثم دخل من ثنية كدا المشهورة بالحجون، دخول أمراء الحاج عند وصولهم إذ يحجون. وقد امتلأت بالخلائق الشوارع، وصار كل أحد إلى استقباله يسارع.

فدخل والتشاريف محمولة على أيدى حامليها، فوصل إلى دار السعادة ودخل فيها.

فأفيضت عليه وعلى الأغا مصطفى بن حيدر الترجمان مضلعتان تمييزا لهما على سائر من كان معهما من جماعة الترجمان. ثم عاد إلى منزلهما مختلعين، وطابت منهما النفس، وقرت بهما العين.

هذا ومولانا الشريف مقيم بالمبعوث السعيد؛ لاستيفاء الصيام به وإقامة شعار العيد. فبعد أن مضت أيام الصيام، وطلع هلال العيد من الخيام. تهيأ مولانا الشريف للوصول إلى البلد الحرام؛ لتلقى الأوامر السلطانية، والخلع السنية بالإجلال والاحترام.

فوصل بجميع من معه من السادة الأشراف، ما عدا من خلفهم منهم بالفريق لحفظ تلك الأطراف.

فدخل فى موكب عظيم، ومهيع كريم، ودخل من باب السلام، إلى البيت الحرام، فقبّل يمين الله فى أرضه، وأدى بذلك واجب فرضه.

ثم عاد فجلس فى فناء جدار زمزم مقابل البيت الشريف، وأحدق به السادة الأشراف والأعيان.

ثم قدمت له البراءة والنامة العظيمة الشأن، فقام على قدميه إجلالا، ووضعها على رأسه الشريف اعتناء بشأنها واحتفالا.

فقرئت فى ذلك المحضر والجمع الأكبر، وكان القارئ لها العلامة المفتى عبد الرحمن بن عيسى المرشدى.

وبعد أن تمت القراءة، تقلد مولانا الشريف بالسيف المجوهر، ولبس التشريف الأزهر، وأفاض فى ذلك المكان جملا من القفطان، على كل من له علاقة فى هذا الشان.

ثم دخل البيت الشريف بغالب من معه من الأشراف.

ثم بعد بروزه استلم الحجر وطاف، والريس يدعو له من أعلى قبة زمزم كما هو عادة الأسلاف.

ثم ذهب إلى منزله السعيد، وجاء للتهنئة كل ذى شأن مجيد، ثم أفيضت عليه فى ذلك المكان الخلعة الثانية الواصلة من وزير مصر ذى الشان.

فكان ذلك اليوم يومًا مشهودًا، ومن أيام الأعياد معدودًا.

وفى سنة خمس وثلاثين فى ثانى عشر جمادى الآخرة منها: توفى السيد إبراهيم ابن بركات ابن أبى نمى، كان من أجلاء أشراف مكة، ورؤسائهم وأغنيائهم.

جمع من الضياع والعقار والإبل والخميل والنعم شيئًا كثيرًا جدًا. تغمده الله برحمته آمين.

ولما كان آخر صفر سنة سبع وثلاثين وألف: وصل إلى جدة الوزير أحمد باشا متوليًا الجهات اليمنية.

فلما وصل إلى محاذاة جدة بحيث يراها، انكسر مركبه وغرقت جميع أمواله، فتعب لذلك، ونزل إلى جدة، وأرسل إلى مولانا الشريف محسن بهدية.

ثم نزل إليه مولانا الشيخ عبد الرحمن بن عيسى المرشدى المفتى الحنفى بمكاتيب من مولانا الشريف محسن، فأقام عنده أيامًا.

ثم إن الباشا أحمد: طلب من مولانا وسيدنا الشريف محسن الإعانة، فشرعوا فى تدبير ما يرسلون به إليه، وطلب غواصين لإخراج ماله وأثاثه، فغاصوا ولم يخرجوا شيئًا، فتخيل الباشا أنهم مأمورون بذلك.

ثم تنكر وتغير وسجن القائد راجحًا بن ملحم الدويدار حاكم جدة والأغا محمد ابن بهرام الشريفى أحد خدام مولانا الشريف، وكان أرسله مولانا الشريف إلى جدة بمكاتيب إلى الباشا، فأرسل مولانا الشريف الشيخ عبد الرحمن قره باش الواعظ الرومى إلى جدة لينظر فى هذا الأمر فلم ينتج شيئًا.

فلما أن كانت غرة شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وصل الخبر بأن الباشا صلب راجحًا الدويدار، وكان السيد أحمد بن عبد المطلب نزل إلى جدة إليه لما سمع به، فنزل على حمار، فقالت له الأقدار: وربك يخلق ما يشاء ويختار، وكان

فى هذه المدة يتردد إليه.

فلما وصل الخبر إلى مكة بذلك حصل اضطراب وقيل وقال.

فبعد مدة يسيرة وصل خبر وفاة الباشا أحمد، وأن السيد أحمد استمال عسكره، واستولى على جدة وأموالها، وأن جدة نودى فيها لمولانا الشريف محسن، ففرح الناس بذلك كثيرًا. ففى ثانى يوم الخبر ورد الخبر بأن الأمر عاد إلى ما كان عليه، وأن السيد أحمد نودى له فى جدة، ومنع الناس من الدخول والخروج. فبرز مولانا الشريف محسن بعساكره وجنوده ونزل بـ«ومخ» اسم ماء، أو جبل بقرب جدة من جهة الشام، ووقعت هناك فتنة أن الأتراك خرجوا من جدة لأخذ إبل ترعى فى تلك الجهات، فوصل الخبر إلى مولانا الشريف محسن، فركب وركب معه السادة الأشراف والأجناد، فوقعت ملحمة عظيمة قتل فيها من الأتراك فوق الخمسين، وقتل فيها من الأشراف مولانا السيد ظفر بن سرور بن أبى نمى، ومولانا السيد أبو القاسم بن جازان وغيرهما.

ثم بعد مدة وصل مولانا الشريف محسن إلى البلد، وأقام بها وجعل هناك رتبة، وأقام على الرتبة مولانا السيد قايتباى بن سعيد بن بركات.

فلما أن كان آخر شعبان وصل الخبر بأن السيد أحمد بن عبد المطلب خرج هو والعساكر معه إلى جهة مكة، ولم يزل يسير أيامًا عديدة، وكان وصوله على جهة وادى « مر ».

فلما كان يوم سادس عشر رمضان وصل الخبر أنهم قاربوا مكة، فبرز مولانا الشريف محسن هو والسادة الأشراف، والأجناد والعبيد والصروخ فى جمع لا يحصيه إلا خالقه، وكان خروجه لذلك بعد صلاة عشاء ليلة الجمعة سابع عشر رمضان من السنة المذكورة، فالتقوا بالقرب من التنعيم، فوقعت معركة فتوحدت تلك الجموع، ولم يبق لهم همة إقدام إلا على الرجوع.

فأطلقت المدافع، وضربت البنادق، ووضح الناصح والمماذق. فتوجه مولانا الشريف محسن ومعه ابنه الشريف زيد، وبعض السادة الأشراف إلى الحسينية، ثم إلى جهة الشرق نحو «بيشة»، فجمع جيشًا كثيرًا من العربان، وقصد الإغارة على الترك المقيمين بالطائف فلم يتفق له ذلك.

ثم سافر إلى مدينة صنعاء اليمن فأقام بها إلى أن توفى عام ثمان وثلاثين وألف سادس

رمضان بها بظاهرها، وحمل إليها، ودفن بها فى قبة عالية عليها قوام وخدام بمعلوم يصل إليهم من مولانا المرحوم زيد، ثم من بعده من بنيه الأملاك، بدور الأفلاك.

كانت ولادته فى جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وتسعمائة بمكة المشرفة، ونشأ فى كفالة أبيه وجده، وكان جده الشريف حسن ينوه بقدره، ويقدمه لنباهته ونجابته وظهور آثار الرئاسة عليه فى صغره، وكان يقدمه فى الحروب، فيرجع مظفرًا منصورًا، وعدوه مخذولا مقهورًا.

جبل على مكارم الأخلاق، وطار صيته فى الآفاق. ولما تولى عمه أبو طالب إمارة مكة أحله محل ولده، ونزله منزلة أفلاذ كبده، إلى أن مات أبو طالب، فشارك عمه إدريس فى إمرة مكة، ولبس الخلعة الثانية، ودعى له فى الخطبة، وعقد له لواء الإمارة، وضربت النوبة الرومية فى بيته لمشاركته فى الإمرة، ووردت التشاريف السلطانية برسمه، وأتت المراسيم الخاقانية إليه مع عمه.

واستمر شريكا فى الربع إلى أن أذن له بالاستقلال بولاية الحجاز.

فجرى بينه وبين عمه حال أدى إلى قيامه عليه وتابعه جميع الأشراف على ذلك.

فخلع عمه إدريس عن ولاية مكة، واستقر فى الأمر يوم الجمعة الخامس من شهر المحرم الحرام افتتاح سنة أربع وثلاثين وألف كما تقدم ذكر ذلك آنفًا.

وكان رحمه الله من النباهة والسؤدد والرئاسة والكرم والبأس والسياسة بالمحل الأرفع.

إلا أن الله تعالى إذا أراد أمرًا هيأ أسبابه، فما تنفع ذوى العقول عقولهم وليس لها مع إرادته سبحانه إصابة.

وكانت مدة ولايته ثلاث سنين وثمانية أشهر ونصف. رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وغفر له ولأسلافه الأكرمين مغفرة جامعة.

ومما قيل فيه قول مولانا القاضى تاج الدين بن أحمد المالكى رحمه الله تعالى:

[من البسيط]

لقدْ جرى بالذِى تختارُهُ القدَرُ   فمُرْ بمَا شئْتَ إن الدهْرَ مؤتمرُ
وضرَّ من شئتَ وانفَعْ من تشاءُ ففي   أكفِّكَ الواكفاتِ النفْعُ والضرَرُ(١)

(١) كان أجدر بالمصنف أن يربأ بنفسه عن ذكر هذه المبالغات الفجّة، والتشبيهات التى تصطدم وعقيدة الإسلام.

والدهرُ مِنْ جيشكَ المنصورِ قائدُهُ ... ألقى يَدَ السلْمِ خَوْفًا وهو يعتذرُ
فاغفِرْ جنيَّتَهُ العظمَى لتوبَتِهِ ... إنَّ العظيمَ عظيم الذنْبِ يغتفرُ
وقد أتَى مقلعًا عن جرمِهِ ملكًا ... يسطو انتقامًا ويعفُو وهوَ معتذرُ
ذا هيبةٍ رابَ ريب الدهر فانقلَبَتْ ... تغزو عداه صُرُوفُ الدهرِ والغِيَرُ
وسطوة تتركُ الآسادَ واجمةً ... لم ينجُ مِنْ رُعْبها نابٌ ولا ظُفُرُ
به تبلَّجَ صبْحُ الملكِ وابتسمَتْ ... ثغورُهُ ودياجى الخطْب تعتكِرُ
وأصبحَ الدسْتُ معمورًا وكافلُهُ ... ملك به أضحَتِ الأملاكُ تفتخرُ
أخبارُهُ صغرتْ أخبارهم عظمًا ... كما برؤيتِهِ يستصغرُ الخبرُ
ليثٌ إذا خطَّ سطرًا نصل قاضبه ... مالَتْ لتعجمه الخطِّيةُ السمُرُ
كأنه لاعبٌ يرمى الرءوسَ به ... بالصولجانِ فتلْكَ الأرؤسُ الأكرُ
ما كَرَّ بعد ورودِ الحربِ قطُّ وهَلْ ... يكرُّ من ليس عن وِرْدٍ له صَدَرُ
ولم يفرَّ وهَلْ يدنو الفرار فتًى ... بالعزْمِ مُدَّرِعٌ بالنصْرِ معتجرُ
فتى له جيشُ عزمٍ قد أحاطَ مِنَ الـ ... ـسِتِّ الجهاتِ به التأييدُ والظفَرُ
ينمى إلى دوحَةٍ للملْكِ زاكيةٍ ... قد طابَ عُنْصُرُهَا والفرْعُ والثمرُ
أَغَرُّ ثَبْتُ الجنانِ الفارسُ البطلُ الـ ... ـليْثُ الهمامُ الشجَاعُ الصارمُ الذَّكَرُ
ألقائدُ الخيلَ إنْ رامَتْ مدى وضعتْ ... فى خَطْوها يدها حيْثُ انتهى البَصَرُ
مِنْ كُلِّ أدهَمَ يكسى مِنْ دَم حُلَلاً ... كأنه بلظَى الهيجَاءِ يستعرُ
وكلّ أشهَبَ محجولٍ قَوائمُهُ ... أغرّ أَبلَجَ ما فى باعه قِصَرُ
وكلّ طرفٍ يدكُّ الصخْرَ حافرُهُ ... وطئًا تطاير من صدماته الشرَرُ
كأنما تطلبُ الأقدامُ أيديها ... فلا تقرُّ ولم يلحقْ لها أَثَرُ
تخالُ تصهالَهَا رعدًا يزمجرُ في ... سحابِ نقعٍ مُثَار برقُهُ البترُ
مهذبات إذا نار الوغَى استعرَتْ ... لا بالعنانِ ولا بالشكْلِ تنحجرُ
عليهمُ الأسْدُ فرسانًا مصورةً ... تطيعُهُمْ كيفَ ما شاءوا وتنزجرُ
وكل أصْيَدَ مرِّ الحدّ ذى جَلَدٍ ... ما مسَّهُ سأمٌ فيها ولا ضَجَرُ
مِنْ كُلِّ شهمٍ شديدِ البطشِ منصلِتٍ ... كالسهْمِ إذ ثارَتِ الهيجاءُ يبتدرُ
وكُلِّ ذى لمةٍ سوداءَ حالكةٍ ... كالليلِ فى جنحِهِ قد أشرَقَ القمَرُ

قوم إذا الْتَأَمُوا كانُوا الأهلَّةَ والـ أقمار إن سفروا والأسْدَ إن زأروا
كأنهم والصَّبَا تسرِى بنَشْرِهِمُ في محكَم الزردِ الأكمامُ والزهرُ
بهم حوى الفَخْرَ أبناءُ الرسولِ كما به على العُرْبِ فخرًا قد حوتْ مُضَرُ
يسوسُهُمُ صادقُ الآراءِ فطنتُهُ تقضى بما هو آتٍ قبلُ والْفِكَرُ
متوجٌ هو فيهم مثلهم شرفًا في قومِهِمْ وهُمُ في قومهم غُرَرُ
إذا بدا بينهم فى موكبٍ تره كأنه البدْرُ دارَتْ حوله الزهرُ
لو أن مِنْ بعد طه مرسلاً نزلَتْ عليه فى وصفِهِ الآياتُ والسوَرُ
صفات أروَعَ لا تحصَى محامدُهُ وليس يحصُرُهَا قولٌ فتنحصرُ
وكيف يحصرُ بالألفاظِ قولُ فتًى مطولُ القولِ فى معناه مختصرُ
سمحُ الأكفِّ كريمٌ عَمَّ نائله معطى الجزيلِ ابتداءً وهو يعتذرُ
كأنما كَفُّهُ تهمى بنائلِهِ غمائمٌ بولى الجودِ تنهمرُ
أو دوحة غَضَّة الأغصانِ دانية قطوفُهَا بنسيم العرفِ تنهصرُ
يَلْقَى النضارَ لديه المعتفون قِرًى كأنما لقِرَاهُمْ تنحرُ البدرُ
دعاه يا محسنًا لما تفرسَ مِنْ مرآهُ والدُهُ الإحسان ينتشرُ
فجاء مصداقُ كُلِّ اسم لصاحبِهِ منه نصيبٌ بما يأتى وما يَذَرُ
فيا أبا الجودِ يا جَمَّ المواهبِ يا أخا الندَى مفخَرَ الأقوامِ إن فخروا
يابْنَ الحسينِ لقد وافَتْكَ واصلةٌ عذراءُ قد فاتَ منها غيرَكَ النَّظَرُ
لم ترضَ غيرك كفوًا والصداقُ لها صدقُ القبولِ فما لى غيرَهُ وَطَرُ
فلستُ ممن يقولُ الشعْرَ مبتغيًا به افتخارًا وما بالشعْرِ يفتخرُ
سَلْنِى وسَلْ عنىَ الأقوامَ مختبرًا لا يعرفُ المرءُ إلا حين يختبرُ
عمرى ولولاكَ يا حامى الذمارِ لما صُغْتُ المدائحَ أبديها وأبتكرُ
فسرِّحِ الطرفَ فيها روضةً أنفًا غنَّاءَ يقصرُ يحكى نظمها الدُّرَرُ

ومما قيل فيه أيضًا قول العلامة القدوة المفيد الفهامة مولانا الإمام عبد القادر الطبرى الحسينى رحمه الله تعالى: [من الكامل]

لا والنواعمِ مِنْ جوارى العينِ ما احتجْتُ فى حملِ الهوَى لمعينِ
وبما لَهُنَّ علىَّ مِنْ خَلْعِ العذا رِ إذا سفرْنَ بطرةٍ وجبينِ

ولعبْنَ بالألباب عند تمايسٍ ... بمعاطفٍ تزرى الغصُونَ بلينِ
أنا ذلك الصبُّ الذى قِدْمًا صبا ... بصبا الصبا وإلى الغرامِ حَنِينِى
غيثُ السحائبِ مدمعى وهَوَى لظَى ... نفسى ورعْدُ الصاعقاتِ أنينى
يبرينىَ النجديُّ من ألم النَّوَى ... ويـذيـلـنـى بـردًا ظبـا يـبـريـنِ
ويعلُّنى الوجدان أعذَبَ موردٍ ... ويعلُّنى السلوانُ عنه سلونى
لا يـعـذلُ الـمـشـتـاقَ إلا مثلُهُ ... هيهاتَ ذلك فهو بئس قرينِى
ما مرَّ بى فى العشقِ إلا ما حلا ... لـفـؤادِ كُـلِّ مـولَّـه وحـزيـنِ
شرْعُ الهوَى فرضِى وحُسْنُ تهتُّكى ... نَفْلِى ومذْحِى محسنًا مِنْ دينى
إبنُ الحسينِ أبو الحُسَيْنِ أخو التقَى ... من لَيْسَ يرضى فى العلا بالدونِ
عالى الجنابِ إذا انتحَى وإذا انتخَى ... سهْل الحجابِ بغاب ليث عرينِ
ذو هيبةٍ حلَّتْ قلوبَ عداته ... لو أنهم حَلُّوا أقاصى الصينِ
من عزمِهِ ساحَ الحديدُ وسالَ إذ ... سلَّتْ فحاكى السيح من سيحونِ
يروى الأسنةَ والشوازبَ من دَمِ الـ ... أعداءِ لا يَرْضَى لها بمعينِ
ويرى المُنَى نزعَ النفوس بما بها ... مِنْ كُلِّ غلٍّ فى الصدورِ كمينِ
ألـلـه ما أعلَى مرامى ظنِّهِ ... طبق القضا فى شأنِ كل ظنينِ
وأحسَّهُ بالأمْرِ قبل وقوعِهِ ... وخطورِهِ فى عالم التكوينِ
يرضيكَ إنْ هزَّ القنا بشماله ... وإذا انتضَى سيف القنا بيمينِ
فيريكَ لمْعَ البرقِ فى ظُلَم الحشا ... سيل العقيقِ ومدهق الزرجونِ
ثملَتْ به عللاً رءوسُ رماحِهِ ... فـبـدَتْ معربدةً بقطْعٍ وتـيـنِ
وصحَتْ فأنهلَهَا الظهورَ فحطَّمَتْ ... أضلاعَ كـلِّ مجدلٍ وطـعـيـنِ
وبها حمى أُمَّ القرَى فدعِ القرى ... متسفلاً فى الإرتقا بمئينِ
مَنْ ذا يقاومه إذا اشتد الوغَى ... إلا فتًى يرجو لقاءَ منونِ
هذا التقىُّ الطاهرُ الذيل الذى ... يسمو بعرضٍ فى الأنامِ مصونِ
مولى الجميلِ وباذلُ الفضلِ الجزيـ ... ـلِ وكاشفُ الخطبِ الجليلِ لحينِ
حكتِ السحائبُ كفَّهُ فبكَتْ على ... ما فاتَهُ من سَحِّهِ بهتونِ
قسمًا به لم يحكِهِ فى جودِهِ ... إلا الذى أضمرْتُ طَيَّ يمينى

فهُمُ هُمُ بيتُ النبوةِ والحجا … والبر أربابُ التقى والدينِ
إنْ تلقه لم تلْقَ إلا محسنًا … من محسنٍ من محسنٍ بضمينِ
واعقدْ يمينك إنه مِنْ عقدهم … عين القلادةِ فصلَتْ بثمينِ
من رام عزًا فلينخ برحابه … أملاً فيذهبَ عنه ذُلُّ الهونِ
ما سامَ مرعَى خصبِهِ متضائلٌ … إلا تبدَّلَ غثُّهُ بسمينِ
يابنَ النبيِّ إليكَهَا نونيةً … بالكافِ قدَّرَهَا القضا والنونِ
وَافَتْكَ كالطاووس تزهو عزةً … مذْ دُبِّجَتْ بغلائلِ التلوينِ
خذ فألها الحسَنَ الجميلَ وقولَهَا … كُنْ كيفَ شئْتَ بغايةِ التمكينِ
فالطِرْسُ منها أخضَرٌ والسطْرُ في … ه أسودٌ يستلُّ بيضَ جفونِى
أثنَتْ عليك ببعضِ حقكَ فاغتفرْ … تقصيرها فى المدْحِ لا التحسينِ
لا زلْتَ فى أوجِ السعادةِ راقيًا … بدوامِ عِزٍّ فى الفخارِ مكينِ

ودخل الشريف أحمد بن عبد المطلب مكة ضحى اليوم السابع عشر من رمضان والمنادى بين يديه، وكان دخوله من الحجون فاضطربت الأفكار، وتعبت الناس، وأول ما بدأ به دخول المسجد من باب السلام.

وفتحت له الكعبة الشريفة فدخلها، ثم عزم إلى المحل الذى أراد السكنى به فنقول:

ثم وليها الشريف أحمد بن عبد المطلب بن حسن بن أبى نمى بتولية الوزير أحمد باشا إياه كما تقدم ذكر ذلك، فوقع من العسكر الذين كانوا متوجهين مع الباشا المذكور إلى جهة اليمن تسلط على بيوت الناس لما فى نفوسهم على أهل مكة، فأدى ذلك إلى القيل والقال، وحصل لهم منهم الخوف العظيم، فكان ذلك لما أراد الله سببًا لمخالفة القبائل، وتخطفهم فى الطرق لمن مر بهم من الأعراب وغيرهم، وقبض على المرحوم مفتى الحنفية الشيخ عبد الرحمن بن عيسى المرشدى، وحبسه مضيقًا عليه لأمر نقمه منه.

فلما كان موسم السنة المذكورة -أعنى سنة سبع وثلاثين وألف- قدم الحاج المصرى وأميره قانصوه باشا، وكان بين قانصوه هذا وبين الشيخ عبد الرحمن مودة أكيدة ومكاتبات سابقة.

فلما صعد الحجيج عرفة أتى حريم الشيخ إلى مخيم قانصوه مستشفعات به إلى الشريف أحمد بن عبد المطلب فى إطلاق الشيخ، فرقَّ لهن رقة عظيمة، وتوجه متوجهًا إلى الشريف أحمد يوم عرفة فلم يوجهه ولم يؤيسه.

فلما كانت ليلة النحر توفى الشيخ رحمه الله شهيدًا، فكان ذلك مع قضاء الله تعالى سببًا لوقوع ما وقع منه فى الشريف أحمد بن عبد المطلب.

وفيها ظهر يوم الخميس ثامن عشرى ربيع الثانى: توفى مولانا السيد الجليل، ذو المجد الأثيل، خاتمة المحققين، شيخ الإسلام والمسلمين، شمس المعارف والعلوم، ترجمان المنطوق والمفهوم، المتفق على إمامته، والمجمع على ورعه وجلالته. إنسان عين العلماء العاملين، أستاذ الأئمة المدققين. صدر المدرسين العظام، مفتى بلد الله الحرام، مولانا الولى القطب العارف بربه، الفائض عليه مدرار الفيض الإلهى مع كسبه، مولانا السيد الشريف، حاوى مرتبتى العلم والعمل، البالغ فيهما أوج غاية الأمل، الجامع إلى شرف النسب العلى، شرف العلم الجلى، مولانا السيد عمر بن عبد الرحيم البصرى الحسينى الشافعى بمكة المشرفة.

أخذ عن الشمس الرملى، والعلامة ابن قاسم، والملا عبد الله السندى، والملا على بن إسماعيل العصامى، والقاضى على بن جار الله، والشيخ عبد الرحيم الأحسائى، والسيد مير بادشاه، والملا نصر الله وغيرهم.

وأخذ عنه شيخنا الشيخ على بن أبى بكر بن الجمال، وشيخنا الشيخ عبد الله باقشير، وشيخنا الإمام زين العابدين بن عبد القادر الطبرى، والشيخ محمد بن عبد النعم الطائفى، والسيد عبد الرحمن كريشة السقاف، والسيد صادق باد شاه مفتى الحنفية، وغيرهم رحمه الله وأعاد علينا وعلى المسلمين من بركاته.

وقد اختلفت الأقوال فى سبب قتله الشيخ عبد الرحمن المرشدى، فقيل تعريض الشيخ المذكور بالشريف حين خطبة عقده التى خطب بها فى زواج سلطانة ابنة على شهاب، وكان الشريف أحمد طلب التزوج بها فلم يزوجه، فعرض الشيخ بذلك حيث قال فى مبتدأ الخطبة المذكورة: الحمد لله الذى أعز سلطانه ودحض شيطانه.

وقيل: إنه جاء إلى الشريف المذكور عند موت أخيه السيد محمد بن عبد المطلب معزيًا لابسًا صوفًا أبيض.

وقيل: إن الشريف أحمد حين استولى على مكة، وطلع إلى دار السعادة على فرش الشريف محسن وجد تحت طرف المرتبة فتيا من الشيخ المذكور بتسميتهم بغاة جائرين ظالمين، وبوجوب قتالهم بخطه المعروف واسمه الموصوف، والله تعالى أعلم أيًا كان ذلك.

وكانت ولادته سنة خمس وسبعين وتسعمائة، وأرخت بما نصه «شرف المدرسين».

وفيها أيضًا كانت وفاة جدى العلامة الشيخ عبد الملك بن جمال الدين بن إسماعيل صدر الدين ابن العلامة المحقق إبراهيم عصام الدين الشافعى المكى الشهير بالعصامى الملقب بخاتمة المحققين.

إمام العلوم العقلية والنقلية، وخاتمة علماء العلوم الأدبية، وعلم الأئمة الأعلام، بحر العلوم المتلاطمة بالفضل أمواجه، وطود المعارف الراسخ، الناتجة لديه أفراده وأزواجه. علامة البشر، فى القرن الحادى عشر، والرحلة التى ضربت إليه أكباد الإبل، والقبلة التى فطر كل قلب على حبها وجُبل.

جمع فنون العلم فانعقد عليه الإجماع، وتفرد بصنوف الفضل فبهر النواظر والأسماع. فما من فن إلا وله فيه القدح المعلّى، والمورد العذب المحلى. إن قال لم يدع مقالا لقائل، أو طال لم يأت غيره بطائل.

مولده كان بمكة سنة ثمان وسبعين وتسعمائة كان تاريخه «نعم المولود ذا»، وبها نشأ وأخذ عن والده، وعن الشيخ العلامة عبد الرءوف المكى وعن خاتمة المحققين الشهاب أحمد بن قاسم العبادى والعلامة أحمد بن عواد المصرى، والخطيب عبد الرحمن ابن الخطيب الشربينى، وأجازه بمروياته بإجازة بخطه سنة تسع بعد الألف، وعن غيرهم.

وعنه مولانا الشيخ محمد على بن علان الصديقى، والسيد صادق بادشاه، ومولانا الشيخ عبد الله باقشير الحضرمى، ومولانا الشيخ على بن أبى بكر بن الجمال الأنصارى، ومولانا القاضى تاج الدين بن أحمد المالكى، ومولانا الخطيب أحمد ابن عبد الله البرى المدنى، والشيخ محمد بن عبد المنعم الطائفى، وخلق.

ولازم الأمراء والتدريس فى كل علم نفيس، وجدد مغنى العلم الدريس، واشتغل

بالتصنيف والتأليف، وتخلى عن كل أنيس وأليف، حتى بلغت مؤلفاته الستين، بين شرح مفيد ومتن متين، منها شرح الشذور سماه «شفاء الصدور»، وشرح على القطر، وشرح على الشمائل، وحاشية على شرح التحرير، وشرح على الألفية النحوية لم يتمه، وشرح على الزنجانى، وحاشية على شرح القطر لمصنّفه، وشرح على إيساغوجى، وشرح الخزرجية، وشرح على استعارات السمرقندى، وغير ذلك من المصنفات المشهورة تبلغ العدة المذكورة، إلى زهد وورع وصلاح، أشرق نورها فى أسرة وجهه ولاح، وبينه وبين علماء عصره مكاتبات كثيرة، وأسئلات سطر عليها أجوباته المنيرة. وكانت وفاته بطيبة ودفن ببقيع الغرقد، رحمه الله وأعاد علينا من بركاته آمين.

وفى سنة ثمان وثلاثين فى صفر منها: وقع فى أعمال مصوّع زلزلة شديدة، ثم تصاعدت إلى برّ العبيد، وما زالت تعمل إلى الأجمدة، وفقدت بلد بمن فيها فلا يعلم أخسف بها أم رفعت إلى السماء، ولم تزل الزلازل تعمل فيهم حتى انسد بالحجارة النازلة عنها ما بين جبلين، ويرون لهب النار، وجرَى الدم على وجه الأرض، بعد نبعه منها كجرى الماء، واستمر بهم هذا الأمر إلى بعد ذى الحجة، ثم ارتفعت عنهم الزلزلة وجرى الدم، وذهب أثره عن الأرض، غير أنه بقى فيه أثر النار نهارًا، ولهبها ليلاً، فسبحان الفعال لما يريد.

وفيها فى رمضان منها كانت وفاة الشريف محسن بن حسين، وقد ذكرناها مع ما يتبعها آنفًا.

ثم استمر الشريف أحمد فى الولاية إلى أن حج بالناس حجة ثمان وثلاثين وألف، فجاء للحجاج أمير منفرد، وجاء قانصوه باشا متوجهًا لفتح اليمن، صحبته العساكر، وعدتها ثلاثون ألفًا، وضرب وطاقه فى أسفل مكة.

وكانت بين الشريف مسعود ابن الشريف إدريس، وبين الشريف أحمد بن عبد المطلب ممالأة ومواطأة قبل نزوله إلى جدة مضمونها: إنى لا أريد الملك لنفسى إنما أريده لك، أو هوَ بيننا فخذل عنى ما استطعت من آل أبى نمى، وثبِّطهم، وحل عزائمهم، ووعده بذلك ففعل ما فعل، وحصل به على الشريف محسن ما حصل ولله الأمر.

فلما نزل إلى جدة تقمصها لنفسه، ولم يف لمسعود ببعض ما بينهما بل أراد قتله، ففر إلى قانصوه، والتجأ، وصدر قانصوه على الشريف أحمد مملوء بالوجاء، فلما أقبل قانصوه قاصدًا لليمن، لاقاه الشريف مسعود من ينبع، أو الخور، وجاء معه مختفيًا، ولم يزل به محتفيًا، وواجه فى المجيء الأول الشريف أحمد قانصوه، ورد عليه تحية القدوم.

ثم عزم على محاربة قانصوه فازداد قانصوه عليه حنقًا على حنق، وشرع يستميل عسكر الشريف أحمد فأطاعوه، فخرجوا من مكة، ثم خيم قانصوه بالزاهر.

ولما أن قضت الحجاج مناسكهم، وذهبوا إلى أوطانهم، تخلف قانصوه بوطاقه أسفل مكة، فلما تحرك للسفر قدم ثقله، ولم يبق إلا وطاقه، وخيام العساكر، فأشار قانصوه إلى شخص يتعاطى خدمته من أبناء الطواف يسمى محمد المياس، أن يحسن للشريف أحمد الوصول إلى قانصوه للوداع ففعل، وذهب إلى الشريف، وحسن له ذلك يوم السبت رابع شهر صفر، فلما كانت ليلة الأحد خامس الشهر المذكور من سنة تسع وثلاثين وألف، ركب الشريف أحمد إليه، وصحبته من الأشراف شبير بن بشير بن أبى نمى، ومحمد بن حسن بن ضبعان، وراجح بن أبى سعد، ومن أعوانه وزيره مقبل الهجالى، وأحمد البشوتى متولى بيت المال وفليقل، فلم يزالوا يدخلون فى الصيوان من باب، إلى باب، يمنع عند كل باب طائفة من أتباعه حتى دخلوا، فتحادثا مليًا ثم نصبا رقعة الشطرنج، فلما كانت الساعة الخامسة من الليلة المذكورة قبض على الجميع، فتوفى الشريف أحمد، شهيدًا إلى رحمة مولاه، وقتل الهجالى وفليقل، وصلب البشوتى، وأطلق الأشراف فتحركت عساكره، فأظهره لهم ونشر البيرق، ونودى المطيع للسلطان يقف تحية فوقفت العساكر تحية، وخلع على الشريف مسعود بن إدريس. فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير؛ سبحانه.

ثم حمل الشريف أحمد وأتى به من طريق الحجون، فدفن بالمعلاة رحمه الله من شهيد.

كذا ذكره فى «الجواهر والدرر فى أهل القرن الحادى عشر».

وقد كان الشريف أحمد ليث آل أبى نمى، أديبًا فاضلا نبيهًا مهيبًا: [من المنسرح]

تَعْرِفُ مِنْ عينه نجابَتَهُ   كأنه بالذكاءِ مكتَحِلُ

أخذ العهد، والطريق على عدة مشايخ، من أجلِّهم الشيخ أحمد الشناوى، وهو المباشر له بولاية مكة لكنه قال: على الشهادة يا أحمد، قال: على الشهادة.

فكان كثيرًا ما يكنى عنها بطلوع الشمس، وعاقب بعد الولاية كثيرًا ممن كان قبلُ استبعدها عنه، وسخر منه، وكان له أخدان وجلساء قبل الولاية وبعدها، فحصل لهم الأذية بعد قتله من قانصوه، بوشاية هذا الشخص المسمى بالمياس، منهم السيد الأكرم، مولانا السيد سالم ابن السيد أحمد شيحان، ومولانا الشيخ أحمد القشاشى، ومولانا الشيخ محمد القدسى خليفة سيدى أحمد البدوى، فحبس الجميع، وثقل عليهم حتى افتدوا أنفسهم بمال جزيل كان ذلك بوشاية المياس، أذاقه الله كل باس، يوم يقوم الناس.

وكان للشريف أحمد زوجان من القنا الطويل جدا بسنان مذهَّب تحته أُكرة من الفضة المطلية، يحمل كل واحد رجل يمشى على قدميه، إذا سار فى موكبه يسيران أمامه قريبًا منه يصوبانهما، ويصعدانهما بحركة لطيفة التصعيد والتصويب على سواء، وربما كان فيهما جلاجل.

وهذا يفعل إلى الآن أمام إمام اليمن إذا سار فى الموكب. انتهى.

قلت: وهذا كان له وجود فى زمان الخلفاء العباسيين، فليس أهل اليمن أول مبتدعيه، وقد ذكره شعراء الدولة العباسية فى قصائدهم فى الخلفاء.

قال القاضى ناصح الدين أبو بكر أحمد الأرّجانى، من قصيدة يمدح بها الوزير أنو شروان وزير الخليفة المسترشد بن المستظهر بالله العباسى قوله: [من الطويل]

وألوية منهنَّ صقران أوفيا عَلَى علمى رمحيْنِ فارتَبَآكا
ولَيْسَ سوى النسرين مِنْ أفقيهما لحبهما نَيْل العلا تَبِعَاكَا

وكان إذا سار بالليل لا يوقد بين يديه إلا الشمع الموكبى بدلا عن المشاعل، وكان دخوله مكة متملكا لها، وإجفال الشريف محسن صاحب مكة، وبنى عمه عنها ضحى يوم الأحد السابع عشر من شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين وألف، فكان رحمه الله يتبجح ويقول: فتحت مكة بالسيف، كما فتحها رسول الله ﷺ، ودخلتها فى مثل اليوم الذى دخل فيه ﷺ.

قلت: أما قوله: فتحتها فالمشهور الذى عليه الجمهور أنها لم تفتح عَنوة، وإنما

فتحت صلحًا، وما وقع من خالد بن الوليد رضى الله عنه، فإنه نووش ببعض قتال مع الأحابيش، وعبدان أهل مكة فى أسفلها، وقد نهاه ﷺ عن القتال، ولكنه لما قوتل قاتل، وهذه هى شبهة القائل، بأنها فتحت عنوة، وقد علمت بيانها.

وكذلك قوله: ودخلتها... إلخ، فإنه لم يدخلها عليه الصلاة والسلام فى سابع عشر رمضان، وإنما دخلها يوم ثامن عشره بغير خلاف.

تغمده الله برحمته آمين.

ومما رأيته لصاحبه إبراهيم بن يوسف الشهير بالمهتار قوله: [من الخفيف]

سنة السبعِ والثلاثينَ بعد الـ ... ألْفِ جاءَتْ بما به ينفر الطَّبْعْ

دخَلَ السبْعُ مكةَ الله بالجنْـ ... ـدِ ولا شَكَّ أنها سنة السَّبْعْ

وكانت مدة ولايته سنة، وأربعة أشهر، وثمانية عشر يومًا.

ومما قيل فيه قول الأديب الأريب إبراهيم بن يوسف المهتار سامحه الله تعالى: [من الرجز]

قَضَّى ولم يقضِ الذى منه يجبْ ... صَبٌّ إذا ما يدعه الشوقُ يُجبْ

أشجاه تغريدُ حماماتِ اللوَى ... وهْنًا على البانِ فغنَّى فطَرِبْ

ذكَّرتُهُ ليالِيًا مواضيًا ... بالشِّعْبِ مِنْ قبلِ الخليطِ ينشعبْ

إذْ عامرٌ بساكنِيهِ عامرٌ ... ظباؤُهُ ترعَى بمرعاه الخَصِبْ

وإذ به الغيدُ بدَتْ سوانحًا ... تجرُّ من ذيل الصبا بُردًا قشبْ

مِنْ كُلِّ هيفاءِ القوامِ اذا انثنَتْ ... تكادُ مِنْ لينٍ به أن تنقضبْ

تبدو بوجْهٍ مسفرٍ من غيهبٍ ... مِنْ شعْرها إلى بنى بَدْر انتسبْ

مِنَ الرعابيبِ اللواتى خَلَّفَتْ ... ربْعَ اصطبارِى مثل مغناه الخَرِبْ

فما وقوفى بالطلولِ بعدهم ... أبكى بها والحىُّ عنها مغتربْ

سقيا سقى الله العباد معهدًا ... بعامرٍ إنْ ضنَّ دمعى المنسكبْ

ذاك الذى به الظُّبَا تحمِى الظبا ... فكَمْ به مثلى أسيرٌ مكتئبْ

لله أيامٌ به تصرمَتْ ... وكأسُ صفوٍ فى لياليها شُرِبْ

بفتية تراضعوا ثديًا من الـ ... آدابِ كُلٌّ للغرامِ منجذبْ

يوشون شعرًا كالرياضِ بينهم ... طويلُهُ يمد لفظ المقتضبْ

لم ينشدوا إلا شجانِى لفظهُمْ ما الشعْرُ إلا ما شجا قلْبَ المحبّ
كـلٌّ أخـى صـبـابـةٍ وعـارفٍ يوجدُ فردًا قبل ألاَّ يصطحبْ
بتْنَا بـهـا كـلٌّ شـكـا غـرامَـهُ من الذى يهوَى بقلْبٍ ملتهبْ
والـلـيـلُ قـد تـسـتَّرَتْ نـجـومـه بسحبها والبدْرُ فيها محتجبْ
والمزنُ تبكى لابتسامِ البرْقِ أو من غضبٍ لأحمدَ بْنِ المطلبْ
ألأرْوَعُ الشَّهْمُ الكَرِيمُ الجدُّ رَبْ بُ الْجدِّ حاوى المَجْد عَنْ أهل اللعبْ
ألفارسُ الخيل إذا الشرُّ بدا مَعْ عمرِو الكرارِ أو معدى كربْ
مملى العيونِ هيبةً إذا مشَى مجلى القلوبِ رهبةً إذا ركبْ
هو الكريمُ ابنُ الكريمِ مَنْ له ذيلٌ على هامِ السماكِ منسحبْ
مِنْ معشرٍ هُمُ السراةُ فى الورَى كُـلٌّ إلـى آلِ الـنـبـيِّ مـنـتـسـبْ
مُرْوِى الظبا من الصّدَا إذا سطا مُزْرِى الحيا يوم الندَى إذا يهبّ

ولم يوجد من هذه القصيدة إلا ما رأيته، ثم إنه مدحه أيضًا وأشرك معه أخاه محمدا بإشارة بعد وقعة البقرة وقد ظهرت شجاعتهما فقال: [من الكامل]

إن كان تسآلُ الديارِ كما يجبْ يُجدِى فَلِمْ بسؤالها قلبى يجبْ
ما نافعى إنْ أشكُ بَثَّ صبابتي لرسومها والحيُّ منها مغتربْ
يا أَحْمَدٌ ومحمدٌ وثقَتْ يدى نِعْمَ الرجا أبناءُ عبد المطلبْ
ألسابقين إلى الوغَى بعزائمٍ تذكى شواظًا كالصوارمِ ملتهبْ
سل عنهما بيضَ الصفاحِ ولهذم السُّ سُمْرِ الرماحِ وجحفَل الجيشِ اللجبْ
هلْ شاهدوا إلا هما وهما هما دَعْ عنتَرَ الكرارَ أو معدى كربْ
سدتمْ ملوكَ الخافقَيْنِ أما ترَى من كان يبغى شأوَ غايتِكُمْ غُلِبْ
إن كان من يرجو الشفا بدمائِهِمْ فدماءُ أعبدكُمْ شفاءٌ للكَلِبْ

ثم وليها الشريف مسعود بن إدريس، واستمر فى ولايتها، وكانت مكة فى زمنه ربيعًا مريعًا سخاء ورخاء، تهب بها رياح الأمن والعدل صبًا ورخاء، لم يقع فى الوجود شىء فى زمنه من الأكدار، ولا يؤثر من الأخبار إلا كل خبر سار، ما عدا ما قدره الله تعالى من سقوط البيت الشريف فى زمانه، فجدده سلطان العالم القائم بحفظ الدين وتشييد أركانه.

وسبب ذلك أنه يوم كان يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان من سنة تسع وثلاثين وألف: نشأت على مكة وأقطارها سحابة غربية، مدلهمة الإهاب، حالكة الجلباب، فلم تزل تجتمع إلى وقت الزوال، فأبرقت وأرعدت، وأرخت عزاليها وأغدقت، واستمرت تهطل ساعتين ودرجتين، فأقبل السيل من سائر النواحى، وثلم السد الذى يلى جبل حراء، المسمى جبل النور - ثلمة كبيرة وعلا عليه، فدخل المسجد، وساق ما وجد على طريقه من جمال ورجال ومال وأحمال وغير ذلك، وأخرب الدور، واستخرج ما فيها من الأثاث وغيره، وأهدم عليها، فامتلأ المسجد الحرام ماء حتى أنه دخل الماء إليه من جهة باب الزيادة، وزاد حتى اعتلى على باب الكعبة ذراعين عمل، وأهلك الرجال، والأطفال، وكل من وجد فى المسجد، وكان أكثر الهالكين: الأطفال الذين يقرءون القرآن مع فقهائهم، فتعلق بعضهم بالأماكن المرتفعة، وارتفع على بعض السلاسل الحرمية، فوصل الماء إليهم وأهلك الجميع.

وكان من هلك به من بنى آدم خمسمائة، ومن الحيوان كثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحمل جميع ما فى المسجد من خزائن، ومصاحف وقناديل وبسط، وغير ذلك، ثم بات المطر يهطل إلى نصف الليل، فلما كان آخر ساعة قبيل الغروب من يوم الخميس العشرين من الشهر المذكور سقط جانب الحِجْر - بكسر الحاء - من البيت الشريف، فسقط جميع ما بناه الحجاج منها، فكان بقاء البيت نحو ألف سنة من الآيات الجلية، فإن البناء المربع الذى تمر به الرياح لا يبقى عادة نحو ثمانين سنة، ومن الجانب الشرقى إلى حد الباب، ومن الجدار الغربى نحو النصف أيضًا، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فقال فى ذلك المهتار هذه القصيدة: [من البسيط]

ماجتْ قواعدُ بيتِ الله واضطربَتْ   واهتزَّتِ الأرضُ من أقطارها وربتْ
وأمسَتِ الكعبةُ الغراءُ ساقطةً   فما أشكُّ بأنَّ الساعةَ اقتربَتْ
فأىُّ خطْبٍ به أحشاؤنا انصدَعَتْ   وأىُّ هولٍ به ألبابُنَا انسلَبَتْ

وجميعها على هذه الركة تركتها استحسانًا، وأنفت من ذكرها استهجانًا.

قال المرحوم العلامة الإمام على بن عبد القادر الطبرى يعنيه: وقد نظم بعض المتطفلين على الأدب قصة السيل المذكور مع قصة ما وقع بعده فى أبيات تنفر عنها المسامع لركاكتها وقبحها، واستهجان الطباع السليمة لها، يشير بذلك إلى هذه

القصيدة التى مطلعها «ماجت»، ولقد صدق فيما قال رحمه الله.

نعم قوله فى تاريخ هدم البيت بالسيل المذكور: [من الخفيف]

هـدّمَ الـبـيـت أمـر رَبٍّ تـغـشّـا ... هُ بسيلٍ لم يحوِ غرقاه ضبط

فى نهارِ الخميسِ عشرينَ شعبا ... نَ قبيلَ الغروبِ مِنْ عام (لغط)

لا بأس به. وقال الإمام فضل بن عبد الله الطبرى مؤرخًا لذلك: [من مجزوء الرجز]

سُئِلْتُ عَنْ سيلٍ أتَى ... والبيتُ عنه قد سقَطْ

متَى أتى؟ قلتُ لهُمْ ... مَجِيئُهُ كَانَ (غَلَطْ)

وله تاريخ آخر من أبيات «رقى إلى قفل بيت الله» وتتمة المصراع «حين هجم»

وقال القاضى الأحسائى: [من المجتث]

مِنْ بعْد إخراجِ ترك ... وقَتْلِ مَنْ ملَّكَتْهُ

للبيت هدَّتْ سيولٌ ... تاريخُهَا دَخَلَتْهُ

فوقع الضجيج العام، والانزعاج التام، فى قلوب الأنام، فبرز مولانا الشريف مسعود من داره إلى المسجد الحرام، وحضر معه السادة الأشراف، وفاتح البيت الشريف وهو الشيخ محمد بن أبى القاسم الشيبى، والعلماء والفقهاء والصلحاء، وكان جلوسهم بمقام الحنفى وجلوس الشريف على نفس المحراب كما أخبرنى من رآه كذلك، فبرز أمر الشريف مسعود بإيقاد الشموع الكائنة فى حاصل المسجد الحرام فأوقدت، وأمر فاتح البيت أن يدخل الكعبة ويخرج القناديل التى بها خشية عليها من الضياع، وأن يرفع الميزاب الشريف أيضًا، فعين الشيخ شخصًا من خدام الكعبة لذلك لكونه فى أثر مرض يمنعه من الحركة التامة، فدخل ذلك الخادم ومعه جماعة، وأتى شيخ الوقادين بالمحط، وأخرجوا القناديل، ووضعوها فى مخزن فاتح البيت، وختم على المخزن المذكور مولانا الشريف، وقاضى الشرع ونائب الحرم الشريف، ثم انصرف الناس إلى دورهم.

فلما كان يوم الجمعة حادى عشرى الشهر المذكور وصل الشريف مسعود، ومعه السادة والأعيان بعد النداء العام بتعاطى هذه الخدمة، وشرعوا فى إزالة الطين الكائن بالمطاف، فشمر الشريف مسعود عن أكمامه، وأخذ مكتلا وحمل فيه من الطين،

وفعل الناس كذلك، فجزى الله الجميع خيرًا، وأثابهم على فعلهم، فما كان بأسرع من تنظيف المطاف وما حوله، فباشر الخطيب الجمعة، وأقام شعارها، ثم شرعوا فى رفع الأحجار، فمنها ما جعلوه خلف مقام الحنفى، ومنها عند ممشى باب السلام بالقرب من المنبر.

ثم إن الشريف جهز قاصدًا من مكة، ومعه السيد على بن هيزع لتعريف باشا مصر المحروسة ووزير جهاتها المأنوسة بهذا الخبر ليعرضه على الحضرة الخنكارية، وصحبتهم مكاتيب مولانا الشريف مسعود، ومحاضر من الأعيان وفتاوى العلماء، فعزم القاصد المذكور من مكة أواخر شعبان، ثم إن الشريف برز أمره العالى إلى المهندسين، والفعلة بتنظيف باطن الكعبة مما وقع فيها من الأحجار والتراب فنظفت، ثم إن الشريف أرسل إلى جدة لتحصيل خشب يجعل على الكعبة لسترها إلى أن يشرعوا فى العمارة، فوصل الخشب آخر رمضان، فستروا جميع ما سقط منها، وجعلوا بابًا لطيفًا من خشب فى الجهة الشرقية.

فلما كان شهر شوال جعل الشريف ثوبًا أخضر، وألبسة الكعبة الشريفة بعد أن حضر بالمسجد الحرام، ثم بعد إلباسه دخل الكعبة، وصلى بها، ثم برز فطاف والريس يدعو له على قبة زمزم كعادة أسلافه، وكان الإلباس المذكور سابع شوال من السنة المذكورة.

ولما أن كان خامس عشر شوال وصل القاصد من مصر المحروسة، وأخبر بوصول الأغا رضوان المعمار معينًا للعمارة، وكان وصوله معه، إلا أنه تأخر عن ذلك اليوم، فدخل فى اليوم الثانى يوم سادس عشر شوال، ونزل بالجوخى، ثم دخل مكة يوم سابع عشر الشهر المذكور وصحبته نامة سلطانية، وخلعة للشريف مسعود، فألبسه إياها بالمسجد الحرام يوم السبت سابع عشر شوال بعد اجتماع السادة والفقهاء والأعيان، وقرئت النامة، والأحكام الباشوية، ثم شرع الأمير رضوان فى تنظيف المسجد الحرام، فأكمل ذلك وفرشه بالحصى، ولم يرد الحجاج إلا وقد تم جميع ذلك.

ثم لما كان يوم الأحد سادس عشرى شهر ربيع الثانى من عام أربعين وألف، وصل إلى مكة السيد محمد أفندى متوليًا قضاء المدينة الشريفة، ومعينًا لعمارة الكعبة

المشرفة، وكان وصوله إلى بندر جدة بحرًا، وصحبته نامة سلطانية، وخلعة عثمانية من الحضرة الشريفة المرادية باسم مولانا الشريف مسعود، فقرئت النامة بالحطيم بعد حضور قاضى مكة، وشيخ حرمها، ومولانا السيد عبد الكريم ابن السيد الشريف إدريس نيابة عن أخيه مولانا الشريف مسعود، وحملت الخلعة صحبة السيد عبد الكريم، والسيد محمد أفندى، والأمير رضوان، والأجناد إلى مولانا الشريف مسعود، فلبسها ببستانه بالمعابدة؛ لكونه مقيما فيه لتوعك مزاجه الكريم.

فاستمر مريضًا بمرض الدق إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى فى ليلة الثلاثاء عشرى ربيع الثانى سنة أربعين، وكانت مدة ولايته سنة وثلاثة أشهر إلا أربعة أيام، رحمه الله رحمة واسعة.

وضبط الأمير رضوان البلد ضبطًا حسنًا وأمر المنادى بالنداء أن البلد بلد السلطان. وما زاد على ذلك؛ دفعًا للفتنة، فجاءت الأشراف وسألوه عن المعيّن للأمر فأبى أن يعينه وأمرهم بتجهيز الشريف مسعود، فنزل به الأشراف وقت الضحوة إلى مكة على محفة البغال، وغسل وصلى عليه عند الكعبة قاضى الشرع مولانا العلامة حسين أفندى، وخطب عليه خطبة أبكت العيون، وأنكت القلوب، ودفن عند أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد.

ومما قيل فيه من الشعر قول العلامة القاضى أحمد بن عيسى المرشدى: [من البسيط]

عوجا قليلًا كذا عن أيمنِ الوادِي ... واستوقفا العيسَ لا يحدُو بها الحادِى
وعرِّجَا بى علَى ربعٍ صحبْتُ به ... شرخَ الشبيبةِ فى أكنافِ أجيادِ
واستعطفا جيرةً بالشعْبِ قد نزلُوا ... أعلى الكثيبِ فَهُمْ غيى وإرشادِى
وسائلا عَنْ فؤادِى تبلُغَا أملى ... إنَّ التعلل يشفى غُلَّةَ الصادى
واستشفعا تشفَعَا نسألْكُمُ فعسَى ... يقدِّرِ الله إسعافى وإسْعَادى
وأجملا بى وحُطَّا عَنْ قلوصكما ... فى سوحِ مُرْدِى الأعادى الضيغمِ العادِى
مسعودُ عَيْنِ العلا المسعودُ طالعُهُ ... قَلْبُ الكتيبةِ صَدْرُ الحَفْلِ والنادى
رأسُ الملوكِ وعينُ الملكِ ساعده ... زَنْدُ المعالى جَبِينُ الجَحْفَلِ البَادِى
شهمُ السراةِ الألى سارَتْ عوارفُهُمْ ... شرقًا وغربًا بأغوارٍ وأنجادِ
نرد غمار العُلاَ فى سوحِهِ ونرخ ... أيدى الركائبِ من وخدٍ وإسآدِ

فلا مناخ لنا فى غير ساحتِهِ … وَجُود كفيه فيها رائحٌ غادى
يعشوشبُ العشبُ فى أكناف عقوتِهِ … يا حبذا العشبُ فى الدنيا لمرتادِ
ونجتنى ثمرَ الآمالِ يانعةً … من روضِ معروفِهِ من قبلِ ميعادِ
فأىُّ سوحٍ يرجَّى بعد ساحته … وأىُّ قصْدٍ لمقصودٍ وقصادِ
ليهنِ ذا المُلك أن ألبسْت حلته … تُحيى مآثرَ آباءٍ وأجدادِ
لبستها فكسَوْتَ الفخرَ ملبسها … مشَهَّرا يبهرُ المصبوغَ بالجادِ
علوتَ بيتًا ففاخرْتَ النجومَ عُلاً … والشهبَ فخرًا بأسبابٍ وأوتادِ
ولحت بدرًا بأفقِ الملكِ تحسدُهُ … شمسُ النهارِ وهذا حَرُّها بادى
وصنْتَ مكةَ إذ طهَّرْتَ حوزتها … مِنْ ثلةٍ أهلِ تثليث وإلحادِ
قد غرَّ بَغْضهُمُ الإمهالُ يحسبه … عفوًا فعادوا لإتلافٍ وإفسادِ
فذدتهُمْ عن حمى البيتِ الحرامِ وهُمْ … من السلاسلِ فى أطواقِ أجياد
كأنهمْ عند رفعِ الزندِ أيديهمْ … يدعونَ حُبًّا لمولانا بإمدادِ
وما ارعوَوْا فشهرْتَ السَّيف محتسبًا … يا بردَ حَرِّهم فى حَرِّ أكبادِ
غادرتهُمْ جزرًا من كلِّ منجدلٍ … كأنَّ أثوابه مُجَّتْ بفرصادِ
وأثمرَ السذرُ من أجسادهم ثمرًا … حلوًا بأفواهِ أجداثٍ وأنجادِ
سعيْتَ سعيًا جنيًّا مِنْ خمائله … نورُ الأمانِ لأرواحٍ بأجسادِ
فكَمْ بمكَّةَ من داعٍ ومبتهلٍ … ومن محبٍّ ومن مثنٍ ومِنْ فادى
وعادَ كل قصيٍّ مصلحًا وغدَتْ … أيامُنَا بالهنا أيامَ أعيادِ
نَفى لذيذَ الكرَى عنهم تذكُّرُهُمْ … وكان مِنْ قبل صعبًا غير منقادِ
أباحَ سرحك أن يرعَى منازلَهُمْ … وقائعٌ لك بين الخرجِ والوادِى
من كل أبيضَ قد صَلَّتْ مضاربه … لما ترقَّى خطيبًا منبرَ الهادِى
وقادَ كلَّ قصىٍّ ذله مهلاً … مهملاً كلّ معوجٍ ومنآدِ
وكلّ أسمر نظام الكُلَى وله … إلى العدَى طفرة النَّظَّام ميادِ
وصانَ وسمك فى جأشٍ يخالطُهُ … عنْ رَبِّ عزٍّ تنضَّاهُ بأحشادِ
أسكنْتَ قلبهمُ رعبًا تذكُّرُهُ … ينسى الشفوق الموالى ذِكْر أولادِ
أقبلتهم كُلّ مرقالٍ وسابحةٍ … يسرعْنَ عدوًا إلى الأعدا بأطوادِ

مِنْ كُلِّ شهمٍ إلى العلياءِ منتسبٍ بسادةٍ قادةٍ للخيلِ أجوادِ
فهاكَ يابْنَ رسولِ الله مِدْحَةَ مَنْ أورَتْ قريحته من بعدِ إخمادِ
فأحكَمَتْ فيكَ نظمًا كله غُرَرٌ ما أحرزَتْ مثله أقيالُ بغدادِ
أضحَتْ قوافيه والإحسانُ يشرَحُهَا روضَ بديعٍ لإرصادِ بمرصادِ
ترويه عنِّى الثريا وَهْىَ هازئةٌ بالأصمعىِّ وما يروى وحمادِ
وتستحثُّ مطايا الزُّهر إن ركدَتْ كأنها إبلٌ يحدو بها الحادِى
وتوقظ الركبَ ميلاً من خمارِ كرًى والليل مِنْ طولِ تدآبِ السرَى هادِى
أتتْكَ تشفَعُ إذلالاً لمنشئِهَا فاقبَلْ تذللَهَا يا نَسْلَ أمجادِ
وأسْبِلِ الصفْحَ سترًا إن بدا خَللٌ تهتك به سِتْرَ أعدائى وحُسَّادى
وقلْ تقرَّبْ إلينا تستعزَّ بنا ما حقُّ مثلكَ أن يقصى بإبعادِ
لازلْتَ يا عزَّ أهلِ البيتِ فى دَعَةٍ تحفُّ منهم بأنصارٍ وأنجادِ
مسعودُ جَدُّ سعيد الفأل طالعه سعدُ السعودِ وملقى كلِّ إسعادِ
بحقِّ طه وسبطَيهِ وأُمِّهما والمرتضَى والمثنَّى الطهْر والهادِى
صلَّى عليهم إلهُ العرْشِ ما سجَعَتْ قمْريةٌ أو شدا فى مكَّةٍ شادى

وقال مولانا القاضى تاج الدين المالكى فيه أيضًا، وقدمت هى والتى قبلها فى يوم واحد يوم الجمعة ثانى رجب سنة تسع وثلاثين وألف: [من البسيط]

غُذِيتُ دَرَّ التصابِى قبلَ ميلادي فلا تَرُمْ يا عذولى فيه إرشادِى
غَىُّ التصابى رشادى والعذابُ به عَذْبٌ لدىَّ كبردِ الماءِ للصادِى
وعاذلُ الصبِّ فى شرعِ الهوَى حرجٌ يرومُ تبديلَ إصلاحٍ بإفسادِ
ليتَ العذولَ حوَى قلبى فيعذرَنِى أولَيْتَ قلْبَ عذولى بين أكبادِى
لو شامَ بَرْقَ الثنايا والتَّثَنِّى من تلْكَ القدودِ انثنَى عطفًا لإسعادِ
ولو رأَى هاديًا للجيدِ كان درَى أن اشتقاقَ الهدَى من ذلك الهادى
كم باتَ عقدًا عليه ساعدى ويَدِي نطاق مجتمعى المخفى والبادى
إذ أعيُنُ العِينِ لا تنفكُّ ظامئةً لِورْدِ ماءِ شبابى دُونَ أندادى
فيا زمَانَ الصبا حُيِّيتَ من زمنٍ أوقاتُهُ لم نُرع فيها بأنكادِ
ويا أحبتَنا روَّى معاهِدَكُمْ من العهادِ هتونٌ رائحٌ غادِى

معاهدًا كُنَّ مصطافى ومرتَبَعِى ... فكَمْ بها طال بل كَمْ طابَ تردادى
يا رائحينَ وقلْبى إثر ظعنِهِمُ ... ونازحينَ وهُمْ ذكرى وأورادِى
إن تطلبوا شرْحَ ما أيدى النوى صَنَعَتْ ... بمغرمٍ حِلْفِ إيحاشٍ وإيحادِ
فقابلوا الريحَ إذ هبَّتْ شآميةً ... تروى حديثى لكُمْ موصولَ إسنادِ
وَالَهْفَ نفسى على مغنًى به سلفَتْ ... ساعاتُ أنسٍ لنا كانَتْ كأعيادِ
كأنها وأدامَ الله مشبِهَهَا ... أيامُ دولةِ صدْرِ الدستِ والنادِى
ذو الجودِ مسعودٌ المسعودُ طالعُهُ ... لا زالَ فى برْجِ إقبالٍ وإسعادِ
عادَتْ بدولتِهِ الأيامُ مشرقةً ... تهزُّ مختالةً أعطافَ مَيَّادِ
وقلدَ الملكَ لما أن تقلده ... فخرًا على مَرِّ أزمانٍ وآبادِ
وقامَ بالله فى تدبيرِهِ فغدا ... موفقًا حالَ إصدارٍ وإيرادِ
حقّ لك الحمدُ بعد الله مفترضٌ ... فى كُلِّ آونةٍ من كلِّ حَمَّادِ
أنقذتهم مِنْ يدِ الأعداءِ متخذًا ... عند الإلهِ يدًا فيهمْ بأنجادِ
داركْتَهُمْ سُهَّدًا رمقى فعادَ لَهُمْ ... غمضٌ لجفنٍ وأرواحٌ لأجسادِ
بُشْرَاكَ يا دهْرُ حاز الملكَ كافلُهُ ... بشراكَ يا دهْرُ أخرى بِشْرُهَا بادِى
عادَتْ نجومُ بنى الزهراءِ لا أفلَتْ ... بعودةِ الدولةِ الزهْرَا لمعتادِ
واخضَلَّ روضُ الأمانِى حينَ أصبحَتِ الـ ... أجوادُ عقدًا على جَيَّاد جَيَّادِ
وأصبَحَ الدينُ والدنيا وأهلُهُمَا ... فى حفْظِ ملكٍ لظلِّ العدلِ مدادِ
يبيحُ هامَ الأعادى مِنْ صوارمه ... ما استحصدَتْ بالتقاضى كل حَصَّادِ
شَهْمٌ أيادى أياديه ونائله ... على الورَى أصبحَتْ أطواقَ أجيادِ
يَمْضِى مؤمِّلُ جدوى راحَتيهِ إلى ... طَلْقِ المحيا كريمِ الكَفِّ جوادِ
بذل الرغائب لا يعتدُّهُ كرمًا ... ما لم يكُنْ غير مسبوقٍ بميعادِ
والعَفْوُ عن قدرةٍ أشهَى لمهجتِهِ ... صينَتْ وأشفى من استيفاءِ إيعادِ
مآثِرٌ كالدرارِى رفعةً وسنًى ... وكثرةً فهْىَ لا تحصَى بتعدادِ
تسمو مناقبَ مَنْ كُلَّ الكمالِ حوَى ... وأنْتَ ذلك عن حَصْرٍ بأعدادِ
فأنْتَ من معشرٍ إن غارةٌ عرضَتْ ... خفوا إليها وفى النادِى كأطوادِ
كم هجمةٍ لكَ والأبطالُ محجمةٌ ... ووقفةٍ أوقفَتْ ليثَ الشرَى العادِى

بكلِّ أبيضَ مقصودٍ لمضطهدٍ ... ولـلـمـرائـرِ والـمـرانِ قـصَّـادِ
فَخْرَ الملوكِ الألى فَخْرُ الزمان بهمْ ... دُمْ حـائـزًا مُـلْـكَ آبـاءٍ وأجـدادِ
وليهنِ حلته أن رختَ لابسها ... إذْ أصبَحَتْ خير أثوابٍ وأبرادِ
واسْتَجل أبكارَ أفكارٍ مخدرة ... قد طالَ تَعْنيسها من فَقْدِ أندادِ
كَمْ رُدَّ خُطَّابها حتى رأتْكَ وقَدْ ... أمَّتْكَ خاطبةً يا نسْلَ أمجادِ
أفرغت فى قالبِ الألفاظِ جوهَرَهَا ... سبكًا بذهْنٍ وَرِيِّ الزندِ وقادِ
وصاغَهَا فى معاليكُمْ وأخلَصَهَا ... وُدّ ضميرىَ فيه عَدْلُ إشهادِ
يحدو بها العِيسَ حاديها إذا زَحَرَتْ ... من طولِ وخْدٍ وإرقالٍ وإرشادِ
كـأنـمـا الـراحُ بـالألـبـابِ لاعـبـةٌ ... إذا شدا بَيْنَ سُمَّارٍ بها شادِي
بفضلها فضلاءُ العصْرِ شاهدة ... والفضْلُ ما كان عن تسليمِ أضدادِ
فلو غَدَتْ من حبيبٍ فى مسامعِهِ ... أو الصفى استحالا بَعْضَ حسادى
واستنزلا عن مطايا القَوْلِ رحْلهُمَا ... واستوقَفَا العيسَ لا يحدُو بها الحادِى
وحَسْبُهَا فى التسامِى والتقدُّم في ... عَدِّ المفاخرِ إذ تغدو لتعدادِ
تقريظُهَا عند ما جاءَتْ معارضةً ... عُوجَا قليلًا كذا عن أَيْمَنِ الوادى

نشأ الشريف مسعود فى كفالة والده الشريف إدريس صاحب مكة، ووقعت له حروب مع ابن عمه الشريف محسن بن الحسين بن الحسن كان الظفر فيها لمحسن، أولها سنة سبع وثلاثين فى ربيع الأول منها، وفى بعضها أرسل الشريف محسن ولده محمد فظفر، واستولى على مسعود، وأخذه أخذًا شديدًا، وقتل فى المعركة السيد حميضة بن عبد الكريم بن حسن، وهاشم بن شنبر بن حسن، ثم دخل الشريف مسعود مكة برضا من الشريف محسن بكفالة الأشراف أنه لا يسعى فى خلاف لا بقول ولا بفعل.

رحم الله الجميع رحمة واسعة.

ثم وليها الشريف عبد الله بن حسن، أكبر آل أبى نمى إذ ذاك ملوك البلد الحرام ومدينة جدهم عليه أفضل الصلاة والسلام، دعاه رضوان والسيد محمد المعين للعمارة، وقاضى مكة، وشيخ حرمها، فحضر ومعه من أولاده السيد محمد والسيد حسين، وكان قد تخلف عن الجنازة لذلك، فلما حضر مولانا الشريف عبد الله سأل

منه الأمير رضوان لبس خلعة شرافة البلد الحرام، فامتنع من قبول ذلك، فألزموه بذلك حقنًا لدماء العالم، وما زالوا به حتى رضى، فألبسه الأمير القفطان وحصل بولايته الأمن والأمان، وكان الاجتماع لذلك فى السبيل المنسوب لمحمد بن مزهر كاتب السر الكائن فى جهة الصفا المعروف علوه فى زماننا بسكن الشيخ على الأيوبى- رحمه الله تعالى-.

ثم لما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة حضر بالحطيم مولانا الشريف عبد الله بن حسن، والسادة الأشراف، والعلماء فدار بينهم الكلام فى بقية الجدران، والجدار اليمانى، فاتفقوا على الإشراف عليه أولا، فدخل الشريف عبد الله والجماعة إلى الكعبة، وأشرفوا على بقية الجدران، ونصب المهندسون الميزان فى الجدار اليمانى، فوجدوه خارجًا عن الميزان نحوًا من ربع ذراع، ثم برزوا من الكعبة، وجلسوا فى الحطيم، فاقتضى رأيهم أن يهدم بقية الجدارين الشرقى والغربى، ثم ينظر فى الجدار اليمانى، فإن زاد فى الميل هدم وإلا فلا، وانفض الجميع على ذلك.

ثم بعد يومين رفع سؤال إلى علماء مكة هل يجوز هدم الجدار اليمانى إذا شهد المهندسون بوهنه وسقوطه إن لم يهدم؟ فأجابوا بالجواز، فاعتمد الولاة على ذلك فتعاطوا العمارة، وشرع المهندسون فى هدم بقية الجدران، وكان ابتداء الهدم فى يوم العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين وألف، ثم لم يزالوا كذلك إلى أن أتموا الهدم، وشرعوا فى البناء، وحضر فى أثناء العمارة مولانا الشريف عبد الله، وحمل مكتلا فيه نورة، وفعل فعله جماعة من الحاضرين، فلما أن كان غرة شعبان من السنة المذكورة سنة أربعين وألف رفعت الأستار التى حول البيت الشريف، وتكامل بناء الجدران كلها:

وفى ثالث شعبان يوم الخميس ركب الميزاب، وبعد النصف من شعبان شرعوا فى تنظيف الكعبة المشرفة، وفى يوم الجمعة غرة شهر رمضان ألبست الكعبة الشريفة ثوبها ولله الحمد والشكر.

وفى ذلك يقول القاضى تاج الدين المالكى مؤرخًا لعمارتها، وممتدحًا لمعمرها مولانا السلطان مراد خان بن أحمد خان: [من الطويل]

هنيئًا لملكٍ خصَّهُ الله واجتَبَى   وصدَّاهُ للبيتِ العتيقِ بجدِّهِ
بَنَى البيتَ بعد ابنِ الزبيرِ ولم يَفُزْ   سواه بهذا الفَخْرِ لا زالَ سعدُهُ
مـليـكٌ أقـامَ الله أيـامَ مـلـكِـهِ   ولا زالَ خفاقًا مدى الدهْرِ بندُهُ
مليكٌ ملوكُ الأرضِ طرًّا عبيدُهُ   تدينُ له شرقًا وغربًا وجندُهُ
مليكٌ حباه الله فخرًا وسؤددًا   وصيتًا مداه لا ينالُ وحدُّهُ
بتعميرِهِ بيتَ الإله على يَدَي   مَنِ اختارَهُ ربُّ الورى دام رشدُهُ
قَدُونَكَ تَارِيخًا لِعَامِ بِنَائِهِ   وَفِيًّا بِضَبْطِ الْعَامِ حِينَ تَعُدُّهُ
مـرادٌ بـنـى بـيـتَ الإلـهِ وزادَهُ   سناءً بها يُزْهَى به زِيد مجْدُهُ

وله تاريخ نثر هو قوله «أسس بنيانه على تقوى من الله وهدى»، ولإبراهيم المهتار قوله: [من المتدارك]

قَدْ قيلَ تُرَى مَن يعمرُ بيـ   ـتَ الله ومَنْ يَهْدى لِرَشَادْ
فـأجبـتُ بتـاريـخٍ نَـظْـمًـا   هَا أَعْمَرَ بيتَ اللهِ مُرَادْ

قلت: يحسن أن يقابل هذا الشعر بقول القائل: [من المتدارك]

شعـر عظـم مـاثـل لكـم   حجر ضخم ترب ورماذ

واستمر مولانا الشريف عبد الله بن حسن متوليًا إلى أن حج بالناس موسم سنة أربعين بعد الألف، ثم استهل هلال محرم افتتاح سنة إحدى وأربعين وألف، فأخذ منها شهر محرم، ثم بدا له خلع نفسه من ولاية مكة، فلما كان يوم الجمعة غرة صفر من السنة المذكورة قلد إمرة مكة لولده الشريف محمد بن عبد الله بن حسن، ولمولانا الشريف زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن، وكان قد استدعاه قبل ذلك من نواحي اليمن؛ لأنهُ فر إلى تلك الجهة زمن ولاية مسعود مكة لما كان من مولانا الشريف محسن إلى أبيه إدريس أولا ثم إليه نفسه منه ثانيًا، فنودي بالبلاد لهما، وتخلى الشريف عبد الله بن حسن للتوجه إلى عبادة ربه إلى أن أتاه الأمر المحتوم بأمر الحي القيوم ليلة الجمعة عاشر جمادى الأخرى من السنة المذكورة، فكانت مدة ولايته تسعة أشهر وثلاثة أيام.

فاستمر الشريفان محمد بن عبد الله، وزيد بن محسن يدعى لهما على المنابر، والبلاد بهما قارَّة والأحوال طيبة سارة، إلى أن كان العشر الأول من شعبان المعظم

من السنة المذكورة وصلت أخبار من جهة اليمن بأن عسكرًا خرجوا على الوزير قانصوه، وأن نيتهم الوصول إلى مكة المشرفة وكان ذلك شائعًا على الألسنة.

ثم ورد مورق من القنفدة بخبر وصولهم إليها، ومعه مكاتيب إلى مولانا الشريف محمد، ومولانا الشريف زيد، ومصطفى بك الصنجق المقيم بمكة أو طراقًا من أغانى العسكر المذكور محمود وعلى بك، ومضمون مكاتيبهم أننا نريد مصر، ونريد الإقامة بمكة أيامًا لنتهيأ للسفر، فأبى عليهم صاحب مكة خوفًا من الفتنة والفساد، ودفن بعض آبار كانت فى طريقهم، فلما وصل الخبر إليهم أجمع رأيهم على دخول مكة قهرًا، واستعدوا لذلك بعد أن كتبت الأجوبة بالمنع فحصل فى البلد قيل وقال، واضطراب شديد.

فلما أن كان يوم الجمعة عشرى شعبان من السنة المذكورة بعد العصر، وهى سنة إحدى وأربعين وألف توجه مولانا الشريف محمد، والشريف زيد، والسادة الأشراف والأعراب إلى جهة بركة الماجن، وقوز المكاسة لأنه بلغهم أن الأتراك قاربوا السعدية، وبرز معهم الصنجق مصطفى بك بعد أن طلب من الشريف محمد خيلا لمن معه، فتوهم من ذلك ومنعه من الخيل فبرز معه بعسكره وجنوده، فلما أن كان ضحى يوم الأربعاء خامس عشرى شعبان المذكور وقع اللقاء بالقرب من وادى البيار بين السادة الأشراف، وبين الأتراك فحصلت ملحمة عظيمة وقتال شديد، وقتل مولانا الشريف محمد بن عبد الله بن حسن صاحب مكة، وقتل معه من السادة الأشراف جماعة منهم: مولانا السيد الجليل أحمد بن حراز، ومولانا السيد حسين ابن مغامس، ومولانا السيد سعيد بن راشد، وخلق آخرون، وأصيبت يد مولانا السيد هزاع بن محمد الحارث فقطعت، ولم تنفصل فدخل بها كذلك إلى مكة، ومر على جهة سوق الليل قائلا: عذرى إليكم يا أهل مكة ما ترونه، وتوجه بقية الأشراف إلى وادى مر.

فبعد تمام الوقعة دخل الأتراك، ونودى بالبلد للشريف نامى بن عبد المطلب بن حسن، وكان دخولهم من جهة بركة الماجن، فتعب الناس أشد التعب، وحصل الخوف الشديد، وتسلطت هذه العساكر على الناس وأتعبوهم وأهلكوهم فسقًا ونهبا وظلما وشربًا، وتقطعت الطرق وعصت الأعراب، وحمل الشريف محمد بن

عبد الله فى عصر ذلك اليوم، ودفن بالمعلاة فى مقابر آبائه وأجداده بعد أن قاتل قتال من لا يخاف الموت، وكانت مدة ولايتهما سبعة أشهر إلا ستة أيام.

وكان خروج الشريف محمد بن عبد الله -رحمه الله تعالى- إلى لقاء هؤلاء الأتراك فى مثل سقوط البيت الشريف فى اليوم والساعة فإنه كان يوم عشرين من شعبان بعد العصر من سنة تسع وثلاثين بعد الألف، وخروج الشريف المذكور لذلك فى يوم عشرين من شعبان بعد العصر سنة إحدى وأربعين وألف، فبين سقوط البيت الشريف وخروج السيد الشريف سنتان بغير زيادة، فلله هذا الاتفاق.

ثم وليها الشريف نامى بن عبد المطلب، وتوجه مولانا الشريف زيد إلى وادى مر بعد أن دخل مكة ومعه السيد أحمد بن محمد الحارث، ومرا على بيت الشريف نامى بن عبد المطلب فدعاه مولانا الشريف زيد، فخرج إليه، فناوشه بعض كلام، فقال السيد أحمد: ليس الوقت وقت كلام، وكان من جملة ما قاله له مولانا الشريف زيد: [من المتقارب]

تُجَازَى الرجالُ بأفعالِهَا خيرًا بخَيْرٍ وشرًّا بشَرّ

فالله الله بالحريم. أو ما يقرب من هذا الكلام، ثم سار إلى المدينة الشريفة، وكتب عروضًا بالتعريف بالواقع، وأرسلها إلى باشا مصر صحبة السيد على بن هيزع حوالة مكة بمصر، ولما وصل الخبر لصاحب مصر، أرسل إليهم سبعة صناجق، وأرسل بخلعة سلطانية لمولانا المرحوم الشريف زيد بن محسن مع الأغا محمد أرض رومى وجماعة من خواصه، وبلغهم أن الشريف زيد بالمدينة، فدخلوا إليها، وخلعوا عليه بملك الحجاز فى الحجرة النبوية، وتوجه إلى العسكر وأتوا جميعًا إلى مكة، ووصل خبر ذلك إلى مكة وتحقق، فاضطربت حينئذ آراء العساكر الجلالية اليمنية: فمن قائل: نخرج، ومن قائل: نقاتل، ثم وصل الخبر بأن العساكر المصرية وصلت عسفان، فاقتضى رأى عسكر اليمن أن يرسلوا من يكشف لهم الخبر، فأرسلوا جماعة فوصلوا إلى وادى مر، والعساكر المصرية قد أقبلت، فرجعوا إلى مكة وأخبروا من بها بذلك، فأظهروا حركة الرحيل عنها.

فلما كان يوم الأربعاء خامس ذى الحجة خرجوا كلهم ومعهم مولانا الشريف نامى وأخوه السيد السيد والسيد عبد العزيز إدريس، ولم يبق منهم أحد، وكان

بروزهم وقت أذان العصر، فلما أن حاذوا باب النبى ﷺ المسمى الآن باب الحريريين قال المؤذن: الله أكبر، فسقط بيرق محمود منهم، فكان سقوطه فألا عليهم، ثم ساروا فنزلوا عند جبل حراء وباتوا، فلما كان أثناء الليل سرى السيد عبد العزيز بن إدريس على نجيبة له أعدت خلف الجبل فقعد عليها، وتوجه إلى ينبع فنجا، فلما أسفر الصبح، ولم يجدوه فعلموا أنه اختلس نفسه، فزاد احتفاظهم على الشريف نامى وأخيه السيد وأمست مكة بعد خروجهم خالية، وكان بها مولانا السيد الشريف أحمد بن قتادة بن ثقبة، فنادى فى البلد: إن البلاد بلاد الله والسلطان مراد، وعس البلد تلك الليلة.

ثم لما كان شروق يوم الخميس سادس ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة، دخل مولانا الشريف زيد بن محسن بمن معه من الصناجق، وكان نزوله بدار السعادة، ثم نزل وقت الضحى من ذلك اليوم إلى المسجد الحرام، فجلس فى السبيل الذى بجانب زمزم، ومعه الأمير على الفقارى أحد الصناجق الواصلين، ثم خرج مولانا الشريف من السبيل المذكور، وطاف بالبيت أسبوعًا، والريس يدعو له على قبة زمزم، ثم خرج المنادى ينادى بأن البلاد بلاد الله، وبلاد مولانا السلطان مراد، ومولانا الشريف زيد بن محسن، ثم طلب بعض الصناجق الخروج إلى الجلالية لقرب إدراكهم، فقال له مولانا الشريف زيد: الرأى أن نحج، وتحج الأمة، وتفلح ثم نلحقهم فيقرب الله بعيدهم ولا يفوتون.

فحج مولانا الشريف تلك السنة بالناس، وأزال الله به عن أهل مكة بل عن قطر الحجاز كل باس.

وبعد أن أتم مولانا الشريف المناسك، وصل إلى مكة بعض العساكر اليمنية بشفاعة إبراهيم باشا أمير الحاج الشامى فى تلك السنة.

ولما كان يوم الثلاثاء ثانى محرم الحرام افتتاح سنة اثنتين وأربعين وألف: عقد مجلس بالمسجد الحرام عند مقام المالكى حضر فيه مولانا الشريف زيد، وغالب الصناجق، وغالب السادة الأشراف، والسادة الفقهاء، وتفاوضوا فى أمر العسكر اليمانى، فاتفق الحال على أنهم يعزمون إليهم، فبرزوا ذلك اليوم، ومعهم مولانا الشريف زيد وجماعته، فأدركوهم فى محل يقال له: تربة فحاصروهم، ثم وقع

القتال بينهم بالبندق، فاستمسك على بك لنفسه من الصناجق على أن يسلم من القتل، والتزم لهم بمحمود بك، فقبلوا ذلك، وأمسكوا محمود بحيلة دبروها، ثم رجعوا فدخلوا مكة المشرفة فى أول يوم الخميس ثامن عشر محرم الحرام من السنة المذكورة، ومعهم محمود بك أحد أغاتى العسكر اليمنى، فعذب بأنواع العذاب، وطيف به على جمل فى شوارع مكة عارى الجسد إلا ساتر عورته، ومد باعه بعصا، وربطت يداه عليها عورضت من خلفه، وشقت عضداه وذراعاه، وغرز فيها مصطفة خرق الزيت الموقدة، ووكل بتلك العصا من يضربها من خلف حينًا بعد حين فيتناثر سقطها على جسده، والعياذ بالله تعالى، ثم علق بكلاب أدخل فى رأس ذراع يده اليمنى، ثم أدخل تحت عصب عقب رجله اليسرى، ودفع إلى شجرة جميز عند باب المعلاة فمكث كذلك نحو ثلاثة أيام حيًّا يسب ويفحش ويفجر إلى أن مات، فأنزل وأخذ إلى شعبة العفاريت فأحرق ثَمَّ.

وأما الأغا الآخر على بك فلم يحصل عليه سوء أصلا وذلك لتدبيره تلك الحيلة على محمود، ولحسن سلوكه حال دخوله مكة مع بعض حريم لمولانا الشريف زيد فإنه آمنهم، ووصلهم بخير، وكان يتردد إليهن ويتفقد أحوالهن ويبشرهن، فكان ذلك سببًا لسلامته، وخلوصه مما وقع لرفيقه.

ثم لما كان أواخر شهر محرم افتتاح السنة المذكورة كان مجمع كبير أمام باب مدرسة السلطان قايتباى، حضر فيه الصناجق والأمراء والقضاة، ثم جيء بالمرحوم مولانا السيد الشريف نامى بن عبد المطلب، وأخيه مولانا السيد السيد بن عبد المطلب، فاستفتيت العلماء فيهما، فأجابوا بحكم الله تعالى، فذهب بهما فى شرذمة من العسكر إلى أعلى الردم فتوفيا شهيدين رحمهما الله رحمة واسعة، وغفر لهما مغفرة جامعة آمين.

وكانت مدة ولايته على مكة مائة يوم ويوم وهى عدد حروف اسمه نامى، لأنه دخلها يوم خمس وعشرين من شعبان من سنة إحدى وأربعين بعد الألف، وخرج منها عصر اليوم الخامس من ذى الحجة من السنة المذكورة كما تقدم، وتلك المدة مائة يوم ويوم.

وفى ذلك يقول المهتار: [من الطويل]

تأمَّلْ لدنياكَ التى بصُرُوفها أبادَتْ عُلاَ ملْكٍ تأطد سامِى
بدا فأضا ثُمَّ اغتدَى الحَقُّ فانقضَى فمدَّةُ نامى عدّة احْرُف نامِى

كذا ذكره الطبرى فى تاريخه المسمى «بالأرج المسكى فى التاريخ المكى» فليراجع.

قلت: وقد حكى المقريزى نظير ذلك فى السابق، وهو أن العزيز بن برسباى أحد ملوك الشراكسة بمصر خلع يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة وكانت ولايته فى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، فكانت مدته أربعة وتسعين يومًا بعدة حروف عزيز أربعة وتسعين.

وقد تقدم ذلك فى ترجمته، إلا أنى عبرت عن الأربعة والتسعين بقولى: ثلاثة أشهر وأربعة أيام، والمعنى واحد.

وفى هذه السنة لم يذهب المحمل من مكة إلا فى العشر الأول من شهر صفر. واستقل مولانا الشريف زيد بالملك منفردًا فى الأقطار الحجازية كافة، وسعودات الأقدار به حافة، واستنزل أرباب الحصون الشامخة، واستولى على القلاع الراسخة، وملك البلاد البعيدة المنازل، واستخدم العز والظفر والإقبال، وتوالت عليه الخلع والتشاريف السلطانية، وقرت بما يهواه المناشير العثمانية، وملأ قلوب أعدائه خوفًا ورعبًا، ورقى فى معارج العز مرتقى صعبًا، وعطر بثنائه شرقًا وغربًا.

وفى سنة اثنتين وأربعين وألف أو التى قبلها توفى العلامة الشيخ أحمد المقرى المالكى التلمسانى الأصل والمولد، والفارسى الدار والمنشأ نزيل القاهرة، العلامة الحافظ المسند رحلة الدنيا، شهاب علم روض فضله نضير، ما له فى سعة الحفظ شبيه ولا نظير.

وفيها - أو فى التى بعدها - توفى السيد أحمد بن مسعود ابن سلطان مكة الشريف حسن بن أبى نمى، كان أديبًا فاضلاً من أبناء الملوك النجباء يحب العلماء، وأهل الخير، ويجالسهم، كريمًا. وشعره فى غاية الحسن والرقة، وله فطنة تدرك رقة الرقة.

ولما وقعت بين القاضى تاج الدين المالكى، وبين غرس الدين المدنى المنافرة الشديدة جمع بينهما، وأصلح ما كان منهما.

وله ديوان كله غرر، كل سلك منه لا تذكر معه الدرر.

فهو نابغة بنى حسن، وباقعة الفصاحة واللسن، الساحب ذيل البلاغة على سحبان، والسائر بأقواله الركبان.

أحد السادة الذين رووا حديث السيادة برًا عن بر، والساسة الذين تفتقت لهم ريح الجلاد بعنبر، فاقتطفوا نوار الشرف من روض الحسب الأنضر، وجنوا ثمر الوقائع يانعًا بالنصر من ورق الحديد الأخضر، لم يزل يقدر من نيل الملك ما لم يف به عَدده وعُدده، ولم يمده من القضاء والزمان مَدده ومُدده، فاقتحم لطلبه بحرًا وبرًا، وقلد للملوك جِيدًا ونحرًا، فلم يسعفه أحد ولم يساعد، وإذا عظم المطلوب قل المساعد.

دخل إلى شهارة من بلاد اليمن فى أحد الجمادين فى سنة ثمان وثلاثين وألف، وامتدح بها إمامها محمد بن القاسم بقصيدة راح بها ثغر مديحه ضاحكا بأسم، وطلب منه فيها مساعدته على تخليص مكة المشرفة له، وإبلاغه من تحليه بولايتها أمله، وكان ملكها إذ ذاك الشريف أحمد بن عبد المطلب وأشار فى بعض أبياته إليه، وطعن فيها بسنان بيانه عليه، وهى: [من الطويل]

سلُوا عن دمى ذاتَ الخلاخلِ والعقدِ ... بماذا استحلَّتْ أخْذَ روحى على عَمْدِ
فإنْ أمنَتْ ألاَّ تقادَ بما جنَتْ ... فقد قيلَ إن الحرَّ يقتل بالعبْدِ
وإن أخَذتها دونَ كلى فإننى ... جليدٌ ومضعوفُ العزائمِ بالصَّدِّ
خذا قبلةً منها تديه فإنه ... قتيلٌ ولكنْ ليس يلحدُ فى لحدِ
صريعٌ بسهمِ اللحظِ والبينِ لم تزلْ ... مقسمةً أجزاه فى القرْبِ والبعدِ
أخو لوعةٍ لو أن أيْسَرَ بعضها ... بصَلْدٍ لكان العِهْنُ أقوَى من الصلْدِ
ومُرًّا على الوادِى الذى قد تفاوَحَتْ ... جوانبه عرفًا بما ضاعَ عَنْ هنْدِ
وعوجا رقابَ العيسِ فيها عشيةً ... لنبكى بها عصرًا تولى على نَجْدِ
ونقضِى لباناتِ الصبَا بمحلَّةٍ ... بوجنةِ وَجْهِ الدهرِ كالخالِ فى الخَدِّ
زمان ووجه الدهْرِ طلقٌ وقدُّهُ ... نضيرٌ وثغْرُ الوصلِ يفترُّ عن عقدِ
أجرُّ به ذيل الخلاعةِ رافلاً ... وأركض خيلَ الغيِّ فى حلبةِ الرشدِ
وأمرحُ فى شرخ الشبابِ وحاسِدِي ... يدعدعُ لى أن أكبُ يومًا على وعدِ

فللهِ أيامٌ وربعٌ تصرمَتْ ... لياليهما عنّى وعوضَنِى وخدِى
فأصبحْتُ فى جيشٍ من الحبِّ أرعن ... على أننى فى نهجِهِ مفردٌ وحدِى
أعضُّ به كفى وأقرعُ بالحيا ... لسانِى وما يغنى فتيلاً ولا يجدِى
وَأَنْدُبُ أَيَّامًا عَلَى غيضةِ الغضَا ... وَغَيْظِى بِهَا غَيْظ الْأَسِيرِ عَلَى الْقَدِّ
فحيَّا الحَيَا دارًا بنجدٍ وأختها ... معطَّلة بالغورِ والعَلَم الفردِ
ومنعرج بالجزْعِ هل ماتَ رسمُهُ ... فأحييهِ بالتأبينِ أمْ هُوْ عَلَى عَهْدى
فثَمَّ به قلبٌ فَقِيدٌ حبسنَهُ ... عيونُ المها بين الأجارعِ والرندِ
ولكنَّها لم تَدْرِ أنَّ محمدًا ... طلوبٌ لنا لو كانَ فى مربضِ الأسدِ
إمامٌ شأى فى الفخرِ أهلَ زمانِهِ ... فأنْسَى وأعْيَا فيه للقَبْلِ والبَعْدِ
ينادى أمير المؤمنينَ لأنه ... تقمَّصَهَا إرثًا عن الأبِ والجَدِّ
وغيثٌ إذا ما النوءُ خوَّتْ رعودُهُ ... فراحاتُهُ فى المحْلِ تغنى عن الرغْدِ
وضرغامُ حرْبٍ حين تَنْصَلِتُ الظبا ... وينقصمُ المران فى السرْدِ والسردِ
إذا انكسَرَ الهنديُّ فى رأسِ قرنِهِ ... فمن عرضِهِ عضبٌ أَحَدُّ من الهندِي
أخو صبوةٍ بالمكرُماتِ فلم تَزَلْ ... بمنظره فى أشرَفِ الزمَنِ الرغْدِ
فبدْرٌ لمستجْلٍ ووَرْدٌ لمجتَنٍ ... وغيثٌ لمستجدٍ وليثٌ لمستَغْدِى
وأيامُهُ بيضٌ وخضْرٌ بجودِهِ ... ألاَ إنَّهَا مِنْ عدله زَمَن الوردِ
فإن يكُ بالإفضالِ والبأسِ والتقَى ... وربّ الثنا والحِلْم والعِلْم والزهدِ
دَعِى بأميرِ المؤمنينَ محمدٍ ... خليفتنا المهدىّ هذا هو المَهْدِى
محكِّمُ سيفِ الحقِّ فى كلِّ ملحدٍ ... ومَرجعُ أهلِ العقلِ فى الحلِّ والعقدِ
وطَلاَّبُ وِتْرِ الدِّينِ فى كلِّ مأزقٍ ... ولم ينتصفْ فى المالِ والنفسِ والولدِ
شكَتْهُ المطايا والفيافى لكثْرِ ما ... يطأْهَا ويمطاها إليه مِنَ الوفدِ
ولو أنه خَلَّى شهارة سائرًا ... لسارَ إليه القاصدُونَ إلى السَّدِّ
ولولاهُ لم يُشْهَرْ حسامٌ ولم يثرْ ... قتامٌ ولم يُسْفرْ ظلامٌ لمستهدى
ولم يقصدِ الوفَّادُ عنه لسيِّد ... قطعْنَ بهم هيماءَ للعينِ والصفدِ
ولم تفتخر إلا بما عافَ سادةٌ ... غداةَ افتخارٍ فى ندىٌ منَ المجْدِ
ففى الذهْنِ والآراءِ قيسٌ وعتبةٌ ... وفى الجودِ والهيجاءِ جودٌ وذو لبْدِ

فلو لامَسَتْ يومَ الرغائبِ كفَّهُ ... يدا مادرٍ كانتْ لها بالندَى تُعْدِى
فيا ليتَ شعْرِى مَنْ كليبٌ وحاتمٌ ... على أنهم ما إنْ لهم فيه من نِدٍّ
فيابنَ رسولِ الله جئتُكَ شاكيًا ... لأعداءِ دينِ الله فى الهزْلِ والجِدِّ
زعانفةٌ لا ينكرُونَ قبيحةً ... ولم يختشوا فى الفسْقِ من قَاهِرٍ فردِ
ولا مِنْ أميرِ المؤمنينَ محمَّدٍ ... حليف الوغَى فى الله والسيفِ والحمدِ
وحامِى ذمارِ المجدِ إنْ ضاعَ سوحُهُ ... ولو أنه بَيْنَ الأساودِ والأسدِ
خطيبٌ إذا ما قامَ فى رأسِ منبرٍ ... وخَطْبٌ عَلَى ظهْرِ المطهَّمةِ الجرْدِ
فيا لَكَ من حبرٍ ليوم مجَادِلٍ ... وذمر يُسَمَّى فى المجالد بالجلْدِ
فليثٌ وغيثٌ فى قراعٍ وفى ندًى ... وسعدٌ ونحسٌ للولى وللضِّدِّ
وخذْهَا عروسًا ذاتَ دلٍّ تزفُّها ... من الشكْرِ أجنادٌ فلله من جُنْدِ
مفوفةً دبجْتُهَا بمديحِ مَنْ ... تضوعُ بذكراه على المسْكِ والنَّدِّ
لدينٍ وجاهٍ ذا ارتفاعٍ ونجدةٍ ... أعيشُ بها لا للمعايشِ والنقدِ
وإنى من القومِ الذين وليدُهُمْ ... ترجِّيهِ إنهاءُ المطالبِ فى المهدِ
أَعَزُّ ملوكِ الأرضِ فرعًا ومحتدًا ... وأوفى الكرامِ الغُرِّ فى العقدِ والوعدِ
إذا عُدِّدَتْ للصِّيدِ بعضُ محاسنٍ ... فأحسابُهُمْ فى المجدِ تربو على العَدِّ
بأفنيةٍ خضرٍ وسودٍ مراجلٍ ... وألويةٍ حمرٍ وألسنةٍ لُدِّ
وأوجهُهُمْ للبيضِ والسمْرِ فى الورى ... وأيديهمُ فى الحرْبِ للضربِ والشكْدِ
ولم يُخلقوا إلا لكشْفِ مُلِمَّةٍ ... غشا خطبُهَا أهلَ البسيطةِ بالربدِ
فقمْ يابنَ عِزِّ الدينِ لو كنتَ واحدًا ... فأنتَ بحمدِ الله غَانٍ عن الحشْدِ
وأنَّى وأنتَ الليثُ واللدنُ غابه ... وأشبالُكَ الفرسانُ تعدو على الجردِ
وحولَكَ صِيدٌ من علىٍّ غطارفٌ ... هم الناسُ فى الهيجاءِ والحَسَب العدِّ
وخيلٌ إذا صاحَ الصريخُ توردَتْ ... ورود القطا نحو الصياحِ إلى الورْدِ
وحظُّكَ يبدى كلَّ يوم عجائبًا ... بها يقهَرُ الأيامَ فى الجزر والمدِّ
فلو شئتَ أن تصطاد ليثًا بأرنبٍ ... لجدّ له إذ زاحم الجدّ للجدِّ
فما العذْرُ فى التأخيرِ والسُّمْر والظبا ... تقاضاه يومًا فى التهائِمِ والنجْدِ
أغثْ مكَّةَ وانهَض فأنتَ مؤيَّدٌ ... مِنَ الله بالفتحِ المعوّضِ والجدِّ

وقدِّمْ أخا وُدٍّ وأخِّرْ مبغضًا ... يساورُ طعنًا فى المؤيِّدِ والمهدى
ويطعنُ فى كُلِّ الأئمَّةِ معلنًا ... ويرضى عَنِ ابنِ العاصِ والنجْلِ من هِنْدِ
وكانَ لهم يومَ القيامةِ ثالثًا ... وفى هذِهِ ثانٍ لأوّلِ مَنْ يُردى
ودمْتَ مدى الأيامِ للدِّينِ والعلا ... وبذْلِ اللها والأخْذِ فى الله والرَّدِّ

ولم يحصل منه على نائل، إلا ما أجازه به من فواضل.

فعاد إلى مكة المشرفة سنة تسع وثلاثين وألف وأقام بها سنتين، ثم توجه أوسط شهر ربيع الثانى من سنة إحدى وأربعين وألف إلى الديار الرومية قاصدًا ملكها السلطان مراد بن أحمد خان، فورد عليه القسطنطينية العظمى واجتمع به، وامتدحه بقصيدة فريدة سأله فيها تولية مكة المشرفة، وأنشده إياها فى أواخر شوال من السنة المذكورة وهى: [من الوافر]

ألا هُبِّى فقَدْ بكَرَ الندامى ... ومجّ المزج من ظلمِ الندامى
وهينمت القبول فضَاعَ نَشْرٌ ... روى عن شيخِ نَجْدٍ والخزاما
وقد وضَعَتْ عذارى المزن طفلاً ... بمَهْدِ الروضِ تغذوهُ النعاما
فَهُبِّى وامزُجِى خمرًا بظلْمٍ ... لتُحْيِى مَا أمَتِى يا أُمَامَا
ومُنِّى بالحياةِ على أناسٍ ... بشربِ الراحِ صرْعَى والطَّلاما
فكَمْ خفر الفوارسُ من وطيسٍ ... فتًى منا وما خَفَرَ الذماما
وكَمْ جدنا على قُلٍّ بوفرٍ ... وأعطينا عَلَى جَذْبٍ هجاما
وكَمْ يومٍ ضربنا الخيلَ فيه ... على أَعْقَابها خَلْفًا أماما
فنحْنُ بنو الفواطِمِ من قريشٍ ... وقادات الهواشمِ لا هِشَاما
نردُّ الوافدين بكلِّ خيرٍ ... ونثنى البيضَ حمرًا والعلامَا
برانا الله للدنيا سنَاءً ... وللأخرَى إذا قامَتْ سَنَاما
وخصَّ بفضله من أَمَّ مِنَّا ... مليكًا كان سابُورَ الهماما
فَتَى الهيجا مراد الحقِّ مَنْ لم ... يخَفْ فيه للائمةٍ مَلَامَا
محشّ الحرْبِ إنْ طارَتْ شَعاعًا ... نفوسٌ عندها قَلَّ المحاما
وغيْثٌ قَطْرُهُ وَرِقٌ وتبرٌ ... إذا طارَتْ به المحْل الركاما
فيُفنى سيفهُ حزْب وشيكًا ... ويثنى سبيه موتًا زُؤَاما

وفِـى شـفَـتـيـهِ آجـالٌ ورزقٌ ... بـهـا أمن الصَّـواعِق والسَّمَاما
يقودُهُ الملوك الصَّيد مجرًا ... فيمنحُهُ الخواِمعَ والرّخَاما
وإن وفـدوه أغـنَـاهُـمْ وأقـنَـى ... وأجلَسَهُمْ على العَلْيَا قِياما
مليكُ الأرضِ والأملاكِ طُرًا ... وإبْنُ مليكِهَا يَمَنًا وشَاما
ويجْرى من دَمِ الأعداءِ بحرًا ... ولا قَـوَدٌ عـلـيـه ولا أثَـامـا
ومسقى الجنِّ والأملاكِ غيظًا ... ومُزدِى القومِ إذْ يروى الحساما
تسنَّمَ غاربَ الدنيا فريدًا ... وجَدَّ السيرَ إذْ بَاتُوا نياما
إذا شملَتْ عنايته لئيمًا ... شأى بفخارِهِ القَوْمَ الكراما
تعاظَمَ وصفُهُ عن وصفِ شِعْرى ... كذا مرماه يسمُو أن يُرَامَى
ويكبر أنْ يعانِدَهُ عنيدٌ ... فيرميه ويعظمُ أنْ يُرَامَا
ترفَّعَ كمه عَنْ لثمِ ملكٍ ... وتلثمه الضعائفُ واليَتَامَى
وينطقُ عنده لَسِنٌ ضعيفٌ ... ولا يسطيعُ جبارٌ سلاما
أخو هِمم ولم تعلقْ يداه ... بغانيةٍ ولا ضَمَّتْ مداما
أغرُّ سميدَعٌ ضخْمُ المساعِى ... يُسَكِّنُ فى مغارمِهِ السهاما
وخادمُ قَبْرِ طه بالمواضى ... ودِين الله والبَيْت الحراما
فيا مَلِكَ الملوكِ ولا أبالى ... ولا عذرًا أسوقُ ولا احتشاما
أنفتُ بأننى أُنْزِلْكَ فيهم ... بمنزلةِ الرجالِ مِنَ الأيامَى
إلى جذْوَاكَ كلّفنا المطايا ... دوامًا لا نفارقُهَا دَوَاما
وَجُبْنَا يابْنَ عثمانَ الموامى ... إلى أن صِرْنَ من هزلٍ هياما
وذُقْنَا الشهْدَ فى مغنى الترجّى ... وذُقْنَا الصبْرَ من جوعٍ طَعَاما
صلِينَا من سموم القيظِ نارًا ... يكونُ بنورِكَ العالِى سلاما
وخُضْنَا البحْرَ من ثلْجٍ إلى أن ... حَسِبْنَاهُ على البيدا ركاما
نؤمُّ رحابَكَ الفيحَ اشتياقًا ... ونأمُلُ فيك آمالاً جِسَاما
ومَنْ قَصَدَ الكريمَ غدا أميرًا ... على ما فى يَديه ولن يُضاما
وحاشا بَحْرِكَ الفياض إنا ... نردُّ بغُلَّةٍ عنهُ حياما
وقد وافاك عبدٌ مستميحٌ ... ندا كفَّيْكَ والشِّيَمَ الكراما

فقد نَزَلَ ابنُ ذى يزن طريدًا ... على كِسْرَى فأنزله شمَاما
أتَى فردًا فعاد يَجُرُّ جيشًا ... كسا الآكامَ خيلاً والرغاما
به استبقَى جميلَ الذكر دهرًا ... وأنتَ أجلُّ من كسرَى مقاما
وسيفٌ لو سما دُونِى لأنِّى ... عِصَامِىٌّ وأسموه عِصَاما
بفاطمةٍ وإبنَيْهَا وطه ... وحيدَرَةَ الذى أشْفَى العقاما
عليهِمْ رحمةٌ تهدِى سلامًا ... تكونُ لنَشْرِها مسكًا ختاما
ولا عَجَبٌ إذا ما جاك عافٍ ... فعادَ يقودُ ذو الجبِّ لهاما
فخذْ بيدى وسَمِّينى محلاًّ ... يقربُ منك فيه لَنْ يُسَاما
وهبْ لى مَنصِبِى لتنالَ أجْرِى ... وشُكْرى ما حييتُ له دواما
فقد لَعِبَتْ ببيتِ الله حقًّا ... زعانفُ يستحلُّونَ الحراما
فعَنْ ذا ليسَ مَسْئُولاً غداةً ... سِوَاكَ إذا الورَى بقيَتْ قياما
وفى أملِى بأنْ يجزيكَ عَنِّى ... شفيعٌ عفوه يُطْفى الأُوَامَا
وفكَّ أَسيرَ أسْر ليس يرضى ... بأن يوطا وإنْ حفى الملاما
رحيمًا لينًا فَظًّا غليظًا ... على الأعداءِ لَنْ يرضى اهتضاما
عريقٌ فى مودَّتِكُمْ نصوحٌ ... وَقُوعٌ إن غشا خطبٌ وقاما
فقل سَلْ تُعْطَ أعطاكَ الذى لم ... يَخَفْ نقصًا ولم يخْشَ انتقاما
مدى الأيامِ تخفضُ ذا اعوجاجٍ ... وترفَعُ مَنْ أطاعَكَ واستقاما
ودُمْ فى رادِ عمرِكَ والأعادِى ... تمنى فى مضاجِعِهَا الحمامَا

فأجابه إلى ملتمسه ومراده، وأرعاه من مقصده أخصب مراده، ولكن مُدت إليه يد الهلك، قبل نيل الملك.

قيل: إنه سُم فى ختمة قرآن أتى إليه بها بعض الأشخاص فى هيئة درويش مهديها إليه، فلما قبلها اختلس الدرويش نفسه، فلما قبّلها السيد أحمد سقط فوه، فكان ذلك سبب موته رحمه الله تعالى.

ومن أحاسن شعره قصيدة سينية تشوق كل إنسان، وتدخل على القلوب من الآذان بغير استئذان؛ مطلعها: [من الخفيف]

حثَّ قبلَ الصباحِ نجْب كُئُوسى ... ...

وستأتى. وكذلك قصيدة يمدح بها بنى عمه ملوك الحجاز آل قتادة، وهى نبذة من أخباره وشجونه، تدل على فضله ولآلىء مكنونه. وهى: [من السريع]

حنَّتْ فأبكَتْ ذا شجونٍ حنونْ ... وغنَّتِ الورقا بأعلى الغُصُونْ
وشَقَّ بُرْدَ الليلِ برقٌ فما ... ظننته إلا حسامَ الجفونْ
كأنه مذ شَقَّ قلْبَ الدجَى ... جبينُ ليلَى فى دياجِى القرون
فقمْتُ كالهادِلِ فى شجوِهِ ... لم أدرِ ما بى فَرَحٌ أم جنونْ
وأرسَلَ الدَّمْعُ نجيعًا على ... خَدِّى فيجرى أعينًا من عيونْ
لم أرَ نؤيًا لا ولا مجثمًا ... وموقدًا أو عَلَمًا فى دمونْ
إلا وباتَ الناعمُ الفرشِ لى ... شوكًا وميعاسُ الروابى حُزُونْ
فالبرْقُ يوحى فى الدجَى رعدةً ... والوُرْقُ من شعْرى تجيدُ اللحونْ
عهدى بها كانَتْ كناسَ الظبا ... ومرتَعَ الأسدِ حماةِ الظعونْ
كلُّ طويلِ الباعِ رَحْبِ الفِنَا ... تصدُقُ للوُفَّادِ فيه الظنونْ
ليوثُ برقٍ خيسُهَا مأزقٌ ... أنيابُهَا فوقَ المذاكِى قرونْ
حتَّى غدا مِنْ بعدهم ربْعُهَا ... مفتأدًا جارتْ عليه السنونْ
كأنه جسمِى وإنْ لم يكنْ ... جسمى فوهمًا أو خيالاً يكونْ
وقفتُ فيه والأسَى والنوَى ... يستلبانِ الصبْرَ سلْبَ المنونْ
أللهِ لى من مهجةٍ مزقَتْ ... ومقلةٍ عبرَى ونَفْسٍ ونونْ
تحنُّ للشُّعْبِ وأوطانِهِ ... مهما سرَى برقٌ بليلٍ دجونْ
وفتيةٍ منْ آلِ طه لَهُمْ ... فى الحربِ أبكارٌ مزايا وعونْ
مبتذلُ الساحاتِ فى قُطْرهم ... للخائِفِ الجانى أعزّ الحصونْ
وكلُّهم يومَ الوغَى سيِّدٌ ... للضدِّ خباطٌ بلبد ظنونْ
يحمدُهُ السارونَ إنْ أدلجوا ... ويقتضى النادِى به السامِرُونْ
لا ينتهى الجارُونَ منه إلى ... شَأْوٍ ولا يعسفُهُ الجائرونْ
فيانسيماتِ الصبا عَرِّجى ... بهمْ وبثِّى غامضاتِ الشجونْ
وحاذِرِى أن تصحبى لوعَتِى ... واستَصْحِبى بَثِّى لكَىْ يفهمونْ
وبلِّغيهم حالَ من لم يزلْ ... حليفَ أشجانٍ كثيرَ الشئونْ

يستخبر الريحَ بأنفاسِهِ ويسألُ البرقَ بدمعٍ هتونْ
فشأنه يخبرُ عن شأنِهِ بدمعِهِ إن يسأل السائلونْ
ناءٍ عن الأهلِ ضعيف الأسَى أَبعد ما فارق قَلْب شطونْ
يحفظُ للزملِ عهودَ الوفا وإن طَلَبْتَ الخونَ منه يخونْ
وأنتَ يا سارى بشام النقا وحَادِىَ الظعْنِ بذاتِ الرعونْ
عَرِّضْ بذكرِى لا شَجَاكَ النوَى لعلَّهم بى بعد ذا يذكرونْ
وقُلْ لهم والله لو أبعدَتْ أخبارُكُمْ إنى كما تعهدونْ
نسيتُمُ صَبًّا غدا دمعُهُ مِنْ بعدكُمْ صبًّا قريحَ الجفونْ
وَهْوَ وماضِى العيشِ ما ساعَةٌ فيها تناسى جدّكم والمجونْ

وهذه السينية المتقدم ذكرها الفائح عطرها لمولانا السيد أحمد بن مسعود بن حسن بن أبى نمى تغمده الله برحمته: [من الخفيف]

حُثَّ قبل الصَّبَاحِ نجب كُئوسى فَهْىَ تجرى مجْرَى الغِذَا فى النفوسِ
وانتخِبْهَا بكرًا فقدْ ثَوَّبَ الدا عِى إليها مِنْ حانة القِسِّيسِ
بنتُ كَرْمٍ إن تَرْقِ ملسوعَ راحٍ وهو جلس لم يَرْتَضِى بالجلوسِ
كشفَتْ غيهَبَ الخمارِ ولو تر شَحُ رمسًا ردَّتْ بقا المرموسِ
غرسَتْهَا بينَ الحدائقِ والنو روز والشَّطُّ كفُّ بطليموسِ
فَتَلقَّى أم المسرات طلقًا والندامَى بمهر كيسٍ وكيسِ
أطلق النَّدَّ والكبا الرطْبَ واستجْ لِ عروسًا لا عِطْرَ بعد عروسِ
عانسًا فى الدنانِ عذراءَ لم تط مث من عهد جرهم وجديسِ
نارُ أنسٍ يعشو الكليمُ ويصبو لِفِناهَا بالذُّلِّ والتقديسِ
خرقَتْ حلَّة الجمانِ وأبدَتْ مستطير الصباحِ فى الحنديسِ
زعَمَ الجاهلونَ فيها بأنْ قَدْ عَصَرَتْها قِدمًا يدا عبدوسِ
وهْىَ من لُطْفها كشَكٍّ نفاه صادقُ القولِ عند ذى تسويسِ
فأدرْهَا فى كاسها دونَ خَدَّيْـ ـكَ وفوقَ الشقيقِ من خندريسِ
واسْقِ بالخيرِ لى الندامَى لتبدو قدرةُ الله فى المقامِ النفيسِ
لتَرَى أنجمًا بفلْكٍ وبدرًا فوقَ غصنٍ يختالُ بينَ شموسِ

ولكلٍّ إربٌ وما أنا بالـرا … ئى شريفًا فى جَنْبِ وجه خسيسِ
وخرود بجامِهَا وطِلاَها … وَلماهَا والخدّ ينجاب بُوسِى
إن حكينا بالثغرِ والخدِّ ما فى الـ … جِيدِ قلنا ظُلمًا وما فى الكُئُوسِ
تتلظّى غيظًا وتَبْسِمُ توبيـ … ـخًا لنا فى القياسِ بعد المقيسِ
لم أكنْ قبلها أصدِّقُ أن الرْ … رَاحَ ظَلْمٌ فى لؤلؤٍ مغروسِ
ظبيةٌ رخوةُ العريكةِ تغتا … لُ أسْودَ الشرَى بِدَهْيٍ شَموسِ
لبسَتْ من غلائلِ الحسْنِ بُرْدًا … منه كلُّ العقول فى تلبيسِ
تتهادَى عجبًا فتستقبحُ الرو … ضَ أنيقًا لجودَةِ التجنيسِ
لو رآها تختالُ تيهًا أبُوهَا … لخشينا عليه دِين المجُوسِ
كُلُّ حلْوٍ منها استجَدَّ رسيسًا … وقديمى فيها استَمَرَّ نسيسِى
تركَتْنِى نِضْوًا على نضوِ رسم … فيه دمعى خلى وسُهْدِى جليسى
موحشًا مِنْ هنيدةٍ بعد أن كا … نَ حقيقًا بالمربَعِ المأنوسِ
طالَ ما قُلتُ للغدافِرِ واللَّيْـ … ـثُ به قد ألقَى عصا السيرِ هيسِى
لنقضِّى فيه حقوقًا وتبكِى … فيه وُرْقُ الحمَى وثُكْل العيسِ
ونرجِّى الآمالَ أن تبعث الرِّيـ … ـحَ أريجًا من معهدٍ مطلوسِ
فرعَى الله بالأجارِعِ عصرًا … وبدورًا غصونُهَا فى طموسِ
حيثُ جو الشبابِ سَحْوٌ وبحْرُ الـ … لهوِ رَهْوٌ لم ألْقَ فيه بروسِى
ومحلاًّ بين الأباطحِ والقبْـ … ـبة مِنْ طيبَةٍ بِسُوحِ الرَّئِيسِ
أَحْمَدُ الخُلْقِ أحمدُ الخَلْقِ فى اللـ … ـهِ غِيَاثُ المَنْجُودِ والمَبْلُوسِ
شافعُ الأمةِ التى جاءَ فيها … كنتُمُ من مهيمنٍ قدوسِ
أولُ الأنبياءِ والخاتمُ العا … صِمُ من هولِ صيلم دربيسِ
يتقى حيدَرٌ وحمزةُ والفا … روقُ فيه إذ جاشَ قِدْرُ الوطيسِ
وكذا فى المعادِ عيسَى وإسحا … قُ وموسَى الكليمُ مع إدريسِ
وبه يسألونَ إذ صدم الهو … ل تجلّيه فى الزمانِ العبوسِ
وهُمُ الفائزونَ لكنْ لما طَمْـ … ـمَ عَلَى الخلقِ من عذابٍ بئيسِ
مهطعينَ الأعناق فى مَوْقِفِ الرهـ … ـبة لم يستمعْ لهم من نبيسِ

فينادى سَلْ تُعطَ واشفَعْ أيا خيْـ ... ـرَ شفيعٍ فى مسمهرٍّ ضَبيسِ
أريحىٌّ بقصده تأنفُ الأخـ ... ـمَصُ أنْ تحتذى شَوَاة الرءوسِ
نَقَلَ الذِّكْرَ للجوامعِ والأحـ ... ـكام بعد الأزلامِ والناقوسِ
تَرَكَ الذئبَ والغضنفَرَ والشَّا ... ةَ جميعًا من خوفِ غبِّ الفريسِ
أَيَّدَ الدينَ بالذوابلِ والشُّو ... سِ المذاكِى تعدُو وبيض شوسِ
كل ذمر فى السلْمِ هَين وفى الحر ... بِ أبى يشقُّ أنفَ الخميسِ
كعلىٍّ وحمزةَ البِشرِ إن بَدَّلَ بِشر الوجوهِ بالتعبيسِ
بيهسىْ غابةِ الوشيجِ وطودَىْ ... مفخرٍ فى مؤثلٍ قُدْمُوسِ
بهما والبَتُولِ والآلِ والسبـ ... ـطَيْنِ والمخبتين بالتغليسِ
ألإمامين بالنصوصِ الشهيدَيْـ ... ـنِ البريئيْنِ من صدَى التدنيسِ
فرقدَىْ هالةِ الرياسةِ وابنَىْ ... مدحضى بالقواضب التبخيسِ
ما رعَى فيهما رئيس ربى الفِدْ ... يةِ إلا فضلًا عن المرءوسِ
وبمَنْ قامَ فى مقامِكَ يستسـ ... ـقَى به والمحلِّقِ الدعيسِ
وبخِلَّيْكَ صاحبيْكَ ضجيعَيْـ ... ـكَ ظهيَرْيكَ فى الرخا والبوسِ
ذا رفيقٌ فى الغارِ رِدْفٌ وذا تنـ ... ـفرُ من حِسِّهِ رقى إبليسِ
وبتلو الإثنينِ جامع أشتا ... تِ المثانى بالرسْمِ والتدريسِ
لم يُراقِبْ للهذى والجيشِ من غيْـ ... ـرِ فسوقٍ أتَى ولَا تدليسِ
أدركَ ادْرِكْ ذا غربةٍ وانفرادٍ ... وسهادٍ ومدمعٍ مبجوسِ
قد لقى من حصائدِ النفسِ ما لا ... قَى كليبٌ فيها غداةَ البَسُوسِ
ألوحَا ألوحَا فِدًى لكَ ملهو ... فٌ يناديكَ من ورا طرطوسِ
يا نَبِيَّاهُ يا وليَّاهُ يا جَدَّاهُ يا غَوْثَ ضارعٍ موطوسِ
أنتَ إنْ أعضلَ العضالُ وأعيا ... كُلَّ آسٍ دواه جالينوسِى
وإذا ما الخنَاقُ ضاقَ فلم أر ... جُ لكربى إلاَّكَ للتنفيسِ
ولقدْ جرد العقول إلَى أنْ ... لبسْت منهُ بزَّة المخموسِ
وبجدواكَ يقلبُ السعد فى الأز ... مةِ سعدًا تحديق عَيْنِ النحوسِ
يا خفيرى إذا ارتهنتُ وما لى ... غَيْرُ كسبِى فى مضجَعِى من أنيسِ

أبظُلْمِ الحوبا أقصِّرُ عن شأ ... وِ جُدُودى وأنْتَ أصْلُ غروسى
حاشَ لله أن يقصِّرَ مَنْ أَفْـ ... عَمَ فيكُمْ مدحًا بطونَ الطروسِ
فارتبطْهَا من الجيادِ التى تَسْـ ... بقُ خَيْلَ الوليدِ وابْنِ سديسِ
وأجزْنِى بردًا من الأمنِ ما حيـ ... ـك بصنعا حسنا ولا تِنِّيسِ
وأغشنى دنيا وأخرَى بمرآ ... كَ ليهدا رَوْعِى ويقوَى رسيسِى
واجلُ طرفى بنظرةٍ تذهبُ اللىّ ... وتُسْدِى فى الحىّ نِيرَ مروسى
إن أرحْ مطلقًا من الذنبِ فالتقـ ... ـريضُ وقفٌ مسلسلُ التجنيسِ
أو تناسى به فناى وحقِّى ... فعلَى الحظ دعوة المبخوسِ
إنما أنتَ آصفٌ ونجاتى ... منكَ أدنى إليه من بلقيسِ
لو تشفعْتَ فى سَبًا لَعَلِمْنَا ... أنَّهمْ فائزونَ بالمحسوسِ
فعليكَ الصلاةُ ما هَجَّرَ الركْـ ... ـبُ وحثَّ القِلَاص للتعريسِ
وعلى آلِكَ الكرامِ وأصحا ... بِكَ ما روضَةٌ زهَتْ بالغروسِ
وأضاءَ الصبَاحُ من بعد ليلٍ ... واستسرَّتْ عروسُهُ بعروسِ

وفيها - أعنى سنة اثنتين وأربعين وألف - توفى شيخ مشايخنا الشيخ العلامة برهان الدين أبو الأمداد إبراهيم بن حسن بن على اللقانى، خاتمة المحققين، وسيد الفقهاء والمتكلمين، إمام الأئمة، وموضح المشكلات المدلهمة، أخذ عن الشمس الرملى، والعلامة ابن قاسم العبادى، والشيخ إبراهيم العلقمى أخى الشيخ شمس الدين شارح الجامع الصغير الشرح المسمى «بالكوكب المنير» والشيخ نور الدين الزيادى، والشيخ أبى بكر الشنوانى، وغيرهم.

وله كرامات خارقة، ومكاشفات صادقة، أخذ عنه طريق القوم خلق كثير.

وممن أخذ عنه العلوم الشرعية والعقلية، والفنون الأدبية شيخنا العلامة محمد بن علاء الدين البابلى، والشيخ على بن على الشبراملسى، وولده إبراهيم وغيرهم. رحمه الله تعالى.

وفى سنة أربع وأربعين وألف يوم الجمعة ثامن رجب منها توفى الشريف عظيم الشأن مولانا السيد أحمد شيخان باعبُود العلوى، ولد بالمخا، كان رحمه الله من أكابر المشايخ الصالحين والأولياء الكاملين واستمر على الحالة المرضية إلى أن وافته

المنية، وقدم على رب البرية فى التاريخ المذكور ببندر جدة، وحمله ولده السيد سالم من جدة إلى مكة، ووصل به ليلة السبت، ودفن صبح اليوم المذكور على أبيه وأخيه فى حوطة آل با علوى.

ولولده مولانا السيد سالم بن أحمد شيحان مؤرخًا وفاة أبيه المذكور بعد أن رآه فى منامه قوله: [من الكامل]

شاهدتُ فى عامِ الوفاةِ بليلةٍ غَرَّاءَ أحمد قائلاً نفسى احمدى
أُسْكِنْتَ جناتِ النَعيمِ ونِعْمَ هى نُزُلاً فتاريخُ الوفاةِ تخلَّدِى

وفيها توفى بين العصرين سابع عشرى رجب الشيخ الأمجد الأوحد شهاب الدين أحمد ابن أبى الفتح الحكمى.

أخذ عنه شيخنا العلامة الشيخ على بن الجمال الأنصارى المكى، وشيخنا الشيخ عبد الله ابن الشيخ سعيد باقشير وغيرهما.

وله ترجمة طويلة. كانت وفاته بالمدينة ودفن بالبقيع وهو فى عشر الخمسين. نفعنا الله به آمين.

وفى سنة خمس وأربعين فجر الثلاثاء ثامن ذى العقدة منها: توفى السيد أحمد بن محمد الهادى بن عبد الرحمن بن شهاب الدين، محتد الجلالة والفخامة، مفرد المقالة والشهامة، العالم العامل بلا زعامة، الحاتم على ناظره القطع له بالفضل السنى والكرامة، الولى لله بلا ريب ولا نزاع، الملزم نفسه النفيسة الطاعة له عز وجل والحضور لديه والانقطاع.

ولد بـ«تريم» واستوطن مكة، ولازم السيد عمر بن عبد الرحيم، والشيخ أحمد بن علان وغيرهما، واستمر بمكة إلى أن انتقل بها فى التاريخ المذكور، ودفن بحوطة السادة بنى علوى.

وفيها توفى الشيخ يوسف بن محمد البلقينى بقية الجيل الجليل الذى سلف، ونخبة الحائزين بالعلم السيادة والشرف، رئيس القراء المجيدين، جليس الفقراء إلى الله المنقطعين، إذا قرأ القرآن المجيد رتله ترتيلا، وحبره تحبيرا، وإذا حار بالنعمان اللبيب فى مشكل متشابهه قيل له: اسأل به خبيرًا، رحمه الله تعالى.

وفى سنة ست وأربعين وألف ضحوة يوم الأحد تاسع ذى القعدة الحرام: توفى

مولانا وسيدنا إمام أهل العرفان، ذو السر الباهر والبرهان، من مزايا مفاخره فقدت الحصر، ويذكر مناقبه يتجمل الزمان والدهر، أوحد الأئمة المعتبرين أولى التمكين، مرشد الطالبين، ومربى السالكين، العالم العامل، والأستاذ الكامل، طاهر الجنان واللسان والأركان، مولانا السيد سالم بن أحمد شيحان، ودفن فى عصر ذلك اليوم على والده وجده بالمعلاة، وتاريخ وفاته: صار إلى رحمة الله. وله ترجمة طويلة عظيمة جليلة - رحمه الله تعالى -.

وفيها ليلة الخميس ثالث عشر ذى القعدة: توفى السيد نعمة الله بن عبد الله بن محيى الدين بن عبد الرحمن بن عبد الله بن على بن أحمد بن محمد بن زكريا بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن عبد القادر الجيلانى. أحد أكابر الأولياء الذين نالوا الوفا والكرامة، الغنى بكمال فضله عن إشارة أو علامة، سطع نور كمالاته، فأخجل النيرين، وأشرقت صفاته المضيئة فى الخافقين، وتواترت كراماته فى سائر الآفاق، ووقع على ولايته الاتفاق.

اشتهر فلا يحتاج إلى إطناب فى الصفات، بما خصه مولاه من أنواع الكمالات.

ولد بالهند، ووصل إلى مكة سنة أربع عشرة وألف، وجاور بها، ولازم الصمت والمسجد سنين، ثم سكن شعب عامر وتزوج، وأولد أولادًا نجباء أجلاء، ثم مرض وأوصى أن يدفن بمحله بشعب عامر المذكور فدفن به، وكانت الحُمى من أقل خدامه يرسلها إلى من شاء أى مدة شاء، ويرفعها متى شاء بإذن الله تعالى، مدحه الأجلاء، ورثوه بعدة قصائد، منهم مولانا وشيخنا الشيخ على بن الجمال، والأديب البارع أحمد الفضل الكثيرى وغيرهما.

وفيها فى موسمها يوم الجمعة عشرى ذى الحجة الحرام: وقعت فتنة كان ابتداؤها قبل صلاة الجمعة، سببها أن عبدًا لبعض السادة الأشراف ورد بفرس سيده الششمة المعروفة بالبزابيز، فوقع هناك بين العبد المذكور، وبين شخص من عسكر مصر تزاحم وتدافع، فضرب الجندى العبد فضربه العبد فجرحه، فلزمه الجندى مع جماعته، فانتدب جماعة العبيد ففكوا العبد، فثارت الفتنة، ولم يكن لصاحب مكة، ولا للأمير علم بذلك، فاجتمع الجندى مع جماعته بمدرسة السلطان قايتباى، واجتمع عسكر صاحب مكة مع العبيد عند منزله، فأقبل كل من الفريقين على

الآخر، فأرسل الشريف جماعة لرد عسكره، ونهيهم تسكينًا للفتنة، وبرز أمير الحاج من المدرسة، وبيده عصا لرد عسكره كذلك، وسار على قدميه، فلما وصل إلى قريب من باب على من أبواب المسجد الحرام سمع صوت البندق، فرجع ودخل من باب الحريريين، ودخل المدرسة من بابها الكائن فى المسجد الحرام، فبينما هم كذلك إذ نزل من جهة المعلاة من كان بها من العسكر المصرى، ومعهم المدافع، فجعلوا واحدًا منها عند الششمة المذكورة وواحدًا عند باب المدرسة القايتبائية، فاشتد الكرب على أهل مكة، وأرسل فى أثناء ذلك مولانا الشريف زيد رحمه الله تعالى إلى أمير الحاج المصرى رضوان بك مشيرًا عليه بمنع العسكر المصرى جماعته، وكذا أرسل إلى أمير الحاج الشامى الأمير محمد بك بن فروخ، وقتل من العسكر المصرى، والعسكر الشريفى أشخاص بالبندق، ولم يزل الأمر كذلك حتى أجنَّهم الليل، فانكف الفريقان، وركب بعض خدام الشريف رحمه الله تعالى بأمر منه ومعه المنادى بالأمان، وأمسى الناس فى أمر مريج.

فلما كانت صبيحة يوم السبت سعى أمير الحاج الشامى الأمير محمد بك المذكور بين الشريف، وبين أمير الحاج المصرى بالصلح فتعافيا، فنادى قبل صلاة الظهر من ذلك اليوم مناديان: أحدهما من أمير المصرى، والثانى من الشامى بالأمان للحجاج، وأهل البلد، وقدم المصرى خروجه من مكة فى هذا العام على خلاف العادة، فبرز فى يوم الثالث والعشرين من ذى الحجة.

وفى سنة سبع وأربعين وألف قدم شعبان أفندى إلى المدينة المنورة ومعه حجر من الماس محفوف بأحجار مختلعة مكفوف بصفائح الذهب والفضة، وهذا الحجر من آثار صدر الدولة العثمانية مصطفى باشا سلحدار، فوضع ذلك الحجر تحت الحجرين اللذين وضعهما السلطان أحمد خان، وأنعم على أهل المدينة بالصدقة الجليلة، وفى ذلك يقول السيد محمد كبريت مادحًا ومؤرخًا: [من الخفيف]

زار خيرَ الأنام خَيْرُ همام ... قد تَسَمَّى شعبانَ وهو ربيعُ
عَمَّ جيرانَ أحمدِ بنوالٍ ... دُونَ ذاكَ النوالِ خصْبٌ مريعُ
جاءَ بالجوهَرِ الثمينِ لطه ... مِنْ وزيرٍ هوَ الجنابُ المنيعُ
مصطفى المجْدِ والندَى والمعالِى ... وسلحدارُ نعمةٍ لا تضيعُ

يا له جوهَر تسامَى وسامَى بمقامٍ فيه الثناءُ يضوعُ
عند وجْهِ النبيِّ قد وضعُوهُ فغدا وهْوَ مشرقٌ ولموعُ
كان هذا فى عَامِ سبعٍ وألفٍ وتمامُ النظامِ فيه بديعُ

قلت: فى هذا التاريخ لطفُ إدخال فى قوله: وتمام النظام فيه؛ لأنه يشير بذلك إلى الميم من لفظ النظام وهى بأربعين، فبذلك ثم حساب سبع وأربعين وألف.

وكان إهداء ذينك الحجرين الأولين من حضرة مولانا السلطان أحمد خان مع لوح من فضة كبير مكتوب فيه آيات قرآنية فى سنة ست وعشرين وألف مركب على الشباك القبلى أمام المواجه الزائر، وفى اللوح أبيات آخرها بيت التاريخ، وهو: لوح لسلطان أحمد أهداه حُبًّا خالصا.

وفيها: توفى العلامة القاضى أحمد بن عيسى المرشدى العمرى الحنفى، شهاب الفضل الثاقب، الشهير المآثر والمناقب، من سطع فى سماء الأدب نوره، وتفتق فى رياضه زهره ونوره، فامتد فى البلاغة باعه، وشق على من رام أن يشق غباره اتباعه، لا تلين قناة فضله لغامز، ولا يلمز أدبه المبرأ من العيب لامز.

كان تولى القضاء بمكة المشرفة، فنال به ما أمله مما طمح بصره إليه واستشرفه.

ولما حصل أخوه فى قبضة الشريف أحمد بن عبد المطلب، ومنى منه بذلك الفادح الذى قهر به وغلب، حصل هو أيضًا فى قبضة القبض والأسر، وأردف معه على ذلك الأدهم بالقسر، حتى جرع أخوه بذلك الكاس، وأنعم عليه بالخلاص بعد الياس.

فراش الدهر حاله، وأعاد منها ما غيره وأحاله.

ولم يزل فارغ البال، من شواغل البلبال، إلى أن انقضت أيامه، ووافاه حمامه.

فكانت وفاته لخمس خلون من ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة.

واتفق تاريخ وفاته صدر البيت المشهور:

مـن شـاء بـعـدك فـلـيـمـت ... ...

وله نظم بديع، ونثر يفوق أزهار الربيع.

من نظمه القصيدة الدالية امتدح فيها شريف مكة الشريف مسعود بن حسن مطلعها: [من البسيط]

عُوجا قليلًا كذا عن أيمنِ الوادِى واستَوْقِفَا العيسَ لا يحدو بها الحَادِى

منها قوله:

رَأسُ الملوكِ يمين الملك ساعده زند المعالِى جبين الجحْفَلِ البادى

ومنها:

وصان وَسْمك فِى حاش مخالطة عَنْ رَبِّ غَزْوٍ تنضَّاهُ بأحشادِ

وهى فصيحة بليغة تقدم ذكرها.

وله قصيدة فى السيد شهوان بن مسعود مطلعها: [من البسيط]

فيروزَجٌ أم وسامُ الغادةِ الرُّودِ يبدو على سِلْك دُرٌ فيه منضودِ

ومنها قوله فى المخلص:

صهباءُ تفعلُ فى الألبابِ سَوْرَتها فعلَ السخاءِ بشهوان بْنِ مسعودِ

وله ما كتبه على شداد مطيّة الشريف زيد بن محسن - رحمهما الله تعالى - وهو قوله: [من مجزوء الكامل]

أفـقُ الـشـدادِ بـدَتْ بـه شَـمْسُ الخلافةِ والـهلالْ

ومِـنَ الـعـجائِـب جـمـعُـهُ لَـيْـثَ الـشـرافـةِ والـغـزالْ

وله غير ذلك من غير ذلك - رحمه الله تعالى -.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين بعد الألف، فى أثنائها أقبل من الديار الرومية بشير أغا الحبشى الطواشى، معه أوامر بمطلق التصرف، وخطوط سلطانية بما يريد من التعرف والتحرف. فلما بلغ الينبع ورد إليه الخبر بوفاة السلطان مراد بن أحمد خان سلطان الزمان، ففاح الخبر بينبع، ثم كتمه بشير ليتم له تنفيذ ما أراد، وقد كان مولانا الشريف زيد هيَّأ واختار لبشير أغا عدة أماكن من المدارس والبيوت، وأمر بفرشها، وكان من نيته مواجهته إلى مرّ، وأرسل بعض خدامه إلى ينبع ليرى ما مع بشير من الخيل والرحل والناس، فلما وصل إليها سمع هذا الخبر وتحققه فرجع مسرعًا مجدا به إلى مولانا الشريف زيد، فلما تحقق مولانا الشريف صحة ذلك أمر بتحويل الفرش التى فى تلك الأماكن، وغلق بعضها، فلما قارب بشير مكة خرج إليه مولانا الشريف، ولاقاه فى الجوخى محل ملاقاة أمراء الحج إذا وصلوا، فلما أن لاقاه وقابله، وفى بال بشير أن الخبر لم يبلغه، وأن يتم له ما أراد من تنفيذ ما شاء على غشاش وغفلة، ثم بعد ذلك لا يضره ظهور الخبر، فلما تدانيا همز مولانا الشريف زيد - رحمه الله تعالى - فرسه مقدمًا

على بشير مناكبًا له قائلا: الله رحمت أيله سلطان مراد(١)، ومسح على عينيه بالمنديل باكيًا أو متباكيًا، فسُقط فى يد بشير، ودخل بشير كالأسير.

وهذا من جملة سعودات الشريف ذى القدر المنيف.

وكان مولانا الشريف رحمه الله قد رأى فى المنام كأن شخصًا ينشده هذا البيت: [من الطويل]

كأنْ لم يكُنْ أمرٌ وإنْ كانَ كائنٌ لكانَ به أمرٌ نفى ذلك الأَمْرُ

فانتبه رحمه الله، وكتبه بالسواك على رمل فى صحن نحاس خشية النسيان، وكانت هذه الرؤيا فى الليلة التى أسفر صباحها عن ورود هذا الخبر.

واستمر بشير إلى آخر السنة، وحج وتوجه صحبة الحاج حيث جاء.

فمن الألطاف الخفية لمولانا بما أولاه، وكم، وكفى بالله.

وقد نظم السيد محمد الآنسى المغربى قصيدة يمدح بها مولانا الشريف زيد رحمه الله ذكر فيها قصة بشير، وأورد فيها البيت المذكور وهى هذه: [من الطويل]

سَلُوا آلَ نُعْمٍ بعدنا أيها السَّفْرُ أعندهُمُ عِلْمٌ بما صَنَعَ الدهْرُ
تصدَّى لشتِّ الشملِ بينى وبينها فمنزلى البَطْحا ومنزلُها القَصْرُ
رآنى ونعمى لاهيَيْنِ فغالَنَا فَشلَّتْ يدُ الدهرِ الخئُونِ ولا عُذْرُ
فوالله ما مكر العدوِّ كمكرِهِ ولكنَّ مكرًا صاغه فَهُوَ المكْرُ
فقولا لأحداثِ الليالى تمهَّلى ويأيهذا الدهْرُ موعدُكَ الحشرُ
سلامٌ على ذاكَ الزمانِ وطيبهِ وعيشٍ مضَى فيه وما نبَتَ الشعْرُ
وتلكَ الرياضُ الباسماتُ كأنَّ في عواتقها مِنْ سندسٍ حُلل خُضْرُ
تنضَّد فيها الأقحوانُ ونَرْجِسٌ كأعْيُنِ نُعْم إذ يقابلها الثغْرُ
كأنَّ غُصُونَ الوردِ قُضْبُ زبرجدٍ تخالُ من الياقوتِ أعلامه الحمْرُ
إذا خَطَرَتْ فى الروضِ نُعْمٌ عشية تَفَاوَحَ من فضلاتِ أردانهَا العطْرُ
وإن سحبَتْ أذيالها خِلْتَ حيةً إلى الماءِ تسعَى ما لأخمصِهَا إثْرُ
كساها الجمالُ اليوسفى ملابسًا فأهوَنُ ملبوس لها التيهُ والكِبْرُ
فكمْ تخجلُ الأغصانُ منها إذا انثنَتْ وتُغْضِى حياءً من لواحظها البتْرُ

(١) أى: رحم الله السلطان مرادًا.

لها طرةٌ تكسو الظلامَ دياجيًا على غرَّةٍ إن أسفرَتْ طَلَعَ الفَجْرُ
وصحنان خد أشرقا فكأنَّما مصابيحُ رهبانٍ أضاءَ بها الدَّيْرُ
وجيدٍ من البِلَّوْرِ أبيضَ ناعمٍ كعنْقِ غزالٍ قد تكنَّفَهَا الذعْرُ
ونحْرٍ يقولُ الدرُّ إنَّ به غِنًى عن الحلْى لكنْ بى إلى مثله فقْرُ
وحقان كالكافورتَيْنِ علاهما من النِّدِّ مثقالٌ فندَّ به الصبْرُ
رويدَكَ يا كافورُ إنَّ قلوبنا ضعافٌ وما كُلُّ البلاد هى المِصْرُ
تبدَّى بقدٍّ باسقًا متأودًا على نقو من رمل يطوف به نهرُ
يكادُ يقدُّ الخصْر منْ هَيَفٍ به روادفها لولا الثقَافَةُ والهَصْرُ
لها بَشَرٌ مثلُ الحريرِ ومنطقٌ رخيمُ الحواشِى لا هراءٌ ولا نَزْرُ
رأتنى سقيمًا ناحلاً والهًا بها فأدنَتْ لها عوذ أناملها العَشْرُ
إذا كنْتَ مطبوبًا فلا زلْتَ هكذا وإنْ كنْتَ مسحورًا فلا برئ السحْرُ
فقلتُ لها والله يا ابنَةَ مالكٍ لما شفَّنى إلا القطيعةُ والهَجْرُ
رَمَتْنى العيونُ البابلياتُ أسهمًا فأقصدنى منها سهامُكُم الحمْرُ
فقالتْ وألقَتْ فى الحشا مِنْ كلامها تأجّج نار أنتَ من ملكنا حُرُّ
فوالله ما أنسَى وقد بكرَتْ لنا بإبريقها تسعَى به القينةُ البكْرُ
تدورُ بكاساتِ العُقارِ كأنجُم إذا طلعَتْ من بُرْجها أَفَلَ البدرُ
نداماىَ نُعْمٌ والربابُ وزينبٌ ثلاثُ شخوصٍ بيننا النظمُ والنثْرُ
على الناىِ والعودِ الرخيم وقهوةٍ يذكِّرها دنيا بأقدامِنا العصْرُ
فتقتصُّ مِنْ ألبابنا ورءُوسِنَا فلم نَدْرِ هل ذاك النعاسُ أم السُّكْرُ
معتقةً من عهدِ عادٍ وجرهم ومودعها الأدنان لقمانُ والنسْرُ
مشعشعةً صفرا كأنَّ حبابَهَا على فُرُشٍ مِنْ عسجدٍ نثر الدرُّ
إذا فرغَتْ من كأسِ نعمٍ وأختِهَا تشابه مِنْ ثغريهما الريقُ والخَمْرُ
خلا أن ريقَ الثغْرِ أشفى لمهجتى إذا ذاقه قلبى الشَّجِى خَمَدَ الجمرُ
وأنفعُ درياقٍ لمنْ قَتَلَ الهوَى فماتَ ارتشافُ الثغرِ إنْ سمحَ الثغْرُ
بهذا عرفنا الفَرْقَ ما بين كأسِهَا وبين مُدام الظَّلْم إن أشكَلَ الأمْرُ
فوالله ما أسلو هواها على النوَى بلى إنْ سلا بذل النوَى الملك القسْرُ

أبو حسنٍ زيدُ المحاسن والعُلاَ ... له دونَ أملاكِ الورَى المجدُ والفخْرُ
إذا ما مشَى بين الصفوفِ تزلزلَتْ ... لهيبته الأقيالُ والعسكَرُ المجْرُ
وترجُفُ ذاتُ الصدعِ خوفًا لبأسِهِ ... فتندك أطوادُ الممالِكِ والقفْرُ
فلو قال للبحْرِ المحيطِ ائتِ طائعًا ... أتاه بإذْنِ الله فى الساعة البحْرُ
تظلُّ ملوكُ الأرضِ خاشعةً له ... وما خشعَتْ إلا وفى نَفْسها أمْرُ
كريمٌ متى تنزلْ بأعتابِ دارِهِ ... تجدْ ملكًا يزهو به النهْىُ والأمْرُ
تجدْ ملكًا يغنى الوفودَ وينجزُ الـ ... ـوعود وأدنَى بذله الدّهم والشقْرُ
على جودِهِ من وجهِهِ ولسانِهِ ... دليلانِ للوفْدِ البشاشةُ والبِشْرُ
فما أحنفٌ حلمًا وما حاتمٌ ندى ... وما عنترٌ يوم الحقيقةِ أو عَمْرُو
هو الملكُ الضَّحَّاكُ يومَ نزاله ... إذا ما الجَبَانُ الوجه قطَّبه الكرُّ
لقد قرَّ طرف الملكِ منه لأنه ... لديه النوالُ الحلو والغضَبُ المرُّ
حياةٌ وموتٌ للموالى وللعدَى ... لقد جمعا فى كَفِّهِ الجبْرُ والكسْرُ
أنِخ عنده يا طالبَ الرزقِ إنَّ مَا ... حواه أنوشِرْوَان فى عينه نَزْرُ
ولا تُصْغِ للعذالِ أذنًا وإن وَفَوْا ... بإحسانهم منه فما العَبْدُ والحرُّ
وهل يستوى عَذْبٌ فراتٌ مروّقٌ ... وملحٌ أجاجٌ لا ولا التبْنُ والتبرُ
فلو سمعتْ أذن العداةِ بمجدِهِ ... مزاياه لاستحْيَتْ ولكنْ بها وقْرُ
فما قَدَرُوا زيدَ العلا حقَّ قدره ... وماذا عليهِمْ يا تُرَى لهم الخسْرُ
مليكٌ إليه الانتهاءُ فقيصرٌ ... يقصِّرُ عنه بل وكسرى به كَسْرُ
مليكٌ له عندَ الإلهِ مكانةٌ ... تبوأها من قبلِهِ الياسُ والخِضْرُ
مليكٌ له سرٌّ خفيٌّ كأنما ... يناجيه فى الغيْبِ ابنُ داود والجفر
فإنْ كذبَتْ أعداءُ زيد فحسبُهُ ... من الشاهدِ المقبولِ قصَّتُهُ البكرُ
ليالى أنْ جاء الخَصِىُ وأكثروا ... أقاويلَ غىٍّ ضاقَ ذرعًا بها الصدْرُ
فأيقظَهُ من نومِهِ بعد هجعةٍ ... من الليلِ بيْتٌ زاد فخرًا به الشعرُ:
« كأنْ لم يكُنْ أمرٌ وإنْ كانَ كائنٌ ... لكانَ به أمرٌ نفى ذلك الأمرُ »
وفى طىِّ هذا عبرةٌ لأولى النهَى ... وذكْرَى لمن كانَتْ له فطنةٌ تَعْرُو
فيا زيدُ قلْ للحاسدِينَ تحنَّطوا ... بغيظِكُمْ إن لم يطيعُكُمُ الصبْرُ

فمجدى كما قد تعلمونَ مؤثَّلٌ وكلُّ حَمَامِ البرِّ يفرسه الصقْرُ
من القومِ أربابِ المكارمِ والعلا ميامينُ فى أيديهِمُ اليُسْرُ والعُسْرُ
مساميحُ فى اللأوا مصابيحُ فى الوغَى تصالح فى مغناهم الخيْرُ والشرُّ
أسنتهُمْ فى كُلِّ شرقٍ ومغربِ إذا وردَتْ زرقٌ وإن صدرَتْ حُمْرُ
مساعيرُ حربٍ والقنا متشاجرٌ ويوم النَدَى تبدو جحاجحة غُرُّ
بنى حسنٍ لا أبعدَ الله دارَكُمْ ولا زالَ منهلًا بأرجائِهَا القطْرُ
ولا زالَ صدْرُ الملكِ منشرحًا بكُمْ فعنْكُمْ ولاةَ البيتِ ينشرحُ الصدْرُ
وصَلَّى على المختارِ والآلِ ربُّنَا وسَلَّمَ ما لاحَ السِّمَاكَان والغفْرُ

وفى سنة خمسين وألف يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى: توفى الشيخ تاج الدين زكريا بن سلطان النقشبندى بمكة، ودفن صبح الخميس فى رباطه الشهير برباط تاج فى سفح جبل قعيقعان، وله ترجمة طويلة.

أخذ عنه الشيخ الأمجد أحمد بن إبراهيم بن علان، وشيخنا الشيخ عبد الله، وأخوه الشيخ محمد ابنا الشيخ سعيد باقشير.

وفيها: توفى الجمال محمد بن أحمد بن حكيم الملك بالديار الهندية.

وفى سنة اثنتين وخمسين وألف ليلة الخميس ثانى عشر صفر منها: توفى الشيخ فتح الله النحاس الحلبى، الشاعر المجيد، والأديب الفريد، الذى شاع ذكره وشعره وذاع، وجمع بين الإسراع والإبداع.

كان من فحول الشعراء فى عصره، وفريد النثر والنظم فى دهره.

ورزق حظوة عند أهله، وقبولا يعهد مثله لمثله. ولكنه كان ذا تعاظم فى نفسه، وتكبر على جنسه، ولم يسعفه دهره كعادته مع الأدباء، فأدركته حرفة الأدب، وناداه لسان حاله: لا تعجب فإنى أبو العجب.

مولده بحلب فى حدود الألف. وصحب المشايخ الكبار، وحج وزار.

وأقام بالمدينة على مشرفها الصلاة والسلام، إلى أن أدركه بها الحمام، فى التاريخ المذكور ودفن بالبقيع.

وقد عنى بجمع ما تيسر من شعره مولانا العلامة الفهامة برهان الدين الشيخ إبراهيم ابن المرحوم الشيخ عبد الرحمن بن الخيارى المدنى، فجمعه فى ديوان لطيف: ومن بديع شعره قوله مادحًا النبى ﷺ: [من البسيط]

تذكَّر السفْحَ فانهلَّتْ سوافحه ... وليْسَ يخفاكَ ما تُخْفى جوانحُهُ

وفى هذه القصيدة بيت يجفل منه الطبع الذكىّ، ويود أن يكون عند فهمه بليدًا أىَّ بليد، وإن كان هو عند أدباء العصر بيت القصيد. وهو قوله: [من البسيط]

وما أقولُ إذا ما جئتُ أمدحُ مَنْ ... جبريلُ خادمُهُ والله مادحُهُ ؟!

وفى سنة ثلاث وخمسين وألف: أنشأ مولانا الشريف زيد بن محسن سبيلا وحنفية بمكة المشرفة.

فقال مولانا القاضى تاج الدين مؤرخًا لعمارتهما: [من السريع]

لـلـه تـأسـيسٌ نـمـا خـيـرُهُ ... وفازَ بالتطهيرِ مَنْ أَمَّ لَهْ
بـه سـبـيـلٌ وحـنـفـيـة ... وسلسبيلٌ فارتشفْ سلسلَهْ
له نبا فى الفيضِ مهما روى ... حديثه أروَى بما سلسلَهْ
سالَتْ عطاياه لُجينًا فمَنْ ... رامَ نـداه نـالَ مـا أمَّـلَـهْ
وحيثُ لم تكتفِ سُؤَّاله ... فلا يكفُّ البذل إذ أرسلَهْ
لأنَّ مَـنْ أسَّـسَ بـنـيـانَـهُ ... غيثُ الورى فى السنةِ الممحِلَهْ
مَنْ نفسُهُ يومَ عطاه ترَى ... إن وهب الدنيا فقد قَلَّ لَهْ
تـوَّجَـهُ الله بـتـاجِ زهـا ... بجوهرِ المجدِ الذى كَلَّلَهْ
والله مِنْ وافرِ إحسانِهِ ... أجرَى له الأجرَ الذى أجزَلَهْ
فإنْ تسلْ عن ضبطِ تاريخِهِ ... فخذْ جوابًا يوضحُ المسألَهْ
أسَّسَهُ سلطانُ أمِّ القُرَى ... زيدٌ يدومُ العزُّ والسَّعد لَهْ

ولما كان أوائل سنة سبع وخمسين طلع الصنجق الكبير صاحب جدة المسمى مصطفى بك إلى وادى الطائف المأنوس لزيارة الحبر سيدنا عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - وطلع بعده الأغا المكرم بشير أغا غلام المرحوم مولانا السلطان مراد خان بن أحمد خان، وهذا فى مجيئه الثانى سنة ست وخمسين بعد الألف متوليًا مشيخة الحرم النبوى، فأقام ما شاء الله أن يقيم، ثم لما أن كان نازلا إلى مكة طالعًا فى المحل المعروف بالنقب الأحمر، وجه جبل كراء مما يلى الطائف، وقد تفرقت عساكره خلفًا وأمامًا، ولم يبق معه سوى السائس وحامل كوز الماء، اعترضه رجل عربى كان يتعهده بالإحسان إليه، يقال له: الجعفرى، فضربه وهو متجرد للإحرام

بسكين العرب أنفذها إلى أحشائه، وذهب ولم يدر محله، قيل: إن السائس أراد ضرب القاتل فوقع السيف فى مؤخر الحصان، فقمص فسقط عنه الصنجق، فلاحقت العساكر فلم يلبث إلا نحو ساعتين، وتوفى شهيدا إلى رحمة الله.

وكان قتله يوم التاسع والعشرين من جمادى الأخرى من السنة المذكورة، ودخل به مكة فى التخت قتيلا غرة رجب منها، فجهز ودفن فى المعلاة أمام قبة السيدة خديجة زوج النبى ﷺ.

وكان مولانا الشريف رحمه الله تعالى سنتها قد توجه إلى جهة الشرق، فأبعد حتى وصل قريبًا من الخرج، وكان القائم مقامه لحفظ مكة مولانا السيد إبراهيم ابن الشريف محمد ابن الشريف عبد الله بن حسن، فاستدنى السيد إبراهيم غالب عسكر الصنجق، وأنزلهم فى محل يسعهم بأجياد، وأجرى عليهم الجوامك والأرزاق، وأمر السيد المذكور كيخية العسكر دلاور أغا بالنزول إلى جدة لحفظ البندر، فامتنع أشد الامتناع.

ثم لما كان بعد ليال عديدة نزل بعد هزيع من الليل قاصدًا جدة خلسة، فشعر به السيد إبراهيم المذكور، وأرصد له جماعة فأمسكوه وأتوا به فحبسه، ثم اختلس بعض العسكر نفسه، وذهب إلى بشير أغا بالطائف وأخبره بما وقع، فأقبل بشير إلى مكة، ونزل بمدرسة الأغا بهرام بالمسعى، فتردد السيد إبراهيم فى الوصول إليه وعدمه لاختلاف المشير، ثم جزم وعزم إليه فتلقاه بما هو الواجب، ثم قال له لما استقر المجلس: لِمَ حبستم دلاور أغا؟ فقال السيد إبراهيم: حبسناه خشية من إضراره وإفساده، فإننا قد ألزمناه مرارًا بالنزول إلى جدة فامتنع فارتبنا بنزوله خفية، فقال بشير: أطلقه. فقال: لا أطلقه حتى يصل مولانا الشريف زيد.

ثم قام السيد إبراهيم. فلما كان اليوم الثانى: نزل بشير أغا إلى الأفندى، واستدعوا مولانا السيد إبراهيم فحكم عليه الأفندى بإطلاقه فأطلقه، ثم بعد يومين أو ثلاثة عزم السيد إبراهيم، والقائد رشيد حاكم مكة إلى نحو بركة الماجن للتنزه، فاستجر بشير أغا العسكر ووعدهم، فحملوا أثقالهم وأدخلوها من باب المسجد، وخرجوا بها من باب ابن عتيق، ثم خرجوا بعد العصر حازبين مارِّين على دار السعادة ثم على السوق ثم على سويقة، إلى أن وصلوا بيت بشير أغا، وكان نازلا

بالباسطية، فوصل الخبر للسيد إبراهيم فوصل إلى البلد، وقال لبشير أغا: ما هذا الفعل؟ فقال بشير فى جوابه: نعم عسكر السلطان، لهم فى التربية سنين تأخذهم فى خمسة أيام؟!.

وكان فى عسكرهم شخص اسمه جاووش كثير الفساد وشرب الخمر والتعدى، فأمر السيد إبراهيم بقتله أينما وجد، فوجد سكران على الطريق، فتناوله عسكر الشريف فقطعوه، فثارت الفتنة وترامى العسكران بالرصاص، وقتل شخص من الناس خلف مقام المالكى وقتل كخية بشير أغا، ولم يزل مطروحًا عند باب ابن عتيق إلى الليل من داخل المسجد حتى رفعه بعض أهل الخير، ثم سعى القاضى أحمد كرباش وغيره بالصلح والمكافة، وألاّ يصل إلينا منكم أحد ونحن كذلك ما عدا ثلاثة أشخاص معينين من جماعة بشير لقضاء حوائجه من السوق وسكنت الفتنة.

وذكر لى من أدرك ذلك أن مولانا الشريف زيدًا رحمه الله تعالى استحسن جميع ما فعله السيد إبراهيم ما عدا قتله للجاووش فإنه لامه عليه، فرحم الله الجميع برحمته الواسعة.

واتفق فى مدة وقوع الشنآن بين بشير أغا والسيد إبراهيم بن محمد أن قرأ فى صلاة المغرب بعض أئمة الحنفية بسورة الفيل ثم قرأ فى صلاة الصبح سورة والفجر، وكان بشير يحضر صلاة الجماعة، فلما فرغ من صلاة الصبح قال لرجل من أهل مكة كان يألفه: انظر أهل مكة يرجمونا بالقرآن؛ لموجب قراءة الإمام المذكور فى المغرب بسورة الفيل فإن فيها ذكر أصحاب الفيل ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ [الفيل: ٣] إلى آخر السورة، وفى الصبح بسورة الفجر وفيها ذكر عاد ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر: ١١-١٣] الآيات، فبلغ قوله الإمام المذكور - وهو لم يخطر له شىء من ذلك ببال ولا علِق منه بحبال - فارتاع لذلك وارتاب، ولبث البيت وزرر الباب، ومكث على ذلك أيامًا، وتمنى أن لم يكن إمامًا. وهو اتفاق فيه إيهام، لكنها رمية من غير رام، لطف الله بنا وبه.

ثم عزم مولانا الشريف رحمه الله فى عام تسع وخمسين إلى زيارة جده ﷺ فكان دخوله يوم الخميس ثامن شهر شعبان من السنة المذكورة، فنزل بالقاضية خارج

السور. ثم فى فجر اليوم العاشر من الشهر المذكور نزل الأفندى زفر قاضى المدينة الشريفة راكبًا ومعه ثلاثة من الخدم، فلما كان عند الدفتردارية وثب عليه شخص فضربه بالحد فى ظهره أنفدها من صدره فأكب على قربوس الفرس، ولم تزل داخلة به إلى محراب السيد عثمان بن عفان رضى الله عنه وإمام الشافعية قائم يصلى الفجر، فقام بعض الناس إليه، وأنزلوه بآخر رمق وهو يقول: يا رسول الله يارسول الله، ووضع أمام الوجه الشريف، وبعد لحظة قضى عليه، فحشدت عساكر المدينة واجتمعت وأغلقت أبواب سور المدينة، وتفرقت فى متارسه، ووجهوا المدافع إلى جهة مولانا الشريف زيد ونادوا: اخرج عنا الآن، وبدا منهم ما هو وصفهم، فبعث إليهم الشريف أكابر جماعته، وأكابر عسكر مصر، فحلفوا لهم بأن لا علم للشريف بذلك ولا شعور، ولوَّموهم على ذلك خطابًا من تحت السور، فتراجعوا وفتح باب السور.

ففى اليوم الثانى استدعى وجوههم لينظر فى حال قتلة الأفندى ويبحث عنهم، فأتوا إليه فلم يزل يمسكهم واحدًا واحدًا وحبسهم مديدة، ثم وقعت فى بعضهم شفاعة ففك وذهب بالباقين وهم نحو تسعة أنفس فأمر بإبقائهم فى ينبع، فاستمروا إلى مجىء الحاج فاستشفعوا بأمير الحاج فأتى بهم مستشفعًا فيهم، فشفعه مولانا الشريف، ثم لما نزل بعد الحج الصنجق غيطاس أمير جدة من مكة إلى جدة مغاضبًا لمولانا الشريف زيد نزلوا معه وكتبوا أنفسهم فى دفتر عسكره.

وسبب غضبه الناشئ عنه الحرابة الآتى ذكرها فى سنة ستين وألف أمور: منها أنه ورد إلى مكة بعض تجار من الصعايدة، وشخص أعجمى يسمى أسد خان جاءوا من جهة اليمن بتجارة، ونزلوا من البحر إلى بندر القنفدة، ووصلوا إلى مكة برًا ولم يدخلوا بندر جدة، فلما أن دخلوا إلى مكة وكان غيطاس بمكة قد وصل للحج فاحتال على الصعيدى وحبسه، وكان الصعيدى ملتجئًا إلى المرحوم السيد هاشم بن عبد الله فلزم السيد على الشريف زيد فى إطلاقه فوعده، ثم إنه أخذته الحمية، فركب إلى الشريف ثانيًا، ثم نزل من عنده قاصدًا لبيت الصنجق غيطاس لفك الرجل، فنادى مولانا الشريف قائمًا من الروشن: ردوا الرجل فمضى، فلما أقبل على البيت لم يقابل إلا بالرجل المحبوس منطلقًا فرجع به.

وقيل: إن حبس غيطاس للصعيدى إنما كان بسبب دين عليه شكا فيه على غيطاس.

ومنها: مجابذة الشريف زيد له لما جعل القرش الحجر بخمسة وأربعين ديوانى فى صرور أهل مكة بزيادة خمسة على الأربعين المعتادة.

ومنها: إيحاء أولئك النفر من عسكر المدينة، ونسبتهم قتل الأفندى إليه.

ومنها: تردد السيد عبد العزيز ابن الشريف إدريس إليه ومواطأته ووعده إسعافه، بما أبى الله إلا خلافه.

فقبل أن ينقضى الحج نزل غيطاس إلى جدة، ووصل إليه السيد عبد العزيز المذكور، فوصل الخبر بعد قليل إلى مكة بتولية غيطاس للسيد عبد العزيز مكة ونودى له بالبلاد، وأقام حاكما فيها ناصر بن سعيد عتيق مصطفى السيورى وظن أنها تكون. . . . . ،[1] وأقبل غيطاس ومعه السيد المذكور بمن معه ومن لمَّ عليه من لفق عسكر المدينة، وخرج عليه مولانا الشريف زيد رحمه الله تعالى، وكان اللقاء يوم الخميس تاسع عشر جمادى الأخرى من سنة الستين وألف فوق التنعيم، وكان فى الميمنة متقدمًا مولانا المرحوم السيد أحمد بن محمد الحارث بجماعته ومن يليه، وكان فى الميسرة كذلك متقدمًا قليلاً مولانا المرحوم السيد مبارك بن شنبر بجماعته ومن يليه، ومولانا الشريف زيد بمن معه فى القلب، والصروخ ملأت السهل والوعر وتراموا بالرصاص والمدافع، وكلما همّ الأشراف بالحملة يقول لهم مولانا الشريف: معكم معكم، كناية عن التلبث والتأنى، وارتفع النهار وحميت الشمس فركض من الأشراف جماعة، منهم السيد وبير بن محمد بن إبراهيم، والسيد بشير ابن سليمان، والسيد أبو القاسم، فأصيب السيد وبير بالبندق فسقط بين الجمعين، وأصيب جماعة من الجانبين، وحين اشتد الحال أتى مولانا السيد عبد العزيز إلى جمع السيد المبارك بن شنبر داخلا عليه طالبًا للأمان، ولغيطاس ومن معه، فعزم به السيد مبارك إلى مولانا الشريف فأمنه ووقع الصلح، ونصبت للشريف خيمة فنزل بها يستظل، وسأل السيد عبد العزيز من الشريف من يوصل غيطاس إلى مأمنه لأنه أشفق من نهبة العربان له، فأصحبه الشريف خمسين شخصًا من العسكر فذهب إلى جدة

(١) بياض بالمخطوط.

راجعًا، وجاء عزله، فذهب إلى ينبع وواجهه الحاج بها، ومكث إلى عود الحاج من مكة إليها وتوجه معهم إلى مصر وتوجه معه السيد عبد العزيز ابن الشريف إدريس رحم الله الجميع، فاستمر غيطاس بمصر سنة إحدى وستين، وجاء فى موسمها أمير المحمل المصرى فتوهم منه مولانا الشريف زيد، ولما خرج للخلعة على العادة لم يكن بينهما مناكبة على المعتاد بل مد له الشريف يده الشريفة فصافحه، ومن عامئذ تركت مناكبة شريف مكة لأمراء الحجيج ولم يقع منه شيء من المضار ولله الحمد والمنة.

وأما مولانا السيد عبد العزيز فأقام بمصر نحو سنتين، ثم جاء خبر وفاته فى السنة الثالثة شهيدًا بالطاعون رحمه الله.

وفى سنة ثلاث وستين عمرت قبة الفراشين فى المسجد الحرام، فقال مولانا القاضى تاج الدين المالكى مؤرخًا عمارتها وممتدحًا معمرها: [من الرجز]

أُنظُرْ لحسنِ قبةٍ جدَّدها ... مؤسسًا فَخْرُ الملوكِ الأمجدُ
وقُلْ إذا أَرّختَ عامًا كانَ في ... أثنائِهِ بناؤُهُ المشيَّدُ
عمرها سلطانُنا محمَّدُ ... ألملكُ السامى العلىُّ الأوحَدُ

وإن أردت تاريخها باعتبار تمام البناء كله فى سنة أربع وستين فقل: المالك بزيادة الألف. ولما أرادوا الشروع فى العمل حملوا المؤنة على الحمير، وأدخلوها من باب البغلة ويعرف هذا الباب قديمًا بباب بنى سفيان بن عبد الأسد؛ كذا قاله الأزرقى. وعرف الفاسى هذا الباب بباب البغلة قال: ولم أدر ما سبب هذه الشهرة، قال العلامة الشيخ محمد على بن علان: لعل سببها أن بغلته ﷺ ربطت أو وقفت ثمة فى بعض الأوقات والله أعلم.

وفى سنة ثمان وستين وألف: أصاب شاهجهان سلطان الديار الهندية فالج عطله عن الحركة، وحصل بين أولاده حروب كثيرة، ولما أراد الله بالهند خيرًا وإحسانًا، وقدر ظهور العدل فيهم كرمًا وامتنانًا، أظهر فى حافتيها شموس السلطنة بلا ريب، وأنار فى سماء سلطنتها أنوار أورنك زيب، وطوى بساط إخوانه ومزق، وحرق بنار المظلومين لباسهم وخرق، وقتل أخاه دارا شكور واقتلعه هو وأصحابه من ملك الحبور، وأسكنهم دارسات القبور. وكان دارا شكور ذا ذوق وفطنة بهية، وصفات مستحسنة رضية، إلا أنه فى آخر عمره صارت سيرته ذميمة، وأحدث مظالم وخيمة.

وفى سنة تسع وستين يوم الجمعة لعشر بقين من شوال منها: توفى مولانا السيد عمار بن بركات بن جعفر بن أبى نمى فى الديار الهندية رحمه الله تعالى.

وفيها أواخر شهر رمضان: توفى بالقرية المسماة بالآبار من بلدة الطائف الحميدة الآثار، ودفن فى سوح ضريح الحبر ابن عباس طيب الأنفاس، مولانا وسيدنا العلامة، العمدة الصدر الفهامة، القاضى عصام الدين بن على زاده العصامى، نتيجة الفضلاء الكرام، وسلالة العلماء الأعلام.

الراوى حديث المجد عن أسلافه الأماثل، والحاوى محاسن سلسلة آبائه الفضلاء التى لم يفصلها بحمد الله جاهل، والرافع عماد بيتهم، والمجيب منادى صيتهم وصوتهم، بيت فضل لم ينشأ به إلا قاض وخطيب، فنن فضله فى رياض المعالى رطيب.

ولد بمكة ونشأ بها وأخذ العلم عن والده، وعن مولانا السيد عمر بن عبد الرحيم، وعن ابن عمه مولانا الشيخ عبد الملك بن جمال الدين العصامى وغيرهم، ولازم الإقراء والتدريس على الدوام فى المسجد الحرام، على طريقة العلماء الكاملين، والأئمة الواصلين.

وخلف ابنين نجيبين كاملين، هما مولانا القاضى على، ومولانا المرحوم القاضى محمد. انتقل محمد بعد سنوات عن ابنين نجيبين أيضًا.

وتصدر مولانا القاضى على مكانه للإقراء والإفادات، وهو كآبائه على طريق خير وصلاح، قد أشرق نورهما عَلَى محيّاه ولاح.

أطال الله بقاءه للدين، ونفع بعلومه المسلمين آمين.

وفى سنة سبعين حصل غلاء بمكة وصلت فيه كيلة الحب إلى سبعة عشر محلقًا، فأشار شيخنا العلامة محمد البابلى على مولانا الشريف زيد بإبطال التسعير، فأطلق مناديه بذلك، وأن كل من عنده حب أو ما يقتات به يبيعه بسعر الله، فأظهر كل من عنده الحب، وجلب من سائر البلدان حتى كثر ورخص السعر، وسبب الغلاء: كثرة الجراد بأرض الحجاز واليمن، وأعقبه الدبا فأكل جميع الأشجار والزراعات.

وطبق بعض الأدباء تاريخا على قوله: «غلاء وبلاء» نعوذ بالله منهما ومن كل مخوف.

وفى سنة اثنتين وسبعين: عمرت زمزم والبناء الذى عليها ما عدا الجهة القبلية، وأدير باب المصعد إلى قبتها إلى الجهة الجنوبية، فأرخ ذلك قاضى مكة عامئذ- وهو بعض الأروام الواصل منهم كل عام جديد قاض جديد- بأبيات بالتركية آخرها بيت التاريخ بالعربية هو:

قُلْتُ تاريخُهُ بلفظٍ حَلٍ   قَدْ بنى الزمزمَ محمَّدُ خَانْ

وهى أبيات دون عشرة منقورة فى حجر على باب زمزم إلى الآن فسبحان الحكيم.

وفى سنة ثلاث وسبعين وألف يوم السبت بعد الظهر سابع شعبان منها: حصل مطر سال منه سيل كبير ملأ المسجد وغرق فيه نحو ستة أنفس، فتصدى مولانا الشريف زيد لتنظيفه ونادى فى الناس، وحضر بنفسه وكذلك صنجق جدة الأمير سليمان بك - وهو يومئذ شيخ الحرم المكى، وقائم على عمارة المقامات وترميم المشاعر - وعمل الأشراف والعلماء والخطباء والمدرسون بأيديهم بعد أن عمل مولانا الشريف زيد بيده، وبذل هو والسنجق مالاً جزيلاً، وأعمل الهمة فى ذلك، فتم تنظيفه من سائر جهاته فى سبعة أيام، ولله الحمد والشكر.

وقال صاحبنا المرحوم مولانا السيد أحمد ابن المرحوم مولانا السيد أبى بكر بن سالم ابن شيخان مؤرخًا دخول السيل: [من الخفيف]

قهقَهَ الرعدُ عندما ابتسَمَ البَرْ   قُ فأبكَى الغَمَام قَطْر المياهِ
وأذابا قلوبَنَا الخوفُ والرعْـ   بُ فويلٌ لغافلِ القَلْب ساهِى
وأتانا طوفانُ نوحٍ وبالمَوْ   تِ قطعنا لولا جنابُ الإلهِ
إن تقُلْ أَوْضِحُوا فَسابعُ شعبا   نَ وسبْت ليوم سِتّ مُضَاهِى
أو تردْ عامه المهيلَ فأرِّخْ   باتَ سيلٌ يطوفُ بالبيْتِ دَاهِى

وفى سنة أربع وسبعين وألف: عمرت المقامات الأربعة، مقام الخليل وباقى الثلاثة، وطلاء جميع قباب المسجد بالنورة ظاهرًا وباطنًا، ورممت جميع المشاعر بعرفات، مسجد إبراهيم، وقبة جبل الرحمة والمشعر بمزدلفة، ومسجد الخيف بمنى، وأعلام الجمرات وحدود الحرم.

وفى سنة ست وسبعين: خرج مولانا الشريف زيد رحمه الله تعالى إلى بلاد جهينة

لطلب ثأر السيد مساعد استجرّه والد مولانا وسيدنا المصنف هذا الكتاب برسمه، المشرف بلقبه الشريف واسمه متع الله بحياته، مولانا المرحوم السيد غالب بن محمد ولى الدم الأدنى، فتوجه بجميع من معه من السادة الأشراف، وأتباعهم وعساكره وعساكر مصر رتبة مكة إليهم وأقام ببدر، وتوجه مولانا المرحوم السيد حمود بن عبد الله إلى زيارة جده ﷺ، وكنت زائرًا معه فى كنف جنابه، على خيله وركابه.

وفيها: كان ورود الأغا عماد أفندى الرومى، فاتجه به مولانا السيد حمود فى الطريق، وذلك أنه لما وصلنا إلى الخيف -المنزل المعروف- وجدنا مخيمه بها، فمال إليه السيد حمود مع بعض أولاده، وبنى إخوته، وبنى عمه، ودخلوا عليه، فقام ساعيًا حافيًا من بُعد فكان أول اجتماعه به هناك، فجلس عنده حينًا من الزمان، ثم خرج وتوجه للزيارة، ثم لما رجع وجد مولانا الشريف زيد مقيما ببدر، فنزل بمحشوش اسم ماء قرب بدر، ثم توجها معًا إلى حرابة جهينة وكان المرحوم السيد أبو القاسم ابن السيد حمود هو القائم مقام مولانا الشريف زيد بمكة المشرفة عامئذ، وكانت الأمطار قد كثرت بالحجاز فرخصت الأسعار جدا حتى يبع الإردب القمح بثلاثة حروف عددى، والمن والجبن بمحلقين، والألبان واللحوم والخيرات كثيرة، ومثل مكة فى هذا ما حولها من الأقطار ولله الحمد والشكر.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وألف: كان هلالها بالأحد، فى فجر ليلة الثلاثاء ثالثه كانت وفاة سلطان الحرمين ونواحيهما، والمالىء بعدله وأمنه دانيهما وقاصيهما، مولانا المرحوم الشريف زيد ابن الشريف محسن بن الحسين بن الحسن؛ فصعدت روحه إلى معالم العرش والكرسى، وأفيض عليه من الرضوان سابغ الروح القدسى.

كان رحمه الله متخلقًا بالأخلاق المحمدية، متصفًا بالصفات الكمالية.

كان كثير الحلم والصبر والشفقة على الرعية، بحيث يسمع بأذنيه منهم الأسية، ويعفو ويصفح تأسيًا بجده خير البرية.

ولم يضبط عليه أنه قتل شخصًا بغير حق فى هذه المدة الطويلة المرضية.

وكان الأقطار والرعية فى زمنه آمنة مطمئنة فى عيشة هنية. وهو حقيق بأن يلقب مهدى الزمان، رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح الجنان.

كان ولادته - رحمه الله تعالى، وأعاد على المسلمين من بركاته- بعد مضى درجتين من شروق شمس يوم الإثنين السابع والعشرين من شهر شعبان المعظم سنة ست عشرة بعد الألف ببلدة «بيشة» من أعمال الشرق.

قلت: قد أخبرنى مولانا الخطيب العلامة اللبيب نتيجة الفضلاء، وعين الأعيان النبلاء، برهان الدين، الخطيب والإمام بمسجده - عليه الصلاة والسلام -، إبراهيم ابن العلامة الفهامة واحد عصره بلا خلاف، ونسيج وحده كلمة ائتلاف، مولانا المرحوم الخطيب أحمد بن عبد الله الشهير بالبرى نقلاً عن والده المذكور أنه حضر فى مجلس مولانا المرحوم الشريف زيد بعض متعاطى علم الرمل فضرب تخته ثم قال لمولانا الشريف زيد رحمه الله: قد دل الرمل الصحيح على أنه كان وقت علوق والدتك بنطفتك عند الزوال فى شهر رمضان فى عام خمسة عشر بعد الألف، فاستغرب مولانا الشريف ذلك لمكان شهر الصوم، ثم إنه سأل والدته عن هذا المعنى فأجابت نعم: كان سيدى أبوك غازيًا فى شهر رمضان لبعض العرب، فجاء بعد أن أدرك من النصر والنجح الأرب، وكان وصوله فى ذلك الوقت الذى ذكره هذا الرجل، فوقع على، فأدركت الحمل بك من حينى.

هكذا أخبرنى - حفظه الله تعالى - نقلاً عن والده الخطيب أحمد البرى المذكور.

فعلى هذا تكون مدة حمل مولانا الشريف زيد زادت على تسعة أشهر، ولا مانع من ذلك فإن أقصى مدة الحمل عند السادة الحنفية سنتان، وعند السادة الشافعية أربع سنين، وقد اتفق مكث الحمل تلك المدة لأشخاص كثيرة.

وكانت مدة ولايته خمسًا وثلاثين سنة وشهرًا وأيامًا، رحمه الله رحمة واسعة، وغفر له مغفرة جامعة آمين.

ولما مات وقعت بمكة رجة عظيمة فى التولية على المسلمين وفيمن يقوم مقامه، بين ولده الشريف سعد وبين السيد حمود بن عبد الله، وقام كل من الرجلين أشد قيام، وجمع الجموع وبذل المال، وتحصنوا فى البيوت والمنائر، وانضم الأشراف جميعهم إلى السيد حمود، ولم يبق مع الشريف سعد إلا السيد مبارك بن محمد الحارث، والسيد راجح بن قايتباى، والسيد عبد المطلب بن محمد، والسيد مضر ابن المرتضى، والسيد الحسين بن يحيى، والسيد فارس بن بركات، والسيد محمد

ابن أحمد بن على، وهو الذى كان مع المنادى.

وكان فى مكة رجل عظيم الشأن قد ورد فى العام الذى قبل هذا العام وهو عام ست وسبعين، ورد سنجقًا لـ«جدة» وشيخًا لحرم مكة، وهو عماد أفندى المتقدم الذكر آنفًا، فردوا الأمر إليه.

وأحضر خلعة عنده والرسل تسعى من الشريف سعد إليه إلى الضحوة، فاتفق الرأى أن يُلبسوا الخلعة الشريف سعد، فأخذها من تحت ركبته شخص من أكابر عسكر مصر، يقال له: المسلمانى، وذهب بها إلى الشريف سعد فلبسها فى بيته من غير وعد.

قلت: وكان مجلس عماد أغا فى المسجد فى دكة عند باب رباط الداودية، وقد كنت إذ ذاك واقفًا أنظر، فبعد أن أخذت الخلعة قيل له: إن ابن الشريف زيد محمد يحيى هو المولى، وقد أخذ له والده أمرًا سلطانيًا بذلك، فقال لمن أخذ الخلعة: قولوا للشريف سعد: بشرط أنك قائم مقام، قائم مقام، هكذا سمع أذنى، فبعد أن ذهبوا بها ومشوا قليلا دخل المسجد من باب بنى سهم المسمى بباب العمرة جماعة من الأشراف، منهم مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله، والسيد مبارك بن الفضل بن مسعود، وعبد الله بن أحمد، والسيد محمد بن أحمد بن حراز وغيره فى نحو ثمانية عشرة أشخاص، فوقفوا على عماد ورأوا جماعة للأتراك بيدهم الخلعة قد قاربوا باب المسجد النافذ إلى بيت الشريف، فقال لهم عماد: نحن ألبسنا الشريف سعد بشرط أنه قائم مقام أخيه محمد يحيى؛ لأنه هو القائم بعد أبيه المرحوم زيد بأمر سلطانى فلم يردوا عليه خطابًا، ثم إنهم رجعوا من الباب الذى دخلوا منه، ثم إنى أحببت الإحاطة التامة بالخبر وذهبت إلى منزل مولانا السيد حمود، فإذا الخيول على الباب، وإذا المجلس والبركة غاصان بالسادة الأشراف، فلم أستقر فى المجلس إلا والسيد حمود - رحمه الله - خارجًا من محل الحريم معتما عمامة زرقاء عليه صوف عودى، فخرج إلى البركة وجلس لحظة خفيفة، وقام عامدًا للنزول إلى مولاه المرحوم الشريف زيد وغسله، ومعاناة تجهيزه ودفنه، ومعه نحو ثلاثة أشخاص من بنى عمه لا أذكرهم الآن.

فلما كان فى أثناء الدرج نازلا إذا السيد أحمد بن محمد الحارث لاقاه طالعًا، فمذ

رآه السيد حمود وقف وقال: لا قطع الله هذه الزائلة، وكان جواب السيد أحمد سمع أذنى قوله: إذا جاءتك الرجال كن زبرة فرجع معه، ثم جهز مولانا الشريف زيد وأخرج إلى المسجد الحرام بعد صلاة الظهر، وخرج معه اثنان من الأشراف. أحدهما: ولده السيد حسن بن زيد، والآخر: من أولاد عمه، وأما باقى العسكر والأتباع فلم يخرج منهم إلا النزر اليسير لاشتغالهم بما هم فيه، وطلعوا به إلى المعلاة، ودفن فى قبة المرحوم مولانا الشريف أبو طالب فى جانبه إلى جهة القبلة.

وكان له مشهد عظيم، وخرج معه أهل مكة، وبكى عليه الصغير قبل الكبير، والحكم لله العلى الكبير.

وكان ذلك اليوم أعظم مصيبة على المسلمين. ولكن نرجع إلى قول رب العالمين ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٧].

ومما قيل فى تاريخ وفاته قول أخينا الفاضل الأريب، الشيخ أحمد بن قاسم الخلى وهو تاريخ عظيم عجيب هو قوله: [من الخفيف]

مَاتَ كهفُ الورَى مليكُ ملوكِ الْـ ... أَرْضِ مَنْ لَمْ يَزَلْ مَدَى الدَّهْرِ مُحْسِنْ
فالمعانى قالَتْ لنا أَرِّخُوهُ ... قد ثَوَى فى الجنانِ زيدُ بْنُ محْسِنْ

ولمولانا قاضى المسلمين ببلد الله الأمين الإمام العلامة القدوة الفهامة مولانا القاضى عبد المحسن ابن مولانا المرحوم الشيخ سالم القلعى مؤرخًا لوفاته قوله: [من الكامل]

يا أهلَ مكَّةَ إنَّ سيدنا الذى ... مَلَكَ الحجازَ وكانَ فيه الأرشَدُ
رَبُّ السماحةِ والشجاعةِ والحيا ... والحلْمِ وصفاه التقَى والسؤددُ
لَقِىَ الإلهَ فكان تاريخِى له ... زيدُ بن محسِن فى الجنانِ مخلَّدُ

ومما قيل فيه قول الشيخ محمد بن حكيم الملك رحمه الله تعالى راثيًا أباه الشريف محسن ومادحًا له: [من البسيط]

صوادحُ البانِ وهْنًا شجوُهَا بادِى ... فمَنْ عذيرُ فتًى فى فَتِّ أكبادِ
صبٌّ إذا غنَّتِ الورقاءُ أرَّقه ... تذكيرُهَا نغماتِ الشادِنِ الشادِى
فباتَ يرعفُ من عينَيْه تحسبُهُ ... يزبرجُ المدمَعَ الوكَّافَ بالجادى

جافى المضاجعَ إلْف السهدِ ساورَهُ سُمُّ الأساودِ أو أنيابُ آسادِ
له إذا الليلُ واراه نشيجُ شَجٍ وجذوةٌ فى حشاهُ ذاتُ إيقادِ
سمَّاره حينَ يضنيهِ توحُّشُهُ فيشرئبُّ إلى تأنيسِ عُوَّادِ
وجْدٌ وهمٌّ وأحزانٌ وبرحُ جوًى ولوعةٌ تتلظَّى والأسَى سادِى
أضناهُ تفريقُ شملٍ ظلَّ مجتمعًا وضَنٌّ بالعودِ دهْرٌ خطبه عادِى
فالعمرُ ما بين ضرٍّ ينقضى وضنًا والدهْرُ ما بين إيعادٍ وإبعادِ
لا وصْل سلمى وذات الخال يرقُبُهُ ولا يؤمّلُ من سعدَى لإسعادِ
أشجَى فؤادىَ واستوهَى قوى جلدى أقوَى ملاعب بين النصْبِ والوادِى
عفَّتْ محاسنهَا الأيامُ فاندرسَتْ واستبدلَتْ وحشة من أنسها البادِى
وعطَّلَتْهَا الرزايا وهى حاليةٌ بساكنيها ووُرَّادٍ وروَّادِ
وعاث صرفُ الليالِى فى مَعَالمها فما يجيبُ الصدَى فيها سوى الصادِى
دوارج المور مارَتْ فى معاهدها فغادَرَتها عفا الساحاتِ والنادِى
وناعبُ البينِ نادى بالشتاتِ بها فأهلُهَا بين أغوارٍ وأنجادِ
وصوحَتْ بالبلا أطلالُهَا وخلَتْ رحابها الفيحُ من هِنْدٍ ومن هادِى
أضحَتْ قفارًا تجرُّ الراسياتِ بها ريحُ جنوبٍ وشمل ذيلها الخادِى
كأنها لم تكُنْ يومًا لبيض مَهًا مراتعًا قد خلَتْ فيهنَّ من هادِى
ولم تظلَّ مغانيها بغانيةٍ تغنى إذا ما روى مِنْ بَذْرها رادِى
ولا عطا بينها رِيم ولا طلقٌ بها بدورُ دُجًى فى بُرْجٍ منطادِ
ولا تثنَّتْ بها لمياءُ ساحبة ذيل النعيم دلالاً بين أندادِ
فارقْتُهَا فكأنى لم أظَلَّ بها فى ظِلِّ عيشٍ يجلى عذْرَ حسادِ
أجنى قطوفَ فكاهاتٍ محاضرةٍ طورًا وطورًا أناجى زينةَ الهادى
هيفاءُ يزرِى إذا ماسَتْ تمايلها بأملَدٍ من غصونِ البانِ مَيَّادِ
بجانِبِ الجيدِ يهوى القرْط مرتعدًا مهواهُ حدّ سحيق فوق أكبادِ
شفاتها بين حُرِّ الدر قد خزنَتْ ذخيرة النخْلِ ممزوجًا بها الجادِى
إذا نضَتْ عن محياها النقابَ صَبًا مستهترًا كُلُّ سَجَّادٍ وعَبَّادِ
وإن تجلَّتْ ففيما قد جلَتْهُ دُجًى لنا به فى الدآدى أيُّما هادِى

وميضُ برقٍ ثناياها إذا ابتسمَتْ   بعارضِ الدمعِ من مهجورها حادِى
وناظرانِ لها يرتدُّ طرفُهُمَا   مهما رنَتْ عن قتيلٍ ما له وادِى
وصبحُ غُرَّتها فى ليلِ طُرَّتها   يوماىَ من وَصْلها أو هجرها العادِى
تلكَ الربوعُ التى كانَتْ ملاعبها   أخنَى عليها الذى أخنَى على عَادِ
إلى مراتعِ غزلانِ الصريمِ بها   يحنُّ قلبى المعنَّى ما شدا شادِى
بعدًا لدهْرٍ رمانى بالفراقِ بها   ولا سقَى كنفيه الرائحُ الغادى
عَمْرِى لقد عظمَتْ تلك الفوادحُ مِنْ   خطوبِهِ وتعدَّتْ حدّ تعدادِ
فقدْ نسيتُ وأنستْنِى بوائقه   تلك التى دهدهَتْ أصلاد أطوادِ
مصارعٌ لبنى الزهرا وأحمدَ قَدْ   أذكرْنَ فخا ومَنْ أردى بها الهادِى
لفقدِهِمْ وعلى المطلولِ مِنْ دمهم   تبكِى السماءُ بدمْعٍ رائحٍ غادِى
وشَقَّ جيبَ الغمامِ البرْقُ من حزنٍ   عليهمُ لا على أبناءِ عبَّادِ
كانوا كعقْد لجيدِ المجدِ مذْ فرطَتْ   من ذاك واسطةٌ أودى بتبدادِ
وهْوَ المليكُ الذى للملكِ كان حِمًى   مذْ ماسَ من بُردِهِ فى خيرِ أبرادِ
كانتْ لجيرانِ بيتِ الله دولتُهُ   مهادَ أمْنٍ لسرحِ الخوفِ ذوادِ
وكان طودًا بدَسْتِ الملك محتبيًا   ولاقتناصِ المعالى أىّ نهادِ
ثوَى بصَنْعَا فيا لله ما اشتملَتْ   عليه من مجدِهِ فى ضيقِ ألحادِ
فقد حويتِ به صنعاءُ من شرفٍ   كما حوَتْ صعدةٌ بالسيد الهادِى
فحبذا أنتِ يا صنعاءُ من بلدٍ   ولا تغشى زيادًا وكْف رعَّادِ
مصابُهُ كان رزءًا لا يوازنُهُ   رزءٌ ومفتاح أرزاءٍ وأسبادِ
وكان رأسًا على الأشرافِ منذ هوَى   تتابعوا إثْرَهُ عن شبهِ ميعادِ
كهفُ المضافِ إذا ما أزمةٌ أزمَتْ   من خطبِ نائبةٍ للمتنِ هدادِ
كهفُ المضافِ إذا ما أمحلَتْ سنةٌ   يضنُّ فى محْلها الطائىُ بالزادِ
كهفُ المضافِ إذا كَرَّ الجياد لدى   حَرّ الجلادِ أثار النقْعَ بالوادى
كهفُ المضافِ متَى ما يستباحُ حمى   لفقدِ حام بورد الكَرِّ عوادِ
كهفُ المضافِ إذا الجلى به نزلَتْ   ولم تجدْ كاشفًا منها بمرصادِ
كهفُ المضافِ إذا حلَّ المغارم فى   نيلِ العلاَ أثقل الأعناق كالطادِ

كهفُ المضافِ إذا نادى الصريخُ ولَمْ ... يجدْ له مصرخًا كالغيثِ للصادِى
كهفُ المضافِ إذا الدهْرُ العسوفُ سطا ... بضيْم جارِ لنيلِ العِزِّ معتادِ
بل لهْفَ نَفْسِ ذوى الآمالِ قاطبةً ... عليهمُ خيْر مرتادٍ لمرتادِ
كانتْ بهم تزدهِى فى السلْمِ أنديةٌ ... وفى الوغَى كُلُّ قداد ومَيَّادِ
على الأرائكِ أقمارٌ تضىءُ ومِنْ ... تحتِ الترائكِ آسادٌ لمستادِ
تشكُو عداهُمْ إذا شاكى(١) ... شكّ القنا ما صفا مِنْ نسخِ زرادِ
إلى النحورِ وما تحوى الصدورُ وما ... وارَتْهُ فى جُنحها ظلماتُ جسادِ
جَناجنًا فُلُقًا تَحوِى جَآ جِئُوهَا ... مما يقصِّدُ فيها كلّ قَصَّادِ
بادوا فبادَ من الدنيا بأجْمعِهَا ... من كانَ فكّاك أصفادٍ بأصفادِ
وقد ذوَتْ زهرةُ الدنيا لفقدِهِمُ ... وأُلْبِسَتْ بعدها أثوابَ إحدادِ
واجتثَّ غرس الأمانى من فجيعَتِهِمْ ... وأنشدَ الدهْرُ تقنيطًا لروادِ
يا ضيفُ أقفرَ بيتُ المكرماتِ فخذْ ... فى ضمِّ رحلكَ واجْمعْ فضلةَ الزادِ
يا قلبُ لا تيأَسَنْ من هولِ مصرعِهِمْ ... وعَزِّ نفسكَ فى بؤسٍ وإنكادِ
بمَنْ غدا خلفًا يا حبَّذا خلفٌ ... فى الملكِ من خيرِ آباءٍ وأجدادِ
بحائزٍ إرثَهُمْ حاوى مفاخِرِهم ... عما حوَى الألْفُ من آحادِ أعدادِ
وذاكَ زيدٌ أدامَ الله دولتَهُ ... وزادَهُ منه تأييدًا بأعدادِ
سما به النسَبُ الوضَّاحُ حيثُ غدا ... طريقُهُ جامعًا أشتاتَ أتلادِ
لقد حوَى من رفيعاتِ المكارِمِ ما ... يكفى لمفخَرِ أجداد وأحفادِ
أليس قد نَالَ ملكًا فى شبيبتِهِ ... ما ناله مَنْ سعَى أعمارَ آمادِ
ألَيْسَ فى وهَجِ الهيجا مواقفُهُ ... مشكورةً بين أعداءٍ وأضدادِ
أليس أصبحَ بالتنعيم سابحُهُ ... لجّ المنايا ليحمى قُلَّ أجنادِ
ألَيْسَ نبئتَ يوم الليثِ أنَّ له ... وثباتِ ليثٍ يزجّى ذودَ نقادِ
ألَيْسَ يومَ العطا تحكِى أناملهُ ... خلجانَ بحْرٍ بفيضِ التبرِ مدادِ
ألَيْسَ قد راحَ فى تأسيسِ دولتِهِ ... مِنْ جده المصطفى رمْز بإرشادِ
دامَتْ معاليه والنعمَى يذال له ... مصونها وَهْوَ ملحوظٌ بإسعادِ

---

(١) بياض بالأصل .

ما لاحَ برقٌ وما ناحَتْ على فَنَنٍ صوادحُ البانِ وهنّا شجوها بادِى

ومما قيل فيه - أيضًا - قول الإمام الفضل بن عبد الله الطبرى الحسينى: [من البسيط]

يا مىُّ حيا الحيا أحيا محياكِ هَلاَّ بأعتاب عتبى فَاهَ لى فاكِ
مَنْ لى إليكِ وقد أودَى صدودكِ بى ولا تزالينَ طوعًا لى أفَّاكِ
يا هذه لم أزَلْ من بُعْدِهَا وَدُنُوّ السقْمِ من بعدها موثوق أشراكِ
تيهى أطيلى التجنِّى والجفاء وما أردتِّ فاقضِيهِ بى فالحسْنُ ولاكِ
رفقًا رويدًا كأنى بالعذولِ علَى تطاولِ الصدِّ فى ذا الصبِّ عزاكِ
إن لم يعز عزا عينى وقَدْ حُظِرَتْ مرآكِ فليَهْنِ قلبى وهْوَ مرعاكِ
حسبى دليلاً على شوقِى المبرِّحِ بى أنِّى لَثَمْتُ عذولى حينَ سَمَّاكِ
والجفْنُ فى أرقٍ والقلْبُ فى حرقٍ والعينُ فى غرقٍ إنسانُهَا باكى
يا مهجةَ الصبِّ غير الصبْرِ ليس وقَدْ حنَّتْ بما قد لاقَيْت عينَاكِ
ويا عذولِى لِمِ اكْفُفِ اضْلُل اهْدِ تَرَفَّقْ لِجَّ دَعْ أَوْجِبِ اطْلاَقِى وإمساكِى
ويا أسيرةَ حجليها أرَى سَرَفًا لُبْسَ الحلى وقد منَعْت مرآكِ
عطفًا علَى حالِ مَنْ لا يبتغى بدلاً ولَيْسَ يشفيه مِنْ مشفيه إلاكِ
وأجملى الودَّ واخشَىْ عذلَ ذى الشَّرَفِ الـ ـمؤيّد العزِّ مولاىَ ومولاكِ
زيدُ بن محسِنَ سلطانُ الأنام إما ـمُ الحضرتَيْنِ أمانُ الخائفِ الباكى
كهفُ الضيوفِ وثَلاَّمُ الصفوفِ وَمَنَّاحُ الصنوفِ وفاءً دون تَشْكَاكِ
وباسلٌ لو رأَى شزرًا على حنقٍ للموْتِ ما اخترم المَشْكُوّ والشاكى
ألقاسمُ الجودَ فى سامٍ وذى ضعةٍ كواسم الجود فى نبْتٍ وأشواكِ
يُلقَى فيلقى بفَضْلٍ غير محتجبٍ وشأو شانٍ علا فى غَيْرِ إدراكِ
ونهبة لو رأى الضلال صُورتها لأصْبَحُوا بين أخيارٍ ونُسَّاكِ
يهتزُّ للعَفْوِ من حلمٍ ولا طرب الْـ ـمشمُول من شَمْسٍ شماسٍ وبتراكِ
مهذَّبٌ رأيه والعزْمُ ناصرُهُ أغناه عَنْ أزرِ أعرابٍ وأتراكِ
وذى سطا كمْ تشاكَى بأسَهُ شاكى فى الملتقَى وتحامَى بَطْشَهُ شاكى
ثَبْتُ الجنانِ إذا كان الخميسُ وغا كأنه بين ظِلِّ الضالِ والراكِ

كم أضحَكَ السيفَ من باكٍ يجدِّلُهُ والزحْف ما بين [مفْتَاكٍ وفَتَّاكِ](١)
ومَنْ يكنْ ذا خليلٍ غير صارمِهِ والعزم يوشكُ أن يفجا بأضراكِ
وذى كعوبٍ له من طولِ حامِلِهِ طولٌ بمجتمعِ الجَنْبَيْنِ شكاكِ
مخاطب بلسانٍ ناطقٍ بعجا ئبِ المنايا بديهًا يا لَهُ حاكى
هو المليكُ الذى أسْنَى الممالك والـ أزْمَان مِنْ بعدِ إسناءٍ وإحلاكِ
وطَبَّقَ الأرضَ عدلاً والضواحىَ فالضِّدَانِ فى أمرِهِ المَنْكى والناكى
ونادَتِ الغُبْر الخضراء لو عقَلَتْ غيظًا به ضرَّتى أبعدتِّ مرماكِ
وذكْرُهُ أرَّجَ الأرجاءَ شاسعةً فَطِيبُ رِيحِ الصبا مِنْ عَرْفه الزاكِى
يا نفْسَ آمِلِهِ بُشْرَاكِ بشراكِ ولو قضيْت بإذنِ الله أحياكِ
أو رمْتِ أجناد عُدْم أو نويْتِ بما أعياكِ محمله أغنَى وأقْنَاكِ
أوْرَدَ أمْسَك حالا أو مُضِى غدٍ بسعده كَانَ ما تبغين يلقاكِ
ويا سيادتَهُ مِنْ أن يطاولها مثلٌ وإياه حاشاهُ وحاشَاكِ
ودولَة فى حياةِ العمْرِ غرتُهَا ما الدهْرُ حتى انقضاء الدهْرِ ينساكِ
ويا ليالِيهِ قد دامَتْ بسؤددِهِ من أينَ للملكِ شرواه وشرواكِ
ويا أيادِى أيادِيهِ السنيَّة لا ينفكُّ حسنكِ مقرونًا بحسناكِ
لو كان فى عَصْرِهِ بعد النبوةِ مبـ عوثٌ لكان بلا دفعٍ وإشراكِ
لو طُرِّزَتْ باسمه الراياتُ ما حذرَتْ أصحابُها غلبًا أو حطم دهاكِ
وقالتِ العينُ لو ترنو إليه بها سناه يا أرْضُ عنى كان أغناكِ
ولو تقدَّم عهدًا كان ممتدحَ الـ آياتِ فى طَىِّ منشوراتِ إصكاكِ
فالحمدُ بعدُ له والحمْدُ قبلُ لمَنْ حبا الأنامَ سريًا أصله الزاكِى
لا زالَ واقِىَ مَنْ والَى ولاذَ به وقْعَ الخطوبِ بعزٍّ منه فَتَّاكِ
يَابْنَ الأُلى للعُلَا شادوا منيعَ حِمى يححجه كُلّ كفافٍ وفكَّاكِ
بالمجدِ سادوا وداسُوا هامَ شانِئِهِمْ وسيف عزمٍ لروح القرنِ سفاكِ
قد ذاد فى شرفِ البطحاءِ أنكَ في جيرانها خيْرُ فعَّالٍ وترَّاكِ
مولى الجميل ومنجاةُ الدخيلِ ومنـ حاةُ الخذيلِ سرى بعين أملاكِ

(١) فى ط: فتاك وفعاك .

كـافِيَّةٌ بُسِطَتْ وزنًا وقـافـيَـةً   تلوحُ كالدُّرِّ أو ياقوتِ أسلاكِ
يقولُ لو خالها الحِلِّئ خاطره   حلاك يا مَنْ صنيع الفضل حلاّكِ
وباعَ قيراطه البرهان منبخسًا   يزيفه فى انتقادِ كُلُّ حَكَّاكِ
وقالَ واسمك يا ذا العِزِّ واسطها   لطلعةِ البَدْرِ أن لا بَدْرَ إلاكِ
تبغِى القبولَ وقَدْ جاءَتْ معارضةً   أمثال كفى وفكِّى قيد أسراكِ

ثم وليها الشريف سعد ابن الشريف زيد ابن الشريف محسن بن حسين بن حسن، ولبس الخلعة، ونادى مناديه فى البلاد، يسمعه الحاضر والباد، والناس حوله لهم ضجيج كالرعد: البلاد بلاد الله، وبلاد السلطان، وبلاد الشريف سعد.

وانجلت البصائر والأبصار، ذهبت الحيرة، وربك يفعل ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة.

وقد أرخ صاحبنا وعزيزنا الشيخ الأكرم الشيخ أحمد بن قاسم الخلّى جلوسه فقال وفيه لطف إدخال بديع: [من مخلّع البسيط]

قـامَ بـأمْـرِ الـبـلادِ سـعـدٌ   أيَّـدَ رَبُّ الـسـمـاءِ مُـلْـكَـهْ
بـغـايـةِ الـمـجـدِ أرِّخُـوهُ   قد نِلْتَ بالسيفِ أمْرَ مَكَّهْ

ولمولانا المرحوم الإمام فضل ابن الإمام عبد الله الطبرى فى ذلك قوله: [من مخلع البسيط]

قـالـوا لـنـا الـيَـوْمَ مـاتَ زيـدٌ   والـنـاسُ تـخـشـى وقـوعَ عَـرْكَـهْ
والـقـومُ يـسَّـاءلـونَ هـذا   قَـالَ لـذا مـنْ يـرومُ مـلْـكَـهْ
فـقـلـتُ والـقـيـلُ قـد تـنـاهَـى   والـخـلْـقُ فـى ضَـجَّـةٍ ورَبْـكَـهْ
بيتًـا صـحـيـحًـا لـهـم جـوابًـا   مُـؤَرِّخـا فـيـه رُمْـتُ سَـبْـكَـهْ
يـبـايـعـوهُ يـمـلِّـكُـوهُ   سعْدُ بن زيدٍ شريفُ مَكَّهْ

ولأخينا المرحوم القاضى أحمد ابن القاضى مرشد الدين العمرى الحنفى قوله مؤرخًا: [من مجزوء الكامل]

شـمـسُ الـخـلافـةِ أشـرَقَـتْ   وبـدا مـنـيـرًا سَـعْـدُهَـا
مـذ حـازَهَـا الـشـرَفُ الـذى   بِـعُـلاَهُ زُيِّـنَ عِـقْـدُهَـا
سـعْـدُ الـذى تـاريـخُـهُ   خَـيْـرُ الـمـلـوكِ سـعـيـدهـا

وكان مع الشريف زيد مملوكان أحدهما تركى الجنس اسمه ذو الفقار، والآخر

حبشي اسمه بلال.

أما الأول: فكان عند مولانا الشريف من زمان حتى كبر وصار شيخًا للعسكر اللهام، فقام عليهم أحسن قيام.

وكان ذا هيبة ورأى سديد، صاحب قوة وبأس شديد، فدعاه مولانا الشريف فى بعض الساعات إليه، وأوصاه على بنيه وعولته - رحمة الله عليه -.

فلما انتقل الشريف إلى دار الآخرة، امتثل مولاه أوامره، وقام على قدميه وشمر، وكشف عن ساعديه وشد المئزر، ورتب العساكر فى المدارس[1] بلصق المسجد الحرام المعمور، ووزعهم على المنائر والدور، ووضع المدافع على رءوس المنافذ والطرقات، وضبط قانون الحرابة من سائر الجهات، هذا ومولانا السيد حمود لم يبرح من بيته مع بنى عمه وشيعته، ونار الفتنة قائمة أشد قيام، قلنا: يا نار كونى بردًا وسلام.

ثم بعد ذلك جلس مولانا الشريف سعد للتهنئة والسرور، وتأطد له الملك بفأل اسمه والحبور، ودعا مشايخ العرب وأهل الدرك وألزم كلا بجهته، ولم يقع ولله الحمد بمكة المشرفة شيء من النهب أو القتل أو الخوف ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش: ٣، ٤] ومن لطف الله - سبحانه - أن كان انتقال مولانا الشريف زيد - رحمه الله تعالى - بعد انقضاء الحج وتوجه كل إلى بلده.

وكان بمكة المشرفة يومئذ بعض تجار من حجاج الشام تخلفوا عن أميرهم، وقد جرت العادة بذلك أنهم يقيمون مدة لقضاء حوائجهم بعده، ثم يتوجهون ويجتمعون به فى المدينة المنورة، فلما أرادوا السفر طلبوا من مولانا الشريف سعد - حفظه الله تعالى - أن يأمر من يوصلهم المدينة خوفًا على أنفسهم وأموالهم، فأجابهم إلى ذلك - كان الله له -، وأرسل معهم السيد فارس ابن المرحوم بركات بن حسن، ومعهم جمع من العسكر، فأوصلوهم المدينة الشريفة سالمين، ولله الحمد والمنة.

ثم أمر حاكم الطائف، وكان بمكة جمع من أهل الطائف من الحجاج قد أحصروا عن أولادهم وأموالهم، ولم يمكنهم التوجه شفقة، فجهز جماعة من العسكر صحبة

(١) بياض بالمخطوط .

الحاكم المذكور، فساروا بهم من ليلهم، فوصلوا إلى الطائف من طريق يعرج، ونادى مناديه فى البلاد من ساعته.

ولما وصل الخبر بوفاة الشريف زيد - رحمه الله تعالى - إلى الطائف قبل وصول الحاكم اضطربت البلاد اضطرابًا شديدًا، وعزل السوق وكل أغلق بابه ونزع ثيابه، ودفن أسبابه، إلى أن وصل الحاكم، فاطمأنت حينئذ الخواطر من البوادى والحواضر، وكان إذ ذاك مولانا السيد زين العابدين بن عبد الله بن حسن بالطائف وأولاده وأتباعه، فلما وصل هذا الخبر ركبوا الجياد، وداروا البلاد، ونادوا بالأمان، فخمدت بذلك داعية البغى والطغيان، وطمنوا الناس، وأمروهم بالرجوع إلى السوق، وبسط الدكاكين ففعلوا وامتثلوا، وحمدوا ربهم وشكروا، وكان وصول الحاكم آخر ذلك النهار. ولما كان يوم الرابع من انتقال مولانا الشريف وهو يوم الجمعة أراد الخطيب أن يخطب فوقف عن الخطبة لسبب من الأسباب، يدريه أولو الألباب، فصلى الناس الظهر.

وأما مكة فخطب الخطيب بها، ودعا للشريف سعد بالنصر والتأييد، والناس فى عيش رغيد. وفى هذا الوقت وقع طراد فى جهة المثناة قريبًا من وادى وجّ بين قبيلتين: قريش والحمدة من ثقيف واستمر إلى وقت العصر، وحصل بينهما بعض جراحات، وكان بمكة المشرفة يومئذ جماعة من الأعراب أهل خيل وركاب لما بلغهم موت الشريف زيد رحمه الله انطلقوا على رءوسهم إلى البلاد، وكل من وجدوه فى طريقهم أخذوه بالظلم والعناد، وأكثروا فى الأرض الفساد، إن ربك لبالمرصاد، وما كان من طريق الحجاز فوقع فيها الخوف والنهب، والقتل والضرب، وكل من ظفر بصاحبه أخذه، وأهل القرى ترفعوا عن الطرقات، واجتمعوا فى بعض الجهات خوفًا على أنفسهم وأموالهم.

وفى اليوم الثالث من موت مولانا الشريف - سامحه الله تعالى - وهو يوم الخميس -: وقع اضطراب كبير من بعد الظهر إلى بعد العصر بين مولانا الشريف سعد، ومولانا السيد حمود، وكل منهما جمع جيوشه، وتحصنوا فى البيوت والمنائر، وركبوا جماعة السيد حمود فى الضلع الذى خلف بيته والجبل المعروف بجبل عمر، وتراموا بالرصاص من بعد، ولم تحصل مواجهة، ثم إنهم استمر بهم الحال وكل يوم يصبحون فى قيل وقال، وكل من الشريفين واثب على قدميه كسبع

الصيال، سبحان الله يؤتى الملك من يشاء وهو الكبير المتعال.

فلما كان اليوم الثالث عشر من يوم الوفاة: وقع الاتفاق بين مولانا الشريف سعد ومولانا السيد حمود على قدر معلوم من المعلوم وعينت جهاته، وكان يومًا عظيمًا عندنا أيها الناس، وحصل بذلك الأمن وارتفع البأس وأمر مولانا الشريف بالزينة ثلاثة أيام، وظهر السرور وزالت الحزون، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون.

وكتب محضر من الشريف سعد عليه خطوط الأعيان من الأفندى وشيخ الحرم والمفتى وأعيان البلاد على مراتبهم وعساكر مصر كذلك، وذهب به بلال أغا إلى مصر المحروسة، فأوصله باشا مصر ومعه مكتوب آخر من عبده إلى الأبواب العلية، فلما وصل فتح وقرئ فى ساعة مباركة طالعها سعد السعود، ثم أمر برد الجواب على ما يسر الخواطر والألباب، ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة: ٢١٢]، ولذلك كتب مولانا السيد حمود محضرًا ليس عليه إلا خطوط السادة الأشراف، فأرسله صحبة رجل مصرى يسمى الشيخ عيسى، فقدر الله أنه مات عقب دخوله مصر بيومين، فوجدوا العرض فى تركته، ولم يصل مقصده.

وكذلك كتب عرضا مولانا السيد محمد يحيى بن زيد من المدينة الشريفة وكان بها، ووضع أعيان المدينة خطوطهم عليه، والتزم بأربعين ألف دينار للوزير الأعظم.

قلت: قد كان أخرج مولانا الشريف لولده السيد محمد يحيى أمرًا سلطانيًا بولاية مكة فلم يتمكن من إنفاذه خشية ما يترتب على ذلك من المفاسد، وعدم الرضا من بقية أولاده وبنى عمه، وكان فى كل سنة - غالبًا - لم يحج معه إلا اثنان من أولاده هما حسن ومحمد يحيى، وكان السيد محمد يحيى بالمدينة فطلبه للحج فى ذلك العام وهو عام ست وسبعين، فامتنع لأمر يريده الله، فقال مولانا الشريف زيد عند امتناعه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦].

وكان الشريف سعد ابتعد نحو الشرق فجاء وتقرب من والده، وحج معه ذلك العام وكان من أمره ما كان، والكل فعل الله سبحانه.

وأنشد لسان الحال عن الشريف سعد فيما قصد وأم: [من الكامل]

وإذا السعادة لاحظتك عيونها نـــم ... ...

واستمر الناس منتظرين لورود الخبر السلطانى والتشريف الخاقانى نحو ستة

أشهر، وفى كل شهر يأتى المبشر من مصر المحروسة بتمام الأمر لمولانا الشريف سعد ويلبس خلعة البشارة، وفى ذلك إشارة لأهل الإشارة.

ولما كان يوم الخميس خامس عشر جمادى الآخرة، حصل بين بعض العسكر والعبيد شنآن بالمعلاة، فتراموا بالحجارة وسلت السيوف، ولم يقع بينهم قتال، وكان هناك بعض أولاد الشريف - حفظهم الله تعالى - فقاموا بينهم وأصلحوا القضية.

ثم دخل علينا شهر رجب الأصم، فلما كان يوم الجمعة رابع الشهر عند الغروب حصل بين مولانا الشريف سعد، وبين جماعة السيد حمود شنآن كبير، وصاح الصائح فى العسكر، فاجتمعوا وكل واحد منهما جمع جموعه، وتزبروا وتحصنوا فى البيوت والجبال، وتراموا بالبندق ليلتين بيوميهما على الشاخص والخيال، ولم يفقد من كل طائفة إلا رجل أو رجلان، ومات من الرعية شخصان خطأ من غير قصد، وكل ذلك مع فراغ الآجال.

فلما كان وقت الضحى وقع الصلح بينهم، ونادى المنادى بالأمان، فأمنت الناس واستبشروا وحمدوا ربهم وشكروا.

ثم إنه استمر الحال هكذا إلى اليوم الثانى والعشرين من الشهر المذكور، فجاءت البشرى بالتحقيق بأن الأمر قد برز لمولانا الشريف سعد، فلما كان صبح يوم الجمعة سادس عشرى رجب المذكور، دخل رسول مولانا السلطان محمد خان - نصره الله وأيد به الإسلام - إلى مكة المشرفة حرسها الله تعالى بالبيت الحرام فى موكب عظيم، ومعه خلعة نفيسة من مولانا السلطان ومصلاه الذى يصلى عليه ومكتوبان معه من هنالك بأن الأمر له من غير شريك ولا منازع فى ذلك، فدخلوا بها من باب السلام إلى المسجد الحرام، فلبسها فى الحضرة الشريفة تجاه بيت الله والمقام بحضرة السادة الكرام والعلماء الأعلام، وجيوش الإسلام، ما بين خاص وعام.

ثم قرئ المرسوم السلطانى، وفيه غاية التعظيم والإجلال، ونشر محاسن لمولانا الشريف سعد أعزه الله بجاه جده الأمين، والوصية على الرعية والقيام بمصالحهم.

وأمان الزوار والحجاج والمعتمرين، وهو مفند مستبين محرر، مؤيد بنص ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ١، ٢] ومع ذلك كان

لفظه عذبًا وجيزًا، مبشرًا بنص ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح:٢، ٣]. ثم إنه توجه إلى البيت الشريف، ووقف بالباب والتزم بالملتزم والأعتاب، وذهب إلى دار السعادة وجلس للتهنئة مسرورًا، وكان ذلك فى الكتاب مسطورًا.

ونودى بالزينة سبع ليال، بعد أن كان الناس فى حالة مخوفة فى ذلك اليوم، فاطمأن البال، وكفى الله المؤمنين القتال.

ولما لبس الخلعة واستقر له الأمر وسرّى عنه ما كان يجده من الكيد والقهر، وبدل الله العسر باليسر، وأيده بالنصر، مدحه الفضلاء بقصائد مجيدة، وأشعار بأمطار سماء الأفكار مجيدة.

وكنت ممن تشرف بالانتظام فى سلك نظامهم النضير عوده، اللامع فى أفق المعالى مزايا ممدوحهم وسعوده، فقلت من بحر الطويل من العروض المقبوضة والضرب التام والقافية من المتواتر قولى(١): [من الطويل]

سقَى الغَيْثُ ذَيَّاكَ الأُبَيْرِقَ والسقْطَا	فأنْبَتَ فى أرجائِهِ الرنْدَ والأرْطَا
وحَيَّا رُبا تلكَ المعاهدِ فاكتسَتْ	رياضٌ لها من نسْجِ إبرته بَسْطَا
معاهدُ لمياء البديد تعطَّرَتْ	ومائِتُ ميثاها بما تسحَبُ المِرْطَا
لها بَشَرٌ كالماءِ إذ قَلْبها صفا	وناظِرُهَا كالسيْفِ لكنه أسطَى
إذا ما دجا ليلٌ حكى ليلَ جَوْرها	وإنْ لاحَ نجمُ الأفقِ سمنا به القرْطَا
رداحٌ إذا لاحَتْ فكالشمْسِ أو رنَتْ	فكالظَّبْيِ أو ماسَتْ ترى الحلَّ والرَّبْطَا
أراشَتْ لأحشائِى رواشقَ مُقْلَةٍ	تَرَى نبلها يُصْمِى الفؤادَ إذا أخْطَا
هىَ السِّحْرُ إلا أنه سرّ خالقٍ	عليه يصيرُ الحبرُ مِنْ رقِّها أوْطَا
لها سلْكُ دُرٍّ ضمنَ خاتمِ عسجدٍ	طلى لعسًا يا حسنَ خَتْمٍ حوى سِمْطا
وجيدٌ أعارَ الريم حسنَ التفاتِهِ	فلا صَيد فيه [لا] تَرَاهُ ولا لغْطَا
ومهضمُ كشحٍ مخمص الغورِ رقةً	له جَسَدِى من بعضِ أسقامِهِ أعطَى
كما قد أنالَ الجسْم فَتْرَة جَفْنها	نحولاً فكافاها عَلَى وفقه المعطَى
رهينة خذْرٍ يكسبُ الحلى حُسْنها	جمالاً ولولا ذاكَ للشَّيْنِ ما غطَّى

---

(١) القصيدة في نفحه الريحانه وفيها اختلاف في بعض الألفاظ (٤/ ١٢٤).

كأنْ قد براها الله حسنًا كما تشا ... فيا طولَ ذاكَ الحسْنِ فى القامةِ الوسْطَى
سقاها ومرباها سُحُوحٌ مِنَ الحيا ... ورَوَّى على أكنافها الأثل والخمْطا
فيا شَوْقَ أحشائِى للحظَةِ لَحْظها ... وإنى بها إذْ قد نأتْ دارها شَحْطَا
بلَى قد نأتْ عنى ولا بَيْنَ بيننا ... وبُدِّلْتُ مِنْ عين الرضَا بالجفا سخْطَا
كذلكَ أخلاقُ الغوانِى ومَنْ يرمْ ... بهنَّ الوفا كالمبتغِى فى الأضا قرْطَا
ومَنْ لم يذُدْ ذَوْدَ التصابِى وسربه ... قصارَاهُ فيه أن يذلَّ وينحَطَّا
ويمسى صريعَ العينِ لا ناصرٌ له ... سوَى عَبْرة يَرْوِى تفجُّرُهَا سطًّا
نعَمْ لو نحا فى كلِّ أمرٍ يئودُهُ ... مليكَ الورَى سعد بن زيد لما شطًّا
مليكٌ له من طينةِ المجْدِ جوهرٌ ... به ازدانَتِ الدنيا وقدْمًا هى الشمْطَا
شريفُ العلا والذاتِ والوصْفِ منتم ... إلى خَيْرِ أصلٍ طابَ فى قنسه ربْطَا
مليكٌ رقا فى قنةِ المجدِ رتبَةً ... تجلُّ سواها أن يقاسَ بها هبْطَا
شريفٌ أتيحَتْ فيه أسرارُ والِدٍ ... هو القطْبُ لا ريبًا بذاكَ ولا غمطا
مليكُ بلادِ الله سعد العلا ومَنْ ... يشابه أباه فى علاهُ فما أخْطَا
طويلُ البنا رحْبُ القنا منهلُ الغنا ... مزيلُ العنا مولى المنا باللُّهَا سفْطَا
عريضُ الجدا غوْثُ الندا موردُ الندا ... حمامُ العِدَى مردِى الردَا للهُدَى فرطَا
فيا ابنَ رسولِ الله وابنَ وصيِّهِ ... ودرةَ عقْدٍ أنْتَ أنْتَ له وسْطَا
لقد حطْتَ أكنافَ الخلافةِ عزمةً ... وقمْتَ بها حفظًا وشَيَّدتها ضبْطَا
وأيدتَّهَا بالحزْمِ والرأيِ حينئذْ ... ثبتَّ جنانًا لا فزوعًا ولا قنْطَا
فأنسيتَنَا حزْنًا ولَم نَنْسَ من مضَى ... تغشَّتْ شآبيبُ الرضَا رمْسَهُ همطَا
أبى الله إلا أن تحلَّ محلَّهُ ... بمرتبةٍ عزت لغيرك أنْ تمطَى
فوافَاكَ بالتأييدِ ما كان كامنًا ... مِنَ الأزَلِ العُلْوِىِّ ينتظرُ الشرْطَا
فما خطَّ تقليدًا على الطرسِ كاتبٌ ... ولكنْ قضاءُ الله من قبلِهِ خَطَّا
إذا أبرمَتْ فى سابقِ العلْم لامرئٍ ... عنايته استغنَى العشيرة والرهْطَا
ولكنَّنى أرجُو منَ الله جمعَهُمْ ... على خيرِ حالٍ ما رجاه بمستبْطَا
فطأْ فى العلا فالسعْدُ وطأ لاسمِهِ ... أشار لذا بحْرُ الطويلِ رَوِىّ الطَّا
إليكَ ابنَ خَيْرِ الناسِ عذراءَ مدحة ... غَذَتْهَا القوافى لا سنادٌ ولا إيطَا

أتاكَ بها فكرِى الكليلُ ومَهْرُهَا قَبُولُكَهَا منِّى وحَسْبى به إعْطَا
سأملأُ ديوانِى بمدحِكَ مدحةً لشعرِىَ كَىْ يستوجبَ الحمْدَ والغبطا
فدُمْ وابْقَ واسلَمْ لا برحْتَ مؤيدًا على العزِّ مهما أنْ تحاوله تعطَى
ولا زلْتَ محفوظَ الجنابِ عزيزَهُ رعاياكَ لا تخشَى اهتضامًا ولا قَنْطَا
مدى الدَّهرِ ما طابَ القَرِيضُ بمدحِكُمْ فأخجَلَ مسكَ الختْمِ والند والقُسْطَا

ولما تم أمر الصلح بين الشريف سعد، وبين السيد حمود، واستقرت البلاد وأهلها لأن استقرارهم باستقراره، وتعبهم بتعبه وهو معهم كالرأس مع الجسد، وكالمضغة وهى القلب كما ورد. جاءه مولانا السيد حمود - رحمه الله تعالى - إلى بيته موافقًا له فيما يحبه ويهواه هو وأتباعه يهنونه ويباركون له فيما منحه الله وأعطاه، وصار يتردد إليه بكرة وعشية مظهرًا له الود والصداقة مليئًا له القول من غير تعب ولا حماقة، وكان فى هذه المدة يطلبه ما كان وزيادة، ولم يخالفه مولانا الشريف فى قول ولا فعل بل يجيبه إلى ما أراده أدام الله نعمه عليه وإمداده بحيث أن الرعية نسبت هذه الموافقة منه إلى أثر عمل من الأعمال من الحركات والسكنات، لكن إنما الأعمال بالنيات.

وفى هذه المدة كان بمكة المشرفة غلاء فى الطعام كالحب ونحوه فى شعبان ورمضان وشوال واشتد فى آخر الوقت وعدم من الأسواق، ووصلت الكيلة الحب إلى خمسة عشر محلقًا والرز كذلك، وفى أول ذى القعدة حصل الفرج بدخول المراكب المصرية، وزال التعب عن المسلمين ببركة قدوم الحجاج الوافدين.

ثم إنه حصل تنافر بين مولانا الشريف سعد، والسيد حمود من جهة عدم الوفاء بالمعلوم الذى له مع ما فى خاطره من التعب، فدعته الأنفة إلى الخروج لهذا السبب، فبرز يوم الأربعاء ثامن ذى القعدة الحرام من سنة سبع وسبعين وألف، وأقام بالزاهر مدة، وهو من الغيظ فى أعظم شدة، فبرزت إليه لموادعته، واستغرقت اليوم أجمع فى محادثته، فكان من جملة كلامه جوابًا لقولى: لعل مولانا -حفظه الله- يتداركه الله بسعة فيها حصول المنا، فيكفيكم الله بسببها تعب الجلا والعنا: ما أرى إلا أن بيت الشريف قتادة المستشهد به فى سابق الزمان، قد قارب مصداقه فى هذا الأوان، يشير إلى قوله: [من الطويل]

مصارعَ آلِ المصطفى عُدتُ مِثْلَ ما بدأْتِ ولكنْ صِرْتِ بين الأقارِبِ

فقلت: الله يقدر بخير، ويكفيكم كل ضيم وضير.

ولم تزل الرسل بينهما تسعى فى حسم مادة الشقاق، ولم يتفق الحال إلا على عدم الاتفاق. فتوجه إلى وادى « مر » وأقام بمن معه من السادة الأشراف والأتباع والعبيد، وسبورهم تصل إلى مكة أسفلها وأعلاها يدلجون بالليل إذا يغشى، ويصلون الشمس وضحاها، وأخذوا فرسًا من مربطها لبعض خدام الشريف أسفل البلد، وذهبوا ولم يذهب إليهم أحد، كل ذلك استحثاث منهم للخروج إلى البراز والمنازلة، والظهور عن العمران التى لا تطول فيها تلاوة سورة المجادلة، والشريف سعد - حفظه الله - لم يستخفه الطيش، ولم ينفذ إليهم خاء خيل ولا جيم جيش.

وأقبل جماعة من الشام، ومن مدينة الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فصدهم الخوف عن الدخول لما هم قاصدون إليه، ومكثوا أيامًا بقرية من القرى، وحصل لهم من التعب ما لا مزيد عليه، حتى وصل إليهم الحاج المصرى فدخلوا معه مكة المشرفة. ولم يزل الشريف سعد - متع الله بحياته - ولسان حاله يتلو فى المبدأ والمعاد ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤].

وأما مولانا السيد حمود - رحمه الله -: فإنه لما كان يوم السبت رابع ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة قدم على الحاج المصرى، والأمير عليه أزبك بك، فركب إليه هو ومن معه من السادة الأشراف والأتباع والعبيد، فعقدت الأشراف من أنفسها طوقًا على وطاق الأمير وعسكره، ولم يدخل إليه إلا ثلاثة أشخاص: مولانا السيد حمود، ومولانا السيد أحمد الحارث، ومولانا السيد بشير بن سليمان، فأنهوا إليه حالهم وعدم الوفاء من الشريف سعد فيما التزم لهم من معاليمهم ومجانيهم، وأننا أيها الأمير لا ندع أحدًا يحج إلا إن أخذنا ما هو لنا وكان قدره مائة ألف أشرفى، فالتزم للسيد حمود أن ينقده الشريف قبل الصعود خمسين ألفًا منها.

فقبل مولانا السيد حمود التزامه، وخلى سبيله ومن معه.

فلما دخل الأمير مكة يوم خامس ذى الحجة الحرام، خرج إليه الشريف سعد إلى المختلع فلبس الخلعة المعتادة على العادة، ثم كلمه الأمير فيما التزمه للسيد حمود، ومن معه فصَدّق التزامه، وأسلم خادم مولانا السيد حمود الخمسين الألف قبل الصعود من السيد إبراهيم بن محمد بإحالة من مولانا الشريف - حفظه الله تعالى -.

ثم لما دخل أمير الشامى فى سابع ذى الحجة: توجه مولانا الشريف إليه كذلك، ولبس الخلعة المعتادة على العادة.

ثم فى اليوم الثامن توجه إلى عرفة، وفى الثانى من أيام منى لبس الخلعة المعتادة، وفى اليوم الثالث نفر الناس إلى مكة المشرفة، وهم آمنون مستبشرون، وأما أهل مكة ومن حولهم من القرى، فلم يحج منهم فى هذا العام إلا القليل؛ وكذلك الأعراب لما وقع بهم من التعب والكدر، والخوف والضرر، كل شىء بقضاء وقدَر.

ثم لما كان يوم الاثنين عشرين ذى الحجة الحرام وصل مكة مولانا السيد حمود، ومعه السيد عبد المعين بن ناصر بن عبد المنعم بن حسن، والسيد محمد بن أحمد ابن عبد الله بن حسن، والسيد بشير بن سليمان بن موسى بن بركات بن أبى نمى، والسيد مبارك ونافع ابنا السيد ناصر بن عبد المنعم فى نحو تسعة أشخاص، ومن العبيد نحو خمسة وستين عبدًا، وما ذاك إلا لأن أمير الحاج، وكبار العساكر قصدوا الصلح بينه وبين مولانا الشريف، وتردد الرسل بينهم وبينه يطلبونه لذلك، وألزموه بمحاضر من جماعة الأفندى الأعظم وصلوا إليه إلى وادى مر، فجاء وحضر عند مولانا الأفندى، وحضر الأمراء ووجوه أركان الدولة، وعماد أغا وأكابر العساكر، فأرسل مولانا الشريف سعد بلال أغا وكيلا عنه فى الخصومة والدعوى، فاغتاظ مولانا السيد حمود من ذلك، وأراد الفتك به فى ذلك المجلس، فذهب مسرعًا فزعًا، فأرسل الشريف أخاه السيد محمد يحيى وكيلاً عنه، وتطالبا على يد الحاكم الشرعى، وطال المجلس، ولم يقع بينهما اتفاق، ثم ادعى عليه بما أخذ من طريق جدة من الأموال، فلم يثبت عليه وجه شرعى فى ذلك، وطلب مولانا السيد حمود أن يتوجه إلى الديار المصرية، ويرفع أمره إلى الحضرة السلطانية فأذنوا له، واتفق الحال على ذلك.

ثم إنه لما توجه الحج الشامى وسائر الحجاج توجه معهم حتى وصل إلى بدر فتخلف عنهم وأقام فيها مدة.

ولما دخلت سنة ثمان وسبعين وألف، توجه مولانا السيد حمود من بدر إلى ينبع فى شهر صفر منها، وأرسل ولده السيد المرحوم أبا القاسم بن حمود، وأرسل

مولانا السيد أحمد بن الحارث ولده السيد محمد بن أحمد، ومعهما السيد غالب بن زامل بن عبد الله بن حسن وجماعة من ذوى عنقاء السيد بشير، ومحمد وظافر بنى واضح، والسيد محمد بن عنقاء وولده، وأرسل معهما قودًا هدية إلى باشا مصر المسمى عمر باشا نحو ستة أفراس منهن البغيلة والهدبا والكحيلة، فساروا إلى أن بلغوا الحوراء المنزلة المعروفة، فلاقاهم قاصد من إبراهيم باشا المتولى بعد صرف عمر باشا بمكاتيب متضمنة للأمر بالإصلاح، والاتفاق على نهج النجاح، فرجع السيد غالب بن زامل صحبة القاصد إلى مكة لينظر ما يتم عليه الحال، فتنقطع مادة القيل والقال، وتسقط كلفة الارتحال.

فأقام القود ومن معه بالحوراء نحوًا من خمسة عشر يومًا ينتظرون الفرج بعد الشدة، فلم يصل إليهم خبر بعد هذه المدة، فلما لم يصلهم خبر ساروا إلى مصر فدخلوها ليلة عيد المولد، وقدموا مكاتيبهم والقود لإبراهيم باشا، فأكرمهم وأعظمهم وأضافهم واحترمهم، فاستمر الحال كذلك إلى شهر جمادى الآخرة، ولم يرجع ذلك القاصد من مكة إلى مصر، فأشيع بها أن السادة الأشراف قتلوه، فحصل الهرج والمرج، وجاءت الأكاذيب فوجًا بعد فوج، فأشار بعض الأشقياء عَلَى الباشا بإمساك السيدين أبا القاسم ومحمدا، فأمر بنقلهم من محلهم الأول وهو قايتباى إلى بيت يوسف بك.

وقد كان وصل السيد محمد يحيى إلى مكة أواخر سنة سبع وسبعين، وتقدم أنه هو الذى كان وكيلا عن أخيه الشريف سعد فى الدعوى على السيد حمود لما حضر بمجلس أفندى الشرع فى موسم السنة المذكورة، فاستمر معه إلى عقب ذهاب الحج، ثم طلب من أخيه الشريف سعد أن يجعل له ربع محصول البلاد وينادى له به، فامتنع الشريف من ذلك، فغضب وبرز من مكة متوجهًا إلى السيد حمود وأقام بالزاهر مدة، ثم إن هذا الخبر بلغ مولانا السيد أحمد بن زيد وكان بالشرق، فجاء مسرعًا ولحقه قبل أن يتوجه وأرضاه بجملة من المال، فلم يرض إلا بالمشاركة بالربع وبالنداء فى الحال، وتوجه ولحق بالسيد حمود واتفق معه، ولما لم يحصل اتفاق بين مولانا الشريف سعد، وبين مولانا السيد حمود بعد وصول القاصد للإصلاح، أرسل مولانا الشريف سعد إلى الديار المصرية، وإلى مولانا السلطان ذا

خبرة بما جرى وما كان.

وكذلك أرسل مولانا السيد حمود - رحمه الله تعالى - وعرف وأقام كل منهما يعلل ويعسّى ويتشوف.

وبرز مولانا الشريف سعد إلى الزاهر فى موكب عظيم، وأقام ينتظر فرج المولى الكريم.

وكان بروزه يوم عشرين من ربيع الأول من سنة ثمان وسبعين.

وفيها -أعنى سنة ثمان وسبعين- ظفر بالبلد المعروفة بالقنفذة برجل يتعاطى السكة خفية وهو ممن يتسمى بالقضاء، فيسمى القاضى عبد الواحد، فضرب ضربًا مبرحًا وحلقت لحيته وأتى به مكة مكتوفًا مجرحًا، ثم أطلق فذهب إلى الحجاز الأعلى، وكان أمر الله هو الأعلى.

ولنرجع إلى ذكر السيدين المذكورين فنقول: لما نقلا إلى بيت يوسف بك المذكور أقاموا عنده أيامًا، ثم أمر الباشا إبراهيم بتجهيز تجريدة خمسمائة عليها السنجق يوسف بك المذكور فنقلوا بعد عزمه إلى بيت أغاة الأنكشارية، واحتفظ بهما احتفاظًا تعظم به البلية، ومنعوا الخارج والداخل، ولم يقرب منهما صديق ولا خل، وسارت التجريدة المذكورة وهى نحو ألف بالخدم وخمسمائة وأكثر، معهم الحجاج والتجار والخدام والأرقاء والأجراء، ولما كان يوم الأربعاء تاسع عشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة وصل الخبر بتجهيز مدد من العسكر نحو خمسمائة أو يزيدون، ومعهم مستلم جدة المعمورة، وعزل عماد أغا عن مشيخة الحرم رفيع القُنّة، ولله الحمد والمنة.

وفيها وصل مولانا السيد سعيد بن شنبر بن الحسن من بيشة متوجهًا إلى مولانا السيد حمود وجماعته بالينبع، فوصل إليه وحضر معه الحرابة الآتى ذكرها، وكان آخرًا وفاته بتلك البلدة، رحمه الله برحمته الواسعة، وغفر له مغفرة جامعة.

وفى هذه المدة أيضًا: وقع فى طريق الطائف أن جماعة الحمارة المترددين بين مكة والطائف من طريق كرا بأموال الناس وأمتعتهم - نزل عليهم جمع من عرب الشرق، فأخذوهم وربطوهم وساقوهم وضربوهم وانتهبوهم، ثم ساروا بهم إلى قرب المبعوث، ثم أطلقوهم بعد يومين عرايا مسلبين مجرحين مضربين.

وفيها فى السادس عشر من شهر رجب وصل المبشر من جدة يخبر بوصول رسول من الباشا معه خلعة ومرسوم.

وفى ليلة السابع عشر منه: رجع مولانا الشريف سعد إلى داره السعيدة، فلما كان الصباح، توجه العسكر بأجمعهم إلى ملاقاة رسول الباشا فدخلوا به فى موكب عظيم إلى بيت مولانا الشريف ولبس الخلعة، وقرئ المرسوم بحضرة عسكر السلطان، والسادة الأعيان، وفيه ما لا مزيد عليه من التعظيم والتمجيد، وحصل لمولانا به غاية السرور، وللرعية كمال الفرح والحبور.

وفى يوم الأربعاء تاسع عشر رجب الفرد الحرام: وصل إلينا خبر من نحو الشام حارت فيه العقول والأفهام، بواقعة ينبع وما جرى فيها من الأحكام، بتقدير الملك العلام، أن التجريدة التى جهزت من مصر أوقع بهم السيد حمود فى جيش لهام، من أهل ينبع وجهينة وعنزة وخاص وعام، فأخذوهم عن آخرهم، وقتلوهم وسلبوا أموالهم وأسروهم ولم يسلم منهم إلا نحو المائة، وكان معهم مال جزيل فذهب شذر مذر بعد أن تفرق أصحابه شغر بغر، وأمسكوا كبيرهم السنجق يوسف بك، وكان من القتلى من السادة الأشراف خمسة أشخاص هم السيد شبير بن أحمد بن عبد الله، والسيد سرور بن حسين بن عبد الله، والسيد إلياس بن عبد المنعم بن حسن وشخص من ذوى عنقاء يسمى السيد زين العابدين بن ناصر، تغمدهم الله بالرحمة والرضوان، وأسكنهم أعلى فراديس الجنان: [من الطويل]

وقَتْلى أيادى الخيلِ بَيْنَ وجوهِهِمْ فخيرُ المنايا ما يكُونُ مِنَ القَتْلِ

وانتهبت الأعراب الأجمال بالأحمال، ثم أمر مولانا السيد حمود بجمع حريم السنجق وحريم غيره فى مخيم كبير، وأجرى عليهم المصروف والقوت، وقدر الله للسنجق فى تلك الأرض أن يموت، وكان اللقاء يوم الأربعاء رابع عشر رجب من سنة ثمان وسبعين المذكورة.

وقد كان مولانا السيد حمود أرسل إلى العسكر قبل قدومهم عليه أن ليس لكم طريق علينا إن لم يكن السيد أبو القاسم والسيد محمد معكم، فأشار بعض كبار العسكر على يوسف بك المذكور بالعدول عن هذا الطريق، وسلوك طريق خالية عن التعويق، فأجابه السنجق بفساد رأيه ولم يمتثل، وكان أمر الله شيئًا قد فعل.

وزوار الرسول عليه الصلاة والسلام الذين خرجوا على النصف من رجب لما كانوا فى الطريق، وهم ذاهبون بلغهم خبر العسكر وما وقع لهم، فاضطربوا وأشكل عليهم الأمر، وترددوا بين أن يرجعوا إلى مأمنهم أو يتوجهوا إلى مقصدهم، فردوا الأمر إلى سيد القافلة وكبيرها مولانا الشيخ عيسى بن محمد المغربى الثعالبى - وكان متوجهًا معهم - فأشار عليهم بالتوجه من طريق القاحة وهى معروفة، وكان سابقًا يسلكها الأولون، وفيها عمائر وآثار بناء وعيون إلا أنها هجرت الآن، فسلكوا بالأمان تلك الأنحاء، وتلقاهم شيخ العرب وسلطانها القائم بخدمة الحرمين منذ أزمان الشهاب أحمد بن رحمة بن مُضيان، وتوجه بهم إلى المدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فسلكوها آمنين، وخرجوا على النازية قريبًا من الروحاء، ثم إنه خرج بهم وأوصلهم إلى حيث لاقاهم، ورجعوا سالمين أولاهم وأخراهم.

غير أن بعض الزوار لما وصلوا قرب المدينة قريبًا من المحل المسمى مفرح تقدموا عن القافلة، وقد جرت العادة بذلك، فرحًا وشوقًا إلى ما هنالك، فنزل عليهم السراق فأخذوا ما معهم فى تلك الفجاج، وحصل لهم جراحات وشجاج.

وأهل المدينة الشريفة لما بلغهم ما وقع للعسكر وقع عندهم الاضطراب الشديد، والتعب الذى ما عليه من مزيد، وانقطعت عنهم سبل الوارد، وغلا السعر فى المقتات بل لم يجده واجد.

وأما أهل مصر: فلما وصل إليهم الخبر التهبت نيران الغضب فى أحشائهم، فظهر منها بوجوههم الشرر، فقتلوا من ظفروا به من أتباع السيد أبى القاسم والسيد محمد، وتتبعوهم فى الأماكن اللواتى استخفوا فيها، ونادوا فى البلاد بالوعيد الشديد لمن ستر خبية أحد منهم تحذيرًا وتنبيهًا، وأمر بالسيدين المذكورين إلى حبس الدم المسمى فى عرفهم «عرق خانة» والأمر لله سبحانه، بعد أن طلب الباشا من العلماء الفتوى بجواز قتلهم فلم يفتوه، فأمر باعتقالهما لما كان والداهما وبنو عمهما اقترفوه، وأورثه ذلك غيظًا وقهرًا، أنسياه كريمة ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الاسراء: ١٥] فاستمر إلى أن عزل شيطان إبراهيم باشا عام ثمانين، ودخل مصر حسين باشا المعروف بابن جان بلاط متوليًا لها، فما غفل عن شأنهما ولا لها، بل

سأل عن سبب حبسهما والداعى إليه.

وكشف الله عن بصر بصيرته بما أفاض من نور الحق عليه، فأخبر بما وقع بالعسكر من أبويهما فقال: هل كان الواقع قبل وصولهما أو بعده؟ فقيل له: بعده بمدة.

فقال: لا ينسب شيء من ذلك إليهما، ولا يعد ذنب أولئك عليهما، وأمر بإخراجهما واستدناهما وأكرمهما، وأقام لهما المقرر كل يوم وشهر، وخيرهما بين الإقامة والعود إلى الدار والمقر، وأنزلهما فى بيت نقيب الأشراف، ووالى عليهما الإنعام والألطاف.

فلما كان شهر رمضان سنة ثمانين، استدعاهما ذات ليلة النقيب إلى الإفطار عنده، وأعد من فاخر الأطعمة عدة، فذهب السيد أبو القاسم إليه مع جملة من الأحباب.

وأما السيد محمد فلم يذهب إليه، وكأنه توهم واستراب.

ثم لما كانت الليلة الثانية دعاهما أيضًا واستنكر عدم وصول السيد محمد إليه فى الليلة الأولى، وكلف من الأطعمة ما أظهر به اليد الطولى، وردد الرسائل إليه تترى، مرة بعد أخرى: فقوى الريب عند السيد محمد وتمكن، وتحقق ظنًا أن عمل الباطن مبطن، فامتنع واعتذر ببعض الأعذار.

وذهب إليه السيد أبو القاسم وكفى فى التحرز سور الأقدار. ثم خرج السيد محمد على ركائب أعدت له فى جماعة وهو شديد العزم والمُنة، حتى وصل إلى مكة ولله الحمد والمِنَّة.

وأما السيد المرحوم أبو القاسم ابن السيد حمود فاستمر إلى أن أتاه قضاء الله بالأجل المحتوم، ففاز بالشهادة من وجهين: الغربة والطاعون المشئوم، فى شهر شوال سنة إحدى وثمانين وألف، رحمه الله برحمته، وآواه سوح جنته.

وفى هذا العام وقع من عسكر المدينة وعامتهم القيام على أفندى الشرع، لحال اقتضى القيام على ما زعموه، فرجموه أو كادوا أن يرجموه، ثم تعدوا فزادوا فى العتو والطغيان، وانتهكوا حرمة سيد ولد عدنان، حتى أن بعضهم سحب السلاح فى الحرم، ولم يرقب حرمة سيد الأمم، وكذلك هجموا على بيت نائبه الشريف

وتكلموا عليه، ولم يراعوا من هو منتسب إليه.

وحصل أيضًا لأهل الطائف فى هذا العام تعب وجوع وخوف حتى خشى كل منهم تلافه، واجتمعت عليهم الكلمات الثلاث: برد وجوع ومخافة، ووصلت كيلة الحب إلى خمسين محلقًا وغيرها قريب منها.

وفى شهر رجب المذكور من سنة ثمان وسبعين وألف: وقع بطريق الطائف بالقرية المعروفة بالسيل أن كانت أحمال متوجهة إلى الطائف مشتملة على أرز وسمن وتمر وبن وقماش، وغير ذلك تدخل فى عشرين بعيرًا نزل عليهم بعض الأعراب من عتيبة أهل البادية فلم يبقوا منهم باقية، وحصل بينهم وبين أهل السيل قتال، فقتل من أهل القرية واحد وحصل فى باقيهم جراحات، وأخرب القوم البلاد، اللهم عليك بكل باغ ذى عناد.

وكذلك اجتمع طائفة من هذه الفئة الباغية، والعصبة الطاغية، وداروا فى أطراف مكة ونواحيها يتخطفون الناس، ويؤذون المسلمين، فويل لهم من مالك يوم الدين.

وكذلك أهل مكة: كانوا فى شدة وغلاء، وجهد وبلاء، طحنوا الفول والحمص وجعلوه خبزًا فلم يجز إلا بعض الإجزاء، وبلغ ثمن الإردب القمح أربعين دينارًا إلى خمسين بل عدم بالكلية، ووزن الخبز الذى يباع فى السوق بمحلق جاء وزنه أوقية، وكل شىء خرج فى ثمنه عن معتاده، ولكن لطف الله سار فى عباده.

ومن ظن انفكاك لطفه عن قدره، فإنما ذاك لقصور نظره.

وفى يوم الأحد سادس رمضان منها اجتمع الرعية، وتوجهوا إلى مولانا الشريف. ورفعوا أصواتهم بين يديه، يشكون الناظر والمحتسب عليه، فأمر بإحضارهما وحكم بعزلهما وحبسهما لتواتر الخبر عنده بظلمهما وبأكلهما الرشا. وسبحان الله يفعل ما يشا.

وفى هذه المدة: وصلت قافلة من مدينة الرسول معهم مال جزيل، فلما كانوا بالقرية المسماة مستورة، أقبل عليهم أقوام فأخذوا جميع ما معهم، قيل: إنه يدخل فى خمسين ألفًا والله أعلم.

وفى ثامن عشر رمضان المذكور، وصل إلى وادى مرّ وإلى جَدّة ونواحيهما جملة

من قبيلة عتيبة عرب الشرق أهل الفساد والطغيان فى مائة مردوفة -وقيل: مائتين- فأخذوا ما وجدوا وانصرفوا، قابلهم الله بما اقترفوا.

فلما بلغ مولانا الشريف سعد خبرهم أرسل فى طلبهم جمعًا من الأشراف والعسكر، عليهم أخوه مولانا الشريف أحمد، فأخذ فى أثرهم عدة ليال، وبلغ من الظفر بهم أعظم منال.

فلما كانت ليلة الثالث والعشرين من رمضان، وصل مكة مبشر من عنده بأنه ظفر بهم، وأخذهم وقتلهم وحصل منهم مال كبير، خذلهم الله تعالى وأذل منهم الكبير والصغير.

وفى الليلة المذكورة أيضا: جاء مبشر من جهة مصر بتوجه العسكر والمراكب بالطعام لأهل بلد الله الحرام.

وفيها أيضًا: ظهر عمود من نور نحو الغرب مهيل طويل، وغلظه كطوله غلظ أعظم النخيل وحصل به خوف ورعب للمسلمين، وهو من الآيات للمعتبرين.

وظهر فى الليلة الثانية والثالثة، لكنه فى الطول أكثر بحيث إنه امتد إلى ثلث السماء، ثم إنه صار يضعف نوره ويتقهقر إلى ليلة الثامن من شوال لم يظهر له نور بالكلية ولا أثر، والله أعلم بحقيقة ذلك وما يترتب عليه من المنافع والمضار. نسأله سبحانه اللطف فيما جرت به الأقدار.

وفى آخر الشهر: وصلت جلاب من اليمن وسواكن، ففرقت على أهل السوق وفرح بذلك الناس وتباشرت بنزول السعر.

وفى الاثنين: كانت السماء معلولة ولم يظهر الهلال، فلما كان وقت العشاء ثبتت الرؤية عند حاكم الشرع بشهادة جمع من عدول المسلمين وثبت الفطر، وتواتر الخبر بعد ذلك به. والحمد لله رب العالمين.

وفى ليلة ثالث شوال: تباشرت الناس بوصول المراكب، وتواجدت الحبوب فى الأسواق، وكم لله على الناس من نعم على الإطلاق.

ثم عقب ذلك أن اشتد الأمر على المسلمين ورجع إلى ما كان عليه بحيث إن غالب الفقراء والضعفاء يكون الواحد منهم ماشيًا فيطيح فيموت، ومنهم من يكون جالسًا فتهفت روحه، وقد شوهد ذلك، وصار الفقراء يجتمعون فى المذبح ويتلقون

الدماء ليأكلوها.

وذكر أن بجدة كانوا يدورون على الطعام فى السوق فلا يجدونه، وأرسلوا إلى مكة يطلبونه، مع أن جدة مملوءة من الطعام، لكنه فى أيدى التجار بل الفجار كما قاله سيد الأبرار للمحتكرين. اللهم عليك بهم وبجميع المفسدين.

وأما أهل مكة المشرفة، فقد اجتمع عندهم فى هذا العام من الأمم ما لا مزيد عليه، لأن الجدب والقحط عام فى أرض الحجاز ونواحيها، وكل من اشتد به الحال صار يأتيها هاربًا من بلده إلى بيت الله العتيق، يأتونه من كل فج عميق؛ وحلت الميتة والبسس والكلاب، بعد أن بيع ما يملك من أثاث البيت والثياب، وصار الفقراء يهجمون على البيوت، فتعب منهم الناس، وصاروا يغلقون الأبواب.

وفى هذا الشهر اتفق أن جارية لبعض الأعراب يعرفون بالمشارية دخلت يومًا بيتًا، فلم تجد فيه إلا امرأة عجوزًا وهى من جماعة عسكر مصر فخنقتها فقتلتها، ورآها بعض الجيران فدخلوا عليها وأمسكوها ودعوا ابن بنتها فجاء مع جماعة العسكر، فأخذوها وطلعوا بها إلى مولانا الشريف فلم يُثبتوا وحبسوها عندهم يومين. وفى اليوم الثالث عصبوا على قتلها فقتلوها يوم الجمعة رابع عشرى شوال عند الشِشمة المعروفة بالبزابيز.

قلت: ويقال: إنها كانت صاحبة لابن بنتها وكانت المقتولة تنهاه عنها، وتحذره منها فظنت أنها بقتلها يخلو لها وجه صاحبها فكان هو القاتل لها والله أعلم أيا كان ذلك.

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشرى شوال المذكور: وصل خبر من جدة بوصول جماعة من العسكر الرتبة بحرًا، وفى يوم الأربعاء: دخلوا مكة المشرفة، وأخبروا بخروج العسكر من مصر وهم يدخلون فى ثلاثة آلاف، وبتجهيز المراكب لأهل الحرمين وللعسكر.

وفى ليلة الجمعة غرة ذى القعدة: كان حريق بأعلى مكة بالمعابدة. وفى الليلة الثانية: كان أيضًا حريق بشعب عامر بالقرب من ضريح والد سيدى أحمد البدوى نفعنا الله به.

وفى الليلة الثالثة: انقض نجم كبير مهيل نحو الشرق. وفى ليلة الخامس منه:

احترق سوق المعلاة جميعه. وفى اليوم السابع: وصل مبشر بوصول مركب هندى بالقرب من جدة المعمورة، ووصل منه جماعة وفرح المسلمون.

ثم بعده بنحو يومين: دخل مركب من بنقالة وفيه خير كثير، وفى الأول هدية سنية، لمولانا الشريف ألهمه الله العدل فى الرعية، وهذه من أعظم السعودات وأيمن الاتفاقات.

وفى يوم الثلاثاء ثانى ذى القعدة الحرام؛ برز عسكر الشريف لما بلغه تحرك السيد حمود لنهب ينبع، فجهز من مكة نحو المائتين عليهم بلال أغا ليقيموا بينبع البحر أرسلهم رتبة، فاتجهت هذه الرتبة بعسكر التجريدة بواسط ليلا وردها معه مقدم التجريدة محمد جاوش إلى بدر، ثم أقبل بمن معه إلى مكة، وأقبل معه بلال أغا، وذهبت الرتبة إلى ينبع البحر فأقامت به إلى وصول مولانا الشريف سعد مع الحاج المصرى وعسكر التجريدة.

وفى هذه المدة اشتد الحال على أهل مكة، حتى أن غالبهم باع حوائج بيته وثيابه ولم يبق له شيء، وصار يسأل الناس، ومنهم من باع أولاده، ومنهم من رمى بهم، واتفق لبعض أصحابنا - رحمه الله تعالى - أنه اشترى بنتًا من أبيها بحرفين.

وفى يوم الخميس خامس عشر الشهر المذكور: أصبح عماد أغا من جدة، بعد أن كان توجه بحرًا إلى مصر ووصل الطور، ورجع لأمر من الأمور، والله أعلم بما تكن الصدور.

وفى سابع عشرى الشهر المذكور: دخلت عشرة مراكب جدة بالسلامة، وهذه أعظم كرامة، وفيها العسكر والحجاج والطعام وجرايات أهل مكة وخير كثير، وذلك من لطف الله على الأنام.

وفى أول ذى الحجة الحرام: دخل حجاج البحر مكة المشرفة، ومعهم العسكر من جدة المعمورة، وحصل بدخولهم فرج كبير للمسلمين.

ودخل فى اليوم الرابع منه الحاج المصرى وصحبته خلعة من مولانا السلطان محمد خان وخلعة أخرى من الباشا كلاهما لمولانا الشريف سعد أطال الله بقاءه.

وفى اليوم الخامس دخل المحمل المصرى، وكان الحجاج فى هذا العام قليلين، فخرج جمع يسير، وخرج قبلهم العسكر المعينون للتجريدة، فتلاقوا قبل ينبع بيومين

أو ثلاثة ودخلوا سواء، وأقاموا فيها أيامًا نحو خمسة أو ستة، وهم يكاتبون السيد حمود، ويعرفونه وهو يرسل الجواب والكلام الشديد، فحملوا عليه وأقبلوا فوجدوا الخيام قفرا والمزار بعيد، ثم إنهم عقدوا بينهم شورى، فاتفق الرأى أن بعضهم يقيم لحفظ البلد، والبعض الآخر يحج وهم الأكثرون، ثم إنه توجه العسكر ومعهم سنجقان والثالث محمد جاوش وهو رئيس العسكر وكبيرهم وشيخ الحرم وسنجق جدة المعمورة، فدخلوا مكة فى موكب عظيم يوم سبع من ذى الحجة، وفى العسكر اثنا عشر كاشفًا تحت كل كاشف جماعة، ومعه نقارة مضروبة على رأسه كما هو عادة أهل مصر.

وفى اليوم الثامن: دخل الحاج الشامى واليمانى والمدنى، وفيه طلعوا إلى عرفات.

وأما أهل العراق وأهل نجد وأهل الحجاز وسائر العرب لم يحجوا لما حصل لهم من التعب والجوع، والخوف المذهب للهجوع.

وفى هذا العام: جاء الحجاج بدراهم محلقة فاسدة، مطيّرة كاسدة، وأخربوا بها معاملة البلاد بحيث إن كل ثلاثة منها بدرهم من الجياد من حيث القدر والقيمة فصار كل يردها، فغلت الأسعار، وأمسك كل على ما عنده من الطعام، وهلكت الرعية، ووقعت الفتنة بين المسلمين بسببها، وبلغ ثمن الشريفى الأحمر إلى ثلاثة ونصف، وإلى أربعة إلا ربع والقرش بخمسة وسبعين.

قلت: هذا فى تلك السنة، وأما اليوم فهو بسبعة حروف ونصف. انتهى.

وفى يوم الإثنين سادس عشر ذى الحجة: طلع محمد جاوش إلى المعلاة فى موكب عظيم، ولبس خلعة جاءته من حضرة الباشا، وفى حال توجهه قتل ستة أشخاص من أتباع السيد حمود، وأتى بهم من ينبع مفرقين اثنان بالمسعى، واثنان بالمدعى واثنان عند باب المعلاة.

وفى يوم الخميس سادس عشرى ذى الحجة الحرام: توجه الحاج المصرى والعسكر ومولانا الشريف سعد أعزه الله إلى ينبع نحو السيد حمود، وأقام أخاه مولانا الشريف أحمد مقامه على مكة المشرفة، وكان يوم بروزهم شديد الحرارة وتحركت فيه السموم بالشوب، وهلك بسببه جمع كبير من الحجاج والدواب،

وذلك بلا شك زيادة فى الأجر والثواب، وكانت الوقفة فى هذا العام بالإثنين، من غير شك ولا خلاف بين اثنين.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين، فى يوم الثلاثاء غرة محرم الحرام منها خرج المحمل الشامى، ثم إن العسكر ومولانا الشريف لما توجهوا إلى ينبع، ضربوا شورى فى أنهم يقيمون هناك، أو يتوجهون خلف السيد حمود، أو يرجعون إلى مصر، فاتفق الرأى أنهم يذهبون إلى مصر.

وأقام مولانا الشريف ومن معه من الجيش ومحمد جاوش، وأمسك مولانا الشريف جماعة من المفسدين الذين كانوا فى الحرابة قتلوا فى عسكر السنجق يوسف والحجاج، وأخذوا أموالهم وغيرهم من العربان، وحبسهم فى السجن، وكبلهم بالقيود والأغلال، وغرمهم ما نهبوه من تلك الأموال.

وفى يوم الإثنين سادس صفر من السنة المذكورة - أعنى سنة تسع وسبعين - برّز مولانا الشريف أحمد أسبابه وعسكره إلى جهة المبعوث لإصلاح تلك الجهات والطرقات. أصلح الله شئونه فى السكنات والحركات.

وفى يوم الأحد ثانى ربيع الآخر: وقع حريق وقت العصر كبير فى شعب أجياد وراء جبل أبى قبيس وسلم الله المسلمين.

وفى رابع عشر من جمادى الأولى: ورد علينا خبر من الشام بوصول خلعة من الباشا لمولانا الشريف سعد - أسعده الله تعالى وأسبغ عليه نعمه ووالى - وأنه لبسها يوم أربع منه ومعها مكتوب بتفويض أمر الحرمين الشريفين ونواحيهما إليه من غير شريك.

ثم إنه أمر بقتل أربعة من المفسدين، وبهدم السور الذى يتحصنون فيه فهدموه حجرًا حجرًا بأيديهم، وكذلك أمر بإقامة الجماعة والجمعة بناديهم.

وفى هذا الشهر: تواتر الخبر من جهة أرض اليمن باشتداد الجدب والقحط فيها كالقنفذة وصبيا والتهائم ونواحيها، وفى بعض الأيام بالقنفذة وجدوا فى دار امرأة حجامة رجلين مقتولين، أحدهما مأكول، والآخر شرعت فى أكله، وأعضاء أطفال منها طرى ومنها يابس، فأمسكت وغرّقت فى البحر، وقيل: وضعت على الجزيرة التى أمام القنفذة وسط البحر ففقدت صبيحة ليلة الوضع.

وأما أهل الطائف فلحقوا شدة عظيمة، بلغت الكيلة الحماط ثلاثين محلق غير موجودة فما بالك بغيرها، وما صار أحد يخبز عيشه فى الفرن؛ لأنهم يخطفونه من شدة الجوع، ويهربون، بل يخبزونه فى البيوت ويستترون، هذا بالنسبة إلى من له قدرة، نسأل الله أن يمن علينا بنظرة.

أما الفقير فما أكله غير الجلود والعظام، والدماء الميتة، ولم يجسر أحد يمشى وحده، إن أحوجه الأمر إلى الخروج تسلح وقرأ حزبه ووروده.

وكذلك أهل الحجاز الأعلى هربوا من بلادهم وتركوها، وغالب أهل القرى والبادية جاءوا إلى مكة هاربين وإلى رب البيت ملتجئين وخاضعين، وهم يصيحون: الجوع الجوع ويتضرعون، وفى الطرقات يتصرعون.

وفى يوم عشرين من هذا الشهر: أمر نائب الشريف مولانا المرحوم السيد بشير ابن سليمان على مكة؛ لأنه أنابه مولانا الشريف أحمد عند خروجه إلى جهة المبعوث أمر بشنق رجل من الأعراب، فشنق عند الششمة المعروفة بالبزابيز، والسبب فى ذلك أنه هو ورجل آخر قتلا رجلا من أبناء الطواف فى طريق جدة، ومثلا به وأخذا ما معه، فأمسك أحدهما وهرب الآخر.

وفى أول هذا الشهر: أخبر الثقة عن جماعة ثقات أنهم وجدوا فى يوم من الأيام حيوانًا يشبه الضبع بأعلى مكة نحو المنحنى فقدم على حمار، فرآه بعض الناس، فاجتمعوا عليه وذهبوا خلفه، فدخل بعض البيوت ووجد امرأة فجرحها، فدخلوا عليه وقتلوه، ولم يعرفوا ما هو فسموه الغول.

وفى يوم الأحد ثامن عشرى الشهر المذكور: كسفت الشمس بعد اصفرار من غير سواد نحو ساعتين.

ولما كان أول جمادى الأخرى اشتد البلاء بالمسلمين، والفقراء والمساكين، فعند ذلك قذف الله تعالى فى قلوب بعض عباده الرحمة والشفقة، فاجتمعوا على أمر هو أنهم يجعلون شيئًا من حطام على أهل القدرة والطاقة، ليكون لهم ذخيرة عند الله يوم الحسرة والفاقة، وهم ثلاثة منهم الاثنان العالمان العاملان: مولانا الشيخ عيسى ابن محمد المغربى الثعالبى الجعفرى، ومولانا الشيخ محمد بن سليمان، والثالث قطب الوجود والزمان، ذو السر والبرهان، الولى الصالح، صاحب القول الراجح،

مولانا السيد عبد الرحمن المغربى الشهير بالمحجوب.

ثم إنه انتدب لخدمة الفقراء، والقيام بمصالحهم بعض الإخوان من أهل الخير والصلاح، ونادى مناديهم بلسان الحال: يا عباد الله، حى على الفلاح، فابتدروا وتقدموا إلى حضرة مولانا القائم مقام، وهو السيد بشير بن سليمان، فأجابهم بالتحية والإكرام، وأعطاهم ما قدر عليه طمعًا فى دار السلام.

ثم توجهوا إلى كبراء البلاد، فأعطى كل بقدر ما قسمه الله وأراد. وكتب مولانا الشيخ إلى مولانا الشريف سعد، وكتب أيضًا إلى أخيه مولانا الشريف أحمد فأجابا، وأمرا خدامهما وأتباعهما بشىء من البر مقداره عظيم؛ ليكون لهما ذخيرة عند رب العالمين، إذ هو صلة للفقراء والمساكين.

فلما اجتمع من الدراهم والطعام ما فيه البركة رأوا أن يجعلوه دشيشة مع دشيشة السلطان مرتين أول النهار وآخره على الدوام والقدر الذى يطبخ فى الوقتين أربعة أرادب وشىء.

وكان فتحها فى خامس جمادى الأخرى من سنة التسع والسبعين، فحصل بها نفع كبير للمسكين والفقير. فجزى الله المتصدقين، والعاملين عليها، والقائمين بها أفضل الجزاء، ورضى عنهم أحسن الرضا.

وفى يوم الخميس ثامن رجب من السنة المذكورة: ورد خبر وفاة المرحوم مولانا السيد أحمد بن السيد على بن باز بن حسن من اليمن رحمه الله رحمة واسعة.

وفى ليلة سابع عشر رمضان، حصلت رحمة من السماء علينا، وعلى أطراف مكة، فحصل بها فرج كبير، وسرور للمسلمين كثير.

وفى ثالث شوال: وجدت بنت مراهق مقتولة فى بعض الأزقة قريبًا من سوق العطارين، والسبب فى ذلك أن عليها بعض حلى فقتلها قاتلها لذلك.

وفى اليوم الرابع: انتقلت امرأة ودفنت، ثم أصبح أولادها يزورونها، وكان يوم جمعة فوجدوا قبرها منبوشًا، وإذا كفنها قد سرق فخافوا وتشوشوا تشوشًا شديدًا، فتركوها وجاءوا يسألون عن الحكم الشرعى هل تكفن ثانيًا أم لا، فأجيبوا بما ذكره العلماء الأعلام أن الميت إذا سرق كفنه يكفن ثانيًا ما لم يتفسخ، ويتفرق اللحم عن العظام.

ووقع من بعض السوقة المفسدين أنه تكلم مع الدولة فى مظلمة يحدثها على المسلمين. وجعل على نفسه شيئًا من الدراهم ليأخذها من إخوانه المؤمنين، ويتقرب بها إلى الجحيم، ويتباعد عن جنة النعيم، فبلغ ذلك حاكم الشريف القائد أحمد بن جوهر كان الله له فى عونه، فضربه حتى بلغ به الهلاك ثم حبسه فشفع فيه فأخرج محمولاً إلى بيته، وشاع أمره وظهر، وأقام ثلاثة أيام وفى الرابع أخذه القضاء والقدر.

وفى يوم الإثنين حادى عشرى ذى القعدة بعد طلوع الشمس بساعتين: وقع أمر مهيل، هو أنه ظهر من عين الشمس، أو بالقرب منها ضوء هائل كالنجم، ثم إنه استطال، وامتد إلى جهة المغرب، وحصل لمن رآه حال بدئه غشاوة على بصره، وارتعدت فرائصه، وانزعجت منه القلوب، وهو مشتمل على زرقة وصفرة وحمرة، ثم إنه ذهب طرفاه، وبقى الوسط، واتسع فى العرض فخرج منه صوت كالرعد، ولم يكن فى السماء غيم ولا سحاب، وظن بعض الناس أنه صوت مدفع، واستمر ساعة، وفيه عبرة لأولى الألباب، ثم اضمحل الباقى من ذلك الشعاع إلى سحاب.

ثم إن الناس كثر كلامهم فى ذلك، وقالوا: لا بد لهذا من شأن عظيم، حيث إنهم لم يروا مثل ذلك، ولم يسمعوا بمثله فى الزمن القديم.

وحكى بعض الناس أنه ذكر هذه الحادثة فى جمع، وتحدث بها، وإنهم قالوا لم يشاهد مثلها فى ماضى الزمان، وكان فيهم رجل أكبر منهم سنًا فقال: أنا شاهدت مثل ذلك وأعظم منه، كنت فى الخيف فوق الصفراء متوجهًا إلى المدينة الشريفة، ومعى جماعة فسرنا بعد شد الأحمال إلى الروحاء، فلما كنا بملاوى الخيف، وكان الوقت بعد المغرب فإذا السماء انفرجت، وخرج منها ضوء ساطع ملأ الوادى، وتساقط منه شهب حتى أيقنا بالهلاك فى تلك البوادى، واستغثنا بالرسول وتشهدنا، وتشفعنا بمن نحوه قصدنا، ثم ذهب واضمحل، وبقى شىء من الضوء فى ذلك المحل، فخرج منه صوت مهيل كالرعد فظننا أن الجبال تساقطت فاستغثنا وتشهدنا كذلك، ثم ذهب واضمحل، فسرنا سويعة فإذا هو قد وقع مرة ثانية، وكنا كلما وصلنا قرية نسأل أهلها عما رأينا فيقولون: رأينا ما رأيتم وشاهدناه، وكان عامًا فى سائر الأقطار، فسبحان الله الفاعل المختار.

ثم سألناه عن مدة هذه الواقعة فقال: لها الآن ست وعشرون سنة بهذه السنة. فقلنا له: كيف كان عاقبتها؟ فقال: لم نر إلا الخير والسلامة ولله الحمد والمنة. انتهى.

وفى هذا اليوم بعينه وهو الحادى والعشرون من شهر ذى القعدة الحرام من سنة تسع وسبعين وألف: بنى الشيخ العلامة العامل العارف الكامل مولانا الشيخ محمد ابن سليمان المغربى فى صحن المسجد الحرام بعض أحجار ليضع فوقها حجرًا كبيرًا مكتوب فيه شاخصان من حديد يستفاد منه بالظل ما مضى وما بقى من النهار بالتماس جماعة من المسلمين، وليكون نفعه عامًّا للأمة أجمعين.

فعند ذلك قال جماعة من الجهلة ممن لا خلاق لهم: إن هذه الحادثة التى وقعت فى السماء بسبب هذه الواقعة التى فى الأرض؛ لأنهما كانتا فى يوم واحد فى ساعة واحدة، فكان الناس فى شأنها حيارى.

وقال بعضهم: إن هذه صومعة النصارى. وكثر منهم القال والقيل، فاستعان بالله تعالى عليهم وتلا ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [ال عمران:١٧٣]. فرفع الأمر إلى سيد الجميع مولانا الشريف سعد -لا زال من المسعدين- فأمر بوضعها على رغم آناف المعتدين، وذلك قبل وضع الحجر الذى فيه الكتابة، فجاء إليه المعلم ليضعه فوق سطح ذلك البناء، فجاء رسول من حاكم الشرع الشريف ومنعه، فتوجه إليه المعلم فقال له: لا تفعل حتى نكتب فى ذلك سؤالا إلى المفتى، فكتب فأجاب: إنه إذا كانت فيه مصلحة أو منفعة جاز وضعه باتفاق علماء الإسلام.

وهذا القول من الحاكم الشرعى إنما هو بوسوسة بعض الحسدة اللئام.

ونظير هذا الحجر موجود فى مسجد النبى عليه أفضل الصلاة والسلام، وفى غيره من المساجد الكرام.

ثم إنهم كتبوا له مكتوبًا، وفيه كلام لا يليق بالمقام، فتعب الشيخ من ذلك وطلب من الحاكم الشرعى أن يجمع بينه، وبين خصمه فلم يفعل، وجاء إلى بيت الشيخ، واعتذر وأمر بوضع الحجر، فوضع فى اليوم الثانى واستمر.

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشرى ذى القعدة: دخل مولانا الشريف سعد مكة المشرفة فحل بها السعود فى موكب عظيم خفقت به البنود، ودعا له المسلمون بالنصر

والظفر والتأييد - حفظه الله تعالى .

وفى يوم السبت سادس عشرى الشهر المذكور: دخل جدة مركب من الشام، وغراب به مستلم جده، وصحبته مكاتيب مضمونها عزل القاضى، ونائب المسجد الحرام.

وفى ليلة الأحد سابع عشرى الشهر المذكور: دخل مكة مولانا الشريف أحمد ابن الشريف زيد في موكب عظيم هو به حقيق، وكان فى جهة الشرق.

ودخل شهر ذى الحجة الحرام اختتام سنة تسع وسبعين، كان أوله بالخميس، فلما كان يوم الرابع منه: وصل رسول من المدينة الشريفة يخبر بأن صحبة الحاج الشامى رجلا عظيم الشأن، يسمى: حسن باشا بيده أوامر من مولانا السلطان يحكم فى الحرمين الشريفين، ويتبصر فيهما نيابة عن خليفة الزمان.

فلما كان قرب المدينة الشريفة برزت له عساكرها وكبراؤها فتلقوه بالقبول، فدخل فى موكب عظيم، وتوجه إلى حضرة الرسول.

والسبب الداعى إلى وصول هذا الرجل أن أهل المدينة أرسلوا جماعة منهم، ومعهم مكاتيب إلى الحضرة العليِّةِ، يرفعون إليه من مولانا الشريف سعد وأتباعه فيها الشكية، فأرسل هذا الرجل ليجرى الحق إلى معالمه، وينصف المظلوم من ظالمه.

فلما استقر بالمدينة البهية بالمدرسة القايتبائية اجتمع إليه أهل المدينة، وشكوا إليه الجور والشطط والحال الفظيع، والأمر الفرط، وسلطوه على جماعة من أعيان البلد ممن ينتمون إلى الشريف سعد ذى القدر الخطير، فأحضروا فى حالة شنيعة من الإهانة والصفح والسحب، وأنواع التعزير، ثم وضعوا فى السجن بعد أن كبلوا بالحديد، وكان لهم عنده بالقتل تهديد.

ومنع الخطيب من ذكر مولانا الشريف سعد بالدعاء على المنبر، وأذاع عليه فى بلد جده هذا المنكر.

فلما بلغ ذلك مولانا الشريف تعب من هذا الفعل، وأخذ منه الحذر، وفوض أمره إلى من بيده القضاء والقدر.

ولما برز من المدينة متوجهًا إلى البيت العتيق صار مناديه ينادى فى الطريق.

وفى اليوم السادس: دخل الحاج المصرى مكة ولبس مولانا خلعته المعتادة من قديم الزمان، ودخل فى اليوم الذى قبله الحجاج بأمان. وفى اليوم السادس أيضًا دخل الحاج الشامى، ثم بعد الظهر بين الصلاتين دخل الباشا حسن المذكور فى موكب عظيم بالآلاى والطبول والزمور، وهو راكب فى تخته، إلى أن وصل إلى باب السلام، فنزل ودخل المسجد الحرام.

وفى اليوم السابع، دخل المحمل الشامى، ولبس مولانا خلعته المعتادة بعد أن خرج فى ذلك الموكب السامى، وكان فى العادة أن يقسم بعض الصدقات لأهالى مكة قبل الصعود فبها ينتفعون، ومنها يحجون، فمنع من ذلك، فلزم عن منعه القعود، وتلوا ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٦]. وكذلك مولانا الشريف تعب من أحواله السابقة، وقال: لا أحج فى هذا العام إن لم يظهر ما بيده من الأوامر فننظرها كاذبة أم صادقة، وأرسل بذلك إليه وإلى الأمراء، وشدد فى الكلام، ووقع فى البلاد اضطراب وانزعاج، وعزلت الأسواق، وغلقت الأبواب، وخلت الطرق والفجاج، وجمع مولانا الشريف جيشه، وقام على قدميه، وشمر ولسان الحال ينطق: الله أكبر الله أكبر.

ثم إن الأمراء، وكبار العساكر، وأركان الدولة أتوا إلى مولانا الشريف، وقبلوا يديه، وخضعوا رءوسهم وأنصتوا لديه، وقالوا: أنت الأصل، وإن لم تحج فإن الأمة لا يحجون، والتزموا له بالعهود والمواثيق أنه لا يقع خلاف، وكل ما تريده يكون، فعند ذلك نادى مناديه فى البلاد بالأمان والاطمئنان، وأن الناس يحجون آمنين من السوء والعدوان. وأما أهل المدينة فتركوا الحج؛ خوفًا على أنفسهم من جريرة ما فعلوه من الآثام والأوزار. وأما الأعراب وأهل البوادى فمنهم من ترك الحج لخوف الطريق الموجب للإضرار، ومنهم من توجه للحج فبلغهم فى أثناء الطريق وصول الباشا، ومن معه وما معه من الأخبار، فرجعوا إلى أهاليهم.

ثم إن مولانا الشريف صعد إلى عرفات، ولم يحصل شىء من المخالفات، وكانت الوقفة بالجمعة. وفى هذا الشهر: لم يقع بين مولانا الشريف وبين حسن باشا اتفاق إلا أنه أوصل الفقراء حقوقهم، وكل يوم يحضرون بين يديه مع الإهانة من عسكره، فمن الناس من يدعو له وأكثرهم يدعون عليه.

ثم دخلت سنة ثمانين وألف، كان هلالها بالسبت. فلما كان اليوم الثانى منه سعى جماعة بينهما بالصلح، منهم أمير المحمل الشامى الأمير عساف ابن الأمير محمد فرّوخ، وكان الاجتماع بينهم بعد العصر من اليوم المذكور بالمسجد الحرام خلف مقام الحنفى بحضرة الخاص والعام، ثم تفرقا ورجع كل منهما إلى بيته بالحبور، وأرسل كل منهما نوبته إلى بيت الآخر فدقت الطبول والزمور، وكانت ساعة مباركة سر بها الكبار والصغار، فيها إشعار بحصول الوفاق، وصفاء الأكدار، وأرسل كل منهما هدية سنية، والله أعلم بما اشتملت منهما النية.

وفى اليوم الثامن من محرم افتتاح سنة ثمانين وألف، توجه بعد العصر مولانا الشريف سعد، وأخوه مولانا الشريف أحمد إلى حضرة الباشا حسن، فقابلهما بالتحية والإكرام. وجلسا عنده ساعة فى أنس وصفاء وتعطف فى الكلام، فلما أرادا القيام ألبس كلا منهمًا ثوبًا نفيسًا يليق بهما، وقام لهما ومشى على الأقدام، وخرجا من عنده إلى البيت السعيد، وقبلا الحجر الأسود السعيد، وسألا من فضل الله المزيد.

وفى اليوم العاشر من الشهر المذكور أراد الباشا السفر إلى جدة المعمورة، فلما كان بعد العصر، توجه إلى حضرة مولانا الشريف سعد - حفظه الله تعالى - بالقرآن العظيم، ومكث عنده ساعة من الزمان، ولم يذق عنده شيئًا زعم أنه صائم طلبًا للغفران.

ثم إن مولانا الشريف أمر بتقديم فرس مسرجة محلاّة تساوى ستمائة دينار، اللهم ألف بين قلوب عبادك كما ألفت بين الثلج والنار. ثم إنه لما نزل إلى جدة حكم وتكبر وطغى وتجبر.

وفى يوم الخميس ثالث ربيع أول من السنة المذكورة: نهب عسكر الشريف السوق وأخذوا منه ما وجدوه من عيش وتمر ولحم وسمن، وأفسدوا فى تلك الأفنية، وطلعوا إلى قهوة النخل، وزعموا أن فعلهم إنما هو للحاجة الملجئة من تأخر الجامكية الشريفية، وأقاموا بها تلك الليلة ويومها على تلك العصبية.

ثم نزلوا إلى أسفل مكة وأرادوا التوجه إلى نحو اليمن، فتوجه إليهم ابن الشريف زيد مولانا السيد حسن، وصحبته الشيخ أبو بكر العرابى، وشيخ العسكر، والتزموا

لهم ما أرادوا، فرجعوا إلى البلد فأعطوهم ما كان لهم وزادوا.

وفى ليلة الخامس من شهر ربيع الأول من سنة ثمانين وألف: دخل مكة مولانا المرحوم السيد محمد يحيى ابن المرحوم الشريف زيد أسكنهما الله فى الجنان القصور، وحصل بدخوله الهناء والسرور.

فلما أصبح الصبح تكلم العسكر الذين هم بمكة مقيمون، فى دخوله البلد وهو من الجماعة الذين هم الناهبون القاتلون. فأجابهم مولانا الشريف بأن عنده مكتوبًا من حضرة الباشا بأنه يصطلح مع بنى عمه، فأخرجه لهم، وقرأه عليهم، وسجله عند قاضى المسلمين، فسكتوا ورجعوا.

وفى ليلة الخميس عاشر الشهر ثالث عشر ربيع الآخر: قتل بعض الأتراك زوجته خنقًا طمعًا فى مالها، واعتصب له جماعة، وطلبوا البينة عليه فلم تقم، فخلى سبيله.

وفى اليوم الخامس عشر منه، قتل عبد أسود عتيق لبعض العرب رجلا من جماعته كذلك لدنياه، وذلك عند بئر طوى، فبئس ما نوى.

وأمسك فأقر فشنق فى اليوم الثانى فى مشنق محمود الأعور.

وفى هذا الشهر أو الذى قبله نفى مولانا الشريف رجلين إلى بلدة بيشة أحدهما من أولاد مكة والآخر من أشراف الأزبك المجاورين، انتقل هذا إلى رحمة الله مولاه، وبقى الآخر إذ أبقاه الله.

وفى يوم الجمعة خامس عشر الشهر المذكور، وقع بين عسكر الشريف شنآن، وافترقوا فرقتين، وتقاتلوا ساعتين، وحصل فيهم جراحات، وأسفرت عن سلامات، وكان أغاتهم قد طلع إلى المعلاة لزيارة قبر مولاه، فأرسلوا له رسولا، ونزل إليهم قبل حضوره مولانا الشريف أحمد بن زيد - حفظه الله - ففرق جمعهم وأطفأ نارهم، وألف بينهم، وقبل أعذارهم.

وفى هذا الشهر: توجه مولانا السيد محمد بن زيد إلى قبيلة بنى سعد فى جمع يسير، وهم فى منعة وشاهق خطير، وأراد قتالهم لخروجهم عن الطاعة، وأظهر كل منهم تمرده وامتناعه. فأرسل وعرف أخاه مولانا الشريف سعد، فجمع جمعًا وأمرهم بالمسير إليه والذهاب.

فبينما هم كذلك إذ وصل الخبر إليه بأنه وقع الصلح على المال لتسلم الرقاب.

ودخل جمادى الأخرى وكان بالأحد. وفى اليوم الثالث منه آخر النهار انتقل الأخ الأعز المرحوم شهاب الدين القاضى أحمد ابن القاضى مرشد المرشدى الحنفى العمرى - رحمه الله تعالى -.

وفى يوم الجمعة سادس الشهر، ضرب سردار العسكر ناظر السوق وأهانه، ومكث الناظر المذكور أيامًا لا يخرج من بيته بسبب جرح رجله من الضرب، وسببه طلب السردار من الناظر أن يزيد له فى السعر ليبيع هو وجماعته ما عندهم من الطعام المحتكر، فمنع من الزيادة، فحقد عليه لذلك، وتسبب له بسبب من الأسباب، حتى بلغ من ضربه ما يقابل به يوم الحساب.

وأما حسن باشا لما وصل جدة دخل بيته، وأغلق بابه، وأجلس أعوانه وحجابه، وجعل حاكما يحكم على المسلمين حكم الظالمين.

فمن جملة حكم ذلك الحاكم على ما قيل أنه جعل على كل ميت شيئًا كما فعل فرعون فيمن قبله من الأولين، وتفرق جنده فى البلاد إذ تأمروها، وكثر أذاهم فيها وما عمروها، بحيث إنهم يدخلون السوق، ويأخذون الطعام وغيره قهرًا من غير رضا، وإذا توجه المظلوم إلى الباشا لم يقدر عليه، ولا هناك أحد يلتجأ إليه، وإن رفعوا الأمر إلى حاكمه ضربهم، وأمر بحبسهم، ولم ينقض لهم أرب، ومع ذلك ليس قوله إلا: برى جدى، برى زيدى عرب، فمن الناس من أمسك بيته، ومنهم من فر وهرب، ومنهم من رفع هذا إلى مولاه فارج الكرب، ليكشف هذه المحنة، ويهلك من كان السبب.

وفى يوم الثلاثاء ثانى رجب الحرام، دخل سلطان من سلاطين الأعجام، وقد كان أرسل له مولانا الشريف سعد إلى جدة رسله يهنونه بالسلامة، ويبلغونه التحية والكرامة، وصحبتهم خمس أو ست من التخوت، وتوجه إليه مفتى الإسلام، والخطيب ببلد الله الحرام القاضى إمام الدين ابن القاضى أحمد المرشدى، ولاقاه من نحو مرحلة، وقابله بالتحية والإكرام، وجاء معه ودخل به المسجد الحرام من باب السلام.

وأرسل مولانا الشريف إليه هدية سنية، وأنزله فى بيت من بيوت آبائه الأسلاف الزكية.

ثم بعد ذلك أرسل السلطان المذكور لحضرة مولانا الشريف مقابلا لما أهداه له من الإنعام مالا جزيلاً من الذهب والفضة، وكذلك جاء من سلطان الهند مال عظيم فى هذه الأيام، فذهب الضيق والتعب من القلوب والأجسام.

وفى يوم الأربعاء رابع عشرى رجب المذكور: انتقل بالوفاة إلى رحمة مولاه مولانا وسيدنا ومأوانا وسندنا شيخنا شيخ الإسلام والمسلمين، خاتمة الأئمة المحققين، خادم حديث سيد المرسلين، الجامع بين الأصول والفروع، الحافظ لكل متن ومجموع، الحائز فضيلتى العلم والنسب، الحائز طرفى الكمال الغريزى والمكتسب، رئيس العلوم العبقرى، جار الله أبو مهدى عيسى بن محمد بن محمد الثعالبى الجعفرى، الهاشمى نسبًا، المالكى مذهبًا، المغربى منشأ ومولدًا الحرمى وطنًا ومحتدًا. إمام الحرمين الشريفين، وعلم المغربين والمشرقين. جامع أشتات العلوم النقلية، ومبرز خفايا لطائف الآراء العقلية، محيى رسوم الرواية بعد ما عفت آثارها، ومشيد مبانيها بعد ما انهار منارها، وسالك مسالك أئمة السلوك، ومالك ملاك أمره فى مجانبة كل مليك ومملوك. ولد ببلده ونشأ بها على اشتغال عظيم بالعلوم النافعة. وأخذ عن عدة مشايخ فى علوم عديدة.

قلت: هو شيخى الذى تخرجت به فى عدة من الفنون إتقانًا، عقائدًا وأصولاً ونحوًا وصرفًا ومنطقًا وبيانًا. تغمده الله برضوانه، وأحله فسيح جنانه. آمين.

وفى اليوم السابع والعشرين من رجب المذكور آخر النهار وقع بين عسكر المدينة، وبين العرب قتال زاغت فيه الأبصار، وكان من العصر إلى وقت الاصفرار.

فلما أقبل الليل وأدبر النهار، تفرق الجمعان، وبات عسكر المدينة فى غاية التنبه والاحتذار، طول ليلهم بالبندق إلى وقت الأسحار.

وكان القتلى من العرب نحو خمسة عشر رجلا. فلما أصبح الصباح، ونادى منادى الفلاح، حفروا لهم حفرة نحو السبيل، ودفنوهم بها، وقتل من أهل المدينة حران وعبدان. بذلك تواتر الخبر عن غير واحد من الإخوان.

وهؤلاء العرب من قبيلة تعرف بحرب، ولم نعلم حرب هذا جدهم لمن ينسب، وإلى أى جيل يحسب. وهم جمع كبير يشتمل على قريب من خمسين فخذًا كل فخذ يشتمل على جماعة لهم جد خاص، وعليهم الدرك فى حفظ الطريق من عسفان

إلى المدينة الشريفة.

والشيخ الذى جماعهم عليه وانتماؤهم إليه كان يسمى أحمد بن رحمة، أفاض الله عليه الرحمة.

ولما أقبل الليل منعهم شيخهم المذكور عن القتال، وردهم إلى المحل المسمى بذى الحليفة شرعا، وبأبيار على عرفًا. ثم أرسل له كبير المدينة الشريفة بالطلب والأمان، فتوجه إليهم، ومعه جمع من العربان، فجعل الفريقان يختصمان، ويدعى كل منهما على الآخر بالبدء بالعدوان، على يد الأفندى، وشيخ الحرم والأعيان. فأصلحوا بينهما وانقطع النزاع عنهما، وألبس الشيخ خلعة نفيسة، وألبس بعض خواصه جوخًا، على أن ما مضى لا يعاد، بذلك وقع الاتفاق والأمان. ونادوا على القافلة بالرحيل، مع التعزيز والتبجيل.

ثم دخل شهر شعبان المعظم وكان بالأربعاء، وفى خامسه وصل رسول من باشا مصر المحروسة إلى حضرة مولانا الشريف يبشره بالنصرة المأنوسة لمولانا السلطان محمد خان أيده الله بالسعد المديد، على أهل الشرك والطغيان أرباب مالطة وكريد.

فألبسه مولانا الشريف خلعة ثمينة، ونادى مناديه سبع ليال بالزينة، وذلك على القواعد القديمة، وحصلت بذلك للمسلمين بشرى عظيمة.

ومدة محاصرة أهل الإسلام للكفرة المشركين اللئام نحو ثلاثين من الأعوام. ثم إن الكفرة جعلوا للمسلمين مالا عظيما حالا ومؤجلا يأخذونه منهم كل عام بالتمام، وأن لا يتعرضوا للمسلمين بحال من الأحوال لا فى الأسفار ولا فى دار المقام.

والمدة التى اتفقوا عليها نحو مائة من الأعوام. على ذلك وقع الصلح والاتفاق، وكفى الله المؤمنين الشقاق. فرجعوا إلى أوطانهم بالخيرات والإنعام، ولهم فى الآخرة دار السلام.

ومما يتعلق برسول الباشا أنه جاء بعزل أفندى الشرع، وبتولية القاضى عبد المحسن القلعى نيابة القضاء عن الأفندى المستجد، وبعزل مفتى الحنفية القاضى إمام الدين المرشدى، وتولية الشيخ إبراهيم بيرى زاده مقامه إذ له هناك مستند.

وفى يوم الثلاثاء حادى عشرى شعبان المذكور من سنة ثمانين وألف؛ ورد خبر وقعة مولانا السيد حمود مع ظفير القبيلة المعروفة بنجد، وكان فيها عدة وقعات:

وقعة قفار مع عَنزة، ووقعة بنى حسين، ووقعة هتيم العوازم، ووقعة مطير وغيرهم.

وسبب وقعة ظفير أنه انضم إلى جهامة مولانا السيد حمود قبيلة من ظفير يقال لهم الصمدة، ثم انضم إليه شيخهم الأكبر مع جماعته الأدنين، وعصبته الأقوين، وكان محبًا للسيد حمود بمنزلة العين للإنسان، والإنسان للعين. وهو ذو شهامة وصرامة، يعرف بابن مرشد سلامة، فوقع من جماعته جرم اقتضى أن يؤاخذوا بما هو المعتاد المنوىّ عليهم فى مثله، وهو أخذ الشعثاء والنعامة، وفى خيار أوائل الأباعر، وخيار تواليها، فلم يرضوا بذلك، وقالوا هو جور وحيف، وليس عندنا دون ذلك إلا حد السيف، فأشار سلامة المذكور إلى مولانا السيد حمود وقال له: اربطنى ولستَ فى ذلك بمُلام، فوالله لتأخذن ما تريد على التمام.

فقال: كلا والله لا ربطتك ونخوة آبائى الكرام، وكيف ذاك وفى بطنك من عيشى طعام، وكفى به التزام ولزام فذهب سلامة إلى قومه، وقد تهيئوا للقتال والنضال والعدوان، وتهيأ كذلك مولانا السيد حمود ومن معه من بنى عمه ومن الصمدة وعَدوان.

فانخزلت الطائفة من الصمدة، وولت ناحية ناجية، وانكفأ الجمعان بعضهم على بعض، واختلط الفرسان فلم يبن الطول من العرض. وقتل من السادة الأشراف مولانا السيد زين العابدين بن عبد الله، ومولانا السيد أحمد بن حسين بن عبد الله، والسيد شنبر بن أحمد بن عبد الله.

وصوِّب مولانا السيد ظفير ابن السيد زامل بن عبد الله أصاويب. وكذلك صوب مولانا السيد باز بن هاشم بن عبد الله، إلا أن الله سبحانه منَّ بالعافية عليهما ولله الحمد.

ثم إن السيد غالب بن زامل صبحهم بعد مُدَيدة، فحلم عن ستين لحية منهم، ولم يشف عن واحد من القتلى كبده. ولم تزل معهم ظفير فى قتل وطراد إلى أن أصلح بينهم مولانا المرحوم الشريف أحمد بن زيد، كما سيأتى ذكر ذلك فى محله.

وفى تاسع عشرى رمضان: وقعت بمكة صاعقة جهة الشبيكة قتلت رجلا واحدًا.

وفى رابع عشر شوال: بلغنا أن الباشا حسن أظهر بويوردى وقرأه على الأتراك بأن محصول جدة له يصرفه فى عمارة المسجد وغيره، فتعب منه مولانا الشريف سعد،

وأرسل له ونهاه عن ذلك، فلم يرجع وفعل فعل القسوس، فقامت بينهما النفوس.

ونزل السيد محمد بن يعلى فى خيل ورجل وخدام، وواجهه فقابله بالتحية والإكرام، وكان بينه وبين مولانا الشريف مباينة وظنن، فتعب الناس من ذلك لما يترتب عليه من الفتن، ولكن كفى الله المخوف ودفع، ولم يحصل شىء من المكاره.

وفى يوم الخميس سادس عشرى الشهر المذكور: وصل ثلاثة من الأعراب بخبر سار للمسلمين بأن صاحب جدة معزول، فأخلع عليهم مولانا الشريف أدام الله له النصر والتمكين.

ودخل شهر ذى الحجة الحرام اختتام سنة ثمانين وكان بالإثنين. وفى يوم الجمعة خامس الشهر وصل مبشران: أحدهما من أتباع مولانا الشريف ممن يتلقى عن الحج الأخبار، والآخر من أتباع عماد أغا، ومن الحجاج والزوار، يبشران بوصول قفطان لمولانا الشريف من حضرة مولانا السلطان.

وفى اليوم السادس دخل الحجاج مكة المشرفة ووصل القفطان والمكتوب، فلبس وقرئ بالمسجد الحرام، بين زمزم والمقام، بحضرة الخاص والعام.

وكان ممن حج فى العام جماعة من الأعيان، أركان دولة آل عثمان، أخو الوزير وعمه، وابن أخيه وأمه. فتوجه إليهم مولانا الشريف حال القدوم لسلام التحية، وأرسل لهم بهدية سنية.

وبعد نزولهم إلى منى توجه إليهم، ونص جميع ما جرى له من حسن باشا عليهم. فأرسلوا إليه فحضر، وتكلموا عليه وزجروه فانزجر.

وفى الاجتماع به مرة ثانية جمعوا بينه، وبين مولانا الشريف، وأصلحوا بينهما الحال، والحمد لله على كل حال. وكانت الوقفة بالثلاثاء.

وفى خامس عشرى ذى الحجة المذكورة، انتقل الأخ الصالح رضى بن حسن الطاهر.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وألف، فى ثالث محرم الحرام يوم الجمعة رحل المحمل الشامى، وفى سادسه انتقل مولانا المرحوم الشيخ عبد الكبير بن محمد المتوكل، وهو من بيت سلف صالح رحمه الله تعالى ووالدى والمسلمين.

وفى يوم الجمعة سابع عشر الشهر المذكور، نودى لمولانا وسيدنا الشريف أحمد ابن المرحوم مولانا الشريف زيد فى البلاد بالربع، وأمر الخطيب يدعو له عَلَى المنبر مع أخيه دام مجدهما، وكان النداء قبيل الصلاة فى اليوم المذكور.

وبعد صلاة عصر ذلك اليوم أرسل إليه الباشا حسن جماعة نوبته فضربت فى بيته، فأرسل إليهم فوق ما كانوا يطمعون. فخرجوا وهم يتشكرون.

وكذا فى اليوم الثانى والثالث على ما مضى عليه الأولون. وفى ثانى يوم جلس للتهنئة والمباركة، وألبس الخطيب ثوبًا نفيسًا، وأنفق فى ذلك اليوم مالا على الأتباع والفقراء تبشيرًا وتأنيسًا. وكان قدومه على المسلمين بكل خير.

ومما اتفق فى هذا العام أن رجلا من قبيلة النفعة يسمى عمير، ويكنى بأبى شويمة قتل جماعة منهم اثنان من ثقيف من قبيلة تسمى الحمَدَة ولهما إخوة وبنوعم، فكانوا فى طلبه يتجسسون الأخبار، فدخل فى هذه السنة بلدَهم، وجاء راكبًا جواده، ووقف إلى قبةالحبر وزار، ثم دخل إلى السوق، فرآه بعض أقارب القتيل، فصاح به، وضربه ضربة ادَّرَقها ثم ضرب فرسه فقطع عرقوبها فحركها فلم تطاوعه للفرار، فسقط إلى الأرض فلحقه وقد صدمه الجدار فضربه ثالثة على أم رأسه فشقه فبرك عليه، وأراد ذبحه فمنعه الحاضرون، ثم قام نحو الخلاء وهو فى سكرات الموت، فصاح الصائح الحقوا غريمكم قبل الفوت، فتلاحقه الرجال يرمونه بالحجارة والنصال حتى سكن أنينه، وكانت هذه الواقعة يوم الخميس رابع ربيع آخر.

ثم إن أولاد عمير المذكور صاحوا فى عشيرتهم وذويهم، واستثاروهم على قتلة أبيهم، فأتاهم بنو سعد وعتيبة وجمع من العربان، ثم اجتمعوا وتهيئوا للقتال.

وحصل فى الطائف القيل والقال، فاجتمعت ثقيف، واستنصروا حلفاءهم لما بلغهم وصول القوم إلى لية ونواحيها، وبالقرب من القوم قبيلتان من ثقيف بنو محمد وثمالة فتوجهوا نحو القوم فأخذ القوم ينهزمون إلى أن وصلوا إلى عباسة بالخداع منهم والاحتيال، وهؤلاء البعض منهم والبعض الآخر كمن واختفى وراء الجبال حتى توسطت ثقيف، فإذا القوم منعطفون عليهم والكمين خارج إليهم، فاحتاطوا بهم فقتلوا الرجال، وأخذوا الأموال وأمسكوا جماعة عندهم مأسورين وهرب باقيهم. ثم إن القوم نزلوا إلى القرية وأخربوها وأخذوا الحبوب، وقطعوا الثمار وأحرقوا

بعض الدواب بالنار، وكان بالقرية أولاد الشريف، وحاكم الشريف فأرسلوا إليه فعرفوه. ففى صبيحة يوم الثلاثاء تاسع ربيع الآخر من السنة المذكورة، وصل من مكة نحو المائة من العسكر أرسلهم مولانا الشريف لحفظ البلد وحراستها.

وفى اليوم التاسع والعشرين من الشهر المذكور: لبس مولانا الشريف سعد خلعة النصر والتأييد بالأبطح جاءته من صاحب مصر المحروسة بعون الله العزيز الحميد، وكان متوجهًا إلى الشرق؛ لإطفاء نار فتن المفسدين والعتاة المتمردين. ودخل شهر جمادى الأولى، وتوجه مولانا الشريف إلى المبعوث، ووصل فى سابع عشره إليه - أيده الله - تجاه جده خير مبعوث، وأرسل قبائل العرب فأجابوا بالسمع والطاعة، فنصفهم وأنصفهم، ولو شاء كشف عنهم من الستر قناعه، لكنها غير شيمة جده صاحب الشفاعة، ثم وصل منه إلى الطائف.

وفى هذا العام: وقع الصلح بين مولانا الشريف، والسيد حمود، فكان وصول مولانا السيد حمود- رحمه الله - إلى مولانا الشريف سعد بالطائف فلاقاه ملاقاة الابن البار لأبيه، وألبسه فى الحال فروة السمور، وطيب خاطره بكل ما يرضيه.

ثم بعد يوم والذى يليه، عقد معه المبايعة على محكم الأساس، فى ضريح الحبر ابن عباس، ولم يدخل مكة معه بل تخلف فى مخاليفها، وكان به للمسلمين أعظم أسباب تأليفها.

وفى شعبان من السنة المذكورة: وصل رسول من باشا مصر، ومعه مكتوب من مولانا السلطان، ومعه خلعتان واحدة منهما لمولانا الشريف سعد، والأخرى لمولانا الشريف أحمد - حرسهما الله تعالى - وكانا غائبين فى أرض الحجاز، لإصلاح البلاد، وقمع أهل الظلم والعِناد. فاجتمع العسكر الذين بمكة ليلاقوا رسول مولانا السلطان بالتبجيل والإعظام، وليدخلوا به على ما جرت به القواعد، فأتوا به من أعلى مكة، وأدخلوه من باب السلام، ووضعوا الخلعتين فى مقام الخليل، عليه السلام .

ودخل شهر رمضان وكان بالثلاثاء. ولما كانت ليلة الثالث والعشرين منه: دخل مولانا الشريف سعد مكة فى موكب عظيم تمام، ومكث يومه والذى يليه، ثم نزل اليوم الثالث إلى المسجد الحرام، ولبس الخلعة الشريفة بين زمزم والمقام، بحضرة

السادة الأعلام، وعساكر الإسلام، وقرئ المرسوم السلطانى، وفيه مالا مزيد عليه من التبجيل والإعظام. وكذلك مولانا الشريف أحمد لبس خلعته فى هذا اليوم، وذلك أنه طلب من أخيه بعد النداء له بالربع والدعاء على المنبر أن يرسل إلى الحضرة العلية، ويعرف بذلك لتصل إليه الخلعة فى كل عام وتقرر، فأرسل وعرف بذلك فى مكتوب، فجاءه الجواب على وفق المطلوب. وقد سبقهما إلى مثل هذا الآباء والجدود، وفضل الله ليس بمحدود.

وفى يوم الجمعة خامس عشرى الشهر المذكور، دخل شخص أعجمى المسجد الحرام، والخطيب قائم على المنبر يعظ الأنام. فتقدم نحو الخطيب، وصرخ صرخة أزعجه بها، وأشغل جنانه، والسيف فى يده سليل جمع عليه كفه وبنانه، فأومأ نحوه بالسيف وقرقر، وقال: أنا المهدى، الله أكبر.

فدافع عن الخطيب بعض الحاضرين بالسلاح والحجر، ومنعه منه وحجر، وحصل منه جراحات لعدة أشخاص، فاجتمعوا عليه وضربوه، وطرحوه إلى الأرض وقتلوه، ثم إنهم أخذوا برجله، وإلى خارج باب السلام سحبوه. فلما قضيت الصلاة، رجعوا إليه فأخذوا برجله، وصاروا يجرونه مع الضرب والإهانة، والحياة فيه باقية، فويل لهم من الله - سبحانه - إلى أن وصلوا به المعلاة وأحرقوه هناك بالقرب من بركة المصرى، وهذا أمر عظيم تحار فيه الأفكار، كون المسلم يهان هذه الإهانة، ويقتل بغير موجب ثم يحرق بالنار، نعوذ بالله من مكر الله.

ودخل شهر الحجة وكان بالسبت: دخل الحجاج يوم الخامس والأمير والمحمل يوم السادس. ولبس مولانا الشريف سعد والشريف أحمد خلعتيهما مع المصرى والشامى، وهذه أول خلعة لبسها مولانا الشريف أحمد فى هذا الموكب، ثم حجا بالناس.

ولما كان اليوم الثالث من أيام منى بعد انتصاف النهار نفر الباشا حسن إلى مكة وإلى رمى الجمار، فى موكب عظيم تشخص عنده الأبصار، والجند محدقون به إحداق الهالات بالأقمار.

فلما كان واقفًا عند العقبة لرمى الجمرة رماه ثلاثة رجال بثلاث بنادق، فخر على وجهه إلى التراب، فتلقاه جنده ورفعوه إلى التخت، وتحيروا فيما نزل بهم من هذا

المصاب بهذا المُصاب، ونزلوا به إلى مكة فى ذل وانكسار، وصاروا يقتلون من لاقوه من الناس من غير اختيار. فوصلوا به إلى مكة وأغلقوا عليه الدار، وتحصنوا فى البيوت، ودخل جمع منهم المسجد بالسلاح والنار، ورموا فيه البندق نحو بيت مولانا الشريف سعد، وهتكوا حرمة بيت الله ذى الأستار، ووجهوا المدافع فى الأربع الجهات، واحترس نهاية الاحتراسات.

ثم إن مولانا الشريف سعد توجه بعسكره إلى مكة خلفه بعد حين ملبسين مدرعين.

وأما الحجاج فمنهم من نفر إلى مكة، وأدخل أسبابه، ومنهم من لم ينفر، وجمع أهله وماله، وأغلق بابه.

ولما نزل الحجاج إلى مكة، واستقروا بها مكثوا خمسة أيام وأكثر مضطربين، وفى كل يوم تراهم رافعين لأسبابهم وواضعين، وكبراء الحجاج والأمراء يسعون بينهما فى جمع الشتات.

وسبب الاضطراب: أنه قطع على مولانا الشريف استحقاقه من ناصفة جدة، فطالبه بها فامتنع وتجبر، وتنكر وتنمر. فوثب عليه مولانا الشريف فى طلب حقه، وجمع جيشه وكبر.

فعند ذلك أصلح الله الأحوال، واتفق الأمر على إعطاء شىء من المال، وكان قدره ثلاثين ألف قرش.

ثم استعفوا مولانا الشريف سعد من الثلث، وأعطى عشرين ألف ريال، فسلمت لمولانا الشريف - أعزه الله بجاه النبى والآل -.

ثم لما توجه الحاج المصرى يوم سابع عشرى ذى الحجة الحرام المذكور، توجه معه حسن باشا، ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين، اتفق أنه لما رحل حسن باشا صحبة الحاج المصرى من مكة إلى المدينة الشريفة أقام بها، فوفد عليه فيها مولانا السيد محمد ابن السيد أحمد بن محمد الحارث، فألزمه بالذهاب إلى والده السيد أحمد الحارث، واستلحاقه إليه إلى المدينة الشريفة، فذهب السيد محمد المذكور فوصل إلى أبيه بالمحل المسمى بالشعرى من أرض نجد، فأتى إلى المدينة الشريفة، فلما حضره نادى له بالبلاد بعد أن ألبسه خلعة، وقطع الدعاء للشريف سعد فى الخطبة،

ودعا للشريف أحمد الحارث.

وقد كان مولانا الشريف سعد خرج صحبة الحاج أو عقبه حتى وصل إلى ينبع فأقام به. ولما بلغه ما فعله حسن باشا بالمدينة الشريفة من قطع اسمه من الخطبة، وتوليته للسيد أحمد الحارث والنداء له، أرسل إلى السيد أحمد الحارث كتابًا فى غاية اللطافة، واللين والرقة لا الكثافة، مضمونه بعد مزيد الثناء، وحميد الدعاء: إن هذا الواقع الذى سمعنا به؛ من تقمصك برد الملك وأثوابه، فهذا أمر أنت بيته الأعلى، ومثلك أحرى به وأولى، فإنك أنت الشيخ والوالد، الحائز كل كمال طريف وتالد، فإن كان هذا محكم الأساس فى البنيان جار على مقتضى مرسوم السلطان، فنحن بالطاعة أعوان، وإن كان الأمر خلاف ذلك، وإنما كان من تسويلات هذا الظالم الغادر، وتنميقات ذلك المذمم غير الظافر، فأجلُّ حلمك أن تستخفه نكباء الطيش، أو أن تستنزله أخلاط الأشاوب وغوغاء الجيش.

فأرسل إليه الجواب مولانا السيد أحمد الحارث؛ بأن الأمر لم يكن على هواى، وإنما هو إلزام، مع علمى بأن هذا الابتداء لا يكون له تمام.

فاستشعر حسن باشا أن من نية مولانا الشريف سعد المسير إليه، فتهيأ للقتال، واعتد ولفق مع عساكر المدينة ما قدر عليه بالجد لا الجد، وصنع أكرًا من حديد قريبًا من مائتين تسمى قنابر تملأ بالرصاص والحديد يرمى بها من بعد إلى الجيش، فيفسد فيه ملأها المتناثر.

وكلما أراد المسير ثبطه السيد أحمد الحارث وثناه، وأظهر له الرأى فى عدم المسير ومنّاه. فعزم مولانا الشريف سعد وأخوه مولانا الشريف أحمد إلى المدينة الشريفة الظالم أهلها إذ ذاك، وصمم على القتال عزمًا ليس معه انفراك.

وكان مولانا السيد حمود - رحمه الله - نازلا بالمبعوث فى المربعة المنسوبة إلى مولانا السيد محمد الحارث، وكنت إذ ذاك نازلا عنده فى تلك البقعة، وصلت إليه اشتياقًا لمحيّاه السعيد، وفرحًا بعد طول الغيبة بأنس الرجعة، فلما كان يوم الأحد ثانى عشر جمادى الأولى بين صلاتى الظهر والعصر من سنة اثنتين وثمانين المذكورة إذ نحن بفارس على فرس عرى يدك الأرض دكا، فأقبل حتى دنا، فإذا هو السيد أحمد بن السيد حسن بن حراز رسولا من مولانا السيد أحمد الحارث، والباشا

حسن بمكتوبين يستدعيان مولانا السيد حمود للانضمام إليهما، ففتح المكتوبين، وقرأهما وتمقل ألفاظهما ومعناهما فنبذهما إلىّ، وقال: اقرأهما ثانيًا علىّ، فقرأتهما، فإذا مضمون الأول الذى من الباشا حسن بعد الثناء والوصف الحسن: إننا قد ولينا أخاكم السيد أحمد الحارث بأمر سلطانى معنا، صحيح فى اللفظ والمعنى، والقصد أن تجمعوا الشمل، ولا تشقوا العصا، وتكونوا عونًا لأخيكم على من خالف وعصى، ولكم ما تريدونه من الجهات والمعينات وزيادة، فوق ما جرت به القوانين والعادة، وهذا حاصل ما فيه فلا حاجة إلى التكثير، ولا ينبئك مثل خبير. ومضمون كتاب مولانا السيد أحمد بعد العبارة، وإظهار الود والاشتياق، والحنو والإشفاق: إننى يا أخوك لم يكن لى هذا الأمر ببال، ولم ألتفت إليه بالقال ولا بالحال، وإنما لحقنى ولدك محمد إلى الشعرى، وكرر علىّ القول مرة بعد أخرى، ولم أوافقه حتى رأيت جدك النبى ﷺ فى المنام قائلا لى: وافق محمدًا وخلاك هلام، فحينئذ رجعتُ، وكان ما سمعت، والقصد إنى أخوك الذى تعرفه ولا تنكره، فأقبل إلينا فهو أعظم جميل نذكره، والسلام.

ثم فكر مولانا السيد حمود ساعة، فكأنه كشفت له الفراسة عن وجه الغيب قناعه. وقال: كأنى برسول الشريف يصابحنا إن لم يماس، فكأنه فى مرآة الغيب ناظر، فقبل الغروب إذا الراكب المنيخ بالفناء ابن بسيان جاسر. فتقدم إليه، وقبل يديه، وأخرج مكتوبين أحدهما من مولانا الشريف سعد، والآخر من أخيه مولانا الشريف أحمد، مضمونها استحثاثه فى المسير إليهما، والحضور لديهما، وأن حسن باشا قد شمر عن ساقيه للحرب، وكشر عن نابيه للطعن والضرب، واستشهد مولانا الشريف سعد بقول الشاعر: [من الوافر]

وما غلظتْ رقابُ الأُسْدِ حتَّى ... بأنفسها تولَّتْ ما عَنَاهَا

وأتبعه بقوله: وأنت تعلم أن الأمر الذى يعنانا يعناك، وأدرى بما يئول إليه الأمر فى ذاك، وهذه ألف دينار صحبة الواصل المذكور إليك، فأدرك أدرك أدام الله فضله عليك. واستشهد مولانا الشريف أحمد ببيت الهمزية.

ثم إنى قلت لمولانا: ما صواب الرأيين ويتوجه العزم إلى أى الوجهين؟ فقال: إلى سعد صاحب الفضل ومولاه، فبينى وبينه فى ضريح الحبر عتلات الله. فلو

اعترضني عبد الله لكفحت وجهه بالسيف دونه والله ثم والله.

ثم توجه على الركاب يومه الثاني، وقوض الأخبية، وفارق المباني، حتى وصل إلى مولانا الشريف سعد وأخيه. وهما بالمحل الذى عذب بحلولهما بعد أن كان اسمه ملحة، فوافاه القضاء بما وافق مراده، وأنتج نجحه من ورود القاصد بعزل حسن باشا وطلبه، وانخرام حسابه وتقطع سببه.

ثم ارتحل من المدينة. فلما كان بطريق غزة وتلك النواحى، توفى فدفن فى ذلك المحل الناحى. وأتت إلى مولانا الشريف سعد خلعة باشوية صحبة ذلك القاصد، وكان إرسالها ضربًا من المكايد.

ثم فى أواخر ذى القعدة من السنة المذكورة قبل قدوم الحاج بقليل: قدم محمد جاوش بجيوش نحو أربعة أو خمسة آلاف ضرب أوطاقه فى أسفل مكة الزاهر، بمن معه من العساكر، وصاروا يدخلون مكة عشرة سواء خمسة سواء وثمانية سواء، ويعودون إلى خيامهم خارج مكة للمبيت، ثم قدم صحبة الحاج الشامى شخص يسمى حسين باشا السلحدار بنحو ألفين، وقد وسد من تلك الديار، أن يعمل بما يتورّاه نظره ويختار.

فلما كان اليوم السابع من ذى الحجة: خرج لملاقاة المحمل الشريف الشامى على العادة، إلا أنه لم يخرج إلا من الثنية العليا المسماة بالحجون أعلى البلاد، فوقف إلى أن يصل بها الواصل، كما هو عادة الأوائل، فلم يصل إليه أحد، بل طلب منه أن يأتى إلى مخيم الأمير، وهذا الأمر على شهامته غير يسير.

فعطف عنان فرسه راجعًا من طريق الشبيكة إلى مكة المشرفة. فخشوا من وقوع فتنة يذهب فيها الأقوياء والضعفاء، فأرسلوها مع من لحقه بها فى أثناء الطريق، وهُدُوا بذلك إلى طريق الرشاد والتوفيق.

ثم صعد الحجاج إلى عرفات، وأفاضوا إلى المزدلفة، ثم منى ذات المثوبات. فلما كان يوم النفر، وهو اليوم الثانى من أيام منى ترددت الرسل من الشريف إلى أمير الحاج الشامى لما هو المعتاد من الخلعة التى صحبتها المرسوم السلطانى، التى يلبسها ذلك اليوم مع المرسوم الذى يقرأ، فيسمعه القاصى والدانى، فلم يؤت بها إليه، فعلم مولانا الشريف أن المدار بهذه العساكر القبض عليه، فأضمر الصولة

عليهم والمسير، ولم يبال بذلك الجمع، وإن كان حصره عسير. ثم رجح الانكفاف بالذهاب، وإغلاق ما للشرور من سائر الأبواب، ففر ومن معه على الخيل والركاب، فجزاه الله عن المسلمين أحسن جزاء، بحرمة محمد ومن والاه.

ولما كان ظهر اليوم الثانى عشر: حضر حسين باشا، ومحمد جاوش، وأكابر الدولة، وأمراء الحاج، واستدعوا جماعة من الأشراف، منهم: مولانا المرحوم السيد أحمد بن محمد الحارث، ومولانا السيد بشير بن سليمان، ومولانا الشريف بركات بن محمد، وأظهر أمرا سلطانيا بصريح اسم مولانا الشريف بركات فى شرافة مكة، وأنها تحت تصرفه، وله ملكها ملكة، وألبس خلعة الولاية فى ذلك الجمع.

ونزل إلى مكة المشرفة فى موكب يبهر العين، ويدهش السمع، ونزل إلى بيت أبيه المعروف بزقاق ظاعنة، ووقفت على بابه الخيول صافنة، وهرعت السادات إليه والأعيان، والحضر والعربان، يهنئونه بالملك والولاية، ويدعون له بطول البقاء والثبات بتوفيق العناية.

وما أسرع من انقلاب الحال، ولكل زمان دولة ورجال. وأرخ بعضهم عام ولايته بقوله نثرًا ما نصه: بارك الله لنا فى بركات، إلا أنه لسنة ثلاث وثمانين، والتولية إنما كانت فى موسم اثنين وثمانين، لكن التفاوت بزيادة سنة أو نقصها عند أهل التاريخ مغتفر. وكانت مدة ولاية مولانا الشريف سعد ست سنين إلا أحدا وعشرين يومًا.

وورد فى ذلك الموسم كتاب من الوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلى لمولانا السيد حمود بن عبد الله، وكتاب من باشا مصر له أيضًا وكذلك كتابان من الوزير المذكور ومن باشا مصر لمولانا السيد أحمد الحارث، وكذلك كتابان للمرحوم السيد بشير بن سليمان. والمضمون من الجميع واحد والعبارات مختلفات.

أما كتاب مولانا السيد حمود الذى من الوزير فنصه: «فرع ذؤابة هاشم، ونبعة وشيج المحامد والمكارم، السيد حمود نظم الله عقوده، وأباد حسوده آمين. وبعد: فلا يخفى عليكم أن الكعبة البيت الحرام، ومطاف طواف الإسلام، هو أول بيت وضع للناس، وأسس على التقوى منه الأساس، وأنه لم يزل فى هذه الدولة العثمانية العلية آمنًا وأهله من النوائب، وروضًا مخصبًا بأحاسن الأطايب، إلى أن ظهر من السيد سعد من الأمر الشنيع، ما يشيب عنده الطفل الرضيع، وما كفاه ذلك حتى

شدد الخناق على أهل المدينة البهية، وأذاقهم كأس المنون روية. فلما بلغ هذا الحال السمع الكريم السلطانى، أمر بعزل السيد سعد عن شرافة مكة وتفويضها إلى الشريف بركات، ليعمل بها بحسن التصرفات، وتكونوا له معينًا وظهيرًا، وناصحًا ومشيرًا، وكل من يتفرع غصنه من دوحة فاطمة الزهراء، وتتصل نسبته إلى الذرية الغراء، تهدونه إلى طريق الخير والصلاح، وترشدونه إلى معالم النجح والفلاح، وأنتم على ما تعهدونه من التكريم والتبجيل، والله على ما نقول وكيل» .

ومما قيل فيه قولى هذه القصيدة: [من البسيط]

صَبٌّ أَلَمَّ به طيفُ الكرَى فصَبَا ... وعَنْ أحِبَّاهُ لم يردُدْ عليه نَبَا
وقد تغذّى لبانَ الحبِّ منذ نشا ... ولم يزلْ بالغوانِى مغرمًا طَرِبا
تناهَبَتْ عقله سودُ اللحاظِ فَلَم ... يُبْقِينَ فيه لغيرِ الغِيدِ مُطَّلبَا
فصارَ يصبُو إلى سعدَى وآونةً ... إلى سعادَ وأيامًا يَجُرُّ ربا
ولا ملامَ عليه فالتنقُّلُ منْ ... سَلْمَى للبْنَى لدَى شرعِ الهوَى نُدِبا
فيا عذولَىَّ كُفَّا عن ملامكما ... فلا أرَى لِىَ فى نُصْحَيْكما أَرَبَا
لله عَقْلٌ أضلته الحسانُ على ... عِلْمٍ فهَامَ بها نأيًا ومقتربَا
مِنْ كُلِّ ممنوعةٍ روس الأسنةِ لو ... رامَ التصوُّرَ إدراكٌ لها حُجِبا
مرقوبة الحفْظِ حدُّ السيف يرقُبُهَا ... فهلْ سمعتُمْ بسيفٍ عدَّ فى الرقبا
عقيلةُ الحىِّ من سمرِ الرماحِ لها ... سورٌ وفى صفحاتِ المرهفاتِ خبا
وخدْرُهَا الثانِ من سترِ الحشاء فَمِنْ ... نياطى القلبِ قد مدَّتْ لها طُنُبَا
ها مقلتى لَهَبُ الهجرانِ سَيَّلَهَا ... على الخدودِ فظنُّوا مدمعى سكبَا
مَنْ لى بمَنْ فوَّقَتْ من قوسِ حاجبها ... سهمًا أراشَتْهُ بالأهدابِ قد هُدِبَا
معسولة الثغرِ يطفى بردُ ريقتها ... نيرانَ مَنْ بلظَى هجرانها الْتَهَبَا
لمياءُ رشفُ رضابٍ من موشمها ... درياق مَنْ بهواها قلبُهُ لسبَا
يهدى الذى قد أضلتهُ ذوائبها ... جبينها لامعًا باد ومنتقبَا
كأنه البرقُ أو كالصبْحِ أو كضيا ... سَعْدِ بنِ زيدٍ إذا ما قامَ منتدبا
أبا مسَاعد راعيها مملكها ... مَنْ حَلَّ رتبةَ مجدٍ جازَتِ الشهبا
خلاصَةُ العنصُرِ الزاكِى المطهَّر مِنْ ... جذرِ الوصى الرَّضِىِّ أكرِمْ بذاك أبا

عليهِ سربالُ تقواهُ وعفَّته ... ومن شمائِلِ علياه رِدًا وقَبا
أغرُّ أزهَرُ فيَّاضٌ أنامِلُهُ ... من معشرٍ فى رياضِ المجدِ نبت ربا
محاسنُ السادةِ الماضينَ قد جمعَتْ ... فيه كجَمْعِ الغديرِ القطْرَ منسكبًا
سمحٌ إذا سيمَ للجدوَى يميدُ كما ... يمِيدُ حاشاهُ صِرْفَ الراحِ مَنْ شربا
له يَدٌ خُلِقَتْ للجودِ فهْوَ لها ... طبع كما العينُ للإبصارِ قد رتبا
هو المحكّمُ عضبيه إذا انتضَيَا ... يومى جلاد جدالٍ مفصلاً أشبا
مفوهٌ فى كلا عضبَيْهِ متَّسعٌ ... كلْمًا وكلْمًا إذا ما قال أو ضَرَبَا
يمناهُ واليُمْنُ يمتدانِ فى لُزَزٍ ... قد أدركَا فى مداهُ السبْقَ والقصبَا
مستأسدٌ بَيْنَ عينَيْهِ عزائمه ... إذا تراءَتْ له أكرومَةٌ وثَبَا
ولا تعاظمه أقطَارُ محمدةٍ ... ولو غدا منكب الجوزا لها سَبَبَا
ولا يميلُ من العلياءِ إنْ صعُبَتْ ... ولا يضلُّ صواب الرأيِ إن نَشِبَا
إليكَ يا ابنَ الكرامِ الأطولين يدًا ... فى المكرماتِ وفى الهيجا أحدّ شَبَا
عروسَ فِكْرٍ كوشْيِ الروضِ باكرَهُ ... غيثٌ فَرَفَّ بنورٍ مزهرٍ وربا
يحلُو بها فَم راويها فتحسبُهُ ... صَبًّا ترشَّفَ من عذب اللما ضَرَبا
وتنشقُ الورد منها أذنُ سامعها ... حتَّى تراه إلى إنشادِهَا طَرِبَا
خلائقٌ كفتيتِ المسكِ طيبة ... تلاق طيب سَرَاة سادَة نجبا
فاسلم على كاهلِ العلياءِ مرتقيًا ... وصافن المجد غَطَّى منهما عقبا
ودُمْ على خفضِ عيشٍ ما يرنقُهُ ... ريبُ الحوادثِ ما هَبَّ النسيمُ صَبَا

ولاتساق المقول نقول:

ثم وليها مولانا الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبى نمى.

قيل: ولايته بسعى الشيخ محمد بن سليمان المغربى السوسى، وذلك أن الشيخ محمد المذكور تشفع عند الشريف سعد فى رجل أزبكى كان يسمى السيد محمد الفصيحى فعل جرمًا مع مولانا الشريف سعد فلم يشفعه فيه، وذلك فى سنة ثمانين وألف، فاتفق أن أخا الوزير الأعظم حج فى موسم تلك السنة، وكان له ولع بعلم الفلك، فاجتمع بالشيخ محمد بن سليمان المذكور فأخذ عنه فى ذلك، فطلب من الشيخ أن يسافر معه إلى الأبواب السلطانية، فسافر معه واجتمع بالسلطان، وطلب

منه أن يزيل أشياء بمكة المشرفة، فأمر السلطان بإبطالها.

منها: أن صدقة السلطان جقمق كانت تقسم على أرباب البيوت حبوبًا، وكانت سابقًا تطبخ شربة وخبزًا للفقراء أصحاب القدح، فردت إلى ما كانت عليه سابقًا، وأضيف إلى ذلك حب السلطان قايتباى.

ومنها: توليته على جميع الأربطة وألا تكون إلا لمن يستحقها بشرط الواقف.

ومنها: إبطال الدفوف فى الزوايا.

ومنها: منع النساء من الخروج ليلة المولد الشريف، وتم جميع ذلك، وجعله ناظرًا على جميع أوقاف الحرمين. وسيأتى ذكر ورود الأمر بعدم إقامته فى الحرمين بعد وفاة مستنده الوزير أحمد باشا الكبرلى.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وألف، خرج فيها مولانا الشريف بركات، وصحبته محمد جاوش بالعساكر فى طلب الشريف سعد، فسلك طريق الثنية إلى الطائف، وكان الشريف سعد قد سلكها، ونزل بالطائف ثم ارتفع عنه إلى عباسة ثم إلى تربة ثم إلى بيشة فأقام بها، فتبعه الشريف بركات، ومحمد جاوش بمن معهما حتى انتهى فى التبعية إلى قريب من البلد المسماة تَرَبَة، ثم عاد الشريف بركات إلى المبعوث ثم إلى الطائف فأقام.

وفيها فى شهر رجب عدا السيد حيدرة على عمه السيد على بن حسين فقتله غيلة.

يقال سبب ذلك الذى قامت به نفس السيد حيدرة غرارة من الحب حلف كل منهما أن الآخر لا يأخذها وهى بوادى مر، فركب السيد على بن حسين من مكة يريد وادى مر، فسمع به السيد حيدرة، فوجده فى المحل المسمى «أبو الدود» ممرحا متكئا، فأتاه من خلفه، فدخل حينئذ على بعض الأشراف فلم يمض كبار الأشراف دخله، فنهج إلى اليمن، ثم إلى مصر، ثم إلى مكة دخيلا مع المحمل صحبة أمير الحاج الشامى، وباع عقاره وما يتعلق به، ثم رجع إلى مصر فتوفى بها بالفصل مع من توفى.

ثم إن الشريف بركات استمر بالطائف إلى شعبان، فأتاه الخبر بوصول خلع سلطانية، ومراسيم خاقانية، وصل بها القاصد إلى مكة، ووضعت فى مقام الخليل،

على عادة التكريم والتبجيل، فجاء إلى مكة أواسط شعبان هو ومن معه من الأشراف والأتراك والعربان.

ثم فى أواخره: كان القبض على رجل من الأعيان. ثم فى ليلة السابع من رمضان قبض على آخر، وحملا من ليلتهما على الأدهم، ثم حُدر بهما إلى جدة وأركبا غارب اليم. ثم قبض على ثلاثة من حواشى الدولة، وفعل بهم ما فعل بالأولين نعوذ بالله من سوء القَوْلة.

ومثل ذلك فعل هذا القاصد بجماعة من أهالى المدينة المنورة فافتدوا أنفسهم بمال سلموه له، الله أعلم بكميته.

ثم خرج مولانا الشريف بركات فى الموكب حتى نزل بقبة الدفتردار إبراهيم صائمًا بها لطيب النسيم. فلما كانت ليلة الرابع والعشرين من رمضان: قدر الله وفاة ابنه السيد محمد بن بركات، فنزل من يومئذ إلى البلد، واصطبر رغبة فى الأجر على لاعج الحزن والكمد. ثم خرج فى أثناء شوال إلى جهة ركبة استدعاه السيد حمود ابن عبد الله.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وألف، فيها كان خروج الشريف بركات، والسادة الأشراف، والعساكر والعربان إلى قتال حرب وشيخهم أحمد بن رحمة، كان الظفر فيها للشريف بركات، ولم تنفعهم خنادقهم التى حفروا، بل كانت قبورًا لهم حين قبروا، فاستبيحت ديارهم، ونهبت أموالهم، وهلكت نساؤهم وأطفالهم، وقتل خيارهم.

وفيها يوم الوقعة المذكورة فى موقف المصاف، اصطلح مولانا السيد حمود بن عبد الله هو ومولانا من صُنف هذا الكتاب برسمه، وشرّف بشريف لقبه واسمه، مولانا الشريف أحمد بن غالب -متع الله بحياته- عن شحناء كانت بينهما قبل ذلك.

سبب الصلح على ما بلغنا: أنه اتجه به وهم يتشاوفون القوم، فأقسم عليهما مولانا الشريف بركات أن يصطلحا فى ذلك الوقت، فاعتنقا حينئذ واصطلحا. رحم الله من سلف وأبقى من خلف.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وألف، فى سابع رجب منها: كان خروج مولانا الشريف بركات إلى أهل الفروع، وخرج معه من جدة سنجقها بعسكره ونوبته

ومدافعه، فتلاقيا على عسفان أو بعده، فصام بمحل قريب منها، يسمى «قويزة» وعيّد به، ثم توجه فنزل بأم العيال منها، ونزل السيد ناصر ابن السيد أحمد الحارث بالمحل المسمى أبو ضباع، فدانوا له وأطاعوه، وتنصلوا مما اقترفوه.

قلت: لما كنا فى رابغ -المنزل المعروف- عائدين من الفرع صحبة مولانا الشريف بركات، وكنت قد خرجت معه - رحمه الله - إلى الفرع بإلزام من الشيخ محمد بن سليمان إمامًا له، ومدرسًا له ولابنه الشريف سعيد ابن الشريف بركات، دخلت عليه فقال لى: يعيش رأسك فى المغربى، فقلت أى المغاربة؟ فقال: عبد الرحمن المحجوب، فقلت: رحمه الله رحمة واسعة، فلم يتكلم بشىء، فعلمت من قوله وسكوته أنه سرى بغض شيخه الشيخ محمد بن سليمان للسيد عبد الرحمن إليه بحيث إنه تسبب لبعض خواص السيد عبد الرحمن المذكور فى أذى بليغ، وإهانة من الشريف بركات.

وبلغنى أنه قال لبعضهم حين مات السيد: مات إلهكم اليوم، فلا قوة إلا بالله، نسأل الله السلامة.

وفيها -أعنى سنة خمس وثمانين وألف- فى سادس صفر منها: كانت وفاة مولانا المرحوم ليث السراة الصيد من بنى هاشم، غوث الطريد فما لجاره من حاشم. رأس بنى حسن المشهورين، فارس أبطال قريش المذكورين، مولانا وسيدنا السيد حمود ابن الشريف عبد الله بن الحسن بن أبى نمى بن بركات، اختصه مولانا الشريف زيد واستدناه، واستخلصه دون رباعته واجتباه، فزوجه بابنته، لصدق نيته، وخلوص طويته، وألقى إليه مهمات البلاد، من الحواضر والبواد.

وفى يوم وفاة مولانا الشريف زيد: لم يشك أحد أنه يقوم بعده ذلك المقام، كان فى ظن أركان الدولة فضلا عن العوام، ولكن لم يرد الله أن يتقمصها، ولا أن يأوى طيره قفصها. ولقد سألته -رحمه الله- فى مدة ذهاب عرض مولانا الشريف سعد وعرضه إلى الأبواب: ماذا يخمنه مولانا فى الجواب؟ فأجابنى بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية، وذلك جواب مثله. ودفن من الغد خلف مسجد الحبر ابن عباس، وبنى على قبره تابوت، وحوط عليه حوطة فسيحة، رحمه الله ونور ضريحه.

وفى تاسع رجب منها: توفى مولانا السيد أحمد بن محمد الحارث بمكة المشرفة. كان رحمه الله آية فى العقل والذكاء، مرجعًا للأشراف فى جميع أمورهم، وإذا حكم بأمر لم يقدر أحد أن يستدرك عليه فيه شيئًا لحسن أحكامه، وشدة إحكامه.

وكان قد ولاه حسن باشا فى طيبة -كما مر ذكر ذلك- مدة ستة أشهر أو قريبًا منها. ولما رجع عماد أفندى إلى الديار الرومية سئل عمن يستحق الملك إذ ذاك من السادة الأشراف؟ فقال: ثلاثة لا غير: أحمد بن الحارث، وحمود بن عبد الله، وبشير بن سليمان.

ودفن فى قبة السيد مسعود ابن الشريف حسن، ووضع عليه تابوت عظيم، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وألف، فيها كان خروج الشريف سعيد صحبة الحاج الشامى إلى الديار الرومية بعروض من الشريف بركات يطلب فيها أن يكون ولده الشريف سعيد ولى عهده، فكتب له أمر سلطانى، وأن يكون هو صاحب مكة بعد وفاة أبيه، فكان ذلك برأى الشيخ محمد بن سليمان وتدبيره، فتم له ذلك كله بعد وفاة أبيه.

وفى سنة ثمان وثمانين وألف يوم الخميس ثامن شوال منها: وقع حادث غريب، وكارث عجيب، هو أنه وقع فى ليلته أن لُوِّث الحجر الأسود، وباب الكعبة، ومصلى الجمعة، وأستار البيت الشريف - بشىء يشبه العذرة فى النتن والخبث، فصار كل من يريد تقبيل الحجر يتلوث وجهه ويداه، ففزعت الناس من ذلك، وضجت الأتراك، واجتمعت وغسل الحَجَر والحِجْر والباب والأستار بالماء، وبقى الأتراك والحجاج والمجاورون فى أمر عظيم.

وكان إذ ذاك رجل من فضلاء الأروام يلقب درس عام، فكان يرى جماعة من الأرفاض بالمسجد الحرام، وينظر صلاتهم وسجودهم وحركاتهم عند البيت والمقام، فيتحرق لذلك ويتأوه.

فلما وقع هذا الواقع قال: ليس هذا إلا فعل هؤلاء الأرفاض اللئام، الذين يلازمون المسجد الحرام، وكان حينئذ مع قضاء الملك العلام، السيد محمد مؤمن

الرضوى قاعدًا خلف المقام، يتلو كتاب الله ذى الجلال والإكرام، فأتوا إليه، وأخذت الختمة من يديه، وضرب على رأسه، وسحب حتى أخرج من باب المسجد المعروف بباب الزيادة، فطرح خارج الباب، وضرب بالحجارة والكسارات حتى زهق فمات.

وفى حال مسكهم إياه من المسجد كلمهم فيه شخص شريف من السادة الرفاعية يسمى السيد شمس الدين، فعدوا عليه، وألحقوه به، فضرب حتى مات وجُر، ثم أصابوا آخر فضربوه، وأخرجوه وقتلوه، وعلى من قبله طرحوه، ثم فعلوا ذلك برابع، ثم بخامس.

ولقد رأيتهم مطروحين، وبقى بعضهم على بعض، الآتى والذاهب يوسعهم السب والركض، ولقد رأيت ذلك الشىء، وتأملته فإذا هو ليس من القاذورات، وإنما هو من أنواع الخضروات عجين بعدس ممخخ وأدهان معفنات، فصار ريحه ريح النجاسات. وكان هذا الفعل عند مغيب القمر من تلك الليلة ليلة الخميس ثامن الشهر المذكور، ولم يُعلم الفاعل لذلك.

وغلب على بعض الظنون أن ذلك جعل عمدًا وسيلة إلى قتل أولئك. والله العالم بالسرائر، وهو متولى البواطن والظواهر.

وفيها فى ليلة النحر حصل مطر عظيم بعد نفر الحاج من عرفة، واستمر إلى بعد نصف الليل.

وفى سنة تسع وثمانين وألف رابع عشرى ذى الحجة الحرام منها: سالت أودية طيبة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام، بما لم يُسمع بهيئته الاجتماعية فى سابق الدهور والأعوام. سال أبو جيد سيلا هائلا، أخرب جميع ما حوله من الديار، وأحدث فى الحدائق الدمار، وأحدق بالمدينة، وخرب كثيرًا من الدور التى تحفها، وكاد أن يدخلها من باب المصرى، ورجفت البلاد، وانزعجت العباد، وضجت الأصوات بالدعاء، وجرت العيون بالدمع من البكاء، ولكن بحمد الله لم يهلك فيه إلا شخص أو شخصان، وتلك للرسول معجزة، ولأصحابه كرامة، وصارت تحية الناس بعضهم لبعض نهنيكم بالسلامة.

والحاصل أنه أمر حير الأفكار، وقصر عن تفصيله بيان الأخبار. وكان فى ذلك

اليوم بعينه سيل بوادى الصفراء، سد ما بين الجبلين، ولم يضر من القافلة أحدًا من الناس، سوى أنه أخذ امرأة، وولدها بالحمراء بين الصفراء والخيف، وذهب ببعض نخيل الخيف إلى الحمراء، وذهب ببعض الجمال والأحمال، فَعَن البحر حدث ولا حرج.

وفى سنة تسعين وألف يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر رمضان منها: كانت وقعة محمد بن أحمد الخلفانى وزير المدينة الشريفة من جهة الشريف بركات، سببها ثيار عسكر عليه، ودعواهم أنه سب السلطان، فاجتمعوا على بابه ودعوه إلى الشرع الشريف، فأجاب: إن هذا الجمع يتفرق ويتعين الخصم فأنزل معه، فأبوا عن ذلك وكتبت لهم حجة بعصيانه الشرع، فوصلوا إلى بيته، وكسروا عليه الباب، وكان معه جماعة فى البيت، فأخرجوهم على أمان الله وأمان السلطان، فلما خرجوا قتلوهم، فكان ممن قتل القائد مُتعب بن إدريس حاكم البلد إذ ذاك، وولده وأخوه، ورفيع ولده، وابن دريعة الظاهرى، وعمران الزبيدى، ورفاع، وخُضير، والعمرى، وعبيد للخلفانى، وفى جملتهم مثقال عتيق الجمال محمد على بن سليم كان مستخدمًا عند الخلفانى.

كل هذا فى ضحوة يوم الأحد المذكور. وأما قتل الخلفانى، فكان عند الزوال من يومه فكان آخر من قتل؛ لأنه اختفى عند الحريم، حتى دلتهم عليه امرأة دخلت كأنها متوجعة له فأخبرت بمكانه أو رأته، فدلت عليه، فدخلوا عليه عند الحريم، وقتلوه ثم سحبوه من أعلى البيت إلى أن أخرجوه إلى قارعة الطريق، واستمر طريحًا إلى آخر النهار، وأوحى إلى مولانا الشريف بركات أسماء الفاعلين وكانوا قريبًا من ثلاثين نفرًا فعرض فيهم إلى الأبواب، فورد الأمر بقطع جوامكهم وتخريجهم من البلاد، فقطعت وأخرجوا، ثم عاد إلى المدينة بعضهم. بعد سنوات بشفاعات، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

وفى سنة إحدى وتسعين أواخر شهر شوال: ظهر نجم له ذنب طويل إلى جهة الشرق، واستمر إلى آخر السنة ثم اضمحل.

وفيها يوم الإثنين ثانى عشر ذى الحجة الحرام منها - والركب المصرى فى نفير السير من مكة - أمطرت السماء كأفواه القرب بل كأفواه الغروب وسالت الأودية من

سائر الجنوب، وحصل سيل عظيم أخرب الدور، وأتلف من الأموال ما لا يحصى، وأخذ الجمال محملات، وأغرق نحو خمسمائة نفس، ودخل المسجد الحرام، وعلا على مقام إبراهيم، ومقام المالكى، والحنبلى، وعلا قفل باب الكعبة، وأكثر الغرقى غرباء؛ لأنه أتى وقت الشديد، وذلك أول الزوال، وسقط كثير من الدور، واقتلع الجميزة التى بسوق الليل.

ولقد شاهدت وأنا بباب المسجد النافذ على بيت الشريف، والماء ملأ الطريق وهو مكور فى المسجد، شاهدت قطرًا من الجمال عليه الركبان من رجال ونساء وصبيان دهمه السيل فانحاز إلى رأس الزقاق الغير النافذ جنب دار السعادة، ورأيت الماء وصل من الجمل - وهو قائم تحت دار السعادة - إلى منحره، ثم ازداد عليه الماء، فاقتلع ذلك القطر بما عليه وتدهور فيه، وعلى هذا فقس.

وصعد جماعة من العسكر على سطح رواق المسجد اليمانى أمام دار السعادة، وطلبوا حبالا ليدلوها فيمسكها من أخذه السيل فيرفعوه، فأمر لهم المرحوم الشريف بركات بحبال ترمى من سطح دار السعادة إلى سطح الرواق المذكور، ورمى هو بنفسه بعض تلك الحبال، فرحمه الله تعالى ما كان أرحمه وأرأفه فنجا بذلك خلق كثير، وسبح بعض الجمال فى المسجد حتى انتهى إلى المنبر، فارتفع عليه فصار مرتفعًا على المنبر يداه، وعنقه مرتفعان عن الماء وباقيه فيه، وكان طوفان والعياذ بالله، ولم يبق من درج باب الزيادة التى فى داخل المسجد إلا أربع سنن، ولم يبق من طول أعمدة الرخام إلا نحو الربع أو أقل. وأرخ بعضهم سنته بقوله: «طغى الماء» .

وخرج أمير الحاج بالمحمل بين العشاءين فى نفر نحو العشرين بغير نوبة ولا موكب ولا ضوء ولا ثوب زينة، وخرج من أعلى مكة.

فلما كان بسوق المعلاة وقع جمل المحمل فى حفرة من حفر السيل فما طلع إلا بجهد جهيد، فسبحان الله الفعال لما يريد.

وفى سنة ثلاث وتسعين وألف رابع عشر صفر: توفى الشيخ حسن بن على الدهان. ولد بمكة سنة أربع وألف، ودفن بالمعلاة وقد ناهز التسعين.

وفى صفر المذكور: خرج مولانا الشريف أحمد بن غالب -متع الله بحياته- من مكة مفارقًا للمرحوم الشريف بركات فى نحو خمسة وعشرين أو ثلاثين من السادة

ذوى مسعود وغيرهم، فدخلت السادة الأشراف فى الصلح بينهما فلم يتم، فخرج بهم إلى الركانى من وادى مر، واجتمعوا هناك وتأهبوا، وساروا منه فى شهر ربيع الثانى قاصدين الأبواب السلطانية، فوصلوا إلى الشام، فأنزلهم متوليها حسين باشا السلحدار بيت نقيب الأشراف، وأجرى عليهم الأنعام والألطاف، وعرف بشأنهم إلى الأبواب، فأمروا بكتابة عرض بما يشكونه فكتبوه، وأرسلوه مع اثنين منهم هما السيد محمد بن مساعد، والسيد بشير بن مبارك، فوعدوا بإزاحة شكواهم.

وفيها فى حادى عشرى ربيع الأول منها: وقعت فتنة سببها عبد السيد حسن بن حمود بن عبد الله، اختصم مع عسكرى من عسكر الرتبة عند الششمة، سطا العسكرى على العبد، وضربه وأخذ سلاحه، فاستحث السيد حسن الأشراف، والعبدُ العبيد، واجتمعوا عند مولانا المرحوم السيد محمد بن أحمد بن عبد الله، فانفلتت شرذمة من العبيد نحو الخمسين شاهرين السلاح، فوصلوا إلى المروة، فهربت الأتراك وأرادوا الرجوع، فرماهم بعض الأتراك الساكنين فى الربع بالأحجار، فأرادوا الطلوع إليهم، فكسروا بعض الدكاكين التى تحته بظن أنه باب الربع، فوجدوه ملآن من النحاس والجوخ والأثاث، فنهبوا جميع ذلك، وفعلوا بدكان آخر جنبه مثل ذلك، وصوبوا نحو ثلاثة من الترك بالسلاح، وقتلوا رجلا من المجاورين كان يحتجم عند حلاق بالمروة ثم ذهبوا، ثم خرجت الأتراك، وجاءوا إلى الأفندى، وأرسلوا إلى مولانا الشريف يطلبون الغرماء، فصُبّروا فلم يصبروا، وأتوا إلى بيت الشريف، وبيت السيد أحمد الحارث، وكان به جماعة من عسكر الشريف، فرموهم من بيت الحارث فقتلوا من الترك أيضًا اثنين فرجعوا، وأرسلَ مولانا الشريف إلى الأشراف يطلبهم الغرماء فامتنعوا، وخرج الأشراف إلى الشيخ محمود وقالوا: من يطلب الغرماء يأتى.

والعبيد خرجوا جميعًا حتى عبيد الشريف نفسه، والحاكم إلى بركة الماجن، ووجدوا جماعة من الأتراك مقبلين، فأخذوا جميع ما معهم، وضربوهم ونهبوا قريبًا من أربعمائة رأس من الغنم، ثم أرسل الشريف بركات أخاه السيد عمرو، فرد العبيد، ثم قصد مولانا الشريف تسكين الفتنة، فأمر على عبدين كانا محبوسين فى سرقة أن يشنقا فشنقا، فلم تطب نفوس الأتراك بعد رؤيتهما، ثم وجد السيد يحيى

ابن الشريف بركات - وكان يعس البلد - عبدين سارقين، فضرب أعناقهما، ورمى بجثتيهما تحت جميزة المعلاة، وذكروا للأتراك أنهما الغرماء فرضوا.

واصطلح السادة الأشراف مع الشريف، ودخلوا مكة.

ثم حصل لمولانا الشريف بركات مرض، واستمر نحو شهر زمان، فلما كانت ليلة الخميس ثامن عشرى ربيع الثانى من السنة المذكورة -أعنى سنة ثلاث وتسعين-: توفى شريف مكة مولانا المرحوم الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبى نمى، ودفن وقت الضحوة يومه فى حوطة الشيخ النسفى بوصية منه، ولم يحصل للناس لا خوف ولا فزع. وكانت مدة ولايته عشر سنين، وأربعة أشهر وستة عشر يومًا. رحمه الله رحمة واسعة آمين.

ومما قيل فيه من الشعر قولى قصيدة حين عوده من ذهابه لخفارة الحاج الشامى، فوصل البلاد المسماة بالْحِجر ديار ثمود، فوافق حال دخوله حصول مطر بها، أشرت إلى ذلك فى القصيدة وهى: [من البسيط]

ما ظَلَّلَ البيرق المنصور سُلْطانَا ... إلا وكُلُّهُمُ فى ظِلِّ مَوْلانا
أبا زُهَيْر العلا بركات سيِّدنا ... والى البسيطةِ عجمانًا وعُرْبَانا
حامى حِمَى مكَّة الغرَّا وطيبةَ مَعْ ... أقطارِ أنحائها حفظًا وإتْقَانا
ذو هِمَّةٍ همة الإسكندريِّ غدَتْ ... أقلُّهَا وبها كَمْ دان بلدانا
وعزمةٍ فى مُهِمِّ الخَطْبِ صَادِقَةٍ ... تُصَيِّرُ الإمْتِنَاعَ الصرْفَ إمْكانَا
تأمينُ حجاجِ بيتِ الله قمْتَ له ... بالنفْسِ والمالِ والأبناءِ إذعانا
فَحُطْتَهُمْ مثلَ حوطِ الابنِ كافلُه ... وكَمْ بذلكَ قد أذهَبْتَ ذهْبَانا
فى طاعةِ الله والسلطانِ لا برحَتْ ... له ملائكَةُ الرحْمَنِ أعوانا
مولَى ملوكِ الورَى الغازى محمد خا ... ن زادَهُ الله نصرًا أينما كانا
وشُرِّفَتْ بك أرضُ الحِجْرِ إذ سقيَتْ ... غيثًا بمقدمِكَ الميمونِ هَتَّانا
حتى لقد ظَنَّ فى الأجداثِ هالكُهُمْ ... لأَنْ ينالَ من الرحمنِ غفرانا
أنتَ الذى بكَ تاهَتْ مكَّةٌ وزهَتْ ... بحسنِ أيامه عدلاً وإحسانا
أنتَ الذى بكَ ضمَّ الشمل ناثره ... مِنْ بعدِ تفريقِهِ مثنَى ووُحْدَانا
أىُّ الملوكِ بلادُ الله بلدتُهُ ... تمسى رعيَّته لله جِيرَانا

أىُّ الملوكِ على كُل مودته حتَّى ملائكة الرحمنِ والجانا
أىُّ السلاطينِ لولا صِيتُ هيبته لم يمكنِ الحَجُّ من بغدادَ إنسانا
ولا تيسر للعبَّادِ فى غَسَقٍ أن يلمسوا لاستلام البيتِ أركانا
بِيُمْنِ طلعته الغَرَّا قد امتلأتْ جميعُ وِجْهَاتنا أمنًا وإيمانا
مباركُ الإسمِ والأفعالِ قد خلصَتْ لـلـه نـيـتُـهُ سـرًّا وإعـلانـا
له سريرَةُ صدقٍ لا يزالُ بها يشيدُ حقًّا لدينِ الله أركانا
ألفضلُ شيمتُهُ والعدلُ سيرتُهُ بالحَقِّ ينصفُ ممن عزَّ أو هانا
يا وجْهَ آلِ رسولِ الله قاطبةً ومَنْ يمنُّ ولا نلقاه مَنَّانا
أهدِى الثناءَ لكُمْ فى كل آونةٍ فى محفلٍ جحفلٍ ما زالَ ملآنا
وما أقصِّرُ أصلاً فى الدعاءِ لكُمْ إذا تلوْتُ قبيلَ الفجْرِ قرآنا
أدعو بطولِ البقا والمُلْكِ تكنفُهُ وقـايـةُ الله أزمـانًـا فـأزمـانـا
لا زالَ حظُّكَ والنَّصْرُ المؤيدُ وَالسَّعْ ـدُ المؤَبَّدُ طولَ الدهْرِ أقرانا
ولا فتئتَ قريرَ العينِ مبتهجًا حتى تَرَى إبْنَ إبْنِ الابنِ سلطانا
ثم الصلاةُ على جدَّيْكَ ما عطفَتْ أنفاسُ ريحِ الصبا المِسْكِيِّ أغصانا

وقال محمد بن جدّوع المشهور بالشاعر التغلبى: [من الطويل]

دُهِمْتُ بما لا ارضى ولا اطِيقُ بعضَهُ أتانى معاضول كثير بمحفلِ
نهضت[1] معاما جَدَّمِ العَزْمِ[2] مصرم من القهر خوفًا أن أموت أو انسل
فيا ليتنى عن ذا بعيدٌ ومنزلى على الذِّكرِ فى ديراتِ بكرٍ وموصلِ
ولا قُمتُ فى دار ذراعى قصيرة ذليل ولا لِى مِن جناها محصّلِ
يهونُ علىَّ ازوامُ نفسى مشقَّة ولا حالتى هَذِى لىَ المَوْت أسهلِ
بأقوَى عُبابِ البَحْر ماء ومَوْجَة[3] أَشُوفُ السما فَوْقِى وتحتى ولا ازملِ
ذُهِلْتُ بها ممَّا جَرَى كُلّ ما مضَى حَفِظْتُ بها مِنْ همتى كُلّ مجهلِ
وكَمْ ليلةٍ بَيْضا سَرَيْتُ وليلةٍ بها الليلُ غدرا كالقَمِيصِ المفصّلِ

---

(١) بالأصل: نهصت؛ بالصاد المهملة.
(٢) بالأصل: من العزم .
(٣) بالأصل : وموجه .

إذا ما تَنَحَّى[١] الليلُ وقفا وجدتُّنى   على كُلِّ فَجًّا[٢] الصدرِ وَجْناء مرقلِ
كَبيرةِ عُثْنُونِ القَفَا صَيْعَرِيَّةٍ   كَأَنَّ مَرَافِقَهَا عنِ الزّورِ تفتلِ
لها اعلامُ شَيْبٍ كَنَّهُنَّ مَرَاوحٌ   أَوَ اكْمَامُ رَقَّاصٍ إن اقْفى وأقْبلِ
بخدٍّ كظهرِ الذِّيبِ وعرا قطعنها[٣]   ومرا بصفصاف بداويَّةٍ خلى
ويا طالما اسْتازى بغُرْضة ناقتى   فُرُوخ القَطَا وابن النَّعَامِ المجفَّلِ
مِن ازْوام حَرِّ القَيْظِ فى هَوْجَرِيَّةٍ   فَرَائِدُهَا فى الآلِ تَخْفَى وتعتلى
تَتِمُّ بهَا الأَنْظارُ شتَّى كثيرة   كأنَّ بها البيضَ الهوارى تُسللِ
بها القوز غرقى كَالقَواويقِ غطَّس   على الرُّوسِ فى وسطِ المعمَّى المطوَّلِ
صلبتُ النِّضَا فيها بالاذلاجِ والسُّرى   رجا كُل عادِيٍّ قديم منَ اوَّلِ
من الهجر رَا دمْنَ الكلا فى جنوبهِ   كأنَّهُ بَذْرٌ فى كلاتىَ جَذْولِ
وَكَمْ هَام فيهَا قسمتَاه راقدا[٤]   أناس على الأناس فاغفى وأغفلِ
وَكَثر خُوار القومِ فينا وأيقنوا   بلدراك من شوفِ اخدِهم يوم يكفلِ
خليليَّ لا تخشونَ منِّى معرة[٥]   عليَّ لكُمْ ميرادكم أىّ منهلِ
فَصلْنَ وصيل الرَّمْلِ فى مُدْلَهِمَّةٍ   خَلصنَ[٦] وَكَمْ فيها دليل تَوجَّلِ
وردتهُ والأفان ما انا بخابرٍ   سوى العزمِ إلا انَّهْ بالاذكار وصْفَ لى
أنخنَا عليها العيسَ مِنْ بَعْدِ سريه   ودرت لدَوْسِ الدائسات[٧] تأملى
ولمينِ حط الغرب عجلا فقيل لى   أما يَرْدهَا إلا رشاء موصّلِ
ولمينِ وصّلْت الحبال بجدة[٨]   وإكتربَتْ عضدىّ فى المغربِ فُجُزْ لى
أَرَى كُلَّهمْ يلطِمْ بكفَّيهِ خدَّهُ   وَبَعْضَهمَا مِنْ خَوفةِ الموْت هلَّلِ
فَقُلْتُ لَهُمْ لاَ تحزنون فَانا لكم   أطوع[٩] من لدنِ الأديمِ المبللِ

(١) بالأصل : تنخى؛ بالخاء المعجمة .
(٢) بالأصل : فج .
(٣) بالأصل : تطعتها .
(٤) كذا بالأصل .
(٥) بالأصل: مغرة، بالغين المعجمة .
(٦) فى أ: خلقن.
(٧) بالأصل: الدالسات، وفى أ: الدابسات .
(٨) فى أ: بجده.
(٩) في أ: الهوع.

نزلتُ بها واسقيتُ ربعى بسرعة[1] … وصدَّرتهم روبا وصملانهم ملى
ولسْتُ بقوّالٍ وَلا هُوْ بِصَادِقٍ … وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ إذَا قَالَ يفعلِ
أَمَا ضَام وانا من عرانينِ تَغْلبٍ … لَنَا فى نِزَارٍ نِسبةٌ مَا تُبدلِ
فإن قَصَّرَتْ عن فعلِ آباى[2] همَّتى … تكملن أَعْمَامِى وأَفعال مخولِى
وَلاَ أَقصَرَتْ[3] عن هؤلا بل[4] لحقتُهم … حَميدة افعَالى صدوقٌ بِمِقْوَلى
ولى ثقة فى سيد إبن سيِّد … مَنِ اختارهُ المولَى علينا لَنَا وَلِى
أَبُو سَعدٍ برَكات بن محمد … لهُ نَسب عدل بِطه موصَلِ
على الزين كم فرّق من اصنام لا به … وكم عكفوا بِهْ مِنْ رَسُولٍ ومرسلِ
وكَمْ لطم الضّدّ القوىّ بغارةٍ … بكل ابْلَحِ ذَرْبٍ[5] تصَلْصَل من علِ
على الخيل لدنين ولو ما تعاودوا … وكم عطفوا بِصُدورهم روس ذبلِ
وكمْ فرقُوا بالسَّيف محزوم ضربة … سرايَاه[6] فيها مِنْ عراةٍ وكمّلِ
علَى رأى حزّام الحُرُوب انْ تفاختَتْ … إلى هدّم[7] جمع عَنِ الجمع يعزلِ
ومنه يخلى الإبن عَم ابن عمه … والابنا[8] عن اباها[9] تغض وتنسلِ
أغارتْ ملوك الرُّوم واستنصروا بِهِ … وقبلَهْ عَسَاكِرُهُمْ تذلّ وتخذلِ
تقلّل مِنْ وادِى قُرَيْش وجُزهُم … عَلَى ضُمَّرٍ من طُول ممشَاهُ محلِ
وقبّ تجابذهنَّ الارسَان حزّب … مَطَاوِيعِ لَذنات المَرَاضِع قفّلِ
فلمَّا تبيّنْ وجْه ممشَاهُ صَائِل … نشُوف ثَقِيل الطَّعْن أقفى وأشملِ
وأنكرَ بَعْضُ بَعْدَ الاجماعِ بعضهُمْ … وهُمْ قَبْلَ ذاكم فكّكوا وشر محملِ
وطاع الضجر الصليب ولاَ قسا[10] … وَمِنه تخلّى العَارِض الفَرْد منْ بلى

(١) بالأصل: بسرعه.
(٢) بالأصل: آبائى.
(٣) بالأصل: أتصر، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٤) بالأصل: بل قد.
(٥) بالأصل: أبلح ذراب.
(٦) بالأصل: سراياء
(٧) بالأصل: هدم.
(٨) بالأصل: والابناء.
(٩) بالأصل: أباها.
(١٠) كذا.

وكَمْ مِنْ عَزيزٍ عِنْدَ ملْقَاه غالى دَعَاهُ على التَّالى قَطِيع مهملِ
من اوزام ها الجَمْع القوىّ بمثْلِهِ وحَرْجَمَتِ الأظْعَانُ فى كُلِّ منزلِ
بها الحدب لزّمن النواصى بمكنه ولابق بيْنَات المطاهير مخولِ
وخفّوا عَنَ اطفالٍ وشيبٍ كثيرةٍ وَحُورٍ عَلَى ابنَاها تجِنّ وتُغولِ
وكَمْ طَلَبُوا منه الرحا فى مراحِهِمْ على اطْفَالِهِمْ مِنْ مأخَذِ القومِ يعقلِ
عَسَاهُمْ يتوبوا عَنْ مناخاة ميمر مصالاه قَبْلَ الفِعْلِ للخَصْمِ يقتلِ
بقَوْمٍ إذا زمّوا على الضّدِّ واجملوا بالافكَارِ مِنْ دارٍ لدار تحول
ومن عطوة واما بها من عطية ومن رمك فيها أصيل ومصهل
ومن عرض ما اعطى كم حكوا من جهامة بها ناقة حمرا وخوارة خلى
معاذا به الحارات بالقرب حسر ولو كان أزين من بها الشمس واجمل
كليل مقاو الطرف عنهن دائما مدى العمر مع حدثها[1] ما تخلل
فإن غاب عنها بعلها فهو سترها رءوف بها كنه ولى موكل
فداه دوينى قليل أمانة من الخوف الارض بْجارتيه تزلزل
فجزنى على مدحى بميصال ديرتى فكل غريب ناقص لو تطول
ولى أسوة بالليث وان كان نادر بلا غابتهْ لزما يكل وينكل
وللحر عادات إلى رب ما كرن من اطول ما فى الأرض ما ينزل اسفل
وصلوا على خير البرايا محمد عدذ ما مشوا لهْ من حفايا ونقل

ثم تولى الشريف سعيد ابن الشريف بركات ابن السيد محمد ابن السيد إبراهيم ابن السيد بركات ابن الشريف أبى نمى يوم موت والده الشريف بركات قبل أن يجهزه، ذهب السيد عمرو بن محمد فى جماعة من الأشراف إلى حضرة أفندى الشرع، وطلبوا منه قفطانا، فسألهم الأفندى هل رضوا السادة الأشراف؟ فقال له السيد عمرو: نعم رضوا بذلك، فأتوا منه بقفطان، فألبسوه للشريف سعيد، ثم نودى بالبلاد باسمه، ومع المنادى مولانا الحسين بن يحيى، ومولانا السيد عبد الله بن هاشم، ثم جهز الشريف بركات، وصلى عليه فاتح بيت الله مولانا، وسيدنا الشيخ عبد الواحد ابن المرحوم سيدنا ومولانا الشيخ محمد الشيبى القرشى العبدرى بوصية

(١) بالأصل: خدنها.

منه، ودفن فى المحل المتقدم ذكره.

ثم عقد مجلس يوم الجمعة ثانى يوم الوفاة بالحطيم حضره الأشراف والعلماء والأعيان والعساكر، فأظهر الشريف سعيد أمرًا سلطانيًا مضمونه: إنه لما أرسله مولانا الشريف بركات إلى حضرة مولانا السلطان محمد خان، أنعم عليه بالملك بعد أبيه، فقرئ بمحضر ذلك الجمع، فسكنت الخواطر والأحوال، لموجب ذلك الأمر الواجب الامتثال، فلذا لم تقع مخالفة من أحد ولله الحمد والمنة.

ثم حصل بين الشريف سعيد، والسيد ناصر ابن المرحوم أحمد الحارث بعض مقاومة من جهة وعد لم يتم، فقامت نفس السيد ناصر، وعضد معه جماعة من الأشراف، منهم: السيد محمد بن يعلى، وذوى جود الله فى خمسة وعشرين شريفًا، فما زالوا يسعون بينهم بالصلح حتى اصطلحوا ولله الحمد.

وفى ثانى عشر رجب من السنة المذكورة - أعنى سنة ثلاث وتسعين وألف - وصل أغا صحبته قفطان من صاحب مصر لمولانا الشريف سعيد بن بركات جاء بحرًا، وخرج من ينبع.

وفى ثامن عشر رمضان، منها: ورد مورق السميرى يخبر أن السيد زيد بن حمزة رسول الشريف سعيد إلى الأبواب وصل إلى ينبع، ويخبر أن القفطان السلطانى واصل بحرًا.

وفى سادس عشريه: وصل السيد حمزة إلى مكة.

وفى رابع شوال منها: ورد إلى الأفندى أمر سلطانى بإخراج الشيخ محمد بن سليمان من الحرمين إلى بيت المقدس، فأرسل إليه الأفندى يأمره بالخروج، فطلب مهلة ثلاثة أيام، فأمهل ثم لم يأمن على نفسه، فلما أتوه على الوعد امتنع، فجاء إليه العساكر إلى بيته فصاح، وصاح أهل بيته من نساء وأطفال وخدم، فتركوه ومضوا إلى الشريف، وأفندى الشرع، وأخبروهما بما وقع، فأرسلوا إليه مولانا السيد ثقبة ابن قتادة فحاوله على الخروج، فأجابه: إنى ممتثل الأمر، وإنما تمهلونى إلى الحج، فتوجه السيد ثقبة فى الإمهال إليه عند الشريف، وأفندى الشرع فأمهلاه، ثم خرج صحبة الحاج الشامى.

وفى ثامن عشر شوال من السنة المذكورة: دخل الأغا بالقفطان والمرسوم

السلطانيين، فلبسه مولانا الشريف سعيد فى الحطيم، وقرئ المرسوم على العادة بالتبجيل والتعظيم والتصريح بتفويض أمر الحرمين إليه والتعويل فى حراستهما عليه، وكان له ذلك النهار موكب عظيم.

وفيها وصلت صدقة من ملك الهند إلى الحرمين قدرها مائة ألف ربية، أربعون ألفًا للشريف، وستون لمكة والمدينة، فكتبوا أسماء الناس فى دفتر، وعدوهم بالتقسمة، ثم اقتضى رأيهم أن يأخذوها جميعًا، ويأمروا أهل مكة بأن يكتبوا باستلامها، فكتب أهل مكة بذلك.

وأرسل إلى أهل المدينة، وطلب منهم أن يسمحوا كما سمح أهل مكة بذلك، فكان جواب أفندى المدينة وشيخ حرمها وأغوات العساكر ما نصه: إن هذا شىء لعامة الناس فلا يسعنا السماح عن جماعة ما نعتقد رضاهم، وأبوا أن يجيبوا بغير هذا.

فلما وصل الخبر بذلك عنهم دبروا تدبيرًا آخر لا حاجة بنا إلى كشفه، وأرسلوا به إلى السلطان أورنك زيب صحبة السيد محمد البرزنجى فلم يعط قبولا، ولم يواجه السلطان هو ومن معه أصلا، ثم عاد إلى مكة بعد ذلك فى سنة خمس وتسعين، وقد كان فى غنية وعزة عن مثل هذه الرسالة التى هذا شأنها، وقد أخذت منه المكاتيب من بندر سُوْرَت، وأرسلت إلى السلطان، وذلك لما بلغ السلطان حقيقة الحال.

وقد كان المرحوم مولانا الشريف بركات عرض إلى الأبواب لما فارقه مولانا الشريف أحمد بن غالب متع الله بحياته ومن معه، فعرّف أن السادة الأشراف أتعبوه بالطلب الشطيط، وأنه بالغ فى إرضائهم بكل وجه، فقال: إلى حد أنى رضيت أن أجعل لهم مغلّ ثلاثة أرباع البلاد، ويكون لى ربع، فكان جوابه أنهم أبرزوا له أمرًا سلطانيًا بذلك، فورد إلى مكة بعد مدته فى الحج آخر سنة ثلاث وتسعين المذكورة.

ولم يُرد مولانا الشريف بركات طلب هذا الأمر، وإنما لما أرسل إلى الأبواب متنصلا عن المخالفة على السادة الأشراف، ومبينًا أنه ساع فى ملائمة هواهم بحيث إنه رضى بأن يجعل ذلك لهم، ظنت الدولة العثمانية أن ذلك مراد له، ومطلوب فأخرج له أمر بذلك، فلما وصل كتمه الشريف سعيد، فتحققته السادة الأشراف، وطلبوه من الشريف، فأحضره على ما أشيع مجلس الشرع، وسجل مضمونه،

وقسموا مدخول البلاد، والإخوان أرباعًا، ربع لمولانا الشريف وربع تشيخ فيه مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله، ومولانا السيد ناصر بن أحمد الحارث ومعهما جماعة من الأشراف، والربع الثالث تشيخ فيه مولانا الشريف أحمد بن غالب دام علاه، ومولانا السيد أحمد بن سعيد، ومعهما جماعة من الأشراف، والربع الرابع تشيخ فيه مولانا السيد عمرو، ومولانا السيد غالب بن زامل، ومعهما جماعة من الأشراف، فحصل بذلك التشاجر فى القسمة والتعب والتشاحن، ووقع فى البلاد السرقات بل النهب الصريح، واختلفوا فيما بينهم، ولزم من ذلك أن كل صاحب ربع يكون له كتبة وخدام يجمعون ما هو له.

واستكتب مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته عسكرًا، وانضم إليهم عبيد ذوى زيد فحصل عند الشريف سعيد تعب من ذلك، فأمره بترك العسكر فامتنع، وذكر أن السوالف سبقت بمثل هذا لصاحب الربع، وشهد بذلك كبار الأشراف، فذكر الشريف سعيد أنه متوهم من هذا الفعل وطلب من يكفله له، فكفله عشرة من الأشراف، واصطلحا على ذلك، ثم ادعى الشريف سعيد على الأشراف أن عبيدكم أتلفوا البلاد، والقصد من أهل الأرباع أن يرسل كل منهم شخصًا من جانبه يعسون البلاد مع جماعتى، فأجابوه إلى ذلك.

فأرسل مولانا الشريف أحمد بن غالب أخاه مولانا السيد حسن بن غالب، وأرسل مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله ابنه بركات بن محمد، وأرسل الشريف سعيد مولانا السيد حمزة بن موسى بن سليمان فى جماعة من الخيالة والدّبابة معهم القائد حاكم البلاد أحمد بن جوهر.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وألف: وصل فى خامس شهر رمضان منها إلى مكة هدية من ملكة « آش » بلد بأقصى الهند وتلك مقابل هدية كان أهداها إليها مولانا الشريف بركات، منها ثلاثة قناطير ذهب مصطنع يصفى على النصف خالصًا، وثلاثة غلايين ذهبًا، وثلاثة أرطال كافور، وجانب عظيم من القرنقل والجاوى، وآواق زباد آشى، وللكعبة الشريفة بخمسة قناديل، ومبخرتين وشمعدانين، وللمدينة كذلك قناديل، ومباخر وشماعدين، فنازع السادة الأشراف الشريف سعيد طالبين الثلاثة الأرباع منها، فامتنع من ذلك، فقامت النفوس بينهم وبينه، ثم وقع الصلح على

إعطائهم النصف منها فأخذوه.

وفى سادس عشرى ذى القعدة منها: فتح البيت الشريف وجاء مولانا الشريف سعيد، ومولانا السيد محمد بن حمود، ونائب الحرم، وعلقوا الخمسة القناديل بالكعبة الشريفة.

وفيها يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة الحرام منها: انتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله - رحمه الله تعالى رحمة واسعة -.

وفى شهر ذى الحجة منها: لم يخرج السادة الأشراف جميعهم مع الشريف سعيد إلى العرضة، فبعد أن حج الناس، ونزلوا عقد الشريف سعيد محضرًا فيه أمير الشامى صالح باشا، وأحمد باشا صاحب جدة، وأمير الحاج المصرى ذو الفقار بك، وأمين الصرة والسرادير، وأكابر الحج وأغواته، وشكا من الشريف أحمد بن غالب كتابة العسكر، وأنه مناكد لى فى البلاد وأنه أفسد عليَّ الأشراف، وأنه حصل منه ومن جماعته الفساد فى البلاد.

وأرسلوا السيد غالب بن زامل إليه ليحضر فيظهر ممن الخلاف، فامتنع من الحضور فى بيت الشريف، وقال: إن كان القصد الاجتماع ففى المسجد، وإن كان لكم دعوى، فأوكل وكيلا يسمع ما تدّعون به على، ثم أرسلوا إليه عن كتابة العسكر وما بعده، فأجاب بما أجاب أولا أن هذه قواعد بيننا قد سلفت أن صاحب الربع له أن يكتب عسكرًا. وأما قولكم: إنه قد حصل من جماعتى أو عسكرى مفسدة، فأطلقوا مناديًا فى البلاد: معاشر الناس كافة هل أحد يشكو منى أو من جماعتى أو عسكرى شيئا أو أخذوا حق أحد ظلمًا أو ضربوا أحدًا؟ فإن وجدتم مشتكيًا صح ما قلتموه، وإلا فلا وجه لكم.

وأما تركى العرضة فكان خوفًا أن يقع شىء فينسب ذلك إلىّ أو إلى جماعتى.

كل هذا والأشراف جميعهم اجتمعوا على قلب رجل واحد ولم تزل خيولهم مسرجة، ودروعهم عيابها غير مشرجة، بل قد لبسوها، وملئوا الأجياد إلى العقد، وتحركت الأنفة الهاشمية التى تأبى الضيم والضهد.

وبلغنى عن الثقة أن صالح باشا أمير الحاج الشامى كان من جملة كلامه إلى الشريف أحمد متع الله بحياته: إن لم تصطلحوا طوعًا أصلحناكم بالسيف، فأرسل له

فى الجواب: السيف لنا يا بنى هاشم ما هو لفلاليح الشام، ولكن إذا نمت فأحكم تزرير مضربك عليك.

ولما أن سمع الأمراء والأكابر جواب الشريف أحمد بالكلام الأول، وعلموا أنه لا وجه عليه، ولا خلاف ينسب إليه، سعوا فى الصلح بينه وبين الشريف سعيد على أن يكفل كل منهما جماعة من الأشراف، ولا يتعدى أحد على صاحبه، وكتبت بينهما حجة شرعية، وطلبوا من الشريف أحمد متع الله بحياته أن يأتى إلى الشريف سعيد، فوصل إليه ليلة فى شهر الحج قبل خروج الحاج الشامى، ثم بعدها وصل إليه الشريف سعيد ليلة أخرى، وتم الصلح ولله الحمد.

وأما صالح باشا ففى يوم الاجتماع المذكور وصل فى نحو مائة من عسكره إلى بيت مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، وقبل يده واعتذر مما تكلم به، فقبله وقابله بوجهه الطلق الصبيح، ولاطفه بلفظه العذب الفصيح، ورفع عنه الملام، وأكرمه كما هو طبعه الشريف غاية الإكرام.

وفيها -أعنى سنة أربع وتسعين وألف-: أمر مولانا الشريف سعيد بالنداء فى البلاد ثامن عشر ذى الحجة الحرام أن لا يقيم أحد من الغرباء بالبلاد من جميع الأجناس على حسب ما ورد به الأمر السلطانى، ثم إن أرباب الأموال من الأتراك وغيرهم تكلموا مع سرادير العسكر، وجعلوا لهم مصلحة فاجتمعوا، وعزموا إلى أحمد باشا صاحب جدة، وذكروا له أن هؤلاء التجار المصارية أموالنا معهم، وأنهم نافعون لنا فى البلاد، وحسنوا له التكلم مع الشريف سعيد، فأرسل إلى الشريف سعيد فتكلم معه فى إبقائهم فساجل على ذلك، وأطلق مناديه سابع عشرى ذى الحجة المذكورة: أن من كانت له مدة طويلة يقيم ولا خلاف عليه، فما أسرع انتقاض الحكم بضده بعد تسعة أيام.

وفى ثانى عشر شعبان منها: كانت وفاة والدة مولانا السلطان الغازى المجاهد السلطان محمد خان، كانت صاحبة خيرات وصلات، تغمدها الله بأتم الرحمات.

وفى عاشر ذى القعدة: كانت وفاة شيخنا الشيخ محمد بن سليمان المغربى المالكى السوسى المفتن فى جميع العلوم، المشهور عند العرب والروم. توفى بدمشق الشام، مولده سنة ثلاث وثلاثين وألف. قرأ على كبار المشايخ ببلده، من

أجلهم قاضى القضاة مفتى مراكش، ومحققها سيدى عيسى السجستانى، والعلامة محمد بن سعيد المراكشى، ومحمد بن بكر الدلائى، والشيخ سعيد بن إبراهيم (المشهور) بقَدُّورَة مفتى الجزائر ستين سنة، وتلقن منه الذكر ولبس الخرقة، ولازم الشيخ محمد بن ناصر الزرعى أربعة أعوام فى التفسير والحديث والفقه والتصوف وغيرها، وصحبه وتخرج به.

ثم رحل إلى الشرق، ودخل مصر فأخذ بها عن العلامة الشيخ على الأجهورى، والشهاب الخفاجى، والشيخ شهاب الدين بن سلامة القليوبى، والعلامة سلطان المراحى وأجازوه، وبرع فى العربية والمعانى والبيان والعروض والحساب والفلك والهيئة والحكمة.

وأخذ عنه جماعة كثيرون عدة فنون. وألف كتبًا مفيدة منها: «مختصر جامع الأصول» لابن الأثير. واختصر «التلخيص» وشرحه. ووضع حاشية على «التسهيل» وحاشية على «التوضيح» و«منظومة فى علم الميقات» وشرحها، وله جدول جمع فيه مسائل العروض كلها. واخترع كرة عظيمة فاقت على الكرة القديمة والإصطرلاب، وانتشرت فى الهند واليمن والحجاز.

أقام بالمدينة سنين عزبًا فى خلوة بقايتباى، ثم جاء إلى مكة وجاور بها، ثم رحل إلى الروم فى موسم سنة ثمانين صحبة أخى الوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلى، وحظى عنده حظوة عظيمة، وفوض إليه أمر أوقاف مكة وغيرها، وعمّر الأربطة الدامرة والمآثر الداثرة، وأنشأ تربة بالمعلاة وجعلها جدارًا أوتارا متقاطعة فى نصف قامة على شكل شطرنجى، وعدتها ثلاثة آلاف وسبعمائة قبر بلغت النفقة عليها من مال الوزير المذكور أربعة آلاف أحمر ومائة أحمر كان ابتداؤها سنة سبع وثمانين وألف، وسعى فى عزل مولانا الشريف سعد، وولى الشريف بركات بنظره وإشارته، وصار فى مكة صاحب الحل والعقد، وأنيطت أمورها جميعها إليه، ويتردد الشريف بركات إلى بيته كل يوم، وربما جاء مرتين فى اليوم الواحد، وأكابر الحاج وأمراؤه يأتون إليه، فمن قبل عليه أذن له ومن لا فلا، ولا يقطع الشريف بركات أمرًا قل أو جل إلا بنظره، وربما فعل أمرًا بغير نظره، فإذا علم به نقضه من يومه، إلى أن مات الوزير المذكور، فضعف أمره، وورد الأمر من الوزير الآخر مصطفى باشا أولا

بالتحذير والنهى عن مشاركة الدولة فى أمورها من قليل أو كثير، والتنفير عن المكارشة فيما يتعلق بها من جليل وحقير، وذلك سنة سبع وثمانين وألف، فأغلق ذلك الباب، وصار لا ينفذ شيئًا إلا وحيًا أو من وراء حجاب.

ثم فى جمادى الأولى من السنة المذكورة عزم إلى بلدة الطائف وصاف بها، ثم ارتحل منها أواخر شعبان، فسقط عَلَى وادى مر، ثم توجه منه إلى المدينة المنورة الشريفة، فدخلها ثانى يوم من رمضان، فأقام بها نحو أربع سنين، وابتنى فى أثناء تلك المدة دارًا بلصق جدار المسجد النبوى الشمالى.

فلما كانت سنة إحدى وتسعين وألف: رحل منها فى النصف من شهر شعبان عائدًا إلى مكة فدخلها ثامن عشريه، فاستمر بها إلى أن ورد الأمر ثانيًا سنة ثلاث وتسعين وألف بتخريجه من الحرمين، فخرج إلى مكة صحبة الحاج الشامى موسم سنة ثلاث وتسعين كما تقدم ذكر طرف من ذلك، وأخذ فى سفره الأول إلى الروم عن الشيخ خير الدين بن محمد الرملى الحنفى، وبدمشق عن الشيخ محمد بن بدر الدين البلبانى الحنبلى، والسيد محمد بن كمال الدين نقيب الأشراف.

وله فهرست بجميع مروياته وأشياخه سماها صلة الخلف بموصول السلف.

ووصل فى سفرته الثانية إلى دمشق الشام، فأقام بها حتى كانت وفاته فى هذه السنة -أعنى سنة أربع وتسعين وألف رحمه الله وتجاوز عنه. انتهى.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين فيها يوم الجمعة ثانى عشر محرم الحرام لما أراد أحمد باشا النزول إلى جدة حشكت عليه السادة الأشراف بسبب أنه استولى على الربع من حب الجراية التى ترد إلى مكة بعد أن كلموه فى ذلك فامتنع، فسكتوا عنه إلى يوم نزوله جدة وهو يوم الجمعة المذكور، فتحزبوا جميعًا، وقالوا: لا ينزل حتى يعطينا ما هو لنا ولا يبقى عنده شيء، وكان ذلك بعد أن تقدمه أهله وثقله إلى جدة فصار أحير من ضب، واجتمعوا ببيت السيد محمد بن حمود، وأرسلوا إليه السيد ثقبة، فقال له: إن نزلت قبل أن تصلح الأشراف يأخذوا جميع أسبابك التى تقدمت، وينهبوا حريمك ويقتلوك، فأذعن حينئذ بوفائهم، فقالوا: لا نرضى بذلك حتى تكفل لنا، فكفل لهم كرد أحمد المعمار، وجميع السرادير، والوزير عثمان بن زين العابدين حميدان، وكتبوا بذلك حجة شرعية، وأنه إن حصل منه منع لبعض

حقوقهم فيكون عاصى الشرع والسلطان. ثم خرج من مكة بعد عصر ذلك اليوم كالهارب: [من البسيط]

أَلْجَدُّ فى الجِدِّ والحرمانُ فى الكَسَلِ ... ...

وفيها تاسع ربيع الأول: ورد أغا من صاحب مصر بقفطان للشريف سعيد، وبطلب كرد أحمد المعمار، وهذا كرد أحمد كان قد وصل قبل هذه السنة، أرسله الوزير الأعظم مصطفى باشا إلى عمارة المسجد الحرام وحده، وكانت عمارته فى المسجد فرش أروقته بالحجر الشبيكى، وعمارته بجدة إجراء عين إليها استمر فيها نحو ثلاث سنوات ابتدأها من المحل المعروف بالقوز، وعمر بها أيضًا مسجدًا ومنارة وحمامًا ووكالة.

وسبب طلبه لما غضب على مرسله الوزير الأعظم مصطفى المذكور بسبب الولس الذى نسب إليه مع الكفار على المسلمين، وكان هذا كرد أحمد من خواص الوزير المذكور، فجاء الأمر لمولانا الشريف سعيد.

ففى يوم وصول الأغا ختم على بيت كرد أحمد الذى بمكة، وركب الأغا من يومه إلى جدة وختم على بيته بها وعلى جميع المال وأحضروا المهندسين فخمنوا العمارة فخمنوا كل ذراع بقرش ريال بعد أن ذرعوا من الابتداء إلى البلد فبلغ كذا وكذا ألف ذراع، وكذلك خمنوا ما صرف على فرش المسجد، وحسبوا جميع ذلك، وكتبوا به حجة شرعية، وخرج من مكة إلى جدة فى شهر ربيع الآخر فذهب بحرًا إلى من طلبه.

ومما وقع فى هذه السنة من العجائب: أن حرمة من جهة الشبيكة من نساء العرب وضعت كلبًا فخافوا الفضيحة فقتلوه ودفنوه.

وفيها أيضًا: جاء نجاب من مصر، وأخبرنى مشافهة أن بالمويلح القرية المعروفة حرمة ولدت ولدًا، فذهب أبوه إلى جهة السوق، فلما رجع قال الولد المولود لوالده: العوافى يا باه قضيت حاجتك، وتكلم بأشياء كثيرة من ساعته. وهذا من العجائب التى لم يسمع بمثلها إلا نادرًا والقدرة صالحة، وبعد ذلك فقد الولد فسبحان القادر على كل شىء.

وفيها: تضرر السادة من غلو سعر الذهب، ووصول الأحمر إلى ثمانية حروف

وربع، وبسببه غلت الأسعار، فطلبوا من الشريف أن ينادى بنزول سعره إلى أربعة حروف؛ لتنزل أسعار المسعرات إلى النصف من كل شىء، فأجابهم إلى ذلك، فتعب من ذلك صاحب جدة أحمد باشا وعساكر مصر حين أرسل لهم الشريف بمثل ذلك، وامتنع من النداء عليه إلا بسبعة حروف، وكان ذلك عشرى جمادى الأولى.

ثم إن عسكر مصر شكوا إلى الشريف سعيد أن هذا ضرورة علينا، فنسأل الفضل أن تجعلوه بستة حروف ونصف لا علينا ولا على السادة الأشراف خلاف، فأمر الشريف سعيد بالنداء بذلك والفسح به، فلما سمعوا السادة الأشراف بموافقة الشريف سعيد للأتراك فيما طلبوه تعبوا، واجتمعوا فى بيت السيد مبارك الحارث؛ لأنه هو أول من تكلم فى ذلك الشأن.

ثم ركبوا إلى السيد غالب بن زامل وكان بالأبطح، وأخبروه بمخالفة الشريف هواهم واتباعه هوى الأتراك، فأتى مولانا السيد غالب ومولانا السيد محمد بن حمود، ومولانا السيد أحمد بن سعيد بن شنبر، فقالوا للسيد مبارك وبقية الأشراف القائمين فى هذا الأمر: إن البلاد للشريف، وإن الأمر له فى المعاملة وغيرها، ولستم شركاء للشريف فى الأحكام بل فى المدخول، فحجُّوهم بذلك.

وفيها فى شهر ربيع الآخر: وجد رجل من أبناء المدينة، يقال له: محمد بن عمار الصعيدى بالمسجد النبوى بعد أن فتش المسجد، وأغلق فأخرجه الخدام، ثم لما كان من أعمال شىء من الليل وجدوه أيضًا تجاه القبر الشريف يقرأ فى مصحف، فأخرجوه من المسجد.

ولما كان ليلة الجمعة وقت التذكير دخلوا لإيقاد قناديل الحجرة الشريفة، فوجدوه فيها داخلا تحت الستر نصفه ونصفه الآخر خارجًا، فتقدموا إليه وأخرجوه، وأتوا به إلى شيخ الحرم، وأخبروه بما وقع فوضعه فى بعض المخازن، وأغلق الباب وعلى الباب حرس، ثم فتحوا الباب بعد ساعة فلم يجدوه، فسألوا عنه فإذا هو فى بيته عند والده، وأهله، والله أعلم بحقيقة حاله.

وفيها يوم الثلاثاء سابع عشر رمضان منها: عدا بعض أولاد الصاغة بمكة على أخيه فضربه جنبية عمدًا فقتله - رحمه الله تعالى - ودخل على السيد حسن بن غالب، فدخل به على أخيه مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، فبذل لأبويه الدية

فامتنعا وسمحا عفوًا، فألزمه بسكنى بندر جدة فهو فيها.

وفيها ليلة الخميس سابع عشرى رمضان منها: كانت وفاة الحرة الطاهرة والدرة الثمينة الفاخرة السيدة الشريفة عمرة بنت سلطان الحرمين مولانا المرحوم الشريف زيد - تغمدها الله برحمته، وأسكنها فسيح جنته- ودفنت صبيحة ذلك اليوم. وكانت جنازتها حافلة.

وفيها: إرسال الشريف سعيد ترجمانه المهتار على أغا إلى صاحب مصر يذكر فساد مكة وأنها خربت، وأحوالها اضطربت، وطلب منه عسكراً لإصلاحها.

وفيها ثاني عشر رمضان: كانت وفاة الأمير الخطير، والسرى الكبير، الذى حوى من الفضل أجمعه، ومن اللفظ أعذبه وأبرعه، الأمير الجليل، ذى القدر النبيل، والمجد الأثيل، والأصل الأصيل، الأمير يحيى بك ابن المرحوم على باشا الأحسائى ثم المدنى الحنفى بطيبة المنورة. مولده سنة ثلاث وعشرين وألف بمدينة «الأحساء»، وبها نشأ فى حجر والده وتأدب بأكابر علماء بلده. وأخذ عن العلامة إبراهيم بن حسن الأحسائى الفقه والحديث وعلوم العربية وأجازه بمروياته وجميع مؤلفاته.

وتلقن الذكر ولبس الخرقة، وصافح من طريق المعمرين الشيخ تاج الدين النقشبندى الهندى عن الشيخ عبد الرحمن الشهير بحاجى رمزى. قال: فصافحنى أبو سعيد الحبشى، قال فصافحنى النبى ﷺ. وله شعر، منه قوله يمدح النبى ﷺ:

[من الكامل]

أتريدُ جارًا حاميًا لكَ سيدًا ... ومقامَ عِزٍّ عاليًا متفرّدَا
وترود شرقًا للبلاد وغربَهَا ... متفكرًا متحيرًا متردِّدَا
وترومُ ذا والحالُ منك مقصِّرٌ ... عما طرا والفعْلُ ليس مسدَّدا
فعليكَ أن تردَ النجاةَ وتَتَّقى ... خوفَ العقاب تلاوةً والمسْجِدا
وانزلْ بدارِ المصطفى متأدِّبًا ... ولجودِهِ مستمطرًا متقصِّدَا
واعرفْ لفيضِ الفضلِ منه مواسمًا ... لتكُنْ لها مترقبًا مترصِّدَا
فلعلَّ أن يحيى كما أحيى به ... للدِّينِ رسمًا قد عفا وتهدَّدَا
فاجهَدْ تكُنْ جارًا له ودخيلَهُ ... وابذلْ له روحًا ومالاً مجهدَا

أفما سمعْتَ لقائلٍ ذى فطنةٍ تسمو بساكِنِهَا فكُنْ مسترشِدَا
واطلب بغالِى النفسِ منْكَ جوارَهُ واترك لِسَوْفَ ولا تقُلْ مهلاً غَدَا
بلْ قُمْ وسارعْ للمدينةِ راغبًا ولمنْ بها مستشفعًا متعبدًا
فَهُوَ الذى يحمى ويغنى جاره وعليه قد أوصى وحَثَّ وأكَّدَا
فلقَدْ نصحتُكَ إن قبلْتَ نصيحَتِى ولما نصحْتُ فعلته متودِّدا
وجنحْتُ مشتاقًا لطَيْبَةَ قاصدًا غَوْثَ الورَى بَحْرَ الحقائقِ أحمدَا
بدْرُ الهدَى بالحقِّ أُرْسِلَ رحمةً للعالمينَ وبالملائكِ أُيِّدَا
أوَ لَيْسَ قومى عالمينَ بأننى جاوَرْتُ خَيْرَ المرسلينَ محمَّدَا
وحَلَلْتُ ساحةَ جودِهِ متمسكًا بالعروةِ الوثقَى فلا أخشى الرَّدَى
حاشاكَ أن أخشَى وأنْتَ وسيلتى وذَخِيرتى حقًّا وأنْتَ المقتدَى
فعلَيكَ خَيْرَ الخلقِ إنى داخلٌ وببابِكَ الأعلَى أقمْتُ مقيَّدَا
فعسَى بجاهِكَ أن يمنَّ بعفوها ربٌّ كريمٌ بالنوالِ تفرَّدَا
ويجودَ بالغفرانِ منه تفضلاً وأنالَ عِزًّا من مديحِكَ سَرْمَدَا
قد قالها من كامل فى كاملٍ يحيا لكَىْ يحيى سعيدًا مسعدَا
دنيا وأخرَى إذ لجا لجنابِكُمْ أيخيبُ مَنْ أمَّ الجنابَ المُفْرَدَا
حاشا وحاشا ثُمَّ حاشا أن يُرَى متألما من جَاءكُمْ متعمِّدَا
وصلاةُ ربِّى دائمًا وسلامُهُ تغشَى ربوعَ المصطفى والمرقدا
والآلَ والصحْبَ الكرامَ جميعَهُمْ والتابعينَ لهم ومَنْ قد وَحَّدَا
ما لاحَ نجمٌ فى السماءِ وما أضا نجمٌ وما أشجَى هزارٌ غَرَّدَا

وقوله مضمنًا: [من البسيط]

ظلمتُ نَفْسِى ولم أعمَلْ بموجبها وما علمْتُ بأنَّ الغيَّ يُتْلفنِى
يأتِى على المرءِ فى أيامِ محنتِهِ حتَّى يرى حسنًا ما ليْسَ بالحسَنِ

كان والده المرحوم على باشا واليًا على الأحساء، والأمير يحيى هذا على القطيف بأمره، فأرسل والده المذكور أكبر أولاده محمدًا بهدية إلى سلطان الروم على جارى العادة، فزور كتابًا من والده مضمونه أنه قد كبر فى السن، والتمس من السلطان أن يقيم ولده محمدًا فى الولاية على «الأحساء» مكانه بمرسوم سلطانى،

فأجيب إلى ذلك.

ولما وصل محمد إلى «الأحساء» أرشى أكابر العساكر، وأعلمهم بالأمر، وتلقاه والده وإخوته.

فلما اجتمعوا أخرج المرسوم السلطانى وتولى بموجبه، وأراد حبس والده وإخوته، فطلبوا منه أن يجهزهم إلى الحرمين ويعين لهم مصرفًا، فجاءوا إلى المدينة، وجاوروا بها، وتوفى والدهم على باشا بها [سنة] ست وخمسين. ثم فى موسم خمس وسبعين: توفى ابنه أبو بكر باشا ابن على باشا بعرفة يوم عرفة، فحمل فى محفة إلى مكة، فدفن بها فى المعلاة.

وكان ذا شهامة وصرامة، سلالة بيت عز وكرامة، ذا كرم يفوق البحر بالمد، وبأس يقصر عنه حد السنان والحد، إلى أدب بذ فيه فحول الأدباء وفاق، وممادح قيلت فيه فنفق سوقها لديه أحسن نفاق، إلى لطف أخلاق تُعير النسيم لطافة، وتوصل قاصده وتؤمنه مأموله ومخافه، إلى قريحة وقادة، وذكاء ملك به زمام الأدب وقاده.

له الشعر الرصين المبنى، البطين المعنى، منه ما كتب به إلى مولانا وشيخنا العلامة أبى مهدى عيسى بن محمد الثعالبى الجعفرى ونصه [من الكامل]

يا مَنْ سما فوْقَ السِّمَاكِ مقامُهُ ... ولقدْ يَرَاكَ الكلُّ أنتَ إمامُهُ

حزتَ الفضائلَ والكَمَالَ بأسْرِها ... وعلوْتَ قدرًا فيكَ تَمَّ نظامُهُ

لو قيلَ مَنْ حازَ العلومَ جميعَهَا ... لَأقُولُ أنتَ المِسْكُ فيكَ ختامُهُ

كم صنْتَ من بِكْرِ العلومِ خرائدًا ... عن غيرِ كُفْءٍ لم يجب إكرامُهُ

فاعلَمْ بأنى غَيْر كُفْءٍ لائق ... إنْ لم يكنْ ذا الفضْلُ منك تمامُهُ

ثم أتبعه بنثر صورته: «لما أضاء نور المحبة فى قنديل القلوب، صفت مرآة الحقيقة فظهر المطلوب، فاتضحت الرسوم الطامسة، وبانت الطرق الدارسة، فاكتحلت عين القريحة، فسالت فى أنهر النطق فأثمرت بالمسطور، وهو المقدور، وأما المقام فهو أنهى من ذلك وأجل، وليس يدرك ذلك إلا من وصل. وأما العبد فهو مقر أنه قد قصرت به الركائب عن بلوغ ذلك. وعاقته عقبات الأسباب عن سلوك هذه المسالك، لكن حيث أن ثياب الستر من فضلكم على أمثاله مسبولة، يمكن أن

يدخل فى ضمن الأمثال مطلوبه والسلام» . فأجابه مولانا المشار إليه بقوله [من الكامل]

لـلـه درُّكَ يـا فـريـدَ مـحـامِـدٍ أربَى على البدرِ التمامِ تمامُهُ
قد صغْتَ من سرِّ البراعةِ مفردًا فـاقَ الـفـرائـدَ نـثـرُهُ ونـظـامُـهُ
وكسوتَهُ مِنْ جزلِ لفظِكَ سابغًا وَشِيَتْ بـكـلِّ لطيفةٍ أكمامُهُ
أعربْتَ فيه عنِ اعتقادٍ خالصٍ ومكينِ ودٍّ أحكمَتْ أحكامُهُ
وجـلـوتَـهُ يـخـتـالُ تـيـهًـا آمـنًـا مِنْ أنْ يشابه فى الوجودِ قوامُهُ
وحبوْتَ ذا شكْرٍ ببيتِ قصيدةٍ وبفضِّ خاتمه العلى اسرامه
أهلًا به فردًا أتى من مفردٍ وحبا بِهِ ضيفًا يجلُّ مقامُهُ
حتمًا علىَّ ولازمًا تبجيلُهُ فـورًا وحـقًّـا واجـبًـا إكـرامُـهُ
لكنْ علِى قدرى فلَسْتُ بكُفْءِ مَنْ وطئَتْ على هامِ العلا أقدامُهُ
وإليكَهَا عذرا عَلَى مَهَلٍ أتتْ خجلًا لمحتدِكَ العزيزِ مَرَامُهُ
فاصفَحْ بفضلكَ عن صحيفةِ وُدِّها فـالـفـضـلُ مؤتـمٌّ وأنـتَ إمـامُـهُ
واسحَبْ رداءَ المجدِ غيرَ مدافَعٍ فـلأنْـتَ عـنـصـرُهُ وأنـتَ خِـتـامُـهُ

وله ديوان شعر مجلدان، حاوٍ ما يفوق الدر والجمان، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وفيها - أعنى سنة خمس وتسعين-: اشتد البلاء بالسرق ليلا ونهارًا، سرًا بل وجهارًا، وكسرت البيوت والدكاكين، وترك الناس صلاة العشاء فى المسجد والفجر، خوف القتل أو الطعن أو الكسر، وصارت العبيد لا يأتون إلا ثمانية وعشرة، ولا يبالى أحد منهم بمن ننصره، يدخلون بيت الرجل يقفون على رأسه بالسلاح، وربما نكح بعضهم زوجته وعينه تنظر كأنها حلاله المباح، وانقلب ليل الناس نهارا؛ لأنهم إنما يبيتون سهارى، بل من الخوف سكارى.

وكثرت القتلى فى الرعية بأيدى العبيد، وعدم المشتكى الناصر، وفعل كل شقى ما يريد.

ولا يجاب الصائح حين يصيح، وإن اتفق أنه صاح فلا يوجد فى مرقده إلا وهو ذبيح، حتى ضُبطت القتلى بمكة فى شهر رمضان فكانت تسعة أشخاص، فضجت

الأمة إلى الله - تعالى - أن ينقذهم من هذا الحال الوبيل، والداء العضيل بمن يهنأ نقبها، ويشد سلبها، ويصلح اعوجاجها، ويؤمن طرقها وفجاجها.

فاستجاب الله دعاءهم فى الأسحار، وآناء الليل، وأطراف النهار، بأن ولى أمرها المرحوم الشريف أحمد ابن مولانا المرحوم الشريف زيد - تغشاه الله بالرحمة والرضوان -.

وشرح مبدأ ذلك وتفصيل ما هنالك: أنه لما انفصل عن إمرة مكة هو، وأخوه مولانا الشريف سعد إلى الطائف ثم منها إلى بيشة، فأقام بها، وتوجه مولانا الشريف أحمد إلى ديرة بنى حسين، فإن له بها أهلا وولدًا، واستمر مقيما بتلك الديرة إلى أول ذى القعدة الحرام، فرحل منها قاصدًا المدينة لزيارة جده - عليه الصلاة والسلام -، فدخلها ليلة سابع العشرين منها ليلة دخول الحاج الشامى، وواجه بها فى ذلك العام باشا الشام، فقابله بأتم الإجلال والإكرام، والتمس منه إتمام بعض مرام من شريف مكة بركات، ثم رحل من المدينة الشريفة ثانى شهر ذى الحجة من العام المذكور، ونزل على الشيخ حرب أحمد بن رحمة، واستمر عنده إلى عودة الحاج الشامى، فواجهه الباشا وأخبره بعدم تمام ذلك المرام، بعد أن أرسل له الخبر من مكة بالإعلام.

ثم توجه فى أول عام أربعة وثمانين إلى الفرع، واستمر بها مدة يسيرة. ثم لما خرج الشريف بركات إلى حرابة حرب فى أواسط السنة المذكورة عاد إلى حرب وحضر الحرابة، ثم بعد انقضائها توجه أيضًا إلى الفرع، ثم وصل إليه أخوه مولانا الشريف سعد، واستمر بين السوارقية والفرع، وأكثر الإقامة بالفرع.

ولما توعد الشريف بركات أهل الفرع أوائل سنة خمس، تنحيا إلى جهة وادى «النقيع» من ديرة «حرب» من بنى السفر وبنى على وعوف، واستمرا ومن معهما إلى شهر رمضان، ثم عن لهم التوجه إلى الأبواب العالية، فوصلوا إلى حول المدينة الشريفة، ونزلوا بالغابة مجتمع الأسيال غربى أحد أواخر رمضان، فعيدوا بذلك المحل، وليس فى نزول الأسود بالغابة، ملامة ولا معابة، وتقضوا مصالح وأغراضا وأزوادا منها.

وقد أخبرنى الثقة أنهما اجتمعا بالمحل المعروف ببئر واسط بمولانا السيد مبارك

الحارث، وكان هو المشير عليهما بقصد الأبواب العالية، ثم ترحلوا من الغابة خامس شوال من السنة المذكورة متوجهين إلى الشام، لا يمرون بحى من الأحياء إلا أكرمهم غاية الإكرام.

ومن أعجب الاتفاق نزولهم على مراح ابن سحيم من غير علم منهم بذلك، وكان الشريف سعد قد قتل أباه، فلما علم بهم، وعلموا به حصل لهم كرب عظيم، فلم يشعروا إلا وولده مواجه له بالعبودية والسلام، والإجلال والإعظام، وأهدر دم والده، وأكرمهم وذبح الذبائح، ومنح المنائح، وهذه - ولا شك - معجزة من جدهم، وكرامة من سعادة جدهم. ولم يزالوا على مثل ذلك مع كل من مروا عليه من العربان من جمع ووحدان إلى أن وصلوا الشام، فتلقاهم أهل الشام وأمراؤها، وعلماؤها وكبراؤها، وأشرافها ونقباؤها، وكان يومًا مشهودًا، ثم أقاموا بالشام، وأرسل صاحب الأمر بها يستأذن لهم فى الوصول، فعاد الجواب بالإذن، فتوجهوا ودخلوا إلى «أدرنة» فى ربيع الأول من سنة ست وثمانين، وحصل لهم من المقابلة واللطف ما يقصر عنه الوصف، فأقاموا بها مدة يسيرة، ثم توجهوا بأمر من الدولة العلية إلى «إسلام بول»، واستمروا بها بقية سنتهم المذكورة.

ثم دخلت عليهم سنة سبع وثمانين وهم بها، فلما كان شهر صفر من السنة المذكورة: وصل مولانا السلطان، وجميع الدولة من «أدرنة» إلى بلاد «إسلام بول».

وفى شهر ربيع الثانى: أنعم على مولانا الشريف سعد بولاية المعرّة، وأمر بالتوجه إليها، واستمر يتجهز إلى أن كان خروجه إليها حادى عشر جمادى الأولى، واستمر مولانا الشريف أحمد بإسلام بول، وعرضت عليه ولاية «طرسوس» وهى بلد على ساحل بحر الشام، وأخرى بجهة الروملى فلم يقبل واحدة منهما، وكان جوابه: إن تفضلتم بولاية بلادنا، وإلا فنحن تحت أعتاب السلطنة العلية. واستمر السلطان بإسلام بول إلى أواسط شعبان من السنة المذكورة، ثم توجه إلى «أدرنة» أيضًا.

ثم بعد خروجه فى ثانى أو ثالث مرحلة توفى الوزير أحمد باشا بعد أن خرج مريضًا فأعيد إلى «إسلام بول» ودفن بها، وتولى مكانه قائم مقامه مصطفى باشا.

واستمروا متوجهين إلى «أدرنة»، وأقاموا بها إلى آخر السنة المذكورة وشهر من

أول سنة ثمان وثمانين، ثم عادوا إلى «إسلام بول» فى شهر صفر أيضًا، وتأخر الوزير أيامًا، ثم وصل واستقرت الدولة «بإسلام بول»، واستمر مولانا الشريف أحمد مقيما بها تحت ظل الدولة العلية، وفى كل سنة يتجدد له من الإكرام والترقيات ما فوق المرام، وفى كل شتاء بثلاثمائة بغل محملة من جميع ما يحتاج إليه البيت، وزيد سنة واحد وتسعين ثلاثمائة أخرى، وحصلت بينه وبين قزلار أغاسى محبة أكيدة، وطلب الاجتماع بالوالدة، فاجتمع بها، وأغدقت عليه سوابغ الإنعام، ووعدته بالمرام، وقد سبق وعدها وعد الملك العلام.

واستمر كذلك إلى سنة ثلاث وتسعين وألف، فوصل فيها إلى الديار الرومية السيد محمد بن مساعد والسيد بشير بن مبارك مرسولين من السيد أحمد بن غالب من الشام، فركبا إليه وقيّلا عنده، فأوحى بعض المفسدين إلى الوزير الأعظم، وقال: إن إقامة مولانا الشريف أحمد بإسلام بول يخشى منها، فالأولى عدم إقامته بها، فأحضره الوزير وألبسه قفطانًا بولاية «كرك كنيسة» اسم محل بينه وبين أدرنة ثمان ساعات فلكية.

وكان قبل ولايته بشهرين أرسل بأخيه الشريف سعد إلى البلد المسماة «ويزه» بكسر الواو وتخفيف الزاى وهى قرية أيضًا من «كرك كنيسة» بينها وبينها ثمان ساعات أيضًا، واستمر كل منهما بمكانه إلى سنة أربع وتسعين، فتوجه السلطان إلى السفر، فعند حلوله بأدرنة فسح لهم بالتوجه إلى حيث شاءوا من الديار الرومية، فتوجه مولانا الشريف سعد إلى «إسلام بول»، واستمر الشريف أحمد فى بلده المذكورة، وطابت له وتأنس بها، إلى أن كانت سنة خمس وتسعين فوصل فيها ترجمان مولانا الشريف سعيد بعرض إلى صاحب مصر يذكر فيه ما شرحناه من إفساد مكة بأيدى العبيد، والنهب الذى لا ينقص بل يزيد، وأن البلاد خربت، والأحوال اضطربت، وطلب منه عسكرًا لإصلاحها، ومالا يستعين به على أمور نجاحها، وأظهر أنه مغلوب عليه، وأن كل من أراد شيئًا فمنه وإليه.

فلما وصل إليه أرسل رسولا إلى الأبواب العلية بالتعريف بهذه الأحوال وأرسل معه الترجمان المذكور، فوصلا يوم عيد الفطر، وحصل عند السلطنة العلية اضطراب لهذا الخبر، فاشتورت الدولة، واتفقت على ألا يصلح هذا الخلل إلا أهله

العريفون، وحماته الذين هم فى بيت الملك عريقون.

وبرز فى الوجود ما كان فى علم الله كائنًا، وما قدر به لبلده أن يعود كما كان آمنًا، فاستدعى مولانا السلطان، وهو مقيم بأدرنه عند رجوعه من السفر مولانا الشريف أحمد من محلة كرك كنيسة المذكورة يوم ثالث شوال من السنة المذكورة، فبادر بالوصول إليه، فدخل عليه بعد صلاة العصر، فقابله بالإجلال والإكرام، والتحية والقيام، ووضع كفه بكفه، وتصافحا من قيام، قائلا: اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد عليه الصلاة والسلام.

فكان أول خطاب وقع بينهما أن قال له: يا شريف أحمد، الحجاز خراب؛ أريدك تصلحه، فوضع مولانا الشريف يده على رأسه ممتثلا للأمر قائلا: «نَوْلَهْ»: - كلمة تؤدى معنى القبول والطاعة، فأكرم بها قوله - فعندها خلع عليه من الفرو القاقم الأبيض، وهو الذى دخل مكة لابسًا له، ثم جلس مولانا السلطان، وأشار إلى مولانا الشريف بالجلوس فجلس، ثم أعاد عليه قوله الأول ففعل فعله الأول، ففى الثالثة فعل ما فعل فى الأولیین ثم قال: يا بادشاهى، الحجاز يحتاج إلى فتوح جديد، فأمر حينئذ مولانا السلطان بإحضار يازجى، وأمره بأن يمليه مولانا الشريف أحمد ما يريده فيكتب بمضمون ذلك أوامر متعددة.

ثم قام مولانا السلطان، فخرج مولانا الشريف وقدّم له مركوب من خيل السلطان بعدته، وتبعه من الإكرام والإحسان ما لا يحصره بنان ولا بيان.

ثم توجه مولانا الشريف إلى سرايته التى عينت له بأدرنه، واستمر بها إلى يوم التاسع من شوال المذكور.

ثم توجه مولانا الشريف إلى بلده كرك كنيسة، وأقام بها يومين وضم متفرق أموره وأحواله، وأوصى على أهله وعياله.

ثم توجه إلى «إسلام بول» وبات بها رابع عشر الشهر المذكور، وقال بها نهاره، ثم توجه إلى «أسكدار» ورحل منها يوم خامس عشر الشهر المذكور متوجهًا منها إلى مكة على خيل البريد المسماة فى عرف أهل الروم «الولاق»، فدخل إلى الشام وقد خرج الحاج منها، واستمر مجدًا فى السير والدءوب بما لا يحتمله بشر مما يشق على الراكب والمركوب، بعزمة تطوى مفاوز الأرض طيًا، وينقطع عنها سليك

المقانب كلالا وعيًا. فأرسل إلى مكة بكتاب إلى مولانا، الشريف أحمد بن غالب متع الله بحياته، وإلى الوزير عثمان بن زين العابدين حميدان، وكان قد أرسل إلى أمير الحاج الشامى أن يتربص له بالعلا، فتربص يومًا أو يومين.

ووصل مولانا الشريف إليه، فدخل مدينة جده سيد الكونين، ولبس الخلعة السلطانية بحجرة جده كما لبسها فيها أبوه، واستَرَّت القلوب برؤية محياه وتبلجت الوجوه.

وأما الشريف سعيد، وعمه السيد عمرو فلم يزالا فى انتظار الجواب بالمال والعساكر، وما علما ما صنعه الواحد القاهر.

وفى ثالث شوال: وصل إلى مولانا الشريف سعيد قفطان من صاحب مصر أرسله إليه بعد أن عرض إلى الأبواب، وسيَّر مع رسوله إليها ترجمان الشريف سعيد كأنه تطمين للفؤاد، وتبشير بإتمام ما أرسل فى طلبه من ذلك المراد.

وحين وصول العسكر إلى بيت الشريف أصيب ابن الشريف بركات السيد عبد الله ببندقة أذهبت خنصر يده وكان إذ ذاك مشرفًا من طاق خارجة دار السعادة، فالحمد لله على السلامة لا مانع لما أراده.

فوصلوا بالقفطان، ولبسه الشريف سعيد مستبشرًا بحصول الأمانى والأمان، وكان فى ذلك اليوم بعينه - أعنى ثالث شوال المذكور - ولاية مولانا الشريف أحمد - رحمه الله - للحرمين بالديار الرومية فسبحان الحكيم.

واستمر الشريف سعيد إلى أن اتفق يوم سابع عشرى ذى القعدة من سنة خمس وتسعين وألف المذكورة أن ركب إلى أحمد باشا صاحب جدة، وكان قائلا بالأبطح ببستان الوزير عثمان، واستمر عنده إلى جانب يسير من الليل، ثم ركب وقصد ثنية الحجون ذاهبًا إلى السيد غالب بن زامل، وكان نازلا بذى طوى، فلما جاوز الحجون إذا هو براعى ذلول، فاستخبره من أىّ العرب؟ فقال: من بنى الصخر.

فقال الشريف: معك كتاب من السيد يحيى بن بركات؟ فقال: لا.

وكان السيد يحيى قد ذهب لمقابلة الحاج الشامى، فأمر الشريف بضمه فضم وتهدد بالقتل، فأقر بأنه مورق من الشريف أحمد بن زيد إلى مولانا الشريف أحمد ابن غالب متع الله بحياته، وأنه قد جاء متولى مكة، وأنه لحق الحاج الشامى فى

العلا، فذهب به إلى بيت السيد عمر، واستدعى السيد غالب بن زامل، وعبد الله بن هاشم، واشتوروا فى إظهار هذا الأمر على أى وجه يكون، فاتفق الأمر على أن يرسلوا إلى السيد مساعد ابن الشريف سعد، فأرسلوا إليه السيد عبد الله بن هاشم، فذهب إليه وقال: نريد السيد غالب وكان نازلا بذى طوى، فلما خرج معه عطف به إلى طريق بيت السيد عمرو، فلما دخل بيت السيد عمرو استراب من ذلك، ثم لما رأى الجماعة مجتمعين جلس معهم، فقال له الشريف سعيد: يا سيد مساعد لم أرسل لك هذا الوقت إلا قصدى أودعك أهلى، وإن عمك الشريف أحمد بن زيد تولى مكة، وأنك تقوم مقامه إلى أن يصل، فتلكأ عن ذلك حتى قال السيد غالب بن زامل نقيم سليم أغا، ونحفظ نحن الديرة إلى وصول صاحبها، فوافق السيد مساعد حينئذ على القيام مقر عمه.

ثم أرسل الشريف سعيد إلى أغوات العساكر الذين معه، وقال لهم: إن الأمر أتى إلى الشريف أحمد بن زيد، فأنتم اخدموا سيدكم، وخرج الشريف سعيد آخر تلك الليلة.

ومما قيل فيه من الشعر قولى حين رجع من الديار الرومية موسم سنة سبع وثمانين قصيدة هى [من الطويل]:

تجلَّتْ بمرآكَ السعيدِ لنا البُشرَى ... وأَبدَى الهنا والسعْدَ وجهُكَ والبِشْرَا
وعادتْ لأحشاها بعودكَ سالمًا ... قلوبُ حَشَاها طولُ غيبتكم جَمْرا
وأضحَى وطيرُ السعدِ يسجَعُ مذ بدا ... محيَّاكَ فينا مسفرًا واضحًا بَدْرا
وقرتْ عيونٌ طالما أسهرَتْ أَسًى ... فنامتْ سرورًا بَعْدُ وانشرحَتْ صَدْرا
وما خصَّ هذا الحالُ بعدك واحدًا ... بل الناسُ جمعًا بالدعا لم تَزَلْ تترى
سرورًا بملقاك السعيدِ مبلغًا ... مرامًا سما كَمْ من نفوسٍ به حَسْرى
فيا ابن الكِرَامِ الصِّيد مِنْ آلِ هاشم ... سلالة خَيْرِ الخلقِ من ذا الورى طُرًّا
ويا درَّةَ العقدِ الثمينِ نظامُهُ ... وفَرْعَ الشناخيبِ الميامينِ فى الذكْرَى
ويا مَنْ له من طينةِ المَجْدِ جوهرٌ ... تلألأ نورًا من صفاتٍ له زُهْرَا
ويا مَنْ غذى دُرَّ الكمالاتِ يافعًا ... وطفلًا ففاق الشيبَ فى عقلها قَدْرا
له مِنْ سنام المجدِ ذروةُ شأوِهِ ... وكان لها أهلًا وكانتْ به أحرَى

له منطقٌ فصلٌ ورأيٌ مسدَّدٌ وجودَةُ نفسٍ طابَ منشقها نَشْرَا
وبسط يمينٍ بالنوالِ بنانها حكَتْ خُلُجًا فعمًا بمدِّ الندَى تُجْرَى
طَويل البنا رَحْب الفنا مَنْهَل الغِنَى مُزِيل العَنَا مولى المُنَى فائضًا بَحْرَا
عَرِيض الجدا غَوْث النَّدَا مَوْرِد النَّدَا حمام العدَى والخيلُ دُهْمٌ حكَتْ شقرا
إذا ثوَّبَ الداعِى الصريخُ أجابَهُ سعيدٌ على سعدَى فيظفر فى المَسْرَى
ولا عجبٌ فالفرعُ يتبعُ أصلَهُ على خيرِ نعتٍ يوجبُ الحمدَ والشُّكْرا
طموحٌ إلى نيلِ العلومِ فؤادُهُ على همة تعلُو السماكَيْنِ والنَسْرَا
لبيبٌ أريبٌ لوذعيٌّ مهذَّبٌ له الفكْرُ والفهْمُ الذى يقلقُ الصخرا
أديبٌ ربى حجر الخلافة مَهْده إلى أن رقى مِنْ سَرْجِ شيظمةٍ ظَهْرَا
وهز متون البيضِ مِنْ مرهفاتِهِ وكان ابنَ راعيها وكان بها أَدْرَى
فبوركَ فيه قارئًا لعلومِهِ وفى الروعِ أرواحُ العدَى سيفه يَقْرَا
فحينًا لتقليبِ الكراريسِ كَفُّهُ وحينًا يقلبها القواضب والسَمْرَا
وكَمْ من صفاتٍ فيكَ يعجزُ خاطرى مداها من الوصْفِ الحميدِ أتتْ كُثْرَا
وكَمْ من سجايا فيكَ طابَتْ أصولهَا وكم جهد ما يحصى البليغُ وإن أَطرَى
فدونَكَ يا نجلَ الملوكِ قصيدةً جمعْتُ بها من وصفِ مجدِكُمُ النَّزْرا
مُفَوَّفَةً من خالصِ الودِّ أنشئَتْ لمدحكَ صدقًا لا رياءَ ولا نُكرا
وقد شرفَتْ لما أَتَى فيكَ مدحُهَا وزانَتْ معانى حسنِ أوصافِكَ الشعْرَا
فجاءَتكَ من شوقٍ إليكَ محبةً ولا تبتغى إلا قبولَكَهَا مَهْرَا
فدُمْ وابْقَ واسْلَمْ لا برحْتَ على المدَى مصونًا من الأسوا ومن حادِثٍ يَطْرَا
ولا برحَتْ أيامُ دهركَ كلُّهَا بآثاركَ الحسنَى محجَّلَةً غَرًّا

وقال الشيخ محمد البصرى ثم المدنى، سامحه الله تعالى [من البسيط] :

زارَتْ سعادُ وهى بالبشرِ متزرَهْ ترمِى بألحاظِهَا سهمًا بلا وترهْ
وهى مبرقعةٌ والحسنُ ساترُهَا والشعْرُ منسبلٌ جَلَّ الذى فطَرَهْ
فقلْتُ شيلى الغطا قالَتْ بمعذرةٍ ذا كوكبُ الصبحِ أبدى والظلام سره
فقلتُ ما الأمرُ، قالتْ إنْ تزر بِغَدٍ تَلْقَ البساتينَ فادخُلْ تجتنى ثمرَهْ
فودعَتْنِى وسارَتْ سرت فى قلق والقلْبُ ينشدنى من هَجْرِهَا شعرَهْ

لَيلُ المحبينَ مطويٌّ جوانبُهُ   مشمرٌ ما قضَى فى جنحه وطرَهْ
ما ذاكَ إلا كأنَّ الصبْحَ نمَّ بهم   فأطلع الشمْس ضغنًا مضمرًا قهرَهْ
فبتُّ أرقبُ نجمَ الليلِ فى سهدٍ   حتى أتى الصبْح متبسم بمنفجرهْ
وصرتُ أسعَى وقلبى هائمٌ جذلٌ   طرقتُ بابًا لها فى روضَةٍ عَطِرَهْ
أَفْتَحَ لى الباب واكسانى السرور إذا   قد أمَّنى الدهرُ من عَيْن نفى نكرَهْ
قلتُ الوصالُ فقالَتْ وهى معذرةٌ   هذا دلالاً فإنى خائفَهْ ذعرهْ
والفَتْ تقولُ بإعْجَاب الدَّلاَل لها   كأنها دُرَّةٌ من عقد منتثرَهْ
ما جابكَ اليومَ يا غاوى بساحتنا   عَسَى رضيعُ العلا أبدى لكُمْ فخرَهْ
فقلتُ هو القصْدُ والمأمولُ يا أملى   إنى أديبٌ غريبٌ أستحقُّ قرهْ
فاقْر السلامَ له من سيدٍ سبقَتْ   منه الملاقاةُ فى مدحٍ نقى دررهْ
أعنى سعيد بنَ مولانا الشريفِ ومَنْ   راياتُ عِزٍّ له فى الحَربِ مشتهرَهْ
فهو شريفُ الذى قامَتْ عدالتُهُ   وغدت أمانيه فى البر منتشره
وهو العزيزُ الذى فاضَتْ براحتِهِ   كاسُ المنونِ غزيرا زايدا مررهْ
وهو الهزبرُ الذى هابَتْ لسطوتِهِ   وحشُ الفلاةِ فأمسَتْ ساكنه القفرَهْ
وهو المليكُ الذى ماتَتْ حواسدُهُ   نعم وبادوا حقيقًا أن رأوا خبرَهْ
لا زالَ فى شرفٍ كالبدْرِ فى ترفٍ   بآية النورِ والأعرافِ والبقرهْ
يعنيك نظم بدا من سيدٍ بعدتْ   عنه المنازلُ أمسَى فى زمان تِرَهْ
محمد إسمهُ منْ طيْبَة سعدَتْ   بنورِ خيرِ الورَى طه به فخرَهْ
صلَّى عليه إلهُ العرشِ خالقُنَا   والآلُ والصحْبُ واهلُ البيتِ والسيرَهْ

ثم وليها مولانا الشريف أحمد ابن الشريف زيد ابن الشريف محسن بن حسين بن حسن، وذلك أنه لما خرج الشريف سعيد آخر تلك الليلة - كما ذكرنا آنفًا - ذهب السادة المذكورون فى غدها إلى بيت السيد ناصر بن أحمد الحارث، واجتمعت العساكر عند بيت الحارث، وذهبوا جميعًا إلى أفندى الشرع، وأخبروه بالواقع، فحضر الأفندى، وصاحب جدة أحمد باشا، والمفتى والوزير عثمان بن زين العابدين بن حميدان، وكان الاجتماع فى مقام الحنبلى، فقالت الأشراف: يجلس السيد مساعد ابن الشريف سعد، فانفض المجلس على ذلك، ونودى من حينه،

وذلك يوم الثلاثاء تاسع عشرى ذى القعدة من سنة خمس وتسعين وألف: إن البلاد بلاد الله، والسلطان والشريف أحمد بن زيد نصره الله، وأمر بالزينة سبعة أيام، وجلس مولانا السيد مساعد للتهنئة، ولم يبق صغير ولا كبير إلا أتاه يهنئه، ويهنئون أنفسهم بما أنعم الله عليهم بتولية هذا الشريف، وادَّرَقوا بحماية كهف ذكره المنيف، فناموا بعد السهر، وصفت سرائرهم من الكدر.

وقد أشرت إلى ذلك بقولى فى مديحه من قصيدة: [من البسيط]

بِوَهْمِ ذِكْرِكَ من قبل الوصول صفَتْ   أحوالها بعد خلْعِ العذرِ والرسنِ
ثلاثَ عشرَةَ أعوام لها انصرمَتْ   عمياءَ صمَّاءَ فى عينٍ وفى أذنِ
مسلوبةُ الأمْنِ ممحوٌّ محاسنُهَا   عيونُ سكانِها ممنوعَةُ الوسنِ
حتَّى أتاها ابنُ أمِّ المجدِ معتزمًا   لحسْم داءٍ بها بادٍ ومكتمنِ
فاليومَ عاد لها إنسانُ مقلتها   فالدسْتُ مشتملٌ منه على حضنِ

وأرخ ولايته وزير أخيه سابقًا ذو النعت الفائق الدر النظيم، الجمال محمد على ابن سليم، ببيتين أجاد فيهما كل الإجادة، وألقى الأدباء لحسن وصفهما البديع إليهما المقادة:

وهما : [من الخفيف]

حين بُشْرى الشريف أحمَدَ وافَتْ   ملأ الكون بشرها وتجدَّدْ
عاود التخْتُ مالكًا قلتُ أرِّخْ   عود يمنٍ بذلكَ العود أحمدْ

وقلت أيضًا مؤرخًا لولايته الميمونة: [من السريع]

قضَى إلهُ العرشِ ربُّ السما   أنَّكَ والى الفرش صَوَّانُهَا
وأنَّكَ مِنْ بعدِ خرابٍ بها   حسًّا ومعنًى أنتَ عُمْرَانها
قالَ حجاىَ وهو فى طفحةِ السُّكْرِ منَ الأفراحِ نشوانُها
يجيدُ فيه ضبطُ تاريخِهِ   أتى إلى مكَّةَ سلطانُهَا

ولما كان يوم سابع ذى الحجة من السنة المذكورة: دخل مولانا الشريف أحمد من جهة أسفل مكة وصحبه المحمل الشامى، وجميع عساكر مصر، وجميع عساكر أمير الشامى صالح باشا، وعساكر صاحب جدة أحمد باشا، وعسكر الرتبة القديمة والجديدة، وكان موكبًا عظيما، فحج بالناس على أحسن ما يكون، من الأمن

والدعة والسكون.

وفى رابع عشر ذى الحجة: أمر بشنق سبعة أنفس من السراق.

ثم دخلت سنة ست وتسعين، فى سابع محرم الحرام منها: قطع محمد ولد الحاج أحمد العصائبى المغربى يداه لسرقة بعد أن شفع فيه صاحب جدة إلى مولانا الشريف أحمد، فلم يشفعه إيثارًا لإقامة أحكام الدين، ودفعًا لأذية المسلمين.

وفيها: كثرت الشرور والخصام، والدعاوى بين الأنام، الخواص والعوام، فى الظلامات السابقات فى الأملاك والحقوق والأوقاف، لما رأوا من العدل والإنصاف، واصطبر لضجيجهم والهذا، والتصديع والأذى، حتى أنصف المظلوم من ظالمه، ورد الحق إلى معالمه، كان الله له فى الدارين، وبلغه من كل مأمول ما لا يضبطه الكم والكيف والأين.

وفيها ثانى عشر جمادى منها: قدم الوزير محمد على بن سليم وزير الشريف سعد من بلاد اليمن، وقد خرج من مكة يوم خروج سيده الشريف من منى موسم سنة اثنتين وثمانين وألف، بعد أن رد عقاره الذى بيع فى غيبته، وأخرج واضعى أيديهم عليه بعد أن سبقت دعوى بالوقفية، ووردت شهودها عند قاضى الشرع، فكتب له مولانا الشريف أحمد بكل ذلك، فوصل إلى مكة فى التاريخ المذكور.

وفيها: كانت وفاة العلامة أبى زكريا يحيى ابن الفقيه الصالح محمد النابلى الشاوى المليانى المغربى الجزائرى، شيخنا العلامة، والمحقق الفهامة، إمام المعقول والمنقول، محرر الفروع والأصول. الفحل الذى لا يبارى فى فنون العلوم، والسابق الذى لا يجارى فى مضمار المنطوق والمفهوم. ولد بمدينة مليانة، ونشأ بمدينة الجزائر، وقرأ بها على جماعة، منهم: الشيخ سعيد مفتى الجزائر، والشيخ على بن عبد الواحد الأنصارى، والمحقق محمد بن محمد بهلول السعدى، والشيخ مهدى.

وأخذ عنهم الفقه والحديث، وغيرهما من العلوم، وأجازه شيوخه، وتصدر للإفادة ببلده. وقدم مصر سنة أربع وسبعين وألف قاصدًا الحج وزار قبر النبى ﷺ ورجع إلى القاهرة.

وأخذ عن العلامة سلطان المزاحى، وإمام العصر الشيخ العلامة محمد بن علاء

الدين البابلى، والمحقق مولانا الشيخ على الشبرملسى، وأجازوه بمروياتهم، ثم جلس للتدريس بالجامع الأزهر فدرس فى مختصر خليل، وشرح الألفية للمرادى، وعقائد السنوسى وشروحها، وشرح الجُمَل للخونجى لابن عرفة فى المنطق، ثم رحل إلى الروم، فدخل دمشق وعقد بجامع بنى أمية درسًا، وأخذ عنه جماعة بها وأجازهم، ثم دخل قسطنطينية العظمى، فعظمه مفتى السلطان يحيى المنقارى، والوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلى، وحضر تجاه السلطان الأعظم فبحث مع العلماء وعرفوا فضله، ثم عاد إلى مصر، وولى بها تداريس فى مدارس عديدة.

وله مؤلفات منها: حاشيته على «أم البراهين» نحو عشرين كراسًا، وشرح على «التسهيل» لابن مالك، ونظم «لامية فى إعراب الجلالة» جمع فيها أقاويل النحويين، وما لهم من الكلام، وشرحها شرحًا حسنًا.

قلت: قرأت عليه ليالى الموسم آخر حججه متن السنوسية فى علم العقائد فكان فى التقرير دونه السيل الهدّار، والعباب الزاخر التيار، أملى فى وجوه إعراب كلمة التوحيد، أربعمائة وخمسين وجهًا بالتعديد، فسبحان مفيض ما شاء على من شاء.

وله مؤلف فى أصول النحو جعله على أسلوب «الاقتراح» للسيوطى. أتى فيه بكثير من الغرائب النحوية، أجاد فيه وجعله باسم مولانا السلطان الأعظم محمد بن إبراهيم خان، وقرَّظ عليه علماء القسطنطينية، منهم: العلامة المولى يحيى أفندى منقارى زاده. ولقد أشرفنى ولده الشيخ عيسى ابن الشيخ يحيى على ذلك التصنيف، فرأيت على ظهر الكراس الأول منه تقريظ الأفندى المذكور بخطه ونصه: لا يخفى على الناقد البصير، أن هذا التحرير كنسج الحرير، ما نسج على منواله فى هذا العصر فى النحو ناح، لطيف بمطالعته تنشرح الصدور وتتلذذ الأرواح. انتهى.

وكانت له - رحمه الله - قوة فى البحث واستحضار للمسائل الغريبة، وسعة حفظ مفرطة، وبداهة جواب لا يضل صوب الصواب. كانت وفاته - رحمه الله - فى هذه السنة المذكورة بقرية «الطور» قاصدًا مكة فدفن هناك، فاستأذن ولده سيدى عيسى صاحب مصر، فنبش عنه ونقله إلى مصر، ودفنه بالقرافة. ثم مات ولده المذكور فى الفصل الحاصل بمصر فى السنة التى بعدها ودفن هناك أيضًا - رحمه الله رحمة واسعة -.

وفيها يوم الجمعة غرة رجب منها: كانت وفاة مولانا وشيخنا الشيخ أحمد بن عبد اللطيف البشبيشى الشافعى، شيخ المحققين، وأستاذ المدققين، وبقية الصالحين، وخاتمة العلماء العاملين، وصدور المدرسين. اشتهر صيته فى الأمصار، وشاع فضله فى الأقطار. انتفع به الحاضر والباد، ورحلت إليه الطلبة من أقاصى البلاد، فصار محط رحالهم، ومنتهى آمالهم، لحسن تقريره المسائل على أسهل وجه، وألطف تركيب، وأوجز عبارة حتى تخرج به جمع كثير فى زمن يسير. ولد سنة إحدى وأربعين وألف بـ«بشبيش» قرية من أعمال المحلة، وحفظ بها القرآن على العلامة سلطان المزاحى، ولازمه فى الفقه والحديث والعربية والفَرائض، وغيرها من العلوم نحو خمس عشرة سنة، ولازم أيضًا الضياء مولانا الشيخ على الشبرملسى فى العقائد والنحو والأصول حتى تخرج به، وأخذ عن حافظ العصر مولانا محمد البابلى، وعن شافعى زمانه العلامة محمد الشوبرى، والشيخ ياسين الحمصى، والعلامة سرى الدين الحنفى، والشيخ حسين الخفاجى، والشيخ أحمد ابن عمران الفاسى وغيرهم. وتصدر للإقراء والتدريس بالجامع الأزهر. واجتمعت عليه الأفاضل، وجلس فى محل تدريس شيخه سلطان المزاحى فلازمه جماعته، ودرس فى العلوم الشرعية والعقلية، وحج إلى بيت الله الحرام فى موسم سنة اثنتين وتسعين، وجاور بمكة ثلاثًا أو أربعًا وتسعين مجتهدًا فى الإفادة والتدريس، ناشرًا در علمه النفيس. ثم عزم موسم سنة أربع وتسعين صحبة الحاج المصرى إلى القاهرة.

وحصل له أواخر السنة المذكورة بمكة توعك فى جسمه ارتحل منها، وهو فى أثر منه، وأقام بمصر إلى أن كانت وفاته فى التاريخ المذكور من السنة المذكورة، أعنى: سنة ست وتسعين ببلده «بشبيش»، رحمه الله رحمة واسعة.

وفى يوم الجمعة سابع عشر شعبان منها: دخل شيخ آل ظفير - سلامة بن مرشد ابن صويت - مكة فى أمان الله، وأمان مولانا الشريف أحمد بن زيد خاصة، والأشراف جميعهم عامة، وألقى السلم ودخل تحت الطاعة، فأمر له الشريف أحمد بمضارب نصبت بالمحصب، وأقام قريبا من شهرين، فذكر مولانا الشريف للأشراف أن ابن صويت جاءكم بأهله وحلته، وقد دخل على، فإن عفوتم فأنتم محل العفو فها هو قد استسلم، فأجابوه بالسماح، وكتبوا خطوطهم بالسماح عن ابن صويت عن

جنايته، وذلك ببركة سيد الجميع مولانا الشريف أحمد نظر الله إليه بعين عنايته.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وألف، فى يوم الثلاثاء عاشر ربيع الثانى منها: برز مولانا الشريف أحمد - رحمه الله تعالى - فى موكب عظيم قاصدًا الشرق ومنه إلى بلاد عنزة، فأقام بالمنحنى ثمانية أيام، وفى يوم الخميس تاسع عشر الشهر المذكور بعد شروق الشمس توجه إلى حيث قصد فى دعة الله وكلاءته.

وفى ليلة الإثنين ثالث عشرى ربيع الآخر وقع بيت بحارة الشامية لبعض تجار المغاربة، سقطت سقوفه، فهلك تحته عشرة أنفس ذكور وإناث، منهم الشريفة سلمى بنت السيد عبد الرحمن الشهير بالأسد، وسبب ذلك سقوط جدار لجاره على سطحه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وفى سابع عشرى الشهر المذكور: وصل قاصد من الديار الرومية، يخبر بأن سليمان مير أخور ولى الوزراة العظمى، ومعه منه إلى مولانا الشريف أحمد - رحمه الله - فرو عظيم من السمّور بمقلب أخضر، وكان مولانا الشريف بالمبعوث، فتوجه به إليه الرسول، فقابلته العساكر حين وصوله إلى المبعوث، ولبسه مولانا الشريف، وكتب له الجواب ومضى.

وفى ليلة السبت تاسع عشر جمادى الأولى: توفى الخواجا زين العابدين حميدان والد الوزير عثمان فجأة، بات تلك الليلة فأصبح ميتًا، فدفن ضحى اليوم المذكور، رحمه الله تعالى وأسبغ رضوانه عليه ووالى.

وفى يوم الخميس رابع عشرى الشهر المذكور: كان انتقال مولانا السيد محمد بن يعلى بن حمزة كذلك فجأة بالخبت اليمانى، فحمل إلى مكة ودفن بالمعلاة، رحمه الله.

وفى سادس عشرى جمادى الآخرة: سطا على بعض الأتراك عبد له بخنجر فمات بعد خمسة أيام، فقطع الغلام يداه ورجلاه وبرئ وعاش.

وفى يوم الخميس سادس عشر شوال: وصل مولانا الشريف أحمد - رحمه الله تعالى- إلى مدينة جده ﷺ عائدًا من بلاد عَنَزة، فنزل بالمحل المعروف ببئر ميزان بالقرب منها، وخرج إليه من أهلها القضاة والأعيان، فقال به يومه، ثم وصل منه إلى ضريح سيد الشهداء عم جده - عليهما الصلاة والسلام - فبات به ليلة الجمعة، ثم

ركب منه فدخل المدينة يوم الجمعة سابع عشر الشهر المذكور، فزار قبر جده، وتملا بأنوار سعده.

وفى يوم الأحد سادس عشرى الشهر المذكور: وصل قاصد من الوزير المذكور أيضًا بهدية منها فرو وسيف لمولانا المرحوم الشريف، ووصل معه قفطان لشيخ الحرم النبوى داود أغا من الوزير المذكور أيضًا، فلبسه شيخ الحرم بالمسجد النبوى، واستمر مولانا الشريف بالمدينة الشريفة إلى أن برز منها ثانى ذى القعدة الحرام، ودخل مكة محرمًا بالعمرة ليلة هلال ذى الحجة من السنة المذكورة، فطاف لعمرته وسعى - شكر الله سعيه -، ثم عاد إلى مخيمه بالزاهر على عادة أسلافه الأكرمين، ثم دخل صبيحة ذلك اليوم فى موكب يبهر الناظرين، ويسر البادين والحاضرين.

وفى يوم الأربعاء رابع ذى الحجة من السنة المذكورة: وصل إلى مكة من الأبواب العالية قفطان من السمور الملوكى عاليه صوف أبيض، يصحبه مرسوم سلطانى، ومرقوم خاقانى، يفصح بالثناء على مولانا الشريف، بالنعت الأكرم الأمجد، فألبسه بالحطيم، وقرئ ذلك المنشور الكريم، وكان الواصل به فخر الأغوات العظام، إبراهيم أغا فكان أعظم موكب فى ذلك المقام، وسر به الخاص والعام.

وفى يوم الخميس عشرى ذى الحجة منها: أمر صاحب جدة أحمد باشا بهدم كل خلوة بالمسجد الحرام فهدمت، وما لم يمكن هدمه منها لكونه من بنية المسجد فى نفس جداره أو لكونه فوقه بناء سده ببناء مدعيًا أن لذلك سببًا هو سماعه بحصول فسق فى بعضها، والله أعلم بالحقائق.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين، وكان هلالها بالإثنين، ففى يوم الثلاثاء تاسع محرم الحرام منها كانت واقعة من أحمد باشا المذكور إلى الأفندى عبد الله عتاقى زاده مفتى السادة الحنفية ثار بسببها الخاص والعام، فاستُدعى إلى الحاكم الشرعى، فاعتذر عن الحضور، خشية ما لا يخفى على العاقل من حوادث الأمور. ثم استدعاه مولانا الشريف ليلا لذلك المرام، وقبح عليه فعله، وأوقر سمعه بأليم الكلام، فاعترف بخطئه وخطله، واستعفى طالبًا التجاوز عن زيغه وزلله.

وفيها أواخر المحرم الحرام منها: كان ابتداء عمل الحائط عَلَى المقبرة، ابتدئ،

من أعلى ثنيتى الحجون بجدرين واصلين إلى الطريق بين قبتى الشريف أبى نمى، وولده الشريف حسن منعطفين من ذلك الطريق، أحدهما: صُعُدا يتصل إلى قرب حائط ابن دخان، والآخر: سُفُلا إلى المحل المعروف بالحافظية فصلا بأبواب مرتفعة الأعتاب؛ صونًا للمقبرة عن انتهاك حرمة قبور المسلمين، وعن التلويث والوقيد بنزول الحجاج والمسافرين، وكان هذا الخير مسطرًا فى صحائف الوزير الأعظم سليمان باشا، ومتولى ذلك وزير مكة عثمان ابن الخواجا زين العابدين حميدان، وتلك طرق خير رضى الله عن قاصديها.

هذا مما أحدث فى هذه السنة، نسأله سبحانه اللطف بنا وبالمسلمين فيها وفيما يليها.

وفيها - ليلة الثلاثاء لأربع خلون من ربيع الآخر منها -: كانت وفاة الشيخ الصالح، ذى القدم الراسخ الرابح، العلامة الفهامة الراقى أوج المعزة فى الفضل والكرامة، إمام الطريقة والحقيقة، والمتكلم على معانيهما بالإشارات الدقيقة. شاهد مشاهد أهل العرفان، عاقد عقائد أكاليله التى يخرج منها اللؤلؤ والمرجان، منور البصر والبصيرة، موصل الحضور بحضرة القصيرة التى عنها يد من سواه قصيرة، مولانا وعزيزنا المرحوم، بسحاب الرضوان المركوم، مولانا الشيخ محمد الشهير بالبخشى الدمشقى - رحمه الله برحمته الواسعة وغفر له مغفرة جامعة - توفى بمكة المشرفة فى التاريخ المذكور، ودفن بالمعلاة أمام قبة السيدة خديجة أم المؤمنين، وقد أناف على الستين.

وفيها يوم الخميس عشرى جمادى الأولى منها: وقع النداء بأمر مولانا الشريف أحمد - رحمه الله تعالى - أن لا يقيم بمكة أحد من جنس التكرور، ومن وجد بعد ثلاث عوقب بالنكال. فتهيأوا واجتمعوا فى اليوم الثالث آخر النهار بطرف المعلاة، وقرءوا الفاتحة، ثم توجهوا، البعض إلى المدينة المنورة، والبعض الآخر إلى جدة، والبعض إلى قرية الطائف.

وسبب ذلك على ما قيل: أنه بلغ مولانا الشريف تأتى مفاسد منهم، منها وقوع سرقات من بعضهم، وفشو عمل السحر منهم فى أشرف بلاد الله، فكان ذلك لذلك، والله يتولى السرائر.

وفيها يوم الثلاثاء ثامن عشرى رجب منها: وصل قاصد من ينبع يخبر بورود مستلم محمد بك المعزول به أحمد باشا صاحب جدة. ثم فى ليلة الخميس غرة شعبان منها: وصل المستلم بصورة أمر سلطانى يعزل أحمد باشا هذا صاحب جدة، وشيخ حرم مكة، والطلب الحثيث له بسرعة، وعلى الصورة خط قاضى عسكر مصر، والعدول بولاية السنجق محمد بك مكانه، فصعد هو ونائب الحرم السيد محمد، وقد فوض السنجق النيابة إليه إلى مولانا الشريف المرحوم، فألبسهما مولانا الشريف قفطانين، وأقر منهما الخاطر والعين، ثم نزل فسجله قاضى الشرع، وأرسل مولانا الشريف إلى أحمد باشا يخبره بوصول المستلم وما معه، وأقام المستلم يومه بمكة، وصلى الجمعة ثانيه، ثم توجه إليه إلى جدة المعمورة، فقابله المقابل الحسن، وألبسه قفطانًا، وجعل له حال دخوله موكبًا عظيمًا، ومد له سماطًا.

ثم فى يوم الجمعة تاسع شعبان: وصل أحمد باشا إلى مكة، وتأهب للرحيل، على غاية السرعة والتعجيل، وقاد إليه مولانا المرحوم الشريف أحمد - على طريق الرعاية والمعونة - نحو العشرين من نجائب الركائب الميمونة، وكذلك قاد إليه مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته ثنتى عشرة من الركائب، إحداهن مكملة الآلة بالشداد المحلى وما يتبعه.

ثم لما كان يوم الإثنين عاشر الشهر المزبور: توجه خارجًا من ثنية الحجون، فى خيل نحو الثلاثين إذ يُعدّون، مشى معه السيد على بن أحمد بن على، وبعض القواد إلى المأمن.

وفى يوم الإثنين سادس عشرى الشهر المذكور: وصل إلى مكة السنجق محمد بك أمير اللواء المتقدم الذكر، فتُلقى بالآلاى والموكب العظيم، فأقام إلى يوم الجمعة مستهل رمضان، وصلى الجمعة، ونزل جدة يومه ذاك.

وفى هذا الشهر: ورد الخبر عن قرية الطائف، بأن قد طاف عليها من الدبى طائف، فظل يتهافت على الأشجار والزروع، وعلا تلك الساحات والربوع، يأكل ما دبَّ عليه ودرج، ويقرئ الناس كتاب الشدة بعد الفرج، وأناف على القمَّل والضفادع، وبذل نفسه لهم فى المآكل والمشارب والمضاجع، وترك الأشجار عارية كأنها محروقة، والأرض من تلك البقول والقطانى مجردة مطروقة.

وفى يوم الجمعة ثانى عشر ذى القعدة الحرام من السنة المذكورة: ورد مبشر يخبر بنصرة سلطان المسلمين، على الكفرة أعداء الدين، وأنه قد قتل، وأسر منهم ما ينيف على سبعين ألفًا، واسترد بعض ما استولوا عليه من البلاد، والحمد لله على حصول المراد، وأن القاصد السلطانى واصل عقبه وهو بالشام، والله المؤيد لملة الإسلام.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وألف كان هلال محرمها بالجمعة، فيها يوم الإثنين حادى عشر محرمها: تقلد منصب الوزارة المكية رفيع المحل والشان، حضرة يوسف أغاسنان، وانفصل عنه الخواجا عثمان بن زين العابدين حميدان.

وفيها يوم الأحد تاسع صفر منها: كان ابتداء فتنة بين مولانا المرحوم الشريف أحمد بن زيد، ومولانا الشريف أحمد بن غالب متع الله بحياته، لأمر جار على القواعد نقمه عليه لم تطب به نفسه طلب منه نقضه فامتنع، فخرج مولانا الشريف متع الله بحياته ليلة الثلاثاء حادى عشر الشهر المذكور إلى محله المعروف بالركانى من وادى مر، وانحاز إليه جمهور السادة الأشراف على مثل رأيه، وأعطوه مواثيقهم أن العصا واحدة، ولم يرجع عنه منهم إلا اثنان، وأخذ أجلة خمسين يومًا ثم عشرة، ثم رحل هو ومن معه قبل تمامها أواسط ربيع الأول فتوجهوا مع سلامة الله وكلاءته إلى جهة مصر. ثم فى يوم سابع عشر الشهر المذكور سير مولانا المرحوم الشريف أحمد خلفهم من العسكر مائتين وخمسين اتِّفَاقًا، ثم فى يوم الإثنين ثانى عشرى الشهر أتبعهم بالسيد باز بن هاشم فى عشرة من بنى أبيه، وبالسيد ناصر فى عشرة من ذوى جود الله، وبالسيد عبد المحسن فى عشرة من ذوى باز.

وفى اليوم الثامن من ربيع الآخر: برزت رتبة من العسكر إلى بلاد الفرع.

وفيها ليلة الخميس غرة جمادى الأولى منها: اتفق بمكة اجتماع نساء ليلا لفرح بمحل قرية عشاش بطرف شعب عامر، فشبت نار ضعيفة فى بعضها، فأطفئت فى الحال بقليل ماء، ثم صرخت حرمة كأنها بنت إبليس: النار، يا نساء، فركب بعضهن بعضًا، وازدحمن على الخروج مستبقات الباب، وقد أغلق خوفًا على متاعهن من النهب فتحايلن عليه فسقط فابتدرن الخروج، وكان فى عتبة الباب ارتفاع فوقع بعضهن على بعض فمات أربع منهن فى الحال، وتكسر نحو خمس وعشرين،

وبعضهن أخذه الخبل من الروعة، فما شاء الله كان.

وفيها - فى الساعة الثالثة من يوم الخميس الثانى والعشرين من الشهر المذكور -: انتقل إلى رحمة مولاه الكريم مولانا وسيدنا سلطان الحرمين الشريفين، حامى حمى المحلين المنيفين، سلالة السادة القادة، الحال منهم محل اليتيمة من القلادة، مولانا وسيدنا المرحوم الشريف أحمد ابن المرحوم الشريف زيد تغمده الله برحمته ورضوانه، وأحله أعلى فراديس جنانه. وتولى غسله السيد محمد النعمى، وأعانه مولانا السيد ثقبةبن قتادة، ومولانا السيد محمد بن حمود، والشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ حنيف الدين المرشدى، ويوسف الملقب شيخ القراء، ومن لابد من الأتباع، وصلى عليه بعد صلاة العصر يومه بعد فتح الكعبة الشريفة، ودعاء الريس له وترحمه عليه بأعلى قبة زمزم - مولانا الشيخ أحمد ابن الشيخ محمد النخلى، ودفن على والده المرحوم الشريف زيد بقبة الشريف أبى طالب، رحمهم الله تعالى برحمته، وأسكنهم فسيح جنته.

كانت مدة ولايته باعتبار توليته بالأبواب العالية ثلاث سنوات، وسبعة أشهر، وتسعة عشر يومًا، وباعتبار ورود الخبر إلى مكة وجلوس ابن أخيه السيد مساعد قائمًا عنه ثلاث سنوات، وخمسة أشهر، وثلاثة وعشرين يومًا، رحمه الله تعالى.

ومما قيل فيه من الشعر: قول صاحبنا الفاضل الشيخ سالم بن أحمد بن إدريس اليمنى الصعدى: [من الكامل]

سمَحَ الزمانُ لنا بملكِ بنى حَسَنْ ... فلذا شهِدْنَا أنه زمَنٌ حَسَنْ
لله مِنْ زمنٍ صفَتْ أوقاتُهُ ... بدوام دولةِ مَنْ له العليا شجَنْ
ألمالكُ الملكُ المؤيَّدُ أحمدُ بْـ ... ـنُ المنتقَى زيد المليك المؤتمَنْ
رأسُ الملوكِ يمينُهُمْ زندُ الرعيَّة كهفُهُمْ يومَ المخاوفِ والمحنْ
ملكٌ أقام السعْد يخدمُهُ على ... رَغْم الحسودِ أخى الضغائِنِ والإحَنْ
ملكٌ له العزُّ المخلدُ لم يزلْ ... عبدًا يحفُّ ركابه طولَ الزمَنْ
ملكٌ غدا المجدُ الأثيلُ ألِيَّةً ... نعلًا لأخمصه المصانةِ عَنْ دَرَنْ
ملكٌ له الفخْرُ المؤبَّدُ قد غدا ... من جملةِ الأنصارِ والجُنْدِ العَوَنْ
ملكٌ تتوَّجَ بالسيادةِ والعلا ... وتدرَّعَ الفضلَ الذى لم يمتهَنْ

ملكٌ له فى الجودِ شهرةُ حاتمٍ وسماحَةُ الغيثِ الملثِّ إذا هَتَنْ
ملكٌ إذا نزلَ الفقيرُ بسوحِهِ أنساه تذكارَ الأقاربِ والوطَنْ
ملكٌ إذا أمَّ الفقيرُ نوالَهُ أضحَى يطوِّقه أعاجيب المِنَنْ
ملكٌ له يومَ العطاءِ طلاقةُ الـ ـوجهِ الذى ماءُ الحياءِ به قطَنْ
ملكٌ له الخلْقُ الوسيمُ كذا له الـ ـخُلُقُ العظيمُ كذا له الفعْلُ الحسَنْ
مِنْ آل طه والبتولِ وحَيْدَرٍ مِنْ نخبةِ الأشرافِ أبناءِ الحسَنْ
مِنْ سادةٍ أضحَى حديثُ علاهم تالله يَطْوِى نشره عنا الحَزَنْ
مِن قادةٍ قطعوا ببيضِ سيوفِهِمْ تلكَ المواضى دَابِرَ القومِ الخوَنْ
مِن عُصبةٍ ساروا على سَنَن الهدى قدمًا فيا نُعْما بذَيَّاكَ السنَنْ
مِن فتيةٍ شُمِّ الأنوفِ القائمـيـ ـن بحَملِ أعباءِ الفرائضِ والسنَنْ
وسليل زيدِ الملك هذا المرتضَى هو خيرُهُمْ نفسًا وأزكاهُمْ هدنْ
هذا الذى ملأ البِقَاعَ أمانُهُ فأراع جيْشَ الخوفِ بعد أن اطمأَنّ
حتى رَعَى ذئبُ الفلاةِ مع الظبا وتكحَّلَ الجفنُ المسهدُ بالوسَنْ
هذا الذى طافَتْ مكارمُهُ بأر ضِ الصينِ بالروم المعمرِ باليمنْ
هذا الذى سارَتْ عوارفُهُ من الـ ـبلدِ الحرامِ إلى العراقِ إلى عَدَنْ
وإلى مآثِرِ طيبةَ الغرَّا إلى أرضِ الحجاز إلى الخبوتِ إلى قرَنْ
هذا الذى بكمالِ وافرِ عدلِهِ خمدَتْ لظَى نارِ المظالم والفتنْ
صعبُ العزائمِ من فرى بصفاحِهِ ورماحه مَنْ شا ومَنْ شَا قد طَعَنْ
ثبتُ الجنانِ إذا التقَى الصفَّانِ أثـ ـبت من كسا جُنن البسالة والمننْ
طلْقُ اللسانِ إذا أشار إلى البيا نِ أجَلُّ مَنْ وهب الفصاحَةَ والفطَنْ
يابن الكرام الأقدمينَ ومَنْ لهم غُرَرُ المعالِى لم تزلْ أبدًا خدَنْ
يأيها الملكُ الذى حَمِدَ الورَى أفعالَهُ اللاتى بها الخيرُ اقترَنْ
خُذْهَا قصيدةَ مخلصٍ فى ودِّهِ لكَ فى حميدِ السرِّ منه وفى العلَنْ
غرّاء هذَّبَها الذكاءُ وصاغَهَا الـ ـفكْرُ الذى هو بالمتاعِبِ فى وَهَنْ
هذا ولولا صحبَةُ الصبرِ الجميـ ـلِ لفارَقَ الأهلِينَ واصطَحَبَ الظعَنْ
فأَجِزْ منضِّدَهَا اللجين فإنه رجلٌ عليه الدهرُ بالدينارِ ضَنّ

واسلَم ودُمْ طولَ الزمانِ مكرمًا ... ما غرَّدَ القمرىّ الطروبُ على فَنَنْ
وغدَتْ جميعُ الخلقِ تنشدُ فرحةً ... « سَمَحَ الزمانُ لنا بملكِ بنى حَسَنْ »

وقولى رثاء فيه وتأريخًا لوفاته مخاطبًا نجله السعيد عبد المحسن [من مخلَّع البسيط]:

فاجأنا دهْرُنا المفاجِى ... سطا علينا بطُولِ أَيْدِى
طاشَ حجانا لما دهانا ... بمَنْ حجانا صُرُوف كَيْدِ
وَهَى عمادُ الوجودِ خرَّتْ ... سماه وانهارَ كلُّ حَيْدِ
هدَّتْ رواسى ذُرَى المعالِى ... دُكَّتْ شناخيبُ كل طَوْدِ
لموتِ سلطانِنا المرجَّى ... أبى سليمانَ زَيْنِ أَيْدِى
ألملكُ النائفُ المراقى ... وشائدُ العزِّ أيَّ شَيْدِ
حامى حِمَى الملكِ بالعوالِي ... وتاركُ الصِّيدِ شِبْهَ صَيْدِ
أكرمُ مَنْ نحوه المطايا ... تُزجى بها دلّها وهَيْدِ
قِيدَتْ إليه الأمورُ طوعًا ... يرسفُ فى غُلِّهَا بقَيْدِ
قرتْ عيونٌ جفَتْ كراها ... به كذا الأرضُ بعد مَيْدِ
شبَّ فؤادٌ به فلمَّا ... أودَى به اعتاضَ شيْبَ فَوْدِ
ناحَتْ عليه بكلِّ صوتِ ... مكَّةُ من ناشئٍ وعَوْدِ
فأعظَمَ الله فيه أجرَ الـ ... جميعِ خُصِّصْتَ فضلَ زَوْدِ
ألهمَكَ الصبْرَ فى رضاهُ ... رَوَّى ثراه سحابُ جودِ
أسكنَهُ منزلاً رفيعًا ... فى جنَّةِ الخلدِ خَيْر فَيْدِ
دونَكَ بشرَى بفالِ خيرِ ... تاريخ عام بضبط جَيْدِ
دَار نعيم حَبَى كريم ... قَرَّ بها أَحْمدُ بنُ زَيْدِ

ثم وليها الشريف سعيد ابن الشريف سعد ابن الشريف زيد ابن الشريف محسن ابن حسين بن حسن، وذلك أنه لما توفى مولانا المرحوم الشريف أحمد بن زيد - تغمده الله بالرحمة - قبل الشروع فى تجهيزه، أرسل مولانا الشريف سعيد - حفظه الله تعالى - إلى أفندى الشرع الشريف يطلب منه قفطانًا، وقد حضرت السادة الفقهاء، وكبار العساكر عند الأفندى، فقال مولانا الأفندى: لا بأس أن تصبروا

وتمهلوا نحو خمسة أيام نرسل لأكابر الأشراف، ونرى من يختارونه فيكون هو، فامتنع أغاة الينكشارية، وقال: أنا لا أريد مصلحة، لا أريد إلا صلاح البلاد، وإذا لم يتول هذا الرجل تلفت البلاد، فتأثر الأفندى من كلامه، وفهم تعريضه به، فاعتذر الأغا إلى الأفندى فى الحال، فأعطاه الأفندى القفطان على أن يلبسه الشريف قائم مقام إلى أن يرسلوا إلى الأبواب العلية، ويعرّفوا بالحال، فأتوا بالقفطان إلى الشريف سعيد، وقالوا له ما قاله الأفندى، فقال: لا ألبسه إلا استقلالا، أنا ابن سعد بن زيد، فلبسه وأطلق مناديه بالبلاد، ومعه السيد عدنان بن حسن، والسيد محمد بن سرور وغيرهما.

ثم أمر بالزينة ثلاثة أيام، ثم أمر بزينة يومين ثم يومين، إلى أن كملت اثنى عشر يومًا.

وفى يوم الإثنين سادس عشرى الشهر المذكور شهر جمادى الأولى: وصل مورق من ينبع من السيد عبد المحسن يخبر والده - على ظن حياته - بوصول قابجى يسمى أحمد أغا صحبته مرسوم شريف سلطانى، وقفطان وسيف مرهف باسم والده مولانا الشريف أحمد، وقفطان لسنجق جده الأمير محمد بك، فكان وصول مورقه فى اليوم المذكور بعد وفاة والده بأربعة أيام.

وفيها ليلة الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة: وصل السيد محمد - مير أخور المرحوم الشريف أحمد الذى كان قد أرسله إلى الأبواب - تقدم عن القابجى بيومين.

ثم فى سادس الشهر المذكور: دخلت القفاطين السلطانية، واجتمعت السادة والأعيان والكبار على العادة فى الحطيم، ولبس القفطان الشريف سعيد، وتمنطق بالصارم المجوهر نصابه من حجر اليشم المفتخر، وقرئ المرسوم السلطانى المتوج بالاسم الشريف السليمانى بعد أن حول خطابه إلى اسم الشريف سعيد بن سعد فيه التصريح بأن ابتداء جلوس مولانا السلطان سليمان على تخت السلطنة كان يوم السبت ثانى محرم الحرام من السنة المذكورة، أعنى: سنة تسع وتسعين وألف.

ثم نودى بالزينة سبعة أيام، ثم بعد مدة يسيرة نزل القابجى المذكور إلى جدة بالقفطان السلطانى إلى حضرة السنجق المكرم أمير اللواء الأمير محمد بك، فألبسه القفطان الذى هو له، وقابله من الإكرام بما كان أهله، وكان يومًا مشهودًا.

وفيها ليلة الخميس رابع عشر الشهر المذكور - أعنى: جمادى الآخرة -: دخل مكة السيد عبد المحسن، وابن عمه السيد مساعد، وغالب الذين كانوا معهما.

وفى سابع عشره خرج على سبعة عشر أصحاب ركائب زوّار قصدوا طريق زقاقة بعد ركوبهم من المنزل المسمى مستورة بساعة خمس مردفات معهم خمس من البندق رموهم بهن، فأخذوهم ما عدا ثلاثة أنفس فروا راجعين إلى مستورة، فخرجت عليهم أربع مردفات كانت كامنة، فأخذوهم فرجع الجميع إلى مستورة، فى حالة ليست بمستورة، ولله الأمر لا راد لما أراد.

وفى تاسع عشر الشهر المذكور: كانت بالمدينة واقعة السيد محمد البرزنجى مع السيد محمود الكرديين، ادُّعى على السيد محمد ضربُ السيد محمود، فدعاه الحاكم الشرعى أولا وثانيًا، ثم أتاه قهرًا على ما سمع، واجتمعت العساكر من العامة لسماع الدعوى، فأنكر السيد محمد الفعل، ووقع بينه وبين الأفندى حال الله أعلم بحقيقته آل الأمر فيه إلى حبسه بأسفل القلة الكبيرة رأس القلعة. وسيأتى ذكر تسحُّبه وخلوصه من ذلك المحل إن شاء الله تعالى.

وفى يوم الجمعة ثانى عشر الشهر المذكور: كان بروز الشيخ سعيد ابن المرحوم الشيخ محمد المنوفى صحبة العرض إلى الأبواب العالية فى شأن تولية الشريف سعيد بن سعد مكة، وطلب التأييد بالأمر السلطانى، فعيق عن قصده قبل مجاوزته المحل المسمى بالمويلح، وأصبح عذبه الفرات مويلح.

وفى ليلة الأحد حادى عشرى شعبان: وصلت ثلاثة نجاب من بنى صخر من صالح باشا صحبتهم مكاتيب من مولانا الشريف سعد تعزية لابنه الشريف سعيد وتهنئة. هكذا أشيع، والله أعلم بالحقائق.

وفى ليلة الثلاثاء غرة رمضان: وصل الشيخ سعيد ابن المرحوم الشيخ محمد المنوفى بحرا إلى جدة ثم إلى مكة، فدخلها عشاء الليلة المذكورة، وقصد إلى بيت الوزير يوسف السقطى - وكان الشريف سعيد إذ ذاك عنده - فأخبره بما وقع له فى سفرته.

هذا وأما الخبر عن مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، فإنه لما سار هو ومن معه من السادة والأتباع فى شهر ربيع الأول مضى إلى أن انتهى به السير إلى محل

يسمى بحرا بين المحل المسمى بالأزلم، والمحل المسمى كفاف منزلتى الحاج المصرى فأقام به، ووصل إليه به سابع عشر جمادى الأولى القابجى أحمد أغا صاحب القفطان المتقدم ذكره، فقابله مولانا الشريف متع الله بحياته بغاية الإكرام، ونهاية الإجلال والإعظام. كما هو شأن طبعه الشريف، ودأب خيمه الزكى المنيف، وأقام عنده يومين، ثم رحل بما أرسل به لمن أرسل إليه.

ثم إن مولانا الشريف - متع الله بحياته - أرسل مولانا السيد شبير ابن السيد مبارك معه السيد درّاج الهجالى فى جماعة من الأتباع إلى محافظ مصر حسن باشا بلغه الله من الخيرات ما شاء بعرض يتضمن ما أراده.

وكان رحيل السيد شبير ومن معه يوم الخميس ثانى عشرى الشهر المزبور، أعنى جمادى الأولى، وهو اليوم الذى توفى فيه المرحوم الشريف أحمد، فدخلوا مصر، وأوصلوه العرض.

ولما كان يوم سابع عشر جمادى الآخرة: وصل إلى مصر خبر وفاة المرحوم الشريف أحمد، فحينئذ أخرج لهم أمرا وقفطانًا باسم مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، وسيَّره مع كيخيته، وضم إليه أغوات البُلكات من كل بلك جوربجى.

فخرجوا من مصر ثانى عشرى شعبان المعظم.

ثم أعرض إلى الأبواب العالية لمولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - بالسير الشديد على خيل البريد لتأييده بالأمر السلطانى والقفطان الخاقانى.

ثم إن السيد شبير بعد خروجه من مصر أرسل إلى مولانا الشريف متع الله بحياته: إنا واصلون إليكم عن قريب صحبة القفطان، ومن معه، فأقبل مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - هو والسادة الأشراف، وخدامهم وأتباعهم إلى الينبع، فأقام بها أيامًا، ثم منها إلى قرية بدر، وكان دخوله إليها خامس عشرى شهر شعبان المعظم فأقام بها.

ثم لما كان يوم الجمعة ثامن عشر رمضان: وصل إليه القفطان، ومن معه من الأغوات، فألبسه بمسجد الغمامة منها، وهو الموضع الذى بنى فيه العريش للنبى ﷺ فقعد فيه يوم وقعة بدر المشهورة؛ كما ذكره المؤرخون الأقدمون، ثم ساروا جميعًا مقبلين إلى مكة - زادها الله شرفًا - وقد كان جاء يوم الإثنين رابع عشر

رمضان المذكور مورق إلى مكة من حضرة السنجق محمد بك صحبة مكتوب إلى حضرة الأفندى، وأكابر عساكر مصر مضمونه: أنه قد جاءنى صورة أمر من باشا مصر بولاية الشريف أحمد بن غالب، وأن يبرزوا لمقابلة القفطان ومن معه، فلما وصل ذلك المكتوب طلعوا إلى الشريف سعيد، وأخبروه بما فيه، وكان الشريف سعيد قد سمع بأن قد نودى باسم الشريف أحمد فى جدة، فأجابهم بقوله إن كان بيد السيد أحمد بن غالب أو السنجق أمر سلطانى، فليأتوا به ونحن مطيعون للأمر السلطانى، وإن كان غير سلطانى فحكم الباشا على مصر وصعيدها، يعزل فيه ويولى من شاء، وما دون مكة إلا السيف، فقال له الأفندى عند ذلك: يا مولانا هذا وزير مصر يعزل ويولى، فكذبه صريحًا وقال: يعزل ويولى لمثلك، ثم قال لكبار العساكر: أنا لا أمنع من يريد الخروج، ولكن اعلموا أن أول خارج أول من أضع فيه السيف، وإلا فالزموا بيوتكم لا معنا ولا علينا.

ثم سطر كتابًا للسنجق قال له فيه.

مثل قوله الأول: إن كان معك أمر سلطانى فأقبل أنت ومن معك، وإلا فارجع من حيث جئت، فوصل الكتاب إلى السنجق، وهو بالمحل المسمى بحرة من طريق جدة، فأعاد السنجق الجواب: لابد من الدخول، فلما سمع الشريف سعيد هذا الجواب أمر عساكره بصعود المنائر، وشحنت بيوت أعلى مكة وأسفلها بالعسكر، وانتقبوا فى جدرها متارس حصار، وأرسل بنحو خمسين خيالا وعشرين دبابًا عليهم السيد حسن بن عبد الكريم بن حسن بن على بن باز، وقال: أينما لقيتموه فردوه فإن رجع، وإلا فكذا وكذا، فخرجوا بعد صلاة العشاء حتى واجهوا مخيمه مقبلا على أدنى محل إلى مكة فردوهم، ثم ساروا هنيهة حتى لاقوه، فتقدم إليه السيد حسن المذكور، وقال: يا سنجق يقول لك الشريف ارجع وإلا كذا فى هذا المكان، من حذّر فقد أنذر.

ثم قال لمن فى صحبة السنجق من الأشراف وهم السيد محمد ابن السيد مساعد، والسيد عبد الله بن أحمد الحارث، والسيد صالح بن السيد مساعد: يقول لكم الشريف: ما لكم دخول ديرتى ارجعوا من حيث جئتم، فرجعوا، ثم رجع السيد حسن فوجد مورّقًا من الأفندى، وكبار العسكر إلى السنحق يعتذرون عن الخروج

إلى ملاقاته، ويأمرونه بالدخول ليلا هو ومن معه إلى مدرسة الأفندى ليكون أمرا بُيّت بليل، فازداد بهم ريبًا إلى ريب هكذا أشيع فى البلاد، وكذا أشيع ليلة الإثنين حادى عشرى رمضان أن بعض عسكر رتبة الفرع مقبل إلى مكة لغرض له وجد مكتوبًا مع مورق أرسله محمد أغا البغدادى إلى مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، فأوصله إلى الشريف سعيد فقرأه ودعا البغدادى بعد صلاة التراويح، ووبخه فقال: ما وقع منى شىء من هذا، وحلف بحياته أنه ما كاتب، فأظهر له الشريف ذلك المكتوب، ثم أمر به فضم وزنجر، واستدعى بعبده فأخذ من الحجر المطهر، فأمر بضمه مع سيده فرمى برأسيهما من ليلتهما بأقصى أجياد أبى القاسم، وكسرت أبواب بيوته، وأخذ جميع ما فيها، وكان شيئًا كثيرًا من أنواع كثيرة بعد أن حاصر فيها بالبندق أربعة من عبيده رأسهم عبد حبشى، يقال له: شاهين نحو المائتين من عبد وعسكرى إلى تذكير الصبح، وكمن شاهين خلف الباب، فلما كسر ودُخل عليه طعن أول داخل فقتله، ثم قتلته العسكر عند باب الشريف، وحمل قتيلا وألقى فى الواسعة، ولكل أجل كتاب.

ثم إن حضرة السنجق محمد بك استقبل مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - ومن معه من السادة الأشراف، والأغوات بالآلاى والنوبة عند انفصالهم من أدنى ملاوى وادى مر، فواجههم وحياهم ثم دخلوه معًا جميعًا، ثم ورد عليهم به مولانا السيد أحمد ابن السيد سعيد بن شنبر بن حسن، فركب إليه مولانا الشريف - متع الله بحياته - وتلقاه من بُعد، واعتنقا بخالص الصُّدقة والودّ، وأتاه من العَنْلة فى قريب من خمسين عنان، كان الله له حيث كان.

وفى ليلة الثلاثاء تاسع عشرى رمضان المزبور: وصل الخبر أن مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - نزل بوادى مر هو والسادة الأشراف والسنجق، ومن معهم فأمر الشريف سعيد حينئذ الفعلة ببناء متارس عديدة على رءوس جبال الزاهر، ومضايق ثنيتى كداء وكدى ورتب فيها العساكر وفى غالب الأماكن المطلة على المنافذ.

وبرز فى تلك الليلة السيد مساعد ابن الشريف سعد فى عشرة من السادة الأشراف، وبعض خيالة ونحو ستين بواردیًا وبمدفعين اثنين سحبا بأكتاف الرجال

لإعواز أقتاب الجمال وبات تلك الليلة بالزاهر.

وفى ليلة الخميس مستهل شوال ليلة العيد: ورد الخبر بوصول مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - إلى النوارية محل على نصف المسافة من وادى مر، وأشيع أن قصده الدخول وذكر اسمه فى خطبة العيد على منبر الحرم الشريف، فأرسل مولانا الشريف سعيد مولانا السيد باز بن هاشم، والسيد واصل بن أحمد إلى مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - يطلب إرسال الأمر الذى وصل إليه ليشرف عليه، فلما وصلا إليه لهذا الغرض غضب السنجق محمد بك المذكور، ومن معه من الأغوات، وشرابجية البلكات، وقال: ليس الأمر ملعبة وحصل بينهم كلام.

فقال مولانا السيد أحمد بن سعيد بن شنبر: يا أمير نحن رفاقة نصطلح ثم أخذ السيدين المذكورين، وتكلم معهما بكلام لم تبلغنا حقيقته الله أعلم بها، فرجعا إلى الشريف سعيد فأخبراه، فعزم حينئذ على إخلاء مكة، والخروج منها، وأمر العساكر بمفارقة المتارس، والدور التى كانوا بها، وخرج نصف الليل من ليلة الجمعة ثانى شوال، وخرج معه أخوه السيد مساعد وابن عمه السيد عبد المحسن وغيرهما، وعبيدهما وأتباعهما توجهوا إلى قرية الطائف، ثم طلب بعد ذلك من مولانا الشريف إقامة مدة شهرين بها فأعطيها، وفى حال خروجهم دخل مولانا السيد حسن بن غالب فى جماعة من الأشراف والأتباع لحفظ البلاد عن الشغُور، ولله عاقبة الأمور.

وكانت مدة ولايته أربعة أشهر، وعشرة أيام من غير زيادة ولا نقص، يجمعها حروف قولك: كل له مدا.

ومما قيل فيه من الشعر قولى، وقدمتها له يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى من سنة تسع وتسعين وألف [من الطويل]:

سقَى معهدًا بين الأثيلِ وناجمِ ... سحوحُ العهاد الغادياتِ السواجِمِ
دريسًا عفَتهُ الهوجُ مذ بَرِحَ النوَى ... بأهليه تكسُوهُ سمال السمائمِ
نظرْتُ إلى أطلالِهِنَّ ونؤيها ... مثلَّمة فى جنْبِ سُفْعٍ جواثمِ
كأنَّ الأثافى السودَ كبدى قطعْنَهَا ... ظُبى البَيْنِ أثلاثًا كتقسيمِ قاسمِ
فدرَّتْ بمرآها شئون مدامِعِى ... وظَلْتُ وإياها كَبَوٌ ورائمِ
كأنْ لم تكنْ للغيد مأوًى ولم تقمْ ... على دوحِهِ ألحانُ وُرْقِ الحمائمِ

بلَى قَدْ عهدناه كذَاكَ فصوَّحَتْ نضارتَهُ طوحُ الزمان المتاخِمِ
معاهدُ لمياءُ البديدِ تجرُّ في ثراها ذيولاً عاطراتِ النسائمِ
تميلُ كما مالتْ غصونُ رياضها بنشآتِ خمرات الصبا لا المآثِمِ
على غُرَّةٍ كالشمسِ من تحتِ طُرَّةٍ تزينُ الضيا منها بأسوَدَ فاحمِ
ومُقلة أدماء الجَوَازى مطفل أريعَتْ بقَنَّاسٍ من انمار ساغمِ
جَرَى فوقها قوسٌ من النونِ موترٌ نبال رنا رِيشَتْ بأهدابِ رَائِمِ
لها سلكُ دُرٍّ قفل فيروزج الوشا م دَارَ به فى نصْفِ دورةِ خاتمِ
به الشهْدُ ممزوجًا بصهباءَ خامرَتْ مع الصبْحِ مسكًا مستطابَ المناسمِ
ومهضوم كَشْحٍ مخمص الغور رقَّةً بعقد بريم فيه حُلَّتْ برائمى
لها الجِسْمُ لَما حلَّه صَخْرُ قلبها كذاك أتانُ الضَّحْلِ أقسى الصلادمِ
براها إلهُ العرشِ عُقْلَةَ عاقلٍ وفتنةَ نسّيك وزلة عالمِ
إذا وعَدَت ألوَتْ وإن أوعَدتْ وفَتْ وكم أشمتَتْ إذ خفتُ إشمات لائمِ
شُهِرْتُ بحبيها فصرْتُ كأننى كبيتِ قريضٍ من مديحِ ابن هاشمِ
سعيدُ بنُ سعدِ إبْن زيدِ بنِ محسنٍ خلاصة خيرِ الخيرِ من وُلْدِ آدمِ
شريفٌ له من قبضةِ النورِ جوهرٌ تكوّن شخصًا من عليٍّ وفاطمِ
مليكُ بلادِ الله وابْنُ ملوكها وحامى حماها قَبْلَ نوطِ التمائمِ
له منطقٌ ماء النهَى منه صيِّبٌ ورأيٌ مصيبٌ فى عظيمِ العظائمِ
أعز حمى مَنْ لاذَ منه بذمَّةٍ ومَنْ قرَّبته منه أدنى الملازمِ
محاسنُ ساداتٍ مضوا فيه جمِّعَتْ كجمعِ الغديرِ القطرَ غبّ الغمائمِ
فمن خلقه لم تلق أحسنَ مظهرًا سوَى مضمرٍ من خُلْقِهِ والعزائمِ
بنَتْ فى مراقى الغرّ آباؤُهُ العلا له بَيْتَ مجدٍ فى رفيع الدعائمِ
فلم يرضَ حتى شادَ مثلهم ومَنْ يشابِهْ أباه فى العلا غَيْرُ ظالمِ
فهنيتَ ملكًا لم تزلْ يا سعيدَهُ مساعد سعدٍ فى جميعِ المآزمِ
رزئت عظيمًا إذ حبيتَ عظيمة كذلكَ حالُ الدهرِ بين العوالمِ
دهانا ببؤسى لا يقاومُهَا الأسَى تقارنُ نُعْمَى ما لها من مقاومِ
ذوى زيد الأمجاد لا فُضّ جمعُكُم وعنكُمْ نبا بابُ الزمانِ المغاشمِ

لكُمْ أنفسٌ ملكيةٌ تحتَ نبضها قلوبُ أسودٍ فى شخوصِ أوادمِ
إذا سيدٌ منكم خلا قامَ سيِّدٌ نهوضٌ بأعباءِ العلا والمكارمِ
عليكَ كَشَفْنَا وجْهَ عذراءَ لو عَدَتْ علاكَ لصينَتْ عن مُلَامسِ لائمِ
من الخفراتِ اللائى كنْتَ عظلتَهَا وآليْتَ أقسامًا بحنْث ملازمِ
ولكنْ لودٌّ من أبيكَ اعتقدتَّهُ ومن قَبْلُ من زيد جرى بالمراحمِ
لذاكَ رأيْتَ الخيرَ تكفيرَ حِنْثها وأَنَّ تمادى التركِ إحدى الجرائمِ
وما مَطْلَبى فيها الإجازَةُ إنما قبولُكَهَا والله أقصَى عزائمى
بقيتَ ولا أبقى الردَى لكَ حاسدًا فسعدُكَ فى حالاتِهِ جِدُّ قائمِ

وقال الأديب الشيخ سالم بن أحمد الصعدى المكى الشافعى [من الطويل]:

ورثْتَ كَلَاكَ الله مرتَبَةَ المُلْكِ فها هِىَ فى كفَّيْكَ ثابتَة الملْكِ
توارَثْتَهَا عنْ عمكَ الأشرفِ الذى تمسَّكَ طفلاً بالعُلاَ أيّما مَسْكِ
كذاكَ عن الأجدادِ أكرم سادةٍ رقوا رتبًا للمجْدِ عالية السمكِ
ولا غَرْوَ مهما كنْتَ يا سبْطَ سعدهم وريثًا لهم فى العلْم والحلم والنسكِ
وقد جاء يسعى الملكُ نحوَكَ مسرعًا يجرُّ ذيولَ التيه والعُجْب والزمكِ
وقلَّدَكَ الأحكامَ فى الناسِ كلِّهم وعَامَلَ كلًّا من ذوى الحُكْم بالتركِ
فأصبَحْتَ فيه خاليًا عن مشاركٍ لأنَّكَ قد أحللْتَ عنه عرى الشركِ
فيا نجلَ مَنْ أعطى الخلافَةَ حقَّها فأصبَحَ مِنْ جيشِ السعادةِ فى حشْكِ
ليهنِكَ هذا المنصبُ الشامخُ الذى أمنْتَ به كلّ الرعايا مِنَ الضنكِ
فعادوا كما كانُوا مِنَ الأمْنِ بعدما أرِيعُوا بفقدانِ الفتَى ماضِى الفتكِ
إلى أن غدا كُلٌّ يقولُ تأسفًا وحزنًا لندمانَىْ جذيم قفا نبكِ
ولولاكَ مَعْ حكم القضاءِ وأمرِهِ مِنَ الله لم تحقنْ دماهُمْ عن السفكِ
فها هُمْ بأمنٍ منكَ أذهَبَ عنهُمُ مخاوفَ ذكراها يعدُّ من الإفْكِ
وما الخوفُ إلا بين أفئدةِ الورَى ثوى منك حتَّى مسَّها نصب النهكِ
وذلكَ لما أنْ تسنَّمْتَ تخته بعزْمٍ غدَتْ منه القساورُ فى رَبْكِ
ألسْتَ الذى إنْ جُلْتَ والنقعُ ثائرٌ ومبيضُّ جوِّ الأفقِ فى شدة الحلكِ
تظلُّ صناديدُ الرجالِ نواكسًا إلى أن يذوقوا أكؤس الحين والهُلْكِ

وَكُلُّ حديدِ القلبِ ثبتٍ مجرّبِ صبورٍ على ضربِ القواضبِ والصَّكِّ
يهابُكَ مذ يلقاكَ فى حومةِ الوغى ويقفى ومنه القلْبُ مضطربٌ مُنْكِى
فلو أنَّكَ صادمْتَ الرواسِى لخلْتَهَا وحَقَّكَ إجلالاً لقدركَ فى دَكِّ
وأمَّا السخا يابْنَ السخىِّ فإنه سجيتُكَ الغراءُ من غيرِ ما شَكِّ
لهذا شذا عَرْف الثنا عنكَ مثل ما شذا عَرْف طيبِ العنبرِ الرَّطْبِ والمسكِ
وشاعَ حديثُ الفضلِ عنك مسلسلاً لدى العَرَبِ العرباءِ والفُرْسِ والتُّرْكِ
فيا بَدْرَ ملكٍ جلَّ فى فلكِ العلا ويا بَحْر جُودٍ كَمْ سَعَتْ فيه من فُلْكِ
ويأيها الشَّهْمُ السعيدُ ابْن سَعْدنا ويا مَنْ به قد فاء فى الحَرَمِ المكى
إليكَ من البحْرِ الطويلِ قصيدةً بعيدُ مداها لِى تدانَى على وَشْكِ
تهنِّيكَ بالملكِ الذى قد ورثْتَهُ عن البطلِ الشطْبِ الخبنْضمة الملكِ
مليكُ الندَى مردِى العدى طالما غدا يردُّ إلى الشاكى الحقوقَ من المشْكِى
فما زالَتِ الأيامُ تتلو تهانيًا عليكَ وبشرًا دائمًا غيرَ منفكِّ
كما ظَلَّ ثغرُ الدهْرِ من جذلٍ بما حُبِيتَ من السعْدِ المتمّم فى ضحْكِ
فدُمْ رافلًا فى ملبسِ العزِّ لا يُرَى لكَ اليومَ فى أحكامِكَ الغُرِّ من يحكى

ثم وليها مولانا الشريف أحمد ابن المرحوم السيد غالب ابن السيد محمد بن مساعد بن مسعود بن حسن، دخلها من أعلاها صبيحة تلك الليلة يوم الجمعة ثانى شوال عند الضحوة العالية بالآلاى الكبير والنوبة، وجميع عساكر مصر، وغيرهم فى موكب أتم ما سمعت أذن من خبر، وأبهى ما لذ فى عين ذى نظر، لابسًا خلعة التبجيل والتكريم، ذلك تقدير العزيز العليم، فنزل بداره السعيدة، ونودى باسمه فى البلاد، يسمعه الحاضر والباد. وبالزينة سبعة أيام، وابتهجت القلوب بالفرح التام. وسعت إليه الخاصة والأعيان مهنئين فرحين، وهرعت العامة لتقبيل أعتابه مستبشرين مرحين.

وقد تشرفت بمديحه حبًا ووِدًا، ورويت عن بحر أصبح مَد غيره عنده جزرًا وجزره عند غيره مَدًّا. فقلت [من الطويل]:

سرَتْ نسمةٌ منكم تهبُّ بإقبالِ شذا مِنْ شميمِ الرندِ والشيحِ والحالِ
تحدَّث عن برقاء منجد فالقُصَى من الدوحِ فالعرجينِ فالوشْمِ فالخالِ

مسـارحُ آرام مـلاعِـبُ صِـبْـيَـةٍ مطاردُ فرسانٍ معاطنُ أجمالِ
مواردها عِدٌّ وعشبُ رياضِها أثيثٌ سقاه الجودُ من فرغِهِ الدالِي
عفَتْ غيرَ رسْمٍ خافتِ الظلِّ قالصٍ ومثلومِ نُؤْيٍ تحت أنضاءِ أطلالِ
وَسُفْعٍ أثافٍ كالحماجِمِ جُثَّمٍ وأَشْعَثَ مشجوج القفا نَاخِرٍ بالى
ثلاثٌ تشكَّى أربعًا تنتهبنها وَحَيًّا وتكسوهُنَّ مغبر أسمالِ
خلَتْ دمنتاها عن سوَى أرقطِ المِطا وجَيْئَلَ خمعاء وشَيْهَم عَسَّالِ
سقاها من الوسميِّ صائبُ نوئه بمرتجسٍ دانى النَّشَاصَيْنِ مسبالِ
ولا برحَتْ عينى يسحُّ وَلِيُّهَا بدَمْعٍ على تلكَ المناهِلِ مُنْهَالِ
منازلُ بيضاء العوارضِ أرهفَتْ معاطفَها واسْتُبْدِعَتْ حسنَ أجدالِ
تبدَّتْ مع الأترابِ تُرجِعُ لحظَهَا تَخَاوُصَ أدماءِ السوالِفِ مطفالِ
وبينَ الوشاحِ الملتوى غُصْن بانةٍ وثنى الإزار المرتوى حقفه العالِي
وتحتَ اللثامِ الجوْن دُرٌّ لِثَاتُهُ أُسِفَّتْ بمرموقٍ سقى صرف جريالِ
أسالَتْ على الخدِّ الأسيلِ مدامعًا تعاتبنى سِرًّا بها عتْبَ إدلالِ
وقد قربَتْ يمنَى يديها بضمِّها إلى صَدْرها الخالى فزادَ بها حالى
وعضَّتْ بدرِّ الثغرِ فِضَّة معصم لها كادَ يثنيه السوارُ عَلَى بالى
وما أنْسَ لا أنسى الهوَى ومعاهدًا تذكِّرنيها فِكْرتى عَصْرَهَا الخالى
فمالى ووَصْل الغانياتِ وإنما مصايِدُهَا بَيْنَ الشبيبةِ والمالِ
تنعمْتُ فى ليلِ الشبابِ فراعَنِى طلوعُ صباحِ الشيبِ من غَيْر إمهالِ
وما كانَ إلا وصلُهُ فجفاؤُهُ وما كانَ إقبالٌ له غَيْر إجفالِ
تملَّصَ منى ثم مَرَّ فلو يشا شريفُ الصفا والركْنِ عَوَّدَ فى الحالى
أبا غالِبٍ سلطانَ مكَّةَ أحمد بْـ ـن غَالِبَ راعيها الحفى الدَّائِل الدالى
تسنَّى ذُرَى العلياءِ قدمًا وتاليًا إلى أن تلا مِنْ ملكها السَّنَد العالى
فَسَارَ عَلَى عرضِ الفلاةِ مراوحًا فمن سرجِ منقالٍ إلى كورِ مرقالِ
ووالَتْهُ من أبنا أبيهِ عصائبٌ ذوو نجداتٍ صادقو الفِعْلِ والقالِ
مساعيرُ حَرْبٍ لا يرجَّى طعينُهُمْ مساميعُ للداعِى مساميحُ بالنَّالِ
ميامينُ بَسَّامُونَ فى السِّلْمِ والوغَى جحاجحةٌ قُحٌّ هُمُ خيرةُ الآلِ

حِمَى الضَّيْم إن ياطا مواطئ خَيْلهم ... من الأرضِ فاستوبى لهم قَالَةَ القالِ
فما خِيطَتِ الأجفانُ منهُمْ عَلَى القذا ... ولم يشربوا الترنيقَ من وِرْدِ أوشالِ
ولم يبرحُوا فى ثَبْتِ طَولٍ ومنعةٍ ... بأمرإِ عيشٍ فى محلٍ وترحالِ
فأولاه ملك الروم مُلْكَ جدودِهِ ... وَقَمَّصَهُ للعزِّ أَشْرَف سربالِ
أصابَ به المغزَى كما وضَعَ الهنا ... على النقْبِ مِنْ جربائة الهانئ الطالِى
فعبر عَنْ أسمائِهِ كُلُّ منبرٍ ... وأفصَحَ عن آلائِهِ كُلُّ ذى قال
ليهنِكَ بلْ يهنى الخلافَةَ أنها ... أَوَتْ منك للبرِّ الرضى الحائط الكالى
فلا نعمةٌ إلا وأنتَ وليُّها ... ومَكْرُمَةٌ إلا وأنتَ لها والى
فلله حمْدٌ يملأُ اللوْحَ دائمٌ ... وشكْرٌ له فى بَدْءِ نعماه والتالى
أُحِبُّكُمْ حُبَّيْنِ حبَّ فريضةٍ ... به ألزمَ الله الورَى أمرَهُ العالى
وحُبُّ صفاتٍ أنتَ مفردُ جمعها ... غدوْتُ بها فى حُبِّكَ المفرِطَ الغالى
إليكَ مِنَ الودِّ الصريحِ خَدِيمةٌ ... لها فى مثانِى الطِّرْسِ مِشْيَةُ مختال
جواهرُ أصدافِ من الفكْرِ نضدَتْ ... فما خانها سلكٌ ولا ريب إغلالِ
مخدَّرة حَرَّمْتُ رفعَ نقابها ... ففكَّرْتُ واستصْوَبْتُ بالمدح إحلالى
هدية مَنْ يدعو لمجدِكَ بالعلا ... وعيشك فى سِتْرٍ من العزِّ ذَيَّالِ

ثم عزل فى يوم دخوله المذكور عن تدبير كرسىّ السياسة حاكمها القائد أحمد بن جوهر، وقلد منصبها عبده القائد سنبل، فقام بها أتم قيام، فى أبهى مظهر وأبهج نظام. وكذلك فى اليوم المذكور: عزل عن منصب الدوادريّة أحمد بن مصطفى المولتاتى فعل متيقظ حازم فتى، وقلد منصبها خادمه أبا القاسم بن محمد طاهر الشهير بالبربتى.

وفى يوم الأحد رابع شوال: ادَّعت عساكر مصر على القائد أحمد بن جوهر سببية قتل البغدادى محمد أغا ونهب بيته، فدخل على مولانا السيد أحمد ابن السيد سعيد ابن شنبر فمنعهم عنه وقال إن يكن لكم عليه وجه فعلى يد مولانا الشريف متع الله بحياته، فحضروا فلم يثبت لهم عليه وجه فخلص.

ثم أنفذت المكاتيب إلى أهل الإدراك، ومشايخ العربان، فأطاع كل عاص ودان، من كل قاص ودان. وبعث الجنود ورتبها فى كل وجهة ومخلاف، فأمنت البلاد

والطرق ولله الحمد مما يحاذر ويخاف.

وفى يوم الأحد حادى عشر الشهر المذكور: تقلد منصب الوزارة المكية الحسنية الغالبية الخواجا إبراهيم بن على حميدان، وأفيض عليه فرو من السمّور، وفقنا الله وإياه للسداد فى جميع الأمور. وانفصل عنها يوسف بن عبد الله الشهير بالسقطى.

وفى يوم الأربعاء رابع عشر الشهر المزبور: أمر - متع الله بحياته - بكسر أوانى المزور والخمور، وتشتيت العواهر من بنات الخطا والفجور، ومن رؤى بعد ثلاث صلب عل باب داره.

فترحل بعضهن عن البلاد، وانكمش بعضهن عن ذلك التظاهر وفارق بيته، فتقاصر عنه ترداد المرتاد. فجزاه الله تعالى خيرًا عن الإسلام والمسلمين، وأيد به ملة جده سيد المرسلين.

وفى ليلة الخميس ثانى عشرى شوال: كان حصول الفرج منه - سبحانه وتعالى - لمولانا السيد محمد البرزنجى، وذلك أنه لما دخل عليه شهر رمضان، وهو محبوس بذلك المحل المتقدم ذكره أخرج من آخره إلى محل أروح وأنور فاستمر به.

ثم إنه عهد إلى بعض أحبائه أن يُعِد له فى ذى الحليفة المحل المسمى عند العامة أبيار على ناقتين بالأهبة، وأن يحضر له تحت القلعة حصانًا بعدته وسلاحه، فلما كان الليلة المذكورة تدلى من السور إلى خارج، وركب الحصان وتقلد السيف، وتنكب القوس، واعتقل الرمح، وسار إلى ذى الحليفة، ثم منها عَلَى الركائب سالكا طريق الفرع، واتجه بولده فى الطريق بقرية خليص، وكان قد خرج من المدينة قبله بثلاثة أيام بأمره خشية أن يمسك عوضه إذا فقدوه، فوصلا إلى مكة تاسع عشرى الشهر المذكور.

وفيها يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة الحرام: أمر بقطع عبد أسود سارق، فقطع يداه ورجلاه. ثم فى اليوم الذى يليه قطع سارق آخر حبشى الجنس يده ورجله من خلاف. ثم فى يوم السبت ثامن الشهر المزبور: كان وصول القفطان والمراسيم السلطانية صحبة سليمان أغا سلخور، فدخل بالآلاى العظيم، والمنظر البهى الوسيم، ووصل إلى مولانا الشريف - متع الله بحياته - بالحطيم.

وقد فتح البيت السعيد، وغص المجلس بالسادة الأشراف، نخبة آل عبد مناف،

وأفندى الشرع، وشيخ الحرم، والسادة العلماء، والأعيان والأغوات، والسرادير وكبار العساكر.

فألبس مولانا الشريف - متع الله بحياته - القفطان السلطانى على فرو من السمور، ونشر المرسوم الخاقانى، وقرئت منه تلك السطور:

فيه بعد تعداد نعوت مولانا الحميدة، والثناء عَلَى جميل مزاياه المجيدة، التصريح بأنّا قد أنعمنا بولاية الحرمين الشريفين عليكم، وأسندنا حماية المحلين المنيفين إليكم، والحث عَلَى القيام بواجب السادة الأشراف، الذابين عن حمى هذه الأكناف، والوصية بالعلماء والصلحاء والمجاورين، وحماية الحجاج والزوار والمسافرين، والالتفات إلى تأمين الطرق والبلدان، وقمع أشقياء العربان أهل العتو والطغيان، مؤرخًا من السنة المذكورة بأوائل شهر رمضان المعظم قدره.

ثم ألبس مولانا - متع الله بحياته - حضرة أفندى الشرع، والقابجى السلطانى، وكيخية الباشا أفرية من السمور، ثلاثة من غير تأخير ولا ملاثة.

وألبس مولانا الشيخ عبد الواحد الشيبى، وابنه الشيخ الأجل عبد المعطى، وجميع السرادير والشرابجة والجواويش، وأرباب المناصب القفاطين عَلَى القانون والعادة.

ثم دُعى لمولانا السلطان الأعظم سليمان خان بن إبراهيم خان، ولمولانا الشريف - متع الله بحياته - على باب الكعبة الشريفة ذات السيادة، وكان يومًا فى نهاية الحسنى وزيادة.

وفى يوم الجمعة رابع عشر الشهر المذكور: أمر مولانا الشريف - متع الله بحياته - بحضور الخاصة والعامة عند الحطيم للدعاء لنصرة مولانا السلطان الأعظم كل يوم إثنين وخميس بعد صلاة الحنفى، عامله الله تعالى - بلطفه الخفى، وكان به نعم الحفى. آمين[1].

---

(١) ثبت في النسخة الأولى : قد تم تكميل هذه النسخة من نسخة الأصل الموجوده بالكتبخانه الخديويه بيد كاتبه الفقير إلى الله محمود صدقي النساخ بها وقد كان الفراغ منه في يوم الجمعة .... ذو القعدة سنة ١٣٢٢ اثنين وعشرين وثلثمائة وألف هجرية الموافق ٣ ثلاثة فبراير ١٩٠٥ أفرنكيه. وثبت في النسخة الثانية : انتهى الجزء الخامس من كتاب سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالى بحمد الله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد =

. . . .

= وعلى آله وصحبه وسلم، كتبه حسن رشيد على نفقة دار الكتب المصرية من النسخة الخطية المحفوظة بها الموضوعة تحت رقم (٥٣) تاريخ وكان الفراغ منه في يوم الأربعاء أول جمادى الأولى سنة ١٣٥٤هجريه موافق ٣١ يوليو سنة ١٩٣٥ ميلادية والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

* * *

فهرس مراجع التحقيق ومصادره

الآيات البينات . ابن قاسم العبادي . ط بولاق.

الأباطيل . الجوزقاني . ط الهند .

إتحاف السادة المتقين . الزبيدي . ط دار الفكر .

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا . المقريزي . ط مصر.

الأحاديث المختارة. محمد بن عبد الواحد ضياء الدين المقدسي . ط النهضة الحديثة.

الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان . محمد بن حبان . ط الرسالة.

أخبار أصبهان . أبو نعيم الأصفهاني. ط الهند .

أخلاق النبي . أبو الشيخ الأصفهاني. ط مصر.

الأدب المفرد. محمد بن إسماعيل البخاري. ط السلفية.

الأذكياء . ابن الجوزي . ط مكتبة المتنبي.

الإرواء . محمد ناصر الدين الألباني . ط المكتب الإسلامي.

أسباب النزول .الواحدي. ط دار الكتب العلمية.

الاستيعاب في أسماء الأصحاب . يوسف بن عبد الله بن عبد البر. ط دار الكتب العلمية.

أسد الغابة . ابن الأثير . ط دار الكتب العلمية.

الإصابة في تمييز الصحابة . ابن حجر العسقلاني. ط مصر.

الاعتقاد . البيهقي . ط دار الكتب العلمية.

الأعلام . خير الدين الزركلي . ط دار العلم للملايين .

أعلام النساء . عمر رضا كحالة. ط دمشق.

الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. السخاوي. ط دمشق.

الأغاني . أبو الفرج الأصبهاني. ط الساسي بمصر.

الإكمال . علي بن هبة الله ماكولا . ط دار الكتب المصرية.

اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة. عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطي. ط دار المعارف.

الأمثال. حسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي. ط الدار السلفية بالهند.
إنباء الغمر. ابن حجر. ط دار الباز.
أنساب الأشراف. البلاذري. ط دار الفكر.
إيضاح المكنون. إسماعيل باشا البغدادي. ط إستانبول.
البحر المحيط. الزركشي. ط دار الصفوة.
البدء والتاريخ. أحمد بن سهل البلخي . ط شالون.
بدائع الزهور. ابن إياس . ط دار الكتب.
البداية والنهاية. ابن كثير. ط مصر.
البدر الطالع. الشوكاني. ط مصر.
البيان المغرب . ابن عذاري المراكشي. ط ليدن.
تاريخ الإسلام. للذهبي . ط مؤسسة الرسالة.
تاريخ الأمم والملوك. ابن جرير الطبري. ط الاستقامة بمصر.
التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية. ابن الأثير. ط دار الكتب الحديثة.
تاريخ بغداد . الخطيب البغدادي. ط مصر.
تاريخ الخلفاء . السيوطي. ط دار الكتب العلمية.
تاريخ الخميس. حسين محمد الديار بكري. ط مصر.
التاريخ الصغير. البخاري. ط الهند.
تاريخ الطبري = تاريخ الأمم والملوك. الطبري . ط دار سويدان بيروت.
تاريخ ابن عساكر. ط المجمع بدمشق.
تاريخ ابن الفرات . محمد عبد الرحيم بن الفرات. ط بيروت.
التاريخ الكبير. البخاري. ط دار الكتب العلمية.
تاريخ الموصل. سليمان صائغ الموصلي. ط مصر.
تاريخ ابن الوردي. عمر المظفر بن الوردي. ط مصر.
التبر المسبوك في ذيل السلوك . السخاوي . ط مصر.

تتمة المختصر = تاريخ ابن الوردي.
تجارب الأمم . ابن مسكويه. ط مصر.
تجريد أسماء الصحابة. الذهبي . ط دار المعرفة.
تخريج الكشاف . الزيلعي. ط دار ابن خزيمة.
تدريب الراوي. جلال الدين السيوطي. ط المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.
تراجم إسلامية شرقية وأندلسية . محمد عبد الله عنان. ط مصر.
ترتيب القاموس. الطاهر أحمد الزاوي. ط عيسى البابى الحلبي.
تعجيل المنفعة. ابن حجر. ط دار البشائر الإسلامية.
التعقبات على الموضوعات . السيوطي. ط دار الجنان.
تفسير القرآن . عبد الرزاق. ط مكتبة الرشد.
تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ط دار الشعب.
تفسير النسائي. النسائي. ط مكتبة السنة.
تفسير الوسيط. الواحدي. ط دار الكتب العلمية.
تقريب التهذيب. ابن حجر. ط دار العاصمة.
التكملة لوفيات النقلة. المنذري. ط مؤسسة الرسالة.
تلخيص الحبير. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. ط دار المعرفة.
تلقيح فهوم أهل الأثر. ابن الجوزي. ط دهلي.
التمهيد. أبو عمر يوسف بن عبد البر. ط قرطبة.
تنزيه الشريعة. ابن عراق. ط دار الكتب العلمية.
تهذيب الأسماء واللغات. أبو زكريا النووي. ط مصر.
تهذيب التهذيب. ابن حجر العسقلاني. ط حيدر آباد.
تهذيب الكمال. جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي. ط مؤسسة الرسالة.
توضيح المشتبه. ابن ناصر الدين. ط مؤسسة الرسالة.
تيسير التحرير. أمير بادشاه. ط مصطفى البابى الحلبي.

الثقات. ابن حبان. ط مؤسسة الكتب الثقافية.
جامع البيان في تأويل القرآن . الطبري. ط المعارف بمصر.
جامع التحصيل. العلائي. ط عالم الكتب.
الجرح والتعديل. عبد الرحمن بن محمد الرازي. ط حيدر آباد.
الجعديات. البغوي. ط مكتبة الخانجي.
الجمع بين رجال الصحيحين . ابن القيسراني. ط الهند.
جمهرة أنساب العرب. ابن حزم.
جمهرة النسب . الكلبي. ط عالم الكتب.
جوامع السيرة . ابن حزم. ط مصر.
حاشية البناني. البناني. ط الحلبي.
حاشية العطار على جمع الجوامع. ط دار الكتب العلمية.
الحاوي للفتاوي . السيوطي ط دار الفكر.
حسن المحاضرة. جلال الدين السيوطي. ط مصر.
حلية الأولياء. أبو نعيم . ط دار الكتب العلمية.
الحوادث الجامعة . ابن القوطي. ط بغداد.
حوادث الدهور . ابن تغري بردي. ط بركلي بكالفورنيا.
حياة الحيوان .الدميري. ط بولاق.
خريدة القصر وجريدة العصر. العماد الأصفهاني. ط دمشق.
خزانة الأدب. عبد القادر بن عمر البغدادي. ط مصر.
الخصائص الكبرى. السيوطي. ط دار الكتب العلمية.
الخطط التوفيقية. علي مبارك. ط مصر.
الخطط المقريزية. المقريزي. ط مكتبة الثقافة الدينية.
خلاصة تهذيب الكمال. أحمد بن عبدالله الخزرجي. ط مصر.
دائرة المعارف الإسلامية. نخبة من العلماء. ط مصر.

الدارس. عبد القادر النعيمي الدمشقي. ط المجمع العلمي بدمشق.
الدر المنثور. جلال الدين السيوطي. ط دار الكتب العلمية.
الدرر الكامنة. ابن حجر العسقلاني. ط حيدر آباد.
درة الحجال. أحمد بن محمد بن القاضي. ط الرباط.
دلائل النبوة . البيهقي. ط دار الكتب العلمية.
دلائل النبوة. أبو نعيم. ط عالم الكتب.
دول الإسلام . الذهبي. ط حيدر آباد.
ديوان الإسلام. شمس الدين الغزي. ط دار الكتب العلمية.
ديوان حسان. ط دار الكتب العلمية.
ذيل تذكرة الحفاظ . أبو المحاسن الحسيني الدمشقي. ط دمشق.
ذيل الروضتين. أبو شامة المقدسي. ط مصر.
ذيل مرآة الزمان. موسى بن محمد اليونيني. ط حيدر آباد.
رجال صحيح البخاري. الكلاباذي. ط دار المعرفة.
رجال صحيح مسلم . ابن منجويه. ط دار المعرفة.
الروض الأنف . عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي. ط مصر.
زاد المعاد. ابن القيم. ط مؤسسة الرسالة.
الزهد . ابن المبارك. ط الهند.
زوائد البوصيري. ط دار الكتب الإسلامية.
سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد الصالحي. ط دار الكتب العلمية.
السلسلة الصحيحة . محمد ناصر الألباني. ط مكتبة المعارف.
السلسلة الضعيفة. محمد ناصر الألباني. ط مكتبة المعارف.
السلوك لمعرفة دول الملوك. المقريزي. ط مصر.
سنن الترمذي. أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة. ط مصطفى البابي الحلبي.
سنن الدارقطني. ط عالم الكتب بيروت.

سنن الدارمي. ط دار الفكر بيروت.
سنن أبي داود . أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني. ط دار الكتب العلمية.
سنن سعيد بن منصور . ط الدار السلفية.
السنن الصغرى. النسائي. ط دار البشائر الإسلامية.
السنن الكبرى . البيهقي. ط مكتبة المعارف - الرياض .
السنن الكبرى. النسائي. ط دار الكتب العلمية.
سنن ابن ماجة. محمد بن يزيد القزويني. ط دار إحياء الكتب العربية.
السنة. ابن أبي عاصم. ط المكتب الإسلامي.
السيرة الحلبية = إنسان العيون. علي بن برهان الدين الحلبي. ط مصر.
السيرة النبوية . ابن هشام. ط مصر.
شذرات الذهب . أبو الفلاح بن العماد الحنبلي. ط دار الكتب العلمية.
شرح السنة. البغوي. ط دار الكتب العلمية.
الشفاء. القاضي عياض. ط عيسى البابى الحلبي.
شفاء الغرام. محمد بن أحمد التقي الفاسي. ط مصر.
الشمائل . الترمذي . ط مكتبة السنة.
صبح الأعشى. القلقشندي. ط مصر.
الصحاح = تاج اللغة. الجوهري. ط مصر.
صحيح البخاري. محمد بن إسماعيل البخاري. ط المكتبة التجارية.
صحيح ابن حبان . محمد بن حبان. ط دار الرسالة.
صحيح ابن خزيمة . محمد بن إسحاق بن خزيمة. ط المكتب الإسلامي.
صحيح مسلم . أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. ط إحياء التراث.
صفة الصفوة. أبو الفرج بن الجوزي. ط حيدر آباد.
الضعفاء الكبير. العقيلي. ط دار الكتب العلمية.
الضوء اللامع. السخاوي. ط مصر.

طبقات السبكي . تاج الدين السبكي. ط مصر.
العبر= تاريخ ابن خلدون. ابن خلدون. ط مصر.
العظمة . أبو الشيخ. ط دار العاصمة.
العقد الفريد. ابن عبد ربه. ط مصر.
العلل المتناهية . ابن الجوزي. ط دار الكتب العلمية.
عمدة التفسير. الشيخ أحمد شاكر.
عمل اليوم والليلة. ابن السني. ط مكتبة الكليات الأزهرية.
عمل اليوم والليلة . النسائي. مؤسسة الرسالة.
عنوان المعارف. إسماعيل بن عباد . ط النجف.
عيون الأثر. ابن سيد الناس اليعمري. ط مصر.
غاية الوصول. الشيخ زكريا الأنصاري . ط عيسى البابى الحلبي.
فتوح البلدان. للبلاذري. ط مصر.
فردوس الأخبار. شيرويه . ط دار الريان للتراث.
فضائل الصحابة. أحمد بن حنبل.
فضائل الصحابة. النسائي. ط دار الثقافة.
فهرست الطوسي. أبو جعفر الطوسي. ط النجف.
الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة. الشوكاني. ط السنة المحمدية.
فوات الوفيات .ابن شاكر الكتبي. ط مكتبة مصر.
فيض القدير. المناوي. ط دار الفكر.
القاموس المحيط. الفيروز آبادي. ط دار الفكر.
الكاشف. الذهبي. ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة.
الكامل . المبرد. ط مصر.
الكامل في التاريخ . ابن الأثير. ط مصر.
الكامل في الضعفاء. ابن عدي. ط دار الفكر .

كشف الأستار . الهيثمي. ط مؤسسة الرسالة.

كشف الخفا. العجلوني. ط دار التراث.

كشف الظنون. حاجي خليفة. ط إستانبول.

كنز العمال. علاء الدين المتقي الهندي. ط مؤسسة الرسالة.

الكنى والأسماء . الدولابي. ط حيدر آباد.

الكواكب السائرة. نجم الدين الغزي. ط الأميريكية.

اللسان. ابن حجر العسقلاني. ط دار الكتب العلمية.

المؤتلف والمختلف. الآمدي. ط مصر.

مجالس ثعلب. أحمد بن يحيى المعروف بثعلب. ط مصر.

المجروحين. محمد بن حبان. ط دار الوعي بحلب.

مجمع البحرين. نور الدين الهيثمي . ط الرشد - الرياض.

مجمع الزوائد . نور الدين الهيثمي. ط مؤسسة دار المعارف.

المحاسن والمساوئ . البيهقي . ط دار المعارف.

المحبر . محمد بن حبيب. ط حيدر آباد.

مختصر تاريخ العرب. سيد أمير علي. ط مصر.

المختصر في أخبار البشر. إسماعيل أبو الفداء. ط مصر.

مختصر المستدرك. الذهبي. مطبوع على هامش المستدرك.

مرآة الجنان. اليافعي. ط حيدر آباد.

مرآة الزمان . سبط بن الجوزي. ط حيدر آباد.

مراصد الاطلاع. عبد المؤمن بن عبد الحق. ط الحلبي.

مروج الذهب. المسعودي. ط باريس.

المستدرك على الصحيحين . الحاكم. ط دار الكتاب العربي.

مسند الإمام أحمد بن حنبل . أبو عبد الله أحمد بن حنبل. ط المكتب الإسلامي بيروت.

مسند الحميدي . عبد الله بن الزبير الحميدي . ط المكتبة السلفية بالهند.

مسند الشافعي. محمد بن إدريس الشافعي. ط دار الكتب العلمية.

مسند الشهاب . محمد بن سلام القضاعي. ط مؤسسة الرسالة.

مسند الطيالسي. ترتيب منحة المعبود. ط مكتبة الفرقان.

مسند أبى يعلى . أحمد بن علي بن المثنى. ط دار المأمون للتراث.

مشكل الآثار. الطحاوي. ط حيدر آباد.

مصنف ابن أبى شيبة. عبد الله بن محمد بن أبى شيبة. ط مؤسسة الكتب الثقافية.

مصنف عبد الرزاق . عبد الرزاق بن همام الصنعاني. ط المكتب الإسلامي.

المطالب العالية. أحمد بن علي بن حجر. ط دار المعرفة.

المعارف. ابن قتيبة الدينوري. ط مصر.

معجم الأدباء. ياقوت الحموي. ط مرجليوث.

المعجم الأوسط. الطبراني. ط دار المعارف الرياض.

معجم البلدان . ياقوت الحموي. ط دار الكتب العلمية.

المعجم الصغير. الطبراني. ط مؤسسة الكتب الثقافية.

المعجم الكبير. الطبراني. ط مكتبة ابن تيمية .

معجم المؤلفين. عمر رضا كحالة. ط دار إحياء التراث العربي.

المعجم الوسيط. نخبة من العلماء. ط مجمع اللغة العربية.

المعرفة والتاريخ . البسوي. ط مكتبة الدار - المدينة المنورة.

المغازي . الواقدي. ط مصر.

المغني في الضعفاء. الذهبي.

مفرج الكروب . ابن واصل. ط مصر.

مقاتل الطالبيين . أبو الفرج الأصفهاني. ط مصر.

المقاصد الحسنة. السخاوي. ط دار الكتب العلمية.

المنتخب من المسند. عبد بن حميد. ط مكتبة السنة.

المنتظم . ابن الجوزي. دار الكتب العلمية.

المنتقى. ابن الجارود. ط دار الكتب الثقافية.

منهاج السنة . ابن تيمية. ط بولاق.

المنهل الصافي. ابن تغري بردي. ط مصر

موارد الظمآن . ابن حبان. ط دار الثقافة العربية.

مورد اللطافة. ابن تغري بردي. ط كمبردج.

موضح أوهام الجمع والتفريق . الخطيب. ط دار المعرفة.

الموضوعات . ابن الجوزي. ط أضواء السلف.

موطأ مالك . الإمام مالك. ط عيسى البابى الحلبي.

ميزان الاعتدال . الذهبي. ط دار الكتب العلمية.

النجوم الزاهرة. ابن تغردي بردي. ط دار الكتب المصرية.

نسب قريش. المصعب بن عبد الله الزبيري. ط مصر.

نصب الراية. الزيلعي. ط دار المأمون.

نظم العقيان. جلال الدين السيوطي. ط نيويورك.

نهاية السول. عبد الرحيم الأسنوي. ط عالم الكتب - بيروت.

النهاية في غريب الحديث والأثر. ابن الأثير . ط الحلبي .

النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد. المفضل بن أبى الفضائل.

النور السافر. عبد القادر بن شيخ العيدروس. ط بغداد.

هدية العارفين. إسماعيل باشا البغدادي. ط دار الفكر.

الوافي بالوفيات. الصفدي. ط إستانبول.

الوزراء والكتاب . الجهشياري. ط مصر.

وفيات الأعيان . ابن خلكان. ط مصر.

الولاة والقضاة. محمد بن يوسف الكندي. ط بيروت.

* * *

فهرس موضوعات الجزء الرابع

* * *